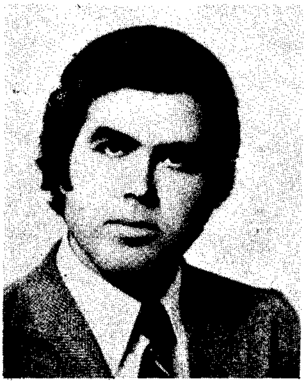
العدد 41

فهــــرس الــعــــــدد

التوسّع الروماني نحو الجنوب وآثاره الاقتصادية والاجتماعية

شنيتي محمد بشير
معهد العلوم الاجتماعية
دائرة التاريخ ـ جامعة الجزائر



تعرضت الجزائر كبقية بلدان البحر الابيض المتوسط لحركة التوسع الروماني ، وظلت تنوء تحت وطأته مدة تزيد عن الخمسة قرون ، وذلك ابتداء من سقوط مملكة نوميديا فى يد قيصر عام 46 قبل الميلاد الى سنة 430 ميلادى ، وهى السنة التى سقطت فيها هيبو (عنابة) فى يد الوندال باعتبارها آخر معقل للمقاومة ضد هؤلاء الغزاة الجدد .

وقد ارتبطت السيطرة الرومانية بالاستغلال الاقتصادى المكثف ، الذى ركز على الزراعة بوجه خاص ، وقد ظهر ذلك جليا فى استيلاء الرومان على الارض الزراعية ، متتبعين فى ذلك سياسة التدرج فى اخضاع المناطق ، وانتزاع الارض من أصحابها ، وتسليمها للمعمرين (1) .

(1) هناك أوجه شبه عديدة بين التجربة الاستعمارية الرومانية والفرنسية في الجزائر.

ولقد كان اهتمام الرومان بالارض ينطلق من اعتبارهم لشمال افريقيا (نوميديا خاصة) كخليفة اقتصادية هامة ، تساهم فى تغطية استهلاك روما من الحبوب · حيث أن الولايات الافريقية قد بلغ ما تزود به روما ثلثى $\frac{2}{3}$ حاجة الاستهلاك ، خلال العهد الامبراطورى الاول (2) · وهذه النسبة العالية ليست ناتجة عن الخصوبة التى بالغ الكتاب فى ابرازها فحسب ، بل تعود الى سياسة انتاجية كانت تقوم على مبدا الاستغلال الشامل لامكانيات الارض · وتجنيد الطاقات البشرية ، والثروة المائية ، لجعل الارض تنتج أكثر من أجل مواجهة الاستهلاك المتزايد ·

وقد كانت السياسة الزراعية فى الولايات تقوم على مبدا النوعية المطلوبة ، أى أن نوع المزروعات كان خاضعا لطلب القاعدة الاستهلاكية ، ومن ثم خصص الرومان مناطق للقمح وأخرى للكروم وأخرى للزياتين ، وهكذا ·

ولقد كانت الاعتبارات الاقتصادية دافعا قويا للتحركات العسكرية ضد المواطنين لارغامهم على الخضوع، أو لاجلائهم عن أراضيهم ، ذلك أن الخطوات الاستعمارية التى تلى الانتصارات العسكرية كانت تستهدف الاستيلاء على الارض وانشاء المؤسسات المستغلة (المستوطنات) قصد مضاعفة الانتاج ، وتوسيع النطاق الجغرافى للهيمنة الرومانية ، وتضييق الخناق على السكان لشل حركة المقاومة فى أوساطهم · وهكذا لم تتوقف حركة التوسع الا عندما انغرست أقدام الجنود والمعمرين الرومان فى رمال الصحراء · وعندها أحكموا الحدود ، ونسجوا شبكة الاستغلال الزراعى باتقان ·

1ـ التوسع الرومانى نحو الجنوب :

لقد اصطدم المد الرومانى نحو الداخل بمقاومة وطنية عنيفة ، بلغت خطورتها حدا جعل الرومان يفكرون فى خطة عسكرية تمكنهم من السيطرة الشاملة على البلاد ، واستئصال جذور المقاومة من أساسها ·

---

(2) أنظر Baradez (J.) : Foussatum Africae, p. 151.
Gascou (J.) : La politique municipale.

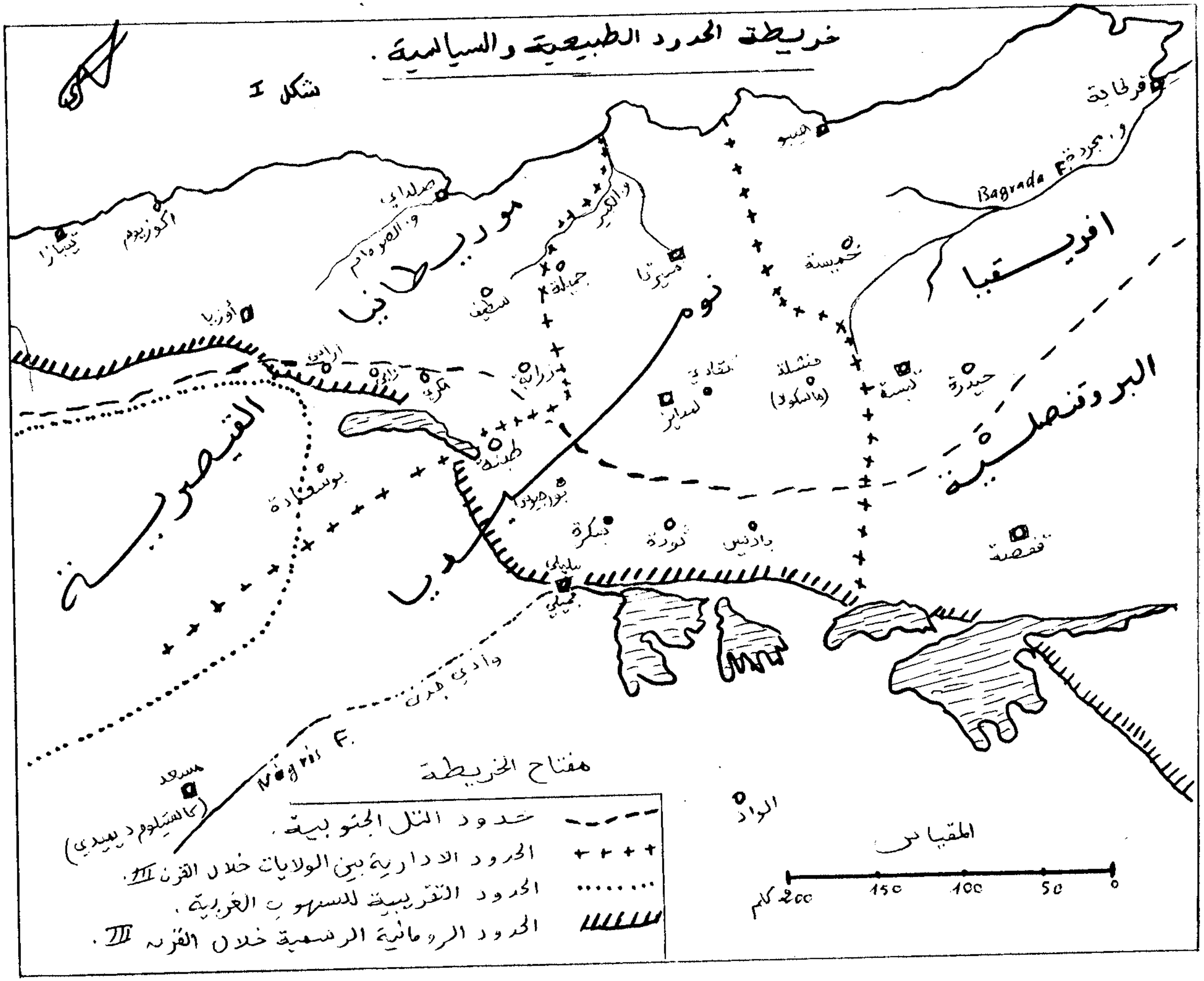
فالمقاومة كانت تستمد قوتها من الخلفية الجغرآفية والبشرية الواسعة التي تمتد خارج الحدود الرومانية • أى مناطق الجبال والصحراء ، وهى مناطق تمثل امتدادا وطنيا واسعا لا ينضب معينه بالنسبة للمقاومة ، لأنها كانت تشكل خلفية ترابية وبشرية تنطلق منها الثورات وتعود اليها لاخذ المدد وتعميق الوعى بأهداف التواجد الرومانى في الشمال • ولنا فى ثورتى يوغرطة وتاكفاريناس الشهيرتين أمثلة واضحة على هذا التداعى الوطنى الهام ، حيث كانت المناطق الشمالية من البلاد بمثابة جبهات قتال متحركة يواجه فيها الثوار جحافل الجش الررمانى فى معارك ضارية ، أو يغيرون على تجمعاته فى هجومات خاطفة ، بينما كانت المناطق الصحراوية تمثل عمقا ثوريا يلتجىء اليه الثوار كلما نال العدو من قوتهم (3) •

أ ـ اختراق المناطق الجبلية :

لقد كانت المناطق الجبلية المتاخمة للحدود الرومانية بخلفيتها الصحراوية تعتبر فى أعين الرومان منطقة عسكرية واحدة ، ستبقى مصدر قلق دائم وخطر مستمر بما ينطلق منها من تحركات ثورية نعوق حركتهم الاستعمارية في السهول الزراعية بالشمال ، وتحد من توسعهم نحو الجنوب ، اذا لم يشرعوا فى تنفيذ خطة الاحتلال الواسع النطاق الذى يمكنهم من السيطرة على كامل المنطقة الجغراقية الحيوية الممتدة من البحر شمالا الى ما وراء السبخات (الجريد ـ ملغيغ ـ الحضنة) جنوبا ، أى مناطق الاستقرار البشرى القابلة للاستغلال الزراعى •

الا أن المناطق الجبلية من الاوراس حتى ونوغة كانت تمثل حاجزا صعب الاختراق بالنسبة للرومان ، ومن ثم كانت الخطة تقتضى التصدى لهذه الاقاليم المستعصية لاخضاعها أو عزلها عن بعضها كى يتمكن المد الرومانى من تجاوزها نحو الجنوب •

(3) اثبت ذلك الكاتب الرومانى سالوست Salluste ، عن يوغرطة ، والكاتب طاسيت Tacite عن تاكفاريناس ؛ Salama (P.) : Les voies romaines, p. 32.


خريطة الحدود الطبيعية والسياسية .
شكل I
قرطاجة
و. مجردة Bagrada F.
هيبو
صلداي
و. الصومام
اكوزيوم
تيبازا
و. الكبير
سرتا
جميلة
سطيف
أوزيا
زرايه
طبنة
افريقيا
البروقنصلية
موريطانيا
القيصرية
نوميديا
خميسة
خنشلة
(ماسكولا)
تبسة
حيدرة
لمبايز
تازولت
بوسعادة
بسكرة
تهودة
بادس
قفصة
وادي جدي
Mzgrir F.
مسعد
(كاستلوم ديميدي)
الواد
مفتاح الخريطة
حدود التل الجنوبية .
الحدود الادارية بين الولايات خلال القرن III
الحدود التقريبية للسهوب الغربية .
الحدود الرومانية الرسمية خلال القرن III .
المقياس
0
50
100
150
200 كلم

وحالما قمعت ثورة تاكفاريناس عام 17 م • بسقوط زعيمها فى معركة فاصلة بوادى الصومام (4) ، شرع الرومان فى تنفيذ الاستراتيجية الوقائية فى المناطق الجبلية الجنوبية التى كانت مسرحا لتحركات الثوار ، وذلك بانشاء شبكة من التحصينات تطوق المناطق الجبلية الخطيرة (5) ، واختراقها بطرق تمكن الفرق العسكرية من التنقل سريعا عبر تلك المناطق لمواجهة أى تحرك ثورى • (6)

غير أن المقاومة كانت تتصدى لتلك الطرق فتهدمها (7) ، الامر الذى حتم على الرومان أن يقوموا بانشاء شبكة من ابراج المراقبة والحصون على طول امتداد الطرق ، وبمسافات متقاربة (10 ــ 30 كلم) (8) تمكن من حراسة الطريق وتؤمن تنقل الدوريات بصفة منتظمة بين تلك النقاط • هذا ، فضلا عن الخندق (Foussatum) (9) الرومانى المشهور الذى كان يحاذى ، فى أغلب الاحيان ، تلك الطرق الاستراتيجية ، كحاجز دفاعى هام ضد الثوار •

ب ــ تحطيم البنية الاجتماعية والاقتصادية للسكان :

يظهر أن شبكة الاختراق هذه لم تحقق الأمن الذى كان ينشده الرومان فى تلك المناطق ، لذلك شرعوا فى تنفيذ خطة أخرى أكثر جرأة من الاولى تمثلت فى العمل على

---

(4) لم يتمكن القائد الرومانى دولابيلا Dolabella من القضاء على الثورة الا بالالتجاء الى أسلوب تفرقة الصفوف ، وهو ما اتبعه سولا من قبل مع يوغرطة وبيجو الفرنسى مع الامير عبد القادر •

(5) من ذلك الخندق الذى كان يطوق جبال بوطالب الثائرة • انظر الاطلس الاثرى للجزائر St Gsell : Atlas arch. de l'Algérie, F. 26.
وكذلك Courtois (Ch.) : Les Vandales et l'Afrique, p. 121.

(6) نفس المصدر •

(7) أنظر Salama (P.) : Les voies romaines.

(8) أنظر Leschi (L.) : Rome et les Nomades... R.A (1942), p. 9.
وكذلك Despois (J.) : La bordure saharienne de l'Algérie Orientale, R.A (1492), p. 211..

(9) ان عبارة « خندق » العربية لا تؤدى المعنى الدقيق لعبارة (Foussatum) الرومانية ، فالفوساتوم الرومانى اصطلاح اطلع عن نوع من التحصينات العسكرية ممثلة فى خط دفاعى يكون أحيانا فى شكل خندق ، وقد يكون فى صورة مفاوز من التراب والصخور ، أو سور •

عزل السكان عن بعضهم ، وتحديد مناطق تواجدهم ، وترحيل بعضهم الى ما وراء السفوح الجنوبية لمرتفعات الاوراس والحضنة (10) . وهى خطة استهدفت قطع الصلة بين القبائل الجبلية المتضامنة من جهة، وفصلها عن القبائل السهبية والصحراوية من جهة ثانية ، ثم الحصول على أراضى زراعية جديدة تكون مجالا للاستيطان الجديد.(11)

ان خطورة هذه الخطة لا تتمثل فى تفكيك البنية الاجتماعية للسكان فحسب ، بل فى كونها أبعدتهم عن أرضهم التى توارثوها جماعيا منذ القدم (12) ، وحتمت عليهم نمطا معاشيا معينا تجسد فى تحول قسم كبير منهم الى حياة الترحل بين الجبال والسهوب والصحراء (13) . ونتيجة لهذا التحول تعاظم عدد القبائل المتنقلة التى أصبحت تشكل ضغطا جديدا غير متوقع على الحدود الرومانية ، فتخترقها أحيانا أثناء تنقلاتها الموسمية ، وهو ما لم يكن يرضى الرومان بطبيعة الحال .

ان هذه النتائج تسببت فى تزايد القلق الرومانى على الحدود حيث أصبحت تحصيناتهم مهددة بالتدمير ، ومؤسساتهم الزراعية عرضة للزوال ، ومن ثم كان عليهم أن يعملوا على استكمال سيطرتهم على البلاد ، حتى تبلغ تخوم الصحراء (14) .

وابتداء من أوائل القرن الثانى الميلادى ، وفى عهد الامبراطور تراجانوس (98 ــ 117) ، انطلقت الفرق العسكرية الرومانية فى حملات هامة على مناطق البدو فى رفارف الصحراء ، حيث أمر الامبراطور كلا من القائدين غلوس (M. Gallus) ونطاليس (M. Natalis) بالاشراف على تلك الحملات ، وذلك خلال المدة ما بين 102 ــ 105م

(10) أنظر : جوليان ، تاريخ افريقيا الشمالية ج 1 (مترجم) ، ص 217 .

(11) نفسه ، وكذلك Despois (J.) : La Bordure Saharienne, pp. 211-212.

(12) أعاد الفرنسيون هذه التجربة الاستعمارية مع الفلاحين الجزائريين مدعين عدم اثبات الملكيات الجماعية بعقود شرعية .

(13) يعتقد Leschi (L.) أن الدفع بالقبائل الرحل الى السهوب والصحراء قد جعل منها قوة مهددة للرومان فى كل لحظة ، لانها كانت تنتظر العودة الى مواطنها مهما كان السبيل الى ذلك ، أنظر مقاله السالف الذكر .

(14) ويعتقد Despois (J.) من جهته أن توغل « الليمس » (الحدود) الرومانى الى تلك الاعماق كان يشكل عامل ضعف مستمر بالنسبة للرومان ، أنظر مقاله السابق (La Bordure)

وقد أنشأ القائد نطاليس القـــاعدة العسكرية الشهيرة أد مايوريس (Ad Majores) الواقعة جنوبى نقرين عام 104 م (15) · وأشرف على انجاز الطريق الرابط بين هذه القاعدة وبين مدينة ثودة (Thabudeos) قـرب بسكرة ، وبذلك انتقـــل « الليمس » (الحدود) الرومانى من شمالى الاوراس الى جنوبيه (16) ·

ان انتقال الحدود الرومانية الى ما وراء المرتفعات كان يستهدف التحكم فى الطرق والمعابر الرابطة بين الصحراء والتل ، حتى يتمكن الرومان من اتمام عملية الحجـــز البشرى التى شرعوا فيها منذ ثورة تاكفاريناس · ذلك أن نظرة فاحصة فى التوزيع الجغرافى للقلاع الرومانية وابراج الحراسة ومختلف التحصينات كالخنادق مثلا ، تجعل هذا التفسير أمرا معقولا ، فهى مقامة على مخارج الوديان المنحدرة من المرتفعات ، وعلى المحاور الرئيسية للمسالك الجبلية ، وبصفة عامة عند مخانق الطرق التقليدية بـين الصحراء والتـــل (17) ·

وما دام الامر متعلقا بتحطيم البنية الاجتماعية والاقتصادية للاهالى فان المنشآت العسكرية التى أنجزها الرومان هناك لم تكن ذات نفع ان لم تعقبها اجراءات تتعلـــق باستغلال الارض وتوسيع رقعة الاستيطان فى تلك الاقاليم الرعوية التى لا زرع فيها ، باعتبار أنها تقع فى عروض مناخية جافة (منسوب المطر يتراوح بين 200 و 100 مم) (18) لكن ذلك لم يكن ممكنا دون اجلاء السكان عنها ، والدفع بهم الى السهوب الغربية أو أعماق الصحرا · ومن جهة أخرى فقد اقتضبت تلك المطاردة اجراءات احتياطية أخرى للحيلولة دون عودة السكان الى مواطنهم بالقوة · وتمثلت الاجراءات الوقائية فى انشاء حزام عسكرى فى عمق الصحراء لمواجهة البدو ، ومراقبة تحركاتهم وتشتيت تجمعاتهم

(15) أنظر · Leschi (J.) : Rome, p. 2. وكذلك Gascou (J.) : La Pol...
(16) نفس المصدر · وكذلك · Baradez (J.) : Foussatum, p. 10.
(17) أنظر · Salama (P.) : Les voies romaines, p. 38.
وكذلك · Leschi (L.) : Rome et les Nomades, R.A. (1942), p. 8.
(18) رغم التغير النسبى للمناخ خلال المدة التى تفصلنا عن العهد الرومانى فـــان منسوب المطر لم يكن أعلى بكثير مما هو عليه الآن . أنظر كتاب « الحضنة (Le Hodna) لصاحبه Despois (J.).

كلما لاح خطرها · وقد جسم الرومان ذلك الحزام فى انشائهم لعدة حصون وقلاع عند المعابر الرئيسية بين الصحراء والتل · فحصن مجدل الذى شيد فيما بين 148 و 149 م (19) · يقع فى منطقة العبور بين الصحراء والسهوب الجزائرية الوسطى ، أى بين الواحات ومراكز العمران الهامة فى التل كسيدى عيسى والسور (Auzia) وبوغارى (20) · كما تعد قعلة مسعد (C. Dimmidi) المتوغلة فى الصحراء بمثابة رأس زاوية لمجموعة حصون أخرى تتوزع على ضلع ممتد من مليلى (جميلى (Gemellae) الى مسعد (21) ، مكونة لذلك المحور الدفاعى الهام ، والمتوزع عبر المرتفعات المشرفة على منخفض وادى جرى (Nigris F.) ، ومن أهمها حصن عين الريش ، والقهرة ، وسدورى (Auzum) (22) ·

جـ ـ خطوط المواصلات فى الجنوب :

ومدد الرومان فى الطرق الواصلة بين المراكز العسكرية المذكورة آنفا لتعزيزها ودعم فعاليتها العسكرية ، ومن ذلك الطريق الرابط بين طبنة ومسعد عبر الماء الحى (Aqua viva) وسدورى والقهرة وعين الريش والبرج ثم مسعد · وهو طريق معبد ، تنطلق منه أو تنتهى اليه عدة طرق ثانوية عبر مرتفعات أولاد نايل والسهوب والصحراء مرورا بقصر نتسيله وقصر الفج والاغواط (23) ·

وفى الجهة الشرقية تم تمديد طريق رئيسى معبد بمحاذاة الشطوط (الجريد ـ ملغيغ ـ الحضنة) ، انطلاقا من الطريق الرئيسى الهام (قابس ـ قرطاجة) ليصل الى طبنة ، وهى نقطة انطلاق الطريق الصحراوى الاول الآنف الذكر (طبنة ـ مسعد) ،

---

(19) أنظر : Despois (J.) : La Bordure, p. 212. وكذلك Leschi (L.) : Inscriptions de... Medjedel : Bulletin de com. (1938), p. 26.

(20) أنظر : Leschi (L.) : Rome et les Nomades... R. A. (1942)
وكذلك خريطة الطرق الرومانية لسلاما ·

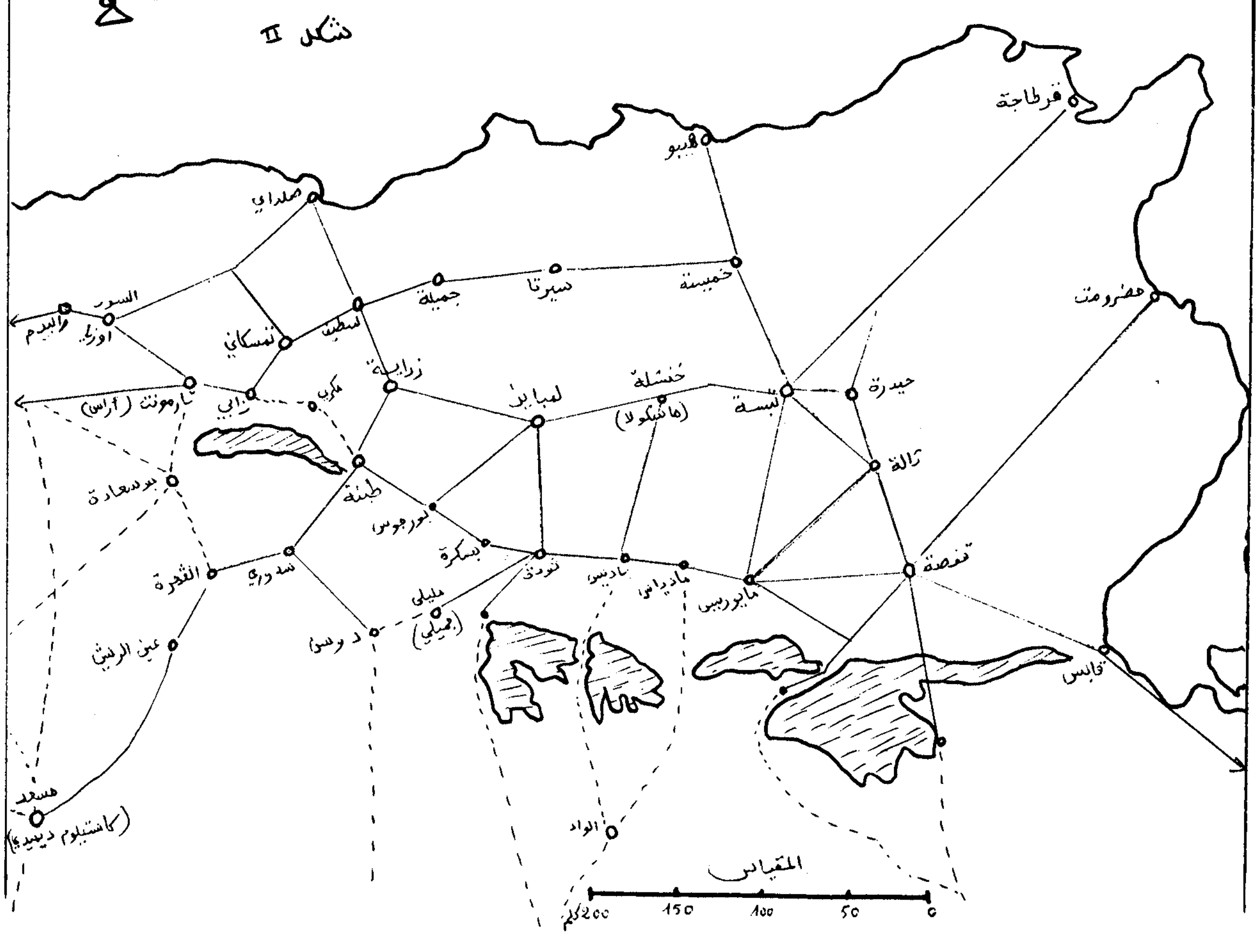
(21) أسست القاعدة العسكرية مليلى (Gemillae) عام 126 م ، بأمر من الامبراطور هادريانوس · أنظر : جوليان المصدر السابق ، ص 184 ، وص 187 ·

(22) أنظر خريطة الطرق الرومانية السابقة الذكر ·

(23) المصدر السابق ·

أهم طرق المواصلات بالجنوب في العهد الروماني

شكل II



ثم يستأنف هذا الطريق العرضانى امتداده نحو الغرب من مكرى (Macri) (24) الى تارمونت (Aras) وهنا يفترق الى طريقين ، أحدهما بمحاذاة السهوب نحو تيارت ، والثاني ينحرف شمالا نحو السور ·

ودعم الرومان أو أسسوا على امتداد هذا الطريق العرضانى عدة مدن أو حصون أهمها قفصة (Capsa) الشهيرة ، وبسريانى (Ad Majores) وتديرت (A d Medias) وباديس (Badias) ، وثودة السالفة الذكر ، وبسكرة (Vescera) ، وطبنة · (25)

وكان هذا الطريق مرتبطا بالمراكز الرومانية فى الشمال بواسطة شبكة هامة من الطرق المخترقة للمرتفعات ، وأخرى ثانوية تتجه جنوبية ، أى نحو الصحراء الشمالية الشرقية ، وهذه الاخيرة لم تكن معبدة ، ومن ثم عفت آثارها وزالت معالمها ، بعكس الطرق الجبلية التى لا تزال بقاياها ماثلة الى الآن · ورغم هذا يمكن تتبع أثر بعض تلك المسالك الصحراوية كالمسلك المتفرع عن طريق ثودة ـ برج سعادة المعبد ، وهو مسلك يمر ببرج جفاير ويتوغل فى منخفض وادى ريغ ليصل الى توقرت ثم ورقلة · والمسلك المنطلق من تدريت (على الطريق الرئيسى العرضانى) مارا ببير محمد بن يونس حتى يصل الى الواد.ثم توقرت · وكذلك المسلك المنطلق من مدينة باديس فى اتجاه الواد أيضا عبر هنشير حماجة ، متتبعا مناطق الجفاف الهامشى بشرقى شط ملغيغ · هذا فضلا عن المسلك الصحراوى الهام المتجه نحو غدامس (Cidamus) عبر بير رومان وانطلاقا من نفته (Nefta) الواقعة على الجانب الشمالى الشرقى من شط الجريد ، وقد كانت قلعة رومانية ينتهى اليها طريق معبد آت من قفصة ·

ومجمل القول ان تلك الشبكة الدفاعية ، بمختلف درجاتها ، مكنت الرومان من حماية الاقاليم الواقعة خلفها · ووضعها محل استيطان · ذلك أنه عندما تنتهى المؤسسة العسكرية من مهامها المتمثلة فى تشتيت السكان ، والاستيلاء على أراضيهم ، واقامة التحصينات فى وجوههم ، تشرع المؤسسات المدنية فى توزيع الارض على المعمرين.

---

(24) الادريسى الشريف ، كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، طبعة بريل (1968) · ص 93 ·

(25) أنظر ذلك فى خريطة الطرق الملحقة بهذا المقال ·

لاستغلالها ، وهذا ما تشهد به نقوش كتابية اكتشفت جنوبى شـــط الحضنة بمركز رومانى قديم يدعى حاليا القلعة El Guelaâ (26) .

2 ـ حركة الاستيطان فى الجنوب .

وأما حركة الاستيطان فيمكن ابرازها فى مظهرين ، أحدهما تاريخى ، يتمثل فى المراحل الكبرى التى قطعتها تلك الحركة الى أن بلغت هوامش الصحراء ، والمظهر الثانى منهجى ، ويتعلق بالاساليب المتبعة ، وفى الوسائل المادية التى ساعدت تلك الحركة على الاستغلال المركز لامكانيات الارض الواقعة تحت أيدى الرومان ، وبصورة قل مثيلها فى التاريخ .

أ ـ الجانب التاريخى .

لقد انطلقت حركة الاستيطان منذ سقوط المملكة النوميدية فى يد الرومان عام 46 ق.م. مجسمة فى امارة المرتزقة التابعين لسيتوس (Sitius) (27) الذين منحهم قيصر شمالى نوميديا ليستوطنوا فيه بقوة السلاح . وقد ساعدهم وضعهم العسكرى باعتبارهم مرتزقة حروب (جنود محترفين) على توسيع امارتهم ، فانتزعوا الاراضى الزراعية المجاورة من أهلها وأنشأوا فيها اقطاعيات هامة (28) ، وبذلك يعتبر مرتزقة سيتيوس أولى طلائع المعمرين فى نوميديا . (29)

وفضلا عن هذا النوع من الاستيطان غير الرسمى ، عرفت نوميديا أيام قيصر حركة استيطان رسمية ، تجسدت فى مستعمرات قدماء الجنود الذين منحهم قيصر أراضى نوميدية على طول حدود الولاية الرومانية (30) مكافأة لهم على خدماتهم المخلصـــة ،

---

(26) أنظر جوليان ، المصدر السابق . ص 184 .
(27) حول هؤلاء المرتزقة ، أنظر شنينى م. بشير . سياسة الرومنة فى بلاد المغرب ، الفصل الخاص بالاحتلال الرومانى .
(28) نفس المصدر ، الفصل الخامس ، وكذلك الخريطة رقم 4 الملحقة بالرسالة .
(29) سرح قيصر حوالى 80 ألف جندى وكافأهم عن خدماتهم المخلصة بمنحهم أراضى فى الولايات الرومانية بأوروبا خاصة .
(30) حول هذا الثائر الجرىء ، انظر شنينى م. بشير ، المصدر السابق ، الفصل الثانى.

وحماية لظهر الولايـــة الرومانية القديمة (أفريكافيتوس (Africavitus) من خطـــر الثورة التى كان يقودها الامير النوميدى أرابيون (Arabion) فى نوميديا • (31)

وأثناء خلو العرش الموريطانى (33 ـ 25 ق•م) من الزعامة السياسية بعد وفاة بوكوس الاصغر ، انطلقت حركة الاستيطان على طول السواحل الجزائرية ، من الوادى الكبير (Ampsaga) الى تنس (Cartenae) • واستمر امتداد الحركة خلال عهـــد يوب الثانى وابنه بطليموس الذى تشير مسكوكاته الى اشتراكه فى عمليات تدشين المستوطنات بمملكته موريطانيا الموسعة • (33)

وابتداء من عام 42 م • وهو التاريخ الذى أنشأ فيه الرومان ولايتين موريطانيتين (القيصرية والطنجية) على أنقاض مملكة موريطانيا الصورية ، انفتحت الابواب على مصراعيها فى وجه المهاجرين الايطاليين الذين ساءت أحوالهم هنـــاك ، وضايقتهم الاقطاعيات الكبرى التابعة للارستقراطية الرومانية (34) • وأخذت ادارة الولايات الرومانية على عاتقها مهمة توزيع الارض الزراعية عليهم بعد انتزاعها من أصحابها • كما كان قدماء الجنود يستحوذون على الارض لانشـــاء مستعمراتهم ذات الطابـــع الزراعى ـ الدفاعى • (35)

وقد سجلت النصوص القديمة ، والنقوش الاثرية أخبار ترحيل السكان مـــن مواطنهم وتحديد مناطق تواجدهم بالاراضى الجرداء الرعوية (36) ، وهو ما أثار المواطنين الرومان ، حيث اندلعت ثورة شاملة وعنيفة ، ضمت تحت لوائها مختلف المجموعات البشرية ، موزولاميون ، وجيتوليون ، ونوميديون ، وموريون ، وحـــتى الغارامنت

(32) بعد وفاة بوكوس الثانى (الاصغر) وضـــع الامبراطور أوكتافيوس مملكة موريطانيا تحت الادارة الرومانية المباشرة ، ثم تراجع فوضع عليها يوبا الثانى كملك ، أنظر المزيد فى « سياسة الرومنة » •
(33) أنظر الفصل الخامس من المصدر السابق •
(34) انظر عبد اللطيف أحمد على ، التاريخ الرومانى ، عصر الثورة ، الفصل الاول •
(35) هناك نوعان من المستعمرات الرومانية : المدنية المقامة فى السهول الآمنـــة ، والعسكرية المتاخمة للمناطق العسكرية ، وخاصة بقرب المعسكرات •
(36) انظر جوليان ، المصدر السابق ، ص 217 •

الجنوبيون . وكان الثوار يطالبون باسترجاع الارض المغتصبة كشرط أساسى لتوقيف القتال (37) . وقد بلغت عملية انتزاع الاراضى أوسع نطاق لها أيـام الامبراطور تراجانوس الذى تمت فى أيامه السيطرة على معظم الاراضى الزراعية بالسهول العليا النوميدية ـ الموريطانية ، واشتدت فى عهده حركة انشاء المستعمرات ، ومد الطرق فيما بينها ، وتحصين الحدود كما سبق ذكره .

وفى عهد هادريانوس تواصلت الحركة جنوبا . ثم أخذ الاباطرة السفيريون على عاتقهم مهمة التوسيع الزراعى فيما وراء الاوراس ومرتفعات الحضنة ، أى فى سهول الحضنة والزيبان المحاذية للشطوط ، والملامسة لرمال الصحراء .

وقد وجد الرومان أنفسهم أمام السكان الذين كانوا قد أبعدوهم عن التـل ، فلاحقوهم مرة أخرى .

ب ـ الجانب المنهجى .

أما الجانب المنهجى فى حركة الاستعمار الرومانية فان طبيعة البحث تقتضى اختصاره فى مجالين اثنين ، أولها يتعلق باحياء الارض والتحكم فى الثروة المائية ، ويتمثـل الثانى فى « زيتنة » الزراعة بالجنوب .

ان استصلاح الارض كان أمرا حتميا نظرا لطبيعة الوسط الجغرافى غير الملائمة للزراعة فى تخوم الصحراء . فمنسوب المطر ضئيـل (100،200 مم) ، وموجات الحرارة ، والهبوب الرملة أحيانا . كلها أمور تعـوق الزراعة . غـير أن المظهـر المورفولوجى لتلك الاقاليم ، جعلها تتوفر على تربة فيضية خصبة ، انحدرت اليها من المرتفعات الشمالية . كما تمتاز بتعرضها لمجارى المياه المنحدرة من نفس الجهة ، وبهذه الميزة تصبح الزراعة ممكنة ، رغم عداوة المناخ ، اذا تم التحكم فى الميـاه الجارية أو الجوفية ، وتفريغ الاراضى من القطعان ، وتشجيرها بما يلائم المناخ مـن الاشجار المثمرة ، وعلى رأسها الزيتون والنخيل .

---

(37) انظر المصدر السابق وكذلك : Leschi (L.) : Rome..., p. 2

والحقيقة أن المخلفات الاثرية الرومانية ، التى اندثر معظمها بسبب عوامل الافناء الطبيعية منها والبشرية (38) ، تشهد بمنجزات زراعية عظيمة الاهمية ، نهض بهـا الرومان فى تلك الاقاليم الرعوية • وبما أن عنصر الماء كان يمثل الشريان الاساسى الذى يغذى الحياة هناك ، يمكننا ذكر بعض الامثلة عن المنشآت التى أقامها الرومان لاستغلال هذا العنصر الثمين ، معتمدين فى ذلك على البقايا الاثرية بطبيعة الحال • (39)

ففى منطقة الحضنة تم العثور على بقايا أثرية لسد كبير كان مقاما على وادى الحامة المنحدر من جبال بوطالب ، والمتجه نحو حوض الحضنة ، وهو سد كانت مياهه تزود مزارع فى المنطقة تنتج الزيتون والحبوب بدليل آثار المعاصر والمطاحن المكتشفة هناك، وقد عثر على العديد من بقايا الخزانات المعدة لتجميع المياه من أجل أغراض مدنيـة أو زراعية •

وعلى وادى رمضان المنحدر من نفس الجبال والمار بمدينة ماكرى (مقرى عنـد الادريسى) أقام الرومان منشآت هامة للتحكم فى المياه ، منها خزانات وقنوات رى ، فضلا عن بقايا الخزانات والمعاصر والمطاحن المنتشرة حوالى الوادى •

وما ذكرناه عن استغلال مياه وادى الحامة ورمضان يصدق عن بقية الوديان الحية المنحدرة من سفوح جبال بوطالب نحو الحضنة ، من ذلك أن بقايا سدود هامة تنتشر على روافد وادى بريكة العليا ، كتلك التى على وادى ملاح ، وبمنطقة رأس العيـون التى تنتشر فيها خرائب هامة لمستعمرة زراعية رومانية تشهد بقاياها بمدى الازدهار الزراعى الذى بلغته ، وهى تدعى حاليا خربة أولاد موسى (هنشير أخربت) • وبمنطقة وادى مساره (أعلى وادى بريكة) السهلية تتواجد أعداد هامة لبقايا عمرانية ، منها ما يتعلق بمنشآت الرى ، ومعاصر الزيت ، والمطاحن • وأهم ما فى الجهة مدينة نقاوس المسماة قديما نسفيبوس (Necevibus) نسبة الى قبيلة نسيفيس (Necives) التى يبدو أن نقاوس كانت حاضرتها الرئيسية • فهذه المدينة العريقة تزخر ضواحيهـا

(38) تمثل ذلك فى طغيان الرمال على المعالم الاثرية ، ومفعول الانجراف فيها ، بالاضافة الى استهلاك حجارة مبانيها من طرف السكان لاقامة مبانيهم الحديثة •

(39) أهم مصدر فى هذا المجال هو Atlas archéo. de l'Algérie St. Gsell

بمعالم أثرية متنوعة ، ذات دلالة واضحة على التقدم الزراعي الذى كان عليه اقليمهما ٠ وقد جاء ذكر نقاوس في كثير من المصادر التاريخية القديمة ، منها النقوش الاثرية والسجلات الرسمية وفي النصوص الدينية العائدة الى فترة الصراع المذهبى (40) ٠ مما يدل على شهرتها ومكانتها الاقتصادية آنذاك ٠

أما بجهات مسيلا فيكفي أن نذكر السدود التى شيدها الرومان على كل من وادى اللحم والقصاب (Piscense F.) (41) ، فعلى وادى اللحم لا تزال بقايا سد هام قرب برج الدجير ماثلة ، مع مجموعة من قنوات الرى ، بالاضافة الى آثار المعاصر والمطاحن ٠ وتؤكد بقايا المعاصر ، فى هذا الاقليم المتصف بالجفاف حاليا ، على انتشار الزياتين به أيام الرومان ٠ أما مياه وادى القصاب فقد تحكم فيها الرومان بواسطة سدود وقنوات ٠ ففى شمالى مسيلة بحوالى كيلومتر ونصف تتوضع بقايا سد رومانى هام ، كان يمد منطقة زابى بالمياه الضرورية لرى البساتين ، وتموين الضياع ، ومنها مدينة زابى (Zabi) الشهيرة الواقعة الى الجنوب من مسيلة بحوالى أربع كيلومترات ٠

وتبعث البقايا الكثيفة لاعمال الرى ، فى هذه الجهة ، على الاعتقاد فى أن مياه الوادى كانت أكثر استغلالا ، وشبكة التحكم فى المياه أشد احكاما وشمولا من التى أقامها الفرنسيون فى هذا الاقليم (42) ، فهناك منشآت رى وسدود لا تزال بقاياها الى الآن على وديان جافة ، أو فى أراضى لا زرع فيها اليوم ٠ من ذلك آثار مدينة كانت تنتشر مبانيها على مساحة أربع هكتارات تقريبا ، توجد على مشارف السبخة ، وتدعى خربة الرصاص ، لا تصل اليها مياه الوديان حاليا (43) ، مع أنها كانت مزدهرة الزرع والضرع قديما ٠ كما أن هناك عددا كبيرا من الخرائب تتوضع شرقى مسيلة تؤكد نفس الاعتقاد ٠

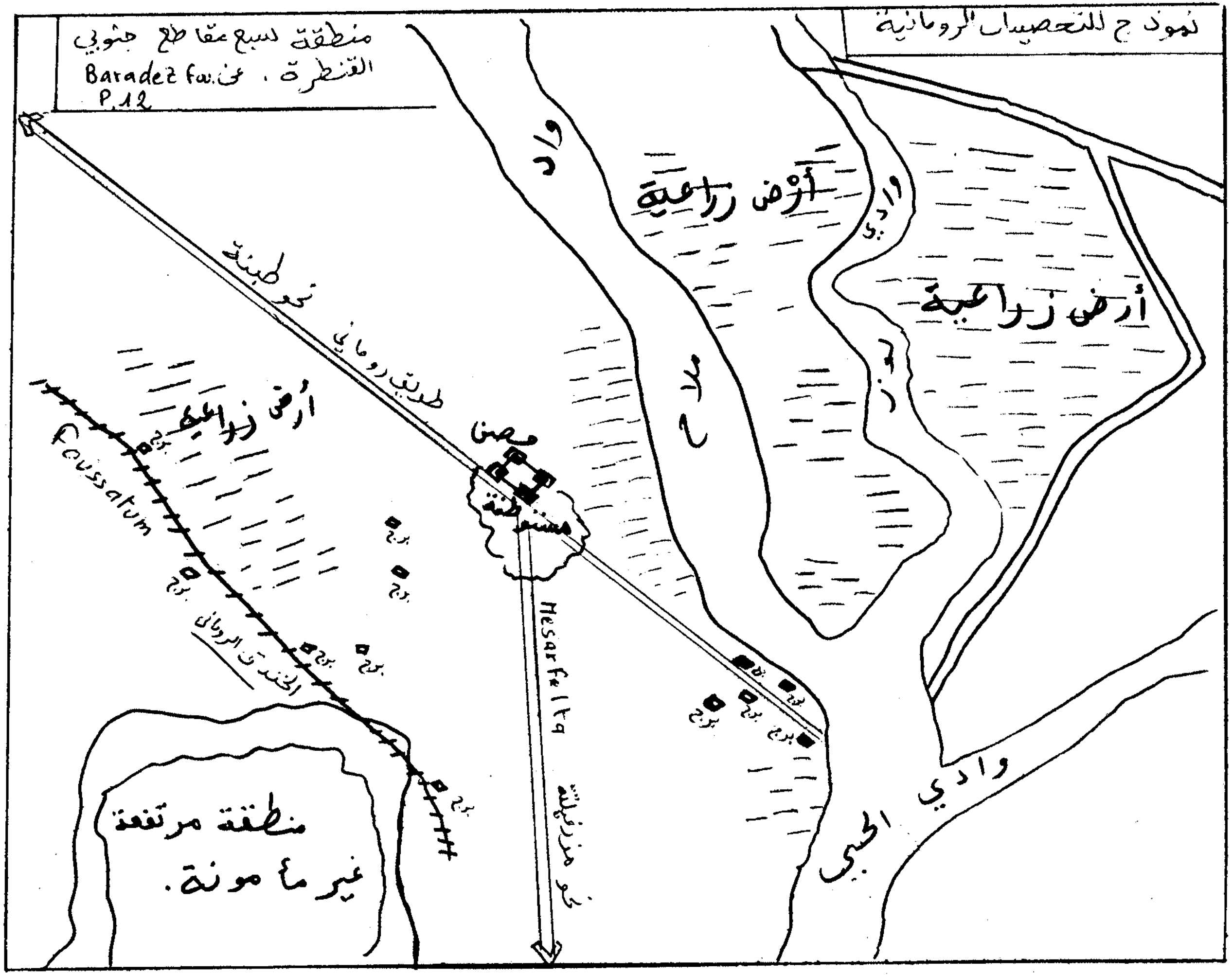
(40) نعنى بها الثورة الدوناتية ذات الاسس الوطنية التحررية ضد الكنيسة الكاثوليكية السائرة فى فلك السلطة الاستعمارية الرومانية ٠

(41) أخذنا بالتسمية المحلية (القصاب) مع أن التسمية الجارى بها كتابيا هى (القصوب) ٠

(42) لقد استفاد الفرنسيون من التجربة الرومانية فى هذا المجال بدليل أنهم قاموا بدراسات تاريخية عميقة فى المنطقة قبل أن ينفذوا منشآتهم فيها (سد ــ البايلك) ٠

(43) أنظر الاطلس الاثرى السالف الذكر ٠

شكل III.


نموذج للتحصينات الرومانية
منطقة لسبع مقاطع جنوبي القنطرة ، عن:
Baradez
P.12
أرض زراعية
أرض زراعية
أرض زراعية
واد
وادي
نحو طبنة
طريق روماني
حصن
مستوطنة
برج
Foussatum
الخندق الروماني
Mesarfelta
نحو مزرفلتة
منطقة مرتفعة

واذا اتجهنا شرقا ، حيث السهول المحادية لمجارى الوديان ، فاننا نعثر على العديد من بقايا أعمال الاستصلاح وانتشار الزياتين • ويكفى ذكر نتف من ذلك عن مدينة طبنة (Thubu-Nae) العريقة وضواحيها ، فهى مدينة عتيقة تقع بين كل مــن وادى بريكة ووادى مزون ، تناقل أخبارها الكتاب القدماء ، واحتفظت النصوص الرسمية والنقوش بشيء من تاريخها (44) ، فقد بلغت مكانة مرموقة فى القديم بفضل وارداتها الزراعية الوفيرة نتيجة السيطرة على المياه واستغلال امكانيات الارض الزراعية • ونظرا لاهمية طبنة الاقتصادية والعسكرية اتخذها الرومان ثم البيزنطيون معسكرا هاما يشرف على تلك الجهات الجنوبية • وتنتشر فى ضواحى طبنة بقايا أثرية هامة من صنف منشآت الرى والخزانات والمعاصر والمطاحن ، خاصة منها تلك التى تتوزع على طول وادى مزوز المسمى فى أسفله بوادى بيطام •

أما منخفض القنطرة الاستراتيجى فيكاد يفوق غيره من حيث بقايا التجهيزات الزراعية المتمثلة فى السدود والقنوات وأعمال السقاية ، وتنظيم الحقول فى شكل زراعة بستانية كثيفة ، احتفظت ببعض أشكالها القديمة الى الآن •

ونظرا للاهمية العسكرية التى كانت تمثلها منطقـــة القنطـــرة المسماة قديما كالصيوس هيركوليس (Calceus Hirculis) ، فقد أقام الرومان مراكز عسكريــة هامة وطرقا وخنادق وأبراج مراقبة على جوانب الاراضى الزراعية قصد حمايتها مـن الغزاة الجبليين أو القوافل العابرة لطريق القنطرة العتيق •

وتتزايد كثافة الآثار الزراعية فى المنطقة التى يشقها الطريق الرومانى الشهير الواصل بين قفصة وتارمونت ، وخاصة فى السهول الواقعة الى الجنوب الشرقى من مرتفعات مغراوة والملاح ، أى جنوبى مدينة الوطاية الحالية • (45)

ويلاحظ أن المياه المعدنية هى الاخرى كانت محل استغلال من طرف الرومـان ، حيث أقاموا لهم منشآت صحية واستجمام على حمام الصالحين الذى كان يسمى عندهم أكوا بيسكينا (Aqua Piscina)

(44) نفس المصدر •
(45) لا تظهر هذه الآثار للنظر الرأسى المجرد الا بالتصوير الجوى •

وما بقي بارزا من آثار منطقة مليلي (جميل (Gemellae)) التي غمرتها رمال الصحراء ، يمكننا من تصور واضح لحياة استقرار هامة كانت قائمة على استغلال زراعي جيد أساسه التحكم في المياه الجارية والجوفية معا ، بدليل بقايا السدود ، والقنوات ، والآبار على وادي جدي . ولعل خندق الساقية قد أقامه الرومان بهدف المحافظة على الاراضي الزراعية ومواطن الاستقرار بمنطقة مليلي ، وان كان بعض الباحثين يفترض أن الساقية كانت فعلا ساقية ري حفرت على وادى جدى . (46)

وعلى مخرج وادى الابيوض ، وشمالي سيدى عقبة ، أقام الرومان منشآت رى لتغذية منطقة سيدى عقبة بالمياه ، مما سمح بقيام زراعة هامة ومراكز استقرار ، أشهرها مدينة ثودة الواقعة شمالى مدينة سيدى عقبة الحالية ببعض الكيلومترات ، وهى مدينة هامة كان ينتشر حولها العديد من المزارع والمستعمرات على امتداد الاراضى المحادية للوادى .

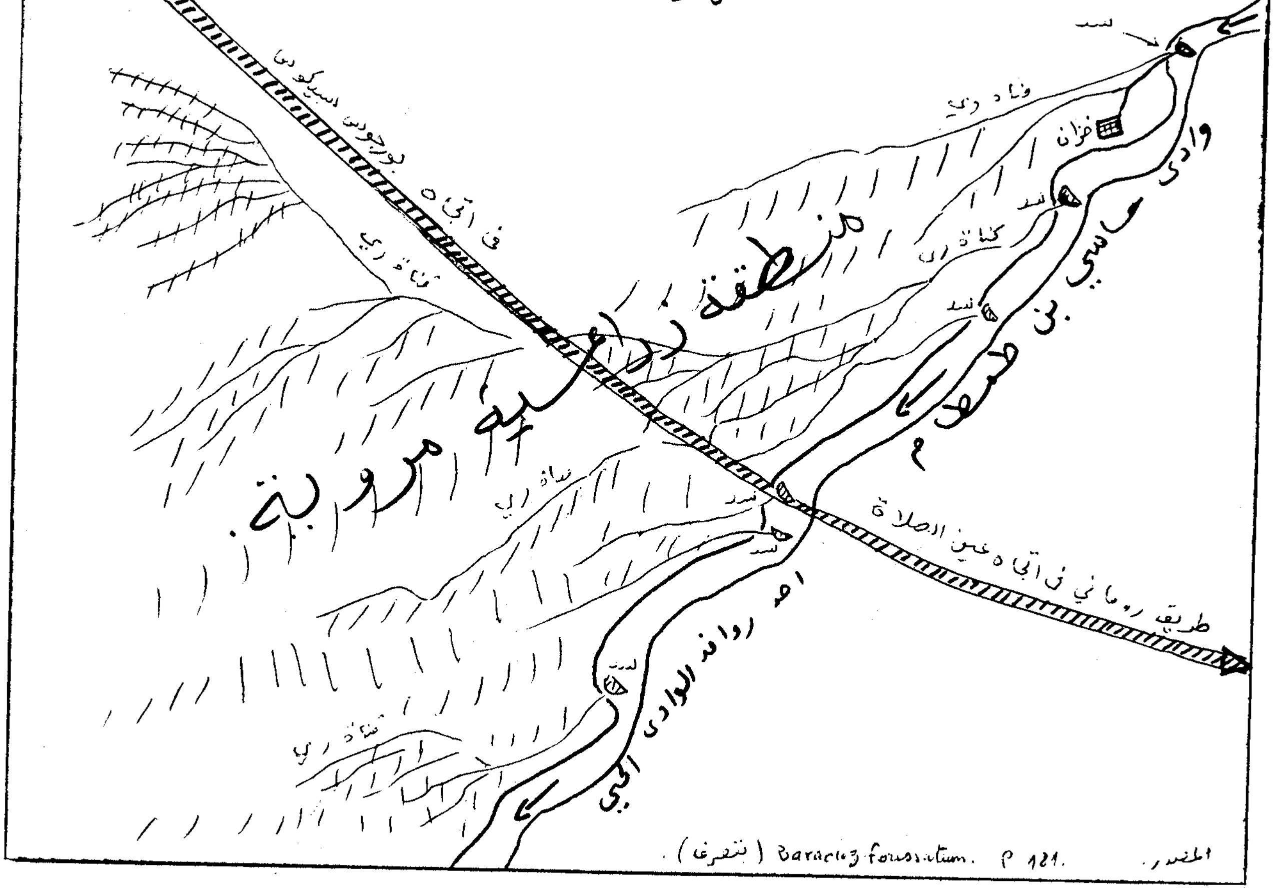
وقد أشاد الكتاب القدماء بالازدهار الاقتصادى الذى حققته ثودة وبكثافة العمران المنتشر فى ضواحيها (47) ، كما تشهد النقوش وفسيفساء الحمامات والقصور على مدى الثرى ، وحياة الترف التى كان عليها سكان تلك الحواضر ، والتى لم يكن يقل عددها عن مائة قرية أو ضيعة (Bourgades) . (47)

وعلى وادي العرب المنحدر من الاوراس تتوضح بقايا آثار حاضرة هامة من حواضر الجزائر العتيقة ، هى باديس (بادس عند الادريسى) ، وهى مدينة زراعية هامة استمدت شهرتها من مواردها الزراعية الوفيرة ، ومن كونها مركزا عسكريا هاما على الطريق الرومانى الجنوبى . ولا تزال بقايا السدود والقنوات ماثلة للعيان شمال المدينة ، عند خنقة سيدى ناجى خاصة ، وتشهد بقايا معاصر الزيتون والمطاحن الكثيرة على التنوع الزراعى الذى كان قائما فى ذلك الاقليم .

(46) St. Ssell المصدر السابق .
(47) نفس المصدر .

نموذج لاستغلال مياه الوديان جنوب القنطرة.

شكل IV



المصدر. Baradez Fossatum. P 181. (بتصرف).

وفيما يتعلق بالاعمال الفنية للرى فى تلك الجهات ، فاننا نجهل الكثير منها لاندثارها ، غير أن التصوير الجوى الذى قام به العقيد باراديز (Baradez) (48) قصد الكشف عن الخندق الرومانى بتلك المناطق ، أظهر لنا بعض المعالم المتعلقة بالرى ، يمكننا وصف احداها بايجاز ، وهى على وادى الحى (Aqua viva) بجنوبى القنطرة ، فقد أبرزت الصور الجوية بقايا لشبكة رى قائمة على روافد الوادى ، ومعالم للبساتين المقسمة هندسيا بحسب ما يقتضيه الوضع الطبوغرافى للحقل ، كما أظهرت لنا اتجاه قنوات الرى وتوزعها ضمن الحقول ، بالاضافة الى تصطيب الاراضى المائلة من أجل حفظ تربتها من الانجراف ، وتمكين المياه من تغذية المزروعات فيها بكيفية شاملة (شكل 3 ، 4) .

أما المزروعات ذات الاعتبار الاول فهى الحبوب والزياتين ، وعلى الرغم من وفرة انتاج الحبوب فى تلك المناطق الجنوبية آنذاك ، حيث يذهب بعض الباحثين الى القول بأنه كان يفوق نظيره الحالى بعشرين مرة (49) ، فان زراعة الزيتون هناك تعتبر ذات قيمة تاريخية خاصة . ذلك أن نقل الرومان لشجرة الزيتون الى الجنوب لم يكن بطريق الصدفة العمياء ، ولا الفضولية الطائشة ، بل ان ذلك يجسم سياسة زراعية واعية كانت « الزيتنة » احدى دعائمها الاساسية . وقد كان الاهتمام منصبا على هذا النوع من الزراعة منذ أوائل القرن الثانى الميلادى عندما أخذت عمليات الغرس تتوسع فشملت سهول التل ذات الخصوبه المحدودة . ثم انحدرت المغروسات جنوبا فعمت جهة قفصة وسفوح الاوراس الشمالية فالجنوبية ، ثم رفارف الصحراء (50) . وقد كان الاباطرة يشجعون هذه العملية بمنحهم رخصا خاصة لزارعى الزيتون فى حقولهم فى حين كانت زراعة الكروم محظورة بالولايات الافريقية .

واذا كان نجاح شجرة الزيتون فى تلك المناطق يجسد انتصارا للانسان على الطبيعة القاسية ، فهو يجسم لنا كذلك نجاحا للسياسية الاستعمارية الرومانية هناك.

(48) تعد أعمال العقيد بارادیز وحيدة فى مجال الكشف الجوى عن الآثار مع أن التقدم فى هذا المجال قد بلغ أشواطا فى العالم .

(49) أنظر : Baradez (J.) Foussatum..., p. 202.

(50) أنظر : Camps (H.F.) : L'olivier et l'huile dans l'Afrique romaine, p. 29.

ذلك أن تشجير المناطق الرعوية كان يتطلب القضاء على البنية الاقتصادية والاجتماعية فيها ، والتي كانت قائمة على الفلاحة التقليدية والرعي ، ومن ثم كانت أولى الخطوات تقتضي ازاحة ذلك النمط المعاشي (51) ، ومنع السكان من التردد نهائيا على المناطق المشجرة زيتونا • « فالزيتنة » اذن تشكل بالنسبة للرومان زحفا مستمرا ضد الفلاحين التقليديين ومربي الماشية • ومن ثم فمفعولها لم يكن أقل خطرا من مفعول الجيش الروماني فى مجال توسيع بساط « الرومنة » •

ثم ان زراعة الزيتون كانت توفر شغلا موسميا لكثير من اليد العاملة الرخيصة ، وبالتالى فهى وسيلة تشغيل لعدد من السكان الذين كان بعضهم يختار الاستقرار بجوار مزارع المعمرين ، وهو ما كانت تنشده سياسة الاباطرة في تلك الاقاليم لان طبيعة الترحل كانت تهدد منشآتهم بالزوال فى كل وقت • (52)

ومن جهة أخرى ساهمت زراعة الزيتون في حواف الصحراء على الحد من قساوة المناخ ، وتلطيف الطقس ، وحفظ التربة من خطر الانجراف الداهم • كما ساعدت على توفير مادة الزيت المرغوب فيها فى تلك المناطق ، وخاصة من طرف سكان الصحراء • أى أن الازدهار الزراعى بجوار الصحراء مكنت منتجاته المتعددة والوفيرة من تزويد الاسواق الصحراوية بما تحتاجه من المواد الغذائية التى كانت القوافل تشد اليها الرحال لجلبها من مناطق انتاجها بالتل ، ولنا فى كثرة المعاصر والمطاحن ما يقوى هذا الاحتمال ، خاصة وأن معابر القوافل ، نحو التل ، كانت صعبة الاجتياز بالنسبة لتجار الصحراء لكونها تخضع لاجراءات رومانية ، كالرقابة ، والاتاوات المرتفعة ، والمصادرة أحيانا •

هذا وقد ظلت غابات الزيتون تغطى مساحات شاسعة فى المناطق المتاخمة للصحراء الى الفتح الاسلامى مشكلة أهم مورد اقتصادى للسكان (53) ، وهو ما أكدته روايات

(51) نفس المصدر •

(52) ان حالة الترحل كانت تشكل عنصر شغب دائم بالنسبة للاستعمار الرومانى ، على اعتبار أن حياة الاستقرار تساعد على التحكم في السكان فى حين أن البدو لا يخضعون لاية سيطرة •

(53) تشهد قصة ابن عبد الحكم حول « الزيتونة » على ذلك •

الكتاب العرب الذى أجمعوا على القول بكثافة عمران المنطقة وبازدهار غاباتها الوارفة الظـــلال ٠

3 ـ علاقة الرومان بالصحراء ٠

ينطرح علينا أخيرا سؤال مهم ، وهو الى أى حد بلغت علاقة الرومان بالتجمعـــات السكنية فى الصحراء ، وخاصة منها الواحات المنتشرة فى منخفض الصحراء الشمالية الشرقية الجزائرية ؟

ان ضعف الدلائل الاثرية ، وندرة الوثائق الكتابية القديمة المتعلقة بهذا الموضوع تجعل الدارس يميل الى الجزم بعدم قيام هذه العلاقة أو بضعفها ٠ غير أن الارتبـاط الجغرافى بين الصحراء والتل ، والتكامل الاقتصادى الذى لا ينفصم بينهما ، يجعل العلاقة بين هذين الاقليمين أمرا حتميا لا مفر من الاقرار به ، بغض النظر عن طبيعـة هذه العلاقة ومحتواها ٠ فالوحدة البشرية بين سكان الصحراء الشمالية الشرقية وسكان التل لم تعرف حدودا (54) ، ذلك أن قبائل الجيتول قديما كان بعضها يستوطن الاوراس والبعض الآخر يجوب الصحراء الشمالية الشرقية والسهوب ، وقد أشرنا فى الصفحات السابقة الى التداعى الوطنى ، ومدى الاستجابة التى عمت تلك المناطـق أثناء حركات المقاومة التى نهض بها النوميديون فى الشمال ضد التوسع الرومانى فى مستهل العهد الامبراطورى ، ذلك التداعى الذى يؤكد النخوة الوطنية والتناصر القبلى الذى لا يبرره سوى الاحساس بالوحدة الترابية والمصير المشترك ٠

وقد أدرك الرومان خطورة هذه الظاهرة التى ظلت تهدد مؤسساتهم فى كل لحظة ، فبنوا علاقتهم بالاقاليم الصحراوية والسهلية على أساس عسكرى ، تمثل فى تلـك الحصون المتقدمة والمشرفة على المسارات الرئيسية بين مناطق التردد البشرى ، وخاصة بين الصحراء والتل الخاضع لسيطرتهم ٠

(54) أنظـر : Despois (J.) : La Bodure Saharienne...

فالعلاقة اذن كانت خاضعة لمبدا المحافظة على المكاسب الرومانية فى الشمال مع الاستفادة من تجارة الصحراء . وهكذا فعلى الرغم من أن الطبيعة الصحراوية حالت درن تواجد رومانى بشرى فى الواحات ، الا أن هذه كانت تشكل أسواقا هامة للتبادل التجارى مع الشمال الخاضع للسيطرة الرومانية .

غير أن الصحراء والسهوب الجزائرية ظلت محتفظة بالمجموعات البشرية الغاضبة على الرومان ، والتى كانت تتحين الفرص لتمزيق الشبكة العسكرية الرومانيـــة ، وتدمير الحواجز الاستعمارية ، واسترجاع الارض المغتصبة بقوة السلاح .

مصادر ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد

د · احسان عباس
الجامعة الامريكية ـ بيروت



بين سنتي 332 ـ 336 كانت الدولة الفاطمية أو العبيدية فى افريقية مهددة بالزوال على يد ثائر من زناتة، نكاري المذهب ، هو أبو يزيد مخلد بن كيداد الذى عرف بصاحب الحمار · وكانت ثورته من اشد ما واجهه الفاطميون في تاريخهم من عنف ، لكن دراسة هذه الثورة فى تطورها ونتائجها ليست موضوع هذا البحث ، وانما اكتفى هنا بدراسة تقييمية للمصادر التى تحدثت عن تلك الثورة ·

وأول ما يجذب انتباه الدارس أن المصادر التى تحدثت عن أبى يزيد وثورته تنتمى الى ثلاث زوايا متباعدة ، وهى الزاوية الاسماعيلية الشيعية ، والزاوية السنية ، والزاوية الاباضية · وربما لم تكن هذه القسمة المذهبية تستدعى ـ فى

ذاتها ـ فروقا فى النتائج ، غير أن تعيين الانتماء المذهبي للمؤرخ ـ مع معرفة موقعه زمنيا ـ يعين على تصور منهجه وأحكامه ٠

1 ـ المصادر الشيعية الاسماعيلية

تتميز المصادر الشيعية والاسماعيلية عن أبى يزيد وثورته بانها أقرب المصادر الى عصره ، ولذلك أعطت للمؤرخين المتأخرين ما حسبوه مجموعة الحقائق التاريخيـة التى لا يملكون لها مناقشة أو رفضا اذ كانوا فى أكثر الاحيان نقلة ٠ فابن حوقل التاجر البغدادى (ـ 380) ربما كتب ما كتبه عن أبى يزيد بعيد عام واحد من اخفاق ثورته ؛ ومع انه جاء على ذكره فى أسطر قليلة ، فان المفهوم الذى تضمنته تلـــك الاسطر بقى ذا صدى يتردد فى كثير من المصادر ؛ فتصويره لابى يزيد بانه « مـن أهل سماطة ومن فراعنتهم » (1) سيرد حتى فى المصادر الاباضية (2) ٠ وقد لخص ابن حوقل فى جملة واحدة الروح التى سيظل يحكم بها على أبى يزيد وثورته حين قال « واتسق له من الظلم والعدوان ما جعل الله بغيه نكالا عليه » ٠ (3)

ويمثل كتاب « فنون المعارف وما جرى فى الدهـــور السوالف » للمسعودى (ـ 346) أول مصدر مشرقى تفصيلى فيما يتصل بثورة أبى يزيد ، وقد ألف هذا الكتاب قبل « التنبيه والاشراف » اذ فرغ المسعودى من هذا الثانى فى صورته النهائية سنة 345 ؛ وقد شرح المسعودى فى كتاب فنون المعارف « خروج أبى يزيد وما كان بينه وبين جيوش أبى القاسم من الوقائع والحروب الى أن غلب على أكثر افريقية ، وحصاره أبا القاسم فى المهدية الى أن مات بها ، وخروج ابنه اسماعيل بن أبى القاسم ومواقعته أبا يزيد وما كان بينهم من الحروب ، وانفضاض الجيوش عن أبى يزيـــد ٠٠٠ الخ » (4) ٠ ولسنا نعرف المصادر التي اعتمد عليها المسعودى فى تاريخ تلك

---

(1) صورة الارض : 94 ٠
(2) انظر تاريخ أبى زكريا (الترجمة الفرنسية) : 240 ٠
(3) صورة الارض : 94 ٠
(4) التنبيه والاشراف : 334 ٠

الاحداث ، كما لا نعرف مدى التفصيلات التى أوردها ، اذ لا يشير أحد بعده الى النقل عن كتابه « فنون المعارف » .

ومع أن كتاب « سيرة الاستاذ جوذر » لابى على منصور الجوذرى خادم جوذر ربما لم يكن ثالثا فى الترتيب من حيث تاريخه فان المادة التى احتفظ بها ــ وهى فى أكثرها وثائق فاطمية ــ تمثل آخر عهد القائم وجانبا من عهد المنصور ، كخطبة القائم التى ألقاها المروزى أيام حصار المهدية حول « اللعين النكارى » (5) وخطبة المنصور حول انتصاره فى وقعة يوم الجمعة بالقيروان (6) ، ووصف الايام الاخيرة من الصراع بين المنصور وأبى يزيد (7) . ومما يلفت النظر أن هذه البيانات الرسمية رغم اعترافها بأن أبا يزيد نكارى لا تزال تسمى أصحابه « الحرورية » حينا و « الازارقة » حينا آخر، وتربط بين موقفه من الخلافة الفاطمية وموقف الخوارج من على بن أبى طالب ، ولعل أبا زكريا الاباضى نفسه كان ــ من بعد ــ يستلهم هذا الموقف حين تحدث عن التدمير الذى أحدثه أبو يزيد وعن أخذه الاطفال عبيدا وشفع ذلك بقوله ان سلوك نافع ابن الازرق كان كذلك الا أن أبا يزيد كان أشد اسرافا (8) . أما تسمية أبى يزيد باللعين الدجال أو اللعين بن اللعين فى تلك البيانات ، فهى غير مستغربة من مصادر تتحدث عن ثائر قام يحطم خلافة أسسها « المهدى » عدو الدجال اللعين .

وتلك هى التسمية التى أطلقها القاضى النعمان بن محمد (ــ 263) فى كتابه «رسالة افتتاح الدعوة» حيث قدم تلخيصا جيدا للخطوات التى سارت فيها ثورة أبى يزيد (9) ، حسبما يمكن أن يتضمنه كتاب يجمل الموقف بعد وفاة المهدى اجمالا سريعا لا يسمح بكثير من التفصيلات ، خصوصا وأن القاضى النعمان استقصى أخبار أبى يزيد وحدها فى كتاب ضخم (10) ؛ وهناك ما قد يطمئن الدارس الى أن هذا الكتاب لم يضع ، وان صورته على نحو ما ــ ربما كان كاملا ــ موجودة فى الجزء الخامس من كتاب « عيون الاخبار » للداعى ادريس ؛ فهذا المؤلف قد سمح لنفسه بنقل كتاب

(5) (6) (7) سيرة الاستاذ جوذر : 54 ، 44 ، 48 .
(8) تاريخ أبى زكريا : 236 .
(9) رسالة افتتاح الدعوة : 277 ــ 279 .
(10) انظر المصدر السابق : 279 .

افتتاح الدعوة كاملا ولهذا لا يستبعد أن يكون قد نقل أيضا كتاب القاضي النعمان عن ثورة أبي يزيد كاملا كذلك (11) ، واذا كان يرد في هذا الكتاب بين الحين والحين فقرات مصدرة بـ « قال القاضي النعمان » فليس معنى ذلك أن سائر الكتاب ـ عدا تلك الفقرات ـ من وضع رجل آخر · بل ان هذه الفقرات لتؤكد أن الكتاب كله من تأليف المؤلف المذكور اذ أنها لا تجيء في فواتح تلك الفقرات الا لتسجل رواية مباشرة كان القاضي النعمان طرفا فيها ، أي هي تتميز عن الاخبار الاخرى التي نقلها القاضي رواية عمن شهدوا تلك الاحداث ، أو التي استخرجها من الوثائق · ويتميز هذا الكتاب بخصائص كثيرة أظهرها تلك الصفة التفصيلية التي لا يضاهيه فيها أي مصدر آخر ، فهو كتاب يكاد يؤرخ ثورة أبي يزيد شهرا اثر شهر ، ويكاد الالحاح على عمليات الكر والفر ، لكثرته ، يضيع على الدارس قدرته على التصور للمواقف الحاسمة التي مرت بها تلك الثورة ، كما قد يحرمه من ايجاد تعليل واقعي لحركات الانتصار والانهزام ، اذ تغدو الحروب ـ في نظر هذا المصدر ـ عملية آلية محضا ، ويلتف الناس حول أبي يزيد أو يتفضون عنه ، ويقوى أمره أو يضعف دون أن يكون هنالك علة مقنعة في كل ذلك · ويبدو أن هذا المصدر أفاد كثيرا من الوثائق الفاطمية ، اذ أننا نجد فيه جميع البيانات التي وردت في « سيرة الاستاذ جوذر » ، فهو من هذه الناحية حاول أن يكون وثائقيا ولكن من زاوية واحدة · وقد يقال ـ دون تردد ـ انه أخطر مصدر تناول شخصية أبي يزيد وثورته لانه طبع بطابعه أكثر المصادر التي جاءت بعـــده ، ورسخ ما شاء أن يرسخ من معلومات حول تلك الثورة وصاحبها ؛ فهو الذي أخضع حركة التاريخ للرؤيا التنبؤية حين زعم أن المهدي كان يعرف ـ بعلم سابق ـ أن «اللعين الدجال » سيعلن الثورة ، ومن اجل ذلك بنى المهدية ومـــلأ أهراءها بالطعام ، ومـــن أجل ذلك لم يعبأ القائم بمقاومة أبي يزيد لانه كان يعلم أين يبلغ في ثورته · وهذا المصدر هو الذي حدد المبادىء التي كان يدين بها أبو يزيد وأضفى عليه من استباحة القتل

(11) تحتل ثورة أبي يزيد في هذا الكتاب من 356 ـ 706 ، واذا صح هذا الفرض ، فان هذا الكتاب شيء مختلف أيضا عن « ذات المحن » وهي منظومة تتحدث عن تلك الثورة ، انظر تعليق محققة افتتاح الدعوة : 279 (الحاشية 2) ·

ما يقف المرء مترددا فى تقبله ، بل هو الذى نسب حتى الى صاحبه أبى عمار الاعمى انكار ذلك عليه بشدة ، وأغرب من ذلك أنه نسب اليه من استباحة الفروج من القصص التى انحدر بعضها الى المصادر التالية ما يسلبه كل حصافة فى النظرة السياسية لدى الاولياء والاعداء على السواء ويجعله أقل الناس فهما للعادات والتقاليد . ولا ريب في أن هذا المصدر حين يلح على هذه الناحية يفضح خطة متعمدة للتشويه ، معتمدا ناحية شديدة الحساسية عند العرب والبربر فى تهجين ثورة أبى يزيد . ومما يقوى الشك فى نوايا هذا المصدر اشارته الدائمة الى أصحاب أبى يزيد باسم « البربر » مع أننا نعلم أن أكثر الملتفين حول الخلافة الفاطمية العبيدية كانوا يومئذ من كتامة وصنهاجة ، وهم أيضا من البربر ؛ فهذا التمييز ربما كان يعنى من طريق العصبية المفتعلة أن كل من كانوا يشايعون الدولة الفاطمية كانوا عربا بالانتساب ، وان كانت أصولهم بربرية . ويعد هذا المصدر مرجعا هاما للصورة الادبية التى واكبت ثورة أبى يزيد ؛ ولكن اذا أمعن الدارس النظر وجد أن هذا المصدر قد أهمل أمورا هامة منها : أنه لم يعن كثيرا بايراد وصف دقيق عن أولية أبى يزيد ونشأته ودراسته وصلته بمصر . والاماكن المقدسة والخطوات التمهيدية التى أدت الى الثورة ؛ ومنها اغفاله الحديث ـ تعمدا فى ما يبدو ـ عن الدور الذى قام به فقهاء المالكية القيروانيون فى ثورة أبى يزيد . ومما يوضح التناقضات التى يقع فيها هذا المصدر ما حكاه عن دور خليل بن اسحاق (أو خليل بن عدنان) فهو يختلق المعاذير لتصرفات خليل ثم لا يلبث أن ينسى ذلك كله فيحمله اللائمة فيما وقع فى القيروان . ولما كان خليل من أكبر انصار الفاطميين فان تناقض فعله مع ما كان ينتظر منه أوقع المؤلف فى شىء غير قليل من التردد ازاء ادانته النهائية . والى هذا المصدر الهام يرجع ذلك الحوار « الدرامى » الذى رددت المصادر بعضه من بعد بين المنصور وأبى يزيد حين وقع أبو يزيد فى أسر الخليفة الفاطمى .

ان هذا الكتاب الذى أعتقد أنه من تاليف القاضى النعمان قد أدى اكبر دور فى اقرار الصورة الكلية العامة لابى يزيد وثورته من شتى النواحى .

2 ـ المصـــادر السنيـــة

لعل أكبر مؤثر في توجيه هذه المصادر عاملان هما : قربها أو بعدها الزمني من ثورة أبي يزيد ، وطبيعتها في النظر الى الاسماعيلية بعامة وتلك الثورة بخاصة · وقد تأثرت المصادر السنية المشرقية بكتاب يبدو انه ألف في دور مبكر للرد على الاسماعيلية ومؤلفه هو أبو عبد الله ابن رزام الذى كان ما يزال حيا فى عهد أبي تميم معد (12) (341 ـ 365) وقد لخص ابن النديم (ـ 388) فى « الفهرست » بعض ما جاء فى ذلك الكتاب (13) ويعد كتاب ابن رزام أصلا لامرين ستكررهما المصادر السنية من بعد وهما : نسبة الاستخفاف بالشريعة للعبيديين ، وانصراف الناس عن أبي يزيد بعد انضوائهم فى صفوفه لانه أظهر الاباضية · ومما يلفت النظر فى هذا المصدر تسميته أبا يزيد باسم « المحتسب » ، وهى كلمة نجد لها مشابها فى المصادر المغربية حيث جاء فى وصف أبي يزيد « ويحتسب على الناس فى كثير من أفعالهم ··· » (14) · وقد تقوت هذه الصورة للاسماعيلية بما كتبه عنهم أبو بكر ابن الطيب الباقلانى (ـ 403) في كتابه « كشف أسرار الباطنية » (15) · ولكننا لا نعلم هل تعرض هذا المؤلف فى كتابه لثورة أبي يزيد أولا ، فان النقول عنه لم تورد شيئا من ذلك ، وان كان يغلب على الظن أنه لم يكن ليمر بتلك الثورة مغفلا لها ·

ويجيء كتاب « تثبيت دلائل النبوة » للقاضى عبد الجبار بن أحمد المعتزلى (ـ 415) فى سياق المؤلفات التى تأثرت بكتاب ابن رزام ، فكتاب القاضى ليس مصدرا تاريخيا بالمعنى الدقيق ، ولكنه يكشف عن تفسير خاص للثورة ولشخصية صاحبها : فأبو يزيد امرؤ ضعيف فى حاجة الى حمار لانه يعجز عن ركوب فرس ، وقد اتبعه الناس لانه

(12) هذا مستنتج مما جاء فى تثبيت دلائل النبوة للقاضى عبد الجبار 2 : 611 « قال أبو تميم مرة : لا يهونكم ما صنع ابن رزام ··· » ·

(13) الفهرست : 238 ـ 239 ·

(14) ابن عذارى 1 : 193 وانظر ابن خلدون ·

(15) يسميه ابن عذارى (1 : 158) كشف الاسرار وهتك الاستار ·

أزال الظلم والمكوس عنهم (16) ؛ والقائم لم يكف عن محاربة أبى يزيد لانه كان يعلم أين سيبلغ ومتى يبدأ نجمه فى انحدار ، وانما لان القائم عرض له وسواس وزال عقله مما نزل به من الذل (17) ، وما انصرف الناس عن أبى يزيد الا لان المنصور ضمن لهم تغيير سيرة أبيه وجده وألا يتعرض للديانات كما أنه أخذ يتألفهم بأعمال البر (18). أما فى بادىء الامر فان الناس التفوا حول أبى يزيد - وهم يعلمون أنه نكارى - لانهم قالوا « هذا وان كان من الشراة فليس ينكر الربوبية ولا يكذب الرسل ولا يلعن الانبياء ومعه حفظ الاموال » (19) وقد انفرد القاضى عبد الجبار - بين جميع من أرخوا تلك الثورة ، بتفسيره الخاص لبعض مظاهرها وتقلبات الاحوال فيها .

وبينما كانت المؤلفات المشرقية السنية المبكرة تنتحى منحى جدليا ، بتأثير من ابن رزام ، كانت المؤلفات المغربية القريبة نسبيا من عصر تلك الثورة تخضع- بدرجات متفاوتة - لوقوع مؤلفيها فى حيز الدولة الفاطمية أو المؤثرات الفاطمية ، وللمصادر الفاطمية المبكرة . وفى أول قائمة المؤرخين هؤلاء يجىء محمد بن يوسف الوراق القيروانى (292 - 363) (20) ، ومن السهل أن نجد أثره الجغرافى واضحا لدى البكرى (- 487) ولدى كل من اعتمد البكرى من بعد كصاحب « الاستبصار » ومؤلف « الروض المعطار » ولكن أثره التاريخى غير واضح كثيرا ، وان كان الترجيح يميل الى أن الرقيق ربما تأثر به وأفاد من مؤلفاته . ولعل القطعة التى احتفظ بها ابن عذارى (21) عن أولية أبى يزيد منقولة عن الرقيق نفسه ؛ غير أن ضياع ما دونه الرقيق عن ثورة أبى يزيد يكون ثغرة فى تصورات الدارسين لتلك الثورة . كما أنه لا يمكن الدارس من أن يحكم جزما هل تأثر الرقيق بكتاب القاضى النعمان والى أى مدى كان ذلك ، وهل هو الواسطة فى نقل روح ذلك الكتاب الى المصادر التى جاءت

(16) تثبيت دلائل النبوة 2 : 391 ، 2 : 602 .
(17) (18) المصدر نفسه .
(19) تثبيت 2 : 391 وانظر 1 : 107 ، 2 : 602 .
(20) ذكر سنة ولادته ابن عذارى فى البيان المغرب 1 : 139 .
(21) ابن عذارى 1 : 193 .

من بعد · ان الرقيق عاش جانبا من حياته حين كانت افريقية ما تزال تعترف بالنفوذ العبيدى ولهذا ليس ما يمنع أن تكون مادة التاريخ التى كتبها المؤلفون الاسماعيليون مقبولة لديه بقوة · ويبدو أن الرقيق انفرد أيضا بذكر أمور لم ترد فى المصادر الاسماعيلية وحين يصرح ابن عذارى بالنقل عن الرقيق نجد هذا المؤلف ينفرد بذكر تسمية جديدة لابى يزيد وهى « شيخ المؤمنين » · (22)

ويأتى كتاب « رياض النفوس » للمالكى (ـ 453) مكملا للنقص المتعمد فى كتاب القاضى النعمان ، اذ ابرز المالكى (وعنه القاضى عياض (ـ 544) فى كتابه ترتيب المدارك) الدور الكبير الذى قام به علماء المالكية القيروانيون فى تأييد ثورة أبى يزيد بالخروج معه وحث الناس على الانضمام اليه واصدار الفتاوى بذلك · وبين الفتوى التى أصدرها الممسى ـ وهى فتوى نموذجية ـ وما استنتجه القاضى عبد الجبار شبه قوى يوحى بأن عبد الجبار صاغ فحواها بأسلوبه الخاص ، اذ يقول الممسى : « ان الخوارج من أهل القبلة لا يزول عنهم اسم الاسلام ··· وبنو عبيد ليسوا كذلك لانهم مجوس زال عنهم اسم المسلمين » (23) · ويقوى المالكى من الدواعى التى هيأت لاعلان الثورة على بنى عبيد حين يعدد الكبائر التى ارتكبوها (24) وألوان التعذيب التى أنزلوها بعلماء المالكية (25) · ولا ريب فى أننا هنا ازاء موقف مذهبى تطغى فيه الاتهامات ، وهو يمثل نقضا مباشرا للمصادر الشيعية ؛ ولكن هذا اللون من المصادر السنية لا تعنيه شخصية أبى يزيد أو ثورته الا بمقدار ما كانت تمثله من انقاذ مأمول للمذهب المالكى ـ أو للسنة ـ من سيطرة العقائد الاسماعيلية · ولهذا فان هذا اللون من المصادر ـ حين تخفق تلك الثورة ـ لابد من أن يبحث عن سبب اخفاقها فلا يجده الا فى شخصية أبى يزيد ·

---

(22) ابن عذارى 1 : 217 وهذه التسمية عند ابن حماد : 20 « شيخ المسلمين » ·

(23) رياض النفوس 2 : 144 وانظر رأى أبى اسحاق السبائى 2 : 164 وفى ترتيب المـــدارك 2 : 388 ·

(24) رياض النفوس 2 : 163 ـ 164 ·

(25) انظر رياض النفوس 2 : 28 ـ 29 ، 167 ، 318 ، 334 ، 345 وترتيب المدارك 2 : 318 ، 334 ، 338 ·

وليس يتضح لمحمد بن سلامة القضاعي (ـ 454) أي موقف من ثورة أبى يزيد فان النقول عنه فى هذه الحادثة (26) قاصرة عن تصويره ذلك • ولكن يبدو أنه كتب على نحو « حيادى » ، فان الرجل كان شافعيا وكان فى الوقت نفسه كاتبا للجرجرائى وزير الدولة الفاطمية •

ومع أبى عبد الله محمد بن سعدون بن على ، الذى ربما كان معـاصرا للمالكى والقضاعي (27) تعود الخصائص التى أبرزها كتاب المالكى ، اذ نجد عند ابن سعدون تفصيلات دقيقة عن الرايات التى حملها فقهاء القيروان حين انضموا الى أبى يزيد ، شبيهة بالتى ذكرها المالكى ، كما ان ابن سعدون عد من انضم للثورة من الفقهـاء والعباد رجلا رجلا (28) • وتدل الخلاصة التى أوردها ابن عذارى نقلا عن كتـاب ابن سعدون « تعزية أهل القيروان بما جرى على البلدان من هيجان الفتن وتقلـب الازمان » (29) على ان موقف ابن سعدون من العبيديين لا يختلف كثيرا عن موقف ابن رزام أو الباقلانى ، وانه كان يكن عداء شديدا لهذا المذهب ، وعصبية مشوبة بالحزن على ما اصاب بلده • وقد أكد ابن سعدون الرواية التى اتهمت أبا يزيد بأنه عرض العلماء للقتل « لانه ـ فيما ظن ـ اذا قتل شيوخ القيروان وأئمة الدين تمكن من أتباعهم فيدعوهم الى ما شاء فيتبعونه » (30) • ومن ناحية أخرى ابرز المالكى أن انضمام الفقهاء لثورة أبى يزيد لم يكن عن ايمان خالص بعدالة ثورته وسلامـة شخصيته وانما كان موقفا انتهازيا الى حد ما ، فقد روى عن أبى اسحاق السبائى قوله : « فان ظفرنا بهم لم ندخل تحت طاعة أبى يزيد ، والله يسلط عليه اماما عادلا يخرجه عنا » (31) •

(26) انظر مثلا ابن عذارى I : 220 ، 228 وابن حماد : 49 ، 51 •
(27) يتوقف تلخيص ابن عذارى عن كتاب ابن سعدون بذكر المستنصر ، وقد تـوفى المستنصر 487 •
(28) ابن عذارى I : 217 •
(29) ابن عذارى I : 281 ـ 287 •
(30) ابن عذارى I : 218 •
(31) رياض النفوس 2 : 164 وترتيب المدارك 2 : 318 •

وبسبب الصلة بين ثورة أبى يزيد والخلافة الاموية فى الاندلس يمكن أن يعد كتاب « المقتبس » لابن حيان (ـ 469) من المصادر الهامة عن جانب من تلك الثورة ، أعنى جانب البعوث والسفارات التى وفدت على الخليفة عبد الرحمن الناصر من لدن أبى يزيد تطلب الامداد · وتكمن أهمية ابن حيان ـ الى جانب خصائصه الاخرى ـ فى اهتمامه بالتفصيلات الدقيقة (32) · وقد نقل ابن الابار (ـ 658) قطعة عن المقتبس فى كتابه « الحلة السيراء » (33) ولكنها شديدة الاضطراب ، ويمكن ضبط ما فيها ـ الى حد ما ـ بعرضها على ما نقله ابن عذارى حول أبى يزيد عن المقتبس أيضا (34) · وليس فى هذين المصدرين ما يدل على ان الناصر حقق شيئا من رغبة أبى يزيد ، ولكن ما ورد فى « عيون الاخبار » يدل على النقيض اذ يصرح هنالك أن الناصر أرسل لابى يزيد مددا مع أيوب ابنه (35) ، كما أمر ـ فى مرة أخرى ـ محمد بن رماحس عامل بجانة بالابحار في أسطول فيه عسكر كثيف وسلاح لمعونة أبى يزيد (36) · وتشير بعض الروايات الى أن أبا يزيد دعا للناصر منذ بداية ظهوره ، فمن المستبعد أن يهمله عبد الرحمن الناصر ويتركه دون مدد ·

وهناك كتاب فى تاريخ القيروان باسم « الجمع والبيان فى أخبار المغرب والقيروان » لابى محمد عبد العزيز بن شداد من ذرية المعز بن باديس الصنهاجى ، وكان من أمراء العساكر فى دولة صلاح الدين الايوبى ، فهو على ذلك كان حيا فى أواخر القرن السادس ، وقد اعتمد النقل عن كتابه ابن خلكان والتجانى صاحب الرحلة والنويرى فى نهاية الأرب ، ولعله هو الذى سماه ابن الاثير الامير عبد العزيز (37) ونقل عن

(32) وقفت النسخة من المقتبس التى ظهرت حديثا فى الخزانة الملكية بالرباط قبل قيام ثورة أبى يزيد ·

(33) الحلة السيراء 2 : 390 ـ 391 ·

(34) ابن عذارى 2 : 212 ـ 214 ·

(35) عيون الاخبار 5 : 522 ·

(36) عيون الاخبار 5 : 541 ·

(37) تاريخ ابن الاثير ـ 8 : 27 ·

كتاب له في تاريخ افريقية والمغرب (ربما كان هو عين الكتاب المذكور آنفا باسم الجمع والبيان) • ولا ريب أن ابن شداد قد تصدى في كتابه (أو كتابيه) لثورة أبي يزيد ، ولكن ليس من السهل أن نعرف المصادر التي اعتمدها ، اذ لم يصرح أحد بنقل شيء من أخبار أبي يزيد عنه ، ويعتقد الاستاذ شتيرن أن ابن الاثير نقل أحداث ثورة أبي يزيد عنه (38) ، ولو وضع ذاك بصيغة الفرض لكان أسلم •

وحين نبلغ ابن حماد (أو ابن حماده) صاحب كتاب « القبس » (39) تقف عند حلقة هامة في سلسلة المؤرخين السنيين الذين كانوا ما يزالون ينظرون الى ثورة أبي يزيد والى الخلافة الفاطمية نظرة مقارنة وموازنة ، فأبو يزيد ـ عند هذا المؤرخ ـ عقوبة من الله للشيعة الذين أمروا بسب الغار والعباء واقترفوا القتل والتعذيب • ولكن ابن حماد يمعن في البحث عن السبب الذي جعل الناس يتبعون أبا يزيد فيهتدي الى أنهم لم يكونوا يعلمون مذهبه ، « فرجوا فيه الخير والقيام بالسنة » (0) ، وفي هذا تجاهل متعمد لما أقر به الفقهاء في بياناتهم وفتاويهم • وابن حماد هذا الذي ينقل عنه ابن عذاري هو غير ابن حماد الذي نشر باسمه كتاب « أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم » (41) ، فالاول منهما كان معاصرا للقاضي عياض (ـ 544) (42) بينما يذكر الثاني أنه انتهى من كتابه سنة 617 (43) ؛ ثم ان المقارنة بين ما ينقله ابن عذاري عن ابن حماده وما ورد في كتاب « أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم » يؤكد خلافا أصيلا في المنحى والموقف بين الرجلين • ذلك لان هذا الكتاب يمثل تعاطفا واضحا مع

(38) الموسوعة الاسلامية I : 164 (الطبعة الجديدة) •

(39) ذكره ابن عذارى وقرن اسم كتابه به في البيان I : 5 وانظر مفاخر البربر : 64 حيث ذكر الفقيه الحافظ التاريخي أبا عبد الله محمد بن حمادوه البرنوسي مؤلف كتاب لمقتبس (اقرأ : القبس) في أخبار المغرب والاندلس •

(40) ابن عذارى I : 216 •

(41) أشار الى ذلك شتيرن (الموسوعة I : 164) •

(42) قال ابن حماده (ابن عذارى I : 227) رأيت هذا السجل (سجلا من الحكم المستنصر لاهل سبتة) عند القاضي عياض •

(43) أخبار ملوك بني عبيد : 64 •

الفاطميين ، وبهذا نفسه يثير مشكلة لدى الدارس فاذا صح أن مؤلفه هو أبو عبد الله محمد بن علي بن حماد بن عيسى الصنهاجي (ـ 628) (44) ، صاحب كتاب « النبذ المحتاجة فى أخبار صنهاجة » (45) الذى كان قاضيا فى عهد الموحدين فليس هناك ما يسوغ هذا التعاطف مع الفاطميين لدى قاض سني مالكى · ورغم ملاءمة تاريخ الكتاب كي ينسب لابن حماد ، فالشك لدى فى صحة نسبته اليه أقوى · أما الكتاب نفسه فانه موجز فى مجمله ومصادره بعد المستنصر فقيرة (46) · وتعد القطعة التى أوردها عن أبى يزيد تفصيلية نسبيا ، وهى تحتوى معلومات هامة وخاصة عن أحواله قبل اعلان الثورة ، ويبدو أنه قد تأثر فيها ببعض المصادر الاباضية أو بمن نقل عن تلك المصادر ، فهو الوحيد الذى يذكر أن من بايع أبا يزيد وأقام معه سموا « العزابة » ومن بايعه وانصرف عنه سموا « عدة المسلمين » (47) · وقد أولى المؤلف اهتماما خاصا بالمرحلة الاخيرة من الصراع بين أبى يزيد والمنصور وأغفل ما قبل ذلك (48) · واذا قورن هذا الكتاب بالمصدر الاسماعيلي الكبير لكشفت المقارنة عن اتساق فى الاحداث وتوافق أحيانا فى بعض العبارات (49) ، مع اختلاف فى أسلوب العرض ، وهو اختلاف يشير الى أن المصدر الذى ينقل عنه المؤلف شاء أن يمنح كتابه مسحة أدبية مميزة ·

---

(44) ترجمة فى عنوان الدراية : 218 ـ 220 ويكنيه صاحب مفاخر البربر : 65 بأبى الحسن ·

(45) ما نقله أمارى (المكتبة الصقلية : 317) عما يسمى كتاب نبذة المحتاجة مأخوذ نصا عن كتاب « أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم » ·

(46) يعتمد على الرقيق والقضاعي وابن حيان وبعد عهد المستنصر يعتمد الرواية الشفوية عن أبى المكارم هبة الله المصرى وأحد الطلبة من الحجاج ·

(47) أخبار ملوك بنى عبيد : 20 ·

(48) أشار الى ذلك الاستاذ لوترنو فى مقاله عن ثورة أبى يزيد : 104 ·

(49) قارن ما جاء فى أخبار ملوك بنى عبيد : 30 بنص عيون الاخبار : 574 ، وهنا أيضا يرى الاستاذ شتيرن أن هذا المؤلف ينقل أيضا ـ دون ريب ـ عن الرقيق (الموسوعة I : 164) ·

ها قد مرت ثلاثة قرون على ثورة أبى يزيد ولم يعد سوطا أرسله الله على معطلى الشريعة ، كذلك زالت دولة الفاطميين ، وعاد الفريقان يستويان فى أنهما كانا خارجين على السنة ، دون ترجيح أو مفاضلة ـ ولهذا لم يعد المؤرخ يهتم كثيرا فى اختيار مصادره ، فاذا تناول تاريخ أبى يزيد فلا ضير فى ان يكون المصدر اسماعيليا معاديا ، ولهذا لا تختلف المصادر التاريخية ابتداء من القرن السابع وما بعده ، أحدهما عن الآخر ، الا فى طبيعة المصادر التى تنقل عنها ، فابن الاثير (ـ 630) يلخص المصدر الاسماعيلى بلباقة ، حاذفا منه الاشعار والتفصيلات والخطب والرسائل (50) ، وابن الابار (ـ 658) ينقل فى « الحلة السيرا » عن هذا المصدر نفسه أو عمن نقل عنه (51)، وابن خلكان (ـ 681) يورد عن أبى يزيد فقرة يستخلصها ـ على عادته فى الحذر ـ عن أستاذه ابن الاثير أو عن ابن شداد (52) وابن عذارى (ـ 695 ، يجمع مادته من عدة مصادر منها الرقيق وابن حماده البرنوسى والقضاعى وابن سعدون (وهو الوحيد الذى يعتمد النقل عن هذا الاخير) والبكرى وربما نقل عن غيرهم دون أن يصرح بذلك . ولخص لسان الدين ابن الخطيب (ـ 776) ثورة أبى يزيد فى عبارات قليلة ـ لكنها جامعة ـ تدل على أنه مطلع على المصادر الاولية (53) . ولا يختلف موقف ابن خلدون (ـ 808) كثيرا عن موقف سابقيه الا فى أنه أرخ ثورة أبى يزيد مرتين : مرة لخص ما جاء عند ابن الاثير بشىء من التضييق ، ومرة أخرى جاء بتفصيلات يتفق فيها مع « أخبار ملوك بنى عبيد » وهذه المادة مأخوذة ـ فى أغلب الظن ـ عن تاريخ الرقيق (54) . ونقل المقريزى (ـ 845) فى كتابه « اتعاظ الحنفا » ما جاء به ابن الاثير ولم يضف اليه الا أشياء قليلة (55) .

(50) تاريخ ابن الاثير 8 : 422 ـ 441 .
(51) الحلة السيراء 2 : 387 ـ 389 .
(52) وفيات الاعيان 1 : 235 .
(53) أعمال الاعلام 3 : 53 ـ 54 .
(54) كتاب العبر 4 : 40 ـ 44 ، 7 : 13 ـ 17 .
(55) اتعاظ الحنفا 1 : 75 ـ 85 وما ذكره فى الخطط 1 : 351 ليس الا موجزا يسيرا ؛ أما المصادر الاكثر تأخرا مثل المؤنس لابن أبى دينار والحلل السندسية للسراج فقد أغفلتها لانها تلخص عن المصادر المشهورة كابن الاثير والتجانى ... الخ .

وهذا الموقف الذى بلغه المؤرخون ـ فى القرن السابع وما بعده ـ هو الموقف الذى تبناه الجغرافيون منذ البداية، اذ كانوا ينقلون عن المصادر أيا كانت لونها دون محاكمة، منذ عهد البكرى (56) · وعلى مثل ذلك جرى الزهرى (بين 541 ـ 556 (57) ومؤلف الاستبصار (بعد 587) (58) وياقوت (ـ 624) فى « معجم البلدان » (59) والقزوينى (ـ 682) فى « آثار البلاد » (60) ، وابن عبد المنعم الحميرى (ـ 727) فى « الروض المعطار » (61) · وللس يشذ عن هؤلاء الجغرافيين الا التجانى (بعد 717) فى رحلته ، فانه ينطلق من موقف الكره للاباضية ، وهو يعتقد أن خوارج زمنه « من بقايا الشرذمة الضالة التى قام بها أبو يزيد مخلد بن كيداد فى افريقية ، فانه لما أظفر الله به وأراح منه البلاد والعباد تفرقت أتباعه فى الاقطار » (62) · ولهذا انفرد التجانى عمن سواه من الجغرافيين باختيار مصادره ، واكثر من ايراد المادة التاريخية المفصلة ، وهناك مشابه فى السياق ـ لا فى حرفية العبارات ـ بين بعض ما يذكره وبعض ما ورد فى « عيون الاخبار » (63) · ولعله يستمد مادته من تاريخ الرقيق ، وهو لا يصرح بالمصادر التى ينقل عنها ولكنه يتعمد أن يوحى أحيانا بأنه يلخص من عدة مصادر اذ يبدأ عبارته بقوله : « قال المؤرخون » · (64)

---

(56) انظر البكرى : 49 ، 57 ، 59 ، 145 ·

(57) الجغرافية : 111 وهو يسمى أبا يزيد « عدو الله » ويقول « فأراح الله منه البلاد والعباد » ·

(58) الاستبصار : 205 وهو يردد تهما ورد مثلها فى المصدر الاسماعيلى ·

(59) معجم البلدان فى مادتى « سوسة » و « وقلعة أبى طويل » والنقل عن البكرى ·

(60) آثار البلاد : 276 ·

(61) المواد : الاخوان ـ أذنة ـ أوراس ـ باغاية ـ ترنوط ـ تقيوس ـ تاجر ـ تونس ـ سجلماسة ـ قلعة أبى طويل ـ قلعة الحجار ، وينقل عن البكرى والاستبصار ، ويقول فى مادة أوراس « الى أن قتل واستراح المسلمون منه ومن خبائث سيرته وقبيح أفعاله ... » ·

(62) رحلة التجانى : 119 ·

(63) قارن ما ورد فى الرحلة : 22 بما فى عيون الاخبار 5 : 448 ـ 449 ·

(64) رحلة التجانى : 327 وانظر سائر اخباره : 24 ، 27 ، 119 ، 253 ، 321 ، 323 ، 325 ـ 327 ·

3 ـ المصادر الاباضية :

لما كان أبو يزيد نكاريا ـ أى منشقا على الاباضية ـ (65) ٠ فليس من المنتظر أن يعامله مؤرخو الاباضية بتسامح كثير ، أو أن يعتبروه « مجاهدا » قام لمحو الباطل ٠ ولعل أبا زكريا الاباضي (أواخر القرن السادس) أميل الى صف الفاطميين منه الى جانب أبى يزيد ، فهو يقترن عنده بفرعون ، بل ان أبا يزيد اقترف من أعمال العنف والكفر ما فاق به ما يروى عن فرعون وعن أشد عماله ظلما ؛ وهو يسميه « عدو الله » ، ويلصق به حكايات لا نجدها عند أشد المصادر الاسماعيلية عداوة لابى يزيد ٠ ثم هو فى المقابل يتقبل الرواية التى تتردد عن علم المهدى بالغيب وأنه كان يعرف بخروج بربرى عليه ، ومن أجل ذلك بنى المهدية (66) ٠ ولدى أبى زكريا معلومات لم توردها المصادر الاخرى عن أولية أبى يزيد ونشأته ، ولكن ميل المؤلف الى الاساطير يجعل الدارس مترددا فى حمل رواياته على محمل القبول ، وخاصة فى أخباره عن مرحلة المد فى انتصارات أبى يزيد ، كما أنه يردد عن « فحولة » أبى يزيد قصصا كالتى أوردها المصدر الاسماعيلى ٠ ولعل معظم المادة التى أوردها أبو زكريا هو مجموعة الحكايات التى ظل يتناقلها الناس البسطاء فى مجالس سمرهم وأن لون التاريخ فيها أصبح باهتا ٠

وفى القرن السابع كتب أبو العباس الدرجينى طبقاته ، وفيها تلخيص ـ دقيق نسبيا ـ لتاريخ أبى زكريا (67) ٠ وعلى تاريخ أبى زكريا اعتمد أيضا أحمد بن سعيد

(65) ليس هذا موضع البحث فى القرون القائمة بين النكار وبين أصلهم الذى انشقوا عنه (أى الاباضية) ولكن نلاحظ أن المصادر السنية لا تميز بين فرق الخوارج الفرعية (أنظر مثلا وصف افريقية والاندلس من نزهة المشتاق للادريسى : 128 ، 121) وليد مؤلف الاستبصار : 205 أبا يزيد من الصفرية ، وتابعه فى ذلك صاحب الروض (سجلماسة) وكذلك قال ابن خلدون 4 : 40 ٠

(66) تاريخ أبى زكريا : 226 ـ 228 ـ 246 ـ 236 ـ 242 (الترجمة الفرنسية) ٠

(67) أنظر مقالة لوترنو : 104 ٠

الشماخي (ـ 928) في سيره ، حيث جاء على ذكر أبي يزيد عرضا (68) · ان البعد الزمني للمصادر الاباضية (وهي ترتد الى مصدر واحد) عن أبي يزيد وثورته جعلها لا ترى فيها سوى « ظلمة » الانشقاق على المذهب الأم ، وبهذا ترى صاحبها « عدوا » هزم لتنكبه الطريق السوى ·

مما تقدم نرى أن المصادر عن أبي يزيد وثورته مرت في ثلاث مراحل :

1 ـ مرحلة القضية تصارع قضية أخرى ، وفي هذه المرحلة استطاعت المصادر الفاطمية أن تؤكد ـ بالسبق الزمني ـ كل ما تريد أن تصم به أبا يزيد وثورته ، ووضعت حول كثير من الحقائق الموضوعية ستارا كثيفا من دخان العداوة المذهبية ، لم يستطع أحد اختراقه ·

2 ـ مرحلة القضية المضادة : وقد تولتها مصادر سنية لكنها في الوقت نفسه لم تستطع أن تتعاطف مع شخصية أبي يزيد ، وقد أدى بها ذلك الى تقبل كثير من التهم التي رددتها مصادر المرحلة الاولى ، وشاركتها في ذلك المصادر الاباضية ·

3 ـ مرحلة النقل المحض · واذا استثنينا ابن عذارى الذي مال الى النقل عن مصادر « المرحلة المضادة » وجدنا أغلب المؤرخين والجغرافيين قد لجأوا الى نقل روايات مؤرخي المرحلة الاولى ـ مباشرة أو بالواسطة ، وباستثناء القاضي عبد الجبار ـ وهو يتجنب الدخول في التفصيلات ، لا نجد أحدا يحاول أن يرى ثورة أبي يزيد من زاوية ايجابية · وعلى هذا ظل أكثر ما عرف من تفصيلات عن هذه الثورة يمثل ما يريده « التاريخ الرسمي » لا صورة ما جرى في الواقع ·

(68) سير الشماخي : 279 ـ 280 ·

مصـــادر البحـــث

ابن حوقل (ـ 380) : صورة الارض ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ·

المسعودى (ـ 346) : فنون المعارف وما جرى فى الدهور السوالف (انظر التنبيه والاشراف) ·

المسعودى (ـ 346) : التنبيه والاشراف ، صورة عن الطبعة الاوروبية ، مكتبة خياط ، بـيروت ·

أبو على المنصورى الجوذرى (؟) : سيرة الاستاذ جوذر ، تحقيق الدكتورين محمد كامل حسين وعبد الهادى شعيرة ، دار الفكر العربى ، القاهرة ·

القاضى النعمان بن محمد (ـ 363) : رسالة افتتاح الدعوة ، تحقيق وداد القاضى ، بـيروت 1970 ·

ابن النديم (ـ 388) : الفهرست ، تحقيق رضا تجدد طهران 1971 ·

القاضى عبد الجبار بن أحمد (ـ415) : تثبيت دلائل النبوة (1 ـ 2) تحقيق الدكتور عبد الكريم عثمان ، بيروت ، 1966 ·

الرقيق القيروانى (القرن الخامس) : تاريخ افريقية والمغرب (نقول عنه فى المصادر)·

أبو عبد الله المالكى (ـ 453) رياض النفوس ، ج 2 (مصورة عن مخطوطة تونس) ·

محمد بن سلامة القضاعى (ـ 454) : تاريخ القضاعى (نقول عنه فى البيان المغرب) ·

أبو مروان بن حيان الاندلسى (ـ 469) : المقتبس من تاريخ الاندلس (نقول عنـه فى البيان والحلة السيراء) ·

أبو عبيد البكرى (ـ 487) : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، تحقيق دى سلان، الجزائـر 1857 ·

القاضى عياض بن موسى (ـ 544) : ترتيب المدارك (1 ـ 4) تحقيق الدكتور محمود بكـير ، بيروت 1967 ·

أبو زكريا الاباضى (أوائل القرن السادس) : تاريخ أبى زكريا ·
Chronique d'Abou Zakaria par Emile Masqueray, Alger, 1878.

ابن حماد (أو حماده) البرنوسى (أواسط السادس) : كتاب القبس فى أخبار المغرب والاندلس (نقول منه فى البيان المغرب) ·

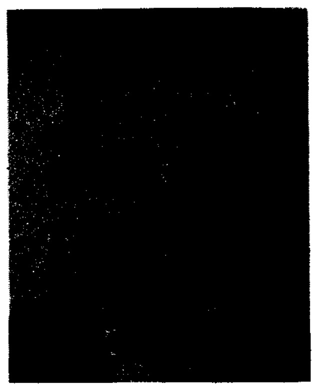
محمد بن أبى بكر الزهرى (أواسط السادس) : كتاب الجغرافية ، تحقيق محمد حاج صادق ، دمشق 1968 ·

مؤلف مجهول (أواخر السادس) : الاستبصار فى عجائب الامصار ، تحقيق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية ، 1958 ·

ياقوت الحموى (ــ 624) : معجم البلدان (1 ــ 6) ، تحقيق وستنفلد .
ابن حماده الصنهاجي (ــ 628) : أخبار ملوك بنى عبيد وسيرهم ، تحقيق م . فاندرهايدن ، الجزائر ــ باريس ، 1927 .
أبو العباس الدرجينى (القرن السابع) : طبقات الدرجينى .
ابن الاثير (ــ 630) : الكامل فى التاريخ ج : 8 ط . صادر ، بيروت .
ابن الابار (ــ 658) : الحلة السيراء (1 ــ 2) تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة 1963 .
ابن خلكان (ــ 681) : وفيات الاعيان ج 1، تحقيق الدكتور احسان عباس، بيروت 1968.
زكريا بن محمد القزوينى (ــ 682) : آثار البلاد ، ط . صادر ، بيروت .
ابن عذارى المراكشى (نحو 695) : البيان المغرب (1 ــ 2) تحقيق ليفى بروفنسال ، ليدن ، 1948 .
مؤلف مجهول (بعد 712) : مفاخر البربر ، تحقيق ليفى بروفنسال ، الرباط ، 1934 .
أبو محمد التجانى (بعد 717) : رحلة التجانى ، تحقيق حسن حسنى عبد الوهاب ، تونس ، 1958 .
ابن عبد المنعم الحميرى (ــ 727) : الروض المعطار ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، بيروت 1975 .
لسان الدين بن الخطيب (ــ 776) : أعمال الاعلام ج : 3 ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادى والاستاذ ابراهيم الكتانى ، الدار البيضاء ، المغرب ، 1964 .
ابن خلدون (ــ 808) : تاريخ ابن خلدون ج : 4 ، 6 ، 7 ط . بولاق .
تقى الدين المقريزى (ــ 845) : اتعاظ الحنفا ، ج : 1 ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ، 1967 .
تقى الدين المقريزى (ــ 845) خطط المقريزى ، ط . بولاق .
القاضى ادريس عماد الدين (ــ 872) : عيون الاخبار ج : 5 (نسخة خطية بحوزة الدكتور مصطفى غالب) .
أحمد بن سعيد الشماخى (ــ 928) سير الشماخى ، ط . قسنطينة ، الجزائر .
ابن أبى دينار (القرن الحادى عشر) : المؤنس فى أخبار افريقية وتونس ، تحقيق محمد شمام ، المكتبة العتيقة ، تونس 1387 .
محمد الوزير السراج (ــ 1149) : الحلل السندسية ج : 4 ، تحقيق محمد الحبيب الهيله ، الدار التونسية للنشر ، 1970 .
La révolte d'Abou Yazid au x^e siècle, par Roger Le Tourneau. Les Cahiers de Tunisie, I (1953) pp. 103-125.
Abu Yazid Makhlad b. Kaïdad by S.M. Stern Encyclopaedia of Islam (New édition), vol. I, p. 163, 1960.

الحركة الأباضية
فى تاهرت وسدراته

د. محمد بلغـراد
معهد اللغـة والأدب العربى
جامعة الجـزائر



مقـدمـة :

يطلق اسم الاباضيين فى شمال افريقية على فـرقة من الخوارج الذين دخلوا الى المغرب العربى حـوالى منتصف القرن الثانى الهجرى من اباضية وصفرية . وانتشر المذهب الاباضى بسرعة بين البربر حتى أصبح المذهب القومى لهم اتخذوه ذريعة لمقاومة أهل السنة من العرب .

وينتهى الاباضيون الى عبد الله بن اباض (بكسر الاول) المقاعسى المرى التميمى رأس الاباضية واليه نسبتهم . كان معاصرا لمعاوية وعاش الى أواخر أيام عبد الملك ابن مروان . عده الشماخى فى سيره فى التابعين ... قال : وكان كثيرا ما يبدى النصائح لعبد الملك بن مروان . وفى حفظى أنه يصدر فى أمره عن رأى جـابر بن زيد اهـ . وجابر هذا يعده الاباضية مؤسس مذهبهم . وعده محمد بن زكريا البارونى فى كتابه

طبقات الاباضية فى مقدمة أبناء النصف الثانى من المئة الاولى للهجرة ، بعد جابر ابن زيد • وقال محمد بن سعيد القلهاتى فى كتابه : الكشف والبيان : نشأ (عبد الله بن اباض) فى زمان معاوية بن أبى سفيان وعاش الى زمان عبد الملك ابن مروان وكتب اليه بالسيرة المشهورة اهـ • وأراد بالسيرة رسالة بعث بها عبد الله ابن اباض الى عبد الملك بن مروان يقول فيها بعد البسملة والمقدمة : جاءنى كتابك مع سنان بن عاصم اهـ • تقع الرسالة فى احدى عشرة صفحة أوردها أبو القاسم ابن ابراهيم البرادى فى كتابه الجواهر المطبوع على الحجر بمصر ص 156 ـ 167 •

وفى الكامل للمبرد : قول ابن اباض أقرب الاقاويل الى السنة اهـ • قال أحمد أمين : ان هذه الفرقة (الاباضية) عاشت وانتشرت فى شمالى افريقية وفى عمان وفى حضرموت وزنجبار واستمرت الى يومنا هذا • فكان من الطبيعى أن يكون لهم أصول اعتقادية وتعاليم فقهية • وكذلك كان • فقد تعدل مذهبهم مع الزمان • فلهم أصول كلامية متأثرة الى حد كبير بمذهب المعتزلة فى القول بخلق القرآن وأن الله لا يرى فى الجنة وأن الله لا يغفر الكبائر • كما لهم كتب فقهية خاصة تخالف أهل السنة فى بعض الفروع مثل أنهم لا يرون الزواج يصح الا فيما بينهم اهـ • وأخبار الاباضيين كثيرة فى التاريخ القديم والحديث • ولا يزال مذهبهم منتشرا •

قال حافظ رمضان فى كتابه « أبو الهول قال لى » : لا تزال بقية هؤلاء فى بلاد الجزائر • وهم يعيشون على وتيرة منظمة وتقاليد طريقة ••• واذا ما طل مدين دائنه دخل المسجد وأعلن ذلك • وحينئذ يقاطع الناس المدين فلا يسلمون عليه ولا يعاملونه حتى يوفى ما عليه اهـ •

وقال الزركلى : وهم فى المشرق اليوم أكثر أهل المملكة العمانية ولهم فيها الامامة والسيادة • اما فى الجزائر فبلاد وادى ميزاب معظم سكانها اباضية ، ولهم فى كل بلد منها مجلس يسمى مجلس العزابة بفتح العين وتشديد الزاى وهو جمع عازب • ويعنون به من انقطع للعلم والدين عزوبا عن الدنيا • ويتألف من عشرة أشخاص يجتمعون فى مسجد البلد ويفصلون بين المُتقاضين ••• ومن أبى حكمهم أعلنوا البراءة منه فيقاطع حتى يرد الحق ويتوب •

وقد لعب اباضيو طرابلس الغرب وافريقية (تونس) تحت زعامة عبد الاعلى أبى الخطاب المعافرى الحميرى اليمنى دورا حاسما فى تسيير الاحداث السياسية فى طرابلس الغرب وافريقية فى بداية اربعينات القرن الثانى الهجرى ، وكان أبو الخطاب شجاعا بطلا فاستولى أول أمره على طرابلس الغرب سنة 140 هـ ، وحكم افريقية كلها فى بدء سنة 141 هـ ، واستخلف على القيروان عبد الرحمن بن رستم الذى كان من أسرة ايرانية ، وكان عبد الرحمن من الفقهاء الاباضيين بافريقية ، وكان معروفا بالزهد والتواضع وكان قاضيا بالقيروان · وفى سنة 141 هـ ، ولى المنصور العباسى محمد بن الاشعث بن عقبة الخزاعى مصر وأمره باستنقاذ افريقية من هيمنة عبد الرحمن عليها ، فسار ابن الاشعث سنة 142 هـ ، فى أربعين ألفا من الجنود لقتال أبى الخطاب فاستنجد هذا الاخير بعبد الرحمن بن رستم وأمره أن يلتحق به فى وقائعه مع الامير محمد بن الاشعث ·

ولم يكد ابن رستم أن يتلحق فى جنوده الجرارة بأبى الخطاب حتى بلغه نعيه وانهزام جيشه سنة 144 هـ ·

فما وسع ابن رستم الا أن يرجع الى القيروان · فوجدها قد انتقضت عليه وقد اندلعت فيها ثورة عارمة · هرب عبد الرحمن باهله وما حف من ماله ، وخرج مختفيا عن الاعين وألقى عصا التسيار لدى القبائل البربرية الاباضية الذين اكرموا وفادته واستقبلوه بكثير من الاجلال والاكرام واحلوه على الرحب والسعة ·

وشاع يومئذ ذكره فى الآفاق فوفدت عليه مشيخة الاباضية من العلماء والاعيان واخذوا فى تدبير أمرهم وتنظيم شؤونهم ، وفكروا فى انشاء دولة لهم ·

خرج ابن رستم فى أصحابه يطلبون مكانا منيعا يتخذونه مركزا يبثون فيه دعوتهم وينشرون مبادئهم ·

فانتهى بهم المطاف الى تاهرت أو تيهرت على خمسة أميال من تيرهت الرومانية · ثم بويع عبد الرحمن بن رستم فيها اماما سنة 160 هـ ، فكانت الدولة الرستمية الاباضية أول دولة وطنية اسلامية أسست فى هذه الديار · أصبحت هذه الدولة

البربرية الاسلامية باسطة سلطانها العادل على ربوع البلاد الجزائرية ماعدا ناحية الزاب الاغلبية وناحية تلمسان الادريسية ·

وكان المذهب العام يومئذ للبربر فى كل بلاد الدولة هو المذهب الاباضى ، وقليل منهم كان معتنقا للمذهب الصفرى · وأصبحت تيهرت مدينة من اعظم مدن المغرب فى الحضارة والعمران ·

وأتخذ أئمة تيهرت القصور البديعة لسكناهم وأسسوا الدولة فأحسنوا تأسيسها على البر والتقوى وعملت على نشر الثروة والرفاهية والرخاء وعبدت الطرق ووسعت نطاق التجارة مع كل البلاد، وأقبل البربر والمسلمون على خدمة الارض فأصبحت مملكة تاهرت حديقة غناء فيها من كل فاكهة زوجان ·

وقد تغنى المؤرخون بذكر هذه المدينة الجزائرية · وقد بلغت الصناعة فيها مدى بعيدا فى الجودة والاتقان واختط الرستميون مدنا وقرى جديدة وأصلحوا ما أخنى عليه الدهر من المدن والقرى العتيقة فقد كانت هذه الدولة الفتية مؤسسة على سنن الجمهورية الاسلامية ان صح التعبير كما كانت فى عهد الخلفاء الراشدين · رئيسها امام ينتخبه القوم انتخابا حرا ، وهو يستشير فى كبار الامور أعيان المذهب وأعلامه وفى الامور العامة يستشير وجوه القوم والقبائل ويعين الامام القضاة بعد استشارة العلماء وكان قضاة الرستميين على حظ وافر من الاستقامة والنزاهة والصلاح ·

سدراتة

كان لسقوط الدولة الرستمية وقع عظيم فى نفوس علية القوم والوجهاء من الاباضيين أولى الغيرة الوطنية ودخلوا مدينة بنى وارجلان ، وهناك على بعد أربعة عشر كيلومترا جنوبا أخذوا فى تخطيط عاصمتهم الجميلة سدراته المعروفة عند البربر باسدراتن · فأنشأوا فيها حضارة عظيمة وبنوا بها قصورا بديعة ومنازل رفيعة وأقاموا بها بساتين ومزارع ومنشآت ضخمة · وقد شرع علماء الآثار فى الكشف عن هذه المدينة التى غطتها الرمال وتراكمت عليها الكثبان ، وقد بينت الحفريات التى وقعت فى القرن التاسع عشر وأثناء الحرب العالمية الاخيرة وبشكل خاص الحفريات

التى أشرفت عليها الآنسة مرغريت فان برشم بين سنة 1950 وسنة 1952 فوقع خلالها العثور على آثار جليلة قيمة من بيوت وقصور ونقوش مزخرفة وخطوط كوفية وأشكال هندسية وأوان متنوعة · وهذه التحف هى عربية شرقيــــة أكثـر مما هى بربريــــة صحراوية على مسافة أربعة عشر كم ، جنوبى ورقلة تمتد كثبان الرمل على مد البصر وتغطى أطلال المدينة الاباضية القديمة سدراته ·

والوصول اليها ليس بسهل · يتجه السائر من ورقلة نحو الجنوب الغربى عـــلى طريق وعر يؤدى الى المنيعة · ثم يتياسر وبعد بضعة كيلومترات تظهر سلاسل الكثبان الاولى التى تشرف عليها غارة كريمة وهو جبل منعزل يقع على مسافــة عشرين كم ، تقريبا من ورقلة · كثبان الرمل متراكمة على أطلال المدينة التى تهدمت جدرانهـــا المرتفعة الى علو خمسة عشر مترا ·

ذكرت مرغريت فان برشم أن من أصعب الصعب تسيير حفريات فى مثل هذا المكان واكتشاف آثار المدينة العتيقة لكثرة الصعوبات وبعد الاماكن الآهلة بالسكان · تهب على المدينة باستمرار عواصف رملية هوجاء · قد أشرفت مرغريت فان برشم عـــلى حفريات فى ربيع سنة 1951 وحدها من دون ان تستعين بأى وسيلة تقنية حديثة · وكانت تواصل عملها فى ظروف جوية قاسية ، ولم تستعن الا بقرابة عشرين عاملا لا خبرة لهم وبعشرة حمير · تنقلهم كل يوم شاحنة عسكرية ·

تفضل العقيد حاكم مقاطعة الواحات بوضعها تحت تصرفهم ، تنقلهم عند الفجر من ورقلة الى ورشة العمل ثم تردهم مساء الى ورقلة حيث يتزودون بالماء لان سدراته لا ماء فيها ، توقفت الحفريات بعد شهر ثم استؤنفت من جديد فى شهر ديسمبر 1951 وشهر جانفى 1952 ·

وقد جاوزت نتائج هذه الحفريات كل ما كان يتوقع · فقد أغنت تاريـخ الفـــن الاسلامى والتاريخ العام للفن بكشوف جديدة ذات خطورة كبيرة · وقد جمعت الآنسة مرغريت فان برشم حصيلة هذه الحفريات فى خمسين صندوقا أرسلت الى مدينة الجزائر ليدرسها علماء الآثار · وهى موجودة الآن فى متاحف العاصمة ، واكتشاف هـــذه

المجموعة من الاحجار والزخارف الفنية الوحيدة فى نوعها وأصالتها يثير مشاكل شتى لا يزال التاريخ عاجزا عن وجود حل لها • ذلك لانه ما زالت تنقصنا معلومات دقيقة حول أصل مدينة سدراته ونموها ونهايتها ، هذه المدينة التى يظهر ــ حسبما بينته البحوث الاخيرة ــ انها مركز ذو أهمية أكبر وذو حضارة أوسع مما كان يظن • فاذا كانت هذه العاصمة الاباضية لا تزال سرا مكتوما وطلسما مغلقا غامضا لا يهتــدى أحد الى تفسير معمياته ربما ذلك لان كثيرا من المخطوطات كما يقال قد أحرقت وأتلفت عبر الخلافات الناشبة بين فرق الخوارج المتنازعة •

ولكن ثم سببا آخر لهذا الظلام المخيم على تاريخ وحضارة هذه المدينة هو أن المصادر التاريخية الاباضية لم تدرس الى الآن دراسة مستأنية متعمقة مستوعبة لان بنى ميزاب المعاصرين الذين هم أحفاد سكان سدراته من الاباضيين هم محتفظون غالبا بالارشيفات التاريخية النفيسة كأنه سر يستأثرون به ولا يريدون لقاء أى ثمن أن يفشوه ويظهروه لاحد • ولكن الزمان لا يفتأ مواصلا عمله ببطء • وبنو ميزاب يعتزون بماضيهم وهم على حق فى ذلك ، ولكنهم ينبغى لهم أن يسمحوا شيئا فشيئا للمعنيين بدراسة الآثار والمدنيات العتيقة أن يتغمقوا فى تاريخها • وذلك باطلاعهم على مصادر هذا التاريخ ووثائقــه •

ان سدراته عرفت فى القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين ازدهارا كبيرا • وتاريخ نهايتها لا يزال الظلام يكتنفه من كل جانب •

ولما غادر سكان سدراته عاصمتهم تحت ضغط ظروف قاهرة تراكمت عليها الرمال• ولكن الاباضيين الذين احتفظت مجموعتهم بكل حيويتها وطاقاتها المعنوية وصمودها لا يزالون يقدسون ذكراها • وفى آخر شهر أبريل من كل سنة يأتون لزيارة ربـوع أمجادهم الغابرة رجالا وركبانا ليصلوا ويبتهلوا على موقع مسجد المدينة يقفون بخشوع على ضريح امامهم ويقرآون فاتحة الكتاب ترحما على روحه الزكية • ورغم عواصف الرمال المتراكمة على المعالم التى يقيمونها كل سنة فهم يهتدون دائما الى مزاراتهـم الطامسة المقدسة ، وهكذا يبقون عبر القرون أوفياء لذكرى ماضيهم المجيد الكامن

فى أطلال سدراته المحيلة الحبيبة تضطرب بتاريخها مشاعرهم وتخفق لذكراها قلوبهم فهى دائما مستكنة فى أعماق نفوسهم فهى قوام كيانهم وغذاء وجدانهم .

انتهت سدراته من الاخذ والعطاء وحكم عليها بالفناء حوالى سنة 1075 أو بعد ذلك. ولكن الاباضيين احتالوا لانفسهم من قبل لان الظروف القاسية والمحن الماضية علمتهم الحذر والاستعداد دائما لمجابهة المصائب والاهوال . وسقوط تاهرت بالامس القريب لم يزل عالقا بذاكرتهم .

غـــرداية

مدينة غرداية التى تأسست سنة 1053 م ، تعد من مفاخر انجازات الارادة البشرية، وتأسيس مجموعة مدن وادى ميزاب قد حدث فى أقسى الظروف السياسية والجغرافية والجوية والاخلاقية ـ وتخطيط هذه الواحات على هضبة جرداء قاحلة مقفرة قاسية المناخ يعد بحق تحديا من الانسان أمام قساوة الطبيعة فى المحيط الذى يعيش فيه . وهــو مشــروع أفلــح بفضــل ضغـط فكـــرة نـيرة ايجابيـة واعـــدة . ومدينة غرداية أحدث مدن وادى ميزاب تمكن سكانها من أن يعيشوا عيشة راضية مثاليـــة تضافرت فيها مظاهر الحياة الاقتصادية المزدهرة وتوفرت فيها مظاهر الحسن والجمال فى مناظرها ومصنوعاتها وتحفها وملاهيها لان مدينة غرداية تعد من أجمل مناظر العالم بفضل جمال طبيعتها وتوهج أنوارها واتقان ابنيتها المتلائمة مع الظروف الطبيعية .

ونقطة الانطلاق لهذه الحضارة البديعة المرتجلة فى هذه المنطقة الخلابة من العالـم الجزائرى أساسها فكرة خلاقة بناءة ومثال أعلى ونظرية ميتافيزيقية ومذهب ديـنى يموت أصحابه فى سبيل خدمته ونصره ونشره . وكل ذلك يجعل مدن وادى ميزاب موضوعا شهيا لدراسات علماء الاجتماع والآثار وملتقى للسياح المتقاطرين عليه من كل جهات العالـم .

أهم المصادر والمراجع

1 ـ الاعلام 13 جزءا ـ خير الدين الزركلي ـ الطبعة الثالثة ، بيروت 1969 .

2 ـ البيان المغرب في أخبار المغرب ـ ابن عذارى المراكشي ـ راجع الجزء الاول بيروت 1950 .

3 ـ تاريخ الجزائر العام ، جزآن ـ عبد الرحمن الجيلالي ـ راجع الجزء الاول ، الدولة الرستمية، الجزائر 1953 .

4 ـ ذاكرة المعارف الاسلامية الترجمة العربية ، راجع المواد : الاباضية ـ الاباضيون تاهرت ـ بنو رستم ـ 1933 .

5 ـ ضحى الاسلام ، ثلاثة اجزاء ـ أحمد أمين ـ راجع الجزء الثالث ـ باب الخوارج ـ القاهرة 1936 .

6 ـ الكامل ثلاثة أجزاء ـ أبو العباس المبرد ـ الجزء الاول بتحقيق د. زكي مبارك الجزآن الثاني والثالث بتحقيق أحمد محمد شاكر ـ انظر فيه اخبار الخوارج في الفهرست ـ القاهرة 1936 ـ 1937 .

7 ـ كتاب الجزائر ـ أحمد توفيق المدني ـ الجزائر 1350 هـ ـ 1931 م .

8 ـ المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ـ أبو عبيد البكري ـ الجزائر 1857 .

(9) Algérie-Actualité N° 495 - Article du Docteur R. Bourouïba : Tahert à l'époque Rostémide.

(10) Algérie-Actualité N° 519 - Article de A. Dhina : Ghardaïa 3e capitale ibadite.

(9) Mélanges d'histoire et d'archéologie de l'Occident musulman. Tome I - Articles et conférences de Georges Marçais. Alger, 1957.

(10) Revue Africaine - 1946.

(11) Documents Algériens - 20 Août 1953 Ghardaïa par Emile Dermenghеur.

(12) Documents Algériens - 1r Septembre 1953 Sedrata par Marguerite Van Berchem.

(13) Algérie-Actualité N° 495 - Tahert à l'époque rostémide par le Docteur Rachid Bourouïba.

(14) Algérie-Actualité N° 519 : I - Ghardaïa, 3e capitale iabdite par Amar Dhina.

(15) Algérie-Actualité N° 520 : II - Ghardaïa, une organisation de vie adaptée à un pays difficile par Amar Dhina.

من قضايا التاريخ الرستمي الكبرى

مكتبـة «المعصومة» بتاهرت ، هـل أحـرقت ؟

أو نقلت عيونها الى سدراته في جوار بني وارجلان ؟

د . لقبـال مـوسى
معهد العلوم الاجتماعية ــ دائرة التاريخ
جامعة الجزائر

لئن كان سقوط الامارة الاغلبية فى افريقية قـد جاء نتيجة لنجاح الداعى الشيعى فى تحويل اللقاء فى معركة الاربس الحاسمة (ولاية الكاف سنة 396هـ/908 909م). لصالح الشيعة ، فان سقوط الامامة فى تاهرت وتصفية الاسرة الرستمية (فى شوال 396هـ/جوان 908م) ، قد تم بدون اعداد ، أو زحوف ، أو مقاومة تذكر .

واذا كان قد ترتب عن سقوط الامارة الاغلبية : قيام نظام جديد فى رقادة ذاتها ، هو نظام الفاطميين ، فان ما ترتب عن سقوط الامامة الرستمية هو بداية لظهور مدن أخرى فى الصحراء بعد فقدان حاضرة تاهرت لمركزها كعاصمة دولة مستقلة ؛ لانها

غدت فقط مدينة اقليمية مشمولة بنظر النظام الجديد الذى احتفظ مؤقتا برقـــادة عاصمة سياسية له .

واذا كانت النصوص لم تشر بصدد سقوط حواضر افريقية الكبـــرى وهى : القيروان ، ورقادة ، الى تصرف معين للداعى الشيعى تجاه « المخلفات » والآثار الادبية والفكرية ، فان النصوص الاباضية ، أشارت الى حادث استيلاء أبى عبد الله الشيعى، على مكتبة المعصومة ، بمدينة تاهرت ، عاصمة الرستميين . وكانت على جانب كبير من الاهمية ، ومن التنوع والغنى . وتضيف النصوص الاباضية ، بأن أبا عبد الله الشيعى فحص محتويات المكتبة الثرية ، فأخذ منها كتب الرياضة ، والصنائع وما شابهها من الكتب الفنية ، والعلمية ، ثم أحرق بقية الكتب ، والآثار المذهبية ، ومن ضمنها : أمهات كتب المذهب، ودواوينه ، ومن أجل ذلك فقدت أغلب الاصول المذهبية للاباضية، وغدا رجال المذهب الاباضى ، لاول مرة ، بعد حياة ثرية ، وحافلة ، بدون مصادر أصلية، لمذهبهم (1) . ومن ضمنها ديوان تاهرت الذى كان عمدة فى الاحكام .

ويبدو أن هذه الرواية التى تفردت بها بعض النصوص الاباضية تفتقر الى السند التاريخى الصحيح ، ولا يوجد ما يؤيدها فى النصوص السنية والشيعية أيضا .

وذلك لان تصرفات أبى عبد الله الداعى ، كانت موزونة ومؤسسة بخاصة ، على احترام الآثار الادبية ، والمادية القديمة ؛ ولذلك لم يلتجىء أثناء توسعه فى منطقة الزاب وافريقية ، الى أسلوب التخريب ، أو الحرق الا لضرورة استراتيجية ، وضد منشآت حربية بحتة ، وقد جرى ذلك فعلا بالنسبة لمدن (الاربس) و (سجلماسة) و (بلزمة) ، عندما قاوم سكانها واظهروا العناد (2) . لكن لم تشر النصوص ، الى سلوكه سياسة حرق الكتب ، والمكتبات ، فى هذه المدن التى استعصت عليه ، وقاومت

(1) الدرجينى : الطبقات ورقة 111 ، أبو زكرياء السيرة ورقة 33 ، الشماخى السير ص 228 ، البارونى الازهار الرياضية 2 ، 293 .
تشبه هذه الرواية رواية عبد اللطيف البغدادى عن احراق عمرو بن العاص لمكتبــة الاسكندرية بعد فتحها . وقد ثبت خطأ هذه الرواية وعدم تحرى راويها فى النقل .
(2) النعمان : افتتاح الدعوة ورقة 118 ـ 119 (164 ـ 165 ط بيروت) ، ابن الاثير الكامل ، التاريخ 15،8 البكرى : المغرب 46 ، ابن عذارى : البيان المغرب 199،1 .

رجاله ، وألحقت بهم خسائر جمة . فكيف نصدق بسهولة رواية حرق مكتبة المعصومة بتاهرت ؟ وهى التى لم تقاوم ، بل رحبت بركب الداعى ، الذى فارقها ، الى هدفه البعيد ، فى سجلماسة ، حيث يوجد « امام الزمان » ، و « صاحب الدعوة » . عبيد الله « المهدى » أول الخلفاء الفاطميين فى بلاد المغرب الاسلامى .

والذى يلاحظ أيضا ، أن النصوص التاريخية لا تشير بصدد فتح (سجلماسة) « عنوة » ، الى سياسة معينة تجاه الآثار الادبية للمخالفين ، مثل حرق الكتب ، والمكتبات ، أو حتى مصادرتها ، والتحفظ عليها ، كما خلت أيضا ، مما يفهم منه حرق الكتب السنية ، بعد اقتحام مدينة رقادة ، وحاضرة القيروان ؛ ولذلك يبدو أن الرواية التى تفردت بها بعض النصوص الاباضية ، يتخللها الشك ، لغرابتها ؛ وربما دفع الى صياغتها الغضب من الشيعة وكراهيتهم والرغبة فى تشويه سمعتهم ، والتشهير بهم ، باعتبار أنهم أعداء للفكر الاباضى ومتعصبون ضد المخالفين لهم فى المذهب الدينى.

وقد ظهرت أصداء ما يكنه أولئك لهؤلاء ، فى بعض المصادر الاباضية المتأخرة مثل الوارقلانى (ق 6 هـ/12 م) فى كتابه : « الدليل والبرهان » ، حيث يقول : « وأما الشيعة الجهلة، روافضهم، وغاليتهم، فانهم قدحوا فى الاسلام، والنبوة، والالوهية» (3).

ولنا أن نتساءل مع ذلك عن أهمية كتب « الحرف » « والفنون الدنيوية » التى اشتملت عليها مكتبة المعصومة فى تاهرت ، أو اختصت بها مكتبة الائمة الرستميين « الافاضل » ، دون حواضرا فريقيه الكبرى ، ومكتبات الامراء الاغالبة ، وعلى رأسها بيت الحكمة فى القيروان الذى أشرف على تأسيسه وتجهيزه الامير أبو مضر زيادة الله الاخير (4) (290 هـ/902 ـ 903 م) ، ثم مكتبة فاس وروائع الآثار الادريسية ومكتبة بنى واسول فى سجلماسة وآثارهم الأدبية ؟

ان النصوص الاباضية ، وغير الاباضية ، لم تشر الى استيلاء الداعى الشيعى ، على المكتبات الخاصة بالامراء الاغالبة ، فى افريقية ، ولا على الآثار والكتب ، التى كانت فى

(3) أنظر : ج 29،I ـ 32 (من كتاب الدليل لاهل العقول) .
(4) عثمان الكعاك : الحضارة العربية فى حوض البحر المتوسط 112 ، وفيه ترجمت كتب أنساب البربر .

حوزة بعض علماء المالكية ، والحنفية ، والشافعية فى افريقية ، مع أن هؤلاء قد عارضوا الحكم الفاطمى ، وقاوموه مقاومة عنيدة ، وكانوا بمثابة المرشدين للعامة ، حتى لا يفتنوا من طرف الدعاة الاسماعيلية · ولقد كانت حواضر افريقية ، والمغرب الاوسط ، والاقصى ، وهى : القيروان ، ورقادة ، وتلمسان ، وفاس ، وسجلماسة زاخرة بالكتب ، وبالآثار الادبية ، وبالمكتبات مثل تاهرت ، حاضرة بنى رستم ، ومع ذلك يفتقر الباحث الى اشارات نصية ، عن قضية حرق الكتب ، والمكتبات ، حتى فى عهود الفتن ، والثورات ، والصراع المذهبى بين الشيعة ، ومعارضيهم ، من أية نحلة كانوا ·

ويلاحظ ان الرواية الاباضية تذكر ان الداعى عندما مر بتاهرت ، وفعل « فعلته » كان فى طريقه الى سجلماسة ، لا الى رقادة ، نقطة تمركزه واستقراره · وهنا يصح لنا أن نقول : كيف يثقل الداعى نفسه بحمل الكتب ، ويشغلها بالنشاط الثقافى والعلمى ، وهو متأهب للحرب ، ويعد للمعركة المرتقبة مع أمير سجلماسة (اليسع ابن مدرار) الذى سجن المهدى وابنه أبا القاسم وضيق عليهما فى سجنهما ؟ لا سيما وان النصوص الاباضية تبالغ فى وصف مكتبة المعصومة ، وفى عدد الاسفار التى كانت تشتمل عليها (5) ·

ولو أن مدينة تاهرت استعصت على الداعى ، وقاومت ، ولو انها لم تصبح مدينة مفتوحة ، ومنطقة نفوذ للداعى ، وللحركة الاسماعيلية ، لكان لرواية حرق الكتب وجه صواب ، أما وقد صارت تاهرت وما فيها من ذخائر ، ملكا خالصا ، لداعى الفاطميين بحق الفتح فان الاقرب الى التصديق والقبول ، أن يكون هذا الاخير ، قد أمر بالعناية بمكتبة المعصومة ، وبالذخائر والآثار الادبية ، وبمخلفات الامامة الرستمية ، نظير ما فعله فى رقادة ، بالنسبة لمخلفات الامارة الاغلبية · وفى ذلك انسجام كامل مع ماضيه كمعلم ، ورجل فكر · ويؤيد هذا الافتراض ، أن الداعى الشيعى تصرف فى مدينة

(5) أنظر : البكرى : المصدر السابق 66 ، حيث يذكر ان لمدينة تاهرت قلعة تعرف بالمعصومة وهذه المكتبة يبدو أنها كانت فى القلعة أو بجوارها · مما يبرر تسميتها بمكتبة المعصومة نظير مكتبة القلعة فى مصر القديمة مثلا ·

تاهرت بعد دخولها ، على نحو يشعر بأنه أصبح مسؤولا « أوحد » على شؤونها ، وعلى راحة وأمن سكانها ، وممتلكاتهم ، ولذلك عندما فارقها الى سجلماسة ، تـرك حاميـة عسكرية كتامية لحفظ الامن ، وقائدا من لهيصة ، هو أبو حميد دواس بن صولات ، يساعده أخص رفقاء الداعى ، وهو ابراهيم بن محمد اليمانى ، الذى اشتهر بلقـب « السيد الصغير » ، تمييزا بينه وبين أبى عبد الله الداعى ، الذى اشتهـر بلقـب « السيد الكبير » • ولعل حرق نفائس مكتبة المعصومة ، ان حصل فعلا ، انما يكون بسبب الفتن ، والصراعات ، التى عرفتها مدينة تاهرت ، والامامة الرستمية ، وهـى فتن كثيرة ، تسببت فيها القبائل المجاورة للمدينة ، مثل هوارة ، ولواتة ، وزناتة ، وكذلك سياسة بعض الائمة الرستميين ، مثل الامام أبى بكر بن أفلح ، ثم التناقضات الاسرية ، فى صميم البيت الرستمى ، التى ترتب عنها اغتيال الامام أبى حاتم يوسف بتدبير أخيه اليقظان ، وانقسام البيت الرستمى ، والموالين للامامة الى حزبين متعاديين ؛ يحاول كل منهما أن ينال من الآخر بالتماس الحليف ، والنصير ، سواء فى داخل تاهرت أو فى خارجهـا •

ويبدو لى أيضا أن الفارين ـ بعد سقوط تاهرت ـ مـن بقايا الاسرة الرستمية ، مثل الامام يعقوب بن افلح ، وابنه أبى سليمان ، وبعض ابناء الامام أبى حاتم يوسف ، مثل الاميرة دوسرا ، التى بحث عنها ، فلم يعثر لها على أثر ، بعد سقوط المدينة ، هؤلاء يمكن أن يكونوا قد أخذوا شيئا غير قليل ، من هذه النفائس المذهبية ، والدنيوية الى مهجرهم الجديد فى (صحراء بنى وارجلان) ، غير أن بعضها يكون قد ضاع فى الطريق لاشتغال الفارين بالدفاع عن أنفسهم ، وتأمين حياتهم ، من جنود الداعى ، أما بقيـة الكتب ، فقد يكون قد أصابه البلى ، أو أفسده المعارضون السياسيون ، للامـامة الرستمية ، أو المنشقون عن الطائفة الاباضية الوهبية ؛ مثل بقايا النكارية •

وقد أدى الانشقاق فى صلب المذهب الاباضى ، منذ عصر الامام عبد الوهاب ، الى جنوح فئة من اباضية جبل نفوسة وطرابلس الى الاستقلال ، عن نظام الامامة ؛ وكان الخلاف بين صفرية سجلماسة ، واباضية تاهرت عميقا ، رغم ما كان يوجد بين الاسرتين

الحاكمتين من رباط المصاهرة منذ عصر الامام عبد الرحمن بن رستم (6) • لذلك لـــم يرض صفرية سجلماسة بولاية ميمون بن مدرار المنتصر (ابن أروى) فى سجلماسة ، كما ضـــم صفرية تاهرت أصواتهم الى أصــوات المالكية ، والواصلية ، والاباضية المعارضين للامامة ، وطالبوا الداعى الشيعى بالتدخل لوضع حد لنظام اليقظان بن أبى اليقظان وأسرته الرستمية ، على ان يساعدوه فى مجهوداته (7) •

فلعل هذه الطوائف التى تواطأت مع الشيعى لمحو الكيان السياسى ، للاباضية فى تاهرت ، هى التى قادت المعركة ضد آثارهم الادبية ، والمذهبية بطريقة أو بأخـرى ، سيما وأنها بحكم تعايشها معهم ، فى تاهرت تكون قد تضررت بمظاهر استبدادهم وبتحيزهم وعنادهم التى كانت تظهر أثناء حلقات الجدل ، والمناظرة ، بين الطـوائف المذهبية ، أو أثناء الفتن ، والحروب الداخلية •

واذا كانت ظروف سقوط تاهرت ، وما صاحبه من احتلال الامن ، واستبداد جند كتامة بالسكان ، وسلوكهم سياسة السلب والنهب ، قد هيأت الفرصة ، اما لضياع ، أو لافساد الآثار المذهبية ، للاباضية • فالذى يلاحظ هنا :

ان اباضية (جبل نفوسة) ، (وجبل دمر) والجريد وجربة ، قد بقوا حتى هذا الوقت بمنأى عن الاخطار • وبالتالى بقيت آثارهم الادبية وكتبهم المذهبية فى حرز أمين •

ومنطقة جبل نفوسة بصفة خاصة ، كانت تعتبر مركزا تاريخيا للمذهب ، وموطنا زاخرا بعلمائه ، وحملة لوائه •

وقد كان الائمة منذ عصر الامام عبد الوهاب ، يستعين بهم ، فى الفتـــوى ، وفى تسيير بعض الخطط الشرعية مثل القضاء ، والحسبة ، والشرطة ، كما كانوا يستجلبون بعض حذاقهم ، للرد على الفئات المعارضة ، ولادارة حركة الجدل ، لدحض آراء المخالفين لهم مثل الواصلية (8) •

---

(6) البكرى : المصدر السابق 150 ، ابن عذارى : المصدر السابق 216،1 •
(7) البارونى : المرجع السابق 92،2 وما بعدها • أبو زكرياء : السيرة : ورقة 32 — 33 •
(8) البارونى : المرجع السابق 118،2 — 119 •

وعلى هذا النسق ، نقول : ان ما كان يوجد فى تاهرت من كتب مذهبية ، أو فنية لا يمكن اعتبارها بسهولة هى الفريدة ، وهى الامهات ، وبضياعها ضاعت الاصول ، كما تشير الى ذلك بعض النصوص الاباضية ، لان المـوطن الثانى للامهات المذهبية ، ولكتب الفنون والحرف كان فى قرى « جبل نفوسة » وحواضره أيضا . وما ضاع من «تاهرت» بعد سقوطها ، يكون له بدون شك اما نظير ، أو أصل فى منطقة نفوسة (9).

والذى يجب تأكيده هنا : أن النصوص لا تشير الى حركة هجرة كثيفة من تاهرت بعد سقوطها ، وهذا يعنى أن أغلب سكان المدينة بقوا على وضعهم ، يظلهم تسامح الداعى الشيعى . فلم يفارق المدينة ، الا اعداد يسيرة ، ضمنها بقية أفراد الاسرة الرستمية ، ومن تعلق بهم ، بسبب من الاسباب ؛ وهؤلاء اتجهوا الى صحراء وادى ريغ وبنى ورجلان ، حيث اخوانهم الذين رحبوا بهم ، وفكروا جديا فى احياء نظام الامامة من جديد ، لولا امتناع الامير يعقوب بن افلح . ويبدو أن جماعات أخرى ترسبت فى منطقة الزاب، وفى كتلة أوراس بجوار اخوان لهم أيضا، بدليل ان البكرى (ق 5هـ/11م) لاحظ انتشار الاباضية فى مدن الزاب ، وجبل أوراس (10) ، كما التجأ آخرون الى اقليم قسطيلية (الجريد) ، وقصور قفصة، ونفزاوة واستقروا بجوار اخوانهم الاباضية، لان ابن حوقل (ق 4 هـ/10 م) أشار الى كثرة الاباضية فى قسطيلية ، وقفصة وبشرة وسوماطة (11) .

والشىء الذى يستخلص من كل ذلك هو ارتباط تاريخ جبل نفوسة وطرابلس ، ومنطقة قسطيلية ونفزاوة ، ووادى ريغ وصحراء بنى وارجلان بتاريخ تاهرت الرستمية والفضل فى وحدة تاريخ المنطقة كلها الى الاسلام ، ثم الى المذهب الاباضى الذى عبر عنه نفسه « سياسيا » فى جبل نفوسة ومنطقة طرابلس ، حيث قامت «الدولة الخطابية»

(9) الشماحى : المصدر السابق 424 ، ومن ذلك ما ذكره الشماحى عن تآليف كثيرة بلغ عددها ثلاثة وثلاثين ألف سفر ، وقارن أيضا بما ذكره عن مدونة أبى غانم ، التى احتفظ بها فى صورتها العمروسية : ص 228 .

(10) المصدر السابق 72 ـ 73 ، 144 ـ 145 ؛ ومن هؤلاء تلقى أبو يزيد النكارى مساعدة كبرى اثناء ثورته ضد الفاطميين .

(11) صورة الارض 93 ـ 94 .

كما عبر عن نفسه فى تاهرت أيضا حيث قامت الدولة الرستمية اما بعـــد سقوط الامامة ، ورفض يعقوب بن افلح احياءها فى حماية بنى وارجلان فى الصحراء ، فقـد اقتصر التعبير الاباضى على النواحى «المذهبية والحضارية» فى منطقة الصحراء الواسعة وضمنها بلاد الشبكة أو بلاد ميزاب الزاهرة فى وقتنا • ويبدو أن رغبة بنى وارجلان فى احياء الامامة ، هو الذى تسبب فى غضب الداعى الشيعى ، وعبيد الله المهـــدى أيضا الذى أمره بملاحقة الفارين الى وارجلان ، وتأديب سكانها ، على ترحيبهم ، ببقايا الاسرة الرستمية • وفى ضوء ذلك تفهم الرواية الاباضية ، عن سرية وجهها المهدى ضد بنى وارجلان ، فلم تستطع النيل منهم ، لتحصنهم بكدية كريمة (12) •

ومما يلفت النظر أن أقدم رحالة وجغرافى ، زار تاهرت فى عصر أبى اليقظان محمد ، وهو : ابن واضح اليعقوبى (ت 284 هـ) ، لم يشر أثناء حديثه عن تاهـــرت وأحوازها ، وعن القبائل الاباضية التى تنتشر حولها ، أو بعيدا عنها الى قلعة تسمى بالمعصومة ، ولا الى مكتبة خاصة فى المدينة تعرف بهذا الاسم أو باسم آخر ؛ هذا بينما وصف تاهرت « بعراق المغرب » ، من فرط اعجابه بازدهارها • كذلك نلاحظ أن أقدم مؤرخ وهو ابن الصغير ، الذى عاش فترة فى تاهرت ، وعاصر أخريات عهد أبى اليقظان محمد (ت 281 هـ) لم يشر الى اسم مكتبة خاصة بالرستميين فى تاهرت ، ولا الى قلعة باسم المعصومة ، رغم أنه اشار الى مجموعة من القلاع كانت تنتشر حـول ارباض تاهرت مثل (اسكدال) و (تسلونت) و (حصن لواته) و (قلعة نفوسة) (13) •

وهذا قد يلقى ظلالا من الشك حول وجود قلعة بهذا الاسم ، فى تاهرت فى هــذه الفترة • وبما أن هذه الفترة الذهبية وهى فترة أبى اليقظان محمد ، قد تلتها عهود الفتن ، والحروب القبلية ، والنزاعات الاسرية ، فان الاقرب الى الظن ان يكون بنـــاء قلعة المعصومة فى تاهرت تم فى عهد الولاة الفاطميين ؛ لان الرواية التى رواها أبو عبيد البكـرى (ق 5 هـ/11 م) استنادا على روايـة شيخـه محمد بن يـوسف الـوراق

(12) أبو زكرياء : المصدر السابق ، ورقة 32 — 33 ، وهنا يشير الى تحصن بنى وارجلان بكدية كريمة ممتنعين عن رجال عبيد الله المهدى الذين انسحبوا بدون نتيجة ايجابية •
(13) أخبار الائمة الرستميين 39 •

(ق 4 هـ/10 م) ، لا يمكن حملها على عهد الامامة الرستمية ، نظرا لانعدام المرجحات وسكوت المصادر المعاصرة • والاقرب الى الرجحان حملها على عهد الفاطميين أو الزيريين (14) •• الذى عرف صراعا مريرا دار بين ولاة المدينة وزعماء زناتة الكبار لان تاهرت غدت فى العصر الفاطمى تشرف على الجزء الغربى من الخلافة الفاطمية ، وتمثل القاعدة الكبرى للانطلاق للتوسع ، أو لحراسة النفوذ الفاطمى من حركات زناتة والامويين فى قرطبة • وفى عصرها الجديد ، لم تتأثر وضعيتها بالسياسة المذهبية للخلفاء الفاطميين ، بقدر ما تأثرت بدسائس مجموعاتها القبلية ، وطوائفها المذهبية ، ومن حركات زناتة ، والحاج محمد بن خزر المغراوى عليها ، بتنسيق مع بعض المعارضين للحكم الفاطمى فيها •

ومما سبق يتبين كيف انه لا يمكن الركون الى رواية حرق كتب المذهب الاباضى فى تاهرت بعد فتحها من طرف أبى عبد الله الشيعى ، بينما لا يستبعد أن يكون هذا الاخير قد تصفح محتويات ما بقى من المكتبة واستحسن بعض نفائسها ، وأمر بحفظها والعناية بها مثلما جرت عادته بذلك من قبل ، احتراما لآثار غيره ، ولماضيه كمعلم وكداعية • كما لا يستعبد أيضا أن يكون الهام فى هذه المكتبة قد تلقفته أيد كثيرة فى عهود مختلفة قبل وصول كتائب الشيعى الى المدينة فعلا ، وبعضها يكون قد نقل مع الفارين الى صحراء بنى وارجلان خاصة مع الامام يعقوب بن افلح (15) واتباعهما باعتبار ذلك ارثا نفيسا بقى من عهد الاسلاف • وأقل ما يجب نحوه هو : حفظ قداسته ، وقيمته حتى لا يعبث بهما المخالفون والاعداء •

(14) ومما له دلالة بالغة أن أبا زكرياء لم يشر الى اسم مكتبة فى تاهرت ، وانما قال : وجد الداعى صومعة كتب الخ •• وكذلك الدرجينى فى الطبقات •

(15) تشير بعض النصوص الى ان يعقوب بن افلح ، رزق بابنه أبى سليمان فى المهجر الجديد فى بنى وارجلان •

مدينة ورقلة (1) في رحلة العياشي

د. مولاي بلحميسي
معهد العلوم الاجتماعية - دائرة التاريخ
جامعة الجزائر

1 - المؤلف ورحلته :

هو أبو سليم عبد الله بن محمد بن أبي بكر ... العياشي (نسبة الى قبيلة آيت عياش) . ولد بالمغرب الأقصى سنة 1037 هـ = 1628 م . وتجول كثيرا في البلاد طلبا للعلم حتى أجازه الشيخ عبد القادر الفاسي (2) فأصبح العياشي يعد من أشهر المحدثين وأكبر الصوفيين في المغرب الأقصى .

ثم رغب في الحج فأشرق ثلاث مرات : في سنة 1059 هـ = 1649 م ، وفي سنة 1064 هـ = 1653 م ، وفي سنة 1073 هـ = 1661 م . مارا بطريق الجنوب : سلجماسة وتوات وورجلة وطرابلس ... ومصر . وقد زار أهم أمصار المشرق . ومر ذات يوم وهو عائد الى بلاده ، ببسكرة والأغواط وعين ماضي وفقيق ، واصفا ما رأى وسمع .

وتوفي العياشي سنة 1090 هـ = 1679 م بالمغرب الأقصى بسبب الطاعون . وترك انتاجا يحتوي على شعر ديني وعلى منظومة في البيوع وكتاب في التصوف سماه « تنبيه ذوي الهمم العالية على الزهد في الدنيا الفانية » وكتاب في تراجم العلماء سماه « اقتفاء الأثار بعد ذهاب أهل الأثار » وآخر عنوانه « تحفة الاخلاء بأسانيد الأجلاء » (3) .

---

(1) **وارقلة** ويسميها ابن خلدون واركلا وواركلة وواركلي . وقيل تسمى وارقلان جمع وارقلة (دي سلان في نقل المسالك والممالك للبكري - ص . 340) . وهي واحة شهيرة على بعد 160. كم. جنوب توقورت . وكان أهل المغرب الاقصى يمرون بها في طريقهم الى حج بيت الله .
ولا نعرف تاريخ تأسيسها بالضبط - قيل كان شيخها يسمى بالوارقلي فسميت المدينة بوارقلة (ر. باسي : (René Basset : *Mélanges afri. et or.*)

(2) **عبد القادر الفاسي** : بن علي بن يوسف الفاسي (1007 ⟵ 1091) = (1509 ⟵ 1680). من أكبر علماء المغرب وصوفيته . وهو شيخ الزاوية الشادلية .

(3) دائرة المعارف الاسلامية . الطبعة الثانية . ج 1 . ص 818 .

الا أن العياشي اشتهر برحلته التي سماها « ماء الموائد » وضمنها أخبارا وحوادث مختلفة شاهدها أثناء سفره • (4)

وللكتاب فوائد اخبارية نفسية لما فيه من المعلومات التى انفرد بذكرها العياشي والمتعلقة بطريق الجنوب من المغرب الى المشرق ، وبالصحراء وجغرافيتها وبأخلاق الناس وعوائدهم وبأحوال العلماء الصلحاء ، وبالتجارة وغيرها •

وكان أصحاب الرحلات يفضلون اما طريق البحر (5) واما طريق التل (6) • ومع ما فى هته الرحلة من استطرادات مملة واهمال للجانب الجغرافى والاقتصادي فقد عرفت رواجا كبيرا واقبالا ملحوظا حتى أصبحت مثالا يقتدى به فى كتابه الرحلات ونموذجا يقلد •

ولم يفت المستشرقين نقلها كاملا الى لغات مختلفة أو نقل بعضها (7) .

---

(4) ألف العياشي هاته الرحلة بعد الحج الثاني « 1064 هـ\1653 م » .
وطبعت بفاس سنة 1898 م • / 1316 هـ • فى مجلدين •
وله رسالة بعث بها الى أهله بعد وصوله الى الحجاز يذكر فيها مراحل السفر ويبدي فيها انطباعاته وقد نقلها الى الفرنسية ، الأخضر :
(4ᵉ congrès de la fédérat on de la société des savants - Alger 1939.)

(5) نذكر من بينهم : ابن جبير (محمد بن أحمد) 540 – 614 هـ / 1145 – 1217 م•
والتمقروتي (أبو الحسن علي بن محمد) توفي بمراكش سنة 1003 هـ = 1594 م • وهوصاحب « النفحة المسكية فى السفارة التركية » • يوجد فى رحلته وصف لبعض المدن الجزائرية مثل الجزائر العاصمة وبجاية وعنابة •

(6) نذكر من بينهم : العبدري(محمد بن محمد بن علي) من رجال القرن 13 م • / 7 هـ•
صاحب « الرحلة المغربية » • مر بتلمسان ومليانة وبالجزائر ثم بجاية فقسنطينة ...

(7) نقل بربروقجير (Berbrugger) الى الفرنسية الجزء الخاص بالجنوب الجزائري فى كتاب :
Exploration scientifique de l'Algérie. T. XI.

كما نقل أحمد برهيمات (A. Brihmat) الى الفرنسية أيضاجزءا من الرحلة وهو الذي يتعلق بما بين وادي درعة وورقلة ، ونشره فى مجلة :
Revue de l'Islâm de Paris - (mars 1899.)

ونقل موتيلانسكي (Motylinski) القسم الذى يهم المراحل بين طرابلس ومصر فى كتابه :
Itinéraires entre Tripoli et l'Egypte. (Alger 1900.)

2 ـ اخبـار مدينة وارقلـة :

[الوصول الى وارقلـة وسرور الحجاج ...] (8)

... فدخلنا وارقلا قبل غروب الشمس ونزلنا بباب المدينـة المسمى بباب السلطان وكان من لطف الله بالحجاج ان صادف دخولنا دخول قافلة من اعـراب « الأرباع » قدمت بسمن كثير وغنم وابل وزرع اشترى الناس منهم ما احتاجوا اليه بأرخص ثمن وقدمت أخرى بعدها بيوم تحمل مثل ذلك أو أكثر فتنعم الناس فى اللحم والتمر والسمن واشترى الحجاج غنما كثيرة حتى كأن تلك الليالي الثلاث التى أقاموها ليالي منى من كثرة اللحم (9) .

[جهل الامام وتخوف العياشي ....]

وكان دخولنا لمدينة وارقـلة عشية الخميس وأقمنا يوم الجمعة واليومين اللذين بعده ودخلنا المدينة لحضور صلاة الجمعة وصلينا بجامع المالكية وخطب الخطيب بخطبة أكثر فيها اللحن والخطأ والتحريف والتقديم والتأخير مع ادغـام حروفها حتى كأنها همهمة فكنت أتخوف أن لا تصح لنا معه جمعة ان كانت صلاته كخطبته فنجى الله فأحسن فى قراءة الفاتحة فما ظننا أن صلاتنا معه مجزئة ودعـا فى خطبته للامام المهدي ثم السلطان الأعظم الخاقان الأفخم محمد بن ابراهيم بن مراد (10) ثم لسلطان بلاده مولاي علاهم (11) . فلما فرغ من الصلاة بعثت بعض أصحابنا ليسأله عن المهدي المدعو له فى الخطبة أهو المنتظر أم أحد المنتحلين ذلك ممن مضى ؟ فسأله عن ذلك فاذا هو لا يفقه شيئا من ذلك وقال : أظنه النبي (صلعم)

---

(8) قسمنا نص العياشي الى فقرات جعلنا لها عناوين بين [ ] زيادة للايضاح .

(9) ماء الموائد . ج 1 ص 46 .

(10) محمد الرابع بن ابراهيم بن مراد ـ الخليفة العثماني ـ حكم من 1648 الى 1687 . [وقد احتل وارقـلة حاكم الجـزائر صالح رايس سـنة 1552] .

(11) هو أمير وارقلة آنذاك .

فعلمت أنه وجد الخطبة مكتوبة فى صحيفة عنده وحفظها كما وجدها الا أنه لم يحرر حفظها ونقلها ولعلها من خطب بعض من كان أيام المهدي بن تومرت (12) زاد فيها هو الدعاء للامامين اللذين فى عصره (13) .

[وصف المدينـــة]

ثم بعد الصلاة طلعنا للمأذنة وهي مشرفة على المدينة كلها فنظرنا الى أطرافها ووسطها وكنا نستقلها قبل ذلك فاذا هي مدينة لها سبعة أبواب وهي فى وسط خط من النخل ومساحة المدينة بالتخمين نحو من نصف فرسخ فى مثله محيط بها خندق مملوء ماء من كل جهاتها لا يصل أحد الى سورها الا من ناحية الأبواب .

[حوادث واضطرابـــات]

وقد خلا كثير منها بسبب فتنة وقعت قبل قدومنا بنحو من شهرين وذلك أن طائفة منها هم بيضة البلد وعصبة أهلها اتهمهم الأمير بالقيام عليه فاتفق مع رعيته على قتلهم وان لا يفلتوا أحدا منهم كبيرا أو صغيرا . فأمر بسد أبواب المدينة وتقدم الى من خارج البلد من الأعراب أن يرتصدوا خارج السور بمن أفلت من البلـــد قتلوه ــ فقام عليهم بالسيف بغتة هو ومن معه فقتل منهم مقتلة عظيمة نحوا من المـــائتين ولم يسلم منهم الا من تسور جدار السور ولم يلقه الاعراب أو افتدى منهم وهي فعلة شنيعة عدت من هفوات ذلك الأمير وأسقط ذلك منزلته عند كثير مـــن الناس مع أنه معروف قبل ذلك بحسن السيرة . وأورث ذلك شحناء بينه وبين

(12) ابن تومرت : ولد بالسوس ما بين 470 و 480هـ «1077 ـ 1087م» ، وسافر الى المشرق طلبا للعلم وتنقل بين عواصمه مدة ثم عاد الى المغرب الأقصى وتزعم الحركة التى قضت على المرابطين . وتوفي بن تومرت حوالي 524 هـ = 1130 م .

(13) ماء ماء الموائد . ج 1 ص 46 .

اخوانه أولاد الشيخ أحمد بن جلاب (14) فان أمه أخت الشيخ أحمد وكـانوا قبل ذلك شيعة له وبهم تمكن من البلد •

[فى مكتبة الامـــام ••]

ثم لقيت امام المسجد بعد ذلك وأدخلني الى منزله وأحضر لي ما عنده مـن الكتب فاذا عنده أجزاء من الموطأ ، ومن البخاري ومن الأكمـــل وبعض شراح المختصروالرسالة (15) غالبها لم يكمل وحبسني لطعام صنعـــه حتى حانت صلاة المغرب •

[مسجـــد وارقلـــة]

فدخلت المسجد بازاء داره لصلاة المغرب وهو مسجد متقن الصنعة مجصص الأرض والحيطان على بابه أماكن وفى جوانبه ، معدة للوضوء وقضاء الحاجة ومكان معد لتسخين الماء فأعجبني غاية •

---

(14) بنو جـلاب : هم سـلاطين توفرت من بقايا بني مرين . ومؤسـس هتـه الامارة التي ظهرت فى أواخر القرن الخامس عشر يسمى الحاج سليمان الجلاب ثم خلفه ابنه علي ثم جاء دور أحمـد بن علي ثم عمر بن المذكور ...

وبقيت هتـه الاسرة الى دخول الفرنسيين .

(15) الموطأ : لأبي عبد الله مالك بن أنس (توفي بالمدينة سنة 795 م) ..

البخاري (محمد بن اسماعيل بن ابراهيم ... الجعفي) صاحب « الصحيح » توفي سنـة 870 م / 256 هـ •

الاكمل : اكمل الاكمل لابيعبد الله الابي•

المختصر : لخليـل بن اسـحق . . . من أكـبر فقهـاء المـالكيـة ، توفى بالقـاهرة سنة 776 هـ = (1374 م) •

الرسالة : رسالة ابي زيد القيرواني .

[بعض عوائد أهل المدينة فى الصلاة]

فلما دخل المؤذن كبر فى آذانه أربعا أول الأذان وأربعا آخره فأنكرت ذلك فى نفسي اذ القوم فى ظني (16) مالكية فلما دخل الناس للصلاة ابتدروا زوايا المسجد يتيممون فقلت عجبا ما أولئك كلهم من ذوي الأعذار ثم وقع فى نفسى أنهم مزابة روافض • ثم سألنا بعد ذلك فاذا المسجد مسجدهم يصلون فيه وهو معروف بهم وهم طائفة من الأباضة من اتباع عبد الله بن أباض (17) يوافقون المعتزلة فى أكثر عقائدهم كنفي الرؤية والقول بخلق القرآن ويبغضون بعض الصحابة وهم كثيرون فى تلك البلدة وأصل مادتهم من جبال مزاب فانهم ، كلهم روافض (18) وبهـا علماؤهم وهي عند من هو على معتقدهم معظمـة • وهؤلاء الروافض يسمون أشياخهم (« بعم فلان » فيقولون ـنص هذه المسألة عمى داوود أو عمي ابراهيم •

[قصـة غريبـة]

أخبرني من أثق به من أهل ريغ من أشياخها أنه مر بهم رجل قاصد المزاب فسأله من هو فقال من أهل البصرة جئت زائرا البلاد مزاب ، فقبح الله •••

فسألت بعض الناس عن عدم انكار والي لبلد عن هذه الطائفة مع أنه ليس على معقدهم فأخبرني أنهم عصبته فى حروب تقع بينه وبين أخواله وأعرابهم فلا يقدر أن ينكر عليهم ذلك وهذا كله من رقة الديانة وخيانة الأمانة •

---

(16) يكبر المالكية مرتين فقط .

(17) ابن أباض (عبد الله) المري التميمي . مؤسس الفرقة التى تحمل اسمه . وهو من رجال النصف الثاني من القرن الاول الهجري وأوائل الثاني . ظهر فى أول الامر بحضر موت واحتل صنعاء .

(18) فرقة من الشيعة الغلاة .

قيل سموا كذلك لأنهم رفضوا رأي الصحابة فى مبايعة أبي بكر وعمر . وقيل لاز زيد بن علي بن الحسين امتنع من لعن أبي بكر وعمر فرفضوا رأيه .

[فى مكتبة امير وارقلـــة]

ولما كان آخر أيام الاقامة سألت صاحبنا أمام المسجد هل فى البلد شيء مـــن خزائن الكتب فأخبرني أن عند الأمير خزانة من الكتب وأنه لا يمنع من أراد الدخول اليها فذهبت معه اليه وأدخلنا ورحب بنا وأخبره صاحبنا بما أريد فأدخلني الى كتبه فاذا عنده نحو من أربعين سفرا من جملتها التوضيح والتتائي وبهرام وحواشيعلى الصغرى (19) . وأخرج لنا طعاما وسأل عن مسائل فقهية وله بعض الالمام بها وجرى فى الكلام معه ذكر تعارض الأصل والغالب . فطلب مني أن أكتب له فى ذلك شيئا فكتبت له بعد الخروج من عنده ما حضرني من كلام العلماء فى ذلك وأوردت له بعض الأسئلة وحضرني عند الكتابة بيتان فى مدح هذا الأمير لما شاهدت من حسن خلقه ولين جانبه وهما :

فان ولاة الأمـــر فى كـــل بلـــدة كثيرون لكن الأمـــير علاهـــم
علاهم « علاهم » اذ تحـــلوا بحلية من العدل والممدوح رقم جلاهـــم

وبعثناها مع صاحبنا امام المسجد وهذا الامام يدعى عند أهل بلده بباسيد وأخوه « ســـد خير » وهما معروفان بأولاد الفقيه منصور وهما أقرب من رأيت فى هذه المدينة بسيرة الطلب وما أظن أحدا منهما يحسن بابا من أبواب أي علم .

ولكن البـــلاد اذا اقشعـــرت صـــوع نبتهـــا رغي الهشيـــم !

[ثروة اهل وارقلـــة وكرمهـــم]

ولأهل ورقـــلة هذه البلدة دارهم يتعاملون بها يكثر فيها النحاس ، أربعـــة وعشرون فى ربع ريال . وقد أضاف أهل المدينة الركب أربع ليالضيافة لا بأسبها .

(19) التوضيـــح : عنوان كتب عديدة . لعـــله يعني هنـــا التوضيح ، لخليل بن اسحاق فى مختصر ابن الحـــاجب .
التتائي (شمس الدين محمد بن ابراهيم) شارح مختصر خليل .
بهرام (بن عبد الله بن عبد العزيز) قاضى القضـــاة بمصر ــ شرح خليـــل الصغرى : كتاب فى التوحيد لمحمد بن يوسف بن عمر السنوسى .

[بعض عوائد اهل المدينـــة]

وفى باب المدينة التى نزلنا من قبله خرق كثيرة من صوف وكتان وأكبرهـــا صحيحة لا قطع فيها يصلح للانتفاع وليس مثلها مما يرمى به فى العادة وتعجبنا من كثرتها مع صحتها ولا نعلم السبب فى عدم أخذها وتركهم الانتفاع بها وهي لو جمعت لكانت أحمالا . وسمعنا هناك أنها ثياب الموتى وأن من مات ألقيت ثيابه التي عليه عند الموت هناك ولا تمس ولا نعلم صحة ذلك والله أعلم •

ومن غرائب هذه البلدة استخراج عيون الماء الغزيرة بحفر الأبار فيحفرون بيرا نحوا من خمسين قامة ثم يصلون الى حجر مصفح على وجه الأرض فينقرونه فاذا نقبوه فاض منه الماء فيضانا قويا ويطلع كذلك بسرعة الى فم البير ويصير عينا •

فان لم يتدارك الحافر بالجذف أغرقه الماء . ومتى احتاجت العيون الى الكنس حصلت لمتعاطي كنسها مشقــة كثيرة وربمـــا تركوها بلا كنس للمشقة فتندثر . وقد أخبرني من أصحاب من عاين كنسهم للعيون بأمر غريب وكذلك عيون أهل وادي ريغ .

[مغــادرة وارقلـــة]

ثم ارتحلنا من وارقلة يوم الاثنين ونزلنا ببلدة قريبة منها على نصف مرحلة تسمى « مقرسا » •

3 ـ أهمية هـــذا النص :

رزق العياشى الدقة فى الملاحظة والميل الى الاستطلاع وروح المقارنة وساعدته منزلته الاجتماعية على كسب المعلومات والأخبار والعثور على ما فات غيره مـــن الكتب والوثاءق •

فسجل فى رحلته معلومات دقيقة مفيدة ودون فيها مالا يوجد فى الرحلات الأخرى (20) من أخبار البلاد والعباد •

وقد اكتفى أبو عبيد الله البكرى (21) باشارات تتعلق بموقع وارقلـــة فقال : « مدينة طبنة وحواليها بنو زنراج ومنها الى نهر الغابة ثم تمشي ثلاث مراحل فى مساكن العرب وهراوة ومكناسة وكبينة ووارقلة ••• » (22) ، وقال أيضـا « فان أردت من تادمكة الى القيروان فانك تسير فى الصحراء خمسين يوما الـى وارجلان وهي سبعة حصون للبرابر آكبرها يسمى آغرم ان يكامن ••• » (23) •

وتعرض الشريف الادريسى (24) لأخبار ورقلة ونشاط أهلها لكن مـــن الناحية التجارية بالخصوص •

فقال : « وبلاد للم تتصل من شيء من الفواكه الرطبة الا ما يجلب اليهـــا من التمر من بلاد سلجماسة وبلاد الزاب يجلبه اليهم أهل وارقلان الصحـــراء فاذا عاد النيل الى حده باع الناس ما حصل بأيديهم من التمر وتاجر بعضهم بعضـــا واشترى أكثره أهل وارقلان وأهل المغرب الأقصى ••• من أود غشت الى مدن وارقلة 31 مرحلة ومن جبل نفوسة الى وارقلان 12 مرحلة ومن مدينة مسيلة الى وارقلان 12 مرحلة كبار •

وهي مدينة فيها قبائل مياسير وتجار أغنياء يتجولون فى بلاد السودان الى بلاد ونقارة فيخرجون منها التبر ويضربونه فى بلدهم وهم وهبية اباضية نكـــار خوارج فى دين الاسلام • ومن وارقلان الى غانه 30 مرحلة • ومن وارقلان الـــى كوغة نحو من شهر ونصف ومن وراقلان الى قفصة 13 مرحـــلة (25) .

ولنص العياشي فوائد اخبارية لا يستغنى عنها :

---

(20) ان أطول نص لدينا فى أخبار وارقلة قبل العياشي ما كتبه الحسن بن محمـــد الوزان الفاسي المعروف عندهم بليون الافريقي (Léon L'Africain.) فى كتابـــه « وصف افريقيـــة » ج 2 ص 438 ← 439 •

(21) توفى سنة 487 هـ = 1094 م •
وهو صاحب كتاب المسالك والممالك (فى الجغرافية) •

(22) « كتاب المغرب فى ذكر افريقية والمغرب » طبعة دي سلان 1965 ص 144 •

(23) نفس المرجع • ص • 182 •

(24) الشريف الادريسي – توفي حوالي 548 هـ = 1154 م •
وهو صاحب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » • •

(25) نزهة المشتاق – منتخبات بيريس •

1 ـ الحياة الثقافية فى جنوب الجزائر :

أراد العياشي أن يطلع القراء على حالة العلوم الاسلامية فى الأقطار التى مر بها فأسهب فى ذكر الكتب والعلماء وكيفية التدريس ومستوى الثقافة الذى ما من شك كان منحطا .

فالامام الذى لازمه العياشي ـ مدة اقامته بوارقلة ـ صورة لهذه الحالة المؤسفة .

فهو يلحن لحنا فادحا فى خطبته ويكثر من الخطأ ويتردد فى القراءة ولا يفهم ما يقرأ حتى خاف الرحالة أن لا تصح وراءه صلاة الجمعة . ثم ان معلوماته التاريخية فقيرة كمبادئه النحوية : يسأل عن المهدي المدعو له فى الخطبة فلا يفقه شيئا ويخلط بين المهدي والنبي . فعجزه واضح وضعفه فادح ومستواه الثقافى قصير .

وأخو الامام فى نفس الحالة ويقول فيهما العياشى : « وهما معروفان بأولاد الفقيه منصور وهما أقرب من رأيت فى هذه المدينة بسيرة الطلب وما أظن أحدا منهما يحسن بابا من أبواب أي علم ... » .

الا أنه لا ينبغي أن نعمم هذا النقص (26) ولا أن نقيس الجنوب بالشمال فى أيام العياشي ـ « وامام » العياشي لا يمكن أن يكون صورة لعلماء البلاد كلها . وما ذكره عالم مغربي (27) معاصر للعياشي أقرب الى الصحة .

---

(26) لقد اشتهرت وارقلة فى القرون الوسطى بعلماء وأدباء من بينهم :
ـ أبو زكرياء يحي بن أبي بكر الورجلاني (توفى سنة 471 هـ = 1078 م) . وهو صاحب « كتاب السرة وأخبار الامامة » .
نقله الى الفرنسية مسكوري (Masqueray) ثم نقله الىنفس اللغة لوتورنو(Letourneau) فى المجلة الافريقية . 1960 .
ـ وأبو يعقوب يوسف بن ابراهيم السدراتي الورقلاني (توفي سنة 1174 م) ولد بوارقلة وتعلم بها وانتقل الى قرطبة ثم عاد وارتحل الى المشرق . وله كتب عديدة من بينها « كتاب الدليل والبرهان » .

(27) هو أبو عبد الله محمد بن القاسم بن محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن زاكور الفاسي ـ رحالة وأديب مغربي ـ ولد بفاس فى منتصف القرن السابع عشر م وتعلم بها ثم انتقل الى تطوان ومنها الى الجزائر العاصمة سنة 1683 م . فأخذ عن علمائها ومنهم الشيخ محمد بن سعيد قدورة الذي أجازه سنة 1684 م \ 1094 هـ .
ولابن زاكور رحلة قصيرة سماها : « نشر أزاهير البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان » طبعة الجزائر سنة 1319/1902 .

قال بن زاكور فى رحلته متحدثا عن علماء الجزائر العاصمة : « غرر أعلام ينجلي بهم الاظلام ، وشموس أئمة تنفرج بهم كل غمة وتفتخر بهم أخبار هذه الأمة ، من رجال كالجبال وأحبار كالأقمار طلعوا فى بروج سعودها بدورا وألبسوها رواء ونورا فاهتديت بأنوارهم السنية الى قطف ما راق من أنوارهم الجنية ورتعت فى رياض أدبهم فتمتعت ونهلت من حياض علومهم حتى تضلعت وكرعت فى أنهار بلاغتهم حتى رويت وهصرت من أفنان براعتهم ما هويت ... » (28) .

2 ـ الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية :

يظهر من نص العياشي أنه كان لوارقلة ـ فى القرن السابع عشر ـ أهمية كبرى . فللمدينة أبواب سبعة ومساحة معتبرة ، وهي فى وسط نخيا . ومسجدها متقن الصنعة مجصص الأرض وله مرافق لا توجد فى غيره .

وسجل الرحالة الاضطرابات التى نشبت بها قبيل مروره ، وهو فى طريق الحج ، فوصف دور الأعراب فى هذه الحوادث الدامية والتوتر بين الأمير علاهم ـ صاحب وارقلة آنذاك ـ وبين أخواله بني جلاب أصحاب توقرت .

ونجد فى النص أيضا وصفا حيا للحالة الاقتصادية : فالأسواق ذات رواج ، وما يباع فيها بأرخص ثمن من تمر ، ولحم وسمن ، سرور للزائرين . كما لاحظ العياشي ثروة أهل المدينة وقيمة العملة المتعامل بها آنذاك .

وللكتاب الفضل فى التعريف ببعض عوائد السكان فى أداء فريضة الصلاة . فالاختلاف بينهم وبين السنيين محسوس وترى مع ذلك أمير وارقلة يغض الطرف لأسباب سياسية قاهرة .

وذكر المؤلف باسهاب لا يمل غرائب البلدة وسكانها ومن بين تلك ، قصة الملابس الصحيحة المرمية عند أبواب المدينة لا يمسها أحد ـ ولو كان فى أشد الحاجة اليها ـ لأنها ثياب الموتى ـ .

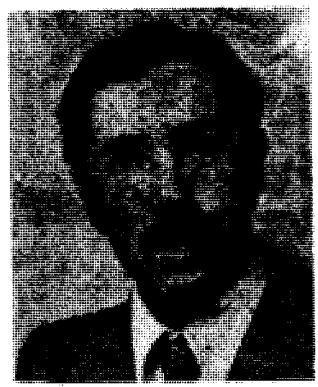
بالحميسي مولاي

---

(28) نشر ازاهير البستان ... ص 3 و 4 .

ورقلة ومنطقتها
في العهد العثماني

د. ناصر الدين سعيدوني
معهد العلوم الاجتماعية
جامعة ـ الجزائر



ظلت ورقلة ومنطقتها تشكل المحور الاساسي لاحداث الجنوب الجزائري ، ومركز الثقل للتطورات التي عرفتها الجهات الشرقية من الصحراء الجزائرية ، وهذا ما جعل الاهتمام بماضي هذه المنطقة من الامور الضرورية التي يفرضها تكامل التاريخ الجزائري وتحتمها وحدة الصحراء مع التل وتدعو اليها الحاجة لابراز مدى ارتباط الجزائر بافريقيا عبر الصحراء ٠

لكن ماضي هذه المنطقة رغم الاهمية التي اكتسبها والتطورات التي عاشها ، ظل مهملا وغامضا في أغلب فتراته ، فكل ما يعرف عنه لا يتعدى في واقع الامر خطوطا عامة لاحداث متفرقة غير مترابطة لا تغني الباحث شيئا ولا تقدم للقارىء صورة واضحة عن أحداث الماضي وتطوراته ٠

ولعل أكثر الفترات غموضا ونسيانا في حياة ورقلة ومنطقتها تلك الفترة التي تبتدىء بالقرن السادس عشر وتستمر الى مطلع القرن التاسع عشر ، والتي تصادف

الوجود العثماني بالبلاد الجزائرية ، ويرجع غموض هذه الفترة بالذات الى كون المعلومات التى بين ايدينا أو التى يمكن الحصول عليها لم تتجاوز فى أحسن الاحوال نبذا متفرقة واشارات وتلميحات عابرة لا تغنى شيئا فى الكشف عن ماضى المنطقة ، ولهذا يصبح الهدف من كل دراسة لهذه المنطقة فى مثل هذه الظروف موجها الى محاولة اعادة ربط تاريخ المنطقة بباقى البلاد مع اظهار أهميته الخاصة فى نطاق التاريخ الوطنى الجزائرى ٠

ولا يكون المنطلق الى ذلك الا بالتعرف على الوضع الطبوغرافى والعمرانى للمنطقة ففى هذا الصدد نجد مدينتى ورقلة وتوغرت تشكلان وحدة جغرافية وبشرية وتاريخية بحيث لا يمكن التعرض لاحدى المدينتين دون ذكر الاخرى رغم ارتباط توغرت بوادى ريغ اداريا ٠

وتنبع هذه الوحدة من كون المدينتين ظلتا طيلة الفترة العثمانية تشكلان محورا واحدا ومركزا رئيسيا لتجارة السودان ومحطة قارة لطريق الحج ، ومنطلقا سهلا للتوغل فى أعماق الصحراء ، وطريقا طبيعيا نحو المناطق التلية بالشمال ٠ فضلا عن كون مصير المدينتين ظل واحدا طيلة الوجود العثمانى بالجزائر ، بحيث أصبح من النادر ان تقتصر علاقة حكام الايالة الجزائرية ونفوذهم على مدينة دون الاخرى ٠

كما يؤكد الوضع الطبوغرافى والعمرانى هذه الوحدة الطبيعية بين مدينتى ورقلة وتوغرت مما يجعلهما منطقة طبيعية وبشرية واحدة ٠ فالمدينتان تقعان فى أقصى جنوب المنخفض الصحراوى الكبير بين خطى عرض 33 (بالنسبة لتوغرت) و32 (بالنسبة لورقلة) ، يكتنفهما العرق الشرقى الكبير من ناحية الشرق ، وتحف بهما هضاب الشبكة وحماد مزاب وتادمايت من الغرب والجنوب ، وتحاذيهما منخفضات واد ريغ والزيبان ونفزة والجريد من الجهات الشمالية والشرقية ٠

فهذا الوضع الطبوغرافى الخاص جعل المدينتين تتوسطان اقليمين متمايزين من الصحراء الشرقية الجزائرية ، فهما واقعتان فى منطقة تتميز بالميلان نحو الشرق ، مما ساعد على توفر مصادر المياه الجوفية الضرورية للحياة ، وذلك بفعل الترسبات السفلية لمياه وادى مية وايغار غار ٠

فواحة ورقلة الواقعة على ارتفاع 129 م تدين بوجودها لوادى مية ، كما أن واحة توغرت الواقعة على ارتفاع 80م ، كانت هى الاخرى نتيجة للآبار المقامة على مياه واد اغار غار الجوفية (1) .

وتكمن أهمية هذه المصادر المائية الناتجة عـن الوضـع الطبوغرافى للمنطقة ، فى كونها أساسا لتطور وازدهار مدينتى ورقلة وتوغرت بحيث أصبحت الحياة الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية مرهونة بمدى انخفاض منسوب المياه وبمدى قدرة الاهـالى على استغلال تلك الميـاه الجوفية ، وذلك فى أغلـب الفترات التاريخية التى عاشتها المنطقـــة .

فورقلة بفضل هذا الوضع الطبوغرافى المتحكم فى مصدر المياه وتوزيع الكثبان ، كانت أثناء الفترة العثمانية عبارة عن قصر صحراوى (2) ، مقام فوق مرتفع من الارض يشرف على نخيل الواحة ، يحيط به سور فى أسفله خندق مملوء بالماء ، يرد المهاجمين ويبعد المغيرين عليه . (3)

ويتكون قصر ورقلة الذى تقدر مساحته بحوالى نصف فرسخ فى مثله ، من ثلاث حارات موزعة حول سوق المدينة ، تتخللها طرق ومسالك وازقة ملتوية تؤدى الى أبواب المدينة السبع (4) ، وتختص كل حارة من هذه الحارات باحدى المجموعات السكانية الثلاثة المنتمية فى أصولها الى قبيلة بنى ورجلان الزناتية التى تأثرت بالدماء الزنجية عن طريق العبيد ، وهذه المجموعات هى بنو سيسين فى الجهة الشمالية ، وبنو واجـين فى الناحية الغربية وبنو ابراهيم فى القسم الشرقى من ورقلة .

---

(1) Despois J., Raynal R. - Géographie de l'Afrique du Nord Ouest - Paris, Payot, 1967 pp. 421-440.

(2) أقيمت مدينة ورقلة الحديثة الى الجنوب الشرقى من هذا القصر الذى هو فى واقع الامر قلعة محصنة تشرف على نخيل الواحة .

(3) عبد الله بن محمد بن ابى بكر العياشى ، الرحلة المعروفة بماء الموائد ، طبعة فاس 1316 هـ ، 1898 م ، المجلد الاول ، ص 46 .

(4) نفس المصدر ، ص 46 ، غير أن فى الفترة الاخيرة يصبح عدد أبواب المدينة خمسة فقط هى باب الربايع وباب بابا أحمد وباب ابو اسحاق وباب عمر وباب عزى .

أما أماكن العبادة وهى ملتقى النشاط الاجتماعي والثقافي بورقلة لاشتمالها على مدارس للتعليم ، فتتوزع على مسجدى المدينة الرئيسيين ، وهـما المسجد المـالكي المعروف بجامع سيدى عبد القادر الجيلالي ، حيث تجتمع جماعة البلد واهل الرأى وتقام صلاة الجمعة ويخطب للحاكم (5) ، والمسجد الخاص باتباع المذهب الاباضى ، الذى اعجب به العياشى فى رحلته ووصفه بقوله : « متقن الصنعة مجصص الارض والحيطان وعلى بابه وجوانبه أماكن معدة للوضوء ولقضاء الحاجة ، ومكان معين لتسخين الماء » . (6)

أما مدينة توغرت فقد ظلت هى الاخرى طيلة العهد العثماني عبارة عن قصر مقـام بالقرب من التقاء مياه وادى مية وايغار غار الجوفية ، يحيط به سور وحوله حفير ويؤدى اليه بابان أحدهما يعرف بباب الخضراء والآخر بباب السلام (7) ، وتتخلله أزقة عرفت فى الفترة المتأخرة بأسماء محلية مثل : البلوش فى الشمال وهو حى أولاد نائـــل ، ومستاوة فى الشمال الشرقى وهو حى تمتزج فيه جماعة المجارية بأفراد فرقة الرواغة التى يتجمع معظمها فى الناحية الغربية خارج المدينة ، وبهذا الحى توجد أماكن للعبادة مثل المسجد العتيق التى أصبح يضم فى القـرن الثامن عشر ضريـح الشيـخ سيدى الهاشمى وكذلك المسجد الكبير الذى تم بنـاؤه عام 1780 من طرف أحـد سـلاطين بنى جلاب ، وهو ابراهيم بن محمد تكفيرا عن جريمته فى حق أخيه على الكبير ، والى الغرب من هذين المسجدين توجد مقابر أسرة بنى جلاب سلاطين توغرت تتوجها قبة ذات نقوش بسيطة .

أما خارج نطاق مدينتي ورقلة وتوغرت فكانت القبائل البدوية تجوب المنطقــة بحثا عن الكلأ والمراعي ، وتتردد بين الحين والآخر عـلى هاذين المركزين العمرانيين لتصريف منتوجاتها والتزود بالاقوات وتقديم يد المساعدة والعون للحكام عند الحاجة . وهذا ما جعل هذه القبائل البدوية تلعب دورا رئيسيا فى حياة المنطقة فى العهد العثماني.

---

(5) Trumelet C. - Les Français dans le désert, 4e édit, Paris, Challamet ainé, 1887, pp. 24-29

(6) العياشى نفس المصدر ، ص 46 .

(7) Daumas, le lieutenant col. - Sahara Algérien, Paris, Fortin-Masson, 1845, pp. 73 et 126.

وكانت أغلب هذه القبائل تتألف من مجموعات عشائرية متمايزة تختص كل واحدة منها بمجال لا تتجاوزه فى أغلب الاحيان ، ومن أشهر هذه العشائر البدوية نذكر :

1 ـ قبيلة سعيد : التى ظهرت بالمنطقة فى القرن الثالث عشر الميلادى على الارجح وكانت تتفرع فى مطلع العهد العثمانى الى فرعين رئيسيين ، الفرع الاول يضم أولاد مولود الذين توطنوا نواحى توغرت ، وسعيد عطبة الذين استقروا بنواحى نقوسة ، اما الفرع الثانى لهذه القبيلة فهو يتكون من عشيرتين هما : سعيد عمر المستقرين بتماسين والحجيرة والمخادمة المنتشرين بين ورقلة والرويسات (8) .

وقد امتازت كل من عشيرتى : المخادمة وسعيد عطبة بوفرة فرسانها وشدة بأسها وتنقلها الدائم طلبا للمراعى ، فالمخادمة ظلوا يترددون على مراعى وادى مية والحماد الواقعة الى الجنوب الشرقى من ورقلة ، بينما سعيد عطبة أصبح مجال تنقلهم يصل الى الهضاب العليا ؛ فهم بعد قضاء فصل الشتاء بجهات ورقلة ونقوسة يتوجهون مع مستهل الربيع الى وادى مزاب ، ليعبروا بعد ذلك الى الهضاب العليا عبر مضيق تاجرونة شرق جبل عمور ، وبعد أن يقيموا كامل فصل الصيف بنواحى السرسو يعودون مرة أخرى فى فصل الخريف الى ناحية ورقلة ، ليعيدوا الكرة من جديد كل سنة ، وكأنهم بهذه الرحلة السنوية بين ورقلة والسرسو يعيدون بدون شعور منهم وبطريقة معاكسة تلك الرحلة التاريخية التى حملت جماعات الاباضيين الرستميين ، من تاهرت (السرسو) الى سدراتة (ورقلة) فى القرن العاشر الميلادى .

2 ـ الشعانبة : وفدوا الى المنطقة وتوطنوا جهات ورقلة منذ القرن السادس عشر الميلادى ، وهم يتكونون من عشائر عديدة ، أهمها : شعانبة أولاد سعيد المعروفين بالشعانبة القبالة أو مواضى القليعة نظرا لتوطنهم جهات القليعة .

وشعانبة هب الريح جنوب ورقلة ، وشعانبة متليلى المعروفين بالبرازقة فى النواحى الغربية من ورقلة ، ولعل أهم هذه الفروع فى حياة منطقة ورقلة هو فرع شعانبة

(8) Romey A. - Histoire toponymée et traduction orale d'une oasis arabe-berbère - M'Goussa. C.E.M. Ecole pratique des Hautes Etudes (Sorbonne), 1973-74 - p. 95.

بوروبة أو شعانبة الشرق الذين يسكنون نواحي البور ويجوبون العرق الشرقي الكبير ويترددون على مدينة ورقلة في بعض الاحيان ·

3 ـ بنو ثور : وفدوا على المنطقة من جهات الجريد في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي ، وانتشروا في النواحي الجنوبية لورقلة بالقرب من واحة الرويسات وعين حمار « الشط » ، وكانت لهم روابط متينة مع عشيرة المخادمة ، وأحلاف وطيدة مع أولاد سيدي الشيخ منذ القرن السابع عشر ، ساعدتهم على ما يظهر في توطيد نفوذهم بالمنطقة والمحافظة على مراعيهم والوقوف في وجه سعيد عطبة ·

4 ـ الربايع وأولاد نائل ، رغم كون مواطنهم الاصلية تقع بالاطلس الصحراوي والهضاب العليا جنوب التطري ، فان لهم علاقة خاصة بمنطقة ورقلة التي يقصدونها مع حلول فصل الشتاء لتصريف منتوجاتهم والبحث عن المراعي لمواشيهم (9) ·

كل هذه القبائل البدوية كان لها أثر ملموس على الاساليب التي مارس بها حكام الجزائر العثمانية بسط نفوذهم على المنطقة ، بحيث أصبح الوجود العثماني يتمثل في عدة أحداث ومظاهر ، يمكن التعرض لها في هذه النقاط :

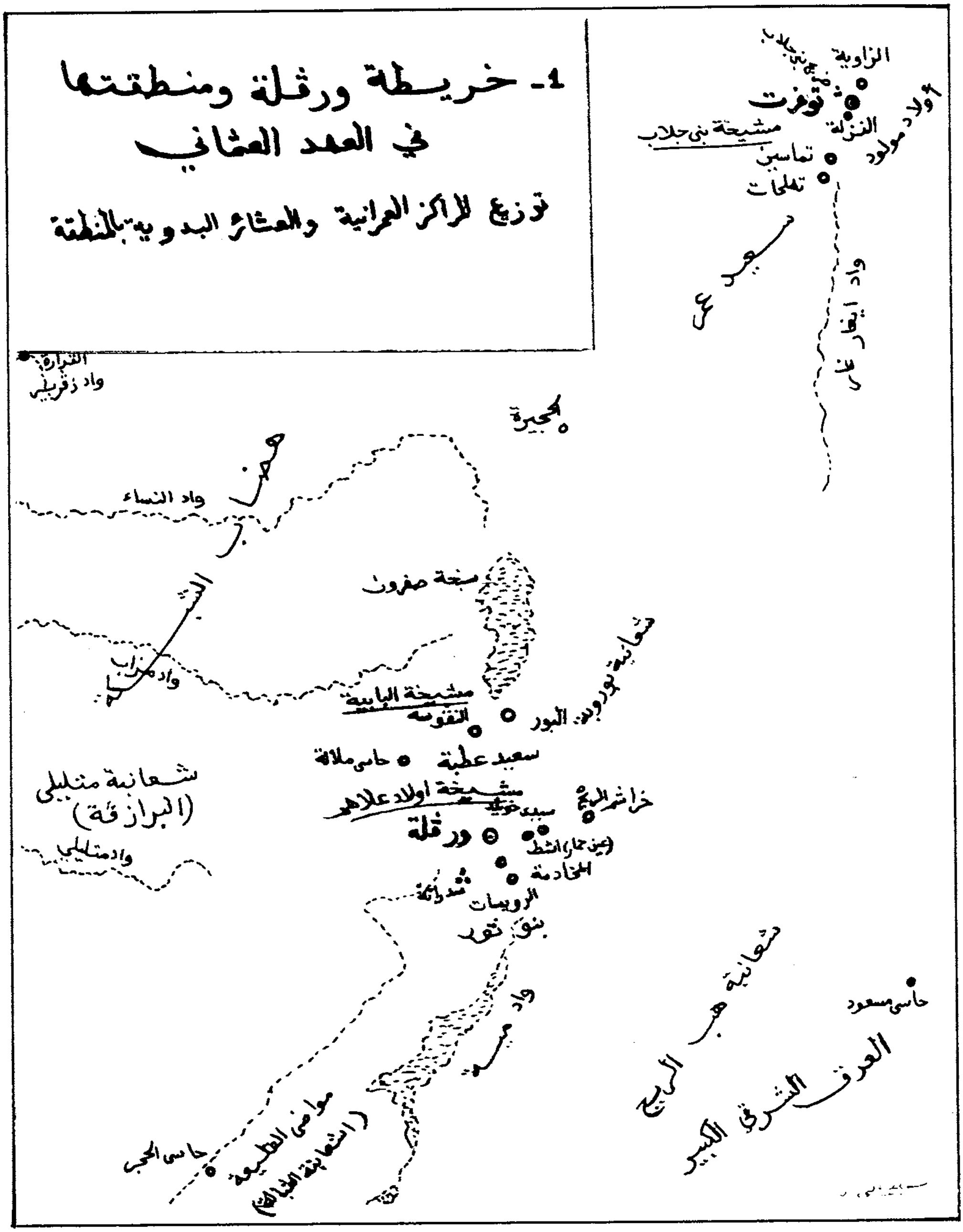
1 ـ الحملات العسكرية : التي أعتاد حكام الجزائر العثمانية تجريدها على المنطقة على فترات متوالية ، اثر فتوحات حسن آغا سنة 1541 التي مكنتهم من بسط نفوذهم على مناطق الحضنة والزاب وابقاء حامية تركية (نوبة) بمدينة بسكرة ·

أ ـ وكانت أولى هذه الحملات التي تعرضت لها منطقة ورقلة، هي الحملة التي شنها صالح رايس باي لارباي الجزائر في شهر أكتوبر من سنة 1552 ، على رأس جيش مجهز بمدفعين لفك الحصار ومكون من 3000 من المشاة و 1000 من الفرسان ·

وقد تمكن صالح رايس أثناء هذه الحملة من محاصرة توغرت وارغامها على دفع غرامة لباشا الجزائر ، بعد ان اضطرت الى الاستسلام اثر حصار دام ثلاثة أيام ·

بعدها توجه لورقلة التي رفض حاكمها تقديم ضريبة لباشا الجزائر ، فوصلها بعد أربعة أيام من السير ، ولم يجد بها سوى أربعين تاجرا من أغنياء السودان حطوا

(9) راجع خريطة العشائر البدوية بالمنطقة الملحقة بالمقال


1- خريطة ورقلة ومنطقتها في العهد العثماني
توزيع المراكز العمرانية والعشائر البدوية بالمنطقة
الزاوية
تقرت
النزلة
أولاد مولود
مشيخة بني جلاب
تماسين
تملحات
سعيد عتبة
واد ايغرغار
واد زقرير
الحجيرة
واد النساء
سبخة صفيون
واد مزاب
شعانبة بورويه
مشيخة البابية
البور
النقوصة
سعيد عطبة
حاسي ملالة
شعانبة متليلي
(البرازقة)
مشيخة اولاد علاهم
ورقلة
الخادمة
الرويسات
بني ثور
واد متليلي
شعانبة هب الريح
حاسي مسعود
العرق الشرقي الكبير
مواضي الفطيعة
حاسي الحجر

رحالهم بالمدينة ، فأخذ منهم 200 ألف ريال ومكث بالمدينة عشرة أيام ينتظر عودة حاكمها الذى فضل الانسحاب الى نواحى القليعة مع أربعة آلاف فارس ، وكثير من الاهالى (10) .

ثم قفل صالح رايس راجعا الى مدينة الجزائر مارا بتوغرت ، بعد أن وجه رسالة الى حاكم ورقلة يأمره بالعودة الى مدينته ، ويعده بالمصالحة شريطة تقديم ضريبة سنوية لباشا الجزائر لا تقل عن ثلاثين عبدا من رقيق السودان .

ومع أخذنا بهذه المعلومات التى أوردها هايدو ، فاننا نستبعد أن يكون صالح راس قد عمد الى ابادة سكان مدينة توغرت عن بكرة أبيهم كما لا نسلم بان مقاومة ورقلة وموقف حاكمها هى التى جعلت صالح رايس يعجل بالعودة الى الشمال ، بل نرى أن هذا الانسحاب السريع دون تنظيم شؤون المنطقة وابقاء حامية بها كان ناتجا عن الاحداث التى كانت تعيشها الجزائر والمتمثلة فى هجمات الاسبان وثورات بنى عباس وفليسة بالخصوص .

ب ـ اما الحملة الثانية : فقام بها يوسف باشا ضد مدينتى ورقلة وتوغرت عام 1649 ، ورغم الغموض الذى أحاط بهذه الحملة ، فان النتائج التى ترتبت عنها كانت أبقى واثبت مع الزمن من سابقتها ، بدليل أن الضريبة التى اعتاد سكان المنطقة المساهمة بها فى خزينة الجزائر والتى ربطت المنطقة بالحكم المركزى بالجزائر ترجع أسبابها الى هذه الحملة بالذات .

وتتلخص هذه الضريبة ـ التى جاء ذكرها فى دفتر التشريفات مسجلة بتاريخ 1205 هـ ـ 1790 م فى مساهمة المنطقة بخمسة وأربعين فردا من رقيق السودان سنويا ، يتوزعون كالتالى : يخص ورقلة 25 عبدا وتوغرت 16 عبدا وتماسن 4 عبيد (11).

ج ـ الحملة الثالثة : قام بها صالح باى ضد توغرت بتحريض من احد أفراد أسرة بنى جلاب المطالبين بحكم منطقة توغرت وهو الشيخ أحمد الناقم على ابن عمه الشيخ

(10) Haedo (Fray diego de) Histoire des Rrois d'Alger, 1612, traduction Grammont. *Revue Africaine* - 1880 - pp. 271-272.

(11) Tachriffat, Recueil de notices historiques sur l'administration de l'ancienne Régence d'Alger. Publiée par Devoulx - Alger 1853 - Cité par Féraud : Sahara Constantinois, 1885 - p. 33.

عمر حاكم توغرت آنذاك (12) ولم تؤد هذه الحملة على ما يظهر الى نتائج حاسمة ، فبعد حصار طويل دام ما بين 25 يوما و 6 شهور حسب اختلاف الروايات ، اضطر أثناءه صالح باى الى قطع أشجار النخيل القريبة من توغرت انتقاما من الاهالى الذين التفوا حول الشيخ عمر حاكم المدينة للوقوف فى وجه الحملة ومقاومتها فى وقت كادت أن تنفد فيه مؤن وأقوات جيش المهاجم (13) ، ولهذا اضطر الباى فى الاخير الى شن هجوم كاسح مستعينا بقطع المدفعية التى أحدثت ثغرات فى سور المدينة ، وبذلك امكن للباى أن يأخذ من الحاكم الجديد الذى استعان به وهو الشيخ أحمد رسما للتوليه يقدر بمليون فرنك ، زيادة ان تسلمه 1000 بوجو عن كل مرحلة قطعها من قسنطينة الى توغرت (14) ٠

ومما يلاحظ على هذه الحملة أنها كانت تختلف عن سابقتيها ، فهى ناتجة عن دوافع شخصية وأغراض انتقامية أكثر من كونها توسعا تفرضه مصلحة الايالة الجزائرية ، كما أنها شنت من بايليك الشرق مباشرة فى وقت كانت فيه نواحى الاغواط وعين ماضى تتعرض لحملة انتقامية على يد محمد الكبير باى الغرب عام 1785 م ٠ فضلا عن أنها اقتصرت على مدينة توغرت دون التوجه نحو ورقلة عكس الحملتين السابقتين ٠

د ـ الحملة الرابعة : وهى تشبه فى أحداثها وظروفها الحملة ، السابقة ، اذ أنها اكتفت بمدينة توغرت ، وحدثت فى وقت كان فيه الباى حسان آخر بايات وهران يقوم بحملة تأديبية بنواحى عين ماضى والاغواط انتقاما من نشاط الطريقة التيجانية المعادى لسلطة البايليك ، كما أنها شنت على المنطقة من مركز بايليك الشرق عن طريق بسكرة ، نتيجة تحريض فرحات بن السعيد الراغب فى القضاء على سلطة بنى جلاب ، والحاق توغرت ونواحيها بمشيخته ٠

وقد عمد الباى أحمد المملوك اثناء هذه الحملة الرابعة التى وقعت سنة 1818 الى تخريب منطقة توغرت بقطع نخيلها وطمس مياهها ، مما جعل محمد بن جلاب يسارع الى

(12) Daumas, op. cit., pp. 113-134.
(13) Archives du ministère de la guerre à Vincennes (A.M.G.). H. 227 - Notice sur la province de Constantine, p. 5.
(14) Daumas, op. cit., p. 133.

ارضائه وتقديم ضريبة سنوية له تقدر بـ **100** ألف ريال بسيطة ، وهو ضعف المبلغ الذى كان فرحات بن سعيد يعد الباى بتقديمه له مقابل حكم المنطقة ، وذلك بعد أن تمكن الباى من قطع حوالى 200 نخلة فى مدة وجيزة (15) .

ولم ينقطع حكام توغرت عن تقديم هذه الضريبة حتى سقوط قسنطينة عاصمة بايليك الشرق فى يد الفرنسيين عام **1837** . وهذا ما ساعد الشيخ سى حمزة قائد أولاد سيدى الشيخ على التدخل فى شؤون المنطقة عام **1847** واحتلال ورقلة عام **1853** باسم السلطات الفرنسية .

2 ـ أما المظهر الآخر للنفوذ العثمانى بورقلة ومنطقتها فنلمسه فى تلك العلاقة التى ربطت أهالى المنطقة بحكام الايالة الجزائرية عن طريق الهجرة المؤقتة للمناطق التلية.

وتتلخص دوافع هذا الانتقال للتل والاحتكاك بسلطة البايليك فى طبيعة المناخ ونوعية الانتاج بالمنطقة الجنوبية والحاجة الملحة للحصول على المواد الاولية الضرورية للعيش (16) ، فالقبائل المقيمة بنواحى ورقلة وتوغرت كانت تتردد على الاسواق الواقعة بالتل لتصريف منتوجاتها المحلية من أصواف وجلود وتمور ، والحصول على ما تحتاجه من حبوب ومواد استهلاكية لا تتوفر فى الصحراء ، وايجاد المراعى الخصبة لمواشيها فى أواخر الربيع وطيلة فصل الصيف .

وتأتى فى طليعة هذه القبائل البدوية التى كانت لها اتصالات منتظمة مع رجال البايليك : الشعانبة والارباع وأولاد نائل (17) ، وسعيد عطبة ، وقد أدى هذا الاتصال بقبيلة سعيد عطبة الى قبول الانخراط ضمن قبائل المخزن ، وذلك لتضمن المراعى لمواشيها على حساب عشائر المخادمة وبنى ثور وبعض مجموعات الشعانبة (18) .

وقد زاد فى تدعيم هذا الاتصال البشرى تشجيع الحكام الاتراك لهذه القبائل على الهجرة الفصلية للتل ، بعد أن وجد هؤلاء الحكام فى هذه العلاقة المؤقتة وسيلة فعالة

(15) Féraud (L. Ch.) - Le Sahara de Constantine - Notices et souvenirs, Alger, A. Jourdan, 1887, pp. 80-81.
(16) Carette (E.) du commerce de l'Algérie avec l'Afrique Centrale et les Etats barbaresques - Paris, Guyot 1844, pp. 13-14.
(17) Emerit M. - Les liaisons terrestres entre le Soudan et l'Afrique du Nord au XVII[e] et début du XIX[e] siècles, travaux de l'I.R.S., T. x, N° 1, 1954, p. 37.
(18) Romey, op. cit., p. 102.

لتوطيد سلطتهم وتأكيد نفوذهم على سكان الجنوب (19) ، ومناسبة سانحة لاخذ ضريبة خاصة من تلك القبائل مقابل السماح لهـا بالتردد عـلى الاسواق والاقامة بالمراعى . وكانت هذه الضريبة الخاصة تعرف عـادة بمناطق التطرى القريبة من المدينة بـرسم العسة أو المعونة وهى تختلف باختلاف الجهات والقبائل والاسواق ، بحيث تخفف على القبائل الموالية ، ويزاد فى مقدارها بالنسبة للعشائر المعادية للبايليك ، مثل أولاد نائل الشراقة الذين كانوا يدفعون رسما مرتفعا من ضريبة العسة يقدر بـ 3150 خروفا و 270 جرة زبـدة غنـــم و 90 جملا بالاضاعة الى مبلغ من المـال حدد بـ 2700 ريـال بسيطة (20) .

وقد نتج عن فرض هذا الرسوم الخاصة على القبائل المهاجرة للتل بعض الاعمـال العدائية ، التى زادت فى حدتها الحملات التى اعتاد بايات قسنطينة ووهران والمـدية شنها على مناطق الهضاب العليا والاطلس الصحراوى فى فصلى الربيع والخريف .

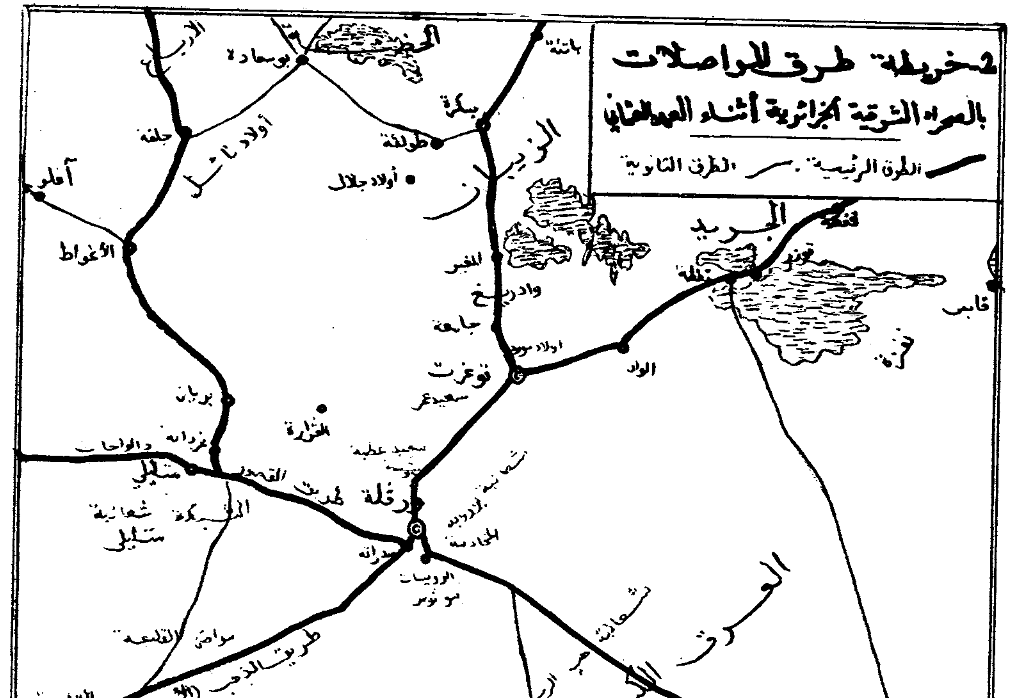
وعلى كل حال فان هذه الحوادث المؤقتة كانت محدودة من حيث الزمان والمكان الذى وقعت فيه ، بحيث لم تكن تمس المصالح الحيوية لحكام الايالة الجزائرية ، فهى لم تكن تشكل أى خطر على الوجود العثمانى داخل البلاد ، كما أنها لم تتسبب على ما يظهـر فى عرقلة هجرة البدو نحو التل ، وهذا راجع لكون أغلبها كان يدخل ضمن الصراع المستميت والعداء المستحكم بين القبائل البدوية نفسها ، مثل العداوة التقليدية بـين سعيد عطبة من جهة ومن الشعانبة وبنى ثور والمخادمة من جهة أخرى ، على أن الشىء الذى يمكن ان نستنتجه من هذه المناوشات هو أنها كانت تبرز لنا مع مطلع القـــرن التاسع عشر مـوقفا عدائيا بـدأت تتسم به عـلاقة هؤلاء البدو بالسلطات العثمانية الحـاكمـة (21) .

---

(19) Baudicour (Louis) - La guerre et le gouvernement de l'Algérie - Paris, Sagnier et Bray, 1853, p. 290.

(20) Urbain I. - Notice sur l'ancienne province du Titteri, in tableau de la situation en Algérie, années 1843-44, Paris, p. 403.

(21) Mantran R. - Algérie turque et Sahara, in Le Sahara - Rapports et contacts humains, 7e Colloque d'Histoire, Faculté des Lettres d'Aix-en-Provence, P.A.F.L. 1967, p. 67.


خريطة طرق المواصلات
بالصحراء الشرقية الجزائرية أثناء العهد العثماني
الطرق الرئيسية
الطرق الثانوية
بوسعادة
باتنة
جلفة
بسكرة
طولقة
أولاد جلال
الزيبان
آفلو
الأغواط
أولاد نايل
الجريد
توزر
قابس
المغير
وادي ريغ
جامعة
الوادي
تقرت
ورقلة
متليلي
القليعة
طريق الذهب الأوسط
العرق الكبير الشرقي
طريق القصور والواحات
غدامس
غات
عين صالح
زاوية الشيخ عثمان

3 ـ أما المظهر الثالث للنفوذ العثمانى بالمنطقة ، فكان يقوم على التبادل التجارى ، ويعتمد على حركة القوافل ونشاط التجـار ، فهـو بتعبير آخر ناتج عن كـون ورقلة ومنطقتها ظلت طيلة الفترة العثمانية كما كانت فى الفترة الاسلامية السابقة ملتقـى التجار وعقدة المواصلات ومحطة للقوافل التى كانت تعبر الصحراء وتربط أقاليم المغرب ببلاد العرب ، وجهات التل باقطار السودان (22) ·

فالطريق الرئيسى الذى أعطى لورقلة أهمية خاصة ، والذى كان يعرف بطـريق الواحات والقصور ، كان ينطلق من تافلالت نحو غدامس ، ويتفرع من ورقلة وتوغرت الى كل من غات وتماسين والقليعة والاغواط والزيبان ·

وهذا الطريق الرئيسى الذى سلكه بن ملـيح السراج عام 1630م (23) ، ووصفـه العياشى فى رحلته عندما كان ذاهبا للحج سنة 1663 ، كان يمتاز باستتباب الامن ، وكثرة الارباح التى يحصل عليها التجار بواسطته (24) ، بحيث يصبح التاجر موسرا بعد أن يشارك فى رحلة أو رحلتين عبر هذا الطريق (25) · فضلا عن كون هذا الطـريق اقصر مسافة من طريق التـــل الواصل بين فـــاس وتلمسان والجـزائر وقسنطينـة وتونس (26) ، فهو لم يتجاوز الالف كيلومتر بين منطقة متليلى ـ مـزاب وبين مدينة تونس ، مرورا على مدينة ورقلة (27) ·

وهناك طريق آخر لا يقل أهمية عن الطريق السابق وهو الطريق المعروف لـدى الرحالة والجغرافيين العرب بطريق الذهب ، الذى كان يمر بورقلة وتوغرت ويربط موانىء بلاد المغرب العربى بالمدن الرئيسية لممالك السودان كأغاديس وكانو وتمبكتو ·

---

(22) Mauroy M. - Du Commerce des Peuples de l'Afrique Septentrionale, Paris 1845, p. 63.

(23) ابن مليح السراج ، أنس السارى والسارب من أقطار المغارب الى منهى الآمال والمآرب ·

(24) Prax M. - Commerce de l'Algérie avec La Mecque et le Soudan, Paris, Just-Rouvier 1849, pp. 4 et 259.

(25) Emerit, op. cit., p. 39.

(26) Au capitaine B. H. - Etude sur la caravane de La Mecque et le Soudan de l'intérieur de d'Afrique, Paris, J. Claye, p. 4.

(27) Carette, op. cit., p. 22

ملاحظة : راجع خريطة طرق المواصلات الملحقة بالمقال ،

فبفضل هذه الطرق أصبحت ورقلة ومنطقتها محطة ومستودعا مؤقتا وسوقا استهلاكية لمنتوجات الصحراء والتل والسودان .

فالصحراء كانت تزودها بالتمور والاصواف والجلود والملح النطرون والحنة والمواشي والجمال ومختلف الانسجة كالبرانيس والحياك والاغطية ، فضلا عن ملح البرود وأنواع السكاكين والسيوف والحلي الفضية .

والتل كان يمدها بالحبوب والزيوت والاسلحة والعطور مع بعض المنتوجات المستوردة عن طريق البحر كالاقمشة المتنوعة والقهوة والسكر والشاي والورق ، بينما السودان كان يصدر عن طريقها : البخور الاسود والعاج والفلفل والفول السوداني ، مع كميات معتبرة من التبر واعداد وفيرة من عبيد السودان (28) .

وقد كان لهؤلاء العبيد الذين كانت تقوم عليهم تجارة الرقيق والنخاسة أهمية خاصة في حياة ورقلة الاقتصادية طيلة العهد العثماني ، بعد أن تضاءلت كميات التبر المستورد من السودان ، وبعد أن ارتفعت أسعار الدقيق الاسود بصفة خاصة نتيجة تزايد الطلب بالمناطق الشمالية لاقتناء العبيد للخدمة في المنازل وبعد أن أصبحت القرصنة لا توفر العدد الكافي من الدقيق الابيض . كما يعود ارتفاع اسعار الدقيق أيضا الى ازدياد تكاليف النقل بالصحراء منذ أواخر القرن الثامن عشر ؛ ففي هذا الصدد نجد أن مدينة توغرت مثلا كانت تستقبل كل سنة حوالي 500 فرد من الدقيق ، يقدر ثمن الواحد منهم في نفس المكان من 150 الى 250 ف ، لكن بعدما ينقلون الى التل يصل ثمن الفرد الواحد منهم الى 400 أو 500 ف (29) ، وقد يرتفع هذا الثمن الى 5000 بوجو (حوالي 3000 ف) عند توفر المواصفات والشروط المطلوبة (30) .

على أن الشيء الذي يلفت انتباهنا في هذا النشاط التجاري المتمثل في جلب العبيد واقتناء السلع والبضائع والمبادلة بها ، هو كونه كان احدى الوسائل التي مكنت حكام

(28) — Mauroy - op. cit., p. 22.
— Carette - op. cit., pp. 23-26.
— M. le Comte d'Escayrac de Lautune - Le désert et le Soudan, Paris E. Thunot 1853, pp. 540-561.
(29) Emerit, op. cit., p. 39.
(30) Boyer P. - La vie quotidienne d'Alger à la veille de l'intervention française. Paris, Hachette 1963, p. 166.

الايالة الجزائرية من ممارسة نفوذهم وتأكيد سلطتهم واسماع كلمتهم لدى سكان منطقة ورقلة ، فى وقت كان فيه اهالى المناطق الجنوبية الشرقية من البلاد الجزائرية يحرصون كل الحرص على ابقاء علاقات تجارية مع مدن الشمال ، لانهم كانوا يرون أن رخاء منطقهم مرهونا بانتظام القوافل التجارية وزيادة حمولتها ٠

وقد لاحظ أهمية المبادلات التجارية فى حياة المنطقة ليون الافريقى ، عندما ذكر بأن قبيلة سعيد (عطبة) الغنية بمواشيها ، كانت تمارس التجارة مع ورقلة وتوفر اللحوم لكل الجهات المحيطة بها فى فصل الصيف (31) ، كما أن العياشى ذكر بأن وصوله لورقلة صادف « دخول قافلة من اعراب الارباح قدموا بسمن كثير وغنم وابل وزرع ، اشترى الناس منهم ما احتاجوا اليه بارخص ثمن ، وقدمت قافلة أخرى بعدها بيوم واحد تحمل مثل ذلك وأكثر فتنعم الناس فى اللحم والتمر والسمن » ٠ (32)

ومما يلاحظ على هذا النشاط التجارى الذى يعكس لنا بصفة ايجابية النفوذ العثمانى بنواحى الجنوب ، انه تأثر سلبيا بالانكماش الاقتصادى وحالة الفوضى والاضطرابات التى بدأ الجنوب الجزائرى يعيشها منذ منتصف القرن السابع عشر بالخصوص ٠ وقد كانت هذه الحالة من الفوضى والاضمحلال الاقتصادى والانعزال السياسى بالمنطقة ناتجة عن عدة عوامل ، منها :

1 ـ تحول طرق التجارة البعيدة المدى عن منطقة ورقلة ، وبذلك فقدت طريق الذهب الرابطة بين السودان وأقطار المغرب العربى أهميته ، مما ترك آثارا سلبية على ورقلة ومنطقتها ، بعد أن كان بمثابة الدعامة التى يقوم عليها ازدهار المنطقة كما سبقت الاشارة الى ذلك ، وكما أكدته كتابات بعض الرحالة والجغرافيين العرب مثل البكرى (القرن الحادى عشر) والادريسى (الفرن الثانى عشر) وابن حوقل (القرن الثالث عشر) الذين أشادوا فى كتاباتهم بأهمية هذا الطريق ٠

ويعود هذا التحول لطريق الذهب الى أسباب عدة ، منها تمكن البرتغاليين من

---

(31) Léon l'Africain, op. cit., v, II, p.439.

(32) العياشى ، نفس المصدر ، ص 46 ٠

تغيير تجارة الذهب عن طريقها الطبيعي نحو سواحل المتوسط ، الى مرافىء الاطلس ، منــذ السنــوات الاولى مــــن القــرن السادس عشر (33) ، عــــلى أن هذا التحول فى الطريــق التجاريـــة تـــم بصفـــة تدريجيـــة وبطريقـــة مطــردة ، بحيث لــم تظهر آثــاره المدمــرة ونتائجــه السلبية عــلى مراكز الصحراء المهمة مثل ورقلة وتوغرت وغدامس والفقيق وتافلالت ، الا بعد نهاية القرن السابع عشر ، الذى أصبح فيه التعامل التجارى لا يتجاوز نطاقه العشائر البدوية المحلية ، فى وقت اختفت فيه منتوجات السودان من الاسواق وأصبحت لا تدخل ضمن قائمـــة السلع المحلية الا عــــرضـــا . (34)

ويضاف الى هذا السبب الرئيسى ، أسباب أخرى ثانوية تتمثل فى الفوضى التى كانت تعيشها أقاليم السودان منذ نهاية القرن السادس عشر اثر انهيار مملكة الصنغاى عام 1591 على يد السعديين ، وتفكك امبراطورية الهوسا ، فى وقت اشتد فيه التنافس بين البدو والطوارق (35) واستحكم العداء بين حكام ورقلة وبعض العشائر البدوية المجـــاورة .

وهذا ما ساعد على تحويل البقية الباقية من تجارة السودان عن ورقلة وتوغرت الى اقليم فزان وحوض وادى النيل ، حتى انه فى نهاية القرن الثامن عشر لم تعد تعبر منطقة ورقلة سوى مجموعة من الجمال متوجهة نحو قسنطينة ، هى فى حقيقة أمرها جزء من القافلة التى تتفرع فى غدامس الى كل من مدينتى تونس وطرابلس الغرب (36).

والجدير بالذكر هنا أن هذه الحالة من الفوضى والاضطراب رغم كونها عاملا مؤقتا ومساعدا على انهيار اقتصاد المنطقة ، الا أن بعض الكتاب الغربيين بالغوا فى تقديرها والتأكيد عليها حتى اعتبرها البعض منهم السبب الوحيد لهذه الحالة التى أصبحت عليها المناطق الصحراوية والنتيجة الطبيعية للحكم التركى بالجزائر هذا الحكم المنافى

(33) Braudel F. - Monnaies et civilisations de l'or du Soudan à l'argent de l'Amérique, un drame méditerranéen, Annales, Economies, sociétés, civilisations, 1er année N° 1, 1946, pp. 9 et 22.
(34) Emerit, op. cit., p. 39.
(35) Carette, op. cit., p.
(36) Archives nationales de Paris F. 80, B 1670, lettre du 6 Février 1892 de Prétot au général Pelet.

لكل تقدم واستقرار وحضارة حسب زعمهم (37) متناسين بذلك جوهر المشكلة الكامن فى الاغتصاب غير الشرعى لمسالك التجارة العالمية الذى نتج عن الاكتشافات الجغرافية وما صاحبها من توسع استعمارى أوربى ٠

2 ـ الصراع العشائرى بين المجموعات القبلية بالمنطقة ، الذى أدى الى تكوين أحلاف ظلت طيلة الفترة العثمانية تتصارع من أجل الاستحواذ على نقاط المياه وحيازة المزيد من المراعى ٠

وقد برزت هذه الاحلاف فى شكل صفين متنافسين ، احدهما يعرف بالصف الغربى ويتكون من الشعانبة والمخادمة وبنى ثور ، يعاضدهم بنو سيسين بورقلة ، أما الصف الآخر فكان يعرف بالصف الشرقى ويتألف من سعيد عطبة وأحلافهم من بنى واجين المستقرين بورقلة (38) ، ولم يبق خارج هاذين الصفين سوى بنو ابراهيم القاطنين بورقلة ، والذين كانوا فى حالة حياد الا اذا اضطرتهم الظروف فانهم ينظمون الى احد الصفين حسبما تتطلبه مصالحهم وميولهم ٠

أما الغلبة فى هذا الصراع المحلى بين الصفين ، فكانت فى أغلب الاحيان لسعيد عطبة ، وذلك لتمكنها من محالفة قبيلتى الارباع والحرازلة بجنوب التطرى ٠ ولمناصرتها حكام ورقلة ضد تحرشات الصف الآخر المعادى ، وهذا مامكن شيوخ سعيد عطبة المتمركزين بنقوسة بأن يصبحوا سادة منطقة ورقلة بأكملها ، وذوى الكلمة المسموعة لدى حكامها منذ القرن الثامن عشر ٠

وقد عرف حكام الايالة الجزائرية استغلال هذا الصراع الناتج عن روح الصف فى فرض نفوذهم على الاهالى وربط صلاتهم مع الحكام المحليين ، لا سيما بعد أن أدرجوا قبيلة سعيد عطبة ضمن قبائل المخزن المتعاملة معهم باعطائها حق حيازة المراعى فى الهضاب على حساب السعانبة والمخادمية وبنى ثور ٠ (39)

---

(37) Escarayrac de Lautune (D.), op. cit., p. 50.
(38) Blanchet P. - L'Oasis et le pays de Ouargla, in Annales de géographie 9/1900, p. 155.
(39) Romey, op. cit., p. 102.

3 ـ التنافس بين الحكام المحليين : الذى ظل قائما بالمنطقة بين أفراد الاسر الحاكمة أو بين بعض العائلات القوية المتنافسة على توسيع نطاق سلطتها ، منذ منتصف القرن السابع عشر ، بعد أن عرفت المنطقة نوعا من الاستقرار طيلة القرن السادس عشر وحتى بداية القرن السابع عشر تحت حكم أسر اشتهرت بالعدل والصلاح مثل : بنى جلاب بتوغرت الذين يتحدرون من سلالة الشيخ أحمد ابن جلاب ، الذى ينتسب الى بنى مرين ، ومثل عائلة مولاى علاهم بورقلة التى تنتسب على الارجح الى احدى العائلات المعروفة بمدينة فاس والتى وفدت على المنطقة بطلب من أهل ورقلة عام 1602 م ، بعد أن تلاشى حكم أسرة ابن أبى غلبون بورقلة ، ومثل شيوخ أسرة البابية بنقوسة المنتسبين الى الشيخ الولى الفاسى الذى حل بالمنطقة عام 1021هـ/1613 م ·

وقد أدى هذا التنافس الذى كان يشتد اواره بين أفراد الاسرة الواحدة فى بعض الاحيان الى جعل المنطقة تعيش عزلة سياسية وانكماشا اقتصاديا وتقهقرا عمرانيا ، وهذا ما ساعد على جعل الكلمة الاولى فى المناطق الصحراوية لشيوخ العشائر البدوية .

ففى هذا المجال نجد أن أسرة بنى جلاب التى كانت فى أول عهدها تحكم مناطق شاسعة من وادى ريغ وايغار غار ، أصبح حكمها نتيجة هذا التنافس لا يتعدى مدينة توغرت وواحة تماسين القريبة منها ، فى عهد محمد بن محمد بن جلاب (22 ـ 1830) الذى اشتهر بأخلاقه الفاسدة وبقتله لاخوته ليأمل من منافستهم ·

كما نجد أن عائلة علاهم بورقلة أدت بها تلك المنافسات الى حدوث مذابح وأعمال انتقامية تضررت منها تلك الجهات ، ولعل أحسن وصف لذلك نجده لدى العياشى الذى تعرض الى احدى هذه الحوادث الانتقامية بقوله : « وقد خلا كثير منها (اشارة الى مدينة ورقلة وسكانها) بسبب فتنة وقعت فيها قبل قدومنا بنحو من شهرين ، وذلك ان طائفة منها هم بيضة البلد وعصبة أهلها اتهمهم الامير بالقيام عليه فاتفق مع رعيته على قتلهم كلهم وان لا يفلتوا أحدا منهم كبيرا أو صغيرا فامر بسد أبواب المدينة وتقدم

الى من هو خارج البلد من الاعراب ان يرتصدوا خارج السور فمن أفلت من البلد قتلوه ، فقام عليهم بالسيف بغتة هو ومن معه قتل منهم مقتلة عظيمة، نحوا من المائتين، ولم يسلم منهم الا من تسور جدار السور ان لم يلقه الاعراب أو افتدى منهم ، وهي فعلة شنيعة عدت من هفوات ذلك الامير وأسقط ذلك منزلته عند كثير من الناس » (40).

ولم يقتصر هذا العداء على أفراد الاسر الحاكمة ، بل تعداها الى المراكز العمرانية بالمنطقة ، فأصبحت العداوة والنزاع مستحكمة بين توغرت وتماسين ، وبين ورقلة ونقوسة (41) .

ومما زاد فى حدة هذا التنافس فى المنطقة ، تشجيع حكام الايالة له وتحريضهم عليه ، وانتصارهم لحاكم دون آخر ، لانهم وجدوا فى الابقاء على هذه العداوة بين الحكام المحليين خير وسيلة لفرض نفوذهم واقرار سلطتهم على كامل مناطق الجنوب .

ففى هذا الصدد نجد أن الباى محمد بن أحمد القبائلى يناصر عائلة بن قانة بالزيبان فى نزاعها مع عائلة بنى جلاب ، بحكم المصاهرة (42) والمصالح المشتركة ، مما اضطر الشيخ ابراهيم بن جلاب الى الفرار والتخلى عن زعامة توغرت الى ابراهيم بن الحاج ابن قانة ، لكن هذه النتيجة لم ترض الباى محمد بن أحمد القبائلى ، ولهذا سعى جاهدا فى تدبير مؤامرة لقتل ابراهيم بن جلاب وذلك بتحريض أفراد أسرة بن جلاب ضد أخيهم محمد بن محمد بن جلاب للتخلص منه ، ونفس الموقف وقفه الباى أحمد المملوك فيما بعد عندما حاول الانتقام من محمد بن جلاب ومناصرة فرحات بن سعيد من عائلة بوعكاز الراغب فى حكم توغرت مقابل تقديم مبالغ مالية لخزينة البايليك كما سبقت الاشارة الى ذلك أثناء التعرض للحملة الرابعة على المنطقة .

(40) العياشى ، نفس المصدر ، ص 46 — 47 .

(41) Daumas, op. cit., pp 89 et 135.

(42) أحمد بن محمد القبائلى ، كان متزوجا من رقية بنت بن قانة شيخ العرب ، وقد رزق منها بابنه أحمد الذى أصبح فيما بعد آخر بايات قسنطينة : الحاج أحمد باى (1826 — 1837) .

4 ـ كثرة الضرائب وتزايد المطالب المالية التى اثقلت كاهل سكان المنطقة وجعلتهم يعيشون فى حالة فقر وعوز بعد أن كانوا فى أثناء القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر يشتهرون بيسر أحوالهم وسعة عيشهم وكثرة ثرواتهم·(43)

ومما زاد فى ثقل هذه المطالب الضرائيبية انها كانت تفرض عليهم من جهات متعددة ، كالحكام المحليين وسلطات البايليك وشيوخ العشائر البدوية ، فمدينة ورقلة كانت تضطر الى دفع ضريبة مرتفعة لقبيلة سعيد (44) ، كما كانت ملزمة بتقديم هدايا ثمينة لبايات قسنطينة عندما يكونون فى حالة تسمح لهم بتوجيه الحملات الانتقامية ضدها (45) ، هذا بالاضافة الى الغرامة السنوية التى كانت تساهم بها فى خزينة الايالة منذ حملة يوسف باشا عام 1649 م، والتى أصبحت منذ سنة 1787 تقدم فى شكل هدية مؤلفة من 25 عبدا ، ثم تحولت فيما بعد الى مقدار من المال يعرف بحق البشماق وهو يساوى 928 صايمة ، أى ما يعادل 165 ف (46) ·

ونفس الاوضاع كانت تعيشها مدينة توغرت التى ألزمها أحمد المملوك باى قسنطينة عام 1820 م ، بدفع ضريبة مرتفعة قدرت بحوالى 500،000 ريال بوجو (47) ، مع أنها اعتادت قبل ذلك تقديم كمية من الحياك والاغطية الصوفية للباى ، يصل عددها الى 5000 أو 6000 حايك وغطاء ، أى ما يعادل 40 أو 50 ألف فرنك (48) ، هذا زيادة عن مساهمة عشيرة الارماك بـ 7000 ريال بوجو كل سنة من جملة 21850 ريال بوجو كانت تتعهد بها مناطق الصحراء الشرقية لخزينة البايليك ، ويتسلمها شيخ العرب ابن قانة باسم البايليك تحت تهديد رجال القوم وفرق الحامية التركية (النوبة) المعسكرة بمدينة بسكرة (49) ·

(43) — Haedo, op. cit., p. 271.
— Léon l'Africain, op. cit., vol. II, p. 630.
ـ العياشى ، نفس المصدر ، ص 48 ·
(44) Léon l'Africain, op. cit., vol. II, p. 439.
(45) A. M. G., H. 227, p. 5.
(46) Trumelet, op. cit., p. 31.
(47) Tableau de la situation des établissements français dans l'Algérie en 1840, p. 363.
(48) Daumas, op. cit., p. 134.

هذه بعض الاسباب والعوامل التى أثرت سلبيا على حياة ورقلة ومنطقتها اقتصاديا وأجتماعيا فى أواخر الفترة العثمانية ، والتى ستبقى ناقصة وغير قادرة على اعطائنا صورة متكاملة وواضحة عن واقع المنطقة الا اذا تعرضنا الى ذكر الخصائص والمميزات التى اتصفت بها المنطقة طيلة الفترة العثمانية والتى يمكن غرضها فى هذه النقاط :

1) ظلت ورقلة ومنطقتها فى أغلب فترات العهد العثمانى خاضعة لحكام الايالة الجزائرية بشكل مباشر عن طريق توجيه حملات عسكرية ، أو بشكل غير مباشر من خلال اظهار التبعية وابداء فروض الطاعة بذكر اسم السلطان العثمانى فى خطبة الجمعة ، كما أكد ذلك العياشى عندما أورد أن امام المسجد الجامع كان يدعو فى خطبته « للسلطان الاعظم والخاقان الافخم محمد بن ابراهيم بن مراد » (50) ، وذلك رغم احتفاظ المنطقة بنظامها الداخلى ونمط حياتها الخاصة .

ومرد ذلك أن حكام الايالة اكتفوا بهذا الوضع الخاص الذى لم يكلفهم كثيرا ، فلم يبادروا الى اقرار التنظيمات وسن القوانين وتنصيب الحكام وابقاء الحاميات بكل مناطق الجنوب باستثناء مدينة بسكرة التى ظلت كما هو معلوم ترابط بها حامية تركية مؤلفة من 64 رجلا «موزعين على أربع سفرات تضم على التوالى : 15 و 16 و 17 و 16 رجلا»(51)

وقد ترتب عن هذه السياسة الخاصة أن أصبح كل من الاطار الزمانى والمكانى للوجود العثمانى فى هذه المناطق غير قار ولا محدد ، وهذا عكس ما جرى به العمل فى الصحراء الليبية التى حرص العثمانيون كل الحرص على التوغل فيها حتى واحة فزان الواقعة فى أعماق الصحراء .

2) كان للنفوذ العثمانى بمنطقة ورقلة جانبان أحدهما سلبى يقوم على استعمال القوة وشن الحملات وفرض الضرائب والتحكم فى المراعى ، والآخر ايجابى يعتمد على المبادلات التجارية والهجرة المؤقتة وذلك بفضل الاسواق ومراعى الهضاب والتل وطرق الصحراء ومراكزها .

(49) A. M. G., H. 227, p. 24.

(50) هو محمد الرابع بن ابراهيم بن مراد الرابع الذى حكم من 1648 الى 1687 م ، راجع العياشى ، نفس المصدر ، ص 46 .

(51) Tachriffat, op. cit., pp. 70-71.

وقد أكتسب الجانب الاخير ايجابية من كونه عاملا بناء ومساعدا على ازدهار المنطقة فى نطاق التبعية العثمانية ، بينما الجانب الاول وهو السلبى كان يتنافى مع المصالح المشتركة لكل من رجال البايليك وأهالى الجنوب ، وذلك لما آنجر عنه من روح عدائية وأعمال انتقامية ، زادت فى الروح العشائرية بين بدو الصحراء ، وأبعدت أهالى الجنوب عن كل تعاون مع سلطات البايليك ، وهذا ما يكون له أثر على معنويات النضال المسلح فى الجنوب ضد الاحتلال الفرنسى ، لا سيما أثناء مقاومة أحمد باى بمنطقة الزيبان ·

3) ارتبط ازدهار منطقة ورقلة طيلة الفترات التاريخية التى عاشتها وبالخصوص أثناء الوجود العثمانى بالبلاد الجزائرية ، بمدى قدرة الاهالى على استغلال المياه الجوفية والمحافظة عليها ، فهجرة الاباضيين الى المنطقة فى القرن العاشر الميلادى التى صادفت توسعا زراعيا وازدهارا عمرانيا لا تزال آثاره ماثلة فى خرائب سدراته ، قد آرتبط بالتحكم فى المياه الجوفية والعمل على الانتفاع بها ، بينما كان قدوم القبائل الهلالية للمنطقة أثناء القرن الثانى عشر يحمل معه انكماشا عمرانيا وتقهقرا اقتصاديا نتج أساسا من اهمال هؤلاء البدو لاستغلال مصادر المياه الجوفية وجهلهم بطرق استعمالها والاحتفاظ بها عند الحاجة ·

على أن هذا الوضع ما لبث أن تغير عندما بدأ الاهالى يتمرسون من جديد على الانتفاع بالمياه الجوفية بعد ان اضطرتهم الحاجة الى توفير المزيد من المياه لسد حاجات مدينة ورقلة التى اصبحت منذ منتصف القرن الثالث عشر محطة رئيسية للقوافل وملتقى المسافرين والحجاج من مختلف الجهات والاقاليم · ونستدل على الازدهار والرفاهية المرتبط بحسن الانتاج بالمياه الجوفية أن سكان ورقلة كان فى وسعهم دفع ضريبة لحاكمهم تقدر بـ 150 ألف دقة ذهبية كما أن حاكم ورقلة كان قادرا على الانفاق عن حامية ضخمة مؤلفة من 1000 فارس (52) فى وقت كان فيه أهم انتاج للمدينة توفره أشجار النخيل · (53)

---

(52) Léon l'Africain, op.cit., vol. II, p. 630.
(53) Haedo, op. cit., p. 271.

لكن المنطقة لم تحافظ على ازدهارها ، بعد أن اهملت مصادر المياه منذ منتصف القرن السابع عشر من جراء الاضطرابات والفتن والتخريب وتحول كثير من فـلاحى الواحات الى رعاة ، وقد استمر هذا الوضع بالمنطقة حتى حلول الفرنسيين بالمنطقة نهائيا عام 1882 وفرضهم الحكم العسكرى الظالم على أقاليم الجنوب .

4) ظلت الحياة الاقتصادية بورقلة ومنطقتها ، يغلب عليها الطابع التجارى ، رغم اشتغال قسم كبير من السكان بالاعمال الفلاحية وبعض الصناعات المحلية .

وهذا ما يسمح لنا بالقول بأن التجارة رغم الضعف الذى أصبحت عليه فى أواخر الفترة العثمانية ، ظلت تعتبر عماد اقتصاد المنطقة ، ومصدر غنى سكـان ورقلـة بالخصوص (54) ، وذلك بفضل ظهور طبقة موسرة من التجار ذات خبرة ودراية بالاعمال التجـاريـة .

وتتجلى لنا خبرة تجار ورقلة وتوغرت ، فى تخليهم عن مبدا المبادلة والمقايضة عند تصريف البضاعة وشراء السلع ، واستعمالهم العملة الجزائرية الآنذاك مع العملات الاخرى كالريال التونسى المعروف بالطرباقة والدورو الاسبانى (55) ، بازاء عملـة محلية وصفها العياشى فى رحلته بأنها كانت تتألف من دراهم فضية ، يعادل كـل أربعة وعشرين درهما منها ريالا واحدا وذلك لما فيها من نحاس كثير (56) . كما تظهر لنا دراية تجار المنطقة فى تمكنهم من تأليف قوافل مسلحة تربط كلا من توغـرت ونقوسة وورقلة بالمراكز التجارية الاخرى بالصحراء كغدامس والواد ومتليلى وميزاب، وهذا ما مكنهم من ضمان نقل بضائعهم الى خارج المنطقة دون الالتجاء الى وساطة التجار الآخرين ، وبذلك وفروا مبالغ باهضة من الاموال كان يتطلبها نقل البضاعة من مكان الى آخر ، ونستدل على تكاليف النقل التى وفرها تجار المنطقة من أن حمولة جمل من التمر كانت تشترى من طرف تجار ورقلة أو توغرت بـ 15 ف ، لتبدل بأربع حمولات من الحبوب عند نقلها الى التل ، وعندما تعود هذه الحمولات الى المنطقة تباع مرة أخرى

(54) Léon l'Africain, op. cit., vol. II, p. 630.
(55) Daumas, op. cit., p. 135.
(56) العياشى ، نفس المصدر ، ص 48 .

الى البدو بـ 400 ف ، وبذلك يحصل التاجر مقابل نقل البضاعة وابدالها على ربح يربو على 385 ف • (58)

وبازاء هذا النشاط التجارى الرئيسى ، ظلت بعض المهن الصناعية والاعمال الفلاحية تؤلف نشاطا اقتصاديا هامشيا يسد حاجات الاهالى ويتماشى مع أوضاع المناطق الصحراوية ، فالفلاحة كانت تتمثل فى غرس اشجار النخيل (58) ، وزراعة بعض المنتوجات الاستهلاكية عندما تسمح المساحة المروية من الواحة بذلك ، أما الصناعة فقد كان لها طابعا محليا تقليديا استمد وجوده من معالجة بعض المواد الاولية المتوفرة فى عين المكان ، مثل الجلود والاصواف وخردة الحديد ومعدن الفضة ومادة ملح البارود ، التى مهر صناع المنطقة فى تحويلها الى سروج وألجمة وأحزمة وحافظات واحذية واغطية وأردية وبرانس وسكاكين وسيوف وبارود وحلى (59) ، مما أكسبها جودة واتقانا واعطاها شهرة تجاوزت نطاق الجهات الجنوبية رغم قلة أعدادها وضآلة كمياتها •

5) يعطى لنا النفوذ العثمانى بمنطقة ورقلة فكرة صحيحة عن مدى ارتباط البلاد الجزائرية بافريقيا السوداء ، وذلك لكون هذه المنطقة بوضعها الجغرافى ونشاطها الاقتصادى ظلت طيلة الفترة العثمانية تشكل حلقة وصل وبوابة طبيعية بين بلاد المغرب الاوسط واقاليم السودان الغربية ، ومعبرا حيويا تمر منه السلع وتنتقل عبره وفود الطلبة والتجار وجماعات العبيد بين مختلف جهات الصحراء الكبرى •

وهذا ما أكسب المنطقة رسالة انسانية سامية تمثلت خطوطها الرئيسية فى ذلك الاقتباس الحضارى والتمازج العرقى الذى أصبحت معه مدينة ورقلة مركزا مهما

(58) Emerit, op. cit., p. 39.

(59) كان عدد أشجار النخيل عند خضوع المنطقة للحكم الفرنسى عام 1881 يقدر بنواحى ورقلة بـ 436,252 نخلة ، فى وقت كان فيه عدد سكان المدينة والقصور المجاورة لها لا يزيد على 4331 نسمة ، أما مدينة توغرت فكان عدد أشجار النخيل المحيطة بها يقدر بحوالى 300 ألف نخلة تسقى بمياه 450 بئر ارتوازية • وذلك فى سنة 1856 م •

راجع : — Blanchet, op. cit., p. 148.
— Raynal, op. cit., p. 435.

يستمد منه أهالى السودان الغربى تعاليم الاسلام ومبادىء العربية وأساليب الحيـاة والمعيشة المتماشية مع مفهوم الحضارة الاسلامية ، مما زاد العلاقة الجزائرية الافريقية رسوخا وتلاحما ، واظهر من جهة أخرى مدى الاضرار التى أصابت افريقيا فى علاقتها باوروبا ، تلك العلاقة التى حولها الاستعمار الاوروبى عن اتجاهها الطبيعى فلم تهتم الا بنهب الثروات واستنزاف الخيرات وتشييع تجارة النخاسة على حساب مصـالح شعوب القارة الافريقية .

6) كما يثبت لنا النفوذ العثمانى بمنطقة ورقلة من جهة أخرى ، تكامل اقليمى الصحراء والتل ، هذا التكامل الذى يعطى للايالة الجزائرية منذ القرن السادس عشر وحدة طبيعية ، ترتكز على الترابط البشرى الفعال والتبادل الاقتصادى المثمر والعمل الحضارى البناء .

الوضع فى منطقة ورقـــلة قبل الاحتـــلال الفرنسي

عبد الحميـد زوزو
معهد العلوم الاجتماعية جامعة الجزائر



تدخل دراسة منطقة ورقلة فى عهد الاحتلال الفرنسى للشمال ضمن الدراسة التاريخية الشاملـة للصحراء الجزائرية ؛ ذلك أن الثورات الصحراوية ، فى نظرنا ، تشكل وحدة متكاملة وتكون سلسلة مترابطة الحلقات منذ ثورة الزعاطشة بالجنوب الشرقى ، والشريف محمد ابن عبد الله بالجنوب الاوسط ، الى ثورة أولاد سيدى الشيخ وبوعمامة بالجنوب الغربى ، مع ما هنالك من خصائص جغرافية ، ومميزات تاريخيـــة ، وظـروف محلية تتحكم فى هذا الاقليم دون ذاك •

ومنطقة ورقلة كانت فى ظرف تاريخى معين ملجأ للمهاجرين ، ومأمنا لبعض الجماعات والافراد من غضب السلطة المركزية فى الشمال ، وذلـك بحكم موقعها الجغـرافى

البعيد عن المناطق الساحلية والتلية ، فقد هاجرت اليها الفرقة الاباضية عندما شتت الفاطميون دولتهم فى القرن العاشر الميلادى . وكان لموقعها الرابط لطرق التجارة الصحراوية بين الشرق والجنوب الشرقى الدور الهـام فى حياتها الاقتصاديـة والاجتماعية والعلمية ، فضلا عن الاثر الطيب لهذا الدور على البلد كله . لقد كـان نشاطها التجارى متصلا ببلاد السودان وبمدينة غاو بامبراطورية السنغاى جنوبا ، ومرتبطا بغدامس وليبيا شرقا . وقد سجل المؤرخون فى كتاباتهم ، ومثلهم الرحالة ، الرخاء الاقتصادى والعيش الهنىء السائدين بها ، امثال الادريسى (ق 12) والحسن ابن محمد الوزانى المعروف بليون الافريقى (ق 16) وهايـدو (ق 16) والعيـاشى (ق 17) . (1)

لكن يبدو أن عوامل جديدة عملت على اضعاف تجارتها منذ أواخر القرن 17 ، من بينها : ظهور طريق بحرى جديد لنقل الذهب من خليج غينيا الى البرتغال ، وظهور طريق صحراوى آخر من السودان الى مصر ؛ ومن بين العوامـل اهتمام السلطـة العثمانية فى الجزائر بالتبادل التجارى فى البحر المتوسط، وأهمالها له عبر الصحراء . ثم كان سقوط مملكة السنغاى سنة 1591 عاملا آخر أثر على تجارة الذهب بالمنطقة .

وخلال القرن السابع عشر استقر بالمنطقة عنصر جديد ساهم فى خلق أوضـاع سياسية واجتماعية واقتصادية جديدة ، يتمثل فى استقرار قبائل سعيد ، وبنى ثور والشعامبة والمخادمة كما سيأتى .

وسينصب اهتمامنا فى هذا المقال على الوضع فى المنطقة خلال الفترة الممتـدة من 1830 الى خضوعها للفرنسيين فى مطلع سنة 1854 . والمقصود بالمنطقة هنا واحتى ورقلة ونقوصة وما اتصل بهما من قصور . وخلال هذه الفترة ، مرت المنطقة بمرحلتين تميزت الاولى (1830 ـ 1851) بالصراع المحلى ، حال دون الاستعداد لمجابهة العدو الفرنسى ، فى حين تميزت الثانية (1851 ـ 1854) بمقاومة الفرنسيين بقيادة محمد

(1) أنظر بلحميسى ، مدينة ورقلة فى رحلة العياشى ، مجلة تاريخ وحضارة المغـرب عدد 8 ، يناير 1970 ، كلية الآداب ، جامعة الجزائر ص 41 ـ 51 .

ابن عبد الله التلمسانى . واذا كانت ورقلة قد قادت المرحلة الثانية فقد تزعمت نقوصة المرحلة الاولى .

ونبدأ بالتعرف على الوضع الاجتماعى والاقتصادى لعلاقته بالصراع السياسى (2)، تعتمد كل من واحتى « انقوصة » (3) وورقلة فى اقتصادها ، بالدرجة الاولى ، على انتاج التمور ، فورقلة تحيط بها غابات من اشجار النخيل ، تتخللها بعض البساتين ، مثلما تحيط بالقصور الاخرى المتممة للواحة وهى : بامنديل والرويسات ، وعجاجة ، وعين احمار ، وسيدى خالد ، بحيث يشكل وضعها العام شكلا اهليجيا تغطيه أربع مائة ألف نخلة ، وترجع هذه الثروة الى توفر المياه الجوفية بشكل جيد ، تصل الى الواحة عن طريق وادى « مية » (4) ، القوى بروافده الكثيرة لتتدفق ينابيع ، أو تستخرج من مئات الآبار القليلة العمق .

وينطبق نفس الوضع على واحة نقوصة الواقعة الى الشمال من ورقلة بنحو ثمانية عشر كيلومترا ، فهى أيضا تقع وسط غابات النخيل، تسقيها مياه وادى نساء وميزاب، والتى يتم استخراجها عن عمق لا يزيد على ستة امتار وعليه فان غابات النخيل لا تلعب دورا اقتصاديا رئيسيا فحسب ، بل وتشكل بالنسبة للسكان حصنا دفاعيا طبيعيا ضد الغارات المتكررة .

أما الاصل العرقى للسكان فهو مزيج من العرب والبربر والزنوج . والسكان بحسب نمط حياتهم صنفان : حضر مستقرون ، وأعراب رحل . يقطن الصنف الاول داخل القصور المسورة ، ويتوزعون داخلها على عدد الاحياء المساوى لعدد الجماعات

---

(2) اعتمدنا فى هذه الدراسة بالدرجة الاولى على كتابين لان مؤلفيهما قد زارا المنطقة للتعرف عليها وذلك خلال سنتى 1842 و 1853 ، وهما :

Daumas : Le Sahara Algérien - Etudes géographiques, statistiques et historiques, sur la région du Sud des établissements français. Paris, 1845.

C. Trumelet : Les Français dans le désert - Journal historique militaire et descriptif d'une expédition aux limites du Sahara Algérien. Paris, 1887.

(3) « انقوصة » من النقص كما جاء بيان ذلك فى مخطوط بعنوان « تجريب القلم » نقله فيرو فى كتابه

L. Charles Féraud : Le Sahara de Constantine. Alger, 1887, p. 456.

(4) من العدد « مائة » لكثرة الروافد الرافدة للوادى والتى قد تصل الى مائة .

أو الاسر القاطنة ضمن القصر . فورقلة كانت تضم ثلاثة أحياء ، يقطن حيها الشمالى بنو سيسين ، وحيها الشرقى بنو ابراهيم . أما بنو واجين فيقطنون الحى الغربى منها. وكانت للمدينة ستة أبواب باعتبار أن لكل حى بابين خاصين به ، فلحى بنى ابراهيم باب عمار وباب عزى ، ولحى بنى واجين باب ربيعة وباب الربح . أما حى بنى سيسين فله باب السلطان وباب أحمد (5) . ويقدر دوماس Daumas الذى زار المنطقة سنة 1842 عدد الديار داخل قصر ورقلة بستمائة دار ، بالاضافة الى ثلاثة مساجد جامعة وقصبة ، كما يقدرها بمائة دار فى عين احمار ، وبستين فى العجاجة وبأربعين فى الروسيات . (6)

أما فيرو Feraud ، الذى كان هو الآخر قد زار المنطقة سنة 1871 فيقدر عدد سكان قصر ورقلة وحده بألفى نسمة . (7)

ولا شك أن المادة المستعملة هى اللبن وجذع النخل وسعفه ، أو غيرها من الامكانيات المتوفرة . فكل البناء باللبن الا فى قصر بامنديل وفى قصبة الشريف محمد بن عبد الله بجنوب الروسيات ، أريد بناؤهما بالحجر لمتطلبات دفاعية محضة .

ويقطن قصر نقوصة كذلك حضر مستقرون يضمهم حى واحد وتقدر دياره بنحو مائة وثمانية وثلاثين ، بالاضافة الى مسجدين وقصبة (8) . وتحيط بقصرهم سور

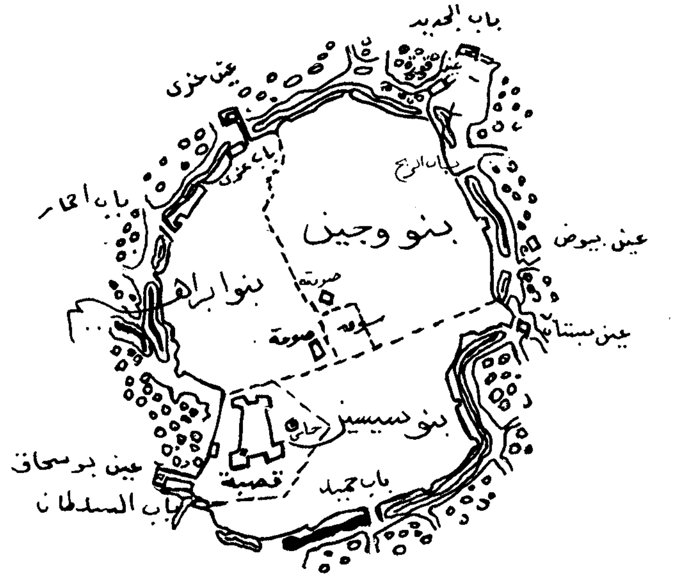
L. Charles Féraud : Le Sahara de Constantine. p. 456.

(6) Daumas, pp. 72 et 80 ينفرد دوماس بذكر ثلاثة جوامع ، بينما يتفق فيرو وترومیلی فی ذكر جامعين فقط ، وهما جامع عزة الذى بناه الميزابيون ، والجامع الكبير المعروف بجامع المالكية . وربما كان هناك جامع ثالث سقط اثر التلف الذى لحق به قبل زيارتهما لورقلة ، اذ أشار دوماس الى الضعف الذى لحق باحدى الصوامع الثلاث فى سنة 1842 . ويذكر ترومیلی فی مكان آخر من كتابه (ص 471) بوجود سبعة عشر زاوية ضمن قصر ورقلة .

(7) نتصور أن يكون عدد السكان المقدر من طرف فيرو لا يختلف كثيرا عما كان عليه فى الفترة المدروسة بسبب كثرة الحروب والهجرة نحو أماكن أخرى .

(8) Trumelet, p. 449 فى حين يقول دوماس بأن عددها كان يتراوح ما بين 150 و 200 . والرواية الاولى أكثر دقة فى نظرنا ، لان ترومیلی كان قد دخل نقوصة وجال فى انحائها ، أما دوماس فقد اكتفى بتسجيل ما سمع عنها .

مخطط مدينة ورقلة سنة 1880 .



1/10.000

المرجع : نقلا عن P. VUILLOT, l'Exploration du Sahara. E. Historique et Géo. PARIS, 1895. P. 177.

مسننة تعلوها تدعيمات مربعة يصل عددها الى ثلاثين ٠ وللقصر بدوره خمسة أبواب هى : باب الزريبة، باب العلوش، باب تلموناست، باب القصبة وباب العين الزرقاء.(9)

وهكذا كان يحيا الحضر داخل أسوار قصورهم وخارجها حياتهم العادية ، ففى الداخل يمارسون التجارة، ويمتهنون الحرف المختلفة من حدادة ونجارة وما الى ذلك(10)

وفى خارجها يعنون ببساتينهم ونخيلهم ٠ أما فى زمن الحرب فانهم يتصدون للدفاع عنها ، مستحكمين التدعيمات ومدعمين للتحصينات ٠ وتظل الابواب موصدة ، والخنادق المحيطة بالقصور مليئة بالمياه المتوفرة الى أن يسود الامن ٠ (11)

أما الصنف الثانى ، وهم البدو الرحل ، والذين استقروا بالمنطقة فى بداية القرن السابع عشر فقد ظلوا الى هذه الفترة التى نكتب عنها محافظين على حياة الترحال ، باستثناء نسبة قليلة منهم ، ويضربون مضاربهم عند أسوار القصور ، أو بقربها هنا وهناك فى غابات النخيل ٠ لكن علاقاتهم بالسكان داخل الاسوار كانت وطيدة عن طريق المصالح المتبادلة ، بحيث كان بعضهم لبعض خدم ٠ وعلى هذا النحو ارتبطت قبيلة سعيد عتبة بأسرة بنى ،اجين ، وقبيلة المخادمة ببنى سيسين ، وبدو بوروبة ، وهم فرع من قبيلة الشعامبة ، ببنى ابراهيم (12) ٠ وربما اقتضت الحاجة الى التحالف مع عدو سابق ضد صديق الامس ٠ ومهما كانت طبيعة العلاقة فيما بين القبائل البدوية من جهة ، وعلاقاتها بسكان القصور من جهة أخرى ، فقد لعبت دورا أساسيا فى مختلف أوجه الحياة ٠ وما دام الامر كذلك فان الصورة الاقتصادية والاجتماعية لا تكتمل الا بالتعرف عليها ، وعلى امكانياتها الحربية وثروتها الحيوانية ، وبتحديد مجال تنقلاتها ٠

Daumas, p. 88

(10) تسجل المراجع وجود دكاكين للحرف اليدوية فى كلا القصرين ما عدا حرفة الصياغة التى كان يتولاها اليهود القادمون الى المنطقة لنفس الغرض ولفترة معينة ، أنظر نفس المصدر ص 86 ٠

(11) كانت ورقلة محاطة بخندق مواز لسورها ، بينما كانت نقوصة يحيط بها خندق من جهة الشرق فقط ٠ ويراعى فى حفر الخنادق العمق والعرض خاصة ، فبينما يتراوح العمق ما بين 2 و 3 أمتار ، كان العرض يصل الى 10 أمتار ٠

(12) L. Charles Féraud : Kital El Adouani, Constantine 1869, p. 205.

فخلال الفترة المدروسة ، كانت فى منطقة ورقلة ثلاث قبائل كبرى : أولها قبيلة المخادمة التى كان من ضمنها بنو حسان ، أولاد نصر ، بنو خليفة ، بنو ثور ، العريمات وأولاد أحمد · وتملك هذه القبيلة ستين جوادا وخمسمائة بندقية ، ولكنها فقيرة نسبيا فى قطعان الغنم · أما مجال تنقلهم فكان الى جنوب شرق ورقلة فى اتجاه قاسى الطويل وغدامس · وأما فى فصل الشتاء فيقصدون وادى رزقون وصغور "Seggueur" الى الشمال الغربى من غرداية · وهناك قسم من بنى ثور لا يرتحل وانما يقيم باستمرار فى قصرى اروسيات وعين احمار · (13)

والقبيلة الثانية هى الشعامبة بوروبة ، وينتمى اليها أولاد اسماعيل ، أولاد أبو بكر، ودرى، أولاد فرج، أولاد سعيد، أولاد زايت · ولها من الامكانيات 30 جوادا ، ومن السلاح كمية تتراوح بين مائتين وثلاثمائة بندقية · (14)

ومجال تنقلهم يمتد حتى غدامس فى الجنوب ، والى تماسين بقرب توقورت شمالا ، والى عين صالح جنوبا ، والى وادى الغربى عند سفوح جبال القصور غربا (15) · وفى هذا المجال الواسع الذى يصل قطر دائرته الى أربعمائة كيلومتر ، تنتشر القبائل لمدة ثلاثة أشهر ، تعود بعدها الى ورقلة مع حلول فصل الخريف · (16)

أما القبيلة الثالثة فهى قبيلة سعيد عتبة التى هى فرع من قبيلة سعيد القبيلة الام ، وتضم فتناسه والرحبات وأولاد يوسف (17) · وتفوق امكانياتها الدفاعية امكانيات القبائل الاخرى بحيث تقدر بمائة جواد وخمسمائة بندقية (18) · ويمتلك أفرادها بالاضافة الى ذلك ثروة هائلة من الغنم والجمال · أما رحلتهم السنوية فكانت تتم بالشكل التالى : بعد الاقامة فى ورقلة مدة تمتد من اكتوبر الى جانفى ويتم خلالها جنى التمور وشحنها ينتقلون الى نقوصة حيث يمكثون ثلاثة أسابيع ، ومنها الى بنى ميزاب · ومع مطلع شهر افريل يقصدون وادى زرقون للانتاج من ناحية ،

(13) L. Charles Féraud : Sahara, p. 459.
(14) Daumas, p. 83.
(15) Charles Amat : Le M'Zab et les Mozabites, Paris, 1888, p. 36.
(16) P. Blanchet : L'Oasis et le pays d'Ouargla - Revue de géographie - Tome IX, 1900, p. 151.
(17) Féraud, Sahara, p. 488.
(18) Daumas, pp. 82-83.

والاتصال بحلفائهم الاربعاء من ناحية أخرى ثم يرجعون الى ميزاب لصرف ما زاد عن حاجتهم من الانعام والاصواف • ثم يقصدون مدينة تيارت حاملين معهم التمور ، وأثناء مرورهم بتاجرونه والاغواط وشلالة كانوا يبيعونها ويشترون الحبوب مكانها لبيعها من جديد في ميزاب والاغواط • (19)

وعن طريق هذه التنقلات يمكننا أن نتصور دائرة النشاط الاقتصادى تبعا للنقاط التى تنتهى اليها رحلات القبائل البدوية ، وأن نتبين أهمية التبادل التجارى الذى تؤديه • فاليها يرجع الفضل فى توفر البضائع ، وتنوع السلع (20) ، وظهور ورقلة كمركز تجارى رئيسى يستقطب نشاط المناطق الصحراوية الاخرى • ولا أدل على ذلك من اقبال القبائل التالية على أسواقها وهى : الاربعاء ، أولاد يعقوب، بنى علال، الاغواط كسل ، قبائل أولاد سيدى الشيخ، بنو مزاب، شعامبة متليلى، بالاضافة الى الطوارق وتجار من مدينة غدامس •

وتتبين لنا ، هكذا ، مدينة ورقلة مستودعا ضخما فى قلب الصحراء ، وسوقا عامرة لمدة فصل الخريف بكامله • ومما كان يزيد للحركة التجارية نشاطا فى هذا الموسم بالذات تواجد البدو في مراكزهم ، وحلول موسم جنى التمور • ونتصور السوق الموسمية التى كانت تعقد بمنطقة ورقلة شبيهة بأسواق الموقار التى تعقد فى أيامنا هذه •

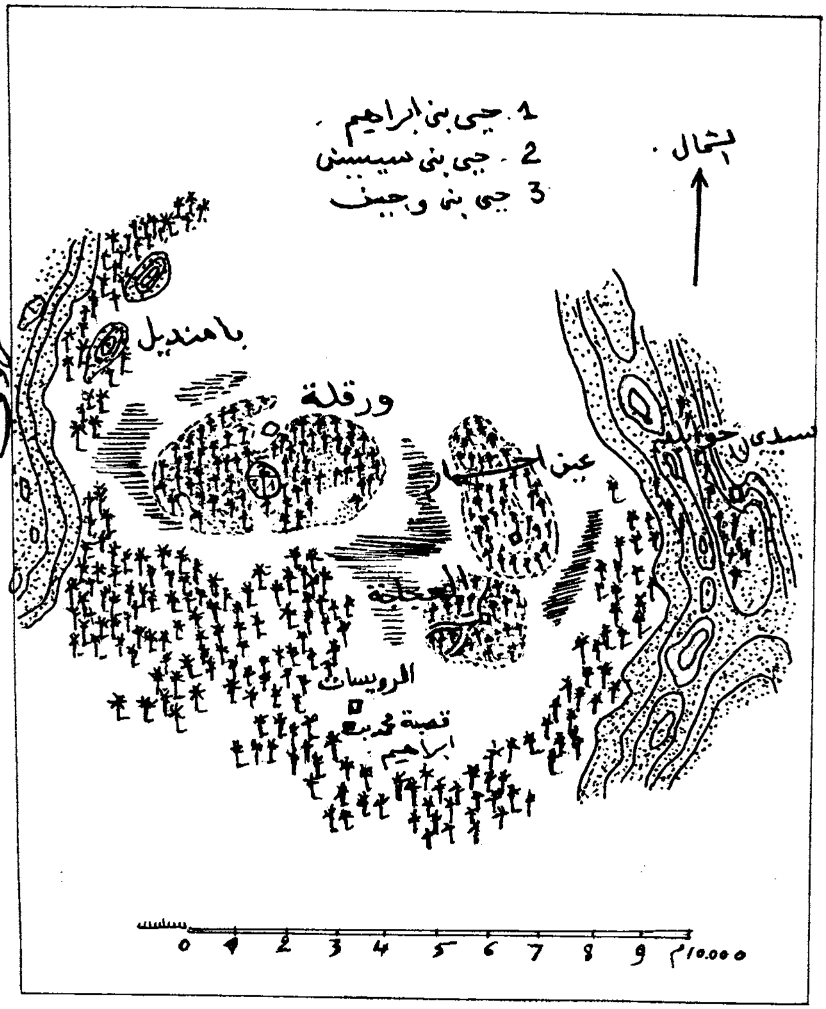
وبما للقبائل من امكانيات حربية ، ودور اقتصادى قوى كما رأينا ، فان مواقفها من الصراع على النفوذ فى المنطقة بين مشيخة نقوصة وسلطنة ورقلة ستكتسى

---

(19) P. Blanchet, p. 150.

(20) أهم منتوجات منطقة ورقلة : التمور بأنواعها والملح • أما السلع التى ترد اليها فهى من غدامس : التبر ، الفتائل المذهبة ، العبيد • ومن بلاد الطوارق : العاج ، التبر ، الزنوج • ومن تونس : العمائم ، الافاوية ، الاسلحة ، الشواشى ، الاحذية ، حلى (جواهر ، أسورة) وأدوات حديدية (معاويل ، فؤوس ، مطارق) • فضلا عن المنتوجات الجزائرية كالحبوب ، والبارود ، والرصاص ، وما الى ذلك • أما العملة المتداولة فى الاسواق فهى البوجو والدورو الاسبانية والفرنك ، لكن هذا الاخير يذوب ليستعمل حليا • أنظر Daumas, p. 86

واحة ورقلة سنة 1854



نقلا عن TRUMELET، ص 465

أهمية خاصة بالنسبة للنظام السياسى لدى كل منهما • فالصراع السياسى بين الواحتين يبدو تقليديا بحسب ما تسجله المراجع (21) ، ومرتبطا بظهور أسرة بنى بابية الزنجية فى نقوصة مع مطلع القرن الحادى عشر الميلادى •

وقد توارث الحكم فى نقوصة خلال الفترة المدروسة الشيخ الغالى (1818 ـ 1842) والشيخ الحاج أحمد الثانى (1842 ـ 1851) ، والشيخ أبو حفص (فيفرى 1851 أوت 1851) ، فى حين تعاقب على ورقلة خلال نفس الفترة مولاى الطيب ومولاى دلبى، ومولاى على ، مولاى سليمان ، مولاى مسعود ومولاى عبد القادر • (22)

فالحكم كان فى مشيخة نقوصة مطلقا يتمتع الشيخ بموجبه بجميع الصلاحيات فى حين كان فى سلطنة ورقلة ملكيا مقيدا بمجلس الجماعة المكون من اثنى عشر عضوا، ويتولى مقاليد الامور متخذا من السلطان رمزا للوحدة ، فالسلطان بهذا الاعتبار يملك ولا يحكم • ويرجع ذلك فى نظرنا الى كون السلطة فى نقوصة مدعمة بقاعدة مجتمعية متجانسة عرقيا ، ومترابطة سياسيا • أما فى ورقلة فان الرغبة فى وضع حد للصراعات العشائرية ، وللنزاعات العائلية ، من اجل السلطة ، هى الدافع الى استقدام سلطان غريب من سلاطين فاس لا تربطه أية علاقة بالمحكومين (23) • لذلك ظلت ورقلة محل صراعات متجددة ، تغذيها القبائل البدوية بمواقفها المتقلبة وبتدخلاتها المستمرة ، الامر الذى جعلها فى غالب الاحيان تخضع لمشيئة أسرة بنى بابية على الرغم من تفوقها بشريا واقتصاديا وحضاريا أيضا • ولا أدل على ذلك من تعاقب أكثر

---

(21) للاطلاع على سلسلة بنى بابية الحاكمة فى نقوصة أنظر :

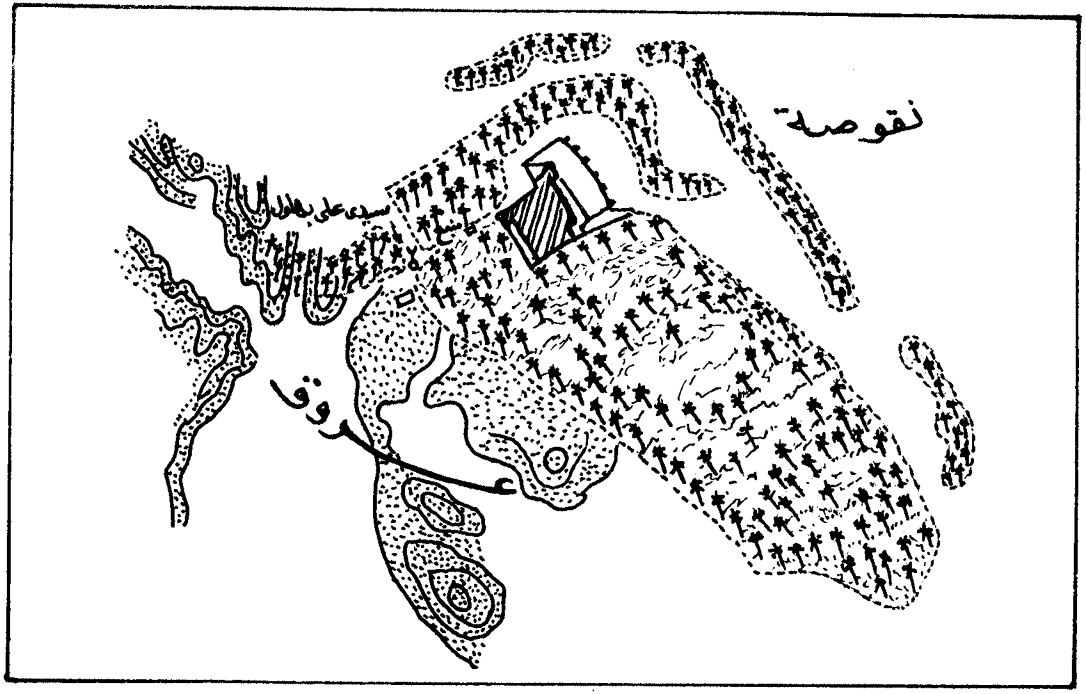
Alain Romey : Histoire, toponymie et tradition orale d'une Oasis, arabo-berbère, N'Goussa, Ecole Pratique des Hautes Etudes, Sciences Economiques et Sociales, Sorbonne année universitaire 1973-1974, pp. 97-100.

وبناء على ما نقله روميى من المخطوط فان حكم أسرة بنى بابية ينبدأ سنة 1021 وينتهى سنة 1909 •

(22) Féraud : Le Sahara de Constantine, p. 489.

(23) كان أول سلطان من سلاطين فاس الذى نصب على ورقلة هو مولاى اعلاهم ، وذلك سنة 1602 ، ويفهم من المراجع ان الصراعات الطويلة بين الاسر الثلاث ، وعدم توصلها الى اتفاق حول السلطة هو السبب الرئيسى فى استقدام مولاى اعلاهم بعد أن دفعوا وزنه ذهبا • أما قبل ذلك فقد كانت أسرة بنى أبى غابول هى الحاكمة لورقلة ، وكانت لها قرابة مصاهرة بأسرة بنى واجين على حد قول ابن خلدون •

واحة نقوصة في سنة 1854



0 200 400 600 800 1000 1200 1400

نقلا عن TRUMELET ص 449

من سبع سلاطين على الحكم فى ورقلة خلال الفترة المدروسة فى حين لم يتعاقب على نقوصة سوى ثلاثة شيوخ ·

ونلاحظ الصراع على أشده فى الفترة التى تعنينا بحيث تكتل سكان المنطقة من بدو وحضر الى كتلتين ، كتلة « الغرابة » الموالية لسلطنة ورقلة وتضم الشعامبة ، المخادمة ، بنى ثور وبنى سيسين · وكتلة « الشراقة » الموالية لبنى بابية · وتضم قبائل سعيد عتبة وبنى وجين · أما بنو ابراهيم فان مواقفهم كانت تتعاشى مع ظروف مصالحهم · (25)

وقد استعمل بنو بابية شتى الوسائل لارغام سلطنة ورقلة وحلفائها « الغرابة » على تقبل زعامتهم منها : تدعيم شرعية أحقيتهم فى الحكم بالتأكيد على نسبهم الشريف المنحدر من حليمة السعدية ، مرضعة الرسول — ص — وهو ما كان يرفضه أهل ورقلة· ومنها اتباع سياسة قائمة على التدخل والتحرش بهدف اذكاء الصراع ضمن الكتلة المعادية ، وتطبيق سياسة القوة باعتمادها على قبيلة سعيد عتبة ذات الامكانيات قبائل سعيد عتبة وبنى واجين (24) · أما بنو ابراهيم فان مواقفهم كانت تتماشى مع ظروف مصالحهم · (25)

وقد ذهبت مشيخة نقوصة فى سياستها الرامية الى التسلط على ورقلة الى درجة الخضوع للفرنسيين فى الشمال مقابل الاشراف على كامل منطقة ورقلة · والواقع أن بنى بابية قد طبقوا سياسة الولاء تجاه السلطة العثمانية ، ومنها حصلوا على تأكيد سلطتهم على المنطقة ، واعتبرت ، تبعا لذلك ، قبيلة سعيد عتبة الموالية لهم من قبائل المخزن بحيث حصلت على امتيازات مقابل تأديتها لالتزامات معينة (26) وبهذه السياسة

(24) Ch. Féraud : Le Sahara de Constantine, p. 485.

(25) يستنتج من الصورة التى تمثل تخطيط مدينة ورقلة سنة 1882 · أن بنى ابراهيم كانوا أقلية بالنسبة الى الاسر الاخرى ، كما يستنتج بأن اغلبيتهم كانت على المذهب الاباضى · ولهذين السببين نراهم فى الغالب على الحياد ، ولا يتدخلون الا فى المراحل الاخيرة للنزاع ، **أنظر** :

P. Vuillot : L'exploration du Sahara, Etudes historique et géographique, Paris, 1895, p. 17.

(26) من جملة الالتزامات القيام بجمع الضرائب المفروضة على سكان المنطقة · وقد كانت ورقلة مثلا ملزمة بدفع خمسة وعشرين عبدا كضريبة سنوية ، على أن تحصل مشيخة نقوصة على عبد واحد من المجموع ·

تسلطت مشيخة تقوصة على سلطنة ورقلة ، وكلما عبرت هذه الاخيرة عن ضيقها أو عز البابيون الى العثمانيين بالتدخل المباشر (27) ٠

لكن عند سقوط مدينة الجزائر فى يد الفرنسيين سنة 1830 ، امتنعت ورقلة عن دفع التزاماتها المعتادة الى مشيخة تقوصة ، واغتنمت فرصة وصول السلطان ابراهيم من سلاطين بنى جلاب على رأس جيش عند أسوار تقوصة ، لحسم خلاف بينه وبين الشيخ الغالى بنى بابية ، وأرسلت جيشا يساعده على اخضاع مشيخة تقوصة ، لكن هذه الاخيرة تفطنت للحيلة ، وتمكنت من تسوية خلافها مع بنى جلاب وانهائه لصالحها بعد القضاء علىقوات ورقلة ٠ وسلك الشيخ الغالى بن بابية سياسة الانتقام والعناد ضد ورقلة طيلة المدة الطويلة لحكمه ، فكان يعمد الى قطع نخيلها ، ويتعرض لقوافلها القاصدة منطقة ميزاب ٠ ولم يكف الا بعد حصوله على العشر والاتاوات (28) ٠ لكن الامر فى عهد الشيخ الحاج أحمد خلاف ذلك بسبب الصراع الداخلى بين أفراد الاسرة الحاكمة من جهة ، والشقاق ضمن قبيلة سعيد عتبة من جهة أخرى (29) ٠ فكانت النتيجة ، اختلال التوازن فى المحالفات السابقة ، وتبدل موازين القوى فى كل من تقوصة وورقلة ٠

انفجر الصراع فى أسرة بنى بابية عندما قام أحمد يدعمه أولاد يوسف بالاستيلاء على الحكم ، وابعاد أبيه الحاج أحمد بن بابية ، ووقوف أخويه أبو حفص والطيب بالتحالف مع فتناسة والرحبات والشعامبة ضده ، وارجاع والدهما الى الحكم من جديد ٠ وفى هذا الوقت بالذات تم فى ورقلة خلع مولاى مسعود وتولية مولاى الطيب مكانه ٠

---

(27) قاد الحملة الاولى على ورقلة سنة 1552 صالح رايس وأخذ من أهل ورقلة 200.000 ريال ذهبا أما الحملة الثانية فقد قادها صالح باى حاكم قسنطينة سنة 1788 ٠ أنظر :
Alain Romey, p. 90.

(28) Alain Romey, p. 100.

(29) تتفرع قبيلة سعيد الى ثلاثة فروع هى : فرع أولاد مولات الذين استقروا بتوقرت وفرع أولاد عمر المقيمين فى تماسين ، وفرع سعيد عتبة المقيم بتقوصة وهذا الفرع الاخير يتكون من فتناسة والرحبات وأولاد يوسف ٠ أنظر :
Féraud : Le Sahara de Constantine, pp. 462-488.

وأمام الوضع الجديد تحالف أولاد يوسف مع المخادمة وشنوا هجوما فى ربيع سنة 1843 بقرب ورقلة على الرحبات وفتناسة ، حلفاء الشعامبة وبنى ثور • وبعد صراع دام مدة ، تمكنوا خلاله من قتل شيوخ بنى ثور • وأخيرا توصل الفريقان الى عقد صلح بينهما • لكن بعد أسبوعين انفصل المخادمة عن أولاد يوسف ، وانضموا الى بنى ثور والشعامبة • ولسبب أو لآخر قامت حرب بين المخادمة وبنى ثور ، تحالف على أثرها أولاد يوسف مع بنى ثور ، ودخلوا فى حرب ضد فتناسة والرحباب حلفاء المخادمة ، اسفرت عن مقتل ستة عشر رجلا وخسارة ثلاثين جوادا من جانب المخادمة وحلفائهم (30) •

وقد كانت هذه الحرب الاهلية على حساب الاستقرار السياسى فى المنطقة ، وفى ورقلة خاصة ، حيث ظل الصراع قائما بين أفراد الاسرة الحاكمة ، فبعد ما كان بين مولاي الطيب ومولاى مسعود (1843) انتقل بين مولاى على ومولاى دلبى (1847) • وهكذا الى أن تعاقب على الحكم سبعة سلاطين فى فترة لا تزيد عن عشر سنوات (31) • ورغم ذلك فقد عجزت نقوصة على عهد الحاج أحمد بن بابية فى فرض سيطرتها على ورقلة •

وأمام هذا العجز ، اتصل أحمد بن بابية فى ربيع سنة 1849 بالقيادة الفرنسية فى تيارت للحصول على امدادات يخضع بها ورقلة والقبائل المعادية له ، فى مقابل تأدية اللزمة ، رمز الخضوع للسلطة الفرنسية • وفى عشرين من نوفمبر سنة 1849 منحت السلطة الفرنسية الى الحاج أحمد لقب خليفة على كامل منطقة ورقلة ، وأرسلت اليه مائتى فارس لاقرار سلطته على المنطقة (32) • وتوالت أمداد القوم طوال سنة 1850 وفى أكتوبر سنة 1850 ، الى ورقلة • لكن هذه الاخيرة بقيت رافضة لحكمه على الشيخ أحمد بن بابيا الذى سار على رأسها عدة مرات فى ديسمبر سنة 1849 وفى صامدة فى وجه أطماع زنجى منحدر من سلالة العبيد ، لا سيما وقد تبين تحالفه مع قوة أجنبية (33) •

(30) نفس المصدر ص 488 • وأنظر Trumelet : Les Français, p. 32

(31) Féraud : Le Sahara de Constantine, p. 489

(32) Trumelet, p. 37.

(33) نفس المصدر ص 37 ، 38 •

وعندما ورث أبو حفص لقب الخليفة بعد موت والده (34) ، جرى فى نفس الطريق لكنه انشغل أكثر بالنزاع الذى قام بينه وبين أخيه الطيب • هذا فى الوقت الذى كانت مدينة ورقلة تستعد لتتجاوز مرحلة الصراع الداخلي ، ودخول مرحلة جديدة هى مرحلة مقاومة الفرنسيين بزعامة محمد بن عبد الله •

وهكذا أسفرت المرحلة الاولى عن نتائج سلبية أثرت على المنطقة • ففى المجال السياسى انشغلت المنطقة بالصراعات المحلية ، وانصرفت عن الاعداد لمواجهة العدو الفرنسى فى الشمال ، فضلا عن منح العدو فرصة التدخل فى القضايا الخاصة واعطائه امكانية التسرب الى الصحراء عن طريق سياسة الاستنجاد التى طبقها بنو بابية •

وفى المجال الاقتصادى نتصور أن يعترى التبادل التجارى نوع من الركود النسبى بسبب انعدام الامن ، وكثرة الغارات • كما نتصور حصول انخفاض فى محصول النخيل بسبب القطع والاهمال ، فضلا عما قد يصيب الثروة الحيوانية من موت وما يلحق بالعمران من دمار وتخريب •

وفى المجال الاجتماعى ، ازداد العداء استحكاما بين القبائل العربية المتجاورة ، وتمتنت التحالفات العائلية والعشائرية على حساب التحالفات القومية فى مرحلة دقيقة من تاريخ الجزائر • كما نتج فى هذا المجال بالذات نقص فى السكان لكثرة الحروب بحيث لانكاد نجد اختلافا بين عدد سكان ورقلة فى سنة 1882 وسنة 1842 (35) •

أما المرحلة الثانية التى هى مرحلة مقاومة الفرنسيين فقد ارتبطت فى الواقع بظهور محمد بن عبد الله وابن شهرة فى وقت متقارب ، واللذين طال صمودهما فى وجه الفرنسيين ، لكن مواقفهما فى السنوات الاخيرة من كفاح الامير عبد القادر تبقى غامضة ، بل وقد تجعل الباحث يتساءل عن حقيقة محاولتهما الثورية ، أكانت حقا لاهداف قومية ، أم كانت لاغراض أخرى ؟ ، اذ لو كانت قومية بحتة ، فى نظرنا ،

---

(34) مات الحاج أحمد بن بابية فى 19 جانفى 1851 اثناء عودته من وهران التى قصدها فى ديسمبر سنة 1850 لتأدية زيارة امتثال للقيادة الفرنسية •

(35) P. Blanchet, p. 146.

لانضم ابن عبد الله الى كفاح الامير ، ولا امتنع عن تقديم خدماته الى الجيش الفرنسى ، ولما لزم ابن شهرة الصمت من جهته والتزم الحياد (36) ·

وعلى أى حال فقد نودى بمحمد بن عبد الله سلطانا على ورقلة فى شهر جويلية من سنة 1851 (37)· ولعل الورع والتقى اللذين اشتهر بهما، بالاضافة الى التجربة الحربية السابقة ، قد جعلت منه فى نظر السكان ، الشخص المؤهل لمواجهة تحديات تقوصة ، والرجل المناسب لصد تحرشات القوم ، عملاء الفرنسيين (38) · ثم ان هناك شيئا جديدا ارتبط بالسلطان الجديد وهو مبدأ اخراج الصراع من مجاله الضيق الى مجال أوسع باعلان الجهاد ضد الفرنسيين ·

(36) كان ابن شهرة آغا من قبل الفرنسيين على قبائل الارباع قبل انضمامة الى حركة محمد بن عبد الله · أنظر Ch. Féraud : Le Sahara de Constantine, p. 115. وبخصوص كفاح ابن شهرة أنظر بوعزيز يحيى فى مجلة الثقافية عدد 31 (فيفرى ، مارس) 1976 ص 39 – 48 ·

(37) تتكلم المراجع الفرنسية عن محمد بن عبد الله بصفته خليفة من قبل الفرنسيين على منطقة تلمسان مدة أربع أوست سنوات بهدف استعماله ضد الامير عبد القادر لكن يبدو أنه لم يكن فى المستوى المطلوب منه ، فضلا عن تشككهم فى اخلاصه لسياستهم وقد أشارت عليه السلطة الفرنسية حينذاك بالحج كطريقة لبقة لابعاده · وفى الشرق تعرف على الشيخ محمد السنوسى وغيره من القادة العثمانيين المناصرين لسياسة المقاومة الجزائرية وكان رجوعه الى الجزائر عن طريق ليبيا والجنوب التونسى فى شهر فيفرى سنة 1851 · وفى جويلية من نفس السنة وصل الى ورقلة واتخذ منها مركزا لمقاومته الطويلة ، والمتقطعة ضد الفرنسيين الى أن ألقى عليه القبض فى سنة 1861 بعد معركة انهزم فيها · ونقل بعد ذلك الى السجن العسكرى بمدينة باربينيان فى جنوب فرنسا بتاريخ 6 ديسمبر 1861 · ثم حول الى عنابة فى حدود سنة 1866 بطلب منه · وهناك تزوج ومكث مدة تحت الرقابة · وخلال انشغال الفرنسيين بثورة المقرانى غادر عنابة الى تونس حيث توفى سنة 1876 · للاطلاع أكثر على محمد بن عبد الله · أنظر المراجع الآتية :
Trumelet : Les Français dans le désert, Paris, 1887, pp. 44-79.
Walsin Esterhazy : Le Makhzen d'Oran, S. date, pp. 145-155.
Le Gouvernement de l'Algérie de 1852 à 1858 - Paris, 1859, p. 22.
Note sur l'histoire de Laghouat dans Revue-Africaine, 1895, pp. 20 et 39.
بوعزيز يحيى : كفاح الشريف محمد بن عبد الله ، فى مجلة الثقافة ، عدد 33 (يونيو – يوليو 1976) ص 11 – 28 ·

(38) Trumelet : Les Français, Paris, 1887, pp 61-62

وفى هذا الاطار ، ومن خلال نشاط محمد بن عبد الله ، يمكننا استنتاج خطة حركته القائمة على العناصر الآتية :

1 ـ جعل منطقتى الزيبان وسوف تابعتين له باستمرار ، لضمان خط الرجعة نحو الجنوب التونسى من ناحية ، والحصول على الامدادات الغذائية والحربية من ناحية أخرى ، ومنع وصولها الى بنى جلاب • ولهذا كانت قبيلة أولاد مولات تتعرض لغارات من قبل أتباع محمد بن عبد الله بوصفها خاضعة لبنى جلاب وبحكم نقلها للجنوب الى منطقة وادى ريغ (39) •

2 ـ تغذية النزاعات ضمن منطقة وادى ريغ الخاضعة للنفوذ الفرنسى ، بحيث استغل محمد بن عبد الله العداء القائم بين واحة تماسين وورقلة من جهة ، وتطلعات سلمان الى الحكم بعد عبد الرحمن من جهة أخرى ، لاضعاف سلطنة بنى جلاب الخاضعين للفرنسيين والتحكم فى المنطقة للاهمية التى تكتسيها كقاعدة تمد تحركاته نحو الزيبان بالامدادات ، وكمنطلق لنشاطاته نحو جبال أولاد عمور وأولاد نايل •

3 ـ كسب تأييد أكثر الشيوخ نفوذا وأقواهم تأثيرا على القبائل ذات الامكانيات الحربية والمالية مثل ابن شهرة شيخ قبائل الاربعاء التى يشتهر أهلها بالفروسية ، ومثل سى النعيمى وسى الزبير من قبيلة أولاد سيدى الشيخ القوية (40) •

4 ـ نشر أخبار حركته فى أنحاء كثيرة ، واظهارها فى شكل حركة جهاد واسعة ، يدعمها بايات تونس ويباركها الخلفاء العثمانيون (41) •

أما العمليات الحربية التى خاضها محمد بن عبد الله خلال سنة 1851 فاشهرها هجومه على ورقلة على رأس مائة فارس ، وتسعمائة من المشاة ، وجميعهم من قبائل

(39) Commandant Seroka : Le Sud Constantinois de 1830 à 1855, Revue-Africaine 1912, pp. 531-532.

تعرض أولاد مولات لغارتين احداهما فى أوت 1851 عند وادى ارطم حيث انتزع منهم ثمانمائة جمل ، وثانيهما فى سبتمبر من نفس السنة • وقد كانت تحركات هذه القبيلة مراقبة باستمرار من قبل أعوان محمد بن عبد الله فى الزيبان ومنطقة سوف ويبدو أن محمد بن عبد الله قد كسب تأييدهم عندما أقام بينهم مدة قبل توجهه الى ورقلة • أنظر :

Seroka, p. 531 Trumelet, p. 54

(40) Charles Féraud : Le Sahara de Constantine, pp. 490 et 493.

(41) Seroka, pp. 530, 532, 533.

المخادمة والشعامبة وبنى ثور وسعيد عتبة (42) والاربعاع وتماسين • وعند واحة تماسين تقابل السلطان عبد الرحمن الذى كان على رأس ستمائة فارس ومائة وخمسين من المشاة بجيش محمد بن عبد الله • وفى الجولة الاولى تغلب ابن جلاب والحق بجيش عدوه خسائر تقدر بثلاثين قتيلا وثمانية جرحى (43) ، لكنه اضطر الى التراجع فى الجولة الثانية بعد أن خسر ثمانين رجلا وخمسة وعشرين جوادا ، فضلا عن الخسائر المادية الاخرى (44) •

وقد نتج عن هذا الانتصار ان كسب محمد بن عبد الله تأييد سكان واحة تماسين بدوهم وحاضرهم ، وتأييد قبائل شعامبة متليلى أيضا (45) •

أما خلال سنة 1852 ، فقد دخل محمد بن عبد الله فى صراع مرير ضد باشاغا منطقة الجلفة الشريف بن الاحرش ، وخليفة مدينة الاغواط أحمد بن سالم ، وآغا جبل العمور ، الدين بن يحيى ، ففى نهاية سنة 1851 سار أحمد بن عبد الله على رأس قبائل سعيد عتبة وشعامبة بوروبة ، وشعامبة القليعة ضد أولاد سيدى سالم من قبائل أولاد نايل ، وجردها من خمسمائة جمل وأربعمائة رأس من البقر وأكثر من أربعة آلاف رأس من الغنم (46) • وفى شهر فيفرى سنة 1852 تحرك محمد بن عبد الله الى الشمال حيث التقى بجموع القوم التى يقودها الآغوات الثلاث وانتصر عليهم • وكنتيجة لذلك تم التحاق كثير من القبائل بصفوفه ، واستعداد الاخرى للثورة (47) • وفى شهر مارس سار محمد بن عبد الله نحو الشمال فى اتجاه الاغواط ، وعند عودته هاجم أولاد يعقوب الزرارة بوادى زرقون (48) • وفى شهر أكتوبر سنة 1852 وصل الى الاغواط ، ثم عاد اليها فى منتصف شهر نوفمبر برفقة ابن شهرة ، واعتصم

(42) نلاحظ كيف انقلبت قبيلة سعيد عتبة ضد بنى بابية والفرنسيين معا ، وأيدت حركة محمد بن عبد الله ، وذلك لارتباطها بقبائل الحرازلة والاربعاع المؤيدة للحركة •

(43) Seroka, p. 534.

(44) Trumelet, pp. 65-66.

(45) نفس المصدر •

(46) Ch. Féraud : Le Sahara de Constantine, p. 491.

(47) نفس المصدر •

(48) Trumelet, p. 69.

بالمدينة ودافع عنها طويلا ضد الفرنسيين الذين افتكوها منه ودخلوها فى الرابع من شهر ديسمبر سنة 1852 · وقد ثار الفرنسيون لضحاياهم بالانتقام من السكان (49)·

وبالرغم من النتيجة السلبية التى أسفر عنها قتال مدينة الاغواط بالنسبة لمحمد ابن عبد الله فان حركته ظلت متواصلة ، بحيث قام على رأس قبائل الشعامبة والاربا ع والعرازلة فى جانفى سنة 1853 بالاستيلاء على مواشي قبائل السوامة ورحمان الخاضعة للقائد أجمد الحاج بن قانة · كما قام بهجمات رفقة سي حمزة وسى النعيمى على المنطقة المحصورة بين الاغواط والبيض ، والاستيلاء على مواشى أولاد سعيد بن سالم (50) ··

وهكذا كان محمد بن عبد الله يتحرك ضمن مجال صحراوى واسع ، ملحقا بالقبائل الموالية للفرنسيين أضرارا مادية وبشرية ، ومهددا للمراكز الفرنسية المتقدمة · وأمام هذا النجاح ، بدأ الوالى العام الجديد الجنرال راندون (1852 ـ 1858) يؤكد على ناحيتين فى سياسته الخاصة بالصحراء ·

الاولى : ضرورة السيطرة على الصحراء فيما اذا أريد التحكم في الشمال باعتبارها مصدرا للقلاقل والاضطرابات (51) ·

والثانية : ربط علاقات تجارية بأقاليم افريقيا الغربية بشق طرق صحراوية تكون فى مستوى منافسة الطرق التى تصل منها السلع الانجليزية الى المنطقة وهى : طريق غينيا ، وسينيغامبيا ، والمغرب ، وليبيا ، ومصر (52) ، فضلا عن كسر احتكار المغرب وليبيا للتجارة مع السودان (53) ·

أما الخطة المتبعة لتحقيق الناحية الاولى من سياسة راندون فتقوم على الضغط باستمرار على الثوار ، وحمل القبائل الموالية للفرنسيين على محاصرة القبائل الثائرة قبل أن تأخذ هذه الاخيرة زمام المبادرة · (54)

(49) لقد خسر الفرنسيون من بين من خسروا فى معركة الاغواط الجنرال بوسكران Bouscaren والرائد موران Morand ·

(50) Ch. Féraud : Le Sahara de Constantine, p. 493.
(51) Trumelet, p. 498.
(52) Le Gouvernement de l'Algérie, p. 82.
(53) N. Lacroix, A. Bernard : La pénétration saharienne, Alger 1900, p. 24.
(54) Ch. Féraud : Le Sahara de Constantine, p. 127.

وطبقا لهذه الخطة تم احتلال مدينة الاغواط سنة 1852 ، وتقرر انشاء مركز جديد بالبيض فى سنة 1853 · كما اعتمد فى هذا المجال على نفوذ سى حمزة من قبائل أولاد سيدى الشيخ مقابل أموال وألقاب · وفى نوفمبر سنة 1853 شهدت جميع جهات الصحراء هجوما واسعا ضد محمد بن عبد الله وحركته (55) ، قامت بتنفيذه امدادات القوم بقيادة القياد والآغوات ، ولعب فيه الخليفة حمزة دورا رئيسيا ، بحيث كان على رأس ألف فارس وألف ومائتين من المشاة (56) ، أخضع بها قصر متليلي ومنطقة وادى ميزاب دخل بعدها الى منطقة ورقلة بعد انتصاره على محمد بن عبد الله في عرق بوسروال جنوب ورقلة ، وجاءت قبائل الشعامبة والمخادمة وسعيد عتبة مستسلمة مع أخويه سى حمزة وسى الزبير ، فى حين توجه محمد بن عبد الله رفقة ابن شهرة الى تونس (57) ·

وبذلك تنتهي سلطنة ورقلة على يد سى حمزة ، وتدخل تحت النفوذ الفرنسى بتاريخ 27 جانفى 1854 ، وهذا التاريخ متوافق مع دخول الكولونيل دوريان Durrien الى المنطقة لتسلمها من سى حمزة ايذانا بخضوعها للفرنسيين والزام السكان بدفع ضريبة سنوية تقدر بمبلغ ألفى فرنك رمزا لهذا الخضوع (58) ·

أما الناحية الثانية في سياسة واندون فقد قام بالتمهيد لها سى حمزة أيضا · وهى تأتى من ضمن النتائج المترتبة عن خضوع المنطقة للفرنسيين وهى باختصار كالتالى :

1 ـ بداية الاتصال ببلاد الطوارق ، ومحاولة جلب شيوخها الى الجزائر العاصمة · وقد تمكن بالفعل سى حمزة من استقدام جماعة منهم فى مطلع سنة 1856 ، كما وصلت منهم جماعة أخرى ومعها تجار من غات فى سنة 1857 (59) ، وقد كانت السلطة الفرنسية ترمى الى تكوين دلاة منهم لقوافلها المتجهة الى تومبوكتو · وقام ، فعلا ، بهذا الدور شيخ قبيلة ايفوغاس ، الشيخ عثمان حينما قاد قافلة الى غات ورجع بها الى ورقلة فى

(55) Notes sur l'histoire de Laghouat, R. A. 1895, p. 20.

(56) نفس المصدر ص 32 · كان سى حمزة فى البداية متعاطفا مع حركة محمد بن عبد الله لكنه اخلص للفرنسيين فيما بعد ·

(57) Ch. Féraud : Le Sahara de Constantine, p. 494.

(58) Trumelet, p. 476.

(59) N. Lacroix : Pénétration, p. 24 Gouvernement de l'Algérie, p. 83.

مارس سنة 1858 (60) ، وعلى هذا الاساس يعتبر عهد راندون فى الجزائر بداية عهد الاهتمام بالصحراء والشروع فى التعرف على أسرارها ، ومن ثمة اختراقها للوصول الى بـــلاد الســـــودان ٠

2 ــ القضاء على سلطنة ورقلة بواسطة قبيلة أولاد سيدى الشيخ ، وقد أكد الدور الذى لعبته هذه القبيلة فى اضعاف ثورة محمد بن عبد الله مـدى نجـــاح السياسة الفرنسية القائمة على بث نعرات الفرقة بين القبائل الصحراوية وفك أواصر التضامن فيما بينها بالالقاب ، والمال ٠ هذه السياسة التى آمنت السلطنة الفرنسية بفعاليتها الى قيام ثورة أولاد سيدى الشيخ سنة 1864 ٠ وبموجب ذلك عين سى حمزة خليفة على الصحراء الغربية من ورقلة الى البيض ٠ وعين أخوه سى الزبير آغا على منطقة ورقلة ، وجعلت الالقاب متوارثة ضمن هذه الاسرة قبل ثورتها ٠ وهذا ما كان سببا فى فشل كل محاولة ثورية بالمنطقة ٠

3 ــ جعل منطقة ورقلة ، ومنطقة وادى ريغ التى سقطت نتيجة لسقوط ورقلة ، منطلقا للمهام الاستكشافية مثل مهمة اسماعيل بوضربة وغيرها ٠ اعتمادا على القبائل البدوية العارفة بطرق الصحراء ، بحيث جمعت معلومات مفيدة عن الطرق الرابطة بين ورقلـة وغـات ، وبين ورقلـة وغدامس وليبيا ، وتـم التعرف على جغرافية الهقـار والطاسيلى (61) ٠ وقد كانت هذه الكشوف الاولية أساسا للمهات الاخرى الرامية الى ربط الجزائر بالسودان ، والتى تمت بعد الاحتلال الفرنسى المباشر لورقلة سنة 1882 ٠ كما وجد الآباء البيض من جهتهم ، فى خضوع منطقة ورقلة فـرصة لارسال بعثـات تبشيرية الى أعماق الصحراء ، ومنها الى السودان لنشر المسيحية بين السكان السود ٠ وبذلك يتحقق الحلم الذى راود الكاردينال لافيجرى منذ زمن طويل (62) ٠

(60) N. Lacroix : Pénétration, p. 47.
(61) N. Lacroix : Pénétration, p. 58.

(62) نفـس المصدر ص 72 ــ 71 ٠

نماذج من مقاومة سكان الواحات

د. يحيى بوعزيز
المعهد التكنولوجى للتربية
وهران ــ الجزائر



لقد كانت مقاومة سكان واحة الزعاطشة عام 1849 ، نموذجا رائعا لكفاح سكان الواحات الذين رفضوا باستمرار الخضوع والاستسلام للاحتلال ، والسيطرة الفرنسية • ورغم ما عانوه خلالها من أهوال وأخطار فاقت حدود التصور ، الا أنهم لم يترددوا فى القيام بثورات أخرى ، وانتفاضات ، وتمردات مسلحة ، اتسمت كلها بالعنف ، والشدة ، وواجهها الفرنسيون كعادتهم بكل ما يملكون من عدة وعتاد ، وما يقدرون عليه من ارهاب وتقتيل ، وتشريد للسكان ، وتخريب ، وحرق لمظاهر العمران والاقتصاد •

وقد سبق أن نشرنا بعض النماذج عن كفاح سكان الجنوب مثل : ثورة سكان واحة الزعاطشة ومنطقتها عام 1849 ، وكفاح ابن ناصر بن شهرة فى أعوام 1851 ــ 1875 ، وللشريف محمد بن عبد الله فى أعوام 1842 ــ 1895 ، والشريف بوشوشة فى أعوام 1869 ــ 1874 (1) •

(1) راجع مجلة الثقافة أعداد : 31 ، 32 ، 33 ، 34 (الجزائر ــ فيفرى ــ سبتمبر 1976).

وفي هذه الدراسة سنتعرض لنماذج أخرى تتمثل فى كفاح سى الصادق بمنطقة بسكرة وخنقة سيدى ناجى عام 1858 ـ 1859 · وكفاح محمد بن بوخنتاش عام 1860 بمنطقة المسيلة والحضنة ، وكفاح سكان واحة العمرى عام 1876 · وكفاح سكان الاوراس الغربية عام 1879 ·

أ ـ حركة سى الصادق فى الخنقة وبسكرة عامى 1858 ـ 1859 :

تعتبر الفترة الممتدة بين عامى 1858 ـ 1860 ، فترة الثورات ، والتمردات فى عمالة قسنطينة خاصة المناطق الجنوبية منها ، وذلك نتيجة للضغط الاستعمارى المتزايد على السكان فى مختلف المجالات : السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، بل وحتى الادارية · لان هذه الفترة هى التى طبق فيها نابوليون الثالث نظام : « وزارة الجزائر والمستعمرات » الذى استحدثه ، وعين على رأسه ابن أخيه جيروم نابوليون · وعمل هذا النظام على اطلاق العنان للمستوطنين الاوروبيين ليفرضوا سيطرتهم الكاملة على شمال البلاد ، فى حين أطلق العنان للعسكريين فى جنوب البلاد · وتعرض السكان الجزائريون للمزيد من الضغط ، والارهاب ، والاهانة ، والاحتقار · وعزلوا تماما عن العمل السياسى ، كما انتزعت املاكهم العقارية والحيوانية ، وفق سياسة « الافقار » التى عملت الادارة الاستعمارية على تطبيقها فى هذه البلاد منذ حملة عام 1830 ، ولكنها اشتدت أكثر فى عقدى : الخمسينات ، والستينات ، على أساس أنها أنجع وسيلة فى نظرها ، لمقاومة الثورات ضدها والقضاء عليها ·

وبعد نجاح الفرنسيين فى احتلال جبال جرجرة عام 1857 (2) أخذوا يسعون للتوسع الى الجنوب ، ويعملون على تركيز وجودهم هناك ، بفضل أعوانهم الذين اصطفوهم وكافؤوهم بألقاب ومناصب متعددة · غير أن السكان لم يستكينوا لهذا الوضع ، ولم يقبلوه ، وصمموا على المقاومة بمختلف الوسائل ·

وكان من ضمن من برز للمقاومة ، سى الصادق (أو سى صدوق) بن الحاج الذى ينتمى الى أولاد سيدى منصور ، شيخ أولاد أيوب فى جبل أحمد حذو بسفوح الاوراس

(2) Le colonel N. ROBIN : Notes et documents concernant l'insurrection de 1856-1857 (Alger 1902) pp. 171 et 238-240.

قرب بسكرة • فقد كان منذ صغره يرفض أن يتصل بالفرنسيين ، أو يتعاون معهم • وعندما اندلعت ثورة سكان الزعاطشة عام 1849 ، شارك سى الصادق فى المقاومة على رأس حوالى سبعمائة فارس من قومه واتباعه ، الى جانب الشيخ عبد الحفيظ مقـدم الطريقة الرحمانية بخنقة سيدى ناجى ، وعملا على مساندة الشيـخ بوزيان وسكان الواحة بكل ما لديهما من الوسائل المادية والدعائية (3) •

وبعد هذه الحوادث بمدة ، عين سى الصادق مقدما للاخوان الرحمانيين بهذه المنطقة ، وأخذ يكثر من الاتباع والانصار ، وفى نفس الوقت عمل على ابراز مساوىء الاستعمار الفرنسى لديهم حتى ينفرهم من حكم الفرنسيين • وبمرور الزمن انتشرت سمعته ، وقوى تأثيره على السكان بهذه المنطقة ، خاصة بعد أن اصبح ابنه سى ابراهيم يلعب دورا بارزا في الدعاية لصالح أفكاره ومبادئه ، ويظهر أن سى الصادق تـأثر كثيرا بأحداث الزعاطشة ومصير سكانها المؤلم •

وحتى شهر نوفمبر عام 1858 ، كانت حـركة سى الصادق تنتشر فى الخفـاء ، وبواسطة الدعاة والوسطاء ، نظرا لعدة ظروف ، ولكن ابتداء من هذا التاريخ أخذت الامور تتطور ، وتتخذ شكل العنف والتمرد • فقد أخذ ابنه سى ابراهيم يكتب الرسائل باسم أبيه ، يدعو الناس الى الثورة ضد الفرنسيين المسيحيين ، وكان من ضمن هذه الرسائل ، رسالة خاصة ، فجرت الازمة ، وجهها سى ابراهيم مع المسمى (بو قريب) الى سكان قرية سيدى عقبة ، فى شهر نوفمبر • وعندما حاول هذا المبعوث أن يقرأها على الناس فى سوق القرية ، اعترضه بعض المعارضين وحاولوا أن يؤذوه • فالتجأ الى دار مقدم الاخوان الرحمانيين هناك ، واعتصم به ، وأدى هذا الحادث الى نشوب الحوادث الـدامية •

ومن الوسائل التى استعملها سى الصادق وابنه سى ابراهيم ، لجلـب الناس الى حركتهمـا ادعاؤهما بأن القوات الفرنسية لا تستطيع أن تحضر الى منطقة الثـورة ، لانها ما تزال منشغلة بالحرب ضد سكان القبائل بجبال جرجرة ، التى شنها عليهـم

(3) يحيى بو عزيز : أضواء على انتفاضة سكان الزعاطشة والشيخ بوزيان بالزيبان عام 1849 ومجلة الثقافة ، عدد 32 (الجزائر ــ ابريل ــ ماى 1976) ص 39 ــ 50 •

الجنرال راندون منذ ربيع عام 1857 (4) · وهو ادعاء له ما يبرره لان القوات الفرنسية ، وإن نجحت فى اقتحام جبال جرجرة ، الا أنها ما تزال حتى ذلك الوقت تواجه صعوبات جمة بالمنطقة مصدرها اصرار السكان على المقاومة ، ووعورة المنطقة جغرافيا ، بحيث صعب على القوات الفرنسية أن تتنقل وتحارب بسهولة داخلها ·

وعلى أى حال فان سى الصادق استطاع أن يوسع حركته فى منطقة الصحراء الشرقية ، ويقنع الناس على حمل السلاح لمقاومة الفرنسيين ، ولو أن أهدافه غير واضحة تماما ، والامكانيات المادية محدودة · وعندما أدرك الفرنسيون خطورة حركته هذه ، خافوا أن تصبح « زعاطشة ثانية » · فقرروا مواجهتها بسرعة ، وقساوة ، فى آن واحد · وتعاون ضدها كل من الجنرال قاستو : Gastu ، والجنرال ديفو : Desvaux ، فجندا قوات كبيرة اتجها بها الى بسكرة ابتداء من يوم 12 ديسمبر 1858 ، وأخذا يعملان على الاحاطة والمحاصرة للمقاومين · وخاض سى الصادق ورفاقه معركة كبيرة فى مشونش كانت فوق طاقتهم عدة وعددا ، فقرروا الانسحاب الى الجنوب (5) ، ولكن القوات الفرنسية والمتعاونين معها من القوم ، والقائد الموهوب ابن شنوف ، اعترضوا طريقهم فى حوض واد العرب ، واعتقلوا سى الصادق وثمانية وثمانين رجلا آخرين يوم 20 جانفى 1859 ، واقتادوهم الى معسكر الجنرال ديفو بالقصر قرب مكان المعركة · ثم انقلبوا على السكان العزل وأخذوا يقتلون بالجملة ، ويصادرون أملاكهم ويحرقون دورهم وخيامهم دون تمييز بين الثائر وغيره (6) ، وهى عادة الفرنسيين تجاه كل ثورات الجزائر ·

تقييم حركة سى الصادق :

ان حركة سى الصادق هذه ، يمكن ان نستخلص منها أمرين أساسيين :

الاول : استعداد الناس للثورة ، والتمرد ، ضد الاحتلال الفرنسى ، فى كل وقت ، وظرف ، وعلى أية حال كانت ، دون النظر للعواقب ، أو دراسة نتائجها · وهذا

(4) Robin : pp. 171 et 238-240.
(5) Charles Feraud : Notes historiques sur la province de Constantine. Revue Africaine (Alger 1886) n° 176, pp. 103-107.
(6) Ch. A. Julien : Histoire de l'Algérie contemporaine (Paris 1964) pp. 124-125.

يؤكد رفض الجزائريين القاطع للاحتلال الفرنسي مهما تكن سياسته ، وأساليبه الادارية باعتباره حكما أجنبيا عن البلاد،عرقيا ، وعقائديا ·

الثاني : خلو هذه الحركة من أى استعداد ، أو تخطيط للعمل ، بحيث لم يتخذ زعماؤها الاستعدادات الضرورية للحصول على النتائج المرجوة ، ولم يعبئوا القوى الوطنية المطلوبة · وانما اكتفوا بعنصر القرابة ، والنسب ، والجوار ، والحماس الدينى وهذه وحدها لا تكفى لمقاومة عدو شرس · ولا شك أن هناك صعوبات أخرى مادية اعترضتهم وحالت دون القيام بذلك ·

ان حركة سى الصادق ، من هذه الناحية ، عبارة عن تمرد محلى صغير ، فجرته الاوضاع المحلية ، والمشاكل الشخصية ، لسى الصادق وأفراد قومه وعشيرته ، ولكنه وجد الاستجابة السريعة لدى السكان بالمنطقة · ولم يقدر له النجاح للظروف والعوامل التى أشرنا اليها · ومع ذلك سيكون لهذه الحركة تأثير فى الاحداث الثورية العنيفة التى سيتزعمها محمد بو خنتاش فى العام الموالى · ولعل وثائق جديدة تكتشف فيما بعد ، وتبعث ، تزيد الكثير من الغموض حول هذه الحركة ، وتقدم لنا تفسيرا ، وتقييمات جديدة عنها ، وعن أسبابها ، ودوافعها ·

ب ـ حركة بوخنتاش فى المسيلة والحضنة عام 1860 :

لقد كان لحركة سى الصادق فى منطقة بسكرة تأثير سيىء لدى سكان الواحات ، والهضاب العليا ، لان الفرنسيين واجهوها بقسوة بالغة ، ولم يتورعوا عن قتل واضطهاد حتى رجال الدين الذين ينظرون اليهم على انهم متعصبون ، ويعتبرونهم خطيرين على وجودهم بهذه البلاد ·

ولم يمض عام على حركة سى الصادق ، حتى اندلعت حركة أخرى مسلحة فى غرب المنطقة التى كانت مسرحا لاحداثه ، وذلك فى المسيلة ، وجبال الحضنة شمال الهضاب العليا الشرقية · وتزعم هذه الحركة محمد بن بوخنتاش الذى ينتمى الى أولاد سيدى رحاب ، أشراف أولاد دراج الذين يدعون بالبراكتية ·

ولثورة بوخنتاش هذه ، جذور قديمة تعود الى نصف قرن تقريبا قبل ذلك ، حيث

أشيع بأن جد البراكتية سى محمد بن سيدى بركات ذكر لابنائه ، وتنبأ لهم ، بأن الفرنسيين سيغزون هذه البلاد فى وقت ما ، وأن تحريرها بعد ذلك سيكون على يد أحد الاشراف الذى سيقدم اما من المشرق أو من المغرب • ولكن قدومه من السوس الاقصى بالمغرب الاقصى ، هو الارجح ، وسيكون خليفته ونائبه هنا من أولاد سيدى رحاب الذين لم يكونوا تابعين لاية طريقة دينية فى البلاد آنذاك حسب رأى فيرود (7) •

وعندما غزا الدوق دومال جبال أولاد سلطان عام 1844 خلال أحداث الحاج أحمد باى ، ومحمد الصغير بن عبد الرحمن (8) • عين السيد أحمد بن يحيى من أولاد رحاب خليفة ونائبا للشيخ بركات ، فحاول أن يركز نفوذه ، ويقوى مركزه ، وبقى يواصل عمله فى وظيفته هذه حتى أصبح شيخا كبيرا (9) •

وحوالى 10 مارس 1860 ، ظهر سى محمد بن بوخنتاش من أولاد رحاب ، كزعيم ، وادعى للناس بأنه مبعوث من شريف بالسوس الاقصى ، على رواية فيرو ، فى مهمة لتحرير البلاد تجسيما لتلك الاقصوصة الشائعة منذ عدة سنوات طويلة • فصدقه الناس ، وأخذوا يتجمعون حوله ، ويستمعون الى دعوته للجهاد ، فتأثروا بأفكاره التى كانت ملائمة لاتجاهاتهم الاستقلالية •

على أن مثل هذه الرواية لا يمكن الاطمئنان اليها ، لان بوخنتاش من سكان المنطقة ، فأين كان غائبا حتى ظهر من جديد ؟ وكيف استطاع ان يقنع الناس بحمل السلاح لمقاومة الفرنسيين ؟ ولماذا ربطت حركته بفكرة شريف السوس الاقصى ؟ ان مثل هذه الاساطير الشعبية ، على فرض صحة وجودها ، لا يمكن اتخاذها سببا وذريعة لنشوب حركة مسلحة تحريرية • والفرنسيون عندما يوردون مثل هذه الاقاصيص ، يهدفون

---

(7) Feraud : pp. 107-110.

(8) يحيى بوعزيز : من كفاح الجزائر فى القرن التاسع عشر أربعة أحداث فى ثلاث وثائق • المجلة التاريخية المغربية • عدد 2 (تونس ــ جويلية 1974) ص 94 ــ 102 •

(9) Feraud : pp. 108-109.
Nemes - Demarest

الى أغراض خاصة ، غير شريفة ، من ضمنها محاولة اثبات تعصب الجزائريين الديني ، والعـــرقي .

واذن فالتبرير الوحيد لنشوب هذه الحركة ، هو رفض السكان القاطع والمستمر ، للسيطر الفرنسية الاجنبية ، وتأثرهم بحركة سي الصادق ، وما قبلها مـن الثورات المسلحـــة .

لقد انتشرت بسرعة أخبار ، ودعاية محمد بن بوخنتاش ، الى جهات كثيرة من منطقة الحضنة ، وانضم اليه سي العربي باش عدل أولاد سحنون بمدينة بريكة ، وسي أحمد باي من أولاد منصور ، وهما اللذان سيلعبان دورا بارزا ورئيسيا في حركته لمالهما من التأثير القوي على سكان المنطقة .

وقد صدق الناس ، على رأي فيرو ، في بريكة وغيرها ، بصفة دعواه وتذكروا قصة عام 1844 التي أشاعها أحمد بن يحيى خليفة سي محمد بن سيدي بركات ، وتوافدوا على بوخنتاش من كل الجهات ، والكثير منهم أصحاب السمعة ، والنفوذ ، والتأثـير ، كالطلبة ، والقضاة ، والعلماء ، ورجال الدين . مما جعل حركته تكون أخطر من حركة سي الصادق قبله في بسكرة ، وخنقة سيدي ناجي ، وأقوى وأكثر انتشارا ، وامتدادا ، وتـأثـــيرا .

فقد تجند لحركته ، أولاد منصور ، وأولاد زميرة ، بزعامة شيوخهم ، وزعمائهم . وأنتشرت دعايته وامتدت الى كل المنطقة الجبلية الممتدة بـين سطيف والحضنة . ورفض أولاد نجاع طاعة قائدهم الموالي للفرنسيين ، ووجه قاضيهم ابنيه الى معسكـر بوخنتاش ليحاربا الى جانبه . ولعب كل من قائد أولاد سحنون سي العربي ، وســي أحمد باي ، دورا موجها في الثورة حتى أصبح بوخنتاش كالدمية في أيديهما .

لقد اهتم سي العربي بجمع المؤن والذخائر والاسلحة ، قبل ذلك ، كأنه كان يتوقع حدوث ثورة ، أو أنه كان يعد لها مع بوخنتاش مسبقا . وعندما اندلعت ثورة ســي الصادق في سفوح الاوراس وبسكرة أواخر عام 1858 ، قال عنه سي العربي هذا ، بأنه « دجال » ، لان الشريف الحقيقي ، حسب زعمه ، وحسبما رواه فيرود ســـيأتي

لربما فى السنة القادمة ، وهو يشير الى عام 1860 على ما يظهر · وهذا يــدل على ان حركة الاعداد لثورة بوخنتاش كانت تجرى حتى خلال حركة سى الصادق ، وعلى أن سى العربى كان من ضمن من كان يعد لها ، وأن توقيتها قد حدد بعام 1860 ·

جمع بوخنتاش ، وسى العربى ، وأحمد بـــاى ، حوالى ثمانمائة رجل ، وعبؤوهم للقتال ، بما لديهم من امكانيات · وتمركزوا بقواتهم فى مكانين على ضفتى : واد ذراع البيضاء · وكان بوخنتاش على الضفة اليسرى · وتولى الشيخ بيبى من أولاد عمر ، ابلاغ الفرنسيين فى مدينة باتنة باستعدادات بوخنتاش ، ورفاقه هذه · كما استعـد المدعو سى الشريف ، القاضى القديم بمنطقة الحضنة ، لمقاومته ، وهو صاحب التأثير ، والسمعة الكبيرة ، وذو الصلات القوية مع السلطات الفرنسية بها ·

وعندما اتصل الفرنسيون بهذه التحركات والاستعدادات ، أخـذوا يستعدون لمواجهته · فزحف الكولونيل بان Pien الى بريكة على رأس قوات كثيرة مـــن القناصة ، والصبايحية ، والرماة ، وخرج الجنرال نيم دومارست Nemes - Demarest من سطيف على رأس قوات أخرى عسكر بها فى مكان يدعى شجرة أوادا (الشجـــرة التحتانية) قريبا من مكان تجمع الثوار ·

وعندما تكامل تجمع القوات الفرنسية ، التحـم الفريقان فى معـركة ضـارية ، وحاسمة ، صباح يوم 25 مارس 1860 · استعمل فيها حتى السلاح الابيض فى مكان دعاه أحد شعراء الملحون « خنق أم حمام » واصبحت المعركة تدعى بهذا الاسم لـدى السكان وعلى السنة الناس ·

ورغم مقتل عدد لا بأس به من الفرنسيين وأعوانهم ، الا أن المعركة انتهت بتخريب معسكر بوخنتاش ، وتحطيم سكان أولاد عمر ، وأنصارهم · وأرغم أولاد سى عمر على تسليم بوخنتاش نفسه فى نفس اليوم ، وكذلك مساعده سى أحمد باى المنصورى ، الى الجنرال نيم دومارست · فى حين قتل سى العربى باش عدل أولاد سحنون (10) ، وطبق الفرنسيون كعادتهم أسلوب القتل ، والتشريد الجماعيين للسكان ، وتخـريب عمرانهم وأملاكهم ، وحقولهم ، مبالغة فى النكاية ، والاهانة ، والافقار ·

(10) Feraud :Ibid. pp. 108-110 et le Sahara de Constantine. Notes et souvenirs (Alger 1887) pp. 420-443.

وقد سجل أحد شعراء الملحون المعاصرين للثورة ، وقائع معركة : «خنق أم حمام» وما صاحبها من القتل والتشريد لاولاد سى عمر ، والبراكتية ، وغيرهم ، وكيفية وصول قوات العدو ، والتحامها بالثوار • وذلك فى قصيدة طويلة نورد فيما يلى بعض نماذج منهـا :

يا راعى الملجوم رضى امهل لى … وعودك من الابعد جاء عرفه يقطر
تعلمنى ما صار فى الحضنة … فيما بين الناصرة وأولاد عمر
خبر جانى مع النجوع الحق لى … وحرمة الابطال عامت على البر
« فتنة خنق أو حمام » قعدت محكية … يا معتاه انهار فى جر أم عمر
ضاعوا لى سادات طلبة سنية … ذرية رحاب شريف من النبى الطاهر
هم راحوا وفى فؤادى جاءت كية … وفرسان المحمول ستين بعد ماية قادر
باعوا الحياة من دار الدنيا … قصدوا الجنة للمقام الاخضر
لهم الطلبة لكل تعطيهم الجزية … وأهل العلم كبير أغمق من البحر
سيادى علماء خليفة الانبياء … ذرية أبو سيف على وحيدر
خرجوا للجهاد أولاد الرحابية … وعقلوا رجليهم وراح رخس العمر
من نطحة الاشراف ناضت مسبية … وكسر وهاد ودات من فوق الوعر
عاد يزغرت عنهم بنات المزيانة … وريش القرطاس مواسى نادر
ركبوا الاشراف أولاد الرحابية … وكالخناش فى الارض يغبر
محمد درغام أسد البراكتية … واللبة سوداء تصاحبه وتكركر
جاونا زوج محال من العساكرية … ومعهم الاعراش فزعت عن الآخر
فتنة « خنق أو حمام » قعدت محكية … يا معتاه انهار فى جرام عمر
وقعت الصبحية جاء وراء الفجرية … كيف الوديان السيل ضرب العساكر
جاء سرسور كيف نار مقدية … زدموا ونطحوا صغار أولاد عمر

بـــدا يضرب كالثلـــج السفـــايـــة — وغـير جبـــروش طـاح مـزنة مغـزر
تـلاقـوا الرجـال أحمـــر عـــرايـــة — وفى النطحة تعطيه فى لـــوح الصـدر
كيف نـاض العيـاط ركبـت مشليـة — ورعيان الفراسات سرجوا على ضمـــر
أهـــل السيـــوف مهنـــدة مغـاربية — واللفعت اثنـين يجـــوا عـلى الايسار
على بيـت أولاد عمـر قـديت الغنـايـة — وخـزنة البـارود مـا زال حاضر (11)

تلك هى حركة محمد بوخنتاش ، وهى لا تختلف عن حركة سى الصادق فى كونها عبارة عن تمرد محلى جهوى ، ضعيف الاستعداد ، قليل التعبئة ، اعتمد على الحماس الـدينى أكثر من غيره ، ولكن الناس لم يترددوا عن حمل السلاح لان الاستعمار الفرنسى بالغ فى اذلال الجزائريين ، وافقارهم ، واهانتهم ، وعزلهم عن كل المجالات .

جـ ـ ثورة سكان واحة العمرى عام 1876 :

أسباب اندلاع هذه الحركة :

تقع واحة العمرى على بعد 48 كلم من جنوب غرب مدينة بسكرة ، على مجرى مائى ينزل من جبل أكسوم ، وينصب فى واد جدى . واندلعت فيها الثورة فى ربيع عام 1876 لعدة أسباب أهمها : السلوك السيىء للسياسة الفرنسية تجـــاه السكان فى المنطقـــة .

فبعد القضاء على حركة بوشوشة ، واعدامه يوم 31 مارس 1874 ، سعت سلطات الاحتلال من أجل اعادة تنظيم ادارة المناطق الصحراوية ، واستعانت بآغا ورقلـــة والاغواط ، ابن ادريس ، وحاولت أن تحقق نوعا من التوازن بين العائلات الصحراوية الكبيرة مع اعطاء نوع من الحرية الذاتية للمنطقة ، كما اقترح ذلك الحاكم العام شانزى .

غير ان هذه السياسة لم تنجح ، لان المباشرين للتطبيق من ضباط المكاتب العربية ، كانوا يمارسون سياسة الدس ، والايقاع ، بين العائلات الكبيرة ، خاصة بين عائلـــة ابن قانة ، وعائلة بوعكاز التى كان على باى فى هذه الفترة هو زعيمها وممثلها .

---
(11) Feraud : pp. 110-118.

(خوجة) للقائد بولخراس بن قانة لعدة سنوات . فى حين كان أخوه الاكبر مسعود قاضيا بمدينة بسكرة الى أن توفى مسموما على ما قيل .

ومنذ عام 1875 أصبح محمد يحيى يظهر نوعا من الشك ، والجفاء ، نحو رئيسه بولخراس ، ونحو عائلة ابن قانة كلها ، التى يشاركه معظم السكان فى كرهها ، نظرا لتجبرها وعملها تحت سلطة الفرنسيين . غير أن كره محمد يحيى لها ، نبع أساسا من حادث خاص به وبعائلته . فقد مات أخوه الاكبر مسعود فىمدينة بسكرة مسموما فى منزل الوكيل بلقاسم الحمار وكان قاضيا بها ، وشاع بأن القائد محمد الصغير ابن قانة هو الذى أوعز بذلك ، فتألم اخوه محمد يحيى من هذا العمل ، وكظم غيظه مدة . ولكن ذلك الامر بقى موجدة فى نفسه . وصادف أن كتب فى هذه الفترة سكان بسكرة ومنطقتها ، رسالة الى الحاكم العام الفرنسى بالجزائر العاصمة خلال شهر جوان 1875 ، اشتكوا فيها من ظلم عائلة بن قانة ، وتجبرها ضدهم ، ومن ظلم الضابط كروزى crouzet الذى كان يطبق نفس السياسة ضدهم ، فاتهم بولخراس ابن قانة ، كاتبه محمد يحيى ، بأنه هو الذى كتب هذه الرسالة لهم ، وأوقفه فى شلغوم العيد (شاطودان دورومال سابقا) ، واقتيد الى بسكرة حيث حقق معه الكابيتان لوفروا le froid واكتشف أنه لم يكن هو الكاتب لها . ومع ذلك فسدت العلاقة بين بولخراس وكاتبه ، وطلب الاول من الثانى أن يستقيل من منصبه كشيخ لاولاد ادريس ، ولكنه رفض وأصر على مواصلة زعامته لهم (15) ، وهذا يكشف عن شدة التوتر بينهما .

تسبب هذا الحادث فى اندلاع الثورة :

لقد كان هذا الحادث سببا فى حدوث الجفاء ، وتزايده بين محمد يحيى ، وأولاد ابن قانة . وعندما دعى محمد يحيى الى بسكرة بعد ان غادرها رفض ذلك ، مرة بدعوى خوفه من القتل كما حصل لاخيه القاضى ، ومرة بدعوى رفض أولاد بوزيد الموافقة على ذلك . ومما يرجح مقتل القاضى مسعودا مسموما ، هو أن السلطات الفرنسية عزلت الضابط كروزى ، وعوضته بالحاكم الاعلى جيليز Gellez ، الذى قرر أن يعتقل

(15) نفس المصدر ، ص 123 ــ 124 .

ولا شك أن الخصومة التقليدية بين العائلتين كان لها تأثير على سياسة واتجاهات القبائل الصحراوية الاخرى ، انعكس على تصرفاتها ، وحاول اسماعيل أوربان أن يؤيد هذا عندما قال بأن أولاد بوزيد الذين ثاروا فى هذه الفترة ، كانوا قد ثاروا ضد الامير عبد القادر وحاربوه وحاربوا خلفاءه • فكيف يثورون اليوم ضد السلطات الفرنسية لولا تناحر هذه العائلات الاوروستقراطية فيما بينها على السلطة (12) •

وعلى أى حال فان سكان الصحراء كانوا يكنون كرها للاحتلال الفرنسى ، ويرغبون فى التخلص منه ، لانهم عانوا كثيرا من سياسة التشريد ، والمطاردة ، المفروضة عليهم ، خاصة اثناء حركة بوشوشة ، وبن ناصر بن شهرة ، والشريف محمد بن عبد الله ، وبو مزراق ورفاقه المقرانيين • كما عانوا من الصراعات الشديدة بين عائلة بن قانة ، وعائلة على باى ، ومن قسوة الضباط الفرنسيين ضدهم فى المعاملة ، واستخلاص الضرائب ، وأعمال السخرة • وتدل الكتابات التى نشرها أحد أفراد عائلة بن قانة فى الصحافة الباريسية ، حول اتهام على باى فى التسبب فى بعض المشاكل التى أدت الى نشوب هذه الثورة ، على أن هذه الخصومات لها دور فى هذه الحركة •

ولم تنس الصحافة الباريسية نفسها أن تعرض بالضباط الفرنسيين ، وتتهمهم بالاثارة لمثل هذه الحوادث خاصة حركة واحة العمرى (13) •

وقد عدد مارقون أسباب ثورة سكان واحة العمرى ، وذكر أنها تنحصر فى المشاكل التى تثيرها عائلة بن قانة ، ودعاية الشيخ الدينى المتعصب أحمد بن عايش ضد الفرنسيين ، وضعف قائد الناحية بو لخراس بن قانة ، وعجزه عن مواجهة حوادث أولاد بوزيد عندما ظهرت فى البداية (14) •

شخصية زعيم هذه الحركة :

تزعم هذه الحركة الشيخ محمد يحيى بن محمد ، وكان عمره آنذاك خمسة وثلاثين عاما • وهو زعيم ، وشيخ لاولاد ادريس الذين هم فرع من أولاد بوزيد ، وكان كاتبا

(12) Ch. R. Ageron : Les Algériens musulmans et la France 1871-1919 (Paris 1958) pp. 56-57.

(13) نفس المصدر ، ص 57 ـ 58 •

(14) Le Commandant De Margon : Insurrections dans la province de Constantine de 1870 à 1880 (Paris 1883), pp. 121-122.

محمد يحيى استجابة لرغبة بولحراس ، ويحتجزه بواحة زريبة الواد ، فاصدر أمـــرا بذلك امضى يوم 29 نوفمبر 1875 ، ولكن غياب القواد والشيوخ بالجزائر العاصمة آنذاك فى عمل غير معروف لدينا حاليا ، عطل تطبيق هذا القرار • وعندما حضر الى بسكــرة محمد بن بو عزيز بن قانة ابن القائد محمد الصغير ، وشيخ واحة سيدى عقبة ، تحدث مع جيليز فى أمر محمد يحيى وحصل الاتفاق بينهما على تجميد أمـــر اعتقاله الى أن يعود المسؤول عنه مباشرة ، بولحراس بن قانة من العاصمة (16) •

وعندما عاد بولحراس استدعى كاتبه محمد يحيى واستضافه فى بسكرة ، وتحادث معه طويلا ، ثم انصرف لحاله ، وظن جيليز بأن الامر قد سوى بين الرجلين نتيجة لهذا اللقاء والمحادثة بينهما • ولكن محمد يحيى بمجرد ان عاد الى واحته بالعمرى قرر أن يقوم بحركته ويجهر بها خاصة بعد أن اشتد تذمر بنى بوزيد ، وكثرت الانقسامات فيما بينهم حول كيفية مواجهة الاوضاع • أما ماذا جرى بين الرجلين خلال لقائهما ببسكرة ؟ ولماذا انقسم بنو بوزيد على أنفسهم فى هذه الفترة فـــذلك ما لا نعرفه حاليا ولـــم يتحدث عنه مارقون • وقد تجيبنا فى المستقبل الوثائق التى ستكتشف •

على أن بنى بوزيد سرعان ما جمعوا شمل صفوفهم ، واتفقوا على ضرورة القيـــام بالثورة والتمرد ضد السلطات الفرنسية واعوانها البنقانيين • وقدموا عليهم زعيمهم محمد يحيى ، واستمالوا اليهم الشيخ الدينى بالواحة أحمـــد بن عايش الذى نعتـــه مارقون « بالدرويش » كعادة كل الكتاب الفرنسيين ، فى نعت رجال المقاومة الوطنية الجزائرية ، بالدراويش ، والمتعصبين ، والعنصريين وقد أصبح أحمد بن عايش داعية كبيرا لحركة محمد يحيى، وأولاد بوزيد فى واحة العمرى ومنطقتها خلال هذه الحركة (17).

أسلوب الفرنسيين فى مواجهة هذه الحركة :

وبسبب تازم المـــوقف على هذا الشـــكل ، طلب الجنـــــرال كارتـــيرى تريكور : Carteret-Trecourt من الحاكم الاعلى جيليز ، أن يهتم بما يجرى فى جنـــوب

(16) نفس المصدر ، ص 124 ــ 126 •
(17) نفس المصدر ، ص 128 •

بسكرة · فأرسل الاخير الى بنى بوزيد يخبرهم بأن قائد أولاد زكرى : أحمد بـاى ، يعرف كل دسائس محمد يحيى وأحمد بن عايش حتى يخوفهم ويرهبهم كما طلب من بولحراس أن يوافيه بكل ما يجرى لدى بنى بوزيد ، ومحمد يحيى ، فأجابه برسالة ، فيها شيء من الغرابة ، لانه أكد فيها بأن بنى بوزيد مخلصون للسلطة منذ قدوم عائلة بنى قانة الى الصحراء · وأن اجتماعاتهم التى نضموها قبل ذلك الوقت انما كانت من اجل طلب الغيث من الله حسب عادة المسلمين بعد أن اشتد القحط والجفاف فى المنطقة وليس لغرض تنظيم التمرد ، أو العصيان ·

ورغم ان جيليز ، شاطر بولحراس فى أفكاره وأخباره ، خاصة بعد أن استجاب بنى بوزيد لطلب الجنرال كارتيرى ، وحضر فرسانهم بجمالهم الى مدينة بسكرة فى نفس الموعد المحدد لهم ، ليصاحبوه الى واد غير ، الا أن جيليز لم يخف عن الجنرال ، كارتيرى، والكابيتان لوفروا ما حكاه له أحمد باى قائد أولاد زكرى ، عن تـذمر أولاد بوزيد ، والتزامهم القيام بالثورة (18) ، وهذا يدل على مدى تدهور الاوضاع ·

بداية حركة التمرد وخطط زعيم الثورة محمد يحيى :

والحقيقة أن بنى بوزيد كانوا عازمين على الثورة حتى عندما رافقوا الجنرال الى وادغير · فقد خرجوا معه من بسكرة صباح يوم 8 مارس ، فى اتجاه تقرت وعندما وصلوا الى واحة مراير يوم 11 انفصلوا عنه ، وحاولوا أن يغيروا عليه وعلى قواتــه فى وادغير يوم 12 مارس فاضطر أن يعود بسرعة الى الوراء ·

وفى يوم 22 مارس اتصل جيليز فى بئر كليبية ، برسالة من لوفروا أخبـره فيها بثورة بنى بوزيد ، فعاد الى بسكرة ووصلها يوم 25 مارس · وكان بولحراس قد كاتب لوفروا منذ يوم 19 مارس أخبره فيها بثورة هؤلاء · ولكن لوفروا حمله مسؤولية ذلك واتهمه بالعجز عن معرفة ما يجرى فى منطقة عمله ، وابلغ ذلك الى الجنرال كما ذكرنا (19) · فمن جهة استفاد من الاخبار التى وصلته ، ومن جهة وبخ من ابلغها اليه ·

(18) نفس المصدر ، ص 129 ــ 131 ·
(19) نفس المصدر ، ص 131 ــ 132 ·

وعندما كشف محمد يحيى عن مشاريعه مع رفيقه وداعيته الكبير أحمد بن عايش ، استمال اليه عددا من الاشخاص ذوى نفوذ فى المنطقة وهم : شلاى بن يداح شيــخ الجبابرة ، ومبروك بريكة شيخ أولاد داود ، ومحمد بلحاج بن سالم ، وعلى بن حوريس شيخ زاوية متليلى • وظن أنه بفضل هؤلاء سيستميل اليه كل سكان واحات الزيبان ، ويحطم بهم نفوذ وسيطرة أولاد بن قانة ، والفرنسيين معا •

فشــل محاولة لوفــروا :

وقد ظن الضابط لوفروا أنه يستطيع أن يقضى على الحركة بأسلوب الدس والايقاع بين محمد يحيى ورفاقه وأنصاره • فكاتبه برسالة طلب منــه أن يقــدم الى بسكــرة للاتصال به ومحادثته ، فرد عليه بأنه مشغول ولا يستطيع تلبية طلبه ، كما أن بنى بوزيد يرفضون ذلك عليه لخوفهم من أن يعتقل • وعندئذ طلب لوفروا من بولحراس أن يذهب الى واحة العمرى لمقابلة كاتبه القديم فرفض بدعوى الخوف من ان يغتاله بنــو بوزيد الذين يكنون حقدا لكل أفراد عائلة بن قانة ، وله خاصة •

وأمام كل هذه العراقيل والصعوبات قرر لوفروا أن يقوم هو بنفسه بهذه المهمة ويجرب حظه ، فاتجه يوم 30 مارس الى واحة طولقة عن طريق ليشانة ، بصحبة ثلاثة فرسان فقط حتى لا يثير خوف وشكوك الناس حول مهمته ، على ان يوافيه هناك محمد يحيى ليتفاوض معه • وعندما وصل الى بوشقرون دعاه شيخها لشرب القهوة ، فلبى الدعوة غير أن أتباع الشيخ رفضوا أن يخدموه واختفوا مما يدل على انتشار التذمر بين كل السكان بالمنطقة واستعدادهم للثورة عند حصول أى حادث أو سبب •

وعندما وصل الى طولقة استقبل ببرودة ، واتجه الى زاوية سى على بن عثمان الذى أخبره بأن الامور ليست خطيرة ، ومن هناك ارسل لوفروا رسالة الى محمد يحيى ، وفعل مثله سى على بن عثمان ، يرجوانه القدوم اليهما • ولكن الرسول عاد ليخبرهما بأن محمد يحيى وبنى بوزيد فى حالة ثورة (20) •

وفى نفس الوقت الذى كان فيه لوفروا داخل واحة طولقة • أخذ على بن عــايش

(20) نفس المصدر ، ص 132 ـ 136 •

ورجاله يغزون ويهاجمون المنازل والخيام الموجودة بضواحيها ، وتمركز ثوار بنى بوزيد فى السهل الممتد بين طولقة وخرفار ، واضطر التجار أن يغلقوا متاجرهم خوفا من هذه الاخطار • وشعر لوفروا نفسه بالخطر ، فاعتصم بزاوية سى على بن عثمان ، ووجه رسولا سريا الى بسكرة يطلب نجدة سريعة ، كما ارسل رسولا آخر الى القائد الحاج ابن قانة الذى كان موجودا آنذاك فى أورلال : على بعد 34 كلم من بسكرة يطلب منه أن ينجده كذلك فحضر اليه فى الحال على رأس حوالى 15 فارسا ، وحضر بعده بيوم واحد ، محمد الصغير بن قانة نفسه صباح 31 مارس على رأس ثلاثين فارسا • فأخذوه معهم الى بسكرة وأنقذوه من المأزق الذى وقع فيه ، واتجه الجنرال كارتيرى فى الحال الى بسكرة لمواجهة الوضع الذى أصبح خطيرا حقا •

المعركة الحاسمة ومقتل زعيم الثورة :

اهتم محمد يحيى ورفيقه أحمد بن عايش بمصير حركتهما • فأخذا يحثان الناس على حمل السلاح والصمود أمام العدو ، وضع أحمد بن عايش علما أخضر ، وأدعى للناس أن محمد يحيى قد كلفه باعلان الجهاد ، وحثهم على تدعيم الثورة لتخليص البلاد من الاعداء الفرنسيين • وكانت جماهير بنى بوزيد أول من استجاب لهذه الحركة ، وتلاهم بعد ذلك سكان القبائل المجاورة (21) •

وفى صباح يوم 11 ابريل على الساعة السابعة التحم الثوار الذين كان عددهم يزيد على حوالى 2100 رجلا ، مع قوات كارتيرى حول واحة العمرى ، ونشبت معركة كبيرة قتل خلالها زعيم الثورة محمد يحيى وحوالى خمسون آخرون ، وجرح أحمد ابن عايش ، كما جرح عدد من القوات الفرنسية واعوانها بينهم قائد بسكرة محمد الصغير بن قانة •

ورغم مقتل زعيم الثورة ، وجرح داعيته بن عايش • فان أغلبية الثوار صمموا على مواصلة القتال فاعتصموا داخل الواحة وكان عددهم حوالى خمسة آلاف مقاتل ، وعقد زعماؤهم مجلسا حربيا ضم حوالى عشرين شخصا اتفقوا خلاله على وضع خطة

(21) نفس المصدر ، ص 136 ــ 140 •

للدفاع والمقاومة ، وأنشأوا حرسا من حوالى أربعين شخصا لتنفيذ ما اتفقوا عليه ، وأخذ أحمد بن عايش يكتب الرسائل الى السكان المجاورين يحثهم على الانضمام لحركتهم وتأييدها وتقديم العون المادى والمعنوى لها • كما هنأ فى رسائله بعض الذين اشتركوا فى المعارك الاولى •

وازاء هذا الصمود ، وهذه الاستعدادات التى ابداها الثوار داخل الواحة ، رغم ما حصل لهم خلال المعركة حولها ، فان كارتيرى تخوف من الهجوم على الواحة ، فتمركز بجانبها على مكان استراتيجى يتيح له مراقبة ما يجرى داخلها ، والمسالك الموصلة اليها • وطلب نجدات من قسنطينة وبوسعادة • وحاول الثوار يوم 14 أبريل ان يهاجموه ولكن لم يحصلوا على طائل نظرا لتحصنه ، وامتلاكه لاسلحة متفوقة تصيب أهدافها من بعيد •

وفى يوم 22 ابريل وصلت نجدات قسنطينة بقيادة الجنرال عبد الله ، والكولونيل ناروى : Narrué ، وفى يوم 24 وصلت نجدة بوسعادة بقيادة الجنرال روكبرون Roquebrune ، وعسكرت كل واحدة منهما فى مكان خاص حول الواحة وأحاطتا بها مع قوات كارتيرى ، وكونت مثلثا عليها من الشمال ، والشرق ، والغرب ، بينما تمركز القوم فى جنوبها • (22)

ومن سوء حظ الثوار انهم اختلفوا فيما بينهم ، وادى ذلك الى نشوب قتال وحرب أهلية داخل الواحة ، بسبب تعارض مواقفهم ، فقتل الكثير منهم • ولكن أحمد بن عايش أصر على القتال وأعلن لاصحابه أنه على استعداد لان يموت ألف مرة ، ولكنه لن يسلم علم الثورة الى الاعداء الفرنسيين • غير أن القوات الفرنسية استغلت هذه الظروف والخلافات ، وهاجمت الواحة يوم 27 ابريل وفرضت الحصار عليها طوال ذلك اليوم والذى تلاه ، واكثرت من القنبلة لدورها وجدرانها ، فزاد ذلك من اشتداد الخلاف بين الثوار داخلها ، واضطروا يوم 29 ابريل أن يستسلموا نظرا لتفوق العدو ضدهم فى العدة والعدد (23) •

(22) نفس المصدر ، ص 140 — 143 •
(23) نفس المصدر ، ص 143 — 145 •

تخريب الواحة كلها على غرار واحة الزعاطشة :

وبعد استسلاح الثوار قام كارتيري ورفاقه بتخريب الواحة كلها على غرار ما فعله هيربيون بواحة الزعاطشة عام 1849 (24) ، وصادر أملاك السكان ونخيلهم ، وباعتها السلطات الفرنسية الى أعوانها ، وحتى الى بعض الاوروبيين (25) الذين سيبيعونها طبعا الى أعوانهم فيما بعد ·

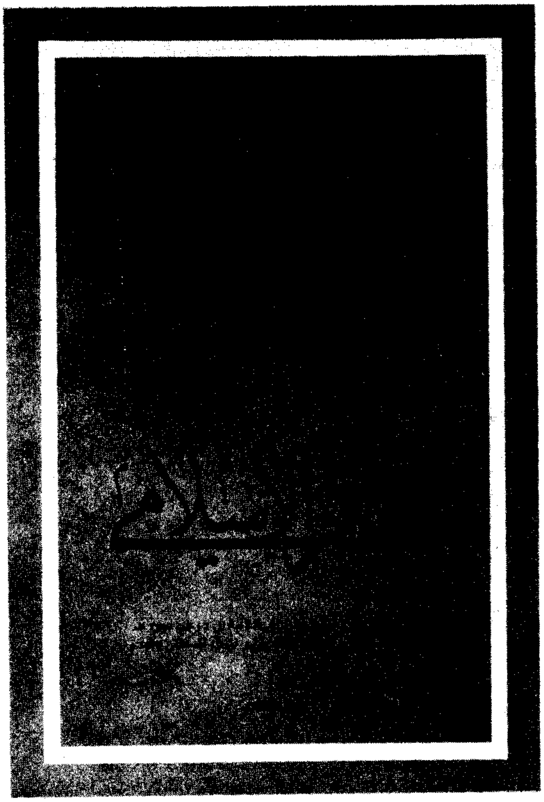
وقبضت السلطات الفرنسية على 91 شخصا من أولاد بوزيد قدمتهم الى المحاكمة أمام مجلس عسكرى ، بينهم أحمد بن عايش الذى حكم عليه بالاعدام ثم عوض بالنفى · وصادرت السلطات كل أملاكهم ، وفرضت غرامة 192،200 فرنكا على المحكوم عليهم ، وصادرت 492 بندقية ، وأرغمت باقى بنى بوزيد على الهجرة من بلادهم الى مناطق أخرى من التل الوهرانى ، فتعرضت عائلاتهم الى مجاعات فضيعة ، ونكبات وأهوال خلال هذا النفى والهجرة الاجبارية ·

كما فرضت السلطات غرامات أخرى على سكان منطقة الزيبان بلغت 44.200 فرنكا وأرغمت الكثير منهم على القيام بأعمال السخرة فى مد الطريق بين باتنة وبسكرة · ولم يصدر العفو على أولاد بوزيد الا عام 1890 ، فسمح لبعض العائلات أن تعود للاستقرار بمنطقة الزاب الغربى (26) لتمارس حياة الرعى ، والخماسة ، لدى الغير ، بعد أن فقدت كل شيء ·

منشـــورات

وزارة التعليـم الاصـلى والشؤون الدينيـــة

صـدر:

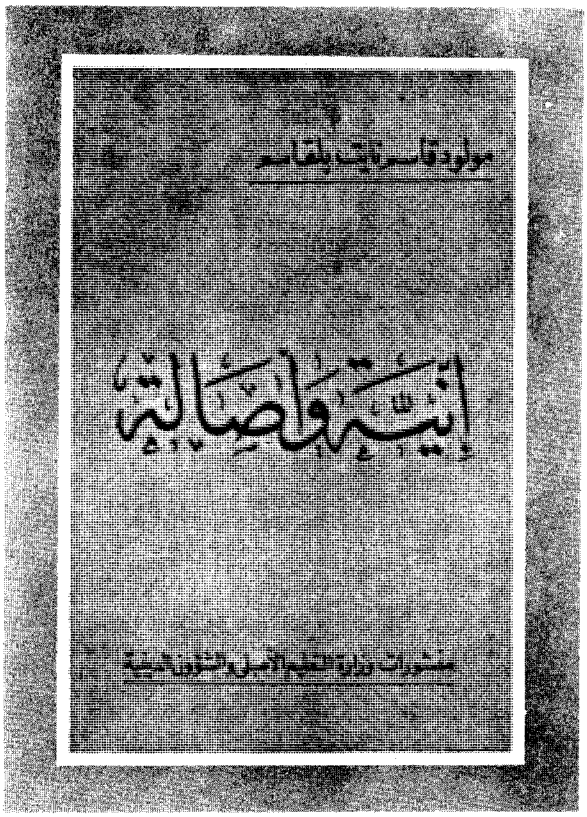


في خمسة أجزاء

منشـــورات

وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينيـــة

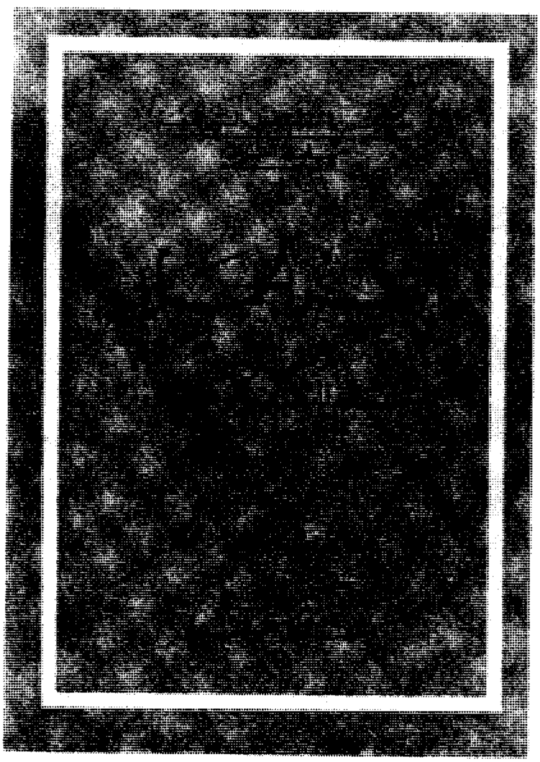
صـــدر :



منشـــورات

وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينيـة

صـدر كتـــاب



منشـــورات

وزارة التعليم الاصـــلى والشؤون الدينيــة

صـــدر أخيرا كتاب :

الملتقى الثامن للفكر الاسلامى

بالعربية فى ثـلاثة أجزاء

ويشمـــل سائـر المحاضرات ، والتعقيبـــات ، والمناقشـــات

كما صدر كتاب :

الملتقى السادس للفكر الاسلامى

بالفرنسية فى خمسة أجزاء

ويشمـــل أيضا سائر المحاضرات ، والتعقيبات ، والمناقشـــات

ورقلة
عروس مدائن الجنوب الجزائرى

د٠ عبد القادر زبادية
معهد العلوم الاجتماعية ـ دائرة التاريخ
جامعة الجزائر

لعبت الصحراء الافريقية الكبرى فى التاريخ الحضارى لشعوب افريقيا الغربية جنوب الصحراء ما لم يلعبه المحيط الاطلسى من الادوار الحضارية الهامة ؛ فقد كانت مسارب الصحراء الى غربى أفريقيا بمثابة مسالك تعبر من خلالها حضارة البحر الابيض المتوسط والحضارة الاسلامية ، وهذا حتى نهاية القرن التاسع عشر حينما بدأ الاحتلال الاوروبى فى تلك المنطقة ٠ (1)

لقد اتصلت قبائل السودان الغربى منذ القديم مع سكان الشمال الافريقى ، ولم تكن الصحراء لتشكل فى يوم من الايام عائقا يحول دون ذلك الاتصال الحضارى المثمر الذى استفادت منه شعوب هاتين المنطقتين الواسعتين من أفريقيا ٠ وكانت الاسس الاولى المباشرة لهذا الاتصال هى التجارة وتبادل المنتوجات والبضائع ، وعن طريق ذلك انتقلت المؤثرات الحضارية أو التحضرية بشكل واسع ٠ (2)

(1) قارن Cissoco : Histoire de l'Afrique Occidentale, Paris, 1968.

(2) راجع ؛ جمال زكريا قاسم ـ الاصول التاريخية للعلاقات العربية الافريقية ـ القاهرة ، 1975 ٠

وباستثناء تلك الحملة العسكرية الطائشة التى أوفدها المنصور النهبى سلطان المغرب فى القرن السادس عشر الى السودان الغربى بقصد التوسع والاستغلال ، فقد ظل التبادل التجارى والثقافى يشكلان العنصر الاساسى والوحيد للتبادل الحضارى المثمر بين شمال الصحراء وجنوبها • (3) وكنتيجة لهذا التبادل الطويل الامد رأت المدن الصحراوية الواقعة على طريق القوافل التجارية ازدهارا كبيرا ، وأصبحت بمثابة عواصم ثقافية وسياسية هامة ، تتمتع بعلاقات خاصة مع ممالك السودان الغربى وتلعب دور الوسيط بينها وبين مدن الشمال • (4)

وبالنظر لاهمية هذا التبادل وخاصة بالنسبة لممالك السودان الغربى فقد حرص أمراء الجنوب باستمرار على توفير الجو الامنى والاحترام المناسب لرجالات القوافل الشمالية ، وهذا مما دفع الحسن الوزانى المعروف بـ (ليون الافريقى) لدى الغربيين، الى الاشادة بطبيعة السودانيين وتقديرهم للغرباء ، وذلك بالرغم من أنه فى موضع آخر من مذكراته يذهب الى وصف سكان تلك المناطق بالغباوة والطيش وقلة الذوق كما بدوا له • (5)

تكاد تجمع آراء الباحثين على أن الطرق أو المسالك (على حد تعبير البكرى ، القرن 11 م) الكبرى التى كانت تتبعها القوافل الذاهبة والعائدة الى ومن السودان الغربى هى :

1) من سجلماسة ؛ ينطلق طريق الى والاتا ومنها الى تمبكتو وجنى وغاو •

2) تلمسان ؛ يمر هذا الطريق بغرداية وتوات وينتهى الى تمبكتو •

3) تكرت وورقلة ؛ ينطلق طريق آخر الى غاو مباشرة ، وهذا المسلك يتصل شمالا

---

(3) لقد كان مجلس العلماء من حول الملك ضد هذه الحملة ، ولكن المنصور أصر على رأيه معللا ذلك بأسباب داعية وأخرى مساعدة ، وقد فشلت الحملة فى جميع اهدافها ماعدا الجانب الوحشى منها ان صح هذا التعبير ، راجع اليفرانى ، نزهة الحادى ، فاس ، د•ت ، ص 76 •

(4) راجع بصورة خاصة : E. W. Bovill : The golden trade, Oxford, 1970

(5) راجع بصورة خاصة • Léon l'Africain, Paris 1896, V. 1, p. 53.

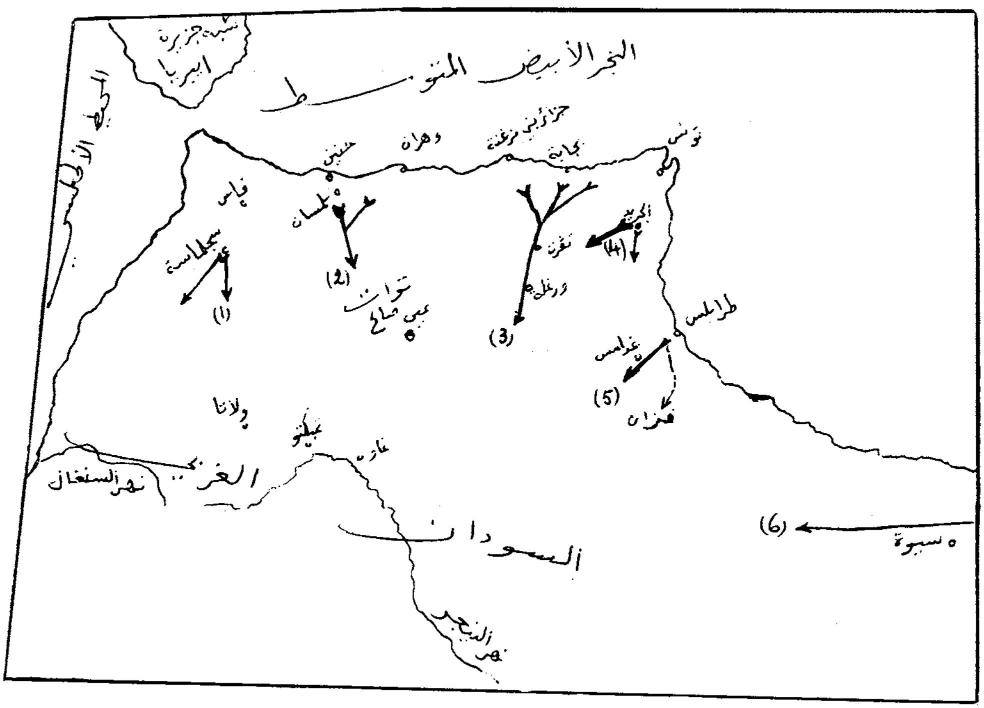
ببضائع الموانىء الجزائرية الهامة مثل جزائر بنى مزغنة (الجزائر العاصمة) وبجاية وسكيكدة ومستغانم وغيرها ٠

4) من واحة الجريد فى جنوب تونس ؛ ينطلق طريق آخر غالبا ما كانت تمر قوافله بورقلة ووادى سوف أو بغدامس فى بعض الاحيان ٠

5) من طرابلس الغرب ؛ كان ينطلق طريق آخر يمر بغدامس ، ويمر فرع منه بفزان ثم ينتهى كل من الفرعين اما الى بورنو أو الى غاو ٠

6) وينطلق من مصر طريق يمر بواحة سيوه وتادمكت (مكة الجديدة) ثم ينتهى الى غاو وتمبكتو ٠ (6)

(6) راجع بصورة خاصة :
(6) W. Fage : Introduction to the history of W. Africa, Cambridge, 1955.



وكما هو موضح على الخريطة ، فان مدينة ورغلة ونواحيها كانت بمثابة نقطة تجمع وانطلاق لاحدى الطرق التجارية الهامة عبر الصحراء ، وخاصة تلك التى تسلكها بضائع موانىء الجزائر الشرقية والوسطى وتونس · ولا توجد لدينا تقديرات دقيقة عن حجم القوافل التى كانت تسلك هذا الطريق ، غير أن العلامة ابن خلدون قد يقربنا من تخمين لذلك ، حينما يشير الى أن القوافل التى كانت تمر على أيامه (أواخر القرن الرابع عشر) بالهقار كان عدد جمالها يبلغ أثنى عشر ألف جمل فى أحيان كثيرة (7) · وواضح أن الهقار يقع ضمن مشمولات هذا الطريق · ويشير ابن خلدون من ناحية أخرى الى أن هذه القوافل التجارية كانت تنظم الى السودان من مختلف التلول والامصار ، وأن التجارة مع السودان كانت عامة فى المغرب على أيامه ، بحيث يشترك فيها سكان البوادى وسكان المدن على السواء (8) ، وهذا مما يؤكد الحقيقة المشار اليها آنفا حول ورقلة وأنها كانت بمثابة تجمع وانطلاق لتجارة امصار ومناطق وموانىء كثيرة ، تشمل جهات عديدة فى وسط الجزائر وشرقها وتونس أيضا ·

ومن التطورات التى رآها هذا الطريق ؛ طريق ورقلة التجارى الهام بين الشمال والجنوب ، هو ما احتوته رسالة سلطان بورنو التى أرسلها فى سنة 1440 م · الى علماء توات ، يشتكى لهم فيها من أن التجار لم يعودوا يقصدون بلاده بأعداد كثيرة كما كانوا يفعلون فى السابق · وان الحقيقة من وراء هذه الشكوى لا تتمثل أبدا فى أن تلك الفترة كانت فترة تدهور فى التبادل التجارى الحضارى على هذا الطريق ، وانما صادف فى هذه الفترة أن جالية يهودية سيطرت على مرافق التجارة فى توات ، وهذا ما دفع الطوارق الذين تقع بلادهم بين توات وبورنو الى العمل على عدم السماح لتلك التجارة التى كان من ورائها اليهود من المرور بأراضيهم · (9)

لقد ساهمت القوافل على جلب البضائع المتنوعة الى ومن السودان الغربى ، ولم تختلف القوافل التى تسلك طريق ورقلة عن غيرها فى هذا الشأن ، سوى ما يختص

---

(7) عبد الرحمان بن خلدون ، التاريخ ، بيروت 1959 ، جزء 6 ، ص 405 ·
(8) المصدر نفسه ، جزء 7 ، ص 119 ·
(9) R. Mauny : Le Judaisme, 1949, p. 360.

القاضى محمود كعت من الاشارة اليه ؛ وذلك فيما يتعلق بالتمور الواردة عن طريق ورقلة والتى أخذت شهرة كبيرة فى أسواق تمبكتو بصورة خاصة ، حيث كانت تباع فى أحيان كثيرة بطريقة العد لجودتها (أربعة أو عشرة) لا بطريقة الكيل أو الوزن (10)، ويتفق الباحثون على أن البضائع التى كان يجرى تداولها بصورة عامة ، ربما كان من أهمهـــا :

1 ــ من الشمال أوانى النحاس ، المصنوعات الحديدية ، المصنوعات الزجاجية ، المقتطعات المرجانية ، العطور ، التمور ، التين المجفف ، المنسوجات القطنية والحريرية ، القمح ، الملح ، الكتب ، الجلود المدبوغة ، الاصبغة المختلفة ، الحلى والخيول ٠

2 ــ من الجنوب : الذهب ، ريش النعام ، العبيد ، التوابل ، والجلود غير المصنوعة والعـــاج ٠ (11)

لقد كانت هذه البضائع من الاهمية الحضارية والانسانية بحيث كان ينتج عـــن تواردها أو تبادلها :

1 ــ تنشيط التجارة الداخلية ٠

2 ــ تغذية الجبايات الحكومية ٠

3 ــ المساهمة فى توفير مجالات للتشغيل ٠

4 ــ ترقية الذوق فى الاستهلاك والاستعمال ، ويدل على ذلك أن توقف توارد القوافل المحملة بالبضائع كان ينتج عنه ارتباك فى حياة السكان فى مدن السودان الغربى (12) ٠ ولعل الاهم من هذا كله هو توارد الكتب وتنقل العلماء الذين كانوا يساهمون المساهمة الفعالة فى ترقية مجالات الاتصال الانسانى عن طريق القوافل التجارية ،وهذا ما أدى الى دخول السودان الغربى منذ وقت مبكر وخاصة بالنسبــة

(10) محمود كعت ــ تاريخ الفتاش ، تحقيق هوداس ، باريس 1964 ، ص 319 ٠
عبد القادر زبادية ، مملكة سنغاى فى عهد الاسيقيين ، الجزائر 1972 ، الفصل الخاص بالتجارة الخارجية ٠

(11) Cf. E. W. Bovill, op. cit., 236 FF.

(12) راجع : تذكرة النسيان فى أخبار ملوك السودان ، لمؤلف مجهول ، باريس [illegible] ، صفحات 73 ــ 74 ــ 100 ٠

للتاريخ الاسلامى الى الدخول فى حيز الحضارة قبل غيره من أجزاء افريقية أخرى ، فعرفه العالم وتبادل معه ، ويكفى مدينة ورقلة فخرا أنها كانت احدى المدن الجزائرية الهامة التى ساهمت بدورها فى هذا الجانب الحضارى والانسانى العظيم .

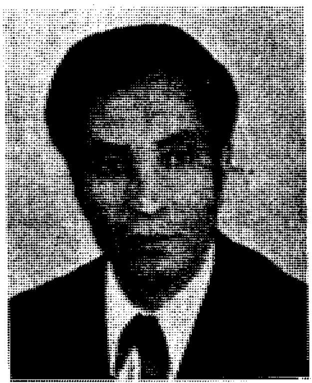
وبالنظر لذلك التلاحم الحاصل من الاتصال الحضارى على الصورة التى شرحنا جانبا منها حتى الآن ، فقد كان لاعتداء الفرنسيين على ورقلة سنة 1854 أثره السىء على نفوس السكان فى تمبكتو ، وقرر زعيمها الشيخ سيدى أحمد البكاى الكنتى استنفار جميع أنصاره فى المنطقة للهجوم على الفرنسيين عندما اعتدوا على ورقلة فى تلك السنة الا أن الدكتور بارث الالمانى الذى صادف أن كان فى حماية البكاى آنذاك ، وكان أول أوروبى يدخل تمبكتو علنا ويخرج منها سالما بفضل حماية البكاى له ، عمل الكثير الثنى الشيخ البكاى عما عزم عليه ، ونجح فى مسعاه . (13)

وبمجرد احتلال الفرنسيين للجنوب الجزائرى عملوا بمختلف الوسائل على قطع صلاته بالسودان ، ثم احتلوا السودان فى آخر القرن فتم لهم كل ما أرادوا ، وفى سنة 1911 صدر مرسوم منع استعمال العربية فى السودان الغربى نهائيا ، ويعتبر كل ذلك جوهر السياسية الفرنسية للقضاء على الصلات الحضارية بين الشمال والجنوب حينما أصبح الفرنسيون يحتلونهما معا .

(13) H. Barth, Travels...., London 1867-68, v, p. 123.

تطور ناحية ورقلة ما بين 1962 ـــ 1975

جلول مكي
معهد العلوم الاجتماعية
دائرة الدراسات التاريخية
جامعة ـ الجزائر



نقع ناحية ورقلة بالمنخفض الكبير للصحراء الجزائرية ، الذى اكتسب أهميته من كونه يضم أهم الواحات والمراكز العمرانية التى يتجمع بها أكثر سكان الصحراء الجزائرية . فضلا عن الثروات البترولية الضخمة التى يزخر بها باطنه ، وهذا ما يخالف طبيعة سطحه المتميز بندرة المجارى المائية ، وقلة العطاء النباتى الذى تسبب فيه المناخ الجاف الذى تعيشه المنطقة .

فالتضاريس الرئيسية للصحراء يمكن تصنيفها الى رق وهو يغطى أكثر من نصف المساحة ، والحمادة ثم العروق وهى تغطى خمس المساحة الباقية وبهذا المنخفض تقع ورقلة التى تكتنفها كثبان واذرعة رمال العرق الشرقى الكبير .

وقد كانت لورقلة فى العصور الوسطى علاقات تجارية مع السودان ، ومركزا لتهذيب العبيد ، كما كانت مرحلة من مراحل السفر بين جهات الصحراء المختلفة ، كما كانت أيضا تقوم بالمبادلات التجارية بين السودان وأقاليم شمال الصحراء وبذلك يمكن اعتبار ورقلة من أهم مراكز الصحراء الكبرى .

وقد تدعمت مكانة ورقلة اليوم بفضل تطور الاقتصاد الجزائرى المعتمد على تصدير التمور ، واستخراج الثروات البترولية والغازية القريبة منها · أولا الاقتصاد التقليدى ومساهمته فى الاقتصاد الوطنى ويتمثل فى النقاط التالية :

1 ـ البدو الرحل الذين يمتلكون قطعانا توفر لهم أهم المواد الاولية الداخلة فى الاستهلاك المحلى مثل الحليب والزبدة والجبن والجلود والاصواف واللحوم ، ويتمركز هؤلاء البدو خارج نطاق الواحات حيث ينتشرون فى ارجاء الصحراء الواسعة ويحافظون على الهياكل الاجتماعية التقليدية المعتمدة على ما توفره الصحراء للرحل من العشب الضئيل والسريع الزوال لقطعانهم من غنم وماعز وابل ، وهم يجوبون فيا فى الصحراء للبحث عن آبار أو منطقة جديدة للعشب لانعامهم وهم فى تنقلهم هذا يعيشون تحت الخيـــام ·

وعلاقات قوافل الرحل بالواحات محدودة ، فهم يأتون اليها لبيع انعامهم وشراء كميات من التمر والتزود بالشاى والقهوة والسكر وأخذ حصتهم من محصول الواحة التى يملكون قسما منها عادة ·

وهذا لا يعنى ان التشكيلات الاجتماعية التقليدية تؤلف عالما خاصا بالناحية معزولا بالصحراء عن شمال الجزائر ، فالرعاة الرحل قديما كانوا يضمنون العلاقات التجارية عبر الصحراء بين افريقيا المدارية وبين المغرب العربى ، كما كانت قوافل جمال البدو الى عهد قريب تقوم بالتبادل مع الشمال بالتمور والحيوانات مقايضة بالحبوب من قمح وشعير وبالمنتجات الجاهرة من الصناعات الاوروبية الى يرونها ضرورية لحياتهم ·

اما اليوم فالرعاة الرحل يتوجهون الى الشمال بالهضاب العليا بحثا عن العمـــل فى الفلاحة اثناء فصل الحصاد للحصول على كميات من الحبـــوب سدون بها حاجاتهم الاستهلاكية وبالمقابل فهم يزودون التجار المتنقلين بالاسواق المحلية بقطعان الاغنام وهؤلاء بدورهم يصبدرونها للحواضر الكبرى بالشمال ·

وأساس حياة هؤلاء البدو الرحل هو نظام البداوة التى هى فى الواقع ليست شكلا من أشكال الحياة فقط تتميز بتنقل قليل أو كثير تباشرها جماعة من الناس للبحث عن

عشب جديد لتربية مواشيهم أو للبحث عن أرض جديدة للفلاحة ، بل البداوة أيضا نظام اجتماعى أسس على العلاقات الابوية أو على علاقات التعامل : فالتجمع العائلى يقع فى عشائر يجمعها جد مشترك ، وعلاقات التعامل هذه تظهر على الارض فهى عندهم ملك للجميع • واذا كانت علاقات الجنوب بالشمال محدودة فى الماضى يقوم بها الرحل ، فهذه العلاقات تكثفت منذ العهد الاستعمارى وخاصة بعد الاستقلال وذلك بفضل تطور وسائل المواصلات من مسالك وطرق معبدة ، وسكك حديدية ، من جهة ومن جهة ثانية بفضل تطور وسائل النقل من سيارات وحافلات وشاحنات وقطارات وطائرات • ومما يلاحظ ان هذه الوسائل وتلك الوسائط لم تساعد على حياة البداوة وكانت لها تأثيرات وردود فعل مختلفة باختلاف أوضاع كل قبيلة فاضطر كثير من البدو الى الاستقرار بجانب نخيله بالواحات حيث توجد السلطات الادارية ويتوفر الطبيب والمدرسة ، وبعضهم تحول الى ملاك بالواحات ، وآخرون اصبحوا ـ بعد ان فقدوا قطعانهم ـ يشتغلون بجمع غلة التمر والفرز ووضعها فى صناديق للتصدير • وبذلك تضاءل عدد القبائل التى ما زالت محافظة على حياة البداوة والتنقل ، وعموما فكل قبيلة تأتى الى الشمال فى كل عام الى نفس المكان الذى خيمت فيه من قبل مما يجعلها تقوم بدورتها السنوية العادية المتمثلة فى رحلتى الشتاء والصيف •

2 ـ فلاح الواحات : فالمناخ يتميز بقلة التساقط وتدرته فهو فى توقرت (57 مليمتر) وبورقلة (40 مم) • وباقصى جنوب المنخفض الكبير بحصن فلاتر (18 مم) • وليس ضعف التساقط فقط هو الذى أضر بالمنطقة بل الذى أضرها هو شدة التبخر الناتج عن شدة الحرارة وارتفاعها التى تبلغ درجتها فى الصيف تحت الظل فى توقرت (40،80 درجة) مئوية ، وفى الليل تنخفض هذه الدرجة انخفاضا كبيرا حتى تصل الى (16،7 درجة) ، وفى اقصى جنوب الحوض تصل الحرارة الى (42،90 د) ، ومع هذا فالصقيع فى الشتاء نادر فى ارجاء هذا المنخفض الكبير • وهكذا يلاحظ ان المناخ فى هذه المنطقة يمتاز بفوارق حرارية كبيرة ، فالنهار حار جدا بينما الليل قارس البرودة •

لكن حوض العرق الشرقى بسبب وضع تكوينه الجيولوجى الداخلى يحتوى على طبقات غزيرة من المياه ضمن الطبقة الجيرية الالبية ، ويقدر احتياطى الماء بالمنخفض الصحراوى الكبير بـ (50 مليار متر مكعب) وهكذا عوض السكان الجفاف المناخى باستخراج الماء بتقنية عتيقة وذلك بواسطة آبار ارتوازية واستعمال الدلو والخطاف • وقد قام بحفر هذه الآبار بالمنطقة فرقة من سكان الناحية تعرف بالرواغة أصلها من اقباط مصر قدمت الى الناحية فى عصر سالف ، وبذلك أصبح عدد الآبار بناحية ورقلة يقدر بحوالى (3.000 بئر) ارتوازية •

الفلاحة : بأراضى الواحات قليلة ، فالسكان عوضوا نتائج الجفاف المناخى بحجز طبقات المياه الباطنية التى تسربت داخل لحقيات الوديان وتحصلوا عليها بالآبار لرى الزراعة • كزراعة التمور وأشجار الفواكه والخضر والزروع للمعيشة ، فالفلاحة تمارس على مساحة محدودة يقوم بها المقيمون بالواحات من أهل القصور ويساعدهم فى ذلك خماسون ، فيغرس الفلاح النخيل والخضر ويزرع الحبوب ويسقى هذه الفلاحة اما بينابيع ذات منسوب ضئيل ، أو بآبار منسوب معضمها ضعيف جدا لاستنزاف طبقة الماء بكثرة الآبار •

وهكذا صارت الفلاحة بالواحات الصحراوية فلاحة متعددة وكثيفة ، وتظهر هذه الزراعة على ثلاث مستويات على سطح الارض الحبوب والخضر وأعلى منها أشجار الفواكه وأعلى الطبقتين المذكورتين النخيل •

وهناك بعض محاصيل الشتاء مثل القمح والشعير وهى تزرع فى الخريف وتحصد قبل اشتداد الحرارة ، ثم الحبوب الصيفية وتزرع فى الربيع مثل الذرة البيضاء (السرغو) والذرة الصفراء ، والذرة البيضاء • والخضر أيضا هناك خضر الشتاء وتبذر فى الخريف وهى : (الفول ـ اللفت ـ الجزر ـ الجلبان ـ اللوبيا ـ العدس) ومنها ما يزرع فى الربيع ليجنى فى الصيف مثل : (القرعة ـ البطيخ ـ الدلاع الباذنجان ـ الطماطم ـ الفلفل) ثم البرسيم •

اما اشجار الفواكه التى تتخلل الواحة فهى : التين ـ الرمان ـ المشمش ـ الليمون

البرتقال ، ثم بعض النباتات ذات الطابع الصناعى مثل : القطن ـ التبغ ـ الفـول السـودانى ٠

وهكذا يتضح لنا أن الارض بالواحات تغل مرتين فى العام ولكن يجب أن تستريح عاما بعد انتاج عامين متوالين ٠

اما النخيل فهو النبات الرئيسى بالصحراء لكن النخلة لا تأتى أكلها الا بعـد عشر سنوات ، وتتطلب عناية كبيرة وكمية وافرة من الماء كل هذه الفلاحة قد توجد على قطعة أرض صغيرة من الارض مما يصبغ عليها ميزة الفلاحة الكثيفة التى تتطلب اعمالا دقيقة ومتعددة كلها باليد : لتلقيح النخل ، والتربة يتم قبلها بالمجرفة ، والماء يوزع باستعمال السواقى على مساحة صغيرة ، فالهكتار الواحد من النخل توجد بـه من (150 ـ 200 نخلة) ويحتاج الى كمية من الماء تتراوح ما بين (**20.000** الى **30.000** متر مكعب) وهى الكمية الضرورية لرى النخيل ٠

اما انتاج الخضر والحبوب فيستهلك محليا وجزء من التمر الطرى والجاف يباع فى الاسواق الداخلية بالصحراء بينما يباع جزء آخر منه بشمال الجزائر فالتمر هـو المصدر الرئيسى لفلاح الواحات اما تربية المواشى فهى مصدر ثانوى له ٠

وقد استفاد تجار التمور من تطوير العلاقات التجارية بين التل والصحراء ومن ضمنها ناحية ورقلة التى عرفت توسعا فى املاك التجار المحليين ٠

ثم المدخول الثانى بعد التمر فهو مدخول الوظائف الادارية ومنح المتقاعدين من المدنيين والعسكريين ، ومن العمل بالورشات التى تقوم بتوسيع خط السكة الحديدية الى سكة عادية بين بسكرة وتوقرت ، ثم مدها الى ورقلة لنقل البترول بواسطة عربات الصهاريج ، ثم من الاجور التى توفرها اشغال مد انابيب البترول من الجنـوب الى الشمال : (نحو بجاية ـ سكيكدة ـ أرزيو) ٠

المشاكل الفلاحية : اذا كانت الواحة توفر الراحة للمسافر أو السائح العابـر للصحراء ، بظلالها الوافرة وبمياهها الباردة وفواكهها الطيبة وخضرها اللذيذة فى تلك الصحراء المحرقة ، فهى فى الحقيقة تخفى حياة البؤس والشقاء لسكانها ، فالفلاح

يعاني كثيرا من المشاكل منها مشاكل الوسط الطبيعي الناتجة عن صغر المساحة وتجزئة الارض ، زيادة على فقر التربة بسبب استنزافها نظرا لاستغلالها مرتين في العام هذا من جهة ومن جهة أخرى لعدم وجود العناصر العضوية المخصبة بها لفقدان طبقة الذوبان وذلك لعدم وجود الاوراق أو الاعشاب بها وهذا الامر يجعل ممارسة الفلاحة الكثيفة عملا شاقا ، بالاضافة الى العدوين اللدودين للفلاح هناكهما : الرمال والملح ، فالعواصف الرملية تغطى أرض الفلاحة رغم مكافحة الفلاح باقامة أسوار من الطين والحجارة ، فان الرمال تغزو المساحة الفلاحية ، ثم مرض البيوض الذى يصيب النخيل ويقضى عليه .

هذه بعض المشاكل المتعلقة بالارض والنخل ، اما المشاكل التى تتعلق بالفلاح نفسه فهى تبرز خاصة فى الامراض الصدرية الموجودة بكثرة فى الصحراء مثل السل ، وكذلك الامراض المزمنة مثل الرمد الجيبى والحمى المعوية وحمى المستنقعات .

لكن رغم مجهودات الفلاح المضنية فانه لا يحصل الا على انتاج ضعيف ، وهذا ما يفسر عجز فلاح الواحات امام مواجهة النمو الديمغرافى ، ولم يستطع ان يفعل شيئا ، ولم يبق له الا الهجرة مخرجا للتخفيف من البؤس ، وهكذا هاجر الفلاحون الى الشمال للعمل فى مزارع الكروم باقليم وهران ، وفى أعمال مناجم الكويف والونزة وجبل العنق ، وآخرون هاجروا الى خارج الوطن ، ولهذا يعتبر الجنوب أرض هجرة نظرا لضعف الانتاج الفلاحى به .

المجهود الوطنى لتحسين احوال سكان الواحات بالولاية : وذلك بتطبيق الثورة الزراعية من جهة ومن جهة ثانية قامت الدولة بوضع برنامج واسع لبناء سبعة قرى اشتراكية تشتمل على الفين وثلاثة وستين مسكنا (2063 مسكنا) انجز منها قرية سيدى سليمان وبها مائة وثلاثة وثمانون مسكنا (183 مسكنا) وقريتان أخريتان يجرى بهما العمل حاليا وهما : قرية سيدى عباز وتشتمل على مائة وسبعة وعشرين مسكنا (127 مسكنا) ، وقرية زوينه سيدى لعباد وبها مائتان وأربعة وعشرون مسكنا (224 مسكنا) . وهناك مشاريع للمستقبل بدائرة ورقلة وتوقرت لبناء ثمانية قرى تشتمل على ألف وثلاثمائة وثلاثة وثلاثون مسكنا (1333 مسكنا) يخطط لانجازها .

تطور وسائل النقل والمواصلات بالصحراء :

الواحات كانت وما زالت محطات بالطرق العابر للصحراء ، وكانت واحة ورقلة احدى هذه المحطات بالصحراء ·

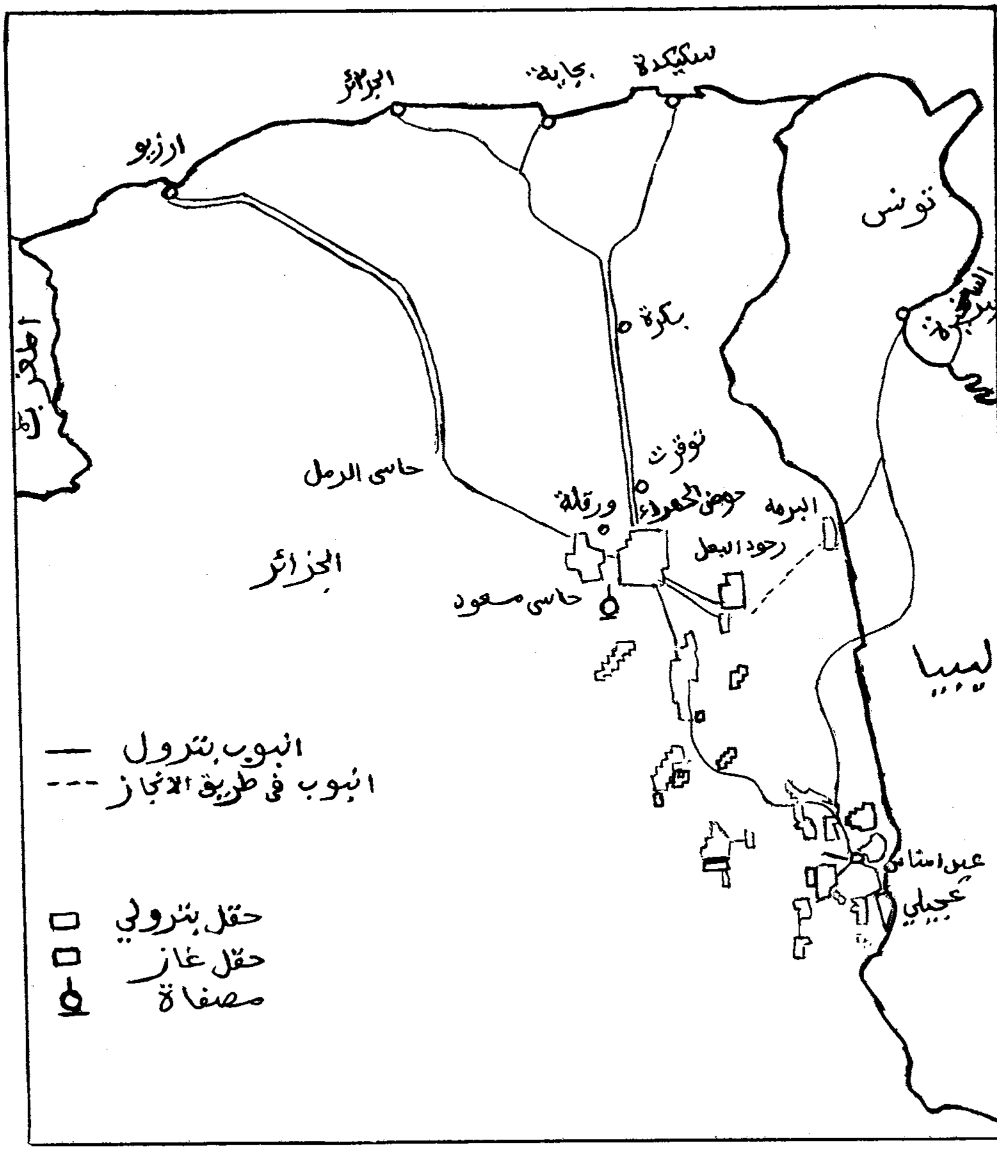
كثافة العلاقات مع التل : الى عهد قريب كانت بالصحراء مواصلات بدائية متباينة ، فصعوبات الوسط الطبيعي الصحراوى ، والبعد ، وقساوة المناخ ، وندة المياه ، كلها لا تفسر الا جزءا من هذا التأخر فى هذه الارض الشاسعة، وايام الاحتلال كانت اجراءات اقتصادية لتطوير الصحراء ، وانشاء الطرق الكبرى مقصورا على البحث عن البترول ، فهناك ثلاثة محاور كبرى من الشمال الى الجنوب هى : محور الشرق نحو بسكرة ، ومحور الوسط نحو الاغواط ، ومحور الغرب نحو بشار ، ويهمنا منها محور الشرق ، هذا المحور الذى يتمثل فى طريق السكة الحديدية الضيق ، والذى مد سنة 1914 م ، بين بسكرة وتوقرت ، والذى جعل مدينة توقرت محطة للتجارة المنظمة العلمية لدقلة نور التى وجهت الى الخارج ، ثم توسعت هذه السكة فى عهد الاستقلال الى سكة عادية بين المدينتين المذكورتين لنقل البترول بعربات الصهاريج من حاسى مسعود ، والاعمال جارية اليوم لمدها الى ورقلة ، وقد ساعد هذا المحور الرئيسى للمواصلات مع تطوير طرق المواصلات المختلفة على تكثيف العلاقات التجارية بين الواحات ومدن التل وعدلت من التنظيمات الاقتصادية والاجتماعية ، واستثمار مناجم البترول والغاز أخيرا ما هو الا عاملا آخر لتطوير هذه العلاقات التى تبرز لنا التحول الطويل للصحراء الجزائرية بعد أن اصبح استعمال الشاحنات والقطارات والحافلات والسيارات ثم الطائرات عاملا للقضاء على النقل بالقوافل ·

ثانيا : الاقتصاد الحديث والمتمثل فى استغلال مناجم البترول والغاز · وهذه المناجم توجد بحوضين كبيرين هما : حوض عين أمناس ، وقد اكتشف أولا ، وقد بدأ أول تدفق من البترول والغاز بين شهرى : جانفى وجوان 1956 م، من المناجم القريبة من الحدود الجزائرية الليبية وهى عجيلة ـ تيقنتورين ، ثم فى شهر جوليت من نفس السنة بحاسى مسعود · فمناجم الحوض الاول قليلة العمق فهى على مستوايات ثلاث من (400 الى 1400 م) عمق وعلى هذا فتكاليف الحفر عادية ، **لكن قلة الضغط يضطر**

الى حقن الغاز للزيادة في الضغط على البترول لاخراجه ، والصعوبة الرئيسية بهذه المناجم هى البعد عن شمال البلاد (1150 كلم) عن العاصمة . أما الآبار الرئيسية فهى : عجيلة ـ تين فوى ـ اهنى ، واحتياطى هذا الحوض يقدر بـ (200 مليون طن) . والحوض الثانى للبترول هو حوض حاسى مسعود واحتياطه أكثر من (700 مليون طن)، والبعد قليل عن العاصمة (600 كلم) ، لكن تكاليف الحفر باهضة بسبب العمق الكثير (3000 متر) ، وبسبب قلة الضغط أيضا ، كل هذا يتطلب آلات خاصة للحفر وتجهيزات خاصة للزيادة فى الضغط ، اما الآبار الرئيسية فهى : حاسى مسعود قازى الطويل ـ رحود البغل .

ويتم تصريف البترول بأنابيب طولها (3,500 كلم) منها (510 كلم) بتونس ، وصرفت احواض الشرق بانبوب الى ميناء السخيرة بخليج قابس طوله (770 كلم) وقطره 61 سنتمتر ، وانجز فى شهر سبتمبر 1960 م ، ثم من بعد ربطت مناجم عجيلة بانبوب حاسى مسعود ، وهناك وسيلة أخرى للتصريف وهى التصريف بواسطة عربات الصهاريج من توقرت الى الشمال .

وقد بدأت فى استغلال ثروات هذه الاحواض الشركتان الفرنسيتان الشركة الوطنية للابحاث البترولية بالجزائر (S. N. Repal) والشركة الفرنسية للبترول بالجزائر (C. F. P. A.)، وظهر تجمع سكانى هناك شرق ورقلة هو تجمع حاسى مسعود وقد ظهر متفرقا ولكن بانتظام وامتدت الدار الخضراء على هضبة حاسى مسعود ، ويوجد بهذا التجمع موظفو الشريكتين المذكورتين والممثلون لعدة شركات أخرى ، وممثلو الخدمات العامة ، فهذا التجمع تنعدم فيه الحياة العائلية فهو تجمع للرجال فقط . وكان به 40 ٪ من الاوروبيين و 60 ٪ من الصحراويين أربعة اخماس من الواحات أغلبهم من ورقلة ، ويبلغ سكان قاعدة حاسى مسعود (5.600 نسمة) سنة 1965 م . والقاعدة عبارة عن سلسلة من البيوت المكيفة وبها أرض للرياضة واحواض للسباحة وحديقة وقاعدة للسنما ، وأخرى لالعاب التسلية ونادى ، وعمارات ادارية بغير طوابق - وحوانيت ومخازن وفنادق . وكانت القاعدة تزود من العاصمة مباشرة ودفعت الناحية الى الجزائر العاصمة . وارتبطت بها .


سكيكدة
بجاية
الجزائر
ارزيو
تونس
الصخيرة
توقرت
حاسي الرمل
ورقلة
حوض الحمراء
البرمة
الجزائر
حاسي مسعود
ليبيا
عين امناس
انبوب بترول
انبوب في طريق الانجاز
حقل بترولي
حقل غاز
مصفاة

وفى عهد الاستقلال تكونت الشركة الوطنية للبحث وانتاج وتحويل وتسويق المحروقات السائلة (سوناطراك) فى 31 ديسمبر 1963 م . وساهمت فى البحث والتنقيب والاستثمار . وفيما بين عامى 1966 و 1971 م ، تم نقل شبكة قنوات الهيدروكاربون الى مليكية الدولة بصورة كاملة ، ومد خط قناة بترول بنى منصور العاصمة وكانت قبل تزود بالسفن من بجاية . وفى سنة 1973 مد خط انبوب حاسى مسعود أرزيو ، ثم قناة حوض الحمراء سكيكدة طاقتها (18 مليون طن فى العام) فى المرحلة الاولى و (24 مليون طن فى العام) فى المرحلة الثانية .

وتملك سوناطراك سنة 1971 م (50 بئرا) من البترول والغاز ولها من العمال (10.000 عامل) .

ملاحظة : لم أتعرض لحاسى الرمل وانتاج الغاز وذلك لكونه يقع خارج نطاق ولاية ورقلة بعد التقسيم الادارى الجديد لسنة 1975 م .

اقتصاد مدينة ورقلة : اذا كانت سدراة العاصمة الاباضية بعد سقوط تاهرت بين القرنين العاشر والثانى عشر الميلادى (10 ـ 12 م) غنية بماضيها فانها فقدت نشاطاتها التجارية وأضمحلت ، فان جارتها ورقلة تنهض اليوم لتعيد مجدها وهى بحق عاصمة البترول بالجزائر المستقلة ، وقد استقر رحل الناحية وآخرهم ، أولاد سعيد عطبة ، فلم تعد لهم علاقات مع أفريقيا الشمالية ، واستقروا على خط دائرة العرض 32 درجة فى منخفض سبخة وادى ميه ، وواحات ورقلة هى أقصى واحات تقع بجنوب المنخفض الصحراوى الكبير .

فمدينة ورقلة اليوم كما كانت فى الماضى عقدة هامة لطرق المواصلات نحو اتجاهات مختلفة نحو : توقرت بالشمال ونحو الهقار بالجنوب ، ونحو غدامس وحاسى مسعود بالشرق ، ونحو غرداية بالشمال الغربى واتجاه المنيعة بالجنوب الغربى .

واعيد احياء الناحية بين سنتى 1954 و 1966 م ، فهى تضم حاليا (535.000 نخلة منتجة ، و (150.000 نخلة) فى طريق الانتاج ، تبيع ورقلة سنويا فى المتوسط من (5.000 الى 7000 طن) من التمور منها (600 طن) دقلة نور . فورقلة قبل كل شىء

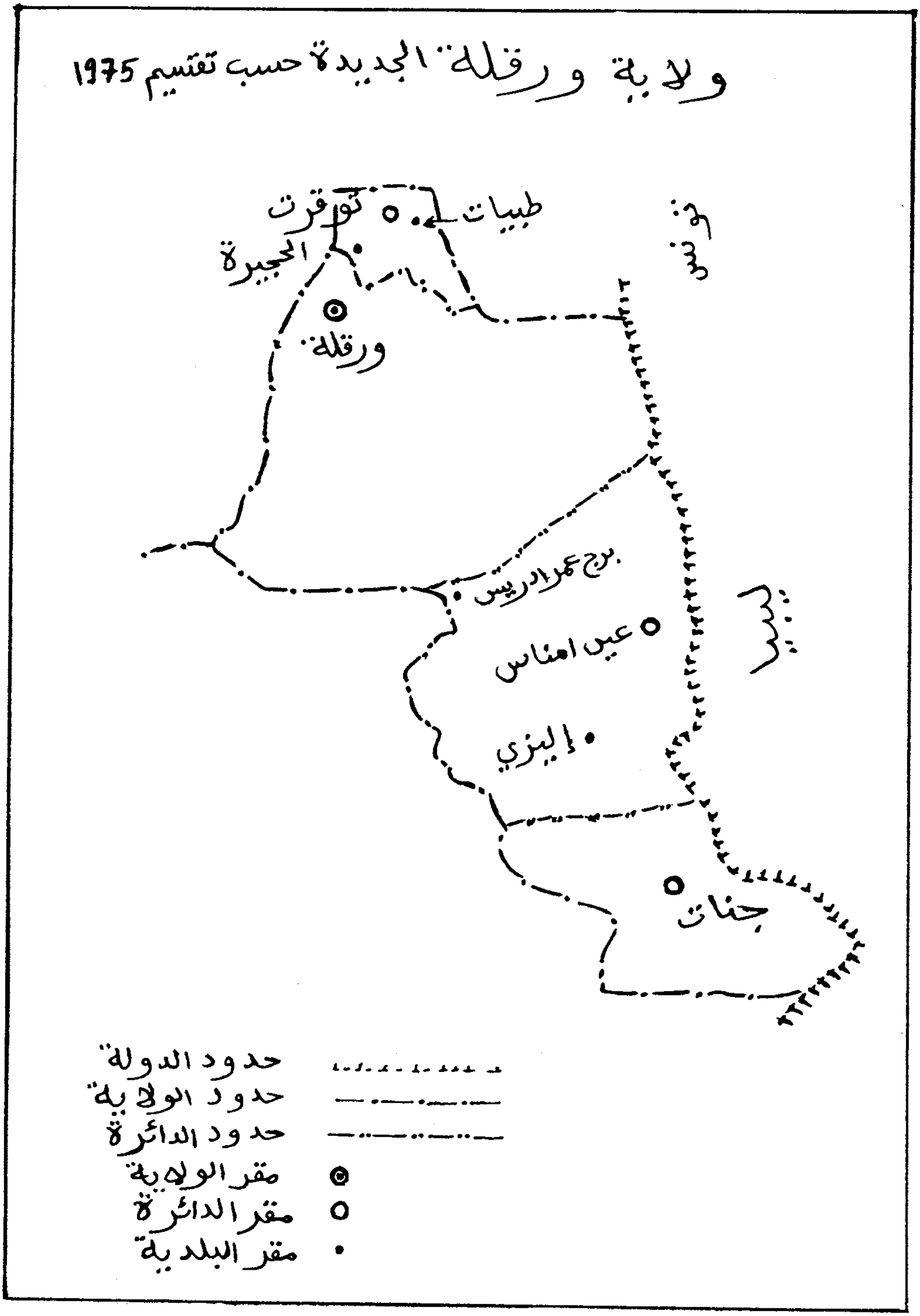
لها دور أساسي يتمثل في سوقها التي تزود التجمعات الصغيرة المجاورة لها ، كما تزود رحل الناحية وخاصة الشعانبة ؛ ثم صارت ورقلة مقرا اداريا للناحية ، ثم ولاية للواحات سنة 1965 م ، وارتبطت خصوصا بالبحث عن البترول ثم استثماره بناحية حاسي مسعود . وهذا الاستغلال أوجد مراكز حياة جديدة ومناظرة صناعية غريبة عن الصحراء وسريعة الزوال . فانشئت الطرق البرية والمطارات ، وبنيت القاعدتين البتروليين لحاسي مسعود وعين أمناس ، واللتان ليستا مدينتين ، ولكن مخيمات مثبتة ومكيفة وصارت الدار الخضراء بحاسي مسعود بعد تأميمات 24 فيفرى 1971 صارت تدعى قاعدة 24 فيفرى .

وحصل تطور كبير للتجار الصغار : لتجار الدراجات ، والدراجات النارية ، وآلات الاستقبال الاذاعي (الراديو) والتلفزيون والقماش والملابس والمواد الغذائية .

ورقلة هي أيضا أقرب تجمع لسكان حاسي مسعود (85 كلم) الذين ينتقلون اليه للاستراحة أو لشيء من التسلية .

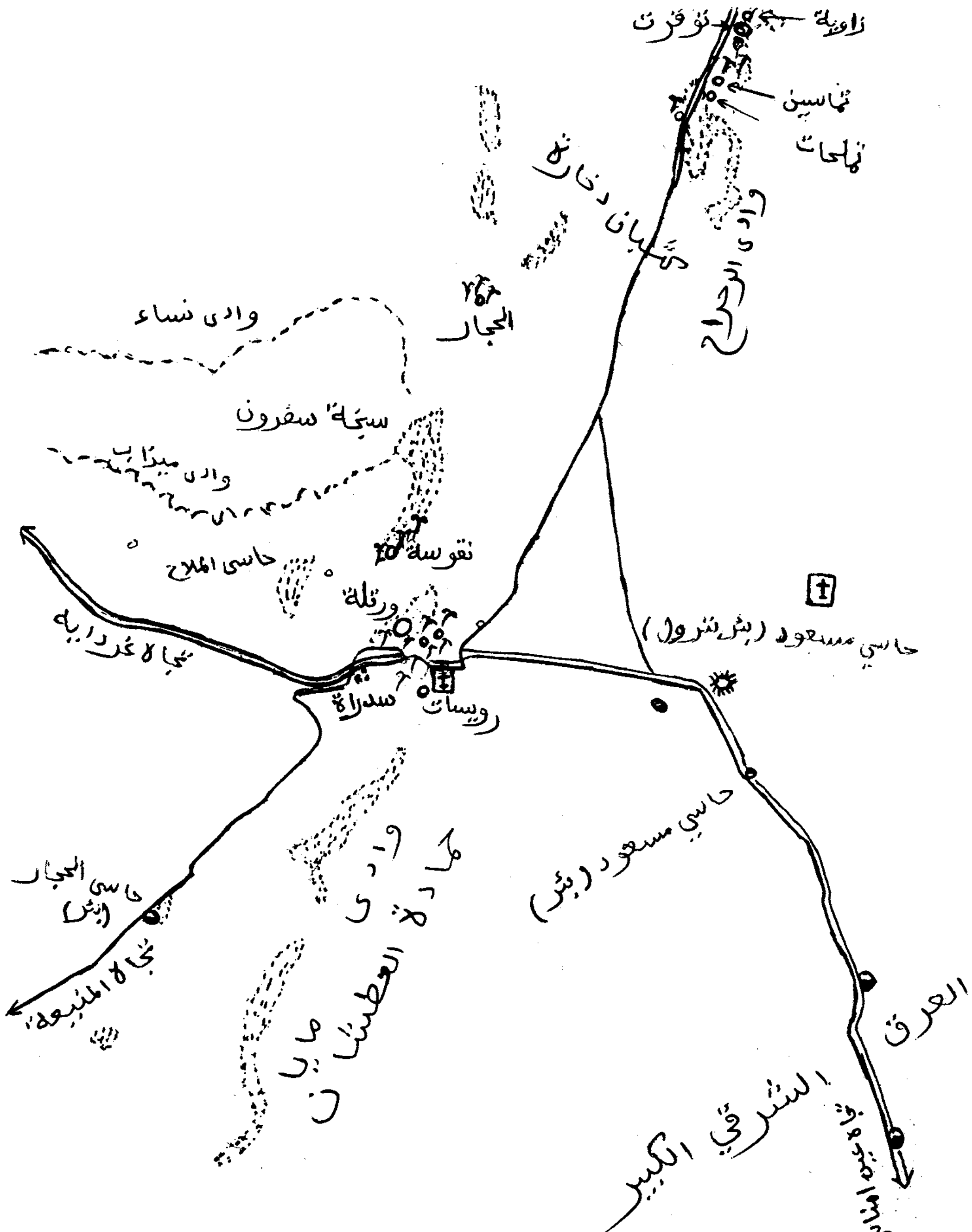
والقصر القديم ما زال قائما فوق ربوة وسط الواحة ، ولكنه تغير كثيرا ، وسكان الاحياء الثلاثة الاصلية العرقية ما زالوا يلتقون في الساحة الوسطى التي تستخدم سوقا وتتصل بالحدائق خارج القصر بواسطة أبواب ستة ثقبت في السور ، وحيث تبدأ من هذه الابواب الستة الطرق في اتجاهات مختلفة ، وبالقصر القديم مسجدان يشرفان على المدينة احدهما مسجد اباضي منذ أيام الاباضيين الاوائل . اما المدينة الجديدة التي بنيت على النمط الاوروبي تقع بالجنوب الغربي من المدينة القديمة وقد تطورت بسرعة .

وورقلة هي التجمع الثاني بعد توقرت، فانطلاقتها حديثة بسبب البترول وبوظيفتها كمقر للولاية سنة 1975 م ، سكانها أكثر من (6.455 نسمة) سنة 1934 م ، و (22555 نسمة) سنة 1965 م . بالاضافة الى خمسة قرى تقع وسط النخيل بكل منها حوالي (1.000 نسمة) باستثناء نقوسة فسكانها (1.700 نسمة) . وانطلاقة ورقلة دفع الميزابيين لاحتلال مكان ملحوظ في تجارة التمور .


ولاية ورقلة الجديدة حسب تقسيم 1975
توقرت
طيبات
تونس
الحجيرة
ورقلة
برج عمر ادريس
عين امناس
ليبيا
إليزي
جنات
حدود الدولة
حدود الولاية
حدود الدائرة
مقر الولاية
مقر الدائرة
مقر البلدية

التقسيمات الادارية الجديدة : ولاية ورقلة هي الولاية الثلاثون بموجب التقسيم الاداري الاخير للجزائر الذي وقع سنة 1975 م ، والذي يشتمـــل عـــلى 31 ولاية بالجمهورية الجزائرية ، وتشتمل ولاية ورقلة على أربعة دوائر (4) وثمانية (8) بلديات، فالدوائر هي : دائرة توقرت وبها ثلاث بلديات هي : بلدية توقرت وبلدية الطيبات والحجيرة . والدائرة الثانية هي دائرة ورقلة وبها بلدية واحدة . والدائرة الثالثة هي دائرة عين أمناس وبها ثلاث بلديات هي : بلدية عين أمناس وبلدية برج عمر ادريس وبلدية اليزى ، وأخيرا دائرة جنات وبها بلدية واحدة فقط .

الرحل حول ورقلة : يبلغ عددهم (10.000 نسمة) ما زالوا هناك بينما كثير منهم هو في طريق الاستقرار . وورقلة هي مركز الشعانبة الذين استقروا في الشرق منها وقد انتجعوا بقطعانهم في القرن الثاني عشر الميلادي (ق 12 م) الى العرق الشرقي الكبير ، ثم قبيلة بني طهور التي انتقلت الى واحة الرويسات وهي واحة صغيرة جنوب ورقلة ، ثم تبعتها في القرن الثالث عشر الميلادي (ق 13 م) قبيلتا المخادمة وسعيد عطبة ، وقطعانهم تنتقل بين وادي ميه وحمادة العطشان شرق وادي ميه مباشرة ، والترحال اليوم يتم في عائلات تتألف من خيمتين الى عشرة خيم (2 ـ 10 خيم) فالرجال يبعدون مع قطعانهم في فترة تمتد من شهر جانفي الى شهر أكتوبر ، ثـــم يتركون قسما من انعامهم الى رعاة وهم يأتون ليخيموا على حافة الواحة أوان قطـف التمر ، لانهم يملكون بعض النخيل . والشعانبة هم اليوم في طريق الاستقرار بسبب التجارة والخدمة العسكرية . وأولاد سعيد عطبة بقوا الى الاستقلال يقضون شتاءهم مع قطعانهم تحت الخيام بين ورقلة ونقوسة حيث يملكون النخيل بالواحة الاخيرة وعددهم (4.000 نسمة) ، وفي شهري : فيفري ومارس ، يصعدون بمهل الى أودية ميزاب ثم الى السهول المرتفعة سهول السرسو حيث يصلونها في شهر جوان عبر منخفض تجرونة احد ممرات بين جبال عمور ، ليساعدوا في عملية الحصاد وقلع العدس ورعي القصب ؛ ثم في وسط شهر سبتمبر يعودون بجمالهم المحملة بالحبوب الى تبادلوها مقايضة بالتمور وبمنتجات ماشيتهم وبالبرانس ، ويصلون ورقلة على أكثر تاخير عشرين يوما (20 يوما) للمشاركة في قطف التمر . وهكذا يقطعون سبعمائة كيلومتر


تماسين
الحجار
وادي نساء
سبخة سفرون
وادي ميزاب
نقوسة
حاسي الملاح
ورقلة
سدراتة
رويسات
حاسي مسعود (بئر بترول)
حاسي مسعود (بئر)
العرق
الشرقي الكبير

(700 كلم) ذهابا وايابا للاصطياف مدة شهرين أو شهرين ونصف بمنطقة المـــراعى والتى ليست من السهل والمحقق دائما ايجاد مكان بها، فهذه الرحلة اشبه شيء بالمخاطرة والمجازفة التى قد لا تحمد عقباها .

وهذا التنقل الذى تقوم به هذه القبائل هو بغير شك من البقايا التاريخية للعلاقات التى ما زالت حية مستمرة بين العاصمتين الاباضيتين للخوارج : تاهرت وســدراة ، وتتم هذه القبائل دورتها السنوية بين العاصمتين مارة بالبلد الذى ما زال محتفظا بالمذهب الاباضى ذلك البلد هو ميزاب .

مدينة توقرت : تبعد عن ورقلة بـ (160 كلم) سكانها يبلغ عددهم سبعة وعشرون (27.000 نسمة) سنة 1965 لتوقرت وظائف مختلفة فهى : سوق يومية ، ومصدر كبير للتزويد بالتمور ، ولها مطار ومحطة قطار ، وطريق كبير للمرور . وهى أيضا مركز ادارى ، وبها القصر القديم الذى ما زال قائما . اما المدينة الجديدة فقامت بالجنــوب من القصر القديم . وكذلك أحياء للسكن حديثة امتدت الى الشمال نحو المحطة والى الغرب نحو الطريق الجديد ونحو محطة ضخ البترول .

أما بدو ناحية توقرت فهم : أولاد سعيد عطبة وأولاد عمور وأولاد نايل يفلحون بعض المنخفضات ثم يلتحقون باملاك النخيل ليشتغلوا بالمناصف هناك وكانت لهــم قطعان هامة يذهبون بها الى السهول المرتفعة القسنطينية لقضاء الصيف . وانقطــع هذا التنقل فى الفترة الممتدة من سنتى 1955 ــ 1962 م ، اثناء الحرب التحريرية ، ثم استئنفت هذه الحركة بعد تكوين قطعان جديدة ، وتبدأ هذه الحركة ببطء مع بدايــة أول الصيف بعد جز الغنم فى أول شهر جوان ثم العودة لقطف التمور فى أول شهر أكتوبر . وحركة الانتجاع هذه ليست ضرورية دائما ، بل هى ميراث للماضى حيث البداوة ضاعفت من أهمية التجارة البدوية أثناء العصور الوسطى .

قائمــة اسمــاء المصــادر والمـراجع :

(1) Jean Despois et René Raynal : Géographie de l'Afrique du Nord-Ouest, Paris 1967.
(2) Emerit Marcel : Les liaisons terrestres entre le Soudan et l'Afrique du Nord au XVIII^{e} et au début du XIX siècle - Tome XI, 1954, Alger.
(3) Capot-Rey : Les prolbèmes de la zone aride - Actes du Colloque de Paris, Unesco. Etat actuel du nomadisme au Sahara par Capot-Rey, 1962.
(4) Bruno Verlet : Le Sahara - Collection que sais-je ? N° 766, Paris 1962.
(5) Géographie de l'Algérie - Institut Pédagogique National, Alger 1967.
(6) Textes et documents pour la classe N° 137 du 14 Novembre 1974. Publication de l'Institut National de Recherche et de Documentation Pédagogique, Paris.
(7) Code géographique national, code des communes, août 1975 - Secrétariat d'Etat au Plan.
(8) Division administrative de l'Algérie par Wilaya, avril 1975, Secrétariat d'Etat au Plan.
(9) كتاب الثورة الصناعية ــ وزارة الصناعة والطاقة ــ 1973 .

ابو يعقوب يوسف الورجلانى وكتابه
الدليل والبرهان

عبد الرحمن الجيلالى
مؤرخ ـ الجزائر

فى وسط بحبوحة من الرخاء ونعيم الحياة الثقافية الروحية التى عم أريجهما ربوع أرض الجزائر أيام حكومة الدولة الرستمية بتيهرت (160 ـ 296 هـ ، 776 ـ 909 م) وفى جو البحث العلمى الهادىء والاستغراق فى التفكير الفلسفى اللاهوتى العميق مع النشاط فى الدرس الحثيث لعلوم الدين الاثيرة التى جعلت من أئمة هذه الدولة ينغضون رؤوسهم سخرية من صروف الدهر وطوارقه حتى كأن هذا أمر لا تتحرك به الخواطر ولا مجال للفكر فيه ، فى هذا الجو الهادىء المفعم دعة واطمئنانا ٠

وقع الهجوم على البلاد من طرف الشيعة العبيديين أو قل الشيعة الفاطميين بزعامة عبد الله الشيعى (296هـ/909م) فسقطت الجزائر الرستمية بيد الشيعة من دون قتال ولا حرب الامر الذى أدى الى انتقال أكثر السكان الى أرض الجنوب

الى الصحراء وكان فيهم العلماء وأقطاب السياسة والفكر ـ وكانوا اباضية المذهب يكرهون الشيعة الى حد انهم كانوا لا يعتبرونهم من الناس ، بل هم عندهم من قبيل النسناس ـ كما ذكر ذلك أبو يعقوب يوسف الورجلانى فى دليله ، ففروا لذلك من هؤلاء وارتحلوا الى الصحراء بالجنوب الشرقى من القطر الجزائرى فسكنوا تلك الارجاء الجميلة الهادئة الثرية بنخيلها اليانعة وتمورها الزاهية الواقعة بجنوب مدينة (تقرت) وشرقى (غرداية) وتلك هى واحة بنى (وارجلان) أو (وارجلن) كما كتبها البكرى (460هـ) فى مسالكه ، وقال : هى سبعة حصون للبربر أكبرها يسمى (اغرم ان يكامن) أى حصن العهود، وجاء بعده الادريسى فوضع جغرافيته سنة 548هـ، فكتب اسم هذه الناحية هكذا : (وارقلان) أى بالقاف لا بالجيم ، وقال : هى مدينة فيها قبائل مياسير وتجار أغنياء يتجولون فى بلاد السودان الى بلاد غانة وبلاد ونقارة فيخرجون منها التبر يضربونه فى بلادهم باسم بلدهم وهم وهبية اباضية . وذكرها الدرجينى فى طبقاته وهو من أهل بلاد الجريد القريبة من وارجلان ومن علماء الاباضية فى القرن السابع الهجرى وممن أخذ عن علمائها مثل أبى سهل يحيى بن ابراهيم الوارجلانى ، فكتبها هكذا : (وارجلان) .

وذكرها ياقوت (626هـ) فى معجمه الجغرافى الجامع وكتبها هكذا : (ورجلان) وضبطها قائلا : بفتح الواو وسكون ثانيه وفتح الجيم وآخره نون . قال : هى كورة بين افريقية وبلاد الجريد ضاربة فى البر كثيرة النخل والخيرات يسكنها قوم من البربر ومجانة ، واسم مدينة هذه الكورة (فجوهة) ؛ والكورة فى اصطلاح أهل الجغرافيا هى عبارة عن الصقع المشتمل على قرى ومحال كثيرة .

وجاء ذكرها فى تاريخ ابن خلدون مكررا مكتوبا بالكاف هكذا : (واركلا) آخرها لام ألف لا نون ومشكولة بقلم ابن خلدون نفسه بالحركات مكسورة الراء ؛ والعجب من المرحوم ابن تاويت الطنجى كيف غاب عنه شكل ابن خلدون لحرف الراء وترك الكلمة مشكولة فيما نشره من كتاب التعريف بابن خلدون بسكون الراء ، وهو نفسه نبه على كسرها . وقد يكون هذا خطأ مطبعيا ؟ .

وزار هذه المدينة الرحالة العياشى سنة 1059 هـ/1649 م فذكر ان بها مسجدا للاباضية صلى فيه صلاة المغرب ، وكتب اسم المدينة كذلك بالكاف مثل ابن خلدون وآخرها لام الف (واركلا) غير انه زاد فى ضبط مخرج حرف الكاف هنا بجعل ثلاث نقط من أسفل الحرف اشارة منه الى اختلاف النطق والمخرج بين كاف (واركلا)

والكاف المعهودة . ونحن نراه فى ذلك مقلدا لرسم ابن خلدون لحرف القاف المعقودة فى كتابة اسم (بلكين) بالخصوص حيث قال : فأضعها كافا وانقطها بنقطة الجيم واحدة فى أسفل أو بنقطة القاق واحدة من فوق أو اثنتين فيدل ذلك على انه متوسط بين الكاف والجيم أو القاف وهذا الحرف أكثر ما يجىء فى لغة البربر . وهذا ما يعبر عنه بالقاف المعقودة ، والقاف المعقودة هى الصيغة التى نسمعها فى النطق بحرف الجيم عنـــد المصريين أو حرف القاف من لهجة أهل البادية فى الجزائر Elguef وهى مستعملة كذلك عند عرب المشرق ، وقد كنا كتبنا فى هذا الموضوع بحثا نشر بمجلة (الشهاب) ج 7 م 7 ربيع الاول 1350 هـ/جوليت 1931 م ، فليرجع اليه من شاء . كما ورد اسم هذه المدينة فى قصيدة ميمية لابى حمو الزيانى الثانى سلطان دولة بنى عبد الواد بتلمسان (971 هـ/1389 م) مكتوبا بالجيم هكذا : (ورجلان) فقال :

وجئت لـ (ورجـلان) وجزت مصابها ولا مخبـر غـير الصـلاد الاعـاجم

وكذلك كان يكتبها مترجمنا أبو يعقوب يوسف الورجلانى ، فقد جاء فى كتابه الدليل يحكى قصة وقعت له قوله : (وأنا فى ورجلان سدراته...) ج 3 ص 100 . ولعل القاعدة فى كتابة امثال هذه الالفاظ ترجع الى قولهم : كل ما يجلجل يكلكل ويقلقل ويقلقل ـ بالقاف المعقودة ـ

ففى هذه الكورة أو الصقع (واركلا) أو (وارجلان) أسس هؤلاء اللاجئون مـن تيهرت مدنا وقرى وقصورا ومنها مدينة (الكريمة) ولا وجود لها اليوم ، ومدينـــة (سدراته) عاصمتهم الجديدة ذات الحضارة العظيمة التى قضى عليها يحيى بن اسحاق الميورقى (626هـ/1229م) والتى لا يزال البحث والتنقيب من علماء الآثار يجريان للكشف عن آثارها فى أعمال الحفريات ، ومن ذلك الآثار هذه التحف الفنية والقطع الجميلة التى نشاهدها ونراها اليوم مصفوفة على رفوف متحف الآثار فى حديقة الحرية بالعاصمة والتى يرجع تاريخها الى الستينات من القرن الرابع الهجرى ، (790 م) وعندما نزح عنها أهلها بسبب حملة الميورقى هذا وسكنوا أرض الشبكة من بلاد بنى (مصاب) مزاب حال محلهم كثير من الزنوج ونشأت بتلك الواحات مملكة زنجية .

ثم أن باشا الجزائر صالح رايس « هاجم واحات الجنوب (959 هـ/1552 م) فأدخل واحة بنى وارجلان ضمن المملكة الجزائرية فكان بهذا يعد هو مؤسس (وارقلا) الحالية ، واستمرت الناحية خاضعة للاتراك الى أيام الاحتلال الفرنسى فاستقلت الى أن احتلها قائد من قواد أرض الجنوب الوهرانى باسم الدولة الفرنسية ، ثم ثار أهلها واخرجوا ممثلى السلطة ، وأخيرا احتلتها الجنود الفرنسية (1289 هـ/1872 م) » الى ان من الله علينا بالاستقلال 1382 هـ/1962 م ، فرحم الله الشهداء .

ففى هذه البلدة الطيبة وعلى أديم هذه البقعة الزكية (واركلا) ولد أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم بن مياد الوارجلانى حوالى سنة 500 للهجرة ـ أوائل القرن الثانى عشر الميلادى ؟.. وفيها نشأ وتربى وبها تادب وتعلم ما كان يجول فى فلك ذلك العصر من معارف وفنون وآداب ... فروى عن مشائخ بلده مثل الشيخ أبى عمار التناوتى وأبى سليمان أيوب بن اسماعيل وأبى زكرياء وغيرهم علم من تقده ممن سلف من علماء اباضية وغيرهم كأبى هارون موسى الجلاملى وابن ماطوس وميمون الشروسى وابن الاشج التاهرتى وابى الطيب محمد بن أبى بردة الشافعى وأبى عبد الله محمد ابن بكر النفوسى وولده أحمد الخ ...

وكأن أبا يعقوب هذا لم يكتف بما حصل عليه من العلم فى بلده اذ نراه يعقد رحلة الى بلاد الاندلس وهى يومئذ كعبة الدنيا لازدهار أنواع الثقافة واصناف المعرفة بها ورقى أهلها ، وكان فيما دخله من بلادها مدينة قرطبة تلك المدينة العظيمة التى أنبتت أمثال يوسف بن عبد البر القرطبى حافظ المغرب ومحمد بن أحمد القرطبى المفسر ، الى غير هؤلاء ممن نشأ بها من علماء وعالمات فقد ذكروا انه كان بربضها الشرقى فقط مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفى ، ومنهن عائشة بنت أحمد القرطبية التى لم يكن فى زمنها من حرائر الاندلس من يعادلها فهما وعلما وأدبا وشعرا ؛ اذا قلنا هذا كان بقرطبة فى ربضها الشرقى فقط ، وفى ناحية منها فقط ، فكيف بجميع جهاتها ؟ وقد بلغت مساجدها الفاوستمائة مسجد ...

الى هذه المدينة الزاهرة أرتحل أبو يعقوب وعن علمائها تخرج واكتمل معلوماته فى الطبيعيات والرياضيات علاوة على ما كان قد حصل عليه من علوم الدين واللغة

يقسميها من معقول ومنقول وامتاز من بين اقرانه بالذكاء والفطنة والفهم حتى صار يقارن بالجاحظ .

ثم عاد الى وطنه لافادة قومه بما حمله اليهم مما لم يكن عندهم من ثقافة أو علم عملا بقوله تبارك وتعالى : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » . (التوبة آية 122) وهكذا مكث أبو يعقوب بين أهله وقومه وفى بلده ووطنه يعـــلم ويدرس وهـــو دائما فى تطلع واشتياق الى الاستزادة من العلم (وقل رب زدنى علما) فعزم على الرحلة فى طلب العلـم ثانيا ، والى أين هذه المرة ؟.. الى المشرق ! ذلك ليجمع الى ما حصله من العلم بالمغرب مـــا يكتشفه ويستفيده بالمشرق وكان الامر كذلك فلم يكتف بما عنده فارتحل الى هناك ، ولاشك انه قصد بغداد ، وهى يومئذ كقرطبة فى المغرب أو تفوقها ثقافة وحضـــارة وعمرانا ، ولا سيما فى ذلك العصر الزاهر قبل أن يغزوها جيش التتار فانها كانـت عروس الاقطار الاسلامية وكفاها فخرا ان كانت تمثل عصر الاسلام الذهبى .

ثم عاد منها أبو يعقوب الى بلده مترعا علما وحكمة وأدبا فكان كما وصفه أبو العباس أحمد بن سعيد الشماخى فى كتابه السير المطبوع بمصر 1301 هـ ، نقلا عن طبقات الدرجينى : فقال انه « بحر العلم الزاخر ، المسخر للنفع فترى الفلك فيه مواخر ، كان فى علوم القرآن غاية ، وفى علوم اللسان من النحو واللغة والتصريف آية ، وفى علوم الحديث ونقل الاخبار والسنن والآثار والفروع والاحكام والمواريث بل وعلـوم الاقدمين فى جميع ذلك علامة) .

وانقطع أبو يعقوب فى بيته سبع سنين دأبا لايلو على شىء سوى الدرس والتأليف فكان لا يجده زائره ـ كما ذكره الشماخى : « الا ناسخا أو للاقلام باريا ، أو للدراسة فاعلا ، أو للحبر طابخا ، أو للدواوين مقـــابلا ، أو للكتب مسفرا ، الا ان قـــام لاداء الفرض ... » وهو الى ذلك شغوف بالاسفار فعقد رحلات عجيبة الى السودان وأواسط افريقيا فبلغ مجاهلها حتى انه اقترب من خط الاستواء كما يذكر ذلك هو عن نفسه فى كتابه الدليل ... ج 3 ص 216 فانه قال : « وقد وصلت أنا بنفسى الى قريب من خط الاستواء وليس بينى وبينه الا مسيرة شهر وكاد أن يستوى الليل والنهار فيـــه

أبدا ، وانما وصلنا الى قريب منه ، وأطول يوم السنة انما يفضل أقصر يوم منه بساعة واحدة فالنهار الطويل ثلاث عشرة ساعة ، والنهار القصير احدى عشر ساعة ولياليها كذلك ... وقال عن سكان تلك الناحية بانهم : « يخافون البيضان من النـــاس ويحسبونهم ملائكة نزلت من السماء يهـــزم الابيض الواحد من الناس عشرة آلاف منهم ؟!» وليس عندهم الا عبادة الاصنام ...

ولابى يعقوب هذا رحلة الى الحجاز ولعلها كانت فى رحلته الى الشرق ، نظم فيها قصيدة تحتوى على 350 بيتا جمع فيها كثيرا من فنون العلم ومسائله ، وهى الـــتى يقول فيها :

خرجنا نؤم الشرق من حيز وارجـــلان بفتيان صـــدق مـــن وجـــوه العشائـــر

وله تفسير للقرآن الكريم يقع فى سبعين جزءا ضاعت كلها ما عدا جزء واحد منها ظفر به أبو الفضل أبو القاسم بن ابراهيم البرادى من علماء الاباضيةفىالقرن التاسع الهجرى وهو الجزء الاول من هذا التفسير العجيب وجده فى بلاد ريغ من أرض الجزائر الجنوبية فوصفه فى كتابه الجواهر المنتقاة فى اتمام ما أخل به كتاب الطبقات ط مصر 1302 هـ قال : « رأيت منه فى بلاد ريغ سفرا كبيرا لم أر ولا رأيت قط سفرا أضخم منه ولا أكبر منه ، حررت انه يجاوز سبعمائة ورقة أو أقل أو أكثر فيه تفسير سورة الفاتحة والبقرة وآل عمران ، وحررت انه فسر القرآن فى ثمانية أسفار مثله ، فلم أر ولا رأيت أبلغ منه ولا أشفى للصدر فى لغة أو اعراب أو حكم مبين أو قراءة ظاهرة أو شاذة أو ناسخ أو منسوخ أو جميع العلوم منه ... » يقال انه يوجد هذا الجزء باحدى خزائن روما عاصمة ايطاليا ؟.؛

وصاحب التفسير هذا هو واضع كتاب الدليل المشار اليه فى عنوان هذا البحث والكلام عليه هو الجزء المتمم الفائدة من موضوع مقالنا هذا ، ويسمى (كتاب الدليـــل والبرهان ، أو كتاب الدليل لاهل العقول لباغى السبيل بنور الدليل لتحقيق مذهب الحق بالبرهان والصدق) هكذا هو مرقوم على ظهر الكتاب فى كل جزء من أجزائه الثلاثة المطبوعة طبعة حجرية بمصر سنة 1306 هـ فى مجلد واحد .

والكتاب فى حد ذاته كتاب جليل النفع كثير الفائدة جامع لفنون من العلم فهـــو يبحث بحثا فلسفيا فى الالهيات والطبيعيات والرياضيات والفقهيات وأصول الاديان

وفى العقائد والمنطق واللغة وذكر الخلاف بين الفقهاء والاصوليين واختلاف عقـــائد الطوائف والفرق الاسلامية وغير الاسلامية ، والفرقة الناجية منها وغير الناجية وساق فى ذلك آراء العلماء وأهل المذاهب الفلسفية مع الاشارة الى أهم الاحداث التاريخية التى أدت الى انشاء المذاهب الكلامية وتكوين الاحزاب السياسية التى كان لها الاثر الفعال فى تطوير التفكير فى أصول الدين وأصول الفقه واستنباط الاحكام الشرعية والعرفية من ذلك كمسألة الخلافة والامامة وما يتعلق بالحاكم والمحكوم ومتى يكـــون الربط بينهما وكيف ينفصم ، كما انه تعرض لمعركة أو واقعـــة صفـين الشهـيرة (37 هـ/657 م) وموقف كل من على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما منها ، وشأنهما فى أمر التحكم وتعرض لقضية استشهاد عثمان بن عفان رضى الله عنه وتناول الكلام عن الملوك والرؤساء وما يتعلق بالمحاربين والموالين وحكـــام الجور وأعمالهم فى الاموال وعمارة الارضين وتطرق الى مسألة الاجتهاد والتقليد ، وبحث فى البدعة وأحكامها وأقسام العلوم وأصنافها وأحوال الآخرة ومسألة الجبر والاختيار والايمان والكفر ومسألة خلق القرآن والوحى ، كما انه تطرق الى ذكر بعض الوقائع والاحداث الجزئية الخاصة التى كانت باعثا مباشرا فى نهضة الفقهاء الى البحث والاجتهاد لتوضيح بعض الاحكام الغامضة وتقريرها ، كما انه تعرض فيه لرسائل اخـــوان الصفاء الفلسفية فشرح ولخص الاهم منها بكلام موجز مفيد . كما أنه أورد فى كتابه هذا بعض رسائل لكبار اقطاب المذهب الاباضى تتعلق بمباحث فى العقائد وأصـــول الدين وفيها أسئلة وأجوبة حول ذلك ، منها رسالة عبد الوهاب بن محمد الانصارى ـ من ناحية غانة ـ الى أبى عمار عبد الكافى التناوتى يسأله فيها عن مسائل فى العقائد فأجاب عنها المؤلف لوفات أبى عمار ؛ ورسالة أخرى للمؤلف نفسه أجاب بها الشيخ محمد بن الشيخ النفوسى الابدلانى عن مسائل تتعلق بتفسير القرآن وبالكتب المنزلة وقصة موسى والخضر وعن شىء من قصص الانبياء الخ ...

وجل هذه المسائل التى أوردها المؤلف ولا سيما منها ما يتصل بأصول الديـن والعقيدة ساقها بطريق الجدل والمناظرة ونظر اليها بمنظار مذهبـــه الاباضى وناقشها

مناقشة مركزة على ضوء هذا المذهب ، ولا غرابة فى ذلك فان الرجل كان مـن مشاهير الجدليين وجلة أهل النظر ٠

تلكم هى مجمل مباحث كتاب الدليل ومهات مسائله التى بحث فيها هذا العلامة الموسوعى الكبير وفيه غير ذلك من مسائل أخرى استطرد فيها المؤلف مواضيع أخرى لاشتات من غوامض العلم ومتفرقاته وعسانا نخصص له مقالا أو بحثا مفصلا نتعرض لمسائله ان شاء الله بالشرح والتحليل ٠

والكتاب فى جملته وتفصيله مفيد جدا فانه اشبه شيء بموسوعة فلسفية عقائدية دينية مصغرة جاء معبرا أحسن تعبير عن أفكار صاحبه مظهرا لمستواه الثقافى الشامل، ونستطيع أن نقـول عنه انه من الكتب الجليلة فى الجدل ولا يستغنى عنه باحـث ولا دارس يريد الاطلاع والكشف عن الحقيقة لواقع البحث العلمى فى الجزائر فى ذلك العصر الغابر ، وكان لاهميته ان اشتغل الغربيون بدراسته وترجمته ، فترجم بعضه الى الفرنسية بقلم ى٠ س٠ علوش I. S. Allouche ونشر بمجلة « هيسبيريس » Hespéris 1936 م ٠

ويذكر لابى يعقوب هذا من المؤلفات والكتب كتاب خاص فى الفلسفة بعنوان : (مرج البحرين) على انه مؤلف مستقل بذاته ؛ وفى الحقيقة ما هو الا عنوان لقسـم من أقسام كتاب الدليل المذكور ومكانه منه هو الجزء الثانى منه يبتدىء من صفحة 85 الى آخر الجزء ، وهو مفتتح بالبسملة والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ثم يجىء ذكر العنوان هكذا : (تعلقة فى المنطق ، كتاب مرج البحرين فى المنطق بحر الالفاظ والكلم وبحر المعانى والحكم) نعم ! قد يكون حقا هو كتاب مستقـل والمؤلف نفسـه أدمجه فى كتابه الدليل ، وقد يكون غيره من تلامذته أو اتباعه هو الذى الحقه بالدليل ، وجعله خاتمة للجزء الثانى منه ، وأنا ارجح هذا نظرا الى ما نجده فى الجزء الثالـث من الدليل صفحة 157 من خط فاصل وبعده صراحة بـداية لكتاب مفتتـح بالبسملة والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ثم جاء قوله : (قال الشيخ يوسف بن ابراهيم الورجلانى رحمه الله الخ ٠٠٠) ففى هذا دليل على ان الكتاب زيد فيه وأضيفت اليه

أشياء أخرى وان كانت هى من عمل المؤلف ، غير انها دائما هى ليست من صميم كتاب الدليل ، والا فما معنى ذكر الترحم على الشيخ هنا ؟ .. فهذا لا يكون الا من صنع غيره·

وكذلك نجد فى صفحة 229 من الجزء الثالث هذه العبارة : (تـم الموجود من الام بحمد الله وحسن عونه والصلاة والسلام على محمد وءاله وسلم تسليما) مع خـــط فاصل ثم تليه البسلمة والصلاة على الرسول عليه الصلاة والسلام وكلمة افتتاحية : (رب يسر يا كريم) ثم الشروع فى موضوع جديد ، فكل ذلك يدفعنا الى الشك فى كتاب (مرج البحرين) هل هو من صميم كتاب الدليل أو هو تأليف مستقل عنه ، وان كنا لا نشك فى كونه من تآليف أبى يعقوب ···

هناك مؤلف آخر فى أصـــول الفقــه منسوب اليه ذكـره اصحاب التراجم وهو (كتاب العدل والاتصاف) ، نعم هذا كتاب مستقل اشتهر ذكره بين العلماء واشتغلوا به فمنهم من شرحه ، ومنهم من اختصره ، ومنهم من اقتصر على مقدمته فشرحها وعلق عليها ومنهم غير ذلك · عرفنا من بينهم أبا العباس أحمد الشماخى فهو ممن عنـــى باختصاره فى مقدمة مفيدة وشرحها بشرح وجيز جدا كما ذكر ذلك المرحوم الشيـــخ أبو اسحاق طفيش فقال انه رغم اختصاره فانه على جانب كبير من النفاسة والتحقيق ·

كما ان لابى يعقوب غيرما تقدم من الكتب مؤلفا آخر خدم به الحديث الشريف ذلك هو ترتيبه لمسند الربيع بن حبيب فقد كان هذا المسند مشوسا فنسقه ورتبه وهـــو مطبوع بالقاهرة فى أربعة أجزاء 1349 هـ ويذكر له كتاب آخر فى التاريخ يحمـــل عنوان : فتوح المغرب أو المغرب فى تاريخ المغرب ، وله ديوان شعر اطلع عليه الدرجينى بيد الفقيه أبى العباس أحمد مرارا ·

ولا يفوتنى هنا أن أنبه على ان هناك شخصية أخرى اباضية علمية بارزة اشتركت مع مترجمنا هذا فى النسبة فعرفت بالورجلانى أيضا ، وذاك هو الشيخ أبو زكرياء يحيى بن أبى بكر الورجلانى المتوفى سنة 471 هـ/1078 م وهو صاحب كتاب ســير الائمة واخبارهم وهو مطبوع بالجزائر مترجما الى الفرنسية بقلم المستشرق ايميـــل ماسكـــوراى Emile Masqueray وهـــو كـــما علمـــت غـــير الورجـــلانى أبى يعقـــوب صاحب كتاب الدليل المتوفى الى رحمة الله سنة 570 هـ/1175 م ·

مـــراجـــع البحـــث

ابن تاويت محمد الطنجي التعريف بابن خلدون ط القاهرة 1951 م

ابن خلدون ـ عبد الرحمن المقدمة ط بولاق 1274 هـ

ابن خلدون ـ عبد الرحمن تاريخ ـ العبر ط بولاق 1284 هـ

ابن خلدون ـ يحيى بغية الرواد ط الجزائر 1911 م

البرادى ـ أبو الفضل الجواهر المنتقاة ط القاهرة 1302 هـ

البكرى ـ عبد الله المسالك والممالك ط الجزائر 1857 م

أبو زكرياء ـ يحيى الورجلانى سيرة الائمة ط باريس 1878 م

أبو يعقوب يوسف الورجلانى الدليل والبرهان ط القاهرة 1306 هـ

أحمد توفيق المدنى كتاب الجزائر ط الجزائر 1350 هـ

الادريسى ـ محمد بن محمد نزهة المشتاق ط لندن 1866 م

الدرجينى ـ أبو العباس أحمد طبقات المشائخ بالمغرب ، ط . قسنطينة بدون تاريخ .

الزركلى ـ خير الدين الاعلام ط ثانية ج 9

الشماخى ـ أحمد بن سعيد كتاب السير ط القاهرة 1301 هـ

الشماخى ـ أحمد بن سعيد أصول الديانات ط القاهرة 1304 هـ

عبد الرحمن الجيلالى تاريخ الجزائر العام ج 1 ط 3 الجزائر 1971م

عبد الوهاب بن منصور البصائر عدد 313 (1953 م)

على يحيى معمر الاباضية فى موكب التاريخ ط القاهرة 1964

علوش ى. س. هيسبيريس Hespéris 1936 م

العياشى ـ عبد الله بن محمد الرحلة ط فاس 1316 هـ

ياقوت الحموى معجم البلدان ج 5 ط بيروت 1957 م

Emile Masqueray : Chronique d'Abou Zakaria - Alger 1878.

أبو عمار الكافي

والنسق الكلامى

د . عمار الطالبى
كلية الآداب ـ جامعة الجزائر

لا نعدو الحق اذا قلنا ان الخوارج لم تدرس آراؤهم العقائدية والسياسية دراسة تقارب الدراسات الكثيرة التى قام بها الباحثون عن فرقة المعتزلة وآرائها الكلامية الفلسفية أو عن فرقة الاشاعرة التى أخذت من الاعتزال بطرف ومن السلفية بطرف آخر وتوسطت بين المنهج الذى أخذ به المحدثون وبين المنهج الفلسفى الذى أغرق فيه المعتزلة ، كما أن الباحثين اهتموا بدراسة الشيعة وبتحليل عقائدها فى الالوهية والنبوة والامامة وما علق بها من عناصر غنوصية التى علقت أيضا بالباطنية الصوفية .

ولكن ينبغى أن نشير الى أن بعض المستشرقين اهتم بدراسة الخوارج وبتتبع حركتهم وتصطبغ هذه الدراسات فى أغلبها بصبغة تاريخية أو اخبارية على النحو الذى قام به فلهوزن Wellhausen فى بحثه التاريخى النقدى لحركتى الخوارج والشيعة وما قام موتيلنسكى Motylinski من أبحاث وتحقيق نصوص تتعلق بالاباضية ، بل كاد أن

يتخصص فى دراسة عقائد الاباضية وفى تاريخهم السياسى والاجتماعى سواء فى ذلك ما يتصل باباضية المغرب الاسلامى فى الجزائر وتونس وليبيا أو فى زنجبار أو فيما يتعلق باباضية المشرق وخاصة عُمّان ، وكذلك ما قامت به الآنسة جواشون من دراسة مستفيضة لحياة المرأة الاباضية الاجتماعية بجنوب الجزائر أى ميزاب ٠

وقد خصص شيخ المستشرقين جولدزيهر قطعة من كتابه « العقيدة والشريعة فى الاسلام » للحديث عن الخوارج عامة وعن الاباضية خاصة ، وشارك Nallino الايطالى فى هذا المجال فكتب مقالا هاما عن العلاقة بين الاباضية فى شمال افريقيا وبين المعتزلة ، وتفطن الى ما يوجد بينهما من أوجه الاتفاق معتمدا على نصوص من كتب الاباضية نفسها ٠

وقد أحصينا المقالات التى كتبت عن الخوارج وعن الاباضية فى دراسة لنا عنهم ستنشر عن قريب والتى ذهبنا فيها الى رأى يخالف ما كان شائعا لدى المؤرخين والباحثين من أن الخوارج بدو ليس لهم منهج عقلى وبرهنا على أن الخوارج لم يكونوا من أهل الظاهر وانما كانوا ذوى منهج عقلى وتأويل للنصوص بما يتفق مع أصولهم فالمعتزلة ان هم الا تطوير لاصول الخوارج الاولى لذلك قال ابن تيمية ان المعتزلة مخانيث الخوارج وأن الاشاعرة مخانيث المعتزلة ٠

أبو عمار عبد الكافى

أ ـ **حياته** : هو أبو عمار عبد الكافى بن أبى يعقوب التناوتى ٠ وتناوت ـ فيما يحدثنا المرحوم الشيخ أبو اليقظان ـ نسبة الى تناوت وهى قرية من قرى وارجلان فى سدراته الواقعة جنوب الجزائر ووارجلان تسمى اليوم « ورقلة » وكانت سدراته هذه عاصمة للاباضية بعد تيهرت ، أما المستشرق لويكى Lewicki فانه يذكر أن تناوت قبيلة بربرية كانت تقيم فى بلدة نفزاوة معتمدا فى ذلك على كتاب السير للشماخى (1) ، ويقيم جزء من هذه القبيلة فى وارجلان ويمكن الجمع بين الرأيين بالقول بأن تناوت اسم لقبيلة ثم سميت بها القرية التى أقامت بها هذه القبيلة فى وارجلان ٠

(1) Lewicki (T.), Mélanges Berbères Ibadites, REI, 10 (1936), p. 278.

ويذهب المستشرق المذكور الى أن أبا عمار هو أكثـــر مؤلفى الاباضية علـما ، والواقع أننا لا نعلم عن نشأته شيئا كثيرا ، وغاية ما نعلم عنه أنه نشأ فى وارجلان فى القرن السادس الهجرى ، وكانت فى ذلك الحين مزدهرة فى ميدان المعارف الدينية . أخذ فى تلك المدينة عن أستاذه الكبير المتكلم الاباضى أبى يعقوب الوارجلانى المتوفى سنة 570هـ/1174 م ، وكان أبو يعقوب الوارجلانى ذا اطلاع واسع على شتى أنواع المعارف وعلى الثقافة الاسلامية فى ذلك العصر حيث انتقل الى الاندلس وأقام بمدينة قرطبة فى عهد الموحديـن أصحاب النزعة العقلية والاجتهـــاد ، وهنالك درس علوم اللسان والقرآن والحديث والتنجيم فكان أهل عصره يشبهونه بالجاحظ .

وألف من الكتب كتاب «العدل والانصاف» فى اصول الفقـه فى ثلاثة اجـزاء ، وتوجد عند الاباضية الى اليوم فى الجزائر نسخ متعددة (1)، وألف كذلك كتاب «الدليل لاهل العقول » فى ثلاثة اجزاء طبعت فى مجلد واحد طبعا حجريا بالقاهرة سنة 1306 هـ، ـ 1888 م ، تحدث فيه عن الآراء الكلامية والفلسفية وعن الرياضيات والفلك ، ورتب ايضا كتاب «مسند الربيع بن حبيب البصرى» الذى طبع الطبعة الثانية بمصر سنـــة 1349 هـ ، بالمطبعة السلفية وضم اليه بعض روايات الربيع عن ضمام عن جابر بن زيد وروايات ابى سفيان عن الربيع ، وروايات جابر بن زيد (2) وينسب اليه كتاب «مرج البحرين فى الفلسفة والمنطق والهندسة والحساب» ونقل الينا الشيخ ابو اليقظـــان انه ترجم الى اللغات الاروبية ولكننا لم نقف على ذلك ولم نعرف اللغة التى ترجم اليها، وله قصيدة تسمى الحجازية تقع فى 360 بيتا ، ويبدو انه انشاها حين قصـد الحجاز للحج فجادت قريحته بها فى تلك الربوع المقدسة ، وله كتاب فى الفقه لم اقف عليه ، وينسب اليه تفسير للقرآن يقال انه يقع فى 700 ورقة به تفسير فاتحة الكتاب وسورة البقرة وآل عمران ، وغلب على ظن البرادى ان ابا يعقوب ألف تفسيره للقرآن فى ثمانية اسفار مثل السفر الذى رآه ووقف عليه (3) ، وله كتاب فى التاريخ يدعى «فتـــوح

(1) اطلعت على نسخة لدى الاستاذ صدقى ايوب اليسجنى وقد شرحه القطب واختصره الشماخى .

(2) عبد الله بن حميد السالمى ، حاشية مسند الربيع ، مطبعة الازهار البارونية ، القاهرة 1326 هـ ، جزء 1 ص : 3 .

(3) البرادى ، الجواهر ، مطبعة محمد يوسف البارونى ، القاهرة 1302 هـ ، ص : 220

المغرب» ترجم فيه للاباضية ويذكر الشيخ ابو اليقظان انه توجد نسخة منه فى ألمانيا كما ذكر الشيخ اطفيش ابو اسحاق فى كتابه «الدعاية الى سبيل المؤمنين» (4) ، وله رسالة فى رجال مسند الربيع ، وترجمة لرجال الاباضية ، كما له أجوبة وفتاوى كثيرة لو ترجمت لكونت سفرا كبيرا فى الفقه .

وقد استطاع ان يكتشف خط الاستواء قبل ان يكتشفه غيره من الاروبيين ، فى رحلة له اليه ذكرها فى كتابه «الدليل والبرهان» وبالجملة فان ابا يعقوب الوارجلانى يعتبر من الفلاسفة الاباضيين الذين اكتسبوا معارف واسعة سواء فيما يتصل بالمذهب الاباضى او بغيره من المذاهب والآراء والعلوم الرياضية والطبيعية المعروفة فى عصره ، ويعتبر من أكبر رجالات الرياضيات فى المغرب العربى .

بعد ان اخذ ابو عمار عن شيخه ابى يعقوب ارتحل الى تونس ودرس هناك على اساتذة كثيرين ، وكانت تونس فى عهد الموحدين فى غاية من النشاط العلمى والثقافى فاستفاد من تلك البيئة العلمية الزاخرة واخذ علوم اللسان العربى وآدابه والعلوم الاسلامية المختلفة ، وعرف فى دراسته تلك بالجد والنشاط ، وكانت اسرته ذات ثراء ولذلك فانها كانت ترسل اليه الف دينار كل سنة فيعطى نصفها الى شيخه الذى يدرس عليه ويصرف النصف الآخر فى شؤونه الخاصة ، ويحكى انه كانت تأتيه كل عام رسالة مع المرتب المالى ولكنه كان لا يقرأ ما يرد عليه من رسائل ويحفظها عنده ، وعند ما أتم دراسته أخذ فى قراءتها فوجد فى الاولى نبأ وفاة احد والديه وفى الثانية نبأ وفاة الثانى فما كان منه الا ان ودع اساتذته واصدقاءه وقفل راجعا الى وطنه ، ويذكر صدقاؤه انه كان ذا أخلاق عالية ، سريع الفهم ، سخى النفس ، شديد الورع ، وكانوا يدرسون معه كتاب «الدعائم» وينسب اليه البدر الشماخى والدرجينى فى طبقاتهما عدة كرامات (5) ويذكر الدرجينى ان سبب سفره الى تونس التى أقام بها اعواما

(4) المطبعة السلفية القاهرة 1342 وتوجد منه نسخة فى تركة المستشرق موتيلانسكى .
(5) البدر الشماخى ، السير ص : 442 . الدرجينى مخطوط الشيخ ابن يوسف بالجزائر العاصمة ص : 444 رسالة الشيخ أبى اليقظان الى صاحب هذا المقال سنة 1968 ص : 11 .

للدراسة يعود الى امرين : الاول ابتعاده عن شواغل الاهل ، والثانى انه اراد اصلاح لسانه وتقوية ملكته فى اللسان العربى بالابتعاد عن اللسان البربرى الذى يتحدث به أهل بلده وارجلان ·

والواقع ان كتابه «الموجز» يشهد له بقوة الاسلوب وجزالته وصفاء عربيته ومتانة ألفاظها ودقة دلالاتها على معانيها · ويذكر المترجمون له انه سئل عن القدر وعن اليقين فقال : (اليقين صحة الاعتقاد وهو من افعال القلب ومن افضل افعال العبادة) وأجاب عن القدر فقال : (القدر ما قدره الله قبل ان يكون)·(6) وكان ابوعمار محبا للسلم بين المسلمين كارها للفتن وسفك الدماء ، وعبر عن رغبته هذه فيما يذكره الدرجينى الذى قال : «اذا وقعت الفتنة بين فئتين من المؤمنين فالاحب الي ان يصطلحوا فان لم يفعلوا فالاحب الي ان لا تغلب فئة فئة فان من احب ان تغلب احداهما الاخرى فقد دخل فى الفتنة ، ولزمه ما لزم اهل تلك الفتنة وكان سيفه يقطر دما» · (7)

اما ما يتعلق بتاريخ وفاته فانه غير معروف ولكن يقع فى الراجح قبل سنة 570 هـ ـ 1174 م وهى السنة التى توفى فيها شيخه ابو يعقوب الوارجلانى ، ذلك انه وردت الى ابى عمار رسائل من عبد الوهاب بن محمد بن غالب بن نمير الانصارى من غانة ليجيب عن اسئلة وردت فيها فتوفى ابو عمار قبل ان يتمكن من الجواب عنها ، فتولى الاجابة عن ذلك شيخه ابو يعقوب الوارجلانى قبل وفاته سنة 570 هـ 1174 ·

لقد كان للاباضية نشاط واسع من الناحية الدينية والثقافية والاقتصادية فى افريقيا ، فكانوا يقومون بتجارة التبر والدعاية للدين بالفعل والقول،ويقول ابواليقظان ان ابا عمار توفى فى وارجلان وقبره معروف باسمه فى هذه المدينة الى اليوم اذ ان له مقاما يزار ، وذكر انه وقف عليه ورآه ، وهو عبارة عن «غار منحوت فى ربوة الجبل

(6) الدرجينى طبقات المشائخ بالمغرب تحقيق ابراهيم طلاى ، مطبعة البعث ، قسنطينة (الجزائر) (1974) ص : 488 ·
(7) المصدر نفسه ، ص : 491 ·

قدر ما يقف فيه المصلى ويأوى مجلس نحو عشرة رجال» (8) · وجرت عادة الاخـوان الاباضيين ان يقوموا بزيارته ربيع كل سنة (9) ويعده الشيخ محمد بن يوسف اطفيش من أهل الخمسين الاولى من المائة السادسة (10) مع استاذه أبى يعقوب الوارجلانى ·

ب ـ **مؤلفاته :** يعتبر أبو عمار من الذين أحيوا المذهب الاباضى تأليفا وتعليما ، وهو من أعظم مؤلفى الاباضية مقدرة على الجدل والنظر وأكثرهم عمقا فى التفكير ، وتنظيما للمذهب فى نسق عقلى دقيق متماسك ، وهو لا يقل عن متكلمى المعتزلـة والاشاعرة والشيعة مقدرة على التأليف واحاطة بالمذاهب ودفاعا عن العقيدة ونصرة لهـا ·

ينسب الى أبى عمار أنه ألف كتاب الاستطاعة ، وقد أشار فى آخر كتابه « الموجز » الى أن الاستطاعة تستحق أن يفرد لها كتاب (11) ، ونسب اليه البدر الشماخى أيضا كتاب « شرح الجهالات » (12) وتوجد منه نسخة فى دار الكتب المصرية مخطوطة (13) وخطها ردىء جدا ، وبها شطب ولا تكاد تقرأ وهذا الكتاب عبارة عن أسئلة وأجوبة فى العقائد وغيرها على طريقة المذهب الاباضى به 59 ورقة تحت رقم 22293 ب · أما كتابه « الاستطاعة » فلا أعرف أنه موجود أو غير موجود ، وأغلب الظن أنه مفقـود ، وينسب الى أبى عمار أيضا ثبت باسماء شيوخ الاباضية وتراجمهم ، ويعتبره عـلى يحيى معمر من مؤرخى الاباضية · (14)

ومن أهم مؤلفاته كتاب « الموجز » فى علم الكلام نسبه اليه البـدر الشماخى (ت 928هـ/1521م) فى السير (15) ، حيث وصف أبا عمار بأنه آية فى علم الكلام

(8) الشيخ أبو اليقظان ، الاباضية فى شمال افريقيا مخطوط لدى مؤلفه بالقرارة جنوب الجزائر وأورد هذا النص منه فى رسالته الي بتاريخ 1968 ، ص : 17 ·
(9) المصدر نفسه.كما حدثنا بذلك الشيخ ابن يوسف بمدينة الجزائر سنة 1968 ·
(10) محمد اطفيش ، تواريخ أهل وادى ميزاب ، الجزائر 1326 هـ ·
(11) الموجز ، ص : 193 ، البدر الشماخى ، السير ، ص : 441 ·
(12) البدر الشماخى ، السير ، ص : 441 وذكر أنه يقع فى سفر واحد ·
(13) Lewicki (T.), Mélanges Berbères Ibadites, REI, 10 (1936), p. 271.
(14) على يحيى معمر ، الاباضية فى موكب التاريخ (الاباضية فى تونس) بيروت 1385 هـ ـ 1966 م ، ص : 194 ·
(15) السير ، ص : 441 ·

وبأنه ألف فيه : « الموجز فى الرد على من خالف الحق فى جزئين » (16) كما نسبه اليه الدرجينى فى طبقاته فقال : « وهو الذى أزرى بموجزه على الماضين وأتعب الحاضرين والآتين فانه رتب مقدماته أرتب تقديم وقوم فصوله أحسن تقويم وقسم الفرق أبين تقسيم بألفاظ عذبة وقصد مستقيم » (17) ، ونقل منه عبد العزيز المصعبى اليسجنى فى كتابه « معالم الدين » المخطوط الموجود بدار الكتب المصرية تحت رقم 1960 ب ، وقال : « ومن هنا تعلم معنى قول الشيخ أبى عمار فى الموجز » (18) ، كما نسبه اليه أبو اليقظان ابراهيم فى كتابه « الاباضية فى شمال افريقيا » فقال : « صاحب كتاب الموجز فى علم الكلام فى جزئين ناقش فيه فرق المذاهب الاسلامية وحاجج فيه كثيرا من الدهريين وناقشهم فى سائر مقالاتهم الرائعة المنحرفة بحججه الدامغة وبأسلوبه الرشيق الحكيم المبنى على محاصرة الخصم بالقائه فى شبكات من أسئلة لالزامه الحجة حتى لا يجد له محيصا ولا مفرا » (19) ، ولم يشك أحد من الاباضية فى أن الكتاب لابى عمار عبد الكافى بل ان البرادى ذكره فى تقييده لكتب الاباضية ونص على ذلك بقوله : « وكتاب الموجز للشيخ ابى عمار بن أبى يعقوب التناوتى الوارجلانى » (20) ، وأضاف الى ذلك نسبة كتبه الاخرى اليه فقال : « وشرح الجهالة له أيضا وكتاب الفرائض ويذكرون كتابا فى الفروع من تأليفه لم أقف عليه » (21) ، وأما المخطوط الآخر للبرادى نفسه فانه نص فيه على كتاب الموجز وشرح الجهالات فقط فقال : « ولابى عمار رضى الله عنه كتاب الموجز وكتاب شرح الجهالات سفر آخر له » (22) ، وقد قمنا بتحقيق هذا الكتاب على ثلاث نسخ : نسخة دار الكتب المصرية ونسخة الاستاذ صدقى محمد بن أيوب اليسجنى ونسخة الاستاذ صالح خباشة وكلاهما من اباضية الجزائر .

(16) المرجع نفسه ، ص : 141 .
(17) الدرجينى ، الطبقات جزء 2 ، ص : 485 .
(18) ورقة 276 .
(19) رسالة أبى اليقظان ، ص : 17 .
(20) تقييد كتب أصحابنا للبرادى مخطوط دار الكتب، ورقة : 208 .
(21) المصدر نفسه ، الورقة نفسها .
(22) مخطوط رقم 8456 ، ورقة : 113 .

ان كتاب الموجز يمثل مرحلة نضج علم الكلام ويمدنا بصورة نسق متكامل لمذهب الاباضية الكلامي ، وليس أبو عمار أقل من أبى بكر الباقلانى عند الاشاعرة ولا أقل من ابن حزم فى نقده ورده على الفرق والفلاسفة ، وتظهر فى هذا الكتاب صورة واضحة القسمات للمذهب الاباضى وللفكر الفلسفى لدى أبى عمار عبد الكافى الذى اتخذ منهجا عقليا قويا فى نقده واستدلاله مما يدل على اصالة هذا المفكر وعمق تحليله وغوصه على حقائق مختلف الاتجاهات الفلسفية والكلامية فى تاريخ الامة الاسلامية · ولا نريد أن نطيل فى بيان قيمة هذا الكتاب واهميته فى تاريخ الفكر الاسلامى فى الجزائر لاننا حللناه بما فيه الكفاية فى رسالتنا عنه لنيل الماجستير التى هى معدة للنشر ·

الفن الرستمي بتاهرت وسدراته

د. رشيد بورويبة
معهد العلوم الاجتماعية ـ دائرة التاريخ
جامعة الجزائر

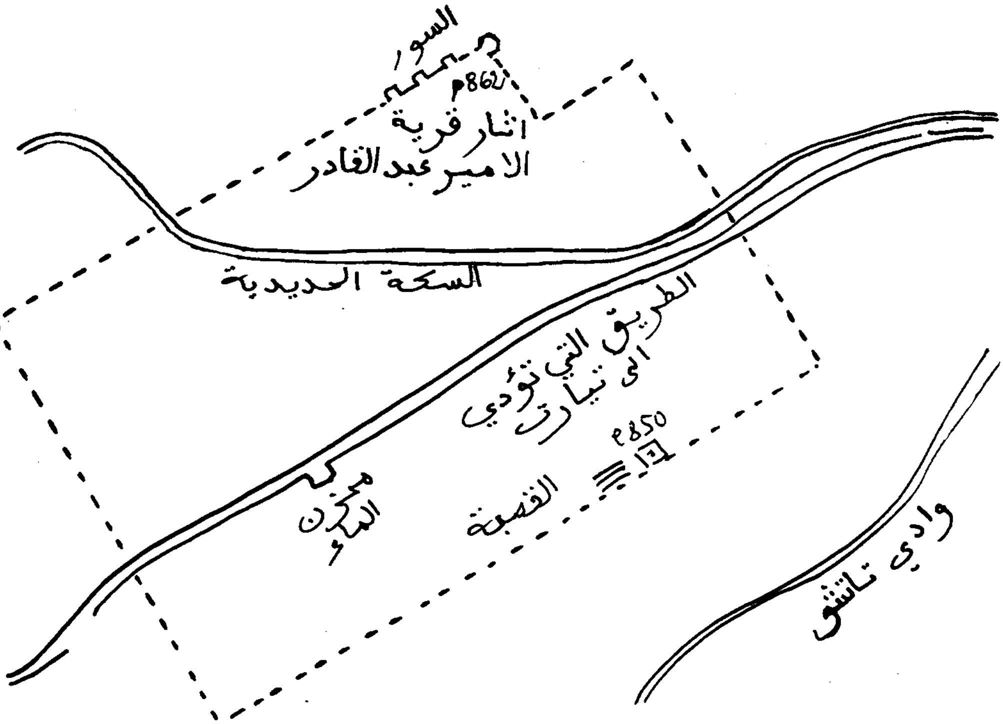
تركت لنا الدولة الرستمية التي أسست حوالى سنة 160 هـ/776 م من طرف عبد الرحمن بن رستم أثارا عديدة بمدينتي تاهرت وسدراته ·

1) الفن الرستمي بتاهرت ·

اجرى جورج مارسي (Georges Marçais) ودوسوس لامار (Dessus-Lamare) حفريات بتاهرت في سبتمبر 1941 ونشر النتائج التي حصلا عليها في المجلة الافريقية في سنة 1946 (1) ·

وما صعب مهمة الاثريين هو ان الامير عبد القادر بنى مدينة تقادمت على اطلال مدينة تاهرت الرستمية · مع ذلك اسفرت حفرياتهما على نتائج لا بأس بها من حيث انهما اقترحا علينا تصميما افتراضيا لمدينة تاهرت في عهد الرستميين واكتشفا عدة مباني ومطامير وقطع من الفخار ·

(1) G. Marçais et A. Dessus-Lamare, Tihert Tagdemt, Revue-Africaine, 1946, pp. 24-57.



شكل 1. تصميم افتراضي لمدينة تاهرت
(عن جورج مارسي ودوسوس-لامار)

كانت مدينة تاهرت ، على قول جورج مارسي ودوسوس ـ لامار ، على شكل مستطيل غير منتظم طوله 1100 م وعرضه يتراوح بين 700 و 800 م · (شكل 1)

ومن المبانى التى عثر عليها الآثريان نذكر آثار السور والقصبة ومخازن الماء ·

ـ سـور المدينـة :

كان سـور المدينة مبنيا بالحجر ومحصن ببروج ذات قاعدة على شكل مضلع فى الزوايا وبدعائم مربعة يبلغ طول ضلعها 5 م فى الاضلاع · وكانت المسافة التى تفصل ما بين دعامتين متتواليتين 20 م ·

ـ القصبة (شكل 2) :

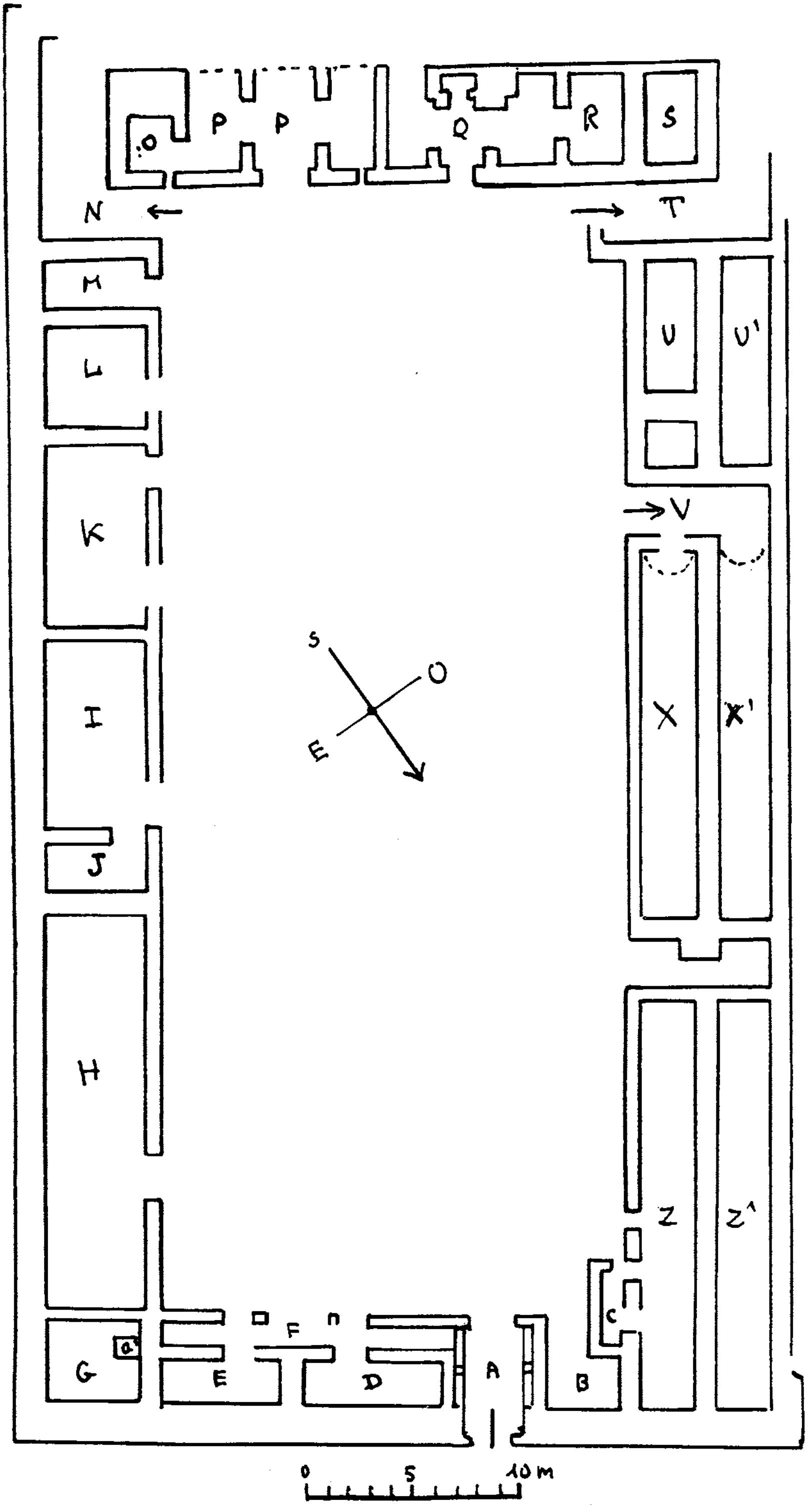
كانت القصبة على شكل مستطيل طوله 96 م وعرضه 33،65 م وتحتوى على بنائين متلاصقين احدهما على شكل مستطيل طوله 30 م وعرضه 33،65 م والقصبة بـذاتها التى كان يبلغ طولها 66 م وعرضها 33،65 م ·

لم يهتم جورج مارسى ودوسوس لامار اهتماما كبيرا بالبناء الاول ولكنهما أفادانا بتصميم دقيق للقصبة ·

كان للقصبة جدران مبنية بالحجر ومـلاط من الجير يتراوح سمكها بين 1،44 م· و 1،50 م وباب واحد مفتوح فى الجدار الشمالى الشرقى يؤدى الى سقيفة طولها 5،10 م وعرضها 2،46 م محفوفة بمقعدين تفصلهما قاعدة من الاجر كانت تعلوها دعامـة أو سارية تعتمد عليها القوسان اللتان كانتا تزينان السقيفة ·

وكانت هذه السقيفة تؤدى الى صحن طوله 53 م وعرضها 20 م مفرش بالحجـر ومحاط بقاعات متلاصقة مختلفة الشكل من جهاته الاربع ·

وكانت القاعات الموجودة فى القسم الشمالى الشرقى والقسم الجنـوبى الغـربى تستعمل للسكن والقاعات الشرقيـة الجنـوبية تستعمل للحراسة أو كاصطبلات والقاعات الشمالية الغربية تستعمل كمخازن · وفى طرفى القسم الجنوبى الغـربى عثر جورج مارسى ودوسوس لامار على آثار سلمين كانا يؤديان الى الطابق الاول ·



شكل ٤ . ـ تصميم قصبة تاهرت (عن ج. مارسي وا. دوسوسانا)

ـ مخازن المـاء (شكل 3) :

كان الرستميون يهتمون اهتماما كبيرا باعمال الرى وقيل ان من الاسباب التى دفعت عبد الرحمن بن رستم الى تشييد عاصمته بتاهرت هو انه وجد بها عدة عيون ٠

ونجد على جانبى الطريق التى تعبر المدينة حاليا عددا كبيرا من المبانى المائية مثل العيون ومخازن الماء ٠

وأهم هذه المبانى بناء يحتوى على ثلاثة أحواض رئيسية مستطيلة الشكل جدرانها مبنية بالحجر والملاط وملبسة بطلاء سميك ٠ ونرى فى احد هذه الاحواض أربعة حزوز متقابلة زوجا زوجا تسمح بنزول حاجزى الحوض ورفعها ٠ وكان ينزلون الحاجزين فى أيام الصيف ليحافظوا على مستوى الماء فى المخزن أو لتنظيف الحوض ٠

هذه هى المبانى التى اكتشفت بتاهرت ٠ هناك مبانى أخرى لم توجد بعد الا وهى المسجد والبيبان الاربعة ٠

ان المسجد كان ما زال موجودا فى أيام البكرى (2) وكان يحتوى على أربع بلاطات ٠

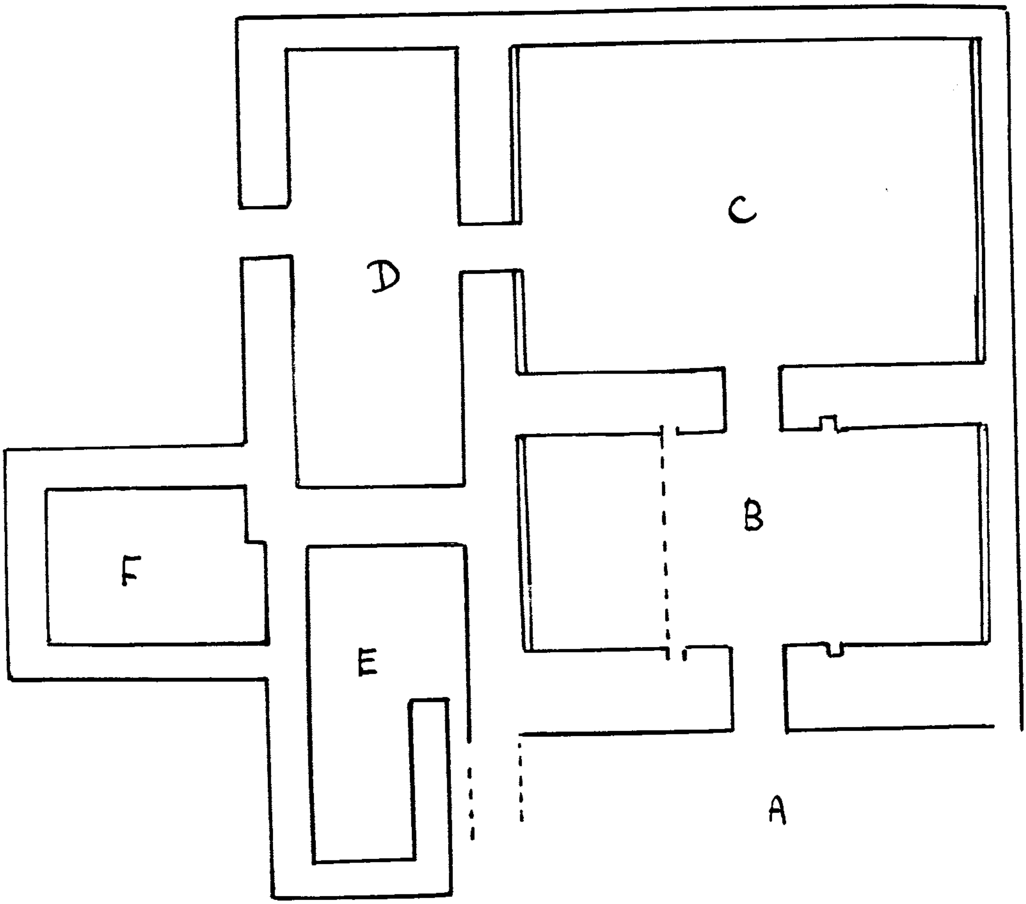
اما بيبان المدينة فكان عددها أربعة : باب الاندلس المفتوح فى الجدار الشمـــالى وباب المنازل الموجود بالجدار الجنوبى وباب الصبا المفتوح من جهة الشرق وباب المطاحن الموجود من جهة الغرب ٠

وبجانب المبانى التى وصفناها فيما سبق عثر جورج مارسى على عدد لا بأس به من المطامير وكسر من الفخار ٠

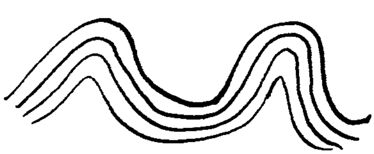
وبدون شك كان لمدينة تاهرت افران لشىء الفخار والدليل على ذلك هو وجـــود قطع من الفخار متلاصقة بعضها فى بعض وعوجاء ٠

وكانت الكسر التى عثر عليها مصنوعة من طين أبيض وخوخى مغطى بطلاء أبيض مزين بزخرفة مسحوبة أو مجرورة يرسمونها بآلة على شكل مشط يضعونها على الطين قبل ان ييبس ٠ فترسم هذه الآلة خطوطا متوازية مستقيمة أو منحنية ٠ (شكل 4)

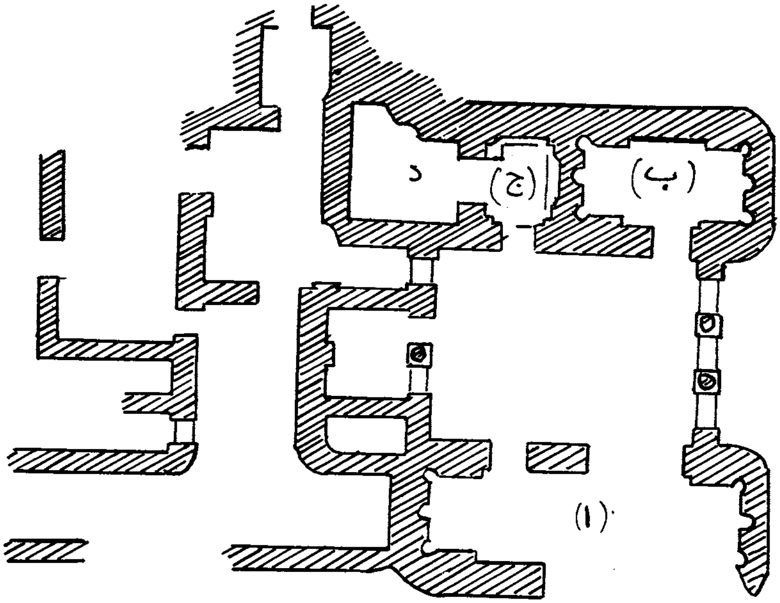
(2) البكرى ، كتاب المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص 66 ٠



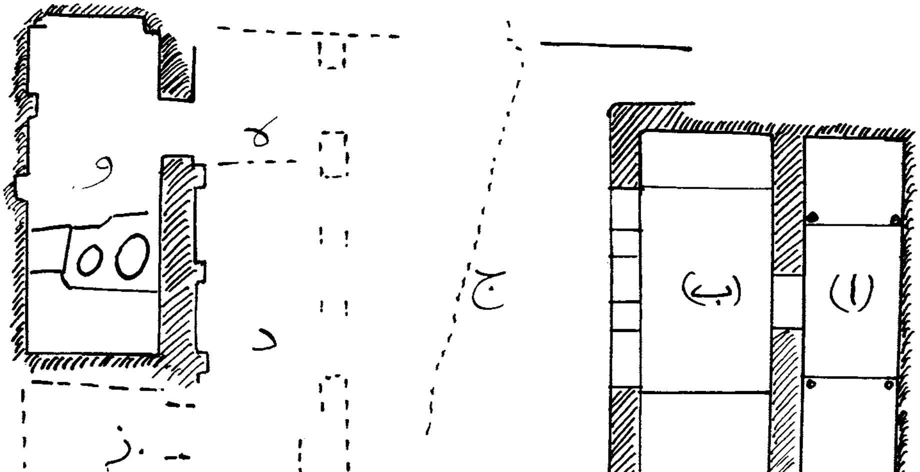
شكل 3.- مخازن الماء (عن جورج ماسي ودوسوس-لامار



شكل 4.- الزخرفة المسحوبة



شكل 5.ـ تصميم القصر ذي 34 حجرة (عن فوشي)



شكل 6.ـ تصميم الدار رقم 5 او دار المطامير
(عن مارقريد فان برشم)

ومن القطع التى اكتشفها جورج مارسى ودوسوس ـ لامار نذكر كسرة من فـــم جرة سمكها 7 سم وقطرها 50 سم وكسر من قلل وصحون وغطاء برادة مزين بقفلـــة مزخرفة بقوالب وقطع من مصابيح طويلة البلبل مغطاة بميناء أخضر وقطعة من مجمر ٠

هذه هى النتائج التى اسفرت عليها حفريات جورج مارسى ودوسوس ـ لامـــار بتاهرت ٠ والجدير بالذكر هو ان هذين الآثاريين لم يعثروا على أى قطعة زخرفية وهذا يرجع فى ضننا ، الى الحياة البسيطة التى كان يعيشونها الائمة الرستميين بصـــورة عامة وعبد الرحمن بن رستم بصورة خاصة ٠ تلك الحياة التى وصفها لنا ابن الصغير فى النص التالى (3) :

وصل قوم البصرة الى مدينة تاهرت ودخلوها من الباب المعروف بباب الصبا يسئلون كل من لقوه من الناس عن دار الامام عبد الرحمن حتى وقفوا عليها واصابوا عند بابها غـلاما يعجن طينا ورجلا على سطح يصلح شقاقا فيه والغـــلام يناوله ما يصلح به ٠ فسلموا على الغلام فرد السلام ثم قالوا : هذه دار الامام ؟ فقال نعم ٠ فقالوا : استأذن لنا منه وأعلمه انا رسل اخوانه اليه من البصرة فرفع الغلام رأسه الى سيده وقد علم انه سمع كلامه فقال قل للقوم يصبرون قليلا ثم أقبل على ما كان عليه من اصـــلاح عمله حتى انقضى والقوم ينظرون اليه وهم شاكون فيه هل هو صاحبهم أم لا ، حتى نزل عن سطحه الى داره فغسل ما كان بيديه من اثر الطين ثم توضأ وضوء الصـــلاة فأذن للقوم فدخلوا عليه فوجدوا رجلا جالسا على حصير فوقه جلد وليس فى بيته شىء سوى وسادته التى ينام عليها وسيفه ورمحه وفرس مربوط فى ناحية من دارة فسلموا عليه واعلموه انهم رسل اخوانه اليه فأمر غلامه باحضار طعامه فأتاه بمائدة عليها قرص سخنت وسمن وشىء من ملح فامر بتلك القرص فهشمت وأمر بالسمن فلثت به ، ثم قال على اسم الله ادنوا وكلوا ثم أكل معهم باكلهم فلما انقض طعامهم قال ما مرادكم وما جاء بكم فقالوا له نحب ان تأذن لنا حتى نخلو فيما بيننا ثم نكلمك بعد ذلك فقال افعلوا فجلسوا نجيا فقال بعضهم لبعض يكفينا من السوال عنه ما رأينا منه مـــن اصلاحه لداره بنفسه ومطعمه وملبسه وحيلة بيته فما نرى الا ان ندفع اليـه المـال

(3) ابن الصغير ، ذكر بعض الاخبار فى الائمة الرستميين ، ص II ـ I2 ٠

ولا نشاور أحدا فيه وكان الذى معهم من المال ثلاثة احمال • فاجمع رأيهم على حمل المال اليه ورجعوا اليه ثم اقبلوا عليه فقالوا اعزك الله معنا ثلاثة احمال من بعث بها اليك اخوانك لتنفق بها على زمانك وتصلح بها شأنك فقال هذه الصلاة قد حضر وقتها ونحن نخرج الى المسجد الجامع فنصلى بالناس ونعلمهم بما جئتم به فقالوا الامر اليك فخرج وخرجوا حتى أتوا المسجد الجامع فصلى بالناس فلما انصرف من صلاته نادى مناد الا يختلف من كل قبيلة وجوههم ففعل الناس ذلك فلما انفض الناس وبقى من يفوض اليه الامر من وجوههم قال للرسل اعلموا اخوانكم بما جئتم له فاعلموهم بمثل ما اعلموه ثم عطف على الناس فقال ما ترون فقالوا ان هذا الرزق ساقه الله الينا من طوع اخواننا بلا سؤال منا فنرى ان ترسل الى هذا المال وتحضره بين يديك فتجعل منه ثلثا فى الكراع وثلثا فى السلاح وثلثا فى فقراء الناس وضعفائهم فقال للرسل قد سمعتم ما يقول اخوانكم فما تقولون قالوا نقول سمعا وطاعة فاحضروا المال فقال عبد الرحمن أريد أن تقيموا حتى بصرف المال فى وجهه ثم تنصرفون الى اخوانكم فتعلمونهم ذلك » •

2) الفن الرستمى بسدراته :

فى سنة 547 هـ/908 م سمع الامام الرستمى يعقوب بن افلح بوصول الجيش الفاطمى الى تاهرت فجمع ما بقى له من اتباع مخلصين وخرج من عاصمته وسار نحو الجنوب وعند وصوله الى ناحية ورقلة وبالضبط على مسافة 14 كم جنوبى المدينة استقر بها وأسس مدينة صدراته التى عرفت ازدهارا كبيرا فى القرنين الرابع والخامس الهجريين ، والعاشر والحادى عشر الميلاديين •

وفى منتصف القرن الثامن الهجرى ، الثالث عشر الميلادى غادر سكان صدراتة مدينتهم وتوجهوا نحو ناحية مصاب •

وبعد مغادرتهم لمدينة صدراتة اندثرت المبانى التى كانوا شيدوها وخفيت تحت الرمال •

فقام الآثاريون لارجو (Largeaud) وطـــارى (Tarry) وبلانشى (Blanchet) وفوشى (Faucher) ومارقريت فان برشم (Marguerite Van Berchem) بحفريات (4) واستطاعوا ان يصفوا لنا مدينة صدراتة والمبانى التى اكتشفوها ٠

وكانت صدراتة فى عهد الرستميين على شكل مستطيل طوله 2000م وعرضه 1000م وتشتمل على عدة قرى صغيرة مبنية على تلل ٠ وقيل ان مدينة صدراتة تحتوى على 125 قرية تسقيها 1051 عينا ٠ وكانت طرق عديدة تجمع ما بين هذه القرى وتخرج مـــن المدينة وتعبر البساتين ٠

ورأت مارقريت فان برشم بقايا الاسوار والبروج وشبكة من السواقى التى كانت تسقى البساتين من صدراتة الى رويست وورقلة وواحات أخرى ، ومن بين المبـــانى التى اكتشفت نذكر : المسجد وقصرا القى عليه الآثاريون اسم « قصر ذو أربع وثلاثين حجرة » ودار المطامـير ٠

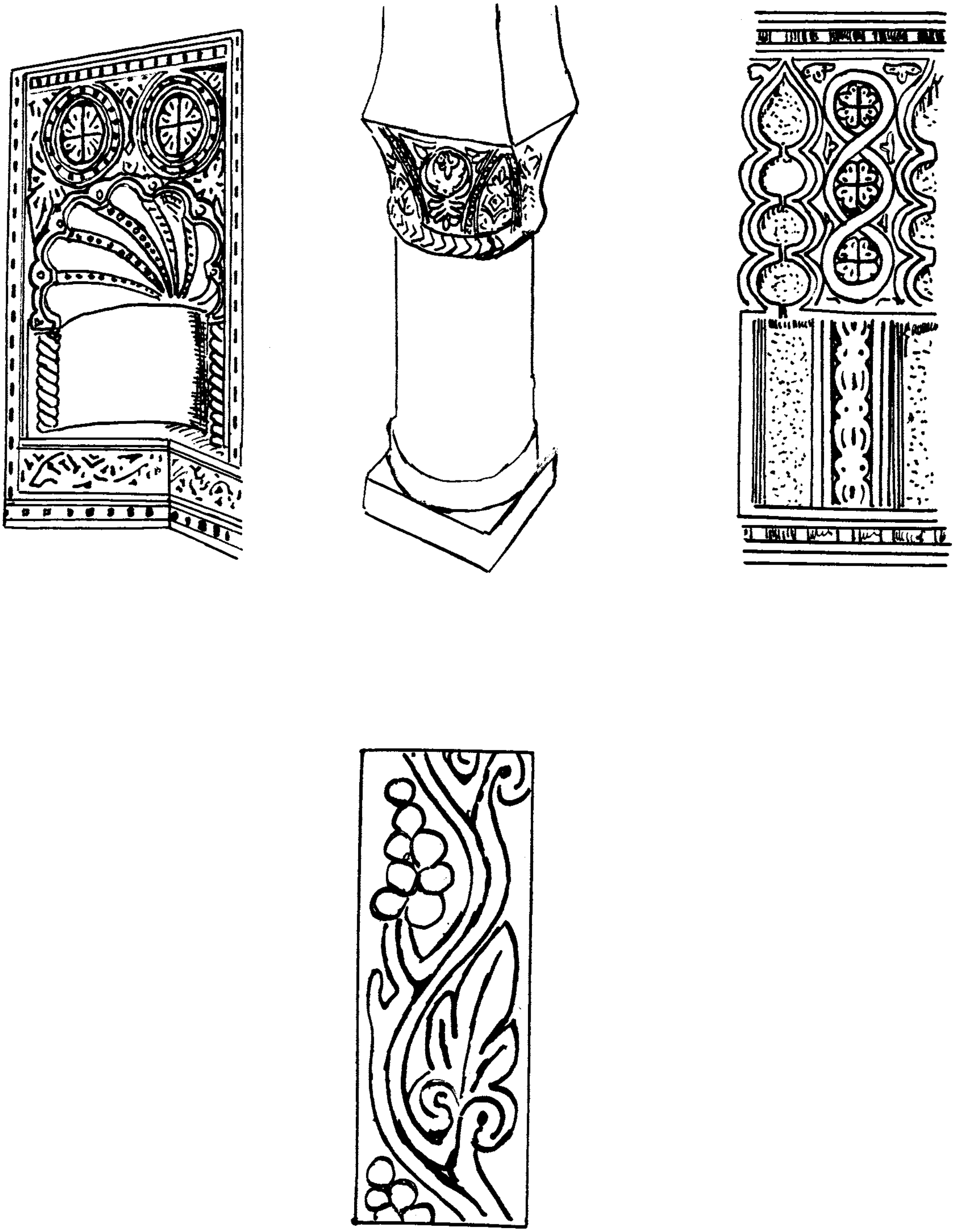
كان المسجد عبارة عن بيت فيه اثنتا عشرة دعامة اسطوانية الشكل مرتبة عـــلى ثلاثة صفوف تشكل خمسة أساكيب واربع بلاطات ٠ وكانت عشرون قبة مربعـــة القاعدة تعلو بيت الصلاة ٠

القصر ذو أربع وثلاثين حجرة (شكل 5) ٠

لم تتم حفرية هذا القصر وندخل فى القسم الذى اكتشف ووصل تصميمه الينـــا من باب مفتوح من جهة الشرق مزين بثلاث أقواس حدوية الشكل تعتمد على أربع سوارى اسطوانية الشكل تعلوها تيجان على شكل جذع هرم زواياه مقطوعة على شكل مثلثات منحنية الاضلاع مزينة بعناصر نباتية وهندسية ٠

ويؤدى هذا الباب الجميل الى فناء طوله 7 م وعرضه 5 م نجد حوله أربع حجـــر رئيسية ٠ وأكبر حجرة فى هذا البناء هى الحجرة (1) التى تقع جنوبى الفناء ٠ فهى على شكل مستطيل طوله 8 م وعرضه 2،10 م مزين بمشكوات على شكل ثلاثة أربـــاع دائرة فى الزوايا وعلى شكل نصف دائرة فى وسط الجدارين الصغيرين وكانت هـــذه

(4) سنتحدث عن هذه الابحاث الاثرية فى ملتقى ورقلة ان شاء الله ٠



شكل ٤٠ ـ زخرفة صدراتة

المشكوات مكللة بنصف قبيبة على شكل مدفة مزينة بالجص المنقوش · ونجد شمالى شرقى الصحن الحجرة (ب) وهى على شكل مستطيل طوله 4،5 م وعرضه 2،10 م مزين بسبع مشكوات : أربع مشكوات فعرها على شكل ثلاثة أرباع دائرة فى زوايا الحجرة ومشكاتان نصف دائرية القعر فى وسط الضلعين الشرقى والغربى ومشكاة مسطحة القعر مزينة بالجص المنقوش فى وسط الجدار الشمالى · وعلى يسار الحجرة (ب) نجد الحجرة (ج) فهى مربعة الشكل ويبلغ طول ضلعها 2 م ونجد فيها أربع أقواس : قوسان عمياءان فى الجدارين الشمالى والشرقى وقوسان عادبتان من جهة الجنوب والغرب ·

ان هذه الحجرة احتفظت بزخرفة جدارها الشرقى التى تحتوى علـــى حنية بارزة مزينة بالجص المنقوش ومشكاة مسطحة القعر يبلغ ارتفاعها 3 م وعرضها 1،60 م مزخرفة هى الاخرى بالواح من الجص المنقوش ·

وبجانب الحجر (ج) نجد الحجرة (د) جدرانها بدون زخرفة اما الدار رقم 5 أو دار المطامير (شكل 6) فتقع قرب السور الغربى للمدينة ولها جدران مبنية بالحجر الملبس بالجبس المحلى · فتشتمل هذه الدار على فناء واسع على يمينه وعلى يساره حجر عديدة ·

على الجهة اليمنى نجد حجرة طولها 7 م وعرضها 2،50 م فى طرفيها ايوانان ، ايوان شمالى وايوان جنوبى وندخل فى هذه الحجرة وهى الحجرة (ب) من باب عرضه 4 م مزين بثلاثة أقواس حدوية الشكل تعتمد على سوارى أنبقة الى الغاية · ونلاحظ ان مستوى أرضية الايوانين مرتفع شيئا ما بالنسبة الى مستوى أرضية وسط الحجرة ·

وفى وسط الجدار الشرقى للحجرة (ب) نجد بابا عرضه 1 م يؤدى الى حجـــرة ثانية ، الحجرة (1) التى تبلغ طولها 7 م وعرضها 2،10 م · وللحجرة (1) ايوانان مثل الحجرة (ب) ولكنها تختلف عنها بالقوسين اللتين تقسمانها الى ثلاثة أقسام · وتعتمد هتان القوسان على أربع سوارى : ساريتان موضوعتان على طـــرف الايوان الشمالى وساريتان موضوعتان على طرف الايوان الجنوبى ·

ومن بين الحجر الموجودة على يسار الفناء ، حجـــرة تستحق اهتمامنا الا وهـــى الحجرة (ز) لان مارقريت فان برشم وجدت بها مطمورتين كانوا يضعون فيهما التمور ·

هذه هى المبانى الرئيسية التى عثر عليها الآثاريون الذين أجروا حفريات بصدراتة وكما لاحظناه هذه المبانى تختلف عن المبانى التى اكتشفت بتاهرت بالزخرفة الانيقة التى تـزينها ٠

وتحتوى هذه الزخرفة على عناصر معمارية من سوارى وتيجان وأقواس مختلفـة النوع ومشكوات وعلى عناصر نباتية من غصون ملتوية وأوراق الكرم وعناقيد العنب وعلى عناصر هندسية من مربعات ولآلىء ودوائر ـ ودوائر مفصصة وورود وزهـور مستديرة ، أو على شكل الاقحوان ، ومضرسات (شكل 7) ٠

وهكذا الفن الرستمى الذى كان بسيطا بتاهرت تطور بصدراتة وأصبح يحـل مكانا ممتازا فى تاريخ الفن الاسلامى المغربىط ٠

لمحات من دور الدولة الرستمية في ميادين الحضارة والفكر لبعض الباحثين القدامى والمتأخرين

المهدى البو عبدلى
نائب رئيس المجلس
الاسلامى الاعلى - الجزائر



تكونت دولة بنى رستم فى تاهرت حوالى سنة 160 هـ 776 م . وكانت هى الدولة الثانية التى تكونت بالجزائر بعد الفتح الاسلامى .

اذ كانت الدولة الاولى التى سبقتها ، هى دولة بنى خزر المغراويين الزناتيين ، الذين كانت لهم امارة قبل الفتح ، ما بين سهول مليانة وتلمسان ، ولما أسلم زعيمهم على يد الخليفة عثمان من عليه الخليفة ، وأقره على حكم امارته كما هو معروف عند جل المؤرخين .

اما دولة بنى رستم التى تكونت بتاهرت ، فكانت دولة مستقلة عن الخلافة ، ومتمردة عليها ، وهى تختلف عن دولة بنى خزر من عدة نواحى ، فدولة بنى خزر

كانت تجمع بين افرادها عصبية القبيلة ، ودولة بنى رستم كانت تتكون من قبائل شتى بربرية وعربية وفارسية ، وان كان اكثرها من العنصر البربرى ، الذى اعتنق فكرتها بمجرد وصول دعاتها ، وكانت كل هذه العناصر التى تكونت منها الدولة الرستمية ، تجمع بينها فكرة عقائدية وهى فكرة الخارجية الاباضية ، التى ظهرت بعد واقعة صفين ، المشهورة فى تاريخ الاسلام . وقبل ان ندخل فى صميم موضوع بحثنا نتعرض بايجاز لتاريخ ظهور المذهب الخارجى ، حسبما ذهب اليه جل مؤرخى المذاهب الاسلامية ، ظهر « الخوارج » فى واقعة صفين ، التى انبثقت عنها الدعوة الى التحكيم ، وكان الدعاة الى التحكيم فى طليعة من اتهموا الراضين به بالكفر — ان لم يتوبوا — واتخذوا شعارا ، كتب له الخلود وهو « لا حكم الا لله » .

ان فكرة الخوارج وفرقهم كالاباضية والصفرية وغيرهما ، قتلت بحثا ، وبطبيعة الحال ، احدثت هزة فى البلاد الاسلامية ، شرقا وغربا . واعتنى بها الباحثون ومؤرخو المذاهب على اختلاف مللهم ونحلهم واجناسهم ، ولا زال معينها لم ينضب بعد ، ولا نبالغ ان قلنا ان هذا المذهب ، رغم قلة إتباعه ، حظى باعتناء كبار قادة الفكر العالميين مسلمين واجانب ، ومن بينهم المستشرقون ، الذين خصصوه بتآليف قيمة ، حللوا فيها المذهب الاباضى ، والمراحل التى اجتازها بالمشرق ، ثم بالمغرب ، كما تعرضوا لتطور المذهب ، بعد ان اطاح الملوك الفاطميون بالدولة الرستمية ، وقضوا على مملكتهم بتاهرت سنة 296 هـ .

والذى سهل مهمة هؤلاء الباحثين من المستشرقين هو اكتشافهم لمصادر هامة ، اعتنى فيها مؤلفوها بتسجيل تاريخ المذهب الاباضى ، وتاريخ حياة مجتمعه منذ ظهوره ، ثم مراحل تطوره بالمشرق والمغرب ، فسجلوا فيها ما يعبر عنه فى زماننا هذا « بالحياة اليومية » وهذا ما نتعرض له بتفصيل فى هذه الدراسة التى هى كما يدل عليها عنوانها : « التعريف بالدولة الرستمية » ، ثم الدور الذى قامت به فى مجالات الحضارة والفكر ، عملا بالقول المأثور « ما لا يدرك كله ، لا يترك جله » .

ان جل مصادر تاريخ الدولة الرستمية كما ذكرنا معروف لدى الباحثين ، والكثير منه اكتشف بوادى مزاب ، وهذا من الادلة على ان الدولة الرستمية ، ولو فقدت كيانها كدولة مستقلة منذ احد عشر قرنا ، فانها أورثت جاليتها التى التجأت الى الصحراء عبء الامانة التى تجلت فى المحافظة على الشعائر الدينية ومبادىء المذهب الاباضى ، ثم التراث الذى يرونه جزءا لا يتجزؤ عن سيادة الدولة ونظام حكمها ، اذ كانت الدولة لا ترتبط بالمحافظة على قطعة التراب ، بل كانت الدولة نفسها فى خدمة المجتمع ، المرتبط بمذهبه العقائدى ، وان فقدت الدولة كيانها ، فجماعة المسلمين مطالبون ، بمواصلة أعمالها من حيث تطبيق تعاليم المذهب ، وما امكنهم من تطبيق نظام الحكم فى مجالات الاقتصاد والقضاء والسياسية ... الخ . كما هو معروف عند دارسى المذهب الاباضى ، ولننتقل الى الحديث عن التراث الذى احتفظ به الاباضيون .

كان الكتاب الاول من كتب التراث الاباضى هو « تاريخ الائمة الاباضية » لابن الصغير التاهرتى الذى وصلنا على طريق المستشرق الفرنسى موتيلانسكى Motylinski المدير – فى عهده – بالمدرسة الرسمية بقسنطينة ، فقد نشر تلخيصا منه سنة 1885م. ثم عززه بنشر النص الكامل بالعربية مع ترجمته الى الفرنسية ، وذلك فى المؤتمر الدولى الرابع عشر للمستشرقين ، المنعقد فى مدينة الجزائر سنة 1905 .

واضاف الى نشر النص تعاليق مفيدة من بينها ترجمة المؤلف ، واثبت ان هذا التأليف لا توجد منه الا نسخة واحدة ببلاد مزاب . كما ان تعاليق موتيلانسكى تشمل تاريخ ابتداء ظهور المذهب الاباضى بالمشرق ، والظروف التى انتقل فيها الى المغرب ، والاحداث السياسية التى سبقت تأسيس الدولة الرستمية بتاهرت .

وقد جمع ابن الصغير فى تاليفه «تاريخ الائمة الاباضية» ابتداء من تولية عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة ، وانهاه بولاية ابى حاتم يوسف بن الامام أبى اليقظان الذى عزل سنة 281 هـ . ويظهر ان ابن الصغير أتم تأليفه سنة 290 هـ ، اى قبل سقوط الدولة الرستمية بست سنوات .

وميزة التاليف ان كاتبه سجل كثيرا من الاحداث التى شاهدها او استقى رواياتها من عناصر مختلفة من سكان المملكة غير مقيد بالعواطف المذهبية ·

والمصدر الثانى من كتب تراث الدولة الرستمية هو «كتاب السيرة واخبار الائمة» لأبى زكرياء يحيى بن ابى بكر السدراتى الورثلانى المتوفى سنة 471 هـ ـ1078 م · وقد ترجم هذاالتاليف المستشرق الفرنسى ايميل ماسكرى Emile Masqueray سنة 1878 م ، ثم ظهرت منه نسخ اخرى حوالى سنة 1930 فاختار المستشرق الفرنسى

روجير Roger Le Tourneau اختار اصحها وترجم ثلثها الى الفرنسية ، ومهد لترجمته تقديما لخص فيه محتوى التاليف ، قال فيه : «ان هذا التاليف يذكر فيه صاحبه تاريخ انتشار المذهب الاباضى بالمغرب ، ومن قام بهذا النقل ونشر الدعوة وحصر ذلك فى خمسة اشخاص ذكرها باسمائها ، كان من بين هؤلاء الاشخاص ابو الخطاب عبد الله ابن السمح المعافرى (العربى) وعبد الرحمن بن رستم (الفارسى) · ثم يتعرض لسند صاحب التاليف ابى زكرياء يحيى بن ابى بكر السدراتى فى روايته التى تتصل بالامام افلح الذى يروى عن ابيه عبد الوهاب وهو يروى بدوره عن ابيه الامام عبد الرحمن بن رستم ـ مؤسس الدولة ـ الذى يتصل نسبه الى الملك الفارسى سابور ذى الاكتاف ، ثم يختم المؤلف فصله بترجمة حياة عبد الرحمن بن رستم بتدقيق وتفصيل ، كما ترجم بقية الافراد الخمسة واحدا واحدا · وهؤلاء الافراد ـ كما ذكرنا ـ هم دعائم نشر المذهب الاباضى ببلاد المغرب » ·

كما نجد من جملة مصادر التراث الاباضى التى وصلتنا كتاب « طبقات المشائخ » لابى العباس أحمد الدرجينى الذى ألفه بعد سنة 626 هـ ، ثم كتاب «السير» لابى العباس احمد الشماخى المتوفى سنة 928 هـ ·

يرى مؤرخو المذهب الاباضى من المستشرقين ان كتاب «السير» للشماخى هو احسن المصادر ، اذ اعتنى به صاحبه اعتناء دل على تعمقه فى البحث والنزاهة ، استقى الشماخى مصادره فيه من التآليف الاباضية وغير الاباضية ، وقد حظى هذا التاليف باهتمام المستشرق البولندى طادويز ليفيسكى Tadeuz Lewicki الاستاذ بجامعة

كراكوفيا Cracovie (Pologne) ، والمستشرق ليفيسكى هذا من ابرز المتخصصين فى تاريخ الصحراء بصفة عامة ، وتاريخ الاباضية بصفة خاصة ، ولهذا كان تحقيقه لتأليف الشماخى تحقيقا علميا جامعا لكل ما عرف عن تاريخ المذهب الاباضي ورجاله ، ولأهمية التاليف الذى علاوة على ما ذكرناه ، استوعب فيه صاحبه كل ما سبقه من التآليف ـ الموجودة والمندثرة ـ ونظرا لعدم انتشار تآليف المذهب الاباضى بالمكتبة العربية ، ومعظم ما برز الى الوجود منه فقد أو نشر فى بعض سجلات المؤتمرات أو المجلات المتخصصة فى هذه البحوث وهى محدودة النشر ، رأيت تلخيص تقريظ المستشرق ليفيسكى لتأليف الشماخى ليأخذ القارىء ـ الذى لم يسبق له اطلاع على تاريخ المذهب الاباضى بتفاصيله ـ صورة ولو مصغرة عن تاريخ الدولة الرستمية والمذهب الاباضى .

تعرض ليفيسكى فى تقريظه الى ترجمة المؤلف ابى العباس احمد بن عثمان الشماخى الذى ينتمى الى اسرة علمية ، توارث افرادها العلم قرونا بجبل نفوسة ، وامتاز الشماخى بسعة الافق ، وحرية الفكر ، حيث لم يقتصر فى مصادره على المصادر الاباضية فقط ، بل كثيرا ما اعتمد المصادر غير الاباضية ، ظهر تاليف «السير» هذا بجبل نفوسة (ليبيا) لاول مرة ، ووصلت منه نسخة الى اوروبا حوالى سنة 1860 ، على طريق الرحالة الفرنسى هنرى دوقيرى Henri Duveyrier وبعد سنوات من وصولها ، امكن للباحث ماسكرى Masqueray ان يحصل على نسخ منها بمزاب ونفوسة ، فترجم بعض الفصول الاولى منها تشمل تاريخ حياة الاباضيين بالمشرق ، وذلك فى تعليقه على ترجمة «كتاب السيرة واخبار الايمة» لابى زكرياء يحيى الورثلانى الذى ترجمه وطبعه بالجزائر سنة 1878 م .

وفى سنة 1301 هـ . ظهرت طبعة تأليف الشماخى (السير » بمصر قام بها الشيخ سليمان بن مسعود النفوسى ، الذى كان من سكان مدينة قسنطينة ، ثم اهتم بهذا التأليف الاستاذ ليفيسكى البولدى ، فخصصه بدراسة علمية نادرة المثال، نشرها فى مجلة البحوث الاسلامية ـ سنة 1934 ـ وفيما يلى فقرات نقلناها من هذه الدراسة

أو التقريظ ، قال المستشرق ليفيسكى بعد ان تعرض باسهاب لترجمة الشماخى وأسرته قال : ان « كتاب السير » عبارة عن مجموع لتراجم المشائخ الاباضية ، ابتداء من ظهور المذهب الاباضى الى عهد المؤلف الشماخى (القرن العاشر الهجرى) ٠

فهذه التراجم هى التى ركز عليها المؤلف كتابه ، ومن خلال هذه التراجم الثرية بالتفاصيل التاريخية التى وان كانت غير مرتبة ، فهى تفيدنا بحالة البلاد الاسلامية من أول عهدها ، كميلاد أو ظهور الخوارج ، وانتفاضات الاباضية وتمرداتهم ، وفى الاخير ، نشاطات الحركات الاباضية فى افريقيا الشمالية ، تلك الحركات التى نشأت عنها بالمغرب الاوسط دولة الائمة الرستميين القوية ، التى يشمل تاريخها بتمامه « كتاب السير » ، كما يشمل الكتاب أيضا عدة تفاصيل ، تصور لنا الحياة الاجتماعية لسكان البربر ، وعوائدهم ، تشملها تراجم المشائخ الاباضيين من افريقيا الشمالية الذين ينتمون فى أغلبهم الى الجنس البربرى ٠

ثم واصل المستشرق ليفيسكى تقريظه بقوله « ان المؤلف ـ أى الشماخى ـ سلك فى تأليفه سلوكا منظما لم يقتصر فيه على ذكر الاحداث المنقولة من الكتاب المتقدمين ، بل كان يقارنها مع غيرها ، ويستنتج المختار منها ، كما كان يذكر دائما المصادر التى اطلع عليها واعتمدها ، ولهذا أطلعنا على فقرات عديدة من تآليف قديمة ، يرجع عهدها الى أواخر القرن الاول ، والقرن الثانى من الهجرة » ٠

ثم يواصل حديثه فيقول : « ونظرا لظهور فهرس « كتاب السير » الـــذى نشر (يشير بهذا الى الفهرس الذى نشره موتيلانسكى Motylinski ـ المتقدم الذكر ـ سنة 1885) فاننى اقتصر على ذكر محتوى التأليف الذى يمكننا ان نقسم الحديث عنه الى قسمين : القسم الاول يشمل تاريخ الاباضية ، وبدايته بالمشرق (ص 1 ــ 123) ٠

والقسم الثانى وهو الاهـم (ص 123 ــ 577) نستعرض فيه مراحل الاباضية بالمغرب ، فالقسم الاول ذكر فيه حياة النبى (صلى الله عليه وسلم) (ص 1 ــ 16) ،

وحياة الخلفاء الاربعة وبداية الحركة الاباضية بعد واقعة صفين ونهروان (ص 16 ـ 53) ثم يذكر تراجم الائمة والمشائخ الاباضيين بالعراق والبصرة وعمان وحضرموت حتى نهاية القرن الثانى الهجرى (ص 53 ـ 123) ٠

اما القسم الثانى من « كتاب السير » (ص 123 ـ 138) فقد استعرض فيه المؤلف تاريخ دخول الاباضيين فى افريقيا الصغرى والائمة الاباضيين فى هذه البلاد ، ثم يحدثنا المؤلف عن دولة بنى رستم ويمزج حديثة بكثير من التراجم (ص 136 ـ 272) ، ويختم حديثه بتراجم المشائخ بالمغرب (ص 272 ـ 577) ٠

كما نقل المؤلف بعض الوثائق والرسائل القديمة جدا مثل رسالة الامام عبد الوهاب الى مشائخ نفوسة (ص 180 ـ 181) ، التى يظهر انها نقلت من مجموع « اجوبة الائمة » ثم يتعرض المستشرق ليفيسكى الى المصادر التى اعتمدها الشماخى فى تأليفه المذكور « السير » فيقول ان المؤلف ولو كانت معظم مصادره اباضية ، فانه اعتمد أيضا المصادر الغير الاباضية، وبدأ باستعراض المصادر الغير الاباضية فذكرها حسب الترتيب التالى :

1 ـ ان اقدم مصدر غير اباضى اعتمده الشماخى ، هو تاليف منسوب الى شخص يدعى ابن الصغير ، فقد ذكر هذا التاليف عند حديثه على تاريخ الرستميين (ص 192 ـ 221) وتأليف ابن الصغير هذا ألف فى تاهرت حوالى سنة 290 هـ ٠ وقد نشره موتيلانسكى الذى اعطى بسطة عن التاليف وصاحبه ٠

2 ـ المصدر الثانى الغير الاباضى لكتاب الشماخى ، هو لمؤلف شهير : أبو الحسن على حسين المسعودى المتوفى سنة 345 هـ ـ 956 م ٠ نقل عنه الشماخى عدة مرات عند تعرضه لتاريخ الخلفاء الاوائل (ص 10 ـ 31 ـ 32 ـ 39 ـ 40 ـ 59) ٠

3 ـ المصدر الثالث الغير الاباضى الذى اعتمده الشماخى هو تاليف ابن الرقيق ، أى أبو اسحاق ابراهيم ابن القاسم ابن الرقيق المؤرخ العربى فى القرن الرابع الهجرى ، (المتوفى سنة 383 هـ ، ـ 993 م) ٠

كان ابن الرقيق يعيش فى مدينة القيروان فى عهد الدولة الزيرية (زيرى بن مناد الصنهاجى) حيث ألف ديوان شعر ، وتاريخ فى نسب البربر ، وتاريـــخ افريقيا الشمالية ، ان هذا التأليف الاخير الذى كتبه بعد سنة 377 هـ • ـ 987 م • كان مصدرا للشماخى فى تأليفه « السير » اذ ذكر فيه تاريخ الاباضية فى افريقيا (ومن ذلك غزو القيروان لابى الخطاب المعافرى الامام الاول للاباضية) (ص 127) وقضية ابن طولون (ص 168) •

وبعد انتهائه من ذكر المصادر الغير الاباضية ، انتقل الى عرض المصادر الاباضية فقال عنها : « اما فيما يخص المصادر التى اعتمدها الشماخى فى « كتاب السير » فاقدمها وصلنا من مؤلفين شرقيين هما من البصرة وعمان ، أولهما « كتاب النهروان » المذكور فى تأليف الشماخى مرارا (ص 51 ـ 55) والمتعلق بقضية التحكيم بعـــد واقعة صفين ، ومعركة النهروان •

وبعد ان يذكر ليفيسكى سند صاحب « كتاب النهروان » ينتقل الى المصدر الاباضى الثانى فيقول :

« ومن مصدر قريب العهد « للسير » كتاب « المسند » للربيع بن حبيب ـ ترجمه الدرجينى فى طبقاته ـ كان الربيع هذا يعيش فى أواسط القرن الثانى الهجرى ، ومسكنه بمدينة البصرة ، ثم انتقل الى مكة ، كان الربيع هذا محترما عند مواطنيه الى حد التقديس ، ويعد عندهم من اكابر أئمة المذهب ، وتأتى منزلته بعد منزلة استاذه الامام عبيدة مسلم بن أبى كريمة التميمى ، مباشرة ، يحتوى كتاب « السند » على ثلاثة اجزاء الا انه كان غير مرتب الى ان تولى ترتيبه أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم السدراتى (الذى كان يعيش فى مدينة ورقلا فى النصف الثانى من القرن الرابـــع الهجـــرى) •

ويظهر ان الشماخى الذى يذكر هذا التأليف فى صفحات 104 ـ 113 ـ 117 كان من جملة مصادره ، وقد اطلع على النسخة المذكورة اى التى رتبها يوسف بن ابراهيم السدراتى المذكور لا النسخة الاصلية •

(6) ان فصول «كتاب السير» المتعلقة بتاريخ الاباضية فى المشرق ، وتراجم مشائخ البصرة ، عمان ، حضرموت الخ ، اعتمد فيها الشماخى على «كتاب ابى سفيان» حيث ذكره مرارا (ص 67 ـ 117) . ان صاحب هذا التاليف يدعى ابو سفيان محبوب بن الراحل ، الذى كان حيا فى النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى ، وذلك فى أواخر عهد الامام الاباضى عبد الوهاب بتاهرت ، وأسرة أبى سفيان المذكور تنتمى الى قبيلة قيس العربية ، وعند ثورة (شبيب) الاباضى سنة 77 هـ . كانت أسرة أبى سفيان تسكن مدينة البصرة ، فى حى الازدى ثم يذكر الشماخى ان من جملة مصادر كتاب « أبى سفيان » أبو نوح صالح الدهان ، عالم اباضى من علماء النصف الاول من القرن الثانى الهجرى ، وهو من معاصرى ابى سفيان الا انه أسن منه ، وفى نفس العهد الذى ظهر فيه تأليف ابى سفيان المذكور ، ظهر تأليف آخر يعرف « بكتاب الحجة على الخلق فى معرفة الحق » لابى صفرة عبد الملك بن صفوة شيخ من مشائخ النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى .

8 ـ ومن مصادر الشماخى الاباضية كتاب ابن سلام بن عمر الاباضى الذى كان يعيش فى منتصف القرن الثالث الهجرى (وقد ذكره الشماخى فى (ص : 133 ـ 135 141 ـ 142 ـ 161 ـ 162 ـ 260 ـ 262) .

كان صاحب هذا التاليف (أى ابن سلام) من سكان افريقيا ، سكن مدينة توزر قبل سنة 240 هـ . وقد ألف كتابه بعد سنة 260 هـ . اذ ذكر لنا فى تاليفه احداثا وقعت فى تلك السنة ـ أى سنة 260 هـ ـ .

كما تحدث ابن سلام فى تاليفه عن المشائخ الاباضية من شمال افريقيا مثل ابى صالح النفوسى وابن نصر النفوسى معاصر المهدى النفوسى .

9 ـ ثم ظهر تاليف آخر من افريقيا الشمالية اعتمده الشماخى ، وهو تاليف الشيخ ابى الربيع سليمان بن يخلف المتوفى سنة 471 هـ . وهو مدفون بورقلة ، واسم التاليف « كتاب فى الكلام وفى أصول الفقه » وقد نقل منه الشماخى عدة فقرات (ص : 176 ـ 215 ـ 226 ـ 227 ـ 231 ـ 237 ـ 239 ـ 263 ـ 353 ـ 433) .

وقد طبع هذا التأليف بتوس سنة 1321 ·

10 ـ ثم قال المستشرق ليفيسكي : « انني لم اشتغل بكتاب ابى زكرياء يحيى ابن أبى بكر الورقلانى المصدر المختار للشماخى فيما يخص الدولة الرستمية التى ذكـرها فى صفحـات (128 ـ 135 ـ 143 ـ 148 ـ 151 ـ 155 ـ 161 ـ 164 ـ 188 ـ 192 ـ 193 ـ 214 ـ 221 ـ 229 ـ 262 ـ 268 ـ 270 ـ 272 ـ 279 ـ 282 ـ 287 ـ 319 ـ 387 ـ 406) ·

وذلك انه يمكن الاطلاع على ما يتعلق بهذا التأليف ، من مجموع مقالات موتيلانسكى وماسكورى (Masqueray - Motylinski) (وهذا الاخير ترجم تأليف الورقلانى ولو كانت ترجمته رديئة) ·

ـ وقد تقدم لنا فى أول هذه الدراسة ، ان تأليف الورقلانى ، اعيدت ترجمته ، على ضوء النسخ التى اكتشفت بعد النسخة التى ترجمها ماسكورى - Masqueray ، وتولى الترجمة الاخيرة المستشرق الفرنسى روجير لوتورنو Roger Le Tourneau، ترجم ثلثها ، وواصل الترجمة الاستاذ ادريس التونسى ·

11 ـ ثم ذكر ليفيسكى انه بفضل «كتاب السير» أمكن للباحثين والمؤرخين ان يطلعوا على آثار تاريخية هامة ، منها « كتاب السؤالات » لعالم من علماء القـرن السادس الهجرى ، وهو عثمان بن خليفة السوفى الاباضى (ص : 486) وقد استدل به الشماخى فى صفحات (212 ـ 262 ـ 465 ـ 466 ـ 486 ـ 552 ـ 533) ·

12 ـ كما ذكر الشماخى أثرا آخر ذا أهمية عظمى للمعنيين بتراجم مشائخ جبل نفوسة ، وهذا الاثر هو « كتاب سير مشائخ نفوسة ، ويعرف أيضا « بالسـير » ، احتفظ لنا الشماخى بقطع هامة من هذه الكتاب فى تأليفه من (ص : 143 الى 344) ·

ويظهر ان صاحب التأليف من جبل نفوسة ، واسمه مقرين بن محمد البغطورى ، وقد ألفه سنة 599 هـ · ومحتوى هذا التأليف يظهر من آثار استاذ البغطورى ، وهو

الشيخ أبو محمد عبد الله بن محمد بن مسعود الذى كان مشهورا بتضلعه فى علم التراجم ، وقبل ان يختم ليفيسكى تقريظه قال : « وزيادة على المؤلفين المذكورين الذين اعتمدهم الشماخى يمكننا ان نضيف اليهم « كتاب الطبقات » للدرجينى ، الذى ألف بعد سنة 626 هـ · ثم ختم تقريظه لتاليف الشماخى بقوله : « والذى يهمنا ان نلفت اليه انتباه القراء ، ان أسلوب الشماخى فى تاليفه ، أسلوب راق بالنسبة لبقيـــة التآليف الاباضية بافريقيا الشمالية ما عدا « الطبقات » للدرجينى ، ثم قال : « ويظهر ان المؤلف ـ أى الشماخى ـ كان يجد صعوبة عندما ينقل عن التآليف الاباضية ، التى يصلح اخطاءها فى الرسم ، والاسلوب ، وهى طريقة لا تعين على الاستفادة مـن النصوص ، وكثيرا ما تتسبب فى سوء الفهم » اهـ · تقريظ المستشرق لويكى ·

نكتفى بهذه النماذج من الباحثين الذين كان جلهم مستشرقين ، وقد جمعوا تراث الدولة الرستمية وحققوه تحقيقا علميا دقيقا ، موضوعيا ، نزيها ، ولننتقل الى ذكر جوانب من دور الدولة الرستمية فى المجالات الحضارية والفكرية ، كما يدل عليه عنوان الدراسة ، ففى الميدان الحضارى ، نجد آثار الابنية العامة والخاصة بمدينة تاهرت ـ عاصمة الدولة ـ وقد استخرجها الباحثون من تاليف ابن الصغير بتفصيل كمـا تعرض لها بعض الاثريين المتأخرين مثل جورج مارسى الاستاذ بجامعة الجزائر فى عهده ، والمتخصص فى الفن المعمارى الاسلامى ، كما تعرض الاثريون الى آثار فنهم المعمارى الذى اكتشفوه بسدراته ، التى التجأوا اليها بعد سقوط الدولة الرستمية بتاهرت ، وبعض ما تبقى من الآثار القديمة بغرداية وبقية القصور المحاطة بها ، التى راعوا فيها المحافظة على التقاليد والعوائد وما يتطلبه الامن العام والخاص ، وقـــد تعرض كثير من الاختصاصيين للفن المعمارى بمزاب قديما وحديثا ، ومنها كتاب خاص بالفن المعمارى بغرداية ، سماه صاحبه « الحضارة المعمارية فى مزاب » ومؤلفه هو الكاتب مارسيل مرسى Marcel Mercier ، الا ان نشاطهم الجوهرى فى الميدان الحضارى الذى خلده لهم التاريخ ، يظهر جليا فى التجارة ، وربط الصلة بين السودان وبلاد الشمال الافريقى ، اجمع المؤرخون والرحالون انهم كانت لهم مراكز تجارية هامة فى

اوداغست عاصمة الصحراء الشهيرة فى القرن الرابع الهجرى ، التى اشتهرت بمناجمها الذهبية والتى كانت ترد اليها قوافل المشرق والمغرب ، وقد ذكر البكرى عند ما وصف اوداغست ان معظم تجارها كانوا من قبائل الشمال التى كان يستوطنها الاباضيون ، وفى ذلك قال في وصفه لاوداغست : « هى مدينة كبيرة وبها آبار عذبة ، والبقر والغنم أكثر شيء عندهم ، يشترى بالمثقال الواحد عشرة اكبش واكثر ، وعسلها أيضا كثير ، يأتيها من بلاد السودان · وهم ارباب نعم جزلة ، وأموال جليلة ، واسواقها عامرة الدهر كله ، وتبايعهم بالتبر ، وليست عندهم فضة ، وبها مبان حسنة ، ومنازل رفيعة ·

ـ ثم يذكر سكانها فيقول : « وسكانها أهل افريقيا ، وبرنجاتة ، ونفوسة ، ولواتة وزناتة ، ونفزاوة هؤلاء اكثرهم ، وبها نبذ من سائر الامصار » اهـ ·

(ولنعلم ان برنجاتة ، ونفوسة ، ولواتة ، ونفزاوة اباضيون) ·

وفى هذا الموضوع ـ أى النشاط التجارى للاباضيين بالصحراء والسودان ـ قدم المستشرق ليفيسكى دراسة عامة لمؤتمر المستشرقين المنعقد بموسكو سنة 1960 تحت عنوان « تجار ودعاة اباضيون فى السودان الغربى والاوسط من القرن الثامن الى القرن الثانى عشر ميلادى » وقد علق على هذه الدراسة الاستاذ كنار الفرنسى ـ من اساتذة جامعة الجزائر فى عهده ـ ونشر تعليقه فى المجلة الافريقية (عدد 466 ـ 467 سنة 1961) ، فقال بعد ان عرف بصاحب الدراسة ليفيسكى وتخصصه فى البحوث الصحراوية والاباضية قال : «ان المؤلف (أى ليفيسكى) اعتمد على ما كتبه فى الموضوع الاستاذ شاخت الالمانى » Schacht ثم قال : « ان من جملة تأثير الاباضيين فى السودان ما عثر عليه فى الفن المعمارى الدينى ، الذى هو شبيه بالفن المعمارى الموجود فى الجنوب التونسى وبلاد مزاب» ، ثم قال : « كما ذهب ـ ليفيسكى ـ الى ان الاباضيين نشروا الاسلام عند السود ، معتمدا فى ذلك على ما ذكره الرحالة ابن بطوطة وكذلك الشماخى ، ويؤيد هذا الرأى ما نجده فى تأليف البكرى ، كما اشار الى ذلك بعض المؤلفين الاباضيين كابن الصغير وابى زكرياء الورقلانى ، والدرجينى ،

والشماخى ، الذين اثبتوا العلائق التجارية التى كانت بين سكان افريقيا الشمالية الاباضيين والسودان من القرن الثامن الى القرن الثانى عشر الميلادى » .

وقد تعرض المستشرق ليفيسكى الى محطات القوافل التجارية التى كانت تربط بين مدن الساحل الافريقى والسودان ، وكانت محطة ورقلا من أهمها » اهـ .

واصل الاباضيون نشاطاتهم فى الميدان الاقتصادى ـ قوة وضعفا ـ عبر التاريخ الى العهد التركى ، حيث ذكر الرحالة الفرنسى فنتير دو باراديز Venture de Paradis الذى زار الجزائر فى القرن الثامن عشر م . قال : « ان الميزابيين بالجزائر ـ يقصد العاصمة ـ يتمتعون برعاية ولاة الاتراك أكثر مما يتمتع بها العرب ، انهم يديرون المطاحن ، والمخابز ، والحمامات ، وضعيات تربية المواشى .

وكانت لهم تعاضديات تخضع لقوانين خاصة ، ويشرف عليها الامين الذى يرشحونه وتوافق على ترشيحه السلطات ، وهذا الامين هو الذى يتولى قبض المغارم ، وغيرها بحيث انه هو الواسطة بين رعاياه والسلطات » .

ومما يضاف الى نشاطاتهم الاقتصادية احياء الارض الموات ونظام الرى ، والامن العام ، كما ان للمرأة الاباضية دورا مرموقا فى الميدان الفكرى ، اذ هى تساند الرجل فى تربية النشء وتوجيه المرأة ومراقبتها وقد خصصت لهذا الجانب الآنسة قواشوه Goichon كتابا اطلقت عليه اسم « حياة المرأة فى مزاب » وقدمه المستشرق الشهير وليام مارسى أستاذ جامعة باريس فى عهده ، كما قرظه مارسيل مرسى Marcel Mercier المتقدم الذكر ـ أى الذى ألف كتابا فى الفن المعمارى ببلاد مزاب ـ ونشر تعليقه فى « المجلة الافريقية » بعددها المؤرخ فى سنة 1933 ، وهـذه الدراسات أو التقاريظ لا تخلو من اغراض ـ رغم فوائدها ـ اذ كثيرا ما يمزج اصحابها التاريخ بالاساطير .

والخلاصة ، ان الاباضيين امكنهم ان يصارعوا الاهوال والاحداث بحكمة ويقظة ، فحافظوا على تعاليم مذهبهم وسايروا الزمان فى ميادين النشاط الاقتصادى ، فزاحموا

فى التجارة بمدن الشمال التى اخضعها التجار اليهود الذين غزوا العالم ومـن جملته بلاد المسلمين التى وجدوها لقمة سائغة ـ ودورهم فى عهد الاتراك مشهور عند جـل المؤرخين ـ كما ان نظامهم الاجتماعى والدينى مكناهم من اطمئنان نفوسهم على أهلهـم وذويهم ، الذين كانت تلجئهم ظروف الهجرة الى مفارقتهم ، حيث كانت جماعة المسلمين هى التى تتولى رعايتهم ، أى تربية البنين والبنات وتعليمهم ورقابة الاسرة ، والاهتمام بشؤونها ، فى الحياة العامة والخاصة ، ونظام القضاء ، والشرطة ، ولا زال للقضـــاء سيفه الحاد ، الذى يسلطونه على كل من سولت له نفسه الانحراف وعدم الخضـوع للاحكام الصادرة عن القضاء الشرعى ، وكيفما كانت آراء الناس فى هذه النظم ، التى ينسبها البعض الى التعصب ، والعنصرية ، أو الرجعية المتخلفة ، فانها مكنت طائفـة من الطوائف الاسلامية ، ان تجمع بين محاسن الماضى والحاضر وتفرض احترامها عـلى المواطنين الذين يعيشون معهم فى بلاد الشمال ، وقد برهنت هذه الطائفة انها خدمت العلم واللغة العربية بوسائلها الخاصة ومجهودات المواطنين ، فكانت مدارسها الاهلية ونظام الحج ، والتعريب مما خلدها لها التاريخ ٠

ورقلة
من خلال النصوص الأجنبية

د • مولاى بلحميسى
معهد العلوم الاجتماعية
دائرة التاريخ ـ جامعة الجزائر

مقدمة



ان ماضي ورقلة وناحيتها تتضح معالمه من هذه النصوص المستقاة من كتب تاريخ وحضارة وادى ميزاب ومن دراسات اجتماعية ليست دائما فى متناول القراء ولا سيما اذا كانوا من الشباب •

ان كثيرا من الكتاب الاوروبيين والفرنسيين بشكل خاص قد عنوا بالحياة فى صحرائنا منذ قرون ، ولم يفتهم أن يعربوا عن اهتمام خاص بورقلة ـ ان المدينة وواحتها هما من أقدم ما فى الصحراء ، ويبدو أن هيرودوت وصف منظرها (32 ، 2 • 2) وربما عد شعب الغارامانت السكان الاصليين لورقلة •

وهذه المقتطفات المختارة من وثائق مبعثرة أو صعبة المنال ستمكن قراء الاصالة الذين لم يتمرسوا بعد باستخدام اللغة العربية وبشكل خاص اخواننا الذين هم فى الجهة الاخرى من البحر المتوسط أن يتفرقوا على المدينة التى تحتضن فى هذه السنة ملتقى الفكر الاسلامى ·

ورقلة ـ وصف عام حوالى 1862

تعرض المدينة أسوارها الواسعة المستديرة التى نتبين داخلها رغم الانقاض أحياءها الثلاثة الجلية التى تتألف منها ، وكل حى منها يدعى باسم البطن الذى يسكنه · وهذه البطون هى : بنو سيسين ، وبنو وجين ، وبنو ابراهيم · وتتألف من كل واحد من هذه الاحياء مدينة داخل المدينة وتفصله عن الاحياء الاخرى أسوار وأبواب ، وما أكثر ما دوى البارود قديما بين حى وحى · ولم يكن قصرا لسلطان الراسى على ربوة صغيرة الا معقلا أو بالحرى خصبة حصينة · وكان لهذه القصبة المستندة الى سور كبير مدخل شرقى لا يزال يدعى باب السلطان وباب سرى ، وكان فى هذا المعقل كل الترف الذى يسمح لكل ملك لورقلة أن يطالب به ، ومع الاسف لم يبق من حطام هـــذا الملك الا الخراب : مئذنة ضئيلة منتصبة وبضع حجرات هى مباءة للبؤساء ـ الانهج ضيقـــة لا تسمح فى أماكن شتى منها أن يرجع الفارس ادراجه ولو أراد ذلك ، وأغلب البيوت لا طوابق لها · وقد بنيت من اللبن ، وكم منزل زين بابه بزخارف من الجص ونقش عليه آية من القرآن الكريم ·

ولقد لفتت سوق ورقلة انتباهنا · وليست السوق الا عبارة عن مجزرة عرضت فيها اضفاف من اللحم لاشعة الشمس المحرقة · ولحم الابل يباع فيها عموما ·

دور ورقلة فى تجارة افريقية الشمالية مع السودان

كان بجانب الطريق تاهرت ـ سجلماسة ـ غانا طريق آخر يقطع الصحراء مـــن الناحية الشرقية فى عهد الرستميين · وكانت مراحلها : واحة ورقلـــة فى شمـــال الصحراء ومدينة تادمكت التجارية (اليوم أطلال سوق) فى جنوب هذه الصحـــراء

في الشمال الشرقي لمدينة غاو . وهذه الطريق التي نعرف مراحل البريد فيها بفضل الجغرافيين العرب من القرن التاسع الى القرن الثاني عشر كانت تمر على مدن تنس ومليانة والمسيلة كما كانت تمر على كورة الزاب وواحة طبنة وبسكرة متجهة نحو ورقلة التي كان يسكنها طوائف شتى بربرية اباضية وكانت مركزا خطيرا تجاريا وهو - كمنطلق للقوافل المتجهة قديما من افريقية الشمالية الى السودان الغربي - صالح للمقارنة بينه وبين مركز سجلماسة على الطريق التجارية تاهرت - غانا - وحسبما ذهب اليه الادريسي المسافة بين المسيلة وورقلة تقدر بمسيرة اثني عشر يوما بأكملها . ويغلب على الظن أن هذه الطريق كانت تمر على وادي الخير الذي كان ازدهاره متوقفا - من دون ما شك - على التجارة مع السودان التي نفقت حول التجارة الافريقية الشمالية مع السودان : « تسكن في هذه المدينة أسر ثرية وتجار جد أثرياء يقطعون بلاد الزنوج لممارسة التجارة ويتوغلون حتى غانا وفنكاره حيث يستخرجون الذهب الذي يسك من بعد في وارجلان بدمغة هذه المدينة » .

ولا شك في أن علاقات ورقلة التجارية هذه مع السودان الغربي كانت موجودة في القرن التاسع في عهد أئمة تاهرت الرستميين الذين امتد سلطانهم حتى شمل ايامي ورقلة ، أضف الى ذلك أن وارجلان كانت أيضا في ذلك العصر مرحلة على الطريق التي تصل مدينة توزر (في جنوب البلاد التونسية) بسجلماسة .

T. Lewicki : L'Etat nord-africain de Tahert et ses relations avec le Soudan occidental à la fin du VIII[e] et au IX[e] siècles - Cahiers d'Etudes Africaines N° 8, 1962. N° 5/3-535

الخطوط الكبيرة للمملكة الرستمية :

ورقلة - تاهرت تمتد بعيدا نحو الشرق حتى أبواب طرابلس . وثم منطقة ذات خطر هي منطقة ورقلة - لما أضطر آخر امام رستمي يعقوب الى فراق تيهرت هرب توا الى ورقلة . « وصل اليها دون أن يحول شيء بينه وبينها واستقبل فيها كما لو كانت بلده » ، « وغمروه بالاجلال والتعظيم وأكرموا وفادته » .

وقع هذا سنة 909 م . وعند سقوط المملكة الرستمية صارت ورقلة مدة طويلة ملاذا للمخلصين منهم في عاقبة الامر ، ورد في كتاب أبي زكريا : « سير الائمة

وأخبارهم (La Chronique d'Abu Zakaria) تعود الشيخ الاباضى أن يقضى الشتاء فى وادى الخير (الذى تقع ورقلة الواحة فى أقصى جنوبيه) ثم يرجع عبر الصحراء الى بنى ميزاب » ·

عندما صارت ورقلة نفسها بعد زمن طويل غير صالحة للسكنى اجتمع فى وادى ميزاب كل من بقى من المتمسكين بالمذهب الاباضى الجزائرى ·

E. F. Gautier : Le passé de l'Afrique du Nord, p. 305.

مقر آخر للمذهب الخارجى : سدراته

لما استولى جيش كتامة سنة 908 بقيادة أبى عبد الله الداعية الشيعى على العاصمة الرستمية هرب الذين نجوا من المجزرة الى الصحراء ولجأوا الى أحضان سكان ورقلة الاباضيين فى واحة تنتمى حسب الظواهر الى بدو سدراته · وكانوا ضيوفا دوريين من مدينة تيهرت · والمدينة الصحراوية سدراته أو اسدراتن ، كانت فى القرن العاشر عاصمة المذهب الاباضى ريثما تنتقل الجالية الى وادى ميزاب بمسجد ومساكن خاصة جد واسعة اخرجت بشكل غير كامل من رمال سدراته ·

ويظن أن هندسة هذه الابنية وزخارفها المنقوشة تمثل تراث تيهرت الفنى المتبلور على أقل تقدير ــ ولوقت ما ــ فى هذا البلد البعيد · فى حين أن قصر تيهرت يجعلنا نذكر المساكن الاموية ، بينما تحمل الينا أطلال سدراته صدى خافتا من بذخ الخلفاء العباسيين وفق الخوارج هذا المخالف لفن القيروان يظهر لنا متسما بالتعقد · ولكنه باختصار يستمد عناصره من نفس المنابع ·

Georges Marçais : La berbérie musulmane et l'Orient au Moyen-Age, pp. 115-116.

غرغاله (ورقلة) فى القرن السادس عشر

هى مدينة عتيقة بناها النوميديون فى صحراء نوميديا ولها سور جداره مبنى بلبن غير مطبوخ وبيوت جميلة وحولها بستان نخل ــ وفى أرباضها عدة قصور وعدد لا يحصى من القرى · وفى المدينة كثير من الحرفيين وسكانها أغنياء لصلتهم بمملكة

أغادز . ومن بين هؤلاء كثير من التجار الاجانب في البلد وبخاصة الذين قدموا من قسنطينة وتونس يحملون الي غرغاله منتوجات من بربريا ليأخذوا بدلها منتوجات يجلبها تجار أرض الزنوج . القمح واللحم مفقودان جدا . ويستهلك الناس لحم الابل والنعام . وأكثر الرجال زنوج ليس من أجل المناخ . بل لان لهؤلاء الناس اماء كثيرات. ولذلك لهم أولاد زنوج . والسكان كرام لطاف . ويستقبلون الاجانب استقبالا حسنا لان كل ما عندهم يأتيهم من هؤلاء . من ذلك القمح واللحم المملح والسودك والجوخ والقماش والاسلحة والسكاكين . وباختصار كل ما يحتاجه السكان. لها سلطان تقيم له حفلات ملكية لتكريمه . وهو يقوم بنفقات ألف فارس لحراستهم . وتدر عليه دولته مائة وخمسين ألفا من القصع الذهبية . ويدفع لجيرانه العرب غرامة باهضة .

Léon l'Africain : Description de l'Afrique - Tome II, pp. 438-439.

الوضع الاقتصادى والسياسى فى الماضى

فى ورقلة عنصر ثالث ـ علاوة على السكان المقيمين والرحل فيها ـ وهو الطفيليون ـ ماذا نقول وبا اليهود ؟

استأذن فى ذكر حادث شخصى : وصلت الى ورقلة سنة 1898 للاشراف على الحفريات التى عهدت بها الى الولاية العامة الجزائرية ، وقد ضاق على الوقت وأردت أن أشرع فى العمل لما رأيت رسالة تخص مهمتى والبرقية الرسمية التى تخبرنى بأن المال غادر الجزائر العاصمة . وقد قيل له بطريقة لطيفة : « هذه الوثائق هى أوراق مالية » ، وأعير لى عن طيب نفسى مبلغ مائتى فرنك لمدة عشرين يوما بفضل 80 ٪ . لقاء أى نسبة مئوية يعير الصير فى اذا كانت السنة رديئة وجاء اليه رجل مسكين يطلب اليه أن يعيره ما يسد به رمقه ؟

السكان الرحل كالسكان المقيمين يكابدون أذنى كبيرا من اليهودى . ليكن عشرون قطعة معارة لقاء أقل فضل 20 ٪ ومع القبول باعارتها . ولكنها لم تقبض بعد . فاليهودى لا يحجز ابل مدينه . بل يستخدمها : « احمل لى هذا الى غدامس وأعفيك مما لى عليك هذا العام » . يحمل المسكين البضاعة على ابله ستة دائنين . ان يهود

ورقله يكتبون قائمة غرمائهم الرحل الرجل الذى يسخره لذلك • والتمور التى ينتجها السكان المقيمون مجانا • يحملها الرجل مجانا •

والحادث باهض بقدر ما هو جديد • لم تكد تمضى سنوات منذ استخدام اليهود للربا فى الجنوب ، وقد كان للربا وقع ثقيل فى وادى ميا ووادى الخير •

P. Blauchet : L'Oasis et le pays de Ouargla - Annales de géographie, 1900, pp. 153-154.

ورقلة فى الرحلات :

ورقلة ملكة الواحات المدعوة واحة السلاطين ، كانت عاصمة مملكة صغيرة جدا بعيدة فى الصحراء المترامية الاطراف فى وسط الرمال كأنها جزيرة خضراءفى خضم من النار محصنة بسور مبنى « بالطابية » يصونه خندق تتعهده السلطة بالاصلاح • تفتخر المدينة بانعزالها وبأسوارها لتظهر فى مظهر الملك • عندما تحمل ريح الجنوب حتى شاطىء البحر المتوسط صدى ورقلة ينصت الناس بقلق حتى كأنه السحر • ألم تكن مدينة البعد السحيق ومدينة المجاهل ؟ – بجانب الرحلات المظلمة كان يخيل الى الناس أنهم يسمعون حفيف النخيل يوقعه نسيم الصحراء • ويرى الناس عبر السراب المدينة المتدثرة بأسوارها يحيط بها نطاق من البساتين والنخيل •

يزين مفرقها أكليل ملكة الواحات ملتفة فى حضرتها وبرودتها • والبقع الحمراء من الدم ملقاة على جبتها الخضراء كأنها مزق من الارجوان تزين مدينة السلاطين •

ورحال القوافل الجريئون الراجعون منها السائقون لقطر الابل الطويلة محملة بالتمور لم ينسوا أن يقصوا قصصا شتى ملؤها العجائب • وكان لرحالة الصحراء هؤلاء هيئة تضفى على قصصهم تارة معركه دامية بين حين وحين وتارة معركة بين ورقلة ونقوسة وأحيانا بين ركام غابة النخيل فى الطرق المظلمة الملتوية المؤدية الى أبواب القصبة الملكية • وتريك تلك القباب المبيضة ابنية دينية شيدت لتذكر بالاولياء المحترمين المقدسين أو تسمعك أغانى الليل فى الجنان على ضفاف السواقى النابعة من الآبار الارتوازية •

Cdt V. Colomieu : Voyage dans le Sahara algérien (Collect. Tour du Monde 1863, n° 169.

ورقلـــة ـ المتحـف

ورقلة مزيدة فى نوعها فى الصحراء كلها ، ليس من السهل أن نجمـــع (فى المتحف) وثائق اذا كنا نعيش فى الصحراء ولكن نتذكر هنا غالبية أمجاد الصحراوية منذ انجاز الرواد مآثرهم حتى الاستيلاء على الغط والفزان · ان تحفة من أطرف التحف ربما ترتقى فى الزمن الى ما قبل التاريخ ـ ولو منحتها الاسطورة أصلا أقـل قدما ـ هى صخرة ضخمة اسطوانية الشكل بها حز فى وسطها ذو فتحة ذات عمق قليل تمكن من ربطها بحبل · قد ادعى بعضهم أن شخصا اسمه ابن البرور توعدته تكهنات بأنه يموت بعضة جمل ، فأراد ابن البرور أن يهدىء الابل بتسطيح الطريـق بين المنيعة وورقلة · فربط جملا صغيرا فى مرداسه البدائى · ولما صار الجمل قويا أطلقه وعوضه بآخر أقل خطرا منه · ففى يوم من الايام شعر ابن البرور بعد فـوات الأوان أن لرفيقه فى العمل فكا ذا ضروس مخيفة · فأرادت البهيمة أن لا تكـــذب التكهنات وفتحت فما ضخما وهرست رأس مولاها ·

R. Pottier : Le Sahara, pp. 67-69.

اشيـــاء صحراويـــة :

ادع جانبا التجار والخضر والفواكه ورؤوس الابل ذات العيون الكابية وأتجه نحو يهود انحنوا على سنادين صغيرة بجانب نار متقدة حمراء وهم يصنعون السكاكـــين المخيفة التى يجب أن يحملها كل ورقلى حقيق بهذا الاسم على جنبه الايسر عند بلوغه سن الرشد ، وكان الشبان الرومان ـ فى هذه السن ـ يلبسون التوجة الرجولية فى عهد القياصرة ·

ولكن السوق امتلأت بالناس اكثر فأكثر وتشكلت الجموع وتهيأت الصفقـات واستحالت السوق الى بيت نمل كبير ، أذهب لانى صرت ـ فى وسط الاهلين فى حالة تختلف عن حالتهم · اسلك فى أول نهج صادفنى · وفجأة استلفت انتباهى علامة فوق باب تمثل صخرة من الحجر لها مظهر يشبه شبها غامضا رجلين موصولتين بطبق · والاطباق بعضها منكسر وبعضها سالم · دعوت رجلا من الاهلين فأخبرنى انها علامـة

التأنيث (عشتروت) اذا رئى الطبق سالما فذلك علامة على أن فى المنزل فتاة صالحة للتزويج . فاذا تم الزواج كسر الطبق .

André Norpel : Aux portes du Sud - Nevers 1940, pp. 42-44.

ورقلـــة ـ اشتقـــاق :

ليس من المستحيل أن يكون أصل ورقلة ـ المركز الرئيسى التجارى الواقع عـلى طريق بسكرة ـ توقرت ـ الصحراء الشرقية ـ له ارتباط بازدهار التجارة الرومانية والبيزنطية فى هذه البقاع . وفى الحقيقة أن المرء قد يتساءل أن شعب الاورسيليانى الافريقى الذى ذكره فنجيس (1) بصفته كاسبا ابلا مستخدما لها فى حروبه ألا يجب أن يتماثل مع وارجلان .

T. Lewicki : L'Etat nord-africain - Note 76, p. 532.

(1) Epit Rei Militaris, III, 23.

CHOSES SAHARIENNES

... Je laisse les marchands, les légumes, les fruits et les têtes de chameaux aux yeux vitreux... Je me dirige vers des Juifs qui, baissés sur de petites enclumes, à côté de quelques braises rouges, fabriquaient les redoutables poignards que tout digne Ouargli doit porter à son côté gauche dès qu'il a atteint l'âge nubile. C'est à ce moment-là que les jeunes romains revêtaient la toge virile sous les Césars...

Mais le soûk se remplit de monde de plus en plus, des groupes se forment, des marchés se préparent ; le souk s'est transformé en une grande fourmilière. Je pars, car, au milieu de ces indigènes je fais contraste, je prends la première ruelle. Soudain mes yeux sont attirés par un signe qui se trouve au-dessus de chaque porte.

Il représente un bloc de pierre ayant vaguement l'apparence de deux jambes reliées entre elles par une assiette. Les assiettes sont les unes cassées, les autres intactes. J'appelle un indigène ; il m'apprend que c'est le signe de Tanit (Astarté). Quand on voit l'assiette intacte, c'est que dans la maison demeure une jeune fille à marier... quand le mariage est consommé on casse l'assiette...

André Norpel ; Aux Portes du Sud - Nevers 1940, pp. 42-44.

OUARGLA : ETYMOLOGIE

Il n'est pas impossible que les origines de Ouargla... principal centre commercial situé sur la piste Biskra - Touggourt - Sahara oriental soient liées à l'épanouissement du commerce romain et byzantin dans ces parages.

On se demande en effet si le peuple africain des *Urcilliani* cité par Végèce, (Epit Rei Militaris, III, 23), comme possédant des chameaux et utilisant des animaux dans leurs guerres ne doit pas être identifié avec Warqlân...

T. Lewicki ; L'Etat nord-africain - Note 76, p. 532.

une enceinte en pisé que protégeait un fossé bien entretenu, la fière cité se targuait de son isolement et de ses murailles pour jouer à la royauté...

Lorsque le vent du Sud apportait jusqu'au littoral méditerranéen un écho d'Ouargla on écoutait avec anxiété, presque avec charme. N'était-ce pas la ville du lointain, de l'inconnu ? A coté des sombres récits, on croyait entendre le murmure des palmiers poussé par la brise du désert. On voyait à travers le mirage, la cité mystérieuse entourée de sa ceinture de jardins et de dattiers, ornée de son diadème de reine des Oasis, luxuriante de verdure et de fraîcheur. Les quelques tâches de sang jetées sur sa robe verte étaient comme des lambeaux de pourpre qui seyaient bien à la ville des Sultans.

Les hardis caravanistes qui en revenaient conduisant de longues files de chameaux chargés de dattes... ne manquaient pas d'en raconter une foule de merveilles... Les voyageurs du désert avaient un aspect qui prêtait à leur narration, quelque chose de fantastique et d'attrayant à la fois. Tantôt ils racontaient un combat sanglant de quartier à quartier..., tantôt une bataille entre Ouargla et N'goussa ; d'autre fois ils vous menaient à travers les fouillis de la forêt de palmiers, dans les sentiers ombragés et sinueux qui conduisent aux portes de la casbah royale, vous montraient épars... ces Kobbas aux dômes blanchis, pieux monuments élevés à la mémoire des marabouts vénérés... ou bien ils vous faisaient entendre les chants de la nuit dans les jardins aux bords des ruisseaux s'écoulant des puits artésiens...

Commandant V. Colomieu : Voyage dans le Sahara Algérien (Collection Tour du Monde, 1863, p. 161).

OUARGLA : LE MUSEE

Ouargla est unique en son genre dans tout le Sahara... Il n'est guère commode de réunir (dans le Musée) des documents lorsqu'on vit au désert, cependant la plupart des gloires sahariennes sont évoquées ici depuis les exploits des premiers explorateurs jusqu'à la conquête du R'at et du Fezzan.

Une des pièces les plus curieuses et qui remonte peut-être à la préhistoire, bien que la légende lui donne une origine plus récente, est une grosse pierre cylindrique entaillée en son milieu d'une gorge peu profonde permettant de la lier avec une corde.

On prétend qu'un certain Ben El-Barour, menacé par une prophétie de mourir victime de la morsure d'un chameau voulut apaiser la gent cameline en aplanissant la piste entre El-Goléa et Ouargla. Il attelait un jeune chameau à son primitif rouleau compresseur, mais, dès que son aide devenait adulte, il lui rendait la liberté et le remplaçait par un congénère moins dangereux.

Un jour vint où Ben El-Barour s'aperçut trop tard que la machoire inférieure de son compagnon de travail s'ornait de terribles molaires. La bête, pour ne pas faire mentir la prophétie, ouvrit une bouche énorme et broya la tête de son maître....

R. Pottier : Le Sahara - pp. 67-69.

des enfants noirs. La population est généreuse et aimable. Elle fait très bon accueil aux étrangers parce qu'elle ne possède rien qui ne lui vienne d'eux en ce qui concerne le blé, la viande salée, le suif, les draps, les toiles, les armes, les couteaux, en un mot tout ce dont elle a besoin.

Elle a un seigneur auquel elle rend les honneurs royaux. Celui-ci entretient pour sa garde un millier de cavaliers. Son Etat lui rapporte cent cinquante mille ducats et il paie à ses voisins arabes un tribut élevé.

Léon l'Africain ; Description de l'Afrique, T. II, pp. 438-439.

SITUATION ECONOMIQUE ET POLITIQUE DANS LE PASSE

Il y a à Ouargla un troisième élément, après le sédentaire et le Nomade : c'est le parasite... les Juifs.

Que dire alors de l'usure juive ?... Je demande la permission de citer ici un fait personnel : j'arrivai à Ouargla en 1898, pour y exécuter les fouilles dont m'avait chargé le gouvernement général de l'Algérie... Le temps cependant me pressait et je voulais commencer les travaux : sur le vu de ma lettre de mission et du télégramme officiel m'annonçant que les fonds avaient quitté Alger — " ces papiers-là sont des billets de banque " me disait-on gracieusement — on consentit à me prêter 200 frs pour 20 jours à 180 %. A quel taux prête mon " banquier " quand l'année est mauvaise et qu'un pauvre homme vint lui demander de quoi ne pas mourir de faim ?

Les Nomades comme les sédentaires souffrent du Juif. Soit 20 écus prêtés à un intérêt minimum de 200 % consenti et non payé : le Juif ne fait pas saisir les chameaux de son débiteur, il les emploi : « Porte-moi ceci à Ghadamès et je te tiens quitte pour cette année ». Le pauvre diable charge et part. Ci, deux mois de route ; s'il a six créanciers, il n'est plus qu'un esclave. Les Juifs de Ouargla Ghardaïa, Laghouat, dressent la liste de leurs débiteurs nomades et l'expédient à leurs correspondants. Y a-t-il transport à effectuer, on y choisit l'homme à faire marcher ; et les dattes produites gratis par les sédentaires, sont transportées gratis par les nomades.

Le phénomène est d'autant plus grave qu'il est tout récent. Il y a à peine quelques années que l'usure juive a commencée de s'exercer dans le Sud et déjà dans l'Oued Mya comme dans l'Oued Righ elle a fortement marqué son empreinte...

P. Blanchet ; L'Oasis et le pays de Ouargla - Annales de Géographie, 1900, pp. 153-154.

OUARGLA DANS LES RECITS DES VOYAGEURS

Ouargla, la sultane des Oasis, surnommée l'Oasis aux Sultans, était autrefois la capitale d'un royaume microscopique. Perdue dans l'immensité du Sahara, au milieu de sables, comme un ilôt de verdure dans un océan de feu, défendue par

Ceci dut se passer en 909. Dans l'effondrement du royaume ibadite, Ouargla fut longtemps le refuge des derniers fidèles. « Le Cheikh ibadite, dit la chronique [d'Abu Zakariya], avait l'habitude de passer l'hiver dans l'Oued Righ (dont Ouargla est l'oasis la plus méridionale) et il retournait dans le désert chez les Béni M'zab ». Lorsque, à la longue Ouargla même devint inhabitable, c'est en effet au M'zab que se groupa tout ce qui restait de l'ibadisme algérien...

E. F. Gautier ; Le passé de l'Afrique du Nord, p. 305.

UN AUTRE FOYER KHARIDJITE : SEDRATA

Lorsqu'en 908, l'armée des Kotama conduite par Abou 'Abd Allah le missionnaire chi'ite, se fut emparée de la capitale rostémide, ceux qui avaient échappé au massacre s'enfoncèrent à travers le Sahara : ils trouvèrent asile près d'Ouargla au milieu de populations ibadites, dans une Oasis qui vraisemblablement appartenait aux nomades de Sédrâta, hôtes périodiques de Tihert.

La ville saharienne de Sedrâta ou Isadraten fut, au x[e] siècle, une métropole du kharidisme ibadhite, en attendant que la colonie se transportât au M'zab... Une mosquée, des demeures privées fort vaste ont été en partie exhumées des sables de Sedrâta.

On conjecture que l'architecture de ces édifices et leur décor sculpté représentent l'héritage artistique de Tihert cristallisé au moins pour un temps, dans ce pays perdu...

Alors que le château de Tihert nous faisait penser aux résidences omeyyades, les ruines de Sedrâta nous apportent un écho affaibli des somptuosités 'abbassides. Cet art des Kharidjites, assez différent de celui de Kairouan, se révèle complexe comme lui et, en somme, puisant aux mêmes sources.

G. Marçais ; La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen-Age, pp. 115-116.

GUARGALA (OUARGLA) AU XVI[e] SIECLE

C'est une ville extrêmement ancienne bâtie par les Numides dans le désert de Numidie. Elle a un mur d'enceinte en briques crues, de belles maisons et tout autour, une vaste palmeraie. Aux environs existent plusieurs châteaux et une infinité de villages. La ville est bien pourvue d'artisans et les habitants sont très riches parce qu'ils sont en relation avec le royaume d'Agadez. Parmi ceux-ci on trouve beaucoup de marchands étrangers au pays, surtout venus de Constantine et de Tunis. Ils apportent à Guargala des produits de Berbérie pour les échanger avec ceux apportés par les commerçants de la terre des noirs.

Le blé et la viande manquent beaucoup : on mange du chameau et de l'autruche. Les hommes sont pour la plupart nègres, non pas à cause du climat, mais parce que ces gens ont beaucoup d'esclaves noires... si bien qu'ils en ont

ROLE DE OUARGLA
DANS LE COMMERCE NORD-AFRICAIN AVEC LE SOUDAN

A côté de la voie Tahert-Sidjilmasa-Gâna, il y en avait une autre qui, à l'époque rostémide, traversait le Sahara à l'Est... Elle avait pour étapes : l'oasis de Ouargla dans le nord du Sahara et la ville commerciale de Tâdemekket(aujourd'hui les ruines du Souk) dans le Sud de ce désert au Nord-est de Gao. Cette voie dont on connait les relais grâce aux géographes Arabes du IX^e^-XII^e^ siècles, passait par les villes de Ténès, Miliana, al M'Sila, ainsi que par le district de Zâb, par l'oasis de Tubna et Biskra, en se dirigeant vers Wârqlar (Ouargla) qui était un lieu habité par divers groupes Berbères ibâdites et un important centre commercial, dont le rôle comme point de départ des caravanes qui se rendaient de l'Afrique du Nord au Soudan Occidental peut être comparé à celui de Sidjîl Masa sur la voie commerciale Tahert-Gâna.

D'après Al-Idrissi (1154), on compte douze fortes journées de marche d'al M'Sila à Ouargla. Cette voie passait probablement par l'Oued Righ dont la prospérité dépendait sans doute du commerce avec le Soudan qui se faisait par cette route.

Voici ce que dit Al-Idrissi sur le rôle de Ouargla dans le commerce nord-africain avec le Soudan :

> « Cette ville est habitée par des familles opulentes et des négociants fort riches qui, pour faire le commerce parcourent le pays des nègres et pénètrent jusqu'à Gâna et au Wanqara d'où ils tirent de l'or qui est ensuite frappé à Warqlân et au coin de cette ville... ».

Il n'y a aucun doute que ces rapports commerciaux de Ouargla avec le Soudan occidental existaient déjà au IX^e^ siècle au temps des Imams Rostémides de Tahert dont l'autorité s'étendait sur les Ibadites de Ouargla...

Ajoutons encore que Warqlân était aussi à cette époque une étape sur la route reliant la ville de Tozeur (dans la Tunisie du Sdu) avec Sidjilmâsa...

T. Lewicki : L'Etat nord-africain de Tahert et ses relations avec le Soudan occidental à la fin du VIII^e^ et au IX^e^ siècle ; Cahiers d'Etudes Africaines N° 8, 1962, pp. 513-535.

LES GRANDES LIGNES DU ROYAUME ROSTEMIDE : OUARGLA PREND LA RELEVE DE TIHERT

Il va très loin à l'Est jusqu'aux portes de Tripoli... Un autre point important est la région d'Ouargla.

Lorsque le dernier Rostémide, Yacoub, fut forcé de quitter Tiaret, il s'enfuit tout droit à Ouargla, « il y arriva sans obstacle » et y fut reçu comme chez lui. « On le combla d'honneurs, on lui fit une réception magnifique ».

OUARGLA : DESCRIPTION GENERALE VERS 1862

La ville étale au pied de sa vaste enceinte circulaire dans l'intérieur de laquelle on distingue malgré les ruines, les trois quartiers distincts qui la composaient. Ces trois quartiers portent les noms des fractions qui les habitent ; ce sont les Béni Sissin, Béni Ouaggin et Béni Brahim. Chacun de ces quartiers constitue une ville dans la ville et est séparé des autres par des murailles et des portes. La poudre parlait souvent, autrefois, de quartier à quartier.

Le palais du Sultan placé sur une petite éminence... n'était qu'une citadelle une casbah fortifiée. Cette casbah, adossée au grand rempart avait une entrée d'honneur nommée encore Bab-al-Sultan et une porte secrète. L'intérieur de la citadelle avait tout le confort que pouvait raisonnablement exiger un Sultan d'Ouargla... Hélas, il ne reste plus que des ruines de tout cet attirail de royauté : un petit minaret debout, quelques chambres servant d'asile à des malheureux...

Les rues sont étroites et dans bien des points il serait impossible à un cavalier de tourner bride. Les maisons sont presque toutes sans étages ; elles sont construites en briques de terre. Nombre de portes de maisons sont garnies d'ornements en plâtre et d'une inscription tiré du Coran...

La place du marché d'Ouargla fixa notre attention. Le marché n'est autre que la boucherie... Les viandes y sont étalées en plein soleil... La chair de chameau s'y vend communément...

Commandant V. Colomieu : Voyage dans le Sahara Algérien (Collect. Tour du Monde 1863, pp. 183-184).

Dans ces textes empruntés à des livres d'histoire, ou de civilisation du M'zab, ou d'études sociologiques qui ne sont pas toujours à la portée des lecteurs et notamment les jeunes, le passé de Ouargla et de sa région se dessine.

Beaucoup d'écrivains européens et français en premier lieu, se sont penchés sur la vie dans notre Sahara depuis des siècles. Ils n'ont pas manqué de consacrer à Ouargla un intérêt tout particulier. La cité et son oasis sont des plus anciennes du désert. Hérodote paraît avoir décrit son site (L. II, 32). Les Garamontes peuvent être considérés comme les autochtones de Ouargla.

Ces extraits choisis dans des écrits épars ou d'accès difficiles permettront aux lecteurs d'Al-Açala, qui ne maîtrisent pas encore la langue arabe, particulièrement nos frères de l'autre côté de la Méditerranée de faire la connaissance de la ville qui abrite cette année le séminaire sur la pensée islamique.

M. B.

العدد 42-43

فهـــرس العـــــدد

تنبيـــــه

سننشر بقيـــة المحاضرات فى أعـــداد قادمـــة قبـــل صـــدور كتـــاب الملتـــقى .

« الأصالة »



فى لحظة انشاد « قسما » عند الافتتاح

منسيين لستم، يا بنى رُسْتُم ! (1)

مولود قاسم نايت بلقاسم
وزير التعليم الأصلى والشؤون الدينية

بسم الله الرحمن الرحيم
والصلاة والسلام على خاتم المرسلين

صاحب المعالى الدكتور آماد وكريم غاى، آمين عام مؤتمر الدول الإسلامية،
السيد محمود منصور، ممثل جامعة الدول العربية،
السيد سالم عزام، أمين عام المجلس الإسلامى الأوروبى،
حضرات الأساتذة الأفاضل،
حضرات السادة والسيدات،
إخوتى الطلبة والطالبات،
ابتدئ هذه المرة أيضاً بما أنهينا به فى السنة الماضية، وافتتح الملتقى الحادى عشر للفكر الإسلامى فى وَرَجْلاَنَ بخاتمة الملتقى العاشر فى عنابة، وأقول :
مرحباً بكم وبكن جميعاً فى مدينة البئر والحاسى،

(1) كلمة افتتاح الملتقى الحادى عشر للفكر الاسلامى بورجلان (ورقلة) .
(17 ـ 26 صفر 1397/06 ـ 15 فبراير 1977 م) .

التي تذكّر بماضيها الغافل والناسي، معين النفط والغاز، التي كانت في ماضي القارة الصلة والبوغاز، في منبع العلم والطاقة، اللذين يزيلان عن الشعب الجهل والفاقة، في دار الوَرَجْلاني، الذي نافس أمثال سحنون، وبطوطة، والورتلاني، في مدينة النور والدقلة، المجيدة الأثيلة، ورقلة!

حضرات السادة
لنا في جدول أعمالنا نقاط أربع :

أيام أن أفلح، وكان الإمام إماما!

1) النقطة الأولى هي : "مساهمة الرستميين في حضارة الإسلام وفكره"، ونحن في عاصمتهم الثانية وَرَجْلان - سدراته، التي وصل سلطانها الدنيوي حيناً من الدهر إلى ونيبا غرباً، وهي المدينة الثانية في غانا، وإلى قرطبة شمالاً، وامتد إشعاعها الروحي برهة إلى بحر عمان شرقاً، وزنجبار جنوباً، وأعطت للفكر الإسلامي أمثال الوَرَجْلاني، بعد أن اضطرت الدولة الرستمية الى ترك تيهرت[1] حيث كان عبد الرحمن قد نشر الرحمة، وأين أفلح، وكان الإمام إماماً!

لكن للدول أيام تداولها بينها، ونريد، كعادتنا في كل ملتقياتنا، أن نلقي نظرة على ما لكل منها وما عليها، كيف

1) يقال إن معناها بالأمازيغية الزناتية: "اللبوة".



السيد مولود قاسم نايت بلقاسم ، وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية، يلقى كلمة الافتتاح ٠

ويرى من اليسار الى اليمين السادة :

سالم عزام ، أمين عام المؤتمر الاسلامى الاوروبى (لندن) ، عبد الوهاب القدمانى ، والى ورجلان ، (ورقلة) جلول شاشوه ، رئيس المجلس البلدى الشعبى لمدينة ورجلان ، الدكتور ماما دو كريم غاى ، أمين عام مؤتمر الدول الاسلامية (جدة) ٠

نشأت وازدهرت، ثم ماتت واندثرت، ولكل شئ إذا ما تم نقصان، وتلك سنة الله فيمن سبق!

كفى مؤامرات ومناورات فى إفريقيا!

2) والنقطة الثانية هى: "الإسلام فى افريقيا اليوم". وفعلاً كيف ونحن فى الجنوب لا نستعرض وضع الإسلام اليوم فى بلاد السودان، كما كان يسميها ابن خلدون، بل وافريقيا كلها، وهى المتعرضة لما هى متعرضة له من مناورات ومؤامرات، ومن محاولات تسرب ونفاذ رغبة النفوذ، أو لبقاء وتشبث، ومساعى إحاطة وتطويق، وهيمنة واستحواذ؟

"الأولى فى الدولة ولكن الثانية فى الدار"!

3) والنقطة الثالثة: "المرأة بعد عام المرأة...". فأمام السيل العرم من الكتب والمجلات، والأفلام والمحاضرات، والندوات والمؤتمرات، المخصصة للمرأة فى أنحاء العالم منذ "عام المرأة" واستجابة لرغبة كانت كثيرات من الطالبات اللاتى شاركن فى ملتقياتنا السابقة عبرن عنها فى أن يطرق موضوع المرأة فى أحد هذه الملتقيات، واعتقاداً منا أنه موضوع من مواضيع الساعة لما نشاهده فى العالم من أمواج وتموجات، ومن ميول واتجاهات، وأن المرأة - هذا الموضوع الخالد! - هى هم الدنيا وشغلها الشاغل على مر الأيام وتتابع الحضارات، وأنها اليوم، أكثر من أى وقت مضى، فضلاً عن كونها عمدة الأسرة ورأس المجتمع، أصبحت شرط الإنقاذ للحضارة والإنسان، أو إشارة الهبوط،

والاضمحلال، والذوبان، أقول إننا أمام هذا كله رأينا أن نطرق موضوع المرأة فى هذا الملتقى، ودعونا له خاصة كثيرا من السيدات البارزات من الإتجاهين، المناصر والمعارض لما سمى بحركة تحرير المرأة والدفاع عن حقوقها، لإجراء حوار صريح خصب علّه يساعدنا فى تجنب الشطط فى هذا الإتجاه أو ذاك!

ورمزا لإعطاء هذه النقطة فى هذا المدخل ما يقابل مَنَابَها فى جدول الأعمال، حيث أخذت وحدها إحدى وعشرين محاضرة من بين تسع وثلاثين، بمحض اختيار أغلب السادة والسيدات أصحابها وصواحبها، سأسهب أنا أيضا بعض الشئ فى طرقها فى هذه الكلمة التى كنت أجعلها عادة على غاية الإيجاز.

هل المرأة اليوم هى تلك الضعيفة المستضعَفة، المهضومة المظلومة، المسكينة المستكينة، الخانعة، الخاضعة، الضائعة، التى لم تأخذ بعدُ حقوقَها، ولم تحتلَّ مكانتَها، كما تقول سيمون دى بوفوار وأخريات كثيرات، بل وآخرون كثيرون أيضا، ممن يدعونها إلى الثورة والتمرد، وتحطيم "القيود"، وتجاوز السدود، واختراق الحدود، ورفع البنود، للإلقاء بكل شئ آخر غيرِ مطلقِ حريتها عرض الحائط رغم الجدات

والجدود، وعدم الإستغناء فى ذلك عن العويل ولطم الخدود، والإجابة عن كل تنبيه أو نصح بأغرب الحجج والردود؟

أم هى بالعكس من هذا كله تلك المتمردة المستبدة، صاحبة الحيل والأحابيل القديمة والمستجدة، التى هى إلى الانقضاض والعدوان الجريئة المستعدة، صاحبة الطاغوت والجبروت، زيادة على سحر هاروت وماروت، كما يقول فى الرد عليهن وعليهم كثيرون وكثيرات، كالكاتبة والطبيبة الألمانية الشهيرة إيستر فيلار Esther Vilar فى عدد من كتبها، وخاصة منها الأخير الذى سيحتفل بصدوره بعد غد الثلاثاء فى ميونيخ، والذى تدعو فيه الرجل إلى الإقلاع عن خضوعه وخنوعه، والتنبه إلى استبلاهه من طرف المرأة واستذلاله، وتحثه على الإفاقة ورفع رأسه، وعدم حفر رمسه بنفسه، وإلى استعادة رجولته وهمته، والسمو بشرفه إلى قمته، وهو ما يلخصه العنوان الرئيسى للكتاب: "نهاية الترويض"(1) ويوضحه عنوانه الثانوى: "نموذج لرجولة جديدة"؟(2)

أم أن المرأة اليوم ليست هذه ولا تلك، وإنما هى تلك المتمتعة بحقوقها، المحترمة لواجباتها، التى لا تنسى

---

(1) "Das Ende der Dressur"

(2) "Modell fuer eine neue Maennlichkeit"

حتى مع عملها رسالتها ؟ هل هناك كثيرات من نساء اليوم "العصريات" ممن يتبنين قاعدة سلوك ملكة الدانمارك الشابة التي صرحت غداة زواجها أنها " وإن كانت الأولى في الدولة إلا أنها الثانية في البيت"؟(1)

إن المشكل أمامكم للنقاش .

وعلى كل ففيما يخص موقفنا في الجزائر بهذا الصدد، فإن الميثاق الوطني، إذ يعزز حقوق المرأة المشروعة، ويشجعها على المشاركة الفعالة في مختلف مجالات النشاط القومي، زيادة عن واجبها الأول في حفظ الأسرة وصنع الأجيال، يؤكد في الوقت نفسه كل التأكيد على ضرورة احترام ذاتيتنا وحصانتنا، ويندد بكل تقليد أعمى، وخاصة لكل مايتنافى مع قيمنا وأخلاقنا، ويتعارض مع مكونات شخصيتنا، ويصطدم وعناصر إنيتنا وأصالتنا .

هل بطون الأرض نعمة أم نقمة ؟

4) النقطة الرابعة والأخيرة هي: " هل بطون الأرض نعمة أم نقمة ؟" .

وكنا قد وعدنا في السنة الماضية في عنابة بأن نتطرق لها لانعقاد ملتقانا بجوار آبار الطاقة وأجهزة استخراجها واستثمارها .

قد يبدو في هذا التساؤل نوع من المفارقة، والواقع

---

(1) جريدة لوموند 19 ديسمبر 1976

أنه في غاية الوضوح، فيما يبدو لنا، وهو يتلخص في أن الثروات المعدنية، التي سميناها ببطون الأرض، أو بالكنوز إن شئتم، كالنفط، والغاز، والفوسفاط، وغيرها من المعادن، تتوقف في طبيعة آثارها على طريقة استعمالها، ككل شيء في الحياة، وتكمن فائدتها أو مضرتها فيما توجّه إليه نتائجها. هل استخرجت من الطاقة جميع الإمكانيات الكامنة فيها، أو على الأقل بعضها؟

هذا الإستفهام وليس بالضرورة إنكاريا.

لقد استغربت أن أرى في إعلان نشرته شركة شيل المعروفة في الجريدة الألمانية فرانكفورتر الغماين[1] بتاريخ 05 أكتوبر 1976 عن عدد المشتقات التي تستخرج من النفط وحده! إنها أكثر من عشرين صنفا من المنتوجات الصناعية والاصطناعية المختلفة، ومنها المواد الغذائية وماء الشرب، إذ أن الماء المالح المستخرج من البحار يرجع زلالا بفضل عنصر لا يوجد إلا في النفط!

هل استخرجت البلدان البترولية في العالم الثالث منتوجا واحدا من هذه المنتوجات العديدة من بحارها النفطية؟ ثم هل استثمارها من طرف أبنائها لفائدة شعوبها المالكة لها، في استقلال تام عن أي نفوذ أجنبي، متساو مع استغلالها من طرف الغير، لصالحه

(1) Frankfurter Allgemeine Zeitung 05 Oktober 1976

ولطبقة مضيقة من الحاكمين وحواشيهم ؟ ألا يساعد هذا على زيادة بؤس جماهير الشعب، وفحش الإنحلال الخلقى الذى ينجر عن الترف والبذخ لدى سراة القوم، فضلا عن التهديد الدائم المعلق للسيادة الوطنية من طرف الدول المستغلة لها، والمسيطرة عليها ؟

ألا تتحكم تلك التبعية المطلقة فى اقتصاد البلاد، بخلقها طبيعة الاعتماد الكلى على ذلك الفتات الذى تتركه لها تلك الدول، والذى يجعلها فوق ذلك كله تتقاعس عن استثمار جميع الموارد الأخرى لها، كالزراعة التى سماها البعض بالذهب الأخضر، أو التجارة، أو الصناعة؟

عن هذا أو ذاك يتوقف إذن كونها نعمة أو نقمة !

ومن هنا تساءلنا عن بطون الأرض هل هى نعمة أم نقمة ؟ وهو مجرد تساؤل منا إذ يهمنا فى الدرجة الأولى على مستوى ما يسمى بالعالم الثالث كله فيما نظن، ولذا دعونا له بعض المختصين، وقد تخلف بعضهم مع الأسف بعد وعد والتزام، وعزف بعض السادة الآخرين من الحاضرين عن طرقه لتعقده المتمثل فى بساطته وبداهته، مما جعل عدد الذين طرقوه لا يتجاوز الخمسة، بينما موضوع المرأة أخذ حصة اللبؤة، ونكرر أنه بلغ واحدة وعشرين من تسع وثلاثين فى جملة جدول الأعمال !

حضرات السادة والسيدات،

هذه هي النقاط التي عرضناها عليكم للبحث، والتي نرجو أن نصل فيها من خلال المحاضرات، وخاصة المناقشات، إلى أضواء تلقي وضوحا عليها، وتوجه إلى زيادة تعميقها، والإنتهاء من ذلك إلى إيجاد أجوبة فاصلة لها، وحتى إذا لم نصل فيها إلى حلول، فنكون على الأقل قد ساهمنا في الإقتراب منها، والتعجيل بإدراكها.

مرة أخرى أرحب بضيوف الجزائر، وأتمنى لهم ولهن مقاما طيبا، ولأعمالنا جميعا مطلق النجاح.

والسلام عليكم ورحمة الله



صاحب المعالى الدكتور مامادو كريم غاى ، أمين عام مؤتمر الدول الاسلامية ،
يلقى كلمته فى جلسة الافتتاح

النقطة 1

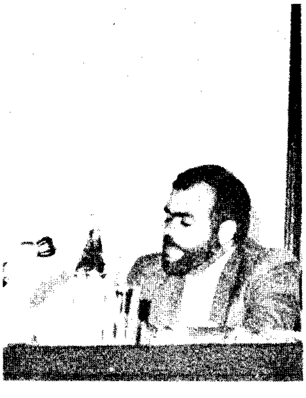
ملامح عن الحركة العلمية بورجلان ونواحيها منذ انتهاء الدولة الرستمية حتى أواخر القرن السادس الهجري

الدكتور عمرو خليفة النــامي

أستاذ الادب العربي والدراسات الاسلامية
كلية التربية ، جامعة الفاتح طرابلس ـ ليبيا
وأستاذ زائر بجامعة مبتشيجن
ـ الولايات المتحدة الامريكية ـ

بســم اللــه الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم



أيها السادة ، والاخوة والاخوات ،

احييكم تحية الاسلام، السلام عليكم ورحمــة الله وبركاتــه ٠

قبل الدخول في موضوع هذه الخلاصة أود أن اتقدم أولا بالشكر للاخ الاستاذ مولود قاســم نايت بلقاســم الذى تفضل فأتاح لى هذه الفرصة للمشاركة فى هذا الملتقى الحافل ، وكذلك فانى أود ان اشكر السادة الذين سهلوا على مهمة تحضير هذا الحديث بما فتحوه أمامى من أبواب بيوتهم ومكتباتهم وخزائنهم وما تكرموا به من ملاحظاتهم وتوجيهاتهم وأخص

منهم بالذكر السادة الشيخ بكلي عبد الرحمن بن عمر ، والاستاذ الشيخ سليمان الحاج داود ، والشيخ الحاج محمد بن يوسف ببانو ، والاخ الاستاذ فخار حمو ، والسادة موسى بن الحاج يامى ، والاخ جهلان أحمد فقد هيأوا أمامى كل الاسباب للفراغ من كتابة هذه الخلاصة فى المهلة القصيرة التى حددها نظام الملتقى • فأنا مدين لهم ولكرمهم وحسن عونهم أحسن الله جزاءهم •

لقد اخترت هذا العنوان لهذا الحديث لانه الصق بمكان هذا اللقاء ، ولان ما قصدت اليه هو مساهمة وارجلان وما حولها فى الفكر الاسلامى كجزء امتد واتصل بعد غياب الدولة الرستمية من الوجود السياسى فى شمال افريقيا ، فكان الدور الذى لعبته وارجلان هو تجسيم وتعبير عن عمق التأثير الفكرى والحضارى للدولة الرستمية التى استمرت آثارها العلمية والفكرية قرونا متصلة بعد غيابها من الوجود السياسى تماما ، فبعثت وارجلان ذلك الدور فى صورة جديدة ، واعطته دفعة قوية حفظت له نصاعته وحيويته ، ومن وارجلان وحركتها انبثق العمران والحركة العلمية فى ديار بنى مصعب فنشأت قصور مزاب واستمرت بدورها فى الحفاظ على ذلك الاثر الحضارى العلمى الذى بدأته دولة بنى رستم من قبل وحافظت عليه ولفترة طويلة عاصمة الصحراء وجوهرتها « وارجلان » •

لقد بدأ المذهب الاباضى كغيره من المذاهب الاسلامية على هيئة حركة علمية تربوية تأسست فى البصرة جنوب العراق ، فكان علمها البارز التابعى الشهير أبو الشعثاء جابر بن زيد (متوفى سنة 93 هـ) ثم من بعده مسلم بن أبى كريمة أبو عبيدة الذى توفى على أيام الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور • وعلى أيام أبى عبيدة اتسعت هذه الحركة العلمية فى صورة دقيقة التنظيم على هيئة « مجالس » علمية تنعقد حول علماء معروفين يقصدها اصناف شتى من الناس بين طلبة متخصصين الى آخرين يطلبون الموعظة والهداية الى علماء مميزين يتدارسون شؤون الامة ويناقشون مسائل العلم وأمور الامة عموما (1) وقد كان عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة الرستمية

(1) انظر حول هذه المجالس : الشماخى : السير •

خريج هذه المجالس التى أسسها الاباضية فى مراكز العمران بين القيروان والبصرة ، ومن تلاميذ أبى عبيدة مسلم المباشرين · ونقل التلاميذ نظـــام المجالس العلمية الى المغرب وانتظمت حلقاتها ما بين فزان وقابس وبين الجبل وتاهرت · وبعد ازدهـــار تاهرت واستتاب الامر فيها كان دورها العلمى من أبرز المظاهر الحضارية التى حرصت عليها وعلى رسالتها وكان طلبة العلم يقصدون تاهرت من كل حدب وصوب لاخـــذ العلم أو لعرض العلم فكانت تصل المشرق بالمغرب والشمال بالجنوب وتذكر الروايات التاريخية أن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم قد ارسل ألف دينار الى اخوانه بالبصرة ان يشتروا له الكتب فأوفدوا له أربعين جملا كتبا (2) ·

وكذلك فان أبا غانم بشر بن أبى غانم حضر من البصرة الى تاهرت ومعه مدونته المشهورة فعرضها على الامام عبد الوهاب ورواها الامام عنه ·· وكانت عاصمة الدولة الرستمية « تاهرت » مركز حركة علمية مزدهرة يتـــولى الائمة بانفسهم الاشراف المباشر عليها والمساهمة فيها ، وتذكر الكثير من الروايات وفود المشائخ اليها وتلقيهم العلم على الائمة بتاهرت ·

وكذلك فقد كانت للائمة الرستميين مساهمات فى التأليف ، وتذكر المصادر كتاب التفسير لعبد الرحمن بن رستم وكان موجودا حتى أواخر القرن الرابع للهجرة ··

وكتب الامام عبد الوهاب اجوبة فقهيـــة لا تزال موجودة وكذلك الامام أفلـــح ابن عبد الوهاب وكان أكثر كتابتهم فى الفروع (3) ، واشتهر الامـــام أبو اليقظان بمساهمة فى البحوث الكلامية فكتب فى الاستطاعة وحدها اربعين رسالة حســـب ما يذكره رواة السير (4) ولا اريد ان اطيل الحديث فى هذا أو أرجو ان أكـــون قد كفيت أمره ممن تعرض للحديث عنه فى هذا الملتقى ، ولكن ما قصدته هنا هو دور

(2) السالمى : اللمعة المرضية فى اشعة الاباضية (ضمن مجموع) ص : 75 ·

(3) انظر مقالتنا Description of New Ibadi Mss. from North Africa : Journal of Semitic Studies : vol. 15, n° 1, 1970, pp. 69-71.

(4) الشماخى : السير ·

وارجلان ونواحيها فى مواصلة هذه الحركة العلمية بعد سقوط العاصمة الرستمية ، فهى فى الواقع التى حملت الراية بعد تاهرت وذهاب مجدها .

وكان فى ازدهار وارجلان كمركز تجارى هام وكمحطة رئيسية لحركة القوافل التى تنطلق منها الى الجنوب والى الشرق والغرب والشمال ، وكذلك لما تتمتع به من الامن النسبى الذى تفرضه أهميتها التجارية وانعزال موقعها مع قوة أهلها واتساع العمران حولها ، كل هذا جعلها مكانا مثاليا للقيام بدور البديل المباشر لتاهرت .

قال صاحب غصن البان فى ناريخ وارجلان : « ووجدت فى ورقات قديمة من تواريخ وارجلان ان فيما بين حاسى بغلة ويفرن ووارجلان وجبل العباد وسدراتة مائة وخمس وعشرون بلدة كلها عامرة بالاباضية » (5) .

وقال الادريسى : « هى (وارجلان) مدينة فيها قبائل مياسير وتجار أغنياء يتجولون فى بلاد السودان الى بلاد غانة ونقارة ـ هقارة ـ فيخرجون منها التبر ويضربونه فى بلادهم باسم بلدهم وهم اباضية وهبية » .

ومن مظاهر قوة وارجلان ان أهلها حين لجأ اليهم يعقوب بن افلح عرضوا عليه البيعة وان يقوموا بأعباء الامامة وتأسيس الدولة من جديد فى وارجلان ، ولكنه اعتذر عن ذلك لعلمه ان أسباب ذلك لن تكون مكتملة رغم هذا الاستعداد الظاهر عند أهل ورجلان .

لا شك ان استقرار يعقوب بن أفلح فى وارجلان (6) يحدد من الناحية الزمنية انطلاق الحركة العلمية بها كبديل لتاهرت ولم يكن ذلك هو بداية تلك الحركة فقد كانت هذه الديار تزخر بالعلم والعلماء .

ومن الشخصيات العلمية الرئيسية فى وارجلان الشيخ أبو يوسف يعقوب ابن يوسف بن سهلون السدراتى المعروف بالطرفى « وكانت قراءته على الائمة

---

(5) من تقييدات نقلها عن الكتاب المشار اليه الشيخ سالم بن يعقوب الجربى .
(6) الشماخى : السير : 365 .

بتاهرت » (7) • وصفه الدرجيني بقوله : « ذو الجهادين الاصغر والاكبر ، والاجتهادين المصلى والدفتر » (8) ، وقـــال الشماخى : « كان قاضيا وهو النهـــاية فى الفتيا فى وارجلان » (9) ، وقد كون حركة علمية طبية فى وارجلان من ألمع تلامذته فيها ووارث علمه والقائم بالامر بعده الشيخ أبو صالح جنون بن يمرسان (10) ، وكان عالما ورعا سخيا حازما ، وكان واسطة العقد فى وارجلان واليه التجأ زعماء الاباضية من نواحى تاهرت والحامة فقام بأمرهم احسن قيام وهيأ لهم من أسباب الاستقرار والتعليم مـا ساعد على ازدهار الحركة العلمية بها •

كان أول ذلك بمجىء أبو يوسف يعقوب بن أفلح حين اضطره الحجانى الى اللجوء الى وارجلان ، فلما بلغها هو وأصحابه تلقاهم أبو صالح جنون بن يمريان فى جموع أهل وارجلان فأكرموه ورفعوا درجته واحسنوا القيام بحوائجه •

واذا تعذرت أسباب اقامة الدولة وتجديدها بعد ورود الشيخ أبى يوسف يعقوب ابن افلح بن عبد الوهاب ، فان مساهمته فى ميدان التعليم كانت ذات شأن كبير ، فقد كان من دخول العلماء على عادة بيت الرستميين ، قال الدرجينى : « وكان يعقوب يحمل أنواعا من العلم • بلغنا ان سائلا سأله ذات يوم ، اتحفظ القرآن ؟ فقال : استعيذ بالله من ان ينزل على موسى وعيسى عليهما السلام ما لم احفظ واعرف معناه فكيف بالكتاب المنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم » (11) •

وقد أقام أبو يعقوب بوارجلان حتى توفاه الله بها ونبغ بعده ابنه سليمان غير انه انتحل مسائل خالف فيها المشهور من المذهب وعرف بها وجرت عليه اعتراض المشائخ واعراضهم فحرمه ذلك من مساهمة مؤثرة فعالة فى الحركة العلمية هناك (12) •

(7) الوسيانى : السير : 47 ـ 48 ، الدرجينى : طبقات (طبعة طـــلاى) : 331 ، الشماخى : السير : 288 •
(8) الدرجينى : السابق : 331 •
(9) الشماخى : السابق : 289 •
(10) انظر اخباره فى
(11) الدرجينى : السابق : 105 •
(12) أنظر تفاصيل ذلك فى طبقات الدرجينى : 1 : 108 •

أما الشخصية الثانية بعد يعقوب بن افلح فهو الشيخ أبو نوح سعيد بن زنغيل واليه انتهت رئاسة الاباضية فى العلم ، وقد شارك فى الثورة ضد سلطان العبيديين ، وعندما عزم السلطان العبيدى أبو تميم التحول الى مصر أخذ معه أبا خزريغلا بن زلتاف حتى لا يحدث بعده شيئا ، وأراد ذلك من أبى نوح ، ولكنه تمارض وتخلف عن أبى تميم « فهرب وقصد وارجلان بأهله مستخفيا خشية أن ينتقل الى مصر . فلما بلغ خبر وصوله الى مشارف وارجلان وجاء البشير بالخير الى أبى صالح جنون أرسل اليه يقول : « لا تخف ، نجوت من القوم الظالمين » . ولما وصل وارجلان انزله الشيخ وجماعة أهل وارجلان واحسنوا نزوله وتجاوزوا الحد فى الاعظام واكرموا مثواه غاية الاكرام » (13) .

وكان هذا الجو الكريم المضياف الآمن فى ورجلان سببا فى اتجاه انظار أمثال هؤلاء العلماء والزعماء اليها والاستقرار بها وتنشيط الحركة العلمية فيها .

وقد رحب أبو صالح جنون بالشيخ أبى نوح سعيد بن زنفيل واجرى عليه الارزاق الكثيرة وامده بكل ما يحتاج اليه من أموال ، واجرى له فى كل يوم مائدة وأخرى عشية وباختصار : يسر له كل سبل الاستقرار التى تجعله يأنس الى وارجلان كقاعدة جديدة لنشاطه العلمى (14) .

وعقد الشيخ أبو نوح حلقة الدرس فى مسجد الشيخ جنون « وكانت جماعة أهل وارجلان تجتمع عند مسجد الشيخ جنون فمنهم المستفيد منه علما ومنهم المستبرك بمشاهدته والمشارك فيما يعرض من أمور دنياه ودينه ، والمقتنى منه خلقا يتحلى به » . قال الدرجينى : « ومكث أبو نوح فى وارجلان على هذا الحال زمانا » (15) .

ويظهر ان شخصية أبى صالح جنون كانت مسؤولة فى المكان الاول عن ازدهار الحركة العلمية وانتظام الحياة الدينية والاستقامة الخلقية فى وارجلان ، وذلك لما له من نفوذ واسع وتأثير مباشر ولما يبذل من المال الطائل فى دعم تلك الحركة العلمية والنفقة

(13) السابق : 1 : 144 .
(14) السابق 1 : 145 .
(15) السابق .

على الشيوخ والطلبة هو وأمثاله مـن أهل المال والفضل كالشيخ أبى عمرو التناوتى وبوفاة أبى صالح تضعضع ركن هام من اركان هذه الحركة فنجحت مظاهر التهـاون بالدين والاستخفاف بأحكامه بل والتجهم لعلمائه وائمته ، وهذا أبـو نـوح سعيد ابن زنغيل بعد خروجه عن وارجلان وتقلبه فى مواطن من افريقية يعود الى واجـلان من جديد ، وفى مخيلته تلك الصورة القديمة المشجعة المؤنسة فاذا به « يجد البلد بعد موت الشيخ أبى صالح جنون بن يمريان قد فسد ، والاحوال على غير ما عهد » (17) ٠

وقد لخص أبو نوح مآخذه على الحياة الدينية والاجتماعية فى وارجلان فى الآتى :

1) انتشار نكـاح السر ٠

2) والثانية « ان أحدكم يطلق عبيده فلا يعولهم ولا يمونهم ولا يكفيهم طلب معاشهم فينطلقون فى أموال الناس على غير رضى أصحاب الاموال ، وعلى غير اذنهم فيكاد يكون أحدكم سارقا وهو فى محرابه جالس » ٠

3) والثالثة انكم اظهرتم فيما بينكم التخرب والتفرق ، فطائفة منكم يقولون مسجدنا ومسجدكم ، وطائفة يقولون حضرينا وحضريكم ، ويهودينا ويهوديكم » (18) ٠

وقد ادرك أبو نوح أن واقعا كهذا لن يشجع على حركة علمية دينية ملتزمة خاصة بعد أن بذل جهده فى وعظهم ونهيهم ولكنهم تلكأوا فى الرد عليه والاعتذار عن تلـك الحال أو الاقلاع عنها ، فارتحل عنها نهائيا ٠

وهكذا ، ولفترة وجيزة ، لم تستطع وارجلان ان تستقطب عناصر الحركة العلمية الاباضية التى رفع مشعلها بعد هذا الدور فيما حولها من الاصقاع علم من اعلام القرن الرابع هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن بكر الفرسطائى ، يمثل هذا الشيخ حلقة وصل بين مرحلتين من مـراحل الحياة العلمية والسياسية فى المجتمعات الابـاضية بالمغـــرب ٠

(17) الدرجينى : 1 : 154 ٠
(18) السابق : 1 : 155 ٠

فاذا كانت جهود من قلبه قد اتجهت الى محاولات سياسية وعسكرية لاعادة بناء الدولة الاباضية وترسيخها على انقاض الدولة العبيدية كما حاول أبو يزيد مخلد بن كيد وبعده أبو خزر يغلا بن زلتاف ورفيقه وتلميذه أبو نوح سعيد بن زنغيل ، فان أبا عبد الله محمد بن بكر قد انصرف بجهوده كلية الى بناء حركة علمية تربوية منظمة تنظيما دقيقا للمحافظة على استمرارية البناء الإجتماعي والدينى والعلمى للمجتمعات الاباضية حين خبر ما انتهت اليه تلك المحاولات السياسية قبله من انهاك للامة وتبديد لطاقاتها واضعاف لامكاناتها . ولد الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن بكر حوالى عام 345 هـ على ما حققه الشيخ بكلى عبد الرحمن (19) ، وتوفى سنة 440 هـ باتفاق المصادر (20) بتين ابسلى (بليدة اعمر) اليوم ، ودفن فيها . وهو نفوسى الاصل من (فرسطاء) بجبل نفوسة بليبيا . وقد تنقل فى بلاد الاباضية ما بين ليبيا والمغرب فى رحلات عديدة وتلقى العلم على شيوخ عدة ولعل أهم وأكبر شيوخه الشيخان أبو نوح سعيد بن زنغيل وأبو زكريا بن أبى مسور . قال الدرجينى : « وكانت لكل واحد منهما به عناية وله فيه حسن نظر » (21) وقصد مدينة القيروان وأقام بها مدة يتلقى علوم اللغة والنحو .

وبعد دراسة عميقة مستوعبة لاحوال مختلف الديار التى تنقل فيها ، وبناء أيضا على أمر شيخه وتوصيته لبعض تلاميذه ، استقر رأيه على الانتقال الى مغراوة ريغ (وغلانة اليوم) وقال : ها هنا ناس رقاق القلوب ارجو أن ينتجع فيهم الاسلام ويتلقوا ما نحن عليه بالقبول ويكونوا لهذا الخبر أهلا (22) . وقد عقد الحلقة وجلس للتدريس فى أريغ سنة 409 هـ ، ثم انتقل عنها الى يتسلى (بليدة اعمر) وأسس بها الحلقة وأرسى قواعد نظام العزابة وصاغه فى صيغته النهائية . ويذكر الشيخ بكلى عبد الرحمن أن أبا عبد الله محمد بن بكر قد سبق الى هذا النظام ولكنه حرره وكتبه ودون قواعده

(19) فى تقييدات عنده تكرم وعرضها على عند مقابلة معه بتاريخ 1976/12/30 .
(20) أبو الربيع الوسياني : السير : (مخطوط) ص 32 والدرجينى .
(21) الدرجينى : الطبقات : 1 : 167 .
(22) السابق : 1 : 170 .

فعرف به ، وانما كانت هذه الطريقة نتيجة دراسات ومداولات بينه وبين شيخه أبى زكريا بن أبى مسور ويؤكد هذا الكلام قول الدرجينى فى كتاب الطبقات : « فهذا سبب قعود الحلقة المباركة الصادرة عن أكرم مشاركة بين الشجرتين الصليبتين المسورية والبكرية بخطبة واجابة كانتا فى الله فتولدت بينهما الانوار البهية » (23) .

ونستطيع أن نجزم بأن أهم انجاز فى اطار الحركة العلمية فى هذه الديار وفى هذه المرحلة ـ نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس ـ كان وضع هذا المخطط المحكم لنظام الحلقة وارساء آدابه وقوانينه وترسيخها فى أوساط المجتمعات الاباضية مما أعان على دعم الحركة العلمية على أسس ثابتة ومنظمة .

وكنت أود لو سمح المجال أن أذكر طرفا من هذه الآداب والقوانين التى تتعرض لنظم الدراسة والحياة فى الحلقة وما يتعلق بها من السلوك والعبادة ، وحسبى أن أشير هنا أنها جمعت بين التعليم والتكوين وبين التدريس والتوجيه وبين الشكل والروح والجوهر والمخبر ... وتفاصيل هذه التراتيب مذكورة فى الطبقات للدرجينى ـ وهى كذلك عند البرادى فى الجواهر ، وقد تناولها دارسون معاصرون بدراسات ومناقشات مفصلة (24) .

كان يتولى التدريس واعداد الطلبة فى هذه المرحلة ثلاثة شيوخ فكان أبو يعقوب وهو شيخ كان بنفوسة امسنان مقصدا للمبتدئين فاذا انتظموا فى حلقته علمهم السير وآداب الصالحين ، ثم ينقلهم الى محمد بن سودرين فيجرون قراءة القرآن ويتعلمون اللغة والاعراب ثم ينتقلون الى أبى عبد الله بن بكر فيعلمهم أصول الدين والفقه « فكانوا يشبهونهم بثلاثة نجارين احدهم يحسن قطع الخشب ، والثانى يشقها وينشرها، والثالث يركب الالواح ويسمرها فيما يصلح من الادوات » (25) .

وقد كان الشيخ يخرج للحلقة فى آوان الربيع الى بادية بنى مصعب ، وبفضل جهوده ومساعيه استمالهم الى طريقته واصبحت ديار بنى مصعب فيما بعد مظهرا متصلا

(23) الدرجينى : 1 : 170 .
(24) انظر مقال (الحلقة) Halka فى دائرة المعارف الاسلامية الطبعة الثانية .
(25) الوسيانى السير : (مخطوط) ص 32 ، الدرجينى : 2 : 398 والشماخى : السير : 517 .

لتلك الجهود المثمرة التى استطاعت أن ترسخ مثل الاسلام وقيمه وتحافظ عليها على مر الزمان • وكان يوزع تلامذته على الاحياء فى افريقيا للتعليم والارشاد (26) ، وبذلك استطاع ان يوسع آفاق حركته فى كل الديار الاباضية بين جــربة وورارجلان ، وان يحافظ على مثل الاسلام واخلاقه بين الناس بما أوتى من حسن التدبير وجميل الرأى •

وكان يشجع طلبته على مطالعة الكتب وتأليفها وقد نبغ منهم عدد كبير ساهم فى الكتابة والتأليف وتركوا آثارا علمية جمة ذات قيمة كبيرة •• حــذوا فى ذلك حــذو شيخهم أبى عبد الله ، وقد نصب من نفسه قدوة لهم • قال الشماخي : « وله فى كل فن تآليف كثيرة» (27) ومن هؤلاء العلماء الذين ساهموا فى حركة التأليف الشيخ أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتى المتوفى سنة 471 هـ (28) • تلقى العلم عن أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن بكر ، ثم رحل الى جربة لاستكمال تعليمه بها على أبى محمد ويسلان بن أبى صالح وزكريا ويونس • وهناك عقد الحلقة لتدريس أصول الــدين ووفد عليه الطلبة من كل ناحية وألف فى العقائد كتابا نفيسا جليل الفائدة فى جزأين سماه « التحف المخزونة والجواهر المصونة » وتوجد نسخ مخطوطة منه (29) •

ومنهم أيضا أبو العباس احمد بن محمد بن بكر متوفى سنــة 504 هـ (30) تلقى العلم على أبيه وعلى أبى الربيع سليمان بن يخلف • وألف الكتب فى أكثر من ميدان ، ومن كتبه كتاب الجامع فى الفروع ويعرف بأبى مسألة ، كتبه بناء على طلب أبى عبد الله محمد النفوسى الابديلانى ، فى جزأين وقد طبع بزنجبار • وله كتاب القسمة ، وكتاب أصول الارضين فى عدة مجلدات وكتاب تبيين أفعال العباد فى علم الاخلاق على أسس اسلامية محضة فى ثلاثة أجزاء ، ومسائل التوحيد ، رسالة مختصرة فيما لا يســع جهله ، (معدة للنشر) • وكتاب مسائل الاموات وكتاب الدماء ، وكتاب الالواح ، وهذه

(56) الدرجينى : الطبقات : 1 : 186 ـ 187 ، الوسيانى : السير : ص 32 •
(27) الشماخى : السير : 384 •
(28) الدرجينى : السابق : 2 : 428 •
(29) انظر وصف هذه المخطوطة فى مقالتنا عن المخطوطات الاباضية
(30) الدرجينى : 2 : 446 ، وأخباره هناك صفحات 442 ـ 446 •

الكتب كلها موجودة فى خزائن المخطوطات فى مصر وجبل نفوسة وجربة ووادى ميزاب (31) ٠

قال الدرجينى : « انه لما دنت وفاته أودع علومه الكتب فصنف تصنيفات خمسة وعشرين كتابا وكتابا آخر تركه فى الالواح » (32) ٠ وتذكر الروايات انه قد عرض جميع ما صنف غير كتاب واحد تركه فى الالواح فى أجلو ٠ ورغب الاشياخ فى وصولها اليهم بايفران من قرى وارجلان فعرضها عليهم ولده ، وهؤلاء الاشياخ هم اسماعيل وحمو بن المعز وأيوب بن اسماعيل وداود بن واسلان ، وأبو سليمان الزداغى (33) ٠

وكان له حرص على العلم ، واهتمام بالمكتبات ، وقد ذهب خصيصا الى جبل نفوسة للمطالعة فى مكتبة قصر «ولم» الشهير ويقع فى قمة جبل مرتفع يشرف من ناحية الشرق على مدينة شروس ٠ ومكث فى تلك المكتبة أربعة أشهر لاينام ليلا ولا نهارا الا فيما بين أذان الصبح الى طلوع الشمس ٠ قال : « فنظرت فى اثناء ذلك فيما هناك من كتب المذهب التى وصلت من المشرق فاذا هى نحو 33 ألف جزء فتخيرت أكثرها فائدة فقرأتها حينئذ » (34) ٠

وممن ساهم فى حركة التأليف من هذه الطبقة الشيخ تبغورين بن عيسى الملشوطى ، وكان كما يقول الشماخى : « من أعظم الناس قدرا ومن أكثرهم علما ومن أشدهم عملا » قال : « وله تآليف فى العقائد تدل على نباهة شأنه ورفيع درجته » (35) ٠

ومن مؤلفاته كتاب « الجهالات » وهو رسالة صغيرة فى مسائل الكلام شرحها أبو عمار عبد الكافى فى مجلد متوسط ٠ وله كتاب « أصول الدين » تكلم فيه فى مسائل العقيدة وناقش الاصول العشرة : التوحيد ، والقدر ، والعدل ، والمنزلة بين المنزلتين ، وألا منزلة بين المنزلتين ، والولاية والعداوة ، والامر والنهى والاسماء والصفات والاسماء

(31) انظر وصف هذه المخطوطات فى مقالنا المشار اليه
(32) الدرجينى : الطبقات : 2 : 444 ٠
(33) السابق ٠
(34) السابق : 445 ٠
(35) الشماخى : السير : 432 ٠

والاحكام ثم عقب عليها بمناقشة مسائل الرؤية ، والشفاعة والصراط والميزان وعذاب القبر وغيره ، وهو كتاب جيد التصنيف حسن التبويب سهل العبارة وقد حققته تحقيقا علميا ، وترجمته الى اللغة الانجليزية بالتعاون مع الاستاذ الدكتور Trover Le Gassick أستاذ الادب العربي الحديث في جامعة متشجان Mitchigan وهو معد للنشر .

وقد ذكر الشيخ عبد الله السالمي من علماء عمان أن لتبغورين بن عيسى رسالة « الادلة والبيان » في أصول الفقه (36) ، ولم أرها ولم أطلع عليها .

وعرفت الحركة العلمية في هذه البلاد ، وفي هذه المرحلة صورة جديدة من التاليف المشترك ، وهو يشبه الى حد كبير ما يعرف اليوم بالموسوعات العلمية حيث يساهم العلماء كل في تخصصه الذي يحسنه في كتابة كتاب متكامل ـ ومن هذا اللون كتاب الديوان الذي ألفه ثمانية شيوخ وجعلوه خمسة وعشرين جزءا (37) .

وشبيه بهذا العمل الجماعي ديوان الاشياخ الذي ألفه علماء الاباضية في غار أمجماج بجربة ..

وقد عرضت تلك الاجزاء كلها « أجزاء ديوان العزابة » على لجنة عليا تتألف من المشائخ الثلاثة : أبو العباس أحمد بن محمد بن بكر ، وأبو الربيع وأبو محمد ماكسن ابن الخير .

وكان الشيخ ماكسن ممن قطن وارجلان وأقام فيها فترة طويلة يواصل جهود من سبقه في احياء الحركة العلمية بوارجلان .. وكذلك فان الشيخ أبا سامان داوود بن أبي يوسف ترك بها (بوارجلان) جماعة من التلاميذ واليهم رجعت الرئاسة في العلم ، وبهم استردت وارجلان مكانتها العلمية من جديد ، يذكر الدرجيني رواية عن أبي الربيع سليمان بن يخلف قال : « فقد الناس من مسائل الحلال والحرام أكثر مما فقدوا من مسائل علم الكلام والجدال ، ولا أعلم اليوم من يقرأ عليه علم الفروع الا أن يكون أحدا من تلامذة أبي سليمان داوود بن أبي يوسف فان منهم جماعة بوارجلان (38) .

(36) السالمي : اللمعة المرضية في اشعة الاباضية : 10 .
(37) الدرجيني : 2 : 256 ، الشماخي ، 431 .
(38) الدرجيني : الطبقات : 2 : 459 .

وبعد هذه المرحلة نبغ فى وارجلان عالم جليل أعطى دفعة قوية للحركة العلمية فيها بعلمه وماله وسخائه ، وأحيا من جديد ذلك الدور الذى رأيناه من قبل على أيام أبى صالح جنون بن يمريان هذا الشيخ هو أبو اسماعيل أيوب بن اسماعيل • عقد حلقة الدرس فى وارجلان ، وكان الطلبة يقصدونه بها من كل جهة ، وقد كان كثير الابرار لطلبته يؤاسيهم وينفق عليهم مسخرا لذلك كل ما له •

ومن بين تلاميذه النابهين الشيخ أبو سعيد سليمان بن على الدرجينى جد مؤلف الطبقات وأبو عمر وعثمان بن خليفة السوفى وأبو عمار عبد الكافى بن أبى يعقوب التناوتى وأبو يعقوب يوسف بن ابراهيم بن مناد السدراتى الوارجلانى ، وهؤلاء الاعلام من طبقة بلغت شأوا فى العلم والتأليف لم تسبق اليه ولم تلحق فى مضماره ، فأغنوا بتآليفهم الكثيرة المكتبة الاسلامية عموما والمكتبة الاباضية خصوصا ••

واذا كانت مساهمة هؤلاء الاعلام فى هذه الحركة العلمية من أزهى العصور التى رفعت مكانة وارجلان وأحلتها محل الصدارة من جديد ، فان فضل ذلك يرجع فى المكان الاول الى شيخهم وأستاذهم أبى اسماعيل أيوب بن اسماعيل ، فقد ترعرعت هذه الحركة وازدهرت بفضل توجيهه ورعايته ، وحسن قيامه بشؤون الطلبة وابراره لهم •

وتذكر كتب السير مدى تعلق طلبته به وشدة ارتباطهم بهذا الشيخ ومن صور ذلك قصيدة أبى يعقوب الوارجلانى البائية فى رثاء الشيخ أيوب ونقتبس منها الابيات التالية :

يقول :

بكت السموات العلا ونجومها — حزنا عليه والفلا والروب
واستوحشت منه المساجد كلها — لما خلت منه وحن النيب
واستشعر التقوى شعارا خالصا — قد ثاره الترغيب والترهيب

ويقـــول فيهـا :

يـا غائبـا مـــا تنقضي حسراتنا ... أبـدا عليـه ولات حـين يئـــوب
يا غائبا سكن الثـرى فى حفـرة ... تعلـو الصفائح قبـره والطـوب
ان غبت عـن ابصـارنا وسماعنا ... لـم تحتجبك عـن القلوب غيـوب
قـد كان آن لك الجـواب لسـائل ... يدعو ، ويسأل ، كيف كنت تجيب
مـا كان ضرك لو أجبـت نـداءه ... ان الحشـا ضـرم ، وأنت قـريب

وهى قصيدة طويلة أوردها صاحب الطبقات كاملة (39) .

وأحب أن اخصص هذا القسم الاخير لاربعة من أعلام الحركة العلمية فى وارجلان ونواحيهـا هــم :

1 ـ أبو عمرو عثمان بن خليفة المرغنى السوفى ، وهو وان كان من سوف الا أنه قد تلقى علومه فى وارجلان ، فهو لذلك جزء من هذه الحركة العلمية ونبت مـن نباتها الزكى المبارك . قال الشماخى : « كان اماما ولا سيما فى العلوم » (40) قال : « وله من التآليف كتاب السؤالات وهو تأليف ، مفيد أظهر فيه منزلته من العلم » (41) ويورد الشماخى ملاحظات أخرى حول كتاب السؤالات لا بأس بايرادها هنا لانها تصور لنا لونا من ألوان التآليف المعروفة عند علماء هذه الديار ، قال الشماخى : « وأبو موسى عيسى بن عيسى النفوسى هو الذى ألف كتاب السؤالات التى رويت عن أبى عمرو عثمان بن خليفة املاء الشيخ أبى يعقوب يوسف بن محمد ، وعرض الكتاب على الشيخ أبى صالح نوح بن الشيخ ابراهيم وعلى الشيخ المعز بن جفاو (من أئمة الكلام واللغة والفقه) » . (42)

(39) الدرجينى : الطبقات ، 2 ، 262 ـ 269 .
(40) الشماخى : السير 40 .
(41) السابق : 441 .
(42) السابق : 524 ـ 529 .

وكتاب السؤالات مزيج من البحوث الكلامية واللغوية غاية فى التحقيق والتفصيل، وتوجد منه مخطوطات عديدة فى جبل نفوسة وجربة ومزاب ، وعليه شروح وحواش للمتأخرين ·

قال الشماخى : « وله تآليف غيرها » يعنى السؤالات ، ويوجد منها رسالة مختصرة فى فرق الاباضية طبعت فى الجزائر ضمن مجموع بدون تاريخ ·

2 ـ الشخصية الثانية : أبو عمار عبد الكافى بن ابى يعقوب التناوتى ، أخذ العلم بوارجلان ثم ارتحل الى تونس وأقام فيها أعواما يتلقى علوم اللسان والمنطق ورجع منها بعد أن قضى نهمته من العلم فاستقر بين وارجلان وجبال بنى مصعب ، وله أجوبة ومراسلات ومؤلفات لها شأن ، أهمها كتاب الموجز فى مقالات الاسلاميين وغيرهم فى جزأين ، وله شرح الجهالات وهو كتاب حسن التصنيف جيد البحث شرح فيه بعض المسائل الكلامية التى اجملها الشيخ تبغورين بن عيسى فى كتاب الجهالات · وله مختصر فى الفرائض ، وهو الذى رتب اسناد الطريقة الاباضية فى طبقات قسمها على سنوات التاريخ تشغل كل طبقة خمسين سنة ما بينه وبين هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ·

وقد ضمنها الشيخ الدرجينى فى أول الجزء الاول من الطبقات (43) · وكان أبو عمار رحمه الله سخيا جواد النفس فرغ كل جهده للعلم والتأليف فكان كما قال عنه الدرجينى : « سببا فى بعث الحركة العلمية الاباضية واحيائها وتصدر بوارجلان للتدريس والفتوى وحل ما يرد عليه من المعضلات » · (44)

وذكر عيسى بن أحمد أن أبا عبد الرحمن الكرثى كتب الى جماعة الشيوخ بوارجلان كتابا يسألهم سؤال مسترشد قال : « فلما ورد عليهم كتابه لم يروا نفوسهم أهلا لمجاوبته الا أبا عمار فجاوبه عن جميعها ـ وقد أورد الدرجينى نص الاسئلة وجوابه عليها فى الطبقات » · (45)

(43) الطبقات : (طبعة طلاى ابراهيم) 1 : 6 ـ 10 ·
(44) الطبقات : للدرجينى : 2 : 485 ·
(45) السابق : 2 : 488 ـ 489 ·

وكذلك بعث اليه رجل من عمانه يسمى عبد الوهاب بن محمد بن غالب بن تمير الانصارى رسالة يسأل فيها عن مسائل علم الكلام ، فتوفى رحمه الله وأجاب عليها أبو يعقوب ، وهى مضمنة فى كتاب الدليل والبرهان . (46)

3 — الشخصية الثالثة : أبو يعقوب يوسف بن خلفون المزاتى وكان محققا بلغ الغاية فى علم الاصول والفروع كثير الاطلاع على مسائل الاتفاق والاختلاف وله مساهمة طيبة فى التدريس والتأليف والموجود من مؤلفاته رسالتان احداهما رسالة جيدة التأليف فى الفقه المقارن فصل فيها الجواب على عدد من المسائل التى يدور فيها الخلاف ، وذكر فيها مذاهب علماء الامصار ومختلف الائمة وساق فيها الادلة وما احتج به صاحب كل مذهب فى صورة تدل على سعة اطلاعه ورحابة صدره وصدق منهجيته . وقد نشرت محققة سنة 1972 م . وله رسالة أخرى تشتمل على مواعظ وتنبيهات فقهية هامة كتب بها الى جبل نفوسة ، وهى مفقودة مع الاسف .

وقد جر عليه تفتحه العلمى وكثرة مطالعاته فى كتب الخلافيات الكثير من الاعنات من بعض معاصريه ، ولكن مسلكه الذى نهجه كان أجدر بالظهور والقبول لتجاوزه حدود التقليد الجامد الى الاصول الاولى ، ولنفاذه من الاحكام المجردة الى مناقشة الادلة فى مصادرها الاصيلة . وأصبح هذا الطابع السمح سبيل من جاء بعده من علماء المغرب الاباضية ممن كتب فى الفروع والاصول .

4 — أما شخصية وارجلان الفذة ، وفيلسوفها الكبير ، فهو أبو يعقوب يوسف ابن ابراهيم مناد السدراتى الوارجلانى (الذى توفى سنة 570 هـ) (47) تلقى دروسه الاولى فى وارجلان على شيوخه أبى اسماعيل ايوب بن اسماعيل وطريقته ، ثم رحل الى قرطبة بالاندلس فاغترف من علومها ومعارفها فى أوج ازدهار جامعاتها بالعلوم والمعارف فصار كما قال الدرجينى : « له فى كل جو متنفس وفى كل نار مقتبس ، له

(46) الوارجلانى : الدليل والبرهان (مخطوط) (بخزانة الشيخ محمد ببانو ابن يزجن) 23 ظ — 30 ظ .

(47) انظر اخباره فى السير للشماخى ، ص 443 وما بعدها ، والدرجينى : الطبقات 2 : 491 وما بعدها .

يد فى علم القرآن وفى علم اللسان وفى الحديث والاخبار ، وفى رواية السير والآثار وعلم النظر والكلام والعلوم الشرعية عباداتها والاحكام ، وعلم فرائض المواريث ومعرفة الرجال ، ولم يخل من اطلاع على علوم الاقدمين . قال : « بل حصل مع ملازمة السنة قطعة من علم الحكماء المنجمين » (48) وله أسفار كثيرة ورحلات ومغامرات فى مجاهل افريقيا وغيرها من البلاد يشير فى ثنايا كتبه الى بعض ما وقع له فيها من غرائب خصوصا كتاب الدليل والبرهان .

واستقر أبو يعقوب فى وارجلان حيث تفرغ للتأليف والتعليم وذكر عنه أنه أقام فيها سبعة أعوام ملازما داره لا ينصرف يشتغل بالنسخ والتأليف لا يصرفه عن ذلك شيء سوى قيامه لاداء فرضه (49) . قال الدرجينى : حدثنى بعض الثقاة قال : « وقفت ببلادنا قسطيلية وسوف وأريغ ووارجلان على سبع نسخ أو ثمان من كتاب العدل والانصاف كلها بخط يده » . (50)

أما مؤلفاته : فقد كتب فى التفسير كتابا جليل القدر ، وهو مفقود مع الاسف ، وصف البرادى ما رآه منه وصفا يدل على القيمة العلمية الرفيعة لهذا التفسير : قال البرادى : « وهو كتاب عجيب رأيت منه فى بلاد أريغ سفرا كبيرا لم أر ولا رأيت سفرا أضخم منه ولا أكبر منه ، وحزرت أنه يجاوز سبعمائة ورقة ، فيه تفسير الفاتحة والبقرة وآل عمران ، وحزرت أنه فسر القرآن فى ثمانية أسفار مثله ، فلم أر ولا رأيت أبلغ منه ولا أشفى للصدور فى لغة واعراب أو حكم مبين أو قراءة ظاهرة أو شاذة أو ناسخ أو منسوخ أو فى جميع العلوم ... قال البرادى : ولعمرى ان فيه لعلوما جمة » . (51)

أما فى علوم الحديث فقد أعاد ترتيب المسند مسند الربيع بن حبيب وترتيبه هو المتداول اليوم ، وألف رسالة فى التعريف برجال المسند وهذه الرسالة مفقودة .

(48) الدرجينى : 2 : 491 .
(49) السابق : 492 .
(50) السابق : 2 : 492 .
(51) نقلا عن اللمعة المرضية : 77 .

وله فى أصول الفقه كتاب جليل هو كتاب العدل والانصاف فى ثلاثة أجزاء ، وقد أتممت تحقيقه واعداده للنشر ، وهو من خيرة المؤلفات فى بابه ليس فى المكتبة الاباضية فحسب بل فى المكتبة الاسلامية كلها ٠

وله كتاب الدليل لاهل العقول ، فى أصول الدين ومباحث علم الكلام والمنطق والفلسفة فى ثلاثة أجزاء ، طبعة حجر بمصر وتوجد منه مخطوطات عديدة ، وقد اهتم به بعض الدارسين المعاصرين وترجموا فصولا منه ٠

وله اجوبة كثيرة فى مختلف الفنون ٠ قال الشماخى : « ولا أحصى ما رأيت له من الاجوبة كثرة » ٠ (52)

وله ديوان جمعت فيه قصائده (53) ، والمعروف منها اليوم قصيدتان القصيدة البائية فى رثاء شيخه ايوب بن اسماعيل ، وقد ضمنها الدرجينى كتابه الطبقات ٠ والقصيدة الحجازية ومطلعها ٠

عذيرى عذيرى من ذوات المعاجـر   ذوات العيون النجل بيض المحاجر
ذوات الشفاه اللعس بالظلم واللمى   غرائـر خرق الصنع سود الغدائر

وهى قصيدة طويلة على عدد أيام العام بدأ فيها بغزل رقيق ثم ذكر الرحلة على وأرجـلان :

خرجنا نؤم الحج من حيز وارجـلا   بفتيان صدق من وجـوه العشائر

ووصف الطريق منزلة منزلة فى سيرهم حتى وصلوا ، وذكر المناسك ، ثم فعل كذلك حتى خرج ، ووصف طريق العودة حتى وصوله الى ورجلان ٠

حيث يقول وقد خلف خلفه هول الطريق وشدته :

حللنا بواد الخير واللحـم والقرى   بهاتا وهاتا فى الصحارى المناكـر
جزى الله عنا وارجلا خير ما جزى   به بلدا عن طالب الخـير صائـر
هو الجنة الدنيا وأبـواب مكـة   وأبواب تبـر غانـة والدنـانـر

(52) الشماخى : السير : اخبار ابى يعقوب 443 وما بعدها ٠
(53) الدرجينى : 2 : 460 ٠

ثم خرج الى شيء من علم الحدثان ، ثم وعظ أحسن وعظ وتذكير ··· وتوجد منها نسخ مخطوطة فى مكتبات جربة وميزاب ·

ويذكر أن أبا يعقوب كتب كتابا فى التاريخ (54) ولم أتحقق من ذلك ولعل التنقيب والبحث يكشفان عنه من بعد ، على أن الموجود من كتابات أبى يعقوب وتآليفه يضعه فى مصاف أعلام الاسلام الذين رفعوا راية العلم وأذكوا جذوة المعرفة ·

ولابد من الاشارة هنا الى اننى فى هذه العجالة قد تعمدت ذكر مشاهير العلماء ممن نبغ بهذه الديار فى الفترة الزمنية التى حددتها فى عنوان هذه الخلاصة ، وهناك العدد الكبير ممن هم فى درجتهم فى كفاحهم العلمى والدينى ، واذا كان ضيق المجال يمنعنا من التفصيل والتطويل فلابد من ادراج اسمين آخرين بين هذه المشاعل الوارجلانية ، واليهما يرجع الفضل فى حفظ هذه الآثار ونشرها وابرازها بما كتباه من سير أئمتها وعلمائها وبما دوناه من أخبارها هما أبو زكرياء يحيى الوارجلانى صاحب كتاب السير (55) ، والشيخ أبو العباس أحمد بن سعيد الدرجينى صاحب كتاب الطبقات (56) · فالاول وارجلانى أصلا والثانى وان كان من الحامة من جنوب القطر التونسى الا انه درس فى وارجلان وتلقى بها علومه ، وكذلك والده وجده ··· فهو أثر من آثار تلك الحركة ونبتة زكية منها ·

ونختم هذه الخلاصة بالملاحظات التالية :

ـ لقد كان لوارجلان وبيئتها كمركز تجارى كبير ، ومحطة حيوية لرحلات القوافل التى تربطها بما حولها من كل الجهات وما تتمتع به من أمن نسبى ، كان كل ذلك من المقومات التى جعلتها ملجأ لزعماء الاباضية وعلمائهم يفيئون اليها ينشدون الاستقرار فيها ويتخذونها قاعدة لنشاطهم ومحاولاتهم المتصلة لاحياء الحركة العلمية ونشرها ·

(54) بكلى عبد الرحمن : مقدمة كتاب طبقات مشائخ المغرب للدرجينى : ص : ى وكذلك ترجمة الامام أبى يعقوب للشيخ أبى اليقظان ابراهيم (مخطوط) ·

(55) أنظر أخباره فى الطبقات للدرجينى : 448 وما بعدها والشماخى :

(56) أنظر أخباره فى مقدمة الشيخ بكلى عبد الرحمن المشار اليها آنفا صفحات : (ى ـ ن) ·

– بالرغم من ورود بعض الاشارات فى كتب السير ، مما يـدل على أن ورجلان لم تكن فى مجموعها ترحب بالحركة العلمية ومسؤولياتها الا أن المنطقة كلها بما فى ذلك وارجلان لم تخل فى أية مرحلة من مراحل هذه الفترة التاريخية من شخصيات ذات أثر ونفوذ دعمت الحركة العلمية وآزرتها بالمال والعلم وأسباب النمو والازدهار .

– كانت وارجلان مصدر اشعاع علمى تجاوزها الى بلاد بعيدة مثل غانة وجبل نفوسة وجبال بنى مصعب وتمثل هذا فى الرسائل والاجوبة التى كانت ترد عـلى علمائها من هذه الاصقاع فكانوا يكتبون بأجوبتهم عليها وقد حفظ لنا التاريخ عددا من هذه الرسائل والاجوبة والمؤلفات .

– على أن طبيعة وارجلان كمركز تجارى هام يفتح أبوابه للوارد والصادر ويفتح صدره لكل مغامر ينشد الثراء ويستكشف مجاهل الصحراء ، هذا الطابع كان ذا أثر واضح فى توسعة آفاق الحركة العلمية فيها والخروج بها الى آفـاق رحبة سمحة سواء فى أنواع العلوم التى اهتم بها علماء وارجلان ، وقد شملت الفلسفة والنجوم – وهى علوم لا تجد تشجيعا فى الاوساط الاباضية المحافظة عادة – أو فى طريقة البحث والتناول التى خرجت من اطار الدراسة للمذهب الواحد الى دراسة شمولية للفكر الاسلامى فى مجموعة كما ظهر فى كتابات الوارجلانى وابن خلفون وأبى عمار وغيرهم ، أو فى الاتصال بمراكز الدراسة ومعاهد العلم الاسلامية خارج بلاد الاباضية كقرطبة فى الاندلس كما هو الحال مع أبى يعقوب الوارجلانى وكذلك تونس والقيروان كما هو الامر مع أبى عبد الله محمد بن بكر وأبى يعقوب عمار عبد الكافى .

فهذه الملامح التى حاولت رسمها هنا فى هذه الخلاصة العابرة هى فى الواقع قليل من كثير ، واذا استطعت أن أضع أمامكم صورة عامة لتلك الحركة العلمية المزدهـرة التى اتصلت وامتدت وما تزال فاننى آمل أن يوجه الباحثون من الشباب الجزائـرى وغيرهم من العلماء بعض جهودهم الى الكشف عن هذه الكنوز واحيائها ونشر محاسنها ليعلم العالم كله أن كل حفنة من تراب فى أرض الاسلام قد تشبعت منذ ارتفع فى الافق نداء **لا اله الا الله محمد رسول الله** ، بدماء الشهداء جنبا الى جنب مع مـداد العلماء ، وأن هذه الامة التى أضاءت المشعل أمام الانسانية فى الماضى تستعد للقيام بذلك الدور من جديد ، ونحن نرجو أن يكون نصيب الجزائر فى ذلك النصيب الكبير الوفـــير .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .



السيد سالم عزام ، أمين عام المجلس الاسلامى الاوروبى (لندن) يلقى كلمته فى جلسة الافتتاح ٠

دور الرستميين في وحدة مغرب الشعوب

د . ابراهيم فخار
أستاذ التاريخ ـ جامعة وهران



من الموضوعات الهامة والغامضة فى تاريخ المغرب الاسلامى الوسيط ، موضوع بنى رستم الذى استهوى العديد من الباحثين والمتخصصين كما ظل ولا زال يظل الكثير من المؤرخين والمتطلعين الى دراسة التاريخ .

وهو ـ أى الموضوع ـ ان استهوى ثم ألهم عددا من رجال الفكر والسياسة والمتطلعين فى تاريخ الامم والشعوب فلانهم لم يهتموا ببنى رستم كأسرة حاكمة توارثت الحكم أبا عن جد انما ربطوا تاريخ الرستميين فى المغرب بمبادئهم ونظرياتهم ثم نظروا الى علاقة شعوب المغرب عامة بحكام تاهرت ودور هؤلاء فى وحدة مغرب الشعوب . ولا اخالنى متسرعا فى الحكم اذا قلت : بأن اية دراسة تعتمد على ادراك نفسية الشعوب تسهل على الباحثين التعرف على هوية الحكام وعلاقاتهم بشعوبهم ؛ فكأن العمدة فى هذا الاتجاه هى الشعوب لا الحكام ،

أو بالاحرى الشعوب قبل الحكام ، لان السلطة السياسية لا تاخذ طابع الشرعية ما لم ترتكز على ارادة الشعوب •

وأما كون موضوع بنى رستم قد ظل ولا زال يظل اغلب المؤرخين والمتحمسين لدراسة التاريخ ؛ فذلك راجع فى رأينا الى أمور :

أولا : الى الغموض الذى يكتنف الرستميين لا من حيث الاتجاه السياسى الواضح ، ولكن من حيث الاتجاه العقائدى والظروف النفسية والاجتماعية التى احتضنت فيها شعوب المغرب عبد الرحمن بن رستم •

ثانيا : الى الهوس الذى أصاب العقلية التاريخية فى مجال كتابة التاريخ الاسلامى العام • فجاءنا التاريخ صورة حقيقية لما اعتور النفوس من هوس المذاهب وتصدع كلمة المسلمين وتفرق شملهم ؛ والتاريخ بهذا المعنى ، زاد بالمسلمين بعد اعز معرفة واقعهم وعمق الهوة بين شعوب القطر الواحد ، مع أن الله واحد ، والقرآن واحد ، وحامل الرسالة واحد •

ثالثا : ويرجع الامر الاخير الى أن المؤرخين لم يكلفوا أنفسهم جهد المشقة فى البحث عن تاريخ الشعوب وحضارتها ودورها التاريخى فى قيام الدول ؛ انما فى سبيل ارضاء ذوى السلطان اختلق هؤلاء المؤرخون كل المبررات لتبرير الحروب والتوسعات وتحقيق المطامع واصفين كل شعب رفض الاستكافة والخنوع ، تارة بشق عصا الطاعة والنكوب عن الجماعة وتارة أخرى بحب الفوضى والنزعة الى الاستقلال ومرة ثالثة فى التاريخ الحديث وصف شهداء ثورة 1954 بالخارجين عن القانون •

لهذه الامور الثلاثة ، تعددت نظرة المؤرخين للرستميين وانقسمت فى دراستها لتاريخ هذه المنطقة فى المغرب الاسلامى الى مدارس ثلاثة :

الاولى : مدرسة المؤرخين الذين لم يكتفوا بجمع أحداث التاريخ وتصويرها ، انما لرغبة أو رهبة ، بالغوا فى تشويه الحقائق وتزويرها ؛ حتى ابن خلدون الذى عدد أخطاء المؤرخين وحدد الاوهام والمغالط التى تقع فى التاريخ ، لم يسلم هو الآخر من هذا الزلل التاريخى وهو يتكلم عن الرستميين ومؤلفات علمائهم التى ضربت بسهم

فى اجادة التأليف والترتيب ؛ ولكنه ، وفى كل مرة يعرض فيها للرستميين ، يعقب كلامه بالضلالة والخروج عن جادة الصواب مع أنه عندما عرض لتاريخ وأصل الادارسة فى المغرب الاقصى بوأهم فرع الدوحة المحمدية النبوية وانكر على الرستميين رفضهم القرابة النسبية ؛ وهذا مثل من عشرات الامثلة التى شوهت التاريخ، وأضاعت الحقيقة التاريخية ؛ لذا فانى أعتقد أن من أوكد واجبات المؤرخين الملتزمين المؤمنين بقضايا شعوبهم أن يعيدوا النظر من جديد فى كل ما كتبه المؤرخون فى التاريخ الاسلامى العام ؛ ولا أكون مبالغا اذا قلت بأنه يجب أن نبدأ كتابة التاريخ المغربى من الصفر ، واضعين فى عين الاعتبار ، التكوين النفسى لكل المجتمعات الاسلامية ، مبتدئين بتاريخ الشعوب الاقتصادى والاجتماعى ثم الثقافى ، لا على أساس تسلسل الاحداث والاسر الحاكمة زمنيا انما على أساس الوحدة العضوية فى الموضوعات ؛ لان الهزات الاجتماعية التى وقعت وتقع هنا أو هناك ، كان منطلقها الرئيسى ، فراغ بيت المال والرغبة الملحة الجامحة فى الاستزادة ، وسد النقص من أى وجه كان ؛ وليس هذا الوجه فى أى حال من الاحوال غير الشعوب التى تضحى بعرق جبينها لتغطية العجز فى مزانية القصور ، ريثما يزج بهذه الشعوب فى غمرة الحروب ، أو توجه ـ فى حالة الرفض ـ ضدها حروب ، وبأموالها ؛ ولا يلبث المؤرخون ان يصفوا هذه الشعوب بالتمرد والعصيان ، مع أن المفروض في الدراسات التاريخية أن يؤرخ المؤرخ للشعوب ثم يأتى التاريخ السياسى فى مرحلة استصدار الحكم ؛ فكأننا والحالة هذه ، قد بدأنا بتاريخ الشعوب ، لان مثل الثورة منها واليها ، ثم عطفنا على الحاكم ؛ ان كان نابعا من ارادتها ودون انحراف فهو بحكم التجانس منها واليها ، وان كان مفروضا على رقابها فلا يمكن أن يكون الا عليها ٠

الثانية : أما المدرسة الثانية التى عنيت بتاريخ الرستميين والتى لا تخرج فى اتجاهها وأهدافها عن المدرسة الاولى ، فهى كتاب ومؤرخو بنى رستم من الاباضية أنفسهم ٠

نعم ، اشتهر أئمة بنى رستم وعلى الاباضية بطول الباع فى العلوم والتأليف ، وتشهد اليوم خزائنهم وأرشيفات أوروبا بالذات بضخامة هذا التراث ؛ ولكنهم عندما

تصدوا للتأليف سيما بعد سقوط دولة بنى رستم تصدوا فى حقيقة الامـــر والواقع للدفاع عن موقف والتعريف بشعب المغربين الاوسط والادنى ؛ فكأنهم بعد ان فقـدوا الامل فى آخر الرستميين من احياء الامامة الرستمية بوارجلان ، أشهروا أقلامهم لانهم كانوا عرضة ـ فى مجال التاريخ ـ للهجوم ؛ وحيث أنهم اتخذوا موقفا دفاعيا مشبوبا بعاطفة وجدنا أمامنا دراسات ومؤلفات وكتب سير لا تختلف فى منهجيتها وتحيزها عن المدرسة الاولى ؛ وان اختلفت عنها شكلا ومضمونا مثلها مثل مؤرخى الشيعة فى رد الفعل الذى سلكته فى الرد على الخصوم ٠

ولكن من الذى استفاد من هذه المجلدات والدواوين وكتب اليسر ؟

ومن الذى استفاد من تذبذب التفكير التاريخى عند المسلمين عامة ؟

لم يستفد أحد من هذه الشطحات الفكرية والصراعات المذهبية الا أصحاب المدرسة الثالثة والاخيرة وهى :

مدرسة المستشرقين والغربيين

حتى لا نقع فى أى غموض والتباس ، أريد توضيح وجه الاستفادة لا على أســـاس المدلول الحقيقى للكلمة ٠٠ انما أرمى الى ان أصحاب هذه المدرسة عندما أرادوا دراسة الرستميين وأتباعهم وشعوب المنطقة التى حكمها بنو رستم ، عمدوا الى كتب التاريخ الاسلامى العام ودرسوا مؤلفات الاباضية دراسة عميقة ومستفيضة ، ثم عرفوا بعـد ذلك كيف يسيرون منهجيتهم فى دراسة تاريخ هذه الشعوب ، بالغين بذلك أعلى مراحل الاستعمار الفكرى والسياسى والاقتصادى ؛ ولا نندهش اذا وجدنا مؤرخى بنى اسرائيل فى جامعة تل أبيب ، يدعمون حقهم التاريخى فى الارض الموعود بها بنصوص مـــن التاريخ الاسلامى ، كما لا نستغرب أمرا أشنع من هذا ، وهو ، أن كل رسالة جامعيـــة تناقش موضوع الرستميين أو أى موضوع يتصل بشعوب العالم الاسلامى الا وتجـد طريقها ـ خفية ـ الى جامعة تم أبيب ؛ وحددت هذا المثل بالذات لانه ابلغ من غيره ٠

أما اذا قـرأنا أو علمنا أن مجموعـة مـــن المخطوطات تسربت الى الفاتيكان ، فذلك لان رجـــال الكنيسة كانـوا أكثـر نشـاطا وحـزما فى خدمـة أغراضهـم وتحقيـق أهدافهـم ٠

ولقد اتخذت دراسة الغربيين والمستشرقين موضوع الرستميين عدة أوجه وشتى الاتجـاهـات ٠

منها من بحث عن العلاقة بين أصل الرستميين الفارسى ، وبين البربر الامـازيغ ، ليبنى نتائج أحكامه الخاطئة ، على أساس العرق والجنس ، وليبعد عن مغرب الشعوب كل المقومات وأسمى الصفات التى كان من أبرزها وأهمها :

- وضوح الشخصية البارزة المتميزة ٠

- الاعتزاز بالارض والانسان والمبادىء ٠

- بعد النظر وعمق التفكير ، مقترنان بضبط النفس فى أحرج المواقف ، ومعرفة جلية للواجب مع اتخاذ المبادرات السلمية التى تعبر عن الهمة العالية ٠

ألم يشكل المغرب الاسلامى ، وفدا سياسيا ، ليعرض على الخليفة هشام بدمشق ، حلـولا سريعة ومساعدة بناءة لانقاذ الخـلافة الاموية من التدهور المالى والاجتماعى ؟ وانطلاقا من هذه المقومات المميزة لشعوب المغرب فى عهد الرستميين أو حتى ما قبلهم ؛ فانى أبادر الى القول بأنه من الخطورة بمكان ، أن نساير هذا الاتجاه الذى يجعل أرومة بنى رستم فى الساسانيين ، وما لـم يثبت لـــدينا بالادلة القطعية بأن عبـد الرحمن ابن رستم من أصل فارسى فلا يمكن قبول هذه الدعوى ، ولو قبلناها عـلى علاتهـا ، فمؤسس الدولة الرستمية نشأ نشأة عربية وظهر فى العراق مع والديه ، قبل رحيله الى المغرب مع زوج أمه التى تزوجت حاجا مغربيا فى موسم الحج ٠

والمستشرقون الذين ركزوا على هذا الجانب وألحوا عليه ، كانوا - بحكم النصوص - فى أمس الحاجة الى تدعيم الفكرة القائلة بأن الرستميين غير مغاربة وبالتالى فهم ليسوا

عربا الا من حيث اللسان ؛ وتبالغ بعض الروايات فتجعل بعض المترجمين (1) ذوى النسبة الفارسية يقومون بالترجمة الى الائمة الرستميين من البربرية الى العربية أو من كلتيهما الى الفارسية • فى كان أغنى الامام أفلح بن عبد الوهاب عن أن يترجم له أبو صالح الفارسى ، بحجة ان كان يملك زمام البربرية التى ألف بها اثنى عشرة ديوانا ، كلها فى الشعر ؛ والمغالطة واضحة والزيغ بين •

ودائما فى خدمة هذه الاهداف ، أخذ بعض المستشرقين يطعن على الفاتحين المسلمين الاوائل من خلال الثورات التى قام بها المغاربة فى وجه الولاة ، فأظهروا الجنود الفاتحين فى صورة جنود مرتزقة ، وأظهروا المقاومة ، وكأنها مقاومة لغزو أجنبى تحت ستار الاسلام ؛ مع أن جل المؤرخين متفقون بأن البربر لم يثوروا ولم يريدوا الخروج عن طاعة الخليفة ، الا بعد التأكد من أن تصرفات الولاة فى الرعية كانت بأمر من الخليفة نفسه • وموقف الوفد المغربى الى هشام يؤكد محافظة شعوب المغرب على وحدة الجماعة الإسلامية والخلافة قبل وحدة المغاربة أنفسهم ، ولما ثبت للمغاربة أن الخلافة عاجزة عن حل مشاكلها الاقتصادية والاجتماعية لجأ مغرب الشعوب الى نوع آخر من الوحدة ؛ وحدة الاهداف العادلة والمبادىء الديمقراطية ، وتقديم ذوى الكفاءات ، فى ظل دولة نابعة من ارادة الشعب تنسجم مبادئها وأهدافها مع المزاج النفسى لمغرب الشعوب ؛ وهذا ما اغفله المؤرخون وغضوا الطرف عنه ؛ واستغله الدارسون الغربيون فى مختلف دراساتهم وبحوثهم • لهذا لا نتصور أن هناك حياة خاصة وسرية للرستميين ؛ وما ظهور الصقالبة كحرس فى أسواق تاهرت الا كوجود المغاربة والمغربيات السنيات فى قصور العباسيين مع اختلاف الفارق فى المغزى هنا وفى الهدف هناك •

لقد كانت قوة الرستميين تكمن فى السلطة الروحية التى توزعتها أقطار مغرب الشعوب ؛ ولم تكن هناك قوات وجيوش ، انما كان التفكير السياسى الواضح ازاء الرعية وازاء الجيران ، هو الذى أعطى طابع الاستقرار ، والوحدة فى مجموع المشاعر والافكار • واذا ما تصفحنا تاريخ الرستميين من خلال أقوالهم وسلوكهم ، وجدنا ان

(1) أبو صالح الفارسى ألف 12 ديوانا فى الشعر وباللغة البربرية ، جعله الدرجينى ابن على بن رستم فى القرن 4 هـ وكان يسكن مرسى الدجاج •

الثقافة عندهم هى سلوكهم الاجتماعى ، أى أنهم ترجموا الثقافة الى واقع اجتماعى محسوس وملموس ، دون ان ينموا الشعور المذهبى فى رعيتهم ، ولم يكونوا مذهبيين بقدر ما كانوا مغاربة مسلمين ، هدفهم ؛ وحدة شعوب المغرب فى ظل مغرب واحد ٠ وحدة سياسية جغرافية لا فى حدودها انما فى بشريتها ولغتها ودينها ٠

لقد كان عمال تاهرت من سرت الى زويلة الى جبل نفوسة الى شط الجريد فالمغرب الاوسط بكامله ، كانوا لا يمثلون الحكام الرستميين ، انما كانوا يمثلون رعيتهم أمام تاهرت ٠ هذه الرعية التى لم يكن وليس فى وسعها أن تصوغ لوحدها تاريخها ؛ انما كانت ولا زالت فى أشد الحاجة الى من يفجر طاقاتها ويوحد سلوكها ويعمق مفاهيمها وينمى مواهبها ويوحد مشاعرها ويحدد وجهتها ؛ تلك هى المسؤولية التاريخية الخطيرة التى وقعت على كاهل الرستميين فى القديم ولا زلنـــا نواصل رسالتهم الهادفة فى تحقيق وحدة مغرب الشعوب ٠



فى القاعة ، اثر الافتتاح مباشرة

النقطة 2

مشاكل تواجه الإسلام فى إفريقيا اليوم

د . وليام مونتقومرى وات
أستاذ بقسم الدراسات العربية والاسلامية ،
جامعة ادنبره (بريطانيا العظمى)



يبدو أنه من الصعب أن نتحدث عن موضوع واسع مثل هذا الذى اخترناه للمناقشة الحالية . وعلى النقيض من بعض العلماء الغربيين الآخرين ، فاننى أريد أن أؤكد بان الاسلام هو بالضرورة واحد دون تغيير فى مظاهره المتعددة سواء كان ذلك فى افريقيا أو غيرها . وبالرغم من ذلك فان هناك عقبة معينة تجعل انتشار الدين الاسلامى فى افريقيا صعبا .

كان الدين الاسلامى فى بعض الاقطار قد انتشر منذ قرون ، وكانت أغلبية السكان من المسلمين ، ومن بين هذه الاقطار هى بلدان شمال افريقيا . ثم ان هناك بلدانا موجودة فى شرق وغرب افريقيا ، حيث يعتبر فيها المسلمون اقلية ، الا ان عدد معتنقى الدين الاسلامى فيها يتزايد نسبيا بالنسبة للديانات الاخرى . وبين هاتين المجموعتين ، توجد بلدان مثل النيجر والسودان وتنزانيا حيث انتشر الاسلام بقوة فى جزء منها وترك الجزء الباقى . وأخيرا ينبغى علينا ذكر تلك الاقطار حيث فيها المسلمون اقلية ، بالاضافة الى تقلص المعتقدات الافريقية القديمة فيها

لدرجة حدوث فراغ ديني يستطيع الاسلام ان يملأه ، وهذه هي أيضا مشكلة تواجه الاسلام .

ان حقيقة وجود أساليب مختلفة بين المسلمين يزيد الامر تعقيدا ، حيث ان هناك من بينهم من يعمل على خلق نظام اجتماعى جديد أكثر عدالة بناء على الاسس الاسلامية وهناك من يريد العودة الى مراعاة أشد صرامة لتقاليد الاسلام مع التكيف بدرجات متفاوتة فى الظروف الحالية .

يبدو أن البعض من الذين قد يئسوا من تجديد الاسلام من الداخل وذلك نتيجة للقوة الحصينة للمحافظين وذوى النزعة التقليدية ، يبدو أنهم أصبحوا يعتقدون بأن النظام الاجتماعى الجديد الذى يسعون من أجله ينبغى أن يكتسى صورة قالب غير اسلامى .

بالرغم من هذه التعقيدات فاننى اعتقد بامكانية اتخاذ بعض القرارات الهامة التى تتفق ومواقف معظم المسلمين فى افريقيا . ان نفس العوامل العامة تؤثر على الجميع ، وهذه العوامل تمس حياتهم بصور مختلفة حسب درجة اسلام ذلك البلد والسياسة التى ينتهجها حكامها . لذا فالجزء التالى من هذا المقال سيشتمل على تحليل هذه العوامل العامة والمشاكل التى تفضى اليها . وبصدد هذه النقطة لربما اجد نفسى مضطرا أن أذكر بأن تعاطفى قبل كل شيء سيكون مع هؤلاء الذين يعملون من أجل اقامة نظام اجتماعى جديد وعادل وستكون ملاحظاتى موجهة بصورة رئيسية الى هؤلاء الناس .

ومن بين العوامل الثلاثة المخصصة للمناقشة هو العامل الاول والاكثر أهمية : انه انتشار منتوجات العلم الحديث والتكنولوجيا فى كل انحاء العالم . نحن نميل الى التحدث عن انتشار المنتوجات أو انتشار التكنولوجيا كما لو كان هذا شيء فعلته المنتوجات أو التكنولوجيا بموافقتها المحضة ، وطبعا هذا مجرد طريقة للتحدث . والذى نشير اليه هو عملية معقدة من الممكن أن نميز فيها عدة مستويات ، وفى كل مستوى نجد أن البشرية معنية بالامر . المستوى الاول يبحث فى انسان يقدم للبيع

لانسان آخر قطعة من (النايلون) أو سيارة أو طائرة نفاثة ، لا شيء يتغير على أية حال ، ما لم يرد الشخص الثانى ما قدمه له الاول وعنده طريقة ما للدفع . بطبيعة الحال قد اصبح الآن واضحا بأن البشر فى كافة انحاء المعمورة فى حاجة الى كميات كبيرة من منتجات التكنولوجيا الحديثة . طلب الزعيم الهندى العظيم من أتباعه وشعبه أن لا يستعملوا القماش الذى تنتجه المصانع الحديثة ، وان يعودوا الى استعمال المغزل البسيط ، ورغم شعبيته العظيمة لم يستطع ان يقنع شعبه بالكف عن استعمال منتجات التكنولوجيا الحديثة . فى كل أنحاء العالم ، اينما تتوفر السلع التى تسهل حياة الانسان وتجعلها مريحة وأكثر ترفا نجد ان الناس مصممون على شرائها .

وعلى كل حال ، هذا هو المستوى الاول . يكون من السهل شراء سيارة من اليابان لكن اذا حدث خلل فيها فانك لا تستطيع اعادتها لليابان لاصلاحها ، اذن عليك أو على شخص آخر فى بلدك ان يتعلم كيفية اصلاح السيارات اليابانية . وبمعنى آخر يكون من الضرورى الحصول على بعض المعرفة العملية بالعلم الحديث والتكنولوجيا . فى اطار هذا المستوى الثانى للحصول على الخبرة العملية تظهر أمور متعددة .

ان معظم الدول تريد حاليا القيام بتصنيع منتجات حديثة لنفسها وتحد بالتالى من مدى اعتمادها على الدول الاجنبية . اذ نلاحظ وجود مستوى أعلى من أجل المشاركة فى الابحاث الخاصة بالعلم والتكنولوجيا التى تهدف الى اجراء اكتشافات جديدة فى ميدان العلم وايجاد منتوجات جديدة بناء على ما هو معروف من قبل . كل هذا داخل فى اطار انتشار منتوجات العلم الحديث والتكنولوجيا .

ان العامل الثانى من بين العوامل الثلاثة العامة هو الحاجة الى اقامة نظام اجتماعى جديد وعادل ، وهذه الحاجة تختلف من بلد لآخر حسب ظروفها المحلية ، وهى بالضرورة حاجة جديدة ، وذلك لانه بسبب المشاكل المحلية الخاصة يستطيع الانسان ان يدرك التغيرات الاجتماعية أو الارتباك الاجتماعى الذى يسببه انتشار التكنولوجيا الحديثة . المهن القديمة قد اصبحت غير اقتصادية ، بالاضافة الى انتهاء أجل أصحابها فينبغى احلال رجال جدد بمهارات وتقنيات جديدة . ان سرعة الاتصال الحديث يسر ادارة

مناطق كبيرة بصورة فعالة · وعبر كل هذا بالاضافة الى التغيرات الاجتماعية الاخرى نلاحظ وجود تغييرات فى غنى وفقر مجموعات مختلفة · يوجد عدد قليل من الاغنياء عجزوا عن فهم سير الامور فى العالم الحديث فاستمروا يعيشون فى نفس مستوى حياتهم القديم مما أدى الى افقارهم نسبيا ، الا أن معظم الاغنياء تمكنوا من التكيف مع الظروف الجديدة فاصبحوا أكثر غنى · فالفقراء أو ذوو الدخل المتوسط من أصحاب الحرف الجديدة اللازمة لتسيير بلدهم كدولة حديثة ، هم الآن فى وضع مالى معقول فى حين ان قلة منهم اصبحت تتمتع بمراكز من القوة والثراء · يمكن ان نعتبر بمعنى ما ان هذه التغييرات الاجتماعية هى نتيجة للاستعمار ، لان الاستعمار هو الذى شجع انتشار منتجات التكنولوجيا الحديثة ·

مهما كان مصدر الارتباك الاجتماعى لبلد ما ، هناك ثلاث نقاط فى جميع الاحوال ينبغى مراعاتها فى أى نظام اجتماعى جديد ·

أولا : استئصال أكثر أشكال الفقر شناعة فى القطر ·

ثانيا : ينبغى محاولة الوصول الى تكافؤ اقتصادى أكثر ، لان التفاوت الكبير فى الظروف الجديدة بين الغنى والفقير يخلق قلقا اجتماعيا ·

ثالثا : على كل واحد ان يساهم فى عملية اتخاذ القرار ·

رابعا : ان كيفية ضبط هذه النقاط فى نظام اجتماعى جديد سيؤخذ بعين الاعتبار فى الوقت الحاضر ·

ان العامل الثالث من بين العوامل الثلاثة العامة هو عبارة عن انتشار النظرة المادية بين كثير من الناس · وليس المقصود بهذا هو الانتماء الرسمى لاحد أشكال المادية الفلسفية ، بل ان عادة العقل هى عدم التفكير فى الاشياء الروحية وحياة العالم عندما يصبح الانسان متخما بالثروة والممتلكات المادية · هذا هو التفكير الذى كان موجودا فى زمن (سيدنا) محمد ، ذلك العقل الذى تربى على التمتع بالثروة والاملاك ، وهذا يشبه بصورة كبيرة النظرة المادية السائدة فى عصرنا الحاضر ، التى هى أيضا مرتبطة ارتباطا وثيقا بكثرة البضائع · ان النظرة المادية فى الوقت الحاضر هى متأثرة

أيضا على أية حال بالعلوم الطبيعية • وفى ذلك نجد ان هناك ميلا سائدا بين المعجبين بالعلوم الطبيعية الى افتراض ان لا حقيقة الا بوجود تلك الاشياء التى درستها العلوم الطبيعية • وهذا بالطبع افتراض سخيف حيث توجد أسباب قوية ومعقولة تستطيع ان تدحضه ، ورغم ذلك نلاحظ ان هناك أناسا كثيرين يتبنون هذا الافتراض ثم يتبنون نظرة مادية • ففى الواقع تستطيع هذه النظرة ان تقرر سلوكهم فى الحياة رغم انهم لا يرفضون الاعتقاد بالله بصورة قاطعة •

فى هذه الامور الثلاثة ـ انتشار التكنولوجيا والنتائج الاجتماعية المترتبة عليها ، وزيادة النظرة المادية ـ تبرز العوامل العامة التى تؤثر فى حياة المسلمين فى جميع أنحاء افريقيا وتجعلهم يجابهون مشاكل معينة • وسأتعرض فى بقية مقالى هذا الى كيفية معالجة هذه المشاكل ، دون اللجوء على اية حال الى التعرض الى نقاط مفصلة أو الى السياسة الحالية المنتهجة ، بل سأقتصر على عرض سؤالين عامين على المستوى الثقافى هما كيفية وجود نظام اجتماعى جديد قائم على الاسس الاسلامية ثم كيفية الدفاع عن الاعتقاد بالله والوحى فى العالم الحديث •

عند التحدث عن نظام اجتماعى جديد قائم على الاسس الاسلامية ينبغى بالطبع ان نتحدث عن الشريعة ، واننى متيقن هنا باننى استطيع التحدث فقط كمتفرج ، ومع ذلك آمل أن اتمكن من أن أقول شيئا يناسب ظروف المسلمين وهذا الامل يقوم على الحقيقة وهى أن المسيحيين ومعتنقى الديانات الاخرى سيواجهون نفس المشاكل عندما يبحثون عن اقامة نظام اجتماعى عادل على أساس العقيدة بالله •

ان نقطة البداية هنا هى ان الله فرض شريعة ثابتة • وبصورة مشابهة نوعا ما نجد أن معتنقى الديانات الاخرى يرون أن الله قد فرض القيم المعنوية والروحية • انه لمن الاحترام فقط ، للجوهريات أو للمبادىء العامة ان نذكر على أية حال ان الشريعة ثابتة لا تتغير ، فالنقاط التفصيلية أو القواعد المفصلة كانت عادة تتعرض للتغير فى ظروف مختلفة • وهكذا نجد كمبدأ عام أن المصلى يوجه وجهه فى الصلاة نحو مكة ، الا أنه فى مدينة ما عليهم ان يستعملوا طرقا معقولة لاكتشاف اتجاه مكة ، كذلك يلاحظ فى بعض الاماكن انهم يتوجهون نحو الشرق ، وفى أماكن أخرى للغرب وهكذا •

في بعض الاماكن التى لا يوجد فيها الماء يستطيع المصـــلى أن يتوضأ بالرمل . يبقى هناك مثل مهم آخر وهو يصور حالة المسلم الذى يقضى شهـــور الصيف فى القطب الجنوبى ، ولنفرض أن شهر رمضان كان احدى هذه الاشهر ؛ سيكون من الصعب عليه أن يصوم شهر رمضان بصورة طبيعية لان الشمس لا تشرق ولا تغرب اثناء طيلـــة هذه الفترة . ان المفتى قد اصدر فتوى مستعملة للتصرف فى مثل هذه الظـــروف الغـير الطبيعية .

ان الذى تم طرحه هنا هو عبارة عن امثلة تبين امكانية اختلاف القواعد التفصيلية للشريعة طبقا للظروف . الامور المذكورة هى بسيطة نسبيا ، لكن فى الظروف الراهنة هناك تغيرات مهمة جدا ينبغى وضعها موضع الاعتبار . وكل ذلك كنا قد تعرضنا له من قبل عند انتشار العلم الحديث والتكنولوجيا : سرعة الاتصال ـ سفر ونقل الرسائل بواسطة الراديو والهاتف ـ وتطور الصناعة والتجارة قد أدى الى تغيرات عميقة فى البنية الاجتماعية لكل بلد ، وبسبب هذه التغيرات كانت الحاجة الى اقامة نظام اجتماعى جديد . اذن ، من احد الاعمال الشاقة والبالغة الاهمية امام المسلمين فى الوقت الراهن هو تكوين مجهود ذهنـــى جبار للتمييز بين الجوهريات الثابتة للشريعة والقـــواعد المفصلة التى يمكن أن تتغير . والاسراع فى هذا الامر يمكن أن نصوره بما حصل فى الامبراطورية العثمانية في القرن التاسع عشر . أثناء الفترة 1860 ـ 1863 أصـــدر السلطان العثمانى قوانين بخصوص مواد تجارية وبحرية متعددة . كانت تلك القوانين ضرورية لان الرعايا العثمانيين كانوا على عـلاقة تجارية مع تجـار أوروبا الغربية ، وبالتالى قامـوا ببعض الممارسات التى كانت غـير موجودة فى الشريعة الإسلامية . فالعلماء فى ذلك الوقت ، لم يكونوا على كل حال مستعدين لاعادة النظر فى جوهريات الشريعة من اجل ملاءمة التجارب المعاصرة لهم ، اذ انهم كانوا متصلبين فى نظرتهم ، الامر الذى حدا بالسلطان ان يصدر قوانين جديدة لا تتفق مع الشريعة بهذا الصدد . أضف الى ذلك ان كل هذا مهد الطريق للابتعاد الكامل عن الشريعة فى تركيا على يد (أتاتورك) فى عام 1926 .

ان معظم الدول الاسلامية التقدمية تواجه الآن هذه المشكلة بشكل ودرجة معينين . فالمشكلة الملحة هي أن تتكيف تفاصيل الشريعة مع ظروف الحياة المعاصرة مع عدم اجراء أى تغيير فى الجوهريات • على اية حال نجد ان العلماء فى معظم البلدان هم عبارة عن جهاز محافظ جدا ، وغير راغبين فى اجراء تغييرات سريعة وجذرية ومع ذلك اذا لم يمتثل العلماء لهذا ، فان رجال الدول والقادة السياسيين سيكتشفون مثل السلطان العثمانى طريقة باستصدار التشريعات التى يريدونها ، أى ان ما ذكرته هنا هو اعادة فتح باب الاجتهاد وهو شيء قام المسلمون ببحثه فى القرن الماضى ، اما في غام 1977 فان الامر يصبح مستعجلا أكثر مما كان فى القرن الماضى •

السؤال الثانى هو كيفية الدفاع عن الاعتقاد بالله فى هذا العصر الذى تفشت فيه النظرة المادية وتدعمت من قبل تعليم العلوم الطبيعية وهذا سؤال فى منتهى الاهمية وعليه فاننى فى هذا المقال املك وقتا فقط للتعرف باشارات قليلة لكيفية الاجابة عليه • ان أول شيء اذكره بصورة قاطعة أنه غير صحيح ان العلم الطبيعى يتعارض مع وجود الاله . النجاحات العظيمة للعلوم الطبيعية كانت تتعلق بالاشياء التى يمكن ان تحصى أو تعد ، أو تقاس أو تكمم ، الا أن هذا يسوقنا الى الاستنتاج بأن الاشياء التى تحصى وتقاس هى فقط الحقائق ، اذ انه على النقيض من ذلك ، فالحب الانسانى حقيقة ، وجمال الشكل ولطف السلوك كلها حقائق أيضا • كذلك لا ننكر دور البطولة أو التضحية الذى يقوم به زملاؤك من اجلك • فاذا استطعنا ان نسمى هذه الدائرة بحيز الروح (القوة) ، عندها يكون حيز الروح صحيحا وحقيقة مثل حيز الاشياء المادية •

النقطة الثانية هى الاصرار على أن المعتقد بالله ، بعيد عن رفضه للعلوم الطبيعية ، يقبل جميع « النتائج المضمونة » للعلوم ، لانها تدله على العالم الذى خلقه الله • فالمعتقد يرى أن القدرة الخلاقة للاله ليست مقصورة على لحظة فى الماضى البعيد عند بداية الكون (مثل القضية الاولى للفيلسوف أرسطو) بل انها مستمرة فى كل لحظة فى جميع انحاء الكون • ان القرآن يعلمنا كيف أن كل مرحلة من مراحل نمو الجنين فى الرحم تعود الى قدرة الله الخلاقة • وبنفس الطريقة يجب على المعتقد بالله أن يجد

صعوبة فى اعتقاده بأن جميع المراحل التى تطور فيها الانسان ابتداء من اشكاله الدنيا راجع الى القدرة الخلاقة للاله ٠

ليس لدى الوقت ان أقول أكثر من كلمتين عن الوحى والكتب المنزلة مثل القرآن والانجيل ، وعن المشاكل المتعلقة بهم بالنسبة لاولئك الذين يقبلون « النتائج المضمونة » للعلوم الطبيعية ٠ ففى هذه الكتب يبين الله ذاته ويوضح علاقة الناس به ٠ ان معرفة الناس بالله ليست كاملة لان ذلك مستحيل بالنسبة للانسان ، الا انه يكفى أنه يجعلهم قادرين على السلوك المستقيم فى هذا العالم ٠ ليس الهدف الاساسى للكتب المنزلة هو اعطاء نوع من معلومات عن العالم يكون فى امكان البشر اكتسابها بمجهوداتهم الخاصة (مثال : عن العلوم الطبيعية) مع أنها احيانا تقدم معلومات من هذا النوع ٠ بالاضافة الى هذا ، معرفة الله وعلاقة الانسان به تعود الى حيز الروح ، وفى حيز الروح كان يعبر عن الحقيقة برموز أو اشكال رمزية وذلك للافتقار الى لغة أخرى ٠ مع ان الاشارة الرمزية للامور لا تقلل من حقيقتها ، نجدها فى الحقيقة ضرورية لتوجيه الانسان ٠

فى الختام أود أن اشير الى المفكر العلامة الاسلامى العظيم أبو حامد الغزالى ٠ انه عاش فى عصر عندما كان يجب فيه حماية الدين الاسلامى ليس فقط من مجرد النظرة المادية ككثير ممن ادعوا الاسلام ، بل أيضا من وجهات النظر اللامعة الفلسفية والعلمية للناس امثال الفارابى وابن سينا ٠ رغم انه كان يعتقد ان وجهات نظر هؤلاء الناس كانت خطرا على العقيدة ، درس بشجاعة كتبهم ، ثم دحض بعد ذلك اخطاءهم بصورة فعالة فى كتابه « التهافت » لدرجة أن هذه الحركة الفلسفية فنيت ، الا انه استمر بعد ذلك فى اثراء الفكر الاسلامى بواسطة ادخال تلك الاجزاء من افكارهم التى كانت حقيقية وقيمة ٠ المقصود فى هذا المقال بكامله هو التأكيد فى الوقت الحاضر على ضرورة اتخاذ الاشخاص المثقفين والمعتقدين بالله موقفا مشابها لموقف الغزالى ، وعدم خوفهم من التعلم من خصومهم ٠ فى العصر الحالى ، وكما اقترحت سابقا ، نجد أن جميع الاديان الرئيسية تواجه نفس المشاكل ؛ ويؤمل أن تساعد بعضها البعض ٠ وبالتأكيد ، اننى على يقين بأنهم سيجنون الكثير نتيجة للحوار المفتوح الاخوى الذى بواسطته سيتعلمون الكثير بصورة أكثر وضوحا اينما اتفقوا واينما اختلفوا ٠



منظر من القاعة. والملتقى ، كما يرى القارىء ، لم يخل ، مع صرامته ، وعمق أبحاثه ، من المرح ، وخاصة عندما يصعد الشيخ عبد الله المجاهد الشماحي الى المنصة ويجلجل ، ويذكر أسماء جميع العلماء والجهابذة الذين يرجعون كلهم الى أصل زيدى ، أو على الاقل يمنى صنعاني ، أو الشيخ سليمان داود بن يوسف،الذى يرجع كل شيء الى أصل إباضى ، كما كان المرحوم عثمان الكعاك يرجع الكثير الى أصل تونسى !

المسلمون في إفريقيا
بين الحاضر والمستقبل

د ٠ عبد الحليم عويس
أستاذ بكلية الشريعة
جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية
الرياض ــ المملكة العربية السعودية

تقديم :

افريقيا :



افريقيا هذه القارة القديمة الجديدة التي تمثل مساحتها خمس مساحة الكرة الارضية ، بينما لا يزيد عدد سكانها عن مائتين وستين مليونا من البشر ٠

هذه القارة التي تبلغ هذه المساحة الشاسعة ولا يزيد سكانها عن هذه النسبة التي لا تزيد عن (1) على (12) من النسبة العددية لسكان المعمورة ـ تحفل بمئات من اللغات يقدرها بعضهم بثمانمائة لغة (1) ، بينما يقدرها آخرون بالفى لغة ٠ (2)

(1) الدكتور محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات البشرية ص 21
(2) الدكتور فيليب رفلة : الجغرافية السياسية لافريقية ، ص 207 ٠

أما الاديان والعقائد التى تنتظم افريقيا فهى كثيرة لا تحصر ، وتنتظمها ـ تقريبا ـ كل العقائد التى تسود الارض ، بل ثمة عقائد لا توجد الا فيها ٠

فبدءا من العقائد البدائية كتقديس ظواهر الطبيعة وأرواح الاجداد ، أو تقديس الارواح والاشباح والابطال ٠٠ وانتهاءا بالمسيحية والاسلام ـ تتجاور على امتداد القارة عشرات العقائد ، ولا يبدو خافتا منها الا بعض أديان الهند ، والا اليهودية نظرا لطبيعتها كدين قومى منغلق لا يسعى أصحابه الى انتشاره على النحو الذى تقوم به الاديان الاخرى ٠

ومن بين هذا الخليط من اللغات تعتبر اللغة العربية هى اللغة الاولى فى القارة الافريقية ، حيث يتكلم نحو تسعين مليونا بها ٠

كما أن الاسلام من بين هذا العدد الكبير من العقائد هو الدين الذى يحتل المرتبة الاولى اذ يؤمن به أكثر من (170) مليونا من السكان ٠

عقبات وضعها الاستعمار فى القارة :

لقد أيقن الاستعمار ـ بمنظاره التاريخى ـ أن افريقية هى قارة الاسلام والعربية فى المستقبل ٠٠ وأن الديانة المسيحية واللغة الاوروبية (انجليزية أو فرنسية) اللذين حملهما الى القارة خلال فترة سيطرته عليها ـ ينظر اليهما على أنهما مظهران استعماريان ، وأن القارة الافريقية بعد أن تحصل على استقلالها ـ الذى أيقن بوقوعه ـ لن تلبث أن تتخلص منهما كمظهرين من مظاهر سيطرته ٠٠٠ وبخاصة وأن ما حمله الاستعمار ـ سلوكا ـ يتناقض مع ما يزعم أن النصرانية تحمله الى البشرية ـ فشتان بين أقوال رجال الكنيسة وأفعال رجال السياسة ٠٠ بل انه فى كثير من الاحايين كان يظهر الفرق جليا بين أقوال رجال الكنيسة أنفسهم ٠٠٠ والدور الذى يلعبونه كجهاز يعمل بتنسيق مع وزارة المستعمرات ٠٠ ومـــع المصالح « الاستراتيجية » الاستعمارية ! !

ومن هنا خطط المستعمر لضمان تفكك القارة الافريقية ، وتقسيمها الى وحدات سياسية وجغرافية ·· تمثل أكبر نسبة ـ تقسيمية فى العالم ·· حتى يصبح هذا التقسيم ـ بحد ذاته ـ عقبة كئودا فى وجه المستقبل الاسلامى والعربى فى القارة الافريقيـــة ·

واذا كانت أمريكا قارة واستراليا قارة والصين التى تمثل ربع سكان العالم وحدة سياسية وجغرافية متكاملة ـ فان افريقيا ـ قد قدر عليها الاستعمار أن تتحول الى أشباه دول ـ تماما مثلما فعل الاستعمار بكل المناطق التى يخاف انبعاثها ـ كالخليج العربى مثلا ـ فثمة دول فى افريقيا لا تقترب امكاناتها البشرية والطبيعية من كثير من المدن الانجليزية والامريكية ·

فافريقيا الغربية ـ كنموذج نقدمه ـ قسمتها فرنسا منذ وطئتها بأقدامها الى ثمانى دول ·· أصبح كل منها عضوا فى المجموعة الدولية له ما لفرنسا نفسها وعليه ما عليها من تبعات وأعباء مع ما فى هذا من انهاك للامكانات ·· وبعثرة للطاقة ·· وضمان لمستقبل محدود هزيل ·· وهذه الدول التى كانت تشكل افريقيا الغربيـــة هى : « السنغال ، السودان الفرنسى ، غينيا ، فولتا ، ساحل العاج ، داهومى ، النيجر ، موريتانيا » ·

ويبين الجدول التالى ـ وهو جدول محصور فى الدول ذات الاكثرية الاسلامية (3) ـ هيكل التقسيم السياسى والبشرى والجغرافى الذى أخضـــع الاستعمار الاوروبى القارة الافريقية له ، حتى يحول بينها وبين أن تصير يوما (قارة الاسلام) دينا ولغة وحضـــارة :

---

(3) رجعنا الى اطلس العالم الاسلامى ، وتقويم البلدان الاسلامية ، وعدلنا النسبة وفقا لمعدل النمو الســكانى

دول العالم الاسلامى المستقلة بافريقيا

مسلسل	الــدولــة	عدد المسلمــين	النسبة المئوية لمجموع السكان
1	الجزائــر	15،386000	٪ 98
2	الكامــيرون	3،365000	٪ 55
3	جمهورية وسط افريقيا	902،000	٪ 55
4	تشـــــاد	3،400،000	٪ 85
5	داهــومى	1،746000	٪ 60
6	مصــــر	33،387000	٪ 92
7	أثيوبيا	17،289000	٪ 65
8	جامبيــا	327000	٪ 85
9	غينيــا	4047000	٪ 95
10	غينيا بيساو	567000	٪ 70
11	ساحل العاج	2484000	٪ 55
12	ليبيــا	2178000	٪ 100
13	مــالى	4853000	٪ 90
14	موريتانيــا	1227000	٪ 100
15	مــراكش	16826000	٪ 99
16	النيجــر	3963000	٪ 91
17	نيجــيريا	59820000	٪ 75
18	السنغــال	3819000	٪ 95
19	سيراليــون	1800000	٪ 65
20	الصومــال	3950000	٪ 100

مسلسل	الــدولــة	عدد المسلمــين	النسبة المئوية لمجموع السكان
21	الســودان	14375000	٪ 85
22	تانــزانيا	9347000	٪ 65
23	تــوجــو	1166000	٪ 55
24	تــونس	5245000	٪ 95
25	الفولتا العليا	3879000	٪ 56
26	أرتــريا	2،000،000	٪ 80
27	جزر القمر	286000	٪ 95

ويضاف الى هذه الدول ذات الاغلبية الاسلامية ـ ما يربو على ثلاثين مليونا مـن المسلمين يمثلون أقليات تتناثر هنا وهناك بباقى الدول الافريقية ، ويمكن حصرهم على النحو التالى : (4)

مسلسل	البلــد	عدد المسلمين	نسبة المسلمين المئوية
1	لبــيريا	770،000	٪ 30
2	غــانــا	2،25000	٪ 30
3	الجابــون	195،000	٪ 40
4	الكونغو برازافيل	140،000	٪ 15
5	أوغنـــدا	2،500،000 تقريبا	٪ 40
6	كينيـــا	1،700،000	٪ 20
7	موزمبيــق	1،750،000	٪ 25
8	ملاجــاش	1،150،000	٪ 20

* * *

(4) انظر الهامش السابق

وكما أخضع الاستعمار القارة لهذا التقسيم الجغرافى والسياسى ـ فانه أخضعها لعديد من المظاهر الشاذة التى تنفرد بها افريقية من بين قارات الارض الاخرى :

● فهناك أكثريات اسلامية فى أكثر من بلد افريقى يتولى أمرها حكام غير مسلمين ، تربوا فى أحضان الكنيسة ، وتغذوا بلبانها .

● وهناك شعوب افريقية يوجه سياستها ـ بل ويحكمها فى بعض الاحيان حكما مباشرا ـ أوروبيون ـ أو تلامذة للتبشير وللكنيسة ومعاهد العلم الغربى .

● وهناك تفرقة عنصرية تنطلق من تلك النظرية الغربية التى احتلت مكانا بارزا فى الفكر الاوروبى وهى نظرية « سيادة الرجل الابيض » وأفضليته ـ أفضلية جنسية مطلقة ـ على الرجل الاسود .

وحول قضية التفرقة العنصرية ـ التى لا تبرز على نحو عملى عميق ـ الا فى القارة الافريقية يقول الرئيس : « أحمد سيكوتورى » ساخرا من أولئك الاوروبيين الذين اندفعوا الى افريقية بمساطر وأقلام يقيسون بها الجماجم والقسمات ، ويقررون بناء على هذه المقاييس الظالمة « أن الرجل الاسود مكانه فى عالم الحيوان بين الشمبانزى والجيبون أى القرود شديدة الشبه بالانسان » .

ويبين الرئيس سيكوتورى أن لون البشرة ليس سوى واقع يطابق ظروف البيئة ، ثم يتساءل : هل جميع الابقار لها لون واحد ، وهل تفضل البقرة البيضاء زميلتها الحمراء أو السوداء ؟ والاجابة بالنفى بالتاكيد . (5)

ومع ذلك فالتفرقة العنصرية حقيقة يفرضها الاستعمار على أجزاء متعددة من افريقيا .

● وهناك الى جانب هذه المظاهر الثلاثة الشاذة ـ الوضعية الاقتصادية المتخلفة التى فرضها الاستعمار على افريقية ، حين حرم عليها التصنيع وحولها الى بلاد منتجة ومصدرة للمواد الاولية بأرخص الاسعار ـ وهى مستوردة ـ فى الوقت نفسه ـ لهذه

---

(5) د . احمد شبلى موسوعة التاريخ الاسلامى الجزء السادس 683 .

المواد نفسها بعد تصنيعها فى أوروبا ـ بأغلى الاسعار (6) : « ومن العجيب أن افريقيا الخصيبة أصبحت فى ظل الاستعمار محتاجة الى المواد الغذائية لتستوردها من الخارج، وذلك لان الجهود اتجهت فى الحقل الزراعى الى انتاج الحاصلات التى تصدر لا الحاصلات التى تستهلك محليا ، وعلى هذا اتسعت مزراع البن والقطن والشاى والكاكاو اتساعا كبيرا ، وترك الافريقيون يعانون نقص الغذاء (٠٠٠) ولا يتمكنون بوسائل حديثة من صيد البحر ٠٠ كما يحرم عليهم صيد البـر ، اذ كان الاوروبى فى الغابات التى امتلكها هو القادر وحده على صيد الحيوانات البرية » ٠ (7)

وفى ظل هذا يعتبر الفقر الشديد الذى يصل الى حد المجاعات وما يتبعها من ضعف صحى وانتشار للامراض والاوبئة ـ أحد المظاهر البارزة التى فرضها الاستعمار على افريقية ٠

ويعبر الرئيس « جومو كنياتا » عن هذا الوضع الاقتصادى فى مقاله المنشور ـ فى عدد عام 1970 من كتاب العام للموسوعة البريطانية ٠٠٠ فيقول :

« ان اهداف سياستنا الاساسية أن نهيىء للاغلبية العظمى من شعبنا أرضا يزرعونها وبيوتا يملكونها وأعمالا ثابتة يرتزقون منها ٠ وحين نستطيع أن نفعل ذلك فان الاستقرار يمكن أن يسود القارة » ٠ (8)

● وكما فرض الاستعمار الفقر المدقع فرض الجهل الشديد أيضا ، ولم يسمح الا بحجم ضئيل من الثقافة ربطه بمخططاته وأهدافه ، بحيث يصبح هذا (الشبه مثقف) الافريقى مسخا مشوها مبتور الجذور ٠٠ لا يصلح أوروبيا ، ولا ينتمى الى افريقيا ولا بيئتها ٠٠ لا بالنسبة لواقعها الحاضر ٠٠ ولا بالنسبة لآمالها فى المستقبل ٠

الخطر الاستعمارى الكبير على الاسلام فى افريقية :

وثمة خطر كبير ـ يضاف الى ملامح الصورة التى فرضها الاستعمار على افريقيا ـ يتمثل فى هذه الجيوش التبشيرية الملفعة بأردية « النصرانية » ، والتى يتولى الانفاق

(6) الاستاذ كامل الشريف : المغامرة الاسرائيلية فى افريقيا ص 90
(7) بتصرف من المرجع السابق ص 464
(8) الاستاذ كامل الشريف : المغامرة الاسرائيلية ، ص 91 ٠

عليها ـ سائر الدول الاستعمارية الكبرى ... تلك التى كان لها نفوذ فى القارة ، أو التى تطمع فى أن يكون لها نفوذ .

ان أغنى دولة فى العالم هى الفاتيكان ، وان ميزانية هذه الدويلة التى تمثل مجرد جزىء من أجزاء ايطاليا تنفق كلها فى الاغراض التبشيرية . ويوجد تحت تصرف البابا وحده ما يزيد على خمسمائة مليون دولار ، يستطيع الانفاق منها على أى غرض تبشيرى فى بلاد الاسلام . (9)

وتصدر عشرات من الصحف التبشيرية باللغات الحية تباع بثمن رمزى ، وتهدى فى أغلب الاحيان لمن يظن فيهم ضعف الايمان من المسلمين .

ويقدر ما تنفقه الارسالية الانكليزية الاهلية وحدها فى السنة بمليونى جنيه استرلينى ، كما يقدر ما تنفقه الارسالية الامريكية بثلاثة ملايين ... وكلها تنفق تحت اسم « مكافحة الاسلام » ... وناهيك بالانفاقات الحكومية الرسمية فهى تصل الى أرقام خيالية ، وتمتد الى أكثر من مجال ، وتلبس أكثر من قناع .

وقد نشرت المجلة التبشيرية الالمانية أن عدد جيش المبشرين البروتستانت وحدهم (104) آلاف مبشر .

ويبلغ عدد النساء والرجال من موزعى التوراة وأناجيل المشتركين فى التبشير فهو يقترب من 93،000 ، وعدد المعاهد الكنيسية 16،671 معهدا ابتدائيا ومتوسطا وثانويا .

ويخضع لسلطة التبشير أكثر من خمسمائة جامعة وكلية ومعهد عال . كما يخضع لسلطتهم 489 مدرسة لاهوتية متخصصة فى تخريج المبشرين وتدريبهم على أعمال التنصير .

وتحت سلطة التبشير أيضا : 2594 مدرسة ثانوية ، و 83900 مدرسة ابتدائية ، و 1113 روضة أطفال .

(9) انظر المخططات الاستعمارية لمكافحة الاسلام : محمد الصواف 190

ـ وفى الجانب الطبى والاجتماعى ـ وهو من أهم وسائل التبشير ـ يملك المبشرون 600 مستشفى للرجال والنساء ، و 1050 صيدلية توزع الدواء بالمجان ، و 111 مجلسا طبيا ، و 93 جمعية للممرضات ، و 265 ملجأ للايتام ، و 120 ملجأ للبرص ، ومثلها للصم والبكم ، و 115 مدرسة للمكفوفين ، و 5112 مستوصفا لمدمنى الافيون ، و 85 ملجأ للارامل ٠

* * *

والتبشير يلجأ لكل الاساليب التقليدية والعصرية ٠

فالمدارس والمستشفيات والمعونات الاقتصادية والصحف والاذاعات والكتب والملصقات ٠٠ كل هذه ـ وغيرها ـ يلجأ اليها التبشير ٠

وهو يقوم بعمله فى عدة مستويات مختلفة ٠

فهناك تبشير على مستوى الافراد ٠٠ وهناك تبشير على مستوى الجماعات ٠٠ وهناك تبشير صامت يلجأ الى الكتاب والصحافة وأساليب التشكيك والدس المنسوبين زورا الى العلم ٠ وهناك تبشير آخر خطير يستغل الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى تمر بها القارة ٠٠ فيقوم بدوره من وراء الكواليس فى شكل اتفاقيات سياسية أو اقتصادية ٠٠ كما يستغل الحقائب الدبلوماسية ٠

والغريب فى وضع التبشير ـ فى افريقيا ـ أنه قد لجأ فى آخر تطوراته الى أسلوبين :

● أسلوب التعاون مع الوثنيات الموجودة فى القارة ٠٠ حتى يتمكن ـ فى المرحلة الاولى من التخلص من الاسلام وهو المنافس القوى ... وبالتالى فهو يتبنى مواقفها السياسية والاجتماعية ويمدها بكل وسائل الدعم ، ويساعدها على انبعاث نعراتها الاقليمية والقومية ولغاتها المحلية ٠٠٠ بل وعاداتها وتقاليدها الوثنية ما بقى منها وما اندثر ٠

● والاسلوب الثانى هو اسلوب التعاون مع اليهود ٠٠٠ وهو تعاون سعى اليه الطرفان معا ٠٠ سعت اليه اسرائيل ٠٠ وسعى اليه التبشير ٠٠ انطلاقا من وحدة الهدف ٠٠٠ الذى هو الاسلام فى افريقيا ٠٠٠ ذلك الاسلام الحركى الذى

كان بالنسبة للأفارقة الوقود الذى يندفعون به باحثين عن وجودهم وحريتهم ٠٠٠ والحضارة التى يشعرون من خلالها بشخصيتهم واستقلالهم ٠

ومع أن بين النصرانية واليهودية حربا تاريخية لم تهدأ الا أخيرا ٠٠٠ فان المبشرين واليهود يتحدون ـ مرحليا واستراتيجيا ـ ضد الاسلام الذى يوشك أن ينتظم القارة الافريقية كلها ٠

«ومن تكرار القول أن تتحدث عن الصلة بين اليهود والنصارى ـ أو بين اسرائيل والاستعمار ـ فى العصر الحديث ـ ذلك لان هذا البحث يعود بنا الى نشأة الدولة اليهودية والظروف التى أحاطت بها ، وهو بحث كثير التشعب ، وليس هنا مجاله على كل حال ، غير أن دور اسرائيل فى افريقيا انما هو امتداد للمهمة التى أوجدها الاستعمار الصليبى من أجلها ، فى الشرق العربى ، وهذه المهمة هى عزل الشعوب العربية فى آسيا عن الشعوب العربية فى افريقيا (10) ٠

وفى ذلك ما فيه من اضعاف للكيان العربى فى افريقيا ٠٠٠ الذى هو وسيلة ايجاد الكيان الاسلامى الافريقى ، وهو المدخل الطبيعى لايجاد افريقيا مسلمة عربية ، تحقق حلم اجدادنا المرابطين من أحفاد عبد الله بن ياسين ، ويوسف بن تاشفين ٠٠٠ هؤلاء الذين بذلوا دماءهم وأموالهم فى سبيل أن تصبح افريقيا قارة اسلامية ٠

* * *

ماذا يريد الغرب من هذه الغارة التبشيرية على العالم الاسلامى ٠٠٠ وعلى افريقيا بخاصة ؟

ـ ان النصرانية لا وجود لها فى الشارع الغربى ولا فى المصنع أو المعمل أو المحكمة أو البنك ٠٠٠ وحتى الكنيسة أصبحت مؤسسة اجتماعية تشبه مؤسسات وزارات الشؤون الاجتماعية ٠٠٠ لقد تركت أوروبا النصرانية منذ قامت نهضتها الصناعية على أساس الشعار القائل : « اشنقوا آخر اقطاعى بأمعاء آخر قسيس » ٠

(10) انظر : كامل الشريف : المغامرة الاسرائيلية فى افريقيا ص 62

ان الانسان الاوروبى الحديث ٠٠٠ و « التركيبة » الفكرية والحياتية الاوروبية ـ لا تعطى قضية الدين أى حجم حقيقى فى صياغة الفكر أو الحياة ٠

فما معنى هذا الذى يفعله المبشرون فى افريقيا ؟

وهؤلاء المبشرون أنفسهم ليسوا نموذجا لدعواتهم التى يقدمونها الى الناس ٠٠٠ فكثيرا ما غادر المبشر جمعية الى جمعية أخرى سعيا وراء الكسب المادى ٠٠٠ والمبشر « وليم بلغرايف » الانكليزى تقلب من البروتيستانتية الى اليسوعية ، ولما استغنى عن اليسوعيين عاد بروتيستانيا ٠٠٠ وقد ذكر المفكر (جب) أنه قد ثبت عـــلى اليسوعيين أنهم فضحوا فتاتين من طائفة الارتوذكس وأخفوهما حينا ثم أضطروا الى اعادتهما لاهلهما ٠٠ ويهاجم (جب) نظام الاديرة كله ٠٠ ويقول : « ان بعض هذه الاديرة كان مستقرا للفاحشة » ٠ (11)

● فما معنى هذه الجيوش التبشيرية الداعية الى النصرانية فى افريقيا ؟

● أليس الاولى بها أن تدعو الشيوعيين فى المعسكر الشرقى الى العودة الى حظيرة الايمان ؟ (بدل أن تتعاون مع الشيوعيين الملاحدة فى كثير من الاحايين) ٠

● أوليس الاولى بها أن تدعو الاوروبيين أنفسهم الى اعطاء الدين حجما أو زاوية مؤثرة فى الحضارة الاوروبية التى يهددها الافلاس الروحى بالدمار ؟

* * *

ان التبشير ـ وهو كما ذكرنا أحـــد الاخطار الاستعمارية المحدقة بالمسلمين فى افريقيا اليوم ـ ليس دعوة الى النصرانية ... بقــدر ما هو ايقاف للزحف الاســلامى وتعكير لصفوه ٠٠ وتأخير ليوم تصبح فيه افريقية قارة اسلامية ٠

انه أكبر سلاح يستعمله الاوربيون المستعمرون اليوم فى هذه القــارة للحيلولة دون تقدم القارة علميا أو اقتصاديا أو سياسيا ٠

انهم يقدمون النصرانية كبش فداء ٠٠ ليس حبا فيها ٠٠ ولكن لانها الدين الذى يملكونه ٠٠٠ والذى يمكن أن يقف قليلا ـ أمام الزحف الاسلامى ٠

(11) التبشير والاستعمار : د ٠ عمر فروخ ، ص : 35 ، 36 ٠

● ان المرء ليضحك وهو يتذكر أن « اللورد اللبنى » الذى كان قائـد الفيالق الانجليزية للقدس وصاحب الكلمة المشهورة : « الآن انتهت الحروب الصليبية » كان عضوا كبيرا فى جمعية الحادية ·

● وايطاليا التى ناصبت الكنيسة العداء ، وحجزت البابا فى الفاتيكان ، كانت تبنى سياستها كلها على جهود المبشرين والرهبان ·· والذين زاروا ايطاليا يعرفون أنه على مقربة من الفاتيكان وحوله من الجهات الاربع تعيش ايطاليا حياة انحلالية بوهيمية لامكان للدين فيها ·

● وأكثر مدعاة للدهشة من هذين المثالين موقف « ستالين » (زعيم الشيوعية الدولية) حين دعـى الى مجمع مسكونى فى موسكو ·· وقد شرف ستالين نفسـه المؤتمرين بمقابلته ·

● وفى الجزائر المجاهدة ·· جزائر المليون ونصف مليون شهيد ـ كانت فرنسا تترجم عن عقلية صليبية حاقدة ضج منها الضمير العالمى (12) ·· ومـع ذلك فليس للدين حجم حقيقى فى داخل فرنسا

ـ فما معنى هذا كله ؟

ـ هل النصرانية مجرد بضاعة للتصدير ؟

ـ نعم انها لكذلك فعلا ·

ـ انها مجن واق من أخطار الزحف الاسلامى ·

ـ انها ستار يراد منه أن يمنع شمس الاسلام من الظهور ·

ـ انها تراث حضارى يرشح للوقوف فى وجه تراث الاسلام وحضارته ·

ـ انها ـ فى أقل حالاتها ـ صورة (دين) يمكن أن يحارب بها (دين) آخر ·· حيث ثبت ـ تاريخيا ـ أنه لا يقف أمام الدين الا الدين ـ ولا يفل الحديد الا الحديد ·· والبقاء للاصلح فى نهاية المطاف ·

(12) التبشير والاستعمار ، ص : 35 ، 36 ·

ـ ولمزيد من الوضوح حول دور التبشير التخريبي في افريقيا « وهو الدور الوحيد الذى رسم له » دعنا نسرد هذا الحوار الطريف الذى دار بين « لويس لومكس » الصحافى الامريكى ـ فى كتابه (الافريقى النافر) ـ وبين « سيلوندىكا » عضو اللجنة التنفيذية للحزب الديمقراطى فى روديسيا الجنوبية سابقا ٠

ـ سأله الصحافى الامريكى قائلا :

هناك تقارير منتظمة تؤكد أن المسيحية تنحسر عن افريقيا ٠٠ هل هذا صحيح ؟

ـ الزعيم الافريقى : نعم صحيح ٠٠ فالكنيسة لم تلعب دورا سليما فى الشؤون الافريقية ٠٠ لقد وقفت ضدنا الى جانب هؤلاء الذين استعبدونا ٠٠ انها اليوم تقف على قدمها الاخيرة فى افريقيا ٠

ـ الصحافى الامريكى : هل أنت مسيحى ؟

ـ الزعيم الافريقى : نعم أنا كاثوليكى تعلمت فى كلية « ماريان » فى ناتال بجنوب افريقيا ٠٠ وأنا طبعا لم أنضم للكنيسة لدوافع سياسية بل عن اعتقاد روحى ٠٠ ورغم ذلك شعرت بأن الكنيسة خذلتنى ٠٠ ان الاسلام سينصر فى افريقيا ، وبالرغم من أننى كاثوليكى الا أننى لا أستطيع أن أقول مخلصا : اننى آسف لتطور الاحداث (لصالح الاسلام) ٠٠ اننى أفهم أن الدين يشكل جانبا حاسما من قيم الانسان ، ومن ثم ٠٠ يدفعه الى الحرية ٠٠ وهذا ما فشلت فيه الكنيسة ٠٠ لقد أعطتنا كل شىء ما عدا الحرية (13) ٠

ان التبشير ـ كما نرى من هذا الحديث الواضح ـ ليس أكثر من واجهة مزيفة من تلك الواجهات الكثيرة التى يخفى بها الاستعمار مخالبه الحقيقية وأطماعه ٠ وهو بهذا خطر حقيقى كبير بالنسبة لمستقبل افريقيا المتحررة ٠٠ وبالنسبة لمستقبل من يهمهم أمر الاسلام والتعريب فى هذه القارة العذراء ٠

---

(13) نقلا عن الغزو الفكرى لمحمد جلال كشك ص 40 ، وانظر حقيقة التبشير وجذوره التاريخية ، مقال بمجلة التضامن الاسلامى عدد اكتوبر 1975 لعبد الحليم عويسى ٠

اليهود فى افريقيا :

ولئن كان التبشير النصرانى فى افريقيا يشكل جزءا من ملامح الصورة القائمة التى تعكر صفو (الاسلام فى افريقيا اليوم) ـ فان اليهود يشكلون بعدا آخر من أبعاد الجزء القائم فى الصورة ·

وبعد استقلال كثير من الدول الافريقية ذهبت اسرائيل تعرض خبرة اليهود فى العالم وأموالهم لمساعدة هذه الدول ·

واليهود ـ عن طريق العلاقات السياسية والتجارية واستغلال الاعلام والدبلوماسية المرنة ـ يحققون أغراضهم فى كسب بعض الحكام الافارقة ، لدرجة أن جريدة نيجيرية كتبت بتاريخ 13 أكتوبر 1962 تقول بأن أية دولة فى الشرق أو افريقية لا تستطيع مساعدة نيجيريا ما عدا اسرائيل ·

وثمة تعاون قائم بين اسرائيل وبعض الحكام الافارقة ـ ان لم يكن بشكل سافر سياسى أو اعلامى أو عسكرى أو ثقافى ـ فهو بشكل سرى ، وبخاصة فى المجالات التجارية والثقافية · ولئن كانت بعض الدول الافريقية قد غيرت موقفها من اسرائيل بعد ظهور طابعها الاستعمارى وهزيمتها فى حرب رمضان 1963 هـ ـ فان دولا أخرى لا تزال تربط نفسها باسرائيل ·· ومنها أثيوبيا وغانا وروديسيا وتنزانيا ··· واسرائيل تستغل الوضع الاقتصادى الافريقى المتخلف ، وتقوم بتعليب كثير من اللحوم والفواكه وغيرها من المواد الافريقية الخام كما تستورد الخشب والماس ومواد السماد · « ولقد اهتم الاسرائيليون اهتماما خاصا باقامة الفنادق وأماكن اللهو وسيطروا عليها اداريا ، وسخروها لاغراضهم السياسية والاقتصادية ، وكان يختفى وراء مظهرهم البرىء شر أنواع النشاط السرى المخرب » . (14)

ان اسرائيل لن تترك افريقيا للعرب والاسلام بسهولة · كما أن المد الحضارى لا ينتشر بالعواطف والمجاملات · وبالتالى فيجب أن نخطط بجدية وسخاء لضمان انقاذ افريقيا من اليهود والصهيونية ، وسيرها فى ركاب حضارة الاسلام ·

(14) كامل الشريف المغامرة الاسرائيلية على افريقيا ص 116 ، 117 ·

الشيـوعية فى افـريقيا :

تمثل الشيوعية خطرا داهما بالنسبة للاسلام فى افريقيا ـ يسىء الى ملامح صورة الاسلام فى افريقيا اليوم ٠

فافريقية المسلمة ٠٠ قارة المستقبل الاسلامى ٠٠ تغزوها الشيوعية فى بعـض أركانها ، وذلك حين يبدو أن التبشير لن يستطيع الصمود أمام الاسلام ، وحـين يبدو أن النفوذ اليهودى لا يستطيع القيام بالغرض ٠ وان ما حدث فى أثيوبيا ـ بعد « هيلاسلاسى » الذى لم يتمكن من عمل كل شىء وبخاصة القضاء على مسلمى أرتريا ـ لدليل ناصع على أن الشيوعية هى البديل الثالث الذى يتقدم به اليهود والتبشير ، حين يبدو لهم أن الطريق للقضاء على الاسلام مسدود . ولسنا نفصـل ما جرى فى الصومال عما جرى فى أثيوبيا ، كما لا نفصل ما جرى فى تانزانيا (زنجبار وتنجانيقا) حين قتل عشرات الآلاف من العـرب والمسلمين ـ باسم التقدمية الشيوعية (15) ـ واعترف باسرائيل ودعيت « جولدا مائير » لزيارة تنزانيا ـ لسنا نفصل كل ذلك عن حقيقة الدور الذى تلعبه الشيوعية فى افريقيا ٠

وانه لمدعاة للتساؤل أن يكون أكثر الزعماء الشيوعيين الذين ظهروا فى افريقيا ذوى علاقة طيبة باسرائيل ٠ وكان أكثرهم ينظر الى اسرائيل على أنها تجربة تقدمية (16) يجب أن يحتذى بها ٠ والنظر الى انتصارها على العرب على أنه انتصار للتقدمية عـلى الرجعيـة ٠

فالشيوعية عائق من عوائق المد الاسلامى فى افريقيا ، وهى عنصر من ملامح الجزء القاتم الذى يعكر صفو الاسلام فى افريقيا اليوم ٠

مكانة اللغة العربية فى افريقيا اليوم :

تختلف الوضعية الافريقية الشعبية عن الوضعية الافريقية الرسمية أو الوضعية التى يريد التبشير واليهود أن يصلوا اليها ٠

---

(15) أنظر محمود شاكر : تانزانيا ، ص 34 ٠
(16) أنظر كامل الشريف : المغامرة الاسرائيلية ص 94 وما بعدها ٠

فالحقيقة أن القاعدة الشعبية فى افريقيا لا زالت الى حد كبير ·· تنتمى الى العربية · لغة وفكرا ·· والى الاسلام دينا وحضارة ·

واذا ما استثنينا البلدان العربية الافريقية (مصر والسودان والجزائر والمغرب وليبيا وتونس والصومال وموريتانيا) نظرا لان العربية هى اللغة الرسمية فيها ـ فان بقية البلدان الافريقية ـ وبخاصة الاسلامية منها ـ تعتبر اللغة العربية لغتها الدينية والفكرية والحضارية على الاقل ، على المستوى الشعبى ·

● ففى الحبشة ، حيث يمثل المسلمون 65 ٪ ، وفى أرتريا ، حيث يمثل المسلمون 80 ٪ نستطيع أن نقول : ان اللغة العربية هناك احدى اللغات المعروفة لاغلب السكان ويمكن التعامل بها فى الاسواق ، فضلا عن دور العلم والمساجد · وعند مقارنة اللغة « التجرينية » المستعملة فى أرتريا كلغة محلية ، سوف نكتشف أنها اقتبست كثيرا اللغة العربية ، حتى أن الاعداد المستعملة فيهما تبدو وكأنها شىء واحد (17) ·

● وفى كينية حيث العراقة الافريقية الاصيلة ، وحيث تسود اللغة الساحلية وتجاورها لغات كثيرة تزيد على سبعين لغة ، فلكل قبيلة لغة خاصة تشبه اللهجة ، ومع ذلك فان العربية تحتل مكانا بارزا بحيث ان اللغة الساحلية هذه تعتمد فى حوالى خمسين بالمئة من كلماتها على العربية اما أصلا ، واما اشتقاقا · ولهذا فلم يكن غريبا أن تقر وزارة المعارف الكينية مؤخرا تدريس اللغة العربية رسميا بمدارس الساحل الكينى ، كما أنها أقرت اختيار الطلاب رسميا فى مادة الدين · وقد أبدت استعدادها لقبول أكبر عدد ممكن من المدرسين للغة العربية والدين الاسلامى ، شريطة أن تتكفل الحكومات العربية بالتكاليف والمرتبات (على نحو ما يفعل المبشرون) (18) ·

● وفى أوغندا يتكلم الناس لغة ساحلية خاصة بهم تختلف عن ساحلية كينيا ، وهى مزيج من لهجات « البانتو » مع اللغة العربية (19) ·

(17) راجع محمد العبودى : فى افريقية الخضراء ص 91 وما بعدها ـ وأنظر ص 158 وص 182 وص 183 (عن العربية فى الحبشة) ·

(18) المرجع السابق ، ص 212 ·

(19) أنظر تقرير رابطة العالم الاسلامى بالمملكة العربية السعودية المنشور بالصحف المحلية (عن كينيا) فى السعودية ·

ومع أنها ساحلية أوغندية خاصة ، فانها تكتب بالابجدية العربية ، مما يدل على التأثير القوى للغة العربية فى أوغندا ، هذا فضلا عن أن المسلمين فى أوغندا (وهم قريبا سيشكلون الاغلبية السكانية ان شاء الله ـ نظرا للمد الاسلامى على عهد الرئيس « عيدى أمين ») ـ يحرصون جميعا على تعلم اللغة العربية (20) ٠

وهكذا ـ نستطيع القول (من خلال هذه النماذج) : ان للغة العربية أرضية كبيرة فى افريقية منذ دخلت فى ركاب الدعاة والتجار المسلمين ، **وأصبحت لغة الادب والعلم** والتعامل ، ويكفى ـ فى نهاية حديثنا عن **اللغة العربية** فى افريقيا ـ ان نـدلل على عمق مكانة هذه اللغة ، فنذكر ان أهم المراجع التاريخية « كأضابير اشانتى » « وكانو » فى افريقية الغربية ، ومحفوظات « كلوة » فى افريقيا الشرقية أكثرها باللغة العربية ، حتى قال بعض الكتاب الاوربيين معبرا عن مدى ارتباط افريقية بالعربية لغة وحضارة : « اننا اذا نزعنا الوثائق التاريخية المكتوبة باللغة العربية لا يبقى ثمة تاريخ يعتد به لافريقيا السوداء » ٠ وقد قال أحد وزراء زنجبار فى ذلك : « يكفى للتدليل على مكانة لغة العرب بالنسبة لافريقيا أن نعلم أنه لا يوجد فى اللغة السواحلية كلمة مرادفة لكلمة تحضير أو تمدين سوى كلمة « تعريب » ، فاذا أردنا أن نتحدث عن مشروع لتطوير قرية زراعية قلنا : « تعريب تلك القرية » ٠

وهذه الكلمة الواحدة تصلح نافذة عريضة على تاريخ مجيد طويل (21) ٠

انه تاريخ علاقة افريقيا بالعرب حضارة ولغة ومصيرا ودينا !!

الاسـلام فى افريقيا اليوم :

ليس ثمة شك فى أن الاسلام فى افريقية يعيش اليوم بين مد وجزر ٠٠ أو بتعبير آخر : بين (محنة ومنحة) ٠

(ومحنة الاسلام) فى افريقيا تتركز فى عدة مواطن منها :

(20) أنظر محمود شاكر : أوغندا ص 48 ٠

(21) أنظر (بتصرف) كامل الشريف : المغامرة الاسرائيلية ، فى افريقيا ص 170 وما بعدها ٠

أولا : فى جنوب السودان .. فهذا المدخل الطبيعى الذى كان بالامكان أن يصبح احدى بوابات الاسلام الى افريقيا ـ قد أصبح **مرتعا** لنفوذ المبشرين ، وللموالين لهم ممن يجاورون السودان .

فبعد الاتفاق الذى تم بين الشمال والجنوب فى مؤتمر « أديس أبابا » الذى عقد فى مارس 1972 م باشراف المنظمات الكنسية والفاتيكان ـ فتح الباب على مصراعيه للمبشرين . ويقينى الجازم أن المبشرين سيتمكنون من اقامة دولة مسيحية فى جنوب السودان تكون احدى منطلقاتهم لقلب افريقيا ـ وذلك ما لم ينهض العرب لرد هذا الخطر .

كما أن التبشير قد نجح من وراء هذه الاتفاقية فى قهر الحركات الاسلامية فى أرتريا وتشاد .. فهاتان الثورتان تعيشان منذ الاتفاقية مرحلة اختناق حاد مرير .

ثانيا : فى الصومال .. حين وقع الانقلاب العسكرى الشيوعى فى 21 أكتوبر 1969 . ولم يكد يمر عام حتى أعلن قائد الانقلاب « محمد زياد برى » فى عيد الانقلاب الاول ـ اعتناقه وحكومته للمبدأ الماركسى اللينينى . وتفسير الاسلام تفسيرا ماركسيا واخضاع عقيدة الاسلام وأصول شريعته لما يتلاءم مع أفكار ماركس ولينين ، وتبع ذلك تنظيمات ومعاهد كل همها انشاء شبيبة شيوعية ترفض الاسلام وتعلن الحرب عليه ـ كما أصدرت الحكومة مرسوما فى سنة 1972 م يقضى بهدم كل المدارس القرآنية . واستمر الحال على هذا المنوال .. حيث تزحف الشيوعية فى كل يوم على أجساد مئات العلماء وآلاف المجاهدين ـ مستعملة أبشع وسائل التنكيل التى عرفها التاريخ .

وكما هو المتوقع فان الحكومة الشيوعية فى الصومال تعوق ـ من جانبها وفى حدود تأثيرها ـ كل مد اسلامى الى افريقيا .. وتتبنى بديلا عنه كل ما هو ماركسى ويخدم مصالح أصحاب العقيدة الماركسية . واننى من جراء هذا ـ لاعتقد بأن الماركسية ، هى الخط الاول الآن لتحقيق كل أهداف الصهيونية والتبشير ، وهى الممهد الحقيقى لاستيلائهما على أرض الاسلام ـ لا قدر الله .

ثالثــا : فى تنزانيا

فمنذ وقع انقلاب 1964 م وخلع السيد « جلمشيد بن عبد الله » ٠٠ ومنذ قتل فى ساعات محدودة (ستة عشر ألف عربى) ، كما لقى سائر المسلمين شتى أنــواع التعذيب ، ولقى (54) ألفا حتفهم ٠

منذ هذا اليوم الذى تبعــــه زوال شخصية بلد اســلامى عزيز هو « زنجبــار » ـ حرسها الله ـ أصبحت كلمة الاسلام ـ وأصبح العرب واللغة العربية ـ جــرائم يحاسب عليها القانون ٠٠ والمجال لا يتسع لتتبع صور اضطهاد الاسلام والعروبة فى تنــزانيــــا ٠

رابعــا : فى تشــــاد

وفى تشاد حيث تصل نسبة المسلمين فى بعض المصادر الى 92 ٪ ـ (وليس لهم فى الحكم الا 20 ٪ فقط من المقاعد الوزارية) تتعرض الجماهير المؤمنة ـ والشخصيات الاسلامية ـ لاضطهادات متلاحقة ، كمــا يتعرض المسلمون جميعا لضغوط الضرائب والاعتقالات والحرمان من الحقوق السياسية والدينية والاجتماعية والثقافية ٠

وقد فشلت انتفاضة المسلمين ضد أنواع المظالم المحدقة بهم **فى سنة 1965 م ،** فكانت انتفاضتهم الفاشلة بابا جديدا فتح عليهم أبواب التنكيل والتعذيب ، لدرجة استجلاب قوات فرنسية لابادتهم ، مع ملاحظة أن نسبة الحاكمين المسيحيين لا تعــدو (4 ٪) من السكان ٠

والشعب التشادى المسلم بقيادة جبهة التحرير الوطنى التشادى التى تأسست سنة 1966 م ٠ لا زال يكافح لاعادة الاوضاع الى نصابها ـ وفقا لما يتشدق به المسيحيون كذبا ـ حول حقوق الناس والاغلبية فى الديمقراطية والحرية والوصول الى الحكم ٠

لكن الحقيقة الثابتة أن الديمقراطية يحاربها النصارى أنفسهم اذا كانت لمصلحة الاســـلام ! !

خامسا : أما أثيوبيا ··· ومأساة المسلمين فى أرتريا ···

فالمسلمون ـ هناك ـ محرومون من أبسط الحقوق الانسانية · فبقرارات رسمية يمنع دخول المدرسين المسلمين الى أثيوبيا وأرتريا ، وتفرض رسوم جمركية عالية على الكتب الاسلامية ، ويلاحق الاسلاميون لاسلامهم ويزج بهم فى السجون ، ولا يعترف لهم بشهاداتهم التى حصلوا عليها من المدارس الاسلامية ·

وقد ألغيت اللغة العربية ·· فى المدارس ·· وفى المصالح والمؤسسات الحكومية وتلجأ الحكومة الى بث جاسوسية محكمة حول المسلمين ، والشخصيات الاسلامية المثقفة ·· سواء من هم من الوطنيين أو من هم من الوافدين · لضمان وأدها للاسلام واللغة العربية ·· كما أنها تحرص حرصا شديدا على ابعاد المسلمين عن الدوائر الحكومية ، وتشجع « البغايا » على الهجرة والانتشار فى المدن الاسلامية على امتداد أيثيوبيا وأرتريا ·· بل ان الحكومة لترفض مجرد اقامة علاقات دبلوماسية مع الدول التى تشعر بتمسكها بالاسلام ، وترفض السماح للطلاب الارتريين والاثيوبيين بقبول المنح التى تقدم لهم من بعض الدول الاسلامية ، وتبذل ـ الى جانب ذلك ـ تسهيلات ضخمة لكل الحركات المعادية للاسلام شيوعية أو صهيونية أو تبشيرية ، كما أنها تفرض على المسلمين الجهل والفقر والمرض ·

● وهناك محن أخرى كثيرة تحيط بالمسلمين الافارقة ·· لكننا لسنا بسبيل الحصر ·· وحسبنا هذا من صور التحدى للاسلام فى افريقيا المجاهدة ·

* * *

بيد أن هناك (منحا) كثيرة ، ونوافذ فسيحة للامل فى اسلامية افريقية · فان الاستعمار والتبشير باسلوبهما الهمجى قد ساعدا المد الاسلامى من حيث لا يشعرون ، كما أن الشعوب الافريقية قد بدأت تعرف حقيقة الماركسية والصهيونية وأسلوب الحياة فى ظلالهما ، وحقيقة أطماعهما · وقد ساعد على ذلك سقوط أسطورة اسرائيل التى لا تقهر فى حرب رمضان 1393 هـ ·

● ان كينيا قد بدأت سياسيتها تميل نحو الاعتدال ، فيما يتعلق بالحقـــوق الاسلامية ٠٠ وهذا مكسب ممتاز ٠

● وقد أصبح المجال لنشر الاسلام فى أوغندا فى أحسن صوره الممكنة ، وحبذا لو استغلته الدول العربية المهتمة بالاسلام ٠

● والسنغال قد بدأت تأخذ موقفا معتدلا أيضا من القضايا الاسلامية ٠

وقد عقد فى عاصمتها داكار ـ بتسهيلات كبيرة من حكومة السنغال ـ مؤتمـر رابطة العالم الاسلامى الافريقى الثانى (محرم 1397 هـ) الذى انبثق عنه تكوين مجلس التنسيق الاسلامى الافريقى ٠

وقد تكرمت حكومة السنغال فمنحت أعضاء رابطة العالم الاسلامى كل الامتيازات والحصانات الدبلوماسية ٠

● وجمهورية افريقيا الوسطى قد أعلن رئيسها « بوكاسا » وابنه ، وفريق من وزرائه ، وستون من كبار الشخصيات اسلامهم ، ففتح الباب للاسلام فى هذه الجمهورية الفتيـــة ٠

● ومثل افريقية الوسطى : الجابون ٠٠ التى أسلم رئيسها وأدى فريضة الحج ٠

● ويجب أن لا نغفل من ملامح الصورة أن بعض الدول الافريقية التى حصلت على استقلالها قد أفادت الاسلام ولغة القرآن ٠ وأكبر مثل على ذلك هو الجزائر المسلمة العربية ٠٠٠ جزائر عبد الحميد بن باديس التى نتمنى أن تلعب دورا قياديا فى الدعوة الى الاسلام وفى نشر اللغة العربية فى افريقيا ٠

* * *

● كما أن من الواجب ـ احقاقا للحق ـ أن نذكر بالخير الجهود التى قامت بهـا حكومة الجمهورية العربية الليبية فى مساندة مسلمى افريقيا والمدافعة عن قضاياهم ٠

ـ فهذه النواحى ـ وغيرها ـ نشكل الجزء الكبير المشرق ، الممهد لجعل افريقيا قارة اسلامية عربية بأذن الله ٠

مستقبل الاسلام فى افريقيا :

من بين عوامل الايجاب والسلب المتضاربة ... ومن خلال ملامح الصورة بشطريها الابيض والداكن ... ووسط تراث حضارى أصيل أعطى افريقيا لونها الاسلامى على امتداد القرون التى سبقت مرحلة الاستعمار الاوروبى .

من بين كل هذا ـ وعبورا من تراث الماضى الى آلام الحاضر وآفاق المستقبل ـ نستطيع القول بموضوعية محايدة :

ان مستقبل القارة الافريقية هو مستقبل اسلامى يتكىء على العربية لغة وفكرا .. ويستمد من الاسلام عقيدة وشريعة وحضارة منطلقاته ، ومناهج نضاله ، ومعالم مستقبله الحضارى المتميز الاصيل .

ـ ولعل من حسن حظنا نحن الذين سنعبر ـ ان شاء الله ـ عتبات القرن الخامس عشر للهجرة .. وربما عتبات القرن الحادى والعشرين للميلاد .

لعله من حسن حظنا أننا ذلك الجيل الذى سيودع عصر الدكتاتورية الفردية المستبدة الطاغية فى عصر الثورة التكنولوجية .

لقد آن للتاريخ أن يدور دورة أخرى يكون للشعوب فيها الدور الحقيقى البطولى ، وتنتهى مرحلة الطغاة الذين تعودوا أن يقودوا مئات الملايين بقرار أو بشعار ...

ـ ان مرحلة الغوغائية واستعباد الطغاة للشعوب سوف تنتهى .

ـ هكذا يقول معلمنا التاريخ . وقد بدأ جليدها يذوب فى جناحى المعسكر الالحادى اثر سقوط بعض الطغاة .

ـ وعندما يقف التاريخ على باب منعطفه الجديد ـ فان شعوب افريقيا ـ وليس عملاء الاستعمار التبشيرى ، وليس عملاء الشيوعية ، وليس عملاء اليهودية .

ان شعوب افريقيا وحدها وليس كل هؤلاء هم الذين سيقررون مصير هذه القارة المجاهدة العذراء .

وبالتأكيد فان الفطرة الافريقية المنبثقة من أعماق التراب والتاريخ لـن ترضى بغير الاسلام بديلا ·· **فماضى** الاسلام فى افريقيا هو حضارتها التى تزهو بها ·· وما أسدى الاسلام لها غير الخير ·· وما كان دعاته غير مجاهدين يتوجهون بعملهم **لوجه الله ، ولم يكونوا يوما ما مستعمرين مستغلين** ··· وأما **حاضر** الاسلام فى افريقيا ··· فهو كحاضر الاسلام فى كل بلدان الاسلام ، حيث يتعرض هذا الدين ـ كما ذكرنا ـ لهجمة استعمارية شرسة ، نظرا لانه الدين المرشح لقيادة حضارة المستقبـل ··· وأما **المستقبل** ، فلا يمكن أن يكون أوروبيا أو نصرانيا ··· فتاريخ افريقيا مـع أوروبا أو النصرانية لا يسمح باقامة روابط حقيقية ·

على اننا نحن العرب الافريقيين المسلمين ·· ونحن المسلمين فى كل مكان يجب أن نساعد التاريخ على السير بافريقيا الى شاطىء المستقبل الاسلامى ·· فالتاريخ البشرى لا يتحرك آليا أو عفويا ، وهو لا يسير باطراد فى اتجاه الاصلح ، اذا لـم يساعده الصالحون فى الارض ·

وانى أقدم للقيام بهذا الواجب المقترحات الآتية :

1 ـ توجيه اذاعة لافريقيا فى كل بلـد عربى مسلم ، تتكلم اللغة الشائعة مـع الاقتراب ما أمكن من العربية ، ومع ضرورة ايصالها واضحة لاعماق افريقيا ·

2 ـ اقامة سفارات وعلاقات ثقافية واقتصادية طيبة مع البلدان الافريقية كلها ، ولو كان ذلك على حساب بعض التجاوزات عن الآراء السياسية المرحلية ·

3 ـ تبليغ صوت المسلمين الافارقة الى العالم ، وتبنى قضاياهـم وحقوقهـم الانسانية فى تعلم دينهم ولغتهم العربية ، والوقوف ضد الدول التى تحرمهم مـن هذه الحقوق (فمثلا ·· حكومة أثيوبيا تحرمهم من اقامة المدارس الاسلامية ومـن تعلم الدين الاسلامى ·· وتعتبر ذلك عملا غير مشروع ! !) ·

4 ـ رصد ميزانية خاصة للمعونة الاقتصادية لمسلمى افريقيا ، وذلك لمساعدتهم على اقامة مساجد ومدارس ومستشفيات ودور لرعاية المعوزين والعاجزين واليتامى والارامل حتى يتمكنوا منالاستغناء عن مساعدات التبشير المسيحى ، ومن القضاء على

الموبقات الاخلاقية التى يدفع اليها الفقر (فالزنا فى أرتريا ـ مثلا ـ علنى ٠٠ حيث يجلس النسوة فى مصموع أمام البيوت،وينمن بالليل أمامها فى انتظار الساقطين (22))

5 ـ مناشدة الحكومات الاسلامية فى البلدان العربية الافريقية بمنع الزنا والخمور ـ منعا رسميا ـ وعدم التصريح بقانونية هاتين الجريمتين ٠٠ حتى تكون هذه الدول مثلا حيا لافريقيا المسلمة غير العربية ٠٠ فالحقيقة أن الفساد الاخلاقى من الوسائل التى يعتمد عليها التبشير فى الصهيونية **والشيوعية** فى استعباد الشعوب وقهرها ٠

6 ـ استغلال الظروف المتاحة ـ ولو مرحليا ـ أحسن استغلال لتوطيد أركان الاسلام والعربية فى بعض البلدان الافريقية التى تقيم علاقات قوية هذه الايام مع العالم العربى ٠٠ كأوغندا والجابون والسنغال وتشاد ونيجيريا وجمهورية افريقيا الوسطى ٠٠ وغيرها ٠

7 ـ العمل على اذابة الفوارق بين المذاهب الاسلامية المعترف بها ، واجلاء وحدة الدين الاسلامى فى أصوله ٠٠٠ ففى بعض البلدان الافريقية تنتشر ـ للاسف الشديد ـ موجة التعصب المذهبى لدرجة أن بعض الطوائف تخصص مساجد لها فتكتب على المسجد مثلا : (مسجد الشافعية ، أو مسجد الحنفية) وهكذا ٠٠ ! !

8 ـ نشر الاسلام الصحيح والثقافة الاسلامية الاصيلة ـ بالكتب والاساتذة ، وبالنشرات والدوريات بلغات افريقيا ـ فالمسلمون الافارقة فى أغلبهم جهلة لا يعرفون أبجديات الاسلام ، بل بعضهم يخلط بين الاسلام والمسيحية ، حتى فى الاسم ، فيتسمون : « هنرى محمد ، وجيمس على » بل ان بعض الاطفال المسلمين والشيوخ لا يعرفون معنى الاسلام ، ولا يعرفون أنهم مسلمون ٠ وبعض المدارس الافريقية الاسلامية تخلو من مدرس واحد للاسلام أو العربية ، كما أن بعضها أغلق بعد بنائه لعدم وجود المدرسين المتخصصين فى الاسلام والعربية ٠

9 ـ دراسة اللغات الافريقية واللغتين الانجليزية والفرنسية فى المعاهد والجامعات الاسلامية ، وبخاصة معاهد اعداد الدعاة ٠

(22) أنظر : محمد العبودى : فى افريقية الخضراء ص 82 وانظر ص 87 ، ص 172 ٠

10 ـ مساواة الماركسية بالصهيونية والتبشير ، واعلان الحرب على كل هـــذه المبادىء الهدامة التى تحارب الاسلام فى افريقيا « فالكفر ملة واحدة » • وقد فعلت الماركسية بالاسلام فى أثيوبيا والصومال وتنزانيا وغيرها ما لم يجرؤ الاستعمار على فعله • وقد أوقف الشيوعيون المد الاسلامى فى كل بلد افريقى سيطروا عليه •

11 ـ ولا نستطيع أن نخفى أن حركة القومية العربية كفكرة عنصرية متخلية عن الاسلام ، قد أساءت كثيرا الى الصورة الاسلامية فى افريقيا • وبالتالى فالولاء للاسلام وللمستقبل الاسلامى لافريقيا يقتضى التخلى عن هذه النعرة الجاهلية •

12 ـ وأخيرا ••• فان أوضاع العالم العربى والاسلامى ، والخلافات السياسية والفكرية القائمة بين بعض حكوماته ، وتخلى كثير من القيادات عن الاســـلام منهجا ورسالة الى البشرية ، والاعتماد على الفكر المادى أو العلمانى أو القومى ••• فضلا عن انحطاط المستوى الفكرى والخلقى والاقتصادى والسياسى داخـــل المجتمعـــات الاسلامية •

كل هذا لعب دورا فى زحف الاخطار المضادة للاسلام على افريقيا وفى بطء التقدم الاسلامى •• اذ أن فاقد الشىء لا يستطيع أن يعطيه •• وتقديم النموذج العلـــمى لا يقل عن الاستيعاب النظرى •

وان واجبنا نحن المخلصين لقضية الاســـلام أن نناشد القيادات العربيـــة والاسلامية فى أن تتجه الى الاسلام داخليا وخارجيا • ففى ذلك ازدهارنا داخليـــا ، وتقديمنا النموذج الصالح الملائم لمبادىء لديننا خارجيا ••• وصدق القرآن :

« كنتم خير أمة أخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنـــون باللـــه » • (23)

(23) آل عمران ١١٠ •

- هذا طريقنا ...
- ورســالتنا ...
- ومستقبلنــا ...

« هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كـــره المشركـون » . (24)

ومن الله السداد والتوفيق . وهو نعم المولى ونعم النصير .

(24) الصف 9 .



منظر من القاعة

النقطة 3

الدور المفيد للمرأة فى مجتمع اليوم

د٠ شارل ل٠ جيدز

أستاذ ومدير المعهد الامريكى للدراسات
الاسلامية ، جامعة دنفر ـ كولورادو ـ
(الولايات المتحدة الامريكية)



ان الله بحكمته الخالدة قد آتى بالرجل والمرأة ليسكنا هذا العالم الجميل الذى كان قد خلقه ، كل منهما يسعى لتعمير هذا العالم بالسكان ٠ هذا بالاضافة الى رغبته بأن عليهما أن يتساندا روحيا ، وعاطفيا ، وجسمانيا ٠ يمكننا أن نقرأ عدة فقرات فى القرآن تنص على أن الله قد خلق الذكر والانثى متساويين بغض النظر عن الفروق فى الناحية الجسمانية وفى الطبع ٠ انه من الاهمية بمكان وكمرجع رئيسى فى المجتمع المعاصر أن نذكر بالآية رقم 194 من سورة آل عمران : « فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض ٠٠٠ » ٠

ولسوء الحظ ، قام الرجل بتجاوز احكام وارادة الله أو قام بتحريفها وقلب معناها الحقيقي ، ومن بين ذلك سعى الرجل الى اخضاع النساء لارادته ومن ثم وضعهن فى مرتبة اقل منه • وبهذا الصدد كان الرجل عادة ناجحا لانه اقوى من المرأة من الناحية الجسمانية والعاطفية ، الامر الذى حدا بالمرأة عبر العصور أن تبدى رغبتها فى ارضاء الرجـــل •

منذ عدة سنوات ، ودون علم وبخلفية دينية كتب الغربيون ما مفاده أن العقيدة الاسلامية وحدها هى المسؤولة عن الحط من قيمة المرأة فى العالم الاسلامى • انهـم قاموا بذلك متغاضين عن الحقيقة ، وهى أن المجتمع الغربى قام أيضا بمعاملة المرأة بصورة غير عادلة ونظر اليها نظرة بأنها أقل من الرجل ليس فقط من الناحية الجسمانية بل من الناحية العقلية والعاطفية •

فى القرن الثالث عشر ذكر احد الآباء فى الكنيسة الرومانية الكاثوليكية بـأن مولد الانثى كان خطأ من الطبيعة وأن قدرتها العقلية أقل بكثير من تلك التى يتمتع بها الذكر • ورغم ان هذا لم يعد مذهبا للكنيسة الا أن هناك من يؤكد بحزم أن عقول النساء أقل قدرة من عقول الرجال • اننا غالبا ما نهزأ بالسائقات وذلك لكونهن نساء •

ان الدستور الاساسى للامة الجديدة الذى طبقته الولايات المتحدة الامريكية عـــام 1787 ، ذلك الدستور الذى يعتبر من اكثر الدساتير تحررا فى العالم فى ذلك الوقت، لم يسمح للمرأة لا بالتصويت ولا بفتح مكتب عام لها • وهذا العجز المنسوب للمرأة ، التى ساهمت ماديا فى الثورة وفى تأسيس الامة الجديدة ، لم ينسخ الا فى المادة رقم (19) من دستور عام 1920 ، أى بعد مرور 133 عام • هذان مثلان فقط من بين العديد من الامثلة التى وضعت النساء فى موضع اللامساواة فى المجتمع الغربى •

رغم العجز والانحطاط المفروض عليهن ، استطاع كثير من النساء عبر التاريـخ فى ثقافات ومجتمعات مختلفة فى الغرب والشرق ، التغلب على هذه العقبات والعمـل لتحسين أحوال الرجل ولتقدم المجتمعات التى عاشوا فيها •

فى هذه الفترة البسيطة لا يدور فى مخيلتى محاولة التحدث عن التطور التاريخى للحركات التحررية النسوية أو التنقيب عن جهادهن المعاصر لاكتساب المســاواة بالرجل ، تلك المساواة التى وهبها الله لهن • اننى أود ان اقدم لكم فوائد كلا الطرفين الرجال والنساء ، تلك التى يجب أن يخلقها الموقف الاجتماعى الثابت الذى يسعون عادة من أجله ، كما أود فى نفس الوقت ان أشير الى بعض المشاكل التى أثيرت فى السنوات الاخيرة بسبب بعض الاعمال التعصبية لبعض حركات التحرر النسائية • هذه الامور الاخيرة ممكن ان تصلح كتحذير لتلك المجتمعات التى بامكان حفنة قليلة منها ان تدمرها أو تعرضها للهلاك • ان دراسة المرأة فى المجتمع والحركات التحررية النسائية أصبحت منذ وقت قريب فقط تكون جزءا هامــا مــن العالم الاكاديمى والاجتماعى • هناك كتابان لهمــا أهمية خاصة صدرا باللغة الانجليزية حديــثا ، يتحدثان عن دور النساء فى آسيا الجديدة قام بتحرير احد هذين الكتابين زميــل سابق وصديق هو الدكتور جوليس ليبرا **استاذ التاريخ بجامعة كولورادو ، وكان** عنوان الكتاب هو **دور المرأة فى تغيير اليابان**•ان هذا الكتاب يشتمل على عدد من المقالات تدور حول دور المرأة فى مجتمع صناعى راق حيث تعتبر فيه النساء جزءا اساسيا من القوة العاملة • هذا بالاضافة الى أن مهاراتهن تعتبر الى حد بعيد السبب فى اعادة بناء اليابان بعد هزيمتها وتدميرها فى الحرب العالمية الثانية • وبعد خروجهن من الماضى ذى النزعة التقليدية ، والذى كانت المرأة فيه موضوعة فى منزلة أقل من الرجل ، نجدهن الآن مرغمات على اجتياز مرحلة صعبة جدا لبلوغ الثقافة التقنية المبنية على طراز غربى حيث منحن درجة معينة من المساواة والاحترام •

والكتاب الثانى قامت بتأليفه سيدة « عالمة » باكستانية ذات مقدرة عظيمة ، وهو تحت عنوان : **حالة المرأة فى العالم الاسلامى ، دراسة عن الحركات النسائية فى تركيا ، ومصر ، وايران ، والباكستان** ، من تاليف بارقين شوكت على • قامت الدكتورة عــلى بالتدقيق فى وضع المرأة فى بلدان متشابهة اصلا فى الماضى الثقافى والتقاليد ومختلفة فى التصنيع وتحرر المرأة • وان هذه الدراسة ذات فائدة عظيمة لكثير من هؤلاء الذين يحضرون هذه الندوة • ومقابل هذين الكتابين ساقتصر فيما يــلى على ابداء ملاحظاتى

بصورة موسعة تجاه الحركة النسوية فى الولايات المتحدة مشيرا الى النجاحات والاخطاء، التى فى استطاعة النساء فى العالم الاسلامى اتباعها أو تجنبها • ينتابنى شعــور بضرورة القول بأنه رغم تحدثى كرجل ، فانا أتحدث كانسان يعتقد جازما بمساواة الرجل بالمرأة ، وكواحد قام بتعليم الطالبات فى مصر والولايات المتحدة وعمل جنبا الى جنب مع النساء واشاركهن فى مناسبات عديدة فى طباعة المواد العلمية •

وبصورة عامة ، فى الماضى القريب وخاصة عند انتهاء الحرب العالمية الثانية كانت المرأة تحصل على المساواة فى التعليم ، وفرص العمل، والتعويض والمشاركة السياسية اثناء الحرب كان على البلدان المتطورة مباشرة فى الحرب ان تشغل عدة آلاف من النساء فى المعامل والمناجم وترسانات السفن ، بالاضافة الى حلولهن محل الرجال الذيـن أرسلوا إلى جبهات القتال • ان الافعال الماضية الغير عادية التى قام بها النساء كانت سببا فى ظهور أغانى اثناء الحرب تمجد الدور اللازم الذى أسند اليهن ، والعمــل الباهر الذى كن يقمن به • وفى استطاعتى ان اتذكر جيدا احدى هذه الاغانى وهى : (روزة البجانة) ، اذ كانت تدور حول مساعدة المرأة فى بناء السفن البحريــة فى الحقيقة كانت شقيقتى تعمل ككهربائية فى ترسانة سفن اثناء الحرب • اشتغال المرأة هذا فى الوظائف الخاصة بالرجال جسد حقيقة تساوى المرأة بالرجل فى عدة مجالات، اضف الى ذلك ان كثيرا من النساء لم يرغبن فى ترك العمل خارج المنزل • وتــرك الرواتب المرتفعة التى تدفع لهن عند انتهاء الحرب • كثير من الرجال وافقوا على قدرة المرأة للقيام بوظيفة الرجل الا انهم رفضوا قبول افتراض تقاضيها نفس راتب الرجل لنفس العمل • هذا الاعتقاد بالمساواة فى القدرة وعدم المساواة فى التعويض ما زال سائدا فى معظم الاقطار بما فيها الولايات المتحدة •

هذا الاعتقاد نجم عنه كثير من الحقد ، ومن الممكن ان يكون هـذا احدى أسباب وجود حركات التحرز النسوى • فى عام 1975 قامت منظمة العمل الدولية فى المؤتمر العام للولايات المتحدة بتبنى قرار نهائى وتفصيلى حول مساواة النساء العاملات على المستويين ، تكافؤ الفرص والتعويض •

وهذا الاعلان أكد ما سبقه من قرارات دولية تخول للنساء الحق فى تكافؤ الفرص ، والتعليم والتدريس ، والتوظيف ، والتأمين ، والتعويض ، الامر الذى حث كل الامم على تطبيقه · عام 1975 كان أيضا عام المرأة الدولى مع المؤتمر العالمى الذى عقد فى مكسيكو سيتى فى شهر جوان فى نفس العام · هذان الحدثان اضافا قوة دافعة للحركة النسوية من اجل تحقيق المساواة التى تستحقها المرأة · سن مؤتمر الامم المتحدة قانون تكافؤ الفرص فى العمل وذلك القانون الذى يمنع التميز فى التوظيف على أساس الجنس والعنصر ، واللون والدين والجنسية بالاضافة الى المساواة فى الاجر · كثير من الرجال والنساء يؤيدون وجود عبارة « قانون التساوى فى الحقوق » فى الدستور رغم عدم الحاجة الى ذلك ·

لا يوجد مجال للشك بأن المرأة تستطيع أن تلعب دورا هاما فى العصر الحاضر ، كما لعبته فى الماضى ، وكما ستلعبه فى المستقبل · وهب الله النساء صفات معينة تميزهن عن الرجال وواضحة من اختلافاتهم العضوية : الرأفة ، والرقة ، وغريزة الامومة ، والخفة والرشاقة لعدد قليل · ونفس هذه الصفات هى التى تمكنهن من القيام بوظائف معينة اما أن تكون غير ملائمة للرجال أو صعبة عليهم · مثلا ، الرعاية الطبية لا تتطلب فقط المعرفة العلمية بالجسم ، وبالامراض وبالصيدلة بل أيضا تتطلب الرأفة والرقة لعلاج المرضى · المعرفة العلمية ممكن الحصول عليها لكلا الجنسين الا ان الرحمة تتبع من الداخل · وهذا هو احدى الاسباب التى تبين ملائمة المرأة للتمريض · ان غريزة الامومة ذات أهمية خاصة للرفاهية الاجتماعية · التصنيع الالكترونى الحديث ودقته يحتاج الى قدرات خاصة بالاضافة الى خفة اليد والاصابع فى عمليات الصناعة · نلاحظ ان أيدى الرجال كبيرة جدا واصابعهم غليظة بشكل لا يمكنهم من القيام بهذا النوع من العمل فى حين ان النساء بقدراتهن العضوية الخاصة يستطعن القيام بهذا العمل الصعب · اذن ، وجود النساء فى القوة العاملة ضرورى للقيام بتلك المهام التى لا تتلائم مع الرجال · هناك عدة مهام اخرى ومهن تتمكن المرأة ان تقوم بها كالرجل وذلك بسبب التكافؤ الداخلى العقلى مثل مهام القانون والتعليم

والمكتبات والصحافة والهندسة والسياسة الخ ٠٠٠ ان الرجال والنساء فى استطاعتهم مساعدة بعضهم البعض فى مهامهم كما يفعلون فى الحياة اليومية وذلك كما أراد الله ٠

المساواة فى ظل القانـون ، والمساواة فى التعليـم والتدريس ، والتوظيف والتعويض والمعاملة أمور لازمة وتستحق الثناء وذلك لكون الرجال والنساء متساوون أمام الله ٠ اما الكفاح من أجل المساواة ممكن ان يعود بالدمار على الانسان والمجتمع على حد سواء ٠ ان هناك ضغطا شديدا من جانب النساء للبحث عن وظائف خارج المنزل وذلك لاسباب مالية ونفسية وهذا الضغط يمارس فى امريكا وخارجها ٠ فاليوم 27 ٪ من القوة العاملة فى الولايات المتحدة هى من النساء ، وهذه النسبة فى ازدياد مستمـر ٠

هذه الرغبة والضغط من أجل المساواة جعل النساء يبحثن عن طريق يصبحن فيه ليس فقط متساويات بالرجال بل يفوقونهم ٠ ونتيجة لهذا كان لتحرر النساء تأثير هدام على نفس المجتمع الشديد الرغبة فى الرفع من شأن المرأة ٠ ان هناك محـاولة جبارة لتخنث الذكر ولحرمان النساء من تلك الصفات التى كانت تميزهن عن الذكر ٠ كما انهن أصبحن أكثر استرجالا من الرجل فى اللبس والحديث والطباع ، وهـن يحاولن ان يفرضن على الرجل لبسا نسويا ، بالاضافة الى وضع الروائح العطريـة واطالة الشعر وما شابه ذلك ٠ والنتيجة هى ما يسمى بوحدة الجنسين ، بمعـنى استئصال الاختلافات الخارجية التى تميز الذكر عن الانثى عندما تصبح النساء أكثر مقالاة وعدوانية فان هوة الخلاف تزداد بينهن وبين الرجال ، الامر الذى يعود بالهلاك على الجهتـين ٠

بالعمل خارج المنزل ، وبمساواة الاجر ، وبالحاجة النفسية لكى يصبح الانسان « لذاته » ، بكل هذا لم يعد أغلب النساء راغب فى المحافظة على البيت لدرجة أن الاسرة كقوة اجتماعية أصبحت فى طريقها الى الانحلال ٠ وكنتيجة مباشرة لهذا أصبح الطلاق فى المجتمع الغربى يزداد بصورة عامة ، اذ نلاحظ ان نسبة الطلاق فى الولايات المتحدة هى واحد الى ثلاثة ، فى حين أن هذه النسبة ازدادت فى بعض الولايات بنسبة واحد الى اثنين ٠ فقد أصبح البيت المهدم فى الواقع أمرا طبيعيا ٠ هذان التطوران وهـما

دمار وحدة العائلة ونسبة الطلاق المرتفعة يهزان كيان علماء النفس والاجتماع والزعماء الدينيين على مختلف طوائفهم ومعتقداتهم بسبب تأثير ذلك على الكبار المعنيين بالامر وعلى الاطفال · كلما ازداد خروج النساء من المنزل بسبب العمل أو الطلاق نجد أن الاطفال الذين حرموا من التوجيه الابوى ، يوضعون فى مراكز الرعاية اليومية الامر الذى يزيد من حرمانهم من العناية الابوية والتوجيه اللازمين لحياتهم · ونفس هذا الموقف قوبل فى البلدان الاشتراكية والرأسمالية المصنعة يذكر علماء النفس والاجتماع بأنه كان عليهم اثناء السنوات الماضية ان يعالجوا عددا متزايدا من الشباب المضطربين عاطفيا بالاضافة الى الاطفال ، الامر الذى جعلهم يتخوفون من المستقبل · الافراط فى تناول المخدرات والكحول وانتشار الجريمة كل هذا يعتبر نتيجة مباشرة لهذه الاعتبارات · زيادة على هذه الانحرافات فان العنف فى طريقه الى الازدياد · الجريمة ، والقتل ، والفسق ، والسرقة كل هذا انتشر دون حاجة ماسة · فالكهول متخوفون من الخروج من منازلهم حتى لو كانوا أصحاء ·

هناك نتيجة أخرى تمخضت عنها الحركة « التحررية » وهى الانحلال الخلقى متمثلة فى الفجور المتعلق بالعلاقات الجنسية · انه لمن الطبيعى أن نرى شبابا يعيشون مع فتيات بصورة مكشوفة تماما خارج الرباط الزوجى ، الامر الذى نجم عنه نسبة مقلقة من الامراض التناسلية والاوبئة كان لها الاثر السىء على الكبار والصغار المولودين على أثر الزواج الغير شرعى ·

فى الامكان ايجاد خط ثابت جدا يفصل المساواة « والتحرر » بالنسيبة للمرأة ، واجتياز هذا الخط أمر سهل لكنه من الممكن ان يكون فى منتهى الخطورة للانسان والمجتمع ككل · النساء وحدهن فقط يستطعن الاختيار فيما اذا كن راغبات فى قبول المساواة لوحدها ام « التحرر » بدون أو بوجود المساواة ، ان المساواة تحمل فى طياتها مسؤوليات محددة جدا بالنسبة لهؤلاء الذين يبحثون عنها ولذلك المجتمع الذى يشجعها · ينبغى على الرجال القبول بقول الله ان الذكر والانثى متساوون وعلى النساء الاقرار بمسؤوليات المساواة ، تستطيع النساء بل ينبغى عليهن فى المجتمع الحاضر ان يلعبن الدور البناء الذى أهلته لهن صفاتهن وقدراتهن ، وان هذا الدور يجب ان يكون لتحسين احوال المجتمع وليس لتدميره ·



بعض الملتقين على آثار سدراته
وترى فى المقدمة ثلاث من السيدات التركيات ، من اليسار الى اليمين :
د · آمال ايزين ، عضوة معهد البحوث الثقافية التركية ـ اسطنبول ، و ب · اريبوران ، **قاضية ونائبة بالمجلس سابقا** ، ورئيسة الجمعية الوطنية لقانون المرأة التركية ، و د · صائمة اينال الصاوى . استاذة الادب الفارسى **بجامعة أتاتورك** فى أرضروم ·

نحن الساحرات

السيدة كزافيير ڤوتيـي
كاتبة ـ باريس ـ (فرنسا)



للنساء قصة فى التاريخ بل ربما لهن أكثر من قصة تتمادى طوال العصور والاجيال دون أن نجد لها أثرا فيما يؤرخه الرجال .

واذا كانت أخبار النساء لا تشغل المكان الاول فى مسرح السياسة فان السبب فى ذلك واضح فالتاريخ الذى هو من صنع الذكور لم تكن دعائمه لتقوم لولا طرحهم فى زاوية الاهمال بكل ما هو نسوى ولولا أنهم استعبدوا الاناث واخفتوا نامتهن ونفوا الغانيات فى ظلمات البيوت وخبايا القلوب .

فهذا التاريخ اذن لم يتألف من دون ان يكون للنساء ضلع فى تاليفه ، فكان لا مناص من حضورهن فيه وهن المغيبات عنه ، وكان لابد للرجل أن يدوسهن ليسير .

قدما ، وكان من الضرورى أن يعتمد على عزائمهن المكبوحة وطاقاتهن المكبوتة ، وأن يتفيأ ظـــلالهن ويستوحى وصالهن ، ويشفى بدموعهن غليله ، ويستمتع بصورتهن الجميلة ، أجل كان لابد له من ذلك كله حتى يحصل على انتصاراته فى ساح الكفاح ٠

وهذه الظاهرة نفسها نستطيع أن نلحظها فى المجتمعات الطبقية ٠

ألم ترأن الذين بأيديهم المال والسلطان ينزعون الى استثمار جهود الشعب لكيما تتزايد أرباحهم الى ما لا نهاية ، ويشيدوا هذا التاريخ الذى ينعتونه بالرقى والتقدم ٠

ويقاس بذلك أيضا حال الدول الغربية فقد مر عليها حين من الدهر كانت مفتقرة لتسخير الطاقات الحيوية الكامنة فى الشعوب الاخرى التى أوقعتها فى ربقة الاستعمار.

ولكنما الدماء لم تقف عن المسيل فى شرايين الضحايا المسخرين للاستغلال أو الاستعمار ، فكانت تلك الدماء تتدفق تدفقها الخفى الخافت تحت أديم الثـرى أو فى دكنة الغابات أو تحت بشرة البشر ، أجل لقد كان الدم الدورى يجرى تحت جلابيب النســاء بلا فتــور ٠

هذا هو التاريخ الذى يهمنى أى تاريخ ما يجرى تحت أديم الحياة لا تاريخ الحكام والاسياد الذى أعتبره محاولة مكررة للقضاء على « الآخر » (l'autre) أى لاعــدام غيرنا والغاء جميع «الآخرين» ممن يختلفون عنا فى البشرة أو فى الجنس أو فى الدين أو فى المصلحـــة ٠

ومن بين عصور هذا التاريخ النسوى الباطن الذى مرت عليه قرون كلها كبت ومنع ونحس وتحريم ــ عدا بعض الفترات الخاطفة التى قدر فيها للمرأة أن تبرز ــ اخترت عصر الساحرات الذى يعد فجوة فى تاريخ القرون الوسطى بفرنسا ٠

وبعد فانى لن أقصر كلامى على ما يدعى (بالحقيقة التاريخية) أى حقيقة (تاريخهم) بالذات ، بل سأمزجه بحقائق أخرى كالخرافات mythe والتوهمات fantasme وعناصر من قصتى أنا وهى تطابق أحيانا حقيقة الكثيرات من النساء ٠

ومعنى ذلك أن الموضوعية ـ كما يقـولون ـ ستتخللها خيـوط مـن نفسانيتى كالطفولة والعلاقة بالماضى من حياتى مثلا ، وهذا هو الشأن فى كل خطاب فما من قول الا وهو ينم عن نفسانية قائله انها حقيقة ينبغى أن نجهر بها ٠

ثم ما الداعى الى اختيار هذا الموضوع أى موضوع الساحرات من جملة المواضيع المتعلقة بتاريخ النساء ؟ لماذا أتحدث عن الساحرات بينما نرى النساء والرجال وحتى الصبيان فى بلاد الغـــرب يتصورون الساحرة فى أغلب الاحيان وحتى الاولاد فى قصصهم السحرية يتصورونها منذ نعومة أظفارهم امرأة شوهاء وعجوزا شمطاء دابها الخبث والايذاء ثم تبقى هذه الصورة راسخة فى أذهانهم لا يعتريها تبديل ٠

أقول لماذا اخترت هذه الساحرة موضوعا والحال أننا نجد الصور والرسوم التى تمثلها عند الغربيين تبرزها لنا شعثاء غبراء ذات خرطوم مستطيل يلامس ذقنها فتارة تمتطى عصا مكنسة قذرة وهى تضحك ضحكة المكر والسخرية وتارة تغدو منـــذرة بالثبور وتقبل الشيطان من قفـــاه ؟

لماذا اخترت هذه العجوز الشمطاء مثالا عن المرأة ؟ أترانى شعرت بنفسى مشاركة لها فى تعاطى السحر ؟ لئن شعرت بشىء من ذلك فقد احسست أنه من الواجب أبطال تلك الصورة المصفحة stéréotype المناقضة للواقع على طول الخط ، تلك الصورة التى اصطنعها الرجال بحذق ومهارة لتشويه صنيع المرأة والنيل من قدرتها على الابداع ٠

كيف كانت الساحرات فى القرون الوسطى وكيف كانت حالتهن الحقيقية ؟

هناك بين الكتاب الفرنسيين رجل (ومع أنه رجل) فهم تلك الحالة فهما بديعا ألا وهو المؤرخ ميشلى Michelet

كن نساء يعشن وحيدات فى انفراد تام ، ولا أقول منعزلات كما هو شأن معظـم النساء فى العصر الحاضر ، وسبب وحدتهن أن أزواجهن ساروا الى ميادين الحرب التى يدير رحاها سيدهم أى مولاهم فقد كانوا عبيدا يستغلهم أهل السلطة والجاه ومـع ذلك فقد كانوا مشغوفين بهذه اللعبة لعبة الوقائع والغزوات والقتال لما يجدون فيها من تضامن وتواطىء بين الرفاق ومصارعة شديدة الوطء على الاعداء ٠

أما الغانيات فقد بقين وحيدات يهمن فى الاحلام وما الاحلام الا نصيب العبيد من الحرية كن يحلمن وكانت أحلامهن تزداد شدة وحدة الى أن صرن يجهرن بما يرين فكن يتكلمن ولكن من يخاطبن ؟ لا أحد من حولهن وانما حديثهن مع النباتات وأدواح الغابات وما يحوم حول أكواخهن من بهائم فيناجين الطبيعة لانها جارتهن القريبة والعجيبة فى آن واحد لما تحتويه من غرائب فهن أيضا كأزواجهن فى اشتباك وصراع ولكن صراعهن كان مع الارض والازهار والفصول والاقمار وحفيف الاوراق فى الاشجار وهكذا حصل لهن بالتدريج وعن طريق الاتصال اليومى بالكائنات الحية كثير من المعلومات ولا أقول كثير من المعارف وأصبحت لهن معلومات صحيحة ـ وان كانت تجريبية ـ عن جميع الاعشاب التى نبذر أو تنمو أو تزهر فى محيط أكواخهن فاطلعن على شتى الخصائص التى تمتاز بها هذه الاعشاب بالنسبة الى الجسم من حيث أنها متصلة به على الدوام فعرفن مزاياها فى جلب الشفاء أو النوم وميزن بين النافع منها والضار وبين الشافى والسام فأصبحن طبيبات الشعب أو بالاحرى متطبباته الشافيات .

أما الاطباء ـ وهم الذين تواطؤوا مع الرهبان فاصدروا حكم الاعدام عليهن بالاحراق فهم الفئة المنتهزة المستغلة للعلم ، فاذا كانت لهم معرفة تلقوها فى الجامعات فانها معرفة مفصولة عن وجودهم الجسدى تمام الانفصال بحيث لا يعالجون الاجساد الا من الخارج هذا بغض النظر عن سيطرتهم على المريض وتسلطهم وتآمرهم عليه فأنا عندما أزور الطبيب ليفحصنى أراه لا يبالى بما يجرى فى داخل جسمى ، ولا يكترث بما أشعره ولا يهمه ما أعيشه فالحقيقة فى نظره هى ما تلقاه فى الكتب .

أما الساحرات فانهن على النقيض من ذلك انهن غير منقطعات الاسباب عن أجسامهن ولا أجسام غيرهن ولا عن التوازن الموجود بين القوى الحيوية فى هذه الطبيعة لا بل يعشن فى وحدة روحية مع الواقع ولسن بالمترددات ازاء اتخاذ مسؤولياتهن بل يخلصن الى أقصى مدى الاخلاص فى جميع ما يصنعنه لفائدة المريض .

يضاف الى ذلك أنهن يعرفن بحكم أنوثتهن ما معنى الحمل وما معنى الوضع (وفى ذلك العهد كان عدد السحرة الذكور ضئيلا جدا) .

كن فى بداءة الامر قوابل يسعفن النساء على الولادة وكن يعلمن أن المرأة الحامل هى التى تستطيع دون غيرها أن تقرر هل ترغب أن يكون لها ولد فالساحرات اذن يعرفن جميع النباتات المجهضة التى بها يستطعن تخليص الحامل مما لا رغبة لها فيه ٠

وناهيك بالاطباء فهم نخبة تقنية صغيرة تتالف من أخصائيين حبسوا عن الشعب هـذه الطاقات الحيوية التى كانت تسرى بفضل النساء ، ثم استولوا على المقاليد بقهر القوات الحرة والجامها حتى آل الى أيديهم الامر بالموت أو بالحياة ٠

لا مخلوق فى الدنيا أدرى من المرأة بمعرفة الحمل والتحدث عنه والشهادة به ٠ هذا ما يتبادر الى العقل المنطقى لكن الرجل تمكن من وضع يد حيازته على أبعد الاشياء عنه بواسطة الطب والعبارة العلمية وذلك من جملة محاولاته الواسعة التى ترمى الى الاستيلاء على الطاقات الحية الكامنة فى المرأة ٠

والا فماذا يعرف الرجل عن انتفاخ البطن وعن مبادلة الغذاء والهواء والخفقان والرى الدموى وعن مساجلة الاصوات والحركات بين الام والجنين ؟ ماذا يعرف الرجل عن تلك المتعة الخفية أو عن تلك الكراهية الغامضة أو عن ذلك التغير الكلى الذى يغزو الشعور بالتواتر الزمنى كما يغزو المنام والاحلام وشكل الهندام وشهية الطعام وحاسة الاشتمام لدى المرأة الحامل ؟ ماذا يعرف الرجل عن تلك المغامرة التى تمزق الاحشاء والتى لا نظير لها فى الدنيا ولا شىء فى نظام المجتمع معلن عن وقوعها ؟ انه لا يعلـم شيئا الا ما لقنه اياه حسده وما علمته غيرته حتى صار ينفس على المرأة هذه الطاقة طاقة اعطاء الحياة ثم على الرغم من ذلك نجده هنا أيضا يستأثر بهذه الطاقـة لنفسه ويسخرها لقوته دون عرسه بعد أن حملت بالولد وكونته ثم جاء يفرض طابع ملكيته عليه ويسميه باسمه (هو) ، كما فرض من قبل اسمه على زوجته (هو) شأنه فى ذلك شأن مدير المصنع يطبع ما ينتجه عماله بطابعه (هو) ٠

وأى شىء نجا من سطو الرجل ؟ حتى الرضاع ، هذا التبادل الجسمى الشهى الذى يعتبر امتدادا لما كان بين الجنين وأمه ، وهذه الدفقة من اللبن السائح التى تنساب من الثدى الممتلىء الى الفم المرتشف ، ثم الى الحلقوم الظامى ثم الى بطن الرضيع ، كل

هذه الحركات التى نسميها الرضاع كادت تندثر فى البلدان التى تدعى أنها متحضرة لان الرجل وما له من وسائل للاشهار يقف للسهر على الصورة الجنسية المثلى عـــن جاذبية الانثى ولان الطبيب والعلم يقفان صارخين : « حذار ... هناك جراثيم ... الطبيعة ملوثة .. ثدى المرأة ملوث .. الجراثيم .. ثم الجراثيم .. ثم الجراثيم » ، ومن الذى يغذى الرضيع اليوم ؟ الصيادلة وأرباب المصانع والتجار والصناع الذين يصنعون أو يبيعون المسحوقات المعقمة والاوعية الصغيرة التى تنمى الذكاء .

وحتى فيما يلى من الزمن أى عندما يكبر الاولاد ويترعرعون فان الرجال هم الذين يعتبرون طهاة عظماء ورؤساء فى فن الطهى بينما المرأة هى التى نراها فى معظـــم الاحوال تطبخ لكافة أعضاء الاسرة ، لا شك أن النساء لا يهمهن ان يحشرن فى زمرة العظماء والرؤساء من الطهاة ولا يعنيهن هذا المجد التجارى الرخيص ولا يرغبن الانخراط فى نظام يوزع المداليات والالقاب والدرجات .

لكن الرجل اذ يزاحمهن فى هذا المضمار فانما غايته التحقير والغض من قيمـــة شغلهن اليومي ، وقد تجد المرأة لذة فى هذا العمل حيث تعد العجين وتحوز المواد وتغذى أسرتها الحبيبة لكن هذه المهمة معترف بها قانونا من حيث أنها شغل وصاحبتها ليست مأجورة عليها ، بيد أن هذا العمل شبيه بدبيب النمل الدائب هو الذى يقيم أود الرجل العامل ويرجع له قواه ويجعله قادرا على مواصلة الكد وبذلك يتسنى لمستخدمه أن يواصل بدوره استغلال جهود العمال .

هذا هو الجانب الثانى من نبذ الرجل لكل ما هو نسوى ، فالاشياء التى لا سبيل الى الظفر بها أو حجزها ووضع اليد عليها يدعها للمرأة ولكن بعد النيل من شأنهـا واحتقارها وازدرائها ، وهاتان الطريقتان هما الاسلوبان اللذان يتخذهما الرجل فى امتناعه من الاعتراف بالجنس الآخر أى بالجنس المغاير لجنسه .

وبهذا الصدد أكتفى بدليل واحد وهو ما ورد فى عدة حضارات عن نجاسة دم الحيض .

ان الرجل يرى أن هذا الدم كدر بل كلم وسقم فهو يشمئز منه ويكرهه ويجتهد فى طمس أثره والغاء وجوده كما يتجلى ذلك فى اعلانات دور الاشهار التى تستعمل فى حقه هذه العبارة (كأن شيئا منه لم يكن) ولكننا اليوم نلفى النساء اللائى طالما كتمن هذه الظاهرة المحرمة فى خبايا النفوس طفقن يتحملن الدم الجارى كنشاط جسدى منسجم مع الطبيعة والايقاع الزمنى فى هذا الوجود ٠

فهن من هذه الناحية ومن عدة نواح أخرى شبيهات بتلك الساحرات اللائى كن منسجمات مع الايقاع الزمنى فى أجسادهن طوال الايام والليالى والفصول والشهور القمرية ٠

واذا قلت عن نساء اليوم انهن ساحرات فلانهن طفقن يسترجعن ما هو ملك لهن لا لحجزه وتحجيره ولكن لنفخ الحياة فيه وتوفيره ٠

أجل انهن بدأن يستعدن ما ضاع من قواهن الموءودة وطاقاتهن المجحودة وعزائمهن المحجوزة انهن شرعن فى اعداد عدة جديدة لا يردن من ورائها الاعتداء على الرجال ولا يبتغين بها اخصاءهم وانما ينوين اقصاءهم عن التقمص بشخصية السيد الآمر الناهى والمتجبر الطاغى ٠

واذا كانت الساحرات واذا كانت النساء انطلقن فى الغناء والرقص ايذانا بسعادة أجسادهن ٠٠ تلك السعادة التى استرجعنها شيئا فشيئا بفضل جهودهن ، فانهن يذلك يقوضن دعائم نوع من المجتمع فى نوع من أنواع سيرته فهن اذن خطر على ذلك النوع من سيرة المجتمع ولسن خطرا على الرجال ٠

بل الامر على النقيض من ذلك فسيشعر الرجال آنذاك أنهم تخلصوا من دور كانوا فى ربقته رهائن ٠



منظر آخر من زيارة آثار سدراته ، ويرى فى الصف الاول (فى الوسـط بالنظارة) د ٠ عبد الكريـم سايتوح ، استاذ الاقتصاد بجامعة طوكيو ٠

ماذا تريد النساء إذن ؟

السيدة فرانس كيرى
كاتبة ـ باريس ـ (فرنسا)



اعترفوا معى بأن الرجال غريب أمرهم ، فهم امام الاقوى ، قادرون على اظهار شجاعة خارقة ولو أدت بهم الى الموت • ان شعبا عظيما ، وقد أسر منه الكثير وعذبوا واستعبدوا وأهينوا قد عرف كيف ينهض تحت بصر من كانوا يسيطرون عليه • لكن هذه الشجاعة أو هذا النبل يتطاير أمام الاضعف • فتراهم قساة جائرين ، غير واعين بدورهم • اننا لنذكر كلمة لينين فى آخر حياته اذ قال : « اننى ما رأيت قط ثورة لم تكن أداة لانتصاب الرجعية » فالرجل أمال الشهم أمام الاقوياء ، يتحول الى رجل دنىء أمام الضعفاء •

ان المقاومة التى يواجه بها الرجال احتجاج النساء لتوضح ما أقول ومع ذلك فقد كان من واجبهم أن تكون نظرتهم الى هذا الاحتجاج نظرة احترام فهو موجود فى

كل بلدان العالم أيا كانت الانظمة والعادات فيها وهو يندرج ضمن حركة التحرير الكبرى التى بدأت بثورة الفقراء ، واستمرت فى غضب الشعـــوب المستعمــرة ، وتجسدت حاليا فى تحرر النساء ٠

لكن الرجال يقابلون هذه الظاهرة العالمية بتخوف ليس أقل عالمية ٠ فهم مـــن القطب الشمالى الى أرض النار يختلفون فى كل شيء اللهم الا فى السهولة التى يجب أن يبقوا بها النساء تحت الوصاية ٠ واذا ما تعرضوا لهذا الموضوع فى مباحثاتهم الدولية فان مصالحهم ــ وصدقونى ــ لن تدخل فى نزاع ــ انهم يقضون وقتهم فى تبادل التهانى والغمزات ٠

لكن لنعد الى حركة النساء ، انها حلقــة فى سلسلة الحركات الثورية التاريخية الكبــرى التى دفعــت بالاجناس والشعوب والرجال الى التخلص من حالــة الدونية والهوان التى وضعوا فيها ٠ لكن المرأة خلافا للصراعات السابقة لا تستعمل العنــف العسكرى ولا العصيان المدنى ، انها تكره الاعتداء وتمقت الاضراب ٠ فهى تتحدث ، وتكتب ، وتلجا الى هذا الاقناع اللطيف ، وتحاول كسب معارك دون ان تتسبب فى قتلى أو ضحايا ٠ والرأى العام الذى أزعجه هذا الصخب يصيخ السمع الى شكاويها ٠ لكن ماذا يريد النساء بالضبط ؟

انى سأميز بين ثلاثة من أنواع المطالب :

ــ المســاواة المهنيــة ٠

ــ الكرامة الزوجية أو المنزلية ٠

ــ التحــول الحضــارى ٠

1 ــ المســاواة المهنيــة

1 ــ 1 كســب القــوانين :

انها لفكرة ذائعــة تلك التى تــرى بأن ليس للنساء استدلال يضاهى استــدلال الرجال ، وبأنهن غير صالحات للاعمال التى تعتمد على الذهن والفكر ٠ وحماقتهن التى

كشفت عنها جزئية تشريعية يدعو الى الاسف (100 غرام فى وزن مخهن) كان عامل بسيط للعزائم فى أمر تعليمهن مدة قرون • وقد برهن الجهل على حماقتهن ، فالـذكاء مثل العضلات يضعف بدون الاستخدام أنظروا كيف تصدق الاحكام المسبقة •

لقد كانت معركة المرأة الاولى اذن لفائدة التعليم وليس هذا بالامر القديم ، وانما يعود الى قرابة عام وكانت المعركة قاسية • فكم من فتاة واجهت بقوة عداوة ذويها ، وتغلبت على ضغوط اجتماعية قاسية ! وكم فتـــاة شنعت عليها عائلتها وطردتها أو حجبتها فى البيت • اننا لا نذكر دونما تأثر جداتنا الشجاعات •

وهذه المعركة قد انتهت تقريبا فى الغرب على الاقل فاصبح للبنات الحق فى نفس المواد والتخصصات التى للبنين • وأضحى الطريق مفتوحا أمامهن لنيل نفس الشهادات التى ينالها الذكور • ويبدو أن هؤلاء لم يستفيدوا مما حبتهم به الطبيعة من رجحـان فى وزن أدمغتهم • فليس معدل نجاحهم بالذى يفوق معدل نجاح البنات وأمام هـذه النتائج المذهلة رضى آباؤنا بمنح البنات حق التصويت وقابلية الترشيح للانتخابات • وبعض مناصب المسؤولية • وهكذا يمكن القول أن المعركة قد كسبت تقريبا مـــن حيث المبـادىء •

1 ـ 2 انتـزاع حـق الانتفـاع :

لكن الامور لا تسير بنفس السرعة ـ للاسف ـ على صعيد التطبيق والممارســة الفعلية فالمجتمع عنيد • اذ مع تساوى المؤهلات لا تجد المرأة نفسها الا فى وضعيـــة جائرة تتمثل فى أعمال أكثر رتابة ، وسلطات أقل ، وأجر أدنى ويبرر هذا العنـف بعلة انصراف المرأة الى مهامها العائلية التى تشغلها عـن مهنتها • لكـن هذا المجتمع نفسه عرف كيف يتلاءم مع الالتزامات العسكرية المفروضة على الشباب وهى هائلـة فى بعض الاحيان ، أو العطل والاجازات المدفوعة الاجر التى تمنح للعمال ، (والتى لم تؤد بالمؤسسات الى الافلاس كما كان يخشى ذلك فى عام 1936) • واذن لماذا لا يبذل المجتمع هذا المجهود الاضافى من أجل النساء ؟ تلك هى اليوم مهمة النزعة النسوية ، والتى يجب ان لا تتمثل فى المطالبة بالحقوق الجوهرية بل فى وضع حد لهذا العـدد

الذى لا يحصى من التجاوزات والمظالم المبررة بقدر أو بآخر · وهذا يتطلب طاقة مـن حديد ، ولقد كنت معجبة قبل حين بشجاعة جداتنا ، لكن انظروا الى بسالة حفيداتهن التى يتعين عليهن ان يهزمن عقلية من الاحتقار قديمة قدم العـالم !

2 ـ الكـــرامة المنـزلية :

2 ـ 1 تقـــاسم المهـــام :

وحين تتحصل النساء على كل هذا سيواجهن حياة شاقة ذلك لان معظمهن يعشن فى بيت يتعلقن به ، ومهما تقـل النزعة النسوية التقليدية ، فان النساء سيشعرن بنقص اذا لم يقمن فيه بهبة الحياة فولوج النساء باب الحياة العامة لا يطفىء أبـــدا ظمأهن القديم وعليهن ان يلائمن من الآن فصاعدا بين المطلبين · ومهما قيل ، فانهما متساوقان اذا توفر القدر الكافى من الارادة الحسنة ·

وهذا يفترض أولا تقاسم المهام المادية والتربوية فمن العار أن ينتظر المرأة التى تشتغل اليوم كله خارج البيت يوم ثان من الشغل مساء فى بيتها وحتى اذا لم تكـن عاملة فانها لا تستغنى عن مساعدة زوجها · لقد كانت الاسر واسعة من حيث العدد فى الماضى ، وكانت المهام فيها موزعـــة ، ومن المستحيل اليوم وقـــد انحصر مجالها فى الوالدين والابناء ان تضطلع المرأة وحدها بكل أعباء البيت ·

ولننظر الى الاطفال · فان التربية التى يمنحها الاب والام كلاهما فى آن واحـد هى بالضرورة تربية أكمل وأكثر توازنا · ولم تبرز نظريات « فرويد » الى الوجود الا حين باتت القرابة فى القرن 19 غير متساوية حيث كانت الام منهمكة فى تربية الابناء ، وكان الاب يستغرقه العمل فى المؤسسة وحينئذ أمكن التحدث عن « عقده أو ديب » حيث يتلهف الابن الى الانتقام من لا مبالاة الاب ، وعن « عقدة الخصاء » حيث يشعر بأن الاهانة التى تعانيها الام فى منصب الخادمة الخاملة هذا هى بمثابة بتر حقيقى ، ومن بديهيات السيكولوجيا المعاصرة اليوم ان الطفل بحاجة الى بناء عائلى سلم يكون فيـه الاب والام معـــا ·

2 ـ 2 تقاسم الحب :

غير أنه لا يكفي ان تجد المرأة مساعدة في انجاز مهامها · فمن الواجب أن تتوفر كذلك مساعي الود المتبادل فلم يعد من المناسب أن يظهر الزوج هذا الاحتقار القديم الذي من شأنه ان يجعل تقاسم الاعمال أمرا مستحيلا أو غير لائق وأود ان أقول كلمة عن الحب الزوجي · لماذا يفشل كثير من الازواج ويكفون سريعا عن التحاب ؟ ذلك لان علاقاتهم تقتصر في معظم الحالات على علاقة بين المسيطر والمسيطر عليه · فالرجل يأمر ، والمرأة تطيع ، لكن ما من شيء هو أكثر تعويضا من سلطة مجمدة بل انظروا ، ان المرأة تجذبها الحياة العائلية فهي تحلم ببناء بيت لكن كم هي الحالات التي تظل فيها هذه الوظيفة حرة وسعيدة ؟ فنحن غالبا ما نشاهد هذا المخلوق الحر يتحول الى عبد ، وهذه الوظيفة تستحيل الى عبودية ، وهذه التلقائية تؤول الى يأس وقنوط وعلى من يقع الذنب ؟

وليدوم الحب ، (وأنا مؤكدة لكم امكان دوامه مهما عاند المعاندون) ، لابد له من تبادل صارم ، فهذه المبادلة هي وحدها الكفيلة بانقاذ الحرية · أنت تخدمني وأنا أخدمك · أنت تحبني وأنا أحبك. فالعاطفة الخصبة والمغذية يجب ان تنمي العاطفة الاخرى وينبغي الا تكون هذه العاطفة غيورة أو ذات نزعة تملكية · فمثل هذه العاطفة خانقة في الواقع وقتالة ، ثم هي هالكة بدورها على حين تعتقد المحافظة والصيانة أن الحب الحقيقي مؤسس للحرية · وعليه ألا يخشى الحرية اذن لانها منقذة له · ان الكائن الحر هو الكائن القادر على التفكير والعمل والشعور على مقتضى متطلبات حياته الداخلية . انه الكائن الذي يمضي في استكمال ذاته أي في التحول وفي ان يكون كل يوم خلقا آخر · ان هذه الجدة الدائمة لامر جذاب وفتان فهي ترعى اعجاب الحب وتقنعه بأنه ليس الا في بدايته ، وأنه لا يفتأ يكشف عن وعوده الاولى ·

ان بربريا كبيرا في القرن الرابع الميلادي ، وهو المعروف « بالقديس أوغيستان » قد شعر بصدمة ونقص · لان كلمة الحب تستخدم للدلالة على الشعور الذي يحمله المرء ازاء شخص يعزه ، وللدلالة على المتعة التي يجدها المرء في أكل الحيوان المصيد فأنا أحب أبي ، وأحب الارنب البري ، واللغة اللاتينية تستعمل للتعبير عن هذا الحب

نفس الفعل • وأنا معترفة بأن اللغة الفرنسية تنحو هذا النحو • يا لحماقة اللغة ! نفس الكلمة تستعمل للدلالة على الحياة وعلى التدمير • أيكون هذا ممكنا ؟ لكن لنعد الى شباب عصرنا ، ما الحب الذى يريدون أن يحملوه لزوجهم ؟ افيحبونها حب الشخص للشخص أم حب الشخص للارنب البرى ؟ اتراهم يحبونها من أجل الحياة أم من أجل الموت ؟

3 ـ حضارة مختلفة :

ان المرأة بخوضها هذه المعركة المزدوجة فى الخارج وفى الداخل لا تحارب من أجلها فقط • فمن وراء ما تنشده من تغلب على اضطهاد واستعادة الكرامة انما تستشف مشروعا أعظم وأكثر طموحا • انما تتطلع الى وجه آخر من وجوه الحضارة • فالمكتسبات الشخصية المعددة آنفا لا تغمرها نعيما • انها ستظل مضطهدة ما لم يعد النظر فى طريقة حياتنا ، وفى ثقافتنا ، وعاجلا لا آجلا •

3 ـ 1 تطلع الى السلام :

لقد استبعدت النساء فى كل مكان وزمان عن النشاطات الحربية ولا يرضى أصحاب النزعة النسوية أن يعزى الى النساء جوهر خاص بهن •

(فهذا الامر قد خدعنا وغشنا) ، ولتسامحنى هذه النزعة اذا أكدت هذه الحقيقة البديهية : وهى أن المرأة على عكس الرجال ، أو على الاقل عدد منهم ، تشعر بهول فضيع جدا ازاء الحرب • وقد ظلت متألمة طيلة قرون ، وصامتة لا تحير كلاما أمام ويلات الحرب • والمرأة الاولى التى صدرت عنها صرخة فى تاريخنا الغربى انما كان من أجل التشنيع ـ بقلم أرسطوفان ـ بقاتلة الابن والزوج ومن أجل الاحتجاج على العنف صرخت « آنتيغون » فى مأساة « سوفوكل » تقول : « اننى ما جئت لاقاسمكم الحقد ، لاشاطركم الحب » •

وقد ظلت أنة النساء صماء طيلة قرون ، ولم تكد صدمتهن تجد صوتا يعبر عنها • افيكون من قبيل المبالغة فى الرجاء أن نستشف فى هذا الموضوع ذاته تغيرا ما ؟ لقد اضحت هذه الصدمة صدمة عامة مفضوحة وأخذت أخيرا شكل قوة سياسية ، ومن يدرى فلعل أن تكون نساء فى ايرلندة بصدد احلال السلام فى هذا البلد • فهن لم

يكملن السلاح · وقد التقين وتعانقن ، وشاركن سويا في استعراض ، وأصبح تعانقهن مما يدفع اذرع أزواجهن الى التردد ...

انني لا أدعي أن المرأة ملاك « من حيث اللطافة » والدماثة · فمن منا لا يعرف من بين النساء امرأة مخيفة ؟ ومن منا لا يعرف منهن متنمرات ؟ وانما أزعم أنه قلما نجد فيهن من تتحمل تدمير الحياة . فلا جسمهن ولا عقلهن باللذين أعدا لهذا الامر . ولننصت الى اللواتي يتحدثن منهن اليوم · فهن لا ينكرن ، في بلاهة ، وجود النزاعات ، وانما يرين امكان تسويتها بطرق أخرى · وبأنه يجب وضع حد لمثل هذه المخلفات البالية والممسوخة من القتل والاغتيال ·

وهذا التقليد القديم اذا ما ساعدته معدات وأدوات من أحدث طراز قد يقود العالم بالفعل الى نهايته المحتومة ·

3 ـ 2 التطلع الى سياسة جديدة :

ان المرأة لتمقت الحرب من أعماقها · وأضيف بأن السياسة لا تجتذبها كثيرا على الصورة التي نمارسها بها عادة على الاقل · وربما ادخشت أصحاب النزعة النسوية ، لكنني ألاحظ أن للنساء اليوم حقوقا لا يستغللنها اطلاقا · وقد يكون من المستعجل القول بأن السبب في ذلك يرجع الى ضغط من الذكور ربما كان أقوى من هذه الحقوق · ما فتىء عدد النائبات الفرنسيات في المجلس الوطني يتضاءل منذ عام 1945 · فقد كن ثلاثا وثلا ثين في سنة 1944 · ولم يبق منهن اليوم الا تسع نائبات يلزمن الصمت . ما السر في عدم الاهتمام هذا ؟ حقا ان الرجال يتسببون فيه · لكن المسؤولية في ذلك تقع على النساء أيضا · وليس لي من الوقت هنا ما يسعني لمحاولة اعطاء تفسير · ولنبادر الى القول بأن سياسة الرجال غالبا ما تشبه ألاعيب بلاغية حول مصالح محدودة رديئة (تخوفات صغيرة من التغير ، مخاصمات كبيرة حزبية وشخصية) ·

وان هذا النفاق من التحذلق الخطابي وعقمه يبعدانهن · وهذا يعين اخلاصهن وميلهن الى الفعالية · وهذا يجعل تدخلاتهن في الحياة السياسية خلال حقب التاريخ تدخلات قصيرة وخاطفة في آن واحد ، فهن يوقفن الهدير المستمر لصغار الانانيين ،

ويبعث الافكار المنسية من جديد : « انتيغون » ، « الحب » ، « جان دارك » ، « الوطن » وماذا نقول فى المعارك التى تخوضها اليــوم فى سبيل قضيتنا أمثــال « قــايس » ، « بوفوار » ، « حاليمى » ، أو « فاى » · ذلك لان المرأة تظل مرتبطة بكل حواسهـــا بمتطلبات الحياة الاساسية · وبهذا العنوان هى موهوبة للتسامى · وهذا على ما يبدو ـ هو السبب فى كونها غالبا ما فنعـــت حتى الآن وضد مصلحتها الخاصة ببيتها أو بمعتقداتها الدينية التى تمدها باجابات أكثر مباشرة لتطلعاتها ·

ومع ذلك يعلم الله (والازواج كذلك) أنها حتى فى هذا المجال عوملت بقساوة ·

3 ـ 3 فن من المبادلة فى التعامل :

لم تكن الديانة المسيحية (وأنا أقتصر عليها لمعرفتى الجيدة بها) لطيفة حيـــال النساء ومع ذلك فهن لا يحملن أى ضغينة لها · واذا كانت الكنيسة قد دأبت على هذه القساوة ، فانما على البيت كذلك · فيما اظن الى تواهن ومثل هذه الملاحظة صادقة على البيت كذلك · واستغربوا هذه المفارقة · المرأة تحب تلقائيا بيتها وزوجها وابناءها وكان من الواجب أن يكون هذا فى صالح الجميع · لكن ليس الامر بمثل هذه السهولة فهنا أيضا يرتاب الرجل من السعادة الانثوية ، ومن القوة الانثوية فهو يخشى منافسة النساء فى الداخل كما كان يخشاها فى الخـــارج · فهــو لا يريدها حـــرة قوية لا هنا ولا هناك · انه يفضلها مستسلمة وحاضرة فى كل مكان كما لو كانت غائبة · وبذلك يكون له السلطان وحده ·

هذا الذى يجعل مخاصمة النساء الكبرى لا تبدو لى ـ خلافا لما يقال فى غـــالب الاحيان ـ مقتصرة على محاولة هروب من البيت واندماج فى الحياة العامة · فليس هذا الا جانب من جوانب كفاحها · فهن ، على الاجمال ، انما يسعين الى التحرر لكن فى البيت وخارج البيت معا ·

يجب أن يعاد النظر فى العلاقة بين الرجل والمرأة فى الحياة الخاصة وفى الحيـــاة العامة · ومن الواجب أن تتغير العادات والاخلاق وكذا القانون فى مجتمعاتنا الحديثة · ولا ينبغى للتنافس وازاحة الخصم أن يحكما فى علاقات الافراد فيما بينهم ، بـــل

التضامن ، والصداقة ومرونة العلاقات الانسانية . وفى هذا الاصلاح الواسع تحتل العلاقة بين الرجل والمرأة حيزا أساسيا . فهى بداية كل شيء وانى لاكرر بأن أى أمة تتغاضى عن الظلم المنزلى ستكون أبدا عاجزة عن اقرار العدل السياسى وستعيش فى عنف كامن ومدار . وستعود أبناءها على النظر الى هذا العنف كما لو كان ضربا من المشروعية . فالديمقراطية تستقر أولا وقبل كل شيء فى البيت حين يكون الرجل والمرأة متحدين ، ومتحدين فى رفق ، ضمن احترام وتفانى كل منهما فى خدمة الآخر . والديمقراطية تبدأ بالتعامل المتبادل بين الزوج والزوجة .

ولا يتخيلن أحد ان هذا يتطلب من الرجال تضحيات جساما بل عليهم أن يتصوروا ذلك الثراء الخارق الذى ينتظرهم : فهم يخسرون شيئا . ولكنهم يكسبون موضوعا . لقد كانوا يملكون شيئا ماديا ، وهم يملكون الآن كائنا حيا . هذا ما يريده النساء . فعلى كل واحد منا أيا كان ، وأى كان أن يكون له ميل الى منح الحياة للغير بدلا من سحقه . وما من أحد فى العالم هو حى بالقدر الكافى . بدءا منا نحن أنفسنا . علينا أن نمنح الحرية والبهجة ، والفكر وسنرى أننا انما خلقنا بذلك حريتنا وبهجتنا وفكرنا بموجب مبادلة تعامل قد مارست النسوة على الدوام تجربتها الصامتة . فنحن كلنا ازاء بعضنا البعض بمثابة صناع أننا نصنع بعضنا البعض . نكون جمادا فى البداية ثم نغدو أحياء مثلنا فى ذلك مثل النحات الذى يبدع من المادة التى لا شكل لها حركة جسم مرنة .

وفى هذا الافق نلغى السياسة أشبه ما تكون بعمل الفن .



فى قرية سيدى سليمان الاشتراكية :
ويرى فى الوسط السيد سالم ولد سالم السالك ، الوزير الصحراوى للاخبار .

ما أعطاه الإسلام للمرأة كافٍ وكفيل بأن يجنبنا التجارب والنكسات

السيد محمد الصادق بسيس
أستاذ بالكلية الزيتونية للشريعة
وأصول الدين (تونس)



بسم الله الرحمن الرحيم

وصلاة وسلاما على محمد وآله وصحبه وسلم

قال الله تبارك وتعالى : يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم ، وانزلنا اليكم نورا مبينا ، فاما الذين أمنوا بالله ، واعتصموا به ، فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ، ويهديهم اليه صراطا مستقيما ·

ويقول : افمن يمشى مكبا على وجهه اهدى ، امن بمشى سويا على صراط مستقيم ؟

سيادة الوزير المحترم ،

أيها الزملاء ، أيها الابناء الطلاب والطالبات ،

أنتم تعلمون ان مشكلة كيف يكون موقف العالم الاسلامى من الحضارية المعاصرة طرحت بشكل ملح فى أواسط القرن التاسع عشر ، حين اتصل بها العالم الاسلامى بواسطة ضجيج مدافع الاستعمار ، وصهيل خيوله ·

وحين بدأ جنين النهضة يتحرك متفاعلا مع رجة الاتصال بين العقليتين : الشرقية والغــــربية .

وقد تصدى لذلك التحدى الكبير بعد توفر أسبابه ومعطياته لدى الشعوب الاسلامية المغلوبة والتى ضربت عليها الذلة والمسكنة من عهود الاستبداد والاستعمار انه المصلح الاسلامى جمال الدين الافغانى ، بدعوته الاصـــلاحية التى استقطبت هذه المبادىء والعنـــاصـــر .

ايقاظ العالم الاسلامى من رقدته، ومقاومة الاستعمار أنى كان واخضاع امرائه الى ارادة الشعوب بالحكم الشورى العادل، وتمكنه من وسائل روحية دفاعية لحماية وجوده الهزيل أمام أهوال الاستعمار المادية والفكرية ، ودعوته الى تعميق الفهم للقيم التشريعية والروحية ولم الجمع المتفرق المبعثر بالوحدة الاسلامية ، والتوفيق بين جوهر الحضارة ، وتعـــاليم الاســـــلام .

وأنتم ترون ان هذه الاقطاب كانت مـــلائمة لـــروح ذلك العصر ورائمة حصانة المشخصات القومية من التيار الاستعمارى المهدد لها بالزوال ، لانها تجمع بين الأصالة والتحديث أو بين الصالح من التراث ، والصالح من المدينة ، ولكن نزعته الاصلاحية كانت دفاعية ، لا تخطيطية منهجية حسبما يقتضيه زمانه ، وواقع العالم الاســـلامى عصرئــذ .

فهو لا يريد قطع الصلة الوثقى بين المجتمع الاسلامى ، وجذوره الحضارية كوسيلة معاوية للدفاع عنها تجاه الغزو الاستعمارى ، واستمرت مبادىء ذلك الاصلاح ماثلــة معالمها فى الحركات الاصلاحية الاسلامية التى قامت فى بعض الاقطـــار الاسلامية ، وتجلت بشكل علمى فعال فى حركة جمعية العلماء هنا فى الجزائر بقيادة الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله .

ولا ننسى مع مضى الزمان ، وبعد الحرب العالمية الاولى ظهور تيار آخر يزعم الاصلاح وقد أخذ بيد مقاليد السلطة فى بعض الاقطار الاسلامية فحاول بداء الهيكل الاجتماعى الاسلامى على الواقع الحضارى وبعده صارفا نظره عن الماضى بما فيه من خير وشر ، واشراق وأظلام ، فهو سياسيا تبنى مفهوم الدولة اللادينية ، رافضا ان يكون الاسلام

دين عقيدة وشريعة ودولة ، ودعا الى تحرير المرأة تحريرا لا يعترف بموقف الاسلام ، وحتى الحرف العربى تجنس بجنسية ايجابية وحتى لسان القرآن ، ترجم الى اللاتان .

وكان لهذه النزعة المعراة من كل ما هو اسلامى اتباع فى جميع البقاع فهم يجرون لاهثين وراء الغرب الذى خرجهم باساليب تعليمه وتربيته فى أوائل هـذا القرن عندما كان الجبروت الاستعمارى فى عنفوانه المادى والفكرى وكان الوضع العام فى الاقطار الاسلامية لا يدعو للتفاؤل بالخلاص والانقاذ ، فلم يستطيعوا أن يقاوموا وهج الفتنة فذابوا مثل الشمعة وفقدوا شخصيتهم كما يعبر اقبال ، وكان لهذا النصر تداول وفروع ما تزال تتفنن فى هندسة مستقبل العالم الاسلامى على معمار أجنبى ، وزخرف صنـاعى ؟

ولا يرد هذا التيار الا اذا قام المعسكر المصلح الاسلامى بمخطط اصلاحى علمى يتجاوز أسلوب الافغانى الى أسلوب عصرنا فى المنهجية والواقعية ... لان معتنقيه فى بعض الافكار يحمونه بالسلطان والقانون ، ويفصلون لقضية المرأة انماطا من اللباس الفكرى تضمن لهم تخريج الاجيال على وفق ما يحبون ، وتأتى المرأة الثانية للتحدى بعد الهزيمة أمام الصهيونية سنة 1967 . ودولة اسرائيل فى نظر العـرب تمثل فى الشرق الادنى حديقة حضارية غربية ، تحيط بها الصحارى العربية ، التى يسكنها البدو العرب ، ولكن البدو حين اتحدت كلمتهم لاول مرة فى تاريخنا الحاضر انتصروا عـلى الحقيقـة ، وحطموا أسطورة التفوق العسكرى الصهيونى ولكن احدثت الهزيمة زلزلة نفسية فى الشعوب والحكام منها القلق والحيرة والشك والسخط ، لانهم أحسوا جميعا فى كل مكان بوطأة ذل الاستعمار من جديد ومن يومئذ بعثت أسئلة القرن التاسع عشـر بمظهر اعنف وأقوى : من المسؤول ماضينا أم حاضرنا شعوبنا أم حكوماتنا الى غيرها من أسئلة الادانة والاتهام حتى الخليع المائع المتخاذل من الادب والفن أشارت اليـه الاصابع بجريمة تكوين المنهزمين وحتى الخطابة الميتة فوق المنابر كان بعضها مسؤولا لانه يخرج لكل موسم خطبة تعاد على مختلف الاجيال منذ قرون ! وانطلقت أقلام المفكرين تبحث عن أسباب أخرى وعلل ، وكان لبعض ما كتبوا حظ من النقد الذاتى الموضوعى ومن الذى يشرح صدرى منها أن العالم الاسلامى اعتبر بها وانتفع بدروس الهزيمة .

وكان لابد من حدوث هذا الزلزال للعالم الاسلامى ليعرف عدوه وحلفاء عدوه ، ليعيد النظر فى موقفه من الحضارة أو صانعى الحضارة ، الذين اغمدوا فى قلبه خنجر دولة عنصرية جلدت الارض بكرامة المسلمين، وشردت شعبا ما زال جرحه داميا من فظائع احفاد الصليبيين، الا ان هزيمة مرة المذاق والاحراق تفتح العيون وتلقن العبر خير لامتنا من انتصار يورث الغرور والاعجاب، وما زال العالم الاسلامى يعانى رواسب تلك الهزيمة رغم انتصاره فى رمضان ، وما مآسى الحرب الاهلية بلبنان عنا ببعيدة وعساها ان تكون خاتمة الكوارث ، ان للكوارث فى هذه الدنيا نهاية !

مجتمعاتنا فى منزلة بين المنزلتين :

يرى بعض المفكرين أن المجتمعات الاسلامية تعيش الآن فى وضع يمكن أن نصفه بأنه : منزلة بين المنزلتين ـ فى مختلف ألوان النشاطات والقطاعات ، مثلا : نحن فى الانتاج بين الطرائق القديمة ، والمرحلة الرأسمالية ، وفى السياسة بين دولة القرون الفردية الاستبدادية والليبيرالية والاشتراكية ، وفى الاجتماع بين أشد التقاليد التى انقرضت دواعيها ، وبين الانفتاح على الحديث ، وفى قضية المرأة بين اسدال الدستور والقبوع فى الخدور ، الى التحرر المطلق من كل القيود والحدود ، وبين المرأة البدوية الساذجة التائهة ، والاخرى التى تفرنست قشريا ، وتأمركت صدفيا فهى ما تزال تعيش على نسب متفاوتة قوة وضعفا بين جاذبية قوية معاصرة ، تفرض عليها لكى لا تبقى متخلفة تنظر الى الوراء أن تأخذ من هذه الحضارة ما لابد منه ، بعد أن تحررت سياسيا ، وأصبحت تفكر فى أن يكون دورها الحضارى ابداعيا لا تقليديا بعد قرابة قرن من الاحتكاك بالغرب وهى أيضا بين مراس تاريخية غلاظ ثقال تحاول اغراقها فى حمأة الماضى بما فيه من جمود وخمود وعقم وافلاس أمام شعوب ذات مدنية لا ترحم المتخلف المهيض الجناح عن سربها الطائر فى الآفاق ، وهندستها التقنية التى استخرجت كنوز الارض فكانت لبعض الشعوب نقمة وللرشداء نعمة **(ونبلوكم بالشر والخير فتنة)** . اننا لسنا وحدنا الذين مرت بهم هذه الازمة الانتقالية، وحاصرهم تحدى التطور ، ويتجلى بارزا فى تحول المرأة من حال الى حال والمجتمع يدفع

ضرائب التحول التاريخي جعله الله الى خير • هذه أوروبا فى العصر الوسيط مرت بها تجارب ونكسات واخطاء ولكن الخطأ غالبا يسبق الصوات ، والانتفاع بالتحليل الناتج عن التجربة أفضل من التقرير النظرى •

وهذه أمم معاصرة شرقية كالصين واليابان شقا طريقهما الى حسنات الحضارة مع الحفاظ على المقومات الخاصة • ان همومنا الكبرى تتجسد الآن فى الخروج من التخلف ، والخلوص من هذا الجلدى الذى منع براعمنا من التفتح ، وعطرها من الانتشـار ، وجمد دم الشباب فى حضارتنا فتصلبت منها الشرايين ، وكاد يقطع منها الوتين !

حقا أقول : انى عندما حضرت جلسات الملتقى العاشر للفكر الاسلامى فى العام الماضى ، وسمعت زملائى يتحدثون كيف انتفع الغرب بحضارتنا فى العصر الوسيط ، وكيف نصب الغرب الجسور للعبور الى مراكز الاشعاع الحضارى فى العالم القديـم عصرئذ مثل : الاندلس ، وصقلية ، والقيروان ، وبغداد ، وبجاية • آنئذ ازددت يقينا وادراكا بأن تراثنا عاش فى حضارتهم ومات عندنا على السنة شعراء الافتخار بسوق عكاظ ! (**والله لا يحب كل مختال فخور**) •

كان أحرار الفكر ورواد المعرفة فى عصر النهضة الاوروبية بين تيارين فى ذلك العصر لا ثالث لهما • يونانى وعربى ، انهم نظروا فلما علموا أن القيم الحضارية مـن يونانية ورومانية استنفدت أغراضها ، وتجاوزها الزمان ، وان الفكر اليونانى الذى هيمن قرابة ألفى سنة على مجرى التاريخ الفكرى أصبح متحجرا عقيـما لا يعطى جديدا ، فرفضوه فى نطاق التفكير العلمى التجريبى ، وخلعوا أرسـطو وافلاطون وسقراط من دولة الفكر ، ولكنهم أبقوا من التراث الصالح فى مجال مفاتن الفنون ، وروائع الآداب • أما الحلقة الحضارية الاسلامية فهى التى كانت عصرئذ البكر المنجاب المعطاء ، فاقبلوا عليها يترجمونها ويعالجون أمراض ابدانهم العليلة بقانون ابن سينا ، وينكسون الخرافة من عقولهم بفلسفة ابن رشد • هذا منهاج قدمته لنكون على بصيرة ورؤية فى الاقتباس الحضارى ، ولكى نعالج به مشاكل تخلفنا بما فى ذلك قضية المرأة ان كنا حقا جادين فى الخروج من ظلمات المحاق الى فجر التسابق واللحاق •

المرأة بعد عام المرأة :

ماذا يعنى هذا العنوان المبهم الغامض ؟ وما القصد من اثارته ؟ أيـة امـرأة فى مجتمع ما يقصد ؟ وهل كان مصيبا فى وضعها نقطة من نقاط هذا الملتقى ؟ أظن أن واضعه كان يحس احساسا نفسيا بأن قضية حقوق المرأة وواجباتها ، لابد من اثارتها اثارة ماتعة لذيذة ايجابية كانت أم سلبية ولعله ادرك كما أوقن أنا بأن توعية المرأة لاداء واجبها مقدم منطقيا على أخذ الحقوق فى مثل مجتمعاتنا المحتاجة الى الاخذ أكثر من العطاء ، على ان قضية المرأة ما تزال مطروحة الى اليوم فى مجتمعات التقدم والتخلف وستبقى مطروحة الى مدى بعيد لان طموح المرأة دائما فى مزيد · فلم لا تطرح الآن عندنا على بساط الدرس ، وتقلب على جميع جوانبها لعلها بعد النقد والتمحيص تصبح قضية محكوم لصوابها والصلاح، ومحكوم على باطلها بالنقص والرفض فتضعف ضجة المتطرفين واستغاثة المعتدلين أو لعل الواضع لهذه النقطة استشعر أنه بعد عام كامل خصصته منظمة الامم لدراسة الموضوع ؛ ومع ذلك لما تتضح بعد الدراسات والمؤتمرات بصفة نهائية معالم الطريق فى علاج القضية ولذلك أثارها واظنه اراد أن يثيرها فى هذا الملتقى الاسلامى الذى عودنا فى ماضيه طرح بعض ما يعانيه المجتمع الاسـلامى مـن مشاكل ليست لها حلول حاسمة ، يحاول المتدارسون الوصول الى شبه حل أو بعض حل ! ومنه تاخذ المرأة المسلمة عامة والجزائرية خاصة ، وهى فى طور هبوبها الى تطور جديد، ولم لا يكون قصد واضع النقطة ذلك ، وهذا مالك بن نبى المفكر المصلح الجزائرى يقول عن أهداف الجزائر بعد استقلالها ، ان المسألة تنحصر فى عمل شعب قـام بانجاز ثورته لكى يقذف بالمحتل خارج حدوده ، وهو يريد أن يرسى داخل هذه الحدود نظاما عاما ، وشكلا من الحياة يمكن فيها لكل جزائرى أن يجد كل الدوافع ، وكـل الضمانات الضرورية لوجوده ، وقد كان الفلاح الجزائرى يناضل من أجل استقلال الجزائر ؟ وهو واع بانه شخص عربى مسلم ، فكل سياسة لكى تعرف نفسها كسياسة جزائرية يجب ان تظل وفية لينابيعها الروحية ·

ولعلي بعد هذا أكون معذورا في الادلاء بهذه التساؤلات، اذ ان الشان في الشيء المبهم أنه يدعوك للبحث عن هويته ، والفارس الذي يلقاك ملثما شاكي السلاح أخطر من الفارس السافر الاعزل ؟

وأنا بصفتي مسلما أدرك ما في الاسلام من قيم عقائدية مثلى ، وتشريعات حكيمة عادلة ، ومثل أخلاقية عليا ، وأومن من أعماقي بأن ما شرعه الاسلام من أحكام لعلاقة الانسان بربه ، وبأخيه الانسان ، وبالكون معاشا ومعادا هو الحكمة وفصل الخطاب وأنه حينما تكون المصلحة فثم أوامر الله ، واينما تكون المفسدة فثم نواهي الله حتى قال علماؤنا : اذا أردت أن تعرف مواقع المضار والمنافع فعليك بمعرفة أوامر الله ونواهيه •

يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم ، وانزلنا اليكم نورا مبينا ، فاما الذين آمنوا بالله ، واعتصموا به ، فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ، ويهديهم اليه صراطا مستقيما •

ان الاحكام والحلول تختلف باختلاف الفروق بين مجتمع وآخر مهما طغت هذه الحضارة بوسائل التبليغ والتأثير والشمول ولعل من أفدح اغلاطنا في دعوتنا لاصلاح مجتمعنا اننا نتأثر بسرعة غريبة ، وبحساسية مرهفة حين نرى ما يجري عند اصحاب الواقع المتحضر ولتكن قضية المرأة مثلا فنحن سرعان ما نصبح مبهورين مشدوهين وتأخذنا أخذة السحر ولعا بتقليد المغلوب للغالب ، والراجل للراكب ، قد يكون ثمة مريضا واحد ، والاعراض متحدة ولكن تبقى فروق دقيقة في المزاج والمناخ ودرجة العمر مثلا ولا يبصرها المتطبب العجول الدجال ، ولكنها لا تخفى مراعاتها على الطبيب النصوح الحاذق •

وأنا اخشى ما اخشاه من خطر بسبب التمزق الفكري والآراء المتنازعة في قضية امرأتنا ، فهناك تيارات ومذاهب في قضية المرأة بعضها متطرف في تقليد الدعوة الى التحرير ، والآخر متزمت عاكف على اصنام الجمود ؟ أخشى ما اخشاه من خطر التطرف والجمود ان ينطبق على الطرفين مثلنا الشعبي التونسي البليغ : (يدعي الطب ويموت بالعلة) • حقا ان عدم وصولنا الى نتائج

عملية مفصلة على مقاس قدودنا رغم طول المدة فى الانطلاق نحو محـاولة الاصـلاح لا يعود الى انعدام الوسائل وانما يعود الى فقد التفكير العملى الجسور • من أجل ذلك قلت لنفسى وأنا اقرأ نقاط الملتقى : لم لا اختار القول فى نقطة موضوع المرأة ولا شك فى انك ستستمع الى ما ترضاه وما ترفضه ، فقدر اذن لرجلك أرضا صلبة تنطلق منها وانت واثق بانها تقيك من الضلال والعثار ، وتحميك من الميل الى أى تيار ؟

خاصة ومضمون كتاب الدعوة الى الملتقى كان مثـيرا الى الصيـال والجيـال ، فالملتقون انماط فكرية بعضها منسجم متقارب وآخر متمرد ، ومعارك الفكر يحـلو للنظارة ان يشهدوها لما فيها من روائع تنجب الحقيقة الخالصة ؟

قالت لى نفسى :

افترض انك ستستمع الى من يرضيه ما اعطاه الله للمـرأة وان لـه ملاحظات وتنقيحات على القانون الالهى ، ومالك لا تفترض شيئا صدر من الافراد والحكومات **(أفرأيت من اتخذ الهه هواه ، وأضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله ، أفلا تذكرون) ؟**

ولم لا يقع ذلك وباب الحرية مفتوح على مصراعيه للملتقى أأدخل الملتقى وأنا شاك لكى أخرج من بعد النقاش والانفضاض الى اليقين ، وما يدريك انى أبقى على شكى ، خسرت اذن وما أنا من المهتدين ان كان حضورى هنا لاجرب دينى « **ومن يعش عـن ذكر الرحمن نقيظ له شيطانا فهو له قرين وانهم ليصدونهم عن السبيل ، ويحسبون انهم مهتدون** » وعزمت أن ادخل ميدان المعركة بين التيارات المتضادة وقد اعددت قاعدة لا اخونها مدافعا أو مهاجما وهى أن الاسلام عندى هو كما وصفه القـرآن : دين الفطرة • والدين القيم ، والصراط المستقيم ، وانه فيصل الحكم فى معتـرك المذاهب وليكن عنوان كلمتى هو : ما أعطاه الاسلام للمرأة كفيل بأن يجنبنا التجارب والانتكاسـات •

« **وأسروا قولكم ، أو اجهروا به ، انه عليم بذات الصدور ، الا يعلم من خلق ، وهو اللطيف الخبـير** » •

وأملي أن ينفض هذا الملتقى فى هذه النقطة الخطيرة التى يهندس فيها مستقبل اجيالنا ان صوابا وان خطأ ، وقد وضع منهجا لا أحب أن أصفه الا بالعملية والتنفيذ ، ويحقق توق المجتمعات لحل المشكلات التى طال عليها الامد وهى تؤلم النوعين الرجل والمرأة فى البيوت والمجتمعات وعسى حكومات الشعوب الاسلامية أن تتبناه تبنيا قانونيا كخطوة عمل ، تلك الحكومات التى تنص فى دساتيرها على أن الاسلام دينها ، والعربية لغتها .

والا فان الشعارات الخادعة ، والعناوين البراقة مصيرها هو مصير من قال الله فيهم « **يخادعون الله والذين آمنوا وما يخادعون الا انفسهم ، وما يشعرون** » .

قبل كل شيء أحب أن اتساءل عن مصير الحلول الاسلامية لمشاكلنا بهذا السؤال . هل نحن حقا مسلمون ملتزمون ، وأرجو أن يكون ذلك من نصيب ايماننا لينطبق عليها قوله تعالى : « **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى انفسهم حرجا مما قضيت ، ويسلموا تسليما** » .

والا يكن ذلك فان الامام الغزالى كثيرا ما ردد فى الاحياء قوله : « كن يهوديا ، والا فلا تلعب بالتوراة » !

ان كانت حضارة أوروبا قد فتنت عقولنا وضمائرنا واذواقنا ، الى حد أصبحت فيه هى المثل الاعلى فى كل شيء ليكن الانفصال صريحا ، أولى من الانتساب الى الاسلام بالنفاق والرياء ، والادعاء والولاء .

وليس بغريب عنا مفهوم الالتزام فهو ركن النجاح لكل حركة تقوم الآن ومما يدل على أننا لم نتحل بعد بهذا المبدء جادين : أن تجارب المذاهب المستوردة فى بعض انظمة الحكم والتعليم والاقتصاد والاجتماع كثرت فيها التجارب وأنا لا أصفها بالفشل فلها منها عليها شواهد وأنتم تعلمون أن الطب استخدم أنواعا عدة من الحيوانات كالاغنام والارانب والقطط والديكة واليرابيع ونسيت أن اذكر القرد فهو الذى تقع عليه التجربة حيا وميتا وجنينا لان القرد مثل فى حب التقليد ، وهو الذى لم يرض به الاسلام فى العقيدة والتشريع والاخلاق ممن لاذ بالتمسك به .

قد يقول قائل : ما لفلان يلح هذا الالحاح الاكيد على قضية التحرر من مواريث الماضي ، ورواسب التقليد للحضارة المعاصرة ؟

وجوابي : سر ذلك أننا في عهد نضالنا الوطني ، كنا متمسكين تمسك الغريق بمنقذه بمشخصاتنا من دين ولغة وتقاليد أنها كانت لنا حصونا معنوية في جميع الاقطار الاسلامية استنقذتنا من محاولات مشروعات الابتلاع في أفكار المغرب كمشروع التجنس في تونس ، ومشروع فيولات الادماجي بالجزائر ، والظهير البربري بالمغرب والحكم الفاشيستين بليبيا ، أما الموقف اليوم بصراحة فانها بين ملحد رافض وبين شاك ساخر .

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة   على النفس من وقع الحسام المهند

أيكون الاستعمار بعد رحيله وطرده داهية الى هذا الحد ونكون نحن واقعين في شبكة مكره وكيده في عهدي : الاستلاء والجلاء أهي القابلية للاستعمار سافرا ومقنعا ضربت علينا أبد الدهر ولا أظن الاستعمار عندما كان يحاربها ويظلمها كان أحمق عابثا فلولا أنه يعتقد أنها طاقات حضارية دفاعية وهجومية ما حارب الاسد القط !

عطاء الله للمرأة المسلمة :

يقول الله تبارك وتعالى : « **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام ان الله كان عليكم رقيبا** » .

ولا أرى داعيا يدعوني الى الوقوف أمام وضع المرأة قبل مجيء الاسلام ، وانبلاج نوره . فالمصادر والمراجع كفيلة بالافادة أولا ، وثانيا : الوقت محدود ، وبحر الموضوع مسدود ، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في الصحيح : (انما النساء شقائق الرجال) أي في الاعتقاد والاحكام والاخلاق . أروني كلمة كرمت المرأة هذا التكريم الحفيل أو شبهها من الحضارات السابقة من يونانية ورومية وفارسية وهندسية « **أو من كان ميتا فاحييناه ، وجعلنا له نورا يمشي به في الناس ، كمن مثله في الظلمات**

ليس بخارج منها » الا ترون هذه الآية التى صدرت بها سورة النساء كيف تخاطب الناس جميعا داعية الى أن الله يريد منهم كما يقول العالم المرحوم محمد المدنى :

أولا : الغاء الفوارق الطبيعية بين الناس .

ثانيا : الغاء الفوارق الدينية والعنصرية .

ثالثا : الغاء التفاوت فى الوزن الاجتماعى بين الرجل والمرأة .

رابعا : غرس الوازع النفسى فى المجتمع ، وهو المعبر عنه بتقوى الله .

خامسا : أحياء عاطفة الرحم الانسانية المعبر عنه بتقوى الارحام ايذانا بأن حق ذوى الارحام فى البر والصلة مستمد منه سبحانه فلا تحرموها من بركم ، ولا تقطعوها من وصلكـم .

ولكن يجب أن لا ننسى بعد هذا أنها لم تلغ التفاوت الطبيعى بين الرجل والمرأة ، كما أنها لم تجعل الرجل والمرأة سواسية فى جميع الحقوق والواجبات ، بحيـــث أصبحا متساويين حتى فيما فرضته الطبيعة أختلافهما فيه ، بسبب التكوين والوظائف والملكات المغروزة فى الرجل والمرأة . وعليه فان السورة قد قطعت الطريق على من يتوهمون ذلك أو يريدونه حيث يقول الله فى اثنائها : « **ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ، للرجال نصيب مما أكتسبوا ، وللنساء نصيب مـما أكتسبن ، وأسألوا الله من فضله ان الله كان بكل شىء عليما** » .

فالله جل جلاله قد أكسب كلا من النوعين خصائص وطاقات واقام فوارق طبيعية لكل منها ما يختص بــه من أعمال لان الطبيعة لا تنشىء نوعين مختلفين لتكون لهمـا صفات الجنس الواحد ومؤهلاته ، وأعماله وغايات حياته كما يعبر العقاد رحمه الله .

وعندما نعود الى القرآن مصدر الشريعة الاكبر نجده قد عنى بالمرأة عناية فائقة ، وشرع لها الاحكام ، واحاطها بعنايته فى أكثر من عشر سور ، وفيه سورتان سميت الاولى سورة النساء الكبرى ، وهى النساء ، وسورة النساء الصغرى وهى التحريم والحديث عن المرأة يلقاك وأنت تتلوه متدبرا فى سور : البقرة ، والمائدة ، والنــــور ، والاحزاب ، والمجادلة والممتحنة والتحريم ، وتعالوا معى الآن الى استعراض الآيـات

القرآنية ، والاحاديث النبوية التى يكرم اللـه المرأة فى مظاهر متعمدة نعد منها ولا نحصيها احصـاء ٠

أولا : تكريم الله المرأة كانسان فقال : « **ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** » ٠

ثانيا : أبطل وأد البنات وحرمه ، وقد كان منتشرا فى بعض القبائل العربية فقال : « **واذا الموءودة سئلت ، بأى ذنب قتلت** » ٠

وقال : « **قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم** » ، وبهذا أضمن لها حقهـا فى أن تعيش ، بعد أن كانت حياتها مهددة بحفرة ترمى فيها غيلة ، ويهال عليها التراب وهى تستغيث ٠

ثالثا : أنكر على الرجل الجاهلى التشاؤم والتطير من ولادة الانثى والسخط عـلى امرأته فقال مصـورا تعاسته النفسية ومهانتـه بـين النـاس ببـلاغـة القـرآن : « **ويجعلون لله البنات سبحانه ، ولهم ما يشتهون ، واذا بشر احدهم بالانثى ظـل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، ايمسكه على هون ؟ أم يدسه فى التراب ، ألا ساء ما يحكمون** » ٠

وأعلن أن الذكر والانثى كلاهما نعمة من اللـه بها على عباده تستوجب الشكر فقال : « **والله جعل لكم من انفسكم ازواجا ، وجعل لكم من ازواجكم بنين وحفدة** » ٠ وفسر الحفيد ببولد البنت أو الابن ، ذكرا كان أو أنثى ٠

رابعا : وهذا الحديث يكرمها كبنت فيقول صلوات الله عليه وسلامه : « أيما رجل كانت عنده وليدة فعلمها فأحسن تعليمها وأدبها فأحسن تأديبها » الحديث ٠

خامسا : وكزوجة فقال تعالى : « **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم ازواجا لتسكنوا اليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، ان فى ذلك لايت لقوم يتفكرون** » ٠

سادسا : رغب فى تعليمها فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « **طلب العلم فريضة على كل مسلم** » (1) ، وفى الحديث الصحيح : « **نعم النساء نساء الانصار لـم**

(1) ليس فى خاتمة الحديث : ومسلمة كما هو شائع والمرأة داخلة فى الامر لان كل من ألفاظ العموم عند الاصوليين ٠

يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين » ، والعلم الواجب على المرأة تلقيه يختلف باختلاف الزمان والمكان والاحوال لان فروض الكفايات اتسعت دائرتها اليوم .

سابعا : واغدق عليها التكريم كأم فقال صلى الله عليه وسلم : « **الجنة تحت أقدام الامهـــات**) .

ثامنا : مكنها من حق الميراث أما كانت أو زوجة أو بنتا ، كبيرة كانت أو صغيرة أو حملا فى بطن الام بعد أن كانت هى ميراثا فقال : « **للرجال نصيب مما ترك الولدان والاقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضـــا** » .

تاسعا : نظم حقــوق الزوجين ، ووضع لها حقــوقا كحقوق الرجال ، مع قــوامة الرجال عليها ، ورئاسته للاسرة بالشورى فقال : « **ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة** » ، فكل ما يحق للزوج ان يطلبه من زوجته من أمور مشروعة يحق للزوجة أن تطلبه منه ، وكلمة المعروف فى سلك التركيب القرآنى بليغة ووجيزة فيما ترمى اليه فهى تعنى من جملة دلالاتها ما هو متعارف عليه انه حق ، والضابط له الا يحرم حلالا ، ولا يحلل حراما .

عاشرا : اعتبر حق الطلاق للرجال وبغيضا لله سبحانه وفى الحديث : « ما احـــل الله شيئا ابغض اليه من الطلاق » رواه أبو داود ، ومنع الرجال من استعمال التعسف فيه ، فله حد لا يتعداه ، ولايقاعه مشروعا وقت معين .

حادى عشر : جعل البنت قبل البلوغ تحت وصاية أوليائها ، ولاية رعاية لتربيتها ، وتصرف سديد فى مالها ، واعتبرها أمانة عند الولى ، وحذر ان تكون لابويها فتنـــة بالهائها أياه عن ذكر الله أو مخالفتها لشرعه اذا حاولت تجاوز حدود الله تعالى فى السلوك وهى بعد البلوغ يحق لها أن تتمتع بالالتزامات المالية : البيــع والشراء والاقـالة ، والخيار ، والصرف والشفعة ، والاجارة ، والرهن ، والقسمة ، والوكالة ، والكفـالة ، والصلـح ، والشركة ، والمضاربة ، والهبة ، والوديعة والوقف ... الخ وما يتبع ذلك من حقوق الدفاع عن مالها كالدفاع عن نفسها بالتقاضى أمام المحاكم فأنتم ترون مــن خلال ما سمعتم ان المرأة فى الاسلام لها مكانتها المرموقة ومنزلتها العالية فى الآفاق الانسانية والاجتماعية والحقوقية .

شمـول الاحكـام للمرأة والرجل :

وحسبكم بايجاز فى هذا المقام أن عموم الاحكام الشرعية مخاطب بها الجميع الا ما اختص بالرجل والمرأة فيما ورد من نصوص التخصيص فى الكتاب والسنة ، هـــذه الاحكام العادلة الخالدة فى جوهرها الربانى الاصيل والتى هى غير قابلة للتغير والتبديل كما يحاول ذلك بعضهم باسم الاجتهاد المرفوض اذ لا اجتهاد مع وجود النص والاجتهاد عند توفر دواعيه قائم على الكفاية العلمية الشرعية المشروطة فى المتعاطين له من العلماء وهو لا يكون فى هذا العصر الا اجماعيا شوريا حتى لا يهدم أحكام الله من فى قلوبهم مرض من اصفار العلماء ، وأصنام الحكام ٠

« وما كان لمؤمن ، ولا مؤمنة ، اذا قضى الله ورسوله أمرا ان تكون لهم الخيرة مـن أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا » ٠

« قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا ، فليحذر الذين يخالفون عن أمـره أن تصيبهم فتنة ، أو يصيبهم عذاب أليم » ٠

هذه الاحكام هى القاسم المشترك بين النوعين : الذكر والانثى من الجنس الانسانى ومن أجل هذا قرر علماء أصول الفقه : أن صيغ العموم فى القرآن والسنة تشمل الرجال والنساء مثل : من الشرطية وكل ، ولو كانت بعض ضيغ آيات الاحكام واردة على ضمير التذكير، التى وان كانت فى أصل الوضع للرجال، الا انها فى مصطلح الشرع مخاطب بها الجميع للادلة الدالة على عموم الشريعة ففى آية مبايعة النساء الواردة فى سورة الممتحنة يشمـل قـوله تعـالى : « **ولا يعصينك فى معـروف** » أى النســاء المسلمات ٠ جميـع الشريعة الا الاحكام المستثناة ولما وصل صلى الله عليه وسلم الى قوله تعالى عند مبايعة النساء يوم فتح مكة ، وقد نزلت عليه المبايعة يومئذ الى قوله تعالى : « **ولا يعصينك فى معـــروف** » ٠

قالت هند بنت عتبة زوج أبى سفيان : ما جلسنا مجلسنا هذا ، وفى أنفسنا أن نعصيك ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول لهن عند المبايعة فيما استطعتن وأطقتن ، فيقلن له : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا ٠ أين هذا الشعور الغامر الصادق بالرحمة

الالهية والمحمدية فى تشريع الاحكام من أولئك الصحابيات الكريمات ، من شعـــور بعض النساء اليوم اللاتى يردن من ـ الموضة ـ أن تكون ناسخة لاحكام الله ورسوله ، فى ازياء اللباس والتجميل ، والتكحيل ، والتحمر ، والحلى فكانهن من شدة ولعهـــن بتقليد الغربيات ينتظرن وحيا يتنزل من تأثير الفتنة واحتجاب معــالم الطريق الاقوم عليهـــن !

« ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يا بنى اركب معنا ، ولا تكن مع الكافرين ، قال سآوى الى جبل يعصمنى من الماء ، قال : لاعاصم اليوم من أمر الله الا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين » .

هدف الاسلام : أسرة سعيدة ومجتمع متكامل :

أثيرت قضية المرأة فى شكلها المعاصر حين هــب كل المظلومين فى الارض يطلبون رفع الظلم بعد حرمان دام قرونا طوالا ، وبعد استسلام واذعان وقبول له من المظلومين فالشعوب مطالبة بالحقوق والحريات من السلطة الاستبدادية الوراثية والعمال يحاولون افتكاك حقـــهم من جشع أربـــاب المعامل والمزارع والمستعمرون يناضلون المستعمر ليستردوا الحق السليب ، والحرية الضائعة وما من شك فى أن المرأة فى عهود انحطاط الرجل نفسه كانت مظلومة لا من الرجل وحـده ، بل من الوضع المنحـط العـام فى السياسة والاقتصاد والاجتماع فالنوعان كانا فى بؤس متشابه ، فالرجل مظلوم وظالم والمرأة مظلومة وظالمة ، لان الجهل الجاثم على العقول ، والجمود الخانق للعزيمة ، والخنوع المطلق لرجال الدين ، كل هذه العوامل تشد الانسان الى الارض والعبودية ولا تعرج به الى آفاق الحرية وهى التى جعلت الجميع خاضعين ان طوعا وان كرها لظلم الطغـاة فى تلك العصور .

هذا هو الاطار الصحيح الذى يجب وضع قيام قضية المرأة فيه وهذا هـو المنطلق الاول الذى حرك الجامدين هذا الموضوع وما زلنا الى الآن نسمع القاعدين من الرجال والقـــواعد مـن النســاء حـــين يحـــيق بهـم الظـــلم السيـاسى والاجتمـاعى ، وتنهـــال عليهم المصـــائب ، ويبخســـون حقهـــم مـن السلطـــان فى المجـــال السيـــاسى والاقتصـــادى والاجتمـــاعى تسمـــع منـــهم تمنـــى حصـــول الآمال بدون أعمال وهو موقف العاجزين أما موقف الارادة الشعبية التى تفرض على

الحاكم تغيير الواقع البغيض لا على هواه السياسى المتقلب ، بل على هوى الارادة الشعبية التى كانت عبر التاريخ هى اداة التغيير فى تاريخ الشعوب التى كانت حياتها تؤرخ ، بعهود الملوك ، فجعلتها تؤرخ بثورات الامم ومن التجنى الصارخ والاتهام المرفوض أن يحصر مصدر ظلم الرجل للمرأة ، وأنتم عالمون بما يترتب على هذا الموقف من تخريب للاسر وعداء بين عناصر المجتمع وأن تتحول المطالبة بالحق الى خصومة ضاربة حاقدة بين عنصرين متكاملين ، وكيف تسرى العدوى الى براء الاطفال ومستقبل الاجيال ذلك ما حدث بالغرب أمس ، وسرعان ما تسرب الينا اليوم وهكذا فرضنا على أنفسنا شغفا بعبادة الغرب بل بعبوديتنا له أن نستر عرينا بما يطرحه الغرب من أثـــوابه الهدوم واسماله البالية القذرة ! وانك لترى هذا النمط من التظلم ، وتستمع لهذه النغمـــة الناشزة عندنا فى أقلام الداعين الى انصاف المرأة فى المقالة والخطبة والقصيدة والقصة والاقصوصة والتمثيلية والملتقيات والمؤتمرات والتوصيات ولا أدرى لماذا هذا الحملة المسعورة والتى قصدت أم لم تقصد أخطأت أم أصابت فى الاجتهاد ولا تفسير لهـــا عندى الا تقويض جسور التفاهم والتكامل بين الشريكين ، وأشعال حـــريق التناكر والتقاطع لمن خلق الله بينها المودة والرحمة وقد شاءت مادة ساس ويسوس وما تصرف منها أن تغتنم هذه الفرصة السانحة السائغة تملقا منها لمشاعر المرأة الرقيقة لتعدها من مكاسب صفها المتعاطف معها فتزعمت الحملة بما لها من وسائل التبليغ بتسخير القلم الماجور والكلمة الخائنة فازدادت الازمة بين الرجل والمرأة اشتعالا وأصبح الرجل فى المحاكم مدانا مسؤولا وفى نظر المجتمع ظلوما أنانيا ، وفى البيت مصـــدر السلطة مرفوضة ولما دخلت المرأة مجال الشغل أصبح دخلها وسيلة تفوق واعجاب ، وشعرت أو أشعروها بأنها ملكت استقلالها التام فأصبح تشغيلها ذريعة الى ازمات اقتصادية واخـــلاقية باعترافهم ، كما أصبح وسيلة الى عداوة وبغضاء بين قلب خلق ليحب ، وقلب خلق ليحـــب .

انها مغالطة كائدة غاشة للمرأة قبل الرجل ، لانها عوض أن تحـــل مشكلة ذات رأس واحد أصبحت ذات راسين ولان ظلمها نابع من مجموع أسباب تاريخية كان فيها الطرفان مهضومان ، كما قال البكـرى : تعجبــوا . وكان الواجب أن يكـون الحـــل

الناصح السديد هو أن توضع قضية المرأة على أساس أنها علاقة بين شريكين ـ تتوزع بينهما الحقوق والواجبات على حسب اختلاف طاقات الوظيفة والاستعداد ، وكلاهما خاسر مغبون اذا اخل بحق شريكه ، ونازعه عمله واختصاصه وكفايته ، مع تفاهم يفضى الى المودة ، وتكامل يقرب من الكمال ، انه عداء يحدث صدعا فى وحدتنا القومية ولعل من يسير ما قدمت ، ومن كثير ما طويت وليست كلمتى متقصية لجميع التفاصيل لتعاليم الاسلام المتعلقة بالمرأة تستطيعون أن تكونوا معى فى أن الله خالق المرأة هو الذى انصف المرأة وأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان وهو يحتضر يوصى بالمرأة خيرا ، وأنه من حسن معاشرته لزوجه عائشة لفظ نفسه الآخر ورأسه الكريم بين سحرها ونحرها • ولكن بعد أن وزعنا تركة ظلم المرأة على اصناف من المتهمين يجب أن لا ننسى هذا الرجل المسكين الذى ربما أصبح يكالب بحقه أيضا وان يؤسس الاتحاد الرجالى فى مستقبل قريب يجب أن نعترف بان الرجال فى عصور انحطاطنا وبعدهم عن مبادىء الاسلام حرموا المرأة مما أعطاها الله ، وحجبوها عن نور العلم ، واهملوها من التربية القويمة وفصلوها عن المجتمع،وغبنوا مواهبها بالكبت والحرمان،واعتبروها ظرف شهوة وتحفة متعة ، وطرحوها من قائمة انسان شريك ضرورى للانسان الرجل ، وضربوا عليها حجابا غليظا ارضاء للانانية ، وحبسوها فى البيت للخدمة والانجاب كسجين محكوم عليه باطلا بالسجن والاشغال الشاقة مدى العمر ، ونفوها من الواقع المعاش الى المتوهم المجهول حتى وقف عقلها عن النمو والنضج ، وردم تحت انقاض الجهل ، وانحرفت مشاعرها الدينية الى قباب الصلحاء ، والاستعانة والاستغاثة بهم فى رفع المصائب ، ونيل الرغائب ، والتعلق بتمويهات الدجاجلة من الضاربين على دسوت الرمل مما جعل عقيدتها هى الكفر أقرب منها الى الايمان ، فهى غارقة فى الخرافة الى الاذقان ، وهى مقودة بالتقاليد السيئة ولا تشعر بسوئها من طول الامد عليها فى التدهور والتعود وكانها أصبحت تطبيقا لمثلنا التونسى الشعبى الذى صورها لنا صورة دقيقة لا نجدها فى أدبنا الفصيح ، الذى انهمك خلاعة فى وصف ورد الخدود ، وبان القدود ، وليل الشعور ، وبرق الثغور يقول هذا المثل التونسى : فى النهار دابة ، وفى الليل شابة !

تعبير صريح عما كان فى تونس ولعل المثل صالح للانطباق على الواقع فى العالم الاسلامى كافة ، ومنذ ثمانين سنة ألف عالم جزائرى هو محمد بن الخوجة كتابا سماه (الاكترات بحقوق الاناث) وكان هذا باعتبار وظيفته كاتبا بادارة الولاية الفرنسية يعول فى اصلاح المرأة الجزائرية على وجود فرنسا بالجزائر فكان على حد قول الشاعر :

ومكلف الايام ضد طباعها   متطلب فى الماء جذوة نار

ولكن الكتاب يبقى مع هذا الامل الخائب فى فرنسا أن ما حكاه عن ظلم الرجل للاخت الجزائرية واقع ما له من دافع فى عصره وما قبل عصره ·

ولا أرى مانعا من ذكر هضم الرجل حق المرأة فى بعض الفئات هنا أو هناك فنحن فى الهم شرق كما يقول شوقى ولكن الذى يمنعنى هو ضغط الوقت على قلمى ، واكتفى هنا بذكر أرقام الصفحات التى أحيل عليها ص : 30 ـ 32 ـ 34 ـ 53 ـ 44 تشير الى ظلم الرجل للمرأة أما صفحات 64 ـ 92 ـ 97 فهى نقد اجتماعى لحالة المرأة الجزائرية عصرئذ وعلى ما فى الكتاب من أمل ضائع فى اصلاح المرأة على يد حضارة فرنسا التى طالما سمعنا بأن لها رسالة تمدينية فى مستعمراتها ·

فانه يحتوى على نقد اجتماعى ، وانارة لتحرير المرأة تحريرا اسلامية ، وفيه ملامح عن حال المرأة والرجل فى المجتمع الجزائرى صالحة لمن يريد البحث ، والدرس من أبناء وبنات الجامعة الجزائرية ولما اتصلنا بالغرب ونعم الاتصال فى مظاهره الحسان وبؤس الاتصال فى سلبياته ، نادى المنادون بتحرير المرأة وكانوا أصنافا ، هذا يدعو الى أحياء التشريع النسائى الاسلامى ويرى فى ذلك اعادة الاعتبار للمرأة كمساوية للرجل ، وصيانة لها مما تردت فيه المرأة الغربية ، وآخر يحب أخذ الحضارة مرة واحدة ينادى بلا فرق ولا تمييز فلتكن المرأة عربية أو لا تكون عنده ·

وكانت المرأة وهى مثال الطموح ترى الفريقين ، بل الفرق تتصاول من أجل انصافها وتستمع الى حجتهم حتى لا يبقى نصف المجتمع مشلولا كسيحا ، وفى أثناء هذا الصراع الذى مضى عليه أكثر من نصف قرن بين المعتدلين والمتطرفين كانت ظروف الزمان ، ومتطلبات العصر تحرض المرأة على التحرير من مظالم القرون ، والاندماج ·

فى الواقـع كان بعض النسـاء قد انـدفع ـ ولا أعمـم ـ وهـن غـير مستعـدات لتلقى واجبات التطور وحقوقه الى محاولة التحرر فى تهور وسذاجة وبعاطفة لا بعقل وتجرعت من اجـل ذلك الاسرة والمجتمع آلام الارتجـال ، ومـرارة الانتكاس على أن طموح المرأة ـ ولا أعمـم ـ الى أن تصـير كالغربية فى الشكل والمظهـر دون الصميم والجوهر يجعلها كصدفة جوفاء ملقاة على شاطىء موحش لانها تنسى أن التدرج الطبيعى فى نيل الحقوق ، وقـع حتى فى الغرب ، وتنسى أن اداء الواجب مقـدم فى شعوبنا المتخلفة على حسب الحـق .

فالـرجـل والمـرأة فى مجتمعـاتنـا النـاميـة يجـب أن يكـون كلاهما معطيين فى سماحة وايثار الى أن يخرج المجتمع من فقره ، ويعافى من مرضه ، ويتحرر من جهله ، ويومئذ تتوفر لديه طرق اعطاء الحقوق كاملة غير منقوصة ، ان سلم الحقوق له درجات والاولى مقدمة على الثانية حتى نصل الى القمـة هاضمين المراحل والنتائج مرحلة ونتيجة نتيجة وكما أن الخطر يكمن فى التخمة من الحرية خاصة اذا كان الجهاز الهضمى لم يتعود الاكلات السمينة ذات التوابل الحريفة كذلك يكمن بمـا هو أخطر عواقب وآثارا حين تجوع الامم الى الحرية ولا تعصاها كحق أول فى الحيـاة حينئذ يكون الحرمان داعية الى الهيجان والثورات وهنا اتساءل ما هو واقعنا اليوم : هل نحن فى تخمة أم فى مجاعة الى الحرية ؟ واخشى ما أخشاه أن يفسر كلامى بأنه حجة صالحة لما يدعيه الدعاة من معاذير الى الحرمان ، لا ، لست أنا هنا محاميا عن قضايا الظلم والحرمان من الحرية ولكننى أقول رأيي وأنا معتبر بتجارب من فتحوا الباب على مصراعية للمرأة لحاجة فى نفس يعقوب بينما الحريات الاخرى التى هى لسان الميزان فى تقييم حـرية المرأة ونقدها وتعبيرها ، معدومة وكيف تغذر على تعبير الذهب الزائف المغشوش من الذهب الا بريز ، بلا معيار الحرية جنس وأنواعها متكاملة كى تكون للانسان كرامة ، والا تكن فلا كرامة بل حيوانية انسانية تأكل اطعام وتمشى فى الاسواق !!

ان المرأة فى العالم المتخلف بصفة عامة ، وفى مغربنا الاسلامى بصفة أخص قاومت الاستعمار بجانب أخيها الرجل ، وضربت الامثال فى الحماس والثبات والمصابـرة والاستمانة دافعة لوطنها قسطا من دينه ، وانها لمدعوة بواجب الى أداء واجب ملح عينى فى عهد التحرر الوطنى الى أن تكون امرأة مسلمة بالمعنى الكامل الملتزم وعليها أن تنشىء

لامتها ووطنها جيلا صالحا، ترضعه حب دينه ووطنه ولغته وحضارته، بعد أن حاول الاستعمار أبادة تلك القيم ليخرج الجيل عاريا من مقومات شخصيته ونحن نحاول فى نهاية المطاف من حملة القضاء على التخلف أن تخرج لنا حضارة من لحمنا ودمنا ، من روحنا وعقلنا سليمة من الجراثيم التى تنخر حضارة غيرنا معتبرة بالعظات التى قضت على الحضارات بالزوال ، من هو المفكر الرشيد الذى يرفض أننا لسنا فى أكيد الاحتياج الى تقنيات الحضارة المعاصرة ، وهى التى تقتحم الدخول على أبوابنا بلا استئذان وتملك بقوة التأثير وبسرعة الصوت ولكن من الذى يحاول الخروج من التخلف وهو مجموع نقائص وعيوب ، ويرضى أن يزيد من كمية التخلف ، ويضيف الى أوجاع المريض كربا بنقائص أخرى ؟ والتاريخ يحدثنا أن كل حضارة تحمل بين جنبيها جراثيم موتها • لقد جربنا العقاقير من خارج مناخنا ومراجنا فما زادتنا الا خبالا ، وكاد أن ينقرض الحيوان السليم من كثرة التجارب فى مجتمعاتنا وأقولها أخيرا على سبيل الفرض والمجاز ، والاسى يفتت قلبى انه بقى علاج نملكه ولكنه مجهول ، ومفترى عليه وانه متهم بكبائر التهم والشبه منا ومن احقاد التبشير ومطامع الاستشراق ، اتدرون ما هو ؟ أما اذا سألتمونى فانى اعتقد فى جدوى علاجه لا لمشكلة المرأة فقط ، بل لجميع مشاكلنا معاشا ومعادا طالما ينعق الناعقون أن لغتنا عاجزة عن التعبير عن شؤون الفكر لان نهضة العربية تزحزحهم عن كرسى مستورد من الخارج، وأمتنا تبحث عن الاكتفاء الذاتى فى الكيفيات والكميات ولكنها لا تهضم لغتها لدلال الغوانى من اللغات الاجنبية ، وينعقون بأن الاسلام استنفد أغراضه ، وانتهى دوره فى هذا العصر ليمهدوا الطريق للادينية والفسوق والتفسخ ، ولو انصفو العربية والاسلام لقالوا : نحن وقفنا حضاريا ووقفت اللغة لانها اداة تعبير وعلام تعبر وأهلها بكم ! واطرحنا الاسلام جانبا ورميناه بأنه سبب التأخر ونحن الجناة عليه وأصبحنا فى نظر غير ناجحة عليه ، عوض أن نكون حجة له . وهكذا رمتنى بدائها وانسلت كما يقول المثل • وهذا التشريع المقارن الآن يشهد بأن تشريعنا كأنه نزل اليوم من عالم الغيب ليحل مشاكل عالم الشهادة ماضيا وحاضرا ومستقبلا « **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق** » • نحن فى حضارة تجريبية ، فجربوا الاسلام ، وحاشا الذهب الابريز أن يعير ، وحاشا فضل النور أن ينكره « **وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون** » •

والسلام عليكم ورحمة الله •



العشاء ، فى خيمة،ضيوفا على بلدية توغورت، عاصمة بني جلاب .

المـــرأة بعد عام المــــرأة

د. كيليا سارنيلي تشركوا
أستاذة بالمعهد الجامعي للدراسات الشرقية
جامعة نابولي (ايطاليا)



حضرات السيدات والسادة ،

أود قبل كل شيء أن أعبر عن سروري بوجودي اليوم بينكم وعن شكرى العميق لسعادة الوزير مولود قاسم نايت بلقاسم وزير التعليم الاصلي والشؤون الدينيـــة للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية لدعوتي كي اشترك في هذه الندوة ، كما أوجه شكري لكل معاونيه في التنظيم الرائـع لهـذا الملتقى الحادي عشر للفكـــر الاســـلامي .

وقد أتاحت لي الدعوة الكريمة الفرصة لاحضر لثاني مرة الى الجزائر ذلك البلد الذي ترك في نفسي أثرا لا يمحى ولاعرف أكثر فأكثر هذه الارض محققة حلما كـان يداعبني منذ سنوات .

ان هذه الفرصة عزيزة على حيث أحمل الى الجميع تحية المعهد الجامعى الشرقى فى نابولى الذى أتشرف بالانتساب اليه وبأن أترجم عن الاهتمام العظيم الذى يوليه معهدنا لدراسة اللغة العربية والعالم العربى وحضارته ٠

وعندما وجهت الى الدعوة لالقاء محاضرة فى أثناء انعقاد هذا الملتقى فكـرت فى اختيار موضوع يمسنا عن قرب وهو « المرأة فيما بعد عام المرأة » وهذا لعدة أسباب :

فقبل كل شيء هناك أحوال المرأة وتغير علاقاتها وكيفيـــة حياتها مما يشكـــل الموضوعات التى تثير النقاش فى هذه الايام كثيرا ليس فى ايطاليا فقط ولكن فى جميع بلاد العالم تقريبا ٠

وأيضا لاننى أعتقد أنه يمكن أن يهمكم عرض سريع لما قمنا به فى بلدى ـ ايطاليا ـ فى هذه السنوات الاخيرة ٠

فاننى أرجو من معالجة الموضوع من جديد معكم ـ أيها الاصدقاء الجزائريون ـ ومع كل من حضر من مختلف البلاد ومن الاستماع الى الملاحظات والى المناقشات أن ننور عقولنا أكثر من ذى قبل وأن نوسع تجاربنا بفضل الاتصال المباشر بتجارب مختلفة ومتنوعة كما أننى أرجو من تبادل آرائنا أن نتمكن من حل بعض مشاكلنا المستعصية أو على الاقل أن يسهل لنا البحث عن مبادرات أخرى بهذا الصدد ، وكل هذا عبر كلام موضوعى هادىء مع احترام الآخرين واحترام آرائهم بواقعية وحداثة وذلك بطريقة تجعل المشاكل أقل درامية وأكثر تقبلا ٠

وكما تعرفون جميعا فقد أعلنت الجمعية العامة للامم المتحدة فى 18 ديسمبر سنة 1972 أن سنة 1975 هى السنة العالمية للمرأة ٠

وقد وافقت لجنة أحوال المرأة التى كانت تعمل فى الامم المتحدة منذ وقت طويل على البرنامج الواسع المفصل الذى كان ينص باختصار على ما يلى :

ـ الوصول الى المساواة القانونية الفعلية بين الرجال والنساء ٠

ـ توطيد التكامل التام للمرأة فى كل مبادرات التطور مع ابراز مسؤولية المرأة ودورها الحاسم فى مجال التطور الاقتصادى والاجتماعى والثقافى على المستويين الوطنى والعالمى ٠

ـ الاعتراف بأهمية المساهمة المتزايدة التى تستطيع المرأة أن تؤديها فى ميدان تطور العلاقات السليمة والتعاون بين الدول وتأكيد السلام ٠

وقد كانت موضوعات هذا العام : المساواة والتطور والسلام ٠ وترجع أهميته سواء الى نطاق وحجم الحركة عالميا ، والى اتساع النشاط والى الاصلاح الذى حاول أن يثيره أو الى اقتراح مشروع منظم يضم المبادىء العامة الهادفة الى ترقية المرأة فى وضع مساواة مع الرجل وأحوال تطور كل المجتمعات أى ليس فقط ترقية أحوال المرأة ، كهدف قائم بذاته ـ ولكن أنها طريق خير لكل المجتمعات الانسانية ٠

وقد قصدت الامم المتحدة باعلان السنة العالمية للمرأة ابراز أولا أن جميع شعوب الارض تقريبا تعترف بالتحول التاريخى العميق الذى حدث وساهم فى عملية التشكيل الحديث للمثل الاعلى للمساواة ٠

وتحقيق هذا المثل يعترف به أكثر فأكثر كحاجة لا يمكن الاغضاء عنها بالنسبة للعدالة الاجتماعية ٠

وثانيا : فان الامم المتحدة أرادت أيضا تحريك وتكملة التحول من أجل السلام والتقدم ٠ وأرى أن هذا الاعلان اظهار للتقدير والثقة والآمال المعقودة على مقدرة المرأة التى دعيت لانقاذ ورفع القيم المعنوية والروحية وهى الوحيدة التى تجعل الحياة ذات قيمة ٠

وقد تابع الفاتيكان باهتمام وتعاطف خطوات عام المرأة وبمناسبة المؤتمر الدولى الذى أقيم فى مدينة المكسيك فى أواخر يونية أرسل لجنة خاصة اشتركت فى جميع الاعمال بنشاط ملحوظ كما وأنها اتصلت بممثلى مختلف الحكومات والمنظمات الغير حكومية ،وأكدت اللجنة الاهتمام البالغ للفاتيكان وتقديره للعمل الايجابى من أجل ترقية المرأة وأثبتت أن المساواة بين الرجل والمرأة لها مغزى فقط في المجتمع الذى

يعترف فعليا لكليهما بكرامتهما الانسانية وفى المجتمع الذى يعطى المكان اللائق للاسرة أى لنواته الاساسية ، المجتمع المتفتح للترقى الفعلى المتكامل أى الهادف بخاصة الى تطور الوعى المعنوى ٠

ولنر الآن ماذا حدث واقعيا فى ايطاليا فى هذه السنوات الاخيرة وماذا بقى بعد لعمله ٠

ولنأخذ بعين الاعتبار قبل كل شىء وضع المرأة فى الاسرة الجديدة بعد تعديل قانون الاسرة (1975/5/19) ٠

لا أقصد هنا توضيح جميع النظم واللوائح ولكن أكتفى باختصار بعرض دور المرأة الجديد بالنسبة للاسرة وبالنسبة للمجتمع ٠

ان تقييم دور المرأة وشخصيتها يمثل تنفيذا دقيقا للمساواة فى الحقوق التى يحتويها الدستور - بينما مجموعة قوانين سنة 1942 كانت تتعارض معها لانها كانت تنص على نظام الدرجات داخل الاسرة والتفرقة بين المرأة والرجل والاتحاد فى الحياة الزوجية التى كانت تتعارض مع انفصال الاموال ٠

ولكن هذا التفكير قد سبقه الزمان ، زمان تأكد المشرع فيه بعد نتيجة الاستفتاء على الطلاق (1974/5/12) أن معظم الشعب قد أراد تعديل كل للتشريع الخاص بالاسرة وجعلها أكثر التصاقا بالحقيقة التاريخية الإجتماعية الجديدة ٠

وقد انطبقت فى الواقع كل لوائح قوانين الاسرة على مبدأ مساواة الزوجين بطريقة مرضية سواء فى العلاقات الشخصية أو الملكية أو فيما يتعلق بالابناء ٠ وهناك لوائح عديدة أعطت للمرأة كرامة دورها فى الاسرة وفى المجتمع والاكثر أهمية فيها هو : المادة 143 مكرر - وتنص على أن المرأة المتزوجة لا تأخذ اسم عائلة الزوج كما كان فى مجموعة القوانين القديمة - ولكنها تحتفظ باسم أسرتها وتضم اليه اسم أسرة الزوج وتحتفظ بهذا الاخير حتى ولو كانت أرملة ، الا اذا تزوجت من آخر وهذا يعنى أن تحتفظ المرأة فى الزواج بكامل شخصيتها ٠

وتحتفظ المرأة بجنسيتها الايطالية ، الا فى حالة التنازل الصريح عنها ، حتى ولو أنها حازت جنسية أجنبية نتيجة لزواجها أو نتيجة لتغير جنسية الزوج ·

وتنص المادة 43 على حق كل واحد من الزوجين فى اتخاذ محل اقامته فى المكان الذى ركز فيه جل أعماله ومصالحه · وهذه المادة أساسية بالنسبة لتحرير المـرأة وتبدو ثورية حقا فى نظام عائلى كان وضع الزوج فيه ـ حتى الآن ـ مقدما بلا نزاع ، ولكن الحقيقة الاجتماعية والاقتصادية العائلية التى فيها أكثر عدد النساء اللائى يقمن بنشاط عملى مع نتائج لا يمكن اغفالها فى اقتصاد العائلة قد دفعت المشرع الى السماح للمرأة المتزوجة بأن تتخذ محل اقامة لها حيث يوجد مركز أعمالها ولو كان يختلف عن اقامة الاسرة ·

وفيما يختص بالوصاية على الاولاد فان التعديل يعطى حق القيام بها لكلا الوالدين ولابد من اتفاقهما بهذا الصدد والا فلابد من الرجوع الى القاضى ·

وكذلك أعطى التعديل للام ايضا حق انكار الابوة ·

وهناك أمر آخر بالغ الاهمية وهو العلاقات المالية بين الزوجين التى أسست على نظام توحد الممتلكات وقد قصد التعديل تقييم العمل الذى تؤديه المرأة فى المنزل وذلك باعطاء المرأة قيمة لمساهمتها الفعالة فى تكوين ما تمتلكه الاسرة ·

وقد حدث تعديل أيضا بصدد الميراث وأصبح كل من الزوجين وارثا له كل حقوقه قانونا وكذلك له حق السكن ، وحق استعمال الاثاث الموجود فى مسكن الاسرة ، وفى الواقع تحتفظ المادة 540 من أجل مصلحة أى من الزوجين بالحق فى نصف الميراث وبالحق في الاقامة فى البيت الزوجية ·

وهذا التجديد من أهم مميزات التشريع الجديد لانه أزال عن الذى بقى مـــن الزوجين على قيد الحياة صفة المرتبط فقط بالربع وما توحى به من اذلال وما جعلـه يتلقى غالبا نكران الجميل من جهة الابناء ·

وأود الآن ألاحظ أن القانون الجديد معمول به الآن فى ايطاليا منذ أغسطس سنة 1975 ولكن المرأة لابد أن تكون مستعدة لتقبله ولاتخاذ المسؤولية الاكثر الناتجة عن حقوقها الجديدة الزائدة وكذلك عن الواجبات التى حصلت عليها بالتعديل ·

ومن ثم فمن الضرورى ان تحيط المرأة علمها بها حتى تكون واعية ومسؤولة ليس فقط بالنسبة للحقوق بل أيضا بواجباتها الجديدة · والعمل الباقى ضخم ولابد من القيام به بالتدريج وهو دون شك سيتحقق بمرور الزمن اللازم للنضج الانسانى ، فالوسائل التشريعية وحدها لا تكفى ·

ولننتقل الآن الى عرض قضية عمل المرأة ، فقد عين مجلس الوزراء الايطالى بمناسبة عام المرأة لجنة خاصة قامت بنشاط كبير فى أثناء السنتين 1975 ـ 1976 ونظمت مؤتمرا وطنيا عن عمل المرأة وانعقد المؤتمر بمدينة رومة من 26 الى 28 نوفمبر 1976 وكانت رئيسة المؤتمر الدكتورة Tina Auselmi وزيرة العمل وهى أول امرأة تولت منصب الوزارة فى تاريخ ايطاليا ·

واشترك فى المؤتمر وفود من شخصيات السياسة والثقافة والجمعيات النسائية وممثلى الاقاليم · وقد عرضت رئيسة المؤتمر فى خطبة الافتتاح بعض البيانات التى يستنتج منها أنه ما زالت المرأة فى بلدنا حتى الآن تعتبر مواطنة من الدرجة الثانية فمثلا نجد أن النساء يمثلن أكثر من نصف السكان (51٪) ولكن أقل من ثلث القوة العاملة (28٪) وثلث المتعطلين ·

ومن المعروف أن أكثر من مليون ونصف من النساء يشتغل فى المنزل من أجل التجار أو المصانع مع استغلال قاس دون ضمان أو تأمين ويسمى « العمل الاسود » ·

وأسباب هذه الامور ترجع الى عناية المرأة بمنزلها وبخاصة أبناءها لنقصان الوضع بالنسبة للخدمات الاجتماعية كما هو الحال فى عدم كفاية عدد دور الحضانة ورياض الاطفال والمدارس ذات الوقت الواحد ·

وكل هذه الاسباب تقلل من امكانية المرأة للاندماج فى ميدان العمل والى جانب هذا فنجد أن التعليم والتخصص المهنى اللذان غير كافيين حتى الآن أو ينفذان بطرق

قضى عليها الزمن ـ يجعلان المرأة تتجه غالبا الى أنشطة مكملة لما يقوم به الرجل وقليلا ما تصل الى مستوى الادارة ، فهى لا تعرف شيئا تقريبا عن المكينة الزراعية وعن التكنولوجيا وأخيرا فان المرأة مرتبطة بالنطاق الاقل تأهيلا والاقل مكافأة واستقرارا فى عالم العمل • وقد اختتم رئيس مجلس الوزراء الايطالى أعمال المؤتمر بخطاب عرض فيه مشروع القانون الجديد الذى قدمته وزيرة العمل لمراعاة المساواة فى المعاملة بين الرجال والنساء فيما يختص بالعمل ورعاية المرأة • وقد وافق مجلس الوزراء على هذا المشروع القانونى فى الجلسة المنعقدة يوم 23 ديسمبر سنة 1976 وهو يمنع أى تفرقة بين المرأة والرجل فى التعيين من أجل العمل على السواء بين الرجل والمرأة •

وفى الواقع نجد أن جميع التسهيلات للمرأة نظرا لامومتها الى آخره أصبح يتحملها التأمين الاجتماعى ، ولا يفوتنا أن الرجل قد حظى هو الآخر بالاستفادة من أيلولة المعاش وبالعلاوات الاجتماعية •

وللاسف يجب أن نستبين أنه لم يؤخذ بعين الاعتبار فى هذا المشروع القانونى الهادف الى ازالة أية تفرقة بالنسبة للمرأة فى مجال عمل المرأة مشكلتان كبيرتان : أولاهما العمل بالمنزل وهو مثقل بالمسؤوليات ولكنه خال من الاعتراف القانونى ولو أن له قيمة اقتصادية لا تحصى منافعها ولا تجازى ـ وثانيتها : هى العمل الذى تقوم به المرأة نفسها حسب الطلب (العمل الاسود) وهذا الاخير على الرغم من قانونى سنة 1958 وسنة 1973 المنظمين له لا يزال حتى الآن يتهرب من أى اشراف ولهذا السبب قهرت التجاهل التام لهذين القانونين لاسباب كثيرة غنية عن البيان •

ومما عرضته حتى الآن يتضح جليا أن المشرع قد اعترف للمرأة العاملة بنفس حقوق الرجل وبنفس المكافأة التى يستحقها الرجل عندما يؤدى كل منهما نفس العمل • أما فيما يختص بالاسرة فقد وضعت المرأة فى حالة استقلال تام ومساواة مع الرجل ولكن لننظر كيف تسير الامور فى الواقع ، نجد أنفسنا أمام هذه الظاهرة : تشريع متقدم وحديث منبعث من النظرة الى مجتمع متحرك ولكنه قد طعمت به واقعية اجتماعية لا تزال غير مهيأة فى التركيب ومرتبطة بهيكل قديم متأثر بتقاليد تريد أن تجعل من المرأة جزءا من اطار المنزل وتبقى فيه أو أن تشتغل فقط فى أنشطة مكملة

لما يفعله الرجل أو قائمة بأعمال يدوية وعلاوة على ذلك فان المرأة توجه فقط الى فروع وقطاعات للانتاج ومنهن كالمساعدة الاجتماعية والمعلمة والمحرضة ومربية الاطفال ومساعدة الاسرة وهى أعمال فى جوهرها وظيفة الام على المستوى الصناعى ٠

حقا أن هناك نساء قد احتللن مناصب فى الاعمال الحرة والثقافة وفى أعمال كانت مغلقة أمامها حتى الآن (كقبطان باخرة وسائق قطار سريع) وحتى أيضا فى ميدان السياسية من عدة سنوات ولكن هذه أمور استثنائية لان أغلبية النساء لا زالت تعمل على هامش النشاط الانتاجى ٠

ويمكننى الآن أن أختتم معترفة بأن التكوين الاجتماعى الحالى يمنع المرأة غالبا من أن تعتبر العمل نشاطا ضروريا وليس اضافيا أى كشىء مؤقت هو وسيلة لكسب مرتب آخر هو استثناء مما خلقت له وهو أن تكون زوجا وأما ٠

ولكن المشكلة أبعد من التكوين الاجتماعى وفى الواقع اذا لاحظنا ما يحدث فى بلاد أخرى وفى أوضاع أكثر تقدما منا ونظم وخدمات اجتماعية أحسن نرى أن المرأة عندما ترجع الى المنزل تبدأ فى العمل من جديد أيضا وفى النهاية نجد أن المساواة أدت الى أن تعمل المرأة مرتين ٠

لا أعتقد أن هناك حلولا عامة لهذه المشكلة نظرا لان الامر يتعلق بمشكلة شخصية بطريقة ما ٠ وفى الواقع هى معتمدة أيضا على القوة المعنوية والجسمية لكل امرأة وكذلك على عزيمتها وشجاعتها وأكثر من هذا على اختيار المرأة وكجميع الاختيارات لابد من الجهد ومن التضحية ولابد أيضا أن تقتنع المرأة التى حصلت على حقها فى الوجود كشخص وكمواطنة بوظيفتها التى لا يستغنى عنها فى المجتمع وواضح أن هذا فى الاسرة أيضا وفى الامر الاخير يجب عليها أن تبذل جهدها لتحقيق كيفية جديدة من الحياة بوسيلة تربية تهدف الى الاحترام والتفاهم المتبادلين والتعاون الاكثر تكاملا فبتغيير نفسها تغير أيضا الرجل الذى يعيش بجانبها سواء أكان زوجا أو أخا أو ابنا ٠

وفى اطار هذا الملتقى عن التفكير الاسلامى لابد لنا الآن ولو بايجاز من النظر الى الوضع الحالى لاخواتنا المسلمات فى الاسرة وفى المجتمع ولكن نظرا لاننى مهتمة بدراسة العالم العربى الاسلامى بخاصة لا أستطيع أن أتكلم الا عن هذا القطاع •

لقد أعطى الاسلام بلا شك للمرأة العربية قيمتها بعد أن كانت خاضعة لعادات الجاهلية وحسن من حالتها معلنا المساواة الجوهرية بين الرجال والنساء • وتقرأ فى القرآن الكريم فى سورة الانعام الآية 98 : « **وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة** » •

ومن ناحية الدين والاخلاق فقد تساوت المرأة مع الرجل ولها نفس الواجبات المعنوية والدينية وفى الآخرة نفس العقوبات والثواب • فنقرأ فى سورة النحل الآية 97 « **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** » •

وفى سورة الحجرات ، الآية 13 « **يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير** » •

وكذلك فى سورة النساء ، الآية 124 « **ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا** » •

وينص القرآن على المساواة المطلقة فى عقوبة كل من الزانى والزانية وهى مساواة اعترف بها فى ايطاليا منذ وقت قريب فقط ونقرأ فى سورة النور ، الآية الثانية : « **الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة** » •

وهكذا بالنسبة لانواع أخرى من العقوبات ففى سورة المائدة الآية 38 : « **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم** » •

وكذلك فى سورة النساء ، الآية 32: « **للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن** » •

ولان المرأة والرجل متساويان فى النظام الدينى والخلقى للاسلام فان المرأة فى الوضع السياسى وغالبا القضائى أقل من الرجل فنحن نجد أن المرأة خارجة عن السلطة العليا فلا يمكن أن تتولى منصب القاضى أو الامام أو الخطيب أو الولى وفى

القضايا شهادة الرجل فى الغالب تساوى شهادة امرأتين وفى الميراث يعطى للمرأة غالبا نصف نصيب الوارث والمرأة بالنسبة للطلاق حقها أقل من حق الرجل ٠

ولكن كل هذا لم يمنع المرأة فى صدر الاسلام أن تلعب دورا مهما حتى فى الحياة العامة ـ يكفى أن نستحضر الدور الذى قامت به نساء مثل خديجة وعائشة ٠ ومن ينسى نساء مثل الخنساء وسكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة ورابعة العدوية وزبيدة زوج الرشيد وبوران زوج المأمون ٠

واذا كانت مراجع الادب قد حفظت لنا هذه الاسماء فمن يدرى كم من النساء لسن أقل منهن قد عشن مغمورات ولكن قد ساهمن بعملهن فى تكوين عظمة الاسلام :

ربات بيوت وقرويات وعاملات مهضومة وسيدات بسيطة قد أعطت مآثر قيمة بعملهن الدائب وانكار ذاتهن وتضحيتهن فى جميع ميادين الحضارة العربية الاسلامية ٠

واذا كنا ذكرنا كل هذا فلابد أيضا من الاعتراف بأنه على أثر النفوذ الاجنبى وكثرة الاحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية تكونت أوضاع تاريخية جعلت المرأة تقاسى حالة من الظلم ونقصان القيمة فى محتوى المجتمع العربى الاسلامى ٠

وكان من الضرورى اذن اصلاح حالة المرأة والتكوين العائلى بما يناسب التقاليد الاسلامية ٠ وقد ظهرت فى الاسلام حركة حديثة بارزة دائما من أجل تحرير المرأة مع مراعاة عدم التمسك الشديد بتقاليد قانونية تستطيع أن تكون معوقة لمطالب الحياة الحديثة والمصالح العامة وعدم الانفصال التام عن الماضى ٠

وفى هذه الحركة قد جاهد كثير من الرجال والنساء ولا يزال منهم من يجاهدون حتى الآن وقد حصلوا على نتائج ملحوظة ٠

ولنذكر عن طريق المثال السيد جمال الدين الافغانى والشيخ محمد عبده وقاسم أمين والشيخ طاهر الجزائرى وهدى شعراوى وعائشة التيمورية ومى زيادة وكثيرون وكثيرات ممن أكدوا ضرورة تطبيق المساواة فى الحقوق والواجبات بين الرجال والنساء وهذا لتكوين المجتمع العربى الاسلامى الجديد ٠

ويجب أن نذكر أنه فى أوقات التقدم للنصر من جهة حركات التحرر الوطنى فان النساء دائما الى جانب الرجال ويتعاون معهم دفاعا عن الحرية وعن حقوق الوطن . ولنذكر عن طريق المثال دور النساء فى مصر أيام الحركة الوطنية برئاسة سعد زغلول وكذلك النساء فى الشام والعراق وما قامت به المرأة الجزائرية من أجل تحرير بلدها عندما جاهدت مع الرجل معطية برهانا للبطولة وكاتبة لصفحات مجد فى تاريخ بلدها ونذكر أيضا النساء الاخريات اللائى ينتسبن الى العالم العربى المعاصر من الخليج الى المحيـــط .

ولكن المساهمة التى بذلتها النساء للتحرير الوطنى لم تكن دون نتائج فقد ساعدت هذه المساهمة فى تطور المرأة وأسرعت بها بالسير الى الامام ومن الدوافع الاخرى التى أدت الى هذه النتائج انتشار التعليم على جميع المستويات ، وقد تحقق الكثير وفعــلا حصلت المرأة فى بعض البلاد العربية على الحقوق كاملة فقد اشتركت فى السياســة وفى السلك الدبلوماسى ونالت مناصب رئيسيـــة فى الوزارات وفى النقابات وفى الصحافة وثبتت أقدامها فى المهن الحرة ولكن هذا دائما كما هى الحالة فى ايطاليـــا وتقريبا فى كل العالم يتعلق بأقلية . وتقدم المرأة لا يزال حتى اليوم تقدما لبعض النساء فقط ولهذا فقد بقى الكثير لعمله وطبقا لما يتفق مع مبادىء الاسلام .

فمن الضرورى انتشار التعليم أكثر فأكثر وتحسين التكوين المهنى واعطاء المزيد من الخدمات الاجتماعية المفيدة جدا لان المرأة بفضلها يمكن أن تقسم بين عملها الخارجى وعملها المنزلى بتضحية أقل توفق بين واجباتها كزوج وأم وواجبات عملها .

واذا كانت تلك الواجبات الاولى ــ فى نظرى ــ مهمة جدا لان الاسرة هى النواة الاساسية للمجتمع ، فان الواجبات الثانية ليست أقل أهمية لان اشتراك المـــرأة فى ميدان العمل قوة لابد من جعلها فى خدمة المجتمع أيضا ، ومع هذا فان الاستقلال الاقتصادى الذى تناله المرأة بعملها يؤثر على وضعها فى الاسرة والسماح لها بحرية أكثر وبأمان وثقة واسعة عند القيام باختيار حاسم .

ولاعد القول أنه بقى الكثير لعمله وليس هذا فقط بالنسبة للمرأة العربية بل لجميع نساء العالم وانى معتقدة أن كفاحنا ـ معشر النساء ـ سيسير الى الامام بتحقيق تعاون بين نساء العالم وبالطلب الى الرجال أن يساعدونا فى تحقيق المساواة بينهم وبيننا ليس فقط فى القانون ولكن أيضا فى الحياة اليومية وكذلك فى اعطائنا امكانية القيام بدور بارز فى بناء عالم جديد ، عالم مساواة ومشاركة وكرامة وسلام وأحوال من الحياة أحسن من أجل الجميع ٠



في غارداية : ويرى في الصف الاول : السادة والسيدات : شارل جيدز (كولورادو ـ أمريكا) ، سيغفريد هونكه (ألمانيـا الاتحادية) ، على صبرى (سوريا ـ روما) ، اسماعيل بلتيش (يوغوسلافيا ـ فيينا) ، عمر تومى الشيبانى (ليبيا) ، عباس ببرسوف (أوزبكستان ـ موسكو) ، محمد اركون (الجزائر ـ باريس) ، ريتا فيندا (استوكهولم) ، عبد الله الشماحى (اليمن الشمالية) ، محمد عبد الله عنان (مصر) ، عمر فون ايرنفيلز (فيينا ـ هايدلبرغ) ، ارجمند كوران (تركيا) ، فرانسين مالى (باريس) ، محمد مجتهد الشبسترى (ايران ـ هامبورغ) ٠

النقطة 4

لا تنمية بدون استثمار موارد الثروة الباطنية والتحكم المباشر فيها

السيد الجيلالى صارى
أستاذ بالمعهد الجغرافى
جامعة الجزائر



لم يتأكد دور الموارد الباطنية ويتفوق على ما عداه الا حديثا ، بعد أن تمكن الانسان من تسخير الطاقة البالغة الاهمية والغاز الطبيعى ، واستطاع أن يتغلب على مختلف العقبات ويغير أوجه الاقاليم والبلدان تغييرا جذريا فكانت المرحلة الحاسمة فى تقدم الانسانية ، وخاصة النهضة العلمية والتقنية والاجتماعية .

وهذه النتائج التى حققت فى مدة زمنية قصيرة نسبيا ـ وذلك أثناء بضعة عشرات السنين الاخيرة فقط ـ أثارت وتثير دائما وبصورة أشد مما مضى مشاكل جد خطيرة تظهر فى الفوارق الجسمية التى يتميز بها العالم اليوم وتتمثل فى تقسيمه الى قسمين متناقضين ، قسم لا يأوى سمى ربع سكان المعمورة ولكنه يستهلك أكبر نسبة من المنتوجات العالمية ، وقسم يضم الاغلبية الساحقة من البشر لا ينال الا نسبة ضئيلة

من هذه المنتوجات سواء كان ذلك فى ميدان الصناعة أو الانتاج الثقافى ، ويعاونى مشاكل متعددة ويتعرض للاوبئة والاضطهاد .

وهذه الوضعية خطيرة جدا ، وخاصة أن الفوارق تشتد وتزيد باستمرار فى تبعية العالم المحروم وفى استغلاله واضطهاده فى نفس الوقت ، فهل هذه ناجمة عن ضعف موارده الباطنية أم هل هي راجعة الى الاوضاع السياسية والاقتصادية الراهنة ؟ وبالخصوص أن هذا العالم «المحروم» يساهم مساهمة فعالة فى التنمية الاقتصادية العالمية بوسائله البشرية والمادية وهناك عدد من بلدانه تحتل الصدارة فى انتاج مواد أولية حيوية ولا سيما الطاقة الضرورية للصناعات الحيوية .

وهذه هى النقاط التى ثنوى تحليلها فى اطار العناصر التالية :

- دور الموارد الباطنية فى تحويل الاقتصاد العالمى .
- مشاكل وأخطار النظام الاقتصادى العالمى الحاضر .
- شروط استغلال الموارد الباطنية والتحرر .

1) دور الموارد الباطنية فى تحويل الاقتصاد العالمى :

لم يتأكد هذا الدور ويتفوق الا منذ قرنين فقط بعدما توصل الانسان الى تسخير الموارد الباطنية للطاقة وبعد استغلالها بكميات ضخمة ، فاستعمال طاقة البخار ثم طاقة الكهرباء والنفط غير أوجه الاقطار والاقاليم تغييرا جذريا بالاضافة الى تحسين ظروف معيشة بعض الشعوب .

أ - الثـــورة الصناعية والمـوارد الباطنية :

ان تسخير طاقة البخار بعد مرحلة حاسمة فى تاريخ البشرية وخاصة فى البلاد التى توفرت فيها ظروف استعمال هذه الطاقة بكميات متزايدة أى الاقطار الـــتى تأهبت الى ادخال هذه الثورة والتى تملك أراضيها مناجم الفحم وبعض المعادن الاخرى . فالطاقة الجديدة أصبحت منذ بداية القرن التاسع عشر تنشط وتدعـــم عددا مـــن

الصناعات كالنسيج والتعدين · وكذلك المواصلات الحديدية ابتداء مـــن 1830 ، والمواصلات البحرية « البواخر » ولذا ارتفع فجأة انتاج الفحم فى العالم من 100 م ط فى سنة 1850 الى 1330 م ط فى سنة 1913 (1) أى تضاعف بـ 14 مرة فى ظرف 75 سنة وأصبح المعبر المباشر لكل اقتصاد ولكل حيوية لا سيما وأن معظم هذا الانتاج اختص بعدد قليل من دول أوروبا وأمريكا الشمالية ، فثلث الانتاج كان يرجع قبيل الحرب العالمية الاولى الى الولايات المتحدة (513 م ط) ، والربـــع لبريطانيا العظمى (60 ٪ فى سنة 1890) و 23 ٪ لالمانيا ، وأما الباقى فكان يخص باقى أوروبا وروسيا ·

ومثل هذا التفوق وهذا التوزيع يشاهدان فى انتاج مناجم الحديد ، فانتاج أربع دول بلغ 123 م ط (166 م ط للمجموع العالمى فى سنة 1914) منها 60 م ط للولايات المتحدة و 23 م ط لالمانيا ، و 21 م ط لفرنسا ، و 15 م ط لبريطانيا العظمى وبفضل هذه الكميات وما يترتب عنها احتلت هذه الدول الصدارة فى الاقتصاد العالمى ففرضت نفوذها على جهات واسعة من العالم ·

وهكذا توسعت وتنوعت الصناعة بعدما تعزز فرع الحديد والصلب الذى أصبح منذ منتصف القرن التاسع عشر المحرك للنشاطات الحيويـــة كالميكانيكيا والآلات ، وصناعة البناء ، والورق والطباعة وكل هذه الصناعات تتطلب كميات مرتفعة مـــن الموارد الباطنية وأصبحت تستعمل حتى المعادن الغير الحديدية كالنحاس والرصاص والزنك ، واستعمال هذه الموارد التى توجد غالبا بعيدة عن أماكن التحويل لا تشكل صعوبة بسبب تعزيز وسائل المواصلات وأصبحت كميات هامة تنقل بين قارة وأخرى·

ولم ينحصر هذا التطور السريع فى الصناعة فحسب بل أثر تأثيرا بالغ الاهميـــة فى الزراعة فأدخلت هذا القطاع تحولات جذرية بفضل الوسائل الحديثة المتمثلة فى استعمال الآلات الزراعية كالجرارات التى كانت السبب الرئيسى فى توسيع الاراضى فى أمريكا واستراليا وغيرها ، كما أن ادخال المزروعات فى أراض مختلفة تم فى مثل هذه الظروف وكانت النتيجة رفع الانتاج وتنوعه وتصنيعه فى آن واحد فضلا عـــن التجارة العالمية وتغطية الحاجيات فى البلدان المتطورة ·

وفى مثل هذا الجو تمت اختراعات احدثت ثورة صناعية أخرى فى أواخر القرن التاسع عشر بعد ما تمكن الانسان من استغلال طاقة الكهرباء وفرضت موارد أخرى وجودها فى الصناعة وخاصة مجال النقل ، وهى موارد النفط والغاز الطبيعى ٠

ب ـ تفوق أهمية الطاقات الجديدة :

سرعان ما أصبحت هذه الطاقات تنافس الفحم نظرا لاختصاصاتها ومميزاتها سواء فى الحياة الاقتصادية أو فى الحياة الاجتماعية نفسها ، فضلا عن دورها الرئيسى فى المواصلات الجوية وغزو الفضاء ٠

وللكهرباء وظائف معينة فى بعض المجالات فهى الطاقة المطلوبة فى عدد من فروع الصناعة خاصة تحويل بعض المعادن التى لها أهمية كبرى فى الاقتصاد ، وهى الالمنيوم والنحاس والزنك كما أن دورها فى النقل والحياة الاجتماعية لا تقل أهمية فعليها تعتمد المواصلات اللاسلكية والتلفزة والآلات المنزلية وآلات الادارات ، والمكتبات ، ولذلك قفز انتاج هذه الطاقة فجأة كما تدل عليه الاحصائيات ، فارتفع الانتاج العالمى من 4.64000 م ك و س فى سنة 1938 الى 6.248000 م ك و س فى سنة 1974 (2) وفى نفس المدة ارتفع انتاج الولايات المتحدة من 141.955 الى 1.941.000 م ك و س ، والانتاج السوفياتى من 504.000 الى 1.036.000 ، ومن المعلوم أن مصدر هذه الطاقة هو الماء والفحم وحديثا الغاز الطبيعى .

ويلاحظ تزايد مثل هذه الاهمية بالنسبة للنفط الذى تأكد تفوقه وسيطرته تقريبا على المصادر المذكورة خلال العشريات الماضية وكانت الاسبقية من حيث تطور حجم الانتاج ويتجلى ذلك فى الاحصائيات التالية : 271 م ط فى سنة 1938 ، و 772 م ط فى سنة 1955 و 2870 مط فى سنة 1974 أى تضاعف بـ 10 مرات فى ظرف 36 سنة ، ونفس الملاحظة تتعلق أيضا بالغاز الطبيعى اذ ارتفع انتاجه من 300.000 م ط فى سنة 1955 الى 1.272.000 م ط فى سنة 1974 وان كانت نسبته الى مجموع الطاقة المنتجة محدودة . (3)

وهكذا تبرز وتتأكد أهمية المحروقات ، فعلاوة على كونها مصدرا من مصادر الطاقة تعد أيضا من الموارد الاولية التى تحتاج اليها الصناعات العصرية ، وهى أنفع الموارد الاولية بالنسبة للصناعة الكميائية التى تعتمد على كثير من مشتقاتها ، فبعد عملية التكرير يستخرج من الغاز الطبيعى والنفط موارد فرعية متنوعة مثل الاثلين والبيرويلين والكحول التى تستعمل بدورها فى عدة صناعات أخرى تتمثل فى مختلف المنتوجات البلاستيكية التى تقوم اليوم مقام منتوجات مواد مختلفة كالخشب والزجاج والصلب أحيانا وخامات المنتوجات التقليدية كالصوف والحرير والقطن ، بل أصبحت منتوجات البلاستيك مطلوبة جدا نظرا الى اسعارها المعتدلة وانخفاض تكاليف نقلها من جهة وحسن استعمالها وأناقتها من جهة أخرى ، ولهذه المميزات أهمية كبرى جعلت هذه الصناعات تتوقف فجأة على عدد من الصناعات التقليدية خاصة منتوجات القرن الماضى وفرع كمياء الفحم ونلاحظ يوميا ادراج منتوجات الصناعات الحديثة فى الحياة اليومية سواء بالنسبة للاستعمال المنزلى أو الصناعى وهذا يدل طبعا على مدى أهمية هذا الفرع الصناعى الذى صار من جديد محركا لتنمية الزراعة اذ أنه يزودها بكل ما تحتاج اليه من أسمدة ومواد كيميائية ، فضلا عن تأثيره العميق فى الملاحة البحرية اذ أن اسطول ناقلات النفط تلعب الآن دورا رئيسيا بين البلدان المنتجة والبلدان المستهلكة كما أن أسطول ناقلات الغاز ظهر حديثا وسيتعزز بسرعة من دون شك .

وهكذا تتجلى لنا بوضوح دور الموارد الباطنية فى التصنيع وباقى المجالات الاقتصادية من زراعة الى نقل ومن مواصلات الى اختراع تقنيات فى مختلف الميادين ، فاستغلال هذه الموارد أدخل تغييرات جذرية فى العالم ولكن هل كانت فى صالح الجميع أم فى صالح أقليات أو بلدان معينة ؟ وفى مثل هذه الحالة ما هى المشاكل والاخطار ؟

2 ـ مشاكل وأخطار النظام الاقتصادى العالمى :

ان التحولات الاقتصادية الجذرية التى شهدها العالم خاصة خلال السنوات العشريات الماضية تعمل وتفرز مصالح أقليات محدودة فى العالم وبعض الشعوب

على وجه العموم بينما نتائجها وتأثيراتها المختلفة تخلق عدة مشاكل وأخطار بالنسبة لباقي البشرية ·

أ - تقسيم العالم وتناقضاته :

اذا كانت الموارد المختلفة لا تتمركز في أقاليم وأقطار محصورة بل تتوزع عبر العالم مع تكامل بين البلدان غالبا ، واذا كانت بعض مصادر الطاقة وخاصة تلك التي تلعب دورا حيويا في الصناعات الحديثة توجد في الدول التي لا تستغلها بصفة مباشرة ، فان الاستغلال والاستهلاك لا يخصان الا ربع البشرية فقط بينما امكانيات وطاقات باقي العالم هامة ومرتفعة جدا وكثيرا ما تأتي بعض الدول في المرتبة الاولى في بعض منتوجات الموارد الاولية كما يتجلى ذلك في الاحصائيات ومثل هذه الوضعية تبرز في الملاحظات التالية المعبرة كلها في تقسيم العالم ، ذلك التقسيم البالغ الخطورة اذ ان الدخل الفردي السنوي لربع البشرية يزيد عن 2000 دولار ويرتفع أحيانا الى 4000 دولار بينما ينخفض المعدل بالنسبة لاغلبية بلدان العالم المحروم الى حوالي 100 دولار فقط ، وأما الفوارق بين القارات والمناطق فهي جد كبيرة ، فنسبة أمريكا الشمالية ترتفع الى 43٪ بينما نسبة سكانها لا تبلغ الا 7٪ (4) وأما أمريكا اللاتينية التي تمثل نسبة سكانها نفس نسمة شمال القارة فانها لا تنال الا 3 ، 4 ٪ من الدخل العالمي واذا كانت نسبة سكان القارة الآسيوية تبلغ 54 ٪ فان دخلها منخفض جدا ولا يبلغ الا 12 ٪ فقط ··· ويلاحظ أن هذه الفوارق في زيادة متواصلة خلال السنوات القادمة ·

وأما ما يتعلق باستهلاك أهم المنتوجات الصناعية وخاصة الطاقة نلاحظ أيضا فوارق جسيمة بين العالم المصنع والعالم غير المصنع بينما هناك علاقات وثيقة بينهما لان تصنيع الاول في حاجة أكيدة الى موارد الثاني والى اليد العاملة التابعة له فاستهلاك الطاقة يبلغ حوالي 10 ط بالنسبة لكل فرد في العالم الغربي بينما ينخفض المعدل الى حوالي العشر في العالم الثالث ، واذا اعتبر مقياس آخر أكثر تعبيرا عن مستوى التصنيع وهو الفولاذ تكون الفوارق جسيمة أيضا اذ يقدر المعدل عندنا بأقل من 300 غراما بينما يتراوح بين 437 ، 721 في أوروبا الغربية ·

ومثل هذه الفوارق توجد أيضا فى المجالات الاخرى وخاصة فى استهلاك المنتوجات الزراعية والانتاج الثقافى ، ولذلك فان الوضعية الصحية والعلمية والثقافية تعانى مشاكل خطيرة فى العالم الثالث فهل يرجع ذلك الى فقر موارده وطاقاته ؟

ب - دور العالم الثالث فى التنمية العالمية وطاقاته :

اذا كان نصيب العالم الثالث ضئيلا فى الاستهلاك والانتاج الصناعى والعلمى والتقنى فان دوره هام فى بعض منتوجات الموارد وخاصة المحروقات وان كانت هذه الموارد تتمركز احيانا فى عدد قليل من بلدانه .

فسرعان ما أصبحت مساهمة العالم الثالث تتزايد بانتظام فى انتاج الموارد الاولية سواء كانت مصادر طاقة أو غير طاقة وقد تأكدت هذه المساهمة خاصة بعد الحرب العالمية الثانية وتتجلى الآن فى منتوجات المواد التالية : البكسيت ، والانتموان ، والكرم ، والكوبالت ، والايتان ، والمنغنيز ، والنحاس ، وزيادة على هذا التفوق أصبحت لبعض الدول اختصاصات فى انتاج مادة معينة كما هو الشأن للزايير بالنسبة للكوبالت ، وبولفيا بالنسبة للايتان ، بل هناك أيضا دول لا يستغنى عنها اذ أن منتوجاتها فى هذا المجال مرتبطة كل الارتباط بمركبات ومعامل الشركات المتعددة الجنسية ويتجلى مثل ذلك فى قارة أمريكا اللاتينية الى بعض خاماتها من النحاس والايتان والحديد التى تصنع فى شمال القارة ، والامر كذلك بالنسبة لمنتوجات الزايير أو زمبيا وغيرها من دول القارة الافريقية ، ونفس الملاحظة تتعلق بباقى دول العالم الثالث على وجه العموم باستثناء الصين .

وأما ما يتعلق بمصدر الطاقة ، خاصة النفط فى الوقت الحاضر ، والغاز الطبيعى فى المستقبل ، فان الفصل بين الانتاج من جهة والتصنيع والاستهلاك من جهة أخرى يكاد يكون تاما ، فاصبحت الآن دول الشرق الاوسط تحتل المرتبة الاولى فى انتاج النفط بعد ما كانت نسبتها فى الانتاج العالمى محدودة عقب انتهاء الحرب العالمية الاولى سنة 1946 كانت لا تمثل الا 3 و 7،4 فقط ، أى 16 م ط . ثم ارتفعت فى سنة 1955 الى 22 ٪ (70 م ط) وبلغت 17 و 33 ٪ فى سنة 1974 بينما الانتاج العالمى يقترب من

مليون ط (5) وتدل آخر الاحصائيات على وجود تحسن ملحوظ فى صف الشرق الاوسط اذ أن العربية السعودية أصبحت تحتل المرتبة الاولى بدل الولايات المتحدة ، وفى استطاعة المنتج الا يزيد فى الانتاج نظرا لقوة احتياطاته ، كما أن الشرق الاوسط يحتل أيضا المرتبة الاولى فيما يتعلق باحتياطات النفط والغاز الطبيعى معا وهذا ما يبين أهميته فى المستقبل القريب ، اذا أن مثل هذه المواد تعد مواد استراتيجية للغاية خاصة وأن مشتقاتها بما فيها المحروقات كالبنزين والمازوت ··· ومواد البلاستيك والاسمدة والنسيج وتلعب دورا رئيسية فى الاقتصاد العالمى لا سيما وأن هذه الصناعات المتعلقة بمعالجة النفط والغاز الطبيعى تتمركز على وجه العموم فى الغرب واليابان ·

وهكذا تتجلى لنا أهمية بلدان العالم الثالث فى تنمية الغرب فصناعة هذا الاخير لا تستطيع أن تستغنى عن المواد الاولية المنتجة بعيدا عن مراكز الصناعة حسب ما كشف من ذلك ما سمى بأزمة النفط فى 1973 ـ 1974 حيث أصاب تخفيض انتاج النفط تسيير الاقتصاد الغربى وزيادة على ذلك يتجلى دور العالم الثالث أيضا فى ميدان آخر وهو الاستثمارات اذ أن الغرب يستقبل سنويا مبالغ هامة من رؤوس الاموال التابعة لبعض دول الشرق الاوسط تبلغ حوالى 40 مليار دولار فى سنة 1975 ونفس المبلغ يعادل نصف احتياط العملة الصعبة والذهب فى الغرب كله · (6)

وهكذا تتأكد لنا بصفة فظيعة أهمية دور الموارد الباطنية فى الاقتصاد العالمى وبالتالى فى التنمية العامة ومثل وجود هذه الموارد فى بلد ما من العوامل للتغييرات الجذرية فى شتى الاماكن ولكن هذا العامل وحده غير كاف كما تبينه الاوضاع الراهنة المتمثلة فى استغلال ثروات العالم الثالث وتبعيته ، ولذلك يتوجب علينا أن نعالج شروط استغلال الموارد مباشرة ليتسنى لها ان تكون فى خدمة مصالح المنتجين أى أغلبية البشر ·

3 ـ شروط استغلال الموارد الباطنية والتحرر :

بما أن وجود الموارد الباطنية له أهمية كبرى فى الاقتصاد الحديث وتعد احدى عوامل التنمية علينا أن نحلل العوامل الاخرى وذلك باستخلاص تجربة العالم المتقدم

وان كانت ظروف نهضته غير الظروف التي يعيش فيها الآن العالم المتخلف · علينا أن نمعن النظر جيدا فى هذه الظروف نفسها وفيما تمثله من عقبات فى طريق التنمية·

ان هذه العقبات كلها تقريبا سواء كانت على المستوى الوطنى أو المستوى الدولى انما هى نتيجة النظام الاقتصادى العالمى الذى عزز ولا زال يعزز العلاقات الموجودة بين العالمين ، والتى تخدم العالم المتقدم على حساب العالم المتخلف كما يتجلى ذلك من الملاحظات التالية : فرغم ارتفاع أسعار المواد الاولية حديثا الا أنها لا تتناسب مع الواقع الاقتصادى العالمى بل هناك فوارق كبيرة بين تطور أسعار المواد الخام وتطور المنتوجات الصناعية وبصفة عامة كل القوة الشرائية لبلدان العالم الثالث خاصة وانه أصبح مضطرا الى استيراد أشياء كثيرة كما أنه أصبح أيضا يقدم الى أوروبا الغربية أفواجا كبيرة من الايدى العاملة التى لا تكلف الشركات المتعددة الجنسية أية مبالغ لتحضير هذه القوة منذ نشأتها بل يتم ذلك فى البلدان المصدرة لليد العاملة ·

هذا ومن جهة أخرى تلاحظ علاقات أخرى تخدم أيضا مصالح العالم المتقدم فنظرا الى تفوق هذا الاخير فان النقل والمواصلات والاعلان وغير ذلك تسيطر عليها الدول المتقدمة بواسطة الشركات الوطنية والمتعددة الجنسية ، بل أصبحت هذه السيطرة تغطى حتى النظام السياسى فى عدد كبير من الدول المتخلفة ولذلك تتلاشى السيادة الوطنية تدريجيا ى هذه البلدان

فمثل هذه الوضعية السياسية خطيرة جدا لانها تزيد فى اضطهاد الشعوب بالاضافة الى تعزيز التبعية ، وليتحتم وجود سلطة قوية تعمل والمصالح العامة الشعبية فالتحرر السياسى يكون اذا شرطا أساسيا ويتوقف عليه حتميا الشروط الاخرى على المستوى الوطنى ، فاذا كان حقيقة يعمل ويخدم مصالح الجماهير لا مصالح الاقليات فانه من الممكن أن يتغلب على العقبات ويستطيع أن يمهد الطريق لادخال تغيرات جذرية وهى المرحلة الحاسمة لكل انطلاقة بناءة ففى هذه الحالة من الممكن أن تغير البنيات الاقتصادية والاجتماعية الموروثة فتجند القوات الحية لوضع أسس متينة لكل بناء طويل الامد يتماشى وترقية الكادحين فى اطار مخطط محكم يراعى ويضمن متطلبات التنمية

الشاملة ومهما كانت المجهودات المبذولة على الصعيد الوطنى فان العقبات تبقى كما هى على المستوى الدولى نظرا الى الاوضاع الراهنة التى أشرنا اليها سابقا وهنا لابد من تعاون مثمر متواصل بين الدول المعنية بالامر أى الدول المتخلفة ، فعليهـــا أن تتضامن وأن تنسق سياستها ولو فى برامج محدودة بعد دراسة عميقة للوضـــع الاقتصادى الحاضر وعليها دائما أن تعمل جنبا الى جنب كما هو الشأن فى الغرب ٠

وبالفعل فان لكل تنسيق ولكل تضامن من نتيجة كما يتجلى ذلك مثلا فى وحـــدة الصف لمنظمة دول منتجي النفط ٠ فان النتائج التى حصلت عليها خلال هذه السنوات الماضية هامة جدا وقد أرغمت الغرب على عقد الحوار بين الجنوب والشمال وقبول مناقشة المشاكل المختلفة المتعلقة الآن بين العالمين وأن لا يقتصر النقاش على أسعـــار المواد الاولية فقط ٠

ولكن الطريق لا زال طويلا وشاقا كما تبينه الاحداث الاخيرة ومن الواجب مواصلة المجهودات وتنسيق أكثر مما مضى فى الميادين المختلفة بين شعوب دول العالم الثالث كما أن كل هذه المجهودات يجب أن ترمى دائما الى تحرر اقتصادى متين هدفه تنمية شاملة وليس نهضة قطاع معين فقط كما هو الامر غالبا الآن فى العالم الثالث ، فكل التحليلات تلح على هذه النقطة الرئيسية ، فالتنمية لا تتوقف على زيادة انتاج مـــادة أو مادتين ولو كانتا استراتيجيتين كالنفط والغاز الطبيعى وانما ذلك احدى عوامل التبعية ، كما أن التنمية لا تتوقف أيضا على تنمية قطاع معين ولو كانت فروع صناعتها حيوية لان المواد الزراعية أصبحت هى الاخرى تلعب دورا هاما وأصبحت ســـلاح الغـــرب ٠

ان التنمية الشاملة غير ذلك فهى انفـــراج حاسم يتحقـــق شيئا فشيئا حينما تستوفى الشروط المشار اليها وحينما تحدث تغيرات هامة على المستوى الاقتصادى والاجتماعى ، فعلى المستوى الاقتصادى قد يعود الدور الرئيسى الى الزراعة أو الصناعة أو كليهما معا ، ومهما كانت الظروف فالصناعة دور حيوى اذ انها القطاع الذى فى استطاعته أن ينشط القطاعات الاخرى ولا سيما الزراعـــة الـــتى يزودها بالآلات الميكانيكية والكهربائية ، وكذلك الاسمدة والمواد الكمياويـــة فتتنـــدرج حينئذ فى

الاقتصاد الوطنى وتنشطه ، ومثل هذه الظروف هامة ولها علاقة وثيقة بالتنمية العلمية وهكذا يقضى تدريجيا وبصفة لا رجعة فيها على البطالة والتخلف .

ولكن هذا الدور لا يتم الا فى شروط معينة كاقامة سلسلة من فروع الصناعـــة التى لها تأثير بالغ فى التصنيع الشامل أى بناء فروع حيوية مستقلة عن الخارج ولها ارتباطات متينة مع باقى المجالات الاقتصادية الوطنية وهذا الدور يرجع الى ما يسمى بالصناعات المصنعة (7) وهنا تتجلى لنا الفوارق بين هذه الفروع والفـــروع التى أصبحت تشيد حديثا هنا وهناك من طرف الشركات العالمية فهى كثيرا ما تتمثل فى فى فروع معينة غايتها التخلص من التلوث فى مواطن الشركات العالمية ، أو استغلال موارد والايدى العاملة في آن واحد فى البلدان المتخلفة ، وهذا التصنيع الحقيقى متقيد دائما بالاستقلال الوطنى .

وأما ما يتعلق بالتنمية الاقتصادية وتأثيرها فى التخلص من المخلفات الاجتماعية فيظهر ذلك فى تزايد أفواج المستخدمين من جميع الاختصاصات ومن عدة مستويات وتكون العامل الفعال فى توسع ديمقراطية التعليم وفى تدعيم البحث العلمى والتقنى والتنشيط الثقافى ، وكل هذا لا يتحقق تدريجيا وبصفة حاسمة الا فى ايطار تنمية شاملة مدعمة من سلطة وطنية فى استطاعتها أن تسخر كل الوسائل البشرية والمادية لخدمة مصالح الجماهير والطبقات الكادحة .

وهكذا تتجلى لنا فى النهاية شروط استغلال الموارد الباطنية ودورها الرئيسى فى كل تنمية شاملة تتماشى والسيادة الوطنية من جهة ، وترقية الجماهير من جهة أخرى .

الخـلاصــــة :

ان الموارد الباطنية أصبحت تلعب دورا هاما وحاسما فى النهضة الحديثة وذلك بعد ما استطاع الانسان ان يستغل الطاقة الطبيعية بكميات هامة ، فتغيرت بسرعـة أوجه بعض البلدان بفضل التغلب على الطبيعة والعقبات ، وفتحت آفاقا جديدة تتجاوز الآن الحدود الارضية الضيقة .

ولكنه سرعان ما نتج عن هذه التحولات الجذرية مشاكل وأخطار تتمثل فى الفوارق الجسية الموجودة بين العالم المتقدم والعالم المتخلف خاصة وان تنمية وتفوق الاول كثيرا ما تواصلتا على حساب الثانى اذ أن الموارد المختلفة لم تتمركز فى احداهما بل تتوزع عبر العالم كله كما أن هناك عدة علاقات بين العالمين الا أن وضعها تحكمت فيه وأشرفت عليه مباشرة الدول الصناعية ٠

ولهذا لابد من جعل حد لمثل هذه العلاقات والمبادلات وما ينتج عنها أى لابد من تغيير الاوضاع السياسية والاقتصادية التى تتخبط فيها الآن معظم دول العالم الثالث وذلك ليتسنى لها أن تستغل ثرواتها مباشرة وتشرف على شؤونها حسبما تمليه مصالح جماهيرها وذلك لتوفير كل الشروط لتحقيق تنمية شاملة ، أليس تلك متطلبات كل الشعوب ؟ وهل التنمية ليست السبيل المستقيم للتعاون المثمر ولتقارب الشعوب ؟

الهوامش :

(1) J.A.L. Sourd et C. Gérard : Histoire économique, XIXᵉ et XXᵉ siècle, Paris 1963, collection U, A. Coio.

(2) J. Beau Jeu Garnier : Image économiques du Monde 1975, Paris 1975, p. 53

(3) J. Beau Jeu Garnier : Image économiques du Monde 1975, Paris 1975, p. 57-9

(4) Finances et Développement Waingt thon 1972, B.I.R.D.

(5) Beau Jeu Garnier op. cit.

(6) Le jeu de l'oie du pétrole, le Monde du 18-11-76.

(7) Destonnes de Beroie : Les industries industrialisantes et les options algérinenes. Revue du Tiers Monde, Paris, juillet, septembre 1971, n° 47, pp. 545-564.



الملتقون في مكان توزيع المياه في ضواحي غارداية ٠

البترول العربي
نعمة أم نقمة على العرب ؟

د. محمد علي صبري
مدير مركز البحوث والانباء الاسلامية
(شيزى) في روما (ايطاليا)
مدير المناجم والبترول سابقا في سوريا



الاخ وزير التعليم الأصلي ، اخواني وأخواتي .

كان بودي ان احدثكم بشكل مفصل عما تحتوي عليه بطون الارض من الثروات الطبيعية في العالم الاسلامي وبشكل خاص من النفط سيما ونحن في ضيافة دولة عربية منتجة للنفط وفي ولاية النفط بالذات ، لكن وقت الفراغ الموجود تحت تصرفنا في ورقلة كما ترون قصير جدا فاكتفيت بالملامح الآتية التي سجلتها هنا لاعطائكم فكرة واقعية عن النفط ومشاكله لنتخلص منها فيما اذا كان البترول العربي نعمة أم نقمة على العرب .

ثروات الارض الباطنية هي بشكل عام نعمة اذا أحسن استخدامها وتصنيعها وتم التحكم في استثمارها بمعنى ان المنجم مكمن محدود الاطراف له طرق فنية لاستخراج

فلراته بكميات يجب ان تتناسب مع اتساع حجمه والامكنة التى يستخرج منها وبظروف اقتصادية ملائمة تتماشى مع أعمال التسويق والجهات المستهلكة ... فاذا اختلت هذه الشروط أو اختل بعضها ضاعت الفائدة الكاملة من المنجم وتناقصت هذه الفائـــدة بنسبة هذا الاختلال ...

فى بطون الارض مناجم كثيرة ولكن المنجم لا يعد تجـــاريا الا اذا كانت عناصره الايجابية تفوق العناصر السلبية التى تصرف فى سبيل استثماره اما محليا أو خارج منطقة الاستثمار .

لنتحدث بعد هذا الايجاز عن النفط وعن الجوانب البترولية التى عشناها ونعيش بهـــا .

النفط فى الشرق الاوسط كان من أهداف الحرب العالمية الاولى ، فاينما كنت تجد النفط كنت تجد معه الاحتلال الاستعمارى الغربى ... وكان العرب خداما لثرواتهم البترولية ومع الاسف ظهر البترول عندنا ونحن فى هوة سحيقة من الجمال . كـــان النفط يتنقل من أراضينا بالانابيب ومحملا على البواخر الى أوروبا وأمريكا واليابان أمام اعيننا وباسعار رمزية مذهلة عمرت أوروبا من بترول العرب وزدهرت صناعتها ودخلت فى عصر التكنولوجيا وعمت خيرات البترول العربى على كل فرد غربى وارتفع مستوى الحيـــاة ...

ولم يصبنا نحن العرب من هذه الثروة الا رخاء ملوكنا وأمرائنا بوبال الاثم علينا فاكتفينا بالقشور الذهبية التى كان يتفضل بها المستعمرون علينا ولم تكن بأكثر من اثنى عشر بالمائة من الفوائد التى كانوا هم أنفسهم يسجلونها ويراقبونها ويجددونها .. اما حقوق نقل النفط بالانابيب عبر البلاد البترولية فكانت مجانية تقريبا وحكوماتها العربية المحكومة بالانتداب ملزمة بالمحافظة عليها من التعديات .. وزيادة فى الحرص على الاستغلال وخوفا من ضيـــاع هذه الثروة الفخمة خلال عشرات السنين مهـــد المستعمرون لاقامة قاعدة لهـــم فى الشرق الاوسط فأقاموا بالتدرج دولـــة اسرائيل لينطلقوا منها فى كل مرة يشعرون بالخطر على مصالحهم .

المتتبع لتواريخ تحريات النفط ونتائجها الايجابية يلاحظ ان بهذه التواريخ بالذات ابتدأت عمليات هجرة اليهود الى فلسطين وعندما اكتشف النفط بكميات اقتصادية كبيرة ابتدأت عندنا ما يسمونها ـ بازمة الشرق الاوسط ٠

كانت من نتائج الحرب العالمية الثانية دخول دولتين عملاقتين الى المنطقة هما الولايات المتحدة الامريكية وروسيا وتفننا فى ابتزاز أموال النفط ، الاولى تأخذه عينا وتعطينا الدولارات عن طريق الترانزيت لنسلمها بدورنا مرغمين الى الثانية ونأخذ بدلا عنها أسلحة دفاعية لنتقى بها شرور اسرائيل العسكرية ونستعملها أيضا لتنفيذ المخططات الاستعمارية المتمثلة فى الانقلابات واقامة الاحزاب السياسية التى تكونت بجميع ألوان التيارات المعروفة بالعالم ٠٠ من أقصى اليمين الى أقصى الشمال وكان هذا التخطيط لابد منه لمنح المستعمرين الامتيازات البترولية التى كانت تبرم بحراسهم تشريعية من قبل الحكام المستعمرين والامراء وليس من مجالس الشعب ٠

الدولة الاولى التى تصدت لهذه التصرفات الجائرة هى سورية ، ألغت امتياز النفط الذى منحه الفرنسيون باسمنا الى انكلترا واعتبرت اتفاقية الانابيب التى تمر بالترانزيت من الطرق الى سورية فى أوائل الخمسينات غير لائقة ومجحفة ٠٠ وكنت آنئذ مديرا للمناجم والبترول فى دمشق ٠

ظل الامتزاز من المستعمر والحكام والامراء فى الظروف التى تعرفونها الى حرب رمضان 1973 حيث تضامن العرب بعد نكستهم واستطاعوا انطلاقا من الحركات التحررية الى تحطيم بعض السلاسل الاحتكارية البترولية فتصرفوا تحت ظل القوة العسكرية التى نضجت بمرور الزمن الى تحديد شرائط بترولية أفضل وسعر جديد للنفط ارتفعت بموجبه العوائد الى نيف وثلاثة اضعاف وتوصلوا بعد الجهد الجهيد والتأنى العميق الى مناصفة الارباح مع المستثمر ثم الى التأميم ٠٠ والراجح ان للعملاق الامريكى يدا فى هذا الموضوع استعملها ليصقع بها بعض الدول الاوروبية التى تطاولت بطلب التحرر من الضغط الامريكى عليها ٠٠ فكسرت الجرة على رأس الدول الصناعية فى أوروبا وتحسنت بعدها أوضاع أمريكا واستقام ميزانها التجارى

واستقرت عملتها من الاموال الطائلة التى أتتها من الشركات الامريكية صاحبة امتياز النفـط العـــربى ٠

اما القاعدة الاسرائيلية فقد انتقلت ملكيتها من المستعمرين الاوروبيين القدماء الى العملاقين الجدد فامريكا تمنـــح اسرائيل الاسلحة الفتاكة وروسيا تمونها بالعلجاء والضباط والجنود لتجعلان منطقة النفط جميعا مع أصحاب البترول ٠ اما النفط فيسيل بصورة منتظمة وبعيد عن الضجيج فى الانابيب كشريانات الدم فى جم البلاد العربية لتمتصه ناقلات النفط العملاقة وتوصله الى جميع انحاء الدنيا لينعم به الجميع ٠٠٠ ونحن نقاسى مد سلبياته ٠

بينما نحن نتحكم هنا الآن تجرى معركة قوية بين البلاد العربية المنتجة للبترول بدسائس المستعمرين سماها المراقبون (بحرب الاسعار) لان بعض العرب زعمـــوا ان سعر البترول عال ولا حاجة لرفع سعره ٠٠ بينما هو فى الواقع رخيص ٠٠ ان القوة الشرائية لسعر البرميل من النفط رغم ارتفاع هى كما كانت بالسابق تماما لان سعر المواد الاستهلاكية ارتفع أكثر من ثلاث مرات عما كان عليه فى الخمسينات بنتيجة التضخم المالى الحالى ٠٠٠ وسعر البترول المنطقى بالنسبة الى ما يماثله من الطاقات يجب ان يتراوح بين ت د ص دولار للبرميل وعندى دراسة مفصلة فنية خاصة بذلك فى رومـــــا ٠

لا أريد ان اتعمق أكثر من ذلك بهذا الموضوع وانما أشرت اليه لاوضح حادثـــا غريبا وهو ان الدولة الصناعية فى أوروبا وأمريكا واليابان تستطيع ان تضاعف اسعار منتوجاتها مرة ومرتين وأكثر بدون ان يرتفع صوت الانسان ٠٠ اما نحن اذا تدخلنا بأسعار بترولنا فتقوم الدنيا وتقعد ٠٠٠ دول العالم تصنع على بترول العرب فى بلاده ضرائب خيالية 200٪ 400٪ 500٪ ٠٠٠ وترفع سعره بشكل عجيب وتمـلأ خزائنها من هذه الضرائب وتنفذ مشاريعها العمرانية على حسابنا ٠٠٠ وتدعى باننا نحن الذين نرفع سعر النفط ونمتص أموال العالم ٠

ألقى الدكتور برهان الدجانى أمين الاتحاد العام للغرف التجارية للبلاد العربية محاضرة فى روما منذ أسبوعين عنوانها (دور الدول العربية فى الاقتصاد الدولى) يستمع اليها عدد كبير من رجال الاقتصاد والمال والسياسة استعرض فيها الحالة الخيالية التى يتصورها الناس عن العالم العربى وقال ان العرب عندما يتكلم عن الاقتصاد الدولى يتخيل ان العالم العربى غارق فى الثروة والاحلام ويوجه اليه التهم الباطلة على تأثيرات السلبية التى يسببها من جراء احتكاره للثروات المالية والقطع النادر وضغط عن تحديد الاسعار وتوظيف الاموال وتملكه الصناعى والعقارى فى البلاد المستوردة للنفط ولكونه عاملا مؤثرا على الحالة الاقتصادية المنهارة التى يتخبط فيها العالم اليوم ـ وأكد الاستاذ برهان فى محاضرته ان الحالة ، من وجهة النظر العربية تختلف تمام الاختلاف عما يتصوره الغربيون عن البلاد العربية ٠ ان الدول العربية المنتجة للنفط هى التى ترضخ دائما بدون قيد وشرط الى مطالب المجموعة الدولية بوجه عام ومجموعة الدول الصناعية فى الغرب واليابان بشكل خاص لتؤمن لهم احتياجاتهم من النفط الخام ٠٠٠ وبهذا الشكل تحرم البلاد العربية المنتجة لخامات النفط من امكانية تطبيق برامجها العمرانية وتنفيذ سياستها التقنية للمحافظة على مخزونها النفطى الذى قد ينضب فى يوم من الايام ٠٠ وعالج الدكتور الدجانى النواحى السلبية التى أصابت البلاد العربية من ثورة النفط ووضع بجانبها وبجانب التضخم المالى والاحتكارات وتبذير الاموال انحطاط القيم الاخلاقية والصفات البشرية فى حياة الانسان ولكن الشىء الذى أراد الاشارة اليه فى هذه الناحية ان عوائد البترول الناتجة عن ضغط مضاعفة الطلبيات هى بالنسبة الى مطالب الدول العربية المنتجة نقمة وليس نعمة ٠

انبى لا أفكر هنا ان اتساع نطاق التصرف بأموال النفط قد اعطانا من ناحية مردودا ايجابيا يساعد على تحقيق مشاريع كبيرة كما هو الحال فى الجزائر وليبيا ولا سيما فى مجال الخدمات الاجتماعية والعمران وفى مجال الاقتصاد الانتاجى وكذلك أيضا ساهم فى تحسين مستوى حياة الانسان فى البلاد العربية ٠

اذن هنا أطرح السؤال : هل البترول العربى نقمة أم نعمة على العرب ؟

ولكى يكون النفط العربى نعمة لابد بنظرى من ان تتحقق عـدة عوامل من بينها :

1 ـ ان الحدود الجيولوجية للثروات الباطنية التى انعم الله بها على سكان الارض لا تتوافق عادة مع الحـدود الوضعية السياسية السطحية ٠ فالدول العربية النامية التى أصابتها سلبيات البترول وهى لا تملك من البترول شيئا يجب ان تستفيد من هذه الثروة وان يكون لها حق فيه ٠

2 ـ يجب ان تستهلك كمية كبيرة من البترول داخل البـــلاد العربية والاسلامية وتستثمر فى تصنيع المـــواد البتروكيميائية التى نحن بحاجة ماسة لها كالاسمدة والخيوط بمختلف أشكالها وألوانها والبلاستيك والقـوة الكهربائية لاستخدامها فى الصناعات وعدد كبير جدا من المنتجات الهيدروكاربونية التى نحن بحاجة اليها كـل يوم ونستوردها باسعار النفط (ان الاستهلاك المحلى للنفط فى الدول العربية المنتجة للبترول فى الوقت الحاضر يتراوح بين 2 ـ 10 ٪ تقريبا والباقى يصدر) ٠

3 ـ يجب ان تكون الكميات المستخرجة من النفط تتناسب مع الكميات المستهلكة ومع الاحتياجات المحلية اللازمة للتخطيط وتنفيذ المشاريع على مراحلها الزمنية لان التفريط بلا استثمار من الناحية الفنية ليس من صالح المناجم ويؤدى الى تدفق أموال زائدة تذهب تبذيرا وفى غير محلها ٠٠ (أنا أذكر على سبيل المثال ان وزيرا فى دولة عربية مسلمة خسر منذ فترة ليست بعيدة فى ليلة واحدة صحراء فى احدى النوادى بين ايطاليا وفرنسا أكثر من مليون دولار ولم ينل ٠٠ واستقطب هذا الحادث أخبـار معظم الصحف الايطالية والافريقية وعندنا فى ايطاليا امثلة أخرى عن هذا التبذير ٠٠ عدد ولا حرج ٠٠) ٠

4 ـ يجب ان تتدارس مجموعة الـدول الاسلامية المنتجة للنفط قضية تخفيض الانتاج بالتضامن وحصره باحتياجاتها النفطية والمالية فيصبح المرض أقل من الطلب فيرتفع سعر البترول تلقائيا ويصل الى مجراه الطبيعى ٠٠ وليس هناك خوف عـلى النفط من مزاحمة الغير فوجوده فى مكامنه افضل بكثير من الدولارات الموضوعة فى

البنوك وربما تعلمون ان المانيا ، هذه الدولة العاقلة ، حاولت مؤخرا شراء كميات كبيرة من النفط لحقنها فى مكان النفط الصالحة لديها لاستعماله وتموين جاراتها به عنـــد الاقتضاء .. وحاجة العالم الى النفط ستدوم عشرات وعشرات السنين حتى يتمكن من ايجاد بديل عنه .

5 ـ يجب على المؤسسات العربية النقدية التى خصصت لتوظيف أموال النفط ان لا تنتصر على المشاريع ذات المردود المالى والمكاسب الكبيرة .. فهناك مشاريع اجتماعية خاسرة من حيث المردود ولكنها رابحة من حيث تشغيل الايادى العاملة ورفع مستوى الحياة فى الشرق الاوسط وفى افريقيا . فالمال المودوع فى المصارف ، بغض النظر عن هويتها يتأكله التضخم المالى الذى توجهه الدول الاستعمارية والصهيونية بشكل خاص.

6 ـ هناك عوامل فنية أخرى لم أتعرض اليها ، كتكوين جهاز عربى فى أعمـــال الاستثمار ووسائط نقل عربية وجهاز عربى دولى لتوزيع المحروقات وما اليها فاكتفيت بهذه الملامح التى ترافق حياتنا اليومية .

فاذا كان أصحاب البترول ، وهـم الدول الاسلامية المنتجـة للنفط ، صـادقين ومسلمين ، وهم فى هويتهم مسلمون ، ومؤمنين حقا فى دينهم وفى عـدل دينهم وفى اخلاق دينهم ومنصفين يجب ان تعم ثروة بترولهم على الجميع وعلى أقل تقدير فى حدود العوامل الايجابية الانفة الذكر وفى غيرها مما لم أتمكن من شرحه لضيق الوقت وهى معروفة لدى الاختصاصيين فى قضايا النفط وقضايا المجتمع ...

عندها يمكن أن نقول ان البترول العربى نعمة وليس نقمة على العرب .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .



الملتقون فى داخل مصنع الحديد والصلب فى غارداية ٠

التوصيـــات

بسم الله الرحمن الرحيم

اللجنـــة الاولى

موضوعها : مساهمة الرستميين فى حضارة الاسلام وفكره ٠

أعضـــاؤها :

- **الدكتور احسان عباس** (فلسطين) ، أستاذ بالجامعة الامريكية ـ لبنـــان
وأستاذ زائر بجامعة برنستون ، الولايات المتحدة الامريكية ٠

رئيســـا

- **الدكتورة وداد القاضى** : أستاذة فى الجامعة الامريكية ـ بيروت ـ (لبنان)
وأستاذة زائرة بجامعة هارفارد ، الولايات المتحدة الامريكية ٠

مقــررة

- **الشيخ سليمان داود بن يوسف** : مؤرخ ـ الجزائر ٠

عضـــوا

- **السيد المهدى البوعبدلى** : مؤرخ ومكلف بمهمة بوزارة التعليم الاصـــلى
والشؤون الدينية وعضو المركز الوطنى للدراسات التاريخية ـ الجزائر ٠

عضـــوا

ـ **الدكتور محمد اركون** (الجزائر) : أستاذ الفلسفة الاسلامية بجامعة السوربون الجديدة باريس (فرنسا) .

عضوا

ـ **الدكتور سلفادور غوميث نوغاليس** : رئيس قسم الفلسفة الاسلامية بالمعهد الاسبانى العربى للثقافة ـ مدريد ـ (اسبانيا) .

عضوا

ـ **الدكتورة ماريا خيسوس فيغيرة** : أستاذة بقسم الدراسات العربية الاسلامية جامعة مدريد ـ (اسبانيا) .

عضوا

ـ **الدكتور ابراهيم فخار** : أستاذ التاريخ بمعهد العلوم الاجتماعية جامعة وهران (الجزائر) .

عضوا

ـ **الدكتور عمرو خليفة النامى** : أستاذ فى كلية التربية ، جامعة الفاتح ـ طرابلس (ليبيا) أستاذ زائر بجامعة ميشيغان (الولايات المتحدة الامريكية).

عضوا

ـ **الدكتور عبد الحليم عويس** : أستاذ بكلية الشريعة ، جامعة الامام محمد ابن سعود الاسلامية ـ الرياض ـ (المملكة العربية السعودية) .

عضوا

ـ **الاستاذ فرحات الجعبيرى** : أستاذ بثانوية الزهراء ـ تونس ـ (الجمهورية التونسية) .

عضوا

ـ **الاستاذ اسماعيل العربى** : مؤرخ ومستشار لدى الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ـ الجزائر .

عضوا

ـ **السيد محمد الشريف طوالبى** : أستــاذ بثانوية المقرانى ـ ابن عكنون ـ الجـــزائر •

عضـــوا

ـ **السيد اونيس قرقاح** : طالب بمعهد الحقوق ، جامعة عنابة (الجزائر) •

عضـــوا

ـ **الآنسة فاطمة بن نوح** : مدرسة بمدرسة حسين داى (الجزائر) •

عضـــوة

فى اطار الملتقى الحادى عشر للفكر الاسلامى ، المنعقد تحت اشراف وزارة التعليم الاصـــلى واشؤون الدينية بورجـــلان (ورقلة ـ سدراتة) بالجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية فى الفترة الواقعة ما بين 17 ـ 26 صفـر 1397 هـ (06 ـ 15 فبراير 1977 م) اجتمعت اللجنة المختصة بدراسة النقطـــة الاولى بتاريخ 23 صفر 1397 هـ (12 فبراير 1977 م) موضوعها :

« **مساهمة الرستميين فى حضـــارة الاســـلام وفكـــره** » •

وانطلاقا من المحاضرات والمناقشات والتعقيبات ذات الصلة بالموضوع المذكور ، وبعد الاستماع الى آراء جميع أعضاء اللجنة ، وجدت اللجنة أن من واجبها أن تذكر بكل شكر وتقدير جهود وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية فى تخصيص نقطـة من نقاط الملتقى الاسلامى كل عام ، لدراسة الجوانب التاريخية المتصلة بالبلد الذى يعقد فيه الملتقى ، وحيث أن ورجلان ـ موطن الملتقى الحادى عشر للفكر الاسلامى ـ قد شهدت حضارة اسلامية اباضية زاهرة ، كما تمثلها الدولة الرستمية ، تدرك اللجنة مدى أهمية التراث الاباضى من حيث هو جزء هام من التراث العربى الاسلامى العام ، وبما أن ذلك التراث ما زال مجهولا لدى الغالبية العظمى من أبناء الامة الاسلامية ، وأنه حقا يستحق كل عناية واهتمام ، لهذا رات اللجنة أن توصى بما يلى :

أولا : أن تهتم وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية ببعث التراث الاباضى فى نواحيه المتعددة ، فتكلف من يبحث عن المخطوطات التى ما تزال فى حوزة الافــراد والجماعات من الاخوان الاباضيين ، تمهيدا لضربها ونشرها ، كما تعمل على اعـــداد بيليوغرافيا مستوفاة شاملة لكتب الاباضية الموزعة فى أنحاء العالم ، وأن يكلف بهذا الامر شخص ذو كفاية وتجربة فى هذا الميدان (ملحوظة تنوه اللجنة بكفاية د٠٠عمرو خليفة النامى فى هذا المجال لخبرته الطويلة فيه) ٠

ثانيا : توصى اللجنة ـ ضمن نطاق بعث التراث الاباضى أيضا ـ برصد الاطروحات والرسائل التى قدمت فىمختلف الجامعات فى موضوع التاريخ الاباضى والعقيــدة الاباضية وتصويرها والاحتفاظ بها فى المكتبة الوطنية بالجزائر العاصمة ، لتصبــح فى متناول من يود الاطلاع عليها ٠

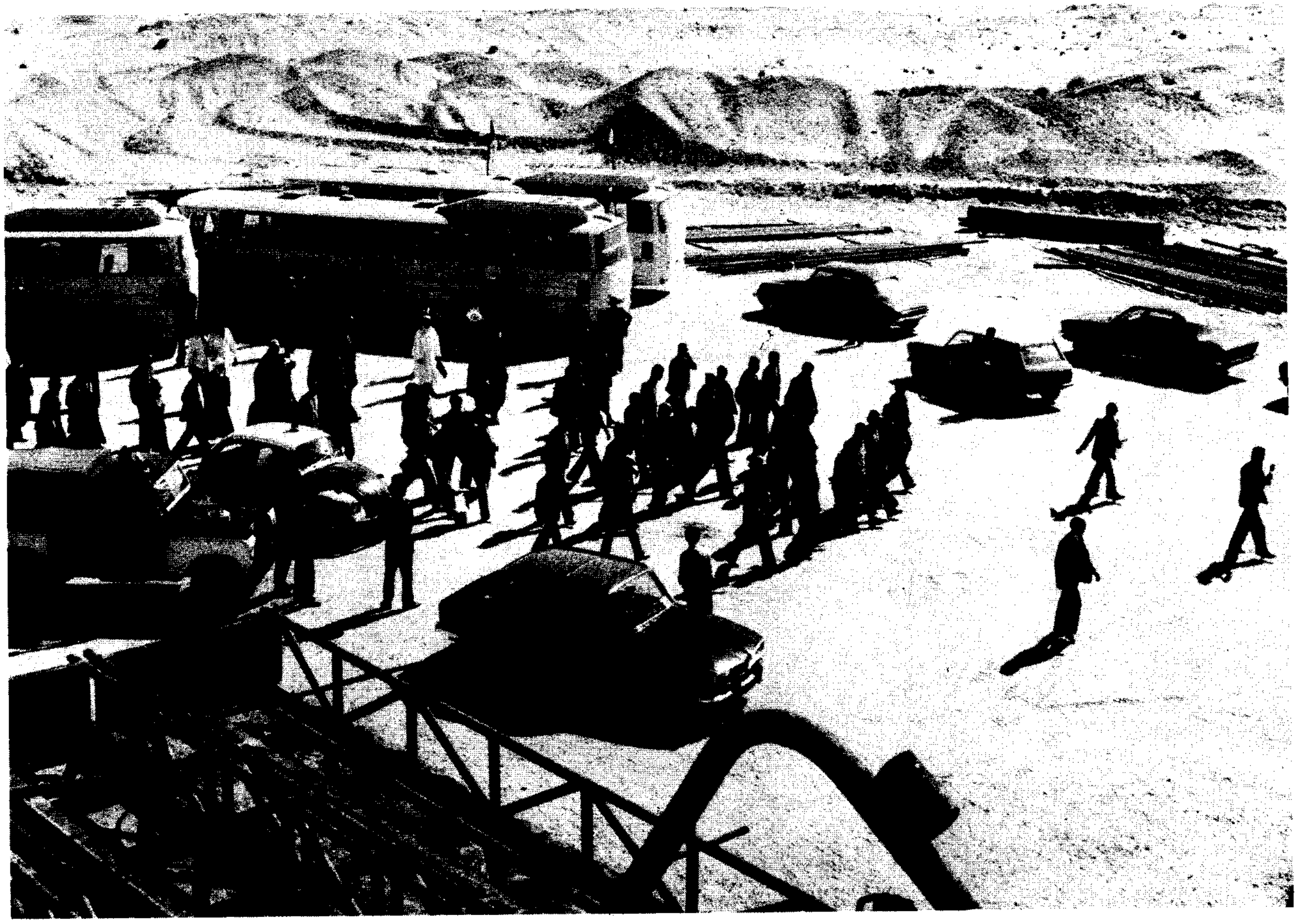
ثالثا : إستكمالا للجانبين المذكورين آنفا ترى اللجنة أن تقــوم الجهات المختصة بتشجيع البحث عن آثار الرستميين عامة والاباضيين خاصة ، واسترجاع مــا يمكن استرجاعه من هذه الآثار التى تسربت الى خارج البلاد الجزائرية زمـــن الاحتلال ، وبتوجيه نداء لعلماء الآثار المسلمين كى يولوا الآثار الاباضية اهتمامهم ٠

رابعا : رغبة فى تكامل الدراسات فى الحقل المشار اليه توصى اللجنة أن تشفــع دراسة التراث الاباضى بدراسة واقع المجتمع الاباضى دراسة علمية ميدانية ، تتناوله من النواحى الاثنوغرافية والديمغرافية والاجتماعية ، ورغم ادراك اللجنة أن الطريق الى مثل هذه الدراسة قد يكون محفوفا ببعض الصعوبات فانها توصى أن تقوم الجامعات بتشجيع هذا النوع من الدراسة بقوة ، وذلك فى نطاق دراسة المجتمع الجـــزائرى والمجتمع العــربى عــامة ٠

خامسا : اقترحت اللجنة أن نؤلف من السادة : المهدى البوعبدلى وسليمان داود ابن يوسف وعمرو خليفة النامى وفرحات الجعبيرى ، لجنة خاصة تقوم بالاعداد لاصدار كتاب يتضمن دراسات وبحوثا عن الاباضية فى تاريخها وحاضرها ، ويكلف بتلــك الدراسات والبحوث عدد من الدارسين فى مختلف أنحاء العالم ، بحيث يكون الاجــل

المضروب لتسلم تلك البحوث ديسمبر 1978 م ، حتى تتمكن اللجنة المذكورة من تحرير الكتاب واعداده للطبع خلال سنة 1979 م ، وترجو اللجنة المكلفة ببحث النقطة الاولى فى هذا الملتقى أن يجد هذا الاقتراح تأييدا وتشجيعا من وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية بل تقترح أن يصدر هذا الكتاب باسمها وباشرافها ٠

سادسا : ترى اللجنة أن يتجه الباحثون المسلمون فى شتى المذاهب الاسلامية الى القيام بدراسات عن مختلف الفرق والمذاهب الاسلامية على أن تكون دراسات علمية موضوعية وأن تتناول الفرق والمذاهب التى نشأت فى ظل الاسلام ، وكان لها فى دار الاسلام دور تاريخى مرموق ، وتنبه اللجنة الى ضرورة التمييز فى تلك البحوث بين المنهج التاريخى والمنهج الكلامى المتصلين بتلك الفرق ، وعلى أن يستعمل المنهجان معا لاثراء الفكر الاسلامى المعاصر ، وايجاد قدر أكبر من التفتح بين المسلمين فى المذاهب المختلفة ٠



حافلات الملتقين تفرغ ركابها واحدة بعد الاخرى في حاسي مسعود ·

اللجنـــة الثـانية

موضوعها : « الاســلام فى افريقيــا اليــوم » ·

أعضــاؤها :

- **الاستاذ محمد عبد الله عنان :** مؤرخ ، وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة (مصـــر) ·
رئيســا

- **د· عبد الحليم عويس :** أستاذ بكلية الشريعة ، جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ، الرياض (السعودية) ·
مقـــررا

- **د· وليام مونتو قمرى وات :** أستاذ بقسم الدراسات العربية والاسلامية ، جامعة ادنبره (بريطانيا العظمى) ·
عضـــوا

- **د· محمود دياب :** كاتب : القاهرة (مصر) ·
عضـــوا

- **د· دونيس ووكر :** أستاذ بقسم دراسات الشرق الاوسط ، جامعة ملبورن (استــراليــا) ·
عضـــوا

- **الشيخ سليمان داود بن يوسف :** بحاثة جزائرى فى التاريخ (الجزائر) ·
عضـــوا

- **الاستاذ محمود منصور :** جامعة الدول العربية ـ القاهرة ـ مصر ·
عضـــوا

- **الاستاذ محمد الاخضر عبد القادر السائحى :** عضو اتحاد الكتاب الجزائريين ورئيس مكتب بوزارة الشبيبة والرياضة (الجزائر) ·
عضـــوا

اجتمع السادة أعضاء اللجنة المساهمون فى الكتابة عن النقطة الثانية من جدول أعمال الملتقى ومن اليهم من المشاركين بتاريخ 24 صفر 1397 هـ (13 فبراير 1977 م).

وقد استعرضت اللجنـة الدراسات التى قـدمها الاساتذة المذكورون فى هذا الموضوع ، والتعقيبات والمناقشات التى دارت حوله ، وتبين لها بعد هذا الاستعراض والدراسة المقارنة ، أنه قد عولج الكثير مما يتصل بالموضوع الجوهرى ، ولكنه قـد تبين لها فى الوقت نفسه ـ على ضوء ما أثير من المناقشات ـ أن هناك عناصر وجوانب أخرى فى هذا الموضوع الخطير ، ما زالت فى حاجة الى استكمال الدراسة والبحث ، ومن ثم فان اللجنة ترى أن توصى فى هذا الصدد بما يأتى :

أولا : ان تعمل دراسات تكميلية تفصيلية فى المشكلات والعناصر التى ما زالت فى حاجة الى الدراسة فى موضوع الاسلام فى افريقيا اليوم .

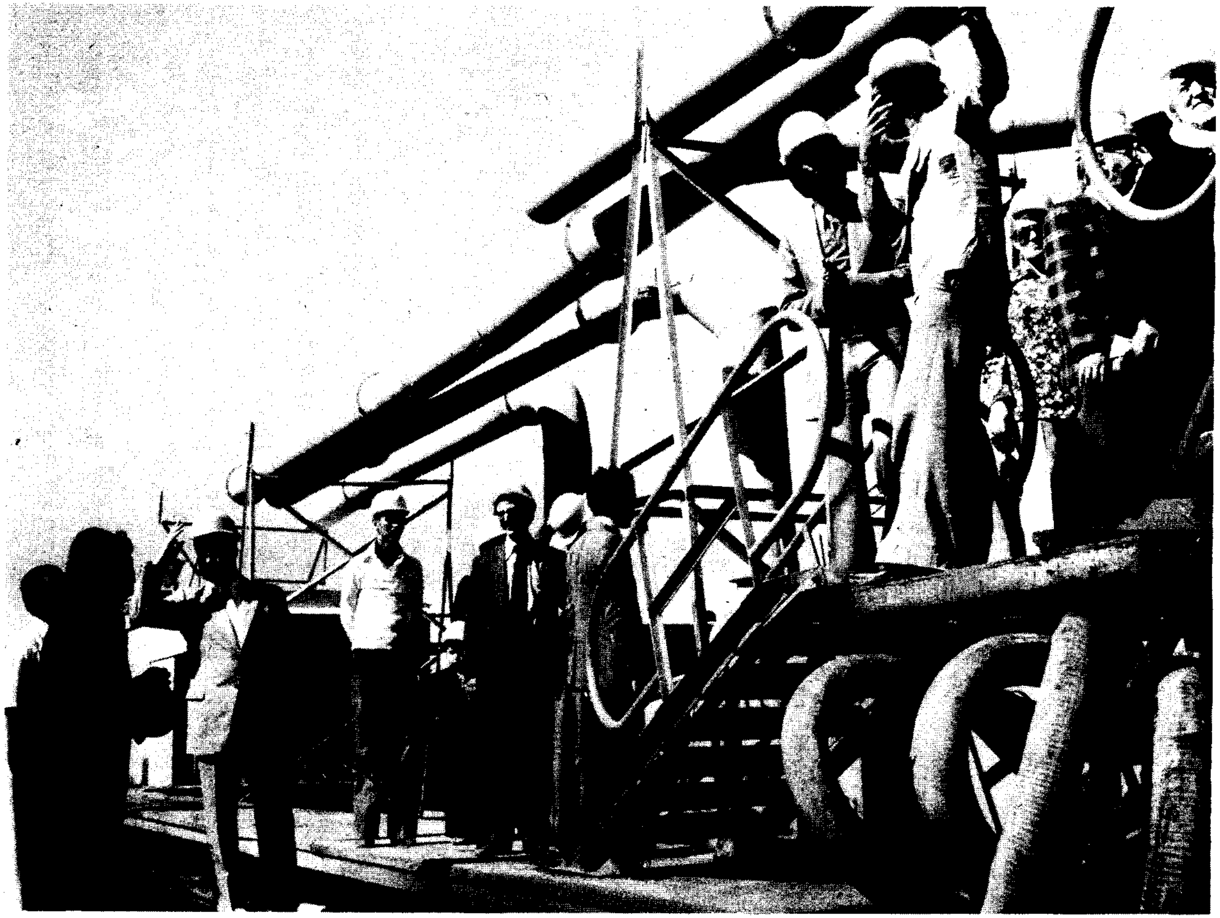
ثانيا : تبنى القضايا والمشكلات التى يواجهها المسلمون فى افـريقيا السوداء ، وبذل مجهود لامداد هذه البلاد بكل ما تحتاج اليه من وسائل التعريف بالعلـوم الاسلامية ، وتزويدها بالمدرسين والدعاة وعلمـاء الدين المستنيرين ، وبالمصاحف الشريفة والكتب والنشرات التى تزيدهم علما بأصول الاسلام وتعاليمه الصحيحة .

ثالثا : العمل على إعداد الدعاة وعلماء الدين والوعاظ الذين يمكن أن يسدوا هذا الفراغ فى افريقيا الغربية والوسطى والشرقية .

ومن المستحسن أن يكون هناك عدد كبير من الدعاة الافارقة أنفسهم يجرى اعدادهم اعدادا اسلاميا وفكريا صحيحا .

رابعا : دعـوة الـدول الاسلامية ومنظمة المؤتمر الاسلامى (التى تمثـل الدول الاسلامية) ـ وما اليها من الهيئات الاسلامية الاخرى ، للمساهمة فى انشاء جهـاز للدعوة الاسلامية ، وذلك لتقديم المعونات الفنية والعلمية والاقتصادية للبلاد الافريقية المحتـاجة اليهـا .

والله ولى التـوفيق .



في قاعدة 24 فبراير في حاسي مسعود ، على جهاز التنقيب وهـو يشتغل ٠

اللجنـــة الثـالثـة

موضوعها : المـرأة بعد عـام المـرأة ...

أعضــاؤها :

- **د. مصطفى أحمد الزرقاء :** (سوريا) ، أستاذ بكلية الشريعة ، الجامعـة الاردنية عمان ، ووزير سابقا .

رئيســا

- **د . عمـر التـومى الشيبانى** ، الاستاذ فى كلية التربية ، جامعة الفاتح طرابلس (ليبيا) .

مقــررا

- **د . بارفين شوكت على** ، الاستاذة المساعدة بمعهد السيدة ماكلاغان ترييننغ لاهور (باكستان) .

عضــوا

- **د . الحبر يوسف نور الدايم** ، الاستاذ بكلية الآداب ، جامعة الخرطـوم (السودان) .

عضــوا

- **الاستاذ محمد الصادق بسيس ،** الاستاذ بالكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين (تونس) .

عضــوا

- **الاستاذ الاكحل بن حواء** ـ محام لدى المجلس ـ (الجزائر) .

عضــوا

- **د . عبد الكريم سايتوح** ، أستـاذ الاقتصاد بجامعـة تاكاشوكو طوكيـو (اليـابان) .

عضــوا

ـ **الاستاذة فاطمـة هيرين سركا** ، المركـز الثقـافى الاســـلامى ، ميونيـخ (ألمانيا الاتحادية) ٠

عضـــوا

ـ **السيدة ميراى أباى** ، استاذة الاقتصاد سابقا بجامعة تريفاندروم (الهند) ٠

عضـــوا

ـ **السيد الهادى خسرو شاهى** ، مدير مركز البحوث الاسلامية (ايران) ٠

عضـــوا

ـ **السيد محمد مجتهد الشبستري** ، مدير المركز الاســـلامى فى هامبورغ (ألمانيا الاتحادية) ٠

عضـــوا

ـ **السيد عبد الرحمن شيبان** ، المفتش العام بوزارة التعليم الابتدائى والثانوى (الجـزائـر) ٠

عضـــوا

ـ **د٠ خير الله عصـــار** : (سوريا) أستاذ بكلية الآداب ، جامعـة عنـــابة (الجـزائـر) ٠

عضـــوا

ـ **السيد حبيب بوخريصة** ، عضو الجبهة الشعبية لتحرير الساقية الحمـراء ووادى الذهب ٠

عضـــوا

ـ **الطالبة عائشة مساحل** : كلية العلوم ، جامعة الجزائر ٠

عضـــوا

ـ **الطالب : الهلالى علوش**، معهد العلوم السياسية والاعلامية جامعة الجزائر.

عضـــوا

اجتمعت اللجنة الثالثة بتاريخ 25 صفر 1397 هـ (14 فبراير 1977 م) للنظر فى موضوع : « المرأة بعد عام المرأة » وهو النقطة الثالثة فى بحوث الملتقى الحادى عشر للفكر الاسلامى ، واستعرضت ما دار حول ذلك من محاضرات ومناقشات وتعليقات ، وتدارست موضوع حقوق المرأة المسلمة وواجباتها ، وحريتها وحدودها ، وطبيعتها التى فطرها الله عليها والخصائص التى وهبها اياها وميزها بها لتؤدى وظيفتها الاساسية فى المجتمع البشرى خير أداء ، فى نطاق الاسرة وفى نطاق المجتمع ، وقضية عملها خارج البيت ، ومردود هذا العمل بحسب أنواعه ايجابيا وسلبيا على مختلف مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والاخلاقية والتربوية ٠

وانتهت اللجنة الى الاقتناع بأن ما منحه الاسلام ونظامه للمرأة المسلمة من حقوق وحريات وما حملها اياه من واجبات ضرورية لصلاح الحياة ولا يستطيع سواها النهوض بها وكل ذلك بحدوده التى قررها القرآن العظيم والسنة النبوية الثابتة وسيرة الرسول العملية صلى الله عليه وسلم هو خير ما تتمتع به المرأة المسلمة وما تستطيع به أن تؤدى دورها العظيم فى المجتمع السليم ، وهو الذى يضمن للمرأة المسلمة كرامتها وحصانتها وحمايتها ووسائل الحياة الكريمة لها فى جميع مراحل شبابها وشيخوختها ٠

وان الاسلام وجه نشاط كل من الرجل والمرأة فى مجالات من حياة المجتمع الصالح ، منها مشترك ومنها مفترق بحسب ما أودع الله فى كل منهما من خصائص هيأه بها يمتاز فيها على الآخر ٠ وجعل المجال الاساسى للمرأة داخل الاسرة وللرجل خارجها ، لتصان الاسرة التى هى الخلية الاجتماعية الاساسية من عوامل الفساد وتكون مصنعا مباركا لتنشئة النشء الطيب والاجيال الصالحة ، فالنساء شقائق الرجال كما أخبر الرسول (ص) ، ولهن مثل الذى عليهن ، كما نطق به القرآن العظيم ، ولكن الخصائص المختلفة فى تكوينها ، وتوزيع الوظائف بحسب تلك الخصائص ، هذا التوزيع الذى هو من مقتضى الرقى فى نظام الحياة هو التطبيق الصحيح لهذه المساواة فى تسيير الحياة الى ساحل النجاة ٠

هذا ، وقد رأت اللجنة ان تعليم المرأة يجب أن يبلغ به مستوياته اللائقة بما يحفظ عقيدتها ، وبما يتفق مع خصائصها ومهمتها فى اطار اسلامى ويكفل توعيتها ورفع مستواها فى المدن والارياف ، وأن الاصالة يجب ان تكون هى المنطق الاساسى فى تعليم المرأة وتثقيفها ونشاطاتها . وفى ضوء ما تقدم اتفقت الآراء فى اللجنة على تقديم التوصيات التالية :

1) يوصى الملتقى المسؤولين والعائلات فى المجتمعات المختلفة ، على المستوى العالمى ، كلا حسب معتقداته الدينية ، وقيمه الخلقية ، ونظامه الاجتماعى ، بالعناية بالاسرة ، وبالاهتمام خاصة بالمرأة ، بما لها من حقوق وعليها من واجبات .

2) وفيما يخص العالم الاسلامى بالذات ، يوصى الملتقى المسؤولين والعائلات بتطبيق ما منحه الاسلام للمرأة من حقوق ، وما كلفها به من واجبات تتفق مع طبيعتها وخصائصها ومواهبها ، ولا سيما فى ميدان الاسرة التى لها فيها المركز الاساسى والاثر العظيم ، لانها الخلية الاجتماعية التى تصلح بصلاح المرأة ووعيها وحسن سلوكها ، كما تفسد بفسادها ، وهى فى ذلك مثل الرجل تماما .

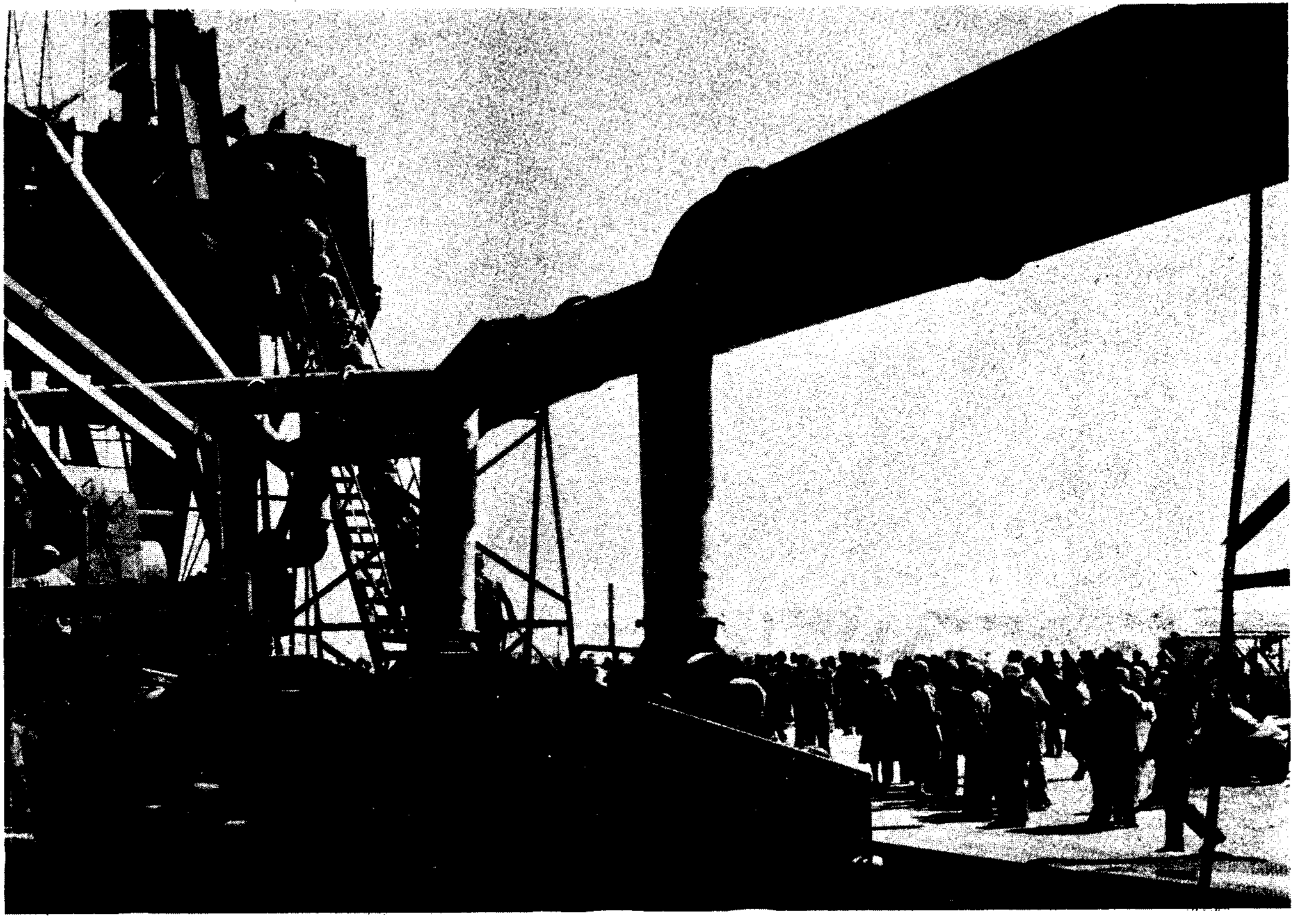
3) أن يهتموا بتعليم المرأة على جميع المستويات ، وبتربيتها تربية أصيلة ، لتمكينها من حسن أداء مهمتها ووظيفتها الاجتماعية والتربوية التى تتفق مع المقاصد والآداب الاسلامية .

4) العناية بالتعليم الاسلامى بصورة خاصة للفتاة المسلمة أحكاما ونظاما وثقافة وتربية فى جميع مراحل التعليم بما يحقق الفهم والتطبيق ، تحصينا لها وللمجتمع .

5) أن توضع فى البلاد العربية والاسلامية برامج ووسائل توعية وتثقيف للمرأة الريفية بما يكفل رفع مستواها ، وهذا لصالح الفرد ، والاسرة ، والمجتمع .

6) الحفاظ على حشمة اللباس الساتر لمفاتن المرأة ، داخل بيتها وخارجه ، لان ذلك فى الاسلام واجب ومصلحة معا فى اطار ما رسمه القرآن العظيم ، والسنة النبوية الثابتة ، فهو صيانة للمرأة وللرجل وللاسرة والمجتمع .

7) وجوب مساعدة المرأة والاسرة المسلمة فى البلاد غير الاسلامية عـــلى رفـــع مستوى ثقافتها الاسلامية وتربية أطفالها تربية سليمة وفق الوسائل الحديثة ، وعلى كفالة المعاملة العادلة فى تلك البلاد للاسر الاسلامية ، وتوجيه المرأة المسلمة فى هذه البلدان الى ضرورة تجنب المظاهر والعلاقات والممارسات التى لا تتمشى مع تعاليـــم الاسلام وآدابه ، وحض الدول والمنظمات الاسلامية على تحقيق هذه المساعدات بكل الوسائل الممكنة من مالية وبشرية ٠



فى قاعدة 24 فبراير فى حاسى مسعود

اللجنة الرابعة

موضوعها : هل بطون الارض نعمة أم نقمة ؟

اعضاؤها :

ـ **د • صلاح الصاوى** ، أستاذ بكلية الآداب ، جامعة طهران (ايران) •
رئيسا

ـ **الاستاذ الجيلالى صارى** ، استاذ بالمعهد الجغرافى (الجزائر) •
مقررا

ـ **د • محمد رشيدى** ، كاتب ـ جاكرتا ـ (اندونيسيا) •
عضوا

ـ **د • داود كاون** ، الاستاذ فى قسم الشرق الادنى والاوسط بمعهد الدراسات الشرقية ، جامعة لندن (بريطانيا) •
عضوا

ـ **د • محمد على صبرى** ، مدير مركز البحوث والانباء الاسلامية « شيزى » فى روما ، مدير المناهج والبترول سابقا فى سوريا •
عضوا

ـ **السيدة فضيلة قارة مصطفى** ، استاذة الجغرافيا والتاريخ بالثانوية المختلطة ـ قسنطينة (الجزائر) •
عضوا

ـ **السيد مراد زعيمى** : الطالب بمعهد الحقوق والعلوم الادارية جامعة قسنطينة (الجزائر) •
عضوا

– وقد اجتمع اعضاء لجنة النقطة الرابعة يوم الاثنين 25 صفر 1397 هـ (14 فبراير 1977 م) بورجلان (ورقلة – سدراته) .

وبعد الاستماع الى محاضرات الاساتذة والتعقيبات التى دارت حولها واستغرقت الموضوع من جوانبه الجوهرية ، تاريخيا وجغرافيا واقتصاديا وسياسيا واسلاميا ، والربط بين الحالة الداخلية فى البلاد الاسلامية والحالة العالمية وأخذ امكانيات العالم الاسلامى من ناحية الثروات المعدنية فيه من جانب وآماله واهدافه فى رفع مستوى الحياة الى ما يؤهله لما يليق له من مقام فى الوجود ، بعين الاعتبار .

ان الثروات الباطنية وخاصة النفط لعبت ولا تزال تلعب دورا حيويا فى انشاء المشاريع الكبيرة وتقديم الخدمات الاجتماعية والعمران والاقتصاد الانتاجى مما رفع مستوى الحياة الانسانية ، الا ان هناك جوانب سلبية من شأنها ان تقلب هذه النعمة الى نقمة ، وعلينا ان نأخذها بعين الاعتبار من ذلك أنها حركت أطماع الغرب التى تمثلت فى النفوذ الاجنبى وضرب الاقتصاد الوطنى وشل حركات النهوض وتزييف الحكم السياسى وخلق ركائز احتكارية مضادة لحركات نهوض الشعوب ، وما نشاهده علاوة على ذلك فى دول العالم الثالث من تخلف وتبعية وخلق حروب ، وناهيك أن فلسطين المحتلة والصحراء الغربية هما ضحيتان لضمان بناء المصالح الاجنبية فى الاقطار الاسلامية واستغلال ثرواتها .

هذا الى جانب ما يجره علينا هذا الوضع من الازمات التى ابتلى بها الغرب كأزمة البيئة والطاقة والتلوث والمدينية وما يتبع ذلك من انهيار فى الاخلاق وحط فى كرامة الانسان وتفريغه من كل القيم وتحويله الى آلة .

خاصة وان الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية قد اختطت لنفسها خطة بشرت بمستقبل ناهض عظيم وحققت فى أقصر مدى أكبر قسط من النهوض على مختلف المستويات فقد لاحظنا أثناء هذه الاقامة هذه التجربة الايجابية فى احترام هذه النعمة سواء فى استخراجها أو استهلاكها أو الافادة من عائداتها ، فهذا كله موجه الى المشاريع الانمائية متدرجا من القرية الاشتراكية فى قلب الصحراء الى المصانع

الى المعاهد العلمية فى كل مكان بما يعتبر مظهرا كاملا للعدالة الاجتماعية ونزاهة الحكم ويثبت ان نهوض العالم الاسلامى شيء واجب التحقيق ٠

وبناء عليه توصى اللجنة بما يـلى :

1) ايجاد جهاز وطنى كامل ينهض بجميع العمليات من التنقيب الى تصنيع المواد حتى نحافظ على هذه النعمة ونوجهها الى التنمية الاقتصادية والاجتماعية ٠

2) يجب ان تأخذ البلاد العربية والاسلامية نصيبها الكافى من النفط لاستثماره داخل بلادها فى التصنيع والزراعة مما يحد من التبذير ٠

3) يجب ان تراعى فى عمليات الاستخراج مسألة المحافظة على قيمة هذه النعمة ٠ فوجود النفط فى باطن الارض أفضل من توجيه رؤوس الاموال الى البنوك الاجنبية ٠

4) على الدول الاسلامية المنتجة ان تساعد البلدان المحرومة من هذه النعمة وان توجه اليها العائد مباشرة لا بواسطة البنوك الاجنبية ، فالدول الاسلامية التى لا تملك شيئا من هذه الخيرات فى شبه الجزيرة يجب أن تستفيد من هذه الثروة ٠

كنوز الأرض للشعب المالك ، وهذا وحده خير المسالك ! (1)

مولود قاسم نايت بلقاسم
وزير التعليم الأصلي والشؤون الدينية

بسم الله الرحمن الرحيم
والصلاة والسلام على خاتم النبيئين والمرسلين

حضرات الأساتذة الأفاضل والأستاذات الفضليات
حضرات السادة والسيدات
إخوتي الطلبة والطالبات

بعد عشرة أيام من حضار دائب ونقاش متواصل، لم تغفلوا فيها النقاط ولا الفواصل، ها قد أتيتم إلى النتائج والحواصل !

فرغم تنوع البلدان، والأديان، والمذاهب، والفوارق في الأعمار، والمستويات، والمواهب، فقد وفقتم ولم تأتوا شططا، ولم يكن بعضكم للآخر فئرانا وقططا، بل أجمعتم إذ وضعتم تصميما وخططا !

الميورق ، أم المرق والمروق ؟

1) لقد استخلصتم من التاريخ والمشاهدة، والسير في الغبار والمجاهدة، أنه كانت هناك قمة علم، وفكر،

(1) كلمة اختتام الملتقى الحادي عشر للفكر الاسلامي بورجلان (ورقلة) . (17 ـ 26 صفر 06/1397 ـ 15 فبراير 1977 م) .



جلسة الاختتام

ويرى من اليمين الى اليسار السادة رؤساء لجان التوصيات والمشرف على الملتقى :
1) محمد عبد الله عنان ، 2) د · مصطفى الزرقاء ، 3) مولود قاسم نايت بلقاسم ، 4) أحمد اسماعيل ، 5) د · صلاح الصاوى ،
6) اسماعيل العربى ·

وحضارة لبني رُسْتُم، وأنكم ضد الإعتراف لهم بذلك أبدا الستم، وأنكم إلى العرفان لهم بالجميل أميل، وإلا كنتم من كل البحثة أزفت وأنيل!

نعم! ولكن في كل من تيهرت، وسدراته، ووَرَجْلان، لأنَ الهصورُ وفر كالخروف الوجلان، وأصبح ذلك الصلد كالخائف الخجلان، أشبه بعملاقٍ خانته الرجلان، وأضحى الحصيفُ المتزنُ الطائشَ العجلان، إذ ضمرت في الدولة الجذور والعروق، وأمسى أحفاد الأتقياء الأنقياء همهم المَرَقُ والمروق، يعبثون بالليل ولا ينامون إلا عند الشروق، وحل مكان العدل والمساواة شر التمييز والفروق، فلَحِق بدولة رُسْتُمَ ما حاق بروم وروما ن، ككل أندلس ونرمان، وانضمت إلى آشور وبابل، وانهالت عليها الرزايا كالمنهمر الوابل، وأصبح كل ما كان كما رأيتم، ولن تنكروا الحقيقة مهما واريتم، وتتمنون لو ما رأيتم!

ومن هنا فالعظام هي التي أصبحت نخرة، عوقب عليها في الدنيا قبل الآخرة، ولم يكن الفاصل في إنهاء رستم دولة زيري ولا الميورقي والميارقة، وما كانت لتقهر لولا داؤها حتى لو اجتمع عليها المغاربة والمشارقة، وتلك سنة الله ولن تجد لها تبديلا ولا فارقة!

الصّم يا قريقش[1] يا فريقش[2]!

2) وألقيتم بنظرة إلى إفريقيا وتراءى لكم قلب القارة من وراء الكثبان، وتذكرتم - إن نفعت الذكرى! - مايفعله بها الثعبان، وقلتم: آن لنا أن نميز من رمضان شعبان، وألا ننصرف كالمرتخي التعبان، ورددتم: كفى مايجرى لافريقش من طلاح، وناديتم أن حى على الفلاح، وأن حان القيام لأهل الصلاح!

إنكِ عمدة المجتمع والأسرة، فإياكِ أن تلقى بها في الحفرة!

3) وفى نقطة المرأة رجعتم إلى آدم وحمورابي، وكان فيكم المتراجع والمرابي، ووجدت المرأة فى صنوها الخصم بينكم العادلَ المنصف، كما لم تعدم المزايدَ المجحف.

وقد امتد حوار كن من لالا نوره إلى بنورة، ومن وَرَجْلانَ إلى العاطف وغارداية، وقلنا لكن: كن ان شئتن الوزيرةَ والرئيسةَ والداية، واعترف لكن الجميع بالحقوق وغير الحقوق، شريطة تحاشى الفوضى والعقوق، وألا تهززن المجتمع بصدع وشقوق!

وقلنا: فلتكونى فى كل ميدان بانية صانية، وإياكِ وتخريب الميورقى بن غانية، أو تنسى أن كل سيطرة فانية، وان الموت منك دوما دانية، فاحذرى كل غلطة ثانية، وإلا كنت على نفسك جانية!

---

1) افريقش شخصية فكاهية فى المسرح الجزائرى الحديث ترمز للغفلة، والسذاجة، واللامبالاة.
2) افريقش اسم الإفريقى الأول حسب ابن خلدون، وفى هذا السياق يرمز للقارة كلها.

لا تقصصن للرجل شنبا، لتنسجن منه قرنبا، أو تفتلن منه ذنبا، ولا تجعلن من كرامته كنبا، أو تحسبنها عنبا!

إياكِ أن تقولي له إن سأل: "إنى مستقلة حرة"، أكانت هذه الكلمة فى أذنه حلوة أو مرة، لانك فى عينيه قرة، وفى قلبه جوهرة ودرة، وإلا كان مصيركما معا فى قاع الجرة!

والرجل لا ينسى أنكن الفصول والغايات، والأعلام والرايات، وأنكن شرط الحياة إذ عمدة المجتمع والأسرة، فإياكن أن تلقين بهما فى الحفرة، وكن إن شئتن الماهرات الساحرات، ولكن لا الساهرات الناحرات، وكن الهازئات الساخرات، لا الماكرات الناخرات، وإلا أصبحتن أنتن الباترات الخاسرات!

بطون الأرض نعمة ومصيبة، إذا لم نحولها نحن إلى مصيبة!

4) وتساءلتم: هل بطون الأرض نعمة أم نقمة؟ واجبتم بنعم إذ هى منحة لا محنة، وان ذلك واضح بالبداهة لا بسر مهنة، وأن رحمة الله كانت لنا مجيبة، وإرادته لنا فى هذا وذاك طبعا مصيبة، إذا لم نحولها نحن إلى مصيبة، إذ هى لنا من الله باقة، تنعش وتزيل الفاقة، تكمل ولا تعوض الناقة، وإن لم نعرف ذلك حقت علينا الحاقة، وتلتها الأشغال الشاقة، وقلتم فى الأخير إن كنوز الأرض للشعب المالك، وأن هذا وحده

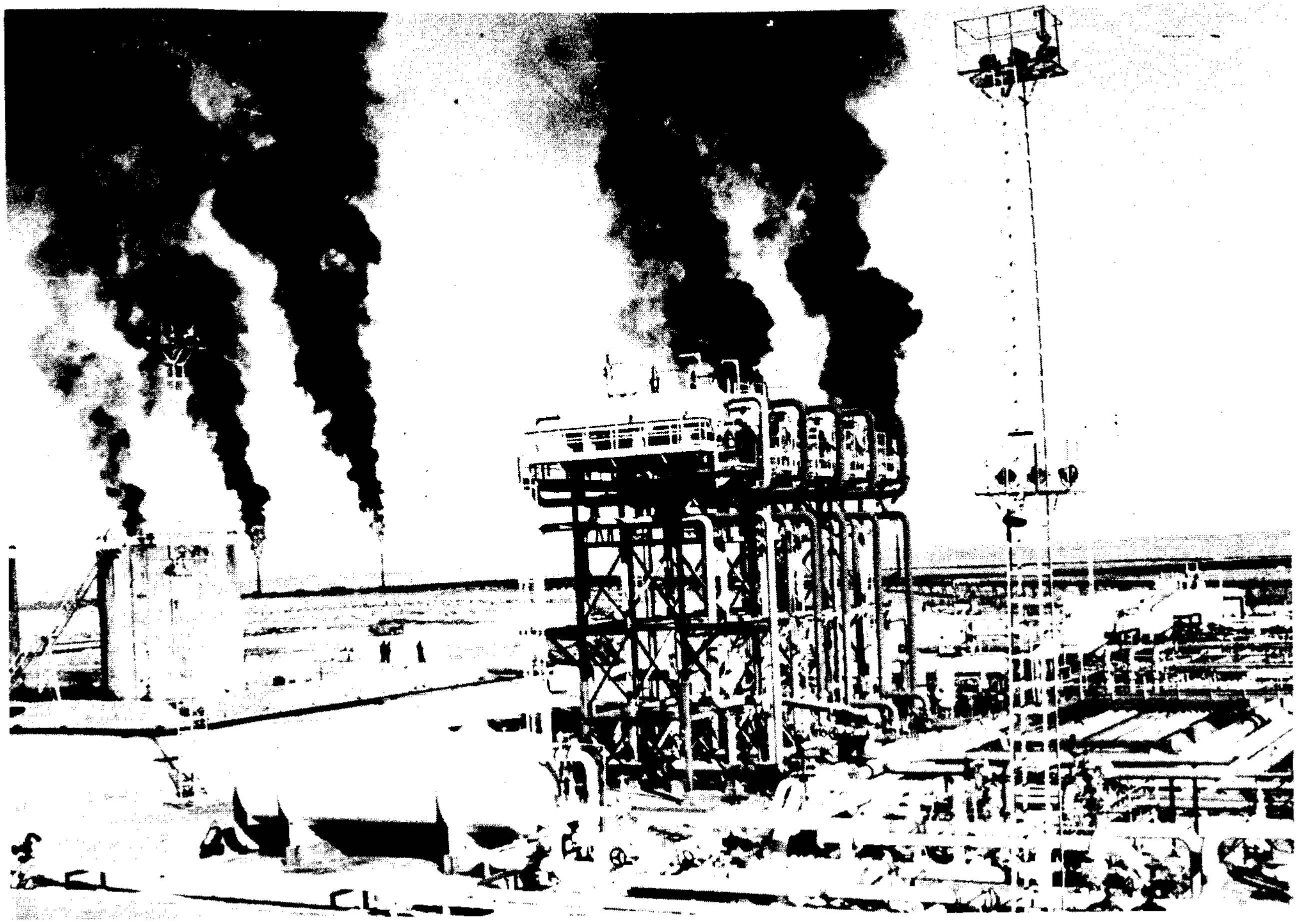
خير المسالك، وتبا لمن لا يميز بين الضوء والحالك!
وقلتم أخيرا إنها إن لم تكن بأيدى الدولة وللشعب كانت للأمة ضربة وطعنة، وعليها من الله غضبة ولعنة، وأنه إلى جانب كل نفط، أو فوسفاط، أو زفت، ينبغى ألا تنسى الزراعة من قمح ولفت، ولا التجارة والصناعة، والقيم الإصيلة أصل المناعة!
إنى أشكر كل من في هذا الملتقى حاضرا أو عقب، وفي سبيل ذلك بحث أو نقب، وإن سمح لى البعض ما بدر منى عن خلقة من حدة، وما استعنت به قصدا في الحرص على الملتقى من صرامة وشدة، نسيت ما جنحوا إليه عن النظام من خروج وردة، وتجاوز ما حددلهم عند المنصة من دقائق عدة، وأنسى ما مالوا إليه من مكرر معاد ضد كل ابتكار وجدة، وإن لم تصفحوا لم أنس والله بيننا فيما أتى كل منا من فعلة إدة، مشابهة للخطأ الكبير ندة.
وأصفحوا بعضكم للآخر تبادل الإتهام بفقر المادة، بل والخروج عن الجادة، وان محاضراتهم عن الطريق الصحيح حائدة صادة، لأن معلوماتها من مصادر أجنبية مستمدة، ولو كانت بعض بضاعتنا المستردة.

إننا إذ نشكر إذن جميع السيدات والسادة، الذين رموا إلى الإجادة، نشمل طبعا من حلموا في القاعة بالوسادة، أو عزفوا عن تتبع النظام وحسن العادة، ونسوا أنهم للشباب القدوة العمادة.

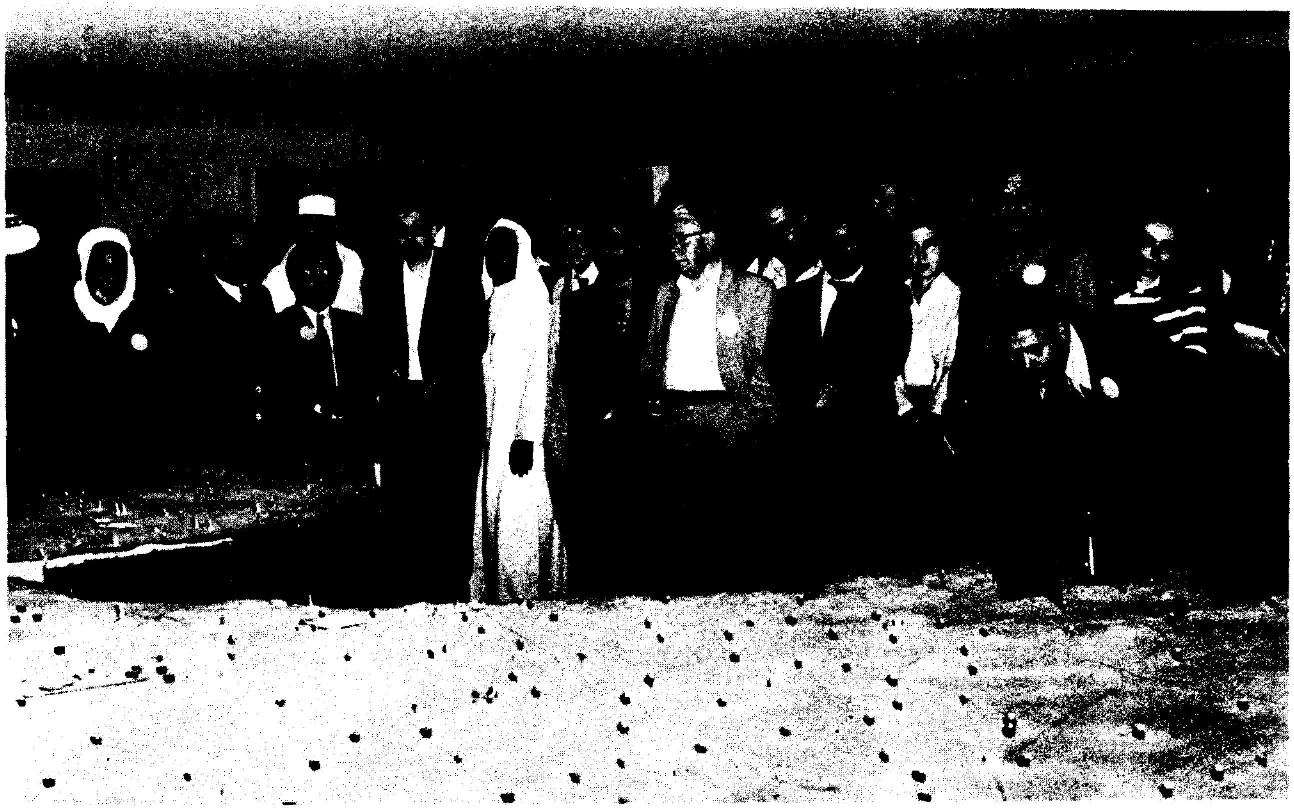
ونثني بالشكر على كل الولاية ودائرة غارداية على حسن الإستقبال والوفادة، وعلى الجميع هنا من مقودين وقادة.

وداعا للتوقرت ولحاسي، وَوَرَجْلاَنَ جميلةِ الأماسي، وإلى اللقاء في أحد معاقل مقاومتنا قبل الفتح وبعده، الذي وجد فيه فاتح نفامبر منذ البدء مهده، إلى سفح الشلية والشلعلع، ولو كان هذا أوذاك أجرد أصلع، إلى مراتع تنتشي بالحرب عند الضرورة، حينما ينادي المصير والصيرورة، إلى جبال تحب دَوِيَّ البارود كأنغام الأجراس، وتحتفل بالإستشهاد كالأعراس، إلى باتنة الأوراس.

والسلام عليكم ورحمة الله



فى حـاسى مسعـــود



في قاعة 24 فبراير في حاسي مسعود ، ويرى من اليمين الى اليسار السادة والسيدات :
محمد بلمبخوت، مندوب وكالة الانباء الجزائرية في ورجلان، الدكتورة وداد القاضي (لبنان ـ هارفارد)، د · البشير تركي (تونس) منحنيا ، د · علي صبري (سوريا ـ روما) ، د · كيليا سارنيلي تشركوا (نابولي ـ ايطاليا) ، ووراءها المهندس زكرياسن (الدانمارك) ، عزوز الرباعي (تونس) ، محمد مجتهد الشابستري (ايران ـ هامبورغ) ، د · داوود كاوون (لندن) ، وبينهما رشيد خضارو (جزيرة موريس) ، د · عبد الجليل التميمي (تونس) ، د · مصطفى الزرقاء (سوريا ـ عمان) ، د · عبد الحليم عويس (مصر ـ الرياض) ، د · دونيس ووكر (استراليا) ، د · محمد شريف قاهر (الجزائر) ، د · عمر تومي الشيباني (ليبيا) ، وبينهما د · عمر خليفة النامي (ليبيا ـ أمريكا) ، الشيخ سليمان داوود بن يوسف (الجزائر) ،

Nos remerciements vont également à toute la wilaya et à la daïra de Ghardaïa, pour l'excellence de l'accueil, ainsi qu'à tous ceux qui ont œuvré à la bonne tenue de ce Séminaire.

Au revoir Touggourt et Hassi, Ouaradjlane et Sadrata, vallées aux crépuscules si beaux. A nous revoir dans l'une des citadelles de notre résistance avant et après l'avènement de l'Islam, là où le 1er novembre a trouvé dès l'origine son foyer et son berceau, au flanc des djebels Chélia et Chala'la', même si l'un ou l'autre est chauve, dans ces contrées promptes à déclencher la guerre à l'appel de la nécessité et du destin, vers ces montagnes altières qui considèrent le bruit de la poudre comme des sons de cloches et fêtent le martyre à l'égal d'une noce : à Batna des Aurès.

Que le salut soit sur vous !

« Evite, ô femme, de répondre à l'homme : « Je suis indépendante et libre », même si ces vocables lui sont bien amers, car tu es à ses yeux la prunelle, dans son cœur la perle et le joyau. Sinon, votre destin à tous deux sera au fond de la jarre, comme dit le proverbe arabe !

L'homme n'oublie pas, quant à lui, que la femme est pour lui le lien et le but, l'étendard et le drapeau, la condition même de la vie puisque la base de la société et de la famille. Evitez donc de précipiter l'une et l'autre dans le gouffre. Soyez, si vous voulez, habiles et sorcières mais non cruelles et assassines de l'honneur, désinvoltes et moqueuses mais non machiavéliques et saboteuses, sinon vous resteriez vieilles filles et seriez les perdantes !

4°) Vous vous êtes demandé : « Est-ce que les ressources du sous-sol sont un bienfait ou une malédiction » ? Vous avez répondu qu'elles étaient à l'évidence un bienfait, un don et non une épreuve, que la clémence de Dieu nous en a dotés et que sage est la volonté divine. Ceci à condition que nous n'en fassions pas de nous-mêmes une calamité, si Dieu les a destinées à l'élimination de la misère. Car si nous ignorions cette vérité nous mériterions l'opprobre et la servitude !

Vous en avez déduit que les richesses du sous-sol appartiennent au peuple qui les possède, que c'est là la seule voie à suivre, n'en déplaise à ceux qui ne distinguent pas entre la lumière et l'obscurité !

Vous avez conclu que si ces richesses n'étaient pas entre les mains de l'Etat et du peuple, la nation en recevrait un coup mortel et encourrait par là-même la colère et la malédiction de Dieu. Comme vous n'avez pas omis de souligner qu'outre le pétrole, le gaz et les phosphates, il ne faudrait pas négliger l'agriculture, le commerce, l'industrie et les valeurs authentiques qui constituent la véritable immunité.

Je remercie tous ceux qui sont dans cette salle, conférenciers, commentateurs et chercheurs, et si certains me pardonnent, j'espère, le ton parfois cassant que m'a infligé la nature de naissance, une certaine fermeté à l'égard de la bonne marche de ce Séminaire, j'oublierais volontiers, pour ma part, les écarts, les dépassements dans le temps imparti à la parole, l'absence chez certains de recherche et d'innovation. Mais si vous ne pardonnez pas, je n'oublierai pas, et Dieu nous départagera.

Pardonnez-vous les uns les autres les accusations réciproques « d'interventions incomplètes » ou mal étayées, de « digressions » hors du sujet, de « conférences parfois non conformes à la vérité historique parce que puisant dans des références étrangères », quoique celles-ci soient en partie notre propre marchandise récupérée.

En remerciant donc toutes celles et tous ceux qui se sont efforcés de bien faire, nous n'oublions certes pas les dormeurs occasionnels à qui il serait advenu de prendre la salle de conférences pour un lieu de repos, ni ceux qui ont rechigné à respecter l'ordre et la discipline, oubliant qu'ils étaient pour la jeunesse les guides et les exemples.

germes de la désintégration étaient dans l'Etat. Et c'est ainsi que les descendants des vertueux et des purs se muèrent en ennemis d'eux-mêmes et en détracteurs, occupant leurs nuits dans les frivolités pour ne s'assoupir qu'aux aurores. La justice et l'égalité firent place aux maux de la discrimination et de la différenciation, et la dynastie rostomide connut à son tour le destin de Byzance et des Romains, le sort des Andalous et des Normands, rejoignant dans l'histoire la cohorte des nations et des cités déchues, telles Babylone et les Assyriens. Tout ce qui fut devint ce que vous avez constaté et c'est là une réalité que vous ne pouvez nier, quoique vous fassiez et même si vous souhaiteriez que pareille vision d'un si lamentable déclin vous soit épargnée ou désiriez voiler les faits !

D'où il ressort que ce sont bien les structures qui étaient minées — ce de quoi il a fallu répondre déjà ici-bas et devant Dieu — et que ce ne sont point l'Etat ziride, ni le Majorcain et les Majorcains qui mirent fin à la dynastie rostomide. Celle-ci n'aurait pas connu la défaite — n'était son mal profond — même si les Maghribins et les Orientaux s'étaient ligués contre elle. Telle est la loi immuable de Dieu !

2°) Vous avez jeté un regard sur l'Afrique et entrevu le cœur du continent à travers les dunes, vous rappelant — si tant est que le souvenir soit utile — les abus dont il est l'objet et vous vous êtes dit : « Il est temps de distinguer entre ramadân et chaâbâne et de nous départir enfin de la nonchalance et de l'apathie ». Vous avez même répété à l'envi : « Halte aux vicissitudes imposées à l'homme africain, agissons, car l'heure a sonné pour les hommes de bonne volonté » !

3°) S'agissant du point de l'ordre du jour consacré à la femme, vous avez opéré un retour à Adam et Hamourabi et, s'il se manifesta dans vos débats quelque réticence ou complaisance, la femme n'en a pas moins découvert dans son adversaire et néanmoins partenaire, en dépit d'inévitables enchérissements ou extrémismes, la justice et l'impartialité qu'elle était en droit d'en attendre.

Votre dialogue — et je m'adresse ici aux femmes — s'est élargi de Lalla Noura à Bounoura, de Ouaradjlane à El Atteuf et Ghardaïa, et nous vous avons dit : « Soyez, si tel est votre désir, ministres, présidentes et dayas » (1). Tous les présents ont été unanimes à reconnaître ce qu'impliquent aussi bien vos droits que d'autres considérations et impératifs, à condition toutefois que vous sachiez éviter les désordres et l'outrance et ne point ébranler la société dans ses assises !

Nous vous avons dit : « Soyez, dans tous les domaines, édificatrices avec persévérance, mais non destructrices comme Ibn Ghânia le Majorcain. N'oubliez pas que toute tyrannie est éphémère, que la mort est toujours proche, craignez d'instituer une nouvelle imposture, sinon vous n'en voudrez qu'à vous-mêmes ! »

« Ne coupez pas à l'homme de moustache pour en tisser une corde ou en faire un appendice de servilité, ne transformez pas sa dignité en impuissance et ne la considérez pas comme un fruit digne d'être dégusté !

(1) Féminin de deys, anciens chefs d'Etat d'Algérie.

A L L O C U T I O N

prononcée par Monsieur Mouloud Kassim NAIT BELKACEM,
ministre de l'Enseignement Originel et des Affaires Religieuses,
à l'occasion de la clôture des travaux du XI[e] Séminaire
sur la Pensée Islamique tenu à Ouaradjlane - Sadrata
du 17 au 26 safar 1397 (6 - 15 février 1977)

Au Nom de Dieu, le Clément, le Miséricordieux,

Que le Salut de Dieu et sa Bénédiction soient sur l'ultime de ses Prophètes et de ses Envoyés.

Messieurs et Mesdames les distingués professeurs,

Mesdames et Messieurs,

Frères étudiants, sœurs étudiantes,

Après dix jours de conférences et de débats continus, au cours desquels vous n'avez omis ni les points ni les virgules, voilà que vous en êtes à l'heure des résultats et des bilans !

Malgré la diversité des pays, des religions et des rites, malgré les différences dans les âges, les niveaux et les dons intellectuels, vous avez quand même réussi dans votre entreprise, sans pour cela aller jusqu'aux solutions extrêmes, mais sans fuir non plus vos responsabilités, et vous avez réalisé en fin de compte un notable consensus sur les résolutions et les projets que vous préconisez.

1°) Tirant les enseignements de l'histoire et de l'observation, poursuivant vos efforts, complétant les recherches livresques par vos marches dans les dunes, vous en êtes arrivés à la conclusion qu'il a existé une apogée des sciences, de la pensée et de la civilisation chez les Beni Rostom, et, loin de leur dénier cette contribution au progrès de l'humanité, vous avez tenu au contraire à leur marquer votre gratitude, en chercheurs impartiaux et intègres !

Certes ! Mais à Tihert aussi bien qu'à Sadrata et à Ouaradjlâne, le lion s'est amolli et a fui tel un mouton craintif, cet indomptable est devenu pusillanime, géant aux pieds d'argile. Le sage et le pondéré se firent agités et stupides, car les

leurs économies, paralyser les mouvements de renaissance, dénaturer les pouvoirs politiques en place dans ces pays et, en fin de compte, créer des bases monopolistes destinées à contre-carrer l'émancipation de ces peuples,

— Eu égard, par ailleurs, au sous-développement, à la subordination et aux conflits fomentés dans les pays du tiers-monde, et il n'est à ce propos que de citer l'exemple de la Palestine occupée et du Sahara Occidental, victimes de prétentions à la pérennité des intérêts étrangers au sein des pays islamiques et à la poursuite de l'exploitation de leurs ressources,

— Considérant les préjudices que nous occasionne cet état de fait à la suite des crises auxquelles fait face l'Occident sur les plans de l'environnement de l'énergie, de la pollution et de la civilisation en général, ainsi que les résultats qui en découlent et ont nom : effondrement des valeurs morales, abaissement de la dignité de l'homme dépouillé de toutes ses vertus au point de devenir un simple rouage,

— Considérant en particulier que l'Algérie socialiste s'est donné une voie prometteuse d'un grand avenir et qu'elle a réalisé dans de brefs délais le maximum de développement dans tous les domaines, et il nous a été donné de constater cette expérience positive quand au respect de ce bienfait à travers les différents stades : recherche, extraction, exploitation, transport, transformation et utilisation judicieuse de ses revenus,

— Considérant que cette politique énergétique est dans sa majeure partie orientée vers la réalisation des objectifs et des impératifs du développement lesquels embrassent l'édification aussi bien des villages socialistes en plein cœur du Sahara, que des usines et des instituts scientifiques implantés dans l'ensemble du territoire, ce qui constitue à l'évidence une manifestation éloquente de la justice sociale et de l'intégrité du pouvoir et atteste de la nécessité de promouvoir la renaissance du monde islamique.

En conséquence la Commission formule les recommandations suivantes :

1°) La création de structures nationales intégrales capables de mener à bien l'ensemble des opérations allant de la prospection des matières premières à leur transformation en produits finis, élaborés, voire dérivés, afin de sauvegarder ces richesses et de les consacrer au développement économique et social.

2°) Les pays arabes et islamiques se doivent de prélever leur suffisante part des revenus pétroliers en vue de l'investir sur place dans l'industrialisation et le développement agricole, limitant ainsi la dilapidation de ces revenus de la part d'oligarchies restreintes.

3°) Il importe de tenir compte, dans la planification de l'exploitation, de la nécessité de préserver la valeur de ses richesses, car la conservation du pétrole dans ses gîtes même est préférable au dépôt des capitaux produits par son extraction dans les banques étrangères.

4°) Il incombe aux pays islamiques producteurs d'aider les pays démunis de ces richesses et de leur faire parvenir cette aide directement et non par l'intermédiaire des banques étrangères. Les Etats islamiques de la presqu'île arabique qui sont dépourvus de ces richesses devraient notamment pouvoir en profiter.

RECOMMANDATIONS DE LA QUATRIEME COMMISSION « LES RICHESSES DU SOUS-SOL SONT-ELLES UN BIENFAIT OU UNE MALEDICTION ? »

La quatrième Commission chargée de l'étude du quatrième point figurant dans l'ordre du jour du 11ᵉ Séminaire sur la Pensée Islamique « Les ressources du sous-sol sont-elles un bienfait ou une malédiction ? », s'est réunie les 25 safar 1397 H. (14 février 1977 G.) à Ouaradjlane (Ouargla-Sadrata), sous la présidence du docteur Salah As-Saoui et en présence du docteur El Djilali Sari, rapporteur, et des membres suivants :

— Docteur Mohamed Rachidi, écrivain - Djakarta,

— Docteur David Cowan, professeur au Département des Moyen et Proche-Orient, Institut des Etudes Orientales et Africaines, Université de Londres,

— Docteur Mohamed Ali Sabri, directeur du Centre d'Etudes et d'Information musulmanes « C.E.S.I. » - Rome (Italie) et ex-directeur des programmes et des recherches pétrolières en Syrie,

— Docteur Saïd Chibane, professeur d'ophtalmologie à l'Université d'Alger,

— Madame Fadhila Kara Mostefa, professeur d'Histoire et Géographie au lycée mixte de Constantine (Algérie),

— Monsieur Mourad Zaïmi, étudiant à l'Institut de Droit et des Sciences administratives, Université de Constantine (Algérie),

Après avoir entendu les conférences et commentaires qui ont abordé les aspects essentiels historiques, géographiques, économiques, politiques et islamiques en opérant la liaison entre la situation interne des pays musulmans et la conjoncture internationale, en prenant en considération, d'une part, les potentialités du monde musulman au plan des ressources minières, et, d'autre part, ses objectifs et ses aspirations à un niveau de vie susceptible de lui assurer la place à laquelle il a droit dans l'existence,

— Considérant que les richesses du sous-sol, notamment le pétrole, jouent un rôle vital dans la réalisation des grands projets de développement, le progrès social, l'édification d'une économie de production et, partant, l'élévation du niveau de vie et tenant compte cependant du fait qu'il existe des aspects négatifs à même de transformer ce bienfait effectivement en malédiction et qu'il importe de prendre en considération le fait qu'ils ont suscité les convoitises de l'Occident traduites par le désir d'imposer son hégémonie aux pays producteurs, de frapper

valeurs morales et son système social, de prendre soin de la famille et de se préoccuper tout particulièrement de la femme, de ses droits et de ses devoirs.

2°) En ce qui concerne spécialement le monde musulman, le Séminaire recommande aux responsables et aux familles de veiller attentivement à la réalisation et à l'application des droits et des devoirs de la femme tels que prescrits par l'Islam, en conformité avec sa nature, son caractère propre et ses aptitudes surtout dans le domaine familial où elle occupe une place de choix, la famille étant la cellule sociale qui sera bonne si la femme est vertueuse et consciente, et au contraire mauvaise si la femme — tout comme l'homme — s'écarte du droit chemin.

3°) De porter un grand intérêt à l'instruction de la femme à tous les niveaux et de compléter cette instruction par une éducation authentique pour lui permettre de mieux remplir son rôle et d'assumer sa fonction sociale et éducative selon les objectifs et l'éthique islamiques.

4°) De dispenser, particulièrement à la fille musulmane, une éducation religieuse embrassant les préceptes de base, le système de vie et la culture islamiques, et ce, à tous les stades, afin d'assurer la compréhension de ces principes et leur application pour le plus grand bien de l'individu, de la famille et de la société.

5°) D'élaborer des programmes et de mettre en œuvre des moyens adéquats pour assurer la prise de conscience et la culture de la femme rurale.

6°) De préserver une tenue vestimentaire décente et correcte de la femme à l'extérieur comme à l'intérieur de son foyer, selon les précepts du Coran et la Tradition établie du Prophète, car cela contribue à la sauvegarde de la femme, de l'homme, de la famille et de la société.

7°) D'aider la femme et la famille musulmanes vivant dans les pays non musulmans à atteindre une promotion culturelle islamique et à assurer à leurs enfants une éducation convenable conforme aux méthodes modernes, afin de garantir au foyer musulman dans ces pays une existence digne et juste ; d'attirer l'attention de la femme musulmane sur la nécessité d'éviter certains comportements ne correspondant pas aux préceptes et à la bienséance islamiques.

La Commission recommande également d'exhorter les Etats et les organisations islamiques à assurer cette aide par tous les moyens possibles matériels et humains.

— L'étudiante Aïcha Messahel, Faculté des Sciences, Université d'Alger »

— L'étudiant El Hillali Allouche, Institut des Sciences Politiques et d'Information, Université d'Alger »

La troisième commission chargée d'étudier le troisième point du programme du 11e Séminaire sur la Pensée Islamique, à savoir « LA FEMME APRES L'ANNEE DE LA FEMME... », s'est réunie le 25 safar 1397 H. (14 février 1977). Après avoir passé en revue les conférences, commentaires et débats qui ont trait au thème suscité et examiné le problème des droits et des devoirs de la femme, notamment son droit à la liberté et les limites de celle-ci, eu égard à sa nature et à ses caractéristiques spécifiques, afin de remplir au mieux sa fonction première dans la société humaine, au sein de la famille et hors du foyer ; après avoir examiné, par ailleurs, le problème du travail de la femme dans ses aspects positifs et négatifs ainsi que les conséquences de celui-ci sur les plans social, économique, moral et éducatif, la Commission est arrivée à la conviction que les libertés et les droits conférés à la femme musulmane, par l'Islam et sa doctrine, les devoirs prescrits par le Saint Coran et les Traditions du Prophète (que le salut soit sur lui) constituent les meilleurs droits et devoirs pour lui permettre de jouer son rôle de choix dans une société saine. Ces droits et devoirs sont seuls susceptibles de garantir à la femme musulmane sa dignité, son immunité et sa protection ainsi qu'une vie honorable au cours de toutes les étapes de son existence.

L'Islam a orienté les activités de l'homme et de la femme dans les différents domaines de la vie d'une société équilibrée, activités communes et singulières selon ce que Dieu a mis en chacun d'eux de spécifique et de particulier. Le domaine essentiel des activités de la femme se trouve à l'intérieur du foyer, tandis que celui de l'homme se trouve à l'extérieur, ceci dans le but de sauvegarder la famille, cellule de base de la société, de la préserver des facteurs de dégradation et d'en faire le berceau béni pour la formation, de générations saines. La femme est sœur de l'homme, comme l'a enseigné le Prophète (que le salut soit sur lui). Elle a autant de droits que de devoirs, selon les injonctions du Coran. Mais de la diversité de particularités respectives de l'homme et de la femme découle une diversité de leurs tâches, et ce, afin de répondre aux exigences d'une vie de progrès et de concrétiser les principes d'égalité et de justice.

La Commission constate que l'instruction dispensée à la femme doit être à même de l'amener au niveau le plus élevé. Cette instruction doit sauvegarder sa foi et être conforme à ses particularités et à sa fonction dans le cadre de la société musulmane, cadre qui doit par ailleurs assurer la promotion de la femme aussi bien dans la villes que dans les campagnes. L'authenticité doit être le trait dominant et essentiel de l'instruction de la femme, de sa culture et de ses activités.

A la lumière de ce qui précède, les membres de la Commission, à l'unanimité, formulent les recommandations suivante :

RECOMMANDATIONS

1°) Le Séminaire recommande aux gouvernants ainsi qu'aux familles des divers Etats à l'échelle mondiale, à chacun selon ses convictions religieuses, ses

RECOMMANDATIONS DE LA TROISIEME COMMISSION

« LA FEMME APRES L'ANNEE DE LA FEMME... »

Membres :

— Docteur Mustapha Ahmed Az-Zerka (Syrie), professeur à la Faculté de la Chariaâ, Université Jordanienne - Amman - et ancien ministre de la Justice — Président

— Docteur Omar At-Toummi Chibani, professeur à la Faculté de l'Education, Université d'Al-Fath - Tripoli (Libye) et professeur associé à l'Université du Michigan (U.S.A.) — Rapporteur

— Docteur Parveen Shaukat Ali, professeur assistante à l'Institut Maclaghan Trining - Lahore (Pakistan) — Membre

— Docteur El Hibr Youcef Nour Addaïm, professeur à la Faculté des Lettres, Université de Khartoum (Soudan) — »

— Monsieur Mohamed Sadek Bessies, professeur à la Faculté Ezzaïtounia de la Chariâa et Oussoul Eddine - Tunis, — »

— Docteur Abdelkarim Saïtoh, professeur d'Economie à l'Université Takashuku - Tokyo,

— Monsieur Lekhel Ben Haoua, avocat à la Cour - Alger, — »

— Madame Fatima Heeren-Sarka, Centre Islamique de Munich (R.F.A.) — »

— Madame Mireille Abeille (France), économiste (ex-enseignante à l'Université de Trivandrum (Inde). — »

— Monsieur El Hadi Khasrou Chahi, directeur du Centre des Recherches Islamiques Qom (Iran). — »

— Monsieur Mohamed Mujtahid Chabestari (Iran), directeur du Centre Islamique de Hambourg (R.F.A.), — »

— Monsieur Abderrahmane Chibane, inspecteur général au Ministère des Enseignements Primaire et Secondaire - Alger — »

— Docteur Kheir Allah Assar (Syrie), professeur à la Faculté des Lettres, Université d'Annaba (Algérie) — »

— Monsieur Habib Boukhressa, membre du Front Polisario — »
(R.A.S.D.) — »

1°) Entreprendre des études complémentaires et exhaustives des problèmes et des éléments relatifs à l'Islam en Afrique aujourd'hui, ces derniers méritant une étude plus approfondie.

2°) Prendre en charge les causes et les problèmes auxquels sont confrontés les Musulmans de l'Afrique Noire et déployer des efforts pour doter ces pays de tous les moyens dont ils ont besoin pour une connaissance plus approfondie des sciences islamiques, mettre à leur disposition des enseignants et des ouvrages traitant des matières islamiques, afin de leur permettre une meilleure connaissance des sources et des enseignements authentiques de l'Islam.

3°) Former un personnel qualifié pour assurer une plus ample connaissance de l'Islam, des hommes du culte et des prédicateurs à même de combler ce vide en Afrique Occidentale, Centrale et Orientale.

Il serait souhaitable qu'il y ait un plus grand nombre de prédicateurs parmi les Africains mêmes pourvus d'une authentique formation islamique et intellectuelle.

4°) Inviter les Etats musulmans et leur organisation (Conférence des Etats Islamiques) ainsi que d'autres organismes représentatifs à contribuer à la création d'une institution chargée de la diffusion de l'Islam grâce à l'assistance technique, scientifique et économique aux pays qui en éprouvent le besoin.

Au Nom de Dieu le Clément le Miséricordieux.

RECOMMANDATIONS DE LA DEUXIEME COMMISSION

Les membres de la deuxième commission, conférenciers et participants aux débats, se sont réunis le 23 safar 1397 H. (12 février 1977) pour étudier le deuxième point intitulé : « L'ISLAM EN AFRIQUE AUJOURD'HUI ».

Ont participé à cette commission :

— Docteur Mohamed Abdallah Inâne, historien et membre de l'Académie de langue arabe du Caire,	Président
— Docteur Abdelhalim Aouis, professeur à la Faculté de la Chariaâ Université Islamique de l'imam Mohamed Ibn Saoud - Ryadh (Arabie Saoudite)	Rapporteur
— Docteur William Montgomery Watt, professeur au Département des études arabes et islamiques, Université d'Edimbourg (Grande Bretagne)	Membre
— Docteur Mahmoud Diab, écrivain, Le Caire,	»
— Docteur Dennis Walker, professeur au Département des études du Moyen Orient, Université de Melbourne (Australie)	»
— Cheikh Souleiman Daoud Ben Youcef, chercheur en Histoire (Algérie)	»
— Docteur Mahmoud Mansour, Ligue des Etats Arabes - Le Caire.	»
— Monsieur Mohamed Lakhdar Abdelkader Essaïhi, membre de l'Union des Ecrivains Algériens et chef du Bureau d'Arabisation au Ministère de la Jeunesse et des Sports - Alger	»

La Commission a évoqué les études relatives à : « L'ISLAM EN AFRIQUE AUJOURD'HUI », présentées par les professeurs prescités, de même que les débats qui s'ensuivirent.

Elle a conclu, à l'issue de ces exposés et de ces débats que beaucoup d'aspects relatifs au fond du sujet on été traités puis elle a constaté néanmoins — à la lumière des débats instaurés autour de ce thème — que beaucoup de ses autres volets nécessitent un complément d'étude et de recherche, d'où elle estime nécessaire de formuler les recommandations ci-après :

3°) Pour compléter les efforts mentionnés dans les deux points précédents, la commission estime que les organismes spécialisés devraient encourager les fouilles, la recherche et la collecte des vestiges rostomides en général, ibadites en particulier, et entreprendre des démarches pour la récupération de tout ce qui se rapporte à la civilisation rostomide et qui a été transféré à l'étranger au temps de l'occupation ; enfin lancer un appel aux archéologues musulmans afin de susciter chez eux un intérêt pour les vestiges ibadites.

4°) Dans le souci de parfaire les études sus-mentionnées la commission recommande de procéder parallèlement à un examen du patrimoine et de la société ibadite d'une manière scientifique et insiter comporter les aspects ethnographiques, démographiques et sociologiques.

Bien que la Commission soit consciente des difficultés que pourrait comporter pareille entreprise, elle recommande aux universités d'encourager vivement ce genre d'études dans le cadre des recherches portant sur la société algérienne et la société arabe en général.

5°) La commission propose la constitution d'une commission ad hoc composée de Messieurs : El Mehdi Bouabdelli, Souleimane Daoud Ben Youcef, Amar Khalifa An-Nâmi et Ferhat El Djâbiri, chargée de réaliser la publication d'un inventaire des recherches et études sur les Ibadites d'hier et d'aujourd'hui. Seront chargés des études et investigations différents chercheurs appartenant à divers pays, en sorte que le résultat de ces travaux soit remis en décembre 1978 et que la commission ad hoc, soit en mesure de procéder à l'élaboration de l'ouvrage et à son impression au cours de l'année 1979.

La commission formule le souhait que cette suggestion trouve un écho favorable auprès des autorités responsables du Ministère de l'Enseignement Originel et des Affaires Religieuses et propose que l'ouvrage soit publié sous son patronage.

6°) La commission estime que les chercheurs spécialisés dans les rites islamiques devraient se pencher sur ces études, étant entendu que ces dernières devront avoir un caractère scientifique et objectif et englober les sectes et les rites islamiques qui ont eu un rôle influent au cours de l'Histoire de l'Islam.

En conclusion, la commission attire l'attention, en ce qui concerne ces recherches, sur la nécessité de faire la distinction entre la méthode historique et la méthode théologique en rapport avec ces sectes. Elle préconise le recours aux deux méthodes, en vue d'enrichir la pensée islamique contemporaine et de susciter une plus large ouverture entre les Musulmans des différents rites

— Monsieur Ismaïl El Arabi, historien et conseiller à la S.N.E.D. Algérie »

— Monsieur Mohamed Chérif Toualbi, professeur au lycée El-Mokrani Ben Aknoun (Alger) »

— Monsieur Ounis Gregah, étudiant à la Faculté de Droit, Université de Annaba - Algérie »

— M[lle] Fatma Bennouh, institutrice à Hussein-Dey — Alger Algérie »

Dans le cadre du 11e Séminaire sur la Pensée Islamique tenu à Ouaradjlane (Ouargla - Sédrata) en République Algérienne Démocratique et Populaire, du 17 au 26 safar 1397 H. (6 au 15 février 1977), sous le patronage du Ministère de l'Enseignement Originel et des Affaires Religieuses, la commission chargée d'examiner le premier point « Apport des Rostomides à la civilisation et à la pensée islamiques », s'est réunie le 23 safar 1397 H. (12 février 1977).

Sur la base des conférences, débats et interventions se rapportant au thème indiqué ci-dessus et après l'audition des diverses opinions formulées par les membres de la commission, cette dernière a estimé de son devoir de souligner les efforts déployés par le Ministère de l'Enseignement Originel et des Affaires Religieuses, en le remerciant de réserver chaque année, dans l'ordre du jour du Séminaire, un point destiné à l'étude des aspects historiques de la région où se tiennent ces réunions.

Considérant que Ouargla, siège du 11e Séminaire sur la Pensée Islamique, fut le centre d'une civilisation islamique ibadite prospère, comme en témoigne l'histoire de la dynastie rostomide, la commission a pris conscience de l'importance du patrimoine ibadite en tant que partie considérable de l'ensemble du legs arabo-islamique.

Considérant que ce legs demeure inconnu à la grande majorité des membres de la nation islamique, alors qu'il mérite toute attention et tous soins de leur part, la commission recommande :

1°) Que le Ministère de l'Enseignement Originel et des Affaires Religieuses accorde son intérêt à la mise en valeur du patrimoine culturel ibadite, sous ses divers aspects. Il pourrait confier à certaines personnes la tâche de rechercher les manuscrits se trouvant encore dans des collections privées ou chez des collectivités ibadites, afin de les recueillir et de les éditer. Le Ministère pourrait également dresser une bibliographie générale exhaustive qui engloberait tous les ouvrages ibadites dispersés à travers le monde. A cet effet, un chercheur à la fois qualifié et expérimenté pourrait être désigné (N.B. : la commission rend hommage à ce sujet à la longue expérience du docteur Amar Khelifa An-Nâmi (Libye).

2°) La commission recommande également, en ce qui concerne les efforts destinés à la régénération de l'héritage culturel ibadite, de recenser les thèses et les mémoires discutés dans les différentes universités ayant pour thème l'histoire et la doctrine ibadite, de réaliser des micro-films et de les mettre à la disposition des chercheurs.

Au Nom de Dieu le Clément le Miséricordieux.

RECOMMANDATIONS DE LA PREMIERE COMMISSION

Thème : Apport des Rostomides à la civilisation et à la pensée islamiques :
Composition de la commission :

— Docteur Ihsân Abbas (Palestine) professeur à l'Université américaine de Beyrouth (Liban) et professeur associé à l'Université Princeton (U.S.A.)	Président
— Docteur Widad El Kâdhi, professeur à l'Université américaine de Beyrouth (Liban), professeur associée à l'Université Harvard (U.S.A.)	rapporteur
— Cheikh Souleiman Daoud ben Youcef, historien, Algérie	Membre
— Monsieur El Mahdi Bouabdelli, Historien, chargé de mission au Ministère de l'Enseignement Originel et des Affaires Religieuses et membre du Centre National d'Etudes Historiques, Algérie	»
— Docteur Mohamed Arkoun (Algérie), professeur de philosophie islamique à la Nouvelle Sorbonne, Paris,	»
— Docteur Salvador Gomez Nogalès, chef du Département de Madrid.	»
— Docteur Maria Jésus Viguera, professeur au Département arabe et islamique, Université Complutense, Madrid,	»
— Docteur Ibrahim Fekhar, professeur d'Histoire à l'Institut des sciences sociales, Université d'Oran (Algérie)	»
— Docteur Amar Khalifa En-Nâmi, professeur de Littérature et des études islamiques à l'Université d'Al Fâth, Tripoli (Libye) et professeur associé à l'Université Michigan (U.S.A.)	»
— Docteur Abdelhalim Aouis (R.E.A.), professeur à la Faculté de la Chariaâ, Université islamique de l'imam Ibn Saoud - Ryad (Arabie Saoudite)	»
— Docteur Farhat El-Djâbiri, professeur au lycée Az-Zahra, Tunis,	»

faits que dans le cadre d'un développement global auto-centré impliquant nécessairement au départ un contrôle direct des richesses du sous-sol au profit exclusif des masses populaires.

Telles sont ,en définitive, les conditions d'une exploitation authentique des richesses du sous-sol pour créer les conditions d'un développement global, le seul qui puisse consolider la souveraineté nationale d'une part, et favoriser la promotion des masses populaires, d'autre part.

CONCLUSION

Désormais les ressources du sous-sol jouent un rôle très important dans le développement à la suite de la mobilisation massive des matières énergétiques. C'est grâce à ces moyens que la transformation de certains pays et régions est devenue effective. De nouvelles perspectives s'ouvrent et tendent même à dépasser le cadre étroit de notre planète.

Mais très vite, il en est résulté des problèmes et dangers que mettent bien en évidence les disparités existant entre le monde développé et le monde sous-développé, alors que l'avance et les progrès du premier se poursuivent bien souvent au détriment du second. Les richesses minières ne sont point concentrées, mais sont très dispersées à travers les pays. De plus, il existe de nombreux liens très étroits entre les deux mondes, mais ces rapports ont été établis et sont toujours contrôlés par les pays industrialisés.

Aussi convient-il de les modifier, en remettant en cause directement les structures politiques et économiques dans lesquelles se débattent les Etats du Tiers-Monde. Ceux-ci doivent disposer librement de leurs ressources afin qu'ils puissent les mettre en valeur au profit des masses populaires, étape indispensable pour le décollage économique. N'est-il point là l'objectif des peuples ? Le développement n'est-il pas la voie la plus directe pour rapprocher les peuples ?

Djilali SARI

NOTES

(1) J.A. Lessourd et C. Gérard : Histoire économique, XIX^{e} et XX^{e} siècle, Paris 1963, A. Colin, Collection U.

(2) J. Beaujou - Garnier : Images économiques du Monde. Paris, 1975, p. 53.

(3) J. Beaujeu - Garnier, op. cit. p. 55-59.

(4) Finances et Développement, Washington, 1972, BIRD.

(5) Beaujeu - Garnier, op. cit.

(6) Le jeu de l'oie du pétrole, Le Monde, Paris, 18-11-78.

(7) Destannes de Bernis : Les industries industrialisantes et les options algériennes, Revue du Tiers-Monde, Paris, juillet - Septembre 1971, n° 47, p. 545-584.

tionales. Une telle main-mise aliène dangereusement la souveraineté nationale de nombreux pays.

Cette situation est donc très dangereuse car elle renforce l'oppression des peuples et accroît en conséquence leur dépendance politique. Aussi la libre disposition des ressources au profit exclusif des masses est-il inséparable de toute libération politique authentique. Cette dernière constitue incontestablement une condition siné qua nun ; et d'elle dépendent d'autres conditions sur le plan interne. Cependant, en dépit de tous les efforts à déployer sur ce plan, des obstacles demeurent encore sur le plan externe. Les pays concernés, en l'occurence les pays sous-développés, doivent coopérer en se solidarisant, en harmonisant leur politique même s'il le faut dans le cadre de programmes limités. Ils doivent aussi approfondir l'analyse de l'analyse de l'ordre économique international, à l'exemple de l'Occident.

De tels efforts seront très fructueux comme le montre l'exemple de l'OPEP qui a obtenu de bons résultats et qui a fini par contraindre les pays développés à accepter un dialogue avec les pays sous-développés sur l'ensemble des problèmes pendants entre les interlocuteurs, et ne point limiter le débat au seul problème de l'énergie.

Mais le chemin est encore loin et difficile à franchir comme le soulignent les événements récents. Il faut que les pays producteurs de matières premières conjuguent leurs efforts plus que jamais, l'objectif a atteindre étant la consolidation de l'indépendance politique au service d'un développement global, et non la croissance d'un secteur donné. Toutes les analyses insistent sur cette idée-clé : *le développement ne peut se confondre avec la croissance d'un ou deux produits même s'il s'agit de ressources stratégiques.* De même, le développement ne saurait se réduire à la croissance d'un secteur déterminé, même dans le cas de certaines branches d'industries dynamiques, car à l'heure actuelle les produits alimentaires jouent un rôle très importants. C'est désormais une arme au service de l'Occident.

Le développement est donc tout autre. C'est une étape ultime qui apparaît peu à peu lorsque les conditions analysées ci-dessus sont remplies et lorsque se réalisent de profondes transformations tant sur les plans économique que social. Au niveau du premier, le principal rôle peut revenir soit à l'agriculture soit à l'industrie, ou même aux deux simultanément. Dans tous les cas, le rôle de l'industrie est primordial car il est en mesure d'agir efficacement sur l'agriculture en l'approvisionnant en engins mécaniques, appareillages électriques et en produits chimiques divers. C'est grâce à cette intégration que la lutte contre le sous-emploi et le chomage déguisé s'intensifie dans les campagnes.

Mais d'autres conditions sont nécessaires pour atteindre cet objectif, notamment lorsqu'on parvient à mettre en place une série d'industries industrialisantes (7) d'une part, et lorsqu'il y a une meilleure coordination entre ces industries et le développement des autres secteurs, d'autre part. De plus ces activités doivent être auto-centrées afin qu'elles entraînent le maximum d'effets sur le plan social.

En effet dans de telles conditions, on peut assister à des tranformations sociales profondes. La création et le renforcement de chaque industrie par exemple exigent la création de nombreux emplois à tous les niveaux, renforçant ainsi les structures de formation et d'encadrement et impliquant aussi et surtout une démocratisation de l'enseignement. Il en va de même également des activités culturelles et de la recherche scientifique. Or tout cela ne peut se traduire dans les

Bolivie pour l'étain, ou le Zaïre pour le cobalt, d'où la consolidation des rapports inter-américains et ceux des continents africain et asiatique avec l'occident, exception faite de la République Démocratique de Chine.

De tels liens sont bien mis en évidence par le flux des matières énergétiques principalement le pétrole à l'heure actuelle, et le gaz naturel à l'avenir, puisque les centres de production ne coincident pas avec les centres de traitement et de consommation. Le Moyen-Orient est devenu très vite une des principales zones d'exploitation, sa part dans le tonnage mondial est passée très vite de 4,3 % en 1946 (16 M t) à 22 % en 1955 (170 M t) puis s'est élevée à 33,7 % en 1975 en s'approchant de 1 M2 t (5). De plus des statistiques récentes montrent que c'est l'Arabie Séoudite qui occupe maintenant la première place, au lieu des USA.

Les réserves de l'Arabie sont très importantes et autorisent un accroissement sensible de l'exploitation. Il en est de même également des autres pays de la région dont le rôle dans ce domaine est appelé à s'accroître, car il s'agit de matières stratégiques par excellence. En effet, leurs dérivés, qu'il s'agisse de combustibles, de matières plastiques, d'engrais chimiques ou de textiles artificiels, jouent un rôle de premier plan dans l'économie mondiale d'autant plus que la pétrochimie est localisée essentiellement en Occident et au Japon.

Tel est donc le rôle qui revient au Tiers-Monde dans le développement général des pays industriels. Désormais les industries de ces derniers ne peuvent se passer des ressources extraites des gisements situées à travers la planète comme on l'a pu constater en 1973-74 à la suite de la réduction de production pétrolière. Or cette dépendance se retrouve également à d'autres niveaux en particulier au niveau des investissements. L'Occident accueille annuellement des capitaux très importants en provenance des pays producteurs de pétrole du Moyen-Orient (pétro-dollars). Leur valeur a été estimée en 1975 à 40 milliards de dollars (6), soit l'équivalent de la moitié des réserves en devises et en or de tout l'Occident.

III — CONDITIONS D'UNE MEILLEURE EXPLOITATION DES RICHESSES ET MOYEN DE LIBERATION :

Comme les richesses du sous-sol constituent un des facteurs de l'essor économique mondial, il convient de s'interroger sur les autres facteurs en tirant les enseignements de l'expérience du monde développé, même si les conditions de cette dernière diffèrent de la situation qui prévoit actuellement dans le Tiers-Monde. Il y a lieu donc d'examiner de très près cette situation afin de bien cerner les obstacles qu'elle renferme et qui constituent autant de blocages.

En fait, ces obstacles, tant sur le plan national qu'international, découlent de l'ordre économique international. C'est bien cet ordre qui a renforcé toujours la dépendance du Tiers-Monde et aggrave son approvisionnement sans cesse. C'est ainsi qu'en dépit de la hausse récente des matières premières, la détérioration des termes de l'échange s'accroît et aggrave l'érosion du pouvoir d'achat des pays sous-développés d'autant plus que ces derniers sont contraints d'accroître leurs importations et doivent expatrier une partie de leur main-d'œuvre, sans contrepartie pour la préparation de cette population.

Par ailleurs, on observe aussi d'autres relations similaires qui s'effectuent au profit des pays développés. En effet, compte-tenu de ses acquis et avances, des secteurs aussi vitaux que les transports, les télécommunications et l'information sont toujours monopolisés par les grandes firmes internationales et les multina-

II — PROBLEMES ET DANGERS DE L'ORDRE ECONOMIQUE INTERNATIONAL :

Les grandes transformations économiques que connait le monde au cours de ces dernières décennies dont généralement au service de minorités, alors qu'il en résulte de graves problèmes et dangers pour la grande majorité de l'humanité.

1) - *Déséquilibres et antagonismes :*

Si les richesses minières ne se concentrent pas dans quelques contrées mais se dispersent à travers le monde, les matières énergétiques et en particulier celles qui jouent un rôle vital dans les industries récentes, ne se localisent pas directement dans les pays qui les transforment. Or leurs exploitation et consommation ne concernent pratiquement que le quart de l'humanité seulement,, alors que les potentialités et réserves du Tiers-Monde sont très importantes et nombre de ses pays viennent en tête pour la production d'un certain nombre de matières premières. Une telle situation apparaît également dans l'observation suivante, celle qui rend compte des grandes disparités à travers la planète.

C'est ainsi que le revenu annuel par habitant pour le quart de l'humanité est d'environ 2.000 dollars et peut atteindre jusqu'à 4.000 dollars, alors que la moyenne pour les 3/4 des populations mondiales tombe à 100 dollars. Quant aux disparités entre les continents et régions, elles sont également très grandes. L'Amérique du Nord qui ne compte que 4 % seulement de la population mondiale se réserve 43 % des revenus, alors que l'Amérique Latine qui regroupe sensiblement la même proportion de la population ne bénéficie que de 4,5 % des revenus. Quant au continent asiatique qui est peuplé de 54 %, il ne dispose que de 12 % seulement (4).

Ce sont également les mêmes disparités qu'on observe en ce qui concerne la consommation des produits fabriqués et l'énergie, alors que les rapports entre monde industriel et monde sous-développé sont étroits, les matières du sous-sol du second étant traités par les industries du premier. Or si la consommation énergétique est dérisoire et reste peu différent de 100 Kg/hab. dans ce dernier, elle atteint dans le premier 10 T. En considérant un autre critère on observe aussi que la consommation d'acier a de grandes disparités : la valeur est de 300 Kg/an/habitant dans les pays sous-développés, contre 437 à 721 Kg en Europe Occidental. Il en est de même des autres secteurs, notamment les produits alimentaires et la production culturelle. Aussi la situation sanitaire est-elle très déficiente dans le Tiers-Monde et il en va de même de la vie scientifique et culturelle. Est-ce alors la conséquence d'un manque de ressources ?

2) - *Rôle du Tiers-Monde dans le développement mondial :*

Si la part du monde sous-développé est très faible en ce qui concerne la consommation de produits fabriqués, son rôle est très important dans la production de matières premières et en particulier les hydrocarbures, même si ces derniers demeurent relativement concentrés au profit d'un nombre limité de pays.

Très vite la contribution du Tiers-Monde s'est accrue régulièrement et s'est même imposée après la seconde Guerre Mondiale, tant en ce qui concerne les matières premières que les ressources énergétiques. Cette contribution a trait notamment aux minerais de beauxite, de chrome, de cobalt, d'étain, de mercure, de nickel, de manganèse et de cuivre. De plus, la production de nombreux pays tend à se spécialiser dans un ou deux produits. C'est le cas, par exemple, de la

des produits pétroliers, lesquelles ont révolutionné les moyens de transports et de télécommunications.

2) *La prééminence de nouvelles énergies :*

Très vite de nouvelles formes d'énergies ont supplanté la houille grâce en particulier à leur spécifité et la diversification des formes de leur utilisation, principalement dans la navigation aérienne et la conquête de l'espace.

Quant à l'énergie électrique, elle a un rôle déterminé dans certaines branches industrielles. C'est ainsi qu'elle est irremplaçable dans la production d'aluminium, du cuivre et zinc. Son rôle n'est pas moins important aussi bien dans les transports et la vie quotidienne. Elle est indispensable en particulier dans le domaine des télécommunications, la télévision, les machines de bureau, l'électro-ménager. Aussi l'accroissement de la production mondiale est-il spectaculaire comme le soulignent bien les statistiques. Elle est passée de 464.200 KW en 1938 à 6.248.000 KW en 1974 (2). Durant la même période, la production des U.S.A. est passée de 141.955 à 1.241.095 MK, celle de l'URSS de 39.400 à 1.036.000 KW. On sait que cette énergie peut être aussi bien d'origine hydro-électrique que calorifique. De plus en plus, elle est produite à partir de centrales utilisant le gaz naturel, d'où l'importance de cette ressource.

Une telle importance concerne aussi le pétrole dont la primauté s'est imposé au cours des dernières décennies, comme le montre les statistiques suivantes. La production mondiale, en passant de 271 M t en 1938 à 772 M t en 1955 puis à 2.870 M t en 1974 (3) s'est décuplée en l'espace de 36 années. Il en est de même pratiquement de la production du gaz naturel dont le volume total est passé de 300.000 M m3 en 1955 à 1.272.000 M m3 en 1974, même si son pourcentage par rapport au bilan énergétique total est encore restreint.

Ainsi la prééminence des hydrocarbures est incontestable. Ce sont non seulement des sources énergétiques mais aussi des matières premières très recherchées par les industries modernes, notamment la pétrochimie. En effet, après le raffinage, on obtient des produits et sous-produits tels que l'éthylène, le butane, le propane, des alcools, des matières plastiques. Lesquels animent à leur tour de nombreuses industries. Or les dérivés de ces dernières jouent actuellement un rôle très important, en se substituant à de nombreuses matières, tels que le bois, le verre, l'acier parfois, les matières textiles traditionnels, laine, coton et soie. L'avantage de ces industries sont nombreux : la modicité des prix et la diversification des usages. Aussi supplantent-elles de plus en plus les industries du siècle dernier, en particulier la carbo-chimie. De plus elles s'affirment dans de nombreux domaines, aussi bien dans l'agriculture grâce à la consommation massive de produits chimiques, que dans la navigation maritime à la suite du développement prodigieux de la flotte des tanckers et prochainement de celles des méthaniers.

Ainsi les richesses du sous-sol jouent un rôle déterminant dans le secteur industriel que dans les autres secteurs économiques, notamment dans l'agriculture, les transports, les télécommunications et les transformations technologiques. Elles sont à l'origine des transformations radicales intervenues récemment dans le monde. Mais sont-elles au profit des masses, ou sont-elles restées concentrées au contraire au profit de minorités et dans des pays déterminés ? Qu'elles en sont alors dans de telles conditions, les conséquences et les effets ?

I — ROLE DES RICHESSES DU SOUS-SOL DANS LA TRANSFORMATION DE L'ECONOMIE MONDIALE :

Ce rôle décisif ne s'est imposé qu'à la suite de la maîtrise des formes d'énergie et leur consommation massive. C'est l'utilisation successive de la houille, de l'électricité et surtout du pétrole qui a permis la transformation radicale de certains pays et régions, ainsi que celle des conditions de vie de certains peuples.

1) - *La révolution industrielle et les richesses du sous-sol :*

Ce sont avant tout les applications du principe de la machine à vapeur qui ont permis à l'humanité de franchir une étape décisive de son histoire, principalement dans les pays où les conditions ont été réunies, notamment ceux dont le sous-sol recèlent d'importants gisements de houille, de minerais de fer et d'autres ressources. En effet, depuis le début du XIXe siècle, cette énergie anime un certain nombre d'industrie, notamment les textiles, la métallurgie, et actionne deux moyens de transport : les chemins de fer à partir de 1830 et les bateaux à vapeur. Aussi la production mondiale de houille est-elle passée de 100 Mt en 1850 à 1.330 M t en 1913, devenant ainsi l'expression directe de tout essor et vitalité économique, d'autant plus cette production n'a concerné qu'un nombre limité de pays en Europe Occidentale et en Amérique du Nord. C'est ainsi que le tiers revient aux Etats-Unis à la veille de la première Guerre Mondiale (513 M t), le quart à la Grande-Bretagne (60 % en 1890), 23 % à l'Allemagne et le reste aux autres pays de l'Europe Occidentale et la Russie (1).

Cette concentration s'observé également à propos de la production des minerais de fer. Le volume de quatre producteurs s'est élevé à 123 Mt, contre 168 M t pour le tonnage mondial. 60 M t reviennent aux U.S.A., 23 à l'Allemagne, 21 M t à la France et 15 M t à la Grande-Bretagne. C'est donc grâce à de telles quantités que ces pays ont acquis une puissance considérable et sont parvenus à dominer le monde.

Ainsi s'expliquent le renforcement et la diversification de l'industrie à la suite du développement prodigieux de la sidérurgie, laquelle anime depuis le milieu du XIXe siècle de nombreuses branches tels que les constructions mécaniques, les machines-outils, l'industrie du bâtiment, la papeterie, l'imprimerie... Or toutes ces industries consomment de grosses quantités de minerais, aussi bien ferreux que non ferreux, comme les minerais de cuivre, de plomb, de zinc. De plus l'emploi de ces matières dont certaines sont très éloignées des centres de transformation ne pose pratiquement pas de problèmes, grâce en particulier au développement des transports maritimes.

D'autre part, cet essor général, ne s'est pas limité seulement au domaine industriel mais il s'est étendu aussi très vite à l'agriculture. Cette dernière s'est transformée radicalement grâce à la généralisation de la mécanisation qui a permis la mise en valeur de nouvelles terres en Amérique, en Australie et ailleurs, parallèlement à l'introduction de nouvelles cultures. Tout cela s'est traduit par un accroissement spectaculaire de la production, et sa diversification, parallèlement au renforcement du commerce mondial et la satisfaction des besoins dans les pays développés.

D'autres inventions et applications sont intervenues par la suite, dans la deuxième moitié du XIXe siècle et sont à l'origine d'une deuxième révolution industrielle. Ce sont la production industrielle de l'électricité et la consommation

PAS DE DEVELOPPEMENT SANS L'EXPLOITATION ET LA MAITRISE DIRECTE DES RICHESSES DU SOUS-SOL

par Monsieur Djilali Sari
Professeur
à l'Institut de Géographie
Université d'Alger

LE DEVELOPPEMENT EST INDISSOCIABLE DU CONTROLE DIRECTE DES RICHESSES DU SOUS-SOL ET LEUR REVALORISATION

L'utilisation massive des richesses du sous-sol est relativement récente et n'a été rendue possible qu'à la suite de la convergence d'inventions techniques survenues à la fin du XVIIIe siècle dans les domaines de l'énergie et de la sidérurgie en particulier, puis quelques décennies après par la mobilisation de nouvelles formes d'énergie : l'électricté et le pétrole. Ce fut le point de départ d'une série de transformations et de progrès économiques, scientifiques et sociaux.

Cependant ces résultats spectaculaires soulèvent plus que jamais de graves problèmes que soulignent bien les déséquilibres et disparités à l'heure actuelle. En effet, les pays développés qui en sont les principaux bénéficiaires ne représentent que le quart de la population mondiale, alors que les pays sous-développés qui regroupent les 3/4 de l'humanité sont très favorisés. Ils sont même exposés à de nombreuses calamités et soumis à de mutliples formes d'oppresion.

Une telle situation est d'autant plus dangereuse que les disparités ne cessent de s'accroître et de se renforcer. Est-elle alors la conséquence de leur pauvreté, ou est-elle, au contraire, en rapport avec les structures politiques et économiques, puisque le Tiers-Monde contribue bien au développement mondial à la fois par ses ressources humaines et matérielles ? Nombre de ses pays occupent une place de choix dans la production de matières premières très recherchées par des industries vitales.

Tels sont les problèmes que nous allons analyser en abordant les points suivants :

— Rôles des richesses du sous-sol dans les transformations de l'économie mondiale ;

— Problèmes et dangers de l'ordre économique international ;

— Conditions d'une meilleure exploitation des richesses du sous-sol et moyen de libération.

ment nationaliste dirigé par Saâd Zaghloul, celle des syriennes, des irakiennes et le rôle considérable que l'algérienne a mené pendant la guerre de libération de même que les autres femmes du monde arabe contemporain, de l'Irak au Maghrib sont des exemples dignes d'être cités.

Notons que la contribution de la femme dans la libération du pays n'a pas été vaine. Par le fait de libérer son pays, elle favorise son émancipation. De même qu'elle a favorisé la généralisation de l'enseignement à tous les niveaux.

Beaucoup de choses ont été faites. On estime que dans certains pays les femmes ont obtenu tous leurs droits. On la retrouve dans les carrières politiques, économiques, elles détiennent des postes de direction dans les ministères, les syndicats, la presse. Elles se sont affirmées dans les professions libérales. Mais notons que comme du reste en Italie et presque dans tous les autres pays, elles ne constituent qu'une minorité.

La promotion de la femme doit être prise dans son sens le plus large. Elle ne concerne pas certaines femmes mais toutes les femmes du monde arabe et il reste beaucoup à faire dans ce domaine en tenant compte bien entendu des principes de l'Islam.

Il est nécessaire de généraliser l'enseignement, d'améliorer la formation professionnelle et d'accorder beaucoup plus de prestations sociales, parce que la femme, en consentant un petit sacrifice, peut travailler aussi bien à l'extérieur qu'à l'intérieur tout en conciliant ses devoirs de mère et d'épouse avec ceux de son propre travail.

Et si ces premiers devoirs, à mon avis, sont très importants ,c'est parce que la famille constitue le noyau fondamental de la société ; les seconds ne le sont pas moins parce que le travail de la femme constitue une force indispensable à la société. De plus l'indépendance économique que la femme acquiert grâce au travail influe sur le statut familial, procurant ainsi une liberté d'agir et de penser.

Je répète donc qu'il reste beaucoup à faire, non seulement pour la femme arabe mais pour toutes les femmes du monde. Je suis convaincue que notre lutte portera ses fruits grâce à la coopération entre toutes femmes du monde, renforcée par l'aide des hommes afin de promouvoir l'égalité non seulement en droit, mais aussi dans la vie quotidienne. Grâce à cette coopération la femme a la possibilité de jouer un rôle important dans la construction d'un nouveau monde basé sur la coopération, l'égalité, la paix et l'amélioration des conditions de vie et la justice sociale pour tout le monde.

bonnes actions, alors qu'ils ont foi en Dieu nous les ferons vivre en une existence agréable et nous leur accorderons une rétribution supérieure à leurs actes "

Et dans la Sourate « El Houdjourate » : " O gens, nous vous avons créés hommes et femmes peuples et tribus afin que vous vous connaissiez les uns les autres, aux yeux de Dieu, le plus généreux parmi vous sera le plus pur, Dieu est le plus savant et le plus informé ". Et encore dans la Sourate des « femmes » (Sourate 4 Verset 124) : " Et quiconque — homme ou femme — fait œuvres bonnes, cependant qu'il est croyant... les voilà ceux qui entreront au paradis et on ne leur manquera pas fut-ce d'un creux de noyau de datte.

En outre, le Coran prévoit pour la femme et pour l'homme les mêmes sanctions quant à l'adultère (Sourate XXIV) Verset n° 2 « La lumière » : " La fornicatrice et le fornicateur, fouettez-les de chacun cent coups de lanière ". Et ainsi pour beaucoup d'autres types de pêchés (Sourate V, Verset 38) : " Quant au voleur et à la voleuse, à tous deux coupez la main ".

Si dans l'ordre religieux et moral musulman la femme est l'égale de l'homme, dans l'ordre juridique et politique elle lui est inférieure. La femme est exclue du pouvoir suprême, et d'autres postes importants tels que : cadi, imam, khatib, wali.

Au niveau de la justice, le témoignage d'un homme équivaut à celui de deux femmes. Dans l'héritage, contrairement à l'homme qui bénéficie d'une part entière, on ne lui attribue que la moitié. Ce phénomène n'a pas empêché la femme dans les premiers temps de l'Islam, de jouer un rôle très important aussi dans la vie publique. Il suffit pour cela de citer à titre de référence Khadidja et Aïcha. Et qui ne se souvient de femmes comme El Khansa, Soukeina bent El Hossein, Aïcha bent Tolha, Rabiâ El Adawiya, Zoubeida épouse de Ar-Rachid et Bouran épouse de El Maâmoun ?

Si la littérature nous a transmis le nom de ces femmes, qui sait combien, non moins dignes, ont vécu dans l'ombre et pourtant elles ont contribué par leur œuvre à la grandeur de l'Islam. La maitresse de maison, la paysanne, l'humble travailleuse, par leur travail constant et leur abnégation ont contribué à l'épanouissement de la civilisation arabo-islamique.

Si nous avons évoqués tous ces points, il est nécessaire d'admettre que l'influence étrangère et les nombreux événements politiques économiques et sociaux ont soumis la femme à une situation historique, la reléguant à une condition d'oppression et d'infériorité dans le contexte arabo-islamique.

Il était donc nécessaire d'améliorer la condition de la femme et de réformer la cellule familiale toujours conforme à la tradition musulmane. L'Islam a vu naitre une sorte de mouvements modernistes pour l'émancipation de la femme. Mouvements toujours animés par les hommes et les femmes. A ce propos, citons Djamel Eddine El-Afghani, Cheikh Mohamed Abdou, Kacem Amine, Cheikh Tahar El-Djaraïzi, Hoda Chaâraoui, Aïcha Taïmouniya, Mayyi Ziyadeh et tant d'autres qui ont exprimé la nécessité de l'application de l'égalité en droit et en devoir de l'homme et de la femme pour la construction d'une nouvelle communauté arabo-islamique.

Il est important qu'au moment des victorieux mouvements de libération nationale que les femmes combattent au côté des hommes pour la liberté et l'indépendance de leur pays. La participation de la femme égyptienne dans le mouve-

Voyons maintenant comment vont réellement les choses. Nous observons ce phénomène : une législation actuelle moderne, inspirée sur la vision d'une société dynamique mais introduite dans une réalité sociale ne correspondant pas aux structures mises en place ; elle est liée à une vieille structure dominée par la tradition qui voudrait faire de la femme un objet, lui réservant le droit d'avoir des activités complémentaires à celles de l'homme ou d'entreprendre des travaux manuels. De plus dans le secteur productif, la femme ne peut exercer que des fonctions subalternes : assistante sociale, institutrice, puéricultrice, nourrice, fonctions essentiellement réservées aux femmes.

Il est vrai que nous avons des femmes qui ont embrassé des professions libérales, la culture et une certaine carrière dites masculines et depuis quelques années, elles sont entrées dans le domaine politique. Notons que la majorité des femmes travaillent encore en marge du processus de production normale.

Nous pouvons maintenant conclure que la structure sociale actuelle empêche généralement la femme de considérer le travail comme une activité essentielle et non plus secondaire c'est-à-dire comme un fait provisoire, un moyen de gagner un deuxième salaire, en rejetant sa vocation, son devoir d'épouse et de mère. Mais le problème ne réside pas uniquemnet dans les structures sociales, si nous observons la situation dans d'autres pays, dans une situation plus avancée que la notre, ayant des services sociaux mieux adaptés, nous remarquons que la femme à son retour à la maison recommence à travailler : dans le fond l'égalité oblige la femme à travailler double.

Je ne pense pas que l'on puisse trouver des solutions générales à ce problème vu qu'il dépend aussi de la force morale et physique, de la volonté et du courage de toute femme et surtout du choix de chacune d'elle. Comme pour tous les choix elle devra consentir des sacrifices et déployer de gros efforts.

La femme qui a acquis le droit d'existence en tant qu'individu et en tant que citoyenne doit se rendre compte du rôle indispensable qu'elle doit jouer au sein de la société.

Il est clair que dans la famille, elle est appelée à œuvrer pour l'amélioration de sa condition de vie par l'intermédiaire d'une éducation englobant le respect, la compréhension mutuelle et la plus complète collaboration.

Par l'amélioration de sa condition, elle parviendra à transformer l'homme qui vit à ses côtés qu'il soit son époux, son fils ou son frère.

Dans le cadre de ce séminaire sur la pensée islamique, il est nécessaire d'examiner ne serait-ce que brièvement la position de nos sœurs musulmanes au sein de la société et de la famille. Mais comme je suis arabisante et vu l'intérêt que je porte à l'étude du monde arabo-islamique, je ne peux que parler des femmes arabes. L'Islam a indubitablement libéré la femme des coutumes et des traditions de la jahilya. Il a amélioré sa situation par la déclaration de l'égalité fondamentale des femmes et des hommes.

Il vient dans la Sourate 6, Verset 98 (Sourate des bestiaux) : " C'est Dieu qui vous a créé à partir d'une seule âme ". Du point de vue religieux et moral, la femme demeure l'égale de l'homme. Elle a les mêmes devoirs moraux et religieux et dans l'au-delà, les mêmes punitions et les mêmes récompenses. Le verset 97 dit : " Ceux qui parmi vous hommes ou femmes auront accomplis de

Voyons maintenant le problème du travail de la femme. A l'occasion de l'année de la femme une commision spéciale nommée par le conseil des ministres a travaillé activement de 1975 à 1976, elle a organisé une conférence nationale sur le travail de la femme. Cette conférence s'est tenue à Rome du 26 au 28 novembre 1976 et était présidé par le Docteur Tina Anselmi, ministre du travail, qui est la première femme occupant un poste de ministre dans l'histoire de l'Italie. Ont participé à cette conférence de nombreuses personnalités de la politique, des syndicats ainsi que les associations féminines et les représentants régionaux. Dans son discours inaugural, la présidente a déclaré que la femme italienne était considérée comme un citoyen de série B. Les femmes en effet représentent plus de la moitié de la population (51,2 %) mais moins d'un tiers de la force de travail (28,1 %), un tiers des chomeurs (30,3 %) et plus de 1 million et demi font des travaux à la maison pour le compte d'un tiers et aussi elles sont exploitées, sans garantie et assurance ; c'est ce qu'on appelle le " travail noir ".

L'entretien du foyer par la femme et en particulier l'éducation des enfants et la mauvaise structuration des services sociaux (garderies - crêches - écoles à plein temps... etc...) sont les causes de ce mauvais emploi de la femme. Tout ceci domine les possibilités d'insertion de la femme dans le marché du travail. En outre, nous constatons, que la formation professionnelle et l'enseignement sont transmis insuffisamment ou de façon archaique. Cette situation pousse la femme à exercer des activités complémentaires à celle de l'homme, qui l'empêchent de s'épanouir et d'atteindre un bon niveau. Elle ne sait rien de la mécanique agricole, de la technologie. Nous pouvons pourtant dire que le travail de la femme est limité au domaine le moins spécialisé, le moins rémunérateur, qui exige le moins de compétence et qui a le moins de stabilité dans le monde du travail.

Le président du conseil italien a clos les travaux de la conférence par la lecture d'un communiqué, comportant un projet de loi relatif à l'égalité des salaires entre hommes et femmes en ce qui concerne le travail et la tutelle de la femme. Le conseil des ministres a approuvé ce projet de loi au cours de sa réunion du 23 décembre 1976. Celui-ci stipule l'abolition de la discrimination entre la femme et l'homme, permet l'accès au travail et à la formation professionnelle. Ces critères amènent un patron à choisir indifféremment une femme ou un homme pour n'importe quel travail.

En réalité, nous constatons que les facilités données à la femme, pour la période de sa maternité, relèvent du régime de la sécurité sociale. Mais nous devons faire ressortir ce projet de lois, visant l'abolition de la discrimination dans le domaine du travail entre l'homme et la femme, ne prend pas en considération deux grands problèmes, à savoir : — le travail domestique qui est plein de responsabilité, non reconnue juridiquement, d'autre part il a une grande importance économique mais n'est pas bien rémunéré.

— Le travail noir ou " travail à domicile " qui, malgré la loi de 1958 et de 1973 continue à échapper au contrôle.

De tout ce que j'ai exposé jusqu'à présent, il ressort que le législateur reconnaît à la femme, qui travaille les mêmes droits que ceux de l'homme, et les mêmes rétributions. Dans le cadre familial, elle demeure autonome et égale de l'homme.

hiérarchique dans la famille, la discrimination entre femme et homme, la communion de la vie conjugale, à laquelle s'opposait la division des biens

Mais ce raisonnement était périmé à une époque où le législateur s'est rendu compte, après les résultats du référendum sur le divorce (12-05-1974), que la majorité des Italiens était pour une réforme de la législation familiale pour la rendre plus proche de la nouvelle réalité socio-hitorique.

Le contenu du code de la famille a été appliqué aux principes de l'égalité entre les conjoints, de façon satisfaisante, que ce soit au niveau des relations personnelles ou des biens, ou que ce soit au niveau des relations parents-enfants. De nombreux articles de ce code octroient à la femme la dignité de son rôle au sein de la famille et de la société ; parmi les plus importantes, notons :

Article 143 bis : La femme en se mariant ne prend pas obligatoirement le nom de son époux comme l'indique le vieux code, mais l'ajoute au sien et le conserve même pendant la période de veuvage jusqu'à ce qu'elle se remarie ; donc la femme pendant son mariage conserve toute sa personnalité. Elle conserve aussi sa nationalité, sauf si elle décide d'y renoncer de son plein gré.

Article 43 : Il reconnaît aux deux conjoints le droit d'élire domicile au lieu où est fixé le centre de leurs occupations et de leurs intérêts. Cet article est fondamental pour l'émancipation de la femme et est vraiment révolutionnaire dans un système familial, où jusqu'alors la position du mari était incontestablement prédominante. Mais la réalité socio-économique actuelle fait qu'un nombre important des femmes exercent une activité rémunérée avec des résultats non négligeables au niveau de l'économie familiale. C'est pour cela que le législateur admet la possibilité, que la femme mariée puisse élire domicile au lieu de ses activités, même si ce dernier est différent de la résidence conjugale.

La réforme attribue aux époux la tutelle des enfants. Les époux doivent se mettre d'accord et dans le cas échéant, l'intervention de la justice est imminente. Un autre point très important, est celui des rapports patrimoniaux entre les conjoints, basés sur le régime de la communauté des biens. La réforme du code valorise le travail domestique de la femme, conférant ainsi un sens à sa participation effective dans la formation des biens de la famille. La matière relative à la succession a aussi été modifiée, faisant des conjoints les héritiers de plein droit, leur octroyant le droit d'habitation et l'usage du mobilier de la résidence familiale.

En effet, l'article 540 attribue à chacun des conjoints la moitié des biens communs et le droit d'habiter le domicile conjugal. Cette innovation est des plus caractéristiques de la réforme, parce qu'elle supprime en ce qui concerne le veuf, la qualité de légataire de l'usufruit évitant ainsi une éventuelle ingratitude des enfants.

Maintenant je voudrais vous faire remarquer, que les nouvelles lois sont entrées en vigueur en Italie depuis Août 1975. Mais les femmes doivent être prêtes et conscientes pour assumer la majorité des responsabilités qui devient de ses nouveaux droits et être au courant des devoirs qui leur incombent. Le travail qui reste à faire est énorme, il doit être exécuté progressivement, il se réalisera sans doute avec le passage du temps nécessaire à la maturité de l'homme, car les moyens législatifs à eux seuls ne suffisent pas.

Comme vous devez certainement le savoir, l'assemblée des Nations-Unies a proclamé le 18 décembre 1972, que l'année 1975 sera l'Année Internationale de la Femme. La commission pour la condition de la femme a approuvé un programme ample et détaillé, qui comporte les points suivants :

— Parvenir à une égalité juridique effective entre l'homme et la femme ;

— Renforcer l'intégration de la femme dans les processus de développement tout en soulignant sa responsabilité et son rôle important dans le domaine économique, social et culturel à l'échelle nationale et internationale ;

— Reconnaître l'importance de la contribution sans cesse croissante, que la femme peut apporter au niveau du développement des réalisations pacifiques, de la coopération entre les Etats et la concrétisation de la paix.

L'égalité, le progrès et la paix sont les thèmes de cette année. Son importance est attribuée soit au volume des activités dans le monde, leur extension et la réforme qu'ils ont voulu apporter, soit à la proposition d'un plan organique comprenant les fondements généraux, qui visent la promotion féminine sur un plan d'égalité avec l'homme et les conditions d'évolution des sociétés humaines. En d'autres termes, il ne s'agit pas de parler ici uniquement de la promotion féminine, comme une fin en soi mais comme un moyen d'améliorer les conditions de la communauté humaine.

Les Nations-Unies ont voulu avec la proclamation de l'Année Internationale de la Femme, insister sur le fait que presque tous les peuples de la terre reconnaissent les profondes mutations historiques, qui ont eu lieu et qui ont grandement contribué à façonner l'idéal moderne de l'égalité.

La réalisation de cet idéal est de plus en plus reconnue comme une nécessité absolue en ce qui concerne la justice sociale. D'autre part, les Nations-Unies ont voulu examiner et compléter cette mutation au profit de la paix et du progrès. Je pense que cette proclamation est une marque d'estime, de confiance et d'espérance des capacités de la femme, qui est appelée à sauver et améliorer les valeurs morales et spirituelles, qui sont les seules à rendre la vie digne d'être vécue.

Le Vatican a suivi avec intérêt et sympathie l'évolution de l'anné de la femme. A l'occasion du congrès international de la femme, qui s'est tenu au Mexique à la fin du mois de juin, le Saint Siège a envoyé une commission spéciale, qui a participé activement à tous les travaux ; elle a aussi contacté les représentants des différents gouvernements et organisations gouvernementales. Cette commission a souligné le profond intérêt que porte le Vatican au travail positif effectué au profit de la promotion féminine, et a précisé que l'égalité entre l'homme et la femme n'a de sens que dans une société reconnaissant la dignité humaine et donnant à la famille la place qui lui revient ; c'est-à-dire à son noyau fondamental, à la société ouverte à la promotion effective complète visant en particulier le développement de la conscience morale.

Voyons maintenant ce qui a été vraiment fait, ces dernières années, en Italie et ce qui reste à faire après l'amendement du code de la famille (19 mai 1975) La revalorisation du rôle de la femme et de sa personnalité constitue l'application précise de l'éaglité dans les droits prévus par la constitution. L'ensemble des lois de 1942 s'opposaient à son épanouissement, puisqu'elles stipulaient le système

LA FEMME APRES L'ANNEE DE LA FEMME

par le docteur
Clélia Sarnelli Cerqua
Professeur à l'Institut Universitaire de Naples (Italie)

Messieurs, Mesdames.

Je voudrais avant tout exprimer ma joie d'être parmi vous aujourd'hui et adresser mes sincères remerciements à son Excellence Mouloud Kassim Naït Belkacem, ministre de l'enseignement originel et des affaires religieuses de la république algérienne démocratique et populaire pour m'avoir courtoisement invitée à cette conférence, de même que j'adresse mes vifs remerciements à tous ses collaborateurs pour la magnifique organisation de ce 11e séminaire de la pensée islamique.

Cette gentille invitation m'a donnée la possibilité de venir pour la seconde fois en Algérie, afin de mieux connaître ce territoire, qui m'a fortement impressionné, réalisant ainsi le rêve, que *je fais* depuis tant d'années. Cette occasion m'est particulièrement chère, puisqu'elle m'offre la possibilité de transmettre à tous et à toutes les salutations de l'institut universitaire orientale de Naples, auquel j'ai l'honneur d'appartenir. Je suis heureuse d'être l'interprête du vif intérêt que notre institut porte à l'étude de la langue arabe, du monde arabe et de sa civilisation.

Lorsque j'ai reçu l'invitation pour exposer devant vous au cours de ce séminaire, j'ai jugé utile de choisir un sujet portant sur la femme après l'année internationale de la femme et ceci pour plusieurs raisons :

Tout d'abord, les conditions de la femme et les changements opérés dans ses rapports avec autrui et la qualité de sa vie sociale constituent des sujets à débattre, non seulement en Italie, mais aussi dans presque tous les pays du monde ; et ensuite, parce que j'ai pensé qu'une brève exposition de tout ce qui a été fait dans mon pays, l'Italie, au cours des dernières années, pourrait vous intéresser.

Je voudrais traiter de nouveau le sujet avec vous, chers amis Algériens, et avec tous les membres participants à ce séminaire venus de différents pays. Je voudrais soumettre aussi à votre attention le thème proposé ci-dessus et écouter les observations et les remarques, que vous pouvez éventuellement faire et enrichir ainsi notre expérience. J'espère que l'échange de points de vue, nous permettra de trouver des solutions à certains problèmes épineux ou du moins facilitera de prendre des initiatives, dans un climat serein et objectif et ceci bien sûr en respectant les idées d'autrui, avec réalisme et de façon actuelle. Aussi nous rendrons les problèmes moins dramatiques et plus acceptables.

Ce dernier est méconnu, on dit du mal de lui, on l'accuse de plusieurs méfaits graves. Nous, les missionnaires, les orientalistes, tout le monde l'a accusé ! Savez-vous quel est ce médicament ?

Il s'agit d'une thérapeutique susceptible de remédier non pas à la situation de la femme seulement, mais à tous nos problèmes d'ici-bas et de la vie future.

Longtemps les contempteurs ont prétendu que notre langue était incapable d'exprimer les choses de l'esprit, parce que la renaissance de l'arabe les ferait bouger de leurs fauteuils importés de l'étranger. Ils sont d'accord pour l'autarcie en matière économique, mais pour l'arabe ils lui préfèrent les idiomes étrangers, plus riches, d'après eux. Ils soutiennent aussi que le rôle de l'Islam est terminé, de nos jours, car ils préparent le lit de la laïcité, de la perversité et de la dissolution des mœurs.

S'ils avaient été plus impartiaux à l'égard de l'arabe et de l'Islam, ils auraient dit ceci : « C'est nous qui nous sommes arrêtés dans la marche de la civilisation, la langue arabe s'est arrêtée alors, car elle n'est que moyen d'expression. Et nous l'avons rejetée en lui imputant la cause de notre arriération ».

Que peut exprimer une langue quand ceux qui devraient la parler sont muets.

Ensuite nous avons rejeté l'Islam et nous avons prétendu qu'il est la cause de notre régression. Nous sommes coupables à son égard. Nous sommes devenus, aux yeux des autres, un argument contre lui, au lieu de témoigner pour lui. Comme le dit le proverbe arabe : « Elle m'a attribué tous ses méfaits et prit le large... ». Mais voici la science du droit comparé qui établit que cette législation islamique est capable d'apporter une solution aux problèmes de ce monde, et aux problèmes de tous les temps, comme si elle avait été révélée de nos jours. Le Coran dit : « Nous leur montreront nos signes à travers les espaces et en eux-mêmes jusqu'au moment où ils verront que Dieu est le vrai ».

Aujourd'hui nous vivons une civilisation expérimentale. Expérimental est donc l'Islam. Ne plaise à Dieu que l'or pur soit mis en doute ! Ne plaise à Dieu que la lumière soit niée !

« Telle est ma voie. Elle est droite. Suivez-la et ne prenez pas les chemins qui vous détourneront de ma route. C'est ce que Dieu vous recommande afin que vous le craigniez ».

ont oublié aussi qu'aux yeux de nos peuples il faut d'abord remplir les devoirs. Les droits viennent après.

Cette évolution, pour être harmonieuse, doit, chez nous, comporter plusieurs paliers. Notre organisme peut aussi bien souffrir d'un manque que d'un excès de liberté. C'est pourquoi je me demande aujourd'hui souffrons-nous d'un excès ou d'un manque de liberté ? Mais je crains fort que mes propos soient interprêtés comme un argument en faveur des partisans de la privation. Je ne défends pas la cause de l'injustice. Mais je dis ce que je pense. Je tire un enseignement des expériences de ceux qui ont largement ouvert les portes devant les femmes. Ils avaient des arrières pensées. Car les autres libertés, sans lesquelles la liberté de la femme n'aurait pas de sens, font défaut.

Comment pourrez-vous distinguer l'or pur de l'or mélangé si vous ne disposez d'aucun critère. La liberté est un concept générique, ses différentes espèces sont complémentaires. C'est à ce prix que l'homme aura une dignité. Sinon l'humanité sera veule, je dirai même bestiale. Une humanité qui se contentera de manger et d'errer dans les souks...

La femme appartenant au Tiers Monde et plus particulièrement celle appartenant au monde musulman, a combattu le colonialisme aux côtés de son frère, l'homme. Elle a donné l'exemple du courage, de la constance, et du sacrifice en s'acquittant d'une partie de sa dette envers le pays.

Aujourd'hui, la patrie étant libérée, elle a un devoir individuel à remplir : elle doit être une femme musulmane dans le vrai sens du mot, une femme engagée. Elle doit créer pour son pays, pour son peuple, une génération valable à qui elle inculquera l'amour de sa religion, de sa patrie, de sa langue et de sa civilisation, toutes choses que le colonialisme à tenter de détruire pour abolir notre personnalité.

Pour donner le coup de grâce à l'arriération et au sous-développement, nous voulons construire avec notre chair et notre sang, avec notre âme et notre intelligence, une civilisation indemne de toutes les maladies qui minent le corps des autres sociétés. Nous voulons que la leçon des autres civilisations vouées au néant, nous serve.

Quel est donc le penseur sensé qui dira que nous n'avons pas un besoin pressant des techniques de la civilisation moderne. Ne voyons-nous pas que cette civilisation a pénétré dans nos demeures, sans prévenir et que son influence se propage à la vitesse du son ?

Mais qui voudrait, en tentant de sortir du sous-développement, augmenter encore les maux, et les vices et les souffrances que nous endurons. L'histoire nous enseigne que toute civilisation porte en elle-même les germes de sa disparition. Nous avons essayé les remèdes et les drogues provenant d'autres régions que notre pays et d'autres mentalités que la nôtre. Mais notre mal n'a fait qu'empirer. Nous ne trouvons plus de cobayes à force de tenter des expériences dans nos sociétés.

Mais je proclame en définitive, et c'est une hypothèse que j'émets, qu'il nous reste à essayer un remède.

charlatanesques. A tel enseigne que le proverbe tunisien la définit ainsi : « De jour c'est une bête de somme, et de nuit une belle », proverbe qui, comme on le voit diffère des clichés de la littérature arabe classique qui nous parle de « la nuit des cheveux », « l'éclair des dents », « la rose des joues », « le rameau de la taille », etc...

Il s'agit d'un proverbe tunisien mais je pense qu'il peut s'adapter à la réalité de tout le monde islamique.

Il y a 80 ans, un savant algérien, Mohammed el Khodja, à écrit un ouvrage qui s'intitule « Prise en considération des droits de la femme ». Cet écrivain, qui travaillait dans l'administration française, comptait sur la France pour remédier à la situation de la femme algérienne. Mais il était comme « celui qui cherche la braise dans l'eau », selon l'expression d'un poète. Mais, malgré l'espoir déçu, nous pouvons considérer ce livre comme une image de l'injustice de l'homme envers sa sœur algérienne, aussi bien en ce temps-là qu'à travers les époques précédentes.

Etant donné que le temps me manque, je signale simplement les pages suivantes où j'étale cette injustice : p.44, p. 34, p. 32, p. 30. Quant aux autres passages que j'ai retenus, je vous demande de vous reporter aux pages suivantes : p. 64, p. 92, p. 9, où l'auteur fait une critique sociale de la situation de la femme de cette époque. Mais ce livre, comme je l'ai dit, constitue un espoir déçu, car il plaçait cet espoir en la France, que l'on disait pourtant chargée d'une mission civilisatrice. Cependant cet ouvrage, en plus de son côté critique, préconise une libération islamique de la femme. Il contient une description de la situation des Algériennes (hommes et femmes), digne d'être étudiée par notre jeunesse universitaire.

Lorsque nous connûmes l'Occident (en bien et en mal), les gens qui préconisèrent la libération de la femme furent de plusieurs sortes. Il y eut ceux qui prônèrent la mise en application de la loi islamique, pensant que c'était la meilleure façon de restituer à la femme son importance et sa considération, tout en la préservant des maux qui avaient atteint la femme occidentale.

Il y eut aussi ceux qui réclamèrent la civilisation occidentale dans sa totalité, en bloc, sans rien y retrancher en criant : la femme sera occidentale ou ne sera pas.

La femme regardait ces clans qui se disputaient pour elle, pour lui rendre justice. La bataille dura plus d'un demi siècle, entre les modérés et les extrémistes. Entretemps, les exigences, les circonstances de la vie moderne pressaient, la femme de secouer le jour de la tyrannie immémoriale et l'exhortait à s'insérer dans la réalité du temps. Certaines femmes, et je me garderai bien de généraliser, tentèrent alors de se libérer spontanément, mais elles le firent d'une manière démesurée, naïve.

Leur mouvement était inspiré par le sentiment, l'émotion et non par la raison, car elles n'étaient pas préparées à cette évolution. La famille et la société eurent alors à souffrir de leurs improvisations. L'amertume de leur échec fut grande. Elles qui voulaient imiter la femme occidentale, furent rejetées sur le rivage désert, comme des coquillages vides. Elles ont oublié une chose : même en Occident l'évolution dans l'acquisition des droits fut une chose lente. Elles

C'est là un mensonge, une tromperie honteuse dont la femme fut la première victime, avant l'homme. Car le problème qui n'avait qu'une seule tête est devenu bicéphale. La femme, comme nous l'avons vu, était victime d'une injustice due à des causes historiques, remontant à l'époque où l'homme lui-même était opprimé. Comme a dit le poète : « La situation injuste d'un peuple est souvent comme un châtiment de son ignorance. De même que la maladie est souvent une manière de sanctionner la négligence ».

On aurait donc due considérer le problème de la femme sur la base de rapports entre deux associés auxquels on distribuerait droits et devoirs, à chacun selon ses possibilités et ses aptitudes. Si l'un des associés ne remplit pas convenablement son devoir ou conteste la capacité de son partenaire ou sa valeur, les deux subissent, alors un préjudice.

Mais dans ce cas, la bonne entente peut conduire à l'amitié, de même que le fait de se compléter peut conduire à la perfection. Quant à l'hostilité entre les époux, elle ne peut provoquer que des lézards dans notre édifice national.

Peut-être, après tout ce que j'ai dit, aurez-vous constaté que j'ai omis beaucoup de choses et que ma conférence est loin d'embrasser toutes les prescriptions de l'Islam visant la femme. Mais vous serez d'accord sur le point suivant : Dieu qui a créé la femme est celui qui s'est montré le plus juste envers elle. Mohammed, notre Prophète, en rendant le dernier soupir, faisait encore des recommandations en sa faveur. Lorsqu'il est mort, (sur lui la prière et la bénédiction divines), sa tête reposait sur les genoux de Aïcha son épouse.

Après toutes ces accusations sur le sort injuste de la femme, après tous ces maux que nous avons imputés à diverses catégories de gens, nous n'aurons garde d'oublier que ce pauvre homme a lui aussi des vœux à formuler sur ce chapitre. Peut-être, à son tour, va-t-il créer, sous peu, l'union masculine.

Nous devons reconnaître que les hommes, à leur époque de régression, au moment où ils étaient éloignés des principes de l'Islam, ont privé la femme de ce que Dieu lui a donné. Ils l'ont tenue éloignée de la lumière de la science. Ils ont négligé de lui donner une éducation convenable. Ils l'ont tenue en marge de la société. Ils ont freiné tous les dons naturels qu'elle pouvait avoir. Ils l'ont considérée comme un objet de plaisir, une œuvre d'art agréable à voir. Ils l'on rayée de la liste des associés indispensables. Pour satisfaire leur égoïsme, ils l'ont enveloppée de voiles épais. Ils l'ont enfermée dans leur demeures avec le rôle de remplir des tâches domestiques et de produire des enfants. Ils l'ont injustement condamnée à la réclusion perpétuelle et aux travaux forcés. Ils l'ont exclus de la réalité vécue pour la reléguer dans l'inconnu de l'imaginaire.

Dès lors, l'intelligence de la femme s'est arrêtée de se développer. Son esprit a sombré sous les décombres de l'ignorance. Le sentiment religieux est devenu, chez elle, superstition. Elle se mit à visiter les mausolées des saints pour implorer secours ou obtenir la réalisation de ses vœux. Elle devint la victime des charlatans et des mystificateurs. Sa foi devint de l'impiété. Elle fut envahie par les croyances superstitieuses et l'obscurantisme. Bientôt elle devint un jouet entre les mains des mauvaises coutûmes et des pratiques

à la glèbe et à la servitude et l'empêchait d'aspirer à la liberté. Ainsi, bon gré mal gré, le peuple restait soumis à l'arbitraire des tyrans.

Tel est le cadre véritable dans lequel nous devons placer la génèse du problème de la femme. Tels sont les éléments à partir desquels ce problème a bougé. Aujourd'hui ceux qui ne font rien, hommes ou femmes, ceux qui parmi eux sont l'objet de discriminations soit politiques, soit économiques, soit sociales, se mettent à émettre des vœux, sans entreprendre quoi que ce fut dans le domaine de l'action, en pensant que cela suffit à faire cesser leurs malheurs. C'est là une attitude de faiblesse. Quant à la volonté populaire, disons, c'est elle qui impose au pouvoir des changements. Elle oblige les dirigeants à faire disparaître ce qu'il y a d'odieux dans une situation donnée, non pas selon leur bon gré qui varie souvent, mais selon la décision populaire. Car si hier l'histoire était une chronologie des dynasties elle est devenue de nos jours, grâce à cette décision populaire, une chronologie des révolutions qu'accomplissent les nations.

C'est pourquoi il serait contraire à la vérité de vouloir limiter les origines du sort injuste de la femme à la seule attitude de l'homme. Cette situation n'est pas le seul fait de l'homme. Il serait dangereux de le prétendre. Cela ruinerait l'harmonie qui existe dans les familles et on dresserait des éléments de cette société les uns contre les autres. Il ne faut pas que la revendication d'un droit engendre une querelle violente et haineuse entre deux éléments complémentaires. Cette même haine peut ensuite s'étendre aux enfants et aux générations futures.

C'est ce qui s'est passé hier en Occident et c'est ce qui atteint aujourd'hui notre société. Et voici comment nous en sommes arrivés à recouvrir notre nudité des haillons les plus sales et des hardes les plus affreuses dont l'Occident se soit débarrassé, car nous sommes en adoration devant l'Occident et devant notre propre esclavage.

Partout nous entendons ces mêmes accusations, ces notes discordantes, que ce soit dans la presse, au théâtre, dans les congrès et séminaires, etc... Je ne puis interprêter cette campagne incendiaire, quelque soit son bien fondé, quelles que soient ses raisons bonnes ou mauvaises, que comme une tentative de destruction de l'harmonie qui peut exister entre deux associés complémentaires, l'homme et la femme. Il s'agit bien d'allumer le feu de l'inimité et de l'hostilité mutuelles dans le cœur de ceux qui étaient faits pour s'entendre et s'aimer. Dès lors, la politique (et tous ses dérivés) se sont emparés de cette affaire, afin d'attirer la femme chacune dans son clan. Des plumes, des consciences ont été achetées, des moyens importants ont été utilisés pour attiser le feu. L'homme apparut devant le tribunal comme un accusé, responsable de tous les méfaits. Aux yeux de la société il passa pour un bourreau tyranique et égoïste, et dans le sein de la famille comme la source d'un pouvoir rejeté.

Lorsque la femme accéda au marché de l'emploi, son revenu provoqua chez elle un sentiment de supériorité et de fierté. Elle sentit, on lui fit sentir qu'elle avait désormais acquise son indépendance totale. Son emploi fut à l'origine de crises économiques et morales. Ce sont ses propres partisans qui le reconnaissent. L'hostilité et la haine s'emparèrent désormais de deux cœurs faits l'un pour aimer, l'autre pour être aimé.

être gérés raisonnablement. Elle doit être considérée comme un dépôt sacré confié aux parents. Cette joie ne doit pas les détourner de l'adoration de Dieu. Si elle enfreind la loi divine par son comportement, ils doivent y veiller. Lorsque la fille atteint sa majorité, il lui sera permis de disposer de ses biens, de faire des transactions : vente, achat, location, mandat, association, donation, etc... Elle peut donc ester, défendre ses droits devant les tribunaux, etc...

De tout ceci, il découle que la femme, telle qu'elle a été définie par l'Islam, occupe une place de choix dans la société et dans l'humanité d'une façon générale.

L'UNIVERSALITE DES LOIS ENGLOBE L'HOMME ET LA FEMME

La plupart des lois englobent l'homme et la femme, sauf quelques dispo-sdmsitions particulières qui s'adressent à l'un ou l'autre des deux sexes. Cette législation divine qui est juste et éternelle dans son essence, ne peut être amendée ni transformée. Certains, au nom de « l'Ijtihâd » (effort rationnel) voudraient modifier ces lois. Or lorsqu'il y a un texte sacré, (nas) il ne peut y avoir d'ijtihâd. De plus, l'ijtihâd n'est permis, lorsque toutes les conditions requises sont rassemblées, que si des savants capables, spécialisés dans l'étude de la loi religieuse, se chargent de le faire. De plus il faudrait un consensus, c'est-à-dire un accord unanime (ijmaâ) de tous les savants. Ceci afin que les pseudo-savants et ceux qui parmi eux adorent le pouvoir ne détruisent pas la loi divine.

Le Coran a dit : « Nul croyant, nulle croyante, ne peut disposer a son gré de ce que Dieu et son Prophète ont tranché, etc... ».

Nous pouvons donc conclure que tous les textes qui ne s'adressent pas spécialement à l'homme ou à la femme, englobent l'un et l'autre. En effet, des pronoms comme (man) ou (koull) qui signifient « qui » et « chaque » s'applique grammaticalement à l'homme et à la femme.

LE BUT DE L'ISLAM :
UNE FAMILLE HEUREUSE, UNE SOCIETE QUI SE COMPLETE

Sous sa forme moderne, le problème de la femme s'est posé au moment où tous les opprimés de la terre se sont levés pour revendiquer, après avoir subi l'injustice pendant plusieurs siècles, la reconnaissance de leurs droits. Tel fut le cas des peuples soumis aux régimes de pouvoir héréditaire ; tel fut le cas également des ouvriers et des paysans exploités par les patrons et les gros propriétaires ; tels furent aussi les pays colonisés qui eurent à combattre les colonialistes pour leur arracher la liberté.

A travers cette époque de décadence de l'homme, la femme se trouvait doublement malheureuse puisque ce n'était pas simplement son compagnon qui la brimait, mais le régime dans lequel ils vivaient tous deux et qui les opprimait l'un et l'autre politiquement, économiquement et socialement. Les deux sexes subissaient donc une oppression semblable. L'homme oppresseur et opprimé, la femme injuste et brimée, car l'ignorance, la stagnation et l'humiliation faisaient sentir leur poids sur les esprits, les énergies, tandis que le clergé se plaisait à maintenir cette situation qui soumettait l'être humain

4°) Voici un hadith qui honore la femme en tant que fille. Le Prophète a dit : « Celui qui a une fille qu'il a instruite et bien instruite, éduquée et bien éduquée, etc... ».

5°) Le Coran a magnifié la femme en tant qu'épouse, lorsqu'il dit : « Parmi les signes de Dieu il y a le fait qu'Allah a créé de vous-mêmes des épouses pour que vous puissiez être en repos auprès d'elles. Entre vous et elles, il a établi une affection et une bonté. Certes en cela il y a des signes pour ceux qui savent réfléchir ».

6°) L'Islam a désiré que la femme soit instruite. On lit dans le hadith : « Rechercher la science est une obligation pour tout Musulman ». Dans le mot « musulman » il faut englober la femme.

Dans un autre hadith, ont lit ceci : « Excellentes sont les femmes des Ansar (c'est-à-dire les auxiliaires du Prophète à Médine), car leur pudeur ne les a pas empêchées de s'instruire en matière de science religieuse ».

Quant à la science elle-même, nous remarquons que son contenu, change selon les époques, les lieux et les circonstances. Car les obligations collectives (kifeyât) sont aujourd'hui plus larges.

7°) L'Islam a célébré la femme en tant que mère. Le Prophète a dit : « Le paradis est aux pieds des mamans ».

8°) L'Islam a conféré à la femme le droit d'héritage, qu'elle soit mère, épouse, fille adulte, en bas âge ou même en gestation, alors qu'auparavant la femme était elle-même un objet dont on hérite. On lit dans le Coran : « Aux hommes, une part de ce qu'ont laissé les pères et les mères ainsi que les proches ; et aux femmes, une part de ce qu'ont laissé les pères et mères ainsi que les proches ; que ce soit peut ou beaucoup : une part déterminée ».

9°) L'Islam a défini les droits des époux. Il a réservé aux femmes les mêmes droits qu'aux hommes.

Mais il a chargé ces derniers du soin de les entretenir et de diriger la famille en consultant les épouses. Le Coran a dit : « Il incombe aux épouses de remplir les devoirs qui correspondent à leurs droits, et ce, dans les limites convenables tout en observant que les hommes ont sur elle un degré de précellence ».

Ce qui revient à dire que tout ce que l'homme peut légalement demander à la femme, celle-ci peut aussi le lui demander. Le mot « ma'rouf » signifie ce qu'il est d'usage d'appeler « droit ». La limite du « ma'rouf » c'est qu'il ne peut pas rendre licite une chose illicite, et vice versa.

10°) L'Islam considère que le droit qu'ont les hommes de divorcer est une faculté horissable, odieuse (baghdadh). Le Prophète a dit que parmi les choses licites, la plus odieuse aux yeux du Seigneur est le divorce, que l'Islam a d'ailleurs limité en interdisant aux hommes de se montrer injustes et en définissant d'une manière rigoureuse les circonstances dans lesquelles il peut être accordé.

11°) L'Islam a placé la fille non majeure sous la tutelle de ses parents. Il s'agit d'une tutelle bienveillante, conçue pour son éducation. Ses biens doivent

« Ne convoitez pas ce que Dieu a donné à certains d'entre vous, à l'exclusion des autres : aux hommes la part qu'ils auront gagnée, et aux femmes la part qu'elles auront gagnée. Demandez à Dieu de par sa grâce. Dieu, vraiment, demeure savant en toutes choses ».

Dieu a donc pourvu chacun des deux sexes de certaines particularités ou spécificités. Ils est normal que chacun ait un rôle déterminé. Car comme le dit Al Akkad, la nature ne crée pas deux espèces différentes pour qu'elles aient ensuite les mêmes caractéristiques, les mêmes facultés, les mêmes fonctions et les mêmes buts. Le Coran, qui est la grande source de la divine loi s'est donc intéressé à la femme d'une manière tout à fait remarquable. Il lui a consacré toute une législation, épars dans plus de dix chapitres. Il y a notamment la grande Sourate des Femmes, la petite Sourate des Femmes, que l'on appelle aussi attahrim (l'interdiction). Lorsque l'on parcourt le Coran on trouve des versets ayant trait aux femmes dans divers chapitres comme « La Génisse », « La Table », « La Lumière », « Les Coalisés », « La Plaideuse », « L'Examinée », « L'Interdiction ».

Passons en revue maintenant quelques sourates et quelques hadiths (propos du Prophète) où Dieu a honoré la femme, sous différents aspects que nous ne pourrons jamais dénombrer, car leur nombre est infini.

1°) Dieu à rendu hommage à la femme en tant qu'être humain. Il a dit :
« Nous avons honoré les êtres humains en les portant sur la terre et sur la mer. Nous les avons pourvus en choses délicieuses et nous leur avons accordé excellence sur beaucoup d'êtres que nous avons créés. ».

2°) Dieu a abrogé la coutume qui consistait à enterrer vives les filles. Il a interdit cette coutume qui était répandu chez certaines tribus arabes. Il a dit : « Et lorsque la fille enterrée vive sera interrogée : pour quel crime t'a-t-on tuée ? ».

Il a dit aussi : « Ceux qui, insensés, ont tué leurs enfants par ignorance, ont perdu ».

Le Coran a donc commencé par assurer la survie de la femme. Jusqu'alors ce qui l'attendait c'était un trou dans le sol où elle était jetée brusquement, puis recouverte de terre, pendant qu'elle appelait au secours.

3°) Le Coran a désapprouvé l'attitude de l'Arabe anté-islamique qui voyait dans la naissance d'une fille un mauvais signe du destin ou qui accablait son épouse mettant au monde une fille. Le Coran dit : « Dès que quelqu'un parmi eux reçoit la nouvelle de la naissance d'une fille dans son foyer, son visage s'assombrit, la colère s'empare de lui... Il s'éloigne des gens pour cacher le malheur qu'on vient de lui annoncer. Doit-il garder c malheur honteusement, ou doit-il le cacher sous terre ? Ah ! que mauvaise est leur façon de juger ! ».

Le Coran a considéré que l'homme aussi bien que la femme sont un bienfait de Dieu, un avantage qu'Il a accordé à ses créatures qui doivent l'en remercier. Il a dit : Dieu a créé de vous-mêmes vos épouses et d'elles Il vous a accordé des enfants et des petits fils ». Al Hafid signifie en arabe l'enfant de la fille ou du fils que l'enfant soit garçon ou fille.

entre eux et qu'ensuite ils ne trouveront rien à redire à ton arbitrage et s'inclineront devant ta décision ».

Si telle n'est pas notre attitude, nous serons comme le personnage que cite souvent Al Ghazali dans son livre « l'Ihyâ », lorsqu'il écrit : « Sois Juif, mais si tu ne l'es pas, ne t'amuse pas avec la Bible ».

CE QUE DIEU A DONNE A LA FEMME

« Gens ! Craignez votre Seigneur qui vous a créés d'une personne unique et d'elle son épouse, et des deux a fait foisonner profusion d'hommes ainsi que de femmes. Et craignez Dieu devant qui vous êtes comptables de vos actes. Respectez les biens familiaux, Dieu vous observe ».

Je ne vois pas la nécessité de m'arrêter à propos de la situation de la femme avant l'Islam. En effet les sources sont à ce sujet très nombreuses. D'autres part je suis limité par le temps. Mais examinons plutôt ce hadith du Prophète :

« Les femmes sont les moitiés des hommes, c'est-à-dire leurs sœurs atérines aussi bien dans les questions se rapportant au dogme, aux lois et à la morale. Trouvez un seul exemple d'un tel honneur rendu à la femme dans d'autres civilisations passées, comme la grecque, la romaine, la persanne ou l'indienne ?

En tête de la sourate « les femmes » on peut lire le verset suivant : « Celui qui, mort, a été par Nous ressuscité, à qui Nous avons donné une lumière pour qu'il puisse s'éclairer et marcher parmi les gens, celui là est-il comparable à qui est dans les ténèbres et n'en sortira jamais ? ».

N'avez-vous pas remarqué que ces versets s'adressent à tous les hommes. Dieu leur demande, comme l'a souligné le regretté savant Mohammed El Madani :

1°) D'abolir toutes les différences naturelles qui existent entre les gens.

2°) De supprimer les barrières religieuses et raciales.

3°) D'abroger les disparités sociales entre l'homme et la femme.

4°) De créer, dans la société, une conscience morale capable de détourner les hommes des mauvaises actions (wâzi') C'est que Dieu appelle « la crainte d'Allah ».

5°) De renforcer le sentiment de « parenté » (rahim) entre les hommes. Ceux à qui nous rattachent les liens du sang (rahim) ont droit à notre bonté et à notre aide matérielle et morale (sila). Il est donc de notre devoir de ne pas rompre ces liens.

Cependant nous devons souligner que cette sourate « Annissâ (Les femmes) » n'a pas abrogé les différences spécifiques qui existent entre les deux sexes. De même qu'elle n'a pas fait de l'homme et de la femme des êtres idèntiques dans tous ls droits et dans tous les devoirs. Car ils ne peuvent être égaux là où la nature en a fait deux êtres différents en constitution, en fonction et en facultés. Pour ceux qui s'imaginaient le contraire de cette réalité, voici ce que dit cette sourate :

Je me suis laissé dire : « Suppose que tu entends des choses que diront ceux qui ne sont pas contents des qualités dont Dieu à pourvu la femme, et qui feront des remarques et des amendements au sujet des lois.

Pourquoi t'exposer à formuler des hypothèses concernant les individus et les gouvernements. Le Coran n'a-t-il pas dit « Vois ceux qui prennent comme divinité leur passion. Dieu les a égarés sciemment. Il a bouché leur ouïe et leur cœur et mis un bandeau sur leurs yeux. Qui donc, après Dieu, les orientera ? Nest-ce pas un objet de méditation ».

Mais pourquoi ne rien tenter, alors que les portes du séminaire sont largement ouvertes à tous les participants ? Vais-je entrer dans cette assemblée alors que le doute m'a habité, pour sortir, après la fin des débats, plein de certitude ? Mais qui me dit que le doute ne cessera pas de m'habiter ? Je suis donc perdu, je ne compte pas parmi ceux qui suivent le droit chemin, si je suis ici simplement pour éprouver la solidité de ma foi ! Le Coran a dit : « Celui qui néglige la parole de Dieu le Clément, aura comme compagnon un diable, car il s'éloigne souvent de la bonne voie et croit qu'il est dans le droit chemin ».

J'ai donc résolu d'entrer en lice, au milieu des courants contradictoires. J'ai pris comme principe une ligne de conduite dont je ne sortirai pas, soit que je me défende, soit que j'attaque elle est la suivante : pour moi, l'Islam est tel que Dieu l'a décrit, c'est-à-dire religion de la nature humaine originelle (fitra) et aussi religion de la rectitude, voie droite, arbitrage définitif dans le débat entre les doctrines. Je dirai donc que mon discours pourrait avoir pour titre : « Ce que l'Islam a conféré à la femme est suffisant et apte à nous épargner les expériences et les déboires ». «Tenez vos propos à voix basse ou clairement, Dieu sait ce qu'il y a dans vos cœurs. Celui qui a créé ne sait-il pas ? Il est le pénétrant et le savant » (Coran).

Mon souhait est que ce séminaire puisse apporter, avant sa clôture, une solution à ce problème sur lequel repose l'avenir de nos enfants, soit en bien soit en mal, de telle sorte que nous ayons tracé un programme pratique et réalisable, digne de satisfaire nos sociétés. Celles-ci aspirent à trouver un remède à leurs difficultés qui existent depuis trop longtemps et qui causent des préjudices graves aux deux sexes, aux familles et aux groupes sociaux. Une telle ligne de conduite serait ensuite adoptée légalement par les gouvernements des peuples musulmans, puisque ces gouvernements disent explicitement dans leurs lois constitutionnelles que l'Islam est leur religion et l'arabe leur langue. Sinon nous saurons que les slogans trompeurs et les formules brillantes ne sont que de vaines paroles auxquelles Allah fait allusion dans le verset suivant :

« Ils s'efforcent de tromper Dieu et ceux qui y croient, mais sans le savoir, ils ne trompent qu'eux-mêmes ».

Mais avant tout, je voudrais savoir au sujet des solutions islamiques et du sort qui leur est réservé, si nous-mêmes nous sommes vraiment des Musulmans engagés ?

Je souhaite que oui. Nous le sommes. Ainsi du moins, le sens du verset suivant sera mis au crédit de notre foi : « Non, dit Allah, ils ne seront croyants que lorsqu'ils te prendront comme arbitre dans tous les différents qui surgissent

« O gens qui croyez, il vous est parvenu de votre Seigneur une preuve, et Nous vous avons révélé une lumière éclatante. Ceux qui en Dieu croiront et se refugieront en Lui, ceux-là Il les fera pénétrer dans sa miséricorde et dans sa grâce et les orientera vers le droit chemin qui vers Lui les conduira ».

Les jugements et les solutions varient selon les sociétés et ce, malgré les moyens énormes dont dispose la civilisation actuelle sur le plan de l'information, du conditionnement et de l'universalité. Parmi les erreurs les plus monumentales que nous commettons lorsque nous préconisons la réforme de notre société, il y a la façon extraordinairement rapide et la sensibilité suraigue avec laquelle nous sommes influençés par le spectacle de tout ce qui se passe chez les tenants du monde civilisé. Prenons l'exemple de la femme. Nous nous trouvons subitement en extase, comme sous l'effet d'un charme. C'est ainsi que le vaincu a toujours tendance à imiter le vainqueur. De même le piéton voudrait bien être à la place du cavalier. Cependant lorsqu'il y a deux malades atteint par le même mal, même si tous les symptomes sont identiques, il y a toujours des différences subtiles, dues à l'humeur, à l'environnement et à l'âge. Le médecin trop pressé ou incapable ne les perçoit pas, mais le praticien sincère et habile ne manque pas de les noter.

Mais à cause de nos divisions intellectuelles et des opinions divergentes qui existent au sujet de la femme musulmane, ce que je crains le plus c'est l'existence de courants de pensée dont certains sont d'une violence extrême allant dans le sens d'une imitation du libéralisme total, tandis que d'autres sont rigoristes et conservateurs et vont jusqu'à imiter l'immobilité des statues.

Ce que je redoute le plus, dans les dangers de l'immobilisme et du libéralisme poussés à l'extrème c'est que nous voyons le proverbe tunisien s'appliquer à notre cas « Il prétend être médecin mais il est mort de madalie », dit notre adage.

Si nous ne sommes pas arrivés à des résultats pratiques qui conviennent à notre situation, alors que depuis si longtemps nous nous sommes mis à rechercher des remèdes à notre cas, ce n'est guère faute de moyens, mais parce que nous ne raisonnons pas de manière pratique et audacieuse.

C'est pour cette raison qu'en lisant les points inscrits à l'ordre du jour du séminaire, je me suis posé la question suivante :

Pourquoi ne pas choisir le point concernant la femme ? Certes, tu entendras, me disais-je, des choses que tu supporteras et d'autres que tu refuseras. Essaye donc de trouver un terrain solide qui te permette un bon départ, et te donne confiance en toi-même, tout en te préservant des faux pas et en t'empêchant de dériver ou de suivre un courant quelconque !

A vrai dire l'invitation au séminaire était tentante. Elle excitait à la polémique. Les séminaristes eux-mêmes appartiennent à diverses familles intellectuelles. Certains peuvent s'harmoniser et se rapprocher. D'autres sont rebelles. Quant aux batailles de l'esprit, elle plaisent aux spectateurs car elles contiennent des merveilles d'où la vérité peut sortir toute nue.

devoirs et d'agîter toutes les questions qui la concernent en les traitant d'une manière qui soit paisible agréable, quels que soient les résultats. Cet auteur, j'en suis certain avec lui, pense qu'il convient d'abord de faire prendre conscience à la femme de la primauté et de l'urgence de ses devoirs qui passent logiquement avant ses droits, car nos sociétés ont d'abord besoin de recevoir avant de donner.

En vérité le problème de la femme est posé, de nos jours et le restera devant toutes les sociétés, aussi bien celles qui sont développées que les autres. Car les aspirations de la femme n'ont guère de limite. Elles augmentent sans cesse. Pourquoi ce problème ne serait-il pas aujourd'hui soumis à notre examen ? Pourquoi ne pas l'étudier sous toutes ses faces, pour mieux apprécier ses éléments valables et rejeter ceux qui ne le sont pas. Ainsi du moins cessera le vacarme de ses plus chauds partisans tandis que les plus modernes s'arrêteront d'appeler au secours !

Il se peut aussi, que l'auteur de l'inscription de ce point à l'ordre du jour ait constaté qu'après une année entière consacrée par l'UNESCO à étudier ce problème, la voie à suivre pour le résoudre n'a pas été dégagée d'une manière définitive, malgré les études et les congrès qui lui ont été voués. Il est possible que ce soit la raison pour laquelle, notre auteur a voulu soulever cette question au cours de ce Séminaire Islamique qui nous a habitué à évoquer certains problèmes que le monde musulman affronte sans pour autant leur trouver des solutions définitives mais pour lesquel certaines approches sont faites.

La femme musulmane en général, et la femme algérienne qui plus particulièrement tend aujourd'hui à se lever pour accéder à une position nouvelle, pourront du moins en faire leur profit. Pourquoi pas ? Parlant des objectifs de l'Algérie après l'indépendance, l'écrivain réformiste Malek Bennabi écrit :

« La question peut se ramener au problème d'un peuple qui a réalisé une révolution pour chasser l'occupant hors du territoire national et qui veut maintenant établir à l'intérieur de ses frontières un ordre général, une forme de vie qui permette à chaque Algérien de trouver toutes les motivations ainsi que toutes les garanties nécessaires à son existence. Le fellah algérien combattait pour l'indépendance de l'Algérie en étant conscient de sa qualité d'Arabe et de Musulman: Toute politique qui se dit algérienne doit demeurer fidèle à ses sources spirituelles ».

Mais moi, à mon tour, en tant que Musulman, j'ai conscience de ce que l'Islam recèle en matière de valeurs dogmatiques idéales, de lois justes et sages, et de maximes morales sublimes. C'est pourquoi je pense profondément que toute la législation prescrite par l'Islam en matière de relation entre l'homme et Dieu, et de rapports entre les hommes, et aussi en ce qui concerne les biens de la créature avec l'univers, tant dans la vie pratique qu'au regard de la vie future, je pense, dis-je, que cette législation divine constitue la vraie sagesse et la réponse définitive. Car ce qu'il y a d'utile c'est ce que Dieu recommande. Ce qu'il y a de nuisible, c'est ce que Dieu réprouve. A telle enseigne que nos ulémas ont pu affirmer ceci : lorsque tu veux savoir quelles choses sont nuisibles et lesquelles sont profitables, efforce-toi de connaître ce que Dieu ordonne et ce qu'il reprouve.

Considérons aussi l'exemple d'autres nations orientales contemporaines, comme la Chine ou le Japon, qui ont su s'ouvrir une voie vers les avantages que procure la civilisation, tout en sauvegardant les éléments spécifiques de leur personnalité. Aujourd'hui nos problèmes majeurs consistent à sortir du sous- développement et à nous délivrer de cette atmosphère de gel qui empêche nos bourgeons de fleurir, notre pollen de se répondre et qui glace le sang de nos jeunes à l'intérieur de notre civilisation, à tel point que leurs artères sont atteintes de sclérose et que l'aorte de leur cœur risque d'éclater.

Je le dis en toute sincérité : lorsque j'ai assisté aux réunions du 10e Séminaire sur la Pensée Islamique tenu l'an dernier et que j'ai entendu mes collègues parler de la façon dont l'Occident a su, au Moyen-Age, tirer profit de notre civilisation, et de la manière dont il a posé les jalons pour parvenir aux foyers de rayonnement culturel du monde ancien qui étaient situés en Andalousie, en Sicile, à Kairouan, à Bagdad, alors j'eus la conviction que c'est dans la civilisation occidentale que notre patrimoine intellectuel a survécu est que chez nous, il est bien mort, malgré les honneurs des poètes qui le glorifient et les foires poétiques organisées pour sa célébration.

« Certes, Dieu n'aime pas les gens qui se croient supérieurs et se vantent ».

Pendant la Renaissance en Europe, les esprits libres, les pionniers du savoir, étaient soumis à deux grands courants intellectuels, à l'exception de toute autre influence : la pensée grecque et la pensée arabe. Ils ont alors réfléchi. Lorsqu'ils se sont aperçu que les valeurs de civilisations gréco-romaine avaient livré tout ce qu'elles pouvaient leur offrir et qu'elles étaient dépassées, puisque le savoir hellénique qui avait dominé le cours de l'histoire intellectuelle durant deux mille ans environ ne pouvait plus rien leur apporter de nouveau du fait de la sclérose dont il fut atteint, ils rejetèrent ce legs et se placèrent sur le plan de la réflexion expérimentale scientifique.

Aristote, Platon et Socrate furent donc détrônés, en tant que princes de la pensée. Mais ils conservèrent ce qu'il y avait de plus beau dans l'art et la littérature grecques. Quant à la civilisation islamique, ils s'aperçurent qu'elle pouvait tout leur offrir. Ils s'empressèrent de la traduire. C'est ainsi qu'ils se mirent à soigner leurs malades selon les prescriptions du Canon d'Avicenne et à chasser les superstitions de leurs esprits grâce à la sagesse d'Averroès.

Si j'ai parlé de cette méthode sélective, c'est pour que nous soyons au courant de la façon avec laquelle on peut, dans une civilisation, choisir les éléments utiles. C'est de cette manière que nous pourrons apporter des solutions à nos problèmes nés du sous-développement entre autres le problème de la femme. Encore faut-il que nous soyons résolus à sortir des ténèbres et à courir vers l'aurore, et à affronter la course et la compétition.

LA FEMME APRES L'ANNEE CONSACREE A LA FEMME

Que signifie ce sous-titre profond et mystérieux, pourquoi l'avoir utilisé ? Quelle femme et quelle société veut-il désigner ? A-t-on bien agi en incluant ce problème parmi les points de l'ordre du jour du séminaire ?

Je crois que l'auteur de cet ordre du jour ressentait au fond de lui-même la nécessité de poser ainsi, le problème de la femme, de ses droits et de ses

Certes une défaite, quelque soient son amertume et sa brûlure, mais pourvu qu'elle ouvre nos yeux et nous procure des enseignements, est préferable pour notre nation à une victoire qui nous induit en erreur et flatte notre vanité. Le monde musulman contenue encore à subir les séquelles de cette défaite malgré le succès remporté pendant le mois de ramadhan. Citons comme exemple de ces séquelles un exemple tout récent, je veux dire la tragédie du Liban, avec le souhait que ce soit la dernière, s'il est permis d'espérer qu'en ce bas monde les malheurs ont une fin.

NOS SOCIETES VIVANT DANS UN ETAT TRANSITOIRES

Certains penseurs disent que les collectivités islamiques vivent dans une situation que nous pouvons qualifier de transitoire, si l'on considère les diverses sortes d'activités et les secteurs les plus différents. Exemple : dans le domaine de la production, nous sommes situés entre les méthodes archaïques et la phase capitaliste, dans le domaine politique, nous nous tenons entre l'état individuel et l'état libéral et socialiste, sur le plan sociologique entre la survivance de tradition aux motivations disparues et l'ouverture sur la modernité. En ce qui a trait à la femme nous sommes entre la femme voilée, cloitrée et la femme libérée de toutes les chaines et entraves, c'est-à-dire, plus précisément, entre la femme bédouine, naïve, errante et l'autre, superficiellement « francisée », et à « la coquille américanisée ».

La femme vit donc soumise encore à différents facteurs dans le poids plus ou moins grand affecte son comportement. Il y a l'attraction puissante du présent qui l'oblige à prendre sa part nécessaire de cette civilisation actuelle, afin qu'elle cesse d'être une attardée regardant en arrière, alors que politiquement elle est déjà émancipée et qu'elle aspire après un siècle de contact avec l'Occident à accéder à un rôle de création dans le sein de la civilisation et non à se cantonner dans la tradition. Mais il y a d'autre part, la pesanteur des ancrages historiques puissants qui tendent à engloutir la femme dans les profondeurs du passé lourd de tout le poids de l'immobilisme de la stagnation et de la stérilité.

Le même passé est responsable de notre faillite face à des peuples possédant une civilisation impitoyable, qui ne pardonne pas aux faibles de ne pouvoir suivre le rythme de son essor à travers l'espace, ni à ceux qui ne disposent pas de ses techniques qui ont arraché des trésors aux entrailles de la terre, pour le plus grand malheur des uns et pour le plus grand bien des autres, c'est-à-dire ceux qui furent les plus sages.

N'est-il pas dit dans le Coran : « Par le mal et par le bien, Nous allons vous éprouver en suscitant vos passions ».

Mais nous ne sommes pas les seuls à avoir subi cette crise de translation, ni les seuls à avoir affronté le défi de l'évolution. La transformation de la femme suffit à le prouver clairement. C'est notre société qui paie la rançon de cette métamorphose historique. Dieu fasse que cela débouche sur le bien. L'Europe elle-même n'a-t-elle point connu durant le Moyen-Age des expériences suivies de rechutes et d'erreurs ? L'on se trompe toujours avant d'atteindre le but. Mieux vaut profiter de l'analyse expérimentale que de se cantonner dans le domaine du théorique et du spéculatif.

Ces adeptes ne purent donc résister aux passions, et comme dit le poète pakistanais Ikbal, ils fondirent tels des bougies et perdirent leur personnalité. Le même courant donna naissance à d'autres ramifications que l'on voit encore, s'efforçant de dessiner une maquette du monde islamique de demain selon les principes d'un art étranger et d'un décor factice.

En vérité ce courant ne pourra être dompter que si, dans le camp des réformistes islamiques, un plan pratique est établi qui, déplaçant les méthodes d'Al-Afghani, puisse épouser. L'esprit méthodologique et réaliste de notre temps. Car les partisans de l'autre plan défendent ses principes par la force que leur confèrent le pouvoir et la loi qu'ils détiennent. En ce qui a trait au problème de la femme, ils ont confectionné plusieurs modes de pensée, dignes de leur assurer la formation des générations futures, selon leur bon plaisir.

La deuxième fois où éclata le défi, fut en 1967, lors de la défaite devant le sionisme.

Aux yeux de l'Occident, l'Etat d'Israël représenté, dans le Proche-Orient, une oasis de civilisation occidentale de déserts arabes, qui, eux, sont peuplés de bédouins.

Mais lorsque pour la première fois dans notre histoire actuelle ces bédouins s'unirent, on les vit triompher sur le « jardin » et briser le mythe de du sionisme. Cette défaite provoqua un choc psychique dans les peuples et chez les gouvernants. Elle donna naissance à des sentiments de malaise, de trouble, de doute, de colère. Car partout l'on ressentait le poids de l'humiliation qui, de nouveau, pesait sur le colonialisme. Et c'est ainsi que, de nouveau, les interrogations qui se posèrent au 19e siècle, se firent entendre plus fortes et plus pressantes :

« Qui est le responsable, notre passé ou notre présent ? Nos peuples ou nos gouvernements ? » etc...

D'autres questions accusatrices furent posées ainsi que d'autres encore qui condamnaient. On alla jusqu'à mettre en cause certaines formes d'art ou de littérature qui versaient dans la corruption morale, la perversité ou la bassesse car elles avaient présidé à la formation des vaincus. Même le « prêche » dans les mosquées du haut du minbar, était tenu, sous certaines formes pour responsable. Car la prédication « figée » ne faisait que ressasser depuis des siècles, devant des générations de fidèles, les mêmes sermons que l'on ressortait à l'occasion de chaque solennité religieuse.

Les penseurs se mirent donc à rechercher d'autres causes, d'autres raisons. Ils obtinrent certains résultats dans le genre de l'autocritique objective. C'est avec plaisir que j'ai constaté que le monde musulman a tiré des leçons de cette défaite qui, en définitive, lui aura profité. Car il avait besoin d'un tel bouleversement pour savoir qui étaient ses ennemis et leurs alliés, et aussi pour rectifier sa position à l'égard de la civilisation et de ceux qui la « fabriquent », de ceux qui enfoncèrent dans son cœur le poignard d'un Etat raciste, piétinèrent la dignité des Musulmans, et dispersèrent tout un peuple dont le sang coule encore du fait des agressions commises par les descendants des Croisés.

Sonner le réveil du monde musulman, combattre le colonialisme où qu'il se trouve, contraindre les dirigeants à administrer les peuples musulmans selon des lois démocratiques et justes, pourvoir ces peuples en moyens d'auto-défense pour qu'ils puissent sauvegarder leur frêle existence face à la puissance colossale du colonialisme tant matérielle qu'intellectuelle, appeler le monde musulman à approfondir sa réflexion sur les valeurs législatives et spirituelles de l'Islam, rassembler les débris épars de l'unité du monde musulman, mettre en harmonie ce qu'il y a d'essentielle dans cette civilisation avec la doctrine de l'Islam.

Comme vous pouvez le constater, ces objectifs étaient conformes à l'esprit de l'époque. Leur but était de sauvegarder les éléments essentiels de la personnalité islamique et de protéger cette dernière des dangers mortels du courant colonialisme.

En effet, les principes sus-énoncés contiennent à la fois les germes de l'authenticité et ceux de la modernité. Ils prennent ce qu'il y a de meilleur dans le patrimoine islamique et dans la civilisation contemporaine.

Nous constatons, que la tendance reformiste d'Al-Afghani fut défensive mais non point planifiée et méthodologique.

Cela était normal, compte tenu de l'époque et des réalités du monde musulman d'alors.

Ce penseur ne tenait pas à rompre le bien attachant la société islamique aux origines de sa civilisation. Car ce lien était un atout majeur, d'ordre moral, capable de sauvegarder les Musulmans des périls colonialistes. Par la suite, les mêmes principes de cette action réformatrice figurèrent dans divers mouvements de réforme religieuses qui secouèrent un certain nombre de pays islamiques. Ils se concrétisèrent notamment ici d'une manière efficace dans le mouvement de l'association des ulémas, sous la conduite du cheikh Abdelhamid Ibn Badis, Dieu ait son âme en miséricorde.

Il importe, cependant, de ne pas oublier avec le recul du temps, un autre courant qui apparut après la première guerre mondiale et qui se disait réformiste. En réalité il endossa la « réforme » dans le temps même où il prenait le pouvoir. Il se proposait de construire l'édifice social de l'Islam sur la seule réalité de civilisation moderne, ne tenant nul compte du passé, ni en bien ni en mal. Politiquement, ce courant a adopté le concept d'état laïc, en rejetant l'idée que l'Islam est à la fois une religion dogmatique, législative et étatique. Il a préconisé la libération de la femme, sans tenir compte de la position de l'Islam sur ce point. Il alla jusqu'à transformer l'écriture arabe en affectant aux caractères une « nationalité » étrangère. La langue du Coran fut elle-même transcrite en caractère latins.

Cette tendance dénuée de toute spécificité islamique eut un peu partout des adeptes qui ne cessèrent de courir essoufflés, haletant, derrière l'ombre de l'Occident. Car c'est lui qui les a « formés » selon des principes d'enseignement et d'éducation, au début de ce siècle. L'hégémonie colonialiste était alors à son apogée, tant matérielle qu'intellectuelle. Sur le plan général, la situation des pays musulmans ne laissait guère entrevoir l'espoir du salut ou de la délivrance.

CE QUE L'ISLAM A CONFERE A LA FEMME EST SUFFISANT ET APTE A NOUS EPARGNER LES EXPERIENCES ET LES DEBOIRES

par Monsieur
Mohammed Sadek Bessyès
Professeur à la Faculté Zeitouna
de la Loi et de la Théologie
Islamiques
Tunis (*Tunisie*)

Allah le Très Haut a dit :

« O gens qui croyez, il vous est venu de votre Seigneur une preuve et nous avons fait descendre sur vous une lumière éclatante. Ceux qui croiront en Dieu et s'y attacheront, ceux-là Il les fera pénétrés dans sa miséricorde et dans sa grâce et les orientera vers le droit chemin qui vers lui les conduira ».

Allah a dit aussi :

« Quel est le mieux orienté : celui qui va la tête renversée, ou celui qui, se tenant droit, avance dans le droit chemin ? »

Honorable ministre,

Chers collègues,

Chers étudiants et étudiantes,

Vous connaissez tous l'importance de ce problème :

(Quelle doit être la position du monde islamique à l'égard de la civilisation contemporaine ?)

Dès le milieu du 19e siècle, c'est-à-dire au moment même où l'Islam est entré au contact avec la dite civilisation, par le truchement de la cavalerie et de l'artillerie coloniales, cette question se posa de manière brulante. C'est à cette époque que se manifestèrent les premiers signes de la Nahda, (renaissance arabe contemporaire) ainsi que les premiers interférences dues à la rencontre des deux modes de penser : l'Oriental et l'Occidental.

Lorsque les peuples musulmans furent entièrement soumis aux régimes d'humiliation et de honte instaurés par la tyrannie et le colonialisme, le grand défi, dont toutes les données et motifs étaient désormais multiples fut relevé par le réformateur islamique ; Djamel Eddine al-Afghani dont l'action visa en premier lieu les principes et les éléments ci-après :

cause par les Weiss, Beauvoir, Halimi ou Veil ? Quand la femme fait irruption dans la politique, c'est souvent qu'une passion désintéressée l'y porte, la justice, l'humanité, la liberté. Car la femme reste liée par tous ses sens à ces exigences fondamentales de la vie. A ce titre, elle est douée pour la transcendance. Et voilà, me semble-t-il, pourquoi elle s'est jusqu'ici, et contre son propre intérêt, trop souvent contentée de son foyer ou de ses religions qui donnaient des réponses plus directes à ses aspirations.

Dieu sait pourtant (et les maris aussi) que même là, elle fut malmenée.

3.3. *Un art de la réciprocité.*

La religion chrétienne (pour m'en tenir à elle, que je connais bien), n'a pas été douce envers les femmes, et voyez que celles-ci n'en gardent pas rancune. Si l'Eglise a persisté, je crois même que c'est grâce à leur piété. On peut faire semblable observation pour le foyer. Admirez le paradoxe : la femme, spontanément, aime sa maison, son mari, ses enfants. Cela devrait arranger tout le monde. Mais ce n'est pas si simple. Là aussi, l'homme redoute le bonheur féminin, la puissance féminine. Il craint la concurrence des femmes au-dedans comme il la craignait au-dehors. Ni ici ni là, il ne la souhaite libre et forte. Il la préfère soumise, et partout présente comme si elle était absente : ainsi règne-t-il seul.

Et voilà pourquoi la grande querelle des femmes ne me paraît pas du tout se réduire, comme on le dit souvent, à une tentative d'évasion du foyer et d'insertion dans la cité. Ceci n'est qu'un aspect de leur lutte. Plus globalement, elles cherchent à s'émanciper, mais partout à la fois, chez elle et au-dehors.

Il faut que soit reconsidéré le rapport homme-femme, dans la vie privée et dans la vie publique. Les coutumes, les mœurs doivent être changées, ainsi que la loi souveraine de nos sociétés modernes. La concurrence, l'évincement du rival ne doivent plus régir les rapports des individus entre eux, mais la solidarité, l'amitié, la souplesse des relations humaines. Dans cette vaste réforme, le rapport homme-femme occupe une place essentielle. C'est par lui que tout commence. Je le répète, une nation qui tolère l'injustice domestique sera toujours incapable d'instaurer une justice politique. Elle vivra dans une violence latente et sournoise. Elle accoutumera ses enfants à voir dans cette violence une forme de légalité. La démocratie s'installe d'abord au foyer, lorsqu'homme et femme sont unis, et tendrement unis, dans le respect et le service l'un de l'autre. La démocratie commence par la réciprocité entre l'époux et l'épouse.

Et que l'on n'imagine pas que cela demande aux hommes de coûteux sacrifices. Qu'ils songent au contraire à l'extraordinaire richesse qui les attend : ils perdent un objet mais ils gagnent un sujet. Ils avaient une chose, ils ont maintenant un être. Voilà ce que veulent les femmes : que chacun de nous, quel qu'il soit, où qu'il soit, ait le goût de rendre vivant autrui, au lieu de l'écraser. Personne au monde n'est jamais assez vivant, à commencer par nous-mêmes. Offrons et la liberté et la joie et l'esprit et nous verrons que c'est notre liberté, notre joie, notre esprit que nous avons créés, en vertu d'une réciprocité dont les femmes depuis toujours ont fait l'expérience silencieuse. Nous sommes tous les uns envers les autres comme des artisans : nous nous fabriquons mutuellement. Inertes d'abord, nous nous rendons vivants. Ainsi que le sculpteur qui, de l'informe matière, crée le souple mouvement d'un corps...

Dans cette perspective-là, la politique ressemblera à une œuvre de l'art.

ci-dessus ne la combleront pas. Elle restera opprimée si notre façon de vivre, notre culture ne se remettent pas en question. Et tout de suite.

3.1. *L'aspiration à la paix.*

Partout, dans tous les temps, les femmes ont été tenues à l'écart des activités belliqueuses. Le féminisme n'aime pas que l'on attribue aux femmes une essence propre (cela nous a joué de mauvais tours). Il me pardonnera, j'espère, si néanmoins j'affirme cette évidence, que la femme éprouve, à la différence des hommes ou du moins d'un certain nombre d'hommes, une insurmontable horreur pour la guerre. Pendant des siècles, elle est restée silencieuse, souffrant sans mot dire, des tristesses de la guerre. Or la première fois que dans notre tradition occidentale, elle pousse un cri, c'est justement pour conspuer, sous la plume d'Aristophane, la tueuse de fils et d'époux ; c'est pour protester contre la violence, qu'Antigone, dans la tragédie de Sophocle, s'écrie : « Je ne suis pas venue partager la haine, mais l'amour ».

Pendant des siècles, la douleur féminine est restée muette, leur scandale n'a presque pas trouvé de voix pour s'exprimer. Est-ce faire preuve d'espérance trop folle que d'entrevoir là-dessus un changement ? Cette horreur est devenue publique. Elle a pris enfin une force politique. Des femmes, en Irlande, sont peut-être en train de rétablir la paix. Elle n'ont pas pris les armes. Elles se sont rencontrées, se sont embrassées, elles ont défilé ensemble, et leurs accolades font hésiter le bras de leurs époux...

Je ne dis pas ici que la femme est un ange de douceur. Lequel d'entre nous n'en connaît qui font peur, ainsi que des tigresses ? Je dis simplement qu'elles sont très rares à supporter la destruction de la vie. Leur corps, leur esprit ne sont pas organisés pour cela. Ecoutons-les, celles qui parlent aujourd'hui. Elles ne nient pas bêtement les conflits ; elles disent qu'ils peuvent être réglés autrement, et qu'il faut en finir avec cette survivance archaïque et monstrueuse du meurtre. Cet archaïsme, quand il est servi par un outillage toujours «dernier cri» pourrait bien en effet mener le monde vers sa fin définitive.

3.2. *L'aspiration à une nouvelle politique.*

La femme a une profonde répulsion pour la guerre. J'ajouterai qu'elle n'est pas très attirée par la politique, telle du moins que nous la pratiquons ordinairement. Je vais peut-être faire sursauter les féministes, mais je remarque que les femmes ont maintenant des droits qu'elles n'exploitent absolument pas. Et il est peut-être un peu rapide de dire que c'est à cause d'une oppression masculine, qui serait plus forte que ces droits. Depuis 1945, le nombre de Françaises à l'Assemblée Nationale ne cesse de décroître. Il y en avait 33 en 1944, il n'y en a que 9 aujourd'hui, et qui se taisent. Pourquoi ce désintérêt ? Certes, les hommes le provoquent, mais les femmes aussi en sont responsables. Je n'ai pas le temps ici de tenter une explication. Disons très vite que la politique des hommes ressemble trop souvent à des jeux rhétoriques autour d'intérêts bornés et médiocres (petites peurs devant le changement, grandes querelles de partis et de personnes) et que cette hypocrisie du beau discours, et sa stérilité les éloignent. Cela offense leur sincérité et leur goût de l'efficacité.

C'est pourquoi, au cours de l'histoire, leurs interventions dans la vie politique sont à la fois brèves et fulgurantes. Elles suspendent le clapotis continuel des petits égoïsmes, et font surgir les grandes idées oubliées : Antigone, l'amour ; Jeanne d'Arc, la patrie ; et que dire des combats menés aujourd'hui pour notre

parents-enfants, il est impossible que la femme seule assure toute la fatigue de la maison.

Et considérez les enfants. Une éducation donnée simultanément par le père et la mère est nécessairement plus complète et plus équilibrée. Les théories de Freud n'ont pu voir le jour que lorsque la parenté, au 19e siècle, est devenue dissymétrique : une mère totalement dévouée aux enfants, un père totalement absorbé par son entreprise. On a pu alors parler de *complexe d'Oedipe*, le fils étant impatient de se venger de l'indifférence paternelle, et de *complexe de castration*, l'humiliation que subit la mère dans cet emploi de servante obscure étant ressenti comme une véritable mutilation. Et c'est aujourd'hui un acquis de la psychologie contemporaine qu'un enfant a besoin de la structure parentale intacte : père et mère ensemble.

2.2. *Le partage de l'amour.*

Mais il ne suffit pas à la femme d'être aidée dans ses tâches. Il faut aussi de l'estime mutuelle. Il n'est plus de saison que le mari manifeste cet antique mépris qui rendrait d'ailleurs impossible ou désagréable le partage des travaux. Je veux dire un mot de l'amour conjugal. Pourquoi tant de couples échouent-ils, et cessent-ils si vite de s'aimer ? Parce que dans la plupart des cas, leurs relations se réduisent à un rapport dominant-dominé. L'homme commande, la femme obéit. Or rien n'est plus destructeur que ce pouvoir figé. Regardez plutôt : la femme est attirée par la vie familiale ; elle rêve de bâtir un foyer, mais dans combien de cas ce service reste-t-il libre et heureux ? On voit si souvent cet être libre devenir esclave, ce service dégénérer en servitude, cette spontanéité en désespoir. Et à qui la faute ?

L'amour, pour durer, (car je l'affirme, il peut durer, quoique disent les grincheux) a besoin d'une réciprocité rigoureuse, car elle seule peut sauver la liberté. Tu me sers, je te sers. Tu m'aimes, je t'aime. Le sentiment, fertile et nourrissant, doit faire croître l'autre. Il ne doit pas être jaloux et possessif : croyant conserver, en réalité, il étouffe et il tue, et lui-même meurt. L'amour vrai est fondateur de liberté. Qu'il ne redoute donc pas la liberté : elle le sauve. Un être libre, c'est un être capable de penser, d'agir, de sentir selon les exigences de sa vie intérieure. C'est un être qui continue à s'accomplir, c'est-à-dire à se transformer, à être tous les jours un peu différent. Cette nouveauté perpétuelle est fascinante, elle entretient l'étonnement de l'amour, le persuade qu'il n'en est toujours qu'à ses commencements, et qu'il ne fait que dévoiler ses promesses du matin...

Un grand Berbère, au 4e siècle, nommé Saint Augustin, se scandalisait que ce même mot d'amour servît à désigner et le sentiment que l'on éprouve pour un être chéri, et le plaisir que l'on met à manger du gibier. J'aime mon père, j'aime le lièvre, le latin exprime cet « amour » par le même verbe. Le français aussi, je l'avoue. Comme le langage est sot ! Un même mot pour dire la vie et la destruction, est-ce possible ? Mais revenons aux jeunes hommes de notre temps : quel amour entendent-ils porter à leur femme ? L'aimeront-ils comme une personne ou comme un lièvre ? L'aimeront-ils pour la vie ou pour la mort ?

3. UNE CIVILISATION DIFFERENTE.

La femme, en menant cette double lutte, au dehors et au dedans, ne se bat pas seulement pour elle. Au delà d'une oppression à surmonter, d'une dignité à rétablir, elle entrevoit un projet plus grandiose et plus ambitieux, elle aspire à une autre figure de civilisation. Les conquêtes personnelles énumérées

C'est une idée répandue que les femmes ne raisonnent pas si bien que les hommes et sont impropres aux travaux de l'esprit. Leur sottise, qui est avérée par un détail anatomique navrant (100 grammes de moins dans leur cervelle), a découragé de les instruire, pendant des siècles. L'ignorance a fait la preuve de leur sottise : quand elle n'est pas exercée, l'intelligence, comme les muscles, s'affaiblit. Et voilà comment on valide les préjugés.

Le premier combat de la femme a donc été en faveur de l'instruction. Cela n'est pas vieux, à peine cent ans, et le combat fut rude : combien de filles ont dû forcer l'hostilité de leur entourage et surmonter de cruelles pressions sociales ? Combien se sont fait honnir de leur famille, chasser ou enfermer ? Ne pensons pas sans émotion à nos courageuses grands-mères.

Ce combat est à peu près terminé, au moins en Occident. Les filles ont droit aux mêmes études et accèdent aux mêmes diplômes que les garçons. Ces derniers semblent même ne pas tirer tout le profit possible de leurs cent grammes de manière grise « en plus » : leur taux de réussite n'est pas supérieur à celui des filles. Devant ces résultats étonnants, nos pères consentirent à accorder aux filles le droit de vote, l'éligibilité et quelques postes de responsabilité. Sur le plan des principes, la bataille était à peu près gagnée.

1.2. *La conquête des usages.*

Dans la pratique, hélas, les choses vont moins vite. La société a la tête dure : à titre égal, la femme dispose d'une situation inégale : travaux plus monotones, moindres pouvoirs, salaire inférieur. On justifie cette violence en invoquant ses charges familiales qui la distraient de son métier. Mais la même société a su très bien s'adapter aux obligations militaires des jeunes gens, parfois considérables, ou aux congés payés des travailleurs (qui n'ont pas mené les entreprises à la ruine, comme on le redoutait en 1936). Alors, pourquoi ne ferait-elle pas cet effort supplémentaire en faveur des femmes ? Voilà aujourd'hui la tâche du féminisme : non plus revendiquer des droits essentiels, mais en finir avec une myriade d'abus, d'injustices plus ou moins « justifiées », cela réclame une énergie de fer. J'admirais tout à l'heure le courage de nos grands-mères, mais voyez celui de leurs petites filles, qui doivent, elles, vaincre une mentalité de mépris aussi vieille que le monde !

2. LA DIGNITE DOMESTIQUE.

2.1. *Le partage des tâches.*

Quand tout ceci sera obtenu, les femmes auront une vie encore difficile. Car la plupart vivent dans un foyer qu'elles aiment, et quoi que dise un féminisme traditionnel, elles se sentiraient incomplètes si elles n'y effectuaient le don de la vie. L'accès des femmes à la vie publique n'éteint pas du tout leur antique désir, et il s'agit désormais d'aménager ces deux exigences. Quoi qu'on dise, elles sont compatibles, avec un peu de bonne volonté.

Cela suppose d'abord le partage des tâches matérielles et éducatives. Une femme qui travaille au dehors tout le jour, il est scandaleux que l'attende à 18 heures une seconde journée de travail chez elle. Même si elle ne travaille pas, elle ne peut se passer de l'aide de son mari. Jadis les familles étaient vastes et l'on se répartissait les corvées. Aujourd'hui où elles se réduisent à la cellule

QUE VEULENT DONC LES FEMMES ?

par Madame France Quéré
Ecrivain
Paris (France)

Reconnaissez avec moi que les hommes sont incompréhensibles. Devant plus forts qu'eux, ils peuvent déployer un extraordinaire courage, et jusqu'à en mourir. Prisonniers, torturés, esclaves, humiliés, un peuple grandiose a su se lever sous les yeux de ses dominateurs. Mais devant plus faibles qu'eux, cette noblesse s'envole. Les voilà durs, injustes, inconscients à leur tour. On se souvient du mot de Lénine, à la fin de sa vie : « Je n'ai jamais vu de révolution qui ne serve à installer la réaction ». Digne devant les puissants, l'homme en face des faibles, devient vil.

La résistance que les hommes opposent à la protestation des femmes illustre mon propos. Ils devraient pourtant considérer celle-ci avec respect : elle est dans tous les pays du monde, quels qu'en soient les régimes et les coutumes. Elle s'insère dans le grand mouvement de libération qui a commnecé par l'insurrection des pauvres, s'est poursuivie dans la colère des peuples colonisés et s'incarne à présent dans l'émancipation des femmes.

Or, à ce phénomène universel, les hommes répondent par une crainte non moins universelle. Du Pôle Nord à la terre de feu, ils se divisent sur tous les sujets, sauf sur la commodité qu'il y a à maintenir les femmes en tutelle. Que ne portent-ils cette matière dans leurs discussions internationales ! Jamais, croyez-moi, leurs intérêts n'entreraient en conflit. Ils passeraient leur temps à échanger des félicitations et des clins d'œil.

Mais revenons au mouvement des femmes. Il prend donc la suite des grandes subversions historiques qui ont mené races, peuples, hommes, à se délivrer de l'infériorité où on les avait abaissés. Mais à la différence des précédentes luttes, la femme n'use pas de la violence militaire ni de la révolte civile : elle répugne à l'attentat comme à la grève. Elle parle, elle écrit. Elle use de cette persuasion douce, et tente de gagner des batailles sans faire de morts. L'opinion, agacée par ce bruit, prête l'oreille à ses plaintes. Mais que veulent au juste les femmes ?

Je distinguerai trois sortes de revendications :

l'égalité professionnelle,

la dignité domestique,

la métamorphose de la civilisation.

1. L'EGALITE PROFESSIONNELLE.

1.1. *La conquête des lois.*

Par horreur, par dégoût de ce sang, qu'il croit être souillure, blessure, maladie, l'homme cherche à le gommer, à le faire disparaître, comme en témoignent les publicités actuelles, qui, toutes, tendent à faire " comme si de rien n'était ". Mais maintenant, les femmes — qui longtemps avaient infériorisé ce tabou — commencent à vivre cet écoulement de sang comme une plénitude de leur ventre, comme un fonctionnement de leur corps en accord avec la nature, comme un rythme de vie.

En cela (et en beaucoup d'autres points), elles rejoignent les sorcières qui laissaient circuler à l'intérieur de leur corps les rythmes des jours et des nuits, des saisons, des lunaisons. Si je dis que les femmes actuelles, sont des sorcières, c'est qu'elles commencent à se ré-approprier ce qui leur appartient, non pas pour le garder jalousement, mais au contraire pour lui redonner vie, expansion, épanouissement. C'est qu'elles commencent à retrouver leurs puissances enfouies, bafouées, confisquées, à en inventer de nouvelles, non pour s'attaquer aux hommes, non pour les castrer, mais pour qu'ils ne soient plus obligés de se reconnaître dans le modèle du maître, de l'oppresseur.

Si les sorcières, si les femmes se mettent à chanter, à danser le bonheur de leur corps — petit-à-petit et dans la lutte — retrouvé, elles minent ainsi les assises d'un certain fonctionnement de société, elles sont un danger pour cette société et non pas pour les hommes qui, au contraire, peuvent se sentir libérés du rôle dans lequel ils étaient, eux-aussi, enfermés.

Xavière Gauthier

n'avaient pas voulu. Les medecins — petite " élite " technicienne de spécialistes — ont monopolisé, ont confisqué au peuple ses puissances vitales qui circulaient grâce aux femmes. Ils ont pris le pouvoir en écrasant les forces libres. Ils ont droit de vie et de mort sur nous.

La grossesse, qui d'autres qu'une femme est mieux placée pour en connaître quelque chose, pour en parler, pour en témoigner ? C'est, du moins, ce qu'on pourrait penser, logiquement. Et bien, dans ce vaste mouvement de récupération des forces vives des femmes, l'homme a réussi à mettre la main, par la médecine et par le discours savant, sur ce qui lui est le plus étranger. Que sait-il de ce gonflement du ventre, de ces échanges de nourritures, de respiration, de battement du cœur, d'irrigation sanguine, de sons, de mouvements entre la mère et le fœtus ? Que sait-il de cette jouissance ou de cette horreur secrète, de cette métamorphose du rythme du temps, du sommeil, des rêves, du schéma corporel, de l'appétit, de l'odorat ? Que sait-il de cette déchirante aventure qui n'est comparable à rien et que rien, dans l'ordre de cette société, ne laisse prévoir ? Il n'en sait que ce que lui enseigne son envie, sa jalousie de cette puissance de donner la vie.

Et pourtant, cette puissance-là aussi, il la récupère, il en fait son pouvoir. A l'enfant que la femme a porté, a fabriqué, il impose sa marque de propriétaire : son nom (comme il l'a déjà imposé à sa femme). Un peu comme le directeur d'une usine estampille de son nom le produit du travail de ses ouvriers.

Que ne s'est-il pas approprié ? Même le nourrissage des bébés. Cet échange charnel, sensuel qui continue celui de l'intérieur du ventre, cette coulée de lait du sein gonflé de la femme à la bouche avide, suceuse, au gosier, au ventre du nourrisson : cela se produit de plus en plus rarement dans ces pays qui se prétendent " civilisés ". Parce que l'homme, le mari, la publicité, sont là pour surveiller le stéréotype de l' " éroticité " de la femme ; parce que le médecin, la science sont là pour dire : " attention, microbes. La nature est polluée. Le sein de la femme est pollué : microbes, microbes, microbes ! " Et qui donne à manger aux nourrissons maintenant ? Les pharmaciens, les industriels, les marchands et les fabriquants de poudres stérilisées et de petits pots qui rendent intelligent...

Et même plus tard, lorsque les enfants grandissent, bien que ce soient presque toujours les femmes qui fassent la cuisine pour toute la famille, ce sont les hommes qui, socialement, sont reconnus comme grands cuisiniers, comme chefs-cuisiniers. Et sans doute, les femmes ne se soucient guère d'êtres consacrées " grands " et " chefs " ! Qu'ont-elles à faire de cette gloire de pacotille, commerciale ? Elles ne demandent pas à entrer dans ce système de remise de médialles, de hiérarchie. Mais, ce faisant, on dévalue, on diminue leur tâche quotidienne dans laquelle peut cependant entrer le plaisir de pêtrir la pâte, de transformer la matière et de nourrir ceux qu'elles aiment. Cette tâche n'est même pas reconnue comme un véritable travail (par exemple, elle n'est pas rétribuée), alors que ce travail de fourmi de la femme redonne des forces au travailleur, entretient sa force de travail qui peut alors à nouveau, être exploitée par son patron.

Et c'est le deuxième versant du rejet par l'homme de ce qui est féminin. Ce qu'il ne peut récupérer, faire sien, ce sur quoi il ne parvient pas à mettre la main, il le laisse à la femme mais en l'infériorisant, en le méprisant, en le ridiculisant. Deux façons de refuser de reconnaître un *autre* sexe, différent. Je n'en veux pour preuve que ce tabou du sang monstruel, commun à tant de civilisations.

Pourquoi choisir les sorcières dans l'histoire des femmes. Alors qu'en Occident, les femmes aussi bien que les hommes (et même les enfants, qui en ont très tôt une image figée dans leurs contes de fées) se représentent généralement la sorcière comme une affreuse femme, vieille, laide et méchante. Alors que toute l'imagérie occidentale la représente hiraute, le nez rejoignant le menton, dépenaillée, à cheval sur un sale balai, ricanante et menaçante ou baisant le postérieur du diable... Si je l'ai choisie, cette horrible vieille, comme lien possible de la femme, si je me sens sorcière, c'est qu'il fallait d'abord détruire se stéréotype, si diamétralement opposé à la réalité, si habilement construit pour rendre épouvantablement donc inopérante cette manifestation de la puissance de la femme.

Car, quelles ont été, au Moyen-Age, réellement, les sorcières ? Un écrivain français, un homme pourtant, Michelet, l'a merveilleusement bien compris. C'étaient d'abord, des femmes seules, vraiment seules — et non pas isolées comme le sont beaucoup de femmes actuellement. Seules, parce que leurs maris étaient à la guerre du Seigneur. Leurs maris, des serfs, ignoblement exploités par ceux qui avaient le pouvoir, sans doute, mais eux-mêmes pris dans ce jeu des batailles, des conquêtes, de la guerre, corps à corps complice avec les compagnons d'armes, corps à corps brutal avec l'ennemi. Elles, les femmes, elles étaient seules et elles rêvaient. Le rêve est la liberté de l'esclave. Elles rêvaient si fort, avec une telle intensité, qu'elles commencèrent à parler tout haut. A qui ? Il n'y avait personne.

Elles parlaient aux plantes, aux arbres de la forêt, aux animaux qui rôdaient autour de leurs cabanes. Elles parlaient à la nature, étrange et proche. Leur corps à corps à elles, c'était avec la terre, avec les fleurs, avec les saisons, avec la lune, avec les feuilles bruissantes. Petit à petit de ce contact quotidien avec le monde vivant, leur sont venus, non pas un savoir, mais des connaissances. Des connaissances exactes, et pourtant empiriques, de toutes les plantes germant, poussant, fleurissant auprès de leurs cabanes. Et, surtout, des connaissances que ces plantes peuvent apporter à notre corps parce qu'elles sont en continuité avec lui. De leurs vertus curatives, dormitives. Les plantes bénéfiques et aussi vénéneuses. Celles qui soignent et celles qui empoisonnent. Les sorcières étaient les médecins du peuple, ou plutôt, les guérisseuses.

Car les médecins, qui, de concert avec les prêtres, les ont condamnées à être brûlées vives, sont précisément les profiteurs, les exploiteurs de leurs connaissances. Les médecins possèdent un savoir, qui leur a été enseigné dans les universités, un savoir complètement coupé de leur corps à eux et qui ne soigne le corps des autres que de l'extérieur, tout en exerçant une mainmise dessus, une contrainte, une mise en ordre. Qu'importe, pour le médecin que je vais consulter, ce qui se passe dans mon corps, qu'importe ce que je sens, ce que je vis. Pour lui, ce qui est vrai, c'est ce qu'il a appris dans les livres.

Les sorcières, au contraire, n'étaient coupées ni de leur propre corps, ni de celui des autres, ni de l'équilibre des forces vitales, naturelles. Elles vivaient en communion avec le réel. Elles s'impliquaient, se risquaient dans ce qu'elles faisaient aux autres, pour les autres. Ainsi, elles qui étaient des femmes (il y avait très peu de sorciers) savaient dans leur propre corps ce que signifie la grossesse, l'accouchement. Originairement, elles étaient des sages-femmes, elles aidaient les autres femmes à donner la vie. Elles savaient aussi que seule la femme qui est enceinte peut décider si elle désire vraiment avoir un enfant ou non. Elles connaissaient les plantes avortives et pouvaient ainsi libérer les femmes de ce qu'elles

NOUS, LES SORCIERES

par Madame Xavière Gauthier
Ecrivain
Paris (*France*)

Les femmes ont une histoire — des histoires, peut-être qui serpente au cours des siècles, sans jamais avoir été écrite dans l'Histoire, celle que les hommes ont faite. Si les histoires des femmes n'apparaissent pas, sur le devant de la scène politique, c'est pour une bonne raison : c'est que la Grande Histoire des hommes ne pouvait se dérouler qu'en rejettant à l'arrière-plan, en domestiquant, en réduisant au silence, en refoulant au plus profond de leurs demeures et d'eux-mêmes, le féminin.

Cette Histoire ne s'est donc pas faite exactement sans les femmes. Il fallait, au contraire, qu'elles y soient présentes en tant qu'absentes, il fallait que l'homme marche sur elles pour avancer, il fallait que l'homme s'appuie sur leurs forces muselées, qu'il se repose à leur ombre, qu'il s'imprégne à leur amour, qu'il se ressource à leurs larmes, qu'il se réjouisse à leur beauté, pour pouvoir, gagner ses batailles. De même, dans les sociétés de classe, ceux qui ont l'argent et le pouvoir, ont besoin d'exploiter la force de travail du peuple pour accroître sans cesse leur profit et faire cette Histoire qu'ils disent de progrès. De même, à un certain moment de leur Histoire, les nations occidentales, ont eu besoin d'exploiter les forces vitales d'autres peuples qu'ils ont colonisés.

Mais, sourdement, sournoisement, dans les sous-sols et les sous-bois, sous la terre et sous la peau, le sang continuait à battre dans les veines des exploités et des colonisés, le sang cyclique continuait à couler sous les jupes des femmes. Et c'est cette histoire-là qui m'intéresse, cette histoire souterraine de la vie et non celle des maîtres, qui n'est que tentative répétée de mise à mort de l'autre, du différent, de tous les autres, ceux qui n'ont pas même religion, mêmes intérêts.

Et dans l'histoire souterraine des femmes, faite de longs siècles de silence, d'interdits, de malheurs, de tabous et de quelques moments de fulgurante émergeance, je choisi l'époque des sorcières, qui fait brèche dans le Moyen-Age français. Je précise tout de suite, que pour en parler, je ne me cantonnerai pas à ce que l'on appelle, à ce qu'ils appellent la " vérité historique " — celle de leur histoire, justement — mais que j'y mêlerai la vérité du mythe, la vérité du fantasme, la vérité de mon histoire aussi qui rejoint quelque part celle de beaucoup de femmes. Il se mêlera donc, à ce qu'on prétend l'objectivité, la trame de ma subjectivité (de mon enfance, des liens avec mon passé), comme dans tout discours, d'ailleurs mieux vaut le dire franchement.

Comme les femmes travaillent de plus en plus à l'extérieur, ou sont obligés de le faire à cause du divorce, les enfants déjà privés du guide paternel sont placés dans des centres pendant la journée ; ils sont de ce fait privés aussi des soins et de l'éducation maternels qui sont tellement importants à l'équilibre de l'enfant. Cette même situation se retrouve dans les pays socialistes et capitalistes qui sont fortement industrialisés. Psychologues et psychiatres constatent que durant les dernières années il y avait un nombre de plus en plus élevé de jeunes, d'adultes et d'enfants atteints de troubles mentaux et ils s'inquiètent sur l'avenir.

L'abus de la drogue, l'alcoolisme, la criminalité sont les résultats directs de ces conséquences. Non seulement le nombre de malades croît, mais en même temps, la maladie devient plus grave. Les crimes violents, les assassinats, les viols, les vols se multiplient. Les personnes âgées ont quelquefois peur de sortir et personne n'est en sécurité.

Une autre conséquence des mouvements de libération de la femme est le relâchement des mœurs ; particulièrement certains comportements tels que les relations sexuelles très libres. Il n'est pas inhabituel de trouver des jeunes hommes et des jeunes femmes vivant ensembles sans qu'aucun lien de mariage ne les unisse. Ceci a provoqué des maladies vénériennes alarmantes qui ont atteint des proportions épidémiques, sans oublier les effets que l'on connaît sur les adultes et les enfants nés de ces unions illicites.

Il y a peut-être une ligne bien définie qui sépare l'égalité et la «libération» de la femme. La jonction de ces deux concepts est facile mais peut être extrêmement dangereuse autant pour l'individu que pour la société. Les femmes seules peuvent choisir si oui ou non elles veulent accepter l'égalité seule ou la libération avec ou sans égalité. L'égalité implique des obligations définies pour ceux qui la recherchent et la société qui l'encourage. L'homme doit accepter ce que Dieu a dicté : c'est-à-dire que l'homme et la femme sont égaux et que la femme doit reconnaître les responsabilités exigées par cette égalité.

Dans la société contemporaine, la femme peut et doit jouer un rôle efficace pour lequel ses dons et ses capacités l'ont préparée, mais cela doit être un rôle qui conduit au progrès de la société et non à sa destruction.

importantes pour le malade. La connaissance scientifique peut être acquise sans tenir compte du sexe, quant à la compassion elle vient du dedans. C'est là la raison pour laquelle la femme est particulièrement douée dans le rôle d'infirmière. L'instinct maternel est d'une importance spéciale pour le bien être social.

L'industrialisation électronique moderne et sa miniaturisation exigent une habilité spéciale et une agilité des doigts et de la main dans les procédés de manufacture. Les mains de l'homme sont trop grandes et les doigts trop maladroits pour ce type de travail. Ainsi les capacités spéciales de la femme sont nécessaires pour la performance de certaines tâches. La femme est donc utile dans le domaine du travail pour s'acquitter des tâches que l'homme est incapable d'accomplir.

Il y a beaucoup d'autres occupations et professions pour lesquelles la femme est aussi capable que son partenaire, en raison de l'égalité intrinsèque de l'esprit. Dans le domaine de la justice, de l'éducation, des bibliothèques, du journalisme, de l'ingéniorat, de la politique, hommes et femmes peuvent s'entraider comme ils le font dans la vie de tous les jours, juste comme Dieu le voulait.

L'égalité devant la loi, l'égalité dans l'éducation et la formation, dans l'emploi et la compensation, dans la rémunération sont à la fois légitimes et équitables pour l'homme et la femme qui sont égaux aux yeux de Dieu ; mais cette lutte pour l'égalité peut nuire à l'individu et à la société. Aux U.S.A. et ailleurs la grande pression de la femme pour la recherche d'un emploi à des raisons psychologiques et financières. Aujourd'hui la force de travail représente 27 % de femmes et ce pourcentage s'accroît constamment.

Pour beaucoup de femmes, ce désir et cette pression pour l'égalité les a mené à devenir supérieures à l'homme plutôt qu'égales à l'homme. En conséquence la libération a eu un effet désastreux sur la société même qui désire surtout relever le statut de la femme. Il y a une tentative délibérée pour émasculer l'homme et priver la femme de ses attributs qui l'ont si gracieusement distingué de l'homme. Elle sont devenues plus masculines dans leurs vêtements, leurs conversations, leurs manières. Elles essaient de se faire valoir à l'homme par une attirance plus effiminée marquée par les parfums et les coiffures. On a abouti à ce que l'on appelle « l'unisex », c'est-à-dire à l'élimination des différences extérieures qui distinguaient l'homme de la femme. Plus les femmes deviennent affirmatives et agressives et plus accru est l'antagonisme entre l'homme et la femme — ce qui est préjudiciable pour les deux.

Avec un emploi, un salaire égal et un besoin psychologique « d'être soi-même » beaucoup de femmes ne se soucient plus de veiller sur le foyer pour contribuer à l'unité de la force sociale que représente la famille. Par conséquent le divorce est devenu une pratique courante dans la société occidentale. Aux U.S.A., en moyenne 1 mariage sur 3 se termine par un divorce. Dans certains Etats le taux est plus élevé, il atteint 2 divorces sur 3 mariages. Les ménages brisés sont devenus une chose tout à fait commune.

Les deux développements : rupture de l'unité familiale, et taux élevé des divorces, posent de sérieux problèmes pour le psychiatre, le sociologue, les différentes autorités religieuses, les adultes concernés et les enfants qui subissent les conséquences.

des femmes et j'ai collaboré à plusieurs occasions à des publications de matériel éducatif.

En général le mouvement féministe a réussi à avoir l'égalité dans le domaine de l'éducation en ce qui concerne le recrutement pour l'emploi, les compensations et la participation politique. Ce mouvement est récent, il date depuis la fin de la seconde guerre mondiale. Pendant la guerre, il était nécessaire pour les pays directement concernés d'employer plusieurs milliers de femmes dans les usines, dans les mines et les chantiers de constructions navales, pour remplacer les hommes qui étaient envoyés au front. Ces occupations jusque là inhabituelles aux femmes ont donné naissance à plusieurs chants de guerre, exaltant leur rôle indispensable, et le travail excellent qu'elles faisaient. Je me souviens très bien d'un de ces chants intitulé : « Rosie la riveteuse », où il était question d'une femme qui avait aidé à la fabrication d'un bâteau. Ma propre sœur, en fait, avait travaillé comme électriciennne dans un chantier naval durant cette période.

Cet emploi de la femme ayant la même occupation que l'homme a suscité une prise de conscience : la femme considère qu'elle peut être l'égale de l'homme dans beaucoup de domaines. Ainsi beaucoup de femmes ne voulaient plus abandonner leur travail à l'extérieur quand la guerre fut terminée. Il y a eu ensuite des hommes qui ont pû accepter que la femme fasse le travail de l'homme, mais ils refusaient d'accepter qu'elle perçoive le même salaire. Cette croyance en l'égalité de savoir faire existe, mais l'inégalité de compensation prévaut encore dans certains pays y compris les Etats Unis. Ce fait engendra une grosse rancœur et a peut-être contribué à la création des mouvements de libération de la femme.

En 1975 la conférence de l'Organisation Internationale du Travail des Nations Unies a adopté une déclaration définitive et détaillée « sur l'égalité dans le recrutement et la rémunération ». Cette résolution réaffirmait les déclarations internationales précédentes qui soutenaient le droit de la femme pour l'égalité dans l'éducation, dans la formation, dans l'emploi, la sécurité et la compensation. Toutes les nations devaient respecter ce droit. 1975 fut aussi l'année internationale de la femme : Une congrès s'est tenu à Mexico au mois de juin de la même année. Ces deux événements importants ont relancé les mouvements féministes à travers le monde vers un succès pour l'égalité qui leur revenait de droit. Le congrès des Etats Unis a ratifié « l'acte sur les chances égales dans l'emploi » qui défend toute discrimination de sexe, de race, de couleur ou de confession dans le recrutement. De plus, il exige l'égalité dans la rémunération. Beaucoup d'hommes et de femmes approuvent le passage « amendement des droits égaux ».

Il ne peut y avoir aucun doute que les femmes peuvent jouer un rôle important dans la société d'aujourd'hui. Elles l'ont démontré dans le passé, et elles pourront l'assumer dans l'avenir.

Dieu a doté la femme de certains attributs qui la distinguent de l'homme : compassion, tendresse, instinct maternel, agilité, vivacité, pour n'en nommer que quelques-uns. Ce sont ces attributs qui lui permettent d'effectuer certaines occupations pour lesquelles les hommes sont soient incapables, ou pour lesquelles ils éprouvent des difficultés. Par exemple, les soins médicaux n'exigent pas seulement une connaissance scientifique du corps, des maladies et des produits pharmaceutiques, ils nécessitent aussi la compassion et la tendresse qui sont très

pourtant elles ont contribué à la révolution qui a institué la nouvelle nation. Ces préjugés ont persisté et ils n'ont été rectifiés qu'à l'adoption du 19e amendement de la constitution en 1920, c'est-à-dire 133 ans plus tard.

Ce ne sont que deux exemples parmi tant d'autres qui ont illustré la position d'inégalité dans la société occidentale.

Malgré les incapacités attribuées, et la position inférieure imposée à la femme, elle a sû à travers l'histoire, dépasser ces handicaps et travailler pour l'amélioration de la condition de l'homme et le progrès des sociétés dans lesquelles elle a vécu.

Il n'est pas de mon intention de discuter le développement historique des mouvements de libération féministe, ni de rechercher dans les tentatives contemporaines de la femme qui veut recouvrer l'égalité que Dieu lui a accordée. Je veux simplement vous présenter les avantages que tireraient l'homme et la femme en optant pour les statuts qui s'élaborent en ce moment. Leur rôle est bénéfique dans la société contemporaine ; En même temps, je voudrais signaler certains problèmes soulevés ces dernières années par des actions exaltées menées par certains mouvements de libération de la femme ; ces dernières sont dangereuses : Des sociétés pourraient être détruites ou endommagées par les actions inconscientes de certains. Ce n'est que récemment que l'étude de la femme en société et les mouvements des femmes sont devenus une part importante dans le monde social et économique.

En anglais, deux livres très importants traitent du rôle de la femme dans l'Asie moderne. Le premier a été édité par un ancien collègue et ami, le docteur Joyce Lebra, professeur d'histoire à l'Université du Colorado. Il a pour titre : « La femme dans le Japon en changement ». Cet ouvrage décrit la contribution de la femme dans une société hautement développée industriellement. La femme représente une part importante dans la force de travail. Ses aptitudes et son adresse sont dans une large mesure responsable du rapide redressement du Japon après sa défaite et sa destruction lors de la seconde guerre mondiale. Quittant un passé traditionnel où les femmes étaient tenues en position d'infériorité, ils se sont astreints à faire une transition très difficile dans une culture technique basée sur le modèle occidental, où l'on peut reconnaître un certain degré d'égalité.

L'autre livre a pour auteur une Pakistanaise d'une grande valeur intellectuelle : Parveen Shaukat Ali. Il a pour titre : « Statuts de la femme dans le monde musulman : Etude des mouvements féministes en Turquie, Egypte, Iran et Pakistan ». Dans cette étude très valable, le docteur Ali a soigneusement analysé la position de la femme dans ces pays. Elle s'est basée sur le passé et les traditions culturelles en tenant compte des différents niveaux d'industrialisation et des aspects que revêt la libération de la femme. Cette étude pourrait être d'un intérêt très grand pour les participants au séminaire.

Par opposition à ces deux ouvrages, je vais dans ce qui suit, limiter mes remarques aux mouvements féministes des U.S.A. Ainsi les succès seraient suivis et les erreurs évitées par les femmes du monde musulman. Je dois préciser que je parle en ma qualité d'homme qui croit fermement à l'égalité de la femme et de l'homme, et en tant qu'enseignant ayant exercé pendant plusieurs années avec des étudiantes en Egypte et aux Etats Unis. J'ai travaillé côte à côte avec

EFFICACITE DU ROLE DE LA FEMME DANS LA SOCIETE CONTEMPORAINE

par Monsieur Charles L. Geddes
Professeur et Directeur
de l'Institut Américain
des Etudes Islamiques
Université de Denver (*U.S.A.*)

Dieu, dans sa sagesse infinie a créé l'homme et la femme pour peupler ce monde superbe ; l'un ayant besoin de l'autre pour procréer et pour peupler l'univers. Le désir de Dieu est que l'homme et la femme s'entraident et se secourent spirituellement, émotionnellement et physiquement. Dans le livre sacré du Coran, nous pouvons lire quelques passages dans lesquels Dieu dit qu'Il a créé mâle et femelle en êtres égaux sans tenir compte de leurs différences physiques ou morales.

Le passage du verset 196 de la sura « El Imran » est une référence spéciale d'une importance particulière dans la société contemporaine : Il y est dit « Je ne souffrirai pas que l'aptitude au travail de l'homme ou de la femme soit perdue. Vous êtes faits l'un de l'autre ». Malheureusement, l'homme a souvent transgressé les commandements et la volonté de Dieu, ou il les a détournés à ses propres fins. Parmi ces transgressions se trouve l'effort de l'homme à assujettir la femme à sa volonté, pour la placer dans une position d'infériorité. Pour cela, l'homme a toujours bien réussi à cause de la faiblesse physique et du tempérament émotif de la femme, qui a toujours désiré plaire à l'homme à travers les âges.

Pendant plusieurs années, les Occidentaux, sans aucune connaissance réelle, mais se fondant sur des préjugés religieux ont cru et ont écrit que la foi même en l'Islam était responsable des statuts inférieurs de la femme dans le monde musulman. Ils ont proféré ces accusations en oubliant que dans les sociétés occidentales, la femme a aussi été traitée injustement et a été considérée comme inférieure à l'homme non seulement physiquement mais aussi mentalement et émotionnellement. Un des grands maîtres de l'Eglise catholique romane St Thomas Aquinas, a écrit au 13^e^ siècle que la naissance d'une femelle était une aberration de la nature, et que son développement intellectuel était bien inférieur à celui du mâle. Bien que cc ne soit plus la doctrine de l'Eglise, il y a encore ceux qui croient fermement que la femme a moins de capacité d'esprit que l'homme. La femme au volant est souvent sujet de plaisanterie : « C'est encore une femme ! ».

Aux Etats Unis, la nouvelle constitution nationale adoptée en 1787 — la plus libérale dans le monde à cette époque — ne permettait à la femme ni de voter, ni de tenir un office public. On imputait des incapacités aux femmes et

11°) — Nous ne pouvons cacher que le mouvement national arabe en tant qu'idée raciste et en dehors de l'Islam, a nui beaucoup à l'image musulmane en Afrique. En définitive, prêter le serment d'allégence à l'Islam et à l'avenir musulman en Afrique nécessite le délaissement de cet esprit rétrograde de l'époque anti-islamique.

12°) — En conclusion... La situation du monde arabe et musulman, les divergences politiques et spirituelles qui existent entre certains de nos gouvernements, le fait que nombre d'autorités aient banni l'Islam en tant que méthode et message à l'humanité, le fait de ne compter que sur l'idée matérielle scientifique ou nationale, sans parler bien sûr de la décadence intellectuelle, morale, économique et politique au sein des communautés musulmanes, tout ceci donc a joué un grand rôle dans la pénétration des idées contraires à l'Islam en Afrique et l'expansion du progrès musulman puisque celui qui a perdu une chose ne peut la donner... Présenter un exemple pratique a autant de valeur que l'exemple théorique.

Notre devoir à nous est de demander aux autorités arabes et musulmanes de s'orienter vers l'Islam, intérieurement et extérieuremnt. Ce sera notre épanouissement à l'intérieur, et notre présentation en tant qu'exemple utile et convenable à notre religion à l'extérieur. Le Coran a dit vrai : " Vous êtes la meilleure communauté qu'en ait fait surgir pour les hommes : vous ordonnez le convenable, interdisez le blamâble et croyez en Dieu ". Celle-ci est notre voie, ceci est notre message et notre avenir.

" C'est lui qui a envoyé son Apôtre avec la direction et la religion de vérité, pour la faire prévaloir sur la religion en entier en dépit de l'aversion des infidèles ".

Que Dieu guide nos pas, il est notre seul soutien !

1°) — Emission d'une chaine de radio à destination de l'Afrique de la part de tout pays arabe musulman, parlant la langue dominante en essayant de l'approcher le plus possible de la langue arabe avec la nécessité de la faire arriver nette aux profondeurs de l'Afrique.

2°) — Etablissement de bonnes relations culturelles et économiques avec tous les Etats africains, même si cela va à l'encontre de certains principes politiques éphémères.

3°) — Faire entendre la voix des Musulmans africains au monde entier, défendre leurs problèmes et leurs droits d'exercer leur religion et d'apprendre leur langue, combattre les Etats qui leur interdisent l'exercice de ce droit (le gouvernement ethiopien leur interdit de bâtir des écoles musulmanes et d'apprendre la religion musulmane... Ceci est illégal).

4°) — Consacrer un budget spécial en vue d'aider économiquement les Musulmans d'Afrique à bâtir des mosquées, des écoles, des hôpitaux, des foyers pour nécessiteux, invalides, orphelins, veuves, etc... pour ne plus avoir besoin d'aides de missionnaires et que disparaissent les maux sociaux auxquels pousse la misère (la prostitution en Erythrée, par exemple, est publique... Les femmes s'assoient devant les maisons de jour et de nuit dans l'attente de quelques crapules).

5°) — Faire que des demandes soient adressées aux gouvernements musulmans des pays arabes d'Afrique d'interdire officiellement la prostitution et l'alcool afin qu'ils soient un exemple vivant pour l'Afrique musulmane non arabe. La délinquance morale est en réalité, un moyen sur lequel s'appuient les missionnaires, les sionistes et les communistes pour exploiter les peuples et les dominer.

6°) — Profiter des circonstances offertes, même si cela est provisoire, pour asseoir les fondements de l'Islam et de la langue arabe dans les Etats africains qui entretiennent des relations puissantes, ces derniers temps, avec le monde musulman comme l'Ouganda, le Gabon, le Sénégal, le Tchad, le Nigéria, la République Centre Africaine, etc...

7°) — Travailler à aplanir les divergences qui existent dans les quatres rites reconnus et à y extraire l'unité de la religion musulmane dans son essence... Dans certains pays africains, hélas, une vague de fanatisme rituel s'étend au point que certains groupes vont jusqu'à se réserver des mosquées en écrivant sur le mur " mosquée des chaféites ", " mosquée des hanafites " etc...

8°) — Diffusion de l'Islam réel et de la culture musulmane authentique, à travers des livres, des revues, des périodiques dans les langues d'Afrique. Les Musulmans africains, dans leur grande majorité ne connaissent pas les préliminaires de l'Islam, quelques-uns mélangent Islam et Christianisme ; il se font nommer parfois " Henri Mohamed ", " James Ali ". Certains enfants ou vieillards ne connaissent pas le sens de l'Islam ou ne savent pas qu'ils sont Musulmans. Certaines écoles musulmanes africaines ne possèdent aucun enseignant de l'Islam ou de la langue arabe ; d'autres ont été fermées faute d'enseignants versés en Islam et en langue arabe.

10°) — Faire l'égalité entre le marxisme, le sionisme et l'évangélisation ; déclarer la guerre à ces principes destructeurs que contient l'Islam en Afrique : " Les infidèles sont de la même race ". Le marxisme a fait à l'Islam en Ethiopie, en Somalie, en Tanzanie et ailleurs, ce que le colonialisme n'a osé faire : arrêter la pénétration musulmane dans tout pays africain qu'ils gouvernent.

mage à la République Arabe de Libye pour l'aide et l'assistance qu'elle apporte aux Musulmans d'Afrique ainsi que pour la défense de leurs problèmes.

Ce sont ces aspects-là, qui forment la partie la plus lumineuse qui prépare l'avènement d'un continent africain, musulman et arabe, si Dieu veut.

L'avenir de l'Islam en Afrique :

A travers les facteurs négatifs et positifs tumultueux, à travers les deux aspects noir et blanc de l'image et au centre d'un patrimoine authentique de la civilisation, apparaît l'Afrique sous son aspect musulman durant les siècles qui ont précédé l'avènement du colonialisme européen.

De tout cela, en passant par le patrimoine du passé, les souffrances du présent et les espoirs de l'avenir nous pouvons dire en toute objectivité que l'avenir du continent africain est un avenir musulman qui s'appuierait sur la langue et la pensée arabes. Il puisera de l'Islam sa foi, sa loi et sa civilisation ainsi que sa méthode de lutte et les caractéristiques de son avenir authentique spécifique.

C'est une chance pour nous qui allons vivre au XV^e^ siècle de l'Hégire et au XXI^e^ siècle de l'ère grégorienne d'être la génération qui verra la disparition de la dictature individualiste à l'époque de la révolution technologique... Il est temps pour l'histoire de tourner une autre fois afin de voir les peuples jouer un rôle héroique réel et voir la disparition des tyrans qui se sont habitués à diriger des centaines de millions de gens par simple décision ou slogan... L'époque de l'exploitation des peuples va se terminer... C'est ainsi que parle notre maitresse : l'Histoire. La glace commence à fondre dans le camp athée dès que quelques tyrans sont tombés...

Quand l'Histoire s'arrêtera à la porte de son nouveau tournant, les peuples d'Afrique et non les valets du colonialisme évangéliste, ni ceux du communisme, ni ceux du sionisme, mais les peuples d'Afrique seuls, décideront du devenir de ce continent combattant et vierge.

La nature africaine issue des profondeurs de l'histoire et de la terre, n'acceptera aucune autre religion que l'Islam. LE PASSÉ de l'Islam en Afrique c'est sa civilisation dont elle est fière, car l'Islam ne lui a ramené que du bien... Les prêcheurs musulmans n'étaient que des moudjahidines qui ne travaillaient que pour Dieu ; ils ne furent à aucun moment des colonialistes exploitateurs. LE PRÉSENT de l'Islam en Afrique et celui de l'Islam et de tous les Musulmans ; cette religion s'expose comme nous l'avons dit, à une campagne colonialiste féroce puisqu'elle est la religion qui est élue à guider la civilisation future... Quant à L'AVENIR il ne peut être européen ou chrétien... L'histoire de l'Afrique avec l'Europe ou la chrétienneté, ne peut permettre l'établissement des liens réels.

Néanmoins nous les Arabes africains musulmans, nous les Musulmans du monde, il est de notre devoir d'aider l'histoire et mener l'Afrique au bord de l'avenir musulman. L'histoire de l'humanité ne se meut pas automatiquement ni spontanément ; elle ne fonctionne pas irrémédiablement vers ce qui est le plus utile, si les bons sur cette terre ne l'aident pas.

Et afin d'accomplir ce devoir, je propose ce qui suit :

rêtés officiels, il est interdit pour les enseignants musulmans de pénétrer en Ethiopie ou en Erythrée ; les livres musulmans sont soumis à de lourds impôts ; on poursuit les Musulmans pour leur islamisation et on les emprisonne, on ne reconnaît point les diplômes qu'ils ont acquis dans des écoles musulmanes. La langue arabe a été supprimée dans les écoles, et dans les services et établissements publics. Le gouvernement soumet les Musulmans et les personnalités Musulmanes qu'elles fussent nationales ou étrangères, à un espionnage strict, afin de mieux enterrer l'Islam et la langue arabe. Il insiste également à éloigner les Musulmans des milieux gouvernementaux et encourage les " Sebghaya " à émigrer dans les villes musulmanes qui se trouvent en Erythrée ou en Ethiopie.

Le gouvernement va jusqu'à refuser d'établir la moindre relation diplomatique avec tout Etat qui tiendrait à son Islam ; il est interdit aux étudiants éthiopiens ou érythréens d'accepter toute bourse offerte par un quelconque pays musulman. En revanche il donne de larges facilités à tout mouvement anti-musulman qu'il soit communiste, sioniste ou évangéliste. Il impose aux Musulmans, l'obscurantisme, la misère et la maladie. De nombreux autres malheurs entourent les Musulmans africains... Nous ne sommes pas ici pour en faire le compte... Que ceci nous suffise simplement pour montrer le défit qui est lancé à l'Islam dans l'Afrique combattante.

Par ailleurs il y a d'autres objets de satisfaction et d'espoir dans l'islamisation de l'Afrique. Le colonialisme et l'évangélisation ont aidé, grâce à leurs bêtises, la pénétration musulmane en Afrique que sans qu'ils s'en doutent.

Les peuples africains commencent à s'apercevoir de la réalité marxiste et sioniste ainsi que de la vie qu'on mène sous leurs étiquettes. La guerre de Ramadhan 1393 a aidé à démentir le mythe de l'invincible Israël.

La politique du Kénya commence à s'équilibrer quant aux droits des Musulmans... c'est un acquis important.

Etendre l'Islam en Ouganda est devenu très possible ! Puissent les Etats arabes concernés par l'Islam exploiter cette possibilité !

Le Sénégal commence à réviser son attitude vis-à-vis des questions musulmanes. Le 2e congrès de la fédération mondiale islamique d'Afrique s'est tenu dans sa capitale Dakar, avec de grandes facilités de la part du gouvernement sénégalais (Mouharrem 1397), ce congrès a d'ailleurs donné naissance au comité de coordination islamique africain. Le gouvernement sénégalais a offert aux congressistes ses considérations et immunité diplomatique. En République Centre Africaine, le chef Bokassa, son fils, quelques-uns de ses ministres et 60 hautes personnalités, ont annoncé leur islamisation. La porte s'est ainsi ouverte à l'Islam dans cette jeune république. Il en est de même pour le Gabon qui vit son chef embrassé l'Islam et accomplir le pélerinage.

On ne doit pas oublier de compléter ce tableau en reconnaissant que certains Etats africains qui ont acquis leur indépendance, ont aidé l'Islam et la langue du Coran. Le plus grand exemple à ce sujet nous vient de l'Algérie arabe musulmane... Cette Algérie d'Abdelhamid Ben-Badis... pour qui nous formulons le vœu de la voir jouer un rôle d'avant-garde dans la lutte pour l'islamisation et l'arabisation en Afrique... Il est de notre devoir, en toute justice, de rendre hom-

2°) *En Somalie :*

Quand le renversement militaire communiste du 21 octobre 1969 eut lieu, il ne se passa pas une année que le chef du coup d'état Mohamed Ziad Barré, lors du premier anniversaire du renversement, a déclaré adopter le principe marxiste-léniniste, expliquer l'Islam d'une manière marxiste et soumettre la foi musulmane et les fondements de l'Islam aux pensées de Marx et de Lénine. Des organisations furent fondées dans le but de former une jeunesse communiste qui refuse l'Islam et le combat. Le gouvernement a également promulgué en 1972, un décret pour la destruction des écoles coraniques. Cette situation continue de la sorte, le communisme s'étend chaque jour davantage sur le corps de centaines de savants et de milliers de moudjahidine, utilisant la plus pire répression que l'histoire connaît. Et comme il fallait s'y attendre, le gouvernement communiste de Somalie empêche, de son côté et dans la limite de son influence, toute pénétration musulmane en Afrique, la remplaçant par tout ce qui est marxiste ou qui est au service de la foi marxiste. C'est ainsi que je considère que le marxisme est le danger numéro un qui vise à réaliser les objectifs sionistes et évangéliques ainsi que le moyen le plus sûr de s'accaparer des terres musulmanes, puisse Dieu empêcher cette réalisation.

3°) *En Tanzanie :*

Depuis le coup d'état de 1964 qui vit le renversement de Guilmchir Ibn Abdallah, 16.000 Arabes furent massacrés, tous les autres Musulmans ont été torturés ; 45.000 d'entre eux ont été tués. Depuis ce jour-là, la personnalité d'un Etat musulman qui nous est cher a disparu, c'est Zanzibar. Le mot Islam, que Dieu garde les Arabes et la langue arabe, sont devenus des crimes sanctionnés par la loi. Le temps ne nous permet pas de nous étendre sur la répression que subissent l'Islam et l'arabisme en Tanzanie...

4°) *Au Tchad :*

La population musulmane ainsi que les personnalités musulmanes subissent au Tchad, où les Musulmans forment, selon certaines sources, les 92 % de la population (ils ne disposent que de 20 % de sièges ministériels), une répression continue. Tous les Musulmans sont soumis à de lourds impôts ainsi qu'à des déplacements et des privations de droits politiques, religieux, sociaux et culturels. La révolte musulmane contre cet état de choses a échoué. En 1965 cet échec fut pour eux une nouvelle porte ouverte pour les mâter encore plus à tel point qu'on fit venir le corps expéditionnaire français afin de les exterminer, tout en faisant remarquer que le pourcentage de gouvernants musulmans, ne dépasse guère le 4 % de la population.

Le peuple musulman du Tchad, sous la direction du front de libération tchadien qui fut fondé en 1966, ne cesse de lutter afin de remettre les choses à leur place, contrairement à ce que claironnent les Chrétiens. Car en réalité ce sont ces derniers eux-mêmes qui combattent la démocratie quand elle est dans l'intérêt de l'Islam.

5°) *Quant à l'Ethiopie...* et à la tragédie du peuple musulman d'Erythrée, les Musulmans sont spoliés du plus simple droit de l'homme... En vertu d'ar-

En Ouganda les gens parlent une langue sahélienne propre à eux, différente de celle du Kénya ; c'est un mélange de dialectes " bantou " et de langue arabe.

Et malgré qu'elle soit sahélienne ougandaise, elle s'écrit avec des caractères arabes ; ce qui prouve la forte influence de la langue arabe en Ouganda. Et en plus du fait que les Musulmans en Ouganda (dans peu de temps, ils deviendront, si Dieu veut, les plus nombreux grâce au bond fait par l'Islam sous le règne du président Idi Amine) insistent tous à apprendre la langue arabe.

Nous pouvons dire ainsi (à travers ces exemples) que la langue arabe possède un grand parterre en Afrique depuis qu'elle y est entrée avec les prêcheurs et commerçants musulmans et qu'elle soit devenue la langue de la littérature, des sciences et de communication. Il nous suffit, à la fin de notre discussion sur la langue arabe en Afrique, de donner quelque preuve sur la place profonde qu'occupe cette langue en rappelant que les principales sources historiques telles « Adhabire Achantié » et « Kànù » en Afrique Occidentale ou les poèmes « Kalawa » en Afrique Orientale, sont en grande partie en langue arabe au point qu'un écrivain européen aurait dit, exprimant le lien qui unit l'Afrique à la langue arabe et à sa civilisation : " Si nous venons à soustraire les documents historiques écrits en langue arabe, il ne restera d'Histoire sur qui compter en Afrique noire ".

A ce sujet, un ministre de Zanzibar a dit : " Il suffit, pour démontrer la place de la langue arabe par rapport à l'Afrique, de savoir qu'il n'existe en langue sahélienne aucun mot synonyme de " citadinité " que le mot " arabisation " si nous voulons parler d'un projet en vue de promouvoir un village agricole nous dirons : arabisation de ce village ". Ce seul mot représente une grande fenêtre sur la longue et illustre image... C'est l'histoire de la relation de l'Afrique avec les Arabes du point de vue de la civilisation, de la langue, du devenir et de la religion ! !

L'Islam, aujourd'hui, en Afrique :

Pas de doute que l'Islam en Afrique vit entre le flux et le reflux... ou plus précisément entre un malheur et un bonheur. Le malheur de l'Islam réside dans de nombreux domaines :

1°) *Au sud du Soudan :*

Cette ouverture naturelle qui était destiné à devenir une porte par où l'Islam devait pénétrer en Afrique, est devenu un champ d'influence pour les missionnaires et leurs adeptes parmi les pays voisins du Soudan. Après l'accord qui fut conclu entre le Nord et le Sud au congrès d'Addis-Abéba, et qui eût lieu en mars 1972 sous l'auspice d'organisations religieuses et du Vatican, la porte fut grande ouverté aux missionnaires. Et ce qui est certain, c'est que les missionnaires vont pouvoir mettre sur pied un Etat chrétien au sud du Soudan qui deviendra leur base de lancement au cœur de l'Afrique. Il est temps pour les Arabes de se prémunir contre le danger. L'évangélisation, par le biais de cet accord, a réussi à juguler les mouvements islamiques en Erythrée et au Tchad... Ces deux révolutions vivent, depuis la conclusion de cet accord, une période d'étouffement aigu et atroce.

Le communisme en Afrique :

Le communisme constitue un autre grand danger pour l'Islam en Afrique ; il dénature en effet l'image de l'Islam en Afrique aujourd'hui. L'Afrique musulmane, continent de l'avenir musulman, est l'objet d'invasion du communisme. Sachant que l'évangélisation ne peut contrer l'Islam, que l'influence juive ne peut arriver à ses fins ; ce qui s'est produit en Ethiopie après Haile Sélassé qui ne peut arriver à bout des Musulmans d'Erythrée est une preuve flagrante que le communisme est le troisième volet qu'amènent les Juifs et l'évangélisation quand ils se sont aperçus que la voie qu'ils utilisent pour anéantir l'Islam était sans issue. Nous ne dissocions pas les événements qui se sont produits en Somalie, de ce qui se produit en Ethiopie, ou en Tanzanie (Zanzibar et Tanganika) où des dizaines de milliers de Musulmans ont été tués au nom du communisme progressiste. On reconnut Israël ; on invita Golda Meïr à visiter la Tanzanie. Nous ne dissocions donc pas cela du rôle réel que joue le communisme en Afrique. Et il est tout à fait étonnant que la plupart des leaders communistes qui sont apparus en Afrique ont de bonnes relations avec Israël. Beaucoup d'entre eux voyaient en Israël l'exemple d'une expérience progressiste qu'il faut suivre, ses victoires militaires sur les Arabes étaient des victoires du progrès sur la réaction. Le communisme est un obstacle pour la pénétration musulmane en Afrique ; c'est un élément qui trouble la bonne marche de l'Islam en Afrique aujourd'hui.

La place de la langue arabe aujourd'hui en Afrique :

La situation populaire africaine est différente de la situation africaine officielle ou celle à laquelle veut arriver l'évangélisation et les Juifs. En vérité la base populaire en Afrique, s'apparente au plus haut point à l'arabe au point de vue langue et pensée et à l'Islam au point de vue religion et civilisation.

Si nous écartions les pays arabes d'Afrique (l'Egypte, le Soudan, l'Algérie, le Maroc, la Libye, la Tunisie, la Somalie et la Mauritanie), étant donné que la langue arabe y est la langue officielle, le reste des pays africains, et notamment ceux qui, sont musulmans considèrent la langue arabe, leur langue religieuse, intellectuelle comme celle de la civilisation tout au moins au niveau populaire. En Ethiopie où les Musulmans représentent 65 % de la population, en Erythrée où ils sont 80 %, nous pouvons dire que la langue arabe est l'une des langues que parle la majorité des habitants, on peut l'utiliser au marché, en plus des établissements culturels et des mosquées. Si on vient à comparer la " Nedjrine " qui est utilisée en Erythrée en tant que langue locale, nous découvrirons qu'elle a adapté beaucoup de mots arabes, au point que les chiffres qui y sont employés sont presque identiques.

Au Kénya, berceau de l'authenticité africaine et où règne la langue sahélienne qu'avoisinent plus de 70 autres langues ; chaque tribu parlant son dialecte ; malgré cela la langue arabe dispose d'une place importante puisque la langue sahélienne elle-même compte plus de 50 % de mots arabes d'origine ou de dérivation. Et c'est pour cela qu'il n'était pas étonnant que le ministère de l'éducation kenyan, ait décidé officiellement, l'enseignement de la langue arabe dans les écoles du sahel kenyan, comme il a décidé officiellement d'examiner les étudiants dans la matière de la religion. Le ministère se montre prêt à accueillir le plus grand nombre possible d'enseignants en langue arabe et en religion musulmane, à condition que les gouvernements arabes se chargent des prestations et des salaires (comme font les missionnaires).

Le leader africain : Oui c'est vrai... l'église n'a pas joué un rôle sain dans les affaires africaines. Elle a pris position contre nous et pour ceux qui nous ont assujettis... Elle est sur le pied du départ définitif d'Afrique.

Est-ce que tu es Chrétien ?

Oui, je suis un catholique ; j'ai étudié à la faculté Marianne à Natal en Afrique du Sud... Bien sûr je n'ai pas embrassé le Christianisme pour des raisons politiques mais par foi. Et malgré cela, j'ai senti que l'église m'a trompé. L'Islam triomphera en Afrique. Et malgré le fait d'être catholique je ne pourrai dire sincèrement : je suis désolé pour la tournure des évènements (au profit de l'Islam)... Je comprends que la religion représente un aspect important des valeurs humaines qui poussent l'homme à se libérer. C'est ce qui a fait échouer l'église ; elle nous a tout donné, sauf la liberté.

L'évangélisation, comme nous venons de le constater à travers ce dialogue, n'est rien d'autre qu'une façade trompeuse pareille à toutes celles où le colonialisme cache... ses griffes et ses ambitions. Ainsi, elle représente un grand danger pour l'avenir de l'Afrique et pour ceux qui s'intéressent au devenir de l'Islam et de l'arabisation dans ce continent vierge.

Les Juifs en Afrique :

Si l'évangélisation en Afrique représente un aspect du trouble que rencontre l'Islam en Afrique, les Juifs quant à eux représentent l'autre volet du problème. Après que de nombreux Etats africains aient acquis leur indépendance, Israël vint proposer son expérience, son argent et son assistance. Par le biais des relations politiques et commerciales, par l'exploitation des mass-média, par une diplomatie habile, les Juifs réalisent leurs objectifs en acquérant la faveur de certains gouvernants africains au point qu'un journal nigérian a écrit en date du 13 octobre 1962, qu'aucun Etat en Orient ou en Afrique ne peut aider le Nigéria, en dehors d'Israël.

Il y a en effet une coopération effective entre Israël et quelques gouvernants africains et même si elle n'est pas visible politiquement, militairement ou culturellement, elle est secrète et particulièrement dans le domaine commercial et culturel. Si quelques Etats africains ont changé d'attitude envers Israël à la suite de sa défaite de Ramadhan 1393 et de l'apparition de son caractère colonialiste, il n'en demeure pas moins que certains autres entretiennent toujours des relations avec lui. Et parmi eux : l'Ethiopie, le Ghana, la Rhodésie, la Tanzanie... Israël exploite la situation économique sous-développée de l'Afrique. Elle y fait beaucoup de conserves de viande et de fruits autres matières premières africaines. Elle importe aussi du bois, des diamants et des matières pour la fabrication de l'engrais. Les Israéliens se sont particulièrement intéressés à construire des hôtels et des maisons de jeux ; ils s'en sont accaparés, les ont soumis à leurs objectifs politiques et économiques ; derrière leur comportement innocent se cachent les pires activités destructrices clandestines. Israël ne laissera pas l'Afrique aux Arabes et à l'Islam si facilement ; le flux de la civilisation ne peut s'étendre par les sentiments ; il faut en effet procéder avec sérieux et largesse, prendre des mesures afin de sauver l'Afrique des mains des Juifs et du sionisme et l'amener à la civilisation musulmane.

à revenir au bercail (au lieu de coopérer avec eux) ? N'est-il pas plus profitable pour elle de demander aux Européens eux-mêmes une plus grande importance à la religion dans la civilisation européenne que la faillite spirituelle menace ?

L'évangélisation n'est pas l'appel à la christianisation ; en plus du fait qu'elle est aujourd'hui un danger colonialiste permanent pour les Musulmans en Afrique, elle est surtout un obstacle à la pénétration musulmane et une manière de la torpiller et d'éloigner le jour où l'Afrique deviendrait un continent musulman. C'est l'armée la plus puissante qu'utilisent maintenant les colonialistes européens en vue d'empêcher le développement scientifique, économique et politique à l'Afrique. Le christianisme est leur bouc-émissaire ; ils ne le font pas par amour de la religion, mais plutôt parce qu'il la possèdent et qu'elle peut arrêter quelque peu la pénétration musulmane.

On ne peut s'empêcher de rire en se rappelant que le Lord Lebny qui commandait les armées anglaises à Jérusalem et qui prononça la fameuse phrase " Maintenant les Croisades sont terminées ", était un membre influent d'une association d'athés.

Et que dire de l'Italie qui se déclara l'ennemi de l'église et emprisonna le Pape au Vatican ; elle a bâti sa politique sur les efforts des missionnaires et des moines. Ceux qui ont visité l'Italie savent qu'à quelques pas du Vatican et tout autour, l'Italie vit une vie de débauche et de bohémiens, où la religion n'a aucune présence... Et ce qui est encore plus étonnant que ces deux exemples, c'est l'attitude de Staline, le leader du communisme international, quand on l'invita au congrès de Moskonie à Moscou... Staline a honoré le congrès en s'y rendant lui-même. Et que dire de l'Algérie combattante, l'Algérie du million et demi de martyrs ! La France y a fait preuve d'une haine à l'image des croisades qui a fait hurler la conscience mondiale et pourtant la religion en France même n'a pas une grande portée.

Quel est donc le sens de tout ceci ?

Est-ce que le Christianisme n'est qu'une marchandise à importer ?

En effet, c'en est une...

C'est un voile avec lequel on veut empêcher le soleil de l'Islam d'apparaître...

C'est le patrimoine d'une civilisation qu'on élit pour se mettre au devant de celui de l'Islam et de sa civilisation. C'est, le moins qu'on puisse dire, l'image (une religion) avec laquelle ont peut combattre une autre religion... puisqu'il fut historiquement démontré, que seule une religion peut combattre une autre et que seul l'acier peut briser l'acier... La postérité appartiendra en fin de compte au plus conforme.

Et pour de plus amples éclaircissements autour du rôle destructueux de l'évangélisation en Afrique, " c'est d'ailleurs le seul rôle auquel elle est destinée ", je vous cite cette agréable discussion qui eut lieu entre Louis Lumex, un journalitse américain, dans son livre « L'Afrique allergique » et Sylundika un ex-membre du conseil exécutif du parti démocratique en Rhodésie du Sud.

Le journaliste lui posa la question suivante :

Il existe des rapports périodiques qui confirment que la religion chrétienne se dissout en Afrique... Est-ce vrai ?

— La coopération avec les idôlatries existant dans le continent... afin qu'elle puisse en premier, se débarasser de l'Islam, son puissant adversaire, et en dernier, adopter leurs attitudes politiques et sociales, les aider par tous les moyens, flatter leur régionalisme éthnique et tribal, promouvoir leur langue locale... mais également consacrer leurs us et coutumes idolâtres, ce qu'il en reste et ce qui en a disparu.

— Le deuxième style, c'est la coopération avec les Juifs... C'est une coopération voulue par les deux... Israël le voulait... l'évangélisation aussi... et ce, à partir du but commun qui est : l'Islam en Afrique... cette religion qui fut pour les Africains l'énergie avec laquelle ils se meuvent à la recherche de leur existence et de leur liberté, ainsi que la civilisation par laquelle ils retrouvent leur personnalité et leur indépendance.

On sait qu'entre le christianisme et le judaïsme il y a une lutte séculaire qui n'a cessé que dernièrement ; et pourtant les Juifs et les missionnaires se sont mis d'accord, opérationnellement et stratégiquement, contre l'Islam qui est sur le point d'organiser tout le continent.

Ce serait une rengaine que de parler de la collusion des Juifs et des Chrétiens, d'Israël et du colonialisme, à notre époque. Ceci nous aménerait à parler de la naissance de l'Etat juif et des circonstances qui l'ont entouré. C'est en effet, un sujet très vaste et nous n'avons pas à en parler ici. Néanmoins le rôle que joue Israël en Afrique n'est qu'une prolongation à la mission que le colonialisme des croisades à créé pour lui, en Orient arabe ; cette mission consiste à isoler les peuples d'Asie de ceux d'Afrique. Ceci vise à affaiblir la pénétration arabe en Afrique... qui est un moyen en vue d'amener l'existence islamo-africaine. C'est l'introduction naturelle de l'avènement d'une Afrique musulmane et arabe concrétisant ainsi le rêve de nos ancêtres Almoravides tels Abdallah Ibn Yassine, Youssef Ibn Tachfine... Ceux-là qui ont sacrifié leur sang et leurs biens pour que l'Afrique devienne un continent musulman.

A quoi le colonialisme veut en venir à travers cette campagne d'évangélisation contre le monde musulman et notamment contre l'Afrique ? Le Christianisme n'a aucune existence dans la rue occidentale, ni dans l'usine ou l'atelier, ni au tribunal ou à la banque... Même l'église est devenue un établissement social ressemblant à tout autre établissement relevant des ministères des affaires sociales. L'Europe a abandonné le Christianisme depuis l'avènement de la révolution industrielle qui était basée sur le slogan suivant : " Pendez le dernier féodal avec les intestins du dernier prêtre ". L'Européen moderne et la " composition " spirituelle et biologique européenne, ne donne, à la religion, aucune dimension, dans l'élaboration de la pensée ou de la vie ?

Quel est donc le sens de ce que font les missionnaires en Afrique ? Ces missionnaires, eux-mêmes ne sont pas un exemple aux activités qu'ils prennent aux gens... Souvent des missionnaires changent d'une association à une autre afin d'amasser le plus d'argent possible. Le missionnaire anglais William Balghraff, de protestant, il est devenu jésuite et quand il n'en eut plus besoin, il redevint protestant... Le penseur Gibb a rapporté que les Jésuites en découvrant deux filles orthodoxes, dévergondées, les ont cachées quelques temps puis furent obligé de les remettre à leurs parents. Gibb attaque violemment le système des couvents ; il dit que certains d'entre eux étaient des lieux de débauche. Pourquoi donc déployer cette armée de missionnaires apportant la bonne parole en Afrique ? N'est-il pas plus important pour elle d'appeler les communistes du camp oriental

Le grand danger colonialiste pour l'Islam en Afrique :

Il existe un autre danger qu'il faut ajouter à la situation imposée par le colonialisme à l'Afrique et qui est représenté par cette armade de missionnaires aux habits de " moines " que prennent en charge tous les grands pays colonialistes... Ceux qui avaient une influence dans le continent ou ceux qui espèrent en avoir. Le plus riche Etat du monde est le Vatican ; le budget de ce mini-état qui représente une infime partie de l'Italie, est dépensé entièrement à des fins missionnaires.

Le Pape, à lui seul, dispose de plus de 500 millions de dollars. Il peut en dépenser ce qu'il veut en campagnes religieuses dans les pays musulmans. Des dizaines de journaux sont publiés ou donnés le plus souvent gratuitement à ceux d'entre les Musulmans qui ont une foi branlante.

Les dépenses annuelles de la mission anglo-indigène, sont évaluées à 2 millions de livres sterling ; celles de la mission américaine à 3 millions. Et toutes ces dépenses sont faites sous le couvert de " la lutte contre l'Islam "... Ceci bien sûr, sans compter les dépenses gouvernementales officielles qui atteignent parfois des chiffres inimaginables, elles s'étendent à de nombreux domaines et sous différentes formes. La revue missionnaire allemande a publié que le nombre de missionnaires protestants est à lui seul de 104.000.

Le nombre de sœurs et de pères, ceux qui distribuent la Bible et l'Evangile et qui participent à ces missions est de 92.000 ; quant aux écoles religieuses, elles sont au nombre de 16.671 comprenant des écoles primaires, moyennes et secondaires.

Plus de 500 universités, facultés ou instituts supérieurs, dépendent de l'autorité missionnaire. C'est le cas également pour 489 écoles théologiques spécialisées dans la préparation des missionnaires et des méthodes d'évangélisation.

L'autorité missionnaire possède également 2.594 lycées, 83.900 écoles primaires et 11.113 jardins d'enfants.

Pour ce qui est du secteur médico-social, qui est l'un des moyens les plus importants de l'évangélisation, les missionnaires possèdent 600 hôpitaux pour hommes et pour femmes, 1.050 pharmacies qui distribuent gratuitement les médicaments, 3 conseils sanitaires, 265 orphelinats, 120 foyers pour lépreux, autant pour les sourds-muets, 115 écoles pour aveugles, 113 dispensaires pour drogués, 85 foyers pour veuves etc...

L'évangélisation utilise tous les moyens traditionnels ou modernes. Les écoles, les hôpitaux, l'aide économique, les journaux, la radio, les livres, les affiches... et autres, sont autant de moyens utilisés... Les missionnaires s'acquittent de leur besogne à tous les niveaux. Il y a l'évangélisation au niveau des individus..., au niveau des groupes. Il existe une autre, silencieuse qui utiilse le livre, la presse, l'introduction du doute etc... Une autre plus dangereuse profite des circonstances politiques, économiques et sociales que traverse le continent. Elle joue son rôle dans les coulisses sous forme d'accords politiques ou économiques... Elle utilise parfois la valise diplomatique.

Le plus étonnant, dans la situation de l'évangélisation en Afrique c'est qu'elle s'est réfugiée à deux styles :

Certains peuples africains sont guidés politiquement et parfois gouvernés directement par des Européens ou les élèves de l'église ou des instituts européens.

Il existe également une autre différenciation, raciste celle-là issus de la théorie occidentale et qui a pris une place importante dans la pensée européenne ; c'est celle de la " suprématie de l'homme blanc ", suprématie absolue, sur l'homme noir.

Et à propos de l'apartheid qui n'apparaît si profondément qu'en Afrique, le président Ahmed Sékou Touré dit, en se moquant de ces Européens qui, avec leurs règles et leurs stylos, se sont empressés de mesurer les crânes des noirs et leurs différentes parties pour décider unilatéralement " que la place de l'homme noir est dans le monde des animaux parmi les chimpanzés car les singes ressemblent énormément à l'homme ". Le président montre que la couleur de la peau n'est rien d'autre qu'un phénomène qui correspond à ceux du milieu ou évolue l'homme. Puis il se pose cette question : est-ce que toutes les vaches ont la même couleur ? Est-ce que la vache blanche est meilleure que la rouge ou la noire ? La réponse est sûrement négative. Et malgré cela, l'apartheid est une réalité qu'impose le colonialisme dans plusieurs régions d'Afrique.

Et à côté de ces trois aspects exceptionnels il y a la situation économique sous-développée imposée à l'Afrique par le colonialisme puisqu'il l'empêcha de s'industrialiser et la transforma en pays producteur et exportateur de matières premières à vil prix et importateur en même temps de ces mêmes matières industrialisées et à des prix très chers. Et ce qui est étonnant c'est que la fertile Afrique est devenue sous la domination du colonialisme, un pays qui a besoin de produits alimentaires qu'elle importe de l'étranger. Ceci est évidemment dû au fait que les efforts dans le domaine agricole, furent orientés vers la production à l'exportation et non à la consommation locale. C'est ainsi que s'étendirent les camps de café, de coton, de thé, de cacao, d'une manière démesurée ; on laissa ainsi les Africains souffrir du manque à manger, sans pouvoir se procurer de moyens de pêche nouveaux et la pêche en elle-même leur était interdite ; l'européen qui était dans les forêts qu'il a conquise était seul capable de chasser les animaux terrestres.

Ainsi la pauvreté qui atteint parfois le seuil de la famine avec ses conséquences sur la santé et la multiplication de maladies et de fléaux, est un des phénomènes les plus importants qu'imposa le colonialisme à l'Afrique.

Le président Jomo Kenyata, dans son article publié en 1970 dans le livre général de l'Encyclopédie britannique, s'exprime ainsi à propos de la situation économique : " Les objectifs principaux de notre politique consistent à préparer à la grande majorité de notre peuple une terre qu'ils cultivent, des maisons qu'ils possèdent et des travaux fixes dont ils tirent profit. Et quand nous serons en mesure de réaliser cela, la stabilité pourra régner dans le continent ".

Le colonialisme a également imposé l'analphabétisme le plus abject ; il ne permit qu'à un petit nombre de s'instruire et encore cela était lié à ses visées et à ses objectifs, à savoir que ce demi intellectuel africain deviendra ridicule, déformé et déraciné... ne pouvant être un européen, ni un africain authentique, ni par rapport au présent de l'Afrique ni par rapport à ses espoirs futurs.

N°	ETATS	Nbre de musulmans	
12	LYBIE	2.178.000	100 %
13	MALI	4.853.000	90 %
14	MAURITANIE	1.227.000	100 %
15	MAROC	16.826.000	99 %
16	NIGER	3.863.000	91 %
17	NIGERIA	59.820.000	75 %
18	SENEGAL	3.319.000	95 %
19	SIERRA LEONE	1.800.000	65 %
20	SOMALIE	3.950.000	100 %
21	SOUDAN	14.375.000	85 %
22	TANZANIE	9.347.000	65 %
23	TOGO	1.166.000	55 %
24	TUNISIE	5.245.000	95 %
25	HAUTE-VOLTA	3.879.000	56 %
26	ERYTHREE	2.000.000	80 %
27	ILES COMORES	286.000	95 %

A cela on ajoute les Etats ci-après à prédominance musulmane, environ 30 millions ; ce sont des minorités qui viennent ici et là dans les autres Etats africains ; on peut les voir dans le tableau suivant :

N°	LE PAYS	Nbre de Musulmans	% des Musulmans
01	LIBERIA	770.000	30 %
02	GHANA	225.000	30 %
03	GABON	195.000	40 %
04	Congo Brazaville	140.000	15 %
05	OUGANDA	2.500.000 (env.)	40 %
06	KENYA	1.700.000	20 %
07	MOZAMBIQUE	1.750.000	25 %
08	MADAGASCAR	1.150.000	20 %

Le colonialisme domina le continent africain pour de nombreuses autres considérations exceptionnelles spécifiques à l'Afrique seule, au même titre qu'il l'assujettit au partage géographique et politique.

On trouve un grand nombre d'autres Musulmans dans plusieurs autres pays africains ; ils dépendent de gouvernements non-musulmans qui ont été élevés par l'église et qui en sont les dignes représentants.

Il y a tout un monde entre les gens de l'Eglise et ceux de la politique ! Et souvent la différence était encore plus nette entre les propos des gens de l'église eux-mêmes... et le rôle qu'ils jouaient en tant qu'appareil travaillant en collaboration avec le ministère des colonies... et les intérêts " stratégiques " colonialistes.

Et c'est ainsi que le colonialisme a calculé de telle manière qu'il assura le démembrement du continent africain en unités politiques et géographiques représentant le plus grand pourcentage de divisions du monde... au point qu'il présente en lui-même un obstacle infranchissable à l'avenir musulman et arabe dans le continent africain.

Si l'Amérique était un continent, si l'Australie en était un autre et si la Chine qui représente le 1/4 de la population du globe, était une unité politique et géographique complémentaire, il n'en est pas de même pour l'Afrique car le colonialisme lui a imposé de se transformer en des semblants d'Etats comme il le fit dans toute région susceptible de renouveau tel le golfe arabe par exemple. Il existe des Etats en Afrique dont les possibilités humaines ou naturelles sont loin de valoir certaines villes anglaises ou américaines.

L'Afrique Occidentale que nous prenons comme exemple, a été divisée par la France, depuis qu'elle y a mis les pieds, en huit Etats dont chacun est devenu un membre de l'O. N. U. ayant les mêmes obligations et les mêmes devoirs que la France elle-même avec tout ce que cela comporte comme efforts, éparpillement d'énergie et sauvegarde d'une indépendance limitée et faible. Ces Etats qui constituaient l'Afrique Occidentale sont : le Sénégal, le Mali, le Guinée, la Haute-Volta, la Côte d'Ivoire, le Dahomey, le Niger et la Mauritanie.

Le tableau suivant et qui concerne seulement les pays où le nombre de Musulmans est élevé, montre le plan de partage politique, humain et géographique par lequel le colonialisme a assujetti à lui le continent africain afin de l'empêcher de devenir un jour un continent musulman de religion, de langue et de civilisation.

ETATS MUSULMANS INDEPENDANTS EN AFRIQUE

N°	ETATS	Nbre de Musulmans	% dans toute la population
01	ALGERIE	15.286.000	98 %
02	CAMEROUN	2.265.000	55 %
03	REPU. CENTRE AFRIC.	902.000	55 %
04	TCHAD	3.400.000	85 %
05	DAHOMEY (BENIN)	1.746.000	60 %
06	EGYPTE	33.387.000	93 %
07	ETHIOPIE	17.289.000	65 %
08	GAMBIE	327.000	85 %
09	GUINEE	4.047.000	95 %
10	GUINEE BISSAO	565.000	70 %
11	COTE D'IVOIRE	2.484.000	55 %

LES MUSULMANS EN AFRIQUE
ENTRE LE PRESENT ET L'AVENIR

par le docteur Abdelhalim Aouis
Professeur à la Faculté de la Chari'a
Université Islamique
de l'Imam Mohamed Ibn Saoud
Ryad (Arabie Saoudite)

L'Afrique, ce vieux et jeune continent représente le 1/5 de la surface de la terre alors que le nombre de ses habitants ne dépasse guère 270 millions. Ce continent si vaste et qui n'abrite que le 1/12 de la population du globe possède des centaines de dialectes, 800 pour quelques-uns, 2.000 pour d'autres.

Quant aux religions et croyances, elles sont fort nombreuses ; presque toutes les religions et coutumes du monde existent ; d'autres n'existent qu'en Afrique seulement, à commencer par les croyances primaires comme l'adoration des phénomènes naturels, de l'âme des ancêtres, des fantomes ou des héros, jusqu'au Christianisme et l'Islam. Des dizaines de croyances s'entremêlent dans toute l'étendue du continent ; seules quelques-unes, comme les croyances hindoues ou le judaïsme étant donné leur nature de religions nationales renfermées sur elles-mêmes, leurs fidèles ne voulant pas les étendre comme les autres, semblent peu importantes.

Et avec tout cet amalgame de dialectes, la langue arabe est considérée comme la première étant donné que 90 millions de personnes la parlent.

Il en est de même pour l'Islam qui est, parmi toutes les croyances du continent, la première religion que pratiquent plus de 170 millions de personnes.

Obstacles dressés par le colonialisme :

Le colonialisme s'est aperçu que l'Afrique est le continent de l'Islam et de la langue arabe de l'avenir... Et que la religion chrétienne et la langue européenne (l'anglais et le français) qu'il transporta en Afrique au temps de sa puissance ; il les considère comme étant deux phénomènes colonialistes ; il sait également que le continent africain après avoir acquis son indépendance, ce dont il est certain, va certainement s'en débarrasser étant donné qu'ils sont deux aspects de domination ; particulièrement cette attitude que la chrétienneté prétend apporter à l'humanité alors qu'elle est contradictoire.

dangereuses pour la religion, il eut le courage d'étudier leurs livres. Ainsi il a pu discerner ce qui était vrai et valable dans leur pensée de ce qui était faux et dangereux.

Il a ensuite refuté leurs erreurs d'une manière efficace dans son " Tahafout ", que le mouvement philosophique en question a fini par se dissoudre, mais il a continué à enrichir la pensée islamique en y intégrant ce qui lui paraissait vrai et valable dans leurs thèses.

L'ensemble de la présente communication est destiné à souligner combien il est important à l'époque actuelle que des intellectuels croyants puissent imiter El-Ghazali et ne craignent pas d'apprendre au contact de leurs adversaires. A l'époque où nous vivons, comme je l'ai suggéré auparavant, toutes les grandes religions ont à résoudre plus ou moins les mêmes problèmes ; et il se pourrait qu'elles puissent venir en aide les unes aux autres.

Pour ma part je pense très sincèrement que toutes gagneraient beaucoup à étaglir un dialogue franc et amical à travers lequel elles pourraient voir plus clairement quels sont les points sur lesquels elles sont d'accord et quels sont les points sur lesquels elles diffèrent.

dispose me permet seulement de faire quelques brèves suggestions à la manière dont on pourrait y répondre.

Il convient d'abord d'affirmer de manière catégorique qu'il est faux que la science réfute l'idée de l'existence de Dieu. Les grands succès à mettre à l'actif des sciences naturelles ont trait à des choses que l'on peut compter, mesurer, ou dont on peut déterminer la quantité ; mais il n'en résulte pas que les choses que l'on peut compter ou mesurer soient les seules choses réelles. Au contraire, l'amour humain est chose réelle, de même la beauté de la forme ou du comportement est chose réelle. Nous ne pouvons pas nier, ni justifier un acte d'héroïsme ou d'abnégation par égard pour ses compatriotes. Si nous pouvons appeler cela le monde de l'esprit, alors le monde spirituel est tout aussi réel que le monde des choses matérielles.

Le point suivant consiste à insister sur le fait que celui qui croit en Dieu, bien loin de rejeter toute forme de sciences naturelles, accepte tous les " résultats confirmés " de la science, dans la mesure où ils lui parlent de l'univers que Dieu a créé. Le croyant est acquis à l'idée selon laquelle l'activité créatrice de Dieu ne se limite pas à l'époque lointaine où a été créé l'univers (à l'exemple de la cause première du philosophe Aristote) mais qu'elle se prolonge indéfiniment dans l'univers tout entier. Le " Coran " nous enseigne comment chacune des étapes de l'évolution de l'embryon dans le ventre de la femme est le fait de la puissance créatrice de Dieu. De la même manière le croyant ne devrait avoir aucune difficulté à affirmer que toutes les étapes par lesquelles sont passés les êtres humains depuis les temps les plus primitifs sont le fait de la puissance créatrice de Dieu.

Comme il ne me reste plus beaucoup de temps je dirai simplement deux mots au sujet de la révélation et des livres sacrés tels que le Coran et la Bible, ainsi que des problèmes y afférant à l'intention de ceux qui reconnaissent " les résultats confirmés " des sciences naturelles. A travers ces livres, Dieu donne aux hommes la possibilité de le connaître et leur enseigne ce que doivent être ses relations avec lui. Ceci ne constitue pas une connaissance parfaite de Dieu, puisque par définition l'homme ne peut pas l'atteindre, mais elle est suffisante pour permettre aux hommes de suivre le droit chemin en ce monde. Ce n'est pas le dessein primordial des livres révélés de fournir aux hommes le type de connaissances du monde qu'ils peuvent acquérir par leurs propres efforts (par exemple, au sujet des sciences naturelles), bien que les livres en question peuvent de temps en temps fournir ce genre d'informations.

De plus, la connaissance de Dieu et du type de relations que doit entretenir l'homme avec Dieu appartiennent au monde spirituel, et dans le monde spirituel, la vérité doit souvent s'exprimer sous forme de symboles ou de formes symboliques puisqu'il n'existe aucun autre langage à cet effet. Cependant le caractère symbolique des affirmations ne les rend pas moins vraies, et en fait elles demeurent indispensables pour guider les hommes dans leur comportement.

Pour conclure, je voudrais citer le grand penseur et intellectuel musulman, Abou Hamid El-Ghazali. Ce dernier a vécu à une époque où la religion islamique devait être défendue non seulement contre la vision matérialiste de bon nombre de gens qui se prétendaient musulmans, mais également contre les thèses manifestement philosophiques et scientifiques que défendaient des hommes tels que El-Farabi et Ibn Sina. Bien qu'il pensait que les thèses qu'ils défendaient étaient

tout le mois ; mais les muftis ont en fait prévu des règles répondant à des situations aussi inhabituelles.

Les exemples que je viens de donner illustrent la manière dont les règles détaillées de la " chari'â " peuvent varier selon les différentes situations. Les exemples cités sont relativement superficiels, mais dans le monde moderne il existe des changements de situation beaucoup plus importants qui doivent être pris en considération — en fait tout ce qui a été décrit précédemment comme étant l'expansion de la science et de la technologie moderne. La rapidité des moyens de communication — à la fois ceux ayant trait aux voyages eux-mêmes et ceux permettant la transmission de messages par radio et par téléphone — ainsi que le développement de l'industrie et du commerce ont provoqué de profonds bouleversements dans la structure sociale de tous les pays, qui justifient à leur tour le besoin d'un nouvel ordre social. L'une des tâches les plus importantes qui s'imposent actuellement aux Musulmans est, par conséquent, de consacrer un immense effort intellectuel pour tenter de distinguer entre les principes fondamentaux non susceptibles de changement de la " Chari'â " et les règles détaillées qui elles, peuvent varier.

L'urgence de cette question peut être illustrée par ce qui s'est passée dans l'empire ottoman au XIX[e] siècle. Entre 1860 et 1863, le sultan ottoman a promulgué des codes juridiques traitant de diverses questions commerciales et maritimes. La nécessité de disposer de codes s'est faite sentir parce que des sujets ottomans étaient en relations d'affaires avec des négociants d'Europe occidentale et avaient adopté certaines de leurs pratiques ; mais aucune mention n'était faite de telles pratiques dans la loi islamique. Les " Oulémas " de l'époque n'étaient cependant pas préparés à reconsidérer les principes fondamentaux de la " Chari'â " afin de voir comment les pratiques de l'époque pouvaient leur être adaptées. Du fait que les " Oulémas " étaient conservateurs d'une manière aussi rigide, il a été plus facile au sultan de promulguer de nouveaux codes ; et ceci signifie qu'en fait, sur ces points précis, la " Chari'â " a été laissée de côté. En outre tout ceci a préparé la voie à l'abandon pur et simple de la " Chari'â " en Turquie en 1926 sous le règne d'Ataturk.

Certains pays islamiques très progressistes ont à faire face, actuellement, à ce problème sous une forme ou une autre à un degré quelconque. Il est un besoin impérieux d'adapter les points de détail de la " Chari'â " aux conditions de la vie contemporaine, tout en gardant les principes fondamentaux intactes. Cependant, les " Oulémas " constituent dans la plupart des pays un corps social conservateur, et sont généralement opposés à tout changement radical ou rapide. Néanmoins, si les " Oulémas " n'agissent pas, des hommes d'Etats et des dirigeants politiques réussiront à trouver, à l'instar du sultan ottoman, une manière ou une autre de prescrire les règles juridiques qui leur paraîtront nécessaires. Dans un certain sens, ce que nous préconisons ici, c'est une ré-ouverture de la porte de l' "IJTIHAD ", sujet dont ont discuté les Musulmans au siècle dernier ; mais en 1977 cette question présente un caractère plus urgent qu'il y a un siècle.

L'autre problème est de savoir comment défendre la croyance en Dieu à une époque où la vision matérialiste du monde est très répandue et qu'elle est censée être corroborée par l'enseignement des sciences naturelles. Ceci est une question très vaste, et au cours de la présente communication le temps dont je

matériels. Cependant, la vision matérialiste actuelle est également influencée par les sciences naturelles, en ce sens que la tendance est très répandue qui consiste, pour les admirateurs des sciences naturelles, à supposer qu'il n'existe pas de réalité autre que celle des choses étudiées au moyen des méthodes utilisées par les sciences naturelles. Ceci est de toute évidence une supposition irrationnelle qu'il est permis de réfuter sur des bases des plus rationnelles, néanmoins c'est la supposition que font beaucoup de gens qui adoptent une vision matérialiste des choses. Une telle attitude peut déterminer, dans la pratique, la manière dont ils vivent, bien qu'ils ne rejettent pas formellement la croyance en Dieu.

Par conséquent dans ces trois domaines — l'expansion de la technologie moderne, les bouleversements sociaux qui en résultent et la propagation d'une vision matérialiste des choses — il existe des facteurs généraux qui affectent la vie des Musulmans ainsi que celle des Musulmans potentiels à travers l'Afrique toute entière et qui leur créent ainsi des problèmes. Le reste de la présente communication portera sur la manière d'aborder ces problèmes. Cependant, elle ne portera pas sur des points de détail ni sur des mesures politiques actuellement en vigueur, mais se limitera à des considérations d'ordre intellectuel sur deux principes généraux : comment peut-il y avoir un nouvel ordre social reposant sur des fondements islamiques ? Et comment peut-on défendre la croyance en Dieu et en la révélation dans le monde moderne ?

Lorsqu'on parle d'un nouvel ordre social reposant sur les fondements de l'Islam, on fait naturellement allusion à la " chari'â " ; je suis, il est vrai, pleinement conscient du fait que je ne peux en parler qu'en profane. J'espère cependant pouvoir apporter quelque chose qui soit de quelque utilité en ce qui concerne la situation des Musulmans ; et cet espoir est fondé sur le fait que les Chrétiens et les adeptes d'autres religions aient à faire face à des problèmes tout à fait analogues dans leur tentative d'instauration d'un nouvel ordre social plus équitable fondé sur le principe de la croyance en Dieu.

Le point de départ doit être le suivant : c'est que la " chari'â " appartient à Dieu et ne peut en aucun cas être changée. D'une manière quelque peu similaire, des adeptes d'autres religions diraient que les valeurs morales et spirituelles sont le fait de Dieu. Cependant c'est seulement en ce qui concerne son essence même ou ses principes généraux, que la " chari'â " ne peut-être soumise à un changement quelconque ; les points de détail ou les préceptes détaillés, doivent être interprêtés par les hommes et peuvent varier selon les différentes situations. Ainsi le principe général veut qu'au cours de la " Salât " celui qui fait la prière doit s'orienter vers la Mecque ; mais dans n'importe quelle ville prise isolément, les hommes doivent découvrir eux-mêmes la direction de la Mecque, en utilisant des méthodes rationnelles ; dans certains endroits ils s'orienteront vers l'Est, dans d'autres, ils s'orienteront vers l'Ouest etc...

De la même manière, dans les endroits où il n'y a pas d'eau, les ablutions précédent la " Salât " peuvent être faites à l'aide de sable. Un autre exemple encore plus significatif serait celui d'un Musulman qui passerait plusieurs mois d'été au Pôle Sud, en supposant que le " Ramadhan " ait lieu au milieu de cette période. Il lui serait impossible de respecter le " Ramadhan " normalement puisque l'on sait que le soleil ne se lève ni ne se couche jamais pendant

duits à partir de ce qui est déjà connu. Tout ceci est inclus dans la propagation des produits de la science et de la technologie modernes.

Le second facteur parmi les trois facteurs généraux consiste en la nécessité d'établir un nouvel ordre social plus équitable. Ce besoin varie d'un pays à un autre selon les conditions propres à chaque pays ; mais c'est essentiellement un besoin nouveau, car partout, il est possible de discerner derrière les problèmes spécifiques à chaque pays, les bouleversements sociaux, pour ne pas dire la désagrégation sociale, causés par la propagation des produits de la technologie moderne. Les anciennes activités artisanales sont devenues non rémunératrices et les artisans ont disparu pour laisser place à d'autres hommes utilisant un nouveau savoir faire et de nouvelles techniques. La célérité des moyens de communication moderne a facilité l'administration efficace de vastes territoires. A travers ces bouleversements sociaux et de tant d'autres encore, des changements sont survenus quant à la richesse ou à la pauvreté relatives de catégories sociales différentes.

Une poignée d'hommes riches qui n'ont pas réussi à comprendre comment les choses se passent dans le monde moderne, ont continué à mener la vie qu'ils menaient auparavant et se sont relativement appauvris. Mais la plupart des riches ont réussi à adapter leurs activités aux conditions de vie modernes et se sont relativement enrichis. Des hommes pauvres, ou de conditions modestes, qui ont acquis quelques unes des connaissances nécessaires au fonctionnement de leur pays en tant qu'Etat moderne, se sont enrichis de manière appréciable, tandis que quelques-uns d'entre eux se retrouvent avec des situations qui leur confèrent un grand pouvoir et une grande richesse. De tels bouleversements sociaux peuvent être considérés, en partie, comme des conséquences du colonialisme, puisque c'est le colonialisme qui a favorisé la propagation des produits de la technologie

Quelque soit l'origine du malaise social d'un pays donné, il existe en tout cas trois points sur lesquels un nouvel ordre social devra essayer de donner satisfaction. En premier lieu, les formes les plus abjectes de la pauvreté devront être éliminées dans le pays en question. En second lieu, des tentatives devront être faites en vue de parvenir à une plus grande égalité économique, étant donné que les conditions de vie modernes, l'existence de disparités importantes entre les gens très riches et les gens très pauvres crée un sentiment d'injustice sociale. En troisième lieu, tout le monde doit participer, d'une manière ou d'une autre, à la prise de décisions. Comment ces exigences peuvent-elles être satisfaites dans le cadre d'un nouvel ordre social ? C'est ce que nous allons voir dans ce qui suit.

Le troisième des trois facteurs généraux c'est le fait que soit répandue chez beaucoup de gens une vision matérialiste des choses. Par ceci j'entends non pas une adhésion formelle à une forme quelconque de matérialisme philosophique, mais une habitude de l'esprit, du fait de laquelle l'homme devient tellement préoccupé par la richesse et la possession matérielle qu'il finit par ne plus penser aux choses spirituelles ni à l'avenir du monde de demain. Ceci est, par exemple, une habitude de l'esprit que l'on a remarqué chez les riches négociants de la Mecque à l'époque du Prophète et qui a été créée par la jouissance de biens et de la possession matérielle.

Il est possible d'établir ici un parallèle étroit entre ce genre d'attitude et la vision matérialiste d'aujourd'hui qui est également liée à l'abondance de biens

Malgré ces complexités, je pense qu'il est possible de faire quelques remarques d'ordre général concernant tout particulièrement les situations dans lesquelles se trouvent les Musulmans africains dans leur majorité. D'une certaine manière, tous sont affectés par les mêmes facteurs généraux, même si ces derniers empiètent sur leur vie à des degrés divers, selon le degré d'islamisation de chaque pays et de la politique adoptée par ses dirigeants. Le chapitre suivant de la présente communication consistera par conséquent en une analyse de ces divers facteurs généraux ainsi que des problèmes qu'ils engendrent. A ce stade, je dois peut être préciser que ma sympathie va particulièrement à ceux qui œuvrent actuellement pour l'établissement d'un ordre social nouveau plus équitable, et c'est précisément à ces personnes que s'adressent essentiellement mes remarques.

Parmi les trois facteurs qui devront faire l'objet de débats, le premier et le plus fondamental d'entre eux est celui de la propagation, à travers le monde, des produits de la science et de la technologie modernes. Nous avons tendance à parler de la " propagation des produits " ou de la " propagation de la technologie " comme si c'était quelque chose que les produits ou la technologie faisaient d'eux-mêmes ; il est évident que ce n'est là qu'une façon de parler. Ce à quoi nous faisons allusion en fait, c'est à un processus complexe, au sein duquel l'on peut distinguer plusieurs niveaux ; et des êtres humains sont concernés à chacun de ces niveaux.

Le premier niveau c'est celui auquel une personne donnée propose de vendre un tissu de nylon ou une automobile ou un avion à réaction à une autre personne ; il ne peut rien se passer à moins que la seconde personne veuille faire l'acquisition de ce que la première lui a proposé et qu'elle ait d'une manière ou d'une autre la possibilité de la payer. Il apparaît donc clairement à présent, que tous les êtres humains de par le monde veulent s'approprier un grand nombre de produits de la technologie moderne.

Le grand leader de l'Inde, Ghandi, voulait que ses disciples ainsi que l'ensemble du peuple indien se passent de tissus fabriqués dans les usines modernes et qu'ils se remettent à utiliser le rouet ; cependant malgré sa grande popularité il n'a pas réussi à persuader les gens de renoncer à l'usage des produits de la technologie moderne. Partout dans le monde où il existe des objets qui rendent la vie plus facile, plus confortable et plus luxueuse, les gens décident d'en faire l'acquisition.

Cependant ceci n'est que le premier niveau. Il vous est facile d'acheter une automobile japonaise, mais si elle a un ennui quelconque vous ne pouvez pas l'envoyer au Japon pour réparation ; vous-même devez ou quelqu'un d'autre dans votre pays doit apprendre à réparer les voitures japonaises. En d'autres termes il s'avère nécessaire pour vous d'acquérir quelques connaissances pratiques de la science et de la technologie modernes. A ce second niveau qui est celui de l'acquisition de connaissances pratiques, il existe des degrés divers. Finalement la plupart des pays voudront fabriquer des produits modernes pour eux-mêmes et réduire ainsi leur dépendance à l'égard des pays étrangers. Puis il existe un niveau encore plus élevé, celui de la participation aux travaux de recherche scientifique et technologique en cours, qui inclut à la fois la réalisation de nouvelles découvertes dans le domaine de la science et l'invention de nouveaux pro-

LES PROBLEMES QU'AFFRONTENT L'ISLAM EN AFRIQUE DE NOS JOURS

par le docteur
William Montgomery Watt
Professeur au département des Etudes Arabes et Islamiques
Université d'Edimbourg
(Grande Bretagne)

Il est presque impossible de parler d'un sujet aussi vaste que celui qui fait l'objet de la présente communication. Contrairement à certains intellectuels occidentaux, je soutiens fermement que l'Islam est essentiellement unique et indivisible à travers ses diverses manifestations en Afrique et ailleurs. Néanmoins, il existe une certaine complexité dans l'Isalm africain qui rend difficile d'établir des généralisations.

Dans certains pays, l'Islam est établi depuis des siècles et la population y est musulmane dans sa majorité. Parmi ces pays figurent les pays d'Afrique du Nord et du Maghrib. Puis il existe des pays tels que certains pays d'Afrique Occidentale et Orientale, où les Musulmans constituent une faible, quoique distincte minorité ; et dans la plupart de ces pays la communauté musulmane est en train de s'accroître, comparativement aux autres communautés religieuses. Entre ces deux catégories, il existe des pays tels que le Nigéria, le Soudan et la Tanzanie, où l'Islam est solidement établi dans une région du pays, mais où dans d'autres régions il n'existe presque pas de Musulmans. Et enfin il faut mentionner les pays où il existe peu de Musulmans, mais où les anciennes religions africaines sont en régression, de telle sorte qu'il existe actuellement une espèce de vide religieux que l'Islam pourrait peut-être combler. Car ceci également est un problème auquel l'Islam doit faire face.

Cette complexité est d'autant plus grande qu'il existe différentes attitudes chez les Musulmans. Il y a ceux qui œuvrent actuellement pour l'instauration d'un ordre social nouveau et plus équitable qui reposerait sur les fondements de l'Islam. Il y a ceux qui souhaiteraient revenir à un respect plus strict de l'Islam traditionnel, ceci avec différents degrés d'adaptation à la situation contemporaine. Et il semble qu'il y ait ceux qui, du fait de la puissance solidement établie des conservateurs et des traditionnalistes, ont désespéré à jamais de pouvoir réformer l'Islam de l'intérieur, et pensent que le nouvel ordre social pour lequel ils luttent doit être la copie d'un modèle non islamique.

— l'unité des peuples du Maghrib sous la bannière d'un seul Maghrib.

— L'unité politico-géographique, non dans ses frontières, mais dans sa population, sa langue et sa religion.

Les walis de Tahert, de Cirta à Zouila, des Monts Nefoussa au Chott Djérid, ainsi que dans le Maghrib Central tout entier, ne représentaient pas les Rostomides, mais leurs sujets à Tahert, ces sujets qui n'avaient pas la possibilité de faire seuls leur histoire. Ils avaient encore besoin de quelqu'un qui fasse éclater leur énergie, orienter leur comportement, approfondir leurs connaissances, développer leurs dons, unifier leurs sentiments et définir leurs opinions. Telle est la responsabilité historique grave qui échut aux Rostomides dans le temps ; nous continuons encore à assumer leur message pour la réalisation de l'unité du Maghrib des peuples.

dateur de l'Etat rostomide a vécu une vie arabe et est apparu en Irak avec ses parents avant son départ pour le Maghrib avec sa mère et son beau-père (sa mère s'étant mariée avec un hadj maghribin rencontré en pélerinage).

Les orientalistes qui se sont concentrés sur cet aspect, avaient un besoin urgent d'appuyer sur l'idée que les Rostomides n'étaient pas des Maghribins et donc, ils ne sont Arabes que de langue. Certaines versions exagèrent encore davantage en écrivant que certains traducteurs d'origine perse, se chargeraient de traduire aux imams rostomides de la langue berbère en arabe ou des deux langues en perse. Comment l'Imam Aflah Ibn Abdelwahab a-t-il besoin que Abou Salah El-Farissi lui traduise, étant donné qu'il connaissait parfaitement le berbère puisqu'il écrit 12 volumes en vers en langue berbère. La tromperie est visible et claire.

Et afin d'atteindre leurs objectifs, certains orientalistes se mirent à attaquer les premiers conquérants Musulmans, à travers les révoltes que fomentèrent les Magribins sous les walis Arabes ; ils présentent les conquérants sous l'image de mercenaires ; la résistance est vue sous l'aspect d'un combat contre une invasion étrangère faite sous le couvert de l'Islam, alors que tous les historiens sont d'accord pour dire que les Berbères ne se sont révoltés contre l'autorité des khalifes que quand ils eurent la certitude que les agissements des walis étaient ordonnés par le khalife lui-même.

L'attitude de la délégation maghribine qui fut envoyée à Hicham montre le souci des peuples du Maghrib de conserver l'unité de la communauté musulmane et le khalifat avant l'unité des Maghribins eux-mêmes. Quand les Maghribins furent convaincus que le khalifat était incapable de solutionner ses problèmes économiques et sociaux, le Maghrib des peuples s'est réfugié à un autre genre d'unité : l'unité des objectifs, des principes démocratiques et l'accès au pouvoir aux plus capables sous le règne d'un Etat issu de la volonté du peuple et dont les principes et objectifs vont avec le caractère du Maghrib des peuples. C'est ce que les historiens ont négligé et n'en ont pas parlé ; les chercheurs européens l'ont exploité dans leurs écrits.

Pour cela, nous ne pouvons imaginer qu'il existât une vie spéciale et secrète des Rostomides. L'apparition des Saqâlibas en tant que gardiens des marchés de Tahert, se ramène à l'apparition des Maghribins et Maghribines sunnites dans les cours des Abbassides avec ce qu'il y a toute la différence qu'il y a dans la moralité ici, et l'objectif là-bas.

La force rostomide résidait dans l'autorité spirituelle que les pays du Maghrib des peuples ont partagée ; il n'y avait point d'armée, ni de soldats ; c'est la réflexion politique claire, face aux sujets et aux visions, qui a donné la stabilité et l'unité dans les sentiments et les pensées. Et s'il nous est donné d'étudier l'histoire des Rostomides à travers leurs écrits et leur comportement, nous verrons que la culture est, chez eux, leur comportement social, c'est-à-dire qu'ils ont traduit la culture en réalité sociale palpable, sans qu'ils aient à développer le sentiment sectaire de leurs sujets. Ils ne furent pas sectaristes mais Maghribins et Musulmans avec comme objectif :

Puisqu'ils ont adopté une attitude défensive teintée de subjectivisme, nous avons alors trouvé devant nous des livres et documents qui ressemblent dans leur méthodologie et leur subjectivisme, à ceux de la première école, même s'ils se différencient au point de vue forme et contenu comme ce fut le cas des historiens chi'ites par réaction aux attaques adverses.

Mais qui a profité de ces livres ?

Mais qui a profité de cette anomalie dans la réflexion historique chez les Musulmans en général ?

Seuls ceux de la troisième école en ont profité.

L'école des orientalistes et des Européens : Pour qu'il n'y ait pas de confusion, je voudrais expliquer ce que j'entends par profiter, non pas dans son sens éthymologique, mais je vise par là le fait que ces gens-là, quand ils se mirent à étudier les Rostomides, leurs adeptes et les peuples qu'ils ont gouverné dans cette région, ils se basèrent sur les livres d'histoire générale de l'Islam, ont étudié profondément les écrits des Ibadites ; ils surent ensuite comment diriger leur méthodologie dans l'étude de l'histoire de ces peuples, atteignant ainsi le plus haut sommet du colonialisme spirituel, politique et économique. Qu'on ne s'étonne pas alors, de trouver les historiens israéliens à l'université de Tel-Aviv, appuyer leur droit historique sur la terre promise avec des écrits de l'histoire musulmane. Qu'on ne s'étonne également pas d'un fait plus grave encore : toute thèse universitaire qui traite des Rostomides ou de quelqu'autre sujet relatif aux peuples du monde musulman, ira, secrètement, à l'université de Tel-Aviv. Si j'ai donné cet exemple c'est parce qu'il est plus frappant que d'autres. Si nous apprenons aussi que quelque manuscrit a rejoint le Vatican, c'est parce que les gens de l'Eglise étaient plus actifs dans la réalisation de leurs objectifs.

Les études orientalistes et européennes sur les Rostomides ont pris divers aspects et diverses orientations. Quelques-uns ont recherché la relation qu'il y avait entre l'origine perse des Rostomides et celle des Berbères Amazigh pour construire leur théorie sur la base de la race et de l'éthnie et éloigner du Maghrib des peuples toute valeur et toute qualité alors les qualités les plus importantes de ces peuples sont les suivantes :

— La clarté de la personnalité spécifique.

— L'amour de la terre, la fierté de l'homme et l'attachement aux principes.

— La profondeur de vue et celle de la réflexion vont de pair avec la maîtrise de soi aux moments les plus pénibles ; une connaissance parfaite du devoir, la prise de décisions saines qui dénotent une haute mâturité. Le Maghrib musulman n'a-t-il pas envoyé une délégation politique au Khalife Hicham à Damas pour lui proposer des solutions rapides et l'aider efficacement à sauver le khalifat omeyyade de la situation financière et sociale dans laquelle il se trouvait ?

Et partant de ces valeurs caractéristiques des peuples du Maghrib sous les Rostomides ou même avant eux, je dirai qu'il serait très dangereux d'adopter cette orientation qui considère les imams rostomides d'origine sassanide ; et tant que nous n'aurons pas de preuves formelles qu'Abderrahmane Ibn Rostom est d'origine perse, il ne faudrait pas l'accepter. Et même si nous l'acceptions, le fon-

ment des Etats. Afin de flatter les détenteurs du pouvoir, ces historiens ont créé des raisons pour justifier les guerres, l'expansion et la réalisation des ambitions, décimant tout peuple qui refuserait de se soumettre tantôt de rebelles, tantôt d'anarchistes ou de séparatistes ou encore de hors-la-loi comme ce fut le cas pour les martyrs de la révolution de 1954 dans l'histoire contemporaine. C'est pour ces trois raisons que se sont multipliées les théories des historiens, au sujet des Rostomides et que l'étude de l'histoire de cette région du Maghrib musulman s'est divisée en trois écoles :

La première école : Les historiens de cette école ne se sont pas contentés d'assembler les événements et de les présenter consciemment ou par peur, mais ils ont exagéré la dénaturation des faits. Même Ibn Khaldoun, qui a relevé les fautes des historiens, n'en est pas exempt. En parlant des Rostomides et des œuvres illustrés de leurs savants, il n'est pas sérieux dans ses propos. Ainsi à propos de l'histoire et de l'origine des Idrissides au Maroc, il les place dans la lignée de Mohammed et refuse aux Rostomides toute parenté même relative à cette lignée. C'est un exemple parmi des dizaines d'autres qui ont dénaturé l'histoire et perdu la vérité historique. C'est pour cela que j'estime que le devoir sacré de tout historien engagé qui a foi dans les problèmes de ses peuples, c'est de revoir de nouveau tout ce qui a été écrit par les historiens au sujet de l'histoire générale de l'Islam. Je n'exagérerai pas en disant qu'il faudrait réécrire l'histoire maghribine à partir de zéro, en prenant en considération la formation caractérielle de toutes les sociétés musulmanes en commençant par l'histoire économique, sociologique et même culturelle des peuples non pas suivant le déroulement des événements et des familles régnantes mais selon l'unité fonctionnelle des sujets ; car les crises sociales qui se produisent ici et là avait pour raison principale, le vide qu'accusait le trésor public et l'obligation qui était faite aux masses populaires de le remplir à la sueur de leur front, en attendant de se faire conduire à la guerre ou en cas de refus de faire l'objet de répressions et avec leur propre argent.

Les historiens ne tarderont d'ailleurs pas d'accuser ces mêmes peuples de rebelles et de dissidents, alors qu'en réalité, ils devraient d'abord relater l'histoire des peuples en premier lieu, pour ensuite parler d'histoire politique. A ce moment seulement, nous pourrons donner un jugement ; si l'histoire politique relève de la volonté des peuples sans déviation aucune, alors nous pourrons dire que c'est leur histoire ; si par contre elle lui est imposée, on ne pourrait dire qu'elle est à leur avantage et pour eux.

La deuxième école : La seconde école qui s'est penchée sur l'histoire des Rostomides, rejoint la première dans son orientation et ses objectifs ; ce sont les écrivains et historiens rostomides ibadites eux-mêmes. Les imams rostomides et leurs savants furent connus pour leur science et leur savoir. Les bibliothèques d'Europe et leurs archives témoignent de l'importance de ce patrimoine. Mais lorsqu'ils se mirent à écrire, particulièrement après la disparition de l'Etat rostomide, c'était pour défendre une position et faire connaître le peuple des deux maghrib : le proche et le central.

On dirait, qu'ayant désespéré de pouvoir installer l'imamat rostomide à Ouargla, ils ont acéré leurs plumes pour s'attaquer à la déformation de l'histoire.

ROLE DES ROSTOMIDES DANS L'UNITE DU MAGHRIB DES PEUPLES

par le docteur Ibrahim Fekkhar
professeur d'histoire
à l'Institut des Sciences Sociales
Université d'Oran (Algérie)

Parmi les sujets importants et obscurs dans l'histoire musulmane du Moyen-Age figure celui des Rostomides ; il a subjugué nombre de chercheurs et spécialistes et ne cesse de dérouter beaucoup d'historiens et d'étudiants.

Et si le sujet a subjugué de nombreux écrivains et politiciens ou chercheurs dans l'histoire des nations et des peuples, c'est parce qu'ils n'ont pas seulement étudié les Rostomides en tant que famille régnante qui a hérité le pouvoir de père en fils, mais parce qu'ils ont rattaché l'histoire des Rostomides au Maghrib, à leurs principes et théories pour ensuite voir les relations des peuples du Maghrib en général avec les gouvernants de Tahert et leur rôle dans l'unité du Maghrib des peuples.

Je ne pense pas être pressé dans mon jugement si je disais que toute étude qui se baserait sur la connaissance du caractère des peuples, faciliterait aux chercheurs la connaissance de l'identité des gouvernants et leurs relations avec leurs peuples. On se baserait ici, sur les peuples et non les gouvernants, ou plus exactement, les peuples avant leurs gouvernants ; car l'autorité politique n'aurait pas le cachet de légitimité si elle ne se basait pas sur la volonté des peuples.

Quant au fait que le sujet sur les Rostomides ne cesse de dérouter la plupart des historiens et les passionnés de l'histoire, relèverait à mon avis de :

1°) La confusion qui englobe, non du côté de l'orientation politique claire, mais plutôt du côté de l'orientation idéologique et les circonstances caractérielles et sociologiques par lesquelles les peuples du Maghrib ont accueilli Abderrahmane Ibn Rostom.

2°) La stérilité qui a touché la mentalité historique dans le domaine de l'écriture de l'histoire générale de l'Islam. Nous avons ainsi hérité d'une image fidèle du mal qui a atteint les âmes à travers l'inertie des rites et la désunion des Musulmans. L'histoire a ainsi éloigné les Musulmans de connaître leur réalité et approfondi l'écart qui séparent les peuples d'un même pays, alors qu'il n'y a qu'un Dieu, qu'un Coran et qu'un Prophète.

3°) Les historiens ne se sont pas donnés la peine de chercher sérieusement dans l'histoire des peuples, leur civilisation et le rôle historique dans l'avène-

courant à la découverte du désert encore inconnu, a exercé une influence, claire sur le mouvement scientifique en le poussant vers des horizons plus larges et plus tolérants, que ce soit dans les disciplines auxquelles s'intéressaient les savants de Ouargla et qui comprenait la philosophie et l'astronomie, disciplines non encouragées par les milieux ibadites conservateurs habituellement ou dans les méthodes de recherche qui sont sorties du cadre de l'étude d'une seule doctrine pour englober toute la pensée islamique comme cela apparaît dans les écrits d'Al-Warglani, d'Ibn Khalfoune, de Abou Ammar et de bien d'autres, ou encore dans l'établissement de liens avec d'autres centres d'études et instituts islamiques hors du pays ibadite avec Cordoue en Andalousie par exemple, avec Tunis et Kairouan, comme ce fut le cas pour Abou Abdillah Mohamed Ibn Bakr et Abou Yacoub Ammar Abdalkafi.

Pour conclure, ce ne sont là que quelques traits parmi beaucoup d'autres. Si, j'ai réussi à vous donner une idée d'ensemble de ce mouvement, qui s'est poursuivi et se poursuit encore, j'espère que de jeunes chercheurs algériens ou autres continueront à découvrir ces trésors, à en répandre les bienfaits afin que l'univers tout entier sache que chaque poignée de la terre d'Islam a été imprégnée, depuis qu'à l'horizon a été lancé cet appel " Il n'y a de Dieu qu'un seul Dieu et Mohamed est son Envoyé ", du sang des martyrs et de l'encre des savants en même temps. J'espère aussi que cette communauté qui a montré la voie à l'humanité dans le passé, se préparera à jouer le même rôle de nouveau. Nous souhaitons que l'Algérie y soit pour beaucoup.

Que le salut, la clémence et les bénédictions de Dieu, vous accompagnent.

Le Grara, (chez Djahlane Ahmed à Nawadir)
Le 5 Janvier 1966

" Nous avons posé pied dans une vallée prospère et généreuse à Hat Wata en plein désert hostile.

Que Dieu récompense Ouargla pour nous car, il n'y a pas de meilleur pays.

C'est un paradis terrestre, une porte ouverte sur la Mecque et, sur l'or du Ghana ".

Il passa ensuite à l'évocation de l'origine et de la fin du monde et termina sur un très beau serment

Il y a plusieurs manuscrits dans les bibliothèques de Djerba et du M'Zab.

Il rapporte que Abou Yacoub a écrit un livre d'histoire (54) mais je ne me suis pas assuré du fait, il se peut qu'en cherchant bien, on finisse par le retrouver. Cependant Abou Yacoub, le range dans ses écrits parmi les personnalités qui ont porté haut l'étendard du savoir.

Je dois signaler que dans ce bref exposé, j'ai fait exprès de ne citer que les plus célèbres parmi les savants de ce pays durant la période définie dans le titre. Il y en a beaucoup d'autres qui les valent sur les plans religieux et scientifique. En dépit du manque de temps, il faut en citer au moins deux qui ont eu le mérite de sauvegarder ces œuvres, de les diffuser en écrivant les biographies de ces savants, je veux citer Abou Zakaria Yahya, Al-Warglani l'auteur du Siyar (55), le cheikh Aboul 'Abbas Ahmed Ibn Saïd Al-Warglani l'auteur de Tabaqat (56). Le premier est originaire de Ouargla où il a grandi le second, quoique de Hama du sud de la Tunisie, a étudié à Ouargla ainsi que son père et son grand-père, il appartient donc à ce mouvement scientifique.

Voici quelques remarques pour terminer :

— Ouargla et ses environs, en tant que grand centre commercial et comme étape vitale pour les caravanes qui y viennent de partout, la sécurité relative dont elle jouit en on fait un refuge pour les savants ibadites à la recherche d'une situation stable, d'un centre pour le déploiement de leurs activités et pour leur tentative de faire revivre et diffuser la science.

— Malgré quelques indices rapportés par les livres de biographie disant que Ouargla n'était pas toute accueillante et ne prenait pas ses responsabilités, il n'y a pas une période, dans la région comme à Ouargla même sans savants et où le mouvement scientifique n'a pas été favorisé et soutenu financièrement.

— Ouargla était à l'origine d'un rayonnement scientifique qui parvint jusqu'au Ghana, au Djebel Nafoussa, aux montagnes des Beni Mosaab ; on trouve cela dans les épitus et les réponses qui parvenaient aux savants de Ouargla lesquels leurs répondaient en écrivant sur les mêmes épitres ; l'histoire nous a conservé un certain nombre de ces épitres et responsa et œuvres.

— Ouargla, cependant en sa qualité de centre commercial important ouvert à toutes les transactions, accueillant tous les aventuriers cherchant fortune et

(54) Bakli Abderrahmane : préface aux TABAQAT, page ya, idem. Biographie de Abou Lyaqdane Ibrahim (manuscrit).

(55) Cf. sa biographie des TABAQAT de Ad-Darguini, p. 448 et suivantes et Ach-Chammakhi.

(56) Cf. sa biographie dans la préface du cheikh Bakli Abderrahmane, p. ya à N.

plir la prière (49). Darguini rapporte : " Un pieux homme m'a raconté : j'ai trouvé chez nous à Kastilia, au Souf, à Aria et à Ouargla, sept ou huit manuscrits du "Kitab al 'adl wal insaf" (le livre de l'équité) tous écrits de sa propre main" (50).

Quant aux ouvrages, il a composé un sur l'exégèse, respectable mais hélas perdu. Al-Barari en a parlé dans des termes élogieux. Il dit en effet : C'est un ouvrage extraordinaire, j'ai vu un exemplaire de cet ouvrage et je n'en ai jamais vu d'aussi grand, à vue d'œil il faisait plus de 700 feuillets, on y trouve le commentaire de la Fatiha (la liminaire), la famille de Imrane — il devait y avoir 8 volumes analogues pour commentaire du Coran. Jamais je n'ai vu plus éloquant, plus satisfaisant sur le plan de la langue, de la clarté dans le jugement de la lecture, du hapax, de l'abrogeant et de l'abrogé dans toutes les sciences en un mot. Al-Barari rapporte : " Il y avait de nombreuses sciences " (51).

En science du hadith, il refit le musnad, celui de Rabia Ibn Itabib, selon un agencement, qui est en usage aujourd'hui. Il écrivit le traité pour faire connaître les hommes du mesnad, mais ce traité a été perdu.

Il a écrit également un ouvrage estimable, sur les fondements du droit intitulé " Kitab al 'adl wal insaf " en 3 volumes. Je viens d'achever d'en préparer l'édition critique. C'est un des meilleurs livres en la matière non seulement parmi les livres ibadites, mais de l'Islam.

Il a écrit aussi le " Kitab ad dallil li ahli al 'ouqoul " (la preuve pour des gens doués de raison) traitant de fondements de la religion, de théologie, de logique et de philosophie, en 3 volumes. Lithographié en Egypte, on en a plusieurs manuscrits, certains des contemporains s'y sont intéressés et en ont traduit des chapitres.

Il a laissé beaucoup de responsa dans diverses disciplines. Ach-Chammakhi a dit : " Je n'arrive pas à faire le bilan de ses responsa tellement il y en a " (52).

Il a laissé aussi un recueil de poèmes (53) dont on connaît aujourd'hui deux, un qui rime en " b " prononcé à la mort de son maitre Ayyoub Ibn Ismaïl et qui se trouve dans les Tabaqat de Darguini, un deuxième qui commence ainsi :

" O excusez-moi auprès des belles voilées, aux grands yeux noirs.

Aux lèvres douces, auprès des belles naives innocentes aux tresses noires ".

C'est un long poème qui compte autant de vers qu'il y a de jours dans l'année, il l'avait commencé par un délicat prélude amoureux puis évoqué son départ de Ouargla :

" Nous avons quitté le territoire de Ouargla en direction de la Mecque en compagnie de jeunes sincères, dignes représentants de leurs tribus ".

Il a décrit son itinéraire, étape par étape, jusqu'à l'arrivée, parlé du rituel pélerinage et de même pour le retour jusqu'à l'arrivée à Ouargla. Il dit notamment :

(49) Opus : 492.
(50) Opus : 2, 492.
(51) D'après Al lama al mardiya.
(52) Ach-Chammakhi : Suyar : Biographie de A. Yakoub. p. 443 et suivantes.
(53) Ad-Darguini : 2, 460.

Aïssa Ibn Ahmed a rapporté que Abou Abderrahmane al Karthi a écrit aux professeurs de Ouargla pour leur demander conseil, seul Abou Ammar se sentit de taille à répondre à toutes ses questions. Darguini a rapporté les questions et les réponses de Abou Ammar dans les Tabaqat (45).

Un dénommé Abdelouahab Ibn Mohamed Ibn Ghalib Ibn Noumeyr Al Ansari lui a écrit du Ghana pour lui poser des questions au sujet de la théologie dogmatique mais, il mourut entre temps et ce fut Abou Yacoub qui répondit. Cette réponse est incluse dans le " Kitab ad-dallil wal bourhane (47) (les preuves).

3°) Abou Yacoub Youssouf Ibn Khalfoune Al-Mizati, c'était un homme très versé dans la connaissance des principes fondamentaux et des principes secondaires de la religion, dans les questions concernant les points d'accord et de désaccord en matière religieuse, il a enseigné et laissé des ouvrages dont deux existent encore et portent l'un sur le droit comparé, un excellent traité dans lequel il a répondu d'une manière détaillée sur les points de désaccord. Il y a rapporté les différentes doctrines soutenues par les savants des différentes métropoles et par les différents imams évoquant leurs arguments d'une manière qui témoigne de son vaste savoir et de la sûreté de sa méthode. Ce traité a paru dans une édition critique en 1972.

L'autre traité comporte des sermons et des avertissements juridiques importants qu'il a envoyés au Djebel Nafoussa ; mais ce traité a été perdu hélas !

Son ouverture d'esprit à la science, ses nombreuses lectures dans le domaine des divergences lui a attiré beaucoup de difficultés auprès de ses contemporains, mais la voie qu'il a adopté méritait d'être connue et adoptée parce qu'elle dépassait les formes traditionnelles figées, touchait les principes premiers, ne s'en tenait pas aux principes abstraits mais discutait des arguments développés dans les sources premières. C'est cet aspect de tolérence qui fut suivi par la suite, par les savants ibadites, au Maghrib qui ont écrit sur ces questions.

4°) Mais c'est Abou Yacoub Youssouf Ibn Brahim Ibn Mennad Ad-Drarni (mort en 570 de l'Hégire) qui est la personnalité la plus éminente. Etudie à Ouargla, d'abord auprès de son maitre Abou Ismaïl Ayyoubi Ibn Ismaïl et de ceux de sa génération, il voyage à Cordoue, en Andalousie alors qu'elle était au sommet de son expansion scientifique. Darguini rapporte à son sujet : " Il toucha à tout il avait son mot à dire en science coranique, en rhétorique, en traditions, en histoire, en biographies, dans les disciplines spéculatives et théologiques, en sciences religieuses (rituelles et statuts), il connaissait des règles de successions et n'ïgnorait pas les sciences des anciens ". Mieux que ça, dit-il, " il connaissait un bout en astronomie tout en respectant la tradition (48). Il fit de nombreux voyages et eut des aventures dans les coins ignorés d'Afrique, il en parle dans ses ouvrages dans le " Kitab ad-dallil wal bourhane ".

Abou Yacoub, se fixa à Ouargla où il se consacra à l'enseignement et à la composition d'ouvrages. On rapporte qu'il y resta sept ans durant lesquels il ne quitta sa demeure, occupé qu'il était à recopier et à composer, que pour accom

(45) Idem 2, 488, 489.
(46) Al-Wagalani, ad dalil wal bourhane — manuscrit — bibliothèque du cheikh Bebanou à Beni Izgène pages 23 à 30.
(47) Ech-Chemmakhi : Suyar 443, Ad-Darguini TABAKAT. 2 : 491.
(48) Ad-Darguini : 2, 491.

Le poème, fort long a été rapporté entièrement dans le Tabaqat (39).

J'arriverais à consacrer cette dernière partie aux quatres personnalités qui se sont illustrés à Ouargla et dans ses environs :

1°) Abou Amr 'Othmane Ibn Khalifa Al-Mirghani As-Soufi qui, quoique originaire du Souf, a fait ses études à Ouargla et du Souf a participé à son mouvement scientifique. Ach-Chammakhi rapporte : " C'était un imam surtout en science " (40). Il a rapporté aussi : " Entre autres ouvrages il a écrit un, intéressant sous forme de questions dans lesquels il a montré de quoi il était capable (41).

Ach-Chammakhi rapporte quelques autres remarques au sujet de ce livre qui donne une idée de ce que les gens de cette époque écrivaient dans ces régions ; en voici un à titre d'exemple : " C'est Abou Moussa Aïssa Ibn Aïssa An-Nafoussi qui a écrit le kitab as-soualât qu'on a rapporté d'après Abou Amr 'Othmane Ibn Khalifa, sous la dictée du Cheikh Abou Yacoub Youssouf Ibn Mohamed, le livre a été exposé devant le Cheikh Abou Salih Nouh Ibn Cheikh Brahim et le Cheikh Al-Moïzz Ibn Guenad (un des maîtres de la théologie de la langue et du droit) " (42).

Ce livre fait partie des recherches théologiques et linguistiques ; c'est un ouvrage très fouillé dont il existe de nombreux manuscrits au Djebel Nafoussa, à Djerba, et au M'Zab. Il a été commenté par la suite. Ach-Chammakhi rapporte aussi : " Il a laissé d'autres ouvrages " faisant allusion au kitab as-souàlât, dont un bref traité sur les actes ibadites imprimé en Algérie, parmi d'autres traités ne portant pas de date.

2°) Abou Ammar Al-Kafi Ibn Abi Yacoub Al Qanawati qui a étudié à Ouargla, puis est allé à Tunis où il a séjourné plusieurs années, étudiant la langue, la logique, et n'en revint que rassasié de science. Il s'installa entre Ouargla et les montagnes des Beni Mesaab, il a rédigé des réponses, écrit des lettres et des ouvrages importants dont un condensé " Kitab al-Moudjazi fi maqalât al Islamiyine wa Ghayrihim "; en deux tomes un ouvrage intitulé " Charh al djahâlat " bien composé, c'est une recherche dans laquelle il a expliqué certaines questions de théologie négligées par le Cheikh Tabghourine Ibn Aïssa, fi kitab al djahalât. Un autre résumé sur les problèmes des successions, c'est enfin lui qui a établi la chaîne des garanties à la manière ibadite, en les classant par génération de cinquante années jusqu'au départ du Prophète (que le salut de Dieu soit sur lui), de la Mecque.

Le cheikh Darguini l'a inclus au début du premier tome des Tabaqat (43). Abou Ammar était (que Dieu ait son âme) généreux, il s'était entièrement consacré à la science et à ses ouvrages et comme le dit de lui Darguini il était à l'origine du mouvement et dont il prit la tête à Ouargla par son enseignement ses réponses aux consultations juridiques et les solutions qu'il apporta aux difficultés qu'on lui présentait (44).

---

(39) Tabaqat : 2, p. 262 à 269.
(40) Ech-Chammakhi : suyar 40.
(41) Opus : 441.
(42) Opus cité : 524 ; 529.
(43) Tabaqat (éd. de Tallay Ibrahim) I, 6 à 10.
(44) Tabaqat - Ad-Darguini, 2, 485.

Le Cheikh Abou Souleimane Daoud Ibn Abi Youssouf y a laissé (à Ouargla) un groupe de disciples qui ont assuré la relève scientifique et Ouargla put ainsi reprendre sa place. Darguini rapporte que Abou Rabia Souleimane Ibn Ikhlef a dit : " Les gens ont plus perdue de vue les questions concernant ce qui est licite et ce qui ne l'est pas que celles traitant de théologie et de polémique. Je ne connais personne aujourd'hui qui soit en mesure d'enseigner les questions secondaires en dehors des élèves de Abou Souleimane Daoud Ibn Abi Youssouf ils sont tout un groupe à Ouargla (38).

Par la suite il y eut un grand savant à Ouargla, grâce à son savoir, sa richesse, sa générosité, cet homme, Abou Ismaïl Ayyoub Ibn Ismaïl a ressuscité ce rôle qu'on a vu joué par Ouargla du temps de Abou Salih Guenoun Ibn Al Meriane. Il enseignait à Ouargla ; les étudiants venaient l'y trouver de partout. Il était très bon envers eux, les prenant en charge et leur consacrait tout son temps.

Parmi les disciples les plus distingués, figurent Abou Saïd Souleimane Ibn Ali Darguini, le grand-père de l'auteur des Tabaqat Abou Amr Othmane Ibn Khalifa As-Soufi, Abou Ammar Abdelkafi Ibn Abi Yacoub At-Tanaouti et Abou Yacoub Youssouf Ibn Ibrahim Ibn Menad Drarati Al-Warglani. Tous ces hommes remarquables appartiennent à une génération de sommité qui n'ont jamais été surpassés. Ils ont tous enrichi la bibliothèque islamique ibadite en particulier.

Quelque soit la contribution de ces hommes remarquables au mouvement scientifique qui a porté Ouargla au premier rang, le mérite revient au premier chef à leur maitre Abou Ismaïl Ayyoub Ibn Ismaïl. Le mouvement s'était épanoui grâce à sa bienveillance, à ses conseils et à ses bontés à l'égard des étudiants.

Les livres de biographie rappellent combien ses étudiants lui étaient attachés, à preuve ce poème de Abou Yacoub de Ouargla prononcé lors de la mort du Cheikh. Ces vers suffiront à le montrer :

1) - Les cieux élevés, les étoiles, le désert et les collines pleurent de tristesse.

2) - Les mosquées, abandonnées se sentent esseulées et les chamelles le regrettent.

3) - Il avait pour devise sincère la piété ; avec les uns il faisait appel à la crainte avec les autres à la séduction.

Il y dit aussi :

" O disparu ! Nos regrets ne sauraient prendre fin ; mais reviendra-t-il jamais ?

O disparu enfui en terre couvert de pierres plates et de briques en pisé. Quand même on ne te voit ni ne t'entend plus, nos cœurs te voient et t'entendent.

Il est temps que tu répondes à celui qui demande et prie. Quelle réponse aurais-tu faite ?

Quel mal aurais-tu de lui répondre ? Alors que tu es si proche ?"

(38) Ad-Darguini : Tabaqat : 2, 459.

tous ses ouvrages excepté un qui était resté en brouillon à Adjlou. Comme les autres maîtres souhaitaient les avoir, à Ifrane village des environs de Ouargla son fils les leur exposa : il s'agit du Cheikh Ismaïl Ouhammou Ibn Moïzz, et de Ayyoub Ibn Ismaïl, de Daoud Ibn Waslane et de Abou Souleimane az-Zawaghi (33).

Il s'intéressait beaucoup à la science et aux livres, et c'est pour cela qu'il est allé au Djebel Nafoussa consulter la bibliothèque de " Wallem " le célèbre palais qui se trouve au sommet d'une haute montagne donnant sur la ville de Chrousse à l'est. Il resta dans la bibloithèque quatre mois durant lesquels il ne dormait qu'entre l'appel à la prière de l'aube jusqu'au lever du soleil. Il raconte : " Durant ce temps-là, j'ai compulsé les livres concernant la doctrine qui y étaient arrivés d'Orient, il y avait au total 33.000 volumes, j'en choisis les plus intéressants et les lus sur le champ " (34).

Parmi les maitres de cette génération qui ont participé au mouvement scientifique Tayfour Ibn Aïssa Al-Malchouti qui était tel que le décrit Achammakhi : " Homme très estimé, d'un très grand savoir et mettant son savoir en pratique " et encore " il a composé des ouvrages sur le creds qui prouvent que c'était un grand homme " (35). Parmi les ouvrages, citons le " Kitab al-djahalat " petit traité de théologie dogmatique commenté par Abou Ammar Abdalkafi en un volume de moyenne grandeur. Dans un autre ouvrage de lui, il a traité des problèmes de creds en discutant les dix principes fondamentaux à savoir l'unicité, le déterminisme, la justice, la position intermédiaire, la mission de celle-ci, l'allégance et l'adversité, le commandement et l'interdiction, les noms et les attributs, les noms et les statuts, il discuta aussi à la suite de ces questions de la vision de l'intercession du sirat, de la balance, de la tourmente dans la tourbe. C'est un excellent ouvrage, bien fait ; les chapitres y sont bien répartis, aisé à lire ; il est muni d'un apparat critique scientifique, traduit en collaboration avec le docteur Trover Le Gassik professeur de littérature moderne à l'université de Michigan et sur le point d'être édité.

Le Cheikh Abdallah As-Slimi, un savant originaire de Oman que Tayfour Ibn Aïssa a écrit un traité sur les " preuves et la démonstration " (al adilla wal bayane) traitant des fondements du droit (36), mais je ne l'ai pas vu ni lu.

Le mouvement scientifique a connu, à cette époque et en ce pays une forme de collaboration qui n'est pas sans rappeler les encyclopédies d'aujourd'hui et dans lesquelles chaque auteur écrit selon sa spécialité. " Le kitab ad diwan " est un exemple du genre écrit par huit maîtres en 25 tomes (37).

Le diwan des maitres écrit par des savants ibadites dans la grotte de Amedjmah à Djerba ressemble au premier.

Tous ces volumes ont été exposés a un comité de 3 maitres : Aboul Abbas Ahmed Ibn Mohamed Ibn Bakr et Abou Rabia et Abou Mohamed Maken Ibn Al-Khayr.

Le Cheikh Maken avait habité Ouargla et y avait séjourné poursuivant les efforts des prédécesseurs à revivifier le mouvement scientifique à Ouargla...

(33) Idem
(34) Ouvrage cité ; 445.
(35) Ach-Chammakhi, as-suyar, 432.
(36) Assalimi : Al lumia al murdiya fi achi'at al ibadia - 85.
(37) Ad-Darguini : 2, 256, Ach-Chammakhi, 431.

grammaire puis ils allaient auprès de Abou Abdillah Ibn Bakr qui leur enseignait les fondements de la religion et du droit, ou les comparait à trois menuisiers : " Le premier savait couper le bois, le deuxième savait le fendre et le scier et le troisième savait monter les planches et les clouer pour en faire un outil utile " (25).

Le Cheikh, au printemps, assurait son cours chez les Béni Mosad qu'il réussit à attirer à son école, depuis ce jour. Les Béni Mosad témoignent de ses efforts fructueux par la sauvegarde des valeurs éternelles de l'Islam. Il répartissait des étudiants sur les différentes régions d'Afrique pour l'enseignement et la direction spirituelle (26). Il voyait de la sorte étendre son mouvement à toutes les cités ibadites entre Djerba et Ouargla et sauvegarder les idéaux de l'Islam grâce à son talent et à son bon sens.

Il encourageait ses étudiants à lire et à écrire les livres ; de ce fait un grand nombre d'entre eux se sont distingués et ont laissé de nombreux ouvrages scientifiques de grande valeur suivant en cela leur maître Abou Abdillah qui avait montré la voie à suivre. Achammakhi rapporte : " Il a laissé de nombreux ouvrages dans toutes les disciplines " (27). Parmi les savants qui ont participé au mouvement du Cheikh Abou Rabia, Souleimane Ibn Yekhlef Al-Mizani mort en 471 de l'hégire (28). Il avait d'abord suivi l'enseignement de Abou Abdillah Mohamed Ibn Abdallah Ibn Bakr, ensuite il est allé à Djerba parachever ses connaissances sous la direction de Abou Mohamed Wyslane Ibn Abou Salih, de Zakaria et de Younous. C'est à Djerba qu'il ouvrit un cours sur les fondements de la religion. De partout les étudiants affluèrent. Il composa un ouvrage très précieux et très utile en deux tomes sur les articles de la foi qu'il intitule "Chefs d'œuvres enfouis et perles bien gardées " dont on a quelques manuscrits (Attuhaf al makhzouna wal djawahir al masouna) (29).

Un autre savant Aboul Abbas Ahmed Ibn Mohamed Ibn Bakr mort en 504 de l'hégire (30), il avait suivit l'enseignement de son père et de Abou Rabia Souleimane Ibn Ikhlef, et écrit sur plus d'un sujet dont un ouvrage intitulé " Al Djamiaâ fil fourou' ". Il était connu sous le nom de Abou Massalah, écrit à la demande de Abou Abdillah Mohamed An-Nafoussi al-Abiyalani, en deux volumes imprimés à Zanzibar, un ouvrage sur le partage " Kitab al quisma " ; un ouvrage en plusieurs volumes intitulé " Ousoul al-aradine " ; un ouvrage intitulé " Tabiyne af'al al'ibad " qui traite d'éthique sur des bases islamiques pures ; en trois volumes un ouvrage intitulé " Massa al attawhid " bref traité sur le minimum de connaissances à avoir (sur le point d'être édité).

Un ouvrage intitulé " Kitab ad dima " ; ou ouvrage intitulé " Kitab al alouah ", tous ces ouvrages se trouvent parmi les manuscrits en Egypte, à Nafoussa, à Djerba et dans le M'Zab (31). Darguini rapporte que lorsqu'il sentit sa fin prochaine approchait, il confia sa science aux livres, il en composa vingt cinq, le vingt sixième était resté en brouillon (32). Selon d'autres versions il aurait exposé

(25) Al-Wasiyani : Suyar (manuscrit) p. 32 ; Ad-Darguini : II, 398 Ach-Chammakhi. As-suyar : 517.
(26) Ad-Darguini : I, 186-187, wasyani : suyar p. 32.
(27) Ach-Chammakhi : Suyar p. 384.
(28) Ad-Darguini : Ouvrage cité : 2, 428.
(29) Cf. la description que nous avions faites des manuscrits ibadites.
(30) Ad-Darguini : 2, p. 446, sa biographie pages 442-446.
(31) Cf. notre article qui décrit ces manuscrits
(32) Ad-Darguini : Tabaqat : 2, 444.

Le Cheikh Abou Abdillah Mohamed Ibn Abdillah Ibn Bakr est né vers 345 de l'hégire d'après le cheikh Bakli Abderrahmane (19), il est mort en 440 de la même ère, toutes les sources sont d'accord là-dessus (20). A Baïtine Ibsilah (Bouleydat Amar, maintenant) où il fut enterré, le Cheikh est originaire de Farsata, dans la montagne de Nafoussa en Lybie. Il fit plusieurs voyages à travers le pays ibadite entre la Lybie et le Maghrib, suivit l'enseignement de nombreux maîtres, les plus importants sans doute furent Abou Nouh Saïd, Ibn Zenghil et Abou Zakaria Ibn Abou Sour. Darguini rapporte que : " L'un et l'autre prenait soin de lui et avaient bonne opinion de lui " (21). Il alla à Kairouan où il demeura un certain temps pour étudier la langue et la grammaire.

Après avoir bien étudié la situation dans les différents endroits qu'il a connus sur ordre et recommandation de son maître il décida de s'établir à Maghrawat Righ (Waglana aujourd'hui). Il dit : " Il y a ici des gens sensibles, j'espère que l'Islam trouvera place parmi eux est qu'ils accepteront notre enseignement et qu'ils seront dignes des biens qu'il leur apporte " (22). Il organisa un cercle d'enseignement à Ariche en 409 puis à Tinili où il fixa définitivement les règles du célibat. Le cheikh Bakli Abderrahmane rapporte que Abou Abdillah Mohamed Ibn Bakr n'est pas le premier à avoir organisé ce système, il a mis en forme et, en a rédigé les règles. C'est pourquoi, on le lui attribue. En fait ce fut le résultat de beaucoup de discussions entre lui et son maître Abou Zakaria Ibn Abi Sour.

Ces propos sont confirmés par Darguini dans ses Tabaqat : " La tenue du cercle béni fut le résultat de la collaboration la plus généreuse entre les deux branches, celle de Massoura et de Bakr, collaboration qui prit la forme de questions et de réponses et qui a donné de si brillants résultats " (23).

Nous pouvons affirmer que la réalisation la plus importante dans le cadre du mouvement scientifique dans ces régions et à ce moment-là fin du IV^{e} siècle, début du V^{e} siècle, fut la mise en place de ce plan d'organisation de la Halka, la fixation de ces principes moraux et de sa discipline dans les sociétés ibadites qui ont conduit au renforcement du mouvement scientifique sur des bases solides et ordonnées.

J'aurais voulu trouver plus de place pour évoquer ici quelques uns de ces principes et de ces règles touchant le système d'études, la vie religieuse du cercle, sa conduite. Qu'il me suffise de dire ici qu'elle comprenait l'enseignement, la formation, l'étude, la direction spirituelle etc... les détails de ce système sont rapportés par les tabaqat de Darguini. On les trouve également dans "Al Djawahir" d'Al-Barari ; des contemporains l'ont étudiés dans le détail (24).

Trois maîtres s'occupaient de l'enseignement, de la préparation des étudiants dans cette phase : Abou Yacoub, un maître de Nafoussa recevait les débutants auxquels il enseignait la vie exemplaire des saints ; ils allaient ensuite auprès de Mohamed Ibn Sour qui leur enseignait la lecture coranique, la langue et la

(19) D'après les notes prises chez lui le 30-12-1976.
(20) Abou Rabia Al-Wasiyani : Suyar (manuscrit page 32 et ad-Darguini.
(21) Ad-Darguini : Tabaqat : I, p. 161.
(22) Ad-Darguini : Tabaqat : I. p. 161.
(23) Ad-Darguini : I, 170.
(24) Cf : Article Halka in Encyclopédie de l'Islam, 2ème édition.

participaient aux débats portant sur ses affaires de ce monde et de l'autre, on cherchait à s'emparer de ses vertus à lui ". Ad-Darguini rapporte : " Abou Nouh est resté ainsi à Ouargla longtemps ".

Il semble que l'on doivent beaucoup à la personnalité de Abou Salih dans l'épanouissement du mouvement scientifique, dans l'organisation de la vie religieuse et dans la doctrine morale à Ouargla ; car il avait beaucoup d'influence, était prodigue de son argent pour la science, les maîtres et les étudiants, il y eut d'autres personnes riches et gens de mérite tel le Cheikh Abou Amr Al-Kanawati (16). Mais à la mort de Abou Salih, un des principaux piliers de ce mouvement a été ébranlé. On vit des exigences sur le plan religieux, dont les principes ont été pris à la légère et dont les maîtres et les imams ont été attaqués. Témoin Abou Nouh Saïd Ibn Zenghil qui après s'être absenté de Ouargla et avoir parcouru un certain nombre de pays africains, revient à Ouargla l'imaginant accueillante telle qu'il l'avait laissée, est surpris de "retrouver une ville économique et différente de ce qu'elle était du temps d'Abou Salih Guenoun " (17).

Abou Nouh a résumé ces principaux griefs :

1°) Extention de la prostitution.

2°) " Il en est parmi vous qui répudient leurs escalves et qui ne subviennent plus à leurs besoins ceux-ci mettent à chaparder. C'est comme si l'un d'entre vous était voleur, alors qu'il est une prière ".

3°) " Il s'est manifesté parmi vous des divisions de luttes partisanes certains disent cette mosquée est à nous, celle-là à vous, d'autres disent ce citadin est de chez nous, celui-là de chez vous ; ce juif à nous, celui-là à vous " (18).

Abou Nouh comprit telle situation n'était pas propice aux activités scientifiques religieuses strictes. Après avoir fait tant de serment en pure perte ,il finit par quitter Ouargla définitivement.

Et c'est ainsi que, pour une courte période, Ouargla n'a pas réussi à entretenir l'activité scientifique ibadite dont le flambeau alla se fixer ailleurs. Un des grands savants du IVe siècle Abou Abdillah Mohamed Ibn Abdillah Ibn Bakr Al-Fourstat assura la transition entre les deux étapes de la pensée scientifique ibadite maghribine. En effet, si les efforts de ceux qui l'ont précédé ont été d'ordre militaire, politique, et tendant à la reconstitution de l'Etat ibadite après la ruine de l'Etat obeidite comme le furent ceux de Abou Yazid Makhlad Ibn Kayd et à sa suite ceux de Abou Khazar Yaghla Ibn Zoltane et de son compagnon et disciple Abou Nouh Ibn Zenghil. Abou Abdillah Mohamed Ibn Bakr lui, s'est consacré tout entier à la formation d'un mouvement scientifique et pédagogique très bien organisé, afin de sauvegarder la structure sociale religieuse et scientifique des sociétés ibadites après avoir constaté le destin tragique des tentations politiques antérieures.

---

(15) Opus cité : I, 145.
(16) Opus cité : I, 145.
(17) Ad-Darguini : I, 154.
(18) Opus cité : I, 155.

Al-Maryame est allé accompagné d'un grand nombre d'habitants de Ouargla, au devant de lui et de ses compagnons. Ils l'honorèrent et s'occupèrent bien de lui.

Cependant si les conditions pour l'institution d'un nouvel Etat n'étaient pas réunies après l'arrivée du Cheikh Abou Youssouf Yacoub Ibn Aflah Ibn Abdelwahab sa contribution scientifique fut par contre importante. Abou Youssouf fut un grand savant comme le furent les membres de sa famille. Ad-Darguini rapporte : " Yacoub connaissait toutes sortes de sciences on dit que quelqu'un lui avait demandé un jour : connais-tu le Coran par cœur ? Et qu'il avait répondu :' Dieu me garde d'ignorer quoique que ce soit de ce qui a été révélé à Moïse et à Jésus (que le salut de Dieu soit sur eux) ! Que dire alors du livre révélé à notre Prophète Mohammed (que la prière et le salut de Dieu soient sur lui) " (11).

Abou Yacoub séjourna à Ouargla jusqu'à ce que Dieu l'ait rappelé à lui. Son fils Souleimane se fit remarquer après lui mais il adopta sur un certain nombre de questions des positions différentes de celles qui étaient connues. Les autres maîtres firent objections puis se détournèrent de lui, ce qui l'empêche d'avoir une réelle influence dans le mouvement scientifique (12).

La deuxième personnalité après Yacoub Ibn Aflah fut Cheikh Abou Nour Saïd Ibn Zenghil qui prit la tête du mouvement scientifique ibadite. Il avait prit part à la révolte contre le sultan obeydite et lorsque Abou Tamim décida de s'installer en Egypte, il emmena avec lui Abou Khazar Yafla Ibn Zoltan afin qu'aucune sédition ne se produise derrière lui, il demanda la même chose à Abou Nouh qui fit semblant d'être malade et resta à l'arrière puis se sauva discrétement en direction de Ouargla avec les siens de peur d'être ammener en Egypte.

Quand la nouvelle de son arrivée aux portes de Ouargla parvint et qu'on apporta à Abou Salih Guenoun, il lui fit porter ce message : " Ne crains rien, tu as échappé à ces hommes injustes ". Quand il arriva à Ouargla le Cheikh l'installa confortablement à Ouargla ainsi que les siens ; ils se montrèrent même très respectueux à son égard et l'honorèrent tout le long de son séjour (13).

C'est cette atmosphère d'hospitalité généreuse et paisible à Ouargla qui attira l'attention de ces savants et de ses chefs qui les y fixa et qui y encouragea le mouvement scientifique.

Abou Salih Guenoun fit un accueil chaleureux au Cheikh Abou Nouh Saïd Ibn Zenghil, lui alloua beaucoup de biens, lui fournit tout l'argent dont il avait besoin, et lui fit porter chaque jour un repas le midi et un autre le soir. En un mot, il fit tout pour qu'il se fixe à Ouargla et en fasse un nouveau centre pour son activité scientifique (14).

Le Cheikh Abou Nouh assura ses cours à la mosquée du Cheikh Guenoun : " L'assemblée des gens de Ouargla se retrouvait à la mosquée du Cheikh Guenoun; certains tiraient profit de son savoir, d'autres de ses bénédictions, d'autres encore

(11) Ad-Darguini : Opus cité - 105.
(12) Cf. les détails à ce sujet dans TABAGAT ad-Darguini I, 108
(13) Opus cité : I, 144.
(14) Opus cité : I, 145.

feront à ma place lors de ce séminaire. Mon intention est d'évoquer le rôle de Ouargla et de ses environs dans la poursuite de cette activité scientifique après la chute des Rostomides car de fait c'est elle qui a repris le flambeau après le déclin de Tahert.

La prospérité de Ouargla comme important centre commercial, et comme étape pour les caravanes se dirigeant vers le Sud, l'Est, l'Ouest et le Nord et aussi à cause de la sécurité relative que son importance, son isolement, la puissance de ses habitants, cependant, l'étendue des agglomérations environnantes rendaient nécessaires. Tous ces éléments faisaient d'elle un endroit idéal digne de remplacer Tahert.

L'auteur du " Ghosne al-ban fi tarikh Ouarjalane " (le rameau du pin, histoire de Ouargla) rapporte : " J'ai trouvé dans de vieilles feuilles sur l'histoire de Ouargla qu'entre Hassi Baghla, Ifrane, Ouargla, la montagne d'Al-Ubbad et Sadrata cent vingt cinq villages tous habités par les Ibadites " (5).

Idrissi déclare : " C'est (Ouargla) une ville habitée par les tribus aisées et des commerçants riches qui vont jusqu'au Soudan, au Ghana et au Nikara Hagara d'où ils extraient de l'or pour leur monnaie qu'ils frappent au nom de leur pays, ce sont des Ibadites et Wahabites.

Ce qui prouve que Ouargla était puissante c'est le fait qu'ils aient proposé à Yacoub Ibn Aflah quand il s'est réfugié chez eux de la porter au pouvoir et, de prendre en charge l'imamat et de fonder un nouvel Etat à Ouargla celui-ci s'était excusé sachant que les conditions requises n'étaient pas toutes réunies malgré les dispositions des habitants de Ouargla. En apparence le fait que Yacoub Ibn Aflah se soit fixé à Ouargla (6) marque la date de l'essor du mouvement scientifique mais n'en est pas l'origine car cette région grouillait de savants.

Une des principales figures de Ouargla, le cheikh Abou Youssouf Yacoub Ibn Youssouf Ibn Souleïmane As-Sadrati, connu sous le nom de Tarfi. Il avait étudié auprès des imams à Tahert (7). Ad-Darguini l'a décrit en ces termes : " C'est l'homme des deux djihad le grand et le petit et des deux efforts, la prière et l'étude " (8). Quant à Chammakhe, il a dit : " C'était un juge et une sommité dans le domaine des consultations juridiques à Ouargla " (9).

Il est l'origine d'un mouvement scientifique non négligeable à Ouargla. On compte parmi ses plus brillants élèves et disciples le Cheikh Abou Salih Guenoun Ibn Al-Maryame (10) qui prit la relève. C'était un savant plein de scrupules, bon et énergique, le plus illustre à Ouargla. C'est auprès de lui que se sont réfugiés les chefs ibadites en provenance de la région de Tahert et de Hamma. Il les prit en charge et leur offrit de telles conditions de stabilité et d'études que le mouvement scientifique y devint prospère. Ceci s'était produit lors de l'arrivée d'Abou Youssouf Yacoub Ibn Aflah au début quand Al-Hidjani l'obligea à se réfugier à Ouargla. Une fois arrivé, Abou Salih Guenoun Ibn

(5) Extrait du livre cité par le cheikh Salim Yaâkoub Al Bjabri.
(6) Ach Chammakhi : Suyar - 365.
(7) Al Wasyani : as suyar p. 47-48 - ad-Darguini, Tabaqat (labagat tallay) ; 331 Ach-Chammakhi : as suyar 228.
(8) Ad Darguini : Opus cité. 331.
(9) Ach-Chammakhi : Opus cité. 289.
(10) Cf. sa biographie dans

Ouargla a relancé ce mouvement sous une forme nouvelle et lui a imprévu un élan vigoureux lui permettant de sauvegarder sa pureté et sa vitalité. C'est de Ouargla et de son mouvement que la civilisation et les activités scientifiques sont parties chez les Béni-Mos'ad donnant naissance aux Ksours du M'Zab qui ont sauvegardé à leur tour ce vestige laissé par la civilisation et la science de l'Etat rostomide d'abord, maintenu par la suite et pour une longue période par la splendide capitale du désert, Ouargla.

La doctrine ibadite est née, comme les autres doctrines islamiques sous forme de mouvement scientifique et pédagogique à Bassora au sud de l'Irak. La personnalité la plus remarquable de ce mouvement fût le célèbre successeur Abou Chaâtha Djabir Ibn Zayd mort en 93 de l'Hégire, après lui ce fut Mouslim Ibn Abi Karima Abou Ubayda mort sous le règne du calif abbasside Abou Djaâfar Al-Mansour. C'est du temps de Abou Ubayda que le mouvement pris une forme très organisée, celle de cénacles scientifiques se réunissant autour de savants connus et attirant toutes sortes de gens aussi bien des étudiants, des personnes en quête de piété que des savants éminents qui étudiaient les problèmes posés à la communauté et discutaient de questions scientifiques et des affaires de la communauté dans son ensemble (1). Abderrahmane Ibn Rostom, le fondateur de l'Etat rostomide avait suivi les cénacles instituées par les Ibadites dans les différents centres urbains situés entre Basra et Kairouan. Il avait été l'un des disciples directs de Abou Mouslim. Ces disciples avaient transférés un système de cénacles scientifiques au Maghrib, du Fezzane à Gabès et d'El-Djabal à Tahert où ils organisèrent leurs cénacles et études. Qu' a dit Tahert devient prospère et que la situation y devient stable un des aspects les plus frappants de sa civilisation fût le rôle scientifique où la mission duquel elle tenait. Les étudiants y venaient de partout soit pour apprendre soit pour enseigner établissant ainsi un lien entre l'Orient et l'Occident, le Nord et le Sud. L'histoire rapporte que Abdelouahab Ibn Abderrahmane Ibn Rostom avait envoyé 1000 dinars à ses amis à Basra, afin qu'ils lui achètent des livres et que ces derniers lui en avaient envoyé la charge de quarante chameaux (2).

Abou Ghanim Bachir Ibn Abi Ghanim quitta Basra pour Tahert où il exposa sa célèbre Moudauwana devant l'imam Abdelouahab qui la transmit après lui. La capitale rostomide Tahert, était le siège d'un grand mouvement scientifique où les Imams en personne intervenaient. L'histoire rapporte que les Cheikhs venaient suivre l'enseignement des Imams à Tahert. Les sources bibliographiques citent un commentaire de Abderrahmane Ibn Rostom connu jusqu'à la fin du IV^e^ siècle de l'hégire.

L'Imam Abdelouahab a rédigé quelques réponses dans le domaine du droit qui existent encore. L'Imam Aflah Ibn Abdelouahab en a fait autant. La plupart de leurs écrits portèrent sur des questions de détail (3). L'Imam Abou Eyaqdhan est célèbre par ses contributions en théologie dogmatique. Il a rédigé sur la seule question de la " capacité " quarante traités d'après les biographes (4). Je ne voudrais pas m'étendre sur ce sujet espérant que d'autres le

(1) Cf. au sujet de ces céréales : Ach-Chammakhi : Suyar.

(2) Assalimi : al lamha hmaidia fi achiat al abadia, dans un ensemble, page 75.

(3) Cf notre article « description of new Ibadi M from North. Africa : Journal of scientic studies vol. : 15, n° 1, 1970 pages 69-71.

(4) Ach Chammakhi : Biographies.

APERÇU DU MOUVEMENT SCIENTIFIQUE A OUARADJLANE ET DANS SES ENVIRONS, DEPUIS L'EXTINCTION DE LA DYNASTIE ROSTOMIDE JUSQU'A LA FIN DU VI^{e} SIECLE HEGIRIEN

par le docteur
Amar Khalifa en-Nâmi
Professeur de Littérature
et des Etudes Islamiques
à l'Université d'Al-Fatih
Tripoli (Libye)
et professeur associé à
l'Université du Michigan (U.S.A.)

Au Nom de Dieu Clément et Miséricordieux.

Louanges à Dieu seul.

Prière et salut à notre Seigneur Mohamed, à sa famille et ses Compagnons.

Messieurs, frères et amis, je vous salue en tant que Musulman et vous dis puissent la faire, la clémence et les bénédictions de Dieu être sur vous.

Avant d'aborder ce bref exposé, je voudrais remercier le frère Mouloud Kassim Naït Belkacem, qui m'a offert l'occasion de participer à cet imposant séminaire. Je voudrais également remercier ceux qui m'ont facilité la préparation de ce propos en m'ouvrant leurs portes, et leurs bibliothèques et en m'aidant de leurs remarques et de leurs conseils, en particulier Monsieur Bakli Abderrahmane ben Omar, le professeur Souleïmane El-Hadj Daoud, le Cheikh Mohamed ben Youcef Babanou, le frère Mokhtar Hammou, Moumen ben El-Hadj Yanni, le frère Djablane Ahmed. Tous ces messieurs ont fait en sorte que ce résumé soit écrit dans le bref délai imparti par le séminaire. Je leur suis redevable pour tout cela et aussi pour leur générosité et leur bonne aide. Que Dieu les en récompense.

J'ai choisi ce titre parce qu'il convient bien à cette rencontre et que mon but est de faire ressortir la contribution de Ouargla et de ses environs à la pensée islamique qui s'est perpétuée après la disparition de l'Etat rostomide en Afrique du Nord. Le rôle joué par Ouargla est l'expression de l'influence profonde de la pensée et de la civilisation rostomide dont l'impact scientifique et intellectuel s'est perpétué des siècles durant, bien après sa disparition totale de la scène politique

de tirer parti des autres ressources telles que l'agriculture, surnommée par certains à juste titre l'or vert, ou bien le commerce et l'industrie ?

Aussi sommes-nous fondés à nous demander si les richesses du sous-sol sont un bienfait ou une malédiction. Il s'agit pour nous d'une simple interrogation qui nous intéresse en premier lieu et, à notre avis, au niveau de ce qui est l'ensemble du tiers-monde. C'est pourquoi nous avons invité à en débattre un certain nombre de spécialistes, mais certains se sont récusés après promesses et ferme engagement, tandis que d'autres parmi les présents se sont excusés en prétextant la complexité d'un pareil sujet du fait même de sa simplicité et de son évidence, ce qui se traduit par le fait que seuls quatre conférenciers le traiteront au cours de ce séminaire, alors que le sujet de la femme s'est accaparé de la part de la lionne, et ce ne serait pas fastidieux que de répéter qu'il s'est arrogé à lui seul vingt et une conférences sur trente neuf qui constituent la totalité de l'ordre du jour.

Mesdames et Messieurs,

Tels sont les points soumis à votre examen et à propos desquels nous souhaiterions, grâce aux conférences, et surtout aux débats auxquels ils donneront lieu, arriver à des éclairages susceptibles de mieux les cerner, d'inciter à les approfondir davantage et, en fin de compte, d'y apporter des réponses décisives de sorte que même si nous n'arrivons pas à leur dégager les solutions adéquates, nous aurons du moins contribué à nous en rapprocher et à hâter leur réalisation.

Encore une fois je souhaite la bienvenue et un excellent séjour aux hôtes de l'Algérie et à nos travaux à tous le plein succès.

Le problème vous est posé et à vous d'en débattre.

Quoi qu'il en soit et s'agissant de notre position en Algérie à cet égard, nous soulignerons que la Charte Nationale, tout en renforçant les droits légitimes de la femme et en l'encourageant à la participation agissante dans les différents domaines de l'activité nationale, en plus de sa vocation première consistant à veiller à la sauvegarde de la famille et à forger les générations, insiste dans le même temps, et avec force, sur la nécessité de respecter notre entité et de préserver notre immunité, en dénonçant l'imitation servile et aveugle, notamment de tout ce qui jure avec nos valeurs et nos principes moraux les plus élevés, avec les composantes de notre personnalité, de notre identité et de notre authenticité.

4°) Nous en arrivons maintenant au point quatre et dernier de notre ordre du jour, lequel s'intitule : " *Les ressources du sous-sol sont-elles un bienfait ou une malédiction ?* ". Nous avions promis l'an dernier à Annaba d'aborder ce thème pour la raison que notre séminaire se tient au voisinage des sources d'énergie et des centres de son extraction et de son exploitation.

Pareille interrogation peut apparaître quelque peu paradoxale. En réalité, elle est parfaitement claire à notre sens et elle se résume à ceci que les ressources minières, ou, si l'on veut, les trésors du sous-sol, tels que le pétrole, le gaz, les phosphates et autres, dépendent, pour la nature de leurs effets, de la façon dont ils sont utilisés, à l'instar de toute chose dans cette vie. Leur utilité ou leur nuisance réside dans le sens où est orientée leur production. Est-ce que toutes les possibilités potentielles de l'énergie, ou du moins la plupart d'entre-elles, ont été exploitées ? C'est là une interrogation qui n'est pas purement rhétorique.

J'ai été étonné d'apprendre, en lisant un article publié par la Société Shell dans le journal allemand Frankfurter Allgemeine Zeitung dans son édition du 5 octobre 1976 à propos des dérivés du pétrole uniquement, qu'il existe plus d'une vingtaine de produits industriels et synthétiques divers, y compris des produits alimentaires et de l'eau de boisson extraite de l'eau de mer grâce à un composant que l'on trouve seulement dans le pétrole !

Les pays pétroliers du tiers-monde ont-ils extraits de leurs mers de pétrole un seul de ces produits ? Est-ce que l'exploitation de ces richesses par les fils même de ces pays, au bénéfice de leurs peuples à qui elles appartiennent de droit, dans une indépendance complète à l'égard de toute influence étrangère, signifie la même chose que leur exploitation de la part d'un tiers, à son profit et à celui d'une classe restreinte de gouvernants et de leur entourage ?

Ce dernier état de fait n'est-il pas de nature à aggraver la misère des masses populaires, la dissolution des mœurs engendrée par l'opulence des classes riches, ceci sans compter la menace permanente que font peser contre la souveraineté nationale les Etats étrangers qui exploitent ces richesses en maîtres et en dominateurs ?

Est-ce que cette dépendance totale ne conditionne pas en fin de compte l'ensemble de l'économie d'un pays, en y ancrant l'habitude de compter uniquement sur les miettes laissées par ces Etats, et par dessus tout en négligeant

et nous avons invité à cet effet un nombre appréciable d'éminentes personnalités féminines appartenant aussi bien à la tendance favorable qu'à la tendance opposée à ce qu'on l'on est convenu d'appeler " le mouvement de libération de la femme " (MLF) et de défense de ses droits, ceci aux fins d'instaurer un débat ouvert et enrichissant et de dégager une approche du problème éloignée de tout extrémisme !

Afin de souligner d'emblée le parfait accord entre l'importance qui s'attache à cette brûlante question et la place élargie qu'elle occupe dans l'ordre du jour, puisqu'aussi bien elle mobilise à elle seule vingt et une conférences sur un total de trente neuf, presque toutes dûes au libre choix de MM. les conférenciers ou de Mmes les conférencières qui en sont les auteurs, je voudrais, à mon tour, m'y étendre quelque peu dans cette entrée en matière que, d'habitude, j'ai toujours voulue la plus courte possible.

La femme est-elle bien de nos jours cet être sans défense, brimé, lésé, digne de compassion, résigné, soumis parfois jusqu'à la dévotion, laissé pour compte, n'ayant pas encore reçu ses droits, ni occupé la place qui lui revient, comme le proclament Simone de Beauvoir et de nombreux bons apôtres des deux sexes qui l'invitent à se révolter, à se rebeller, à détruire les " chaînes " et les " entraves ", à franchir les " barrages " et les " limites ", à brandir les drapeaux, à rejeter, en dépit de grand-mère et grand-père, tout ce qui n'est pas sa liberté intégrale, à ne plus se contenter des "lamentations" et des "plaintes" et à répondre à toute remarque et à tout conseil par les répliques et les arguments les plus extravagants ?

Est-elle, au contraire, la rebelle despotique jamais à court de malices et d'expédients anciens et nouveaux, l'audacieuse toujours à l'affût et prête à l'agression, l'orgueilleuse avec démesure, l'envoûtant personnage dont les sortilèges surpassent ceux de Harout et Marout (1), comme le soutiennent de nombreux autres penseurs, également des deux sexes, et parmi lesquels nous citerons à titre d'exemple le célèbre écrivain allemand Mme Esther Vilar, qui a consacré à ce thème un certain nombre de ses ouvrages et plus particulièrement le dernier en date dont la sortie sera fêtée après demain mardi à Munich et dans lequel elle convie l'homme à se départir de sa soumission et de sa dévotion au sexe dit faible, à prendre conscience de la mystification et de l'humiliation où le tient la femme, à se réveiller et à lever la tête, à ne pas creuser sa tombe de ses propres mains, à recouvrer ses attributs d'homme et sa dignité et à élever son honneur à son faîte, ainsi que cela est résumé dans le titre principal de l'ouvrage : " La fin du dressage " (2) et explicité dans le sous-titre : " Modèle pour une virilité nouvelle " (3) ?

Ou bien la femme aujourd'hui n'est-elle ni celle-là ni celle-ci, mais plutôt celle qui jouit de ses droits mais respecte cependant ses devoirs et qui n'oublie pas, tout en s'adonnant à une activité au dehors, sa mission originelle ? Est-il à ce propos beaucoup de femmes à adopter la règle de conduite de la jeune reine du Danemark qui déclarait dès son mariage qu'elle serait " la première dans l'Etat, mais la seconde à la maison " ? (4).

(1) Parabole coranique dans un contexte de sorcellerie.

(2) Das Ende der Dressur.

(3) Modell fuer eine neue Maennlichkeit.

(4) Le Monde, 19 - 20 décembre 1976.

à l'ouest jusqu'à Winéba, la deuxième par ordre d'importance des villes du Ghana, et au nord jusqu'à Cordoue, tandis que son rayonnement spirituel avait, pour un temps, pu atteindre aux confins de la Mer d'Oman, à l'est, et à Zanzibar, au sud.

Et ce n'est certes pas le moindre mérite de la glorieuse dynastie rostomide que d'avoir donné à la pensée des hommes de l'envergure d'El-Ouaradjlâni, après avoir été contrainte au départ de Tihert (1) où Abderrahman (2) avait prodigué les trésors de sa bonté et de son industrie, où Aflah (3) réussit comme par miracle tout ce qu'il entreprenait pour le bien de son peuple et où l'Imam (4) méritait bien son titre !

Mais les dynasties se succèdent en vertu de l'immuable loi du destin, et nous voudrions, quant à nous, et comme à chacun de nos séminaires, jeter un regard critique sur les aspects positifs ou négatifs de leur legs, examiner le processus de leur formation, de leur épanouissement et de leur déclin, tant il est vrai que chaque œuvre, pour aussi parfaite qu'elle soit, comporte nécessairement des lacunes, conformément au dessein de Dieu à l'égard de ceux qui passent.

2°) Le second s'intitule : " *L'Islam en Afrique aujourd'hui* ". Comment pourrions-nous, en effet, alors que nous sommes les hôtes du Sud, passer sous silence la situation actuelle de l'Islam en Afrique soudanaise, pour reprendre la terminologie d'Ibn Khaldoun, voire dans l'ensemble du continent, exposé qu'il est aux manœuvres et aux complots, aux tentatives de pénétration, aux prétentions qui ambitionnent d'y perpétuer coûte que coûte une certaine influence et une certaine présence rêvant d'hégémonie, et qui — pour ce faire — s'emploient à le circonvenir et à l'encercler ?

3°) Le troisième point a comme titre : " *La femme après l'Année de la Femme* ". Devant le flot impétueux des livres, revues, films, colloques et congrès consacrés à la femme aux quatre coins du monde depuis l'Année de la Femme ; pour répondre en même temps au désir de nombre de nos étudiantes ayant participé à nos précédents séminaires de voir le thème de la femme traité au cours de l'une de ces assises ; persuadés au surplus qu'il s'agit là, à l'évidence, de l'un des problèmes de l'heure, à en juger par les vagues, l'agitation, les clivages et les prises de position qui se répandent à travers le monde ; ayant présent à l'esprit que la femme — thème de réflexion éternel s'il en fut — a toujours constitué la préoccupation première et le souci majeur dans la vie de l'humanité, tout au long des âges et des civilisations, et qu'en sus de son rôle naturel de pilier de la famille et de fondement de la société, voilà qu'elle est devenue aujourd'hui la condition du sauvetage de la civilisation ou, au contraire, le signe de sa désintégration et de son déclin ; devant tous ces impératifs et considérations, il nous a semblé donc judicieux et opportun d'inclure un pareil sujet d'actualité dans l'ordre du jour du présent séminaire

(1) Tihert, l'ancien nom de Tiaret, signifierait « la lionne » en Amazigh zenète.
(2) Abderrahman Ibn Rostom, fondateur de la dynastie, dont le prénom est dérivé de rahma : bonté de Dieu, sa miséricorde, sa clémence.
(3) Dont le prénom est tiré du falah, qui signifie la réussite dans le Bien.
(4) Imam dans la doctrine 'ibadite est le chef d'Etat (et guide) élu susceptible à tout moment d'être relevé de ses fonctions si le peuple remettait en question son vote et motivait sa décision.

ALLOCUTION

prononcée par Monsieur Mouloud Kassim NAIT BELKACEM
ministre de l'Enseignement Originel et des Affaires Religieuses,
à l'occasion de l'ouverture des travaux du XI[e] Séminaire
sur la Pensée Islamique tenu à Ouargla - Sadrata
du 17 au 26 Safar 1397 (6 - 15 février 1977)

Au nom de Dieu le Clément, le Miséricordieux.

Que le Salut et la Bénédiction de Dieu soient sur l'ultime de ses Envoyés.

Excellence, docteur Amadou Karim Gaye, secrétaire général de la Conférence des Etats islamiques ;

Monsieur Mahmoud Mansour, représentant de la Ligue des Etats arabes ;

Monsieur Salem Azzam, secrétaire général du Conseil Islamique en Europe,

Messieurs les distingués professeurs,

Mesdames et Messieurs,

Frères étudiants, Soeurs étudiantes.

Permettez-moi de ne pas déroger à la règle devenue désormais une tradition en la circonstance et d'inaugurer ainsi mon allocution d'ouverture du XI[e] Séminaire sur la Pensée Islamique à Ouaradjlâne par les propos-mêmes avec lesquels j'ai conclu celle du X[e] Séminaire à Annaba, en vous disant : " Soyez les bienvenus, tous et toutes, dans la cité des puits et des forages qui rappelle son passé au distrait et à l'oublieux, la source du pétrole et du gaz qui fut l'isthme et le trait d'union entre le nord et le centre du continent, le foyer de la science et de l'énergie qui libèrent de l'ignorance et de la misère le peuple qui les détient, là où repose El-Ouaradjlâni qui rivalisait avec les Sahnoun, In Batouta et El-Ouartilani, dans la cité de la lumière et de déglet nour, dans l'historique et glorieuse : Ouargla ! ".

Mesdames et Messieurs,

L'ordre du jour de nos travaux comprend quatre points :

1°) "*L'apport des Rostomides à la pensée et à la civilisation islamiques*", et il se fait que nous nous trouvons présentement dans leur seconde capitale, Ouaradjlâne-Sadrata, dont l'autorité temporelle s'étendit à un moment donné

SOMMAIRE

العدد 44

فهـــرس العـــدد

وهـــران تحتفـــل
بذكـرى مولد الرسول الاعظـم (*)

عبد القادر الزبـير
مدير التعليم الاصـلى والشؤون
الدينية بولاية وهران

عاشت مدينة وهران كغيرها من مدن وقرى الوطن جـوا حافلا بالبهجـة والسرور احتفاء بالمولد النبوى الشريف ، واحياء لذكرى مولد رسول البشرية وخاتم المرسلين ·

فقد زينت واجهات جميع المساجد بالمصابيح والانوار الساطعة والاعلام الوطنية ، هذه المساجد التى بقيت تستقبل الوفود الحاشدة من المؤمنين ، فلم تغلق أبوابها لا ليـلا ولا نهارا ، عامرة بالدروس والمحاضرات وترتيل القرآن الكريم من فوق المنارات ·

وقد عرفت الشوارع نفس البهجة حيث امتلات بحركة غير عادية ، تمثلت فى مسيرة شعبية ضخمة ، كانت تتقدمها الخيالة وفرق مختلفة من اشبال الثورة ، وطلبة ثانـوية محمد بن عثمان الكبير وفرقة (البلابل الرستمية) من غار داية ، وتلاميذ نادى المجاهدين والكشافة تعزف الالحان الجميلة مع الاناشيد الدينية والوطنية ، تتخللها طلقات البارود وزغاريد النساء من فوق الشرفات ، وقد علقت فى الشوارع شعارات اسلامية تبـرز أصـالتنـا وانيتنـا ·

(*) يشتمل هذا العدد على الاحتفال بذكريات أربع هى : ذكرى المولد النبوى الشريف، وذكرى جمال الدين الافغانى ، وبيتهوفن ، وابن باديس · وقد رتبناها حسب تتابعها فى الزمن ·

« الأصالة »


وهران تحتفل بذكرى مولد الرسول



ليلة المولد النبوى الشريف فى شوارع وهران ، (وهنا فى شارع ابن مهيدى)

وتفضل معالى السيد وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية الاخ مولود قاسم نايت بلقاسم استجابة لدعوة من رئيس المجلس البلدى الشعبى ومن مدير التعليم الاصلى والشؤون الدينية بالاشراف على هذه الاحتفالات ، فوصل الى مطار السانيا وهران يوم الثلاثاء II ربيع الانور 97 هـ الموافق لـ I مارس 1977 م فاستقبلته السلطات المدنية والعسكرية استقبالا رائعا ، كما استقبله الشعب عند مدخل جامع الصحابى عبد الله ابن سلام استقبالا حارا منقطع النظير بتصفيقات حادة وهتافات ، تمجيدا لديننا الاسلامى الحنيف ، ولثورتنا المباركة ، وبعد صلاة المغرب دشن سيادته قاعة المحاضرات التابعة للمديرية بمحاضرة قيمة تحت عنوان « مغزى ملتقيات الفكر الاسلامى » (ستنشر فى العدد القادم) حضرها جم غفير من المواطنين والمواطنات ، كانت تردد صداها مكبرات الصوت المنتشرة فى الشوارع ، وبعدها اتجه الموكب مشيا على الاقدام نحو قاعة سينما المغرب مارا بساحة فاتح نوفمبر ، وشارع الامير عبد القادر ونهج العربى بن مهيدى ، فعمت الفرحة الكبير والصغير ، الرجال والنساء ، وعلى الثامنة مساء ، القى السيد الوزير بقاعة المغرب محاضرة ثانية تحت عنوان : « اهتمام الامم بايامها » (تجدون نصها فى هذا العدد) .

وعقب المحاضرة قامت فرقة البلابل الرستمية من غار داية فقدمت مدائح دينية مختلفة ، اطربت الجمهور الغفير بأصواتها العذبة ، والحانها الجميلة ، تلتها الفرقة الموسيقية لبلدية وهران ، ثم مجموعة من طلبة ثانوية محمد بن عثمان الكبير للتعليم الاصلى ، واختتم الحفل بتوزيع الجوائز على الفائزين والفائزات فى مسابقة رمضان المنصرم ، وقد طاف معالى السيد الوزير ليلا على بعض المساجد ، قبل ان يلتحق بدار الولاية.

وفى صبيحة يوم المولد الشريف ، نظم المجلس الشعبى البلدى لوهران حفل استقبال على شرف السيد الوزير والوفد المرافق له ، توجه بعده الى المركز الثقافى لمنظمة المجاهدين ، حيث اطلع معاليه على مختلف اقسامه ونشاطاته ، واستقبل باناشيد ومدائح دينية من تقديم فرقة النادى ، ثم تحول الى مقر مديرية التعليم الاصلى والشؤون الدينية لعقد اجتماع مع رجال السلك الدينى بولاية وهران ، ركز كلمته على دور المسجد فى تدعيم المكتسبات وتنشيط الحياة الثقافية ، فواجب امام المسجد كما قال : ان يكون قدوة وان يوافق لقبه مظهره ، فله بعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه الاسوة الحسنة ، فهو أول من لقب بامام ، وطلب السيد الوزير من الجميع ان يكونوا « الرعاة الوعاة ، والدعاة السعاة » ، وحذرهم من الركود والخمول ، وحثهم على اليقظة والعمل ، والقيام بدروس الوعظ ومحاربة الامية وتعليم القرآن الكريم ، حتى يصبح للمسجد دوره فى حياة البلاد كما كان قديما دار علم وعمل وعبادة ، وليس مكانا تؤدى فيه الصلوات الخمس أو صلاة الجمعة فقط .



أشبال الثورة ليلة ذكرى المولد النبوى الشريف فى شوارع وهران



احدى الفائزات فى مسابقة رمضان تتسلم جائزتها فى الاحتفال بذكرى المولد النبوى الشريف فى قاعة المغرب بوهران ٠

وفي نفس الوقت يكون الامام رجل علم ودين وعمل ، وليس موظفا لاداء خمس صلوات في اليوم فقط ·

هذا وقبل مغادرة السيد الوزير والوفد المرافق له مدينة وهران تفقد ثانوية محمد ابن عثمان الكبير للتعليم الاصلى حيث استقبل من طرف المدير والاساتذة والطلبة استقبالا حارا ، وهكذا تكون ولاية وهران قد ساهمت فى تخليد هذه الذكرى الغالية ، ذكرى مولد الرسول (ص) الذى ارسله الله بشيرا ونذيرا ورحمة للعالمين ·

كلمة السيد العربى ابراهيمى

النائب الاول لرئيس المجلس البلدى الشعبى لمدينة وهران

فى حفلة الاستقبال بدار البلدية ، يوم ذكرى المولد النبوى الشريف

انى أرحب مرة ثانية ولست أدرى من قال ومن عادته معاداة المعادات ، لا بأس فى التكرار ان كان صاحبه وصاحب الموضوع أهلا وكفئا له ، فيا أخى الوزير أهلا وسهلا بكم فى دار الشعب ذلك الشعب الذى برهن لكم البارحة وبرهن للقطر باسره كم هو متشبث بأصوله الدينية العميقة وكم هو حساس بكل من أحسن ضرب الوتر اللائق فى صميم فؤاده ، سيدى الوزير ان قلت مرحبا فلا أبالغ وانما أنتم من بيننا ، أنتم أخ لنا فأنتم فى دار الشعب بين احضان الشعب ، فمرحبا بكم والسلام عليكم ·

كلمة الترحيب للاخ محمد زمانى

منسق منظمة المجاهدين على مستوى ولاية وهران فى مقر المجاهدين

باسم المجاهدين وباسمكم جميعا نرحب باخينا المجاهد الاخ مولود قاسم نايت بلقاسم وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية فى مقره هذا الذى انتمى اليه بالامس خلال حرب التحرير ، والذى يناضل اليوم وهو فى مركزه الا وهو مركز المجاهدين الذى يحتوى اليوم على أكثر من (745) ابن شهيد ومجاهد يتعلمون على مختلف المهن والحرف والتعليم المتوسط والثانوى ، وكل ما زرتموه وشاهدتموه أخى الوزير فى هذا المركز ،

كان تلقائيا من طرف اطارات المجاهدين الذين قاموا بالامس فى حرب التحرير لضرب فرنسا وحلفائها ، واليوم يجاهدون بما لديهم فى سبيل توصيل الرسالة والعهد باخوانهم الشهداء ، فقامت جماعة من اخوان مجاهدين لتأثيث هذا المركز ، وكل ما شاهدتموه سواء من اثاث أو آلات والقاعات التى زرتموها ، والمكتبة والكتب كانت تلقائيا من طرف اطارات المجاهدين ، والذى لا يتجاوز (10) اطارات وكنا قدرنا حوالى (160) مليون فرنك قديم فى تأثيث هذا المركز ، وكانت التبرعات (ماهيش) تبرعات مادية وانما كانت تبرعات بالاثاث كل من كانت له المقدرة فأثث بما كان يقدر عليه ، وفتح أبواب هذا المركز وأوجد ابناء الشهداء والمجاهدين المشردين الذين كانوا فى الطرق ، والذى كان المجتمع أو كانوا غير صالحين للمجتمع فقررنا بعزيمة من هؤلاء الرجال ، وبفضل من المجلس الولائى لمنظمة المجاهدين بعزيمة هؤلاء المنسقين على مستوى القسمات والوحدة فقدرنا نتوصل لنتيجة ، وهو فى هذه السنة وجهنا أكثر من (600) ابن شهيد ومجاهد سواء كانت فى المراكز الخاصة التابعة للتعليم العام ، أو غيره وفى المركز اليوم كما سبق ان قلت فيه (745) ، فقام الاخ وزير الصناعة والطاقة المجاهد الاخ السيد بلعيد عبد السلام بالجولة الاخيرة وزار هذا المركز ، وكان قد وعدنا بان يبعث باطارات من وزارته ليأخذ أكثر عدد ممكن لترقية هؤلاء ابناء الشهداء والمجاهدين فى الشركات الوطنية (سوناطراك) وكما وعد قد وفى بالعهد فبعث لنا بمديره منذ أسبوع وقد توصلنا (بتلكس) اليوم الصباح هذا نفسه لاجراء تمرين للتلاميذ النجباء ليأخذهم فى بومرداس ، وهذا كان من حظ ابناء الشهداء والمجاهدين الذين كانوا عرضة للمجتمع ، فالحمد لله بعزيمة الرجال يعنى نقدر نتفادى كل ما هو غير صالح ، ورد الامور الى مجراها الطبيعى ، فاذن أخى الوزير ، المجاهدون والنخبة الذين ترونها فى ولايتنا هذه ، فهم مجندون متوحدون ، هدفهم الوحيد هو الوحدة والنضال وتتميم الرسالة ونتمنى بصميم الفؤاد للمجالس والمجلس الاخير والخط يسمح لنا باننا استدعينا الاخوان النواب الذين انتخبوا فى الجمعة الماضية على المجلس الوطنى الشعبى فهم موجودون معنا بمناسبة زيارتكم ، ونتمنى لهم كل توفيق ونجاح والمجاهدون كانوا أمس كرجل واحد ، فنطلب من أخينا الوزير ان يكون مترجمنا أمام القيادة الثورية فكما كانوا بالامس مجندين متوحدين لتحرير الجزائر فهم متوحدون متكاتفون لبناء المجتمع وصرح الوطن الجزائرى فى ظل الحرية وفى ظل العدالة الاجتماعية والمساواة .

والسلام عليكم

اهتمام الأمم بأيامها (1)

مولود قاسم نايت بلقاسم
وزير التعليم الاصلى
والشؤون الدينية

بسم الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين

اخوانى أخواتى ،

أود قبل كل شيء أن أشكر السيد رئيس المجلس البلدى الشعبى ، ونائبه ، والمجلس كله ، على اعطائى هذه الفرصة الطيبة للاجتماع بكم ومشاهدة هذا المنظر الرائع فى المدينة الثانية للبلاد والعاصمة فى القطـــاع الغربى منها •

واشكركم على هذه البادرة التى نرجو ان تكون قدوة لمدن أخرى فى وطننا العزيز ، باعطاء هذا الاحتفال هذا الطابع الشعبى والرسمى ، فى هذا اليوم العظيم الذى برز فيه نور أضاء العالم ، أضاء البشرية ، كان منطلقا جديدا للبشرية ، كان تحركا رائعا دفع بها الى مصاف

(1) ارتجلها فى قاعة « المغرب » ليلة المولد النبوى الشريف 1397 هـ الموافق لـ 02 مارس 1977 م بدعوة من المجلس البلدى الشعبى لوهران •



السيد مولود قاسم نايت بلقاسم ، وهو يلقى الكلمة فى قاعة المغرب :« مغزى احتفال الامم بأيامها » . ويرى على يمينه السيد العربى ابراهيمى ، النائب الاول لرئيس المجلس البلدى الشعبى لمدينة وهران .

أخرى ، الى عوالم أخرى من العلم ، ومن الحضارة ، ومن الرقى ، ومن القيم التى هى تاج كل شيء ٠

فالانطلاق الاول للاسلام بنزول الرسالة على خير الانام عليه الصلاة والسلام قد أضاء لا الجزيرة العربية وحدها ، كما نعلم كلنا ٠ ولا العالم العربى فى مجموعه الواسع فيما بعد ، ولا حتى ما أصبح فيما بعد العالم الاسلامى الاوسع ، بل أضاء البشرية كلها، العالم كله استضاء بذلك النور ، وبذلك يعترف الكثير الآن ٠ فقد بدأوا فعلا يعترفون وباطراد كل يوم أكثر من ذى قبل ٠

فالجزيرة العربية التى كانت ، كما نعلم كلنا من كتب التاريخ ، بؤرة للفتن بين القبائل ، ومرتعا للجهال ، ومعبدا كاملا ، من حدود الى حدود ، للوثنية ، وللجهالة ، وللطغيان ، ولتغلب المال ، والمحظوظية ، والمحسوبية ، كما نقول اليوم ، والنخوة العوجاء ، ووأد البنات ، والافتخار بالآباء ، وبالضلال ، والاعتزاز بالظلم ، كما نعلم كلنا من الامثال ، ومن القصائد ، ومن التاريخ ، والتى كانت مستعمرة اذ ذاك تقاسمها الفرس والروم ، أصبحت ، بين عشية وضحاها ، بفضل هذا النور الالهى ، بفضل البعثة المحمدية ، بفضل الرسالة الالهية ، منطلقا لاشعاع ، منطلقا لنور يعم العالم ، منطلقا لاضواء تغمر البشرية كلها ، منطلقا لقيم تمحو من وجوه البشرية ما كان قد علق بها من شوائب ومن رواسب هى الحضيض الجهالة ، وفى الوثنية ، وفى الاقتتال، وفى التناحر، وفى التباغض الذى أدى كما نعلم الى الحروب المعروفة بأسمائها كالبسوس وغير البسوس ٠ واذا بها تصبح منطلقا لنور عالمى نجد حتى أكثر الاعداء تألبا على الاسلام ، وعلى حضارته ، وعلى فكره ، وعلى ما أتى به للبشرية ، يعترفون اليوم به ، ويعقدون له مؤتمرات ومهرجانات فى أكبر العواصم الاوروبية التى كانت بالامس ألد أعداء الاسلام ، وأكبر المعاول للعمل على تحطيمه ، والقضاء عليه ، والالقاء به على هامش البشرية ٠

وهكذا نجد ـ وأستطيع أن أحدثكم هنا عن انطباع شخصى ـ هكذا نجد البشرية الراقية ، كما نقول اليوم ، المتعلمة ، فى العوالم المتقدمة ، المتحضرة ، التى هى فى قمة الثقافة بالنسبة لمستوى اليوم ، نجدها تتزاحم فى لندن فى السنة الماضية

لمشاهدة بعض معالم ، أقول بعض المعالم الباقية من ذلك البحر الزاخر ، من تلك الكنوز التى ما كان ينبغى لها أن تفنى أبدا ، وما كان ينبغى لها أن تطمس بالشكل الذى طمست به . ومع ذلك فالشىء القليل الذى بقى كانت تتزاحم عليه البشرية من القارات الخمس . سمعت هناك فى لندن لغات مختلفة ، ورأيت هناك ألبسة وأردية تدل على اختلاف جنسيات أصحابها ، بل واختلاف قاراتهم ، وهم يتزاحمون فى المتاحف العلمية فى لندن على مشاهدة تلك الاشياء ، تلك الجزئيات ، تلك الذرات التى بقيت من تلك الكنوز الزاخرة التى نتجت عن تلك الانبعاثة الاولى فى الجزيرة العربية الجرداء ، القاحلة ، الجاهلة ، الامية ، التى أصبحت فيما بعد منبعث النور الالهى الذى أصبح يتزاحم على مشاهدة ما بقى من بعض آثاره فى لندن ، وتشرف على تدشين تلك المعارض ملكات ، وتتزاحم عليه الشخصيات من مختلف المستويات العلمية العليا ، فى الشرق والغرب ، ذلك التزاحم الشديد بالمناكب ، فى صفوف ومواكب .

انطلق ـ كما نعلم كلنا ـ ذلك النور واذا ببحار من تلك الاضواء تغمر البشرية ، منطلقة من هناك ، وتصبح تلك الجزيرة القحلاء منبعثا لاساتذة البشرية ، تصبح بعض نتائج أعمال المؤمنين بالرسالة المحمدية هى المصادر والمراجع للبشرية كلها حتى اليوم .

نعم ، فكلما اكتشف أكبر عالم ، فى أى بلد متطور فى عالم اليوم ، أى اختراع علمى كان ، الا ورجعت به الذاكرة الى تلك الاسس التى انطلق منها ذلك العلم . تلك الاسس الاولى التى انطلقت منها تلك البحار الزاخرة التى تنعم بها البشرية المتقدمة اليوم والتى لا تصلنا منها الا بعض الاضواء الباهتة .

ذكرت منذ لحظة فى المركز الثقافى الاسلامى بمديرية التعليم الاصلى ان فى السنة الماضية فقط ، كمثلين اثنين ، أن عالمين من أوروبا الشرقية ، أحدهما هو الاستاذ بييلافسكى من جامعة فرصوفيا ، فى بولونيا ، والآخر الاستاذ الدكتور هرمان لاى، من جامعة برلين فى جمهورية ألمانيا الديمقراطية ، أشادا كل الاشادة بما أعطته هذه الحضارة العربية الاسلامية التى انبثقت عن الرسالة المحمدية على صاحبها الصلاة والسلام . ذكرا أن تلك الاضواء عمت العالم كله ، ومنه بلداهما ، فبين الاول الامجاد التى ما تزال تشهد بها جامعات كراكوفيا وفرصوفيا فى بولونيا اليوم، وذكر الآخر المآثر

التى ما تزال تعترف بها اليوم جامعة بينا ، وهى من أكبر جامعات ألمانيا ، التى درس فيها كبار علماء ألمانيا ودرس فيها أيضا كثير من نخبة البشرية فى القرن الماضى خاصة وفى بداية هذا القرن ، منها ان تلك الجامعة كانت تدرس كتاب الكليات لابن رشد حتى القرن الثامن عشر ، كما كان كتاب القانون لابن سينا يدرس أيضا فى تلك الجامعات حتى القرن الثامن عشر ، كما ذكر الاستاذ هرمن لاى ، وأضيف الى ذلك أن آخرين ذكروا أشياء أحدث من ذلك ، فالاستاذ المؤرخ الفرنسى المشهور بيكافى Picavet فى كتابه « محاولة دراسة مقارنة لفلسفات وعلوم القرون الوسطى » (2) ، ـ والكتاب موجود فى جامعة الجزائر ـ ذكر أن كتاب القانون لابى على بن سينا فى الطب كان يدرس فى جامعة لوفان فى بلجيكا حتى سنة 1909 ، نعم ، 1909 !

هذه بعض الاضواء التى أنارت بها هذه الرسالة مجموع البشرية ٠

انظروا الى الفارق الهائل وتلك الهوة السحيقة بين ذلك الوضع الذى وجد فيه الرسول صلى الله عليه وسلم ، برسالته الالهية ، اذ ذاك البشرية ، وبلاده بالذات ، الجزيرة العربية ، ثم ما أوصلها اليه ، وما أوصل البشرية كلها فيما بعد فى ظروف لا تكاد تعد ، لا تكاد تعتبر بالنسبة الى تطور الحضارات البشرية على مر التاريخ ٠

نذكر كلنا ما كتبه الفيلسوف الكاتب المؤرخ الاجتماعى غوستاف لوبون عندما قال فى كتابه المشهور « حضارة العرب » (3) ، ان حضارة اليونان كانت فى القمة بما أعطته للبشرية فى مختلف مجالات العلوم والفنون ، وان ليس هناك فى تاريخ البشرية الا حضارة واحدة والا فكر واحد يضاهيان الفكر اليونانى والحضارة اليونانية فى هذا المستوى وهما الفكر الاسلامى والحضارة العربية الاسلامية ، وأضاف أن كلا منهما ، كلا من حضارة اليونان والحضارة الاسلامية ، قد ذهبتا ، لا أريد أن استعمل التعبير الذى استعمله ، ولكن قد تستطيعون أن تتصوروه ، تعبير فى غاية السلبية طبعا ، لا أدرى اذا كان مبعثه الاسف على ما مضى وانقضى فى نظره ، أو كان ذلك منه نوعا من الشماتة بما حدث ، ولا أظن هذا التأويل الاخير ، نظرا للطابع العام لكتابه ٠

(2) Picavet : "Esquisse d'une étude comparée des philosophies et sciences médiévales".
(3) Gustave Lebon : "La Civilisation des Arabes".

وهنا نقول ان الحضارات لا تنقرض أبدا ، كما يدل على ذلك ويؤكده لنا علماء الاجتماع وعلماء تاريخ تطور الشعوب والعلوم والفنون · فهى لا تنقرض أبدا ، وان الاشعاع الذى تركه الفكر الاسلامى ، وتركته الحضارة العربية الاسلامية فى تطور العالم ، تلك الدفعة التى دفعت بها البشرية الى الامام ، تلك الشحنة الروحية التى جعلت البشرية تقفز خطوات على هوات ساحقة الى الامام ، لا تزال جذوتها الى اليوم ، ولا يمكن أن تنطفىء أبدا ، ليس فقط لانه دين يعتمد على كتاب سماوى هو خاتم الرسالات وأتى به خاتم الانبياء ، ولكن أيضا بما قام به أبناء هذا الدين ، بما قام به معتنقوه ، بما قام به الذين عملوا على تطوير ذلك الفكر ، بما قام به الذين جاهدوا واجتهدوا للاستمرار بذلك الاشعاع فى صالحهم وفى صالح البشرية كلها ·

وان ما نراه من الاقبال اليوم فى العالم كله على الرجوع الى تلك المصادر ، بعد انقراض العهد الاستعمارى الى الابد ، بعد ضعف ، لا زوال ، ولكن ضعف النعرات الدينية المتعصبة من صليبية وغيرها ضد الاسلام ، وحضارته ، وفكره ، لاكبر دليل على أن هذه الحضارة اليوم توجد فى بدء منطلقها الجديد بفضل تلك الدفعات الروحية ، بفضل تلك الشحنات المعنوية التى تمدها دائما والتى كلما ضعفت ، كلما بدا أنها ضعفت ، الا وقامت من جديد بقوة أكبر من قبل ، واسترجعت عزتها ، واستأنفت انطلاقها ، وكان ذلك مبعثا لها من جديد لا لامتها فقط ، ولكن للبشرية كلها · ان ذلك الاقبال على مشاهدة آثار الحضارة والفكر الاسلاميين كنت أتمنى لجميع المسلمين ان يشاهدوه · أعيد وأكرر وأعود دائما الى ذلك الاقبال الذى شاهدته فى لندن ــ والى هذا التأكيد ــ الذى لا أكل ولا أمل أبدا من اعادته ــ على الاهتمام بالاحتفال بما كانت العرب تسميه « الايام » ، أيام العرب ، وبما يسمى اليوم بالاعياد المائوية ، وبالمهرجانات الالفية الخ ·

هذا كله مما يعزز فى الامة اقتناعها بقيمها ، ومما يعيد اليها روحها ، ومما يبعث فيها الانطلاقة ، ومما يبث فيها القوة المعنوية ، ومما يرجع اليها اعتزازها بنفسها ، ومما يؤكد فيها ثقتها بذاتها ، وبتراثها ، وبماضيها ، ويعطيها اليوم قوة وشحنة

للانطلاق فى الغدد ، ولاستعادة ما مضى وانقضى من المجد ، وتقوية ما شحب من ألوان ولوينات تلك الاضواء التى أنارت بها البشرية كلها ·

الدول المتقدمة فى القمة اليوم تحتفل بادنـــى شيء من مظاهر حضارتها وماضى فكرها ومجدها · نجد ذلك حتى فى البلدان المتطورة التى لا تحتاج الى دعاية كثـيرة فى الواقع ، بفضل ما أدركته من تقدم ، ومن حضارة ، ومن الاشعاع عـلى البشرية اليوم ـ وتلك الايـام نداولها بين الناس ـ ومـع ذلك نجد هذه الامم تحتفل بـأدنى ذكرياتها ، وتبعث من النسيان ، وتبعث من تحت طبقات النسيان ، من تحت طبقـات الادمغة المتحجرة ، تبعث بالاكسيجين بين طيات المادة الزرقاء لتتذكر بأن لها ماضيا ، لتتذكر بأن لها مجدا ، لتتذكر بأن لها قدما وقدما راسخة فى الحضارة ، وفى الفكر ، وفى التقدم ، وفى المساهمة فى التراث البشرى ·

كثيرون منكم رأوا تلك اللوحات فى بلدان أوروبية ـ اذا ما لاحظوا ذلك ، واذا ما أعاروا تلك اللوحات التى ربما ليست براقة ، وربما عليها مسحة من القدم ، من عفو الزمن ، كم شاهدوا من تلك اللوحات على الجدران ، وعلى الابواب ، بأن الكاتب الفلانى عاش فى هذا البيت ، بات فى هذا المنزل ليلة واحدة ، شرب فى هذا المقهى مرة فى حياته ، ومر الشاعر الالمانى المعروف غوته مثلا بهذا المقهى وتناول قهوة ، وبات بلزاك، أو موليير ، أو لافونتين ، أو ديكارت ، أو شوبنهاور ، أو كنط ، أو بيتهوفن ، أو تشايكوفسكى فى هذا الفندق ليلة واحدة ·

اليوم تجدون ذلك فى هذه البلدان التى هى الآن فى قمة التقدم ، وفى قمة التطور، وفى قمة التنمية . وفى قمة التحضر ، ومع ذلك تعير هذه الجوانب الجزئية كل الاهتمام، لتغرس فى شبابها الاعتزاز بماضيها ، والاشادة بأمجادها ، لتبقى تلك القيم دائما حية فى أولادها ، ولتمد الاجيال التى تأتى بعدها بتلك الشعلة ، ولتستمر حياة تلك الامم ، وليستمر الاعتزاز بالماضى ، وتلك الثقة المكتسبة من مشاهد أمجادها ·

ونحن علينا أن نفعل ذلك ليس فقط حتى لا يتوهم شبابنا أننا نعيش من فتات البشرية فقط ولم نزد الى تراثها شيئا ، بل أيضا لنغرس فى نشئنا روح الاعتزاز ،

روح الثقة بماضيه ، وبتقاليده ، وباصالته ، بتراث أجداده ، بأمجاده ، ليستمر في الانتاج ، ليستأنف هذه المسيرة ، ولينتج للبشرية ، وليسير قدما في مصاف الامم في هذه المسيرة الحضارية والفكرية ، وألا نبقى عالة فقط على البشرية نعيش من فتاتها، وألا نبقى معقدين بالدعاية التي أكل الدهر عليها وشرب ، والتي لم تعد اليوم وقد مضى الاستعمار وانقضى ، وهو الذي غرسها فينا ، والذي حاول أن يعمقها فينا ، لنبقى دائما متعلقين به ، عاجزين عن الاستقلال بأنفسنا ، والمساهمة في المسيرة البشرية بشيء

تعلمون ما أكده الاستعمار في الجزائر في المرحلة الاخيرة من طغيانه ، أكد كم من مرة أن الجزائر لم تكن أبدا دولة من الدول ، ولكن عندما رجعنا الى المراجع الفرنسية نفسها وجدنا أن الجزائر عقدت سنة 1534 المعاهدة الاولى مع فرنسا ، وكان يمثل الجزائر خير الدين ، ويمثل فرنسا فرنسوا الاول نفسه ، ذلك الامبراطور الذي يعتبرونه من قمم أمجادهم ، ويمثل الخلافة العثمانية سليمان القانوني . وكانت الجزائر اذ ذاك دولة من الدول الكبرى ، كان خير الدين في مصاف فرانسوا الاول بالنسبة لاوروبا والسلطان سليمان القانوني بالنسبة لمجموعة كبيرة جدا من البشر ، وكانت الدولة العثمانية اذ ذاك في قمة الازدهار .

ويأتي الفرنسيون ويقولون ان الجزائر لم تكن دولة في تاريخها أبدا ، لم تكن أمة ولا دولة . تلك كانت المعاهدة الاولى ، وهي معاهدة شاتيلرو (4) . معقودة سنة 1534 . وكان ذلك انطلاقة فقط للعلاقات بين الجزائر وفرنسا ، اذ بلغ عدد تلك المعاهدات 65 باتفاقيات ايفيان ، وكانت قد بلغت بمعاهدة 1847 ، التي تم فيها القضاء بتغلب الاستعمار والقوة الغاشمة على الامير عبد القادر ، بلغت 64 ، وجاءت معاهدة ايفيان فكانت المعاهدة الخامسة والستين . ومع ذلك تاتي فرنسا وتدعى أن الجزائر لم تكن أمة من الامم !

لابد من بعث هذه القيم ليعرف أبناء الجزائر أن بلادهم كانت اذن في يوم من الايام ، في فترة معينة من التاريخ ، في القرن السادس عشر ، والسابع عشر ، والثامن عشر ،

(4) Le Traité de Chatellerault أنظر إنية وأصالة لصاحب هذا النص.

من الدول الكبرى ، فى مصاف أعظم الدول فى العالم • لابد أن يعرف أبناؤنا هذا • واذا ما ضربنا صفحا عن تلك الفترات المجيدة من تاريخنا ظـــل أبناؤنا يظنون أن الجزائر لم تولد الا فى سنة 1962 ! لا ، الجزائر لم تولد سنة 1962 ! فبقطع النظـــر عن دولة ماسينيسا ويوغورطا ، وعن التاريخ الاسلامى بعصوره الذهبية ، من الدولة الرستمية ، والحمادية ، والزيانية ، جاءت هذه الفترة التى أنجدنا فيها البشرية كلها ، وليس العالم الاسلامى فقط ، بمساهمة كبيرة جدا فى مختلف المجالات •

وقد أثبت لكم مثلا الاستاذ عثمان الكعاك رحمه الله وغير الكعاك ما قدمته الجزائر للبشرية فى القرن السادس عشر وقبل القرن السادس عشر ، فى القرن الثانى عشر ، وأكدته أيضا الدكتورة سيغريد هونكه الالمانية ، وأكد آخرون ما قدمته الجزائر نفسها ، الجزائر وليس فقط العالم الاسلامى بمجموعه ، ولكن الجزائر بالذات • ونحن هنـــا نحتفل بليلة المولد النبوى الشريف التى لا تخص الشعب الجزائرى والامة الجزائرية فقط ، بل تجمعنا وتضمنا مع المليار من البشر الذين تعدهم الامة الاسلامية الكبرى • قدمت فى عهود الدول الثلاث الكبرى : الدولة الرستمية ، والزيرية ـ الحمادية فيما بعد ، ثم العبد الوادية ـ الزيانية ، للبشرية مساهمة كبرى • بل وحتى فى العهـــد الاخير ، حتى فى القرن السادس عشر ، بعد ابتداء عصر الجمود والخمود ، كما سمـــاه ابن خلدون ، كانت هناك آخر محاولة لنا ، وهى من العظم بمكان ، محاولة جبارة كبيرة يستشهد بها العلماء فى كتب التاريخ ، وهى محاولة ابن حمزة الجزائرى الذى قدم فى علم المثلثات الكروية Trigonométrie مساهمة كبيرة ، وطبع كتابه فى تركيا ، وكان منطلقا للعلم فى أوروبا ، كان منطلقا لهذا العلم ، علم المثلثات ، فى أوروبا • هذا فى القرن السادس عشر ، فى العصر الذى يسمونه عصر الجمود ، والخمود ، والهمود ، فى العهد التركى كما نسميه خطأ •

ونحن لا نقول العهد التركى ، اللهم الا اذا كان كخلافة عثمانية تضـــم العـــالم الاسلامى كله ، ولكننا كدولة ، كنا دولة مستقلة ، تابعة روحيا فقط للخلافة ، ولكنا كنا دولة مستقلة ، كما تؤكدها الكتب الفرنسية التى أستطيع أن أذكر لكم منها العديد

جدا ، ومنها كتاب هانرى ڤارو (5) « التاريخ العام للجزائر » وهو موجود فى مكتبة جامعة الجزائر ، الذى يذكر فيه عدد هذه المعاهدات الذى أشرت اليه لكم منذ لحظة والتى عقدتها الجزائر كجزائر ، كدولة مستقلة ذات سيادة ، مع فرنسا ، ومع أمريكا ، وغيرهما ٠

الجزائر كانت أول دولة اعترفت بالثورة الفرنسية فى الوقت الذى عاكستها أوروبا الملكية والقيصرية كلها ، كما كانت الجزائر من أولى الدول التى أعترفت باستقلال الولايات المتحدة فى عهد جفرسون وميديسون ، وعقدت أول معاهدة معها فى وقت الداى حسن مع حكومة ميديسون سنة 1795 ، وأقرض الداى حسن الاخير فى سنة 1793 ، فى عهد الفترة الثانية للثورة الفرنسية بعد 1789 ، لحكومة Directoire مبالغ عدها أخيرا بعض الكتاب الفرنسيين — وذكرت ذلك فى كتاب « إنية وأصالة » (6) — بمبلغ أربعين مليارا بعملة اليوم ، أى تبلغ ديون فرنسا الى اليوم نحو الجزائر مبلغ أربعين مليارا بعملة اليوم من الفرنكات القديمة ، ومع ذلك تدعى وتقول ان الجزائر لم تكن دولة من الدول ولا أمة فى التاريخ !

ولهذا ، اخوانى ، أؤكد دائما على ضرورة هذه الاحتفالات بأمجادنا ، والاعتزاز بتاريخنا ، وبماضينا ، وبما قدمه أجدادنا ، لا لنتوسده وننام عليه ، كما يقول الاوروبيون ، ولكن لنأخذه منطلقا نعتز به ، ونستقى منه الثقة بأنفسنا ، لنستمر الى الامام ، ولنستعيد مكانتنا ونحن فى بدء نهضتنا الجديدة ومنطلق جديد ٠

لهذا كله نؤكد دائما وننتهز الفرصة خاصة بمناسبات ملتقيات الفكر الاسلامى لنذكر أنفسنا واخواننا الطلبة ، خاصة النشء الذين عليهم المعول بالنسبة للمستقبل، بهذه الامجاد وما كان يسميه العرب « الايام » ، وللامم أيامها ٠

ولهذا فكلما عقد ملتقى الفكر الاسلامى فى مكان ما كان له دور فى تاريخ هذه البلاد ، وفى تاريخ الامة الاسلامية ، وفى تاريخ البشرية كلها ، الا وأشدنا به ، الا

(5) Henri Garrot : "Histoire générale de l'Algérie".

(6) مولود قاسم نايت بلقاسم : إنية وأصالة ٠

وذكرنا على الاقل ببعض فترات تلك الامجاد . وهكذا فعلنا عندما انعقد الملتقى الرابع فى قسنطينة سنة 1390 هـ/1970 م ، عندما زرنا معالم المدينة ، ذكرنا بماسينيسا ، بدولة ماسينيسا ، و بصاح يوغورطا ، وأحمد باى ، وابن باديس ، وزرنا الجامع الاخضر الذى كان يدرس فيه ، وزرنا قبره وقبر الشيخ الحداد وابنه الشيخ عزيز، وفى الخامس فى وهران سنة 1391 هـ/1971 م عندما ذكرنا بمقاومة محمد بن عثمان الكبير ضد الاسبان وطرده اياهم من وهران بعد ثلاثة قرون من الاحتلال ، وبمعركة خنق النطاح ، ودور الطلبة والاساتذة فى ذلك الكفاح ، وفى السادس سنة 1392 هـ/1972 م فى عاصمة الجزائر أحتفلنا بالعيد الالفى لتاسيس الجزائر ومليانة والمدية من طرف بولغين بن زيرى سنة 972 ميلادية ، وذكرنا بدور عروج وخير الدين فى تحرير الجزائر بل وتونس وليبيا أيضا من الاحتلال الاسبانى ، وبما قامت به الدولة التى أنشآها ، وهى « دولة الجزائريين » ، سنة 1518 ، من المقاومة والجهاد، وهكذا فعلنا أيضا فى الملتقى السابع سنة 1393 هـ/1973 م فى تيزى وزو عندما ذكرنا بثورة لا لا فاطمة نسومر سنة 1856 ـ 1857 وبمعركة أيشريضن سنة 1871 ، ومررنا بالمكان وتوقفنا لحظات فى موقعها فى صميم جبال جرجرة . وسنة 1394 هـ/1974 م عندما انعقد الملتقى الثامن فى بجاية وذكرنا بمآثر الدولة الحمادية فى بجاية ، وقبل فى قلعة بنى حماد ، وبالدولة الزيرية التى كانت الاصل لها ، وذهبنا الى زيارة تلك الآثار ، وكتب كتاب وصحفيون من مصر وغير مصر مثل أنور الجندى وصبرى أبى المجد وغيرهما بأنهم ما كانوا يدرون ، ما كانوا يعلمون أبدا ، بل وما كانوا يتصورون مجرد التصور أن الجزائر كانت لها أمثال تلك الامجاد ، كانت لها مثل تلك المساهمة فى الحضارة والفكر الاسلاميين ، وزرنا مثلا قرية صغيرة ، على ستة أميال من بجاية ، هى قرية ملالة التى التقى فيها عبد المؤمن بن على والمهدى بن تومرت ، وكانت المنطلق للدولة الموحدية . اذ كان هناك مؤسسان لها . فالمهدى بن تومرت كان من الناحية الروحية فقط . ولكن المؤسس الحقيقى ، الفعلى ، السياسى ، والعسكرى ، والمدبر ، هو عبد المؤمن بن على ، من جبال ندرومة ، واستمر الامر بعد وفاة المهدى فى يده وأيدى أولاده . وكان المنطلق

ذلك الجامع الصغير فى ملالة على بعد ستة أميال من بجاية بمناسبة لقائهما هناك بعد رجوع احدهما من الحج وفى طريق الآخر الى الحج أيضا · وذكرنا كذلك فى طريقنا الى سطيف عبر خراطة عندما وصلنا الى برج ميرة ما اشتهر بحوادث 8 مايو 1945 ، وعندما وصلنا الى نواحى عين الكبيرة ذكرنا بأن هناك منطقة اسمها بنو عزيز كانت المنطلق للدولة العبيدية الفاطمية · فهناك كان مولد الدولة العبيدية الفاطمية التى انطلقت من هناك فيما بعد الى مسيلة والى القيروان ثم الى مصر وأسست القاهرة ، وأنشأت الازهر ، وامتدت الى الشام ، وكان لها شأنها فى التاريخ المغربى الاسلامى ، بل والعالمى أيضا · الدولة الفاطمية ، وما ادراك ما الدولة الفاطمية ! وذكرنا ثورة المقرانى والحداد عندما وصلنا الى صدوق ، ثم مؤتمر الصومام عندما زرنا مكان انعقاده وهو ايفرى ، وراء مدينة أقبو ، وأيضا ذكرنا بزاوية ابن على الشريف التى تعلم فيها المرحوم الشيخ البشير الابراهيمى فى صغره ، وذلك عندما مررنا بها فى شلاطه بجنب أقبو أيضا فى طريقنا الى ايفرى · وكان نفس الشيء بمناسبة انعقاد الملتقى التاسع فى تلمسان سنة 1395 هـ/1975 م ، عندما ذكرنا بدولة بنى عبد الواد وبنى زيان وما أتت به من فكر وحضارة فى المجالات المختلفة أيام ايغمراسن بن زيان ، وأبى سعيد عثمان ، وأبى حمو الثانى ، وما نركوه من علم وفن ، مما أشاد به المؤرخون وعلماء الاجتماع المحدثون ، اذ بدأوا الآن يكتبون بموضوعية وبنزاهة علمية عن تلك الفترة الرائعة من فترات تاريخنا · وكذلك فعلنا عندما انعقد الملتقى العاشر سنة 1396 هـ 1976 م فى عنابة فذكرنا بأنها كانت ذات يوم عاصمة لبنى زيرى ، وانشدنا مجدها ودورها فى العلم والعمران ، وكان الامر كذلك منذ أسابيع فى ورجلان عندما أشدنا أيضا بالعاصمة الثانية للدولة الرستمية سدراتة ـ ورجلان ، بعد زوال تيهرت ، وبما قامت به هذه الدولة ، وتعجب هناك أوروبيون من الغرب ، ومن الشرق ، ومن أمريكا ، واستراليا ، واليابان ، وعلماء مسلمون من أنحاء العالم بما شاهدوه من بعض الآثار القليلة النادرة التى بقيت والتى عرضت فى الولاية وفى المتحف هناك ، الشيء القليل من الكثير الذى ننقب عنه بعد ونستخرجه حاليا ، والاعمال ان شاء الله ستشملها ، والحفريات الآن جارية فى قلعة بنى حماد ، أظن ، أو ستبدأ قريبا ان شاء الله ، فى تيهرت (تيارت) بالنسبة للمرحلة الاولى لبنى رستم · وستجرى ان شاء

الله كذلك هذه الحفريات فى تلمسان لاستخراج ما بقى من آثار حضارة بنى زيان ، وستنطلق ان شاء الله لتشمل سدراتة وورجلان وما حواليهما ، وفى بجاية ... الخ .

هذا كله سيعزز فى شبابنا الثقة بنفسه ، وحضارته ، وبأمجاده ، وبما قاموا به فى اطار الحضارة الفكرية الاسلاميه ، وفى اطار الحضارة البشرية أيضا . وعندما تسمعون ان هناك علماء متخصصين فى جامعتى فرصوفيا وكراكوفيا ، متخصصين الآن ، معاصرين ، موجودين ، مثـل لفيتسكى ، ومثل دومبروفسكى ، وآخـرين فى بولونيا اليوم ، وفى ألمانيا ، وسويسرا ، مثل فان برشيم ، وآخرين كثيرين فى بلدان مختلفة ، تتأكدون وتزداد ثقتكم بماضيكم ، وبأمجادكم ، وأمجادنا ، بأمجاد بلادنا ، بما قامت به بلادنا فى اطار الحضارة العربية الاسلامية ، وفى اطار الفكر الاسلامى ، والحضارة الاسلامية ، والفكر البشرى ، والحضارة الانسانية .

لاننا كثيرا ما ظلمنا حتى من اخواننا ، حتى من أشقائنا ، وظلم ذوى القربى ، كما يقول الشاعر العربى القديم ، أشد مضاضة ...

كانوا ادعوا ولا يزالوا يدعون من حين الى آخر أن الجزائر لم تسهم بشىء ، وأنها كانت ربيبة فقط ، عاشت على الفتات . وكانت طفيلية ، وكانت تقتات مـن آثـار الآخرين . ولم تأت بشىء ، ولم نقدم شيئا .

هذا بعض ما بدا لنا ، والشىء الكثير لا يزال فى الأتربة . وهذا لوحده يؤكد لنا ويعزز فينا هذه الثقة ، ويبرز لابنائنا ما قام به أسلافنا ، ويكذب تلك الدعايات التى تأتى من حين لآخر والتى تعارض الحقيقة . وتعارض بطون التاريخ ، وتعارض حتى ما يكتبه بعض أبناء تلك البلدان التى تزور التاريخ ، وتحرف الوقائع .

هذا هو معنى الاشادة بهذه القيم . هذا مغزى الاحتفال بما يسميه العرب حتى فى الجاهلية «أيام العرب» ، وما يسمى اليوم بالاحتفالات بالمناسبات الكبرى فى تاريخ الامم . ان الامم بماضيها ، الامم بحاضرها ، وبمستقبلها ، واذا كانت تجهل ماضيها ، تفقد الثقة فى حاضرها ، ولا يمكن أن تنطلق فى مستقبلها ، وتبقى دائما معقدة .

ونحن عندما نرى بلدانا ليس لها ماض ، ليس لها مجد ، بل هى وليدة فى التاريخ ، جديدة ، ومع ذلك تحاول ان تثبت أنه كان لها هذا أو ذاك فى الماضى ، أو ان ما ادعى فى الماضى انه اكتشف فى هذا البلد أو ذاك ليس صحيحا ، وانما الصحيح هو ما أتى به هذا البلد الجديد الذى هو ربيب فى التاريخ ، والذى ليس له ماض ، اذا كانت هذه البلدان تدعى هذا ، وتحاول هذه المحاولات لتوجد لنفسها ماضيا ، لتخلق لنفسها مجدا تليدا ، فكيف بنا ونحن الذين لنا ماض عريق ، والذين لنا قدم وساق فى تاريخ البشرية ، فى تاريخ الحضارة ، وفى تاريخ الفكر الاسلامى ، وفى تاريخ الفكر الانسانى عموما ؟

هذا كله يجعلنا نؤكد باستمرار ــ ولا نمل من هذا التأكيد ــ على ضرورة اعتبار ، وتقديس ، وتكريس هذه الفترات الذهبية من تاريخنا ، وحفر الأتربة لاستخراج هذه الكنوز من أمجادنا ·

وينبغى أن نعترف بأن هناك مجهودات لا بأس بها ، مجهودات تشكر وتحمد لاصحابها ، فى المدة الاخيرة ، فزيادة على الجهود المتواضعة التى تقوم بها وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية ، نجد أن وزارة الاعلام والثقافة تقوم بجهود كبيرة بالحفريات التى ذكرتها فى قلعة بنى حماد ، وفى تيهرت ، وان شاء الله غدا فى سدراتة ، وفى ورجلان ، وفى قسنطينة ، وفى بجاية ، وفى تلمسان ، وجميع أنحاء البلاد التى تزخر بهذه الكنوز ·

ونجد كذلك كتبا تصدر عن فترات من تاريخنا ، عن الرستميين ، وعن الحماديين ، وعن الموحدين ، والزيانيين، من وزارة الاعلام والثقافة، ونجد أيضا الرئاسة قد أنشأت قسما خاصا تابعا لها هو مركز الدراسات التاريخية الذى بدأ ينتج ، وله نشرية ، وله تشجيع ، وله بعثات يبعثها الى الخارج للتنقيب لاستعادة مراجعنا واسترجاع كنوزنا ، ومصادرنا المنشورة ، المبعثرة فى الخارج ، المبثوثة فى مكتبات العالم ، وفى متاحف العالم · ونجد كذلك منذ أيام فقط وزارة قدماء المجاهدين قد انشأت متحفا جديدا أيضا هو مركز الاعلام الوثائقى ، للاشادة على الاقل بالفترة الاخيرة من كفاحنا التحريرى ·

ينبغى ان يكون هذا العمل كله متواصلا ، وينبغى ان تنضاف اليه جهود شخصية ، جهود منظمة ، للبحث عن المخطوطات التى تندثر فى الاتربة بدعوى البركة ، وبدعوى السرية ، وبدعوى كذا • ينبغى أن تخرج الى الوجود ، ينبغى أن تنشر ، وتوزع ، وينبغى أن تبرز الى النور ، لتعزز هذا التراث ، ولتعزز الثقة فى أبنائنا بأن بلادنا لها مجد ، وبأن أمتنا لها ماض •

هذا هو القصد من الاحتفال ، هذا هو معنى اهتمام الامم بأيامها • هذا هو مغزى احتفال الامم بأيامها ، وبأمجادها ، وبالعصور الذهبية من تاريخها • وهذا لا يمنع طبعا من دراسة الفترات الداكنة ، من الفترات القاتمة ، لاستخلاص الدروس منها • وكل أمة لها جانبان ، وكل أمة لها ماض مجيد ، ولها كذلك أيام أخرى تستخلص منها الدروس ، وتستخرج منها العبر ، لتفادى أخطاء الماضى فى المستقبل ، «والانسان خطاء» كما يقول الحديث الشريف •

ونرجو ان شاء الله ان تكون هذه البادرة التى اتخذتها وهران قدوة لبلديات أخرى ، ولدوائر أخرى ، ولولايات أخرى ، للاحتفال بهذه المناسبات الكبرى فى تاريخنا المجيد الذى يجمعنا والامة الاسلامية كلها فى العالم ، وكذلك بالمناسبات الوطنية ، بالامجاد الوطنية ، بالآثار الوطنية ، بالتاريخ الوطنى العريق على مختلف مراحله العديدة •

وبهذا فقط نكون قد عززنا فى أنفسنا الثقة بماضينا ، ووضحنا لاجيالنا المنطلق المعنوى بهذه الشحنة المعنوية ، ونكون قد كذبنا الدعايات السخيفة ، الدعايات المنسقة التى تصدر من حين لآخر هنا أو هناك ، وينبغى أن نقوم بخطى مضاعفة لتدارك ما فاتنا فى عصور الجمود ، وعهود الخمود ، وما تلاها أيام الاستعمار ، لنكون جديرين بأسلافنا ، ونكون ، كما يقول المثل القديم : خير خلف لخير سلف ، ولتفخر بنا الاجيال المقبلة •

وشكرا لكم جميعا ، والسلام عليكم ورحمة الله •

البلابل الرستمية

نبذة مختصرة عن تاريخ تاسيس هذه الفرقة ـ والغاية من تاسيسها ومسؤوليها ـ ومقرها وعنوانها ·

ان المجموعة الصوتية المسماة البلابل الرستمية هى فرقة فنية دينية مداحة بالالحان الشجية والانغام المطربة تجمع أعضاء من مختلف قرى وادى ميزاب السبع ـ غارداية بنى يزقن ـ مليكه ـ بنوره ـ العطف ـ بريان ـ القرارة ·

هم شباب استجابوا لنداء الواجب فانضموا فى فرقة فنية طاهرة حتى يخلدوا تلك القيم الاخلاقية بين المواطنين الذين أبت أصالتهم أن يرضوا عنها بديلا فى مناسبات أفراحهم · هم شباب تصدوا لحمل أعباء الوطن بالمحافظة على هذا التراث القيم وذلك فى جوقة فنية ملؤها الطرب البرىء من كل ما يشوبها · واختارت لنفسها اسما ذا بعد تاريخى ومسحة جمالية ألا وهو « البلابل الرستمية » · حيث تأسست فى آخر ماى سنة 1975 ويرأسها صاحب الفكرة فى تأسيسها السيد : عمر بن محمد فخار ·

غرضها الاساسى والغاية من تأسيسها :

1 ـ المساهمة فى بعث النشاط الفنى الكلاسيكى الجزائرى الاسلامى وترقيته ما بين الفنون العربية والاسلامية ·

2 ـ احياء التراث الفنى المحلى والمحافظة عليه ·

3 ـ تطويره وتهذيبه فى نطاق اطاره الخاص ·

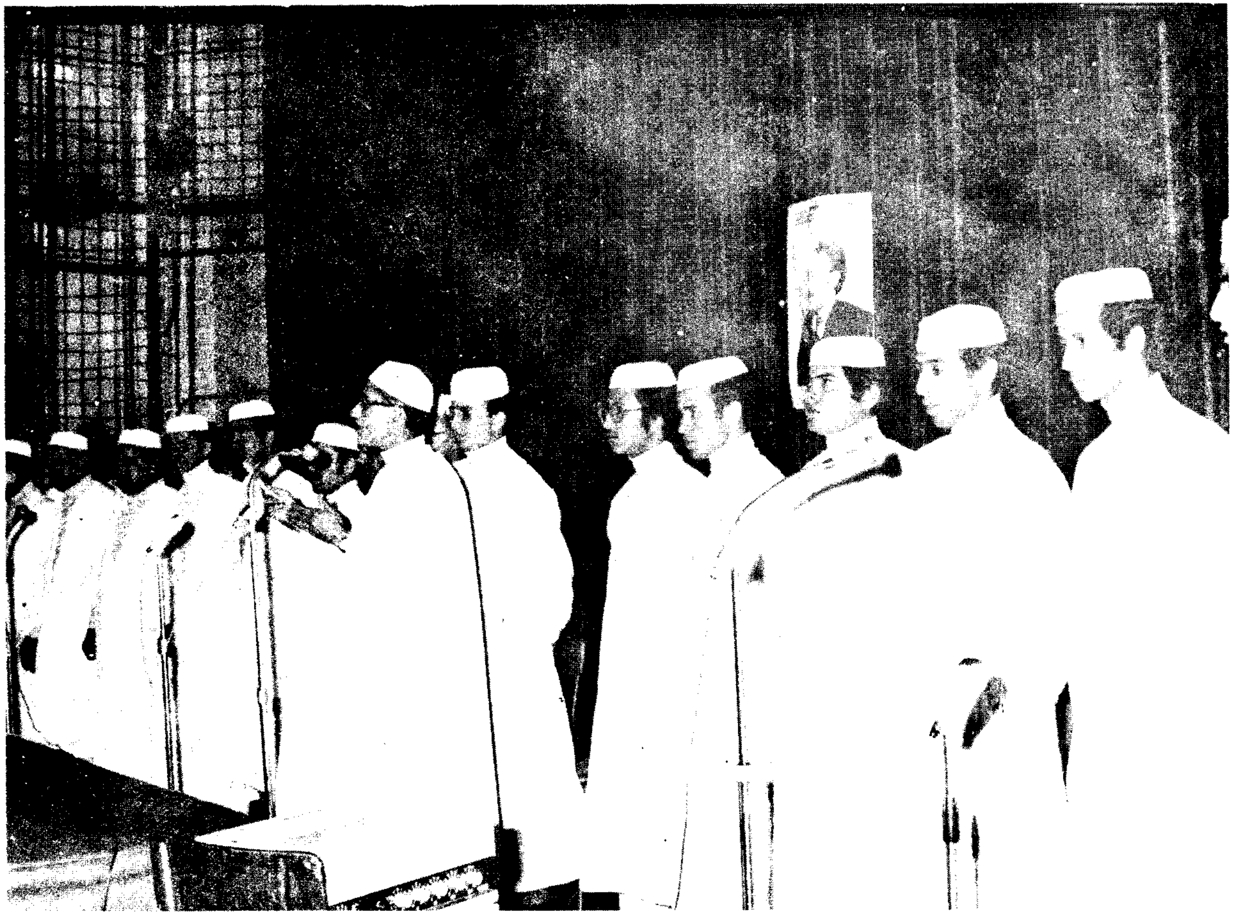
4 ـ العمل على ازدهاره ونشره ·

5 ـ ضم هواته فى فرقة واحدة منظمة ·

6 ـ تنمية المواهب الفنية في أعضائها وتكوينها وابرازها ·

لتراثها الفنى طابع واطار خاص يتمثل فى : المدائح والاذكار والابتهالات والاناشيد « الدينية ـ الوطنية ـ الطبيعية والاجتماعية » والموشحات العربية ·

وهذه الفرقة مستقلة بذاتها وبنظمها يقوم بنشاطها شباب ـ كما أسلفت ـ ومن مختلف الطبقات : معلمين وعمال وطلبة · ربطت بينهم أواصر المحبة والصفا تحت اشراف ادارة منها وافق عليها أعضاؤها ، والذين أسهموا فى تأسيسها وفى بعث نشاطها وسائرين بها الى الامام قدما ·



فرقة البلابل الرستمية فى قاعة المغرب ٠

دور جمال الدين الافغــانى في يقظــة الشرق ونهضة المسلمين

المهدى البوعبدلى
عضو المجلس الاسلامى الاعلى
الجزائــر



جمــال الدين الافغــانى

ان الحديث عن جمال الدين الافغاني مــن مختلف جوانب حياته ، يتطلب عدة مجلدات، وقد خصص بالفعل بمئات التاليف ، ولا زال محــل اهتمــام الباحثين ، وموضوع دراساتهم ، واني استهل هذه المحاضرة ببيت شعر للمتنبى سبق لبعض مترجميه افتتـــاح دراسته بذكرها وهي :

يقولــون لى مــا أنــت فى كــل بلــدة
وما تبتــغى : ما ابتــغى جــل ان يسمى

فقال المترجم فى تعليقه على هذا البيت : « لعل هذا البيت لا يصدق على انسان كما يصدق على العالم المصلح الفيلسوف جمال الدين الافغانى ، فقد كان ذا أمل كبير يدفعه الى التنقل فى شتى الممالك القاصية ، لا لينعم بالرحلة الهادئة ذات البهجــة

فى الوقت الذى ألقى فيه الاستاذ المهدى البوعبدلى هذه المحاضرة ، يوم 24 ربيع الاول 1397 14 مارس 1977 ، بمناسبة الذكرى الثمانين لوفاة الامام جمال الدين الافغانى ، ألقــى الاستاذ أحمد حمانى ، رئيس المجلس الاسلامى الاعلى ، محاضرة فى المهرجان الدولى الذى عقد من 19 ربيع الاول 1397 الى 25 منه – 9/15 مارس 1977 – فى كابول، عاصمة افغانستان بنفس التاريخ ، وفى نفس الموضوع ، وسننشرها فى عدد قــادم ان شاء الله ·

والانتعاش ، بل ليقيم فى كل أرض ثورة ، ويشعل فى كل مملكة ضراما ، وليهدم ما تعفن من الآثار البالية ، ويقيم على انقاضه صروحا عالية من العزة والاستقلال ، وان رجلا واحدا يمكنه ان يزلزل الشرق الهامد بصيحته العالية ، لجدير ان يكون رنان الصوت ، طائر الصيت » اهـ ٠ (1)

وانى سأتعرض فى هذه المحاضرة لنشأة جمال الدين ، ثم مراحل حياته فى البلدان التى اقام فيها ، وطبع كل واحدة منها بما خلفه فيها من آثار ، سواء فى الميـــدان العقائدى أو السياسى ، ثم اذكر لقطات من انطباعـــات بعض مترجميه المشهورين بالنزاهة والاطلاع على الخبايا ، وتقييم الرجال ، والخص ما أمكن من النقاط البارزة فى ترجمة حياته ، وأجنب المستمعين الدخول فى التفاصيل ٠

نشـأتـه وشخصيتـه :

هو جمال الدين بن السيد صفتر الافغانى ، ينحدر من سلالة على الترمـذى ، المحدث الشهير ، الذى لا زال تأليفه يحمل اسمه وهو « سنن الترمذى » ، والترمذى هذا يرتقى نسبه الى سيدنا الحسين بن على بن ابى طالب كرم الله وجهه ، كما جزم بذلك الشيخ محمد عبده المترجم الاول لاستاذه جمال الدين ٠

ولد جمال الدين سنة 1254 هـ الموافقة لسنة 1839 م ٠ فى قرية « أسعد اباد » القريبة من همذان التابعة لبلاد فارس ، وهو افغاني لا فارسي ، وانتقل بانتقال والده كما نذكر ذلك فى موضعه ٠

كانت أسرة جمال الدين تتوارث منزلة علية فى قلوب الافغانيين ، ومن ذلك انها كانت لها السيادة على جزء من الاراضى الافغانية تستقل بالحكم فيه ، ومركز العشيرة كان فى كنر (2) من أعمال كابل ٠ (3)

---

(1) محمد رجب البيومى كتاب علماء فى وجه الطغيان (العدد 55) مطابع الدار القومية بمصر ٠

(2) قال ياقوت فى معجم البلدان كنر بالكسر وتشديد ثانيه وفتحه وآخره راء ٠

(3) وقال كابل بضم الباء الموحدة (معجم البلدان) ٠

وقد فقدت العشيرة هذه الامارة في عهد والـــد جمال الدين ، وكان الامير الذى استلب من الاسرة امارتها ، نقل أفرادها الى مدينة كابل ، ومن جملة المنقولين والـد جمال الدين وأعمامه ، وفى السنة الثامنة من عمره ، أجلس للتعليم على الطريقة المتبعة فى البلاد الاسلامية اذ ذاك ، وهى لا تختلف كثيرا عن بعضها ، وقد انهى تعلمه فى سن مبكرة نظرا لاستعداده الفطرى ، وقريحته الوقادة وشهرته بالجد ، والاجتهاد · منذ نعومة اظفاره ، وبمجرد اتمامه لمعلوماته فارق بلده لاول مرة · لقضاء فريضة الحج ، وكان ذلك فى سنة 1272 هـ 1856 · وبعد ادائه فريضة الحج رجع الى مسقط رأسه فقلده والى البلاد دوسن محمد خان خطة فى الحكم ، وكان دوسن هذا هـو الذى استلب من الاسرة امارتها · ونقل أفرادها الى كابل كما تقدم لنا ذلك · وقعت حروب بين دوسن هذا ، وبعض أقاربه كان واليا على هراة ، وكان ذلك سنة 1280 هـ 1863 م فمات دوسن اثناء الحصار وتولى ولى عهده ، ووقعت أحداث بين أفراد الاسرة فتـولى بعضهم ، وكان صديقا حميما لجمال الدين ، فعينه رئيس وزرائه ثم هزم ذلك الصديق فى حروبه ، واشتعلت نار الفتن ، فكانت تلك أسباب مغادرة جمال الدين بـلاده ، وذلك سنة 1285 هـ 1869 م · وكان أول بلد القى فيه عصا التسيار ، بـلاد الهند ، ورغم ان حكومة الهند تلقته بحفاوة واكرام ، الا انها اشعرته انه غير مرغوب فى طول اقامته ، اذ حالت بينه وبين علماء البلاد ، ولم تأذن الا للقليل منهم بالاتصال به ، ولهذا كانت اقامته بالهند لم تزد على شهر واحد ، وقد ودعته حكومة الهند بنفس التكريم الذى تلقته به عند وروده عليها · ومن ذلك انها سخرت لـه الباخرة التى أقلته الى قنال السويس على نفقتها ، فجاء الى مصر واقام فيها نحو الاربعين يوما ، كان يتردد فيها على الازهر ، ويجتمع بطلبته ، ولم تطل اقامته بمصر أيضا ، حيث مكث فيها حوالى أربعين يوما ، ثم انتقل الى الاستانة عاصمة الخلافة العثمانية ، وبعد وصوله باسابيع قليلة اجتمع بالصدر الاعظم على باشا ، الذى تلقاه بمزيد من الحفاوة والتبجيل ، وصارا متلازمين ، وبعد اقامته حوالى ستة أشهر ، عين عضوا فى مجلس المعارف ، فقام بمهمته أحسن قيام · وكان كثيرا ما يقترح ادخال بعض الاصلاحات لتعميم التعليم ، فيعارضه بعض زملائه ، الذى كان على رأسهم شيخ الاسلام حسن فهمى افندى ، وعند حلـول

شهر رمضان سنة 1287 هـ 1870 م طلب مدير « دار الفنون » تحسين افندى من السيد جمال الدين ان يلقى محاضرة « بدار الفنون » موضوعها الترغيب فى التصنيع ، فاعتذر لضعف معرفته باللغة التركية ، فلم يقبل عذره ، فحينئذ ، هيأ خطابه كتابة ، وقدمه قبل القائه الى وزير المعارف ، صفوة باشا ، والى الحاكم العسكرى على شروانى زادة ، والى منيف باشا ، ناظر المعارف ، فاستحسنه كلهم . فمن هذه الاحتياطات كلها تبين ، ان جمال الدين ، كان على حذر من مكائد خصومه . وكان اتصاله بالجماهير ومخاطبته اياهم ، أول فرصة يمكنهم استغلالها ضده ، وهذا ما وقع بالفعل ، فانهم قولوه ما لم يقله ، وأولوا كلامه فاتهموه بالزندقة والزيغ ، وهذه التهم هى التى كانوا يروجونها عليه خفية ، فلما سنحت لهم الفرصة اتهموه بانه فى محاضرته «بدار الفنون» زعم ان النبوة صنعة ، حيث ذكرها فى خطاب يتعلق بالصناعة ، ولم ينتظر شيخ الاسلام رد فعل المحاضر جمال الدين ، حتى فاجأه بالايعاز الى خطاب المساجد ، ووعاظها ، باثارة هذه التهمة الملفقة فى خطبهم المنبرية ، ودروس الوعظ ، والاحتجاج على صاحبها بالتفنيد والتنديد ، فعندئذ طلب جمال الدين ان يمكن من الدفاع عن نفسه ، ليثبت على رؤوس الملأ بطلان ما رمى به ، وذلك فى مناظرة بينه وبين شيخ الاسلام ، وكان جمال الدين لا يلين فى مثل هذه المواقف ورغم موقف أهل الحل والعقد الذين حضر جلهم للمحاضرة ، بعد ان اطلعوا عليها قبل القائها ، ونصحوه بالتغاضى ، وعدم الالتفات الى كيد خصومه ، الىَ ان يهدأ الرأى العام ، فامتنع واصر فى الحاحه على المناظرة . ولما لم يجب الى مرغوبه ، غادر الاستانة مأسوفا عليه من النخبة التى كانت تقدر مواهبه وعبقريته وشجاعته الادبية النادرة المثال . وكانت وجهته مصر .

رجوعه الى مصر للمرة الثانية :

فارق جمال الدين الاستانة فى وجهته الى مصر فى أول محرم 1288 هـ 1871 م . وكان قصده مجرد الاستجمام . وفى مصر اجتمع برئيس الدولة مصطفى رياض باشا فاستماله على الاقامة ورغبه فيها ، فاجرت عليه

الحكومة المصرية مرتبا شهريا ، قدره ألف قرش مصرى مجانا ، فلازم بيته التى صارت محط رحال طلبة العلم ، ونخبة المفكرين المصريين ، وكان يتردد على الازهر أيام الجمعة ولم يؤثر عنه انه انتصب يوما ما فى حلقة من حلقات الدروس ، جريا على عادة كثير من العلماء الواردين على مصر ، بل كان يلقى دروسه فى بيته ، وذلك كلـه محافظة على عدم المس من كرامة مسيريه (الازهر) واتقاء جرح عواطف فقهاء البلاد المحافظين ومع كل هذه التحفظات ثار عليه فقهاء البلاد الذين صبوا عليه جام غضبهم ، واتهموه بما اتهمه به شيخ الاسلام بالاستانة ، أى الزندقة والالحاد ، ولنترك الكلمة لتلميذه الذى عاش معه تلك الفترة ، وهو الاستاذ محمد عبده الذى خصص له ترجمة قـال فيها مشيرا الى موقف علماء مصر منه ما يلى : « هذا ما حسده عليه أقوام واتخذوه سبيلا للطعن فيه من قراءته بعض الكتب الفلسفية اخذا بقول جماعة من المتأخرين فى تحريم النظر فيها ، على ان القائلين بهذا القول لم يطلقوه بل قيدوه بضعفاء العقول ، فصار النظر خشية على عقائدهم من الزيغ .

اما الثابتون فى ايمانهم فلهم النظر فى علوم الاولين والآخرين من موافقين لمذاهبهم أو مخالفين ، فلا يزيدهم ذلك الا بصيرة فى دينهم ، وقوة فى يقينهم ، ولنا فى أئمـة الملة الاسلامية ألف حجة، تقوم على ما نقول، ولكن تمكن الحاسدون من نسبة ما أودعته كتب الفلاسفة الى رأى هذا الرجل ، واذاعوا ذلك بين العامة ، ثم ايدهم اخلاط من الناس من مذاهب مختلفة كانوا يطرقون مجلسه ، فيسمعون مالا يفهمون ، ثم يحرفون فى النقل عنه ، ولا يشعرون ، غير ان هذا كله لم يؤثر فى مقام الرجل من نفـوس العقلاء العارفين بحاله ، ولم يزل شأنه فى ارتفاع ، والقلوب عليه فى اجتماع ، الى ان تـولى خديوية مصر محمد توفيق باشا . وكان السيد مـن المؤيدين لمقاصده ، الا ان بعض المفسدين ومنهم مستر فيقيان قنصل انجلترا العام سعى فيه لدى الخديوى ، ونقل المفسد عنه ما الله يعلم انه برىء منه حتى غير قلب الخديوى عليه ، فأصدر امره باخراجه من القطر المصرى ففارق مصر الى البلاد الهندية سنة 1296 هـ سبتمبر 1871 م واقام بحيدراباد ... الخ » اهـ .

هذا ما قاله الشيخ محمد عبده فى دراسته الخاصة التى نشرتها دار الهلال تحت عنوان « الثائر الاسلامى جمال الدين الافغانى » رمضان 1393 أكتوبر 1973 عدد 274.

وقبل ان نواصل حديثنا عن حياة جمال الدين نقف وقفة قصيرة لمزيد من البيان والتوضيح عن حياة جمال الدين في مصر ، التى كانت منطلقا لتعاليمه فى البلاد الاسلامية بصفة عامة ، وفى البلاد العربية بصفة خاصة . كما يظهر لنا من هذا البيان ان الدعوة الى دراسة الكتب الفلسفية ، وتحريض جمال الدين تلامذته على مزيد من الاهتمام بها ، ليست هى التى أوغرت صدر الخديوى محمد توفيق ، أو وشايات قنصل انكلترا العام ، الذى تسبب فى اصدار الامر باخراجه من مصر التى فارقها للابد سنة 1296 هـ 1871 م . بل الذى أوغر صدورهم عليه ، نشاطاته السياسية ، ومن ذلك ما ذكره صاحب كتاب « علماء فى وجه الطغيان » الذى قال فى ترجمة جمال الدين وخروجه من مصر مبعدا . قال « لقد اتجه الى مصر ليصل رسالته فى البعث والايقاظ ، وقد زارها مرتين ، فعرف وجوهها واحوالها ، واتصل بأزهرها الاسلامى ، ليتخذ من طلابه دعاة يهدون بالحق وبه يعدلون ، ولم تكن الاحوال فى مصر باحسن منها فى الهند فقد استدان اسماعيل ، وبالغ فى القرض والتبذير ، حتى جر الاستعمار الى وطنه ، وقد ألف الناس الاستكانة والانصياع ، فاخذ يفتح العيون على ما يجرى فى البلاد من أهوال . ويتصدر المجالس ليعلن آراءه فى الحكام ، وبرامجه فى الاصلاح ، ثم اختار صفوة من تلاميذه ودفعهم الى الكتابة فى الصحف ليصوروا الفساد الداخلى ، ويفضحوا الطغيان الخارجى ، ثم يرسموا طريقة الخلاص بالاستقلال التام ، واقامة حكومة دستورية تخضع لبرلمان متيقظ ، يحاسب على التبذير والرشوة ، ويحد من الفردية الدكتاتورية فى الحكم والسلطان ، وقد عزل اسماعيل فى هذه الظروف التى خلقتها مآسيه المتلاحقة وجاء ولده توفيق ، وكان ذا صلة بجمال الدين ، فأدرك الحاكم الجديد قوة تأثيره ، وأراد أن يلاطفه ليرجع عن مبادئه فى الحرية والاستقلال ، وهما منه ، ان الرجل قد يستجيب وينسحب دون ضوضاء ، وكان ان هيأ اجتماعا عاجلا فى القصر الخديوى ، بدأه توفيق فقال مداهنا ، مراوغا : انى أحب كل خير للمصريين ويسرنى ان أرى بلادى وابناءها فى أعلى درجات الرقى والفلاح ، ولكن مع الاسف ، ان أكثر الشعب جاهل ، لا يصلح ان يلقى عليه ما تلقونه من الدروس والاقوال المهيجة ، فيلقون أنفسهم والبلاد فى تهلكة .

فاعتدل جمال الدين فى مجلسه ، ثم رفع رأسه ليقول فى اعتداد « ليسمح لى سمو أمير البلاد ان أقول له : ان الشعب المصرى كسائر الشعوب ، لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده ، ولكنه غير محروم من وجود العـــالم والعاقل . فبالنظر الذى تنظرون به الى الشعب المصرى ينظر اليكم ، وان قبلتم نصح هذا المخلص ، وأسرعتم فى اشراك الامة فى حكم البلاد ، عن طريق الشورى ، فتأمرون باجراء انتخابات نواب من الامة ، تسن القوانين ، وتنفذها باسمكم وارادتكم ، يكون ذلك اثبت لعرشكم ، وأدوم لسلطانكم » وانتهى اللقاء ، بعد ان لمس توفيق خيبة مسعاه ، ثم علق صاحب المقال على هذه المقابلة بقوله « لقد كان جمال الدين يدرك بعد هذه المقابلة ان ايامه فى مصر محدودة ، فانبعث يشعل اللهب ، بخطبه وأفكاره ، وكانت به حدة قاسية تلجئه الى العنف الصريح دون مواربة ، فانشأ محفلا ماسونيا جديدا ، بلغ اعضاؤه أكثر من ثلاثمائة عضو ، من نخبة المفكرين والناهضين المصريين ، وكان فى هذا المحفل مطلق الحرية ، نظم شعبا للاعمال المختلفة فشعبة للحقانية (أى العـــدالة)وأخرى للمالية . وثالثة للاشغال ، ورابعة للجهادية (أى للجيش) وهكذا لكل وزارة ومصلحة شعبة ، تدرس كل شعبة شؤون وزارتها ومصلحتها ، وتعرف ما يقع من الظلم ، ووجوه الاصلاح فيها ، ثم كل شعبة تتصل بالوزير المختص ، وتبلغه رغباتها فى أسلوب حازم صريح ، فكان لذلك هزة « فى الاندية والمجتمعات » (4) اهـ . ثم ختم دراسته بالظروف التى اعقبت نشاطات جمال الدين بمصر فقال « وصاحب ثورة كهذه الثورة ، لابد ان يحارب بعنف ، فقد تعاون الاستعمار الخارجى ، والطغيان الداخلى على ابعاده ، فغادر مصر ، ولكن بعد ان اعد الموقد وأشعل الثقاب » (4) اهـ .

وهذه آراء معظم مترجمى جمال الدين عن مدة اقامته فى مصر ، تلك الاقامة التى قال عنها بعض مترجميه « ما من قطر من أقطار الشرق أثر فيه جمال الدين ، مثل تأثيره فى مصر : فهو من أوائل العاملين على تطور الروح الوطنى فى هذه البلاد » (5) .

(4) عن كتاب زعماء الاصلاح نقلا من محمد المخزومى باشا .
(5) «الامبراطورية المصرية فى عهد اسماعيل» لمحمد صبرى باشا .

ومن ذلك ان جل مترجميه اعترفوا ان الثورة العرابية المصرية من اثر دعوته ، اذ كان لكلامه اثر عميق فى ايقاظ الناس ، وتنبيههم الى حقوقهم ، فاتجه الناس الى نقد تصرفات أصحاب السلطان ، واخذت تتضاءل عقيدة سيادة الحاكم ، وحقه المطلق فى التصرف فى شؤون الرعية والذى استدل عليه كثير من مؤرخى الثورة العرابية هى قوله « وليس هناك شك فى ان لجمال الدين يدا فى الحركة العرابية ومن المحقق ان المبدأ الوطنى الذى سيطر على تلك الحركة من غرسه » وايد نظريته بما كتبه الامير شكيب ارسلان فى الموضوع حين قال « وان كان هب على ذلك الزرع من سموم الجهل ونقصان التربية السياسية ، ولفحة الدسائس الاجنبية ، شأن تلك الدسائس على كل نهضة تحدث فى الشرق ، أو حركة اصلاح تشفق من ورائها الدول ان تتمزق حجب الغباوة التى هى اصدق عوامل الاستعمار » (6) .

كما كان لخطبه على قلتها فى التجمعات الجماهيرية تأثيرها فى الثورة . سجلت خطبة قالها فى الاسكندرية قبل خلع الخديوى اسماعيل بمدة قليلة قال فيها مخاطبا الجماهير « انت أيها الفلاح المسكين ، تشق قلب الارض لتستنبت ما تسد به الرمق ، وتقوم باود العيال ، فلماذا لا تشق قلب ظالمك ؟ لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة اتعابك » . (7)

ولنواصل حديثنا عن مراحل حياة المترجم بعد مغادرته مصر فانه قصد حيدر اباد بالهند الا انه بمجرد اندلاع ثورة عرابى نقل من حيدر اباد الى كلكوته التى الزم بالاقامة الاجبارية فيها ، ثم اذن له فى الذهاب الى أوروبا ، فغادر الهند ومر فى طريقه الى باريس على لندن ، واختار الاقامة بباريس ، لما كانت تتمتع به من سمعة اكتسبتها من ثورتها المشهورة ، فأنشأ فيها جريدة « العروة الوثقى » التى اسند رياسة تحريرها لتنميذه ــ الذى لحق به فيها ــ وهو الشيخ محمد عبده ، وقد تمكن من اصدار ثمانية عشر عددا منها ثم تعرضت طريقه صعوبات ، حيث منعت الجريدة من الدخول الى الهند ، وصودر كثير من اعدادها فى بقية البلدان التى كانت تخضع

(6) حاضر العالم الاسلامى شكيب ارسلان ج 2 ص : 289 ــ 303 .
(7) « حوليات مصر السياسية » أحمد شفيق باشا .

للنفوذ البريطاني مباشرة أو بواسطة فخاب امله في بلاد الحرية وغادرها سنة 1303 هـ 1885 م .

اهتم كثير من المؤرخين بترجمة مراحل حياة جمال الدين الافغاني ، وهذه التراجم وان اختلفت في بعض تفاصيلها أو في بعض المؤثرات عليها . فكادت ان تتفق في مجموعها على صدق نية الرجل ، وشجاعته المثالية ، ونزاهته . وقبل ان نتعرض لنماذج من انطباعات مترجميه نذكر انطباعات بعض المعاصرين منهم على طريقة اللف والنشر الغير المرتب ، أي نبدأ بآخر مترجميه الذي قال في ختام ترجمته اياه « مات جمال الدين في القسطنطينية في أواخر القرن التاسع عشر مصابا بالسرطان في لسانه ، ولهجت الالسن بعد ذلك انه ذهب ضحية خصومه كما هي العادة في الشرق ، وهذه شائعة لا أثبتها ولا انفيها .

ولكن ماذا كانت حياة جمال الدين الذي كان من عظماء العالم ؟

انه كان كسقراط في حكمته وقدرته على تكوين الرجال .

وكان كابن خلدون في علمه واتساع دائرة معارفه .

وكان كديموستين في فصاحته وخطبه لقد عاش مضطهدا مطاردا ، ولم يتمكن في واحدة من الممالك الاسلامية الشرقية التي عاش فيها واحب خيرها ، وخدم شعبها ، من ان يعيش عيشة راضية ، أو يتمتع بحياة هادية ، ولم يؤسس أسرة ، ولم يبن بيتا ، ولم يدخر مالا ، ولم يتول منصبا ، بل عاش عيشة المفاليك المشردين ، يبيت ليلته ولا يدرى اين يكون صباحه . ومع ذلك فهو الرجل الوحيد الذي ايقظ الشرق من رقدته التي نامها سبعة قرون ، منذ اجتاحه المغول من الشرق ، والاوربيون من الغرب ، هو الرجل الذي انهض الشرق بعد ان يئس كل من عداه من ايقاظه » اهـ (8) .

وقال عنه الكاتب الفرنسي ارنست رنان (9) Ernest Renon الفيلسوف الشهير قال « كنت اتحدث اليه ، فكان يخيل الى من حرية فكره ونبالة طبعه ، واخلاص

---

(8) نشرته جريدة « Les Débats » الباريسية في عددها المؤرخ في 19 ماى 1883 نقله عنه د. عثمان أمين في تأليفه « رائد الفكر المصرى محمد عبده » ص 305 .

(9) علماء في وجه الطغيان ، لمحمد رجب البيومى .

قلبه ، انى أرى وجها لوجه احد معارفى القدماء ، وانى أشهد ابن سينا أو ابن رشد أو واحدا من أولائك الاحرار العظام ، الذين مثلوا خلال خمسة قرون ، تقاليد الفكر الانسانى » اهـ ٠

ولنرجع الى مواصلة الحديث عن نماذج من انطباعات بعض المؤرخين الذين ركزنا دراستنا هذه على شهاداتهم وآرائهم اذ كانوا ادرى الناس بترجمته ٠

ومن هؤلاء الامير شكيب (10) ارسلان الذى قال عنه « كان جمال الدين سيد النابغين الحكماء ، وأمير الخطباء البلغاء ، وداهية من أعظم الدهاة ٠٠٠ فلهذا كان المنهاج الذى نهجه عظيما ، وكانت سيرته كبيرة ، فبلغ من علو المنزلة فى المسلمين ما قل ان يبلغ مثله سواه ، وكان سائحا جوابا ، طاف العالم الاسلامى قطرا قطرا ، وجال غربى أوروبا بلدا ، بلدا ، فاكتسب من هذه السياحات الكبرى ومن الاطلاع العميق والتبحر الواسع فى سير العالم والامم علما راسخا واكتنه اسرارا خفية ٠٠٠

وكان جمال الدين بعامل سجيته وطبعه وخلقه داعيا مسلما كبيرا ، فكأنه على وفور استعداده ومواهبه انما خلقه الله فى المسلمين لنشر الدعوة فحسب ، فانقادت له نفوسهم ، وطافت متعاقدة من حوله قلوبهم ، فليس هناك من قطر من الاقطار الاسلامية وطئت أرضه قدما جمال الدين ، الا وكانت فيه ثورة فكرية اجتماعية ، لا تخبو نارها ، ولا يتبدد أوارها ، وكان يختلف على السنوسى منهاجا ، فجمال الدين انكب على السياسة وشؤونها ، وذلك ـ أى السنوسى ـ على علوم الدين وترقيتها ٠

غير ان السيد جمال الدين الافغانى كان أول مسلم ايقن بخطر السيطرة الغربية المنشرة فى الشرق الاسلامى ، وتمثل عواقبها فيما اذا طال عهدها ، وامتدت حياتها ، ورسخت فى تربة الشرق ، وادرك شؤم المستقبل ، وما سينزل بساحة الاسلام والمسلمين من النائبة الكبرى اذا لبث الشرق الاسلامى على حال مثل حاله التى كان عليها ٠ فهب جمال يضحى نفسه ، ويفنى حياته فى سبيل ايقاظ العالم الاسلامى ، وانذاره بسوء العقبى ، فلما اشتهر شأن جمال خشيت الحكومات الاستعمارية أمره ،

---

(10) نقل د٠ عثمان أمين فى تاليفه « رائد الفكر المصرى محمد عبده » ج 1 ص 305 ٠

وحسبت له ألف حساب ، فنفته بدعوى انه هائج ، ولم تخف دولة جمالا وتضطهده ، مثل ما خافته واضطهدته الدولة البريطانية ، فسجنته فى الهند مدة ، ثم اطلقت سراحه ، فجاء الى مصر حوالى سنة 1880 ، وكان له يد فى الثورة العرابية ، التى أوقدت نارها فى وجه الغربيين ، فلما احتل الانكليز مصر سنة 1882 نفوا جمالا للحال فزايل مصر ، وأنشأ يسيح فى مختلف البلدان ، حتى وصل الى القسطنطينية ، فتلقاه عبد الحميد ، بطل الجامعة الاسلامية بالمبرة والكرامة ، وقربه منه ، ورفع منزلته فسحر جمال السلطان الداهية ، بتوقد ذكائه ونفسه الكبيرة ، فقلده السلطان رياسة العمل فى سبيل الدعوة للجامعة الاسلامية ، ويغلب ان ما ناله السلطان عبد الحميد من النجاح فى سياسته ، فى سبيل الجامعة الاسلامية ، انما كان على يد جمال الدين الافغانى المتوقد الهمة ، المشتعل العزم ، والتحق جمال الدين بالرفيق الاعلى سنة 1896 شيخا وعاملا كبيرا فى سبيل النهضة الاسلامية حتى النفس الاخير من انفاسه » اهـ كلام شكيب ارسلان . والنموذج الثانى من هذه النماذج ما قاله الكاتب الشهير محمد لطفى جمعة فى تأليفه « حياة الشرق : دوله وشعوبه وماضيه وحاضره » قال تحت عنوان « الزعماء فى الشرق » .

« لقد ظهر فى الشرق زعماء سياسيون كثيرون ، بل فى كل ناحية من ناحيات الشرق العربى ، وفى مصر خاصة ، ونحن نذكر منهم على سبيل المثال جمال الدين الافغانى واحمد عرابى ومصطفى كامل وسعد زغلول .. الى ان قال « أما جمال الدين الافغانى فكان فى الحقيقة مصلحا عاما للدين والسياسة والاجتماع ، ولكن السياسة كانت الصبغة الغالبة على مبادئه ، ولعله اتخذ الاصلاح الدينى ، والاصلاح الاجتماعى ونشر الفلسفة وسيلة للاصلاح السياسى ، لانه كان يرى ان اصلاح السياسة يصلح كل شىء ، وكان الاصلاح السياسى فى نظره ، ينحصر فى نقطتين : الاولى ، تحرير الشعوب من الحكم الاستبدادى ، أى من ظلم الحكام الشرقيين المطلقين ، الذين كانوا لعهده فى فارس والافغان وتركيا ومصر ، وعندما ظهر لاول عهده ، لم تكن أوروبا قد هجمت على الشرق هذا الهجوم الفظيع ، بل كان الانجليز فى الهند وحدها ، والفرنسيون فى الجزائر ، ونظر بعد ذلك فى تخليص امم الشرق الواقعة تحت حكم

الاجنبى ، وارتأى الخلاص الشعوب الاسلامية مما كانت واقعة فليه لعهده ، تأليف الجامعة الاسلامية تحت رعاية الخليفة ، ولم يكن لعهده رجل يصلح لتولى هذا المنصب سوى السلطان عبد الحميد ·

لقد لجأ الافغانى أولا الى الملوك انفسهم ، وحاول هدايتهم بالعلاقة الشخصية ، وقد نجح فعلا فى اقناع شاه الفرس بضرورة اعطاء الدستور الى شعبه ، وتمكن من قلب الشاه ، وبذل له الاخلاص كله ، وامتزج بالمصلحين من الشعب الفارسى ، بعد ان استمالهم اليه بعقله وعلمه وفصاحته وشخصيته الجذابة · ولما اضطهد وتآمروا ضده ، سافر الى بلاد الهند ، وشعر الانجليز بقوته ونفوذه فنفوه ، فذهب الى الافغان وكانت مملكته تتناهبها المظالم · وهى واقعة تحت السلطة الانجليزية ، لانها خطر على أبواب الهند ، فلم يكن الدور الذى لعبه فيها عظيما ، ولكنه لقحها ، وترك فيها خميرة صالحة كما ترك خميرة فى فارس ، وكما ترك آثاره فى الهند » اهـ ·

وقبل ان أنهى هذه الدراسة ، نرجع مرة ثانية الى تتبع مراحل حياة جمال الدين بعد خيبة امله فى باريس كما تقدم ، الا ان مدة اقامته فى باريس تركت اثرا محمودا ، فعلاوة على الاعداد التى اصدرها من جريدة العروة الوثقى ، والتى رددت صداها الاوساط الشرقية والغربية ، فانه اغتنم فرصة وجوده بها ، ليرد على بعض الكتاب الاوروبيين ، الذين كانوا يتطاولون على الاسلام ، وكان من بين هؤلاء ارنست رينان Ernest Renon الذى ذكرنا انطباعاته عن جمال الدين ، وقد سبق لجمال الدين عندما كان بحيدر اباد ، ووردت عليه استفتاءات من علماء الهند عن بعض الطوائف ظهرت فيها ، فألف رسالته المشهورة « برسالة الرد على الدهريين » ، غادر باريس تلبية لطلب شاه ايران ، الذى عرض عليه ان يتخذه مستشارا للملكة ، وعندما عرض عليه الاصلاحات المستعجلة التى من بينها أحداث برلمان يختاره الشعب ، ورأى الشاه ان علماء فارس ، ونخبتها التفوا حوله سارع الى التخلص منه ومن اصلاحاته ، فنفاه ورمى به خارج حدود بلاده ، فغادر جمال الدين فارس مكرها ، ورجع مرة أخرى الى الاستانة حيث لقى الحفاوة والتبجيل من الخليفة عبد الحميد ، الذى اعد لسكناه قصرا ملكيا ، وعرض عليه أرقى منصب دينى فى الخلافة – مشيخة الاسلام – وقد اتفق

مؤرخو تلك الفترة ، ان الخليفة عبد الحميد ، كان يتفق تماما مع جمال الدين فى فكرة الجامعة الاسلامية ، الا ان هناك موانع لم تكن فى الشبان قضت على آمال الرجلين معا ، فى الجامعة الاسلامية ، التى لقيت حتفها فى مهدها ، لاخبار تطول ، وكيفما كانت أسباب الاطاحة بها ، فان المنتفع الاول ، كان الاستعمار الغربى الذى كانت تشخصه الامبراطورية الانكليزية ، وقد ظهر تاليف اثناء الحرب العالمية الاولى ، وبالضبط سنة 1917 م للكاتب الايطالى الشهير فى الاوساط الديبلوماسية وهو الدكتور أنريكو انزباطو Enrico Insabato فى تاليفه « الاسلام وسياسة الحلفاء » الذى عندما تعرض فيه لسلطة الخلافة الاسلامية العثمانية ، وخطرها ، ختم بحثه بهذه الجمل « .. من حسن الحظ لاوروبا ان « الشبان الاتراك » الذين اطاحوا بالخليفة عبد الحميد اوقفوا مسيرة « الوحدة الاسلامية » ــ الخطيرة على الغرب ــ التى كان يرعاها عبد الحميد وان تصرفهم هذا سواء كان ناشئا عن جهل أو غباوة ، حيث أرادوا استبدال « الوحدة الاسلامية » « بالوحدة التركية » فانهم أبعدوا عن الروح العربية ، وقد تفطنوا ــ بعد ان فات الاوان ــ الى هفوتهم ، وشعروا بانهم اخطأوا المرمى، وذلك عندما أعلن سلطانهم الجهاد اثناء انضمامهم فى الحرب العالمية الاولى الى المانيا القيصرية ، ثم حاولوا الرجوع عن غلطاتهم ، فسبقتهم الاحداث ، اذ انكلترا التى كانت تتبع سير هذه الاحداث عن كثب ، تبنت الحركة العربية وآزرتها (أى الوحدة العربية) .

والخلاصة ان جمال الدين الافغانى كان من افذاذ قادة الفكر وعظماء الرجال ، ترك بصمات أصابعه فى تاريخ البلاد الاسلامية غربا وشرقا ، حاول الانكليز استمالته بالمال والتاج والسلطنة فاشعرهم وهو بلباسه القومى البسيط ــ اذ كان محافظا على زيه الافغانى قباء وكساء وعمامة عجراء ــ ...

فاشعرهم وهم الذين كانوا يتصورون فيه صورة من كانوا يعرفونهم من الامراء والسلاطين عباد الفروج والبطون والقصور ، بانهم غلطوا ، وترك فى سجلاتهم كلمته التى قالها عنهم « ان تخوف حكومة بريطانيا من زائر اعزل مثلى يسجل عليها وهن

عزيمتها ، وضعف شوكتها ، وقلة عدلها ، وعدم أمنها وانها فى حقيقة حكمها لهـذه الاقطار اضعف بكثير من شعوبها » اهـ ٠

ولا غرو ان ساهمنا فى احياء ذكراه لمرور ثمانين سنة على وفاته ، بالمركز الثقافى الاسلامى ، الذى صادف الاحتفالات بذكرى المولد النبوى الشريف ، الذى امتاز فى هذه السنة بمحفل رهيب فى مدينة وهران تحت رئاسة الاخ الوزير مولود قاسم نايت بلقاسم الذى فتح سلسلة محاضرات تحت عنوان « اهتمام الامم بايامها » وامنيتنا ان نعود الى الموضوع فى فرصة أخرى ٠

بيتهوفن (1)

الفنان العبقري والثوري الاخلاقي



مولود قاسم نايت بلقاسم
وزير التعليم الأصلي والشؤون الدينية

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين.

حضرات السادة والسيدات

أود في بدء هذه الكلمة أن أشكر صاحب

(1) كلمة افتتاح الذكرى المائة والخمسين لوفاة الموسيقار الألماني والعالمي الشهير لودفيغ فان بيتهوفن (26 مارس 1827 _ 26 مارس 1977) التي أقيمت بالمركز الثقافي الإسلامي بالجزائر يوم السبت 06 ربيع الثاني 1397 هـ (26.3.1977م)

احياء للذكرى المائة والخمسين لوفاة الموسيقار الالماني والعالمي الشهير ليد فيغ فان بتهوفن •

احتفلت الجزائر بدورها بهذا العبقرى العظيم فأشرفت وزارة التعليم الاصلي والشؤون الدينية على أمسية ثقافية وموسيقية بقاعة المركز الثقافي الاسلامي بالعاصمة مساء يوم السبت 26 مارس 1977 حضرها كل من السيد مولود قاسم نايت بلقاسم، وزير التعليم الاصلي والشؤون الدينية، وعدد كبير من المهتمين بالموسيقى. نذكر منهم الدكتور بيكر، مدير معهد غوته الالماني بالجزائر، وجمهور غفير من المواطنين والاجانب الذى ضاقت به القاعة •

وقد تضمن برنامج الحفل النقاط التالية :

1) الكلمة الافتتاحية للسيد الوزير تحت عنوان : « بيتهوفن الفنان العبقرى والثورى الاخلاقى » •

2) عزف السوناة 2/1 لبيتهوفن وهى الاولى زمانيا، ألفها سنة 1795. وقد أداها الاستاذ فرانز بيتر غوبلز، الاستاذ بالمعهد للموسيقى فى ديتمولد (ألمانيا الاتحادية) •

3) محاضرة بالفرنسية تحت عنوان : بيتهوفن اليوم للاستاذ نفسه •

4) عزف السوناة رقم III لبيتهوفن وهى الاخيرة زمانيا ألفها سنة 1823 • عزفها على البيانو الاستاذ غوبلز •

5) تعليق بالعربية عن الجانب الفنى لمؤلفات بيتهوفن من طرف الاستاذ سلمان البدعيش (سوريا)، أستاذ الموسيقى بالمعهد التكنولوجى للاستاذات بابن عكنون (الجزائر) •

السعادة سفير ألمانيا الاتحادية، السيد غيرهارت مولتمان، والسيد الدكتور بيكر، مدير معهد غوته في الجزائر، اللذين بمجرد أن أعلمتهما منذ بضعة أسابيع بقرار الجزائر اقامة الذكرى المائة والخمسين لوفاة الموسيقار الألماني والعالمي الشهير لودفيغ فان بيتهوفن، أعربا لي عن استعدادهما للمساعدة بأي شيء في امكانهما لإقامة هذه الذكرى.

وكان من أحسن الصدف ان اسعفتنا روح بيتهوفن بمجيء الأستاذ فرانتز بيتر غوبلز، الأستاذ بالمعهد العالي للموسيقى في ديتمولد، لإقامة حفلتين موسيقيتين يوم 22 و23 من هذا الشهر في الجزائر، فعرضناه علينا ورحبنا به طبعا شاكرين للجميع.

ولقد سبق للجزائر أن احتفلت يوم 17 ديسامبر 1970 في المسرح الوطني بذكرى مرور قرنين على ميلاد بتيهوفن، وكان لي شرف إلقاء كلمة بتلك المناسبة.

وقد تساءل البعض إذ ذاك : مامغزى هـذا الاحتفال ببيتهوفن... أو غيره ؟

وقد أجبت عن هذا التساؤل إذ ذاك، وأشرت إلى هذا فى الكلمة التى ألقيتها بمناسبة ذكرى المولد النبوى الشريف أخيرا فى وهران، وقلت إننا نعير الاحتفال بالمناسبات الوطنية، والإسلامية عموما، بل والعالمية، أقصى الاهتمام، لما فيها من الاشادة بقيم وطنية، أو روحية عامة، وأخلاقية، أو ثقافية عالمية، والتذكير بجهود رجال أو نساء كانت فى صالح أمم، ولكن أيضا فى صالح الإنسانية كلها.

إننا نقيم الليلة ذكرى وفاة رجل من أعظم الرجال فى تاريخ البشرية، وممن قد موالها أجل الخدمات، لا فقط بتلك الروائع الفنية الخالدة التى تروح عن النفس، وتسمو بالروح إلى المدارج العليا من الروحانية والمتعة الفكرية، ولكن أيضا بما عبرت عنه من قيم إنسانية عليا هى الفيصل بين الحيوان العاقل وغير العاقل، وإن كانت تجارب

علمية حديثة أثبتت ان كثيرا من ذوات الاربع، بل والحشرات، بل والنباتات، تتذوق الموسيقى العليا وتنتعش بها أكثر من عديد من بني آدم وحواء، أو ذلك الحيوان المسمى بالعاقل، تمييزا له عن بني جنسه في كل شيء آخر غير العقل، على فرض صحة المفروض!

لقد كان بيتهوفن أول من حرر الموسيقى والموسيقاريين من التبعية لأهل القصور من القياصرة والأباطرة، بعد أن كان أصحاب الآلة - كما نقول عنهم في الجزائر - جزء من مستخدمي قصورهم، في العالم كله، لتسليتهم وتمكينهم من التفاخر بتبعيتهم لهم تماما كما كان الشعراء والضحاكون Les bouffons des rois من ضروريات البلاطات في كل من الدول الأوروبية والإسلامية، وخاصة منها الأموية، والعباسية، والأندلسية، وبصفة أخص عند سلوك الطوائف والطويفات، يضحكون هذا على حساب ذاك، ويمدحون هذا

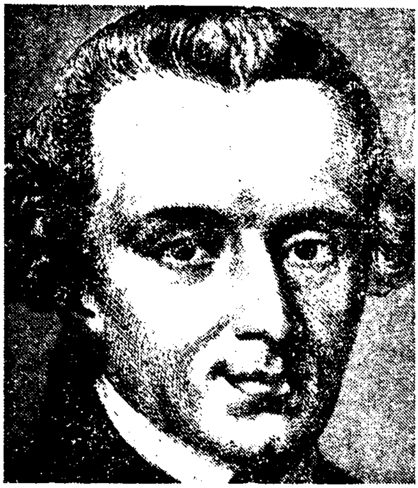
بذم ذاك، وفي كل ذلك يتنقلون من أحدهم الى الآخر حسب العرض والمكافأة المرتجاة!

فقد كان بيتهوفن أول من حطم تلك الأغلال والقيود، واستقل بنفسه، ورفض عروض أباطرة، وقياصرة، وملوك، وأمراء، في أن يضمنوا له راتبا قارا مقابل التحاقه بقصورهم، وقال لأمثال نابليون، الجاثم اذ ذاك على فيينا، ولأخيه جيروم بونابارت Jerôme Bonaparte، ملك فيستفاليا في كاسل Kassel، ولملك بروسيا في برلين، ولأمراء كثيرين في فيينا نفسها، أمثال ليخنوفسكي Lichnovski، ولوبكوفسكي Lobkovski، وكينسكي Kinsky، وغيرهم: "إن الأمراء، والملوك، والأباطرة، والقياصرة، وجدوا بالأمس، وموجودون اليوم، وسيوجدون غدا. أما بيتهوفن فهناك واحد فقط!"

قال هذا في ظروف كان في بعضها يتضوّر جوعا، كما كتب، في يونيو 1923، أي أربع سنين قبل موته،

وهو يؤلف سيمفونيته التاسعة التي ختمها،
كما نعلم، بتلك الألحان السماوية على نشيد
السرور Ode an die Freude لشيللر، كتب
بيتهوفن يقول: "من الأول إلى
السادس من يونيو... يا لها
من تعاسة... إني لم أذق طعامًا
منذ ستة أيام!".
كما لم تكن موسيقى بيتهوفن لمجرد إمتاع
الأذن، من ذلك النوع المسمى عموما في العصر
الحديث: "الفن للفن" L'art pour l'art،
بل كانت الفنون في نظره، أو على الأقل موسيقاه
هو، تعبيرا عن أفكار سامية، عن مبادئ عليا،
عن معان عميقة، كما في "فيدليو" Fidelio
التي مجد فيها الوفاء الزوجي، والحرية، والعدالة،
وكما في افتتاحية بروميثي، Promethee،
أو في السيمفونية الثالثة التي مجد فيها حرية
الشعوب، وندد فيها فيما بعد لدى تمزيق
إهدائها الى نابليون بالدكتاتورية، ونادى

بالجمهورية في فيينا القيصرية، كما أشاد في مؤلفاته عموما بالقيم الإنسانية العليا التي تجعل من الإنسان الانسان!


كنط

وربما ندين لحياته المادية الضنكة تلك، التي تحمّلها دفاعًا عن حريته، بتلك الروائع الخالدة، والانفجارات البركانية الروحية الفريدة، كما كتب شوبنهور مرة يقول: "إن المعاناة التي يصارعها العبقري كثيرا ما كانت منبتا لآثاره الخالدة".

وبيتهوفن هو الذى كان يقول: "إني لا أحسّ بالسَّعادة تغمرني إلاّ عند ما أتغلّب على الصّعوبة!".

ولقد كان بيتهوفن في تمجيده بسلوكه وموسيقاه هذه القيم العليا متأثرا بالفيلسوف الكبير إيمانويل كنط Kant الذى درس فلسفته

فى جامعة بون، مسقط رأسه، وكان يردد دائما ذلك المبدأ الرائع للفيلسوف العظيم الذى يقول: "أؤمن بالنجوم المتلألئة فى السماء فوقى والقانون الأخلاقى فى ضميرى"(1).

وذلك أن مشاكل البشرية المعذبة هى التى كانت تحركه، ولم يكن يعنى إلا بها، وفى انفجاراته أحيانا أمام الأمراء والارستقراطية العليا كان يقول: "ليعمل الانسان الخير، حيثما استطاع، وليحب الحرية فوق كل شيء، وليتحاش إنكار الحقيقة أبدا، حتى أمام التيجان!"(2).

وكان يردد تمجيده للحرية فى كل مكان، وخاصة أمام أولئك، بشكل نسميه اليوم استفزازيا، كما يشهد بذلك، من بين أمثلة أخرى عديدة،

---

1) "der bestirnte Himmel ueber mir und das moralische Gesetz in mir".

2) " Wohltuen, wo man kann, Freiheit über alles lieben, Wahrheit nie, auch sogar am Throne nicht verleugnen "

قوله لتلميذه ولي عهد النمسا: "إن الحرية والتقدم هما هدف الفن بل والحياة كلها!".

كما قال عند تمزيقه إهداء السيمفونية الثالثة لنابليون، بعد أن كان معجبا به لتحطيمه الملكيات الأوروبية، ثم توج نفسه امبراطورا، قال بيتهوفن: "إن هذا لن يختلف عن أى انسان عادى أو صعلوك، وسيدوس ابتداء من الآن بقدميه حقوق الإنسان كلها برجليه، ولن يرى أمامه إلا طموحه، وسيجعل نفسه فوق الجميع، ولن يكون إلا طاغية!".

وأين قال هذا؟ فى فيينا القيصرية!.

وقد كان مثال الجد والمثابرة فى العمل، لا يركن للراحة أبدا، وهو الذى كان يقول: "إن الأعمال فى هذه الحياة

كثيرة، ولذا فلا تركن للراحة أبداً!"(1)



غوته وهو منحن ونازع قبعته، أمام القيصر وزوجته، وبيتهوفن يواصل سيره، شامخا برأسه، بعد أن ضغط بيده على قبعته مثبتا إياها على رأسه. وبعد أن ابتعد عنهما القيصران قال بيتهوفن لغوته: "هذا أنت غوته؟" فأجابه غوته: "لا تنس يا صاحبي أنني موظف!". وموظف آخر ينظر مشدوها...

ولهذا كله وغيره كان فاغنر الجمهوري، الثوري، الذي سجن من أجل أفكاره وذاق المنفى، والمثابر على العمل والجهد، يردد دائما:

"أؤمن بالله وموتزارت وبيتهوفن!"(2)

وفي آخر هذه الحياة، قبيل موته بقليل، كتب بيتهوفن: "إن عملي قد انتهى!"(3)

"إن عملي قد اكتمل".(4)

---

1) " Viel gibt es zu tun auf dieser Erde, raste nicht ! "
2) " Ich glaube an Gott, Mozart und Beethoven " .
3) " Mein Werk ist beendet " .
4) " " " " vollendet " .

وفى مساء 26 مارس 1827 ، وعواصف الثلج تتهاطل على فيينا ، والبرق يضىء ظلماتها ، والرعد يهزجد رانها ، لفظ بيتهوفن النفس الأخير ، وغادر هذا العالم ، وشيعت فيينا الشعبية والرسمية كلها جثمانه ، وحمل نعشه كبار موسيقيي العالم ، تاركا لنا تراثا هائلا أغلب قطعه ليست فقط روائع عالمية فى قمة المتعة الروحية ، بل هى أيضا معالم فى طريق الفنانين خاصة ، حيثما كانوا ، إذن عندنا أيضا ، لوضع فنهم فى خدمة القضايا العادلة ، والمبادىء السامية ، والقيم الأخلاقية العليا ، التى تمثل موسيقى بيتهوفن أروع تمجيد لها من بين أعمال الانسان ، وهو الذى كان يقول :

"إن الموسيقى هى وحي
أعلى من كل فلسفة،
وأعمق من كل حكمة!
والذى تتفتح له موسيقاى
يتحرر من جميع المحن
التى تثقل كواهل الآخرين!"(١)

والسلام عليكم ورحمه الله.

1) " Musik ist hoehere Offenbarung als alle Weisheit und Philosophie; wem meine Musik sich verstaendlich macht, der muss frei werden von allem Elend, womit sich die Andern schleppen ".

a) Kurt Pahlen : " Musikgeschichte der Welt ".

الجوانب الفنية
فى مؤلفـات بيتهـوفن

سليمان البدعيش (سوريا)
أستاذ الموسيقى بالمعهد التكنولوجى
للاستاذات بابن عكنون (الجزائر)

ما حاولت الحديث مرة عن بيتهوفن الا وشعرت بجو من الرهبة والوهن خوفا من ان اقصر فى ايفاء ذلك العبقرى حقه واشعر دائما اننى لن افيه ذلك الحق • والمهمة تكون اصعب واشق عنـــدما يريد الانسان ان يتحدث عن موسيقى ذلك العبقرى العملاق •

يعتبر بيتهوفـن من الناحيـة الموسيقية جسرا بـين الكلاسيكية والرومانتيكية • وعندما نقول موسيقى (كلاسيكية) نقصد بذلك موسيقى الطبقة الاولى فى المجتمع اذ ان كلمة (كلاسيكية) ترجع فى جذورها الى الكلمة اللاتينية (كلاسيكوس) وهى تعنى الطبقة الممتازة والمترفة فى المجتمع • وانا لا اعتقد ان الموسيقى الكلاسيكية تعنى النوع القديم من الموسيقى بل تعنى ذلك النوع من الانتاج الذى يخلد على الزمن الذى لا يستطيع أن يمسحه بطابع القدم • بل هو ذلك النوع الرائع على مر الايـام متجدد الشباب والحياة مهما تقادم به العهد •

كان على محترفى الموسيقى فى العصر الكلاسيكى أن يكتبوا الالحان لاسيادهـم بالاسلوب الذى يرضى عنه السادة لا الموسيقيون • ولكن بيتهوفن يخالف هذه القاعدة فيما بعد • لقد قال عازف الارغن (كريشيان نيف C. Nefe) مرة لبيتهوفن عندما

(1) ألقاها فى المركز الثقافى الاسلامى بالعاصمة بمناسبة الاحتفال بالذكرى 150 لوفاة بيتهوفن يوم 6 مارس 1977 •

كان طفلا صغيرا : ان الموسيقى الحقيقية التى يكتب لها الخلود انما هى الموسيقى التى تعبر عن نفسية مؤلفها واتجاهه الخاص فى الحياة • وانى اعتقد ان هذا المستوى قد حفر فى ذاكرة ذلك الطفل •

لم تكن قيمة الموسيقيين فى القرن الثامن عشر باحسن من قيمة خدم القصور ولم تكن الموسيقى الا لوحة ترسم مجتمعات النبلاء وعاداتهم دون أن تفصح عن مشاعر الموسيقى أو تعبر عن نفسيته • لقد كان الفنان عبدا لطبقة من حكام الشعب ومستبعديه • وتميزت الموسيقى بطبقيتها •

ولكن تلك القوة السجينة تمردت على السجن والسجان وما لبثت اناشيد الشعب واغاريده ببساطتها وحماسها أن طغت على تلك الانغام الرتيبة الرزينة وهكذا بدأ الفن الطبقى ينهزم أمام الابداع الشعبى امام موسيقى الجماهير وبدأت الآفاق الواسعة تتراءى لاعين الانسان المتحرر وخرج الفنان من القصور والكنائس الى العالم اللامتناهى فوجد فى الطبيعة والشعب مأوى له ومصدرا لالهامه •

وما أن توطدت دعائم النهضة والتحرر حتى بدأ الفنانون يعودون بانظارهم الى الفنون القديمة من شعر أو موسيقى وكلها ترجع فى جذورها الى الرومان والاغريق فأخذوا يغترفون من ينابيعها ويتغنون بأساطير القدماء من اقاصيص حب وسحر ومن هنا دعيت هذه الحركة الجديدة بالرومانتيكية •

جاء بيتهوفن ليحرر الفنان من الاستعباد وليفرض احترامه على كل من حوله • ترك بيتهوفن القصور ليعيش بين احضان الطبيعة وليشاركها افراحها عند تفتح الزهور وتطاير الفراش • أو احزانها عند تساقط الاوراق فى الخريف • أو غضبها عند العواصف وانهمار الامطار •

خرج بيتهوفن بالموسيقى السجين ليشترك فى الحركات الشعبية ويتاثر بما حوله من أحداث ويعبر عنها بحرية • واذا بيتهوفن يتراءى له نابوليون فى ثياب البطل المنقذ فيعجب به كابن بار للثورة الفرنسية ويكتب من اجله سينفونية (البطولة) ولكنه يحتقر نابوليون عندما يتحول الى غاز تجتاح جيوشه أوروبا لتعمل فيها تخريبا

وتدميرا فيعدل فى احدى حركات تلك السنفونية ليضمنها (نشيد الموتى) الموتى الذين ذهبوا ضحية جشع نابوليون واستبداده ، وهكذا فبعد ان كانت تلك السنفونية تحية اعجاب لنابوليون اصبحت صفعة فى وجهه وتعد هذه السنفونية فتحا جديدا فى عالم الموسيقى اذ تعتبر حدا فاصلا بين الموسيقى الطبقية وموسيقى الشعب ·

وخرج بيتهوفن بالموسيقى من عالمه الضيق فاذا به يفر بنفسه وبمقدرات الانسان ومصيره واذا به يثور فى وجه القدر الذى كان لامد قريب السيد المطلق واذا بعبقرية الفنان تقدم للانسانية السنفونية الخامسة (القدر يقرع الباب) ويستغرق بيتهوفن فى جولاته الريفية فيؤثر فيه جمال الطبيعة الاخاذ الذى كان يحلو له أن يتلمسه فى ساعات الصباح الباكر فيهدينا ويهدى الطبيعة السنفونية الريفية (السادسة) ·

وعندما يحاول ذلك الفنان المؤمن بالانسان الكتابـــة الغنائية نجـــده يرفض الاقاصيص التى تدور حوادثها فى قصور النبلاء لتكون موضوعا لغنائيته بل يلتصق بالشعب ويختـــار قصـــة فريدة من نوعها فى ذلك العصر تـــدور حوادثها فى بيـــوت أناس بسطاء وهو بذلك يبلغ أوج اتجاهه الشعبى ·

هناك من يضع بيتهوفن فى قائمة الكلاسيكيين · وآخرون يجعلـــون منه قائـــد الرومانتيكيين المتمردين ، ومهما اختلفت الآراء فهو بحد ذاته مرحلة من مراحل التطور الموسيقى · وهو بيتهوفن الذى يشكل وحده عالما موسيقيا قائما بذاته ·

مراحل التأليف الثلاث عند بيتهوفن :

قسم النقاد مراحل التأليف عنـــد بيتهوفن الى ثـــلاث معتمدين بذلك على مؤلفاته السنفونية باعتبار ان السينفونى يعتبر المحك الحقيقى للمؤلف لانها اشبه بكتاب فكرى يناقش فكرة معينة أو موضوعا معينا ·

1 ـ **المرحلة الاولى** : وكان فيها مقلدا ومحاكيا لمن سبقه من الموسيقيين امثـــال هايـــدن وموزار · وخلالها كتب السنفونيتـــين الاولى والثانية اللتـــين لا نجـــد فيهما

الحانا تدل على شخصية بيتهوفن القوية · ومن مؤلفات هذه الفترة الكونسيرتو الاولى للبيـانو ·

2 ـ **المرحلة الثانية** : ويمكن تسميتها مرحلة الانطلاق غير الكامل وفيها حاول ان يبنى لنفسه أسلوبا اقامه على حرية الانغام مع تقيد بسيط بالقواعد المتبعة · وقد طبق أسلوبه هذا بنوع خاص على السونات والرباعيات والسينفونى · ومـن الحان هذه المرحلة السنفونية الثالثة (البطولة) التى تحدثنا عنها سابقا ، والسنفونية الرابعة المسماة (انشودة الغرام) وهى التى تروى قصة حبه لـ (تيريزا دو برونسفيل) وتعتبر فترة حبه لتيريزا اخصب فترة فى حياته التأليفية اذ انتج فيها كثيرا مـن الرباعيات والسونات وكونسيرتو للكمان والكونسيرتو الرابع للبيانو · وفى عـام 1807 تمخضت عبقرية بيتهوفن عن اعظم سينفونيتين فى العالم وهما الخامسة (القدر يقرع الباب) والسادسة (الريفية) ثم اضاف عام 1812 سينفونيتين جديدتين هما السابعة التى قال عنها بيتهوفن : « انـا باخـور الذى يعصـر الخمـرة للانسـانية ويعطى الارواح النشوة الالهية » وقال عنها الموسيقى الكبير فاغنر : « ان السينفونية السابعة ، هى انشودة راقصة عبث كثيرا من الخمر » وقال أيضا : « ان بيتهوفن ارادنا ان نخوض معه البحر الزاخر من رغباته التى لا تحدها حدود ، بسفينة صغيرة يدير دفتها بقوة يحاول بها ان يقطع البحر الى أراضى تملأ النفوس بالامل » · ثم السنفونى الثامنة التى تتصف بالرقة والجمال واتساق الحانها واطلق عليها اسم (السنفونى الصغيرة) ·

3 ـ **المرحلة الثالثة** : تبتدىء عام 1817 ـ 1818 وهى مرحلة الثورة الكاملـة والتحرر التام من القيود الكلاسيكية وفيها ترك بيتهوفن الانغام الضاجة فى رأسه تقود عبقريته·ومن أهم مؤلفات هذه الفترة سونات سماها بيتهوفن الصراع بين العقل والقلب كانت نهاية الابداع ونهاية ما يصل اليه الفن من سمو وابداع، وعدد آخر من السونات والرباعيات وبعض المقطوعات سميت المقطوعات الايكوسية والارلندية · ثم قداسه الحافل والسنفونية التاسعة والاخيرة · وتعتبر هذه السينفونى مع القداس وسونات الصراع بين العقل والقلب أوج التحرر والثورة الكاملة على الاوضاع الفنية

والقيود الكلاسيكية وتعتبر الحركة الاخيرة من درته التاسعة والتى ضمنها نشيد الفرح للشاعر (شيلر) اقصى ما يمكن ان يبلغه الفكر فى الفرح الانسانى ٠

على ان ناقدا اسمه (دى لنز) هاجم النقاد الذين قسموا موسيقى بيتهوفن الى ثلاث مراحل فقال فى كتابه (بيتهوفن وأساليبه الثلاثة) :

يخطىء من يظن ان بيتهوفن انتقل بمؤلفاته وفق تطور خاص منظم ، لان الحقيقة الواضحة التى تبرهن عليها مؤلفاته تدل على انه كان يتطور وينتقل بمؤلفاته من مرحلة الى أخرى مباغتة وفى فترات متباعدة من الزمن وهذا يرجع الى ان تطور موسيقاه كان تطورا يمكن القول عنه انه تطور طبيعى ، لا تطور وفق نظام اعده لنفسه ، لان موسيقى بيتهوفن نفسها كانت تطورا لافكاره ومبادئه التى اعتنقها وسار عليها ٠

اكتفى بهذا العرض الموجز والمكثف عن موسيقى بيتهوفن واذا كان لابد من كلمة أخيرة فأقول ان بيتهوفن عبقرية لم تتكرر منذ أكثر من مائتى عام ٠

عبد الحميد بن باديس
الرجل العظيم

احمد توفيق المدنى
وزير مفوض

بسم الله والحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله



سادتى الجلة اخوانى الفضلاء ، سيداتى الصالحات • اننا نجتمع اليوم ، كما كنا نجتمع فى مثل هـذا اليوم منذ قرابة الأربعين سنة ، وعيوننا دامعة ، وقلوبنا خاشعة ، فى ذكرى بطل من أكبر ابطالنا ، وعظيم من ابرز عظمائنا ، وقائد من ألمع قادتنا التاريخيين ، عبر مئات الاجيال • ذلك الذى اتخذ العلم سلاحا ، وتسربل العقيدة وشاحا ، فنفخ فى الامة روح الامل ، وبذر فيها بذور العمل ، وتقدم عملاقا فى ميادين الكفاح ، دون وهن

(I) محاضرة القيت فى المركز الثقافى الاسلامى بالعاصمة بمناسبة الذكرى السابعة والثلاثين لوفاة الشيخ عبد الحميد بن باديس يوم I6 أفريل 1977 •

أو وجل ، فسطع النور من فمه ومن قلمه ، وتقشعت السحب ، وارتفع صوت الحق ، ووهنت حجة المبطلين ، وتلاشت اكاذيب وترهات الدجالين ، فى السياسة وفى الدين ، واخذ شعبنا العملاق يسير منذ تلك الايام قدما نحو اهدافه السامية ، مستنيرا بتلك المبادىء ، سالكا ذلك الطريق المستقيم طريق الفدائية فى العلم والعقيدة ، وطريق الفدائية فى القراع والجهاد .

ذلك هو الرجل العظيم الذى غرس فأكلنا ؛ والذى بنى فسكنا ؛ والذى عبد الطريق فسلكنا ؛ والذى فجر نور الهدى واليقين فاستضأنا ، أى وربى ، ذلك الرجل العظيم هو عبد الحميد بن باديس .

فاذا كانت الجزائر الحرة المستقلة ، وهى ترتع تحت اعلام النصر المبين ، قد اتخذت من يوم ذكراه الخالدة ، عيدا للعلم ، ومهرجانا للثقافة ، فقد وفته حقه ، وخلدت ذكراه .

لنقف هنا قليلا، أيها السادة، قبل الالمام بتطورات هذه الحياة القصيرة بمداها ، الطويلة بآثارها ، لنعرف ما هى حقيقة الرجولة الكاملة ، وما هى عظمة الرجـــل فى التـــاريـــخ .

ليس الرجل هو الذكر البالغ من بنى آدم ، كما يعرفه الاقدمون ، فالذكور قديما وحديثا كثرة كاثرة ، اما الرجال الحقيقيون فهم ندرة غالبة ، ولقد يمر جيل ، أو تمر اجيال بشعوب عدة ، لا تعرف فيها رجلا ، تعيش خلالها عيش السائمة ، وتموت خلالها موت الحشرات حتى اذا ما قيضت لها العناية الالهية رجلا حقا ، اخرجها الله به مـــن الظلمات الى النور وبوأها به مقاما محمودا بين الامم .

انما الرجل الحق ، أيها السادة والسيدات ، هو الرجل الذى يعيش بفكره ، ويحيا بقلبه ، ويشعر بادراكه ، ويسخر الحياة وما فيها لنفع المجموع ، ولا تسخره الحيـــاة لخدمة الجسم الفانى وشهواته ، ومطالبه .

انما الرجل الحق ، أيها السادة والسيدات ، هو الذى يسير بقوته المجتمع ، الى حيث يريد هو ، لا الذى يساير المجتمع ، ويذوب ويتلاشى فيه ، ويضمحل معه .



الامام الشيخ عبد الحميد بن باديس

انما الرجل الحق ، أيها السادة والسيدات ، هو الذى ينشأ لغاية ،ويعمل لهدف ، ويسعى لعظيم تستفيد منه الجماعة ، ولا يستفيد هو من الجماعة . يذوب فى سبيل النفع العام ، ويتخذ من كل قواه سلما تتدرج عليه الامة نحو المعالى والكمال .

انما الرجال الحق ، هو صاحب المبدأ الذى لا يتزعزع ، والعقيدة التى لا تؤكل من اطرافها ، والسعى المتواصل الذى لا يكل ولا يمل ، والايمان الراسخ الذى تذوب الجبال ولا يذوب ، يقول كلمة الحق فى وجه الظالمين ولا يخاف عقباها .

ان هذا الرجل ، بهذه الصفات التى ذكرت ، هو عبد الحميد بن باديس !

ثم ، ما هى العظمة ، سادتى وسيداتى ، بالنسبة للرجل ؟

اننا لا نفسر هذه الكلمة لغويا ، ولا نفسرها فلسفيا ، فالتفسير اللغوى والتفسير الفلسفى لا يكفيان عندى لبيان المعنى العميق لهذه الكلمة : انما تفسيرها التاريخى ، اذا ما نحن وعينا التاريخ واستخرجنا منه حكمته وفصل خطابه هى : فناء الفرد فى سبيل المجموع ، بصفة يبقى اثرها حيا فى ذلك المجموع اجيالا عديدة ، بعد فناء الفرد .

فاذا ما نحن أخذنا بهذا التعريف ، وجدنا ان الرجل العظيم حقا ، فى النصف الاول من القرن العشرين ببلادنا ، هو عبد الحميد بن باديس .

بهذه الصفات ، وبهذا التعريف ، نستطيع ، سادتى وسيداتى ، ان نمر سراعا ، كما يشاء الوقت ، لا كما نشاء نحن ، بحياة هذا الرجل العظيم ، هذا العبقرى الملهم ، هذا الذى قلت عنه ما اعتقده فيه ، عندما تشرفت باهداء كتابى « محمد عثمان باشا داى الجزائر » اليه : « الى الرجل الذى احيا أمة ، وانشأ جيلا ، وكان شخصه الكريم نقطة الاتصال بين الجزائر الغابرة الماجدة ، والجزائر الحاضرة المجاهدة ، والجزائر المقبلة الخالدة ، الى عبد الحميد بن باديس ، رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، الراسخ فى الاعماق أصلها ، والمرتفع الى العلياء فرعها » .

اننا نرى العبقرية ونرى النبوغ ملازمان لهذا الرجل العظيم فى كل أطوار حياته ، منذ ان كان صبيا يجلس فى الكتاب لحفظ القرآن الكريم ، الى ان توفاه الله ، بعد اداء رسالته راضيا مرضيا ، وما بين تلك الجلسة المباركة ، وهذه الميتة المبكرة ، وهو

لا يزال فى سن العمل والاجهاد ، آيات بينات من جهاد ، وتضحية ، وثبات ، ونفع ، وارشاد ، وكتابة ، وخطابة ، ونصر للحق على قلة أنصار الحق ، ودحض للباطل ، على كثرة أنصار الباطل . « **ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم** » .

عرفت الرجل العظيم عشرين سنة . وجاهدت الى جانبه جهادا موفقا ميمونا ما يزيد عن العشرة أعوام . فإذا ما تحدثت اليوم عنه ، وعن كفاحه ، وعن جهاده ، وعن فضائله ، فانما اتحدث حديث الشاهد المؤمن بقوله تعالى : « **ولا تكتموا الشهادة ، ومن يكتمها فانه آثم قلبه** » . وقوله عز من قائل : « **وما شهدنا الا بما علمنا** » .

كان أول عهدى به ، بين رحاب جامع الزيتونة الرفيع العماد ، أيام كان كعبة القصاد ، فى حلقات حية عامرة ، فيها العلم ، وفيها التقوى ، وفيها الصلاح . اتلقى على شيوخ جلة فيضا من العلوم ، اتسعت بها المدارك ، وسما بها الفكر . كنت مبتدئا يومئذ فى التعليم العالى ، وكان رجلنا العظيم منتهيا . وبينى وبينه فى السن عشرة أعوام . انما تلقينا معا على العلامة الشيخ محمد النخلى ، دروسه المجمعية فى علم التفسير ، وكان عبد الحميد يناقش ويجادل ، ولا يترك صغيرة ولا كبيرة الا تصدى لها بحثا عميقا ، وكان الشيخ محمد النخلى ، كما كان كبار الطلبة يعجبون بتلك المناقشات الباهرة ، والمجادلات العميقة التى تفتح أمامهم افاقا فسيحة من الفهم والادراك . والغوص العميق فى معانى القرآن الشريف ، واعجازه .

وكنا نجتمع حول كتبى واحد ، هو محمد الامين ، نطلع عنده على كل جديد اخرجته مطابع الشرق ، كنا نطالع كثيرا ، ولا نشترى لقلة المدد الا قليلا . وكان الطلبة يصولون ويجولون فى أغلب الميادين ، خارج ساعات الدراسة ، اما الشيخ فكان يؤم توا غرفته البسيطة ، يطالع ويدرس ، ويخطط للمستقبل ، لا يجادل الا فى علم ، ولا يتحدث الا عن مستقبل الجزائر الذى كان يريد بناءه من جديد ، فوق أسس من الدين والعلم ، والهدى والجهاد .

ثم افترقنا ، ولكل وجهة هو موليها ، فاستبقوا الخيرات ، وأم مسقط رأسه قسنطينة الغناء ، حيث رفع لواء التبشير العلمى ، وجاهر بدعوة التجديد والاصلاح ،

سائرا مع القاعدة القرآنية : « **ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسن**» . فالغاية عنده هي الوصول بالشعب الى المستوى الرفيع الذى يحطم ويلات الحاضر الاليم ، ويقيم أسس الجزائر المقبلة ، الواعية العاملة ، الهادفة ، بينما انضممت انا ، في غمرة من التفاؤل ، وفي اندفاع ثوري عارم ، الى صفوف الحزب الحر الدستوري الناشىء ، فما عتم عبد الحميد ان أصبح في قسنطينة نارا على علم ، وما عتم اخوكم هذا ان أصبح أمينا عاما مساعدا لحزب الاحرار الدستوريين ، ثم جمع الله بيننا بعد حين ، فاذا بنا نسير في طريق واحد لا التواء فيه ، طريق زرع أشواكا ، واكتنفته العراقيل ، وحف بالمكاره ، انما كنا نرى في آخره ، بفراسة المؤمن الصادق ، استقلال أوطاننا ، واتحاد مغربنا الكبير وسعادة شعوب الاسلام ، وارتفاع شأن الدين أعلى عليين .

قص على يوما ، ونحن بين آكام من الكتب بمكتبة الخلدونية ، قصة زيارته للحرم المدني الشريف وما رأى في مدينة الرسول ، من سمو ومن انحطاط ، وما شاهده في بعض علمائها ـ وكان فيها علماء جلة من ارتفاع في المدارك ، ومن سفالة في الاخلاق ، قال : « وقفت وقفة اجلال وخشوع أمام قبر محمد وصاحبيه ، وأحسست اني قد تجردت يومئذ من كل شوائب البشرية ، واصبحت روحا صافية طاهرة وغابت عني كل ملابسات الزمان والمكان ، وخاطبت روح محمد صلى الله عليه وسلم ، وكانني اراها فقلت : يا رسول الله هذا عهد بيني وبينك ، لأعيشن في سبيل دينك وأمتك مجاهدا ولأموتن في سبيل دينك وأمتك شهيدا ، والله على ما أقول وكيل » .

ولقد بر بوعده ، برور الرجال العظماء . فما قضى يوما من أيام حياته الغالية الا مجاهدا كريما ، وقد أخذ الداء الفتاك يستأثر بجسده الواهي ، وهو لا يأبه بذلك ولا يستمع الى أقوال الاطباء الا قليلا . ولطالما وصفوا له الدواء ، فاذا بالايام تمر تباعا ، والدواء عند رأسه باقيا على حاله . كان رحمه الله لا يأبه بالجسم ، اطلاقا ، أبدا ، بل كانت القيمة الوحيدة لديه هي الروح ، كان يتعهدها ، كان يطهرها ، كان يغذيها بالتقوى والايمان ، كان يرعاها ببث العلم بين ناشئة الشعب ، وتفجير طاقات

الهدى بين كل أفراد الامة ، وتحطيم جدران اليأس والخيبة التى أحاط بها الاستعمار بلادنا المجاهدة ، بعد تضحياتها الجمة ، وكفاحها الغزير .

قلت له يوما فى مكتبى ، وقد رأيت عليه علامات الفاقة والاعياء : يا أخى ، أمـا آمنت بان لنفسك عليك حقا ؟ اما قرأت تفسير قوله تعالى : **ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك** ، فأجاب فى هدوء غريب « كلا يا أحمد . ما عملت طول حياتى الا بهذه الآية الكريمة . ان نصيبى من الدنيا هو بث العلم ، واعداد الناشئـة ليوم رهيب ، وتجهيز الشعب بما يقوى روحه ويرجع له الامل ، وحفر الاسس العميقة التى يقيم عليها الشعب جدار حياته الحرة المقبلة . وبذلك فى نفس الوقت ، أحسن كما أحسن الله الى » .

وانتصب الرجل العظيم مدرسا ، واتخذ من مسجد سيدى قموش بقسنطينة معقلا له . وأخذ الطلبة يتوافدون عليه من كل حدب ، فغصت الرحاب ، وضاقت حلـق الدرس ، وما ازداد خبره انتشاراً ، الا ازداد عدد الطلبة حول ذلك المعقل النورانى العظيم ، الى ان أصبح ذلك المعهد الصغير يضم ما يقارب الالف من الطلبة . وكـان يلقى عليهم ، من بعد صلاة الفجر ، الى بعد صلاة العشاء ، كل يوم ما عدا الجمعة ، سبعة دروس تتناول مختلف علوم الاسلام .

ولم تكن عظمتـه ، سادتى وسيداتى ، مرتبطة بذلك الكـم من الدروس المختلفة المتباينة بل كانت العظمة مرتبطة بكيفية تلك الدروس ، بمناهجها ، بالفكرة العالية التى تمليها وتهدف اليها فقد كان فى تفسيره لآيات القرآن، وللمنتخب من أقوال الرسول، يبث آراء وأفكار ابن تيمية السلفية ، الصالحة ، ويحارب بشدة وصلابة تلك الخرافات التى الصقت بالدين ، وهو منها برىء ، وما أصبح للناس من الدهماء ومن انصـاف العلماء عقيدة راسخة من اباطيل وترهات الاسرائيليين .

لقد كان رجلنا العظيم متصلا ، منذ ان شب فى العلم عن الطوق ، بجماعة العروة الوثقى السلفية التى أسسها مصلح الاسلام العظيم ، جمال الدين الافغانى ، الداعية ، المفوه ، المحجاج ، كما اتصل اتصالا وثيقا بالشيخ رشيد رضا صاحب مجلة المنـار الاسلامى ، وراوية شيخ الاسلام محمد عبده ، وكانت بينهما مناقشات ومجادلات .

كانت كل هاتيك الافكار والمعانى ، والآراء ، تملا دروس الرجل العظيم ، وتسيل مع روعة بيانه حكمة وفصل خطاب • يتلقاها الطلبة الميامين بقلوبهم لا بآذانهم ، وتعيها أنفسهم الطاهرة ، ثم هم يتحدثون عنها ، ويبشرون بها ، ويجادلون المخالفين فيها •

اما فى التاريخ ، فقد اتخذ منهاجا ثوريا ، يقوى النفوس ، ويبعث ما نام من العزائم، متخذا من سيرة الرسول الاعظم مثلا يحتذى فى القوة والشجاعة والبأس ، ونصرة الحق ، ومحاربة الباطل ، والثبات على المبدأ ، والصبر على الاذى ، وبناء المستقبل الزاهر الشريف لبنة لبنة ؛ وجمع الفئة الصالحة من رجال الامة حول كلمة الله، ليقارع بهم الفئة الطالحة المضلة منها ، واتخاذ المواقف المختلفة ، من السماحة الى الشدة ، حسب مقتضيات الاحوال محتجا بقوله تعالى ، فى موقف اللين ، **ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن** • وبقوله تعالى ، فى موقف الشدة والصلابة : « **يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم** » •

وهكذا ، كان يتخرج من بين يديه رجال ، ودعاة ، وقادة ، رأيناهم – ولا نزال والحمد لله نرى بقاياهم – يتبوأون المقاعد الاولى فى مختلف نواحى الكفاح الاسلامى الوطنى ، وكان لهم – يشهد بذلك العدو والصديق – القدح المعلى فى معمعة الكفاح الوطنى الذى جعل لحمته الدم القانى ، وجعل سداه الارواح الطاهرة ، يقودون الكتائب ويبشرون بنصر الله الى جانب اخوان لهم اموا المعركين ، مجاهدين ، لا يعرفون الا انهم جنود الله ، وانهم يموتون فى سبيل الله • فكانوا فى ساعات الراحة ، وبين قصف المدافع وألسنة اللهب ، يجلسون الى اخوانهم أبناء باديس العظيم ، أو التابعين لهم باحسان ، يتلقون عنهم ما احرمهم الاستعمار اللعين منه ، من أسرار الدين ، وعظمة الاسلام ، وما اعده الله للمجاهدين وللشهداء •

بل ان مراكز التجمع والمحتشدات ، وساحات السجون المختلفة ، قد أصبحت بنعمة من الله وفضل ، حلقات دروس تفيض علما وحكمة وتوجيها ، تتدفق من أفواه أبناء باديس فتغذى العقول ، وتفتح الافكار ، وتجمع الى روح التضحية والفداء ، نور العلم والتقوى •

واقتحم عبد الحميد الرجل العظيم ، الى جانب ميدان نشر العلم وبث الدعوة الاصلاحية ميدانا جديدا ، هو ميدان الحياة الصحفية ـ وما أوسع هذا الميدان ، وما الذ الكفاح فيه ـ ولعل الكثير منكم سادتي وسيداتي ، لا يعلم ان ابن باديس قد استهل حياته الصحفية بمقالات متواصلة كان ينشرها في جريدة النجاح ، لاول عهدها ، ولعل الكثير منكم لا يعرف كذلك ، ان ابن باديس كان يتخذ يومئذ لمقالاته امضاء مستعارا ، هو « العبسى » مستمدا ذلك الاسم من شهامة وهمة واقدام عنترة بن شداد العبسى ·

ثم تقدم خطوة أخرى جريئة كان لها الاثر الكبير الفعال على حياته ، وعلى حياة الامة معا ، بتأسيسه لمجلة « المنتقد » التى ما عاشت الا قليلا جدا ، ولقد فوجئت الحكومة الاستعمارية وكل الاوساط الرجعية ، بتلك المجلة التى اقضت مضجعها ، فقضت عليها ، لكنها كانت قد فتحت في عالم النشر وعالم الدعوة الاصلاحية والاجتماعية ، صفحة جديدة ، خالدة ، لا تبليها الايام ·

كنا يومئذ نجتاز سنة 1925 ، وكان من ثمرة كفاحى بتونس ، فى ميدانى السياسة والمجتمع ان ضاق بى الاستعمار الفرنسى ذرعا ، وما اغنى عنه شيئا ما صدر منه نحوى من وعد أو من وعيد فاصدر أمره بابعادى عن تونس ، بسرعة خاطفة ، فما شعرت بعد ابلاغى الامر ، الا وأنا بسيارة تنهب بى الارض نهبا ، الى ان سلمتنى لمحافظ الشرطة فى مدينة عنابة · وأنا كما قال الحريرى ، لا أملك بلغة ، ولا أجد فى جرابى مضغة ، انما وجدت بعنابة أهلى وعشيرتى من أبناء الاسلام واشبال الوطنية ثم سرت بعد اقامة قصيرة الى مدينة قسنطينة ، وكأننى حللت جنة وارفة الضلال ، وكنت أكاد أشم ريح النهضة يعبق من بين جدرانها ، وتتدفق سيول الامل والعمل من بين منازلها ·

واجتمعت بالرجل العظيم ، عبد الحميد بن باديس · كان لقاؤنا نورانيا ، ما ذكرته الا واقشعر جلدى ، وتوقف نفسى لروعة ذلك اللقاء · ولجسامة ما تم بعد ذلك اللقاء ، كنت خلال أسبوع بتلك الديار القسنطينية اسبح فى بحر من نور ، واسرى فى سماء من امل ورجاء وكفاح · واجتمع برجال ابرار كانوا حول ابن باديس كالحوازيين حول عيسى ابن مريم ، ثم غادرت قسنطينة مكرها ، لافتتح بعاصمة الجزائر صفحة عمل

وصفحة أمل ، بعد ان تعاهدت مع ابن باديس وصحبه على القيام بعمل مشترك ، من ورائه حياة الاحرار ، أو موت الشهداء الابرار ·

انكم ستجدون ، سادتي وسيداتي ، حديثا مفصلا ، ممتعا على ما أظن ، طويلا ، عن هذا الاسبوع الذى قضيته فى ميدان الحياة الحرة الكريمة بمدينة قسنطينة · وقيمة ذلك الاسبوع عندى قيمة عمر كامل فى مستهل الجزء الثانى من مذكراتى «حياة كفاح» الذى سيصدر بحول الله وبفضل الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، بعد نحو الشهرين اننى لا أقول هذا دعاية لكتابى ، ولا تنويها بنفسى ، وهى لا تستحق أى شىء · بل أقوله ليعلم الناس كافة ، ودعاة العمل والاصلاح السلفى بصفة أخص ، ان التاريخ الحق لا يغفل شيئا **فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره** ·

تعهدت لابن باديس يومئذ وأصحابه ، ان أحرر لهم مقالا ، لكل عدد من الشهاب الاسبوعى يتناول السياسة الخارجية بصفة توجيهية ، من باب اياك اعنى فاسمعى يا جارة · كما اتفقنا على أن يكون مقالى خلوا من كل امضاء ، حتى لا تتخذ الادارة من ذلك ذريعة لالحاق الاذى بالشهاب ، بدعوى اننى من رجال اللجنة التنفيذية ، بالحزب الدستورى التونسى واننى اتعمد بمقالاتى تلك ، بث الروح الحرة الدستورية بالبلاد الجزائرية ·

فما كان يتعطل الشهاب الاسبوعى ، حتى خلفه الشهاب الشهرى ، فى حلة قشيبة يحمل كل شهر لقرائه ما لذ وطاب من حديث الدنيا والدين ، مبشرا بالفلاح والنصر المبين قوما مؤمنين وأسس له مطبعة خاصة به تامة التجهيز · وان مجموعة الشهاب سادتى وسيداتى ، لمن امتلكها ، لخير ذخر ، واسمى وثيقة ، تجلو الغبار عن عهد بناء مشمخر متين الاسس ، لقد كان الفاتحة الطيبة للمسيرة الصالحة الجريئة التى انشلت الامة الجزائرية من وهدة الافلاس فى السياسة ، ونكبة التنكر فى الدين ، اندفعت جريئة جامحة ، تحطم ما يستحق التحطيم ، وتبنى ما هو واجب البناء ، الى ان استوى العود ، وبلغت الامة اشدها ، فاذا بها المارد الجبار ، الذى قهر الاستعمار ، ورفع لواء الاحرار ، بفضل المجاهدين الابرار ، وللحرية والاستقلال عقبى الدار ·

ولقد تفاقم أمر الطلبة حول ابن باديس ، وجاءوه زمرا من كل آفاق البـــلاد ، كطليعة رواد ، تنهل من معين العلم ، وتتغذى بسامى الافكار ، وتتلقى من المنبع أصول التضحية والجهاد · وكان أولئك الطلبة الوافدون ، لا يجدون غالبا ما يسدون به الرمق ، فقد كانوا فى جهاد عنيف بين الروح وبين الجسم ، تلك تريد علما ، وهو موجود ، وذلك يريد غذاء وهو مفقود ·

قال المتنبى : واذا كانت النفوس كبارا ··· تعبت فى مرادها الاجسام

يومئذ ابتكر ابن باديس العظيم مشروع : صندوق الطلبة ، واعلن عنه للامة فى الشهاب ، فاذا بالاموال تتدفق على ذلك الصندوق ، واذا بالبائسين من الطلبة يجدون يوميا بواسطته ما يقيهم غائلة الجوع · فاقبلوا بارواح مطمئنة وانفس طاهرة ، عـلى العلم الصحيح وعلى الفكر الصحيح ، يعبون من ذلك عبا ، الى ان صاروا ، أو صـار أكثرهم على الاصح ، من الدعاة المصلحين ، ومن العلماء العاملين ، ومن القادة المؤمنين ·

لكن الطلبة ازداد عددهم الى ان كادت تضيق بهم المدينة الطيبة ، كما ان عـددا من أوائلهم قد تخرج من تلك المدرسة الصغيرة بحجمها ، الكبيرة باعمالها وبنتائجها فاتجه يومئذ تفكير الرجل العظيم الى ابراز مدارس التربية والتعليم الى الوجود ، وهى مدارس ابتدائية ، ما كادت تنشأ حتى انتشرت وعمت · ولقد كان تأسيسها نتيجـــة تخطيط محكم ، ودراسة عميقة ، بحيث انها كانت تهيىء الولد الصالح علميا وفكريا ، لولوج مراحل التعليم التكميلى الذى كان يباشره ابن باديس بنفسه ، وهكذا أصبحت المدارس الحرة تنمو بسرعة فى مختلف جهات البلاد ، تسودها فكرة الاصلاح الاسلامى ويغذيها الايمان بمستقبل الوطن ·

أخذت يومئذ تتصاعد نحو السماء ، أصوات شعب بعثه الله بعثا جديدا ، ينادى بالاصلاح الدينى ، والتحرر السياسى ، تغذيه العقيدة ويدفعه الشعور · والشهاب من وراء ذلك يمد الحركة الناشئة بفيض من الوعى والادراك ، واندفعت الحركة اندفاعا صاروخيا ، لا يرجع أبدا على الاعقاب ·

هنا كان رد فعل ادارة الامور الاهلية قويا ، انما لم يكن مجديا ولا فعالا ·

اوحت الى رجال الطرق الدينية التى أصبحت فى غالبها اداة ارتزاق واستثمار ، بان يحزموا أمرهم ، وان يظهروا بمظهر القوة لان حركة الاصلاح كادت تكتم أنفاسهم وتسد دونهم كل المسالك ، وهكذا نشأت فى البلاد حركة الطريقة الموحدة · واجتمع ضعيفها الى ضعيفها ، فتكونت منها عصبة ضعيفة بنفسها ، متماسكة بفضل من كان يمسك من وراء ستار شفاف بخيوطها ، وأخذت تلك العصبة تقاوم فكرة الاصلاح الاسلامى ، وتدافع كما كانت الجاهلية الاولى تدافع عن معتقدات الآباء والاجداد ·

لكن شاعرا عربيا قديما قال :

واذا أراد الله نشر فضيلة   طويت اتاح لها لسان حسود

لقد كانت هذه الحركة المبطلة شرا وبيلا على أصحابها ، ووسيلة من أحسن وسائل نشر الدعوة للاصلاح ، ولرجال الاصلاح · وقد كثر عددهم ، وبرزت صحفهم ، وشحذت اقلامهم ، فاصبح القطر الجزائرى كله ، من اقصاه الى اقصاه ، مجال معركة هائلة ، قلمية وشفوية ، بين رجال الاصلاح والوعى والمستقبل الحر السعيد ، وبين رجال الرجعية والجمود والاستخذاء ، وكما كان النصر فى معركة العلم والتعليم والارشاد مبينا واضحا ، كذلك كان النصر فى المعركة بين التطور والجمود ، مبينا ، واضحا ، وكانت صورة رجلنا العظيم ابن باديس ، تشرف على ذلك الميدان الفسيح ، كأنما هى راية النصر المبين ، وانتقلت المعركة يومئذ الى العاصمة · فلقد افلحنا سنة 1927 بتأسيس « نادى الترقى » ودعونا يوم افتتاحه رجلنا العظيم ابن باديس لالقاء محاضرة يختار بنفسه موضوعها ، فجاء رحمه الله مسرعا ، والقى تلك المحاضرة التى كانت اشبه شىء بالهام ، حركت الهمم ، والهبت المشاعر ، ورأى الناس رأى العين حقيقة ما يجب ان يقوم به العالم المعمم ، والعلماء ورثة الانبياء ، الا وهو قول كلمة الحق ، وارشاد الناس الى الطريق المستقيم ، ودفع الامة دفعا الى ما يحييها ، ويرجع كرامتها ، ويبعث مجدها ، ويبوئها مقعد صدق بين الامم الحية الناهضة ·

وكان رجلنا العظيم اذا خطب ، اتى بالعجب ، كان لا يتكلم بلسانه ، بل كان يتكلم بقلبه وشعوره واحساسه ، وكانت كل كلمة تخرج من فمه ، وكانها السهم

الصائب الذى يحيي ولا يميت ، فمن أصابه ذلك السهم ، دبت فيه بذور الحياة الابدية . كان اذا تكلم وغاص فى بحر حديثه ، اغمض عينيه حتى لا يرى الناس الا بمرآة قلبه ، وكانه يناجى كل أحد منهم على انفراد ، الى ان يقنعه واشهد اننى ما رأيت فوق رقعة أرضنا هذه خطيبا مصقعا ، يصيب المحز ، ويتغلغل فى أعمـــاق العقول والقلوب ، ويهز المشاعر هزا عنيفا ، كرجلنا العظيم ابن باديس · لقد كان فى خطبه اسمى واعلى مما كان فى كتابته · كان يكتب كتابة العلماء المصلحين ، وكان يخطب بلسان المدرهين من رجال الفكر والحكمة والسياسة ·

ولقد ام تونس يوما وهو منتدب لالقاء كلمة باسم الجزائر ، ضمن اطـار الجمعية الخلدونية فى ذكرى الراحل الكبير ، والمعلم الاول البشير صفر ، رحمه الله · وفى تونس كما تعلمون ، سادتى وسيداتى ، خطباء فحول ، ومتلكمون بلغاء · فما وصلت نوبة الكلام الى ابن باديس ، حتى تفجر ينبوعا صافيا ، يروى الناس بفيض من العلم والاخلاص والفكر الحر ، والتوجيه الصادق ويصوغ المعانى الرفيعة الدقيقة فى قوالب جميلة مستحسنة تدخل الاذن كما قيل بغير اذن ، ويتذوق السامعون لذتها ، ويعون معانيها ، ويدركون جد الادراك مغازيها ، حتى اذا ما انتهى خطابه قال الناس جميعا : هذا هــو الخطيب !!

أما نحن ها هنا بعاصمة الجزائر ، وفى عدد جم من مدن الجزائر ، فقــد استمتعنا كثيرا بتلك الخطب الفياضة الملهمة ، حتى لوددنا ان نقضى الجزء الاكبر من حياتنا ونحن نسمع ، ونستمتع ، وقلوبنا تطير فوق أجنحة الامل ، نحو المستقبل السعيد والهدف المنشــــود ·

قال يوما فى اندفاع ثورى بديع : لبئست الامة أمة يجمعها بندير ، ويفرقها عون بوليس اما هذه أمتنا أمة الجزائر ، فى ميدانها الاصلاحى ، الاجتماعى ، التحررى ، لا يجمعها الا الله ، ولا يفرق بينها الا الموت ·

وجاءت الساعة الحاسمة ، سادتى وسيداتى ، جاءت ساعة ظهور الحق ، جاءت ساعة بروز الامة نحو الحياة الحرة الكريمة ، الواعية ، الهادفة ، جاءت ساعة تأسيس جمعية

العلماء المسلمين الجزائريين . فلقد نادينا بها من نادى الترقى ، ودعونا لتاسيسها مئة من علماء القطر الجزائرى ، لا فرق بين مصلح وبين طرقى .

فلبوا جميعا النداء فى اندفاع اسلامى طاهر نقى ، واموا ساحة نادى الترقى الفسيحة يتلألأ فوق جباههم نور الايمان ، ويشرق محياهم بصدق العزيمة ، وكان جمعهم آيـة من آيات اعجاز هذه الامة الطاهرة ، التى ما دعيت لمكرمة الا استجابت ، وما انفتح امامها باب من أبواب الامل الا ولجته ، غير هيابة ولا وجلة . لقد كان ذلك جوابا عنيفا شديدا ، قاسيا للاستعمار الفرنسى الاخرق ، الذى احتفل منذ سنة بمضى مئة عام على احتلال الجزائر واذلالها وارضاخها عنوة راقتدادا لافظع استعمار ، واشنع استثمار ، ونادى يومئذ باعلى صوته : ان الجزائر قد اصبحت فرنسية ، والى الابد . وجاء علماء الجزائر ، وكانهم اشبـاح الكرامة ، برزت من اجداث شهـداء الحـرية والاستقلال ، يقولون لفرنسا ، وللعالم الذى كان ينظر وينتظر : كلا ، بل الجزائر عربية ، مسلمة ، حـرة الى الابـد .

ان صوت الامة ، كما قال الرومانيون ، هو صوت الله . فلقد خسئت منذ ذلـك اليوم كلمة فرنسا الاستعمارية ، وصدقت كلمة الامة فى ندائها بالعروبة والاسـلام والحرية ، الى الابد ، نعم الى الابد .

يومئذ فتح امام رجلنا العظيم ، الذى اختير رئيسا باجماع ، ميدان فسيح للعمل والسعى والجهاد ، يومئذ رأى عظمة المسؤلية ، خطورة الموقف ، وصعوبة الوصول الى الهدف ، ويومئذ رأينا نحن ، ويالعظة ما رأينا ، رأينا رجلا نحيلا ، ضامرا ، طـال وطال الى ان اربى على قمم الجبال رأينا عزيمة قدت من زبر الحديد ، تجلت فوق الميدان فغمرته وعمرته . رأينا ايمانا يفيض ويشع حتى ملأ البلاد نورا ويقينا . رأينا اقداما على التضحية والفداء ، يفوق كل ما كنا نعرف عن التضحية والفداء . رأينا الصورة الحقيقية لعبد الحميد بن باديس ، التى سيطرت وهيمنت على الرجال وعلى الحوادث ، والتى تضاءل أمامها كل مبطل ، والتى انهار تجاهها كل جبار عنيد .

جاءنا عبد الحميد يوما الى النادى ، وكنا جماعة ننتظر رجوعه من الولاية العامة . فقال : اليوم ادركت السر فى ان محمدا صلى الله عليه وسلم نشأ وعاش يتيما . فلقد

وقفت اليوم أمام والدى محمد المصطفى بن باديس ، وهو يجلس الى جانب ميرانت مدير الامور الاهلية ، موقفا أرجو ان يحتسبه اللـــه لى يوم القيامة • فلقد ابتدرنى ميرانت بحديث حلو العبارة مر المذاق ، وقال لى : يا شيخ ، اترك عنك هذا العار ، أخرج من هذه « الخشومة » ودع هذه الجماعة المسكينة التى جمعها عدو فرنسا بالنادى فليس هؤلاء الرجال رجالك ، وليست هذه الحثالة من الطلبة ممن يفتخر العالم بالانتساب لهم ، أو ان يكون رئيسا عليهم • قال : واستمر على هذا المنوال ، ودمـى يفـــور ، وشعورى الجريح يتأجج كانه نار ، وحاولت ان أرد الصاع صاعين ، واذا بوالدى ، وهو كل شىء عندى بالنسبة للحياة الدنيا ، يقف أمامى ، ويبكى ، ويقول : يا عبـــد الحميد يا ولدى ، ربيتك صغيرا ، وعلمتك يافعا وفتحت أمامك أبواب الحياة الهنيئة ، حتى غدوت عالما تشد اليك الرحال • فلا تفضحنى اليوم يا عبد الحميد فى شيبتى • لا تشمت بى الاعداء ، لا تتركنى للمذلة والهوان • هذا حبيبنا مسيو ميرانت لا يريد لنا الا الخير • وقد مهد لى سبل الوصول الى المركز الذى أنا فيه ، وان الاعراض عنه هو أعراض عنى أنا ، والاساءة اليه ، هى اساءة لى • ورفض طلبه هو رفض طلبى ، وقد أمر الله باطاعة الوالدين فانا آمرك يا عبد الحميد بالتخلى عن هذه الرئاسة وعن هذه الجمعية • قال : ثم انحنى أمامى وأنا أذوب ، واكب على رجلى يقبلهما ، ويبكى ويقول : لا تفضحنى يا عبد الحميد •

قال : فانتصبت واقفا ، وأنا ارتعد تأثرا لا رفقا ، وتوجهت لوالدى وقلت : حاشا ان أعصى لك أمرا ، أو ان أخالف لك رأيا • وأنا ابنـــك المطيع • الا ان هذا الذى تدعونى اليه ليس فى استطاعتى اطلاقا ، لاننى ان أطعتك فيه خالفت أمر الله • وأمر الله فوق أمر الوالد بنص القرآن ، ولقد وقف محمد عليه الصلاة والسلام مثل هــذا الموقف ، أمام أكابر قومه ووجوه عشيرته ، فراودوه على ان يترك الدعوة لله ، ولـــه ما يشاء مقابل ذلك من مال ومتاع ، فأجابهم الجواب القاطع الصارم : والله لو وضعتم الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الامر ، مـا تركته ، الى أن ينصره الله أو اقضى دونه ، هذه هى كلمتى الاخيرة يا والدى ، ويا مسيو ميرانت ، وليفعل الله بعد ذلك ما يشاء وخرجت لا الوى على شىء •

قال له علامتنا العظيم ، البشير الابراهيمي ، على الفور : طوبى لك يا عبد الحميد وحسن مآب ٠ وقمنا اليه فهنأناه وذرفنا الدموع جميعا ، فلقد اعتبرنا انتصارنا فى تلك المعركة ، مقدمة لانتصارات باهرة فى معارك أخرى ، آتية لا محالة ٠

ونشأت جمعية العلماء المسلمين ، واشتد ساعدها ، وكان من أمرها ما كان ، مما تعرفونه جميعا ، فحياة جمعية العلماء المسلمين ، قبل معركة التحرير وخلال معركة التحرير جزء كبير من حياة الجزائر ، وهى تستعد لخوض معركة من أكبر معارك التاريخ فى العصر الحديث ٠

ولا أنسى ، سادتى وسيداتى ، يوم نشر زعيم كبير من زعماء تلك الساعة ، مقالا يؤيد به سياسته ، تحت عنوان : فرنسا هى أنا ! يقول فيه انه راجع الكتب ، وجال خلال القبور وسأل الخاص والعام ، عن وطنية جزائرية ، وعن قومية جزائرية ، فلم ير لذلك أى اثر ٠ اذن ، ففرنسا هى الكل ، والكل هو فرنسا ، الى آخر تلك الخرافة ٠

كتبت ساعتئذ للشهاب مقالا أقول فيه : كلا ، ان الجزائر ليست فرنسا ٠ ولم تكن الجزائر فرنسا ، ولن تكون الجزائر فرنسا ، ان كل ما عند فرنسا يخالف كل ما عند الجزائر ، ونحن أمة جاهدت وتجاهد ، ولنا تاريخ حافل مجيد ٠ ومستقبلنا هو فى اعادة امجادنا ، واحياء تاريخنا وبعث لغتنا ٠

وصبيحة الغد ، وجدت شبحا أبيض اللون على باب مكتبى ، تبينته فاذا به عبد الحميد بن باديس قال : تلقيت مقالك ، واعجبنى واطربنى ، انما بادرت بالمجىء اليك لنتباحث فى موقف الحكومة تجاه هذه الاقوال الصريحة التى تنشر هكذا لاول مرة وهى تخالف القانون الفرنسى على خط مستقيم قلت : قد تدبرت الامر ٠ واننا لكاسبون فى قضية القومية الجزائرية على طول الخط ٠ وفى الموقف احتمالان : فاما ان يتحرك الاستعمار ضدنا ، بسجن ، أو نفى ، أو تعطيل للشهاب ، وبهذا تكون قضية الشخصية الاسلامية الجزائرية قد كسبت كسبا كبيرا ، ووضعت فى مجالها وتكلم عنها الناس شرقا وغربا ٠ وان عطل الشهاب من أجلها قدمنا مكانه مجلة أخرى ، تحمل حولها هالة الشهاب ٠ وان سكتت الحكومة متربصة بنا الدوائر ، استمر بنا السير فى هذا

الطريق الذى فتحناه • قال : هذا ما كنت أريد ان أسمعه • ورجع من توه الى قسنطينة ونشر المقال ، وكان من امره ما كان ، ولم تتحرك الحكومة ، بل حركت اذنابها •

وهل أتاكم حديث المؤتمر الاسلامى الجزائرى سادتى وسيداتى • انه حقا لحديث عجب • لقد مل بعد ذلك رجال السياسة الجزائرية ، ما تسلكه السياسة الفرنسية نحوهم من مماطلة وتسويف، وما يتخذه المستعمرون الاجلاف من مواقف مزرية مخجلة ليست منّ السياسة ولا من الانسانية فى شيء ، فجزم جماعة النواب المسلمين من كل اطراف البلاد أمرهم ، وجمعوا فى عاصمة الجزائر مؤتمرا عاما ، ما شذ عنه الا حزب الشعب الاصيل ، لان سياسته الاستقلالية لا تتفق أصلا مع سياسة أولئك النواب • فهو يريد الاستقلال وقلع جذور الاستعمار ، وهم يريدون اصلاحات تمكن الشعب من بعض حقوقه • كخطوة تتلوها بعد التنفيذ خطوات •

ولقد بلغ من أهمية جمعية العلماء تلك الساعة ، وتغلغلها فى كل الاوساط الجزائرية ، ما جعل الذين فكروا فى عقد ذلك المؤتمر يبادرون بدعوتها ، وضمها الى اللجنة الاساسية ، وكان رجلنا العظيم ابن باديس ، ممن ايد المؤتمر ، ودعا الى عقده ، وكان يعتبر انجازه كسبا عظيما للجزائر ، مهما كانت مقرراته ، ومهما كانت نتائجه • وكانت جمعية العلماء تطالب يومئذ بشدة وبقوة ، بفصل الدين الاسلامى عن الحكومة الفرنسية ، حتى يستقل المسلمون ، كاتباع الديانات الاخرى ، بامر دينهم وأوقافهم ، ومساجدهم ، وقضائهم الشرعى • وبان الاحراز على الحقوق السياسية لا يستوجب الحرمان من الحالة الشخصية الاسلامية ولقد ضغطت الجمعية ضغطا عنيفا ، الى ان قرر النواب وصادق المؤتمر الذى حضره الى جانبهم العلماء ، والمستقلون ، والشيوعيون اعتبار مطاليب جمعية العلماء من جملة بل من صميم ما يطالب به المؤتمر • واسندوا رئاسة المؤتمر ، باجماع لرجلنا العظيم ابن باديس • وكان العلماء يشاركون فى المؤتمر بصفتهم الشخصية ، لا ممثلين للجمعية •

ولم نكن نرى اطلاقا ان برنامج فيوليت يحقق رغبات الامة أو يغير وضعيتها ، ولم نكن ندافع عنه فى الشهاب وفى صحف الجمعية أو ندعو اليه • بل كنا نحمل عليه ،

ونبين عيـوبه • ومجموعات الشهاب وصحف الجمعية لا تـزال موجودة ، شاهـدة ، والحمـد للـــه •

ان الامر الذى يسجله التاريخ ، ويشهد به العام والخاص ، هو ان ابن باديس العظيم كان فى رئاسته للمؤتمر الاسلامى ، كما كان فى رئاسته لجمعية العلماء ، الرجل الحازم العازم ، القوى الشكيمة ، البعيد النظر ، المفكر العميق ، الذى ان لم يحبه الجميـــع ضمن دائرة المؤتمر فقد كان يحترمه الجميع • بل ويخضع لرأيه الجميع •

سافر وفد المؤتمر لباريس ، ليجادل الحكومة الفرنسية حول وضعية الشعــب البائسة ، وحول الوسائل التى يمكن بها نزع الاغلال عنه ، فما وجد الوفد هذه المرة ، كما لم يجد أى وفد فى المرات السابقة ، أى استعداد لاى مفاهمة • فحكومة باريس كانت ، ولم تزل خادمة لركاب الاستعمار والمستعمرين ، الى ان هوت معهم الى الحضيض تحت ضربات الثورة الهائلة •

واشتد النقاش مرة بين رجال الوفد وبين رئيس الحكومة ، الى درجة انه احتـد وجابه الوفد بقوله : لا تنسوا أيها السادة ان فرنسا معها المدافع ! فوجم القوم الا ابن باديس الذى ما كاد يسمع ذلك القول بواسطة الترجمان ، حتى جابـــه رئيس الحكومة بمثل حدته : وانت لا تنس أيها السيد الرئيس ، ان الجزائر معها الله ، وانتقل الوجوم من الوفد الى الرئيس •

وكان القدر قد تكلم ساعتئذ بلسان فصيح • وكان المصير قد تقرر تلك الساعة : فرنسا معها المدافع • والجزائر معها الله • واستمر اغترار فرنسا بالمدافع ، واستمر اعتزاز الجزائر بعون لله ، وتغيرت الاحوال ، وتقلبت السياسة، الى أن نفخ الجزائريون الابطال فى صور الثورة العارمة ، يوم فاتح نفامبر المجيد • واقتحموا الميادين باسم الله ، وقابلتهم فرنسا الاستعمارية بالمدافع • فما أغنى عنها ذلك شيئا ، ونصر الله بفضل الشهداء والتضحية الذين قاموا باسمه : **يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا اللـه ينصركم ويثبت أقدامكم !**

كان آخر موقف علنى وقفه ابن باديس العظيم ، والازمة العالمية خانقة تهـــدد العالم بشر وبيل ، هو رده ضمن مجلس جمعية العلماء ، على من قال : يجب علينا ان

نوجه برقية تأييد لحكومة فرنسا · اننا بذلك نأمن غائلة أعمالها ضدنا اذا ما اشتعلت نار الحرب ونضمن كذلك مراعاتها لحقوقنا اذا ما خرجت من الحرب منتصرة ·

أجابه ابن باديس على الفور ــ وايده كل الاعضاء ــ قائلا : كلا ، لن نرسل لحكومة فرنسا أى تأييد · انها حطمتنا واذلتنا ساعة رخائها ، فلا يجب ان نمد لها يدا ، أى يد ، ساعة عسرها · طالبنا مرارا وتكرارا ، فكانت تصم آذانها وتتجنى · ونحن اليوم نصم آذاننا عنها ، ونتجنى · وانسحب صاحب الاقتراح من الجمعية · ولم تخسر الجمعية شيئا ·

جاءت الحرب العالمية هوجاء عاتية ، وجثم المرض الخبيث على صدر رجلنا العظيم ، فالزمه الفراش ، ساعة كان الناس ينتظرون منه كثيرا ، وساعة كان مع جماعة من أصحابه الاقربين ، يستعد فى ايمان وتصميم ، لولوج معركة العزة والكرامة · وما عتم الموت الرهيب ان انتزع من ذلك الجسد الفانى تلك الروح النورانية الطاهرة ، فرجعت الى ربها راضية مرضية ، وما عاشت الجمهورية الفرنسية الثالثة بعده الا شهرين فقط فانهارت انهيار العار والشنار ، وما اغنت عنها مدافعها ، ولا طائراتها ، ولا أسطولها ، وان ربك ليمهل الظالم ، حتى اذا أخذه لم يفلته ·

انتهى عبد الحميد العظيم جسما ، انما لم ينته عبد الحميد روحا · اننا لا نزال ــ ولن نزال ــ نرى رأى العين ايمانه ، ونشعر بقوته ، وندرك صلابته فى الحق ، وشدته على الباطل ·

اننا نرى ازدهار الاسلام كما كان يريد · اننا نرى استقلال العرب كل العرب ، كما كان يرجو ، اننا نرى ونتمتع باستقلال الجزائر ، وبقية جهات المغرب العربى ، الذى كان يسعى اليه ، ويجاهد فى سبيله · اننا نرى اللغة العربية لغة رسمية للبلاد ونرى الثانويات الدينية تنتشر وتسود رغم كيد الكائدين ، اننا نرى بلادنا حرة طليقة تنشىء الصناعة الكبرى فى البر ، وتعلو طائراتها العديدة متن الجو ، وتمتلك فوق عباب البحر أعظم أسطول فى بلاد افريقيا ، وبلاد العرب ·

ياعبد الحميد ، أمتك ناهضة ، عاملة ، ووحدتها صميمة ، وقوتها عارمة وكلمتها مسموعة ، ومبادئك سائدة ·

يا عبد الحميد الرجل العظيم · عشت مجاهدا ، ومت شريفا ، وتركت مبادىء ورجالا ، انك موجود بيننا أبدا يا عبد الحميد ــ انك لمن الخالدين ·

عباس محمود العقاد

د . عبد الكريم جرمانوس



ارسل الينا الاستاذ الكبير د. الحاج عبد الكريم جرمانوس ، استاذ بجامعة بودابست سابقا ، وعضو أكاديمية العلوم الاجتماعية فى المجر ، هذا الفصل من كتابه « تاريخ الأدب العربى » . ونحن اذ ننشره شاكرين للاستاذ الكبير ، نتمنى له استمرار الانتاج، وهو الذى تجاوز التسعين ، ونرجو أن يطيل الله لنا عمره كثيرا .

وننشر مع هذه الدراسة رسالة الاستاذ جرمانوس الى السيد مولود قاسم نايت بلقاسم ، وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية .

(النص الكامل لرسالة الاستاذ جرمانوس
الى السيد مولود قاسم نايت بلقاسم)

الى سعادة الوزير العلامة مولود قاسم نايت بلقاسم حفظه الله ·

سيدى المحترم بعد تحياتى القلبية اشكركم الدعوة للاشتراك بالملتقى بالعلماء والادباء من كل اقطار الدنيا فاننى سررت سرورا عظيما لتلك الدعوة وافتخر بالامتياز النادر الذى شرفتمونى به لكن بسبب تقدم سنى الى بداية 93 عاما أخاف من صعوبة السفر واضطراب الجنان ، وهذا حرمنى من لذة اللقاء بالعلماء الكرام مع انى اقدم سلامى وتمنياتى المخلصة الى سعادتكم وأعضاء الملتقى ·

أنا لا أزال أواصل جهودى فى سبيل العروبة والاسلام واشكركم من صميم فؤادى ارسال مجلات الفكر الاسلامى ومجلة الاصالة التى استعمل تلك الدراسات لازيد محتويات كتابى المجرى عن تاريخ الادب العربى · وبهذه المناسبة ابعث اليكم قسما من ذلك الاتى اعنى السطور التى كتبت عن صديقى المرحوم الاستاذ محمود عباس العقاد لنشرها فى مجلة الاصالة اذا امكنكم ذلك · اننى اعيش فى خلوتى هنا فى بلادى وتسليتى الوحيدة المراسلة بالعلماء والادباء وقراءة المتون العلمية والآن انتظر نشر ترجمتى الى المجرية رواية تاريخية من اللغة التركية ··· « نور بابا » التى تحتوى على حياة الدراويش البكتاشيل فى تركية اثناء القرن الماضى واضفت الى الترجمة اطروحة طويلة عن التصوف على العموم وبالخاصة على التصوف البكتاشى ، وأنا آمل ان ترجمتى عن مسرحية الاستاذ توفيق الحكيم المعنونة « الامس الهادىء » تجد دارا من ديار المسرحية فى بلادى التى نمثلها ـ اخبركم مع تأسف ـ انى حرمت من حضور عقد جلسات مجمع اللغة العربية فى القاهرة مع ان رئيس المجمع صديقى الدكتور ابراهيم مدكور ·

دعانى مرارا وكتب باسم الزملاء خطابا شائقا متمنيا بالصحة ودوام اجتهادى لمنفعة العلم والادب ـ وفى ختام خطابى اكرر تشكراتى واتمنى لسعادتكم الصحة والنجاح بعون الله فى معاملتكم النفيسة الرسمية وبقيت مع الاحترام الفائق والاجلال

مخلصكم دائما ·

حاجى عبد الكريم جرمانوس

الى سعادة الوزير المحترم مولود قاسم نايت بلقاسم حفظه الله

سيدي المحترم بعد تحياتي القلبية اشكركم للدعوة للاشتراك بالملتقى بالعلماء والادباء من كل اقطار الدنيا وانني سررت سرورا عظيما لتلك الدعوة وافتخر بالامتيازات الكاثرة التي تشرفتموني به لكن بسبب تقدم سني الى بداية ٩٣ عاماً اخاف من صعوبة السفر واضطراب الجلسات وهنا حرمني من لذة التقاء بالعلماء الكرام فيها انا اقدم سلامي وتحياتي المخلصة الى سعادتكم واصدقائي الذين انا لا ازال اواصل جهودي في سبيل العروبة والاسلام واشكركم على سعيكم في ارسال مجلات الفكر الاسلامي ومجلة الاصالة انها تشمل تلك الدراسات لا زيد محتويات كتابي المجري عن تاريخ الادب العربي وبهذه المناسبة ابعث اليكم قسما من ذلك الاثر اعني السطور التي كتبته عن صديقي المرحوم الاستاذ محمود عباس العقاد لنشرها في مجلة الاصالة اذا امكنكم ذلك. انني اعيش في خلوتي هنا في بلادي وتسليتي الوحيدة المراسلة بالعلماء والادباء وقراءة الكتب العلمية والآن انتظر نشرة ترجمتي الى المجرية رواية تاريخية من اللغة التركية المعروفة «نور بابا» التي تحتوي على حياة الدراويش البكتاشيين في تركيا اثناء القرن الماضي واضفت الى الترجمة اطروحة طويلة عن التصوف على العموم وبالخاصة على التصوف البكتاشي والآمل ان اترجم عن مسرحية الاستاذ توفيق الحكيم المعنونة الحسن الهادي تجد داراً من ديار المسرحية في بلادي التي تمثلها - اتذكر مع تأسف انني حرمت من حضور عند جلسات مجمع اللغة العربية في القاهرة مع ان رئيس المجمع صديقي الدكتور ابراهيم مدكور دعاني مراراً وكتب لي بجواب لاسلكيا باشتياقاً متشكياً بالصحة ودوام اجتهاده في خدمة العلم والادب - وفي ختام خطابي اكرر تشكراتي واتمنى لسعادتكم الصحة والنجاح بعون الله في معاملتكم النفيسة الرسمية وبقيت مع الاحترام الفائق والاجلال مخلصكم دائما

حاجي عبد الكريم جرمانوس

ك ٩ صم
ربيع الاول ١٣٩٧

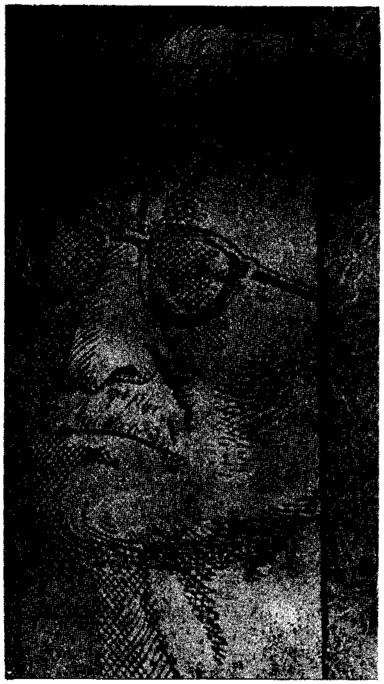
عباس محمود العقاد

.... وهناك شخصية ادبية أخرى نشيطة ومكافحة لا تقل تدفقا عن شخصية العالم الضرير الكبير طه حسين ، ونعنى بذلك الاستاذ الكبير محمود عباس العقاد المولود فى عام 1889 ، والذى احتفل العالم العربى بذكرى عيد ميلاده السبعين وذلك فى القاهرة بمنتهى التعظيم والاجلال والاندفاع . والعقاد بدأ حياته مدرسا الا ان قسوة ارادته النادرة المثال مكنته من استيعاب تلك المعارف الغزيرة التى جعلته جديرا بلقب العالم . وقد خاض الى جانب ذلك عباب الشعر . وفى ديوانه « عابر سبيل » الذى نظمه بلغة كلاسيكية ، نجده يوصل الينا أفكاره الفلسفية عبر أبيات أشعاره الموشحية الطابع .

ومما لا شك فيه ان قدرة العقاد الممتازة على الملاحظة بالاضافة الى موهبته ومنطقه البليغ جعلت منه كاتبا مكتملا بصورة حتمية . ومثله فى ذلك مثل السلف السابق له فى القرون الوسطى ، كان مبدعا متعدد الجوانب غزيرا الى حد يبعث على الدهشة . ولقد عمل فى البداية مع عبد القادر المازنى ، ذلك الكاتب الذى كان على غراره فى ملاحظة وتتبع كل ما يجد حوله ، وقد ارتبط مع المازنى بعرى صداقة حميمة امتدت حتى وفاة الاخير .

والحقيقة ان المعرفين بأعمال العقاد كانوا يجدون من العسير عليهم مواكبة خطى انتاجه المدهش الغزارة . وحتى عندما حكم عليه ، لاسباب سياسية ، بالسجن ثلاثة

اعوام فانه لم يطرح قلمه جانبا : فنراه يؤلف كتابه « عالم السجون والقيود » مستعرضا فيه حياة السجون • اما قراءته فقد كانت لا نهائية الحدود ، كما ان معرفته الممتازة للغة الانجليزية قد اشرعت امامه أبواب الادب العالمى • أما أسلوبه فيمتاز بسرعة وبخفة تجعله لا يبحث عن الكلمات ، بل انها تنساب بيسر وبسهولة على سن يراعه ، وهى تمتاز بعلو مستواها ، الذى استقاه من قراءاته الكلاسيكية •


عباس محمود العقاد

وجزء من مؤلفاته يتميز بطابع التعريف بالآثار الفكرية الاجنبية وبنقدها • مثال ذلك : « مراجعات » ، « مطالعات » و « ساعات بين الكتب » • الا انه سرعان ما يحول وجهه عن الفلسفة الاوروبية والآثار الادبية الخاصة بها ، ويتجه صوب الفلاسفة العرب والكتاب العرب • ونتيجة لذلك كتب دراساته القيمة العميقة الغور مثل « رجعة أبى العلاء » التى تدور حول المعرى ، بالاضافة الى دراسة حول ابن الرومى ، حياته وشعره بالاضافة الى دراسة حول شعراء مصر •

وعندما تمرس قلمه فى حقل النقد الادبى ، فانه اتجه بالدراسات الشعرية متجها جديدا ، ونتيجة تعمق فكره ، فقد بدأ يشرح المسائل المتعلقة بالحياة الاجتماعية • فقد تبين له ان الاسلام والمسلمين قد وصلوا الى مفترق الطرق ، وانهم يطحنون بين حجرى رحى ، بين الشرق والغرب • وقد كان ذلك موضوع مؤلفه « الاسلام فى القرن العشرين حاضره ومستقبله » (1954) • وفى كتاب آخر له « الديمقراطية فى الاسلام » يقدم لنا استعراضا شاملا حول نشوء الديمقراطية وحول الدور الذى اضطلعت به فى الاسلام • وهذا الكتاب يعتبر بمثابة التكملة والاستطراد لكتاب سابق له ، ألا وهو

« الفلسفة القرآنية » . والعقاد يرى هنا ان مفكرى القرن العشرين يرتبطون ارتباطا وثيقا بامور الحياة الدنيا ، وهو الامر الذى يعبر عنه فى مؤلفه « عقائد المفكرين » . كما ان العقاد قد تناول الماركسية وتعاليمها الاقتصادية والخلقية بشكل عميق الغور ، مقدما فى كتابه القيم ذاك تعريفا للقــراء العــرب باللينينية ونتائجها العلمية . اما ابن رشد فقد كان أثيرا لديه الى درجة انه كرس مؤلفا كاملا للحديث عنه .

وفى الواقع فان النظرة المادية للعالم قد وجهت نظره صوب نقاط جديدة طرقها عبر دراساته للدين الاسلامى . فهو فى كتابه « اللــه » يكشف لقرائه كيف تشكلت فكرة ومفهوم الالوهية فى تصورات البشر . كما انشغل بقضية الوجود الحقيقى للانبياء والرسل ، وانطلاقا من ذلك كتب « أبو الانبياء » ذلك الكتاب الذى يقـــدم تعريفا بالقصص المختلفة الدائرة حول سيرة سيدنا ابراهيم . وهو يرى ان عظام مؤسسى الاديان هم فى الوقت نفسه بمثابة المصلحين الاجتماعيين ، كذلك ، وان الهدف المتوخى من وراء تعاليمهم هو تحسين الوضع الاجتماعى للبشرية . ورأيه هذا يتجـــلى فى سلسلة من الكتب نذكر منها : « عبقرية المسيح » ، « عبقرية محمد » ، « عبقرية عمر » و « عبقرية خالد » . ونلاحظ ان تلك السلسلة تتدرج ابتداء من مبدا تجلى القدرة الالهية وحتى دور العقل الانسانى ، حيث ان عمر كان رجل دولة ، اما خالد فقد كان قائدا حربيا محنكا .

لقد كان العقاد الاستاذ المعلم للشبيبة المصرية والسورية وعلى الرغم من ارتفاع مستوى لغته الكلاسيكية الطابع فقد كان يتمتع بشعبية واقبال كبير على التهام كتاباته . لقد انتقل العقاد فى شتاء عام 1964 الى رحمة ربه ، وقد كنت فى عداد من شيعوه الى مثــواه الأخــير .

من كتاب : « تاريخ الادب العربى »
بودابست ـ الطبعة الثانية ـ 1973



المسلمـون بين الأصالة والتفتح

قبل ان اخط حرفا واحدا فى رسالتى عن الملتقى الثامن للفكـر الاسلامى ، أرى لزاما على ، ووفاء منى ، أن اذكر بالخير استاذنـا الجليل الشيخ محمد أبو زهرة ــ طيب الله ثراه ــ ، فقد كان أبــرز نجوم الملتقى السابع للفكر الاسلامى ، الذى عقد فى العام الماضى فى مدينة تيزى وزو بالجزائر • وكان الحجة والمرجع الاخير عندما يحتدم الخلاف ، وعندما تتضارب الآراء •

والشيخ محمد أبو زهرة كان استاذا لالوف من القانونيين العرب على مدى الاربعين عاما التى قضاها استاذا للشريعة الاسلامية • وقد تتلمذت على يديه أربع سنوات فى قسم الليسانس بكلية الحقوق ، وأكثر من عام فى الدراسات العليا ــ قسم الشريعة ــ ، ولقد ألف أستاذنا الجليل اكثر من خمسين كتابا اثبت فيها انه من أعلم علـماء العصر ، وأنه واحد من الذين أرسوا ــ على مدى قرون عديدة ــ قواعد الفقه الاسلامى •

ولعل أبرز مميزات أستاذنا الجليل ، أنه كان مقاتلا صعب المراس، يحارب ويحارب وحده من أجل الرأى الذى يراه خطأ ، وكان الجميع، حتى أولئك الذين يختلفون معه فى الرأى يقدرون فيه شجاعتـه الفائقة ، وجرأته النادرة ، واخلاصه للعلم الذى بلغ حد التفانى •

«*» سبق لنا ان عبرنا فى عدد 38 من الاصالة عن اسفنا عن سقوط اسم الصحفى الكبير والكاتب الاخ صبرى أبو المجد من كتاب الملتقى الثامن للفكر الاسلامى حيث نشرنا فيه المقالين اللذين نشرهما فى مجلة « المصور » ، التى يرأس تحريرها ، **بتاريخ 26 ربيع الاول** 1394 هـ • الموافق لـ 19 افريل 1974 م • عدد 2584 •

وقد وعدنا أنفسنا والقراء بنشرهما فى مجلة « الأصالة » ريثما يصدران فى الترجمة الفرنسية لكتاب الملتقى الثامن ، والطبعة الثانية بالعربية لنفس الكتاب •

ونبدأ فى هذا العدد بنشر المقال الاول . وسيصدر المقال الثانى فى العدد القادم •

لم يحبس أستاذنا الجليل يرحمه الله ، يوما ما رأيه خوفا من بطش حاكم مستبد أو تملقا للسلطة ايا كان مصدرها ، أو رغبة فى الحصول على أى مغنم من مغانم الدنيا · كان يقول (لا) حيث يجب ان تقال ، وحيث لا يجرؤ احد غيره على ان يقولها · كان يقول (لا) بصوت عال مدو ، لا يهمه رضى الناس عنها ، أو غضبوا منها ··· كل الذى كان يهمه أنه يقول ما يعتقد انه الحق ·

وقد كان أستاذنا الجليل ـ جعله الله قدوة طيبة لعلمائنا ـ يدفع ثمن (لا) هذه من قوته ومن حريته ·

وأعود الى الكلام عن الملتقى الثامن للفكر الاسلامى الذى تحدثت عنه فى الاسبوع الماضى بصفة عامة ، فاقول انه عندما هطلت الامطار بغزارة وحوصرنا فى فندق الحماديين على بعد سبعة عشر كيلو مترا من مدينة بجاية اصر الاخ الصديق مولود قاسم وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية بالجزائر و « دينامو » الملتقى على ألا نضيع الوقت فى الفندق ، فدعا الى تشكيل لجان الملتقى لتعمل فورا فى الفندق ، وكانت اللجنة التى وقع الاختيار على للاشتراك فيها هى لجنة (الاصالة والتفتح) · وبعد أن اخترنا لرئاسة اللجنة شرفيا وعمليا د · زكى نجيب محمود استاذ المنطق الوضعى بكلية آداب القاهرة ، والاستاذ عبد الله بن بيه وزير العدل فى الجمهورية الموريتانية الاسلاميــة ، بدانا الحديث عن معنى الأصالة والتفتح وكيف يمكن الاخذ بالاصالة أو بالتفتح ، أو بهما معا ·

ووجدنا اختلافات كبيرة فى الاراء ، بعضنا نادى بالانغلاق التام ، بحيث نضع انفسنا داخل ستار حديدى ، لا نتصل بأحد ، ولا ندع أحدا يتصل بنا · لا نؤثر فى أحد ولا نتأثر باحد ، وبعد ربع قرن من الزمان على الاقل نبدأ فى ازالة الستار الحديدى ·

وبعضننا نادى بالانفتاح الكامل على الحضارة الغربية ، بحيث تكون هى الاساس ، وهى المورد ، وبحيث تكون حضارتنا الاسلامية ليست الا مجرد تراث نقرؤه ، أو نترحم عليه ٠

ووجدنا البعض منا ينادى بأن تستمر المسيرة فى طريقها تأخذ من الحضارة الاسلامية أغلى وأثمن وأبقى ما فيها ٠ ونأخذ من الحضارة الغربية فى الوقت ذاته ما يتلأم ومصالحنا وظروفنا وتقاليدنا وطبيعة العصر ٠

وقد فوجئت بواحد من الاساتذة المصريين الذين يقومون بالتدريس فى الجزائر منذ أربع سنوات يتحدث عن الجامعات والمدارس المصرية حتى رياض الاطفال بقسوة ، بل انه كان يتحدث عن الازهــــر وله عليه فضل كبير بمرارة ٠٠٠

لم يترك الاستاذ المصرى ـ غفر الله له ان كان ما فعله يقبل المغفرة ـ شيئا فى مصر الا وانتقده ٠ وكان يتحدث بلهجة جزائرية متوهما انه بذلك يرضى الاخوة الجزائريين ٠

ورفضت أن أرد على (الاستاذ المصرى) بل ـ وارجو ان يعذرنى زملائى فى لجنة الأصالة والتفتح ـ تعففت عن الرد عليه ، فمثل هؤلاء الذين يتصورون ـ بجهلهم ـ أن اطالة مدة اعارتهم لدى بلاد شقيقة يتوقف على درجة قسوتهم فى الهجوم على بلادهم ، لا يستحقون أى نوع من الاهتمام ٠٠٠ فالذين لاولاءلهم لبلادهم التى ربتهم ، وعلمتهم وانفقت عليهم من أقوات عمالها ، وفلاحيها وأبنائها البسطاء حتى نالـــوا الدكتوراه الـــتى أهلتهم ليكونوا أساتذة يعارون الى بلاد شقيقة ، لا يمكن أبدا ان يكون لديهم أى نوع من الولاء لاى بلد من بلاد العالم ، ومن بينها التى يتملقونها بأحط أنواع التملق ! !

وقد تساءلت فيما بينى وبين نفسى ، وانا اغادر قاعة اللجنة أمثل هذا الاستاذ يمكن ان يفيد تلاميذه ؟ أو يمكن ان يكون قدوة لهم ٠٠٠ وخرجت من تساؤلى بما اعتقد انه الرد الصحيح : ان هذا المدرس

لا يمكن ان يفيد تلاميذه وبالتالى لا يمكن ان يكون قدوة لهم ، كما انه لا يمكن ان يفيد نفسه لا على المدى القصير ولا على المدى الطويل ٠

وعندما اتجهنا الى مكان الملتقى فى مدينة بجاية بعد زوال حالة الحصار تحدثت الى د ٠ عبد الكريم سايتو ، استاذ الاقتصاد بجامعة طوكيو ، وهو الرجل الذى اسلم مع أسرته ، وسالته عن انتشار الاسلام فى الشرق الاقصى ، وكان من بين ما قاله انه بعد وفاة الرسول صلوات الله عليه بنحو عشرين سنة اعدت بعثة اسلامية وصلت الى عاصمة الصين فى دولة تانج كما ان التجار المسلمين من اليمن وحضرموت ومسقط وعمان وصلوا الى بورما وماليزيا وسومطرة وجاوة والفيلبين منداناو ٠ كان ذلك فى فجر الاسلام ، ولم يدخل الاسلام اليابان الا فى عام 1875 عندما نشر كتاب عن سيرة محمد صلى الله عليه وسلم باللغة اليابانية ٠ وأول مسلم يابانى كان ب ٠ أريحا الذى اعتنق الاسلام بعد الحرب الصينية ، اليابانية 1895 ٠ وأول مسجد بنى فى اليابان كان عام 1935 بأيدى التجار المسلمين الاجانب وفى اثناء الحرب العالمية الثانية أسلم عدد كبير من البحارة والجنود والمدنيين الذين عملوا بالخارج ٠

وحول الدعوة الى الاسلام فى اليابان يقترح د ٠ سايتو انشاء مركز اسلامى ضخم يكون منارة المسلمين فى بلاد الشمس المشرقة ٠ ومن الحديث عن المسلمين فى بلاد الشمس المشرقة ننتقل فجأة الى الحديث عن مسلمى الدانمارك : يقول الاستاذ الشريف أحمد نائب رئيس المركز الثقافى الأسلامى فى الدانمارك ٠ ان المسلمين يكثرون ويتزايدون فى البلاد الإسكندنافية ، وفى مدينة أورهوس يوجد أكثر من ألفى مسلم ٠ ومهمة المركز الاسلامى فى تلك المدينة تنمية الروابط الروحية بين المسلمين المقيمين بأورهوس وفى نفس الوقت ابراز التفاهم المتبادل والصداقة بين الاسكندنافيين والعالم الاسلامى ٠ ويصارحنى الاخ الشريف أحمد بأن المشكلة التى تعترضه كوالد ، كما تعترض زملاءه المسلمين فى الدانمارك مسألة تعليم أطفالهم

اللغة العربية · ويتمنى لو أنهم تمكنوا بأى ثمن من ارسال أطفالهم الى بعض رياض الاطفال فى القاهرة حتى يشبوا على تعلم اللغة العربية · ويطلب الشريف أحمد باسم المركز الثقافى الاسلامى من المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية تزويد المركز بالكتب الدينية ، كما يطالب وزارة التربية التعليم بارسال الكتب التى تتعلق بتعليم اللغة العربية حتى تتمكن الدانماركيات المتزوجات بالمسلمين من تعلم اللغة العربية · ومن الدانمارك أنتقل الى فرنسا ، وأنجلترا وايطاليا ، والعديد من البلدان الاوروبية ، والامريكية التى توجد بها أقليات مسلمة ، وأستمع الى أكثر من رجاء وأتمنى من البلدان الاسلامية التى تملك فيضا من المال ، لو أن تعين هؤلاء المسلمين على انشاء المراكز والمدارس الاسلامية ، والمساجد التى هم فى أمس الحاجة اليها ·

وأغرق فى الابحاث العديدة التى قدمت للملتقى أو التى ألقيت فيه ، ويجذبنى أكثر من أى موضوع آخر كل ما قيل فى الأصالة والتجدد ، وما كتب عن الفكر الاسلامى ، آثاره وأسباب قوته وضعفه، ويعجبنى تركيز المحاضرين والمشتركين فى المناقشات على أن الاسلام دين عقل ، وتفكير ، وتعجبنى كلمة للاستاذ عبد الله بن بيه يقول فيها « الاصالة هى الحرية ، والثقة بالنفس فى مواجهة الشخص لذاته ، وفى مواجهته لغيره ، وبهذا التحديد ، يمكن أن نعتبر الاصالة بعدا من أبعاد عدم الانحياز · فاذا كان رفض السيطرة السياسية والاقتصادية والعسكرية يعتبر المفهوم الجديد الذى يعطى فكرة عدم الانحياز الحيوية الضرورية فان الرفض المسبق للآراء والافكار التى صيغت فى بيئة مغايرة ، وطبق أوضاع أخرى هى أوضاع الغير ، يعتبر المفهوم الحقيقى للاصالة ويجنبها الجمود··· اننا ننادى بالرفض الايجابى الذى يعنى المساواة بين ابناء البشر الذين يجب ان يفكروا جميعا، والا تصاغ لبعضهم قوالب يجد نفسه عاجزا أمامها عن التفكير، ان الاصالة موقف ايجابى من الحياة ، ومبدأ حى له تاثيره فى مسيرتنا اليومية ، وما هى بالماضى ولا بالحنين الى الماضى ، انها الحاضر ، والمستقبل الغنيان بتراث الماضى وتجاربه »·

وتعجبنى كلمة للدكتور الحبر يوسف نور الدائم الاستاذ بكلية الآداب ، جامعة الخرطوم يقول فيها : (هناك خداع وتضليل من كثير ممن تاثروا بالحضارة الغربية ، اذ يزعمون أن الحضارة لا تتجزأ، فهى اما أن تؤخذ جملة أو تترك . وهؤلاء يريدون لنا أن نكون حطاب ليل نأخذ الغث والسمين كأننا مشلولو الارادة ... نحن نريد أن نأخذ بأسباب العلم لان ديننا يدعونا لذلك ، وهو يعد حقا من حقوقنا شاركنا فيه مشاركة فعلية . لا نريد أن نرث أمراض القوم وآفاتهم ... ان ظلام الجهل المتراكم لا يقطعه الا نور المعرفة الوهاج، والمعرفة لا تنال الا بالجهد الدائب ، وليست المعرفة ترفا ذهنيا ، ولا حيلة ترتدى ، وانما العبرة بما تخلفه من أثر فى النفس وفى الشعور).وقد سئلت عن رأيي فى موضوع الاصالة والتجدد ، وموضوع الفكر الاسلامى ؛ آثاره وأسباب ضعفه وقوته ، وقلت كلاما كثيرا فى هذا الموضوع كان ملخصه : ان الذى يجب أن نعترف به دون خجل من أنفسنا أننا كمسلمين دول متفرقة وممزقة ، ظلت قرونا عديدة تحت سيطرة الغير الذى احتلها ، وأذلها ، ونجح الى حد كبير فى ابعادها عن أداء دورها الانسانى الذى يؤهلها للقيام به دين الاسلام . ولقد ساعدنا بأنفسنا العدو على تحقيق أغراضه عندما هنا على انفسنا ، وهنا على غيرنا ، وعندما ابتعدنا عن جوهر الاسلام مكتفين بالقشور ، والمظاهر ؛ والذى لا شك فيه أننا نصحو الآن ، ودليل ذلك أننا نبحث عن أسباب تخلفنا الآن ، وتقدمنا فى الماضى ؛ والذى يجب أن ندرسه بعمق وفهم ووعى هو : لماذا تأخرنا وتقدم غيرنا ؟ ولماذا كنا سباقين فى قرون مضت ، وكان الغير متخلفا ؟ ؟ والرد على هذه الاسئلة هو الطريق الى الصواب .

اننى أضيف الى ما سمعته من الاخوة الذين حاضرونا فى أسباب تخلف المسلمين حاليا ، وأسباب تقدمهم فى الماضى ، سببا واحدا أراه من أهم اسباب التخلف ، ذلك أننا افتقدنا القدوة الصالحة ، كما افتقدنا حرارة الايمان . ويوم أن توجد لدينا قدوة صالحة تتحمل الموت من أجل المبدأ الذى تؤمن به ، ويوم أن تكون لدينا حرارة الايمان التى كانت موجودة عند أسلافنا ؛ يومئذ نعود كما كانوا :

« **ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم** » .

المـرأة التـركية وقرارات مؤتمر مكسيكو (١)

بيريكان اريبوران
نائبة سابقا فى البرلمان التركى
ورئيسة الجمعية الوطنية لقانون
المرأة التركية ـ انقرة ـ تركيا



ان مشكلة المساواة فى الحقوق بين المرأة والرجل مشكلة مطروحة فى عالمنا اليوم الذى تهزه الشروط الجديدة المتولدة عن تقدم التكنولوجيا . وهذا المشكل مطروح كذلك فى تركيا ، حتى بعد الاصلاحات التى أدخلت بتاثير مؤسس الجمهورية مصطفى كمال اتاتورك .

لم يكن عدد سكاننا يتجاوز أحد عشر مليونا حين أعلنت الجمهورية عام 1923 . ونحن اليوم نقارب ثلاثة وأربعين مليونا . وهناك عدد كبير من النساء يطالبن بممارسة الحقوق التى منحتهن اياها الجمهورية . هذه الحقوق المكتسبة من حيث المبدأ أصبحت تمارس على نطاق واسع . والاجيال الجديدة من النساء الاكثر نشاطا من أمهاتهن يواجهن ظروفا من العيش أقسى وأصعب . وحاجيات مجتمعنا الجديدة تتطلب

(١) محاضرة القتها فى الملتقى الحادى عشر للفكر الاسلامى بورجلان (ورقلة ـ صدراته) 17 ـ 26 صفر 1397 هـ ، 15/6 فبراير 1977 .

تخصصات مهنية • ولم يعد الامـر يتعلق بمبادىء المساواة فى الحقوق بـل بتطبيق هذه المبادىء •

وتمهيدا لمؤتمر ميكسيكو ، اجتمعت سبع وعشرون جمعية من جمعيات النســاء التركيات لانتخاب ممثلاتها فى هذا المؤتمر • وقد وقع اختيارنا على امرأة هى عميـدة جامعة ، وعلى امرأة محامية ، وامرأة أخرى طيارة تحمل رتبة قائد فى الجيش التركى • وقد شعرنا ، فى تلك المناسبة ، بالحاجة الى تحديد مشاكلنا الراهنة أثناء ملتقى عقد بمدينة أنقرة من الخامس الى الثامن ديسمبر 1975 •

ولقد كان لى شرف افتتاح الملتقى باسم الجمعيات النسائية التركية السبع والعشرين بتلخيص مقترحاتنا فى الفصول الآتية :

1 ـ أن يكون للنساء عدد أكبر من الممثلات فى البرلمان •

2 ـ قبول المرأة فى صفوف الجيش •

3 ـ ادخال تعديلات أو تحويرات على القانون المدنى والجنائى •

4 ـ تشكيل فرق عمل يعهد اليها بمهمة دراسة مشاكل المرأة ضمن اطار الادارة •

5 ـ رفع مستوى شروط معيشة المرأة الريفية فى مجالات التربية الحضانيـة ، والمدرسية ، وعلى صعيد عقلنة تخطيط نمو العائلة ، وفى ميدان العلاقات الاجتماعية.

وهذه النقطة الاخيرة تشكل احدى توصيات مؤتمر ميكسيكو •

6 ـ الضمان الاجتماعى للمرأة الريفية ولربة البيت •

7 ـ ادخال تعديلات توافق المرأة على القوانين الخاصة بالاحالة عـلى المعـاش، وصندوق التقاعد •

8 ـ استفادة المرأة الموظفة أو العاملة فى حالة ولادتها بعطلة مدفوعة الاجر مدتها عـام كامـل •

9 ـ تمكين المرأة ربة البيت من ممارسة مهنة لمدة بضعة أيام فى الاسبوع •

10 ـ دفع كل زوج على حدة ما يترتب عليه من ضرائب ·

11 ـ الاستغلال الافيد لوقت فراغ الفتيات ·

12 ـ اجراء بحوث على الآثار الثقافية التى تنتجها العبقرية النسائية ·

13 ـ الدراسة المجددة لقانون حماية الاطفال المهملين ومراقبة كتب مطالعة الاطفال ومسرح الطفولة ·

14 ـ تطبيق هذه المبادىء على النساء التركيات العاملات فى الخارج ·

15 ـ اعداد برنامج لتأمين تعاون المؤسسات القائمة ولتأسيس مؤسسات جديدة صالحة لحماية حقوق المرأة · واستعمال الاذاعة والتلفزة لهذا الغرض ·

16 ـ التعاون مع المؤسسات الدولية ·

ولقد كانت مقترحاتنا مرتكزة على المبدأ القرآنى القائل : « **ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف** » (القرآن ، السورة 2 الآية 228) ·

وبعد هذا الملخص للمشاكل التى كان علينا ان نواجهها ، واصلنا أعمالنا ضمن خمس لجان مختصة تعنى بالمشاكل القانونية ، والاقتصادية ، والتربوية ، وتهتم بقضايا الفن والصناعة التقليدية وبحفظ الصحة ·

واقترحنا كذلك ادخال تعديلات على القانون المدنى فى مواده التى تنص بأن « الزوج هو رئيس الاسرة » و « لا يجوز للمرأة أن تمارس فنا من الفنون أو مهنة من المهن الا برخصة من الزوج » ·

وطالبنا بالتطبيق الكامل للمواد الآتية : « فى حالة وفاة أحد الزوجين ، يرث الزوج الباقى على قيد الحياة والذى لا ولد له كامل تركة الهالك » ·

والزواج بمقتضى الشريعة أو الدين لا يتم الا بعد الاستظهار بعقد الزواج المدنى · ويرمى هذا البند الى القضاء على تعدد الزوجات · هذا ملخص القرارات التى اتفقت عليها الجمعيات النسوية التركية ·

وقد تشكلت لجنة خاصة لدى وزارة العدل منذ ما يقرب من عام لبحث مدى امكانية تعديل القانون المدنى لصالح المرأة ولحد اليوم انكبت هذه اللجنة المتالفة من

35 خبيرا واختصاصيا على دراسة القانون الاساسى للمرأة الام · وهكذا يحاول حماية المرأة المتزوجة من الضغوط الزوجية بالغاء وجوب حصول المرأة على اذن من زوجها ، من أجل الضمان فيها · ومن المشاكل المطروحة أيضا قضية المسكن الشرعى · هل يجوز للمرأة المتزوجة ان يكون لها مسكن شرعى غير مسكن زوجها ؟ وهذه المشكلة مطروحة فى حالة المرأة التى يوجد مكان عملها بعيدا عن مكان عمل زوجها · وفى حالة قيام نزاع ، يتعين عليها أن تلجأ الى المحاكم الموجودة فى مكان عملها ·

ومسألة التساوى فى الحقوق مطروحة أيضا فى تركيا بصدد سن زواج القصارى والمرأة المعتبرة عادة كما لو كانت أسرع نموا من الرجل يمكن أن تتزوج فى سن أدنى من الرجل على شرط ان تحصل على اذن من وليها أو من أبيها · وأرى لزاما على أن أضيف شهادة رجل شهير من رجال القانون الذى قال لى : « اننا لا نصادف ــ فيما يتعلق بالمساواة فى الحقوق بين المرأة والرجل ــ أى اعتراض فى تركيا » ·

وهكذا يمكن أن نخلص الى أن التوصية الرئيسية لمؤتمر ميكسيكو والمتمثلة فى تحقيق المساواة بين المرأة والرجل فى الحقوق فى غضون السنوات العشر التى تلى عام 1975 قد وجدت بتركيا أصداء ملائمة ·

الدراسات العربية والاسلامية في أوروبــا

الدكتور محمد أركــون
استاذ الفلسفة الاسلامية
بجامعة السوربون الجديدة ـ باريس

بسم الله الرحمن الرحيم ،

اخواني الكرام ، السلام عليكم وبركات الله ،

اسمحوا لي أولا أن أشكــر سيدي الوزير الذي شرفني مرتين باستدعائه اياي الى المشاركة في ملتقى تلمسان ثم في ملتقى عنابة ، فإني ، كما قلت له مرارا ، حريص كل الحرص على الاتصال الوثيق بالواقع الاسلامي في جميع البلدان الاسلامية وبصفة خاصة في القطر الجزائري الذي أصبح منذ الاستقلال مخبرا اجتماعيا فائق الاهمية . ذلك ان الباحث العلمي لا يطمئن قلبه ولا يسكن عقله حين يعالج موضوعات صعبة الا اذا احتك بالواقع الذي يدرسه ويحلله ، ولذا فاني مسرور جدا ومتشرف بهذا اللقاء حيث سنتبادل الآراء في موضوع يهمنا كلنا وهو الفكر الاسلامي ومصير الاسلام في هذه المرحلة التاريخية الحاسمة .

(*) محاضرة القيت ارتجالا في المركز الثقافي الاسلامي التابع لوزارة التعليم الاصلي والشؤون الدينية .

انما اخترت أن أحدثكم عن الدراسات العربية والاسلامية بأوروبا تلبية لاقتراح تفضل به سيدى الوزير حين كاتبني ، وصادف أيضا انى شاركت منذ شهر جوان الماضى فى 3 مؤتمرات انعقدت بأوروبا : احداها بمالطة وقد حضره عدد من الاخوان الجزائريين ، والثانى بايكس ايمروفانس Aix-en-Provence وهو المؤتمر الثامن للجمعية الاوروبية من المتخصصين فى الدراسات العربية والاسلامية Union Européenne des Arabisants et Islamisants ، والثالث بباريس خصص لاحياء ذكرى السنة 850 من ميلاد ابن رشد • وفى هذه المؤتمرات،كما سنرى،دليل على الاهتمام المتزايد عند الاوروبيين،بالدراسات العربية والاسلامية •

وسألتزم فى حديثى هذا الطريقة التقديمية والوصفية مجتنبا ما تعودناه فى البلدان الاسلامية من المهاجمة على « المستشرقين » والرفض الجازم لما انتهوا اليه من نتائج فى البحوث الاسلامية • ولا أعنى بذلك أنى أوافق هؤلاء العلماء فى جميع مواقفهم ومناهجهم ، الا انى أريد أن أساعد على خلق جو جديد للتعاون والتفاهم بين العلماء المسلمين والعلماء الغربيين الذين يخصصون جهودهم لاحياء التراث الاسلامى ولتقديم صورة صادقة موضوعية للاسلام • ولن نوفق الى إحداث هذا الجو الجديد الا اذا انتقلنا من الجدال العقيم المبنى على سوء التفاهم أو الايديولوجيات السياسية ، الى مستوى الانتقاد الايبستمولوجى لجميع ما ينتجه الانسان من معلومات ونظريات فى أى ميدان من ميادين المعرفة •

اذا ألقينا على الدراسات العربية والاسلامية بأوروبا نظرة تاريخية ، أمكننا ان نميز بين مرحلتين رئيسيتين : مرحلة أولى طويلة تتسم بالاكتشاف والاستخدام ، ومرحلة ثانية بدأت فى الستينات من هذا القرن،تتسم بالتفتح العلمى والتضامن البشرى فى الاهتداء الى حقائق الامور على حد قول القدماء من مفكرى الاسلام • سأكتفى باشارات سريعة الى هاتين المرحلتين ، ومن يريد التوسع فى البحث عن المرحلة الاولى يمكنه ان يراجع كتابا قيما للباحث الانجليزى Norman Daniel : الاسلام والغرب أى : Islam and the west; the making of an image, Edinburg 1960.

وكتابا آخر للاستاذ J. Waardenbucq : الاسلام فى مرآة الغرب ، أى :
L'Islam dans le miroir de l'Occident, Paris 1968

I) مرحلة الاكتشاف والاستخدام

تمتد هذه المرحلة من القرون الوسطى الى النصف الاول من القرن العشرين . وبما ان هذه المدة طويلة جدا ، فانها تنقسم الى مرحلتين ثانويتين وهما مرحلة القرون الوسطى بالمعنى الجارى فى تاريخ الغرب ، والمرحلة « العلمية » بعد القرن 16 . ولكن هاتين المرحلتين الثانويتين تغلبت فيهما النزعة الايديولوجية إما فى مظهرها الاوثولوجى فى القرون الوسطى (الجدال الديني والمحاربة بين المسيحية والاسلام) واما فى مظهرها السياسى بعد القرن 16 عندما تغلب التيار العقلانى الايجابى اللائكى بالغرب .

1) مرحلة القرون الوسطى

من المعلوم ان عددا كبيرا من المؤلفات العربية فى الفلسفة والطب وسائر العلوم العقلية قد ترجمت الى اللاتينية واحدث فى الغرب اللاتينى المسيحى تيارا فكريا قويا بحيث ان المفكر المسيحى الشهير طوماس الاكوينوس تاثر بعقلانية ابن رشد فى كتابه Somme contre les gentils وقد بدأ مؤرخو الفكر بالغرب يعتنون بتحقيق الترجمات اللاتينية ليبرزوا ما يرجع للنشاط العلمى العربى من الفضل فى توجيه الفكر الغربى نحو مواقف علمية وتقوية الجانب العقلانى . وهذا مما يفتخر به العرب اليوم ، ردا على من احتقر المدنية العربية ووصف الاسلام بالغباوة فى عهد الاستعمار . ويجدر بنا ان نلاحظ ان هذا النوع من الافتخار والمباهاة يعمى العرب والمسلمين عن وضع أهم سؤال لابد منه : لماذا يا ترى ، رحب المجتمع اللاتينى المسيحى بفلسفة العرب وعلومهم بعد القرن 12 ؛ لماذا احدث ابن رشد،بصفة خاصة،ثورة عقلانية بالغرب بينما المسلمون عدلوا عن تلك الثروة الفكرية ودفنوا ابن رشد ، مثلا ، دفنتين جسمية وروحية ؟ وقد اجمع المؤرخون المعاصرون على ان المفكر أو العالم أو الاديب مهما بلغ من النبوغ والانتاج الثمين ، لا يبقى حيا منعشا للمدنية الا اذا توفرت فى المجتمع استعدادات ثقافية وأوضاع اقتصادية مزدهرة ونظم سياسية حامية لكرامة الانسان .

يعنى هذا ان النظر السوسيولوجى لوظيفة الفكر العربى فى المجتمع اللاتينى المسيحى والمجتمع العربى الاسلامى بعد القرن 12 ينتهى بنا الى حقائق هامة ما زلنا

نجهلها • فان الغرب قد **استخدم** الجانب العقلانى العلمى من الفكر العربى لتطوير المجتمع ورفع مستوى المعارف ، بينما انعكف المسلمون على تقليد المذاهب السنية عند أهل السنة والجماعة ، ومذهب الاشراق عند أهل العصمة والهداية اعنى الشيعة.

ومن علماء الغرب الذين تلقوا الجانب الايجابى من الفكر العربى نذكر على سبيل التمثيل (1114 ـ 1187) Gérard de Crémone و (1214 ـ 92) Rogers Bacon و (1235 ـ 1316) Raymond Lull و (1400 ـ 58) Juan de Ségovie و (1401 ـ 1464) Nicolas de Cues ••• ولكن لا ننسى ان هؤلاء المفكرين عاشوا فى عصر تغلب فيه النظر الدينى الدوغماتى ، ولهذا لا يخلو احدهم من النزعة الجدالية لتبيين تفوق المسيحية على الاسلام وان الحق محصور فى الاولى دون الثانى ، ولكن لا ننسى أيضا ان نفس النزعة الجدالية الدوغماتية كانت سائدة عند المسلمين أيضا • وكان المصطدمون فى الحروب الصليبية يتغذون بهاتين الايديولوجيتين المتنافيتين •

2) المرحلة « العلمية »

من المعلوم ان القرن 16 يعتبر نقطة انطلاق لعصر جديد فى تاريخ الفكر الغربى • ولابد هنا من ذكر الحوادث التى أقلقت الافكار وقلبت الاوضاع ووسعت الآفاق العلمية بحيث انطلق الغرب فى سير الى الامام دون سائر الامم فى العالم :

ـ فى سنة 1440 اخترع الالمانى Gutenberg الطباعة وفى سنة 1448 نشرت الطبعة الاولى من التوراة ، وحسبنا بالاشارة الى ان الطباعة العربية انما استخدمت سنة 1835 لطبع جريدة الوقائع المصرية ـ وفى سنة 1543 نشر كتاب Copernic فى النظام الشمسى فانقطعت بذلك الصلة بين تصور العالم الخاص بالقرون الوسطى والتصور الجديد الذى انبنى عليه تطور العلوم الى يومنا هذا •

ـ وادى كذلك اكتشاف القارة الاميريكية بعد سنة 1492 الى تصحيح صورة الارض وتوسيعها بالنسبة الى ما كانت عليه عند الجغرافيين العرب •

ـ اما فى ميدان الفلسفة وعلوم الدين فإن الحركة المعروفة بالنهضة والاصلاح ، ترتب عليها نظر جديد الى التاريخ والدين فأصبح العلماء يخصصون اهتمامهم لتخريج

النصوص اللاتينية واليونانية القديمة تخريجا فيلولوجيا دقيقا وذاع بهذا ما نسميه اليوم المنهاج الفيلولوجي الذى لم يتقيد بـــه العلماء المسلمون لتخريج المخطوطات العربية القديمة الا بعد الخمسينات بل الستينات من قرننا العشرين !!! وناهيكم دليلا على هذا ان كتبا قيمة كالمقدمة لابن خلدون أو احياء علوم الدين للغزالى أو آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابى ... لم تحقق بعد تحقيقا فيلولوجيا مقبولا • اما المخطوطات العربية التى لم تـزل مدفونة فى المكتبات لقلـــة الباحثين المسلمين المكونين تكوينا فيلولوجيا مرضيا ، فانها ، كما هو معلوم . كثيرة جدا وموزعة فى العالم •

قد يسأل سائل ويقول ما علاقة هذا كله بالدراسات العربية والاسلامية بأوروبا ؟ أريد أن أنبه الى أمرين مهمين بمكان لجميع الذين يحرصون عـــلى تجديد الدراسات العربية والاسلامية ورفع مستواها العلمى اليوم : اما الامر الاول فهو التخلى عـن مهاجمة « الاستشراق » دون تفهم الاصول التاريخية التى انطلق منها ذاك التيار الثقافى الذى سيزدهر بأوروبا الامبريالية فى القرن 19 كما سنرى •

واما الامر الثانى فهو استشعار العرب المعاصرين المنوهين بالتراث ، بان هناك ما يسميه مؤرخو الفكـــر القاطعـــة الايبستيمولوجية la coupure épistémologique أى التغير الجذرى فى العاقل والمعقول الذى استتبعته الاكتشافات والاختراعات فى القرن السادس عشر بأوروبا • ومعنى هذا اننا يمكننا أن نفتخر افتخارا وجدانيا بما انتجه المسلمون فى القرون الخلاقة ، بشرط ان نستشعر فى نفس الوقت ان المقدمات والاصول التى انبنى عليها « العلم العربي » فى تلك القرون الخلاقة ، قد تزعزعت ثم تركت بعد القرن 16 • وعقلانية ابن رشد مثلا ، مهما بلغت من الاهمية فى القرون الوسطى ، لم تعد صالحة اليوم فى الدراسات العلمية التى تعتمد على مواقف منطقية متعـــددة Logiques plurales

وقد كان للاتجـــاه العلمى السائد فى القرن 16 أثــر فى الدراسات العـــربية والاسلاميـــة • أنـشىء الكرسى الاول لتـدريس العربيـــة فى Collège de France عام 1539 واشتغله Guillaume Postel (1510 ـ 1581) الذى جمع عـددا كبيرا مـــن المخطوطات، وأنشئ كذلك كرسى بأكسفورد Oxford عام 1638 واشتغله Edward Pocock

وفى عام 1680 صـــدر بالنمسا معجـــم اللغـــة التركيـــة لـ Franz Meninski ولـ B. d'Herbelot (1625 ــ 1695) كتاب ضخم فى المكتبة الشرقية ، وللهولندى Thomas Van Erpe (1584 ــ 1624)أول مؤلف فى النحو العربى •

وازداد الاهتمام العلمى بالشرق عامة فى القرنين 17 و 18 • ومما يدل على ذلك ان الفرنسي A. Galland اصدر ترجمته لالف ليلة وليلة بين 17 ــ 1704 واعتنى كثير من الفلاسفة والعلماء كـ :
Pierre Bayle,Richard Simon, Leibniz, Georges Sale, Simon Ockley, Edward Gibbon, Voltaire,...
بأكتشاف جوانب مجهولة من المدنية الاسلامية ... واستخدامها لاغراض ثقافية أو سياسية كما فعل Voltaire بصفة خاصة • لا يتسع لنا المجال لتفصيل اعمال هؤلاء وعلى من يريد التوسع فى الموضوع ان يراجع مقالة قيمة لزميلى M. Rodinson (1) •

ولم تنقطع النزعة الاستخدامية فى القرن 19 اذ نجد رجـــال السياسة القائمين بنشر الاستعمار فى البلدان الاســـلامية يتوجهون الى المتخصصين فى الدراسات الشرقية ليستمدوا من كتبهم ما لابد منه من المعلومات لتدبير شؤون « الاهـــالى » indigènes واستخدام الادارة الاستعمارية للدراسات .الشرقيـــة معـــروف شائـع بالجزائر خاصة • على ان الاهتمام العلمى ما زال يتوسع ويتعمق منذ غزو بونابارت لمصر حيث بدأ التفتيش الاثرى عن المـــدنية الفرعونية • وفى النصف الاول مـــن القرن 19 أسست الجمعية الآسوية بفرنسا (1821) التى تصدر مجلة منذ عام 1823 الى يومنا هذا ، والجمعية الملكية الآسوية ببريطانية (1834) والجمعية الشرقية الامريكية (1842) والجمعية الشرقية الالمانية (1849) ، ولكل منها مجلة •

ونستبين هـــذا التفتح للشرق عند المسافرين والادباء كهوغو ولامارتين ونيرڤال وڤلوبير وغـــيرهم • وفى هذا العصر ظهـــرت الدراسات التاريخية المشهـــورة لـ
Wellhausen, De Slane, L. Caetani, R. Dozy, A. Sprenger, M. Amari, A. Von Kremer, H. Grimme, Th. Nöldeke, K. Brockelmann, I. Goldziher, E. Renan, B. de Meynard, Carra de Vaux,
وغيرهم • ومما يجدر بالذكر فى هذا المضمار ان تاريخ الادب العربى لـ K. Brockelmann

(1) M. Rodinson : *The Western Image and Western Studies of Islam,* in the legacy of Islam, 2e ed. by J. Schacht and C.E. Bosworth, Oxford 1974.

لا يوجد له نظير بالعربية الى يومنا هذا ، وقد واصل تأليفه العلامة التركى فؤاد سيزغين بالالمانية . ولم يترجم من تلك المصادر القيمة للتراث العربى بالمعنى الصحيح الا 3 مجلدات خفيفة رديئة العرض والتبويب ، قليلة الفائدة . ولا أقول هذا استطالة على الزملاء العرب وانما أقصد سد الثلم واستدراك النقص فى احياء التراث .

وما دمنا نعرض للانتاج العلمى عند الاوروبيين فى القرن 19 والنصف الاول من القرن العشرين ، فلابد من الاشارة الى دائرة المعارف الاسلامية التى تمت الطبعة الاولى منها فى 4 مجلدات سنة 1937 (وقد صدرت الكراسة الاولى سنة 1907) وقد شرع العلماء فى اعداد طبعة جديدة مزيدة منقحة ، سنة 1954 ، وقد صدرت 3 مجلدات الى هذا اليوم . ومن يريد ان يدرس اتجاهات علماء الغرب فى الدراسات الاسلامية منذ 30 سنة ، فانما عليه ان يتأمل هذه الموسوعة المحيطة بجميع جوانب الحياة والمعرفة فى المجتمعات الاسلامية فى ماضيها وحاضرها .

أما الانتاجات فى الفنون العلمية المختلفة ، فلا يمكن احصاؤها هنا ، وقد استوعب ذكرها J. D. Pearson فى فهرست بعنوان دليل الدراسات الاسلامية Index Islamicus

II) مرحلة التعاضد فى البحث العلمى

مهما بلغت الدراسات الاسلامية بالغرب من الاهمية من حيث العدد والالمام بالمعلومات المفصلة ، فانها بقيت متقيدة بالمنهاج الفيلولوجى (وهو كما قلنا منهاج ضرورى فى تحقيق النصوص القديمة) ومقدمات التاريخ الراوى L'histoire - récit الذى يكتفى بسرد الحوادث والاسماء المشهورة على طريقة الحوليات عند المسلمين القدماء . ومعنى ذلك ان الاغلبية من الباحثين الاوروبيين عن الاسلاميات ما زالوا منعزلين ومعتزلين فى بيئتهم الجامعية فانهم لم يؤثروا بمؤلفاتهم على الاتجاهات العلمية السائدة ولم يتاثروا بالاتجاهات الجديدة التى بدأت تظهر بعد الثلاثينات فيما نسميه اليوم العلوم الانسانية .

وسأضرب مثلين لتوضيح المقصود . فى سنة 1955 نشر Claude Cahen أستاذ تاريخ الشرق الاسلامى بالسوربون،مقالة تعتبر بيانا لتطبيق مناهج جديدة وفتح

ميادين مجهولة فى تاريخ المجتمعات الاسلامية (2) • وفى الحقيقة كان الاستاذ كاهن ينتمى الى مدرسة اشتهرت بفرنسا ثم فى جميع العالم، بمدرسة الحوليات التى ابدعها الاستاذان Lucien Febvre و Marc Bloch فى الثلاثينات وللمدرسة مجلة مشهورة جدا لم تزل تصدر وتوسع آفاق البحث التاريخى الى هذا اليوم : وهى مجلة « الحوليات ، اقتصادات ، مجتمعات ومدنيات » • ومع ان تأثير هذه المدرسة ادى الى تحويل التاريخ الراوى الى تاريخ شامل تحليلى مثير للمشاكل أكثر مما يستهدف « العبر » والتأويل الايديولوجى للماضى ، فان مؤرخى المجتمعات الاسلامية لم يلتزموا الا قليلا هذا المذهب المحرر من ميثولوجيات التاريخ الراوى •

اما المثل الثانى ، فهو ان المؤتمر الاول لسوسيولوجية الاسلام انما انعقد ببروكسيل سنة 1961 • لا يعنى هذا ان الاوروبيين لم يطبقوا المنهاج السوسيولوجى على المجتمعات الاسلامية قبل سنة 1961 فان دراسات L. Massignon و R. Montagne مثلا اعتمدت على المنهاج السوسيولوجى الى حد ما ؛ ولكن مؤتمر بروكسيل أبرز الثلم والتقصير فى تفهم المجتمعات التى لم تحلل بعد كمنظومات متماسكة الاجزاء مترابطة العناصر متعددة المناحى ، خاضعة لقانون التحول أى الانحلال والتركب حتى فى العصور الموصوفة بالجمود • وهنا مع الاسف عراقل تمنع من تعميم هذه الدراسات وتطويرها فى المجتمعات الاسلامية المعاصرة ، وهى عراقل ملازمة لمرحلة البناء القومى التى ترتجلها تلك المجتمعات منذ الخمسينات • كثيرا ما يعبر طلبتى عن رغبتهم فى معالجة موضوع سوسيولوجى أو ايتنولوجى ، فيعدلون عن مشروعهم عندما يجابهون صعوبات القيام بالبحث فى الارياف والاتصال بالعوام • وهذا النوع من الاطلاع على الحقائق الاصيلة فى المجتمعات ضرورى اذا أردنا ان نتجاوز مستوى الوصف السطحى والاعتناء بالجزئيات فى بحوثنا •

وهناك اتجاه ثالث فى العلوم الانسانية سأعرض له بالتفصيل غدا فى حديثى عن الاسلام والعلوم الانسانية ، ألا وهو الاتجاه اللسنى • وانما بدأنا نلتمس بوادر هذا التيار العلمى القوى منذ بضعة سنين فى الدراسات العربية • ولا شك ان تطبيق

(2) Claude Cahen : *L'Histoire économique et sociale de l'Orient musulman médiéval,* in Studia Islamica 1955/III.

القراءة اللسنية لجميع النصوص العربيةسيستتبع تجديدا جذريا فى الحياة الفكرية الاسلامية المعاصرة • ومن الملاحظ البين ان الفكر الغربى مدين للاتجاهات الجديدة المذكورة بالانتقال من المرحلة الاستخدامية الايديولوجية للعلوم الانسانية الى مرحلة التعاضد فى البحث عن الوضع البشرى • نعم ان هذا الانتقال لم يزل متفاوت التعمق والانفصال عن المواقف التقليدية ، الا انه لا يزال يتحقق عند عدد متزايد من الباحثين بحيث ان انتقاد المسلمين لمن اتصفوا « بالمستشرقين » منذ القرن 19 ، يدل على عدم اطلاع المنتقدين على التطورات والتغيرات الحديثة فى العلوم الانسانية أكثر مما ينبه على أخطاء محققة •

وقد يسأل سائل ويقول ما هى أسباب هذا الانقلاب الذى حدث عند علماء الغرب بصفة عامة ، بحيث انهم لم يعودوا يرضون باسم الاستشراق وأقروا بتغيير تسمية « المؤتمر الدولى للمستشرقين » الى « المؤتمر الدولى للعلوم الانسانية بآسيا وافريقيا » (1) ؟ ثم هل يصح القول بان اهتمام الغرب بالدراسات الاسلامية ليس وراءه غرض سياسى أو دينى كما كان الامر فى الماضى ؟

نعم ، هذا سؤال لم يزل وجيها فى بلد عربى اسلامى • ولا شك ان الدافع السياسى أقوى من الدافع الثقافى للاعتناء المتزايد بالتعرف على العالم الاسلامى • ولا شك أيضا ان البحث العلمى تستغله الطبقة الحاكمة بالرغم من العلماء المجتهدين بنية عرفانية محضة • وعلى من يريد التثبت من وجود هذه النية العرفانية أن يراجع الكتب الآتية وهى من احدث المنشورات بأوروبا :

— Actes du Congrès de l'Union Européenne des Arabisants : 7 volumes parus (Madrid, Cordoue, Ravello, Coimbra, Bruxelles, Stockholm, Göttingen) ;
— Orientalia Hispanica (Mélanges F.M. Pareja), I, Arabica - Islamica, ed. Brill 1974 .
— Mélanges d'islamologie A. Abel, I, Brill 1974 ; II, Bruxelles 1975
— Islamic philosophy and the classical tradition (Mélanges R. Walzer), ed. Cassirer, Londres 1972.
— Essays on islamic civilization presented to Niyazi Berkes, Brill 1976.

(1) انما أقر هذا التغيير في مؤتمر باريس الذى انعقد عام 1973 ، وهذا يدل على ان العقليات تتطور ببطء • وانتهز الفرصة لاقول انى لا أوافق الذين أدمجوا افريقيا الشمالية فى آسيا من حيث البحث العلمى !

— Mélanges Henri Laoust (à paraître à Damas).
— Mélanges L. Gardet et G. Anawati (à paraître à Louvain).
— 850e anniversaire de la naissance d'Averroès (Paris, sept. 1976 ; à paraître).
— Actes du IIe Congrès d'études des cultures méditerranéennes, ed. S.N.E.D. 1976.
— Archives arabes, ed. C.N.R.S. Paris 1976.
— Annuaire de l'Afrique du Nord, ed. C.N.R.S. dernier volume paru 1974.
— Collection du C.R.E.S.M. (Centre de recherche et d'études des sociétés méditerranéennes, Aix-en-Provence ; plusieurs volumes parus, C.N.R.S. Paris).
— Publications de l'Institut Français d'Etudes Arabes de Damas (nombreux volumes parus).
— Collection Etudes Musulmanes chez J. Vrin, (17 volumes parus).
— Revues : Arabica (C.N.R.S., Brill) ; Studia Islamica (Maisonneuve - Larose) ; Revue des Etudes Islamiques (P. Geuthner) ; Etudes Chamito - Semitiques (g.l.e.c.s.) ; (P. Geuthner) ; Journal Asiatique (P. Geuthner) ; Le Muséon (Louvain) ; Sémitica (J. Maisonneuve) ; Studia Iranica (Brill) ; Syria (P. Geuthner) ; Turcica (Klincksieck) ; Der Islam, Z.D.M.G. (Allemagne) ; Bulletin of School of Oriental Studies (Londres) ; Journal of Arabic Literature (Brill) ; Correspondance d'Orient (Bruxelles) ; Andalus (Madrid) ; Oriente Moderno (Italie) ; Revista degli Studi Orientali (Italie) ; Journal of Economic and Social History of the Orient (France - Amérique ; ed. Brill) etc...

انما ذكرنا القليل جدا من كثير ؛ وكان مقصدى الأسنى فى حديثى كله ان اساهم فى خلق جو جديد يسوده التفاهم والتعاضد بين العلماء المسلمين وعلماء الغرب الذين يبذلون جهودا عجيبة لاحياء التراث الاسلامى ولبعث المدنية الاسلامية فى طرق متأصلة وجديدة معا · ولا يخفى ان المجتمعات الاسلامية والمجتمع الجزائرى بصفة خاصة ، قد اندفعت فى مرحلة التصنيع ؛ والتصنيع عملية مركبة مثيرة لاضطرابات هائلة فى جميع مستويات الحياة الانسانية · وكما ان المجتمعات الغربية المصنعة لجأت الى العلوم الانسانية لتستنبط حلولا ملائمة لمقتضيات أصالتها وأحوالها الجديدة، فكذلك المجتمعات الاسلامية ، ما دامت تتوق الى مدنية التصنيع ، لابد ان تشارك فى البحوث عن الانسان على المستوى الانتروبولوجى مع الانطلاق من المستوى الاسلامى · وسأحاول غدا ، ان شاء الله ، ان اعالج هذه المشكلة العويصة فى حديثى الثانى ،

اشكركم على حسن انتباهكم ، والسلام عليكم جميعا ·

مـــلـحـــق

ما اتسع لى الوقت للايتاء بتوضيحات عن الدراسات العربية والاسلامية بفرنسا ٠ فان فرنسا هو البلد الاوروبى الوحيد الذى يسمح لتلاميذ المدارس الثانوية ان يختاروا العربية كلغة أولى أو ثانية ٠ الا ان تدريس العربية لا يضمن الا فى بعض المدارس فى المدن الجامعية كباريس وستراسبورغ وليون ومرسيليا وتولوز وبوردو ، وليل ٠

اما الجامعات التى يوجد فيها معهد أو قسم مخصص للدراسات العربية والاسلامية فهى الآتية :

— Paris I, III, IV, VIII.
— Collège de France (2 chaires).
— Institut National des Langues Orientales Vivantes.
— Ecole pratique des Hautes Etudes (Section IV, V, VI).
— Fondation Nationale des Sciences Politiques.
— **Lyon II et Lyon III.**
— Maison de l'Orient à Lyon.
— Aix-Marseille II (Université de Provence).
— Toulouse - Le Mirail.
— Bordeaux II.
— Strasbourg II (Université des Sciences Humaines).

وتوجد بفرنسا ـ جمعية لتشجيع الدراسات الاسلامية ؛
ـ جمعية لتشجيع الدراسات التركية ؛
ـ جمعية اساتذة العربية ٠

وقد اتفقت هذه الجمعية الاخيرة على برنامج من البحوث التى أهملــــت الى الآن أو أصبحت ضرورية كاللالسنية المطبقة لتعليم اللغة للمبتدئين وتاليف معجم تاريخى للغة العربية ، ومعجم للغة الحديثة ومعاجم اصطلاحية (الفلسفة ، العلوم ، التقنيات ٠٠٠) ؛ توجيه الطلبة المترشحين لدكتورة الدولة نحو موضوعات متفتحة على الجوانب المهملة من ماضى الاسلام والجوانب العملية الحية من حاضر المسلمين ٠

(راجع مجلة الجمعية الفرنسية لاساتذة العربية ، عدد 6 ، 40, avenue d'Iéna, 75116 Paris)

حول الاسبوع الاول للدراسات الايطالية ـ العربية

د.م • بالحميسى
معهد العلوم الاجتماعية
جامعة الجزائر

انعقد أخيرا باطاليا تحت اشراف أربعة معاهد تابعة لجامعات رومـا والبندقية ونابـلى وبالرمو متخصصة فى دراسة الثقافة والحضارة العربية أسبوع دراسى عربى ايطالى من 14 الى 21 نوفمبر الماضى فى شكل لقاءين كان الاول بمدينة البندقية الشهيرة حول الدراسات الايطالية منذ ما يزيد على نصف قرن لتعريف جوانب من الثقافة العربية فى ايطاليا ، وكان اللقاء الثانى بمدينة بالرمو عاصمة صقلية لاستعراض التراث العـربى الاسـلامى المتعلق بالجـزيرة •



وشارك فى هذا الاسبوع الاول عدد من الشخصيات العربية الجامعية قدموا مـن مختلف البلاد العربية مغربها ومشرقها ومن بينهم أدباء وشعراء ومؤرخون وفلاسفـة وأثريون أو مسؤولون عن أجهزة ثقافية تلبية لدعـــوة شخصية تلقوها من زملائهم الايطاليين أو من المعاهد المنظمة لهذا الملتقى •

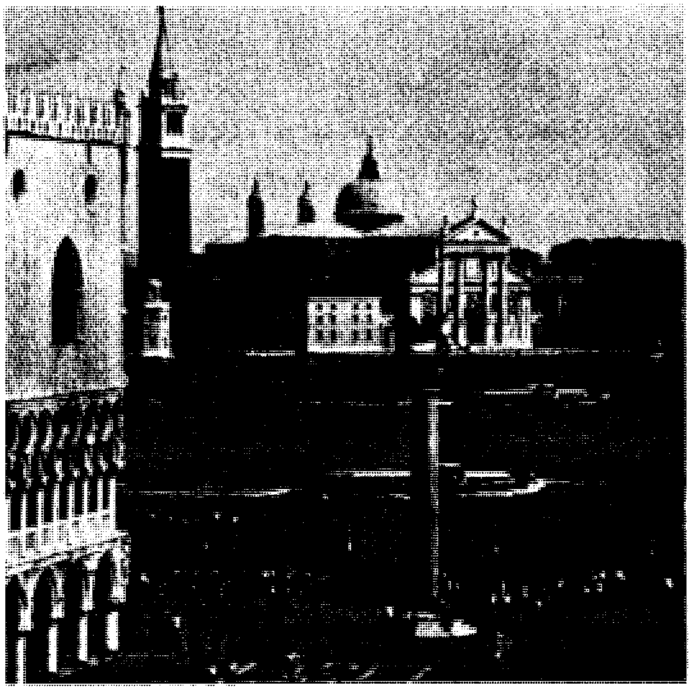
لقـاء البندقيـة (15 ـ 18 نوفمبر) :

ألقى في البداية كل من مدير الجامعة ومسؤول في وزارة الشؤون الخارجية كلمات تحية وترحاب وقد جاء فيها على الخصوص ذكر العلاقات القديمة السلمية بين البندقية والبلدان العربية في ميدان التجارة واعجاب الشاعر الاديب الايطالي بترارك(Pétrarque) (1304 ـ 1374) بالعرب وبحضارتهم وبدورهم في تطوير الطـــب حتى اتهم طبيب عربي في الماضي بالسحر وكان يمارس مهنته بايطاليا فتحول الى راهب تحت اســـم قسطنطين الافريقي Constantin l'Africain لينجو من الخطر ۰۰۰ وأبـــرز الخطيبان ما جاء في بعض الكتب العربية القديمة من أوصاف لمدن أو جزر ايطالية من رحلـــة ابن جبير أو ديوان ابن حمديس الصقلي ۰ ثم ألح الرسميون على ضرورة التبادل الثقافي والفكري في وقتنا الحاضر مصرحين ان المحاولات من أجل نشر اللغة العربية في ايطاليا ونشر اللغة الايطالية في العالم العربي لم تصل بعد الى الدرجة المنشودة الا ان الجهـود متواصلة وستكون النتائج أكثر ايجابية اذا تعاون الطرفان وتكررت مثل هذه اللقاءات وتمخض عنها عزم وحرص على العمـل المشترك ۰ ونـــوه مفتتحو الاسبوع باسبقية ايطاليا في الدراسات العربية بضرب مثالين : أول مطبعة عربية ظهرت في أوروبا كانت بروما وأول كتاب عربي طبع في الغرب هو كتاب الشريف الادريسي سنة 1572 ۰

وكانت المحاضرات العلمية التي قام بها نخبـة من عمداء الاستشراق الايطـــالي وجماعة من المتخصصين في مواضيع عديدة مختلفة متنوعة : علم النممات العربية في ايطاليا ـ الفن الاسلامي في ايطاليا ـ المقابر الاسلامية في جزيرة دهلك كبير بالبحر الاحمر ـ اللغة العربية الجنوبية ودراساتها في ايطاليا ـ الدور الاسلامي في تقـدم العلوم والمصادر في ايطاليا ـ دراسات الادب العربي في ايطاليا ـ مذهب ابن رشـد في جامعة بادوا (Padova) في القرن الخامس عشر ـ الكتاب المعروف بسر الاســـرار لارسطوطاليس كمثال على الاتصالات الثقافية بين الشرق والغرب ـ التعاون مع البلاد العربية في مجال علم الآثار ـ مشروع الانوماستيكون آرابيكم (Onomasticon Arabicum) اداة للابحاث التاريخية ـ احصـــاء الآثار الاسلامية ببغـــداد ۰۰۰ وكانت كل هذه المحاضرات دقيقة البحث حديثة المنهجية غير أننا نقف بقراء الأصالة عند محاضرتين

رأينا فيهما أهمية أكثر : نشر كتاب نزهة المشتاق للشريف الادريسى ـ ومشروع بحث عن قاموس أساسى للغة العربية ٠

فطبع الادريسى طبعة علمية وافية يرجع مشروعه الى سنة 1954 وبدأ العمل بتعيين لجنة من المتخصصين ومن المراسلين وحددت أعمال كل عضو ثم شرع فى تصوير جميع المخطوطات (مخطوطات نزهة المشتاق) الموجودة فى العالم فى باريس واسطنبول والقاهرة ولينينقراد واوكسفورد ولندن وصوفيا ٠ وكان العمل الاول هو مقارنة هذه المخطوطات كلها للاطلاع على ما أتلف وما اختلف فيها مع الاعتماد على اقدمها وهو مخطوط باريس رقم 2221 ، لمعرفة زوائد هذا ونقائص ذاك ٠ ثم توجه كل عضو فى اللجنة الى البحث عن أخبار الادريسى فى الكتب يستعين بها الجميع فى المرحلة الثانية من العمل الجبار وبعد ذلك أقصيت مخطوطات ظهر علميا انها منقولة عن غيرها فيستغنى عنها اذن ٠ وأثناء التحقيق ظهر كثير من المشاكل : تحريف بعض الاسماء للاماكن والاشخاص ، صعوبة تحديد أماكن أو خطأ فى ذكر بعض التواريخ فلجأ أعضاء اللجنة الى المصادر التى استعملها الادريسى نفسه أو الى تلك التى اغترفت من نزهة المشتاق كما استخدموا كتب الجغرافيين الذين سبقوا الادريسى أو جاءوا بعده (المقديسى ـ ابن حوقل ـ ابن خراذنبه ٠٠٠) وبعد مرحلة التمحيص جاءت مرحلة التحرير والتعاليق والنشر النهائى حسب الاقاليم السبعة وقد ظهرت سبعة مجلدات ٠٠٠ وطرح على المتخصصين مشكل ترقيم الصفحات بما ان النص عربى والتقاييد والملاحظات وكذلك المقدمة باللغة الايطالية فاتفق على ترقيم غربى على ان يكون ترقيم الصفحات للنشرة الخاصة للعالم العربى ترقيما يجارى النص ٠ وخصص جزء كامل للخرائط وعددها سبعون ! وللفهارس ٠ وبدأ تسويق الطبعة منذ 1970 وكلما تم مجلد نشر والعمل على وشك الانتهاء ٠ وما لاحظناه من نماذج وما سمعناه من شروح حول « كتاب روجر » يدل أوضح الدلالة على ثمرة الجهود الجماعية والعمل المتواصل حسب طرق علمية والمنهجية المتبعة التى لا تترك للخطا مجالا ٠ وكم لنا فى هذا المثال من عبر اذا أردنا ان نخرج مخطوطاتنا من خزائنها لنحولها الى نفائس وذخائر ٠



منظـــران



من منــاظر البنــدقية

والمثال الثانى عن هذه المجموعة من المحاضرات هو مشروع القاموس العربى الاساسى انطلاقا من الاعتبارات التالية :

ان أول عقبة تواجه تعليم لغة ما هى عقبة المفردات الاساسية فى البداية • وقد حاول الانقلو ـ ساكسون منذ ثلاثين عاما (وقد خصصوا لمشروعهم اعتمادات باهضة !) اصطياد نحو 600 الى 700 كلمة مستعملة بكثرة فى اللغة الانكليزية رائجة فى الصحف والمجلات والاذاعة والشارع والحياة العائلية والعملية ليجعلوا منها اللغة الاساسية حتى يسهل استعمال الانكليزية وينتشر •

وتساءل الايطاليون فيما اذا كانت هذه الطريقة صالحة لاختيار مفردات اساسية فى العربية من أجل تبسيطها ولاحظوا نقائصها ومثال ذلك انه فى سنة 1939 قام أستاذ باحصاء الكلمات الاكثر انتشارا فى القدس ففوجىء بكلمة « هتلر » وتعجب فى نفس الوقت من عدم ورود ذكر أيام الاسبوع فى الصحافة •

فاختار الايطاليون لقاموسهم طريقة أخرى : الاغتراف من اللغة الفصحى الا ان هذه تتطور بسرعة وتنمو مفرادتها فكيف يكون الاختيار وعلى أى أساس ؟ وماذا نقدم ـ عن طريق القاموس ـ لمن يريد تعلم العربية لا سيما من الاوروبيين ؟ فاتفق الرأى على جمع 800 كلمة مستعملة فى كافة العالم العربى أو فى معظم اجزائه حتى يكون من يعرفها مطمئنا متيقنا من ان له بضاعة لغوية مستعملة فى المغرب وفى المشرق بمدلول واحد •

وهذا من المشجعات •••

والآن كيف ترتب ألفاظ هذا القاموس ؟ فالطريقة الكلاسيكية غير مجدية فجمعت المفردات حسب محاور يتجه اليها الباحث مثل الجسد ـ المنزل ـ العمل ـ الشارع الادارة ـ الحكومة ـ المجتمع ••• الخ • وهكذا يسهل على الطالب الاجنبى تعلم اللغة العربية العملية • والايطاليون متيقنون انهم يساهمون بهذا العمل وما شابهه فى نشر اللغة العربية فى أوروبا •

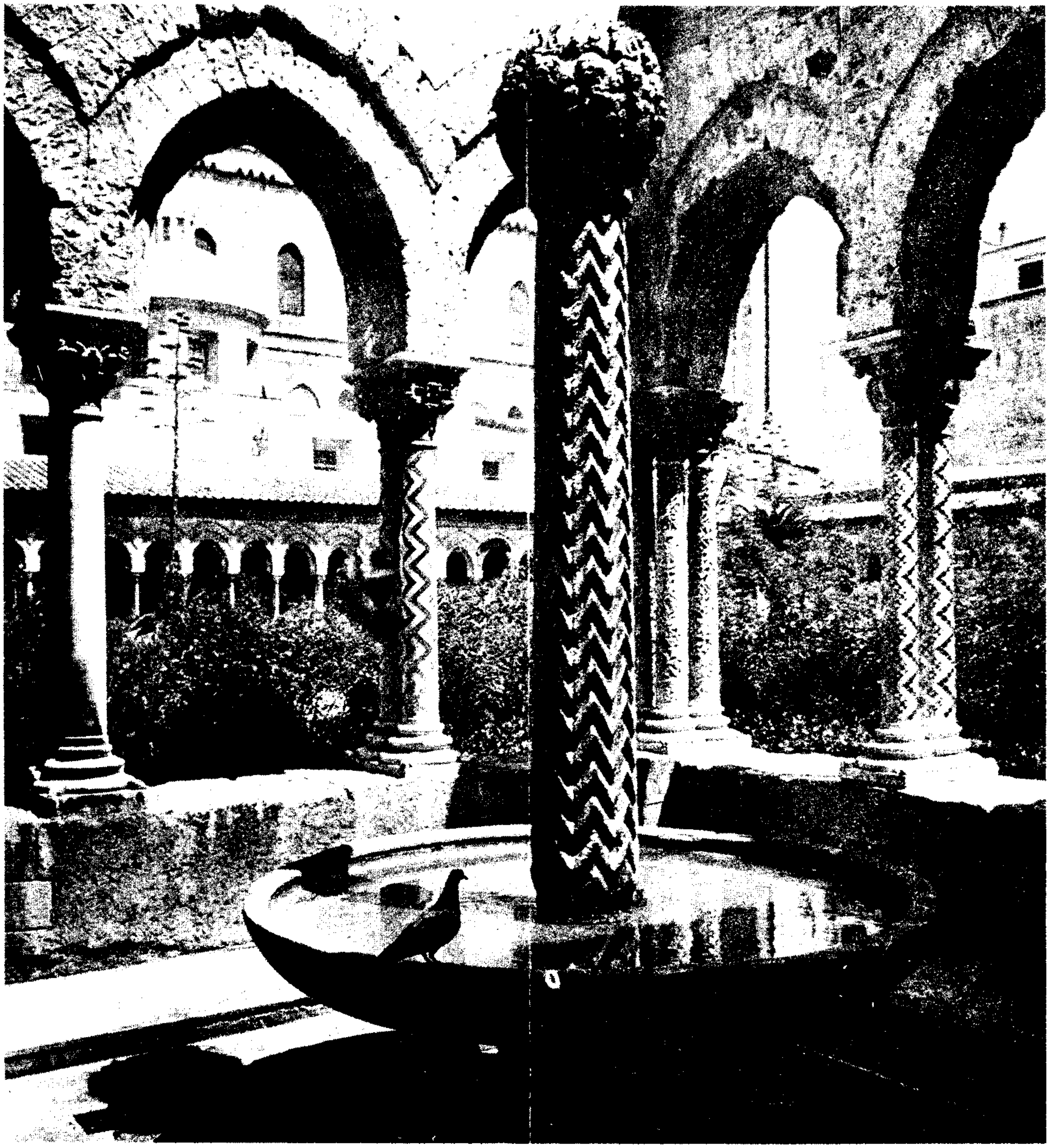
واذا نظرنا الى طرق بحثهم ومنهج اختيارهم وهدف عملهم شعرنا بضرورة

الاستفادة من تجاربهم فى حملتنا الوطنية من أجل تعريب يضمن وحدة لسانية وقاعدة ثقافيـــة ٠

لقـــاء بالـــرمو (19 ـ 21 نوفمبر) :

واصل الملتقى أعماله فى عاصمة صقلية وكانت جلســة الافتتاح خاصة لخطـــب الرسميين من نواب وموظفين سامين فى الحكومة الجهوية وقد ركز كلهم على ماض صقلية المجيد وعلى دور العرب الحضرى بالجزيرة وعلى كون صقلية كانت ولا تزال همزة وصل بين العرب وايطاليا وأبرز أكثر من واحد انجازات العرب وتقدم الفلاحة والعدالـــة الاجتماعية أيام حكمهم ـ وكانت المحاضرات ، رغم كثرتها وتنوع مواضيعها ، ترمى الى الاشادة بصقلية العربية وبتراثها ٠ وكانت أهم الكلمات حول التآليف والدراســات العربية والغربية التى حظيت بها صقلية مثل مؤلفات امارى Amari ، ونالينو Nallino ، وقبريالى Gabrielli ، ورزيتانو Rizzitano ، وتوفيق المدنى ، وحسن حسنى عبد الوهاب ، واحسان عباس ، وحول ما ترجم الى الايطالية من كتب عربية مثل رحلة ابن جبير أو فصول من الادريسى حول صقلية والجزر الايطالية أو احصاء الكلمات العربية الموجودة الى يومنا هذا فى اللغة الايطالية الداخلة عن طرق الحروب الصليبية والمبادلات التجارية واقامة العرب مدة ببعض الموانى مثل جنوة والبندقية ومن بـين هذه الالفاظ : مرزيانى (Marzappani) من « مرزبان » وهو وعاء الحلوى وبراكينـو Baraquino من « البراق » وفاقوزبان Fagozanban من الزبانية ، وزربينو Zerbino من الزربية وبقـارينو Bagarino من البقارين ، وكسيسى Caseci من قسيس وفادالا Vadala من عبد الله ، وباراقادا Baragada من بارك الله ، وبيتـــال Pihala من هبة الله ، وبيرنينو Berenino من ابن الامير ـ وهناك اسماء اماكن بصقلية ذات أصل عربى مثل كاسيرو Casero من القصر ، وكاتالرازى Catalrazi من قلعة الخراز ، ومارسا Marsa من المرسى ، وميسارمينى Donalukata من منزل الامير ، رودونالوكاتا Donalukta من عين الاوقات ٠٠٠ الخ ٠

كما القيت محاضرات عن نتائج الحفريات بالجزيرة لرفع الغبار عن بعض الجوانب من تاريخ المسلمين هناك ٠ وللصقليين اليوم عيانة خاصة بابن حمديس الشاعر ٠



بالرمو : قصر من القصور القديمة ذات الهندسة العربية



بالرمو : المدينة الحديثة

فالدراسات التى تناولت حياته وشعره ونقل قصائده الى الايطالية شغلت عددا مـــن المستعربين ·

وقد صادق الحاضرون على اقتراح تقدمت به فى شأن مسلمى صقلية بعد نكبتهـم وخروجهم من وطنهم وتشتتهم فى المغرب والمشرق · فمصيرهم لا يختلف عن مصير مسلمى الاندلس بعد سقوط غرناطة ·

ـ وسيخصص أسبوع ـ ان شاء الله ـ لهذا الموضوع يبين فيه الباحثون نـزول الصقليين بمختلف أقطار العالم العربى ومدى تأثيرهم فى الحياة السياسية والاجتماعية والثقـــافية ···

على هامش الاسبوع الايطـالى العـربى :

ان النشاط الثقافى المكثف هنالك يدعو الزائر الجزائرى ولو كانت الاقامة قصيرة الى الوقوف عند بعض الجوانب منه :

1 ـ **الجزائر فى البحث الجامعى الايطالى** · فانه من دواعى السرور ان نرى اهتماما متزايدا ببلدنا قديما وحديثا · ولو لا ضيق الوقت لكان احصـــاء عناوين الرسائل والاطروحات والمقالات طويلا جدا ، وأقدم فى هذا المقال نموذجا :

ـ أنابوزو (Anna Bozzo) من نابلى : أطروحة حول العلاقات بين الاســـلام والحركة الوطنية اتجاه الاستعمار 1903 ـ 1938 نوقشت سنة 1971 ·

فرانسيسكو كاسترو (Franscesco Castro) مقال حول تاريخ وتطور التسيـــير الذاتى بالجزائر (مجلة ستـــودى مقربينى Studi Maghrebini ج 1 ص 61 ـ 65) نابـلى 1966 .

ـ سالفتور بونو (Salvatore Bono) ، مقال فى الشهادات الشفاهية وتاريخ الجزائر المعاصر (Testimonianze Orali per la Storia contemporanéa Dell'Algéria) مجلة افريكا AFRICA مارس 1975 ·

وتقوم حاليا طالبة بجامعة بادوا (Padova) ببحث جامعى حول كاتب ياسين ·

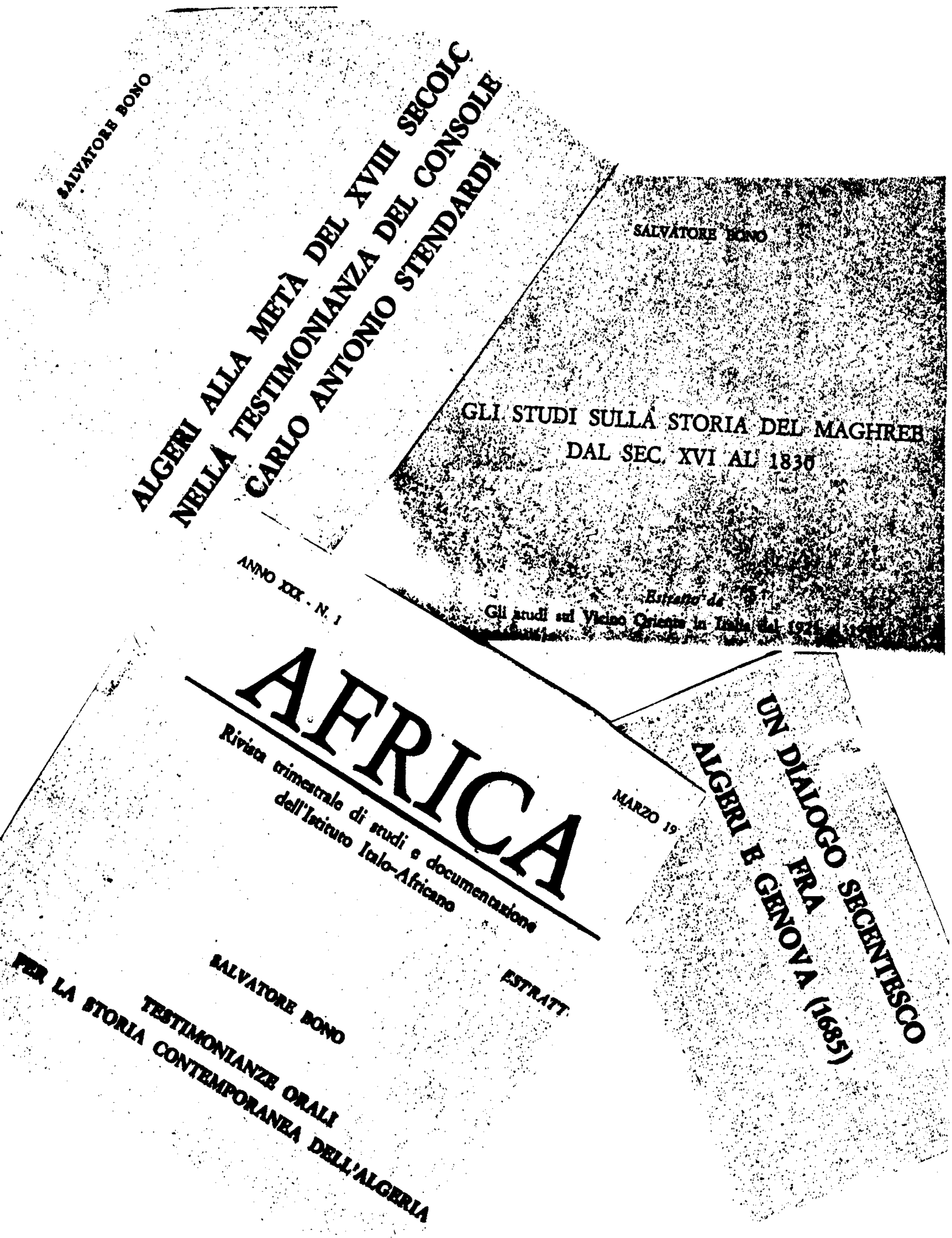
ويعنى بعض المؤرخين الايطاليين بالفترة العثمانية فى الجزائر ومقالات الاستاذ بونو عديدة تناولت الغزو البحرى ، وأحوال الجزائر فى منتصف القرن الثامن عشر والعلاقات بين جنوه والجزائر والاسرى الحنويز المسيحيين بالايالة وحالة الاسرى المسلمين بليفورن ...

وقد ظهرت هذه البحوث فى مجلات جامعية ذات المستوى الرفيع .

2 ـ **الوثائق الايطالية ومساهمتها فى اعادة كتابة تاريخنا** . بايطاليا كنوز لا تقدر قيمتها من الوثائق التاريخية التى تهم المغرب العربى بصفة عامة والجزائر بصفة خاصة . وكان البلد قبل 1860 عبارة عن مجموعة من الدويلات والجمهوريات اشتهرت بنشاط بحرى وتجارى ملحوظ ولكل دويلة خزائنها حيث يوجد الآلاف من الوثائق ، ومن أغنى الخزائن أرشيف البندقية الذى يحفظ تقارير القناصل والمبعوثين الى شمال افريقية ـ وقد عرض بمناسبة لقاء البندقية عدد من هذه الوثائق نأمل ان تصور وترسل لتنشر فى وقت قريب . والجدير بالذكر ان بعض الطلبة البنادقة ـ فى اطار الاعمال التطبيقية ـ يبحثون فى الخزائن الخاصة عن هذه الوثائق لجمعها وتبويبها وترقيمها ونتمنى أن نجد فى المستقبل تسهيلات للاستفادة من هذا العمل الايجابى .

3 ـ **تدريس اللغة العربية بايطاليا :**

تقوم حاليا معاهد كبرى لتعليم اللغة العربية وهى معاهد روما ونابلى وبالرمو والبندقية وبادوا وشاهدنا اقبالا كبيرا وعددا من الراغبين فى تزايد . وتعتمد طريقة التعليم على الوسائل السمعية البصرية لتذليل العقبات الاولى ثم يشرع فى تعليم النحو والصرف وشرح النصوص ومطالعة الجرائد ونقل أهم النصوص الى الايطالية . وقد ارتفع عدد الطلاب المستعربين من 2 الى 60 فى ظرف سنتين فى البندقية وحدها واما عن البرامج والمستوى والمنهجية فحدث ولا حرج والعبرة بالنتيجة اذ رحب الطلاب بالضيوف بلغة الضاد وفضلوا الحديث معنا بلغتنا معربين عن بعض النقائص مثل قلة المراكز الثقافية العربية بايطاليا (يوجد الآن مركز واحد بنابلى ينافسه مركز اسرائيلى) وقلة الافلام العربية والتمثيل المسرحى وتبادل الزيارات بين الطلبة وجمود بعض الملحقين الثقافيين بروما .


SALVATORE BONO
ALGERI ALLA METÀ DEL XVIII SECOLO
NELLA TESTIMONIANZA DEL CONSOLE
CARLO ANTONIO STENDARDI
SALVATORE BONO
GLI STUDI SULLA STORIA DEL MAGHREB
DAL SEC. XVI AL 1830
Estratto da
Gli studi sul Vicino Oriente in Italia dal 1921
ANNO XXX - N. 1
AFRICA
Rivista trimestrale di studi e documentazione
dell'Istituto Italo-Africano
MARZO 19
ESTRATT
SALVATORE BONO
TESTIMONIANZE ORALI
PER LA STORIA CONTEMPORANEA DELL'ALGERIA
UN DIALOGO SECENTESCO
FRA
ALGERI E GENOVA (1685)

وقد بحثت عبثا (فى مكتبة معهد الدراسات الشرقية ببالرمو - وهى مزودة بالانتاج العربى) عن كتاب جزائرى أو مجلة أو جريدة وكان جواب المدير ان المسؤولية ليست على عاتق الايطاليين ...

فهل نتدارك ما فات ونعطى صورة حية عن انتاجنا وبحثنا حتى نساهم بدورنا فى ازدهار الدراسات العربية هنالك ونشجع المزيد من الطلبة ولا ننسى ان أمتن الروابط هى الروابط الثقافية .

جائزة « ميديتيرانى » (جائزة البحر الابيض المتوسط) .

صادفت اقامتنا بصقلية تسليم هذه الجائزة للمرة الاولى وقدرها مليون ليرا ايطاليا.

وكان عدد الفائزين أربعة ايطاليين وفرنسى والشاعر العربى نزار قبانى تقديرا لانتاجهم الادبى ومواقفهم فى شتى الميادين .

ثم منحت جائزة خاصة لادباء عرب ثلاثة وهم : الاستاذ عيسى الناعورى الامين العام لمجمع اللغة العربية بالاردن والاستاذ خليفة محمد التليسى من ليبيا والاستاذ عزيز أحمد مدرس الآداب بالكانادا على ما قدموه من أعمال وبذلوه من نشاط فى التعريف بالادب الايطالى وقد نقلوا الى العربية مسرحيات وقصصا وقصائد ودراسات ايطالية كما نقل بعضهم نصيبا من أدبنا الى الايطالية . وما من شك ان مثل هذه المبادرات المشجعة ستحرك القرائح وتفتح مجالات وآفاقا جديدة .

الجــانب الاقتصـــادى فى الاســـلام

د. محمد نجاة الله صديقى
أستاذ الاقتصاد
بجامعة عليكره المسلمة (الهنـد)



يهدف هذا المقال الى تقديم فكرة واضحة عن الجانب الاقتصادى فى الاسلام ، بوضع تعريف دقيق للاقتصاد ، وشرح المقصود منه فى الاسلام ... كما يهدف الى اعطاء فكرة واضحة عما كتب فى هذا الموضوع ... ويهـدف هذا المقال أخـيرا الى ارشاد الطلبــة المهتمـين بالجانب الاقتصادى فى الاســلام ، وحثهم على القيام بمـزيد مـن البحوث العلمية فى بعض الميادين المتصلة بهذا الموضوع .

ان الاسلام له نظرة خاصة الى الوجود ، وهذه النظرة مستمدة الى حد بعيد من نظرة الانسان الى الشؤون الاقتصادية . وبذلك يقدم الاســلام نظاما من المعايير التى تسـير بمقتضاها الحياة الاقتصادية . وأول عمل ينبغى أن يتصدى له الباحث فى هذا الجانب

الاقتصادى من الدراسات الاسلامية ، هـو أن يفهم هذا النظـام المعيارى ، وأن يحلله بالاعتماد على الامثلة المستمدة من الواقع · ومثل هذه الدراسة يمكن أن تدعى **الفلسفة الاقتصادية للاسلام** ·

واذا نظرنا الى التاريخ ، فاننا نجد أن الاسلام قد سطر حيـاة الانسان الاقتصادية بطريقة خاصة هى موضوع : **التاريخ الاقتصادى للاســلام** · وهذا العلـم يدرس كيف استطاع الاسلام ، بنظرته الخاصة الى الوجود ، وما يشتمل عليه من قيـم ومعايير ، أن يؤثر على نشاط الانسان فى المجال الاقتصادى ··· وكتكملة لاغنى عنها ، فان **تاريـخ الفكر الاقتصادى فى الاسلام** يمكن أن يلقى مزيدا من الاضواء على جانب غير مطروق من الفكر الاسلامى ·

ان الجانب الاقتصادى فى الاسلام ينكشف لنا بأبعاده الجديدة فى نطاق المحاولات التى تبذلها الشعوب الاسلامية لتنظيم شؤون حياتها طبقا لتعاليم الاسلام ومثله العليا · وهذا الامر يستلزم دراسة السلوك الاقتصادى المعاصر ، كما يستلزم دراسة المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية ، والموازنة بينها ، والمقارنة بينها وبين الحلول الاسلامية الممكن اقتراحها كبديل لها ، مع السعى لتحديد التغييرات الواجب ادخالها للانتقال الى أنماط من السلوك ، وأنواع من المؤسسات المطابقة للمعايير الاسلامية · ومثل هذه الدراسة يمكن أن تدعى **علم الاقتصاد الاسلامى** ·

الفلسفـة الاقتصادية للاســلام

1 ـ ان فكرة « الله » القادر على كل شىء ، الله الذى خلق الانسان وأمده بأسباب الحياة ، ورزقه من الطيبات ، وأرشده الى الصراط المستقيم عن طريق الانبياء والمرسلين هذه الفكرة هى التى يهتدى بها الانسان فى حياتـه الاقتصادية وفى علاقته بالطبيعة · فما على الانسان الا أن يستثمر الخيرات التى سخرها الله له ، وأن يستفيد منها ، لكى يبلغ غاية الغايات ، ماديا ومعنويا ·

وهكذا نجد المسلم يتوجه الى الله بكل خشوع وخضوع ليشكر نعمته الكبرى عليه · وهذه هى النقطة الاساسية فى علاقة الانسان بخالقه : فالانسان ينبغى أن يبذل قصارى

جهده ، لينال رضى الله • وهذا الرضى يناله اذا هو توكل على ارادة الله ، تلك الارادة التى بفضلها يكتسب الانسان الصفات الحميدة والقيم الرفيعة • فالقيم التى يسعى الانسان لبلوغها متمثلة فى الامتثال للاوامر • وبما أن المسلم يعتقد أن الحياة لا تنتهى عند حد الممات ، بل تستمر فى الآخرة ، فان هذا الاعتقاد يجعل الانسان يتمسك بهذه القيم فى الحياة الدنيا ، ليفوز بالنعيم فى الآخرة •

2 ـ ان القيم التى أرادها الله لعباده ، متفاوتة فيما بينها من حيث الرتبة • فهناك قيم روحية تتصل بالعلاقة بين الانسان وخالقه ••• وقيم أخلاقية تختص بالعلاقة بين الانسان وبنى جنسه ، وبالانسان وذاته ••• وهذان النوعان من القيم مقدمان فى الرتبة على القيم المادية المتصلة بالعلاقة بين الانسان ومتاع الدنيا ، أى الاشياء التى نستخدمها ونتعامل بها فى النشاط الاقتصادى • وهذه القيم الاخيرة انما جعلت لتخدم النوع الاول والثانى من القيم ، وينبغى أن يتخذها الانسان أداة لتحقيق القيم الروحية والاخلاقية السامية •

3 ـ واذا نظرنا الى تطور علم الاقتصاد فى القرنين ونصف القرن الاخيرين ، فاننا نجد أنه كان عبارة عن « أفكار منظمة تتعلق بكيفية تحقيق الرخاء الاقتصادى » • وهذا الرخاء الاقتصادى يعتبر جزءا من الرخاء الشامل الذى يمكن تحقيقه بتوفير السلع والخدمات • ولكن ، مما لا يكاد ينازع فيه أحد أن طرق توفير السلع والخدمات ، وكيفية استهلاكها والاستفادة منها ، لهما صلة وثيقة بالرخاء الشامل الذى يعتبر الرخاء الاقتصادى جزءا منه ، أو بالاحرى ، جانبا من جوانبه • ولذلك فان نظام الاسلام المعيارى يهتم قبل كل شىء :

أ ـ بالعلاقة التى يعقدها الانسان بانسان آخر ، عندما يسعى لتوفير السلع والخدمات لنفسه •

ب ـ بالغايات التى يتوخاها من سعيه للحصول عليها •

فالنقطة الاولى (أ) لها صلة بأنماط السلوك وبقوانين التعامل داخل المؤسسات الاجتماعية • اما النقطة الثانية (ب) ، فلها صلة بالغايات القصوى وبالقيم التى يسعى

الانسان لبلوغها من وراء حصوله على الوسائل المادية ·

ولذلك فسوف نعمد الى تحديد القيم الرفيعة التى أمرنا الله أن نسعى لتحقيقها من خلال نشاطنا الاقتصادى وتعاملنا مع الناس · وهذه القيم هى : طاعة الله ، والمساواة ، والعدل ، والتعاون ، وكسب الرزق الحلال · أما المساواة والعدل والتعاون ، فهى القيم الاخلاقية الرفيعة · وأما كسب الرزق الحلال ، فهذه هى القيمة المادية التى يحثنا الاسلام على تحقيقها ·

4 ـ ان الانسان اذ يتوكل على الله ، وعلى الله وحده ، يتحرر فى نفس الوقت من كل قيد آخر ، ومن كل شكل من أشكال الخضوع · وهذا معناه رفض أية قيمة لا تصدر عن مشيئة الله وارادته · فلا يجوز التمسك بالقيم الصادرة عن ارادة الانسان ، كفرد أو كجماعة ، الا اذا اعتبرنا ان ارادة الانسان فى حد ذاتها خاضعة لمشيئة الله وارادته ، ومعبرة عنها ، ومتجهة لمرضاة الله · فكل انسان حر ، ولا يجوز لاى انسان آخر ، ولا لاى مجتمع من المجتمعات ، أن يفرض ارادته على انسان آخر · وقد خلق الله جميع أبناء البشر سواسية كاسنان المشط · ولاشك أن الله ميز الانسان على سائر المخلوقات الاخرى التى هى مسخرة له ، وتلك هى مشيئة الله ، وكذلك فان الاسلام حرر عقل الانسان من جميع الخرافات والاباطيل ، كما حرره من جميع المؤسسات التي قد تطالبه بالانصياغ لها ، أو تريد أن تفرض عليه قيمها ، لان المصدر الوحيد للقيم هو الله · فحرية الانسان مطلقة ، وليس لها من قيد سوى الطاعة والامتثال لاوامر الله التى هى مفصلة ومحددة فى القرآن الكريم المنزل على خاتم الانبياء والمرسلين ·

على أن حرية الانسان هذه ليست من قبيل الفطرة التى لا تخضع للارادة · فهذه الحرية تتجلى فى سلوكه العام فى الحياة الدنيا · ويجب على الانسان أن يبذل جهد المستطاع ، فى نطاق نشاطه الاقتصادى ، لكى يحافظ على حريته ، وذلك بتأمين ما قد يحتاج اليه من سلع وخدمات · وينبغى للنظام الاقتصادى أن يدعم هذه الحرية لصالح الفرد والجماعة ، فلا يجوز أن يجعل الانسان خاضعا لاخيه الانسان ، بسبب الضرورة والحاجة ، بل يجب أن يحرر من ذل السؤال ، ومن الجوع والحرمان · ولابد من القضاء

على الإضطهاد والاستبداد ، مهما كان نوعهما · ولابد كذلك من تطهير النفس من الجشع والبخل والحسد والبغضاء ، وغير ذلك من الرذائل · ويجب أن يتحرر المرء من الخوف ، باستثناء الخوف من الله ، الذى يعنى فى الحقيقة الخوف من العواقب المترتبة على السيرة السيئة وارتكاب الكبائر ·

وبهذا الاعتبار ، فان حرية الانسان فى طاعة الله تعالى هى المثل الاعلى الذى يسعى المرء لتحقيقه فى سيرته ، كما أنها هى الغاية القصوى فى وضع السياسة الاجتماعية ··· والمجتمع الذى يتصوره الاسلام هو المجتمع المتحرر الذى يتمسك كل فـــرد من أفراده بالقيم الرفيعة ، ويتجنب الرذائل التى تحيد به عن الطريق المستقيم ·

5 ــ ان الاعتقاد بأن جميع أبناء البشر مخلوقات اللـه الواحد الاحد ، وأن أصلهم واحد ، وأن القوانين الاخلاقية التى يخضعون لها واحـــدة ، ان هذا الاعتقاد يعنى أن الناس أجمعين متساوون كأسنان المشط · وقد أكد الاسلام على المساواة وعلى الاخــوة بين الناس ، بعبارات واضحة لا لبس فيها · فلا يجوز أن يكون للاختلاف فى اللون أو فى اللغــة أو فى الجنس أو فى الوطن ، ما يدعو الى تفضيل قــوم على قــوم آخرين ، اذ لا فضل لانسان على آخر الا بالتقوى وبالسيرة الحسنة · وبما أن هذه السيرة متعلقــة بالارادة ، فهى ليست ثابتة ، لان الشرير قد يصبح من الاخيار ، والكافر قد يرزقه الله بالايمان · وبهذا الاعتبار ، فان الاختلاف فى الدين لا يهم ، ولا يحول دون معاملة الانسان حيثما كان ، على أساس الاخوة · واذا لم تقم العلاقات بين الناس على أساس المساواة ، فان الانسان يفقد الحرية التى يتمتع بها فى طاعة الخالق · وبناء على هذا ، فان المساواة تعد من القيم الرفيعة فى النظام المعيارى للاســلام ، كما أن قواعد السلوك وقوانـــين المجتمع ، ومؤسسات الدولة ، ينبغى أن تكون خير دعامة للمحافظة على هذه المساواة ·

على ان الانسان ، فى سعيه لتحقيق المزيد من الرفاهية والرخاء ، كثيرا ما أدى بــه الامر الى اختــراق هذا القانون السماوى · وذلك أن التفاوت بين النــاس فى المهــارة والتدبير ــ فضلا عن المال الموروث ، والجاه والسلطة ــ هذا التفاوت جعل الاقلية تخضع للاكثرية فى مجالات الانتاج والكسب · وهكذا فان الداء ما لبث أن أفضى بصورة حتمية

الى الاختلال فى توزيع الثروات ، والى عدم المساواة ، والى الظلم والاجحاف · ونتيجة لذلك تشوهت القيم وتجردت العلاقات بين البشر من الروح الانسانية · فالاسلام ، وان كان يعترف بحق الانسان المقتدر والمدبر ، لقطف ثمار مهارته ، ويقر بامكان التفاوت فى المداخيل والثروات ، الا أنه فى نفس الوقت يضمن للمواطنين التكافؤ فى الفرص ، وحقهم فى الحصول على مرافق الحياة الكريمة ، فى نطاق الحرية والمساواة بين الناس · فلا يجوز اذن أن نضحى بالحرية والمساواة فى سبيل الرفاهية الاقتصادية ، باعتبار أن الرفاهية ان هى فى الواقع الا وسيلة للتمتع بالحرية والمساواة ·

6 ـ ان المساواة والحرية يخلق كل منهما لدى الفرد موقفا يتسم بالتقدير لاخيه المواطن · وهذا الموقف يتميز بالعدل وحب الخير · فالله يحكم بالعدل ، ويحب العدل ، ويأمر بالعدل فى علاقاتنا مع الغير · أما الظلم فيؤدى الى عدم المساواة ، ويقضى على الحرية · فمن واجب كل انسان أن لا يهضم حقوق الناس ، وأن لا يطالب الغير الا بما يستحقه · ولكى يقتنع الانسان بأن عمل الخير واجب ، ما عليه الا أن يدرك بأن تضحيته تجعل غيره يقتدى به فى عمل الخير · فالعمل الصالح متكامل مع العدل · وقد يكون من الصعب على المرء أحيانا أن يدرك المغزى من معاملة الناس بالعدل ، الا أنه ليس من الصعب اطلاقا أن يقتنع بفائدة العمل الصالح · وقد أوضح الاسلام حاجة الانسان الى العدل فى مختلف الاوضاع الاجتماعية ، وأكد بالدرجة الاولى على ضرورة النية الصادقة فى انصاف الناس ومعاملتهم بالحسنى · واذا كانت النية الصادقة موجودة فليس من المستبعد أن يغير الانسان سلوكه فى تعامله مع الناس ·

7 ـ ان العدالة الاجتماعية والاقتصادية لا يمكن توفيرها الا اذا ارتبطت ارتباطا قويا بالعدل وحب الخير فى سلوك الافراد والجماعات · على أن مهمة تحقيق العدل بين أفراد الشعب ، وتوفير نظام من العدالة الاجتماعية ، هذه المهمة ليست متعلقة بالنية أو الارادة وحدها · وذلك أن السلطة المتمثلة فى أولى الامر ، مكلفة عند الاقتضاء بهذه المهمة ، كما أنها مكلفة بالدفاع عن الحرية والمساواة ·

8 ـ ان الاشتراك فى الاهداف والمصالح العليا هو مصدر التعاون بين أفراد المجتمع البشرى ، فى جو من الحرية والمساواة والاخوة · ولابد من القضاء على العداوة والبغضاء

والتناحر ، لان التعاون بين الناس ضرورى لتحقيق القيم السامية والعمل الصالح ، وللقضاء على الشر وعلى القيم الزائفة المخالفة لاوامر الله • ويجب على الانسان ، فى سعيه للحصول على السلع والخدمات ، ان يتخذ نفس الموقف السابق ، لان السلع والخدمات ان هى الا وسائل لتحقيق القيم الرفيعة •

9 ـ ان مبادىء الحرية والمساواة والعدل والتعاون كلها تنبع من الفكرة الاسلامية الاساسية ، ألا وهى فكرة التوحيد • وهى الفكرة الازلية التى لابد لكل كائن فى هذا الوجود أن يشهد بصحتها • ولاشك أن تحقيق القيم الاسلامية من شأنه أن يجعل حياتنا حافلة بالخير والجمال • على أن السعى لتحقيق هذه القيم يستلزم منا أن نعمل بجد ونشاط فى هذه الحياة • ومن هنا ندرك أن حياة الانسان هى أجمل ما فى الخليقة ، وأثمن ما فى الوجود ، لان الله كرم بنى آدم ، فأراد أن يكونوا ، فكانوا ••• لقد أراد الله أن نعيش ، وأن نتمتع فى حياتنا بالصحة والقوة ، وأن لا نركن للدعة والخمول ، بل ننشط سعيا لتحقيق القيم ، وامتثالا لاوامر الله • ولذلك فمما حثنا به الاسلام أن نحافظ على الحياة ، وأن نتمتع فيها بالصحة والقوة ، وأن تكون حالتنا الاقتصادية فيها حسنة • فالسلع والخدمات التى يحتاجها الانسان ، والتقنيات والافكار التى يستعين بها الانسان فى هذا المجال ، وكل ما يتخذه وسيلة لتحقيق الرخاء الاقتصادى ، كل ذلك له قيمة كبرى فى نظر الاسلام •

10 ـ ولكن الرخاء الاقتصادى لا يجوز أن ينفصل عن السعى لتحقيق القيم الاخلاقية والروحية • فسلوك الانسان فى هذه الحياة لا يتجزأ ، بل هو متكامل ، لاننا مكلفون بتحقيق الأنواع الثلاثة من القيم بدون استثناء • فعلى الناس اذن أن يعملوا فى مجالات الانتاج والتوزيع والاستهلاك بكيفية تمكنهم من المعيشة الكريمة وتجعلهم يتمتعون بالحرية ، فيطيعون الله ويتعاملون بروح المساواة والعدل والتعاون •

ونظرا الى أهمية هذه المسألة فى فلسفة الاسلام الاقتصادية ، فلابد من القيام بدراسة معمقة لنرى كيف تؤثر القيم السابقة على القيم الاقتصادية ، وكيف تتفاعل معها •

أولا : ان القيم السامية بمثابة الغايات القصوى التى يطمح اليها الانسان من وراء الرخاء الاقتصادى ، وهى تحث الناس على العمل والنشاط الاقتصادى ٠

ثانيا : ان هذه الغايات القصوى تساعد المرء فى اختيار الوسائل الملائمة لتحقيق الاهداف الاقتصادية المباشرة ٠

ثالثا : وهى تمارس نوعا من الضغط على سلوك الانسان كفرد وكجماعة ، لتحقيق القيم الاقتصادية ٠

وبهذه الكيفية فان القيم السامية تدفع الانسان الى النشاط ، وتضع له شروط العمل ، وتدرج نشاطه هذا فى نطاق التعامل الاعتيادى بين الناس ٠ فالانتاج والتوزيع والاستهلاك تستمد مبادئها من تصور مجتمع يعم فيه الخير نتيجة للرخاء الاقتصادى ٠ والعمل فى هذه المجالات الثلاثة يتم بكيفية يتعزز بها جانب الخير ٠ أما الطرق والوسائل المقيدة للحرية والمساواة ، أو المنافية للعدل وروح التعاون ، فان الاسلام يحثنا على اجتنابها ٠

11 ـ وقد وضع الاسلام بعض القواعد لسلوك الافراد والجماعات سلوكا يضمن تحقيق هذه القيم المتكاملة ، سواء منها الاقتصادية أو الاخلاقية أو الروحية ٠ وهذه القواعد هى التى تتألف منها القوانين الاساسية المتضمنة فى الشريعة ، وينهل منها الفقهاء لوضع التشريعات الاسلامية بحسب مقتضيات الاحوال ٠ واليك فيما يلى بعض هذه القواعد باختصار :

أ ـ ان قضاء الحاجات الاساسية (الطعام واللباس والسكن والعلاج فى حالة المرض) يعتبر من الحقوق الاساسية ، كما أنه يعتبر من واجبات الدولة تجاه الافراد ٠٠٠ على أن هؤلاء الافراد مكلفون بالسعى للتمتع بهذه الحقوق ٠

ب ـ يلتزم الغنى ، فى النظام الاسلامى بأداء ما فرضه الله عليه تجاه الفقير ، لان الفقير له حق معلوم فيما يملكه الغنى ٠

ج ـ ان الملكية نعمة من الله ، وتتضمن واجبات تجاه الآخرين ، وهى خاضعة للقواعد الاخلاقية فى كسبها واستخدامها والتصرف فيها ٠

د ـ من واجب الدولة أن تضمن للمواطنين تكافؤ الفرص ٠

هـ ـ ان حرية التعاقد والتعامل مكفولة فى حدود مراعاة القواعد الاخلاقية التى تضمن مصلحة الفرد والمجتمع ٠

و ـ يجب أن تبنى الشركة على الاساس التعاونى ، وأن يتقاسم الارباح كل من يتحمل التبعات المتضمنة فى المشروع التجارى ٠ وليس لمن يقرض المال الا حق المطالبة برأس المال الذى دفعه قرضا ٠ اما الربا فهو ممنوع ٠

ز ـ المصلحة العامة فى الاسلام مقدمة على المصلحة الخاصة ٠ وتحظى الارزاق والسلع الكثيرة التابعة للجماعات ، تحظى بالاسبقية فى التأمين ، على الارزاق والسلع القليلة التابعة لفئة قليلة من الناس ٠

ك ـ كنز المال ممنوع ، كما أن توزيع المداخيل والثروات محدد بشروط ٠

12 ـ رأينا فى الصفحات السابقة ما هى القيم التى وضعها الاسلام ، وما هى قواعد السلوك المتفرعة عنها ٠ وتندرج تلك الدراسة فى اطار الفلسفة الاقتصادية للاسلام وسوف تنبثق عن هذه الفلسفة الاسس التى يقوم عليها **علم الاقتصاد الاسلامى** الذى به يتأتى دراسة انماط السلوك السائدة ، والسياسة الاقتصادية المتبعة ، مع اقتراح حلول بديلة تستمد مبادئها من الاسلام ٠

التاريخ الاقتصادى للاسلام

1 ـ ان التاريخ الاقتصادى للاسلام يدرس تاريخ الشعوب الاسلامية فى نطاق تحقيق المعايير والتعاليم الاسلامية فى النشاط الاقتصادى ٠ فهو ينتقى من مواد التاريخ العام ، ماله صلة بالتاريخ الاقتصادى ، ويعرض ذلك كله عرضا منهجيا ٠ كما أنه يتقدم بأحكام تقييمية لهذا التاريخ ، على ضوء المعايير الاسلامية الواجب تطبيقها فى النشاط الاقتصادى ٠ وبذلك فانه يتعرض لموضوعى : الامتثال لاوامر الله ، وارتكاب المعاصى ، ويحلل أسباب كل منهما ، ويدرس ما لهما من تأثير على وضعية الانسان الاقتصادية ٠ ولاشك ان النجاح فى تحقيق القيم الاسلامية المتمثلة فى الحرية والعدل والتعاون وكسب الرزق الحلال هذا النجاح متعلق الى حد بعيد بسيرة الانسان ، وسياسة

الدولة ، ونشاط المجتمع ... أما الفشل ، فيرجع الى السيرة السيئة ، والسياسة الضالة ، والعمل الذى لا يجدى نفعا . فهذه الحالات المختلفة مرجعها فى الاصل الى درجة المعرفة ، وارادة الخير ، وما لكل انسان من مهارة فى التعامل . ولابد كذلك من الاشارة الى العوامل الخارجية ، ومالها من تأثير ... على أن الباحث فى التاريخ الاقتصادى للاسلام يهمه بالدرجة الاولى أن يحيط بالوقائع الاقتصادية ، وأن ينفذ الى عواملها الداخلية .

2 ـ ان السنوات الثلاث والعشرين الاولى من تاريخ الاسلام تعتبر سنوات حاسمة ، لان الكتاب المنزل ، والسنة النبوية امتزجا منذ ذلك العهد بتاريخ البشرية ، واتصلا بتاريخ شعب انتقل من حياة الجاهلية الى نمط جديد من الحياة هو الاسلام . فلابد اذن من أن يدرس الباحث كيف استجاب الناس للقيم الاسلامية ، وكيف فسروها ، وكيف طبقوها . ولابد أيضا من أن يتعمق الباحث فى دراسة بعض المسائل الهامة ، ومن جملتها تحرير الانسان من العبودية ، وطاعته لاوامر الله ، والسعى التدريجى لتحقيق المساواة والعدالة الاجتماعية ، عن طريق تربية النفوس على الاعتزاز بالكرامة الانسانية ، وعلى معاملة جميع الناس بروح من الاخوة الصادقة ... ومن جملتها أيضا المساواة أمام القانون ، وخلق روح التعاون فى الحياة ، مع اتخاذ ما يجب من التدابير المتعلقة بالامن والملكية العامة وقوانين الميراث الخ ...

3 ـ ان التطورات التى حدثت فى السنوات الثلاثين التى أعقبت عهد الرسول ينبغى أن توضع فى الاطار الذى حددناه لكى تدرك على حقيقتها . فالسياسة الاقتصادية التى اتبعها الخلفاء الراشدون الاربعة تستحق أن نتعمق فى دراستها لكى نميز الجوانب التى كان التقدم فيها مطردا ، من الجوانب التى عرفت فى الفترة الاخيرة شيئا من الركود . ولاشك أن السلوك الاقتصادى للفرد ، ونوع المؤسسات التى عرفها المجتمع الاسلامى منذ أقدم العهود ، ودور تلك المؤسسات فى المجتمع ، وبروز مؤسسات جديدة فى الحياة الاقتصادية الآخذة فى التوسع ، كل ذلك يستحق أن يعكف الانسان على دراسته بالتفصيل ، وأن يقدره حق قدره .

4 ـ من المتفق عليه أن تمسك المجتمع الاسلامى بتعاليم الاسلام ومعاييره تعرض بعد عام 40 هـ لتقلبات متواصلة دامت عدة قرون · وأول عمل يجب القيام به فى هذا الصدد ، هو اجراء تحقيق شامل للوثائق التاريخية المتوفرة عن هذه الفترة ، وهو عمل لم ينته بعد · فالمحن التى تعرضت لها القيم الاسلامية خلال هذه الفترة يجب أن تدرس على أساس البحث عن أسباب الفشل ، وعن الظروف التى جعلت من الممكن احراز شىء من التقدم فى بعض الميادين ·

ونظرا الى أن الاسلام انتشر وأصبح يضم أقطارا لها ظروفها الاقتصادية الخاصة ، وتراثها الثقافى الخاص ، فان تعاليم الاسلام صارت تطبق فى حالات جديدة تماما · ولاشك أن أنماط التعامل الاقتصادى التى برزت فيما بعد تأثرت الى حد بعيد بالاوضاع الاقتصادية التى كانت سائدة لدى تلك الشعوب قبل اعتناقها للاسلام ، كما تأثرت تأثرا عميقا بروح التعاليم الجديدة · وعلى هذا ، فمن المهم جدا أن يدرس الباحث أثر كل من هذين العاملين فى النشاط الاقتصادى ·

5 ـ ثم انتشر الاسلام انتشارا واسعا فى أرجاء المعمورة ، وأصبحت الاوضاع الاقتصادية متنوعة بحسب الاقطار ، فبرزت نتيجة لذلك مؤسسات ومعاملات جديدة · وقد توسعت التجارة فى الداخل والخارج ، وظهرت حرف جديدة ، وتغير نظام امتلاك الارض ··· ومع تزايد النشاط التجارى ، وازدهار الصناعات ، وتكاثر الاموال ، ألفت كتب كثيرة فى الفقه لابداء الرأى فى المعاملات الجديدة ، ولتحليل المؤسسات الجديدة . ولاشك أن هذه المؤسسات تعكس الفكر الاقتصادى المعيارى لذلك العصر · ونجد فى تلك الكتب أيضا محاولات لتحليل الوضع الاقتصادى ، وهذه المحاولات مقترنة بآراء أو حلول لتطبيق **الشريعة الاسلامية** ، كما أن كتب التفسير والفلسفة تعرضت بدورها لهذا الموضوع · أما الكتب الخاصة بالفلسفة السياسية حول **الحسبة** وفن السياسة والحكم ، فانها تستحق اهتماما خاصا · ومن المواضيع التى اهتم بها الفقهاء ورجال القانون : الضرائب والنفقات العمومية والقروض ومراقبة الاسعار ووضع القوانين للتجارة وتحديد العلاقات بين أرباب العمل والعمال ، ومسألة الاجور ، وامتلاك

الارض ، والسقى ، وما الى ذلك من المسائل الاخرى • ومن يتأمل فى هذه الموضوعات المتنوعة يدرك كيف استطاع المفكرون المسلمون أن يعالجوا القضايا التى طرحت عليهم فى مختلف الحالات ، مع الحرص على الامتثال لتعاليم الاسلام ، وكيف كان تصورهم لسير النظام الاقتصادى • ولاشك ان امثال هذه الدراسات من شأنها أن تثرى تاريخ الفكر الاسلامى والفكر الاقتصادى معا •

علم الاقتصاد الاسلامى

1 ـ ان علم الاقتصاد (أو التحليل الاقتصادى) يدرس السلوك الاقتصادى السائد فى دولة من الدول ، وسير الحياة الاقتصادية • وبما أن هذا السلوك الاقتصادى موجه دائما نحو غايات معينة ، فان علم الاقتصاد المحض ، أو المحايد لا وجود له ، بل هو مجرد وهم وخيال • ان علم الاقتصاد العصرى يدرس الانظمة الاقتصادية الرأسمالية على اختلاف أنواعها ، كما أن علم الاقتصاد الاشتراكى يقوم بالدراسة الوصفية للانظمة الاقتصادية الخاضعة للتخطيط المركزى • وبما أنه لا يوجد فى الوقت الحاضر اقتصاد اسلامى بأتم معنى الكلمة ، فان علم الاقتصاد الاسلامى المختص بالمجتمع الاسلامى غير موجود • وسوف ينشأ هذا العلم عندما يوجد شعب يسلك سلوكا اسلاميا ، وينهج منهجا اسلاميا فى تعامله الاقتصادى • والى أن يتم ذلك ، فان علم الاقتصاد العصرى وعلم الاقتصاد الاشتراكى يمكن الاستفادة منهما لفهم الواقع الاقتصادى الذى تحاول الحركة الاسلامية أن تغيره طبقا لتعاليم الاسلام •

2 ـ وهكذا نجد من جهة أن التحليل الاقتصادى العصرى له صلة باقتصاديات العالم الاسلامى لانه يحاول أن يفهم الواقع الاقتصادى السائد فى الاقطار الاسلامية ••• ونجد من جهة أخرى أن فروع الاقتصاد التطبيقية تقف من هذا الواقع الاقتصادى موقفا آخر ، فعلم الاقتصاد الخاص بالتنمية ، والمالية العامة ، والتجارة الدولية ، والسياسة النقدية ، والعمليات المصرفية ، ونظرية الشؤون المالية ، واقتصاديات العمل ، كل هذه الفروع تدرس اليوم فى نطاق المعايير المتعارفة فى المجتمع الرأسمالى • على أن الفكر الاسلامى ، يوم يضع فلسفة اقتصادية واضحة ، وينجح فى رسم طريق جديد لمجتمع

جديد ، فان هذه الفروع المختلفة من علم الاقتصاد سوف تحل محلها دراسات لها ارتباط وثيق بواقع العالم الاسلامى ، وما يطرأ فيه من حالات جديدة ·

3 ـ والى أن تصير هذه الحالة واقعا ، فان مهمة علم الاقتصاد الاسلامى تتمثل فى عقد الصلة بين ما هو واقع وكائن ، وبين ما يجب أن يكون ··· أو بين ما هو موجود ، وبين ما هو مرغوب فيه · ولا شك أن مثل هذه المهمة تستلزم فهما دقيقا لكلا الامرين فهذا العلم يفترض القيام بتحليل الواقع ، مما يجعله من هذه الناحية على وفاق مع علم الاقتصاد العصرى · على أنه يتبع منهجا خاصا ، من حيث أنه يتطلع الى ما يجب أن يكون فينهل من الفلسفة الاقتصادية للاسلام لتحديد المستقبل المنشود ، واحلاله محل الحالة الراهنة · وأخيرا ، فان هذا العلم يصف الطريقة التى بواسطتها يمكن الانتقال من الواقع الى المستقبل المنشود ·

ولتوضيح ذلك نستشهد بمثال أو مثالين · فمن أهداف الاسلام تامين المآكل والملبس والمسكن والرعاية الطبية ، والتربية لكل رجل وامرأة · وهذا هدف لا ينفرد به الاسلام بل تشارك فيه أغلب المجتمعات الحديثة ان لم تكن كلها · على أن طرق تحقيق هذا الهدف تختلف من نظام اجتماعى الى آخر ، كما أن مدى تحقيق هذا الهدف يتفاوت · ان علم الاقتصاد الاسلامى اذ يستفيد من كل هذه التجارب ، واذ يمتثل للمنهج الاسلامى الذى يعتمد على العمل الارادى التطوعى المتمسك بالقيم الاخلاقية ، مع فسح المجال للدولة كى تسعى لتحقيق ما يصبو اليه الفرد والمجتمع ، فانه سوف يضع أسس السياسة المنشودة للمجتمع الاسلامى ·

وهناك مثال آخر يتعلق على الخصوص بنظام البنوك ، وبالنظام المالى على العموم · فان علم الاقتصاد الاسلامى لابد أولا أن يقوم بدراسة تحليلية للمؤسسات الحالية ، ثم يعمد بعد ذلك للاشارة الى عيوب هذا النظام القائم على أساس الربا وابتزاز الارباح بدون حق مشروع ، مع الاشارة كذلك الى ما لهذا العمل من عواقب وخيمة على الصعيد الاجتماعى · وبعد تبيان العيوب ، عليه ان يشرح الحل الاسلامى القائم على أساس المشاركة فى الارباح ، وقرض بدون ربا (فائدة) ، وعلى أساس التعاون ··· وعليه

كذلك أن يهتم بمشكلة الانتقال من النظام السائد اليوم ، الى النظام الاسلامى المنشود ٠

وفى مجال تحديد السلوك للافراد والجماعات ، فان علم الاقتصاد الاسلامى يجب أن يتصدى للقيام بدراسة ميدانية لمعرفة ما سوف يسفر عنه تطبيق التعاليم الاسلامية من سلوك ومعاملات ٠ ولاشك ان علم الاقتصاد الاسلامى اذ يقوم بهذا العمل ، يرشدنا الى السلوك المثالى المناسب لكل وضع من الاوضاع الاجتماعية ٠

قصــــة

رجــال صنعــوا التــاريخ

محمد نسيـب
نائب مدير
بالمركز الثقافى الاسلامى بالعاصمة



كان سى عمر يعيش فى احـدى القـرى الجبليـة الجزائرية . فهو فلاح فقير لا يملك من حطام الدنيا سوى بغلة عجوز عرجاء ، ورثها عن أبيه منذ سنوات مع مهنـة الحطاب ، وكانت البغلـة عزيزة عليـه ، لانها رفيقـة طفولته ، وشاركت الاسرة فى كفاحها ومحنها ... لقد خففت عنهم وطأت الحمل الذى أنقض ظهورهم ..

فلا ترى البغلة الا وراءها سى عمر يحمل المنشار والمعول ، ذاهبـا الى الغابة أو عائدا منها ، فلا يفارقها الا عند النوم ، فالبيت مقسوم الى قسمين ، قسم لسى عمـر وأسرته ، وقسم للبغلة وبعض الحيوانات ، لا يفصل بينهما الا حاجز بسيط ، فكـان سى عمر يعتنى بالبغلة كل العناية ، يتفقدها فى الليل عدة مرات ، يقدم لها العلـف والحشيش ... ويمسح على ظهرها ... وكم يفرح .. عندما يراها تأكل .. وكم من مرة قالت له زوجته فاطمة : بع هذه البغلة العجوز العرجاء ، واشتر لنا بغلة صغيرة ،

تكون قوية على حمل الاثقال ، وسريعة فى السير ··· حتى يكون الدخل أكثر فتتحسن معيشتنا ، ولكن سى عمر كلما سمع هذا الكلام من زوجته فاطمة ، ثار فى وجهها ··· لانه يعتبرها أحد أفراد العائلة لا يقوى على فراقها ، مهما كانت الظروف ··· لم يفكر يوما فى بيعها أو فراقها ·

وفى ليلة أول نوفمبر سنة 1954 قام سى عمر فى منتصف الليل ليقدم العلف للبغلة كعادته ، فسمع طلقات البارود ··· وازيز الرصاص فى القرية ، يتجاوب مع الاصداء ··· فدهش وراح يتساءل مع نفسه ، فى حيرة وارتباك ··· لا يدرى ماذا حدث فى القرية ، ثم قال لعل أحد أغنياء القرية بشر بطفل وجاء الناس ليباركوا له ··· أو عاد أحدهم من الغربة ، ولكن هذا يكون فى الصباح لا فى منتصف الليل ··· وجاشت فى خاطره عدة أفكار · وتقدم الى البغلة وأعطى لها العلف ، ولكنها لم تأكل ، ولم تنظر اليه ، بل تنظر الى سى عمر وتتابع حركاته ··· ونزع لها العلف وقدم لها الحشيش ، فرفضت كل شيء ، سوى نظرة الى صاحبها ، كأنها فهمت سر ذلك الرصاص ··· انه بداية الثورة وميلاد التاريخ ··· واعلان الجهاد وبعث الحرية من قبرها ستطوى كل الصفحات ··· وتفتح صفحة جديدة فى حياة الامة ، انه تغير جذرى يطرأ على الحياة وتحول شامل فى كل ميدان حتى القرية وأهلها ودار سى عمر ، بل سى عمر نفسه يتحول ويتغير فلا يعود ينظر الى البغلة ويفكر فى شؤونها ··· ويتخذ أسلوبا جديدا للحياة أحب أم كره ؟ ؟

فكان سى عمر حائرا مرتبكا ··· فزاد ألما وحزنا لانه يخشى ان تموت بغلته ، فلا يستطيع أن يعوضها ، فتتعرض حياة الاسرة لخطر لم يقرأ له حسابا · فأوى الى فراشه لينام ولكن الهواجس تنهشه والافكار تتسارع فى صدره وتتضارب كأمواج البحر ··· وبات بين مد وجزر تارة يفكر فى البغلة وتارة يفكر فى الرصاص الذى سمعه يتجاوب مع الاصداء ··· فبات قلقا مضطربا ··· ساهرا لم يتسرب الكرى الى أجفانه ولم يشعر بالهدوء والاطمئنان ولو لحظة وجيزة ··· كأن صوتا خفيا تسرب الى اذنه يقول له : قم يا عمر واستعد ليس بعد اليوم نوم ··· ولا راحة ··· ورفع رأسه ليرى منبع

الصوت ، وسمع اذان الفجر يملأ رحب المنزل « الله أكبر ، الله أكبر » يتردد فى كل أرجاء ··· وقفز من الفراش قفزة فحمل الشرابة وملأها من القربة فتوضا ، ثم ذهب الى المسجد ، فوجد الناس يتهامسون وتغمرهم الفــرحة والبهجة ··· مستبشرين متفائلين ··· وتقدم سى عمر الى أحد المصلين سى صالح ، وقال له : ما هذه النجــوى يا عمى صالح ؟ ؟ والبسمة التى أراها تطفو على الثغــور ··· ما حــدث ؟ وتمــايل سى صالح نحو سى عمر ودنا الى اذنه ، وقال له : عجبا يا سى عمر ! أحقا ما تقول ؟ ليس خبر ! ! ألم تسمع الرصاص فى منتصف الليل ·

وقال سى عمر أجل ، لقد سمعت الرصاص ودويا قويا ··· ولكن لم أعرف عنه شيئــــا ·

وقال سى صالح : أبشر يا سى عمر ان المجاهدين هم الذين فجروا القنابل فى عدة مراكز الاستعمار واطلقوا الرصاص على ذلك اللفيف الاجنبى الذى يسومنا الخسف والعذاب ··· والاقطاعيين الذين يلهبون ظهورنا بسياطهم ··· واوقدوا النيران فى مزارع هؤلاء الغزاة والبغاة ··· الذين انتزعوا منا أراضينا وضموا حقولنا الى حقولهم.

ان هذه الفرحة التى تغمر الوجوه يا سى عمر وهذه البسمات التى تبدو على الثغور وهذه الآمال المتفتحة ··· فى القلوب وهذه الصدور الزاخرة ··· بالقوة والنشاط ··· وهذه النفوس المنفجرة ·· كلها تعبيرات وتقديرات لهذا المولد الجديد مولــد الثورة الجزائرية ثورة تحرير الانسان الجزائرى والعربى والافريقى ···

انه فجر جديد انبثق نوره أطل على بلادنا يعلن نهاية ليل الاستعمار الرهيب الذى عانى شعبنا وحشيته وظلامه ومآسيه مائة واربعة وعشرين عاما ·

وكان سى عمر يصغى الى حديث سى صالح السار ··· بكل حواسه وشعوره ··· وفجأة جال فى خاطره السؤال التالى :

هل المجاهدون لهم السلاح والعتاد ؟

ألا تعلم يا عمى صالح ما فعلوا فينا فى 8 ماى 1945 لقد قتلوا 45 ألف جزائرى، وأحــرقوا خيــامهم ·

كم ترك الحدث الاليم من الارامل والايتام ٠

وكم شرد من العائلات وتركهم بلا مأوى ولا مقر ٠

وكم ترك فى نفوسنا من مآسى وجروح لا تندمل ٠

أجابه سى صالح بهدوء ورزانة ٠ أجل يا سى عمر اذا اعوزهم السلاح والعتاد ، فلا تعوزهم العقيدة والايمان ٠٠٠ فالعقيدة والايمان هما سلاحنا الفعال فى كل معركة من معارك الحياة بهما نحطم كل الحواجز ونتغلب على جميع العراقل حتى نعيد لشعبنا حريته المفقودة ، واستقلاله المغصوب ، وشخصيته المسلوبة ، وننقذ كرامته المدوسة ، ونحيى لغته المنسية ونبعث أمة من جديد ونكتب لها تاريخا بدمائنا ونشيد لها مجدا بأشلائنا ٠٠٠

ولو تفوقوا علينا بالطائرات والدبابات والمدافع ٠٠٠ سنتفوق عليهم بالعزم والصبر والثبات ٠٠٠ سنصمد فى وجوههم كصمود جبالنا ، لا تتزحزح ٠٠ ونتصلب فى موقفنا كصلابة صخورها ٠٠٠ لا تتحطم ولا تتفتت أبد الدهور ٠

لو شردونا ، لو شنقونا ، لو قتلونا ، لو أحرقونا جميعا سيبقى رمادنا ينادى باستقلال الجزائر حتى تستقل ٠٠٠

ودخل الامام وتقدم الى المحراب ونادى الصلاة الصلاة رحمكم الله ، ونهض الجميع واصطفت الصفوف وترأصت خلف الامام ، وشرعوا فى الصلاة فتلا الامام هذه الآية الكريمة :

« ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون » ، وأحس سى عمر بينابع القوة تتفجر بين حنايا صدره ، واريج الحياة ينتشر ويملأ رحاب المسجد ٠٠٠ فزال ذلك الاختناق الممت ٠٠٠ واختفت تلك الاشباح المزعجة ، وخفق قلبه فرحا وسرورا ٠٠٠ بهذه البشرى السعيدة ٠٠٠ وراح يدعو الله فى تضرع وخشوع ٠٠٠

اللهم لا تحرمنى من الجهاد فى سبيلك حتى أفوز بالشهادة ٠

وانتهت الصلاة وعاد سى عمر الى البيت وقلبه مملوءا بالايمان والثقة بالنفس ، وعرف ان الاعتماد على النفس يفجر الطاقات ويخلق الامكانيات ٠

ان الآية الكريمة التى سمعها فى المسجد تغنيه وتكفيه عن سماع ألف درس أو محاضرة فى السياسة أو فى شرح الثورة ٠

لم يكن سى عمر يسمع بالسياسة ولا يفهم معنى السياسة ، ونفسه تمتلىء نشوة عندما يتحدث عن الغابة وأشجارها العالية ٠٠٠ ومسالكها الوعرة ٠٠٠

لقد تغير سى عمر بين عشية وضحاها بعد ان لمسه هذا التيار الخفى وهزه هزا ، وأصبح لا يفكر الا فى الانضمام الى صفوف المجاهدين والالتحاق بالثورة ليقاتل من أجل تحرير الجزائر من مخالب الاستعمار وتطهير الارض من ظلمهم وفسادهم ٠

وبعد أيام اتصل بالمجاهدين وطلب الانضمام اليهم ليحارب معهم ، وطلبوا منه أن يأتى بالسلاح اذا رغب فى الجهاد ٠ لان طريق السلاح كان مسدودا فى الايام الاولى من الثورة فلم يكن السلاح لدى المجاهدين سوى ما ينزعونه من الجيش الفرنسى نفسه ٠ ولهذا كان السلاح يؤخذ ولا يعطى مثل الحرية ، ويشترط على كل مجاهد يرغب فى الالتحاق بالثورة ان يأتى بالسلاح الذى يقابل به ٠

رجع سى عمر الى البيت وهو يفكر فى الوسيلة التى يحصل بها على البندقية ، وأخيرا خطر له ان يبيع البغلة التى كانت ساعده الايمن ووسيلة خبزه ٠ ليشترى بثمنها البندقية عند صديق له ، وعرضها للبيع وباعها بثمن زهيد لا يفى بمبلغ البندقية ، وازداد قلقا واضطرابا ٠

ولاحظت عليه زوجته فاطمة عدم الرضى والاستقرار ، وقرأت على ملامحه أشياء لم تتعهدها منذ اقترانهما ٠ وقالت له : ما أصابك يا عمر ؟ لقد تغير كل شىء ولا سيما منذ بعت البغلة ٠ أراك مشغول البال كثير التأمل طويل الصمت ، لا تسأل عن شىء ، ولا تمزح مع الاولاد كما كنت ٠

ماذا حدث ؟ وما دهاك ؟

سكت سى عمر قليلا ، ثم قال لزوجته : اسمعى يا فاطمة لقد كتمت عليك الامر واخفيت عنك سرا عظيما ، يجب ان تعرفيه ، حتى تساعدينى وتتحملى قسطك من العمل والمسؤولية •

اليوم يجب ان أبوح لك بسرى لن يبقى بعد اليوم سر ولا كتمان ، ستعرفين كل شيء يا فاطمة •

لقد اتصلت بالاخوان المجاهدين وطلبت التجنيد فى صفوفهم ، فطلبوا منى البندقية، فبعت البغلة فلم احصل على مبلغ البندقية ، فأنا أريد ان التحق فورا بصفوف المجاهدين بلا توان ولا تردد •

هذا سبب تغيرى وقلقى ••• فاذا حصلت على البندقية انحل المشكل وانتهى كل شيء ، فستعود المياه الى مجراها الطبيعى • فقالت له فاطمة :

أهذا يحيرك يا عمر ؟ فنزعت القلادة من جيدها ، وارتبك سى عمر ، ولم يكد يصدق ان زوجته تتنازل عن قلادتها الوحيدة ، فمد يدا تضطرب وترتعش ، من شدة الفرح والدهشة ••• ليأخذ القلادة • فقالت له بحزم وشجاعة : اطمئن يا عمر خذها ولا تخف ، بعها واشتر البندقية وشارك فى انقاذ الوطن • بالامس قدمتها مهرا لزواجنا واليوم نقدمها مهرا لحريتنا • أريد قلادة عز وشرف لا قلادة ذهب وفضة •

أشرق الامل فى وجه سى عمر فاستيقظت فيه العزيمة من جديد وعانقته النشوة ، وأخذ القلادة ، وباعها لبعض التجار عشاق المال والذهب واشترى البندقية وكمية من الذخيرة ، والتحق بجيش التحرير الوطنى ، وبدأ يخوض المعارك بحزم وشجاعة ••• لا يعرف الضعف ولا الجبن •••

تراه دائما فى مقدمة الجيش شعاره فى كل معركة العبارة التالية :

أيها المجاهدون الى الامام نحن الرابحون نحن الفائزون ، من مات ، مات شهيدا ، ومن عاش ، عاش حرا طليقا • هذا هو شعار سى عمر وأمله الوحيد منذ التحق بالثورة وانخرط فى جيش التحرير الوطنى لا يفكر الا فى النصر أو الاستشهاد •

مرت أيام وأسابيع والثورة تشتد وتقوى ويرتفع لهيبها ••• وينتشر شرارها فى كل جزء من أجزاء الوطن •

كثرت الكمائن واتسعت العمليات الحربية وارتفعت معنويات المجاهدين ، فى كل يوم يحصلون على الغنائم ويستولون على كمية من السلاح والعتاد الحربى وصار الجيش الفرنسى محاربا بسلاحه •

وشعر الاستعمار الفرنسى بخطر يهدد وجوده فى الجزائر ، بل فى افريقيا كلها ، ولمح نهايته تقترب وصرحه ينهار ••• أمام عاصفة هوجاء وضربات قاسية ••• وحاول ان يخفف حدة التوتر ، ويخفى هـزائمه ويغطى جرائمه بأكاذيبه المعروفة • بعد أن تجاوز الحد فى العتو والبغى •

واتجه الضابط الفرنسى وجنوده الى القرية وجمع سكانها لينشر أضاليله وينفث سمومه ليعزل الشعب عن جيش التحرير الوطنى ، وشعر ان تحت قدميه أرضـــا صلبة ليس أمامه جموع من أشخاص فرادى ، بل شعب يربطه رباط واحد • بـدأت تنطق له الوجوه بمعانى لم يكن يراها من قبل •

ثم التجأ الى أسلوب آخر ، أى استعمال العنف والشدة بعد ان فشـــل فى سياسة المكر والخداع ••• وراح يهدد بالبطش والقمع ••• ظن ان القوة تصد هذا الشعب عن مطامحه وتسكته عن طلب حريته واستقلاله ••• ويتنازل عن حقه الشرعى .

وفى المساء دخل سى عمر ورفاقه الى القرية وهـــرع اليهم سكانها يتطلعون الى وجوههم المشرقة بنور الامل والتفاؤل •••

وقف سى عمر يحيى الجماهير الشعبية المحتشدة فى ساحة القرية ، تحيــة أخـوية نضالية وقال لهم :

أيها الاخوان ان الاستعمار الفرنسى قد طغى وتجبر ، فسيطر على بلادنا وتحكـــم فى حياتنا وتصرف فى حريتنا ، وداس كرامتنا واهان مقدساتنا وعبث بمبادئنا ونهب أموالنا وأكل أرزاقنا وامتص دماءنا •••

انه يشيد المدارس والمعاهد لتحتضن أبناءه تنمو فيها الافكار وتتفتح فيها العقول ، اما نحن فيبنى لنا السجون لتذبل فى غياهبها زهرة شبابنا وتذوى فى سكون مريع .

فهل نرضى بالعيش الرخيص الذليل ونصبر على الحياة التى ترضاها الحيوانات فى الغابات والوحوش فى الادغال ؟

فالعدو لا يفكر الا فى تذليلنا وتشريدنا وتمزيق وحدتنا وخنق أصواتنا وتخريب بلادنا .

كيف نرضى بعيش كله ضنك وبؤس ... ونحن نملك العزم الذى يفل الحديد ويدك الجبال ...

فكان أحد الخونة يتجسس فلما سمع الخطاب أوجس منه خيفة لان هذا الخطاب الملهب قد حرضهم على التضحية والفدا بلا شك سيحول القرية الى بركان ، وهرع الخائن الى مركز الجيش الفرنسى ليعلمهم بوجود المجاهدين فى القرية حتى يقتلوهم ويطمئن على حياته وحياة أسياده المعمرين لانه يخشى اذا ماتوا أو رحلوا عن البلاد ، ان تنقطع عنه تلك الفضلات التى يلتقطها تحت موائدهم مثل الكلب الرخيص ...

لم تمض بضع ساعات حتى ضرب الحصار على القرية من جميع الجهات ، وخرج سى عمر ليفتح الطريق لرفاقه وشق الحصار وأطلقوا عليه النار وبدأت المعركة بين المجاهدين والجيش الفرنسى وكانت الزغاريد تنبعث من كل بيت تنطلق من محاجر القرويات تشجيعا وتأييدا للمجاهدين ، واستمر القتال حتى طلوع الفجر واستشهد رفاق سى عمر الاربعة واستطاع سى عمر أن يقتحم الحصار وينجو من الموت ، ويتجه نحو جبل قريب من القرية واعتصم فى بعض حصونه الصخرية .

ثم هجم الجيش الفرنسى على القرية الآمنة وسكانها العزل من السلاح ... كالجراد على المزرعة ، وراحوا ينهبون ويخربون ... ويضربون النساء والشيوخ وهم يصيحون فى غضب وجنون كلكم فلاقة .

وفتشوا المنازل بيتا بيتا فلم يجدوا سى عمر وكان الضابط الذى يقود الحملة أحد أبناء المعمرين كالكلب المسعور ينبح ويعض حيث فقد رشده وعماه الحقد . ولما خشى

الخائن اللعين ان ينقلب عليه دله على الجبل الذى تحصن فيه سى عمر ، فوجه جيشه الى عين المكان وحاصروا الجبل وصوبوا مدافعهم نحو الحصن وبدأوا يقنبلون والطائـرة من فوقه تلقى اطنانا من المفجرات وسى عمر المجاهد كان فى حصنه المنيع ٠

فاستمر اطلاق النار عدة ساعات وسى عمر يستعد ويتهيأ وينتظر اقتراب الجيش الى الحصن ليبرهن على وجوده وشجاعته ، وبعد أن اطمأن الضابط الفرنسى وتيقـن بأنه لن يبقى هناك حى فى الجبل أمر جنوده ان يصعدوا الجبل ويقتحموا الحصن ٠

وما كاد الجنود الاعداء يتسلقون الجبل حتى بدأت بندقية سى عمر المجاهد تزغرد فرحا وتيها ٠٠٠ وهو يكبر ويهلل وكلما انطلقت الرصاصة من بندقيته انطلقت مـن صدره كلمة (الله أكبر) بحرارة وايمان كأنها مدفع يدوى أو صاعقة تنقض على رؤوس الاعداء ٠ وكان كل شيء يجيبه : لبيك لبيك يا عمر ، فشعر بقوة لا تعادلها قوة وجيش عظيم يقف بجانبه يعززه ويقاتل معه ٠

وقذف فى قلوب الاعداء الهلع والفزع ٠٠٠ ونشر فى صفوفهم الرعب والقلق ، كل من حاول اقتحام الحصن ودنا منه أرداه قتيلا ٠ واشتدت المعركة وتواصلت بعنف وسى عمر مستبسل فى قتاله متصلب فى موقفه ، ثابت فى مكانه دفاعا عن حصنه ، حتى آخر النهـــار ٠

ونفذت له الذخيرة وبعث آخر رصاصة ، حطم البندقية فرماها حتى لا يأخـــذها العدو ، وخرج من الحصن يزحف على بطنه ويدب دبيبا ، وكان وابل الرصاص يتساقط عليه بغزارة ، فأصيب بعدة جروح ، لم يبق مكان فى جسده الا خرقه الرصاص ومزقته شظايا القنابل ٠ وهو يشعر بالآلام تقطعه ٠٠٠ وبالنهاية تقترب رويدا رويدا ولكـن ابى أن يستسلم للموت والسكون ٠٠٠ بل راح يبحث عن آخر وسيلة يدافع بهـــا عن حصنه ، وظل يتقدم قليلا الى ان وجد نفسه قرب صخرة دلف اليها وبدأ يدفعها بكتفه ، وهو لا يكاد يحركها ، وظل لحظات يدفعها ويزحزحها الى ان أقلعها ودفعـــها فانحدرت على رؤوس الاعداء ، وأحدثت دويا هائلا مزعجا ، حتى ظن الجيش الفرنسى ان الجبل بـدأ ينهار ٠

وبرقت عيني سي عمر فرحا واغتباطا ونسي ما قاساه من تعب وألم ، واستعاد في تلك اللحظة الوجيزة التي قضاها بين الموت والحياة ، ذكريات الايام الاخيرة من عمره التي قضاها جهادا في سبيل الله وناضل من أجل الحق والعدل والحرية ٠٠٠ ومن أجل اجتثاث طغمة فاجرة مجرمة من شذاذ الافاق جاءت لابادة هذا الشعب وابتلاعه ، وطمس آثاره من الوجود ٠

كلما أحس بالموت ينشب أظفاره تذكر رفاقه الاربعة الذين مزقهم رصاص جيش الاحتلال فاستيقظت فيه العزيمة من جديد وأمدت جسمه الواهي بالقوة والامل ٠٠٠ وقال : ان قوة الارادة ٠٠٠ ستسحق قوة السلاح ٠٠٠

واصل قتاله بالحجارة حتى صعدت روحه ، وخمدت أنفاسه وهدأ ذلك البركان الغاضب ٠٠٠ بعد ان لقن الجيش الفرنسي درسا في الشجاعة والبطولة في الصبر والوفاء ، في العزم والثبات ٠٠٠ في التضحية والفداء ٠

تقدم اليه الضابط الفرنسي في خوف وحذر ٠٠٠ حتى وقف عند رأسه وهو ممدود على الارض ، يرمقه بنظرة شزراء مشحونة بحقد وبغض ٠٠٠

وبعد ان فحصه بعينيه وحقق موته أمر جنوده أن يبحثوا عن سلاحه ، فلم يتركوا مكانا الا فحصوه فحصا ، ولا صخرة الا قلبوها ، ولا جحرا الا ادخلوا يدهم فيه ولكن عملهم هذا كان بلا جدوى ٠

وبعد ان يئس الضابط الفرنسي من العثور على سلاح المجاهد ، انحنى على جثمانه يفتشه آملا أن يجد بعض الوثائق الهامة أو يحصل على بعض أسرار جيش التحرير الوطني ٠ ولكن خاب أمله واصطدم بالواقع ورأى الحقيقة عندما فتح « قلمونة » القشابة فوجد مصحفا وحبة بصل وقطعة خبز الشعير وصاح ، ها هو سلاحه ٠٠٠ « المصحف والبصل عدته » ! ! !

عجبا كيف عاش بهذا الخبز الاسود القليل الذى لا يسمن ولا يغني من جوع ٠٠٠ اما جنودنا ، فكل جندى ، عبارة عن مطعم متنقل يحمل أنواعا وألوانا ، من المأكولات

والمشروبات ، ووفرنا له جميع الوسائل والامكانيات وجهزناه بأحدث الاجهزة والاسلحة الاتوماتكية ، تحميه المصفحات والمدرعات ، وتعززه الطائرات ولكن (؟؟) ٠

وقد وقع ذلك على مرأى ومسمع حركى تجند فى صفوف العدو منـــذ سنة 1954 فتأثر بالغ التأثر مما جعله يفر من الجيش الفرنسى ويلتحق باخوانه المجاهدين ، بعد ان قتل الضابط الفرنسى الذى قاد الحملة والخائن الذى باع سى عمر ورفاقه ٠ و، * يرجع الفضل فى رواية هذه الصورة ٠

Ce sont toutes ces raisons et d'autres encore qui incitaient Wagner, le républicain, le révolutionnaire qui a été emprisonné pour ses idées, qui a goûté l'amertume de l'exil et qui n'en poursuivait pas moins ses efforts, à proclamer : « Je crois en Dieu, en Mozart et en Beethoven ! »

Au déclin de sa vie et peu avant sa mort, Beethoven pouvait écrire : « Mon travail a pris fin ». « Mon travail est achevé » (1).

Au soir du 26 mars 1827, pendant que les bourrasques de neige tourbillonnaient sur Vienne, que l'éclair illuminait son ciel d'encre et que le tonnerre secouait ses murs, Beethoven rendait son dernier soupir.

Toute Vienne, populaire et officielle, assistait à ses funérailles, et son cercueil fut porté par les plus grands compositeurs qui y vivaient.

Il nous laissait un patrimoine grandiose, dont la plupart des œuvres ne sont pas seulement des merveilles universelles au faite de l'inaccessibilité spirituelle, mais aussi des repères sur la route des artistes, en particulier, où qu'ils se trouvent, et donc chez nous également, afin qu'ils consacrent leur art au service des causes justes, des idéaux supérieurs, des hautes valeurs morales dont la musique de Beethoven représente la glorification la plus admirable parmi les travaux de l'homme.

C'est Beethoven lui-même qui disait : « La musique est une révélation plus élevée que toute philosophie, plus profonde que toute sagesse ! Celui qui se laisse pénétrer par ma musique se libère de toutes les misères qui pèsent sur les épaules des autres ! » (2).

C'est avec ces deux derniers paragraphes que je réponds au titre de cette brève allocution.

Que le salut et la bénédiction de Dieu soient sur vous.

---

(1) « Mein Werk ist beendet ».
« Mein Werk ist vollendet ».

(2) « Musik ist hoehere Offenbarung als alle Weisheit und Philosophie. Wem meine Musik sich verstaendlich macht, der muss frei werden von allem Elend, womit sich die Andern schleppen ». Kurt Pahlen : « Musikgeschichte der Welt ».

Il considérait les arts, tout au moins sa propre musique, comme l'expression de pensées supérieures, d'idéaux sublimes, de principes sacrés, témoin sa composition Fidelio, où il glorifie la fidélité conjugale, la liberté et la justice, ou bien les ouvertures de Prometheus, de Coriolan ou d'Egmont et la 3e symphonie où il exalte la liberté des peuples et dénonçe, en déchirant la dédicace à Napoléon, la dictature et fait l'éloge du régime républicain, à Vienne... alors sous régime impérial !

Toutes ses œuvres glorifient en général les hautes valeurs humaines qui font l'humanité de l'homme.

Nous devons peut-être à sa dure existence matérielle, qu'il avait supportée stoïquement pour défendre sa liberté, les productions merveilleuses et immortelles de Beethoven, ses explosions volcaniques et spirituelles sans nulles autres pareilles. C'est ainsi que Schopenhauer écrivait un jour : « Les difficultés rencontrées par l'homme de génie sont souvent à l'origine de ses œuvres les plus durables ».

C'est Beethoven qui disait : « Je ne sens le bonheur me submerger que lorsque je viens à bout d'une difficulté ».

En glorifiant, par son comportement et sa musique, ces valeurs et d'autres, Beethoven subissait l'influence du grand philosophe Emmanuel Kant, dont il avait étudié la philosophie à l'Université de Bonn, sa ville natale, et il répétait sans cesse cette admirable pensée du grand philosophe : « Je crois aux étoiles qui brillent dans le ciel au-dessus de moi et au code moral dans ma conscience »(1).

Car c'est le problème de l'humanité torturée qui l'animait, et il n'avait pas d'autres préoccupations que celle-là. Quand il exhalait son amertume, même devant les princes et la haute aristocratie, il disait : « Que l'homme fasse le bien où il peut, qu'il chérisse la liberté par dessus tout et qu'il évite de nier jamais la vérité, même devant les couronnes ! » (2)

Il ne cessait d'exalter la liberté en tout lieu, singulièrement devant ceux-là et sous une forme que nous taxerions aujourd'hui de provocante, comme en témoignent, parmi d'autres exemples, ses paroles à son élève le prince héritier d'Autriche : « La liberté et le progrès sont le but de l'art et même de la vie tout entière ».

En déchirant la dédicace de la 3e symphonie à Napoléon, après l'avoir admiré pour avoir détruit les cours européennes, une fois qu'il se couronna empereur, il grommela : « Celui-ci ne différera point de tout homme ordinaire ; il foulera dès maintenant sous ses pieds tous les droits de l'homme, il n'aura d'autre objectif que son ambition, il se placera au-dessus de tous et ne sera qu'un tyran ! » Et où Beethoven prononçait-il ces paroles prophétiques ? A Vienne, la capitale impériale des Habsbourgs !

Il a été l'exemple du sérieux et de la persévérance dans le travail, ne goûtant aucun repos. C'est lui qui disait : « Il y a tant à faire dans cette vie. C'est pourquoi tu ne dois jamais te laisser aller au repos ! » (3)

---

(1) der bestirnte Himmel ueber mir und das moralische Gesetz in mir.

(2) « Wohltuen, wo man kann, Freiheit ueber alles lieben, Wahrheit nie, such sogar am Throne nicht verleugnen ».

(3) « Viel gibt es zu tun auf dieser Erde, raste nicht ! »

de la célébration du mawlid an-nabaoui ach-charif. J'ai dit que nous accordons le plus haut intérêt à la célébration des fêtes, solennités et anniversaires nationaux, islamiques en général, voire universels, parce qu'ils permettent de mettre en relief des valeurs patriotiques, spirituelles, morales ou culturelles à l'échelle mondiale et de rappeler les efforts que des hommes et des femmes ont accomplis au service de leur nation, certes, mais aussi de l'humanité tout entière.

Nous célébrons ce soir le souvenir de la mort d'un homme parmi les plus grands qu'ait connus l'histoire de l'humanité, l'un de ceux qui lui ont rendu les services les plus nobles non seulement grâce à ses admirables et immortelles compositions qui soulagent l'esprit et élèvent l'âme vers les hautes sphères de la spiritualité et de la jouissance intellectuelle, mais également par l'exaltation des valeurs humaines supérieures qui constituent la démarcation entre l'animal pensant et celui qui ne l'est point. Encore que des expériences récentes aient prouvé que bon nombre d'animaux à quatre pattes, voire d'insectes et de plantes, goûtaient la musique supérieure et y étaient sensibles beaucoup plus que bon nombre de fils d'Adam et Eve, ou, en d'autres termes, de cet animal dit raisonnable pour le différencier de ceux de sa race en toute autre chose sauf en ce qui concerne la raison si, toutefois, cette hypothèse s'avère exacte !

Beethoven a été le premier à libérer la musique et les musiciens de leur dépendance à l'égard des princes, rois et empereurs, alors que les « gens d'instrument », comme nous les appelons en Algérie, faisaient partie des services de leurs châteaux et ce, dans le monde entier, avec pour mission de les distraire, en leur offrant en prime l'occasion de tirer vanité de les avoir à leur service, tout comme les poètes et les bouffons du roi étaient considérés comme l'une des nécessités des palais dans tous les Etats européens et islamiques, particulièrement les Etats omeyyade, abbaside et andalous, et surtout « moulouk at tawaïf » ou potentats de petites principautés andalouses, faisant rire les uns au détriment des autres, louant celui-ci en satirisant celui-là, et en tout cela allant de l'un à l'autre au gré des propositions et des récompenses espérées, vivant ainsi dans une complète sujétion à l'égard de leurs seigneurs.

Il fut le premier à briser ces chaînes et ces entraves. Etant son propre maître, il a décliné les offres des empereurs, rois, princes, archiducs, ducs et autres marquis ou marquises qui lui garantissaient un salaire stable s'il acceptait de s'attacher à leurs palais. C'est lui qui disait à un Napoléon, maître à l'époque de Vienne, à son frère Jérôme Bonaparte, roi de Westphalie en résidence à Kassel, au roi de Prusse à Berlin et à de nombreux autres princes à Vienne-même, tels Lichnowski, Lobkowski, Kinsky et d'autres encores : « Les ducs, les princes, les rois, les empereurs ont existé dans le passé, ils existent aujourd'hui et existeront demain, mais il n'y a qu'un Beethoven ! »

Ces paroles ont été dites par lui alors que, parfois, il endurait les affres de la faim, comme il l'a écrit, au mois de juin 1823, quatre années avant sa mort, alors qu'il composait sa IX^e^ symphonie qui se termine, comme nous le savons, sur les accents célestes de l'hymne à la joie « Ode an die Freude » de Schiller. Beethoven a écrit : « Du premier au 6 juin... quelle misère ! Je n'ai pas goûté de nourriture depuis six jours ! »

La musique de Beethoven n'est pas non plus une simple réjouissance de l'oreille, comme ce genre appelé au siècle dernier : « l'art pour l'art ».

BEETHOVEN : LE COMPOSITEUR GENIAL
ET LE REVOLUTIONNAIRE A PRINCIPES
OU : LE SENS D'UNE COMMEMORATION (1)

Au Nom de Dieu, le Clément et le Miséricordieux, que le salut et la bénédiction de Dieu soient sur Son ultime Envoyé.

Mesdames et Messieurs,

Je voudrais tout d'abord remercier Son Excellence l'Ambassadeur de la République Fédérale d'Allemagne, Monsieur Gerhart Moltmann, ainsi que Monsieur le docteur Becker, directeur de l'Institut Goethe d'Alger, qui m'ont assuré, dès l'instant où je les informai de la décision de l'Algérie de commémorer le 150e anniversaire de la mort du célèbre compositeur allemand et universel Ludwig van Beethoven, de leur disposition à apporter toute l'aide en leur pouvoir pour l'organisation de cette commémoration.

Par une heureuse coincidence que nous devons, peut-être, à l'esprit du grand Beethoven, Monsieur Franzpeter Goebels, professeur au Conservatoire de Detmold (R.F.A.), se trouve actuellement en Algérie où il a donné deux concerts les 22 et 23 mars courant. Son concours à cette soirée nous fut proposé par ces deux personnalités précitées, nous l'avons évidemment accueilli avec satisfaction, en exprimant notre gratitude à tous ceux qui ont bien voulu contribuer au succès de cette manifestation.

L'Algérie avait déjà célébré le 17 décembre 1970, au T.N.A., la commémoration du bicentenaire de la naissance de Beethoven et j'avais eu l'honneur de prononcer une allocution à cette occasion.

Certains s'étaient, alors, interrogés sur le sens de cette manifestation à la mémoire de Beethoven ou d'autres...

J'avais répondu, à l'époque, à cette interrogation et j'y ai fait encore allusion dans l'allocution qu'il m'a été donné de prononcer il y a peu à Oran à l'occasion

(1) Traduction de l'allocution prononcée par Monsieur Mouloud Kassim NAIT-BELKACEM, ministre de l'Enseignement Originel et des Affaires Religieuses, à l'occasion de la soiree commémorative du 150e anniversaire de la mort du célèbre compositeur allemand et universel, Ludwig van Beethoven qui a été organisée par le Centre Culturel Islamique d'Alger le 26 mars 1977.

العدد 45

فهـــرس الـعـــــدد

مغـزى ملتقيـات الفـكر الاسـلامى[1]

الأصـالـة هـى :
ان يكون الانسـان ابن عصره ، مـع البقـاء عـلى
اديـم مصره ، ودون أن يصبـح نسخـة غـيره !

مولود قاسم نايت بلقاسم

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسـلام على خاتم النبيئـين والمرسلـين ،

حضـرات الاخـوة ،

أود ، فى بدء هذه الكلمة ، أن أشكر المجلس البلدى الشعبى فى مدينة وهران على هذه البـادرة الطيبة ، البادرة البناءة ، البادرة الضرورية التى اتخذها باعطاء الاحتفال بالمولد النبوى الشريف هذا الطابع الممتاز ، هذا الطابع الحيوى ، هذا الطابع الشعبى ، هذا الطابع الرسمى ، هذا الطابع الشامل الكلى • ونرجو أن يكون هذا المثل قدوة لمدن أخرى فى البلاد ، تحتفل كلها فى المستقبل ان شاء اللـه بهذه الطريقة المنظمة ، المخططة مقدما ، على مستوى البلاد كلها فى نفس الوقت بالمناسبات الوطنية ، والمناسبات الاسلامية عامة ، بل والعالمية •

(1) المحاضرة التي ارتجلها السيد مولود قاسم نايت بلقاسم ، وزير التعليم الأصـلى والشؤون الدينية ، ليلة المولد النبوى الشريف فى قاعـة المركز الثقافى الاسلامى فى وهران (11 ربيع الاول 1397 هـ ــ يوم أول مارس 1977 م) •

وفى هذه الليلة المباركة ، والموضوع هو « مغـزى ملتقيات الفكـر الاسلامى » ، لا يسعنى الا أن أقول كلمـــة فى غاية الايجاز فى البدء ، حيث أننا سنعود اليها فيما بعد ربما بتوسع فى قاعة المغرب ، أقول لابد أن نعرج ولو بكلمة قصيرة جدا بـــهذه المناسبة ، مناسبة المولد النبوى الشريف الذى تحتفل به الجزائر هذه الليلة ويحتفل به معها مليار أو ألف مليون من المسلمين فى أنحاء المعمورة ·

نعلم كلنا ما أتى به الاسلام ، ما أتت به الرسالة المحمدية للبشرية ، ليس فقط لأمة العرب اذ ذاك ، وليس فقط لأمة الاسلام التى هى أكبر منها فيما بعد ، ولـكن للبشرية جمعاء ، فى مختلف أنحاء الكرة الارضية · ولا تزال البشرية تنعـم – وان كانت لا تعترف دائما – بثمرات هذه الرسالة التى هدت الانسانية ·

واذا لم تصبح البشرية كلها مسلمة فانها كلها استفادت واستضاءت كثيرا بنـور الاسلام بطريقة أو أخرى ، ولا يزال يعترف الكثير منهم ، حتى من ألد أعداء الاسلام ، بهذا من حين لآخر من حيث يشعرون أو لا يشعرون ·

واذا ما رجعنا الى العنوان بالضبط لهذا الحديث معكم وجدنا أنه : « مغزى ملتقيات الفكر الاسلامى » ، هذه الملتقيات التى تعقدها الجزائر سنويا بانتظام منذ عدة سنوات ، وكل سنة فى مدينة مختلفة من مدن القطر ، وأستطيع أن ألخص هذا المغزى فى ثلاث جمل قصيرة هى :

الأصالة هى أن يكون الانسان ابن عصره ، مـع البقاء على اديم مصره ، ودون أن يصبح نسخة غيره · هذا الموضوع فى الواقع أشرت اليه منذ الملتقى الرابع الذى انعقد سنة 1390 هـ/1970 م فى قسنطينة فى كلمة افتتاحه تحت عنوان « الإنية والأصالة » . وحتى هذه الكلمة:« الإنية »ليست من ابداعنا ، فهى لذلك القطب ، ذلك النجم اللامع ليس فى تاريخ الاسلام وحده ، ولكن فى تاريخ الانسانية ، فى تاريخ الفكر الانسانى ، فى تاريخ الحضارة الانسانية العالمية ، وهو أبو على بن سينا · فابن سينا هو الذى نحت هذه الكلمة ، كلمة الانية · ما معنى الإنية ؟ من « إنى » ، وهى موجودة ، ومفصلة ومشروحة فى كتابه المشهور الاشارات والتنبيهات ·

وبالنسبة للذين يتتبعون منكم هذه المواضيع باللغة الفرنسية فهناك مثلا سيدة فرنسية ، أستاذة مستشرقة معروفة ، ونستطيع أن نقول إنها فاضلة ، لانها كتبت بموضوعية ونزاهة عن ابن سينا وتراثه ، وهي الآنسة قواشون Goichon ، رسالة دكتوراه الدولة في السربون ، وفصلت هذا الموضوع بتوسع ·

كتب ابن سينا في الاشارات والتنبيهات ان الانسان عندما يحلق في الهواء ، أو يتصور نفسه محلقا في الهواء ، معلقا بين السماء والارض ، ليس ملتصقا بالسماء وقد أصبح منفصلا بعد عن الارض ، يحس بحالة غريبة · فكيف يشعر بنفسه ؟ ماذا يبقى له ؟ فجسمه يكاد يكون منعدما ، لانه غير مرتبط بشيء مادي ، بشيء جامد يتمسك به ، ويتشبث به · فماذا يبقى له في تلك اللحظة عندما يتصور نفسه معلقا بين السماء والارض ، كما في هذه القاعة حيث نتصور أنفسنا معلقين بين السقف والارضية، في الوسط ، معلقين في الهواء ، بدون أي شيء نتمسك به ، فيقول ابن سينا : لم يبق في تلك اللحظة للانسان الذي يوجد في تلك الحالة الا الشعور بنفسه ، بالروح ، بالنفس ، لا بالجسم ، لان الجسم يكاد يكون منعدما · فلم يعد له الا أن يشعر بنفسه فقط ، بإنيته ، يقول بإنيته : « اني واع بنفسي ، فاني اذن موجود » · يشعر بانعدام جسمه ، ولكن بوجود إنيته ، أي روحه ونفسه · ومن هنا أخذ ذلك الفيلسوف المعروف الذي تمجده أوروبا والعالم والذي ينسبون له وحده هذا الفضل ، وهو روني ديكارت ، كلمته المشهورة : أفكر cogito (je pense) ، فأنا اذن موجود : ergo sum (donc je suis) .

انه نفس تعبير ابن سينا ، الذي استعمله ديكارت · صحيح أنه نفس التعبير تماما اذا ما ترجم ترجمة معنوية صادقة ، فيتصور الانسان نفسه منعدما ومنفصلا عن الوجود الجسمي والمادي ، ومن تمام تلك اللحظة فالشعور بنفسه ، بروحه ، ذلك الوعي ، ذلك الشعور بالإنية ، هو الفكر عند ديكارت ، ومن ثم فالانسان وجوده بالفكر ، وليس بجسمه ، ولو كان بجسمه فقط لكان منعدما ·

أخذ ديكارت هذا المفهوم السيني بقرون بعد ذلك ، بعد ترجمة كتاب ابن سينا ، الاشارات والتنبيهات ، الى اللاتينية ، فمنه أخذ ديكارت هذا المفهوم وشرحه في كتابه

« حديث المنهج «Le discours de la méthode» وعنه أخذته البشرية كلها فيما بعد ، وان كانت ، كما قلت ، لا تشير دائما الى هذا المرجع ، لا تنسب الفضل لذويه ، وذلك غالبا بسبب التعصب الدينى ، أضيف اليه فيما بعد طابع ثان وهو الحقد الاستعمارى، حيث كانت الدول الاستعمارية تركز على تعقيد العالم الاسلامى ، لغرس عقدة النقص فيه ، بحيث لا يشعر بثقة فى نفسه ، ولا يرفع رأسه ، ولا يطالب باسترجاع استقلاله، وذاتيته ، وسيادته ، ومجده ٠

وبعد أن ذهب هذان العصران ، عصر التعصب بشكله الموجود فى القرون الوسطى وحتى بداية النهضة الاوروبية ، ثم العصر الاستعمارى الامبريالى الذى انضم اليه فيما بعد ، وزاد الطين بلة ، والطنبور نغمة ، كما يقول الأدباء القدماء ، فبعد أن زال هذان الجانبان بدأ الكثير الآن فى أوروبا يعترفون بهذا الفضل لذويه ، ويقرون لابن سينا أنه أبو هذه النظرية ، نظرية الإنية ، أو الهوية كما يقول اليوم اخواننا فى المشرق، عن جهل ، ونتبعهم نحن فى ذلك عن تقليد أعمى أفظع من الجهل ، ترجمة للفظ الاوروبى «Identité» ، عن اللاتينية id ، هو ، نفس ٠٠٠

ففى قسنطينة وفى الملتقى الرابع بالضبط سنة 1390 هـ (1970 م) ، أشرنا الى هذا فى كلمة افتتاح الملتقى تحت عنوان « الإنية والأصالة » ، الــــذى يتلخص فيه مغزى ذلك الملتقى ٠ كيف يمكن للانسان « أن يكون ابن عصره ، مع البقاء على أديم مصره ، ودون أن يصبح نسخة غيره » ، ابن عصره أى مع زمانه ، على أديم مصره : أرضية بلاده ، واقفا بقدم ثابتة على أرضية بلاده ، لا معلقا بين بلدان ، وموزعا بين حضارات ، ومبعثرا بين ثقافات ، مشتتا ، ممزقـــا ! وانما بكليته ، بتكامل شخصيته، بعناصره مجتمعة ، وفى نفس الوقت يكون ابن عصره ، يستفيد من تجارب الغير ، يستقى من ثقافات الحضارات البشرية كلها ، لانها كلها تكون شيئا متكاملا ، لانها كلها تكون وحدة ، لانه لا يمكن ان تنسب الى أية أمة من الامم ، فى القديم ، ولا فى الحديث ، ولا حتى فى المستقبل ، حضارة أو ثقافة بعينها ، وانما البشرية كلها شاركت بقدر متفاوت ، بدرجات متفاوتة ، فى هذا التراث البشرى المشترك المتكامل ٠

كيف يمكن الانسان اذن أن يكون ابن عصره ، أى لا يبقى جامدا ، خامدا ، هامدا ، ميتا ، مفكك الاجزاء ، مرتخى الاوصال ، لا ، بل أن يكون ابن عصره ، متتبعا لحوادث العصر ، متثقفا لآ خر الاكتشافات ، وليس فقط متتبعا لها ، بل مشاركا فيها ، أن يكون مشاركا فى هذه الاكتشافات ، مساهما فى هذه النظريات ، مساهما فى هذه الفروض العلمية التى تصبح فيما بعد مكتشفاته ونظرياته ؟ كيف يمكن له أن يساهم فى هذا وفى نفس الوقت يبقى نفسه ، هوهو ، بإنيته كاملة ، لا نسخة غيره ؟ كيف يمكن الانسان أن يكون ابن عصره مع البقاء على أديم مصره ودون أن يصبح نسخة غيره ، دون أن يصبح مشوها ، منسوخا ، ممسوخا عن ثقافته ، وعن هذه الانية التى تكلم عنها ابن سينا ، وعن هذه الأصالة ، وعن تقاليده ، وعن تراثه ، وعن عناصر شخصيته ، ومكونات ذاتيته ؟ كيف يمكن هذا ؟

هذا هو المشكل المطروح الآن على البشرية كلها ، على العالم كله ، اذا ما كنا كلنا نتتبع ما يكتب الآن فى العالم ، وما يذاع ، وما ينشر فى الكتب ، والمجلات ، والتلفزات ... الخ .

هذا هو المشكل، هذه هى الازمة، وهذا هو العلاج لأزمة الحضارة La crise de la civilisation وأزمة القيم La crise des valeurs ، كما يسميهما الاوروبيون ، الفرنسيون وغيرهم .

ما هو حلها ؟ حلها هو هذا ، ان يكون الانسان ابن عصره، أى يأخذ بآخر اكتشافات العلم ، بآخر ابداعات الفن ، بآخر اختراعات الصناعة ، وآخر انجازات الزراعة ومختلف أنواع النشاط البشرى ، وفى نفس الوقت يحافظ على عناصر شخصيته ، يبقى متمسكا بجذوره ، ملتصقا بأعماق عروقه .

قد يتذكر كثير من السادة الحاضرين هنا ممن حضروا الملتقى الثامن فى بجاية (1374 هـ ـ 1974 م) ما قاله الاستاذ الكبير ، وكان أستاذنا ، الدكتور زكى نجيب محمود ، الكاتب الشهير والفيلسوف الذى يعرفه الكثير منكم شخصيا أو من خلال كتبه ، ما أجاب به أحد الاخوان الجزائريين ، الذى ربما لم يكن موفقا فى النقد الموجه

للدكتور زكى نجيب محمود ، فانفعل الدكتور زكى نجيب محمود ، وهو المتزن ، وهو المعتدل ، وهو المنضبط ، وهو المتغلب على مشاعره ، وهو تلميذ برتراند راسل ، ومن دعاة المنطق الوضعى والمنهج العلمى فى الفلسفة ، ومع ذلك انفعل ، وتأثر ، ولم يستطع التغلب على نفسه ، ولم يستطع التماسك ، فاندفع وقال : « لا تنس يا بنى أننى ابن حضارة سبعة آلاف سنة » ! أى ابن الفراعنة . لا تنس يا بنى أننى ابن حضارة عمرها يتجاوز سبعة آلاف سنة ! هذا ما قاله أستاذنا الكبير الدكتور زكى نجيب محمود . هذا تجدونه أيضا اليوم لدى مجتمعات أخرى فى البشرية ، وخاصة لدى أكثر الامم الاوروبية تقدما ، واعتدالا ، ونضجا ، وتفكيرا ، ومنهجية ، وموضوعية ، ونزاهة علمية .. الخ .. الخ !

تجدون عندهم هذا الاعتزاز ، هذه المحاولة ، هذا التشبث بالجذور ، هذا التمسك بالأصول ، كى لا يبقى الانسان معلقا بين السماء والأرض ، ولا يشعر بنفسه مجردا من هذه الإنية . هذه هى مشكلة العصر اليوم فى أزمة الحضارة وأزمة القيم التى تعانى منها أوروبا ، وأمريكا الشمالية والجنوبية ، واليابان ، وما أدراك ما اليابان ! المحافظة حتى الآن على أصالتها ، وعلى عروقها ، وجذورها ، وثقافتها ، التى تعد بآلاف السنين ، ومع ذلك فهى الآن مع الاسف تشعر بنفسها مزعزعة ، مهددة ، مخلخلة فى أسسها ، مهلهلة فى قاعدتها ، نظرا لهذا التيار الجارف الذى ورد اليها من الخارج والذى يهددها فى كيانها ، يهددها فى وجودها ، يهددها فى انيتها وأصالتها .

الناس كلهم فى العالم يصارعون الآن هذه الأزمة ، وكلهم يحاولون الاقتراب من هذا المثل الأعلى الذى ينبغى لنا نحن أكثر منهم الاقتراب منه . فاذا كانوا ـ وهم الذين لم يعانوا محاولات السلخ، والمسخ، والنسخ الاستعمارية والامبريالية فى الماضى، وهم الذين لم يتعرضوا لتلك الهزات ـ ، يحاولون اليوم هذه المحاولات اليائسة ، كما يقول الاوروبيون ، للتمسك باصولهم ، وبجذورهم ، وبعروقهم ، وبأصالتهم ، وبإنيتهم ، فكيف بنا نحن الذين تعرضنا لقرون من الجمود ، كما كتب ابن خلدون فى القرن الرابع عشر الميلادى ، ولعصور من الهمود والخمود ، تلتها بعد ابن خلدون ، ثم للعهد الاستعمارى الطويل ، خاصة فى هذه المدينة ، مدينة وهران ، التى عاشت

ـ كما تعلمون ـ الاستعمار الاسبانى الذى دام ثلاثة قرون ، ثلاثة قرون ، نعم ! دخل الاستعمار الاسبانى سنة 1507 الى مدينة وهران وخرج سنة 1792 ، ثلاثة قرون كاملة عاشها هنا ، بانقطاع دام ثلاثين سنة فقط ! هذا بالنسبة لمدينة وهران وبعض المدن الاخرى كذلك فى البلاد • ثم عانت البلاد كلها استعمارا أفظع وألعن ، وهو الاستعمار الفرنسى الذى كان يمتاز عن الاستعمار الاسبانى بالمنهجية العلمية، المنهجية الشيطانية، المنهجية الابليسية ، التى كانت منظمة ، مضبوطة ، محكمة ، مدروسة ، مخططة أكثر ، وكلها ترتكز على هذا المسخ ، على هذا النسخ ، على هذا السلخ من الإنية ، ومن الأصالة ، ومن الذاتية ، ومن الشخصية •

اذا كانت هذه الدول كلها تعمل وتقوم بهذه المساعى الجبارة لتحافظ على إنيتها من الاندثار ، وعلى أصالتها من الانجراف ، فكيف بنا ونحن الذين تعرضنا لما تعرضنا لــــه ؟

انه ينبغى لنا أن نحرص أكثر من هذه الامم كلها على هذه الإنية وعلى هذه الأصالة، بتحقيق هذا المثل الاعلى : وهو أن نكون أبناء عصرنا ، مع البقاء على أديم مصرنا ، على أديم بلادنا ، على أرضيتنا الطيبة ، على أرضيتنا الثابتة ، وألا نصبح نسخة غيرنا •

بعد ذلك لا يمنعنا أى شىء أبدا من أن نأخذ عن الغير ، وأن نرنو الى السماء ، وأن ننظر فى جميع الاتجاهات المختلفة ، عندما نضمن لأنفسنا هذه الأرضية الثابتة ، هذا الأساس المتين ، وعندما تكون أرجلنا منغرسة فى أديم هذه الأرض ، متشابكة مع عروقنا ، ضاربة فى جذورنا ، جذور الأجداد ، عروق الأسلاف ، بقيمهم ، بمزاياهم ، بفضائلهم • وهذا لا يمنعنا طبعا من أن ندرس تاريخنا بكل نقد ، وبكل تجرد ، وبكل موضوعية ، وبكل نزاهة ، حتى لا تتكرر أخطاء الماضى •

اذن علينا أن نكون أبناء عصرنا ، على أديم مصرنا ، ودون أن نصبح نسخة غيرنا • أما اذا أصبحنا نسخة غيرنا فكأننا لم نفعل شيئا • نستطيع ، ليس فقط نستطيع ، بل يجب علينا أن نستفيد من أحدث تجارب الانسانية فى المجالات المختلفة للحياة البشرية ، فى المجال العلمى ، والاجتماعى ، وفى المجالات الاقتصاديـــة والثقافية

المختلفة من صناعة ، وزراعة ، وفن ، وتربية ، وتعليم ، ولكن بشرط ألا نأخذ منها الا ما يلائم ذاتيتنا ، الا ما ينسجم مع هذه العناصر المكونة لشخصيتنا ، وإنيتنا ، وأصالتنا ٠

هذا هو المقصود بالذات من مغزى هذه الملتقيات كلها التى نعقدها فى مختلف مدن القطر ، والتى تختلف جداول أعمالها حسب المدينة التى ينعقد فيها الملتقى من سنة الى أخرى ، وفى جميع هذه الملتقيات قاعدة ثابتة ، صلبة ، قائمة ، دائمة ، دائبة ، تبقى لازمة ملازمة : هى تناول فترات هامة من تاريخ تلك المنطقة بتوسع وبطريقة شاملة كاملة بقدر الامكان ، وكذلك دراسة جوانبها الحالية ، دراسة تلك المدينة ، تلك المنطقة كلها فى الماضى والحاضر ، بالمحاضرات والمناقشات ، وبالزيارة أيضا لآثارها ومنجزاتها ٠ (1)

يبقى السؤال : ما الهدف من خلال هذا ، يعنى ليس فقط الغاية نفسها ، ولكن الهدف من خلال تحقق هذه الغايات ، أو غاية الغايات ؟ من الذى يتوجه اليه هذا النداء ؟ وأقول لكم طبعا هم بالدرجة الاولى الشباب ، الشباب هو الذى نركز عليه لانه هو المستقبل ، هو الذى يسلم هذا المشعل ، يسلم القيم التى تلقاها عن جيل الكفاح التحريرى ، جيل فاتح نوفمبر وما سبقه ، وما هيأ له ، ولكن خاصة المرحلة الاخيرة التى هى فاتح نوفمبر ، يبلغ الاجيال عن كيف استرجعت هذه البلاد كيانها ، كيف استرجعت هذه البلاد سيادتها ، كيف استرجعت هذه البلاد عزتها ٠ ولهذا لا أقول أبدا استقلال الجزائر ، بل أقول : استعادة استقلال الجزائر ، استعادة الجزائر ، استرجاع حرية الجزائر ، لا حرية الجزائر ، واستقلال الجزائر ، وانما استعادتهما ٠ هذه الفترة ينبغى أن تبقى دائما حية، ويبقى هذا المشعل يسلم ويبلغ من واحد الى آخر، على مر الاجيال، ولا ننسى أبدا أننا تعرضنا للذوبان ، تعرضنا لأكبر كارثة كان يمكن أن تؤدى بنا نهائيا ، لولا رحمة من ربنا ، ولولا جهاد من استشهد ، ولولا تضحية من لا يزالون ، ولولا ذلك الصبر من الشعب كله ، وذلك العناد ، وتلك المصارعة ، مصارعة من سوء

(1) انظر أيضا المحاضرة « اهتمام الامم بأيامها » الملقاة فى نفس المساء والمنشورة فى الأصالة عدد 44 بتاريخ ربيع الثانى 1397 – افريل 1977 م ٠

الحظ لآثار أخطاء أسلافنا في القرون الاخيرة · نعم ، أخطأوا ، وضعفوا ، وتهاونوا ، وارتكبوا أغلاطا ، وقصروا في مجالات مختلفة ، وأدى ذلك كله الى ما أدى اليه فيما بعد ، وما نزال نعانى منه حتى الآن ولأمد يعلم الله طوله !

اذن علينا أن نسلم هذا المشعل لاجيال المستقبل ، لاجيال الغد · ولابد دائما من التركيز على هذه النقاط ، وعلى هذه الإنية · تذكرون كيف حارب شعبنا الحلف الاطلسى بكامله · بأى شيء حاربه ؟ بالروح ، بالمعنويات قبل كل شيء ! كان الكثير يقولون : من هؤلاء ؟ ماذا يقصد هؤلاء الذين يريدون ان يحاربوا دولة مثل فرنسا ؟ بأى شيء ؟ بالكلام ؟ بالشعارات ؟ بالملصقات على الجدران ؟ وبالخربشات على الاعمدة ؟ هل لديكم طيارات ؟ هل لديكم مترايوز[1] ؟ هل لديكم رشاشات ؟ هل لديكم دبابات ؟ هل لديكم مسدسات على الاقل ؟ ومع ذلك حارب أناس بتلك الروح ، بتلك الشحنة المعنوية ، بتلك البطارية ،كما يقول اخواننا الشرقيون ، بتلك البطارية حاربوا الحلف الاطلسى بكامله ، وليس فقط فرنسا ، بل الحلف الاطلسى بكامله ، حاربوه بتلك القوة المعنوية ، بتلك الشحنة الروحية ! بتلك البطارية المعنوية حاربوا القوة المادية الغاشمة التى كان يمكن أن تمحقهم محقا ، وتسحقهم سحقا ، لولا ذلك اللب ، ذلك الامل ، تلك الروح القوية التى ردت المادة ، ردت القوة الغاشمة !

كان الجهاد ، أو الثورة كما يقول البعض اليوم ، اذ ذاك كانوا يقولون الجهاد ، الثوار كانوا يسمون اذ ذاك المجاهدين ، وحتى الجريدة لسان حالهم كانت تسمى المجاهد ، ولا تزال والحمد لله ، والكفاح نفسه كان يسمى الجهاد · بهذا استطاع الشعب أن يقاوم ، بتلك الروح ، بذلك الايمان بالثواب فى الدار الآخرة وباستحقاق الكرامة بالاستشهاد فى هذه الدنيا ، ونيل احترام الغير ، واحترام الذات · هذا كله متضمن فى هذه الكلمة : الاصالة · وهذا ما ينبغى أن نبلغه . وهذا ما نحاول أن نركزه فى شبابنا من خلال هذه الملتقيات · ومغزى هذه الملتقيات هو هذا بالذات ! يتركز فى هذه الجمل الثلاث : أن يكون الانسان ابن عصره ، مع البقاء على أديم مصره ، ودون أن يصبح نسخة غيره !

(١) رشاشات .

تبقى المواضيع التى تختلف ، والشخصيات التى ندعوها كل سنة من بلدان مختلفة ، ومن اتجاهات مختلفة ، ومن أديان مختلفة ، ومن مذاهب مختلفة فى داخل الدين الواحد، ومن ايديولوجيات مختلفة ، ومن قارات مختلفة ، اذ ندعو من القارات الخمس ، ندعو من استراليا ، وأمريكا ، وآسيا كلها ، من آسيا العربية المسلمة ، وآسيا الوثنية ، وان كان الذى يأتينا من اليابان الى حد الآن مسلما ، وهو الاستاذ عبد الكريم سايتوح ، يابانى أسلم ، أستاذ فى الاقتصاد فى جامعة من جامعات طوكيو ، ولكن دعونا آخرين ، دعونا من اتجاهات مختلفة من ايديولوجيات مختلفة ، ومن تيارات اقتصادية مختلفة ، ومن اتجاهات يمينية ويسارية ، منطرفة ، ومتوسطة ، وفوقها ، وتحتها ، الخ ... بجميع اللوينات (1) ، كما يقول الرسامون .

والمقصود من ذلك هو هذا النقاش ، هو هذا الحوار الخصب بينهم والشباب ، ليستفيد الاخيرون من المنهجية العلمية ، ليستفيدوا من آخر الطرق المستحدثة التى تستعمل فى البلدان المختلفة ، التى تقدمت علينا ، وقد كان تقدمها علينا انطلاقا من تراثنا . اذ بدأوا يتقدمون عندما بدأنا فى التراجع ، أو على الاقل فى الهمود ، والخمود ، والجمود فى نفس المكان ، — والذى لا يتقدم طبعا يتراجع ، هذه هى القاعدة المعروفة ! — استفادوا منا ، وأخذوا عنا كل ما أخذوه ، ولماذا لا نأخذ منهم نحن الآن وقد أخذ أجدادنا الاولون عن أجدادهم ؟ لنا سابقة فى هذا ، فحتى فى المجال الادارى — فى العهد الاسلامى الاول — كانت الادارة — كما تعلمون — باليونانية فى جانب من البلاد العربية ، وكانت بالفارسية فى الجانب الآخر ، عند المناذرة بالفارسية ، وعند الغساسنة باليونانية ثم بعد باللاتينية ، ولكن تغلبوا على ذلك كله بالعزم ، تغلبوا على الحالة التى كانوا فيها من تأخر ، ويكفيها اسم الجاهلية ، وبفضل تلك الدفعة ، تلك الشحنة ، تلك البطارية الروحية التى تتلخص فى كلمة الاسلام وما أتى به من نور للامة العربية ، وللامة الاسلامية التى تتجاوزها ، وللبشرية كلها ، استطاعوا أن يصبحوا فى مدة قصيرة جدا نسبيا فى تاريخ الحضارات ، وتاريخ الاجيال ، وتاريخ تطور العمران ، أن يصبحوا سادة البشرية وأساتذة الانسانية . بهذه الشحنة الروحية ، بهذه القوة المعنوية .

(1) nuances, Schattierungen.

وهذه هى التى نحاول ــ بقــدر الامكان ــ أن نغرسها فى الشباب ، مضافا اليها ــ كما قلت ــ أحدث الطرق العلمية ، أحــدث المناهج التى استفادت منها البشرية ، التى تمخضت عنها جهود متواصلة عبر هذه القرون الاربعة عشر التى عاشتها البشرية منذ فجر الاسلام ، منذ نزول القرآن ، منذ كلمة اقــرأ ، منذ نزول اقــرأ الذى كان منطلقا جديدا للبشرية كلها • هذا ما نحاول أن نغرسه فى شبابنا بهذه الطرق •

قد يقول البعض منا ــ وقالوه لنا فعلا ــ لماذا تدعون من هذه البلاد أو تلك وهى مسيحية مثلا ، فربما كان الاستاذ الفلانى ، الالمانى ، أو الفرنسى ، أو السويدى ، أو الاسترالى ، أو الايطالى ، أو الامريكى ، أو اليابانى ، أو الروسى ، أو الاسبانى ، أو الانجليزى ، أو كذا ، يهوديا ، أو مجوسيا ، أو شيوعيا ، أو مسيحيا ؟ فنحن نقول ندعو هؤلاء الاساتذة ، العلماء المتخصصين ، الكتاب ، المفكرين ، من الجامعات ، من مختلف التخصصات ، من الاقتصاد ، من التشريع ، ومن القانون ، ومن الفلسفة ، والتاريخ ، وتاريخ الحضارات ، وتاريخ الاديان المقارن ، والفكر عموما ، ندعوهم لهذا النطــاح ، ونحن هنا فى قلب وهران ، فى مكان غير بعيد عن موقع معركة خنق النطاح ، ــ ويطول بنا الحديث لو عرجت بــها الآن ــ أقول اننا ندعوهم لهذا النطــاح ، ولقــدح الزناد ، ندعو هؤلاء الاساتذة من مختلف البلدان ، والاديــان ، والمذاهــب ، والايديولوجيات لنستفيد من منهجيتهم العلمية • فقد تقدموا علينا الآن ، وقد كان استفاد أجدادنا من أجدادهم ، وتقدمنا عليهم ، وعلمنا البشرية ، واستفادت البشرية من منطلقنا ، وليس فقط من منطلقنا ، بل من قمتنا ، من الاوج الذى وصلنا اليه انطلقت هــى ونحن بقينا هناك ، بل تراجعنا ! ويا ليتنا على الاقل بقينا هنا !

والآن آن لنا ، حان الوقت ، لان نستفيد من تلك الطرق ، وليس هناك من أى عيب أبدا فى أن نستفيد من أحدث الطرق لاى بلد كان ، ومن أية ايديولوجية كانت ، ومن أى منهج كان ، ومن أية قارة كانت ، ومن أية سياسة كانت ! العــلم عــلم ، والتجربة تجربة ، نأخذ منها ما يوافقنا ، ونترك الآخر بروح نقــدية ، بروح موضوعية ، بروح فاحصة ، بروح ماحصة •

أما اذا أتانا أستاذ بنظرية لا تلائمنا ، يعني يريد مثلا أن يبث فينا دعايته ، فنحن لا ندعوه مرة أخرى • فمن هؤلاء الاساتذة الذين نأتي بهم من هذه البلدان أو تلك من مختلف أنحاء العالم قد يكون فيهم الكثير ممن لا نرضى عنهم ، ولا يرضون عنا • ومع الاسف فحتى في العالم الاسلامي مصائب ، وربما كانوا أحيانا ـ ان سمح سيبويه بهذا التعبير ـ أكرث من الخطر الذى يأتينا من الاوروبى أو الامريكى • مع الاسف هذا هو الواقع ، واقعنا • ولكن نأتي بهم للنخبة ، نأتي بهم للشباب الجامعي ، ولشباب السنتين النهائيتين من التعليم الثانوى ، ونحاول دائما اختيار مجموعة أخرى من الاساتذة من حيث الكم والكيف ، أو من حيث الكفاية والكفاءة ، أى من حيث العدد ، ومن حيث الاقتدار والنزاهة ، يكونون معهم ليردوا عليهم عند اللزوم ، وليصححوا الاخطاء •

ومن هنا تتحقق لدينا عدة فوائد من هذه الملتقيات ، ومن هذا القدح للزناد بين هذه المذهبيات كلها ، والايديولوجيات ، والاديان ، والحضارات ، والثقافات ، واللغات ، التى تأتينا من القارات الخمس ، ونحن نجتمع فى قسنطينة ، أو فى وهران ، أو فى الجزائر العاصمة ، أو فى تيزى وزو ، أو فى بجاية ، أو تلمسان ، أو فى عنابة ، ... لامس ، أو فى ورجلان اليوم ، أو فى باتنة ، أو بلعباس ، أو قالمة ، أو غيرها غدا •

هذا هو المقصود بها • هو أولا ، أعيد وأكرر ، ولن أمل ولن أكل من تكرارى هذا ، هو أن نعلم شبابنا أن يحرص على أن يكون ابن عصره ، مع البقاء على أديم مصره • ودون أن يصبح نسخة غيره ! ويتعلم من هؤلاء الاساتذة المنهجية العلمية التى يمتازون ... عنا اليوم ، وينبغى أن نعترف بهذا ، ويأخذ كذلك المعلومات لديهم ، اذ سبقونا ... من الامور ، ويتعلم أيضا طريقة استعمال المراجع ، ويأخذ عنهم المراجع ، و... ـريقة النقاش ، ومقابل ذلك يفيدهم شبابنا بدوره ، لانهم يطلعون بذلك على ... نا ، كيف ننقدهم فى هذه النقطة أو تلك ، كيف نرد عليهم فى هذا الاتجاه ... كيف نفضح ذلك التأويل المقصود ان كان مقصودا ، ذلك التأويل ال... ام ... ، ويستفيدون من هذا ، ويصححون مواقفهم ، ويراجعون أنفسهم ، ويعدلون مما يكتبون ، ومما ينشرون ، ويذيعون •

هذه الفوائد كلها تجتمع لدينا من خـــلال هذه الملتقيات ، أو سوق الافكار ، كما سماها البعض ، وهى خصبة ، وكسب ، وفيها كل الفائدة ، وليس فيها أبدا من جانب سلبى [illegible] فى نظرنا على الاقل ، وهو ما أكدته لنا التجارب ، وأكده كل من كتب عنها فى الشرقيين والمغربين ، والشمال والجنوب ٠

أما [illegible] ما يأتينا أستاذ مثل الاستاذ هرمن لاى ، من جامعة برلين ، من جامعة هومبر [illegible] وفة الشهيرة ، ببــرلين الشرقية ، فى جمهورية ألمـانيا الديمقراطية ، الشيو [illegible] لمون ، ويقول فى ملتقى عنابة : « ان كتاب الكليات فى الطب لابن رشد كان [illegible] جامعة يينا » ــ وهى من كبريات جامعات ألمانيا ، وتوجد الآن فى القطاع الشرق [illegible] تى القــرن التاسع عشر » ، أو يقول الاستاذ بيلافسكى ، مــن جامعــة فرصو [illegible] لونيا ، « ان كتاب القانون لابن سينا كان يدرس فى جامعة كراكوفيا فى [illegible] القرن الثامن عشر » ، ثم يلح الاستاذ هيرمان لاى على طلبتنا قائــلا : « لتكو [illegible] ثقـــة فى تراثكم وفى أصالتكم ، وتمسكوا بقيمكم الروحية والعلمية ، وتقد [illegible] ام ، وتعلموا أيضا ما تقوم به البشرية اليوم » ، أظن أن هذا الكــــلام، بالـ [illegible] يد شبابنا أحسن من أى كلام تقوله أية شخصية اسلامية على مستوى القمة [illegible] لشبابنا المعقد ، الشباب الاسلامى عموما « المصاب بعقدة الخواجة » ــ أى [illegible] والامريكى ــ كما يقول أستاذنا الكبير الفيلسوف عثمـان أمـــين ، اذ يأتينا [illegible] من هذا العالم الذى يغايرنا ، الذى هو بعيد عنا ، من قارة أخرى ، ودين [illegible] ية أخرى ، ويقول هذا الكلام لشبابنا ، أظن أنه فى الصميم بالنسبة لهم ، [illegible] كلم من منطــق ومنطلق تعيشهما بلــدان أوروبا الغربية والشرقية ، وأمر [illegible] ى بالعالم الغربى عموما ، فى هذه الازمة التى تجتاح العالم اليــوم ، وتكتس [illegible] ات ، وقد تكنس الحضارات كلها ، اذا ما استمرت الامور بهذه الطريقة ، وواصلت [illegible] هذا المنوال ٠

وما دمنا بصدد ذكر كتاب ابن سينا في الطب ، أود أن أقول اننا سنعود اليه فى الكلمة الاخرى ، فى قاعة المغرب ، اذ دام استعماله فى أوروبا لمدة أطول ، ودرس فى جامعات أخرى الى ما بعد القرن الثامن عشر ، سنعود اليه فيما بعد (1) ٠

ظاهر اذن أن المقصود من هذه الملتقيات هو تعزيز هذه القيم ، وتعليم ابنائنا واخواننا ، ونحن نتعلم كلنا ، وأقول لكم بكل صراحة اننى شخصيا ، اذ أركز الجانب الاكبر من اهتمامى على الترتيب المادى والتنظيم فى القاعة وغيرها ، استفيد مع ذلك كثيرا من اللحظات التى يتركها لى التنظيم ، أستفيد كل الاستفادة ، أستفيد الاستفادة العليا من تلك الشذرات التى تبلغنى من المنصة ، التى أسمعها من الاساتذة ، من أساتذة قمم ، أساتذة بارزين فى بلدانهم وعلى المستوى العالمى ، على الاقل الكثير منهم ، وأستفيد من كل كلمة يقولونها ٠

وأظن أننا كلنا نستفيد من تلك المعلومات ، ونستفيد من المنهجية ، ونصحح بدورنا لكثير من أولئك الاساتذة ، مسلمين وغير مسلمين ، وخاصة هؤلاء الاخيرين ، الاخطاء الكثيرة التى ورثوها عن الماضى ولا تزال عالقة بهم الى اليوم ، راسبة فيهم ، تطفو من حين الى آخر الى السطح ٠ ولابد أن نصحح الافهام ، ونصحح الاوضاع ، وأن نعيد الامور الى نصابها ، بهذه الطرق ، بهذه المنهجية العلمية ، بهذا النقاش الخصب ، بهذا النقاش الحر ، من المنبر الحر ، ونترك لاى انسان الحق فى أن يقول أى شىء يريد ، ما دام فى الموضوع ، مهما كان رأيه مخالفا لآراء الآخرين ، وهذا هو المقصود ، اذ الفائدة كل الفائدة فى اختلاف الآراء ، وفى اللقاء بين المختلفين فى الآراء ، والمنهجيات ، والمذهبيات، ليحصل هذا القدح للزناد ، ليحدث هذا النطاح ، هذا الصراع بينهم ، الصراع العلمى ، الصراع المنهجى العلمى ، ليستفيد الجميع ، ويحصل للجميع من هذا النطاح اللقاح !

وقد اعترف لنا الكثير بأنهم استفادوا بعضهم من الآخر ، ويستفيدون كل مرة ٠ والعبرة ــ كما قلنا ــ بالشباب أكثر ٠ فالاساتذة يستفيد بعضهم من الآخر ، ولكن الفائدة الكبرى تعود خاصة على الشباب ، الذين هم المقصود بالذات ٠ تعلمون أن كثيرا

(1) انظر « اهتمام الاسم بأيامها » لصاحب المقال فى عدد 44 من الأصالة بتاريخ ربيع الثانى 1397 هـ ــ أفريل 1977 ٠

من المؤتمرات والملتقيات التى تعقد لمثل هذه الامور تركز فى الغالب على مجموعة من الاساتذة المتقدمين فى السن ، ولكن خاصة من حيث التقادم فى الافكار ، والمناهج ، وتحجر الذهنيات ، وليست العبرة بالسن فقط ، لان هناك مثلا الشيخ سليمان هنا بيننا كبير فى السن ، وكبير فى العلم ، ولكنه من حيث الروح فى الشباب الاول حقيقة ، وليس مجاملة له ، وآخرون أيضا . رأيتم مثلا الاستاذ محمد عبد الله عنان . الكثير منكم قد لا يتفق معه ، وقد رددت عليه مرارا فى مناسبات عدة ، بخصوص رأى له فيما يتصل بالدولة العثمانية ، ولكنه من حيث علمه ، وأدبه ، ومنهجيته العلمية ، وبحثه ، وهو الآن فى الثمانين ولا يزال ينقح ، ويراجع ، ويصحح ، وينقب ، ويطالع ، ويكتب ، ويخربش فى المكتبات ، فى الاسكوريال فى اسبانيا ، وفى جامعة ليدن فى هولندا ، وفى أوبسالا فى السويد ، وفى جامعة يينا فى ألمانيا الشرقية ، وفى مكتبات برلين ، وفى مكتبة اللغات الشرقية ، ومكتبة سانت جنغييف ، ومكتبة السوربون ، والمكتبة الوطنية فى باريس ، ومكتبات انجلترا ، وغيرها ، فضلا عن المكتبات فى البلدان العربية، وقد تجاوز الثمانين ، وما زال ينشط ، ويجرى ، ويسعى ، ويتنقل ، ويرحل . انه فقط بوجوده فى الملتقى ، ولو لم يتكلم ، لهو درس لنا ، نتعلم منه ، بمحض وجوده ، حتى لو بقى ساكتا فى المنصة ، نستفيد منه كل الاستفادة ، نظرا لهذا السعى ، ولهذا الجهد ، وذكرته كمثل فقط ، ومن أحسن الامثلة .

وتعرفون كلكم عثمان الكعاك ، وبحوثه ، واطلاعاته ، وسعيه ، وتنقيبه فى العالم كله ، العالم الغربى والشرقى ، ولم يترك أية شاردة فى أى بلد . هؤلاء كلهم ، بمحض وجودهم فقط بيننا نتعلم الكثير والكثير منهم ، ونريد أن نغرس هذا فى شبابنا .

هذا هو المغزى من هذه الملتقيات التى نحرص كل الحرص على أن تكون بالدرجة الاولى للشباب . وهذا هو الذى يميزها أيضا عن ملتقيات أخرى تنظم فى بلدان أخرى ، عربية ، أو اسلامية عامة ، أو فى غيرها من العالم . انها غالبا ما تعقد فى أمكنة خاصة محصورة ، وعلى مجموعة من الاساتذة مقصورة ، وغالبا ما يكونون متقدمين جدا فى السن ، من ذوى التخصص حقيقة ، ولكن أبحاثهم تبقى محصورة ومخنوقة بين الجدران الاربعة لتلك القاعة ، ولا تخرج الا بعد مدة طويلة ، وحتى اذا خرجت تبقى محصورة

ومقصورة على مجموعة من المتخصصين أيضا ، بينما نحن نركز بالدرجة الاولى على الشباب ، ونجمع بين علم وحكمة الكبار وحماس الشباب ورغبتهم فى البحث ، والتنقيب ، والاطلاع ، والمطالعة ، واستخلاص النتائج بأنفسهم ، والتحصيل على عناصر الحكم بجهدهم ، بروح نقدية ، بروح علمية ، ومنهجية دقيقة حديثة • هذا هو الفرق الكبير • لان الشباب هم ضمان الاستمرار ، هم الذين يجسمون الاستمرار لهذا الفكر ، ولهذا العمل ، وهم الذين يبلغون المشعل غدا لاجيال أخرى •

ولهذا نستعمل أحيانا نوعا من الصرامة مع الجميع ، بنية صادقة حسنة ، مع الجميع ، أساتذة ، وطلبة ، وغيرهم ، وخاصة مع الطلبة ، نستعمل الصرامة كل الصرامة معهم عندما يخرجون عن الجادة ، ويحدثون الفوضى ، أو يضيعون ثانية ودقيقة واحدة من الاستماع الى الاستاذ المحاضر أو المناقش ، لاننا نرى أن عليهم أن يستفيدوا من كل لحظة ، ومن كل كلمة تقال ، وعليهم أن يردوا ، ويناقشوا ، وهم يطلعون الى المنصة •

وهنا أود أن أسأل : فى أى ملتقى فى العالم رأيتم الطلبة يطلعون الى المنصة ، ويردون على علماء أعلام ، وعلى أساتذة كبار فى الجامعات المختلفة من الشرق والغرب ؟ فى أى بلد ؟ لم يحدث هذا الا فى الجزائر !

وقد أشاد الكثير بهذه الطريقة ، أشاد بها الدكتور محمد الفحام ، شيخ الازهر سابقا ، على اثر الملتقى السادس للفكر الاسلامى فى العاصمة سنة 1392 هـ (1972 م) ، كما أشاد بها فى الصحف والمجلات أساتذة كبار فى جامعات أوروبية ، ويابانية ، وأمريكية كثيرة ، مثل الدكتور سايتو من طوكيو ، وألجار من هارفارد ، وعبد الغنى من اوزبكستان ، وغوميث وايبالثا من مدريد ، وكوخفاسر من ألمانيا ، وبونو من روما ، الذى القى محاضرات فى جامعات ايطالية ونشر فى المجلات والصحف، ومنها فى الاوسرفاتورى رومانو ، لسان حال الفاتيكان ، مقالات عديدة ، عن مميزات هذه الملتقيات ، كما أشاد بها أخيرا ، بعد ملتقى ورجلان ، الدكتور أحمد كريم غاى ، وزير الخارجية سابقا فى السينغال والامين العام حاليا لمؤتمر الدول الاسلامية ، وقال انه ينبغى أن نطلب من البلدان كلها أن تعير هذا الجانب ، جانب الشباب ، هذه الاهمية ، لتركز على الشباب فى جميع الملتقيات التى تنظم ، كما هو المعمول به فى ملتقيات الفكر الاسلامى فى الجزائر ، لانهم هم المقصود ، لانهم هم الاهم ، ليستمروا فى تبليغ هذه الطريقة ، طريقة

الجمع بين عناصر متكاملة ، بين الأصالة ، والتراث ، والقيم ، من جهة ، والمعاصرة أو ضرورات العصر الحديث والتفتح على العالم وتقدم العلم ، من جهة أخرى .

وهذه الصيغة : الأصالة والمعاصرة ، استعملناها لاول مرة فى هذه المدينة بالذات ، فى وهران ، فى الملتقى الخامس سنة 1391 هـ (1971 م) ، عندما قلنا ان هناك فريقين اثنين متصارعين ، متضادين : احدهما القطب الشمالى ان شئتم ، والآخر القطب الجنوبى ، ذهنيا ، فى الذهنية . احدهما ينادى ، باسم الاخلاق ، وباسم العادات ، وباسم التقاليد ، وباسم القيم ، وباسم المحافظة : أن علينا أن نغلق جميع الابواب ، بل حتى النوافذ ، حتى لا تتسرب الينا تيارات غريبة وأفكار دخيلة ، وحتى لا تنجرف الينا ايديولوجيات ، ومذهبيات ، وآراء لا تتفق وما نشأنا عليه ، وما نريد الحرص عليه . والآخر يقول ، باسم التفتح ، والتقدم ، والثورية ، والتطورية ، والعالمية ، والمعاصرة ، انه لا ينبغى فقط أن نفتح النوافذ ، والابواب ، بل ينبغى لنا أن نفتح، زيادة عن النوافذ والابواب ، شيئا آخر أيضا ، وهذا هو الاهم ، وبيت القصيد هنا ، وهى السقوف ! ينبغى أن ننزع حتى السقوف !

نحن قلنا لا ، لسنا مع الذين يدعوننا باسم التقاليد ، وتقاليدنا فيها ما هو صالح وما هو طالح ، كما هى فى جميع المجتمعات ، وفى جميع الحضارات ، وكما هى فى جميع الثقافات ، نقول : لسنا مع الذين يدعوننا باسم التقاليد ، والقيم ، والمحافظة ، الى اغلاق الابواب ، بل وحتى النوافذ ، ويريدون أن نقبع فى الظلمات ، ونختنق لانعدام الاوكسيجين ، الذى هو اكسير الحياة ، ولا مع أولئك الذين يدعوننا باسم الثورية ، والتقدمية ، والانفتاحية ، والانبطاحية ، والتطورية ، الى عدم الاكتفاء بفتح النوافذ والابواب، ويطالبوننا بنزع السقوف والرفوف ! قلنا لسنا مع هؤلاء ولا مع أولئك. لا نريد مع الاولين الاختناق والعماء ، ولا مع الآخرين « الكشفة » والتعرض للزوابع والهزات ! بل نريد ان نجمع بين الفضيلتين ، نريد أن نفتح النوافذ ، وحتى الابواب عند اللزوم ، ولكن نريد إلى ذلك ان نحتفظ بالسقوف والرفوف !

هذا ما نادينا به هنا فى وهران سنة 1971 ، فى الملتقى الخامس ، وهو ما كررناه ، واطلنا فيه ، وأكدناه ، وتوسعنا فيه ، فى اطار نقطة بعينها فى الملتقى الثامن للفكر الاسلامى فى بجاية سنة 1394 هـ (1974 م) ، وهو «الإنية والأصالة مع التفتح والعالمية» ، بأن نفتح النوافذ ، والابواب أيضا عند اللزوم ، على أن نتـــرك السقف على حاله ، ليمنعنا من الزوابع ، ومن الهزات ، والمفاجآت السيئة !

هذا ما قصدناه ، وما نرمى اليه من خلال هذه الملتقيات ، وهذا مغزاها ٠

والسلام عليكم ورحمة الله تعـالى وبركاته ٠

النقطة 1

المجتمع التـــاهرتي في عهـــد الـرستميـــين

د. احسـان عبـاس
أستـاذ بالجـامعـة الامـريكية
بـيروت ـ لبنـان
وأستاذ زائر بجامعة برنستون
(الولايات المتحدة الامريكية)



ان قوة النواة الاباضية في تاسيس مدينة تاهرت (تيهرت) وفي انشاء الدولة الرستمية أمر يقبل دون منازعة أو شك ، أو تحفظ ، وخاصة اذ أصبحت تلك الفرقة بعد مقتـل الامـام أبي الخطاب (سنة 144 هـ) بحاجة ماسة الى ايجاد كيان ذاتي ، جغرافي واداري ، بمنأى عن نفوذ الاغالبة ، ولكن أولئك الاباضية الذين تعاونوا عـلى تاسيس المدينة كانوا أيضا ينتمون الى عدة قبائل منها لماية ولواتة ورجالة ونفزاوة (1) .

وان الخشية من المنافسة بين رؤسائهم ـ « اذ كان كل قبـيل منهم فيه رأس أو رأسان أو أكثر يدير أمر القبيل » ـ (ابن الصغير : 321) (2) ـ هي التي حفزتهم

الى اختيار رئيس ليس له من قبيلة تمنعه أو تتعصب له ، وهذا يعنى ان الرستميين الذين تعاقبوا على حكم تاهرت (من سنة 160 ـ 296) لم يكونوا سوى أسرة حاكمة ، وانهم رغم تكاثرهم حتى أصبحوا يمثلون وحدة من تلك الوحدات الكثيرة التى أصبح يتألف منها المجتمع التاهرتى ، ظلوا يعتمدون على كفايتهم الشخصية وعلى الجند والمحالفات الآتية وروابط الولاء وأحيانا على روابط المصاهرة فى سياسة الدولة ، ومع كراهية الاباضية لمبدأ الوراثة فى الحكم ـ وهو أمر جر الى بعض الانقسامات المذهبية وقوبل أحيانا بالنقد الشديد ـ (3) فان هيمنة الامر الواقع ، أعنى البحث عن حاكم فاضل ، **ليس له سند قبلى** ، هو الذى كان يتحكم الى حد كبير فى اختيار الامام ، وظل كذلك حتى النهاية ، حتى ان مثل هذا السؤال : « هل يكون حاكم من غير الرستميين ؟ » ، استبعد فى كل مرة استبعادا تاما ، لدى جميع الفئات التى يتكون منها المجتمع التاهرتى ، رغم امكان طرحه أحيانا ، ولعل السيرة الفاضلة التى رسمها الائمة الثلاثة الاول عبد الرحمن وعبد الوهاب وأفلح ـ على التوالى ـ هى التى رسخت فى اذهان التاهرتيين على اختلاف انتماءاتهم أن الرستميين ، من الناحية العملية أيضا ، هم خير من يحقق للمجتمع العدالة والامن والمساواة ، ويؤثل الحياة العلمية والعمرانية على أرسخ القواعد والاصول ، وزادتهم يقينا بأن تجرد الرستميين من روابط العصبية هو الذى يقوى اعتمادهم كثيرا على قوتهم المعنوية المستمدة من الدين .

ومع ان العامل الجغرافى من حيث المنعة والحصانة كان أساسيا فى اختيار الموقع الملائم لبناء المدينة ، فانه لم يكن العامل الوحيد الهام ، بل كانت هناك عوامل أخرى كثيرة من أهمها : خصب الموقع وقابليته للاستثمار الزراعى (4) والنمو التجارى (5) برا وبحرا ومنها صيانة التماثل بين العناصر التى سيتألف منها المجتمع ـ على قدر الامكان ـ وكان هذا يعنى ـ قبل كل شىء ـ الاحتفاظ بالنواة الاباضية قوية غالبة فى العدد والتنظيم وكان ذلك أمرا سهلا فى البداية ، لان العناصر السكانية الاولى كانت فى الغالب كذلك ، بل ان تلك النواة زادت قوة بهجرة قبائل نفوسة ، ودعمها للدولة ،

واضطلاعها برعاية المؤسسات الحيوية فى المدينة مثل : اختيار القضاة ، وادارة بيوت الامـوال ، وانكار المنكر فى الاسـواق ، والاحتساب على الفساق (337) ، كما كان الشراة (6) رقباء على تصرفات الامام فى أحكامه وصدقاته واعشاره ، ومشايخ القوم مرجعه فى الشورى ، فاذا اجتذبت الجمهورية الناشئة اليها مهاجرين جددا ، فـان هؤلاء كانوا ممن يود ان ينعم ببركات الاستقرار والامن والعدالة والرخاء الاقتصادى ، وهم يدركون تمام الادراك أنهم ينظرون الى ظل دولة قد تختلف عنهم فى المذهب ، ولكنهم كانوا يعلمون أيضا ان الخلافات المذهبية لدى تلك الجمهورية الناشئة التى تتسع ساحة العدل فيها للجميع لا تحل بالتخرب والاستنفار والاحتكام الى السيف ، وانما يتم الخوض فيها عن طريق الحوار الهادى ، ويمثل الواصلية ـ وهم احدى فـرق المعتزلة ـ أول العناصر التى لم تكن تجـد فى السيطرة الاباضية تهديدا لوجودها فكان مجمعهم قريبا من تاهرت ، وكان عددهم نحو ثلاثين ألفا ، يسكنون فى بيـوت كبيوت الاعراب (7) ، وقد كان الحوار مستمرا بين الفريقين ، وحتى حين احتكـم الواصلية الى السيف فى أيام الامام عبد الوهاب لم يكف عـن خطته فى طلبهـم للمناظرة (8) ، وظلت المناظرة مثابة الفريقين بعد ذلك (352) ، وبعد هدوء الفتنة التى كادت تعصف بالدولة أيام أبى حاتم ثاب الناس الى ما ألفوه من هذا اللون من الحوار ، ويحدثنا ابن الصغير عن هذه المرحلة الاخيرة بقوله : « ومن بالبلد من فقهاء الاباضية وغيرهم لم يطالب بعضهم [بعضا] ولا سعى بعضهم ببعض ، وكانت مساجدهم عامـرة وجامعهم يجتمعون فيه ، وخطيبهم لا ينكرون عليه شيئا ، الا أن الفقهاء تناشجت المسائل فيما بينهم ... ومن أتى الى حلق الاباضية من غيرهم قربوه وناظروه ألطف مناظرة ، وكذلك من أتى من الاباضية الى حلق غيرهم كان سبيله كذلك » (363) ، وهذه الروح السمحة هى التى كفلت التضامن للمجتمع التاهرتى فى معظم أيـام الرستميين ، وساعدت على لأم الجراح التى كانت تسببها الانقسامات أحيانا .

الا أن هذا التماثل السكانى ـ رغم اعتماده على محور ثابت ـ لم يظل كما بـدأ لعـوامل ثـلاثـة :

أولهـا : كثرة العناصر المهاجرة وتعدد انتماءاتها .

وثانيها : الانقسامات الداخلية بين الاباضية أنفسهم ، وتكون فرق جديدة انشقت على الفرقة الام واخذت تناوئها ، مثل النكارية والخلفية .

وثالثها : نشوء طبقة كبيرة من الاثرياء تتحدى قدرة نفوسة على تطبيق الاحكام ، وتمثل ـ رغم انقسامها أحيانا وتضارب مصالحها ـ قوة ضغط اقتصادى وسياسى .

وفى وقت قصير نسبيا تعقد المبنى الاجتماعى فى تاهرت ، على أساس الانتماء المذهبى والقبلى والعرقى والاقتصادى ، وتعددت ضروب الولاء وأنواع التحالفات ، وكثرت الانقسامات والتوجهات بحسب ما تمليه المصالح المختلفة ، وكان مما حال دون انصهار هذه العناصر لا تشبثها بانتماءاتها القديمة وتباعد المسافات بين تلك الانتماءات وحسب ، بل استقلال كل منها فى حى خاص فى المدينة ، ولجوء كل منها ـ بدافع التخوف والحذر ـ الى بناء الحصون التى تأوى اليها اذا شبت نار الفتنة. فبينا تاهرت فى أيام السلم جمهورية نموذجية ، اذا بها فى أيام الفتن شبه مهجورة ، قد غادرها كثير من سكانها ولجأوا الى حصونهم ودب فيها التنافر والتناحر ، فتعطلت فيها المصالح التجارية والعلمية ، وقامت فيها تحالفات جديدة وحاول كل حلف منها ان يقضى على الحلف الآخر .

ويكاد نمو تاهرت ان يكون أسطوريا : ولو صدقنا ابن الصغير لقلنا ان هذا التطور تم فى أقل من ثلاث سنوات ، أيام الامام عبد الرحمن بن رستم؛ فمن قرية صغيرة ريفية الطابع فقيرة تقبل المساعدات المالية من وفد البصرة لتبنى بها قوة تدافع بها عن نفسها وتشترى الكراع والسلاح اللازم لها وتنعش الفقراء والمحتاجين ، اذا بها مدينة غنية عامرة قد غرست فيها الجنات وأجريت فيها الانهر ، واتخذت فيها الارجاء والمستغلات ، وابتنيت القصور ، وافتليت الخيول ، وكثرت العبيد والخدام ، وأصبحت قادرة على ان تقف فى وجه من تحدثه نفسه بغزوها ، حسبما شاهدها الوفد البصرى الذى زارها مرة ثانية بعد قرابة ثلاث سنوات من زيارته الاولى (324 ـ 325) . وكلام ابن الصغير صحيح فى جملته لولا عامل الزمن ، فان تاهرت بنيت قبل ان يصبح عبد الرحمن اماما بزمن غير قصير ، واستمر عبد الرحمن فيها بعد البيعة مدة تناهز عشر سنوات أو تزيد (160 ـ 168 أو 171) وهذا قد يعنى ان ما شهدته تاهرت من نمو لم يتم فى فترة قصيرة وانه لابد من تصحيح الزمن بين الفترتين اللتين زارها فيهما وفد البصرة .

الا ان هذا النمو نفسه هو الذى شجع تدفق المهاجرين اليها ، وكانت سيرة عبد الرحمن فى اسباغ العدالة واقرار الامن دون تمييز بين المواطنين الاصليين والغرباء عاملا هاما آخر فى توالى الهجرات « فأتتهم الوفود والرفاق من كل الامصار وأقاصي الاقطار فلم يكن احد ينزل بهم من الغرباء الا استوطن معهم وابتنى بين اظهرهم ، لما يرى من رخاء البلد وحسن سيرة امامه وعدله فى رعيته وأمانه على نفسه وماله » (324) وفى زمن الامام عبد الوهاب استمر هذا النمو ، الا ان الصبغة العسكرية غلبت على ما عداها لحاجته الى القضاء على الفتن وتوطيد اركان الدولة ، بل والطموح الى التوسع الخارجى ، حتى اجتمع له من الجيوش ما لم يجتمع لاحد قبله (328) ومع الزمن انضاف الى هذه الجيوش جند هاجروا من افريقية ، وكان الامام يدفع لهم مرتباتهم كغيرها من مرتبات القضاة ورجال الشرطة وغيرهم ــ من مال الجزية وخراج الارضين ، وتلك هى السنة التى سار عليها الامام الاول عبد الرحمن .

وقد بلغ ازدهار تاهرت ذروته فى أيام الامام الثالث أفلح بن عبد الوهاب ، وفى مدة حكمه الطويل الذى امتد ــ فى بعض الروايات ــ خمسين سنة ــ انتقلت تاهرت الى دور التضخم العمرانى من كل النواحى فهى مركز زراعى هام ، وملتقى تجارى ذو شأن ، وهى أيضا مركز علمى ، وذات وزن سياسى ، بل ان التغير قد لحق الامام نفسه فلم يجد حرجا فى ابتناء القصور بعد ان ظل جده يسكن دارا متواضعة يطينها بنفسه اذا احتاجت لذلك ويكتفى من مطعمه بقرصته تلت بالسمن والملح وليس لديه من الاثاث الا حصير فوقه جلد ووسادة ينام عليها (323) ؛ ولقد ازدادت الاموال فى ايدى الناس ، وتنافسوا فى العمران وبلغت المدينة اقصى درجات الاتساع والامتداد ، فالى جانب الاحياء الاصلية التى استوطنتها القبائل ، وشاركها فيها بعض المهاجرين الاوائل ، يمكن ان يميز الناظر اليها فى زمن الامام افلح ثلاث وحدات جديدة : حى الاجناد المهاجرين بكثرة من افريقية وقد أصبح هذا الحى من بعد ــ فى القرن الثالث ــ هو سرة المدينة نفسها ، والعدوة عبر نهرمينة التى بنتها نفوسة ، ومنطقة القصور والضياع واكثرها فى الضواحى ، حيث الجنات والبساتين .

كذلك يستطيع المرء ان يميز ثلاث درجات من الاستيطان والمستوطنين حتى عهد الامـــام أفلـــح :

1 ـ فهناك الاستيطان الحضرى ويشمل المدينة وسكانها ـ على مختلف انتماءاتهم وقصور الاثرياء منهم فى الضواحى ٠

2 ـ وهناك الاستيطان القبلى المستقر ، وتمثله القبائل التى تحيط بالمدينة من جهاتها المختلفة ، ومنها لواتة وزناتة ومطماطة وهوارة ، وقد ذكر البكرى القبائـل التى كانت تقطن حول المدينة فعد فى جنوبها لواتة وهوارة وفى غربها زواغة وفى شمالها مطماطة وزناتة (9) ولعل هذا الوصف ينطبق على ما كانت عليه الحـال ، فى عهد الامام الثالث ٠

3 ـ والاستيطان القبلى المتنقل وتمثله بعض القبائل التى كانت تقصد الى تاهرت وضواحيها وأحوازها انتجاعا للكلأ فى أيام الربيع ، مثل مزاتة وسدراتة ، وكانوا يأنسون بوجود اخوانهم من القبائل نفسها ممن يقطنون المدينة ، ويجدون لديهم البر والاكرام كلما حلوا (328) ، ولا ريب فى أنهم كانوا يبعثون شيئا مـــن الحيوية فى الاسواق التجارية ، حتى اذا انتهى موسم الرعى عادوا الى أوطانهم ٠

وكان الذين يمثلون الاستيطان الحضرى « أخلاطا من الناس » (10) ولعل تسمية تاهرت « عراق المغرب » (11) انما تشير الى كثرة العناصر العراقية التى هاجـرت اليها ، فقد كان فيها كثير من البصريين والكوفيين ، ولكل ناس منهم مسجد معروف بهم ، كما هاجر اليها عدد من القرويين كان لهم أيضا مسجد ورحبة (324) وعدد من الاندلسيين لعل اكثرهم كانوا من البحريين الذين اتخذوا لهم مراكز متعددة عـلى ساحل المغرب ، وشاركوا فى بناء وهران ، ووجدوا فى النشاط التجارى فى تاهرت ومرفئها ما يحقق أهدافهم (12) وكان بعض المنتسبين الى الاندلس اباضيين ، وقـد كان منهم اثنان فى رجال الشورى السبعة الذين سماهم الامام عبد الرحمن ليختاروا اماما من بينهم ، وهما : الفقيه مسعود الاندلسى ، وعمران بن مروان الاندلسى (13) ، ولولا زهد مسعود فى الامامة لوقع الاختيار عليه دون عبد الوهاب ، وفيما عدا ذلك

لا يميز الاندلسيون بدور واضح في حياة المدينة أو في الانقسامات التي شهدتها من بعد .

وكانت البنية الاجتماعية في المدينة تتركب – بشكل رئيسي – من القبائل والعرب والعجم ، اما القبائل فهي التي كانت تمثل العصب الاساسي للمدينة عند تأسيسها ، وتقف بينها لماية ونفوسة موقفا متميزا ، الاولى لحلف قديم بينها وبين عبد الرحمن ابن رستم ، والثانية لمكانتها في تسيير المصالح المختلفة في الدولة ، ومن بين هذه القبائل مزاتة وسدراتة ولواتة ، وكلها تسند الدولة وتجد في استمرارها سندا لها أيضا ، وفي مزاتة يقول الامام عبد الوهاب : « ما قام هذا الدين الا بسيوف نفوسة وأموال زناتة » (14) وهي قولة قد تعني ان مزاتة كانت ذات ثراء عريض ، ولكن الاهم من ذلك استعدادها للتضحية والسخاء بالمال قل ذلك المال أو كثر ، كذلك ظلت لواتة دائما في صف الامام الرستمي عند تقلب الاحوال ، وقد زادت رابطتها بالرستميين منذ ان اصهر اليها الامام عبد الوهاب ، وقد بقيت لواتة في المدينة حتى أخرجتها منها هوارة في فترة الفتن أيام أبي بكر ، ولا حاجة بنا الى القول ان هذه القبائل كانت اباضية المذهب ، وأما العرب فلا نعرف على وجه التحديد من أين وفدوا، ولا من أين هاجرت أغلبيتهم انتماء ، ويبدو أنهم كانوا من أقطار مختلفة وقد احتفظ أكثرهم بمذاهبهم الاصلية ، وكان معظمهم من الحنفية والمالكية ، واختار بعضهم مذهب الاباضية ومن هؤلاء محمود بن بكر الذي كان يؤلف الكتب في الرد على مخالفي الاباضية ويرد على الفرق في مقالاتهم (352) وأما العجم فانهم قد يكونون – رغم غموض دلالة اللفظ – من الفرس ، وليس واضحا كيف جاءوا الى تاهرت ومن أين جاءوا ، ولعل انتساب الرستميين الى الفرس كان مشجعا لهم على الهجرة ، وقد كان لهم دور بارز في أيام الفتن والانقسامات .

وفي نص ابن الصغير ترد لفظة « المسيحيين » (345 – 359) وأنهم كانوا في خاصة الامام أبي بكر ، وأنهم كانوا من وجوه أهل البلد ، واشتهر منهم فارس اسمه بكر بن عبد الواحد ، ان موقع اللفظة غريب لأننا لم نألف استعمالها ، وانما تورد المصادر بدلها لفظ « النصارى » على التحديد،أو لفظ « الروم » أو « الفرنجة » ، وقد

قرأها سليمان الباروني « السمحيين » (15) ، ومرة أخرى لا نعرف فى فرق الاباضية فرقة تحمل هذا الاسم وغاية ما يمكن ترجيحه ـ ان صحت التسمية ـ أن جماعة ممن رفضوا انشقاق خلف بن السمح بن أبى الخطاب ، ظلوا يتشبثون بانتمائهم الى السمح نفسه ، وهاجروا الى تاهرت وسندوا الدولة الشرعية ، وكانوا فى خاصة الامام ومن وجوه أهل البلد ، واذا افترضنا ان اللفظة عند ابن الصغير قد تصحفت فهذا لا يعنى وجود فريق من النصارى فى مجتمع تاهرت أو استبعاد وجود عدد من اليهود أيضا ـ لما كان لتاهرت من أهمية تجارية افريقية متوسطة وقد مر بنا أن الامام كان يأخذ مرتبات الموظفين من أموال الجزية والخراج ، ولفظة « الجزية » تستدعى حتما وجود بعض الذميين ، والا كان ذكرها غير ذى معنى ، ولعل من اللافت للنظر ان أعلى موضع فى المدينة كان يسمى الكنيسة ، (كانت دارا لاثنين من أوسع الناس نفوذا فى عصرهما وهما أحمد ومحمد ابنا دبوس (345 ـ 362) .

ومع ازدياد الثروات نمت عند القارين من السكان ، اعنى فى المدينة نفسها وبين القبائل المحيطة بها ، طبقة كبيرة جدا من العبيد والخدم ، وكانت الحركة التجارية مع بلاد السودان ـ عن طريق ورجلان ـ تزيد فى عدد هذه الفئة على الدوام ويمكن للمرء ان يتصور ان هؤلاء العبيد لم يتخذوا للخدمة فى منازل الاثرياء وقصورهم وحسب بل كان يتألف منهم ـ على الاغلب ـ أكثر العاملين فى المزارع والبساتين والارحـاء .

ويتحدث المؤرخ ابن الصغير عن طبقات المجتمع التاهرتى ـ من خلال الاحداث التاريخية ـ على نحو قد يوحى بشيء من الاضطراب ، فهو يذكر « **العوام** » ويذكر الى جانبهم « **أهل الحرف** » (16) كانهم فئتان متمايزتان ، ويضع فى مقابل الفريقين « **القبائل** » (356 ـ 357) ، ثم يتحدث عمن يسميهم وجوه **أهل البلد** ، وعددهم لا يزيد على مائة ، ويصفهم بأنهم حماة البلد وانهم خرجوا منها مع الامام الرستمى ، وبقى فى المدينة « **العامة** »و« **مشايخ البلد** » (359) وبذلك يرسم خطا فارقا بين وجوه أهل البلد ومشايخ البلد ، وفى موضع ثالث يذكر « **وجوه أهل المدينة** » وفى مقابلهم « **القبائل** » « **والاباضية** » ويبدو ان سبب هذا الاضطراب ليس استعصاء بعض هذه

المصطلحات على التحديد وحسب ، بل لان المؤرخ نفسه يتحدث وفى نفسه تفرقـة راسخة بين الاباضية وغيرهم ، فهو حين يذكر العوام وأهل الحرف انما يتحدث عن حركة مناهضة للاباضية استبعد فيها أخذ رأى القبائل ، ولعل هذه القسمة ان تشير أيضا الى تمييز بين الاجناس فالقبائل بطبيعة الحال من البربر ، والعوام وأهل الحرف يمثلون ـ فيما يبدو ـ عناصر غير بربرية ، وحين تحدث عن وجود أهل البلد المائة ، فانما كان يعنى جماعة بعينها من ذوى النفوذ ـ ايا كان منتمى افرادها ـ التفت حول أبى حاتم وخرجت معه **بعد خروج العجم ونفوسة** واذن فان من تبقى من العامة ومشايخ البلد انما يشير الى الجماعات غير الاباضية أيضا ، وحين يضع وجوه أهل المدينة فى مقابل « القبائل » و « الاباضية » فانه يستعمل هذا المقياس فى التفرقة كذلك ، غير ان هذه التفرقة لا تدل على ميل المؤرخ بمقدار ما تدل على حقيقة الصراع الدائر أيام الفتن ، فهو صراع بدأ بين الاجناس (العرب ضد العجم) ثم تحول الى صراع مذهبى يريد ان يقرر لمن يكون الفوز بالسيطرة فى المجتمع التاهرتى ـ كما سيجىء تفصيله ـ وهو يدل أيضا على طغيان العناصر المهاجرة ، بحيث لم تعد ترضى بأن تحتفظ النواة الاباضية بقوتها فى توجيه الدولة ، وذلك هو ما أشرت اليه فى أوائل هذا البحث .

واذا نحن تجاوزنا ما أملته أوضاع الانقسام فى تمايز الفئات المتناحرة ، وجدنا ان مشايخ البلد ـ باقرار المؤرخ نفسه ـ لم تكن تستقل بهم فئة دون أخرى ، فكان هناك مشايخ من الاباضية ومشايخ من غيرهم ، وان (وجوه البلد) كانوا موجودين فى كل فئة ، ففى العجم مقدموهم ، وفى القبائل على المستوى القبلى ، والمذهبى ـ وفى العرب ، وفى الجند ، وجوه ، وفى طليعة (وجوه البلد) الرستميون انفسهم وهؤلاء جميعا يمثلون ـ فى أيام السلم ـ اصحاب النفوذ ، ومنهم كما يقول المؤرخ حماة البلد والموجهون لسياسته ومصالحه ، سواء أتدخلوا فى ذلك فى الخفاء أو العلن ، وتقابله طبقة العامة ـ وهى تمثل الاغلبية من حيث العدد ، وربما كان معظمها من أصحاب الدخل المتوسط أو من ذوى الملكيات الصغيرة ، وكثير من افرادها لم يكتسب علما أو فقها يلحقهم بوجوه البلد أو بالخاصة . وقد يصح ان نسأل هنا : ما هى نسبة الفقر فى هذه الطبقة ؟ اننا نعرف انه كان فى تاهرت فى الفترة الاولى مـن

تأسيسها فئة من الفقراء والمحتاجين ، ولكن السياسة الاسلامية الراشدة التى جرى عليها الامام عبد الرحمن كانت كفيلة بان تنعش هذه الفئة ، فبعد تقبل المساعدات من وفد البصرة ــ أول مرة ــ وتوزيع ثلثها على المستحقين من فقراء وضعفاء ، أصبح البلد مكتفيا ذاتيا ، اذ نظم جمع الصدقات ، وكان ما يتحصل منها كل عام من الشياه والجمال يباع ، ثم يحصى الامام من فى البلد وحوله ويعرف عدد الفقراء والمساكين « فاذا علم عددهم امر باحصاء ما فى الاهراء من الطعام ، ثم أمر بجميع ما بقى من مال الصدقة (بعد ان يدفع الى عمال الصدقات مرتباتهم) فاشترى منه اكسية صوفا وجبابا صوفا وفراء وزيتا ثم دفع فى كل أهل بيت بقدر ذلك » (327) . وليس من شك فى أن هذه السياسة لم تتوقف ، وان لم ينوه بها على نحو واضح ، لتمسك أكثر الائمة بتطبيق الشريعة تطبيقا دقيقا ، وسيرهم الفاضلة فى خاص حياتهم ، ولوجود الشراة الذين لم ينفكوا قائمين بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فى كل مرحلة . بل الطبيعي ان الصدقات زادت وقل المحتاجون ، عندما تعددت فرص العمل، وكثرت الموارد . فالفقر ــ بالمعنى العام ــ لم يكن داء يهدد المجتمع التاهرتى ، أو يتعذر فيه علاجه . ولكن لابد لنا من ان نتذكر فى هذا الصدد ان نمو الطبقة الثرية واتساع دائرتها قد زاد فى عدد من يتصل بها من الحواشى والاتبـــاع ، وهؤلاء يصبحون مع الزمن عالة على غيرهم ، وأن تعطل تطبيق النظام أيام الفتن كان أيضا يعطل تحصيل الصدقات وصرفها فى الوجوه المقررة وان تملك الفتن كانت تقضى بالحرق والنهب والخراب لا على املاك الاغنياء فحسب ، بل على مقتنيات الطبقـــة الوسطى وما دونها أيضا . وحين كتب ابن حوقل عن تاهرت بعد منتصف القرن الرابع (وكانت دولة الرستميين قد زالت منذ زمن) قال : « وقد تغيرت تاهرت عما كانت عليه ، وأهلها وجميع من قاربها من البربر فى وقتنا هذا فقراء بتواتر الفتن عليهم ودوام القحط وكثـرة القتل والموت » (17) وقول ابن حوقل ينطبق على الفتن التى شاهدتها تاهرت أيام الرستميين انفسهم ، مثل ما ينطبق على الفتن التى اصابت المدينة بعد عهدهم .

اما الخاصة أو « وجوه البلد » فربما كانت فى البداية تعتمد فى تميزها على النسب، أو على العلم ــ كما كانت حال الفقهاء ، من جميع الفئات ولكن نمو الملكيات وموارد

الثروة خلق طبقة تعتمد فى تميزها على الغناء ، وكثيرا ما كانت العوامل الثلاثة تجتمع معا ، فى تمييز الفرد ، مثلما ان المال وحده كان كافيا ليفعل ذلك وقد وجد اثرياء عن طريق الزراعة مثل ابى جرنى الذى كانت زكاة غلاته آلاف الاحمال من البر والشعير وقيل ان اندر زرعه كان يرى من مسافة أيام كالجبل (18) كما وجد اثرياء عن طريق القنية للمواشى والدواب مثل ابن زلغين الذى يقال انه كان يملك ثلاثين ألفا من الابل وثلاثمائة ألف رأس من الغنم واثنى عشرة ألفا من الحمير (19) غير ان التجارة كانت بوجه خاص هى الباب الواسع الذى دخل منه كثيرون الى طبقة الخاصة ، اذ كانت مجالا مفتوحا يزاوله اناس من جميع الفئات فقد كان عبد الوهاب نفسه تاجرا ، هيأت له تجارته ثراء ضخما ، وقد تحدث عن نفسه وعن أبى جرنى وابن زلغين بقوله : « لو لم اكن الا أنا وابن جرنى وبن زلغين لاغنينا بيت مال المسلمين بما علينا من الحقوق الشرعية (20) وكذلك حاول افلح مزاولة التجارة فى عهد لم يكن فيه قد حصل على كفايته من العلم · (21)

وكان الثراء فى فئة العجم أوضح منه عند غيره ، ولذلك تميزوا ببناء القصور فابتنى ابان وحمويه قصرين لهما باملاق ، وبنا شخص اسمه عبد الواحد قصرا ظل يعرف باسمه من بعد (336) وبلغ من ثراء مقدم العجم المعروف بابن وردة أن كان له سوق كامل، وبلغ من نفوذه أن كان صاحب شرطة الامام افلح لا يجسران يدخل سوقه (336) ومع ان الثرى خلف الخادم كان من الموالى ، فانه استخدم ثراءه فى سند الفئات العربية فى الفتن · وكذلك يمكن ان يعد التاجران الثريان أبو محمد الصيرفى وابن الواسطى من العرب لانهما وقفا معهم فى الصراع بينهم وبين العجم (347) وكان لمحمد بن حماد منزل على بعض اميال من المدينة يقال له الثلث (أو الثلة) قد جمع الاشجار والانهر والمزارع والنخل والقصور (338) وكان محمد بن عرفة الذى قام بدور الحاكم الفعلى أيام ابى بكر بن افلح من كبار التجار ومن ذوى القصور ولديه الكثير من الحشم والعبيد وكان اذا خرج من قصره تجمهر الناس من حوله ، وساروا بين يديه فى مواكب كثيرة (358) وليست هذه الاسماء الا امثلة ضئيلة لطبقة كبيرة أوصلها الثراء الى ان اصبحت ذات اثر بالغ فى توجيه الحياة السياسية فى المدينة ·

ولا ريب فى أنه كان هناك كثير من وجوه الخير استغل فيها مثل هذا الثـراء ، لا فى سند الدعوة وحسب ، بل فى مجالات عمرانية أخرى مثل الانفاق على طلبـة العلم ووقف الحبوس على المساجد وانشاء المستشفيات وبيوت الضيافة للغرباء ، اقول هذا على سبيل التقدير ، لان مصادرنا القليلة قد سكتت عن هذه النواحى · لكن تلك المصادر نفسها كانت صريحة فى التحدث عن استغلال تلك الثروات الطائلة فى الصراع بين فـئات المجتمع التاهرتى ·

وليس غريبا ان يبدأ تاريخ الصراع فى أيام الامام افلح ، فان بدايته تتفق وتلك الموجة الطاغية من الثراء ، واشتعل أول الامر بين القبائل المحيطة بالمدينة · ولا يتردد ابن الصغير فى ان ينسب المبدء باثارته الى الامام افلح نفسه مصورا انه كان سياسة ارتاءها ذلك الامام فقد كان يخاف ان تجتمع الايدى عليه فتزيل ملكه ولهذا ارث العداء بين كل قبيلتين متجاورتين ، فتحركت الخصومة بين لواتة وزناتة وبين لواتة ومطماطة ، ثم امتد الصراع ـ بسعى افلح نفسه ـ فشب بين الجند والعجم وربما كان هذا التصوير قائما على المبالغة أو على تجاهل الاسباب الاخرى التى كانت كفيلة بأن تذكى نـــار العداء بين فريق وفريق ، وابن الصغير نفسه يذكر ان القبائل حول تاهرت كانت قد اكتسبت الاموال واتخذت العبيد والخيول ، ونالها من الكبر ما نال أهل المدينة ، وبعبارة أخرى : استشعرت عظمة الغنى ونعمة الاستقرار معا ، وفى مثل هذا الموقف لم تكن بحاجة الى جهود افلح ليبذر الشقاق فيما بينها ، فان المنافسة وحب الظهـور والحزازات الصغيرة ـ مع عدم الانشغال بمكافحة عدو أو ترقب خطر ـ من شأنها ان تفعل ذلك ، ولو صدقنا ان افلح قد انتهج هذه السياسة ـ لانه لم يكن يعتمد عـــلى عصبية ـ فانها سياسة قد تنجح وتؤمن مغبتها ما دام الحاكم قويا ، ولكنها ستكون سببا فى استمرار الفتن ، وعجز الحكام اللاحقين الذين لم يكونوا يتمتعون بمثل قوة افلح ـ عن كبـح جماحها ؟ وهى سياسة من شأنها ان تجعـل الفتـن المتلاحقة ـ فى المجتمعات التى تؤمن بالثأر ـ قانون الحياة لان كل فتنة تصبح ردا على فتنة سابقة ، كلما سنحت الفرصة ·

وتلك هى حقيقة ما اصاب المجتمع التاهرتى بعد افلح فان الانقسامات المختلفة هى التى أصبحت تتحكم فى حياة البلد ومستقبله ، فهناك النزاع بين القبائل ، والضغائن بين القبائل وأهل الحواضر ، ثم هناك الانقسامات والتحالفات بين العناصر التى يتكون منها مجتمع المدينة ·

وكانت الشرارة الاولى فى ذلك الصراع ثأرا لفرد ـ بدافع العصبية ـ فقد قتل محمد بن عرفة ، صهر الامام أبى بكر ، بتدبير من الامام نفسه وبتحريض من بعض الرستميين ويبدو أن ابن عرفة كان عربيا ، ولذلك قام العرب يطالبون بثأره ، فاصطدموا بالجند المؤيدين لابى بكر ، غير ان هذه البداية ما لبثت ان تطورت الى القتال على أساس عرقى ، فان العجم عندما رأوا فريقى العرب والجند يقتتلان ، ظنوا الفرصة سانحة لاخذ بعض الاحياء العربية على غرة وقالوا : « قد أمكننا فى العرب والجند ومواليهم وأتباعهم ما نريد ، فقوموا بنا مع اشتغالهم بأنفسهم حتى نثب على طرف المدينة فنقتل مقاتلتهم ونخرب ديارهم ونميل على سائرهم فنهلكهم فيعنو لنا السلطان » (345) ، وحين نذر العرب والجند بما يحاوله العجم تهادنوا واصطلحوا ، وقاموا بأجمعهم نحو العجم فقتلوا منهم خلقا كثيرا · وهنا يبرز دور الثرى خلف الخادم الذى كان يعين العرب بماله ، فانه لم يرض عن اجلاء العجم وترك بيوتهم خالية ، بل حرض على حرق تلك البيوت ، وذات يوم دارت المعركة فى درب النفوسيين ، واضرم فيها العرب والجند النار ، وكان بعض الدور لنفوسة ، التى كانت قد اعتزلت الحرب ، فغضبت نفوسة لحرق دورها ، واتحدت مع العجم وضمت اليها أبا اليقظان ومعه الرستميون ، ودارت رحى حرب زبون استغرقت عدة سنوات ، وقد مرت تلك الحرب فى مرحلتين : فى الاولى كان الانتصار لنفوسة والعجم حتى كادوا يبيدون وجوه العرب وابطالهم ، وفى الثانية ضعف العجم ونفوسة والرستميون ، فانحازوا الى عدوة نفوسة ، وبنوا لهم حصنا يلجأون اليه ، ومرة أخرى يبرز دور الثراء والاثرياء فان أغنياء التجار من امثال الصيرفى وابن الواسطى أعانوا العرب ليبنوا لانفسهم حصنا مقابل حصن أعدائهم · وكانت نتيجة هذه الحرب المريرة جلاء المغلوبين عن المدينة : نزل العجم على بعد مرحلتين من تاهرت ، ونزلت الرستمية بموضع يقال له

اسكدال الى جنوب تاهرت ، على مسيرة يوم أو يزيد قليلا ، ونزلت نفوسة بقلعة عرفت باسمها (346 ـ 348) ؛ ومع كل ذلك لم تنطفىء نار الفتنة ، اذ كانت لواتة القبيلة الاباضية لا تزال فى المدينة ، فلما هاجمتها هوارة أعانها من تبقى فى المدينة من السكان ، فاضطرت لواتة الى الارتحال والنزول بحصن يعرف باسمها ، وكاتبت لواتة ابا اليقظان ، فغادر اسكدال وجاء حتى نزل بموضع يقال تسلونت عند منابع نهر مينة ٠

من الواضح اذن ان الحركة بدأت عرقية ، ثم اتخذت شكل الصراع المذهبى ، فان كل من اجتمع حول أبى اليقظان كانوا من الاباضية ، وأكثر من بقى فى المدينة لم يكونوا كذلك وزحفت الاباضية مع أبى اليقظان لاسترداد المدينة وظلت الحرب بين الفريقين مستعرة مدة سبع سنوات ، وهى مدة كافية للقضاء على كل ما كانت بلغته تاهرت من ازدهار علمى وحضارى ٠ وقد تمكن أبو اليقظان من دخول المدينة ، دون مؤاخذة لاحد بما سلف ، وحاول جهده انهاضها من كبوتها واعادة النظام والامن الى ربوعها ، وقد كان أبو اليقظان بحق نموذجا للزهد والورع والتواضع والعدل ومحبة الخير والرغبة فى نشر العلم حتى افتتنت به نفوسة الجبل : « وكان اذا ضرب سرادقه وأتت وفودهم لا ينامون الليل حول فسطاطة شأنهم التهليل والتكبير من أول الليل حتى الفجر ، فاذا صلوا الفجر معه خرجوا بأنفسهم الى الارض فناموا » (354) ، ويبدو أن استعلاء شأن الاباضية اثناء الفترة الطويلة التى قضاها أبو اليقظان فى الحكم ، قد أحنقت بعض أهل المذاهب الاخرى ، وملأت الصدور والنفوس بالتحفز ، ولهذا عمدت تلك الفئات عند وفاة أبى اليقظان الى بيعة امام جديد دون استشارة القبائل والاباضية ، ومن الحق ان الامام الذى بويع كان رستميا بل كان ابن أبى اليقظان نفسه ولكنه كان قبل الامارة قد أصبح ذا شعبية بين فتيان العوام (من غير الاباضية) بل أصبح منقادا لتوجيهات فقيهين حنفيين هما أبو مسعود الكوفى وأبو دنون ، ومعهما شخص ثالث من رؤساء السنة يعرف بعلوان بن علوان (أو رعلان) وكان هؤلاء ـ كما يقول ابن الصغير المالكى أو حسبنا بذلك شهادة ـ « قد طمعوا ان يبيدوا خبر الاباضية ويطفئوهم » (358) ٠

كان ذلك الامام الجديد هو أبو حاتم يوسف بن محمد أبى اليقظان ، ومرة أخرى تتحدد الفتنة على أساس مذهبى ، وتفرغ المدينة من أكثر اباضييها ، اذ جاء كل فريق الى حصنه:الرستميون ذهبوا الى حصنهم بطرف لواتة ، وبقية العجم لجأوا الى حصن خاص بهم ، وكذلك فعلت نفوسة ، وغادر أبو حاتم المدينة ومعه من وجوهها نحو مائة رجل ، وبقيت العامة ومشايخ البلد (طبعا من غير الاباضية) يتوقعون الحرب ، وأخذ من بقى فى المدينة يقولون : « ان القبائل رمتنا عن قوس واحدة ، والاباضية قد كلبت علينا وهم لا يكفون عن حربنا » (360) .

ان حلقات هذا الصراع كانت نتيجة حتمية لطغيان المصالح المتضاربة ، وتجاوزها قدرة الحاكم السياسى الذى يضطر – لعدم وجود عصبية تؤيده أو جيش يسنده – الى الاتكاء على فريق دون فريق آخر . ويبدو ان الجيش النظامى الذى كونه الامام عبد الوهاب كان قد ضعف أو مزقته الانتماءات المتضاربة ، اذ لم نعد نسمع شيئا عن « الجند » بعد جولتهم فى صف العرب ضد العجم أيام أبى بكر .

اننا لا نريد ان نلقى هنا هذا السؤال الذى يوحى بالجواب : ترى كم كانت هذه الصراعات التى تتخذ المذهبية لبوسا لها تخفى مطامح الطبقة الغنية ؟ وقصارى ما يمكن ان نقوله هو ان الاغنياء قد لعبوا دورا بارزا فى كل مرحلة من مراحل ذلك الصراع ، وهكذا حكموا على المجتمع التاهرتى بالشنئات وعلى العمران بالخراب . واهدروا الاموال فى الباطل ، وقضوا على النشاط العلمى بالتراجع ، وفى رسالة لابى اليقظان ما يومىء الى هذه الحقيقة الاخيرة اذ يقول : « واعلمو رحمكم الله ان أهل العلم القائمين بهذه الدعوة قد انقرضوا وقلت الخلوف منهم » (22) . وقد كانت الفتن مجالا للفساد وانتشار الرذائل وظهور السراق وقطاع الطريق ، حقا ان جراح المجتمع التاهرتى كانت تلتئم كلما فاء الناس الى أنفسهم واستأنفوا الحياة الآمنة وعاد التسامح الاباضى ليقول « عفا الله عما سلف » ولكن طول فترة الخلافات تركت المجتمع التاهرتى مسلوب القوة منخوب العزيمة ، وهذا هو ما أدى الى التخاذل الاخير ، وسقوط المدينة – دون مقاومة – فى يد العبيديين .

تعليقـــــات

1 ـ تاريخ ابن خلدون 6 : 112 ·

2 ـ كل ما يرد بين قوسين في النص من اشارة الى الصفحات ، فانه يشير الى تاريخ ابن الصغير المنشور في Ca سبتمبر 1975 ·

3 ـ يورد ابن الصغير لرجل من الاباضية قوله عند بيعته أبي بكر ابن أفلح : « الله سائلكم معاشر نفوسة ، اذا مات واحد جعلتم مكانه آخر وسم تجعلوا الامـــر للمسلمين وتردوه اليهم فيختارون من هو أتقى وأرضى » (340) ولكن ابن الاوز نسب ان الحمـــق والجنون فلم يكن احد يستمع الى كلامه ·

4 ـ تطنب المصادر الجغرافية في وصف ما كان عليه حال منطقة تاهرت من خصب ، فيقول اليعقوبي (البلدان : 20) نقلا عن احد الرستمية وهـو أبو سعيد عبد الرحمن ابن محمد بن ميمون بن عبد الوهاب انه يزرع فيها العصفر والكتان والسمسم وغير ذلك من الحبوب ؛ ويصف ابن حوقل ما فيها من أشجار وبساتين وضروب الغلات (صـــورة الارض : 86) ويكرر الادريسي ما يقوله ابن حوقل (وصف افريقية 60) ويتحدث البكري عن ثمارها وبخاصة سفرجلها (66) وكذلك صاحب الاستبصار (178) ·

5 ـ في هذا الصدد ، يمكن أن نذكر صلة تاهرت التجاربة عن طريق مرسى فـروخ وغيره بتجارة البحر المتوسط . ثم يصلاتها بالمشرق والمغرب . وعلى نحو خاص ببلادالسودان.

6 ـ الشراة في اصطلاحهم ـ تقريبا ـ لفظ يطلق ويراد به جماعة تتركب مـــن أربعين رجلا فما فوق ذلك ، اشتروا آخرتهم بدنياهم ، بمعنى انهم تخلوا عن الـدنيا ، وعاهدوا الله على انكار المنكر والامر بالمعروف بدون مبالاةولا خوف من الموت (الازهار الرياضية 2 : 210) ·

7 ـ البكـــــرى 67 ·

8 ـ الازهار الرياضية 2 : 122 ـ 124 ·

9 ـ البكـــــرى 67.

10 ـ كتاب البلدان : 14 (ط. ليدن 1860) ·

11 ـ المصدر السابق نفسه ، وهذا مختلف ـ في رأيي ـ عن قول المقدسي انها « بلخ المغرب » فالمقدسي انما ينظر الى طبيعة الجو ، وكثرة الخيرات ٠

12 ـ أنظر بحثا كتبته عن هؤلاء البحريين في مجلة الابحاث (بيروت 1970) ٠

13 ـ الازهار الرياضية 2 : 99 وتاريخ أبي زكرياء 54 ـ 55 ٠

14 ـ الازهار الرياضية 2 : 273 ٠

15 ـ الازهار الرياضية 2 : 231 ـ 269 ٠

16 ـ يقرن مرة بين « العوام » و « الفرسان » (ص : 357) ولكن النقطة الثانية غريبة ولعلها مصفحة ٠

17 ـ صورة الارض : 93 ٠

18 ـ الازهار الرياضية : 137 ٠

19 ـ مختصر تاريخ الاباضية : 34 ٠

20 ـ الازهار الرياضية 2 : 137 ٠

21 ـ ذكر الباروني نقلا عن سير الشماخي ان أفلح عزم مرة على التوجه الى بلاد السودان قصد التجارة ٠ ولكن والده خرج اليه ـ كأنما يودعه ـ واخذ يسأله عن الامور الفقهية المتصلة بالبيع والشراء فلما وجده غير متمكن في هذه الناحية قال له : ارجع يا أفلح عما قصدته حتى تستعد لهذا الامر والا اطعمتنا الحرام من حيث لا تدرى (الازهار 2 : 195) والقصة تشير إلى فترة مبكرة لم يكن أفلح قد تمكن فيها من العلم ، ولكنها لا تنفي انه ربما زاول التجارة من بعد ٠

22 ـ الازهار الرياضية 2 : 241 ٠

ابن الصغير
مؤرخ الدولة الرستمية

الدكتورة وداد القاضي
أستاذة بالجامعة الامريكية
ـ بيروت ـ لبنان
وأستاذة زائرة بجامعة هارفارد
(الولايات المتحدة الامريكية)



يحتل ابن الصغير مكانة هامة متفردة بين المؤرخين فيما كتبه عن الدولة الرستمية بتاهرت (162 ـ 296) وذلك لعدة أسباب ، أهمها أنه كان من سكان تاهرت أيام جانب من حكم الرستمية لها ، فكان شديد الاطلاع على ما كان يحدث بها ، شديد الصلة بمن يعرف الدقيق من أخبارها ، كما كان في الوقت نفسه من غير المنتمين الى المذهب الاباضي السائد فيها ، فكان قادرا على أن ينظر اليها بعين المعايش لها والمراقب الخارجي لاحوالها في آن معا . فاذا أضفنا الى هذا أن كتابه في أخبار الائمة الرستمية هو أقدم كتاب وصلنا عن دولة بني رستم عرفنا لماذا نفرد صاحبه بالتمييز .. ومن ثم بالدراسة.

وقد تنبه الباحثون من قبل الى أهمية كتاب ابن الصغير ، فقام المستشرق موتيلينسكي بالتنويه به وبتلخيصه باللغة الفرنسية في أواخر القرن الماضي (1) ، ثم عاد فنشره كاملا مع ترجمته الفرنسية في أوائل هذا القرن (2) ، وظلت هذه النشرة على علاتها هي النشرة المعتمدة لدى الباحثين ، وقد جرت طباعتها مؤخرا في المجلة التونسية Cahiers de Tunisie سنة 1975 (3) · كذلك قام كل من موتيلينسكي وليفيتشكي بعمل بعض الملاحظات من هذا الكتاب ، وقارناه بغيره من مصادر الاباضية (4) ، وخرجا من ذلك بنتائج جد مفيدة ، وكان ليفيتشكي هو صاحب المقالة التي ظهرت عنه في الطبعة الجديدة من الموسوعة الاسلامية (5) ·

ورغم ذلك كله ، فان موضوع ابن الصغير مؤرخ الدولة الرستمية ما زال مفتوحا لمزيد من الدراسة والتعمق ، وليس هذا المقال الا محاولة متواضعة في هذا السبيل على قدر ما تسعف به المصادر المتيسرة ·

لا تتجاوز معظم معلوماتنا عن ابن الصغير ما قد يستشفه الدارس من بين سطور كتابه التاريخي · أما اسمه فلا نعرف منه سوى شهرته « ابن الصغير » ، وأما أصله فالارجح انه مغربي (6) من مواليد تاهرت (7) وأما سنة ولادته فمن غير الممكن تحديدها بدقة ، وكل مانعرفه عن نفسه في هذا المجال أنه لحق بعض أيام أبي اليقظان ابن أفلح وامارته وحضر مجلسه في المسجد الجامع بتاهرت (8) ، وأنه كان صغيرا ينادى بـ « يا بني » خلال تلك الفترة (9) ، فهذا يعني ان ولادته يجب أن تكون تمت بين سنتي 265 و 270، نظرا لان أبا اليقظان توفي سنة 281 (10) ·

وكان ابن الصغير سني المذهب ، يدل على ذلك أن أحد الاباضية خاطبه مرة بقوله : « من أين زعمت وزعم أصحابك وغيرهم من الحجازيين والعراقيين ؟·· » (11) ـ يعني بذلك المالكية والحنفية وقد أكد الشيخ سليمان الباروني غير مرة على أن ابن الصغير كان مالكيا (12) ، غير اني لم أعثر على ترجمة له فيما وصلنا من طبقات المالكية · ومهما يكن الامر فان ابن الصغير كان صريحا في تبيان اختلافه عن الاباضية عقيدة عندما قال في أوائل تاريخه ان يأخذه على القوم براءتهم ممن والاه رسول الله صلى الله عليه وسلم

وقال : من كنت مولاه فعلي مولاه (12) ، فهذا في نظره كاف يدخل المرء في منحى الغلو (13) • وقد دعا هذا الموقف الموالي لعلي بن أبي طالب المستشرق البولندي ليفيتشكي الى الاعتقاد بأن ابن الصغير كان متشيعا « علوي الهوى » (15) الا ان هذا الاستنتاج ليس سليما ، فان حديث « من كنت مولاه فعلي مولاه » من الاحاديث الثابتة الصحيحة لدى أهل السنة (16) •

وقد نشأ ابن الصغير بتاهرت ، وعمل فيها منذ سن مبكرة في التجارة ، اذ كان له دكان يبيع فيه ويشتري في حي الرهادنة منها وهو بعد يتردد على العلماء لطلب العلم (17) • وكان ابرز من اخذ عنهم آنذلك أبو عبيدة الاعرج ، العالم الاباضي الكبير ، الذي كان متضلعا في الفقه والكلام والوثائق والنحو واللغة (18) ، وقد درس عليه ابن الصغير اللغة اذ أنه يصرح بأنه قرأ عليه كتاب اصلاح الغلط لابن قتيبة في جلسات عديدة (19) ، ومن المحتمل انه أخذ عنه علم الكلام أيضا كما سوف ابينه من بعد • ولا نعرف هل درس ابن الصغير الفقه على أبي عبيدة الاعرج . ولكن الامر المؤكد انه لم يكن يشعر بالحاجز المذهبي بينه وبين الاباضية في دراسة الفقه ، وهو يخبرنا انه أخذ عن بعض الرستميين كتاب مسائل نفوسة الجبل للامام عبد الوهاب بن عبد الرحمن ابن رستم فدرسه ووقف عليه (20) •

هذه الثقافة العربية الاسلامية المتنوعة المتفتحة جعلت من ابن الصغير عالما مرموق القدر بين العلماء بتاهرت ، وكان اختلافه عن الاباضية في المذهب يجعله عرضة للدخول مع علمائها في المناظرات . فكانت تظهر في هذه المناظرات معرفته الفقهية واللغوية والنحوية ، كما كان جو المناظرات يزيد من حدة مقدرته الكلامية ويجعله اشد اتصالا بالحياة العلمية بتاهرت • وقد روى لنا هو نفسه (21) كيف ناظره الشيخ الاباضي أبو الربيع سليمان في مسألة خيار البنت البكر الصغيرة في الزواج بعد ان تدرك ، وكيف رد عليه وعلى غيره من مناظريه في الموضوع نفسه بما يسند موقف أهل السنة ، فكانت هذه الحادثة شديدة الدلالة على ان المناظرين من الاباضية كانوا يرون له منزلة في القوة بينهم ، وعلى ان ابن الصغير كان ذا نزعة نحو الجدل على طريقة المتكلمين مع مقدرة ظاهرة فيه ، وذلك أمر كان يسعف عليه جو تعدد المذاهب والفرق والاحباس

في تاهرت (22) ، وكثرة المناظرات التي كانتا تعقد بها (23) كذلك كانت هذه الحادثة بينة الاشارة الى معرفة ابن الصغير الدقيقة باللغة وباستعمالات الحروف ، والى انه قد يتخذ من الاباضية مناظريه موقفا لا يخلو من العنف والشدة ·

وقد صرح ابن الصغير انه سجل ما دار بينه وبن « غير واحد » من العلماء حول هذه المسالة في نقاش ، قال : « وقد جمعت ما دار من جميع ذلك بيني وبينهم مما اعتلوا به ومما يدخل لهم أو ما ذكروه » (24) ، فهل يعني ذلك انه جمع هذا في كتاب ؟ ذلك أمر ممكن ، غير ان الكتاب هذا ـ ان كان جمـــع ـ لم يصلنا ، ولا نعرف من مؤلفات ابن الصغير غير تاريخه في الائمة الرستميين ·

موضوع الحديث فيما يلي :

يغطي تاريخ ابن الصغير أخبار الرستميين منذ ولاية عبد الرحمن بن رستم حتى الولاية الثانية لابي حاتم يوسف بن محمد أبي اليقظان بن أفلح ، أي انه يتوقف عند السنوات القليلة السابقة لانهيار الدولة الرستمية ، ومن ثم لا يظهر فيه أي خبر عن ايامها الاخيرة · وهذا الوضع لا يخلو من الغرابة ، وهو يفترض احد أمرين : اما ان يكون ابن الصغير قد توقف عن كتابة تاريخه لدى هذا الحد لحادث طرأ عليه ، كفقدان الاهتمام بالموضوع ، أو الهجرة من تاهرت ، أو الوفاة ، أو غير ذلك ، واما ان يكــون قد أتم هذا التاريخ ولم تصلنا البقية الباقية منه · ويبدو ان الشيخ سليمان الباروني كان يعتقد اعتقادا جازما بأن الامر الثاني هو الصحيح اذ انه يشير غير مرة « ما وقفنا عليه من تاريخ ابن الصغير » (25) أو « فيما لدينا منه » (26) ويقول مع الاسف على ما فقد ولم نعثر له على خبر كلما بحثنا عنه (27) ·

والحقيقة ان هذا التقدير هو التقدير الصحيح ، ويؤكد نص هام في قلب تاريخ ابن الصغير نفسه ، وذلك هو القول في فرس يعقوب بن أفلح الاشقر انه « لم يكن بالمغرب مثله قبله ولا بعده به يضرب المثل الى اليوم » (28) فقوله « الى اليوم » يعنــي بعد مدة غير قصيرة من أيام يعقوب بن أفلح ، ويعقوب هذا كان امام الرستمية مباشرة قبل أبي حاتم يوسف الذى به ينتهي كتاب ابن الصغير ·

من هنا يمكننا القول ان ابن الصغير استمر فى كتابة تاريخه بعد زمن من سقوط الرستميين ، والارجح أنه دون تاريخهم حتى نهايته ، ولم يفقد اهتمامه بموضوعهم ، ولم تحدث وفاته فى أيامهم ، ولا عجب فى ذلك بطبيعة الحال ، اذا تذكرنا انه كان شابا لا يزيد سنه عن 31 سنة عندما سقطت تاهرت ودولتها بيد أبى عبد الله الشيعى سنة 296 • وتجدر الاشارة هنا الى أن هذا التقدير بفترة مما قرره موتلبنسكى تاريخا لتاليف ابن الصغير كتابه ، اذ جعله بعد عشرين سنةتقريبا من وفاة أبى اليقظان (أى فى حدود سنة 201) (29) ، غير أن محاولة تحديد سنة بعينها لكتابة الكتاب أمـــر لا يخلو من التحكم ولا يسعف عليه مـا وصلنا من الاخبار • أما قول ليفيتشكى أن الكتاب كتب فى حدود سنة 290 (30) ، فما أظنه يستند الى أسس قوية • على أنـه لابد من الاشارة الى أن ابن الصغير ـ فيما يبدو ـ لم يكتب تاريخه كله دفعة واحدة ، ولا شك فى أن جانبا منه قد كتب والرستمية بعد فى الحكم وتاهرت عـلى ازدهارها المعهود فى ايامهم ، على الاقل حتى فترة ولاية أفلح بن عبد الوهاب (31) •

متى ضاع ما ضاع من هذا الكتاب ؟ ليس هناك من جواب قاطع على هذا السؤال ، الا أنه يمكن الترجيح انه ضاع فى فترة مبكرة نسبيا ، وذلك بدليل ظاهرة غريبة فيما وصلنا منه ، تلك هى ان هذا الذى وصلنا يمثل صورة من الكتاب اختارها احد الناس فى فترة لا نعلمها ، ولا يمثل الكتاب كاملا كما كتبه ابن الصغير • فالكتاب ـ مثـلا ـ ليس له عنوان مؤكد ونص أوله « ذكر بعض الاخبار فى الائمة الرستميين منقول من ابن الصغير (32) ، أو شىء منقول من كتاب ابن الصغير ••• » (33) ، وهناك ثلاثة مواطن فيه تدل على حدوث حذف من النص الاصلى منه يعبر عنه بـ (الى أن قال) (34) وكذلك هو الحال بالنسبة لموطنين آخرين يقطع فيهما النص ليضاف ، وقال (35) على أساس العودة الى النص الاصلى لا على أساس العودة الى الرواية • فهذه الظواهر كلها تدعو الى الاعتقاد الجازم بأن ما بين أيدينا هو جانب من تاريخ ابن الصغير نقله عنه أحد الناس ، ولم يتوقف عند فترة أبى حاتم يوسف منه الا لانه لم يجد ما يليها فيه ، وهذا يرجع ضياع القسم الاخير منه فى فترة مبكرة نسبيا •

ويدل ما تبقى من تاريخ ابن الصغير على أن مؤلفه كتبه بدواعى عديدة كانت كافية للتغلب على الحاجز المذهبى بينه وبين من يؤرخ لهم · وأول هذه الدواعى احساسه القوى بالانتماء الى تاهرت المدينة ، وذلك أمر يلاحظه الدارس من أن ابن الصغير يكاد لا يذكر شيئا عن أحوال الرستميين خارج تاهرت ، ويجد المرء صداه فى محاولته الدائبة للربط بين أسماء الاماكن من تاهرت كما جاءت فى الوقائع التاريخية القديمة وبين اسمائها كما هى عليه فى ايامه (36) . كما يجد صـداه فى تدقيقه الشديد فى تحديد الاماكن التى تجرى فيها الاحداث فى أيامـه ، وأوضح مثل عليها وصفـه لابى اليقظان فى مجلسه ، قال : « وحضرت مجلسه ، وقد جلس للناس **خارج المسجد الجامع مما يلى الجدار الغربى** ·· ورأيته يوما ثانيا فى **مصلى** الجنائز ·· وكان اذا جلس فى المسجد الجامع جلس على وسادة من أدم مستقبل **الباب البحرى** ، وله **سارية تعرف به** يجلس اليها ، ولم يكن غيره يجلس اليها » (37) ، فكأن ابن الصغير كان يـؤرخ لتاهرت وليس وحسب للاباضية من سكانها وحكامها ·

كذلك كان من دواعى التأليف فى بنى رستم لدى ابن الصغير حب الاستطلاع الذى كان يتميز به منذ الصغر فيما يبدو ، ونحن نسمع أنه منذ أن كان صبيا صغيرا ، زمن أبى اليقظان ، شغل ذهنه أن القاضى محمد بن عبد الله ، قاضى أبـى اليقظان ، استعفى من القضاء ورفض أن يدلى بسبب استعفائه لابى اليقظان ، ملمحا له تلميحا وحسب الى أن له مآخذ على بعض بنيه · فما كان من ابن الصغير ـ الصبى ـ الا أن اتجه الى مولى لمحمد القاضى هذا . واسمه سليمان ، وقال له : « ما السبب الذى كـره منه محمد بن عبد الله القضاء حتى ألقى الخاتم والقمطر »وشافه ابا اليقظان بما شافهه به؟(28) ، واذا ذاك أخبره سليمان بالسبب · والذى يبدو لى ان حـب الاستطلاع لدى ابن الصغير مع سكنى تاهرت جعلت عنده معينا من المعلومات ما لبث ان وضعها فى تاريخه لبنى رستم ·

غير انـه يجب ألا ننسى ان المكانة العلمية التى حصلها ابن الصغـير بتاهـرت ، والمناورات التى دخل فيها مع فقهاء الاباضية ، فضلا ، عن صلته بالعلماء لاجل طلب العلم هناك ، وطبيعة التنوع فى فئات السكان فى المجتمع التاهرتى ، واتصاله بمختلف

هذه الفئات تاجرا صاحب دكان كل هذا قد انشأ نوعا من الالفة الشديدة بينه وبين الاباضية وغيرهم من أصحاب المذاهب بتاهرت ، وجعل الفرق بينه وبينهم يحتل مكانا هامشيا فى قرارة نفسه فلا يتحكم فيه لدى اقدامه على كتابة تاريخهم . بل يجعله أقرب الى ان يكون خاليا من الهوى المذهبى الموجه على وجه العموم .

وكانت مصادر ابن الصغير فى تاريخه تتألف من نوعين أساسيين هما : الرواية الشفوية والمشاهدة . اما المشاهدة فانها لا تبدأ قبل فترة أبى اليقظان ، واما الرواية الشفوية فانها تسيطر على الجزء الاكبر من الكتاب . ولا يسمى ابن الصغير أيا من رواته باستثناء أحمد بن بشير (بشر) فى عهد أبى اليقظان (39) ، ولا يسند رواياتهم سندا مسلسلا خلا فى موضع واحد فى قصة حبس أبى اليقظان ببغداد (40) ، اما فيما عدا ذلك فهو يقول : « حدثنى بعض من أثق به » (41) أو « حدثنى غير واحد » (42) أو « على ما حدثنى به أهل المعرفة » (43) أو « وقد حكى لى جماعة من الناس » (44) غير أنه فى معظم الاحوال ينص على أن من سمع الاخبار منهم هم من الاباضية بالذات (45) (وسماهم مرة « الشراة » (46)) يروونها عن أسلافهم أو آبائهم ، وبذلك يكون معظم تاريخه مأخوذا عنهم ، دون أن يمنعه ذلك من الافادة من أخبار غيرهم وقد نص غير مرة على انه أخذ أخباره من بعض الاباضية وغيرهم .

وقد كانت القاعدة الاساسية فى المنهج التاريخى الذى اتبعه ابن الصغير بالنسبة لروايات الاباضية خاصة ، وللروايات الاخرى اجمالا عامة ، هو الامانة التامة فى النقل . يحركه على ذلك عامل أخلاقى بحت قال : « وكانت له (أى لعبد الرحمن ابن رستم) قصص حكوها ، لا يمكن ذكرها الا على وجهها . وان تم الصدق فيها ، **ولا أحرفها عن معانيها ، ولا أزيد فيها ولا أنقص منها** اذ النقص فى الخبر والزيادة فيه **ليس من شيم ذوى المروءات ولا من أخلاق ذوى الديانات** » (47) . وقد كان هذا المنهج يفرض عليه أن يثبت أشياء كثيرة ترفع من شأن الرستميين الاباضيين ، وكان هذا يعنى أن قدرا من التمجيد سوف ينال من يغايرونه مذهبا ، وكان هو نفسه واعيا بهذا ، ولكنه كان أيضا مصرا على ان يغلب الامانة فى النقل على اتباع الهوى ، وقد قال بعد أن وضح منهجه كما هو مذكور أعلاه : « وان كنا للقوم مبغضين ولسيرهم

كارهين ولمذاهبهم مستقلين .. ذكرنا سيرهم على ما اتصل بنا وعدلهم فيما ولوه » (49). وقد كانت نتيجة هذا المنهج ان حفل كتاب ابن الصغير بالاخبار الطيبة عن مختلف الائمة الرستميين فى عدلهم ونزاهتهم وزهدهم وصرامتهم وعلمهم ومكانتهم (50) ، كما حفل بالاخبار الطيبة عن مختلف علماء الاباضية أيامهم (51) ـ ومنهم من قابله ابن الصغير ودرس عليه ، كما مر ـ وكان كتابه فى مواطن عدة تغنيا « طروبا » بما آلت اليه حالة تاهرت من الازدهار فى عهد العديدين من بنى رستم (52) .

على أن الامانة العلمية لم تمنع ابن الصغير من ممارسة حسه النقدى للروايات بصفته مؤرخا . فكان يتنبه احيانا الى نقص أساسى فى الرواية ويشير اليه ، كما فعل عندما ذكر ان راوية خبر حبس أبى اليقظان ببغداد لم يسم له من كان الخليفة المقتول ولا من كان الخليفة القائم ببغداد آنذاك (53) . وكان فى أحيان أخرى يلحظ اختلاف الروايات فيعلق على ذلك بقوله « والله أعلم » (54) . فاذا كانت الروايات تدور حول موضوع خطير فى ذاته خطير فى نتائجه وجدته يشعر بالتحرج الشديد ، وقد ظهر ذلك منه مرتين : الاولى عندما جاء فى الرواية ان أفلح بن عبد الوهاب عمد الى سياسة « فرق تسد » من أجل أن يسيطر على القبائل المتناحرة ، فكان ان أدى ذلك الى تنافر النفوس ووقوع الحرب ، وازاء هذا الامر الخطير وجد ابن الصغير ألا بد من أن يبرىء نفسه من نسبة مثل هذه السياسة للامام أفلح فقال : « فيما قالوا ، والله أعلم » (55) والمرة الثانية فى قصة تأليب وجوه الرستميين لابى بكر ابن أفلح ضد ابن عرفة فان هذا التأليب أدى الى ان اقترحوا عليه ان يقتل ابن عرفة فقام بتنفيذ نصيحتهم وقتله غيلة . فالرواية هنا ذهبت الى ان أبا اليقظان بالذات هو الذى قام بتحريض أبى بدر على ابن عرفة وباقتراح قتله ، ونظرا للمكانة التى كان أبو اليقظان يحتلها ـ اماما عادلا ـ فى دولة الرستميين ولدى ابن الصغير نفسه ، فان ابن الصغير وجد نفسه يعلق على هذه الرواية بقوله : قالوا ، المنفرد بهذا الكلام أبو اليقظان خاصة دون سائر اخوته وأعمامه ، فالله أعلم أى ذلك كان (56) كذلك قد يعمد ابن الصغير الى تقصى الحقيقة اذا اختلفت الروايات بشأنها ، فاذا اخفق اعترف بذلك ، وهذا مذهب يمكن الاستدلال عليه بوضوح من قوله فى المرأة التى تزوجها أبو بكر ابن أفلح هل هى

أخت ابن عرفة أو بنته ؟ « حتى أنا شككت فى البنت أو الاخت » (57) ، وذلك بعد أن تكرر فى الرواية الشك من الرواة فى هذا الموضوع (58) ، فكانه قد حاول استقصاء الامر ولكنه لم يخرج بنتيجة . وعندما كان ابن الصغير يجد رواية مخالفة تماما لمـــا يعرفه يقينا ، كان يثبت نص الروايتين ويذكر ما هو الذى سمعه وعرفه حقا. قال فى قضية افتراق الاباضية زمن عبد الوهاب بن عبد الرحمن : « وعلى يديه افترقت الاباضية وافترق كبراؤهم وتسمى منهم قوم بالنكار ، وتسمى قوم بالوهبية **وهذا الاسم لست أعرفه** ، وقد سمعت أنهم انما تسموا بهذا الاسم لاتباعهم عبد الوهاب . والذى أعرف من أسمائهم على ما حدثنى به أهل المعرفة ... فرقة منهم يسمون باليزيدية ، يريدون من اتبع عبد الله بن يزيد ، وبالعمرية ، يريدون من اتبع عيسى بن عمر وبعده أحمد ابن الحسين » (59) .

على أن ابن الصغير كان ـ على وجه العموم ـ قليل التدخل بشكل مباشر صريح فى الروايات التى يرويها عن غيره وحيث أن معظم هذه الروايات كان قصصى الطابع فقد جاء تاريخه والعنصر القصصى أغلب عليه ، كما أشار الى ذلك الاستاذ موتيلنسكى (60). وهذا الاتجاه أضعف الناحية التقريرية الصرف فى الكتابة الا أنه ـ بالمقابل أكسبه تفردا عظيما بين المؤرخين اذ منح كتابه قدرا « كبيرا » من التفصيلات وقدرا أكبر من الحيوية والقدرة على الايحاء بالاستنتاج بدلا من التحكم فى الاستنتاج من الاصل . وانما يعود الفضل الى ابن الصغير فيما تعرفه من تفصيلات عن وفد أهل البصرة الاول الى تاهرت ، ثم وفدهم الثانى اليها زمن عبد الرحمن بن رستم (61) ، وكذلك الامتحان الاول الذى امتحن به الشراة أفلح بن عبد الوهاب (62) ، وعن الاحداث التى وقعـت لابى اليقظان ابن أفلح ببغداد (63) ، وعن قصة أبى بكر ابن أفلح مع محمد بن عرفة ، وما نتج عن ذلك من أمور خطيرة (64) ، وهذه القصص تتضمن ـ زيادة على التفصيلات ـ جملا شديدة الايحاء للقارىء ، كما جاء فى كيفية اختيار أبى بكر للامانة « واجتمعت الاباضية فلم يصيبوا فى اولاد أفلح اذ فقدوا أبا اليقظان ارجح عندهم من ولده أبى بكر» (65) أو كما جاء فى أحوال الناس والقبائل زمن أبى بكـر « والكلمة واحـدة مجتمعة ،

والدعوة واحدة ، والناس مقيمون على أحوالهم ، الا أن الضغائن بين القبائل وأهل الحواضر فى الصدور على ما كانت عليه أيام أبيه»(66) ·

على انه يجب الا نبالغ فى وصف روايات ابن الصغير عن غيره بالقصص فان جانبا لا بأس به منها كان تقريريا · اخباريا الى حد بعيد ، ولعل أفضل النماذج عليه ما جاء فى وصف حال أبى اليقظان زمن ولاية أخيه أبى بكر ، فقد جاء فى الرواية عنه :

« فصرف النظر فى المدينة وأحوازها الى أخيه ابى اليقظان مع ما ظهر له من الكفاية مع أدب المشرق والاخذ بالحزم فيما رآه من ولاية بنى العباس وسيرهم · وكان أبو اليقظان يركب الى أعلى مسجد فى المدينة فيجلس فيه ، فمن تكلم اليه من الناس عن العمال والقضاة وأصحاب الشرطة، نظر فى ذلك نظرا «شمافيا» ، وأجرى الحق على من رضى وسخط ، عظم قدره أو صغر ، ولم تأخذه فى الله لومة لائم · فحمد له الشراة ذلك · وحمد له أخوه فعله · فاذا كان آخر النهار ، دخل عليه وأعلمه بما حدث فى يومه من خبر وحكم ، وان لقيه مشتغلا قال لمن علم انه يصل اليه : اقرأ على الامير السلام وقل له : أصبحت مدينتك اليوم هادئة وأمست هادئة · واذا كان فى الليل ركب وطاف فى المدينة حتى اقصاها ، ويحكم فى الامر الضرورى ، ويأمرهم اذا حدث حادث ان يوافوا داره · فاذا حكم جميع ذلك انصرف الى داره · فاذا كان بالغداة ، غدا الى باب أخيه فان وجده جالسا أعلمه بما كان فى المدينة من حدث ان كان حدث ، وهدوء ان كان هدوء ، فلم يزل كذلك حتى جلب قلوب الناس واستراءت اليه ومالت » (67) ، وحتى فى هذا النموذج التقريرى تظهر لنا ميزات روايات ابن الصغير فى تفصيلاتها المفيدة وحيويتها الموحية ·

على أنه كانت هناك ميزة أخرى لروايات ابن الصغير عن غيره ، وذلك بخاصة فى الروايات التى رواها عن غير الاباضية ــ وأحيانا عن الاباضية انفسهم ــ وذلك انها اظهرت الجانب السلبى من سير الائمة الرستميين ، فكشفت بذلك عن جانب من تاريخ الرستمية ربما لم تكن لترضى ان تكشف عنه المؤلفات التاريخية الاباضية الصرف ايامهم ، وذلك جانب لم يكن ابن الصغير يتحرج من روايته بسبب أنه لم يكن اباضيا ، كما انه كان يظهر أنه بتدوينه يتمشى مع « **الامانة** » **التاريخية التى كان يتمسك بها** ·

ولعل ابرز نموذج يعطى فى هذا المجال ، الرواية التى رواها عن « جماعة من الاباضية وغيرهم » فيما يتعلق بولاية أبى بكر ابن أفلح وقصته مع محمد بن عرفة ، فانهـا احتوت على عبارات جارحة فى حق أبى بكر ، مثل « فكانت الامارة بالاسم لابى بكر وبالحقيقة لمحمد بن عرفة » (68) ، ومثل « وكان أبو بكر يحـب اللذات ويميل الى الشهوات » (69) ، كما انها تضمنت ـ كما سبقت الاشارة اليه ـ تصويرا تفصيليا لكيفية مقتل ابن عرفة بالحيلة بتدبير أبى بكر (70) ، وما حدث على اثر ذلك من حروب طاحنة بين مختلف الفئات بتاهرت ـ تلك الحروب التى بدأت بهدف واضح ، لكنهـا ما لبثت أن تحولت ـ بنص ابن الصغير ـ الى تعبير عن « حمية الجاهلية » (71) ، والى قتال ينشب « سمعة ورياء » (72) ·

وكما كانت روايات ابن الصغير عن غيره حافلة بالتفصيلات والحيوية والقصص والكشف عن مساوىء الرستميين فضلا عن محاسنهم وحفلت التقارير التى رواهـا مشاهدة أو معاصرة بهذه العناصر نفسها ، ولعل أفضل ما يمكن ان يمثل هذه العناصر مجتمعة ما رواه من سبب استعفاء القاضى محمد بن عبد الله ، قاضى أبى اليقظان من القضاء · وقد مر من قبل كيف قاده حب الاستطلاع الى معرفة تفصيلات هذه المسألة فلما سأل عنها سليمان مولى القاضى أجابه بان جارية لجأت الى القاضى مرة فى الليل وشكت اليه ان زكريا ابن الامير أبى اليقظان أخذ ابنتها من بين يديها ، وان ابنها لم يرض ان يلحق بابن الامير خوفا من أن يعمد عامل من عماله أو لص من لصوصه الى قتله · فغضب القاضى غضبا شديدا ، وقام فى الليل يبحث عن زكريا ليحضر البنت لامها منه · وعندما لم يجده ، أوصل الام الى بيتها وذهب فى اليوم التالى الى أبى اليقظان ورمى بخاتمه وقمطره اليه ، وترك منصب القضاء (73) · فهذه القصة تظهر الجانب الايجابى من دولة الرستميين (تحرى القاضى) والجانب السلبى أيضا (عدوان زكريا ابن أبى اليقظان) فى تفصيلات كثيرة شديدة الحيوية ، قصصية الطابع ، عظيمة الايحاء .

على ان مشاهدات ابن الصغير اعطت كتابه فيما دونه عنها بعدا جديدا نابعا من طبيعة صلته هو بالناس فى تاهرت زمن الرستميين · عالما فقيها ، وذلك أمر لم يكن قد ظهر فى أى من الروايات التى نقلها عن غيره فيما يتعـلق بالفترة قبل حـكم

أبى اليقظان . فقد صور لنا فى تاريخه بحيويته المعتادة جانبا لا يستهان به من الحياة العلمية بتاهرت ايامه فذكر لنا عددا من علمائها من الاباضية ووصفهم وصفا دقيقا . فعيسى بن فرناس (أو فناس) « عندهم من الورع بمكـان » (74) وابن الصغير (أو ابن الحفير) كان « لسانهم فى الفقه ، ولم يكن فى ورع عيسى » (75) ومحمود بن بكر كان غالبا فيهم تذكر عنه البراءة من أمير المؤمنين على بن أبـى طالب ، وكان مدرعهم الذى يذب عن بيضتهم ويدافع عن دينهم ويرد على الفرق فى مقالاتهم ويؤلف الكتب فى الرد على مخالفيهم » (76) ، وعبد الله بن اللمطى صدرهم فى التناظر مع المعتزلة (77) وأبو عبيدة الاعرج ، أستاذ ابن الصغير ، « كلهم مقرون له بالفضل ، معترفون لـــه بالعلم ، مسلمون له بالورع اذا اختلفوا فى الامر من الفقه أو من الكلام ، صدورا عن رأيه ، وقد رأيت أنا هذا الرجل وجلست اليه فما رأيت فى سود الرؤوس رجـــلا أخشع منه » (78) ، وعبد العزيز بن الآوز « كان له فقه بارع وله رحلة نحو المشرق ، ولكنه سفيه اللسان خفيف العقل ، ينزهون مجـالسهم عن حضوره ويستغنون عنه فى معضلات مسائلهم » (79) . وقد ذكر ابن الصغير الى جانب العلماء عددا من خطبـاء الاباضية المقدمين زمن أبى حاتم ، وهم ابن أبى ادريس وأحمد التيـه وأبو العباس ابن فتحون وعثمان بن الصفار وأحمد بن منصور (80) ، ولم يقوم ابن الصغير كـلا منهم ، ولكنه تحدث بتطويل نسبى عن الخطابة زمن الرستميين مشيرا الى أن الخطباء كانوا لا يستعملون الا خطب على بن أبى طالب ما عـــدا خطبة التحكيم ، وحتى هذه الخطبة أقر بعضهم استعمالها مرة (81) كذلك اهتم ابن الصغير ـ فقيها عالما مناظرا ـ بتدوين شىء عن المناظرات التى كانت تعقد بين الفرق ، واعطـــى نموذجين منها فى تاريخه . واحدة جرت بين ابن اللمطى وبعض المعتزلة (82) ، وأخرى جرت بينه هو نفسه وبين بعض الاباضية ، وقد مرت الاشارة اليها (83) . وقد لاحظ فى هذا المجال كثرة الاخذ والرد والنقاش بين مختلف الفئات المذهبية التى كانت تسكن تاهـــرت واعطانا نصا دقيقا جدا عنها زمن أبى حاتم حين قال : « ومن أتى الى حلق الاباضية من غيرهم قربوه وناظروه الطف مناظرة ، وكذلك من أتى من الاباضية الى حـلق غيرهم كان سبيله كذلك » (84) .

بقى أن يتوقف الدارس ليتساءل : هل كان ابن الصغير فى رواياته عن غيره مجرد ناقل أمين يكرر ما يسمعه ببساطة متناهية ـ كما يشير اليه الاستاذ موتيلينسكى (85) . ولا يتدخل الا حيث تدعو الحاجة القصوى الى التدخل ؟ وهل كان فيما رواه عن مشاهداته يسجل تسجيلا عشوائيا ما يراه ماتا بصلة الى تاريخ الائمة الرستميين فهو من ثم له مكان فى كتابه عنهم ؟ وبكلمات أخرى : هل كان ابن الصغير مجرد راوية للتاريخ أم أنه كان مؤرخا ذا فهم معين للتاريخ . يرى التاريخ بواسطته خاضعا فى تطوره لعوامل بعينها تتحكم فيه تحكما شبه حتمى وتقرر بذلك النهاية التى سوف يؤول اليها فى مرحلة ما من حياة أمة ما ؟ ان الراوية للتاريخ والمؤرخ كلاهما يتحكمان فى مدوناتهما عن طريق ما يختارانه دون غيره ليكون جزءا من تاريخهما ، وانما الفرق بين الراوية للتاريخ والمؤرخ ان الاول منهما لا تنتظم اختياراته أية قواعد فكرية ، ثابتة تفسر ما مضى من أحداث التاريخ وتنبىء بما سوف يقع منها فيه وذلك على عكس الثانى . فاين مكان ابن الصغير فى هذا كله ؟

ان القراءة الدقيقة لتاريخ ابن الصغير تدل على أن ابن الصغير لم يكن مجرد راوية للتاريخ وانما كان مؤرخا حقا يعى تماما ما الذى يريد ان يدرجه فى تاريخه عن الروايات وما الذى يريد أن يحذفه منها منه ، وانه كان صاحب تصور واضح لبنية الدولة الرستمية منذ نشأتها ، ولماهية الاسس التى قامت عليها ، وكيف كانت هذه الاسس تحمل فى طياتها عناصر قوتها وضعفها معا ، فكانت مسؤولة عن صعودها السريع أول الامر ، ثم عن انحدارها باتجاه الانهيار فيما بعد .

فمنذ الصفحات الاولى التى تتعرض لفترة عبد الرحمن بن رستم ، مؤسس الدولة الرستمية نجد انفسنا أمام روايات معينة ـ تحكم ابن الصغير باختيارها دون شك ـ تبين طبيعة فهم ابن الصغير لاسس هذه الدولة . ونظرا لاهمية هذا القسم ، لابد من التعرض لرواياته بشىء من التفصيل . ففى قضية تنصيب عبد الرحمن بن رستم ، يورد ابن الصغير رواية واحدة تنص على ان السبب الذى دعا الاباضية الى اختيار عبد الرحمن للامامة من دون سائر مشايخ الاباضية أنه « لا قبيلة له يشرف بها ولا عشيرة له تحميه » (86) . فذلك من شأنه أن يمنع حدوث الاختلافات بين القبائل

والعشائر الذين يكونون عصب السكان للدولة الجديدة . فهذه الرواية تبرز عامل تعدد القبائل فى المجتمع الجديد ، وتتخوف (أو تتوقع) حدوث اختلافات فيه قائمة على العصبية القبلية السائدة فيه ، وتنبىء بشكل غير مباشر بدخول عنصر جديد على المجتمع هو عنصر الرستمية ، وفى الوقت نفسه تجعل من عامل الرابطة العقيدية عاملا ثانوى المكانة الى حد ما بين العوامل التى تنحل فيه ، وذلك خاصة باهمالها العامل « المذهبى » فى شخص ابن رستم ، داعيا من دعاة أبى عبيدة التميمى الى المغرب وعاملا لابى الخطاب على افريقية (87) . كذلك يورد ابن الصغير بتطويل كبير الرواية عن قدوم وفدين من أهل البصرة من الاباضية الى تاهرت زمن عبد الرحمن بن رستم (88) وهى رواية تبرز دور المال فى تغيير المجتمع التاهرتى الناشىء ، وتبين كيف قاد هذا العنصر الى انعاش تاهرت انعاشا اقتصاديا هائلا ــ عمرانا وتجارة ــ ثم كيف جعل هذا الانتعاش تاهرت مستقطبا لمختلف الاجناس من الناس ، من الكوفة ومن البصرة ومن القيروان وغيرها ، فاستقروا بها استقرارا ، نهائيا ، مضيفين بذلك الى المجتمع الجديد عناصر جديدة غير قليلة . كذلك تفسح روايات ابن الصغير مكانا كبيرا لسيرة ابن رستم فى الناس وتبرز مدى عدله وزهده وبساطة عيشه وعدم استسلامه الى الحياة المرفهة عندما أصبح المال متوافرا بكثرة فى مدينته (89) .

ان هذه الروايات ــ مجموعة ــ تدل على خط واضح فى التصور من جانب ابن الصغير لاساس الدولة الرستمية ، اذ هو يقوم على قطبين رئيسيين متوازيين هما : التعدد فى الاجناس والقبائل المكونة لها ، والدور الاساسى الذى يقوم به المال فى تكوين شخصيتها . واذا كان القطب الاول يحمل فى ذاته خطر التنافر والتصادم بين الفئات المختلفة ــ عصبية قبلية أو عرقية أو مذهبية ــ وكان القطب الثانى يحمل فى ذاته خطر الاستسلام الى الرفاهية والتنافس وسوء الاستعمال ، فان صمام الامان فى الوضع كله هو حسن سيرة الامام فى الرعية على أساس من الدين القويم ، وامساكه بزمام الامور حتى لا تختل فيقع المحذور الكامن وراء القطبين المشكلين لها . اما ناحية العقيدة ــ الاباضية بطبيعة الحال ــ فانها لا تشكل قطبا أساسيا فاعلا فى هذه الدولة ــ بحسب هذا التصور .

وقد قام ابن الصغير ـ انطلاقا من هذا التصور لاساس الدولة الرستمية ـ بحصر رواياته عن الائمة الرستميين بعد عبد الرحمن فى اطارات ثلاثة هى : تعدد الاجناس ودور المال وسيرة الامام ، كما كانت الاحداث كلها تقريبا تفسر فى تاريخه على أساس من وجود التوازن أو الاختلال فى واحد من هذه العوامل ، أو فيها جميعا فى آن معا ٠

فالافتراق المذهبى الاول فى فترة عبد الوهاب بن عبد الرحمن ليس له أساس دينى عقيدى صرف ـ كما هو لدى أبى زكريا مثلا (90) ـ وانما هو ناشىء عن قيام الحزازات بين قبيلة مزاتة وغيرها من القبائل من ناحية وبين الرستمية من ناحية أخرى فى قضية من يتحكم باختيار ولاة الامور (91) ٠ والافتراق المذهبى الثانى أيضا ناشىء عن تحرك العصبية فى بعض قبيلة هوارة ضد عبد الوهاب ورهطه (92) . وكـلا الافتراقين ادى الى قيام الحروب بين الفئات المتصارعة ٠ كذلك تعزو روايات ابن الصغير الاستقرار الذى نعمت به الدولة الرستمية زمن أفلح بن عبد الوهاب الى توفر عنصر المال توفرا عظيما بين الناس ، من ناحية (93) حتى أن القبائل أصابت منه الشىء العظيم (94) ، والى تمكن أفلح ، من ناحية أخرى ، من السيطرة على ملامح ثورة العصبية والتنافس فى جمع المال والاستقواء به فيما بين القبائل وأهل المدينة عن طريق سياسة (فرق تسد) (95) ٠ غير أن أفلح ، بعدم اقتلاعه الحزازات بين الفئات من جذورها ، ابقى لخلفه تركة من « الضغائن فى الصدور » ـ على حد تعبير ابن الصغير (96) ـ وقد انفجرت تلك الضغائن بالفعل زمن ابنه أبى بكر ، وخاصة لانه لم يستطع ان يكون مثل أبيه :القطب الذى يمسك بالخيوط جميعها بقوة فى يده ويحفظ لها توازنها ، لميله الى اللهو من ناحية ولاقدامه على الخطأ المميت بقتل ابن عرفة من ناحية أخرى (97) ٠ ولقد افلت زمام الامور تماما زمان أبى بكر ، ولجأ هو نفسه الى عصبيته من الرستمية والمسيحية (أو السمحية) يتقوى بها على القبائل والفئات المناوئة له، وثارت العصبية ما بين العرب والعجم ، وتطورت الامور حتى دخلت نفوسة فى حومة الصراع الفئوى ، واشتركت فيه لواتة ضد هوارة . ولعب المال هنا دورا سلبيا وذلك بتذكيته نار الحرب ، اذ أخذ بعض التجار الكبار يعطون العرب والجند الاموال لبناء حصن أمين (98) ، فيما أخذ أبو اليقظان ـ أخو أبى بكر ـ يوزع الاموال

التى أتى بها من العراق على الناس لاجل استئلافهم (99) • واستمر هذا الحال مدة سبع سنين ، وانتهى بتغلب الفريق المناوىء لابى بكر ، فسلم هذا الفريق الامامة الى أبى اليقظان (100) • وتمثل فترة حكم أبى اليقظان فى تاريخ ابن الصغير فترة مماثلة لفترة حكم أفلح بن عبد الوهاب فى الاستقرار ، وكان العامل الذى عزى اليه الاستقرار بها شخصية أبى اليقظان وحسن سيرته وتمكنه من حفظ التوازن بين مختلف الفئات فى دولته • غير أنه لدى وفاته ، عاد هذا التوازن الى الاختلال ، وكان الاشعار به قيام بعض الفئات من العمال والفرسان وأهل الحرف بتقديم ابى حاتم بن ابى اليقظان للامامة من دون مشورة القبائل وغيرها (101) . فعادت العصبيات مرة أخرى الى حومة الصراع الدامى ، وصارت الاباضية تشكل فريقا ذا عصبية واضحة الملامح ، وكثرت التحالفات والتعصبات ودخلت الصفرية وصنهاجة معترك الصراع ، وقام المال ــ مرة أخرى ــ بدوره فى اذكاء نار العصبيات (102) ، وانتهى الصراع بانكسار شوكة فريق الاباضية الموالى لابى حاتم ، فعندها أعطيت الامامة الى عمه يعقوب بن أفلح (103) • ولكن الحرب استمرت ولم تنته الا بهدنة ، واعيد أبو حاتم الى الامامة • وهذه المرة كان قد تعلم درسا هاما مفاده أن المجتمع الذى يكون دولته يتألف من فئات عديدة لابد من مراعاتها ، فقام على اثر عودته باستشارة الاباضية وغير الاباضية فى كل من أراد أن يوليه الامور : القضاء والشرطة وبيت المال (104) ، وبذلك عاد التوازن الى البلاد ونعمت بشىء من الاستقرار ، وانصرف الناس بها الى العلم ، وبهذا ينتهى ما وصلنا من تاريخ ابن الصغير •

لقد بنيت الدولة الرستمية ــ فى تاريخ ابن الصغير ــ على أساس من الوعى بعنصر تعدد القبائل والفئات ، وأراد البانون لها ان يتفادوا نتائج هذا التعدد ، فوقعوا فيه رغما عنهم • كذلك كان المال عنصرا من العناصر الاساسية فى نهضتها ورفعة شأنها بين البلاد ، الا أنه كان أيضا عنصرا من عناصر اذكاء نار الصراع فيها ، عندما كان هذا الصراع يشتعل • وكان صمام الامن دائما للامور كلها ، ان يكون على رأس الدولة امام يعمل بمقتضيات الدين القديم ويمسك خيوط الدولة المتفرقة بيد قوية • فلما

كان هذا العنصر يغيب فى الدولة الرستمية ، كانت العصبيات تثور ويختل التوازن ، وتقع تاهرت وضواحيها طعمة لحروب طويلة دامية ٠

ولا شك ان فهم ابن الصغير لتاريخ الرستمية قد أعان عليه أنه عرف أخبارها ممن عاشوا فى ظلها منذ نشأتها ، وظل حيا حتى شهد نهايتها ، فكان مؤهلا لكى تكون لديه القدرة على صياغة تصور عام لها ٠ ولكنه ، لولا كفايته الشخصية مؤرخا حقا ، صاحب نظرة واضحة الى الامور ، لما استطاع ان يعطينا تاريخا قيما تفسر فيه الاحداث على أساس قواعد ثابتة لا تتغير من أول الدولة حتى نهايتها تقريبا ٠ وهذا كله لا يعنى بطبيعة الحال ان ابن الصغير كان متكامل النظرة سليمها مائة بالمائة ، فان كل صاحب موقف فكرى لابد أن يغلب بعض جوانب الامور على جوانبها الاخرى ، وتلك هى الضريبة التى يدفعها أى ملتزم فى أى حقل كان ٠ فابن الصغير ـ بتغليبه المقياس الواقعى المادى ـ اذا صح التعبير ـ قد جار على المقياس الدينى الروحى فى نظرته الى الدولة الرستمية ، وهذا لا شك له علاقة بعدم انتمائه الى الاباضية فى نهاية المطاف ، ولذلك كان على كتاب الاباضية من بعد أن يبرزوا هذا الجانب من الدولة الرستمية الذى مر عنه ابن الصغير مرورا خاطفا ٠

غير أن هذا كله لا يقلل من قيمة كتاب ابن الصغير ٠ وقد اعترف كتاب الاباضية أنفسهم له بالاهمية ، ونقل عنه نقولا كثيرة كل من أبى زكريا والبرادى وصاحب الجواهر المنتقاة والشماخى (150) ، ومجده الشيخ سليمان البارونى فى العصر الحديث (106) ٠ وان لم يكن لابن الصغير سوى فضل الاخبار الامين ، مع التقدم فى الزمن والمعاصرة للاحداث والنقل الصادق عن مشايخ الاباضية أنفسهم ، لكفاه هذا قيمة مؤرخا نزيها ومؤرخا حقا ، ولغفر له ما فى كتابه من عدم الاهتمام بذكر التواريخ بعامة ، وعدم الدقة فى تعداد سنوات حكم كل من الرستميين ، وعدم تعرضه لاخبار الرستمية خارج تاهرت ٠

الملاحظات

(1) A. de C. Motylinski, « Bibliographie du Mzab. Les livres de la secte Abadhite », *Bulletin de Correspondance Africaine*, iii (1885) pp. 30 35.

(2) A. de C. Motylinski, « Chronique d'Ibn Saghir sur les imams rostemides de Tahert », *Acte du XIV Congrès des Orientalistes* (Alger, 1905). Troisième partie (suite) : « Langages musulmanes (arabe, persan et turc) » (Paris, 1908). pp. 3-132.

(3) « Chronique d'Ibn Saghir sur les imams rostemides de Tahert », *Cahiers de Tunisie*, 91-92 (Septembre, 1975), pp. 315-368.

وهذه النشرة من تاريخ ابن الصغير هى النشرة المعتمدة فى هذا البحث ·

4) أنظر بالاضافة الى المصدر المذكور فى الملاحظة الاولى أعلاه :

Lewicki, T. : « Les historiens, biographes et traditionalistes ibadites - wahbites de l'Afrique du Nord du VIII^e au XVI^e siècle, » *Folia Orientalia*, iii (1961-1962), pp. 105-6. Lewicki, tadeusz, « The Ibadites in Arabia and Africa » , *Journal of World History* (UNESCO) XIII/1(1971), pp. 51-130.

(5) Lewicki, T. « Ibn al-Saghir » , *Encyclopaedia of Islam* (new édition) III p. 924.

6) أنظر مثلا جهله التآم بالتاريخ المشرقى فى تاريخه 227 ·

7) يدل على هذا أنه يجهل موقع واحدة من أهم المدن غير البعيدة عن تاهرت ، وهى مدينة تلمسان (تاريخه 328) ·

8) ابن الصغير 352 ·

9) المصدر نفسه 350 ·

10) أنظر المصدر نفسه 356 ، وأنظر أيضا الازهار الاباضية فى أئمة وملوك الاباضية للشيخ سليمان بن عبد اللـه البارونى (مطبعة الازهار البارونية ، لا. ت) ، القسم الثانى 265 الموسوعة الاسلامية 2 ، 924 ·

11) ابن الصغير 362 ، وفى النص : العراق ، وهو سهو ·

12) الازهار الرياضية 2 ، 41 و 76 و 84 و 290 ، وتبعه فى هذا عبد العزيز سالم فى كتابه المغرب الكبير (القاهرة) 2 ، 548 ، الحاشية رقم 1 ·

13) ابن الصغير 322 ·

14) المصدر نفسه 352 ، قال معلقا على محمود بن بكر : « وكان غالبا تذكـر عنه البراءة من أمير المؤمنين على بن أبى طالب » .

15) أنظر الموسوعة الاسلامية 2 ، 924 ومقالة ليفيتشكى الاخرى: «Les historiens» P. 105

16) أنظر الحديث فى الترمذى (مناقب 19) وابن ماجه (مقدمة 11) وابن حنبل 1 ، 84 و 118 و 119 و 152 و 331 و 4 ، 281 و 368 و 370 و 372 و 5 ، 347 و 266 و 419 .

17) ابن الصغير 354 .

18) المصدر نفسه 353 .

19) المصدر نفسه 353 — 354 .

20) المصدر نفسه 327 .

21) أنظر الصفحات : 363 — 365 .

22) أنظر الصفحات : 336 و 345 — 347 و 357 — 358 .

23) أنظر نمـوذجا مـن مناظرات الاباضية والمعتزلة فى الصفحات : 325 — 353 وانظر أيضا : الازهار الرياضية 2 ، 118 — 128 .

24) ابن الصغير 364 .

25) الازهار الرياضية 2 ، 84 و 291 .

26) المصدر نفسه 2 ، 349 .

27) المصدر نفسه 2 ، 84 .

28) ابن الصغير 361 .

29) Motylinski, « Bibliographie », P. 31

30) Lewicki, « Les historiens », P. 106 ; « The Ibâdites », PP. 53, 118 ; Encyclopaedia of Islam III, P. 924.

31) أنظر قوله ، ص 336 فى وصفه ازدهار تاهرت زمن أفلح « وكانت العجم ... ونفوسة ... والجنـد القادمون من افريقية قـد بنـت المدينة العامرة اليوم وأمنت الساحات ... » .

32) ابن الصغير 321 .

33) ابن الصغير 321 ٠

34) ابن الصغير : 427 و 256 و 261 ٠

35) المصدر نفسه : 257 و 362 ٠

36) أنظر مثلا قوله ، ص 323 ٠ ونزلوا المصلى الذى به اليوم قبر مسالة ، وص 333 وابتنى عبد الواحد قصره الذى يعرف به اليوم ٠

37) ابن الصغير 352 ، وانظر ايضا قوله ، ص 363 ٠ قال لى يوما « نحن فى أعلى مسجد بالرهادنة رجل من وجوه الاباضية ٠٠٠ » ٠

38) ابن الصغير 350 ٠

39) المصدر نفسه 352 و 356 ، وفى الموضعين : بشير ، ولدى البارونى ، نقلا عن ابن الصغير (بشر) فى موضع «الازهار 2 ، 243» و (بشير) فى موضع آخر «الازهار 2 ، 250».

40) ابن الصغير 337 ٠

41) المصدر نفسه 331 ٠

42) المصدر نفسه 331 ٠

43) المصدر نفسه 327 ٠

44) المصدر نفسه 328 ٠

45) أنظر فى المصدر نفسه الصفحات : 321 و 322 و 327 و 328 و 331 (مرتين) 340 و 349 ٠

46) المصدر نفسه 331 ٠

47) المصدر نفسه 328 و 340 ٠

48) المصدر نفسه 322 ٠

49) المصدر نفسه 322 ٠

50) أنظر رواياته فى عبد الرحمن بن رستم ، ص : 322 ــ 324 و 325 ــ 326 ٠ وفى عبد الوهاب بن عبد الرحمن ، ص : 327 و 328 ٠ وفى أفلح بن عبد الوهاب ، ص : 333 ٠ وأبى بكر ابن أفلح ، ص : 340 ٠ وفى أبى اليقظان ، ص : 341 ــ 342 و 352 ــ 357 ٠ وفى يعقوب بن أفلح ، ص : 361 ٠

51) سوف يجيء الحديث عن هؤلاء العلماء في فقرة تالية ·

52) أنظر مثلا في زمن عبد الرحمن ، ص : 324 ـ 325 و 326 ـ 327 · وفي زمن أفلح ص : 336 · وفي زمن أبي بكر ابن أفلح ، ص : 341 ·

53) ابن الصغير 338 ·

54) المصدر نفسه 333 ·

55) المصدر نفسه 337 ·

56) المصدر نفسه 342 ؟ وقارن هذا بالازهار الرياضية 2 ، 226 ـ 227 ·

57) ابن الصغير 343 ·

58) المصدر نفسه 341 و 342 و 343 ، وقارن ذلك بالازهار الرياضية 2 ، 223 ·

59) المصدر نفسه 327 ـ 328 ·

60) المصدر نفسه 216 ·

61) المصدر نفسه 322 ـ 326 ·

62) المصدر نفسه 333 ـ 334 ·

63) المصدر نفسه 337 ـ 340 ·

64) المصدر نفسه 340 ـ 347 ·

65) المصدر نفسه 340 ·

66) المصدر نفسه 341 ·

67) المصدر نفسه 341 ـ 342 ·

68) المصدر نفسه 341 ·

69) المصدر نفسه 341 ·

70) المصدر نفسه 343 ـ 344 ·

71) المصدر نفسه 347 ·

72) المصدر نفسه 347 ·

73) المصدر نفسه 350 ـ 351 ·

74) ص 352 ، وانظر أيضا ص 355 .

75) ص 352 ، وانظر ايضا ص 354 .

76) ص 352 ، وانظر ايضا ص 354 – 355 .

77) ص 352 – 353 .

78) ص 353 .

79) ص 355 .

80) ص 365 .

81) ص 365 – 368 .

82) ص 352 – 353 .

83) ص 363 – 365 .

84) ص 363 .

85) Motylinski, « Biographie », P. 31

86) ص 321 .

87) *Chronique d'Abou Zakaria,* traduite et commentée par Emile Masqueray (Alger 1878), P. 20 FF.

88) ص 322 – 326 .

89) ص 322 و 324 و 326 و 327 .

90) *Chronique d'Abou Zakaria,* P. 61 FF.

91) ص 328 – 330 .

92) ص 331 – 332 .

93) ص 336 – 337 .

94) ص 336 .

95) ص 336 .

96) ص 337 .

97) ص 340 – 349 .

93) ص 347 .

99) ص 348 .

100) ص 348 – 349 .

101) ص 356 – 357 .

102) ص 359 .

103) ص 361 – 362 .

104) ص 362 – 363 .

105) Motylinski, «Bibliographie», PP. 30-31 ; Lewicki, «Les historiens», P. 105 and «Ibn al-Saghir», Encyclopaedia of Islam III, 924.
وانظر أيضا : الازهار الرياضية 2 ، 70

106) الازهار الرياضية 2 ، 41 و 84 – 85 .

محمد وعبد الرحمان بن رستم
في قرطبة

د. ماريا خيسوس فيغيرا
أستاذة بالقسم العربى والاسلامى
بجامعة كومبلوتنس ـ مدريد ـ
(اسبانيا)



فى البلاط القرطبى على عهد الامير عبد الرحمن الثانى (206 ـ 238) ، (822 ـ 852) يمكن أن نتعرف على شخصيتين من العائلة الرستمية، الاسرة الحاكمة فى تاهرت منذ عام 160/777 ، وبالرغم من المعلومات المحدودة بصورة متناهية (1) ، فان المصادر التاريخية ، قد حفظت لنا ما يستدل به على المكانة العالية ، السياسية والحربية لهاتين الشخصيتين وهما عبد الرحمن ومحمد بن رستم فى الاندلس ، واللذان

(1) ما يوجد فى أيدينا من أقسام المقتبس الخاصة بفترة من حكم عبد الرحمن الثانى، يمكن أن تعطينا الفرصة للحديث بتفصيلات أوسع ـ أنظر فى قائمة المراجع : «ابن حيان»

بوجودهما فى البلاط القرطبى قد صنعا شبكة معقدة من القضايا السياسية والفكرية ، والاقتصادية ، بالنسبة للعلاقات بين الاندلس والمغرب فى القرن الثالث الهجرى التاسع الميلادى مما يستحق العودة الى الدراسة المتفحصة (2) .

من ناحية أخرى فانه مما لا ينبغى أن ننسى تذكره فى هذا الملتقى الحادى عشر للفكر الاسلامى والذى يعقد فى « ورقلة » العاصمة الرستمية الثانية أنه ههنا ، فى صدراته ، فى واحة ورقلة قد قوبل بالترحيب الامير الرستمى يعقوب ابن أفلح وأنصاره ، عندما قام الجيش الشيعى بقيادة الداعى أبى عبد الله بالهجوم على تاهرت فى شوال 256 هـ/909 م .

ومن عدالة القول ينبغى أيضا التذكر بأنه فى قرطبة قد تابع وجوده الفعال رستميون آخرون من سلالة أحد أحفاد مؤسس هذه العائلة . ولكن ماهية الدوافع الحقيقية التى جعلت هذا الفرع الرستمى يستقر فى قرطبة مجهولة لنا بالرغم من أنه يمكننا الاستنتاج بأن ذلك يخضع للعلاقات الطيبة بين الرستميين فى تاهرت والأمويين فى الاندلس وذلك ما سوف يكون موضع احتفالنا .

لقد احتفظ لنا بالنسب الكامل لمحمد بن رستم بفضل الترجمة المختصرة التى يعطيها قلم ابن الابار (3) فى القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى ، مختصرا بطريقة مباشرة أو غير مباشرة عن الرازى وابن فرج الجيانى ، واللذين نقدت اعمالهما للاسف الشديد (4) ، تلك الاعمال التى يمكننا أن نستنتج بأنها كانت الاساس للتعرف على هاتين الشخصيتين الرستميتين ، هذه الترجمة مع كونها قليلة الكلمات فانها كثيرة الفائدة حيث نقل لنا ابن الابار :

(2) ليفى بروفنسال ـ بحاسته التاريخية الرائعة ، قد وضع الملخص الاساسى لهذه الملاحظات : أنظر تاريخه فى صفحات : 134 ، 149 ، 159 ، 160 ، 64 ،158 .

(3) ابن الابار : الحلة السيراء ، ص 372 ـ 373 الترجمة رقم : 202 .

(4) لكى تقوم ما فقد ، وما احتفظ به من أخبار الرازى ، أنظر « تاريخ الرازى » (CRONICA DEL MORO RASIS كتاب لـ D. Catalan ، مدريد 1974) وبخاصة الاختصار الموجود في صفحة 25، عن ابن فرج : أنظر E. Térès : Ibn Faray de Jaén Ysu Kitab El-Hada'iq (ابن فرج الجيانى وكتابه « الحدائق » ، « مجلة الاندلس » العدد الحادى عشر (1946) صفحات من 131 الى 157 .

« محمد بن سعيد بن محمد بن عبد الرحمن بن رستم مولى الغمر بن يزيد ابن عبد العزيز ، دخل أبـــوه الى الاندلس ، وكان محمد هذا بناحية الجزيرة ، واصطنعه عبد الرحمن بن الحكم فى امارته على شؤونه من قبل أبيه الحكم ، فكان يانس بـــه بعض الاحيان . ثم افضت اليه الخلافة ، فاستقدمه وصرفه فى الحجابة والوزارة . وهو أحد القواد الذين كان فتح المجوس على أيديهم باشبيلية الى فتوحات تعلم بها ، وكـان أديبـا ، حكيما ، لاعبـا بالشطرنج،ذكره الرازى . ولمحمد بن سعيد هذا شعـر فى « الحدائق » لابن فرج ، قد كنت كتبت منه فى « الكتاب المحمدى » من تاليفى ، فنقل هنا اسمه الى باب نظرائه » .

تلك الميول الثقافية تبدو وكانها تراث لهذه الاسرة الرستمية على مـا ستوضحه فيما بعد حالة لمحمد بن رستم (5) مع ابنة للموسيقى زرياب أستاذ الاناقة فى الحضرة القـرطبيـــة .

مفقودهو**تاريخ** الرازى وكذلك الجزء الاول من ذلك المجلـد من **المقتبس** ، (6) فأول تاريخ مؤكد لوجود محمد بن رستم فى قرطبة قد حفظه لنا المؤرخ ابن عذارى فى القرن 8 هـ/14 م وهو يقول لنا (7) :

---

(5) كذلك يحكى ليفى بروفنسال ، تاريخه ص 181 ملاحظة 89،معتمداعلى مخطوطة من مخطوطاته الخاصة عن **جمهرة الانساب** لابن حزم حيث جاءت تلك الملاحظة فى الملحـق الذى لم نجد له أثرا فى طبعته المحققة على يد ليفى بروفنسال نفسه والذى نذكره ضمن مراجعنـا .

ومن المؤكد أن ابن حزم فى فصل صغير جدا عن الانساب الفارسية حيث اشار الى رستمى تاهرت لم يشر الى الفرع المستقر فى الاندلس (الجمهرة ص 474 – 475) . من جهة أخرى فان ابن الابار فى **التكملة** ، رقم : 2860 و 2861 قد ارخ لعلية وحمدونة ابنتى زرياب بدون اية اشارة الى علاقة ما مـع محمد بن رستم ، ولربما يمكن ان يقول لنا شيئا عن هذه الاشياء الخاصة كتاب عن زرياب ، والذى سمعت الثناء عليه دون أن أتمكن من رؤيته ، وهذا الكتاب لمحمد بن أحمد حنفى : **زرياب أبو الحسن على بن نافـع** موسيقار الاندلس.نشر فى القاهرة بدون تاريخ ضمن سلسلة اعلام العرب نمرة 54 .

(6) وهو المخطوط الذى كان يملكه ليفى بروفنسال (مخطوطة فاس) أنظر عـلى سبيل المثال «تاريخه» صفحة 176 ، ملاحظة رقم 1 الجزء الثانى ، ص 144 ، 150 .

(7) ابن عذارى : البيان ، الجزء الثانى ، ص 82 .

« في سنة 214 (829 ـ 830) ثار الضراب بطليطلة فأخرج الامير عبد الرحمن اليه محمد بن رستم وأمره بحربه فحاربه في هذه السنة وفي سنة 216 (831 ـ 832) توافت الجنود لمحمد بن رستم عامل الثغر ، فناهض هاشما الضراب وكان قد تغلب على جانب الثغر ، وكان عبد الرحمن قد استقصر محمد بن رستم في حقه وكتب اليه يعنفه ، فتقدم ابن رستم والتقى مع هاشم الضراب ، فوقعت بينهم حرب شديدة اياما . ثم انهزم هاشم وقتل هو ومن معه وكانوا ألافا » .

هذه القدرة العسكرية لمحمد بن رستم ستعود الى الظهور مرة أخرى في عام 230 (844) ، عندما هاجم المجوس باشبيلية ، وبسبب نقص فقرات المقتبس (8) التي تحكى ذلك فاننا سنستعين باقاويل ابن عذارى والعذرى . يقول ابن عذارى (9) :

« فخرج المجوس في نحو ثمانين مركبا ... ثم تقدموا على اشبيلية فاحتلوا بها احتلالا ، ونازلوها نزالا الى ان دخلوها قسرا واستأصلوا أهلها قتلا واسرا،فبقوا بها سبعة أيام يسقون أهلها كأس الحمام ، واتصل الخبر بالامير عبد الرحمن ، فقدم على الخيل عيسى بن شهيد الحاجب ، وتوجه بالخيل عبد الله بن كليب وابن رستم وغيرهما من القواد واحتل بالشرق . وكان بينهم وبين المسلمين ملاحم ثم نهضوا الى قبطيل ... ثم مضوا بمراكبهم واعتركوا مع المسلمين فانهزم المسلمون وقتل منهم ما لا يحصى ثم عادوا الى مراكبهم الى قادش وذلك بعد ان وجه الامير عبد الرحمن قواده ... فانهزم المجوس وقتل منهم نحو من خمسمائة علج ، وأصيبت لهم أربعة مراكب بما فيها ، فأمر ابن رستم باحراقها وبيع ما فيها من الفيء .. ثم كانت الوقعة عليهم بقرية طلياطة يوم الثلاثاء لخمس بقين من صفر من السنة قتل فيها منهم خلق كثير ، ثم توجهوا (المجوس) منها الى الاشبونة فانقطع خبرهم » .

هذه القصة تتفق في اطارها العام وتبدو مشتقة من التي حفظها لنا العذرى هذا المؤرخ الذى يرجع الى القرن 5 هـ/11 م . يحدثنا بتفاصيل أفضل عن مجرى الحوادث

(8) مختصرا بواسطة ليفي بروفنسال في تاريخه صفحات 144 ، 150 .
(9) ابن عذارى ، البيان الجزء الثاني ، ص 87 ، 88 .

وخاصة بالنسبة لمحمد بن رستم الذى أرسله الامير عبد الله حسب العذرى (10) في محاولة ثانية للانتصار على المجوس النورمانديين ليعود بطل النصر غير المنازع على هؤلاء وان تقوسمت شهرة النصر بينه وبين الفتى نصر (11) . هذا الانتصار الذى احتفل به فى كافة أرجاء الاندلس (12) .

هذا هو ما نقله لنا العذرى (13) بالنسبة لتدخل محمد بن رستم فى هذه المناسبة : « ونزل قواد الامام عبد الرحمن بن الحكم بشرقى اشبيلية ... وهم : عبد الله ابن المنذر ، وعيسى بن شهيد والاسكندرانى . وعبد الرحمن بن كليب من قعلبه فلما أحس بهم أعداء الله تبادروا اليهم حتى كادوا يخالطوهم . فثبت المسلمون وقاتلوا وصبروا حتى قتل من المشركين نحو سبعين علجا ، فهزموهم حتى ادخلوهم فى مراكبهم ثم نكل عنهم المسمون واحجموا وتوقفوا . فلما اتصل بالامام عبد الرحمن فعل القواد قفلهم واخرج محمد بن سعيد بن رستم فمضى من فوره الى ذلك فيمن ضم اليه من الاجعاد والجيش ، حتى نزل حاضرة اشبيلية . فخرج المجوس اليه وقاتلوه فى المدينة فدافعهم فيه يومهم ذلك ، فلما كان الليل ولى ومن معه وخاف البيات . فتنحى الى كورتيش بقبلى المدينة وعلى أربعة اميال منها ، ثم غاداهم بالقتال فلم يقدم المجوس على الخروج اليه وانقبضوا عنه حتى نزلوا طلياطة ، فاتبعهم ابن رستم ونزل عليهم يوم الثلاثاء ليلتين خلتا من ربيع الاول سنة 230 ونصب عليهم المجانيق ، فقدم فى ذلك اليوم نصر الفتى بالمدد من قرطبة ، وانهض الناس لمحاربة المجوس من كل جهة فناشبوهم القتال وكادت الهزيمة تستحق ، فترجل محمد بن رستم وترجل الناس معه وأدخل الرجال بين العدو والنهر الاعظم فحالوا بينهم وبين المراكب ، فانهزم

(10) لقد رجع العذرى مرات كثيرة الى أعمال الرازى ومن الممكن ان نتأكد من أنه وجد مدخلا الى استعمال مخزن المحفوظات القرطبية . انظر :

Ferndo de la Granja : *La Marca Superior en la Obra de Al-Cudri*, Zaragoza 1967, 3-4.

(11) Lévi-Provençal : *Historia*, 150.

(12) Lévi-Provençal : *Historia*, 149.

(13) العذرى : نصوص . صفحة 99 — 100 . لقد ألقت الدكتورة ا. علبيث محاضرة فى مؤتمر تاريخ الاندلس والذى عقد فى شهر ديسمبر 76 . بعنوان « غزوات النورمان بناء على ما سجله العذرى » للاسف فان تلك المحاضرة لم أتمكن من سماعها ولا من قراءتها.

المجوس ، وقتل منهم نحو من خمسمائة علج ، وأصيبت لهم أربعة مراكب بما فيها فأمر ابن رستم باحراقها وبيع ما فيها من الفيء وأقام في معسكره ذلك ، واحجم المجوس عنه ، وبقوا أياما بين طلياطة وقبطيل لا يتمكن المسلمون منهم حتى خرج المجوس .. » .

بكل تاكيد ترك المجوس المنطقة التى فيها محمد بن رستم حيث هاجمتهم فيما بعد فرقة أخرى بقيادة أمير الجيش عبد الله بن كليب بن ثعلبة والذى وجد فى ساحة الصراع . أما بالنسبة لمحمد بن رستم فقد بقي له شرف الحاق الهزيمة الحقيقية الاولى بالمجوس فى الاندلس فى تلك الظروف الحرجة التى بينها العذرى بوضوح .

وبما أن كل مؤرخ يختار التفصيلات التى يفضلها فان علينا أن نشكر فى هذه الحالة العذرى ، والذى عرف أن يحفظ لنا التفصيلات عن البطل محمد بن رستم (14) بدون أن ينسى مكانتــه وراء أى شخص آخـــر من الذين اشتركوا في تلك الحوادث العظيمة . وعلى سبيل ما فعل ابن سعيد والذي جاء فى القـــرن السابع الهجرى ، الثالث عشر الميلادى والذى وضع فى صورة البطل الفتى نصر ، ولقد قال لنا بالنسبة له (15) : « أن المجوس قد دخلوا اشبيلية واستباحوها سبعة أيام الى أن جاء نصر الخصى ، وهزم عنها النصارى المعروفين بالمجوس » (16) .

هذا المؤرخ المذكور ابن سعيد ـ قد تناسى النجاح الذي حققه محمد بن رستم ضد النورمانديين .

(14) الباحثين المعاصرين ، مع قليل أو كثير من العناية ، قد حفظوا لمحمد بن رستم دوره الملائم فى هذه الحملة ، هكذا فعل :

Dozy, *Recherches* ; Lévi-Provençal, *Historia,* 149 - 150 ; A. A-El-Hajji, *Andalusian diplomatic relations with Western Europe during the Umayyad period,* Beirut, 1390-1970 (168 - 171 : « the first Viking attack on Andalusia».

وحسين مؤنس : غارات النورمانديين على الاندلس بين سنتى 229 و 245 (859،844) ، « مجلة المعهد المصرى للدراسات التاريخية » ، مايو 1949 الجزء الثانى الفصلين الاولين .

(15) ابن سعيد : المغرب ، الجزء الاول ، 49 .

(16) استعمل « المجوس » أو النورمانديين بـدون اختلاف بينهما . وهذا ممكن فى اطار موضوعنا هذا .

علاوة على ذلك هناك بعض المعالم الظاهرة التى من الممكن أن توضح لنا بكل تأكيد تلك المكانة لهذه الشخصية الرستمية فى قرطبة • ولكن بعد ذلك لا نعرف شيئا عنه ـ غير تاريخ وفاته والتى سجلها ابن حيان (17) بين الاحداث البارزة ، وهكذا يقول لنا : « فى 17 شهر صفر من عام 235 (من الهجرة) (8/25 ـ 9/22 عام 849) توفى فى قرطبة محمد بن رستم » •

أما بالنسبة لشخصيتنا الثانية فانه حتى الآن قد حفظت لنا بيانات أقل مما دونته الكتب القديمة لا نعرف ـ على سبيل المثال ـ نسبه بالضبط ففى مراجعة فقط ينادى « بعبد الرحمن بن رستم » حيث ظل مجهولا اسم والده • ليفى بروفنسال بحاسته التاريخية الحادة يستنتج أنه من الممكن أن يكون اخا ، وربما يكون ابنا لمحمد ابن رستم أى أنه من السلالة المباشرة لمؤسس الدولة الرستمية فى تاهرت • لقد بدأ عبد الرحمن بن رستم فى مكانة لائقة ضمن بلاط الامير عبد الرحمن الثانى والمؤرخ الاول الذى ابرزه لنا هو ابن القوطية (18) ، الذى قال : وكان له (للامير عبد الرحمن) وزراء لم يكن للخلفاء قبله ولا بعده مثلهم بعد عبد الكريم بن مغيث الحاجب الكاتب •• فمنهم عيسى بن شهيد ويوسف بن بخت وعبد الله بن أمية بن يزيد ، وعبد الرحمن ابن رستم ، ولما توفى عبد الكريم بن مغيث فى صدر خلافته تنافس الوزراء كلهم فى خطة الحجابة واضطره كل واحد منهم الى الايولى غيره فاخذته ضجرة فاقسم الايولى واحدا منهم ، وأمر بالاقراع بين الخزان ••• فخرجت اليه (الى مهران بن عبد ربه) القرعة فولى الحجابة أعواما ثم مات ، فولى عبد الرحمن بن غانم ، ثم مات عبد الرحمن ابن غانم فصارت الحجابة بين عيسى بن شهيد وعبد الرحمن ابن رستم ، ثم توفى عبد الرحمن بن رستم فاتصلت الحجابة لعيسى بن شهيد •

ابن حيان ، المولود فى قرطبة بعد عشرة أعوام من وفاة ابن القرطبة (المؤرخ المذكور قبلا) أى فى عام 987/377 • لقد كانت اتجاهات ابن حيان التاريخية أكثر

(17) ابن حيان : المقتبس ، طبعة القاهرة ، صفحة 219 ، أنظر التعليق رقم : 109 فى صفحة 268 ، والتى تشمل ما سجله مختلف الكتاب عن عبد الرحمن ومحمد بن رستم •

(18) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ، ص 62 ، ترجمة Ribera, ص 62 وكذلك ترجمة Fagnan ص 209 •

شمولا ، فقد حدد لنا ما حدث بتوسع وذلك بادماجه ونشره ما دونه الرازى (19) ·
يبدأ ابن حيــان بالاشارة الى عبد الرحمن بن رستم بين حجاب الامــير عبد الرحمن الثانى (20) ، كما عده بعد ذلك ضمن الوزراء (21) ، وكذلك من القواد (22) ، أمــا بالنسبة لدوره فى الحجابة فان ابن حيان قد بدأ بتوضيح أن الامير قد أحل عبد الرحمن ابن رستم مكان عيسى بن شهيد ، وبعد ذلك قام بالتغيير العكسى مرة أخرى وعاد الى تولية عيسى بن شهيد حاجبا ، وان كان ابن حيان يعود الى القول (23) : « اعتل الامير بعلته الطويلة التى حجبه فيها نصر الفتى ، وانقذ عليه أمورا منكرة ، منها صــرفه لعيسى هذا عن الحجابة ، وذلك بأن أخرج الامر عن مولاه بصرف عيسى عن الحجابة واقراره على خطة الوزارة ، وتقليد عبد الرحمن بن رستم الحجابة مكانه ، فجــرى الامر بذلك الى ان استقل الامير عبد الرحمن من علته وقعد لاهل خططه ، فدخلوا عليه ، يقدمهم الوزراء ، وعيسى فى عرضهم فتقدم عبد الرحمن بن رستم جماعتهم فى التسليم على الامير ، ثم قعد فوق ابن شهيد ، فاستنكر الامير ذلك ، فلما استقر بهم المجلس قال لعيسى بن شهيد فيما يخاطبه به « ما شأن هذا ؟ لامر سأله عنه ـ فقال له يا مولاى لست بحاجب ، وهذا هو الحاجب واشار الى ابن رستم ، فعلت الامير كبره ، وعرف من حيث أتى » ·

« فكظم غيظه ، واصطبر فلما خرج الوزراء ، دعا بنصر فسأله عن عزل ابن شهيد ، وولاية ابن رستم ، فلم يمكنه انكاره ، وادعى أن وصية خرجت اليه من لدنه صــدر علته ، فكذبه الامير ، وعلم انها من تحامله وجرأته ، فسبه واغلظ له وهم به ، ثــم عفا عنه ، وأعاد عيسى بن شهيد الى الحجابة ، وعزل عنها عبد الرحمن ابن رستم ، وتركه على الوزارة ، فلم يزل عيسى بن شهيد حاجبا للامير عبد الرحمن ابن الحكم الى أن توفى الامير عبد الرحمن » ·

(19) ابن حيان : المقتبس ، طبعة القاهرة ، ص : 165 ـ 168 ·
(20) نفس المصدر ، ص : 165 ·
(21) نفس المصدر ، ص : 168 ·
(22) نفس المصدر ، ص : 177 ·
(23) نفس المصدر ، ص : 166 ـ 167 ·

من هذا النص الكبير الذى أورده ابن حيان ، يمكننا أن نستنتج أن هذه الاحداث قد جرت فيما بين عامى 223/238 الموافق عام 837/852 ، ويمكننا أن نتأكد أكثر من تاريخ هذه الواقعة عن طريق حكاية أخرى يرويها لنا ابن حيان (24) والتى تمكننا من الاستنتاج بأن ذلك قد حدث ما بين عامى 232/235 الموافق 846/849 من الميلاد .

ان انتقال الحجابة الى عبد الرحمن بن رستم قد جرى بالتقريب فى هذه الاعوام المؤرخة وهناك تلك الرواية التى تفشى لنا أشياء أكثر عن شخصية عبد الرحمن ابن رستم قائلة : « كان معاذ بن عثمان من الابدال ويقال أنه كان مجاب الدعوة اتاه يوما رجل متظلم من الحاجب ابن رستم ويقول أنه اغتصبه مالا له . فقال له ، خذ طابعا وامض به نحوه ، فتصد له وقل له هذا طابع القاضى » فاذا هو ركب فاجبذه بكل قوة عندك فأضرب بيدك على عنانه ولا تفارقه حتى يصير الينا ... واياك أن تتذلل له فانه أهيب لك ... فأخذ الرجل الطابع ومضى به الى الحاجب (25) ... وهو فى موكبه وعلى ملأ من الناس وطلب اليه أن يصير معه الى مجلس القاضى ، ويبدو ان الحاجب لم يمتعض ولم يعترض ، ولكنه اعتذر عن عدم مرافقة الرجل ، غير أنه أمر بتصيير وكيله الى القاضى مع الرجل ، ووعد بانفاذ كل ما يحكم به القاضى معاذ والانصياع له ، واشهد الناس على ذلك » .

حتى هنا وينتهى كل ما امكننا الحصول عليه مما يصور لنا عبد الرحمن بن رستم ، والذى كان يحضر باستمرار المجلس الذى يعقد فى قصر قرطبة هذا على ما يقوله ابن القوطية (26) : « عبد الرحمن أول من رتب اختلاف الوزراء الى القصر والتكلم فى الرأى على ما هو جار الى اليوم » .

(24) ابن حيان : المقتبس ، طبعة القاهرة ، صفحات 205 ـ 206 .

(25) حيث أن النص الاصلى لابن حيان تنقصه بعض الكلمات فنسنواصل ما ادخله المحقق الدكتور محمود على مكى : المقتبس ، ص 206 التعليق رقم 4 .

(26) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ، ص : 61 ، نفس الشىء فى المقتبس ، لابن حيان طبعة القاهرة ، ص : 168 .

وكذلك ، وبناء على ما يقوله ابن عذارى (27) فانه كان يأخذ راتبا شهريا مقداره ثلثمائة دينار مثله فى ذلك مثل الوزراء السبعة لعبد الرحمن الثانى ·

ولكى نتفهم بوضوح دوره كوزير يجب أن نضع فى حسابنا ما كتبه D. Sourdel (28) حسبما كانت الوزارة لقبا فخريا لكى يميز حامله عن اقرانه من حملة الالقاب الاخرى كالخازن ، والكاتب والقائد ·· الخ ، بينما كان **الحاجب يحمل لقب** الوزارة بالضرورة ·

وبسبب مشاركة عبد الرحمن بن رستم فى مجلس الوزراء ينبغى علينا أن نشير الى نظرية الدكتور حسين مؤنس (29) ، التى تقول بأنّ ايجاد هذا المجلس من الوزراء الذين كانوا ينصحون الامير بأرائهم ، أى تأسيس هذه الشورى بواسطة عبد الرحمن الثانى الذى كان لانه كان يرغب فى أن يعتمد أعضاء الشورى حقوق خلافته ، وهذا عوضا عن مشاركتهم فى الامور الحكومية بالنسبة لـ H. R. Idris فان تكوين هذه الشورى كان شيئا متطورا ، تكون قليلا ، قليلا قياسا على ما تطور به المذهب المالكى فى الاندلس ·

خلال حكم الامير عبد الرحمن كانت ترتفع مكانة المذهب المالكى فى الاندلس ولقد عني الاميربالقيام داخل الاحكام الاسلامية الخاصة وداخل هذه الاقامة فرفض عبد الرحمن الثانى الاقتراحات المعروضة عليه بالتحالف مع البيزنطيين ضد بعض الاسرات الاسلامية مثل بنى الاغلب والعباسيين · ولقد حفظ لنا ابن حيان (31) الروايه التى تحكى لنا الرد الجاف للامير الاندلسى الذى اعطاه للسفراء البيزنطيين قائلا : « بالنسبة لبنى الاغلب فى افريقية ، ونشاطهم البحرى تجنب الامير القرطبى الاجابة واضعا كلماته فى صورة غامضة ، لقد كان من الصعب عليه أن يذم بصراحة بعض حملاتهم وان كانت

(27) ابن عذارى : البيان ، الجزء الثانى ، ص : 80 ·

(28) « Wazir » et « hàgib » en Occident ; pp. 749 - 755.

(29) حسين مؤنس : Le Rôle ، ص 56 - 57 .

(30) H. R. Idris *Réflexions*... صفحات : 403 — 404 التعليق رقم : 7 ·

(31) Lévi-Provençal : *Echange d'ambassades* ص 99 — 103 ·
والذى ترجم الى الفرنسية النص الذى وجهه عبد الرحمن الثانى الى البزنطيين انظر كذلك تاريخه ، ص : 162 ·

موجهة بواسطة اعدائه الاغلبيين فانها كانت مواجهة ضد المشركين ، أى البزنطيين ، بقصد اعلاء مجد الاسلام » ·

وعلى هذا فان الامـور لا يمكن أن تتركنا بدون تساؤل : كيف لم يبـد على هذه العلاقات بين الامويين فى الاندلس والرستميين فى المغرب التأثر بأن بنى أمية كانوا سنيين ، والآخرين على المذهب الخارجي ؟

أعتقد أنه من الحكمة تطبيق المعيارالذىيرىبه الدكتور حسـين مـؤنس (32) أن الرستميين خارجيون سياسيا ، مما قلل المظهر الدينى للمسألة ·

ويضيف د · مؤنس (33) : أن هذه التنظيمات السياسية لا يمكن اعتبارها من الخوارج بناء على مبادىء مؤسسيها أو زعمائها · حدث نفس الشىء مع دولة الادارسة والتى لا يمكن أن نقول عنها انها كانت دولة شيعيـة لان مؤسسيها كانوا مـن سلالة على » ·

اعترف بأننى ليس عندى من المعلومات الكافية لكى احكم على هذه المسائـل ، ولكنى لم أترك تلك الاشارة الجاذبة للنظر والتى أوضحها فى « دائـرة المعارف الاسلامية » (34) البروفيسور Tadeusz Lewicki المتخصص العظيم فى المذهب الاباضى :

« En général, la dogmatique et les théories politico-religieuses des Ibāddya se rapprochent pour quelques questions principales de celles de Sunnites. Les Ibāddiyya ne diffèrent des Mālikites qu'en quelques points ».

لا أستطيع الحكم على المعنى الحقيقى لتأكدات Lewicki ولكى من جانب آخر Chikh Bekri يصرح عجبه من أنه مع هذه المبادىء الدينية ترى تلك العلاقات الطيبة من الصداقة التى كانت بين الامويين والرستميين (35) :

« En ce IXe siècle, les quatre royaumes musulmans qui se partageaient la Berbérie et l'Andalousie, Aghlabides à l'Est, Rustumides au centre, Idrîsides à l'Ouest et Omeyyades en Espagne, n'avaient que deux points communs, l'Islam et l'Origine levantine de leurs fondateurs. Les premiers, pro-abbâsides, étaient orthodoxes, les deuxièmes non-conformistes, étaient

(32) حسين مؤنس : المالكية ، ص : 201 ، انطبـاع الدكتور مؤنس ليس خاصا بالرستميين مباشرة . ولكن من الممكن تطبيقه بطريقة مماثلة ·

(33) نفس المصدر ، ص :202 ·

(34) فى الجزء الثالث . ص : 679 ·

(35) Chikh Bekri : *Le Kharijisme* ; p. 97.

considérés comme des hérétiques, les troisièmes étaient des Alides et les quatrièmes, descendants de Mouâwiya, étaient des rescapés des massacres de Fakhkh qui suivirent en Orient la disparition de leur dynastie. A priori, ces royaumes différents par l'origine de leur fondateurs et par leur idéologie, ne pouvaient avoir que des relations d'hostilité. Il eût été logique qu'ils transportassent en Occident les querelles sanglantes qui les avaient opposés en Orient. Or, contre toute attente, on n'enregistre aucune lutte armée entre eux, pas la moindre bataille, à peine une hostilité plus ou moins tiède, une espèce de guerre froide, quand ce ne sont pas des relations amicales, comme ce fut le cas pour les Rustumides et les Omeyyades ».

علينا أن نتذكر بأنه كان فى الاندلس اباضيون ، بكل صفاتهم المميزة ، وأنه من الممكن لقاؤهم والتعرف عليهم فى القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر الميلادى ، ومن ذلك نرى ابن حزم فى كتابه **الفصل فى الملل** يصرح (36) : « وشاهدنا الاباضية عندنا بالاندلس يحرمون طعام أهل الكتب ويحرمون أكل قضيب التيس والثور والكبش ويوجبون القضاء على من نام نهارا فى رمضان فاحتلم ويتيممون وهم على الآبار التى يشربون منها الا قليلا منهم » .

بدون الدخول فى تفصيلات المسائل العقائدية ، أعتقد بأن الرستميين فى تاهرت، والامويين فى الاندلس ، قد اسسوا فيما بينهم علاقات قوية من الصداقة مؤسسة على المصلحة السياسية المتبادلة ، والمفيدة لأحدهم مثلما هى فى صالح الآخر ، ولقد خرج الاثنان مستفيدين من هذه العلاقات حيث حفظت لنا المراجع التاريخية ما يوضح بأن هذه الحوادث كانت مميزة بعدة وقائع من اللائق أن نذكر بها فيما يلى (37) .

لا يعرف متى بدأت العلاقات ، ربما ترجع الى عهد عبد الرحمن الداخل (138 ـ 756/172 ـ 788) والذى عند مروره بشمال افريقية ، قبل وصوله الى الاندلس كان موجودا فى واحدة من قرى تاهرت القديمة اليوم تيارت Tiaret وأكثر من عشرين عاما بعد مرور عبد الرحمن الداخل بتلك النواحى فيقوم عبد الرحمن

(36) ابن حزم : الفصل ج 4 . ص : 144 ، ترجمة M. Asin ج 5 ، ص : 73 .
(37) انظر :
Lévi-Provençal, *Historia*, p. 64, 99, 149, 158-161, 184, 197, 223, 309-311, 314, 316, 320.
Chikh Bekri, *Le Kharijisme...*, pp. 98-101,
ومحمد بن تاويت : دولة .... ص : 110 ، 113 ، 115 ، 117 ، 119، 120 .

ابن رستم بتأسيس تاهرت الجديدة ، وهناك أسس العاصمة لدولته فى (161/777 ـ 778) (38) • ترتب على وفاة عبد الرحمن الداخل عام 172/788 بأن احد ابنائه « عبد الله البلنسى » قد ثار ضد خلافته التى كانت من نصيب أخيه هشام • عبر الى المغرب واحتمى فى تاهرت بينما كان يحكم الامير الرستمى الثانى عبد الوهاب وذلك منذ العام 168/784 • وظل ماكثا فيها حتى وصلته أخبار وفاة أخيه هشام وتولى العرش ابنه الحكم فى عام 180/796 •

فى هذه الفترة ، يعتقد انه قد وصل الى الاندلس سعيد بن محمد بن‌عبد الرحمن بن رستم ، والد محمد قائد عبد الرحمن الثانى • وعندما صعد عبد الرحمن الى العرش فى عام 206/822 جاء لرؤيته ثلاثة من أبناء الامام الرستمى عبد الوهاب يدعون : عبد الغنى ، بهرام ودهيون ، وعلى ما يحكى لنا ابن سعيد (39) أنه أنفق عليهم ألف دينار ، وفى عودتهم الى المغرب غرقت المراكب الحاملة للشابين الآخرين، وعاد عبد الغنى وحده الى تاهرت بينما كان والده قد توفى ، وخلفه الامام الثالث لبنى رستم «افلح» فى عام 208/823 ، ولقد قام عبد الرحمن الثانى بابلاغ هذا الامام خبر النصر الذى احرز على المجوس ، وكذلك ارسل الامير القرطبى محمد هدية عظيمة عندما تولى الحكم فى 238/852 الى الامام محمد بن افلح وعن الامير محمد يحدثنا ابن حيان (40) : « كان الامير محمد بن عبد الرحمن شديد التهمم بخبر الساحل والعدوة ، مراعيا لما هنالك من اخبار اعدائهم المسودة (يعنى العباسيين) متجسسا عن عمالهم متحولا عنهم لكثير ممن يتعرف عليهم من ملوك البرابر الملقين اليه بالولاية ، فلا تزال رسله وكتبه تتردد الى هذه الطوائف فى البحث عن أخبار بنى العباس بدار مملكتهم ، وأخبار ولاتهم وعمالهم بالشام ومصر ، وافريقية » • هذا الاهتمام المتزايد سوف

---

(38) Gayangos, *The history,* 2 ، 62 ترجم ما قاله المقرى من رحلة عبد الرحمن الداخل قائــلا :

« arrived at Tihart... where he placed himself under the protection of a tribe called the Beni Rustam ».

وسبب هذا خطأ بعض المؤرخين المعاصرين •

(39) ابن سعيد ، المغرب ، I ـ 48 ، انظر *La Berbérie : Marçais* ، ص : 104 •

(04) ابن حيان : المقتبس ، طبعة بيروت صفحات : 265 ـ 266 •

ينعكس على المدونات التاريخية ، يقول مثلا ابن الخطيب (41) : « عن الامير محمد الاموى » : «وخدمته ملوك البلاد المغربية واعترفت بطاعته تاهرت» وابن عذارى (42) ، يؤكد بأن الامير محمد « كان مأمولا ، محبوبا فى جميع البلدان ، وكان محمد بن افلح صاحب تاهرت لا يقدم ولا يؤخر فى أموره ومعضلاته الا عن رأيه وأمره » ٠

هذه العلاقات الطيبة سوف تبدو مرة أخرى عندما هرب عمرو بن حفصون من الاندلس (43) : كما يقول ابن القوطية : « يجاوز البحر الى تيهرت فصار فيها عند رجل من الخياطين كان أصله من رية وكان يخيط عنده فبينما هو جالس فى حانوته اذ اتاه شيخ فسمع الشيخ كلام ابن حفصون ٠٠٠٠ فقال يا منحوس تحارب الفقر بالابرة ارجع الى بلدك فانت صاحب بنى أمية ، وسيلقون منك غيا ، وستملك ملكا عظيما، فقام من فوره، وذلك خوفا من أن يفتش الامر وان يقبض عليه بنو ابى اليقظان وكانوا مالكى تيهرت وولاؤهم لبنى أمية » ٠

من المؤكد ان العلاقات بدت متقلصة فى فترة حكم الامير الاموى المنذر 886/273، 888/275 وانها واصلتذلك بصورة نهائيـة فى عهد الامـير عبد الله ، أو على الاقل فان المصادر لم تعد تذكر لنا شيئا بالنسبة للعلاقات بين تاهرت والاندلس ، علاوة على ذلك هناك حادث له دلالة وهو ان بنى أمية لم يساعدوا الرستميين فى عام 909/296 عندما اضطر هؤلاء لتسليم تاهرت للجيش الفاطمى ٠

(41) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، ص : 24 ٠
(42) ابن عذارى : البيان المغرب ، الجزء الثانى 108 ٠
(43) حسب ما يراه ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ، ص : 91 ـ 92 ، ترجمة Fagnan ص : 233 ـ 234 ، وكذلك ترجمة Ribera ص : 76 ـ 77 ٠
(44) بالنسبة لهذه القضايا : انظر : محمد بن تاويت : دولة الرستميين ، 124 ، 128 أحمد مختار العبادى : سياسة الفاطميين، ص : 193 ـ 209؛ Nègre : *La fin...* ص : 10 ، 22 ٠
Hamdani : *Some considerations...*, 385 - 396.
Hamdani : *Evolution of the Organisation structure of the Fatimi Da wah*, « Arabian Studies » 3, ed. R. B. serjeant and R. L.
Bidwell, Cambridge, 1976, pp. 85 - 114.
Mones : *Le malekisme...*, 197 - 220.
Chikh Bekri : *Le Kharijisme...*, p. 81.
Dachraoui : *Le commencements...*, p. 92.
Nègre : *La fin...*, 10 - 22.

من الممكن تفسير ذلك بثلاثة عوامل (44) : الاول هو الانحلال الكامل للدولة الرستمية والتى مضت بانحطاطها بسبب الحروب الاهلية منذ ان صعد الى السلطة أبو حاتم يوسف فى عام 894/281 حيث بدأت فترة طويلة من الفوضى وبسبب المعارضة التى لقيها الامام من عمه أبو يوسف يعقوب بن افلح هذان المطالبان اللذان سيتبادلان الحكم والعزل عن العرش حتى اغتيل أبو حاتم يوسف فى عام 909/296 ، واحتمى أبو يوسف يعقوب فى ورقلة ، بينما الامير الرستمى الذى بقى فى تاهرت ، الامام يقظان ، قد اغتيل بأمر الداعى الشيعى .

عامل ثانى مهم يجب ان نضعه فى حسابنا الا وهو السرعة التى تم بها الاحتلال الشيعى ، الداعى أبو عبد الله قد تدخل فى افريقية سبعة اعوام ، بدون ان يشعر أحد بأنه سيواصل غزواته فى المغرب الاوسط . ولكنه عندما انتهى من غزو افريقية بدأ الزحف فى حوالى 15 الى 16 من رمضان سنة 296 الموافق 7 ، 8 من شهر يونية عام 909 م ، لكى يصل فى مواجهة تاهرت فى يوم 6 شوال من نفس العام الموافق 28 من شهر يونية من العام المذكور أى انه لم يستغرق فى السير أكثر من عشرين يوما (45) .

السبب الثالث هو أن بنى أمية فى الاندلس كان لهم مشاكلهم الداخلية الخاصة . ففى قرطبة عندما بدأ الامير عبد الله يمارس سلطانه (فى بداية الصيف لعام 888/275) فان الحرب الاهلية اشتعلت فى كل اقاليم الاندلس تقريبا . وكانت منطقة « البيرة » **Elvira** « واشبيلية » Sévilla هما أهم المراكز الخارجية بالاضافة الى « بوباسترو » Bobastro بثائرها الذى لا يقهر عمرو بن حفصون نفس الشاب الذى هرب الى تاهرت (46) . ولم تعدم الايام الاخيرة من حكم الامير عبد الله داعية قريب الشبه جدا بالداعى الفاطمى أبو عبد الله ، مدعيا باسم مهدى أيضا (47) .

(45) Nègre : *La fin.* 15;Dachraoui : *Les commencements...*, p. 92.
(46) ليفى بروفنسال : تاريخ ، ص ، 216 .
(47) ليفى بروفنسال : تاريخ ، ص ، 241 .

الشيء المؤكد ان منطقة تاهرت قد دخلت ضمن المناخ الفاطمي وفي اشكالات جديدة – بداية مختلفة لعلاقات عبد الرحمن الناصر ، الحكم الثاني والمنصور مع المغرب • (48)

العلاقات الرستمية مع الاندلس شكلت بلا ريب مرحلة متكاملة ذات سمات خاصة، تتلاءم مع خطوات التاريخ بالنسبة للاسلام في الغرب وعلى وجه التحديد ما بين الاعوام 178/788 ، 275/888 • هذه العلاقات جديرة بدراسات أكثر لان بعض المعلومات التي تنقلها لنا المدونات التاريخية ترسم لنا صورة في غاية الاهمية • مثلا حالة تواجد شخصيتين اندلسيتين في مجلس الشورى المكون من ستة أعضاء كانت مهمتهم اختيار امام تاهرت (وهو كان الامام عبد الوهاب) وذلك في عام 168/784 ، واحد من هذين الشخصين كان اسمه مسعود الاندلسي والثاني عثمان بن مروان الاندلسي بناء على ما يقوله لنا تاريخ أبو زكرياء الورجلاني • (49)

على كل حال فان فائدة العلاقات الطيبة كانت متبادلة بين الرستميين والامويين في الاندلس • ولربما جددت بطريقة العقود التي عقدت بين الفرس وبين الامويين في المشرق فيقول ابن حزم (50) ، مؤكدا ذلك في كتابه عن انساب العرب : يقول : ابن رستم الجد الاول مؤسس تاهرت الحديثة كان مولى لعمر بن يزيد بن عبد الملك مروان » لكن بكل تأكيد أنه كان لكلا الاثنين يعني للرستميين وللامويين عدوا مشتركا وهم العباسيون والذين مثلهم في افريقية خلال فترة الاغالبة • والخصومة بين العباسيين ضد الامويين من جانب وبين العباسيين والاغالبة ضد الرستميين (51) من جانب آخر موضوع معروف جدا •

(48) ليفي بروفنسال : تاريخ ، ص : 309 ، 311 ، 314 ، 316 ، 320 ، 389 ، 432 ، ومحمد بن تاويت *Relaciones...* ص : 251 – 255 •
VALLVE: *La intervencion omeya...*, 7 - 39.
Yalaoui : *Les relations...*, 13 - 30.

(49) Masqueray : *Chronique d'Abou Zakaria*, 54 - 59.

(50) ابن حزم : الجمهرة ، 474 – 475 •

(51) تذكروا :
Gabrieli, *Omeyyades d'Espagne et Abbassides*, 93 - 100.
Marçais : *La Berbérie...*, espec. Chap. 2 : « La Renaissance du IX[e] siècle », Chap. 3 : « La crise fâtimide ». Veccia, *La vicende del Harigismo...*, 32, 36-38 : « Gli Abbasidi ereditavano dagli Ommiadi il compito di liberare l'Impero dai residui del Harigismo. I seguaci di questa dottrina... impregnata di elementi politici, non avevano aderito alla loro causa ». Vid. H.R. Idris, l'Occident musulman...

علاوة على هذه المصلحة السياسية ، يجب أن اتحدث أيضا عن المصلحة الاقتصادية، ينبغي التفكير فى أنه كانت هناك تجارة نشطة بين تاهرت والاندلس، فالرستميون كان لهم منفذان على البحر المتوسط ، مرسى فـروج ومرسى خرث (52) • ومما له دلالته أيضا ان سور المدينة كان به أربعة أبواب اسماؤها تعكس بوضوح اتجاهاتها : من ذلك ان احد هذه الابواب كان يسعى باب الاندلس (53) • كانت تاهرت الحديثة التى أسسها الرستميون على بعد 9 كيلومترات جنوب شرق مدينة تيارت Tiaret الحالية وكانت تاهرت الحديثة عاصمة منطقة واسعة ذات حدود متبادلة وانها اثناء ذروة ازدهارها قد وصلت هذه المنطقة من تلمسان غربا حتى طرابلس شرقا (54) ، لقـد كان اختيار مكان المدينة موفقا تماما لموقعها الاستراتيجى الهام حيث كانت تفترق عندها مناطق مختلفة ، مثل المناطق الجبلية من جهة ، والمناطق السهلية من جانب آخر تلك المناطق التى اتجهت الى تاهرت بغرض تبادل سلعها مثلما يحدث فى الايـام الحالية مع مدينة تيارت Tiaret فتاهرت :

« est vite devenue un grand marché de rencontre entre pasteurs nomades et agriculteurs du Tell (55).

بدون شك تاهرت مركزا لطريق تجارى ربط الاندلس بافريقيا السوداء (56) • فى تاهرت وصل الامر الى تأسيس قيصرية (57) • اليعقوبى ذكر تاهرت بطريـق المغرب الرئيسى (58) • وانه لطريف خط الطريق المذكور الى جزيرة الاندلس :

« Pour se rendre dans la péninsule de l'Espagne on va de Kairouan à Tunis... On s'embarque à Tunis... et après une traversée de dix jours... on arrive, en face de la péninsule

---

(52) Les Pays, 217. 301 – 343 اليعقوبى : Lewicki : La répartition...

(53) ابن عذارى : البيان المغرب ، 1 ، 25 ، 26 البكرى : المغرب ، ص 66 •
Nègre, La fin..., 10 - 11 ; Marçais - Dessus Lamare : Tîhert - Tagdempt, 177.

(54) ابن الصغير ، ص 17 ، الترجمة ، ص 73 • فى عام 224/839 فقد الرستميون اقليم طرابلس •

(55) Despois-raynal : Géographie... ; 118 - 118.

(56) Marçais : La Berbérie, 110. Lewicki : Traits d'histoire..., 291 - 311. Lévi-Provençal Historia..., 159 - 160.

(57) محمد بن تاويت : دولة الرستميين ، ص 122 تعليق رقم : 5 •

(58) يعقوبى : Les pays ص221 .

espagnole, en un point nommé Ténès, qui se trouve à quatre journées de marche de Tahert. On peut aussi continuer (à longer la côte) jusqu'à (la principauté de) Tahert de façon à se trouver droit en face de la péninsule espagnole. On traverse le bras de mer en un jour et une nuit, et l'on aborde (al-Andalus) (59).

هذا يوضح لنا الثبات الذى احتفظ به هذا الطريق من الاتصال بين تاهرت والاندلس ·

اعتبرت تاهرت ذات مركز استراتيجى رائع من وجهة النظر العسكرية والذى بلا شك حمل الامير عبد القادر على الاقامة فيه فى العصور الحديثة · (60)

لكن الاستقرار الذى هو أساس التطور الاقتصادى كان يرى مضمونا بفضل وجود حكومة مستقرة ، قادرة على وضع النظام ، وبالاضافة الى هذا كانت لائمة الرستميين سمعة روحية ومكانة فكرية · انهم بارزون ــ كما يقول :

(61) A. BEL : « Par leur simplicité, par leur piété, par leur science ».

تاريخ أبو زكريا ملئ بالامثلة على علم ومعرفة الرستميين يدل على ذلك أنه خلال المناقشات العلمية كان العلماء يجادلون وجميع الحاضرين يفهمونهم (62) :

« Mais bientôt ils passèrent à des sciences élevées, dont la compréhension échappait à leurs auditeurs, excepté à l'Imâm, qui pouvait encore les suivre ».

« Mohamed b. Aflah avait composé de nombreux ouvrages clairs et victorieux pour répondre aux dissidents » (63).

Abd al-Wahhab « fait copier des livres en Orient » (64).

خلال وقت ما ــ الوقت الذى وصلت فيه الى قمة الازدهار الاسرة الرستمية كان ــ الموقف رائعا ، ترك لنا فى عملين تاريخيين رئيسيين عن تاهرت اقصد كتاب **التاريخ** لابى زكريا وكتاب **التاريخ** لابن الصغير ــ ما يثبت انها كانت فترةنموذجية (65) ، نسبت لها صفات الكمال ·

اشكركم على حسن استماعكم ، والحمد لله ·

(59) نفس المصدر ، ص 217 ·

(60) Marçais - Dessus Lamare : *Tihert - Tagdempt,* 174 : n. 9.
(61) A. Bel : *La Religion...,* 148 - 149.
(62) Masqueray : *Chronique d'Abou Zakaria,* 104.
(63) Masqueray : *Chronique d'Abou Zakaria,* 79 - 80.
(64) Masqueray : *Chronique d'Abou Zakaria,* 80 ; Marçais, *La Berbérie...,* 114.

(65) مما يدل على المكانة العظيمة التى احتلها الرستميون ان ميمون بن الرستمية قد تولى العرش فى سجلماسة لانه ابن احدى حفيدات الرستميين ، ولقد لمح لذلك تقريبا ابن عذارى فى البيان ج 1 ، ص 157 ، (ومثال متشابه عند محمد بن تاويت دولة الرستميين ، ص 113، وانه منسوب الآن الى بنى يفرن، نستعمل هذا المثل الثانى مقارنة) ·

المـــراجـــع

القسم الاول : المصادر العربية :

1 ـ ابن الأبار : **الحلة السيراء** ، تحقيق حسين مؤنس ، القاهرة ، الشركة العربية للطباعة والنشر 1963 ، جزآن .

2 ـ ابن الأبار : **التكملة** : انظروا فى القسم الثانى تحت « Alarcon »

3 ـ ابن حزم : **جمهرة انساب العرب** ، تحقيق ليفى بروفنسال ، القاهرة ، دار المعارف بمصر ، 1948 .

4 ـ ابن حزم : **الفصل فى الملل** ، تحقيق عبد الرحمن خليفة ، القاهرة ، مطبعة محمد على صبيح وأولاده ، 8 ـ 1928/1347 ـ 1929 ، خمسة أجزاء (أنظروا فى الترجمات تحت Asin).

5 ـ ابن حيان : **المقتبس من انباء أهل الاندلس** ، تحقيق محمود على مكى ، القاهرة، المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية ، 1971/1390، وبيروت دار الكتاب العربى، 1973/1393 .

6 ـ ابن الخطيب : **كتاب أعمال الاعلام** ، تحقيق ليفى بروفنسال ، الربـــاط ، 1934/1353 .

7 ـ ابن سعيد : **المغرب فى حل المغرب** ، تحقيق شوقى ضيف ، القاهرة ، دار المعارف بمصر 1964 ، جزآن .

8 ـ ابن الصغير : أنظروا « القسم الثانى : المترجمات » تحت : « Motylinski »

9 ـ ابن عذارى : **البيان المغرب فى أخبار الاندلس والمغرب** ، تحقيق ج. س. كولين ـ ا. ليفى بروفنسال ، ليدان ، ا. خ. بريل ، 1951 ، جزآن .

10 ـ ابن القوطية : **تاريخ افتتاح الاندلس** ، مدريد ، مطبعة ريباد ينيزا ، 1968 (انظروا فى « المترجمات » تحت : " Ragnan ", " Ribéra ".

11 ـ ابن زكـريا الورجلانى : أنظروا فى « القســم الثانى المترجمات تحـت : " Masqueray ", " Tourneau "

12 ـ البكرى : **المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغـــرب** ، تحقيق دى ســلان ، الجزائـــر 1857 .

13 ـ العذری : **نصوص من الاندلس** ، تحقيق عبد العزيز الاهوانی ، مـدريد ، معهد الدراسات الاسلامية ، 1965 .

14 ـ اليعقوبی : انظروا فی « المترجمات » تحت : "WIET"

القسم الثاني ـ المترجمات والدراسات الحديثة :

1 ـ أحمد مختار العبادی : **سياسة الفاطميين نحو المغرب والاندلس** ، « صحيفة معهد الدراسات الاسلامية فی مدريد » 5 (1957) 193 ـ 226 .

2 ـ محمد بن تاويت : **دولة الرستميين اصحاب تاهرت** ، « صحيفة معهد الدراسات الاسلامية فی مدريد » 5 (1957) 105 ـ 128 .

3 ـ محمود علی مكی : **التشيع فی الاندلس منذ الفتح حتی نهاية الدولة الاموية** ، « صحيفة المعهد المصری للدراسات الاسلامية فی مدريد » 2 (1954) 93 ـ 145 .

4 - Alarcón, M. - A. Gonzalez-Palencia (eds.) : *Takmila* de Ibn Al-Abbâr : *Apéndice a la edición Codera de la « Tecmila » de Aben al-Abbar,* « Miscelànea de Estudios y Textes Arabes », Madrid, Junta para Ampliacion de Estudios, 1915, pp. 149 - 690.

5 - Asin Palacios, Miguel : *Abenhàzam de Cordoba y su historia critica de las ideas religiosas,* Madrid, Academia de la Historia, 1927 - 32, 5 t.

6 - Bel, Alfred : *La Religion Musulmane en Berbérie. Esquise d'histoire et de sociologie religieuses.* Tome I : *Etablissement et développement de l'Islam en Berbérie du VII*[e] *au XX*[e] *siècle,* Paris, Librairie Orientaliste Paul Geuthner, 1938.

7 - Chikh Bekri : *Le Kharijisme berbère. Quelques aspects du royaume rustumide,* « Annales de l'Institut d'Etudes Orientales d'Alger », XV (1957) 55 - 108.

8 - Dachraoui, Farhat : *Les commencements de la prédication ismaïlienne en Ifriqiya,* « Studia Islamica », XX (1964) 89 - 102.

9 - Despois, Jean - Raynal, René : *Géographie de l'Afrique du Nord-Ouest,* Paris, Payot 1967.

10 - Fagnan, E. : *Extraits inédits relatifs au Maghreb* (*Géographie et histoire*), trad. franc., Argel, 1924.

11 - Gabrieli, Francesco : *Omeyyades d'Espagne et Abbassides,* « Studia Islamica », XXXI (1970) 93 - 100.

12 - Gayangos, Pascual de : *The history of the Mohammedan Dynasties in Spain* : extracted from the Nafhu-t-tib... by... Al-Makkari... translated by..., Londres, 1840 (Reproducido por Johnson Reprint Corporation, U.S.A., 1964) 2 t.

13 - Hamdani, Abbas : *Some considerations on the Fâtimid Caliphate as a Mediterranean* power, « Terzo Congresso di Studi Arabi e Islamici, Ravello, 1966 », Atti, Napoli, Istituto Orientale, 1967, pp. 385 - 396.

14 - Idris, Hady Roger : *L'Occident musulman à l'avènement des 'Abbassides, d'après le chroniqueur ziride al-Raqiq,* « Revue des Etudes Islamiques », XXXIX (1971) 209 - 291.

15 - Idris, H. Roger : *Réflexions sur le malikisme sous les Omeyyades d'Espagne,* « Terzo Congresso di Studi Arabi e Islamici », Ravello, 1966 », *Atti,* Napoli, Istituto Orientale, 1967, pp. 397 - 414.

16 - Lévi-Provençal, E. : *Histoire de l'Espagne musulmane,* trad. espanola por E. Garcia Gomez : *Espana musulmana hasta la caida del Califato de Cordoba* (711 - 1031 de J.C.), « Historia de Espana dirigida por R. Menendez-Pidal », tomo IV, Madrid, Espana Calpe S.A., 1967.

17 - Lévi-Provençal, E. : *Un échange d'ambassades entre Cordoue et Byzance au IX*[e] *siècle,* « Byzantion », XII (1937) 1-24, reprod. en : *Islam d'Occident. Etudes d'Histoire médiévale,* Paris, G.P. Maisonneuve et Cie., 1948, pp. 81 - 107.

18 - Lewicki, Tadeusz : « al-Ibâdiyya », *Encyclopédie de l'Islam,* Nouvelle édition, Leiden-Paris, E.J. Brill y G. P. Maisonneuve et Larose, 1971, III, pp. 669 - 682.

19 - Lewicki, T. : *La répartition géographique des groupements ibadites dans l'Afrique du Nord au Moyen-Age,* « Rocznik Orientalistyczny », XXI (1957) 301 - 343.

20 - Lewicki, T. : *Traits d'histoire du commerce transsaharien. Marchands et missionnaires ibadites en Soudan occidental et central au cours des VIII*[e] *- XII*[e] *siècles,* «Etnografia polska », VIII (1964) 291 - 311.

21 - Marçais, Georges : « Rustemids », *Encyclopédie de l'Islam,* Leiden-Paris, E.J. Brill y C. Klincksieck, 1936, III, pp. 1270 - 1271.

22 - Marçais, G. : *La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen-Age,* Paris, Aubier, (1922).

23 - Marçais, G. et A. Dessus-Lamaré : *Tîhert-Tagdempt,* « Mélanges d'Histoire et d'archéologie de l'Occident musulman », I : Articles et conférences de G. Marçais, Argel, Imprimerie officielle, 1957, pp. 171 - 193.

24 - Masqueray, E. : *Chronique d'Abou Zakaria,* trad. franc., Argel, 1879.

25 - Mones, Hussain : *Le rôle des hommes de religion dans l'histoire de l'Espagne musulmane jusqu'à la fin du Califat,* « Studia Islamica », XX (1964) 47 - 88.

26 - Mones, Hussain : *Le malékisme et l'échec des Fatimides en Ifriqiya,* « Etudes d'Orientalisme dédiées à la mémoire de Lévi-Provençal », Paris, G. P. Maisonneuve et Larose, 1962, II, pp. 197 - 220.

27 - Motylinski, A. de C. : *Chronique d'Ibn Saghîr sur les imams rostemides de Tahert,* ed., trad. française, « Actes du XIV*[e]* Congrès Intern. des Orientalistes », Alger, 1905 (3[e] partie, suite), Paris, 1908, 3 - 132.

28 - Muhammad B. Tâwît (Mohammed Bentawait) : *Relaciones entre les Omeyas de al-Andalus y los Idrisies,* « Primer Congreso de Estudios Arabes e Islamicos, Cordoba, 1962 », *Actas,* Madrid, 1964, 251 - 255.

29 - Nègre, André : *La fin de l'Etat rustumide,* « Revue d'Histoire et de Civilisation de Maghreb », VI - VII (juillet, 1969) 10 - 22.

30 - Nègre, André : *A propos d'une expédition fatimide à Wargilan (Ouargla) d'après Abu Zakariya al-Wargilani,* « Revue d'Histoire et de Civilisation du Maghreb », X (1973) 37-39.

31 - Ribera, Julian : *Historia de la conquista de Espana de Abenalcotia el Cordobes...*, traducccion de...,, Madrid, Real Academia de la Historia, 1926.

32 - Sourdel, Dominique : « *Wazir » et « Hagib » en Occident,* « Etudes d'Orientalisme dédiées à la mémoire de Lévi-Provençal », Paris, G.P. Maisonneuve et Larose, 1962, •II, pp. 749 - 755.

33 - Tourneau, Roger Le : « *La Chronique » d'Abû Zakariya al-Wargilani* (*m.* 471 *H.* - 1078 J.C.), Traduction annotée, « Revue Africaine », CV (1961) 117•- 176.

34 - Vallvé, Joaquin : *La intervencion omeya en el Norte de Africa,* « Cuadernos de la Biblioteca Española de Tetuan », IV (septiembre 1967) 7 - 39.

35 - Veccia Vagliéri, Laura : *Le vicende del Harigismo in epoca abbaside,* « Revista degli Studi Orientali », XXIV (1949) 31 - 44.

36 - Wiet, Gaston : *Ya'kubi, Les pays,* traduit par..., El Cairo, Institut Français d'Archéologie Orientale, 1937.

37 - Yalaoui, M. : *Les relations entre Fatimides d'Ifriqiya et Omeyyades d'Espagne à travers le Diwan d'Ibn Hani,* « II Coloquio Hispano Tunecino Estudios Historicos (Madrid - Barcelona, mayo de 1972) », *Actas,* Madrid, Instituto Hispano Arabe de Cultura, 1973, pp. 13 - 30.

النقطة 2

الإسلام في إفريقيا اليوم



محمد عبد الله عنان
مؤرخ وعضو مجمع اللغة العربية
القاهرة ــ مصر

لا شك ان الاسلام في القارة الافريقية ، قد دخل من بعد الحرب العالمية الثانية في مرحلة جديدة من الانتعاش والنهوض . وتضم القارة الافريقية من السكان ، وفق آخر الاحصاءات نحو مائتين وخمسين مليونا من الانفس ، ومن هؤلاء نحو النصف من المسلمين . منهم في شمال القارة من مصر الى المغرب نحو سبعين مليونا ، موزعين كالآتي : مصر ، أربعون مليونا ، وليبيا مليون ونصف ، وتونس أربعة ملايين ، والجزائر خمسة عشر مليونا ، ومثلها في المغرب ، ومليون واحد في موريتانيا . وفي غرب افريقية في مختلف اقطاره يوجد نحو اربعين مليون مسلم ، منهم في جمهورية نيجيريا الاتحادية وحدها نحو ثلاثين مليونا ، وهي أكثر وحدة مسلمة من السود في القارة الافريقية ، ويوجد في شرق افريقية في السودان نحو ستة ملايين ، وفي الحبشة أكثر من عشرة ملايين من المسلمين ، وهو نحو نصف سكانها ، وفي أوغندة يوجد نحو ثلاثة ملايين مسلم ، وفي كينيا نحو ستة ملايين ، وفي موزمبيق نحو اربعة ملايين ، وفي جزائر موريشوس نحو مائة وخمسين ألفا .

وقد كانت هذه الكتلة الاسلامية الكبيرة ، حتى الحرب العالميـة الثانية ، ترزح في مختلف البلاد التي تعيش فيها تحت نير الاستعمار العسكري. فمصر كانت ما تزال تكافح في سبيل استكمال المراحل الاخيرة من استقلالها وكانت ليبيا تحت حكم الاستعمار الايطالي ، والكتلة المغربية من تونس الى المغـرب ترزح تحت وطأة الاستعمار الفرنسي المرهقة . وكذلك كتلة البلاد التي في غرب افريقيـة فيما عدا نيجيريا الواقعة تحت حكم الاستعمار البريطاني كلها تحت حكـم الاستعمار الفرنسي . وكانت اوغندا وكينيا وزنجبار في شرق افريقية ترزح تحت حكم الاستعمار البريطاني ، وموزمبيق تحت حكم الاستعمار البرتغالي .

ويمكنا أن نقول ان الاحتلال الفرنسي للبلاد الواقعة في شمال افريقية ، وفي غربيها ، كان أشد وطأة من اي استعمار آخر في نواحي القارة . وكان هـذا الاحتلال يتميز بالاخص في البلاد المغربية الثلاثة تونس والجـزائـر والمغـرب الاقصى ، بشدته وقسوته المتناهية . وكان يتميز كذلك بتدخله المنظم في شئون هذه البلاد الدينية ، واخضاع المسلمين فيها لتوجيهاته الهدامة ، واصـدار التشريعات العديدة المخالفة لمبادىء الشريعة الاسلامية بها ، بل وتحويل بعض مساجدها الى كنائس دون حياء ولا حرج. وكان يضع المعاهد العلمية الاسلامية تحت ادارة الفرنسيين النصارى . وكان هذا يجري في الجزائر بصفة خاصة ، حيث كان الاستعمار الفرنسي يعتبر هذا القطر الاسلامي العريق أرضا فرنسية، تؤلف احدى ولايات فرنسا وكان يجري على مثل هذه السياسه الدينية في تونس وفي المغرب . وقد حاول في أواخر ايامه في المغرب أن يفصل بين الكتلتين التي يتألف منها الشعب المغربي ، أي العرب والبربر ، فعمل على استصدار الظهير المشهور ، باعتبار البربر طائفة خاصة ، ووضع لتعليمهم برامج بربرية خاصـة تبعدهم عن اللغة العربية والدين الاسلامي . وكان تدخله في الشؤون الدينية لامم غربي افريقية السوداء ، أشد واكثر جراة . فالى جانب التشريعات المختلفة المخالفة لمبادىء الشريعة الاسلامية، كان هذا الاستعمار يمعن في امداد جهود البعثات التبشيرية ، ويشد ازرها في تنصير الاعداد الكثيرة من أبناء هذه الشعوب ، حيث لم تكن العقيدة الاسلامية ، في هذه البلاد ، محوطة بسياج من الشرح والتنوير . وكان الاستعمار يحول دون دخول العلماء والوعاظ المسلمين ، والكتب الاسلامية اليها ، لتبقى شعوبها فريسة لسياسته الدينية الغاشمة .

أما عن الاستعمار البريطاني ، فيمكن القول انه كان اخف وطأة واكثر اعتدالا في تدخله في الشؤون الدينية للبلاد الاسلامية الواقعة تحت حكمه ، وان لم يكن يعف عن تشجيع البعثات التبشرية ، ولكن بوسائل دقيقة مستورة . وقـد شهدنا نحن بمصر هذا الاعتدال في توجيه أهداف الاستعمار الدينية . وربما كان ذلك راجعا بالاخص الى شدة رسوخ العقيدة الاسلامية بمصر ، ووجود المعاهد

والهيئات الدينية والشرعية العريقة بها ، وفي مقدمتها الجامع الازهر والمحاكم الشرعية ، ومختلف المعاهد الدينية .

على ان الاستعمار البريطاني ، كان من جهة اخرى ، يعمل في بلاد افريقية السوداء ، التي يسيطر عليها مثل نيجيريا واوغندا وكينيا على محاربة الاسلام وكبته ، ومناصرة البعثات التبشيرية على نشر الدين النصراني مكانه ولا سيما بين اهل القبائل البدائية ، وعلى منع اي اتصال ديني او تعليمي اسلامي بين هذه البلاد وبين بلاد الشرق الاسلامي . ومن ثم فقد كان انتشار الاسلام في هذه البلاد ، وفي ظل هذه السياسة الاستعمارية محدودا ، وكان انتشار الدين النصراني بين المواطنين السود في ظلها أكثر يسر وتقدما . ويجب أن لا ننسى بهذه المناسبة أن أعظم الرحالة والمكتشفين الانجليز لجنوب القارة الافريقية وأوسطها في العصر الحديث ، وهو وليم لفنجستون ، كان قسيسا ومبشرا ، وان الجمعية التبشيرية الرئيسية في لندن هي التي بعثته في سنة ١٣٤١ فيرحلاته الاستكشافية ، أولا الى جنوب افريقية حيث تجول في كثير من انحائه ، وبذل جهودا كبيرة في الاتصال بالوطنيين السود واجتذابهم الى اعتناق الدين المسيحي، وثانيا رحلته الثانية الىأواسط افريقية، ومنطقة منابع النيل وبحيرتي نياسا وتاتجانيقا ، حيث قام بنفس الجهود التبشيرية خلال جولاته الاستكشافية .

وهناك في شرق افريقية كتلة اسلامية كبيرة تعاني منذ أمد طويل مطاردة منظمة واضطهادا لا يهدأ من قبل السلطات الحاكمة . تلك هي الكتلة الاسلامية في الحبشة . وهذه الكتلة يبلغ تعدادها أكثر من عشرة ملايين من الانفس ، مما يبلغ نصف سكان الحبشة على الاقل ، وهم الآن اربعة وعشرون ميلونا . وتوجد هذه الكتلة الاسلامية في شمال الحبشة ، وفي شرقيها وجنوبها ، ولا سيما في منطقة هرر . وقد زادت أخيرا نحو مليون بما انضم اليها من مسلمي منطقة اريثريا ، التي ضمت قسرا الى الحبشة نتيجة لاجراءات هيئة الامم المتحدة . ونحن نعرف ان الحبشة الرسمية تدين بالمذهب المسيحي التابع للكنيسة الارثوذكسية التي توجد رياستها الدينية بمصر ، وهي الكرازة أو البابوية المرقسية القبطية ، ومن الإسف ان ملوك الحبشة وحكامها يخضعون الكتلة الاسلامية منذ زمن طويل لاضطهاد شديد منظم ، وذلك بالرغم مما نصت عليه القوانين الحديثة من المساواة بين المواطنين الاحباش على اختلاف مذاهبهم في الحقوق والواجبات . وقد كان امبراطور الحبشة الاخير ، وهو الامبراطور هيلا سيلاسي ، من اشد حكام الحبشة وطأة على المسلمين وكبتا لهم . ويتضمن تاريخ الحبشة فصولا مؤسية من هذا الاضطهاد المنظم ، ولا سيما منذ عزل الامبراطور السابق ليجي يسو ، وهو من ام مسلمة خلال الحرب العالمية الاولى، وذلك لما أبداه هذا الامبراطور من ميول واضحة لتركيا المسلمة ، المتحالفة يومئذ

مع امبراطورية النمسا والمجر والمانيا،مما ترتب عليه قيام حركة شديدة لعزله . وقد عزل واعتقل ، ووليت مكانه الامبراطورة زوريتو ابنة الامبراطور منليك الثاني ، وعين الراس تغري ، وهو يومئذ حاكم هرر ولي عهد لها . ولم يكن الراس ثفري هذا ، سوى هيلا سلاسي ، الامبراطور الذاهب . ولما ضعفت حكومة زوديتو ، اختير الراس تغري مكانها وبموافقتها امبراطورا للحبشة،وذلك في سنة ١٩٣٠ .

وقد عاني المسلمون تحت حكم هذا الامبراطور المتعصب ، الذي استمر في رياسة الحبشة حتى سنة ١٩٧٤ ، مع فترات عزل متقطعة أيام الاحتلال الايطالي ، والحرب العالمية الثانية ــ عاني المسلمون الاحباش امر ضروب الكبت والاضطهاد . وبالرغم من أن مصر المسلمة ، تتعاطف مع مسلمي الحبشة ، وتتألم لما يصيبهم من ضروب المظالم ، فانها لم تبد تذمرها بصفة رسمية ، ولا أن تقوم بأية حركة لمعاونة المسلمين ، نظرا لمركزها الدقيق في كونها مثوى رياسة الكنيسة الاثوذكسية القبطية المصرية ، التي تتبعها الحبشة ، وسائر أساقفتها بالحبشة من رهبان الكنيسة القبطية المصريين . وقد ترتب على ذلك أن الصحافة المصرية تقف ازاء هذه المسألة موقف الحياد والصمت، وتمتنع عن مهاجمة السياسة الحبشية نحو المسلمين حرصا على كرامة الكنيسة القبطية ، وعلى عدم احراج الحكومة المصرية ذاتها . وما زال هذا الوضع قائما مع شديد الاسف . ونحن لانعرف الآن مايحدث في الحبشة تحت الحكم العسكري الجديد ، لانه يخمد كل الاصوات ، ولا يتسرب عن الحبشة من الاخبار الا ماتذيعه السلطات الرسمية وفقا لوجهات نظرها .

ونستطيع أن نقول ان الاسلام في افريقية ، ولا سيما في شمال افريقية ، يجوز في وقتنا الحاضر ، حسبما قلنا في فاتحة هذا المقال ، مرحلة جديدة من الانتعاش والنهوض ، فقد استرد في ظل أوطانه الحرة منعته وكرامته وحرياته في تكييف مصايره . وبالرغم من أن البعثات التبشيرية ، تتسرب حتى اليوم الى الامم الاسلامية المتحررة تحت صفات وضروب مختلفة ، من طبية وتمدينية وانسانية ، فان الحركة التبشيرية القديمة قد انهارت جهودها ، وحصرت في أضيق الحدود . وقد استعادت الدول الافريقية الاسلامية المتحررة حرياتها في صوغ تشريعاتها وفق ماتحبه من أصول الشريعة الاسلامية . وقد ردت الى المساجد المنصرة في الجزائر صبغتها الاسلامية ، وحولت معظم الكنائس الى مساجد عامرة بالمصلين . وقد رأينا مسجد كتشاوة الجامع في قلب العاصمة الجزائرية ، وقد ظهر من الآثار الكنيسة ، وما زالت آثار الصليب الكبير الذي كان ملصقا بواجهته قائمة تشهد بفجر الاستعمار الفرنسي الديني . وقد رأينا

الكنيسة الكبرى في مدينة سطيف، تجري فيها الصلاة الاسلامية، وهي كنيسة قائمة بصرحها القديم الشامخ ، الى أن يتاح تحويل بنائها الى طراز المسجد الاسلامي . وتعقد الآن المؤتمرات الاسلامية الكبرى في مختلف البلدان الاسلامية ، وتصدر فيها مختلف القرارات المؤيدة لعزة الاسلام ونصرته، والرامية الى اصلاح ماتسرب الى أصوله وأحكامه من مختلف ضروب التحوير والزيغ . ولا بد لنا أن ننوه في هذا المجال بما حققته الملتقيات الجزائرية الاسلامية الكبيرة ، وهي تبلغ الآن حولها الحادي عشر ، من نتائج عظيمة في القاء الاضواء الكثيرة على أصول الاسلام وأحكامه وشريعته ، وعلى تاريخ الاسلام وأحداثه وأمجاده ، وعلى مايجب القيام بهمن ضروب التجديد والاصلاح لكثير من اوضاعه وواقع أبنائه، والقاء الاضواء أخيرا على كثير مما اتهم به الاسلام ، عقيدته وشريعته ، من آراء وأحكام ونظريات خاطئة أو مغرضة للنيل من اصوله ومعتقداته . وهذا فضلا عما حققته بين علماء الاسلام من مختلف اقطاره من الاتصال الوثيق الفكري والديني والاجتماعي العميق .

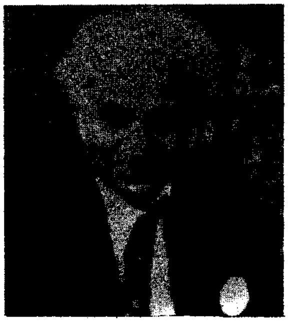
وامامي للتدليل على الحركة الاسلامية التي تجيش بها القارة الافريقية في الوقت الحاضر مثلان عمليان قرات عنهما في الصحف منذ أسابيع قلائل فقط ، وأولهما ان مجلس التنسيق الاسلامي الافريقي الذي أسس في نواكشوط عاصمة موريتانيا، قد اجتمع في شهر ديسمبر الماضي في دكار عاصمة السنغال ليعمل على تنظيم الخطط العملية لتنسيق جهود الجمعيات الاسلامية في افريقية ، وعلى أن يحمل لواء الدعوة والارشاد الاسلامية ، وأن يعمل على رفع المستوى الثقافي للشعوب الافريقية . وقد اشترك في هذا المؤتمر أثنا عشر بلدا افريقيا ، هي تونس وافريقية الجنوبية وزامبيا ، والسنغال ، وسيراليوني، وفولتا العليا ، وغانه ، وكنيا ، وليبيا ، والمغرب وموريتانيا ، ونيجيريا ، وانتخب له مجلس تنفيذي من ستة عشر عضوا ، وتقرر أن تكون دكار هي المركز الرئيسي لمجلس التنسيق الاسلامي الافريقي .

وثانيهما هو انه تجري في الوقت الحاضر مباحثات بين السودان ومصر لتنظيم الدعوة الاسلامية في افريقية ، وانشاء المركز الاسلامي الافريقي ، الذي قدرت تكاليفه بنحو مليوني جنيه ونصف سوداني في مدينة الخرطوم عاصمة السودان ، وذلك لكي يعمل على اعداد وتخريج دعاة للاسلام من أبناء القارة الافريقية ، وقد اجتمع مفتي الجمهورية السودانية بمدينة القاهرة أخيرا مع وزير الاوقاف وشئون الازهر لهذا الغرض .

ومن جهة أخرى فان الاسلام في مختلف الدول الافريقية ، الشرقية والغربية ، مثل أوغندا وكنيا وزنجبار ، والسنغال ، وغانة ومالي وغيرها ، يتمتع الآن بالحماية والحرية والصون ، ويتطلع في مواطنه الصغيرة ، الى الشقيقات الكبرى ، لتزويدها بالاساتذة والوعاظ ، وبالمصاحف الشريفة والكتب الاسلامية المختلفة . والشقيقات الكبرى كلها ، وفي مقدمتها مصر ، بحكومتها وأزهرها ومعاهدها الدينية ، تتسابق الى تقديم هذا العون الكريم الى الجاليات المسلمة في سائر انحاء الدول الافريقية المتحررة .

هذه لمحة عابرة عن حالة الاسلام اليوم في القارة الافريقية . وانها في الواقع لحالة تحمل على الطمأنينة والتفاؤل بمستقبل الاسلام في تلك المنطقة الهامة من العالم . بيد انه مما لا شك فيه أن الاسلام في افريقية وهو ما يزال في بداية يقظته يحتاج الى كثير من العون والتوجيه المستنير ، من جانب الامم الاسلامية الكبيرة القادرة في القارة الافريقية وغيرها ، لكي تضع امكانياتها لخدمة الاسلام وتعزيزه ، وشرح تعاليمه بين الجاليات الاسلامية في دول افريقية السوداء .

الملتــقى الثـــامن للفـــكر الاســـلامى



صبرى أبو المجـــد
رئيس قلم تحرير
مجلة «المصور» ــ القاهرة

فجأة وبدون أية مقدمات أو ترتيبات سابقة،وجدت نفسى انتقـــل بالطائرة من شبه القارة الهندية الى الجزائر.لقد تلقيت وانا فى الهند دعوة للمشاركة فى أعمال الملتقى الثامن للفكر الاسلامى وانا مـــن غلاة المعجبين بفكر الملتقيات الاسلامية التى يحضرها علماء مبرزون فى تخصصاتهم وشباب لم يتجاوز بعد أعمار الزهور حيث يضفى العلماء على الشباب فيضا من علمهم وتجاربهم ، وقد اشتركت فى العام الماضى فى الملتقى السابع الذى عقد بمدينة تيزى وزو بالجزائر ورأيت عن كثب كيف يتصارع أكثر من مائة عالم ومفكر اســـلامى بالحجة والمنطق، والعلم، وكيف يشركون ألف شاب مسلم فى عملية التصارع تلك التى تضفى على الفكر الاسلامى مزيدا من التفتـــح والازدهـــار ٠

ثم ان الملتقى يعقد بالجزائر ولى مع الجزائر أكثر من قصـــة حب : عشقتها طفلا، ويافعا، وشابا، وظللت باستمرار احاول المشاركـــة بالكلمة المطبوعة والكلمة المنطوقة فى قضية تحريـــرها كطالب وصحفى وسياسى وطنى ، وحرصى على رؤية الجزائر وخاصة بعـــد العاشر من رمضان يحرضنى بكل قوة على ان اذهب الى الجزائر البطلة، ثم ان الدعوة تجيئنى من الاخ والصديق مولود قاسم وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية فى الجزائر ٠٠٠ ومولود قاسم من وجهة

نظرى المبنية على العلم والتجربة من خيرة شباب الوطن العربى والامة الاسلامية،فلقد جمع الى حماسه المتدفق وغيرته المتوثبة دوما علما صافيا امتزجت فيه الثقافة الاسلامية بعلوم العصر ، فكان خير مثال للاصالة والتفتح · كل ذلك دفعنى رغم مرضى وتعبى وارهاقى الى تلبية الدعوة والذهاب من باكستان والهند وبنجلاديش الى الارض الحبيبة،أرض المليون ونصف مليون شهيد ·

وقبل ان أصل الى الجزائر وبالتحديد فى منتصف المسافة بين تونس والجزائر تحولت رحلة الطيران الهادئة الناعمة الى رحلة شاقة عنيفة·· فلقد تقلب الجو فجأة الى درجة من السوء لم تحدث مرة واحدة من قبل خلال الخمسين سنة الماضية · أصبحت طائرتنا كريشة فى مهب الريح لا تستقر على حال من كثرة ما مر بها من أزمات جوية عنيفة ·· تهبط فجأة الى اسفل ، وترتفع فجأة الى أعلى وتتأرجح بقوة وعنف ذات اليمين وذات الشمال وكانها فقدت توازنها تماما بصورة جعلتنا كلنا نتوقع بين لحظة وأخرى وقوع المأساة · وبصورة لا شعورية أخرجت أوراقى وقلمى وحاولت بين الضجيج والصراخ ان أدون بعض خواطرى لعل زميلا صحفيا ــ اذا ما قدر الله ووقعت المأساة ــ يجد فى تلك الخواطر وصفا لمشاعر الانسان عندما يواجه محنة الموت ولكن الله سلم ·

وهبطت الطائرة بسلام ، وان كانت قد نزلت فى غير المكان الذى حدد لها النزول فيه . وكان المطر غزيرا وعنيفا وكانه افواه قرب ممتلئة تريد ان تفرغ ما فى جوفها بسرعة،حتى ان المطار كله تحول الى بركة حقيقية من المياه ·

وانستنا حرارة الاستقبال كل ما حدث لنا.وبعد لحظات قصيرة كنا نتحدث عن الحياة بعد ان كنا نواجه بين لحظة وأخرى الموت وكانت الساعة السابعة مساء فأصررت على الذهاب مباشرة الى بجاية ــ على بعد ثلاثمائة كيلومتر من مدينة الجزائر ــ حيث ينعقد الملتقى · ونصل الى بجاية بعد خمس ساعات كاملة ونظل تائهين فى الجبال ثلاث

ساعات بحثا عن فندق الحماديين الذى نزلت به الوفود ولم يكن يبعد عن بجاية نفسها أكثر من سبعة عشرة كيلومترا ٠

لقد لف الظلام المنطقة باسرها بصورة مزعجة للغاية ٠ ولم تنقطع الامطار لحظة واحدة طوال الليل حتى لقد قطعت الامطار الطرق ، وازالت السيول مناطق كثيرة باسرها ، وفى السادسة صباحا كان موعد الملتقى مع جولة تاريخية خارج بجاية ٠ وبجاية هذه تشكل منظرا عجيبا،انها اشبه بتنين رابض يتشكل رأسه من سبع قمم جبال صغيرة حادة ، أو بصورة أخرى تنين مضطجع فى الماء ينظر الى عرض البحر الى الشمال نحو مدينة مرسيليا الواقعة تماما على نفس الخط من الجهة الاخرى للبحر المتوسط ٠ وبجاية بجبالها ووديانها وانهارها وسهولها قطعة من تاريخ قديم امتد ألوف السنين شهد حلو الحياة ومرها فى ايام الرومان والوندال وكان ازهى أيام ذلك التاريخ عندما أصبحت بجاية عاصمة للمغرب العربى فى أيام السلطان الحمادى فى القرن الحادى عشر الميلادى.وكانت فى أيام احفاده أجمل عروس فى البحر الابيض المتوسط ومقرا مختارا لكثير من العلماء والشعراء والمتصوفين من بينهم الامام ابن تومرت ، زعيم حركة الموحدين والعالم الصوفى ابو مدين الذى تلقى العلم فى بغداد وفى أشبيلية فى الاندلس ٠ وكانت بجاية مقرا لحضارات متعددة ٠ وفى الوقت ذاته كانت قلعة من قلاع الحرية سقطت بعد مقاومة عنيفة فى ايدى القائد الفرنسى الجنرال اتريزال الى ان أصبحت معقلا من معاقل ثورة الفاتح من نوفمبر 1954 م ٠

وعندما بدأت رحلتنا التاريخية تحولت الحافلة ــ السيارة الكبيرة التى انقلتنا ــ الى منتدى تاريخى وأدبى لا نظير له ، حيث تعاقب على ميكروفون الحافلة كبار مؤرخى المغرب يروون بدقة متناهية كل ما كتب شعرا أو نثرا عن تلك المنطقة التاريخية أو فى تلك المنطقة التاريخية والذى يعجبنى حقيقة فى المؤرخين المغاربة انهم يحفظون عن ظهر قلب تاريخ كل جزء من بلادهم ، يحفظون تاريخ القبائل التى عاشت فى تلك

البلاد ، يحفظون كل الوقائع التاريخية التى حدثت فى تلك المناطق، بل يحفظون كل شعر قاله أبناء تلك المناطق أو قاله شعراء آخـرون فى تلك المناطق،أو عن تلك المناطق،وقد ازدهر أدب الرحلات فى المغرب العربى حتى أصبح لونا مميزا للادب المغربى.وقد اعجبنى فى المؤرخين المغاربة انهم يجرون وراء الكنوز التاريخية والادبية التى لم تكتشف بعد والتى تمتلىء بها بعض خزائن الكتب فى أوروبا وفى مقـــدمتها مكتبـــة الاسكوريال فى اسبانيا ·

ونمر ونحن فى رحلتنا التاريخية بوادى الآخرة الذى هو فعـــلا اقرب الطرق الموصلة الى الآخرة،وذلك لانه على ارتفاع خمسة آلاف قدم،وبين جبلين لا تزيد المسافة بينهما على بضعة امتار، نمر فى طريق ضيق لا تسير فيه السيارة الصغيرة الا بشق الانفس وأية نظرة من أعلى الى الوادى السحيق تصيب المرء بدوار شديد · ولم نصل الى مدينة ايفرى فى أعلى الجبل الا بصعوبة بالغة وبعد عمليات عديدة لاصلاح الطرق التى انهارت بفعل السيول ·

ومدينة ايفرى هى التى التقى فيها الثوار الجزائريون فى مؤتمرهم بوادى الصومام عام 1956 وكانت فرنسا تدعى ان هذه المنطقـــة يسودها هدوء تام وان احداث الجزائر بسبب اناس غرباء عن الجزائر يجيئون اليها من تونس أو المغرب فاجتمع الثوار فى تلك المنطقـة التى تتوسط الجزائر وكان المؤتمر من انجح المؤتمرات حيث وضع المؤتمرون استراتيجية سياسية وعسكريةجديدة للثورة الجزائرية سارت بها فى طريق النجاح · وحاصرتنا الامطار فى فندق الحماديين وحالت بيننا وبين الوصول الى مدينة بجاية لمدة يومين واتجهنا بعدهما الى حيث يعقد الملتقى فى المسرح الوطنى لمدينة بجاية ، واستمع الى الاخ مولود قاسم وهو يحدثنا عن أهم موضوعات الملتقى ويشيـــد بالحضارة والفكر الاسلاميين اللذين كانا منطلق أوروبا نحو نهضتها وتقدمها، وينادى بأن طريق الخلاص الوحيد للامة الاسلامية وأية أمة من الامم فى وضعها هى الكد فى تدارك ما فات والسعى للحاق بركب الناهضين، مع المحافظة على روحها وخصائصها وتقديم الجوهر عـــلى

الاعراض،وعدم الاستغناء بالقشور عن اللباب وضرورة الاقلاع عن التعلق بسلبيات الحضارة للانتصار على ايجابياتها ٠

واستمع الى مولود قاسم وهو يعبر عن رأيه بوضوح وصراحة فيقول :

« اننا أمام فريقين نرى كلا منهما مغال وواقع فى الشطط : أحدهما فريق المتقوقعين المنزوين المنكمشين ، الراكدين ، المتعنتين الجامدين الذين يدعوننا باسم المحافظة على التقاليد الى عدم الاكتفاء باقفال الابواب،بل يطلبون منا أيضا سد النوافذ حتى لا يتسرب الينا بصيص من نور، أو نسمة من هواء،ونبقى فى الظلمات،ونتعرض للاختناق ، والفريق الآخر يلحون علينا باسم التقدمية،والثورية،والتطور،والتمدن وسعة الافق،والتفتح،والعالمية،الى عدم الاكتفاء بفتح النوافذ واسعة والابواب على مصاريعها ، بل يصمون آذاننا بالمناداة بضرورة نزع السقوف وهم المغامرون السطحيون الممسوخون ٠ ونحن نجيب أولئك وهؤلاء بأننا لا نريد أن نحرم انفسنا من الاوكسجين والضوء اللذين هما اكسير الحياة ولا أن نعرض أنفسنا للزوابع الجارفة المطيحة بالابنية ، المخلخلة للاوتاد ٠٠٠ اننا ندعو الى فتح النوافذ بل الابواب عند اللزوم،ولكن مع الاحتفاظ بالسقوف والرفوف ونقف بأقدام ثابتة على أديمنا الراسخ لنرنو مطمئنين واثقين بأنفسنا الى عوالم أخرى نستقى من تجاربها الناجحة ونتعظ بأحكامها،وهو ما يدعونا اليه الاسلام وما نجح به السلف.وهذا هو المخرج الوحيد للانسانية التى تعانى أزمة حضارة حادة تهدد البناء البشرى بالتصدع والانهيار » ٠

واذا كان الملتقى الثامن للفكر الاسلامى قد آثر أن يناقش أهم قضايا العصر فى تلك المرحلة الزاهرة من مراحل تاريخ البشرية، فقد كان محاضروا الملتقى والمشتركون فى النقاش من خيرة المفكرين : د ٠ ليلى الصباغ أستاذة التاريخ بجامعة دمشق ٠ د ٠ محمد نجاة الله الصديقى أستاذ الاقتصاد بجامعة على كره ـ الهند ٠ د ٠ عبد الكريم سايتو : أستاذ الاقتصاد بجامعة طوكيو ٠ د ٠ محمد مزالى وزير الصحة والشؤون الاجتماعية بتونس ٠ د ٠ صلاح الصاوى

الاستاذ بكلية الآداب جامعة طهران • د • راشد الراجح عميد كلية الدراسات الاسلامية بجامعة الملك عبد العزيز ـ جدة • د • مصطفى بعيو المؤرخ ووزير الثقافة الليبى سابقا ، القاضى عبد الله الشماحى الوزير والمؤرخ والمستشار بوزارة العدل ـ صنعاء • د • عثمان أمين الفيلسوف المصرى المعروف ، د • زكى نجيب محمود أستاذ المنطق الوضعى بجامعة القاهرة •

السيد عبد الله بن بيه وزير العدل فى موريطانيا ، والى جانب هؤلاء كثير من المستشرقين الاوروبيين د • مانفريد فلايشهامر نائب رئيس قسم علوم الشرق والعصور القديمة فى جامعة هالة ـ ألمانيا الديمقراطية ـ • د. ايفادى فترى مايروفيتش الاستاذة بكلية البنات-جامعة الازهر-وفرنسيس منهايم الكاتب ورئيس الجمعية البلجيكية العربية وغيرهم ، وغيرهم •

وكان فى مقدمة الموضوعات التى ناقشها المفكرون « دور المفكر اليوم ، وعلى مر العصور ، فى أمته وتجاه الانسانية فى كل من قضايا الساعة وآفاق المستقبل » • أثر الفلسفة الاسلامية فى الفكر الغربى : بين الاصالة والمعاصرة • مساهمة الحضارة والفكر الاسلاميين فى مختلف مجالات العلوم والفنون والتراث الانسانى على العموم ، عوامل ازدهارهما وأسباب انحطاطهما وشروط انبعاثهما • وكان فى مقدمة المحاضرات التى أثارت جدلا ومناقشة•محاضرة د • زكى نجيب محمود اذ كانت على اختصارها الشديد مركزة للغاية وكانت الآراء الجريئة التى نادى بها د • زكى نجيب محمود مثار انتقادات عنيفة من طرف البعض ومثار تأييد تام من البعض الآخر •

وكان مما قاله الدكتور زكى نجيب محمود،وهو يتحدث عن أصحاب القول والكتابة من قادة الفكر انهما قسمان : أحدهما يضرب على الوتر القديم وحده ، والثانى يضرب على الوتر الجديد وحده وقد فشلنا حتى الآن فى أن تجىء النغمة المعزوفة شاملة للجديد والقديم معا ، بحيث يلتقى تيار القديم بتيار الجديد • لقد تركنا ما تحت أقدامنا من رقعة الارض وما فوق رؤوسنا من جو السماء للاوروبى وحده أو الامريكى وحده يفعل فيها ما يشاء لولا اننا والحمد لله قد

أخذتنا آخر الامر يقظة واعية نحاول بها النهوض من كبوتنا التى كانت والامل معقود بجيل جديد يتناول أرجاء الوطن العربى بنظرة فيها تقليد التراث،وفيها تجديد الحضارة معا ٠ على ان الهدف النهائى ان نكسب كل مقومات العلم والادب والفلسفة السابقة فى دنيا العصر، فى لغة عربية،ولن يحق لنا الحديث عن وجودنا فى عصرنا قبل أن نجد هذا العصر قد نطق بلسان عربى مبين . وأذكر ان الدكتور زكى نجيب محمود قد رد على أحد الذين انتقدوه بعنف قائلا : لن أرد عليك لانك تخطب ، وأنا أكتب ٠٠٠ كما انه رد على أحد الذين علقوا على محاضرته بقوله : لقد تحدثت عن هذه النقطة فى كلمتين وانا تحدثت عنها فى كتابين ، وكانت المحاضرة الوحيدة التى بلغ فيها النقاش درجة كبيرة من الحدة هى محاضرة د ٠ جوزيف فان ايس،مدير المعهد الشرقى بجامعة توبنغن ــ المانيا الاتحادية ــ وكانت عن « نشأة علم الكلام فى الاسلام » ٠ وكان د ٠ جوزيف قد أصدر أحكاما قاسية وعنيفـــة على بعض المذاهب الاسلامية دون أى سند فقهى،كما كان قد حـاول أن يبعث بعض الخلافات بين المذاهب الاسلامية التى لم يعد لها وجود الآن ٠

وكانت مناقشة محاضرة د ٠ جوزيف فان ايس فى غيبته فقد سافر فور القاء محاضرته وقبل مناقشتها الامر الذى أثار أكثر من ســؤال. وقد اشترك فى الملتقى حضورا ومناقشة أكثر من ألف طالب وطالبة من السنتين النهائيتين من التعليم الثانوى والجامعات،وكان اشراك هؤلاء الطلاب خطوة موفقة للغاية ، ذلك لان هؤلاء الطلبة قد استفادوا ــ كما قال لى بعضهم ــ أكبر فائدة « فمناقشة هؤلاء المفكرين مكنتنا من أن نعرف الكثير عن قضايا العصر وأتاحت لنا فرصة دراســـة الثقافة الاسلامية والفكر الاسلامى دراسة واعية عميقة بعيدة مـــن مقاعد الدرس » ٠

كلمة هزتنى أكثر من أى كلمة أخرى سمعتها من د ٠ عبد الكريم سايتوح اليابانى الذى أسلم هو وأسرته وراح يدعو للاسلام فى ربوع اليابـــان :

« لقد فقدت ابنى فى العام الماضى الذى كان يتلقى العلم فى الاماكن المقدسة فى السعودية،فأرسلت بدلا منه،ابنا آخر لاننا نريد أن نتعلم الاســـلام على حقيقة » ٠

الطـاهـريون والـدولة العبـاسيـة

د· المنجـى الكعبـى
استاذ بالجامعة التونسية



لم يكن أسلاف الطاهريين معروفين جيدا ، قبل ان يؤسس طاهر بن الحسين الخزاعى ملكهم فى خراسان سنة 821/205 · وعلى العموم يعتبر قرار المامون بتعيين طاهر بن الحسين واليا على خراسان ، نتيجة لما أحـرزه هذا القائد الملقب بذى اليمينين ، من انتصار بالاستيلاء على بغداد سنة 813/189 ،وقتل الامين (1) ·

حقا هناك من يميل الى اعتبار قيام ملك هذه الاسرة نتيجة مكيدة تافهة ، بل مؤامرة موجهة ضد المأمون الذى كان ـ على ما يقال ـ يحذر من طاهر بسبب صيته ونفوذه · على أنه يروى أن طاهر بن الحسين ، رشا وزير المأمون أحمد بن أبى خالد ، الذى أقنع

(*) انتهز هذه الفرصة لاعرب عن كل تقديرى للاستاذ ك· كاهين والاستاذ شارل بيلا اللذين اقترحا على كتابة هذا المقال لعلاقته بالاطروحة التى قدمتها لنيل دكتورا الدولة فى الآداب حول **الطاهريين** .

(1) انظر بخصوص النزاع الذى قام بين الامين والمأمون مقال ف· غبرييلى ، تركة هارون الرشيد والحرب بين الامين والمأمون فى R.S.O. العدد 11 (1928) ، 391 ـ 7 ·

المأمون بتوليته اقليم خراسان (2) . وبعد سنتين من ولايته أعلن طاهر بن الحسين التمرد من عاصمته مرو . ويقال أن الحكومة المركزية (3) كلفت بعد ذلك بقليل من دس له السم - ولكن الرواية التاريخية تضيف أن المأمون اعترف أخيرا لابنائه بحق توليهم الملك بعد أبيهم (4) .

ويشير بعض المؤرخين من جهة أخرى ، بدون تعليق ، الى مصعب جد طاهر ، الذى كان حسبما تفيد المصادر ، كاتبا لسليمان بن كثير الخزاعى الداعى العباسى المشهور (5)

فاذا تأملنا هذه الروايات الواردة عن بداية تاريخ الطاهريين ، فاننا نكاد نعتقد بأن ذا اليمينين ، ظهر فجأة على مسرح التاريخ العباسى ، لما صادفه من حظ عندما عينه المأمون قائدا للجيوش الخراسانية المرسلة سنة 809/194 لمقاتلة جيش الخليفة الامين ، الذى كان بقيادة على بن عيسى بن هامان .

والحال ان انتماء جد طاهر الى خزاعة على غرار سليمان بن كثير الذى اتصل به ، يدعو الى استقصاء الدور الذى قد يكون قام به هو ، أو احد اعضاء اسرته فى الدعاية لبنى العباس ، ونعلم ان خزاعة كان لها تاثير كبير فى هذه الدعاية ، لاسيما وأن القرار الخطير الذى اتخذه المأمون باسناد مسؤولية حرب الامين لطاهر بن الحسين تفرض أن المأمون يعرف جيدا أسلاف طاهر ، وأنه انما اختاره بسبب ما قدمته أسرته من الخدمات للخلافة العباسية ، أو تقديرا لبعض أعمالها المتأخرة التى أبرزت موقفها وتأييدها للمأمون ، فى نزاعه مع أحيه الامين .

كل هذه الملاحظات ، دفعتنا الى البحث فى نسب الطاهريين ، بتتبع الحوادث التى جرت فى خراسان منذ قيام الخلافة العباسية ، وحتى فى عهد الدعوة الهاشمية ان دعت الحاجة .

(2) انظر د. سوديل الوزارة العباسية من سنة 799 الى 936 . دمشق 1959 233 .
(3) د. سوديل : ظروف وفاة طاهر الاول فى خراسان سنة 822/207 فى أرابيكا 5 (1958) 66 - 69 .
(4) د. سوديل : الوزارة ... ص 223 .
(5) دائرة المعارف الاسلامية ج 1 ، طاهر بن الحسين ، 4 ، 660 الطاهريون 4 .664 (و بارطولد) .

على أنه ينبغى قبل الحديث عن الدور الذى يحتمل أن يكون قد قام بـه مصعب ابن رزيق الخزاعى ، فى الدعوة لبنى العباس ، أن نعرف ان كانت أسرته عربية أو معربة بالولاء فى خزاعة ٠

من الاخبار المفرقة التى استقيناها من كتب التاريخ والادب خبر هام ذكره السلامى صاحب « تاريخ ولاة خراسان » (6) ٠ فقد نقـل هذا المـؤرخ أن الجـد الثانى لطاهر ابن الحسين ، المسمى : « رزيقا ، كـان مولى لطلحة بن عبد اللـه بن خلف ، المسمى بطلحة الطلحات الخزاعى » ٠ وذكر السلامى أيضا أن طلحة الطلحات ، قلـده سلم ابن زيـاد ، الوالى الاموى فى خراسان ولايـة سجستان ، وأنـه هلـك أثناء فتنـة ابن الزبير (7) ٠

ونعرف الى ذلك ، أن رزيق بن أسعد ، رافق المهلب بن أبى صفرة الى خراسان ، وشارك مع جيشه فى فتح هذه البلاد (8) ٠ ويجوز أن يكون والد رزيق أول من أسلم من أفراد هذه الاسرة ٠ ويفيد خبر نقله فيما بعد ذلك بكثير صاحب طبقات ناصرى ، أنه اجتمع بعلى بن أبى طالب الذى أسماه أسعد بعد اعتناقه للدين الجديد (9) ٠

وأخيرا ، اذا اعتمدنا على رواية مذكورة فى كتاب بغداد (10) ، فان طاهر بن الحسين ذكر أثناء حديث مع أحد أصحابه ممن تعتبر أسرته المعربة من أقدم أسر خراسان ، أن جديهما الثانيين قدما فى آن واحد للاستقرار بخراسان ٠

ومفهوم هذا ، أن رزيقا كان يعتبر من جهة ما على الاقل ، كمهاجر فى خراسان على غرار العرب الذين نزحوا اليها بعد الفتح ٠ على أن المصادر المختلفة لا تتحدث بشىء

(6) ضاع هذا المؤلف (أنظر حاجى خليفة : كشف الظنون ط٠ 1945/1364 I ، 215) الذى نقل عنه المؤرخون اللاحقون وخاصة ابن خلكان وياقوت ٠

(7) السلامى بنقل ابن خلكان المتوفى سنة 1282/681 وفيات الاعيان نشر محيى الدين عبد الحميد القاهرة 1948 ج 12 ص 274 ٠

(8) الكتاب المذكور ج 2 ص 274 ٠

(9) طبقات ناصرى ، 24 نقل س٠ نفيسى تاريخ خاندان طاهرى ، طهران 1956/1335 ص 285 ٠

(10) ابن أبى طيفور (المتوفى 893/280) كتاب بغداد نشر محمد زاهد الكوثرى القاهرة 1948/1368 ، 65 ٠

عن أسلاف طاهر بن الحسين قبل الاسلام : لا عن أصلهم ، ولا دينهم ، ولا حالتهم الاجتماعية (11) • ولا يمكن لذلك أن نرسم تاريخ الاسرة فى الفترة السابقة لطاهر ابن الحسين الا ابتداء من أسعد ، اعتمادا على المعلومات القليلة التى حفظتها لنا المصادر.

* * *

استقرت قبيلة خزاعة التى انتمى اليها الطاهريون ، فى البصرة ، قبل انتقال بعض أفرادها الى خراسان ، مع الجيوش العربية التى أرسلت فى عهد الخليفة عثمان (24 ـ 644/35 ـ 56) لفتح نواحيه (12) •

ولابد من أن نذكر بان خزاعة فرع من الازد اليمنيين ، الذين نابهم خمس من البصرة، عند تقسيمها على القبائل العربية التى استقرت فى عاصمة العراق الجديدة (13) .

لم تقع هجرة الخزاعيين الى خراسان بعد مدة طويلة من استقرارهم فى البصرة • وقد أخبرنا اليعقوبى أن الخليفة عثمان أرسل عبد الله بن عامر عامل البصرة بجيش الى خراسان لفتحها • وكان ذلك سنة 650/30 ـ 51 • وفى السنة نفسها قسم عبد الله خراسان بعد فتحها الى أربع ولايات ، وولى على كل واحدة منها أحد مساعديه الذين كانوا غالبا ، من رؤساء القبائل ، ومن بينهم عمرو بن مالك الخزاعى • ولا شك أن عمرا عين لحكم طائفة من الفاتحين العرب أغلبهم من قومه • على أننا لا نعرف أى ولاية من ولايات خراسان أسندت اليه • وقد تكون هى ولاية هراة ، التى تتبعها مدينة بوشنج التى ولد بها طاهر ذو اليمينين سنة 775/159 • (14)

واذا كان رزيق ، كما أشار الى ذلك طاهر (15) ، قد قدم الى خراسان ، ضمن أين

---

(11) على أن طبقات ناصرى (نقل نفيسى 258) ذكرت سلسلة النسب الطاهرى التى تحتوى على 17 جدا وتنتهى الى الملك منوتشهر • وهذه السلسلة غير صحيحة قطعا •

(12) أنظر ب• سبولير :
B. Spuler, Iran in Frueh-islamischer Zeit .Wiesbaden 1952. 14 et 77.

(13) أنظر ش• بيلا : الوسط البصرى وتكوين الجاحظ ، باريس 1952 ، ص 24 •

(14) ابن خلكان : وفيات ج 2 ص 204 ـ أبو الفضائل الحموى : التاريخ المنصورى نشر غريازنفتش موسكو 1960 ، 43 أ •

(15) أنظر المرجع المذكور رقم 3 •

جاء ومتى كان ذلك وكيف أتيح له الاستقرار ؟ فهل قدم اليها من البصرة ، مع الخزاعيين الذين كانوا حسب عادات القبائل العربية ، يرافقهم مواليهم فى ارتحالهم للفتح ؟

ان هذا شيء جد محتمل لان الرواية السابقة تفيد أن والده أسعد ، دخل من قبل فى ولاء خزاعة بالبصرة ، عن طريق عبد الله بن خلف الخزاعى ، شيخ القبيلة · وولاء رزيق للعرب لم يبدأ منه ، بل يرجع الى والده أسعد كما أفاد ابن قتيبة (16) · واذا راعينا فى الرواية السالفة شيئا من الصحة فان أسعد يكون قد جاء الى البصرة حوالى سنة 656/36 ، وهى سنة قدوم على بن أبى طالب الى البصرة ابان معركة الجمل ، فقد اعتنق أسعد الاسلام بمحضر الامام على ، فى هذه المدينة وبتلك المناسبة · وكان يسمى من قبل زادان (17) ·

وكان انتماء أسعد بعد اسلامه الى خزاعة ، فى الحين ، بفضل عبد الله بن خلف الذى كان يوجد عند هذا التاريخ بالضبط فى البصرة ، والذى نعلم أنه آوى عن قصد على ما يبدو عائشة زوج الرسول (ص) ، وقد كانت الى جنب طلحة والزبير فى نزاعهما مع على (ض) (18) ·

ومهما يكن فان تاريخ ولاء آل طاهر الى خزاعة ، يرجع قطعا الى ما قبل 63/684 ـ 85 وهى على ما أفـاد اليعقوبى السنة التى عـين فيها يزيد الاول (60 ـ 64/680 ـ 4) سلم بن زياد عاملا على خراسان ، وعين له حاشية تتألف من عدة أعيان من بينهم طلحة ابن عبد الله الخزاعى ، والمهلب بن أبى صفرة وعبيد الله بن معمر التميمى ، وعبد الله ابن خازم السلمى (19) ·

وعلى كل فان رزيقا قد توجه بصفة مهاجر الى خراسان (20) فى ذلك العهد ، برفقة مولاه طلحة الطلحات ، وهذا الاحتمال يؤكده بصورة ما ، ما رواه الطبرى من أن رزيق

---

(16) ابن قتيبة : شعر 826 ·

(17) زادان ، أو بادان أو ماهان الخ ·· انظر طبقات الناصرى 24 بنقل نفيسى ص 258.

(18) انظر دائـــرة المعارف الاسلامية ج 2 ، 1 عائشة بنـت أبى بكـر ، 317 ـ 318 (و· منتقمرى واط) ·

(19) اليعقوبى : تاريخ بيروت 1960 ، 252 ومعجم البلدان 119 ·

(20) أنظر المرجع المذكور تعليق 3 ·

ابن أسعد ، رافق المهلب بن أبى صفرة ، وشارك فى الفتح مع جيشه (21) . فان المهلب الذى كان على ما سبق ذكره ، من حاشية سلم بن زياد ، كما كان طلحة الخزاعى (22) ، قد أرسله سلم بمجرد الوصول الى خراسان ، لمقاتلة طرخون (23) وفتح بخارى . ولكن المهلب كان قبل أن يتجه الى خراسان مع سلم ، قد قصد اليها مرة أولى ، سنة 44/664 (24) . فمن الجائز على هذا أن نتساءل هل كان رزيق شارك مع المهلب فى فتوحاته الاولى بخراسان ، أو فى التى وقعت فيما بعد لا غير (25) . واذا لم نحظ بجواب دقيق على هذا السؤال فاننا متاكدون على الاقل من أن رزيق بن أسعد ، قد وصل الى خراسان ، قاصدا اليها من البصرة ، وأنه اذا لم يتأكد وصوله اليها برفقة مولاه طلحة الطلحات ، فلا أقل من أنه كان بخراسان الى جنب الزعيم البصرى المشهور المهلب . وقد كان المهلب واليا على خراسان ، كما نعلم ، حتى توفى سنة 79/688 . وبناء على ما تقدم ، يبدو أنه من المحقق أن الاسلاف الطاهريين ، الذين أسلموا استقروا من جديد فى خراسان ، كموالى لقبيلة خزاعة العربية ، عند منتصف القرن الهجرى الاول (القرن السادس الميلادى) .

* * *

أما طلحة الطلحات الذى توجه الى خراسان غالبا برفقة مولاه رزيق ، فقد ولاه رئيسه سلم بن زياد على سجستان . وعند وفاة الخليفة زياد بن معاوية تخلى سلم عن عمل خراسان ، وولى مكانه عبد الله بن خازم السلمى (26) . وقد انضم عبد الله ابن حازم بعد ذلك بقليل ، الى عبد الله بن الزبير ، مناوىء الامويين ، الذى استطاع أن يقنع أكثر أهل العراق بتأييده ونصرته (27) .

(21) الطبرى نقل ابن خلكان ، الوفيات 2 ، 274 ـ 275 .

(22) الطبرى (2 ـ 1988) يفيد أن أسعد كان يكنى أبا زينب (؟) اقرا بدل ذلك أبا ربيع

(23) طرخون بفتح الطاء وضمها ، أنظر سبولير ، ايران 30 ، الطبرى 2 ، 1225 ـ 31 . ابن الاثير 4 ، 211 .

(24) كان ذلك برفقة الحكم الغفارى ، والى خراسان الذى ولاه زياد بن أبيه والى العراق بوصاية من معاوية (اليعقوبى : تاريخ 2 ـ 272) .

(25) أنظر المرجع المذكور تعليق رقم 13 .

(26) اليعقوبى : تاريخ 2 ، 252 ، وفيات 2 ، 274 ـ 5 .

(27) اليعقوبى : تاريخ 2 ، 255 .

وقد كانت الحالة لا تزال غامضة مضطربة عندما تولى عبد الملك بن مروان الخلافة . وقد عزل في الحال عبد الله بن حازم ، وولى مكانه أمية بن عبد الله بن أسيد وأرسل معه جيشا كبيرا لمقاتلة انصار ابن الزبير المتمردين . وذكر اليعقوبى أن أمية عين بعد وصوله ، ولده عبد الله واليا على هراة وسجستان ، لخوض المعركة مع أنصار ابن الزبير ، والحال أننا نعلم أن في هذه السنة بالضبط ، سنة 684/65 ـ 85 ، حدثت وفاة طلحة الطلحات والى سجستان (28) .

وعلى هذا يجب أن نستخلص ، أنه كان هناك طلب بثار طلحة ، وأنه يمكن أن نفترض أن من بين من أرادوا القيام بهذا الواجب رزيق بن أسعد . والظاهر أن رزيقا اضطر كغيره ممن لم يسعدهم الحظ في عهد الامويين ، الى مناصرة أهل البيت .

وأقدم ما ذكرته الاخبار من مشاركة رزيق بالفعل في حروب الشيعة ، هو ما جاء في الطبرى من « ان رزيق بن أسعد شارك في حرب عبد الرحمن بن الاشعث » (29) .

وقد كان الاشعث كما علمنا ، واليا على سجستان تحت سلطة الحجاج بن يوسف . ولما لم يقدر على قتال رتبيل (أو زنبيل) (30) ، كما أمره بذلك الحجاج ، اعتبره هذا ثائرا . وبذلك وقعت حرب كبيرة بين عامل العراق (الحجاج) وواليه (ابن الاشعث) وانتهت هذه الحرب بوفاة ابن الاشعث سنة 702/83 (31) . وقد تقدمت جيوش ابن الاشعث الى العراق ، وجرت أكبر الوقائع ، كما أفاد اليعقوبى ، في البصرة والكوفة . وكانت معارك الكوفة حامية على ما أفاد اليعقوبى أيضا ، واصطدم فيها الحجاج (32) بالشيعة الذين اجتمعوا تحت لواء ابن الاشعث .

(28) نفس المرجع 2 ، 271 ـ 2 والوفيات 2 ، 274 .
(29) الطبرى 3 ، 1988 ، انظر بخصوص ابن الاشعث د. م. ا. 2 تحت هذا الاسم 737 (ل. قتشيا ـ قاغليرى) .
(30) أنظر سبولير : ايران 24 و 7 ، وبيلا : الوسط البصرى ... 271 .
(31) أنظر د. م. ا. 2 ابن الاشعث 3 ، 737 .
(32) الطبرى ، 2 ، 1042 ـ 1061 ـ 2 ، اليعقوبى : تاريخ 2 ، 332 . نقل بيلا ، المرجع المذكور 271 .

ولابد من أن نشير الى أن رزيقا قد شارك فى هذه المعارك · ويبدو أنه التحق بجيوش عبد الرحمن بن الاشعث فى البصرة ، ان لم يكن بسجستان ، وهما مركزان كان يجرى بهما نشاط سياسى كبير يقوم به الموالى الخزاعيون · ويبدو أن رزيقا اجتمع ببعض رؤساء الشيعة بالكوفه ، اذ كان لا يزال الى جنب ابن الاشعث فى هذا المصر العلــوى ·

وقد وقع ذلك بنحو عشر سنوات قبل تنظيم الدعوة العلوية السرية ، الهاشمية (33) ولم تذكر الاخبار ما قام به فى هذه الدعوة من دور أشاد به فيما بعد ، بعض الشعراء الذين كانوا من حاشية أحفاده · على أنه يفهم من رواية ذكرها الطبرى ، أن رزيقـا الذى كان له ولدان ، هما من كبار أنصار هذه المنظمة فى خراسان ، قد امتد به العمر حتى تم الانتصار للعباسيين (34) · وقد قال الطبرى : « ان أبا مسلم كان يستشيره (أى رزيقا) دائما ويسره أن يدعوه الى ذكر معاركه وفتوحاته » · (الطبرى 3 1988) · وهل جعلت الشيخوخة رزيقا لا يقوم الا بدور المستشار ومرشد ابنيه طلحة ومصعب اللذين عينا نقيبين فى هذه الحركة ؟

وقد قال ابن الرومى فى مدحه لبعض أحفاده من الطاهريين ، تذكيرا بالامجاد الماضية ابان الفتح الاسلامى والكفاح لاثبات حق أهل البيت فى الخلافة (35) ·

مــن كــرزيــق ومــــن كمصعبــة   أو كحســين وطــاهــر قــربــه

ويقول البحترى من جهته ممجدا لسلف طاهر (36) ·

ولقد رأيت وقد سمعت بمن مضى   فاذا رزيـــق سيـــد الســواس

(33) انظر : د· م· ا· 2 الهاشمية : 3 ، 272 ب 273 أ (ب لويس) وكذلك العباسيون فى د· م· ا· 2، I، 15، 299 ·

(34) الامر الذى يحمل على استنتاج أن رزيقا ولد حوالى 30 أو 40 هجرية وذلك يطابق أولا ، لتقدم سنه ، سنة انتصار العباسيين أى سنة 130 تقريبا ، ويؤكد من جهـة أخرى مشاركته فى حروب المهلب بعد سنة 63 · أنظر التعليق رقم 10 ·

(35) ديوان ابن الرومى نشر محمد شريف سليم 1 488 البيت 130 ·

(36) ديوان البحترى نشر حسن كامل الصيرفى 2 1165 البيت 25 ·

وعلى العكس من ذلك كان الدور الذى قام به ولدا رزيق الخزاعى فى الدعوة الهاشمية أكثر وضوحا ، وان كان غامضا فى بعض الفترات . وقد ذكر اسم طلحة واسم مصعب فى أقدم الاخبار المتصلة بالحركة الهاشمية فى خراسان ، بمجرد انطلاقها بزعامة العباسى محمد بن على بن عبد الله . وقد أوصى هذا من منزله السرى بسوريا ، أعوانه عند سنة 718/100 بتجنيد 70 شخصا من أنصاره فى خراسان ، وعين الامام من بينهم اثنى عشر نقيبا (دعاة) ، منهم خمسة من قبيلة خزاعة . وهم سليمان بن كثير ومالك ابن الهيثم وزياد بن شبيب وطلحة بن رزيق وعمرو بن أعين (37) ، اما السبعة الآخرون فكانوا من القبائل اليمنية الثلاث : طى ، وتميم وبكر بن وائل (38) . ولما كان عدد الخزاعيين أكبر فى هذه الهيئة (النقباء) ، فقد آلت رئاستها على ما يظن من أجل ذلك الى خزاعى هو سليمان بن كثير .

وقد اقتسم النقباء الذين يسمون أيضا بالدعاة ، المسؤوليات ، وتولى طلحة ابن رزيق المكنى بأبى منصور (39) الكتابة العامة للمنظمة : «كان على ما ذكر الجهشيارى مكلفا بالمراسلة بين الامام وسائر الدعاة . وكان يكتب اليه باسمهم ويختص بتلاوة رسائله أثناء اجتماعاتهم (40) .

ولم تكن لتسند مثل هذه المهمة لطلحة ، لو لم تثبت مقدرته ، ولو لم تكن له معرفة وثقافة واسعة . وذلك ما أكده الطبرى اذ قال : « لقد كان أبو منصور فصيحا شريفا خطيبا . وكان يعرف جيدا عقيدة الهاشمية وأسرارها » (41) .

---

(37) الطبرى 2 ، 1358 ، 1987 ـ 8 ، العينى (1451/850) : دولة بنى العباس والطولونييون والفاطميون . مخطوط بالمكتبة الوطنية باريس 5761 ، وثائق 2 أ . انظر مجهول غريازنفتش 252 ، 1 ... و 245 سطر 5 .

(38) مجهول غريازنفتش 251 أ 13 العينى المرجع المذكور 3 1 ، وفيات 2 205 .

(39) الجهشيارى (توفى 942/331) كتاب الوزراء والكتاب طبع القاهرة 1938/1357 84 . انظر فى استعمال الكنية عند الشيعة ب لويس العباسيون ، فى دم ا 2 1 منتصف صفحة 16 .

(40) الجهشيارى المرجع المذكور 84 .

(41) الطبرى 2 ، 1987 .

ولم يكن أخوه مصعب أقل مقدرة ومواهب فى فن الرسائل ، ولكن مقامه فى الدعوة كان فى الدرجة الثانية غالبا • وكان أصغر منه على ما يبدو ، ولم يكن يجوز أن يضم مجلس النقباء المحصور أخوين • ويرى أبو القاسم البغدادى فى مصنفه « كتاب الكتاب» أن مصعبا كان من أبدع المتقدمين فى فن المراسلة ؛ وقد قال : « كان مصعب ابن رزيق جد طاهر كاتبا لسليمان بن كثير الخزاعى صاحب دعوة بنى العباس » (42) •

وفى سنة 735/117 ألقى أسد بن عبد الله القسرى مساعد أخيه القائد المشهور خالد ، والى العراق ألقى القبض على عدد كبير من الدعاة الهاشميين • وأخبر اليعقوبى أن أسدا قتل بعضهم ومثل بآخرين وحبس رفاقهم الباقين • ومن بين هؤلاء الدعاة الذين حبسوا ، سليمان بن كثير ، ومالك بن الهيثم ، ولاهز بن قريظ ، وخالد ابن ابراهيم ، وطلحة بن رزيق (43) • على أن خالدا قد عزل سنة 120 ، وأطلق سراح من أودعهم السجن • وبمجرد تسريح هؤلاء ، استأنف سليمان ورفاقه نشاطهم السرى ، وكانوا يقصدون كثيرا الى العراق فى نطاق هذا النشاط •

وقد توجهوا أثناء أحد أسفارهم الى سوريا والحجاز ، للبحث عن الانصار ونشر الثورة ، الى مكة ، ونزلوا عند عيسى بن معقل العجلى (44) ، الذى كان قبل ذلك عاملا بخراسان ، ثم عزل وعين مكانه يوسف ابن هبيرة • وقد استقبل عيسى بالترحيب هؤلاء المبعوثين الهاشميين الى درجة أن مولاه أبا مسلم الخراسانى انضم بكل حماس الى الدعوة وأخذ على نفسه بخدمتها • (45)

---

(42) أبو القاسم البغدادى (القرن 9/3 م) كتاب الكتاب نشر د• سرديل XIV BED 1952 – 54 143 • وقد ذكر المؤلف من كلام مصعب قوله : « ما أحوج الكاتب الى نفس تسمو به الى أعلى المراتب وطبع يقوده الى أكرم الاخلاق وهمة تكفه عن دنس الطمع ودناءة الطبع أنظر هذا النص فى الوفيات 2 205 •

(43) الطبرى 2 1586 ؛ العينى دولة 4 أ ، مرجع غريازنفتش 262 ب ؛ د م أ 2 ، العباسيون 1 16 (ب لويس) ؛ د م أ 2 ، 1 ، أسد القسرى 1 70 ب س 4 ؛ اليعقوبى تاريخ 2 319

(44) مجهول غريازنفتش 259 أ : اليعقوبى : تاريخ 2 327 • ك كاهن : نظرات فى الثورة العباسية فى المجلة التاريخية 230 (1963) 325 ، رقم 2

(45) ك كاهين : نظرات فى الثورة العباسية 295 ـ 338 •

وبالرغم من أنه لم يذكر اسم طلحة بن رزيق من بين أعضاء هذا الوفد الذى رأسه سليمان بن كثير ، مقدم أبى مسلم الى الامام ابراهيم بن محمد (46) سنة 742/125 ، فمن الجائز أنه شارك فيه لمكانته فى صفوف الدعوة ·

ومن المعروف أن أبا مسلم عين ثلاث سنوات بعد ذلك ، على رأس الحركة بخراسان لما كان له من خصال ، ولاسباب سياسية وتذرعية قبل كل شيء · ولا شك أن ذلك أحدث اضطرابا فى الجماعة القائمة من قبل · ومن ذلك أنه يقال ، انه عندما أوصى الامام ابراهيم دعاته بالامتثال لاوامر الداعية الشاب (47) طلب من هذا أن يتجنب النزاع ، خاصة مع سليمان بن كثير الزعيم السابق للحركة ·

على أن ذلك لم يمنع من أن يكون أبو مسلم فى أول اجتماع اتصل فيه بدعاة خراسان ، موضع انتقاد سليمان بن كثير (48) · وقد آزر سليمان أخوه ، فألقى بدواة على وجه منافسه ·

وقد تحرج عدد من الدعاة من استبداد سليمان ، ورغبوا فى التخلص من عقدة العصبية القبلية التى لا تزال تنازعهم (49) فآزروا أبا مسلم · وقد انسحب هذا من الاجتماع وأتاح لسليمان أن يستعتب فيما بعد · وكان تأييد طلحة بن رزيق لابى مسلم فى النزاع الذى قام بين الرجلين حاسما · وأخبرنا صاحب تاريخ الخلفاء ، أن طلحة قرأ على الجمع بصفته الكاتب العام للمنظمة ، رسالة تعيين أبى مسلم ، وكان أول من

(46) انظر بخصوص ابراهيم بن محمد د م ا 3 IOI2 (ف عمر) : ك كاهن : نظرات ··· 320 و 331 ·

(47) يبين مجهول غريازنفتش 262 ب و 260 ب ان الامام اضطر لاقناع الدعاة النافرين من طاعة ابى مسلم ، الى ذكر مثل اصحاب الرسول (ص) الذين ساءهم ان عين على رأسهم فى بعض ظروف الكفاح سعد بن معاذ الشاب ، ولكنهم قبلوا آخر الامر هذا التعيين ·

(48) فى نفس المرجع 262 ب حيث يمكن ان نقرأ الانتقاد العنيف الذى وجهه سليمان على تعيين أبى مسلم · وقد بين سليمان ، زعيم الدعوة السالف ، انه هو واصحابه دخلوا فى الدعوة قبل ان يولد هذا الدخيل (أبو مسلم) (قبل ان يكون جنينا فى بطن امه بالضبط)

(49) المرجع 262 ب

تكلم بعد سليمان · وقد أعرب بدون مداراة عن أسفه ، من مخالفة سليمان ، وصرح بأنه سيبقى هو دائما ممتثملا لاوامر الامام · وتكلم اثر ذلك أبو داود خالد بن ابراهيم وأعضاء آخرون لاستنكار موقف سليمان والتصريح بما صرح به طلحة وبعد ذلك بمدة آب سليمان الى السداد (50) ·

ولا شك أن هذا الموقف من طلحة بتأييد زعيم الدعوة الجديد كان سبب الصداقة المتينة التى ربطته اليه · وقد ذكر الطبرى أن أبا الخطاب حمزة بن على روى أن أبا مسلم كان يستشير دائما طلحة ، لا سيما فى الظروف الشديدة وحين اتخاذ القرارات الخطيرة · وكان أبو مسلم كثيرا ما يقول مخاطبا لطلحة ومستعملا كنيته : « ماذا ترى يا أبا منصور ؟ ماذا تقول يا أبا منصور ؟) ويلاحظ الطبرى انه « لم يكن من النقباء أحد والده حى غير أبى منصور طلحة بن رزيق أسعد ·· الخزاعى » (51) · فهل يكون تقدم سن رزيق سببا فى اعتباره من السابقين الى الدعوة فى خراسان ، وأن ولديه أحرزا لذلك من المنافع ما لم يحرزه رفاقه فى المنظمة ؟

ويذكر الطبرى من جهة أخرى أنه فى ذى الحجة من سنة 129 ، عندما بدأ الاصطدام مع جيوش الامويين « خندق أبو مسلم خندقا أمام قرية آلين قرية أبى منصور طلحة ابن رزيق » (52) · ويمكن من جهة أخرى حسبما جاء فى تاريخ الخلفاء المجهول المؤلف أن يكون انتصار العباسيين مدينا بكثير للحلف الذى أبرم قبيل ذلك بين أبى مسلم والازدى على بن جديع الكرمانى، زعيم المعارضين لبنى أمية فى خراسان· فان على بن جديع الكرمانى كان يقود اذاك، بصفته زعيم العصبة اليمنية، ثورة كبيرة كانت تهدف الى الاطاحة بنصر بن سيار والى الامويين، وممثل مصالح المضريين · ويبدو أن الدعاة كانوا

(50) مجهول غريازنفتش 262 ب ·

(51) الطبرى 2 1988

(52) الطبرى 2 1969 ، قد تكون هذه القرية غالبا ارضا اقطعها رزيق ، او هى مكان كان يحميه رجاله · ثم ان هذه القرية التى كانت ضاحية من ضواحى مرو حسب الخبر المنقول ، يمكن ان تقارن بما خوان القرية التى اضطر فيها أبو مسلم الى التحصن كما يقول مجهول غريازنفتش (264 أ ، 18 و 264 ت) (انظر الطبرى 2 1986) ·

يعمدون الى المصالحات والتفاهم السياسى، ان لم يمكن الاقناع بالعقيدة، مع كبار زعماء القبيلتين المضريتين المتنافستين قيس وربيعة (وكلتاهما من القحطانية اليمنية) • وذلك ليحظوا منهم بتأييد الدعوة ويساندوها • ولا شك أن الدعاة كانوا يرجون الانتفاع بما كان يتمتع به الكرمانى من موقف قوى ضد الوالى الاموى • ولا شك أن أبا مسلم اضطر ليحقق غايته الى أن ينضم الى صف الكرمانى ، ان لم يتمكن من اجتذابه الى حزبه • وهذا ما يستفاد من خبر يبين أن أبا مسلم انضوى مع قواته تحت قيادة الكرمانى (53) • والظاهر أن هذا القرار اتخذ أثناء مؤتمر دعا المضريون الى عقده ، للتوصل الى اتفاق ومصالحة بين الاحزاب المتعارضة ، وقد حضرته أربعة وفود : الدعاة الهاشميون والازديون (أو القحطانيون بصفة عامة) حزب الكرمانى ، وربيعة حلفاء الكرمانى الذى مثلهم ، والمضريون برئاسة عقيل بن معقل (54) من الحزب الحكومى •

وقد أخبرنا الطبرى بأن طلحة بن رزيق الذى قيل عنه أنه خطيب مقتدر ، تكلم أثناء مداولات المؤتمر ، بعد سليمان بن كثير • وصرح ، بموافقة أبى مسلم ، بأنه يؤيد القرار الذى اقترحه الكرمانى ، أى بتأييده هو ضد نصر بن سيار ورفض كل تفاهم مع الامويين (55) •

وفى سنة 748/130 عندما استولى أبو مسلم على مرو عنوة ، أمر أبا منصور طلحة ابن رزيق ، حسبما أفاد الطبرى ، بأن تعلن القوات الهاشمية (56) البيعة للامام • وقد حررت هذه البيعة تحريرا مضبوطا ، فى لغة دقيقة وجيزة نقلها الطبرى (57) وهى تلزم كل من نطق بها بالاقرار بمبادىء الدعوة ، وتنص على العقوبات الدينية والمدنية السارية عليه ، اطمئنانا لصدقه ، وتؤكد أخيرا ضرورة امتثال الاتباع الهاشميين امتثالا أعمى لاوامر القادة والزعماء •

---

(53) الطبرى 2 1985

(54) مجهول غريازنفس 267 أ I ، 9 و 259 أ •

(55) الطبرى 2 1985 ومجهول غريازنفتش 258 ب ، 295 ب والفهرس •

(56) الطبرى 2 1988 — 9

(57) الطبرى 2 1989

وبمجرد أن انتصر أبو مسلم فى معركة أول أخذ ، وهو يواصل زحفه فى خراسان فى القضاء بالسيف على أعدائه من أنصار الدولة الزائلة · على أن القائد الاعلى للثورة العباسية ، اضطر الى الحذر الشديد مع بعض زعماء القبائل ، خوفا من أن يحدث قتلهم معارضة كبيرة من صفوفها ، فيتزعزع موقعه · ومن ذلك أنه استشار طلحة بن رزيق شأن عدد من الشخصيات المؤيدة للامويين ، من بينها عقيل (أو عقيل بضم العين أو بفتحها) بن معقل · وقد نقل الطبرى خبر ذلك كما نقل جـــواب طلحة الـــذى قال لابى مسلم : « اجعل سوطك السيف وسجنك القبر » · وأضاف الطبرى قائـــلا : « فاقدمهم أبو مسلم فقتلهم » · ألا يكون قتل عقيل بن معقل الذى أشار به عم جد طاهر بن الحسين ، سببا فيما قام به بعد ذلك نصر بن شبث من ثورة ضد الطاهريين بالجزيرة ، من سنة 198 الى سنة 209 ؟ لا شك فى أن الاعمال الثورية التى قام بها أسلاف الطاهريين باسم الدعوة ، كان لها حتما آثار لمسها الاحفاد فى حياتهم السياسية.

ولم يكن ذلك الا جانبا سلبيا من العواقب السياسية ، من أعمـــال طلحة وأخيه مصعب ، على الاجيال التالية من أسرتهم · ولكن الطاهريين ورثوا من الجدين المشهورين ما هو أهم وأعظم ؛ أعنى الولاية على مقاطعة هراة ومدينة بوزنج اللتين وليا حكمهما بعد انتصار العباسيين ·

والعمل الرئيسى الذى أتاح لطلحة هذه المكافأة الكبرى ، هو على ما يبدو ما قـــدمه من خدمة جليلة لابى مسلم للقضاء على الكرمانى ·

وقد كان الكرمانى بمقتضى الاتفاق المبرم قبيل الاصطدام مع الهاشميين ، رئيســـا لقيادة القوات الثورية (58) وكان أبو مسلم حتى الاستيلاء عـــلى نيسابور سنة 1311 ، وبعد الانتصار الحاسم الذى أحرزه فى مرو ، متضايقا باستمرار من هذا الاتفاق ، ولم يكن يقدر على أية مبادرة قبل موافقة الزعيم الازدى · فكان لابد من أن يتخلص القائد العباسى بسرعة من الكرمانى ، والا أفلتت السلطة المحررة ، من أيدى الدعوة وحزبها .

---

(58) انظر التعليق السابق رقم 29 ·

وقد أرسل أبو مسلم بصفة سرية الى أبى داود خالد بن ابراهيم ، مساعده الذى استولى على ط خارستان منذ حين أمرا أكبر عون للكرمانى أى أخيه عثمان · وبعد وصول خبر قتل عثمان ، ألقى أبو مسلم القبض على الكرمانى وقتله (59) ·

وبالرغم من أن المصادر المعروفة اليوم عن أخبار الدعوة العباسية ، لم تشر بصراحة الى الدور المحتمل الذى ننيطه بطلحة ، فمن الممكن لنا اعتمادا على بعض الاشارات ، ان نعرف أنه المسؤول عن هذه القضية الخطيرة التى لا تزال غامضة فى تاريخ العباسيين.

فقد كان للسلف الطاهرى مرتبة سنية ضمن النقباء الاثنى عشر ؛ وكان لذلك يتمتع بمقام لا يقل عن مقام أبى مسلم · ثم ان تأييده الاول الحاسم لابى مسلم فى نزاعه القديم مع سليمان بن كثير ، جعل منه بلا شك أفضل صـــديق له · ونضيف الى ذلـك أن أبا مسلم كان كثيرا ما يلجأ الى استشارة طلحة الذى اشتهر ببصره بالامور ، وادراكه السياسى الدقيق ، علاوة عن صرامته التى يضرب بها المثل ، كلما دعا الامر الى البت مع خصوم الدعوة الهاشمية ، أو مع العناصر المرتاب فيهم ، على أن الاشارة التى تفيدنا فائدة أكيدة بخصوص هذه النقطة ، هى الخبر الهام الذى نقله الكاتب المتأخر ، زمجى اسفزارى · فقد كتب هذا المؤلف فى مصنفه عن أخبار مدينة هراة « أن أول أمير لمدينة هراة عينه أبو مسلم هو عثمان الكرمانى ؛ وقد وصل اليها سنة 130، وخلفه أبو منصور طلحة بن رزيق » (60) ·

فلا شك أن هناك علاقة بين تعيين طلحة وقتل الكرمانى ، ليكون لهذا الداعى الخزاعى حق فى ولاية ذى أهمية كهذه ، واقعة فى قلب خراسان ·

وقد ارتاح طلحة أخيرا الى هذه الولاية التى انتدبته اليها الخلافة العباسية ، فأخذ يعمل بمساعدة أخيه مصعب لتعزيز سلطان أسرته فى هذه الجهة ، دون أن يخـــاطر

(59) ذكر مجهول غريازنفتش « انه بعد قتل الكرمانى ، اديت البيعة لابى مسلم الذى ام الصلاة منذ ذلك الحين فى نيسابور » ·

(60) زمجى اسفزارى (الف عند سنة 899) روضات الجنات فى أوصاف مدينة هراة ، نشر كاظم امام طهران 1338 ــ ص 381

بنفسه فى النزاعات التى قامت اثر ذلك ، بين الخلفاء وبعض العمال المتمردين ، من بين الدعاة السابقين ، مثل أبى مسلم ، وسليمان بن كثير ، وأبى سلمة الخلال الذين قضى عليهم بالتوالى ، لاسباب مختلفة . فان أجداد الطاهريين لم يكونوا على ما يبدو ممن تعجلوا فى السباق الى الحكم والسلطان . ولا شك أن الاعتدال ، والرغبة فى تقديم خدماتهم الى الخلفاء عندما تعرض الفرص ، وحسن تدبير شؤون ولايتهم ، كانت كلها مما ضمن الاستمرار والاستقرار فى الولاية لابناء رزيق وان كانوا تابعين طوعا أو كرها لسلطانة أمير خراسان .

* * *

ويبدو أن مصعبا كان دوره ثانويا بصورة ما ، طيلة حياة أخيه طلحة ، وأنه خلفه فى الولاية . ولكن الترجمة التى خصصها ابن خلكان لطاهر بن الحسين تنطوى على غموض . فقد قال ابن خلكان : « وكان جده مصعب ـ أى جد طاهر بن الحسنى ـ واليا عليها ـ أى على بوشنج وهراة ـ » . (61)

وعلى هذا يكون مصعب هو الذى حقق الصبغة الوراثية لسلطانة الاسرة .

ولم تتعرض ولاية مصعب ، اعتمادا على فقدان المعلومات بشأنها فى الاخبار ، لاى خطر يهدد وجودها الا فيما بعد ، فى العقد الاخير من القرن الثانى (الثامن الميلادى) . فقد خلفه ابنه الحسين قبل ذلك بدون صعوبة . وفى عهده تحدثت الاخبار لاول مرة ، عن أعمال ابنه طاهر الذى عرف فيما بعد بذى اليمينين . فقد قيل ان طاهرا شارك وهو شاب يافع، فى المعارك ضد الخوارج الذين كانوا يتهددون مسقط رأسه بوشنج (62) ويقال أيضا انه عندما اختير سنة 194 لمقاتلة على بن عيسى بن ماهان ، اشترط أن يؤذن له بالخطبة والصلاة فى بوشنج (62) قبل الذهاب الى القتال . وذلك عمل رمزى كان ينوى به فى الغالب ، أن يكفل وراثة الولاية من أبيه ، الذى كان شديد التوجس بشان

(61) ابن خلكان : الوفيات 2 202

(62) أنظر التعليق السابق رقم 7 . أنظر بخصوص بوشنج د م أ 2 تحت هذا الاسم 1382 I ـ 3 (وبارطولد و ب سبولر) .

مصيرها . فقد اضطر الحسين بن مصعب فعلا ، فى السنوات التالية ، حين كان علـى ابن عيسى بن ماهان والى الرشيد على خراسان ، الى السعى لضمان استمرار الولاية فى أهل بيته ، خاصة بعد أن تهدد العامل المذكور حياته . وقد تحدث الطبرى عن الاسباب التى حملت الرشيد على خلع على بن عيسى من عمله ، وبين أنه كان استبد به هـواه ، وأنه أهان أعيان خراسان ظلما وعدوانا .

وروى الطبرى ان على بن عيسى بن ماهان كان يخفى أموالا عظيمة عن الرشيـد و «كان على مع ذلك قد أذل الاعالى من أهل خراسان واشرافهم، وذكر أنه دخل عليه يوما هشام بن فرخسرو والحسين بن مصعب فسلما عليه فقال للحسين : لا سلم الله عليك يا ملحد بن الملحد والله انى لاعرف ما أنت عليه من عداوتك للاسلام وطعنك فى الدين وما انتظر لقتلك الا اذن الخليفة فيه فقد أباح الله دمك وأرجو ان يسفكه الله على يدى، عن قريب ويعجلك الى عذابه ، ألست المرجف بى فى منزلى هذا بعد ما ثملت من الخمر وزعمت انه جاءتك كتب من مدينة السلام بعزلى فعن قريب ما تكون من أهلها فقال له الحسين اعيذ بالله الامير ان يقبل قول واش أو سعاية باغ فانى برىء مما قرفت به . قال : كذبت لا أم لك لا ، قد صح عندى انك ثملت من الخمر وقلت ما وجب عليك به أغلظ الادب . ولعل الله ان يعاجلك ببأسه ونقمته، اخرج عنى غير مستور ولا مصاحب، فجاء الحاجب فأخذ بيده فأخرجه » .

ومن الواضح أننا اذا تأملنا فى هذه الحادثة التى لم ترد الا بهذه الرواية ، أن مآخذ ابن ماهان على الحسين ، مبعثها غضب الاول على الثانى لاسباب شخصية لا غير . أيكون ذلك لحقد توارثته أسرتا الرجلين ؟ ان الاخبار لم يتسرب اليها شىء بشأن العلاقات بين آل رزيق وآل ماهان . وقد اضطرنا الى الرجوع الى عهد الدعوة العباسية للعثور على هذه السابقة المسيئة التى كانت سبب التنافر بين الاسرتين على ما يبدو .

لقد كانت الاسرتان من أصل فارسى ، وكانتا مرتبطتين بالولاء الى قبيلة خزاعة ، وبفضلها شاركتا فى الدعوة الهاشمية . على أن الدور الذى قام به طلحة وأخوه مصعب

(63) الطبرى 3/713 – 4 .

جد طاهر فى هذه الحركة ، كان أخطر وأكبر ، وكانا أكثر توفيقا لما اجتنياه فى الختام ، بينما انتهى عيسى بن ماهان الى مصير بتيس ، لضآلة دوره فى الحركة .

وقد ذكر العينى المؤرخ الذى استقينا منه هذا الخبر عن أصل عيسى بن ماهان ، بصدد الحديث عن بعض من أمر القائد العباسى قحطبة بن شبيب بقتلهم ، أن القائد « بعث قحطبة برؤوسهم الى أبى مسلم بنيسابور مع عيسى بن ماهان مولى خزاعة» (64) .

واذا أخذنا بالخبر التالى الذى نقله الطبرى ، فان عيسى كان يتجسس على الناس اما طمعا فى مرتبة أو حسدا لهم ، الامر الذى جعل رئيسه القائد أبا داود خالد بن ابراهيم فى حرج أمام أبى مسلم ، وهذا أقل ما يمكن أن يقال . ذلك أن عيسى بن ماهان اتهم أبا داود بسلوك مبنى على العصبية راجيا بذلك بعث العداوة بين أبى مسلم ، وهو غير عربى ، والقائد العربى الذى كان من أبرز قادة الجيش العباسى . على أن أبا مسلم المعروف ببصره بالامور وتحذره ، أنكر ذلك بشدة على عيسى ، لئلا يتكرر الامر ، ولاحباط النزعات العصبية فى صفوف حركته التى كانت حركة سياسية وعقائدية عامة .

وقد تحدث الطبرى عن حوادث هذه القضية قائلا : « ... حتى ظفر أبو مسلم بستة عشر كتابا وجدها من عيسى بن ماهان الى كامل بن مظفر صاحب أبى مسلم يعيب فيها أبو داود وينسبه فيها الى العصبية وايثاره العرب وقومه على غيرهم من أهل الدعوة ، وان فى فى عسكره ستة وثلاثين سرادقا للمستأمنه ، فبعث بها أبو مسلم الى ابى داود وكتب اليه أن هذه كتب العلج الذى صيرته عدل نفسك فشأنك به » . وقد علمنا فى الاخير أن أبا داود لم يغفر ذلك لعيسى ، وأنه سلمه لجيشه سنة 135 فقتله .

أليس لنا أن نعتقد بأن بعض الذكريات من هذا الماضى غير البعيد ، الذى عرفته أسرة على بن عيسى بن ماهان ، كانت لا تزال حية فى ذهن الخراسانيين ، لا سيما الاعيان والاشراف ، عندما ارتقى على الى منصب والى ؟

---

(64) محمود العينى (توفى سنة 850) دولة بنى العباس والطولونيون والفاطميون ، مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس 5761 وثائق 5 ب ، وهذا المخطوط الذى يحمل هذا العنوان يظن أنه جزء من عقد الجمان ، للمؤلف نفسه . ولكن لم يتمكن لى التثبت فيه .

على أنه لا شيء يدل على أن مصعبا ، كان له دخل فى قضية عيسى ، لكن كان يكفى أن يكون له دور هام فى قيادة الدعوة · وما كان له من صلات وثيقة مع زعمائها لتفسير حنق الوالى (على بن عيسى) على ولده (الحسين بن مصعب) ، لا سيما أن عليا كان يحترز من غير شك مما يضمره له الحسين الذى قد يكون حسده على منصبه ، الى درجة أنه رغب فى أن يطيح به يوما ما ·

ويبدو أن الحسين اضطر لينجو بنفسه ، وتعلل للخروج من خراسان ، بأنه يـريد الحج ، يقول الطبرى : « وخرج الى مكة مستجيرا بالرشيـــد مـــن على بن عيسى · فأجاره » (65) · كان ذلـك سنـة 190/806 ، وكان طاهـر بن الحســين فى نحـو الثلاثين مـن عمـره (66) ، وقـد نشـأ الشـاب عـلى مقتضى التقاليـد ، وتلـقى تكوينـا عسكريـا وثقافيا كامـلا ، ليضطلع بالمسؤوليات الكبـيرة · وقد سبق أن أحرز طاهر شهرة لقتاله للخوارج (67) ، وألفى نفسه فى وضعية تقتضى منه حمايـة حقوق أسرته من سوء نوايا على بن عيسى بن ماهان ·

ومن الواضح أنه من المنتظر أن يتأكد عـــزم طاهر مواجهة تحدى والى خراسان البغيض ، خصوصا بعد أن أرهبه العامل شخصيا · فقد ذكر الشابشتى أن عـــلى ابن عيسى بن ماهان قيد طاهر بن الحسين الى سارية فى قصره ، بمحضر والده وعـــدة شخصيات (68) · وقد كان لعداء طاهر وعدد كبير من الخراسانيين الذين كانوا يشكون من ظلم على بن عيسى بن ماهان (69) فى كل مكان ، حل ومخرج بالثورة التى نشبت فى سمرقند بشمال خراسان · وذلك أن رافع بن الليث حفيد نصر بن سيار وآخر وال أموى ، اتخذه ابن ماهان من قبل مساعدا لـــه فى سمرقند ، انتهـــز فرصة استياء

(65) الطبرى 3/713 ·
(66) أنظر التعليق السابق ص 4 التعليق رقم 12 ·
(67) ابن أبى طيفور : كتاب بغداد 68 ·
(68) الشابشتى فى الديارات 92 · وقد اضاف ان الحسين أفضى الى احـد اصحابه الحاضرين « أما ترى هذا المشدود ــ يعنى ابنه ــ ليقتلن صاحب هذا القصر » ·
(69) الطبرى 3 ، 713 ــ 4

الخراسانيين الشديد من العامل ، فأراد أن يبتعث الخلافة الاموية ، باعلان الثورة والعصيان • وذلك ما حكاه ابن حزم فى فقرة غريبة ، بين فيها أن طاهرا وقف الى جنب رافع • وقد ذكر الكاتب فى هذا الخبر المثبت فى كتابه « نقط العروس » ـ والكاتب من رعايا الامويين بالاندلس ، وممن كانت لهم نزعة أموية ـ الولاة الذين أعلنوا انتماءهم الى الخلافة الاموية الاندلسية ابان اعلان ثورتهم فى المشرق (70) ، وبين أن من بينهم « تمام بن تميم التميمى بالقيروان أمام الرشيد ، ورافع بن الليث بن نصر بن سيار بسمرقند بخراسان ، كان عجيف بن عنبسة وطاهر بن الحسين من قواده » • (71)

وعلى هذا فان هذا الخبر مما يؤكد ما ذهبنا اليه من انضمام طاهر الى ثائر سمرقند . وقد استخلصنا ذلك بدرس بسيط للحالة •

على أن المصادر التى اعتمدنا عليها حتى الآن (72) فى تاريخ الطاهريين ، تفيد أن طاهرا كان على العكس من ذلك من رجال الصف المعارض المقاوم لرافع ، تحت لواء هرثمة بن أعين القائد العباسى •

وذلك يرجع بالتحقيق على ما نعتقد ، الى تطور فى موقف طاهر ، يفسره ما طرأ من جديد فى الشؤون السياسية الخراسانية •

وبالفعل فان الرشيد كان قد منع على بن عيسى من أن يكل مثل تلك المهمة الخطيرة الى رافع بن الليث ، ولما طلب منه على أن يرسل اليه بمدد من القوات لمحاربة الثائر ، ارتاب الرشيد فى أمره وقرر أخيرا عزله من عمله • وقد أرسل الخليفة هرثمة الى خراسان لمساعدة الوالى فى الظاهر ، ولكنه كلفه فى الواقع بالقبض على على بن عيسى بن ماهان وأن يقضى على ثورة رافع (73) •

---

(70) اى بالنظر الى الاندلس
(71) ابن حزم «نقط العروس» نشر شوقى ضيف ، 76
(72) الطبرى بصورة خاصة 3 ، 799 وابن أبى طيفور كتاب بغداد 68 •
(73) اليعقوبى تاريخ 2 435 ؛ الازدى تاريخ الموصل ، 267

وفى أثناء ذلك استقبل الرشيد الحسين بن مصعب استقبالا حسنا . ومن العسير منذ ذلك الحين ، أن نفهم ما هى الاسباب التى يمكن أن تحمل ابنه طاهرا على الاستمرار فى خدمة ثائر لا يعتبره الخليفة ثائرا ضد ابن ماهان ، لكن ضد الخلافة العباسية .

ومن المعروف أن ثورة رافع امتدت بعد ذلك الى جهات كثيرة وتفاقم أمرها (74) ، وأن الرشيد استولى عليه القلق بسببها ، فذهب الى خراسان برفقة ولده المأمون .

وبمجرد أن أخذ موقف هرثمة يتعزز ، فاذا هو يضطرب من جديد بسبب وفاة الخليفة ، سنة 809/193 ، وبما حدث بعد ذلك بسرعة من فساد العلاقات بين الامين الخليفة الجديد ، والمأمون ولى العهد بوصاية من ابيهما الرشيد .

ومن أجل ذلك فقد بقى مصير الولاية المعصبية مهددا ، لا سيما أن الامين قد أطلق سراح على بن عيسى بن ماهان ، العدو الاول لاسرة مصعب . وقد قيل (75) أن على ابن عيسى كان أول من قبل أن يذهب الى خراسان لمحاربة المأمون فى حين أن جميع أفراد حاشية الامين كانوا مترددين فى ذلك .

وبذلك فقد أتيح للوالى السابق (على بن عيسى) أن يظهر من جديد على المسرح السياسى، الامر الذى أساء لذكرى الرشيد، ونفر الخراسانيين . ومن نتيجته أن اتضح التهديد بالحرب بين الاخوين ، ودفع عدد من كبار أنصار العباسيين المعارضين لابن ماهان أو المترددين فقط ، الى الانضمام الى المأمون ، وتعزيز صفوف المخالفين للامين . وعلى ذلك فان النزاع الذى غلا المؤرخون فى اعتباره نزاعا عنصريا بين العرب والفرس ، انما هو صراع سياسى بالدرجة الاولى .

---

(74) ر ن فرى . تاريخ بخارى (بالانجليزية) ترجم الى الفارسية ، كامبريدج 1954 — 76 — 7

(75) المسعودى : مروج الذهب نشر وترجمة ك بربى دومينار و باقى دوكرتيل 6 ، 419 — 20 ؛ الطبرى 3 810 : انظر ابن بدرون : شرح العيون فى قصيدة ابن عبدون (البسامة) نشر دوزى ليد 1846 ، 204 . واليعقوبى : تاريخ 166

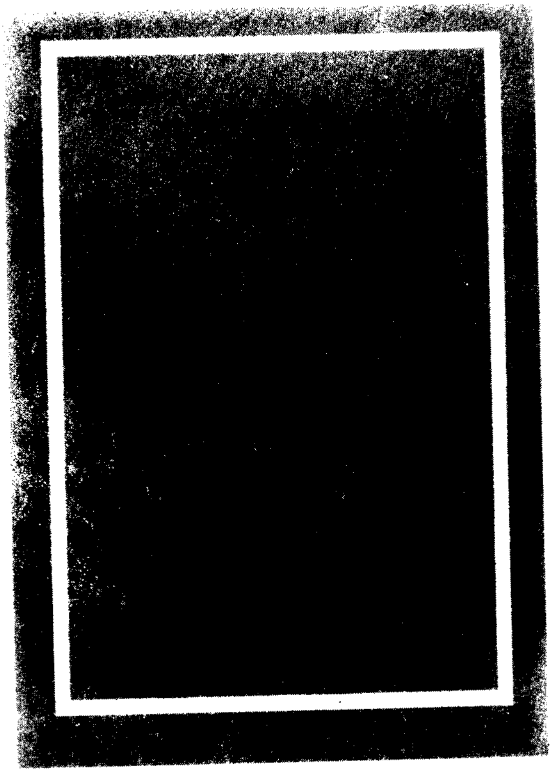
وبذلك يتضح انحياز أسرة مصعب الى جانب المأمون · ويتجلى أن اختيار طاهـر سنة 194 لمواجهة ابن ماهان مجرد مصادفة على هذا ، كما لم تكن نصرته للمأمون ، كما رأينا ذلك ، بدون سبب متصل بمكانة أسرته فى خراسان ، وبنفوذه أيام قيام الدعوة العباسية ·

وكل هذا يؤكد لنا أن نجاح طاهر بن الحسين لم يتم بصفة مفاجئة وغير منتظرة ، ولكن نتيجة لما بذلته أسرته من نشاط وجهود لخدمة الدعـــوة العباسية وخلفائهـا الاولـين · (76)

(76) تعرضنا لتاريخ طاهر بن الحسين فى الفترة التالية لهذه الحوادث ، بالتفصيل فى اطروحتنا ، وعنوانها : الطاهريون تاريخهم وادبهم والشعراء المتصلون بهم · (اطروحة مرقونة) ، باريس 1970 ·

منشـــــورات

وزارة التعليم الأصلى والشؤون الدينيـة



من اصداء الملتقى 11 للفكر الاسلامى

لقاء مع مولود قاسم

عبد العال الحمامصى



الوزير الجزائرى مع مندوب «الثقافة» (مصر)

● هذا الرجل ·· مولود قاسم وزير التعليم الأصلي والشئون الدينية بالجزائر واحد من انشط العناصر الجزائرية المثقفة ·· والتى تقع على عاتقها مهمة تاكيد الانتماء الجزائرى للعروبة والاسلام ·· وهو يقوم بدور بالغ الأهمية في اعادة اللسان الجزائرى لأصوله العربية · وهو يجمع فى ثقافته بين أصالة التراث وعظمته ·وبين معطيات العصر وحداثته ومن أجل هذا ووفقا لهذا انطلقت دعوته « لنكن أبناء عصرنا مع المحافظة على اديم مصرنا » تعبيرا عن الأصالة والمعاصرة طريقا لبناء الوطن الجزائرى الجديد · وخلال انعقاد الملتقى الحادى عشر للفكر الاسلامى بورجلان التقيت بمولود قاسم لأطرح عليه بعض التساؤلات التى قدم هنا اجابته عليها ··

● ليكن الاسلام حاضرا على الدوام ●

● قلت لمولود قاسم وزير التعليم الأصلى والشئون الدينية بالجزائر : مبادرة طيبة تلك التى تقدم عليها الجزائر كل عام لطرح قضايا الفكر الاسلامى فى ملتقى عام فى محاولة لاستخلاص حلول لما يواجه هذا الفكر من مشكلات ·· هل تعتقدون أن هذه الملتقيات قد حققت الغرض منها ·· هل أشاعت مناخا فكريا لمواجهتها فى البلدان التى تدعى وفودها لهذا الملتقى ·· أو على الأقل فى الجزائر ذاتها ؟

وأجابنى مولود قاسم بقوله :

بالطبع لا يمكن أن تتحقق النتائج المرجوة فى التو واللحظة ·· فهذا عمل متواصل يعطى ثمرته على المدى الطويل · ومع ذلك يمكننا القول بأن هذه الملتقيات بمحاضراتها ومناقشاتها ومطبوعاتها · وأجهزة الاعلام التى بها قد أحدثت جوا ثقافيا وروحيا لا أبالغ عندما أزعم بأنه يبشر بالخير ويفتح آفاقا مشرقة·· مما يشجعنا على الاستمرار والمواصلة والاستزادة من هذه الملتقيات ·· انهم هنا فى الجزائر أساتذة الجامعة

وطلبتها .. وشباب الثانويات المتعطش للثقافة ورجال الاعلام والصحافة يستفيدون من الآراء التى تطرح فى الملتقيات ومن الحوار الذى يجرى بينهم وبين المدعوين لهذه الملتقيات من رجال الفكر الاسلامى وغيرهم من المفكرين الأجانب .. بل اننا على مستوى أجهزة الدولة الثقافية تتبنى كثيرا من الأفكار التى يصل اليها الملتقى والتوصيات التى يختتم بها أعماله .

أما خارج الجزائر من بلدان العالم الاسلامى .. وحتى من غير البلدان الاسلامية فكثيرا ما ترتد الينا أصداء ما يدور فى هذه الملتقيات. وكل هذا يشجعنا على الاستمرار فى هذه الملتقيات وتوسيع مجالاتها وتنويع محتوياتها .

ان علينا أن نجعل الفكر الاسلامى حاضرا على الدوام ليقدم الحلول لكل ما يواجه العالم الاسلامى من مشاكل وتحديات . وهذا أفضل طريق لتحصين الأجيال ضد كل أنواع الغزو الفكرى . ويعطيها الثقة فيما لديها والأيمان بقدرته للوصول الى المستقبل الأفضل .

● كلمة الجهاد .. تعنى الاسلام ! ●

● قلت : وبالمناسبة نعرف أن الاسلام لعب دورا ثوريا حاسما فى انهاء الوضع الاستعمارى فى الجزائر . برغم كثافة هذه الاستعمار وعمق تغلغله .. ما هو الدور الذى يلعبه الآن فى مسيرة الجزائر نحو المستقبل ؟

ـ بلا جدال لعب الاسلام الدور الأساسى فى إنقاذ الجزائر من السيطرة الفرنسية بل كان المحرك الأوحد لتأكيد القومية الجزائرية فى مواجهة محاولات ابادة هذه القومية .. ويكفى أن نرمز لتأكيد هذا بثلاثة أسماء كلها لمسمى واحد .. ان الكفاح التحريرى كان يسمى بلسان الشعب « الجهاد » وصحيفة جبهة التحرير ثم الحكومة المؤقتة كانت وما زالت تسمى « المجاهد » وثوار التحرير والمقاتلون من أجل الحرية كانوا يسمون « المجاهدين » ولدينا الآن « وزارة قدماء المجاهدين » ، و « الجهاد » برغم ما يتبادر من مدلول لغوى واسع لها هى كلمة اسلامية . لا يمكن أن توحى الا بالمضمون الاسلامى الذى يقف وراءها .

أما دور الاسلام اليوم فى الجزائر فلا يقل عن دوره بالأمس .. كان فى الماضى يمثل حصانتنا ضد اقتلاع الذات .. وهو اليوم يغرز لنا فعاليات هذه الحصانة ومناعتها فى مواجهة كل الايدلوجيات وتصفية كل رواسب الاستعمار وكل ما يرد الينا من أنواع فكرية تستهدف التأثير فى مقوماتنا وخصائصنا .. من أى جهة جاءت وبأى لون تسربلت . وهذا الذى أقوله لك عن الاسلام يبدو جليا فى أجهزتنا التربوية والثقافية خصوصا فى مجال التعليم .. كما يتمثل واضحا وناصعا فى الوثائق الرسمية للدولة والحزب . ويؤكده الميثاق الوطنى .. كما يؤكده دستورنا الذى صدر مؤخرا .. ان الدين الرسمى لدولة الجزائر هو الاسلام . وليس هذا مجرد نص تقليدى .. ان الاسلام بالنسبة لنا أنفاس وجودنا وهواء حياتنا .. وليس معنى هذا أن نتقوقع وننغلق دون العالم والعصر . والاستفادة من التجارب الناجحة لدى الغير . فالاسلام يحثنا على السير فى الأرض ، واحترام تجارب الغير . لنظل راسخى الأقدام على أديمنا مستندين بالدرجة الأولى الى حصانتنا وقيمنا العربية وارتباطنا بالأمة الاسلامية الكبرى .

● كل الثورات قامت تحت علم الاسلام ●

● ان حماس واخلاص الذين يديرون جهاز السلطة الوطنية فى الجزائر للعروبة وللاسلام يدعونى للتساؤل عن مدى الدور الذى لعبته الثقافة الاسلامية فى تشكيل مكونات هؤلاء القادة روحيا وفكريا ؟

ـ لدينا هنا فى الجزائر عديد القيادات الوطنية المسئولة من الذين تشبعوا بالثقافة الاسلامية بأعمق وأوسع المعانى .. كما أن لدينا بعض الذين أخذوا منها بنصيب وافر وبدرجات متفاوتة سواء منهم الذين درسوها فى معاهد وجامعات المشرق وخاصة مصر وبعض البلدان الشقيقة . وبلدان المغرب .. ان كل الثورات التى اشتعلت فى الجزائر غداة الغزو .. كلها بلا استثناء كانت تنطلق باسم الاسلام . ترفع رايته وتهتف باسمه . وتواجه الاستشهاد تحت علمه .. واذا استعرضنا كل هذه الثورات تأكدت لنا هذه الحقيقة وعندما نرجع الى الانسكلوبيديا الفرنسية فى جزئها الخاص بالجزائر نجدهم يعترفون بهذه الحقيقة .. حقيقة ان كل ثورات الجزائر قامت باسم الاسلام ومن أجله . وعندما استطاعت فرنسا أن تخمد الكفاح المسلح قامت الحركة الوطنية والسياسية والاصلاحية باستيحاء أفكار جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وشكيب ارسلان على أساس اسلامى بالدرجة الأولى . وكانت هى التى أدت على مختلف مراحلها فى النهاية الى استئناف الكفاح المسلح فى نوفمبر ١٩٥٤ . وكان لابد أن يكون هذا الكفاح الطويل باسم الاسلام هو صاحب التأثير الأوحد فى كل

الذين رفعوا السلاح ليعيدوا للجزائر استقلالها ‥ وليعيدوها للعروبة وللاسلام ٠

● علينا ان ننقذ افريقيا ●

● طرح في الملتقى الحادى عشر للفكر الاسلامى مؤخرا ٠ موضوع الاسلام الآن فى أفريقيا ‥ ما هو المطلوب من العالم الاسلامى والعربى بالذات للحفاظ على اسلام الافارقة وترسيخه فى مواجهة عواصف فكرية تهب الآن على القارة ‥ وماذا تستطيع الجزائر المسلمة العربية ان تقوم به فى هذا المجال ؟

ـ أنت تعرف ان الوضع الجغرافى « لورجلان » التى يحتضن صدرها هذا الملتقى غير بعيد عن بلاد السودان بالمعنى الواسع كما كان ابن خلدون يطلق على أفريقيا ‥ ونحن نعرف أن التبشير والغزو الفكرى فى المجالات المختلفة يستعمل جميع الوسائل فى بلدان أفريقيا فى شمالنا الواسع من السويس حتى غرة الأطلس فهو يركز بالدرجة الأولى على اخواننا تحت الصحراء ـ أفريقيا الجنوبية ـ وما قضية السودان ببعيدة عنا وان لم تبرز بالشكل الاعلامى الذى يحيط بكل أبعادها ‥

ان أفريقيا تتعرض الآن لمحاولات التسرب بكل الأشكال القديمة والحديثة وعلى الدول الاسلامية أن تفطن لهذا وأن تمارس دورا جديا فى حماية القادة من هذه المحاولات التى تريد النفاذ الى احشائها ‥ واحباطها بوسائل فعالة ‥ علينا أن ننشط لاقامة الجامعات والمراكز الثقافية ‥ والمدارس باللغة العربية ‥ واللغة الأجنبية السائدة فى كل منطقة والتى ورثتها عن المستعمر الذى كان يهيمن على شئونها ٠

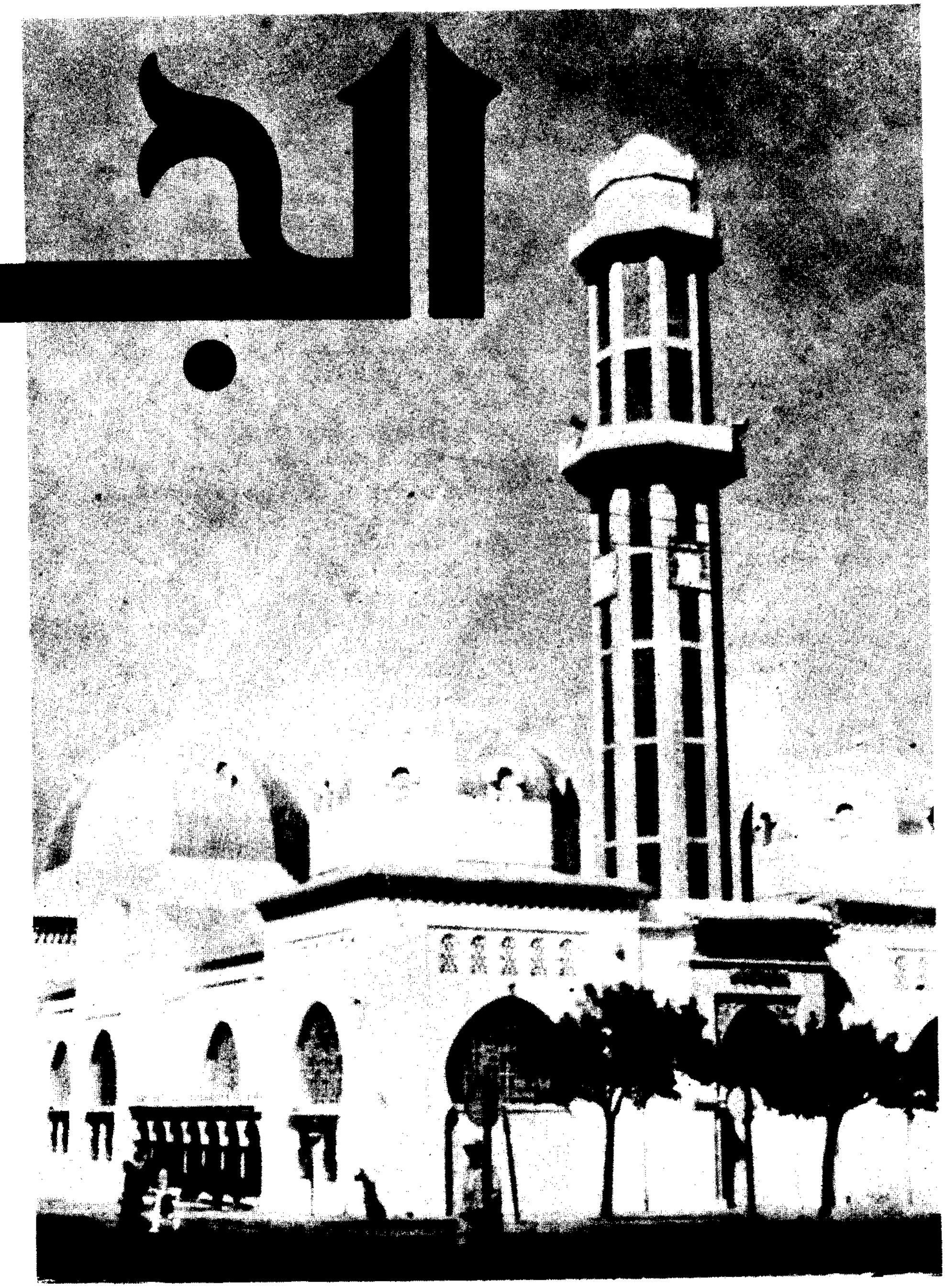
وفيما يخص الجزائر فاننا بجانب ما نقدمه فى المجال الاقتصادى والثقافى والتقنى لبعض الدول الأفريقية فى حدود امكانياتنا المتواضعة فيمكننى أن أشير الى بعض ما نقوم به من استقبال أعداد وفيرة من طلبة هذه الدول فى مدارسنا حتى البكالوريا حيث تدرس لهم المواد باللغة العربية أولا وباللغات الأجنبية ثانيا ‥ وفى خطتنا أن نستقبل بافتتاح بعض الثانويات فى التعليم الأصلى أضعاف هذه الأعداد مستقبلا ‥ وبافتتاح كلية الشريعة والقانون المقارن فى العام القادم باذن الله والتى ستكون نواة لجامعة اسلامية متكاملة بجانب الكليات العلمية ‥ سوف نتمكن من تخفيف العبء على الجامعات الاسلامية فى البلدان الشقيقة لاستيعاب الأعداد المتزايدة من طلبة أفريقيا ‥ ولكن هذه الجهود التى نبذلها هى دون المطلوب ‥ اذا أردنا ان نحصن أفريقيا بطريقة جادة ٠

● فى مصر نتابع نحن تجربة الجزائر لتعريب محيطها ‥ ووزارتكم تقوم بدور رائد فى مجال التعريب ‥ ما مدى النجاح الذى حققته ‥ وهل هناك عقبات تواجه التجربة ؟

ـ هل سمعت النشيد الذى كان يردده طلبة الجزائر لحظة افتتاح الملتقى « شعب الجزائر مسلم والى العروبة ينتسب » ان انتسابنا الى العروبة هى حقيقتنا الجوهرية الأولى ‥ وتعميق هذا الانتساب لابد أن يصاحبه أن تكون العربية هى اللغة صاحبة السيادة على كل المحيط الجزائرى ٠ وهناك جهود منسقة تتم على مختلف دوائر الدولة والحزب من أجل احلال اللغة العربية ‥ لاعطاء الشخصية الجزائرية كل مقوماتها بدون تعصب أو تشنج ولكن انطلاقا من كون اللغة هو المقوم الأساسى لتأكيد شخصية الأمة أى أمة ‥ لقد حاول الاستعمار الفرنسى عزل الشعب الجزائرى عن لغته الطبيعية ‥ ومن الطبيعى أن تعود للشعب الآن لغته ‥ وفعلا وجد نوع من المقاومة لسياسة التعريب من بعض الذين حرمهم الوضع الاستعمارى من تعلم اللغة الأم ‥ وهؤلاء تقدمت بهم السن ويعملون فى جهاز الدولة ٠ وظنوا ان سياسة التعريب تضر بمصالحهم كموظفين فى جهاز الدولة التى أعلنت حتمية أن يتعلم جميع من هم فى جهاز الدولة العربية ‥ وخصصنا لذلك بعض الساعات واحتسبناها من ساعات العمل الرسمية ‥ ولأن هؤلاء استخلصوا من هذا بعض التصورات الخاطئة فقد قابلوا هذه العملة الوطنية بنوع من الشك والتشاؤم والعرقلة الصامتة ‥ وبعضهم بدون شك كانت تحكمه العقدة الاستعمارية فى تحقير اللغات الوطنية والزعم بأنها غير قادرة على مجاراة العصر ٠

ولكن التجربة المخططة والتوعية المنظمة استطاعت أن تقنع هؤلاء وأولئك بأنهم أساءوا التقدير ‥

ان انتساب سياسة التعريب بشكل مذهل واقبال الجميع على اتقان العربية يجعلنا فى غاية التفاؤل بشأن نجاح سياسة التعريب ‥ لقد اندحرت كل الحجج التى زعمت بأن العربية غير قادرة على ملاحقة العصر وانجازاته العلمية ‥ لقد كانت هذه اللغة فى القرون الوسطى حتى بداية النهضة هى لغة العلم فى جميع أنحاء العالم ‥ أو على الأقل فى حوض الأبيض حتى حدود الشمال الأوربى ‥ وتستطيع اليوم بخصائصها الذاتية أن تكون احدى اللغات العلمية على مستوى العالم بأسره ٠



زائر
والملتقى الحادي عشر للفكر الاسلامي (1)

حوار اجراه / فهمي عبد العليم الامام

في المغرب العربي الكبير ، وفي قلعة من قلاعه الشامخة ، في حصن من حصون الاسلام ، في بلد المليون ونصف شهيد .. في أرض ظن المستعمر الفرنسي يوما أنها قد أصبحت من أرضه . في وطن رأى المستعمر الغاشم أنه قد استطاع سرقته بليل دامس ليضمه الى وطنه، في الجزائر العربية المسلمة رغم المحاولات المستميتة التي تعمل جاهدة لتغيير السنة الشعب الجزائري .. في الجزائر الحارسة لثغر من ثغور الاسلام .. الشامخة مآذنها المضيئة بالنور والعلم.. لتقول لبلاد المستعمر من وراء البحر .. لو علم المسلمون الاوائل أن وراء البحر حياة .. لخاضوا البحار ليقوموا بواجب تبليغ الدعوة الاسلامية الى الأحياء هناك .. ولينشروا الايمان .. وليحرروا الانسان من ظلم الانسان.. وليصفوا العقائد مما لحقها من أباطيل ليخلص الدين كله لله .

لقد كان أجدادي أيها الغرب المستعمر رسل هداية .. وصناع حضارة .. وحاملي لواء المعرفة والايمان .. لم يحرقوا أرضا كما فعلت .. ولم يبيدوا شعبا كما فعلت .. ولم يزيلوا حضارة كما حاولت.. ولم يسترقوا أمة كما ارتكبت ..

أجدادي أيها المستعمر القديم والحديث لم يمتهنوا كرامة الانسان .. ولم ينهبوا خيرات شعب بل

(1) نشر في مجلة «الوعي الإسلامي» السنة 13 العدد 149 ـ جمادى الاولى 1397 هـ/مايو 1977م.

كانت الحريات مكفولة .. والمساواة قائمة .. وكرامة الانسان هي كرامة الانسان لمجرد كونه انسانا ..

(ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر) .

في الجزائر العربية المسلمة .. حاول المستعمر أن يترك الكثير من آثاره السيئة التي تشيع الفساد والانحلال يريد بذلك أن يقضي على الأمة المسلمة عن طريق هدم أخلاقها .. ولكنه — والحمد لله — قد طاش سهمه وخاب فاله .. فوقف أحفاد الأبطال الأوائل في الجزائر يضربون للعالم كله أروع الأمثلة للتضحية في سبيل الله .. من أجل الوطن .. والدفاع عن الحرمات .. وخرج الاستعمار يجر أذيال الخيبةوالندامة .. فهو لم يفطن الى أن السر في عظمة الأمة الاسلامية يكمن في قرآنها .. وفي تمسكها بدينها .. والله حافظ كتابه : **(انا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .**

فمهما طال الليل .. واشتد سواده .. وناء بكلكله .. فان الضياء ياتي بعد ظلمة .. وان النور ينبعث من خلال السواد .. ليبدد جحافل الظلام .

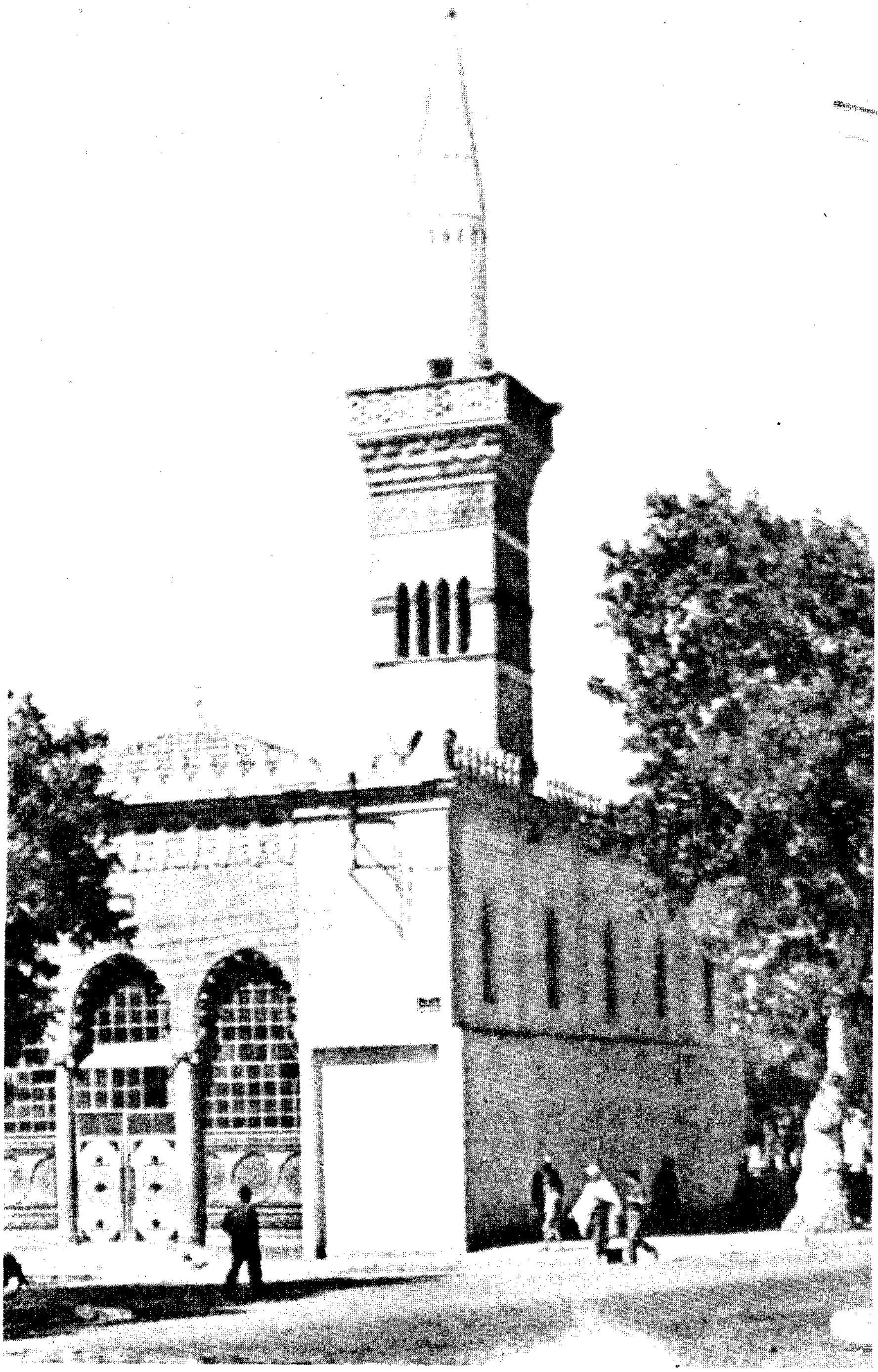
في الجزائر العربية ، استطاع الشعب المسلم أن يطرد الغزاة من أرضه .. وأن يبعث الحركةالاسلامية والعربية ناشطة من جديد .. حتى يمحو كل أثر سيىء للمستعمر .. وحتي يتحرر فكريا كما تحرر عسكريا .. في الجزائر المسلمة .. من حيث ظن المستعمر أنه قد تم له فيها ماأراد .. عقد الملتقى الحادي عشر للفكر الاسلامي ، ووجهت الدعوات الى العديد من الشخصيات في عالمنا العربي والاسلامي ، وبعض المفكرين واصحاب الراي في العالم الغربي .. لحضور هذا الملتقى ..

وقد مثل مجلة الوعي الاسلامي في حضور الملتقى فضيلة الشيخ عطية محمدصقر مساعد رئيسقسم الثقافة بوزارة الاوقاف والشئون الاسلامية. وبعد عودة فضيلته كان لنا معه هذا اللقاء .. وهذا الحوار .. ننشره ليطل القارىء الكريم من خلاله على قطعة غالية من وطنه الاسلاميالكبير .. وليعرف كما نعرف أن المستقبل لهذا الدين رضيأعداء الدين أو كرهوا .. ففي ديننا الاسلامي يكمن سر بقائه وخلوده .. لأنه دين الفطرة السوية ..

يقول فضيلة الشيخ : **بناء على الدعوة الموجهة من السيد وزير التعليم الأصلي والشئون الدينية بالجزائر الى مجلة الوعي الاسلامي لحضور الملتقى الحادي عشر للفكر الاسلامي الذي سيعقد في ولاية «ورقلة — سدراته» بمدينة«ورجلان» في المدة الواقعة بين ٦ و ١٥ من فبراير لسنة ١٩٧٧م .**

بناء على هذه الدعوة الكريمة رشحتني وزارة الاوقاف والشئون الاسلامية لتمثيل المجلة في المؤتمر .
وعن انطباعاته عن الشعب الجزائري قال فضيلته :

إن الجزائر بلد عربي واسلامي ناهض



الجامع الكبير بسطيف

.. يعيش حركة التعريب الواسعة في الدواوين والمدارس وجميع المصالح الرسمية .. بعد أن عمد المستعمر الفرنسي الى ابعاد اللغة العربية عن مسرح الحياة في الجزائر .. لتتسنى له السيطرة الكاملة على مقدرات الشعب .. ولكن الشعب الجزائري البطل قدم من دماء شهدائه المداد الطاهر ليسجل في صفحات التاريخ أروع البطولات وأعظم التضحيات فنال استقلاله وحريته ، وعاد الى حظيرة العروبة والاسلام بعد ان ظن المستعمر انه قد « فرنسه » .

هذا عن التحرر العسكري ولكن ماذا ترى فضيلتك عن التحرر الفكري ؟

بعد مائة سنة واكثر من تخلف فرضه الاستعمار ، ومحاربة الشعب الجزائري بكل الوسائل الخبيثة وتشجيع المستعمر للافكار المخربة والاراء المنحلة .. فقد اختلط الحابل بالنابل في الجزائر .. هناك مظاهر التقوى والصلاح ، الى جانب معاول الهدم والافساد .. ونأمل أن يوجه المصلحون هناك المزيد من اهتماماتهم للنهوض بعبء الاصلاح والدعوة الى الله ، والأخذ بيد الشباب الى طريق النور والايمان ، ونهيب بالغيورين على الدين .. ان يزيلوا عن وجه الجزائر العربي المسلم تلك النتوءات القبيحة التي شوه بها الاستعمار نضارة الوجه العربي المسلم في بلادنا الحبيبة الجزائر .. وان الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ..(1)

وعن المؤتمر قال شيخنا :

لقد عقد المؤتمر في موعده المحدد حيث القى كلمة الافتتاح السيد مولود قاسم وزير التعليم الأصلي والشئون الدينية بالجزائر مرحبا بالحضور الذين زاد عددهم على مائة استاذ وباحث وعدد كبير من الطلبة والطالبات في جامعات الجزائر ومدارسها . ثم استعرض الوزير النقاط التي قرر المؤتمر بحثها .. ثم بدأت جلسات المؤتمر واعماله.

وعن الموضوعات التي اختارها الملتقى لتكون موضع بحث ودراسة قال الشيخ عطية صقر :

كان الغرض من الملتقى عرض الاراء والأفكار حول نقط معينة تتغير من ملتقى لآخر ، مع الاهتمام بالآراء التحررية لمحاولة كسر الجمود الفكري القديم ، وذلك لرسم سياسة جديدة لتطوير المجتمع ثقافيا واجتماعيا ، وعرض ذلك كله على الطلبة والطالبات في الجامعات والمدارس الثانوية بالذات ، لاعدادهم لقيادة المسيرة التقدمية بعيدا عن التزمت الموروث كما يقولون !

وكانت الموضوعات التي دار حولها البحث والنقاش هي :

أ ـ مساهمة الرستميين في حضارة الاسلام وفكره ، والدولة الرستمية كما نعلم قامت في القرن الاول الهجري على اساس المذهب الأباضي وكانت « ورجلان ـ سدراته » هي العاصمة الثانية بعد تيهرت ، حتى قضى عليها العبيديون في زحفهم من المغرب الى المشرق « الفاطميون » .

ب ـ الاسلام في افريقيا اليوم .

جـ ـ المراة بعد عام المراة الذي أعلنت توصياته في مؤتمر مكسيك .

د ـ هل بطون الارض نعمة ام نقمة ؟

(1) نحن لا ننكر ما يقوله الاستاذ الفاضل هنا ولم يسبق لنا ان ادعينا ان جميع الجزائريين والجزائريات انبياء ، أو ملائكة، أو معصومون، ومعصومات ، ولكننا نقول فقط ان هذه الظواهر والمظاهر التي اشار اليها وسماها بـ « النتوءات القبيحة » ليست من « حظ » الجزائر وحدها ، بل هي مصيبة طامة ، عامة ، ونجدها في بعض البلدان الشقيقة(ومنها بلد الاستاذ)أطم وأعم ، مع الفارق الكبير وهو ان الجزائر تعرضت لما لم يتعرض له بلده الشقيق ولا أي بلد شقيق آخر من محاولات المسخ والنسخ .

ونحن اذ نشكر الاستاذ الكاتب على مقاله في الجملة نرجو الله ان يوفقه ويوفقنا جميعا الى مكافحة هذه الآفات هنا وهناك .



منصة احدى الاجتماعات

ثم قال فضيلة الشيخ : لقد القى في المؤتمر اكثر من اربعين محاضرة ، اكثر من نصفها كان عن موضوع المراة ، وكانت تعقد في كل يوم جلستان من ٨ — ١ ومن ٤ — ٩ مساء في كثير من الاحيان وداوم على حضور الجلسات عدد ضخم من المدعوين للمحاضرات والمناقشات ، منهم مسلمون وغير مسلمين جاءوا من استراليا واليابان واندونيسيا والاتحاد السوفيتي وانجلترا والمانيا وفرنسا واسبانيا وبولونيا وامريكا الى جانب البلاد العربية والاسلامية في آسيا وافريقيا ، كما حضره نحو الف من طلبة وطالبات الجامعات الجزائرية والمدارس الثانوية في الولايات المختلفة ، وغيرهم من اهالي المنطقة .

لمحة تاريخية :

ثم مضى محدثي يقول : وقد اعدت لنا رحلتان خارج المدينة : احداهما كانت الى منطقة « حاسي مسعود » على بعد ٦٥٠ كم من العاصمة ، حيث يستخرج البترول الذي اكتشف عام ١٩٠٦م . ثم الى منطقة « توقورت » على بعد ١٠٠ كم من « ورجلان » حيث توجد مقابر الملوك من بقايا بني مرين ، وحيث توجد القرى الاصلاحية الجديدة .

اما الرحلة الثانية فكانت الى وادي « ميزاب » بولاية الاغواط على بعد ٢٠٠ كم من « ورجلان » حيث يوجد مصنع للحديد والصلب ، وحيث

توجد سبع مدن كبيرة ذات الطراز المعماري الخاص المناسب للحرارة الشديدة في الصيف ، وقد تأسس اولاها سنة ٤٠٢ هـ . وهي مقامة على تلال وسط الوادي الاخضر يحوط بعضها اسوار تاريخية ، وتعلوها صومعة المسجد في القمة ، يعمره المتعبدون بتلاوة القرآن والذكر .

ثم نعود بعد هذه الجولة الاستطلاعية القصيرة في تاريخ الجزائر الى جو المؤتمر لنرى الى اي شيء انتهت جلساته .

يقول شيخنا : اعدت لجان من المحاضرين والمعقبين وبعض الطلبة لوضع توصيات اعلنت في نهاية الملتقى تتلخص فيما ياتي :

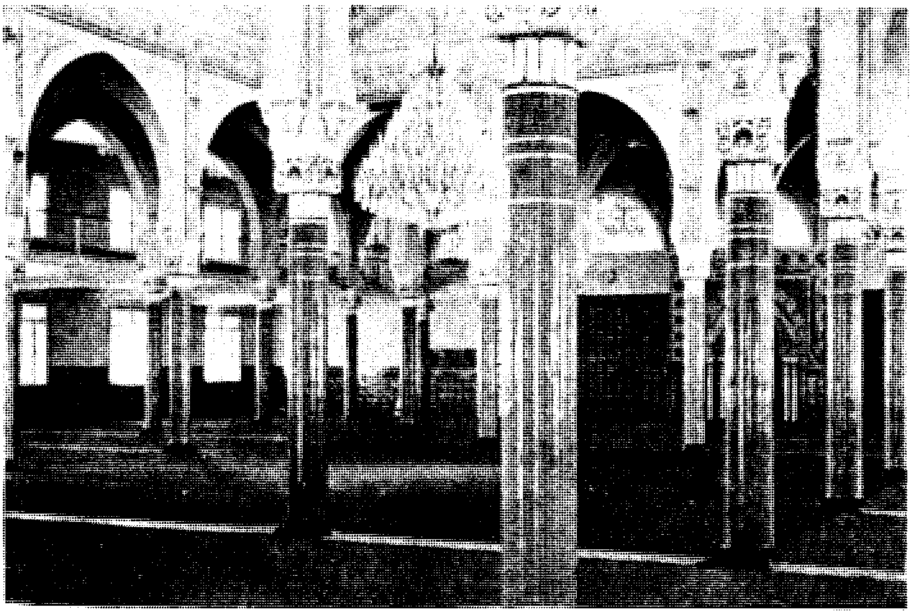
١ ـ العناية بالتراث الاباضي بالوسائل المختلفة ، ودراسه مجتمع الاباضيين دراسة وافية ، وكذلك دراسه الفرق الاسلامية بعامة .
ونحن مع دراسة تاريخنا الاسلامي بمذاهبه المختلفة دراسة موضوعية ومنهجية .. الهدف منها ابراز الحضارة الاسلامية ، والقاء الضوء على صور الحياة القديمة . وبيان وجهات نظر وفكر مختلف الفرق والمذاهب الاسلامية .. مع ضرورة التمييز بين المنهج التاريخي والمنهج الكلامي المتصلين بتلك الفرق ، وعلى أن يستعمل المنهجان معا لاثراء الفكر الاسلامي المعاصر وايجاد قدر اكبر من التفتح بين المسلمين في المذاهب المختلفة .. فهي دراسة توحد ولا تعدد ، تجمع ولا تفرق .

٢ ـ استكمال الدراسة لمشكلات المسلمين في افريقيا وبذل الجهود لامداد هذه البلاد بكل ما تحتاج اليه من وسائل التعريف بالعلوم الاسلامية وتزويدها بالمدرسين والدعاة وعلماء الدين المستنيرين ، وبالمصاحف الشريفة ، والكتب والنشرات التي تزيدهم علما باصول الاسلام وتعاليمه الصحيحة ، وفي سبيل ذلك لا بد من العمل على اعداد الدعاة وعلماء الدين والوعاظ الذين يمكنهم ان يسدوا هذا الفراغ في افريقيا الغربية والوسطى والشرقية، وايضا لا بد من وجود عدد كبير من الدعاة الافارقة انفسهم ، يجري اعدادهم اعدادا اسلاميا وفكريا صحيحا .

واهابت اللجنة بالدول الاسلامية ومنظمة المؤتمر الاسلامي وما اليها من الهيئات الاسلامية الاخرى ان تساهم في انشاء جهاز للدعوة الاسلامية ، وذلك لتقديم المعونات الفنية والعلمية والاقتصادية للبلاد الافريقية المحتاجة اليها .

٣ ـ وبالنسبة للنقطة الثالثة المراة بعد عام المراة اوصى المؤتمر المسؤولين والعائلات في المجتمعات المختلفة على المستوى العالمي ، كل حسب معتقداته الدينية ، وقيمه الخلقية ونظامه الاجتماعي بالعناية بالاسرة وبالاهتمام خاصة بالمراة ، بما لها من حقوق وما عليها من واجبات .

وفيما يخص العالم الاسلامي بالذات ، يوصي الملتقى المسؤولين والعائلات بتطبيق ما منحه الاسلام للمراة من حقوق ، وما كلفها به من واجبات تتفق مع طبيعتها وخصائصها ومواهبها ، ولا سيما في ميدان الأسرة



مسجد النور بمدينة بليدة



المسجد الكبير بالعاصمة



عنـــد الافتتاح

التي لها فيها المركز الأساسي والأثر العظيم لأنها الخلية الاجتماعية التي تصلح بصلاح المرأة ووعيها وحسن سلوكها ، كما تفسد بفسادها ، وهي في ذلك مثل الرجل تماما .

كما توصي بان يهتموا بتعليم المرأة على جميع المستويات ، وبتربيتهـــا تربية أصيلة ، لتمكينها من حسن أداء مهمتها ووظيفتها الاجتماعية والتربوية التي تتفــق مع المقاصــد والآداب الاسلامية .

كما يطالب المرأة بالعناية بالتعليم الاسلامي وبصورة خاصـــة للفتـــاة المسلمة أحكاما ونظاما وثقافة وتربية في جميع مراحل التعليم بما يحقـــق الفهم والتطبيق ، تحصـــينا لهـــا وللمجتمع .

وان توضع في البـــلاد العربيـــة والاسلامية برامج ووسائل توعيـــة وتثقيف للمرأة الريفية بما يكفل رفع مستواها ، وهـــذا لصالح الفـــرد والاسرة والمجتمع .

ويطالب المؤتمـــر بالحفاظ علـــى اللباس الساتر لمفاتن المرأة ، داخل بيتها وخارجه لأن ذلك في الاســـلام واجب ومصلحة معا في اطار مارسمه القرآن العظيـــم ، والسنة النبوية الثابتة ، ففيه صيانة للمرأة وللرجل



أعضاء الملتقى في زيارة للمعرض



جلسة في خيمة عندآثار سدراته



المنصة ويتوسطها السيد مولود قاسم رئيس الملتقى



مدوبة المانيا



مندوب المجلة أثناء القاء كلمته

وللأسرة والمجتمع .

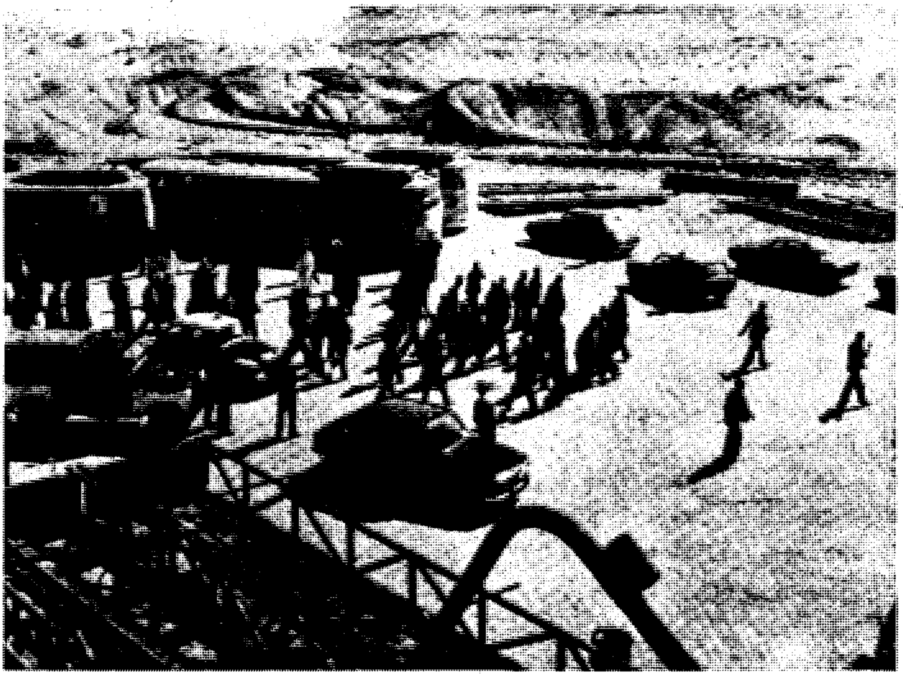
ويرى المؤتمر وجوب مساعدة المراة والاسرة المسلمة في البلاد غير الاسلامية على رفع مستوى ثقافتها الاسلامية وتربية اطفالها تربيةسليمة وفق الوسائل الحديثة ، وعلى كفالة المعاملة العادلة في تلك البلاد للأسر الاسلامية وتوجيه المراة المسلمة في هذه البلدان الى ضرورة تجنبالمظاهر والعلاقات والممارسات التي لا تتمشى مع تعاليم الاسلام وآدابه وحض الدول والمنظمات الاسلامية على تحقيق هذه المساعدات بكل الوسائل الممكنة من مالية وبشرية .

٤ — وخيرات الأرض ان استغلت استغلالا حسنا كانت نعمة وبركة على الافراد والمجتمعات والا كانت نقمة وشؤما عليهم ، وتاسيسا على هذا اوصت اللجنة بايجاد جهاز وطني كامل ينهض بجميع العمليات من التنقيب الى تصنيع المواد حتى نحافظ على هذه النعمة ونوجهها الى التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، كما يجب ان تاخذ البلاد العربية والاسلامية نصيبها الكافي من النفط لاستثماره داخل بلادها في التصنيع والزراعة مما يعود بالنفع على المجتمع كله ويجب ان تراعى في عملياتاستخراج النفط المحافظة على قيمة هذه النعمة والا فوجود النفط في باطن الأرض افضل من توجيه رءوس الأموال الى البنوك الاجنبية .

ثم ناشد المؤتمر الدول الاسلامية المنتجة للنفط ان تساعد البلدان المحرومة من هذه النعمة وان توجه اليها العائد مباشرة لا بواسطة البنوك الاجنبية .

وبذلك ينعم المسلمون جميعا بخيرات الله في بلادهم ، ويحس المسلم في الشرق اوجاع المسلم في المغرب .

وعن نشاطاتكم داخل المؤتمر وخارجه قال فضيلة الشيخ عطية : لقد قمت بواجبي المحدود والبسيط داخل المؤتمر ، فكنت اعقب على ما اراه خروجا عن الاسلام ، وكنت اصحح ما يقع فيه بعض المحاضرين من خطا في فهم نص او حديث .. لترتسم الصورة مشرقة عن الاسلام في اذهان الحاضرين خصوصا الطلبةوالطالبات وخارج المؤتمر انتهزت فرصة



الفوج الاول من حافلات الملتقين عند الوصول الى حاسي مسعود •

صلاة الجمعة في مسجد « ابي ذر الغفاري » والتقيت بالجماهير التي غص بها المسجد ، بعيداً عن نظام المؤتمرات ، وما فيها من قيود ، فوضحت ان الطريق الامثل للنهوض بالبلد الاسلامي والعربي بالذات — هو الدين الذي وضع منهج الاصلاح فيه من هو اعلم بخلقه أن هذا القرآن يهدي للتي هي اقوم) وعلينا ان ندرس الدين في منابعه الصافية لنستغني بما فيه من هدى وبينات شاملة وافية عن الاراء المستوردة التي تعقد من اجلها المؤتمرات والملتقيات ، كما بينت ان دين الاسلام غير منغلق او قديم كما يزعمون ، بل هو دين مفتوح على الخير ، وفي اطار ما انزل الله على رسوله ، وهو صالح لكل زمان ومكان ، مهما ارتقت الحضارة ، وتقدمت المدنية •

هذا وقد كانت لي لقاءات مع الطلبة ومع الصحافيين ورجال الاعلام الذين يريدون معرفة الراي الصحيح في مشكلات كثيرة ، لا ينبغي أن تؤخذ من غير المتخصصين في الدين بالذات•

وعن انطباعاتك حول المؤتمر ؟

اقول : اولا : ان المؤتمرات فرصة طيبة لتلاقي الافكار ومعرفة اتجاهات الافراد وكذلك الدول التي يتحدثون باسمها • وفي ذلك كل الفائدة وصولا الى المستوى اللائق بنا كامة ذات رسالة خالدة •



مناطق البترول بحاسي مسعود

واقول : ثانيا : لاحظت ان بعض المتحدثين لم يكونوا من ذوي الاختصاص في موضوعاتهم وأن البعض استغل تصريح المسئولين بان « المنبر هنا حر » فانحرفوا عن جادة الطريق ونقدوا بعض حقائق الاسلام الواضحة . وظلموا الحقائق التي تعرضوا للكلام عنها .

وبعد ... فضيلة الشيخ .. هل من كلمة أخيرة تودون قولها ؟

نعم اقول : إن الجزائر تبذل جهدا كبيرا في سبيل التعريب ، ونامل ان تصحبه صحوة دينية اصيلة نقية ، خالية من شوائب الافكار المستوردة التي لا تتلاءم مع الدين والعروبة . وعلى العموم فالقاعدة الشعبية في الجزائر سليمة وتعشق الدين، واهيب بالمسئولين أن يحولوا بين الاستعمار باساليبه المختلفة وبين الشباب المهيا لقبول الشبهات والانغماس في تيار الشك والتحرر المتحلل .

نامل ان يضيء اصحاب الفكر المستنير والعلماء المخلصون والمسئولون عن مصير هذه الأمة ، مشاعل النور بزيت الايمان الصافي حتى تنهض الأمة من خلال شبابها ، وحتى يتحقق املنا في غد افضل . ومستقبل ارحب في ظل العمل بمبادىء ديننا الخالد . وفق الله المسئولين، وحمى الأمة من كيد اعدائها لتمضي الى غايتها في قوة وثقة وإيمان .. (ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز)

منشـــورات

وزارة التعليم الاصـــلى والشؤون الدينيـــة

صـــدر أخيرا كتاب :

الملتقى الثامن للفكر الاسلامى

بالعربية فى ثـــلاثة أجزاء

ويشمـــل سائـــر المحاضرات ، والتعقيبـــات ، والمناقشـــات

كما صدر كتاب :

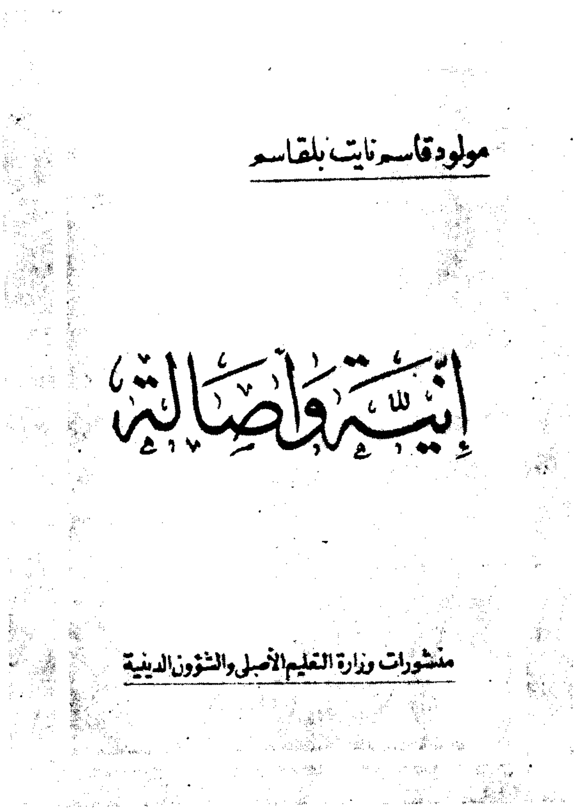
الملتقى السادس للفكر الاسلامى

بالفرنسية فى خمسة أجزاء

ويشمـــل أيضا سائر المحاضرات ، والتعقيبات ، والمناقشـــات

منشـــورات

وزارة التعليـم الاصـلى والشؤون الدينيـــة


مولود قاسم نايت بلقاسم

إنية وأصالة

منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية

أبو حمو الزياني
حياته وآثاره



د · محمد بلقراد
معهد اللغة والادب العربي
جامعة الجزائر

نشرت الشركة الوطنية للنشر والتوزيع سنة 1974 كتاب : « أبو حمو موسى الزياني (1) حياته وآثاره » تأليف الدكتور عبد الحميد حاجيات · وهو أستاذ مساعد بمعهد التاريخ بجامعة الجزائر · وهو علاوة على قيامه بالتدريس يشارك بمقالات شتى تنشرها له الصحف والدوريات بمدينة الجزائر · وهو معنى أيضا باحياء طائفة من المخطوطات يخرجها الى النور بتحقيقها ونشرها · وقد نشرت له الشركة الوطنية للنشر والتوزيع سنة 1974 كتابا آخر هو كتاب الجواهر الحسان فى نظم أولياء تلمسان عن مخطوطة فريدة محفوظة فى المكتبة الوطنية بباريس ، ويعنى الآن بتحقيق مخطوط ثمين لمؤلف مجهول الاسم عنوانه « زهر البستان فى دولة بنى زيان » (5) ، وقد ناقش الدكتور حاجيات فى صيف سنة 1974 فى فرنسا رسالته التى نال بها درجة الدكتوراه من الدور الثالث ، وموضوعها تحقيق كتاب « بغية الرواد فى أخبار بنى عبد الواد»(2) تاليف أبى زكريا يحيى بن خلدون (2) (733 ـ 780 هـ) وهو اليوم جاد فى اعداد

رسالة جامعية يهدف بها الى نيل درجة دكتوراه الدولة . وموضوعها : « المغرب الاوسط فى عهد أبى حمو موسى الثانى » .

وكتاب بغية الرواد نفيس جدا يحتاجه دارس التاريخ والادب والحركة العلمية فى المغرب الاوسط فى القرنين السابع والثامن الهجريين ، ولم يعتن أحد بكتاب بغية الرواد ولم يعد نشره مع أن له صلة عميقة بتاريخ بلادنا . وقد عنى به فى العقد الاول من هذا القرن المستشرق المشهور ألفرد بل . نشر النص العربى وترجمته الفرنسية وجعله ثلاثة أجزاء فى مجلدين (الجزائر 1904 ـ 1911 ـ 1913) .

يحتوى كتاب : « أبو حمو موسى الزيانى حياته وآثاره » على 400 صفحة من القطع المتوسط ، ويشتمل على مقدمة وثلاثة أقسام . ويحتوى كل قسم على أبواب .

يعرض المؤلف فى مقدمة الكتاب لبيان مكانة أبى حمو الثانى فى تاريخ الدولة العبد الوادية واسهامه فى الحياة الادبية بتأليف الكتب ونظم الشعر ، وينوه بشخصية هذا الامير وبما امتازت به من مزايا وخلال ويذكر فضله فى احياء مجد أجداده وصموده للشدائد والاهوال . ويذكر المؤلف ما كان لبلاط أبى حمو الثانى من الاهمية لكونه صار ملتقى العلماء والشعراء كما كان عهده عهد ازدهار فى ميادين شتى . ويذكر المؤلف الغاية من تأليف كتابه وهى ابراز شخصية أبى حمو الثانى ومحاولة ازالة ما يكتنفها من غموض . وقد أشار المؤلف الى وفرة المصادر فى الموضوع وذكر أهم المصادر التى اعتمد عليها مثل كتاب العبر (3) لعبد الرحمن بن خلدون (3) (732 ـ 808 هـ) وبغية الرواد لاخيه يحيى ، واعتمد أيضا على مصدرين مخطوطين وهما كتاب « نظم الدر والعقيان (4) فى دولة آل زيان » تأليف أبى عبد الله محمد ابن عبد الجليل التنسى (4) المتوفى سنة 499 هـ . (3)

وكتاب « زهر البستان فى دولة بنى زيان » (5) لمؤلف مجهول وعلى مصادر أخرى يصف المؤلف فى القسم الاول كيف بنت الدولة العبد الوادية صرح مجدها منذ عصر أبى يحيى يغمراسن (603 ـ 681 هـ) المؤسس للفرع الاول من دولة بنى زيان حتى عصر أبى حمو موسى الثانى (723 ـ 791 هـ) مؤسس الفرع الثانى منها .

ويشتمل القسم الاول على ثلاثة أبواب ، يعرض المؤلف فى الباب الاول كيف تأسست الدولة الزيانية ويصف الحوادث التى وقعت فى عصر الامراء الزيانيين الذين تربعوا على منصة الحكم قبل أبى حمو الثانى وهم يغمراسن بن زيان (603 ـ 681 هـ) وأبو سعيد عثمان الاول (639 ـ 703 هـ) وأبو زيان الاول (659 ـ 707 هـ) محمد ابن عثمان أبى سعيد . وأبو حمو الاول موسى (665 ـ 718 هـ) بن عثمان وأبو تاشفين الاول (692 ـ 737 هـ) عبد الرحمن بن موسى أبى حمو الاول ، وأبو ثابت وأبو سعيد اللذان دالت لهما الدولة فتولياها مشتركين من سنة 749 الى سنة 753 هـ . وهى السنة التى أنهى فيها الاحتلال المرينى لتلمسان دولتهما مرة أخرى . ويذكر المؤلف طائفة من الاحداث التى كان لها الدور الحاسم فى تسيير السياسة فى هذه الفترة من تاريخ المغرب الاوسط كما يذكر أنواعا من الصراع الذى نشب بين امراء الدولتين المرينية والزيانية وكيف انتعشت الدولة العبد الوادية على يد الاميرين أبى سعيد وأبى ثابت وكيف فشل هجوم أبى الحسن المرينى على ناحية شلف وكيف اندلع الصراع بين أبى الحسن وابنه أبى عنان ويذكر وفاة أبى الحسن المرينى ويعرض لزحف أبى ثابت الى المنطقة الشرقية واستيلاء أبى عنان المرينى على المغرب الاوسط وزحفه الى افريقية ، ويختم المؤلف كلامه فى الباب الاول بالحديث عن وفاة أبى عنان .

ويعرض الدكتور حاجيات فى الباب الثانى للحياة الفكرية والتعليم ، ويصف كيف ازدهرت العلوم الدينية والعلوم اللسانية والاجتماعية والعلوم الطبيعية ويعقد الباب الثالث لوصف الحياة الحضارية المتمثلة فى ازدهار الفنون والعمران .

والقسم الثانى من الكتاب هو أهم أقسامه وفيه ثلاثة أبواب . يتحدث المؤلف فى الباب الاول عن نسب أبى حمو الثانى ، وعن نشأته وعن الفترة التى سبقت امارته .

فلما بلغ أبو حمو سن الرابعة عشرة عرف آلام الاغتراب بفاس حتى صار يتعيش برد فك المفكوكين . أقام بها ثلاث عشرة سنة تم خلالها تكوينه العلمى والادبى ولم ينقطع فيها عن الاشتغال بطلب العلم ومطالعة كتب الحكمة والاخلاق والسياسة والعلوم

الدينية . ثم انتقل هو وأسرته الى ندرومة سنة 750 هـ . وبعدما اقام فيها نحوا من ثلاث سنين سافر الى افريقية سنة 753 هـ . وامتدت اقامته فيها حتى سنة 760 هـ . وفى هذه السنة بلغه نعى السلطان أبى عنان المرينى بفاس فسنحت الفرصة بذلك لرجوعه الى تلمسان وتسلم الحكم والجلوس على عرش أجداده فى عاصمة بنى زيان . وقد وصف المؤلف وصفا دقيقا يشتمل على كثير من التفاصيل للاحداث والمخاطر التى جابهها أبو حمو الثانى أثناء ممارسته للحكم والسياسة مدة ملكه الطويل الـذى امتد احدى وثلاثين سنة (760 ـ 791 هـ) .

ويعنى المؤلف فى الباب الثانى من القسم الثانى بالحديث عن الحضارة فى المغرب الاوسط على عهد أبى حمو الثانى، وعن الحياة الفكرية وازدهار العلــوم الدينيــة واللسانية والاجتماعية والطبيعية ومظاهر الحضارة المتمثلة فى ازدهــار الفنــون والعمــران .

ويخص المؤلف الباب الثالث بدراسة آثار أبى حمو الادبية ويتحدث فيه عــن كتابه « واسطة السلوك فى سياسة الملوك » ، وعن تاريخ تاليفه وعن محتواه وعــن منهج السلطان فى معالجة الموضوع وعن قيمته الادبية والاجتماعية .

وقد خص الاستاذ حاجيات شعر أبى حمو بدراسة نقدية أدبية أحصى فيها ما وصل الينا من قصائد الامير وما اشتملت عليه من أغراض شتى كالفخر والحماسة والرثاء وغيرها، وذكر جوانب منه وما فيها من غث وسمين مع سوق أمثلة كثيرة من شعــر أبى حمو . وأنهى المؤلف القسم بخاتمة تناول فيها شخصية الامير الزيانى بالتحليل على ضوء ما سبق فى الكتاب ، ويشتمل القسم الثالث منه على بابين يعرض المؤلف فى الاول منتقيات من كتاب واسطة السلوك وما اشتمل عليه من حديث عن الشجاعة والفراسة .

ويستعرض فى الثانى نماذج شتى من شعر الامير الزيانى فى السياسة والرثاء والمولديات .

موضوع الكتاب الذى نتحدث عنه اليوم هو فى صميم تاريخ المغرب الاوسط . فهو اذن ذو أهمية بالغة بالنسبة الينا والى بلادنا . فنحن بعد ما كابدنا أهوالا شدادا

استغرقت مددا طوالا خضنا فى حرب ضروس حررنا بها بلادنا وأنقذناها من مخالب العبودية والاستعمار القديم المباشر واستردنا حريتنا واستقلالنا لقاء تضحيات جسام وأنهار من دماء شهدائنا الابرار ، أما الآن بعد ما تخلصنا من التبعية البغيضة وهيمنة الاجنبى الدخيل وصار لنا صوت مسموع فى كل بقاع المعمور فيجب أن نعيد النظر فى تاريخ بلادنا ونبدأ كتابته من الصفر بأسلوب حديث على ضوء منهجية سليمة صحيحة . والعناية بتاريخنا معناها النظر الى ماضينا المجيد والتعرف عليه واستخلاص العبر منه . والكشف من خلاله عن هويتنا وانيتنا وأصالتنا وشخصيتنا الكوامن فى تضاعيف تراثنا وتقاليدنا .

ووعينا بوضعنا أمس يضىء لنا السبيل للتعرف على معطيات وجذور وضعنا الراهن الذى نعيشه والذى ينبغى أن نسعى بخطى حثيثة لتحسينه وترقيته وتحليته بانجازات حصيفة وأمجاد طريفة بعد تخليته من التقاليد البالية والقيم السلبية والرواسب المشوهة والشوائب المموهة .

وقد أصاب بعض الباحثين فى اشارته الى : « أن لنا ـ علاوة على الواقع الانسانى الذى نشارك فيه ـ واقعنا الخاص » .

وفى هذا الواقع يطل علينا التاريخ من نوافذ متعددة فنلقاه أينما التفتنا أو توجهنا. نلقاه فى خضم هذه الهبة القومية التى تدفعنا الى اقامة حياة جديدة والتى تدعونا فى الوقت ذاته الى أن نستلهم الماضى ونستمد منه عناصر القوة والفخر والاعتزاز . ان هذا العود الى التاريخ طبيعى فى كل آن ومكان ولكنه يشتد بصفة خاصة فى عهود النهضات القومية عندما تهب الشعوب لتنشد الوحدة والقوة . فتجد أن من أهم مقومات وحدتها تقاليدها الماضية وأمجادها وبطولاتها السالفة . فتعود الى هذه الامجاد والتقاليد ويعيدها اليها قادتها وموجهوها لتتقوى بها ولتفيد منها العضد المعنوى والروحى فى نهضتنا المتوثبة وفى سعيها لبناء حياتها القومية الجديدة .

فما دمنا نعود الى تاريخنا وما دمنا نستلهمه ونستوحيه فمن الخير لنا أن تكون عودتنا عودة أصيلة متبصرة يهديها العقل ويوضحها فهم « صادق العلاقة ماضينا بحاضرنا

ومستقبلنا ، وتمييز دقيق بين عناصر تراثنا المختلفة بين تلك التى يجب أن نحرص عليها ونبنى على أساسها وتلك التى ينبغى أن نطرحها جانبا ونتخطاها الى ما هو أفضل وأبقى . وما دمنا مدفوعين الى وعى تاريخى فليكن هذا الوعى صحيحا متفتحا مستنيرا كى يكون لنا مصدر قوة دائمة وعاملا من عوامل البناء والانتاج والابداع » .

وكتابة التاريخ أمر صعب المراس لكثرة المشاكل المحيطة بالقضايا التاريخية . فالمؤرخ كثيرا ما يعنى بتسجيل التفاعلات المتشابكة التى مسرحها الحياة الاجتماعية المعقدة المتأرجحة بين منطق العقل ومنطق الواقع والحياة . فعلى الرغم من كثرة المصادر والوثائق التاريخية ما أكثر ما يقف المؤرخ أمام الحوادث موقف الحائر المتردد بسبب صمت الوثائق والمستندات ونقصها ، مع أن على المؤرخ أن يضطلع بالمسؤولية الملقاة على عاتقه وهى مسؤولية التفسير والتوضيح ، ماذا عسى أن يصنع وكثيرا ما تكون حلقات الاتصال وهمزات الوصل بين الاحداث مفقودة ؟ لذلك يضطر المؤرخ الى التفكير الطويل والنظر المستأنى لعله يهتدى الى خيط الاتصال والى تفسير للحوادث متلائم تلاؤما قويا أو ضعيفا مع المنطق والواقع والحياة . ذلك ما وقع أكثر من مرة للدكتور حاجيات فى تأليف كتابه ، فترجمة أبى حمو الثانى وتفسير ما يكتنفها من غموض وظروف وملابسات يستلزم ذلك كله حتما التغلب عليه بالاطلاع الدقيق على تاريخ المغرب الاوسط قبل عصر أبى حمو الثانى بشكل عام وعلى تاريخ الدولة العبد الوادية منذ نشأتها حتى عصر هذا الامير بشكل خاص ، فعلى المؤرخ أن يعرض الحوادث عرضا متسلسلا تسلسلا منطقيا متلائما منسجما متكاملا بعضه مع بعض .

لذلك يقف المؤلف فى كتابه موقف الحذر المتشكك من بعض القضايا التى تعرض له . فيعالجها ويناقشها ويبدى فيها رأيه بكل حذر واحتياط وتبصر وتواضع . من أمثلة ذلك مزاعم المؤرخين بصدد رجوع أبى حمو وأبيه أبى يعقوب يوسف من فاس واستقرارهما فى ندرومة، يرى المؤرخون القدامى ـ ومنهم عبد الرحمن بن خلدون وأخوه يحيى ـ أن ذلك وقع لرغبة أبى يعقوب فى الزهد فى الدنيا وملذاتها . ولم يقنع قول المؤرخين هذا المؤلف الذى وقف منه موقف الحذر المتشكك ونظر الى هذا الامر من جوانب شتى وأبدى فيه رأيه على ضوء ما أملاه عليه منطق الظروف والملابسات

المحيطة بالخبر . فانقطاع أبى حمو وأبيه الى العبادة والزهد بندرومة كان يهدف فى نظر المؤلف الى الاعراب عن خلو ذهنهما من كل طموح سياسى مما يطمئن أبا سعيد وأبا ثابت الجالسين على عرش تلمسان آنذاك . ولا يعقل عند المؤلف أن يغادر أحد الامراء عاصمة الدولة للانزواء بعيدا عنها فى قرية أو مدينة صغيرة من دون سبب قاهر . ومنها أن أبا ثابت الزيانى لما انهزم أمام الجيش المرينى فى أنجاد وشلف وفر هو ومن معه الى ناحية بجاية وألقى عليه القبض يدعى يحيى بن خلدون أن أبا حمو كان معه وأنهما لما سئلا : « من السلطان أبو ثابت منكم ؟ » أجاب أبو حمو : « أنا » فاديا عمه أبا ثابت بنفسه . وقد بين المؤلف وجه الصواب فى هذه القضية بالاستناد الى أقوال المؤرخين الدالة على أن أبا حمو لم يذكر مؤرخ يوثق بقوله أنه كان مع عمه لما ألقى القبض على هذا الاخير ، وأن يحيى بن خلدون لم يحاول التأكد من صحة الخبر وأن عبد الرحمن أخاه يظهر أنه لم يقتنع بصدق هذه القصة ولم يذكر أبا حمو من بين الاشخاص الذين ألقى عليهم القبض وأنه أرتأى أن الحكاية أقرب الى الخيال والاسطورة منها الى الحقيقة التاريخية . (ص 73 وما بعدها) .

يقول المؤلف : « والذى نراه أن البحث فى هذا المجال لا يقتصر على فحص ما أورده المؤرخون من الاخبار . وانما يقتضى معالجة الموضوع من زاوية أوسع . وذلك بالالتفاف الى المعطيات النفسية المحيطة بهذا الحادث والى ما يمكن افتراضه من دوافع وعوامل للدور الحقيقى الذى قام به كل من أشخاص القصة » .

ويقول أيضا : « وعلى كل فلسنا نرى أن عواطف أبى حمو نحو عميه الاميرين كانت قوية الى درجة أن يقدم نفسه فداء لاحدهما . بل نعتقد أن العلاقات بين أبى يعقوب وأخويه لم تكن طيبة الى حد يجعل أبا حمو يضحى بحياته لاجل عمه أبى ثابت » ص 78 ــ 79 .

ولشخصية أبى حمو الثانى منزلة عالية تمتاز بالخصب والثراء وتزدان بمواهب شتى . فقد اجتمع فيها ما لا يجتمع الا نادرا فى نفوس الامراء والملوك ورجال الدولة الممارسين للشؤون السياسية والاجتماعية المهيمنين على مقاليد البلاد والعباد . فقد كان أبو حمو الثانى أميرا بارعا محنكا وفارسا مغوارا وأديبا موهوبا وكاتبا بليغا

وشاعرا مبدعا أصيلا بالاضافة الى أنه كان يقظا صابرا عظيم القدرة على الاحتمال رابط الجأش وملكا « موصوفا برجاحة وسداد » . وكان من النابغين الافذاذ الذين جمعوا فى تاريخ المغرب بين الامارة والموهبة الادبية والشعرية أو بين دولتى السيف والقلم . وما أقل ما تجتمعان عند شخص واحد . والادب العربى يتحلى بطائفة من الامراء الشعراء . ومن أنبههم عبر العصور امرؤ القيس الكندى وابن المعتز العباسى وأبو فراس الحمدانى .

ومن أشهرهم فى الاندلس الامير الاسير والشاعر القدير المعتمد ابن عباد . ومن أمراء الشام الشاعر المبدع والبطل المغوار أسامة بن منقذ صاحب كتاب « الاعتبار » . ومن الشعراء الامراء فى الجزائر الامير عبد القادر .

والجدير بالذكر أن المؤلف درس شعر أبى حمو دراسة جيدة على قصرها . فيها نقد وتقويم لشعر الامير العبد الوادى الجارى على عروض الخليل وعلى عمود الشعر القديم فى الشكل والمضمون على أن شعر أبى حمو الثانى تكثر فيه مظاهر الاصالة والنبوغ وينتمى أكثره الى الشعر الجيد الجميل ذى الاسلوب الرصين والتعبير البليغ . على أن أغراضه اغراض الشعر العمودى . فيه الوصف والغزل وفيه الفخر والحماسة والرثاء وأساليبه وتعابيره وفنونه تقليدية . وربما يعارض أبو حمو بعض الشعراء القدامى على نحو ما نرى فى قصدته البائية ص 323 . فأول ما يلفت انتباه القارىء فيها تأثر ناظمها بقصيدة أبى تمام التى مدح فيها المعتصم العباسى وذكر فتح عمورية — قال أبو تمام :

السيف أصدق انباء من الكتب ... فى حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف فى ... متونهن جلاء الشك والريب

وقال أبو حمو :

السيف أجدر والخطى من خطب ... فيها اللجاج وقول غير منتسب
خط الكتائب لا خط الكتاب بها ... جلية الامر عند السمر والقضب

نرى هنا أن الامير الزياني متأثر تأثرا عميقا بشعر أبي تمام ، وأن نزعة الاحتذاء في شعره صارخة • فقد عارض أبو حمو الشاعر الشرقي بقصيدته واحتذاه في أشياء شتى : في بحر القصيدة وقافيتها وتصميم البيتين والاسلوب في التعبير وفي المحسنات البديعية . وكثيرا ما يستعمل أبو حمو ذات الالفاظ والمواد كلفظ السيف وجلاء وجلية واستعمال اسم التفضيل : أصدق وأجدر وتماثل البيتين تام :

السيف أصدق انبـــاء من الكتب بيض الصفائح لا سود الصحائف

في حـــده الحـــد ـ فيها اللجاج

السيف أجدر والخـطى مــن خطب خــط الكتائب لا خــط الكتاب

وقد لاحظنا أثناء مطالعتنا للكتاب هنا نذكر طرفا منها :

عرف المؤلف ص 46 التعاليم بأنها العلوم العقلية والطبيعية . وهذه قضية تحتاج الى بيــان أكثر لان العلـــوم العقلية تشمل ـ عند عبد الرحمن بن خلدون ـ المنطـق والطبيعيات والالهيات والتعاليم . وعلوم التعاليم بدورها تشمل ـ عنده أيضا ـ أربعة علوم . قال ابن خلدون في المقدمة : والعلم الرابع وهو النظر في المقادير ويشتمل على أربعة علوم وتسمى التعاليم . أولها علم الهندسة ، وهو النظر في المقادير على الاطلاق ... وثانيها علم الارتماطيقى ••• وثالثها علم الموسيقى ، وهو معرفة نسب الاصوات والنغم بعضها من بعض وتقديرها بالعدد ... ورابعها علم الهيئة . وهو تعيين الاشكال للافلاك وحصر أوضاعها وتعددها لكل كوكب من السيارة . (6)

وعبارة « التعاليم » هذه قديمة استعملها ابن النديم (348 ـ 438) في القـــرن الرابع الهجري في كتابه الفهرست الذي ألفه في شبابه سنة 377 هـ . وهو يتحدث فيه عــن « أخبــار اصحــاب التعاليم المهنــدسين والارتماطيقيين والموسيقيين والحســاب والمنجمــين . (7)

وقال المؤلف صفحة 173 : « ومن نظمه (أبو عبد الله الثغرى) في وصف تلمسان :

قــم فاجتل زمن الربيع المقبل ... » .

في هذا خطأ من حيث العروض • وبيان ذلك أن وزن عبارة « قم فاجتل » مستفعل • دخل الاضمار والكف على متفاعلن فصارت مستفعل • وهذا لا يجوز عند العروضيين ، ومحمد بن يوسف الثغرى شاعر كبير لا يرتكب مثل هذا الخطا • ولعل الصواب كامن في الرواية التى ذكرها أحمد المقرى فى النفح (8) وهى « قم مبصرا » بدل «قم فاجتل» • ونحن يغلب على ظننا أن الشاعر قال : « قم تجتلى » فحرفها النساخ الى : «قم فاجتل» •

وقد استعمل المؤلف فى أكثر من مكان من كتابه عبارة « ينبغى على » وهذا خطأ شاع فى هذا العصر على ألسنة الكتاب • والصواب أن يقال : ينبغى لفلان أن يعمل كذا = يحسن به • وما ينبغى لفلان أن يفعل كذا = لا يليق به ولا يحسن منه • وفى الكتاب : « ما كان ينبغى لنا ان نتخذ من دونك من أولياء » •

ذكر المؤلف ص 194 ـ 387 كتاب ابن ظفر الصقلي بعنوان : « سلوان المطاع » وكان ينبغى له أن يذكر اسم الكتاب كاملا • وهو سلوان المطاع فى عدوان الاتباع •

وفى الكتاب دراسة لكتاب واسطة السلوك فى سياسة الملوك لابى حمو بدأها المؤلف بالكلام على طائفة من الكتب فى ذات الموضوع وهو فن الادارة والسياسة ، وقد لاحظنا أن دراسة المؤلف لواسطة السلوك هى مقتضبة أكثر مما ينبغى لان الكتاب يستحق أن يعني به عناية خاصة لان أبا حمو أمير ورجل سياسي قبل أن يكون شيئا آخر • فالسياسة تحتل فى حياته المقام الاول وموضوع كتابه السياسة ولا سيما أن أبا حمو ألف كتابه بعد رجوعه من الشرق وجلوسه على عرش آبائه وأجداده فى حاضرة تلمسان بعد سنة 760 هـ •

وقد ذكر المؤلف كتبا شتى من نوع واسطة السلوك • ولكنه فاته أن يذكر تآليف عدة فى موضوعه • منها :

كتاب سلوك المالك فى تدبير الممالك لاحمد بن محمد بن أبي الربيع (218 ـ 272هـ) • ولابى زيد البلخى (235 ـ 322 هـ) ، كتاب السياسة الكبير وكتاب السياسة الصغير وكتاب أدب السلطان والرعية • وللماوردى (364 ـ 450 هـ) ، علاوة على الاحكام السلطانية كتاب نصيحة الملوك وكتاب تسهيل النظر وتعجيل الظفر فى السياسة

والحكومة ، وكتاب قانون الوزارة ، وكتاب سياسة الملـــك • ولابى يعـــلى الحنبـــلى (380 ـ 458 هـ) ، كتاب الاحكام السلطانية • وللسان الدين بن الخطيب كتب شتى من هذا القبيل • منها كتاب بستان الدول فى السياسة والانظمة الادارية والاجتماعية والحربية ، قال عنه مؤلفه انه يشتمل على شجرات عشر :

شجرة السلطان ، وشجرة الوزارة ، وشجرة الكتابة ، وشجرة القضاء ، وشجرة الشرطة والحسبة ، وشجرة العمل وشجرة الجهاد وهى فرعان أسطول وخيــول ، ثــم شجـرة الرعايا ، وهكــذا • وبرنامجه صـــورة بستان ـ وله أيضا الارجـــوزة فى السياســة المدنيــة ، ولــه ريحانــة الكتــاب ونجعـــة المنتــاب فى عـــدة مجلدات وهــو مشتمــل عــلى أغراض شتى مـــن مخاطبات الملــوك عـــلى اختــلاف أجناسهم وأحوالهم وأحوال الكبراء ومخاطباتهم • حتى ملوك النصارى • يقول عنه المقرى انه كتاب مفرد فى بابه ، وله رسالة السياسة • وهى مقامة بطلها شيخ يتلو حكمة سياسة الرعية بحضرة الرشيد العباسى • وهى بأكملها فى نفح الطيب • وتشغل فيه 15 صفحة ، وله كتاب الاشارة الى آداب الوزارة •

والحاصل أن المؤلف قد أبلى البلاء الاوفى فى تاليف كتابه ولم يكن يستطيع أن يجمع هذا المقدار الكثير من الاخبار والمستندات التاريخية ويؤلف منها كتابا مفيـــدا مخططا تخطيطا دقيقا لو لم يقض وقتا طويلا فى البحث عن الاخبار والتنقيب عنها فى مظانها من بطون المصادر والمراجع وتمحيصها ونقدها وتمييز غثها من سمينها • فقد قام المؤلف برحلات شتى للبحث عن الكتب المطبوعة ولا سيما المخطوطة منها • ومن أهم رحلاته سفره الى باريس والى المغرب الاقصى علاوة على البحوث التى قام بها فى مكتباتنا المحلية فى الجزائر وتلمسان •

ومطالع كتاب « أبو حمو موسى الزيانى حياته وآثاره » يطالعه بشوق بالغ ولا يشعر بالملل بل تستهويه فيه محاسن شتى تدعوه لمطالعته وتكمن فى مضمونه الشهى المفيد وفى شخصية أبى حمو الثانى الثرية الخفيفة الروح وفى الاسلوب الممتع الرصين الذى صيغ فيه هذا الكتاب وفى طبعه الرائق الجميل •

وأخيرا نقترح على المؤلف الفاضل أن يفكر فى اثراء كتابه بعناصر جديدة وأبعاد طريفة وأن يضع فهارس تيسر الانتفاع به وأن يعمق دراسة جوانب شتى من شخصية أبى حمو الثرية ما يزال الظلام يغمرها فما أحقها بان تسلط عليها أضواء أكثـــر ، فللأمير الشاعر ديوان حافل بالشعر المعبر الجميل • وله أسلوبه العبقرى فى التعبير الوجدانى عن تفاعلاته مع نفسه ومع العالم والمجتمع ، وثم نقاط استفهام ومعادلات سياسية وتاريخية وجمالية لا تزال فى حاجة ملحة الى مزيد من التفسير والتنوير •

مـــلاحق بيبليوغرافية

(1) أنظر فى أبى حمو موسى الثانى .

1 ــ أبو حمو موسى الزيانى . حياته وآثاره ــ د . عبد الحميد حاجيات .

2 ــ ازهار الرياض ــ أحمد المقرى ــ انظر فهرست الاعلام فى الجزئين الاول والثانى.

3 ــ بغية الرواد ــ يحيى بن خلدون ــ الجزء الثانى .

4 ــ تاريخ الادب الجزائرى ــ محمد الطمار ــ ص 155 وما بعدها .

5 ــ تاريخ الجزائر العام ــ عبد الرحمن الجيلالى ــ 2/156 .

6 ــ التعريف بابن خلدون ــ عبد الرحمن بن خلدون ــ ص 96 .

7 ــ دائرة المعارف الاسلامية ــ المادة ــ أبو حمو الثانى .

8 ــ كتاب العبر ــ عبد الرحمن بن خلدون ــ الجزء السابع أنظر الفهرست .

9 ــ معجم المطبوعات ــ سركيس ــ القاهرة 1928 . ص 113 .

10 ــ نفح الطيب 9/327 ــ 337 .

11 ــ واسطة السلوك ــ أبو حمو الثاني ــ أنظر مقدمته .

(12) Ibn Khaldoun : *Histoire des Berbères.* Traduite de l'arabe par le Baron de Slane, Genthner Paris, 1969 - T. 3, p. 436 et suivantes.

(2) انظر في يحيى بن خلدون وكتابه بغية الرواد .

1 ــ ابن حزم الاندلسي ــ بنو خلدون الاشبيليون أجداد عبد الرحمن بن خلدون وأخيه يحيى في جمهرة أنساب العرب ــ القاهرة 1962 ، ص 460 .

2 ــ دائرة المعارف الاسلامية ــ مادة ابن خلدون يحيى ــ بقلم ألفرد بــل ــ عبد الرحمن بن خلدون .

3 ــ التعريف بابن خلدون ، ص 97 ــ وانظر فهرست الاعلام ــ ص 406 .

4 ــ المقدمة تحقيق ــ د . علي عبد الواحد وافي ــ الطبعة الثانية القاهرة، 1965 ــ 1968 1/ص 39 وما بعدها .

5 ــ يوسف اليان سركيس ــ معجم المطبوعات العربية والمعربة القاهرة 1928 ــ ص 97.

6 ــ مجلة الاصالة العدد 13 ــ مارس ــ أفريل 1973 ــ ص 213 ــ 222 مقال محمــود بوعياد : من آثارنا المغمورة ــ بغية الرواد في اخبار بني عبد الواد .

7 ــ مجلة الاصالة ــ العدد 26 ــ جوليت ــ أوت 1975 ، مقال الدكتور عبد الحميد حاجيات ، ص 151 ــ 152 .

8 ــ مجلة المجمع العلمي العربي ، 9/314 .

(9) Brock 2 : 312 (241), S. 2 : 340.
(10) Bargès : *Complément de l'histoire des Beni Zeiyan.* Paris 1887, p. 205.

(3) اعتمد المؤلف في بحثه على أربعة مصادر رئيسية : كتاب العبر لعبد الرحمن ابن خلدون ، وبغية الرواد لاخيه يحيى ، وعلى مخطوطين نظم الدر والعقيان ، للتنسي وزهر البستان لمؤلف مجهول ·

كتاب العبر ـ يشتمل على سبعة مجلدات في طبعة بولاق (1868) · تشغل المقدمة التي تدرس ظواهر الاجتماع مجلدا واحدا وتشغل البحوث التاريخية الخالصة المجلدات الستة الباقية · أما المجلدات الاربعة من المجلد الثاني الى الخامس فتشتمل على : « أخبار العرب وأجيالهم ودولهم ··· وفيها الالماع ببعض من عاصرهم من الامم والدول مثل النبط والسريانيين والفرس وبنى اسرائيل والقبط واليونان والروم والترك والافرنجة » · اما المجلدان السادس والسابع فقد وقفهما على : « تاريخ البربر ومن اليهم من زناتة وذكر أوليتهم وأجيالهم وما كان لهم بديار المغرب خاصة من الملك والدول » · أو بعبارة أخرى وقفهما على ما يدعى الآن بشمال افريقية منذ نشأة شعوبها حتى عصر ابن خلدون ·

ويعد القسم الخاص بتاريخ البربر أقوى الاقسام أصالة وأكثرها تحقيقا وتجديدا وطرافة معا · وأكبرها فضلا على بحوث التاريخ · وذلك أن معظم ما جاء في هذا الكتاب لم ينقل عن مراجع مدونة وانما سجله ابن خلدون نفسه لاول مرة من مشاهداته في أثناء اتصاله بمختلف قبائل البربر وتنقله بين دول المغرب ولذلك كان كتابه هذا أهم مرجع للباحثين في تاريخ هذه الدول والشعوب في العصور التي يتحدث عنها · ولعظيم أهميته كان أول قسم ترجم الى لغة أوروبية ترجمة كاملة · نقله ده سلان الى الفرنسية ونشره في الجزائر في السنوات 1852 ـ 1854 ـ 1856 ـ 1856 في أربعة مجلدات · وأعيد طبعه في باريس في السنوات 1925 ـ 1927 ـ 1934 ، أعيد طبع ثلاثة مجلدات من أربعة · وأعيد طبع المجلدات الاربعة : الاول في 1968 والثاني والثالث والرابع في 1969 ـ واعتمد ده سلان في ترجمته على النص العربي لتاريخ البربر الذى نشره في باريس سنة 1847 ـ 1850 في مجلدين كبيرين في نحو ألف صفحة كبيرة وسماه كتاب الدول الاسلامية في المغرب · والجدير بالذكر أن ده سلان ضم الى الترجمة ملاحظات وتعاليق مفيدة وتفاسير ضرورية للاعلام البربرية وذيله باخبار عن البربر ترجمها عن غير ابن خلدون · منها فتح المغرب لابن عبد الحكم وفصول للنويرى وأخيرا مقالة في لغة البرابرة · واقتطعوا من التاريخ أيضا الجزء المختص بأخبار بنى الاغلب في افريقية وصقلية الى حين استيلاء الافرنج عليها ·

(4) أنظر في :

التنسي وكتابه نظم الدر والعقيان

1 ـ أزهار الرياض ، أنظر فهرست الاعلام في الجزءين الاول والثاني .

2 ـ الاعلام القاهرة 1954 ـ 1959 116/7 .

3 ـ البستان ـ الجزائر ـ 1908 ـ ص 248 .

4 ـ تعريف الخلف برجال السلف ـ الجزائر 1907 161/1 .

5 ـ تاج العروس ـ مادة تنس .
6 ـ دائرة المعارف الاسلامية ـ مادة التنسى ، بقلم ليفي بروقنصال .
7 ـ شجرة النور الزكية القاهرة 1349 هـ ص 267 .
8 ـ الضوء اللامع ـ محمد بن عبد الرحمن السخاوى 120/8 ـ بيروت بلا تاريخ .
9 ـ نيل الابتهاج ـ القاهرة 1351 هـ .
10 ـ مقال الدكتور مولاى بلحميسى فى مجلة تاريخ وحضارة المغرب العدد 5 ص 30 ـ 34 كلية الآداب ـ الجزائر 7/1968 .

(11) L'Abbé Bargès : *Histoire des Beni Zeiyan, rois de Tlemcen.* Paris 1852.
(12) Ben Cheneb : *Etude sur les personnages mentionnés dans l'Idjâza du cheikh Abdelkader El-Fasy.* Extrait du tome IV des actes du XXI[e] congrès international des orientalistes 1 vol. in 8°, Paris, 1907, p. 154.
(13) Brock. S. 2 : 241.

(5) أنظر فى زهر البستان فى دولة بنى زيان مقال محمود بوعياد بعنوان : **مخطوطات** لم تكتشف : زهر البستان فى دولة بنى زيان ، مجلة الثقافة العدد 13 فيفرى ـ مارس 1973 ص 55 ـ 66 .
(6) مقدمة ابن خلدون تحقيق د. على عبد الواحد وافى الطبعة الثانية ، 3/ص 1219 .
(7) الفهرست لابن النديم ص 265 .
(8) نفح الطيب 332/9 .

مصـــادر ومـــراجع

1 ـ أحمد المقرى ـ نفح الطيب ـ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد . القاهرة 1949 الجزء 9 ص 327 ـ 337 .
2 ـ جرجى زيدان ـ تاريخ آداب اللغة العربية ـ تحقيق شوقى ضيف القاهرة 1957 . الجزءان الثانى والثالث .
3 ـ خير الدين الزركلى ـ الاعلام ـ القاهرة 1954 ـ 1959 .
4 ـ عبد الرحمن الجيلالى ـ تاريخ الجـــزائر العـــام ـ الجزائر 1955 ـ الجزء الثانى . ـ عبد الرحمن بن خلدون .
5 ـ المقدمة ـ تحقيق د. على عبد الواحد وافى ـ الطبعة الثانية القاهرة 1965 ـ 1968 .
6 ـ التعريف بابن خلدون ـ تحقيق محمد بن تاويت الطنجى ـ القاهرة 1951 .
7 ـ عادل نويهض ـ معجم أعلام الجزائر بيروت 1971 .
8 ـ قسطنطين زريق ـ نحن والتاريخ ـ الطبعة الثانية ـ بيروت 1963 .
9 ـ المجانى الحديثة ، الجزء الثالث فى العصر العباسى ـ بيروت ، 1948 .
10 ـ مجلة الاصالة العدد 27 ـ سبتمبر ـ أكتوبر 1975 .
(11) Henri pérès : *Essai de bibliographie sur la vie et l'œuvre d'Ibn Khaldoun.*
(12) Ibn an-Nadim : *Kitab Al-Fihrist.* Publié par Gustav Flügel, Leipzig, 1871.

نظم الدر و العقيان
فى بيان شرف بنى زيان

محمود بوعياد
مدير المكتبة الوطنية

ملخص الرسالة :

يعتبر المؤرخ والاديب محمد بن عبد الله التنسى المتوفى سنة 899 هـ/1494 م من الاعلام البارزين الذين أنجبتهم تربة المغرب الاوسط فى العصور السالفة وتناساهم لسبب أو لآخر - ابناء العصر الحاضر وغمطوهم حقهم ، فلم يحظ هذا المؤرخ حتى أيامنا هذه بدراسة ذات بال • ولم يلتفت الباحثون المعاصرون الى أى أثر من آثاره ليحققوه ويضعوه بين أيدى الدارسين وجمهور المثقفين المتعطشين الى معرفة ماضى بلادهم وحياة من ساهموا فى تكوين ثقافة هذا الوطن •

ومع أن هذا العالم قد خطى بمكانة مرموقة بين معاصريه فى القرن التاسع وكذلك عند من تبعهم من أهل العلم فى القرنين التاليين ، فان المؤرخين المعاصرين من أبناء وطننا لم يعرفوه الا بفضل ترجمة باللغة الفرنسية لقسم من كتابه « نظم الدر

والعقيان ... » ومن هذه الترجمة استمد هؤلاء المؤرخون ما انفرد به التنسى من أخبار عن ملوك المغرب الاوسط من بنى زيان . وكانت غزارة اطلاعه فى العلوم الدينية من أهم أسباب شهرته اذ اثنى عليه معاصروه لوفرة معارفه فسموه بالحافظ التنسى . كما أن المترجمين له أشادوا بطول باعه فى الادب واللغة والتاريخ . وقد بدا تشعب معارفه وغزارتها وتجلت مواهبه الادبية فى ذروتها حينما ألف كتابه « نظم الدر والعقيان فى بيان شرف بنى زيان » ، وهو أشهر كتبه كما سنرى .

أسباب الاختيار :

وقد لفت نظرى الى أهمية هذا الاثر ، وأنا بعد فى التعليم الثانوى ، تقريظ أحد الاساتذة له وقوله انه عازم على تحقيقه . ومرت الايام والكتاب قابع فى زاوية مظلمة من زوايا المكتبات . وقد كان الدافع الاول لاختيارى تحقيق هذا الاثر ، تكوينى الجامعى فى التاريخ ومزاولتى للعمل فى المكتبات منذ أكثر من ثلاث وعشرين سنة وبالتالى احتكاكى المباشر والدائم بالمخطوطات فى تلك المدة كلها .

وكان العامل المباشر الذى جعلنى أختار هذا الموضوع بعينه هو أهمية ما كتب التنسى عن بنى زيان ، فان كتابه مصدرنا الوحيد كما سنرى لاكثر من سبعين سنة من تاريخ الدولة التى أسسها يغمراسن بن زيان فى المغرب الاوسط .

ولم يقتصر كتاب التنسى على التاريخ وانما ضم الى ذلك قسما كبيرا فى الادب اذ قسم كتابه الى قسمين متعادلين : الاول فى التاريخ والثانى فى الادب .

وقد احتوى القسم الادبى الذى مازدت على أن حللت مضمونه على أدب مشرقى معروف جاء على غرار الموسوعات الادبية المتداولة بين الناس .

ومن أهم أبواب القسم الاول وهو محور الرسالة الباب الخاص بتاريخ بنى زيان الا أن المؤلف قد قدم له بأبواب أخرى خصصها لاخبار اسلافهم حسبما ذهب اليه .

ومما هو جدير بالملاحظة أن التنسى قد ساهم فى تخليد تلك الاسطورة التى جعلت بنى عبد الواد أو بنى زيان كما يسمون أيضا من سلالة فاطمة الزهراء ، فكتب عن قريش ، وآل البيت وعن على بن أبى طالب وعن ابنيه الحسن والحسين الى أن وصل

الى تاريخ الادارسة الذين جعل بنى زيان من سلالتهم ، وقد ضم الباب الخاص ببنى زيان أهم الاحداث فى تاريخ دولتهم ابتداء من الفترة التى سبقت سقوط الدولة الموحدية فى النصف الاول من القرن السابع الى ان ينتهى بعهد السلطان المتوكل معاصر التنسى فى النصف الثانى من القرن التاسع • ومن بين أبواب هذا الكتاب الضخم وقع اختيارى على الباب الخاص بتاريخ الدولة الزيانية ، فاقدمت على تحقيق نصه والتعليق عليه منفردا لانه من ناحية ، اطول وأهم قسم فى الكتاب ، ولان ما سبقه من تاريخ لم يأت بجديد يستحق على ما أرى ، ما يتطلب من جهود لاخراج نصه ومقابلته بأمثاله من كتب التاريخ • وهذا الباب من ناحية أخرى ، وحدة متماسكة الاطراف يتيسر فصلها عن باقى الكتاب ، أى عما تلاه من أبواب فى الادب والملح ، والنوادر ، وأيضا عما سبقه من تاريخ •

وحتى يسهل استعمال هذا المصدر التاريخى قدمت له بدراسة ضافية عن المؤلف وعصره •

أقسام الرسالة

فجاءت الرسالة مقسمة الى قسمين :

القسم الاول خاص « بالتنسى وآثاره » ويتكون من بابين الاول منهما موضوعه عصر التنسى ويحتوى على ستة فصول هى على التوالى :

أولا : الحياة السياسية •

ثانيا : نظم الدولة الزيانية •

ثالثا : الحياة الاقتصادية •

رابعا : الحياة الاجتماعية •

خامسا : الحياة الفكرية بما فيها الحياة الدينية •

سادسا وأخيرا : الحياة الفنية •

وقد بينت على الخصوص فى هذه الفصول أن الحياة السياسية فى المغرب الاوسط قد امتازت فى عصر التنسى بتدهور الدولة الزيانية وتسرب الضعف الى أكثر مرافق الحياة فيها رغم وجود بعض الملوك ممن اعادوا بسالة أجدادهم فى الدفاع عن كيان القطر ٠ وقد بينت أيضا أن وحدة شعب المغرب الاوسط قد تمت فى العهد الزيـانى وذلك بامتزاج عناصره وبانتشار الحضـــارة الاسلامية فى أوساطه المختلفة وكذلك باتخاذه اللغة العربية لغة للتخاطب فى أغلب المدن والسهول ولغة للكتابة لافـــراد الامة كلهم مهما كان مستواهم الثقافى ومهما كان موقع سكناهم ٠

ومع أن هذا العصر قد حظى بظهور عدد من كبار العلماء ، فان الثقافة كانت تحمل فى ثناياها عوامل التدهور والانحطاط لان البحث العلمى لم يكن موجها الى المستقبل والى الابتكار والاجتهاد ، بل كان كله تقديسا للماضى وتقليدا لانتاج السلف ٠ فقلما خلف علماء العصر مؤلفات مبتكرة بل كرسوا جهودهم لشرح آثار القدامى وتلخيصها والتعليق عليها ٠

وتعرض **الباب الثانى** من هذا القسم الى « حياة التنسى وآثاره » وهو مقسم الى فصلين : الاول فى حياته وقد تحدثت فيه على التوالى عن مولده ونسبه ووفاته ثـم عن شيوخه وتكوينه وتلاميذه وأخيرا عن منزلته بين معاصريه ، وأود أن أنبه الى أن التنسى رغم المنزلة المرموقة التى احتلها بين معاصريه وتردد اسمه فى كتب المتأخرين مثل « نفح الطيب » و « أزهار الرياض » لمواطنه أحمد المقرى الذى سماه « بشيـخ شيوخ شيوخنا » وورود ترجمة قصيرة له فى بعض كتب التراجم مثل « نيل الابتهاج » لاحمد بابا التنبكتى و « البستان فى ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان » لمحمد بن مريم ، فاننا لا نعلم الا النزر اليسير عن حياته ٠ وما سقته من معلومات فى هذا الفصـــل حصلت على أكثره من تراجم بعض معاصريه ومن كتـــب مختلفة ٠ وقد لجأت أحيانا للتخمينات والمقارنات والاستنتاجات ٠

وقد حللت فى الفصل الثانى آثار التنسى التى وصلتنا وتحدثت عن الكتب التى توفرت لدينا المعلومات عنها ولم تصلنا ٠

وأولها « الطراز فى شرح الخراز » وهو شرح لقسم من أرجوزة فى ضبط القرآن تحمل العنوان التالى : « مورد الظمآن فى رسم القرآن » لناظمها أبى عبد الله محمد الشريشى الشهير بالخراز ، وما زال هذا الكتاب مخطوطا ٠

والكتاب الثانى هو « راح الارواح فيما قاله المولى أبو حمو من الشعر وقيل فيه من الامداح ، وما يوافق ذلك على حسب الاقتراح » وهذا الكتاب فى حكم المفقود ٠ وقد نقل المقرى قطعة منه فى « نفح الطيب » وفى « أزهار الرياض » ٠

الاثر الثالث ليس فى الحقيقة كتابا ٠ فهو حسب تعبير من ترجم للتنسى ، « جواب مطول » فى قضية دينية وسياسية فى الوقت نفسه اثارها مواطن التنسى ومعاصره محمد بن عبد الكريم المغيلى فى ناحية توات من جنوب القطر ٠ وقد أورد الونشريسى فى « المعيار » هذه الفتوى الطويلة للتنسى كما أورد له فتاوى أخرى أيضا ٠

أما الاثر الرابع فهو كتاب « نظم الدر والعقيان فى بيان شرف بنى زيان ٠ وذكر ملوكهم الاعيان ، ومن ملك من اسلافهم فيما مضى من الزمان » ، وقد فضلت تناول هذا الكتاب بعد المؤلفات السابقة مع أنه أهم آثار التنسى ـ لانه محور هذا البحث كله وكذلك حتى تكون دراستى له وحدة مع النص المحقق الذى يتلوها ، ولم أكتف بتحليل محتوى الكتاب وعرض أبوابه وفصوله كلها ، وانما ركزت اهتمامى على القسم الذى قمت بتحقيقه وهو الباب السابع « فى بيان شرف بنى زيان ، وتتبع دولهم الى دولة مولانا المتوكل فخر الزمان » ٠ وهو أطول باب فى الكتاب ، وأهمها أيضا كما ذكرت منذ قليل ٠ فخصصته بدراسة مفصلة ، متناولا المصادر التى اعتمدها المؤلف لتدوين تاريخ بنى زيان فطريقة تصنيفه للباب ، فالقيمة التاريخية لهذا القسم من الكتاب ثم انهيت الفصل بالكلام عن أسلوب التنسى فى نثره وشعره اذ انه أورد ختاما لهذا الباب قصيدة طويلة له قالها فى مدح السلطان المتوكل وهى اثره المنظوم الوحيد الذى بلغنا ومكننى من دراسة شعره ، ورغم أن أكثر المعانى فى هذه القصيدة مبتذلة فقد وجدت أن شعره يتميز بعذوبة الفاظه وبأنغامه الموسيقية الرقيقة وذلك فى عصر ندر فيه من أجاد الشعر ٠

وبما أن هذا القسم من الكتاب هو الذى قمت بتحقيق نصه ، والتعليق على غوامضه لم أر من الضرورى القيام بتحليل محتواه بالتفصيل ، فاقتصرت على التنبيه الى ميزاته .

جاء هذا القسم من « نظم الدر » على شكل تاريخ مختصر شمل أهم مراحل تاريخ الدولة الزيانية وبدأ المؤلف كلامه بالحديث عن ظروف استيلاء بنى عبد الواد على الحكم بتلمسان وتأسيس يغمراسن للدولة سنة 633 هـ/1236 م . وانهى أخباره فى سنة 868 هـ/1464 م . وان أكبر ميزة لهذا التاريخ هى كونه المصدر العربى الوحيد لتاريخ دولة بنى زيان فى مدة تزيد على سبعين سنة كانت بدايتها من الفترة التى انتهت فيها أخبار كتاب « زهر البستان فى دولة بنى زيان » المجهول المؤلف واخبار « بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد » ليحيى بن خلدون ، وكتاب « العبر » لاخيه عبد الرحمن فى النصف الثانى من القرن الثامن ، وفيما عدا « نظم الدر » لا يتوفر للمؤرخ مصدر آخر عربى أو أجنبى شامل لاخبار بنى زيان ، لدراسة تلك الفترة من تاريخ دولتهم وتاريخ المغرب الاوسط ، ومما يسترعى الانتباه أن القسم الخاص بأخبار الفترة التى عاصرها التنسى وانفرد بذكر أخبارها هو فى الوقت نفسه أكثر أقسام الباب افادة ، وأحسنها اتقانا ولا شك فى ان المؤلف قد اعتمد على مشاهداته الخاصة وعلى ما روى له بصفة مباشرة شهود عيان . أما أخبار الفترات السابقة لها فان صاحب « نظم الدر » قد استمد مادته لتدوينها من مصادر بعضها معروف « كبغية الرواد » أو « زهر البستان » وقد سبق ذكرهما ، وبعضها لم يبلغنا . واذا كان التنسى قد نقل أحيانا نقلا حرفيا من هذه الكتب نراه أحيانا أخرى يفاضل بين روايات المصادر التى استقى منها وينقدها .

ومن ميزات هذا الكتاب ذكره فى هذا الباب الخاص بتاريخ بنى عبد الواد لعدة قصائد قالها شعراء مغاربة فى مناسبات مختلفة . وقد انفرد التنسى فى ايراد بعضها منقذا هكذا شطرا من أدب البلاد .

وبالاضافة الى هذه المحاسن التى ذكرت بعضها أشير الى ميزة أخرى خاصة بصياغة الكتاب لا بمضمونه . فقد امتاز هذا التاريخ بالوضوح وحسن العرض كما

ان متنه جاء مقسما تقسيما منطقيا بينا زاد من جلائه ، ومثل ذلك يقال عن أسلوب الكتابة ، فقد امتاز على العموم برصانته وبجودة المعنى والسبك ٠

وفى مقابل هذه الفضائل الكثيرة ، نجد لهذا الباب الخاص بتاريخ ملوك بنى زيان بعض العيوب والنقائص ٠ وأكبر العيوب التى تستوقف نظرنا هى افراط المؤلف فى التملق لبنى زيان ، والمبالغة فى سرد خصال ملوكهم ، ومزاياهم ، وتعمد أغفال ذكر عيوبهم ، وكل ما يسىء بسمعة دولتهم ٠

وكان اثبات شرف بنى زيان من أهم الامور التى تملق بها المؤلف للاسرة المالكة ، وقد جعل بيان هذا الشرف الهدف الاول من تصنيف كتابه مفصحا عن نيته بدءا من العنوان ، فسماه « نظم الدر والعقيان فى بيان شرف بنى زيان ٠٠٠ » كما أن القسم الاول من هذا الكتاب مبنى على تأكيد هذه الفكرة اذ انه بدأ بالكلام عن العرب ثم تدرج الى الكلام عن قريش ثم عن بنى مناف ثم عن بنى هاشم الى أن وصل الى الادارسة الذين جعل بنى زيان من سلالتهم الا أن التنسى لم يتوصل الى اقناعنا بصحة هذا النسب الذى اعتبر جميع بطون بنى عبد الواد من زناتة واستثنى بطنا واحدا وهم بنو القاسم فعده من الاشراف ، والى بنى القاسم هؤلاء قد انتسب ملوك تلمسان ، ومن المعروف ان عبد الرحمن بن خلدون كان قد رفض ادعاء بنى القاسم أو « أيت القاسم » كما سماهم ، فقال ان هذا النسب « لا مستند له » وذلك قبل ان يصنف التنسى كتابه لبيان شرف بنى زيان بأكثر من قرن ٠ وأود أن أنبه الى أن هناك عددا آخر من النسابين والمؤرخين بالاضافة الى صاحب « نظم الدر » قد الحقوا ملوك تلمسان بالادارسة ٠ ونذكر منهم المؤرخ لسان الدين بن الخطيب ٠

وقد كانت هذه المغالاة فى المدح والاطراء نتيجة حتمية لوضعية المؤلف لانه كتب « نظم الدر » اعترافا بجميل معاصره السلطان محمد المتوكل، وجزاء على ما أولاه من معروف حسبما ذكر فى مقدمة الكتاب،ولان الظروف التى كتب فيها ما كانت لتسمح له ان يقول كلاما مخالفا لهذا ٠ فاذا كانت الدولة قد ارادت لاسباب سياسية واضحة ان تدعم مركزها فى البلاد بربط نسبها بنسب ادريس وجده الحسن بن على ، فما كان فى امكان التنسى ان يتجاهل هذا الاتجاه الرسمى وبالاحرى ان يخالفه فى كتاب

تاريخي صنفه تقربا للدولة وجزاء للسلطان الزياني على ما أولاه من معروف · ومما تجدر ملاحظته في هذا الصدد ان التنسي مع أنه كتب توددا لملوك بني زيان قد امسك عن الطعن في اعداء الدولة ومنافسيها ولا حتى بقصد التملق · وهذا خلافا لكثير من مؤرخي الدول المغربية الاخرى ·

القسم الثاني : الباب السابع من « نظم الدر »

أما القسم الثاني الذي يضم النص المحقق فهو مقسم الى بابين :

الباب الاول منهج التحقيق : وقد خصصت أولهما لمنهج التحقيق · وبدأت في الفصل الاول من هذا الباب بعرض النسخ المخطوطة المختلفة « لنظم الدر والعقيان » التي اعتمدتها لتحقيق النص أو حاولت اعتمادها · وهي ثلاثة أنواع : نسخ رئيسية، ونسخ ثانوية ، ونسخ لم أتوصل الى الحصول عليها ·

أما النسخ الرئيسية فهي النسخ التي تبين لي بعد فحصها والتنقيب فيها ، انها ستفيدني في تحقيق النص ، فاحتفظت بها واعتمدت عليها في هذا العمل · وهي ثلاث أولها النسخة الاصلية وهي بالاضافة الى معاصرتها للمؤلف نسخة جيدة متقنة · لهذا جعلتها اساسا لتحقيق النص ، وجعلت النسختين الباقيتين رديفا لها · وقد استفدت منهما لمقابلتهما بالنسخة الاصلية ·

وهناك نسخ أخرى تبين لي بعد فحصها ومقابلتها بالنسخ الثلاث السابقة ، انها لا تصلح اساسا للتحقيق والنشر ، فلم أر من الصالح أن اثقل على المطلع وأرهقه بتراكم الروايات في الهوامش من نسخ ملئت بالتصحيف والتحريف والاخطاء النحوية والإملائية · فلم أرجع اليها الا في القليل النادر وسميتها نسخا ثانوية ·

والنوع الثالث هو النسخ التي لم أتوصل الى الحصول عليها وهي نسخ عرفت انها محفوظة في بعض المكتبات في الخارج وعرفت أيضا أرقامها بفضل الفهارس احيانا أو بعد أن نقبت بنفسي في تلك المكتبات أحيانا أخرى · غير أنني لم أتوصل الى الحصول على افلام مصغرة لها ، رغم المساعي العديدة ·

وبالاضافة الى النسخ الرئيسية استعنت لضبط بعض الكلمات والعبارات الواردة فى نص التنسى بكتاب « بغية الرواد » لحيى بن خلدون وبكتاب « العبر » لاخيه عبد الرحمن ، كما لجأت أيضا لمخطوط « زهر البستان فى دولة بنى زيان » ، وكذلك « لنفح الطيب » و « أزهار الرياض فى أخبار عياض » لاحمد المقرى ٠

أما الفصل الثانى من هذا الباب فقد خصصته لبسط الطريقة التى سلكتها فى تحقيق النص ٠

وأود أن أنبه بادىء ذى بدء الى اننى جعلت نصب عينى وانا بصدد تحقيق النص ، ان اخرج صورة من الكتاب تكون اقرب ما يمكن للنسخة التى خلفها التنسى فى القرن التاسع ، فلم أدخل أى تغيير على هذا النص ما عدا بعض الاضافات الضرورية كعناوين الفصول وبعض العلامات والارقام التى لا تمس المضمون أو المظهر الخارجى بقليل أو كثير ٠

وفيما يلى اعرض أهم المبادىء التى اتبعتها لضبط النص :

جعلت اقدم النسخ واحسنها فى الوقت نفسه ، اصلا أى اننى لم امس النص المنقول منها الا نادرا ، وذلك عندما لاحظت فيها نقصا أو اكتشفت تحريفا أو تصحيفا واضحين ٠

اننى فى اثناء تحقيق الالفاظ فد اكتفيت فى الهامش بذكر الرواية التى قد تفيد الباحث مهما كان اختصاصه ، أما الروايات الاخرى التى اتضح لى انها اغلاط فاحشة فلم أر فائدة من أن أوردها ٠

اشرت دائما الى النقص متى وجد وأيا كانت النسخة التى سقط منها الكلام ، وذلك دائما فيما يتعلق بالنسخ الرئيسية ، أما فيما يخص التعليق على متن المؤلف فكان المنهاج كما يلى :

بما اننى هدفت الى محاولة اعادة النص الى الحالة التى تركه عليها مؤلفه ، لم أر من الضرورى أن اشرح ما قد يغمض من الالفاظ ، ولم أذكر معنى مثل هذه الالفاظ الا عند تعليلى لتفضيل رواية على أخرى ٠

تيسيرا لعمل المؤرخين ، آثرت التعليق على اسماء الاشخاص والاماكن ، وقـــد جمعت اسماء الاماكن فى كشاف مستقل لتكررها فى المتن وفى الهامش .

ولافادة المـطلع وتقويم محتوى الكتاب ، قابلت نص التنسى بالمصادر التى تناولت باسهاب موضوع تاريخ بنى عبد الواد فذكرت روايات تلك الكتب عن الاحـــداث نفسها ، كلما خالفت التنسى .

ومن التعاليق أيضا ذكرت فى الهوامش تاريخ استلام الملوك لمقاليد الحكم وتاريخ نهاية دولهم .

أما الباب الثانى من هذا القسم الثانى فقد ضم النص المحقق مع تعاليقه وقد أتبعت النص المنشور :

1 ـ بكشاف اسماء الاماكن الواردة فيه .

2 ـ بجـدول لملـوك بنى زيـان .

3 ـ بخريطـة للمغـرب فى العهـد الزيـانى .

4 ـ واخيرا بمخطـط تقريبى لمدينة تلمسان فى القرن التاسع .

وختمت الكتاب كله بالفهارس التاليـة :

1 ـ فهرس اسماء الاشخاص والقبائل والدول .

2 ـ فهرس اسماء البلدان ، والاماكن ، والانهار .

3 ـ فهرس اسماء الشعراء .

4 ـ فهرس القوافى .

5 ـ واخيرا ـ فهرس عناوين الكتب والمقالات والمجلات .

والحقت بهذه الفهارس ثبتا عاما للمصادر والمراجع وختمت الدراسة بفهرس مفصل للموضوعات .

نتيجـــة البحـــث

هذه هى أهم النقاط التى تناولتها فى هذه الدراسة التى هدفت من ورائها الى التعريف بهذا الاديب والمؤرخ الذى انجبته بلادنا والى التعريف بآثاره والى الحديث بهذه المناسبة عن عصره وجوانب الحياة فيه • وأود أن أؤكد ان الدهر بتناسيه فضل التنسى على تاريخ وحضارة المغرب الاوسط وعلى أدبه ، قد غمطه حقه ، وهو الـذى بلـغ درجة عالية فى العلم والمعرفة وتجلى تبحره فى اللغـة وجودة اسلوبه فى عصر ندر فيه المتضلعون فى اللغة والادب كما ندر المتذوقون لهما •

اننا رأينا أن التنسى قد انقذ اخبار نحو سبعين سنة من مسيرة شعبنا اذ لولاه لبقيت حقبة من تاريخ المغرب الاوسط فى زوايا النسيان ولاعتبرنا القرن التاسع ليلا طويلا قاتما ، فكان كتابه « نظم الدر » بمثابة المصباح الذى اضاء تلك العتمة ومكن المؤرخ من السير فيها واننا نرى هذا المؤرخ يضيع فى الظلام من جديد يوم يتوقف التنسى عن تدوين الاخبار ، وهذا مما يزيد من شعور الباحث الدارس لتاريخ بنى زيان وتاريخ المغرب الاوسط فى هذا العصر بقيمة ما خلف التنسي واهميته •

وأملى أن أكون قد وفقت فى بعث هذا الكاتب وفى اخراج قسم من آثاره للناس فى حلة حاولت أن أجعلها علمية ليوضع أمام الباحثين مساهمة منى فى اثراء الدراسات التاريخية ، وفى كشف الخفايا لفترة زمنية طويلة نسبيا من ماضى بلادنا ومساهمة منى أيضا فى أحياء ما خلف أجدادنا من تراث أدبى وعلمى •(1)

---

(1) رسالة لنيل الدكتوراه للدور الثالث من جامعة الجزائر • وعنوان الرسالة الكامل هو : « نظم الدر والعقيان فى بيان شرف بني زيان ، وذكر لملوكهم الاعيان » ، تأليف محمد بن عبد الله التنسى مع نشر الباب الخاص « ببيان شرف بني زيان ، وتتبع دولهم الى دولة مولانا المتوكل فخر الزمان » •

فهــــرس الـعـــــدد

■ **نعتذر للقراء الكرام عن هذا التأخر الاضطراري في صدور المجلة، بسبب تعطل المطبعة في فترة الصيف**

المسجد جامع وجامعة (1)

مولود قاسم نايت بلقاسم
الوزير لدى رئاسة الجمهورية
المكلف بالشؤون الدينية

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على خاتم النبيئين والمرسلين ،



اخواننا ، يسرنا بهذه المناسبة ، مناسبة المولد النبوى الشريف ، فى هذا اللقاء فى مدينة وهران ، ان نجتمع بكم ونذكركم ببعض المبادىء التى كررناها واعدناها فى منشورات ، وفى مجلة الأصالة ، وفى اجتماعات ، بالنسبة لمن حضر منكم فى مدرسة مفتاح بمناسبة تدشينها ، حول اهمية المسجد ، حول دور المسجد ، وبالتالى حول اهمية الامام ، ومساعديه ، من مؤذن ، وقيم ، فى الامة .

اظن أنه من البديهيات ان نكرر ، ولكن لا باس بتكرار بعض البديهيات عندما لا تكون منغرسة فى الاذهان ، عندما لا تدرك من الكل مع الاسف ، كررنا لكم مرارا ، ولكن لا نزال نلاحظ تقصيرا ، وهذا ليس موجها لائمة ولاية وهران فقط ، ولكن

---

(1) كلمة ارتجلها السيد مولود قاسم نايت بلقاسم ، وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية ، فى المركز الثقافى الاسلامى بوهران فى الائمة ليلة ذكرى المولد النبوى الشريف (11 ربيع الثانى 1397 هـ ـ 01 مارس 1977 م) .

لمجموع الائمة على مستوى الوطن • كررنا مرارا أن دور المسجد يتمثل فى القيام بعدة مهام ، بعدة مسؤوليات ، وليست ، كما يظن الكثير منكم ومن غيركم فى أنحاء الوطن ، اكتفاء بالقيام بالصلوات الخمس ، وربما بصلاة الجمعة فقط ، ثم الذهاب الى الولائم ، ثم الى البيت ، أو الجلوس فى المتاجر ، أو التسكع فى الشوارع •

قلنا لكم أكثر من مرة ان المسجد كان فى الاساس مدرسة ، كان معهدا فيه تخرج الصحابة فى صدر الاسلام ، وفيه تخرج غيرهم فى عهود متتالية • واذا ما نسيتم وجب علينا أن نذكركم بأن الجامع كان جامعة أيضا ، وانما أجدادنا كانوا يفضلون صفة المذكر فيقولون الجامع ، يعنى الجامعة كما يقال اليوم فى العصر الحديث ، عصر التانيث ! فقد كان الجامع يقوم بدور الجامعة اليوم ، هكذا كان مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ومساجد أخرى كالجامع الاموى بدمشق ، والجامع الاعظم ببغداد ، وجامع الازهر بمصر ، وجامع الزيتونة بتونس ، وجامع القرويين بالمغرب ، والجوامع العديدة الكبيرة عندنا فى تيهرت ، وفى بجاية ، وتلمسان ، وفى بسكرة ، وفى طبنة ، والعاصمة، ومازونة ، وقسنطينة ، وآخرها الجامع الاخضر مثلا !

كان المسجد دار علم • هكذا كان جامع قرطبة بالاندلس ، كان المسجد جامعا وجامعة ، كان جامعا يجمع الامة لا للصلاة فقط ، ولكن للعلم أيضا •

ولهذا كررنا لكم مرارا ، فى أكثر من منشور ، أن عليكم أن تقوموا أيضا بالتعليم فى المساجد • والتعليم يتمثل فى ثلاث مراحل : الدروس المسجدية التى أوصلت البعض حتى الى مستوى الاهلية ، بل وحتى الى مستوى البكالوريا ، وتحفيظ القرآن للصغار ، ومكافحة الامية لدى الكبار •

وينبغى أن تكون الدروس المسجدية التقليدية التى تنصب على مختلف المواد حسب مستوى الامام وحسب رغبة المصلين المأمومين ، كالتفسير ، والحديث ، والفقه ، والتوحيد ، الخ • وهناك مكافحة الامية التى يهملها الكثير منكم ، ويحتقرونها ، ولا يعبأون بها ، ويظنون أنها مسألة ثانوية ، ومسألة بذخ وترف ، كما يقول البعض منكم • لا ، أبدا ، بل هى فى الصميم •

هذه بعض أدوار المسجد ، وقلنا لكم انكم اذا كنتم فى دوركم مقتصرين على الصلاة فقط ، فان صلاتكم باطلة ، وصلاة المامومين وراءكم باطلة ، لانكم تأخذون عنها أجرا ، تأخذون عنها راتبا من ميزانية الدولة ، هذه خسارة ، وهذا حرام ، وصلاتكم ضائعة باطلة ، وصلاة المامومين وراءكم باطلة ، اذا لم تقوموا بجهود أخرى ٠ لان الامام فى صدر الاسلام ما كان يأخذ راتبا عن الصلاة بالناس ، اذ وظيفة الامام بهذه الصفة الموجودة اليوم لم تكن موجودة فى صدر الاسلام أبدا ٠ كان أى انسان يقوم بهذا الدور ، أفقههم ، أو أنظفهم ، وأكثرهم تنظيما فى نفسه وانضباطا ، وبالتالى أصلحهم لشؤون غيره أيضا ٠ كان هذا دور المسجد ٠ الامام لم يكن بهذا الراتب ، بهذه الصفة الرسمية كموظف ، يتلقى الراتب ليصلى بالناس فقط ويذهب ليتفسح فى الشوارع ، ويمشى فى الاسواق ٠ أبدا ٠ لم يكن هذا الوظيف ، ولكن لما أنشىء وأعطى له هذا الطابع الرسمى أصبحت له مهام جديدة ، مهام ملتصقة بمهام المسجد ٠

والمسجد ، كما قلنا ، كان دار علم بالدرجة الاولى ، والعلم والعمل كالصلاة ٠ فهما فى الاسلام عبادة ٠ فاذا كان المعبد فى الديانات الاخرى معبدا فقط ، أو أكثر مما هو شىء آخر ، فهو عندنا معبد ودار علم أيضا ٠ والعلم عبادة ، كما يقول الحديث الشريف ، نعم : العلم عبادة ، حديث شريف صحيح ٠ والى ذلك كان المسجد ثكنة ومجلس حرب ٠ واذا كان اليوم التنظيم الحديث يقتضى أن تكون هناك وزارة للدفاع ، واختصاصات موزعة ، وتوزيع عقلانى للعمل فى اطار الدولة ، وزال عن المسجد دوره هذا كرباط عسكرى ، وكثكنة ، وكمجلس حرب ، فان دوره العلمى ، كمجلس علم ، وكحلقة درس ، لم يزل ، ولن يزول أبدا ، ولا يزال قائما ، رغم وجود وزارات عديدة للتعليم ، أو وزارة واحدة ، أيا كان التنظيم فى هذا البلد أو ذاك ، فان مهمة المسجد لا تزال الى اليوم كدار علم ٠

اذن ينبغى على المسجد وعلى الامام أن يقوما بالتعليم أيضا ، على مختلف المستويات التى ذكرناها ، حسب رغبة المصلين وحسب مستوى الامام ٠ والمسجد كان دار قضاء ، كان محكمة أيضا ٠ واذا كان النظام الحديث الآن يقتضى وجود وزارة العدل ووجود

محاكم مختصة ، فان دور العلم ، دور التربية ، دور التهذيب ، لا يزال قائما ولن يزال قائما ، ولن يزول الى الابد من بين مهـام الجـامع !

هناك أدوار كثيرة جدا ومتنوعة للمسجد تتصل بحياة الامة فى مختلف تشعباتها العديدة ، من التى ذكرناها وأخرى لم نذكرها ، ومنها كونه مجلس حـكم ، ومجلس الشورى ، واذا كانت هذه المهام كلها بأغلبها أصبحت موزعة الآن على سلطات متعددة ، حسب الاختصاص ، فان مهمة التعليم ، مهمة التربية ، مهمة التهذيب ، لا تزال قائمة اليوم ، والى يوم الدين ، لان اليوم الذى يصبح فيه الامام يأخذ راتبا عن الصلاة فقط ، على أن يؤم الناس فقط ، فان ذلك اليوم ينبغى أن تغلق المساجد · لان صلاتكم باطلة ، وصلاتكم بالناس باطلة ، وصلاة المأمومين وراءكم باطلة ، اذا كنـــتم لا تقومون بهذا الدور ، دور التعليم · ولهذا قلنا مـرارا ، وأكدناه خاصـة فى منشورات عـديدة ، وأكدناه بصفة أخص عند افتتاح مدرسة مفتاح لتكوين الائمة ، التى حضر الكثير منكم افتتاحها ، وبالنسبة لمن لم يحضر منكم فقد نشرنا تلك الكلمة فى مجلة الأصـالة ، وقلنا فيها : عليكم ، أيها الائمة ، أن تكونوا الرعاة الوعاة والدعاة السعاة !

ان يكون كل منكم راعيا واعيا ، وداعيا ساعيا ، ان يخدم ، وان يتصـــل ، وان يهتم بشؤون المجتمع كله ، بشؤون الامة كلها ، بجميع شؤون الامة ، وأن لا تقتصروا فقط على العبادات ، ولا على التعليم والتهذيب فقط ، بل ينبغى أن تتبعوا شؤون الامة وبناءها فى مختلف المجالات ، وفى سائر القطاعات ، على المستوى العام للبلاد كلها ، ينبغى أن تتبعوا كل هذا ، وألا تنزووا فى ركنة من المسجد وتكتفوا بحلقات الذكر ، وتظنوا ان هذا هو الاسلام · تذكرون كلكم ما فعله عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، عمر الفاروق ، الفاروق صيغة المبالغة من العدل ، عمر الفاروق الذى يمثل العدالة بحق · فقد وجدهم ذات مرة خارج وقت الصلاة فى حلقة يذكرون ، فضرب أحدهم ، أو كثيرا منهم ، فى المسجد بدرته ، بعصاه التى كانت لا تفارقه ، وقال لهم:« اخرجوا» عندما وجدهم بعد الصلاة بصدد الذكر ، قال لهم : « اخرجوا ان السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة » ، قد أديتم العبادة الواجبة ، صلاة الجماعة ، والآن اخرجـوا الى العمـــل ، واستمروا فى ذكركم أثناء عملكم بالمزرعة ، أو فى المصنع ، أو فى المتجـــر أو فى

غيرها • هذا هو المفروض عليكم ، ان تكونوا الرعاة الوعـاة والدعـاة السعـــاة ، أن تكونوا رعاة ! أن يكون كل منكم راعيا • ما معنى الراعى ؟ الحديث الشريف يقول : « كلكم راع ، وكل راع مسؤول عن رعيته » • الراعى هو الراعى باللغة العامية متاعنا ، الراعى يرعى الغنم ، أو يرعى الماعز ، أو يرعى بنى آدم • وهذا موجود حتى فى بعض الديانات الاخرى • فعند البروتستانتيين فى أوروبا لا يقولون له قسيسا ، بل يسمونه الراعى Schaefer, Pastor • والراعى يرعى الناس ، يرعى بنى آدم ، يرعى الامة •

هذا هو المعنى • ولا تظنوا أن دوركم يقتصر فقط على الصلاة على الميت ، أو البقاء منزويين فى المسجد للذكر ، ولبعض الحلقات ، والتجمع فى بعض المتاجر والسلام • لا ، ليس هذا أبدا • ولهذا فسنستعمل الصرامة وغاية الشدة فى المستقبل ، بأكثر مما فعلناه فى الماضى ، بعد أن نبهناكم مرارا ، بعد أن أنذرناكم شفـويا وكتـابيا ، ولكن بعضكم لا يرعوى ، وقد أعذر من أنذر ، وأنذرناكم مرارا ، اذن اعذرناكم • ما معنى اعذرناكم ؟ أزلنا عنكم العذر ، لم يعد لكم عذر • تدركون هذا كله • وسنستعمل معكم غاية الصرامة ، وغاية الشدة ، فى المستقبل ، ابتداء من اليوم • سنستعمل غاية الصرامة وغاية الشدة على مستوى الوطن ، وليس فقط ، طبعا ، فى ولاية وهران ، أو للغرب الجزائرى •

ينبغى اذن أن تدركوا عمق هذه المسؤولية ، تدركوا مدى أهمية الواجب الملقى عليكم ، وأن لا تبقوا هكذا سلبيين ، مرتخين ، مفككى الاجزاء ، منحلى الاوصال • وقد قلت مرة كلاما حارا للائمة فى ولاية الجزائر العاصمة ، عندما جمعتهم ، وعاتبنى بعض الاخوان المساعدين فى الوزارة بعد ذلك قائلا اننى تشددت معهم كثيرا ، واستعملت معهم غاية الصرامة فى الحديث • هذا فى الحديث فقط ، ولم نصـــل الى الخصم مـن الراتب ، والى التوبيخ ، والى اعلام الوظيف العمومى • لم نصل بعد الى هذا ، ولـكن سنبدأ فيه قريبا ان شاء الله • ماذا قلت لهم ؟ قلت لهم ان تلك « الاخوات » ، اللاتى يسمين « الاخوات » باللغة المسيحية Les Sœurs ، « السورات » ، يركبن على الدراجة ويقفزن ، ويطرن ، وأنتم نائمـون ؟ وأنتم واقفـون ؟ ولا تطردون حتى الذباب عن أعينكم ! تسيرون هكذا مهلهلين ، مخلخلين ، مزعزعين ، مهزوزين ؟ لا ! بـل ينبغى

ان تقفزوا قليلا ، ينبغى أن تطـيروا ، أن تتحركوا ، أن تستيقظوا ٠ ان مجنونا يطـير فى السماء أفضل من النائم المرتخى ! انى أفضل أن أرى كلا منكم بثيابه فى الهواء على ان أراه مرتخى الاوصال ، مفكك الاجزاء ، لا يطرد الذباب عن عينيه ، فى المسجد أو غـير المسجد ٠ ينبغى أن تنتعشوا قليلا ! ان تكونوا طبق ذلك المثل الذى قاله عمر بن الخطاب رضى الله عنه لاحد الشباب ، كما روته عائشة ، عندما التقى بأحد الشبان ٠ قال له عمر بن الخطاب ، وما أدراك من هو عمر بن الخطاب ؟ عندما مـــر به فى أحد شوارع المدينة ، والشاب مرتخى الاوصال ، مفكك الاجزاء ، مثل الكثير منكم ، فضربه عمـر بعصاه على أم راسه ، بدرته المشهورة ، وقال له : « مالك مرتخ هكذا ، مالك تتماوت فى مشيتك ! فقد أمتم علينا ديننا اماتكم الله ! » واعطاه بالعصا على أم راسه ٠

هذا ما ينبغى ان نستعمله معكم ، ما دمتم هكذا أمواتا ، مفككى الاجزاء ، مرتـخى الاوصال ، محلولين ، مهلهلين ، مخلخلين ٠ ينبغى أن تحيوا قليلا ، وأن تضربوا المثل ، أن تعطوا القدوة ، أن تكونوا فى حزم الامام على ، الامام على ! خـذوا اسمكم من الامـام على ! خذوا اسمكم من الامام الاول ! خذوا الصفات منه ! خذوا الصفات التى تتمشى ، التى توافق ، التى تاتى من هذا الامام ! خذوا من الاسم مسماه عنه ، بل مسميـــاتـه العديدة ! خذوا تلك الصفات ، صفة الامام الحازم ، الجازم ، القافز ، النشيط ، الحى ، الذى يحيى الآخرين ، الذى يحرك ، الذى يهز ، الذى ينغز ، الذى ينعش ، وعنــد الضرورة ، الذى يصدم الغير ، ليبعث فيهم الرعب ! ليبعث فيهم الحيـاة !

هذا ما نطلبه منكم ٠ هكذا ينبغى أن تكونوا ، جسما حيا فى الامة ٠ ولهذا قلنا لكم كونوا الرعاة الوعاة ، لا الغافلين ، النائمين ، الراقدين ، مع الـزردة ، والوعـدة ، والقعدة ، والرقدة ! تحركوا قليلا ، كونوا الرعاة الوعاة ، والدعاة السعاة ! وغدا ان شاء الله ، وفى المرة المقبلة ، عندما نتلاقى ، نرجو أن نتكلم فى أشياء اخرى ، وألا نكرر هذه البديهيات ، هذه المسائل التى تكاد تكون لغوا من الكلام ، لانه ما كـان ينبغى أبدا أن نكرر ونعيد الكلام فى مثل هذه الامور ، الواضحة ، بل البديهية !

وقد ذكرنى الاستاذ الشيخ الزبير الآن بنقطة هامة ، وهى أنه فتح لكم على مستوى الولاية فرعا لمدرسة مفتاح ، مدرسة تكوين الائمة ٠

ولعلم الاخوان الآخرين من جهاز الدولة الحاضرين هنا نقول ان مدرسة مفتاح هذه ، المنشاة فى الجزائر العاصمة ، والتى افتتحت منذ سنتين ، تحاول ان تعطى الائمة الموجودين حاليا فى الجهاز مستوى معينا من التعليم ، من الثقافة ، فى الميادين المختلفة ، من فقه ، ونحو ، وصرف ، وحديث ، وكذلك تاريخ الجزائر ، والنظام الادارى فى الجزائر ، والنظام الاقتصادى ، والنظام الاجتماعى ، وكذلك اللغات الاجنبية ، بقدر الامكان ، وكذلك التيارات الاقتصادية والسياسية المعاصرة ، والايديولوجيات المختلفة ، وتاريخ الاديان المقارن ·

هذا كله وضع مؤقت ، ريثما تقوم كليتا الشريعة فى قسنطينة وأصول الدين فى وهران ·

وقد أنشأ لكم الشيخ الزبير هنا فرعا على مستوى ولاية وهران ، ينبغى أن تحرصوا كل الحرص على تتبع هذه الدروس · وقد تلقى تعليمات صارمة ليطبق هذه الصرامة عليكم ، وكل من يرتخى منكم ، ويتهاون ، ويتكاسل ، وينعس ، ويتغيب عن هذه الدروس ، سيعاقب العقاب الشديد ، الصارم ، بالخصم من الراتب أولا ، والتوبيخ ، ثم بالعزل مباشرة · ولا سبيل هناك الى التدخل ، ولا الى كتابة رسائل ، وشكاو ، ودعاو ، أبدا ! فعندما يصدر الامر انتهى ، وانقضى ، وخلاص ، كما يقول اخواننا المصريون ، وخلاص !

اذن ينبغى أن تعملوا بهذا كل العمل · الدولة قد اعطتكم الآن حقوقكم · أنتم الآن موظفون فى جهاز الدولة ، كأى موظف آخر ، فى الداخلية ، أو الخارجية ، أو الدفاع ، أو الرئاسة ، أو غيرها من الوزارات والمؤسسات والاجهزة للبلاد ، فى الحزب أو فى الدولة · لديكم كل الحقوق ، لديكم التقاعد ، لديكم الضمان الاجتماعى ، لديكم العطلة ، لديكم العلاج ، لديكم كل شيء ، لديكم نفس الحقوق كغيركم الآن وستتلقون قريبا ان شاء الله تلك النسب التى تعطى لكم بالنسبة للعلاوة أو الزيادة فى الراتب ، حسب المقاييس ، ابتداء من انطلاق الميزانية الجديدة فى شهر مارس ان شاء الله ·

والذين بلغوا السن سيحالون الى التقاعد ، وتحفظ لهم كرامتهم وكرامة عائلاتهم ، التى لا تزال الى حد الآن معرضة مع الاسف ، لان هذا لم يدخل بعد فى حيز الفعل ،

ولكن الآن قد صدر المرسوم فى الجريدة الرسمية الذى يعطيكم جميع هذه الحقوق ، ويسويكم بجميع الموظفين الآخرين فى أجهزة الدولة ٠

وكلمة الموظف ليست تحقيرا أبدا ٠ فكلنا موظفون ، من الرئيس الى أدنى موظف فى جهاز الدولة ، فى أى سلم فى الدولة ، من العساس ، والجباس ، والكناس ، الى الرئيس ٠ كل منا موظف ، أى فى خدمة الامة ٠ والعبرة فقط بتوزيع الاعمال على أدوار ، وعلى مستويات مختلفة متفاوتة ، حسب مستوى التعليم ، وحسب الكفاءة ، وحسب الصحة ، وحسب الخبرة فقط ، أما الوظيفة فهى الوظيفة ، من الرئاسة الى آخر رتبة فى السلم فى البلاد ٠

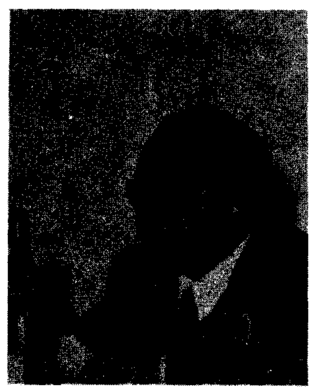
اذن فأنتم الآن لديكم نفس الحقوق التى لغيركم من الموظفين ، فى جميع أجهزة الدولة ، ولكم أن تقوموا بدوركم ، فعليكم واجبات الى جانب هذه الحقوق ٠

ينبغى أن تعوا هذه الحقوق ، ينبغى أن تعمقوا وعيكم وروح مسؤوليتكم بأداء هذه الواجبات ، بالمسؤولية الملقاة على عاتقكم ، ينبغى أن تعوها كل الوعى ، واذا لم تعوا ، ولم ترعووا ، فلن تلوموا الا أنفسكم ، ونرجو من الله ألا نتكلم فى المستقبل الا فى الايجابيات ٠

والسلام عليكم ٠

الرستميون قنطرة صلة بين الجزائر والاندلس من خلال الاباضية

د . سلفادور غومث نوغاليس
رئيس قسم الفلسفة الاسلامية
بالمعهد الاسبانى العربى للثقافة
مدريد (اسبانيا)



اقترح لمساهمتى فى هذا المؤتمر نقطتين جذبتا اهتمامى لعلاقتهما بالنقطة الاساسية التى طرحها منظمو المؤتمر ، أقصد الرستميين .

النقطة الاولى ، هى علاقتهم باسبانيا . بدا لى من قراءاتى المستطلعة الاولى ان ذلك كان موضوعا جديرا بان يكون قد درس وبحث ، وما يتعلق به جدير بان يلفت اهتمام اعضاء المؤتمر .

النقطة الثانية ، تتصل بما اراني مدفوعا الى التعامل بصورة متكررة ، فى محاضرتى ودروسي عن الفلسفة العربية ، او فى بياناتى وايضاحاتى للغربيين عن العالم الاسلامى، اقصد الافتراض الجبرى عند المسلمين . هل الاسلام ينفى الاختيار « الحرية » ؟ . ما هو مذهب الرستميين فى هذا خاصة ؟ . سوف أشرح لكم حالا لماذا ساعالج هذا الموضوع بالذات عند بنى رستم .

بالنسبة للموضوع الاول ، حتى وان كنت ساقول أكثر من كلمة .بكل تاكيد كانت هناك علاقات بين(*) الرستميين والاندلس ، هناك بعض المؤرخين يصلون الى القول بان بنى أمية قد لجاوا الى ورجلة واختفوا بها قبل عبورهم الى الاندلس . ان ذلك يبدو لى شيئا بعيد الاحتمال لسبب تاريخى . ان النصوص المتحدثة عن العلاقات بين بنى رستم

(*) ننشر هذه المحاضرات طبقا لمبدا نشر كل محاضرات الملتقى الذى اعلنا عنه فى العدد الاول من الاصالة تعميما للفائدة ، ولطلب الكثير ممن تصلهم المجلة ولا تصلهم كتب الملتقيات .

والامويين الاسبان تنقسم الى من يتحدث فى صالح تأكيد هذه العلاقة والآخر على العكس يستنكرها على حسب ما ينتمى اليه من المدارس الاسلامية . فى مواجهة هذه الصعوبات ذات الطابع التاريخى عدلت عن التحدث فى هذا الموضوع بنفسى لسببين :

أولا : لان التاريخ ليس صنعتى كما هو الحال فى تصورى للافكار وانتقالها عبر مختلف العصور .

والسبب الثانى : لان التعامل مع موضوع تاريخى اسبانى يستحق ان يتناوله واحد من المؤرخين الاسبان متخصص فى الموضوعات الاندلسية . وفى حالتنا هذه نترك الامر للدكتورة ماريا خيسوس فيغيرا ولذكائها وفطنتها أترك لها بحث هذه النقطة . ومع ذلك فهنالك ما اود ان ابرزه فى تلك اللحظة التى اترك فيها التاريخ ، وألتجىء الى العقيدة يهمنى ان اضع خطا هنا . لقد كانت العقيدة الاباضية هى الشائعة بين الرستميين هل يمكن ان أؤكد شيئا عن العلاقات بين الاباضية والاندلس ؟

ومن المعروف ان البؤرة الاساسية للاباضية كانت المغرب ، وبتحديد أكثر ، فى لحظة محددة من تاريخه، كان اقليم ورجلة . اذن الافكار الاباضية استطاعت الانتقال الى الاندلس عن طريقين :

أولا : من خلال الخلفية العامة الموجودة بين الافكار الدينية والفلسفية للاباضية وباقى المدارس التى عبرت معها الى الاندلس .

والثانى : عبور الافكار الخاصة بالاباضية الى الاندلس .

وللاجابة على المسألة الاولى علينا ان نحدد أولا امكانية تصادف أو اتفاق مدارس أخرى مع الاباضية . سيكون لذلك تأثيره غير المباشر ، شيئا من ذلك ستقوله دراسة للمصادر الاباضية، أو سيكون صعبا جدا اثبات ان هذه الفرق المختلفة من الاباضية قد دخلت خلالها . الشىء البديهى المؤكد هو انه خلال فترة مبكرة كانت الاباضية معروفة فى الاندلس ، من حيث عبرت قادمة من المغرب وليس مباشرة من المشرق . ومن غير المعروف تماما حتى الآن تلك المؤثرات الداخلية مباشرة من المشرق . من بين الاعضاء الستة المكونين لمجلس الشورى الذى كان عليه اختيار الامام الاباضى فى عام 168 هجرية ، بعد وفاة عبد الرحمن بن رستم ، كان هناك شخصيتان من أصل اسبانى ، مسعد الاندلسى ، وعثمان بن مروان الاندلسى .

الموضوع الثانى ، يأتى فى اشارات ابن حزم فى القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر الميلادى ، بانه وجد فى الاندلس بعض البقايا من الاباضية (الفِصَلْ ج 4 ص : 179 الى 191) ·

اننى متأكد من ان بعض المتخصصين فى هذه المادة والموجودين هنا يمكنـــهم ان يعالجوا بكفاءة اكثر مما استطيع ، العلاقات بين الرستميين والاباضية ، كذلك الامر بالنسبة لاصول هذا المذهب · اننى فقط سوف اركز على تلك الملامح التاريخية أو العقائدية ، والتى يمكن ان يوضحها لنا موضوع محاضرتى ·

ان أصول هذه العقيدة تمنحنا واحدة من المميزات الظاهرة جدا فى الاباضية ، فى فجر التاريخ وقبل ميلاد هذه العقيدة ، أى فى القرن الاول من الهجرة ، السابع الميلادى · قد ظهر فى مواجهــة المذهب الخــارجى مذهب آخــر ذو ملامــح متشابهــة · تكون حول شخصية اعتاد الاباضيون ان يذكروها بكل توقير وتكريم كواحد من أوائل الائمة فى هذا المذهب ، ذلك يتعلق بابن بلال مرداس بن عدية التميمى · اسم هذا المذهب هو الصفرية ، والتى تمثل أيضا صيغة معتدلة بين الخوارج ·

ولكن بناء على المتواترات الاباضية التى اثبتها ابو مخنف منذ منتصف القرن الثانى من الهجرة ، الثامن الميلادى ، فان بداية هذا المذهب قد حدثت فى عام خمسة وستين من الهجرة ، ستمائة وأربعة وثمانون من الميلاد عندما انفصـــل عبد الله ابن اباض المرى التميمى عن موقف الخوارج المتطرفين متجها الى باقى أهل التوحيد ، مما اعطى اسمه الى المذهب الاباضى أو الى المدرسة الاباضية ·يبدو لى ان ابــاض كان الرئيس « امام أهل التحقيق ، امام المسلمين أو امام القوم »لنوع من الحكومــة الدينية الاباضية السرية « جماعة المسلمين » ، أى انه ألف مجلسا مكونا من كثير من المشايخ مشابها للمجلس الذى كونه AZZABA عزابة الاباضية فى شمال افريقيا بعد سقوط أئمة بنى رستم · لقد كان هو كاتب المناظرات فى مواجهــة الخــوارج المتطرفين ، ومن المحتمل ان قعوده كان يتجه بامل ما فى الوصول الى اتفاق أو تفاهم مع الخليفة الجديد عبد الملك بن مروان (65 ــ 86) ·

تلك السياسة التى بدأها ابن اباض فى اتجاه الامويين سوف يتبعها خليفته أبو الشعث جابر بن زيد الازدى المؤسس الحقيقى للمذهب ، والمحدث البارز الشهير ، العمانى النشأة ، ولقد كان واحدا من انفع تلامذة واصدقاء عبد الله بن عباس وحفظ عنه الكثير من الاحاديث ، ولقد روى لتلاميذه الكثير جدا من الاحاديث السنية ، مجادلا بعنف وبكثرة فى مواجهة الخوارج المتطرفين ، ومؤسسا بصورة نهائية المذهب الاباضى، ولهذا فان المراجع الاباضية تعده عمدة الاباضية أو أصل المذهب .

ليس من الممكن ان يحكى بالتفصيل تاريخ الاباضية . ولكن اذا كان من الملائم ان نذكر شيئا عن تلميذ جابر الاكثر نجابة ، وصاحب التأثير السياسى الايجابى ، اقصد وريثه كرئيس للجماعة الاباضية فى البصرة أبو عبيدة مسلم بن ابى كريمة التميمى ، عندما كان جابر منفيا الى عمان بسبب تمرده ضد حاكم العراق، كان أبو عبيدة مسجونا، زاول تأثيرا كبيرا على المتأخرين من بنى امية . لكن بالنسبة لخطه السياسى المعتدل ، لم يكن يرغب فى التمرد بصراحة ضد بغداد ربما بسبب اشفاقه من شقاق فى المجتمع الاباضى ربما قد يحدث . ولكنه اعترض على خروج الاباضية من البصرة .

لهذا لم يهرب مثلما فعل باقى الخوارج ، وانما استوعب خطة ذات تأثير كبير ضمن موقفه المعتدل ، مستغلا غنى الجماعة الاباضية ومتخذا لها كاساس لمشروع دعائى اباضى فى كل انحاء العالم . الخطة كانت اقامة امامة اباضية مع بقايا الخلافة الاموية .

لقد حافظ على نظام الدعاة الذين ارسلهم فى كل الاتجاهات ، ومن هنا خرج الدعاة الذين وصلوا الى المغرب لكى يقيمواهناك الجماعة الاباضية ، استقروا أولا فى اقليم طرابلس مؤسسين مدينة طرابلس لتكون مقرا للدولة الجديدة ، وفى سنة مائة وواحد وأربعين هجرية ، سبعمائة وثمانية وخمسين ميلادية ، وصلوا الى الاستيلاء على القيروان ، العاصمة العربية لافريقيا فى ذلك الوقت ، هذه الدولة الاباضية الجديدة قد تحكمت فى كل الاقليم الطرابلسى فيما بعد الحدود الغربية لبرقة ، تونس وشرق الجزائر الحالية ، ومتضمنا موطن كتامة فى شمال قسنطينة .

عند تحطيم هذه الدولة بواسطة قوات العباسيين فى عام مائة واربعة وأربعين هجرية ، انسحبت بقايا هذه الدولة الى داخل الاقليم الطرابلسى والى المغرب الاوسط ٠

هكذا بدأت مراكز المقاومة الجديدة للعباسيين ٠ وهكذا فان عبد الرحمن بن رستم، الحاكم الاباضى القديم للقيروان وواحد من حملة العلم فى البصرة قد ذهب الى المغرب من بلاد الجريد حيث التقى بالكثير من العلماء الاباضيين ، الفارين من اقليم طرابلس ، فى هذا الاقليم الغربى من الجزائر الحالية اعادوا تأسيس مدينة تيهرت ، والتى ظلت لمدة من الزمن البؤرة الرئيسية للاباضية فى افريقيا ، أعلن ابن رستم اماما فى عام مائة وستين أو فى عام مائة واثنين وستين هجربة ٠ الامامة الرستمية ضمت جنوب واحات وادى برج وورجلة ولقد شهدت فترات من الازدهار العظيم معترفا به من البصرة ، وان كانت فيما بعد قد سقطت على يد بنى الاغلب ٠ الباقى من دولة تيهرت استمر حتى 909/296 مائتين وست وتسعون هجرية ، تسعمائة وتسع ميلادية ، فى هذا العام سقط على يد ابو عبد الله الشيعى ، والذى أسس الدولة الفاطمية على انقاض الاغالبة ، الرستميين ، أهل سجلماسة ٠ وعند سقوط تيهرت فان آخر الائمة الرستميين ابو يعقوب قد هرب مع العائلة ومؤيديه الى « سدراته » فى واحة ورجلة الى الجنوب من دولة تيهرت ٠ ولقد تعرض الفاطميون أيضا لورجلة فى محاولة للقضاء على أية فكرة لاتخاذها مركزا للاباضية ٠ يمكن القول بان الملك الرستمى قد مات الى الابد ولكن ليس الامر كذلك فى المدرسة الاباضية ، والتى واصلت واستمرت حتى يومنا هذا ٠ لقد قام المؤرخون على مدى العصور بابراز قيمة واهمية هذا الاقليم الذى يقام فيه هذا المؤتمر اليوم ٠ وبفضل الرستميين قد احتفظ لنا بالاعداد الوحيدة الباقية من الخوارج ، والتى لم تبق فى أى جزء آخر من العالم ٠ ولربما يرجع هذا وبدون شك على الاطلاق الى صبغتهم المعتدلة ، وانهم حافظوا باستمرار على الاقتراب الشديد من أهل السنة سواء فى السياسة أو فى المذهب العقائدى ٠

وبهذه الطريقة يتبين لنا الاطار التاريخى لتصرف الاباضية ٠ وعلى هذا يمكننا القول بان السمات الرئيسية كانت التوازن والاعتدال بين من يحيط بها من المتطرفين ،

وذلك يشرح لنا انه عندما تحاول التدقيق فى مصادر ذلك المذهب فان الواقع انك سوف تجدها قريبة جدا عن عدد ليس بالقليل من المدارس الاسلامية .

بدا لنا منذ البداية ان لهم علاقات مع الرواة من أهل السنة ، ولكن بشىء محدث دائـــما .

قبل الدخول مباشرة فى الموضوع الرئيسى للمحاضرة ، أود التوقف عند نقطة ندين بتوضيحها هى بالذات الى واحد من أهل ورجلة ، انه شىء يبدو لى اساسيا فى بناء علاقات الاباضية مع أهل السنة ، وبخاصة مع المذهب المالكى . ذلك التوضيح يعطينا اياه أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم الورجلانى . ان ذلك يتعلق بالتحقق عن ما هى مصادر الفقه بالنسبة للاباضية؛ أو بمعنى آخر ما هى الاجتهادات الاساسية للاباضيين. بناء على ما يقوله واحد من أهم المؤرخين لهذا المذهب « السالمى » فى مناظرته يؤكـد بان ثلاثة ؛ هم جذور الفقه عند الاباضية : القرآن ، السنة ، والاجماع . فى الموسوعة الاسلامية يقال : بان الاباضية تعترف بان أصول الفقه فقط هى : القرآن ، السنة ، الرأى . وكذلك ينسب شكيب ارسلان للاباضية بانها ترفض الاجماع والقياس ، منيبة عن كلا الاثنين مبدا الرأى .

تحدث السالمى بصفة عامة قائلا بان أصول الفقه هى : القرآن ، السنة ، الاجماع. ويكمل ذلك القياس المدعم بادلة ليست من المذهب الاباضى ، ويضيف بعد ذلك شيئا يثير الفضول .

ان الخصوم فقط ، أى من ليسوا اباضيين ، هم الذين يرفضون الاجماع . لعلـه يفترض ان هؤلاء الخصوم هم الفرق من المعتزلة ، وبعض مذاهب الخوارج والشيعة . اما عن الاجماع فلقد قدم دفاعا مجيدا .

SACHAU المتخصص العظيم فى الاباضية يتعرف على : الكتاب والسنة ، والاجماع كمصادر لذلك الفقه ، ولكن فى وقت متاخر. MOTYLINSKI فى حديثه عن عقيـــدة أهل الشمال الافريقى يعود الى التاكيد بانه ليس من الممكن القول باكثر من ثـلاثة مصادر للتشريع : الوحى ، السنة ، والرأى .

الايضاح لكل هذه المعميات يمكن ان نجده فى كتاب الدليل لاهل العقل للورجلانى· يقول لنا ذلك المؤلف : ان البرهان يمكن ان يصدر من : الكتاب ، السنة ، الاجماع ، ومن العقل · هذا المعنى الاخير ليس من شك على الاطلاق فى انه يعادل القياس · ويضيف : وليس من الممكن ان ترى مصدرا خامسا الا التقليد · انه يميز الاجماع كالآتى : «**اجماع أهل العلم من الافراق مع الامة**» ·

ان الخطأ يتضح بسهولة حينما يسمى الاجماع بعد ذلك « برأى المسلمين » ومثل ذلك بعد عدة سطور من ذلك التمييز الذى نقلناه الآن يقول لنا : الوجوه الاربعة : الكتاب والسنة ورأى المسلمين ، والعقل · فى مثل هذه الحال فان الرأى ، والعقل مترادفان · ومن هنا يمكن ان نقول ، فى النقاط الجوهرية ان الاباضية تتفق مع السنة وذلك ما يشرح استمرار حياتها حتى ايامنا هذه ·

من الواجب أيضا البحث عن علاقات القرب بين الاباضية والصوفية·سمة الكتمان التى استمرت خلال الفترة التى لم تستطع فيها الاباضية الالتقاء مع الظروف التى تسمح لها بالعيش فى الظهور · تذكر قليلا ، الطرق الباطنية للصوفيين · ولكن بدون الذهاب بعيدا ، فان الورجلانى نفسه قد نسخ فقرات بنصها عن الغزالى · وبخاصة فى درجات التطهر فى ذلك المذهب ، وان كان لا يذهب بنا ذلك الى اعطاء صفة الصوفية الى الاباضية ·

القراءة التفصيلية للاباضية يمكن ان نستنتج منها نقاطا ليست بالقليلة تتصل بالاشعرية ، والمعتزلة · ان التعايش بين هذه الفرق الثلاث يمكن ان يشرح التوافقات غير القليلة ·

لن ننسى ـ على سبيل المثال ـ ان واصل بن عطاء ـ واضع اساس الاعتزال كان يطور نشاطه فى البصرة فى نفس فترة ابو عبيدة ·

وبالتأكيد ، وفى تلك النقطة التى سنشرحها فى تلك اللحظات يمكننا ان نلاحظ بان العقيدة الاباضية ستحتل مكانا وسطا بين الاشعريين والمعتزلة ، وذلك بالتأكيد لانها وضعت فى تفكيرها مسار المدرستين ·

انتقل الآن الى الجزء الثاني مما اعددته ، والذى سبق القول عنه بانه ليس أكثر من مجرد تحضير ، بكل تأكيد منه يمكن ان نتفهم افضل · انه شيء قد شغل تفكيرى دائما واهمنى فى دراستى اللاهوتية ، اقصد بذلك : العلاقات بين الحرية الانسانية والتدبير الالهى ، اذا كان الله يفعل كل شيء اذن فأين هى حريتنا ؟ واذا كان الانسان حرا بما في ذلك اعتراضه على الارادة الالهية فأين هى السلطة المطلقة للاله ؟ ، الحلول تمضى مغلفة بالاسرار وبدون ان يكون هناك جواب واحد صريح ، يمكن ان يـزيل كل تلك الشكوك ، فنحن لم نعرف الله بطريقة شاملة مستوعبة ، ولا لغز الانسان قد وصل الى فك طلسمه تماما لكى يوضح لنا متى نكون احرارا تماما ·

لقد خدمتنى هذه المقدمة مرات كثيرة حين جعلتنى أرى فى محيطى وعالمى غير الاسلامى بأن مشكلة الارادة الانسانية ليست قاصرة على الاسلام وانما هى من الاشياء الواقعة تحت جميع الاديان ، ولكل من يرغب فى عمل دراسة متعمقة لاسرار الانسان ·

لكن فى تقديرات الاسلام بالنسبة للكثيرين من الغربيين ان المسلمين انمـــا هم جبريون · ومن هذا الجبر ــ بناء على ما يقولون ــ ينبع الجمود وفقدان قوة الارادة عند المسلمين · ان ذلك ينتشر فى كثير من الدراســات النفسيةوعند تعداد الخصوم للحرية الانسانية يسجل المسلمون فى المجال الاول ، ويكون استغرابهم كبيرا عندما يتاح لهم ان يروا فى التاريخ الذى بين ايديهم ان الاغلبية الاسلامية دافعت عن الحرية الانسانية وان الشيء الوحيد الذى اجمعوا على معارضته هو ان الله بأى شكل من الاشكال يمكن ان يتعرض لتحكم الانسان ·

يصلح كل ذلك كمقدمة لكى نرى أهمية الموضوع · وان كنت اليوم أريد ان اقول لكم بأن دراسة الاباضية ، قد اكتشفت مذهبا اصيلا ، شيئا مختلفا عن كل ما تعودت الالتقاء به حتى الآن فى الفلسفة الاسلامية ·

علينا ان نترك المبادىء الاساسية للاسلام موضحة تماما : أولية الاله وبخاصـــة قدرته على الخلق ، التسليم بقدرته المطلقة ، الله القادر على كل شيء ، ليس من احـد يستطيع الاعتراض على قصده ، ولا على تدبيره ·

هذه المقدرة الآلهية المطلقة تشرحها الاباضية فى صيغة عامة الى حد كبير مع غير القليل من المدارس الاسلامية ، الله خالق كل افعال الانسان ، ظهر ذلك كله جليا فى مدونات أبو زكريا الورجلانى ، حين ينقل الينا محادثة حاول فيها الشيخ أبو نوح نقض افكار ابن حموا . لقد حاول فيها ان يستفزه وبالتاكيد استطاع ان يحصل على التصريح « كل ما هو جديد مخلوق » . فى مكان آخر يحكى ابو زكريا : بانه ذهب لزيارة ابى نوح عندما كان مريضا ، فقال له ابو نوح : ان الشيطان يلقى الى بالشك نحو معلمى ، ويجعلنى اهاب الموت ، عند ذلك اجابه أبو زكريا « اتعرف ... يا شيخ ... بان كل ما ياتى الى روحك يشكل جانبا من تصوراتك ، أو يزعزع من ثبات قلبك وذلك الذى تصل اليه بذكائك ، كل ذلك يشكل جانبا من خلق الله » .

لكن هذا المبدأ الذى يبدو واضحا جدا لعقلية مسلمة مؤمنة ، انما يزرع سلسلة من المشاكل عندما يراد عمل جمع بينه وبين الحرية الانسانية . توجد ثلاثة حلول تقليدية توضع عادة فى جميع المحاولات اللاهوتية الاسلامية تقريبا . اثنان متطرفان والثالثة فى الوسط . الذين يؤمنون بالقدر يميلون الى الدفاع عن الحرية بوجه عام انها العقيدة التى يدافع عنها من يسمون بالفلاسفة الاسلاميين . النص المعارض هو الذى يمثله أهل الجبر ، ان الله سبحانه وتعالى قد قدر على الانسان كل افعاله ، وكل ما يفعله الانسان انما هو من خلق الله فيه ، فى نظرية كهذه من الصعب جدا ان ترى الحرية الانسانية .

الموقف الوسط كان يمثله الاشعرية ، ما بين نشاط ايجابى للانسان يكون مستقلا عن ما لله ونشاط ايجابى لله يتحكم فى كل التحركات الانسانية ، من الممكن السماح بنشاط سلبى للانسان ، ذلك هو استقبال افعال الله . بين القدر والجبر يكمن الكسب أو الاكتساب . هذه القدرة على تقبل افعال الله انما هى حرة فى الانسان، ولكن فى مواجهة سؤال اخير ، هل هذا الاكتساب واحد من افعال الانسان ، أم هو واحد من افعال الله فى الانسان ؟

يجيب الاشعرية : بناء على المبادىء العامة ، كل الافعال انما هى من عند الله ، ويترك دائما الشك فيما اذا ما كانت الحرية الانسانية عند الاشاعرة انما هى حرية اسمية بحتة ٠

اعتقد ان افضل من عالج موضوع الكسب هذا فى الاباضية ، انما هو اباضى من عمان اقصد أبو محمد عبد الله بن حميـــــد السالمى ، فى كتاب له منشور بالقاهرة تحت عنوان « بهجة الانوار » شرح انوار العقول فى توحيد ٠٠٠٠٠ وان كان من غير تاريخ الا انه لاحق على العام 1317 هجرية ٠ مذهب الاكتساب يوجد فى الجزء الاول ، ما بين الصفحات : 139 ـ 146 ٠

قبل كل شىء على ان اذكر بان صيغة الاباضية انما هى بصورة أوضح ضمن خط الاكتساب الاشعرى ٠ دون أن يكون هنا نص على الاطلاق يمكن ان يثبت القول بان الاباضية قد اخذت مذهبها من الاشعرية ٠ ثبت ان الاباضيين لم يكونوا قدريين ولا جبريين ، ومن المؤكد انهم كانوا يعرفون عقيدة الاشاعرة ، وفى التطبيق فى الواقـع يفسرون باصطلاحات اشعرية ٠ وعلى هذا المثال واحد من معاصرى الاشعرية ، يسمى الكعبى ، وتوفى فى عام 931 تسعمائة وواحد وثلاثين، يقول لنا معتمدا على الشهرستانى (ج 1 ص 181) بان الاباضيين يظنون : « ان افعال الانسان قد خلقها الله الاعلى فى قدرته على الابداع والتاليف ، ومكتسبة بواسطة الانسان ، بذلك المعنى الخاص ، وليس المجـــازى » ٠

ان الاصطلاحات اشعرية ، ولكن ليس من الحتمى القول بانها نقلت عن الاشعرية ، وذلك لان الكسب والاكتساب يمكن الالتقاء معها كثيرا ضمن القرآن الـــكريم والذى استخدم فقط للدلالة على الافعال الانسانية ، اما الفعل من جهة أخرى فانه يستخدم للتعبير عن الافعال الآلهية مثلما استخدم للافعال البشرية ٠

ومن المعتاد الاحتفاظ بكلمة الخلق لله وحده ٠ وان كان فى بعض الاحيان يمكن ان تنطبق أيضا على الانسان ٠

ولعله مما يثير الفضول حقا ان المعتزلة فد تعودوا على البرهنة بآيات الاكتساب لكى يدافعوا عن الحريـة المطلقـة للمخلوق ٠

أهل الجبر الذين ينكرون الحرية الانسانية يحولون الكسب والفعل عند الانسان الى مجرد انفعال أو تأثر غير لائق بالوصف ، انه فقط مجرد مظهر ٠ بالنسبة للمعتدلين فان الاصطلاح يعنى الناحية البشرية من وقائع موضوعة فى الوجود بواسطة الآله ٠ عند أهل الاثبات المعاصرين للاشعرية ، فانهم يجادلون حول العلاقة التى كانت بين المكتسب والفاعل (ج 2 ص 540) ، محمد بن عيسى ناقش فى مسألة العلاقة بين القدرة الآلهية وبين الكسب ، عديدا من الكتاب قد سبق استعمالهم الاكتساب فى صيغهم ، مما نستطيع معه ان نعتبر انه كان قبل الاشعرية بكل وضوح ٠ من المؤكد ان الخوارج كانوا خصوما للقدرية ومن ذلك ما يضعه الشهرستانى على لسان مؤسس المذهب من كلمات : الله قد خلق الافعال للعبيد يختارونها بقوة وارادة ٠ وهو مسؤول عنها فى الخير والشر ، ويحاسب عليها بالجزاء أو العقاب » ٠

بناء على ذلك فان الاباضيين يمكن لهم التوصل بطرقهم الخاصة وبدون مؤثرات خارجية الى ان الافعال الانسانية مثبتة فى القرآن على انها مخلوقة بواسطة الاله، ومكتسبة عن طريق الانسان فى آن واحد ٠ وفى الواقع فان الصيغة الاباضية تحتوى على الكثير من مضمون الحرية اكثر من الاشعرية حتى وان كانت افعال الانسان قد خلقها الله لكن الانسان يوجد له الاكتساب والذى يجعلنا مسؤولين بالجزاء والعقاب فى الحياة الآخرة ٠ ان الجبر جرد من القيمة أوامر ونواهى الله سبحانه وتعالى ، انما ينطبق ذلك فقط على ارسال النبى وعلى التكليف، وعلى هذا فلم يكن على الاباضيين السير بحذر واحتياط الاشعرية والذى يشرح الحرية على انها علاقة الفوة مع تأثيرها داخل القوة، ومن غير أية مؤثرات لها ٠

ان الاكثر حداثة عند الاباضية فى رأيى هو الادخال على مبدأ الكسب عنصرا جديدا من الاختيار ، انها صيغة ملقحة بزيادة ما « الله يخلق افعال الانسان ، عند ما يختارها ويتحول تجاهها للحصول عليها » (ص 141) ٠ هذا الاختيار ليس موجها نحو معنى واحد وضعه الله ، ولكنه انما هو القدرة على العمل أو عدم العمل فى ذات الوقت ، وهكذا يظهر الاكتساب فى تفسير السالمى وكانه موازن للاختيار ٠ هذا يشرح لحظة المداولة ، ذلك انه فى الواقع ان السالمى ليس مضطرا للسير مراوغا لكى يرى اذا كان الفعل الانسانى يصدر عن معنى خاص ، أو عن معنى مجازى ٠ ان الصيغة لا يمكن ان

تكون أكثر وضوحا « القدر حسنا كان أم سيئا انما هو من عند الله » • الذى خلق الخير والشر ، هو الذى يأمر به وهو الذى ينفذه ، والذى يجعله يحدث فى وقته المختار• ولكن فى نفس الوقت الفعل يأتى من الانسان ، والانسان هو الذى يفعل ، له ارادة وله اختيار ، وهو الذى يقدمه ، وفيه يتحرك ويتوقف ليس مضطرا ولا مجبرا ، ان القضاء والقدر لا يجب اخذهما على انهما قدر مسبق وكذلك فى وقوعه ، وانما هما لحظتان من الخلق (136 ـ 137) ان لله سبحانه معرفة الغيب ، وكذلك الارادة السابقة، الاولى ليست الا بندا من العلم الآلهى ، والثانية انما هى قدرة لما سوف يكون الاختيار الحر للمخلوقات • ان الله لا يمكن ان يكون جاهلا بما سيحدث ولا يمكن ان يكون مضطرا لتحمل ذلك من أجل من لم يعطه رضاه وقبوله • (انظر المصعبى ص 155) •

من أجل ذلك يضيف النص القرآنى : « **فلو شاء لهداكم أجمعين** » ان التفسير الذى يعطيه النص كالآتى : اذا كان الله قد رغب فى هدى الناس الى الصراط المستقيم، كان فى امكانه عمل ذلك وليس من الممكن القول بعجزه ، ولكن حكمته اقتضت اعطاء التخيير بين الصراط المستقيم وبين الضلال ، ولهذا اعطى الناس القدرة على اختيار أى الطريقين يرغبون.لا يوجد ـ بكل تأكيد ـ أى اجبار ولا اكراه •

بطريقة مشابهة يفسر لنا آيات أخرى متشابهة ، ويختم السالمى: نعتقد بانه سبحانه هو خالق افعالنا ، ويعرفها ويريدها ، ومع كل ذلك فلقد منحنا الاختيار بين ما نرتكب وما نترك • أى انه لم يجبرنا على واحدة من الاثنين ، الذى يرغب ما يعتقد ، والذى يرغب أيضا وان كان بغير اعتقاد (ص 146) • بهذا ـ كما تستطيع ان ترى ـ ليس من حاجة الى تلك التقييدات الاشعرية التى تحمله على الاعتراف بان الانسان حر ظاهريا ومقيد فى الواقع • ان الذى لم يرغب فى قوله ان هذا المذهب يحرم التسليم بان القضاء والقدر انما هم من الاسرار الخفية ، ليس من المفيد محاولات جس النبض ، لان الله قد احتفظ بعلمه لنفسه •

اعتقد ان هذه هى النظرية الشائعة فى الاباضية ، نظرة المشرقيين يجب ان تكون متشابهة جدا ، لان عبد القاهر بن طاهر الجرجانى (الفرق ص 184 انظر الشهرستانى ص 101) • يثبت على الاباضيين المشرقيين « الحراتية » بانهم يمارسون حرية المشيئة •

قالوا فى باب القدر باثبات قول المعتزلة • من الواجب القيام بدراسة مستوعبة للنصوص المشرقية ، ولكن ما يستحق فعلا التصحيح هو ان تلك العقيدة كانت عامة عند جميع الاباضيين الغربيين كما أكد Sachau •

هكذا المصعبى بعد ان اثبت بصراحة « جوهرة اللقانى » وبعد ان كان قد حدد الكسب كوسيلة اتصال قوتنا العرضية مع الفعل بدون تعثير (ص 153) • ومع نشاط تبادلى بين القوة والفعل ، انتقل لشرح مذهب أهل « جبال نفوسة » والذى يحرم تماما حرية الاختيار عند الانسان • من بياناته يمكن ان نرى بوضوح بان موقفا ما من هذه المسألة بين أهل جبل نفوسة ، واباضية المغرب الاقصى ان النص هنا ايجابى جدا حين ينقل لنا : ان هؤلاء مفطورون مجبولون ، مطبوعون على عمل ما ارادهم الله لعمله قبل خلقهم • على ما قال ابن عباس « رضى الله عنه وعن ابيه » « ان المخلوقات تنجذب لعمل ما اقتضاه الله عليها ويمضون فى الاتجاه المحدد فى الكتاب المعلوم • لا يرغبون فى شيء آخر أكثر مما اراده الله لهم وليس لهم اختيار فى الافعال التى عنهم تتأتى ، ومن ضمنها يتضمن الكسب السابق ، ومع ذلك فليسوا مكرهين عليها • ان معنى التعبير « انهم مجبولون عليها » هو بانهم خلقوا ليعملوا ما قدره الله لعملهم قبل خلقهم وليس الى الحد الذى يصوره أهل الجبر ، بانهم مجبورون عليها ، وليس لهم أي تدخل حتى فى صيغة الاكتساب • الدليل على انهم مجبولون هو قول الرسول عليه الصلاة والسلام هذه القلوب جبلت على حب الخير ، وكراهية الشر أو كما قال : (ذلك الى جانب قول الحق سبحانه : ومن أراد الله) •

بعض زملائنا من اصحاب الاعتقاد الاباضي يقولون بان العبد له الاختيار فى افعاله، ولكن الرأى الافضل هو الاول ، وهو رأى شيخ الجبل بينما الثانى « الخاص بالاختيار » فهو رأى شيخ العرب •

والمسلمون لا يسمحون بان الله يكره العبد على أفعاله لانه كتب فى اللوح ما افترضه من ناحيته قبل بداية الخلق •

يضيف زملاؤنا بان أفعال العبيد لا توجد الا عندما تتوافر خمسة أشياء :

مشيئة الله ، ارادة واكتساب العبد ، المساعدة التى يمنحها الله لهذا العبد عندما يكون العمل عمل طاعة والتخلى عنه فى حالة عمل معصية والخلق من جانب الله للعمل نفسه من أجل العبد فى نفس لحظة العمل لا قبل ، ولا بعد • وان العبيد انما هم مقرونين ومصاغين على ذلك الذى قد عرفه الرب الحميد قبل خلقهم وقبل ان يأتى بهم الى الوجود ، وليسوا مجبورين ولا مختارين (160 ـ 161) • وتتلخص كل هذه العقيدة تفسير هذه العبارات الثلاث : العبد ليس مجبرا على أى فعل ، على ما يقول أهل الجبر وليس « مختارا » كما يقول بعض من ائمتنا ولكنه يكون مصورا ومطبوعا من أجل أعماله (ص 162 ـ 163) •

هذا كل ما يقوله لنا المصعبى بالنسبة لاباضية « جبل نفوسة » وان كان رايه الشخصى مختلفا عنها ، لانه لم يكن موافقا لا على « الجبل » ولا على « الجبر » مدافعا عن الكسب والاختيار (ص 169) •

الورجلانى لم يتكلم عن المسالة فى « قناطير الخيرات » كتاب لمؤلف من القرن الثامن : أبو طاهر اسماعيل بن موسى الجيطالى • وان كان يفسر رأيه الشخصى ، الا انه تقريبا لم يقم بأكثر من نسخ فقرة « الاحياء » التى تصور الكسب الحلال لا اختيار صرف ولا جبر بحت ، (ج 1 ص 233) نفس المصدر ج 1 الكتاب الثانى الفصل الثالث ، الركن الثالث •

اختتم ، قائلا : بانه فى ذلك الاقليم قد اقترن بنظرية حول الحرية الانسانية من كل جوانبها أصيلة ومختلفة عن الاشعرية • هناك نشاط متبادل فى أفعال الانسان • من هنا القول بان الافعال البشرية هى النتاج الحتمى لسبب مزدوج من الله ، ومن الانسان • لم يعد هناك أكثر من خطوة واحدة ، فى الكسب أو فى قبول الانسان للنشاط الالهى ، علاوة على تلك التى يكون الانسان غير قادر على عمل شىء هناك قدرة على الانتخاب او الاختيار تترك تماما المجال للحرية الانسانية انما مدرسة اخرى من المدارس الاسلامية حيث لا يعطى مجالا كثيرا للجبر كآخرين نتيجة خطأ يبنون اعتقادهم فى جوهر الاسلام •

أريد أن أنتهى من هذه المحاضرة ـ مسلطا الضوء على واحدة من معتقدات القبائــل البربرية الاباضية ، والتى نقلها المؤرخون والجغرافيون من أهل الشمال الافريقى منذ القرن الحادى عشر الى القرن السادس عشر • فى نهاية الحياة كل الاباضيين ســوف يجتمعون فى مكان ما لكى يتفرقوا من هناك الى « الجوجراف » تقريبا هو مكان ســرى لانقاذ من عاش حتى ذلك الوقت محافظا على ايمانه • يقصد بذلك مكان ما فى الصحراء مزود تزويدا طيبا بكــل الاحتياجات وبالماء • هذا الموطن فى نظر الكثيرين سيكــون « ورجلة » ، ويوصف هذا الموضوع بالطريقة الآتية :

سكان المحلات فى « دارجين » منطقة « قنطرار » فى بـــلاد الجريد سينتقلون الى « سوف » • ومن فى « سوف » الى « اريجا » واهل « اريجا » الى « ورجلة » حيث يفترقالجميع معا الى « ججراف ».هذه المدونات الاخيرة هى آخر ما قرأته قبل اقلاعى الى هذا الاقليم الذى اطلق عليه الورجلانى اسم « موطن الرحيل » لا أعرف لماذا يخيل الى بان « ورجلة » بالنسبة لنا ، كل من يعتقد باننا قد تجمعنا هنا « ججراف » حقيقى ، نقطة لقاء ،منها سنخرج معا الى الله الذى ليس ببعيد ، طريق الى يوم الحساب •

بالنسبة لنا ـ الذين يومنون ـ ليس يوما للاحزان ـ لكنه البداية لسعادتنا الحقيقية فى مواجهة اله سوف يجازينا على الخير الذى صنعناه بارادتنا •

أشكركم والسلام عليكم ورحمة الله •

المـــــرأة فى صـــدر الاســـــلام (*)

د . سيغـريد هونـكه
كاتبة فى تاريخ الاديان المقارن والحضارات
ـ بون ـ جمهورية المانيا الاتحادية



الطرق التى تؤدى الى اتحاد الجنسين والى حيـاة كاملة ينعم فيها الاثنان عديدة . وليس لاى سبيل من هذه السبل قيمة عالمية ، ولا الواحدة منها بالتى ترجح أو تفوق الاخرى . وكل واحدة منها ـ اذا كانت تؤدى الى تحقيق الـ «أنت» والـ «نحن» ـ تتعلق بارادة الله ، وصالحة لمن يبلغ بها كمال ذاته . فالعلاقات بين الرجل والمرأة جوهرها الكيان الخاص بكل طراز بشرى ، وهى وثيقة الارتباط بما لهذا الطراز البشرى أو ذاك مـن تجربة أو خبرة عن العالم ، والطبيعة ، والمصير ، والاله .

ان فهم مختلف الانواع البشرية ، وشتى المجموعات العرقية ، وعلاقاتها الاساسية بالله هو وحده الكفيل بتفسير طبيعة العلاقات بين الجنسين (الذكر والانثى) فى كل منها ، ووضعية المرأة فى مجتمعاتها . فليس القانون الاساسى الذى ترتكز عليه هذه العلاقات واحدا لدى البشر كلهم : اذ لا يساعد هذا القانون على بلوغ النظام وتحقيق الهناء والسعادة الا أولئك الذين شرعوه وسنوه ، ولو فرض هذا القانون على الجميع

(*) نص محاضرة القتها الدكتورة فى الملتقى الحادى عشر للفكر الاسلامى فى ورجـلان (ورقلـــة)

لكان فى ذلك انتهاك لحرية الذين قد لا يرتضونه ، لان كل ضرب من ضروب الحكم المطلق انما هو ضرب من جنون الاستعلاء الذى يقود الى المجمر او الى غرفة الغاز ٠

ولقد بسطت هذه الافكار الاساسية عن الرجل والمرأة فى كتابى الذى عنوانه : « فى البدء كان الرجل والمرأة » وهو الكتاب الذى اهديته الى مواطنى الالمان ، عساهم يستطيعون ـ بعد ان تاسوا لمدة الف عام بالنموذج الاسرائيلى المسيحى عن المرأة ـ حواء الخاطئة ـ أن يكتشفوا فى نهاية الامر طبيعتهم الحقيقية ، وان يكفوا عن الانقياد الاعمى الى النماذج الاجنبية الواردة من الشرق أو من الغرب ، من الشمال أو من الجنوب ٠ وكذلك فليس فى نيتى أن أقدم لكم ـ أصدقائى العرب ـ مبدأ أوروبيا عن وضعية المرأة العربية الاسلامية فى مجتمعها ، ذلك لانه لا يمكن فى الواقع لرجال أى شعب أو نسائه أن يكونوا سعداء الا اذا عاشوا على مقتضى القانون الخاص بطبيعتهم.

حقا ان هناك نقطة مشتركة بين نساء العالم الاسلامى وبيننا نحن الاوروبيات اللاتى عانينا لمدة ألف عام النموذج الاجنبى المفروض من العهد القديم الاسرائلى ، وهو النموذج الذى تحررنا منه اليوم من اجل ان نتأسى بمثلنا القديمة ٠ وفعلا فان النساء فى الاسلام قد رضخن كذلك مدة تسعمئة سنة الى نموذج أجنبى لا يتفق أبدا مع أقوال الرسول محمد فى القرآن ، ولا مع تصوراته عن وضعية المرأة العربية فى عهده ٠ واسمحوا لى ان أذكركم هنا ببعض أقوال الرسول فى الرجل والمرأة من جهة ، وفى وضعية المرأة فى عهد ما قبل الاسلام وفى فجر الاسلام من جهة أخرى ٠

ان كل ما ورد من أقوال الرسول فى القرآن والحديث ليلح على مبدأ المساواة بين الرجل والمرأة ، سواء أكان ذلك فى المجال الروحى والدينى أم فى المجال الانسانى والاجتماعى المحض ٠ وقد ألحت السورة الرابعة من سور القرآن على تساو فى الطبيعة بين الرجل والمرأة اللذين خلقا كلاهما « من نفس واحدة » ، ونجد الترابط الاخوى أمرا مطلوبا بين « المؤمنين والمؤمنات » فى السورة التاسعة ٠ وأوصى الرسول فى خطبة الوداع بحسن معاملة النساء ، وتتحدث السورة الثلاثون عن « المودة والرحمة » وعن الامن الذى يجده الرجال لدى النساء ٠ وفى السورة الثالثة تقرير للمساواة بين

الرجل والمرأة فى أجر العمل • وهناك عدة سور تلح على المساواة بين الرجل والمرأة فى مسؤولياتهما المتبادلة • بل وثمة شهادات أخرى تثبت المساواة بين الجنسين مما نادى به الرسول ، وجرى عليه العمل فى صدر الاسلام •

من ذلك ان شخصية النساء قد لعبت فى عهد الرسول دورا هاما وقائما بذاته • بدءا بالتى كانت زوجته الوحيدة لمدة أربع وعشرين سنة ، وأعنى بها خديجة أرملة التاجر الغنية التى مارست تجارة مستقلة وكانت أول من آمن برسالة محمد ، وشجعته على القيام بها والاضطلاع بأعبائها ، كما كانت له عونا على مغالبة ما كان يراود نفسه من شكوك •

لكن حصل تغير فى وضعية المرأة تحت تأثير اجنبى عقب الحدثين الآتيين : ففى القرنين التاسع والعاشر ، ساعد التزوج بالنساء الفارسيات فى قصر الخليفة ببغداد على التسرب المتزايد لنفوذ الفرس عن طريق الحجاب المفروض على المرأة • ووجود الحريم والخصيان على غرار بيزنطة المسيحية • وما كان فى البداية مقصورا على المكانة السامية لزوجات الخليفة وسيدات القصر سرعان ما اصبح « موضة » فى الاندية الانيقة ، واخيرا فى المدن والحواضر الاسلامية بينما ظلت النسوة فى البادية يعشن عيشة حرة ومحترمة • ولقد كان الخليفة القادر بالله المعروف بتزمته الشديد والذى يرجع حكمه الى حوالى سنة ألف هو المشرع لقوانين غاية فى الصرامة بشأن ارتداء المرأة ما يستر وجهها ، وبشأن حجبها فى الحريم • وبعد سنوات من ذلك ، منع خليفة مصر الحاكم منعا باتا كل النساء مهما كانت مكانتهن من مغادرة الحريم أو بيوتهن الا اذا كن مصحوبات أو محتجبات حتى العينين •

تلك كانت نتيجة الارثوذوكسية المزيفة الورع التى سادت فى ذلك العهد ، والتى كانت تحدوها روح معادية للمرأة لا علاقة لها بالعرب اطلاقا ، روح سبق أن سرت الى المسيحية قبل ذلك العهد بألف سنة عن طريق التوراة • انما انتشر هذا التمييز للمرأة تحت سيطرة الاتراك والمغول • ذلك التمييز الذى كان ولا يزال يفسر ــ خطأ ــ كما لو كان من تقاليد العرب القديمة المحترمة • وذلك كان ــ حسب ما أراده الرسول ــ النموذج العربى الخالص للمرأة ومكانتها فى الاسلام الى أن ذاعت الافكار الاجنبية

الواردة من الفرس وبيزنطة المسيحية ، والتى كان من نتائجها التفسير الضيق للقرآن واسمحوا لى أن أورد عليكم بهذا الصدد أمثلة مختلفة مأخوذة من التاريخ العربى ٠

لقد كنا ما نزال نستمع فى البلاط الاموى الى أقاصيص قديمة مثل القصة التالية : قصد الحارث بن عوف شيخ قبيلة بنى مرة القوى الشكيمة بلد أوس بن حارثة الشريف والعزيز فى قومه ليخطب احدى بناته الثلاث وقد رفضت البنتان الكبريـان ـ وهما دميمتان ـ التزوج من هذا الرجل ، لكن باحثة صغراهن أجابت قائلة : « أنا ذات حسن وجمال ، وقد واعتدال ، وذات حسب ونسب ، ولى يد صناع ، فويل له اذا تجرأ على رفضى ! » فقال لها أبوها ، بارك الله فيك يا بنيتى !

وأمر باقامة العرس ، وبنصب خيمة كبيرة ، ولمـا تـم له ذلك ، أمر بحمل العروس الى زوجها ٠ ولما هم الحارث بالاقتراب من باحثة أشارت اليه بأن لا يتحرك ٠ ماذا ! أأحتفل بعرسى هنا عند ابى ؟ ٠٠ أبدا لن يحدث ذلك ٠ عندئذ أمر الحارث برفع الخيام وحملها على الجمال وكان الرحيل ٠ ولما كان المساء أمر الحارث بحط الرحال ونصب الخيام ، لكنه لما هم بالاقتراب من زوجته الشابة أشارت اليه بأن لا يفعل. ماذا ! أتريد أن تعاملنى كجارية تشترى ، أو كأسيرة حرب تؤخذ غصبا ؟ والله لن تضمنى بين ذراعيك قبل أن يحتفل بعرسنا وسط القبيلة ، وقبل اقامة وليمة يدعى اليها أعضاء القبائل العربية كلها ٠

استأنفوا الرحيل حتى وصلوا الى قبيلة الحارث ٠ فدعا هذا الاخير عددا كبيرا من الضيوف ، وأمر بابل وأغنام فنحرت أو ذبحت لاقامة الوليمة ، وأقيمت الاعراس وفق رغبة باحثة ٠٠ وهم الحارث بالاقتراب من عروسه ، فأشارت اليه مرة اخرى بـأن لا يفعل ٠ ماذا ! أتجد من الوقت ما يكفيك لمداعبة امرأة،وخارج البيت قبيلتان تتناحران ، وذبيان وعبس (قبيلة أمى) فى حرب طاحنة ؟ اذهب وعجل بالصلح بين القبيلتين المتنازعتين ، ثم عد الى زوجتك لتجدها فى انتظارك بقلب ملؤه الحب ! أسرع الحارث الى القبيلتين المتحاربتين منذ أربعين عاما ٠ وتوصل بعد جهد جهيد الى احلال السـلام بينهما ٠ وبعد احصاء القتلى من الجانبين تعهد بتعويض القبيلة التى منيت بأكبر الخسائر وذلك بأن يهب لها ثلاثة آلاف ناقة فى ظرف ثلاثة أعوام ٠ ولما استتب السلام بفضل

كرم الحارث وسخائه ، عاد الى بيته وعليه هالة من المجد والفخار ، واستقبلته زوجته بصدر رحب ، وأنجبت له عددا كبيرا من البنين والبنات ·

ويصمت القاص ، وتصدر من المستمعين آهات عميقة ، وعبارات « ما شاء الله » لتدل على ان القصة أصابت منهم الوتر الحساس · فالفتاة باحثة امـرأة عـلى وفـاق ما يتمنون · وفعلا فان المرأة فى القرون الاولى للهجرة لعبت دورا كبيرا فى ميـادين القتال ، وفى الحياة العمومية · وكانت خديجة وهى أرملة تاجر غنى ، والزوجة الاولى للرسول التى أنجبت له ستة أطفال امرأة تتمتع باستقلالها الذاتى كذلك ، وتخوض غمار الحياة العمومية · وكان لزوجة الرسول الثانية عائشة اثر كبير فى الحفاظ عـلى السنة والحديث ·

وما تزال المرأة الكريمة المحتد ، الواعية بقيمتها ومكانتها الذكية والجهادية تجسد نموذج الارستقراطية العربية · فعليها ــ كما يريد لها الرسول ــ ان تطلب العلم مثلها فى ذلك مثل الرجل · وقد رغب كثير من كبار رجال القضاء والتشريع فى أن تمارس النساء مهام القضاء · وهكذا شهدنا نساء ضليعات فى الفقه والقضاء يعقدن ندوات عامة فى المساجد ، ويشرحن القوانين ، ومن هؤلاء النسوة « أستاذة النساء القانونيات أو الفقيهات » أستاذة القانون العـام الشهيرة · ذلك لان العالمة « حوحدة » الملقبـة بمفخرة النساء ، قد أطبقت شهرتها العالم · فبعد أن درست على مختلف العلمـاء الفطاحل ، حصلت على اجازة بالتدريس وبرفع راية المعرفة عالية ، ولا جدال فى أن النساء الشواعر ما يزلن تماما كالعهد السابق ، ينافسن الشعراء من الرجال ·

ويحفظ لنا التاريخ أسماء لنسوة عارفات بأصول الدين وبعلم الكلام والتصوف مثل رابعة البصرة والصوفيات ، فمثل هؤلاء النسوة العربيـات لم يضطهـدن ولم يستعبدن ابدا ، ولن يتعرضن للاضطهاد والاستعباد ما دامت الارستقراطية العربيـة قائمـة ·

فلقد كانت زوجات الامويين فى دمشق بل وحتى زوجات أوائل العباسيين فى بغداد ، و الخيزران أم هارون الرشيد الشهيرة ، وزوجته الذائعة الصيت زبيدة نساء نشيطات مستقلات فى الرأى ، وذوات تأثير ونفوذ · وكن ــ وهن محل تقدير

واعجاب ـ يتمتعن بالاحترام والتبجيل ممـا لم يشهد لـه الشرق نظيرا من الوجهـة الرسمية ٠٠٠ لكن اسبانيا العربية ستذهب الى أبعد من ذلك بكثير ٠

فنساء الاندلس العربيات بالخصوص ، سواء أكن سيدات الطبقة الراقية ، أم مجرد فتيات بل وحتى الجوارى يذهلننا من حيث ما يتمتعن به من استقلال فى الـرأى وثقة فى النفس ، وعلو الهمة ازاء الرجال ٠ فهن يقمن بنشاط كبير فى الحياة الفكرية ، يؤلفن كتبا علمية ، ويتغنين بحبهن فى الاشعار ، وكل ذلك بما لا يقل ثقة وفطـــرة عن الرجال أنفسهم ٠

واذا كانت النساء فى عهد ما قبل الاسلام ، ونحن نعرف أسماء ستـــين منهن ، ونتوفر على ديوان كامل لاحداهن يضاهين الرجال ، وينافسنهم قصب السبـق ، فـان للاندلس كذلك نصيبها من الشواعر الشهيرات وشاهدنا على ذلك هنـد الحسناء البارعة فى نظم الشعر ، وفى العزف على العود ، أو حفصة العبقرية التى ذاع صيتها عبر الاندلس بشعرها وبفصة غرامها المؤثرة للشاعر أبى جعفر ، أو الامـيرة المتحمسة عمر القران أو تلك المغنية المتواضعة التى باحت فى احدى قصائدها دونما أى خجل فى حضرة عاشقها ـ وما هو الا المنصور ملك الاندلس ـ بهواها للوزير فلم تنج من غضب الملك المنافس الغيور والذى شعر باهانة الا بفضل سرعة بديهـــة وارتجـــال ٠

ومن بين العديد من النجوم السواطع الصغيرة منها والكبيرة الاميرة ولادة التى قال فيها أحد العرب : « لقد كانت ولادة سيدة عصرها الاولى ، فهيئتها التى تنم عن ثقة بالنفس ، ورفضها الحجاب يشهدان بحدة طبعها ٠ وكان ذلك أفضل وسيلة لاظهار محاسنها اللطيفة بما فيه جمال المحيا وحسن الطبع ٠ وكانت دارها فى قرطبة منتدى لكبار رجالات العاصمة ، وبهوها حلبة يتناظر فيها فطاحل الشعر والنثر ٠ وكانت النساء العالمات يلتفتن الى هذا البدر اللامع كنبراس فى ظلمة الليل ٠ وكان كبـــار الشعراء والكتاب ينشدون التقرب منها ، وهى أمنية ليست عسيرة المنال ٠ وهى تجمع الى ذلك طيشا،وتهورا عنيفين ، وروحا متوثبة جامحة ، وسخاء موروثا عن الآبـــاء

والاجداد • وكانت اخلاقها نقية فاضلة رغم انطلاقها ـ سامحها الله ـ فى مغامرة جريئة للغـــاية » •

وعلى ضوء الكثير من النجوم اللوامع ازدهر شعر الغزل العربى فى الاندلس ، وما لبث أن اجتاز حدود الاندلس ليثير فى الغرب تأججا حقيقيا للافكار •

ان هذا التقدير الكبير للمراة العربية هو وحده الكفيل بتفسير الشكل العربى الذى تتميز به قصائد واغانى الحب للشعراء الجوالين (تروبادور) الذين تـركوا فى الغرب عميق الاثر ، وغيروا العلاقات القائمة بين الرجل والمرأة فى أوروبا •

وكما سبق ان ذكرت فى مستهل عرضى ، فان علاقات كل كائن بشرى بالاله ذات ارتباط وثيق بتصوراته الخاصة عن العلاقات بين الرجل والمرأة•فكما ان المسلـم الذى يلهيه الاسلام الى التقى وعبادة الله يخضع لهذا الاله ، ويسلم نفسه لارادته فى طاعة وانقياد ، كذلك يسجد العاشق أمام محبوبته المقدسة ذات « السيادة » عليه ، وينصاع لرغباتها وطباعها ، وينقاد لاوامرها ابتغاء الفوز بمحبتها ، ورجاء الحظوة لديها • فهذا الشكل الغنائى للحب العربى قد ازدهر بصورة رائعة منذ العهود الاولى للاسلام ، ولكنه ازدهر أيضا أثناء خلافتى دمشق وبغداد • وقد وضعت احدى الطرائف النفيسة والرقيقة جدا لهذا الشعر الغنائى فى الازمنة القديمة « الحب العـذرى » الذى يستمد اسمه من قبيلة بنى عذرة حيث يقضى المرء نحبه حين يحب ـ على صعيد واحد مع الحب الافلاطونى لدى الاغريق • ان هذا الشكل من الحب الروحانى العربى الخالص ليعبر عن نفسه فى الحب الخاشع والخاضع الذى يحمله فى نفسه مشاعر البادية جميل لبثينة الجميلة • فحب جميل من القوة بحيث يهدم الزمان والمكان • ومع ذلك فاى كتمان واى خشوع فى عبادة الكائن المتعذر الوصول اليه مع اليقين كذلك بانه ما من حاجز أرضى حتى ولو كان الموت ذاته بقادر على تقويض هذا الاتحاد •

وعكس ذلك نجد الجو الذى يغمر الحب الذى يحمله ذلك الرجل صاحب الحـول والكبرياء شيخ قبيلة بنى مرة الحارث بن عوف لباحثة المزهوة بنفسها • فهذا الرجل نجده يخضع رغم صلابته لارادة المرأة التى يحب ، ولا تنفك هذه الاخيرة ، بدافع من

العجب والخيلاء ، تعرضه لامتحانات جديدة بقصد التأكد من استسلامه الكامل قبل أن تكاشفه أخيرا بحبها ٠

ومن البادية ينتقل هذا الحب الى عاصمة الخلافة :

« انى لك خادم وعبد وفى رضاك عنى كفاية ، لا مزيد عليه » ، بمثل هذه العبارات باح عباس بن الاحنف شاعر بلاط هارون الرشيد عام 800 بحبه لمعشوقته التى لا تحتل مثله الا منصبا ثانويا ٠

« واذا جاز لمخلوق أن يعبد لجماله ، فان ملكتى يجب أن تكون فى مستوى اله» ٠ ولتكن هذه المعشوقة جارية حقيرة ، فانه سيعبدها رغم ذلك ويخلص لها العبادة مهما كانت الحال سواء أوجد لديها القبول والرضى ، أم الاعراض والصدود ٠

وكما يخلص المؤمن العبادة لله يخلص العبادة والطاعة لمحبوبته أيضا ٠

« لقد جعل الحب منى عبدا لك ، ولن تكون لعبوديتى نهاية » فسلطة محبوبته عليه ن القوة بحيث لا يجد غير عبادته لها سبيلا ــ لتشريفه ورفع شأنه ٠

وقد ازدهرت ألوان الحب المنزه عن المادة والحسن فى الاندلس الى درجة أنها تشكل وحة متعددة الالوان ٠ « ان فكرة الخلق الالهى لتجمعنا معا » ٠ ومثل هذه الوحدة نكفينى ٠ فانا لا أطلب عنها مزيدا ٠ ذلك ما جاء فى أحد اشعار ابن حزم (من حيث معناه) ثم ان الورع فى الحب تشريف للذى يخضع ٠ وكما يسجد المؤمن مثل العبد أمام الله فى خضوع تام ، كذلك يتحايل العاشق العربى لبلوغ الحظوة لدى محبوبته بالاستسلام والطاعة التامين لها ٠

ومن اقوال ابن باجة فى هذا المعنى قوله :

« لئن كنت تجهلين أنى متفان فى عبادتك ،

مرينى بما تشتهين ، فستجدیننی من المطيعين » ٠

ان عبادة المرأة العربية فى الاندلس قد أنتجت أجمل الازهار ، وأنفس الاشعار الغنائية العربية ٠ واستمر ذلك مدة طويلة ، بعد أن نكل الاتراك والمغول فى الشرق بالنخبة المثقفة ٠ ومن الاندلس ، استقرت هذه السنة العربية المحضة فى القصيدة

الغزلية وتقديس المرأة بأوروبا وخاصة فى فرنسا وألمانيا · وقد اتخذت هذه الافكار من الحب الذى يجعل من الرجل خادما مطيعا لنيل الحظوة لدى سيدته المقدسة قيمة تحريرية فى وقت كانت الكنيسة المسيحية تهين فيه المرأة البنت الخاطئة لحواء والتى أخضعها كزاهفى لسيطرة مولاها وسيدها ·

وهكذا فقد ترك الشعر الغنائى العربى أعمق الاثر فى الفن لدى المجتمع الاوروبى، وفى العلاقات بين الرجل والمرأة فى الغرب بصورة أعم ·

وما تزال هذه الآثار ماثلة اليوم كما وصفت ذلك طويلا فى كتابين لى هما : « شمس الله تسطع على الغرب » ، و « جمال على المعطف الامبراطورى » · فعسى أن تثبت لكم ـ أصدقائى العرب ـ هذه البصمات العميقة للحضارة العربية فى الغرب قوة ماضيكم المجيد ، وتشجعكم على اعادة النظر فيه اليوم حيث يتعين عليكم ايجاد السبيل الذى تسيرون عليه لتحديد مكانة المرأة العربية فى المجتمع بصورة خاصة ·

فلا تستلهموا مسعاكم من النماذج الاجنبية ، ولا من المعايير السائدة فى امريكا وفى روسيا · واستوحوه من طبيعتكم الخاصة ومن تاريخكم ودينكم ·

ولقد لاحظت باهتمام بالغ فى كل مكان أثناء تجوالى بالبلاد العربية مدى الجهود المبذولة لتحسين وضعية المرأة على أساس عربى صميم · وهنا فى الجزائر بالذات طالب « الميثاق الوطنى » « بتحرير المرأة وبمساهمتها الكاملة فى حياة الامة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية » وبضرورة « تحرير المرأة من بقايا ورواسب هى من طبيعة اقطاعية ، وبضمان حقوقها ··· » ·

وما تزال لدى بعض كلمات : « ان تحرير المرأة لا يمكن فى الجزئيات الخارجية ، فى طول الفستان او عمق مقورته (كشف الرقبة والكتفين وجزء من الصدر) ولن يكتسب كذلك عن طريق ما يسمى « بحرب الجنسين » كما تدعونا اليه بعض مناصرات النزعة الداعية الى تحسين وضعية المرأة اللائى لن يكون من نتائج عملهن هذا الا زيادة تعميق الهوة التى حفرها نظام الابوة السائد فى القرون الماضية · وبعكس ذلك ، فان الذى يجب هو أن يكون الرجال والنساء واعين بطابعهم المميز ، وان تتضافر جهودهم للعمل سويا · بيد أنى أود أن أذكر أصدقائى العرب الذكور بأن عليهم الا ينسوا أبدا ان فتيات ونساء اليوم سيكن أمهات الامة العربية الكبرى غدا ·

المـرأة التركيـة الوارثـة للتقـاليد الوطنيـة والاسـلامية (*)

د٠ آمـال ايـزين
عضوة معهد البحوث الثقافية
التركية ـ أسطنبول



1 ـ المراة التركية قبل الاسلام :

ان « حواء » التركية وريثة تقاليد وطنية ذات طابع ملحمى نشا فى المناخ الشمالى لآسيا العليا ٠ وتكشف مدافن الاتراك القدامى (1) بسيبيريا (2) فى الالف الاول قبل المسيح عن قبور للنساء توجد فيها أسلحة ٠ ولم تكن حيـاة النساء فى النجود العليـا وغابات منطقـة « اورازية » الشمالية لتتميز او تختلف عن حياة الرجل، فالمراة التركية لذلك العهد ، اذ تتعاطى الصيد وتمارس الحرب والقتال ، ترتدى من الملابس ما يرتديه قرينها الرجل ٠ وربما تميزت قبـور النساء عن رموس الرجال بنوع من الايثار البين لحل من الذهب او البرونز ، ومرصعات من جواهر وتحف فنية من تلك التحف الفنية المعروف بها السكان الرحل بآسيـة العليا وقد تكون هذه الحل والاكاليل فى بعض الاحيان جزءا من الملابس المزركشة التى ترتديها كاهنات ديانات احيائية (3) ٠ وربما كانت زرابى واغطية الخيام ، والملابس المتخذة من لبدات متعددة الالوان أو المنسوجة والمطرزة من صنع النساء ٠ وهى تحمل رسوما من نمط ميثولوجى ورمزى ٠

(*) محاضرة القيت فى الملتقى 11 للفكر الاسلامى بمدينة ورجلان (ورقلة)

ومع تسخير الحصان أصبحت المرأة التركية فارسة تمارس ركوب الخيل • وقد كان لخاتون (ملكة) الاتراك الاوغوريين حاشية من سبع نساء يحملن أقواسا ويمتطين الخيل (4) • وعلى شاطىء نهر الاورال قبر يضم امرأة دفينة وهى على صهوة جوادها ، وينسب هذا القبر الذى يرجع عهده الى ما بين القرنين السادس والثامن الى الاتراك « الاوغوز » الذين ينحدر منهم سكان تركيا • وربما كان ذلك من ضروب التكريم لامرأة محاربة (5) • وقد أورد « ذيد كوركت » (6) أن بطلة تدعى « تشيتشيك » (الزهرة) كانت تنصب خيمتها الحمراء القانية فى احدى المروج التى كانت تعتبرها بمثابة مزرعة صيد خاصة بها محظورة على الدخلاء • ولم تكن تمنح ثقتها أو وفاءها الا لمن يستطيع الانتصار عليها فى المصارعة • وكانت ثقة المرأة التركية ثقة كاملة ، لانها امرأة طاهرة الذيل الى حد بعيد جدا كما شهد بذلك الرحالة العربى ابن فضلان (7) (309/922 م) . ولم يكن الزنـا عند الاتراك معروفا على وجه التقريب ، لان الرجل الذى تثبت عليه تهمة الزنـا يعاقب بتمزيق جسده • والمرأة التركية كانت ، اذا مـــا ترملت ، تحولت الى رئيسة البيت ، أو الى « تركن » (8) (وصية) فى صورة ما اذا كان ولدها أميرا من الامراء ، وكانت الرغبة الاكيدة للمرأة التركية تتمثل فى تربية ابنها تربية الابطال (9) كما هو الحال بالنسبة الى « شامانية » تركية من مقاطعة « الجيهول » (الشامانية ديانة يعبد أتباعها الطبيعة) •

وبتأسيس « كاغاناط قوق التورك » المتبوع بدولة الويغوريين ابتداء من القـرن السادس ، برز الى الوجود تركستان (بلد الاتراك) المتحضرين فى آسيا الوسطى (10) ونمت المدن حول « أوردو » (11) (قصور الامراء) • وفى هذه الاوساط الحضرية كذلك تقرر اقامة ايالة الخاتون (الملكة) • وهذه الخاتون متوجة (12) ومعتبرة ذات سلطات الهية (13) تماما كالامير • وفى سنوات 49/624 أسند أحد ملوك اليوغور ، الذى كان غالبا ما يخوض الحروب ، ادارة الدولة الى أمه (14) • وكانت الخاتون قـد اشتهرت بالعدل الا انها كانت صارمة • وكانت صور الملكات أو الوصيات تضرب أحيانا على النقود التركية (15) •

وفى مظهر السلطنة هذه ، عرف العرب تركيا للمرة الاولى فى شخص « قاباتش خاتون » الوصية على مقاطعة بخارى فى القرن الثامن الميلادى (16) . وقد جاء فيما نقله « النرشخى » مؤرخ بخارى أن الخاتون تظهر بمظهر البطولة والشجاعة ، وبمظهر مرونة الفكر ، كما تبدو جذابة فى اغلب الاحيان . وقد عرفت كيف تكسب صداقة قتيبة بن مسلم الذى غدا المدافع عن ابن الخاتون الاصغر ضد ادعاءات الامراء المنافسين.

2 ـ المرأة المسلمة فى فجر الاسلام :

لقد أقام الاسلام أول عقد اجتماعى تحددت فيه حقوق المرأة . وكانت المرأة فى الحضارات المتوسطية مثل اليونان وروما تابعة لرئيس الاسرة (أو لرب العائلة) . وكانت المرأة فى بلاد العرب جزءا من ميراث الرجل الذى يتصرف فيها كما يشاء ، ويتركها مع بقية أملاكه للورثة والخلفاء بعده (17) . وقلة الاهتمام بالمرأة نجده معبرا عنه أحسن تعبير فى الآية القرآنية التالية :

« **واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ؟** » . (القرآن ـ السورة 16 الآيتان 58 ـ 59) .

ولاول مرة فى عالم البحر الابيض المتوسط ، وربما فى العالم اجمع ايضا ، يحدد الاسلام للمرأة حقوقا نحددها ملخصة فى الآية القرآنية الآتية : « **ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف** » . (القرآن ، السورة 2 ، الآية 228) .

والرجل الذى تجب عليه اعالة المرأة طيلة زواجه منها ، وفى حالة تطليقه لها (18) انما يتمتع بدرجة واحدة فقط من التفوق (19) .

« **الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم** » (القرآن ، السورة 4 الآية 34) .

بيد أن المرأة التى تعمل والتى تترتب عليها لذلك واجبات ، لها الحق فيما تكسبه تماما كالرجل :

« **للرجال نصيب مما اكتسبوا ، وللنساء نصيب مما اكتسبن** » • (القرآن ، السورة 4 ، الآية 32) •

وهناك ثورة أخرى فى المجتمعات المتوسطية تتمثل فى ان الاسلام منح المرأة حق التصرف فى نفسها (20) وفى مالها (21) •

وكانت المسلمات الاول يساهمن بنشاط فى الحياة الاجتماعية • فلقد كن فى زمن الحرب يدخلن ساحة القتال لمعالجة الجرحى وسقيهم (22) بل وكان منهن من يشاركن فى القتال مثل « نصيبة بنت عمرو » التى أصيبت فى غزوة أحد بثمانية عشر جرحا حين كانت تدافع مع زوجها وأبنائها عن الرسول (صلعم) الذى هاجمته قريش المنتصرة (23).

ولم يكن الحجاب بالنسبة الى هؤلاء النسوة الا رمزا وحصنا لشرف المرأة المسلمة فقد كانت المرأة المسلمة التى كانت تعرف وسط حرية الاخلاق التى كانت سائدة فى بلاد العرب الوثنية ــ بردائها الذى كان يسترها وبالخمار الذى كانت تحتجب به ــ تتمتع بحماية اخوتها فى الدين من كل ما يزعجها (24) او يؤذيها •

3 ــ المرأة التركية المسلمة :

تدل دراسة تاريخ الثقافة التركية على أن المرأة التركية ظلت فى الواقع تتمتع بالحقوق التى كانت تتمتع بها من قبل • لكن ضمن اطار الاحتشام الذى أوصى به الاسلام فى ممارسة الحقوق الممنوحة للمرأة • وما كانت أعراف الاحتشام هذه أو الرصانة ، ومنها الخمار ، سوى أعراف شكلية لا تمنع المرأة من المشاركة فى الحياة النشيطة ولا من تنمية مواهبها • بل ان النساء الموهوبات كن ــ على العكس ــ يشجعن فى المجتمعات الاسلامية على تلقى العلم والمعرفة من أفواه مشاهير العلماء فى الوسط الذى يعشن فيه • واذا ما فحصنا بعض المعطيات الممتدة على ما يزيد عن ألف عام من تاريخ الاسلام التركى ، اكتشفنا بعض أنماط من نساء مسلمات هن من أصل تركى •

أ) ــ ان النساء التركيات اللائى وهبن أنفسهن لدراسة القرآن والحديث والفقه الاسلامى واللائى برزن فى هذه الميادين عددهن قليل • غير ان قاموس التراجم الذى

ألفه محمد زهنى التركى الذى كتب مؤلفا عن شهيرات النساء فى الاسلام (25) قـــد ذكر بعضهن :

فتذكار باى خاتون المتوفاة فى (714 هـ/1343 م) وابنة السلطان المملوكى التركى « بيبرس » (76 ــ 658/1252/77) المتضلعة فى العلوم الاسلامية قد أسست بمصر رباطا لتعليم النساء المسلمات · وآى مليك خاتون البعلبكية التى يدل اسمها آى القمر على أصلها التـركى كانت محدثة عالمـة بالسنة النبوية · وقد توفيت فى 815 هـ/1412 م ، وصدقى أمة الله القاضى ابنة أحد قضاة اسطنبول قد ألفت كتبا فى اصول الدين · وقد توفيت فى 1089/1678 م ، وآنى فاطمة الخاتـون التى انحدرت من المؤرخ سعد الدين أفندى والتى كانت تعتبر عضوا فى مجمع أو هيئة العلماء · وكانت تعمل قاضية ومدرسة حتى وافتها المنية فى 1123 هـ/1711 م · وفى القرن ذاته عاشت فى اسطنبول زبيدة القسطنطينية الشهيرة المعروفة بكتبها فى الشريعة الاسلامية وبنبوغها فى الشعر · ومع أن مثل هذه الشخصيات قليلة الوجود فان النساء الحافظات قد ظللن يحفظن القرآن فى تركيا وفى مدارس خاصة تتبع أساليب التلقين والتدريس التقليدية قراءة واستظهارا ·

ب) ــ يسجل التاريخ أن عددا من النساء توصلن اما بفضل انتسابهن الى أسرة مالكة أو بالنظر الى نبوغهن الشخصى ، الى القيام بنشاطات سياسية وكانت «الخاتونات» (المليكات) فى فجر الاسلام ما يزلن يمارسن مهام الامارة · ومن وجوه هؤلاء الخواتن أو المليكات البارزات المعروفات بلطفهن زوجة داود بن عباس بانيجور (ولعله بـاى تشور) (58 ــ 233 هـ/71 ــ 847 م) التى تنتمى الى أسرة مالكة تركية كانت تحكم موطنها الخوطال وطوخاريستان باسم الخلفاء العباسيين (26) · وكانت زوجة باى تشور تحكم ضمنيا مقاطعات زوجها لان هذا الاخير قد انجر الى بناء قصر منيف (27) · ولكى تخفف الخاتون من وطأة الرسوم المترتبة على الفقراء للخلفاء العباسيين بعثت بعباءتها المرصعة بالجواهر الى الخليفة ، الا أن هذا الاخير اعترافا منه واعجابا بهذا السخاء ــ أعاد العباءة الى الخاتون التى باعتها من أجل أن تشيد بثمنها مسجد وقنوات بلــــخ (28) ·

واستمرت الخواتن اللائى كن يحكمن بلدانا لغير الاتراك بالشرق الادنى فى المحافظة على امتيازاتهن (29) . بل ولقد كان بعض هؤلاء الاميرات عمـــلا بالتقاليد التركية ، ذوات اقطاعات ودواوين وحتى جيوش كن يستعملنها على العموم لصالح ازواجهن . وكذلك فعلت « آلتوراجان خاتــون » زوجة « طوغريل بــك » (55 ـ 429 هـ/63 ـ 1037 م) مؤسس الدولة السلجوقية فى الشرق الادنى . وبعض هؤلاء الاميرات شعرن بامتعاض ربما كان السبب فيه يعود الى نوع من التعارض بين وضعيتهن التقليديـة كخاتون وبين عادات البلاد الاجنبية التى كن يعشن فيها . وكانت التقــاليد الايرانية ـ كما لاحظ ذلك نظام الملك (30) الوزير الايرانى للملك التركى السلجوقى ملك شاه (85 ـ 665 هـ/92 ـ 1072 م) تقصى النساء عن السلطة ، بينما كان الملوك الاتراك يصغون الى آراء الخواتن . وكانت زوجة ملك شاه (31) أميرة كاراخانية ربما انحدرت من كاغانيى قوق تورك . ولاعتزاز هذه الخاتون باصلها ، واعتبارها مكانتها كوصية عربونا على حقوقها قد أحنقتها معارضة نظام الملك الذى يبدو وكانها الآمرة باغتياله . بل وتتهم بالتآمر مع صهرها الخليفة المقتدى بالله على تسميم الملك شاه . وقـــد خاضت حملة ضد صهرها « برقياروق » سعيا منها الى تتويج ابنها البالغ من العمر خمس سنوات ، وتولى حفيدها الخلافة ، الا انها هزمت .

ان قائمة الملكات الوصيات او الملكات الامهات من التركيات ذوات التاثير والنفوذ قائمة طويلة نكتفى منها بهذه الامثلة وباسماء اخرى قد أثبتنها فى التعليق (32) .

ج) وكان هناك مجموعة أخرى من النساء ذوات النفوذ السياسى فى أوساط بلاطات الامراء الاتراك . ومن بينهن بيبى المنجمة (33) النيسابورية الاصل التى انتقلت من خدمة آخر الملوك الخوارزميين الاتراك جـــلال الدين منجوبـــردى (617،28 هـ 30 ـ 1220 م) الى خدمة ملك تركيا السلجوقى علاء الـدين قيقباد الاول (34 ـ612هـ 36 ـ 1215 م) . وما لبث ابن المنجمة الذى سمى باسم « ابن بيبى » أن اصبح مؤرخ سلاجقة تركيا .

ويعدد زيهنى (34) بعض النساء المستشارات اللائى نصح بهن أمهات السلاطين العثمانيين أبناءهن لمساعدتهم على ادارة شؤون الدولـــة . وأشهر هؤلاء النســـوة

المستشارات هى جنفدة الخاتون التى كانت أحد الوزراء الاربعة الذين يجتمعون في مجلس مراد الثالث (982 ـ 1004هـ/1574 ـ 95 م) ولم تكن جنفدة تتسامح عن التجاوزات ، وقد سجنت ثم أعدمت أخاها دالى ابراهيم باشا لاخلاله بواجباته • ويورد زينهى كذلك راضية الخاتون مستشارة محمد الثالث (12 ـ 1005 هـ/1605 ـ 1594 م) وهناك مستشارتان أخريان للسلاطين العثمانيين : شاكر بار خاتون» التى كانت فى خدمة « محمد الرابع » قد اتهمتا بالفساد والرشوة في تعيينات الموظفين الى مناصب الامبراطورية ، وقد نفيت احداهما وصودرت أملاكها ، بنما شنقت الثالثة وكان ذلك على التوالى فى (1058 هـ/1648 م) وفى (1066 هـ 1655 م) .

د) لقد أنجبت الحضارة العثمانية عددا من النساء الشواعر (35) . وقد شهدن النور ، على الغالب فى أوساط العلم ، ومنهن من كن بنات لشيخ الاسلام . بيد أن هؤلاء السيدات كن منساقات فى بعض الاحيان الى الاباحية التى يسوغها الشعر •

وكان للقديمات منهن شرف ورود أسمائهن فى منتخبات الشعراء «تذكرة الشعراء» لعاشق شلبى (76 ـ 924/68 ـ 1518 م) : وهما شاعرتا القرن الخامس عشر : مهرى و زينب وقد ولدت الاخيرة فى أماسيا أو فى قسطمونى ، وفى القرن السادس عشر، نجد الشاعرة تونى القاضى (وتونى معناه الببغاء) وكان زوجها الشاعر الشهير باقى يشبهها بالغراب ، ربما لحسد منه . وقد ردت عليه الشاعرة بأبيات من الشعر الهجائى كانت فيها دمامة باقى موضع سخرية . وفى هذا القرن ذاته كانت مطارحة الشاعرة اللامعة حبى خاتون طلبة سلطانين متواليين : سليم الثانى (82 ـ 974 هـ/74 ـ 1566 م) و مراد الثالث (1004 ـ 9082/95 ـ 1574 م) وكانت الشاعرة فتنة هانم ابرز شاعرة باسطنبول فيما بين القرنين الثانى عشر والثامن عشر • ومن بين عدد كبير من الشواعر النابغات برزت شاعرتان تحمل كل منهما اسم «ليلى » وذلك فيما بين القرنين الثالث عشر والتاسع عشر •

ولنذكر كذلك امرأتين خطاطتين (36) هما : عصمت ابريت من اسطنبول و فتنة طرابزن وقد عاشتا فيما بين القرنين الثالث عشر والتاسع عشر .

بيد أن الغالبية العظمى من النساء التركيات المسلمات اللواتى ليست لهن موهبة خارقة قد ظللن يعشن عيشة الجد والاخلاص كربات اسرة تنشد « الجنة تحت اقدامهن » كما جاء فى حديث نبوى ، فلقد كانت الفلاحة التركية ـ ولا تزال ـ تعمل الى يومنا هذا فى الحقول الى جانب زوجها الذى تخلفه فى جميع الميادين حين يدعو هذا الاخير واجب التجنيد . وقد ظلت تنسج الزرابى والمفروشات ذات الرموز التقليدية ، وتطرز الاشكال البندالية (ذات الالف غصن) . ولم تكن التقاليد الحربية للمرأة التركية نسيا منسيا بعد الاسلام .

ففى القرن 15 كان فى خدمة مملكة ذى القادرى التركية (885 ـ 780 هـ 1470 ـ 1378 م) فيلق من الخيالة فى « مرعش » يتألف من ثلاثين الف امرأة (38)· وهناك تركيات أخريات لا يتدخلن فى النزاعات المسلحة الا فى حالة الاستعجال . فمشاعر الاخلاص فى الدفاع عن الوطن كانت بحيث تدفع الام التركية حين تأخذ رضيعها بين ذراعيها الى أن تقول : « بسم الله ، يا غازى ، يا شهيد » ·

لقد كانت حاسة الشرف لدى المرأة التركيه بحيث تؤثر الموت على حياة الاسر وما يتبعها من اهانات واذلال · فحين نشوب معركة « يليفن » فى عام 1878 ، وبينما كان الجيش التركى المحاصر منذ ... بعة شهور يحاول اقتحام صفوف الاعداء ، كان النساء والاطفال يلحون على اتباع الجيش فى هذه المحاولة اليائسة ، مما أدى الى سقوط عدد منهم بقنابل مدفعية العدو (39) · وكانت جدتى « زينتى هانم » مع زوجها من بين المحاصرين فى يليفن ولما كان زوجها قد سقط فى ساحة المعركة ، أخذت «زينتى هانم» أطفالها الصغار ، واستطاعت ان تنجو بهم عبر خطوط العدو دون أن يتفطن اليها أحـــد ·

واضطرت الى أن تقطع المسافة راجلة وهى تحمل أولادها حتى مدينة اسطنبول حيث لفظت أنفاسها من شدة التعب ليلة وصولها بالذات · وأثناء توالى الحـــروب الدفاعية التى وضعت حدا فى القرن التاسع عشر ثم فى حرب 1918/1914 وحرب 1923/1920 للامبراطورية العثمانية وتمخضت عن ميلاد الجمهورية التركية كانت المرأة

تحل تدريجيا حتى فى اطارات خدمة الدولة محل الرجال المجندين • والمرأة التركية تشارك تماما كمثيلاتها « نين هاتون ايرزوروم » ورفيقاتها اللائى ساعدن الجيش التركى فى عام 1878 على صد العدو (40) فى الدفاع عن حوزة الوطن ، وقد سقط عدد كبير من النساء فى ساحة المعركة أثناء الدفاع عن ايرزوروم • وفى حرب 1420/1923 قدمت النساء يد المساعدة فى نقل السلاح الى جبهات القتال • ويذكر شاهد عيان انه رأى امرأة كانت تنقل السلاح فى يوم مطير فنزعت الغطاء عن طفل لها كان بين ذراعيها لتغطى به ولتصون القنابل من البلل (41) • وهكذا تكون المرأة ـ كما قال مصطفى كمال أتاتورك ـ جديرة بالمساواة فى الحقوق التى منحتها اياها قوانين الجمهورية التركيـــة •

تعليقـــــات

I ـ لقد كانت القبائل التى يدعوها الصينيون والكيرغيزيون تنغ لنغ و تياه لى من بين أعرق القبائل الناطقة باللغة التركية : ج• كلوزون ، تورك منغول تانغوس آسياماجور ، ن• س• 8/I لندن 1960 •

2 ـ القبور السيبيرية التى يرجع عهدها الى الالف الاول قبل المسيح المنسوبة الى تنغ لنغ وكيزغيز : س• ب• كيسليف دريفنيايا ايستوريا يوجنوبى سيبـــيرى ، ماتيريال واسليدوفانيا بو اركيولوجى الاتحـاد السوفياتى ، رقم 9 (موسكـو 1949) 27/II2 ـ I67 •

3 ـ ن• ب• محمدوف اسكوستفو كازاخستان (موسكو 1970) ، I4 • (قبر كرغليك المنسوب الى شامانية هنية) •

4 ـ ك• ماكيراس ذو ايغور أومبير (كامبيرا 1968 ، I2I) •

5 ـ مدفن خودا برجين رقم I : ب • سميرنوف ، كول تورا دريفنيسك بليمن بريارال يا و زاياد نوى سيبيرى ماتيريال وايسليدوفانيا بو أركيولوجى الاتحاد السوفياتى ، رقم 585 موسكو 1957 ـ 45 دفن مقاتل لدى الاتراك فيما بين القرنين السادس والثامن

عشر : ليو ماو تساى ، دى سينيزيسشن ناشريستن زور جيشيت دير أوست تـوركن (ويسبادى 1958) ، 42 ·

6 ــ م· اميرجن ، ديد كوركت كتابى (أنقرة 1958) I ، I2I ــ 23 ·

7 ــ ز · ف · طوقان ، ابن فضلان رايسبريشت ، (ليبزيق 1939) ، 2I ·

8 ــ توركن : أ· توران · « توركن انفانى » تورك هوكـــوك تاريخى درجيزى I (أنقرة 1944) · يراجـــع أيضا : ج ، ديرفـــر توركيتش ومنغوليش ، ايلمانتى فى نويرسيتشن ، المجلد 2 · (ويسبادى 1965 المادة 889 ·

9 ــ I· ج· بولييلانك ، ذو باكغروند أوف دو ريبليون أوف أن لوشان · (أوكسفورد 1966) 7 ــ 8 ·

I0 ــ لفظة تركستان المستعملة منذ القرن السابع : و · بارتولد « تركستان الموسوعة الاسلامية (ليدن 1934) · مراكز الحضارة فى تركستان آ · ايزين · « اسلاميتن ايفيل اورتا آسيا تورك ريسم ساناتى » تورك كورك كولتورو الكتاب ، ونشر فى الانكليزية كذلك (سانترال آزيان توركيش بانتينغ بيفور اسلام هاندبوك أوف توركيش كولتور) I/2 فى (اسطنبول 1972) تعليقات I00 ــ I23 ·

II ــ آ· ايزين « أوردوغ » أنقرة اينفير سيتيزى ديل تاريخ كوغرافيا فاكولتيزى تاريخارا ستيرمالارى ديرجيزى ، 6/I0 ــ II (أنقرة 1972) ·

I2 ــ ماكيراس ، II7 ·

I3 ــ بيلج كاغان ملك قوق تورك ، الذى توفى فى 734 ، وقد قال : « ان اله السماء قد رفع أبى ايلتيريش كاغان ، وأمى ايلبيلج هاتون ، وذلك باخذهما من أم رأسهما » : ن· أوركوم تورك يازيتلارى (اسطنبول 1936 ــ 4I) I ــ 34 ــ II ــ د ــ I0 ــ II ·

I4 ــ أ· شافانس ، وثائق حول الاتراك الغربيين · (سانت بيترسبورغ 1903) 90 ·

I5 ــ أنظر ايزين فى التعليق I0 المصادر المذكورة فى تعاليق I2 و I06 ·

I6 ــ الطبرى · تاريخ الرسل والملوك (ليدن · 1879 ــ 188I) 2 · 169 النرشخى تاريخ بخارى (باريس 1892) 7 ــ I0 ــ 36 · 47 ·

I7 ــ انظر : القرآن الكريم (السورة الرابعة ، الآية 22)التى تحـرم الـــزواج من النساء اللائى يتركهن الاب ميراثا ، القرآن (السورة الرابعة ، الآية I9 حول تحريم اجبار النساء على التزوج من ورثة أزواجهن) ·

18 ـ الآيات التى تتعلق بالمهر المدفوع الى المرأة . القرآن (السورة 2 الآية 229) و (السورة الرابعة ، الآية الرابعة بشأن تمتيع المطلقات) . « وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين » . القرآن (السورة الثانية ، الاية 241) .

19 ـ القرآن (السورة الثانية ، الآية 228) .

20 ـ الحديث : « لا تنكح الايم حتى تستأمر ، ولا تنكح البكــــر حتى تستأذن » . البخارى : تجريد الصريح طبعة ز. أ. زبيدى و. د. ميراس ديانة اسليرى نيسرياتى . رقم 9 . المجلد II (اسطنبول 1947) الحديث 1806 .

21 ـ المرأة ترث . القرآن : (السورة الرابعة ، الآية السابعة) . وتتصرف فى مالها كما تشاء . القرآن : (السورة الثانية ،الآية 229) .

22 ـ الواقدى ـ كتاب المغازى ـ (لندن 1966) 268 ـ 72 ، 685 ـ 687 .

23 ـ الواقدى ، 268 ـ 72 .

24 ـ ابن سعد ـ الطبقات الكبرى ـ المجلد الثامن (بيروت 1377 هـ) . 7 ـ 76 حول الظروف التى أمرت فيها المسلمات بالحجاب . القرآن : (السورة 23 ، الآية 59) . وبعدم التزوج وكشف زينتهن الا ما ظهر منها . القرآن (الســــورة 23 ، الآيــة 59) و (السورة 24 ، الآية 31) .

25 ـ محمد زهنى ـ مشاهير النساء ـ اسطنبول 1394/95 هـ . I ـ 126 ـ 2 ـ 392 193 : I ـ 35 ؛ I ـ 15، 2 ـ 264 .

26 ـ أنطر : و. بارتولد ، تركستان دوون تو ذو مونغول انغازيون (لندن 1928) 73 205 و ج . ماركات ، ايرانساهر (برلين 1901) ، 299 ـ 303 .

27 ـ أبو بكر عبد الله البلخى ـ فضائل بلخ ـ (طهران 1350 هـ)20 ، 21 ، 39 ، 40.

28 ـ نفس المصدر .

29 ـ أ. توران ـ تورك سيهان حاكيميتى ـ (اسطنبول 1969) 126 ـ 129 ، هــذا المؤلف الذى كتب أيضا المقالة المذكورة فى التعليق 8 . حيث كان أول من حدد لفظة « توركن » ، وخصص فصلا فى الكتاب المذكور هنا للتراكنة .

30 ـ أورده توران ـ تورك سيهان حاكيميتى ـ 126 ـ 27 .

31 ـ أ٠ توران ـ سلجوك لولار ـ تاريخ فى تورك ـ اسلام ميدينيتى ـ (أنقرة 1965) ، 106 ـ 107 ـ 156 ـ 60 ، 163 ـ 64 ، 192 ـ 376 (توركن خاتون بنت قاراخانيد ابراهيم تامغاتش خان كانت قد تزوجت من السلجوقى ملك شاه فى 458 هـ/1065 م ٠ وتزوجت ابنتها « ماه ملك » فى 480 هـ/1087 م ٠ الخليفة المقتدر بالله ٠ وقد هزم جيش التركن فى الرى فى سنة 488 هـ/1095 م ٠ على يد جيش صهره « بيركياروجى » بن ملك شاه من زوجة له سابقة) ٠

32 ـ من بين التركمانيات الاخريات تركيات آسيا الوسطى للعهد الاسلامى ٠ أنظر : بارتولد ـ تركستان دوون طو ذو مونغول انغازيون ـ الفهرس ٠ ومن بينهن توركن أم التركى الخوارزمى ، علاء الدين محمد ب٠ توكيش (596 ـ 617 هـ/1199 ـ 1220 م) ، ويذكر محمد زيهنى أيضا (2 ـ 211 ، 1 ، 233 ؛ 330 ، 126 ـ 27 ؛ 2 ، 71 ، 202 ، بنات وزوجات وأمهات للامراء الاتراك ، أو أميرات تركيات متزوجات للملوك غير أتراك كن يحكمن باسمهن أو بالنيابة عن أزواجهن وأبنائهن وهن : مرد خاتون زوجة الاتابغ تورك الدمشقى ، و « بورى » بنت «توغتيجن » (522 ـ 520 هـ) و «راضية» بنت المملوك التركى من دلهى « ايلتوتيش » التى كانت ملكة دلهى فى 630 ـ 633 هـ ، و « ساجار أود در » الزوجة التركية للايوبى الصالح نجم الدين أيوب التى كانت ملكة مصر فى 647 هـ ، و « أكويولو أوزون حسن » (857 ـ 883 هـ) التى كانت تضع على رأسها قلنسوة ملكية حمراء مزينة باثنتى عشرة زهرة ٠ والتى شجعت التراكمة المدعوين كيزيلباش وهم يحملون على رؤوسهم نفس القلانس الحمر على العثمانيين السنيين « وماه بيكر قوسم سلطان » والدة السلطان العثمانى « مراد الرابع » (1032 ـ 1049 هـ) ٠ أنظر كذلك دويرفر المذكور فى التعليق الثامن الذى يذكر تراكنات أخريات ٠

33 ـ أ٠ ايرزى « ابن بيبى » ـ الموسوعة الاسلامية ـ (اسطنبول 1968) ٠

34 ـ محمد زيهنى ، 1 ـ 132 ؛ 234 ، 337 ؛ 2 ـ 224 ٠

35 ـ محمد زيهنى ، 2 ـ 140 ، 1 ـ 285 ، 370 ، 2 ، 15 ـ 6 ، 2 ـ 165 ، 198 ، وغيرها ٠

36 ـ محمد زيهنى : 2 ـ 142 ، 396 ٠

37 ـ م٠ عارف ـ بنبير الحديث الشريف الصحيح ـ (كاهير ، 1319 هـ) الحديث 377 ٠

38 ـ توران ـ تورك سيهان حاكيمييتى ـ 126 ـ 27 ٠

39 ـ ابراهيم الذيم ـ سبات فى تمايريت قيامت آن بيرعلامت ـ (اسطنبول 1279) 46 ـ 50 ٠

40 ـ ا٠ هـ٠ كنيالى ـ ايرزوروم التاريخى ـ (اسطنبول 1960) 539 ٠

41 ـ هى شهادة أمها « مفيدة فريد تاق » ٠

الاســـلام و العـــالم المعـــاصـــر (*)

د . سالفـاتورى بـونـو
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
بجامعة بيروجيا،(روما)

مبعوثنـــا الخـــاص .



هناك ، الى جانب المكانة المتنامية التى تحتلها البلدان العربية ـ ولا سيما البلدان المنتجة للنفط منها ـ فى الساحة الدولية ، وعى حاد يزداد عمقا على مر الايام لدى العالم العربى بتقاليده الدينية والثقافة الخاصة ، وبضرورة اسهام هذه الثقافة فى ايجاد الحلول المناسبة لمشـــاكل المجتمع المعاصر . وضمن هذه المهمة المتمثلة فى تبادل الآراء والتباحث ، لا على الصعيد الداخلى للثقافة الاسلاميـــة فحسب ، بل كذلك مع ممثلى ديانات وثقافات أخـــرى ، تندرج ملتقيات الفكر الاسلامى التى تنظمها ، سنويا ، منذ سنة 1967 ، الـــوزارة الجزائرية للتعليم الاصلى والشؤون الدينية ، برئاسة وتحت اشراف النشيط الذى لا يعرف الكلل ولا الملل ، السيد الوزير مولود قاسم نايت بلقاسم .

(*) مقال نشرته صحيفة «الاوسرفاتورى رومانو» الناطقة باسم الفاتيكان فى 7 ـ 8 ـ مـارس 1977 .

وفى الملتقى الحادى عشر الذى عقد خلال النصف الاول من شهر فبراير بمدينة ورقلة ، شارك ، كالعادة ، ممثلون عن البلاد والجاليات الاسلامية فى العالم اجمع ، لا فى البلاد العربية فقط ، فقد كان من بين المشاركين فى الملتقى هذه السنة ممثلون عن مالى ، واليابان ، والاتحاد السوفياتى ، وجزيرة موريس · فهذه المشاركة المتنوعة، تعد ، من جهة ، شهادة عينية ملموسة على توسع ، وقـوة الاسلام ، ذلك الدين الذى يعبر عن نفسه فى اشكال ثقافية أخرى غير الاشكال العربية ، ومن جهة ثانيـة ، تتواجه داخل هذه الثقافة العربية ذاتها ، لا تقاليد مختلف التيارات التفسيرية فحسب، بل وكذلك التطورات التاريخية والاجتماعية المختلفة من بلد الى آخر · والسمة المميزة لهذه الملتقيات هى وجود نحو ألف طالب جزائرى (من طلاب الجامعة والسنوات النهائية للتعليم الثـانوى قدموا من كل انحاء البلاد) ، ممن يسمـح لهم بتوجيـه الاسئلـة الى المحاضرين · ان هذا الانفتاح على الشباب الذين يواظبون على متابعة أشغال الملتقى وعلى مشاركة خليقة بكل ثناء ، لامر ليس من قبيل الامور الثانوية ، بل مما يزيد فى جدارة المبادرة ·

ان النقطة الاولى فى جدول اعمال كل ملتقى من هذه الملتقيات والمختارة مسبقا تخص موضوعات ذات طابع تاريخى ، وهى تهم بصفة عامة المدينة أو الناحية التى ينعقـد فيها الملتقى · وقد جرى الحديث فى هذه السنة عن الدولة الرستمية ذات الاصـل الايرانى والمعتقد الخارجى ، تلك الدولة التى استقرت بالجزائر كأول كيان مستقل فى الاسلام المغربى ، فيما بين القرنين الثامن والعاشر الميلادى ، وذلك فى تيهرت (تيارت) أولا ثم فى ورجلة ، وبالذات فى مدينة سدراتة الاثرية حاليا · وقد سلطت المحاضرات فى مجموعها ، ولا سيما فيما يتعلق بالحجج النوعية ، ضوءا جديدا على دولة ومجتمـع الرستميين الذين أغفلهم المؤرخون المسلمون بسبب طابعهـم الخـارجى عـن مـذهب أهل السنـة ·

« والاسلام فى افريقيا اليوم » كان الموضوع الثانى الذى ما من شك فى انـه موضوع أوسع وأكثر اهمية · وقد ألقى المحاضرون ، وبخاصة منهم المحاضر المصرى محمد عبد الله عنان ، نظرة على وضع الاسلام فى القارة الافريقية ، سواء من ناحيـة

العدد (نسبة السكان المسلمين ، الخ ٠٠٠) أم من ناحية الظروف التى تحيط بالدين الاسلامى فى كل بلد افريقى ٠ ومع ان الموضوع قد ركز على الوضعية الراهنة الا ان الاعتبارات التاريخية لم تكن غائبة ، وخاصة مع الاتهام الموجه الى الاستعمار الاوروبى (وهذا قابل للنقاش فى كثير من الحالات) بتشجيع التمسيح أو التنصير على حساب الدعوة الاسلامية ٠ ومن المحاضرين ، وبخاصة منهم السعودى عبد الحليم عويس ، من أبرز بقوة ، العلاقة بين الاسلام والمسيحية ، منظورا اليها ، بوجه خاص ، من ناحية المناقشة ، وبذلك لم يخصص مكان أوسع (وقريب من هذا كانت وجهة نظر الانكليزى مونتغومرى وات) لبحث الامكانية الذاتية وقدرة الاسلام ، التى لا يستهان بها تماما ، على التوسع والتلاؤم ضمن بعض المجتمعات الافريقية ٠

وبالنظر الى النقاش القوى جدا عبر العالم والجارى حاليا حول وضعية المرأة فى مجتمع اليوم ، واستجابة لمطالب الشباب الملحة ، اقترح الوزير مولود قاسم نايت بلقاسم ، كما أشار الى ذلك فى خطاب افتتاح الملتقى ، ان يدرج فى جدول الاعمال موضوع : « المرأة بعد عام المرأة » ، وهى المسألة التى سادت بالفعل لما استحوذت عليه من نحو عشرين محاضرة من بين المحاضرات الاربعين ٠

وقد ظهرت أصوات مختلفة فى الموضوع ، فهناك ، من جهة ، صوت المطالبات العراكية بتحرير وبأسبقية المرأة (كزافيير غوتيى - باريس) التى كان عنـــوان محاضرتها « نحن الساحرات » ، أو صوت الدعوة الهادئة الى علاقات جديدة بين الرجل والمرأة رائدها المحبة والحنان ، وقد جاء ذلك فى محاضرة لفرنسية أخرى هى فرانس كيرى (باريس) ، أو صوت التأكيد الواعى للمكانة التى تحتلها المرأة فى كل مجتمع ، وللحقوق التى يجب ان يعترف لها بها كذلك (وقد جاء ذلك فى المحاضرة الملتزمة جدا التى القتها الجزائرية زهور ونيسى) ٠

وهناك ، من جهة أخرى ، محاضرات هى الى حد ما أكثر محافظة أو تصلبا ولكنها منفتحة على تطور الازمان ، (ومن هؤلاء الاستاذ الليبى عمر التـومى ، الشيبانى) ، وثمة مجموعة محاضرات بدلا من ان تعالج الموضوع من الوجهة المجردة ، والكلامية الاخلاقية ،

أو الاجتماعية الثقافية ، راحت تبرز التطور الملموس لمركز المرأة والمواقع التى احتلتها في هذا المجتمع أو ذاك ، وهذا ما فعلته كليليا سارنيلى تشركوا ، الاستاذة بجامعة نابولى ، التى لمحت مثلا الى وضعية المرأة بايطاليا ٠

ان العدد الكبير من الذين تدخلوا فى النقاش ، وحدة وحيوية هذا النقاش ، كل ذلك جعل من موضوع « المرأة » موضوعا مسيطرا فى هذا الملتقى الحادى عشر ، مما يدل على ان المشكل مطروح أيضا خارج العالم الغربى ٠

وحيث أن التقاليد التاريخية والوقائع الاجتماعية والثقافية الراهنة لمختلف بلاد العالم العربى الاسلامى أو غيرها من المحاضرات متباينة كل التباين ، وبما أنه يتعين مراعاة كل واحدة منها واحترامها فى خصوصيتها ونسق تطورها ونموها ، فان أقل شيء يمكن انتظاره هو حصول اتفاق بشأن هذا الموضوع ٠

والنقطة الرابعة التى لم تحظ باهتمام كبير وهى (هل ثروات باطن الارض نعمة أم نقمة ؟) تعنى من قريب ، وبصورة خاصة ، البلدان العربية المنتجة للنفط بما فيها الجزائر ٠ فالمكان الذى عقد فيه الملتقى ذاته ، وهو واقع على مسافة نحو مائة كيلومتر من الحقل البترولى الكبير حاسى مسعود ، يشكل دعوة الى مراعاة النتائج الايجابية أو السلبية التى يتضمنها استغلال الثروات الطبيعية بالنسبة الى البلاد المالكة لهذه الثروات ٠

وضمن هذا الافق برزت محاضرة على صبرى (1) الذى تناول الموضوع من جوانبه السياسية والاقتصادية الملموسة ٠ واثناء النقاش ، لم تغفل الاشارة الى النضوب المحتمل للثروات المعدنية والبترولية منها بوجه خاص والى ضرورة التزام جانب الحكمة فى استخدام المنتوجات المشتقة منها ، ووجوب التفكير حالا فى الوسائل البديلة المستقبلة ٠

كل ملتقى من هذه الملتقيات يعقد فى مدينة من المدن الجزائرية المختلفة شرقا وغربا ، ساحليا أو داخليا ، وهذا تلبية وتجسيد لرغبة واضحة من منظمى هذه الملتقيات

(1) مدير الابحاث المنجمية فى سوريا سابقا ، ومدير وكالة شيزى بروما حاليا ٠

فى عدم اعتبار هذا المؤتمر مجرد لقاء ومناقشة بين جمع من المثقفين فقط ، بل ان يغدو فرصة للمشاركة وحافزا للبلاد كلها، ولا سيما الشباب الذى يسعى الملتقى الى الاقتراب منه فى كل بلدة هو فيه ، (تبث محاضرات ومناقشات الملتقى فى كامل ربوع المدينة بواسطة مكبرات الصوت) .

ويتيح الملتقى للمشاركين وللطلاب الجزائريين والضيوف الاجانب فرصة للتعرف على مدن ونواحى جديدة من هذا البلد الواسع الذى تمثله الجزائر . وفى ورقلة التى تغيرت ملامحها من مدينة ضائعة فى الصحراء الى مركز للولاية نشيط ومنظم لايملك المرء الا ان يعجب لهذا التطور الخارق للعادة فى مجال البناء والعمران سواء منه ما تم تحقيقه فعلا ام هو فى طور الانجاز مما كان ثمرة برنامج خاص ضبطته الحكومة أثناء الاجتماع الذى عقدته بهذه المدينة الصحراوية (2) فى شهر نوفمبر 1966 .

ان ملتقيات الفكر الاسلامى بموقعها وطرائق نموها وتطورها ، ضمن الاشكالية القائمة بين عزمها الصادق على التمسك بالتقاليد الاسلامية ، والتزامها الراسخ بالتناغم مع متطلبات العالم المعاصر ، تمثل ، فى واقع الامر ، لحظة فى الطريق الشاق ، ولكنه الطريق الحق ، الذى تقطعه الجزائر حاليا نحو نهضة اقتصادية واجتماعية حقيقية .

---

(2) البرنامج الخاص الاول من سلسلة البرامج الرامية الى القضاء على الفوارق الجهوية .

الملتقى الحادى عشر للفكر الاسلامى (*)

(ورقلة - الجزائر)

د. ميكال دى ايبالزا
استاذ بجامعة مدريد



انعقد بمدينة ورقلة فى الجنوب الجزائرى من 6 الى 15 فبراير 1977 م ، الملتقى الحادى عشر للفكر الاسلامى ، ونحن بتقديمنا هذا اللقاء ، سنقيم بنى وهياكل هذه الملتقيات الجزائرية التى هى عبارة عن تظاهرات ثقافية اصيلة وهامة جدا من تظاهرات العالم العربى التى تقوم على الآية القرآنية ذات الدلالة العميقة : «ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم» .

وفعلا فمنذ احد عشر عاما تعقد ملتقيات فى مختلف المدن الجزائرية ، وهو ما يشكل استمرارا أكيدا من بين العديد من المؤتمرات الثقافية بالعالم العربى . وهذه الملتقيات تنظمها وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية الا انها فى الحقيقة تعد بادرة شخصية للوزير مولود قاسم نايت بلقاسم .

وقد عقد الملتقى الحادى عشر بمدينة ورقلة الواحة الصحراوية التى اتخذ منها الخوارج أو الاباضيون عاصمة لهم فى مطلع القرن التاسع عندما طرد الفاطميون الدولة الرستمية من تيهرت . وعلى بعد بضعة كيلومترات من هذه المدينة ، تقوم أنقاض سدراتة ، ومدينة غارداية عاصمة وادى ميزاب حيث يستقرالمذهب الاباضى الجزائرى حاليا . وكانت الملتقيات الاخيرة قد عقدت بالجزائر العاصمة ، وفى تيزى وزو (القبائل

(*) مجلة المنارة : مدريد

الكبرى) ، وفى وهران ، وبجاية (الساحل الاوسط) ، وتلمسان (العاصمة التاريخية بالغرب الجزائرى) وعنابة (الساحل الشرقى للجزائر) .

ان عقد هذه اللقاءات لينهض بالقيم الثقافية لهذه النواحى : مجلة « الاصالة » التابعة لهذه الوزارة تفرد عددا خاصا لتاريخ الناحية ، وهناك مساجد تشيد فى الاحياء والقرى التى لا تتوفر على مثل بيوت العبادة هذه ، وفى كل ملتقى من هذه الملتقيات يخصص موضوع لتاريخ الناحية ، كما تنظم رحلات دراسية وسياحية للمواقع التاريخية (وفى هذا العـام تمت زيارة سدراتة ، وغارداية ، وتوقـرت ، وآبـار النفط فى حاسى مسعـود) .

أما المشاركون فى هذا الملتقى فهم نوعان : من 50 الى 70 أستاذا واختصاصيا معظمهم من الاجانب الذين يحضرون بدعوة من الوزارة، ونحو ألف من الطلبة وتلامذة الثانويات، وعدد من اساتذة التعليم الاصلى .

يلقى الاساتذة محاضراتهم فى الموضوعـات المسجلة بجدول اعمال الملتـقى ، ثـم يشاركون فى المناقشات التى تعقب المحاضرات ، فالطلبة يلـقون باسئلتهم عـلى المحاضرين الذين يجيبون بصورة اجمالية ، وكل موضوع يلقى فيه عدد قد يقل أو يكثر من المحاضرات التى تدوم كل واحدة منها 30 دقيقة ، وتعقيب الاساتذة محدود بعشر دقائق لكل واحد منهم . ويتولى المحاضرون الاجابة على هذه التعقيبات وعلى خلاصة الاسئلة التى يطرحها الطلاب .

ان هذا الاسلوب فى العمل لطويل فى مجموعـه يستغرق ساعات عديدة الا انـه يسمح بمجال أوسع ومتوازن من تبادل الآراء حول الموضوع المطروق ويتيح للمشاركين امكانية التفكـير مطولا فى الموضوع الرئـيسى المطروح للمناقشة .

والذى تجدر الاشارة اليه فى المقام الاول هو ان تواجد اساتذة اجانب يضفى على هذه الملتقيات او اللقاءات طابعا اصيلا . ففيهم المسلمون وغير المسلمين ، وفيهم العرب المسلمون ، وفيهم الاتراك ، والهنـود ، والسوفيات ، والاندونيسيون ، والافارقة ، ومن العالم اجمع ، وفيهم مستشرقون ، وفيهم اختصاصيون من كل نوع . وفى هذه السنة

قدم (انصار قضية تحرير المرأة ورجال القانون) مجموعة متنوعة من الآراء حول كل موضوع بذاته ويشكل هذا المزيج عاملا قويا من عوامل الانفتاح الدولى متحدثا باللغة العربية وبالفرنسية والانكليزية مع ترجمة آ نية ٠

ان موضوعات هذا الملتقى الحادى عشر لتمثل عينة حسنة للاتجاه التقليدى السلفى والعصرانى لهذه اللقاءات فى آن واحـد ٠

1 ـ تاريخ الرستميـين فى تاهـرت وورقلـة ٠

لقد نوقشت ـ زيادة على الجوانب التاريخية البحتة ـ مشكلة العـرق والاجنـاس فى الاسلام ٠ وقد تحدث عن الخوارج كل من الشيخ سليمان داود بن يوسف والاستاذ الليبى عمرو خليفة النامى ٠ وكان الشيعة والبربر حاضرين كذلك باعتبار ان الاباضيين كانوا ولا يزالون بربرا جنسا ، ولغـة ٠

2 ـ الاسلام فى افريقيا اليوم ٠

تناول المحاضرون بالنقاش الجوانب الاجتماعية والتاريخية للموضوع ، بيد ان قوة انتشار الاسلام وتوسعه واستراتيجيته أمام القوى المنافسة له (الماركسية ، والمسيحية، والامبريالية ، والصهيونية) قد طال الكلام فيها ٠ وكانت المناقشات حول مظاهر التخلف الاجتماعى فى النواحى التى انتشر فيها الاسلام بافريقيا مناقشات هامة ، وكذلك الشأن بالنسبة الى بعض التعقيبات التى تناولت الثقافات المحلية بافريقيا ٠

3 ـ المرأة بعد العـام العـالمى للمـرأة ٠

تضافر على الحديث فى هذا الموضوع رجـال القانون والخبـراء الاختصاصيون الاوروبيون فى شؤون المرأة ـ ومعظمهم نساء وعدد كبير من رجال الفكر المسلمين المحافظين وفريق بارع للغاية من مناصرى قضية المرأة فى تركيا وباكستان ٠ وكـان التوازن بين نزعة المحافظة النظرية ونزعة التطور العملى يبدو أوفق فى نظر اصحاب النزعة الاولى ، لكن ـ وهم يعترفون لاتباع النزعة الثانية بحقوقهم ـ لا يمكننا ان نأمل مزيدا على ذلك نظرا لعدد المشاركين من المحافظـين ٠ فمجرد طرح الموضوع للمناقشة بانفتاح كما حصل بالفعل (سواء من ناحية مقترحات المؤتمرين أم من حيث العبارات

المتعمد تلوينها وتعميمها من قبل المحافظين التقليديين) يبدو فى حد ذاته عنصرا ايجابيا للغاية وممثلا تمام التمثيل لجدلية التقدمية والمحافظة بين المشاركين فى الملتقى ·

4 ـ هل الثروات الباطنية (أو باطن الارض) نعمة أم نقمة ؟

زيادة على جوانب تقدير وتقييم ما وهبه الله ، ومزايا التقنية ، فقد درست كذلك المخاطر الناجمة عن الاستعمار الاقتصادى الجديد ، وامبرايالية الشركات المتعـــددة الجنسيات او الاوطان · وقد زاد المحاضر الاخير الاستاذ «د ا ود كاون» من جامعة لندن بتقديمه محاضرته التى عنوانها « الانسان خليفة الله فى الارض » فاوضح مرة أخـرى شعـــار الملتقى المتمثل فى « **ان الله لا يغـير ما بقـوم حتى يغـيروا ما بأنفسهم** » حيث لا تكاد النزعة التقليدية أو سلفية الآية القرآنية التى مضى عليها ما يقرب من 14 قرنا تخفى تطلع العالم الاسلامى الحديث بصفة عامة والاشتراكية الجزائرية بصورة خاصة الى التقدم الاجتماعى ·

وفعلا فان لهذه المؤتمرات او الملتقيات حول الفكر الاسلامى مظهرا تقليديا واضحا قد صدم بغير حق فى رأى بعض المشاركين (انظر ب·شالميطا) (1) « **ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت** » فى «نشرة الجمعية الاسبانية للمستشرقين» مدريد IX| (1973 205ـ203) ·

فباستثناء مؤتمرات الغربيين الاكاديمية بصورة عامة ، نجد ان منهج التقديم الاسلامى للموضوعات يجرى حتما بعبارات،ومفاهيم تبدو تقليدية للغاية · ان اختيار الافكار الذى تقوم به الصحافة الجزائرية يساهم اكثر فى اعطاء هذه الملتقيات،وفى منح الوزارة التى تنظمها شهرة بالجهالة وبالرجعية بين الطبقـة الحاكمة والمثقـفة « العصرية » فى البلد ومع ان النصوص التقليديه عموما للمحاضرات متزنة جدا فى بعض الاحيـان وقابلة للتأويل اثناء المناقشات الطويلة ، فانه لا يسعنا الا ان نلاحظ نزعة تقليديـة جلية فى معالجة الموضوعات وفى اللغة المستعملة كما هو العادة فى السياق الدينى ·

والاسلام بتنظيمه الدينى لمجتمـع سياسى يثبت هنا بالذات جدلية خاصة للغاية بين الخطاب الدينى ، التقليدى ، وحتى الروحى أو اللازمنى ، والواقع الملح للمجتمـــع الاسلامى الراهن · وهنا نقدر الاهتمام الخاص الذى يوليه الاسلام لخير المسلمين عامة ·

(1) شارك فى الملتقى السادس الذى انعقد فى قصر الامم بنادى الصنوبر فى العاصمـة سنة 1972 ، غادر الملتقى احتجاجا على تذكيره بأبسط قواعد اللياقة والذوق فى ملتقى يضم اساتذة جامعيين وطلبة وطالبات ...

ان الفكر الاسلامى يبدو أنه ـ وأكتب للاسبان لا للمسلمين ـ تمرين روحى مُرْضٍ جدا لربط الواقع الراهن بنظام من الفكر التقليدى · فهناك من المسلمين من هم بحاجة الى ان يكتشفوا بان نشاطاتهم العصرية تنسجم مع النظام الروحى ، ومع الخطـــاب القرآنى والسنة الاسلامية،ومثل هذه الملتقيات تيسر لهم هذا اللون من التفكير ، وهم يعدون بالآلاف دون شك فى الجزائر ·

فالذين هم بحاجة الى اقامة هذه العلاقة بين القديم والحديث حتى لا يقعوا فى «عصرية لائكية» لا ترضى الروح ، او فى سياسة تعصب دينى ، يمكنهم ان يتبوأوا أية وثبة شاءوا فى الفراغ الاجتماعى السياسى شريطة ان تكون القيم الدينية للاسلام محمية الى أبعد الحدود ·

وليس من الممكن ولا من المناسب هنا ان ندخل فى تفاصيل البنية الاجتماعية الدينية للجزائر،هذه البنية التى تفسر الى حد ما هذه الملتقيات فهى أمر يشترك فيه كثير من البلدان العربية ·

ان الاستعمار الفرنسى الذى طال امده واشتد اضطهاده فى هذا البلد بصورة خاصة ، قد جعل القدرة الدفاعية لشعب بأكمله تتركز فى الدين الذى تفهمه الغالبية العظمى منه بمعناه التقليدى والمحافظ · وتلك نتيجة بديهية للجهل الذى كان يسود عامة الشعب · وبعد الاستقلال كان من المهام الاساسية للسلطات العمومية من الوجهة الايديولوجية ان تعمل شيئا فشيئا وفى اطار اسلامى على تفتيح هذه الذهنية السائدة كامة دينية فى اوساط فئات معتبرة من السكان · فالتطور السريع للطبقة المسيرة وجماهير الطلاب لا يفتأ يبرز الهوة التى قد تزداد عمقا بين اقلية محظوظة من الجزائريين المتنورين أو العصرانيين والجماهير الشعبية بالبلاد • ان الاختيارات الاجتماعية الرسمية وغياب الجماهير الشعبية،ليزيدان من خطورة ظهور بعض الحركات الشعبية غير المتوقعة ضد الاقلية الحاكمة ، وذلك بالارتكاز على ايديولوجية دينية محافظة بالذات ، وبالاعتماد على مساندات دولية فى العالم العربى · وأمام هذا المشكل يبدو ان الجماعة الحاكمة فى الجزائر المهتمة جـد الاهتمام بالمسائل التقنوقراطية للحكومة قد فوضت الى وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية أمر القيام بالمهمة الكبيرة المتمثلـــة فى التأطـــير

الايديولوجي لهذه القوى التقليدية أو المحافظة ، وفي ارضاء مطالبها. لكن الوزارة تسعى في الوقت ذاته، وبفضل هذه الملتقيات، الى جعل هذه التيارات المتزمتة تنفتح على مشاكل المجتمع الجزائري الاكثر أهمية ، وعلى التيارات الايديولوجية الدولية في العالم الاسلامي ، وفي المجتمع الحديث . ان العدد الكبير المتنوع من المحاضرات والموضوعات المطروقة المعروضة دائما في صيغ متزمتة محافظة بل وبدائية ليبين بوضوح هذه المهمة التربوية والتقدمية التي تكتسبها جهود المسؤولين الجزائريين ، وعلى سبيل المقارنة قد يجرى التفكير في المؤتمرات الدينية الاوروبية القليلة في دعوة احد المسلمين مثلا للاطلاع على وجهة نظره بشأن المسائل الدينية .

ان هناك عملا فكريا وتربويا بعيد المدى يجرى تحقيقه اثناء هذه الملتقيات ولا يمكن لتظاهرات النزعة المحافظة الظاهرة والمتعمدة التي قد تصدم البعض أن تنسينا ان هذه الملتقيات الجزائرية لا يمكن ان نقارنها بمثلها في العالم الاسلامي والعربي حيث تتوالى المؤتمرات النخبوية دونما اي استمرارية ، وبقليل جدا من الاثر على عامة الشعب ولا حتى المؤتمرات التي تنظمها العربية السعودية بمناسبة موسم الحج السنوي .

ومن ناحية أخرى فان مجموعة الاساتذة ورجال الفكر العرب منهم وغير العرب المدعوين الى القاء محاضرات أو لمجرد المشاركة في الملتقى تشكل شبكة من علاقات دولية هامة ومفيدة للجزائر في الميدان الديني والثقافي . فمثل هذه الضيافة السخية الكريمة تسمح بلقاءات مثمرة جدا بين المستعربين الغربيين وزملائهم المسلمين ، بين المثقفين من مختلف النزعات ، بل وحتى بين المفكرين الجزائريين الذي قد تحتاج لهم مثل هذه الفرص السانحة للقاء والتفكير في موضوعات دينية وثقافية ذات المصلحة العامة ...

اننا لا نزعم بهذه الملاحظات الوجيزة امكان الاحاطة بهذه الظاهرة الدينية والثقافية التي تمثلها هذه الملتقيات الجزائرية للفكر الاسلامي .

فهناك أطروحات جامعية كثيرة تعالج حاليا هذه الملتقيات وما تتركه من اصداء ، حيث يجد المرء حصيلة وافرة من الافكار التي تتفاوت من حيث القيمة والتي تمثل تمام التمثيل مع ذلك الحياة الثقافية الراهنة .

ونود أن نختم هذه الملاحظات بايراد جملة أفكار حول الملتقى الحادى عشر لهـا علاقة مباشرة ، بقدر او بآخر ، بالحضارة الاسبانـيـة ٠

المعاينة الاولى هى الاهتمام الجزائرى بالمؤرخين الاسبان. فبالنظر الى الماضى المشترك الطويل بين البلدين نجد ان الموضوع التاريخى الذى يطرح على بساط البحث فى كل ملتقى يشكل فرصة لدعوة بعض المؤرخين المستعربين الاسبان بصورة منتظمة وربما كان بامكان المنظمين توسيع هذه المجموعة من الاخصائيين الاسبان، لكن تجربة غير ناجحة قد سبق ان اجريت ٠ فالاسبانيون يجهلون اولا يحترمون القيم التقليدية الاسلامية واللغة الاتفاقية المستعملة حاليا فى العالم العربى والاسلامى لطرق موضوعات دينية ٠ وفى الملتقى الحادى عشر شارك الاساتذة: غوميث نوغالس، وفيغيرا، بموضوع يتصل بتاريخ الرستميين ، والاستاذ ميغال دى ايبالزا بمحاضرة له عن الاسلام فى اسبانيا اليوم ٠

ولقـد كانت المحاضرات كلها باللغة العربية الا انـه يمكن استعمال الفـرنسية والانجليزية وكذا الاسبانية والالمانية ، وقد دعى الى هذا الملتقى كذلك ثلاث نسوة هن استاذات فى الجامعـة الاسبانيه لكنهن لـم يحضرن ، وكان بامكانهن ، وهـن المستعربات ، ان يتدخلن لدى معالجة الموضوع المهم الثالث كما فعلت بنجاح المستعربة الايطالية كليليا سارنيلى تشركوا[1] وبمجرد التنسيق يمكن ان نتوقع فى المستقبل دعوة اخصائيين آخرين من الاسبان للتحدث فى موضوعات لن تقتصر على الناحية التاريخية فقـط ٠

وبمحضر شخصية صحراوية برز بمساندة الجمهور أكثر مما برز بمشاركته فى أشغال الملتقى لم يكن هناك الا تلميحات قليلة للسياسة الاسبانية أو لاسبانيا -

وقد جرى الحديث عدة مرات عن الحضارة الاندلسية الوسيطة ، وعن الجو الاخوى الذى ساد المؤتمر الاسلامى المسيحى فى قرطبة ٠

فمن الوجهة المسيحية ، وفيما عدا وجود ومشاركة بعض رجال الكنيسة المعروفين مثـل غوميث نوغاليس ومونت غومرى وات اللذين وجهت اليهما الدعوة لجدارتهما كباحثين، هناك موضوع اثار مناقشات عديدة فى القاعة ، الا وهو السياسة الدولية

(1) C.S. Cerqua.

التى ينتهجها الفاتيكان ضد الاسلام والنشاط التبشيرى للبعثات المسيحية بالبلاد الاسلامية . فعلى الرغم من الاحترام التقليدى الذى تستوجبه المسيحية ، لم تكن هناك الا اشارات قليلة الى الموضوعات الجدلية التقليدية مثل التثليث وغيره ... ان الاسلام ليميل الى ان يعتبر نفسه مضطهدا بفعل مؤامرات دولية (الصهيونية ، الماركسية ، الامبريالية ، التبشير) كما انه يتأثر عادة لنشاط المبشرين المسيحيين فى أوساط المسلمين .

اعتقد ان من واجب المسيحيين ان يفكروا مليا فى طرائق العمل التى تتبعها البعثات المسيحية الموروثة عن الاستعمار ، وان يفهموا كذلك المعنى الجدلى لموقف المسلمين من النشاط التبشيرى . وانى لاعتقد فى الواقع ان الموقف العدائى الذى يقفه المسلمون من النشاط التبشيرى المسيحى مرجعه الى غضب المسلمين الكامن امام وقائع المسيحية الراهنة التى تختلف تمام الاختلاف عن الاسلام وهو ما لا يمكن الافصاح به ، علما بان النصوص القرآنية تدافع عن المسيحية ، الا ان هذا الغضب يعبر عنه بصورة غير مباشرة عن طريق مهاجمة النشاط التبشيرى.انه لامر جدير بأن يطرح للدراسة .

ومن قبيل النكت الاسلامية المسيحية نذكر تدخل امام مسلم المانى فى المناقشة. أشار الى وثيقة صدرت أخيرا عن الفاتيكان تتعلق باستحالة ان تمارس المرأة وظيفة الكهنوتية أو القسوسة وذلك ليبين ان ديانات أخرى تمارس نوعا من التمييز الاجتماعى الدينى بصدد وظائف المرأة .

هذا وسيعقد الملتقى الثانى عشر للفكر الاسلامى بمدينة باتنة عاصمة جبال الاوراس ، وذلك فى شهر جويلية 1978 . وكمثال عن ايديولوجية هذه اللقاءات نورد ترجمة لتوصيات الملتقى الحادى عشر .

1 ـ مساهمة الرستميين فى حضارة الاسلام وفكره .

توصى اللجنة بما يلى :

أ) ان تهتم وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية ببعث التراث الاباضى فى نواحيه المتعددة ، فتكلف من يبحث عن المخطوطات التى ما تزال فى حوزة الافراد،

والجماعات من الاباضيين تمهيدا لطبعها ونشرها ، كما تعمل على اعداد ببليوغرافيا (ثبت) مستوفاة شاملة لكتب الاباضية الموزعة فى انحاء العالم ، وأن يكلف بهذا الامر شخص ذو كفاية وتجربة فى هذا الميدان ٠

ملحوظة : (تشيد اللجنة بكفاية الدكتور عمرو خليفة النامى فى هذا المجال لخبرته الطويلة فيه) ٠

ب) توصى اللجنة ـ ضمن نطاق بعث التراث الاباضى أيضا ـ برصد الاطروحات والرسائل التى قدمت فى مختلف الجامعات فى موضوع التاريخ الاباضى والعقيدة الاباضية وتصويرها والاحتفاظ بها لتصبح فى متناول من يود الاطلاع عليها ٠

ج) استكمالا للجانبين المذكورين آنفا ، ترى اللجنة ان تقوم الجهات المختصة بتشجيع البحث عن آثار الرستميين عامة والاباضيين خاصة واسترجاع ما يمكن استرجاعه من هذه الآثار التى تسربت الى الخارج زمن الاحتلال ، وبتوجيه نداء لعلماء الآثار المسلمين كى يولوا الآثار الاباضية اهتمامهم ٠

د) وضمن هذا الهدف أيضا ، توصى اللجنة بأن تشفع دراسة التراث الاباضى بدراسة واقع المجتمع الاباضى دراسة عملية ميدانية تتناوله من النواحى الاثنوغرافية والديموغرافية والاجتماعية ، رغم ادراك اللجنة ان الطريق الى مثل هذه الدراسة قد يكون محفوفا ببعض الصعوبات فانها توصى بان تقوم الجامعات بتشجيع هذا النوع من الدراسة ، وذلك فى نطاق دراسة المجتمع الجزائرى والمجتمع العربى عامة ٠

هـ) تقترح اللجنة بأن تؤلف من السادة المهدى البوعبدلى وسليمان داود بن يوسف ، وعمرو خليفة النامى وفرحات الجعبيرى لجنة خاصة تقوم بالاعداد اللازم لاصدار كتاب يتضمن دراسات وبحوثا عن الاباضية فى تاريخها وحاضرها ٠ ويكلف بتلك الدراسات والبحوث عدد من الدارسين فى مختلف انحاء العالم بحيث يكون الاجل المضروب لتسلم تلك الابحاث ديسمبر 1978 حتى تتمكن اللجنة المذكورة من تحرير الكتاب واعداده للطبع خلال سنة 1979 ، وترجو اللجنة ان يجد هذا الاقتراح تأييدا وتشجيعا من وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية ، بل تقترح أن يصدر هذا الكتاب باسمها وباشرافها ٠

و) ترى اللجنة أن يتجه الباحثون المسلمون فى شتى المذاهب الاسلامية الى القيام بدراسات عن مختلف الفرق والمذاهب الاسلامية ، على ان تكون دراسات علمية موضوعية وان تتناول الفرق والمذاهب التى نشأت فى ظل الاسلام ، وكان لها فى دار الاسلام دور تاريخى مرموق ، وتنبه اللجنة الى ضرورة التمييز فى تلك البحوث بين المنهج التاريخى والمنهج الكلامى المتصلين بتلك الفرق ، وعلى أن يستعمل المنهجان معا لاثراء الفكر الاسلامى المعاصر وايجاد قدر أكبر من التفتح بين المسلمين فى المذاهب المختلفة .

2) الاسلام فى افريقيا اليوم .

أ) ان تعمل دراسات تكميلية تفصيلية فى المشكلات والعناصر التى ما زالت فى حاجة الى الدراسة فى موضوع الاسلام بافريقيا اليوم .

ب) تبنى القضايا والمشكلات التى يواجهها المسلمون فى افريقيا السوداء ، وبذل مجهود لامداد هذه البلاد بكل ما تحتاج اليه من وسائل التعريف بالعلوم الاسلامية ، وتزويدها بالمدرسين والدعاة وعلماء الدين المستنيرين وبالمصاحف والكتب والنشرات التى تزيدهم علما بأصول الاسلام وتعاليمه الصحيحة .

ج) العمل على اعداد الدعاة وعلماء الدين والوعاظ الذين يمكن أن يسدوا هذا الفراغ فى افريقيا الغربية والوسطى والشرقية ، ومن المستحسن أن يكون هناك عدد كبير من الدعاة الافارقة انفسهم يجرى اعدادهم اعدادا اسلاميا وفكريا صحيحا .

د) دعوة الدول الاسلامية ومنظمة المؤتمر الاسلامى وما اليها من الهيئات الاسلامية الاخرى للمساهمة فى انشاء جهاز للدعوة الاسلامية ، وذلك لتقديم المعونات الفنية والعلمية والاقتصادية للبلاد الافريقية المحتاجة اليها .

3) المرأة بعد عام المرأة .

أ) يوصى الملتقى المسؤولين والعائلات فى المجتمعات المختلفة المستوى فى العالم كل حسب معتقداته الدينية ، وقيمه الخلقية ، ونظامه الاجتماعى بالعناية بالاسرة وبالاهتمام خاصة بالمرأة بما لها من حقوق وما عليها من واجبات .

ب) وفيما يتعلق بالعالم الاسلامى بالذات ، يوصى الملتقى المسؤولين والعائلات بتطبيق ما منحه الاسلام للمرأة من حقوق وما كلفها به من واجبات تتفق مع طبيعتها وخصائصها ومواهبها ولا سيما فى ميدان الاسرة التى لها فيها المركز الاساسى والاثر العظيم ، لانها الخلية الاجتماعية التى تصلح بصلاح المرأة ووعيها وحسن سلوكها كما تفسد بفسادها ٠

ج) أن تذلل الصعوبات التى تواجه تعليم المرأة فى مختلف المستويات ، وذلك بتثقيفها ثقافة صحيحة تمكنها من اداء مهمتها ووظيفتها الاجتماعية والتربوية التى تتفق مع المقاصد والآداب الاسلامية ٠

د) ان يكفل للفتاة المسلمة خاصة تعليم وتربية دينية تشمل احكام الاسلام ونظامه وثقافته وذلك فى جميع مراحل التعليم بما يحقق الفهم والتطبيق تحصينا لها وللفرد والاسرة والمجتمع ٠

هـ) أن توضع برامج ووسائل ملائمة لتوعية وتثقيف المرأة الريفية ٠

و) الحفاظ على حشمة اللباس انساتر لمفاتن المرأة داخل وخارج بيتها وفقا لما يأمر به القرآن والسنة النبوية الثابتة ، فهو صيانة للمرأة وللرجل وللاسرة والمجتمع ٠

ز) مساعدة المرأة والاسرة المسلمة فى البلاد غير الاسلامية على رفع مستوى ثقافتها الاسلامية وتربية أطفالها تربية سليمة وفق الوسائل الحديثة ، وعلى كفالة المعاملة العادلة فى تلك البلاد للاسرة الاسلامية ، وتوجيه المرأة المسلمة فيها الى ضرورة تجنب بعض السلوكات التى لا تتماشى مع تعاليم الاسلام وآدابه ، وحض الدول والمنظمات الاسلامية على تحقيق هذه المساعدات بكل الوسائل الممكنة من مالية وبشرية ٠

4) هل بطون الارض نعمة أم نقمة ؟

أ) توصى اللجنة بايجاد جهاز وطنى كامل ينهض بجميع العمليات من التنقيب الى تصنيع المواد حتى نحافظ على هذه النعمة ونوجهها الى التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

ب) يجب على البلدان العربية والاسلامية ان تخصص جانبا من عائداتها النفطية لاستثماره داخل بلادها فى التصنيع والزراعة مما يحد من حرية الاقليات فى التبذير .

ج) يجب ان تراعى فى عملية تخطيط الاستثمار مسألة المحافظة على قيمة هـذه النعمة لان وجود النفط فى باطن الارض أفضل من توجيه رؤوس الاموال الى البنـوك الاجنبيـــة .

د) على الدول الاسلامية المنتجة أن تساعد البلدان المحرومة من هذه النعمة وأن توجه اليها العائد مباشرة لا بواسطة البنوك الاجنبية والدول الاسلامية التى لا تملك شيئا من هذه الخيرات فى شبه الجزيره يجب أن تستفيد من هذه الثروة .

الملتقى الحادى عشر للفـكر الاسـلامى (١)

د • ارجمنـد كـوران
استاذ التاريخ بجامعة هاكتب
ـ انقرة ـ (تركيا)



ان ملتقى الفكر الاسلامى الذى يقام ـ منذ 1967 ـ سنويا فى مدينة من مـدن الجـزائر ، انعقد هذه السنة فى مدينة ورقلة الواقعة فى الصحراء الكبرى على مسافة 800 ميل من البحر • انتظمت هذه الملتقيات لحل مشاكل حالية يعيشها العالم الاسلامى • وذلك على ضوء العلم وبالنظر فى الفكر الاسلامى من كل زواياه • وقد دعى اختصاصيون من كل اقطار العالم لقراءة ومناقشـة البحـوث •

ولطلاب التعليم العالى والثانوى الجزائريين أن يحضروا فى الملتقى ويلقوا أسئلة على المحاضرين • وتنشر الصحافة المحلية مقالات شتى بمناسبة انعقاد هذه الملتقيات التى تنظمها وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية فى الدولة الجزائرية • ويستطيع الشعب الجزائرى أن يتابع ما يجرى فى الملتقى بواسـطة الصحافة الناطقة والمكتوبة •

والموضوعات المسجلة فى جدول أعمال ملتقى هذه السنة هى كالآتى :

(I) مقال نشر فى المجلة الشهرية للثقافة التركية بتاريخ II افريل 1977 •

1 ـ الخدمات التى أسداها للفكر والحضارة الاسلاميين بنو رستم الذين بسطوا هيمنتهم على اقليم ورقلة اثناء القرون : الثامن ، والتاسع ، والعاشر للميلاد .

2 ـ الاسلام فى افريقيا اليوم .

3 ـ المرأة بعد عام المرأة .

4 ـ بطون الارض أهى نعمة أم نقمة ؟

ان قرابة 200 من رجال العلم والدين ومن رجال الدولة ومن الصحفيين الذين جاءوا من سبعة وعشرين بلدا من أقطار مختلفة شاركوا فى الملتقى الحادى عشر للفكر الاسلامى .

ومن بينهم شخصيات معروفة مثل الاستاذ مونتغومرى وات (ايدمبورغ) والاستاذ شارل جيدز (دانفير)،والاستاذ عبد الكريم سايطوح (طوكيو) ، والاستاذة د. كليليا سارنيلى تشركوا،(نابولى) والاستاذة وداد القاضى،(بيروت) والدكتور م. الراشدى (جاكارتا ـ السفير سابقا) والشيخ شماحى (الوزير سابقا ـ صنعاء) والدكتور اسماعيل باليك (فيينا) . وممن حضروا الملتقى من تركيا الدكتور سليمان أتس ، رئيس الشؤون الدينية والدكتور على أيدين ممثل المجلس الاعلى للشؤون الدينية ، وعقيلة رئيسنا لمجلس الشيوخ السيدة ب . أريبوران ، والدكتورة آمال ايزين العضوة فى معهد البحوث للثقافة التركية ، ومحرر هذا المقال .

ومن جهة أخرى ، أستاذة اللغة الفارسية فى جامعة أتاتورك الدكتورة صائمة اينال بمرافقة زوجها الدكتور الصاوى من جامعة طهران،وقد تالف من ثلاثة اشخاص يترأسه المفتى عبد الغنى عبد اللطيف من الاتحاد السوفياتى . كلهم شاركوا ايضا فى الملتقى.

وقد افتتحت الاعمال بخطاب وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية مولود قاسم نايت بلقاسم . وكان الامين العام لملتقى البلاد الاسلامية أمادو كريم غاى حاضرا فى حفلة الافتتاح .

اما ما يخص الموضوع الاول : تاريخ بنى رستم فقد قرئت ونوقشت عنه سبعة بحوث . ولن نطيل الكلام عنها لان لها أهمية اقليمية .

وكان الموضوع الثانى الذى عرض للاسلام فى افريقيا مثيرا للاهتمام .. وقرئت حوله ثلاثة بحوث مشتملة على تعداد المسلمين فى كل بلد افريقى مع وصف أوضاعهم السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية .

وقد انصب الاهتمام بشكل خاص على الخطر الذى يهدد الاسلام فى افريقيا من قبل المبشرين المسيحيين .

والموضوع الذى أعير أكبر أهمية فى الملتقى هو الثالث : المرأة بعد عام المرأة .. فان واحدا وعشرين بحثا من الثمانية والثلاثين التى عرضت على الملتقى كان موضوعها : حقوق المرأة . وقد تناولت بحوث الاتراك هذا الموضوع أيضا . وفى البحث المحرر بالفرنسية الذى عنوانه «المرأة التركية الوارثة للتقاليد الوطنية والاسلامية» أبرزت فيه الدكتورة آمال ازين نشاط المـرأة التركيـة فى ميادين الفـن، والادب، والعلـم، والسياسة قبل ظهور الاسلام وبعده . وقد دعمته ببراهين متينة . أما ما يخص السيدة ب. أريبوران فقد بينت فى بحثها المحرر باللغة الانكليزية الذى عنوانه « المـرأة التركية وقرارات ملتقى مكسيكو » الحقوق التى ظفرت بها المرأة التركية بفضـل اصلاحات أتاتورك والمقترحات التى قررت الجمعيات النسائية التركية ابلاغها لنسوة مكسيكو أثناء ملتقاهن الذى أقيم فى أنقرا من الخامس الى الثامن من ديسمبر 1975 . وقد حاولت أنا بنفسى أن ألخص – فى مقال حررته بالفرنسية عنوانه « نمو حقوق المرأة فى تركيا » – الحقوق التى كسبتها المرأة التركية منذ الاصـلاح (تنظيمات) حتى أيامنا هذه .

وقد استمع المشاركون فى الملتقى باهتمام الى بحوث الوفد التركى التى أثارت عدة أسئلة . ومما حظى بالتنبيه عليه ظفر المرأة التركية – فى العالم الاسـلامى – بحقوق أوفر وأكثر .

والموضوع الاخير يهدف الى بيان : ان الثروات المستكنة فى بطن الارض أهى نعمة أم نقمة ؟ وقد عالج المشكلة خمسة بحوث أقام أستاذ الجغرافية فى جامعة الجزائـر الدكتور الجيلالى صارى التركى الاصل فى بحثه البرهان على أن هذه الثروات المستثمرة بصفة منتجة تعود بالخير على البلاد الاسلامية اذ هى فيها فى نمو مستمر .

وقد استمر الملتقى عشرة أيام صادق فيها باجماع على القرارات التى قدمتها اللجان وقرر أن يجتمع المؤتمرون فى المرة المقبلة فى مدينة باتنة ٠

وفى جلسة الاختتام القى الدكتور على أيدين خطابا بالعربية حول التربية الدينية فى تركيا وكان له وقع جد حسن ٠ وفى أيام الملتقى نظمت رحلتان الى ضواحى مدينة ورقلة ٠ زار المؤتمرون فى الاولى حاسى مسعود ٠ وهى من المناطق الرئيسية المنتجة للنفط فى الجزائر ، ومدينة تقرت منشأ طريقة « التيجانى » ٠

وادتنا الرحلة الثانية الى مدينة غرداية مركز الخوارج ٠

ومدينة ورقلة التى أقيم فيها الملتقى والتى عدد سكانها ستون الف نسمة هى ذات اهمية بفضل مساجدها،وبيوتها العتيقة،وسوقها القديمة الواقعة ازاء متاجرها الحديثة،ومكاتبها،ومتحفها « الصحراء » ٠

أعرب عن كل امتنانى لسعادة الوزير الجزائرى للتعليم الاصلى والشؤون الدينية ذى الثقافة الكبيرة والشخصية الدينامية السيد مولود قاسم نايت بلقاسم للصداقة والاستقبال اللذين تفضل بابدائهما للوفد التركى ٠ واعبر عن شكرى للسفير فايق مالك الذى دعانا بكل ظرف لطعام الغداء فى السفارة التركية اثناء اقامتنا القصيرة المدة فى مدينة الجزائر ولحسنة كوران الامين العام للسفارة ولعقيلته اللذين استطعنا بفضلهما أن نزور ونشاهد آثار المدينة الباقية الى الآن منذ عهد الاتراك ٠

حـــول الملـــتقى الحـــادى عشـــر للفـــكر الاســـلامى (*)

ابن الطـيب
مندوب جريدة «الفجر الجديد» الليبية
الى الملتــقى

- **ضرورة اعـداد الدعـاة من الافـارقة لنشر تعـاليـم الاسـلام فى افريقيـا .**
- **الاســرة لا تفســد الا بفســاد المــرأة والـرجـل معـــا .**
- **ايجاد الخـيرات الوطنية اللازمـة للسيطــرة على قطـاع الطـاقة بأجمعـه .**



انعقد فى الفترة ما بين السادس الى الخامس عشر من فبراير 1977 م ، فى مدينة ورقلـة بالجمهورية الجزائرية الملتقى الحادى عشر للفكر الاسلامى الذى تشرف عـلى الاعداد له وتنظيمه وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية .

وقد دعى الى هذا المؤتمر مفكرون من معظم انحـاء العالم ، يحملون مختلف الاتجاهات الدينية، والفكرية ، وشتى المذاهب المتطرفة، مناصرة، او غير مناصرة للاسلام، مما أكسب الحوار طابعا ثريا خاصا دفع بالملتقى الى أداء الغرض المرجو منه .

وقد احتوى جدول اعمال الملتقى أربعة بنود هى :

1 ـ مساهمة الرستميين فى حضارة الاسلام وفكره .

2 ـ الاسلام فى افريقيا اليوم .

3 ـ المرأة بعد عام المرأة .

4 ـ هـل بطـون الارض نعمـة أم نقمـة ؟

وقد استغرق بحث النقطة الاولى ثمانى محاضرات ، وساعات طويلة من الحوار فى المناقشة التى طرحت من خلالها، حيث تلتها النقطة الثانية والتى كان عدد المحاضرات

(*) نشر بجريدة «الفجر الجديد» الليبية بتاريخ 9 مارس 1977 ، العدد 1409

فيها ست محاضرات تناولت معظم الجوانب الخاصة بحاضر الاسلام فى افريقيا،والطرق المقترح اتباعها للوصول الى مستقبل افضل لنشر الاسلام فى مواجهة كل الحملات التبشيرية الاستعمارية التى تخالف روح الدين المسيحى نفسه كما صرح بذلـــك الدكتور المسيحى سلفادور غومث نوغاليس ، الذى يشغل منصب رئيس قسم الفلسفة الاسلامية بالمعهد الاسبانى العربى بمدريد .

وكان من أبرز المحاضرات التى ربطت حضارة الاسلام ببقاع قصية ، هى محاضرة الدكتور دينس ووكر الاستاذ بقسم دراســـات الشرق الاوسط بجامعة مليـورن ـ أستراليا ـ عن ـ علاقة الافارقة الامريكان بالاسلام فى التاريخ الماضى والمعاصر ـ والتى سلطت الضوء على الاسلام كقوة تدفع الى النضال ضد الاضطهاد والعنصرية حتى بالنسبة لغير المسلمين فى أمريكا .

وقد كان للنقطة الثالثة الخاصة بوضع المرأة نصيب هائل من المحاضرات والحوار ، فقد القيت فيها احدى وعشرون محاضرة من أبرز المفكرين العرب المسلمين والمستشرقين، كان من ابرزهم المفكرة الالمانية ـ سيغريد هونكه ـ صاحبة كتاب ـ شمس العرب تسطع على الغرب ـ حيث قدمت فى محاضرتها ـ المرأة العربية فى صدر الاســـلام كنموذج ـ وعيا حقيقيا بظروف المرأة فى المجتمع المعاصر ، واقتراحات جادة للتحسين من وضعها باستلهام العبرة من الفترة المضيئة فى التاريخ البشرى الذى حددت مفاهيم تليق بالانسان وتعمق احترام ذاتيته المتفــردة .

وكان للدكتورة ـ ايفادى فيترى ماروفيتش ـ وهى استاذة بكلية البنات بجامعة الازهر ، وعضوة المركز الوطنى للبحث العلمى بباريس ، دور فى ايضاح نقطة قانونية مهمة فى محاضرتها ـ المرأة المسلمة والفرنسية أمام القانون ـ بينت من خلالها تفصيلات تؤكد تقدمية القانون الاسلامى بالمقارنة مع القوانين الوضعية الاخرى ، الامر الذى أكده الاستاذ الاكحل بن حواء ـ بقدر ما ـ وهو محام جزائرى ـ فى محاضرته ـ مقارنة بين تزويج المرأة فى الشريعة الاسلامية والقوانين الوضعية ـ .

وإجمالا يمكن القول ان هذه النقطة ـ أعنى بند المرأة ـ قد حظيت بحوار طويل متصل ومتشعب يتسم بالحدة أحيانا والجدية الهادئة حينا ، لكن الامر المتفق عليه انه كان التقاء بين افكار متخالفة ومتضاربة دفع بالفكرة الاسلم الى البقاء والصمود بالرغم من اصرار بعض المفكرين الاسلاميين التقليديين على رؤية الامور من زاوية محصورة غير بعيدة المدى .

وبعد توالى الحوار أربعة أيام متوالية فى هذا البند كان البند الاخير المتصل بالطاقة ومستخرجات الارض وكيفية استغلالها ، والمتمثل فى التساؤل ... هل بطون الارض نعمة أم نقمة ؟ ... هو أقل البنود من حيث عدد المحاضرات،حيث القيت أربع محاضرات كان من أبرزها محاضرة الدكتور ـ داود كاون ـ وهو استاذ فى قسم الشرق الادنى والاوسط بمعهد الدراسات الشرقية بجامعة لندن ـ ذات عنوان ـ «الانسان خليفة الله فى الارض» ناقش من خلالها امر الاستخلاف الالهى والغرض من الوجود ، والطرق التى تحدد استعمال الانسان للاغراض الحياتية لتحقيق الخير على الارض ، وأوضح مدى المسؤولية البشرية فى التحكم فى خيرات الارض وتوجيهها نحو خير الشعوب ، وندد بكل الاحتكارات وسلب الخيرات التى تمارسها الدول الاستعمارية ، وأوضح أن هذا ليس فقط مخالفة للاتفاقيات الانسانية المعقودة ، وانما هو مخالفة للنواميس الحياتية المقررة منذ بدء الخليقة .

وقد احدثت محاضرة الدكتور صلاح الصاوى ، وهو استاذ بكلية الآداب والعلوم الانسانية بجامعة طهران ـ نقاشا طويلا وحادا حيث اعتمد الدكتور الصاوى أسلوبا خاصا جدا فى التعرض الى مشكلة الطاقة ، فاستهلك ثلاثة أرباع المحاضرة فى المقدمة التى كانت تفسيرا صوفيا لسورة الرحمن ، وقد كان تفسيره ـ برغم بداعته وجودته ومقدرته على التعامل مع الكلمات ـ غير واضح العلاقة مع الموضوع المطروح فى اذهان الكثيرين مما أدى الى معركة كلامية حادة بينه وبين بعض الاساتذة وعلى رأسهم الدكتور بشير التركى المتخصص فى شؤون الذرة (تونس) .

وقد اختتم الملتقى أعماله بكلمة الاخ مولود قاسم نايت بلقاسم وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية الذى أعلن أن الملتقى الثانى عشر سيعقد ـ ان شاء الله ـ

فى مدينة ـ باتنة ـ فى الشـرق الجزائرى فى صيف العام القادم ، وذلك بعد تـلاوة التوصيات الخاصة بهذا المؤتمر والتى أكدت على أهمية العمل على ربط مفاهيم الاسلام بواقع الحياة وظروفها لدى المواطنين الافارقة ، وعلى الاهتمام الكامل بتعليم المرأة على كل المستويات وخاطبت المجتمعات العربية والاسلامية التخفيف من قيودها لتمكين المرأة من ممارسة حقوقها ـ المقررة لها فى القوانين ـ بشكل عملى ، كما أكدت فيما يخص البند الاخير على ان الثروات الباطنية وخاصة النفط لعبت ولا تزال تلعب دورا حيويا فى انشاء المشاريع وتقديم الخدمات الاجتماعية والعمران والاقتصاد الانتاجى مما رفع مستوى الحياة الانسانية ، وعلينا ان نأخذ بعين الاعتبار الجوانب السلبية ، والتى حركت أطماع الغرب المتمثلة فى النفوذ الاجنبى وضرب الاقتصـاد الوطنى وشل حركات النهوض وتزييف الحكم السياسى وخلق ركائز احتكارية مضادة لحركات نهوض الشعوب ، وناهيك أن فلسطين المحتلة والصحراء الغربية هما ضحيتان لضمان بقاء المصالح الاجنبية فى الاقطار الاسلامية واستغلال ثرواتها ٠

وأكدت التوصيات أيضا على أن البلاد العربية والاسلامية يجب أن تأخذ نصيبها الكافى من النفط لاستثماره داخل بلدانها فى التصنيع والزراعة مما يحد من حرية الاقليـات فى استغـلال ثروات الشعـوب ٠

وبعـد ٠٠٠

فقد كان الملتقى تظاهرة فكرية صحية أكدت مقدرة الفكر الاسلامى على الصمود أمام كل التحديات التى يواجهها سواء من المستشرقين المغرضين أو مـن المفكرين الرجعيين الذين يحتمون بتفاسيرهم الخاصة للقضايا الفكرية التقدمية العظيمة التى يطرحها الاسلام أثبت الملتقى أن هناك خطرا حقيقيا يواجهه الاسلام لا يمكن القضاء عليه الا من خلال مقارعة الحجة بالحجة فى منبر حر ، لا يتيح الفرصة للحواة والمشعوذين فى السيطرة ٠٠٠ وانما يبقى فى النهاية الفكر الاسلامى الصحيح وحده ٠

انطبـــاعـــات جزائـــرية[1]

فاطمة هـيرن سـيركا
المركز الثقافي الاسلامى ـ ميونيخ ـ
ـ جمهورية المـانيا الاتحادية ـ



ان قضاء أسبوع فى بلد ما لا يعنى طبعا ان المـرء يعرفه ، الا أن ذلك يبدو كما لو ان المرء قد سار وئيد الخطو منشوقا عبر حديقة غريبة ، يتامل أزهارهـــا المتنوعة فى دهشة ، وهو لا يعلـــم ما اذا كان لهـذه الزهرة شوك أو هو لتنلك ، وما اذا كانت تلك الزهرة البديعة الحمراء تضوع حقا أم ان تلك الزهرة الصغيرة اللطيفة المستورة هى التى تنشر شذاها وسط العشب الاخضر الذى يحميها • ساحاول أن اصف الازهـــار التى تـراءت لى فى شهـر فبـراير أثنـــاء الايام التى قضيتـــها فى الجـــزائـر •

وكان الباعث على السفـر هو الملتـــقى الحادى عشر للفـكر الاسـلامى ، الـــذى أقيـم فى مدينـة ورقلة ، وهى واحـــة تقع فى سط الصحـراء على بعـــد ستمـائـة كيلومتر من مدينة الجزائر • وقد لا يشرفنى ان أعترف انى لم أكن فى الواقع أعرف شيئا عن هذا الملتقى واذا استثنيت مقالا قصيرا صدر فى مجلة امريكية عن المؤتمـــر العاشر فانى لم اسمع شيئا عن الطريقة التى يتم بها هذا الملتقى السنوى الجزائرى • ومع ذلك اود ان اقطف الزهور المتنوعة على الترتيب •

وكانت الزهـرةالاولى بالنسبـة الى ان التحية وجهت الينـا فى الطائـرة النفـاثة التابعة للخطوط الجوية الجزائرية ـ التى كان طاقمها فى غاية اللطف ـ باللغة العربية

(I) كتبت هذه الانطباعات بعد مشاركتها فى الملتقى الحادى عشر للفكر الاسلامى بورقلة

ثم بالفرنسية . ومن كان يتصور ان الرغبة فى كل ما هو غربى سوف تـزداد بنـاء على معايير التجربة الانسانية العادية ، فانه سيغير رأيه ها هنا منذ الوهلة الاولى . فقد كان يجابهنا فى كل مكان ذلك الوعى العربى الاصيل ، الذى لا يرى طبعا ضرورة لانكار حصته من الثقافة الفرنسية الاوروبية .

وكانت الامسية الاولى بمدينة الجزائر شبيهة بباقة زهر كاملة . فقد كان صديـق لزوجي ، وكان فى السابق طالبا ، زارنا فى المانيا مرات قليلة ، فى انتظارى بالمطـار حوالى الثامنة ليلا . وحملت فى سيارة أستاذ شاب فى الرياضيات ، كان يرتـدى قشابة خشنة ، تتميز بها الجزائر ، الى بيت مضيفى . ولكـم كانت أسرتـه لطيفة ! لقد كان هناك حوالى ثلاثين شخصا ، فرحوا بوجودى بينهم ، واجتمعنا فى حفلة عائلية حول خروف مشوى ، يحيط به عدد من الاكلات الشرقية اللذيذة ، وتحن نتجاذب أطراف الحديث . وكان على أن أتحدث عن الاسلام فى المانيا وعن أناسنا وأعمالنـا . وقد عرفت ـ ورأيت ذلك بنفسى فيما بعد ـ أن هناك كلية اسلامية كبيرة فى مدينة الجزائر ، يوشك بناؤها على الانتهاء ، وأن هناك بين الطلبة جماعات ، تمارس الفروض الاسلامية بجد وعزم .

وكنت مهمومة ، لانه كان على أن أسافر فى صبيحة اليوم التالى باكرا الى ورقلة ، ولذلك استأذنت فى الانصراف بعد العشاء بفترة قصيرة ، فلم يستأ أحد لذلك ، وودعت أسرة ، يمكننى ان اقول عنها بعد ساعات قليلة انى احبها كما احب اسرتى .

وقضيت ليلة مريحة فوق كنبة حقيقية . وكانت الغرفة مزودة بكنبات على امتداد جدرانها ، تصلح أن تكون مبيتا لقافلة صغـيرة ! وامامها موائد خشبية صغـيرة ، بها زخارف بيضاء بديعة ، ومخدات جلدية كبـيرة . وقد جعل لها خلوهـا من الاثـاث الاوروبى العادى جوا خاصا ، حتى المكتب المجاور لها كان شرقيا : كانت الكراسي والمكتب والدواليب مصنوعة من الخشب المنحوت بصورة جيدة . وهكذا اجتمع فيها ما ينفع ويمتع العين فى آن واحد .

واتجهنا فى اليوم التالى الى المطار قبل طلوع الشمس . وكنا فى الطـريق نـرى أشباحا مقنعة ، تمضى سرعة الى العمل ، ومن بينها عدد كبـير من النساء اللواتى كن

يرتدين عباءات بيضاء وأقنعة مثلثة تنتهى تحت عيونهن ، وليست هذه الالبسة مقصورة على النساء البسيطات ، فقد التقيت فى الطائرة بنساء يرتدين هذا اللباس . وقد أعجبنى فى ذلك بصورة خاصة أن الرجال كانوا مهتمين بزوجاتهم كل الاهتمام ، وكانوا يظهرون بمظهر الرجل الاصيل الشهم لا بمظهر الرجل المالك لزوجته الذى يبدو وكأن الامر لا يهمه .

وكانت الرحلة الى الصحراء بالطائرة تجربة لا تنسى . فبعد ان اجتزنا السهل الواقع بين الساحل وجبال الاطلس بأبسطته المزركشة ، التى تتكون من الحقول الخضراء والسمراء وبساتين النخيل والمنازل التى تتوسطها ، شاهدنا الشمس تشرق من قمم الجبال فى روعة وتنشر أشعتها الذهبية فوق وهاد عديدة بكل قراها ومزارع كرومها . وكان فى وسع المرء أن يحلم ... لكم سيكون جميلا لو استطاع ان يسير عبر الطرق الملتوية ويتوغل فى الجبال الى أن يصل الى ابعد قرى المنطقة عزلة ، ولكنه كان يحلق فوق ذلك كله ويتصور كيف ان النساء يهيئن الآن طعام الفطور فى البيوت الصغيرة تحته وان الاطفال قد يكونون فى طريقهم الى المدرسة ، وبدأوا يوما جديدا من ايام حياتهم المهمة بالنسبة لهم ، التى تبدو من هذا العلو بعيدة بعدا لا حد له وغير حقيقية .

كانت الجبال تضمحل من دقيقة الى أخرى ، فتتحول الى كثبان رملية ، تتخللها مجارى الوديان الجافة ، ومع ذلك يرفع النخل سفعاته بها من حين لآخر ، ونادرا ما كان المرء يرى هناك بقعا صغيرة خضراء ، مما جعله يتساءل عما اذا كان هناك أناس يستطيعون العيش فيها وما اذا الله لم يخلق تلك البقع الصغيرة فى هذه العزلة اللا متناهية الا للرعاة المتنقلين . وبعد حوالى ساعة تراءى لنا فى جو الصباح الغائم فجأة سهل ، تحده تلال ، وتتوسطه بحيرة كبيرة شديدة الزرقة ، انها الواحة ! كانت ترسل فى اتجاه الطائرة الهابطة نخلات منعزلة كأنها مراكز أمامية ، فيتعجب المرء كيف يمكنها أن تنمو فى الرمال السمراء . ومن الجهة الاخرى للبحيرة كانت غابات النخيل ترسل تحياتها من بعيد . وبينها بيوت مصغرة ذات سقوف مسطحة واحة لا يكاد المرء ان يتصورها اكثر شاعرية من هذا البعد . وحين كانت الطائرة

تسير بمحركاتها الصارخة فوق ارص المطار المبلطة ، تنقلت عيني فوق الارض الرملية وفوق مسجد صغير ، كأنه ينتصب هناك للترحيب بالقادمين • ترى من بناه هناك ، ومن يقطع المسافة الطويلة على ظهر حماره ليصلي فيه صلاة الجمعة ؟

ومن المطار انطلقت بنا السيارة فوق طريق مستقيم نحو ورقلة ، وكانت تسير بسرعة فائقة ، تجعل المرء يتصور انها توشك ان ترتفع فى الجو • ان المدينة لتعتبر بهجة العين بالنسبة للأوروبى : ليس فيها دور عالية اقيمت فى مكان غير مناسب ، فالبنايات كلها تبدو وكأنها قد خرجت من الارض بصورة متسقة ـ قد يكون بعضها سيء المنظر ، هذا وصف يمكن ان نطلقه عليها ، ولكنها متلاصقة بصفة طبيعية ، يحتمى بعضها ببعض فى منطقة رائعة ولكنها قاسية لا تعرف الرحمة هنا فى هذا الملجأ الذى انعم عليه بما يكفى من المياه لسكانه البالغ عددهم ثلاثين ألف نسمة •

ولم اكد انفض عنى غبار السفر فى فندق **ترانزاتلانتيك** ، الذى يختفى بين أشجار السنط والنخيل العالية ، بحيث لا يكاد المرء يصدق ان له طابقين ، حتى حملت فى سيارة كانت تنتظرنى الى قاعة الملتقى ، الذى كان قد بدأ فى يوم الاحد 6 فبراير ،وكان اليوم يوم سبت ، 12 فبراير ، ولم أكن اعرف ماذا ينتظرنى لان برنامج الملتقى لم يصلنى قبل مغادرتى لالمانيا • لقد فاتتنى النقطتان الاوليتان من البرنامج ، وذلك وحده جعلنى اكتشف فى حسرة ان ثقافة الدولة الرستمية وأثرها فى المغرب والاندلس قد عولجت ، كما تبين لى من البرنامج ،ومن طرف أساتذة ومؤرخين من الجزائر ووهران ، من ميشغان وبرفستون ، من هارفارد،ومدريد،وفارسوفيا • أما موضوع « الاسلام فى افريقيا اليوم » فقد تحدث عنه اساتذة من ايدنبورغ والرياض،وميلبورن،والقاهرة،ودكار • وبالاضافة الى ذلك كانت قد نظمت فى يوم الخميس رحلة الى الواحتين المجاورتين حاسى مسعود وتقرت ، وتمت الى جانب مشاهدة أكبر مصانع النفط فى البلاد زيارة المؤسسات الثقافية بصورة خاصة مثل ضريح الملوك والمسجد القديم الجميل كما اقيمت للضيوف حفلة عشاء متميزة تحت اشجار النخيل •

وكانت المناقشات متواصلة فى قاعة الملتقى ، وهى قاعة سينما مبنية على الطراز المحلى ، لها برج مربع فى الخارج وأقواس وحنايا فى الداخل · وعندئذ فقط بدأت ادرك معنى هذا الملتقى ، فهو لا يقام من اجل الدعاية للجزائر ولا من أجل جمع عدد من الشخصيات الكبيرة لالقاء الخطب الرنانة واجراء الاحاديث الشيقة بعيدا عن الرأى العام الى حد كبير ، وانما يقام هذا الملتقى السنوى لفائدة حوالى ألف شخص من الطلاب والمعلمين الذين يأتون من مختلف انحاء البلاد · وهذا يمكنهم ، وهم نخبة المستقبل ، من ان ينموا الافكار التى كونوها بأنفسهم عن الاسلام على ضوء ما يقوله العلماء المسلمون وغير المسلمين من جميع انحاء العالم حول هذا الموضوع ·

ولم يكن من المسموح به ان تتجاوز المحاضرة الواحدة نصف ساعة ، بينما خصص للمناقشات ما يكفى من الوقت ، فيلقى الطلبة اسئلتهم على المحاضرين بصورة منتظمة ، فيجيبون عليها فى الوقت نفسه أو فى اليوم التالى ويوضحون ما غمض من جوانب المسائل المثارة ، فينشأ عن ذلك حوار حى ، يستفيد منه مربو الاجيال المسلمة القادمة بشكل حقيقى · ولا يقدم لهم الاساتذة المسلمون الاتقياء فحسب ، الذين يرددون الاشياء نفسها على الدوام ، بحيث ينام المستمعون على الترتيب ، وانما تحدد الموضوعات بدقة ، ويجب على المشارك أن يوجز كلامه ، وقد اشيع فى العالم الاسلامى منذ فترة طويلة ان مستوى هذا الملتقى يحتم على الانسان ان يقدم شيئا حقيقيا والا يضيع فى العموميات · ان ذلك ليشبه « الصحة المعدية » : اذا لم يكن للمرء ما يقوله ، فانه يشعر بذلك غريزيا ويفضل ان يصمت ·

وانه لمن المفيد بصورة خاصة ، فيما يبدو لى ، أن يكون غير المسلمين قد سمح لهم بالحديث فى هذا الملتقى · فاذا اراد الانسان ان يتسلح للمستقبل ، فانه لا يستطيع أن يعتزل بقية الناس ، اذ أن عليه ان يكون قادرا على تمحيص آراء الآخرين ، فيأخذ منها ما يراه صالحا له ويتعلم كيف يتجنب ما ليس صالحا له ·

والى جانب ذلك فان الملتقى تنتج عنه ظواهر مرغوب فيها ، وهى ان على غير المسلمين ، الذين لهم بحكم مهنهم ما يقولونه عن الاسلام ، ان يستمعوا ضرورة الى آراء المسلمين · فعن طريق دعوة المسلمين من جميع انحاء العالم ـ فقد جاءوا من

اليابان،والسويد ، من بولونيا،وكازخستان ، ومن استراليا،وموريتيوس ـ يتعرف المرء على الافكار والمشاكل التى توجد فى مكان آخر • ونظرا الى أن الملتقيات تقـــام فى أغلب الاحيان خارج المدن الكبرى ، فان الطلبة والمعلمين يتعرفون على مناطـــق أخرى من وطنهم ، والا فمن يفكر يا ترى فى القيام برحلة الى الصحراء• ومع ذلك يوجد هناك أيضا الكثير مما يقوى الوعى الطبيعى بالذات •

وكان بعض الطلبة ، الذين كانوا ضيوف وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية ولم يدفعوا سوى خمسين دينارا (وهى لا تزيد عن خمسة عشر ماركا) وكانـــوا يقيمون بمدرسة ثانوية فى ورقلة ــ كان بعضهم يدعى لتناول الطعام عند بعض الاسر فى المدينة • ان هذه الاتصالات الشخصية بين الشبان المتفتحين وبين أهالى المنطقة ، وهذا التعارف المتبادل ، قد ساعدا على تمتين روابط الوطنية والتماسك الروحى ، واقامة صداقات ، لا شك انها ستعيش طويلا بعد انتهاء الملتقى •

وكان النظام يسود الملتقى بصورة تدعو الى الاعجاب • كانت الحافلات الواقفة أمام الفندق تبدأ فى استعمال آلات التنبيه أيام الجلسات فى وقت مبكر ، وكانت المناقشات تستأنف فى كل مرة فى الساعة الثامنة بالتدقيق ، وتبـدأ فى الرابعة المحـــاضرات المسائية • ويحيى الاساتذة القادمون من الفنادق من طرف الطلبـة والمعلمين النشيطـين بمجرد أن يدخلوا قاعة الاجتماعات • وقد تركت رئاسة الجلسات وادارة المناقشـات والاشراف عليها بحيث لا يتجاوز أحد الوقت المقرر له ، لشبان حازمين ، لا يتورعون حتى عن تنبيه وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية ، الذى كان يحضـر الجلسـات بصفة دائمة ، عند ما يوشك ان يستأثر بالكلمة لنفسه لفترة طويلة•(1) وبما ان الوزير كان قد قدم على ذلك مثلا طيبا ، فكان يتنقل مع المدعوين بالحافلـة ، ويتناول الطعـام معهم ، ولم يكن يتخلف حتى عن المناقشات المحضة ، فان روح هذا النظام الطبيعى قد عمت جميع الحاضرين بشكل طبيعى ودون ان يلفت انتباههم الى ذلك بصــــورة مستمـــــرة •

ولنعد الآن الى الحـديث عن الملتقى نفسه • لقد كرس معظـم الوقت لموضوع المرأة المتفجر « المـرأة فى عام ما بعد (عام المرأة) » ، وكان اليوم الثـالث فى برنـــامج

(1) فى الواقع انه ، عدا كلمتى الافتتاح والاختتام ، لم يتناول الكلمة الا مرتين اثنتين لا اكثر ، لحفظ النظام فى القاعة اثر بعض الخلافات الحادة بين الملتقين • وكان قد وصى رؤساء الجلسات الذين كانوا كلهم من موظفى الوزارة ان يذكروه بنفس الحزم بالوقت المحدد للجميع فى الملتقى ، وبالتالى معهايضا طبعا ، والا فلا يستحقون صفة المسؤولية.

الملتقى . وقد فاتتنى ـ للاسف ـ محاضرة الدكتورة سيغريد هونكه عن « المـرأة العربية فى بداية الاسلام وكيف تطورت » . وقد حظيت المحاضرة باهتمام كبـير ، بحيث انه لم يكن من الممكن الحصول على نسخة منها بالفرنسية ، رغم ان المحاضرات كلها تقريبا كان قد وزع منها فى البداية عدد كبير من النسخ بالعربية وبالفرنسية ، وكان فى وسع المستمعين ان يستمعوا أيضا بواسطة سماعات الى ترجمة فوريـة بالعربية والفرنسية والانجليزية . وكانت السيدة هونكه ، التى ساهمت مساهمـة هامة فى رجوع الشعب الجزائرى الى تراثه الثقافى بواسطة كتابها « شمس الله تسطع على الغرب » وعن طريق عدد من المحاضرات التى القتها فى مناطق مختلفة من الجزائر ، ـ كانت قد دعيت للقيام بعد الملتقى برحلة فى مناطق الجزائر النائية ، حيث ينتظر الناس وصولها باهتمـام كبـير .

وكان قد تعاقب قبلها على المنصة مؤلفات فرنسيات واستاذات وأساتذة مـن دينفر، والجزائر، ولاهور، والخرطوم، والقاهرة . وتحدث بعدها علماء من تونس، وفارصوفيا، واسطنبول، وانقرة، وطرابلس، ونابلى، ودمشق . ومن طوكيو أيضا . ونظرا لكثرة المحاضرين ـ وكان عدد المدرجين في البرنامج بغض النظر عن العديد من الخطبـاء والمرتجلين تسعة وثلاثين سيدا وسيدة ـ فليس فى الامكان تقديم أكثر من خلاصة موجزة . على المرأة فى العالم الاسلامى ان تطالب بحقوقها اليوم ، وينبغى أن تكون حريتها فى استخدام مواهبها فى سبيل الصالح العام ، ما دامت غير متزوجـة أو ليس لها اطفال ، تقع مسؤوليتهم عليها بالدرجة الاولى بطبيعة الحال ، الا انـه لابد ان يوفر عليها بواسطة تربيتها ووعيها الذاتى بجذورها الثقافية والفكرية الخاصة سلوك ذلك الطريق المؤلم الذى **سلكته** أخواتهن فى الشرق والغرب فى منافستـه الشخصية للرجل . وكما قال الوزير مولود قاسم نايت بلقـاسم يخاطب النسـاء : « لا تقصصن للرجل شنـبا ، لتنسجن منه قرنـبا ، او تفتلن منه ذنبا ، ولا تجعلن من كرامته كنبا ، او تحسبنها عنبا ! » فانه لا بد ان يكون هناك احترام متبـادل وحيـاة متكافئة متكاملة ، يبنى عليها مستقبل افضل واكثر عدالة .

وتحدث عن النقطة الاخيرة فى برنامج الملتقى ، وهى هل الثروة المعدنية نعمـه أو نقمة ، أساتذة من الجزائر، وطهران، وجاكرتا، ولندن . وقد حذر الوزير نايت بلقاسم

فى كلمته الختامية حول هذا الموضوع من استغلال ما يستخرج من الارض فى جانب واحد ، ذلك لانه لا يضمن الاستقلال المطلوب لبلاده فلا بد ان يهتم ايضا وفى الوقت نفسه بالفلاحة ، والتجارة ، والصناعة ، وصناعة النسيج .

وبين هاتين النقطتين من نقط الملتقى تمت رحلة الى غرداية ونواحيها ، تركت فى نفسى أجمل الاثر . كان الطلبة والاساتذة والضيوف ومنظمو الملتقى قد أخذوا مقاعدهم بالحافلات فى حوالى السادسة صباحا وفى الموعد المحدد بالضبط . وعندما ارتفعت الشمس فى الافق "تنا قد تركنا ورقلة وراءنا بمسافة طويلة واصبحنا فوق الطريق المستقيم المتجه الى الغرب وسط الصحراء الواسعة ، التى كان يصعد التلال مرة وينحدر فيها مرة أخرى . وما كادت كرة الشمس الملتهبة تشرق فوق الكثبان الرملية ، حتى ارتفع فى حافلتنا صوت رخيم ، ولكنه قوى ، يجود القرآن وبدا الزمن كأنه قد توقف ، لقد ابتلع كلام الله كل شىء .

وتواصلت الرحلة عبر الصحراء ، وكنا نمر بأدغال صغيرة من العشب ، وترى من حين لآخر لافتة تحتوى على صورة جمل كما تحتوى اللافتات عندنا على صور البقر ... وكان ظل الحافلة يلقى بشكل منحن فوق الرمال ، بحيث كان يبدو اكثر علوا منه عرضا وهو يسرع فوق العجلات الكبيرة المستديرة . وحين يلتفت المرء خلفه يشاهد أكثر من عشرين حافلة تفصلها عن بعضها مسافات متساوية . كان الموكب المزود بالمحركات يسير كالقافلة خلف شرطيين فوق دراجات نارية ، كانا يستديران من حين لآخر فى مرح ثم يواصلان السير . وفى بعض الاحيان كنا نرى فى الافق حفارة من حفارات النفط ، وقربها مجموعة من المراجل الكبيرة البيضاء ، كانت تبدو صغيرة عن بعد الى درجة انها لا تسىء الى المنظر . وبعد ان استغرقت السفرة ساعتين لاحت عندئذ أولى علامات الحياة : لقد اكتسبت الادغال ، التى كانت قبل خضراء ، فجأة براعم زرقاء ، واصبح فى وسعنا ان نرى واحة غرداية عن بعد . ولم نشعر بطول السفرة ، لان المسمع كان يتنقل بين المسافرين ، الذين كانوا يروون لنا قصصا تارة ويحدثوننا عن المنطقة أو ينشدون اشعارا جميلةالايقاع تارة اخرى . وقبل ان نصل الى غرداية توقفت حافلاتنا أمام مصنع كبير ، أقيم بمهارة خلف تل

بعيدا عن مجال الرؤية . وفيه تصنع الانابيب ، ويكاد يشعر بالخوف من لم ير آلات بهذا الحجم.ولكى تنزع عن الزيارة « جديتها الحيوانية » ، كان هناك برابرة سود ، يرتدون البسة ملونة أو بيضاء ، أخذوا يديرون بنادقهم الواسعة فوق رؤوسهم ، ويقدمون نوعا من الرقص الحربى على نغمات الطبل والناى . وفجأة انحنت جميع البنادق وانطلقت منها النيران دفعة واحدة بصوت يصم الآذان ، فاثارت سحابة كثيفة من الدخان . وتكرر ذلك حوالى عشر مرات اثناء مشاهدة اقسام المصنع ، الذى ختمت زيارتنا له بتناول مشروبات منعشة .

وبعد ذلك تحركت الحافلات نحو خزان للمياه فى الجانب الآخر من غرداية . وكما يحدث فى قصة من قصص الف ليلة وليلة تركنا مدينة الواحة الواقعة فوق تل عن يسارنا ، وتسربنا عبر الوهاد ، مارين بقرية متهدمة تحت النخيل ، ووصلنا الى منخفض ، لا يكاد المرء يتصور ان المياه تغطيه فى موسم المطر . وتحصر المياه فى ممرات أرضية متينة وتنقل من الجانب الآخر للسد الى بساتين السكان بواسطة قنوات . وقد شرح شيخ أبيض اللحية للزوار المهتمين بالامر بالعربية والفرنسية نظام الرى الذى يدل على عبقرية مخترعيه .

وتبعت ذلك جولة فى مدينة غرداية بسوقها الكبير وازقتها الضيقة ومسجدها العتيق . وفى النهاية اجتمع الزوار البالغ عددهم الفا ومائتين فى فندق الرستميين لتناول طعام الغداء . وكان لهذا الفندق أروقة كثيرة واسعة ، جعلته كبيرا ومريحا فى آن واحد . فرغم أن الجالسين فى الرواق الواحد لم يكن عددهم يتجاوز فى الواقع المائة ، فان الاعمدة الفاصلة تجعل الانسان يتصور انه جالس مع مجموعة صغيرة من الناس . ان قضاء عطلة فى فندق من هذا النوع ستكون ممتعة ولا شك !!

ومع ذلك لم تبلغ نزهتنا ذروتها الا فى فترة ما بعد الظهر عندما ذهبنا لزيارة بنى يزقن ، وهم قبيلة فرضت على نفسها حياة بسيطة شريفة طبقا للتعاليم الاسلامية . فقد استقروا فى حى خاص من أحياء المدينة ، حيث يعيشون فى منازلهم البسيطة النظيفة ذات السقوف المسطحة ، وهم يرسمون أسعار جميع البضائع التى تحتوى عليها دكاكينهم . ومسجدهم اجمل مكان فى الارض يمكننى ان اتصوره .

وقادنا الدليل عبر أزقة نظيفة ضيقة ، اصطف على جانبيها شيوخ ذوو البسة بيضاء ولحى خطها الشيب وراحوا ينظرون الى سيل الزوار مبتسمين فى طيبة ووقار ، وبلغنا فناء المسجد المعتم ، الذى يقع فوق تل مرتفع . ويتكون المسجد من أماكن ، تفصل بينها أعمدة ، وتوجد بها سلالم ، يقرب ارتفاعها من نصف متر ، ويمتد بشكل نصف دائرى الى مسافة بعيدة ، بحيث ان المرء لا يسعه الا ان يتصور الاماكن الخلفية المخصصة للنساء ، لان الدهان الازرق الفاتح جعل ذلك كله تسوده نصف عتمة . وكان الشيوخ جالسين بالبستهم البيضاء فى الزوايا الكثيرة ، وقد جلس بينهم أيضا عدد من الشبان يرتدون أيضا البسة بيضاء . أما الرجال من ذوى الاعمار المتوسطة فلا يكاد المرء يرى أثرا لهم . لقد كان لهذا المسجد المنخفض البسيط المؤثر سحر ، يجعل الانسان يود من كل قلبه الا يفارقه أبدا . وهذا السحر لا يزايل أيضا المكتبة ، التى قادنا اليها الدليل بعد ذلك مباشرة ، حتى ولو تكاثر عليه الناظرون . كانت النفائس ، التى تجمعت خلال أجيال وأجيال ، محفوظة خلف أبواب زجاجية ، وقد كتبت عناوينها بخطوط جميلة .

وكنت أثناء شراء التحف التذكارية قبل مواصلة السفر فى حاجة الى ربع ساعة من الوقت لاقنع التاجر بفرنسيتى الضعيفة بأنه قد أنقص من المبلغ المطلوب منى عشرين دينارا ـ وعندما اقتنع بذلك أخيرا كانت الحافلة التى اخذت بها مكانى ، قد انطلقت . مع ذلك : لا بأس ، لا بأس ، واخذت مكانى فى سيارة خاصة ، مرت بى صدفة ، ووصلت العطف بعد وصول الحافلة بفترة قصيرة . وحاولت أن أقدم لسائق السيارة ، الذى كان لطيفا معى ، بضعة دنانير ليشترى بها الحلوى لاطفاله ، ولكنه رفض باصرار . وفى العطف دعينا الى منزل الشيخ سليمان داود بن يوسف حيث أقيمت حفلة زفاف . وقد أرتنا ، نحن الزائرات ، العروس الفاتنة الخجول مخدعها الزوجى وهى فخورة بذلك ، وشربنا الشاى مع ربة البيت اللطيفة . وجلست قربى فتاة جميلة ، تتكلم الالمانية بصورة جيدة ، وقد سبق لها ان زارت المانيا ، وحدثتنى كذلك عن مراسم الزواج ، وترك اهتمامها بى اثرا فى نفسى

وفى المساء أخذنا من جديد أماكننا فى الحافلة وأسرعنا بالعودة الى ورقلة ٠ وكان الشيخ اليمنى ، الذى حظى بحب الجميع ، وهو شاعر عبقرى ، يرتدى لباسا ملونا ، وبحزامه الملون خنجر عريض ، كان هذا الشيخ يقرأ شعرا يمدح به غرداية وبنى يزقن والعطف ومضيفينا ٠ وبذلك انتهى يوم لا ينسى ٠

وفى الحفلة الختامية ، التى تمت يوم الثلاثاء 15 فبراير ، حاول كل واحد أن يعرب عن شكره مرة أخرى قدر المستطاع ، فتحدث محمد اليابانى مدة طويلة باللغة العربية ، لانه كان قد درس فى جامعة الازهر ٠ وحين أنهى الوزير كلمة الوداع ، ضج الطلبة والمعلمون بالهتاف والتصفيق معربين عن شكرهم بصورة غير محدودة ٠ انه شكر موجه الى رجل ، ليس عضوا من أعضاء الحكومة ومنظم هذا الملتقى فقط ، وانما هو الى ذلك أخ لكل منا فى الدين ٠

كان شعار الملتقى : « **ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** » (سورة 12 ، آية 11) ٠ ويبدو ان الجزائريين يأخذون هذا مأخذ الجد ٠ فقد أتيح لى فى اليوم الذى اقمته قبل عودتى بالعاصمة الجزائرية أن أشاهد مصنعا يعمل به خمسون عاملا ٠ ان منظره الخارجى قد لا يضاهى منظر المصانع الالمانية ، ولكن صاحبها قال لى : « انى لافضل أن أقدم المال لعمالى على أن أقدمه للدهانين ٠ فانا أقدم لهم علاوات بمناسبة الاعياد الاسلامية خمس مرات في السنة ، ولا يعملون في رمضان أكثر من ست ساعات ، ولديهم ألبسة العمل كما ان لديهم هنا مغسلا ومصلى » ٠ ولقد سمعت بنفسى كيف يتكلم العمال مع رئيسهم ٠ فهم لا يخضعون له ولا يخافونه ، وانما يتكلمون معه كصديق يستطيعون أن يبوحوا له بهمومهم ٠

من المؤكد ان المصانع فى الجزائر لا تسير كلها بهذه الطريقة المثلى ٠ الا ان وجود مثل هذه المشاريع تشجع المرء وتحمله على التطلع الى المستقبل ٠

السلام عليك ـ ايتها الجزائر الجميلة بأناسك اللطفاء ، بقصبتك الشرقية المثيرة ، وبخيوطك الهاتفية المباشرة مع المانيا ، بساقك الواحدة التى تنغرز فى الماضى،وبساقك الاخرى التى تخطو نحو المستقبل فى اطمئنان ٠

ورجـــلان الجــزائـــرية
تعـــيش أيـــامـــا اســـلاميـــة حافلـــــة (*)

مقابلة مع د. عبد الحليم عويس

أجرى الحديث : خالد الرجيحى



مائة مفكر اتوا من سائر اقطار الارض ... مـــن اسبانيا،ومن انجليترا، ومن امريكا،ومن فرنسا،ومن ألمانيا، ومن اليابان، ومن اقطار افريقيا المختلفة، ومن بولونيا، ومن أستراليا،ومن ايطاليا ... من هذه البلدان وغيرها توافد عشرات المفكرين الذين اختلفت اهواؤهم ونزعاتهم بين مسلم سلفى، وشيعى، ونصرانى، ولا دينى، ويهودى .

جاء هؤلاء جميعا يتبارزون حول نقاط أربع :

- دور الرستميين (بنو رستم) فى حضارة المغرب العربى .
- الاسلام فى افريقيا اليوم .
- المرأة بعد عام المرأة .
- هـــل بطون الارض نعمـــة أم نقمـــة ؟

وبالطبع ففى ظل حشد مختلف التكوين والفكر على هذا النحو كان لابد ان يكون الحوار ساخنا،وقويا،ونحن نستطيع ان نسبق العرض لنعلن ان الفكر الاسلامى قد خرج ــ وهو يخرج دائما ــ ظافرا منتصرا . ومن الغريب ان الله سبحانه وتعالى قد قيض وهيأ للاسلام من بين النصارى والعلمانيين انفسهم مؤيدين ومناصرين لدرجـة

(*) نشر بجريدة : « الجزيرة » السعودية بتاريخ 26 فبراير 1977 .

ان احد الاعضاء-وهو الاستاذ عبد الحليم عويـــس الذى وافقت جامعة الامام محمد ابن سعود مشكورة على ايفاده لحضور هذا الملتقى - قد اعلن ان محاضرة الدكتـــور شارل ل · ڤيدز استاذ ومدير المعهد الامريكى للدراسات الاسلامية بجامعة دانفير - كولورادو - (الولايات المتحدة الامريكية) والتى كانت عن - دور المرأة فى مجتمع اليوم - هى خلاصة وجهة النظر الاسلامية مع ان هذا المحاضر الامريكى لا زال نصرانيا وقد اجاب الاستاذ عويس عن سؤال وجهه له عن دينه بانه فقط نصف مسيحى ويبدو انه يفكر جديا فى اعتناق الاسلام ·

فى عشرة أيام تبدأ من يوم الاحد 17 صفر (6 فبراير) وتنتهى فى يوم الثـــلاثاء 26 صفر (15 فبراير) استمع هؤلاء العلماء ومن خلفهم الف طالب وطالبة فى المراحل الدراسية العليا ومئات من أهالى مدينة (ورجلان) التى عقد فيها الملتقى وكثيرون من ممثلى الوزارات المختلفة والسلطة المحلية للولاية ·

استمع كل هؤلاء لـ 39 محاضرة ونحو 1500 تعليقا تدور كلها حول الموضوعات الآنفة الذكـــر ·

ومن أبرز تلك المحاضرات :

1 - مجهودات الدولة الرستمية فى نشر الحضارة الاسلامية وتركيزها للشيـخ سليمان داود بن يوسف ·

2 - المجتمع التاهرتى فى عهد الرستميين للدكتور احسان عباس ·

3 - مشاكل تواجه الاسلام فى افريقيا اليوم للمستشرق الانجليزى المعـــروف وليم مونتجومرى وات ·

4 - المسلمون فى افريقيا بين الحاضر والمستقبل للاستاذ عبد الحليـــم عـــويس المدرس بكلية الشريعة بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ·

5 ـ علاقة الافارقة الامريكان بالاسلام فى التاريخ الماضى والمعاصر • للدكتـــور المستشرق دونيس ووكر الاستاذ بقسم دراسات الشرق الاوسط بجامعة ملبورن ـ باستراليا ـ

6 ـ قضية المرأة كما اتصورها للدكتور الحبر يوسف نور الدايم ، الاستـــاذ بجامعة الخـرطوم بالسودان •

7 ـ المرأة العربية فى صدر الاسلام كنموذج للمستشرقة الالمانية المعروفـــة سيجريد هونكة ، صاحبة الكتاب المشهور ـ شمس الله تسطع على الغرب ـ الذى احدث ضجة فى العالم العربى حين صدوره •

8 ـ ما اعطاه الاسلام للمرأة كاف وكفيل بأن يجنبنا التجارب والنكســـات • للاستاذ : محمد الصادق بسيس ، الاستاذ بالكلية الزيتونية للشريعة واصول الديـن بتـــونس •

9 ـ المرأة المسلمة والفرنسية امام القانون ، للدكتورة الفرنسية ايفادى فينيترای مايروفيتش •

10 ـ ما تحت الارض نعمة وليس نقمة للدكتور محمد رشيدى (اندونيسيـا)• وعشرات المحاضرات غير هذه قد القيت ونالت من المؤتمرين البحث والنقاش •

فى بداية الملتقى أعلن معالى وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية بالجزائـــر السيد مولود قاسم ـ بعد افتتاحه الملتقى ـ ان الوزارة تطرح هذه الموضوعات الاربع على سبيل التساؤل وليس لفرض وجهة نظر معينة وقد ضمن حديثه شيئا من الطرافة بصدد كل نقطة من النقاط الاربع فقال مثلا عن النقطة الثانية وهى حول ـ الاســـلام فى افريقيا اليوم ـ « كيف ونحن نلتقى الآن فى جنوب الجزائر لا نستعرض الاسلام فى بلاد السودان كما كان يسميها ابن خلدون ، بل وفى افريقيا كلها وهى المتعرضـة للمناورات والمؤامرات ومحاولات التسرب والنفاذ والتطويق والاستحواذ»•

وقال عن النقطة الثالثة المتعلقة بقضية المرأة : « اننا نريد ان نعرف هل المرأة اليوم هى تلك الضعيفة المستضعفة المهضومة المسكينة المستكينة ... ام هى بالعكس من هذه كله هى تلك المتمردة المستبدة صاحبة الحيل والاحابيل القديمة والمستجدة التى هى الى الانقضاض والعدوان الجريئة والمستعدة صاحبة الطاغوت والجبروت ، زيادة على سحر هاروت وماروت » . ولم يكد ينتهى حفل الافتتاح حتى بدأ سيل المحاضرات والتعليقات يحتدم مدة عشرة ايام لم يتخللها الا يومان لزيارة معالم الولاية بطرفيها المتدين لمئات الاميال نحو ـ حاسى مسعود ـ (والحاسى هو البئر) ، وتوجرت تارة ونحو وادى الميزاب وآثار سدراتة تارة اخرى . والطائفة الاباضية (احدى فرق الخوارج) المسيطرة على وادى الميزاب والتى كان لها دور محمود فى الجهاد ضد فرنسا وفى رفض المؤامرة الفرنسية التى هدفت لفصل الصحراء الجزائرية عن الجزائر الكبرى .

وقد توجهنا بعديد من الاسئلة التكميلية لهذا العرض الى الاستاذ عبد الحليم عويس المدرس بكلية الشريعة ـ بجامعة الامام محمد بن مسعود الاسلامية ـ وهو احد اثنين حضرا الملتقى من المملكة .

وسألناه أولا عن : دور وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية بالجزائر فأجاب :

انه من الناحية الرسمية والشعبية تعتبر هذه الوزارة التى يشرف عليها معالى الاخ مولود قاسم ، المسئولة عن العمل الاسلامى فى الجزائر ، فالتعليم الدينى الذى يمتد فى معاهد متوسطة وثانوية تشبه المعاهد العلمية الموجودة بالمملكة تحت اشراف هذه الوزارة كما ان هناك كليات اسلامية تبنى لاستيعاب خريجى تلك المعاهد .

والمساجد تخضع لاشراف الوزارة ، وصور النشاط الدينى المختلفة تنبثق عن هذه الوزارة ايضا .

كما ان مجلة الاصالة وهى المجلة الاسلامية التاريخية الشهرية تصدر ايضا عن الوزارة .

وتعتبر ملتقيات الفكر الاسلامى التى بلغ عمرها الآن احد عشر عاما جزءا من نشاط هذه الوزارة ، وهناك ادارة دائمة تشرف على تنظيم واعداد هذه الملتقيات وهى تسمى ادارة الملتقيات ومديرها هو الاستاذ احمد اسماعيل.

كما ان من الاجهزة التابعة للوزارة المجلس الاسلامى الاعلى الذى يرأسه الاستاذ احمد حمانى (وهو من ابرز الشخصيات الاسلامية البصيرة بالجزائر) وهذا المجلس التابع لوزارة التعليم الاصلى يشبه فى المملكة دار الافتاء ·

وحول سؤالنا عن نتائج الملتقى الحادى عشر للفكر الاسلامى أجاب :

تنتهج الملتقيات نهجا خاصا.فهى فى الحقيقة ملتقيات فكرية تربوية بالدرجة الاولى فالجزائر لها وضع خاص يختلف عن الوضع فى المملكة العربية السعودية ومصر مثلا · ذلك ان الجزائر تدخل باب التعريب من جديد وتجاهد فى هذا الميدان ··· وقد تركت فرنسا لغة فرنسية مسيطرة على المصالح والمؤسسات والمعاملات ، كما تركت اطارات كثيرة تعتمد فى عيشها على اللغة الفرنسية والثقافة الفرنسية · وبما ان اللغة العربية مرتبطة بالاسلام فان اعداء التعريب يخفون عداء للاسلام أيضا ··· وهم يروجون ان الفكر الاسلامى غير قوى ويعملون على خلق جيل متمسك بالفرنسية لغة وحضارة حتى مع استقلال الجزائر عن فرنسا ··· لكن حكومة الجزائر مشكورة ماضية بحزم فى طريق التعريب وقد قطعت شوطا بعيدا فى ذلك ·

ومما يرد كيد اعداء التعريب فى الجزائر ملتقيات الفكر الاسلامى التى تسعى للتعريف بعناصر القوة فى الحضارة الاسلامية وبأصالة التاريخ الجزائرى الاسلامى ، وتسعى ايضا لاظهار قوة الفكر الاسلامى وقدرته على الصمود فى وجه التحديات ، وقدرته أيضا على صياغة حياة رشيدة جديدة ، كما ان الملتقيات تربى جيلا مثقفا ثقافة عربية ·

أما التوصيات والقرارات فهى تحتل الدرجة الثانية من مهام الملتقيات ·

الملتقى الحادى عشر للفكر الاسلامى (*)
فى ورقلة

د . آمال ايزين
عضوة معهد البحوث الثقافية التركية
ـ اسطنبول ـ



لما اندلعت المقاومة الوطنية فى الجزائر أسهم فيها الشعب الجزائرى كله بما فيه الرجال،والنساء،والشيوخ، والاطفال . وكانوا كرجل واحد . وجرت المقاومة تحت قيادة المفكرين من المواطنين . والجزائر التى تكبدت الاهوال سنين عديدة وهى تجتاز حقبة ملأى بالبطولات ، شعرت ـ فى ميدانى الوجدان والفكر ، بعد انتهائها من حرب التحرير ـ بمسيس الحاحة الى تكوين دولة .

(*) نشر بالجريدة اليومية التركية « بيرق » فى ستة اقسام من 18 الى 23 مارس 1977 .

نظرة شاملة على ملتقيات الفكر الاسلامى

تقام ملتقيات الفكر الاسلامى سنويا منذ 1967 بدعوة من وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية بالجزائر .

ان وظيفة الوزير المشار اليه أعلاه كما يدل على ذلك اسم الوزارة تضطلع بالبحث عن ثقافة الجزائر الاصلية وهى الثقافة الخاصة بها وهى التى تندرج فى اطار الدين الاسلامى .

ماذا صنعت الامبريالية الفرنسية فى الجزائر ؟

كما تدل على ذلك الآثار التى نشرها الكتاب الجزائريون شرع الفرنسيون فى فرنسة الجزائر فور احتلالهم لارضها سنة 1830 . والمحاولة الاولى فى هذا الصدد كانت تهدف الى حمل الجزائريين على أن يتخلوا عن الوعى بهويتهم الوطنية وبدينهم . فلم تعد اللغة العربية تدرس فى المدارس وصار الاسلام يعرف (بتشديد الراء) بكونه تعصبا . وصار تعليم تاريخ الجزائر مقصورا على تعليم تاريخ بيزنطة وتاريخ روما وتاريخ فترة احتلال فرنسا للجزائر .

ومن جهة أخرى حققت العلائق القديمة لاقدم الجزائريين : البربر مع ثقافات بيزنطة وروما . وبموجب اختلاطهم — من حيث الجنس — مع الوندال . وكانت فرنسا تهدف الى فصل البربر من الاسلام لتنصيرهم . ويفهم من مقالات حررها المؤرخ الجزائرى توفيق المدنى ووزير التعليم الاصلى مولود قاسم نايت بلقاسم للدفاع عن الترك أن هذين انصب عليهما النقد — بشكل خاص — ووجهت فرنسا اليهما التهم . وبصفة عامة لم تتح أية فرصة للجزائريين لمتابعة دراستهم ، وان الجزائريين الذين تابعوا دراساتهم العليا قليلون جدا . ولما كان الذين يتعلمون فى فرنسا تربحهم فرنسا بدأت الاسر الجزائرية ترسل أبناءها لمتابعة دروسهم الى بلاد أوروبية غير فرنسا .

ردود الافعال الوطنية والدينية

ومن جهة أخرى خاض العلماء المسلمون مقاومة صامتة ضد المبشرين المسيحيين . وهكذا لم تفلح سياسة فرنسا الثقافية تماما فى تحقيق أغراضها . وعلاوة على ما مر، لما انطلقت المقاومة الوطنية تحت قيادة رجال الفكر من المواطنين فى الجزائر أسهم

الشعب الجزائرى كله كرجل واحـــد فى الجهـاد بمـا فيه الرجال والنساء والشبان والشيوخ • والجزائر التى تكبدت محنتها سنين بما فى ذلك من بطولات على مرأى ومسمع من الناس جميعا احست بمسيس الحـاجة الى تعميم التوعية الوطنية والدينية اللتين تم تكوينهما على مستوى الفكر والوجدان والى اعادة تأسيس الدولة فور نهاية حرب التحرير •

وهكذا تكونت وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية وأسندت الى مولود قاسم نايت بلقاسم المناضل فى حرب التحرير • وبدأت اقامة ملتقيات الفكر الاسلامى فى سنة 1967 • وكان الوزير مولود قاسم نايت بلقاسم يشارك فيها بالمحاضرات والتعاليق ويسيرها ويراقبـها بنفســـه •

الغاية من ملتقى الفكر الاسلامى

تدعى ـ بشكل خاص ، شخصيات من الجزائر ومن البلاد العربية الاخرى لحضور ملتقيات الفكر الاسلامى • وهؤلاء الشخصيات هم من العلماء فى الدين الاسلامى ومن الدارسين للتاريخ،وعلم الاجتماع،ومن رجال الدولة ومن الصحفيين • ويدعى اليهـا مسلمون ليسوا من العرب • بل هم من الاتراك،ومن أهل تركستان،وايران،وباكستان • بل يدعى اليها حتى طائفة من الباحثين والمفكرين المسيحيين من المانيا،ومن الولايات المتحدة،والنمسا،وفرنسا،وبلجيكا،وانقليترا،واسبانيا،وايطاليا،وبلاد السويد،وأستراليا للمشاركة فى الملتقى •

تقام هذه الملتقيات كل مرة فى مدينة من مدن الجزائر ولكن دائما فى ارض الجزائر وتمنح الاولوية فى البحث لتاريخ المدينة التى يقع فيها الملتقى • ومن جهة أخرى تختار ـ فى كل ملتقى ـ ثلاثة مشاكل ثقافية جديدة (1) • ويرجى أيضا من الحاضرين تقديم بحوث فى الموضوع • واللغات الرسمية فى الملتقى هى اللغات : العربية ، والالمانية ، والفرنسية ، والانكليزية •

وترسل البحوث قبل انعقاد الملتقى وتستنسخ فى اللغات الرئيسية وفى اللغة العربية • وتقع ترجمة البحث من هذه اللغات الى العربية فى ذات الوقت الذى يلقى

(1) مواضيع الملتقيات تكون ثلاثة واكثر «المحرر»

فيه • ويفتح نقاش حول كل بحث ، ويحضر الملتقى ألف طالب وطالبة أكفاء يختارون من بين الجامعيين وتلامذة الثانويات • ويمنحون الحق فى القاء أسئلة كتابية على اصحاب البحوث • وتنشر البحوث من بعد باللغة العربية نصا ومضمونا(1) • وتسهم الاذاعة والتلفزة فى ملتقيات الفكر الاسلامى التى تكتسب هكذا اهمية أكثر لا بالنسبة الى الجزائريين فحسب ، بل حتى بالنسبة الى الاقطار العربية الاخرى والى سائر البلاد الاسلامية والاوساط الثقافية غير الاسلامية التى تهتم بالعالم الاسلامى •

ومع هذا لم تكن تعاليم الاسلام الاصلية وراثية فيما تواضع عليه الناس فى مدينة الرسول (صلعم) • فقد كان لسكان المدينة المنورة أن يسندوا الخلافة والامامة لاى أحد يرونه أهلا لذلك • ولم يشترط فى الخليفة والامام أن يكون من نسل النبى (صلعم) أو من قريش • بل كان لكل شخص عالم وعدل أن يولّى الخلافة أو الامامة • وعلاوة على ذلك فقد ورد فى حديث الرسول (صلعم) أن عبدا حبشيا صالح ليؤم جماعة المسلمين .

انعقد الملتقى الحادى عشر للفكر الاسلامى من 6 الى 15 من شهر فبراير 1977 فى واحة من واحات وادى ميزاب ببلاد الجزائر • فى الدرجة 32 شمالا والدرجة 5 شرقا • وقع الاجتماع فى واحة سدراته ـ ورجلان (ورقلة) • ورجلان وسدراته كانتا آخر عاصمتين للدولة الرستمية البربرية (160 ـ 776/296 ـ 908) • وهكذا أول موضوع عرض على المؤتمرين فى الملتقى الحادى عشر كان : الثقافة الاباضية الرستمية • وليس الآن على أرض ورجلان وسدراته الا آبار وبساتين نخيل • وقد تكدست على المدينتين العتيقتين كثبان الرمال ونقبت فيهما حفائر أثرية • أما ورقلة فانها مدينة أقرب عهدا وحلت محل ورجلان العتيقة •

لنذكر بتاريخ المذهب الاباضى الخارجى المنبثق من الخلاف الذى نشب فى صفين بين معاوية وخصومه سنة 37 هـ/657 م • فان جماعة من المسلمين انسحبت من الخصومة بعدما لاحظت أن الطرفين لم يكن سلوكهما مطابقا لما جاءت به تعاليم الاسلام الاولى • وسميت هذه الجماعة بالخوارج • يعتقد هؤلاء أن أنصار على وبنى أمية أرادوا

(1) وتنشر بالفرنسية ايضا اذ توزع فى القاعة نفسها على الملتقين وتنشر فى الصحافة وفى كتب الملتقيات بالعربية والفرنسية على الاقل ، واحيانا بلغات اخرى ايضا (خاصة منها الانجليزية)

أن يدخلوا فى تعـاليم الاســلام الاصلية عنصر الوراثة - لذلك لم يعترف الخـوارج بالتعاليم الاسلامية التى دان بها بنو أمية والعباسيون،والشيعة،والخلفاء الفاطميون المتشيعـون ٠

وانتقض الخوارج على خلفاء بنى أمية ليعيشوا العيشة التى يرتاحون اليها والتجأوا الى أقطار بعيدة عن مناطق نفوذ بنى أمية كآسيا الوسطى شرقا والشمال الافريقى غربا. والمنزلة التى تحتلها الخوارج فى تاريخ الثقافة التركية الاسلامية هى خارجة عن نطاق هذا المقال وان كانت موضوعا جديرا بالبحث

المذهب الابـاضى

ان المذهب الاباضى مؤسسه هو عبد الله بن اباض وقع ذلك فى النصف الثـانى من القرن الاول الهجرى ٠ انتشر هذا المذهب فى كنف اسرة بنى رستم ٠ وبعد انقراض هؤلاء واحتـلال الفاطميين للشمال الافريقى واصـل الاباضيون حيـاتهـم متمسكين بعقائدهم الخاصة فى المراكز القديمة الرستمية ٠ حفروا آبارا فى الصحراء وأسسوا واحات شبه اصطناعية واختطوا مدنا صغيرة مستقلة مثل مدينة بنى يزقن ومدينـة غرداية على تلال الواحة ٠ وهذه المدن التى تحيط بها أسوار لا تزال موجودة الى الآن ٠ واليوم لا يستطيع الاجانب أن يدخلوا بسهولة فى هذه المدن ٠ ولا يمكن أن يسكن فى المدينة الا الاشخاص المنتمون الى طائفة الاباضية الحسنو السلوك فقـط ٠ والمسـيرون لكـل مدينة اثنا عشر نفرا عـلى الاكثر ينتخبهم سكانها ٠ وهؤلاء الاشخاص الـــذين يمتازون بسلوكهم الحسن وبثقافتهم يتقلدون أيضا وظيفة خوجا أو خطة القضاء وهم الذين تصدر منهم الاحكام على المذنبين ، والجانى الذى يتوب ويرضى بالعقاب قد يسمح له بمواصلة الاقامة فى المدينة كما يقع ذلك فى المدينة المنورة ٠ وما دام العقاب جاريا عليه لا يتحدث اليه أحد ولا تقبل منه أى تحية ٠ ويبعد الجانى من الجماعة ما لم يعترف بذنبه ولم يرض بالعقاب ٠

والمدن التى تحيط بها الاسوار مثل غرداية وبنى يزقن هى مبنيـة على الـروابى ٠ وعلى قمم هذه المدن المتكونة من بيوت صغيرة مدهونة باللون الابيض والازرق ومن

أزقة ضيقة منحدرة مراكز دينية . وبعضها ابنية تاريخية ترقى الى القرنين الرابع والخامس الهجريين او العاشر والحادى عشر بعد الميلاد . والمساجد هى ابنيـة متكونة من قباب تحملها سوار غليظة تشبه سوارى مسجد بنى أمية فى قرطبة .

وفى وسط مسجد غرداية عـين ثرة يراها الرائى والماء يفـور منهـا . وللمآذن الاباضية شكل خاص ، هى بروج ذات أشكال مستطيلة تزيد دقة ونحافة بقدر ما تزيد علوا وارتفاعا . وفى أعلى البرج حجرة صغيرة للمؤذن أو للمصلين تدعى صومعة كما كانت تدعى المآذن بذلك فى الزمان القديم . ولفظ صومعة تدعى به المآذن أيضا فى الجزائر . وزوار المدن الاباضية عند مشاهدتهم لبقايا هذه العصور الغابرة يشعرون وكأنهم رجعوا الى عهود الاسلام الاولى .

البحوث الملقاة خلال الملتقى الحادى عشر للفكر الاسلامى
وما دار حولها من نقاش

افتتح الملتقى الحادى عشر للفكر الاسلامى بخطابين : خطاب السيد مولود قاسم نايت بلقاسم وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية ، وخطاب الدكتور غاى أمين عام مؤتمر الدول الاسلامية . عرف الوزير نايت بلقاسم بالموضوعات التى تم اقتراحها على الملتقى الحادى عشر . اما الدكتور غاى فقد تحدث على الاهمية التى اكتستها ملتقيـات الفـكر الاسلامى وطلب أن تضم هذه الى البرنامج الثقافى للملتقيات الاسلامية الدولية .

وقد تناول الكلمة أيضا المسيو دى ايبالزا من جامعة مدريد وأدلى بمعلومات حول الملتقى الدولى الذى سينعقد فى شهر مارس 1977 فى قرطبة . والموضوعات الـتى يعرض لها المحاضرون خلال هذا الملتقى هى : سيرة الرسول محمد (صلعم) وشخصية المسيح فى القرآن .

العثور على أقدم سـيرة

ان كثيرا من الدارسين طلبوا الى رئيسنا للشؤون الدينية الدكتور س. أتس أن يمدهم بمعلومات حول ملتقى سيرة الرسول الذى سينعقد فى تركيا . ان الملتقيـات

حول سيرة الرسول ستقام فى الاعوام المقبلة ، لانه ـ حسبما اخبرنى به الاستاذ حميد الله-عثر على نسخة من النص الاعلى للسيرة التى الفها ابن اسحاق . وهذا النص هو أقدم مصدر معروف لسيرة الرسول (صلعم) .

والمؤمل العثور فى نص ابن اسحاق على معلومات جديدة حول سيرة نبى الاسلام .

وقد ذكرنا ان اول موضوع اقترح على الملتقى الحادى عشر للفكر الاسلامى هو موضوع الثقافة الاباضية الرستمية (1) واول بحث تطرق صاحبه الى هذا الموضوع بحث القاه الشيخ سليمان داود بن يوسف . وتلاه الدكتور أ.النامى (ليبيا) من جامعة ميتشيقان، والدكتور احسان عباس (فلسطين) من جامعة برينستون، والدكتور ابراهيم فخار (جزائرى) من جامعة وهران، والاستاذة وداد القاضى (لبنانية) من جامعة هارفارد، والدكتورة م. فيغيرا (اسبانية) من جامعة كومبوستال ، والدكتور س . نوغاليس (اسبانى) من معهد البحوث الثقافية العربية الاسبانية فى مدريد، والدكتور دامبروفسكى من جامعة وارسو .

الاسلام فى افريقيا اليوم

الموضوع الثانى المقترح على الملتقى الحادى عشر للفكر الاسلامى كان : الاسلام فى افريقيا اليوم . وأول خطاب فى هذا الصدد ألقاه الاستاذ محمد عبد الله عنان من مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، وقد أشار الاستاذ عنان، والدكتور عويس من جامعة الرياض فى العربية السعودية، الى نشاط المبشرين المسيحيين، والى نشاط الشيوعيين بصفتهم الخصوم الاولين الذين لقيهم الاسلام فى افريقيا . وقد ذكر الدكتور وات من جامعة ايدمبورغ أن المسلمين يتعلمون أشياء كثيرة من المسيحيين. وذكر أيضا أن الامبراطورية العثمانية اعرضت عن الاسلام من وقت الاصلاح (تنظيمات) وان الجمهورية التركية انفصلت انفصالا كاملا عن الاسلام .

وقد كان لهذا الكلام أثر سيء فى عواطف الاخوة والحب التى يشعر بها العالم العربى ازاء الاتراك . وان احدا من الباحثين الشيعة واستاذا سوريا فى علم الكلام ذكرا انهما

(1) صيغة هذه النقطة فى جدول اعمال الملتقى هى : مساهمة الرستميين فى حضارة الاسلام وفكره

مضطران الى الموافقة على ما قاله وات والالم يملا قلبيهما · وقد تناول الكلمة فورا ـ من بين الوفد التركى ـ الاستاذ ارجمند كوران وممثل رئيس الشؤون الدينية الدكتور على ايدين ، الاول بالفرنسية والثانى بالعربية وقالا ان الاتراك ـ علاوة على كونهم لم ينصرفوا عن الاسلام بقوا ـ طوال كل العصور التاريخية ـ المدافعين الاولين عن الاسلام وصححا أخطاء ارتكبها وات من ناحية التاريخ القانونى ·

وقد استلفت الاستاذ كوران الانتباه الى شيء : وهو أن الاتراك أقاموا صرحا هو قانون التشريع الاسلامى واحدى دعائم قانون الاسلام · وبعد ذلك طلب العالم الدينى الشيعى العفو من الاتراك بلياقة · ثم قطع الوزير الجزائرى للتعليم الاصلى والشؤون الدينية كلام العالم السورى بسبب مجاوزة الوقت المحدد للنقاش · وأوشك من بعد الدكتور أيدين أن يلقى خطابا حول التربية الدينية فى تركيا ·

أما ما يخص موضوع الاسلام فى افريقيا الحديثة فقد ألقى أيضا جماعة من المحاضرين أبحاثا وهم : الدكتور ووكر من جامعة ملبورن (وهو استرالى مسلم) وكاتب من القاهرة الدكتور م· دياب ، والدكتور أ· جوب من جمعية كتاب السينغال ، وقد شكا وزير الاعلام لجمهورية الصحراء من أن المغرب لا يمنح الاستقلال للشعب الصحراوى ·

المرأة بعد عام المرأة

الموضوع الثالث الذى وقع اقتراحه على الملتقى الحادى عشر للفكر الاسلامى عنوانه : « عام المرأة وحقوق النساء » (1) وكان موضوع عدد كبير من البحوث · ألقى البحثين الاولين الاستاذ ل· قيدز من جامعة دانفير كولورادو ، والسيدة ونيسى من اعضاء وفد الاتحاد الوطنى للنساء الجزائريات · أما السيدة ف· كيرى ـ الصحفية الفرنسية ـ فقد عبرت عن المطالب التى تصبو النساء الفرنسيات الى انجازها وتحقيقها ، وقد عرض الدكتور برفين شوكت على من جامعة لاهور فى باكستان فى بحثه للتأثير الايجابى لملتقى مكسيكو سنة 1975 على حقوق النساء فى باكستان · وقد علق علماء الكلام

(1) صيغة هذه النقطة من جدول الاعمال هى : «المرأة بعد عام المرأة» ·

المسلمون على مسالة حقوق النساء على ضوء آى الذكر الحكيم ، وقد تناول الكلمة منهم : الدكتور أ.الدايم من جامعة الخرطوم (السودان) • والدكتور أ.الشيبـانى من جامعة الفاتح فى ليبيا • والسيد ص • بسيس من جامعة الزيتونة بتـونس • والدكتـور م• البوطى أستاذ فى كلية الشريعة الاسلامية بدمشق •

وقد ذكر رئيسنا للشؤون الدينية الدكتور سليمان اتس بالآيات والاحاديث النبوية التى تشير الى معاملة المرأة بالعطف والحنان ، ولا سيما الام • وقد القى خطابه هذا باللغة العربية •

عام المراة والاتراك

استخدمت الدكتورة س • هونكه من المانيا الغربية تعبيرات تفتح المجال لتاويلات غير لائقة • فقد حاولت أن تبين أن حقوق النساء كانت محترمة عند ظهور الاسلام • والكلمات المشبوهة حول طبيعة وحى القرآن والمقارنات بين الحب الآلهى وحب السيدة هونكه الرمزى من شانها أن تعتبر جارحة للمشاعر الاسلامية ، ومن جهة أخـرى اضطرتنى الى أن أصحح خطا تاريخيا ارتكبته كخطا اعتبار الاتراك والمغول مسؤولين عن التهديد التدريجى لحقـوق المرأة فى العالم الاسلامى • وخلافا لما ادعتـه الدكتورة هونكه كانت النساء التركيات والمغوليات ـ حتى بعد الاسلام ـ يتمتعن بحقوق أوسع اذا قسناها بحقوق غيرهن • وحتى لقب « عاهل » الممنوح للنساء التركيات كان مثيرا للتعجب فى الاوساط الاخرى من العالم الاسلامى •

ولم يكن موضوع بحثى هو المرأة التركية المعاصرة بسبب قصر بحوثى على الاطار التاريخى للثقافة الوسيطية بشكل خاص منذ عدة سنوات • وبحثى الذى عنوانه : « المرأة التركية الوارثة للتقاليد الاسلامية والوطنية » صمم ليكون مدخلا تاريخيا لبحوث زميلى التركيين : الاستاذ ا• كوران والسيدة ب• اريبوران الخاصة بالمـرأة التركية المعاصرة • وكان هذا مقبولا هكذا من قبل ادارة الملتقى • وكنت قسمت الموضوع على ثلاثة أقسام رئيسية :

أ ـ نشاط المرأة التركية قبل الاسلام فى المجتمع وتمكنها من الارتقاء حتى حصولها على لقب السلطنة ٠

ب ـ بعض الحقوق القانونية اعترف الاسلام بها للمرأة ٠ وربما وقع ذلك للمرة الاولى فى العالم ٠

ج ـ الشخصية الشجاعة المخلصة للفلاحة التركية ولشاعرات وأميرات وعالمات ارتقت بفضل النساء التركيات المسلمات ٠

وقد انطلق النقاش حول بحثى بأفكار وملاحظات ، من قبل الدكتور أ٠ باليك العضو فى الوفد النمساوى وهو مسلم من البوسنه والهرسك ، ومن قبل المفتى عبد الغنى عبد الله الكاتب فى مجلة قانونية والرئيس الاسلامى فى الاتحاد السوفياتي٠

وقد اضافت هاتان الشخصيتان اضافات ثمينة الى المعلومات التى أدليت بها فيما يخص المرأة التركية ٠

وقد لفت عالم طاشقند ـ فى غضون ذلك ـ الانتباه الى ان بعض نساء تركستان المتمسكات بالمذهب الحنفى قد صرن قاضيات كالنساء الاستاذات التركيات ٠

وقد استرعى الدكتور رابح تركى ـ وهو تركى جزائرى ـ النظر الى التناقض بين كلامى وبين قضية اعراض النساء العثمانيات عن الاسلام ابتداء من القرن التاسع عشر ٠

مشكلة الاصلاح

من السهل تفهم التردد الذى يخامر قلوب الجزائريين فيما يخص قضية الاصلاح ٠ وامام هذه الاسئلة المتكررة شعرت بمسيس الحاجة المحتومة الى تفسير وتعليل ضروب الطغيان الفادحة التى أزعجت الامبراطورية العثمانية خلال القرن التاسع عشر ٠

وحاولت ان ارسم صورة للضغوط التى ادت الى الاصلاح وان أتذكر القانون الدولى والتاريخ الديبلوماسى اللذين كنت لقنتهما أثناء متابعتى للدراسات السياسية ٠

وقد كانت الامبراطورية العثمانية أثناء عهدها الاكثر قوة وازدهارا قد اعترفت للاقليات غير المسلمة ولرعايا البلاد المسيحية الاجانب المقيمين فى تركيا بحقوق واسعة باسم عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، الذى تعهد بمنح غير المسلمين والمقيمين فى دار الاسلام حرية المعتقد ·

كيف يسمو الوعى بالثقافة الوطنية ؟

وقد ذكرت بعد ذلك أن هذه الحقوق كانت قد استخدمت لتخريب دولتنا وأن الالتزامات الاجنبية كان الاجانب قد غيروها بحيث صارت مؤذية للامبراطورية العثمانية وأن هؤلاء أغروا الرعايا المسلمين وغير المسلمين بالثورة والعصيان وأنهم تذرعوا بكل الوسائل لاقتسام ثروات الامبراطورية العثمانية · واضفت قائلا ان تركيا ـ بطلبها الغاء الالتزامات الاجنبية فى اتفاقات لوزان ـ لم تعتبر فقط حق تركيا بل اعتبرت أيضا حق البلاد الاسلامية الوارثة للامبراطورية العثمانية ·

ان سؤالا من اسئلة الطلاب كان مثيرا لاهتمام كبير · قد سألت طالبة : كيف السبيل لرفع الوعى بالثقافة الوطنية لدى المرأة الجزائرية ؟ بهذه المناسبة أدليت برأيى حول ضرورة تعليم تاريخ الثقافة الوطنية باستمرار فى جميع المدارس ، ومن بين الطلاب الذين تحادثت معهم كانت طائفة منهم من أصل تركى · ولكن يجب القول : ان الشبان الجزائريين الذين من أصل عربى أو بربرى كانوا مهتمين بتاريخ تركيا اهتمام الذين من أصل تركى ·

وحسب ما أطلعنى عليه سفيرنا بالجزائر السيد فايز ملك كان فى جامعة الجزائر كرسى لتاريخ التمدن التركى ، ولكنه ألغى لعدم وجود أساتذة يقومون بذلك ·

والشبيبة التى تصبو الى استقاء معلومات عن الاتراك تقبل على تأليف المؤرخ الجزائرى حول العثمانيين وهو السيد توفيق المدنى · والسيدة ف· هلال من جامعة الجزائر جادة فى اعداد دراسة حول اللهجة التركية للجزائريين الذين من أصل تركى ·

بحث الاستاذ أ٠ كوران

ألقى الاستاذ أ٠ كوران ـ من جامعة هاكـــتب فى أنقره ـ خطابا حول « نمو حقوق المرأة التركية منذ القرن التاسع عشر » بصفته اختصاصيا فى التاريخ العثماني.

وكان الاستاذ كوران قد أسهم فى ملتقيات الفكر الاسلامى وعرب تاليف من تآليفه ونشر فى الجزائر ٠ وقد أثار بحث السيد كوران الذى يعرف الجزائر معرفة جيدة اهـــتماما كبـــيرا . أما السيدة ب٠ أريبوران النائبة سابقا والقانونية فقد زودت الملتقى بمعلومات مفيدة ـ من الناحية القانونية ـ حول المرأة التركية المعاصرة وحللت الوضع القانونى للمرأة التركية اليوم على ضوء ملتقى مكسيكو لسنة 1975 حـــول حقوق المرأة ٠ وقد أفاد هذا البحث المؤتمرين افادة كبيرة ٠

وقد أعربت السيدة ص٠ انال من جامعة ارزوروم أيضا عن وجهة نظرها حـــول ذات المشكلة ٠

المؤتمرون الذين تناولوا الكلمة وتحدثوا عن حقـــوق المرأة هـــم : السيـــدة أ٠ دى فيلترای میيروفيتش العضوة ـ فى فرنسا ـ فى المركز الوطنى للبحوث العلمية واستاذة الفلسفة فى كلية البنات بجامعة الازهر فى القاهرة ٠ والسيدة ف٠ مـــالى الصحفية الفرنسية ، والسيدة ف٠ سيبركا وهى ألمانية مسلمة تعمل فى مونيـــخ (أو مونشن) فى مركز اسلامى ، والاستاذ لكحل بن حواء وهو قانونى جزائرى ، والاستاذ أ٠ سايطوح من جامعة طوكيو (وهو مسلم) ، والسيدة كليليا سارنيلى تشركوا من المعهد الشرقى فى جامعة نابولى ٠

موارد بطن الارض أهى نعمة أم نقمة ؟

والموضوع الرابع والاخير المقترح على الملتقى الحادى عشر للفكر الاسلامى كان : ثروات باطن الارض أهى نعمة أم نقمة ؟ خمسة بحوث فقط ألقيت حول هذا الموضوع ،

وقد اختار أن يتحدث عنه السادة الآتية أسماؤهم : الدكتور صارى من جامعة الجزائر، والدكتور الصاوى من جامعة طهران ، والدكتور م٠ رشيدى من كتاب اندونيسيا ، والدكتور د ٠ كاون من جامعة لنـدن ، والدكتوز صبرى ، من سوريا ٠

وخلال انعقاد الملتقى نظمت زيارات لمراكز النفط مثل حاسى مسعود وللمدن العتيقة فى واحات الصحراء مثل غرداية وتقرت وسدراتة ٠

وبدعوة من الوالى عرضت علينا رقصات دينية قام بها جماعة من البربر مستخدمين صناجات وطبولا ضخمة ٠

وقد شاهدنا فى معرض رسوم وكتب مفتوحة فى دار ولاية ورقلة صورا شمسية لنماذج معمارية ترقى الى العهد التركى فى الجزائر ورسوما منتزعة من مؤلفات عربية من عهد القرن التاسع عشر ٠ وقد عرضت على هذه الرسوم مناظر لاسطانبول وللدخول الاول للسلطان الفاتح محمت وهو ممتط فرسه الابيض فى اسطانبول ومناظر من معارك الجهاد التى قادها باربروس خير الدين باشا ومنظر للبطل الجزائرى الامـير عبد القادر (1808 ـ 1883) ٠

وصـــول الاتـــراك

وقد دعى الاعضاء المسلمون المشاركون فى الملتقى الى أداء صلاة الجمعة فى مسجد ورقلة الصغير ٠ داخل هذا المسجد ووراء حائط أقصر من قامة انسان كانت النساء يشاركن فى الصلاة طبقا لتقاليد المذهب المالكى كما فى العصور الاولى للاسـلام اديت صلاة الجمعة فى مسجد خال من كل زينة ٠

وأخيرا ، فقد سنحت لنا ــ نحن الاتـراك ــ الفرصة للتعرف على الجـزائريين الذين استقبلونا ــ كبارا وصغارا ــ استقبالا حارا ٠

المــرأة بعد عام المــرأة

احد موضوعات الملتقى II للفكر الاسلامى

السيدة كزافير غوتيى
كاتبة ـ باريس ـ (فرنسا)
ومديرة مجلة « الساحرات »



انك متكدرة مضطربة • انك تتساءلين • لقد اكتشفتهن هنا مجتمعات فى ركن ما،او زاوية من الزوايا • فعلى امتداد الطريق الذى يعبر القرية الاشتراكية ، القرية النموذجية ، رجال سعداء يصفقون ، واطفال مدارس يرفعون اصواتهم لاستقبالنا والاحتفاء بنا • ثم انك ـ وقد قادتك الزغاريد ـ قد اكتشفتهن ملفوفات فى خمرهن ، وفى أحضانهن أطفال صغار • تتجهين نحوهن وعلى شفتيك ابتسامة ، وباندفاعة واحدة يسارعن الى مصافحتك وتقبيل يدك ، لماذا ؟ تتحدثين اليهن ، وهن صامتات • لقد أزاحت الفتاة ـ وهى تضحك ـ نقابها الذى كانت تشده بأسنانها ـ انها جميلة ـ وهى تقول « اسكت » ثم عادت فشدت خمارها بأسنانهاساترةبه وجهها • ذلك منتهى ما صدر منها من كلام •

(*) نشر في مجلة « الساحرات » الفرنسيه ، العدد الثامن .

لكن داخل الملتقى الحادى عشر للفكر الاسلامى ، كلام وكلام كثير . فالمحاضرات يتلو بعضها بعضا بأسرع الوتائر . تنصتين فلا تفقهين شيئا من دقائق الامور التى تتصل بالممالك الرستمية . ومع ذلك فانت تفهمين ان السعودى شن الحرب على المسيحيين ، واليهود ، والشيوعيين ،والماسونيين ، وان اليمنى العجوز وزير العدل السابق لوح بسيفه مهددا بقطع رأس الكفرة ... والنساء . انك لتشعرين بغليان فى نفسك ، وتتهاوين على كرسيك الوثير . وما كان لك ان تنسى انك فى ضيافة وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية فى الجزائر ، بل ان الجزائريين ، والوزير الصحراوى، والتقدميين يصعدون الى المنصة لتهدئة الامور ، أنهم يصفون حساباتهم السياسية بالرجوع الى الله ، حسنا ، سوف لا تنزعجين لاساقفة محليين من طراز الاسقف « ليفيفر » Lefèvre . (2)

لكن ها هى ذى القضية تتعلق بالنساء . وهنا تسمعين كل شيء . مما لم تكونى تعرفينه قبل مجيئك الى هذا المكان ؛ ما لم تكونى قد فهمته جيد الفهم من قبل ، وهو ان الاسلام حرر المرأة .

هل هذا يدهشك ؟ انك لم تقرأى القرآن كما ينبغى ، فقد ورد فى الاثر أن « **الجنة تحت أقدام الامهات** » ، وجاء فى القرآن « **ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها** ».اذن فالامور كلها تجرى على ما يرام.او تنكرين ؟ اما تزالين غير مغتبطة بأنك مخلوقة من ضلع الرجل لتكونى له سكنا وراحة ؟ لكن ماذا تبتغين أيتها التعيسة ؟ انت تريدين هدم الاسرة ، تقويض اركان المجتمع ، وتعريض الانسانية جمعاء للفناء ! ألا تعلمين (وهذا من كلام استاذ أمريكى فى الملتقى) (3) ان تحرر المرأة « محاولة مقصودة لاضعاف الرجل والانتقاص من رجولته وحرمان المرأة من حقوقها التى ميزتها من الرجل بكل رقة ولطافة » ، مما تنشأ عنه حالات الطلاق والافراط فى تناول المخدرات،والادمان على السكر،وتفشى الجرائم (من اغتيالات واعتداءات على العرض والشرف)

(2) اسقف فرنسى يعارض حاليا دعوة البابا الحالى الى التخلى عن كثير من تقاليد الكنيسة ، ومنها تلاوة الصلاة باللاتينية .

(3) هو الاستاذ الدكتور شارل فيدز

والتفسخ الخلقى ، وأوبئة الامراض الزهرية ؟ ألا تعلمين (وهذا قول أحد السودانيين) (4) ان النساء المتحررات فى الغرب يتلوين شبه عاريات على الارصفة فى فجور ودعارة ؟ ماذا ، لكأنى بك عازمة على المضى قدما فى الكفاح من أجل حقوقك ؟ ألا تعلمين (وهذه مقالة سيدة فرنسية اعتنقت الاسلام) (5) ان للنساء المسلمات من الحقوق أكثر مما لديك ، وهذا من قديم الزمان · حسنا · لكن والحجاب ؟ لم يكن الحجاب فريضة من الرسول الكريم ، انما هو عادة متأخرة · لكن وتعدد الزوجات ؟ ليس سوى ترخيص ، لان الرسول قال للرجال « **فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة** » (القرآن) ، كما أنه أوصى بالنساء خيرا وبحسن معاملتهن ، وحسن معاملة الحيوانات كذلك · والواقع أن الامر كان رهيبا قبل الاسلام · فقد كانت النساء يدفنن وهن على قيد الحياة · ثم اقتصر الامر على اغراقهن · والآن ما ان انتهيت من الحديث على الساحرات حتى صعد رجل الى المنصة وقال : « لا ·· ان المرأة التى تهدم الاسرة ، يجب ألا يقذف بها فى الماء ، بل يجب قذفها فى النار ! » وهنا تعالى دوى من التصفيق من نصف القاعة المخصص للذكور من الطلاب ·

وتحاولين الحصول على شىء ما فى الركام ، فتلاحظين انه فى عام 1917 صدر بتركيا مرسوم يشترط رضا المرأة قبل ان يعمد زوجها الى التزوج بامرأة ثانية ، وان الدولة التركية دولة علمانية ، وان الشريعة قد ابطلت · والشريعة هى التى تحكم العالم الاسلامى ، والتى تنص فى مجال الارث على ان للذكر مثل حظ الانثيين ، وان شهادة رجل واحد تعادل شهادة امرأتين ، وتسجلين بأن المرأة فى ايطاليا ليس من المحتوم عليها حين تتزوج ان تتسمى باسم زوجها ، وذلك منذ سنة 1975 · لكن آلافا من النساء يقمن فى البيت ، يعملن فى « ظلام الليل » عملا يتناولن عنه نصف أجرة · وتسمعين من يابانى ان للرجل والمرأة فى السويد نفس الواجبات فيما يتعلق بالمهام المنزلية ، وان معونات مالية تمنح للمستخدمين ، (بالكسر) الذين يشجعون النساء على العمل فى المجالات المخصصة للرجال عادة · وتلاحظين انه لا يمكن لرجل فى الباكستان ان يتزوج

(4) الاستاذ الدكتور الحبر (يوسف نور الدايم)
(5) الاستاذة الدكتورة ايفادى هنرى مايروفيتش

بامرأة ثانية الا بإذن من الزوجة الاولى وتأخذين عن الباكستانية أن القانون المصرى يعترف بالطلاق القائم عن تراضى الزوجين، وان للمصريات حق التصويت منذ عام1956!

كيف تجدين نفسك فى هذا الخليط من الكلام ؟ ان هناك امرا واضحا على الاقل ، وهو المثل التونسى عن المرأة : « فى النهار دابة ، وفى الليل شابة » (6) ، والمثل القائل : « لا تضربها الا بعد ان تقيدها » ، ثم قولهم ان الله خلق المرأة « لتخدم وتنجب له ابناء ... ورسالتها الاصلية ومهمتها الاولى تتمثل فى الحفاظ على الاسرة » فأى مصير أحسن من هذا يمكن ان تحلمى به ؟ ان المرأة كما يقول الشيخ المحترم هى « مصنع للانتاج » (7) . وتثورين فى آخر الامر ، وتتحدثين فى الميكروفون فتقولين : « انكم لتغمرونها شرفا ، فليست المرأة مصنعا . وانما هى مجرد عاملة يستغل مجهودها رب العمل الذى هو زوجها ، وقد سبق لماركس ان قال : « ان الرجل فى مثال الزوجين هو ذلك البرجوازى ، والمرأة هى ذلك البروليتارى . وفى اعتقادى ان الجميع يعلمون هذا فى هذا البلد الاشتراكى » . وعن الاشتراكية بالذات تتحدث امرأة . انها امرأة جزائرية ، وتستمعين اليها باهتمام . انها أخت . انها مناضلة فى جبهة التحرير الوطنى . ولابد ان تذكرى أيضا مدى تأثرك بهذه الحفاوة الحارة ، المتفتحة ، الحية ، والعجيبة حقا التي يخصك بها الجزائريون ، انت الفرنسية بالذات ، ولم تمض على الحرب سوى بضع سنوات ! انك لمتاثرة حقا بمثل هذه الرقة واللطافة ، وبمثل هذه الروح الخصبة السمحة .

وتتحدث هذه المرأة العضوة في أمانة الاتحاد الوطنى للنساء الجزائريات (8) ، وتقوم بتحليل غدا تقليديا في الاوساط « السياسية » وتقول : « لقد كانت المــرأة أداة ووسيلة انتاج في يد الرجل والسيد ، لكن الاشتراكية تحل هذه المشاكل جميعا ، لان الانتاج الذى يشارك فيه الجميع ملك للجميع » . وتضيف « بان نظام الإنتــاج الرأسمالى هو الذى تتحول المرأة داخله ، وهي « المثال الجامد » ، الى « مادة تجارية ، بل وحتى صورة من صور الاشهار » ؛ وهي تقول أيضا : « ان الاسلام منح المرأة أهلية

(6) أورده الاستاذ الصادق بسيس فى محاضرته .
(7) الاستاذ بسيس .
(8) السيدة زهور ونيسى .

مالية ، وثقافية،واجتماعية » • لكنها هى على الاقل تطرح السؤال الذى تطرحينه ، (على فرض أن هذه المساواة التى تنالها المرأة فى الاسلام مطروحة من حيث المبدأ ، فانه بالامكان دائما تأويل النصوص المقدسة حسب المرغوب ، والمسيحيون يفعلون ذلك بصدد الانجيل) • انها تتساءل : لماذا مثل هذه الهوة السحيقة بين النصوص التشريعية والوقائع البهيمية التى نعيشها ؟ وتشير باصبع الاتهام الى الظروف الاجتماعية ، والثقافية ، والاقتصادية والسياسية (الاستعمار مثلا) • وتبدئين تفهمين أن الدين الاسلامى كان بمثابة الاسمنت للثورة ولحرب التحرير ، وان أية معارضة مكشوفة لمثل هذا الدين تعنى عملية انتحارية ، وان من الخير القول ـ عن خطة متعمدة او مجرد مخرج غير واع ـ بان المسلمين الحقيقيين هم الذين تتمتع لديهم المرأة بكامل الحرية • ثم ان هذه المرأة التى تدير مجلة « الجزائرية » مجلة المرأة ، تكافح بذكاء واقتناع من أجل ان يكون للنساء مثل حقوق الرجال ، ومن أجل تعليمهن وتثقيفهن ، وفى سبيل حقوقهن في العمل • وهى تناضل بكل ما أوتيت من قوة في سبيل ان يعترف بالمرأة «كقوة حية فى بناء الحضارة» • صبرا • ان هناك حركة فى الجزائر • هناك حركة حتى ولو كانت فوضوية عسيرة • وأنت متأكدة من ذلك • هناك تلك الجزائرية الشابة التى تهمس فى أذنك بأن الفتيات لم يعدن يرغبن فى الزواج الآن • انهن يعلمن مدى ما عانته أمهاتهن • وهناك هؤلاء الطالبات الحييات والمصممات مع ذلك ، اللائى يتقدمن الى المنصة للتعبير عما يساورهن من نوازع القلق والامل • واكيد انه ليس ثمة ما يشبه حركة نسوية بالمعنى الذى نفهمه فى الغرب ، لكن لماذا يراد لهن ان يسلكن طريقا مماثلة لمسالكنا ؟ قد ترغبين ، بعكس ذلك ، ان تتعلمى منهن ، وتستمعى اليهن ، وان تلتقى بهن لمدة أطول • المهم ان يستمر هذا الغليان الذى شعرت به ••• ان هناك حركة بالجزائر •

اذا ما شعرت يوما باختناق ومغص فى المناقشات والخطب البارعة ، فلوذى قليلا بالصحراء ، هنا فى قرية من القرى ، وعلى مقربة من نقطة ماء ، تلتقين بالنساء • فهن يبتسمن لك ، ويصافحنك ، ويدعونك بالاشارة للدخول الى البيت • ويبحثن فى أعماق كيس يقوم مقام الخزانة فيخرجن منه قارورة عطر ويصببن منه على جلدك ••• تتبادل معهن الابتسامة • أيتها النساء فى جميع البلدان ، اتحدن ! • (1)

(1) على غرار نداء كارل ماركس : «أيها البروليتاريون فى جميع البلدان ، اتحدوا !»

حول ملاحظات، وانطباعات

الشيخ سليمان داود بن يوسف عن ثورة 1871

د • يحيى بوعزيز
جامعة وهران



الشيخ سليمان داود بن يوسف ، عالم جزائرى ، من قرية العطف الميزابية ، على بعد حوالى تسعة كيلو مترا من مدينة غرداية بوادى ميزاب •

تعرفنا عليه خلال انعقاد الملتقى الثامن للفكر الاسلامى ببجاية فى ربيع عام 1974 ، وكان من ضمن من علقنا عليه حول قضية التقاء ابن تومرت بالفيلسوف الاسلامى الكبير أبى حامد الغزالى •

وفى نهاية الملتقى صحبناه معنا فى سيارتنا الخاصة من بجاية الى الجزائر العاصمة ، وتناقشنا فى الطريق ، وتبادلنا الحديث حول عدة مواضيع فكرية ، وتاريخية ، قديمة وحديثة ، خاصة حول ثورة التحرير الاخيرة •

وفى الملتقى التاسع للفكر الاسلامى بتلمسان ، خلال صيف عام 1975 ، التقينا به مرة أخرى ، وكان من ضمن المحاضرين فى الملتقى ، فلم يوفق فى محاضرته ، وكان هو والمنهجية على طرفى نقيض • فالموضوع : تلمسان خلال عهد الدولة الزيانية ، وهو أخذ يستعرض تاريخ تلمسان من عهد الرومان الى ما بعد حركة الامير عبد القادر •

وكان فى نيتنا التعليق عليه خلال الملتقى ، ولكن حالت زيارة الرئيس بومــدين ورفاقه الى الملتقى ، دون ذلك لان الوقت كان تأخـر كثيرا ، والحـرارة شديدة ، فلم يسع الوقت الا لعدد قليل من الناس ان يعقبـوا ٠

وخلال الملتقى جمعتنا واياه عدة مناسبات منها لجنة اعداد التوصيات ٠ وكنـا نكبره ونجله على حيويته ، ونشاطه ، فى مثل ذلك السن المتقدم ٠ ولم تكن نؤاخـذه على مبالغته فى التحمس للمذهب الاباضى الذى ينتمى اليه ، وللحضارة الرستمية ، وأمجادها الغابرة ، لان الانسان مهما بلغ فى التكوين الثقافى ، يجد صعوبة فى التخلص من العواطف الخاصة نحو مسقط الرأس ، والانتماء المذهبى ، والتاريخى ، ثم انه لا ضير فى ذلك ما دام فى حدود اللياقة ، والمعقول ٠

ومع ذلك لم نتحرج فى انتقاده بأسلوب علمى ، مهذب فى موضوع كتبنـاه عن ملتقى تلمسان ٠ بعنوان : « حول الملتقى التاسع للفكر الاسلامى بتلمسان ، ملاحضات واقتراحات » (1) ، قيمنا فيه اعمال الملتقى ، وانتقدنا عدم المنهجيـة العلمية التى اتصف بها بعض المحاضرين والمعقبين ، ومن سوء حظ الشيخ سليمان اننا ذكرناه ضمن هؤلاء الذين لم يلتزموا بالمنهجية وذكرنا معـه المرحومـين : عبد الحميد بن آشنهو ، وعثمان الكعاك ٠ ولم نقل أكثر من هذا ٠ والتمسنا لهم عذرا فى أنهم لم يتلقوا دراستهم فى جامعات علمية حديثة ٠ كما أوضحنا انه ليس مـن الضرورى ان يكون كل عالم محاضرا ٠

ويبدو ان هذه الملاحظة افقدت الشيخ سليمان داود صوابه ، واغتنم فرصـة مشاركتنا فى الملتقى العاشر للفكر الاسلامى بعنابة خلال صيف عام 1976 ، بمحاضرة حول : ازدهار الحضارة والفكر الاسلاميين بالمغرب الاسلامى ، ودوره فى نهضـة أوروبا ويقظتها » ٠ فهاجمنا ، وانتقدنا ، بعيدا عن الروح العلمية ، وحقائـق التاريخ ، وحاول أن يتهمنا بالتعصب ، والتحيز ضد الميزابيين ، دون أى مبرر ، لانه

(1) الاصالة ٠ عدد 19 ـ 30 (الجزائر ، جانفى ـ فيفرى 1976) ص : 176 ـ 185 ٠

لا صلة اطلاقا بين موضوع محاضرتنا ، والحضارة الميزابية . مما جعلنا نتأكـد ان انتقاده كان لغرض الانتقام مع فقدان طبيعة الاعتداء أو النيل من جانبنا .

ومما حاول أن يؤاخذنا عليه في انتقاداته ، ان مقدمة موضوعنا لا صلـة لها بالمحاضرة ، وأن عددا من الشخصيات الفكرية لم نذكرهم لانهم من أبناء عمومتـه ، أى انهم ميزابيون . هكذا بهذا المنطق . ويعلم الله أن تلك الشخصيات لم نكـن نعرفها ، وشكرناه على افادتنا بها ، وقلنا له ان ما أوردناه من الاسماء كان لمجـرد التمثيل ، وليس لغاية الحصر .

ومع اننا رددنا عليه في الملتقى ، خلال ردنا العام على كل المناقشين والمعقبـين من السادة الاساتذة ، الا أن جو الملتقى منعنا من ان نتوسع في الرد ، واكتفينـا « بدغدغته » فقط ، وسط التصفيقات الحادة لجمهور الملتقى البهيج التى كنا نتوقع أن تكون أبلغ رد له .

وبعد انتهاء الملتقى حفزتنا بعض التعقيبات التى أثيرت خلاله ، على كتابة موضوع عنها ، تحت عنوان : « من وحى الملتقى العاشر تجربة الجزائر الرائدة » (2) . فكان ذلك مناسبة لنا لتخصيص فقرة ، لتوضيح موقف الشيخ سليمان ، على حقيقته ، والكشف عن أنه لم يتناول التعقيب على محاضرتنا ، لغاية خدمة الفكر والثقافـة ، وانما من أجل الرد فقط على ملاحظتنا عنه ، ولكن بأسلوب الحقد ، والضغينـة ، البعيدين تماما عن اللياقة العلمية . وكان اكثر مـا أثار استغرابنا ، اقحامه النعرة العصبية في هذا الميدان الفكرى .

وكما غضب على تعليقنا عنه بعد ملتقى تلمسان ، غضب كذلك على تعقيبنا عنه بعد ملتقى عنابة ، ويظهر انه تاثر أكثر هذه المرة ، فقام ينشر ملاحظاته وانطباعاته عـن ثورة 1871 ، (3) التى نشرنا عنها نحن بعض المقالات ، والدراسات ، ليجد الفرصة مرة أخرى لمهاجمتنا ، وانتقادنا ، كعادته ، مما يدل على انه تاثر كثيرا ، ونحن نقول

(2) الاصالة . عدد 38 (الجزائر ، أكتوبر ـ 1976) ص : 117 ـ 137 .
(3) الاصالة . عدد 39 ـ 40 (الجزائر ، نوفمبر ـ ديسمبر 1976) ص : 137 ـ 143 .

له بأننا رغم كل هذا ، نكن لك الاحترام والتقدير ، وستبقى دائما صديقنا ، وشيخنا ، ووالدنا الروحى ، ولن نسمح أبدا لهذه الملاحظات والانطباعات ، أن تفصل ما بنينا من ود ، واخاء ، وأواصر • كما اننا سوف لن نفعل مثلك فى ردنا عليك • وسنلتزم بالبحث والنقاش العلميين النزيهين •

وجمهور قرائنا الكرام ، وما أكثرهم والحمد لله ، هم الذين حفزونا الى كتابة هذا التعليق ، لدفع اللبس الذى حاول الشيخ سليمان ان يلبسه لبعض حقائق تاريخنا ، ويشوه به ما نسعى نحن وغيرنا منذ الاستقلال الى اجلائه ، وبعثه على حقيقته •

وحتى لا نطيل على القارىء الكريم نشرع توا فى ابداء الملاحظات التى استوجبها الرد على انطباعات الشيخ سليمان •

أولا : انتقد علينا الشيخ سليمان بأننا اعتمدنا فقط على المصادر الفرنسية فى كتابتنا عن ثورة 1871 ، وهو يشير بذلك الى مقال نشرناه بمجلة الاصالة عن هذه الثورة بمناسبة الذكرى المأوية لها (4) • ونحن نقول له بأن هذه الثورة لم يكتب عنها بعد بالعربية ، فكل مصادرها تقريبا اجنبية وأغلبها فرنسى •

ومن أجل ذلك اخترنا موضوع أطروحتنا الجامعية عنها ، واعتكفنا على دراستها أكثر من سبع سنوات ، وتكبدنا جهودا شاقة يعلم الله فقط ، ونحن ، مداها • وستكون عند صدورها قريبا ان شاء الله ، أول محاولة من نوعها باللغة الوطنية ، لغة الضاد ، والقرءان • وقد ناقشنا فيها الاقوال والادعاءات الفرنسية ، بالحجة ، والبرهان من منطق الوثائق العربية ووقائعها • وحاولنا أن نصحح قدر الامكان ، وفى حدود ما حصلنا عليه من وثائق • الاغلاط والاخطاء التى تعمد الغير الصاقها بهذه الثورة ورجالها •

ومن الطريف أن نذكر للشيخ سليمان أن أحد أعضاء لجنة المناقشة للاطروحة ، أخذنا على أننا اعتمدنا كثيرا على المصادر العربية ، علما بأنها لا تزيد على حوالى ثلاثين، الى جانب حوالى مائة وثيقة • فى حين قاربت المصادر الفرنسية المائتين •

(4) الاصالة ، عدد 2 (الجزائر ، ماى 1971) ص : 22 ـ 29 •

ثم ان معظم الدراسات التاريخية التى نشرناها فى مجلتى الاصالة ، والثقافة ، وثائقية اعتمدنا فيها على الوثائق العربية التى تنشر لاول مرة . فهل غاب عليكم ذلك ياشيخ سليمان أم أنكم تريدون أن تغطوا الشمس بالغربال ـ كما يقال ـ .

ثانيا : أثار الشيخ سليمان قضية مشاركة المدعو بولنعاس الميزابى فى ثورة 1871 ، ليتخذ ذلك ذريعة لتأكيد مشاركة الميزابيين جميعا فى هذه الثورة ، وكأنه بهذا يحاول ان يجعلهم فى قفص الاتهام . ونحن لم نشر الى هذا اطلاقا ، ولم نتعرض اليه . ومع ذلك نقول له بأن سكان وادى ميزاب لم يشاركوا فى ثورة 1871 ، والسبب بعدهم عن ميدانها فى الشمال وهم فى اعماق الجنوب الصحراوى ، وليسوا وحدهم الذين لم يشاركوا ، فهناك غيرهم .

أما بولنعاس ، الذى على ما يبدو ، من سكان سطيف ، حسبما يفهم من كلام الشيخ سليمان ، فاذا صح أنه شارك ، فليس ذلك غريبا لانه جزائرى على كل حال ، ولم لا يشارك ؟ ومع ذلك فأين يظهر أمام عشرات الآلاف من الابطال الجزائريين الذين ضحوا بالنفس والنفيس ، وقدموا الغالى والرخيص فى سبيل وطنهم خلال ثورة 1871 . فبولنعاس قطرة فى محيط ، وشعرة فى جبل من الصوف . ولماذا يحاول الشيخ سليمان أن يفصل الميزابيين عن المجتمع الجزائرى ، وهم جزء لا يتجزأ منه رغم أنفه . ويحاول اثارة الشكوك .

ثالثا : ادعى الشيخ سليمان ان الوانوغى بن بومزراق من مواليد المنفى بكاليدونيا الجديدة ، وأن أباه سماه بهذا الاسم نسبة الى قبيلة ونوغة . ونحن نقول له بأن هذا ليس صحيحا . لان احمد بومزراق لم يتزوج فى المنفى ، ولم يرزق بأى مولود هناك وأن ابنه الوحيد الوانوغى ولد بالجزائر قبل الثورة ، والدليل محضر الاتهام الذى أعد لمحاكمته عام 1873 بقسنطينة ، والذى نص بالحرف الواحد على أن : « أحمد بومزراق بن الحاج احمد الآغا السابق للونوغة عمره خمسة وثلاثون عاما ، متزوج ، وله ولد ... » . (5)

(5) ACTE D'ACCUSATION. P. 75.

وقد سماه أبوه بالونوغي لا نسبة لقبيلة ، ولكن لاقليم الونوغة الذى كان قائدا عليه من قبل أخيه الباشاغا أحمد المقرانى من عام 1861 الى عام 1871 ، والذى ينحصر بين البويرة شمالا ، وسور الغزلان جنوبا ، وبنى منصور شرقا ، ويشمل جزءا كبيرا من جبال البيبان ، ويسكنه عشرات من العروش والقبائل .

وهذا الابن الوحيد لاحمد بومزراق هاجر مع باقى المقرانيين الى تونس فى مطلع عام 1872 بقيادة ابن ناصر بن شهرة بعد أن فروا الى الصحراء . وكانوا حوالى خمسمائة شخص بينهم عدد آخر من المهاجرين غير المقرانيين .

وعندما صدر العفو على المنفيين بنوميديا عاصمة كاليدونيا فى المحيط الهادى عام 1881 ، ورفض احمد بومزراق العودة الى الوطن ، عاد ابنه الوانوغى من تونس الى الجزائر مع بعض المقرانيين ، وتولى رعايته بعض الوقت ، شيخ زاوية الهامل محمد ابن بلقاسم قرب بوسعادة . وقد زرنا بنفسنا هذه الزاوية عام 1972 ، وتحادثنا مع أحد القائمين بها الذى حدثنا على الرعاية التى كان أرباب الزاوية يولونها للمقرانيين بعد نكبتهم على أثر الثورة ، وذكر لنا أن بعضهم ما يزالون حتى اليوم فى مدينة بوسعادة يعيشون كتجار وعمال .

وبعد مدة من عودة الوانوغى من تونس عينته السلطات الفرنسية معلما فى مدينة القليعة ، ثم نقلته الى مدينة الاصنام لنفس الوظيف ، وبها ترقى الى منصب المفتى فى نفس المدينة .

وفى مطلع القرن العشرين ، بذل الوانوغى جهودا ومساعى لاعادة أبيه من منفاه ، ونجح فى ذلك ، فعاد أبوه من المحيط الهادى فى صيف عام 1904 ، واستقبله عنده فى الاصنام بعض الوقت ، ولكنه وجد كل شيء قد تغير عليه ، ولم يطق العيش فى الاصنام فانتقل الى مدينة الجزائر العاصمة ، وجاور بعض رفاقه واصدقائه القدماء من التجار بحى القصبة ، ولم يطل عمره كثيرا ، فقد توفى فى صيف العام الموالى 1905 ، ودفن فى مقبرة سيدى محمد بحى العقيبة .

وفى خلال الحرب العالمية الاولى ارسل الوانوغى بن بومزراق ، وقطرانجى عبد الرحمن بن عمر ، الى فرنسا فى مهمة ارشاد الجنود الجزائريين فى جبهة الحرب والصلاة بهم ، وبعد عودتهما ألفا كتيبا صغيرا سمياه : « القول الناصح فى مجادلة المائن الكاشح » (6) لا يهمنا هنا موضوعه ٠

وقد بقى الوانوغى فى منصب الافتاء بالاصنام حتى توفى فى مطلع الخمسينات ٠ وكانت له زوجتان : احداهن مقرانية ، والثانية من سوقر قرب تيارت بنت الشيخ المفتى بها ٠

ومن ابناء الزوجة المقرانية ثلاثة ابناء واحد منهم اسمه بومزراق ، وكان يعمل فى فرقة رياضية بفرنسا حتى قامت ثورة التحرير الاخيرة ففر الى تونس ، وانضم الى الفريق الرياضى التابع لجبهة التحرير الوطنى ٠ وعاد الى الجزائر بعد الاستقلال ، وعمل مدربا رياضيا ، وتعرفنا عليه فى عاصمة الجزائر عام **1963** ، وسمعنا منه أحاديث كثيرة عن ابيه الوانوغى ، وجده احمد بومزراق ، وتوفى حوالى 1965 ، ولحقه أخ آخر ٠ وما يزال الاخ الثالث حتى اليوم يعيش بالاصنام على ما نعلم ٠

ومن أبناء الزوجة السوقرية ، زوجة الفنان خليفى بالجزائر العاصمة ، وزوجة التاجر المقرانى عبد الحق الذى ما يزال يعيش بالاصنام ٠ (7)

فالوانوغى بن احمد بومزراق ، اذن ، من مواليد الجزائر ، وليس المنفى ، واستمد اسمه من اقليم الونوغة الذى كان أبوه قائدا له حوالى عشر سنوات ، وليس من اسم قبيلة بهذا الاسم ٠ ولو كان من مواليد المنفى ، لما سمح له عمره الصغير بتقلد تلك المناصب ، ولما سمح وطن كاليدونيا بالتثقف بالعربية لتلك الدرجة التى أهلته لتولى منصب الافتاء سنوات طويلة بالاصنام ٠ فليتمعن الشيخ سليمان فى هذا ، وليصحح معلوماته ٠

---

(6) توجد نسخة من هذا الكتيب فى مكتبة جامعة الجزائر تحت رقم 300 ـ 208 ٠

(7) أفادنا بهذه المعلومات عن الوانوغى ، الشيخ المهدى البوعبدلى بطيوة فى أرزيو ، قرب وهران ، وذلك فى رسالة بتاريخ 21 محرم 1393 (24 فيفرى 1973) ، والشيخ المهدى وأبوه من أصدقاء الوانوغى ٠

رابعــا : أورد الشيخ سليمان داود ، صورة مع ملاحظاته وانطباعاته التى نشرها فى مجلة الاصالة المشار اليها سابقا • وتحوى هذه الصورة عددا من الاشخاص ، وأدعى ان الشخص الرابع بها الى اليمين هو الوانوغى بن بومزراق • وليس ذلك صحيحــا لان ذلك الشخص هو السيد عثمان عبد المجيد بن ابراهيم الطولقى من زاوية طولقة ، الذى كان يكتب فى جريدة النجاح القسنطينية التى كان يديرها قريبه السيد عثمانى عبد الحفيظ بن الهاشمى ، الذى كان مفتيا فى عنابة قبل أن ينقل الى قسنطينة لادارة تلك الجريدة ، ولم يتوفــ الا منذ حوالى ثلاث سنوات فقط •

ومن ابناء السيد عثمانى عبد المجيد الطولقى (الذى اعتبره الشيخ سليمان ، هــو الوانوغى) السيد عثمانى سيف الدولة الذى كان معلما فى قصر الطير ، وأثرى فى عقد الاربعينات ، وأصبح تاجرا كبيرا فى الجزائر ووهران ، وانتقل الى المغرب الاقصى، وامتلك مخبزة كبيرة فى الدار البيضاء ، وتعرف عليه كل اللاجئين الجزائــريــين خــلال ثورة التحرير الكبرى الاخيرة وارتبط معه بالمصاهرة المرحوم الطاهر التيجانى الذى شغل منصب الامين العام لوزارة الاوقاف ، ثم لوزارة التربية الوطنية بعد الاستقلال بعض الوقت •

ومن ضمن الاسماء الذين تحويهم تلك الصورة ولربما لا يعرفهم الشيخ سليمان ، عبد القادر القاسمى ، من زاوية الهامل الذى كان عضوا فى المجلس الجزائرى ، وتوفى حوالى 1953 • ومامى اسماعيل محرر جريدة النجاح الذى توفى فى مطلع الستينات • وشيخ العرب عبد العزيز بن قانة • والشيخ ابن الساسى قاضى قسنطينة • (8)

ان الشيخ الوانوغى بن احمد بومزراق يعــرفه كثيرون مايزالون احيــاء ، ولا يوجد فى تلك الصورة التى نشرها الشيخ سليمان فليسأل العارفين بذلك ، وليتجنب هــذا الخــلط •

خامسا : ادعى الشيخ سليمان بأن الشيخ احمد بن الشيخ الحداد قد هرب من منفاه بالكاليدونيا ، ومات بمكة • وذلك غير صحيح ، لان الذى فر من هناك هو أخوه

(8) أفادنا بهذه المعلومات الشيخ المهدى البوعبدلى فى رسالــة بتاريخ 9 ربيــع الاول 1397 ، الموافق 28 فيفرى 1977 •

الشيخ عزيز بن الحداد ، فى صيف عام 1880 على مركب بريطانى حمله الى سيدنى بأستراليا ، ثم الى جدة ، ولم يمت بمكة وانما فى مرسيليا بفرنسا ، ونقلت جثته الى مدينة قسنطينة حيث دفن بجوار قبر أبيه الشيخ امزيان بن على الحداد ٠

أما الشيخ امحمد فقد بقى بمنفاه ، ووجدنا اسمه ضمن قائمة أسماء عدد من المنفيين الذين كتبوا رسالة الى الحاكم العام الفرنسى بالجزائر عام 1888 ، يطلبون منه اطلاق سراحهم ٠ وذلك فى أرشيف باريس الوطنى ، ولم تشر المصادر الفرنسية ولا غيرها الى مصيره ، والاغلب أن يكون قد توفى هناك ، ولم يكن من صنف المغامرين كأخيه سى عزيز حتى يفر أو يحاول ذلك ، ولو فر لاشارت الى ذلك المصادر ، كما اشارت الى فرار أخيه ٠

سادسا : أثار الشيخ سليمان قضية آثار الشيخ الحداد ، وقضية كونه مثقفا او أميا ، ونحن لم نشر الى هذا لا من قريب ولا من بعيد ٠ وما دام قد فعل ذلك فلابد من أن نعطى ايضاحا ٠

فحول ثقافة الشيخ الحداد ، أو أميته ، هناك رأيان شائعان فى منطقته بحوض وادى الصومام ، وجبال جرجرة ٠ رأى يؤكد أنه مثقف بدليل أنه خلف بعض التآليف العلمية خاصة فى مجال التصوف ، وأن أولاده كانوا مثقفين خاصة الشيخ عزيز ، وأن زاويته كانت تقوم برسالة العلم بشكل واسع لعدة عقود من الزمن حتى قضى عليها خلال ثورته ٠ وان كثيرا من اتباعه واخوانه كانوا ذوى ثقافة ٠

ورأى آخر يدعى انه أمى لا يقرأ ولا يكتب ، وهو رأى شائع بين قلة من الناس ، من الطبقة المثقفة غالبا ، وما يزال متواترا فيما بينها فقط ، ولم يمتد الى الطبقة العامة٠ وقد حكى لنا الاخ الفاضل السيد آيت سعيد عمر اصدقاون من عين الحمام ، الذى

يعمل معلما فى مدينة بجاية ، ناقلا عن أبيه المسن السيد على بن محمد السعيد اصدقاون ، بأن الشيخ الحداد أمى لا يقرأ ولا يكتب • (9)

وقد سمعنا ما يشبه هذا من الشيخ على شنتير نائب رئيس المجلس الاسلامى الاعلى خلال محادثات بيننا وبينه ببجاية خلال انعقاد الملتقى الثامن للفكر الاسلامى ببجاية فى ربيع عام 1974 ، حيث ذكر بأن الشيخ الحداد لم يكن مثقفا ، ولكنه لم يقل بانه كان أميا تماما ، وعائلة الشيخ شنتير كانت من اتباع الشيخ الحداد •

ورأينا نحن ، الذى سيبقى قابلا للنقاش ، هو ان الشيخ الحداد ، لم يكن أميا تماما ، ولم يكن ذا مستوى عال فى الثقافة ، بل كان ذا ثقافة متوسطة يعرف القراءة والكتابة ، ويفهم بعض كتب الدين التى تدخل فى حضيرة اختصاصه كرجل دين • وعلى فرض صحة أنه أمى فلا ينقص ذلك من قيمته ، ويكفيه شرفا أنه ثار وحمل السلاح ضد الاستعمار الفرنسى وهو فى سن الثمانين عاما ، ورمى بكل أصحابه واتباعه فيها ، وما أكثرهم • ويبدو لنا أن الذين يشيعون أميته كانوا من خصومه ، اما دينيا ، أو سياسيا •

وحول آثار الشيخ الحداد ، او مكتبته ، ان صح ان له آثارا ، او مكتبة ، فان المصادر التى أطلعنا عليها ، وما أكثرها ، خلال انشغالنا ، باعداد دراستنا عن هذه الثورة ، لم تشر الى ذلك اطلاقا لا من قريب ، ولا من بعيد • أما الشيخ سليمان فقد ادعى انه عثر على ذلك ، ولكنه كان مضطربا فى رواياته ، ففى الملتقى التاسع للفكر الاسلامى بتلمسان عام 1974 ، ذكر أنه عثر على مكتبة الشيخ الحداد فى المكتبة الوطنية بباريس ، وانها تحوى حوالى الف مجلد ، وفى انطباعاته وملاحظاته التى

---

(9) حكى لنا الاخ هذه الرواية خلال التقائنا بالمعهد التيكنولوجى للتربية فى حى بوزريعة بالجزائر العاصمة ، خلال ملتقى عقد هناك فى عام 1973 تقريبا ، لمعالجة مشاكل التكوين • ثم كاتبنا برسالة أخرى جوابا عن رسالة لنا ، فى نفس الغرض • وأكد لنا بأن أباه رغم انه يبلغ من العمر مائة وأربعة عشر عاما ، الا أنه يتمتع بكامل الصحة العقلية والجسدية • ووعدنا أيضا بأنه سيتصل بابن الشيخ الرشيد الواسيفى الذى كان جده محمد اصدقاون كاتب الشيخ ، وأحد مقاديمه البارزين فى جبال جرجرة ليستطلع منه الامر ، ولكنه لم يفعل بعد • تاريخ رسالته 9 سبتمبر 1973 ، مصدرها بجاية •

نشرها أخيرا فى مجلة الاصالة ذكر أنه عثر عليها فى مكتبة مدرسة اللغات الشرقية بشارع ليل رقم 2 بباريس • وانها تحوى ألفا واثنين وسبعين مجلدا ، كلها مخطوطات، فأى الروايتين نصدق ؟

ثم اننا نسأله كيف تمكن ان يصعد الى الطابق الرابع بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بباريس ، وقاعة المطالعة بها للرواد والقراء توجد فى الطابق الاول ، وقد اشتغلنا بها نحن لمدة شهر كامل خلال صيف عام 1970 ، وأطلعنا على كل ما يتصل بثورة 1871 ولم نعثر على ما ذكره ، فما هى هذه العصا السحرية التى فتحت أبواب الطابق الرابع ، ومن هم الجنون ، الذين فتحوا له خزائن كنوز الشيخ الحداد بشارع ليل فى باريس ؟

واكثر من هذا فان الشيخ الحداد رجل دين ، وليس رجل سياسة وكتبه اذا صح أن له كتبا ، ستكون ولا شك ، كتب دين ، ولغة ، من فقه ، ونحو ، وصرف ، ومنطق وتفسير ، وأصول ، وما الى ذلك من المواد التى تساعد على فهم القرآن والسنة • وهى كتب لا يهتم الفرنسيون بحفظها هكذا ، واخفائها طيلة قرن كامل ، ليقدموها بعد ذلك هدية للشيخ سليمان داود بن يوسف عام 1964 ، ولنسلم جدلا أن الشيخ الحداد كانت له كتب ، أو مكتبة ، فهل يعقل أن تصل الى ذلك العدد الضخم الذى ذكره ، وهو ألف واثنان وسبعون مجلدا ، اللهم فاشهد ان هذا مبالغة مكشوفة تجاوزت الحد المعقول • ان الشيخ سليمان نفسه ، وهو العالم ، البحاثة ، المتنور ، الذى يعيش فى عصر وفرة الكتاب وازدهاره ، قد لا يملك هذا العدد ولا نصفه ، فى مكتبته المتواضعة ، فى قرية العطف الميزابية •

أما الوثائق التى هزبها الفرنسيون فى مطلع عام 1962 ، من الجزائر ، فهى وثائق الاستعمار الفرنسى بالجزائر بصورة عامة ، وليست هى كتب الشيخ الحداد ، الفقهية ، والصرفية ، والنحوية ، والبلاغية ، وما شابهها • ولا ينبغى الخلط هكذا فى حقائق التاريخ ، والتراث •

سابعا : لقد نسب الينا الشيخ سليمان داود بأننا ذكرنا أن من أسباب انتقال بنى حماد من القلعة الى بجاية ، هم زناتة ، ومن اسباب انقراض دولة بنى حماد ، هم

الهلاليون . ثم ذكر أن هذا مخالف تماما للواقع وللتاريخ . واعتمد فى هذا على فقرة قرأها كما ذكر فى الصحف ، دون أن يشير الى اسمائها .

والموضوع الذى يشير اليه عبارة عن محاضرة القيناها فى بجاية يوم 19 ماى 1975 بمناسبة الاسبوع الثقافى الثانى بها ، وقد نشرناها بكاملها فى مجلة الثقافة (10) . ولم نذكر فيها أبدا أن من أسباب انتقال بنى حماد من القلعة الى بجاية ، هم الزناتيون، لاننا لم نبحث هذه الاسباب ، وركزنا فقط على الجوانب الحضارية .

أما اسباب الضعف والانهيار ، فقد استعرضناها فى آخر المحاضرة والمقال ، وذكرنا أن ثورات واضطرابات الهلاليين وغاراتهم المتكررة كانت من العوامل التى اضعفت الامارة ، الى جانب غارات النورمان ، والصراع بين القبائل المختلفة كزناتة وكتامة ، وهذا صحيح . أما الذين اسقطوا فعلا الامارة فهم الموحدون بزعامة عبد المؤمن الموحدى . فليراجع الشيخ المقال ، وليتعلم ألا ينتقد الا عندما يتأكد من صحة ما يقول، وينشر . ولا يطلق الكلام والنقد هكذا جزافا ، ودون حدود أو مقاييس .

ثامنا : تطوع الشيخ سليمان فاستعرض فى « ملاحظاته وانطباعاته » ما ارتآه أسبابا لثورة 1871 ، ونحن نقول له بأننا بحثنا ودرسنا هذه الاسباب من واقع الوثائق، وليس من عالم الخيال ، وقريبا ان شاء الله سترى النور دراستنا عن هذه الثورة ، وسيكون له المجال واسعا ، وحرا ، ليعلق ، وينتقد ، بل اننا نقول له هات ما عندك ، واستعمل ما شئت من الاساليب ، فلا يضيرنا ذلك ، وستبقى دائما من أصدقائنا ، وأعزائنا . واننا نطلب منك بصفة رسمية أن تزودنا بما لديك من الوثائق عن ثورة أولاد سيدى الشيخ ، وسى الاعلى ، والشيخ بوعمامة ، وغيرهم من ثوار القرن الماضى لنستفيد منها فى دراساتنا وبحوثنا التاريخية . وسنكون لك من الشاكرين مقدما . وكن عند حدود وعودك . فقد وعدت بانك لا تبخل علينا بها فها نحن نطلب منك ذلك بصفة رسمية .

---

(10) الثقافة ، عدد 36 (الجزائر ، ديسمبر — جانفى 1977) ص : 11 — 22 ، والموضوع بعنوان : « ملامح عن قلعة بنى حماد والدولة الحمادية وبجاية » .

الشيخ سليمان وحكاية الشيخ « أمعو » :

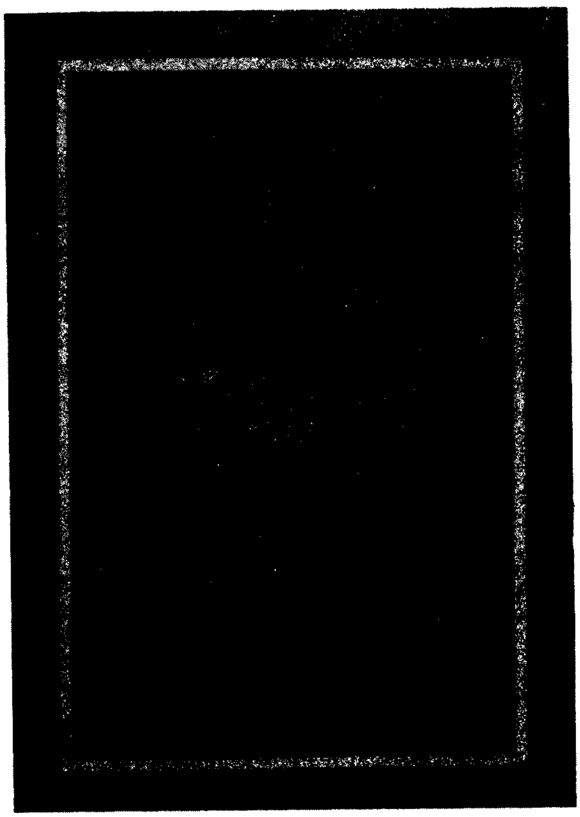
ان السبب الاول والاخير الذى حمل الشيخ سليمان على انتقادنا هو غضبه من نعتنا اياه بعدم المنهجية بعد ملتقى تلمسان ، ويحلو لنا فى هذا المقام أن نورد الفذلكة المضحكة التالية ، وهى قصة واقعية حصلت فى مسقط رأسنا ، وعشنا واقعها عندما حصلت فى عقد الاربعينات • فهناك شيخان مسنان فى قريتنا أحدهما أعمى يدعى عمى الاخضر ، والثانى تاجر يدعى بلقاسم وله دكان يبيع فيه بعض البضائع التجارية خاصة الغذائية ، ولم يكن ذا شخصية قوية فتسلط عليه أطفال القرية وخلعوا عليه لقب : « الشيخ أمعو » لاسباب لا نتذكرها الآن ، وأصبحوا كلما رأوه ، أو مروا على دكانه ، نادوه بهذا الاسم : « الشيخ أمعو » ، ويعنون به صوت القط • فيغضب ويجرى وراءهم بالحجارة ، والعصى •

وذات يوم ذهب الى عمى الاخضر الشيخ ، المسن ، الاعمى ، وكان جالسا فى مكان الجماعة ، وهى الفسحة أو الساحة الكبيرة التى تتوسط القرية ، ويلتقى فيها السكان فى أوقات فراغهم ، للراحة وتداول الكلام ، وقتل الوقت كما يقال ، واشتكى اليه من تصرف الاطفال ، فنظر اليه بسخرية ، وهو لا يبصر كما قلنا ، وضحك ثم قال له : ما دمت تغضب من كلمة « أمعو » فأنا أقول لك : أمعو ، أمعو ، أمعو،وأخذ يرددها فى وجهه حتى كاد ان ينقطع منه النفس •

ونحن نقول للشيخ سليمان ما دام يغضبك قولنا بانك لست منهجيا ، فاننا نقول لك ونعيد : لست منهجيا ، لست منهجيا ، لست منهجيا • ونكرر ما قلته انت فى محاضرتك بأن من غربل الناس نخلوه • وان عدتم عدنا ، والسلام •

منشـــورات

وزارة التعليـم الاصـلى والشؤون الدينيـــة



طفل عمره سبع سنوات
يحفظ مائة حديث

أجريت مسابقة مائة حديث نبوى فى يوم 9 ربيع الاول 1397 هـ الموافق لـ 27 ـ 2 ـ 1977 م بمناسبة احياء ذكرى المولد النبوى الشريف التى شارك فيها ما يربو على 300 تلميذ •

كان من ضمن المشاركين الطفل الوجدى عصمت سليم الذى يبلغ من العمر سبع سنوات ، فهو من مواليد 22 ـ 8 ـ 1969 م ، غير أن حداثة سن هذا الطفل لم تمنعه من احتلال الرتبة الاولى بكل جدارة واستحقاق •

لقد تمكن من الالمام بمائة حديث نبوى شريف مع ذكر السند ، ولو كلفناه بحفظ مائتين لحفظها •



واقل ما يقال فى شأنه انه يتمتع بحافظة خارقة للعادة اذهلت المصححين والمشرفين على اجراء المسابقة ، وأبهرت كل من حضر حفل توزيع الجوائز الذى اقيم فى الجامع الكبير بتلمسان •

وبعد ما أفسح المجال للطفل فى بداية الحفل ليقول كلمة : أبى الا ان يلقى على مسامع الحاضرين مجموعة من الاحاديث النبوية الشريفة ، وختمها بآيات من الذكر الحكيم (سورة البقرة) • وهنا لم يتمالك بعض الحاضرين انفسهم فاسرعوا اليه بالعناق

والتقبيل ، معبرين عن فرحتهم ودهشتهم فى آن واحد ٠

ومن بين الاحاديث النبوية التى ألقاها على مسامع الحاضرين الاحاديث التالية :

1) عن ابى هريرة (ض) قال : قال رسول الله (ص) تجد من شرارالناس يوم القيامة عند الله ذا الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه ٠ — رواه البخارى —

2) عن ابى ايوب الانصارى ان رسول الله (ص) قال : لا يحل لرجل ان يهجر اخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذى يبدأ بالسلام ٠

— رواه البخارى ومسلم —

3) عن ابى هريرة (ض) قال : سمعت رسول الله (ص) يقول : اذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول فى النار ٠ فقلت يا رسول الله هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال : انه كان حريصا على قتل صاحبه ٠ — رواه الشيخان وأبو داود والنسائى —

4) عن أبى هريرة (ض) قال : قال رسول الله (ص) : ليس الشديد بالصرعة انما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب ٠ — رواه البخارى ومسلم وابوداود —

5) عن ابى هريرة قال : قال رسول الله (ص) : والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، أولا أدلكم على شىء ان فعلتموه تحاببتم : أفشوا السلام بينكم ٠ — رواه مسلم وابوداود والترمذى —

6) عن المقدام بن معديكرب قال : قال رسول الله (ص) ما ملأ آدمى وعاء شرا من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فان كان لا محالة فاعلا فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه ٠ — أخرجه الترميذى وابن ماجه —

7) عن ابى هريرة (ض) قال : قال رسول الله (ص) : انظروا الى من هو اسفل منكم ولا تنظروا الى من هو فوقكم فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم — رواه مسلم —

8) عن شداد بن أوس (ض) قال : قال رسول الله (ص) : الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الامانى ٠

— رواه الترمذى واحمد والحاكم وابن ماجه —

9) عن ابن عمر (ض) عنهما قال : نهى النبى (ص) أن يبيع الرجل على بيع أخيه وأن يخطب الرجل على خطبة أخيه حتى يترك الخاطب قبله أو يأذن له الخاطب .

ـ رواه البخارى ـ

10) عن ابى هريرة (ض) قال : قال رسول الله (ص) : تنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك .

ـ رواه الجماعة الا الترمذى ـ

11) عن ابن مسعود (ض) قال : قال رسول الله (ص) : يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فانه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعلية بالصوم فانه له وجـــاء .

ـ رواه الجمـــاعة ـ

12) عن ام حبيبة قالت : سمعت رسول الله (ص) يقول : لا يحل لامرأة تؤمـــن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث الا على زوج أربعة أشهر وعشرا .

ـ رواه البخـــارى ـ

13) عن ابن عمر (ض) عنهما ان النبى (ص) سمع عمر بن الخطاب وهو يحلف بأبيه فقال : ان الله ينهاكم ان تحلفوا بآبائكم ، من كان حالفا فليحلف بالله او ليصمت .

ـ رواه البخارى ـ

14) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله (ص) يقول : ان الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى اذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤوسا جهلا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا .

ـ رواه البخارى ومسلم ـ

15) عن ابى هريرة (ض) قال : سمعت رسول الله (ص) يقول : من تردى من جبل فقتل نفسه فهو فى نار جهنم يتردى فيها خالدا مخلدا فيها أبدا ، ومن تحسى سما فقتل نفسه فسمه فى يده يتحساه فى نار جهنم خالدا فيها أبدا ، ومن قتل نفسه بحـديدة فحديدته فى يده يجأ بها فى بطنه فى نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا . ـ رواه البخارى ـ

16) عن ابى هريرة (ض) قال : قال رسول الله (ص) : قال الله تعالى : أعـــددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، واقــــرأوا انشئتم : « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعـين » . — رواه البخارى ومسلم —

17) عن ابى موسى الاشعرى (ض) قال : قال رسول الله (ص) : لا يدخل الجنة مدمن خمر ، ولا مؤمن بسحر ، ولا قاطع رحـم . — رواه ابن حبان فى صحيحه —

18) عن ابى موسى (ض) أن رسول الله (ص) قال : انما الجليس الصالح والجليـس السوء كحامل المسك ونافخ الكـير ، فحامل المسك اما ان يحذيك واما ان تبتاع منه واما ان تجد منه ريحا طيبة ، ونافخ الكير اما ان يحرق ثيابك واما ان تجد منه ريحـا خبيثـــا .

— رواه البخارى ومسلم —

19) عن عبد الله بن عمرو بن العاص (ض)عنهما أن النبى (ص) قال : أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حـــتى يدعها : اذا أؤتمن خان ، واذا حدث كذب ، واذا عاهد غدر ، واذا خاصم فجـــر .

— رواه البخارى ومسلم —

20) عن ابى هريرة (ض) عن رسول الله (ص) قال : الصلوات الخمس والجمعة الى الجمعة ورمضان الى رمضان مكفرات لما بينهن اذا اجتنبت الكبـائر . — رواه مسلم —

21) عن عبد الله بن عمرو بن العاص (ض) ان رسول الله (ص) قال : الدنيا متاع وخير متاعها المـرأة الصـالحة . — رواه مسلم والنسائى —

22) روى الديلمى فى مسند الفردوس عن انس (ض) ان رسول الله (ص) قـال : أصلحوا دنياكم واعملوا لآخرتكم كأنكم تموتون غدا .

23) روى الطبرانى أن رسول الله (ص) قال : ان افضل الايمان ان تعلم ان اللــه معك حيثمـا كنت .

24) روى ابن حيان فى صحيحه عن ابى ذر الغفارى (ض) قال : اوصا نى خليـــلى بخصال من الخير : ان لا أخاف فى الله لومة لائم ، وأوصانى أن أقول الحق وان كان مرا .

25 روى أبو نعيم فى الحلية عن أبى هريرة (ض) ان رسول الله (ص) قال : مـن

طلب الدنيا حلالا استعفافا عن المسألة وسعيا على أهله وتعطفا على جاره بعثه الله يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر ، ومن طلبها حراما مكاثرا بها مفاخرا لقى الله عز وجل وهو عليه غضبان •

26) روى ابن ماجة عن سهل بن سعد (ض) ان رسول الله (ص) قال : ان هذا الخير خزائن ولتلك الخزائن مفاتيح ، فطوبى لعبد جعله الله عز وجل مفتاحا للخير مغلاقا للشر وويل لعبد جعله الله مفتاحا للشر مغلاقا للخير •

27) روى الامام أحمد (ض) ان رسول الله (ص) قال : الجماعة رحمة والفرقة عذاب •

28) روى الطبراني عن أبى الدرداء (ض) قال : أتى النبى رجل يشكو قسوة قلبه فقال له النبى (ص) اتحب أن يلين قلبك وتدرك حاجتك ؟ ارحم اليتيم وامسح رأسه وأطعمه من طعامك يلن قلبك وتدرك حاجتك •

والطفل الوجدى عصمت سليم من مواليد مدينة تلمسان بتاريخ 69/8/22 م • ينحدر من أب جزائرى متوسط الحال ، يمارس التعليم فى احدى متوسطات المدينة وهو يتابع حاليا دراسته فى احدى المدارس الابتدائية فى قسم السنة الثالثة من التعليم الابتدائى وهو يفرض تفوقة الهائل على اقرانه محتلا على الدوام المرتبة الاولى •

وقد سلمنا الى أول المتسابقين فى حفظ الحديث النبوى الشريف الجائزة الاولى والمتمثلة فى ألف دينار وبذلة غير مخيطة •

وبفضل تنظيم هذه المسابقة استطعنا اكتشاف موهبة جديدة وصاحب حافظة خارقة ، أملنا أن يحظى بالعناية والرعاية والتربية المتماشية مع ذكائه المتوقد •

محمد خليف
مدير الشؤون الدينية بالنيابة
بولاية تلمسان

منشـــــورات

وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينيــة



Alors, elle parle cette femme, membre du Secrétariat National de l'Union Nationale des Femmes Algériennes. Et, bien sûr, elle fait l'analyse désormais classique dans les milieux « politiques ».

Elle dit que la femme était moyen, instrument de production dont l'homme était le propriétaire, le maître. Mais que le socialisme résoud tous ces problèmes puisque la production, faite par tous, appartient à tous. Elle dit que c'est à l'intérieur du mode de production capitaliste que la femme, « statue inerte », est devenue « matière commerciale et même image de publicité ». Elle aussi, elle dit que « l'Islam a attribué à la femme la capacité financière, culturelle et sociale ». Mais elle, au moins, se pose la question que tu te poses (à supposer que cette égalité de la femme dans l'Islam soit posée de principe — après tout, on peut toujours interpréter les textes sacrés comme cela vous arrange, les Chrétiens le font bien avec l'Evangile —). Elle se demande : pourquoi un si grand fossé entre les textes juridiques et les réalités bestiales que nous vivons ?

Elle accuse les circonstances sociales, culturelles, économiques et politiques (la colonisation, par exemple). Tu commences à comprendre : que la religion musulmane a servi de ciment à la révolte et à la guerre d'indépendance ; que s'opposer ouvertement à une telle religion serait suicidaire ; que — tactique délibérée ou seule issue inconsciente — il vaut mieux dire que là où les femmes seront libres, là seront les vrais musulmans.

Et puis, cette femme — qui dirige « Al-Djazairia », revue de femmes — se bat avec intelligence et conviction pour que les femmes aient des droits égaux à ceux des hommes, pour leur instruction, pour leur droit au travail. Elle lutte de toutes ses forces pour que la femme soit reconnue « comme force vivante dans l'édification de la civilisation ». Courage : ça bouge en Algérie. C'est cahotique et difficile, mais ça bouge, tu en es sûre. Il y a cette jeune Algérienne qui te glisse à l'oreille que, maintenant, les jeunes filles ne veulent plus se marier, elles savent ce que leurs mères ont subi ; il y a ces jeunes étudiantes, timides mais décidées, qui montent à la tribune pour dire leurs inquiétudes, leurs espoirs. Oh, bien sûr, il n'y a rien qui ressemble à un mouvement de femmes, au sens où nous l'entendons en Occident. Mais pourquoi suivraient-elles des chemins semblables aux nôtres ? Tu voudrais, au contraire, apprendre d'elles, les écouter, les revoir plus longuement. Pourvu que ce bouillonnement que tu as senti continue... Ça bouge, en Algérie.

Un jour que tu étouffes dans les palabres et les discours savants, tu te sauves un peu dans le désert. Là, dans un village, auprès du point d'eau, tu rencontres des femmes. Elles te sourient, te touchent la main. Elles t'invitent, par gestes, à entrer dans leur maison. Elles fouillent au fond du sac qui leur sert d'armoire, elles en sortent un flacon de parfum et elles imprègnent ta peau de ses senteurs sucrées, fortes... Nous nous sourions. Femmes de tous les pays, unissez-vous !

Xavière Gauthier

en ont plus que toi, de droits... Ah, bon. Mais, le voile ? Voyons, le voile n'a pas été prescrit par le Saint Prophète, c'est une coutume tardive. Mais, la polygamie ? Oh, un détail, à peine une permission puisque le Prophète a dit aux hommes : si vous craignez de ne pas faire régner la justice entre vos femmes, n'en prenez qu'une... ! Il a dit aussi de bien les *traiter,* d'être bon avec elles (et avec les animaux, que tu ajoutes). D'ailleurs, avant l'Islam, c'était horrible, on enterrait les femmes vivantes. Depuis, on se contente de les noyer. Et maintenant, juste après que toi, tu ais parlé des sorcières, un homme monte à la tribune et dit : « Non, la femme qui détruit la famille, il ne faut pas la jeter à l'eau, il faut la brûler ». Et alors, un tonner d'applaudissements monte, très exactement d'une moitié de la salle... celle réservée aux étudiants mâles !

Dans le fouillis général, tu essaies de retenir quelque chose. Tu notes qu'en Turquie, depuis 1917, un décret nécessite le consentement de la femme pour que son mari puisse se marier une seconde fois, que c'est un état laïque, que la Shari'ah a été abandonnée. La Shari'ah, c'est ce qui régit le monde musulman et qui stipule, par exemple, que, pour les droits de succession, la fille a la moitié de la part dévolue au fils et que le témoignage d'un homme équivaut à celui de deux femmes. Tu notes qu'en Italie, depuis 1975, la femme en se mariant ne prend pas obligatoirement le nom de son époux mais que des milliers de femmes font, au noir, à domicile, un travail sous-payé. Tu apprends du Japonais qu'en Suède l'homme et la femme ont les mêmes obligations concernant les tâches domestiques et que des subventions sont accordées aux employeurs qui encouragent les femmes à travailler dans des domaines traditionnellement réservés aux hommes. Tu notes qu'au Pakistan, on ne peut épouser une seconde femme sans l'autorisation de la première et la Pakistanaise te dit que le code égyptien reconnaît le divorce par consentement mutuel et que les Egyptiennes ont droit de vote depuis 1956.

Comment t-y retrouver dans ce fatras ? Au moins, une chose est claire, c'est l'adage tunisien : « La femme est bête (*de somme*) le jour, belle la nuit » (1). Et celui-ci : « Ne la frappe que lorsque tu l'auras attachée ». Et puis, Dieu a fait la femme « pour qu'elle le *serve* et qu'elle *lui donne* des enfants ». Sa « mission originelle », sa « vocation première, c'est la sauvegarde de la famille ». Quel plus beau destin peux-tu rêver ? La femme, dit le respectable cheikh, est une « usine à produire ». Tu t'énerves, à la fin. Tu causes dans les micros. Tu dis : « Vous lui faites trop d'honneur. Elle n'est pas une usine, elle est seulement l'ouvrier dont le travail est exploité par le patron-mari. Marx a dit que dans un couple, l'homme est le bourgeois, la femme est le prolétaire. Je pense que, ici, dans un pays socialiste, tout le monde le sait ».

Justement, du socialisme, une femme en parle. Une Algérienne. Elle, tu l'écoutes avec attention. C'est une sœur. Une combattante du F.L.N. — et il faut que tu dises aussi comme tu es touchée de cet accueil chaleureux, ouvert, vivant, merveilleux que t'offrent les Algériens, à toi, Française, si peu d'années après la guerre. Tu es vraiment émue d'une telle délicatesse, d'une telle richesse d'esprit —

(1) Cheikh Sadek Bseyes, professeur à la faculté Zaïtouna de Tunis :

« LA FEMME APRES L'ANNEE DE LA FEMME »

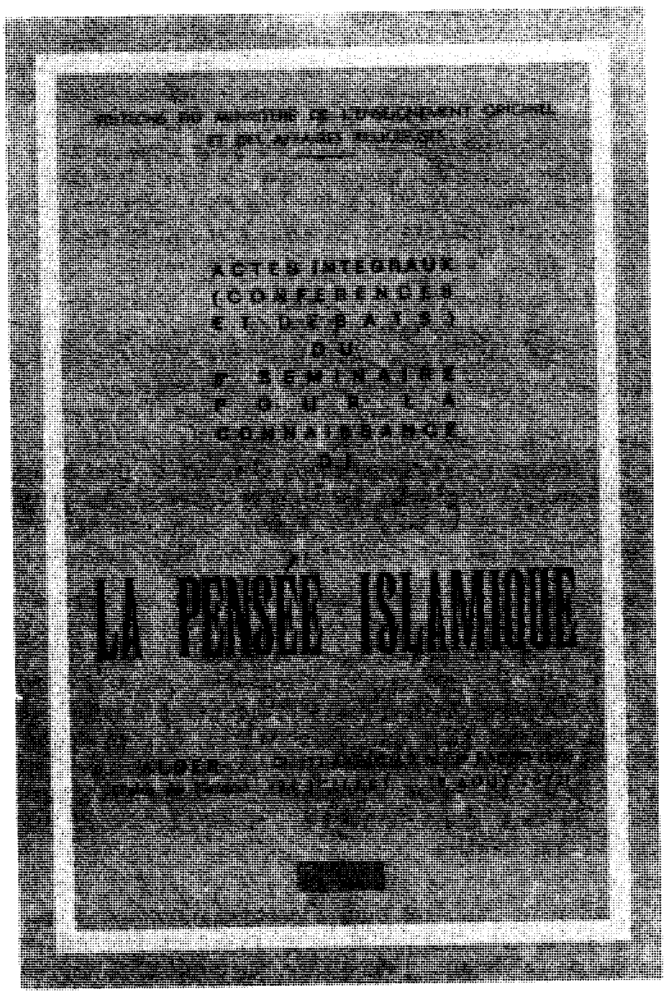
Un thème du XI^e^ Séminaire de la Pensée Islamique
par Xaxière Gauthier, rédactrice en chef de la revue « Les Sorcières » (Paris)

Tu es troublée. Tu t'interroges. Tu les as découvertes, là, massées dans un coin. Tout au long de la traversée du village socialiste, village modèle, les hommes heureux, tapant dans leurs mains, les garçons des écoles, criant, nous accueillant. Et puis, guidée par les « you-you », tu les as découvertes, drapées dans leurs voiles, les petits agrippés à leurs bras. Tu vas vers elles. Tu souris. D'un seul élan, elles se précipitent pour te tenir la main, pour t'embrasser la main. Pourquoi ? Tu leur parles. Elles ne parlent pas. En riant, la jeune fille lâche son voile, qu'elle tenait serré entre ses dents. Elle est belle. Elle dit : « ferme la bouche » et réajuste son voile entre ses dents, cachant son visage. Ce seront les seules paroles prononcées.

Mais, à l'intérieur du XI^e^ Séminaire de la Pensée Islamique, des paroles, oui, il y en a. Les conférences se succèdent à un rythme fou. Tu écoutes. Tu ne comprends pas grand chose aux subtilités des dynasties Rostomides. Pourtant, tu comprends que le Saoudien déclare la guerre aux chrétiens, aux juifs, aux communistes et aux francs-maçons et que le vieux Yéménite, ex-ministre de la justice, fait tournoyer son sabre pour couper la tête aux incroyants... et aux femmes. Tu bouillonnes. Tu te tasses dans ton fauteuil. Tu ne dois pas oublier que tu es invitée par le ministre de l'Enseignement Originel et des Affaires Religieuses de l'Algérie. D'ailleurs, les Algériens, le ministre sahraoui, les progressistes, montent à la tribune pour mettre le hola. Ils règlent leurs comptes politiques par Dieu interposé. Bien. Tu ne vas pas t'affoler pour des Mgrs Lefèvre locaux...

Mais, voilà qu'il s'agit des femmes et, là, tu en entends de toutes sortes. Ce que tu ne savais pas avant de venir ici, ce que tu n'avais pas bien compris, c'est que l'Islam libère la femme. Ça te surprend un peu ? C'est que tu n'avais pas bien lu le Coran. Il y est écrit, par exemple, que « le paradis est aux pieds des mamans »... Et dans les hadiths, le Prophète proclame : « Dieu a créé de vous-mêmes des épouses pour que vous puissiez être en repos auprès d'elles ». Alors, tout va bien. Non ? Tu n'es pas encore contente d'avoir été créée par l'homme pour être son repos de guerrier ? Mais qu'est-ce qu'il te faut ? Malheureuse ! Tu veux donc détruire la famille, la société et faire courir à sa perte l'humanité tout entière.

Ne sais-tu pas (*c'est un Américain que te le dit*) que la libération de la femme — « tentative délibérée pour émasculer l'homme et priver la femme de ses attributs qui l'ont si gracieusement distinguée de l'homme » — engendre les divorces, l'abus de la drogue, l'alcoolisme, la criminalité (assassinats, viols...), le relâchement des mœurs et les épidémies de maladies vénériennes. Ne sais-tu pas (*c'est un Soudanais qui te le dit*) qu'en Occident les femmes émancipées se tordent, à demi-nues, sur les trottoirs, dans le stupre et la débauche. Tu as l'air de quoi, à lutter pied à pied pour tes droits ? Ne sais-tu pas (*c'est une Française — convertie à l'Islam ! — qui te le dit*) qu'il y a belle lurette que les Musulmanes


ACTES INTEGRAUX
(CONFERENCES
ET DEBATS)
DU
SEMINAIRE
POUR LA
CONNAISSANCE
LA PENSÉE ISLAMIQUE

en 5 Tomes

Le dernier sujet permettait de savoir si les richesses souterraines sont un avantage ou un inconvénient. Le problème était examiné par cinq communications. Le professeur de géographie, d'origine turque, de l'Université d'Alger, le docteur Djilali Sari, a démontré par sa communication que ces richesses exploitées d'une façon productive deviendront une bénédiction pour les pays islamiques où ces richesses sont en train de se développer.

Le Séminaire a duré dix jours et a accepté à l'unanimité les décisions présentées par les commissions et a décidé de se réunir dans la ville de Batna la prochaine fois. Dans la séance de clôture, le discours en arabe portant sur l'éducation religieuse en Turquie, fait par le docteur Ali Aydin a laissé une impression très positive.

Au cours du Séminaire, deux voyages ont été organisés aux alentours de la ville de Ouargla. Le premier consistait à visiter Hassi-Messaoud, qui est l'une des principales régions pétrolières de l'Algérie, et la ville de Touggourt, où est née la secte « Ticani ». Le second voyage nous a amené à la ville de Ghardaïa, centre des Kharidjites. La ville de Ouargla où a été organisé le Séminaire et qui a une population d'environ 60.000 habitants, est intéressante grâce à ses mosquées et maisons anciennes, son vieux marché face aux établissements modernes, ses écoles et son musée Sahara.

J'exprime toute ma reconnaissance à Monsieur le ministre algérien de l'Enseignement Originel et des Affaires Religieuses, de grande culture et de personnalité dynamique, Mevlud Kacem, pour l'amitié et l'accueil qu'il a montré à la délégation turque, et j'exprime mes remerciements à l'ambassadeur Faik Melek, qui a eu la courtoisie de nous inviter à déjeuner à l'ambassade turque pendant notre récent séjour à Alger et à Husnu Kuran, premier secrétaire de l'ambassade, et son épouse qui nous ont donné la possibilité de voir les œuvres de la ville restée du temps des turcs.

De la Turquie ont participé le docteur Suleyman Ates, président des Affaires Religieuses ; le docteur Ali Aydin, représentant du Conseil Supérieur des Affaires Religieuses ; l'épouse de notre président du Sénat, Mme P. Ariburun ; le docteur Emel Esin, membre de l'Institut de Recherche de la Culture turque et l'auteur de cet article. D'autre part, le professeur de langue persane à l'Université d'Ataturk, le docteur Saime Inal, accompagnée de son époux le docteur Sawi de l'Université de Téhéran et une délégation de trois personnes présidée par le mufti Abdulgani Abdullah de l'Union Soviétique ont également participé au Séminaire.

Les travaux ont été inaugurés par le discours du ministre algérien de l'Enseignement Originel et des Affaires Religieuses, Mevlud Kacem. Le secrétaire général de la Conférence des Pays Islamiques Amadu Kerim Gaye, était aussi présent à la cérémonie d'ouverture.

Pour le premier sujet examiné, l'histoire des Rustemi, sept communications ont été lues et discutées. Nous n'allons pas nous étendre sur ces communications qui ont surtout une importance régionale.

Le second sujet, c'est-à-dire, l'Islam en Afrique, était intéressant. Pour ce sujet, cinq communications ont été lues et qui ont donné le nombre de Musulmans dans chaque pays africain en examinant leur situation politique, sociale et économique. On s'est surtout penché sur le danger qui menace l'Islam en Afrique devant les activités des missionnaires chrétiens.

Le sujet auquel on a attaché le plus d'importance au Séminaire était le troisième : la femme après l'année de la femme. En effet, vingt et un des trente huit communications qui ont été soumises au séminaire portaient sur les droits de la femme. Les communications des Turcs traitaient également ce sujet.

Dans sa communication en français, intitulée « la femme turque, héritière des traditions nationales et islamiques », le docteur Emel Esin, a dégagé l'activité de la femme turque dans les domaines de l'art, de la littérature, de la science et de la politique au cours de la période avant l'Islam et la période islamique, en se basant sur des preuves solides. Quant à Madame P. Ariburun, dans sa communication en anglais, qui a pour titre « la femme turque et les décisions de la Conférence de Mexico », après avoir parlé des droits obtenus par la femme turque grâce aux réformes d'Ataturk, elle a annoncé les propositions que les associations des femmes turques ont décidé d'apporter à la conférence qui se réunira à Mexico, au cours de leur séminaire d'Ankara qui a eu lieu du 5 au 8 décembre 1975. Moi-même, dans ma communication en français intitulée « le développement des droits des femmes en Turquie », j'ai essayé de résumer, dans le cadre de l'histoire, les droits obtenus par la femme turque de la Réforme (Tanzimat) jusqu'à nos jours.

Les communications de la délégation turque ont été écoutées avec intérêt par ceux qui ont participé au séminaire et ont suscité plusieurs questions. Il a été dégagé que, dans le monde islamique, la femme turque est celle qui possède le plus de droits.

LE 11 SEMINAIRE SUR LA PENSEE ISLAMIQUE

(OUARGLA, 6 - 15 FEVRIER 1977)

Traduction d'un article écrit par le professeur Ercumend
Professeur à KURAN
et paru dans la Revue Mensuelle de la Culture Turque du 11 *avril* 1977

Le Séminaire sur la Pensée Islamique qui se tient depuis 1967, tous les ans dans une ville algérienne, a eu lieu cette année dans la ville de Ouargla, située dans le Grand Sahara, à 800 km de la mer. A ces séminaires qui sont organisés pour apporter des solutions aux problèmes actuels que rencontre le monde islamique sous la lumière de la science en examinant la pensée islamique de tous ses côtés, des spécialistes de tous les coins du monde sont invités à la lecture et aux discussions des communications. Les étudiants algériens de l'Enseignement Supérieur et Secondaire assistent au Séminaire et peuvent poser des questions aux conférenciers.

A ces séminaires, organisés par le Ministère de l'Enseignement Originel et des Affaires Religieuses de l'Etat algérien, la presse locale publie de nombreux articles au sujet du Séminaire. Le peuple algérien peut donc suivre son déroulement par la voie de la presse parlée et écrite.

Les sujets inscrits à l'ordre du jour du Séminaire de cette année sont les suivants :

1) Les services rendus à la pensée et la civilisation islamiques par les « Rustemi » qui dominaient la région d'Ouargla pendent les VIII^{e}-X^{e} siècles.

2) L'Islam dans l'Afrique actuelle.

3) La femme après l'année de la femme.

4) Les richesses souterraines sont-elles un avantage ou un inconvénient ?

Environ 200 hommes de science, de religion et d'Etat et des journalistes de 27 pays différents ont participé au XI^{e} Séminaire sur la Pensée Islamique, et parmi lesquels, il y avait des personnalités connues comme le professeur W. Montgomery-Watt (Edinbourgh), le professeur Charles Geddes (Denver), le professeur Abdelkrim Saitoh (Tokyo), le professeur C. Sarnelli (Napoli), le professeur W. Al Kadi (Beyrouth), le docteur M. Rachidi (Djakarta, ancien ambassadeur), cheikh Chamahi (ancien ministre, Sana), le docteur Ismaïl Balic (Vienne).

Moins que jamais on pouvait s'attendre à un accord sur ce thème ; les traditions historiques et les réalités sociaux-culturelles actuelles des divers pays du monde arabo-islamique ou d'autres civilisations étant trop diverses et chacune devant être considérée et respectée dans sa spécifité et dans son rythme de développement.

Négligé par rapport aux autres. le quatrième thème du Séminaire (« Les ressources du sous-sol sont-elles un avantage ou une malédiction ? ») touchait surtout d'une manière très proche les pays arabes producteurs de pétrole, dont l'Algérie. Le lieu même du Séminaire, à une centaine de kilomètres du grand bassin pétrolier de Hassi Messaoud, invitait à considérer les conséquences positives ou négatives que l'exploitation des ressources naturelles comporte pour les pays qui les possède. Dans cette perspective, dans des termes politico-économiques concrets, s'est développé, plus que tout autre, la conférence de Mohammed Ali Sabri (1). Dans le débat, on n'a pas manqué de signaler, de façon opportune, l'épuisement prévisible des ressources minières, et surtout pétrolières, et donc de la nécessité d'utiliser sagement les produits dérivés et de penser dans l'immédiat aux alternatives futures.

Chaque réunion du Séminaire est convoquée dans une ville algérienne différente, de l'est ou de l'ouest de la région côtière ou de l'intérieur, et ceci est la signification et la concrétisation d'un désir précis de ses promoteurs, que le Séminaire ne soit pas uniquement une rencontre et une discussion d'un groupe d'intellectuels, mais qu'il devienne l'occasion de participation et un stimulant pour tout le pays et en particulier pour la jeunesse dont le Séminaire cherche à se rapprocher, tour à tour dans telle localité (les interventions du Séminaire sont amplement diffusées dans la ville à travers des hauts-parleurs).

Pour les participants (aussi bien pour les étudiants algériens que pour les hôtes étrangers), le Séminaire est aussi une occasion de connaître des villes et des régions nouvelles de ce vaste et varié pays qu'est l'Algérie. De Ouargla, qui a changé son aspect de ville perdue saharienne en un chef-lieu de wilaya (préfecture) actif et organisé, on peut admirer le développement exceptionnel de la construction et de l'urbanisme, déjà réalisé ou en voie d'exécution, résultat du programme établi par le gouvernement dans la réunion qui s'est tenue en novembre 1966 dans cette même ville saharienne (2).

Par leur position et leur modalités de développement, les Séminaires sur la Pensée Islamique, dans la problématique entre leur volonté sincère de rester fidèles aux traditions islamiques et leur engagement décisif à s'adapter aux exigences du monde contemporain, sont, au fond, un moment dans le chemin fatiguant, mais sûr, que l'Algérie parcourt actuellement vers un réel progrès économico-social.

Salvatore Bono
Professeur d'Histoire moderne et contemporaine
à l'Université Perugia (Rome)

---

(1) Ancien directeur des recherches minières en Syrie et actuellement directeur de l'Agence CESI à Rome.
(2) Le premier des programmes spéciaux destinés à la lutte contre les disparités régionales.

— première formation autonome dans l'Islam maghribin — entre les VIII[e] et X[e] siècles, d'abord à Tihert (Tiaret), et ensuite à Ouargla, précisément dans le site archéologique actuel de Sedrata. Les conférences, surtout en ce qui concerne les arguments spécifiques, ont, dans leur ensemble, jeté une nouvelle lumière sur l'Etat et la société des Rustomides, négligés par la tradition historiographe musulmane à cause de leur caractère hétérodoxe.

« L'Islam en Afrique aujourd'hui » était le deuxième thème, sans aucun doute thème très ample et de vif intérêt. Les conférenciers, en particulier l'Egyptien Mohammed Abdallah Inan, ont avant tout tracé un aperçu de la situation, soit en termes numériques (pourcentage de musulmans etc...), soit sur les conditions dans lesquelles se trouve la religion islamique dans chaque pays. Bien que le thème fut centré sur l'actualité, les considérations historiques n'ont pas manqué, en particulier avec l'accusation portée au colonialisme européen d'avoir favorisé (mais ceci est discutable dans beaucoup de cas) l'évangélisation aux dépens du prosélytisme musulman

Quelques-uns — et spécialement le saoudien Abdelhalim Aouis — ont fortement mis l'accent sur le rapport, vu surtout en termes concurrentiels, entre l'Islam et le Christianisme, et ainsi on n'a pas donné une place assez large (plus proche de ce point de vue a été l'Anglais Montgomery Watt) à l'examen de la possibilité intrinsèque et de la capacité, qui n'est pas entièrement négligeable, de l'Islam de s'étendre et de s'adapter au sein de quelques sociétés africaines.

En tenant compte du débat très intense à travers le monde sur la situation de la femme dans la société d'aujourd'hui, et pour répondre aux sollicitations des jeunes, le ministre Mouloud Kassim NAIT BELKACEM — comme il y avait fait allusion dans le discours d'inauguration du Séminaire — a proposé parmi les thèmes celui de « La femme après l'Année de la femme », question qui, avec une vingtaine de conférences sur quarante, a effectivement prédominé. Des voix diverses se sont fait entendre. D'un côté celle des revendications belliqueuses de la libération et de la primauté de la femme (Xavière Gauthier (Paris) a intitulé sa conférence « Nous, les sorcières»),ou d'une invitation paisible à un nouveau rapport homme-femme, guidé par l'amour et l'affection, ainsi la conférence d'une autre Française, France Quéré (Paris) ou encore d'une affirmation consciente de la place que la femme a atteinte dans chaque société, et donc également des droits qui doivent lui être reconnus (très engagée la conférence de l'Algérienne Zhor Unissi). D'un autre côté les conférences d'une manière plus conservative ou illuminée et ouverte à l'évolution des temps (dont le professeur libyen Omar at-Tumi Shibani). Un groupe de conférences, plutôt que de traiter la question en termes abstraits, théologiques - moraux ou sociologiques - culturels, a illustré l'évolution concrète de la position de la femme et les positions conquises par elle dans telle ou telle société ; Clelia Sarnelli Cerqua (1), par exemple, a fait allusion à la situation de la femme en Italie.

Le grand nombre d'interventions dans le débat, ainsi que leur vivacité, a contribué à rendre proéminent, dans le sein de ce XI[e] Séminaire, le thème de la femme, signe que ce problème est très ressenti aussi en dehors du monde occidental.

---

(1) Professeur à l'Université de Naples.

11[e] SEMINAIRE SUR LA PENSEE ISLAMIQUE EN ALGERIE

Article publié dans l'organe du Vatican, l'Osservatore Romano en date du 7-8 mars 1977, par Monsieur le docteur Salvatore Bono, professeur d'Histoire moderne et contemporaine à l'Université Perugia - Rome — sous le titre :

L'ISLAM ET LE MONDE CONTEMPORAIN

Notre envoyé spécial

A la place croissante que les pays arabes — en particulier les pays pétroliers — occupent sur la scène mondiale, correspond, dans le monde arabe, une prise de conscience toujours plus approfondie de sa propre tradition religieuse et culturelle et de la nécessité que cette culture fournisse les réponses adéquates aux problèmes de la société contemporaine. Dans cette tâche de confrontation et de discussion, non seulement à l'intérieur de la culture islamique mais également avec des représentants d'autres religions et cultures, s'inscrivent les Séminaires sur la Pensée Islamique, organisés annuellement depuis 1967 par le ministère (algérien) de l'Enseignement Originel et des Affaires Religieuses, sous la présidence directe de l'actif et infatigable ministre Mouloud Kassim NAIT BELKACEM.

Au 11[e] Séminaire qui s'est tenu durant la première quinzaine de février dans la ville de Ouargla, ont participé — comme d'habitude — des représentants des pays et des communautés islamiques du monde entier, et non seulement des pays arabes ; cette année, il y avait entre autres, des représentants du Mali et du Japon, de l'Union Soviétique et de l'Ile Maurice. Cette participation variée est, d'un côté, l'attestation concrète de l'extension, et donc de la force de l'Islam, religion qui s'exprime dans des formes culturelles autres qu'arabes, et, par ailleurs, à l'intérieur même de cette culture arabe se confrontent non seulement les traditions des divers courants exégétiques, mais aussi les évolutions historico-sociales différentes d'un pays à l'autre.

Le caractère spécifique de ces séminaires est la présence d'un milier d'étudiants algériens (universitaires et des dernières années de lycée, venant de toutes les parties du pays), autorisés à poser des questions aux conférenciers ; cette ouverture aux jeunes — qui suivent les travaux avec une assiduité et une participation digne d'éloges — est un mérite, et non d'ordre secondaire, de l'initiative.

Le premier des thèmes pré-choisis pour chaque séminaire est de caractère historique et concerne généralement la ville ou la région dans laquelle le séminaire se déroule. Cette année, on a parlé de la dynastie des Rustomides d'origine iranienne et de confession kharigite, qui sont arrivés en Algérie

D. Cowon, de l'Université de Londres et le docteur Sabri, de Syrie, avaient choisi ce sujet.

Lors du Séminaire, des visites étaient organisées dans des centres de pétrole comme Hassi-Messaoud et dans les anciennes villes des oasis du Sahara comme Ghardaïa, Touggourt, Sadrata. Sur invitation du wali, on nous a présenté des danses religieuses, exécutées par des Berbères, accompagnées de castagnettes et de grosses caisses.

Nous avons vu à l'exposition de dessins et de livres ouverte à la wilaya de Ouargla, des photographies des œuvres d'architecture de la période turque en Algérie et des dessins arrachés aux écrits arabes du XIXe siècle. Sur ces dessins étaient exposés des paysages d'Istanbul, de la première entrée du sultan Fatih Mehmet sur son cheval blanc à Istanbul, les guerres saintes du pacha Barbaros Hayrettine (Kheireddine) et le héros algérien Abdelkader (1808-83).

LES TURCS SONT ARRIVES

Les membres musulmans qui ont participé au Séminaire étaient invités à la prière du Vendredi à la petite mosquée de Ouargla. A l'intérieur de cette mosquée, derrière un mur plus petit que la taille d'un homme, les femmes aussi participaient à la prière. Suivant les traditions de la secte maliki, comme dans les premiers temps de l'Islam, la prière du Vendredi, a été faite dans la mosquée dénuée de toute parure. Ensuite, nous les Turcs, nous avons eu l'occasion de faire connaissance avec les Algériens. Ces derniers, grands et petits, nous ont accueilli chaleureusement.

nationale. Parmi les étudiants avec lesquels j'ai parlé, il y avait aussi ceux qui étaient d'origine turque. Mais il faut dire que des jeunes algériens d'origine arabe ou berbère s'intéressaient autant que les premiers à l'histoire turque.

D'après ce que j'ai appris de notre ambassadeur en Algérie, Monseiur Faiz Melek, il y avait une chaire d'histoire de la civilisation turque à l'Université d'Alger, mais elle a été supprimée, faute de professeurs. La jeunesse qui désire se renseigner sur les Turcs s'adressent actuellement aux œuvres de l'historien algérien sur les Ottomans, Monsieur Tewfik al-Madani. Madame F. Hellal, de l'Université d'Alger, prépare une étude sur le dialecte turc des Algériens d'origine turque.

LA COMMUNICATION DU PROFESSEUR E. KURAN

Le professeur E. Kuran, de l'Université de Hacettepe à Ankara, a fait un discours sur le développement des droits de la femme en Turquie depuis le XIXe siècle, en tant que spécialiste de l'histoire ottomane. Le professeur Kuran avait déjà participé aux séminaires sur la pensée islamique. Une de ses œuvres a été traduite en arabe et publiée en Algérie. La communication de Monsieur Kuran, qui connait bien l'Algérie, a éveillé un grand intérêt.

Ancien députée et juriste, Madame P. Ariburun a donné au séminaire les renseignements utiles du point de vue juridique sur la femme turque moderne. Elle a analysé la situation juridique de la femme turque d'aujourd'hui sous la lumière de la conférence de Mexico de 1975 sur les droits de la femme. Cette communication a été d'un grand intérêt pour les séminaristes.

Madame S. Inal, de l'Université d'Erzurum, a également donné son point de vue sur le même problème.

LES ALGERIENS NOUS ONT ACCUEILLI CHALEUREUSEMENT

Les autres discussions :

Au sujet des « droits de la femme », les séminaristes suivants ont pris la parole : Madame E. de Vitray-Meyerovitch, membre, en France, du Centre National de Recherches Scientifiques et professeur de philosophie à la Faculté de jeunes filles de l'Université d'Al-Azhar au Caire ; Madame F. Mallet, journaliste française ; Madame F. Sarka, une Allemande musulmane qui travaille à Munich dans un centre islamique ; le professeur Lakhal Benhawa, juriste algérien ; le professeur A. Saitoh, de l'Université de Tokyo (il est musulman) ; Madame C. Sarnelli Cerqua, de l'Institut Oriental de l'Université de Naples.

LES RESSOURCES DU SOUS-SOL SONT-ELLES UN BIENFAIT OU UN POIDS ?

Le quatrième et dernier sujet proposé au 11e Séminaire sur la Pensée Islamique était le suivant : « Les richesses du sous-sol sont-elles un bienfait ou un poids ? ». Cinq communications seulement ont été données sur ce sujet. Le docteur Sari, de l'Université d'Alger ; le docteur AS-SAOUI, de l'Université de Téhéran ; le docteur M. Rasidi, des écrivains indonésiens ; le docteur

a) l'activité de la femme turque avant l'Islam dans la société pouvant s'élever jusqu'à recevoir le titre de souveraineté,

b) certains droits juridiques reconnus par l'Islam à la femme peut-être pour la première fois dans le monde,

c) la personnalité courageuse et dévouée de la paysanne turque, des poètes, des « souveraines », des savantes qui se sont élevées par les femmes turques musulmanes.

Le débat sur ma communication a commencé par les réflexions du docteur I. Balic, appartenant à la délégation autrichienne, musulman de la Bosnie Herzégovine, du « mufti » abdul Gani Abdullah, écrivain de revue juridique et Président Islamique de l'URSS. Ces deux personnes ont apporté des suppléments précieux aux renseignements que j'avais donnés sur la femme turque. Le savant de Tachkent a entretemps fait remarquer que certaines femmes du Turkistan, de la secte Hanefi, sont devenues également *kaddi* comme les femmes-professeurs turques. Le docteur Rabah Turki, qui est un Turc algérien, a attiré l'attention sur la contradiction entre mes paroles et le fait que les Ottomanes se soient détournées de l'Islam à partir du XIX[e] siècle.

LE PROBLEME DE LA REFORME

On comprend que des hésitations se trouvent au cœur des Algériens à propos de la Réforme. Devant ces questions répétées, j'ai senti le besoin inévitable d'expliquer les oppressions lourdes qui ont pesé sur l'empire ottoman du XIX[e] siècle. J'ai essayé de faire un tableau des pressions qui ont provoqué la Réforme en essayant de me souvenir du droit international et de l'histoire diplomatique que l'on m'avait enseigné au cours de mes études politiques.

L'empire ottoman, durant sa période la plus forte, avait reconnu aux minorités non-musulmanes et aux ressortissants des pays chrétiens vivant en Turquie de larges droits au nom de la promesse du Prophète islamique qui avait promis aux non-musulmans vivant chez les Musulmans une liberté de conscience.

COMMENT ELEVER LA CONSCIENCE DE LA CULTURE NATIONALE ?

J'ai rappelé par la suite que ces droits avaient été utilisés pour détruire notre Etat, que les « capitulations » avaient été transformées par les étrangers de façon à être nuisibles pour l'empire ottoman, qu'ils ont provoqué les ressortissants musulmans et non-musulmans au soulèvement et qu'ils ont tout fait pour partager les biens de l'empire ottoman. J'ai ajouté que la Turquie, en demandant la suppression des capitulations aux accords de Lausanne, n'a pas seulement considéré le droit de la Turquie mais aussi celui des pays musulmans héritiers de l'empire ottoman.

L'une des questions des étudiants était très intéressante. Une étudiante demandait comment il fallait élever la conscience de la culture nationale de la femme algérienne. A cette occasion, j'ai donné mon opinion sur la nécessité d'enseigner d'une façon continue dans toute les écoles l'histoire de la culture

de l'Université de Melbourne (Australien musulman), un écrivain du Caire, le docteur M. Diab, le docteur A. Diop, de l'Association des Ecrivains du Sénégal ; le ministre de l'Information de la République du Sahara s'est plaint du fait que le Maroc n'accorde pas l'indépendance au peuple sahraoui.

L'ANNEE DE LA FEMME ET LES DROITS DES FEMMES

Le troisième sujet qui a été proposé au 11e Séminaire sur la Pensée Islamique a pour titre « l'année de la femme et les droits des femmes », qui a été le sujet d'un très grand nombre de communications. Les deux premières communications ont été données par le professeur L. Geddes, de l'Université de Denver - Colorado, et par Madame Unissi, membre de la délégation de direction de l'Union Nationale des Femmes Algériennes. Madame F. QUERE, qui est une journaliste française, a émis les vœux des femmes françaises. Le docteur Pervin Sevket Ali, de l'Université de Lahore au Pakistan, a expliqué dans sa communication les effets positifs de la conférence de Mexico de 1975 sur les droits des femmes au Pakistan.

Les théologiens musulmans ont commenté le problème des droits des femmes sous la lumière des versets du Coran. Les théologiens suivants ont pris la parole : le docteur E. Daim de l'Université de Khartoum (Soudan), le docteur O. Sibani de l'Université Al-Fatih en Libye, M. S. Besseyes de la Faculté Zeytunia en Tunisie et le docteur M. Al-Buti, professeur à la Faculté du Cheriat Islamique de Damas. Notre président des Affaires Religieuses, le docteur Suleyman Ates, a rappelé les versets et les paroles de Mohammed qui parlent avec amour de la femme et en particulier de la mère, dans son discours qu'il a fait en arabe.

L'ANNEE DE LA FEMME ET LES TURCS

Le docteur S. Hunke, qui est un écrivain ouest-allemande, a employé des expressions ouvertes à certaines interprétations incorrectes en essayant d'expliquer qu'au début de l'Islam, on respectait les droits des femmes. Les paroles douteuses sur la nature de la révélation du Coran et les comparaisons entre l'amour divin et l'amour métaphorique de Madame Hunke ont été trouvées de nature à offenser les sentiments islamiques. D'autre part, elle m'a obligé à la corriger en commettant une faute historique comme celle de considérer les Turcs et les Mongoles comme responsables de la menace graduelle des droits de la femme dans le monde islamique. Contrairement à ce qui est avancé par le docteur Hunke, même après l'Islam, les femmes turques et mongoles possédaient des droits plus larges par rapport aux autres. Et même le titre de souverain accordé aux femmes turques éveillait l'étonnement dans les autres milieux du monde islamique.

Le sujet de ma communication n'était pas la femme turque moderne en raison de la limitation de mes recherches au cadre historique de la culture médiévale en particulier depuis quelques années. Ma communication intitulée « la femme turque, héritière des traditions islamiques et nationales » était conçue comme une introduction historique aux communications de mes confrères turcs, le professeur E. Kuran et Madame P. Ariburun, qui portaient sur la femme turque moderne ; cela était ainsi accepté par la Direction du Séminaire. J'avais divisé le sujet en 3 parties principales :

la plus ancienne source connue sur la vie du Prophète. Il y a l'espoir de trouver dans le texte de Ibn Ishak de nouveaux renseignements sur la vie du Prophète de l'Islam.

Nous avons déjà signalé que le premier des sujets qui a été communiqué au 11e Séminaire sur la Pensée Islamique est la culture ibazi-rustomi. La première communication portant sur ce sujet a été donnée par le cheikh Suleyman Davud Yusuf. Les autres personnes qui ont demandé la parole après lui sont : docteur A. An-Nami (Libye) de l'Université de Michigan ; docteur I. Abbas (Palestine) de l'Université de Princeton ; docteur I. Fekkhar (Algérien) de l'Université d'Oran ; le professeur W. Al-Kadi (Libanaise) de l'Université de Harvard ; le docteur M. Viguera (Espagnole) de l'Université de Compostelle ; le docteur S. Nogales (Espagnol) de l'Institut des Recherches Culturelles arabo-espagnoles de Madrid .

L'ISLAMISME DANS L'AFRIQUE D'AUJOURD'HUI

Le second sujet proposé au 11e Séminaire sur la Pensée Islamique était : l'Islam dans l'Afrique d'aujourd'hui. Le premier discours à ce sujet a été fait par le professeur M. Inan, de l'Académie de la langue arabe au Caire. Le professeur Inan et le docteur A. Auis de l'Université de Riyad en Arabie Saoudite ont signalé les activités des missionnaires chrétiens et des communistes en tant que les premiers rivaux rencontrés par l'Islam en Afrique. Le docteur M. Watt, de l'Université d'Edinburgh, a déclaré que les Musulmans ont beaucoup à apprendre des Chrétiens. Il a aussi déclaré que l'empire ottoman s'est détourné de l'Islam à partir de la Réforme (Tanzimat) et que la République de Turquie s'est complètement séparée de l'Islam. Ces paroles ont eu de mauvais effets sur les sentiments de fraternité et d'amour ressentis par le monde arabe envers les Turcs

Un chercheur de la religion de la secte chiite et un professeur en théologie syrien ont déclaré qu'ils sont dans l'obligation d'approuver les paroles de Watt avec affliction. Parmi les membres de la délégation turque, le professeur F. Kuran et le représentant du président des Affaires Religieuses, le docteur A. Aydin, ont tout de suite pris la parole le premier en français et le second en arabe. Ils dirent que les Turcs, loin de se détourner de l'Islam, ont été, pendant toute l'histoire, les premiers défenseurs de l'Islam et ont corrigé quelques fautes commises par Watt du point de vue de l'histoire juridique.

Le professeur Kuran a attiré l'attention sur ce point : au XIXe siècle, les Turcs ont construit le Mecelle (code de la législation musulmane), l'un des « monuments » du Droit Islamique ; sur ce, le savant religieux chiite a demandé le pardon des Turcs avec politesse. Les paroles du professeur Syrien ont du être coupées par le ministre algérien de l'Enseignement Originel et des Affaires Religieuses, qui dirige le Séminaire, à cause du délai dépassé. Par la suite, le docteur Aydin allait faire un discours sur l'éducation dans le domaine religieux en Turquie.

L'ANNEE DE LA FEMME ET LES TURCS

Concernant le sujet de l'Islam dans l'Afrique d'aujourd'hui, des communications ont été faites également par les personnes suivantes : le docteur Walker

nos jours encore. Uniquement les personnes appartenant à la secte ibazi, de haute morale peuvent vivre dans la ville.

Les dirigeants de chaque ville, au maximum 12 personnes, sont choisis par le peuple qui l'habite. Ces personnes qui se distinguent par leur vertu et leur savoir occupent également les fonctions de hodja et de cadi. Les personnes coupables sont jugées par elles. Comme dans « Medina » du Prophète, la personne coupable qui se repentit et accepte sa punition peut continuer de vivre dans la ville. Durant toute la période de punition, personne ne lui parle ni n'accepte son salut. La personne coupable est éloignée de la communauté au cas où elle n'avoue pas sa faute et n'accepte pas la punition.

La villes entourées de murailles comme Ghardaïa et Beni Isguen sont construites sur des collines. Au sommet de ces villes formées de petites maisons peintes en blanc et en bleu et de rues étroites en pente se trouve un centre religieux. Certains sont des monuments historiques datant des siècles H. IV-V/X-XI. Les mosquées sont des monuments formées de coupoles portées par des colonnes épaisses, du modèle de la mosquée omeyyade de Cordoue.

Au milieu de la mosquée de Ghardaïa se trouve une fontaine découverte d'eau jaillissante. Les minarets ibazi ont une forme spéciale. Les tours aux coupures rectangulaires s'amincissent vers le haut. En haut de la tour une petite cellule est construite et est réservée au muezzin et à ceux qui se consacrent à la prière ; celle-ci est appelée saumaâ de la manière que les premiers minarets. Le nom de saumaâ est aussi donné aux minarets en Algérie. Ceux qui visitent les villes ibazi, en présence des souvenirs de ces époques anciennes, ont le sentiment d'être retournés aux premiers siècles de l'Islam.

LES COMMUNICATIONS FAITES AU COURS DU 11e SEMINAIRE SUR LA PENSEE ISLAMIQUE ET LEURS DEBATS

Le 11e Séminaire sur la Pensée Islamique a débuté par les discours de Monsieur NAIT BELKACEM, ministre de l'Enseignement Originel et des Affaires Religieuses, et du docteur Gaye, secrétaire général de la Conférence Islamique Internationale. Le ministre NAIT BELKACEM a fait connaître les sujets proposés au 11e Séminaire. Le docteur Gaye, lui, a parlé de l'importance gagnée par les séminaires sur la pensée islamique et il a demandé que ceux-ci soient réunis au programme culturel des Conférences Islamiques Internationales.

Le docteur M. de Epalza, de l'Université de Madrid, a également parlé ; il a donné des renseignements sur le séminaire international qui va se réunir au mois de mars 1977 à Kurtuba. Dans ce séminaire, les sujets qui seront abordés sont les suivants : la vie du Prophète Mohammed et la personnalité de Jésus dans le Coran.

ON TROUVE LE PLUS ANCIEN « SIYER »

Les divers chercheurs demandaient à notre président des Affaires Religieuses, le docteur S. Ates, des renseignements sur le séminaire Siyert un-Nebi qui doit se réunir en Turquie. Les séminaires Siyert un-Nebi se déroulent au cours de ces années, car d'après ce que j'ai appris du professeur Hamidullah, on a trouvé un exemplaire du texte originel « Siyer » écrit par Ibn Ishak, ce texte étant

LE MILIEU CULTUREL DU 11e SEMINAIRE SUR LA PENSEE ISLAMIQUE

Pourtant dans la tradition « Medinet un Nebi » de la ville du Prophète des Musulmans, l'enseignement originel n'est pas héréditaire. Le peuple de « Medinet un Nebi » avait le droit de choisir comme imam et calife les personnes qu'il juge les plus dignes et il n'y avait pas de condition pour que le calife et l'imam viennent de la race du Prophète ou de « Kureys ». Une personne quelconque, instruite et vertueuse, pouvait devenir calife ou imam. D'ailleurs, le Prophète avait dit qu'un « esclave éthiopien » aussi pouvait diriger la communauté musulmane.

Le 11e Séminaire sur la Pensée Islamique a eu lieu du 6 au 15 février 1977, dans l'oasis du Mezab (dit aujourd'hui M'zab) de l'Algérie, 32° au nord et 5° à l'est. Le lieu de réunion était l'oasis Sadrata-Waradjlane (Ouargla). Waradjlane et Sadrata étaient les dernières capitales de l'Etat Rustomi (H. 160-2 96/776-908) auquel appartenaient les Berbères. Ainsi, le premier des sujets qui a été communiqué aux participants du 11e Séminaire était la culture ibazi-rustomi. Il ne reste plus actuellement à Waradjlane et Sadrata que des puits et des palmeraies. Les anciennes villes sont enfouies sous les sables et des excavations archéologiques y sont faites. Ouargla, une ville plus récente, a pris la place de l'ancienne ville de Waradjlane.

Rappelons la date du Bras Ibazi de secte kharidjite : dans la discussion de Siffin entre Muaviye et Ali en l'an H. 37/657, certaines personnes se sont retirées de la discussion en observant que les deux côtés ne restent pas fidèles à la forme originelle de l'Islam ; elles ont ainsi pris le nom de Kharidjites. D'après les Kharidjites, les partisans d'Ali et les omeyyades voulaient établir l'enseignement originel héréditaire. Les Kharidjites n'ont pas reconnu l'enseignement originel des Omeyyades, des Abassides, des chiites et des califes fatimides de la secte cheite.

Durant la période des Omeyyades, les Kharidjites se sont opposés contre eux et pour pouvoir continuer leur propre façon de vivre, ils se sont réfugiés dans des régions distantes des centres omeyyades comme l'Asie Centrale à l'est et l'Afrique du Nord à l'ouest. La place occupée par les Kharidjites dans l'histoire de la culture turco-islamique reste en dehors du cadre de cet écrit mais c'est un sujet qui vaut la peine d'être examiné.

LA SECTE IBAZI

La secte ibazi des Kharidjites a été fondée par Abdullah b-Iba'z dans la dernière moitié du premier siècle hidjri, et s'est développée en Algérie sous la protection de la famille rustomi. Après la dissolution des Rustomi et l'occupation de l'Afrique du Nord par les Fatimides de la secte chiite, les Ibazi ont continué à vivre selon leurs propres croyances dans les anciens centres des Rustomi. Ils ont creusé des puits dans le désert, formé des oasis artificielles arrosées avec de l'eau distillée, construit des petites villes indépendantes comme Beni Isguen et Ghardaïa sur les collines de l'oasis. Ces villes entourées de murailles existent encore. Les étrangers ne peuvent pas facilement pénétrer dans ces villes de

LES REACTIONS NATIONALES ET RELIGIEUSES

D'autre part, les uléma islamiques (théologiens musulmans) avaient entrepris une résistance silencieuse contre les missionnaires chrétiens. Ainsi, la politique culturelle de la France n'a pas tout à fait réussi à parvenir à ses buts. D'ailleurs, quand la lutte nationale a commencé sous la direction des intellectuels patriotes en Algérie, tout le peuple algérien, hommes, femmes, jeunes et vieillards réunis en un seul corps, a participé à cette guerre sainte. L'Algérie dont la souffrance des années et les périodes d'héroïsme ont été suivies par tout le monde, a senti le besoin de généraliser la conscience nationale et religieuse qui s'était constituée dans le domaine sentimental au domaine de la pensée, une fois qu'elle a terminé sa guerre d'indépendance, le temps de reconstituer l'Etat étant ainsi arrivé. C'est ainsi que s'est formé le Ministère de l'Enseignement Originel et des Affaires Religieuses. Mouloud Kassim NAIT BELKACEM, combattant de la guerre d'indépendance, a été nommé à la tête de ce Ministère. Les séminaires sur la pensée islamique ont commencé en 1967. Le ministre Belkacem participait à ces séminaires par des conférences et commentaires et il les dirigeait et les suivait personnellement.

LE BUT DU SEMINAIRE SUR LA PENSEE ISLAMIQUE

Aux séminaires sur la pensée islamique, sont particulièrement invitées des personnalités de l'Algérie et des autres pays arabes. Ce sont des théologiens sur l'Islam (uléma), des chercheurs de l'histoire et de la sociologie, des hommes d'Etats et des journalistes. Des Musulmans qui ne sont pas Arabes, les Turcs, les Turquistanais, les Iraniens et les Pakistanais y sont aussi invités. Même des chercheurs et intellectuels chrétiens d'Allemagne, des USA, d'Autriche de France, d'Angleterre, du Japon, d'Australie, de Belgique, d'Espagne, d'Italie et de Suède sont appelés à participer au séminaire.

Ces séminaires ont lieu chaque fois dans un centre culturel différent mais toujours en Algérie. L'histoire culturelle du centre qui a été désigné comme lieu de réunion passe au premier plan dans la communication. D'autre part, à chaque séminaire sont choisis trois autres problèmes culturels et on demande que des communications soient également données à ce sujet. Les langues officielles du séminaire sont l'arabe, l'allemand, le français et l'anglais. Les communications sont transmises à l'avance et sont polycopiées dans les langues principales et en arabe. La traduction simultanée de ces langues est réalisée durant la communication.

Un débat est ouvert sur chaque communication. Mille étudiants compétents, filles et garçons, choisis parmi les universitaires et les lycéens, suivent le séminaire et ont le droit de poser des questions par écrit à ceux qui donnent les communications. Les textes des communications et leur contenu en arabe sont publiés plus tard. La radio et télévision algériennes suivent aussi les séminaires. Ainsi, les séminaires sur la pensée islamique gagnent de l'importance non seulement pour les Algériens mais aussi pour les autres pays arabes et islamiques et les milieux culturels non-musulmans qui s'intéressent au monde arabe.

Article écrit par le docteur Emel Esin, paru dans le quotidien « BAYRAK » en 6 parties, du 18 mars au 23 mars 1977, et relatif au 11^e Séminaire sur la Pensée Islamique tenu à Ouargla

Quand la lutte nationale a commencé en Algérie sous la direction des intellectuels patriotes, tout le peuple algérien, y compris enfants, vieillards, hommes et femmes, uni en un seul corps y a participé. L'Algérie dont la souffrance des années et les périodes d'héroïsme ont été poursuivies par tout le monde, a senti le besoin de généraliser la conscience nationale et religieuse qui s'était formée dans le domaine sentimental au domaine de la pensée, une fois qu'elle a terminé sa guerre d'indépendance, le temps de constituer un Etat étant ainsi arrivé.

Les souffrances des années où l'Algérie était sous l'occupation de la France :

Regard général aux séminaires sur la pensée islamique :

Les séminaires sur la pensée islamique (Fikr al Islami) se réunissent tous les ans depuis 1967, sur l'invitation du Ministère de l'Enseignement Originel et des Affaires Religieuses de l'Algérie (Vazarat ul-talîm ul-aslî suûn ud diniyye). Comme son titre le précise, la fonction du Ministère en question est de rechercher la culture « originelle » de l'Algérie, c'est-à-dire sa propre culture dans le cadre de la religion (Islam).

QU'A FAIT L'IMPERIALISME FRANÇAIS EN ALGERIE ?

Selon les publications des écrivains algériens, les Français ont commencé à franciser l'Algérie lorsque celle-ci est entrée sous l'occupation de la France en 1830. Le premier effort fait en ce sens consistait à faire oublier aux Algériens leur conscience de leur identité nationale et religieuse. L'Arabe n'est plus enseigné dans les écoles et l'islamisme est défini comme « fanatisme ». L'enseignement de l'histoire algérienne se limite à la période byzantine et de Rome et à la période de l'occupation française.

D'autre part, on précisait les anciens liens des plus anciens Algériens : les Berbères avec les cultures de Bysance et de Rome et le fait qu'ils sont mélangés, du point de vue de la race, aux Vandales. Le but des Français était de séparer les Berbères de l'Islam pour les christianiser. Des articles de l'historien algérien Tewfik al-Madani et du ministre de l'Enseignement Originel Mouloud Kassim NAIT BELKACEM, qui défendent les Turcs, on comprend que ces derniers ont été particulièrement critiqués et accusés par les Français. D'une façon générale, aucune occasion n'était offerte aux Algériens de poursuivre des études. Le nombre d'Algériens qui ont poursuivi des études supérieures sont très peu. Comme ceux qui faisaient leurs études en France étaient gagnés par la France, les familles algériennes ont commencé à envoyer leurs enfants pour des études dans des pays européens autres que la France.

العدد 48

فهـــرس الـعــدد

جهـود الامـير عبد القـادر وخلفائـه في تدعـيم الجبهة الشرقية القسنطينية (1)

د. يحيى بو عزيز
جامعة وهران



لقد كانت ظروف الشرق الجزائرى ، بعد حملـة الاحتلال الفرنسى للجزائر العاصمة عام 1830 ، تختلف عن ظروف الناحية الغربية للبلاد ، بسبب التطورات التى حصلت فى كل منهما كنتيجة لتلك الحملة ومـا انجز عنها من مشاكل وأحداث .

فباى الغرب الجزائرى ، أو بايليك وهران ، لم يشارك فى مقاومة حملة الاحتلال ، بل انه استسلم للفرنسيين ، وسلم لهم مدينة وهران . فنفوه الى خارج البلاد ، وانفسح المجال للامير عبد القادر ليبرز كبطل للثورة والمقاومة فى هذه المنطقة ، مدعما بالتأييد الشعبى النابع من الاختيار والشورى (1) .

أما باى قسنطينة . أو بايليك الشرق ، الحاج أحمد باى ، فقد شارك فى مقاومـة الحملة الفرنسية على رأس حوالى أربعمائة فارس (2) ، وبعد سقوط العاصمة فى يـد

1) للمزيد من التفاصيل عن مقاومة الامير عبد القادر . راجع كتابنا : الامير عبد القادر رائد الكفاح الجزائرى . ط 2 (دار الكتاب الجزائرى ـ 1964) ، 196 ص .

2) مذكرات أحمد باى : ترجمة محمد العربى الزبيرى ، (الجزائر ـ 1973) ص 11 . وقد ذكر أحمد بوضربة فى مذكراته بأن عدد الذين شاركوا مع الحاج أحمد بـاى فى مقاومة الحملة الفرنسية ، ألفى رجل . أنظر : نفس المصدر ص 119 .

القوات الفرنسية انسحب الى قسنطينة ، واعتصم بها ، وشرع فى مقاومة الغز والتوسع الاستعمارى الفرنسى ، استنادا الى الشرعية التى كانت له خلال العهد التركى • ومن هنا نشأ الصراع والتنافس بينه وبين أمير الغرب الجزائرى ، وكان ذلك من أسباب خسارتهما معا •

وكان الامير عبد القادر أكثر حظا حيث استطاع أن يمد سيطرته ونفوذه على معظم الناحية الغربية من البلاد ، وعلى أجزاء من الوسط جنوب سهل متيجة • وعندما حاول أن يمد سيطرته الى شرق البلاد اصطدم بمقاومة الحاج أحمد باى وانصاره ، واستعمل مختلف الوسائل لمواجهته ، ومنها تحريض الناس ضده ، كما أورد ذلك الحاج أحمد باى فى مذكراته على لسان الامير قائلا : « واذا لم تفعلوا ذلك فانى أثير عليكم الفرنسيين وفى وقت وجيز ستسحقكم قواتى وقواتهم » (3) •

وكلما سيطر الامير على منطقة الاوعين عليها واليا من قبله بلقب (الخليفة) • ومن بين ولاياته بشرق البلاد : ولاية مجانة بجبال البيبان غرب سطيف ، وهى الولايـــة الخامسة ، وولاية الزيبان والصحراء الشرقية ، وعاصمتها بسكـرة ، وهى الولايـة السادسة التى أدت سيطرته عليها الى حصول الصدام المسلح مع الحاج احمد باى ، واتباعه ، الذين اعتصموا بالواحات الصحراوية ، وجبال الاوراس ، بعد أن فقدوا مدينة قسنطينة عاصمة البايليك عام 1837 •

وكان من الطبيعى أن يحصل هذا الصدام ، لان الحاج أحمد باى ، زيادة عن محاولاته خلافة حكومة الداى حسين الراحلة بدعوى أنه كان نائبا للداى بصورة شرعية ، كان يعتبر بايليك الشرق منطقة نفوذه الشرعى التى لا ينبغى لاحد أن يمد يده اليها بأى حال من الاحوال .

ومن بين ولاة الامير عبد القادر على ولاية الزيبان والصحراء الشرقية : الحسـن ابن عزوز ، ومحمد الصغير بن عبد الرحمن (4) • ومن الذين تعاونوا مع خلفاء الامـير

3) نفس المصدر ، ص 80 •
4) الامير محمد : تحفـة الزائر فى مـآثر الامـير عبد القادر وأخبـار الجـزائر • (الاسكندرية ــ 1903) ، ص 195 •

فى هذه المنطقة الشرقية : محمد الحسناوى بن بلقاسم شيخ الحنانشة . وعلى بن سالم الورقلى ، وابراهيم بن عون قائد الناحية الشرقية ، وهـــم الذين اتخذنا رسائلهم ، موضوع هذه الدراسة . الى جانب رسائل الامير ، وذلك للتدليل على مدى اهتمام الامير بهذه المنطقة وما وراءها ، رغم بعدها عن مركز حكمه ونفوذه ، ورغم الصعوبات الكبيرة التى كان الفرنسيون يضعونها أمامه باعتبارهم يتمركزون فى الوسط بينها وبينه .

أ ـ الحسن بن عـزوز :

ينتمى الحسن بن عزوز الى أسرة بن عزوز الدينية ذات الشهرة والمكانة فى اقليم الزيبان ، وقدمت من الناحية الغربية ، واستقرت فى واحة البرج قرب واحة بسكرة منذ حوالى خمسة أجيال .

وقد نشأ الحسن بن عزوز فى واحة طولقة ، وعمل خوجة (كاتبا) لـدى فرحات ابن سعيد بن بوعكاز ، خصم الحاج أحمد باى ، لعدة سنوات . وفى شهر فيفرى 1832 كلف هو والخوجة السعيد بن دحمان ، بحمل رسالة من فرحات بن سعيد الى الجنرال روفيقو بالجزائر العاصمة ، يعلمه فيها باستعداده لمساعدته فى القضاء على الحاج أحمد باى ، واحتلال عاصمته مدينة قسنطينة . وعندما عادا من مهمتهما فى شهر مـارس اعترضهما سكان قرية العوفية قرب الحراش ، وسلبوا منهما امتعتهما ، وقتلوا لهما بعض اتباعهما (5) .

بقى الحسن بن عزوز يعمل لدى فرحات بن سعيد عدة سنوات الى أن تم امضـاء معاهدة تافنة بين الامير عبد القادر ، والفرنسيين فى نهاية ماى 1837 ، ثم بدأ يغـير موقفه واتجاهه ، وعزم على استغلال الظروف لصالحه ، وصادف فى هذه الفترة أن الامير عبد القادر راسل زعماء الاسر الجزائرية الكبيرة فى بايليك قسنطينة ، وطلب منهـم تأييده والانضواء تحت سلطته وامارته الفتية ، أمثال ، بن يلس ، وبن عبد السلام المقرانى ، وأحمد الشريف ، وبن فندوز ، وبوعكاز بن عاشور . فرأى الحسن بن عزوز

5) Charles Feraud : Le Sahara de Constantine (Alger 1887) p. 264 - 272 et 295.
وقد أورد فيرو نص رسالة فرحات بن سعيد بالعربية ، وترجمة لها بالفرنسية .

الفرصة مواتية له ، وتقرب من الخليفة البركانى عامل الامير ، فعينه شيخا على واحة الزعاطشة بالزيبان قرب بسكرة ٠

ولم يتوقف طموحه عند هذا الحد ، فأرسل الى الامير عبد التادر رسولا سريا يدعى سى السنوسى ، حمله رسالة اليه شرح له فيها ضعف مركز الحاج أحمد، وطلب منه أن يعينه خليفة له على اقليم الزيبان كله ، على أن يضمن له تقديم مبالغ مالية كبيرة ٠ فقبل الامير عرضه وسماه خليفة على اقليم الزاب بعد أن عزل منه فرحات بن سعيد وسجنه فى تاكدمت ٠ وكلفه بمحاربة الفرنسيين ، واعوانهم بالمنطقة خاصة بو عزيز بن قانة ، الذى خلع عليه الفرنسيون منصب شيخ العرب ، وكلفوه بمقاومة الحاج أحمد بـاى واتباعه رغم أنه كان صهرا له ٠

كلف الامير عبد القادر ، عامله البركانى فى بوسعادة ، بتنصيب الحسن بن عزوز فى منصبه بمدينة المسيلة خلال عام 1838 ، فحمل اليه مدفعين ، ومجموعة من الاسلحة والذخائر ، وزوده بمائة جندى منظم ليساعدوه فى تنظيم الدفاع والمقاومة (6) ٠

وخلال استقراره بالمسيلة ، عمل على تنظيم عمليات حربية عـلى منطقة البيبان ، ومجانة الخاضعة لعائلة المقرانى ، ولكنه لم يصب نجاحا ٠ واشتد ضغط بن قانة واتباعه ضده ، فاستنجد بأحمد بن عمر خليفة الامير فى الحضنة الذى أنجده على رأس حوالى 800 رجلا ، وخاضوا جميعا معركة كبيرة فى (فلتة حمامة) قرب الحوش فى واد سالون ضد الغراية الصحراويين اتباع بن قانة يوم 24 مارس 1840 ، وهزموا فانسحبوا الى المسيلة واجتمعوا هناك بالحاج مصطفى شقيق الامير عبد القادر ، وخليفة مجانة الخروبى.

وقد ذكر فيرو بأن الامير عبد القادر أفرج على فرحات بن سعيد فى تاكدمت، وطلب منه أن يذهب ليحل فى مكان الحسن بن عزوز على ولاية الزيبان ، ويعمل على التخلص منه، واعادة سلطته (الامير) على تلك المناطق، واستبقى عنده فى تاكدمت عائلته حتى يضمن تنفيذ الامر وتطبيقه ، ويتأكد من اخلاصه فى نفس الوقت (7) ٠

---

6) نفس المصدر ، ص 295 ــ 300 ٠

7) نفس المصدر ، ص 305 ــ 312 و 323 ــ 324 ٠

وعندما التحق فرحات بن سعيد بالمنطقة ، اتصل بالحاج مصطفى الذى كان يقوم بعمليات عسكرية فى أحواز سطيف ، واشترك معهما الحسن بن عزوز ، الذى كان لا يعلم على ما يظهر بواطن الامور ، فى دراسة الاوضاع على ضوء هزيمة ربيع عام 1840 وبرز فى هذه الفترة كذلك أحمد بلحاج شيخ سيدى عقبة الذى بدأ نجمه يظهـــر ويلمع فى المنطقة ، واتضحت أطماعه فى الوصول الى منصب الخليفة على اقليم الزيبان كذلك ، كنتيجة لهزائم الحسن بن عزوز ، وفرحات بن سعيد · وكانت القضية التى حاولوا التعاون فى مواجهتها هى هجمات العزابة الصحراويين ضدهم وضد اتباعهم وسلطتهـــم ·

ونظرا لعدم نجاح الحسن بن عزوز ، فى مهتمه ، وفشل فرحات بن سعيد فى انقاذ الموقف ، فقد أمر الامير عبد القادر بعزل الجسن بن عزوز من منصبه ، وعوضه بأحمد بلحاج ، الذى يعرف كذلك بمحمد الصغير بن عبد الرحمن ، وذلك فى ربيـــع عـــام 1841 (8) ·

وقد تعرض الحسن بن عزوز بعد عزله الى هزيمة أمام قوات الجنرال نيقرى Négrier فى المسيلة ، فاعتصم بالمناطق الجبلية حولها ، والحق الفرنسيون مدينة المسيلة بسلطة الخليفة أحمد المقرانى بمجانة، وحاول بن عزوز عدة مرات أن يستعيد سلطته عليها ، وادعى للناس بأن الامير عبد القادر فد عفى عنه ، وأنه عن قريب سيعيده الى منصبه · ولكن السكان قبضوا عليه فى شهر جويلية 1841 ، وسلموه الى الخليفة المقرانى الذى سلمه بدوره الى السلطات الفرنسيه التى قادته الى قسنطينة ، واعتقلته هناك بعض الوقت ، ثم نفته الى جزيرة سان مارقوريت بفرنسا ، وبقى هناك حتى مطلع عام 1844 ، ثم أطلق سراحه وأعيد الى الجزائر ، وفرضت عليه اقامة جبرية بمدينة عنابة حتى توفى بها عام 1847 (9) ·

ان سيرة هذا الرجل ، ونشاطه السياسى والعسكرى خلال ولايته القصيرة عـلى المسيلة وأحوازها ، تحت سلطة الامير ، يشوبها الغموض ، كما أن مواقفه وعلاقاته

8) نفس المصدر ، ص 324 — 327 ·
9) نفس المصدر ، 327 — 335 ·

بالناس ، والامير ، غير واضحة ، وتحتاج الى بحث • غير ان نشاطه السياسى بعد أسره يكشف عن طموحه الواسع ، والمتزايد للسلطة ، بقطع النظر عن الوسائل والسبل •

فبمجرد أن استقرابه المقام فى جزيرة سان ماقوريت ، شرع فى كتابة الرسائل ، منذ شهر سبتمبر 1841 الى الشخصيات الكبيرة ، الفرنسية والجزائرية، الرسمية ، والمرموقة ، أمثال : الملك الفرنسى لويس فيليب وزوجته ، ورجال حاشيته ، وأمراء العائلة المالكة ، والماريشال سولت . والجنرال بوايى فى طولون ، والجنرال سباسيانى فى مرسيليا ، ومدير الشؤون الافريقية فى وزارة الحرب ، والامير عبد القادر ، ومصطفى بن اسماعيل ، وسى العربى (10) •

ومن هذه الرسائل : واحدة يوم 4 جانفى 1842 ، وسبعة يوم 27 جانفى 1842 ، وخمسة يوم 19 ديسمبر 1842 ، وستة يوم 31 ديسمبر 1842 ، وتسعة يوم 15 مارس 1843 ، وواحدة يوم 12 جوان 1843 ، وخمسة يوم 16 جوان 1843 • هذا زيادة على الرسائل الكثيرة التى وجهها الى أصدقائه وأفراد عائلته ، وأهملت ولم يجر الاهتمام بها • وبسبب هذه الرسائل المكثفة اعتبره الجنرال نيقرى خطيرا ، وتوجد هذه الرسائل والتقارير فى ارشيف باريس الوطنى (A.N.P.) (11) (11) •

ولسنا ندرى كيف سمح الفرنسيون له بهذه المراسلات الواسعة ، ولكن محتوى هذه الرسائل يدل على أنهم كانوا يهدفون الى استغلاله ضد المقاومة الجزائرية ، ورجالها خاصة الحاج أحمد باى ، والامير عبد القادر • ولربما كان هذا هو السبب فى اسراعهم لاطلاق سراحه من الاسر بمنفاه عام 1844 •

ففى ديسمبر 1841 راسل الامير عبد القادر ، وحثه على مراسلة الملك الفرنسى لويس فيليب لتحقيق الصلح ، وشجعه على قبول مبدا دفع الجزية للفرنسيين ، غير أن الامير سكت عنه ، واهمل الجواب عليه ، لانه فى غنى عن نصائحه ، اذا لم يعتبر ذلك تطاولا منه عليه •

---

10) X. Yacono : « Les premiers prisoniers algériens de l'île Saint Marguerite ». Rue d'Histoire Maghrébine (Tunis - Janvier 1974) n° 1, pp. 40 - 41 et 57.
11) A.N.P. Carton F 80 - 568, 571, 574.

وفى يوم 27 جانفى 1842 كتب رسالة الى الملك الفرنسى عاتبه فيها على تعيين عدد من الجزائريين فى وظائف جديدة مثل : يوسف التركى باى عنابة ، ومحمد بن الشيخ باى قسنطينة ، وأحمد بن مزراق باى تيطرى ، وبوشناق باى مستغانم . وعرض عليه أن يقترح له الوسائل الكفيلة للقضاء على الامير عبد القادر ، والحاج أحمد باى ، على أن تعطى له منطقة قلعة بنى عباس ليتخذها مركزا له يسيطر منها على كل بلاد العرب .

ان محاولة افتكاك مدينة المسيلة من أحمد المقرانى عام 1841 قبل اعتقاله ، واقتراحه هنا فى هذه الرسالة بأن تعطى له قلعة بنى عباس ، يوضحان عداءه وخصومته لعائلة المقراني رغم أن بعض أفرادها كانوا فى خدمة الامير عبد القادر الى ما بعد عبور الفرنسيين لمضيق البيبان فى أكتوبر 1839 ، ونعنى به محمد بن عبد السلام المقرانى .

وفى رسالة 12 فيفرى 1842 ، اقترح على الملك الفرنسى أن يعينه خليفة على الجزائريين ، على أن يدفع للسلطات الفرنسية مبالغ مالية سنوية هائلة حددها كما يلى : 40 ألف رأس غنم ، و 4 آلاف بغل ، وألف حصان ، و 40 ألف قنطار صوف ، و 40 ألف حبة بيض الدجاج ، و 40 ألف قنطار ملح ، و 4 آلاف صاع قمح ، و 40 ألف قنطار خشب (12) .

وفى يوم 12 جوان 1843 كتب تقريرا كبيرا ضمنه مشروعا من سبعة وعشرين مادة ، وأرسله الى الملك الفرنسى اقترح فيه استعداده للقضاء على ثورة الامير عبد القادر ، والحاج أحمد باى ، وكل العناصر التركية الباقية فى الجزائر ، كما اقترح عليه أشياء أخرى فى ميدان الاقتصاد ، والحياة الاجتماعية (13) .

نموذجان من رسائله خلال ولايته على المسيلة :

لقد قام الحسن بن عزوز بنشاط سياسى واسع ، وهام ، خلال ولايته القصيرة كخليفة للامير على ولاية الزيبان . وبذل جهده ليربط الصلة ويوثقها بين الامير عبد القادر ، وباى تونس حمودة باشا . ووجه الى الاخير رسالتين فى الموضوع يؤكد فحواهما على مدى فهمه للاحداث والتوقعات .

12) Yacono : pp. 57 - 59.

13) نفس المصدر .

ففى الرسالة الاولى أخبره : « أنه لما ملك عدو الله الارض ، بل قسنطينة ، واختلفت كلمة الاسلام ، وفشلوا وضعفوا على الدب ودرء العدو ، وأراد أن يملك الارض امتثلنا قول الله تعالى : (**يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة**) . وسرنا الى مولانا السيد الحاج عبد القادر لما نعلم فيه من النجدة والقوة ، ونصرة الاسلام ، ودفع كل مفسدة ، وبذل نفسه فى اصلاح الامة وطلبنا منه أن يجوس خلال قطرنا ويشد عضدنا ... ووافانا على هذه الناحية وأمدنا بمحلة عظيمة فأخرجنا من كان فيها من المفسدين » . ثم خلص الى غرضه الذى يرمى اليه وقال له : « فان ظهر لك أن نكون صلة بينك وبينه فى المعرفة لتزول الامور المختلفة، وتجتمع الكلمة الشريفة ، وتدخل فى قوله تعالى : (**ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم**) . وفى قوله تعالى : (**تعاونوا على البر والتقوى**) ... فنحن بذلك بعلاء وباثباتها حفلاء » . وفى الاخير حذره من مغبة تقرب الفرنسيين منه قائلا : « نعم وأنت كن فطنا ، لبيبا ، عاقلا ، وانظر عاقبة الامور من جانب الكفرة ، ولا تظن ودهم من جانب الحب بل من جانب المكر والخديعة وما شغلهم عنكم الا نحن . ولو لا نحن لرجعوا اليكم . وها نحن مشغولون الا بهم وأنت منا والينا . والحب بيننا سابق ولاحق لا ينفك أبدا » . وختم رسالته بقوله : « بأمر السيد الحسن بن عزوز ، خليفة أمير المؤمنين » (14) .

أما الرسالة الثانية فقد كرر فيها نفس الافكار التى ذكرها فى الاولى، غير أنه أضاف فيها قوله : « وها نحن كتبنا الى السيد أحمد باشا أجوبة فتناظر أنت واياه فى ذلك ، وأما حب النصارى لكم ، ومرادهم فهى مكر وخديعة ، وما قصدهم الا بعد امساكهم عمالة الجزائر يرجعون لكم » (15) .

وفيما يلى نصا الرسالتين ، وأصلاهما ينشران هنا لاول مرة وعثرنا عليهما فى أرشيف الحكومة التونسية (أ. ح. ت.) :

14) أ. ح. ت. صندوق 78 ، ملف 929 ، وثيقة رقم 33 ، بدون تاريخ ، وفى اعلاها ختم صاحبها . والاقواس حول الآيات القرآنية من وضعنا .

15) نفس المصدر ، وثيقة رقم 34 بدون تاريخ وفى أعلاها خاتم صاحبها . أما الرسائل التى ذكر أنه أرسلها الى أحمد باشا فلم نعثر عليها فى الصندوق .

الوثيقـة الاولى :

رسالة الحسن بن عزوز خليفة الامير عبد القادر الى حمودة باشا بتونس حول ربط الصلات بينه وبين الامير عبد القادر

الحمد لله وحده (16) وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم .
حفظ الله تعالى (كذا) بمنه وكرمه وعم بجميل ستره وخيره مقام ذات المعظم الارفع الهمام الانفع السيد حمده باش باى أكرمه الله ورعاه وكان له وتولاه آمين وسـلام عليك ورحمة الله وبركاته ورضوانه وتحياته ما تعاقب الفلك وحركاته ثم ليكن فى شرف علمك خيرا أنه لما ملك عدو الله الارض بل قسنطينة واختلفت كلمة الاسـلام وفشلوا وضعفوا عن الدب ودرء العدو وأراد أن يملك الارض امتثلنا قوله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلضة** » (كذا) وسرنا الى مولانا السيد حاج عبد القادر لما نعلم فيه من النجدة والقوة ونصرة الاسلام ودفع كل مفسدة وبذل نفسه فى اصلاح الامة وطلبنا منه أن يجوس خلال قطرنا ويشـد عضدنا فما لبث غير ساعة حتى تلى (كذا) قوله تعالى : «**وكان حقا علينا نصر المؤمنين**»، ووفانا على هذه الناحية وأمدنا بمحلة عظيمة فاخرجنا من كان فيها من المفسديـن وها نحن باصلاح الخلق معتنين ولهذا عرفنا أمير المؤمنين لا لدنيا نصيبها ولا لرفعـة نكسبها وأما شاهدناه منه من نصرة الاسلام والذب (كذا) عن أمة محمد عليه السلام وقمع العتات (كذا) من البغات (كذا) والكفرة اللئام ولانه جمع الطرفين واقتعد منصة الشرفين فان ظهر لك أن نكون وصلة بينك وبينه فى المعرفة لتنزول الامور المختلفة وتجتمع الكلمة الشريفة وندخل فى قوله تعالى : «**ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم**» وفى قوله : « **تعاونوا على البر والنفوى** » وقال صلى الله عليه وسلم « المؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا » ، فنحن بذلك بعلاء وباثباتها حفلاء اذ معرفـة أولاد الرسول لا تأتى الا بخير وهى فى الدنيا والآخرة جنة لدفع كل شر وضير اذ هـم

(16) أ. ح. ت. صندوق 78 ملف 929 ، وثيقة 33 ، لا تحمل تاريخا ، وفى أعلاها طابع صـاحبهـا .



الشكل رقم 1 ـ رسالة الحسن بن عزوز الى حموده باشا حول ربط الصلات مع الامير عبد القادر .

أ. ح. ت. صندوق 78 ملف 929 . وثيقة رقم 33

بضعته (كذا) صلى الله عليه وسلم لا يحبهم الا مؤمن ولا يبغضهم الا منافق لا سيما من جمع منهم الشرف الظاهر والباطن وكان فى منازل المكــــارم والمحاســن نازلا وقاطن (كذا) ومعرفة أولاد الرسول لا تزيدك عند الله وعند عباده الا رفعا وتكسبك دفعا ونفعا والمعرفة يبيت لان من تكون سرا أو علانية وما علمناك بهذا الا لكونك منا والينا وعلمنا بصدقك والظن الجميل بك ونعرفك تحب الايمان وترغب نصرة الدين والسلام وبأمر السيد الحسن بن عزوز خليفة أمير المؤمنين نصره الله أمين ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ·

نعم وانت كن فطينا لبيبا عاقلا وانظر عاقبة الامور من جانب الكفرة ولا تظن ودهم من جانب الحب بل من جانب المكر والخديعة لا غير وما شغلهم عنكم الا نحن ولولا نحن لرجعوا اليكم وها نحن مشغولون الا بهم وانت منا والينا والحب بيننا سابق ولاحق لا ينفك أبدا والسلام معاد عليكم ·

الوثيقــة الثانيــة :

رسالة الحسن بن عزوز الى حمودة باشا حول ربط العلاقات مع الامير عبد القادر

الحمد لله (17) وصلى الله على سيدنا محمد ·

حفظ الله تعالى بمنه وكرمه وعم بجوده واحسانه حضرة الاجل الوجيه الاقيــل الزاكي الاشمل المرعى برعاية الله عز وجل محبنا وصديقنا ونصيحنا (كذا) السيد حمده باى سلام الله عليك ورحمة الله وبركاته وتحيته ورضوانه ولا زايد عن حمد الله جلت قدرته وتقدست أسماؤه سوى الخير والعافية ونعمه الوافية المتوالية التى نطلب من الله دوامها وبقاءها علينا وعليكم وعلى جميع المسلمين أمين وبعد ان سألت عنا فترانا نحمد الله ونشكره ونحن فى هناء وعافية وعز وضفر (كذا) ونصر وسلامة ولــم يخصنا من الخــير شيء ولتعلم أيها الصديق وأننا لما رد الايمان وقوى الكفر واضطربت أمواجه من كل ناحية وعفت صولته وشوقت المسلمون (كذا) الى الكفار

17) أ· ح· ت· صندوق 78 ، ملف 929 ، وثيقة رقم 34 ، لا تحمل تاريخا وعليها طابع صاحبها في أعلاها ·



الشكل رقم 2 ـ رسالة الحسن بن عزوز الى حموده باشا حول ربط العلاقات مع الامير عبد القادر .

أ . ح . ت . صندوق 78 ملف 929 . وثيقة رقم 34

فخشينا الردة بجميع المسلمين وأن يعم الكفر الوطن فألجأنا الى أمير المؤمنين مولانا السيد الحاج عبد القادر بن محيى الدين كما ركب نوح فى السفينة لا خشى غرقه من الطوفان لانه صاحب قوة فى الظاهر من قومان (كذا) وعصاكر (كذا) وصاحب ولاية فى الباطن وما هو الا رجل عدل تقى طاهر يصوم النهار ويقوم اليل منصف للحد ولو على نفسه لا تأخذه فى الله لومة لائم ونحن على سيرته ومتبعون لسنة الرسول صلى الله عليه وسلم وما قصدنا الا اصلاح الدين وجمع كلمة المسلمين وازالة العناد ودرء المناكر والفساد فنسل (كذا) الله سبحانه أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه ومحبتنا فيكم أن يشتموا (كذا) ان تكون ظاهرة أو باطنة لا بأس فى ذلك وها نحن كتبنا الى السيد أحمد باشه أجوبة فتناظر أنت واياه فى ذلك وأما حب النصارى لكم ومرادهم فهى مكر وخديعة وما قصدهم الا بعد امساكهم عمالة الجزائر يرجعون لكم . والسلام من المكتوب عن اذنه الواثق بالله ورسوله السيد الحسن خليفة مولانا نصره الله أمين أمين.

ومن جملة ما ذكرنا للسيد أحمد باشي (كذا) على ان يشتموا أن تكونوا انتم والسلطان السيد الحاج عبد القادر على رأى واحد ليقر الدين وتجتمع كلمة المسلمين .

ب ـ أحمد بلحاج (محمد الصغير بن عبد الرحمن) :

يعتبر محمد الصغير بن عبد الرحمن ، الخليفة الثانى للامير عبد القادر فى ولاية الزيبان والصحراء الشرقية . وكثيرا ما يدعى باسم أحمد بلحاج ، كما فى مذكرات الحاج أحمد باى . عينه الامير عبد القادر خليفة له فى مكان الحسن بن عزوز المعزول عام 1841 . ويبدو من الحوادث والرسائل التى عثرنا عليها ، أنه كان له نشاط وصلات مع الثوار والامير عبد القادر قبل هذا التاريخ كذلك .

وهو من واحة سيدى عقبة . وفى ربيع عام 1944 نظم هجوما ناجحا على مدينة بسكرة ، وحقق انتصارا ساحقا على الفرنسيين وأعوانهم ، وبقى يكافح تحت لواء الامير الى أن استسلم هذا الاخير عام 1847 ، فانتقل هو الى نفطة التونسية بالجريد واستقر بها . وعند ما نشبت أحداث واحة الزعاطشة أواخر عام 1849 ، قدم لنجدة الشيخ بوزيان وسكان الواحة . ثم عاد الى تونس ، وعندما

ظهر الشريف محمد بن عبد الله بحركته فى مطلع الخمسينات اشترك معه فى الهجوم على تقرت والاستيلاء عليها عام 1852 ، وعاد بعد ذلك الى توزر وتوفى بها عام 1856 ، حسب رواية فيرو (18) ، أما المرزوقى فذكر أنه هاجر الى المدينة المنورة وتوفى بها (19) فى حين بقى أبنه مصطفى يتردد على الامير عبد القادر بدمشق مدة من الزمن كما اشار الى ذلك الامير فى بعض رسائله ٠ (20)

وخلال ولايته كخليفة للامير على ولاية الزيبان والصحراء الشرقية ، قام بنشاط واسع حربى ، وسياسى ٠ فمن الناحية العسكرية حارب القوات الفرنسية وأعوانها ، والحاج أحمد باى واتباعه ، كما اورد ذلك الحاج أحمد فى مذكراته (21) ٠ ومن الناحية السياسية اهتم بتدعيم سلطية الامير عبد القادر فى الناحية الشرقية ، وراسل الباى، والرسميين التونسيين ، وبعض الشخصيات الجزائرية ، وتحمس لربط الصلات والعلاقات الحسنة بين الامير ، وبايات تونس ٠

وقد عثرنا على أربعة رسائل فى أرشيف الحكومة التونسية تبرز هذا النشاط وتؤكده :

الاولى : وجهها الى مصطفى صاحب الطابع بمدينة سوسة ذكر له فيها : « وأنه وجهنا السيد عبد القادر بن محيى الدين أنا عبد الله ورفيق معى من قربه الى سيدنا أحمد باشه وقدمنا الى سيدى محمد باى وقدمنا بعشرة من الخيل ذكور وبأيدينا زوج بشاطل وطقان ذهب أما من زوج من الخيل المذكورين الى سيادتك العالية ، وزوج كذلك الى سيدى محمد باى وستة الى السلطان أيده الله ونصره سيدنا أحمد باشا

18) Feraud : pp. 367 - 374 et 424.

19) محمد المرزوقى : صراع مع الحماية . (تونس – 1973) ص 244 – 245 و 255 ٠ 260

20) أشار الى ذلك فى رسالته الى خير الدين الوزير التونسى بتاريخ 1 ربيع الثانى 1289 ، ورسالته الى مصطفى خزندار بتاريخ 25 ربيع الثانى 1289 ٠ أنظر : أ٠ ح٠ ت٠ نفس المصدر ٠ وثيقة رقم 64 ووثيقة رقم 65 ٠

21) مذكرات أحمد باى ، ص 91 – 96 ٠

والبشاطيل والطيقان مع الستة من الخيل » . وبما أن صاحب الطابع كان آنذاك بسوسة ، وهو بمدينة القيروان ، فقد طلب منه أن يشير عليه الى من يسلم الهدية ، وختم رسالته بقوله : « وباقى الكلام يحدثك عنه حامل البرية (الرسالة) » . (22)

الثانية : وجهها الى أحمد باشا نفسه بأمر من الامير عبد القادر ، على ما يظهر ، لانه قال فيها له : « فاننا كلفنا السيد الحاج عبد القادر بن محيى الدين أن أقدم الى حضرتك السعيدة الحميدة بحول الله وقوته ويريد حبك وقربك وأنت سلطان تونس يحتاج اليك القوى والضعيف وتكون بينك وبينه محبة ومودة . ووجه لك معنا حصان من جياد الخيل زيادة لك » . ويظهر أن هذه الرسالة كتبها له فى الطريق قبل أن يصل الى تونس حيث ذكر له فيها قائلا : « نريد من كريم فضلك وجزيل احسانك أن ترسل لنا خدامك يلاقونا بناحية الجريد أو قفصة لان الطريق لم تكن لنا فيها معرفة وأهلها كذلك لم يعرفنا » . (23)

الثالثة : وجهها الى المسمى ابراهيم بن عون قائد الناحية الشرقية أخبره فيها بانتصاره الكبير على القوات الفرنسية ببسكرة ، واستيلائه على كل ما عندها من مؤن، وذخائر ، وأسلحة ، وأسره لعدد من افرادها ، وختم رسالته بقوله : « وقد أخبرناكم بهذا لتأخذوا حظكم معنا بالفرح والسرور » . وأردف فى الاخير خبرا عن انتصار أولاد سلطان على الجيش الفرنسى الذى كان يقوده الدوق دومال . والذى عبر عنه ونعته : « بولد الربى » ، وذلك خلال الغارات والهجمات الثلاثة ، « وانصرف مذموما مخذولا ولم ينل ما هم به » . (24)

22) أ . ح . ت . نفس المصدر ، وثيقة رقم 35 بدون تاريخ . ولكن صاحب التحفة أشار الى هذا فى أحداث عام 1834 بعد ابرام معاهدة دى ميشيل وقال : « ان الامير وجه خليفته على بسكرة والصحراء السيد محمد الصغير بن عبد الرحمن ومعه السيد محمد ابن كانون الى أحمد باشا باى تونس وأصحبهما بسيف مرصع بالجواهر وخيول بسروج مذهبة وآلة شاى من الذهب وغيرها » . وهذا التاريخ محل نظر لان محمد الصغير لم يصبح خليفة الا عام 1841 . أنظر : تحفة الزائر ، ج 1 ص 139 .

23) أ . ح . ت . نفس المصدر ، وثيقة رقم 36 بدون تاريخ . وذكرها صاحب التحفة فى أحداث عام 1834 ، وهو خطأ كما ذكرنا ، أنظر ج 1 ، ص 139 .

24) نفس المصدر ، صندوق 212 ، ملف 239 ، وثيقة رقم 19 بتاريخ 25 ربيع الثانى 1260 (20 أبريل 1844) .

ومعلوم أن محمد الصغير بن عبد الرحمن دبر مؤامرة ضد القوات الفرنسية فى بسكرة ، وشن عليها غارة ناجحة ليلتى 13 و 14 مارس 1844 ، أسر خلالها عشرة من الفرنسيين بينهم الطبيب أرسلان Arcelin ، والضابط تروشارد sous-lieutenant Trochard والطباخة Marie التى تزوجها وأنجبت له ولدين ، ذكر فيرو أنهما بقيا يعيشان مع أمهما بعد وفاته ، فى مدينة القيروان ٠ (25)

الرابعة : وجهها الى شيخ الحنانشة محمد الحسناوى ، أحاطه علما فيها باحتماء بوعزيز بن قانة ، وعدد من سكان الصحراء ، بالقوات الفرنسية الغازية ، وبقيامه هو بمحاربتهم ومقاتلتهم لمدة أربعة شهور ، الى أن نال منهم وأجلاهم « من وطن السحرة » (كذا) فـ : « ذهبوا الى الرومى شاكين باكين مستنصرين به لا متعهم الله ولا بلغ لهم أملا لان من استنصر بغير الله لا أعانه الله » ٠ واستطرد بعد ذلك عن أخبار الامير عبد القادر وقال : « وأما مولانا السيد الحاج عبد القادر نصره الله لا زال مقابلا لاعداء الله على سبعة مواضيع ومشتغلا بقتالهم ليلا ونهارا وقد أرسل اليك كتابا من ذو (كذا) زمان وهو عندى لانه حيث وصلنا وجدنا فى أشد الاشتغال بقتال المتنصرة دمرهم الله وها هو يصلك فى حفظ الله وأمنه » ٠ ولم ينس أن يخبره بأن الامير على علم بأخباره وجهوده فى قتال النصارى ، وأنه عازم على التوجه الى هذه الناحية الشرقية ليتم اللقاء والتعارف ، ووضع الخطط المشتركة لمحاربة العدو المشترك ٠ (26)

وفيما يلى نصوص الرسائل وأصولها تنشر هنا لاول مرة :

---

25) Feraud : pp. 367 - 374 et 423.

26) أ٠ ح٠ ت٠ صندوق 212 ، ملف 239 ، وثيقة رقم 37 بتاريخ 8 ربيع النبوى عام 1259 ، ويوافق ذلك أبريل أو ماى 1843 لان صاحب الرسالة لم يحدد هل هو ربيع الاول أو الثاني ، وان كانت كلمة النبوى ترجح الاول .

الوثيقـة الثالثـة :

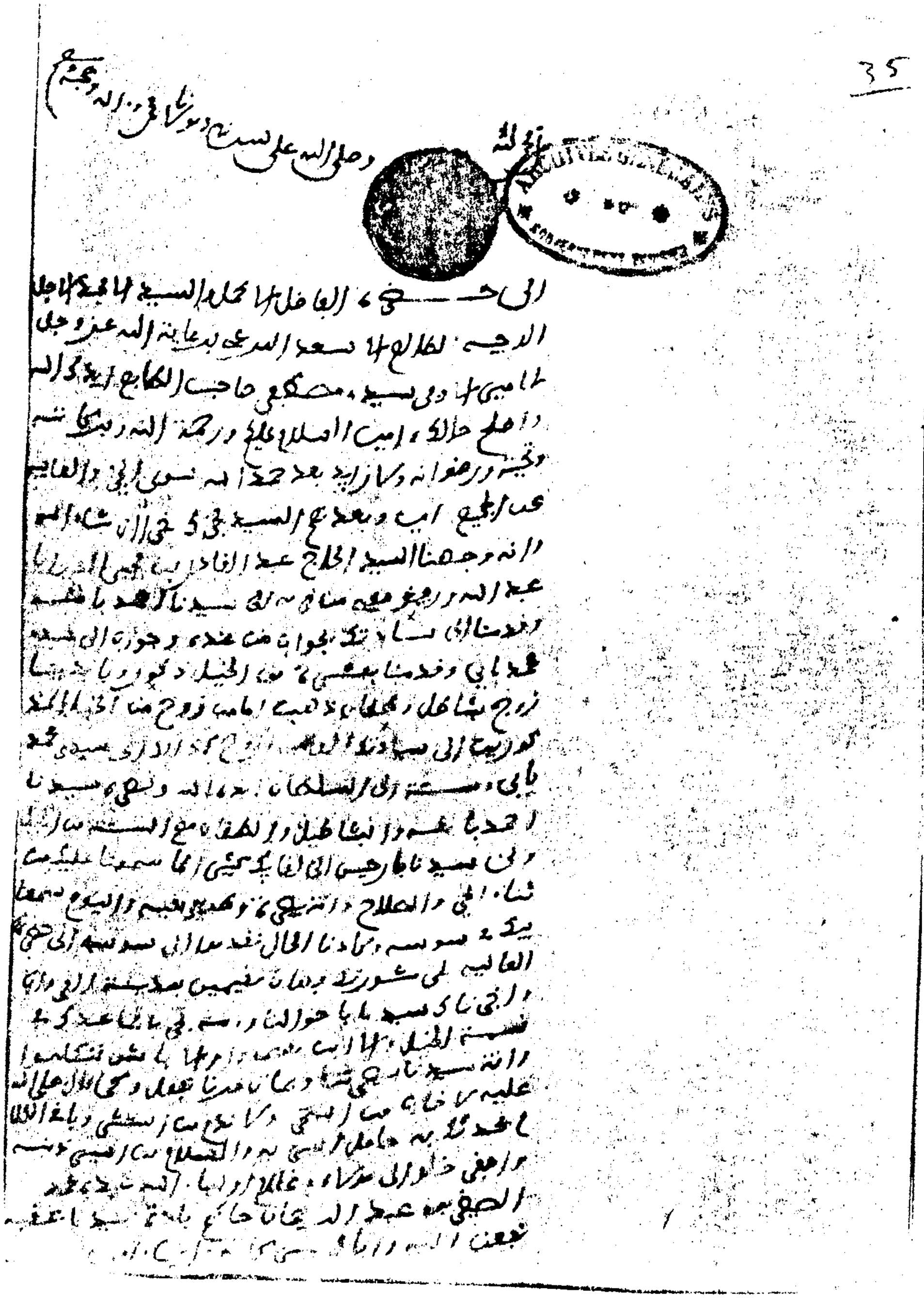
رسالة محمد الصغير بن عبد الرحمن خليفة الامير عبد القادر الى مصطفى صاحب الطابع بتونس حول هدية من الامير عبد القادر الى كبار رجال الدولة التونسية

الحمد لله (27) وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم .

الى حضرة الفاصل الاكمل والسيد الامجد الاجل الوجيه الطالع الاسعد المرعى برعاية الله عز وجل الامير الاوفى سيدى مصطفى صاحب الطابع أيدك الله وأصلح حالك أمين السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وتحيته ورضوانه ولا زايد بعد حمد الله سوى الخير والعافية عن الجميع أمين وبعد نعم السيد نخبرك ان شاء الله وأنه وجهنا السيد عبد القادر بن محيى الدين أنا عبد الله ورفيق معى من قربه الى سيدنا أحمد باشه وقدمنا الى سيادتك بجواب من عنده وجواب الى سيدى محمد باى وقدمنا بعشرة من الخيل ذكور وبأيدينا زوج بشاطل وطقان ذهب أما من زوج من الخيل المذكورين الى سيادتك العالية وزوج كذلك الى سيدى محمد باى ، وستة الى السلطان أيده الله ونصره سيدنا أحمد باشا والبشاطيل والطقان مع الستة من الخيل ونحن سيدنا فارحين الى لقايك كثيرا لما سمعنا عنك من ثناء الحى والصلاح وأنت بصيرة وطن فريقية واليوم سمعنا بيك (كذا) فى سوسة وكادنا الحال نقدموا الى سوسة الى حضرة العالية بلى (كذا) شورتك فهانا مقيمين بمدينة القروان وأخبرناك سيدنا بأحوالنا وأنت تخبرنا بما عندك فى قسمة الخيل والا أين نقصدوا والا باش نتكلموا وأنت سيدنا بصيرتنا وبما تأمرنا نفعل وكما قال صلى الله عليه وسلم : لا خاب من استجار ولا ندم من استشر (كذا) وباقى الكلام يحدثك به حامل البرية والسلام من أسير ذنبه وأفقر خلق الى مولاه غلام أولياء الله عبده محمد الصغير بن عبد الرحمن حاكم بلدة سيدنا عقبـة نفعنا الله واياك ببركاته أمين أمين .

---

27) نفس المصدر ، صندوق 78 ، ملف 929 ، وثيقة رقم 35 بدون تاريخ ، وذكر صاحب التحفة خبرا عنها فى أحداث عام 1834 ، ولكن ذلك محل نظر كما مر .


الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه

الى حضرة الفاضل الامجد السيد الماجد الاجل
الارضى الطالع الاسعد الدرجي برعاية الله عز وجل
الامين الادنى سيد مصطفى صاحب الطابع ايدك الله
واصلح حالك ، امين السلام عليك ورحمة الله وبركاته

الشكل رقم 3 ــ رسالة محمد الصغير بن عبد الرحمن الى مصطفى صاحب الطابع حول هدية الامير عبد القادر اليه .
أ. ح. ت. صندوق 78 ملف 929 . وثيقة رقم 35

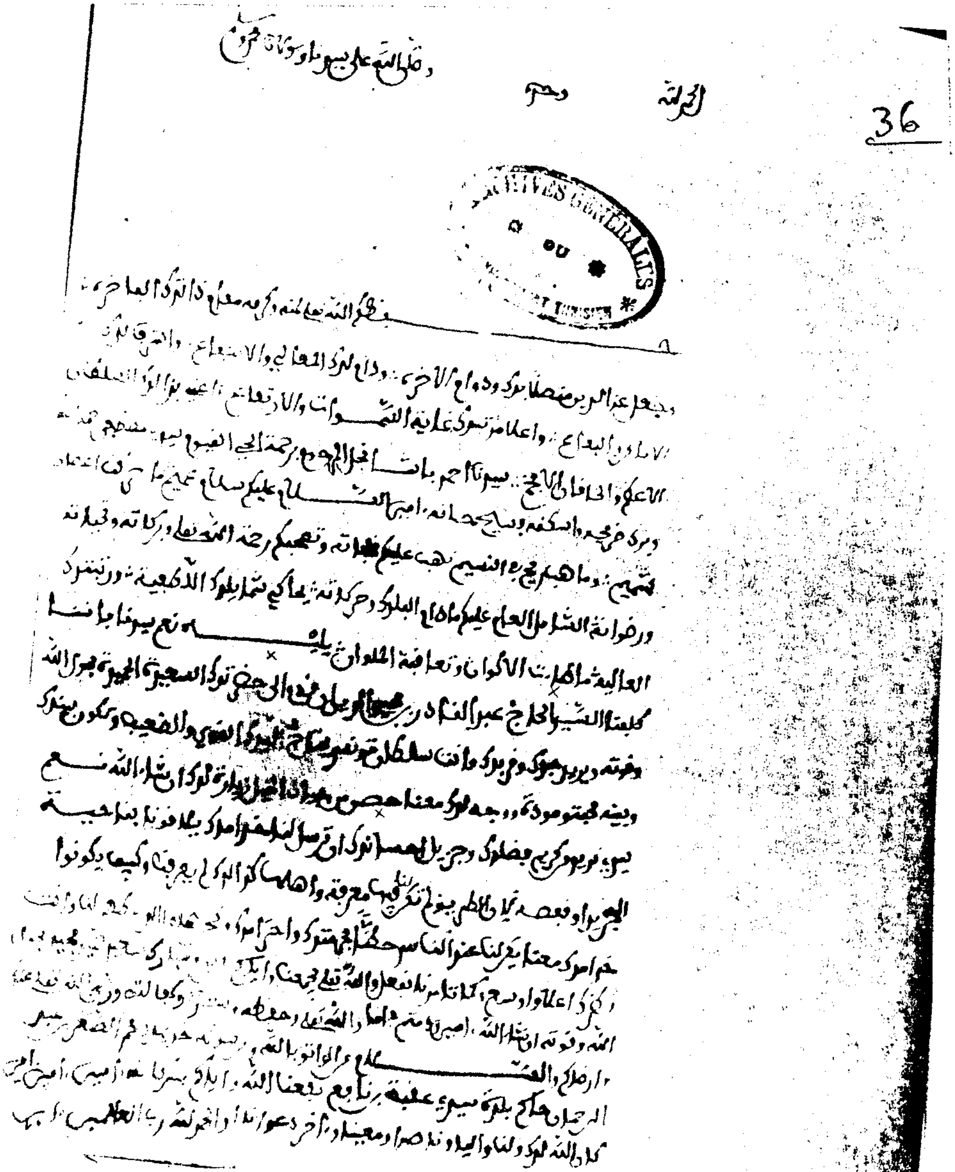
الوثيقة الرابعة :

رسالة محمد الصغير بن عبد الرحمن الى أحمد باشا حول رسالة وهدية من الامير

الحمد لله (28) وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وسلم .

حفظكم الله تعالى بمنه وكرمه مقام ذاتك الفاخرة وجعل عز الدين متصلا بك ودوام الاخرة . ودام لك المعالى والانتفاع وأشرف بك الاماكن والبقاع وأعلى مرتبتك غاية السموات والارتفاع ، أعنى بذلك السلطان الاعظم والخاقان الافخم سيدنا أحمد باشا نجل المرحوم برحمة الحي القيوم سيدى مصطفى رحمه الله وبرك ضريحه وأسكنه فسيح جنانه أمين ، السلام عليكم سلام ما حركت أغصان شميم وما هب ريح فى النعيم تهب عليكم نفحاته وتصحبكم رحمة الله تعالى وبركاته وتحياته ورضوانه الشامل العام عليكم ما دام الفلك وحركاته يحاكى شمايلك اللطيفة ورتبتك العالية ما ضاءت الاكوان وتعاقبت الملوان يليه نعم سيدنا فاننا كلفنا السيد الحاج عبد القادر بن محيى الدين أن أقدم الى حضرتك السعيدة الحميدة بحول الله وقوته ويريد حبك وقربك وأنت سلطان تونس يحتاج اليك القوى والضعيف وتكون بينك وبينه محبة ومودة ووجه لك معنا حصان من جياد الخيل زيارة لك ان شاء الله نعم سيدى نريد من كريم فضلك وجزيل احسانك أن ترسل لنا خدامك يلاقونا بناحية الجريد أو قفصة لان الطريق لم تكن لنا فيها معرفة وأهلها كذلك لم يعرفنا وكيف يكونوا خدامك معنا يكن لنا عند الناس حظا بحرمتك واحترامك . ونحن هذا الذى ظهر لنا وأنت نظرك أعلا (كذا) أوسع وكما تأمرنا نفعل والله تعالى يجمعنا وأياكم فى يوم مبارك سعيد حميد مجيد بحول الله وقوته ان شاء الله أمين ودمتم فى أمان الله والسلام من الواثق بالله وبرسوله خديمك محمد الصغير بن عبد الرحمن حاكم بلدة سيدى عقبة ابن نافع نفعنا الله وأياكم ببركانه أمين أمين أمين كان الله لك ولنا ناصرا ومعينا وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين أمين .

28) نفس المصدر ، وثيقة رقم 36 بدون تاريخ . والتاريخ الذى أورده صاحب تحفة الزائر لفحوى أحداثها محل نظر كما سبق .



الحمد لله وحده

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد

36

الشكل رقم 4 ـ رسالة محمد الصغير بن عبد الرحمن الى أحمد باشا حول رسالة وهدية الامير عبد القادر اليه ٠

أ ٠ ح ٠ ت ٠ صندوق 78 ملف 929 ٠ وثيقة رقم 36

الوثيقــة الخامســة :

رسالة محمد الصغير بن عبد الرحمن الى ابراهيم بن عون حول احداث بسكرة والحـاج أحمـد باى

الحمد لله وحده (29) صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ٠

الفاضل الأود الكامل الارشد ذو الشيم الزكية والاخلاق المرضية السيد ابراهيم بن عون قايد النواحى الشرقية وسلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد اعلامكم خيرا ان شاء الله وأننا هجمنا على عسكر عدو الله الذى تركه بقصبة بسكرة ومكننا الله منهم وظفرنا بجميع الخزنة من مدافع وسلاح وكور وبارود وأما الاطعمة من بروشعير وروز وأنواع الخبز لا تحمله ذوات الاربع ولا يحصى عدده الا الله ومسكنا علجة (كذا) ونحو السنتون (كذا) فرصا وقتلنا القباطين وأما بقية عسكر كله بقى لنا والحمد لله ذالك من فضل الله علينا والله ينصر دين الاسلام وقد أخبرناكم بهاذا لتأخذوا حظكم معنا بالفرح والسرور والسلام من الفقير لربه عبده محمد الصغير بن عبد الرحمن الخليفة نصره الله أمين فى 25 ربيع الثانى سنة 1260 ٠ (30)

الحاق خيرا وعافية وكذلك ولد الربى (31) لعنه الله قصد الى جبل أولاد سلطان فقاتلوه قتالا عظيما فهزموه وأخذوا بعضى محلته ثم رجع لهم ثانيا وثالثا فهزموه أيضا وأنصرف مذموما مخذولا ولم ينل ما هم به والسلام ٠

الوثيقــة السادسة :

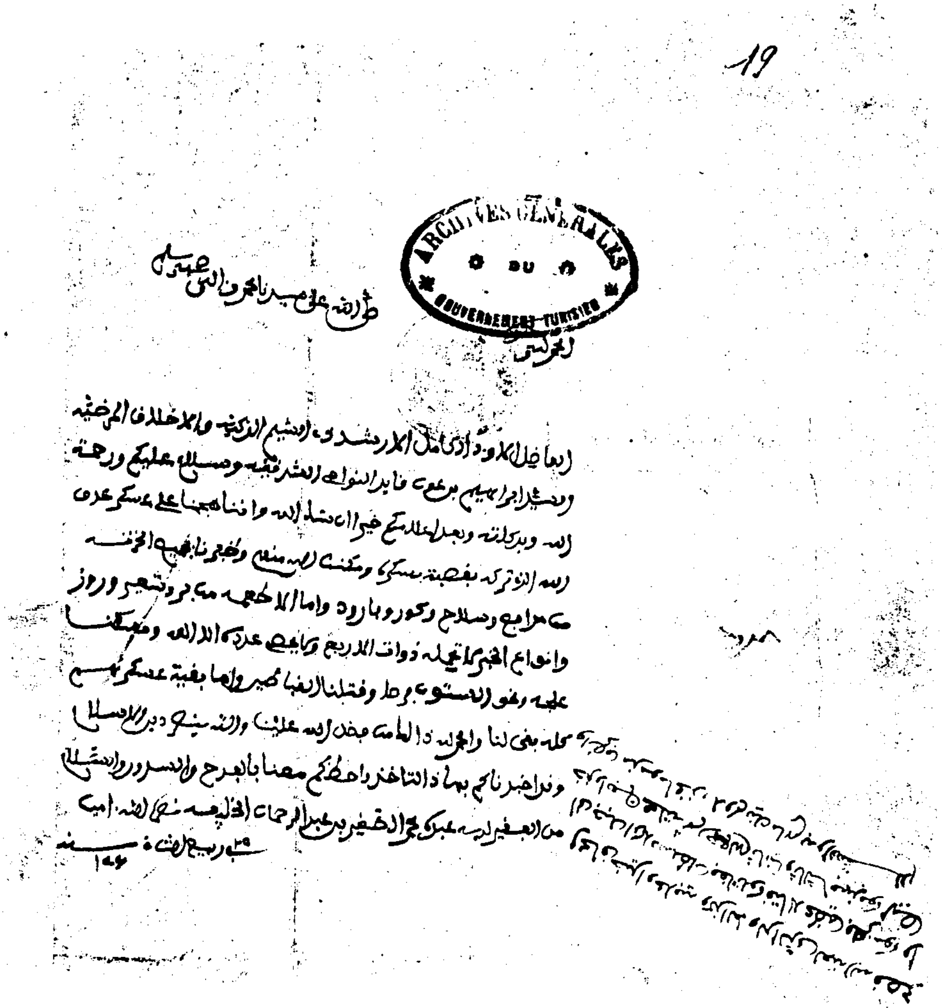
رسالة محمد الصغير بن عبد الرحمن الى محمد الحسناوى شيخ الحنانشة حول رسالة موجهة اليه من الامــير عبد القادر

الحمد لله وحده (27) وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وسلم ٠

29) أ٠ ح٠ ت٠ صندوق 212 ملف 239 وثيقة رقم 19 ٠

30) الموافق حوالى 20 ابريل 1844 ٠ وحوادث بسكرة حصلت ليلتى 13 و 14 مارس 1844 . كما أشار الى ذلك فيرو حسبما مر .

31) يعنى بولد الربى الدوق دومال ابن الملك الفرنسى لويس فيليب الذى كان فى هذه الفترة حاكما عسكريا على أقليم قسنطينة ٠



الشكل رقم 5 ـ رسالة محمد الصغير بن عبد الرحمن الى ابراهيم بن عون حول احداث بسكرة والحاج أحمد باي .

أ . ح . ت . صندوق 212 ملف 239 . وثيقة رقم 19

حفظكم الله حفظ الاحباب وأنالكم من فضله جميع الآراب وسقى أرض قلوبكم من مياه عين الرحمة الازلية شراب تنشق منه أرواحكم الزكية ، حضرة الاجل الاجمل الكامل الافضل ذى الشيم الزكية والاخلاق المرضية غاية ودنا وأحضى أمالنا السيد محمد الحسناوى شيخ الحنانشة لا زالت مفاخره تزيد وأسبابه بالله لا تنقطع ولا تبيد السلام الكريم الطيب العميم كلما أهدى الروض شذاه مع رسول النسيم ورحمة الله تعالى وبركاته عليكم هاذا وأنا نسئل عن كلية أحوالكم فان كنتم بخير فقربه . وبعد اعلامكم خيرا ان شاء الله وأن عدو الله بوعزيز (28) انحدر من التل واجتمع معه أتباعه وهم السلمى ودحمان وأولاد بزيد وأولاد زيد وأولاد ملات وكذلك السحارى وأهل بن على وعمر والشرفة وأولاد بوحديجة والاخضر وكذالك رعية بن جلاب أهل تقرت وأولاد جلال ، كل هؤلاء أحتوت على عدو الله وباقين متوجهون (كذا) معه حيث توجه ولم يفارقوه لانهم كلهم مايلين (كذا) لاهل حزب الكافر ويخشون أن من أفترق منهم نأخذوه فبقوا على حالهم كما ذكرنا فكان مدة أربعة أشهر والقتال بيننا بل الغارات والغزوات فغزونا عليهم نحو المرتين أو الثلاث فمكننا الله من فرقة من السحارى فأخذناهم وسبيناهم ووقع بيننا وبينهم معركتان عظيمتان فهزمهم الله ونصرنا عليهم وجلوناهم من وطن السحره بحيث لم تبقى (كذا) منهم بيت واحدة وقد ذهبوا الى الرومى شاكيين باكيين مستنصرين به لا متعهم الله ولا بلغ لهم أملا لان من أستنصر بغير الله لا أعانه الله وأما مولانا السيد الحاج عبد القادر نصره الله لا زال مقابلا لاعداء الله على سبعة مواضع ومشتغلا بقتالهم ليلا ونهارا وقد أرسل اليك كتابا من ذو زمان وهو عندنا لانه حيث وصلنا وجدنا فى أشد الاشتغال بقتال المتنصرة دمرهم الله ، وها هو يصلك فى حفظ الله وأمنه ونحن قد أخبرنا مولانا نصره الله بخصالك ونصحك فى الدين وحبك فيه فصرت عنده بالمنزلة الرفيعة كأنك من خواصه ودعيا الله لك بالنصر والتمكين ، وقد أخبرنا نصره الله بتوجه المحلة الى نواحينا ، وحيث

32) أ. ح. ت. صندوق 212 ملف 239 وثيقة رقم 37 .

33) يعني به ، بو عزيز بن قانة الذى عينه الفرنسيون فى منصب شيخ العرب بهذه المنطقة منذ أواخر الثلاثينات حوالى عام 1838 .



الشكل رقم 6 ـ رسالة محمد الصغير بن عبد الرحمن الى محمد الحسناوى حول رسالة موجهة اليه من الامير عبد القادر ·

أ· ح· ت· صندوق 212 ملف 239 · وثيقة رقم 37

تبلغنا ان شاء الله نخبرك أنت لتكون على هيبة (كذا) ونحن هانا راغبين في قدوم السلطان بنفسه كي نجتمعوا جميعا وتكون الملاقات بينك وبينه لانه وعدنا بذلك بعد تفرغه من الشواغل نصره الله أمين والسلام من فقير ربه محمد الصغير أيده الله أمين . وثم السلام التام والتحية والاكرام على أولاد دايرتك وجميع من حوته حضرتكم الزكية ممن ذكر أعلاه وفقه الله لما يحبه ويرضاه أمين . في 8 ربيع النبوى سنة 1359 هـ.(34)

ج ـ الشيخ محمد الحسناوى بن بلقاسم الحنانشى :

كان الشيخ محمد الحسناوى فى صدر الاحتلال الفرنسى ، يعمل مع السلطات الفرنسية كواسطة بينها وبين السكان فى منطقة جبال الاوراس ، والنمامشة ، التى تمتد الى جبال تبسة ، والظهر التونسى . غير أنه سرعان ما انفصل عن هذه السلطات ، وانضم الى صفوف الثوار والمعارضين للاحتلال الفرنسي كما سيتضح ذلك فى رسالة الحاكم العسكرى الفرنسى لعمالة قسنطينة ، الى كاهية الكاف بتونس .

وقد أورد الحاج أحمد باى فى مذكراته بعض الاخبار عن عائلة الحسناوى تشعر بعمل هذا الرجل ، أو بعض أقاربه معه . وحكى ذلك فى معرض حديثه عن المتاعب والمؤامرات التى كان يحيكها ضده صهره بوعزيز بن قانة ، وقال : « أما بوعزيز ... لقد كان يريد الاجهاز على ليأخذ ما كنت أملك ... ثم انى كنت رفضت فى ذلك الوقت أن أنزل عند طلبانه والسبب فى ذلك هو ما يلى : كان عم الحسناوى فى القديم هو شيخ قبيلة الحنانشة التى كنت مقيما عندها ، ولانه حاك مؤامرات ضدى حكم عليه بالاعدام واستبدل برزقي الذى أبدى لى كثيرا من الاخلاص . ولارضاء أسرة الحسناوى عينت هذا الاخير كاتبا للشيخ ولكن حقده اضطره الى التنازل عن منصبه فلجأ الى تونس أولا ثم ذهب الى يوسف فى عنابة دون أن يقطع اطلاقا الرباط بينى وبينه ، وذات يوم طلب من بوعزيز أن يعينه شيخا على الحنانشة فى مكان رزقى . ولهذا الغرض قدم لى مبلغا كبيرا من المال وعلى الفور أستجاب بوعزيز الى الطلب وجاء يرجونى

34) الموافق حوالى أبريل أو ماى 1843 لان صاحب الرسالة لم يحدد هل هو ربيع الاول أو الثانى ، ولكن كلمة النبوى ترجح الاول .

أن أقوم بهذا التبديل . ولكننى قلت له كيف أثق فى عدوى ، وكيف تريدنى أن أخلع رزقى وكان دائما مخلصا لى ، ان ما تشير به على ليس من العدل فى شىء ، وقاومت طويلا غير أنى كنت فى ذلك الوقت تقريبا تحت رحمة بوعزيز فاضطررت الى القبول ، فعين الحسناوى وابتعد رزقى عنى ، لكنه عند ما علم بسبب عزله قصد بن قانة بدوره ووعده بالمال ان هو أرجعه الى منصبه ، وخوفا من أن أشك فى تصرفاته قال له ، اذهب الى الباى أحمد واقترح عليه ان يتخلص من الحسناوى ويأمر بقتله ثم يعين صهرك محمد بن على شيخا على الحنانشة وسأكون كاتبا له ومستشارا . لم يتردد بوعزيز أمام هذا الاقتراح وجاء يطلب منى تحقيق المشروع . اننى استنكرت عليه ذلك بشدة وقلت له كيف تشفع فى عدوى وتعمل على تنصيبه ثم تأتينى اليوم تطلب قتله وأنت تعلم أنه نزل ضيفا علينا واستقبلته فى خيمتى . واذا كنت قد عاقبت من خاننى فاننى لم أخن أحدا ، واغتاظ بوعزيز لهذه الاجابة وأشار على القوم بأن يغزوا زاوية عبد الكريم ليعزلنى عن سلطان تونس . ولما انتبه غادرنى ورجع الى الصحراء أما أنا فقصدت الحراكته ، ومنذ ذلك الوقت استسلم بوعزيز للفرنسيين . (35)

وقد عثرنا فى أرشيف تونس على ثلاثة رسائل :

الاولى : للحاكم العسكرى الفرنسى بقسنطينة ، وجهها الى كاهية الكاف بتونس الصالح بن محمد ، ذكره فيها بأمر الرسالة التى وجهها اليه سابقا بتاريخ 7 جوان 1843 ، ثم قال له : « ان الشيخ محمد الحسناوى بعد ما خدم الدولة الفرنصاوية كجملة المشايخ وكبار الوطن فانه بن عدم وقلت (كذا) الرأى نافق وخرج عن الطاعة ولزمنا بالخروج اليه لنعاقبه » . وبما أن الحسناوى بعد لجوئه الى تونس طلب على ما يظهر العفو والامان والاذن بالعودة الى الجزائر ، فان الحاكم الفرنسى كلف الكاهية أن يبلغه شروطه التى تتلخص فى تقديم نفسه عاجلا الى المحلة العسكرية الفرنسية ، وتقديم الرهائن الذين يضمنون ولاءه مستقبلا للسلطات الفرنسية ، والا « فما له الا أن يبقى بوطن تونس » ، وحذر الحاكم الفرنسى ، الكاهية فيما اذا عاد الحسناوى

35) مذكرات أحمد باى ، ص 84 ـ 86 و 119 .

خفية الى الجزائر ، وجدد النشاط الثورى ، بقيام القوات الفرنسية بغزو بلاد تونس :
« فحينئذ راك (كذا) تلزمنا نتبعوه حتى لوطن السعادة المذكور • واذا بعد ذلك الفتنة طلبت الدولة الفرنصاوية الفتن مع سعادة السيد أحمد باى عمالة التونسية فراك (كذا) تعلم عواقب ذلك لسيدك ولك » • واستدرك فى الاخير قائلا : « ثم رانا (كذا) أخبرنا بذلك سعادته بواسطة حضرة قونصول (كذا) دولتنا ببلد تونس »•(36)

الثانية : للشيخ محمد الحسناوى نفسه أرسلها الى أحمد باشا باى تونس أخبره فيها بلجوئه الى تونس « وطن الاسلام » بعد « دخول الفرنصيص الى بلادنا » وبأى « باقية النجوع كافة فى أوراس الى حدنا » • وأوضح له قائلا : « ونحن ولو صبنا (كذا) ربع آلة حرب والله لا صاب بلادنا ••• فان كان اعتمادنا على الله ثم على السيادة لازلنا نضربوا ونحاربوا ولا نرجعوا (كذا) على طرد الرومى حتى نردوا على دبايب السيوف » • وفى الاخير وسطه راجيا بقوله : « اجعل لنا باب مع الفرانصيص على نظرك » • (37)

الثالثة : للحسناوى كذلك وجهها الى كاهية الكاف صالح بن محمد ، حدثه فيها على معارك الحاج أحمد باى ، والامير عبد القادر ، ضد الاعداء • وبدا فيها شغوفا بالاطلاع على أخبارهما لدرجة أنه كلف رسلا باستقصائها وقال : « فان التراسة (كذا) الذين بعثناهم الى الغرب قدموا وحكوا لنا كسرة الرومى دمره الله ونحن فى ذلك الحال واذا به قدم حاج حسين صاحب الحاج باى الذى كان سابقا يسير فيه الى بر الترك فحكى لنا سورة (كذا) الواقع كما انزل • حكى لنا عن المحلت (كذا) الذى أخذها الحاج أحمد باى وأولاد سلطان وأخذ لهم المدافع وغيرهم » • وأخذ بعد ذلك يشرح له كيف انهزمت القوات الفرنسية ثلاث مرات أمام الحاج أحمد وأولاد سلطان ،

36) أ• ح• ت• صندوق 212 ملف 239 وثيقة رقم 20 بتاريخ 14 يونيو 1259 (1843) وقد اخطأ الكاتب فوضع السنة الهجرية بدلا من المسيحية التى وضعناها نحن بين قوسين استنادا الى الاحداث التى حصلت خلال هذه الفترة •

37) نفس المصدر ، وثيقة رقم 8 بدون تاريخ ولكن الاحداث التى وردت فيها حصلت خلال عامى 1843 و 1844 • وهو التاريخ الذى ذكره الحاكم الفرنسى فى رسالته الى كاهية الكاف •

وعدد له ما غنمه الثوار منها ، وفى الاخير استدرك خبرا عن الامير عبد القادر يفيد بأنه عاد الى الجزائر واسترجع مليانة من الفرنسيين · (38)

وقد أشار الحاج أحمد باى فى مذكراته الى أحداث أولاد سلطان (39) ، كما اشار لها بلقاسم بن عبد الكريم القسنطينى فى رسالة خاصة وطويلة وجهها الى كاهية الكاف بتونس · (40)

وفيما يلى نصوص وأصول هذه الرسائل تنشر لاول مرة :

الوثيقة السابعة :

رسالة الحاكم العسكرى الفرنسى بقسنطينة الى كاهية الكاف حول الشيخ محمد الحسناوى

الحمد لله العظيم المتعال (41) جل جلاله فى كافة الاجيال وجعل أفضل العقل فى رؤوس الرجال ·

حفظ الله تعالى بمنه وكرمه المكرم الامثل الزكى الاشمل المرعى المبجل السيد الصالح محمد كهية الكاف أكرمه الله أمين السلام عليكم والرحمة والبركة · وبعد السؤال عنكم يليه اعلامكم أنى رسلت لكم جواب فى تاريخ 7 من شهرنا هذا صحبة خدام الشيخ محمد الحسناوى وكان طيه كتاب اليه واليوم ربما ذلك الجواب لم يبلغ ليديكم فيجب علينا ثانيا نخبركم بما كتبنا ذلك فى ذهنكم وما تقولون أنا لم أعلمناكم بمرادنا فعند ذلك نصير بارى من كل شىء أمام دولتنا العظيمة ونجعل الامر فى رقبتكم أعنى عواقب ما يتوقع والحال أنا أخبرناكم ان الشيخ محمد الحسناوى بعد ما خدم

---

38) نفس المصدر ، وثيقة رقم 24 بدون تاريخ ، ولكن حوادثها حصلت فى ربيع عام 1844 (مارس وأبريل) ·

39) مذكرات أحمد باى ، ص 92 — 94 ·

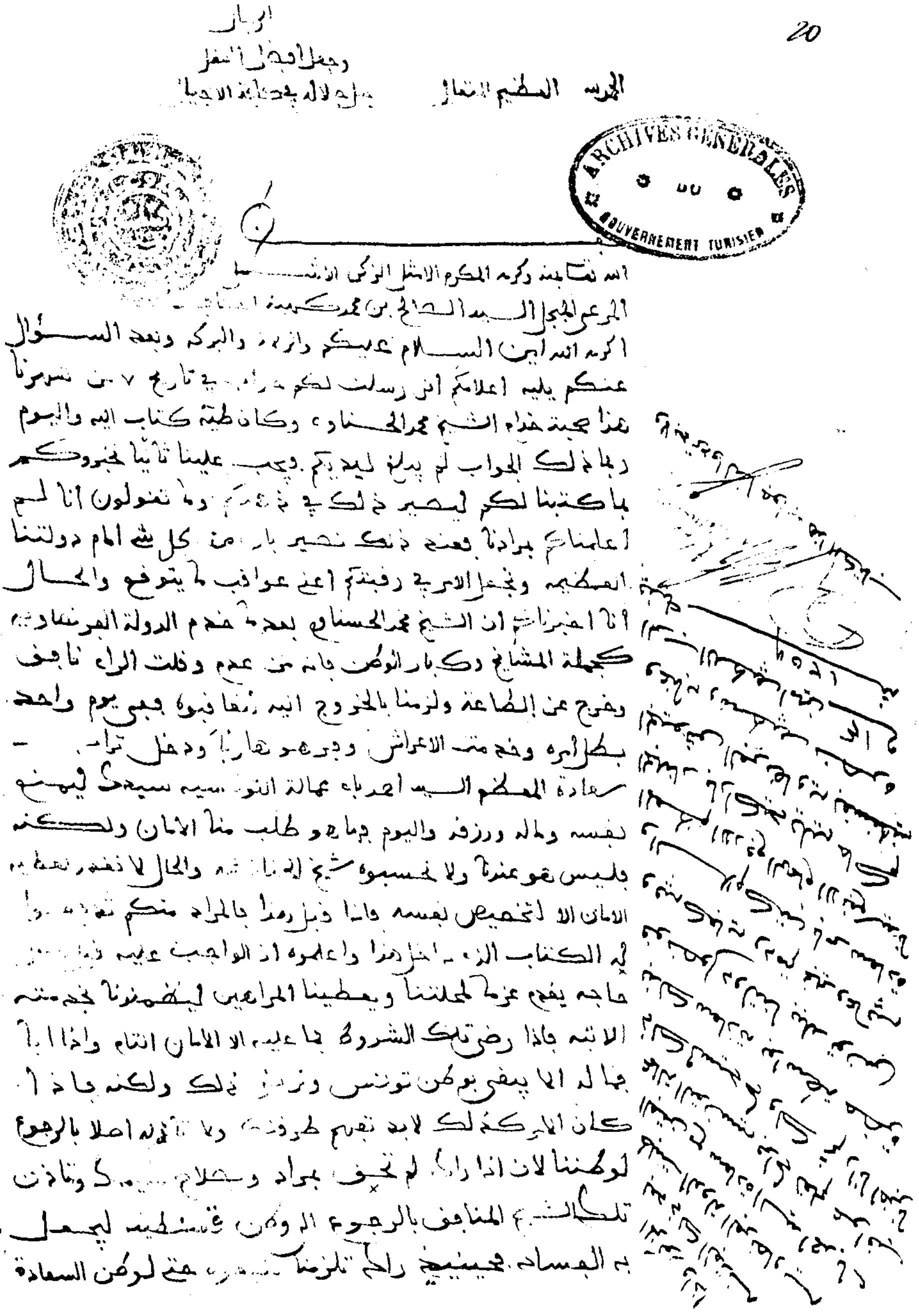
40) أ· ح· ت· صندوق 78 ملف 929 وثيقة رقم 45 بدون تاريخ ، ولكن حوادثها حصلت فى ربيع عام 1844 (مارس وأبريل) ·

41) أ· ح· ت· صندوق 212 ملف 239 وثيقة رقم 20 ·

الدولة الفرنصاوية كجملة المشايخ وكبار الوطن فانه من عدم وقلت (كذا) الرأى نافق وخرج عن الطاعة ولزمنا بالخروج اليه لنعاقبوه ففى يوم واحد بطل أمره وخدمت الاعراش وفر هو هاربا ودخل تراب سعادة المعظم السيد أحمد باى عمالة التونسية سيدك ليمنع نفسه وماله ورزقه واليوم فها هو يطلب منا الامان ولكنه فليس هو عندنا ولا نحسبوه شيخ الحنانشة والحال لا نقدر نعطيه الامان الا لتخصيص نفسه فاذا قبل هذا فالمراد منكم تدفعوا له الكتاب الذى داخل هذا وأعلموه أن الواجب عليه قبل كل حاجة يقدم عزما لمحلتنا ويعطينا المراهين ليظمنونا بخدمته الاتية فاذا رضى تلك الشروط فما عليه الا الامان التام واذا أبا فما له الا أن يبقى بوطن تونس ونرضى ذلك ولكنه فاذا كان الامر كذلك لابد تفهم طرقتك ولا تأذنه أصلا بالرجوع لوطننا لان اذا راك لم تحق بمراد وبصلاح سيدك وتأذن تلك الشيخ المنافق بالرجوع الى وطن قسنطينة ليجعل به الفساد فحينيد راك تلزمنا نتبعوه حتى لوطن السعادة المذكور واذا بعد ذلك الفتنة طلبت الدولة الفرنصاوية الفتن مع سعادة السيد أحمد باى عمالة التونسية فراك تعلم عواقب ذلك لسيدك ولك ثم رانا أخبرنا بذلك سعادته بواسطة حضرة قونصول دولتنا ببلد تونس وفيه كفاية ودمتم بخير وعافلة والسلام كتب بأمر سعادة المعظم الارفع الهمام الانفع سيدنا الجلنار باراكيد يليه حاكم الجيوش الفرنصاوية بقسنطينة وعنابة وسطيف نصره الرب اللطيف أمين فى 14 ينيه سنة 1259 ٠ (42)

ولابد تردوا لنا جواب هذا الكتاب ٠

42) 14 يونيو 1843 م يوافق 17 جمادى الاولى عام 1259 هـ ٠ وقد اخطأ صاحب الرسالة على ما يظهر عندما أردف تاريخ الشهر المسيحى بالسنة الهجرية ٠



الله تعالى بمنه وكرمه المكرم الامثل الزكي الانبل
المرعي الجليل السيد الصالح بن محمد [illegible]
اكرمه الله امين السلام عليكم ورحمة الله والبركة وبعد السؤال
عنكم يليه اعلامكم انى ارسلت لكم [illegible] بتاريخ ٧ من [illegible]
هذا بجبة خدام الشيخ محمد الحسناوي وكان طيه كتاب الله واليوم
[illegible] ذلك الجواب لم يصلنا [illegible] علينا ثانيا نخبروكم
بما كتبنا لكم ليصير ذلك في علمكم [illegible] تقولون انا لم
اعلمناكم بمرادنا [illegible] ذلك [illegible] كل شيء امام دولتنا
المعظمة [illegible] اعني عواقب ما يتوقع والحال
انا اخبرناكم ان الشيخ محمد الحسناوي بعد خدم الدولة الفرنساوية
كجملة المشايخ وكبار الوطن جاء من عدم وقلة الراي ناقض
وخرج من الطاعة ولزمنا الخروج اليه [illegible] في يوم واحد
بطل امره وخرج من الاعراش [illegible] هاربا ودخل تراب
سعادة المعظم السيد [illegible] عمالة [illegible] ليمنع
نفسه وماله ورزقه واليوم جاء وطلب منا الامان ولكنه
فليس هو عندنا ولا نحسبوه شيء [illegible] والحال لا [illegible]
الامان الا لتخصيص نفسه وانا [illegible] منكم [illegible]
في الكتاب الذي [illegible] واعلموه ان الواجب عليه [illegible]
[illegible] يفهم [illegible] ويعطينا المراعين ليضمنونا [illegible]
الاتية فاذا رضي تلك الشروط فما عليه الا الامان التام واذا [illegible]
فما له الا ينفى من وطن تونس [illegible] ذلك ولكنه [illegible]
كان الامر كذلك لابد [illegible] ولا [illegible] اصلا بالرجوع
لوطننا لان اذا [illegible] لم نخف [illegible] وكلام [illegible]
تلك [illegible] المنافق بالرجوع الى وطن قسنطينة ليحصل
به الفساد [illegible] راجع [illegible] حتى لوطن السعادة

الشكل رقم 7 ــ رسالة الحاكم العسكري الفرنسي بقسنطينة الى كاهية الكاف حول الشيخ الحسناوي ·

أ· ح· ت· صندوق 212 ملف 239 · وثيقة رقم 20

الوثيقة الثامنة :

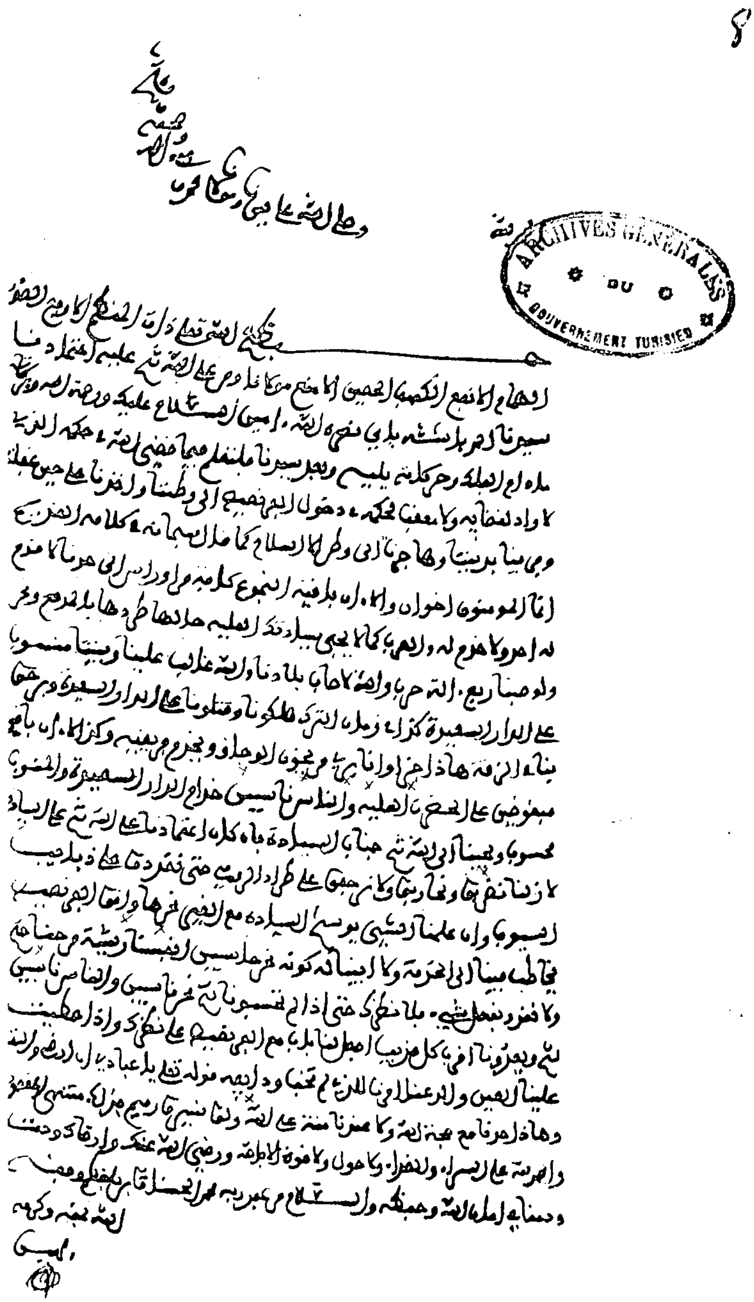
رسالة محمد الحسناوى بن بلقاسم الى أحمد باشا باى تونس

حول لجوئه الى تونس هو ورفاقه

الحمد لله (43) وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم •

حفظكم الله تعالى ذات المعظم الارفع الطود الهمام الانفع الكهف الحصين الامنع مولانا ومن على الله ثم عليه أعتمادنا سيدنا أحمد باشه باى نصره الله أمين السلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته ما دام الفلك وحركاته يليه وبعد سيدنا فلتعلم فيما قضى الله فى حكمه الذى لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه فى دخول الفرنصيص الى وطننا وأخذنا على حين غفلة وفرينا (كذا) بدينا وهاجرنا الى وطن الاسلام كما قال تعالى فى كلامه العزيز : « **انما المؤمنون أخوان** » (كذا) • والآن باقية النجوع كافة فى أوراس الى حدنا لا قدم له أجلا ولا خدم له والعرب كما لا يخفى سيادتك العلية حالها طردها بالمدفع ونحن ولو صبنا ربع آلة حرب والله لا صاب بلادنا والله غالب علينا وبيتنا منسوب على الدار السعيدة (كذا) فى زمان الترك هلكونا وقتلونا على الدار السعيدة وبرحوا بنا فى الزقه هاذا خير وانا برىء من يخون الوجاق ويخدم فريقية وكذا الآن باقون مبغوضين على الحضرة العلية والناس ناسبين خدام الدار السعيدة والمنسوب محسوب ويحبنا الى الله ثم جناب السيادة فان كان اعتمادنا على الله ثم على السيادة لازلنا نضربوا ونحاربوا ولا نرجعوا على طرد الرومى حتى تردوا على دبايب السيوف وان علمنا الشىء يوسخ السيادة مع الغير نحن ما واقفوا الفرانصيص يخاطب فينا الى الخدمة ولا أبينا له كونه نحن حابسين أنفسنا ريشة من مناحكم ولا نقدر نفعل شىء بلا نظرك حتى ان لم تحسبونا لكم نحن ناسبين والناس ناسبين لكم ويعدونا أقرب كل قريب أجعل لنا باب مع الفرنصيص على نظرك واذا حطيت علينا العين ودعنا أمرنا للذى لم تخفا ودائعه قوله تعالى : « **يا عبادى ان أرضى واسعة** » وهاذا حدنا مع محبـة الله

43) أ• ح• ت• صندوق 212 ملف 239 وثيقة رقم 8 بدون تاريخ • وفيها كثير من الالف ظ والكلمات العامية ولكنها مفهومة •



الشكل رقم 8 ـ رسالة محمد الحسناوى الى أحمد باشا باى تونس حول لجوئه الى هناك
أ· ح· ت· صندوق 212 ملف 239 · وثيقة رقم 8

ولا عندنا منة على الله ولكى نبين ما رميتم فذلك منتهى المقصود والحمد لله على السراء والضراء ولا حول ولا قوة الا بالله ورضى الله عنك وأرضاك ودمت ودمنا فى .ـان الله وحفظه والسلام من عبد ربه محمد الحسناوى بن بلقاسم وفقه الله بمنه وكرمه آمين.

الوثيقـة التاسعـة :

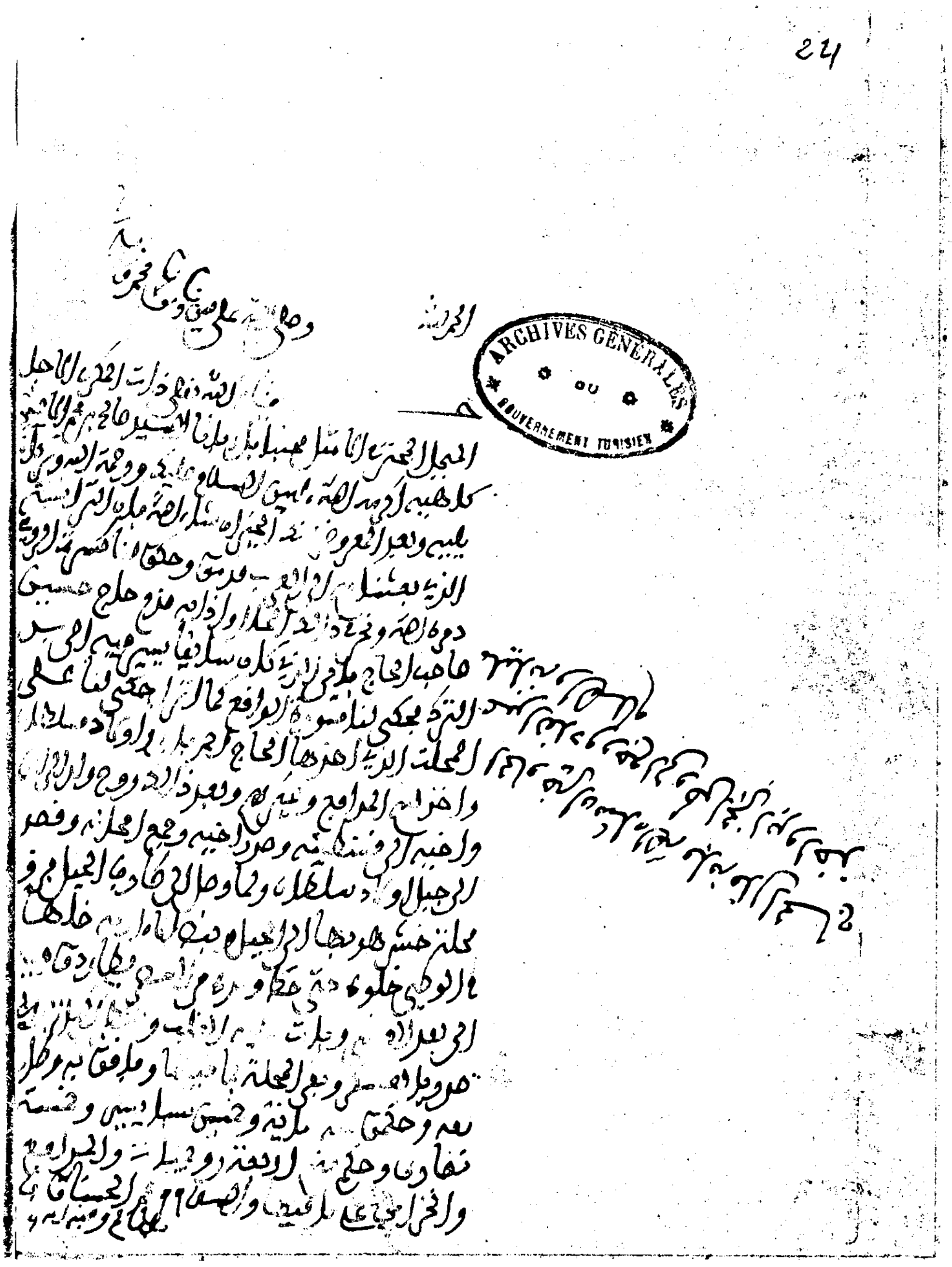
رسالة محمد الحسناوى بن بلقاسم الى صالح بن محمد الامين كاهية تونس حول أحداث الحاج أحمد باى والامير عبد القادر

الحمد لله (39) وصى الله على سيدنا ومولانا محمد وسلم.

حفظ الله تعالى ذات المكرم الاجل المبجل المحترم الامثل محبنا بل أبانا (كذا) السيد صالح بن محمد الامين كاهية أكرمه الله أمين السلام عليك ورحمة الله وبركاته يليه وبعد المعروض عنك الخير ان شاء الله فان التراسه (كذا) الذى بعثناهم الى الغرب قدموا وحكوا لنا كسرة الرومى دمره الله ونحن فى ذالك الحال واذا به قدم حاج حسين صاحب الحاج باى الذى كان سابقا يسير فيه الى بر الترك فحكى لنا سورة الواقع كما أنزل حكى لنا على المحلت (كذا) الذى اخذها الحاج أحمد باى وأولاد سلطان وأخذ لهم المدافع وغيرهم وبعد ذلك روح (كذا) وأخيه الى قسنطينة وحذر أخيه (كذا) وجمع امحاله وقصد الى جبل أولاد سلطان ولما وصل الى طارت (كذا) الجبل فرق محلة حشرد هو بها الى الجبل وبعض (420000) خلها (كذا) فى الوطى (كذا) خلوه حتى حط وبره من العصر يطاردوا فيه الى بعد العشى (كذا) وبات عليه القلب وشطر الليل الربى حدر (كذا) بالعسكر وبقى المحلة بما فيها وفاقوا (كذا) به وطاردوا معه وحكموا منه مائة وخمسين سبايسى وخمسة نصارى وحكم منهم أربعة روميات والمدافع والجرابى على ما فيها والسلام من محمد الحسناوى بن بلقاسم وفقه الله.

---

44) نفس المصدر . وثيقة رقم 24 بدون تاريخ ولكن الحوادث التى تحدثت عنهـا الرسالة حصلت خلال شهر مارس أو أبريل 1844 م وهى مكتوبة كما بلاحظ بلهجة عامية.
45) كلمة غير مقروءة.


24

ARCHIVES GENERALES
GOUVERNEMENT TUNISIEN

الشكل رقم 9 ــ رسالة محمد الحسناوى الى صالح بن محمد الامير كاهية الكاف حول احداث الحاج أحمد باى والامير عبد القادر ٠
أ٠ ح٠ ت٠ صندوق 212 ملف 239 ٠ وثيقة رقم 24

الحاق خير ان شاء الله فانه قال الحاج عبد القادر رجع الى وطن الجزائر وأخذ مليانة والســـلام ٠

د ـ الامير عبد القادر :

ومن الطبيعى أن يكون نشاط هؤلاء الخلفاء والاعيان ، مستمدا من نشاط الامير عبد القادر ، وحيويته ، وحنكته السياسية والعسكرية ٠ ومن رغبته فى توسيع أفق ثورته ٠ فالى جانب نشاطه العسكرى ، كانت له اتصالات ديبلوماسية ، وسياسية مع الخارج ، ومراسلات مكثفة مع خلفائه وأعوانه فى الداخل ، ومع الحكام والرؤساء فى الخارج ، مثل بايات تونس ، وسلاطين المغرب الاقصى ، وحكومة بريطانيا ٠ (46)

وفى هذه الدراسة نورد له ثلاثة رسائل عثرنا عليها فى أرشيف تونس كذلك :

الاولى : وجهها الى محمد الحسناوى شيخ الحنانشة ، وهى التى أشار اليها محمد الصغير بن عبد الرحمن كمامر ٠ وقد حثه فيها الامير على الجهاد ، والثبات فى الكفاح ، وعدد له كثيرا من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية التى تحث على الجهاد ، وأخبــره بأنه يتتبع أخباره عن كثب ، ومتشوق للالتقاء به عندما تسمح الظروف بذلك (47) ٠

الثانية : وجهها الى على بن سالم ، وأخبره فيها بأنه على صلة واطلاع باخباره عن طريق خليفته محمد الصغير بن عبد الحمن ، وألح عليه بعد ذلك قائلا : « ثم انه لابد منك أن تبذل جهدك فى استقصاء أخبار الشرق من طرابلس اليكم ، وتعرفنا بها على ما هى وبين لنا صحيحها من غيره مفصلة بحيث لانحتاج الى سؤال غيرك ولا تقصر بارك الله فيك واحسن عافيتك (48) ٠

الثالثة : وجهها الى محمد بن حسن باى تونس يهنئه فيها ، ويرجو منه ربــط الصلات معه ، وأخبره بقوله : « فائنا بعثنا اليكم من يقوم مقامنا فى التهنئة لكم وعقد

46) للمزيد من التفاصيل على نشاط الامــير الديبلوماسى ، راجع كتابنا السابق ، ص 90 ــ 98 ، وكتاب تحفة الزائر ، ج 2 ، ص 189 ــ 212 ٠

47) أ٠ ح٠ ت٠ ، نفس المصدر ، وثيقـــة رقم 41 بتاريخ 6 ربيع الثانى 1263 (23 مارس 1847) ٠

48) **نفس المصدر ، وثيقة رقم 40 بتاريخ 6 ربيع الثانى 1263** (23 مارس 1847) ٠

المحبة بيننا وبينكم وحسن الجوار معكم » · وأضاف بعد ذلك قوله : فاستوصوا بالحاملين خيرا ، وقفوا معهم موقف الكرام عند المعظم السيد أحمد باشا فانهم لا يعرفون أحوال تلك الناحية » (49) ·

وفيما يلي نصوص هذه الرسائل وأصولها تنشر لاول مرة :

الـوثيقة العـاشرة :

رسـالة الامـير عبد القادر الى محمد الحسنـاوى

يحثـه على الثبـات فى الجهـاد

الحمد لله وحده (50) وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم · سلام يعم الاغوار والنجود ورحمة الله وبركاته ما تعاقب الحلوان بالعدم والوجود على الموصوف بالشجاعة والجود أخانا الواثق بالحق الوكيل القوى السيد محمد الحسناوى أسعد الله حالنا وحاله وبلغ فى الدارين آمالنا وآماله وبعد أيه الفارس المجاهد الصابر المكابد أسمع أسمعك الله خيرا ووقاك بلطفه خيرا ان الجهاد شعار الانبياء وحرفـة المؤمنين الاتقاء فأحمد الله الذى أرشدك اليه وسله أن يثيبك ويعينك عليه الم تعلم أن الله يقول لصفوته وخيرته · فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به بعد أن قال ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة · فانظر يا أخى أسعدك الله ، الى هذه المنى وقال يقاتلون فى سبيل اللـه فحقق هذا المعنى واستعن باللـه ، وقـال ، «فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا» فكن ممن لا يخافون فى ذلك طعنا ولا شقا، وقال فى التورية والانجيل والقرآن وناهيك بهذا الوعد شرفا لعلو هذا الشأن ، ولقد مدح الله الجهاد والمجاهدين فى أى ما آية ، وذكر ما لاهله من الفضل والعناية وقال تعالى :

---

49) نفس المصدر ، وثيقة رقم 42 ، بتاريخ I جمادى الثانية 1266 · وهذا التاريخ محل نظر لانه يوافق 14 أبريل 1850 ، والامير فى هذه الفترة يوجد فى المنفى بفرنسا ·

50) أ· ح· ت· صندوق 78 ، ملف 929 وثيقة رقم 41 · وهى الرسالة التى أشـار اليها محمد الصغير بن عبد الرحمن الذى كان الواسطة فى ابلاغها اليه · انظر نص الوثيقة السادسة رقم 37 ·



الشكل رقم 10 ــ رسالة الامير عبد القادر الى محمد الحسناوى يحثه على الثبات فى الجهاد
أ٠ ح٠ ت٠ صندوق 78 ملف 929 ٠ وثيقة رقم 41

وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما ، فحازوا بذلك دون القاعدين شرفا وتعظيما • فدوموا على ما أنتم واسئلوا من الله العون ، وقال : **ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون** • حاصله أيه المحب ان الله لا يرشد ولا يقيض للجهاد الا مـن أراد به خير الدنيا والدين • وقال : **فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين** ، وما ثبط الا من أراد به خزيا ونكالا • وقال . **لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا** • فافهم ودم على ما أنت ولا تسمع كلام الكشف الميل المعازيل وتدبر قوله تعالى : **الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل** • وأعلم أننا لا زلنا عن أحوالكم سائلين وللقائكم شائقين ولكم بالخـير داعين ولاخباركم مراعين فنسئل الله آن يجمعنا بكم فى أحب الاوقات اليه وأبركها لديه على أحسن حال • وقال تعالى : **ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهـم يجادلون فى الله وهو شديد المحال** • وكتب بأمر ناصر الدين وامام المجاهدين مولانا وسيدنا الحا ج عبد القادر بن محيى الدين أيده الله آمين ، 6 ربيع الثانى عام 1263 (51).

الـوثيقة الحـادية عشـرة :

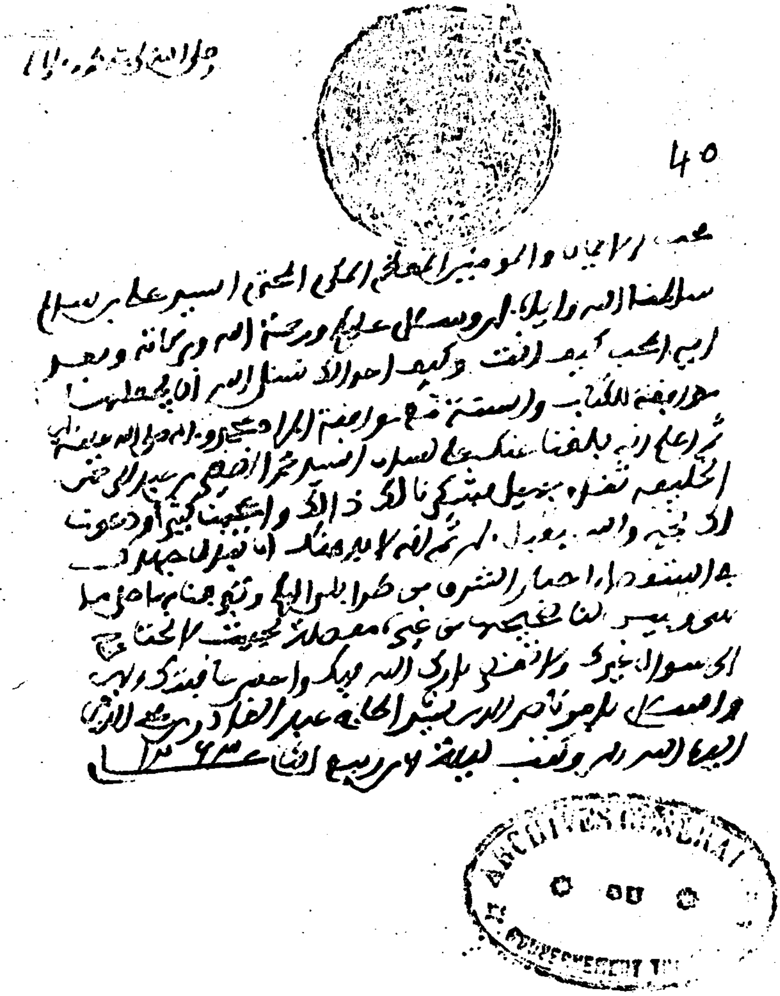
رسالة الامـير عبد القـادر الى على بن سـالم

يطلب منه فيها أن يهتـم بأمر الحـدود الشرقية

الحمد لله (52) وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم •

محب الايمان والمؤمنين المعظم المكرم المحترم السيد على بن سالم سالمنا الله واياه آمين وسلام عليكم ورحمته وبركاته وبعد ايه المحب كيف أنت وكيف أحوالك نسئل الله أن يجعلها موافقة للكتاب والسنة مع موافقة المراد لمحمد وآله صلى الله عليه وسلم ثم أعلم أنه بلغنا عنك على لسان السيد محمد الصغير بن عبد الرحمن الخليفة ثناء جميل فشكرنا لك ذلك وأعجبنا كثيرا ودعونا لك بخير والله يتقبل آمين ، ثم أنه لابد منك

(51) الموافق حوالى 23 مارس 1847 •
(52) أ• ح• ت• صندوق 78 ملف 929 وثيقة 40 •



الشكل رقم 11 ـ رسالة الامير عبد القادر الى على بن سالم يحثه على الاهتمام بالحـدود الشرقيــة .

أ. ح. ت. صندوق 78 ملف 929 . وثيقة رقم 40

أن تبذل جهدك فى استقصاء أخبار الشرق من طرابلس اليكم وتعرفنا بها على ما هى وبين لنا صحيحها من غيره مفصلة بحيث لا نحتاج الى سؤال غيرك ولا تقصر بارك الله فيك وأحسن عاقبتك آمين والسلام بأمر ناصر الدين سيدنا الحاج عبد القادر بن محيى الدين أيده الله آمين وكتب ليلة 6 من ربيع الثانى عام 1263 هـ (53) ٠

الــوثيقة الثــانية عشــرة :

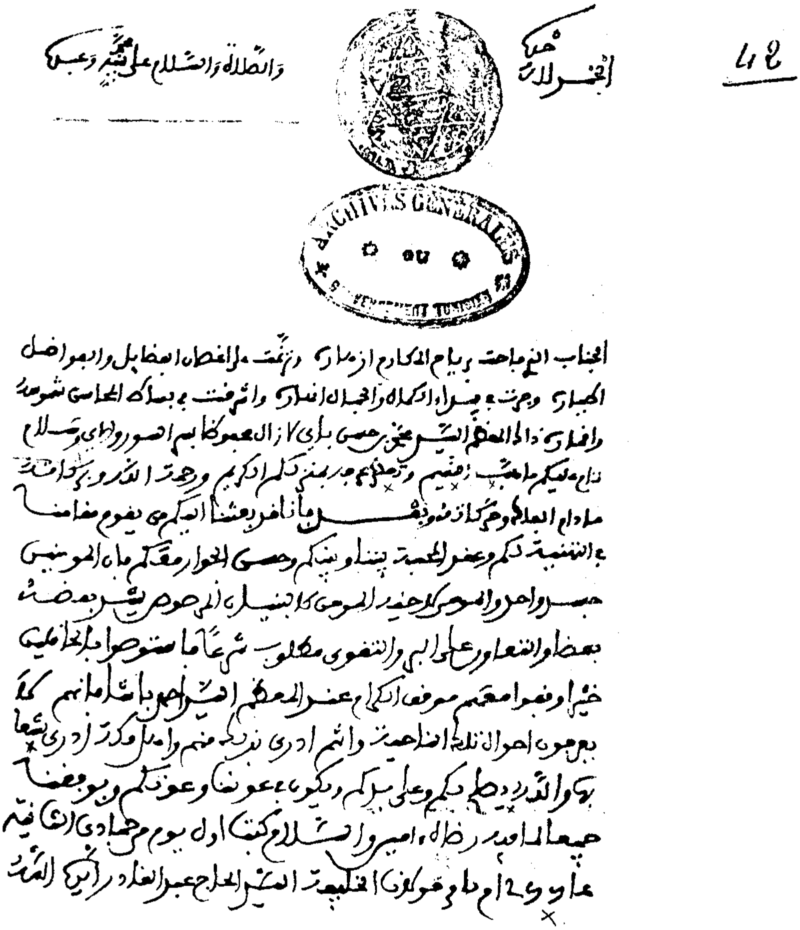
رسالة الامير عبد القادر الى محمد بن حسن باى تونس

حول توجيه رســول اليه للتهنئــة وربط الصلات

الحمد لله وحده (54) والصلاة والسلام على محمد نبيه وعبده ٠

الجناب الذى فاحت برياح المكارم أزهاره وترنمت على أغصان الفضائل والفواضل أطياره وجرت فى بيداء الكمال والجمال أنهاره وأشرقت فى بساط المحاسن شموسه وأقماره ، ذاك المعظم السيد محمد بن حسن باى لا زال محفوظا بسر السور والآى وسلام تام عليكم ما هب النسيم وتعطر عرفه بمنزلكم الكريم ورحمة الله وبركاته ما دام الفلك وحركاته ٠ وبعد فانا قد بعثنا اليكم من يقوم مقامنا فى التهنية لكم وعقــد المحبة بيننا وبينكم وحسن الجوار معكم فان المؤمنين جسد واحد والمؤمن لاخيه كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا والتعاون على البـــر والتقوى مطلوب شرعا فاستوصوا بالحاملين خيرا وقضوا معهم موقف الكرام عند المعظم السيد أحمد باشا فانهم لا يعرفون أحوال تلك الناحية وأنتم أدرى بذلك منهم وأهل مكة أدرى بشعابها والله يصلح بكم وعلى يدكم ويكون فى عوننا وعونكم ويوفقنا جميعا لما فيه رضاه آمين والسلام ٠ كتب أول يوم من جمادى الثانية عام 1266 (55) بأمر مولانا الخليفة الحاج عبد القادر أيده اللـــــه ٠

(53) الموافق حوالى 23 مارس 1847 ٠
(54) أ٠ ح٠ ت٠ صندوق 78 ملف 929 وثيقة 42 ٠
(55) الموافق حوالى 14 أبريل 1850 وهو خطأ كما مر من الناسخ على ما يبدو ٠



الحمد لله

والصلاة والسلام على نبيه وعبده

الشكل رقم 12 ـ رسالة الامير عبد القادر إلى محمد بن حسن باى تونس حول رسول وهدية اليه ·

أ · ح · ت · صندوق 78 ملف 929 · وثيقة رقم 42

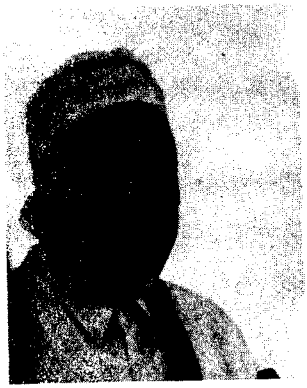
عالم جزائرى ساهم فى إحياء التراث والثقافة الاسلامية فى العالم الاسلامى

الطـاهـر الجـزائـرى

المهدى البوعبدلى

عضو المجلس الاسلامى الاعلى

الجزائـر



هو الطاهـر بن العالم المؤلف صـالح بن أحمـد ابن موسى بن أبى القاسم السمعونى الوغليسى. هاجـر والده صالح المذكور، قبيلته بنى وغليس - وادى بجاية - إثر الاحتلال الفرنسى لبلاد القبائل حوالى سنة 1263 هـ والقى عصـا التسيار بدمشق الى ان تـوفى بها سنة 1285 هـ .

وترك عدة تآليف فى مختلف الفنون، منها رسالة فى علم الميقات، وكتاب فى التاريخ، وقد ترجمه عبد الرزاق البيطار فى « حلية البشر فى تاريخ القرن الثالث عشر » ذكر تآليفه وخص منها تأليفه فى التاريخ فقال : « وله فيه أسلوب عجيب وطريق نـادر غريب ، وكان صالحا تقيا ، وفالحا نقيا ، رفيع المقام ، وافر الاحترام ، مقبلا على الله ، مدبرا عما سواه ، جميل المقال ، جليل الخلال ، لم يزل على حاله ، متخليا من الدهر عن أو حاله ، الى ان خطفته دواعى المنية الى دار الآخرة العلية » اهـ :

ترك صالح أولادا اشتهر منهم مترجمنا الطاهر المشهور بالجزائرى .

ولد الطاهر بدمشق حوالى سنة 1268 هـ ، وتعلم فى مدرسة والده ، ثم التحق بالمعاهد الشامية فنبغ فى مختلف الفنون العربية ، واتقن اللغتين،الفارسية،والتركية .

وقد ترجمه صديقه ، وأعرف الناس به ، أحمد تيمور فى كتاب:« اعلام الفكر الاسلامى فى العصر الحديث » فقال « ... وكانت هوايته للكتب سببا لتنقله فى مختلف البلاد ، لجمع نفائسها ، فأكسبته رحلاته معارف جمة جديدة ، وتوثقت صلاته بكثير من العلماء والادباء فى البلاد التى زارها ، وصار مرجعا يعتد به فى فن وصف المخطوطات ومعرفة مظانها » .

ثم قال تيمور « والى الشيخ طاهر الجزائرى يرجع الفضل فى السعى الحثيث فى انشاء كثير من المؤسسات النافعة فى دمشق ، وفى مقدمتها الجمعية الخيرية ، التى ضم اليها مشاهير العلماء والوجهاء السوريين ، وتم تأسيسها سنة 1894 . وأنشأت مدارس عديدة ، كما انشأت مطبعة قامت بطبع كثير من الكتب المدرسية » ثم واصل تيمور الترجمة بقوله : « ومن مساعيه الحميدة ، تأسيس المدرسة الظاهرية بدمشق ، وانشاء مكتبتها الكبيرة التى جمع فيها ما كان مبعثرا من الكتب والمخطوطات القيمة فى المساجد والمدارس وغيرها ، فحفظها بذلك من الضياع ، ويسر الانتفاع بها ، كما يرجع الفضل الى الشيخ طاهر الجزائرى فى انشاء المكتبة الخالدية بالقدس » .

والى جانب هذا كله عكف ـ رحمه الله ـ على جمع نفائس المخطوطات ، ونوادر المطبوعات ، وواصل جهوده فى التاليف والترجمة ، وقام برحلات عدة الى جزيرة العرب وغيرها من بلاد المشرق ، ثم اعقبها برحلات أخرى الى الاستانة ، ومصر ، والبلاد الاوروبية ، وفى سنة 1316 هـ ـ 1898 م . عين مفتشا لمكاتب الشام ، ولبث فى هذا المنصب أربع سنوات ، قدم خلالها خدمات جليلة لتنظيم هذه المكاتب والنهوض بها .

وحدث ان قام بعد ذلك برحلة الى فلسطين ، وفى اثناء غيبته هناك قامت السلطات الحاكمة فى دمشق بتفتيش داره فيها ، ومصادرة كتبه وأوراقه ، والتحفظ عليها فى مكتبه الخاص بمدرسة عبد الله العظم ـ باشا ـ.فاستاء من هذه المعاملة . واستقر رأيه على المهاجرة الى مصر ، وتم له ذلك فى سنة 1905 ، وحمل معه اليها أكثر محتويات

كتبه الثمينة ، تاركا بقيتها فى المكتبة الظاهرية بدمشق ، بعد ان وقفها عليها ، وقد رحب به علماء مصر وأدباؤها ، وبقى فيها محوطا بالاجلال والتكريم ، حتى أصيب بمرض طال علاجه سنة 1919 فعاد الى دمشق ، حيث عين مديرا للمكتبة الظاهرية ، ثم عضوا فى المجمع العلمى هناك ، ولكن مرضه ما لبث ان اشتد، وأسلم روحه الطاهرة الى بارئها بعد قليل » اهـ ترجمة تيمور .

وقد تتلمذ له كثير من كبار علماء سوريا وزعمائها أمثال محمد كرد على ، وجميل مردم ، والامير شكيب ارسلان ، ومحب الدين الخطيب ، وغيرهم ، كما اعترف لـــه بالفضل والافادة ، كثير من كبار المستشرقين الذين اخترنا من بينهم كولد صيهر المجرى goldziher الذى كاتبه من بودابست Budapest سنة 1317 هـ . ونشرت هذا الكتاب ، مجلة الازهر فى عددها المؤرخ بصفر 1373 هـ ، الذى استهله بقوله : « سلام الى صاحب الشرف الباذخ ، والفضل الشامخ ، هو المرجع للاماثل والافاضل ، الحاوى لاقصى معارج الفضائل والفواضل ، العالم العلامة الشيخ طاهر بن صالح المغـــربى الجزائرى ، ادام الله تعالى فضله ... الى ان يقول:ارجو انه ما انمحى من قلبكم خيال صاحبكم المجرى ، الذى كان يستجير بشامكم فى سنة 1290 هـ ، مقتبسا من أنــوار علمائها ، وكثيرا ما تداول بين فضلائها وأدبائها ، وصاحبكم يـوما فيوما ، مستأنسا بمجاورتكم ، ومذاكرتكم ، وكنا اذ ذاك ـ انتم وعبدكم الكاتب ـ فى عنفوان شبابنا ، متبحرين فى العلوم الشريفة ، مستغرقين فى بحور الآداب الطريفة ، والآن هيهات بعد مر سبعة وعشرين من الاحوال ، وهن عظمى،واشتعل رأسى شيبا ، اما والله تعـالى ما اندرس ذكر الصاحبين المنبرين من نفسى وفؤادى مع انى :

لقـــد عيـــل صبـــرى بعـــدكـم وتكـــاثـــرت
همـــومـــى ولكـــن المحـــب صبـــور

ومعتمدا على دوام ما جبل الله تعالى فى قلوبنا من المحبة والمودة ، اتجسر يا أيها الشيخ العلامة ، ان استفهمكم عن مسألة دمشقية ، لا أحد لها فى الكتب التى تحت تصرفى ، مع شدة اشتياقى لازالة شبهتى فى تلك المادة ، فذلك انى قرأت فى خلاصة المحبى ،

وسلك الدرر للمرادى ، لا غيرهما من الكتب التاريخية ، وطبقات علماء الاسلام . ان الشيخ عبد القادر بن محمد ابن سوار المتوفى سنة 1014 هـ ، بعد رجوعه من مصر الى دمشق ، كان أول من انشأ سنة 940 هـ ، بدعة حسنة ، نقلها من مصر ، وهى اقامة الجماعات الذكرية ، المختصة للصلوات على النبى صلى الله عليه وسلم ...

تفضل على يا أيها الشيخ ، بافادة جواب شافى ، مثابا جميل الثواب ، من الله الكريم الوهاب ، وتخبرونى أيضا عن أحوالكم كلياتها وجزئياتها ، واما عبدكم فيتشكر لله تعالى على ما انعم عليه من خيره ، صابرا على البلايا ، ان الله مع الصابرين ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

تحريرا فى بودابست 5 ذى الحجة من شهور سنة 1317 كتبه العبد الحقير الفقير اجناس كولد صهر المجرى » اهـ .

وقد نشر نبذة من ترجمته المستشرق الشهير الفرنسى هنرى لاوست فى « مجلة المغرب الجديد » التى كانت تصدر بتطوان (المغرب) بعددها المؤرخ فى ربيع الثانى 1354 هـ ـ 1935 م . نشر المستشرق المذكور مقالا تحت عنوان « الحركة الاصلاحية السنية المعروفة بالسلفية » تحدث فيه على المجلة السلفية التى اصدرها الشيخ طاهر الجزائرى سنة 1917 نعرض فيها لترجمته فقال : « ولد (طاهر الجزائرى) فى دمشق سنة 1851 وقد حذق اللغات العربية والتركية والفارسية على السواء ، مع مشاركة فى مبادى العلوم الغربية ، وأسس خزانة دمشق ، وقام فى سنة 1878 تحت اشراف مدحت باشا ، بتنظيم التعليم فى سورية ، التى ما يزال ذكره فيها محفوظا فى روعته ، كما انه شن الغارة على الاستعمار التركى ، ثم عاد ملتجيا فى سنة 1919 الى القاهرة ، حيث وافته المنون » اهـ .

ألف طاهر الجزائرى عدة كتب منها المطبوع وغير المطبوع .

وقد ترجم بعضها الى اللغات الاجنبية ، من بينها تأليفه : « توجيه النظر)1(، الى علم الاثر » الذى ترجمه من العربية الى الالمانية قولدصيهر المذكور ، ومن تآليفه المطبوعة : « عقود اللآلى ، فى الاسانيد العوالى » و « ومنية الاذكياء فى قصص الانبياء »

و « الفوائد الجسام ، في معرفة خواص الاجسام » ورسالة في الامثال والحكم ، وأخرى في العقائد .

اما التآليف الغير المطبوعة « فالتفسير الكبير » و « المعجم العربي » و « السيرة النبوية » و « وجلاء الطبع في معرفة مقاصد الشرع » وموسوعة باسم « التذكرة » في عدة مجلدات ، ضمنها ما اختاره من نوادر المخطوطات والتآليف ، وقد زار الجزائر حوالي 1912 ، ونزل ضيفا عند اصهاره الاستاذ محمد السعيد ابن زكري المفتي المالكي ، والمدرس بالمدرسة الثعالبية اذ ذاك ، وقد سبق لمحمد السعيد ابن زكري ، أن زار اقاربه ، أسرة الشيخ المبارك الدلسي بالشام . صحبة ولده صديقنا الاستاذ أحمد ابن زكري مدير المدرسة الثعالبية في عهده ، وتعرفا به ، ودعياه لزيارة الجزائر ، فأجاب دعوتهما ، واثناء مقامه بالجزائر ، كان يتحدث بالقبائلية ، ولاحظ الشيخ محمد السعيد ابن زكري ان لغته كانت اثرى من اللغة المستعملة حينئذ بالجزائر بألفاظها الاصلية ولنختم هذه الدراسة بمقال كتبه الاستاذ محب الدين الخطيب ابنه فيه ونقلته عنه « مجلة الشهاب » القسنطينية التي كان يصدرها الاستاذ عبد الحميد ابن باديس بعددها المؤرخ في جمادى الاولى سنة 1356 هـ ـ 10 يوليو 1937 تحت عنوان : « شيخي » قال محب الدين الخطيب تحت العنوان المذكور : « هو الذي ربى عقلي ، وهو الذي حبب الي هذا الانجاه الفكري ، منذ كنت طفلا الى ان صرت رجلا ، ولا أعرف مؤلفا ، ولا حامل قلم نشأ في ديار الشام ، الا وقد كانت له صلة بهذا المربي الاعظم ، واستفادة من عقله وسعة فضله ، امـا مباشرة ، أو بواسطة الذين استفادوا منه ، وكل الذين جاهدوا هناك لاجل الحرية ، وفي سبيل المعارف ، ولاحياء علوم السلف ، ولاعادة مجد العروبة والاسلام ، انما كانوا من اخوانه ، وهو واسطة عقدهم ورأس مجالسهم ، أو من طبقة تلاميذه ، وهو قدوتهم ، ومطمح انظارهم أو من الذين أخذوا عن تلاميذه وهو مضرب المثل عندهم في كمال العقل ، وسعة الاطلاع التي لا حد لها ، وبالاجمال هو جرثومة (كذا) الخبر الاولى من أيام ولاية مدحت باشا على سوريا ، الى ان هاجر هذا الرجل العظيم الى مصر ، حوالي سنة 1325 هـ ، فكان موضع حرمة كل من يعرف الفضل من أهلها ، كتيمور باشا ، والشيخ علي يوسف ،

واحمد بك الحسينى ، وأحمد زكى باشا وامثالهم ، وأهم كتب السلف النافعة التـى نشرها الناشرون انما نشروها باشارته وتحريضه ، وانا وكل ما نشرته ، لسنا ، الا قطرة من بحر الخير ، الذى كان يتدفق من صدر هذا العالم العامل ، الذى كانت الدنيا لا تساوى عنده جناح بعوضة ، وليس له فيها من امنية الا ان يرى عز الاسلام يعود ، كما كان فى أيام القوة والعدل والعلم وتقوى الله عز وجل ، لارمى نفسى بالعقوق ، وانكار الجميل ، كلما فكرت فى ابطائى حتى الآن عن القيام بحقه على التاريخ، ولكن اذا عظم المطلوب ، خارت القوة دونه ، وحياة الشيخ طاهر الجزائرى ، حياة دور من أدوار الاصلاح ، بل هى تاريخ الامة فى حقبة من حياتها ، ولابد أن أقوم بهذا الواجب فى يوم من الايام ، رحمة الله عليه ومغفرته ورضاه » . هذه نبذة من حياة رجل عالم ، لفت أنظار معاصريه علاوة على تعمقه فى العلم ، وسعة اطلاعه ، لفت انظارهم بحياة مثالية ، كان يحياها علماء السلف الصالح ، شجاعة أدبية نادرة ، ورفع همة ، حتى انه كان تعوزه الحاجة فى ضروريات حياته من أكل ولباس ، فيبيع بعض كتبه ـ وهى اعز ما يملك ـ ولا يلجؤ الى التسلف ، أو قبول الهدايا حتى من أعز أصدقائه ، وان له على الجزائر حقوقا فهل قامت ببعض واجباتها نحوه ؟

الفلسفة الاسلامية الاسبانية (1)

د. سالفادور غومث نوغاليس
رئيس قسم الفلسفة الاسلامية
بالمعهد الاسبانى العربى للثقافة
مدريد (اسبانيا)
تعريب : ب. دفيلار



اننى فى خوف من هذا العنوان الذى أعطى لهذه المحاضرة (1)، فبالاضافة الى انه موضوع واسع فانى لا أعرف من أين أبدأ • ولقد كتب Cruz Hernandez **كتابين فى تقديم هذا المفهوم ومع ذلك فهو يشعر انه لم يستوف الموضوع • ان لم يؤول تأويلا سيئا فكر منظمى هذا المؤتمر فان ما نهدف اليه ليس الوصف الدقيق للفلسفة الاسلامية الاسبانية وانما نريد أن نعطى القارىء غير المتخصص المراجع التى يستطيع بها ان يدخل هذا الميدان •**

---

(1) محاضرة ألقيت بقاعة الموقار بتنظيم من المركز الثقافى الاسلامى وذلك يوم 1975/9/12 م •

حتى ولو حصرنا الموضوع فى هذه الحدود فاننا نجد مصاعب كبيرة لوجود جزء غير قليل من المصادر غير مطبوعة وانما هى ما تزال مختفية فى المخطوطات حتى لو تعرضنا للشخصيات المشهورة فى هذه الفلسفة .

والفلسفة الاسلامية الاسبانية كما سنرى حالا، لها صبغات مختلفة مما يجعلنا لا نستطيع أن نحصرها داخل اطار ضيق . وكل مؤلف خليق بأن يعالج معالجة خاصة، بل من الممكن لكل مؤلف أن يستغرق زمان هذه المحاضرة .

والحل الوحيد هو أن نحدد الطريق الذى نسير فيه، وأكون مسرورا اذا وصلت الى أن يشعر كل منا بضخامة العمل الكبير الذى ينتظرنا ولو كان فتح طريق صغير، اذا شئتم نجمع المواد التى نبنى عليها تأريخا للفلسفة الاسلامية الاسبانية مؤيدا بالوثائق .

وأستطيع أن أقسم عملى الى ثلاثة اجزاء هامة :

1) مصادر الفلسفة الاسبانية الاسلامية .

2) فكرة عامة عن النزعات الفلسفية المختلفة فى اسبانية الاسلامية .

3) تقديم لاسماء الكتب التى يمكن أن تفيد فى هذا الميدان .

وفى النهاية وكمثل تطبيقى عما نستطيع ان نعمل لكل مؤلف . نقدم فى آخر عملنا عرض هدفنا الذى نكاد نحققه فننشر جميع آثار الفيلسوف الاسلامى الاسبانى ابن رشد .

1 ـ مصادر الفلسفة الاسبانية الاسلامية :

وفى البداية اتمنى أن أشرح لكم عنوان هذه المحاضرة حيث حدثت مناقشة طويلة حول الاسلام الذى لابد أن نعطيه لهذه الفلسفة . فى كثير من كتب تاريخ الفلسفة جرت العادة على تسميتها بالفلسفة العربية . ولكن فى هذه المحاضرة اخترنا اسم الفلسفة الاسلامية ولا يتلاءم أى من الاسمين ملاءمة حسنة .

لاننا لو اطلقنا عليها اسم الفلسفة العربية لدخل تحت هذا الاسم الفلسفة المكتوبة بالعربية فقط ولخرجت الفلسفة الاسلامية الاخرى غير العربية مثل الموجودة عند الفرس،

والاتراك،والهنود،والباكستانيين،مع انها بنفس تصورات الفلسفة العربية عموما . وزيادة عن هذا فالعنوان له معنى سياسى لان العنوان الذى يدل على الوحدة العربية لا يقبله المسلمون من غير العرب . ومن ناحية أخرى كان لابد ان يدخل تحت هذا العنوان الفلسفة اليهودية والمسيحية المكتوبة بالعربية . ولكنى لا أضعهما بمحتواهما وتصوراتهما مع الفلسفة العربية حتى وان كان بينهم قاسم مشترك فى الكلام المستعمل .

ولكن اذا فضلنا تسمية الفلسفة الاسلامية خرجت الفلسفة اليهودية والمسيحية ووجب أن تدخل النصوص المكتوبة بالايرانية والهندية والباكستانية . فى هذه الحالة لانها لغات مختلفة لا نستطيع أن نعطيها صفة الفلسفة العربية . ولقد كتب Anawati (1) بحثا ليوضح فيه كيف يفكر فى هذه النقطة المتخصصون فى هذه الفلسفة . ولقد اشتمل بحثه فى النهاية على كل الاذواق المختلفة . البعض مسلمون أو غربيون،اختاروا فلسفة اسلامية والآخرون فضلوا فلسفة عربية وفريق رأى أن نطلق اسما يجمع بين العربية والاسلامية أو ما يقرب من هذا .

ولقد سبق اثارة هذه المشكلة من قبل فى تسمية الفلسفة المسيحية . فالفلسفة لا تستطيع ان تكون الا واحدة دون أن تصبغ بصبغة دينية تفترض ايحاء سابقا : يهوديا، أو مسيحيا، أو اسلاميا . نبنى الفلسفة على التفكير الذهنى لا على الايحاء .

ولكنى أميل الى تسمية «الفلسفة الاسلامية» لا لانها تحمل شيئا ضد غير المسلمين ولكن لان تصورها أخذ الهامها فى حالة دينية معينة . ان القاسم المشترك لهذه الفلسفة لا يأتى من اللغة العربية ولكن من التأثر مباشرة أو غير مباشرة بتصور الدين الاسلامى كما انه لا يخطر ببال أحد أن يسمى الفلسفة المدرسية (la scolastique) الفلسفة اللاتينية ولكن يطلق عليها فى الغالب اسم الفلسفة المسيحية لانها وجدت فى البيئة الثقافية المسيحية .

نحن نسمى هذه الفلسفة فلسفة اسلامية لان تفتحها وطرقها ارتبطت جوهريا بظهور الاسلام وهو حدث دينى وروحى . وكل تصوراتها الفلسفية ألهم بتصورات

---

(1) C G. Anawati, « Philosophie médiévale en terre d'Islam ». (Note 1, p. 124), Midéo 5 (1958 - 59) 175 - 236.

الاله ، والانسان ، والعالم • كما أن تصرفها متأثر بالبيئة والثقافة الاسلاميتين • وفى هذا أكبر ابتكارية لها • ولقد أثارت تركيبا دينيا تحققت فيه خلاصة جميع الفلسفات السابقة • وهكذا أعطت هذه الفلسفة دعامة انسانية للايحاء باقامة بناء دينى • وهى فلسفة نبوية تصورت كدعامة انسانية للايحاء الاسلامى • والالتقاء بين مجمل الفلسفة والدين فى الاسلام وبين الغربيين يكاد يحدث فى الفلسفة المسيحية فى القـــرون الوسطى عصرا ذهبيا للفلسفة المدرسية •

بعد أن وضحنا ما نفهمه فى الفلسفة الاسلامية نبدأ فى دراسة مصادر هذه الفلسفة فى اسبانية •

أ) القرآن الكريم والعلوم الدينية الاسلامية •

عرفنا الفلسفة الاسلامية كتعميق لفهم المشاكل الدينية فى الاسلام • لذلك كان القرآن والعلوم الدينية الاسلامية أهم المصادر للفلسفة الاسلامية • وربما بدا هذا غريبا للغربيين •

ومن الراجح اننا حينما نقرأ القرآن لا نحس نفس المشاكل التى يتساءل عنهـا المسلمون • ولقد أحسن Corbin عندما قال فى كتابه : « تاريخ الفلسفة الاسلامية »(1) المسألة ليست تحليل ما يراه الغربيون فى القرآن ولكن ما تكشف عنه قراءة المسلمين للقرآن • واذا نظرنا فى النظريات الفلسفية عند كبار فلاسفة المسلمين نجد أن جزءا كبيرا من هذه النظريات أخذوه من قراءتهم للآيات القرآنية والعلوم الدينية الاسلامية التى اثارت تصورات تعين المحتوى المثالى للفلسفة الاسلامية •

ب) المذاهب الفقهية فى تأويل القرآن •

وليس معنى ذلك أننا نشتغل بالفقه ولكن يلزم ان ننطلق من نقطة أساسية وهى أن القرآن الكريم كان الدعامة الاولى عند المسلمين الاولين • ولقد كان القرآن كتـابا دينيا وقانونيا يجمع قواعد علم الاخلاق ولهذا كان هـو المسيطر فى الحياة التطبيقية

(1) (H. Corbin : Histoire de la philosophie islamique 13 ss I Paris 1964 (note 2, p. 125).

للمواطن المسلم ونلخص هذا فى جملة واحدة وهى أن القرآن كان ملخصا لكل النظريات التى يهتدى بها المسلم فى حياته ٠ وكل ما انحرف عن ذلك يعتبر مخالفا للاجماع ٠

ولكن استدرك سريعا،أن القرآن لا يحتوى على كل شيء،فبدأ فى احضان الاسلام تكوين مذاهب فقهية لتأويل القرآن حرفيا ٠ وفى البداية كانت المسألة فقط اعطاء كلام القرآن سعة ضرورية ليوجه الانسان فى مختلف ظروف الحياة ٠ ولكن رؤى أن ذلك غير كاف ٠ حينئذ بدأ تمثل معايير مختلفة للتأويل وهى ليست مباشرة فى القرآن٠ وهذه المعايير تسمح بحل المشاكل والمواقف غير المتوقعة فى القانون القرآنى ٠

وهذا الفتح للمعايير الفقهية غير الداخلة فى القرآن كان بابا صغيرا مفتوحا سمح بدخول فكر هامشى فى القرآن وفى هذا الميدان الهامشى سجلت كل الفلسفة الوثنية ، وبالادق الفلسفة اليونانية ليولد الفلسفة الاسلامية ٠ ولنر هذه المعايير الفقهية التى فتحت الباب لافكار لم تكن موجودة فى القرآن ولكنها لا تعتبر خارجة عن الاجماع ٠

ومن قديم الزمان توجد أربعة مذاهب كرست للفقه ومعترف بها من جميع الناس كقانون يلتزمون به فى القرن الثالث عشر (السابع هجريا) ٠ والاعتراف بهذه المذاهب فى تأويل القرآن متأثر بتأثيرات خارجية : تأثير الفقهاء ، نتيجة صلتهم بالملوك ، وموافقة شعور الشعب كما أنها تتأثر بالظروف الجغرافية والتاريخية التى ساعدت على انتشارها لانها موجودة فى الاماكن التى يمر بها الحجاج الى مكة ٠

أولها المذهب الحنفى الذى أسسه أبو حنيفة المتوفى سنة 767 م ـ 150 هـ ٠ وأصله فارسى سكن فى الكوفة فى العراق ٠ لذلك سمى تلاميذه باسم أهل العراق ٠ وهذا المذهب جمع اقدم العناصر فى فقه الاسلام ٠ ويتبع هذا المذهب اليوم نصف المسلمين فى العالم ٠ المعايير التى يستعملها هذا المذهب لتوسيع تأويل الفقه فى الاسلام ٠ ومن هذه المعايير استعمال الرأى ، أى حسب أصله هو الرأى الشخصى ٠ وتطبيقا لهذا يحتمل العقل فى تأويل القرآن ٠ وهكذا تظهر أهمية الرأى الشخصى للفلسفة فى تأويل كلام القرآن ٠

ويعتمد الاحناف أيضا على طريقة القياس للاستدلال • وتعتمد هذه الطريقة على معيار تمثيل منهجي فى تطبيق المبادىء القرآنية فى حالات مماثلة • ويلوم مسلمو مكة والمدينة الاحناف عن المبالغة فى استعمال القياس مع الجهل بالترجمة •

ومعيار آخر فى تأويل أكثر شجاعة من القياس وهو مستعمل بهذا المذهب هو الاستحسان • وهذه الطريقة تحتمل القبول والمصادقة على شيء أو حدث حقيقى من أجل حسنه الموضوعى • ومن الانصاف ان نتبع هذه القواعد الفقهية حتى فى المواقف التى توجد فيها خلافات مع التمثيل المنهجى للقياس •

المدرسة الفقهية الثانية هى المالكية وهى تجمع أقدم العناصر السنية فى فقه الاسلام فى كتاب الموطأ • وامامه مالك بن أنس الذى توفى فىسنة 795 م 179 هـ • اشتمل فقهه على سنة أهل المدينة وهى من الاسلام وقد احتوت على طقوس وقوانين مدنية ودينية • والواقع أن حدوث عمل من سنة أهل المدينة يعتبر معيارا كافيا • وليس معنى هذا أن سنة النبى خارجة عن الموضوع •

ملاحظة : Note 3, p. 127
((3), p. 127)

لفهم الفقه المالكى كمذهب مختلف عن المذاهب الاخرى المعترف بها يجب الرجوع الى ما كتبه M. A. Makki فى « ابحاث عما يأتى به المسلمون فى اسبانية الاسلامية » خاصة ص 87 ـ 90 • حسب رأى مكى فان سنة أهل المدينة هى الاساس الذى أخذه مالك وركبه تركيبا جديدا •

وهذه المدرسة تحتاج الى عودة الى الخلف بالنسبة الى المدرسة السابقة ، وهى تختلف عن سابقتها فى تأويل القران • فهى تسلـــم بالـــرأى وبشيء من القياس والاستحسان ولكن أقل مما تسلم به مدرسة الحنفية •

تصحح الاستحسان بتخفيفه كمبدأ يختلف قليلا عن الاستحسان وهو المصلحة • ومن الانصاف أن نسلم بكل ما يفيد ولكن بشرط : أن تكون الفائدة قاطعة كلية وضرورية •

هذه المصلحة أو هذا الاستصلاح كان معيارا يسمح بتصحيح الفقه القرآني في الوقت الذي كان ضروريا للمصلحة العامة ·

وكمثل على هذا فانه يجوز قتل البعض لاحياء الكل في الجهاد.والغزالي Algazel يسلم بأهداف الاستصلاح : الدين ، الحياة ، العقل ، الاسرة والمكتسبات · هذا المعيار فرض نفسه على المدرسة المالكية حتى يستطيعوا في رأيهم،أن يصححوا القرآن،والسنة، والأمـــة ·

هذه المدرسة مع ضيقها وجمودها فان لها تأثيرا هاما في الفلسفة الاسبانيـــة الاسلامية تفرض في المغرب كاملا،وفي الاندلس.وهو يشرح جزءا كبيرا من المشكلة التي لقيت الفلسفة في مختلف الاقسام في شبه الجزيرة الايبيرية كلها · كل مدرسة في الاسلام تحب ان تنظر الى سابقتها بعدم الثقة حيث توجد في سابقتها حرية التفكير أكثـر منهـا ·

المدرسة الثالثة أقل انتشارا من غيرها في شبه الجزيرة الاسبانية هي مدرسة الشافعي التي سميت باسم مؤسسها أبي عبد الله محمد بن ادريس الشافعي توفي سنة 820 م 204 هـ · ونستطيع ان تعتبره المؤسس الحقيقي لعلم الفقه الاسلامي ، وهو ينظم استعمال المصادر ويحدده بطريقة ملائمة · ويتبع طريقا وسطا بين الحرفيين التقليديين الجامدين وبين أصحاب الرأي · وهو حقيقة يرفض الاستحسان ولكنـه يسلم باستصحاب الحال وهو افتراض فقهي لامر واقعي حتى يصل الى برهان مخالف · ويرجع السنة لسنة النبي فقط · ويقبل بصراحة معيار الاجماع أي الاجماع الكلي للامة فيما يخص المسائل الغير الموجودة في القرآن أو في السنة وان كان لم يعرف في هذا الزمان حديث الامة أي الامة الاسلامية معصومة عن الخطا ·

مدرسة الحنابلة وأسسها أحمد بن حنبل توفي سنة 855 م 241 هـ ، وهي تحتمل العودة الى وراء فيما يخص الافتتاح الى المعايير التأويلية في القرآن · ولقد كان أحمد ابن حنبل تلميذ الشافعي،ومدرسته تدل على عودة الى دائرة تقليدية ضيقة · القانون الفقهي الذي تحفظه جمع من أسئلة التلاميذ وأجوبة الامام أحمد لهـم في حياتـه ·

وهو فى ظاهره يرفض كل بدعة ويحدد الرأى والقياس . وقد رأوا أن القرآن لا يحل كل الحالات فلجأوا الى وسيلة أخرى ليصلوا فعلا الى تفتح، فيعطون للسنة أهمية كبيرة ليعتمدوا عليها مع تعرض لخطر صحة هذه الاحاديث (Note , p. 124) الحديث هو كلام الرسول ، أو افعاله ، أو تقريره ، وهو يوضح ما فى القرآن) .

هذه المدارس الفقهية تعتبر كمدارس تقليدية عند أغلبية المؤمنين المسلمين ، اتفاق المدارس فى نقطة تسمى بالاجماع ،أى الاجماع الكلى للامة ويلزم الجميع . وفى النقاط المختلف عليها يلزم المؤمن ان يتبع احدى المدارس . نستطيع أن نجد مثل هذا فى المعتقدات المسيحية حيث توجد مدارس عقائدية مختلفة تؤلف فلسفة مدرسية أكيدة يلتزم بها المسيحيون لكى لا يخطئوا . وفى النهاية كلها تميل الى التقليد . وقدمت هذه كمصادر للفلسفة الاسلامية، لانها تتفق الى حد كبير، ورغبة فى البحث، عن معايير أخرى،وطرق أوسع، يمكن بها أن تزدهر الحياة الدينية والعلم الانسانى . وربما أثرت هذه المدارس فى تطور الفلسفة لضيقها الذى يضطر الكثير من الناس ان يبحث فى توجيه آخر عما لا يجده فى المدارس الفقهية .

كل هذه المدارس توغلت بنوع ما فى شبه جزيرتنا . ولكن ما عدا الصرورة التى دفعت المؤمنين ليوسعوا حروف القرآن الى معايير أوسع للتأويل ، ومع هذا ، فهذه المدارس الفقهية تدفع الفلسفة الى الامام أو تكبح من جماحها فى بلادنا . واحدة من أوليات المدارس الفقهية التى تقام فى اسبانيا كانت المدرسة السورية أسسها الاوزاعى توفى سنة 777 م ـ 157 هـ . وكان سبب هذا هو دخول العرب الآتين من سورية فى شبه جزيرتنا . هذه المدرسة الفقهية تتميز خاصة بحماسها الدينى الذى يمنع اللجوء الى القياس فى تأويل القرآن . زوال هذه المدرسة الذى أتى بعد نتيجة أنها أتت من طرق بعيدة عن طرق الحج، ونتيجة لتيارات المالكية التى أتت عن طريق المدينة ومصر .

مدرسة أخرى ازدهرت فى بلادنا وهى مدرسة داود بن خلف الاصفهانى توفى سنة 883 م ـ 270 هـ . ونفس الاسم الذى أطلق على المدرسة يظهر لنا ضيق معياره فى التأويل . ظاهرى يعنى عكس الباطن ، أو الحرفية . ولكن القرآن، والسنة، يكونان

مرشدين للمؤمن المسلم • عدم الجهاز والمشاكل التطبيقية سببها حرفيته ادت الى زوالها • وأرجع هنا الى هذين المدرستين لاظهر أن في اسبانية الاسلام الرسمي، كان بالاحرى مغطى بغطاء ضيق: التأويل الذي يغلق الابواب أمام البدعات العقائدية • تعلق العلماء الاسبانيين بعلماء الاسلام الآخرين الذين كانوا يقابلونهم في البلدان التي يمرون بها اثناء ذهابهم الى الحج كشف لهم ان عقائدهم الدينية كانت مناسبة لمذاهب أخرى أوسع يدخلونها عند رجوعهم الى بلادهم في تعليمهم الخاص ليس دائما بموافقة السلطة الرسمية •

ج) اسبانيــة القوطيــة العربيــة

وليس سهلا استخراج تأثير إسبانية القوطية العربية في الفلسفة الاسبانيـة الاسلامية بوثائق تاريخية صحيحة • ومما يجعل هذا صعبا سببان :

1) أولا كثير من العرب وجدوا مصلحة ايجابية في اختفاء السلالة الاسبانية غير المسلمة لئلا يوقظوا شبهة الارتياب في استقامة رأيهم في عقائدهم • ويهتمون باخفاء أصلهم الاسباني في عدد كبير من معارفهم وهذا شيء واضح •

2) ثانيا تأتي المشكلة الثانية من مصادر ثقافية عديدة من الاسلام الاسباني استطاعت ان تدخل في اسبانية غير مباشرة بواسطة الاسبانيين ولكن بواسطة الشعوب الاخرى الشرقية التي استطاعت ان تبلغ نفس الافكار في نطاق ثقافي يختلف عن النطاق الاسباني • من الصعب أن نميز بين ما أورث الرومان للاسلام، خلال بيزنطة، أو خـلال المستعمرات الرومانية الاسبانية •

ولكن هناك واقع ممتع لم يحلل حتى الآن تحليلا عميقا وبرغم ذلك يسلم به عند كل الناس • يسلم بان الثقافة الاسبانية الاسلامية لها طباع مميزة عن الثقافـة الاسلامية الشرقية • ومن الواجب أن نحلل الى أي مدى هذه الاختلافات الثقافية تأتي أو تصدر عن عامل مناخي ، أو بيئي سببه يتعلق بأناس لهم مزاج مختلف •

ولو تركنا جانبا هذا الحادث الواضح وكل الناس يسلمون به لوجدنا حوادث أخرى أكيدة تسمح لنا بقبول تأثير ثقافي ما قبـل الاسـلام في الثقافـة الاسلاميـة

الاسبانية · عدد كبير من هذه الحـــوادث جمعت فى مقالة قيمـــة ألفها السيـــد Claudio Sanchez Albornoz عنوانها « اسبانية قبل الاسلام واسبانية الاسلامية » ·

قبل كل شيء،علينا ان نعترف فى اسبانية بوجود ثقافة تختلف عن الثقافـــة الشرقية ترجع الى رواسب ايبيرية · ولكن لو تركنا جانبا العامل الفطرى الايبيرى الذى هو أساس الثقافة الاسبانية القديمة لوجب الاعتراف بوجـــود المستعمرات اليونانية فى بلادنا،ووجود تأثير رومانى عميق فى كثير من الاماكن والمواقع والميادين التى سكنها العرب الذين وصلوا الى اسبانية ونهائيا وجود الحضارة المسيحية القوطية التى تعلق بها العرب مباشرة منذ وصولهم الى شبه الجزيرة· اكتشاف مصادر هذه الثقافة يبرز قيمتها أكثر فأكثر · فى هذه الايام بدئت دروس مقارنة بين الثقافة الاسبانية قبل الاسلام والثقافة العربية · وهذه الدراسة تكشف لنا مدى تأثير الاولى فى الثانية فى أمور كثيرة · ويظهر لنا اتفاق عجيب كبير وليس اتفاقا فحسب بل بينهم ترابط مباشر · وسكوت المصادر العربية ليس كثيرا كما زعموا ويخضع لاسباب تاريخية.وهذه الانتقالات غير صريحة دائما ولكنها لا تنكر ولو لم نستطع أن نوضح بدقة الطريقـة الدقيقة التى تنقل بها ·

علينا ان نعتبر الواقع وهو ان المسلمين الاولين الذين وصلوا الى الجزء الجنوبى الاسبانى لهم ثقافة غير قوية · فى البداية ثقافة الفطريين كانت أعلى ولقد عاشوا جميعا مدة قرون متقاربين متفاهمين ·

عدد الشرقيين الواصلين الى شبه الجزيرة كان قليلا يتراوح بين عشرة آلاف و ثمانية عشر ألفا · هو جيش مكون من جزء كبيرمن البرابرة والمعتقين وبينهم عدد قليل من العرب وكان يوجد للمثقفين اماكن كثيرة فى عالم اللغة العربية حيث يستطيعون ان يذهبوا فى أمن أكثر، مما هم فى اسبانية · فان ميدان اللغة العربية كان ينتشر من الهند حتى وسط افريقية · ومن الممكن ان يقال انهم فى هـــذا المـــدى يجدون صعوبات للاقامة فى اسبانية في هذا المجال ·

يدقق أكثر Sanchez Albornoz هذه الارقام فى مقالته المذكورة سابقا • سنة 740 أراد العرب اخضاع البرابرة • لذا كثر الشرقيون فى اسبانية من عشرة آلاف الى أثنى عشر ألفا سوريا بينهم ألفان من المعتقين • فى مدة أربعين سنة أقام فى الاندلس بعض الموالى الامويين من الاسرة المالكية فى دمشق الذين كانوا يهربون من العباسيين، يتراوح عددهم من 400 الى 500 • بالاضافة الى بعض الفنانين والمؤلفين والمنفيين السياسيين الذين جاءوا يقيمون فى الاندلس • ومجموع كل هؤلاء الواصلين أربعون ألفا ، وقد لا يتفقون ، لا يزيد على ثلاثين ألفا • وبهذا يثبت Peres ان العنصر العربى ليس الا قليلا جدا فى التكوين الاجتماعى للمسلمين الاسبانيين • (1)

والحقيقة أن البرابرة كانوا كثيرين جدا ولكنهم ليسوا شرقيين وليست لهم ثقافة أعلى من الاسبانيين • علينا ان نقول ان ثقافتهم كانت أقل من الاسبانيين • وكان الواصلون من المحاربين بدون ثقافة كبيرة •

ويلخص ذلك Sanchez Albornoz بهذه الكلمات :

« لذلك فالتأثير العربى فى الثقافة والعادات كان قليلا جدا خلال الفترات من الزمان فى اسبانية حيث العنصرية ، والحياة ، والثقافة ، كانت غربية » •

واسلم شبه الجزيرة بهدوء وفى حدود ناقصة اعتبارا من الحرية الدينية التى يتمتع بها القطريون فلمدة قرون عاش سكان شبه الجزيرة كثيرا متوغلين فى الماضى قبل الاسلام •

التراث المقبول من العرب فيما يختص بالثقافة الاسبانية القوطية قبل الاسلام كان مختلفا ومتعدد الاشكال • نراقب اليوم أن هذه الثقافة نقلت لهذه المستويات •

اللغة : بالنسبة لهذه النقطة نجد موقفين متضادين : الاول وهو الاقدم سانده Martinez Marina Burriel, Mariana, Baist, Dozy الخ • كل هؤلاء المؤلفين يثبتون على وجه ما نجاح اللغة العربية كلغة عامة فى الاندلس واختفاء لغة المسيحيين •

(1) (Note 6, p. 130) « Les éléments ethniques de l'Espagne musulmane et la langue arabe aux Ve - XIe siècles » Mémoire de Lévi-Provençal (1958). Cf. C. Sanchez Albornoz, Ib.

اما اليوم فالذين يساندون هذه النظرية انتهوا أمام وضوح الوقائع • ونقيض هذه النظرية هي التي تغلبت على الاولى •

من قبل، فى سنة 1898 كان Simonet قد سلم بمواصلة استعمال لغة « الرومان » (le roman) عند المستعربين حتى القرون الوسطى المتقدمة • وكان Rivera المؤلف الذى لا نستطيع ان نتهمه بحرب كلامية فى هذه النقطة يسلم بان كل الناس يستعملون لغة « الرومان » فى اسبانية الاسلامية : أى المسيحيون والذين اسلموا حتى المسلمون الشرقيون من سلالة اسبانية عن طريق امهاتهم • هذه اللغة يستفيد بها حتى قاضى قرطبة فى تطبيق الدعاوى القضائية • ويتحدث بهذه اللغة حتى فى مجلس الوزير •

فى القرن العاشر ، لغة «الرومان» كانت معروفة فى بلاط الخليفة كما يوجد عدد لا يستهان به من الاسبانيين الذين يجهلون العربية • فى عهد الحكم الثانى 961 ـ 976 كثير من سكان شبه الجزيرة قد وجدوا صعوبة كبيرة فى التعبير عن أنفسهم بالعربية • الجغرافية الشرقية للمقدسى (فى آخر القرن العاشر) تقول أن الاسبانيين يستفيدون باللغتين وكذلك فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر • لاحظ Asin Palacios فى كتاب فى علم النباتات ولا يعرف اسم مؤلفه أكثر من 700 عبارة باللغتين Las Harchas y Zejeles هو مثل ازدواجية • يتبنى نفس الموقف : Asin Palacios, Menendez Pidal, Levi-Provençal, Sanchez Albornoz, Garcia Gomez,Stern, Millas Vallicrosa, Corominas وكذلك أغلب المستشرقين

الموسيقى والشعر : أساسهما قبل الاسلام معترف به عند المتخصصين •

فن العمارة : فى مجال فن العمارة نستطيع ان نلاحظ أن تأثير ما قبل الاسلام معترف به عند Basilio Pavon, Balbas, Torres, Terrasse, Lambert, Gomez Moréno

فن النقش والنحت : تأثرت بتأثير اسبانى فيما يخص كثيرا من عناصرها فى تيجان الاعمدة وهذا معترف به عند : Basilio Pavon, Torres, Balbas, Garcia Ramos

كتابة التاريخ والجغرافية : فى الاولى جمعت وثائق لاتينية يعترف بها الجميع • بالنسبة للثانية فان Joaquin Valve, Asin Palacios ومتخصصين آخرين برهنوا على أن العرب كانوا خاضعين لاسبانية ما قبل الاسلام • ونفس الشىء نستطيع ان نقوله بالنسبة لميادين

المؤسسات السياسية الاجتماعية ، فى الحياة الاقتصادية وفى العادات • أردت ان أعرض فى بساطة بعض الامثال المعترف بها أو التى يعترف بها كل متخصص اليوم • هذه المراقبة تؤيدنا فى قبول الوقائع فى المجال الذى نهتم به أكثر الآن يعنى الفلسفة والعلوم •

الفلسفة والعلوم : فى اعمالى السابقة اعتبرت خاصة تأثير اسبانية ما قبل الاسلام فى الفلسفة الاسبانية الاسلامية • اذ كنت أدرس على الاخص مشكلة تصنيف العلوم عند ابن حزم :

(Note 8, p. 132) « Teoria y clasificacion de la ciencia segun Ibn Hazm », Actos del IX centenario de Aben Hazam. II Sesiones de Cultura Hispano-Musulmana (Cordoba 1963) 63-86 y tombien : « Las Artes Liberales y la Filosofia Hispano-Muslamana » Arts Libéraux et Philosophie au Moyen-Age. Actes du IV Congrès International de Philosophie Médiévale (Montréal 1969) 493-508.

أخذت ثانية فى دراسة ابن خلدون وأصل الى نفس النتائج فى الاندلس يختلف تصنيف العلوم عنه فى الشرق وله صلة خاصة بما يوجد فى اسبانية القوطية قبل الاسلام بحث Sanchez Albornoz عن تسلسل الوقائع التاريخية قبل الاسلام التى تبقى فى حالها اثناء سيطرة المسلمين وتستمر بعدها خلال كل سياق تاريخنا • هو طريق ممتلىء بتلقينات حيث توجد توافقات غريبة جدا وهذه التوافقات نستطيع ان نرضى بتأويلات خطيرة ذاتية •

أجد طريقا أكثر تأكدا حينما ابحث عن التوافقات الثقافية مثل التوافقات التى يجدها Sanchez Albornoz فى أعمال Asin Palacios لا نحتاج الى جهود كثيرة لنجد فى فكر ابن حزم أفكار مماثلة حتى فى شكل عباراته لافكار مواطنه • (1)

لا يعتقد Asin Palacios أن هذه المماثلة سببها ترابط حقيقى بين المفكر المسلم والتقليد الاسبانى من Asin Palacios يتفق Sanchez Albornoz باثبات Seneca ولكنه ما زال يترك بعض الاستفهامات فى هذا الموضوع • واعتقد انه قد حان الوقت لاضيف شيئا زائدا أكثر من توافق بسيط اعتبارا بالواقع أن الثقافتين عاشتا طويلا معا

(1) Kalimat fi-al-alkhlâq. Introd. p. XV, (nota 9 p. 132) Seneca

فى سلام • من الواجب ان نبحث عن نقاط التوافق لكى تعبر عن قوة معانيها ولو لم نستطع بعد ان تعرف بدقة النسبة الحقيقية التى تحدد التوافقات •

لا أريد ان أنهى هذا الباب قبل أن اشير الى ملاحظة Cruz Hernandez حينما بحث عن تدقيق أصول الفلسفة فى اسبانية الاسلامية اذ قال : «كان المسلمون الفاتحون شبه الجزيرة معظمهم من البرابر الغير مثقفين ولكنهم شجعان وعدد قليل من العرب الذين وصلوا الى هنا أتوا من الشرق فى زمان يسبق الحرية الثقافية التى استوعبت الفلسفة اليونانية • أغلب السكان الفطريين بدأوا ينشرون العلم فى ميادين أكثر ضرورة وأقل تجريدا • خمسون سنة بعد الفتح ظهر الفقهاء والمؤرخون وبعد قليل ظهر اللغويون والادباء وعلماء الكلام • (1)

ملاحظة حادة أن العلوم التى يبدأ ظهورها عى التى استعملت فى اسبانية القوطية•

وأنا أتفق اتفاقا مطلقا مع ما قال Sanchez Albornoz فى آخر مقالته طبعا، ولو اعتبرنا بالاختلافات التى تفرق اسبانية الاسلامية عن الشرق العربى، هذه قبلت من الشرق الافكار الدينية والفلسفية، والاشكال الادبية والفنية والعلوم والتقنيات• كان الاسبانيون المسلمون يتميزون بالنسبة للمسلمين فى الاراضى الاخرى من العالم الاسلامى ولكنهم كانوا يعيشون تحت تأثير الثقافة الاسلامية ، أخذوا الابتكارات الروحية من الشرقيين ولكنهم حولوها وصاغوها من جديد بدورهم • كانت الاندلس تعيش فى احتكاك حربى وسلمى مع الغرب وهى جزء منه فى ميدان الجغرافية والحياة • علينا أن نتذكر من أقوال ابن حزم :

أنا الشمس فى أفق المعارف أشرقت ولكن ذنبى أن مشرقها الغرب

أو كما قال .

الاسلام الاسبانى نضج بعد كثير من القرون وورث جزءا من غرب ما قبل الاسلام تأثر بالغرب واثر فيه بنسبة الثقافة • (2)

بالنسبة للعلوم يبقى لنا عمل كبير للمستقبل • فى هذا الميدان مدرسة المستعربين من برشلونة تميزت بدراستها العلمية Millas Vallicrosa فى قائمة الكتب العربية Vernet

(1) Historia de la Filosofia Hispano-Musulmana, I, 210-11. (note 10 p. 133).
(2) Ib. 338 (note 2, p. 133)

فى دروسه العلمية و Samso فى إنتاجه الحديث الذى يبشر بخير عميم وقد بدأ نشره يظهر لنا أوجها ممتعة نرى فيها أن العرب جابهوا الثقافة الاسبانية ما قبل الاسلام ٠ (note 12, p. 133) وفى احدى المقالات من المتخرجين من جامعة « Union Fraternal » de Comillas (الاتحاد الاخوى) نشرنا مقالة سنة 1971 نعرض فيها بعض هذه الاوجه ٠ وعنوانها « سبب دراسة اللغـــة العربية » ٠

د) السنن العربية الشرقية

كل ما قلناه سابقا لا ينقص من قيمة التأثير الكبير للسنن الشرقية فى اسبانيـــة الاسلامية ٠ ازداد هذا التأثير أكثر فأكثر على قدر ما وصلت الى شبه جزيرتنا عناصر الثقافات الشرقية خاصة الثقافة اليونانية مستوعبة ومحولة عند مفكرى الشرق العربى ٠

كل اطارات الثقافة الشرقية تتكرر فى اسبانية الاسلامية ٠ هذا الواقع له بعض الاسباب ٠ أولا الفقهاء الذين يرافقون الحربيين حملوا الفكر الشرقى ٠ ارستقراطيو الشرق الذين جاءوا الى شبه جزيرتنا أتوا بثقافتهم التى كان لها تأثير فى فكر المسلمين الاسبانيين المستعربين ٠ مبكرا حدث انتقال من الاسبانيين الى الشرق ومن الشرقيين الى اسبانية ٠ هذه الاسفار يدعمها الحج الى مكة ٠ فى كل المسيرة تعود مفكرونا الاسبانيون العرب ان يسمعوا دروس العلماء الكبار الذين كانوا قد يلقونهم فى طريقهم فى المراكز الثقافية الاسلامية ٠ وذلك يؤيد أيضا معرفة الشرقيين للثقافة الاسبانية ٠ هذا المد والجزر أدى الى ابقاء الروح الفلسفى مزدهرا عند العلماء الاسبانيين المسلمين ٠

فى هذه النقطة اعتبر ــ كأساس ــ أعمال الدكتور محمود على مكى (note 13, p. 134) من كل ذلك نعمل عرضا فى تمهيد لقائمة الكتب عن مصادر الفلسفة الاسبانية الاسلامية فى آخر هذه المقالة » أيضا كل الجزء الاول من الاثر الكبير Cruz Hernandez « تاريـــخ الفلسفة الاسبانية الاسلامية » امتلأت بمعلومات تظهر ما قبلته اسبانية الاسلامية من الثقافة الفلسفية الشرقية ٠

ولو كنا فى مقارنة لوجدنا الاسلام الاسبانى مدينا لثقافة ما قبل الاسلام فى بلادنا ونحده أيضا مدينا للثقافات الاسلامية، هذه الاخيرة لها المرتبة الاولى فى كل الميادين ٠

يحدث مع الثقافة الاسبانية قبل الاسلام شيء مماثل لما يحدث مع الثقافة المسيحية في القرون الوسطى • العلاقة بالثقافة اليونانية التى جعلت العرب يفكرون فيها ثانية هذه العلاقة تحتمل ازدهارا غريبا جدا فى ميدان العلوم الكنيسية حتى كان موضوع تعجب من كبار المفكرين المسيحيين الغربيين •

2 ـ نظرة اجمالية فيما يخص بالنزعات الفلسفية المختلفة فى اسبانية الاسلامية :

قلنا ان جميع اطارات الفلسفة الاسلامية الشرقية ازدهرت فى اسبانية الاسلامية • ولذلك فمن الملائم أن نعطى فى نظرة مقتضبة فكرة عامة للانواع المختلفة المستعملة فى الفلسفة الاسلامية الشرقية •

النزعات العامة حيث نستطيع ان نلخص كل الفلسفة الاسلامية ثلاثة : الفلسة اللاهوتية ، الفلسفة الصوفية ، الفلسفة الخالصة ، وهذه الاخيرة هى التى تسمى عادة فلسفة عند المسلمين •

نستطيع ان نقسم الفلسفة اللاهوتية الى قسمين : فلسفة المحافظين الضيقين وفلسفة المتكلمين • لا يكاد المحافظون الضيقون أن يسموا أنفسهم فلاسفة فهم لاهوتيون فقط ولهم مصلحة حقيقية فى مخالفتها لانهم يعتبرونها كخطر على عقيدة الشعب • ولكن مع ذلك نستطيع ان نقول انهم شاركوا بنوع ما فى كل سلوك الفلسفة فى الاسلام • **أولا** بسبب الحرب الكلامية التى أحدثوها بين العقيدة الاسلامية والفلسفات الوثنية • **ثانيا** لان من الصعب جدا التفريق بين الفلسفة واللاهوتية فان موضوعهما هو حل المشاكل الانسانية • الواقع ان تنتخب بعض المشاكل بدلا من الاخرى ، الاحتمال الذى تدرس بها هذه المشاكل وكثير من الاشياء ، كل ذلك مشروط بالمعالجة اللاهوتية عند العلماء المسلمين • ونفس الشيء يقع مع المؤلفين المسيحيين فى العصور القديمة والوسطى : من الصعب جدا التفريق بين ما يحتوى عليه الميدان اللاهوتى البحت وبين ما يحتمل ثقافة فلسفية كوسيلة تعتمد عليها اللاهوتية •

المتكلمون أو المدافعون عن الكلام فى الحرب الكلامية تقدموا حقيقة فى ميــــدان الفلسفة • أولا لانهم يريدون حقيقة ان يستفيدوا بالفلسفة ليدافعوا عن اللاهوتية •

ثانيا لانهم يحتاجون الى تعقل الفكرة الدينية • لذلك يقبلون كل ما لا يخالف الوحى وحجتهم أنهم لا يحبون أن يبتعدوا عن كل الآخرين ولو كانوا من دين آخر، أولئك الذين يقدمون مجموعة حقائق انسانية تستطيع ان تغنى مدافعيها •

انقسم هؤلاء المتكلمون الى قسمين : أولا المعتزلة وهم الاقدمون بين اللاهوتيين المسلمين ويمثلون الفريق الاقرب الى الفلاسفة الخالصين • وثانيا أهل السنة من الاشاعرة يظهر لهم أن تصرف المعتزلة خطير جدا ويقومون بمحاولة رد فعل ضدهم • فى مشكلة الحرية الانسانية يظنون أن الله قادر على كل شىء ويحتملون أن حرية الانسان تقف أمام كلية قدرة الله • يحتلون مكانا متوسطا بين المحافظين الضيقين والمعتزلة •

النزعة الثانية فى الفلسفة الاسلامية هى التصوف • فى هذه النزعة نجد النزعتين من الشيعة (Como el de Alamût y la del sufismo Tonto el duadecimano y elseptimono)

وأخيرا النزعة الثالثة وهى الفلسفة الخالصة • فى هذه علينا أن نعتبر أنواعا مختلفة • حتى الآن كان قد تدرس فلسفة ارسطو والافلاطونية الجديدة واليوم يعطى مكان كبير للرواقية حتى أن بعض المؤلفين يقدرون ان الروافية تمثل فى الفلسفة الاسلامية نفس الاهمية التى لفلسفة ارسطو والافلاطونية الجديدة • على هذه النزعة الرواقية كنت نشرت دراسة بعنوان :

(Note 14, p. 136) « Influence du stoïcisme dans la philosophie musulmane », V[e] Congrès International d'Arabisants et d'Islamisants. Actes (Bruxelles 1970) 239-54.

لابد من ان يشكل فريق خاص مع النزعة العلمية وعلم الكون • وأخيرا علينا ان نعتبر فى الفلسفة الخالصة نزعة خاصة نستطيع ان نسميها تسمية شاملة : للتاريخ والنحو ، وعلم الاجتماع •

كل هذه أنواع الفلسفة الشرقية تمثل ثانية كاملة فى اسبانية الاسلامية • سنعطى بالاختصار فكرة عن كل واحدة •

الفلسفـــة اللاهوتية :

نستطيع أن نثبت بدون شك أن ما وجد أولا فى بلادنا هو المدارس الفقهية ، وقد قلنا سابقــــا ان المـــذهب المالكى كان هو المسيطر فى الاوساط الفقهية الاسبانية . المعارك السياسية التى تكثر فى هذه الازمنة استطاعت أن تؤيد تعدد المذاهب اللاهوتية فى اسبانية لو لم يكن اتحاد المذاهب الذى حققه عبد الرحمن بن معاوية يمنع هذا التحقق .

الاسلام الاسبانى مدين لهذا الامير وصواب رأيه فقد عاش المسلمون فى سلامة حقيقية أكثر بقية الشعوب الاسلامية . وهذا لاسباب مختلفة . أولا الحذر الـــذى نستطيع أن نسميه بالفاظ غربية الاكليروس وصواب المنهج المالكى واستقامة رأى المالكية اعنى الفقهاء . ثانيا تأييد الدولة . عذه لا تستطيع أن تقبل أية بدعة تأتى من الخارج . والا ترتب على ذلك عواقب تزيد الخلافات بين الامويين من قرطبة والعباسيين من بغـــداد .

ولكن الاتصالات بالمسلمين الشرقيين كان لا يمكن تجنبها . مقتضيان التجارة والحج كانت وسيلة لانتقالات ضرورية للافكار وللكتب التى تأتى من العلماء الشرقيين .

نستطيع ان نقول ان تاريخ الافكار للحركة التقليدية فى اسبانية لم تكتب بعد . وتستطيع ان نجد عناصر كثيرة عند المصلحين المدافعين عن الـــديـــن Apologetas p. 136 ونستطيع ان نجد معاونة أهمية كبيرة Asin Palacios خاصة عند ابن حزم . فى آثار فى هذا الموضوع .

اعطانا Cruz Hernandez بعض اسماء ممثلى أهم التيارات الفلسفية لاقدم المسلمين فى اسبانيا . فالفقهاء يمثلون التقليديين الضيقين .

وقد كان المعتزلة منتشرين كثيرا فى اسبانية بين المتكلمين ، ضحوا كثيرا فى سبيل المحافظة على عقيدتهم الاعتزالية ، مبكرا دخلت أيضا العقائد الباطنية وتكون جو يوجد فى المدارس الزهدية سمح تدريجيا لما جاء بعد من العقائد السرية فى المذاهب الصوفية غير المستقيمة الرأى، ومع الميول الصوفية بدأ فى اسبانية تذوق العلوم الشرقية . وقديما اشتهر فى بلادنا علماء مشهورون شاركوا مشاكة كبيرة فى اظهار العلـــوم الاسلامية فى أوروبا الغربية .

فى هذا المجال الخاص بالفلسفة اللاهوتية فانا اتجرأ على ان اقول : فى الميدان الكامل الذى يختص بتاريخ الفلسفة الاسبانية الاسلامية يكاد يبدأ عمل البحث • تاريخ الفلسفة الاسبانية الاسلاميةCruz Hernandezهو أحسن تلخيص يوجد حتى الآن بين كل ما نشر عن هذا الموضوع • ولكن لا يوجد أى كتاب يشتمل على كل الحقيقة عن هؤلاء الاشخاص ، وزيادة عن ذلك توجد مؤلفات ألفها هؤلاء الاشخاص بقيت غير مطبوعة وهى تمثل لنا صورة كاملة لنظرياتهم ولكن تنقصنا حتى الآن الدراسات اللازمة ـ ولو واحدة ـ للموضوعات التى تعيننا فى معرفة أصول المذاهب الفلسفية المختلفة فى بلادنا والتيارات الفكرية الثانويه حيث وجد الاشخاص الكبار مصادرهم •

لنستطيع أن نحدد هذه التيارات الفلسفية علينا ان نستعمل القواميس الخاصة بمصادر ومراجع أغلبها غير مطبوعة ولم تكتب الا باللغة العربية • حتى القواميس التى ترجمت لم تستغل بعد استغلالا ملائما ليستخرج منها كل المعطيات التى تستطيع ان تقدم الينا فى موضوع الفلسفة والفلاسفة الاسبانية الاسلامية • جزء كبير من المواد الضرورية لهذا العمل علينا ان نبحث عنها كما قلنا سابقا عند المدافعين عن الدين •

اذ ان هذه المسألة أمامها عوائق كثيرة لا نستطيع ماديا ان نعطى فكرة ولو قصيرة لتطبيق هذا العمل • لهذا السبب فان المختصين الكبيرين بهذا الموضوع Asin Palacios و P. Alonso, لم يجرؤا ان يؤلفا ملخصا يستطيع ان يلخص تاريخ الفلسفة الاسبانية الاسلامية • هذا العمل يحتاج الى تكوين فروق للبحث ليجمعوا المعطيات التاريخية الموجودةفىهذه القواميس عند المدافعين عن الدين والمؤرخين العربفىاسبانية الاسلامية. بالمقارنة بين هذه المصادر نستطيع ان نفرق بين الاكيد والمشكوك فيه • من الواجب أيضا ان نبحث بعمق فى المحفوظات القديمة حيث توجد الكنوز العربية التى تستطيع ان تخصص لنا مفاجآت كبيرة • علينا أيضا ان نعد نشرات نقدية لكل هذه المصادر لكى نستطيع ان نحقق ملخصا تاريخيا للفلسفة الاسبانية الاسلامية •

لننتهي من هذا الوصف العام اقدم اليكم تلخيصا صغيرا لاهم الفلاسفة فى اسبانية الاسلامية • يجب ان نبدأ بالتدليل على اننا لا نجد بينهم أحدا يدخل فى تصنيف التيارات الفلسفية اليونانية • لن نجد حقيقة أى مؤلف تبنى مطلقا طريق ارسطو

وافلاطون والرواقية • ونقول فى ذلك ان التصنيف الذى نقدمه اليكم من الفلاسفة فى اسبانية الاسلامية فى النطاق العام يختص بالتيارات الفلسفية الاسلامية المختلفة ليس على الاطلاق • وانما نعين الفلاسفة الاسبانيين الذين عبروا عن افكارهم بالعربية حسب أهميتهم فى تعليمهم •

أهم الشخصيات فى المدرسة الفلسفية اللاهوتية هو ابن حزم (994 م ـ 384 هـ ، 1063 م ـ 456 هـ) •

فى المدرسة الصوفية من الصعب ان نميز بين ما هو شيعى أو صوفى عند الصوفيين المسلمين الاسبانيين • ومن الصعب أيضا ان ندقق ميلا افلاطونيا بحتا جديدا • نستطيع أن نقول ان أكبر متعة عند هؤلاء الصوفيين المسلمين هو العلاقة مع الافلاطونيـــة الجديـــدة •

وجدنا من الانفع ان نضع قسمين كبيرين عامـين : الفلسفة الصوفية والفلسفة البحتة• فانه حتى فى الفلسفة البحتة ليس من السهل التمييز بين الميول الثلاثة المهمة : الارسطوطلية والافلاطونية والرواقية • لذلك سنجمع فى نفس القسم الصوفيـــة والافلاطونية الجديدة وفى قسم الفلسفة البحتة سنجمع كل هذه الميول المختلفة •

فى ميدان الصوفية أشهر المؤلفين هم : Inb Masarra (269 - 319) 883 - 931

Ibn Arabi (560 - 638) 1164 - 1240,
ومدرسة Ibn Al-Arif de Alméria (481 - 536) 1088 - 1141, Pechina de Murcia,
Ibn Saba'in 1270/669) de Murcia.

فى ميدان الفلسفة البحتة نشير فقط الى المشهورين وهم :

Ibn Al-Sid 444/1502 - 521/1127) de Badajoz, Abu Salt (469/1067 - 529/1134 de Denia, Avempace (1070/553 - 1138), Ibn Tufayl (1110-580/1185), Ibn Rochd (520/1126 - 592/1198). Ibn Tumlus (1175-620/1223) de Alcira.

فى الفلسفة البحتة زيادة عن الفلاسفة الارسطوطليين ـ الافلاطونيين الجدد حيث علينا ان نلاحظ كثيرا من الافكار الرواقية من الواجب أن نشير أيضا الى تيار له قوة كبيرة فى اسبانية الاسلامية ويكون فيما بعد واحدا من أقوى المثيرات يجتـذب الى اسبانية البحث عن العلم العربى عند المفكرين الغربيين خاصة عند المدرسيين (Sholastiques). وهذا هو التيار العلمى حيث تختلط معارف التنجيم والكيمياء القديمة والفلك والطب

والفلسفة . أظهر Cruz Hernandez في تاريخه الذى يختص بالفلسفة الاسبانية الاسلامية أهم الاتجاهات في هذا التيار العلمي (note 15, p. 138) L.C., I, 209-220) أشهر الممثلين هم : أبو القاسم مسلمة من مدريد ،395هـ/1004م ـ 398هـ/1007م) . الطبيب والفلكى الشهير من غرناطة Asbay C. M. Al-Samh (+ 426/1035) والرياضى والفلكى الشهير من قرطبة أبو اسحق النقاس بن الزرقالة معروف في الغرب باسمه : Azarquiel (+ 493/1100).

فى نهاية فى قسم الفلسفة البحتة علينا أن نشير أيضا الى التيار الذى سميناه سابقا تيار تاريخى نحوى اجتماعى . هذه هى الثلاث نقاط البارزة التى يتميز بها أسلوب خاص للفلسفة . التاريخ يؤلف قوام هذه العناصر الثلاثة بحيث نستطيع أن نطلق عليه اسم فلسفة التاريخ لا تاريخ الفلسفة . النحو يلعب أيضا دورا مهما فى هذا الاسلوب للفلسفة وختاما علينا أيضا أن نتكلم عن علم اجتماعى لانه يحتوى على دراسة العناصر التاريخية الثابتة فيما يخص الطبيعة الانسانية ليكتشف فيها اندفاعة الحياة التى توقع أكبر الحوادث فى البشرية . واختصارا نستطيع أن نقول عن التاريخ وعن النحو وعن العلم الاجتماعى انها تخدم الفلسفة لتصل الى ما وراء الطبيعة فى الاشياء . فى الاسلام الاسبانى أهم ممثلى هذا الاتجاه كان ابن حزم وقد تكلمنا عنه سابقا، وابن خلدون (1332م/732هـ ـ 1406م/808هـ) . هذا الاخير ولو لم يولد فى اسبانية فانه يستطيع ان يعتبر كخاتم ذهبى يختم كل الثقافة الاسبانية الاسلامية . اذ أن سلالته الاسبانية جعلت كل مصادر علمه خاصة فى فلسفة التاريخ أتت من اسبانية الاسلامية .

مشروع لنشر آثار ابن رشد

سنقول كلمة عن مشروع لنشر آثار ابن رشد،بدأ تحقيقه كمثل علينا ان نحققه لكل الفلاسفة ولكل تيارات الفلسفة الاسبانية الاسلامية . فكرة هذا المشروع أتت من الاستاذ Miguel Cruz Hernandez كاتب المجلس العالى للابحاث العلمية Consejo Superior Investigaciones Cientificas أعطى لهذا المشروع الدفعة الاساسية واكتسب مساعدة لتحقيق هذا المشروع من اللجنة المساعدة للبحث العلمى والتقنى Comision a sesora de investigacion cientifica y tecnica للمؤتمر الدولى لفلسفة القرون الوسطى الذى تم احتفاله فى اسبانية فى أيلول سنة 1972 يقدم لنا الفرصة لبدء هذا العمل .

بدأ العمل لاتحاد كل المشاريع التى توجد حالا لنشر آثار ابن رشد • الخطـوات الاولى فى تحقيق هذا المشروع لقيت قبولا مناسبا فى المنظمات المذكورة •

يحتمل المشروع بعض الاقسام والبعض منها متقدم فى العمل • بدأ تحقيق آثار ابن رشد مع لائحة كاملة لمصادره ومراجعه • عين من قبل مكان كل منشوراته الموجودة وتبذل كل الجهود الممكنة لاكتسابها ولتكوين مكتبة بآثاره كاملة على قدر الامكان •

ربما كان الاصعب هو تعيين موضع مخطاطات ابن رشد • فى هذا المجال حققنا كل قوائم المخطوطات العربية الموجودة فى العالم • وسنعمل نفس الشىء مع المخطوطات العبرانية وسنستمر فى هذا العمل مع التراجم اللاتينية لنفس المؤلف •

بدأ العمل لاكتساب كـل هده المخطوطات العربية وهذه التراجم العبرانية أو اللاتينية • ان آنسة Maria J. Conzalez Haba نفذت قبلا أعمالها لتحقيق تعيين اماكن المخطوطات المذكورة فى بلدان أوروبا الوسطى وفى الامـم الاشتراكية وبـدئى فى اكتسابها • وقدم Sr. Latham بيانا بكل ما يوجد فى بريطانيا العظمى وفى أيرلندا •

فيما يخص اكتساب كل هذه المواد قبلنا تقديما مشكورا من الافلام المصغرة للمخطوطات الموجودة فى أهم المحفوظات لجامعة الدول العربية فى القاهرة • جمعنا قبلا كـل المخطوطات الموجودة فى اسبانية •

تجولنا شخصيا لبنان سوريا العراق مصر المغرب والجزائر لقصد نقل المخطوطات المحفوظة فى هذه البلدان • نرجو تقريبا ان نقصد أيضا ما يوجد منها فى المكتبـة الكبيرة فى Leyden وفى مكاتب فرنسا (فى باريس خاصة) وفى مكاتب البلدان الاخرى كلها • من تونس ومن روما بالخصوص •

غاية المشروع هى نشر كل آثار ابن رشد فى مجموعة واحدة • ولكيلا نوزع جهودنا نطلب ان تدمج فى هذا المشروع منشورات آثار لابن رشد طبعت قبلا أو تكاد تطبع • يجب فى هذه المجموعة الكبيرة ان تحتوى على طبعة محققة ومعلق عليها فيما يخص النص الاصلى العربى ، التراجم العبرانية أو اللاتينية من القرون الوسطى ونهائيا ترجمة اسبانية لكل هذه الآثار •

العمل صعب ولكننا نقدر أن الخدمة المؤدية لتاريخ الفلسفة الاسبانية الاسلامية ستكون كبيرة جدا ·

ما نفعله مع ابن رشد يجب ان يكون مع كل الفلاسفة المسلمين الاسبانيين · ولهذا يجب تكوين جماعة، لان شخصا واحدا لا يكفى لهذا العمل، وعلى هذه الجماعة أن تعمل لاعداد أحسن الطبعات الممكنة مع تراجم باللغات الاوروبية · وفى المقدمة تحقيق المحفوظات الموجودة خاصة فى البلدان العربية · متى زرنا هذه المكاتب راقبنا هذه الكنوز الثمينة جدا التى تحافظ عليها · ويكون من الممتع أن تهيىء الفرصة لكى تفتح المكاتب الخاصة أيضا لعامة الناس كنوزها مع قوائم الكتب الجدية ليستفاد منها · بعد تحقيق هذا العمل الاساسى يستطاع أن نبدأ تأليف مجمل تاريخى للفلسفة الاسبانية الاسلامية ·

لائحة أهم المصادر للفلسفة الاسبانية الاسلامية

سنقصد نشر فى دراسات فردية خاصة، وأكمل ما يمكن قائمة بالمصادر والمراجع لكل الفلاسفة الاسبانيين المسلمين، والآن نرى انه من الفائدة أن نعرف العناصر العامة· للائحة المصادر والمراجع التى تمهد لمصادر هذه الفلسفة ·

لا ندعى اننا استوفينا الموضوع ومن الافضل ان نقدم لمحة عن لائحة المصادر لنعين الاشخاص الغير المتخصصين وأيضا المتخصصين الذين يرغبون فى اتجاه نحو بحث أعمق عن المفاهيم الفلسفية الاسبانية الاسلامية · لاننا لا نستطيع أن نقدم لائحة المصادر كاملة وهذا هدف لعمل مستقبل يؤمل ان يحقق لكل الفلاسفة الاسبانيين المسلمين ·

نرغب أيضا فى ان نخبر قراءنا أن المعهد الاسبانى العربى للثقافة يكاد يعد مجموعة من البطاقات فى حلقة دراسية خاصة للفلسفة عن الفلاسفة الاسبانيين المسلمين · تكون المصدر الاول للمراجع والمصادر الذى سيوضع تحت تصرف الذين يريدون ·

1 ـ مؤلفات عامة

زيادة عن قواميس ودوائر المعارف عامة نظنها معروفة عند قرائنا أريد ان أشير الى اثنتين تتناسبان بصفة خاصة مع الفلسفة الاسبانية الاسلامية ٠

— Encyclopédie de l'Islam

فهى مترجمة بالانقليزية ومنشورة من جديد تكاد تطبع بدأت فى عام 1954 : تكمل المنشورة السابقة بشىء ما وبعض مقالاتها جديدة تماما (Leiden 1913 - 1938) ;

— Shorter Encyclopaedia of Islam (Leiden 1953).

— T. Zamarriego, Enciclopedia de orientacion bibliografica.

أربعة مجلدات ٠ ما يخص الفلسفة وخاصة الفلسفة الاسلامية يوجد فى المجلد الثانى (Barcelone 1964) ٠ لا يتكلم الا عن الاشخاص الكبار وفى اطار لمنتخب ضيق الى حد ما للائحة المصادر والمراجع ٠ وكل بطاقة المراجع والمصادر معها تقدير خاص ٠

لتعيين موضع المخطوطات لابد ان نتوجه الى بحث عن الفهارس التى تصفها ٠ على هذا الوجه الكتاب الاساسى هو :

— A. J. W. Huisman, Les manuscrits arabes dans le monde. Une bibliographie des catalogues (Leyden 1967).

فيما يخص المخطوطات من الممتع خاصة ان نراجع :

— C. Brockelmann, Geschichte der arabischen Litteratur. 5 vol. (Leiden 1943).

— F. Sezgin, Geschichte des arabischen Schriftams (Leiden 1967).

ظهرت قبلا ثلاثة مجلدات ٠ هذا الكتاب احد الكتب الهامة التى تظهر الآن لمعرفة المصادر ٠ فيه فائدة للمخطوطات وللفهارس ٠

— M. Steinschneider.

لكيلا نثقل لائحة المصادر والمراجع بكل هذه الكتب التى توجد فى أى مكتبة من المكاتب المتخصصة فى المواضع الاسلامية لا نشير الا الى هذا المؤلف كأساس لتعيين موضع المخطوطات العربية اليهودية والعبرانية ولمعرفة التراجم ٠

ومن الكتب العامة التى تهتم بالفلسفة الاسبانية الاسلامية يجب ان نشير الى الكتب الآتية :

— P. J. De Menasce, Bibliographische Einführungen in das Studium der Philosophie herausgegeben von I. M. Bocheurki. 6 Arabische Philosophie (Bern 1948).

هذا الكتاب هو واحد من لائحة المصادر والمراجع الكاملة والجادة ·

— F. M. Pareja, Islamologio (Madrid 1954). 2 vols.

كتاب عام ولكن فى آخر كل باب لائحة المصادر والمراجع تجذب اهتمام القراء

— Th. Arnold y A. Guillaume, El legado del Islam (The legacy of Islam).

نقل من الانجليزية E. de Tapia (Madrid 1944) الابواب المتكرسة للفلسفة والمواد مثلها هى ممتعة جدا ·

— R. Walzer. Greek into Arabic. Essays into Islamic Philosophy (Oxford 1963).

فى هذا الكتاب كله مراجع كثيرة عن الفلسفة الاسبانية الاسلامية · كل ما نشره هذا المؤلف ذو قيمة كبيرة · يجب ان نعتبر بكل منشوراته ·

— G.E. V. Grunebaum.

احد المؤلفين الذين نستفيد من معرفته · كل كتبه ممتعة وخاصة :

Medieval Islam. A Study in cultural orientation (Chicago 1954), y Logic in classical Islamic culture (Wiesbalen 1970).

ها هم مؤلفون آخرون يحسن ان نعرفهم :

— M. Watt, Ahistory of Islamic Spain (New-York 1968).

له كتب أخرى تتوفر فى المكاتب المتخصصة · وأيضا

— R. Brunschvig.

للمقارنة بين الفلسفة اليونانية والعربية ·

— A. Müller, Die griechischen Philosophie and die arabische Ueberliferung (Halle, s. f.).

كل المجلات المتخصصة فى الدروس العربية مهمة بنسبة موضوعنا ، التى لها صلة بالفلسفة الاسبانية الاسلامية هى :

— Al-Andalus, Madrid.
— Miscelanea de Estudios Arabes y Hebreos, Granada.
— Pensamiento, Madrid.
— Revista del Instituto Egipcio de Estudios Islamicos, Madrid.
— Mélanges de la Faculté Orientale de l'Université de St Joseph de Beyrouth. Beirut.
— Mélanges de l'Institut Dominicain d'Etudes Orientales, El Cairo.

2 ـ تواريخ عامة عن الفلسفة تقدر بها الاوجه الاسلامية

— G. Fraïle, Historia de la Filosofia, II. Judaismo, Cristianismo, Islam (Mdrid 1959-66).

له معيار نظامي أكثر من معيار تاريخي ولا يستفيد مباشرة المصادر · كتلخيص أعمال الغربيين مقبول ·

— F. Uberweg, Grundriss der Geschichte der Philosophie, II (1928).

كتاب المراجعة الاساسي للتمهيد · توجد خاصة مصادر سهلة المنال للغربيين ·

3 ـ تواريخ عامة للفلسفة الاسلامية

لها صفات عامة ولكنها تكتسب أشياء لها أهمية عن الفلسفة الاسبانية الاسلامية وخاصة عن أهم الاشخاص · الكتب الاساسية هي :

— S. Munk, Mélanges de Philosophie juive et arabe (Paris 1927).

هو قديم قليلا ولكنه يستفاد منه المصادر الخاصة في تراجمه العبرانية · دراسته تحتفظ بقيمتها حتى اليوم ·

— M. M. Sharif, A History of Muslim Philosophy, 2 vol. (Wiesbaden 1963 - 1966).

هو تاريخ على أساس دراسات وحدية معدة عند المتخصصين · ليس لكلها نفس القيمة ولكنها على العموم دراسات لا بأس بها ·

— H. Corbin, Histoire de la Philosophie Islamique I (Paris 1964).

له أهمية كبيرة لان هذا التاريخ مأخوذ من الاسلام · يبرز بالخصوص ان الفلسفة الاسلامية مدينة للثقافة الايرانية ·

— M. Fakhry, A History of Islamic Philosophy (New-York - Londres 1970).

يكرس بابا للفلسفة الاسلامية في اسبانية خاصة لابن رشد ·

— T.J. De Boer, The History of Philosophy in Islam (Geschichte der Philosophie in Islam 1901)
ترجم E.R. Jones. New-York 1967 -

يحتوي على دراسات كثير من المؤلفين الاسبانيين المسلمين · وبرغم انه قديم فانه يحتفظ بقيمته حتى اليوم ولذلك يترجم ·

— M. Horten, Die Philosophie des Islam in ihren Beziehungen zu den philosophischen Weltanschaungen des westlichen Orients (München 1924).

الجزء الاخير منه نوقش بعد ولابد ان يراجع ولكنه دراسات جدية ·

— G. G. Quadri, La philosophie arabe dans l'Europe médiévale des origines à Averroës. (Paris 1967) Roland Huret. تـرجـم

— Le filosofia degli Arabi nel suo fiore. I Dalle origini fino a Averroe ; II Il pensiero filosofico di Averroe (Firenze 1939).

1) من الاصول الى ابن رشد ٠

2) الفكر الفلسفى لابن رشد ٠ هذا التاريخ يهم اجيالا كثيرة ولكن يخطىء عند ما يظن ان الفلسفة العربية تنتهى فعلا مع ابن رشد ٠

— A. Schmoelders, Documenta Philosophiae Arabum (Bonn 1836).
— Essai sur les écoles philosophiques chez les Arabes (Paris 1842).

هذه الكتب برغم انها قديمة فانها تستحق ان تعتبر حتى فى أيامنا هذه ٠

4 ـ تواريخ خاصة للفلسفة الاسبانية الاسلامية

لا يوجد الا الكتابان الآتيان :

— M. Cruz Hernandez, Historia de la Filosophia Sspanola. Filosofia Hispano-Musulmana (Madrid 1957), 2 vols.

وحتى الآن هو أحسن ما كتب ٠ زيادة عن ابحاث المؤلف نفسه يستفاد من أعمال Asin Palacios كتلخيص لكل ما يوجد يكون كاملا تقريبا ٠ لابد من ان نلحق ـ متتالية ـ كل الاعمال التى تصنع حسب الاتجاهات التى رأيناها فى الاوراق السابقة ٠

— M. Cruz Hernandez, La Filosophia Arabe (Madrid 1963).

هو تلخيص مجلدين موصوفين سابقا مع عناصر جديدة وامتداد للتاريخ حتى أيامنا هذه فى مجمل التاريخ للفلسفة العربية بصفة عامة ٠

5 ـ دراسات خاصة عن الفلسفة الاسبانية الاسلامية

فانها موزعة فى كثير مما كتب : Asin Palacios أثمنها بدون شـك دراسـات كتب ، مقالات فى كثير من المجلات ٠ لائحة مصادر ومراجع تلزم لعدة صفحات ولكننا والحمد لله نكسب لائحة مصـادر ومراجـع لـ Asin Palacios D. Emilio Garcia Gomez فى مجلة مدرسة الدروس العربية : الاندلس ٠

— E. Garcia Gomez, Esquema de una bibliografia de Miguel Asin Palacios.

مخطط لائحة المصادر والمراجع لـ Asin Palacios

Al-Andalus 9 (1944) 267-93.

باحث كبير آخر هو Manuel Alonso كل قائمة مصادره ومراجعه ـ حتى ولو لم تنشر ـ جمعت فى كتاب ظهر اكراما له فى ذكرى وفاته •

— S. Gomez Nogales, « Bio-Bibliografia del P. M. Alonso », Pensamiento 25 (1969).

توجد بعض أسماء اساسية ولابد من ان تعتبر فى أى لائحة المصادر والمراجع عن دراسة للفلسفة الاسبانية الاسلامية •

— M. De Bouyges.
— M. Cruz Hernandez.
— D. Cabanelas.
— A. Cortabarria.

نشرت فى مقالة من المجلات الاخيرة Mideo للادباء الدومنكيين فى القاهرة « الحالة الراهنة عن الدروس العربية فى اسبانية » • هذا هو عمل سابق ظهر فى Santander سنة 1968 •

بالنسبة الى الفلسفة الاسبانية العربية نفسها نشرنا مقالة نقدر انها ممتعة •

— S. Gomez Nogales, « Situacion actual de las investigaciones sobre filosofia musulmana en Espana. Dialogo Ecuménico 8 (1967) 377-88.

« موقف راهن عن ابحاث فى الفلسفة الاسلامية فى اسبانيـــة لـ Gomez Nogales

يوجد تلخيص كل ما نشرنا عن الفلسفة الاسبانية الاسلامية ويستطيع ان يشار اليه فى أول كتابنا :

— La filosofia musulmana y su influjo determinante en el pensamiento medieval occidental. (Estado actual de la polémica) (Madrid 1969).

عثمان الكعاك يترجم هذا الكتاب ويكاد ينشر فى تونس فى الـدار التونسيـة للنشر • (M. T. E.)

قائمة المصادر والمراجع هذه تصل الى سنة 1968 ومن بعد ذلك نشرنا بعض مقالات فى مجلات متخصصة •

يوجد كتاب ظهر حديثا ونعتقد أن له أهمية كبيرة للفلسفة الاسبانية الاسلاميـة خاصة فى ناحية الفقه وفى تأثير الاسلام الشرقى فى وطننا :

— M. A. Makki, Ensayo sobre las aportaciones orientales en la Espana Musulmana y su influencia en la formacion de la cultura hispano-arabe (Mdrid 1968).

وهذا الكتاب فريد فى نوعه وفيه فوائد كبيرة للدولة على المصادر ·

دراسة أخرى عامة رسمت بطريقة خارقة للعادة الاطار التاريخى للفلسفة الاسبانية الاسلامية هى الآتية :

— C. Sanchez Albornoz « Espagne pré-islamique et Espagne musulmane ». Revue historique 237, 2 (1967) 295-338.

بصفة عامة كل كتب لـ D. Claudio خليقة أن تعتبر للبيئة التاريخية فى هـذه المـادة ·

6 ـ كتب عن اللاهوتية الاسبانية الاسلامية

فى الاسلام لا تنفصل اللاهوتية عن الفلسفة · ويلزم لدراسة الفلسفة ان نعتبر باللاهوتية ·

يستطيع القارىء ان يجد لائحة المصادر والمراجع فى :

— M. De Epalza « Bibliografia general arabe e islamica en Espana (1960-64). Boletin de la Asociacion Espanola de Orientalistas 2 (1966) 131-76.

هذه اللائحة جيدة من وجهة النظر الدينية ·

هذه الكتب الآتية أساسية فى هذا الموضوع :

— L. Gardet et G. Anawati, Introduction à la théologie musulmane (Paris 1948).

هذا الكتاب كمثال نستطيع ان نأخذه كسلوك فلسفى من كتاب لاهوتى ·

هذه العلاقات بين الفلسفة واللاهوتية الاسلامية نستطيع ان نراها فى كتاب :

— M. Horten, Die philosophischen Système der spekultiven theologen im Islam nach original quellen dargestellt (Bonn 1912).

ونفس شىء نقوله عن :

— M. S. Seale, Muslim Theology (London 1964).

يستطيع بعضهم أن يناقشوا العنوان الذى أعطاه P. ALONSO لنشر بعض آثار ابن رشد · هكذا يثبتون أطروحتنا بالعكس : فى آثار فيلسوف بحث فى الاسلام رؤيته اللاهوتية لا تعيب :

— M. Alonso, Teologia de Averroes. Estudios y Documentos (Madrid - Granada 1947).

7 ـ كتب عن التصوف الاسباني الاسلامي ٠

وقد يكون العنوان غريبا على الغربيين ٠ وكان يظهر على هذه الكتب أنها لا تنتظم في اللاهوتية ولا في الفلسفة ٠ ولكن المتصوفين العرب يقدمون رؤيتهم الفلسفية في آثارهم الصوفية وليس من السهل أن ترى الفرق بين كيف يعالج المواضع المتصوفون المسلمون وكيف تطرح نفس الاسئلة الفلسفة اليونانية مثلا الافلاطونية الجديدة ٠

بصدد ذلك يجب أن يذكر هنا كل كتب لـ Asin Palacios على الاقل كتاب من أهمها هو :

— M. Asin Palacios, El Islam Cristianizado. Estudio del sufsmo a través de las obras de Abenarabi de Murcia (Madrid 1931).

ترجم عبد الرحمن البادوى هذا الكتاب : ابن عربى ، القاهرة 1959 ٠

كلاسيكى آخر في هذا الموضوع هو L. Massignon برغم أن تخصصه هو المتصوفون الشرقيون غالبـــا. ففى كتبه مراجع مهمة لمؤلفين اسبانيين ٠ بنظريته العامة عن التصوف الاسلامي يمثل وضعا يختلف قليلا عن وضع Asin Palacios يعتقد هو أن التصوف الاسلامي تأثر بالتصوف المسيحى بينما Massignon يعتقد أنـــه نتيجة التأمل الداخلى في نصوص القرآن ٠ في بعض الوجوه Massignon يكمل Asin Palacios مثلما في اللاهوتية لنا كتاب جيد عن التصوف الاسلامي ٠

— C. G. Anawati et L. Gardet, Mystique Musulmane (Paris 1961).

واحد الكلاسيكيين في التصوف هو :

— J. Maréchal, Etudes sur la psychologie des mystiques. 2 vols. (Paris 1937).

له باب ممتع جدا عن التصوف الاسلامي يفيد التصوف الاسباني فيما يخص قيمتـــه العامة كقيمة دراسة المؤلفين ٠

يوجد مؤلف قارن مقارنة ملهمة بين التصوف الاسلامي وفكر الفلسفة الشرقية ٠ قوام هذه المقارنة قدمه اليه الاسباني ابن عربى ٠ الكتاب الذى يلخص نتائج المقارنة هـــو :

— T. Izutzu, The concept of reality of Existence (Tokyo 1971).

بالنسبة الى العلم الاسبانى الاسلامى يجب الرجوع الى الكتب الآتية :

- F. Fernandez, La medicina arabe en Espana (Barcelona 1936).
- M. Meyerhof, « Esquisse d'histoire de la pharmacologie et botanique chez les Musulmans d'Espagne », Al-Andalus 3 (1935) 1-43.

ولكن فى كل ما يخص العلم الاسبانى الاسلامى يجب الرجوع الى مدرسة المستعربين لكلية برشلونة . الاستاذ الكبير Millas Vallicrosa — نجح فى أحداث ميل فى هذه الكلية الى المواضيع العلمية . على هذا الوجه يجب على من يريد أن يدخل فى هذا الميدان أن يستبشر كل آثار Millas و Vernet و Samso . أذكر بعضا منها كمثال :

- J.ᵉM. Millas Vallicrosa « Sobre la valoracion de la ciencia arabigo-espanola de fines del siglo X y principios del XI », Al-Andalus 12 (1947) 199-210.
- J. M. Millas Vallicrosa, Estudios sobre la historia de la ciencia espanola (Barcelona 1949).
- J. M. Millas Vallicrosa, Estudios sobre Azarquiel (Madrid 1943-1950).

يجب التنبيه الى كتابين اكراما لـ Millas :

- J. Vernet, Historia de la Literatura arabe (Barcelona 1968).
- J. Vernet, Los Musulmanes espanoles (Barcelona 1962).

ولكن نستطيع أن نقول ان ما هو أثمن عند Vernet يظهر هنا وهناك فى كثيرة من وحدة الموضوع غير واسعة ولكنها من سعة الاطلاع . وهذه الدراسات تضع الاسس لتفسير بعض النقاط الغامضة سابقا فيما يخص العلم الاسلامى عامة والعلم الاسبانى خاصة . عند Vernet توجيه عند J. Samso.

فى ما يختص العلم الاخير التاريخى النحوى الاجتماعى الكتب الآتية تستطيع أن توجه القارىء :

- R. Arnaldez, Grammaire et théologie chez Ibn Hazm de Cordoue. Essai sur la structure et les conditions de la pensée musulmane (Paris 1956).
- Nassif Nassar, La pensée réaliste d'Ibn Khaldûn (Paris 1967).

من الغريب أن نرى أنه مع أن الطرايق المختلفة بداية ونهاية للثقافة الفلسفية الاسبانية الاسلامية فانها سارت فى اتجاه واحد . أعظم من يمثل هذا هم ابن حزم الذى بدأ بشهرة واسعة فى الفلسفة فى بلادنا ، وابن خلدون الذى كما قلنا سابقا تنتهى به أيام الثقافة الاسبانية الاسلامية .

8 ـ كتب عن العلم الاسبانى الاسلامى ٠

بصفة عامة تذكر فيما ذكرناه سابقا ٠ لابد أن نستشير :

— G. Sarton, Introduction to the History of Science. 3 vols., 5 t. (reprint Baltimore 1953).

برغم ان هذا الكتاب يكون عاما توجد فيه كثيرة من مراجع الى العلم الاسلامى على العموم والى العلم الاسبانى على الخصوص . زيادة عن ذلك ألف بعض مقالات عن العلم الاسلامى :

— G. Sarton, « Arabic science an learning in the fifteenth century. Their decadence and fall ». Homenaje a Millas Vallicrosa II, 301 ss.

— G. Sarton, « Oriente y Occidente en la historia de la ciencia », Al Andalus 2 (1934) 263-99.

يوجد أيضا كتاب حديث عن العلم العربى :

— L. Massignon et R. Arnaldez, La science arabe (Paris 1957).

فى هذه المادة كتاب A. Mieli ، ثمين جدا وكلاسيكى :

— A. Mieli, La cience et son rôle dans l'évolution scientifique mondiale (Leiden 1931).

للمقارنة بين العلم والفلسفة الاسلامية الكتاب الآتى جيد جدا :

— S. H. Nasr, An introduction to Islamic cosmological doctrines (Cambridge 1964).

مؤلف آخر كلاسيكى فى تاريخ العلم الاسلامى يهتم به العلم الاسبانى هو :

— F. Wiedemann, Uber die Naturwissenschaften bei den Arabern (Separata) (Hamburg 1890).

— F. Wiedemann, Zur Astronomie und Mathematik bei den Arabern (Berlin 1922).

أيضا الكتاب :

— H. F. Wustenfeld, Geschichte der Arabischen Aerzte und Natur forscher (Hildesheim 1963).

فى ميادين معينة تخص العلم الاسلامى يجب أن نستشير :

— M. Ullmann, « Die Medizin im Islam », Handbuch der Orientalistik. Erganzungsband VI (Leiden-Köln 1970).

— S. Hamarheh, Bibliography on Medicine and Pharmacy in Medieval Islam, mit einer Einführung Arabismus in der Geschicte der Pharmazie ven Rudolf Schmitz (Stuttgart 1964).

— O. Spies, « Beiträge zur medizinisch - pharmazeutischen Bibliographie des Islam ». Der Islam (Berlin) n. 44 (1968) 138-73.

هو تكملة مفيدة للكتاب السابق ويذكر عنه بعض الاهمال وبعض الاشياء التى فى غير محلهـــا ٠

— H. Sutter, Die Mathematiker und Astronomen der Araber und ihre Werke (Michigan 1963).

9 ـ مطبوعات نقدية ومنشورات ٠

من المحال أن نعدد هنا كل المطبوعات التى ألفت عن الفلسفة الاسلامية الاسبانية ٠ بدأنا نعد قائمة كاملة نرجو أن ننشرها يوما ٠

ولكى ندل على بعض منها وهى التى نستطيع أن نعتبرها كمثال يجب أن نذكر، زيادة عن مطبوعات لـ Asin Palacios ، مطبوعات لـ M. de Bouyge y la Mediaeval Academy of America فى مطبوعاته بتقديم حسن تحت اشراف Wolfson.

— H. A. Wolfson, « Revised plan for the publication of a Corpus Commentarisrum in Aristolelem submitted to the Mediaeval Academy of America ». Speculum 6 (1931) 412-27.

يجب أن يذكر أيضا كمثال لما يلزم أن نعمل لكل فيلسوف اسبانى اسلامى : ما يحدد هنا لتفاسير لارسطو يجب أن يطابق كل الآثار الاخرى ٠

10 ـ تراجم آثار لفلاسفة اسبانيين اسلاميين ٠

ها هو احد الابواب الاخرى يجب أن تعتبر : فهارس التراجم اللاتينية من القرون الوسطى التى تسيطر علينا Aristoteles Latinus يعطينا الآن بعض المفسرين ٠

على هذا فان الذين يقدمون لنا تراجم بلغات غربية لهم فضل عظيم ٠ هذه اللائحة طويلة ونتركها للمستقبل بعد ان نشرنا لائحة كل المؤلفين ٠ يكفى لنا ان نذكر هنا اسماء بعض المترجمين ٠

Asin Palacios, Manuel Alonso, Quiros, la Mediaeval Academg of America, Gauthier, Van Den Bergh, Morata.

نرجو أن يكون عند القراء الوعى الكامل عن حدود عملنا وتبريره ٠ لم ندع الا أن نعمل مقدمة للموضوع وأن نشير قليلا الى أوجه النقص لكى نفتح الطريق أمام الباحثين للاعمال الواسعة التي تستحق التحقيق فى ميدان من أشهر الميادين فيما يخص تاريخنا للفلسفة الاسبانية ٠

الخليفة العباسى المأمون ودوره فى تطور فكرة السيادة الاسلامية (*)

تلمان ناكل
جامعة بون
جمهورية ألمانيا الاتحادية



ان الحركة الهاشمية التى قضت على سيادة بنى أمية فى شرق العالم الاسلامى كانت حركة متعددة الفئات، مختلفة الاصول . وكان أصلها الرئيسى الفرقة الكيسانية، وهم منتحلو آراء المختار بن أبى عبيد، وعندما فشلت ثورة المختار على ممثل ابن الزبير انقسمت هذه الفرقة وقال بعضهم اننا لا نقاتل العدو من أجل محمد ابن الحنفية ، انما نقاتله من أجل امامة الرضا من آل النبى كائنا من كان .

وكان عامر بن شراحيل الشعبى المحدث المشهور قد خرج مع المختار ثم بعد هزيمة الكيسانية اعرض عنهم وقال يذمهم : لو كانت الشيعة من الطير كانوا رخما ولو كانوا من الدواب كانوا حميرا وقال الشعبى مرة أخرى أحب صالح المؤمنين وصالح بن هاشم ولا تكن شيعيا (1) . وقد قصد الشعبى بهاتين العبارتين ذم الافراط فى التشيع لشخص معين دون بنى هاشم كلهم كما أراد ان يعبر عن ميله الى حب آل الرسول . ومن آل الرسول بنو أبى طالب بن عبد المطلب وبنو الحارث وبنو العباس وغيرهم .

(*) محاضرة ألقاها فى المركز الثقافى الاسلامى بالعاصمة بتاريخ 28 فبراير 1977 .
(1) أنظر ترجمة عامر بن شراحيل الشعبى فى طبقات ابن سعد .

تدل مقالات الشعبى على ان التيار السياسى والدينى الذى غرضه استبدال خلافة بنى أمية بسيادة من هو أقرب رحما الى الرسول قد صار أوسع ابعادا بعد هزيمة المختار • نشاهد نفس الشيء فى اشعار الكميت بن زيد التى مدح بها آل النبى يعنى بنى هاشم كلهم واشعاره مشهورة جدا لا حاجة الى ايرادها هنا •

استولى بنو العباس على الحركة الهاشمية فيما بعد • ولكن المصادر التاريخية تدل بصراحة على ان فروع بنى هاشم لم يتنازلوا طوعا عن حقهم فى الامر • مثلا كان عبد الله بن معاوية العلوى قد خرج على سلطان بنى أمية فى الكوفة ثم هرب الى فارس وأسس هناك أول دولة هاشمية مستقلة فى 129 هـ • فلحق به رجال من بنى هاشم منهم المنصور الذى صار الخليفة العباسى الثانى فيما بعد • ولكن ابن ضبارة القائد الاموى انتصر على جند عبد الله بن معاوية فلجأ العلوى الى أبى مسلم الذى كان يقيم بمرو حينئذ • فحسبه أبو مسلم فورا ثم قتله خوفا من ان يعلو شأنه •

بالاضافة الى ذلك تدل المراجع على تنازع شديد فيما بين أعضاء الاسرة العباسية يدعى بعضهم تراث السفاح دون البعض الآخر • فحالف عبد الله بن على على المنصور لما افضت الخلافة اليه • وما تنازل عيسى بن موسى عن حقه الا بعد تهديد عنيف • وطالب المنصور بأهل العقد والحل حق تعيين ولى العهد واجبر أصحابه على ان يعترفوا بابنه المهدى خليفة من بعده كما فعله المهدى ذلك من أجل ابنيه موسى الهادى وهارون الرشيد روى سعد بن عبد الله القمى صاحب كتاب«المقالات»ان المهدى كان أول من عقد الخلافة والامامة على أصحابه وأوليائه والامة ، ثم أصبح حق تعيين ولى العهد معمولا به منذ ايام الرشيد (2) •

لا يمكن الشك فى ان اعلان ذلك الحق من جانب المهدى كان خطوة رائدة نحو توطيد سيطرة الدولة العباسية على المسلمين • قد نزع ذلك القانون الحق فى الامر عن فروع بنى هاشم الذين كانوا ينافسون بنى العباس كما رفع أسباب التنازع فيما بين أعضاء الاسرة السائدة • ولكننا نستطيع ان نفهم أهمية قانون المهدى فهما اعمق اذا حاولنا

(2) كتاب المقالات ــ تحقيق مشكور ــ طهران 1963 ــ ص 66 .

تحليل الاحوال السياسية السائدة على العالم الاسلامى منذ ايام انحطاط الدولة الاموية . قلت ان الحركة الهاشمية كانت حركة مختلفة الفئات وكانت تلك الفئات اصحاب فروع بنى هاشم المتنافسين . لكن الهاشمية اصبحت تتحالف مع الحركات الاخرى التى كانت تناضل من أجل القضاء على بنى أمية . روى المؤرخون ان بعض الخوارج كانوا قد اعانوا عبد الله بن معاوية على لجيش الاموى لما هرب من العراق الى فارس كما حدثنا رواة الاخباران بقية جيش الحارث بن سريج دخلوا جند أبى مسلم بمرو . كان الحارث بن سريج قد خرج على بنى أمية يطلب منهم القيام بسنة رسول الله صلعم . فجدير بالذكر ان النقباء الهاشميين كانوا يأخذون البيعة على الهاشمية على الشكل التالى : نبايعكم على كتاب الله وسنة نبيه صلعم ، والطاعة للرضا من أهل بيت رسول الله صلعم . وما ذكروا سنة النبى الا بعدما لحق بهم جيش الحارث ابن سريج (3) . فنرى ان جميع تيارات المعارضة قد تحالفت على الخليفة الاموى . فصارت الهاشمية تشمل اتجاهات هامة للفكر الدينى والسياسى فى ذلك العصر وان كانت متناقضة من قبل .

ولما استولى بنو العباس على الخلافة ظلوا يصالحون بين الفرق المتناقضة . يدلنا على ذلك ما قال داود بن على عم السفاح حين المبايعة فى الكوفة وهو يخاطب الناس : أيها الناس انا والله ما خرجنا فى طلب هذا الامر لنكثر لجينا ولا عقيانا ولا نحفر نهرا ولا نبنى قصرا وانما أخرجنا الانفة من ابتزازهم حقنا والغضب لبنى عمنا وما كرثنا من أموركم ويهظنا من شؤونكم ولقد كانت أموركم ترمضنا ونحن على فرشنا ويشتد علينا سوء سيرة بنى أمية فيكم وخرفهم بكم واستذلالهم لكم واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم عليكم ـ لكم ذمة الله تبارك وتعالى وذمة رسوله صلعم وذمة العباس ان نحكم فيكم بما انزل الله ونعمل فيكم بكتاب الله ونسير فى العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله صلعم (4) .

(3) تاريخ الطبرى ـ طبعة ليدن ـ 2 ـ ص 1979
T. Nagel, Untersuchungen zur Entstehung des abbasidischen Kalifates, Bonn 1972, 145, 158.
(4) الطبرى ـ 3/29

ما هو مدلول هذه الخطبة ؟ يزعم داود بن علي ان دولة بني أمية كانت دولة قبيحة لانهم لم يتمسكوا بالتنزيل ولا بسيرة الرسول بعنى بالسنة النبوية • فاستبدوا بالامر استبدادا وها دولة بني العباس قد جاءت تضمن للمؤمنين ان تحكم فيهم بالقرآن والسنة • ويتفق ذلك مع ما ظل أصحاب السنة يطلبون من خلفاء بني أمية وما حققه عمر بن عبد العزيز في خلافته القصيرة المدة • لكن في كلمات الخطبة المذكورة تعريضا لتيار فكري ثان وهو فكرة الامامة كما دعا اليها فرق الشيعة ولا يجوز ان نغفل الاصل الشيعي للحركة الهاشمية الذي أشرت اليه آنفا • قال داود بن علي ان للناس ذمة العباس • وكان أبو العباس السفاح قد قال لهم قبل ذلك : ان الله قد أيد الاسلام بنا وخصنا برحم رسول الله وقرابته وانشأنا من آبائه وانبتنا من شجرته وانزل بذلك على أهل الاسلام كتابا فقال الله تعالى : «**قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة في القربى**» — في آيات أخرى تشبه معنى هذه الآية — فاعلم الله الناس فضلنا واوجب عليهم حقنا ومودتنا وبنا هدى الله الناس بعد ظلالتهم وبصرهم بعد جهالتهم واظهر بنا الحق وادحض بنا الباطل واصلح بنا ما كان منهم فاسدا وجمع الفرقة حتى عاد الناس بعد العداوة أهل التعاطف والبر والمواساة في دينهم ودنياهم (5) •

نكتفي هنا بايراد هذا الفصل من خطبة أبي العباس السفاح • فانه من الواضح ان هذه الكلمات عبارة عن الامام ومقامه في الامة على نفس الوجه الذي كانت الشيعة تصوره عليه وهو امام أصله في آل النبي يأتيه شيء مما يشبه الالهام وان لم يكن وحي • فنرى آل العباس قد بنوا خلافتهم على أساس فكري يوفق بين آراء أهل السنة ومقالات أهل التشيع • واذا درسنا ما روى من أفعال الخليفة العباسي المهدي يظهر لنا هذا الاساس الثنائي لحكمه • ان المهدي كان يقتدي بسيرة الرسول • مثلا أراد أن يعيد منبر الرسول الى ما كان عليه قبل دولة بني أمية والغى استلحاق معاوية زياد ابن أبيه وأهله واخرجهم من نسب قريش وديوانهم • فعل ذلك اعتمادا منه على السنة النبوية • ثم اعلن المهدي ان رسول الله صلعم ، قد أوصى للعباس بالامامة وان كل من

(5) المصدر السابق — 29/3
T. Nagel, Rechtleitung und Kalifat : Versuch über eine Grundfrage der islamischen Geschichte, Bonn 1975, 91 sqq.
p

سيطر على دار الاسلام قبل دولة بنى العباس انما استولى على الامر غصبا وان بنى العباس توارثوا الامامة بالوصية حتى ظهرت دولتهم على دولة بنى أمية . هذه المقالات هى التراث الشيعى للعباسيين لا شك فيه . ولكنها تؤكد استقلال الخليفة العباسى عن جميع الفرق الدينية والسياسية وتصيره فوق التيارات المتناقضة وهو الوارث الشرعى الوحيد لتراث النبى .

انى قد أطلت شرح هذه المبادىء لانها هى مبادىء الفكر الدينى والسياسى الذى هو منطلق فكر المأمون واصحابه . ان المأمون لم يبتدع أفكارا ومثلا عليا كانت محدثة بأسرها . لكنه واصل تطوير ما كان رائجا من الافكار .

عاش المأمون فى قصر البرامكة وهو شاب بالغ السن . من المحتمل انه كان يشترك فى الحياة الفكرية التى نجد آثارها فى كثير من ميادين الفكر . روى المؤرخون ان قصر البرامكة كان ملجأ الفلاسفة والمتكلمين وكان البرامكة يشجعون البحث العلمى والشغل بتراث الفلاسفة اليونان وعلماء ايران والهند وكانوا يكرمون الباحثين اكراما . من المحتمل ان هذه البيئة العقلية اثرت على الشاب تأثيرا عميقا . لكن قصر البرامكة ما كان مركزا للعلم فقط بل كان مركزا سياسيا فى نفس الوقت . يدل على ذلك ما رفع محمد بن ليث الواعظ المشهور من ذم البرامكة الى هرون الرشيد فحبسه الخليفة وما اخرجه من السجن الا بعد سقوط البرامكة . لمحمد بن ليث هذا رسالة طويلة يؤلب فيها الناس على أهل خراسان رواها ابن عبد ربه فى المجلد الاول من كتاب «العقد الفريد» . ومن المعلوم ان فضل بن يحيى البرمكى كان عاملا للخليفة على خراسان . وكان يحابى أهل خراسان لا يأخذ منهم الا شيئا يسيرا من الخراج فعزله الخليفة وعين على بن عيسى بن ماهان مكانه . فعامل الناس بالعنف وخاشنهم حتى أخذ منهم مالا كثيرا . فلام فضل بن يحيى الخليفة لما بلغه ما فعل على بن عيسى فعزله الخليفة . فثار الناس فى بغداد لما رأوا من محاباة الخليفة لاهل خراسان . وبعدما حبس محمد بن ليث حاول البرامكة ان يحكموا نفوذهم على الخليفة وان يضاعفوا من قوة الحزب الخراسانى . فاقنعوا هرون الرشيد بان يعين ابنه الثانى المأمون وليا للعهد بعد أخيه الامين وبان يقسم دار الاسلام الى قسمين يعطى المأمون القسم الشرقى منها ففعل ذلك . ثم

رحل المأمون الى خراسان وتصرف فيها تصرف الامير المستقل . فاصبحت دار الاسلام قد انشقت شقين قطب الواحد منهما المأمون والعلماء الذين رافقوه منذ أيام تربيته فى قصر البرامكة ومشاوراه السياسيان حسن بن سهل وفضل بن سهل اللذان كانا يخدمان البرامكة من قبل . وقطب الآخر منهما الامين ومشاوراه على بن عيسى بن ماهان والفضل ابن ربيع الذى كان من أشد اعداء البرامكة . فلا غرو ان الاحوال كانت متوترة جدا لما مات هرون بالقرب من مدينة طوس . لم يتردد الامين فى نكث العهد الذى وعد به اخاه . عزل الامين اخاه المأمون من ولاية العهد وعين ابنه الصغير وليا للعهد مكانه وسماه الناطق بالحق . فاستهزأ الناس فى بغداد منه وقال بعضهم فى ذلك :

فعـــال الخليفـــة اعجـــوبـــة واعجـب منـه فعـال الـوزير (6)
واعجـــب مـــن ذا وذا اننـــا نبـــايع للطفـل فينـــا الصغـير
ومـن ليس يحســن مســح انفـه ولم يخـل متنـه من حجـر ظـير
ومـــا ذاك الا ببـــاغ وغـــاو يـريـدان نقـض الكتـاب المنـير

ان المأمون لما عزله أخوه من ولاية العهد تسمى بالامام ولم يتسم بالخليفة لانه كان يتردد فى الاقدام على قطع العلاقات التى كانت تربط بينه وبين أخيه الخليفة الشرعى قطعا نهائيا . وما أخذ الطاهر بن الحسين البيعة للمأمون بالخلافة الا بعدما نشبت الحرب بين المأمون وأخيه . وما ان بلغ المأمون ان أخاه كان يتعدى على أهله وماله بالعراق حتى اتخذ التدابير اللازمة لفتح العراق وللقضاء على سيادة الامين . واستحث المأمون أهل خراسان على القتال من أجله وأشار الى الخدمة التى قدموها الى أسرة بنى العباس فى الماضى وقال لهم انى محى الدعوة العباسية التى سيكون انتصارها فى خراسان كما كان من قبل . ثم جمع المأمون الرؤساء والفقهاء ودعاهم الى الحق والعمل بـــه ووعدهم احياء الدعوة وكان يقول للرؤساء اننا نقيمكم مقام نقباء الهاشمية فى ايام أبى مسلم . ثم حط عن أهل خراسان ربع الخراج . فمدحه الناس وقالوا قد انعم علينـا

(6) يعنى الفضل بن ربيع . انظر المسعودى — مروج الذهب — طبعة بيروت 1965 — 397/3 .

ابن اختنا وكانت أم المأمون من أهل بادغيس · فانقاد للمأمون من له شأن فى خراسان ودخلوا فى طاعته · فى تلك الايام أمر المأمون كاتبه أحمد بن يوسف ان ينشىء رسالة يوضح فيها مبادىء الحكم التى تبناها المأمون ويستحث فيها أهل خراسان على التمسك بالدعوة الجديدة · ففعل أحمد بن يوسف ذلك وانشأ الرسالة المسماة برسالة الخميس وهى من أهم وثائق الفكر السياسى والدينى فى عهد العباسيين · والخميس هو الجند ويخاطب المأمون بهذه الرسالة جنوده والقواد خاصة · وانى ساورد أهم فصول رسالة الخميس المكتوبة عن المأمون ثم ساشرح الافكار الرئيسية منها حتى تتضح المبادىء المعنوية التى كان الخليفة يعتبرها أساسا لوظيفته ·

يبتدىء مؤلف الرسالة بحمد الله على نعمته ويقول ان الله فاطر السموات والارض وما بينهما هو الذى جعل ما أودع عباده من نعمته دليلا هاديا الى معرفته بما أفادهم من الالباب التى يفهمون بها فصل الخطاب حتى آستدلوا بما أراهم من بالغ حكمته ومتقن صنعته على ان لهم وللعالم كله بارئا هو انشأه وابتدأه ويسر بعضه لبعض ـ يعنى ان للانسان عقلا واذا تأمل الانسان ما يحيط به من المخلوقات فلابد من ان يعرف ان للعالم خالقا رحيما هو الله تعالى · ثم يقول صاحب الرسالة ان من عظيم نعمة الله على خلقه افتقاده اياهم ثم يسددهم ويدلهم على منافعهم ويجنبهم مضارهم ويهديهم لما فيه صلاحهم ويرغبهم فى المحافظة على التمسك بدين الله عز وجل ولولا ما تقدم به من تلافيهم واستدراكهم بفضل رحمته لتهالكوا ببغى بعضهم على بعض وعدوان قويهم على ضعيفهم ولكنه بعد تعريفه اياهم ملك قدرته بعث اليهم انبياءه ورسله مبشرين ومنذرين لان الناس لم يكونوا ليطيعوا أمرا لآمر ولا نهيا لناه الا بحجة وتخويف ورجاء ـ يعنى لا يطيعون أمر الله الا بالوعد والوعيد ـ ·

ثم يستطرد صاحب الرسالة من ذلك الى قوله انه لم تزل رسل الله عز وجل الى خلقه تترى بالنور الساطع والبرهان القاطع ··· وكان انبياء الله يبعثون نذرا للامم حتى ختمهم الله عز وجل بالنبى الامى محمد صلى الله عليه وسلم وأكمل الله لعباده دينهم الذى ارتضى لهم...ثم خلفه الله ـ اذ ختم به الانبياء ـ بالبررة النجباء من ادانيه ولحمته لاقامة الشرائع المفترضة وانفذ حكم الله المنزل ··· ثم يقول ولو كان الائمة

المقلدون أمر عباد الله خاملة انسابهم غير مخصوصين بفضيلة يرونهم بها دون غيرهم لم يعد عقد الخلافة لهم ان تكون من مفترضاته على كافة الامة أو على بعض دون بعض ويشرح لنا صاحب الرسالة انه لو كان الناس بأنفسهم مسؤولين عن اختيار خليفتهم لم يتفقوا ابدا على شخص واحد ولو كانت الامة على مثل هذه الحال من اختلاف الآراء لهلكت بعد مدة يسيرة • ولذلك السبب وصل الله نسب الخلفاء بنسب رسوله صلعم ليرى المؤمنون من يلتجئون اليه فيما يهمهم من الامور — • وقال المؤلف ولم يزل سياق أئمة الهدى مطردا ونظامهم متصلا يتلقاه كابر عن كابر ••• حتى تناهى الى أمير المؤمنين وهو حال دار دعوته وبين انصاره من أهل خراسان — ثم يصف صاحب الرسالة فضائل أهل خراسان ويحمدهم على ما رأى بنو العباس من اخلاصهم لهم ومن حبهم لاهل البيت ويعدهم جزاء خيرا اذا اعانوه على النصر ويعظهم عن خذلان الامر الحق • (7)

ان الافتراض الرئيسى الذى يبنى الخليفة افكاره عليه هو اعتقاده ان الله قد خلق الانسان كمخلوق له عقله الحر • فاذا من واجبات الانسان ان يستخدم عقله حتى يدرك اسرار الكون ونظامه فيعرف كنه نواميس الطبيعة وكذا كنه الشريعة التى نظم الله تعالى بها علاقات الانسان بالله وتعايش الناس فيما بينهم • من المشهور ان ذلك الافتراض من اعتقادات التيار المعتزلى الذى أصبح يزدهر فى أواخر القرن الثانى الهجرى والذى عرفه المأمون حين تربيته فى قصر البرامكة • كان المعتزلون يمدحون العقل وكانوا يقولون اذا استخدمنا العقل ونقدنا جميع المقالات وكل ما يعتقد الناس بحسب قواعد المنطق حصلنا على العقيدة الصحيحة الوحيدة فتعود الامة أمة واحدة بعد ما كانت فرقا متناقضة • وسيضمحل فساد القتال والحروب بعد توحيد الدين أو الآراء الدينية • كل هذا من التأثير الحسن الذى للعقل الانسانى على الحياة الاجتماعية • وكان المأمون يرجو ان يصالح بين الاحزاب المتخاصمة بالحجج العقلية لا بالقهر والعنف والتهديد • روى الخطيب البغدادى ان المأمون كان يقول غلبة الحجة احب الى من غلبة القدرة لان غلبة القدرة تزول بزوالها وغلبة الحجة لا يزيلها شىء • (8)

(7) جمهرة رسائل العرب — تحقيق أحمد زكي صفوت — القاهرة 1937 — 3/رقم 207.
(8) الخطيب تاريخ بغداد القاهرة 1931 — 10/183 — رقم 5337 .

الجدال الفكرى حر مباح • هذا من معتقدات المأمون ـ والجدال الحر يؤدى بالانسان الى الحقيقة الدينية والى الوحدة السياسية ثم الى السلم • ولكن ما وظيفة الخليفة أو امام الهدى فى هذا النزاع الفكرى ؟ هل يدرك الانسان كل ذلك بدون معلم وبدون دليل ؟ لا • يقول صاحب رسالة الخميس لا يمكن الانسان تحقيق تلك المثل العليا بدون مرب •

ووظيفة امام الهدى هى تربية الناس حتى يستطيعوا ان يحققوا مصالحهم تحت اشراف الامام • ان الله بعث رسله الى الامم القديمة ليدلوهم على الحق وليعينوهم على تحقيق احكام الشريعة التى فهموا حقيقتها بالعقل الذى من الله عز وجل به عليهم • وكان الرسل والانبياء قد ادوا تلك الوظيفة بواسطة الوحى الذى كان يأتيهم من عند الله • لكن لا يجوز لمخلوق ادعاء الوحى الالهى بعد وفاة محمد لانه كان خاتم الانبياء •

فاذا ما يؤهل امام الهدى لاداء مهمته التى لا بقاء للامة الا بها ؟ قال صاحب الرسالة ان الله خلف رسوله محمدا البررة النجباء من لحمته أى من أسرته ومن اقربائه الادانى • فيجوز الاستنتاج من هذه العبارة ان لاهل البيت مزايا خاصة تميزهم عن سائر الناس وتلك المزايا هى مواهب من عند الله وهبها لهم تقديرا منه لهم على القيام بوظيفتهم الضرورية • ومما يبدو لنا ان تلك المواهب المشار اليها هى مواهب تصل بين الائمة والانبياء وتضمن لكل مؤمن استمرار الهدى الالهى على الارض ـ طبعا على مستوى ادنى منه فى حياة الرسل والانبياء لان الوحى الالهى قد انقطع عن الانسانية الى الابد لما توفى الله محمدا صلى الله عليه وسلم • فنجد لامام الهدى منزلة عظيمة الشأن عند الله وأيضا عند جماعة المسلمين وان كان شأنه أقل أهمية بكثير من شأن الأنبيـــاء •

وصف عمرو بن بحر الجاحظ شأن الامام مقارنا بين مقام كل من الرسل والانبياء والائمة وكان ما شرح الجاحظ من أصول الامامة موافقا لرأى المأمون لان الجاحظ كتب فى بعض فصول كتاب البيان والتبيين ان المأمون قرأ مؤلفاته فى الامامة فوجدها على ما أمر به • (9)

(9) الجاحظ ـ البيان والتبيين ـ طبعة القاهرة 1956 ـ 329/3 .

قال الجاحظ فى رسالته المسماة بكتاب استحقاق الامامة ان الجماعة لا تخلو ابدا من الحاجة الى امام يهديهم وان دلهم عقلهم على حقيقة الشريعة وضرورة العمل بها . والائمة ثلاثة أنواع : رسول ونبى وامام . فالرسول نبى امام والنبى امام وليس برسول والامام ليس برسول ولا نبى . وانما اختلف اسماءهم ومراتبهم لاختلاف المقومات والطبائع وعلى قدر ارتفاع بعضهم عن درجة بعض فى العزم ... وبتغير الزمان يتغير الغرض وتتبدل الشريعة فافضل الناس الرسول ثم النبى ثم الامام فالرسول هو الذى يشرع الشريعة ويبتدىء الملة ويقيم الناس على جمل مراشدهم ولولا ان فى طاقة الناس قبول التلقين وفهم الاشارة لكانوا هملا ولسقط عنهم الامر والنهى ولكنهم يفصلون بين الامور اذا أوردت عليهم وكفوا مؤنة التجربة وعلاج الاستنباط .. ولن يبلغوا بذلك قدر المستغنى بنفسه المستبد برايه المكتفى بفطنته عن ارشاد الرسل وتلقين الائمة . وانما جاز ان يكون الرسول مرة عربيا ومرة عجميا وليس بيت يخطره ولا شرف يشهر موضعه لانه حيث كان مبتدىء الملة ومخرج الشريعة كان ذلك اشهر من شرف الحسب المذكور وانبه من البيت المقدم ولانه يحتاج من الاعلام والآيات الى الظاهر المعقول والواضح الذى لا يخيل ان يشتهر مثله فى الآفاق فلا يحتاج حاله معه الى مال ولا قدره الى حسب ولان النبى ليس برسول ولا مبتدىء ملة ولا منشىء شريعة وانما هو للتأكيد والبشارة كبشارة النبى بالرسول الكائن على غابر الايام وطول الدهر . وتوكيد المبشر يحتاج من الاعلام الى دون ما يحتاج اليه المبتدىء لاصل الملة الناقل للناس عن الجهل الراسخ . فلذلك اكتفى النبى بشهرة اعلام الرسول وشرائعه من شهرة بيته وشرف حسبه لانه لا ذكر الا والنبى خامل عند ذكر الرسول ولا شرف الا وهو وضيع عند شرفه . — هنا ينقطع ما كتب الجاحظ . (10)

ولكنا اذا قدمنا على اضافة ما سقط من نص هذه الرسالة قلنا ان وظيفة الامام الذى مرتبته ادنى مرتبة ليست بشرع شريعة ولا بتوكيد شريعة أو بشارة برسول كائن فى المستقبل بل وظيفته المحافظة على الشريعة المنزلة وتلقين الناس مناهج العمل بها كى تصلح احوالهم فى الدنيا وفى الآخرة . ومن أجل تحقيق ذلك الغرض

(10) الجاحظ — رسائل — تحقيق السندوبى — القاهرة 1933 — ص 247 وما بعدها .

يحتاج الامام الى نسب شريف كما شرحه صاحب رسالة الخميس لانه ليس برسول مستغن عن الحسب وليس بنبى يكتفى باعلام الرسول . اما منزلة امام الهدى فمثبتة بكونه من لحمة أهل بيت الرسول .

هذا هو الاساس النظرى لخلافة المأمون أو لامامة الهدى . فلنبحث الآن عن تأثير النظرية على تصرفات الخليفة السياسية . قلنا ان المأمون لم يدع الخلافة الا بعد اشتعال نيران الحرب الاهلية مع أخيه الامين . فمن البديهى ان همته الاولى كانت اعادة وحدة المسلمين . فنرى المأمون يسعى فى ذلك الغرض بحسب معتقداته التى شرحناها آنفا . ان الامين وخلفه من بعده ابراهيم بن المهدى كانا يعتمدان على قوة أهل السنة فى بغداد الذين كانوا يعارضون أهل الاعتزال الذين التفوا حول المأمون . وكانت الفرقة المتطرفة من أهل السنة من سماهم الجاحظ فى رسالة له مشهورة «النابتة». وكان من عادات النابتة ان يمدحوا معاوية حقدا منهم على دولة بنى العباس . فصاروا الآن أعوانا للامين وابراهيم على المأمون واصحابه .

فلما غلب المأمون على اعدائه عفا عنهم وتجاوز عن عذابهم لانه كان يرغب عن القهر. انما كان قصده تربية الناس حتى يدركوا صحة مقالاته الدينية واعماله السياسية . وكانت همته ادحاض حجج المخاصمين بحجج احسن منها لا بالدرة وبالسيف . لذلك السبب اعلن رسميا بعض العقائد التى قد ناقش فيها أهل الاعتزال ثم وافقوا عليها لانها فى ظنهم لا تتعارض مع المعقول والمنطق . وكان المأمون موقنا بان كل الناس سيقبلون تلك العقائد فتعود الوحدة ويزول النزاع ويكون السلام قائما الى الابد . اعلن المأمون ان ذكر معاوية بالخير ممنوع وان على بن ابى طالب خير الناس اجمعين وان القرآن مخلوق . ما معنى تلك العقائد الثلاث ؟ تقصد تلك العقائد الى تذليل النابتة لانها كانت تمدح معاوية وتشتم على بن ابى طالب وتقول بان القرآن كلام الله وان كلامه غير مخلوق يعود الى الله يوم القيامة مثلما خرج من عنده . روى يحيى ابن اكثم فى كتاب بغداد لابن طيفور ان المأمون أمر بجمع الفقهاء وأهل العلم عند دخوله بغداد . فلما حضروا مجلسه قال لهم لماذا لا تفضلون على بن ابى طالب على سائر السلف ومناقبه مشهورة جدا تدل بصراحة على عظيم فضله ؟ وما قصدنا من

تفضيل علي بن ابى طالب تذليل غيره من الصحابة كما زعمه تلك الطوائف التى خالفتنى فى عقيدتى هذه التى هى مبنية على حجج معقولة ٠

ثم شرح الخليفة مبادىء مقالاته فى على حتى يدرك من حضر من أهل العلم صحة تلك المقالات ثم يقبلوها طوعا ويجمعوا على ما هو أرضى واصلح للدين (!) وفى العقد الفريد حديث طويل فى احتجاج المامون على الفقهاء فى فضل على ٠ فنرى المأمون يثبت ضرورة تفضيل على على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اجمعين،وهو يشير الى ان فى زعمه لعلى كرجل واحد مثل مناقب الصحابة باجمعهم ٠ قال الراوى فأقبل علينا المأمون وقال ما تقولون ؟ فقلنا كلنا نقول بقول أمير المؤمنين فقال ٠٠٠ اللهم قد نصحت لهم القول اللهم انى قد اخرجت الامر من عنقى اللهم انى ادينك بالتقرب اليك بحب على وولايته ٠ (12)

من هنا ومما روى الجاحظ فى نفس الموضوع نعلم ان المأمون كان يدين بقول الزيدية فى على بن ابى طالب وكان نفس القول من معتقدات المثقفين الذين حاباهم البرامكة ثم اجتمعوا حول المأمون فى خراسان بعد سقوط البرامكة وكانوا كلهم يدينون بهذا القول لانه فى زعمهم اصح قول على الاطلاق واقربه الى العقل والفهم ٠ وكان المأمون يرجو ان يقنع الطوائف به ٠

ومن أقوال الزيدية أيضا ان الامامة انما تجوز فى الشخص الافضل من قريش وان كانت جائزة فى الشخص المفضول فى ظروف معينة وان الافضل اذا صار اماما يتواضع له كل المخالفين فتصير الامة واحدة مثلما كانت فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ٠ تبنى المأمون هذه العقيدة أيضا فعين عليا حفيد جعفر الصادق وليا للعهد من بعده وسماه الرضا تعريضا منه لتلك العقيدة الزيدية ولقول الهاشمية القديم بان الرضا من آل محمد سيصالح بين الاعداء وسيعامل المؤمنين بالعدل وسيرفع سلطان الظلم عنهم ٠ فنرى المأمون الخليفة العباسى يرجع وحدة الامة على اسرته العباسيين وهو يحقق ما طلبت الهاشمية من امامة الرضا من آل محمد ٠

(11) ابن طيفور ــ كتاب بغداد ــ تحقيق كلر ــ ليبزيغ 1908 ــ ص 75 .
(12) ابن عبد ربه ــ العقد الفريد ــ تحقيق أحمد أمين ــ القاهرة 1940 ــ 101/5 .

استعمل المأمون ما ادعاه المهدى من حق الخليفة العباسى فى تعيين ولى العهد ٠ وانما استعمله لغرض غير الغرض الذى كان جده يقصد اليه ٠

فلنورد الآن بعض فصول العقد الذى عهد فيه المأمون بولاية العهد الى على الرضا ٠ يقول المأمون ان على الخليفة ان يختار من هو أهل لقمع المخالفين فكانت خيرة الخليفة بعد استخارته لله من البيتين العباسى والعلوى على بن موسى بن جعفر لما رأى من فضله البارع وعلمه الناصع وورعه الظاهر وزهده الخالص وقد استبان له ما لم تزل الاخبار عنه متواطئة والالسن عليه متفقة والكلمة فيه جامعة ولما لم يزل يعرفه به من الفضل يافعا وناشئا وحدثا ومكتهلا فعقد له بالعقد والخلافة ايثارا لله والدين ونظرا للمسلمين وطلبا للسلامة وثبات الحجة والنجاة فى اليوم الذى يقوم الناس فيه لرب العالمين (13) ، ثم بعد ذلك رحل على الرضا من الحجاز الى خراسان ليصاحب المأمون الخليفة فى سفره وحضره ٠ فتناقشا يوما من الايام فى السلطان على المسلمين ٠ وقال على الرضا : ان العلويين يدعون الامر بسبب قرابتهم من رسول الله ٠ فرد عليه الخليفة : انه ان لم يكن هاهنا شىء الا القرابة ففى خلف رسول الله من هو اقرب اليه ومن هو فى القرابة مثله ٠ (14) أشار المأمون بتلك الكلمات الى ان الامامة لا تجب الا لافضل اهل البيت ٠ فيؤكد هذا الحديث ما شرحنا من آراء المأمون فى الخلافة والامامة ٠

وبذلك اتممنا شرح مقالات المأمون وخلاصتها ان امام الهدى يجب ان يكون من لحمة رسول الله صلى الله عليه وسلم كى يمكنه أداء وظيفته العظيمة الشأن وهى تربية الناس على التمسك بالشريعة حتى تصلح احوالهم فى الدنيا والآخرة وان كل ذلك لا يتم الا على يد الافضل من أهل البيت جميعا ٠ يظهر فى افكار المأمون الدينية والسياسية المفهوم الاعلى للسيادة الاسلامية فى القرون الوسطى وهو ان المأمون ربط بين السيادة والتربية واعتبر نفسه مسؤولا عن نجاح التربية التى لا تقصد الى القهر والاضطهاد بل الى تمكين المؤمنين من استخدام العقل الذى هو افضل ما انعم الله تعالى به عليهم ٠ وهذا هو الذى يدلنا على كبر المأمون وعظمته لا أعماله السياسية التى فشل فى معظمها الامر الذى يتفق عليه أصحاب التواريخ ٠

(13) القلقشندى ــ صبح الاعشى ــ القاهرة 1313 ــ 9/365 .
(14) ابن قتيبة ــ عيون الاخبار ــ القاهرة 1930 ــ 2/140 .

منشـــورات
وزارة التعليـم الاصـلى والشؤون الدينيـــة



المـــرأة بعـــد عـــام المـــرأة (*)

د . بارفين شوكت علي
استاذة مساعدة
بمعهد السيدة ماكلاغان تريننغ
لاهور ــ (باكستان)



مع قرار الامم المتحدة لجعل سنة 1975 كعام المرأة الذى أخذت الدول الاعضاء فى بذل مجهودات جبارة لاعادة تقييم سياساتها بصدد المرأة، تعقد المعاهد، والاكاديميات، ندوات خاصة ، ومؤتمرات ، لتأكيد حق المرأة بالاضافة الى وضع الخطط لاعادة المرأة الى مكانتها كشريك مساو للرجل فى التطور الوطنى . ان مغزى عام المـــرأة الدولى هــو :

أ ــ مساواة الرجل بالمرأة .

ب ــ التأكيد على المشاركة الكاملة للنساء فى المجهودات الكلية للتطور ، ولتأكيد مسؤولية المرأة ودورها الهام الذى تلعبه من أجل التطور الاقتصادى، والاجتماعى،

(*) تنشر هذه المحاضرات طبقا لمبدا نشر كل محاضرات الملتقيات الذى أعلنا عنــه فى العدد الاول من الاصالة تعميما للفائدة ، ولطلب الكثير ممن تصلهم المجلة،ولا تصلهم كتب الملتقيات . « الاصالة »

والثقافى، على المستويات الاقليمية الوطنية،والدولية خاصة أثناء العقد الثانى لتطور الامم المتحدة ·

جـ ـ زيادة مساهمة المرأة فى تطور العلاقات الودية والتعاون بين الدول ودعم السلام العالمى ·

اذن الفكرة الرئيسية هى : المساواة،والتطور،والسلام ·

ان البلدان النامية بما فيها العالم الاسلامى تأخذ مكانها المناسب لانها تبحث عن اصلاحات قانونية ، وذلك لان الامم المتحدة أصدرت فى العقد الماضى وثائق هامة حول الحقوق الشرعية للمرأة · هناك مبدأ عام للمساواة الشرعية تم وضعه فى الميثاق وفى مقدمة قرار حقوق الانسان ·

اننا نجد أن لجنة الامم المتحدة الخاصة بوضع المرأة قد سجلت قرارات تمهيدية فى استطاعتها أن تقدم خطوطا توجيهية للمشرعين فى البلدان الجديدة · فى الفترة ما بين 1961 ـ 1964 قامت الامم المتحدة بعقد أربع ندوات حول وضع المرأة وقوانين الاسرة · هذه اللقاءات شملت المحلفين ومؤيدى الحركة النسوية من جميع انحاء العالم لتبادل الخبرات والآراء حول هذا الموضوع · ان تقارير المداولات واضحة وخالية من الاصطلاحات الفنية القانونية ، وبالامكان قراءتها بسهولة من قبل العلمانيين والاخصائيين ·

من الاهمية بمكان ان نذكر منظمة العمل الدولية لقيامها بدراسة الحقوق الاقتصادية للمرأة فى العصور الحديثة · منذ أكثر من نصف قرن قامت هذه المنظمة بواسطة الدعم المالى،والدراسة،والنصح بتكرار الرفع من قيمة نتيجة وجود الفرص الاقتصادية للمرأة فى العالم · ان معظم مؤسسات العمل الدولية تلجأ للرجل والمرأة بالتساوى · هناك توصية هامة ثبتت فى قانون التكافؤ فى الاجر لمنظمة العمل الدولية لسنة 1951، حيث كان المقصود منها هو التساوى فى الاجر بالنسبة للعمل المتساوى القيمة لكلا الطرفين ، الرجال والنساء · وفى عام 1953 ، تبنى قانون بخصوص التمييز فى الوظائف ، وقد صادقت عليه عدة أقاليم ، فهو يمنع التمييز فى الوظائف على أساس

[illegible] التدريب المهنى فى عام 1962 ، وقانون منهـــج التوظيف عام 1964 [illegible] من بعض الاجراءات الاخرى المعروفة التى تبنتها منظمة العمل الدولية ، والتى كان لها تقدير هام بصدد الحقوق الاقتصادية للمرأة فى البلدان النامية ٠

[illegible] نستطيع أن نحكم على مستقبل المرأة المسلمة على ضوء [illegible] التى تسود بعض البلدان الاسلامية ٠ على اثر وجود بعض [illegible] فيه تقوم بشيء من التغيير بصدد [illegible] وزارات الشؤون الاجتماعية والصحـــة [illegible] الاجتماعية عن طريق الاجراءات التشريعية ٠ يقول الدكتور روبنسون بصدد التشريع الاجتماعى فى تركيا : « يوجد فى سجلات القوانين بتركيا بعض النصوص من اعظم النصوص تطورا وهى تدور حول التشريع [illegible] بعض المنازعات التى عرقلت مسيرة التطور [illegible] علاقات العمـــل ، و[illegible] وتأمين الانسان ، واستصلاح الارض ، وعمل الطفل ، والنساء فى الصناعة ، والصحة العامة ، ومساواة المرأة ، وضريبة الدخـــل [illegible] التشريع لم تتم مجرد المصادقة عليه وذلك لتجنب [illegible]

[illegible] ما تحصل النساء فى البلدان الاسلامية على معرفة خاصة تتعلق بمشاكل المجتمع ٠ ان شعوب العالم الاســلامى [illegible] والتعليم [illegible] العام والتقنى قد فضل على الامور الاخرى [illegible] واحدة جديرة بالملاحظة [illegible] من بلد الى آخر ، اضف الى ذلك ان أغلبية ساحقة من النساء فى جميع بلدان الشرق الاوسط ما زالت غير متعلمة ٠ فى بلدان شبـــه الجزيرة العربية [illegible] فى القطر السورى ٠

بعد دراسة عامة للتعليم فى ايران،والعراق،ولبنان،تبين أن تقدم المرأة فى التعليم لم يصل بعد الحد المطلوب • فى الاردن،والسودان،والعربية السعودية،نجد أن تعليم المرأة لا يتجاوز المرحلة الابتدائية ، وما زال الرجال يعتبرون ان تعليم المرأة غير ضرورى • الرجعية،والجهل،والفقر،والطبع [illegible] البدوى [illegible] أن ذلك يشمل جزءا كبيرا من السكان ، الامر الذى يشكل صعوبه كبيرة ، على كل حال ، رغم كثير من العقبات نجد أن هناك تقدما ملحوظا فى العالم الاسلامى ، وهذا ينعكس على الحرية الممنوحة للمرأة من أجل بلوغ حياة اقتصادية مستقلة •

فى تركيا على سبيل المثال نجد أن عدة مئات من [illegible] يعملن فى جميع اجزاء البلاد ، واستقبلن بثقة كاملة من قبل أولئك الذين يؤمنونهن على حياتهن. يوجد فى الوقت الحاضر كثير من الفتيات التركيات المختصات بالطبيعة ويقمن بالدراسات العليا،والاكلينيكية فى مختلف الاقطار الاوروبية • فى مدرسة لنطيران فى ضواحى انقرة،نجد ان الفتيات يتدربن على الطيران المدنى ، ويقال أنهن يشاهدن فى أيام السبت بعد الزوال بزيهن الانيق • الفتيات التركيات يدرسن الرقص ، ويشتركن فى الروايات بمعهد الموسيقى بانقرة • آلاف من النساء يعملن فى المصانع. عدة مئات من النساء يتعلمن حرفا مفيدة فى معهد عصمت انونو ، وهذه الحرف يمارسنها فى عدة اجزاء من البلاد •

حدث فى مصر،وسوريا،ولبنان،نفس الوضع حيث خفت حدة التحفظات القديمة المفروضة على حرية وحركة المرأة.اذ أنهن التحقن بوظائف مختلفة،وهن يعملن الآن جنبا الى جنب مع الرجال • اينما تحصل فرصة للعمل ، نجد ان النساء يندفعن نحوها، لانهن الآن يملكن فرصا مساوية للرجل فى العمل • فى لبنان على سبيل المثال ، نجد أن شق قناة الرى (كازمش) الذى بدأ عمله بمقتضى برنامج النقطة الرابعة للولايات المتحدة كان مصدرا مباشرا لعمل النساء فى القرى المحيطة • كانت النساء ترتدى السراويل بكل الوانها تحت الفساتين الحاملة صور الازهار ، اثناء نقل الاسمنت على رؤسهن بواسطة سيلال جلد الغنم لوضعه فى اماكن على ضفاف القنال • قالت السيدة أمينة السيد فى مقابلة عن حياة المرأة المصرية : « توجد نساء عاملات كمرشدات فى

الطرق البرقية ؛ تعتبر النساء أغلبية فى وزارة الصحة كما أنهن يشكلن 50 ٪ من عدد موظفى وزارة التعليم » ، فى الحقيقة انهن ممثلات فى كل وزارة تقريبا · فى العربية السعودية،والسودان،والاردن،حيث تعيش النساء بصورة عامة حياة استقلال اقتصادى توجد بعض علامات التحسن ·

فى اقطار أخرى تلتحق النساء حتى بتلك الوظائف التى لم تكن مقبولة منذ عقد من الزمن · اثناء الثلاثين عاما الماضية كانت مهنة التمريض على سبيل المثال غير مقبولة اطلاقا وذلك بسبب طبيعة العمل وقلة ايراده · وحديثا نجد ان عددا كبيرا من الفتيات المسلمات مارسن هذه المهنة · فالمراقبون الاجانب الذين زاروا بعض الاقطار الاسلامية دهشوا من العمل الجدى ومن شخصية وحماس المرأة المسلمة فى هذا المضمار · ذكرت الآنسة مجنوسن التى كانت تعمل ممرضة مستشارة للمكتب الجهوى لمنظمة الصحة العالمية : « كان لى الحظ ان ازور الباكستان وايران والعراق والاردن وسوريا ولبنان ومصر والحبشة ، لقد وجدت نساء على دراية كاملة بالاحتياجات الصحية لشعبهن ، فكن يعملن بجد لتحسين الوضع تحت ظروف غالبا ما كانت صعبة جدا »·

أكدت المستشارة المتقاعدة على الحاجة الى ممرضات متدرباب وكانت راضية عن التقدم الذى أنجز فى هذا الاتجاه · كانت متحمسة بصفة خاصة بصدد خطط وزارة الصحة المصرية من أجل تأسيس كلية للتمريض فى مصر بمساعدة موظفى منظمة الصحة العالمية بالاضافة الى عمل قسم للتمريض فى الوزارة نفسها · معظم سكان العالم الاسلامى من الريفيين · يوجد فى القرى حوالى 70 ٪ أو 80 ٪ من الناس الذين يعيشون باسلوب حياتهم المألوف ، وبمهنهم التقليدية · لذلك ليس من المبالغة ان قلنا ان نمو وتطور البلدان الاسلامية فى المستقبل سيقرره التطور الاقتصادى والاجتماعى لمناطق الريف · فالناس الذين يعيشون فى المناطق الريفية لهذه الامم النامية فى حاجة الى تقدير وعناية أكثر من جانب واضعى السياسة لان النزعة التقليدية متأصلة فى مثل هؤلاء الناس ، وعندهم توجد المجابهة الصلبة فى تطبيق برامج التنمية · كل يوم يمر بالنسبة لملايين من سكان اكواخ الطين يعتبر نسخة مطابقة للاصل عن اليوم السابق بالاضافة الى اختفاء كلمة « تغيير » من عباراتهم · يبدو ان

حياتهم بأكملها مفعمة بالهدوء وهم يعيشون طبق القواعد وقيم تقليدية ونزوع عاطفى . لذا ، اذا أريد تحقيق التقدم الاجتماعى ـ الاقتصادى ككل ينبغى ان يعير المخططون فى العالم الاسلامى اهتماما بالغا الى سكان الريف .

السؤال الرئيسى بالنسبة للنساء فى المناطق الريفية هو : الى مدى والى أى حد يستطعن فهم العبارات : التقدم ، والتطور ، والتحول ؟ والمشكلة هى أنه حتى الرجال وحدهم يكادون لا يحسون بأى صوت بعيد للعاصفة التى تنذر بالتحول . من الاهمية بمكان ان يكون الرجال والنساء فى المناطق الريفية متكاتفين لتحقيق التحول الاجتماعى والاقتصادى والا فان اهداف التقدم الوطنى تبقى وهمية . تعتبر الامية أخطر تناقض فى حياة سكان الريف وأغلب الاميين هم من النساء . لذا ، كل مخطط للتنشيط الوطنى ينبغى أن يبدأ بخطوات ايجابية لتعليم المرأة فى القرى .

اذا كانت البلدان الاسلامية راغبة فى تضييق الثغرة بين الرجال والنساء ، ينبغى عليها اتباع اجراءات خاصة فى حقل التعليم تعليم الكبار بالنسبة للنساء . كان قد أوصى به كطريقة فعالة ومفيدة لاعطاء دفعة ، الى الامام بخصوص تعليم المرأة . قامت المنظمة النسوية فى ايران بالتعاون مع اللجنة الوطنية لبرنامج محو الامية العالمى منذ عام 1972 بتنظيم عدة مشاريع لتعليم المرأة . وهكذا تم افتتاح 114 من الصفوف للتعليم كمشروع رائد فى مقاطعات فارس،وخراسان،وكرمانشاه،ويزد ، وكل صف يحتوى على 20 ـ 25 طالبة ، ومدة الدراسة فى كل دورة لا تقل عن 280 ساعة ، ان خططا مشابهة فى تعليم النساء ممكن ان تكون مفيدة من أجل الاسراع فى تعليم المرأة فى البلدان الاسلامية الاخرى .

هناك طريقة فعالة للرفع من اسهم المرأة القروية ، وهى بمنحها الفرص حتى تكون قادرة على المساهمة فى الرفاهية الاقتصادية للمجتمع . وللوصول الى هذا الهدف فى بلدان مثل الباكستان وغيرها فى العالم الاسلامى تم ادخال فكرة الصناعات المنزلية . فى اطار هذا البرنامج تقوم الحكومة والمتطوعون بتقديم العون المادى والفنى للنساء فى القرى حتى يتسنى لهن عمل بعض الانواع من الصناعات المنزلية : النسيج

وتصنيع الجواهر، واللعب، والتطريز، والنقش ،تعتبر من بعض الحرف التى تستطيع المرأة بسهولة تطويرها فى المنزل • وهكذا يمكن بيع هذه البضائع فى المدن الكبيرة والصغيرة ، وهذه التشكيلة المتناسقة للمزرعة والمعمل ممكن ان تنقذ حياة الملايين من مخالب الفقر المدقع ، الذى غالبا ما يسود المناطق الريفية للبلدان الفقيرة •

بعد عام المرأة الدولى ظهرت بعض الشخصيات المرموقة من النســاء ، ففى عـام 1975 ظهرت السيدة ذاتشر ، كاول امرأة فى التاريخ الطويل للمنظمات الديمقراطية فى بريطانيا ، لتقود حزبا برلمانيا هاما • ولاول مرة فى الولايات المتحدة الامريكية تعين امرأة كرئيسة للبروتوكول • ومن المشجع جدا ان نجد لاول مرة امرأة تعين استاذة للشريعة الاسلامية • ستقوم الدكتورة كوثر كمال بتدريس الشريعة الاسلامية بجامعة الازهر المحافظة التى مضى على تأسيسها ألف عام ، وتعتبر أقدم جامعة فى الشرق الاوسط • تخوض الباكستان جهادا جبارا من أجل الدفاع عن حقوق المرأة • منذ بدء عام المرأة الدولى ، ثم عقد كثير من المؤتمرات لتعبئة الرأى العام للدفاع عن قضية المرأة ، فاقيم معهد نسوى للقيام بابحاث حول قضايا المرأة فى مجتمعنا ، وسيكون هذا البحث جيدا وذا معنى تام اذ تم الاهتمام به •

تم التحقق فى البلدان الاسلامية من ان استعادة المرأة المسلمة لاحترامها ومكانتها طبقا لما أقره الاسلام سيخلق ثورة اجتماعية ذات دلالة بعيدة • اذا ترجم ما كتب فى القرآن وتعاليم السنة ترجمة معتولة ، سيكون هناك ما يدعو الى الاعتقاد انه حتى الدوائر الاورثودوكسية سوف لن يكون لها أى اعتراض • وبعمل ذلك سيكـــون المسلمون فى مختلف الاقطار قد قدموا خدمة كبيرة للاسلام • لقد نشر المراقبون الغربيون فكرة سفسطائية عن الاسلام مفادها أن الفلسفة الاجتماعية للاسلام ذات مفهوم ارتدادى • ومن بين هذه الاتهامات فى هذا المجال هى المكانة الغير لائقة التى منحتها لها المجتمعات الاسلامية • وباستعادة المرأة لمكانتها من الاحترام والتقدير طبقا لتعاليم الاسلام سيقوم المشرعون بتقديم جواب نموذجى على مثل هذه الادعاءات •

مـــراجـــع

1 ـ بايار دوج : التربية العربية والشرق الاوسط · من أكاديمية العلوم السياسية · نيويورك 1952 ·

2 ـ تحرير المرأة التركية : أ· فيتنان · باريس اليونسكو ·

3 ـ نيويورك تايمس : النشرة الدولية · 21 أغسطس 1953 ·

4 ـ ذو باكستان تايمس : لاهور · فاتح مارس 1953 ·

5 ـ تعليق ميس مئوس ـ ممرضة ـ مجلس المكتب الجهوى للمنظمة العالمية للصحة · الى جويلية 1952 ·

6 ـ النشاطات الادبية الاخيرة بايران · طهران 1973 · ص : 32 ـ 23 ·

7 ـ باكستان تايمس · لاهور 8 جويلية 1975 ·

بطـون الارض نعمـة وليست نقمـة (*)

د • محمـد رشيـدى
كاتب ، جاكرتا _ (اندونيسيا)



فى أواخر القـرن الخامس عشر قامت البرتغـال واسبانية باستكشافات جغرافية • واما البرتغاليون فزعيمهم الامير هنرى المشهور بهنرى البحار ، فقد كان يهتم بالملاحة ، يجمع الخرائط ، ويقرب اليه البحـارة الماهرين • وبالرغم من موت الامير هنرى المبكر فان جهوده قد انتجت ثمرات يانعة • فقد نجـح البحار برثولوميوس Bartholomeus Diaz فى الملاحة حـول رأس الرجاء الصالح فى سنة 1486 م • وكانت نيته ان يواصل سفره شرقا الى الهند ولكنه اضطر للرجوع الى لشبونة لان بحارته تمردوا عليه • وكان دياز يسمى ذلك الرأس ، رأس العواصف Cabo Termentoso ولكن ملك البرتغال ، الملك جون الثانى غير الاسم باسم رأس الرجاء الصالح تفاؤلا للوصول الى الهند • وحذت اسبانيا حذو البرتغال فارسلت البحار الايطالى كرستوف كولومب فى سنة 1492 ، فى رحلة أوصلته الى جزر الهند الغربية •

(*) محاضرة ألقاها فى الملتقى الحادى عشر للفكر الاسلامى بورقلة (ورجلان) •

وحسابا لما قد يحدث بين الدولتين الكاثوليكيتين من نزاع في المستقبل حول الاستكشافات فان البابا اصدر مرسوما في سنة 1493 مفاده ان ما يكتشف شرقي الخط الطولي الذي رسمه على الخريطة يكون ملكا للبرتغال وما يكتشف غربي الخط المذكور يكون ملكا للاسبان .

وشعر البرتغال بان مرسوم البابا يجعل مناطق اكتشافاتها قريبة من الشواطيء الافريقية فعقدت اتفاقية جديدة مع اسبانيا تعرف باتفاقية توردسله Tordesilla في سنة 1493 ، وبمقتضاها نقل الخط الطولي الفاصل الى الغرب قليلا . وقد خولت الاتفاقية الجديدة للبرتغال ان تدعي الملكية على البرازيل فيما بعد . ونتيجة لذلك فان البرازيل يتكلم سكانها باللغة البرتغالية حتى اليوم .

وواصلت البرتغال اكتشافاتها . فقد قام فسكو دى جاما (باكتشافات في افريقيا سنة 1497 . ولما وصلت سفنه الاربع الى جزائر Cape Veroe توجه رأسا الى المحيط الهادي قاصدا رأس الرجاء الصالح . وهناك لقي بحارا عربيا استرشد به لدخول المحيط الهندي وزيارة شاطيء الهند الغربي . وقد وصل الى ذلك المحل بعد رحلة دامت 23 يوما . وظن البرتغاليون ان الهنود مسيحيون لانهم كانوا يعتقدون ان من ليس مسلما فهو مسيحي ، ولكن لما شاركوا في الاحتفالات الدينية وجدوا ان الهنود يعبدون صورا مخيفة ، اشخاصا لهم انياب طويلة خارجة من افواههم ولهم أيدى أربعة أو خمسة . ورجع فاسكو دى جاما الى لشبونة في يولية سنة 1499 ، بعد ان فقد نصف سفنه وثلثي رجاله ، ولكن ارباح رحلته تساوي ستين ضعفا من نفقاتها . وبعد تلك الرحلة الناجحة استعمل ملك البرتغال لقب « ملك الفتوحات والاسفار البحرية والتجارة الخاصة بايثيوبيا والجزيرة العربية وبلاد فارس والصين .

واذا كان كرستوفر كولومبوس قد فتح اعين أوروبا الى القارة الامريكية وفاسكو دى جاما Vasco de Gama قد فتح الطريق الى الشرق الاقصى فان ماجلان Ferdinand Magellan قد ربط بين اجزاء العالم برحلته حول العالم مما جعل اسمه خالدا مع اسم كولومبوس وفاسكو دى جاما . فقد سافر ماجلان الى أمريكا الجنوبية وفي آخر اغسطس سنة 1520 وصل الى المكان الذي يعرف الآن بمضيق ماجلان . ومن هناك واصل رحلته غربا في محيط ليس فيه موج فسماه ماجلان « المحيط الهادي » . وفي شهر مارس سنة 1521

وصل ماجلان الى جزائر الفليبين وهناك حدث قتال مع أهالى البلاد وقتل ماجلان . وواصل البحارة الذين رافقوه سفرهم الى المحيط الهندى ثم الى رأس الرجاء الصالح وأخيرا وصلوا الى اسبانيا فى سبتمبر سنة 1522 ، واستغرقت رحلتهم حول العالم ثلاث سنوات كاملة .

ماذا عمل الاسبان فى المناطق التى اكتشفوها ؟

أن الاكتشافات التى قامت بها اسبانيا قد خولتها حق ملكية معظم المناطق فى العالم الجديد ، يعنى الجزء الجنوبى من قارة أمريكا الشمالية ومعظم أمريكا الجنوبية وكذلك جزائر كثيرة فى المحيط الهادى . واذا كان البرتغاليون قد وجدوا المناطق التى اكتشفوها قليلة القيمة المادية فان الاسبان على العكس من ذلك وجدوا ثروة كبيرة فى المناطق التى اكتشفوها فى النصف الغربى من العالم .

ففى سنة 1519 قام بحار اسبانى اسمه Hernando Cortes (1485 ـ 1547) بعمل استكشافات فى داخل المكسيك حيث كان يسمع عن وجود ثروة كبيرة فيها . هنالك فى بلاد المكسيك كانت تعيش قبيلة Aztecs تحت زعامة حاكمها Montezuma . وقد كان جيش Cortes مسلحا باسلحة من حديد ويستعمل البارود والحصان وشعر Montezuma بقوة العدو فارسل اليهم هدية هى عبارة عن قبعة حديدية مملوءة بتراب ذهب . وكانت الهدية تحدث عكس ما كان يقصده Montezuma فقد بعثت فى نفوس الاسبان طمعا شديدا للاستيلاء على معادن الذهب فى المكسيك ، فقاموا بهجوم عنيف على العاصمة واسمها Tenochtatlan فى سنة 1521 فانهارت مملكة Montezuma وسقطت فى أيدى الفاتحين أو Conquistador . وقام الاسبان بعملية نهب كبيرة أخرى فى Peru فقد قاد Francisco-Pizarro حملة على مملكة Incas حيث كانت فيها مدنية ممتازة اقامها شعب Incas . تظاهر Pizarro بالرغبة فى ترتيب مقابلة مع امبراطور Incas فى مكان ما . ولما جاء الامبراطور مع حرس صغير خانه Pizarro والقى القبض عليه . واشترط Pizarro لاطلاق سراح الامبراطور ان يعطى هذا الاخير غرفة طولها 22 قدما وعرضها 17 قدما يملأ نصفها الاسفل بالاوانى

الذهبية • ويملأ نصفها الاعلى بالفضة • وبعد ان استلم Pizarro تلك الثروة الهائلة خان الامبراطور مرة أخرى فلم يرض باطلاق سراحه كما وعد بل وجه اليه تهما كثيرة مصطنعة واصدر الحكم باعدامه حرقا • وتحايل الامبراطور للنجاة من العذاب الذى لا يستحقه فتنصر ، فلم ينفعه تنصره بل عذبه عذابا حتى مات • وبموت امبراطور Incas استطاع Pizarro الاسبانى الدخول الى عاصمة بلاد Incas حيث نهب ثروات أخرى عظيمة • وأخيرا بنى Pizarro عاصمة جديدة هى مدينة Lima التى لا تزال موجودة حتى اليوم • وقد اضطر Pizarro لمحاربة شعب Incas سنين طويلة لان شعب Incas يريد ان ينتقم لحرمته وحريته التى سلبها Pizarro ولكن تقرر نصيب أمريكا الجنوبية حيث وقعت تحت نير الحكم الاسبانى الظالم • الا البرازيل التى وقعت تحت سيادة البرتغاليـين •

الانجليز والفرنسيون والهولنديون

ان مرسوم البابا لتقسيم العالم بين اسبانيا والبرتغال فى سنة 1493 والمعاهدة التى عقدت فى سنة 1494 لتعديل ذلك المرسوم قد أوقد فى صدور الدول الاوروبية رغبة للاستكشافات الجغرافية •

ففى سنة 1497 قام البحار الايطالى الذى كان يشتغل لحساب الانجليز واسمه John Cabot برحلة فى شمال المحيط الاطلنطى وبعد رحلة دامت ستة اسابيع وصل الى الشاطىء الشمالى من قارة أمريكا • ولما رجع الى بريطانيا عين أمير البحر Admiral واعطاه الملك هنرى السابع المشهور ببخله مبلغ عشرة جنيهات حق القيام برحلـة أخرى • وقد كانت رحلة John Cabot اساسا لادعاء بريطانيا ملكية كندا Canada و New-Found Land و Labrador و 13 مستعمرة فى الشاطىء الاطلنطى من القارة الامريكية•

واما الفرنسيون فقد قام البحار Jacque Cartier باستكشاف طريق الى الشرق من شمال أمريكا ، ولكن كل ما وجده هو نهر St. Lawrence العظيم وبذلك استطاع الفرنسيون ادعاء ملكية الجزء الشرقى من أمريكا الشمالية و Novascotia و Quebec, • وقام La Salle باسكتشاف نهر Mississippi. حتى خليج المكسيك ولاجل ذلك ادعت فرنسا بملكية جميع وادى Mississipi .

وهؤلاء الاورويبون المسيحيون الوافدون الى القارة الجديدة من الاسبان والبرتغاليين والبريطانيين والفرنسيين كانوا ينظرون الى المواطنين الاصليين فى القارة الجديدة نظرة الاحتقار والازدراء ، وكانوا يقولون : The only good Indian is dead Indian أى ان المواطن الاصلى (الهندى) الطيب هو الهندى الميت ·

واما الهولنديون فقد قاموا برحلات تجارية نتيجة لظـــروف سياسية · كان الهولنديون يشترون التوابل من البرتغاليين فى لشبونة ولكن فى سنة 1580 استولى ملك اسبانيا على البرتغال واقفل تجارة لشبونة فى وجه الهولنديين ·

ونتيجة لذلك تحركت قلوب الهولنديين للقيام برحلة تجارية الى الشرق لشراء البضائع من أهالى البلاد رأسا بدلا من شرائها من البرتغاليين بثمن مرتفع ·

وقد أسس الهولنديون شركة الهند الشرقية فى 22 مارس سنة 1602 وحصلت الشركة على امتياز احتكار الملاحة بين اندونيسيا وهولندا كما حصلت على امتياز استعمال الاسلحة لاخضاع أهالى اندونيسيا · وكانت أول رحلة للشركة فى 17 يونية سنة 1602 بثمانية سفن شراعية تحت قيــــادة Van Warnijk ، وقد استطاع هذا الرجل الرجوع الى بلاده سالما فى يونية سنة 1607 ، بعد ان استغرقت رحلته خمس سنوات كاملة بارباح طائلة ·

وكان امتياز الشركة لمدة 21 سنة وقد جدد الامتياز أثنى عشرة مرة وقد بلغ نجاح الشركة ان ارتفع ثمن اسهمها الى 750 ٪ فى احدى السنوات ·

ولما اتسع نشاط الشركة عينت ادارة شركة الهند الشرقية فى هولندا حاكـــما عاما لها فى اندونيسيا · وكان اكبر هؤلاء الحكام Jean Pieterzoon Coen الذى عين فى 31 ابريل سنة 1618 · وكان من ضمن التعليمات التى استلمها من ادارة الشركة المركزية انه كحاكم عام يجب عليه تجهيز الوسائل اللازمة لنشر الديانة المسيحية ·

والحاكم العام Coen هذا هو الذى أسس Batavia الذى أصبح الآن عاصمـــة اندونيسيا واعيد اليها اسمها القديم «جاكرتا» · وكانت المدينة مرفاء تحت سلطة حاكم

وطنى فاستولى الهولنديون عليها بالقوة فى 30 مايو سنة 1619 · ومنذ ذلك الوقت أصبحت باتافيا مركزا لنشاط شركة الهند الشرقية وتنسيق اعمالها ·

فالتجارة التى تقوم بها شركة الهند الشرقية هى تجارة مسلحة فهى غصب ونهب أكثر منها تجارة لانها مؤسسة على الاحتكار ·

مأساة جزيرة « باندا »

كل أعمال شركة الهند الشرقية الهولندية أعمال نهب وغصب · هى تشترى البضائع ولكن هى التى تقرر ثمنها واما البائع والمنتج فليس له حق التسعير واذا رفض بيع بضاعته فويل له من انتقام الشركة · واذا جاء مشتر آخر مستعد لاعطائه ثمنا معقولا فويل له أيضا من انتقام الشركة الهولندية التى ادعت الاحتكار فى تجارة التوابل ·

وهناك مآسى كثيرة فى أنحاء اندونيسيا اقترفتها الايدى الآثيمة لشركة الهند الشرقية الهولندية ولكنى سأذكر مآساة واحدة بلغت من فظاعتها ما تقشعر منه الجلود وهى مأساة جزيرة باندا ·

جزيرة باندا جزيرة صغيرة فى الجزء الشرقى من اندونيسيا وهى غنية بزراعة القرنفل وجوز الطيب وغيره من التوابل ·

ونظرا لثروة الجزيرة فقد فرضت الشركة الهولندية الاحتكار على سكان الجزيرة بحيث ليس لهم حق بيع حاصلاتهم الا الى الهولنديين · وقد حدث نزاع بين الهولنديين والانجليز حول شراء البضائع من جزيرة باندا ولكن النزاع قد سوى باتفاقية فى 17 يولية سنة 1619 ، ومقتضاها ان الهولنديين والانجليز سيتعاونون لتنزيل الضرائب التى تفرضها الحكومات فى اندونيسيا وتنزيل اسعار التوابل التى يبيعها الاهالى وكل من الهولنديين والانجليز لهم حق شراء نصف المحصول ·

واما فى جزيرة الملوك وامبون وباندا فالانجليز لهم حق شراء الثلث · وممنوع على كل فئة ان تتعاقد مع فئة ثالثة ·

غير أن الاتفاقية بين الهولنديين والانجليز اتفاقية غير [illegible]
[illegible] استغلت الفرصة [illegible]
جزيرة [illegible] محصولاتهم [illegible] أعلى مما يدفعه الهولنديون [illegible]
قانون العرض والطلب باع سكان جزيرة باندا محصولاتهم الى الانجليز .

وفى [illegible] Jan Pieterszoon Coen [illegible] 24 [illegible]

[illegible]

[illegible]

سنة 1621 الى جزيرة باندا ومعه ألف وخمسمائة جندى فى 12 سفينة . ولما وصل
الى جزيرة [illegible] Coen أن الانجليز قد اعطوا [illegible] الى الاهالى ليدافعوا عن
[illegible] .

[illegible] اهالى جزيرة باندا يريدون السلام
[illegible] على [illegible] الصلح . وبدأ الهولنديون
هجومهم على أهالى باندا فى 4 مارس سنة 1621 [illegible] هؤلاء الناس محصولاتهم
الى البرتغاليين وفى الوقت نفسه [illegible] الهولنديون [illegible] برتغالية مملوءة بذلك
[illegible] .

وفى [illegible] 7 مارس سنة 1621 [illegible] Coen على جزيرة باندا من الشمال
[illegible] الجنوبى من الجزيرة
فاستطاع [illegible] الاهالى

وقد [illegible] الاهالى [illegible] الصلح ولكن Coen وضع
شروطا ثقيلة [illegible] وهى :

أولا : على اهالى جزيرة باندا ان [illegible] الى الهولنديين .

ثانيا : [illegible] .

وثالثا : على أن [illegible] جزيرة باندا [illegible] من ابنائهم ليكونوا
ضمانا على [illegible] . وقد اضطروا أهالى باندا للموافقة على تلك الشروط الثقيلة .

الا ان قبيلة واحدة من سكان منطقة تسمى « سلمان » لم ترض بالخضوع الى الهولنديين كما ان بعض سكان منطقة أخرى وهي منطقة [illegible] التجأوا الى الجبال واقاموا هناك تحصينات بمساعدة سكان جزر اخرى . وقد عاقب Coen سكان « سلمان » [illegible] مدينتهم واغراق سفنهم والقاء القبض عليهم كلهم جميعا وعددهم 789 شخصا وارسلهم الى باتافيا (جاكرتا) ليكونوا عبيدا [illegible] [illegible] جميعا رغم الرؤساء ضمانا لتنفيذ سياسته في [illegible]

واما هؤلاء الذين قد احتصنوا في الجبال فقد [illegible] Coen 1620 [illegible] لاخضاعهم ، لكن هؤلاء دافعوا عن [illegible] فاراد الهولنديون من حيث اتوا [illegible] في الجبال كانوا على اتفاق مع الرؤساء 47 الذين [illegible] هؤلاء الرؤساء السبعة والاربعين . أمر Coen [illegible] وقتل الباقي وهم 44 شخصا [illegible] سنة 1620 . وهاجر من [illegible] في سفن صغيرة .

واما هؤلاء الذين تحصنوا في [illegible] حيث منع وصول الامدادات [illegible] 1620 ذهب Martinus Sonck الى الجبل ومعه 400 [illegible] والصيادين [illegible] ولم يلاق Sonck أية مقاومة لان الذين لم [illegible] أصبحوا [illegible] ملابس تقيهم البرد ولم يكن لهم مؤنة طعام . ومعظم الجماعة قد ماتوا جوعا وبردا . ووجد Martinus Sonck على الجبل التي كوخ وحوالى 1500 مقبرة كما وجد تسعة جثث لم تدفن بعد ومن بينها جثة امرأة وطفلة . واستمر Sonck في البحث عن [illegible] من الاهالى المدافعين عن حقهم ، فوجد [illegible] Sonck ذلك الحصن الصغير وقتل منهم اربعين رجلا واسر سبعة رجال احياء و66 امرأة وطفلا واحـــدا .

ولم تنته مأساة باندا بذلك ، فقد علم Martinus Sonck ان هناك اشخاصا ارادوا الهجرة من تلك الجزيرة التعسة الى جزيرة أخرى حيث لم يطيقوا ظلم شركة الهند الشرقية فأوقفهم Martinus Sonck لانه خاف ان يفقد الايدى العاملة للعناية باشجار القرنفل وجوز الطيب - ولما اصر هؤلاء الناس وعددهم 160 رجلا على الهجرة حكم Sonck عليهم بالاعدام فاعدموا جميعا • وبعد الانتهاء من تلك الجريمة الشنيعة استلم Martinus Sonck رسالة من الحاكم العام Coen رسالة تحتوى على تهنئة حارة « لقد قمت بعمل عظيم » •

لقد افنت الشركة الهولندية جميع سكان جزيرة باندا الغنية بالقرنفل وجوز الطيب واستولت الشركة على الجزيرة وقسمت أراضيها على موظفى الشركة ليقوموا بزراعة التوابل مع العبيد ثم يبيعوا حاصلاتهم الى الشركة •

أيها السادة ، لقد ذكرت لكم قصة شعب Aztecs وشعب Incas فى أمريكا الجنوبية وكيف سلب الاسبان ثروتهم كما ذكرت لكم قصة سكان جزيرة باندا فى اندونيسيا وكيف نهب الهولنديون ثروتهم بل وكيف أبادوهم عن آخرهم ولم اذكر حوادث الهند ومناطق افريقيا ، كما لم اذكر كيف يعانى هنود أمريكا وسكان استراليا وتسمانيا الاصليون من معاملة الاوروبيين القادمين وكيف حرموهم من أراضيهم بل من حياتهم ، كما لم اذكر شيئا من تاريخ الاستعمار الحديث وكيف اعلنت فرنسا حمايتها على مراكش وتونس وكيف ضمت الجزائر اليها كجزء لا ينفصل من فرنسا وكيف اقتسم الايطاليون والفرنسيون والانجليز أرض ليبيا • ولكن ما ذكرت من التاريخ البعيد يكفى لتنبيه الاذهان الى ظلم الانسان للانسان •

ولو اننا قصرنا النظر الى التاريخ فقط لاستنتجنا ان بطون الارض أو ما عليها من خيرات نقمة ، ولو اننا قصرنا على التاريخ فقط لاستنتجنا بان القوة هى كل شىء • القوة هى التى تفرض ارادة القوى على الضعيف ، والقوة هى التى تجعل الظلم عدلا ، وتجعل الخيانة امانة وهى التى تجعل الخبيث طيبا والطيب خبيثا •

ولكنا والحمد لله اناس مسلمون قد انعم الله علينا بنعمة الاسلام والايمان • والاسلام لا يقول بان بطون الارض نقمة ، ولكن الله يقول فى القرآن الكريم : « **وسخر لكم ما في السموات وما في الارض جميعا منه** » (سورة الجاثية ، آية 13) •

ويقول أيضا فى سورة محمد : « **ولو شاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قاتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم ، سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم** » (الآية 4) •

ويقول فى سورة الشورى : « **والذين اذا اصابهم البغى هم ينتصرون وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفى واصلح فأجره على الله انه لا يحب الظالمين،ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل** » •

لقد كان ما ذكرت من تاريخ شعب Aztecs وشعب Incas فى أمريكا الجنوبية وتاريخ سكان جزيرة باندا فى اندونيسيا صفحة من تاريخ القرن السادس عشر • ولقد تطور العالم تطورا كبيرا منذ عهد الاستكشافات الجغرافية ونهب اسبانيا لشعب Aztecs وشعب Incas ونهب هولندا لشعب باندا • وظهر Hugo Grotius الهولندى كاول من كتب فى القانون الدولى ، ثم انشئت عصبة الامم بعد الحرب العالمية الاولى وانشئت هيئة الامم المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية • ولكن لا عصبة الامم ولا هيئة الامم المتحدة تستطيع منع تعدى أمة على أخرى كما كنا نرجو •

ولكن مالنا والقانون الدولى ومالنا وعصبة الامم وهيئة الامم المتحدة • ان لنا نحن المسلمين الفرقان الذى يفصل بين الحق والباطل وان لنا لذكرا مباركا انزله الله تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة للعالمين • والقرآن يرشدنا بالاستعداد بالقوة ، يقول الله تعالى فى سورة الانفال : « **واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم** » •

فواجب المسلمين ان يستثمروا ثروة بلادهم ويحافظوا على بلادهم الذى انعم الله به عليهم ثم يحاولوا تعميم الامن والسلام والتعاون بين الامم •

لقد اظهرت الايام ان للاسلام قوة فهذا بترول العالم فى بطون أرض المسلمين من المملكة العربية السعودية ، وايران ، وليبيا ، والجزائر ، واندونيسيا وهذا فسفات فى شمال افريقيا ومعادن أخرى كثيرة فى اندونيسيا • ولئن شعر كل بلاد بان الثروة التى فى أرضه ليست ثروتهم الخاصة ولكنها مال الله الذى أتاهم وينفق للخير المشترك

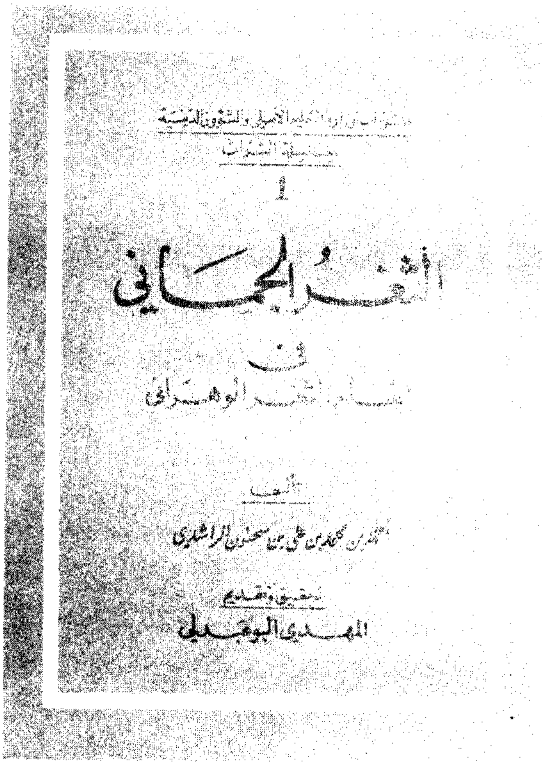
بين الامم الاسلامية فان ذلك من صميم تعاليم الاسلام . وأول ذلك الخير المشترك هو العناية بالدين الاسلامى أو التوعية الاسلامية .

أن النعمة التى انعـــم الله بها عــلى بعض الامـــم الاسلامية فى شكل ينابيـــع البترول الغزيرة يجب ان يخصص جزء منها لتكوين رأس مال روحي لا ينضب يكون تحت تصرف لجنة من زعماء الدعوة الاسلامية النزهاء وينفق لاجل نشر الوعي الاسلامى بين المسلمين أنفسهم ، حتىلاتؤثر فيهم الدعوات الدينية المخالفة ولا العلمانية الهدامة .

فاذا استطعنا ان نحقق هذه الفكرة فكرة انشاء مصدر مالى لا ينضب للتوعيـــة الاسلامية فان ما فى بطون الارض هى نعمة لنا سيتيح لنا فرصة لشكر الله على نعمائه ، « **واذ تأذن ربكم لئن شكرتم لازيدنكم ولئن كفرتــم ان عذابي لشديد** » «سورة ابراهيم ، آية 7) .

منشورات

وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية



ملاحظـــات حــول الملــتقى الحادى عشر للفكر الاسلامى ورجلان ـ ورقلة

د. خير الله عصار
(سوريا)
جامعة عنابة ـ الجزائر



1 ـ استقبلت ولايــة الصحراء الجميلة ، ورجــلان (ورقلة) سدراتة ، المشاركين فى الملتقى الحادى عشر للفكر الاسلامى أحسن استقبال ، فلبست لهذه المناسبة الفكرية المجيدة ، حلة بهيجة أضاءتها شمس الصحراء الدافئة . أما ليلا ، فلا تسل عن الانوار المتلألئة الملونة، وعن عبارات الترحيب العديدة المعلقة هنا وهناك ، تعبر عن صميم الضيافة العربية التقليدية التي بدت بأحسن شكل وبأوضح صورة .

الصحراء التى تعصف بزائريها صيفا حاملة اليهم الرمال الناعمة فتغطى ثيــابهم وتتغلغل فى ثنايا أجسامهم ، كانت لامعة ، دافئة تبتسم فرحا وجذلا . ولهذا فقد كان الجو الطبيعى عاملا مسهلا،ومنعشا ، فتفجرت القرائح وساد الحماس الفكرى ، بشكل لم تحظ مثله الملتقيات السابقة التى (حسبما أعلم) لم تنج من لدغة الحر،ووخزة البرد، وخشية الفيضان .

2 ـ لم يحدث أن اهتمت سلطات ولاية ما ، عقد الملتقى فى مقر ولايتها ، بقدر ما اهتمت سلطات ولاية ورقلة بالملتقى الحادى عشر .

فلم يكتف واليها بحضور جلسة الافتتاح وجلسة الاختتام كما جرت العادة ، بل كان حاضرا فى كل صغيرة وكبيرة منذ الساعة الاولى حتى آخر لحظـــة · كان يشرف ويوجه،ويلاحظ ، ويتخذ الاجراءات لتحسين ما خطط لـه مسبقا اذا بـدت امكانيات للتحسين · وغالبا ما رأيته يقترب من الطـــلاب والطالبات والاساتذة والاستاذات ويسألهم ان لاحظوا نقصا أو كانوا بحاجة الى شيء · كان يفعل كل هذا وابتسامته لا تفارق محياه ، وكأنه أب يحنو على أولاده الذين يزورونه مرة واحدة فى العمر ·

3 ـ فى غرداية،والاغواط،وحاسى مسعود،وغيرها من الاماكن التى زارها المشاركون، كان كل شيء قد أعد تنظيمه وترتيبه ، وبشكل خلق ارتياحا تاما عند الجميع ·

كنت أصغى مـــن آن الى آخر الى انطباعات الضيوف وتعليقاتهم ، فلم أسمع الا كلمات الارتياح والثناء على حسن التنظيم الدقيق ·

4 ـ أما بالنسبة للمشرفين على تنفيذ النشاطات اليومية للملتقى ، أى موظفـى وزارة الشؤون الدينية ، فقد بذلوا قصارى جهدهم للقيام بواجباتهم على أدق وأكمل وجه.

فمنذ أن تطأ قدما المشارك أرض الجزائر ، يستقبله موظف من الوزارة باسم الوجه ثم يؤمن له ولمتاعه وسيلة النقل الى الفندق ، حيث يستقبله هناك موظف آخر يؤمن له اقامته الكاملة ويعلمه عن موعد سفره · وعندما تحين ساعة السفر الى ورقلة ، سواء كانت ليلا أو نهارا ، تجد الموظفين المشرفين قد هيأوا كـــل شيء (السيارة ، البطاقة ، المتاع ، الخ ··) يمتطى المشارك الطائرة ، وبعد بعض الزمن ، ينزل حيث يستقبل مرة أخرى فى ورقلة (سدراته) بنفس الحفاوة،والدقة،والتنظيم ·

ان الاهتمام بدقائق الامور التنظيمية ، قد خلق جو ارتياح تام فى الملتقى ، وأعطى صورة مشرقة للجزائر الثورة ولسلطاتها · فالذين أشرفوا،وخدموا،وساهموا على راحة المشاركين يستحقون كل تقدير وكل شكر ـ لولاهم لحدث تلكؤ ولتعثر سير الملتقى ـ

5 ـ حاول الملتقى ان يتغلب على صعوبات اللغة هذه المرة ، ففتح المجال لكـل مشارك غير متعرب كى يفهم ما يجرى بلغته، لقد كانت هناك ترجمة فورية من ، والى العربية ،والفرنسية،والالمانية،والانكليزية،والاسبانية ·

صادفت عملية التنفيذ الجيد لهذه الترجمة الفورية ، بعض الصعوبات التى تعود بالدرجة الاولى الى سرعة القاء المحاضرين وسرعة تكلم المناقشين كأن البعض منهم يريد أن يصب أكبر عدد ممكن من الكلمات في أقصر وحدة زمنية فتعذرت الترجمة وتعذر الفهم أيضا • لقد تناسى البعض أن القدرة الانسانية على نقل فكرة من لغة الى لغة أخرى لها حدود ، لهذا كان من الضرورى أن يحدث التدخل من جانب المشرفين وذلك من أجل التخفيف من السرعة الصاروخية التي كانت فيها الكلمات تصدر من أفواه المتكلمين •

من الممكن أن يكون عند المترجم زر يضغطه ، فيشعل بذلك مصباحا أحمر يثبت على المنصة أمام المتكلم الواقف على المنبر • وبذلك يحذر المتكلم أن سرعته تجاوزت الحدود ويجب عليه أن يستعمل مكابحه •

لا غرابة اذا حدث تدخل للتخفيف من سرعة القاء المتكلم ، المحاضر ، والمناقش • فمترجمو الامم المتحدة (مجلس الامن) ، الذين يعتبرون من أفضل مترجمي العالم قاطبة ، يتدخلون للتخفيف من سرعة بعض المتكلمين • ان تحول المترجم الى عقل اليكترونى يقوم بترجمة حوالى مائه كلمة فى الدقيقة (وهى سرعة الكلام عند بعض المتكلمين فى الملتقى) هو مستحيل ، وان التوصيات المسبقة لا تجدى نفعا ، اذن فلابد من التدخل لكبح جماح سيل الكلمات حتى لو أدى هذا التدخل الى ازعاج البعض من المتكلمين •

6 ـ لا شك أن الطلبة والطالبات عنصر هام فى الملتقى • ويتصور البعض أنه لولا حاجة النشء الجديد الى فهم أصول الاسلام وفهم المشكلات التي تواجهه ، لما عقد الملتقي أصلا •

لذا يجب أن توزع المحاضرات على الطلبة والطالبات فى نفس الوقت الذى توزع فيه على الاساتذة ، لقد تلافت ادارة الملتقى هذا النقص فى مرحلة مبكرة ، وحالما لوحظ النقص •

7 ـ على الرغم من تكرار اذاعة طلبات التلاميذ والتلميذات من أجل أن يلتقوا والمحاضرين والمحاضرات وغيرهم (بعد العشاء) فلم يستطع البعض منهم أن يلبى كل الطلبات المذاعة • ويعود السبب الى عدم وجود وقت ما يسمى « ما بعد العشاء » •

فى غالب الاحيان تنتهى النقاشات فى ساعة متأخرة ، ثم يتبعها العشاء ـ وفجأة يلاحظ أن الساعة قد تجاوزت الحادية عشر ليلا • وعليه لا يعد ممكنا للاستاذ المتعب (حتى لو كان شابا) أن يتابع النقاش مع الطلبة والطالبات بعد هذا الوقت •

يقترح أن يخصص يوم أو نصف يوم للقاءات بين الاساتذة والطلبة ، وبهذا يستطيع الجانبان أن يناقشا ما يشاءان بدون تعب •

8 ـ سبعة شهور تفصل بين الملتقى العاشر والملتقى الحادى عشر كانت غير كافية • ولولا الادارة الجبارة ، والتصميم الحازم من جانب المسؤولين عن تنظيم الملتقى، لما أمكن له أن يعقد • وقد انعكس هذا على بعض المحاضرين الذين لم يكن عندهم أكثر من أسبوعين لتحضير محاضراتهم • نتيجة لهذا بدت بعض المحاضرات وكأنها مجرد تأملات حول المواضيع المطروحة •

ان اعطاء المحاضر فترة أطول كى يعد محاضرته بهدوء يجعل من الممكن أن تكون بعض المحاضرات فعلا بحوثا فكرية معمقة •

9 ـ يلاحظ غياب الصحافة غير الجزائرية.لم يكن هناك مراسلو الصحف والمجلات من المشرق العربى وأوروبا كما جرت العادة •

أجل فقد قامت الصحافة الجزائرية بواجبها خير قيام لكن هذا لا يكفى •

يا حبذا لو أرسلت دعوات الى بعض المجلات والصحف الاوروبية وبعض العاملين فى الاعلام فى الشرق العربى والشرق الاقصى وذلك من أجل تغطية هذه التظاهرة الفكرية الهامة واعطاءها حقها من الذيوع والانتشار • (1)

(1) عكس ما ذكر كاتب المقال ، فقد دعيت الى الملتقى عدة صحف ، ومجلات عربية ، واسلامية ، أوروبية .
وقد نشرنا فى عددى 45 و 46 من مجلة الاصالة ، تحت عنوان : من اصداء الملتقى الحادى عشر للفكر الاسلامى ، ما نشرته بعض هذه الصحف ، والمجلات العربية ، والاوروبية عن الملتقى ، وسنوالى فى الاعداد القادمة نشر البعض الآخر •

10 ـ يجب أن ننوه شاكرين بوجود وفد من مسلمي الاتحاد السوفييتي ، وذلك لاول مرة (حسبما أعلم) • وبذلك يمد الملتقى يديه الى كل المسلمين في قاصي الدنيا ودانيها ، داعيا،ومرحبا،ومناقشا •

11 ـ مما يثلج الصدر أن نلاحظ أن الملتقى قد تناول قضايا هامة ، كمسألة المرأة، ومسألة ثروات الارض • وهذه بادرة حسنة تدل على أن الباحثين المسلمين يتجهون أكثر وأكثرة نحو التركيز على قضايا العصر •

يؤمل أن يعالج الملتقى القادم مواضيع هامة أخرى مثلا ، « الاسلام ومشاكل الشباب في العصر الحاضر» (1)، «كيف يمكن توحيد العالم الاسلامي ؟» (2) وهكذا •

12 ـ اذا تصفحنا برنامج الملتقى الذى نحن بصدده ، لوجدنا مثلا الدكتور عبد الكريم سايتوح ، أستاذ الاقتصاد بجامعة تاكاشوكو ـ طوكيو (اليابان) ، مكلف بمحاضرة عن « المرأة بعد عام المرأة » ، ولوجدنا الدكتور صلاح الصاوى استاذ بكلية الآداب والعلوم الانسانية ، جامعة طهران (ايران) قد كلف بمحاضرة حول « هل بطون الارض نعمة أم نقمة ؟ » • (3)

لقد كان من المفيد أن يخبرنا الدكتور سايتوح عن نعمة أم نقمة بطون الارض في بلاد اليابان ، تلك البلاد التي إستطاعت أن تضاهي باقتصادها معظم دول العالم مجتمعة ، وكان من الافيد أيضا أن يجتهد الدكتور الصاوي في موضوع المرأة فهو أقرب في تصوفه الى موضوع انساني اجتماعي كهذا •

ودائما في اطار البرنامج المطبوع ، فمن المفيد أن نذكر ضرورة تبيان اختصاص المحاضر، وذلك لمقارنته بموضوع المحاضرة فلا يكتفي بذكر اسم المؤسسة التي يعمل فيها كما يبدو من البرنامج •

---

(1) طرق هذا الموضوع في الملتقى الخامس في وهران بهذه الصيغة : «الاسلام ومشاكل الاسرة وتربية الجيل في عالم اليوم»•

(2) طرق هذا الموضوع في الملتقى السابع لتعرف على الفكر الاسلامي في تيزي وزو بالصيغة التالية : « المؤامرات التي تعرضت لها وحدة الامة الاسلامية ، ويتعرض لها ما تبقى منها اليوم ، من طرف الصهيونية وغيرها ، وما يجب علينا حيال ذلك » .

(3) ليس هناك تكليف ، بل الاستاذ المدعو حر في اختيار الموضوع الذى يتراءى له في اطار جدول أعمال الملتقى .

13 ـ وتعقيبا على النقطة السابقة يلاحظ أيضا غياب أسماء محاضرين فى حقل علم الاجتماع ، وحقل علم النفس • ان موضوع المرأة يجب تناوله من قبل عالم اجتماع أو عالم نفس أو عالم أنثروبولوجيا،وليس من قبل المؤرخين والاقتصاديين فقط •

14 ـ لا شك أن وجود المحاضرات اللواتى تناولن موضوع المرأة يعتبر نقطة حسنة وبادرة طيبة لان ذلك يعطى المرأة نفسها الفرصة كى تتكلم عن نفسها وعن زميلاتها • وقد أحسنت المتكلمات فى شرح وجهة نظرهن خاصة السيدة زهور ونيسى التى عبرت عن ارهاصات المرأة الجزائرية فى العصر الحديث أما السيدة كزافيير غوتيي ، كاتبة فرنسية ، فقد عبرت عما يجرى فى أعماق لاشعور المرأة الاوروبية بعد أن خطت خطوات كبيرة فى طريق التحرر الكامل •

15 ـ على الرغم من المحاضرات التى تجاوزت العشرين حول المرأة ، فان عنوان النقطة « المرأة بعد عام المرأة » قد بقى غامضا • ويعود السبب فى رأينا الى أن العنوان (أى الموضوع) نفسه واسع وغامض • لقد كان من الافضل مثلا أن يدرس الموضوع ويحلل الى مواضيع جزئية متكاملة يتناول كل باحث جانبا يتفق مع اختصاصه • فليكن مثلا أحد علماء النفس فى جامعة جزائرية أو عربية ، يعالج لنا موضوع : « نفسية المرأة » • وليعالج طبيب ما موضوع : « تكوين جسد المرأة وتأثيره على نشاطاتها ودورها الاجتماعى » •

أما أحد علماء الاقتصاد فيمكنه أن يعالج قضية : « عمل المرأة فى المصانع اليوم » وربما أحد المربين يعالج مشكلة « المرأة وتربية الطفل » وهكذا •

16 ـ وما قلناه حول ضرورة تحديد المواضيع بالنسبة للمرأة ، ينطبق على « هل ما فى بطون الارض نعمة أم نقمة ؟ » •

فيا حبذا لو كانت هناك محاضرة من اقتصادى مختص فى شؤون البترول حول : « البترول والشركات الاحتكارية الغربية فى الماضى والحاضر » ! وكان بودنا أن نصغى الى محاضرة حول : « ثروات افريقيا والدول الغربية فى الوقت الحاضر » • أما تجربة الجزائر فى كفاحها ضد المستعمر الذى أراد أن يرحل « عسكريا » كارها ، ويبقى له وجود اقتصادى يتمثل فى سيطرته على آبار البترول والغاز ، فتستحق هذه التجربة أكثر من محاضرة • وبذلك يمكننا أن نرى بعين العقل كيف أن ما فى بطون الارض

نعمة خلقها الله للانسان ، لكن أطماع الانسان وجشعه والامبريالية قد حاولت أن يجعل منها نقمة بالنسبة للشعوب التى أكتشفت فى أراضيها ٠

17 ــ انْ تسعا وثلاثين محاضرة تلقى فى مدة ثمانية أيام ، بمعدل خمس محاضرات فى اليوم ، تبدو كثيرة ٠ لقد كان الوقت المخصص للنقاش دائما قصيرا على الرغم من أن المخصص للمحاضر قد هبط من 45 دقيقة (فى الملتقيات السابقة) الى 30 دقيقة فى الملتقى الذى نحن بصدده الآن ٠

فيا حبذا لو انقص عدد المحاضرات الى النصف مثلا ، وزيدت المدة المخصصة للمناقشين ٠ لقد شكى أكثر المناقشين من عدم وجود الوقت الكافى للتعبير عما يجول فى خاطرهم على الرغم من أن بعض المناقشات كانت شططا ٠

اني اعتقد جازما انْ ملتقيات الفكر الاسلامى هى أكثر المؤتمرات والملتقيات جدية وعمقا ٠ انها المؤتمرات التى يخصص من الوقت فيها للنقاش ، وللحوار، والالقاء ، أكثر مما يخصص من الوقت للحفلات والاستقبالات والثانويات من الامور كما يحدث عادة ٠

ان الملتقى الحادى عشر للفكر الاسلامى ندوة ثقافية يتعدي تأثيرها حدود النخبة ليصل الى التلاميذ ، الى رجال المستقبل الذين تنتظرهم الثورة ٠ ان الملتقى الحادى عشر للفكر الاسلامي جسر دام نصبه عشرة أيام ليصل بين فئات الشعب التى هى فى طور التثقيف وبين أفضل العقول تقريبا التى يمكن أن نأتى بها الى أرض الجزائر للاصغاء،والحوار، ومعالجة مشاكل مازالت تؤز أجزاء عديدة من العالم أزا ٠

ان الملتقى الحادى عشر للفكر الاسلامى تظاهرة ثقافية ، تنبثق مرة فى العام ، لكن ضوءها يستمر في الاشعاع والتلألؤ على مدى أشهر بل سنين عديدة ٠

فشكرا لكل من ساهم ، وشكرا لكل من أشرف ، وشكرا للجزائر التى تعرف كيف تخدم الاسلام والمسلمين بحسب روح العصر ومتطلباته ٠

ابن عبد ربه : حياته ، وشعره (١)

عيسى موسى محمد
باحث ـ المكتبة الوطنية



من المفيد في البداية أن أبين الاسباب التى دفعتنى الى اختيار الموضوع وهى كما يلى :

أولا : دافع قديم تكون عندى لما كنت فى الجامعة حيث وجهنى أستاذ الادب الاندلسى الى الاهتمام بهذا الادب لحاجته الى مزيد من البحث والعناية ٠

ثانيا : أهمية الفترة التى تناولتها فهى تتيح لى التعرف على الادب الاندلسى فى أصوله الاولى تمهيدا لاستئناف البحث فى الفترات اللاحقة ٠

ثالثا : بعث ديوان ابن عبد ربه الى الوجود انصافا له خاصة ، وللادب الاندلسى والعربى عامة ٠

وقد قسمت هذه الدراسة الى بابين رئيسيين خصصت الاول منهما لعصر ابن عبد ربه وحياته واغراض شعره ، اما الباب الثانى فقد ضم نص الديوان بعد جمعه وتحقيقه .

(١) بحث لنيل دبلوم الدراسات المعمقة من جامعة الجزائر تحت اشراف الدكتور عمر موسى باشا ٠

وقد قسمت الباب الاول الى فصلين ، تفرع الاول منهما عن ستة أقسام ، تحدثت فيها عن الحياة الاجتماعية والدينية والثقافية فى عصر ابن عبد ربه كما تكلمت عن حياته وشخصيته وعلاقته بامراء بنى أمية ، وآثاره وقيمتها العلمية .

اما الفصل الثانى فتطرقت فيه الى اغراض شعر ابن عبد ربه وهى : 1 المديح ، 2 الوصف ، 3 الغزل ، 4 أغراض أخرى .

الفصل الاول من الباب الاول ـ عصر ابن عبد ربه وحياته ـ

أولا : الحياة الاجتماعية والديبية .

تحدثت بايجاز شديد عن عصر ابن عبد ربه وتجنبت التفصيل خوف الوقوع فى ترديد ما قاله الكثيرون من المحدثين الذين تعرضوا للعصر واعلامه .

قدر لابن عبد ربه ان يعاصر فترتين متباينتين وقد كانت نقطة التحول عند نهاية القرن وبداية الآخر ، اذ ان الناصر تولى الحكم فى الاندلس سنة 300 هـ ، ويعنى هذا دخول الاندلس عهدا من الازدهار شهد ابن عبد ربه جانبا منه ، وسجله فى اشعاره ، على عكس الظروف التى عاينها فى عهد الامراء الثلاثة السابقين .

يتكون المجتمع الاندلسى من السكان الاصليين الذين ادركهم الفتح الاسلامى ، ومن هؤلاء من اعتنق الاسلام ، ومنهم من بقى على الدين المسيحى واكتفى باظهار الطاعة ، ومنهم من توغل فى الجبال أو اتجه نحو الشمال . ثم تضاعفت الهجرة وتوالت من شمال افريقيا ومن الشرق بعد ان استتب الامر ، وخاصة بعد سقوط الدولة الاموية ووصول عبد الرحمن الداخل اليها . ثم كان لهذا التمازج أثر سيء برز فيما بعد ، وسبب كثيرا من الفتن نتيجة رفض العناصر بعضها بعضا ، ونتيجة التنافر الطبيعى والتضارب بين الجنسيات المختلفة ، لذلك لم يكتب للمجتمع الاندلسى الاستقرار الا فى فترات قليلة ، منها فترة عبد الرحمن الناصر ، التى ينتهى اليها التحديد الزمنى لهذا البحث .

على ان هناك الدين الاسلامى الذى يجمع هذا الشتات ويوحده ، اذا استثنينا المسيحيين واليهود الذين بقوا على دينهم . فالفتح نفسه تم باسم الاسلام ولغرض نشره

وتوسيع رفعته، بالاضافة الى ان الحكم كان باسم الدين · غير ان الذى كان له كبير الاثر على سير الحياة الاجتماعية بعد شخصية الحاكم ، هو الجهاز الذى يسيطر بالفعل على على تسيير شؤون الدولة ، كالكتاب والحجاب والوزراء والقضاة الذين بيدهم مقاليد الامور ، وكان هؤلاء وراء الكثير من الاحداث التى هزت الاندلس واقلقت الامراء ، وسببت انعدام الامن واستمرار الشغب ·

ثانيا : الحياة الثقافية · ان الحركة الادبية فى الارض الجديدة وجودها ضرورى ولا يتصور انعدامها · فمن خلالها يصور الفاتحون حياتهم ومشاغلهم ، ويعكسون بهـا واقعهم وتطلعاتهم · وهذه الحركة لا تبتعد كثيرا عن صورتها فى المشرق ، من حيث المضمون والخصائص الفنية ، فى هذا العهد المبكر من القرن الثانى الهجرى ، الذى توجه اهتمام الفاتحين فيه بالدرجة الاولى نحو السيطرة على الوضع واخضاع البلاد مع ان دخول العرب الى الاندلس يعنى دخـول ثقافـة جديدة ولغة جديدة · فهم الفاتحون والمسيطرون على البلاد ، وهم الممثلون لحضارة أصيلة فى المشرق ، جاءوا متحمسين لنشرها فى بـلاد دخلوها بنيـة الاستقرار · يضاف الى هـذا اهتمامهم بنشر الـدين الاسلامى ، وهذا يفسر ظاهرة انتشار اللغة العربية ، لانها لغة القرآن ، ووسيلة لنشر تعاليمه ، ولغة الفاتحين ، فاصبحت بذلك اللغة التى وحدت ، وسهلت التفاهم بـين الاجناس المختلفة ، التى يتركب منها هذا المجتمع الجديد ·

ما من شك فى ان العوامل التى تتطلبها أى حركة فكرية لازدهارها بدأت تتـوفر شيئا فشيئا ، ويبـدو هذا واضحا فى القرن الثالث ، فان العـرب بدأوا يشعرون بالاستقرار وما يتبعه ، خاصة وهم الطبقة الحاكمة · فقد كانت المجالس تعقد فى دور الامراء وابناء الامراء من بنى مروان ، على غرار ما كان يقع فى بغداد ، وبمحضر جماعات من الادباء مما يضفى على هذه المجالس جوا علميا وأدبيا خالصا · ولم يقتصر الامر على الادب والشعر ، فقد يكون الاديب منهم طبيبا أو فلكيا أو عالما بالحسـاب أيضا · وبعبارة أخرى فان حـركة العلـوم كانت نشيطة في هذه الفترة · وما الازدهار الذى شهده القرن الرابع الا ثمرة لهذه البوادر التى برزت فى القرن السابق ، وساعد على

ذلك تشجيع الحكام لاهل العلم · ولعل ابن عبد ربه يكون احد الاعلام البارزين الذى دل وجوده على الازدهار الذى بلغه القرن الرابع ، ففيه تبلورت الحركة الادبية وأتت ثمارها .

ثالثا : حياة ابن عبد ربه · يرتقى نسبه الى جده الرابع ، وقد كان هذا الجد مولى لهشام بن عبد الرحمن الداخل ، كنية الشاعر أبو عمر ، واسمه أحمد · ويدخل ابن خلكان فى القرن السابع اضافة جديدة الى نسبه فينعته بالقرطبى ، ولعله لا يقصد الشاعر وانما سالما جده · والمعروف ان المولى هو الجد وليس هو ابن عبد ربه · والحقيقة ان الالتباس ظل قائما بعد ابن خلكان ، فقد سار المؤرخون بعده على هداه · ويلاحظ اشتباه الامر عليهم فى انهم خلطوا بينهم وبين جده سالم فى أمرين : الاول ، فى نسبته الى قرطبة والثانى فى كونه مولى بنى أمية ، وقد بدأ ذلك فى القرن الثامن مباشرة عند ابن كثير بهذا الشكل ، « أبو عمر القرطبى مولى هشام بن عبد الرحمن » وبهذا يكون ابن كثير أول من نسب ابن عبد ربه الى قرطبة صراحة ، وأول من عده مولى هشام ابن عبد الرحمن ، واذا علمنا ان هشاما هذا توفى فى القرن الثانى وابن عبد ربه فى القرن الرابع ، تبين أهمية الخطا الذى وقع فيه ابن كثير ، وأوقع فيه كل من أخذ عنه بعد ذلك · معنى هذا ان ابن عبد ربه لم يكن ينسب الى قرطبة فى التراجم الاولى ، وانما جاءت هذه النسبة متأخرة جدا ·

أما بالنسبة لضبط تاريخ وفاته ومولده ، فيعد ابن الفرضى فى القرن الرابع أول من حدد وفاته ويأتى بعده الحميدى فى القرن الخامس ليذكر تاريخ ولادته ، ويبدو أن جميع الاخبار حول هذا الموضوع استندت فيما بعد الى أحد هذين المصدرين بطريقة أو بأخرى · فمولده سنة ست وأربعين ومائتين ووفاته سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة · أما موضوع أسرته فانه أكثر الجوانب غموضا ، فلا الشاعر ولا انتاجه يقدمان لنا شيئا ، ولا المؤرخون الذين اهتموا به وصفوا محيطه وأسرته · ولعل السبب الرئيسى يرجع الى ان الشاعر كان مجهولا قبل ان يشهره انتاجه ويعلو به علمه ، وهو ما قد يفهم من عبارة الحميدى « وساد بعد خمول واثرى بعد فقر » وكل الذى يمكن التأكد منه هو انه تزوج وانجب أولادا ، رثا اثنين فقدهما · وله ابن أخ عرفناه ، من خلال المشادة التي وقعت بينه وبين عمه ·

رابعا : شخصية ابن عبد ربه : جنى على شخص الكاتب مؤلفه حتى اصبح يعرف به فيقال : ابن عبد ربه « صاحب العقد » . ومن المؤكد انه لم يكن صاحب العقد وكفى ، انما كانت له شخصيته ومميزاته وأدبه ، فهو « شاعر الاندلس وأديبها » كما جاء عند ابن الفرضى . ويحدثنا عنه الحميدى فيقول « كان لابى عمر بالعلم جلالة وبالادب رياسة وشهرة » . ويقول عنه أيضا فى تعبير موجز جامع « من أهل العلم والادب والشعر » . ونعيش الصورة ذاتها وتتنقل عبر العصور ويصفه ابن سعيد فى القرن السابع بانه « قدوة شعراء الاندلس وأدبائها » ويعده فى موضوع آخر « امام أهل أدبها بالاندلس ومصنفيها وفرسان شعرائها » . والملاحظ عند المتقدمين تركيزهم على شاعرية ابن عبد ربه وتصدره هذا الفن فى عصره . وهؤلاء قد أتيح لهم بدون شك الاطلاع على شعر وافر لابن عبد ربه لم يكتب له الحفظ وضاع جله ، وفقد من أجل ذلك مكانته بين الشعراء فى نظر المتأخرين .

الحقيقة أن الحديث عن شخصية ابن عبد ربه لم يستنفذ بعد ، ولم ينل حقه من الدراسة والتمحيص ، ولعل احسن خدمة فى هذا المجال تلك التى قدمها لنا الحميدى ، وتكاد تكون فريدة من نوعها ، وهى تقدم الجواب عن عدة تساؤلات . يقول الحميدى : « فقد اتفقت لابن عبد ربه أيام وولايات للعلم فيها نفاق فساد بعد خمول ، وأثرى بعد فقر وأشير اليه بالتفصيل ، الا أنه غلب الشعر عليه » ويعنى هذا ان شهرة ابن عبد ربه ، كانت من صنع يده لانه لم يثبت انتسابه الى بيت متميز فى مجتمع قرطبة ، بل أكثر من هذا الاشارات العابرة الواردة عند ذكر جده الرابع « سالم » تشير الى أنه كان مولى لهشام بن عبد الرحمن الداخل ، اى أنه لم يكن ينتسب الى بيت من بيوتات الشرف فى عصره وهذا سر اشتهاره فى وقت متأخر جدا ، وذلك بعد أن تمكن من العلم وصار كعبة القصاد ، حتى « كتب الناس عنه تصنيفه وشعره » كما يقول ابن الفرضى .

لم يثبت ان ابن عبد ربه خرج من الاندلس طلبا للعلم ، وهذا غريب ان تأكد ، نظرا لاهتمام الاديب باخبار المشرق وتوسعه فيها ، حتى شغله ذلك عن أدب بلاده وروايته . وقد عوضه السفر تتلمذه لعلماء برزوا فى عصره ، ذكرهم ابن الفرضى فقال : « سمع من بقى بن مخلد وابن وضاح والخشنى » وهل اقتصر الامر على هؤلاء الثلاثة ؟ ومهما يكن

فاننا لا نملك تفصيلات أخرى وهو نفسه لم يذكر شيوخه ، ولكنه لا يعقل أن يكون أحد فى علم ابن عبد ربه وسعة اطلاعه وشهرته ، قد سمع من ثلاثة من الشيوخ ، واكتفى بما عندهم وقرطبة فى عهده محط رحال العلماء ٠

اما عن ديانته واخلاقه ، فانه يصعب جدا الخروج بنتيجة مرضية عند التعرض لديانة واخلاق الشاعر ٠ فالحميدى مثلا ، أول من ذكر ان الشاعر قال شعرا يكفر به عن شعر الغزل والصبا سماه « الممحصات » وأورد له مثالا واحدا ردده معظم الذين ترجموا له ٠ ورأى بعض هؤلاء المترجمين ان الممحصات جاءت تكفيرا عن شعر المجون ، وهو ما يفهم من كلام الفتح بن خاقان ٠ وليس لهذا القول من سند ، خاصة وهو يورد المثال الذى جاء عند الحميدى ٠ وقد ترددت كثيرا عند القدماء فى صدد الحديث عن صفات الشاعر الفاظ مثل « الديانة ، الصيانة ، الورع » وهذا ما قد يثبت تدينه وتمتعه بسمعة طيبة ، على أن حياته الاولى لا تخلو من بعض اللهو لا يصل الى حد المجون ، ولكنه سرعان ما تنبه الى أمره ، والتزم بسيرة العلماء والفقهاء ٠

خامسا : علاقة ابن عبد ربه بأمراء بنى أمية ٠ لا يوجد دليل يثبت مشاركة ابن عبد ربه الفعلى فى أى نشاط سياسى أو عسكرى أو اجتماعى فى عهده ، ولكن الشىء الثابت انه كان على اتصال بأمراء زمانه ، وهذه العلاقة قد تقوى وقد تضعف ، وذلك حسب موقف هذا الامير أو ذلك من مطالبه ٠

أول أمير اتصل به هو الامير محمد بن عبد الرحمن ، وهذا توفى وابن عبد ربه يبلغ حينئذ من العمر ثمانية وعشرين عاما ، ورغم حداثة سنه ، فقد اتصل به ومدحه ، وحقق بذلك أول اتصال بالقصور فى وقت مبكر ، ولكن انتاجه قليل فى هذا الطور ، بينما يبرز فى عهد الامير الثانى ، غير أن المنذر بن محمد لم يعمر كثيرا ٠ ولذلك لم يكن لابن عبد ربه الوقت الكافى لاظهار مواهبه ، خاصة وانه وجد التشجيع من هذا الامير ، الذى عرف بسخائه وكرمه ، وشاعرنا فى حاجة ماسة الى المال فى هذه المرحلة المبكرة من حياته ٠ ويتم التحام ابن عبد ربه بالقصور فى أيام الامير عبد الله بن محمد ، حتى يصبح المتحدث باسم الشعراء بين يديه ، كما ذكر ابن حيان وهو أهم مصدر

فى هذه الفترة عن الشاعر فقد أورد له عدة قصائد لم يرد لها ذكر عند غيره · والملاحظ أن هذا المديح اقتصر على مناسبات معينة ، فهو دائما يهنىء ، أما بتسلم مقاليد الخلافة أو بالرجوع من معركة أو بالانتصار فيها ، ولا توجد اشارة صريحة الى نوع الارتباط الذى كان يصله بهذا الامير · ولعل من المفيد الاشارة الى اتصال ابن عبد ربه فى هذه الفترة من حكم الامير عبد الله بن محمد بأمير عد منافسا وثائرا على قرطبة ، وهو صاحب اشبيلية ابراهيم بن حجاج ، وفى هذا الصدد يقول ابن حيان : « وقد انتجعه شاعرهم الاكبر أبو عمر ابن عبد ربه ، من بين جماعة الثوار بالاندلس ، فافضل عليه وعرف حقه ومدحه بأماديح كثيرة هى بايدى الناس مشهورة » وهو لم يتحدث عن هذه الثورة ولعل خلافا نشأ بينه وبين الامير عبد الله ، أو لانه خيب ظنه فلم يمنحه ما كان ينتظره من أموال جزاء مديحه ، ويؤكد هذا الاحتمال ما ذكر عن ابن حجاج وسخائه واستقباله للشعراء استقبالا حسنا وعلى رأسهم ابن عبد ربه ·

ونتجاوز ابن حجاج وننتهى الى الامير الخامس ، الذى حط ابن عبد ربه عنده رحاله وتفرغ له وذلك مع مطلع القرن الرابع وقد بلغ من العمر فى حينه أربعة وخمسين عاما · واتضحت شخصية ابن عبد ربه وكثر انتاجه ، خاصة وهو يبدو مشدودا الى الامير الحاكم أكثر من أى وقت مضى · فلا شك ان تغييرا كبيرا طرأ فى حياة ابن عبد ربه · وارتباطه بالناصر تعدى اطار المجاملة والمديح التقليدى الذى يلاحظ فى علاقاته السابقة بالقصور ، الى التعلق والاعجاب بهذا الامير الشاب · ومرد هذا التحول عند ابن عبد ربه ، يعود الى تمكنه من اداة العلم ونضجه أولا وذلك بتجاوزه سن الشباب ويبدو لذلك أكثر رصانة وتعقلا واتزانا · بالاضافة الى أنه وجد عند الناصر التشجيع الذى يحتاج اليه شخص فى مثل ابن عبد ربه ، فى رهافة الحس ورقة الشعور ، ليواصل قول الشعر ويجيد · وقد اثبت لنفسه فى العقد اشعارا كثيرة قالها فى الناصر ، الشىء الذى لم يفعله لمن قبله من الامراء · والحقيقة ان الناصر حظى بعناية خاصة من طرف ابن عبد ربه · فهو قد عمد الى غزواته كلها ونظمها رجزا ، حتى اضحت سجلا تاريخيا حافلا بأحداث يصفها شاهد عيان · وقد لازمه من يوم ولايته وتتبع أعماله وحركاته بعد ذلك للقضاء على الفتن · فلما تحقق ذلك للامير استبشر وهلل ، واستقبله بالتهنئة ·

سادسا : آثاره وقيمتها العلمية · دراسة العقد يجب النظر اليها على انها جزء من دراسة ابن عبد ربه نفسه ، ولكن مثل هذه الدراسة تتطلب منهجا مستقلا بذاته · وقد تحدث عن العقد كثيرون وخصص له بعضهم دراسات مستقلة أرى انها تغنى على انني ارغب فى التركيز على كل انتاجه ، ما عدا العقد الذى كانت له حصة الاسد من قبل ، واغفل غيره مع انه لا يقل من حيث الاهمية ·

الشعـــر : ان معظم شعره الذى حفظ انما كان عن طريق العقد فاليه يعود الفضل فى نقل شعر كثير · على أن ما صرح به وانه قال شعرا كثيرا فى غزوات الناصر فانه لم يسجل منه فى العقد شيئا يذكر وقد أكد ان هذا الشعر جال فى الامصار حتى أتهم وأنجد وأعرق · وقد كتب بالفعل لبعض قصائده الخلود كما أشار مع انها لم تـــرد فى العقد ، وهذا يقوم دليل على فقدان اشعار كثيرة قالها فى الناصر وفى الامراء الذين سبقوه · وهناك شيء آخر فى غاية الاهمية نجده عند الحميدى ، وهو أول من أشار الى ديوان ابن عبد ربه · وما من شك فى ان كتاب الحميدى من أهـم المصادر التى يعتمد عليها ويوثق بها ، من أجل هذا فان اشارته الى وجود ديوان ابن عبد ربه وأنه رآه بنفسه ، تجعلنا نطمئن الى انه كان لابن عبد ربه شعر كثير ، ولكنه لم يصل الينا · وما هذا الذى بين أيدينا الا عينات لا تعكس فى شيء شاعرية الشاعر · والنتيجة التى يمكن الإنتهاء اليها هى ان ديوانه قد يكون فقد فى فترة متقدمة جدا ، لاننا اذا استثنينا الحميدى الذى ذكر بصريح العبارة انه رأى الديوان ، وهو يضم أكثر من عشرين جزءا ، وقد جمع للحكم ابن عبد الرحمن ، أى بعد موت ابن عبد ربه بما لا يقل عن ربع قرن من الزمن ، اذا استثنينا هذا فان احدا لم يؤكد وجود هذا الديوان ولا حجمه ولا ما يضمه من شعر ·

الموشحات : يلاحظ ورود اسم ابن عبد ربه كلما كان الحديث عن نشأة هذا الفن فى بلاد الاندلس مع أحد معاصريه ، والاشارات الاولى الى هذا جاءت عند ابن بسام ثم ابن خلدون فالمقرى · وكلهم يؤكدون ان ابن عبد ربه كان ثانى اثنين اخترعوا فن التوشيح بالاندلس الا ان موشحاتهما كسدت ولم يرد لها ذكر مع المتأخرين مـــن الوشاحين · وقد يكون سبب كسادها المعارضة التى تواجه كل جديد من طرف دعاة

المحافظة على الشكل المألوف للقصيدة العربية · أو قد يكون السبب تجاهل المعاصرين لها وعدم روايتها وتناقلها · وأقل ما يمكن استنتاجه من هذه الروايات ، هو ان لابن عبد ربه يد في زيادة فن التوشيح · ومن المسلم به أنه لم يصلنا شيء من ذلك للاسباب التى سبق ذكرها ، ومع ذلك فمجرد ورود اسم ابن عبد ربه بين مخترعى هذا الفن يتضمن أكثر من دلالة ، فمحاولاته التجديدية العديدة فى أكثر من ميدان تؤكد ذلك وطريقته الخاصة فى تأليف العقد ، وارجوزته التاريخية ، وارجوزة العروض مثلا ، واسهامه فى وضع الاسس الاولى لفن التوشيح ، كل ذلك يبين مقدار ما يتمتع به الشاعر من نزعة تجديدية وميل للابتكار ، وعلى سبيل المثال أسلوب التضمين فى المقطوعات التى وضعها امثلة للعلوض وضمنها امثلة الخليل وهى شيء لفت انتباهى اليه استاذى المشرف بعد الفراغ من الطبع وتعذرت الاشارة اليه فى موضعه من البحث·

الارجوزة التاريخية : هى ارجوزة طويلة فى أربعمائة وخمسة وأربعين بيتا فى ثلاث واعشرين مقطوعة ومقدمة · والمقدمة تضم تسعة وثلاثين بيتا ، هى كل ما يمكن استثناؤه واخراجه من موضوع الارجوزة التاريخى ، ذكر فيها فضائل عبد الرحمن الناصر ، وانهاها بالاشادة بجوده وكرمه ،وتقيد فى الارجوزة بعد ذلك بالترتيب الزمنى ، فافرد لكل سنة مقطوعة خصصها لغزوة أو أكثر كانت جرت فيها ، وتوقف سنة 322 هـ · ومن المعلوم ان ابن عبد ربه بعد ذلك بست سنوات ، ولم يذكر سبب توقفه هنا ·

أرجوزة العروض : هى اصغر من سابقتها ، وردت فى الجزء الخامس من كتاب العقد ، تضم الارجوزة مائتى بيت قسمها موضوعيا الى مقطوعات ، خص كل مقطوعة بموضوع معين · وهى لا تتميز بأى قيمة فنية لانها مجرد قواعد جامدة وضعها لهدف تسهيل حفظها وتناقلها ·

نثره : على الرغم من ضخامة العقد فاننا لا نكاد نشعر بأثر المؤلف ، وهو نفسه يقر بذلك قائلا : « وانما لى فيه تاليف الاخبار وفضل الاختيار وفرش فى صدر كل كتاب · وما سواه فماخوذ من افواه العلماء ومأثور عن الحكماء والادباء واختيار الكلام أصعب من تأليفه » · وهذه الديباجة التي اشار اليها هى كل ما يمكن أن يعد عند

جمعه نموذجا لطريقته في التعبير ، مع ان بعضها غالبا ما يكون مقتضبا وهذه الديباجة في معظمها وحدة متجانسة من حيث الشكل اذ تتألف من عدد من الجمل القصيرة المتجانسة ، تبين الفائدة من الموضوع الذي تتصدره وتصف فضله وتذكر ميزاته ·

وقد خصصت الفصل الثاني لاغراض شعر ابن عبد ربه بادئا بالمديح وأول اتجاه واضح في هذا الباب عنده ، ظهر مع جلوس الامير عبد الله للامارة والشاعر لم يبلغ بعد الثلاثين · ولكن المصادر اشارت الى اتصاله بالاميرين السابقين محمد بن عبد الرحمن ثم ابنه المنذر دون تقديم امثلة من هذا المديح ·

استعرضت هنا قصيدتين لابن عبد ربه في الامير عبد الله بن محمد بينهما فارق زمني يقدر بعشرين عاما · والقصيدتان في التهنئة · ولكن الاولى تهنئة بالجلوس بالامارة والثانية تهنئة بالانتصار في معركة ، ولاحظت في القصيدة الاولى تفككا في الفكرة ، فهي تبدو وكأنها مجموعة خواطر دارت في ذهن الشاعر جاء بها دون روية ، وخالية من أي صورة شعرية ، واذا بالقصيدة جسد بلا روح ، أو هي كلام مرسل لا علاقة لها بالشعر الا من حيث الوزن ، بينما في القصيدة الثانية أي بعد عشرين سنة ، جاءت القصيدة متينة ، يتحدث فيها بثبات واعتداد ، وهو في هذا الطور قد اكتملت عنده آلة التعبير فالقصيدة تنقاد له طوعا ، والافكار تتتابع بكل وضوح · وتفرغ بعد هذا لعبد الرحمن الناصر ، وكرس نفسه على تتبع وتسجيل غزواته والاشادة بها ، ـ وقد تقدم الحديث عن الارجوزة التاريخية التي خصصها لتحركاته لمدة تجاوزت العشرين عاما ـ والى جانب هذا فله في الناصر قصائد جيدة ، تعكس بوضوح ما تحقق في أيامه من أعمال ·

ولا يبدو للتكسب اثر في شعره ، ولم يتخذ من الشعر وسيلة للرزق واقل ما يمكن قوله هو ان الشعر الذي بين ايدينا في هذا الموضوع لا يحمل أي دليل يوحي بان الشاعر كان يستجدي أو يلح في التطلب الا في حالات نادرة ، من هذه توجهه الى اشبيلية ، واتصاله باميرها ابراهيم بن حجاج · وقد قال في هذا الامير شعرا متكلفا ، دفعه الى ذلك استجداء الامير والرغبة في ماله · وتوحي مدائحه في الامراء بقيم اخلاقية

عالية كان يتحلى بها الشاعر . وهو يبدو معتدلا فى مدائحه ، فلم يلجأ ابدا الى اذلال نفسه أو بالغ فى الطلب .

اما عن الوصف فيمكن أن نعد ابن عبد ربه شاعر الوصف والتصوير منذ البداية، وعلى الخصوص فى وصف المعارك وما يتبعها . فقد جعل من نفسه الناطق والمؤرخ لهذه الغزوات التى لا تخلو منها سنة على طول ما عمر ، شهد تلك الحروب وخلدها فى شعره ، فكانت له فى ذلك مقدرة عجيبة فى التصوير مكنته من الغوص بعيدا بحثا عن المعانى الجديدة ، دون تكلف أو تصنع . ففى تعرضه لاخطر ثائر شهدته قرطبة فى عهده وهو عمر بن حفصون مثلا ، يصفه لنا كيف انه نجا بنفسه فى جماعة من اصحابه ليلا وكل املهم الا يطلع الصبح ، حتى لا تكتشف وجهتهم ، بينما اصحاب الشاعر يتمنون لو يتحول الليل الى نهار استعجالا للقاء . ثم يتقمص شخصية المؤرخ الراوى فيسرد الحادثة بتفاصيلها زمن حدوثها وظروفها المحيطة واسبابها وعدد الاشخاص وحالتهم النفسية وقلقهم ، كل ذلك بأسلوب خبرى ، ثم ان المسلمين أقاموا الافراح فى يوم عيد الفصح ، فلن يستطيع المشركون الاحتفال بعيدهم لانه أصبح عليهم مأتما . ان وقع الانتصار فى نفوس المسلميز كبير فى يوم لو انهزموا فيه اذن لكان لاعدائهم عيدان عيد النصر وعيد الفصح . وفى شأن عمر بن حفصون وبعد هذا الوقت بكثير يحقق الامير عبد الله بن محمد انتصارا كبيرا عليه ، فيعكس لنا كيف أفلت ابن حفصون من الموت فى ليلة كانت بالنسبة اليه المعراج ، نقلته بعيدا عن مواطن الخطر المحقق ثم يستمر فى وصف حادثة الفرار فى نفر من أصحابه ، وقد ألفوا الهرب تحت جنح الظلام ، وكأنهم قد تعودوا حياة الليل ، وفى هذا اشارة الى المؤامرات والدسائس التى تحاك عادة بالليل ـ فان فشلوا وذلك شأنهم ـ يستفدون من الظلام ليلوذوا بالفرار ، ولكن الكثير منهم تنقطع دونهم الطرق ، ولا يستطعون مغادرة حصونهم فتتحول هذه الى سجون أبوابها مغلقة عليهم وقد كتب عليهم الهلاك داخلها ، لان الامير يراقب ويسيطر على السبل المؤدية الى الحصن كلها حتى لكأنه خلق ولم تكن له طريق تربطه بالعالم الخارجي .

والواقع ان ابن عبد ربه نفسه أعجب بشعره فى هذا الباب وبالمعانى التى اخترعها وليس هذا فحسب ، فهو يذهب الى أبعد من ذلك ويدعى أنه السابق والمخترع لهذا المعنى الذى أشار اليه بقوله : « وقد وصفنا الحرب بتشبيه عجيب لم يتقدم اليه ومعنى بديع لا نظير له » . هذا عن وصف الحرب الذى غلب على الشاعر وبرع فيه ، وشعر الوصف عن ابن عبد ربه لا يقتصر على ميدان الحرب ، مع أنه الغالب عليه فان له فى وصف الرياض مثلا عدة مقطوعات أوردها لنفسه فى العقد . والاشعار كثيرة فى غير هذين البابين تناول فيها بالاضافة الى وصف الحرب والرياض ، وصف الرماح والسيف والفرس .

الغزل ، يشغل الغزل عند ابن عبد ربه حيزا ومكانة بارزة فى ديوانه ، والحقيقة ان شعره فى هذا الباب يمكن وضعه فى المرتبة الاولى . فهو يختلف كليا عن باقى أغراض شعره ، اذ يبدو ابن عبد ربه هنا على حقيقته ، وتبدو من خلاله طباعه الرقيقة وذوقه الرفيع . فهو على كثرة ما قال فى هذا الباب ، لم يلجأ الى الاسفاف ، بل يمكن القول ان غزله فى غاية الرقة فى مضمونه وحتى فى شكله ، واذا كانت المقطوعات مقتضبة وقصيرة الا أنها توزعت فى الديوان كله حتى لا تكاد تخلو منها ورقة . فابن عبد ربه أسير العيون ، وقع فى شباكها وشكاها بشتى الطرق . فان أول ما يثيره فى حبيبه ألحاظه . ويتردد مرارا توجيه الخطاب باللوم لالحاظ الحبيب . ويشتد وقع الالحاظ عليه فيتعرض لوصفها ويمعن فى ذلك ويتعمق فى الوصف ، حتى يعثر على معنى جديد فيستخرجه . وعند ذلك يصيح من قوة الفرح لهذا الاكتشاف وتعجبه الصورة ويقول مقدما لها : « ونظير هذا من قولنا فى رقة التشبيب وحسن التشبيه البديع الذى لا نظير له والغريب الذى لم يسبق اليه » .

وفى مجال الشكوى من الهجران والتطلع الى الوصال ، يحاول ابن عبد ربه هنا تصوير عواطفه والتعبير عما يخالجه وهو يصلى نار الحب وكان يبكى بمرارة بل يعد البكاء على حبيبته تسلية ونعيما .

والتساؤل الذى شغلنى وأنا أتتبع فى الديوان شواهد هذا الباب الى الباعث عن هذا النوع من الشعر وهل مر الشاعر حقيقة بهذه التجربة وأصابه ما أصاب المحبين

من نجاح واخفاق ، واذا كانت التجربة مرت عليه حقيقة فمن تكون هذه التى غناها وتعذب من أجلها • فالشيء المؤكد ان شعره لا يقدم اجابة واضحة فى هذا الميدان كما أنه لم تلاحظ أية ظاهرة خلاعة أو مجون كما تقدم عند استعراض حياته فى الفصل الاول • واذا ثبت هذا هل يحتمل ان يكون الشعر الغزلى عنده مصنوعا ؟ ذلك ما أستبعده الا فى حالة واحدة ، يبدو أنه صنع أمثلة أوردها لثلاث وستين ضربا من ضروب العروض قال عنها : « واختصرت المثال فى الجزء الثانى فى ثلاث وستين ضربا من ضروب العروض وجعلت المقطوعات رقيقة غزلة ليسهل حفظها على ألسنة الرواة » فظاهر منها أنها وضعت لغرض تعليمى وأثر التكلف بارز فى أكثر المقطوعات •

أغراض أخرى ، تلك هى الاغراض الرئيسية فى شعر ابن عبد ربه • ويمكن حصر ثلاثة أغراض أخرى ثانوية • أولها : الرثاء • ولا شك ان ما فى الديوان من هذا الشعر ليس كل ما قاله فى هذا الباب ، خاصة وان هذه المراثى وعددها خمس مقطوعات غاية فى الجودة ، وتدل على تمكن الشاعر وقدرته على القول فى هذا النوع من الشعر الذى نلمس فيه حزنا عميقا وبكاء مرا ، وكما يبدو من مضمونها فانها جاءت كلها فى رثاء ولدين فقدهما •

ثانيهما الهجاء : لم يشتهر عن ابن عبد ربه انه تبادل الهجاء مع اطراف أخرى الا فى حالة واحدة أما الزهد فيبدو انه كان لابن عبد ربه طريقته الخاصة ، فانه لما تقدمت به السن عمد الى أشعاره فى الغزل والصبا ، ونظم على رويها شعرا فى الزهد اعلانا عن توبته وتكفيرا عن زلته ، وسمى هذه الاشعار بالممحصات • وهو شعر ضاع كله ولابد ان يكون مساويا لما قاله فى الغزل والصبا • واذا علمنا ان هذا النوع من الشعر لا تخلو منه ورقة فى الديوان ، ادركنا أهمية الشعر الذى ضاع فى هذا الباب من شعر الشاعر • وأورد الحميدى مثالا واحدا لهذا النوع ، وتناقله الآخرون من بعده ، والجدير بالملاحظة ان ابن عبد ربه سكت عن هذا النوع من الشعر فلم يشر اليه الا الى المقطوعتين المذكورتين فى هذا الباب •

هذا عن الباب الاول من البحث بفصليه • اما الباب الثانى فقد ضم النص الكامل للديوان مع تعاليقه ، واعتمدت فى جمعه بالدرجة الاولى كتاب العقد ، ثم المصادر القديمة

الاخرى التي روت شعر الشاعر ، ويأتي فى طليعتها كتاب يتيمة الدهر للثعالبى ورتبت المصادر ترتيبا زمنيا لترجيح الرواية القريبة من عهد الشاعر . وذكرت فى الهامش الروايات الاخرى بنصها اذا اختلفت ، واكتفيت بالاشارة الى هذه الروايات المتعددة حين اتحادها . وقد ارجح رواية مخالفة لرواية العقد اذا اتضح ان هذه غير مقبولة .

اما عن طريقة تحقيق الديوان فانني بدأت باثبات البيت على الرواية المعتمدة ، ثم أشرت في الهامش الى مختلف الروايات الاخرى ومصادرها ومواضع ورودها حسب تعددها . وقد فضلت ذكر مناسبة المقطوعة فى الهامش مع الروايات الاخرى اذا وردت المقطوعة ومناسبتها فى أكثر من مصدر . وشرحت الكلمات التى بدت لى صعبة واعتمدت فى ذلك لسان العرب على الخصوص .

واتبعت فى وضع الديوان الترتيب الهجائى للقافية ، ورقمت المقطوعات من أول الديوان الى آخره فتوصلت الى جمع مائتين واثنتين واربعين مقطوعة . ورقمت الابيات حسب قوافيها كل قافية على حدة .

وختمت البحث بستة فهارس كان أولها فهرس مصادر البحث ، ثانيها فهرس اعلام الاشخاص ثالثها فهرس أعلام الطوائف والقبائل والشعوب ، رابعها فهرس اعلام المناطق الجغرافية ، خامسها فهرس الشعر ، سادسها فهرس محتويات البحث .

وفى اعتقادى ان نتيجة هذا البحث هى اخراج ديوان ابن عبد ربه الى الوجود ليستفيد منه القراء والباحثون والدارسون للادب الاندلسي خاصة والادب العربى عموما.

منشـــورات

وزارة التعليم الاصـــلى والشؤون الدينيـــة

صـــدر أخيرا كتاب :

الملتقى الثامن للفكر الاسلامى

بالعربية فى ثــلاثة أجزاء

ويشمـــل سائـــر المحاضرات ، والتعقيبـــات ، والمناقشـــات

كما صدر كتاب :

الملتقى السادس للفكر الاسلامى

بالفرنسية فى خمسة أجزاء

ويشمـــل أيضا سائر المحاضرات ، والتعقيبات ، والمناقشـــات

عبـــاس و البحـــر

محمــد نسيــب
نائب مدير فى المركز الثقافى
الاسلامى بالعاصمة



كان عباس يحب البحر حبا شديـــدا الى درجـة التقديس لقد صحب البحر منذ أربعين سنة وهو يعيش على هذا الشاطىء يتردد عليه من حين لآخر ولا سيما فى أيام الحر ، وكلما جاء الصيف ترك عباس المدينـــة وضوضاءها فارا من ازدحامها ودخانها وجوها الخانق وتكاليفها المرهقة لا تبتهج نفســه ولا يطمئن قلبـــه ولا ينشرح صدره ولا يحس بالسعادة الا عندما يشم رائحة البحر ويسمع هديره ويرى أمواجه تعلو كالجبال تنطح الصخور والشاطىء يردد صداها : ويشعر عباس بلمسات سحرية خفية لطيفة تلمس قلبه وتثير احاسيسه وتلهب شعوره وتوحى له بالحب والجمال وتعيد له ذكريات السنين الماضية عندما كان يجلس قرب البحر ليمتع بصره بمياهه الصافية ولونه الازرق ويشنف سمعه بموسيقاه الصامتة والحانها العذبة الساحرة ...

هكذا قضى عباس جل أيام شبابه فى هذا الشاطىء الجميل الذى تعلم فيه أشياء كثيرة · وكان يجلس ساعات طويلة بالليل والنهار فيحاور هدير البحر ويبادله الشعور ، وكلما اشرف على هذا المنظر الحبيب اشرقت الآمال فى نفسه وأضاءت أفقه لتبدو له الحياة جميلة باسمة مشرقة وضاءة مغرية ··· وتوحى بمعانى العزة والكرامة والطهر والصفاء ···

وكان عباس يسمع عن الناس أحاديث كثيرة عن الفساد المنتشر فى المدن والقرى والانحلال الخلقى والتفسخ والتمسخ الذى جرف العباد ولا سيما الشباب أمل البلاد، والتغير الذى وقع فى العادات والتقاليد · انه شيء مخيف مزعج يبعث الحيرة والقلق فى قلوب الناس ، وتسمع عنه الحديث فى المحافل ، فى المقاهى ، فى الشوارع ، ولكن عباس كان مطمئن البال مرتاح العقل لم يشغله هذا الحادث الهام الذى زعزع جل الناس وشغل بالهم ولم يعر أدنى اهتمام لهذه التخوفات والتنبؤات ، فلم يكن يخطر بباله ان هذا الفساد سوف يشمل الشاطىء أيضا · وينتشر فيه كما انتشر فى البر ، بل سيظهر فى الشاطىء فى أقبح منظر وابشع صورة ·

وكان عباس يقول للناس : ان الارض عالم الناس عالم الآثام والاشرار والاجرام ··· أما عالم البحر فعالم الجمال والطهر والصفاء فيه أعيش وفيه أموت، لكم عالمكم ولى عالمى ·

لقد أقبل الصيف بحره اللافح وبدأت علامته تظهر فى كل حى من أحياء المدينة وعباس لا يعرف الصيف الا بهذه العلامات ولا يعلم بدايته الا عندما تتهاطل على منزله دعوات الاعراس ويسمع (اندربوكة) فى كل مكان والبارود يزعج سكان المدينة ··· والزغارد تشق عنان السماء ، والطبول تقرع والمزامير تنفخ ، وقوافل السيارات تجوب الشوارع وتخترق الاحياء بأبواقها المزعجة كانها صفارة الانذار · ولذا ترى عباس راحلا من المدينة فارا من عالم الارض الى عالم الماء الذى فارقه منذ عشرين سنة ، لقد عاوده الشوق والحنين الى البحر الذى قضى فيه طفولته وشبابه ، وترك هناك أعز ذكرياته فى عالم الماء كما يسميه عالم الجمال والطهر والصفاء ··· عالم الهدوء والتأمل والدراسة واطمئنان النفس · ولكن عباس وجد كل شيء قد

تغير وتبدل فى الشاطىء كأن مئات السنين قد فصلت بينه وبين البحر لا عشرون سنة، وشعر انه فى عالم آخر ، عالم لم يره منذ خلق وتعجب عباس بهذا التغير السريع الذى طرأ على البحر ، وهذا الجنس الغريب الذى وجده فى الشاطىء رأى الصراع والخصام والعراك وسمع الشتم والسب واللعن والصياح والشاطىء يردد صدى الفحش والبذء الذى يخجل منه الانسان ويندى له الجبين كلما سمع عباس هذه الالفاظ شعر بتمزق النفس والتهاب الروح وكل كلمة يسمعها كانها ضربة نزلت على رأسه ، أو سهم اخترق صدره أو سكين يحز فى قلبه الدامى ٠

يا الهى حتى عالم الماء قد فسد وبعض من أين جاء هذا القوم ؟ لقد شوهوا كل جمال وقضوا على كل روعة، عفنوا الماء ، ومسخوا الرمال ، وخربوا كل مرافق الحياة ٠

لقد عدت اليك يا بحر بعد عشرين سنة لأعيش لحظات بين أحضانك أعيد ذكريات الشباب ، وأرى جمالك الساحر يوارى عن الوجوه القبيحة وأسمع هدير موجك استأنس به فى وحشة الحياة ويطرد عنى أشباح الخوف المهددة ٠

لكن آمالى تلاشت وتبخرت فى الهواء كل شىء قد انمحى واختفى لم أر فيك يا بحر الا هذه الصور المحزنة الملعونة صورا مشوهة ، ممسوخة تبدو لكل زائر ولكل عابر تدمع العيون وتفتت الاكباد أسفا وحسرة كيف كنت وكيف صرت يا بحر ٠

لقد ازدحمت فى رأس عباس صور كثيرة وجالت فى خاطره أفكار شتى وراح يتطلع الى هذه الوجوه التى سببت له عناء النفس وشقاء الروح كانه يعيش فى عالم غير العالم الذى عرفه منذ صباه ، ولا يمت اليه بصلة ، هل هو غريب عن هذا العالم الذى هو فيه أم أولائك القوم الذين يراهم فى الشاطىء هم الغرباء عن هذا العالم ؟ لان لغتهم غير لغة عباس وسلوكهم غير سلوك عباس ثم قال لا شك أن هذا عقاب من الله لاننا اجرمنا وآثمنا وسلط علينا هؤلاء القوم الذين لا نفرق بين ذكورهم واناثهم رجالهم متخنثون ونساؤهم مترجلات ، لا حياء لهم ولا عفة ولا احتشام ، يفجرون ويخمرون ويفسقون جهرا لا يخشون الله ولا يخجلون من عباده ، لا خوف يمنعهم ولا ضمير يؤنبهم هدفهم فى الحياة ملء البطون والجيوب عن طريق النهب والاحتيال ، يدفعهم الجشع يسوقهم الطمع ، وتستبد بهم الشهوة وتتحكم فيهم الغريزة العمياء ٠

أهذا هو انسان القرن العشرين ؟ الانسان المتحضر المتحرر زعموا أن القرن العشرين عصر النور والعلم والحضارة والتقدم ، ولكن أين النور ؟ أين العلم ؟ قال عباس ربما أعماهم هذا النور وبهرهم لان عيونهم مريضة وأبصارهم ضعيفة ، وأضلهم العلم لانه علم المادة والالحاد ، ولذا تراهم عميانا لا يبصرون هائمين تائهين لا يفقهون ولا يعقلون

ولكن عباس لا يكاد يصدق بأنهم بشر لان الانسان مهما بلغ به الامر يظل محتفظا بكرامته كانسان وعلى الاقل توجد فيه ميزة واحدة تميزه عن سائر المخلوقات . وهؤلاء لم تظهر عليهم أى علامة تثبت انسانيتهم .

ثم تذكر عباس حكاية جدته عندما كان صبيا قالت له ذات يوم : فى آخر الزمان سيظهر قوم يسمون (الدجال) ياجوج وما جوج ، يعومون على الدنيا وينتشرون فى كل شبر منها ويكتسحون عالم الارض وعالم البحر ، لا يقف فى وجوههم شيء ويبعثون فيهما الفساد وينشرون فيهما الفوضى ويوثرون القلق والفزع وترون العجائب والغرائب والفواحش والمعاصى ترتكب جهرا فى الشوارع أمام الملأ ، لا يستخفون ولا يستحيون ، يستهلكون ولا ينتجون ، يفسدون ولا يصلحون ، يضرون ولا ينفعون ، يأكلون ولا يشبعون لا يملأ بطونهم الا التراب والحجارة ...

وعندما رأى عباس هذه العلامات وحلل هذه النفسيات وشهد هذا السلوك صاح فى حزن وألم ، وداعا يا عالم الانسان وداعا يا دنيا البشر فالدنيا للدجال ، والعالم عالم الدجال ، حقا انه آخر الزمان نهاية الدنيا وخراب العالم صدقت جدتى فى حكايتها ، هذا هو الدجال بعينه ، الذى حدثتنى عنه وراح عباس يهرع ويركض فى الشاطىء وهو يصيح : آخر الزمان يا ناس نهاية الدنيا لقد ظهر الدجال ، يأكل ارزاقكم ويهلك حرثكم ويخرب مصانعكم ويتلف ثرواتكم ويلتهم اسواقكم فلا تجدون ما تشترون فتموتون جوعا ، والدجال يأكل ولا يعمل ، يلتهم كل ما فوق الارض من عشب وزرع اذا انتهى أكل التراب والحجارة .

انظروا يا (ناس) الى الدجال قد شوه كل جمال وخرب كل مرافق الحياة ومسخ الرمال ، وعفن البحر ، وحطم الزوارق ، ومزق الشراع ... ألا تسمعون ؟ يا ناس ، الا تبصرون ظهر الدجال ، آخر الزمان انتهت الحياة فوق هذه الارض ، هل تسمعون ؟

قلت لكم هذا هو الدجال لا يعرف الا النهم والنهب والتدمير والتخريب ... ضاع كلام عباس بين قهقهة الضاحكين الساخرين وصخب الصياح وهدير الضجيج .

عباس وجد نفسه غريبا بين قوم وحيدا فى هذا الشاطىء الشاسع المترامى الاطراف محاطا بجحافل الدجال ، مهددا فى انسانيته مهددا فى أخلاقه وعاداته وتقاليده ، عجز حتى عن الفرار من وجههم لم يجد وسيلة للدفاع أو مكانا يحميه من هذا الخطر الداهم ، سوى الاستغاثة والاستنجاد ببنى الانسان ان كان هناك انسان .

صعد عباس على صخرة عالية يستنجد ويستغيث برجال الدين ورجال العلم وأهل الغيرة والمروءة أين أنتم أيها الائمة ؟

أين أنتم أيها العلماء ؟ أيها المعلمون أيها المربون أيها المرشدون ، أيها المصلحون ، أين أنتم ؟ أين كنتم ؟ لقد اختفيتم من الوجود وغبتم عن الحياة هل تسمعون ؟ هل تبصرون ؟ لقد ظهر الدجال واكتسح البحر واحتل الشواطىء هل أنتم فوق الارض أم تحت التراب ؟ هل تسمعون أخرجوا من المساجد ، أخرجوا من المدارس ، أخرجوا من المعاهد والكليات ، تعالوا هنا ، هنا العمل هنا الجهاد هنا الصراع هنا النضال هنا ميدان الوعظ والارشاد هنا ميدان التعليم والتربية هنا ميدان الاصلاح والتقويم هنا تعطى الدروس وتلقى المحاضرات لا بين عرصات المساجد فقط وبين جدران المدارس وقاعات الجامعات ، تعالوا الى الشاطىء نروا العجائب والغرائب ، وتشاهدوا ألوانا وألوانا ، ان كنتم فى المدينة لا ترون الا لونا واحدا هنا سوف ترون الالوان السبعة ، وتعرفون الدجال وشر عمله ، وتلمسون خطره وتذوقون مرارته وتعيشون أزمته ، وتعانون مشاكله .

انزلوا الى ميدان المعركة لا تخافوا ولا تهابوا فالجندى لا يعيش فى الثكنة ولا ينام على الفراش الوثير ، بل تجده فى أقصى الصحراء ، فى أعالى الجبال فى أعماق البحار ، يوجد حيث توجد المعركة ينتقل من جبهة الى أخرى ، ينام فى الخنادق ، فوق الحصى والاشواك يعانى حر الصيف وقر الشتاء يقتحم الاخطار ويذلل الصعوبات ويتحدى الشدائد ويصارع الافاعى والعقارب من أجل البقاء .

هل تعتقدون وتظنون أنكم ستنجون من هذا التغير والتحويل وهذا المسخ الذى يجتاح عالم الانسان ويطوى الكرة الارضية من شرقها وغربها من شمالها الى جنوبها لم يترك مدنها وقراها ولا جبالها وسهولها ، ولا صحاريها وبحارها، بل سيلحقكم ويعصف بكم وبأولادكم وعائلتكم ، سوف تندمون عندما تدفعون ثمن سكوتكم وتهاونكم وتغافلكم واستسلامكم للنوم والراحة ، وتجنبكم للمشاكل ٠

سوف تندمون على فراركم من الميدان ، بل فتحتم الابواب والنوافذ للدجال وفسحتم له المجال وتركتموه يفعل ما يشاء ٠

أنتم وحدكم المسؤولون أمام الله وأمام الضمير وأمام التاريخ والاجيال الصاعدة ، مسؤولون عن مسخ الانسان وتحويله الى دجال ٠ سوف تعاقبون وتحاسبون على ضياع الانسان وفقد صفاته ومعانيه ٠

أخرجوا من بيوتكم ، عيشوا لغيركم لا لأنفسكم ، لمبادئكم لا لبطونكم ، اصنعوا الرجال قبل القصور ٠

اخرجوا من البيوت لا تقبروا انفسكم داخل المبانى ، ان عملكم يتعدى الى كل ميدان ٠

كونوا فى الشارع كونوا فى المقهى فى المطعم فى السوق فى الادارة فى المعمل فى المزرعة فى الشاطىء وحتى فى الحانة والكبارى ٠٠٠

لا يعرف الفضيلة من لا يعرف الرذيلة ، لا يعرف الجمال من لا يعرف القبح ، لا يعرف الاصلاح من لا يعرف الفساد ، لا يعرف الحرية من لا يعرف العبودية لا يعرف العلم من لا يعرف الجهل ، لا يعرف الانسان من لا يعرف الدجال وصدق عمر ابن الخطاب (ض) اذ يقول : لا يعرف الاسلام من لا يعرف الجاهلية ٠

العدد 49 - 50

فهـــرس الـعـــدد

ابو عبــد الله محمــد بن خميـــس التلمســـانى

(650 ـ 708 هـ ـــ 1253 ـ 1309 م)

المهــدى البوعبدلى
بحــاثة فى التــاريخ ونائــب
رئيس المجلس الاسلامى الاعلى
الجزائر



هو الشاعر الفيلسوف أبو عبد الله محمد بن عمر ابن محمد بــن عمر بــن محمد بــن خميس الحجرى ، حجر ذي رعين الحميرى التلمسانى ، اعتنى بترجمته كبار المفكرين والباحثين من معاصريه ومن أتى بعدهم ، ولا زال معين البحث عنه لم ينضب بعد ، ومن ذلك ان بعض المعاصرين حاولوا مواصلة دراسة آثاره الا انهم لم يصلوا آلى اهدافهم ، وبقيت الجوانب المجهولة من حياته لغزا ، ترجم ابن خميس من القدامى لسان الدين ابن الخطيب السلمانى ، فى تأليفيه : « الاحاطة فى أخبار غرناطة » و « عائد الصلة » ونشر أهم اثر من آثاره وهي رسالته المفتتحة بقوله :

عجبــا لهـــا أيـــذوق طعـــم وصـــالهـــا
مـــن ليـــس يـــأمـــل ان يمـــر ببـــالهـــا
وانـــا الفقيـــر الـــى تعلـــة ســـاعـــة
منهـــا وتمنـــعنـــى زكـــاة جمـــالهـــا

وقد اقتصر ابن الخطيب على نشر هذه الرسالة من دون ان يتعرض للتعريف بها ، وعلى الاقل ذكر مخاطب ابن خميس ، أو الظروف التى كتبها فيها ، وقد لفت الانظار الى هذه الرسالة ، أحمد المقرى التلمساني فى تأليفه « أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض » بعدما ذكر له ترجمة وافية ، كما ترجمه فى « نفح الطيب » ونشر له عدة قصائد الا انه لم يذكر عن الرسالة شيئا ، رغم انه كاد ان يستوعب جميع ما نشره عنه مترجموه ، ومن الباحثين القدامى الذين كانوا فى طليعة مترجمى ابن خميس أبو عبد الله محمد بن محمد العبدرى الحيحى فى رحلته المغربية » (1) وقد تعرف به عند مروره على تلمسان فى ابتداء رحلته سنة 688 هـ · وفى ذلك قال « وما رأيت بمدينة تلمسان من ينتمى الى العلم · ولا من يتعلق منه بسبب سوى صاحبنا أبى عبد الله محمد ن محمد بن خميس ، وهو فتى السن ، مولده عام خمسين ، وله عنياة بالعلم مع قلة الراغب فيه ، والمعين عليه ، وحظ وافر من الادب ، وطبع فاضل فى قرض الشعر ··· » الى ان قال « ··· وكنت حين وردتها قد أقمت بها منتظرا للركب ، فكنت آنس بابن خمسين ، وأكثر مجالسته ومفاوضته ، وأعجبنى ذهنه وحاله ، فانى وجدته على حال انزواء وتقلل من الدنيا » اهـ · كان العبدرى كما ذكرنا هو الكاتب الاول الذى نوه بشأن ابن خميس الذى كان مجهولا عند طبقات المتقفين ببلاده ، رغم ان بعض آثاره ومنها رسالته المفتتحة بقوله :

عجبا لها ايذوق طعم وصالها
من ليس يامل ان يمر ببالها

بلغ صداها الى مصر ، حيث حكى ذلك العبدرى فى رحلته ، والذى اهتم بترجمة ابن خميس من القدامى واستوعب جل ما كتب عنه أحمد المقرى التلمسانى ، الذى افادنا بما كتبه عنه ابن خاتمة الاندلسى فى كتابه « مزية المرية ، على غيرها من البلاد الاندلسية » كما افادنا ان أبا عبد الله محمد بن ابراهيم الحضرمى جمع ديوان شعره فى مجموع سماه : « الدر النفيس فى شعر ابن خميس » هذا فى الجملة ما وصلنا من مترجمى ابن خميس القدامى ، اما المتأخرون فقد ترجمه الاستاذ محمد بن أبى شنب الجزائرى ثم الاستاذ عبد السلام بن مزيان التلمسانى فالاستاذ عبد الوهاب ابن منصور مؤرخ الدولة المغربية فى دراسة قيمة سماها « المنتخب النفيس من شعر ابن خميس » (2) · وقد ركزها على شرح رسالته المنشورة فى « الاحاطة » للسان الذين ابن الخطيب السلمانى المتحدث عنها ، ودعمها بكثير من قصئاده ، الا نا محاولته لتحليل الرسالة وشرحها ارتطمت بالغموض الذى اكتنفها · حيث اقتصر ناشروها

ابتداء من لسان الدين ابن الخطيب ، بذكرها من دون ان يتعرضوا لها ولو بكلمة ، كما تقدم لنا ذلك ، وقد قدم الاستاذ عبد الوهاب ابن منصور اعتذاراته لقراء دراسته ، وبين ان محاولة شرحه لا تعتمد على مصدر موثوق · وانما هي مجرد افتراضات وتصورات ، بخلاف الاستاذ عبد السلام ابن مزيان الذى قدم دراسته عنه فى مؤتمر المستشرقين المنعقد فى تلمسان سنة 1936 (3) وقدم افتراضات كحقائق من دون ان ينبه قراء دراسته من ان شرحه هو مجرد اختيارات لا تعتمد على رواية · ولما ظهر كتاب « تاريخ قضاة الاندلس » لابى الحسن ابن عبد الله بن الحسن النباهى المالقى الذى حققه ونشره المستشرق الفرنسى ليقى يروقنصال ، مدير معهد الدراسات الاسلامية بجامعة باريس (طبع دار الكاتب المصرى بالقاهرة سنة 1948) وكان ضمن القضاة المترجمين قاضى تلمسان محمد بن منصور ابن هدية القرشى وذكر ان من جملة مآثره شرح رسالة ابن خميس ، وفى ذلك قال « ··· كبير قطره فى عصره نباهة ووجاهة ، وقوة فى الحق وصرامة ، وكان أثيرا لدى سلطانه ، قلده مع قضائه كتابة سره ، وانزله من خواصه فوق منزلة وزراته ، فصار يشاوره فى تدبير ملكه ، فقلما كان يجرى شيئا من أمور السلطنة الا عن مشورته ، وبعد استطلاع نظره ، وكان أصيل الرأي ، مصيب العقل ، مذكرا سلطانه بالخير ، معينا عليه ، كاتبا بليغا ينشى الرسائل المطولة فى المعانى الشاردة ، ذا حظ وافر من علم العربية واللغة والتاريخ ، شرح رسالة محمد بن عمر بن خميس الحجرى استفتح أولها بقوله :

عجبا لها ايذوق طعم وصالها
من ليس يأمل ان يمر ببالها

وانا الفقير الى تعلة ساعة
منها وتمنعنى زكاة جمالها

الى آخر الرسالة من نظم ونثر ، شرحا حسنا أتى فيه بفنون العلم ، وضروب الادب ، بما دل على براعته ، وكان جميل الاخلاق ، جم المشاركة مفيد المجالسة الخ » اهـ ·

ومما لاشك فيه ان هذا الشرح كان معروفا عند مترجمى ابن خميس الاوائل ، الذين من بينهم لسان الدين ابن الخطيب ، اذ هو من تلامذة ابن هدية القرشى ، ولكن جل مـ اوصلنا من مترجمى ابن خميس لم نجد فيهم من ذكر هذ االشرح ، رغم ذكرهم وترجمتهم لصاحبه ، ومن هؤلاء أحمد المقرى الذى ترجم ابن هدية القرشى ضمن أساتذة جده محمد المقرى قاضى تلمسان وفاس فى عهده ، ولهذا لا نستغرب ان عـد

شرح ابن هدية فى قائمة الكتب المفقودة ، ولم نجد له أثرا فى المخطوطات التى تزخر بفهارسها التآليف المخصصة لها ، ومن حسن الحظ ان ختم المطاف بنسخة من هذا الشرح باحدى خزائن بيوتات العلم بوادى بجاية ، واظهره صاحبه منذ سنوات قليلة فامكننا الاطلاع عليه والاستفادة منه ، وهذا المخطوط النادر ، رغم نقص بعض الاوراق منه ، ورغم ان مؤلفه صرح بانه ألفه مكرها ومرغما ـ ولذا تعهد باقتصاره على شرح وتحليل الجانب اللغوى فانه شرح مفيد ، أنار لنا الجوانب الغامضة من حياة ابـن خميس ، وهذه فقرات من تقديم ابن هدية فى شرحه بين فيها الظروف التى اقـدم فيها على تأليفه مع منهاجه فيه ، قال « اما بعد فان من ألزمنا الله تعالى للامر طاعته ، وفرض على كل امره مؤتمر له منها استطاعته ، اضفى الله علينا وارف ظله ، واضفى له عوارف فضله ، وطلب طلبته مثله أمر ممتثل ، ثم أمر وأمر ، وأمر الامير حكم محكم وعمل صالح عند أهل العلم معتمل ، ان اتضمن له بتبيين معـانى الالفـاظ اللغوية ، وتعيين ما يعن من اشارات الاغراض التاريخية ، من رسالة الشيخ الاستاذ الاديب أبى عبد الله محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن محمد بن خميس الحجرى حجرذى رعين الحميرى التى كتب بها الى مشرف مدينة فاس : أى الفضل محمد بن يحيى بن عتيق العبدرى شاكرا له ومثنيا عليه ، وشاكيا له عصابة اساءوا تعصبا بزعمه اليه ، ضمنها منظوما ومنثورا ، وأودعها مثورا ومأثورا ، صعد فى ذلك وصوب ، وخطأ وصوب ، وعلا وسفل ... الخ » . اه

وكان الملك الذى ارغمه على هذا الشرح الملك أبو تاشفين الاول من ملوك بنـى زيان ، وهذا الملك هو الذى بني منارة الجامع الاعظم المالكى بعاصمة الجزائر ، وفى عهده احتل الملك أبو الحسن المرينى مدينة تلمسان بعد حصار طويل ، ورغم هـذا الحصار والقوة التى امكن جمعها طيلـة أيام الحصار ، رفض الملـك أبو تاشفين الاستسلام ، وقاوم الى ان قتل فى المعركة ، كبقية أفراد جيشه ، من هذه الفقـرات افادنا الشارح اسم المخاطب فى الرسالة ، وهو مشرف مدينة فاس : أبو الفضل محمد بن يحيى بن عتيق العبدرى ، الذى ترك بعض من حاول شرح هذه الرسالة فى متاهات الافتراضات والاستنباطات ، والتى بينها وبين الحقيقة بعد شاسع ، فالاستاذ عبـد السلام ابن مزيان عند شرحه لبيت ابن خميس التى قال فيها :

اعـلم أبـا الفضـل بـن يحـيى انـنى
مـن بعـدهـا اجـرى عـلى آسـالهـا

قال « ان أبا الفضل هذا هو ملك من ملوك بنى زيان » وقد استبعد الاستاذ عبد الوهاب ابن منصور فى « المنتخب النفيس » هذا الافتراض ونبه عنه : وقد وقع هو أيضا فى نفس الغلطة عندما قال فى شرحه للبيت الذى قال فيه ابن خميس :

وأنـــل أبـــا البـــركـــات مـــن بـــركـــاتهـــا
وادفـــع محـــال شكـــوكـــه بمحـــالهـــا

بعـــد ان قـــال :

خـــذهـــا أبـــا الفضـــل بـــن يحيـــى تحفـــة
جـــاءتـــك لـــم ينســـج عـــلـــى منـــوالهـــا
مـــا جـــال فى مضمـــارهـــا شـــعـــر ولا
سمحـــت قـــريحـــة شـــاعـــر بمثـــالهـــا
وأنـــل أبـــا البـــركـــات ...

فظن ان أبا البركات هذا هو « أبو البركات ابـن عيشون البلفيقى تلميذ ابن خميس » والفرق بينهما ان الاستاذ عد الوهاب بن منصور قدم اعتذاره لقرائه ، لافتا انتباههم الى ان تعاليقه مجردا استنباطات وافتراضات ، ما دامت تعوزه المصادر الموثوقة .

أزاح شرح ابن هدية الغموض الذى اكتنف حيـاة ابن خميس ، وتـــرك بعض مترجميه ينسبه الى السحر والشعوذة ، والبعض الآخر ينسبه الى الزهد والتصوف ، رغم ان ترجمتى لسـان الدين ابن الخطيب والعبدرى جليتان فى الاشـادة بقيمتـه ومكانته ، وقد تقدم لنا ما قاله عنه العبدرى ، اما لسان الدين ابن الخطيب فانه ترجمه فى « عائد الصلة » وقال « كان رحمه الله نسيج وحده ، زهدا وانقباضا وأدبا وهمة ، وحسن الشيبة ، جميل الهيئة سليم الصدر ، قليل التصنع ، بعيدا عن الرياء عاملا على السياحة والعزلة ، عارفا بالمعارف القديمة ، مضطلعا بتفاريق النحل ، قائما عـــلى العربية والاصلين ، طبقة الوقت فى الشعر وفحل الاوان فى المطول ، اقدر النـــاس على اجتلاب الغريب الخ » . ظهر من خلال شرح ابن هدية ان ابن خميس كان ينتصر للفلاسفة ويشيد بائمتها ، والفقهاء اذ ذاك وفى مقدمتهم ابن هدية كانوا يحكمون على الفلاسفة بالزندقة والكفر وهذه التهمة التى ألصقت بابن خميس ، هي من الاسباب التى جعلته يعيش فى بلاده منزويا منعزلا مجهولا فى الاوساط العلمية ، مما جعـل العبدرى يقول فى رحلته عنه « وجـده على حـال انزواء وتقلل من الدنيـا » اذ كان

ابن خميس قريب عهد بالامتحان الذى أصابه بمدينة فاس ، حيث نصب له فقهاؤها كمينا ، مثل فيه امام محكمتهم ، فحكموا عليه بالكفر والزندقة ، اذ لما حمى وطيس المحاكمة ، دافع ابن خميس عن آرائه بشجاعة وثبات ، مما ادى محاكموه ان يسجلوه فى دفتر الزنادقة ، وتسجيل المحكوم عليه فى هذا الدفتر ، عبارة عن اباحة هدردمه ، ولم ينج ابن خميس من تنفيذ حكم الاعدام عليه ، الا مغادرته مدينة فاس تحت جناح الظلام كما سنبين ذلك ، وبعد وصوله الى تلمسان وجد الحاكم بامره فيها القاضى ابن هدية القرشى الذى قال النباهى فى ترجمته : « ·· وكان أثيرا لدى سلطانه ، قلده مع قضائه كتابة سره ، وأنزله من خواصه فـوق منزلة وزرائه ، فصـــار يشاوره فى تدبير ملكه ، فقلما كان يجـرى شيئـا مـن أمـــور السلطنة الا عـن مشورته وبعد استطـلاع نظـــره » · اهـ

ولم تكن منزلة ابن هدية ــ الخصم اللدود لابن خميس ــ مكانته السياسية فقط ، بل هو علاوة على ذلك سليل الفاتح الشهير عقبة ابن نافع الفهرى والرأي العام يقدس عقبة وبنيه ، ومن سوء حظ ابن خميس انه كان مطلعا على محاكمته بفاس ، ولنترك لابن هدية القرشى الكلمة حيث قال عند شرحه لبيت ابن خميس فى رسالته :

وانـــل أبـــا البـــركـــات مـــن بركـــاتهـــا
وادفـــــع محـــــال شكـــوكــــه بمحــــالهــــا

قال : « أبا البركات يعنى الشريف أبا البركات محمد بن على الحسنى المعروف ببلده فاس بالشواذكى وكان له بحث فى علم الكلام ، نعم وكان له وبعلم اللســـان بعض الاعتناء والاهتمام ، وبسببه وقعت مخاطبة أبى عبد الله ابن خميس أبا الفضل ابــن عتيق بهذه الرسالة ، اذ كان أبو البركات هذا هو متولى مناظرته حال حلوله بمدينة فاس واجتيازه بها واحسب ذلك ما بين الثمانين والتسعين وستمائة أو قبلها بسنين والله أعلم ، وبمدينة فاس كنت انا قاطنا اذ ذاك مع والدى رحمهما الله تعالى ، لسبب أوجب مفارقة الوطن يطول ذكره ، وكانت المناظرة فى علمى الكلام واللسان ، انقطع فيها أبو عبد الله ابن خميس حينئذ ، انقطاع من عزه الدليل واعوزه البرهان ، فرسمه الشريف أبو البركات عند ذلك فى ديوان الضلال والكفر ، ووسمه مع ما وسمه الله به من التفلسف بانتحال الشعر ، ولذلك ما أشار ابن خميس اليه فى النظم من هذه الـرســـالــة والنثـــر » ·

اما راي الشارح ابن هدية فى الفلسفة ومعتنقى مذاهبها فقد اظهره عند شرحه لقول ابن خميس : « وجاجأ بها من قدماء الحكماء كل أوحدى الاحوذية فباتت تحب اليه وتوضع الخ » . فقال : « والاشارة هنا بالحكماء القدماء الى مثل من ذكره من متقدمى الفلاسفة الرؤساء **لعنهم الله ولعن ذا الاهتداء بهديهم والاقتداء** » . ثم عقد ابن هدية فصلا بسط فيه القول عن الفلاسفة الاسلاميين وغيرهم عند شـرحه لقول ابن خميس فى رسالة : « وتحت هذه الاستار مخدرات اسـرار اضربها الاسـرار ، وطالما تكر معارفها الانكار ، ونقلت مـن صدورا ولائك الصدور ، الى بطـون هذه الاوراق ، فى ظهور رقوق دفاتر فلسفيات معانى علومهم الرقاق » شرح ابن هدية هذه الفقرة بقوله : « والفلسفيات منسوبة الى الفلسفة وقال ابن سيده الفلسفة الحكمة ، وهو الفيلسوف وقد تفلسف ، والفلسفة عند أهل السنة وكافة الاشعرية عبارة عـن الزندقة البحتة والضلالة المحضة والكفر الواضح الناشى عن مطلق الخلاف الواضح ، وعلومها تنقسم الى الغرض المطلوب منها ستة أقسام : رياضية ومنطقية وطبيعية ، والاهية وسياسية وخلقية بينها الامام أبو حامد رحمه الله فى بعض تصانيفه وبين آفاتها فاغنى ذلك عن تبيينها هنا اذ فيه خروج عن الغرض المشترط ، وكذلك ينقسم اصناف اربابها على كثرة فرقهم واختلاف مذاهبهم وتشعب طرقهم ثـلاثة أقسـام : الدهريون والطبيعيون والالاهيون وكلهم زنادقة ، كفار ، لعائن الله تترى عليهم » .

وبعد ان بين ابن هدية المنتسبين لهذه الاقسام الثلاثة ، ورد بعضهم على بعض ، ختم فصله بقوله : « فوجب تكفيرهم وتكفير شعثهم من المتفلسفة الاسلاميين كابن سينا والفارابى وغيرهما من المهتدين بهديهم المقتدين برأيهم ، عليهم لعنة الله اجمعين » اه هذه فقرات مختصرة نقلناها من شرح ابن هدية القرشى للاستدلال بها على رأيه فى الفلاسفة ومذاهبهم ، نقتصر عليها ، ثم ننتقل الى رواية ابن هدية عن محاكمة ابن خميس فى مدينة فاس،وقد افادنا عن هذا النوع من المحاكم التى سيق اليها ابن خميس، وقد كان لروايته وزنها ، حيث انه كان ساكنا بمدينة فاس وقد أورد فى روايته مـا يثبت ان ابن خميس جادل محاكميه حتى لم يبق منهم الا رئيس الجلسة أبو البركات كان ابن هدية علاوة على رأيه فى الفلسفة والفلاسفة الذين يحكم عليهم جزافا بالكفر والزندقة ، يحتقر ابن خميس ، ويهينه ، ومن ذلك رده عليه عند شرحه لبيته الذى قال فيه

واذا انتـسبـت فـاننـى مـن دوحـة
تـتقـيل الانـسـاب فـرد ضـلالهـا

قال ابن هدية فى شرحه : « ·· وهذا غلو مفرط وكذب مورط ، وكذا لعمرى كل مـا تقدم من قوله جرا هذا المجرى » الخ ··· الى ان قال عند شرحه للقسم النثرى مـن الرسالة « ما جدا يملأ الدلو الى عقد الكرب » قال « ومراد ابن خميس بهذا الكلام ، الفضل ابن عباس بن عتبة ابن أبى لهب حيث قال : « من يساجلنى يساجل ما جـدا يملأ الدلو الى عقد الكرب » ·

ثم استرسل ابن هدية فى حديثه فقال « فانت ترى ما فى كلام ابن خميس هذا من القحة والجراة على معاطاة الرفعة التى ناطته بمناط الخمول والضعة ، على انه لـم يقف هنا ولا جعله حده ، بل اضرب عنه وقال بعده لو لو حظـت بقبـائها الحجرى رحلها ، وساجلت بوفاء جدها ذى رعين الا استوفت سجلها » فأقول :

ليت شعرى بم يهيمن ، وبحقوق من اعتصم ، حين صرح بخبث خلقه ، ونطـق بسجية خرقه ، فلقد أمر أمره ، وطال ، وعرض فخره ، فواعجبا كيف ركب ذلك اللكع الهلباجة ، فى تلك الاسالب هجاجه ، ماشيا فيها رويدا آمنا من ان يصادف فى مضلات سباسبها كيدا ، مع ما يعرف من انه فى معاناة معانى معارف الزندقة قطع السن ، وان أديمه فى هجير الهجر استشن ، انا لله عز وجل الوازع ، وقل الجازع ، على ان فى ما تقدم من السقط ، ما يعد من هذا النمط ، اذ كل ما أسس من رسالته وبنى ، فانما هذا المعنى ان تأملته عنى ، اللهم انه خبط خبط عشواء ، اذ ركب عمياء ، ولو كان له بصر يؤديه ، وبصيرة تهديه ، لما ابدى مثل هذا البيت ، الذى أداه وافضى به الـى ألمقت ··· الى ان قال مخاطبا ابن خميس ·

« واما الفقه الشرعى فمعلوم انك منه صفر الراحة ، برىء الساحة ، لم تـزل قاصرا على اجتناب اسبابه ، قاصدا لاجتناب اربابه ، معاداة له ، ومناواة لمن حمله ،

فلسـت منهـم لـدى خـبر ولا خـبر
ولسـت منـه لـدى ورد ولا صـدر

ولولا ان الاليق ايثار الاعراض من استتار مقاصدك السيئة والاعراض ، لاومأت من ذلك الى مـا يوجعك منـه عض الثقـاف ، ويـرميك بثالثـة الاثـافى ، فـانك مـن تناولك هذا السجال ، وتجاولك فى ذلك المجال ، بين جهل فاضح أو كفـر واضح ، فاختر وما فيهما حظ لمختار الخ » اه ·

تكتفى بهذا القدر من بيان بعض الجوانب المجهولة من صفحات تاريخ حياة عبقرى عاش فى بلاده مدة طويلة منزويا خائفا يترقب مرور الاخطار التى كانت تهدده اثـر

اتهام خصومه اياه بالكفر والزندقة والحكم عليه بالاعدام ، كان ابن خميس من قادة الفكر المتازين بالشجاعة الادبية وقد ضرب لنا أروع مثل لذلك حيث دافع عن رأيه اثناء محاكمته بمدينة فاس وافحم خصومه حيث توارى معظمهم ولم يبق فى الميدان الا رئيس المحكمة ـ باعتراف خصمه اللدود ابن هدية ـ وهكذا نرى ابن خميس الذى عاش مدة فى ابتداء حياته موظفا بقصور ملوك بنى زيان ككاتب فى ديوان الانشاء وكان فى امكانه ان يرقى بسهولة الى اعلى المناصب ، ابت همته الا ان يختار حياة التقشف والزهد بدلا من حياة القصور التى ضاق بها ذرعا ، وحالت بينه وبين ما كان يصبو اليه من حرية الفكر ولم يبالغ معاصره عبد المهيمن الحضرمى الذى صور حياة القصر بقوله :

ابت همتى ان يرانى امرو
مدى الدهر يوما له ذا خضوع

وما ذاك الا لانى اتقيت
بعز القناعة ذل الخضوع

اختار ابن خميس عيشة الزهد والتقشف والعزلة بتلمسان ، الى ان واتته الظروف فغادرها تحت جناح الظلام ثم ختم به المطاف بغرناطة ولم تنسه حياة البذخ والترف التى لاقاها بغرناطة تلمسان ، التى كان كلما ذكرها الا وبكاها فى قصائده التى أودعها نبضات قلبه وخلجات فؤاده وقد استفاد التاريخ الثقافى التلمسانى من هذه القصائد ، قصيدة ضمنها معالم تلمسان فريدة فى نوعها ٠

هذه هي الخطوط العريضة من ترجمة حياة ابن خميس التى وصلتنا ، ولا شك ان ما تبقى منها ـ وهو فى حكم المفقود ـ مثل تراجم ابن خاتمة الاندلسى صاحب كتاب « مزية المرية ، على غيرها من البلاد الاندلسية » وما كتبه عنه مواطنه أبو عبد الله محمد الحضرمى صاحب ثلاثيات البخارى الذى جمع ديوان شعره المسمى « الدر النفيس ، فى شعر ابن خميس » وكلاهما اعرف الناس به ، اذ عاصراه ورافقاه فى مدينة المرية ، كان أكثر الباحثين فى تاريخ الادب العربى وبالخصوص، المهتمين بدراسة ابن خميس ، يتطلعون الى هذين الاثرين ، وقد اشيع بان « الدر النفيس فى شعر ابن خميس » اكتشف وقد هيأه مكتشفه للطبع ، الا انها مجرد اشاعة ، والذى اكتشف حقيقة من آثار ابن خميس رسالة ثانية ، عزز بها رسالته الاولى ـ موضوع حديثنا ـ وبقيت هذه الرسالة مجهولة تماما ، الى ان اكتشفت منذ سنوات قليلة ٠

وهي بخط ابن خميس ، اذ كتبها قبل وفاته بست وعشرين سنة ، فتاريخ ارسالها من تلمسان كان سنة 682 هـ ارسل ابن خميس هذه الرسالة فى وقت واحد مع رسالتـــه الاولى التى ارسلها الى مشرف مدينة فاس : أبو الفضل محمد بن يحيى بن عتيـــق العبدرى والثانية (القريبة العهد بالاكتشاف) ارسلها الى قاضى مدينة فاس أبـى غالب المغيلى ، ويظهر انها بقيت فى خزانة أبى غالب المغيلى حيث كتب ولده فى ختامها « ان هذه الرسالة ارسلها أبو عبد الله ابن خميس من تلمسان الى والدى سنة 682 هـ بعـد رجـوعه مـن فـــاس » ·

والغالب ان قاضى فاس ـ الذى كان من اصدقاء ابن خميس ـ احتفظ بها خشية ان تجر له التهمة ، والرسالة الثانية فى نفس موضوع الاولى ، واهم ما فيها الاشادة بالفلسفة واساطينها الذين كان يراهم المثل العليا لحرية الفكر ، وهي كسابقتها فى حاجة الى دراسة معمقة ، اذ الرسالة الاولى كما رأينا ، اقتصر فيها شارحها على الاهتمام بالناحية اللغوية ، وان فلتت منه استطرادات ، فهي لا تجاوز الهجوم على صاحبها ، ومحاولة نقض آرائه وتكفيره الخ ·

ولهذا فهي فيحاجة الى دراسة فنية ، ولا يفوتنا فى هذا المقال ان نحتمه بما ختم به ابن خميس رسالتيه الاولى والثانية صور فى ختامهما انطباعاته عن فقهاء فـاس الذين نصبوا له كمينا وحكموا عليه بما هو معروف قال : « اقسم أبو الفضل بمـاله على أبى البركات من الفضل ، ذلك العراقى الارومة ، لا هذا الفاسى الجرثومة · وان يك ذاك اسرائيلى الاصل ، وهذا اسماعيلى الجنس ، ان موطـئ قدم أبى غالبنا المذكور من فاسه الغراء ، لارفع وأسنى من مقعد رقوطيهم المشهور من أغرناطة الحمراء ، ومن متبوء أبى اميتهم المرحوم من جنة جزيرة الخضراء ، فبما لكت أبـا الفضل من هـذه العجرفة والوك ، ارايت فى عمرك مثل هذا الصعلوك ، لا والله ما على ظهر هذه الغبراء ، من يتظاهر بمثل هذه المعرفة فى بنى غبراء ، فأي شيء هذا المنزع ايش ، لا حال لنا معك ولا عيش ، من يصحبك على هذا الطيش ، ما هذا الخبل ، اخمار بك ام ثمل ، ارجع الى ما كنت بصدده · وقيت الزلل ، خذ فى الجد فما يليق بك الهزل ، رق غزلك فحك لنا منه ارق غزل ، ماذا أقول واى عقل يطابقنى على هذا المعقـول ، افحمتنى والله عن مكالمتكم هذه المحن ، ومنعنى من طلب مسالمتكم ما لكم على فـى دنياكم هذه من الاحن ، ان تكلمت كلمت ، وان استعجمت عجمت ، اما لهذه العـلة ءاس ، اما لهذه الغيلة مواس ، ما حيلتى فى طبع بلدكم الجاس اما يلين لضعفى قلب

زمانكم القاس ، ما لهذه الدمــن ، يا بنى خضروات الدمــن ، اظهرتم المجن • فقلب لكم ظهر المجن ، ان مربكم الولى حمقتموه فان زجركم العالم فجرتم عليه ففسقتموه ، واذا نجم فيكم الحكيم غصصتم به فكفرتموه ، وزندقتموه ، كونوا فوضى فمالكــم اليوم من سراة ، واذهبوا من مراعيكم المستوبلة حيث ما شئتم فقد اهملكم الرعــاة ، ضيعتم السنــن والشرائع ، واظهرتم فى بدعكم العجائب والبدائع ، نفقتم النفــاق ، واقمتم سوق الفسوق على ساق ، استصغرتم الكبائر ، وابحتم الصغائر ، اين غنيكم الشاكر ، يتفقد فقيركم الصابر ، اين عالمكم الماهر ، يرشد متعلمكم الجائر ، مـــات العلم بموت العلماء ، وحكم الجهل بقطع دابر الحكماء ، جدد لنا شريعتك يــا أفضل الشارعين ، قم فينا بموعظتك يا أفصح التابعين ، لا والله ما يوقظكم من هذا الوسن ، وعظ الحسن ولا ينقذكم من فتن هذا الزمن الا سيف صاحبه ابى الحسن والسلام » اه •

منشــــورات
وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينيــة



الاســـلام و التاريخيـــة و التقـــدم (*)

محمـــد أركـــون
استاذ تاريخ الفـكر الاســلامى
بجامعة السوربون الجديدة
(فرنسا)



« **اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينـا** » (قرآن كريم المائدة 3)

« ان الدين عند الله الاسلام » (آل عمران 19) ·

« **ان المعرفة التاريخية سواء أكانت ظرفا تاريخيا ، أم وضعية بشرية ، معرفة لا تجهل ولا يمكنها أن تجهل أيا من الحدين · لان انسان اليوم مضطر الى ان يتساءل عن مغـزى الثورة التى يجتازها ، وعـن المعنى الذى يقصده لوجوده ـ من وراء العلم والآلات** » ·

(ر ـ آرون ، ابعاد الوعى التاريخى ص 146)

هذه الشواهد الثلاثة تحدد بدقة ميدان بحثنا · فنحن ، من جهة ، لنا دين يدعى الاسلام ، يجلى فى صفة الدين الحقيقى لانه آخر ما انزل وأوحى به ، أوحىبه الله الى كافة عباده ومن جهة أخرى ، لنا التاريخ الذى صنعه العمل البشرى وعجل بـه « هيجان الحياة » الى درجة أن انسان اليوم يعيد من جديد ـ كما كان الشـأن ابان العهد اليونانى القديم ـ تجربة المأساة ·

ولنبادر الى القول بأن هذه المجابهة وعلى الاقل فى صورتها هذه الملحة ، والمباشرة ، والنزاعية ـ هي مجابهة خارجة عن الفكر الاسلامى الكلاسيكى ٠ وانما تعيشها المجتمعات الاسلامية بالمحسوس منذ نهاية القرن التاسع عشر ، وتحياها بشدة أكثر منذ الخمسينيات ٠ غير أن الفكر الاسلامى الحديث لم يضع بعد الجدلية القديمة القائمة بين الوحى والحقيقة والتاريخ موضع **اشكال** ضمن منظور فلسفى يتسم بالعزم والاقدام ٠

لقد أثرت من ناحيتى ، هذه المشكلة فى مقال منهجى حول نتاج الغزالى (I) ٠ لكن بدا لي أنه لكي يحلل المرء ، على الوجه الصحيح ، وضعية الاسلام الراهن أمام العصرانية ، فلابد من أن يمتد البحث والتحقيق لا الى الفكر الاسلامى الكلاسيكى فحسب ، بل الى القرآن نفسه أيضا ٠ ان المهمة مريعة لاسباب معروفة جد المعرفة ٠ الا أننا سنرى كيف أن هذه المهمة لا مفر منها اذا ما أردنا أن نعالج على الوجه الصحيح ، مكانة التاريخية المعترف بها فى الاسلام ٠

وسنبدأ بالبحث عن اشكالية تأخذ بعين الاعتبار الوضع الخاص بالاسلام ، وكل الصعوبات التى سبق أن أثارها الفكر الغربى ، ثم نضع بعض المعالم لتفكير **راهن** فى الاسلام والتاريخية ٠

1) البحث عن اشكالية

حين نتحدث عن الاشكالية ، لا نريد أبدا أن ننقاد الى « مودة » ذهنية ، كلا ، بل كل ما فى الامر هو أن نسد ثغرة فتحها تطلع ملايين المسلمين المتعطشين الى **فهم** وضعيتهم فى العالم الراهن الممزق بتناقضات يؤدون تجاوزها ولو عن طريق تفسير تطمئن اليه الخواطر ٠ بيد أن الاشكالية المقصودة لا يمكن أن يكون لها فى ذهننا الا قيمة كشفية : اننا ندرك خطورة المرحلة التاريخية التى يتصدى لها الفكر الاسلامى مع ضرورة أن يدمج فى مقولاته فكرة التاريخية ٠ وسيقول التماميون والعقائديون الذين يسيطرون على قطاعات واسعة من قطاعات الرأي العام الاسلامى الحالى ، أن عملية التكامل هذه قد سبق اليها القرآن ، والمأثور من سنة الرسول ٠٠٠ وابن خلدون ؟ وسنبين كيف أن هذا الموقف الذى ما يزال شائعا ينطوى بالضبط على رفض **تصور** التاريخية تصورا متقيدا بالاوضاع والنتائج ٠

وانما تقاس قيمة أية فكرة وقوتها بالمفهومات التى تخلقها أو التى تعيد قولبة محتواها أو مداها أو استعمالها ٠ وهكذا فسنجتهد لجعل مفهومات الاسلام

والتاريخية والتقدم مفهومات عملية فى بحثنا هذا · وبعد ذلك سنتساءل عن مــدى ملاءمة المناهج المستعملة فى مختلف العلوم ·

1ـ1) نقــد المفهــومــات

لقد امتد استعمال كلمة **اســلام** بالتدرج منذ الاستعمال الوارد فى القرآن الى ميادين جد مختلفة ، ولا يكفى القول بأن الامر يتعلق بدين معروف تمام المعرفة بعلاماته المميزة ، أي « شعائر الاسلام » ، أو أن دين الاسلام ديــن جاء به محمد (2) · وفى بحثنا هذا ، لابد من اعادة التفكير فى مفهوم الدين نفسه على ضوء مــا قد اضافــه العلــم المعاصر من المعلومات ·

هناك تعريف **اسلامى** للاسلام يجب أن يتخذ أساسا لاى تعريف **اشكالى** أي موجه نحو تساؤلات جديدة عن معنى العنصر الدينى ووظيفته استنادا الى ما قد تمثل فى الاســـــلام ·

ان الخطوط البارزة للتعريف الاسلامى قد أعاد التذكير بها مؤخرا «ل· غاردى» فى **موسوعة الاسلام** · فقد جاء فيها أن الصيغة المعجمية **اسلام** وردت ثمانى مــرات فقط فى القرآن بمعنى اسلام النفس الى الله · وهذا الاستسلام الى الله **يستدعــى** استبطان « نداء » اللــه (آيــة 125 من سورة الانعام ، وآيــة 7 من سورة الصف) والشعور بدين نحو الرحمن الرحيم (الآية 19 من سورة آل عمران ، و3 من المائدة) ، ثم الايمان المتميز عن الاسلام فى الآية 74 من سورة التوبة والآية 14 من سورة الحجرات) ومن اللائق أن نضيف بأن هذا الاستعمال قد يتضمن فى الاصل أيضا مفهوم تحدى الموت والاستهانة به ، والتضحية بالنفس فى الجهاد فى سبيل الله ورسوله (3) ·

ومهما يكن من هذا الامر ، فمن الواضح أن القرآن يؤكد أكثر ما يؤكد على ضرورة الايمان ، وعلى كل الاعمال المعبرة عن هذا الايمان · **فالحديث** والفكر الكلاسيكى كله يثبتان هذه الصلة بين **الاسلام والايمان والدين والشريعة والاخلاق** ، ونحن نذكر بأن الاسلام قد فرض نفسه منذ العهد المدنى فى صفة ديـــن قائم على انتصار سياسى ، فهو اذن انتصار تاريخى للغاية · وهذا يفسر التداخل الموجود فى الســـور المدنية لمطالب دنيوية (سلطات وجودية) ولنماذج وجودية ترمي طرائق معقوليتنا الراهنة الى التمييز فيما بينها · فالتفكير متجه الى التعارضات ذات المدى الايديولوجى ، بين التاريخي والروحى ، بين الدنيوي والمقدس ، بين اللائكي والديني ····

على أســاس هــذا الالتبــاس بيــن الاوضـــاع الوجــودية ومستــويـات الدلالة،قامت فكرة « دار الاسلام » الراسخة فى مقابل فكـرة « دار الكفر » أو « دار الحرب » فهذا التقسيم « للمعمورة » ـ كما يقول المؤلفون الكلاسيكيون ـ يقوم هــو ذاته على النواة الميتافيزيقية للاسلام · وقد جمعت فى مكان آخر[5] المقدمات التى تؤلف هذه النواة والتى تتحكم ، منذ عام 632 ، على طريقة الادراك والمعقولية الاسـلامية الخاصة · فكل آية قرآنية ، وكل حديث محفوظ ، مكرر ، مشروح ، ذى صلة مــع الوضعيات الوجودية الاكثر تنوعا،قد ساهمت أو ساهم فى تكون وبقاء ما أسميـه **البنية المعرفية** (Epistémè = إبيستمه) للاسلام ، والاسلام المثالي المنبثق عن ذلك هو **الدين** الحق الذى ينسخ كل ما عداه من الاديان والذى لا يمكن أن ينسخ هو · فهــو اذن متعال مستمر عبر التاريخ · نستلمح ما يترتب على هذا من الصعوبات بين اسلام كهذا وبين التاريخية ·

ان ادخال البعد التاريخى ليحملنا على أن نميز بين الاسلام المثالى وبين اســلام تاريخى متكون هو ذاته من تجاور وتعاقب زمنى لاسلامات سوسيولوجية · وكــل الابحاث التى أجريت فى القــرن التاســع عشــر والتى تضخمت خاصــة بالتبحـر الاستشراقى ، تسمح بتأكيد وجود هذين النمطين من الاسلام · فالمشكلة اذن هي أن نبين كيف تتم وأين تقع الانفصالات والوصائل مع الاسلام المثالى · وسنرى كيف أن المهمة غير ميسورة · اذ ينبغى أن يتــوفر لدينا فى الواقع مــا يعوزنا مــن المعطيات لتمييز : (1) الدين القائم في الحياة اليومية دون ان يفهم فهما ملائما (2) الدين غير القائم وغير المفهوم فهما ملائما · (3) الدين غير القائم ولكنه أخضع للتحليل «العلمى»· (4) الدين القائم والمتجه به نحو وصف علمى وتفســير مقبولــين ·

وستتضح هذه البيانات اتضاحا أولا ، بتحليل مفهوم التاريخية · جاء فى « **لاروس الكبير للغة الفرنسية** » ان الكلمة قد تكون ظهرت للمرة الاولى فى **المجلــة النقديــة** الصادرة فى 6 أبريل 1872 (صفحة 209) · أما معجم « روبرت » فلم يقيد الكلمة · ذلك انها فى الواقع ، تصييغ عرفانى استعمله الفلاسفة الوجوديون بالخصوص للتحدث عما للانسان من ميزة فى انتاج سلسلة متلاحقة من الاحداث ، والنظــم والمنتوجات الثقافية التى يتكون من مجموعها مصير البشرية · وبهذا المعنى يكون المفهوم صالحا للفكر فى التغير كأنه مقولة وجودية مرتبطة بمطالب الوجود الاول والعرفان والتقييم والتملك · وهنــا برزت المشكلات الفلسفية الاشـد خطورة مثل مشكلة التاريخية ، والحقيقة المطلقة والعقل الذى « يعقلها » كما يقول القرآن (6) ويعبر عنها ·

وقد استعمل « أ ـ تورين A. Touraine » مفهوم التاريخية استعمالا جديدا فى بحث له صدر أخيرا ليقترح نظرية سوسيولوجية تفسح مجالا واسعا للبعد التاريخى للمجتمعات · وقد عرفت التاريخية بأنها مقدرة كل مجتمع على « انتاج مجاله الاجتماعى والثقافى الخاص به ، ومحيطه التاريخى الذاتى (7) · فما أدعوه التاريخية اذن هو الطبيعة الخاصة للانظمة الاجتماعية التى تملك المقدرة ـ من وراء تكاثرها المنسق مع العوارض التى تغيرها ، ومن وراء امكانياتها للتعلم والتكيف ـ على التأثير فى نفسها بواسطة جملة توجيهات ثقافية واجتماعية ··· فبدلا من وضع مجتمع ما فى التاريخ توضع التاريخية فى صميم المجتمع كمبدأ منظم لمجال العلاقات والممارسات » (8) ·

وما نحتفظ به من هذا التعريف بالخصوص هو امكانية تجاوز التناقض الباطل بين البنية والتاريخ ، والربط بين التحليل السوسيولوجى والمنظور التاريخى ·

وينبغى أن نختبر القيمة العملية لهذا الاسهام المنهجى بأن نفحص كيف أن الاسلام المثالى يتدخل ، على سبيل المعرفة النموذجية ، لبعث الحركة فى تاريخية المجتمعات الاسلامية أو فى تعطيل سيرها ، وأيضا كيف أن المكونات الاخرى للتاريخية (النماذج الثقافية المحلية ، بنى الانتاج والمبادلة ، البنى الاجتماعية والسياسية ··· الخ) · تكشف القناع عن الوظيفة الايديولوجية وبالتالى عن المظاهر أو الجوانب العرضية للاسلام المثالى ·

هناك معنى للتاريخية قد يبدو خاصا « بالمؤرخين المحترفين » وهو سيمة ما هو تاريخى أي غير خيالى ، ثابت بواسطة قواعد النقد التاريخى · وهذا التعريف العلمى فى ظاهره ينطوى،فى الواقع،على مخاطر كبيرة يكشفها تاريخ المؤرخين بالذات · ان التهمة الموجهة الى التاريخ الذى يكتب ويدون تهمة هي من الشيوع والذيوع ما يجعلنا لا نرى ضرورة لاثارتها هنا من جديد · بيد أنه لا يمكننا أن نتملص من مشكلة التاريخانية هذه التى أعاد الاعتبار اليها ببراعة وحماسة « ع ـ العروى » (9) فى منظور فكر عربى نقدى ·

ان التاريخانية مفهوم من تلك المفهومات التى تثير مناقشات لا نهاية لها الى حد أصبحت معه غير قابلة للاستعمال فمعظم التعريفات المقترحة لها تعريفات ايديولوجية حتى حين يجتهد أصحابها فى التمسك بالتميز الصورى من أجل التحليل · وبما أن التاريخ ميدان لتنافس الميول والتطلعات البشرية ، فليس مما يبعث على الاندهاش الا نستطيع فك رموزه بواسطة تعريفات صورية لا تقود الى تعريفات حقيقية · وبعبارة

أخرى ، فليس من الممكن الابقاء على أي فصل جذرى بين الصعيد النقدى ، والصعيد الانطولوجى • والملاحظة الاساسية ذاتها تنطبق كذلك على التاريخية التى تولد عنها اما تفخيم وجودى لا يطاق ، واما اثبات تقنى **للوقائــع** •

ان **التاريخانية** لتقر بمسلمات فلسفية أو ايديولوجية تتسرب خلسة الى مفهـوم التاريخية حتى ولو تمسك المؤرخ بمهمته الخاصة المتمثلة فى تحليل التغير • وهكذا أمكن التميز بين **تاريخانية** ميتافيزيقية تعارض **تاريخانية** وضعية (موسومة بالعلمية) **وتاريخانية** وطنيــة ، شديدة الحيوية ضمــن الايديولوجيات الحــديثة ، **وتاريخانية** جمالية (١٥) • وتجرى ، فى كل الحالات ، محاولة تبرير قيم دينية ، أخلاقية وسياسية بل وحتى ذهنية بمعالجة « التاريخ » فى اتجاه نمو خطى متصل اما تقدما تطوريا من أصل ابتدائى (غير كامل) نحو غاية أرضية أكمل على وجه الدوام (**الوضعية**) ، واما تقدما تضمينى انطلاقا من أصل متعال نحو مستقبل أخروى (اللاهوتات التوحيدية) •

ويبدو من الضرورى اذن أن نوضح المصطلح (١١) بالسعي عن طـريق مفهـوم التاريخية الى دمج كل النقدات والمطالب التى بسطها « ع ـ العروى » تحت اســم التاريـخانية • فمن وجهة علم اللسنيات نجد أن لا حقة «إنية » تحيل الى صفة واقــع جوهرى بينما لابد من أن تحبسنا لا حقة « **انية** » ضمن مذهب أقامه العقل • فالتاريخية تسمح لنا اذن بالبقاء فى صعيد التساؤل ، فى حين توهــم التاريخانية بوجود معنى معــروف للتــاريخ •

فمن وجهة نظر الفكر الاسلامى ، لا يغيبن عنا أن الاختيار الذى سلكناه الا يكن ينطوى على خروج عن نظامه فى المعتقدات ، فانه ينطوى على الاقل ، **على ابتــداع** مشبوه • ولنبادر الى التوضيح اذن بأن ما نهدف اليه بالذات هو العمل **كمؤرخ على** ابراز أهمية التاريخية فى الاسلام التاريخى ، ثم السعى **كفيلسوف** الى اجلاء الحجج المتعارضة الناشئة عــن مجابهة ما بين مسلمات الاســلام الميتافيزيقى ، والمعطيات الوضعيــة للتــاريخ •

ولابــد لنــا قبــل الانتقــال الى صميــم الموضــوع مــن اشــارة ســريعة الى مفهــوم التقــدم ، فانــه مرتبط بالتاريخانية الســائدة التى صــاحبت فى الغـــرب نجاحات الحضارة المادية منذ القرن الثامن عشر • وقد ألح الفلاسفة والاخلاقيــون الدينيون أو اللائكيون دائما على اخطار انفصام هائل بين التقدم التقنى والتقــدم الروحى للانسان • ومن المعروف ان الفكر الاصلاحى الاسلامى طالما استغــل هذا الموضوع من أجل استرجاع الثقة فى الوحي القرآنى ، والسخرية من التفوق « المادى »

للغرب ٠ وهذا يعنى أن الفكر الدينى أو الفلسفى وجد لذته فى الترديدات الورعة او فى التأملات المثالية حيث كان ينبغى له ـ على العكس من ذلك ـ ان يكشف ـ كما فعل ماركس ونجح فيه ـ كل العلاقات الضمنية الانسانية للتقنية ٠ وانما بدأ فى الماضى القريب ، تجاوز المقاومات أو حالات الرفض التى لقيها الفكر الماركسى من جانب الغرب ، والانحرافات التى عرفها من الجانب الشيوعى ٠ وذلك فى جو التأزم الحضارى الذى انغمس فيه العالم منذ بضع سنوات ٠ وقد يحفظ لنا التاريخ سنة 1973 كما لو كانت سنة فاصلة فى هذا الصدد ٠ فأزمة الطاقة ، فى الواقع ، قد حولت النقاش الاكاديمى حول التقدم الى اكتشاف تجريبى ويومى من قبل أكثر الناس تواضعا لهشاشة هذه الحضارة التى كانت ـ الى عهد قريب جدا ـ مسيطرة فى عجب وكبرياء على العالم اجمع ٠

فلقد فعل نقص البترول ما لم تفعله كل الحروب السابقة ، وكل المواعظ والمذاهب الفلسفية لبعث التقدم بوصفه مشكلا مركزيا صميما للانسان وللنوع البشرى فى كل الضمائر المعاصرة (12) ٠

فماذا يملك الفكر الاسلامى من وسائل ذاتية لتحمل المتاعب الناشئة عن هذه الظروف ، ولتجاوزها على الخصوص ؟ ذلك بالنسبة الينا ، هو السؤال الجوهرى الذى ينبغى الاحتراس من اخفائه بتبنى المواقع الدفاعية الشائعة ، والمباحث التى تحلو للنزعة الاخلاقية ، والتناقضات المجردة للميتافيزيقيا الكلاسيكية ٠

1 ـ 2 مناهج تقديم للموضوع :

تثير العلوم الانسانية منازعات داخل الفكر الغربى ذاته ، وتثير من الجانب الاسلامى ، اما افتتانا مفرطا لدى الطلاب الشبان ، أو على العكس من ذلك ، شبهة مطلقة لدى أوساط المحافظين ٠ وعلى ذلك ، يجد الفكر الاسلامى لزاما عليه أن يكافح على جبهتين اثنتين حتى يشق طريقا أمامه يقوده الى فكر متحرر من كل تبعية غير مشروطة ، وقابل للتصديق ٠ وفى مواجهة العلوم الانسانية ، يجب أن نميز على الدوام ، بين الاسهامات الايجابية ، والتعاليم المحررة ، من التفسيرات المستنقصة ، وفى هذا الاتجاه وضع السيد « ميسلان M. Meslin » منذ ايام قليلة ، موازنة متوازنة للغاية تسمح بالتطلع الى « علم جديد للديانات » ثم ان « ج٠ لوغولف J. de Goff » ، و « ب٠ نورا P. Nora » فى كتابة التاريخ ، و « لوروا لا دورى E. Le Roy Ladurie » فى (أرض المؤرخ) قد بينوا مدى سعة فضوليات المؤرخ وميله الى استعمال جملة طرائق حتى

لا يكتب تاريخا منفجرا · فهذه الاعمال وكثير من أمثالها تهــم ، بالدرجة الاولى ، البحث الاسلامولوجى · وهي أعمال يستشعر بفضلها الباحث بالتخلف المحزن · فيما يخص الدراسات الاسلامية · ان هذه الملاحظة لتقودنا الى صميم موضوعنا ؛ ذلك ان ممارسة العلوم الانسانية مرتبطة بالتقدم والتاريخية الخاصين بالمجتمعات الغربية · والمشكلة اذن هي معرفة الى أي حد يكون من المشروع نقل اشكالية هذه المجتمعات الخاصة بها ونتائجها لاظهار بعد معاش ، ولكن غير ممفهم بعد ، فى الوعي الاسلامى · فالتحدث عن التاريخية اليوم بصورة منطقية فى الوسط الاسلامى أمر ضرورى مــن الوجهة الذاتية (وجهة نظر الباحث) ، ولكنه من الوجهة الموضوعية،أمر خطير ان لم يكن مستحيلا · ان النقد التاريخى المسلط على القرآن والحديث والفقه ، ومن قبـل على الشعر الجاهلى أو على الخلافة ، كان ولا يزال يثير ردود فعل عنيفة لدى الهيئة الاجتماعية التى تشعرَ بأنها مهددة فى حقائقها ، وفى قيمها المحورية · فللعلم الوضعى ـ كما هو الشأن فى الغرب ـ فعل المذوب المحلل فى وقت تجد فيه المجتمعات الوطنية نفسها أحوج ما تكون الى تجميع طاقاتها ، وتدعيم وحدتها من أجل الصمود فى وجه الاعتداءات الخارجية ، والتغلب على التوترات الداخلية المتزايدة ·

ان الاطارات الاجتماعية والثقافية للمعرفة داخل المجتمعات الاسلامية المعاصرة لتتطلب ثلاثة أنماط من الكلام : 1) كلام أصولى أو تأسيسى ، وهو امتداد أمين وفعال ـ فى قليل أو كثير ـ للكلام السابق المعروف فى أصول الدين أو فى اللاهوت · 2) كلام ايديولوجى رسمى يبدو وكأنه يستوحى « قيمه » من الكلام السابق بينما هو الذى يغير شروط ممارسة اللغة الدينية بادخال عناصر متفرقة من التاريخية العصرية · 3) كلام شبيه بالعملى يقوم ـ على درجات مختلفة ـ بتنضيد بديهيات النوع الاول ومسلمات النوع الثانى ، ونبذا من العلوم الاسلامية الكلاسيكية و/أو من العلوم الغربية العصرية وهذا لا يعنى انه ليس هناك جهود واضحة تبذل فى اتجاه معرفة وضعية نقدية ، لكن حينما يقف البحث بأي باحث عند الموضوعات المقدسة التى لا يجوز الخوض فيها نراه يعدل عن بحثه أو يتبين المواقع العامة لايديولوجية العراك والجدال (13) ·

وما العمل أمام هذه المعطيات البنيوية التى تحدد التاريخية الراهنة للمجتمعات الاسلامية ؟ اننا سنرفض حتما مناهج الاستراتيجية التسترية ـ **تقية** الخوارج والشيعة الاسماعيلية ـ ومناهج الوفاقية السهلة ، والخليط المخادع للمفارقة التاريخية الذى يقذف فى المجال الذهنى للاسلام الكلاسيكى بمكونات من التاريخية العصرية ، وطرائق

العمل هذه ما تزال جارية عند جل الذين يكتبون بأية لغة من اللغات الاسلامية طالما وانه صحيح ان « الكتابة عمل من أعمال التضامن التاريخى » (14) .

لن يكون فتح نقاش حاسم فى الفكر الاسلامى حول التاريخية من قبيل تحطيم هذا التضامن بل هو من قبيل توسيعه . ذلك ان معالجة التاريخية بجدية (بالمعنى الفلسفى) انما تعنى فى الواقع ان نطبق على القرآن وعلى ما أسميته بالتراث الاسلامى الكامل (15) القرارات المنهجية والابيستيمولوجية التالية :

1) يجب ارجاع الواقع التاريخى الذى عاشه المعاصرون بكل تعقده وشدته الوجودية الاولى . وهذا يقتضى اعادة قراءة القرآن من حيث الاساس ، واعادة الفحص النقدى للفترة التأسيسية التكوينية **للذاكرة الجماعية الاسلامية** (16) وسينجر عن هذا العمل ـ كما هو الامر فى الغرب ـ تصدع الوعي الميثى (الاسطورى) الذى كانت اللغة القرآنية موجهة اليه ، فى اتجاهين اثنين : فمن جهة ، تحل دعوة ايديولوجية ، وهي رائجة الآن ، محل الدوغماتيات الكلامية (اللاهوتية) السابقة (ارجع الى بحوث حول الاشتراكية « الاسلامية » أو اللاهوتات المسيحية للثورة والتحرير والعنف والثقافة ، الخ ...) ، ومن جهة ثانية ، ممارسة مسؤولة لمعرفة وضعية ترمى الى تغليب جانب التماس مفتوح للمعنى من وراء التخصيصات الميثولوجية والتاريخية والسوسيولوجية .

ان مثل هذا التطور سيطرح حتما مشكلة النفوذ الى الرسالة القرآنية (الخطاب القرآنى) والواقع أن الميث (17) المبلغ فى لغة غير ميثمة لا يمكنه ان يعبر عن الرسالة الاولية بكاملها . ومن ناحية أخرى فان المزاولة العلمية ترفض كل استراتيجية لاسترداد معتقدات أو قيم لم تثبت مشروعيتها تقنيات الفحص المعترف بها عموما . وهنا بالذات تكشف لنا تاريخية الوضعية البشرية من قوتها التربوية الكاملة . فالانسان ، بتغيير علاقاته بالطبيعة ، وشروط تحققه الاجتماعى والثقافى ، والشخصى بالتالى ، انما يغير طريقة ادراكه للواقع وللمعنى ومنذ اللحظة التى اصبح فيها الانسان قادرا أن « يخلق » كائنات حية فى **بيئة مصطنعة** ، فانه يبرح مجال العجيب المذهل ، حيث تثير الآيات القرآنية الواردة فى موضوع الخلق رعدة وخشوعا الى درجة الرهبة والارتياع . وحينئذ ينتقل من أخلاق الاقتناع الى أخلاق المسؤولية ..

2) يجب أن نضع التاريخية فى صميم التجارب والمجتمعات الاسلامية ، وأن نتبع مصير الدين الذى هو مكون من مكونات التاريخية ، وبذلك نكف عن ترديد التفرع الثنائى العزيز على الفكر الاصلاحى ، بين رسالة سامية هي خاتمة الرسالات ، ثابتة

لا يلحقها اي تغيير ، ولا تنال منها أو تنسخها أية رسالة أخرى ، وبين تاريخ بشر قوامه التغيرات الطارئة · وهذا لا يعنى أنه ، لكي نجاري ريح التاريخ ، يجب أن نتخلى عن كلام الله المنزل فى القرآن · لكن لم يعد فى وسع الفكر الاسلامى ان يتجنب أو يتحاشى التعاليم الجديدة ــ حتى ولو كانت هذه التعاليم موجهة الى الوعي الغربى ــ لتاريخ الديانات وعلم مقارنة الاديان ، وعلم الاجتماع ، والانتروبولوجيا الدينية ، وعلم النفس الاجتماعى ، والتحليل النفسى ، وعلم اللسنيات : وهي مواد علمية ما يزال النفوذ اليها مستعصيا عن طريق أهم اللغات الاسلامية · فالمسألة اذن هي أن نشكل مفهوم كلام الله ضمن الآفاق التى يفتحها العلم المعاصر ، وللمرة الاولى فى تاريخ الديانات ذات الكتب المنزلة ، وذلك بعيدا عن كل **قبلى** لا هوتى ·

3) وهذا الرفض **المقبلى** اللاهوتى قد نقضه الكلاميون أو اللاهوتيون لكونه موقفا يؤدى حتما الى تأويلات تعدل بالدين عن معناه الحقيقى · ولقد كان ممكنا لهذا المأخذ أن يقدم على أساس لو أن هناك **لاهوتا واحدا** لكل الديانات · لكننا نعلم أن هناك لاهوتات مختلفة ضمن أية ديانة بعينها · وعلى ذلك تكون المذاهب اللاهوتية مثل الافكار الفعالة الاولية لكل رسالة دينية جزءا مما يسميه « ١· توراين » **نظام العمل التاريخى** S.A.H. لكل مجتمع·وهكذا تكون علوم اللاهوت علوما نسبية مرتين : المرة الاولى بفعل علوم اللاهوت التى يكشف عنها التاريخ المقارن للاديان،والمرة الثانية بفعل تاريخية كل نظام يرتبط تكونه بظروف تاريخية معينة · فيما يخص الاسلام ، تكفى أعمال مثل « هـ· لاووست » و « هـ· كوربان » للاقتناع بضرورة تدشين تفكير لاهوتى فى الاسلام يرتكز على أسس جديدة كل الجدة (18) ·

4) ومن المناهج أو السبل الخليقة حاليا بالمساعدة على التقدم فى هذا البحث المتفتح عن المعنى ، المنهج الذى تمنحه اللسنيات ونظرية الرموز والعلامات · أنا أعلم أن ضخامة ما كتب فى هذا الميدان تلحق بالغ الاذى بهاتين المادتين · ويكفى للمرء أن يحيل عليهما ليغدو مشبوها أو ليثير الغضب · ولكن يجب الاحتراس من أن التهافت الحاصل على اللسنيات مرده أيضا الى التطلع المسيحى الى علم يهتم بالمسألة المركزية لبحثنا بأكمله · **فعلى نحو أية آليات يبنى المعنى ، ويتكون وينحل ، يحتجب وينكشف** · انما تاريخيتنا نسيج من العلامات والرموز التى نصوغ فيها رغباتنا ، وهلوساتنا ، وطوباوياتنا ، ومعانينا، ونجاحاتنا، واخفاقاتنا ومقاوماتنا للموت ··· الخ · واللغة الدينية هي التىكان لها فىكل مكان امتياز اعطاء التعبيرات النموذجية الاولىعنالاحوال المحدودة للوضعية البشرية · واذا كان التاريخ اذن هو موضع تجابه طوباوياتنا ·

فان اللغة هي أداة التوصيل والمحافظة على آثار كينونتنا العميقة التى تسعى دائما الى التحقق الكامل · وبهذا المعنى يكون اللجوء الى اللسانيات ونظرية الرموز والعلاقات ضروريا لجعل العلاقات بين الدين والتاريخية علاقات مدركة مفهومة ·

5) لا يمكن للدين كمصدر ومحل تجربة ميتافيزيقية أن يكون موضوعا لتفسير انحرافى فى خطوط البحث التى ذكرناها آنفا · فمن خلال النواة الميتافيزيقية للكلام القرآنى وللاسلام التاريخى انما نجد ـ على العكس ـ مسألة الكائن والتاريخية على نحو ما يواجههما أكبر المفكرين المعاصرين أي مخلصة من الحبكات الاسطورية ، والخرافية ، والتقديسية ، والتصنيفات والتعريفات التعسفية للوعي الخاطىء ، والتعاقبيات الخاطئة للعقلانية المثالية ، والفيلولوجية والتاريخانية ، راجع المقابلات المشهورة كالفاعل والشيء والموضوعية والذاتية والمحاثية والتعالى والجسم والروح والنظرية والعمل ··· الخ) · وهكذا لن تقود مناهج التقديم التى ننادى بها لا الى منازعات لا مبرر لها ، ولا الى شاهدات اعتراف متعجلة ، انما هي وقفات أو لحظات تزهدية نقفها للانتباه على ما هو مغلوط من يقينيات الانسان التقليدى ، ولاثبات أن **الحقيقة انما هي ظاهر ما هو كائن** : ان تتابع هذه التجليات وطرائقها المتنوعة لمن الامور التى تسمح بالتحدث عن تاريخيتها لا عن حدودها · اذن فالمعرفة التاريخية توقظ الحنين الى الكائن ، والرغبة فى الخلود ، والتطلع الى استكمال المعنى ، وباختصار لكل ما يتجاوز التاريخيّة بالضبط ·

معالم للبحث فى الاسلام والتاريخية

وغنى عن البيان أننا لن نستطيع الاحاطة بكل المناهج والمشكلات المذكورة · وحسبنا أن نضع بعض العلامات على طريق استقصاء سيتطلب كثيرا من الوقت والجهود · وسنتعرض بايجاز للنقاط الآتية :

2 ـ 1) الوضع الراهن للمسألة :

ـ أ) فى الفكر الاسلامى

ـ ب) فى الادب الاسلامولوجى ·

2 ـ 2) القرآن والتاريخية :

ـ أ) مفهوم الدوغماتية

ـ ب) الفكر الميثى والتاريخ

ـ ج) فلسفـــة اللغـــة ٠

2 ـ 3) الحقيقــة والتــاريخ فى الاســلام :

ـ أ) الحقيقــة والتــاريخ فى القــرآن

ـ ب) الحقيقــة والتــاريخ فى الاســلام الكــلاسيكى

ـ ج) الحقيقــة والتاريخية فى الاســلام الحــديث ٠

الخــلاصة : التــاريخية والتقــدم والامـــل ٠

2 ـ 1) الوضـــع الراهـــن للمســألة :

أ) من العسير ، فى الوضع الحالى للدراسات الاسلامية ، ان نعرف النوع مــن التاريخية المتصل بالفكر الكلاسيكى ٠ وقصارى ما نملك هو القول مؤقتا بأن مفهــوم التاريخية للوضعية البشرية قد عالجه الادب الكلامى والفلسفى قد طرق ضمن الآفاق التى فتحها القرآن اذ يقابل بين السماء والارض ، الحياة الابدية والحياة العاجلة ، ازلية الله وفناء الاشياء والمخلوقات ، الروح والجسد المطلق والجائز ٠٠٠ الخ ٠

ويترتب على ذلك معالجة نمطية لتاريخ البشر ، لكن عمل المؤرخين جرى استغلاله للاسف ، من الوجهة الوثائقية ٠ فالاعمال الجبارة كالتى تركها الطبرى لم تكن ، لحد الآن ، موضوع تحليلات مرضية ، من حيث بنيتها الداخلية ، والمسلمات الايديولوجية التى تحكم فيها الشكل والمضمون ٠ وما قدمه عبد العزيز الدورى ، و « هـ٠ أجيب » و «ف٠ روزنتال» و «سوقاجى كاهان» (19) من عروض عن تطور الانتاج التاريخى مفيد ، الا أنه غير كاف من الوجهة التى تشغل بالنا ٠

ومن المؤكد أن تقدما قد حصل فى التاريخية بوصفها مطلبا نقديا لاثبات الوقائع الوضعية ٠ وقد بينا عظمة ما أسهم به مسكوية فى هذا الصدد (20) ٠ وذهب ابن خلدون الى أبعد من ذلك فى تحديد وابانة تاريخ وضعى ٠ بيد أن مؤلف **تجارب الامم** قد نظر الى التاريخ من « الحكمة الخالدة » على حين ظل صاحب **المقدمة** سجين المخطط الكلامى السنى ٠ ومن ناحية أخرى ، فمن اللائق ، لكي نقيم مفهوم التاريخية الحالى فى الفكر الكلاسيكى ، أن نأخذ بعين الاعتبار اخفاق هجمات العقلانية النقدية التى ساقها بعض المفكرين المعزولين المنسيين عند المسلمين ٠ لذلك لن نتوصل الى تحــديد مــا نسميه **بالاستيمية** الاسلامين الاصولية الا عن طريق سوسيولوجية فشل هؤلاء ٠

ب) لقد فعل التبحر الاستشراقى الكثير ، ابتداء من القرن التاسع عشر ، لانعاش وتدعيم النزاعات النقدية ، التى سبق أن تجلت فى كتابة التاريخ التقليدية • بيد أننا نعلم أن جل « المستشرقين » الذين نشأوا فكريا فى الجــو الوضعى والذاتى العــرقى للقــرنــين 19 و 20 قــد وقعـــوا تحــت تأثــير الفيلولوجيــا والتــاريخانية ، دون الاهتمام بالتفكير فى التاريخية الخاصة بمصير الاسلام • ان تمييزنا بين التاريخانية والتاريخية ليأخذ هنا قيمة حجة موضعية ، فهي ، فى حالة ، عبارة عن مادة تقنيـــة تقتصر على اثبات الوقائع وتنضيدها فى زمنية خطية ، تتجلى فيها المصادر المنابع والتأثيرات ، ومختلف ضروب الحوادث ، وفى حالة أخرى ، يتساءل الفكر المنبثق فى التاريخ الماضى والحاضر للجماعة ، عن مدلول القوى التى تثقل كاهله ، وعن وسائل مراقبتها • فالتفكير بالتاريخية معناه القيام من جديد بابراز مــا تحموه التاريخانية أو تستعبده بازدراء من النخوات الجماعية ، والمكنات المحلول بها ، والمطامح غيــر المشبعة ، والمبــادرات المجهضــة والاساطــير الحــاشدة للطاقــات ، والهيجانات ، « الالفانية » (السلفية) ، وقوى الوهم ، وباختصار ، كل القوى التى حركت التاريخ الكبير والتى تجاهلتها العقلانية الوضعية بصورة فعلية على الرغم من الفاصل الزمنى المشبـــوب العاطفـــة •

لطالما خضع عمل المؤرخين «المستشرقين» لاسلوب التاريخ الراوى المكتفى بسرد الحوادث حسب اسلوب المؤرخين القدماء • وهو ما بــرر احتجاج «ك• كاهن» فى عام 1955 (21) • لكن التاريخ الاقتصادى والاجتماعى الذى أبانته الاعمال الاخيرة ببراعة ، ما زال غير كاف لتهدئة ما يراود المسلمين من شعور بعدم الملاءمة ازاء ما يتكلم به الغربيون عن الاسلام • ان مقالة الغربيين هذه المحدودة فى الماضى بالمسألية الوضعية • تتعمد أن تحظر على نفسها ، منذ تصفية الاستعمار ، تجاوز حدود وصف « الوقائع » • وبعبارة أخرى ، فهي تحكم على نفسها بعمى « ايبستيمى » فى الوقت الذى تسعى فيه كل العلوم الانسانية الى مصانعة الملاءمة الوصفية والملاءمة التفسيرية •

بيد أنا لا نختم هذه الملاحظات دون التنويه بشجاعة الفقيد « ج• فون غرونيبوم » وبسخائه الفكرى ، فهو من اندر الاسلامولوجيين الذين ذهبــوا الى أبعــد الحدود فى تحليل مشكلتنا دونما أي تخل عما يؤمن بــه ، أو مجاملة موهومة حيــال « الاصدقاء المسلمين أو العرب » ولقد كانت لنا فرصة نقد نزعته الثقافية تماما كما فعل أخــيرا « ع• العروى » (22) على أننا نعتقد أن على القارىء المسلم ، الحريص على تحــديد

علاقته بالتاريخ ، ان يتبنى منهــج المقارنة المستعمل بمهــارة فيما كتبه هذا العــلامة ذو الـنزعة الانسية ٠

2 ــ 2) القــرآن والتاريخية :

قد تكون أبحاث « المستشرقين » فى القرآن كافية فى حد ذاتها لتبرير التقيـــيم النقدى الذى سردناه ، ونحن لا نقلل من أهمية مجهود التوضيح التاريخى الذى بسطته وطورتــه المــدرسة الفيلولوجية الالمانية والذى استغــل نتائجــه الكبــرى بالفرنسية « ر٠ بلاشير » ويرجع الرفض الاسلامى هنا الى كون الآثار المذوبة للنقد التاريخى لم تعوض بتفكير كلامى من نفس المستوى الثقافى ، ان الفكر الاصلاحى المركز علـــى الجوانب « البراغماتية » للشريعة والاخلاق والسياسة ، كان ولا يزال ، أجنبيا عــن المقتضيات الكلامية (اللاهوتية) والايبستيمولوجية للمنهج التاريخى ٠ وعلى العموم تنهك المجتمعات الاسلامية نفسها فى اعادة انتاج التقدم الاجتماعى والاقتصادى الذى لا يقتنى أساسه الثقافى ولا حوافزه الذهنية الا بعد لاي وبصورة مجزأة ناقصة ٠ ففى كل مكان تفرض حلول عشوائية لا ترتكز على أي نظرة شاملة مما يمكن أن نصفه حقا وشرعا بنظرة « اسلامية » على غرار الحضارة الكلاسيكية التى بعثتها وحركتها وغذتها النظرة القرآنية الواسعة الى العالم والتاريخ ٠ وهكذا نلاحظ تفاوتا متزايدا بين النسق الادراكى الذى يصحب فى الغرب ــ الحضارة اللاحقة للعهد الصناعى ، وبين النسق الادراكى المتسم فى الاسلام ــ بمرحلة التحرير ، واستعادة الشخصية ، والتنمية ٠

اننا ندرك لماذا يشكل القرآن التاريخية بالنسبة الى الفكر الاسلامى فى نقطة انطلاق الزامية من منهجى العلموية ٠ ويبدو فى الواقع انه لا مكان فى المستقبل لخيار وهمى بين حقيقة موحى بها وحقيقة يحصل عليها بطريق جهد تاريخى للمعقولية ٠ ولا ريب ان انســان اليوم مــا يــزال يتــأثر بنداءات الالفيانيين لكــن الاقتنــاع القــائم على برهان تجريبى يميل الى الحلول ــ فى ميدان التطبيق العلمى على الاقل ــ محـــل المشاركات الوجدانية فى الاعتقادات التقليدية ٠

وهكذا فان تصور التاريخية من خلال الواقع القرآنى ، وجملة الاوضاع التاريخية ، والمواقف الفكرية التى تطبع الاسلام ، يكتسى أهمية تدشينية ٠ وليس المقصود فى الواقع هو أن نتشنج ، مثل التاريخانيين ، من مسالة أصالة النص الذى جمع فى عهد الخليفة عثمان ٠ ومن المؤكد أن فى هذا مظهرا لا يستهان به من مظاهر تاريخية القرآن ولكن قد قيل : أي « حــوار بين الصم » ذلك الذى توالى حتى اليــوم بين التماميين

المسلمين والمستشرقين الفيلولوجيين ! ! ان التقديم المتعدد المواد الذى حددناه ليسمح تماما بتجاوز الجدالات العقيمة وذلك بتوضيح آليات الفكر المستخدمة فى الموقفين ٠

ولا تتسنى المساعدة على تقدم مسألة التاريخية فى القرآن والتاريخية حسب القرآن دون العمل مسبقا على توضيح ثلاثة مفاهيم مفتاحية :

- مفهوم الدوغماطية وعمل الموقف الدوغماطى ٠
- الانتقال من الفكر الميثى الى الفكر التاريخى الوضعى ٠
- فلسفة اللغة ٠

ان كل مفهوم من هذه المفاهيم الثلاثة موضوع لابحاث جارية ٠ وهذا يعنى أن أهم النتائج الحاصلة يجب أن تدمج فى التعليم الممنوح فى اللغات الاسلامية ٠

أ) ففى موضوع الدوغماتية سنحيل على أعمال «ج ب دى كونشى J. P. De Conchy الذى تولى بنفسه فى فرنسا أمر التعريف بدوغماطيات «ميلتون روكاش» (23) ٠ فالتصلب أو التزمت الذهنى المرتبط بالموقف الدوغماتى محدد كما لو كان « العجز عن تغيير منطوق الحكم حينما تتطلب الشروط الموضوعية » هذا التغير ، والعجز عن اعادة بناء مجال ما ، يتوفر على عدة حلول لمشكل واحد ، قصد ايجاد حل لهذا المشكل بمزيد من الفعالية (24) ٠ فالدوغماتية تنظيم ادراكى مغلق - فى قليل أو كثير - لما لنا من معتقدات فى الواقعى المحسوس فهو منتظم حول مجموعة مركزية من معتقدات مطلقة المدى ٠ وهو يولد سلسلة من نماذج التسامح والتعصب ازاء الغير (25) ٠

ومن اليسير التحقق من صحة هذه التعريفات بالاستعانة بالنصوص الكلامية الكلاسيكية ، أو بالتفنيدات الاسلامية « للاستشراق » ففيما يتعلق بالقرآن مثلا ، يسر المسلمون أسباب الظفر اذ طلبوا « براهين تاريخية » من هؤلاء العلماء المزعومين الذين هزموا فى ميدانهم بالذات وجردوا من سلاحهم العلمى ٠ وبذلك يكون الفكر الدوغمتاى قد حول لفائدته وضعية كانت مع ذلك غير قابلة للدفاع عنها ، وما يرفض اعتباره المسلم السلفى هو أن جميع الوثائق التى من شأنها أن تستخدم فى أي تاريخ نقدى للنص القرآنى قد اتلف بدافع من حمية سياسية دينية ٠ فبدلا من الاهتمام بتحديد أسباب وعواقب هذا التحامل من السلطات لفرض صيغة رسمية للقرآن أصبغ الفكر الدوغماتى نوعا من صفاء الذهن وطاعة مثلى لله على مسلك هؤلاء الذين كفوا المؤمنين

شر صيانة هذه الوثائق (26) · وهذا بالضبط ما وصفه « م· روكاش » باستراتيجية الـــرفـض ·

ب) ان الانتقال من الفكر الميثى الى الفكر الوضعى لم يتحقق أبدا على الوجـــه الاكمل فى أي حضارة من الحضارات ، على أنه يبدو أن اليونان القديمة هي البــلد الذى انتصر فيه العقل لاول مرة فى تأكيد قوته التكوينية والاستقصائية أمام الميث · وكان أرسطو يرى ، فى ذلك العهد ، أن « الذين ينهجون منهج الفكر الخرافى الاسطورى (ويعنى بهم معاصرى هيزيود وكل اللاهوتيين) غير جديرين بأي اهتمام جدى (27) ·

ولن نعرض هنا لذلك التنافس الطويل بين الميثى ، والعقلانى ، وانما نلاحظ فقط ان اعادة الاعتبار الى الفكر الميثى فى الغرب يقترن بالنجاح المفرط الذى حققه العقل التقنى والتركز الذاتى العقلى ، الوضعى ، وهكذا تكون لعصرنا ميزة الاعتراف للمرة الاولى الميث بالاسطورة على أنه ميث ، وادماجه بكل قيمه الايجابية فى معرفة جمعية · وهذه الحالة الادراكية تسمح باطلاعنا على سير الفكر الدينى دون معارضته بالانكارات التعسفية الصادرة من العقل « المركز على الذات » وبهذا المعنى بينا على وجه المثال لماذا لا يؤثر الخطاب القرآنى الا فى وعي منغمس فى العجيب الباهر (28) ·

وندرك بالمقابل ، لماذا لا يستطيع الفكر الميثى المشدود الى يقينياته أن يقطع نحو الفكر الوضعى نفس الطريق الذى قطعه هذا الاخير ليعترف له بحكم خاص به · ذلك أن الفكــر الوضعى فكر منسوب الــى التاريخ ، فهــو يتصور التغيــر والانقطاعية ، والاستمرارية على حد سواء ، كما يتصور البنية ، أما الفـــكر الاسطورى بشطريه التحليلى والتركيبى العائد الى تاريخ مضى ولكنه ما يزال حيا ، ونحو التكون الملغى ، لكنه مائل أبدا مع علل وجود النظام الحالى للكون · فانه لا يمكن أن يتجلى الا كفكر **لا زمنى** يرجع الى أصل الاشياء ، ويكشف عن الاساس الاصلى والمشارك للحاضر ·· وهو يتضمن كل سمات ما يمكن أن تكون عليه طرائق التمثلات الدينية والفلسفية (29) ·

ج) ان فلسفة اللغة تختلف بطبيعة الامر باختلاف الفكر المستخدم · وما ســـاد من هذه الفلسفة فى الاسلام هو أن اللغة علمنا الله اياها ، وذلك مصداقا (للآية 31 من السورة 2) : « وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبؤنى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين » · وينتج عن ذلك أن الكلمات تحيل مباشرة الى الاشياء ، أو المسميات ، وان لكل منطوق **معنى** كما سيلقن ذلك فقه اللغة فى القرن التاسع عشر ، وان اللغة تشكل نسقا ملائما للمعرفة الحقة · وعلى ذلك يكون الفكر **نتاجا للغـــة**

بالمعنى الدقيق للكلمة ، ولن يكون له مجال عمل ما خارج الموازين الصرفية ، والدلالات المعجمية الخاصة باللغة . وفى هذا المنظور تأخذ لغة القرآن التى اختارها الله ليعلم بها الاسماء والاحكام قيمة نظام صرفى ومجال دلالى نموذجيين . ولـن يكون فى وسع الفكر أن يخوض بحرية لا فى منطق اكتشاف ، ولا فى تقنية بلاغية موجهة نحو الاقناع والبرهنة فى موضوع واقع متغير ، ولا فى **دلالة ممنوحة لمعطيات التاريخية** ، وانما يجب أن يكون له مقصد أخيرا يتمثل فى **فهم** المعنى الاصلى المودع فى الكلمة الموحى بها ، حتى تخضع التاريخية الى الضوابط المقدسة ، التى كشف عنها اللـــه (وحتى يراقب انتاج الانسان للمجتمع كما قد يقول عالم الاجتماع) .

وفلسفة اللغة هذه ؛ قد طورها وطبقها بأقصى الصرامة تيار الفكر الظاهرى الذى كان ابن حزم من أبرز ممثليه . ولكنه ـ عموما ـ يقوم فى أساس علم أصول الدين وأصول الفقه الذى يدعى تثبيت كل صفة اخلاقية شرعية ، وبالتالى تاريخ الناس كله فى علم دلالة فائق . وهذا الذى يفسر كون الوعي الاسلامى يشعر بانه مصاب فى مستوى تكوينى لهذا التماسك الذى يفقد الاسلام بدونه قابليته التصديقية ، حينمـــا يقرر مؤرخ **الفقه** « بأن عهد مؤسسى المذاهب الفقهية المزعومين لا ينبغى أن يعتبر بمثابة بداية تطور بل نهاية له » .

ان المشكلة ـ شأنها فى ذلك شأن أصالة النص القرآنى ـ تتجاوز مجرد تطبيق منهجية لتقرير « وقائع » لا يمكن انكارها ، فهذه « الوقائع العزيزة على المؤرخ لا تأخذ بعدها التاريخى **الحقيقى** كلـه الا اذا أدمجت فى نسيـج الوعي الاسلامى الجماعى العميـــق .

لكن الخطوط الرئيسية لهذا النسيج انما تمثل حقائق أغفلها المؤرخ حتى الآن . فكل ما ذكرناه باختصار شديد عن الموقف الدوغماطى والفكر الاسطورى وفلسفـــة التاريخ لم يدرس الا دراسات شاذة جاهلة للمفاهيم الابيستيمية الرئيسية القصيرة والمتوسطة والطويلة ، مثل المدة والزمن الثابت غيـر المتحرك . أو السريع الحركة ، والعراقيل الابيستيمولوجية والانقطاع والانفصال التاريخيين ... الخ (31) . وقد وقف مؤرخو الاسلام عند حد الدراسات الآحادية الوصفية للتاريخ المتصدع . انها مرحلة لا مفر منها ، لكن ما دامت هذه المرحلة مستمرة فاننا نؤكد بأن المجابهة بين الاسلام والتاريخية والتقدم لن تكفل بالشكل الملائم على صعيد الفكر التاملى . وبالتالى فان التاريخية لن تكون تصورا قابلا للتداول عن طريق ايديولوجيات انتهازية كما يحصل اليـوم فى

الغالب بواسطة الرواج المزيف الذى يكتسب بوسائل الاعلام الجماهيرية · أنها الوضعية الانسانية المعاشة بوضوح وتضامن ، ذلك الوضوح والتضامن اللذان يستتبعان اتصالا تحرريا بكل ماضينا ، وبالتالى انتقالا من كتابة تاريخ ايديولوجى الى تاريخ انتقادى ·

ان بحثنا ــ كما نرى ــ يتأرجح دائما بين حالة الاسلام الخاصة ، والمقصد الابيتيستيمولوجى ، وهذا راجع الى ما قررناه من اعادة تنقيح المواطن من الفكر الاسلامى مع كتابة تاريخ تحليلى · وسنمضى فى طريقنا هذا بمواجهة مشكل الحقيقة والتاريخية فى الاسلام مواجهة مباشرة ·

2 ــ 3) الحقيقة والتاريخية فى الاسلام :

ربما استخلصنا من العرض السابق انطباعا بأن الفكر الوضعى يمثل مجالا من المعرفة أكثر تطورا وافادة من مجال الفكر الاسطورى · وهذا من شأنه أن يجر الى نتيجة لا يقبلها الفكر الاسلامى ولا الفكر الدينى على العموم · لكن ما نرمى اليه هو فرض تقابل بين نمطين من المعقولية مختلفين لكن متكاملين ·

وفى هذا المنظور ، تتجلى تاريخية القرآن ، كما لو كانت انتصارا لوعي ممكن (32) على ضروب أخرى من الوعي كانت تتوفر لها فرص الغلبة · ان المعارضة التى لقيها الرسول فى مكة والمعارك التى خاضها من المدينة لتمثل ، من الوجهة التاريخية والسوسيولوجية ، نفس الفرص لتطورات تاريخية مختلفة · وعلى ذلك يكون تصور الوعي الممكن تصورا جوهريا لاضفاء النسبية على الوعي التاريخى المنجز الذى يحول بعد لاي تاريخية ممكنة الى تاريخية ضرورية ــ ومتجاورة للتاريخ · ان تاريخ المؤرخين ــ وبخاصة اذا كان رسميا ــ ليهمل بالتحديد امكانيات غير متحققة · وهو بذلك ، يساهم فى تحويل تعاقب ممكن من الحوادث الى ضرورة مؤصلة ، والى حقيقة مبررة وهذا ما يجعل منه تاريخا بامكانه أن يضلل تحليل مفهومى الحقيقة والتاريخية ·

ومما لا جدال فيه أن تعاقب الحوادث هو الذى يكون على الدوام ذاكرة جماعية ، ويتمخض عن تقاليد حية ، تستمد منها كل مجموعة عناصر هويتها ، ووسائل حقيقتها · وبهذا المعنى ، فان التاريخية قدر مشترك لا يتجزأ من الامكان والحقيقة المجربة فى التاريخ من قبل وعي جماعى · وما أصبح السؤال عن أصالة القرآن بوصفه وثيقة مؤرخة بزمان سؤالا ثانويا الا كونه حقيقة يعيشها الوعي الفردى والجماعى على كافة مستويات الحياة البشرية (الاسطورية منها والطقوسية ، والدستورية ،

والاخلاقية ، والجمالية ، واللغوية ، والخيالية ، والعقلانية) • بيد أن هذا السؤال قد يكتسى أهمية نظرية كبيرة اذا ما كف عن أن يكون معاشا • كما يفزع الى أن يكون عليه الحال تحت ضغط العصرانية المتزايد ، والتاريخ هو الذى يكتشف هنا كما لو كان سيدا للحقيقة : فهو يحتم فى الواقع الا نبرح نتساءل ونعيد التساؤل عن تاريخية اشد يقينياتنا ثباتا ورسوخا •

وحتى نبقى ضمن الخط الذى يرسمه الفكر الاسلامى ، يجب أن يكون الجواب عن هذا التساؤل الدائم فى أزمنة ثلاثة : اذ ينبغى أن نفحص العلاقات القائمة بين :

- الحقيقة والتاريخ حسب القرآن •
- الحقيقة والتاريخ فى الاسلام الكلاسيكى •
- الحقيقة والتاريخ فى الاسلام الحديث •

ولنتفادى كل مفارقة تاريخية ، فاننا لن نورد مفهوم التاريخية الا وهو مصحوب بظهور العصرانية • وهذا لا يعنى أن التاريخية بوصفها توترا معاشا بين الحقيقة والتاريخ مفقودة فى القرآن والاسلام الكلاسيكى ، بل ومن الواجب ابراز هذا التوتر بأحسن مما فعله ، حتى الآن ، تاريخ للافكار ، وتاريخ عام معمولا بهما كلا على حدة •

2 ـ 3 أ) الحقيقة والتاريخ حسب القرآن :

اننا لن نكرر هنا ما سبق أن قلناه بصدد هذا الموضوع فى بحوث أخرى • غير اننا سنلح على نقطة منهجية • فليس يكفى أن نبين كيف يلقن القرآن الحقيقة من طريق ما يقصه علينا من قصص قديمة تروى المبادرات الالهية حيال الانبياء والامم • ولو اننا فعلنا ذلك ، لوقفنا عند حد الوصف الايمانى (النقلى) الخارجى عن التوترات الاجتماعية والثقافية المسايرة للخطاب القرآنى ، وعن التوترات الناشئة ، بعد ذلك ، عن تلاوات هذا الخطاب • كما لا يسعنا أن نكتفى أيضا بالحديث عن تاريخ دنيوى يندرج بصورة متقطعة ضمن المدار المستقيم لتاريخ النجاة بداية من أول الخلق حتى يوم القيامة • بل ويتعين ، فى الواقع ، أن نعمل ، فى الموضوع الذى يهمنا ، على ابراز الصعوبات الملازمة لكل علم كلام (أو فلسفة) للتاريخ بمجرد ما نقرر أخذ التاريخية ـ كما حددناها ـ بعين الاعتبار • وخارج هذا المقصد الابيستيمولوجى النقدى الذى ينطبق ، بحد سواء ، على القرآن والتوراة والانجيل ، سيكون من الميسور

لنا الاستمرار اما فى تدبر التعاليم السامية للحكمة الالهية ، واما فى الحكم على اللاهوت القرآنى للتاريخ باستعمال مسلمات ضمنية للاهوت آخر (33) .

ولنثبت هذه الافكار جيدا ، علينا أن ننظر مثلا الى الآية الآتية : « وكيلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك فى هذه الحق ، وموعظة وذكرى للمؤمنين » (هود 121) .

هناك مفهومات ثلاثة تسمح بتبيان : كيف تحيل هذه الآية الى استعمال ميثى للتاريخ ، واستعمال تاريخى للميث .

« القصص الخاص بالرسل والانبياء » :

ان القصة هي أسلوب التعبير النمطى للفكر الميثى . فهي تستعمل عناصر رواية شفوية يشترك فيها أفراد مجموعة ما ، لكن القصص الخاصة بالانبياء والرسل انما يحيل كذلك على رواية مكتوبة ومعروفة جد المعرفة : التوراة . ان آثار هذا القصص على وعي المستمعين للقرآن سيختلف اذن بين أن يتلقوه وهم فى حالة استعداد ميثى ودوغماطى ، أو فى حالة من يستعين بالتاريخية . على أن التحليل التاريخى لا يتمثل فى الكشف عن تأثيرات مصدر أصيل ، ثم فى التنديد بالاخطاء ، وبالتحريفات ، وبحالات من الحذف أو الزيادة فى الصيغة القرآنية . وهنا ــ كما نعلم ــ كان الاهتمام الاكبر للنقد الفيلولوجى . بل يجب تبيان ما اذا كان الاخراج الادبى للقصص القرآنى ــ نظرا لمعطيات التاريخ الحقيقى ــ يتوصل (1) الى تبليغ حقيقة **وجودية** ، أو لمحة عن الكائن ، أو أنه (2) يقتصر فقط على المجادلة والرد على المعارضين (الجاحدين من العرب واليهود والمسيحيين) .

ــ « نثبت فؤادك » :

هذا التثبيت فى السياق القرآنى يعنى تقوية حالة استعداد وجدانى الى تلقى الصور المثالية ، والتمثلات ، والتعريفات ، والاوامر والنواهى الآتية من عند الله . فالقلب هو المركز الحيوى للمؤمن الذى خلقه الله على مثال صورته .

هذا التثبيت للقلب يدعى ــ فى المصطلح النفسى اللغوى ــ نظام الذات أي سلم الادراك ، وفك الرموز ، وصياغة الواقع فى رموز . وهذا السلم هو سلم الخطاب القرآنى الذى يستبطنه « قلب » المؤمن شكلا ومضمونا . وعليه لا يكون الاستسلام الى الله عملا روحيا خالصا ، وانما يتمخض عن دخول فى عالم رمزى (فى طقوس ، فى

لغة ، فى اطار من الفكر والسلوك) ذلك العالم الذى ـ بحكم امكانه وتمسك المؤمن الشديد به ـ يجعل كل تقديم معرفى (ادراكى) تقديما ذاتيا (راجع أعلاه الموقف الدوغماطى والفلسفى للغة) ٠

« الحق » :

هذا التصور الاساسى للقرآن قد فسر تفسيرا يشترك فيه معنى «الحقيقي ـ الحق» أي الاله كما يكشف عن ذاته فى كلامه ، فهو الذى يتجلى اذن فى القصص بما يمارسه من تأثير فى الاشخاص وفى مجرى الحوادث ٠ وعلى ذلك يكون التاريخ الذى يقصه الله موطن ظهور جذور **لوجود الكائن البشرى بوصفه كائنا بشريا** أو نماذج للسلوك البشرى ٠ وهو صالح لبعث الحركة الروحية عن طريق الاسطورة فى التاريخ العادى للبشر ٠

بيد أن المستمعين معارضى هذا القصص يرون أن هذا المفهوم نفسه للحقيقة له مدى جدلى قبل كل شيء ، لانه يلزم بتحوير بنية الوعي الدينى العربى السابق لنزول القرآن ، وبتغيير بنية « اقتصاد النجاة » فى نظر التوراة والانجيل ٠ ولا يبرح الاعتراض المستوى الاسطورى لتاريخ النجاة (مع أن مناقشات تاريخانية قد دارت حول موضوعتحريف النصوص) ، لكن ضروب الوعي الميثى المتزاحمة تندرج فى نظر المؤرخ العصرى ـ ضمن تاريخيات محددة كل التحديد ، وعلى ذلك ، فليس من الممكن الفصل فصلا جذريا ـ على ما جرى عليه عرف الفكر المثالى ـ بين الحقيقة والتاريخ فما أن تتشكل حقيقة ما فى لغة من اللغات حتى تدخل من التاريخيات ٠ وقد يقول العالم اللغوى : ان الحقيقة هي جملة مفاهيم مشتركة بين أفراد جماعة من الجماعات ٠

« موعظة وذكرى » :

هذان التصوران يقتضيان وجود زمن متجانس وساكن ، قد يكون هو زمن القيمة الابدية ٠ فالقصة تعود ميل القلب الى معان **ماضية** لكنها ما تزال **راهنة** بالنسبة الى حاضر الانسان ومستقبله ، ذلك الحاضر والمستقبل الارضيان فى حد ذاتهما ، والموجهان نحو مستقبل أخروى ٠ فنحن اذن فى صميم مقولات الفكر الاسطورى : اذ النماذج الوجودية مركزة فى ماض فضلته المبادرات الالهية ٠ وعلى ذلك ، فان تذكر مثل هذا الماضى يكتسى مدى وجوديا ، ومدى « تاريخيا » فى المقام الثانى ٠ والواقع

أن المثاليات لا تـأخذ تماسكها وقوتها الا اذا عرضت في سياق ترتيب مـا لتطورات القصة الطارئة · لكن التطورات الطارئة للقصة ـ مهما كان الترتيب المختار لها ـ تعود بنا الى التاريخية أي الى زمن متحرك ، يحمل فى طياته فكرة قد تتضح وقـد لا تتضح لماض بائد من حيث التسلسل التاريخى · ففى القصص القرآنى ، اذن ، ينزع وعي تاريخى شروعى (استهلالى) الى الانبثاق ضمن الوعي الاسطورى السائد ، ويبين الادب التفسيرى بأن هذا الانبثاق كان محدودا دائما ·

« المــؤمنــون » :

لهذا التصور قيمتان تبينان كذلك مدى تداخل الاسطورة والتاريخ ، فهو حسـن المقصد القرآنى الاصلى يشير الى الامة ، المجتمع الروحى للمخلوقات البشرية التى أدركها **الحق** · فهو اذن مجتمع لا يعيش عبر التاريخ فقط ، بل حتى فيما وراء التاريخ لان المؤمنين سيبعثون فى حياة أبدية ·

ليس المؤمنون ـ من حيث التاريخ ـ الا مجموعة اجتماعية ـ ثقافية فى طريـق الانبثاق · ويجسد المؤمنون الاوائل فى مكة ما أسميناه بالاسلام الميتافيزيقى · لكن الاسلام وجد دعامة اجتماعية وسياسية بمجرد انتقاله الى المدينة ·

فابتداء من عام 622 تحولت **الامـــة** الى مجتمع تاريخى له دولـة ومؤسسات ، ومسؤوليات ، وأهداف سياسية وعسكرية واقتصادية · و « **الناس الذين يدخلون فى** دين اللـه أفواجا » (النصر2) هـم فى الوقت ذاته مناضلو قضيـة سياسية · فكيف التحدث عن هؤلاء الناس ، عما فكروا فيه ، وما فعلوه ، وما ادلوا به من شهادات ؟ وعند هذه النقطة من الالتقاء بين الميث والتاريخ غالبا ما ينشطر كلام المؤرخ الــى شطرين : أحدهما يتبين لغة التعبير الدينية ليركز على الاسلام الميتافيزيقى ، وعـن باعثه وتاثيريه البارزين · والثانى يستعمل الاصطلاح الوضعى (الذى يأخذ مـدى وضعيا بالضرورة) ليصف وقائع منفصلة عن باعثها الدينى ·

ولنختم قراءة هذه الآية بترك الكلمة « لهيدغر »

« ان ما وصفناه حتى الآن بتاريخية باتباعنا مجمل الوقائع الدينية والاجتماعية المتكونة ضمن القرار الاستباقى ، هو ما نسميه بالتاريخية **الاصيلة** للواقع البشرى · ان ظواهر النقل والتكرار ، وهي ظواهر راسخة فى المستقبل لتبين لنا بوضوح كيف أن مجمل الوقائع الدينية والاجتماعية المكونة للتاريخ الاصيل لها وزنها فى الكائن الذى سبق له الوجود » (34) ·

ان تاريخ الاسلام باء _ الميتافيزيقى ، والتاريخى ، والسوسيولوجى ليبين الى اى حد كان القرآن بالفعل قوة من هذا القبيل اىمتضمنا مجمل وقائع تاريخية ، والى أي حد كان قرارا موجها لمصير ، واستباقيا فى احدى تاريخيات الواقع البشرى . لكننا ، مع « هيدغر » يجب أن نطرح السؤال الآتى : ماذا سيحصل « لــو حــدث ان حولت التاريخية غير الاصيلة الطريق الى التاريخية الحقيقية ، وغيرت المنفذ الــى « الاستمرارية » الخاصة بهــا » ؟ (35) .

2 ـ 3) الحقيقة والتاريخ فى الاسلام الكلاسيكى :

لقد كانت مشكلة تحويل المنفذ الى التاريخية ـ ولا تزال ـ مــن المشاكل الفعلية الكبرى التى تطرح تحت أسماء الارثودوكهية والبدع ، والرجوع الى المنابع الاولى للتاريخية الاصيلة ، والانحراف ... الخ . ان الموقف الاصلاحى الذى يدعو الى احياء الشكل الحقيقى أو الاصيل للتاريخية من وراء كل الابتداعات غير **المطابقة** فى الاسلام قد فرض نفسه فى الاسلام منذ وفاة الرسول .

على أن هناك بين مصطلح المؤرخ الفيلسوف ، ومصطلح العقائديين (اللاهوتيين الدوغماطيين من كل دين وملة بما فيهم الماركسيين) مسافة شاسعة تفصل بين البحث القلق ، والتثبيت المتعاظم لليقينيات التحكمية . وهكذا فقد يكون من الخطر التسرع بمماثلة مفهوم **الطريق المستقيم** الوارد فى القرآن كغيره من الديانات الاخرى بتصورات الارثودوكسية لخط الحزب الوحيد ، أو الارشاد الوطنى اللذين نعرف حظهما اليوم . وأمام ما يكشف عنه المؤرخ من تنوع الارثودوكسيات ووقتيتها ، يتساءل الفيلسوف عما اذا كانت هناك تاريخية أصيلة ، وعما اذا كان لهذه التاريخية منفذ ميسور . وهذا يقود ـ فيما يتعلق بالاسلام ـ الى التساؤل كيف ظهر فى تاريخه الملموس « القرار الاستباقى » (أو نظرة القرآن التاريخية) ؟

ان الاجابة على هذا السؤال تتطلب اعادة قراءة تاريخ الاسلام كله من الاصل . اذ لا ينبغى ، فى الواقع ، أن يقتصر الامر على وصف اضافيات التاريخ السطحــى بيقين دقيق (الخلافات على الملك ، الحركات الاجتماعية ، اصلاح مؤسسات نظــام الحكم ، تغيير أو استمرار الاساليب ... الخ) . بل ينبغى العمل ـ قدر الامكان ـ على حــل طــلاسم معطيات التاريخ العميق (أو الطويل الامد) المتمثلة فى العناصر الاساسية للتصور . وبنيات القرابة ، والبنى الاجتماعية ، والمصادرات على المعنى ، والتلفظ بــه ، وتوصيله ، وعن الحيــاة ، والعالم ، والانسان ، واللغــة ، والآليات

النفسية ـ اللغوية ، والنفسية ـ الاجتماعية التى يتولد عنها الوعي الخاطىء ، وتفرض استمرارية التاريخية الاصيلة ٠

نحن نلاحظ أربعة موضوعات ذات أولوية للبحث فى آفاق هذا التاريخ العميق ، وهي موضوعات قد تسمح بفهم أحسن للتفاعل بين الحقيقة والتاريخ فى الاسلام (I) ٠ اللغة الدينية والتركز الذاتى العقلى : (راجع محمد اركون ، ابحاث نفس المرجع صفحة 185 وما يليها ، قراءة الفاتحة نفس المرجع من أجل لم شتات الوعي الاسلامى وأعمال « ل٠ ماران L. Marini » و « ج٠ لادريار J. Ladrière » (2) ٠ البنيات الانتروبولوجية لموطن الخيال : (راجع أعمال هـ٠ كوربان H. Corbin ، وج٠ ديراند G. Durand ، الدفاتر الدولية للرمزية) ٠

(3) علم النفس التاريخى : تاريخ الوعي الاسلامى ، الوعى واللاوعى ، العقلانى العجيب ، اللاعقلانى ، الطبيعى والفوطبيعى ، الدنيوى والمقدس ، الزمان والمكان ، الشخص ، والحلم الخ ٠٠٠ ، فعلى الرغم مما هو متوفر لدينا من وثائق غنية ، ظل هذا الميدان الذى يكتسى أهمية خاصة ، بالنسبة الى موضوعنا ، غير مستكشف كما ينبغى من حيث الحكم والكيف (راجع أعمال « ت٠ فهد » حول العرافة و « ج٠ شلحود » حول المقدس والحرام ٠

(4) التضامنات الدائمة : القرابة ، العصبيات ، القبائل ، المذاهب ، المراتب الاجتماعية ، الطبقات ، والطوائف ٠ فوزن هذه التضامنات فى مجرى التاريخ والتعبير عن الحقيقة أمر واضح ، لكن من الصعب تقويمه ٠ ولسوء الحظ ، ما تزال وسائل التقديم الاثنولوجية ، والانتروبولوجية التى يتطلبها ميدان هذه الدراسات غير معروفة على الوجه الكافى لدى الباحثين المسلمين ٠ ومع ذلك فان هناك امكانيات واسعة للتوثق او الاطلاع الاثنوغرافى ، اما فى الميدان بالذات ، أو فى الادب ٠

ان تقدم المعرفة فى هذه القطاعات الاربعة من شأنه أن يجر بكل تأكيد الى نهضة جذرية للفكر الاسلامى ٠ وقد تتوافر للعالم الاسلامى الحالى فرص النفاذ الى التاريخية الاصيلة لا بالطريقة « الميثية » الدفاعية أو العقيدية ، بل بوضوح المعرفة الوضعية ٠ وللاسباب التى ذكرناها نتبين فى الواقع أن الاسلام الحديث يتخبط فى متاعب تاريخية لم تتولد عنه ٠

2 ـ 3 ج) الحقيقة والتاريخية فى الاسلام الحديث :

يحتاج مفهوم الاسلام الحديث الى توضيح ٠ والرأي السائد على العموم ؟ هو أن بعض المجتمعات الاسلامية ، اكتشفت العصرانية منذ القرن التاسع عشر ٠ وقد

جرى اعتبار حملة بونابارت على مصر نقطة استدلال على ذلك · « فالنقـرة » التى نقرها بونابارت تكون قد أطلقت رويدا رويدا تطورات بل ونهضة الاسلام · وهكـذا تكونت مرسمة تاريخانية كاملة شارك فيها الدارسون والعقائديون المسلمون وبعض المهتمين بشؤون الاسلام الغربيين ·

ان تصور التاريخية ليحتم اعادة النظر فى التاريخ المكتوب للاســلام الحديث باتباع المسلك **الحقيقى** للعصرانية (1) · لدى وعي أهل الفكر المسلمين (2) · لـدى الوعي الجماعى (3) · لدى البنيات الاجتماعية التقليدية · وهذا يفترض أن نضـع ـ مسبقا ـ تصور العصرانية على النحو الذى فرض به نفسه فى الغرب ابتداء من القـرن التاسـع عشـر ·

وهكذا نرى أن الطريق طويل جدا ، وأنه لا يمكن قطعه هنا ، وانما نقتصر على التذكير بالخطوط البارزة لعرض سبق أن قدمناه فى مكان آخر (36) ·

لقد كان الاسلام الميتافيزيقى ينشد البقـاء فى القرن التاسع عشـر فى شـكل مجاهرات بدائية بالعقيدة الدينية ، وبالمذاهب ، والتقاليد المرتبطة ـ فى قليل أو كثير ـ بالاخلاق وبالشريعة النظريتين ، وبمؤسسات متصلبة للحكم · وقد انتعشت من جديد معتقدات وموضوعات جوهرية لم يقو التعليم الكلامى (اللاهوتى) على محوها تماما فى المجتمعات التى تراجعت فيها السلطة المركزية وسلطة **العلماء** لفائدة سلطـات محلية تقليدية (37) · وبعبارة أخرى فان الاسلام بوصفه دينا ـ كان وما يزال يشكل ـ على درجات تختلف باختلاف الاوساط الاجتماعية ـ أسمنت البنية الكلية ـ لكنه ، من الوجهة التاريخية ، لم يكن يحمل المستقبل كما كان فى عهوده الاولى ببلاد العرب ·

ذلك لان مبادرة العمل التاريخى كانت حكرا على الغرب منذ القرن السادس عشر بل وحتى قبل ذلك لعدة وجوه · فقبل المجتمعات الاسلامية بأمد بعيد ، كانت المجتمعات المسيحية قد جربت تاريخية أكثر دينامية « وقابلية » للادراك تحت تاثير العصرانية الفكرية (مع ديكارت ، ولايبنتز ، وسبينوزا ، وغاليلى ، ونيوتن ، وفلسفة الانوار أو المعارف ··· الخ) · ثم تاثير العصرانية المـادية بتدخل استعمال المكـائن والآلات الصناعية · وامام الحقيقة المستمدة من الوحي والملقنة من قبيل المسيحية ، اثبتت سلطة روحية **لائكية** امكانية العقل البشرى على الاستقلال فى اكتساب الفهم والفاعلية وقد أعقب ذلك صراع ما يزال متواصلا الى يومنا هذا · ان النقاش الذى أدخلته العصرانية فى الاسلام لا يختلف فى جوهره عن النقاش الذى تواجهه المسيحية منذ الاصـــلاح

والنهضة · لكن بينما كانت المناقضة المتبادلة فى الغرب بين الفكر اللاهوتى والفكر العلمى قد تطورت واتسعت كنوتر تربوى لـذات اجتماعية ، ثقـافية واحـدة كانـت الاسلامات السوسيولوجية للقرن التاسع عشر لا تستطيع مواجهة التيارات الجديدة الا بهياكل بالية ــ رغم قدرتها على المقاومة ــ لمجتمعات ضعيفة ، منهكة القوى ·

وقد أجبر الضغط الذى مارسه « البورجوازيون الغزاة » على هذه المجتمعات الوعي الاسلامى على التسليم بوجود قوة تاريخية نشـــأت وترعرعت خارج « دار الاسلام » ولدى شعوب أنكرت خاتمة الرسالات !·· وهنا تمكن العبرة الاكثر اثـارة من (المحنة الامبريالية) اذ ينتقل من اللامبالاة الى التاريخ الارضى الذى لا صلـــة له بالمستقبل الاخروى ، والى الشعور الذى يتضح أكثر فأكثر بتاريخية فعالة قسرية ، وهكذا يمكن التحدث عـن اكتشاف للتاريخية « العصرية » أي المركزة علـى مدلولها بالنسبة الى وضعية الانسان فى هذا العـالم المنفصل عـن منظـور التركيز الذاتى اللاهوتى الذى تتم به التاريخية فى الاسلام الكلاسيكى ·

هذا ما يجعل مفهومى الحقيقة والتاريخ يتغير محتواهما تدريجيا بقدر ما نقترب من مرحلة النضالات من أجل التحرير · ان استعمال ايديولوجية الاسلام التـاريخى ليحل محل « الانا الالهى والانا البشرى » (39) الذى كان يشكل اطار حياة وفكـــر المؤمنين قبل ظهور العصرانية · ومن الخطأ تفسير هذه الاستعاضة كما لو كانت احلال عهد وضعى يفهم منه الفكر التاريخية الوضعية ويحل لها محل « **عهد لاهوتى** » يتأمل فيه الفكر جواهر ميتافيزيقية وانما ينبغى الالحاح بقوة على ضرورة اعادة الاعتبار والاقرار بأهلية الفكر الاسلامى الكلاسيكى ــ تماما كما فعل « ·أ حيلسون » بالنسبة الى العصر الوسيط الغربى ، وذلك حتى تتضح لنـا جيدا الاوهـام ، والتنافرات ، والتعميمات المبالغ فيها ، والقرارات المرغمة للاهوتيات العصرية ·

وبعد أن كانت الخطوة الاولى تندرج فى السياق السياسى والاقتصادى ، تتمثل الخطوة الحاسمة الثانية من خطوات وعي الاسلام الحالى فى الاستشعار بثقل كـــل تاريخية فى طـرح الاسئلة الصحيحة عـن الوظـائف الحقيقـة للأديـان بالامـس ، والايديولوجيات اليوم ضمن تلاحق المصائر الجماعية ·

يجب الاعتراف ، فى الواقع ، بأن تاريخية الوجود البشرى قد أفلتت وما تـزال تفلت ــ بقدر واسع ــ لرقابة الفكر التاملى ، فهي لم تزل تتحكم فيها مجموعة قـــوى محتمة عميقة (حقائق بيولوجية نفسية ، سوسيولوجية ، بيئوية ، كونية) تسعـى

المعرفة الوضعية الى تحديدها ، والتحكم فيها ، ان التقدم الحقيقى هو ذلك المجهود الدائب والبطىء ، المخيب للامــل فى غالب الاحيان ، والمشجع أو المحمس احيــانا ، الذى يواصله الفكر من أجل تقليص حدود المجهول ، وما هو غير معقول ، وبالتالى ما هو غير متوقع ، وما لا يخضع للمراقبة · ومن هذه الوجهة ، يكون من الظـــلم السخرية من التقدم والركون الى خيبة للامل ـ من طراز ايديولوجى ـ كما هو شائع فى الغرب · وصحيح أن تقدم العلم قد حول خدمة مصالح طبقية ، وتكتلات اقتصادية ، «ونخب حاكمة» · وهو عرضة لان يتلاعب به تقنوقراطيون أجانب عن كل فكرة تاريخية أصلية (وعلى الرغم مــن أنهم يتحدثون عن « قيــم وطنيــة أصيلــة » حسب مصطلح الايديولوجيــات الرسميــة) ·

وليست المجتمعات الاسلامية المعاصرة بمنجاة عــن هذا التحويل الايديولوجى والاقتصادى للعلم · بل ان المشكلة مطروحة بصورة أكثر حدة بالنسبة الى تلك التى بلغت الى درجة من القوة النقدية لم يسبق لها نظير من تلك المجتمعات الاسلامية · ان كل خاصيات العصرانية المادية أصبحت بحيث يمكن اقتناؤها بسرعة · لكن من ذا الذى سيتساءل عن التطورات الممكنة مع انعدام أطر ثقافية وجهاز فكرى ممنوحين لنمــط التاريخية التى تقتضيها عصرانية مادية **مستوردة** ؟ ولا يهدف هذا التساؤل الى التقليل من مجهود الذين يثابرون على طرحه على الوجه الصحيح وعلى الاجابة عنه ، وانما يسعى ـ على العكس من ذلك ـ الى التنبية الى ادراك أهميته لزيادة تصديقية الآيــة القائلة : « انما يخشى الله من عباده العلماء » (الملائكة،28) ·

ولنذكر فى الختام انه بامكاننا أن نترسم ثلاثة خطوط تطور ممكنة :

ـ تخط أو تجاوز للمرحلة الاسلامية السلفية من الحضارة بفضل نجاح النمـــو التقنى والاقتصادى · ومثل هذا الخط ستترتب عليه أزمات بنيوية للحضارة تضاهى الازمات التى تعيشها المجتمعات الصناعية حاليا · وعندئذ لن يكون لمشكلات النقــد التاريخى المذكورة آنفا سوى أهمية تعليمية ·

ـ انفصام متزايد بين الرجوع بالفكــر والثقافة الى حالتهما السلفية · وبيــن السعى المحموم الى النمو الاقتصادى · وهذه الفرضية الثانية لا يمكن تحققها بنيويا من وجهة نظر الماركسية الكلاسيكية : ومن ثم يتجلى المدى النظرى لبعض التجارب الجــاريــة ·

ـ التصميم على تغليب جانب استراتيجية تنمية **متفق عليها** ترمى الى لم شتات المنحى ، والوعي والهيئة الاجتماعية ٠ ومثل هذه الاستراتيجية تحتم الاعتراف بـأن كل تاريخية تستخدم ما هو من قبيل القيم ، وما ليس من قبيل القيم ، وان القيم هو ما يدخل فى حياة الناس ضمن المجتمع ، وبالتّالى فى حياتهم الخاصة ايضا ـ عناصـر علاقة ايجابية محفوزة ٠ لكن ترى من الذى يقرر اختيار العناصر وحوافزها ؟ وباسم ماذا ؟ وباسم من ؟ وهنا لا نجد مفرا من الرجوع الى مسالة اساس كل تاريخية ٠

مـــراجـع وتعليقـــات

1 ـ محمد أركون ، دراسات فى الفـكر الاسـلامى ، باريس 1973 صفحة 223 ومـا يليهـا ٠

2 ـ محمد عبده ، رسالة التوحيد ، ص 152 (أورده ل٠ غاردى فى **الموسوعة الاسـلامية** ، مـادة اسـلام) ٠

3 ـ راجع م٠ برافمان : **الخلفيات الروحية لفجر الاسلام** ـ ابريل 1972 ص 8 ٠

4 ـ ان الصفة «موجد» Existential قد استعملها «هيدغر» على وجه الخصوص ليمـيز الكائن فى مجموعة وبوصفه كائنا « مـن الوجود المعـاش »
من الانسان بصفة خاصة « الموجود » والذى نقصده من النماذج الموجدية هو النماذج البنيوية للوجـود البشرى التى يقترحها القـرآن والتى تتلقـى تطبيقات فى النسـق الوجـودى للمـؤمنيـن ٠

5 ـ راجع قراءة الفاتحة ، ميلانج A. Abel ، بريل ، I ، 1974 ٠

6 ـ عن معنى **عقل** فى القرآن ، راجع محمد أركون : **هل يمكن التحدث عـن العجيب فى القـرآن ؟ فى العجيـب والغـريب فى الحضارة الاسـلامية الـوسيطة** ، طبعـة باريس 1977 ٠

7 ـ ا٠ توران : **انتاج المجتمع** طبعة ساى 1973 صفحة 26 ٠

8 ـ ا٠ توران : نفس الكتاب صفحة 33 ٠

9 ـ **أزمة المفكرين العـرب** ، ما سييرو 1974 ٠

10 ـ راجع موريس ويسلى M. Wesley «**نحو تاريخية جديدة**» برانسطون 1972٠

11 ـ نهمل صيغة Historicisme التى هي صنولا فائدة منه لصيغة Historisme راجع كارلو أنطونى (C. Antoni) جنيف 1963 . L'historisme

12 ـ ان تعدد اللقاءات الوطنية والدولية حول مشاكل التنمية لتبين الى أي حد أصبح التقدم من الاهتمامات السياسة الكبرى . الا انها غالبا ما تعالج باعتبارات خلقيــة تقليديــة .

13 ـ هناك الى جانب فكر مكتوب ، مذاع على الملأ ، فكر اسلامى غير مكتوب . يتجلى فى الحادثات الخصوصية وهو اكثر جرأة ونقدا ووضوحا من الاول لانـــه أكثـــر حـــريـــة .

14 ـ حسب صيغة ر . بارتس R. Barthes درجة الصفر من الكتابة مطبعة ساى 19 .

15 ـ عن هذا المفهوم راجع محمد أركون ، دراسات ، صفحة 308 وما يليها .

16 عن مفهوم الذاكرة الجماعية ، راجع هـ . ديبروش : سوسيولوجية الامل ، كالمان ليفى 1973 صفحة 205 وله (م . هالبواش فى الذاكرة الجماعية الطبعة 2 المطبعات الجامعية الفرنسية 1968) يرجع له الفضل دون شك فى التمييز بين ذاكرة عالمية للنوع البشرى أي الذاكرة التى تنتقل عبــرها صــور الحوادث المطهرة وبين الذاكــرة او الذاكرات الجماعية التى تتواصل عبرها القوى . ففى الاولى ترتب أو يعاد فيها ترتيب الكتابات ، وفى الثانية تحيا أو تبقى التقاليد ... » .

17 ـ للتعرف السريع على هذا المفهوم . راجع م . ايلياد ـ مظاهر الفكــر الميثى غاليمارد 1963 . لكن معرفة مؤلفات ك . ليفى ـ ستراوس ضرورية . وطالما لم تترجم هذه المؤلفات الى اللغة العربية فان ترجمة كلمة Mythe بالاسطورة (القصة الخرافية) ستظلــل القــارىء دائمــا .

18 ـ راجع محمد اركون : من أجل لم شتات الوعي الاسلامى ميلانج هـ . كوربان طهــــران 1977 .

19 ـ يمكن العثور على فهرسة الاعمال الحديثة فى ف . روزانطال : تـــاريخ المؤرخين المسلمين، الطبعة 2 أبريل 1968 .

20 ـ راجع محمد أركون : مساهمــة فى دراســة النزعة الانسية العــربية فى القرن الرابع الهجرى ، مسكويه الفيلسوف والمؤرخ . ج فران 1970 .

21 ـ راجع **التاريخ الاقتصادى والاجتماعى للشرق الاسلامى فى العصر الوسيط** فى ستوديا اسلاميكا 1955

22 ـ نفس المرجع ، صفحة 59 وما يليها ٠

23 ـ راجع ج ب ديكونتشى : **ميلتون روكاش ومفهوم الدوغماتية** فى وثائقيات سوسيولوجية الديانات 1970/30 ٠

24 ـ نفس المرجع صفحة 6 ٠

25 ـ » » » 13 ٠

26 ـ صبحى الصالح ، **مباحث فى علوم القرآن** دمشق 1958 صفحة 93 تعليق 2 ٠

27 ـ **الميتافيزيقا ب 4** ٠ راجع أعمال ج ب ٠ فيرنان J.P. Vernant **الفكر الاسطورى والفكر عند اليونانيين** ٠

28 ـ راجع محمد اركون : **هل يمكن التحدث عن العجيب ؟** المرجع المذكور ٠

29 ـ راجع غودلية M. Godelier : **الميث والتاريخ : تاملات فى أسس الفكر الوحشى** فى سجلات ، 1971/3 ـ 4 صفحة 551 ٠

30 ـ شافق شحاتة : **دراسات فى الفقه الاسلامى** ٠ المطبعات الجامعية الفرنسية صفحة 17 ٠

31 ـ ان المراجع حول هذه المفاهيم متعددة ، ولنشر على الاقل الى ف٠ برودل : **كتابات فى التاريخ** ٠ فلاماريون 1959 ٠

32 ـ عن هذا المفهوم الهام ، راجع غولدمان : **الماركسية والعلوم الانسانية** غاليمارد 1970 صفحة 121 وما يليها ٠ ان الوعي الممكن هو استباق دينامى على ضرورة الوعي الحقيقى ، لكنه ايضا جملة امكانات فى حالة تمخض وتكون داخل الوعي الجماعى وعاجزة عن التحين لانه ما من نبي ٠ ولا داعية ولا مجموعة رجال ساندها بكلمته ولا بكتابته ، ولا بمقدرته الاستراتيجية ، أو لانه لم يكن هناك « لقاء بين ارادة وظرف زمنى » ٠

33 ـ عادة جارية عند قراء القرآن المسيحيين ٠

34 ـ **ما الميتافيزيقا ؟** طبعة 12 غاليمارد 1951 صفحة 192 ٠

35 ـ نفس المصدر صفحة 193 ٠

36 – راجع محمد أركون : **الفكــر العربى** المطبعات الجامعية الفرنسية 1975 ، **كيف نتحدث عن الاسلام اليوم ؟ الاسلام امس ، وغدا** · بوشى شاستل 1977 ·

37 – هنا تتجلى بوضوح أكثــر ضرورة أي تقــديم اثنوغرافى وسوسيولوجى للمجتمعـــات الاســلاميــة ·

38 – راجع بشأن هذا المفهوم ب· بول بنيشو : **تكريس الكاتب** ج· كورنى 1973 ·

39 – راجع ر· أرنالديز : **الانا الالهى والانا البشرى استنادا الى تفسير القرآن لفخر الدين الــرازى فى ستوديا اسلاميكا 36** ·

منشـــورات

وزارة التعليـم الاصـلى والشؤون الدينيـــة



السياسة المالية للدولة الفاطمية في المغرب

د . الحبيب الجنحاني
كلية الآداب والعلوم الانسانية
تونس



يلاحظ دارس النظم المالية لدول المغرب الاسلامى فى العصر الوسيط ان النظام المالى الفاطمى أتقن احكاما، وأكثر دقة ، وبالتالى أشد وطأة على السكان (1) ، وهو نظام قد وضع لتحقيق هدف واضح فى سياسة الخلافة الفاطمية بالمغرب ، وقد سعت الدعوة جاهدة لتحقيقه قبل ذلك ، ونعنى اخضاع العالم الاسلامى لراية الخلافة الفاطمية ؛ فقد كانت معالم السياسة التوسعية الفاطمية واضحة منذ البداية ، ولم يكن حكم المغرب ـ اذن ـ الا مرحلة أولى نحو تحقيق الهدف الاكبر ، وقد أعرب عبيد الله المهدى عن ذلك بكل جلاء اثر مدة قصيرة من الدعاء له بالخلافة فى القيروان ، ورقادة (297 هـ/909 م) ؛ فقد جعل فى رقادة بيتا للمال ، وأقام له ديوانا ، « فقيل ان صاحب بيت المال رفع اليه بتحصيل ما أخرجه من الصلات فى شهر رمضان فبلغ ذلك مائة ألف دينار ، وكان صاحب بيت المال استكثر ذلك فقال المهدى عليه السلام : لو بلغنى الله عز وجل الى حقى ، ونلت أملى ما رضيت مثل هذا العطاء بأسره الى رجل واحد من أوليائى» (1 أ) .

وتلوح منذ الفترة الاولى فى حياة الحكم الفاطمى ببلاد المغرب ميزة أساسية للسياسة المالية تبرز فى تسخيرها لخدمة ذلك الهدف الاسمى ، ولذا فقد أصبحت شتى الوسائل لتنفيذ هذه السياسة مشروعة ، وان جاء عبئها ثقيلا على السكان ، وجاءت متباينة مع النظم المالية المعروفة فى الاسلام ·

ونود هنا ابراز ملاحظتين :

اولا ـ ان هذه السياسة المالية التى شرع عبيد الله المهدى فى تطبيقها غداة مبايعته بالخلافة قد حاولت الدعوة الشيعية الاسماعيلية أن تضع لها أسسا فى مرحلة الستر ، فقد كان جمع الاموال ، وارسالها الى الامام مهمة أساسية فى عمل الدعاة ، وينقل لنا الحاجب جعفر بن على فى سيرته معلومات ثمينة عن هذه المرحلة حيث يقول : « وكانت الاموال والذخائر تحمل من كل بلد من قبل الدعاة اليه (يعنى الى المهدى ح ج) الى سلمية ، قال وكان الامام قد حفر سردابا فى الارض من الصحراء الى جوف داره بسلمية طوله اثنا عشر ميلا ، وكانت الاموال والذخائر تحمل على الجمال ؛ فيفتح لها باب السرداب فى الليل ، وتنزل فيه أحمالها عليها حتى تحط فى داخل الدار ، وتخرج فى الليل ويغمى على باب السرداب بالتراب فلا يدرى به أحد · قال وكانت الاموال عظيمة حتى يقال : انه ما كسب المهدى قدس الله روحه بعد أن فتح الله له الا نحوا مما خلف بسلمية » (2) · ولما اضطر أن يغادر مركز الدعوة : سلمية بسرعة ، منتجها الى مصر ، ثم بلاد المغرب ، ولم يتمكن من حمل ما احتوت عليه خزائن الدعوة من أموال وذخائر خشى على مصيرها ، فامر أحد انصاره بالرجوع الى سلمية ، وهدم دور العلويين، ولا سيما ردم البركة حتى لا يعرف لها خبر ، « قال جعفر والسبب فى ذلك أن الامام ع م كان قد حفر بركة ورصها وأتقنها ، وملأها أموالا، ثم رص فوقها، وبنى عليها بركة أخرى على قدرها ، وأجرى اليها الماء ، فكان لا يبرح الماء منها شتاء ، ولا صيفا » (3) ، فلا غرو ـ اذن ـ أن يتهم المهدى بسلمية بأن أمواله أكثر من أموال الخليفة العباسى ، وقد كان يستعمل هذه الاموال فى كسب الانصار ، وتوطيد علاقاته مع الولاة فى سلمية (4) ، وقد اتبع هذه السياسة فى مصر فى طريقه الى بلاد المغرب ، وكسب بها قائد القافلة التجارية التى دخل ضمنها بلاد المغرب ، وبلغ سجلماسة حيث

كانت هداياه لاميرها ثمينة ، سخية ، وكانت تصله بعاصمة بنى مدرار أموال من أبى عبد الله الداعى يرسلها اليه مع الاولياء من كتامة ، ويبدو من الرواية التى نقلها لنا ابن عذارى عن رجل من بنى هاشم كان مع عبيد الله بسجلماسة أن هذه الاموال كانت بالدينار الاغلبى ، وهى العملة السائدة فى بلاد كتامة يومئذ . فقد قال : (وصلنى عبيد الله بمال كثير من دنانير لا توجد فى ذلك البلد ؛ فكثر تعجبى منها ، فلما رأى منى ذلك ، وعلم منى ما أوجب ثقته بى ، واستنامته الي قرأ على كتاب أبى عبد الله بالفتح ، وأمرنى بكتمان الخبر ، وألا أبدل حالتى الاولى ، ولا أغير حليتى ، وملبسى ، وقال لى : «ان علينا عيونا ورقباء، فلا يطلعوا منا على تبدل حال، واستفادة مال») (5) .

ثانيا ـ ان كبار دعاة المذهب قد حاولوا أن يوضحوا هذه السياسة المالية ، وأن تكون أصلا بارزا من أصول المذهب الاسماعيلى ، ولذا فاننا نرى أن نقطة الانطلاق فى بحث الواقع التاريخى والحضارى لهذه السياسة المالية هى التعرف أولا الى أسسها النظرية المذهبية . وقد حاول القاضى النعمان أن يحصر هذه الاسس فى الفصل العاشر من كتاب « الهمة فى آداب أتباع الائمة » الذى تحدث فيه عن « ذكر ما يجب للائمة الصادقين أخذه من أموال المؤمنين والمؤمنات » ، ويبدأ بالحديث عن المورد المالى الاول فى الاسلام (6) ، وهو الصدقات ، ويعنى صدقة الابل والبقر والغنم ، وما يجب فى الاموال ، وما أخرجت الارض ، وصدقة الفطر (7) . وبعد أن يشير الى أن بنى أمية استأثروا بالزكاة ، ولم ينفقوها فى أبوابها التى نصت عليها الآية الكريمة « **انما الصدقات للفقراء ، والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب والغارمين ، وفى سبيل الله ، وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم** » (8) يقتصر على التعرض الى الآراء التى ترى وجوب دفعها ، ولو الى امام جائر ، أو عامل ظالم، فيقول : « وقال بعضهم : ادفعوه اليهم ، ولو شربوا الخمر وأكلوا به لحم الخنزير » (9) ، ولكننا نعرف أن هناك من يرى من علماء الاسلام جواز كتمها اذا كان العامل جائرا فى أخذ الصدقات ، عادلا فى قسمتها ، أما اذا كان عادلا فى أخذها ، جائرا فى قسمتها فانه يجب كتمها عنه ، ولم يجز دفعها اليه (10) . فقد كان القاضى النعمان حريصا على وصول أموال الصدقات الى بيت المال الفاطمى ، موضحا أن من خالف ذلك فهو

حري بالظلم والتعدى ، وجدير بالعقوبة على حد تعبيره ، ويبدو أن النقاش حول الموضوع كان منتشرا فى عصره ، وبلغ طبقات أتباع الائمة أنفسهم ، وقد ألف من أجلهم كتابه، فضلا عن أنصار المذاهب الاخرى المعارضة للمذهب الفاطمى ، وحين نتذكر حدة الصراع المذهبى فى المغرب خلال العصر الفاطمى ندرك حرص القاضى النعمان وقلقه ، فهو يختم تأكيده على ضرورة دفع أموال الصدقات الى عمال الائمة وجباتهم ، ولو كانوا جائرين يقلدون بها الكلاب ، ويشربون بها الخمر ، كما قيل لابن عمر ، قائلا :

(فافهموا رحمكم الله هذا المعنى أيها المؤمنون ، وتواصوا به ، واحتجوا به على من خالفكم فيه ، فانهم لن يجدوا منه مخرجا ولا حجة الا من ظلم منكم (السياق يقتضى منهم ح ج) وكابر الحق ، فان الله عز وجل يقول « **لئلا يكون للناس عليكم حجة الا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم** » (10 أ) ، فمن دافع الحق ، واحتج بالباطل فهو ظالم فلا تخشوه) (10 ب) .

ويعترف القاضى النعمان أنه ليس للرسول صلى الله عليه وسلم ، والائمة من أهل بيته الحق فى الصدقات ، بل هم أمناء على قبضها من أهلها ، ووضعها مواضعها ، ولكنه جعل لهم خمس الغنيمة فى أموال عباده من المؤمنين ، مستدلا على ذلك بقول جعفر ابن محمد « الخمس لنا أهل البيت ليس للناس معنا فيه شيء ونحن شركاؤهم فى أربعة أخماس الغنائم فيما شهدناه معهم ، والخمس لنا دونهم نعطى منه يتامنا ، وفقرانا ، ومساكيننا ، وابن سبيلنا ، وليس لهم ولا لنا فى فى الصدقات شيء » (11) ، ومن المعروف أن فقهاء السنة يرون صرف سهم الرسول بعد موته فى مصالح المسلمين كأرزاق الجيش ، واعداد الكراع والسلاح وبناء الحصون والقناطر ، وغيرها من المصالح العامة (12) ، ويفسر القاضى النعمان الغنيمة تفسيرا لغويا ، فيقول : « فعلى جميع المؤمنين أن يدفعوا خمس ما غنموه فى كل عصر الى امام ذلك الزمان من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما أمر الله عز وجل بذلك مع زكاة أموالهم ، وليست الغنيمة ما أخذ من أيدى المشركين خاصة ، بل ذلك كل كسب كسبه المرء فهو غنيمة » (13) ، ويلح كثيرا على هذا التفسير ، فيعيده فى الفصل ثلاث مرات (14) ،

وهو ــ دون ريب ــ تفسير غريب لمفهوم الغنيمة في الاسلام (15) ، ولا يمكن فهم هذا التفسير الا في نطاق قواعد السياسة المالية الفاطمية ، واستعمالها لمختلف الوسائل ·

ومن الموارد المالية لخزائن الدولة الفاطمية حسب أصول المذهب الامتحـــان في الاموال ، وهو يمثل طريقة لجمع الاموال . يقول القاضي النعمان : « ثم جعل عز وجل للائمة صلوات الله عليهم عند استنقاذهم أولياءهم في أموالهم ، وفيما أحبوه ، وما رأوا أن يمتحنوهم به ما رأوه من ذلك » (16) ، وبعد أن يعدد ضروب المحن التي امتحن الله بها أنبياءه ، والائمة أوصياءهم يتوجه الى المؤمنين قائلا : « فمن امتحنه أولياء الله منكم ، أيها المؤمنون ، فليصبر للمحنة ، وأيسر ذلك المال ، وليس فيه توقيت عــلى الائمة عليهم السلام ، ولا فيما يمتحنون به أولياءهم عند ارتضائهم أحوالهم ، وابلاغهم درجة الفضيلة عندهم » (17) ، ثم يذكر موردا آخر من موارد الخلافة الفاطمية ، وهو التطوع (17 أ) فيقول : « ثم المؤمنون بعد ذلك مندوبون الى التطوع بالانفاق مــن أموالهم في سبيل الله ورفع أعمالهم منها الى أوليائهم ، أو من أقاموه لقبض ذلك منهم، وذلك مفوض فيه اليهم وليس عليهم فيه توقيت ، ولا فرض معلوم ، وانما هو تطوع كما قال الله عز وجل : (**فمن تطوع خيرا فهو خير له**) » (18) ، وبالرغم من اعترافه بأن اعطاء هذه الاموال هو تطوع ، وليس على المؤمنين فيه توقيت ، ولا فرض معلوم ، فانه يلح على أهمية هذا التطوع ، مركزا على أن المال أمانة بأيدي الناس يجب أن تدفع لاصحابها ، ومن هم أصحابها غير الائمه ، « فالله الله عباد الله في أمانة الله في أيديكم فيما خولكم من أموالكم ، فانها من أعظم المحن عليكم في ايجابه » (19) ·

ونود في هذا الصدد أن نبدي الملاحظات التالية :

1 ــ أن القاضي النعمان لا يتحدث في هذا الفصل عن الاصول الاسماعيليـــة للسياسة المالية الفاطمية عن أموال النجوى التي يذكر المؤرخون أن الدعاة كانــوا ياخذونها من المستجيبين في كل مرتبة من مراتب الدعوة ·

2 ــ أنه يبدو لنا أن هذه المعلومات عن النظام المالي الفاطمي جاءت حسب ما يسمح بمعرفته في كتب الظاهر مثل كتاب الهمة ، أما ما تضمنته كتب الباطن حول هــذه النقاط بالذات فما تزال معرفتنا به غامضة ·

3 ـ نلاحظ تشابها بين الاصول الاسماعلية التى حللها القاضى النعمان فى ميدان السياسة المالية وبين أسس الاشتراكية المانية التى طبقها حمدان قرمط فى المجتمع القرمطى ، وحاول نشرها بعده تلميذه أبو سعيد الجنابى فقد فرض ضريبة الفطرة ، وضريبة الهجرة ، وضريبة البلغة ، وضريبة الخمس ، وضريبة الالفة (20) ، وهى تشبه مورد التطوع الذى تحدث عنه القاضى النعمان ، ولكن الفرق الاساسى بين الفاطميين فى المغـرب والقرامطة أن القرامطة حاولوا تطبيق الاسس المالية فى حياة مجتمعهم ، أما الائمة الفاطميون ، ودعاتهم فقد حرصوا على جمع الاموال بشتى الطرق لتكون تحت تصرف الامام ينفقها حيث شاء ، وكيف شاء ، ولعل السياسة المالية للفرقتين المتفرعتين عن المذهب الاسماعيلى كانت من عوامل الخلاف بينهما ، ولا سيما بعد بيعة عبيد الله المهدى فى رقادة ٠

4 ـ سنرى فى تتبعنا بعد قليل للاحداث التاريخية التى عرفتها الخلافة الفاطمية فى المغرب فى حياتها المالية أن بنى عبيد لم يحترموا هذه الاصول المذهبية ، بل تجاوزوها بكثير ، وأباحوا كل الوسائل لجمع المال ، أو يكادون ٠

* * *

بعد هذه اللمحة الموجزة عن الاصول النظرية للسياسة المالية الفاطمية ، وقد كان السهر على تنفيذ هذه السياسة يعد جانبا أساسيا فى عمل الدعاة قبل تأسيس الخلافة وبعدها نود التعرف الى تطبيق هدا النظام المالى الخاص فى المغرب خلال العهد الفاطمى، وقد مرت هذه السياسة بمرحلتين :

ـ مرحلة الدعوة بزعامة أبى عبد الله الشيعى ، وقد كانت سياسته المالية واضحة تخضع لاصول النظام المالى فى الاسلام من جهة ، ولبعض أسس الدعـوة الشيعيـة الفاطمية من جهة أخرى ، فقد فرض على أنصاره فى بلاد كتامة دينار الهجرة ، ودرهم الفطرة ، وقد استغل زيادة الله الثالث توظيف هذه الضرائب الفاطمية الخاصة لاتهامه فى رسالة بعث بها الى نواحى افريقية بسن شريعة غير شريعة الاسلام ، « وجعل لنفسه حقا واجبا فى أموال الامة » (21) ، وقد كان حذرا فى سياسته المالية فنجده يبقى أموال الجباية والغنائم بأيدى مشائخ الاولياء من كتامة ، معروفا بتقشفه رغم الاموال

الكثيرة التى تحت تصرفه ، وقد حرص على تنفيذ مبادىء السياسة المالية فارسل الى المهدى مبالغ كثيرة الى المشرق ، ثم الى سجلماسة .

وقد عمل أبو عبد الله على نشر روح التضامن بين المؤمنين فى المجتمع الكتامى ، وتغيير نظرتهم الى المال ، فاصبح الواحد منهم لا يعد لنفسه مالا دون أخيه ، « ولا يرى الفضل والشرف الا فيما وصل اليه فاعان به ، فلم تكن أمة من الامم ، ولا أهل قرن من القرون على مثل ما كانوا عليه » (22) ، فنراه فى محاولته تركيز روح الاشتراكية المالية فى المجتمع الكتامى يلتقى مع رؤية حمدان قرمط الى وظيفة المال فى المجتمع الاسماعيلى . ومن المعروف أن أبا عبد الله قد كان يتتبع باهتمام السياسة الجبائية للاغالبة ، متخذا اياها نقطة أساسية فى عمله الدينى والسياسى فى المنطقة التى أصبحت تخضع لنفوذه ، فقد اغتم لما بلغته الاخبار أن الامير الاغلبى أبا العباس واصل السياسة الجبائية الجديدة التى اتبعها أبوه ابراهيم بن أحمد سنة 289 هـ ، لما استقام أمر ابى عبد الله بكتامة (23) ، فزاد فى الرياء ، ورد على الناس جميع ما كان أبوه اغتصبهم اياه ، وعدل فيهم (24) ، ولما تغلب على مدينتى بلزمة ، وطبنة ، (وكان بهما جبارة على ضروب المغارم ، فأتوه بما فى أيديهم من الجباية ، فقال لاحدهم : « من اين جمعت هذا المال ؟ » فقال له « من العشر » ، فقال أبو عبد الله : « انما العشر حبوب وهذا عين ! » ، ثم قال لقوم من ثقات طبنة : « اذهبوا بهذا المال ، فليرد على كل رجل ما أخذ منه ، وأعلموا الناس أنهم أمناء على ما يخرج الله من أرضهم ، وسنة العشور معروفة فى أخذه وتفرقته على ما ينصه كتاب الله عز وجل ... ، وقال لمن أتاه بمال الخراج : « هذا مال لا خير فيه ، ولا قبالة ولا خراج على المسلمين فى أموالهم » ، ثم أمر ثقات أهل طبنة برده على أهله) (25) ، وقد كان لهذه السياسة الجبائية الجديدة اثر طيب فى نفوس السكان ، « فلما نظر أهل طبنة الى فعله سروا به ، ورجوا أن يستعمل فيهم الكتاب والسنة ، وانتشر فعله فى جميع نواحى افريقية ، فتاقت أنفسهم اليه ، وكاتبوه ، ودخلوا فى طاعته » (26) .

ان المصادر التى وصلتنا لا تشير بوضوح الى موقف أبى عبد الله تجاه التصرف المالى الذى سلكه عبيد الله المهدى اثر بيعته ، ولا سيما سياسة كسب الانصار باغداق

الاموال والعطايا ، ولكننا نرى أن هذا التصرف كان سببا رئيسيا من أسباب الخلاف الذي ادى في النهاية الى تازم العلاقات بينهما ، وقد ذكر في نصيحته للمهدي أن اعطاء الاموال لشيوخ كتامة فساد لهم (27) .

ـ أما المرحلة الثانية فقد بدأت اثر تحرير عبيد الله من سجن أمير سجلماسة اليسع بن مدرار ، فلما حاذى بلد كتامة في طريقه الى رقادة مال اليه لزيارة دار الهجرة به : ايكجان ، وفيها أمر بقبض الاموال التي كانت بأيدى الدعاة والمشائخ ، وكانوا قد دفنوها هناك ، وامتعض من ذلك الكتاميون ، ويعترف القاضي النعمان قائلا : « فكان ذلك من اول ما أحال القلوب الفاسدة، وتوهموا أنهم يكونون كما عودهم أبو عبد الله : يأمرون وينهون ، ويقبضون ، ويبسطون » (28) .

ويتحدث ابن عذارى عن دخول عبيد الله المهدى القيروان فيقول : « ولقيه الفقهاء ووجوه أهل القيروان ، فدعوا له وهنؤوه ، واظهروا له السرور بأيامه ، وسألوه تجديد الامان لهم ، فقال لهم : (أنتم آمنون في أنفسكم وذراريكم) ، ولم يذكر الاموال ، فعاوده بعضهم ، وسألوه التأمين لهم في الاموال ، فأعرض عنهم ، فخافه أهل العقل من ذلك الوقت » (29) ، ومن المعروف أن أبا عبد الله سبق له أن أمنهم ، ووعدهم بالاحسان والعدل فيهم لما أشرف على القيروان ، وخرج اليه أهلها « من الفقهاء ، والوجوه، وجلة التجار » ، وقد أغضب ذلك قواد كتامة ورجالها ؛ لان المصادر السنية تشير الى انه وعدهم قبل ذلك « بأن يؤكلهم القيروان ، ويسلط أيديهم فيها ، ويقطعهم جميع أموال أهلها ، فلما سمعوا بأمنته للقوم ساءهم ذلك ، وكلموه فيه ، وذكروه ما كان وعدهم به ، فتلا عليهم : (**واخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها**) (30) ، وقال لهم : (هي القيروان) فقبلوا قوله ، وسلموا لامره » (31) ، وأمر المهدى بجمع ما انتهب من الاموال بمدينة رقادة ، فاسترجع كثير من أيدى الناس ، وطلبوا فيه ، وأسرع بتنظيم الهياكل المالية فدون الدواوين ، « وأمر باقتضاء واجب الاموال ، وكان ديوان الخراج قد أحرق لما هرب زيادة الله ، فأمر به فاحيي ، ونصب ديوانا للكشف ، وديوانا للضياع ، وديوانا لاموال الهاربين مع زيادة الله ، واستصفى أموالهم » . (32)

وبعد مضي بضع سنوات على تأسيس الخلافة بدأ بتجهيز الحملات العسكرية الى المشرق ، ولكنها أقامت له الدليل ـ زيادة عن بداية سلسلة الانتفاضات ضد الحكم الفاطمي في المغرب ـ على ضرورة تركيز جهوده لتنظيم شؤون السياسة الداخلية استعدادا لتحقيق الهدف الاكبر، واستلزم ذلك أولا وبالذات انشاء قوة مالية وعسكرية قادرة على فتح بلاد المشرق من جهة ، وتدعيم أسس النظام الفاطمي في بلاد المغرب من جهة أخرى ، كي لا تعرقل الاحداث الداخلية تنفيذ الاهداف التوسعية للحكم الجديد (33) ، ويتطلب تحقيق هذه الاهداف اتباع خطة مالية دقيقة لتوفير موارد ضخمة تتجاوز ما تنص عليه كتب الظاهر في أصول المذهب الاسماعيلي ، وتتعدى ما يتفق فيه الفاطميون مع أهل السنة في توظيف أصناف من الجباية ؛ فلا غرو ـ اذن ـ أن يتسم النظام المالي الفاطمي بسمة بارزة تتمثل في خلق الذرائع لمصادرة الاموال وابتزازها . يتحدث ابن عذارى عن أحداث 307 هـ . فيقول : « وفي سنة 307 هـ . كان بافريقية وما والاها الى مصر طاعون شديد ، وغلاء سعر مع الجور الشامل من الشيعة ، والتعلل على أموال الناس في كل جهة » (34) .

وهكذا تبدأ سلسلة الاحداث التاريخية التي جاءت تطبيقا للخطة المالية الجديدة التي وضع قواعدها الامام المهدي ، واقتفى أثره فيها بقية الخلفاء الفاطميين بالمغرب دون ادخال أي تحوير يذكر ، وما تشير اليه المصادر من محاولة تخفيف عبء الجباية على السكان فقد أملته ظروف سياسية معينة ، وتبدأ تلك الاحداث التاريخية منذ سنة 298 هـ ؛ فقد تجول فيها أبو عبد الله الشيعي في بلاد البربر ، وحارب صدينة ، وزناتة ، وقتل الرجال ، وأخذ الاموال ، وسبى الذرية (35) ، وخرج في نفس السنة جيش فاطمي الى قبيلة لواتة فقتلوا أهلها ، وغنموا أموالهم ، وقد نهبت أموال تاهرت سنة 299 هـ . ودبر الفاطميون سنة 300 هـ . (أو 301 هـ) مكيدة لقتل أبرز التجار الاندلسيين بالقيروان أبي جعفر محمد بن خيرون المعافري ، وتصفية أمواله (36) .

وأصبح لقواد الجيش الفاطمي الحرية في اتباع الاساليب التي يرونها لجمع الاموال، فلما أخرج عبيد الله حباسة بن يوسف سنة 301 هـ . على رأس جيش الى المشرق برح ببرقة « من أراد العطاء والرزق الواسع ، فليأت » ، فاكتتب عنده جماعة ، وأمر

العرفاء من كتامة بأن يعرفوهم بأعيانهم ، ويرقب كل واحد منهم رجلا من أولئك المكتتبين عنده ، ثم أمرهم أن يحضروا بالغداة لاخذ الارزاق ، فلما حضروا قتل جميعهم، وكانوا نحوا من ألف رجل ، فامر بجمع جثثهم ، ووضع عليها كرسيا ، وجلس فوقه ، ثم ادخل وجوه أهل البلد ، فنظروا الى ما هالهم من كثرة القتلى ، ومات منهم ثلاثة من الخوف والرعب ، فلما مثل أهل البلد بين يديه سبهم ، وقال : « ان لم تحضرونى غدا مائة الف مثقال قتلتكم أجمعين ، فأحضروه اياها » (37) ، وهو مبلغ يساوى حوالى 420 كلغ من الذهب ، قد يكون فى هذا الرقم شىء من المبالغة ، ولكن هذا الاسلوب فى جمع الاموال لم يكن نادرا في تاريخ الخلافة الفاطمية بالمغرب ، ولا سيما أيام مؤسسها الاول ، وقد استصفى قائد فاطمى آخر : أبو مدين بن فروخ اللهيصى أموال سكان برقة من جديد سنة 304 هـ . وفى سنة 307 انتهب الجيش الفاطمى بقيادة أبى القاسم ابن عبيد اليه أموال الاسكندرية والفيوم ، ونزل بالاشمونين بالصعيد الادنى « فألفى الاطعمة فى الانادر لم تخزن ، وانتهبها العساكر وغلت الاسعار بمصر وبالعسكر ، ووقع الوباء في الناس » (38) . وانتهب الجيش الفاطمى بقيادة مصالة بن حبوس سنة 309 هـ . أموال سكان مدينة سجلماسة ، وأدت سياسة انتهاب الاموال ، والاعتداء على التجار ، ونهب دكاكينهم الى اندلاع انتفاضات سكان المدن ، فقد حدث ذلك فى القيروان سنة 299 هـ ، وفى طرابلس سنة بعد ذلك (39) .

انه من الصعب أن نعتقد أن سلوك جميع عمال الفاطميين ، وقواد جيوشهم فى مصادرة الاموال ، ونهب المدن كان بأمر من الخلفاء أنفسهم فى كل الحالات ، فلا شك أنهم قد تجاوزوا الحدود فى كثير من الاحيان ، ولا سيما أن الجيش الفاطمى قد أصبح يمثل قوة يصعب أحيانا كبح جماحها ، اننا نقرأ فى سيرة الاستاذ جوذر ما يلى : « وحدثنى رضى الله عنه أنه لما سافر مع القائم بأمر الله صلى الله عليه الى المشرق ، وكثر امتداد أيادى العسكريين الى نهب غنائم الرعايا المعتصمين بالطاعة ، وأن القائم بأمر الله ، صلوات الله عليه ، أنكر ذلك من فعلهم ، وعاقب عليه وقتل ، فلما غلبه الامر ، تقدم الى مشترى اللحم الى مطبخه أن يجعل ما يشتريه من ذلك من المدن فى حين جوازه بها من عند الثقات ، قال رضى الله عنه : فنظر الى فقال لى : « يا جوذر لا تاكل

من هذا اللحم الا ما أطعمناك اياه من مطبخنا حلالا ، فان كل ما يباع باسواق العسكر قد خبث لارتكابهم النهى ، واحتيالهم على النهب » (39 أ) .

ولكن مؤسسى الخلافة قد أطلق أيديهم لجمع الاموال بصرف النظر عن السبل المتبعة ، وأصبح جمع الاموال الطائلة لفائدة بيت المال الفاطمى وسيلة للحظوة لدى الخليفة وتولى المناصب العليا (39 ب) ، فقد كان محمد بن عمران النفطى يتولى قضاء طرابلس فى عهد عبيد الله المهدى ، فجمع لخزانة الفاطميين « أموالا كثيرة من الرشى والاحباس ، ورفعها الى عبيد الله ، فكانت له وسيلة اليه » (40) ، فقد عينه سنة 311 هـ . على قضاء القيروان . ويبدو أن الخلفاء الفاطميين كانوا يختارون مسؤولين عن الشؤون المالية يتمتعون بصفات خاصة ، فقد اختار عبيد الله المهدى خليل بن اسحق لتولى الاعمال ، وجبايات الاموال ومحاسبة الدواوين والعمال ، وهو الذى عينه القائم فيما بعد واليا على صقلية ، « فعمل بها ما لم يعمله احد قبله ، ولا بعده من المسلمين ، أهلكهم قتلا وجوعا ، حتى فروا الى بلاد الروم وتنصر كثير منهم ، وبقى بصقلية اربعة اعوام » (41) ، وقال يوما مفتخرا بظلمه فى مجلس حضره جماعة من وجوه الناس : «انى قتلت ألف ألف : يقوله المكثر ، والمقلل ، يقول : مائة ألف فى تلك السفرة» (42) .

ونلاحظ هنا أن سياسة جمع الاموال بالقوة استمرت بعد رحيل الفاطميين الى مصر ، فقد بعث أبو الفتوح يوسف بن زيرى الى الخليفة الفاطمى العزيز بالله سنة 367 هـ . أموالا جمعت بالقوة من سكان القيروان قد تجاوز مقدارها أربعمائة الف دينار عينا (43) ، وقد عمل عبد الله بن محمد الكاتب عامل افريقية بيت الحديد سنة 372 هـ ، وملأه أموالا ، ثم عمل بيت خشب وملاه أموالا أيضا ، وبعث أبو الفتوح المنصور الصنهاجى هدية الى الخليفة الفاطمى بالقاهرة سنة 374 هـ بلغت قيمتها ألف ألف دينار (44) .

* * *

وقد اهتم الفاطميون بالسياسة الجبائية اهتماما كبيرا الى جانب سياسة مصادرة الاموال بشتى الذرائع ، والنظام الجبائى الفاطمى معروف بارهاقه للسكان ، وخاصة سكان الريف ، وقد كان اشتداد وطأته عليهم سلاحا فعالا عرف كيف يستعمله أبو يزيد

فى انتفاضته ضد الحكم الفاطمى ، معتمدا بالخصوص على سكان المناطق الريفية (45) ، واستمر هذا النظام الجبائى طيلة العصر الفاطمى فى بلاد المغرب الا فى بعض الحالات التى اضطر فيها الخليفة أن يخفف من ثقله لاسباب سياسية ، أو اقتصادية ، فقد أسقط المنصور بالله اسماعيل بن أبى القاسم الخراج عن الرعية حتى صلحت أحوالهم (46) ، وذلك بعد الاحداث الخطيرة التى عاشها المغرب أثناء انتفاضة صاحب الحمار ، وما أدت اليه من تدهور اقتصادى ومالى فى حياة الدولة الفاطمية .

وقد حاول المعز ارضاء السكان قبل رحيله الى القاهـــرة فخفف من شـــدة الضرائـب (46 أ) .

ويتساءل المرء هنا عما أحدثه الفاطميون فى ميدان السياسة الجبائية ببلاد المغرب ؟

انهم طبقوا السياسة الجبائية التى سار عليها الدعاة فى مرحلة الستر (46 ب) ، وقد لمحنا الى أهم عناصرها ، ولكن أهم اصلاح جذرى أدخلوه فى ميدان الخراج قام به القاضى أبو معمر عمران بن أحمد بن عبد الله بن أبى محرز بعد أن ولاه عبيد الله خراج افريقية سنة 303 هـ ، « فتولى بتوظيف التقسيط على ضياع افريقية بعد أن وزع جميعها ، ونظر الى أوفر مال ارتفع من العشور فى سنة وأقله ، ثم جمع الماليين ، ووظف الشطر على كل ضيعة » (47) ، وبعد سنتين من هذا الاصلاح الذى سمي « التقسيط » قام باصلاح الاصلاح ، وسماه « التضييع » ، يتحدث ابن عذارى عن أحداث سنة 350 هـ ، فيقول : « وفيها أخذ أهل الضياع بأعمال افريقية بمغرم سمي التضييع ، وزعموا أنه من بقايا التقسيط » (48) .

وبعد ان انتقل عبيد الله الى عاصمته الجديدة المهدية فرض سنة 309 هـ ، على الحجيج أن يمروا بالمهدية لاداء ما وظف عليهم من مكوس (49) .

ويلوح لنا أن تعدد الموارد المالية ، وتوظيف ضروب من الجباية جعل حكام المهدية يفكرون فى انشاء مؤسسة مالية للمراقبة سموها « دار المحاسبات » (50) ، انها اشارة مهمة بالرغم من أن المصادر التى بين أيدينا لا تفيدنا شيئا عن سير هذه المؤسسة ،

ولا عن المشرفين عليها ، ولكن تاسيسها يدعم ما لمحنا اليه أكثر من مرة حول الاهتمام الخاص ، والتنظيم الدقيق الذى عرفته السياسة المالية الفاطمية ببلاد المغرب ·

* * *

وقد آن الاوان لمعالجة نقطتين تمثلان فى رأينا أخطر جانب فى السياسة المالية خلال العصر الفاطمى ·

أولا ـ النشاط التجارى ، واعتناء الدولة الفاطمية بتنظيمه باعتباره موردا ثريا لنظام الجباية ، ولتجمع الثروات ، وتوفر عملة نقدية ذهبية ذات شأن تساهم التجارة الكبرى بالخصوص فى تجمعها بأيدى فئات التجار فى المراكز التجارية النشطة ·

وظهر هذا الاهتمام بتنظيم الحياة التجارية فى القيروان لما أنشىء حى القاسمية التجارى ، ونقل اليه التجار ، ثم ظهر فى بناء أسواق المهدية ، وترتيب أصناف التجارة بها ، وكان بناء الاسواق فى المنصورية ، ونقل تجار القيروان اليها ، واحكام استخلاص المكوس أمام أبوابها على حركة تصدير البضائع وتوريدها من العوامل الفعالة فى التطور العمرانى والاقتصادى بالمدينة ، ومن المعروف أن هذه الحركة التجارية النشطة برا وبحرا استفادت من عاملين أساسيين :

1 ـ الازدهار الاقتصادى ، ولا سيما التجارى منه الذى عرفه المغرب الاسلامى منذ مطلع القرن الثالث الهجرى ·

2 ـ سيطرة الاسطول الفاطمى على المنطقة الغربية من حوض البحر الابيض المتوسط ، يحدثنا البكرى عن ارساء سفن تجارية قادمة من الاسكندرية ، وبلاد الشام، وصقلية والاندلس وغيرها بميناء المهدية (51) ·

ثانيا ـ الصراع العنيف بين الامويين والفاطميين من أجل السيطرة على مسالك تجارة الذهب بين بلاد السودان والمغرب الاسلامى ، وهى نقطة متصلة بالاولى ، ولكنها أخطر شأنا ، فى رأينا ، فلولا هذا المورد الثرى لتجمع الثروات الذهبية لما استطاع الفاطميون أن يجمعوا تلك الذخائر الذهبية الضخمة مهما بلغت سياستهم المالية احكاما ، ونظامهم الجبائى دقة واتقانا ، فقد كانت السيطرة على مسالك تجارة الذهب

هى العامل الاساسى الذى يكمن وراء ذلك الصراع الذى استمر طويلا بين قرطبة والمهدية ، وهو الصراع الذى يبرز فى عالم الاحداث السياسية والعسكرية بين صنهاجة وزناتة ، فلم يكن ـ اذن ـ صراعا قبليا كلاسيكيا ، كما نقرأ ذلك فى كثير من المراجع، بل صراع من أجل السيطرة على المسالك الحساسة لتجارة الذهب ·

ويرى الاستاذ Jean Devisse فى هذا الصدد أن هزيمة أبى يزيد عزلت افريقية عن مناطقها الجنوبية عزلا لم يعرف من قبل ، وكان نتيجة ذلك ضعف نشاط مسلك تجارة الذهب عن طريق وارجلان ، فهو مسلك يسيطر عليه الخوارج ، ولم ينجح الفاطميون فى السيطرة عليه ، ولذا كانوا نراهم يحاولون عن طريق الحملات العسكرية (آخرها حملة القائد جوهر الصقلى سنة 347 هـ) السيطرة على المسلك الغربى : سجلماسة ـ أودغست ـ بلاد غانة لنحصول على ما يحتاجون اليه من الذهب (52) ، وقد سعى الامويون سعيا حثيثا لابعاد الفاطميين عن هذا المسلك ، وضمان وصول ذهب السودان الى الاندلس عن طريقه : غانة ـ أودغست ـ سجلماسة ـ موانىء البحر الابيض المتوسط · ومن المعروف أن الدولة الفاطمية قد حاولت منذ الشهور الاولى أن تسيطر على المغربين الاوسط والاقصى نظرا لاهميتهما فى التحكم فى التجارة الصحراوية، وتجارة الذهب بصفة خاصة ، فلا غرو ـ اذن ـ أن يحتد الصراع بين الزناتيين حلفاء قرطبة والصنهاجيين ·

ولابد من الربط فى هذا الصدد بين سيطرة الفاطميين على المسلك الغربى سيطرة كاملة بين سنتى 950 م و 971 م ، وبين تجمع تلك الثروة الذهبية الضخمة فى خزائن المعز لدين الله التى سمحت له بارسال ميزانية عسكرية مع القائد جوهر فى حملته لفتح مصر سنتى 358 هـ/359 هـ ، بلغت جملتها 24 الف ألف دينار (حوالى10080 كلغ من الذهب) ، وما أنفقه قبل ذلك ببضع سنوات بمناسبة ختان أبنائه سنة 351 هـ ، من مبالغ ضخمة ؛ فقد بلغ ما حمل الى جزيرة صقلية وحدها ـ سوى الخلع والثياب ـ « خمسون حملا من الدنانير ، كل حمل عشرة آلاف دينار ، ومثل ذلك الى كل عامل من عمال مملكته ليفرقه على أهل عمله » (53) ·

اما الثروة الذهبية التى حملها معه الى مصر فقد بلغت مبلغا يقيم الدليل على وجود خطة مالية دقيقة ، ويثبت فى نفس الوقت ادراك الدولة الفاطمية لخطورة السيطرة على مسالك تجارة الذهب ، وارتباط ذلك بمستقبلها ، وبتنفيذ سياستها التوسعية ، يصف لنا المقريزى هذه الثروة قائلا : « ولما عزم المعز على الرحيل الى مصر أتاه بلكين ابن زيرى بالفى جمل من ابل زناتة ، وحمل ماله بالقصور من الذخائر ، وسبك الدنانير على شكل الطواحين ، جعل على كل جمل قطعتين ، فى وسط كل قطعة ثقبا تجمع به القطعة الى الاخرى ، فاستعظم ذلك الجند والرعية ، وصاروا يقفون فى الطرق لرؤية بيت المال المحمول » (54) ، وهى الثروة الذهبية التى اعتمد عليها المعز لاسقاط العملة العباسية بمصر ، « وكثر ضرب الدينار المعزى ، حتى ان المعز لما قدم مصر فى سنـة اثنتين وستين وثلاثمائة ، ونزل بقصره من القاهرة أقام يعقوب بن كلس ، وعسلوج ابن الحسن لقبض الخراج ، فامتنعا أن يأخذا الا دينارا معزيا ، فاتضع الدينار الراضى، وانحط ونقص من صرفه أكثر من ربع دينار ، وكان صرف المعزى خمسة عشر درهما ونصفـــا (55) .

ان هذه السياسة النقدية ، وما تستند اليه من رصيد ذهبى ضخم تؤكد من جديد أهمية السيطرة على مسالك تجارة الذهب فى الصراع الاموى ـ الفاطمى ، ولا يمكن ادراك أبعاده التاريخية الا فى نطاق هذه الرؤية ، وتدعم ما حاولنا خلال هذه الدراسة اثباته ، اى وجود سياسة مالية فاطمية دقيقة خاضعة لخطة بعيدة المدى ، ومرتبطة بالاهداف السياسية الكبرى للخلافة .

تعـــاليـــق

(1) ان القول : « ولم تسرف هذه الدولة فى جمع الضرائب » بعيد عن الواقع التاريخى الذى عرفته السياسة المالية للدولة الفاطمية . وردت الجملة المذكورة فى كتاب حسن ابراهيم حسن ـ طه أحمد شرف ، المعز لدين الله ، القاهرة ، 1947 ، ص 168 .

(1 أ) القاضى النعمان بن محمد ، رسالة افتتاح الدعوة ، بيروت ، 1970 ، ص 257 .

(2) محمد بن محمد اليمانى ، سيرة الحاجب جعفر بن على ، مجلة كلية الآداب ، الجامعة المصرية ، المجلد الرابع ، الجزء الثانى ، 1936 ، ص 108 ، أنظر أيضا : عريب بن سعد القرطبى ، صلة تاريخ الطبرى ، ليدن ، 1897 ، ص 51 وما يليها .

نلاحظ هنا أن الدعاة استمروا فى ارسال الاموال الى الخلفاء الفاطميين بعد تأسيس الدولة ، فقد كان المعز لدين الله تصله ، وهو فى المنصورية ، أموال من الدعاة فى اليمن والبحرين ، وعمان ، وفارس ، وخراسان ؛ فقد أشار القاضى النعمان فى « المجالس والمسايرات » الى « قدوم رسل بعض دعاة نواحى المشرق بأموال كثيرة ، قدموا بها من أعمال المؤمنين ، وطرائف وتحف » ، حسن ابراهيم حسن ـ طه أحمد شرف ، المعز لدين الله ، سبق ذكره ، ص 169 .

(3) سيرة الحاجب جعفر ، سبق ذكره ، ص 113 .

(4) ن. م.،ص 109 .

(5) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ليدن ، 1948 ، ج 1 ، ص 139 .

(6) راجع عن النظم المالية فى الاسلام بصفة عامة : أبو عبيد ، القاسم بن سلام ، الاموال ، القاهرة ، 1353 هـ ؛ القاضى أبو يعلى محمد بن الحسين الفراء الحنبلى ، الاحكام السلطانية ، القاهرة ، 1966 ؛ محمد ضياء الدين الريس ، الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية ، القاهرة ، 1969 ؛ ابراهيم فؤاد أحمد على ، الموارد المالية فى الاسلام ، القاهرة 1968 ـ 1969 .

(7) أنظر : القاضى النعمان ، الهمة فى آداب أتباع الائمة ، القاهرة ، د ت ، ص 66 .

(8) سورة التوبة 9/60 .

(9) الهمة ... ، سبق ذكره ، ص 68 .

(10) الاحكام السلطانية ، سبق ذكره ، ص 130 .

(10 أ) 2/150 .

(10 ب) الهمة ، سبق ذكره ، ص 68 .

(11) ن. م.،ص 68 وما يليها .

(12) الاحكام السلطانية ، سبق دكره ، ص 137 .

(13) الهمة ... ، سبق ذكره ، ص 69 .

(14) ن. م.،ص 69 ، 73 .

(15) راجع عن مفهوم الغنيمة فى الاسلام : الاحكام السلطانية ، سبق ذكره ، ص 136 وما بعدها .

(16) الهمة ، سبق ذكره ، ص 70 .

(17) ن. م.،ص 71 .

(17 أ) ويعرف أيضا بمال التقرب ، فكان الاستاذ جوذر مثلا « لا يجتمع له شيء من المال الا تقرب به الى مواليه الائمة صلوات الله عليهم » وبلغ هذا المال في احدى المرات فوق عشرة آلاف دينار ؛ أنظر : سيرة الاستاذ جوذر ، القاهرة، 1954 ، ص 47 ، وما يليها ؛ راجع أيضا ص 147 .

(18) ن. م.

(19) ن. م. ص 72 .

(20) أنظر : حسن ابراهيم حسن ــ طه أحمد شرف ، عبيد الله المهدى ، القاهرة ، 1947 ، ص 296 وما بعدها .

(21) رسالة افتتاح الدعوة ، سبق ذكره ، ص 172 .

(22) ن. م.،ص 131 .

(23) راجع : ابن عذارى ، البيان المغرب ، سبق ذكره ، ج 1 ، ص 131 .

(24) القاضى النعمان ، رسالة الدعوة ، سبق ذكره ، ص 141 .

(25) ابن عذارى ، البيان المغرب ، سبق ذكره ، ج 1 ، ص 141 وما يليها .

(26) ن. م.،ص 142 .

(27) أنظر القاضى النعمان ، رسالة افتتاح الدعوة ، سبق ذكره ، ص 260 .

(28) ن. م.،ص 127 ، 246 ؛ راجع أيضا : المقريزى ، اتعاظ الحنفا القاهرة ، 1967 ، ج 1 ، ص 67 .

(29) البيان المغرب ، سبق ذكره ، ج 1 ، ص 158 .

(30) الفتح 48/21 .

(31) البيان المغرب ، سبق ذكره ، ج 1 ، ص 150 .

(32) القاضى النعمان ، رسالة افتتاح الدعوة ، سبق ذكره ، ص 256 وما يليها .

(33) أنظر :

(34) البيان المغرب ، سبق ذكره ، ج 1 ، ص 181 .

(35) ن. م.،ج 1 ، ص 163 .

(36) ن. م. ، ج 1 ، 165 ، 166 ، 169 ؛ الدباغ ــ ابن ناجى ، معالم الايمان ، القاهرة، 1972 ، ج 2 ، ص 290 وما يليها . ويخبرنا الخشنى فى ترجمة ابى سعيد المعروف بالوكيل، وقد كان من أهل الحديث ، ومن ذوى الاموال الوافرة ، مات فى صدر دولة عبيد الله ، انه لما مات « نزل معلوم الكتامى ، وابن أبى حنزير ، وأبو زيد الباهرى على داره فأخذوا من داره أربعين الف مثقال سوى البز والجوهر » ، طبقات علماء افريقية ، الجزائر ، 1914 ، ص 174 وما يليها .

(37) ن. م.،ج 1 ، ص 170 ؛ راجع أيضا : صلة تاريخ الطبرى ، سبق ذكره ، ص 48 .

(38) راجع : البيان المغرب ، سبق ذكره ، ج 1 ، ص 181 وما يليها ؛ صلة تاريخ الطبرى ، سبق ذكره ، ص 80 .

(39) البيان المغرب ، سبق ذكره ، ج 1 ، ص 166 ، ص 168 وما يليها .

(39 أ) أبو على العزيزى الجوذرى ، سيرة الاستاذ جوذر ، القاهرة ، 1954 ، ص 43 ؛ أنظر أيضا ص 147 .

(39 ب) يبدو أن المبالغ التى يجمعها العمال من أعمالهم أصبحت تمثل المحك الاساسى فى الحكم على نجاح العامل ، أو فشله ، ويمكن للستقبلين أن يطالبوا بتولى شؤون عمل من الاعمال عن طريق ضمان مبالغ أكثر من الضرائب ؛ فلما تطاول العمال الى الزيادة على جعفر بن على فى عمله بالمسيلة كتب الاستاذ جوذر بذلك رقعة الى المعز يقول فيها : « يا مولاى ، صلى الله عليك ، هذا بلد كثر القول فيه ، وتطاول المتقبلون اليه فالواجب عقده على من طلبه ، ولا يذهب مال مولانا خسارة » ، سيرة جوذر ، سبق ذكره ، ص 129 وما بعدها ، ص 140 وما يليها .

(40) البيان المغرب ، سبق ذكره ، ج 1 ، ص 188 .

(41) ن. م.،ج 1 ، ص 215 .

(42) ن. م.،.

(43) ن. م.،ص 130 .

(44) ن. م. ، ج 1 ، ص 238 ، 240 .

(45) قال المعز موصيا يوسف بن زيرى قبيل رحيله ، الى القاهرة سنة 361 هـ : « ان نسيت ما أوصيناك به فلا تنس ثلاثة أشياء : اياك أن ترفع الجباية عن أهل البادية ... وافعل مع أهل الحاضرة خيرا » ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، سبق ذكره ، ج 1 ص 101 . وقد استمر ارهاق سكان البوادى فى العصر الصنهاجى ، يتحدث ابن عذارى عن عامل افريقية يوسف بن أبى محمد سنة 379 هـ ، فيقول : « فكان سكان أهل الحاضرة معه فى أمن وعافية ، وأهل البادية فى عذاب وغرامة » ، البيان المغرب ، سبق ذكره ، ج 1 ، ص 245 .

(46) الدباغ/ابن ناجى ، معالم الايمان ، القاهرة ، 1968 ، ج 1 ، ص 26 .

(46 أ) يبدو أن ذلك شمل سكان المدن فقط ، حيث اننا نجده يوصى خليفته على بلاد المغرب يوسف بن زيرى قائلا : « اياك أن ترفع الجباية عن أهل البادية ... » (راجع تعليق 45 ؛ انظر فى هذا الصدد أيضا : سيرة الاستاذ جوذر ، سبق ذكره ، ص 114 . هذا وقد حاول قبل رحيله فرض جباية خاصة على سكان بلاد كتامة ، فقد بعث المعز خفيفا الصقلبى ــ صاحب الستر ــ الى شيوخ كتامة يقول : «يا اخواننا قد رأينا ان ننفذ رجالا من قبلنا الى بلدان كتامة ، يقيمون بينهم ، ويأخذون صدقاتهم ومراعيهم ، ويحفظونها علينا

فى بلادهم ، فاذا احتجنا اليها انفذنا خلفها فاستعنا بها على ما نحن بسبيله » ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، سبق ذكره ، ج 1 ، ص 98 .

وجاء رفض شيوخ كتامة واضحا : « قل لمولانا والله لا فعلنا هذا أبدا ، كيف تؤدى كتامة الجزية ، ويصير عليها فى الديوان ضريبة ؟ وقد أعزها الله قديما بالاسلام ، وحديثا معكم بالايمان ، وسيوفنا بطاعتكم فى المشرق والمغرب ؟ » . ومن المعروف أن المعز تراجع ، وأجاب جوابا ديبلوماسيا قائلا : « بارك الله فيكم فهكذا أريد أن تكونوا وانما أردت أن أجربكم ، فانظروا كيف أنتم بعدى اذا سرنا عنكم الى مصر ، هل تقبلون هذا ، أو تفعلونه وتدخلون تحته ممن يرومه منكم ؟ والآن سررتمونى بارك الله فيكم » ، ن. م .

اننا نشك طبعا فى صدق جواب المعز على رفض شيوخ كتامة أداء الجزية التى حاول فرضها عليهم ، فليس من الحكمة السياسية أن يثير غضب الكتاميين قبيل رحيله الى المشرق ، ولكن السؤال الذى يطرح نفسه هنا : ما هو السبب الذى يكمن وراء هذه المحاولة فهل هو سبب سياسى يهدف الى تركيز الحكم الفاطمى فى المجتمع الكتامى قبل نقل مركز الخلافة الى القاهرة عن طريق الجباة لجمع الصدقات والاموال ، وليضمنوا أولا وبالذات ولاء كتامة، ولا سيما أن خلافة الفاطميين بالمغرب قد أسندت الى الصنهاجيين ؟ ام هو سبب مالى ، فقد أراد المعز ان يضمن دخلا قارا ومستمرا للخلافة من منطقة جغرافية عرفت بطاعتها للفاطميين ، كان لها دور كبير فى مد الدعوة بالاموال فى مرحلة الاستتار ، وذلك بالرغم من الثروة الذهبية الضخمة التى أعدها المعز للرحيل الى المشرق ؟ فهل ادرك ان سيطرة الدولة الفاطمية على المسلك الغربى لتجارة الذهب ستنتهى بعد الرحيل الى القاهرة ، وسيسيطر عليه الامويون ؟

(46 ب) ونلاحظ هنا ان الخلافة جددت فى ميدان السياسة الجبائية ، وطورت بالخصوص أساليب جمعها ، فهنالك نص فاطمى يشير الى أن المعز لدين الله قد منع العمال من جمع جباية أكثر من سنة ، وطالبهم بان يدفعوا جباية كل سنة عند انقضائها احكاما لدخول الاموال بصورة منتظمة ، وخوفا ان يؤدى التأخر فى دفعها الى العجز عن الوفاء بها بعد ذلك ، فقد كتب الى الاستاذ جوذر يقول : «وأمرنا أصحاب الدواوين أن لا يقبلوا من العمال الا اتصال ما لكل سنة عند انقضائها ، فمن عجز عن الوفاء فى أول سنة كان عنه فى التى تليها أعجز ، وتلافى النظر فى الاول أحق من النظر فى ادبار الامور » ، سيرة الاستاذ جوذر ، سبق ذكره ، ص 96 .

(47) البيان المغرب ، سبق ذكره ، ج 1 ، ص 173 .

(48) ن. م. ج 1 ، ص 181 .

يبدو من بعض النصوص أن جباية «التقسيط» و «التضييع» كان مرهقة للفلاحين ، وادت الى فقر الكثير منهم ، يخبرنا الخشنى فى ترجمة أبى جعفر أحمد بن أحمد بن زياد (توفى سنة 318 هـ) انه كان من أهل النعم فى منشئه « ثم امتحن فى آخر عمره بمغارم السلطان الحادثة على أهل الضياع فانكشف »، طبقات علماء افريقية، سبق ذكره، ص 163 . وحدث ما يشبه هذه الحالة مع مالك بن عيسى القفصى ، فقد « امتحنه عبيد الله الشيعى

بصحبته ، وبتعديل الارض له لتوظيف الخراج الذى يسميه المقسط » ن. م. ص 174 .
وبلغ مبلغ « التضييع » الموظف على ضيعة الزيتون لابن زياد ستين مثقالا ، وهو مبلغ كبير بالنسبة لذلك العصر ، ويبدو أنه جباية سنة واحدة ، ولكن النص لا يشير الى أهمية الضيعة ، والى عدد الزياتين بها حتى نستطيع أن نعرف بالضبط مدى عبء جباية « التضييع » هذه ، ولكنه يفيدنا حول نقطتين :

أولا — ان الانتاج الزراعى (غلة الزيتون فى هذه الحالة) يبقى مرهونا حتى يدفع « التضييع » .

ثانيا — أن عبيد الله المهدى كان شديدا فى استخلاص هذا الخراج ، ولا يقبل فيه أى تدخل ، فلما حاول ابن زياد التوسط لديه لتخفيف من المبلغ أجيب « أن هذه المغارم لم يفتح السلطان قط فيها بابا من التخفيف لولد من أولاده ، ولقائد من قواده » ، ن. م. ص 169 .

(49) ن. م. ص 186 .

(50) البكرى ، المسالك والممالك ، الجزائر ، 1857 ، ص 30 .

(51) ن. م.

(52) أنظر Robert, D. et S. — J. Devisse, Tegdaoust I, Paris, 1970, p. 144

(53) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، سبق ذكره ، ج 1 ، ص 94 .

(54) ن. م. ص 100 .

(55) المقريزى شذور العقود فى ذكر النقود ، النجف ، 1967 ، ص 26 وما يليها .
ومما يدل على أهمية السياسة المالية فى حياة الدولة الفاطمية اننا نجد مسألة الاصلاح النقدى ، وفرض العملة الفاطمية كانت فى طليعة المسائل التى أهتم بها القائد الفاطمى جوهر الصقلى غداة دخوله مصر ، فقد أمر سنة 358 هـ ، بفتح دار الضراب ، وضرب السكة الحمراء ، وعليها « دعاء الامام معد بتوحيد الاله الصمد » فى سطر .

وفى سطر آخر « المعز لدين الله أمير المؤمنين » .

وفى سطر آخر « باسم الله ضرب هذا الدينار بمصر سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة » ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، سبق ذكره ، ج 1 ، ص 115 وما يليها .

وذكر فى رسالة الى سكان مصر عزمه على « تجديد السكة وصرفها الى العيار الذى عليه السكة الميمونة المنصورية المباركة ، وقطع الغش منها » ن. م. ، ص 104 .

وقد قوبل هذا الاصلاح النقدى بمعارضة من السكان ، ولا سيما من الصيارفة ؛ فاضطر المحتسب سليمان بن عزة المغربى أن يعزل جماعة من الصيارفة ، وهم جوهر « باحراق رحبة الصيارفة ، لولا خوفه على الجامع » ، ن. م. ص 132 .

فكرة الإلـزام فى الأخـلاق والقانون (1)

بوعبد الله غـلام الله
مفتش عام للتعليم الثـانوى

تقـديـم :



أود أن لا أبدأ هذا الحديث قبل الاشارة الى أنى لا أريد هنا أن أقدم معلومات الى أناس هم فى حاجة ليها ، ولا أدعى انها محـاضرة بأتم معنى الكلمة ، يستمع اليها الناس فيستحسنون منها ما استساغوه ويردون منها ما لم يطب لهم ... اذ لو كانت تلـك غايتى لاخترت موضوعا أقرب الى اختصاصى منه الى اختصاصكم ، ولاخذت لنفسى من الوقت والاعداد أكثر مما اتيح لى بالنسبة الى هذا الحديث . ولكن ايمانى بجدوى المناقشة والحوار وثقتى فى تكامل العمل البناء الذى نقدمه معا الى مجتمعنا الناهض ، سواء فى المدرسة أو فى ميدان التشريع والقضاء هما اللذان أمليا على حديث هذا اليوم الذى لم أقصد من ورائه سوى طرح بعض المشاكل المشتركة بين التربية والعدالة ، واعتقد أن الاشتراك فى مناقشة بعض المشاكل الاخلاقية والتربوية سوف يساعدنا على توحيد النظرة وتحديد الاهداف المشتركة والعمل معا على تحقيقها او

(1) محاضرة القيت فى مركز اعادة التكوين الثقافى فى الدار البيضاء بالجزائر .

الاقتراب منها قدر الامكان • فكل من التربية والعدالة تهدف الى تكوين المواطن الصالح والى دعم الاخلاق الكريمة فى المجتمع وحمايته من دواعى الفساد ومزالق الانحراف •

وكل منهما تحدد موضوعا لعملها شخصية الفرد كمواطن وانسان • ولا شك فى أن تكامل عملها يتوقف على توافق نظرتهما الى موضوع العمل الذى هو الانسان ، وعلى وحدة مفهومهما لماهيته ورسالته ، وعلى اتفاقهما فى تحديد المجتمع ووظيفته ، وعلى تطابق فكرتهما عن التخلق بالاخلاق الكريمة ومعوقاته . وعلى أن التقويم عمل أو تقنية يجب أن يصدر عن العلم وأن يتطور بتطور مكتشفاته •

يجب أن نميز منذ البداية بين الاهداف الاخلاقية السامية التى نرمى اليها وبين الوسائل التى نستعين بها للتوصل الى تلك الاهداف من جهة ثانية وبين الصور العملية المشخصة التى تتحقق من خلالها تلك الاهداف •

واذا كانت القيم الاخلاقية والاهداف السامية واحدة لا ينالها التحول والتغيير فان الوسائل متوقفة على تقدم معرفة الانسان واكتشافاته ومخترعاته ، أما الصورة المشخصة فمتوقفة من جهتها على مختلف الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والتقنية السائدة فى عصر ما ، وفى مجتمع ما ، والتى لا تثبت على حال ، ولا تتطابق فى كل المجتمعات ولا فى جميع الازمنة •

ونحن عند ما نتكلم عن الاخلاق هنا : نعنى تلك القيم الانسانية العليا الخالدة نفسها ، وليس تجلياتها الزمنية ولا أعراضها المتغيرة • فتلك القيم العليا وحدها هى التى تستطيع ، بأثرها فى النفس وتطلع الانسانية اليها ، أن تكون مصدرا للالزام •

يعد الالزام احدى الخاصيتين الاساسيتين للامر الاخلاقى ، لان هذا الامر يتجلى فى الضمير على صورة قوة قاهرة تفرض نفسها من أعلى ، وترفض كل مناقشة ؛ وأما الخاصية الثانية للامر الاخلاقى فتتمثل فى كونه يظهر للضمير على أنه شيء مستحسن ، ومرغوب فيه ، وأن الخير مطلوب لذاته ، وأنه هو معيار القيم الخ ••• واذا كان الواحد منا يهب تلقائيا الى القيام بالعمل الصالح ، ويرضى عن فعله ، بل ويرغب حتى فى أن يشاركه الناس فى هذا الرضا ، فما ذلك الا لانه يجد أن هذا العمل الصالح تعبير عن

حقيقته الذاتية ، وأنه استطاع أن يصدر عن نفسه كما يراها ؛ وعند ما تتعلق همة المرء باتيان عمل مناف للاخلاق لا يقدم عليه مباشرة ، وانما يتردد ، وأحيانا يتغلب على هواه فيتوقف ، وحتى عندما تزل به القدم فانه يستنكر عمله ويتخفى ، وقد يعلن التوبة • فما سبب هذه المواقف ؟ انها مقاومة الامر الاخلاقى الذى لا يمكن أن يخرج عنه الانسان الا وأحس بالخروج عن ماهيته وحقيقته ، ويعتبر عمله انحرافا لا يريد ان يظهر به أمام الناس ، لانه لا يريد أن يعرفه الناس على غير حقيقتـــه التى يرتضيها لنفسه ، وهنا نعثر على بذرة **الالتزام** •

ان الانسان هو الكائن المادى الوحيد الذى يعمل ويعى عمله ، ثم يقيم هذا العمل ويحكم عليه ، ويقيم نفسه بالتالى من خلال ذلك العمل • ان الذات هنا سرعان ما تتجاوز منجزاتها لتتخذ تلك المنجزات موضوعا للحكم • وليست تتم هذه العملية دائما فى حالة من الوعى واليقظة ، بحيث يعرف الانسان ما يفعل ، ولهذا فكثيرا ما يبالغ الانسان فى الحكم على أفعاله اما بالقسوة أو التباهى ، مما يكون سببا فى بعض الامراض النفسية التى يتحدث عنها التحليل النفسى • لكن الذى يهمنا هنا أساسا هو هذا الوعى نفسه، **وعى الذات لافعالها وتقييم هذه الافعال والحكم عليها** • فهل يمكن أن يتم ذلك الوعى والتقييم لو لم يكن الشخص يشعر بامكانيات يصرف فيها الفعل، أى لو لم يكن يشعر بان الفعل كان من الممكن أن لا يكون ، أو كان من الممكن أن يأتى على صورة غير الصورة التى أتى عليها ؟ وما هذا الشعور الا وعى للحرية • لا شك فى أن الانسان يعى ذاته الى بها ينخرط فى سلك الوجود ، وليس هذا الوعى مجرد انعكاس مرآتى سلبى ، يتوقف على التقوقع فى الذات ، كجوهر ثابت ، وانما يتم هذا الوعى عن طريق الفعل الذى سجله الانسان فى الواقع ، والذى يشخص به ارادته وأفكاره ، فى صورة منتجات تاريخية ، ويغير به الاشياء المادية الخام فتأخذ صورة الافكار • ومهما تم ذلك الوعى عن طريق الفعل فانه لا يمحى فى الفعل ولا يذوب فيه ، وانما يضم الفعل ويحتوى عليه ، ويقارنه بالصور الممكنة التى كان يستطيع أن يخرج فيها ، ثم ينزله منزلـــة أخلاقية ، يستقيها من مكانة الصورة التى جاء عليها الفعل بين الصور الممكنة الاخرى •

ولو بحثنا عن قيمة الانسان كانسان لما وجدناها تخرج عن هذا الوعى العميق بالفعل وتقييمه • وما هذا الوعى فى الحقيقة الا حرية الانسان •

فالانسان بهذا المعنى موجود لذاته ، لان الكون مسخر له وليس هو مسخرا لغيره ، وهو موجود حر ، لانه يعمل ويقيم عمله •

واذا كانت انسانية الانسان لا تتمثل الا فى الافراد المشخصين ، ولا تتحقق فى الواقع التاريخى الا بواسطتهم ، فان هؤلاء الافراد لا يستقل كل واحد منهم بحرية مفصولة عن حرية غيره من الناس ، كما يستقل بجسمه وشخصه ، وانما الحرية واحدة مثل الكرامة والعقل ، يشارك كل الافراد فى تحقيقها ، دون أن يستأثر بها أو بجـزء منها فرد دون آخر •

واذا كان المقام هنا لا يتسع لتحليل أنواع الحرية أو الحريات ، فانها جميعا ترجع فى حقيقة الامر الى ذلك المعنى الذى أشرنا اليه والمتمثل فى وعى الذات عن طريق العمل ، وتقييم العمل •

وهذه الحرية المتمثلة فى شعور الانسان بقدرته على العمل ، وفى تقييم العمل هى مصدر المسؤولية الاخلاقية • ان الانسان الواعى لوجوده وحريته لا يمكن أن يتم له ذلك الوعى الا من خلال نسق من القيم، يوافقها الفعل أو لا يوافقها • وما وجهة الانسان الاساسية لموافقتها ، وتردده تجاه الافعال التى تبعده عنها ، ثم أسفه وندمه عن عدم مطابقتها واحترامها ، ما ذلك كله الا تعبير عن شعور الانسان بحريته والتزامه •

من الاكيد أن الحرية التى نتحدث عنها هنا ، والتى هى أساس المسؤولية الاخلاقية، ليست حرية ميتافيزيقية مطلقة ، تنافى الحتمية وتناقضها • لان طرح مشكلة الحرية على أساس أنها انطلاق أو خروج عن قوانين الطبيعة يجعل تصورنا للحرية غامضا ومتناقضا ، لا يفهمه العقل ولا يستصيغه ، لان العمل ، أى عمل نحققه فى العالم الخارجى لابد أن ينفذ فى المادة ولا تستطيع المادة أن تخرج عن قوانين الحتمية • كما أن تصور الافعال مقطوعة عن أسبابها أمر مخالف لتصورات العقل الذى يتمثل العالم حسب مبادىء لا شك فى أنها ترسبت فيه خلال آلاف السنين من العمل ومواجهة الطبيعة

والمجتمع . ان الحرية التى نعنيها هنا تتمثل فى اتجاه الشخص الى استخدام قوانين الطبيعة بهدف السيطرة على الطبيعة نفسها ، وهى بهذا المعنى تتسع لعدد كبير من الحريات ، يتجاوزها الانسان وينميها من حيث الكم والكيف . ان التحرر يتمثل فى انتصار الكائن البشرى على الطبيعة وفى تمكنه من حل الكثير من الغازها ، قصد المزيد من التعرف والسيطرة عليها ؛ ويتمثل التحرر فى المستوى الاجتماعى على أنه حل أصيل للمشاكل التى تطرحها الوضعية التى يوجد فيها الشخص ، فهو بهذا المعنى تخلص وانعتاق من الحلول الموروثة ؛ ولا يقتصر الفعل الحر على حل المشكلات الناجمة عن علاقاتنا مع الغير فقط ، بل انه يتمثل بصورة أعمق فى مواجهة المشاكل التى تطرحها علاقة الانسان بالعالم . لقد كان الانسان فى بدء حياته مبدا للكون ، ضائعا فى عالم كله قسوة وعداء . وكان مفروضا عليه أن يبحث عن الغذاء والمأوى والدفء وان يحمى نفسه من الحيوانات المفترسة ومن عوادى الطبيعة القاسية . وقد استطاع الانسان بفضل ذكائه أن يحرر نفسه باخضاع العالم المحيط وبالسيطرة عليه، فقد تحول من عبد للكون الى سيد فيه ، يسخره ويرضى فيه حاجاته ، ويضمن أمنه ، وهذا كلما تقدم فى فهمه لحتمية العالم وفى استعمالها . ان معرفة الحتمية الطبيعية واستعمالها سوف يتحولان أداة فى يد الانسان ليتحرر . وعليه فسؤال الميتافيزيقيين : « هل الانسان حر أو مجبر » سؤال فاسد ، لانه سؤال وضع فى مستوى التجريد . انه بمثابة أن نسأل : « هل الانسان شقى أو سعيد ؟ وهل هو غنى أو فقير ؟ » ، والواقع أن الحرية ليست شيئا مما تتصف به الطبيعة المادية للبشر ، من حيث هى كذلك ، وانما هى نتيجة تحرر أو غزو . فهى تؤخذ ولا تعطى كما يقال ، أو هى على حد تعبير/ برونشفيك/« ليست شيئا ما يعطى ، ولكنها شيء علينا أن نفعله » . ولا نفعله خضوعا للحاجة وحدها ، ولا جريا على عادة سابقة . ان الفعل الحر تاليف ، أو تركيب جديد للنزعات ، أصيل واع ، وفى نفس الوقت اتجاه للتحقق فى العالم الخارجى .

الواقع أن كل فعل يصدر عن نزعات ، ويجد أسبابه الحقيقية فى حاجات الانسان باعتباره كائنا اجتماعيا ، ولكن الانسان ، من حيث هو قادر على التفكير ، لا يستسلم

تلقائيا الى الدوافع الاولى ، وتتمثل ارادة الانسان فى عملية الكف ، أى العملية التى يعارض بها الدوافع والبواعث ، ويتخذ موقفا ٠

واذا اعتبرنا سلوك الكائن الحى رد فعل على وضعية ما فانه توجد بالنسبة الى الانسان فجوة تفصل بين الوضعية ورد الفعل ، هى فجوة الشعور والتفكير ، فهـو يتصور الفعل قبل أن ينفذه ، وهو يحمل البيت فى رأسه أولا وقبل أن يبنيه فى الواقع كما يقول ـ كارل ماركس ـ ٠ فالفعل الواعى يتقدم على نفسه فى صورة امكانية متصورة أو فى صورة مشروع وضع كغاية فى المستقبل قبل أن ينفذ ، وما دام وضع كغاية فانه يخضع ـ كذلك قبل تنفيذه ـ لحكم معيارى ٠ فان يتصرف الانسان تصرفا حرا يعنى أنه يعرف ما يريد ، وأنه يعى الضرورات الاساسية لشخصه ، ويعنى رفض الخضوع لجموح النفس ، ورفض بعض الرغبات التى مهما كانت عميقة ، فانها تقود الانسان الى القيام بأعمال لا تشبهه ٠ يقول أبو حامد الغزالى : « الذى يقهر شهواته هو الحر بالتحقيق » ٠

قلنا بان الفعل الحر ليس تلقائيا ، وانما هو تأليف واع ، وكل تأليف يتضمن سلما من القيم ٠ وليس سلم القيم موحدا عند جميع الشعوب ولا حتى عند جميع الافراد ، وليس سلم القيم ثابتا بالنسبة الى الفرد الواحد ٠ فاذا تصورنا سلما تصاعديا مثاليا للقيم يبدأ أسفله بالقيم البيولوجية الاولية وينتهى فى قمته بالمثل الاعلى للخير والحق والجمال ، فان بين هذين الطرفين درجات ، يدرك الفرد جزءا منها ، ولا يرى كل السلم ٠ والجزء الذى يدركه يتوقف على درجة معرفته وتربيته ، وهو لا يدرك ذلك الجزء الا فى ضوء الوضعية الراهنة التى يكون فيها ٠

ومما يؤكده علماء النفس المعاصرون أن الانسان ليست له دوافع ثابتة ومتساوية كما ترى نظريات الغرائز ، وانما تنبع دوافعه حسب الوضعية التى يكون عليها ٠ فاذا كان الفرد فى وضعية تحرمه من ارضاء الحاجات البيولوجية الاساسية ، فانه لا يتصور العمل بمقتضى القيم الاعلى ، حتى ولو سبق له أن عرفها من قبل ٠ ومما يحكى أن عمر بن الخطاب عندما اتجه الى فلسطين يتفقد جيش المسلمين اتفق أن لحقت بالجيش خصاصة فى الطعام ، فدخل الجيش بغير استئذان بستان أحد الاهالى وكان عنبه

ناضجا . وقد فزع صاحب البستان لهذه الجائحة فأسرع يشكو أمره الى عمر ، وجاء عمر بنفسه ليشاهد ما يجرى ، واذا به يرى أول من يرى من الجنود أبا هريرة الصحابى الورع ، راوى الحديث عن رسول الله (ص) ، فما كان من عمر الا أن دهش وقال : وأنت أيضا يا أبا هريرة . فخجل الصحابى الجليل وقال ما معناه : نعم يا أمير المؤمنين، ولكن الجوع بلغ منا مبلغا خرج بنا عن الصواب . فهؤلاء صحابة الرسول وجنـــود الاسلام غابت عنهم القيم العليا لما حرمت حاجاتهم الاولية . والمثل الشعبى عندنا يقول : « كى تشبع الكرش اتقول للراس غنى » .

واذا لخصنا ما تقدم فى كلمة واحدة أمكن القول بان ظهور الحاجة لدى الكائن البشرى يجعله يتصور الفعل الذى يرضى به تلك الحاجة ، ويقيمه على ضوء سلم من سلم القيم ، وليس هناك أى تدخل لعنصر غريب يتعذر تصوره ويعز مناله .

واذا اتخذنا السلوك الاخلاقى موضوعا للنظر فى هذه الوجهة ، ومن خلال مفهومنا للحرية أمكن أن نقول بان الفعل الاخلاقى الحر هو الفعل الذى فكر فيه صاحبه بنوره الخاص ، لم يخضع فيه لعادة ولا تقليد ، ومن هنا **فهو ملتزم به** . وحتى عندما يخرج الانسان فى سلوكه الواقعى عن القيم التى يراها تحقق ذاته وتعبر عن شخصيته فانه يستنكر من نفسه ذلك الفعل كما سبق أن قلناه ويعلن عن تمسكه بالقيم التى حاد عنها . بل وفى كثير من الاحيان نراه ينسب ذلك الفعل البغيض الى دوافع أخرى خارجية عنه ، ولا يعد فعله جديرا به . فهو يتهم القدر أو يتهم الهوى والغوايـــة والعمى الخ ... ان القيم العليا لا تحقق الزامها فى الواقع الا عن طريق هذا الالتزام، **والجانب الصدورى فى الامر الاخلاقى هو الذى يؤكد الجانب الالزامى ، ويضفى عليه المشروعية** . وسرعان ما يفقد الجانب الالزامى المتعالى قدرته وفعاليته اذا ما تخلى عنه الجانب الصدورى الذاتى وسحب منه اعتباره . وهذا التحول الطارىء على الجانب الصدورى هو العامل الاساسى فى تطور محتويات القيم الاخلاقية ، هذا التطور الذى يخضع للشروط الاجتماعية والمادية التى تتجسد فيها تلك القيم . وكثيرا ما اعتقد الباحثون أن هـذا التطـور يصيب القيم نفسها ، وهو خطأ ناتج عن التباس القيمة بمحتواها وطريقة التعبير عنها .

ان الجانب الصدورى اذن هو الاساس ، وان قيمة ما لا تعتبر ملزمة لى أخلاقيا ، يعنى أنى لا ألتزم بها اذا لم أقتنع بها • وعدم الاقتناع هذا قد يكون نتيجة التحليل والتدبر والتفكير ، كما هو الحال بالنسبة الى المصلحين الاجتماعيين الكبار الذين يعلنون الثورة على القشور الجافة التى يتمسك بها الناس عادة ويتخذونها معيارا لسلوكهم ، وذلك عندما تفقد تلك القيم الجوهر الحقيقى الذى صدرت عنه ، أى عندما تصبح قيما محنطة ؛ وقد يكون عدم الاقتناع ناتجا عن قصور فى التحليل والتدبر والتفكير مثل ما هو الحال عند العامة ممن لم ينالوا قسطا كافيا من التربية والوعى • ومما يذكر أن النبى (ص) ، كان يدعو ربه فيقول : اللهم أرنى الحق حقا فاتبعه وأرنى الباطل باطلا فاتجنبه • ومهما تكن صحة هذا الحديث فانه تعبير صادق عن هذه الحقيقة ، وهى أن القيمة لا تلزمنى الا بمقدار ما أراها والتزم بها • وما المدينة الفاضلة التى تخيلها الفلاسفة فى القديم الا مدينة أناس كشف عنهم الحجاب فرأوا الحقائق كلها ساطعة فتعلقوا بها، وما كان لهم أن يحيدوا عنها فى سلوكهم • فهى لا مكان فيها للطبيب، لان الناس انما يتعرضون للامراض بسبب افراطهم فى الطعام وعدم مراعاتهم لقواعد الصحة، وأهل المدينة الفاضلة يعرفون ذلك فيعتدلون ويتبعون طرق الوقاية ؛ والناس ـ من جهة أخرى ـ يرتكبون الجريمة عندما يجهلون قواعد السلوك الاخلاقى الفاضل ، وأهل المدينة الفاضلة يعرفون تلك القواعد فلا يحيدون عنها، ولهذا فهى مدينة لا مكان فيها للقاضى والمحامى والشرطى وغيرهم من رجال العدل •

قلنا ان الالتزام بالقيم هو الاساس فى الزامها لنا ، ومتى انعدمت دعائم الالتزام عند شخص ما ، وهى المعبر عنها بالوعى والحرية والرشد • فان الالزام أو التكليف يسقط عن ذلك الشخص • لان الامر لا يتوقف على وجود القيمة فى حد ذاتها ، وانما يتوقف على اتجاه الشخص وامكان التزامه بها • بل ان القيمة الاخلاقية لا تملك وجودا حقيقيا مستقلا ومفارقا ، أى لا تقوم بذاتها كما هو الحال فى المثل الافلاطونية ، وانما هى تقوم فى ضمير الشخص الذى يعيها ، ووجودها الحقيقى يتوقف على هذا الوعى وليس على الضمير فقط • ومتى لم يعها الشخص فهى فى الحقيقة غير موجودة ومن ثم فهى غير ملزمة •

وهنا نتساءل هل يمكن أن يوجد ـ بالنسبة الى الشخص الحر الواعى ـ الـزام من نوع آخر غير هذا الالزام المتجسد فى ضميره ، والمبنى على أساس الالتزام ؛ جاء فى القرآن الكريم « **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما** » . ولكن متى يسلـــم الشخص ؟ اتظنون أنه يسلم قبل أن يرى الحق ويقتنع به ؟ ان ما يطلب من المحكم هنا لاشـد وأصعب وأقوى مما يطلب من المحكم . اذ كل ما يطلب من المحكم لكى يرتضى الحكم ويسلم به هو أن يقتنع ، وليس اقتناعه متوقفا عليه وانما يتوقف على الحكم نفسه وعلى ما يتمتع به من علم وحكمة ونزاهة وصدق والتزام تام بالقيم التى يعتمدها فى حكمه بين الناس .

ولنطرح المشكل من الاساس . مما هو ثابت ومتفق عليه فى جميع الشرائع أن الشخص اذا فقد ما دعوناه بدعائم الالتزام ، وهى الوعى والحرية والرشد ، فان القضاء لا يجرى عليه مهما ارتكب من الجنح ، وأن هذا الشخص لا يعتبر مسؤولا من الناحية الجزائية ولا من الناحية المدنية . وحتى عندما يطالب وليه بالتعويض بالنسبة الى المسؤولية المدنية فليس ذلك بسبب الذنب الذى ارتكبه الجانى ـ اذ لا يعتبر مذنبا ـ وانما يرتكز التعوض على أساس التفريط من طرف الولى أو على أساس فكرة الخطر ، اذ كل من أدخل خطرا الى المجتمع مفروض فيه أنه يعرف مدى ما يعرض له الناس من خسائر ، ومفروض فيه كذلك أن يلتزم بتعويض الخسائر التى قد يتسبب فيها ، وذلك مقابل السماح له بممارسة الحق فى الاستمتاع بالاشياء أو الاشخاص الذين هم مصدر ذلك الخطر المتوقع . فانتم ترون هنا بان فاقد دعائم الالتزام ـ حتى فى المسؤولية المدنية ـ ليس هو المسؤول وانما المسؤول وليه أو من ضمن فيه . وكذلك الامر فيما يتعلق بشدة الاحكام أو تخفيفها ، **فانه لا يتوقف على الاهمية الموضوعية فى جرم ما ، بقدر ما يتوقف على حالة الفاعل عند ارتكاب الجـــرم وعـــلى مقاصده الشخصية .** وهكذا فان القتل العمد أشد خطرا مما لا يقبل المقارنة مع القتل الخطإ (رغم أن الخسارة الواقعية واحدة) ، والقاتل عمدا يعتبر أكبر ذنبا اذا ارتكب جريمته مـــع سبق الاصرار .

ولا شك فى أن كل من واجه مشكلة القضاء قد عانى من الصعوبة المعقدة المتمثلة فى تحميل المسؤولية للغير · والواقع أن هذا أمر دقيق جدا ونسبى · وحتى فى عصر التقنية اليوم ، والاعتماد على قياس الموجات الكهربائية للدفاع بواسطة « رسام كهرباء الدماغ » فان تجريم المتهم بالاعتماد على تقنيات غير تامة ، وزمنية أمر لا يدعو الى الارتياح · فمنذ خمسين سنة مثلا صدرت أحكام تدين أشخاصا لو توفر لهم ما يتوفر لامثالهم اليوم لامكن أن يعتبروا مرضى لا تتوفر فيهم شروط المسؤولية · وما يقال عن أولئك يقال عن مجرمى اليوم اذا نظرنا اليهم فى ضوء ما سوف يتوصل اليه العلم من تقنيات جديدة · اننا لا نزال نشاهد أن قرارات هيئة التحكم تتوقف على شطارة المحامى وسمعته أكثر مما تتوقف على (حالة الجريمة) نفسها ، وهو أمر لا يقدم كثيرا من الضمانات ، باعتبار أن القرار يهدف الى أن يتوافق مع (قيمة العدالة) أو الى أن يسير فى **اتجاه تلك القيمة على الاقل** ·

وهذه الصعوبة المتوقفة على الاجتهاد مصدرها أن تلك الدعائم ، دعائم الالتزام التى تحدثنا عنها ليست شيئا مما يظهر من الخارج ويخضع للقياس كما تخضع له ظواهر الطبيعة · فكون الشخص عاقلا ، يعنى خاليا من كل مرض يفسد حكمه وقت اقدامه على العمل ، أمر يستحيل التأكد منه فى الوقت الراهن ، ويصعب التأكد منه حتى فى حالة الاقرار ، لان الاقرار يستند الى الذكرى ، والذكرى مهما كانت صادقة فانها لا تجاوز أحداث الفعل الظاهرة ودوافعه الشعورية ، ولكنها لا يمكن بحال أن تتناول ظروف الجريمة ولا دوافعها اللاشعورية ، اللهم الا اذا كنا نسلم بان هناك من يرتكب الشر مختارا ، وهذا أمر لا يمكن أن يقبل به عقل نير سليم ·

ان تحديد مسؤولية الغير أمر لا يمكن أن ينصب مباشرة على الموضوع ، اننا نفكر بالمماثلة كما يقول المناطقة ، وذلك بان نفرض أن الغير يوجد فى نفس الشروط التى أوجد فيها أنا ، وبما أنى استحسن القيم العليا واستقبح فعل الشر ، فلابد أن يكون هو مثـلى · واذا ما أقدم على سلوك يخالف رأيى هذا فهذا دليل على أنه لم يكن لديه أى دافع يدفعه الى فعل الشر ، والا لاحسست به أنا ، وما دمت لم أجد أنا ذلك الدافع فلابد أن يكون لديه ميل خاص ، شاذ الى فعل الشر ، وبذلك فانه يستحق الادانة ·

وهكذا نجد أنفسنا مدفوعين الى أن نصدر أحكاما قاسية على رجل يقتل أمه أو أباه ، لانه فعل يرعبنا نحن ويظهر لنا شنيعا بمقدار ما يتنافى مع مفهومنا الخاص عن الخير وفى مقابل هذا نجد أنفسنا مستعدين لان نوافق على أوسع الظروف المخففة بالنسبة الى من أجهز على زوجته الخائنة وعشيقها معا فى فراشه · لاننا نتخيل أنفسنا مكانه ·

ان القياس التمثيلى موقف طبيعى فى الانسان ، ومتى تركه يعمل تلقائيا فانه يتجه بطبيعته الى خدمة الحساسية وعواطف الغيره واتجاهات العدوان الخ ··· وهكذا نجد الصعوبة نابعة من ذات الشخص الذى نطلب منه اصدار الحكم . وهذا قبل أن تكون صعوبة فى المدعى عليه أو المتهم · اذ كل قرائن المتهم مشكوك فيها حتى اقراره ، ولكن قل ما نجد القاضى يشك فى الدوافع الخاصة التى تدفع هيئة التحكيم أو تدفع المستشارين أو حتى القاضى نفسه لاصدار الحكم · ومهما تكن قيمة هذا الموقف من الناحية التقنية ، فانه من الوجهة الاخلاقية لا يمكن أن يعتبر حكما عدلا ما لم تتوفر فيه بعض الشروط ، وفى مقدمتها شرط الاجتهاد · ولا يتمثل الاجتهاد فى عملية اصدار الحكم وانما يتمثل أصالة فى التحليل الذى يجريه المجتهد للوضعية ولنفسه هو ودوافعه · ولهذا كان أسلافنا يطلبون من القاضى أن لا يحكم فى حالة الحاجة الجسمية مثل الجوع والعطش ··· ولا فى حالة الانفعال ، وأن لا يحكم فى حالات يعرف أصحابها أو تربطهم به علاقات مصلحية أو عاطفية مهما كانت ، وما ذلك الا طلبا للنزاهة · ولا تتمثل النزاهة فى كون القاضى لا يلحقه نفع مادى من جراء الحكم ، ان هذا أمر بديهى . ولكن النزاهة فى رأينا تتمثل فى أن يجتهد القاضى اجتهادا يجعل حكمه مبرأ من كل دافع شخصى أو هوى ذاتى ، وأن يهدف بحكمه الى التربية ومساعدة الاشخاص على وعى أسباب أعمالهم والتغلب على دوافعهم ، والتحرر من العوائق الشعورية واللاشعورية التى تصاحبهم وتحول دونهم ودون القيم العليا التى يطمحون الى تحقيقها ·

واذا كان تقبل الحكم من طرف المتهم والتزامه بالقيمة التى نطالبه بها يعدان معيارا لصدقه واخلاصه وايمانه فان تقبل الحكم والالتزام بالقيم ليس مما ينزل على المتهم الضعيف من السماء ، وانما هو أمر نساعده نحن على تحصيله · وما لم يحصل هذا

فلا نعتبر أنفسنا قد أدينا المهمة المنوطة بنا مهما كان عدد الاحكام التى اصدرناها وعدد الملفات التى طويناها ٠

اننا هنا (فى حالة اصدار الحكم) لا نجبر ما فات ، لان ما وقع قد وقع ولا يمكن الرجوع فيه ولو اجتمعت له قوة الاولين والآخرين ، وانما همنا هو أن نعتبر مثل هذا العمل مما يصدر عن الانحراف ، ومهمتنا هى أن تضيق شقة الانحراف ، أن نساعد المواطن وناخذ بيده ليعرف نفسه وقيمته ، وليكون فعله مستقبلا مما يحقق تلك القيمة المرغوب فيها ، انها اشبه ما تكون بمهمة الطبيب ٠

وتصوروا معى طبيبا يدين مريضه لانه لم يلتزم الحمية أثناء العلاج ٠ ماذا يمكن أن تنفع الادانة ؟ لا شك أنه سيكون أفشل طبيب على وجه الارض ٠

واذا كانت مهمتنا تتمثل فى هذا الغرض الاخلاقى الاجتماعى النبيل ، وهى أن نجعل الناس يتعرفون أنفسهم ويعون حقيقتهم ويتعلقون بقيمهم ويلتزمونها فلا أرى كيف يمكن أن نكتفى بمجرد الادانة ٠

ان المسؤولية الاجتماعية التى يعلنها القضاء ليست شيئا آخر غـــير المسؤولية الاخلاقية نفسها ، نتولى نحن ـ بأسم المجتمع ـ ادخالها فى وعى الشخص المنحرف عندما يعجز ـ لسبب ما ـ عن أن يجدها بنفسه ٠

ومن هنا يأتى الدور التربوى للقضاء ٠ ولا يمكن أن يعتبر القضاء نفسه قد بدأ يؤدى هذا الدور الاجتماعى الخطير الا عندما يعمل حقا فى هذا الاطار الاخلاقى ، لا يعمل فيه بعزل المجرمين عن المجتمع كما يقال ، وانما يعمل فى هذا الاطار الاخلاقى بــرد المنحرفين أنفسهم الى المجال الاجتماعى الاخلاقى الذى يبتغونه لانفسهم ويرتضونه لها ، ولكنهم عجزوا ـ لاسباب اجتماعية واقتصادية ونفسية ـ عن الاندراج فيه ٠

هناك فرق جوهرى بين معاملة الاشخاص ومعاملة الاشياء ٠ فالاشياء تستعمل كادوات لتحقيق بعض الاغراض الخارجية عن ذاتها ، فهى بهذا المعنى ليست موجودة لذاتها وانما هى موجودة لغيرها ، وهى بهذا المعنى لا تحمل قيمتها فى ذاتها وانما تنصرف القيمة للاغراض التى تستعمل فيها تلك الاشياء ٠ أما الاشخاص فان أى

معاملة لهم لا يجوز ـ اخلاقيا ـ أن تخرج عن الغاية الاساسية للشخص وهى أن يكون **مواطنا صالحا فاضلا** ، أى يعى وجوده بين الاشياء فيتميز بالفعل الذى يختاره ويتحمل مسؤوليته • انه لا يستطيع أن يكون وسيلة لغيره ، وانما هو فى حد ذاته غاية كما يقول الفيلسوف الالمانى كانط • ولهـذا فكـل معاملة للاشخاص لا يجـوز أن تخرج عن هذا الاطار الاخلاقى نفسه •

ان الاشياء لا تقبل الالزام لانها لا تستطيع الالتزام • وعندما تتحرك فانها مسيرة بما ندعوه نحن اليوم قوانين الحتمية • فلو ألقيت حجرا من أعلى جبل الى أسفـل الوادى ، فانك لا تأمره بالسقوط ، لانه سيسقط بالضرورة • واذا احتجت الى كرسى لكى تجلس فانك لا تستطيع أن تنادى الكرسى يحضر اليك بنفسه من الغرفة المجاورة، وانما تجلبه بنفسك أو تأمر شخصا يأتيك به • ان **الالزام خاص بالاشخاص ، وما ذلك الا لانهم ـ كما قلنا ـ يلتزمون بانفسهم ، والتزامهم عنوان حريتهم وكرامتهم** • ومن الغريب أننا نرى كثيرا من أضرب الاكراه الاجتماعى ، سواء فى القضاء أو خارجه ، تريد أن تبرز فى حلة الالزام • ومن خصائص الاكراه أنه يعامل الاشخاص كما تعامل الاشياء ، يلغى حريتهم وكرامتهم ويتخذهم وسائل لتحقيق بعض الاغراض الخارجة عنهم ، ثم يريد أن يظهر بمظهر الالزام الاخلاقى المنبعث من القيم العليا والقائـم أساسا على احترامها • انه رسم كاريكاتورى للالزام ، مرتكبوه جهلة أو طغـاة ، يتوصلون اليه بالقوة ، وباستعمال غير مشروع للوسائل التى جعلها المجتمع فى أيديهم لنشر العدل وحمايته من الاكراه •

وقد يحيد الانسان عن ادراك هذا الواقع ، ويغض الطرف عن ذلك الهوة السحيقة الفاصلة ، فيعامل الاشياء معاملة الاشخاص ، ويدعو الناس هذا فنا ، أو تشخيصا للطبيعة ، وهو مما يرغب فيه فى ميدان الفن ، ولكن قد يحيد الانسان كذلك وتغيب عنه تلك الهوة الفاصلة فيعامل الاشخاص كما تعامل الاشياء ، وهنا تبرز الكارثة • لان الضحية عندئذ ليست أولئك الاشخاص موضوع الاكراه الممسوخة طبيعتهم فقط ، بل وحتى المكره نفسه يتحول الى شىء • ذلك أن الحرية والوعى هما مصدر الكرامة ، وهذه لا توجد ـ كما سبق أن قلنا ـ مستقلة فى الافراد • كما توجد فيهم الجوارح ،

بحيث يمكن حرمان أحدهم من سمعه أو بصره دون أن يكون فى ذلك حرمان لبقية الافراد ، وانما توجد الكرامة لديهم جميعا بالتساوى ، وكل نيل منها يستوى فيه الفاعل وموضوع الفعل على حد سواء ؛ هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان المكـــره (بالكسر) يدين اشخاصا عرف أنهم عموا عن الحقيقة ، ولكنه يدينهم بذنب يرتكبه هو بدوره فى فعل الادانة · واذا فشل القضاء فى أغلب المجتمعات وقصر عن الحد من انتشار الجريمة فما ذلك الا بسبب أن القضاء نفسه قد انحرف عن الهدف التربوى الذى رسمه لنفسه ، وابتعد عن الموقف الاخلاقى الذى انطلق منه ، حتى اننا لنقرأ فى الجرائد ونسمع على ألسنة الناس ، وعلى ألسنة الخاصة أحيانا بان المجرم الفلانى لقى جزاء جريمته ، وأن فى ذلك درسا وعبرة لمن تسول له نفسه أن يقوم بمثل ما قام به ··· الى آخر ما نسمع من كلمات تشير الى كون القضاء أصبح فى يد المجتمع أداة انتقام من المجرمين ، يثأر للمجتمع من المعتدين عليه ويبعدهم عنه حتى يقيه شر آثامهم وحماقاتهم · ونحن نرى أن واجب القضاء الاول هو أن يرفع عن نفسه هذا التصور المشين ، يرفعه عن نفسه عند أهله وأجهزته أولا ثم عند العامة من الناس ، وبخاصة عند أولئك الذين عثر حظهم وزلت أقدامهم وانحرفوا عن طريق الهدى · على القضاء أن يسترد دوره التربوى الاصيل ، المتمثل فى نشر العدالة وخدمة المجتمع واظهار الحق ، وبذلك تستحق المحكمة فى قصر العدالة أن تكون امتدادا وتشخيصا لمحكمة الضمير ، وان يكون القضاء هو ضمير المجتمع على الاصح ، لانه يلزم بالزام الضمير ، ويهذب بالزامه نفوس من ألزمهم فيردهم ملتزمين ·

لا شك أن هذه المهمة صعبة وشاقة وبعيدة المنال ، ولكنها الطريق الوحيد للابداع والهداية ، من صعوبتها ونبلها يستمد القضاء حرمته وجدارته ·

وهذا عمر بن الخطاب يطالب قضاته بالفهم والتزام الحق : « فافهم اذا أودلى اليك ، فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له » · ومهما يقل اليوم فى مسألة نقض الاحكام ونقدها فلن يبلغ صدق وعمق كلمة عمر فى رسالته الى أبى موسى الاشعرى : « لا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع الى الحق ، فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل » ·

فلا الزجر ولا الانتقام هو الهدى من الالزام القضائي ؛ وانما هو الهداية واحقاق الحق وابطال الباطل · ولكن طريق الحق محفوف بالمكاره واغراء الشهوات وضغط الحاجات الجسمية والاجتماعية العاجلة ··· وقد يحيد عن الطريق حتى من ندب نفسه للدفاع عن الحق وحمايته ··· وليس فى كل هذا ما يعيب الانسان ما دام معرضا للخطأ فى بحثه عن الصواب · واذا كانت الهداية الى الصواب فى رسالة عمر مسألة الهام وحدس ومنة من الله ، فانه جعل هذه الهداية مشروطة بمراجعة العقل · ومتى حصلت الهداية وتبين الحكم خطأه فلابد من الرجوع الى الحق · ولان يعلن المجتهد عن خطاه الذى ارتكبه باسم المجتمع ويتراجع عنه ويتحمل تبعته أفضل – فى فلسفة القضاء – من التمادى فى الباطل وتحميل المجتمع الذى نطق باسمه ما لا يتحمل من أخطاء خدامه الساهرين عليه · ان هذا لفى منتهى الشجاعة والاخلاص ، وهو العلامة المميزة للالزام عن الاكراه · اذ الالزام اقناع واصلاح يستعمل السلطة الاجتماعية فى خدمة أفراد المجتمع وتوعيتهم وهدايتهم ، أما الاكراه فتسلط يستعمل تلك السلطة المستمدة من المجتمع نفسه فى اخضاع أفراد المجتمع واستغلالهم · ومهما كبرت نزوة الاكراه واستمرت فانها لا تغدو أن تكون مسخا منحطا اذا ما قورنت بعظمة العمل الاخلاقى المبدع وجلاله ·

منشـــــورات

وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية

سيصدر قريبا كتاب :

الملتقى الثامن

للفكـــر الاســـلامى

بالفرنسية فى ثلاثة اجزاء

ويشمـــل :

سائر المحاضرات ،

والتعقيبـات ،

والمناقشـات .

مجهــودات الــدولـــة الرستميـــة في نشر الحضارة الاسلامية وتركيزها (*)

سليمــان داود بن يوسف
مؤرخ ـ الجزائر



ان الحديث عن الدولة الرستمية وما بذلته مـــن الجهود فى سبيل ارساء قواعد الشريعة الاسلامية وتركيز اللغة العربية وتعميم التعليم بين الرجال والنساء ونشره بين المداشر والقرى والبوادى حديث ممتع وشيق وطويل يحتاج الى مجلدات ولكنى اختصر قدر المستطاع ربما اصل الى النزر القليل مما يجب وابدأ أولا : انتشار المذهب الاباضى من حدود مصر الى المحيط .

ثانيا : الثورات التى اندلعت ضد جبـــروت الولاة وأعوانهم (الوسائل التى مهدت الطريق لتأسيس هذه الدولة والوسائل التى جعلتها قادرة على بسط نفوذها) .

وذلك انه قبل أواخر القرن الاول جاء الى المغرب من البصرة سلمة بن سعد وعكرمة مولى ابن عباس يتعاقبان جملا اما سعد فيدعو الى الاباضية واما عكرمة فيدعو الى الصفرية (1) وقد ذهب كثير من العلماء يطول تعدادهم الى أن المذهب الاباضى والصفرى

(*) محاضرة القاها فى الملتقى 11 للفكر الاسلامى فى ورجلان (ورقلة)
(1) سير الشماخى وسير أبى زكريا وطبقات الدرجينى وجواهر البرادى

مذهب واحد وانما اختلفوا فى مسألة واحدة وهى القعدة الصفرية يتسامحون معهم والاباضية يتشددون وهذه مسألة بسيطة لا أهمية لها وقد نزل سعد بطرابلس وبدأ فى نشر الدعوة هذا وقدم عكرمة الى القيروان قال الشيخ حسن حسنى عبد الوهاب فى كتابه ورقات عن الحضارة العربية بافريقيا ما نصه:جامع عقبة وهو مسجد القيروان ومعبدها الكبير الذى وضع اساسه الفاتحون من العرب عقبة بن نافع الفهرى وأصحابه، فى منتصف القرن الاول الهجرى على تقوى من الله وصدق نية وقد أقر فيه رجال من التابعين للصحابة منهم عكرمة المتحدث مولى عبد الله بن العباس فانه دخل افريقية فى زمان بنى أمية قبل آخر القرن الاول قال أبو العرب وكان مجلس عكرمة فى مؤخر مسجد الجامع فى غربى المنارة فى الموضع الذى يسمى (بالركنبية) وهنالك روى عن عكرمة الحديث والتفسير تفسير مولاه ابن عباس خلف كثير من ابناء التابعين الافريقيين كما أثبته أصحاب الطبقات ومما يجدر بالملاحظة ان عكرمة كان فى طليعة من ادخلوا النزعة الخارجية الى افريقية اذ كان يرى رأى الخوارج وعنه انتشرت نحلتهم وآراؤهم فى القيروان وفى كافة انحاء المغرب ومات عكرمة سنة 105 كما هو معروف (2) ثم انتقل الى ناحية تلمسان فقام بنشر الدعوة تخرج عليه فى علوم الشريعة من التفسير والحديث جماعة كبيرة من العلماء ثم انتقل الى المغرب الجزائرى فاستقر بمواطن مكناسة فأخذ عنه علماء فطاحل وتكون من هؤلاء مع متخرجى مجلسه بالقيروان الفوج الاول من حملة العلم وكانت السبب فى البعثة التى تخرجت بالبصرة عن الامام ابى عبيدة مسلم بن ابى كريمة كوذين التميمى وهو الفوج الثانى من حملة العلم وقد وصف ابن خلدون سمكو بن واصول جد بنى مدرار مؤسسى الدولة الاباضية بسجلماسة وبأنه من مشاهير حملة العلم فى هذه الدولة وانه ادرك التابعين واخذ عن عكرمة مولى ابن عباس كما أخذ عنه من برابر مكناسة وغيرها علماء آخرون وانه كان فى طليعة جيش طارق بن زياد لفتح الاندلس يلقن جيش المسلمين الفاتحين الشريعة الاسلامية(3) ويدعوهم للعمل بكتاب الله وسنة رسوله حسب مبادىء المذهب الاباضى كيف لا وهو من كبار علمائهم .

(2) ورقات عن الحضارة العربية بافريقيا ص 106
(3) ابن خلدون ، ج 1 ، ابراهيم حركات ص 110

اندلاع الثورة العارمة بسبب ظلم الولاة وجورهم .

ان من أكبر الاسباب التى وحدت صفوف الخوارج ـ مع اختلاف قبائلهم وابتعاد مواطنهم عن بعضها وجمعت كلمتهم ظلم الولاة وطغيانهم فانه لما كانت سنة 117 استعمل هشام بن عبد الملك عبد الله بن الحبحب على افريقيا والاندلس وأمره بالمسير اليها وكان واليا على مصر فاستخلف عليها ولده وسار الى افريقيا واستعمل على الاندلس عقبة بن الحجاج واستعمل على طنجة ابنه اسماعيل وجعل معه عمر بن عبد الله المرادى فاساء السيرة وتعدى وأراد أن يخمس البربر وزعم أنهم فيء للمسلمين وذلك شيء لم يفعله أحد قبله • (4)

وقد كانت مسؤولية الخليفة الاموى لا تقل عن مسؤولية بعض ولاته الظالمين بقبوله ـ الهدايا من الجميلات ـ البربريات ولكن البربر وهم الخوارج الذين لا يظلمون ولا يحكمون بالظنة وكانت بينهم تساؤلات هل ما قام به هؤلاء العمال بأمر أمرا يهم أم من تلقاء أنفسهم ؟ فكون ميسرة وفدا من بضعة وعشرين رجلا فقدموا على هشام ابن عبد الملك فلم يؤذن لهم فدخلوا على الابرش فقالوا ابلغ أمير المؤمنين ان أميرنا يغزو بنا وبجنده فاذا غنمنا ينفلهم ويقول هذا أخلص لجهادنا واذا حاصرنا مدينة قدمنا وأخرهم ويقول هذا ازدياد فى الاجر ثم انهم عمدوا الى ماشيتنا فجعلوا يبقرون بطونها عن سخالها يطلبون الفراء الابيض لامير المؤمنين فيقتلون ألف شاة فى جلد فاحتملنا ذلك ثم انهم سامونا ان يأخذوا كل جميلة من بناتنا فقلنا لم نجد هذا فى كتاب ولا سنة (5) ونحن مسلمون فاحببنا ان نعلم أمن رأى أمير المؤمنين هذا ام لا فطال عليهم المقام ونفذت نفقاتهم فكتبوا اسماءهم ودفعوها الى وزرائه وقال ان سال عنا أمير المؤمنين فاخبروه ثم رجعوا الى افريقيا فخرجوا على عامل هشام فقتلوه واستولوا على افريقيا وبلغ الخبر هشاما فسأل عن النفر فعرف اسماءهم فاذا هم الذين صنعوا ذلك (6) وهذا ما دعى البربر جميعا فى كامل المغرب الى مبايعة ميسرة المدغرى

(4) ابن الاثير ، ج 5 ، ص 191 .
(5) ابن الاثير ، ج 3 ، ص 92 .
(6) ابن الاثير ، ج 3 ص 92 .

بالخلافة وخوطب بأمير المؤمنين فكثر جمعه وقوى أمره وذلك سنة 117 هـ (7) فقاتلهم عمر بن عبد الله المرادى فقتلوه واستولوا على طنجة فارسل ابن الحبحاب الى حبيب ابن ابى عبيدة بن عقبة بن نافع وهو بصقلية يستدعيه اليه لقتـــال ميسرة وكان ابن الحبحاب قد سير خالد بن حبيب فى جيش الى ميسرة والتقى خالد وميسرة بنواحى طنجة واقتتلوا قتالا شديدا لم يسمع بمثله وقد انكرت البربر سيرته بعد ان بايعوه بالخلافة فقتلوه وذلك سنة 122 هـ (8) ، وولوا أمرهم خالد بن حميد الزناتى فالتقى بخالد بن حميد عسكر هشام وكان بينهم قتال شديد وكره خالد بن حبيب ان ينهزم من البربر فصبر هو ومن معه فقتلوا جميعهم ، فبلغ الخبر الى هشام بن عبد الملك فقال لاغضبن للعرب غضبة وأسير جيشا يكون أولهم عندهم وآخرهم عندى ، ثم كتب الى ابن الحبحاب يأمره بالحضور فسار اليه فى جمادى سنة ثلاث وعشرين ومائة ، واستعمل عوضه كلثوم بن عياض وسير معه جيشا كثيفا لقتال البربر فنشب القتال واشتدت الحرب بينهم فقتل كلثوم بن عياض (9) ، وحبيب بن أبى عبيدة وانهزمت العـــرب وتفرقوا وذلك سنة 122 (10) ، وفى ذلك الوقت ظهر انسان يقال له عكاشة بن ايوب الفزارى بمدينة قابس وهو على رأى الخوارج الصفرية فسار اليه جيش من القيروان فاقتتلوا قتالا شديدا فانهزم عسكر القيروان وكان ذلك سنة 123 ، فلما بلغ هشـــام ابن عبد الملك قتل كلثوم بعث أميرا على افريقية حنظلة بن صفوان الكلبى فوصلها فى ربيع الآخر سنة أربع وعشرين ومائة فلم يمكث قليلا حتى زحف اليه عكاشة فى جمع عظيم من البربر ، ثم اعانه عبد الواحد بن يزيد الهوارى وفى ذلك الوقت لم يجد حنظلة شعيرا لدوابهم فاطعموهم حنطة وهلكت منهم عشرون ألف فرس . (11)

وتوالت الثورات من كل ناحية وامتدت الى كامل المغرب وثار بعبد الرحمن بن حبيب وهو بالقيروان جماعة من العرب والبربر ثم قتل بعد ذلك كما سيأتى فممن قام بالثورة

(7) ابن الاثير ، ج 5 ، ص 191 .
(8) ابن الاثير ، ج 5 ، ص 311 .
(9) ابن الآثير ، ج 5 ، ص 193 .
(10) ابن الاثير ، ج 5 ، ص 192 .
(11) ابن الاثير ، ج 5 ، ص 193 .

سنة سبع وعشرين ومائة (127) ، عروة بن الوليد الصدفى واستولى على تونس وقام أبو عطاف عمران بن عطاف الازدى وثارت البربر بالجبال وخرج عليه ثابت الصنهاجى بباجة فأخذها • (12)

واثناء ذلك خرج رجلان بطرابلس اسمهما عبد الجبار والحارث فسار اليهـــما عبد الرحمن سنة 131 ، احدى وثلاثين ومائة ، ووقع بينهما قتال شديد فقتلا وكان يدينان بمذهب الاباضية من الخوارج (13) . ولم يزل عبد الرحمن يواصل عمله فى قمع الثورات حتى قتل فى ذى الحجة سنة 137 . سبع وثلاثين ومائة • (14)

الاستعداد لتأسيس دولة اباضية بالمغرب

لما جاء الفوج الثانى من حملة العلم كما اسلفنا من البصرة ووجدوا الاضطرابات تواصلت فى المغرب والثورات تندلع من حين لآخر وقد عمت الفوضى المغرب كله من سنة 117 ، سبع عشر ومائة هـ • منذ قيام ميسرة المدغرى الى سنة 140 هـ ، أربعين ومائة ، وكانوا دائما يتتبعون حوادث وطنهم باهتمام وكانوا خمسة وهم : أبو الخطاب عبد الاعلى بن السمح المعافرى ، وعبد الرحمن بن رستم الفارسى ، وعاصم السدراتى ، واسماعيل بن درار الغدامسى . وأبو داود القبلى ، شاوروا شيخهم الامام أبا عبيدة مسلم بن أبى كريمة كودين التميمى فيمن يولونه ان مكنهم الله من الحكم فاشار عليهم ان يختاروا أبا الخطاب فوقع اختيارهم عليه فبايعوه على ان يحكم بكتاب الله وسنـة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وآثار الصالحين (15) ، فقبل مبايعتهم وانصرف وكانت ولايته على رأس أربعين ومائة سنة (16) ، ثم اجتمع رأيهم على دخول مدينة طرابلس وبها عامل أبى جعفر المنصور فقصدوه ليقتلوه فابى عليهم أبو الخطاب من ذلك فقال : انما دخلنا عليهم بالامان فلما رآهم أهل المدينة شهروا السلاح قالوا : هذه غدرة فقال

---

(12) ابن الاثير ، ج 5 ، ص 312 .
(13) ابن الاثير ، ج 5 ، ص 3113 .
(14) ابن الاثير ، ج 5 ، ص 414
(15) الطبقات ، ج 1 ، ص 23
(16) الطبقات ، ج 1 ، ص 26

لهم أصحاب أبى الخطاب : لا بأس عليكم لسنا بأهل غدر وخير أبو الخطاب العامل فى الاقامة بالمدينة وينخلع عن العمل أو الخروج بالامان فاختار الخروج الى أرض المشرق ودفع لابى الخطاب مفتاح بيت المال فأخذها منه فاحسن أبو الخطاب السيرة وعدل فى سيرته وأحكامه • (17)

انقاذ القيروان من فساد وزمجومة

استولى عبد الرحمن بن حبيب ابن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع على افريقيا فوقع صراع كبير بينه وبين أخيه الياس فقتله فقام عليه ابن أخيه حبيب بن عبد الرحمن فقتله سنة 138 ، ثمانى وثلاثين ومائة ، فهرب اخوة الياس الى بطن من البربر)نفزاوة(يقال لهم وزمجومة فاعتصموا بهم فسار اليهم حبيب فقاتلهم فهزموه وقوى أمر وزمجومة وكان مقدم وزمجومة رجلا اسمه عاصم بن جميل لا مذهب له ومن هم من ذهب الى انه لا دين له (18) ، فجهز عاصم من عنده من العرب على قصد القيروان وأتته جماعة من أهل القيروان يدعونه اليهم وأخذوا عليه العهود والمواثيق بالحماية والصيانة والرعاء للمنصور فسار اليهم عاصم فى البربر والعرب فلما قاربوا القيروان خرج من بها لقتالهم فاقتتلوا وانهزم أهل القيروان ودخل عاصل القيروان بمن معه فاستحلت وزمجومة المحرمات وسبوا النساء والصبيان ، وربطوا دوابهم فى المسجد وافسدوا فيه •

ثم سار عاصم يطلب حبيبا وقد احتمى بجبل أوراس فانهزم عاصم وقتل هو أكثر اصحابه وسار حبيب الى القيروان فخرج اليه عبد الملك بن أبى الجعد وقد قام بأمر وزمجومة بعد قتل عاصم فاقتتل وحبيب فانهزم حبيب وقتل هو وجماعة من أصحابه فى المحرم سنة 140 ، أربعين ومائة (19) ، وهى السنة التى ولى فيها أبو الخطاب عبد الاعلى بن اسمح ولما قتل حبيب عاد عبد الملك بن أبى الجعد الى القيروان وفعل ما كان يفعله عاصم من الفساد والظلم وقلة الدين ، فاتفق أن رجلا من الاباضية دخل لحاجة له فرأى ناسا من الوزمجوميين قد أخذوا امرأة قهرا والناس ينظرون فادخلوها

(17) الطبقات ، ج 1 ، ص 26 .
(18) الكامل لابن الاثير ، ج 5 ، ص 315 .
(19) الكامل ، ج 5 ، ص 316 .

الجامع فترك الاباضي حاجته وقصد أبا الخطاب عبد الاعلى بن السمح المعافرى فاعلمه بذلك فخرج وهو يقول : بيتك اللهم بيتك (20) ، وروى ان امرأة من نساء القيروان كتبت بطاقة الى الامام ابى الخطاب تشكو اليه جور وزمجومة تقول فيها : اما بعد : يا امير المؤمنين فان لى ابنة وقد بلغت من الخوف عليها من وزمجومة ان حفرت حفرة تحت سريرى وصنتها فيها خشية ان يفسدوها كما فعلوا بامثالها ، فانظروا الينا والسلام ، فلما وصلت البطاقة الى ابى الخطاب فقرأها وجعل يبكى رحمة بها فنادى الصلاة (21)جماعة واجتمع اليه الناس ثم صعد المنبر خطيبا فحمد الله واثنى عليه ثم أخذ فى ترغيب اصحابه فى الجهاد وأمر رعيته فى التأهب والاستعداد وان يعزموا على المصابرة والجلاد فخرج من المسجد وسل عند بابه سيفه وكسر غمده وقال : لا حكم الا لله ترغيبا فى الجهاد وغضبا لله ولدينه، وروى أيضا ان وزمجومة أخرجوا امرأة من القيروان وهى تصيح اغيثونى معاشر المسلمين فلما بلغ أبا الخطاب ذلك قال : مجيبا لها لبيك لبيك عند ذلك أمر أبو الخطاب مناديه بان ينادى النفير فعسكر على طرف المدينة حتى اجتمع اليه من أصحابه جموع كثيرة ومعه عبد الرحمن بن رستم لما خرج أمر مناديه فنادى : أيها الناس من له أبوان كبيران أو احدهما فليرجع ومن له عروس قريب عهدها فليرجع ومن أراد الرجوع منكم فليرجع بالليل فعل ذلك ثلاث ليال وفى الثالثة أخبر بانه لم يبق معه (22) الا من له رغبة فى الجهاد فاستعرض جيشه وقال : انى لارجو لمن خرج فى عسكرنا ومات مجاهدا ان يكون من أهل الجنة وارتحل حتى حاصر القيروان فكانت بينه وبين وزمجومة حروب انتصر فيها أبو الخطاب وذلك سنة 141 ، احدى وأربعين ومائة ، واستعمل أبو الخطاب على القيروان عبد الرحمن بن رستم وقد أمر أبو الخطاب أصحابه حين كانوا فى حصار المدينة ان لا يفسدوا زرعا ولا غيره · وروى ان شيخا من شيوخ القيروان بعث ابنا له يرتاد مزرعة له كانت بقرب منزل عسكر أبى الخطاب فقال : يا بنى اذهب وانظر هل بقى فى مزرعتنا شىء فخرج الغلام الى المزرعة فوجدها سالمة لم ينلها فساد فرجع الغلام الى ابيه فاخبره فعجب لذلك وعجب الناس لعدل

(20) الكامل لابن الاثير ، ج 5 ، ص 316 .
(21) طبقات المشايخ ، ج 1 ، ص 26 .
(22) طبقات الدرجينى ، ج 1 ، ص 28 .

أبى الخطاب وسيرته وطاعة أصحابه له فى أمره ونهيه . وقال بعض أهل القيروان لبعضهم : اتظنون ان أبا الخطاب يشبه من ولى عليكم قبله دينا (23) ، وفضلا وان سيرتهم كسيرته عدلا وفضلا ، كلا والله أين مثل أبى الخطاب فى سيرته وعدله وفضله . وروى ان أبا الخطاب لما هزمهم احسن فيهم السيرة وأمر أصحابه ان لا يتبعوا مدبرا ولا يجهزوا على جريح . فقال رجل من لواتة من عسكر أبى الخطاب يقال له خالد : أناكل من أموالهم كما يأكلون أموالنا ويعتقدون انها غنيمة احلت لهم ، فقال له أبو الخطاب : ان فعلنا كما فعلوا فحق على الله ان يرفضنا ويدخلنا معهم جهنم فنكون كما قال الله تعالى : « **كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى اذا اداركوا فيها جميعا** » . ولما رجع أبو الخطاب الى طرابلس استعمل على القيروان وما يليها من المدن عبد الرحمن بن رستم واستعمل هو بدوره على كتابته رجلا من القيروان يقال له عبد الله بن عقيب فصلحت أحوال الناس (24) ، ومن الاسباب التى قضت على سلطة الدول الشرقية على المغرب ومهدت السبيل لابى الخطاب ان أبا جعفر المنصور أقر عبد الرحمن بن حبيب على افريقيا وارسل اليه خلعة سوداء ، أول خلافته فلبسها فارسل اليه عبد الرحمن هدية وكتب يقول : ان افريقية اليوم اسلامية كلها وقد انقطع السبى منها والمال فلا تطلب منى شيئا فغضب المنصور وارسل اليه يتهدده فخلع عبد الرحمن الحبيب المنصور بافريقيا ومزق خلعته وهو على المنبر (25) ، أضف لهذا عدل ابى الخطاب وحسن سيرته فانه بعد انتصاره فى حروب متعددة لدفع العدوان الذى يشنق عليه اشاع الامان بين الناس وساوى بينهم فى الحقوق ولم يؤاخذ احدا منهم بما فعله ابان الحرب فلم يتبع الفارى ولم يروع المسالمين ولم يجهز على الجرحى ولم يمس شيئا من أموالهم ولم يقطع رؤوس زعمائهم وكبرائهم ولم يعلق رؤوسهم على الاسوار كما يفعل خصومه . (26)

---

(23) طبقات الدرجينى ، ج 1 ، ص 30 .
(24) **الطبقات ، ج 1 ، ص 31 .**
(25) الكامل ابن الاثير ، ج 5 ، ص 314 الجيلالى ، ج 1 .
(26) سير الشماخى ، ص 129 الطبقات ، ج 1 ، ص 29 سير ابى زكريا مخطوط الاباضية فى موكب التاريخ ، ج 2 ، ص 54 .

القضاء على امامة ابى الخطاب

كان أبو الخطاب مثالا حيا لسيرة الخلفاء الراشدين مما جعل جميع المسلمين مصغين لحكمه وقد أثار هذا حفيظة ابى جعفر المنصور فبعث لواليه على مصر محمد بن الاشعث ان يقضى على أبى الخطاب وقد امده بجيش قوامه فيما قيل ثمانون ألفا ولما خــرج ابن الاشعث من مصر الى لقاء ابى الخطاب ارسل عيونا يستطلعون له الاحوال فلما رجعوا اليه سألهم فقالوا انطيل أو نجمل ، فقال ابن الاشعث : بل اجملوا ، قالوا : « رأينا رهبانا بالليل اسودا بالنهار يتمنون الجهاد بلقائكم كما يتمنى المريض لقاء الطبيب لو زنى صاحبهم لرجموه ولو سرق لقطعوا يده خيلهم من نتاجهم ليس لهم مال يرتزقون منه وانما معاشهم من كسب ايديهم » (27) · ولما رأى ذلك ابن الاشعث تظاهر بالرجوع والعدول عن محاربة أبى الخطاب وافتعل رسالة ادعى انها من ابى جعفر المنصور وانه أمره بالرجوع وتثاقل فى سيره فاطمأن أبو الخطاب الى ان الجيوش المهاجمة قد ولت الادبار وتفرق جيش ابى الخطاب الى حصاد الزرع وكر ابن الاشعث وقام بغارة مفاجئة فاستشهد أبو الخطاب وكل من كان معه وكانوا فى أربعة عشر ألفا بعد ان كانوا تسعين ألفا وذلك فى صفر سنة 144 أربعة وأربعين ومائة ولما بلغ خبر هجوم ابن الاشعث الى عبد الرحمن بن رستم وهو بالقيروان سارع لنجدة ابى الخطاب فلما بلغ قابس بلغه أنه استشهد رجع الى القيروان · (28)

ولاية أبى حاتم يعقوب بن لبيب الملزوزى الهوارى

ولى أبو حاتم من طرف جماعة المسلمين وبايعوه على ان يعمل بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهدى السلف الصالح فقبل منهم واستعد للكفاح وذلك ان محمد بن الاشعث لما قتل أبا الخطاب وتفرق جمعه لم يكفه ذلك النصر الذى احرزه (29)

(27) سير الشماخى ، ص 31 ، طبقات الدرجينى ، ج 1 ، ص 32 . سير ابى زكريا مخطوط الاباضية فى موكب التاريخ ، ج 2 ، ص 57 .

(28) الكامل لابن الاثير ، ج 5 ، ص 317 ، الاباضية 25 موكب التاريخ ، ج 3 ص 58 الطبقات ،ج1 ، ص 39 . سير ابى زكريا مخطوط سير السماخى ، 131 .

(29) الاباضية فى موكب التاريخ ، ج 2 ، ص 61 .

ولم يقنعه الاستيلاء على هذه البلاد الفسيحة التى كانت تابعة لابى الخطاب فعمد الى رأس ابى الخطاب وهو قتيل فى المعركة فاحتزه وبعث به الى بغداد ولم يشف ذلك ما فى قلبه فامعن يقتل وينهب ويسلب متبعا الفلول المنهزمة والشراذم الفارة لا يردعه دين ولا خلق فكان ينتقل بين احياء المسلمين وقبائلهم يسلب وينهب يقتل ويفجر فكان ياخذ الاموال دون حساب وينتهك الحرمات دون راع من خلف ودين فعند ذلك تداعى اصحاب الشهامة والكرامة الذين يؤمنون بأن الله لا يرضى لهم السكوت على هذه المناكر ولا يحل لهم البقاء على هذا الهوان ينزل بأمة مسلمة حفظ الاسلام اعراضها ودماءها وأموالها فانتهكها من خان الله ورسوله ٠

وما سمع العامل على طرابلس الحبيب بن بشار من قبل عمر بن حفص التميمى والى افريقيا (30) بهذا الحادث حتى بعث بحملة عسكرية للقضاء على هذه الثورة ولكن هذه الحملة لم تنجح وقتل عدد غير قليل من جندها تفقد أبو حاتم القتلى فوجد بعضهم مسلوبا فغضب وقال : ان لم تردوا اسلابهم تركت أمركم فارجعت الاسلاب واعلن الجيش توبتهم من عملهم حفظا لكرامة المسلم فى دمه وماله وعرضه ولو ظلم أو بغى وذاق الناس لمدة قصيرة طعم الحكم الاسلامى هدأت الاحوال فى طرابلس واستتب الامن والسلام ، فاتجه أبو حاتم الى القيروان ليخفف عن أهلها ما اصابهم من كرب وما لحق بهم من اذى ويرفع عنهم عبث ايدى ولاة ظالمين ففتحها بعد حصار طويل وكان الجهد والجوع قد بلغ مبلغا عظيما من الجند محصورا بالقيروان فلما تم له النصر وفتحت له أبواب المدينة واستسلم الجند المحاربون لم يفعل ما فعله محمد بن الاشعث يوم انتصر على أبى الخطاب فى ليبيا ان أبا حاتم مؤمن حس ما يعانيه هؤلاء المسلمون الذين يسوقهم الظلمة سوق الاغنام (31) ولذلك لم يمعن فيهم تقتيلا ونهبا وسلبا تعديا على الاعراض وانما زودهم بالماء والغذاء والسلاح الضرورى فاعطى لكل خمسة منهم قربة الماء وعصا وخنجرا يسلحون به أمرهم ويدفعون به ما يعترض طريقهم من وحش مفترس وهم يعودون الى قراهم آمنين كما اعطى لكل واحد منهم رغيفا من الخبز وفى مدة حصار

(30) الاباضية فى موكب التاليخ . ج 2 ، ص 62 . ابن الاثير ، ج 5 ، ص 598 .
(31) الاباضية فى موكب التاريخ ، ج 2 . ص 63 الطبقات ، ج 1 ، ص 36 .

أبى حاتم للقيروان كان والى افريقيا عمر بن حفص مقيم بطبنة وبعد استلائه على القيروان توجه الى طبنة ومعه جمع كبير منهم : أبو الصفرى فى أربعين ألفا ، وعبد الرحمن ابن رستم فى خمسة عشر ألفا ، وعاصم السدراتى الاباضى فى ستة آلاف ، والمسعود الزناتى فى عشرة آلاف فارس ، وأبو حاتم فى عسكر كثير فلما رأى عمر بن حفص ذلك هاله الامر فعمد الى الحيلة فارسل الى ابى قرة الصفرى يمنحه سبعين ألف درهم ليرجع عنه فقال : بعد ان سلم على بالخلافة أربعين سنة ابيع حربكم بعرض قليل من الدنيا فلم يجبه لذلك ثم انهم افترقوا فخرج عمر بن حفص ودخل القيروان فحاصره أبو حاتم فخرج لقتاله فقتل سنة 154 ، فى ذى الحجة وقد ارسل المنصور يزيد بن حاتم فى عدد كبير وسار الى ابى حاتم فقتله فى ربيع الاول سنة 155 ، وبقى جيش يزيد شهرا كاملا يقتل الابرياء ويتتبع المدبرين ويقوم بالفضائع وكانت لابى حاتم مع الظلمة ثلاثمائة وخمسة وسبعون موقعة (32) ولك أيها القارىء الكريم أن تقارن بين الحالة الفضيعة التى يلاقيها الناس عندما ينتصر الظالمون وبين هذا السلوك الكريم وهل تجد مثل هذه السيرة عند أولئك الذين يحاربون باسم الخلافة فى الزمن القديم أو يحاربون باسم الدولة فى العصر الحديث كان أبو حاتم حفيفا أن يسير بالامة سيرة الخلفاء الراشدين لو امهلته أيدى الظلمة المستبدين وهكذا جهز أبو جعفر الجيوش وارسلها الى ابى حاتم وبعد حروب طاحنة ووقائع سوداء قتل هذا البطل المؤمن كما قتل من قبله مؤمنون برهنوا ان فى الامة من يقوم بحجة الله على البغاة فينتزع مقاليد الحكم ولو لمدة قصيرة ليظهر للناس ما فى حكم الاسلام من كرم وسماحة وقد ولى ابو حاتم الامر سنة 151 ، كما ذهب اليه ابن الاثير خلافا لمن قال ولى سنة 154هـ.

تأسيس دولة بنى رستم

هذه هى الاسباب التى مهدت السبيل لتأسيس الدولة الاسلامية الاولى ، التى استقلت بالمغرب والحروب المتواصلة والثورات التى لم تنقطع من سنة 117 هـ ، الى سنة 160 ، عندما اسست هذه الدولة واختار الائمة تيهرت بعد ان حاولوا ان تكون

(32) الكامل ، ج 5 ، ص 600 .
(33) الاباضية ، ج 2 ، ص 65 .

فى طرابلس ثم فى القيروان ثم فى طبنة فاخفقوا فى جميعها لقرب هذه المراكز من الشرق ولسهولة المواصلات فى هذه النواحى وكان اعتصام عبد الرحمن بن رستم ومن معه فى (سوف أفجج) بعد استشهاد ابى حاتم وكان احصن معقل تحصنوا به (34) لا يسلكه الا شاكى أو مدجج هدام الى اختيار افضل بقعة يستقرون بها ووفقهم الله وايدهم وبعد استقرارهم لم يكونوا ككثير من الولاة يولون اهتماما كبيرا بالملك وابـهته وانما اشتغلوا بنشر العلوم الاسلامية وتدعيم قواعد الاسلام حسب ما يدعو اليه المذهب الاباضى من الرجوع لكتاب الله وسنة رسوله وقاموا بتركيز اللغة العربية لانها الوسيلة الوُحيدة لفهم الاسلام على حقيقته والاطلاع على أسراره وحكمته

ازدهـار الحضـارة الاسـلامية والحـركة العلميـة والعمـران

ليست هناك دولة من الدول الاسلامية بالمغرب تدانى حضارة الدولة الرستمية فيما بلغته من الرقى والازدهار الادبى والمادى فلقد بلغت تيهرت يومئذ شأوا عظيما مـن المدنية والعمران ومن توفير اسباب الحضارة والرفاهية حتى انها كانت تشبه وتقارن بقرطبة وبغداد ودمشق من عواصم الشرق اللامعة وكانت تدعى بعراق المغرب وكان بها من القصور العالية والمنازل الرفيعة والحصون الحصينة والعمـارات والمساجد والمنتـزهـات ما يشبه منشآت هذه البلاد وسكن بها من أهل الكوفة والبصرة والقيروان والاندلس وبلاد العجم وغيرهم من ارباب الصناعات والحرف والفنون الجميلة عدد وافر وكان فيمن وفد على الجزائر يومئذ من اكابر اعيان المشرق صقر قريش عبد الرحمن الداخل فقد حل مستجيرا ببلاط ايمة تيهرت وملوكها بنى رستم فاعانوه وايدوه حتى جـلس على اريكة الملك بالاندلس (35) . وقد كان ايمة هذه الدولة ورؤساؤها يعقدون مجالس العلم والتعليم يعلمون الناس ويلقون عليهم بانفسهم دروسا عامة بالمساجد فى فنون مـن العـلم مختلفة .

وكانت لهم مجالس للتبحر فى مختلف العلوم وخاصة العقيدة وفروع الفقه وتشمل علوم التفسير والحديث والفرائض والاموال والفروع وعلم اللسان وعلوم النجوم (36) وقال ابو زكريا- فى سيره كان بيت الرستميين بيت العلوم وجامعا لفنونها من عـلم

(34) سير ابى زكريا الطبقات البارونى سير الشماخى الجواهر .
(35) الجيلالى ، ج 1 ، ص 231 نفح الطيب ، ج 5 ، ص 28 .
(36) صالح باجية تونس ، ص 179 .

التفسير والحديث والفرائض والاصول والفروع وعلم اللسان وعلم النجوم ، وقد بعث الامام عبد الوهاب الف دينار الى اخوانه بالبصرة ليشتروا بها كتبا فاقتضى نظرهم ان يشتروها ورقا وتطوعوا بالمداد واجرة النساخ المسفوين حتى اكملوا ديوانا عظيما فبعثوا له أربعين حملا من الكتب فلما تصفحها قال الحمد لله اذ ليس فيه مسألة غربت عنى الا مسألتان ولو سئلت عنهما لافتيت فيهما قياسا على نظائرهما ووافقت الصواب (37) وما زلنا بصدد ذكر هؤلاء الائمة ومكانتهم العلمية فلا بأس أن نذكر بعض نتاجهم ، وقد اشتهر فى هذا العهد كبار التابعين من أئمة التفسير منهم الامام أبو الشعثاء جابر بن زيد وعكرمة مولى ابن عباس · اخذ التفسير عن حبر الامة عبد الله ابن عباس ، وكانت عقيدة مذهبهم الاباضى التمسك بكتاب الله وسنة وسوله ، فاقتفى اثرهم حملة العلم عنهم ، وولوا اهتماما كبيرا بالتفسير فكان فى طليعة من ألف فى التفسير الامام عبد الرحمن ابن رستم وابن وزيره هود بن محكم الهوارى ، وامام الادب أبو عبيدة معمر بن المثنى ، وقد كان الامام عبد الرحمن بن رستم فى طليعة من ألف فى التفسير لم يشغله الملك ولا شؤون الدولة عن التأليف فى وقت لم يكن التدوين مألوفا وقد حكى أبو محمد عبد الله اللواتى ان رجلا قال له تركت كتابا فى تفسير القرآن من تأليف الامام عبد الرحمن ينادى علية بالبيع فى سوق القلعة فسافر من وغلاته ولا هم له الا الكتاب المذكور واخذ معه سلعة · يظهر انه تاجر فلما وصلها جعل يسأل عن الكتاب فى خفاء برفق وسياسة فسأل أحدا ممن له صلة بالعلم فقال له بيع قبل قدومك واذ ذاك قرر ان يحضر مجلس الشيخ محمد بن عصمة فقيه مالكى فمكث زمانا فاشترى كتبا فوجهها لبلده فاصيبت وكان ذلك فى القرن الخامس (38) ، وحيث ان عقيدة الاباضية الدعوة للعمل بكتاب الله وسنة رسوله وان عكرمة مولى ابن عباس أول من قام بنشر دعوتهم بالمغرب وهو امام المفسرين على الاطلاق وبدون منازع فان لهم اعتناء كبيرا بالتفسير تدريسا وتأليفا اعتناء دولة بنى رستم بالتفسير لم يقتصر على الامام عبد الرحمن فان هود بن الوزير محكم الهوارى الاوراسى ألف كتاب فى تفسير القرآن فيه أربعة أجزاء ورغم ضياع كتب الاباضية كما سنبينه فاننى وجدت نسخة كاملة فى خزانة جدى الشيخ أحمد ابن ايوب التجنينتى كتبه بخطه سنة 1050 خمسين وألف للهجرة وهو بصدد التقديم للطبع وقد وجدت بعض أجزاء من الكتاب متفرقة فى وادى مزاب وجربه تفيد فى مقابلتها للطبع وقد ألف العلامة

(37) الدرجينى ، ج 1 ، ص 57 أبو زكريا مخطوط .
(38) الطبقات ، ج 2 ، ص 470 سير الشماخى الجواهر للبرادى .

الجليل الذى كان مثالا للنبوغ النـادر والاطلاع الواسع والعلم الغـزير أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم السدراتى تفسيرا يقول البرادى فى سبعين جزءا ضاع من حملة من ضاع من كتبنا (39) ، وقد وجدت فى خزانة أجدادى وهو الشيخ أحمد بن مـوسى الذى عاش فى القرن التاسع الهجرى جزءا ضخما من تفسير القرآن مشتمل على تفسير سورة المائدة ، لا غير ولم يذكر فيه المؤلف ولعلـه من هذا التفسير ولا زلـت أوالى البحث لعل اهتدى للحقيقة وقد قال الشيخ حسن حسنى عبد الوهاب انه رأى بعض أجزاء هذا التفسير فى أوروبا (40) ، ولم ينقطع علماء الاباضية عن موالات الدراسة العميقة فى التفسير فقد ألف قطب الايمة الشيخ الحاج محمد اطفيش تفسيرا ضخمـا (هميان المزاد لدار المعاد) فى ثلاثين جزءا طبعه سلطان زنجبار ثم (التيسير فـى تفسير القرآن) فى سبعة أجزاء طبع بالجزائر طبعة فاسدة ثم (داعى العمل ليـوم الامل) قدمه الشيخ ابراهيم اطفيش واختاره الله لجواره قبل انجاز طبعه ولم تقتصر مجهوداتهم على التفسير فقط وانما لهم مؤلفا ضخما فى جميع العلوم ولهم كتـب قيمة وأبحاث عظيمة فى الشريعة الاسلامية وظهرت لهم موسوعات علمية عظيمة وقد ذكر بعض المؤرخين ان سبب انهيار دولة بنى رستم اشتغالهم بنشر العلم وانكبابهم عليه فلم يكن لهم اهتمام بغير العلم والدين وقد اهملوا قوة الدفاع عن ملكهم والعناية بالجيش للدفاع عن بلادهم (41) ، وبلغ اعتناؤهم بالعلم انهم استوردوا كتبا قيمة من الشرق فاسسوا مكتبة عظيمة لا تضاهيها الا مكتبة بغداد ، ولم تقتصر عنايتهم بالعلم على ناحية دون أخرى فكانت لهم مدارس وحلقات علم فى جميع مملكتهم وبالاخص فى البلدان الشهيرة مثل وارجلان ومزاب وبلـد اريـغ وسوف ، والحامـة وقنطرار وقسطيلية وجبل دمر وجربة بالجنوب التونسى وغدامس وزويلة بالجنوب الليبى أما جبل نفوسة فهو مركز اشعاع لا يتسع المقام لتفصيله فقراه كلها مدارس وحلقات علم وقد نبغ فى كل هذه البلدان علماء فطاحل ألفوا كتبا فى جميع الفنون لا يزال البعض منها موجود أو نا اتلف معظمها ، وقد جعلوا بجوار كل مسجد كبيرا أو صغيرا مدرسة للصغار وحلقات علم للكبار فى المسجد وفى كل مسجد تخصص ناحية للنساء وأمام كل مسجد بيت لنظيف المسجد واكثرهم من الحجاج يقـوم رواد المسجـد بمـا يجب

(39) سير الشماخى البرادى الجيلالى ، ج 1 ، ص 416 .
(40) أبو اليقظان فى ترجمة أبى يعقوب البرادى فى الجواهر والشماخى فى السير واطفيش ابراهيم فى الدعاية الى سبيل المؤمنين والجيلالى .
(41) صالح باجية ، ص 31 وغيره .

لاعالتهم ولا يزال هذا النظام سارى المفعول الى الآن ولا يقتصر التعليم على الرجال فقط وانما هو للرجال والنساء على حد سوأء حسب ما يراه المسلمون فى تثقيف المرأة لا كما يدعيه دعاة الاباحية والفجور من انه تحرير للمرأة فقد روى عن بعض أئمة بنى رستم انه قال معاذ الله ان تكون عندنا أمة لا تعرف منزلة القمر وروى عن بعض أمراء بنى رستم انه وقعت بينه وبين اخته مناظرة كبيرة فى مسائل علمية دلت على علو مكانها فى العلم ، وبالجملة فان المرأة الاباضية نالت حظها من التعليم وشرح ذلك يطول فالغاية زوجة أبى القاسم الوسيانى تستشير الشيوخ ويستشيرونها فى مسائل فقهية واخت عمروس بن فتح كانت تملى عليه مدونة أبى غانم الخرسانى وكانت فى اثنى عشر جزءا (42) ، وقد ألف فى المسلمات الخالدات واورد عنهن مسائل دلت على مكانتهن فى العلم وحشمتهن ووقارهن الشيخ أبو الربيع عبد السلام بن عبد القدوس الوسيانى فى السير كما ألف فى ذلك • الشيخ أبو اليقظان الحاج ابراهيم رسالة مهمة جعلتها تتمة وتكميلا لسير الشماخى وقد كتب عن كثير منهن الشيخ على معمر فى كتابه الاباضية فى موكب التاريخ ورأيت كتابا صدر أخيرا فى فرنسويا تناول الحديث فيه عن مسلمات خالدات ونوه بنظامهن فى مزاب واشاد بذكر احداهن وهي مامة بنت سليمان الغرداوية ونحيل المستمع الكريم فى هذا الموضوع الى ما كتبه الشيخ توفيق المدنى فى نظام الاسرة عند الاباضية ، وكان بحثا قيما أتى فيه بتفاصيل وافية عن دور اجتماعهن يوميا فى كل بلدة أو قرية من قرى مزاب لتعليم الصناعة اليدوية والحرف كالنسيج والحياكة والخياطة وتطريز الزرابى وتفتح بدروس الوعظ والارشاد وأتى بتفصيل رايع عن مؤتمراتهن التى تعقد سنويا ، وما كتبه ناصر الدين اتيان دينى روح التسامح مع غيرهم من المذاهب الاسلامية الاخرى •

ومع أن دولة بنى رستم كانت اباضية فى جميع أسسها وقواعدها فانها متسامحة مع جميع المذاهب الاسلامية فقد كانت المناظرات والمباحثات العلمية تعقد بين أيدى الائمة للنظر والجدل فى مسائل الاعتقاد وغيرها وذلك بصدر رحب وعن ابن الصغير مؤرخ هذه الدولة المشهور بالمالكى والحقيقة انه شيعى قال ومن أتى الى حلقة الاباضية من غيرهم قربوه وناظروه الطف مناظرة وكذلك من أتى من الاباضية الى حلق غيرهم كان سبيله كذلك (43) ، فانهم فى ذلك يقتدون باحد كبار أئمتهم أبى عبيدة مسلم ، فمناظرته مع واصل بن عطاء بالحرم أمام الكعبة المشرفة ومباحثته معه فى مسائل

(42) الطبقات ، ج 1 ، ص 56 سير ابى زكريا مخطوط سير الشماخى الجواهر للبرادى .
(43) الجيلالى ، ج 1 ، ص 232 .

علمية تناقلها كثير من المؤرخين ويفحم فيها واصل بن عطاء ويعترف له بذلك (44) ، وبفضل تسامح الائمة الرستميين استطاع علماء السنة أن يفدو الجدال علماء الاباضية فى كل مسائل العقيدة والشريعة وربما طمعوا ان يرجع هؤلاء لمذهبهم (45) ، وان الامام عبد الوهاب لما طلب من جبل نفوسة ان يبعثوا له عالما يحضر مجالس الحوار والمناظرة بتيهرت · بعثوا له مهدى الويغوى ولما وصل تيهرت جعل يغيب عن أصحابه ايـامـا لا يدرون له مستقرا فلما كان ذات ليلة قدم عليهم فقالوا له قد استبطأناك ففيم كـان مغيبك ، فقال لهم انى قد رددت الى مذهب الحق سبعين عالما من أهل الخلاف (46) ·

ارتفـاع مستوى المعيشة بحسن نظـامهم

كانت المعيشة مزدهرة والحياة الاقتصادية من فلاحة وتجارة وحركة الصادرات والواردات فان مملكة تيهرت كانت تعد احدى محطات العالم الاقتصادية الكبرى فهي واسعة الاخذ والعطاء فكانت الحبوب والازهار بأنواعها تزرع بأرض الجزائر والاسواق ملأى بمختلف البضائع والمصنوعات وكانت طرق القوافل معبـدة متصلة بصحـراء افريقيا وبلاد السودان شرقا وغربا ، قال البكرى وفى تيهرت جميع الثمار وسفرجلها يفوق سفرجل الافاق حسنا وطعما وفيها أسواق عامر وحمامات كثيرة وسمي منها اثنى عشر حماما وحواليها من البربر أمم كبيرة ويغرق المقدسى فى وصفها بأوصاف الحسن والكمال الى ان يقول فيها هي بلد كبير كثير الخير هي بلخ المغرب كما ان السفن تغدو وتروح بين بر العدوة ومراسى الجزائر مشحونة بشتى اصناف السلع (47) ، وبفضل تقسيط الزراعة والتبادل التجارى أصبحت عاصمة الرستميين من أكبر أسواق المغرب الاسلامى (48) ، وقد اطنب كثير من المؤرخين فى النظام الذى اتخذته الدولة الرستمية فى أن وارجلان قاعدة كبرى وهمزة وصل بين السودان وافريقيا وأوروبا وكان ذهب افريقيا السوداء يجمع فى وارجلان مع غيره من السلع ، ويصدر الى بلدان المغـرب وأوروبا وكذلك السلع التى تأتى من أوروبا والمغرب وتصدر الى افريقيا السوداء ومن وارجلان انتشر الاسلام فى مالى وغيره من بلاد افريقيا السوداء بواسطة التجـار ومما يدل على تمتع الرعية بحياة طيبة رغيدة ان الائمة الرستميين لما بعث لهم اخوانهم

(44) الطبقات ، ج 2 ، ص 246 الجواهر للبرادى سير الشماخى ، ص 30 .
(45) الفرق الاسلامية فى افريقيا الشمالية ، باجية ص 57
(46) الطبقات ، ج 1 ، ص 59 ــ 60 سير ابى زكريا مخطوط ، سير الشماخى الجواهر للبرادى

(47) الجيلالى ، ج 1 ، ص 233 البكرى 66 ــ 69 المقدسى ، ص 22 .
(48) باجية ، ص 57 .

من البصرة بعشرة احمال ذهبا شاور الامام عبد الرحمن أصحابه فيها فقالوا رأيك يا أمير المؤمنين فقال اما اذا أرددتم الى الرأي فان رايى ان يرد الى أهله فهم احوج منا اليه فقد قوانا الله واغنانا فله الحمد ، وهذا مما يدل على الرخاء الذى ساد المملكة وكانت ايامهم ايام رغد ويسر (49) ، فشق ذلك على الرسل وليس لهم من طاعة الامام بد فعجب أهل المشرق من زهدهم فى الرضا فاقروا بامامته ووصلوه بكتبهم وقد سبق ان قبل منهم مثل ذلك حيث كانت الدولة والرعية فى حاجة اليه أيام التأسيس (50) .

مكتبة المعصومة اكبر مكتبة فى المغرب كله

لائمة بنى رستم عناية كبيرة بجمع الكتب النادرة وجلبها من أي مكان كانت وقد ذكرنا بعض مساعيهم فى جلب الكتب من الشرق وحيث انهم جميعا علماء لهم عناية كبيرة بالعلم بجميع فنونه وفيهم الادباء والشعراء ولم يصل الينا الا النزر القليل من رسائلهم وقصائدهم ، وكانت غاية فى الفضاحة ولاعتنائهم بالعلم تكونت لهم بذلك خزانة دار الامارة المشهورة بمكتبة قصبة المعصومة وكان فيها من نوادر المخطوطات ونفائس الكتب ما يؤسف لفقده اليوم ويقال انها تشتمل على ثلاثمائة الف مجلد ولما دخل أبو عبد الله الشيعى تيهرت انتهبها وانتهك حرمتها واحرق هذه المكتبة كما احرق بعض المكاتب فى جهات أخرى من مدن الاباضية وقد ألف فى تيهرت ودولة بنى رستم وازدهار الحياة فى مدنهم كثير من العلماء وخصصوا تيهرت بالتدوين والتاليف مثل أبى عبد الله محمد بن يوسف الاندلسى المشهور بالوراق لكنا لم نعثر عليه (51) .

محاولة الاباضية استرجاع دولتهم

بعد ان قام العبيديون بفضائعهم المشهورة الفتك والغدر والتخريب للقضاء على جميع الدول بالمغرب الاسلامى كان رد الفعل شديدا من الجميع وبالاخص من الاباضية لانهم الاغلبية من سكان البلاد فكان أول محاولة لاسترجاع دولتهم بوارجلان عندما نزح اليها يعقوب بن افلح فقال لهم كلمته الشهيرة الجمل لا يستتر بالغنم خصوصا وان

(49) الجيلالى ، ص 225 باجية ، ص 31 .
(50) الجيلالى ، ج 1 ، ص 222 الطبقات ، ج 1 ، ص 45 سير ابى زكريا مخطوطات سير الشماخى الجواهر للبرادى البارونى الازهار الرياضية .
(51) باجية ، ص 57 الجيلالى ، ج 1 ، ص 232 ـ 233 الطبقات ، ج 1 ، ص 94 سير ابى زكريا مخطوط .

الشيعي لم ينجح في الاستيلاء على وارجلان وذلك انه لما بلغهم ان العبيديين قادمون اليهم وحدوا صفوفهم واجتمعوا بكدية (كريمة) المعروفة الى الآن وتحصنوا بها وملؤوا مواجل ماء وهم بالمقام محاصرا لهم . ثم ملؤوا قصاعا كبارا زيتا وجعلوها حيث يراها العسكر وعندهم جمال تمكن منها العطش فجعلت الجمال كلما رأت القصاع مملوءة حسبتها ماء فكرعتها ولما وجدتها زيتاً رفعت رؤوسها تشمخ بانوفها فلما رأى ذلك العسكر قالوا ما هذا الا عن ماء جم عندهم ففيم المقام وارتحلوا واحرقوا المسجد الكبير للشيخ صالح جفون بن يمريان (52) ، وقد ركزوا أول محاولاتهم الاولى على تيهرت فان العبيدى هجم على تيهرت فغزاها فانتهبها وانتهك حرمتها واجلى كثيرا من أهلها وقتل بيت الامامة من الرستميين وأهل الملك وأهلك الحرث والنسل فانقطعت الامامة بموت الامام يوسف رحمه الله ومن قتل معه وهنا بدأ الصراع لاسترجاع العاصمة تيهرت ولم تنقطع الوقائع بين زناتة والشيعة ومن والاها من قبائل صنهاجة وكتامة مدة خمسين سنة (53) ، وقد التهمت النيران بتيهرت واحرقت أسواقها سنة 305 هـ (54) ، ودامت المعارك بين دعاة الشيعة وبين زناتة مدة ثم استنجدت بالامويين بالاندلس فايدتها وقد انتزعها من الباطنية حميد بن يصل وخالف المنصور بن بلقين ثم جاء بعده ، خلوف بن أبى بكر واخوه عطية فاقتطعوا المغرب الاوسط باكمله ودعوا لهشام المؤيد ثم زحف يعلى بن عبد الله اليفرني مع الخير ابن محمد بن خزر وقومه مغراوة وخطب من تيهرت الى طنجة لعبد الرحمن الاموى وفتح زيرى بن عطية المغراوى مدينة تيهرت وتلمسان وشلف الى مسيلة وأقام الدعوة للامويين وبقيت تيهرت فى أكثر الاوقات تحت حكم زناتة دعاة الامويين الى أن محا أتو زناتة بلقين بن زيرى من تيهرت سنة 369 وابن الاثير يقول 362 (55) ، وكان ذلك حين هاجر بنو برزال الاباضية للاندلس على نية الجهاد وكانت لهم مآثر محمودة فى الاندلس ثم أسسوا دولتهم الاباضية عاصمتها قرمونه ولى رسالة فى هذه الدولة وجهادها فى سبيل الاسلام سانشرها ان شاء الله وفى الوقت الذى كان الصراع القائم على تيهرت عنيفا وربما كان أقرب الى النجاح فقد بلغ النجاح بابى يزيد مخلد

(52) الطبقات ، ج 1 ، ص 95 ـ 96 سير أبى زكريا مخطوط سير الشماخي الجواهر للبرادى .

(53) الجيلالى ، ج 1 ، ص 290 .

(54) الجيلالى ، ج 1 ، ص 287 .

(55) الجيلالى ، ج 1 ، ص 311 ابن الاثير الكامل ، ج 8 ، ص 622 ، ج 9 ، ص 152 ابن خلدون ، ج 7 ، ص : 34 ـ 37 ، 54 ـ 55 ـ 57 ـ 59 ـ 63 ـ 70 .

ابن كيداد الذى انطوت تحت لوائه الاباضية وقسم كبير من المالكية يامر من علماء القيروان كما صرح بذلك الدباغ فى الجزء الثالث من معالم الايمان فى علم القيروان ، وابوبكر احمد بن ابراهيم المالكى القيروانى فى الجزء الثانى من رياض النفوس (36) ، موجود ضمن مخطوطات مكتبة شيخ الاسلام حكمت رفعت بالمدينة المنورة ، واقر ذلك الاستاذ الجيلالى عبد الرحمن قلت بلغ نجاحه حتى استولى على القسم الكبير من تونس والجزائر وكاد ان ينتصر على العبيديين فأسس حكومة مؤقتة بوارجلان وطبع فيها سكة ذهبية وجد منها فى هذه المدة القريبة ثمانية وثلاثون قطعة ذهبية عجيبة فى اتقانها وكانت حروفها فى غاية من السبك حتى ان البعض قال لا يوجد فى افريقيا مثل هذا المعمل اللهم الا فى الاندلس ووجدت مصادر صحيحة تثبت انها ضربت بوارجلان وهي الآن بمتحف القيروان ولى رسالة فى جهاد أبى يزيد ضد الباطنية بحقائق فقدت فيها جميع ما نسب اليه من الاكاذيب بحجج دامغة ستطبع وتكون فى متناول القراء ان شاء الله ولم يكن أبو يزيد وحده فى هذا الميدان وانما كان هناك عدد وافر من العلماء تزعموا هذه القضية وكانت ثورات متوالية لم تنقطع حتى سافر المعز الى مصر وقد قام بعد أبى يزيد ولده الفضل الذى كان مؤيدا من بنى أمية بمساعى أبى العرب التميمى المالكى وكذلك أخوه أيوب (57) ، ولم تنطف نار الثورة بموت أبى يزيد وولديه فقد قام ثلاث علماء تبنوا الثورة بعدهم وقد قال فيهم أبو تميم المعز الفاطمى لما سئل عن رأيه فيهم قال اما يزيد بن مخلد فلم تلد العرب مثله ، واما يغلى بن زلتاف فعالم ورع واما سعيد بن زنغيل ففتى مجادل وقد قام هؤلاء الثلاثة بثورة عارمة استولوا على الجنوب التونسى والجريد وأوراس وبسكرة ووادى اريغ وسوف وقسم من الزاب وقاعدة الجميع وارجلان ، اما أبو القاسم يزيد بن مخلد فقد قتله المعز الفاطمى خداعا واذ ذاك اجتمعت الاباضية لانه تسمع نفوسهم بالصبر عنه المطالبة بدمه واجتمعت المشايخ لذلك تحت اشراف أبى خزر يغلا بن زلتاف فقرروا استشارة اخوانهم فبعثوا أبا نوح سعيد بن زنغيل فتوجه الى جبل نفوسة وكان شيخهم حينئذ الذى تنته اليه أمورهم عون بن عبد الله فجمعهم أبو نوح وشاورهم فقالوا له انتم تعلمون ضعفنا بعد وقعة مانو ولكنا لا نبخل عنكم بطاقتنا نعينكم بما قدرنا عليه فرجع أبو نوح وسار الى جربة فاتفقوا معه ورجع الى المشايخ فاتفقوا على ان يكاتبوا بنى امية بالاندلس فاجابوهم بالتأييد فكانت معارك عظيمة لا يتسع المقام لبسطها وكانت نهايتها ان فر

(56)لابى بكر يحيى بن ابراهيم المالكى القيروانى ، ج 2 الموجود بكتبة شيخ الاسلام بالمدينة المنورة .

(57) ابن عذارى ، ابن خلدون ، ابن الاثير ، الطبقات ، السير .

أبو نوح سعيد الى وارجلان وكان وارجلان دائما تحت حكمهم ، واما أبو خزر فقد احتفظ به المعز الفاطمى واخذه معه الى مصر (58) .

تحقيق ما تصبو اليه الاباضية فى استرجاع قوتهم ونفوذهم

لم تزل أمنية الاباضية الوحيدة منذ انهيار دولتهم الرستمية الحصول على شىء من القوة والاطمئنان وسعة النفوذ حتى فتح الله على المغرب الاسلامى بدولة خارجية اباضية تحت شعار الموحدين كما نص على ذلك كثير من العلماء مثل لسان الدين ابن الخطيب وابن خلدون والسلاوى وابن عذارى وغيرهم كثير ولما استولى عبد المؤمن ابن علي على المغرب الاقصى بكامله بعث وفدا للجزائر يدعوهم لطاعته ، ولما وصل تلمسان قرر اعيان الجزائر ان يبعثوا برسالة الى اخوانهم بالصحراء ان يغتالوا جميع أعضاء الوفد يشيعوا انهم هلكوا فى متاهات بالصحراء بالعطش وانتم تعلمون ان ابن خلدون يؤكد أن وهران وتلمسان ونواحيهما الى الاغواط ومزاب ووارجلان قبيلة واحدة تفرعت من بنى واسين من زناتة ولما وصلت هذه الرسالة الى الصحراء فهموا بتنفيذ ما فى الرسالة من الفتك بهم فكروا فى استشارة السياسى الكبير والمفكر العظيم أبى يعقوب يوسف بن ابراهيم السدراتى فقدم اليه جماعة منهم يستشيرونه بعد ان اجمع رأي أكثرهم على قتلهم حتى لا يظهر لهم ذكر ولا اثر ، فقالوا له ان هذه خيل تدعو الى سلطان قد ظهر بالمغرب وقد اجمعنا على ان نقتلهم قبل ان يعرفوا بلدنا فاننا نخاف ان يخربوا بلادنا ان عرفوها فقال لهم هؤلاء لا يخربون بلادكم بل تنالون فى ايامهم عزا أو اقبالا وتلقون منهم فى خير لقاء واكراما واحسانا أكثر مما تلقونه فى بلادكم (59) ، وان احد اعلام المذهب الاباضى أبا يحيى زكريا اليراسنى كان مستشارا لعبد المؤمن بن على ولابنه يعقوب المنصور فانه ضاعف فى اكرامه وقضى مسائله واعلى منزلته وانتفع بعنايته جميع أهل المذهب (60) ، والتى أرجو الله سبحانه أن يوفقنى ، فأكتب عن الموحدين ودولتهم الممتازة واكشف القناع عن مذهبهم وعقيدتهم مما لا يبقى معي مجال للشك .

---

(58) الطبقات ، ج 1 ، ص 122 الى ص 143 سير ابى زكريا مخطوط الشماخى الجواهر للبرادى .

(59) الطبقات ، ج 2 ، ص 493 ــ 494 .

(60) الطبقات ، ج 2 ، 504 السير للشماخى والجواهر للبرادى .

فتنــة ابــن غــانيــة

ان كتب التاريخ ملأى بالخراب الذى لحق افريقيا فى دولة الموحدين من ابن غانيه وقد ركز أكثر فضائعه من السلب والنهب والتخريب على مواقع الاباضية لانهم دعامة دولة الموحدين فتسلط على الجريد والحامة وقسطيلة وتوزر وقفصة وسوف وبلد اريغ وتقورت ونواحيها وو رجلان ومزاب فخرب أكثر من مائة قرية فى و رجلان ونحو مائة قرية فى تماسين وثلاثين قرية من مزاب ولا يخفى عليكم ان و رجلان كانت قاعدة عظيمة وسند قويا للموحدين ولجميع الاباضية (61) واستعان فى أعماله الاجرامية بالهلاليين كما فعل الفاطميون من قبل وجاء الحفصيون والمرينيون لاصلاح الوضع هنا ولكن بقيت اطلال خرابهم ماثلة للعيان والامر لله نسأل الله أن يرحم اسلافنا الذين خدموا الاسلام والحضارة الاسلامية فى المغرب والاندلس وغيرها وان يرجع للاسلام عزه ومجده ويجعل شبابنا أفضل خلف لاتباع السلف ويوحد بين صفوف المسلمين ويجعلنا نتلهف لحسن ذكراهم آمين يا رب العالمين ، والحمد لله رب العالمين • والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته •

(61) الطبقات ، ج 2 ، ص 504 .

منشـــورات

وزارة التعليم الاصـلى والشؤون الدينيـة

صـدر كتاب :

الملتقى الثامن للفكر الاسلامى

بالعربية فى ثـلاثة أجزاء

ويشمـل سائـر المحاضرات ، والتعقيبـات ، والمناقشـات

كما صدر كتاب :

الملتقى السادس للفكر الاسلامى

بالفرنسية فى خمسة أجزاء

ويشمـل أيضا سائر المحاضرات ، والتعقيبات ، والمناقشـات

المـــرأة المسلمـــة و الفرنسيـــة أمـــام القـــانـــون (*)

د. ايفادي فيتراي مايروفيتش
عضوة فى المركز الوطنى الفرنسى
للبحث العلمى ـ باريس ـ (فرنسا)
واستاذة بكليـــة البنات
بجامعة الازهــر ـ القاهرة ـ



اذا أردنا أن نجرى مقارنة بين الحالة الشخصية (القانونية) التى تتمتـــع بها كل من المرأة الفرنسية والمـرأة المسلمة ، يجب الانغفل عـن بعض الاعتبارات والا كانت كل مقارنة بلا جدوى ·

ولا يمكن فى اطار هذا العرض الوجيز ، الا القاء نظرة مختصرة ، لا تراعى مثلا قرارات القضاء ، ولا الظروف الاجتماعية التى تندرج فيها الحالات الخاصة ·

وينبغى بالاضافة الى ذلك ، الا نجرى المقابلة الا بين ما يقبل المقارنة ، باعتبار أن هذا ناتج عن الملاحظة السابقة ، فهل يمكن فعلا ، لو اننا نظرنا الى القضية من وجهة نظر غربية فقط ، ان نقيم مقارنة صحيحة بين وضعية امرأة فلاحة من بعض بلاد البحر الابيض المتوسط ، ووضعية امرأة حضرية من شمال أوروبا ؟ وحتى اذا فرضنا أن القوانين الجارى بها العمل قوانين واحدة ، فان اختلاف العقليات والعادات تفســد المقارنة بصورة بينة · وكذلك لو عمدنا الى مثل هذه الطريقة ، فيما يتعلق بالعـــالم الاسلامى ، فسنصطدم بصعوبات شبيهة من أول الامر : فالشريعة الاسلامية تســرى على ثمانمائة مليون من المسلمين فى العالم ، ومن بين ذلك الحالة الشخصية التــى

(*) محاضرة القاها فى الملتقى 11 للفكر الاسلامى فى ورجلان (ورقلة)

تتمتع بها نساء مختلفات الاوضاع ، من بدوية تعيش عيشة الرحل غير المستقرين ، وفلاحة يمنية ، ومتعلمة مفكرة من الجزائر ، أو القاهرة،أو دمشق ٠

وينبغى أخيرا ، اذا أردنا أن نستخلص روح الشريعة الاسلامية ، ان نراعى العصر الذى صدرت فيه قواعدها : فالمقارنة بين ترتيبها التاريخى ، وبين العالم الغربى قد تؤدى بنا الى مفاجآت ٠

ولهذا نرى من المحتوم ، الا نتعرض الا للجانب النظرى من المسألة ، على اعتبار أن القرآن الكريم هو أساس كل تشريع دينى فى الاسلام ، وان كل بيان وتوضيح نلتمسه له ، يتوفر عادة فى سنة الرسول (ص) ٠

وقد اختصر النبى (ص) فى خطبة الوداع التى ألقاها فى عرفات ، فى آخر السنة العاشرة من الهجرة ، أي ثلاثة أشهر قبل وفاته ، حقوق المسلمين وواجباتهم ، وخصص جزءا كبيرا من وصاياه فى هذه الخطبة القصيرة الجامعة للنساء ٠

فقد قال رسول الله (ص) فى هذه الخطبة : « أيها النـاس فان لكم على نسائكم حقا ، ولهن عليكم حقا ٠٠٠٠ واستوصوا بالنساء خيرا ، فانهن عندكم عوان لا يملكن لانفسهن شيئا ٠ وانكم انما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، اتقوا الله فى النساء واحسنوا اليهن ٠٠ اللهم قد بلغت » ٠

وقد كان النبي (ص) يكرر باستمرار أن أفضل المؤمنين انما هم الذين يعاملون زوجاتهم أحسن المعاملة ٠ أما المرأة ، بصفتها أما ، فمن المعروف أن التقاليد الاسلامية قد أشادت بمقامها الى حد بعيد ، الى درجة أن النبى (ص) قال : الجنة تحت أقدام الامهات ٠ اما بخصوص البنات ، فقد بين الحديث أن الاب الذى يعامل بناته على غرار ما يعامل به ابناءه ، أي يسدى لهن تربية وتعليما شبيهين ، سيكون الى جنب الرسول (ص) فى الجنة ٠

وقد ذكر الرواة أن النبي (ص) كان يعنى فعلا بشؤون النساء ، وقال البخارى : ان الرسول (ص) كان عين يوما من الاسبوع ليتحدث فيه الى النساء ويجيب عن اسئلتهن ، بمساعدة زوجاته ، وكانت حفصة احدى زوجاته ، تعرف القراءة والكتابة ، الشيء الذى كان نادرا فى ذلك العهد ، وكانت عائشة فقيهة فى الدين يستشيرها حتى أعلم الرجال فى عهدها ، وقد كانت تجمع الى معارفها مسائل الطب ، وتاريخ العرب ، وأمر القرآن كل مسلم ، رجلا كان أو امرأة ، بالتعلم وخاطب زوجات الرسول خاصة

قائلا : « واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات اللـه والحكمة ، ان اللـه كان لطيفا خبيرا » (الاحزاب 22) ٠

وروي البخارى أن النبي (ص) قال : (أو بما فى معناه) : من كانت له أمة فأحسن تعليمها وتربيتها ثم أعتقها ليتزوجها حرة ، فسيضاعف اللـه له الجزاء ٠ (البخارى 3 ، 41) وقد كان من بين أصحاب النبي (ص) عشرون من النساء الفقيهات وكان عدة نساء اخريات مدرسات فى الجامعات فى القرون الوسطى يلقين على الطلبة من ذكور واناث ، وشاركت النساء فى المعارك التى جرت فى مستهل الاسلام ، لا لاسعاف الجرحى فقط ، لكن حاملات للسلاح أحيانا ومقاتلات ٠

ومن المعروف من جهة أخرى ، أن الحجاب الذى يغطى الوجه ، لم يكن واجبا قط ، وان النساء لم يكن يحجبن وجوههن فى عهد الرسول (ص) بل ان هذا الحجاب عادة متأخرة ، نقلت غالبا من بيزنطة ، وما أمر القرآن الا بالثياب التى تستر المفاتن ٠

فاذا عرفنا ما كانت تحظى به المرأة عند العرب فى عهد الجاهلية من تقدير ضئيل ، اذ كانت تؤد حية ، يمكن أن نعرف اذ ذاك مدى ما جاء به الاسلام من تقدم ، وقد احدث الاسلام فى الواقع ثورة حقيقية فى العادات وكان المعاصرون للنبى (ص) عارفين لذلك ٠

ولننظر الآن فى بعض الاوامر التى وردت فى القرآن الكريم ٠ ففيما يتعلق بالوالدين ولا سيما الام ، فقد كرر التوصية باحترامه والرفق والعناية بهما ٠ « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا » (الآية النساء) ٠

«وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه ، وبالوالدين احسانا ، اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما ، فلا تقل لهما أف ، ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا ، (الاسراء) « ووصينا الانسان بوالديه ، حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين ، ان اشكر لى ولوالديك ، الى المصير ، وان جاهداك على ان تشرك بى ما ليس لك به علم ، فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا » ٠٠٠ الى آخر الآية (سورة لقمان) ٠

اما فيما يتعلق بالزواج فقد أمر القرآن واشترط **الرضا الحر المتبادل** (سورة البقرة الآية 232) وكانت البنت فى زمن النبى (ص) يستشيرها والداها وأولياء أمرها قبل الموافقة على خطبتها (حميد الله : **حياة الرسول (ص 669)** ٠

وقد اشار الرسول على المغيرة بن شعبة ، بمشاهدة الفتاة التى أقدم على التزوج بها قبل الخطبة · حتى لا يحدث له أسف فيما بعد ، واذا لم تكن المرأة المخطوبة حاضرة فى العقد ، فيطلب رضاها شاهدان سواء فيما يتعلق بالخاطب أو بشروط الزواج ·

فالغاية من الزواج انما هي خلق روابط ذات حرمة · « ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ··· » (سورة الروم) ·

المساواة فى الحقوق والواجبات :

« ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة » (سورة البقرة) وقد أوصى القرآن بالمعاشرة الطيبة وبالوئام حتى اذا كان بين الزوجين ما يدعو الى الكره « وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » (سورة النساء) · « أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن » (سورة الطلاق) ·

التحكيم ومحاولة الصلح بين الزوجين فى حالة النزاع :

« وان امرأة خافت من بعلها نشوزا أو اعراضا ، فلا جناح عليهما ان يصالحا بينهما صلحا والصلح خير » (النساء) ، «وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها أن يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما » (سورة النساء) والطلاق آخر حل يلجأ اليه الزوجان « وان عزموا الطلاق فان الله سميع عليم » (البقرة) · وقد قال النبي (ص) : الطلاق أبغض الحلال الى الله ، على انه اذا وقع الفراق فللمرأة حق فى تعويض ، « وللمطلقات متاع بالمعروف ، حقا للمتقين » (البقرة) ·

تعدد الزوجات :

تعدد الزوجات (فى الاسلام) انما هو رخصة مبنية على شروط ، الغاية منها جعل هذه الرخصة امر استثنائيا · (واذا كان الامر على خلاف ذلك فى الواقع فذلك يرجع الى الاحوال الاجتماعية ، ويتعارض مع روح الاحكام القرآنية) · ففى القرآن « وان خفتم الا تقسطوا فى اليتامى ، فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فان خفتم الا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم · ذلك أدنى ألا تعولوا » (سورة النساء) ·

على ان القرآن يضيف آية تجعل هذه الرخصة شبه مستحيلة اذ قال : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » (سورة النساء) ، فلابد من ان يكون

الزوج عادلا ، ولكن لا يمكن أن يكونه ، وعلى هذا فالمثل الاعلى هو أن يتخذ الرجـل زوجة واحدة ، الا اذا اقتضت الاحوال التعدد ، بحيث أن التعدد يكون أقل ضررا ، وقد لفت يوسف على النظر فى ترجمته للقرآن باللغة الانجليزية الى ظروف جماعة المسلمين ابان نزول الآية التى رخصت بتعدد الزوجات ، وان كان بتقييد شديد ، وبين أن ذلك وقع اثر معركة أحد التى ترملت فيها نساء كثيرات ، وتيتم أطفـال ، واسرت سبايا وكان من المطلوب حماية هؤلاء النساء والاطفال والسبايا وصيانة مصالحهم ·

فالشريعة قانونا وفقهيا ، تخول المرأة المخطوبة حق رفض الزواج برجل متزوج حتى لا تكون امرأة ثانية له ـ باشتراطها الرضا عند الخطبة ـ وعـلاوة على ذلك ، للمخطوبة أن تدرج فى عقد النكاح ، شرطا ينص على ان زوجها لا يجـوز أن يتزوج عليها · وقد ذكر الفقيه الكبير أمير على هذا الشرط ، من بين الشروط التى تقـرها الشريعة (اما الشروط الاخرى فتبين أن الزوج يجب أن ينفق على زوجته والا يمنـع أهلها من زيارتها عندما يرغبون فى ذلك · والا يجبرها على مغادرة بيت الزوجية الخ) ويقر القانون المصرى بالاضافة الى ذلك ، بحق **تفويض الطلاق** للزوجة طبقا لشروط تختلف باختلاف ما وقع من اتفاق بين الطرفين · وهذا الحق فى تقرير المصير تنص عليه عادة عقود النكاح بين المسلمين فى الهند ، ويجوز من جهة أخرى للزوجين أن يتفقا على ابطال عقد النكاح ، عدا الحالات التى يحكم فيها القاضى بالطلاق بسبـب شكوى من الزوجة ، اذا لم تدرج هذا الشرط فى عقد النكاح ·

الحقـــوق المـــاليــة :

للمرأة بمقتضى الشريعة الاسلامية الحق المطلق فى أموالها ، ان كانت راشـدة ، دون أن تطلب الاذن من زوجها · ولا يوجد أي فرق بين الزوج والزوجة فى هذا الميدان ، وللمرأة أن تتصرف فى أموالها الخاصة ، وان ترث ، وتقبل الهدايا ، وتكسب بالعمل ، وان تهب وأن تبيع من هذه الاموال ، وتصنع بها ما تشـاء بجميع الطرق الشرعية ، وهذا الحق لا يبطل أبدا ، كما أن ثروتها الشخصية لا يجوز أن ترهن بسبب ما عـلى زوجهـا مـن ديـــون ·

واذا بدا أن الاحكام الخاصة بالميراث تحرمها من بعض المنافع ، فلا يجوز أن ننسى أنها علاوة على استقلالها المالى ، وتوليها التصرف فى أموالها الخاصة فمـن الحق لها أن ينفق عليها والدها أو زوجها أو ابنهـا ··· الخ ، وللقاضى أن يجبرهم على ذلك ، كما أن لها الحق فى أخذ مهرها ·

فهذه البيانات تتيح معرفة ما تنطوى عليه الشريعة الاسلامية من روح تسامح بشأن المرأة ، خلافا لما نعرفه من الآراء الشائعة . ولابد من الاعتراف بأنه اذا لم تحترم الشريعة وروحها ، فلا شك أن ثمة حيف وتعد على حقوق المرأة .

وقد اقترحت منذ عشرات السنين عدة اصلاحات فى البلاد الاسلامية ، ترمى اما الى الغاء الفقه الاسلامى ، فيما يتعلق بحقوق الاشخاص وتطبيق القانون الغربى كما جرى ذلك فى تركيا ، أو باجراء تعديلات ، ففى تركيا ، حيث ينبنى دستور 1924 على مبدأ علمانية الدولة (لائكية الدولة) أبطلت المحاكم الشرعية ، وجرى العمل بالقانون المدنى ، وقانون الالتزامات السويسريين ، ابتداء من سنة 1926 . ثم نظرا الى أن 99 ٪ من الاتراك مسلمون ، وقع نوع من التراجع ، وتم نوع من التوفيق بين الحقوق الاسلامية والغربية فى خصوص الاحوال الشخصية .

ووضعت الحكومة الباكستانية من جهتها اثر اعمال قامت بها لجنة بمراعاة ضرورة الاجتهاد ، عددا من الاصلاحات تندرج فى الاطار الواسع المحدد فى القرآن الغرض منها انتهاج سبيل التسامح . ومن ذلك أن لا يمكن للزوج أن يتزوج بأمرأة ثانية بدون موافقة الزوجة الاولى ، واذن القاضى ولابد الى ذلك من تسجيل الانكحة ، وكذلك الامر فى مصر : لابد من عقد النكاح أمام القاضى بمحضر شاهدين ولابد من تسجيله ، وعلى المرأة أن تعرب عن رضاها وموافقتها أمام الشهود . ولها الحق فى اقتضاء مهرها قبل جميع أصحاب الديون الآخرين .

كما يعترف القانون المصرى **بتفويض حق الطلاق** للزوجة ، وبالطلاق اذا اتفق عليه الزوجان ومنح الدستور المصرى الجديد سنة 1906 حق الانتخاب للنساء وقد كان للمصلحين جمال الدين الافغانى ومحمد عبده تأثير كبير ، ودور فى تحرير المرأة المصرية ، كما كان دور للحركة النسائية التى بدأت منذ سنة 193 ودعت الى الرجوع الى روح القرآن الحقيقية .

اما فى أوروبا فقد لاحظت جرمين تيون Germaine Tillion ان الوضعية القانونية الخاصة بالمرأة تبدو متأثرة بتقاليد شمالية قديمة فيها تسامح ، وأن هذه التقاليد عارضتها خلال القرون ثلاث تأثيرات جاءت من البحر الابيض المتوسط : وهي تأثير القانون الرومانى ، وقانون نابليون (لا يجوز أن ننسى أن الموحى لهذا القانون كان من كرسيكا) ثم تأثير المذهب الكاثوليكى التقليدى .

وكان قانون نابوليون منسجما مع دور المرأة المنبنى على اخلاقيات الكنيسة . على أن الاشياء قد تطورت ويمكن أن نميز فى هذا التطور مرحلتين .

كانت النساء قبل سنة 1938 غير مؤهلات قانونا ، يعتبرن قاصرات ، ويخضعن لوصاية أزواجهن ، على أن المرأة حظيت منذ سنة 1907 بحق التصرف الحر فى أموالها الخاصة أي التى تكتسبها بعملها ولكن أنظمة الزواج كانت تمنح للزوج ولاسيما الانظمة المبنية على الملكية المشتركة للاحوال ، سلطة شبه كاملة .

ويسرى على هذه الانظمة الزواجية قانون اتخذ بعد ذلك ، هو قانون 13 يوليو 1965 فالزوجان اللذان اقترنا بدون عقد (أي اللذان لم يختارا التفريق بين أقوالهما ، أو المشاركة بينهما فيها) يسرى على حالتهما نظام الاشتراك فى الاموال المكتسبة أثناء مدة الزواج فقط ، وتشمل ثلاثة أنواع من الاموال : الاموال الخاصة بالزوج ، الاموال الخاصة بالزوجة ، والاموال المكتسبة بالاشتراك . فهذه الاموال تقسم عليهما بالمساواة ، اذا وقع فسخ الشركة اما بفراق جسدى ، أو طلاق أو وفاة .

وللمرأة المتزوجة منذ سنة 1968 ، حق ممارسة مهنة ، وفتح حساب خاص فى البريد أو البنك **بدون اذن من زوجها** .

كما ان لها الحق فى ابرام أي عقد **وحدها** يتعلق بشؤون البيت أو الاطفال وهي مشاركة للزوج فى ملكية حق الكراء ، ولا يجوز للزوج أن يتصرف وحده فى عقد الكراء الذى يكفل السكن للاسرة .

وتحتفظ المرأة المتزوجة بجنسيتها اذا تزوجت بأجنبى ولها ان تتمتع بجنسيتين .

السلطة الابوية على الاطفال : وقع فى هذا المجال تطور ملحوظ ، فقد الغيت سنة 1942 «سلطة الزوج» وتقرر مبدأ «رئيس الاسرة» الى سنة 1965 ، وفى سنة 1970 لم يعد الزوج والاب « رئيس الاسرة » وانقلبت السيطرة الابوية سلطة آباء مقسومة بالتساوى بين الاب والام . فالمادة 213 تقول : « يضطلع الزوجان معا بتسيير الاسرة معنويا وماديا » .

وفى المادتين 371 و 372 « السلطة حق للاب وللام » « يمارس كل من الاب والام بالاشتراك سلطتهما مدة الزواج » .

وفى حالة وقوع خلاف بين الابوين فيما تقتضيه مصلحة الاطفال ، يجيز القانون لكل منهما بدون تفريق أن يرفع الامر الى قاضى الوصايات ليبت بما يراه أوفق لمصلحة الطفل .

اما فى حالة الطلاق أو فراق جسدى ، فقد كان الاب يحتفظ بالسيطرة الابوية حتى سنة 1970 ولو وكلت حضانة الاطفال للام ، ولكن قانون سنة 1970 يمنح السلطة الابوية لمن اسندت اليه حضانة الاطفال من الابوين سواء كان هو الاب أو الام ۰

الطـلاق : يصدر الحكم بالطلاق لاسباب يمكن أن تكون قاطعة (ارتكاب فاحشة الزنا) أو لاسباب ينظر فيها القاضى (شتم وضرب) ۰ ولا تفرق المحاكم فى ذلك بين الرجل والمرأة (أي الزوج والزوجة) ۰

الميـراث : لا فرق بين الولد والبنت الاخوين فى حقوق الميراث ۰

بصورة عامة يمكن أن نقول أن المرأة الفرنسية تملك اليوم من الحقوق مثل مـا يملك الرجل ، وأن هذه المساواة بينهما شيء حديث متأخر ۰ ومن الجائز أن نـلاحظ أنه وقع شيء من الفرق بين القوانين والعادات اذ أن العادات كانت فى الجملة أكثر تسامحا من الوضعية القانونية البحتة ، بينما كان الامر على عكس ذلك فى المجتمعات الاسلامية حيث ان العادات فيها أقل تسامحا بكثير فى قوانين الشريعة ۰

أراء المنـاقشـة : لست قانونية منتمية الى المهنة ، واعتقد انه يجب التفويض للاختصاصيين لتسوية المشاكل التى تطرحها حالة المرأة المسلمة ۰

واعتقـد بصـورة شخصية لا غيـر ۰

1) ان اتخاذ قرار بشرى لا يمكن أن يلغى حكمـا سماويا الاهيا ، ولا يمنـــع ما يبيحـــه القـــرآن ۰

2) أن الفقه الاسلامى مرن مرونة تسمح بالتأويل الواسع مع مراعاة المصلحة العـــامـــة ۰

3) ان الاجتهاد يجب أن ينطبق على جميع الحالات التى تؤدى فيها عدم الحياة فى مجتمع اسلامى خالص ، الى فصل حكم قصدت بها حالة معينة ، عن كل لا ينسجم فيه ولا مكان له فيه ، الشيء الذى يفسد الاساس الذى صدر عليه هذا الحكم ومثـال ذلك أن المرأة المنفردة التى لا ينفق عليها أي شخص فى مدينة كبرى ، هـل يمكن ان تعامل فى باب الميراث كما تعامل المرأة التى تملك من ينفق عليها ويواجه حاجاتها ؟

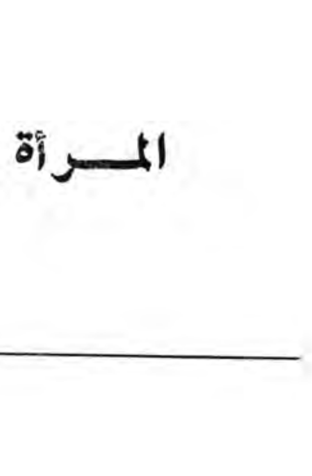
4) يجب فى ختام الامر أن تكون مراعاة روح الشريعة القرآنية هي التى تنبنى عليها جميـع الاجـراءات ۰

5) يبدو من الاساسى أن تسدى للبنات تربية وتعليم يتيح لهن معرفة كل حقوقهن اذ أن الحيف لا يقع غالبا الا بسبب جهلهـن ۰

المــــرأة بـعـــد عـــام المـــرأة(*)

د. عبد الكريم سايتوح
أستاذ الاقتصاد فى جامعة تاكاشوكو
طوكيو ـ اليابان

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،



انى انتهز هذه المناسبة لاعبر عن شكرى العميـق لحكـومة الجمهورية الجـزائرية الديمقراطية الشعبيـة ولسيادة مولود قاسم ، وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية، للدعوة التى وجهها لـى لحضور هذا الملتقـى الحادى عشر للفكر الاسلامى ، فى ورقلة .انى أحمـل اليكم تحيات اخوانكم المسلمين وأخواتكم المسلمات فى اليابان ، وارجو قبول هذه التحية يا اخوتى واخواتى فى الجزائر .

لقد اخترت ان أتناول موضوع « المرأة بعد العام الدولى للمرأة » لان هذا الموضوع هو مشكلة المشاكل ، فالمرأة شغلت الانسان منذ قديم الزمن . انها قضية أساسية أشار اليها القرآن الكريم فى مواقف عديدة كما أمرنا أن نعاملهن بالحسنى .

فى عالمنا الحاضر ، تشغل المرأة حيزا كبيرا من تفكير الانسان الحديث ، تعقـد مشكلاتها ودقتها ، وعليه يجب علينا أن نبحث الموضوع باهتمام وان نتجنب المرور عليـه مـرور الكـرام .

(*) محاضرة القاها فى الملتقى 11 للفكر الاسلامى فى ورجلان (ورقلة)

قلت أن مشكلات المرأة معقدة لدرجة أن مؤتمرا دوليا بمناسبة السنــة الدولية للمرأة عقد فى عام 1975 فى مدينة مكسيكو حضرته (133) بلدا و (140) منظمة ممثلة فى الامم المتحدة و(3) دول بصفة مراقب ٠

لقد كان هدف السنة الدولية للمرأة تحقيق المساواة بين الرجل والمرأة ، تطوير الانسان والسلام عن طريق تعاون المرأة ومساهمتها ٠ انى أعتقد أن عالم اليوم يعانى من تمييز عنصرى انسانى سابق على التمييز المرتكز على اختلاف الجنس ٠ فلو ألقينا نظرة على العالم الثالث مثلا لوجدنا أن العبء الملقى على عاتق المرأة ثقيل جــدا ٠ فهي تقــاسي من نقص فى التربية والتعليم ومن المرض وضعف العناية الطبية ٠ كما أن مشكلات التغذية أكبر من أن نستطيع حصرها هنا ٠ أما فى العالم الغربى فهنـــاك يعتقدون أن مشكلة المرأة صادرة بصورة رئيسية من حقيقة عدم حصول المرأة عــلى حقوقها من الرجال الذين يحرمونها من هذه الحقوق ٠

لنترك هذا قليلا ولنحاول أن نلقى نظرة على خطة العمل التى تبناها المؤتمر الدولى للمرأة ٠ ان فحص هذه الخطة يبرز ما يلى :

1 ـ ان المؤتمر يرمى الى بناء نظام جديد يخلص الانسان من كل مظاهر الظـــلم والتعسف الاجتماعيين ، والتخلص من الاستعمار الجديد ودفـــع التطوير الاقتصادى والاجتماعى الى الامام ، ويحترم حقوق الانسان الاساسية ٠

2 ـ التأكيد على مشاركة المرأة فى مختلف النشاطات الاجتماعية ٠

3 ـ حث المرأة فى كل مكان على أن تعمل من أجل الحصول على حقوق مساوية لحقوق الرجل ، وعلى أن تتحمل المرأة المسؤولية ككائنة انسانية وذلك من أجل تحقيق الســـلام العــالمــى ٠

4 ـ التخفيف من شعــور المــرأة بالنقص ٠

5 ـ اعطاء الحرية للزوجين كي يحدد عدد الاطفال اللذين يرغبان به ٠

وعموما ، يمكن القول أن خطــة العمــل التى تبناها مؤتمر مكسيكو تــؤكد على ضرورة التعاون الدولى من أجل صيانة حقوق الانسان والمساواة بين الرجل والمــرأة وتحقيق السلام والعدالة العالميين وازالة أسباب الصراع والبؤس من العالم الحديث ٠

ان واجب المرأة ، كما تنص الخطة المذكورة ان تشارك فى عملية احلال الســلام والعمل على تطويره وصيانته فلا يمكن للسلام ان يسود عالمنا ما لم تتحمل المـــرأة

مسؤلياتها جنبا الى جنب مع الرجل • لذلك يجب تطوير شخصية المرأة سواء كانت امرأة ، أو أم،أو عاملة،أو مواطنة •

بعد هذا الشرح المقتضب لخطة العمل الدولية بودى أن القى نظرة على خطـــة العمل القومية الخاصة بكل دولة والتى يجب على الدول الاعضاء فى الامم المتحدة أن تنفذها على مدى عشر سنوات (1975 – 1985) • لقد عالجت خطة العمل القومية النقـــاط التـاليــة :

1 – تعليــم المــرأة الريفيــة •

2 – تمكين المرأة من الحصول على المعارف المهنية والتقنية اللازمة فى حقلى الصنـاعــة والــزراعــة •

3 – تحقيق تكـافؤ الفرص للجميع وعلى مستويــات التعليم وتنفيذ التعليـم الاجبارى لكل الاطفال بغض النظر عن جنس التلميذ •

4 – زيادة فرص العمل للمرأة وازالة كل تمييز فى شروط العمل •

5 – مشاركة المرأة فى صياغة برامج النشاطات مهما كان نوعها وعلى كــل المستويات القـومية والـدولية •

هذا وتحث خطة العمــل القومية على استخدام وســائل الاعلام الجماهيرية ، كالراديو،والتلفزيون،والسينما ، والمواد المطبوعة والاعلانات والاجتماعات فى سبيل توسيع وتعميق النشاطات النســائية •

سأحاول الآن ان اعطى لمحة عن النتائج التى تمخضت عن السنة الدولية للمرأة فى عدد من البلدان على الرغم من قلة المعلومات المتوفرة لدى :

فى السويد ، تأسست لجنة لتحقيق المساواة بين الجنسين وعالجت النقاط التالية :

ا) تامين فرص العمل المتكافئة لكلا الجنسين •

ب) تقوية مركز المرأة السياسى وعلى مستوى اتحادات العمال •

ج) خلق ظروف للعمل متكافئة بالنسبة للجنسين معا •

د) تحقيق المرونة اللازمة فى توزيع المهن والحرف على الرجال والنساء •

اما فى المانيا ، فقد عقد مؤتمر دولى للمرأة ، نظمته الرابطة القومية للمرأة فى برلين • فى هذا المؤتمر برزت قوة المرأة فى اطار المطالبة بالاستقلال الكامل للبــلاد وفى وعيها بالمشكلات التى تواجهها •

فى مكسيكو ، عقد مؤتمر عالج ضرورة توحيد الجهود بين نساء العالم الحديث خاصة على مستوى اتحادات ونقابات العمل · ومن بين النقاط الاخرى التى عالجها مؤتمر مكسيكو ما يــلى :

1 ــ مشاركة المرأة فى كل النشاطات الاقتصادية والاجتماعية خاصة تلــك المتعلقة بسياسة الحكومة وباتخاذ القرارات السياسية الهامة ·

2 ــ معالجة كل تمييز بين الجنسين لغير صالح المرأة ·

3 ــ توجيه المرأة نحو ممارسة المزيد من النشاط فى اطار اتحادات العمــل والنقـابـات العمـاليـة ·

اما بالنسبة لبلدى اليابان ، فان حركة تحرير المرأة قويت كثيرا بعد الحرب العالمية الثانية ، وكانت تستمد المدد من افكار تحرير المرأة الشائعة فى الغرب ، خاصة تلك الافكار المتعلقة بصراع المرأة ضد الرجل فى مجالات الحياة الاجتماعية والصناعية داخـل اليابـان وخـارجـه ·

سأحاول الآن أن أشرح باختصار الخطوط الرئيسية لمشكلة تحرر المرأة فى اليابان :

فى سبتمبر 1975 ، انشات الحكومة اليابانية « مكتب التخطيط والتنسيق للاجراءات اللازمة لحل مشكلات المرأة » · وقد ترأس هذا المكتب رئيس الوزارة ميكى وكان الهدف من انشائه صياغة خطة عمل قومية طبقا لخطة العمل الدولية التى تبنتها الامم المتحدة والتى سبقت مناقشتها · هذا وقد صدر تقرير حول هذا الموضوع (انظر الملحق رقم 1 الموجود فى نهاية هذا النص) ·

فى أفريل 1976 وافق رئيس الوزارة ميكى على « خطة عمل قومية » (أنظر الملحق رقم 2) ، ثم تبعه تقرير آخر (أنظر الملحق رقم 3) اصدره وزير العمل فى نوفمبر 1976 ·

ماذا فعلت الحكومة اليابانية بعد عام من السنة الدولية للمرأة ؟ سأحاول أن الخص ذلـك فيما يـلى :

1) فى سبتمبر 1976 ، أفاد تقرير حول بحث قامت به الدولة ان اكثر أفراد الشعب اليابانى يعتقدون أن المرأة فى اليابان فى وضع أدنى من وضع الرجل · وأشار التقرير أيضا الى رغبــة الناس فى أن تصبح ملكيــة الادوات والاشياء الخ ، مشتركة بيــن الـــزوج والـزوجــة ·

2) طلبت وزارة العمل اعادة النظر فى التميز القائم على الفروق بين الجنسين فى امتحانات الـدولة الرسمية ٠

3) فى نوفمبر ، عقدت الحكومة اليابانية مؤتمرا عن مشكلة المرأة وقالت رئيسة المؤتمر السيدة سيلفر غيلثر أن على النساء أن يشتغلن تحت نفس ظروف الشغل التى يعمل الرجال فيها ، وذلك اذا اردن الحصول على أجور مساوية لاجور الرجل ٠

4) ـ فى فبراير 1976 ، اصدرت محكمة فى طوكيو حكما لصالح الآنسة فوردكادا بسبب طردها من عملها فى المستشفى بدون أسباب وجيهة ٠

5) ـ فى مارس ، أوصى مكتب موظفى الدولة بدفع راتب للام التى ترضع طفلا ٠

6) طالب أعضاء الحزب الاشتراكى اليابانى من الامين العام للحكومة ما يلى :

أ ـ حق المرأة فى ممارسة العمل خارج البيت ٠

ب ـ تحقيق فرص للتعليم متساوية بالنسبة للجنسين ٠

ج ـ تحسين القوانين المتعلقة بوضع المرأة الاجتماعى ٠

د) انشاء لجنة للنظر فى تعيين المرأة فى المراكز الادارية المحلية ٠

7) وفى ماي ، اصدرت وزارة الرعاية الاجتماعية أمرا لصالح الممرضات اللاواتى يخـدمـن لـيـلا ٠

8) فى جويليـة ، انشىء مركزان جديدان تشغلهما المـرأة فى مكتـب التفتيش والمحـاسبـة الحكـومى ٠

9) عينت السيدة كورو كوشى لوظيفة مستشارة ثان فى وزارة الشؤون الخارجية

10) قامت وزارة العمل بعقد ملتقى حول « تحسين وضع المرأة » حضرته (30) منظمـة نسـائيـة ٠

11) قبلت محكمة طوكيو الجهوية احتجاجا من السيدة مورا كامى ضد شـركة التلفزيون اليابانى لان الشركة نقلتها من مركز عملها بدون أخذ رأيها بعين الاعتبار ٠

12) فى سبتمبر ، ألقت السيدة ايشى كـاوا ، وهي عضوة برلمانية ومحامية ، ألقت محاضرة على ممثلات المنظمات النسائية فى اليابان طالبت القضاة بعدم استعمال كلمة « تمييز » بين الجنسين فى اثناء المحاكمات وخارجها ٠

13) فى أكتوبر اصدرت وزارة العمل كتدبا بعنوان : « وضـع المرأة والعمل فى اليـابـان » ٠

14) فى ديسمبر 1976 تبعه كتاب آخر من نفس وزارة العمل بعنوان : « كتـــاب أبيض عن الرعـاية الاجتماعية » ·

حركة المرأة اليابانية على المستوى الشعبى · بعد الحرب العالمية الثانية يقـال أن اليابان أصبحت ضعيفة لكن شيئين أصبحا قويين وهما : جوارب النايلون،والمرأة.

سأحاول فيما يلى أن أعطى لمحة عن النشاطات النسائية فى اليابان على المستوى الشعبى وذلك بعد المؤتمر الدولى للمرأة :

1) فى أوت 75 عقد مؤتمر الامهات اليابانيات فى طوكيو حضرته (13000) أما ، وبحث تربية الطفل ، الحياة وحق العيش ، السلام والاستقلال ·

2) عقد مؤتمر « جمعية حقوق المرأة » فى طوكيو وطالب بتحسين أوضاعها وزيادة حقوقها فى العمل وفى الحصول على الضمان الاجتماعى ·

3) جرت مظاهرة شعبية أمام البرلمان وفيها طالب المتظاهرون بمعاملة انســانية معقولة لـ (89) امرأة تحت الحاكمة ·

4) احتجت « جمعية المحافظة على صحة المرأة العاملة فى الصناعة النسيجية » ضد شركة هاشيحوتو للنسيج وذلك لعدم تأمين الحماية اللازمة للنساء العاملات لديها·

5) عقد « مؤتمر النساء اليابانيات بمناسبة السنة الدولية للمرأة حضرته (41) منظمة و (2300) شخصا تحت شعار «فلنتخلص من التمييز القائم على الجنس ولنزد فى قوة المرأة فى حقول السياسة،والتربية،والعمل فى البيـت وخارجه وفى اطـــار الـرعـايـة الاجتمـاعية » ·

6) فى ديسمبر الماضى عقد مؤتمر حول وضـع المـرأة الباحثة حضرته (200) باحثة يابانية وطالبن بما يلى :

أ ــ الغاء كل تمييز فى توزيع الوظائف والمهن ·

ب ــ الغاء كل تفرقة بين الجنسين فى الجامعات ·

جـ ــ زيادة عدد الوظائف للباحثات ·

د ــ اعادة النظر فى نظام المنح الدراسية ·

هـ ــ خلق فرص للعمل المؤقت للامهات وذلك اثناء الامومة ·

7) فى مارس عقد « المجلس الاكاديمى اليابانى » مؤتمرا حضره (50) عضوا من أجل مناقشة مشكلات المرأة الريفية وقوانين العمل وحماية المرأة والام كما طالب المؤتمر ببناء مستشفى خاص لرعاية الامومة فى طوكيو .

8) عقد ملتقى فى طوكيو بمناسبة العام الدولى للمرأة حضره (15000) شخصا ووافق على (14) قرارا وطلبا،وجهت الى حكومتى اليابان والولايات المتحدة الامريكية ،

9) قامت لجا نالعمل التابعة للمؤتمر الدولى للمرأة بتقديم طلب الى كل الاحزاب السياسية فى اليابان يتعلق بضرورة بذل جهود أكبر فى اطار تحسين الشروط المعاشية للمرأة وحقها فى الحصول على الحماية والرعاية اللازمتين فى فترتى الحمل والرضاعة

10) أسس مؤخرا المجلس النسائى فى اتحاد العمال التابع للدولة واتخذ القرارين التاليين :

أ ـ طلب الحصول على اجازة قدرها (8) أسابيع بمناسبة الحمل .

ب ـ المطالبة بمحاكمة المشتركين فى فضيحة لوكهيد .

11) عينت الاستاذة أوكا ، للمرة الاولى ، عميدة لكلية الطب فى جامعة طوكيو .

12) فى نيسان ، قدمت « جمعية اليابان الجديدة » طلبا الى الحكومة يتعلق بمخطط العمل القومى اليابانى الذى تبنته اليابان بمناسبة العام الدولى للمرأة .

13) عقدت اجتماعات تنسيقية على مستوى المنظمات النسائية والحزب الشيوعى وبمشاركة اعضاء البرلمان التقدميين فى اطار اتخاذ اجراء مشترك ضد الوزراء الذين لا يستجيبون لمطالب المرأة التى نصت عليها خطة العمل القومية اليابانية بخصوص تحرير المرأة .

14) فى ماي عقد اجتماع من طرف النساء العاملات حضره (4500) شخصا ، نوقشت فيه النقاط التالية :

أ) حق المرأة بالحصول على اي عمل تريده .

ب) حق الحماية والمساواة مع الرجل .

ج) المسؤولية فى البيت .

د) حق المشاركة فى اتحادات العمال .

هـ) وأخيرا ، رفض الوضع السائد لانه يمس بالامومة وحقوقها .

15) فى أوت أصدرت رابطة محاسبى الضرائب التابعة لرابطة نســاء اليابان تصريحا اشتمـل على ما يـلى :

أ ـ تخفيض الضريبة المفروضة على سيدات البيوت ·

ب ـ اعفاء الزوجات اللواتى يقمن بعمل مشترك مع أزواجهن فى البيت ، مـن الضـــرائـب ·

ج ـ اعفاء عدد أكبر من النساء العاملات ، ذوات الدخل المحدود من الضــرائب المفـروضـة عليهـــن ·

د ـ الاعفاء من ضريبة الدخل بالنسبة للعاملات ·

16) فى سبتمبر اصدرت « جمعية المرضات اليابانيات » كتابا أبيض حـــول التغذية أشارت فيه الى شــروط العمــل التى تعيشها المرضات فى اليابان واللواتى يعملن أكثر من تسع مرات ليلا فى الشهر ·

17) عقد اجتماع شاركت فيه (500) فتاة من المدارس الثانوية اليابانية تحـت شعار « العمل ، المحبة ، الحقوق » · وقد ذكر بعد ذلك أن الفتيات فى المدارس الثانوية يفضلن السعادة فى البيت على السعادة فى العمل خارج البيت ·

18) فى أكتوبر 76 قدم اتحاد المنظمات اليابانية طلبا حول خطة العمل القـومية التى سبق ذكرها ، الى رئيس الوزارة ميكى وكان هذا الطلب عبارة عن رسالة مطولة تشير الى عدم وجود أية مشكلات أساسية فى البيان الحكومى اليابانى المتعلق بخطة العمل القومية (انظر الملحق رقم 2) والذى صدر يوم 10 افريل 76 · واشار الطلـب أيضا الى تصريح مكسيكو الذى يؤكد علىّ ازالة أنواع التمييز ضد المرأة ، وعـلى ضرورة انشاء نظام دولى جديد يحافظ على الكرامة الانسانية ويحتـرم الشخصية الفردية والتقدم الاجتماعى ·

ومن بين المواضيع الاخرى التى أشار اليها طلب اتحاد المنظمات اليابانية والتى اقترح اضافتها الى خطة العمل القومية ما يـلى :

أ ـ تأمين الامكانيات اللازمة حتى تستطيع كل امرأة من ممارسة العمل طبعـا خـــارج البيـــت ·

ـ تحقيق المساواة التامة فى الاجور وفى نوع العمل بالنسبة للرجال وللنســاء عـلى الســـواء ·

جـ ـ منع التمييز القائم على الجنس فى الوظائف وفى شروط التوظيف والعمل والتعليم .

د ـ تطبيق مبدأ (40) ساعة عمل فقط فى الاسبوع موزعة على مدى (5) أيام أسبوعيا

هـ ـ اعطاء فترة استراحة مقدارها (8) أسابيع قبل وضع الطفل وبعد الوضع .

و ـ حماية المرأة اثناء الطمث ، الحمل ، الولادة والرضاعة .

ز ـ تطبيق قانون العَمل بحذافيره فى حالة المرأة سواء كان العمل التى تقوم به جزئيا أو مؤقتا .

ح ـ تعديل قوانين العمل بالنسبة للعاملات فى البيوت .

ط ـ اتخاذ التدابير اللازمة لصيانة دخل المرأة من التأثر بالتضخم الاقتصادى وذلك باتباع سياسة مكافحة الاحتكار ، وتخفيض الضرائب على العاملات فى الخدمات المنزلية

ي ـ توسيع برامج الرعاية الاجتماعية عن طريق زيادة وسائل العناية بالطفولة وتوسيع الخدمات الطبية عموما ، وللمسنات والعجائز والارامل والعازبات والمرضى على الخصوص .

ك ـ تأمين وجود وظائف للمرأة فى مختلف المجالس واللجان الرسمية والعامة .

ل ـ الغاء اتفاق الدفاع المشترك مع الولايات المتحدة الامريكية ، وسحب القوات الامريكية من اليابان ، وتخفيض عدد أفراد الجيش الوطنى اليابانى ثم تسريحه نهائيا .

م ـ تقوية علاقات الصداقة مع كل البلدان .

ن ـ مساندة الشعوب المناضلة فى سبيل الاستقلال والحرية .

ر ـ الغاء كل برامج التعاون والمساعدة للدول الديكتاتورية العسكرية وكل الدول العنصرية .

ع ـ احترام سيادة دول العالم الثالث على ثرواتها الطبيعية .

ص ـ بناء علاقات اقتصادية مع الدول النامية مرتكزة على المساواة والتبادل المتكافىء .

الخلاصة

لقد كان مؤتمر مكسيكو تظاهرة هامة فى تاريخ الحضارة الانسانية ومنذ المؤتمر وبعده يمكننا أن نلاحظ وجود تيارين فى تفكير المرأة فى العالم الحديث .

أولهما : فكرة حرية المرأة ، أي تحرر المرأة من سيطرة الرجل وتلك وجهة نظر الـدول الغـربيـة ٠

ثانيهما : فكرة حرية المرأة أي تحررها من الظلم والاضطهاد وهذه هي وجهة نظـر العـالم الثـالث ٠

ان وجهة النظر الغربية هي فردية ، وثقافية DOGMATIC أنانية وذاتية المحور كما تحمل بذور المواجهة السافرة ضد الرجل وذلك تحت اسم الحرية ، المساواة والسلام أما وجهة نظر العالم الثالث فهي أصولية ، شاملة وتحمل بذور العمل السياسى الدولى ضـد الظـلم ، والجهل ، والفقر ، والاستعمار ، والتمييز العنصرى ، والفـاشية ، والصهيـونيـة ٠

وعليه ، فقد حاز الرأي الاخير على موافقة الاكثرية فى الامم المتحدة وصدر عـلى اثره البيان المعبر عن الرأي العام العالمى الذى عرضناه فى سياق هذه المحاضرة ٠

انى أعتقد كشخص مؤمن بالله وبالاسلام أن حقوق المرأة تنبع من حقيقة هي أن الله خلق الرجل والمرأة متساويين وخلق منهما ذرية كبيرة انتشرت فى الارض ٠

وهكذا نجد فى الاسلام أن الحقوق الاساسية للمرأة ككائن انسانى هي مسـاوية للرجل كما قال الله سبحانه فى الآية الكريمة : « **من عمـل صالحا من ذكر أو انثـى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة** » الى آخر الآية (سورة النحل الآية 96) ٠

لقد كفل الاسلام المساواة بين الرجل والمرأة ، لكن توجد فروق طبيعية بينهما لا يمكن نكرانها بأي شكل من الاشكال ، ان الحمل ليس من واجبات المرأة بل حق من حقوقها ، ان هذا الحق لا يتمتع الرجل به أبدا ٠ ان المرأة تملك كامل الحق فى الاحترام وذلـك لان الله منحها اللطافة، والرشاقة، والنعومة، والحلاوة والجمال ٠

ان للمرأة الحق فى الحماية من الظلم وهي مطالبة بأن تشارك فى أي عمل عادل وفى كل حقوق النشاط الانسانى : المنزلية ، الاجتماعية ، الثقافية ، التربوية ، الصناعية التجارية ، السياسية الخ ، وكـل ذلك يجب أن يتـم فى حـدود قدراتها وظـروفها وأوضاعها أقصد سواء كانت فتاة صغيرة ، ابنة ، زوجة ، أرملة أو أم ٠

ان الحركة النسائية فى أصولها هي حركة من أجل اصلاح الحياة ، ومن أجل تحسين الحياة واتباع الطريق الصحيـح ٠

لكن السؤال المطروح هو : ما هو الطريق الصحيح ؟ عندما نحاول الاجابة على السؤال نجدنا أمام ايديولوجيات مختلفة وآراء عديدة صنعها الانسان ، لكن كتاب الله

الكريم هو وحده الذى يعلمنا كيف نفرق بين الصواب والخطأ والخير والشر وذلـك بحسب أوامر الله سبحانه وتعالى ·

ان مشكلة المرأة هي مشكلة الانسان منذ الازل وهي فى رأيى ليست مشكلة مواجهة بين الرجال والنساء ، لكنها قضية تعاون · ففى رأيى يجب توجيه المرأة نحو المـزيد من التطور الانسانى الحياتى الكامل ، وذلك لان الله الخالق البارىء علمنا كيف نتعاون ونتآخى كما حثنا على عمل الخّير وعلى تحسين الحياة ·

انه من الضرورة بمكان ان تحافظ المرأة على الفضيلة وأن تحصل على حقوقها · انى اجدنى حزينا عندما اضطر للقول أن الفضائل التقليدية التى عرفناها فى اليابان هي فى طـريقهـا الى الزوال وذلك بسبب تأثيرات التكنولوجية المتطورة فى العـــالم الحديث · هذا التطور كان وما زال خلوا من القيم الدينية السامية · انى أعتقد اعتقادا حازما.ان الاسلام وحدة يستطيع أن يخلصنا من هذا الانحلال الخلقى ويستطيع أن يجد الحلول لمشكلاتنا · وقبل أن أختم محاضرتي بودى أن أغتنم هذه الفرصة كي اطرح عليكم السؤالين التاليين :

أولا : ثمة جدل حامى الوطيس يدور فى اليابان حول ادخال مادة التدبير المنزلى فى البرامج التعليمية للذكور على مستوى المدرسة الثانوية فى اليابان هل توافقون على هذه الفكرة أم لا ؟ اقصد هل توافقون على أن يدرس الاولاد مقـــرر التدريب المنــزلى فى مــدارسهم ؟

ثانيا : كان يدور فى الصين قديما (ليس الآن) قول مفاده أن وجود امرأة تحكم البلاد هو أمر غير مرغوب فيه ، وذلك خوفا من أن تضل المجتمع وتغويه هل يوافق الاســلام على هــذا ؟

ان جوابى هو « لا » على السؤال الاول المتعلق بادخال مادة التدريب المنزلى فى برامج المدارس ، اما جوابى على السؤال الثانى اي حول امكانيات استلام المـرأة زمــام الحكم فهو « نعـــم » ·

وقبل أن أختم ، محاضرتى بودى أن أقترح على منظمى هذا الملتقى القيم ، تنظيم ملتقى تحت عنوان « السنة الاسلامية للمرأة » ، وآمل أن يبرز هذا الملتقى الى النور فى مدينة ورقلــة الجميلة والســلام عليكم ·

نعمـــة تخـرج من بطـــون الارض (*)

عبد العال الحمامصي
صحفي ـ القاهرة

منذ أن انتزعت الجزائر استقلالها واستعادت بالدم والاستشهاد سيطرتها على مصيرها وهي تجاهد في دأب واصرار على تأكيد انتمائها للعروبة وطنا وللاسلام دينا .

فرغم أنها تخوض معركة داخلية جبارة من أجل اعادة شعبها الى أصوله فانها انطلاقا من نفس الاحساس العارم بالعروبة والاسلام تمد جهادها الى آفاق أبعد من ترابها وأرحب من رقعتها .. أسهاما في تغذية الفكر الاسلامي باقامة القنوات بين روافده لتصب في نهر رؤية مكتملة حيث دأبت على أن تدعو كل سنة الى ملتقى عام للفكر الاسلامي تطرح فيه أمام صفوة رجال الفكر من العالم الاسلامي ومن المستشرقين والكتاب العالميين القضايا المرحلية التي تواجه العالم الاسلامي في كل مجال .. وبعد انتهاء الملتقى تقوم وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية بطبع كل المحاضرات التي ألقيت والمناقشات التي تحاورت .. في كتب تقوم بتوزيعها مجانا على كل الدوائر الثقافية في العالم الاسلامي .. وكل المهتمين بقضايا الاسلام في العالم بأسره .

(*) نشرته مجلة «أكتوبر» المصرية بتاريخ 16 ربيع الاول 1397 هـ ــ 6 مارس 1977 م العدد 19 .

ورجلان .. تاريخ،وبترول !

وعلى مدى عشرة أيام انعقد مؤخرا فى « ورجلان » عاصمة بنى رستم الثانية الملتقى الحادى عشر للفكر الاسلامى .. وثمة تقليد سارت عليه كل الملتقيات حيث تنعقد كل مرة فى ولاية غير التى انعقد فيها الملتقى السابق ليخصص جانب من محاضرات الملتقى ومناقشاته حول هذه الولاية وتاريخها وأبرز رجالها ومدى اسهامها فى حركة الفكر الاسلامى قديما . وهذه الولاية « ورجلان » التى يتفجر الآن البترول من صحرائها فى حاسى مسعود لعبت فى التاريخ الاسلامى دورا باهرا ومن خلالها وصلت اشعاعات الاسلام الى ونيبا ـ المدينة الثانية فى غانا ـ غربا والى قرطبة شمالا والى بحر عمان شرقا والى زنجبار جنوبا ..

على الاسلام أن يتحرك فى أفريقيا

وكانت النقطة الثانية التى طرحها الملتقى للمحاضرة والمناقشة هى واقع الاسلام الآن فى أفريقيا .. حيث تتعرض القارة السوداء حاليا لتيارات مذهبية تحاول اجتذابها جنبا الى جنب مع حركات التبشير القديمة والمستمرة ..

وعلى الفكر الاسلامى أن ينشط داخل أفريقيا .. ان علينا أن نوفد الى القارة رجال دين لا تكون مهمتهم فحسب تلقين الشهادة وتعليم الوضوء والصـــلاة واجتناب النجاسة .. بجانب هذا لابد أن تتاح لهم ثقافات عصرية تستطيـــع أن تقـــارع الايديولوجيات والمذاهب والتيارات الفكرية ولقد حدثنى الاستاذ القاسمى البيهقى المسلم النيجرى والامين العام للجمعية الاسلامية فى النيجر عن ضرورة اقامة جامعة اسلامية أفريقية يلتحق بها شباب أفريقيا .. وعن حتمية اقامة مراكز ثقافيـــة اسلامية فى جميع أرجاء القارة . حتى يستطيع الشباب الافريقى الجديد أن يعــرف الفكر الاسلامى على حقيقته وحتى نعصمه من اغراء ثقافات تحاول الآن اجتذابه وعلينا ألا نتركه فريسة لها .

* * *

لابد أن توضع خطة اسلامية كبرى للتحرك فى أفريقيا ٠ هذا ما أكدت عليه كل المناقشات التى جرت فى الملتقى بشأن الاسلام فى أفريقيا ٠ وعلينا أن نتحرك قبل فوات الأوان ٠

المساواة حق للمرأة ولكن التحرر دمار للمجتمع !

أما النقطة الثالثة التى ناقشها المؤتمر باستفاضة فقد كانت عن « المرأة بعد عام المرأة » قال لنا مولود قاسم وزير التعليم الأصلى والشؤون الدينية فى معرض حديثه عن موضوعات الملتقى عن هذه النقطة « هـــل المـرأة هى تلك الضعيفة المستضعفة ٠ المهضومة المظلومة المسكينة كما تؤكد سيمون دى بفوار وآخريات كثيرات ٠ بل وآخرون كثيرون ممن يدعونها الى الثورة والتمرد ٠٠ أم هى بالعكس من هذا كله تلك المتمردة المستبدة ٠ صاحبة الحيل والاحابيل القديمة والمستجدة ٠٠ كما يؤكد الكثيرون » ٠

حول المرأه وحقها فى المساواة دارت المناقشات موسعة متشعبة وقد اشترك فى هذه المناقشات عدد كبير من رجال ونساء الفكر الاسلامى ومن الكتـــاب والكاتبات الاوروبيين والاوروبيات ٠٠ وقد تعرضت هذه المناقشات لوضع المرأة المسلمة الراهن مؤكدة بأن الاسلام أعطى المرأة كل حقوقها وقدم لها ما لم يقدم أى دين أو أى مذهب ٠

ولكن وضع المرأة فى العالم الاسلامى لا يمكن أن ينفصل عن الظروف التى تعرض لها هذا العالم ٠ ان بلاد الاسلام والعروبة سقطت تحت سنابك الغزو الاجنبى منذ بداية القرن السابع عشر الميلادى ٠٠ ووفدت مع هذا الغزو الجهالة والمفاهيم المتخلفة وانعكس هذا على وضع المرأة ٠٠ ففرضت عليها الاستكانة والمهانة بدون أن يكون الاسلام مسؤولا عن هذا ٠٠ ان الاسلام شريعة ونظاما وشواهد تاريخية برىء تماما من هذه المغالطة ٠٠ ومن الجدير بالذكر أن الذين دحضوا هذا الزعم فى الملتقى هم من كتاب الغرب وكاتباته ٠٠ ولقد حدثنا البعض منهم عن خطورة ما يحدث فى الغرب الآن من تجاوز دعوة المساواة الى الدعوه للتحرر المطلق ٠ لقد نتج عن هذا التحرر أن تحللت الأسرة كقوة اجتماعية ٠ وتدمرت وحدة العائلة ٠٠ وشاع الانحلال الخلقى

المتمثل فى العلاقات الجنسية الحرة ٠٠ ان هناك خطا فاصلا بين المساواة ٠٠ وبين التحرر ٠٠ ان المساواة تحمل فى طياتها مسؤوليات محددة ٠٠ تستهدف خدمة المجتمع والاسهام فى جعله أفضل ٠٠ أما التحرر فهو دعوة لتدمير المجتمع ٠٠

بطون الأرض نعمة ام نقمة ؟

أما النقطة الرابعة التى دارت حولها بعض محاضرات الملتقى ومناقشاته فقد كانت تتمثل فى هذا التساؤل : « هل بطون الأرض نعمة أم نقمة ؟ » وقد يبدو فى هذا التساؤل نوع من المفارقة على حد تعبير مولود قاسم حيث يعود للتاكيد بان الثروات المعدنية التى سميناها ببطون الارض أو بالكنوز كالنفط والغاز والفوسفات وغيرها من المعادن تتوقف فى طبيعة آثارها على طريقة استعمالها لكل شىء فى الحياة ٠ وتكمن فائدتها أو مضرتها فيما توجه اليه نتائجها ٠

* * *

لقد أجمعت المناقشات على أن بطون الأرض من الممكن أن تكون نقمة اذا سخرت فى مجرد الترف الاستهلاكى بدون أن يوجه عائدها الى التنمية الحقيقية فى البلدان المنتجة وبلدان العالم الثالث ٠٠ خصوصا العالم العربى حيث موارد الطاقة شاسعة ٠٠ وحيث الأرض ممتدة ٠٠ والمشاريع متعددة والخبرات متاحة والأيدى العاملة جاهزة ٠٠

العدد 51

فهــــرس الــعــــــدد

المخـطـط الامـــريـــكى المحـــكـم
فى الشـــرق الاوســط
من أجـل السيطـرة على
المحـــور بـين أوروبـــا وآسيـــا وافـريقيـــا

فـولف شينكـه Wolf Schenke

« ان ميلــى الشخصي يذهب الى القول بان علينا ان **نتحدى بطريقـة عدوانية** الاتحاد السوفياتي ودولا أخرى ـ وطبعا بالطرق السلمية ـ **فى تلك الاجزاء من العالم التى نعتبرها مهمة ، سواء الآن أو التى ستكون مهمة خلال 15 أو 20 سنة . ويشمل هذا مناطق مثل العراق، والصومال، والجزائر ... »** .

من خطاب لجيمى كارتر أمام أعضاء اتحاد دور النشر الاميركية فى البيت الابيض فى حزيران 1977 .

ان مفتاح السيطرة على العالم يكمن اليوم وفى نهاية « العصر الحديث » وكما كان سابقا فيما يسمى بالعصور القديمة أو العصور الوسطى ، فى البحـر المتـوسط .

وبكلمات أخرى بسيطة أو لنقل بكلمات الرئيس الامريكى كارتر : ان منطقة البحر المتوسط هي جـزء من تلك المناطق من العالم التى نعتبرها مهمة ، سواء الآن أو التى ستكون مهمة خلال 15 أو 20 سنة .

(*) تفضل السيد فولف شينكه ، رئيس تحرير مجلة « نويـة بوليتيك »(السياسية الجديدة) الصادرة فى أوت 1977 ـ بها مبورغ ـ جمهورية ألمانيا الاتحادية ـ بارسال هذه الترجمة العربية لمقاله هذا الصادر فى المجلة المذكورة .

ونحن اذ ننشره شاكرين نعمل بمبدا المجلة وحسب طابعها كمنبر حر مفتوح ، مثل ملتقيات الفكر الاسلامى، ومحاضرات، ونـدوات وعـرض أفـلام المركز الثقافى الاسلامى ، والباب مفتوح للرد ، والتأييد ، والتعليق باية صورة من الصور .

واذا تحدثنا هنا عن البحر المتوسط ، فلا يقتصر حديثنا على البحر المتوسط بحد ذاته ، بل يتعدى ذلك الى المنطقة بأسرها ، الى الدول المطلة على البحر المتوسط والدول التى خلفها تلك الدول التى لها علاقة وارتباط بالاحداث فى المنطقة · وهي منطقة تمثل طاقة غنية بالبشر وبالكنوز الطبيعية التى لم تستثمر بعد كما انها تمثل طاقة غنية أكبر من اية قوة دولية حاليا بل ربما أكبر من القوتين الدوليتين مجتمعة · والمقصود بهذه المنطقة هي العواصم الاوروبية والعربية والافريقية وغربى آسيا ·

بعد شهر واحد فقط من تصريحات كارتر التى ورد ذكرها مقدما تحدى الرئيس المصرى السادات ، احدى الدول ، بصورة عدوانية وغير سلمية أبدا ، ونقصد بذلك جارته ليبيا · وكانت هذه الدولة ـ ربما تعمدا ؟ ـ قد أغفلت من قبل الرئيس كارتر عندما عدد اسماء المناطق المهمة ، وعلى الرغم من ان ليبيا ووفقا لطبيعة القضية يجب ان تدخل فى القائمة بين العراق والجزائر ·

من العبث ان نضارب الآن فى دوافع الرئيس المصرى السادات ، عندما أمر بالهجوم على ليبيا ، وكما فعل سابقا الكثير من المعلقين غيرنا · كما انه من العبث ان نضارب اليوم ان كان موعد الهجوم على ليبيا قد سبق وضعه بالاتفاق مع الاميركان أو ان نصف السادات « باللاعب » (1) الذى تطارده اشباح الملاحقة ، وبعد ان وضع نفسه كليا بيد الاميركان وبعد ان علق حياته السياسية بخيوط الاموال السعودية وبالمشيئة السياسية للرئيس الاميركى كارتر (2) ، وبعد ان بدأ وبمحض ارادته عملية الهرب نحو الامام · وبغض النظر عما يكون صحيحا أم لا ، فان كافة هذه المضاربات ، ستظل شيئا جانبيا ، عند مقارنتها بالحقيقة التى تنص بان اسقاط الرئيس الليبى القذافى ـ والاستيلاء بصورة مباشرة أو غير مباشرة ـ على حقول النفط الليبية ، هي مرحلة مهمة فى مخطط الاستراتيجية الاميركية البعيدة المدى ·

ان ما تحدث به الرئيس الاميركى كارتر لاعضاء اتحاد دور النشر الاميركية لم يكن سوى جزءا من الدراسات والاسس والاتجاهات السياسية التى قدمها اليه البنتاغون أو وكالة الاستخبارات المركزية ووزارة الخارجية قبل وبعد توليه منصب الرئاسة والتى تبناها كارتر فيما بعد ·

---

(1) كما ورد وصفه فى مقال افتتاحى لصحيفة «تايمس» الصادرة فى 1977/7/23 ·
(2) من مقال كتبه دافيد هولدن فى «صانداى تايمز» فى 1977/7/24 ·

من مخططات العنف الى الدبلوماسية ...

يدور الحديث هنا عن تفكيرات ومخططات الطموح لسيطرة الولايات المتحدة على لعالم وذلك من قبل الفئات القيادية فى الولايات المتحدة . ولاجل الوصول الى هذا الهدف ، يجب أولا ان يعمل على عزل الاتحاد السوفييتى وحليفاته الدول الشرقية أو الدول التى تدور فى فلكه ، عزلا تاما . وهذا يعنى رفض أي نفوذ للاتحاد السوفييتى فى اية منطقة من العالم خارج مناطق النفوذ والتسلط التى حصلت عليها الولايات المتحدة فى اعقاب الحرب العالمية الثانية . كما ان الهدف هو ازالة أي نفوذ له فى اية منطقة خارج حدود تلك المناطق وفى اية منطقة أخرى قد يمكنه كسب النفوذ فيها .

ان هذا الهدف يعنى فى نفس الوقت رفض اية صيغة لوجود « عالم ثالث » ـ ولو ان هذا الرفض لم يجر الحديث عنه علنا أبدا ـ أو وجود صيغة معسكر عدم انحياز أو الدول أو المناطق المحايدة . ان الهدف يتعدى ذلك الى وجوب اخضاع الجميع ودون استثناء الى قوة السيطرة الاميركية السياسية والاقتصادية والايديولوجية والى وضع كافة هذه الدول فى جبهة واحدة وهي جبهة الولايات المتحدة .

وقد ادركت واشنطن ومنذ بداية هذا العام ان منطقة الشرق الاوسط هـي مـن الناحية السياسية ـ الجغرافية أهـم منطقة فى العـالم ، فيجب للسياسة الاميركيه دخولها . وسيما بعد ان فقدت الولايات المتحدة فى منطقة الشـرق الاوسط بالـذات مواقعها نتيجة مساندتها (اسرائيل) ومن خلال سياسة جون فوستر دالاس الذى رفض فى حينه بناء سد اسوان ، وحتى ليمكن القول ان السياسة الاميركية هي نفسها التى فتحت الباب لبعض النفوذ السوفياتى ، للدخول الى بعض الدول المهمة التى كانت تلاحق حتى ذلك الحين سياسة عدم الانحياز .

وهكذا وجب العمل على عكس هذه التطورات الى الاتجاه المعاكس . وختاما ما اعطى التعلق المباشر للولايات المتحدة ـ وحليفاتها الدول الاخرى ـ وبالنفـط العربى اعطى زخما للولايات المتحدة لتعطى منطقة الشرق الاوسط الاولوية فى جملة مواضيع جل اهتمامها . وكان الهدف هنا هو وضع اليد على انتاج النفط فى منطقة الشـرق الاوسط قبل كل شيء ، وبالتالى تامين وصول النفط .

تـم أولا وضـع المخططات للوصول الى حـ'، عن طريق العنف : وهو الاحتلال العسكرى لا هم حقول النفط العربية من قبل القوات العسكرية الاميركية وبمساعدة أو بغير مساعدة الجيش (الاسرائيلى) . فتدربت وحدات من الجيش الاميركى لهذا

الغرض فى مناطق معينة من الولايات المتحدة على حرب الصحراء · واذا لم تنفذ هذه المخططات الى الآن ، فلا يعنى انها الغيت · ان الخبرات التى تعلمتها تلك الوحدات درست جيدا واستخلصت نتائجها ، واصبحت المخططات جاهزة فى ادراج مكاتب البنتاغون ويمكن العودة اليها فى أي وقت وعند توفر الحاجة اليها ·

ومن جهة أخرى تمكنت الدبلوماسية الاميركية من تحقيق نجاحات مدهشة فى منطقة الشرق الاوسط سيما بعد حرب تشرين عام 1973 · فقد تمكنت وخلال فترة زمنية قصيرة جدا وبحجة تحقيق السلام الدائم بين (اسرائيل) والدول العربية ، من تفريق الدول العربية تماما وبعد الاتفاق العربى اثناء الحرب الاخيرة واثناء المقاطعة النفطية · فقطع أنور السادات علاقاته مع الاتحاد السوفييتى تماما وتحول منذ ايام « صديق هنرى » (كيسنجر) الى انتهاج خط السياسة الاميركية فى الشرق الاوسط · وهو لا يأمل ان يسترجع الاراضى المصرية المحتلة من قبل (اسرائيل) بواسطة الضغط الاميركى عليها فحسب ، بل يتابع سياسة موازية للمصالح الاميركية فى افريقيا · وقد أدى قطع العلاقات مع الاتحاد السوفييتى الى اضعاف الجيش المصرى بشكل كبير ولم يعد قادرا أو مستعدا لمجابهة هجوم محتمل من قبل (اسرائيل) ، وذلك بعد انقطاع تجهيز قطع الغيار والمعدات السوفييتية الاخرى عن الجيش المصرى المسلح بالاسلحة السوفييتية الحديثة ·

ومن جهة أخرى تقارب الرئيس السورى حافظ أسد ، وبعد فترة تردد أولية ، مع سياسة واشنطن فى الشرق الاوسط · وانقذ تدخله فى لبنان القوى الموالية للغرب هناك من قوى اليسار والفلسطينيين ، كما انزل ضربات وخسائر شديدة بالفلسطينيين ·

اما اكبر نصر حققته الدبلوماسية الاميركية فكان فى السعودية · فمنذ ان احتلت الولايات المتحدة وبالعنف حقول النفط السعودية ووفق خطة عسكرية حضر لها سابقا ، يتواجد اليوم وبعد بضعة سنوات فقط من ذلك التاريخ ، آلالاف من الضباط وضباط الصف والجنود الاميركان ، **بدعوة** من الحكومة السعودية لتدريب ومساعدة الجيش السعودى ، الذى يشترى اضافة لذلك بقيمة المليارات من الدولارات الاسلحة من الصناعة العسكرية الاميركية · وفى الوقت الذى اصبحت فيه الولايات المتحدة تدخر احتياطى النفط والذى هو فى انخفاض مستمر هناك ، تبيعها السعودية النفط وبكميات كبيرة وهو الثروة الوحيدة للدولة ، هذه الثروة الكبيرة جدا والمحدودة الامد طبعا · كما انها أي السعودية تسعى وتحاول لابقاء اسعار النفط منخفضة ، وتتعرض

بذلك الى النزاع مع شقيقاتها الدول العربية النفطية الاخرى · انها تساند ماليا مختلف الانظمة فى المنطقة سيما التى تحولت لانتهاج سياسة غربية أو موالية للولايات المتحدة ، وفى مقدمتها مصر ونظام السادات فيها ، اضافة الى كل ذلك تستثمر السعودية الجزء الاكبر من فائض النقد فيها فى الولايات المتحدة معتمدة على قيمة الدولار السيئة ·

ومرة أخرى الى العنف ···

رغم هذا الرصيد الكبير للدبلوماسية الاميركية فان واشنطن غير قانعة أبدا بما تحقق حتى الآن ، وبعد ان كانت الولايات المتحدة وحتى وقت قريب غير ذات تواجد مهم فى المنطقة العربية · ولذلك سببان :

* أولا : ان الاستمرار غير المعرقل لهذا التطور ـ واذا نظرنا للامر بعين العقل والواقعية ـ يتعلق بالتصورات غير الاكيدة عن احتمال قيام واشنطن بتصعيد الضغط على (اسرائيل) وحملها لتقديم تنازلات أكبر الى الدول العربية والفلسطينيين · لان الامل بالوصول الى ذلك هو الاساس الوحيد لسياسة السادات وكذلك للسياسة السعودية والى درجة معينة · فالمرء فى واشنطن يعلم بكل تاكيد وافضل مما يعلمه المرء بالقاهرة ، ما هي امكانات التاثير على (اسرائيل) فعلا ، وهناك من يقدر ـ وبكل واقعية ـ ان هذه الامكانات قليلة جدا ، وبأنها أقل مما يتوقع البعض ومنهم السادات مثلا ، غير ان هؤلاء لا يعترفون طبعا بذلك علنيا ، ويودون ان تتأخر حلول ساعة الحقيقة الى أبعد مدى ممكن · وهكذا فان الهدف هو العمل على انتهاز الوقت حتى حلول ساعة الحقيقة ·

* السبب الثاني : فهناك عوامل غير مريحة فى المنطقة العربية وفى نفس الوقت دول عربية ، لا تعتقد بامكانية ايجاد حل للمشكلة (الاسرائيلية) بمساعدة الولايات المتحدة وبشكل يوافق عليه العرب : العراق وليبيا والجزائر · وهكذا يجب ازالة هذه العوامل المعرقلة أو محاولة ربطها بالمصالح الاميركية ·

وقد ذكر الرئيس كارتر العراق والجزائر بكل وضوح · ولكنه نسى ان يذكر ليبيا ـ هل كان ذلك عفوا ؟ ـ وهي تتمتع بأولوية خاصة فى هذا المجال ونظرا لسلسلة طويلة من الاسباب ، سواء كانت تكتيكية أو استراتيجية الطبيعة · وسيظل الحديث عن هذه الاسباب طويلا · ومن هذه الاسباب ما يعتمد على ان « العداء المميت » بين

السادات والقذافى يمكن ان يستخدم كخطوة أولى فى اتجـاه الهدف الموضوع والبعيد المـدى ·

على القذافى ان يختفى ···

وضع مخطط أميركى جديد منذ ان طرد القذافى السلاح الجوى الاميركى من ليبيا ومنذ قيامه بتأميم النفط الليبى ، ويرتأى هذا المخطط ازاحة القذافى وكذلك كما لوحظ مؤخرا العمل على ضم ليبيا الى مصر أو على الاقل تمشيها بنفس الاتجـاه · وهنا تتطابق مصالح السادات تطابقا تاما مع المصالح الاميركية ، حيث يقف النفط وعوامل الاستراتيجية العسكرية فى المقدمة :

(1) ان القذافى وهو يمتلك فائضا ماليا كبيرا من عوائد النفط الليبى معارض شديد لكافة المساعى أو الطموحات التى تهدف الى فرض « تسويات » وحلـول على الدول العربية والفلسطينيين بصورة خاصة وهي تسويات فى صالح (اسرائيل) · وهكذا يجب ازالة هذا الشخص المضايق الذى يقلق سلام الخطة ، من أجل ان يتمكن المخطط من دفع العرب الى التنازل عن حقوقهم الى (اسرائيل) ·

(2) اذا تمكنت مصر من وضع يدها على حقول النفط الليبية ، فستجد وللمرة الاولى الامكانات للخروج من محنتها وصعوباتها الاقتصادية · وهكذا سيمكن توطيد وتعزيز تسلط السادات الى فترة أخرى · كما ان احتلاله لليبيا سيؤمن له موقعا ومكانة جيدة قد يمكنه بواسطتها مواجهة المعارضة فى الدول العربية على تراجعه فى المشكلة (الاسرائيلية) وربما التغلب على تلك المعارضة ·

(3) يمكن تدمير اجزاء من الاسلحة السوفييتية الحديثة المتواجدة الآن فى ليبيـا أو اغتنام قسم منها · وهكذا لا تستطيع ليبيا ان تقوم بمراقبة سفن الاسطـول الاميركى التى تقطع البحر المتوسط بواسطة اجهزة الرادار والمعدات الالكترونية التى قدمها الاتحاد السوفييتى ·

(4) ستنتهى بذلك أيضا المساعدات والسند الذى تمده ليبيـا الى عدد مـن حركات التحرر فى افريقيا وانحاء العالم الاخرى ·

(5) سيمكن للولايات المتحدة استعادة القواعد العسكرية الجوية مثل ويلاس فيلـد والتى سبق للقذافى ان طردها منها ·

(6) سيمكن وعند اقتضاء الحاجة توجيه النفط الليبى الى الولايات المتحدة وقطعه عن الاوروبيين ، اذا لم « تتحـرك » الدول الاوروبية الغـربية وفقا لـما تشتهيه الولايـات المتحـدة ·

(7) بعد توطيد تسلـط السادات على ليبيـا وبمساندة الولايات المتحدة ، سيمكنـه وبمساعدة الملك الحسن فى المغرب من « حصار» الجزائر الدولة المصدرة للنفط والعمل خطوة فخطوة على ازالة استقلال الجزائر ·

وبذلك يتم التوصل الى الهدف ، وهو وضع الساحل الجنوبى من قناة السويس وحتى مضيق جبل طارق تحت يد الولايات المتحدة أو وضع المنطقة تحت مناطق النفوذ السياسى الاميركية · ويبدو ان الوصول الى تلك المناطق أصبح ضروريا للاميركان نظرا للتطورات الجارية فى ايطاليا وفرنسا وشبه جزيرة ايبيريا فى اتجاه حكومات اشتراكية والتى لن تكون مشجعة لحلف شمال الاطلسى ـ وعلى عكس ما يدعى الآن · كما ان حلول حكومات اشتراكية فى المنطقة ان لم يكن حالا ، فهو خطوة مبدئية وفعلية على طريق الخروج من التحالف مع الولايات المتحدة والخروج من تسلطها ·

التطلع الى أشيـاء أخـرى ···

ان سيطرة الولايات المتحدة على الساحل الجنوبى للبحر المتوسط سيجلب فوائد مهمة أخرى للولايات المتحدة · فهي ستكسب بذلك موقعا يمكنها منه ان تتدخل بشكل فعلى ومؤثر فى التطورات الجارية فى افريقيا · ان المساعدة العسكرية التى قدمها الملك الحسن مثلا الى الرئيس موبوتو يمكن اعتبارها مثلا صغيرا لتلك الامكانات التى يمكن افتتاحها لو سيطرت الولايات المتحدة على الساحل الجنوبى للبحر المتوسط · وبذلك تكون الولايات المتحدة قد حشرت نفسها بين أوروبا والدول العربية وافريقيا وان تصبح فى وضع يمكنها فيه عرقلة المساعى الهادفة الى ايجاد تعاون مشتـرك بين أوروبا والدول الافريقية ، بعيدا عن أي تسلط آخر من الشرق أو الغرب · ان ذلك الجزء من العالم الثالث فى الشرق الاوسط والذى يسكنه حوالى 140 مليون عـربى ومعه كافة الامكانات المالية التى تؤمنها عوائد النفط ، كان وسيكون خلال العشـر سنوات القادمة من أهم المناطق فى العالم من ناحية التنمية أو التطور · فهذه المنطقة تعتبر فى مجرى تطورها والبناء القائم فيها سوقا كبيرة لا مثيل لها بالنسبة للـدول الصناعية ، التى بدأ اقتصادها وضمن النظام الاقتصادى الحالى المسمى (بالاقتصاد العالمى الغربى) بالتراجع والتى تشير كافة الدلائل الى استمرار تراجعه فى المستقبل

أيضا ، اذا لم يتمكن الاقتصاد الغربى من الحصول على المزيد من عقود التجهيزات والمساهمة فى عملية البناء فى العالم الثالث · وتقف الولايات المتحدة ، الدولة الصناعية الكبيرة ، والتى كانت سابقا لا تعتمد على التصدير بهذه الدرجة ،موقف المنافس لدول أوروبا الغربية واليابان ·

هـرب السادات نحو الامـام ···

انه لمن سخرية القدر والتاريخ الدولى ان يقف عامل خلقته الامبريالية الاميركية للدفاع عن مصالحها فى الشرق الاوسط ، اليوم فى وجه وطريق تنفيذ المخطط الاميركى الموضوع : وهذا العامل هو (اسرائيل) · فمن أجل كسب العرب الى جانبهم وهم الاكثر اهمية فى إلمنطقة ، كان بامكانهم التخلى عن (اسرائيل) ·

وفى الحقيقة ان هذا الامر يتطلع اليه الكثير سرا ، لان فى هذه الحالة سوف لن تكون جبهة مقاومة بعد من ليبيا والعراق والفلسطينيين ضد سياسة الولايات المتحدة فى الشرق الاوسط · باستطاعة المرء ان يكسب كافة العرب كاصدقاء وليس عددا قليلا منهم والذى تم كسبهم حتى الآن كاصدقاء وبناء على وعود فقط · فسوف لن يكون هناك « قذافى » أو « حزب بعث فى العراق » يقاومان تلك السياسة ، التى تدافع عن وحدة العرب القومية والتى تساهم بحيوية من اجل تحقيق تلك الوحدة · لكن مثل هذه السياسة تبدو اليوم بالنسبة للولايات المتحدة وكذلك فى المستقبل القريب غير ممكنة اطلاقا · فلا تتمكن واشنطن من استخدام اي ضغط كان نوعه على الدولة الصهيونية وحملها على القبول بالمطالب العربية الضرورية والتى لا تعرف التسوية ·

ولذا فان مواقف اصدقاء أميركا ــ مثل أنور السادات ــ ستظل دوما مهددة كما ان هذه المواقف ستتعرض الى النسف التام فى تلك اللحظة التى يثبت فيها ، وبعيدا عن اية شكوك بان الولايات المتحدة لن تنجز ما وعدت به ·

وهكذا نتمكن من توضيح النقطة الزمنية التى جاء فيها أمر الهجوم من السادات على ليبيا · فقد جاء هذا الامر فى تلك اللحظة التى عاد بها مناحيم بيجن محملا « بالهدايا » من زيارته الى الرئيس الاميركى كارتر ، وعندما بدأ حتى المتفائلون انفسهم فى الجانب العربى بالادراك بان الورقة الاميركية ليست رابحة أبدا وليس لها اي مفعول · وبذلك أصبح موضوع ازالة القذافى وهو احد المعارضين الاشداء موضوعا حيويا : وهكذا لجأ السادات الى الهروب نحو الامام ·

كانت العملية المصرية هذه محضرة أولا وذلك بتركيز وتجميع قوات مصرية على الحدود الليبية وبعد اتفاق تم بين السادات والرئيس السودانى النميرى والملك الحسن الثانى ملك المغرب · فوضع النميرى قاعدة خاصة تحت تصرف السلاح الجوى المصرى للقيام بغارات وهجوم جوى على الواحة الليبية « كفرا » ، كما وعد الملك الحسن القيام بعمليات عسكرية للمساندة في حالة تحرك الجزائر لمساعدة ليبيا · وهناك معاهدة منذ 1975 وقعت بين الجزائر وليبيا بخصوص الدفاع المشترك ، وتشير هذه المعاهدة الىأن أي اعتداء أو هجوم على احدى الدولتين ، يعتبر فى نفس الوقت اعتداءا وهجوما على الدولة الثانية · وهكذا كانت الكلمات التى نقلها ياسر عرفات بعد لقائه مع بومدين الى الرئيس المصرى السادات بوقف اطلاق النار وايقاف العمليات ضد ليبيا فورا أكثر من مجرد كلمات عادية · ولكن الاميركان وكما يبدو كانوا قد قدموا المساعدة للسادات فى هجومه هذا قبل وبعد بدء العملية ، لان ليبيا قامت باسقاط أربع طائرات استطلاع أميركية (3)

واذا كانت عملية السادات قد انتهت الى فشل ذريع – لانه قد ألحقت بالمصريين خسائر فادحة اثناء الهجوم لم يتوقعوها أبدا ، وقد اظهرت هذه الخسائر للسادات ان الطريق الى طرابلس لن يكون جولة نزهة أبدا ولان كلمات بومدين قد أفزعت السادات ، لانه ، أي بومدين رجل يعرف ما يقول ولا يسمح لنفسه بالتلاعب كما انه يدرك بالضبط ما هي الاخطار التى تهدد الجزائر ، نقول اذا كانت عملية السادات قد فشلت ، فلا يعنى ان المخطط الاميركى باكمله قد فشل ، ففى هذا المخطط طموحات أكبر وأهداف أبعد ولا يعنى فشله فى المرة الاولى استحالة استخدامه مرة ثانية وفى أول مناسبة تتاح لذلك ·

العـــــراق :

لنعـد مرة ثانية الى المخطط الاميركى العام ، حيث يرمى هذا المخطط الى جعل كافة منطقة الشرق الاوسط ضمن مناطق النفوذ الاميركى ·

---

(3) بعد ذلك بايام قليلة اعلن الرئيس كارتر بانه يرغب بامداد مصر بمعدات عسكرية بقيمة 200 مليون دولار ، ومن هذه المعدات طائرات استطلاع ذاتية · ويبدو ووفقا للاوضاع الحالية ان الطائرات كانت قد جهزت سرا الى مصر قبل ذلك التاريخ وبان كارتر يحاول ان يحصل على موافقة الكونجرس على ذلك لا حقا فقط ·

ولاجل تحقيق ذلك وضع المخطط دولة عربية أخرى فى القائمة وبعد ان ارتـأى المخطط طبعا ترويض الجزائر وليبيا : وهي الجمهورية العراقية والتى ذكرها كارتر مباشرة فى حديثـه وكما أوردناه فى مقدمة المقـال · ان محاولة قلـب الاوضـاع السياسية فى العراق تعود الى ايام جون فوستر دالاس والرئيس الاميركى السابق ايزنهاور ، عندما نزلت قوات الاسطول الاميركى فى لبنان بعد ان قام الجنرال قاسم فى عام 1958 باسقاط المملكة الهاشمية الموالية للغرب فى العراق ، وكانت الغاية من الانزال تهديد الثورة العراقية ومنع انتشارها المحتمل الى الاردن · وبعد ان استلم حزب البعث العربى الاشتراكى والذى لـه أهداف قومية عربية مشتركة السلطة فى العـراق أصبح العـراق موطنا محببا وموقعا استهدفته سيـاسة العرقلة والتخريب الاميركية حيث استخدمت هذه السياسة ولمدة أعوام طويلة القائد الكردى مصطفى بارزانى ، وبالتعاون مع شاه ايران ، لتنفيذ مخططاتها ، وقد وجب أخيرا التخلى عن تلك السياسة والاعتراف بعدم جدواها عندما نسف شاه ايران قاعدة تلك السياسة وانهى خـلافه مع العراق · ولكن على الرغم من ذلك ظـل العراق فى نظـر موجهى السياسة الاميركية وهو تلك الدولة الغنية بالنفط التى تشهد حاليا انطلاقة سريعة ونهوضا اقتصاديا كبيرا ، والى جانب ليبيا ، العدو الرئيسى للامبريالية الاميركية ، سيما بسبب دوره فى منظمة الاوبيك وسياسته فى عدم الانحياز وخطه الواضـح المعادى للامبريالية ومساندته للفلسطينيين والحركات التحررية الاخرى ، ونظـرا للطابع الثورى والاشتراكى لحزب البعث ، وتاثيرات ذلك على الدول العربية الاخرى ·

ضد خط الحيـاة الاوروبى ···

فى الوقت الذى بدأت فيه أهداف السياسة الاميركية فى الشرق الاوسط بالاتضاح تدريجيا بخطاها المنفردة ومنذ أيام هنرى كيسنجر ، حيث كان الحديث يدور دومـا حـول مساعى السـلام فقط وليس أبـدا عن أهـداف استراتيجية وبعد ان انكشفت الدبلوماسية الإميركية وبان فى ضوء ذلك المخطط الكامل الموضوع ، بعد كل ذلـك يبدو ان المرء فى أوروبا غير قلق لهذه الاحداث ·

وعلى العكس من ذلك يجرى التعليق على المساعى الاميركية هذه بأنها محاولة للتخفيف من حدة التطرف والحد من نفوذ المتطرفين فى المنطقة وهي فى نفس الوقت مساعى لمساندة « المعتدلين » من العرب ، لاجل الوصول بذلك الى السلام المنشود فى الشرق الاوسط · وبغض النظر عن ان امكانية التوصل الى سلام دائم عن هذا الطريق

معدومة تماما أو عديمة الاحتمال ـ حيث تزداد الاشارات التى تؤكد الاتجاه المعاكس ـ فسيكون من السذاجة والبساطة ان نقبل أو نصدق بان للسياسة الاميركية فى الشرق الاوسط أهدافا ودوافع انسانية أو خيرية ، تلك الدوافع التى تعلق على شكل تصريحات من مشرعى ومنفذى تلك السياسة ـ وليس منذ ان تولى كارتر السلطة فحسب ـ ان الموضوع هنا هو موضوع سياسة تسلط ، وليس شيئا آخرا ومهما تزايدت الدعوات والتوجهات الى الله ...

ولكن حتى الذين كشفوا السياسة الاميركية وصفقوا لها على الرغم من ذلك هم خاطئون . فمنهم من يعتقد بانه يجب على المرء تأييد ومساندة الطموحات الاميركية هذه لانها تحاول ايقاف السوفييت وتحديد توسيـع نفوذهم وهـم يغفلون بانهم بذلك يجلبون النفوذ السوفييتى الى مناطق لم يتواجد فيها سابقا ، لان المرء يريد من هذه المناطق ان يكون مستقلا من أي تعلق بالسوفييت أو الولايات المتحدة ، انظر مثلا الى ليبيا . ان من يكون ضيق الافق ويعتقد بان نفوذ الرأسمالية الاميركية هو أمر يخدم العرب ومصالحهم الخاصة وبانه أمر أكثر فائدة وخدمة لهم من استقلالهم وحريتهم وبانه سيكون أفضل للعرب ان يقبلوا بنفوذ الرأسمالية الاميركية من القبول بحكومات اشتراكية أو وطنية ، نقول ان الذين يعتقدون ذلك سيصحون يوما واذا تحقق ذلك فعلا فسيشهدون نهاية مؤلـمة وقاسيـة .

لان أوساط التسلط فى الولايات المتحدة تريد التسلط وبسط نفوذها على النفط العربى وعلى الحصول على نصيب الاسد فى عملية تصنيع وبناء العالم العربى التى ستستمر عشرات الاعوام الاخرى . وبالنسبة لتلك الاوساط المتسلطة فى الولايـات المتحدة ، فان حصة أوروبا واليابان ـ حاليا من المساهمة فى عملية التصنيع والبناء هذه هي كثيرة وكثيرة جدا وعليه يجب تغيير ذلك . وهذا بالذات مـا هـو مثبت فى الاستراتيجية الاميركية وهذه الاستراتيجية موجهة ضد أوروبا .

ربما اعطى ذلك الدافع للسادة رجال الصناعة الالمانية الاتحادية فرصة التفكير ، اما زملاؤهم فى فرنسا وايطاليا ، فيبدو أنهم سياسيا أكثر حذرا ويقظة من الالمـان .

ان الطابع المعادى لاوروبا الذى يتضمنه المخطط الاميركى فى الشرق الاوسـط يتضح فى معناه السياسى الدولى عندما ننظر الى الهدف السلبى لهذه الاستراتيجية الشاملة : فهو يهدف الى عرقلة التطور الطبيعى فى المنطقة وحتى نسف هذا التطور ومنعه . ان هذا التطور نابع من أوجه اقتصادية مشتركة تكمل بعضها البعض وتعتمد

على بعضها البعض والتى تهدف الى ايجاد تعاون مشترك أوثق بين الشمال والجنوب وعبر البحـــر المتوسط وذلك بين الدول الاوروبية الصناعية والدول العربية النفطية والدول النامية الاخرى فى افريقيا · وهو تعاون أخذ يزداد على الصعيد السياسى ويعمل على تحرير شعوب هذه المنطقة من رأس الشمال الى رأس الرجاء الصالـــح وهو تعاون يفــرز دول هذه المنطقة ويضعها خـــارج خلافات وتناقضات المعسكرين الشـــرقى والغــربى ·

عبد الكـريم بن الفقـون القسنطيـنى
(988 ـ 1073)
والتعريف بتـأليفه : منشور الهـداية ، فى كشف حال من ادعى العلـم والـولاية

المهـدى البوعبـدلى
بحاثـة فى التاريخ ـ الجـزائر



اخترت موضوع هذه الدراسة لدراسة حياة علـم من اعلام الجزائر ، نـال الشهرة والاعجاب مـن نخبـة معاصريه ، وهو مـن مواليد هذه العاصمة العلمية كمـا سأتنـاول بالبحث والتحليـل ، تاليفه القيم ، النـادر المثال فى موضوعه ، لا على المستوى الوطنى بـل عـلى مستوى الادب العربى العام ، وهذا التاليف هو منشور الهداية فى كشف حال من ادعى العلم والولاية .

ينحدر مترجمنا عبد الكريم ابن الفقون ، من أسرة علمية شهيرة توارث أفـرادها العلم والمجد قرونا بمدينة قسنطينة ، وقد نوه به كثير من معاصريه ، امثال الرحـالة المغربى ابى سالم العيـاشى ، واحمد المقرى التلمسانى ، وغـيرهمـا ، كمـا حـظى كثير من أفراد أسرته بتراجم اضافية من أئمة العلم والادب ، ابتداء من عميد الاسرة ابن على حسن بن على بن محمد الفكون صاحب الرحلة المنظومة ، التى ضمنها رحلتـه من قسنطينة الى مدينة مراكش لما ذهب اليها فى أواخر القرن السادس ، عند ما كانت عاصمة الدولة الموحدية وقد تسابق مؤرخو الادب العربى الى نشرها ، والاشـــادة

محاضرة ألقاها بكليـة الشعب بقسنطينة بتاريخ 17 محـرم 1397 هـ الموافق لـ 7 جـانفى 1977 .

بصاحبها ، وهى التى افتتحها بقوله :

ألا قل للسرى بن السرى ابى البدر الجواد الاريحى

الى ان يقول :

فجئت بجاية فجلت بدورا يضيق بوصفها حرف الروى
وفى أرض الجزائر هام قلبى بمعسول المراشف كوثرى
وفى مليانة قد ذبت شوقا بلين العطف والقلب القسى

الخ ...

تشتمل هذه المنظومة على اثنين وثلاثين بيتا ، وكان الفضل فى نشرها ، والتنويه بقيمتها ، للرحالة أى عبد الله محمد بن محمد العبدرى الحيحى فى رحلته المغربية التى ابتدأها سنة 688 هـ ، ثم تناقلها كثير من مؤلفى تاريخ الادب العربى .

ولنرجع الى الحديث عن مترجمنا ، فانه كان من مواليد أواخر القرن العاشر الهجرى ، وبالضبط من مواليد سنة 988 هـ قرأ بقسنطينة التى كانت آهلة بالعلماء ثم استفاد من رحلاته الى الحج ، حيث كان يرافق والده أمير ركب الحج ، قبل ان يستقل بها بعد وفاته ، فكان يذهب الى الديار المقدسة سنويا ، كانت خطة امارة ركب الحج لا تسند الا لامثل عالم ، تراعى فيه عدة مقاييس ، أهمها التبحر فى العلم والاستقامة ، اذ هو الممثل لبلاده ، ولنخبة علمائها ، حيث يجتمع بجل علماء الاقطار الاسلامية ، ويتبادل معهم الاجازات والتآليف ، ويشارك فى المناظرات العلمية التى كانت تعقد لحل المشاكل العويصة ، فكانت مهمة أمير الركب فى رحلاته الافادة والاستفادة .

تولى مترجمنا هذه الخطة التى خصصها ولاة قسنطينة الاتراك لافراد أسرته بداية ، من تولية جده عبد الكريم بن يحيى سنة 975 هـ . الذى ولاه الاتراك بعد احتلالهم لقسنطينة ، اعترافا بموقفه البطولى الذى سهل للجيش التركى احتلال البلدة ، وذلك ان قسنطينة كانت تابعة اذ ذاك للدولة الحفصية ، وكانت قاعدة

الدولة الحفصية بتونس ، وعندما احتل خير الدين باشا تونس استنجد ملكها الحفصى بملك اسبانيا شارلكان لطرده منها ، اتخذ الوالى الحفصى بقسنطينة نفس الموقف مع الجيش التركى ، الذى حاول احتلال البلدة فعندئذ تمرد عليه السكان الذين كان على رأسهم العالم الجليل عبد الكريم بن يحيى الفكون ، جد المترجم الذى انتصر للاتراك . أما الوالى الحفصى فقد آزره شيخ الاسلام عبد المؤمن ، ودامت مقاومته للجيش التركى سنوات ، انقسمت فيها المدينة الى قسمين الى ان تغلب الجيش التركى نهائيا ، وحينئذ قتلوا شيخ الاسلام عبد المؤمن وولوا مكانه ، جد المترجم المذكور ، فتوارث أفـــراد الاسرة الفكونية هذه الخطة طيلة العهد التركى ، وفى وصف هذه الاحداث قال المؤرخ القسنطينى الحاج أحمد المبارك فى تأليفه « تاريخ حاضرة قسنطينة » : « ولما وقـــع الصلح بين القبائل والاتراك ، اختلف أهل قسنطينة ، فمنهم من اذعن للاتراك ، ومنهم من امتنع ، وكـان رأس الممتنعين الشيخ العالم سيدى عبد المـؤمن ، وراس الراضين بدخول الاتراك ، العالم الجليل سيدى عبد الكريم الفكون ، ونزل الاتراك بسطـــح المنصورة ، وشرعوا فى بنـاء قصبة هناك لعسكرهم ، وأظهروا العـدل والسياسة ، وخالف سيدى عبد المؤمن ، وأهل حومة باب الجابية على الترك ، وقابلوهم ثلاث سنين ، الى أن تحيلـوا عـــلى الشيـخ سيـدى عبـد المـؤمـن ، وكانـت لــه مشيخـــة البلـد ، فصـالحوه ، ولـم يـزالوا ينصبـون لـــه حبـــائل المكـــر والخـــداع ، حتى تمكنوا به ، دعوه لضيافة بقصبة المنصورة ، فأجابهم ، وخرج اليهم آمنا فقتلوه ، وسلخوا جلده ، وملأوه قطنا وبعثوا به الى الجزائر ، ودفنت جثته بمسجده المعروف به اليوم ، فلما قتله الاتراك ردوا مشيخة الاسلام وامارة الركب الى ابن الفكون » .

كثيرا ما اشتبه على المؤرخين مترجمنا بسميه الذى هو فى الحقيقة جده ، أى والد والده وقد توفى الجد فى نفس السنة التى ولد فيها مترجمنا أى سنة 988 هـ . كـان المترجم كما ذكرنا من أكابر علماء عصره المشهورين ، قضى عمـره الطويل فى خدمة العلم . ولم تمنعه خطة مشيخة الاسلام ، ولا عبء امارة ركب الحج التى كانت تلـزمه التردد الى الديار المقدسة سنويا . لم تمنعه من خدمة العلم بالتدريس والتأليف . كما اعترف له بذلك جل مترجميه . ذكره أحمد المقرى التلمسانى فى نفح الطيب ، فقال

« عالم قسنطينة ، وصالحها وكبيرها ومفتيها ، سلالة العلماء الاكابر ، وارث المجد كابرا عن كابر ، المؤلف العلامة الشيخ سيدى عبد الكريم الفكون حفظه الله » . وقال أبو سالم العياشى فى رحلته يصفه فى أخريات حياته ، « وكان رضى الله عنه فى غاية الانقباض والانزواء عن الخلق ، ومجانبة علوم أهل الرسوم ، بعد ما كان اماما يقتدى به فيها . وله فى كثير منها تاليف ، شهد له فيها بالتقدم أهل عصره ... الى أن يقول ... ومروياته رضى الله عنه مستوفاه فى فهرسة شيخنا أبى مهدى عيسى التعالبى ، فنحن نروى عنه جميعا » اهـ . كما ترجمه المؤلف اجازته لصاحب الزهرات الوردية فى الفتاوى الاجهورية : « ولما أراد الله سبحانه وتعالى الاجتماع بشيخ أهل المغرب ، الشيخ الامام ، العالم الهمام ، صاحب التصانيف النافعة ، والبراهين القاطعة ، سيدى الشيخ ابن محمد عبد الكريم ابن محمد القسنطينى حفظه الله تعالى ورعاه ، حال رجوعه من الحج الشريف ، وكان ذلك فى مستهل ربيع الاول سنة خمس وأربعين وألف ، التمس منى ان أذكر له اسنادى فى الحديث والفقه والاجازة فيهما وفى غيرهما بعد ما التمست منه الاجازة فى مصنفاته وغيرها » اهـ .

وقد توارث أفراد الاسرة كما سبق لنا مشيخة الاسلام طيلة العهد التركى ، وكان آخر من تولاها محمد بن عبد الكريم بن بدر الدين الذى ادركه الاحتلال الفرنسى ، وهو يناهز الثمانين سنة ، اذ توفى سنة 1256 هـ . أى بعد احتلال الفرنسيين لمدينة قسنطينة الذى وقع سنة 1252 هـ ، وقد ذكر المؤرخ الجزائرى ابو راس الناصرى (1) فى رحلته : شيخ الاسلام محمد بن عبد الكريم بن بدر الدين الذى نزل عنده ضيفا فى رحلتيه الى المشرق ، فى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى وأثنى عليه ، وأشاد بأفراد أسرته ، وامتازت هذه الاسرة بامتلاكها الخزانة كانت أهم الخزائن الجامعة لنوادر المخطوطات شرقا وغربا ، ونوه بها كثير من العلماء ـ مسلمين وأجانب . هذه فى الجملة الخطوط العريضة من حياة مترجمنا ذكرناها بايجاز . أما تاليفه ، فان الكثير منها كان فى الحديث والفقه واللغة ، وقد استوعب ذكرها فى

(1) ابو راس الناصرى الراشدى (1165 ـ 1237 هـ) رحل الى المشرق مرتين الاولى سنة 1204 هـ ، والثانية حوالى 1226 هـ

تأليفه (منشور الهداية) ، كما تعرض لذكر بعضها ، الرحالة أبو سالم العياشي في رحلته ، فاعترف بها ، وكان في طليعة التآليف التي تناولها بالنقد والتحليل كتاب « محدد السنان في نحور اخوان الدخان » موضوعه الرد على معاصريه الذين افتـــوا بجواز التدخين ، بعد أن افتى هو بتحريمة ، وكان من ضمن المفتين بالجواز ، الشيخ علي الاجهوري المذكور سابقا ، وقد لخص العياشي كتاب « محدد السنان » هذا في عـــدة صفحات من رحلته ، كما حلل في الرحلة المذكورة ديوان شعره وبعض تآليفه التي اطلعه عليها ولد المترجم ، الذي خلف والده في امارة ركب الحج ، وكان العيــاشي يجتمع بــه في رحــلاته .

وننتقل الى الحديث عن التأليف الذي تعهدت بالتعريف به ، وهو « منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية » وهو كما ذكرنا من التآليف القيمة التي لها وزنهـــا وفــوائــدها .

وقبل أن ندخل في صميم موضوع التعريف به ، وتحليل بعض جوانبه ، تــذكر الاسباب الداعية الى تأليفه حسبما ذكرها المؤلف في تقديمه ، كما لا يفوتنا ان نلفت نظر القراء الى ان حالة البلاد في عهد المؤلف ، كانت سيئة جدا ، فقد نالت حظها الوافر من التدهور والفوضى اثر استئنــاف غارات الحروب الصليبية وشــن هجوماتهــا على مدن شواطىء البحر الابيض المتوسط التي سقطت الواحدة بعد الاخرى ، مثل سبتة ومليلية ووهران ، وبجــاية ، وتونس ، وطرابلس ، وما نجـــم عن ذلــك من الفتــن والاضطربات التي انتشرت داخل البلاد ، هذا وان كانت مدينة قسنطينة تحصنت بموقعها الجغرافي ونجت من غارات الجيش الصليبي ، فان موقف واليها الذي تعرض لدخول الاتراك ، وتمرد السكان عليه ، اعقبه تفكك عرى الادارة الحفصية ، وفقدت نفوذها داخل البلدة وخارجها ، فاغتنم هذه الفرصة رؤســاء الاقطاع ، فاستقــل جلهــم بمناطق نفوذهم ، وصاروا يحاربون بعضهم بعضا ، فانتشرت الاهوال والفتن ، وفقد الامن ، وكانت من جملة الاوضاع التي تغيرت وضاق بها مترجمنا ذرعا ، الحياة الدينية والدين والثقافة في ذلك العهد ، كانا متلازمين اذ لا يتصور الناس ، ولا يعترفون أو يطلقون اسم العالم الا اذا كان العــالم دينا ، وكان النفوذ الديني لطبقتــين ، الطبقــة

الرسمية الشاملة للقضاة والمفتين والمدرسين ، والطبقة الملحقة بالرسمية ، وهي طبقة رجال الزوايا والمتصوفين والعلماء الغير المتوظفين ، وسلالة البيوتات المنسوبة للشرف ، وفي الغالب ان أفراد هذه الطبقة الثانية كانت علائقها حسنة مع السلطات التي كان لها دخل في تعيينهم أو عزلهم فالمؤلف كما نرى شاهد تغير الاوضاع المذكورة ، حيث صار كثير من أفراد الطبقة الاولى كالقضاة والمفتين والمدرسين يتولون هذه المناصب من دون استحقاق ولا كفاءة ، وانما ينالونها بالرشوة ، أو المحسوبية ، وكذلك كان الامر بالنسبة لرؤساء الدين ، المدعين للصلاح والولاية ، ومعظمهم من رؤساء الطرق ، فركز مترجمنا تاليفه هذا « منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية » ، على هذه الطبقات أي الموظفين ، ورؤساء الدين ، وابناء البيوتات المنسوبة للشرف ، ضمن محتوى التأليف الذي كان الهدف منه ، ترجمة علماء البلاد المعاصرين ، على عادة علماء التراجم والطبقات ، وقد بين ذلك في تقديم تأليفه حيث قال « اما بعد فلما رأيت الزمان بأهله تعثر ، وسفائن النجاة من أمواج البدع تتكسر ، وسحائب الجهل قد أظلت ، وأسواق العلم قد كسدت ، فصار الجاهل رئيسا ، والعالم في منزلة يدعى من أجلها خسيسا ، وصاحب أهل الطريقة قد أصبح ٠ واعلام الزندقة على رأسه لائحة ، وروائح السلب والطرد من المولى فائحة ، الا انهم اعنى الطائفتين تمسكوا من دينهم بمناصب شرعية ٠٠٠ فموهوا على العامة باسماء ذهبت مسمياتها ، واوصاف تلاشت اهلها ٠ منذ زمان واعصارها ٠٠٠ والطائفة الاخرى سطرت اناملهم في قراطيس السجلات ، ما يوهم من لم يوهم ، ممن ياتي في غابر الزمن انهم من حزب العلماء، بل ومن مشائيخهم الاعلين ، كل ذلك والقلب مني يتقطع غيرة على حزب الله العلماء ، ان ينسب جماعة الجهلة المعاندين الضالين المضلين لهم ، أو يذكروا في معرضهم ، وغيرة على جناب السادة الاولياء ان تكون اراذل العامة ، ونذار الحمقى المغرورين ان يتسموا بأسمائهم ، أو يظن بهم اللحوق بآثارهم ٠

ولم أزل في التنفير من كلتا الطائفتين ، والتحذير منهم في كل زمان وأوان ، وبين كل صالح من الاخوان ٠٠٠ الى أن يقول ٠٠٠ فشرح الله صدري ، في أن اعتكف على تقييد يبدي عوارهم ، ويفضح أسرارهم ، ويكون وسيلة الى الله في الدنيا والاخرى ٠٠

فهذا الجهاد الذى هو احد من السيف فى نحور اعداء الله ، وناهيك بهم اعداء ، نسخوا شرع سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم بآرائهم المسطرة باقلامهم فى سجلاتهم ، وأحلـوا الرشى بافعالهم ، والتمدح بها ، والعكوف عـلى طلبها ، والاعتناء باخذها فى انديتهم ، فهى عندهم ارفع المكاسب ، وأسنى المطالب ، انتهى ٠

نقتصر على هذه الفقرات التى ذكرها المؤلف فى مقدمة التاليف ليبين منهاجه فى تاليفه ، وكشف مثالب بعض مترجميه ، وقد قسم تاليفه الى ثلاثة فصول وخاتمة ٠ فالفصل الاول ترجم فيه للعلماء الذين اتخذهم قدوة ، من حيث الصـدق والصـلاح والنزاهة وجعلهم من علماء القرن التاسع الهجرى ٠

والفصل الثانى ترجم فيه للعلماء الذين تولوا الوظائف الـدينيـة ، والشـرعية ، والعلمية ، كالافتاء والقضاء ، والتدريس ، من دون كفاءة ، واتخذوا للتحصيل عليها وسـائـل دينيـــة ٠

والفصل الثالث خصصه لرؤساء الدين المنحرفين وهذا الفصل هو الذى ينطبـق على مترجميه عنوان التاليف « كشف حال من ادعى العلم والولاية » ٠ امـا الخـاتمة فقد خصصها لمن كان لهم به اتصال ومعاصرة ، وأهم ما فى هذه الخاتمة ترجمة أحمد المقرى التلمسانى ، الذى رغم اهتمـام الباحثين بترجمته ، بقيت جوانب منهـا مجهـولة فى تفاصيلها ، كاقامته بمدينة الجزائر فى طريق رحلته من المغرب الى المشرق ، واتصـاله بعلمائها ، وكذلك مروره على تونس ، ومرافقته لاحد كبار علمائها الى المشرق ، ثم ان التاليف يحتوى على صفحات من تاريخ الجزائر وتونس ، وذكر الاحداث التى تعرضت لها البلدان اذ ذاك ، وهى مرتبطة بتراجم كثير من العلماء المذكورين فى التاليف ، وذلك كاستعراض لبعض الثورات فى جبال الاوراس ، والوصف الدقيق للمعاهد العلميـة والقرآنية ، واحصاء رؤساء الاقطاع ، وتمردهم على الحكام واتخاذهم بعض رؤسـاء الدين آلات لجلب السكان ، وترضيتهم كما تعرض للقبائل التى كانت تحترف النهب والسلب وقطع الطريق على القوافل التجارية التى كانت تتردد من شمال البلاد الى جنوبها ، ثم استمرار الاتصال المتين بين علماء البلاد ، ذلك الاتصال الذى كان مـن

أسباب تمتين الوحدة الثقافية بين البلدان الاسلامية بصفة عامة ، وبلدان المغرب العربى بصفة خاصة ، كما سنبين ذلك بمزيد من التفصيل فى موضعه من هذه الدراسة ·

كان المؤلف يدرك أنه لم يسبق الى مثل صنيعه فى طريقة تاليفه ، أو بلغته بعض انتقادات معاصريه ، حيث تعرض باسهاب الى الحياة الخاصة . والعامة لكثير من مترجميه فلذلك نجده يقدم اعتذاره ليبرر به عمله ، مثل قوله « يهجس فى النفس بأن ذكر هؤلاء فى الاوراق والاعشاء بهم فى الكتب ، تنويه بذكرهم ، وترفيع لقدرهم ، واهمالهم أولى ، وعدم التعرض لذكرهم أحق وأجلى ، الا أن النصح العام ، هو الملجى لذكرهم والغيرة على حمى الله ورسوله وبساط اوليائه واصفيائه ، ان يدعى جلوس مثل هؤلاء عليه ، هو الموجب للتعرض لهم ، ولى فى هذا سلف من خير سلف · لقد أوضحت علماء الدين ، وأئمة المسلمين ، نقلة حديث من يصح النقل عنه ، ومن لا يصح » ، من هذه الفقرة الاخيرة ، يتاكد لدينا ، ان المؤلف لم يطلع على من سبقه من المؤلفين، الذين طرقوا موضوع تاليفه ، فجعل قدوته فى ذلك ، واسوته فيه علماء الحديث . الذين فتحوا باب التعديل والتجريح على مصراعيه لرواة الحديث ، ورجال السند ، بقى هذا التاليف مغمورا ، ولم نطلع على ردود فعل ضحاياه ، اللهم الا ما ذكره صاحب منظومة « الدرة المصونة فى علماء وصلحاء بونة » المشهورة بالالفية ، للعالم الشهير . الشيخ أحمد ساسى البونى ، وهذه المنظومة ، جمعت بين ما اشتهر فى ذلك العهد من نظم التاريخ الجهوى ، والاستغاثة بالصالحين ، وقد خصصها صاحبها لذكر علماء بونة ونواحيها ، وللعلماء الواردين عليها ، وعند ما ترجم لجده محمد ساسى ، وتعرض لذكر محاسنه ، نفى عنه تهم ابن الفكون ، التى ذكرها فى «منشور الهداية» عند ما ترجم للشيخ طراد دفين نواحى بونة ، واتهمه بالزندقة ، والتدجيل ، فقال انه من جملة من تتلمذ له محمد ساسى خطيب جامع عنابة اذ ذاك . ومحمد ساسى هذا هو جد صاحب « الدرة المصونة » التى قال فيها صاحبها احمد ساسى بعد ان عرف بجده فى قوله :

بجده محمد ساسى — جد الفقير العارف المواسى
وفضله اشهر بين الناس — من نونبراس لدى العسعاس
من جدد العلم وقد كان اندرس — وقام فيه مخلصا بلا دنس

تعـرض التهـم ابن الفكـون فقـال :

طعـن الفـكون فيـه صـاح باطـل — اذ هـو قطـب عـارف وكـامـل
فطعنــــه تحــــامــل وظلــــم — وعنـد ربنـــا تعـــالى العــلم
والقــــدح فى امثـالـه حــرام — وذا لأ تــرضـى بــه الكـــرام
فالحــكم العــدل تعــالى يحـكم — بينهمــا وسيجــازى الظــالـم

وهذا كله لم يمنع أحمد ساسى من الاعتراف لابن الفكون بالصلاح والعلم ، حيث قال فى نفس المنظومة ، عندما تحدث عن علماء قسنطينة الواردين أو المارين على بونة قال :

بسيـدى عبـد الكـــريم العــالم — الصـالح الفكـــون ذى المكـــارم
مــؤلـف التـآليـف الكثـــيرة — وكـــان ذا منــاقـــب اثـــيرة
بنجلـــه محمد نـــور الظـــلام — ابقـى الاله مجـدهم على الــدوام
وبيـــننـــا وبيـنـــه قـــرابـــة — اربى عـلى الاقـران فى النجـابـة
وعنـــــده الكتـــب بــــالآلاف — والمجــد تـالــد بــلا خــلاف
امـــير أركـــاب الى الـــرسـول — سيـــدنا محـــمد ذى الســـول

ولنرجع الى الحديث عن التاليف ، فهو كما ذكرنا تناول فيه تراجم الطبقات الاربع من العلماء الذين كان معظمهم من مدينة قسنطينة ومن معاصريه ، وقد تتبع حياة المترجمين سواء الممدوحين أو المقدوحين بصراحة وتفاصيل لم يتعودها المؤلفون فى التراجـــم القدامى منهم والمتأخرون ، فهو يذكر المترجم باسمه ولقبه ، واطوار حياته ، من لدن نشاته ، ويجسم المحاسن أو المساوى ، وأكثر من حمل عليهم ، هم ممن تربطهم بـــه صلة القرابة أو التلمذة ، كما ان جلهم ، خصوصا قسم الموظفين هم من اعيان بيوتات قسنطينة ، الذين لا زالت بقايا اسرهم الى يومنا هذا ، ومن جملة من تعرض لهم بنقده اللاذع طبقة سماها بالحضر وان مدلول هذا الاسم ، المتعارف عند الجميع يطلق عـلى سكان المدينة العريقين فى التمدن والحضارة ٠ ولكن المؤلف لم يعن من انتقدهم مـــن

أفراد هذه الطبقة بهذا المدلول ، والا فهو وأسرته من اعرق الاسر الحضارية ، حيث استوطنت أسرته المدينة ازيد من خمسة قرون ٠

وقد اعترف بمدلول اسم الحضر الا انه بقى يكتنفه الغموض فقد عرفه عندما ترجم لاحد مترجميه وقال « فوقعت بينهما ألفة الظاهر ، وفى الباطن مختلفان على عادة صنفهم المسمى بالحضر اذ ذاك صفة لهم لازمة ، بمجرى العادة لا تتخلف ، ولو فى النادر ٠ وان كنت اظن تخلفها فى بعض منهم كما اشرت اليه فى تأليفنا « محدد السنان » ظنا منى لمرءاه ، والم اشعر باطنه ، كما يأتى التنبيه عليه ان شاء الله ، فانبهر لى عموم الوصف فى جميعهم الا ان بعضهم يعرف عنه ابتداء ، وبعضهم يخفى ما اكن الى بلوغ قصده » ٠

ثم كرر حملته على الحضر فى موضع آخر من نفس الترجمة وقال : « ورجعت المودة بينهما شحناء ، والمخالفة بغضاء ٠ ومع هذا ففى الحضور تحسبهم جميعا ، وهم بالغاية القصوى ، قلوبهم شتى ، واهواؤهم متبددة ، بود كل منهما وقوع منتهى الشرور بصاحبه ، وليس هذا بدعا ممن هو من الجنس الذى يلقب حضريا ، فقد جبلوا على ذلك ، كما أودعت بعض صفاتهم تأليفنا محدد السنان » ٠

من هذين الفقرتين يتبين لنا ان مقاييس مدلول اسم الحضر ، بقى غامضا ، اذ كل ما عرفنا به المؤلف هو قوله فى الفقرة الثانية المذكورة ، (وليس هذا بدعا ممن هو من الجنس الذى يلقب حضريا ، فقد جبلوا على ذلك ، كما أودعت بعض صفاتهم تأليفنا محدد السنان) الخ ٠٠

ثم ذكر فى موضع آخر من التأليف ان هذا الصنف لا يوجد الا فى قسنطينة ، واعطى أمثلة دعم بها دعواه ، هذا وان كانت مسألة الخلاف بين سكان المدن والبدو من جهة ، وسكان المدن القدامى ، والطارئين عليها ، مشهورة فى التاريخ خصوصا فى المدن العريقة فى الحضارة الا ان علماء الاسلام كانوا لا يهتمون بها كثيرا ، ولتتميم الفائدة وعملا بالمبدأ الذى يقول « بالمثال يتضح المقال » نذكر نماذج من بعض التراجم المذكورة ؛ قال فى ترجمة عالم تولى الافتاء والقضاء والتدريس بعد ان اعترف به وباسرته وانه من أقاربه قال « وكان فى أول زمانه ممن احببنا لله وأجببناه فيه . وكان ذا نجابة فى

أحوال الدنيا ، وطلب رئاستها ، تولى النيـابة عن قضاة العجم يقصد بالعجم (الاتراك) وامتحن من الولاة كثيرا ، وأغرم المال مرات ، وتشكت به العامة ، وكان مقليا عنـــد الخاصة ، وينسبون اليه أمورا لا يليق صدورها بعاقل ، وكان يخدم الولاة ، ويغلمهم ، ويمتص نفسه فى موالاتهم ويعطيهم الرشاء وربما يقال فيما اشتهر انه يتوسط لهـم فى ذلك من أهل البلد والرعايا ، وينال هو من ذلك حظا ، وتولى خطة الفتوى فى زمن زكرياء ابن محجوبة ، وكانت له يد عليه فى بعض الاحيان ، الا انه كان يستعين عليه بالجمع الخاص وفريق العامة ، وبعد وفاته استقل برئاستها فى التصدر ، وكان امـــى الخطاب والكتابة ، لا يعرف طريق الخط ، ولا يحسن الوسم ، غير عارف بالهجاء حتى انه فى غالب أحواله ، يتفقد من يجالسه من أحبابه مكاتبه ، ليصلح ما فيها من فساد الرسم ، وكان فى ابتداء امره منصفا ، واقفا عندما يحد له) الخ٠٠ثم يذكر فى ترجمة أخرى من هذا القسم ، أى المتولين الوظائف العلمية والدينية من دون استحقاق ، بعد ان اعترف بمترجمه وباسرته ، « واما تكالبه على الدنيا ، وانكبابه عليها فهو اشهر من ان يذكر ، واوضح من ان يسطر فتراه فى جمعها يرتكب أمورا لا يبالى بها من ضعة ، أو هلكة ، ولا عليه ان تكون من حل أولا ، حتى تحقق فيه وعيد حديث « من لم يبال من اين مطعمه ومشربه ، لم يبال الله أى باب من أبواب جهنم يدخله » هذا مع تغـــيره للشريعة وتجاهره بالرشاء ، وجمع حطام الدنيا ، وعدم اكترائه بالاوامر الشرعية ، وتسويغه للعامة ، أو من كان على شكله من الخاصة أمورا لا يرضاها من فى قلبه مثقال حبة من ايمان ، وتسهيله لهم الامور الشاقة فى النواهى والزواجر ويهتك حدودها قولا وفعلا ٠٠٠» الى أن يقول ٠٠٠ «اما العمل فلاحظ له فيه ، الا ما سطر من مساويه ، واما العلم فهو اجهل ممن رايت ، واحمق ممن لاقيت وان كان يتصدى لاقراء المختصـــر والرسالة ، واعجب من ذلك ، تعاطيه لابن الحاجب فى ناديه ، مع جمع عمتهم الجهالة ، فلو كان فى زمن محتسب لله لكان له معه شأن» ، ثم يقول بعد ذلك ٠٠٠ « ولعمرى لا يصلح لان يقعد بين العلماء فضلا ان يتسمى بالعلم ، واحرى ان يتصدى للتدريس لكن غباوة الجهل ، وقلة الحياء من الله ، وخراب البلدة ، وكثرة العامة هى التى جرأته

على ذلك» • ثم يتعرض لتصرفاته فى خطته فيقول « ولقد سمعت من والدى انه أحصى جميع ما باعه من الاحباس ، وتسبب فى هتك حرمتها والبيع والابتياع ، خمسة وثلاثين حبسا أو نحوها ••• حتى انه ترامى به الحال ، ان فعل ذلك فى الاحباس الموقوفة على خدمة المدينة الشريفة ، ولم يراع فيها جانب النبى الشريف ، ولا عظمه ، ولا وقره ، فى هتك ما نسب اليه » الخ ••• ويختم هده الترجمة بقوله «لها ولنكف العنان، فان مساويه أكثر من أن يحصيها الانسان ، ولما كان هذا التأليف للنصح العام اتينا بنبذة من مساويه ليدل مبدأها على منتهاها ، ولله عاقبة الامور » •

ثم يتعرض لترجمة شخص آخر من هذا الصنف فيقول عنه « تولى خطة النيابـة (أى نيابة القضاء) بالبلـد ، ومكث فيها زمانا ، وعزل مرات ••• وكان عامى القلـم والفكر ، لا يعرف ما يصلح به وضوءه وصلاته فضلا عما وراء ذلك ، غير أنه اتخذ كتب الوثيقة صناعة على ما فيها من الفساد والافساد ما ورسما ، وضعف الدين أوجب انزاله تلك المنزلة . وامتحن مرات ، وغرم كرات ، وهو اول من ظهر الغرامة على خطة النيابة ، اعطى عليها مالا لقضاة العجم ، حتى ولوه اياها ، وربما ارشى الولاة يمينا وشمالا وسمعت عن شيخنا أبى عبد الله التواتى المذكور انه طلب منه الرجوع لقسنطينة ، بعد أن أخرج منها واستوطن باجة ، كما قدمناه فاعتذر بانه لا يرجع الى بلد فيه فلان نائب ، أو قاض ، ونحو ذلك ، وكان موسوما بالرشى مغموصا بشهادة الزور واللـه أعـــلم بالســرائــر » •

الى هنا ننهى القسم الاول من النماذج الخاصة بالذين تولوا الخطط الدينية والشرعية بدون كفاءة واستحقاق . وعقد لهم المؤلف الفصل الثانى من تأليفه ، اما القسم الثانى من هذه النماذج فهو يشمل الطبقة التى خصص المؤلف الفصل الثالث مـن تأليفه ، وعنوانه يقوله (الفصل الثالث فيمن ادعى الولاية من الدجاجلة الكذابين ، والمتشدقة ، والمبتدعة الضالين المضلين ، وربما الجأ الحال الى ذكر من لم يكن بصفة من ذكر لقصد التعريف به ، فسننبه عليه ان شاء الله) •

فان المؤلف كما نرى من قوله هذا ، كان ينكر على المنحرفين من مدعى المشيخـة والتصوف ، وكانت اسوته فى ذلك . مذهـب أحمد زروق ، وتلميذه عبـد الرحمن

الاخضرى أى كان لا يعمم انكاره على أصل الصلاح ، ولا أصل التصوف ، ولهذا نبـه فى فصله هذا بقوله « وربما الجأ الحال الى ذكر من لم يكن بصفة من ذكر لقصد التعريف به فسننبه عليه ان شـاء اللـه » ·

وقد لخص نظريته بعد ذلك فى المقياس الذى كان يعتمده فى احكامه على هذا الصنف من مترجميه بقوله « والميزان الاعدل فى ذلك ان ننظر الى المرء وما هو عليه ، من الطريق القويم والصراط المستقيم فى اتباع السنة قولا وفعلا وعملا · فما كان ، فهو ممن يجب الاعتقاد فيه ، والا ، فـلا » ·

قد بدأ هذا الفصل بترجمة قاسم ابن أم هـانى وبين الداعى الى البداية بترجمته فى قوله « وبدأنا به لعظم مفسدته بين الخلق ، وشهرة بدعته وقوتها » وبعد ان ذكر ان جد المترجم ينتسب الى الصلاح · وكان معاصرا لعبد الرحمن الاخضرى الذى كان ينكر عليه ، قال : « فاعلم ان هذا الرجل (أى قاسم بن ام هانى) كان فى ابتداء امره ، ذا سمت حسن ، وكان لجده رعايا ، واتباع ، وقد أظهر التقشف والزهد ، ولبس المرقعات ، ثم ادعى مراتب الولاية والصلاح ، وحكم المؤلف بالزندقة معللا حكمه عليه بقوله : « واما الزندقة فبـدعواه ، ان ما اصاب من النكبات ، من لم يوافقه على مرغوبه، فهو ببركته ، ومن أجل حضرته ، وقد علم ان التحدى فارق بين منصب النبوءة والولاية، فالولى اذا تحدى تزندق ، وخرج عن دائرة أهل الغرب والخصوص وقد ذكر علماؤنا فى كتبهم ، ان من قال أنا ولى ، فهو زنديق ، هذا لو كان آثار الطريقة ظاهرة عـلى صاحبها ، واما من هو فى لجج العماية غريق · وفى تيه الحرمان راكض متلطخ بقذرات المعاصى الظاهرة ، التى هى عنوان عن الباطن فأنى يشم رائحة أهل الله » ·

ثم ترجم لآخر وهو الشيخ طراد دفين نواحى عنابة فقال عنه : « أصله لص من اللصوص ـ ويقصد باللصوص رؤساء الاقطاع ـ وكان كبير المتلصصة ثم زعم انه تاب، والى الله اناب ، فصار من أهل الصفوة والولاية ، وهو باعتبار ظاهر الشرع من أهل الطرد والجناية ، والبعد عن الله والغواية كان لص الظاهر ، صـار لص البـــاطن والظاهر » رمحه الظاهر · لم يزل بيده للحرابة والفساد ، وسبحته ، هى ما يذبح بها العباد ، ويضلهم بها عن طريق الرشاد ، ويقطعهم عن باب الملك الجواد ··· ولهذا

الرجل حروب ووقائع مع شطر قبيلته ، اذ لم تدخل تحت طاعته ، ويشن الغارات عليها ، ويأخذ أموالهم يستحلها • وبعد ان يذكر موبقاته ، والطرق التى يستعملها لجلب الناس ، يذكر ان جل سكان عنابة دخلوا فى احبولته ، ومنهم خطيب جامعها وفقيه بلدها ، وعكف على اتباعه اجلاف البوادى ، وامتلأ باكاذيبهم حافتا الوادى وأكثر من مآثره التى هى فى طى الخرافات ، الحاضر والبادى الخ •••

وبقصد بخطيب جامع عنابة الشيخ محمد ساسى ، الذى تقدم لنا الحديث عنه ، عندما تكلمنا على حفيده أحمد ساسى صاحب منظومة « الدرة المصونة فى علماء وصلحاء بونة » ، ثم ترجم لغيرهم ، وختم الفصل الثالث الذى عقده لذكر المنحرفين من المدعين للولاية والصلاح بصنف آخر ، يعرف بالمجاذيب ، فعقد لهم فصلا مفيدا ، نلخصه فى هذه الجمل التى ذكرها فى ترجمة واحد منهم فقال : « فان زعموا ـ أى المعتقدون فى صلاحهم ـ انه من أهل الجذب ، وانه غير مخاطب ، فيقال لهم ما تعنون بالجذب ، أجذب أهل الولاية ، ام جذب من سلب العقل والدراية ، اما الاول ، فهو مقام عال ، ومرتبة رفيعة ، ويتحاشى صاحبها عن ترك المندوبات ، فضلا عن الواجبات ، والوقـــوع فى المحرمات ، وكيف لا وقد جذبته من اوصاف النفس يد العنـــاية ، وطهرته من ادناسها ، وأبعدته من ايناسها ، واحساسها الخ ••

الى ان يقـــول ،

واما الثانى وهو سلب العقل والدراية ، فلا يصح فى عقل عاقل ان يدعى الولاية فيمن سلب عقله وصار مثل البهيمة ، لا يعرف معروفا ، ولا ينكر منكرا ، وقد قـــال تعالى فيمن سلب التوفيق ، وحاد عن سواء الطريق ، « **ان هم الا كالانعام بل هم اضل سبيلا** » ، وقد علم ان العقل جعله الله تعالى مناطا للتكليف ، وانه لا يسكنه الا من احب، وقد امتن به على الانسان فكيف يكون اهل صفوته ، ووده مسلوبا منه فانظر الى سخافة عقول هؤلاء ، وقلة تمييزهم فى نسبتهم ، متى كان من هم كالانعام او اضل وكالحشائش اولياء مقربون • وقد أخبر الله تعالى « **ان شر الدواب عند الله الصـــم البـــكم الذين لا يعقلون** » • فهل ترى من اخبر الله عنهم بصفة الشر ، ان يكونوا أهل الحضـــرة

والحظوة ، وهل معتقد هذا الا جاهل غبى ، أو معاند شقى ، عافانا الله مما ابلاهم ، وعافانا مما بــه ادهــاهـــم » ٠

والحق المؤلف بهذه الطبقات ، طبقة اخرى تفرعت من اسر دينية او منسوبة للتصوف فقال فى وصفهم « ظهر منهم العتو والاستكبار ، وصار العقب عند الخاصة والعامة فى عصرنا ممن لا يلحق لهم شأو ، ولا يقاسون بقياس غيرهم ، اذا قالوا أولاد فلان ، جرى من تفضيلهم على جميع الامة : علمائها ، وصلحائها ، بل وأولاد سيد المرسلين ، فيجعلون لهم من الرفعة والافتخار ، ما لم يجعلوا معشاره لاولاد النبى المختار ، والكفر أقرب لهؤلاء من الايمان ، والطـرد أولى بهـم والخذلان ٠٠٠ الى أن قال فهذه فتنـة ومصيبة لا أعرفها الا فى هذه البلدة الظالم أهلها » الخ ٠٠

والحاصل ان هذا التأليف اى « منشور الهداية فى كشف حـال من ادعى العلـم والولاية » من **التآليف** التى تعد بالاصابع فى المكتبة العربيــة عمـــوما ، وفى المكتبة الجزائرية خصوصا ، فان مؤلفه تناول فيه ما يعبر عنه فى زماننا هذا ، بالحياة اليومية اذ لم يقتصر فيه على اطارات البلاد من رؤساء الدين الموظفين ، وغير الموظفين الذين ركز عليهم تأليفه ، وخصصهم بتراجم وافية بشجاعة نادرة ، بل تحدث عن أوضاع البلاد فى الفترة الحاسمة التى اعقبت انهيار الدولة الحفصية ، وتولية الاتراك الذين كـــان لاسرة المؤلف فضل على تمكينهم من احتلال قسنطينة ، ومع هذا فقد احتفظ المؤلـــف بالنزاهة ، حيث عمم انتقاده على ولاة الاتراك المنحرفين ، وعلى رؤساء الاقطاع ، الذين سماهم باللصوص ، وافتى بعدم عدالة العلماء الذين كانوا ينتصرون لهم ، ومن هذه الناحية اقام مؤلف منشور الهداية الدليل على بطلان ما ذهب اليه كثـير من كتابنا المعاصرين فى تعميم اتهامهم المؤرخين السابقين من أنهم كان لا يعنيهم من تاريخ البلاد الا حياة الملوك والسلاطين والرؤساء واهمالهم حياة الشعب ، فان مترجمنا كما نـرى اظهر فى تاليفه هذا نزاهة وموضوعية وحمل مسؤولية الانحراف الحاكم والمحكوم ، ولم يرسل التهم جزافا ، بل جسمها فى كل منحرف وتعرض مـن خلال تراجمه الى حالة البلاد السياسية والثقافية فذكر المعاهد العلمية والقرآنية بالبلدة ـ أى قسنطينة ـ وبقمم الجبال ، كما احصى الثورات التى اندلعت فى عهد الاتراك بتفصيل قل مـــا

تعرض لها غيره ، والقى اضواء على صفحات من تاريخ تـونس ـ لا زالت مجهولة فى تفاصيلها ـ خصوصا عندما استنجد ملكها الحفصى بالطاغية شارلكان على خير الدين واغتنم الملك الحفصى هذه الفرصة فانتقم من خصومه شر انتقام ، ومن هؤلاء الخصوم ، جد المترجم ، يحيى بن الفكون الذى قتل فى حلقة درسه بجامع الزيتونة ٠

كما تعرض المؤلف لترجمة عالمين جليلين من علماء تونس أوفدتهما الحكومة التونسية لابرام معاهدة صلح ، اثر الاحداث التى وقعت بين الجيش الجزائرى والجيش التونسى ، وذلك فى سنة سبع وثلاثين وألف وهذان العالمان هما أبو اسحاق ابراهيم الغريانى القيروانى ، وأبو محمد تاج العارفين العصمانى ، وفى مدة اقامتهما بقصر جابر ـ قرب عنابة ـ اجتمعا بالوفد الجزائرى الذى كان من بين أفراده العالم الجزائرى أبو العباس أحمد بن الحاجة تلميذ المترجم ، الذى حدثهما عن استاذه عبد الكريم فحملاه اجازتين لشيخه المذكور ، هما قطعتان من النـثر الفنى ، أثبتهما المؤلف ، وهذان الالتمسان زيادة على قيمتهما الادبية والتاريخية ، فيهما دلالة واضحـة على ان الوحدة الثقـافية والرابطة الاسلامية بين العلماء المسلمين ، كانت حقيقة ، فانه رغم الخلافات السياسية والظروف التى ورد فيها هذان العالمان للحدود الجزائرية حمـلا زميلهـم الجـزائرى ، الاستجازة لهما من أستاذه الفكون ، ولا أظن الوقت يكفينا لعرض نماذج من الفصل الاخير الذى ختم به المترجم تاليفه ، وعنونه بقوله « خاتمة الكتاب فى ذكر من أردنا ذكره من الاصحاب والاحباب » وقد خصها لمعاصريه المستقيمى الاحوال ، سواء كانوا من الموظفين أو رؤساء الدين ، وهى تراجم مفيدة جدا ، ومن بين مترجميه فيها أحمد المقرى التلمسانى ولمكانة أحمد المقرى فى تاريخ الادب العربى ، الذى لا زالت جوانب من ترجمة حياته مجهولة ، نقتصر على ذكرها ونختم بهذه الترجمة دراستنا ، أسـوة بالمؤلف الذى ختم كتابه بترجمته ٠ اذ المقرى شخصية كادت ان تكون عالمية ، اهتم به وبآثاره كثير من الباحثين ، مسلمين وأجانب ، ولا زال محل اهتمام الكثير من الكتاب والمؤرخين ، مسلمين وأجانب ، ورغم ذلك لا زالت جوانب من حياته مجهولة ، مثـل اقامته بعاصمة الجزائر ، وبمدينة تونس ، فى طريق ذهابه من المغرب الى المشرق ، ومثل الظروف التى غادر فيها البلاد الخ ٠٠ سبـق للمقرى التعرف بالمؤلف ابن الفكون ،

وتبادل معه الرسائل وترجمه في نفح الطيب ، الا انه حدث ما كدر صفو هذه الصداقة وذلك ان المؤلف ابن الفكون سبق له ان كتب جوابا عن سؤال طرحه تلميذه أبو عبد الله محمد بن باديس ، وعند اجتماع تلميذه المذكور بأحمد المقرى فى موسم الحج اطلعه عليه ، فعلق عليه المقرى ، وبعبارة اصح قرظه ، وختم تقريظه بالاشادة والثناء على ابن الفكون وأسرته ، ومن جملة ما قال فى ذلك : « وبالجملة فهو العالم الذى ورث المجد لا عن كلالة ، وتحقق الكل ان بيته شهير الجلالة ، بيت بن الفكون هضاب العلم والوقار والسكون لا زال الخلف منهم يحيون مآثر السلف ، ودام عبد الكريم فردا فى العلم والزهد والولاية ، فهو الذى حاز فضل السبق وصار فى ذا الزمان آية ، والله يبقيه ذا سمو مخلد الفصل والدراية » ٠

فأجابه ابن الفكون بجواب على نمطه ، كما وكيف ، الا أنه تبين له ان المقرى لمزه فى تقريظه ، وعدله بعض الهنات ، ولذا انفجر ، ولم يكظم غيظه وقال فى الرد عليه : « والرجل ـ أى المقرى ـ فرح بما أوتى من فصاحة اللسان ، وصوغ الشعر ، وحفظ التصانيف والاقوال ، وجانبته زياج التوفيق فتغطى فكره عن اقتناص بنات التدقيق ، وهل طلب المولى من العلم الا العلم ، والعلم غير الحفظ ، وهو نور يقذفه الله فى قلب من يشاء ، ثم اذا انعم المولى على العبد بنعمة الحفظ ، أو فصاحة اللسان ، انما تقابل بالشكر ، الذى هو سبب المزيد ، لا بالاحتقار والاستصغار لغيره ٠

وهل ما ناله من كده أو كد أبيه أو جده ، انما الفضل والمنة لله لا لغيره ، وعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ، وكان فضل الله عليك عظيما ، فلا يرى الموفق لنفسه فضلا ولا شغوفا على غيره ، ممن لم يصل الى درجته ، هذا هو عين الصواب وطريقة العلماء العاملين اذ لو كان عنده من الحفظ الفهم : فيما حفظ ، والمعرفة بابحاثه وتوجيهاته ، فما بالك بمن هو جامد فى ذلك كما قال فى جوابه ٠ انه من الصداء ، صوت خال من معنى ، ثم أوضح اخيلاءه ، وأظهر ما كمن فى النفس من الحسد ورفعة النفس وترفعها والحقيقة ان ابن الفكون اطلق العنان لعواطفه الدالة على حساسيته المرهفة ، وتغالى فى تحامله على المقرى الذى ـ وان ثبت ما سماه المؤلف لمزا أو مسا بكرامته ـ فلا يبرر له

ذلك ما كاله له من التهم ، كالتخلص من المسؤولية ، وان نظرياته سطحية وانه معجب بنفسه حسود ، ثم تتبعه في حياته الخاصة ، فاتهمه باستجداء اغنياء مصر وتجارها بالمدح • بعد وصوله اليها ، ولا أظن ان المقرى لقى فى طريقه من انتقده بمثل هذا النقد اللاذع وطعن فى عرضه بمثل هذه القساوة كابن الفكون اللهم الا اذا كانت بينهما خلافات أخرى لا زلنا لم نطلع عليها ، وعلى كل حال ، فعلاوة على هذه النواحى السلبية فى الترجمة ، فان المؤلف استوعب فيها جوانب هامة مجهولة تماما من مترجميه القدامى والمتأخرين •

والخلاصة ان هذا التاليف نفيس جدا حيث لم يقتصر فيه صاحبه على تجسيم المنكر والانحراف عند طبقات معينة كما هو مألوف فى كثير من التآليف الخاصة بمثل هذه التراجم ، بل سلط اضواء النقد والتحليل على الاطارات الذين كانوا يتمتعون بالنفوذ والتصرف ، المستمد من ولاة البلاد ومن الحكام بأمرهم رؤساء الاقطاع ، كما تسلط على طبقة تغالت فى الحضارة والرفاهية والترف ، فجعلتها مقاييس للنبالة والفخر ، كان رؤساء الاقطاع هم المتصرفون فى البلاد ، اذا كانت الدولة التركية فى أول عهدها تستمد من الكثير منهم نفوذها ، فجابههم المؤلف ، وصار يطلق عليهم القاب اللصوص ، وكان صارما على العلماء الذين يستمدون نفوذهم منهم أو يقبلون عطاياهم وجوائزهم ، ثم لم يكتف المؤلف بالتنفير منهم بل الحقهم بمترجميه ، فتعرض لتراجمهم ، وللطرق التى سلكوها للوصول الى رياسة قبائلهم ، وأخيرا ان المؤلف كما ذكرنا كان نزيها حيث أنه كان مدينا لولاة الاتراك الذين ولوه مشيخة الاسلام ومشيخة البلد التى توارثها أفراد أسرته طيلة حكم العهد التركى بالبلد ، ومع هذا فلم نر فى كتابه جملة واحدة أشاد فيها بحاكم من حكام الاتراك ، بل بالعكس من ذلك فقد كان كثيرا ما يجره سياق الحديث عن مثالب مترجميه فيتهمهم بالتزلف والتملق والرشاء للقضاة والولاة الاتراك الذين كان يلقبهم بالاعاجم • هذا كله علاوة على ما تخلل تراجمه ، من الحديث عن وضعية البلاد بتدقيق وتفصيل لا زلنا لم نطلع على مثلها فى كتب تاريخ هذه الفترة كالتمردات والثورات والخلافات التى كانت بين علماء قسنطينة والملوك الحفصيين بتونس مما ادى الى هجرة الكثيرين منهم ، ومن بين هؤلاء المهاجرين جد المؤلف يحيى بن الفكون الذى

استشهد فى حلقة درسه بجامع الزيتونة كما تقـدم لنا ذلك ، كمـا تعرض المـؤلف للاتصال الذى كان بين علماء قسنطينة وعلماء تونس لا فى المجال الثقافى فحسب بل فى المصـــاهـــرة ٠

وفى الختـــام ألفـت انتبـاه بعض الاخـوة ان الاهتمـام باحيـاء مجـد الاسلاف واستعراض مآثرهم هو من أوكد الواجبات على جيلنا ، وذلك ليتصور الجيل الصاعد تاريخ بـلاده على حقيقتها ، وعلى ذكـر احيـاء ، التراث والاهتمام به فان احـد كبار المستشرقين فى العصر الحاضر ألقى فى السنة الماضية سلسلة بحوث بجامعة باريس موضوعها نوازل الفقيه ابن عظوم القيروانى ، ومن بين هذه النوازل الفقهية رده على بعض فقهاء قسنطينة ، الذين كان من بينهم يحيى ابن الفكون جد المؤلف ، وفى صيف السنة الماضية انعقد مؤتمر لدراسة بحوث الحضارات لغربى البحر الابيض المتوسط بجزيرة مالطة وكان الباحثون يربو عددهم على الخمسين ، تناولوا بالبحث الحضارات المتعاقبة على حوض البحر الابيض المتوسط كالحضارة اليونانية والفنيقية والرومانية فصوروها بجزئياتها ٠ لم يغادروا فيها صغيرة ولا كبيرة ، ولم يعتمدوا فى بحوثهم على آثار كتابية اذ معظمها مفقود ، وانما هم يتتبعون ما يعثرون عليه من آثار مادية كالكتابة على شواهد القبـور والنصب التذكارية وآثار البناءات والادوات المنزلية والاضرحة وما الى ذلك فمن العار علينا ان نترك تراثنا الكتابى يضيع ٠

حول كتاب :
القومية العربية وصراع الطبقات

د· الحبيب الجنحانى

أستاذ بالجامعة التونسية



- من منطلق اقتصادى تنظيرى يطرح المؤلف قضايا جديدة وجريئة تهم حاضر الوطن العربى ومستقبله ·
- المجتمع العربى الاسلامى له ميزاته الخاصة فى التطور بالامس ، وسماته البارزة فى معركة اليوم من أجل الفجر الجديد ·
- الوطن العربى يقف اليوم فى مفترق الطرق ·

تصدر يوميا كتب جديدة فى باريس تعالج شتى قضايا المعرفة ، ومشاكل الانسان قديما وحديثا ، ولكن الكتب التى تحدث الصدمة ، وتثير النقاش قليلة ، وكان ضمن هذه الكتب القليلة الصادرة بباريس خلال الموسم الثقافى الحالى كتاب « القومية العربية وصراع الطبقات » للكاتب المعروف سمير أمين ، وقد نشرته دار منشورات « منتصف الليل » فى 156 صفحة من القطع المتوسط ·

وقبل الحديث عن محتوى الكتاب نود تقديم مؤلفه فى بضعة سطور ·

اشتهر الاستاذ سمير أمين خلال السنوات الاخيرة بعدة مؤلفات يعالج فيها القضايا الاقتصادية للبلدان النامية منطلقا من ميدان اختصاصه : العلوم الاقتصادية ·

هو من مواليد مصر سنة 1931 ، وبعد أن عمل من سنة 1957 الى سنة 1960 فى الادارة المصرية للتطور الاقتصادى غادر مصر ، وأصبح يعيش فى فرنسا ، ثم فى بعض البلدان الافريقية الناطقة بالفرنسية ، وبعد أن اشتغل أستاذا فى بعض الجامعات الفرنسية أصبح يــدير منذ سنــة 1970 « المؤسسة الاقتصادية للتطــور الاقتصادى والانماء » بمدينة داكــار ·

ومن أشهر كتبه « اقتصاد المغرب » ، « المغرب الحديث » « مصر الناصرية » ، « التطور المتفاوت » ، « التراكم فى السلم العالمى ، نقد لنظرية التخلف » ، وغيرها من الكتب الاخرى والدراسات ، وقد ترجم البعض منها فى بيروت ·

ست أطروحات تثمل نقطة الانطــلاق :

ينطلــق المؤلف من أسس اقتصادية بالدرجة الاولى لتفسير التطــور التاريخى للمجتمع العربى الاسلامى رابطا اياه بقضايا هذا المجتمع اليوم ، ومصيره غــدا ، ويضع القارىء فى تمهيد تحذيرى أمام ست أطروحات تتباين تماما مع الآراء المعروفة ويشير انها ستصطدم بالخصوص بالافكار المتداولة فى أوساط الماركسيين العرب ·

ـ **الاطروحة الاولى** : ان الوطن العربى قبل العهد الاستعمارى لم يكن يمثــل مجتمعا اقطاعيا ، ولكنه كان يمثل مجموعة من البنيات الاجتماعية تحوم حول أسلوب الانتاج الجبائى ، وهذا الرأي مرتبط برأي آخر مكمل له ، وهو الدور الفعال للتجارة الكبرى فى تجمع الثروات ، والتجارة الداخلية المحلية المرتبطة بالتجارة البعيدة المدى (التجارة الكبرى) ، ولذا فان الانتاج الزراعى كان ضعيفا ـ باستثناء مصر ـ وهذا الفقر ناشىء عن ضعف قوى الانتاج فى الميدان الفلاحى فى منطقة قاحلة ، أو شبــه قاحلة مع استثناء بعض المناطق وفى عصور مختلفة · وطريق التطور هذا يختلف تماما مع « أوروبا الاقطاعية » المتحفزة فى نهاية العهد الاقطاعى الى الدخــول فى مرحلة تاريخية جديدة بقيادة البورجوازية ·

ـ **الاطروحة الثانية** : تتصل بنظرية الامة ، يذهب سمير أمين الى أن الوحــدة العربية هي النتــاج التاريخى للوحدة التجارية ، والى أن الطبقــة الاجتماعية التى حققت هذه الوحدة هي طبقة التجار والمحاربين ·

ان الوحدة العربية لها ـ اذن ـ أسس تاريخية راسخة » وقد بدأت هذه الوحدة تضعف ، وتتفكك مع بدايــة عــهد التدهور العمرانى ، وتقلص العلاقات التجارية فى العالم العربى الاسلامى ، وقد ساعد ارتباط الوطــن العربى فى العهــد الاستعمارى

بالنظام الامبريالى على ذلك التفكك والتجزىء · وجاء النظام الاستعمارى ليحول الشعور بالوحدة العربية حيث أصبح يتمثل فى النضال التحريرى ضد عدو مشترك ، ويضيف انه ليست هنالك طبقة عربية مسيطرة فى العهد الامبريالى (سواء كانت بورجوازية الكومبرادور ، أو طبقة كبار الفلاحين ، أو بورجوازية الدولة) قادرة على تحقيق الوحدة العربية ·

ـ **الاطروحة الثالثة :** تتعلق بالامبريالية والطبقات المتحالفة معها فى المنطقة العربية ، ويمر هذا التحالف بأكثر من مرحلة ، نظرا للتناقضات بين مصالح الفئات الحاكمة والدول الامبريالية رغم مظاهر التعاون والتحالف ·

وينتهى فى آخر هذه الاطروحة الى رفض « الطريق غير الرأسمالى » ·

ـ **الاطروحة الرابعة :** تتعلق بدور البورجوازية الصغيرة فى قيادة الكفاح التحريرى ضد النظام الاستعمارى ، وهو الدور الذى اكتسبته نتيجة ضعف البروليتاريا ، وعدم وعي الفلاحين ، وهذه البورجوازية الصغيرة التى يطلق عليها عادة اسم « البورجوازية الوطنية » قد عارضت الفئات البورجوازية التى تحالفت فى الاقطار العربية مع النظم الاستعمارية ، وهي التى فتحت الباب لاساليب تطور جديدة ، أهمها رأسمالية الدولة ، وهي رأسمالية غير مستقلة ·

ـ **الاطروحة الخامسة :** تعالج هذه النقطة دور الاتحاد السوفياتى والتحالف العربى ـ السوفياتى ، فيرى المؤلف أن سبب فشل المنظمات الشيوعية التى تستطيع أن تحقق قيادة البروليتاريا ، وفئات المزارعين الفقراء فى النضال ضد الامبريالية يعود الى ارتباطها باستراتيجية موسكو القائمة على مساندة بورجوازية الدولة · ان هذا المسلك الانتهازى يخدم أهداف الاتحاد السوفياتى كقوة عظمى ، وهو تحريف للماركسية يحول فى النهاية دون ضبط أية استراتيجية ثورية ناجحة ·

ـ **الاطروحة السادسة :** تتصل بالوحدة العربية ، وهو الموضوع الذى حظى بقسم مهم من الكتاب · ان الوحدة العربية عمل يهم الشعوب العربية قبل كل شىء فى نضالها ضد الامبريالية ، والوحدة العربية يجب أن تمر حتما بمرحلة الاعتراف بالاختلاف فى الاوضاع من بلد وآخر ، ويجب النظر اليها فى نطاق المعطيات العامة ، وخدمة لآفاق المستقبل · ان الاخطاء الاستراتيجية هي التى تفسر الفشل الذى سجل لحد الآن فى حياة الثورة العربية ·

ونجد الكاتب يعالج بعد هذه الاسس التنظيرية الاصول التاريخية للقومية العربية وركز بالخصوص على الفرق بينها وبين ظاهـــرة القومية فى أوروبا • ويعود هذا البون الشاسع بين الظاهرتين الى التباين فى التطور بين العالم العربى الاســلامى فى العصر الوسيط والمجتمع الاوروبى الاقطاعى ، ومن هنا فانه لا يمكن الحديث عن الاقطاعية بمفهومها التاريخى المتداول بالنسبة للمجتمع العربى الاسلامى ، فقد ظهرت نظم شبه اقطاعية فى فترات تدهور التجارة الكبرى ، وهو يلمح بالخصوص الى ظهور الاقطاع العسكرى الذى ظهر هنا وهناك مع بداية عصور التدهور العمرانى ، وبلـغ أوجــه اثنــاء العصر العثمانى •

وبعد أن يعالج الكتاب قضايا التطور الحضارى يصل الى عصر النهضة فى القرن التاسع عشر ، ولا سيما فى مصر وسوريا ، ولكن هذه الحركة تفشل ـ فى رأيــه ، وهو رأي قابل للنقاش ، بطبيعة الامر ـ ، وتعيش أقطار السالم العربى منعزلة تحـت هيمنة امبريالية كاملة الى الحرب العالمية الثانية تقريبا ، وخلال هذه المراحل نقـف على ظاهرتــين أســاسيتــين :

ـ بروز طبقة اجتماعية جديدة هي طبقة البورجوازية الصغيرة فى المدن تحـل محل الفئات القديمة ، وتتزعم النضال الوطنى التحريرى •

ـ حركة اليقظة الجديدة مرتبطة بتطور الوعي بضرورة الوحدة العربية ، وقـد غذى خلــق اسرائيل فى المنطقة هذا الشعــور فارتبط هـذا النضال ضد الامبريالية بالنضال ضــد الصهيونية •

قضية فلسطين تصبح محور القضية العربية :

بعد الحديث عن عصر النهضة يتحدث الكاتب عن فترة العزلة الجهوية التى عاشها الوطن العربى من 1880 الى 1950 فتحدث عن مصر والمشـــرق ، وفلسطين ، ولكنــه يغفل عن المغرب العربى !

وفى حديثه عن فلسطين ، وتحليل السياسة البريطانية ، وظهور العملاق الاميركى الجديد على المسرح السياسى فى منطقة الشـرق العربى بعـد الحرب العالمية الثانية تساءل عن ســر موافقة الاتحاد السوفيتى على تقسيم فلسطين سنة 1947 ، وهــي الموافقة التى جعلت الاحزاب الشيوعية العربية تقع فى أزمة ، وتفقد أرضية العمـل بحكم دفاعها عن سياسة موسكو أصابت ، أم أخطأت • ويعيد موافقة الاتحاد السوفياتى على قرار التقسيم الى أخطاء تقديرية لستالين •

العهـد الناصـرى 1947 ـ 1967 :

تميز هذه الفتـرة ثـلاث ميزات أساسية :

أولا ـ فشل البورجوازية الوطنية العربية ـ مع الاشارة الى المواقف الانتهازية للشيوعيين ـ ، وصعود البورجوازية الصغيرة الوطنية .

ثانيا ـ تقلص ظل السياسة البريطانية من المنطقة لفائدة القوتين الاعظم : الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفياتى ، واتفاقهما على تقسيم المنطقة .

ثالثا ـ تبلور الطابع التوسعى للسياسة الاستعمارية الصهيونية .

بانتهاء المرحلة الناصرية تبدأ مرحلة جديدة ، ولاسيما بعد حرب أكتوبر ، حيث تحاول قوى سياسية واقتصادية معينة أن تفرض سيطرتها فى كل قطر عربى ، ثـــم يحـاول المؤلف فى الفصل الخامس (ص 108) أن يطـرح بعض القضايا التنظيرية . وينطلق فى معالجته لتاريخ الوطن العربى والمسألة القومية من ثلاث نقاط :

أ ـ يرفض تطبيق المفهوم الاوروبى البورجوازى للمسألة القومية على القومية العربية قائلا : ان الامة ظاهرة اجتماعية يمكن أن تبـرز فى جميع عصـور التاريخ ، فهي ـ اذن ـ ليست مرتبطة بأسلوب الانتاج الرأسمالى .

ب ـ ان ميلاد الامة باعتبارها ظاهرة اجتماعية بزعامة طبقة اجتماعية لا يعنى أبدا أن هذه الطبقة هي طبقة البورجوازية الرأسمالية الوطنية .

ج ـ ظاهرة الامة ظاهرة قابلة للتحول يمكن ان تظهر ، وتقوى ، كما يمكن أن تتفكك وتزول حسب قوة ، أو ضعف الطبقة الاجتماعية التى تزعمت ظهور الامة .

ويتخلص بعد هذه التوطئة التنظيرية الى الرأي التالى : الامة العربية قد تحققت فى عصور قليلة تمثل فترات ازدهار العالم العربى الاسلامى ، وتزعمت وحدة الامة العربية طبقة التجار والمحاربين . ان الوحدة العربية ليست نتيجة الهيمنة الاستعمارية الحديثة ، أو نتيجة شعور ارتباط حضارى ولغوى فحسب ، بل لها جذور تاريخية .

ان طرح السؤال : لماذا فشلت « الماركانتية » العربية فى تكوين مجتمع رأسمالى ؟ هو طرح لقضية زائفة . وهو اتجاه متأثر بمفاهيم تاريخ البورجوازية الاوروبية ، وهو منطلق خاطىء يقع فيه كثير من الباحثين العرب .

ونلاحظ فى هذا الفصل نوعا من الخلط فى منهجية المؤلف ، فبعد هذه الفقـرة المهمة عن طبيعة المجتمع العربى فى عهود الازدهار ، ومميزاته الاقتصادية بالخصوص

ومقارنته بالمجتمع الاوروبى أى عصر الاقطاع يثب فجأة الى موضوع سياسى معاصر يتحدث فيه عن الصهيونية ، واسرائيل ، ومستقبل فلسطين ، ولاسيما تأسيس دولـة فلسطيـنيـة !

أمـا الفصل السادس والاخير (ص 139) فيخصصه لآفـاق المستقبل العـربى ، ويرسم عدة لوحات ممكنة لهذا المستقبل ·

ان المعن النظر فى كتاب سمير أمين الجديد يشعر بأن هنالك كثيرا من الافكار قابلة للنقاش ، ولاسيما فيما يتصل بالمسائل ذات الطـابع السياسى ، ولكن أهميـة الكتاب تبرز ـ فى نظرنا ـ فى القضايا الجديدة والجريئة التى يطرحها الكاتب أمـام الباحثين العرب حـول تحليل بعض مظـاهر التطور فى تـاريخ الحضارة العـربية الاسلامية ، ولاسيما حول بروز فئات اجتماعية معينة ، وما يكمن وراء بروزها فى عصر معين من أسباب موضوعية ، ومما يزيد هذه الآراء شأنا انها تخلصت مـن النظر الى قضايا المجتمع العربى من خلال منظار التاريخ البورجوازى الاوروبى ·

منشـــورات

وزارة التعليـم الاصـلى والشؤون الدينيــة



التفسـير الاسـلامى
للمشـكلـة الاقتصـاديـة

شـوقى دنيـا
مدرس بالمعهد القومى للادارة
العليا بمصر
ومدرس بجامعة عنـابة
قسم الاقتصاد

يحتل الفكر الاقتصادى مركزا أساسيا فى فكـر الانسان ، ولا عجب فالقضايا الاقتصادية كانت ومـا زالت من أمهات القضايا التى شغلت المجتمعات والافراد على السواء ۰ ولقد كان هذا الفكر من الثراء والاهمية فى نفس الوقت بحيث تنوع اتجاهات ومذاهب ، ومن ثم انظمة وتطبيقات ۰ ولا غرو أن كان لمختلف المجتمعات رصيدها الفكرى الاقتصادى ، وان اختلف هذا الرصيد فى كمـه وكيفـه ، وفى ظهوره كائنا حيا تعيش عليه أفراد الجماعة أو فى بقائه مكنونا يمثل ثروه تاريخية ليس الا ۰

ولعل نقطة البدء لدى أي فكر اقتصادى مهما كانت مذهبيته هي مفهوم هذا الفكر للمشكلة الاقتصادية ، باعتبار انها تمثل المدخل الطبيعى لايـة دراسة اقتصادية ۰

ونتيجة لتشخيص جوانب هذه المشكلة ولاختيار العلاج الملائم لها تنوعت المذاهب والانظمة الاقتصادية ٠

ـ ولعل من أهم مميزات الفكر الاقتصادى الاسلامى أنه الهى المصدر ، بمعنى أنه ينطلق من تصور كلى للقضايا الاقتصادية قد تكفل الله سبحانه وتعالى بوضع هذا التصور بما يحتويه من ضوابط وقواعد كلية ٠ وقد ترتب على ذلك بعض النتائج ، منها ما هو منهجى كأن يلتزم المفكر والباحث الاقتصادى بهذه الضوابط ولا يشذ عنها حتى يظل منطبقا على فكره أنه فكر اقتصادى اسلامى ٠ ومن الامور المترتبة على طبيعة منبع الفكر الاقتصادى الاسلامى من أنه الهى المصدر عدم محدودية هذا الفكر ، بمعنى عدم انحصار صلاحيته فى زمان معين أو فى مكان معين ٠ انه فكر يصلح لهداية الانسان أينما هو ، اذ ان مصدره غير محدود ٠

ـ وليس من أهداف هذا البحث دراسة مفهوم الاقتصاد الوضعى سواء منه الغربى أو الشرقى للمشكلة الاقتصادية ، ولكن لا يمنع هذا من التذكير بأن الاقتصاد الوضعى « الذى هو بمصادره من وضع البشر » يعتنق الى حد كبير مفهوم المشكلة الاقتصادية باعتبار أنها تتمثل فى موارد نادرة نسبيا أو محدودة وحاجات انسانية غير محدودة ٠ وبالتالى فقد ظهرت القضية فى مظهر عدم كفاية الموارد لحاجات الانسان ٠

ـ وهو بذلك يضع الانسان أمام مشكلة كيفية التوفيق بين هذين الوجهين المتناقضين ، ثم هو بالتالى يضع الاطار الفلسفى الذى ينطلق منه الفكر الانسانى ، وهو اطار ذو مضاعف مقلل لفعالية الجهد الانسانى ، حيث أنه رسخ فى ذهنه أن الموارد غير كافية ، وحيث ان الانسان لا يخلق المورد اذن ما قيمة جهده !! ثم انه من جانب آخر جعله يؤمن بمبدأ لا محدودية الحاجات وبالتالى صرفه عن التفكير الجاد داخل اطار أن الحاجات الانسانية الحقيقية هي غير سائبة بلا حدود وبلا ضوابط ، ولو انطلق الانسان من هذا الاطار لكان لجهده الآثار الايجابية التراكمية ٠

ـ والسؤال المطروح أمام الفكر الاقتصادى الاسلامى هو :

هل هذا هو مفهومه للمشكلة الاقتصادية ؟ هل حقيقة *ان الموارد* غير كافية أو نادرة ؟ وهل حاجات الانسان غير محدودة ؟ واذ لم يكن الامر على هذا النحو فعلى أي نحو يكون ؟

واجابة عن هذا التساؤل نرجع الى مصدر الفكر الاسلامى وهو القرآن الكريم ·

أولا موقف الاسلام من ندرة الموارد :

يقول الله تعالى : (**وجعل فيهـا رواسى مـن فوقها وبـارك فيها وقـدر فيها أقواتها** (1) · (**وان من شيء الا عنـدنا خزائنه وما ننزله الا بقـدر معلوم**) (2) · (**وآتاكم من كل ما سألتموه وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الانسان لظلوم كفار**) (3)

هذه الآيات القرآنية تدل بصورة قاطعة على أن موارد الثروة كافية لاشبـــاع حاجات الانسان الحقيقية ، فهي مقدرة تقديرا حكيما بما يجعلها تواجه كل ســؤال للانسان بما يعكسه السؤال من مطلب وحاجة ، فاذا بقيت حاجات الانسان غير مؤمنة فعندئذ لا ينصرف القصور الى الموارد ، وانما ينبغى البحث وراء سبب آخر ·

وينبغى أن يفهم ذلك فى ضوء تفهم عاملين هما : أن الكلام هنا يتجه الى الموارد بالنسبة للعالم ككل · فهل الموارد العالمية تكفى حاجات الجنس البشرى ؟ هذا هـو مجال الكلام · ومعنى ذلك أنه قد يكون للموارد وضع آخر اذا كان الحديث عنها على مستوى أقل : فرديا أو اقليميا · وعندئذ ينصرف القصور أيضا الى سبب آخر أعمق من ندرة موارد الفرد أو الاقليم ·

هذا من جهة ومن جهة أخرى فليست الموارد فى جملتها معدة للاستهلاك مباشرة ، بمعنى أنها لا تحقق الاشباع المباشر ، وانما طبيعتها هو الاشباع الغير مباشر الذى يتطلب الجهد الانسانى الذى يحور تلك الموارد ويجعلها قابلة للاستفادة المباشرة ، وبدون ذلك الجهد لن تشبع للانسان حاجاته ·

وفى ذلك يقول الله تعالى : (**هو الذى جعل لكم الارض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور**) (4) · هنا نجد أن المقطع الاول من الآية يوضح الشرط الاول لامكانية الاشباع وهو وجـود الموارد بصـورة مهيـأة للاشباع الغير مباشر (**جعل لكم الارض ذلولا**) ، والمقطع الثانى يوضح الشرط الثانى لذلك وهو ممارسة الجهد البشرى الذى عبرت عنه الآيـة بالمشي فى منـاكب الارض · وبتوافر هـذين الشرطين يمكن الوصول الى النتيجة المتضمنة فى المقطع الثالث من الآية وهو الاشباع المباشر المعبر عنه بالاكل ·

الموارد من حيث النوع : قد يثار تساؤل آخر مضمونه : الا يمكن أن تكون الموارد موجودة ولكنها غير قابلة للاستغلال ، وبالتالى لا يكون فى مجرد تواجدها كبيـــر فـائـــدة ؟

على هذا التساؤل جاءت اجابة الاسلام قاطعة الدلالة ، يقول الله تعالى : **(وسخر لكم ما فى السموات وما فى الارض جميعا منه)** (5) ، **(وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الانهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار)** (6) ·

وقواعد اللغة العربية تفيدنا هنا فى التعرف على أمرين : تفيد قواعد اللغة أن لفظ « ما » يفيد العموم والشمول ، ومعنى ذلك أن كل شىء فى السموات وكل شىء فى الارض مسخر للانسان ·

ومن ناحية ثانية فان معنى التسخير كون الشىء معدا ومهيأ للاستفادة منه ·

والنتيجة التى يمكن الوصول اليها هنا أن الانسان عندما يبذل جهده فى الاستفادة من موارد الثروة المبثوثة فى الكون فانه بلا شك سيكون لجهده الآثار الايجابية الفعالة ·

والشىء الواضح هنا ـ مع أنه كثيرا ما يخفى على الباحث الاقتصادى ـ أن موارد الثروة الطبيعية هي فى جزء غالب منها مكفونة ومستترة ، ويوما بعد يوم ، وبتقدم المعارف والعلوم ، وبظهور الجديد من حاجات الانسان تكشف الموارد الحجاب عن جانب منها ، واذن فالموارد متجددة مستمرة طالما بقى الانسان ·

والجدير بالذكر أن الفكر الاقتصادى الموضوعى عاد أخيرا واعترف بتلك الحقيقة منها هو الاقتصادى الامريكى BRACE R. MORRIS يقول فى مؤلفه « مشاكل نحو الاقتصاد الامريكى » ما يلى : we create materials as we learn to use hichrto unused materials. The supply of materials ansilable to man is particularly unlimited if we consider te entire globe earth, water, air and vegetation. Many are not now used by man, thought and art can make the unused materials become usable recources.

ثانيا موقف الاسلام من حاجات الانسان :

تعرفنا على موقف الاسلام من أحد جوانب مشكلة الندرة النسبية وهو الجانب المتعلق بالموارد ، بقى أن نعرف رأي الاسلام فى الجانب الآخر لها وهو المتعلق بحاجات الانسان التى يقال عنها انها غير محدودة ·

وللاسلام تجاه هذا الجانب موقفه الخاص الذى يمكن ايجازه فى الفقرة التالية :

I ـ يؤمن الاسلام بأن الانسان كائن مركب من عنصرين : الروح والمادة ، وقد أوضح القرآن تلك الحقيقة اذ يقول : **(اذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من طين فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين)** (8) · فالانسان من طين وهو شىء مادى محسوس وبذلك كان من عناصر الانسان المادة ، والانسان فيه من روح الله وهو بذلك كان روحا ·

والمهم ابراز أن فطرة الانسان مركبة من هذين العنصرين تركيبا يماثل التركيب الكيميائى للاشياء بمعنى أن المركب أصبحت له خصائص مميزة عن خواص عناصره ، ولقد اعترف الاسلام بذلك فجعل حاجة الانسان ليست مادية فقط وليست روحية فقط وانما هي « حاجة روحية مادية » تلك هي حاجة الانسان الحقيقية التى تستدعيها بالفعل فطرته · ومعنى ذلك أن تلبية الحاجة المادية فقط لا تكفى ، وبالمثل تلبية الحاجة الروحية ، حيث لا هذه ولا تلك هي حاجة الانسان اذ أن حاجته حاجة مادية روحية معا ، وبالتالى فاحتياجات عنصر الجسم ليست مطلقة بغير قيود كما هو الحال لو كان الانسان جسما فقط ·

والنتيجة المستخلصة من هذا التحليل المختصر أن الانسان المتسق مع فطرته لا ينظر الى كل حاجة مادية على أنها حاجة حقيقية ، عليه أن يشبعها بغض النظر عما اذا كانت هذه الحاجة ستتنافى مع عنصر الروح أولا · والاسلام بذلك يجعل الفرد المسلم يقبل عن رضى وطواعية كاملة على وضع اطار لحاجاته بالصورة التى تتفق وفطرته المركبة ، واذن فهناك العديد من الحاجات أو بالاحرى المشتهيات الانسان المسلم فى منأى عنها ، ولا يعنى ذلك الكبت أو المصادرة لان من يدعى ذلك يتجاهل حقيقة الانسان وهو انه جسم وروح لا جسم فقط ·

وبتسليمنا بذلك فاننا نلاحظ أن العديد من موارد الثروة يستخدمها الانسان فى اشباع شهوات بعيدة كل البعد عن حاجاته الانسانية ·

والنتيجة المستخلصة من ذلك هي أن حاجات الانسان الحقيقية محدودة بحدود موضوعية تنبع من أصل وطبيعة فطرته ·

ومن الطبيعى أن المنهج الملائم للانسان المحقق لسعادته هو ما يلبى للانسان مطالب فطرته فيشبع للانسان حاجته الروحية المادية ، ويوضع المنهج الاسلامى تحت هذا الاختيار فانه يؤدى هذا الاختيار بنجاح ، يقول الله تعالى : (**وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا**) (9) · ويقول الرسول (ص) : (خيركم من لم يترك آخرته لدنياه ولا دنياه لآخرته ولم يكن كلا على الناس) ·

2 ـ يؤمن الاسلام من ناحية أخرى بأن الانسان له عنصره الذاتى وله عنصره الاجتماعى · فمن خصائص فطرة الانسان أنه كيان مستقل وأنه عضو فى جماعة ، ومعنى ذلك أن له حاجات ذاتية وحاجات اجتماعية · واذن فعلى الجماعة أن تعمل على اشباع احتياجات الفرد كما أن على الفرد أن يساهم فى اشباع احتياجات الجماعة

والنتيجة الكلية التى يمكن الخروج بها هنا ان الاسلام لا يعتبر المشكلة الاقتصادية مشكلة ندرة موارد بما تعكسه من عدم قدرة الموارد على اشباع احتياجات الانسان ·

فلا الموارد نادرة ولا الحاجات سائبة بغير حدود وضوابط ·

وأين اذن تكمن المشكلة الاقتصادية فى الاقتصاد الاسلامى ؟

وقبل أن نجيب على هذا السؤال نتعرض بعجالة سريعة لوظيفة الانسان فى نظر الاسلام ، لما لها من ارتباط وثيق بموضوعنا ·

يمكن القول ان وظيفة الانسان كما رسمها القرآن الكريم هي خلاقة اللـه فى الارض ، يقول الله تعالى : (**واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة**) (10) (**ومـا خلقت الجن والانس الا ليعبدون**) (11) ، فى هاتين الآيتين برزت الخلاقة والعبادة مرتبطتين بالانسان ، ومنه يتضح أن الخلافة التى أرادها الله هي بنفسها عبادة الله التى أمرنا بها ، فوظيفة الانسان فى الارض أنه مستخلف من قبل اللـه تعالى فى اقامة العمران على سطح الارض بالشكل الذى نظمه ورسمه الاسلام ، والانسان اذ يمارس أعمال الخلافة هذه انما هو بتعبير آخر يعبد الله حيث أن الخلافة ان هي الا تنفيذ أحكام الله فى شتى المجالات (12) ·

واذن فللانسان دوره الواضح ومسؤوليته المحددة فى تلك الحياة ، فليس ضيفا ولا مسلوب الارادة · بعد ذلك نحاول الاجابة على السؤال المتقدم معتمدين على ما سبق وعلى ما يفيده المقطع الآخر من الآية القرآنية المتعلقة بهذا الامر وهي : (**وآتاكم من كل مـا سألتموه وان تعدوا نعمة اللـه لا تحصوها ان الانسان لظلوم كفـار**) (13) ·

انه من خلال ما تقدم يمكن القول ان المشكلة الاقتصادية تستمد جذورها من مصدر واحد هو سلوك الانسان ·

اذ أن الانسان مطالب من قبل الله تعالى بسلوك تجاه الموارد الطبيعية وبسلوك تجاه أخيه الانسان انطلاقا من فطرته ومن وظيفته ·

أما سلوكه تجاه الطبيعة فضوابطه عدم الكفر بها ، وكفرانها يتأتى من ناحيتين : أولا اهمالها وعدم الاستفادة بها أي تعطيلها وتركها مكنونة ، حيث أنها لم تخلق لذلك وانما خلقت للاستفادة بها ·

وثانيا اهدارها وتبريرها بمعنى عدم الرشد فى استخدامها · فالتعطيل والتبرير كلاهما كفر بالموارد · واذا التزم الانسان فى سلوكه مع الموارد مبدأ الاستخدام والرشد فانه بذلك يكون قد تغلب على نصف المشكلة الاقتصادية ، وبقى النصف الآخر لهـا رهينا بسلوك الانسان مع أخيه الانسان · وأما سلوكه تجاه أخيه الانسان فيقوم على أساس أن الافراد لبـــنات فى بناء المجتمع لاغنى للبعض عن البعض كما أن موارد الثروة مخلوقة لبنى الانسان كافة وليس لبعضـهم دون الآخر ، يقول اللـه تعالى : (**هو الذى خلق لكمَ ما فى الارض جميعا**) (14) ومعنى ذلك أن على الفـرد واجبات تجاه الآخرين يجب النهوض بها ، وتنبع هذه الواجبات اما من المشاركة فى العملية الانتاجية أو المشاركة فى المادة والمورد الذى يقوم عليه الانتاج ، واذا أدى الانسان هذه الواجبات فانه بذلك يتغلب على النصف الثانى من المشكلة الاقتصادية ·

نخرج من هذا التحليل الى انه يمكن القول بأن المشكلة الاقتصادية فى نظـــر الاسلام هي مشكلة السلوك الانسانى الذى قد يتصف بأحد الانحرافين الآتيين او بكليهمـــا :

1 ـ عدم قيام الانسان بواجباته تجاه الطبيعة ، بأن يترك ما يجب عليه من بذل الجهد فى استخدامها برشد ، أي عدم قيام الانسان بالمساهمة فى كل ما يزيد الانتاج وينميه مع قدرته على ذلك ·

2 ـ عدم قيام الانسان بواجباته تجاه أخيه الانسان · وبتعبير آخر عدم القيام بما يحقق العدالة فى توزيع الناتج ·

اذن يمكـن القول ان مشكلة الانسان الاقتصادية تكمن فى عـدم قيـام الانسان بالجانب الاقتصادى من وظيفته على الوجه الرشيد · وقد يتمثل ذلك اما فى تفريطه فى الانتاج بالتعطيل للموارد أو بسوء استخدامها بحيث لا تلبى احتياجات الانسان الحقيقية · وجميع هذه النواحى الانحرافية تعيش بصورة أو بأخرى بين ثنايا النظام الاقتصادى العالمى الحالى · كمـا قد يتمثل فى تفـريط الانسان فى التوزيع ، وذلك بهضم حقوق الانسان ، سواء على المستوى الفردى أو المستوى القومى أو المستوى العالمى ، وهذه المستويات بأكملها يعيشها الانسان المعاصر ·

فليست المشكلة ندرة موارد · ان الندرة ان وجدت فهي فى الحقيقة ندرة منتجات وندرة المنتجات قد ترجع الى ندرة الموارد أو الى قصور من جانب الانسان ، ولقـــد تبين لنا أن الموارد غير نادرة وانما هي غير مستغلة أو مستغلة بغير رشد أو غير

موزعة بين العالم التوزيع الرشيد . واذن فلم يبق سوى الانسان موضوعا فى قفص الاتهام أو ان شئت الدقة فقل موضوعا فى قفص الادانة الفعلية .

1) سورة فصلت : الآية رقم 10 .

2) سورة الحجر : الآية رقم 21 .

3) سورة ابراهيم : الآية رقم 34 .

4) سورة الملك : الآية رقم 15 .

5) سورة الجاثية : الآية رقم 13 .

6) سورة ابراهيم : الآيتان رقم 32 – 33 .

7) See problems of American economic growth p. 44 (New York : 1961).

8) سورة ص : الآيتان رقم 72 – 73 .

9) سورة القصص : الآية رقم 77 .

10) سورة البقرة : الآية رقم 30 .

11) سورة الذازيات الآية رقم 56 .

12) أنظر القرطبى ـ الجامع لاحكام القرآن الجزء الاول .

أبــو القــاسم الحفنــاوى وكتــابه :
تعــريف الخــلف بــرجــال الســلف

خديجــة بقطــاش
استاذة التاريخ بمعهد تكويـن
استاذات التعليم المتوسط
بابن عكنون ـ الجزائر

يمكننا ان نقول : بان الكتابة التاريخية فى الجزائر اثناء الاحتلال الفرنسى ، كانت تشكل وسيلة من وسائل الكفاح الوطنى ضد الاجنبى ، وضد من شوه ماضى الجزائر ، وذلك لانها كانت ترمى الى شىء هام ، الا هو الوجود القومى ، والتوعية الوطنية • وقد ساهم عدد من الجزائريين باعمالهم فى هذا المجال فكان من بينهم الشيخ مبارك الميلى ، واحمد توفيق المدنى، وعبد الرحمن الجيلالى ، وقبل هؤلاء ظهرت مجموعة من الكتاب حاولوا ان يسجلوا ماضى الجـزائر وكان من بينهم الشيـــخ أبو القاسم الحفناوى •

حيــاتــه :

هو الحفناوى بن الشيخ بن أبى القاسم ، يرجع نسبه الى سلالة سيدى محمـــد ابن عروس ، وسيدى المازارى بن يطو زعيم الخلوية بمدينة بوسعادة ، وقد ولد الحفناوى

سنة 1852 ومات سنة 1942 في بلاد الديس ، وهي بلدة تبعد عن مدينة بوسعادة بحوالى 20 كلم · وأبوه هو الشيخ المعروف بمحمد بن أبي القاسم الهاملي ، وقد كانت له شهرة كبيرة في الهامل ، ويعتبر من اشهر المدرسين بزاويتها ـ زاوية الهامل ـ وقد ترجم له ابنه في كتابه ، فقال : « سيدي أبي القاسم بن سائب المنصور الشريف الحسني نسبا ، المالكي مذهبا ، الاشعري اعتقادا ، الرحماني طريقة ، الهاملي مسكنا · قصده طلبة العلم وأخذوا عنه ، فانتفعوا بكلامه وانتهت اليـــه الرئاسة في العلـــم بالمغـــرب » · (1)

شب الحفناوي في بيئـة كلها علـم ودراسة ، فتتلمذ على أبيه الذي مهد له سبل الدراسة ، فحفظ القرآن الكريم ، وبعد ذلك درس عند الشيخ بن عبد الرحمان بزاوية الهامل ، ثم انتقل الى زاوية تسالنت بمدينة أقبو ببلاد القبائل ، ذات الشهرة الذائعة، ليأخذ العلم عن الشيخ بن بوداود · فاجتهد وبرع في المذهب المالكي والعلوم اللسانية كالقواعد والادب ونحوها ، ومنها سافر الى نفطة بتونس ليتم دراسته بها على يد الشيخ علي بن سيدي المكي بن عزوز (2) · ويمكن القول بأن الحفناوي تثقف ثقافة واسعة ، فدرس أصول الفقه والتوحيد ، وتفسير القرآن ، واضطلع في العلوم الاخرى كالادب وغيره ، والى جانب ذلك أكمل معلوماته بدراسته اللغة الفرنسية ، وقد تتلمذ على الاستاذ أرنو الذي قال عنه : « هو سيخي في العلوم العصرية ، ومعلمي في فهم اللغة الفرنسية، ومساعدي على طلبها ··· لازمته في جزيرة (المبشر) وكان مديرها وانا كاتبه لمدة اثنتى عشر سنة » · (3)

دخل الحفناوي الوظيف الفرنسي ، وكان أول عمل قام به محررا في جريدة (المبشر) التي كانت تصدر باللغتين العربيه والفرنسية ، وذلك لمدة اثنين وأربعين عاما ، أي من سنة 1884 الى 1926 · وكان ينشر بها مقالات في شتى المواضيع ، في الاقتصاد

(1) أبو القاسم الحفناوي بن الشيخ : **تعريف الخلف برجال السلف** ، الجزائر ، 1907 ، ج 2 ، ص 336 ·
(2) مارت وادمون قوفيون ، **كتاب اعيان المغاربة** ، الجزائر 1920 ، ص 156 ·
(3) الحفناوي ، ج 2 ، ص 39 ·

والاجتماع وغيرها ، واثناء ذلك شغل منصب استاذ لتدريس الشريعة الاسلاميـــة بالجامع الكبير بالعاصمة ، وعين ايضا لمنصب الافتاء المالكى به سنة 1936 ، وهو منصب لا يتقلده الا من كان ذا معرفة كبيرة فى شؤون الدين والقضايا الشرعية والاجتماعية • ويذكر مؤلف (كتاب اعيان المغاربة) : « ان الحفناوى كان ذا صدر واسع متسامحا ككل مسلم ، سافر الى فرنسا عدة مرات ، فأضاف الى ثقافته اللغوية ، ثقافة فى العلـــوم الطبيعية ، مكنته من القيام بأبحاث اقتبسها ، وترجم بعضها من الكتب الفرنسية ، فى مادتى الفلك والكيمياء وغيرها » (4) ، وقد نشر هذه الابحاث بجريدة (المبشر) • ويمكن لنا ان نذكر بعضها : صلاحية عدة نباتات قوتا للانسان ــ تركيب الهـواء ــ تركيب الماء ــ ذكر المغناطيس وخواصه ــ الحكمة بانوارها فى الكهربائية وأسرارها • ويبدو أن هذه المقالات التى كانت ترمى الى تثقيف الجزائريين ، وجعلهم يسايرون عصرهم ، لم تنفذ فى الامة نفوذا يذكر ، لان الامة كانت لا تهتم بالمنشورات الصادرة عن الولاية العامة (5) • ومن المقالات الهامة التى نشرها بنفس الجريدة مقال بعنوان : ارشـــاد المتعلم سنة 1887 يصور فيه الحفناوى حالة اللغة العربية بالجزائر ، ويقترح تبسيطها حتى يتسنى للجزائرى والاجنبى تعلمها ، ويأمل فى الاخير ان تكون متساوية مع اللغة الفرنسية ، ولعل في هذا اشعار الجزائريين بالخطر الذى يهددها •

ولم تفت الحفناوى فرصة زيارة الامام محمد عبده الى الجزائر سنة 1903 ، فاتصل به ، وحضر المحاضرات التى القاها ، ودارت مناقشات بينهما ولا سيما اثناء تفسير سورة العصر (6) ، وان دل هذا على شيء فانما يدل على المكانة التى كان الحفناوى يحتلها فى الوسط الفكرى ، بحيث قضى معظم حياته بمدينة الجزائر محتكا بجوها الثقافى ، مع معاصريه امثال ، على بن الحاج موسى ، عبد الحليم بن سماية ، ومحمـد السعيد بن زكرى وعلى العمال ، ومحمد الكمـال ، وعبد القادر المجـاوى ، ومحمـد

(4) قوفيون ، ص 153 •

(5) سعد الدين بن أبى شنب « النهضة العربية الجزائرية ، فى النصف الاول من القرن الرابع عشر للهجرة » ، مجلة كلية الآداب ، العدد الاول ، 1964 ، ص 48 •

(6) قوفيون ، ص 157 •

ابن أبى شنب وكل هؤلاء كانوا يكونون كتلة المحافظين المتفتحة (7) ، التى نـادت بتشجيع العلم باللغة الفرنسية ، وحمل رسالة فرنسا الحضارية الى الجزائر . وقد كان الحفناوى أحد هؤلاء ، اذ نادى بالتقدم والعمل على التوفيق بـين المجموعة الفرنسية والجزائرية ، وهذا لم يمنعه فى الواقع من أن يكون من أشد المتحمسين للاسلام .

ساهم الحفناوى فى النهضة الجزائرية فى بداية هذا القـرن ، وكان من مظاهرها انتعاش الصحافة العربية ، وتأسيس النوادى الثقافية والجمعيات ، ومن بينها الجمعية الرشيدية التى كان الحفناوى مشاركا فيها بالقاء محاضرات سنة 1907 . ومن الاهداف التى كانت تسعى اليها هذه الجمعية ، التقدم والتعلم وتطوير المجتمع الجزائرى بجعله مجتمعا حديثا ومتنورا بـدل بقائه مجتمعا تقليديا قديما (8) . وأهم ما ساهم بـه الحفناوى فى النهضة الجزائرية ، تأليفه لموسوعة تراجم شخصية فى جزءين تناول فيها مشاهير الجزائريين الذين ساهموا فى التاريخ السياسى والثقافى لبلادهم ، وقد نشر هذه الموسوعة تحت عنوان : (تعريف الخلف برجال السلف) ، ولم يقتصر اهتمـام الحفناوى على جانب احياء التراث الثقـافى فحسب ، بل كان اهتمـامه منصبا ايضا على الجانب العلمى ، باقتباسه وترجمته لكتب علمية فرنسية وهى :

1) رفع المحل فى تربية النحل .

2) القول الصحيح فى منافع التلقيـح .

3) الخير المنتشر فى حفظ صحة البشر .

وهى كما نلاحظ كتب علمية ذات مواضيع مستمدة من الحياة الواقعية ، تستهدف توعية السكان فى المجال الصحى . وقد استطعت ان أعثر على الكتاب الاخير ، وهو كتاب فى الطب ألفه الطبيب العسكرى دركل وعربـه ميرانت والحفنـاوى ، ونشرتـه مطبعة فونتانا سنة 1908 ومما جاء فى مقدمته : لا يكفى للمواطن الصالح ان يعالـج نفسه عند الاطباء الذين أنعمت عليه الحكومة بهم على جميع رعاياها المسلمين ، وانمـا

(7) أبو القاسم سعد الله ، **الحركة الوطنية الجزائرية** ، بيروت ، 1969 ، ص 172 .
(8) نفس المصدر ، ص 163 .

ينبغى له ان يشتغل هو بنفسه ، بأخذ الاحتياطات التى تحفظ صحته ، وتدفع عنه الامراض الشائعة . وهذا الكتاب مقسم الى ثلاثة أبواب ، تناول فى كل باب مرضا من الامراض وكيفية أخذ المواطن احتياطاته منها ، وقاية منها .

كتاب تعريف الخلف برجال السلف :

وهو الكتاب الذى ساهم به الحفناوى فى احياء التراث الجزائرى القديم ، ويعتبر من مظاهر النهضة الجزائرية فى بداية هذا القرن ، وهى احياء الاعمال التاريخية كتعبير عن الوجود القومى الجزائرى . وقد ظهر بعد نشر أعمال كل من ابن عمار (نحلة اللبيب) وابن مريم (البستان) والورتلانى (نزهة الانظار ـ الرحلة) والغبرينى (عنوان الدراية) والملاحظ ان هذه الاعمال نشرت فى عهد الوالى العام شارل جونار الذى كان على رأس الادارة الفرنسية والمعروف ان جونار أبدى اهتماما وتعاطفا مع الوجهة الحضارية الاسلامية فى الجزائر ، ففى عهده بنيت المدرسة الثعالبية بمدينة الجزائر ، وانتعشت الصحافة العربية ، وهو الذى أشار للحفناوى بوضع كتابه هذا .

تناول الحفناوى فى كتابه هذا حياة شخصيات ، عاشت بين القرن العاشر المسيحى ، وبداية القرن العشرين . وقد نشرته مطبعة فونتانا سنة 1907 . ومما جاء فى مقدمته قوله : « أما بعد ، فالظاهر ان القطر الجزائرى ، قد اجتهد قديما فى طلب العلم بجميع أسبابه ، وأتاه من سائر أبوابه ، ووقف على معلومه ومنقوله ، فتمكن من أصوله وفصوله ، وكان لعلوم وقته جامعا ، ولراياتها رافعا ، مثل أخويه المغربيين الاقصى والادنى ، فظهر فى الاقاليم بدره واشتهر فى التاريخ قدره » (9) . وتبدو من هذا النص رغبة الحفناوى فى اعطاء الجيل الجزائرى صورة لماضيه ، والقاء الضوء عليه بعد ان أوشك على الاندثار . ويؤكد ذلك قوله : « هذه اسماؤهم وتراجمهم مزاحمة لاسماء وتراجمة اعيان الزمان المتيقظين لحفظ الطبقات العليا من عالم الاسلام فى بطون الدفاتر لئلا تقع فى أغوار التناسى » (10) .

---

(9) الحفناوى ، ج 1 ، الصفحة الاولى .
(10) نفس المصدر ، ص 2 .

ومما لاشك فيه ان الحفناوى قد اطلع على التراجم العربية القديمة كطبقات بن سعد ، ووفيات الاعيان لابن خلكان ، وكتاب تاريخ علماء الاندلس لابن الفرضى الاندلسى · وغيرها ، فاراد ان يتبع خطاهم · ويمكن ان نضيف شيئا آخر ، وهو أن القرن التاسع عشر وبداية العشرين ، كان عصر التراجم فى أوروبة ، ولعل هذا كان أحد الاسباب التى دفعته الى وضع كتاب تعريف الخلف ·

لقد ساعدت الحفناوى مكانته فى الوسط الثقافى على جمع المصادر التى أخذ أو نقل عنها ، وهى مصادر هامة جدا · ولقد رأى ان يقسم كتابه الى قسمين ، ضمن القسم الاول تراجم لعلماء وجد قوائمهم فى المدرسة الثعالبية (11) · أما القسم الثانى فلتراجم من علماء البــر الجزائرى ، ومن الاقطـار الاخرى كالسودان ، والمغـرب وتـونس والاندلس (12) · ولم تقتصر تراجمه على طائفة دون الاخرى فقد ترجم للعلماء والفقهاء والادباء والقضاة ، وبعض السياسيين ، كما ترجم للمتقدمين عنه ولمعاصريه ، وقـد ساعده على ذلك اتصاله بهؤلاء ·

مصادر تعريف الخلف :

اعتمد الحفناوى فى كتابه على ثلاثة أنواع من المصادر وهى :

1) الكتب القديمة بالنسبة للتراجم القديمة ·

2) الاتصال المباشر ، وهذا بالنسبة لتراجم معاصريه ·

3) المراسلات ، وتشمل مراسلة العلماء ليمدوه بالمعلومات التى تنقصه · فبالنسبة للكتب القديمة أخذ الحفناوى أشهرها (13) ، مثل نيل الابتهاج لاحمد بابا التمبكتى _ وقد اعتمد عليه كثيرا _ وسلوة الانفاس لجعفر بن ادريس الكتانى · وسلك الدرر

(11) يحتوى الجزء الاول من هذا الكتاب على ستة وخمسين ترجمة لعلماء ومشايخ من الجزائر ·

(12) يضم الجزء الثانى حوالى ثلاثمائة واثنين وستين ترجمة للفقهاء والعلماء والقضاة وغـيرهم ·

(13) سجل الحفناوى مصادره فى مقدمة الجزء الاول من الكتاب ، اما بعض المصادر الاخرى فقد كان يذكرها عند بداية كل ترجمة أو فى نهايتها ·

للمرادى ، وحلاصة الاثر للمجى ، وصفوة من انتشر للافرانى المراكشى وغيرها • ويذكر الحفناوى انه وجد صعوبات فى الحصول عليها فهو يقول : « ولم أعثر على هذه الجملة من كتب التاريخ بعد البحث الطويل فى مضافة ومحاولة مساجن المؤلفات بكل حيـــلة ووسيلـــة (14) •

أما النوع الثانى من المصادر ، فهو الاتصال المباشر ، بحيث كان اذا أراد ان يترجم لمعاصريه ، وللعاملين معه فى التدريس اتصل بهم ليمدوه بما يحتاج من معلومات وأخبار تخصهم ، وبهذه الطريقة سجل حياة عبد القادر المجاوى ، والعمالى، وابن ذكرى وحمدان الونيسى وغيرهم • والنوع الثالث من المصادر فهو المراسلة ، وقد كان اذا لم يعثر فى مصادره على شخصية من الشخصيات راسل أصدقاءه ومعارفه ملتمسا منهم معلومات تنقصه ، وكثيرا ما كان يذكر أنه راسل فلانا فأطلعه على كذا وكذا •

طريقة الحفناوى فى الترجمة :

ان طريقة الحفناوى فى الترجمة طريقة الكتاب الاقدمين ، فهى عبا رةعن سرد مع وصف لحياة المترجم له ، يعمد فيها كثيرا الى السجع الممل احيانا ، مما يجعل طريقته بعيدة عن المنهج العلمى للبحث التاريخى ، فهو يأخذ الاخبار من كتب سابقيه ، وينقل تارة حرفيا ويقتبس منها أخرى دون نقد أو تعليق • وأغلب التراجم التى جاء بهـا كانت منقولة نقلا حرفيا ، ويمكن القول انه ذهب مذهب بعض كتاب السير الاولين الذين كانوا يركزون اهتمامهم على نقل الاخبار فقط (15) وعليه لم يراع قواعد البحث الحديثة والاغراض التاريخية فى عصرنا •

وبالرغم من طريقته التقليدية ، فان كتابة الحفناوى لم تخل من نقد لبعض الكتب ، مثل البستان لابن مريم ، وعنوان الدراية للغبرينى ، حيث عبر عن ذلك بقوله : « لما فى نسختيهما من المسخ الفاحش فى الكلمات » (16) وحرص الحفناوى على ذكر مصادره

(14) الحفناوى ، ج 1 ، ص 6 •
(15) سعد الدين بن أبى شنب ، النهضة العربية فى الجزائر ، ص 49 •
(16) الحفناوى ، ج 1 ، ص 8 •

حرصا شديدا ، وهو شيء أساسي في كتابه التراجم ، وكان يرى أن صحة الخبر وكذبه تقع على كاهل صاحب المصدر ، وهذا الموقف شبيه بموقف العلماء العرب والغرب في العصور الوسطى · اما اذا شك في الرواية فانه كان يستعمل اصطلاح « الله أعلم » وهو تعبير يدل على التحفظ أو عدم الجزم بالرأي ·

ان الحفناوي اثناء ذكره لهذه المصادر ، لا ينظمها تنظيما كرونولوجيا (17) ، فعوض ان يبدأ بذكر المصدر القديم كان يقلب الوضع ، بحيث يبدأ بالمصدر الحديث ، فهـــو عندما ترجم لاحمد بابا التمبكتي ذكر ما جاء من اخباره في كتاب القادري من القرن الثامن عشر ، قبل ذكر ما وجده في كتاب اليفرني من القرن السابع عشر (18) · وعند ترجمته لابن قنفذ القسنطيني بدأ بذكر ما جـاء من معلومات في كتاب (البستان) لابن مريم من القرن السادس عشر قبل ذكر مصدر أحمد بابا التمبكتي «نيل الابتهاج» من القرن الخامس عشر (19) · ومما يؤخذ على الحفناوي ، أنه لا ينقد ولا يعلق عـلى الاخبار التي يأتي بها ، فكثيرا ما كان ينقل أشياء غريبة ، مثل بعض المعجزات ، دون أن يراعي ان كان ذلك يقبله العقل أو يرفضه · فقد ذكر ان العالم سيدي يحيى العيدلي دفين مدينة بجاية استطاع ان يحيي ثورا بعد أن كان قطعا قطعا (20) · وبهذا يمكن القول بأن الاسطورة لم تجد لديه أي نقد يذكر ·

ومن الامور التي ينتقد عليها الحفناوي ، مبالغته في الوصف واستعماله للالفاظ الفخمة (21) ، وهذا الاسلوب اتبعه بعض الاقدمين الذين كان يهمهم استعمال الالفاظ الجميلة دون مراعاة صحة الاخبار ، حيث كانت الكتابة التاريخية تعتبر لونا من ألوان

---

(17) سعد الدين بن أبي شنب : « نبذة عن بعض المؤرخين العرب المحدثين للجزائر » المجلة الافريقية ، سنة 1956 ، ص 478 ·

(18) نفس المصدر ، ص 479 ·

(19) نفس المصدر ·

(20) الحفناوي ، ج 2 ، ص 587 ·

(21) نأخذ على سبيل المثال وصفه للعالم بن مرزوق الحفيد حيث يقول عنه في الاول ص 124 : « العلامة الحجة ، الحافظ المحقق الكبير ، الثقة الثبت ، المطلع النظار ، المصنف التقي ، الصالح الزاهد ··· » ·

الادب . ويؤخذ عليه أيضا ذكره الاشعار فى كثير من التراجم ، ولاسيما تلك التى قيلت فى المناسبات ، وخاصة فى الجزء الثانى من الكتاب ، فهو يسرد ما وجد بين يديه من أشعار ، ولعله كان يذكرها حتى يعطى للمترجم أهمية كبيرة . ويمكن القول ان كثرة ذكره لها ، تكاد تجعل من هذا الكتاب موسوعة أدبية .

وكثيرا ما كان الحفناوى يخصص صفحات تزيد عن العشرة لفقيه أو عالم واحد ، ولكنه لا يخصص سوى صفحة أو أقل منها لآخر . وقد يعود ذلك الى أهمية الشخصية التى يترجم لها فى نظره ، أو لغزارة المعلومات التى وجدها عنها . ومما يلاحظ عليه هذا الكتاب هو الاتجاه السياسى الذى تدخل فى اختياره للشخصيات المترجم لها ، فالحفناوى قد أهمل ذكر بعض الشخصيات الهامة ، ومن بينها الشيخ الحداد رئيس الطريقة الرحمانية الذى لم يذكـــره تماما ، ويمكن رد ذلك الى خوفه من التوغل فى الشؤون السياسية .

وبالرغم من النقائص الموجودة بالكتاب ، فان (تعريف الخلف) يعتبر من أثمـــن الكتب . ويمكن القول بانه تكملة لاعمال بن مريم ، والغبرينى وغيرهما ، فللحفناوى فضل كبير لانه استطاع ان يجمع ما كان مشتتا ، وان يضيف اليه معلومات نفيسة عن عائلته ، وخاصة فى الجزء الثانى من الكتاب ، ولولاه لضاعت كلها . وله مزية كبرى فيما ذكره عن مؤسسى بعض الزوايا ومشايخها ، مثل زاوية الهامل ببوسعادة وزوايا بلاد القبائل (22) . وهذه المعلومات لا نستطيع العثور عليها الا فى كتابه ، والى جانب ذلك أفادنا الحفناوى بأخبار عن معاصريه وبفضله لحقتنا معلومات استخرجها مـــن الوثائق العائلية التى اطلـع عليها معاصروه من العلماء ، فبالرغم من جهلـه باســاليب البحث العلمى ، فان الحفناوى انقذ لنا الكثير من المعلومات التى تتعلق بالتاريخ الثقافى فى الجزائر والمغرب العربى عامة .

(22) سعد الدين بن أبى شنب . « نبذة عن بعض المؤرخين العرب المحدثين بالجزائر » ص 478 .

مـراجـع البحـــث

1 ـ ابن أبي شنب سعد الدين :
« نبذة عن بعض المؤرخين العرب المحدثين بالجزائر » المجلة الافريقية ، سنة 1956 .
« النهضة الثقافية في الجزائر » مجلة كلية الآداب العدد الاول ، 1964 ·

2 ـ ابن الشيخ الحفناوي بن أبي القاسم :
تعريف الخلف برجال السلف ، جزءان ، الجزائر 1907 ·

3 ـ سعد الله أبو القاسم :
الحركة الوطنية الجزائرية الطبعة الاولى ، بيروت ، 1969 ·

4 ـ قوفيون ، ادمون ، مارت :
كتاب اعيان المغاربة ، الجزائر ، 1920 ·

5 ـ أعداد من جريدة المبشر باللغة العربية ·

قصة

حرب التحرير الوطنى
1960 ـ 1962
الحدود الغربية ـ منطقة الشمال

عبد المالك واسطى
تعريب د· محمد بلقراد

خرجت الفصيلة الثانية أمس، عمل خفيف ـ بنغالور ـ ثلاث مرات فى فترات متساوية وفى ظرف بضع ثوان مرت كالبرق · قاتلت المدفعية فور الانفجار الاول ولم تتوقف الا بعد زمن طويل ، لا شك أن كشافات النور قد علقت بأحد ، سنعرف الليلة بوساطة التموين ما قد حدث · خسائر ··· لا أجرؤ على تصور ذلك ·

ربما يتفق ان احسه أولئك : رفاق الفصيلة الثانية ، فطاعهم جبلى، نجاد ووهاد تخفى الظهر فى الرجوع وتسمح بقليل من الاستراحة ان كان ثم أحد يجب حمله · ووجدت الرغبة والوقت والشجاعة أما نحن ففى السهل · أرض سوداء ، عفنة بأشواك تدمى جلدك وتمزق يديك وركبتيك

(*) نالت هذه القصة الجائزة الثالثة فى مسابقة مجلة التاريخ «فاتح نوفمبر 1954»

ونفسك · أشعر أن لن يقع لنا شيء هذا المساء ، أنا شبه متأكد من ذلك ، تأتي دائما بعد الكتيبة الثالثة · ويوم يشعر بنا من هم تجاهنا لن يرجع الكثير منا ولن تقرع بعد أصواتهم اسماعنا · والقمل يوجد منه حتى في جواربنا ، يتكاثر في ليالي الشتاء ويغير على حلقات الصوف الغليظة حيث الدفء والحياة · اذا غفت جسومنا المحطمة بالجري المهتاج أمام القنابل والرصاص يهب القمل من نومه بدوره ويشن غاراته على ما بقي لدينا من وعي وشعور وعلى آخر أحلامنا النهارية ·

حشرات شاحبة ، صامتة ، تختفي مثلنا ، هنا نختفي جميعا · الذين تجاهنا يختفون في الليل ونحن نختفي في وضح النهار · كل منا يختفي في صمته ، وفي الصمت الذي يفرضه علينا الخوف من الآخر ، الخوف من هذه الحتوف المفاجئة الخاطفة التي يبعثها بعضنا على بعض في حدود الليل والنهار · قد جعلني القمل أشعر بأنه تعود هذه الايقاعات فهو يألف مسيراتنا الطويلة وأتعابنا وأمزجتنا ·

وحين يعتدل الجو تنعقد جلسات خفية للفلي المنظم في مأمن من الانظار ومن ألفاظ الصداقة ، نبقى صموتا فاحصين برأي العين أثناء ملابسنا بحثا عن أوكار القمل هذه ، بلا سن ولا هدنة ، في الليل نمنح القمل مهلة ، ندعه وشأنه ، ولكنه لا يأتي أبدا · يشن القمل علينا حشوده ووخزه حين يعلق النوم بأهدابنا ويصرعنا على الارض ـ قملنا ـ جلسات الفلي هذه مرعبة ، حوار يحاك ويستمر طويلا مع وجوه بعيدة · لكل منا أشباحه التي تزوره في آونة الفراغ هذه · هذا له أمه وهذا له طفله عبر الزمان والحرب الحاضرة هنا ـ قملنا ـ تعلمت كيف أحاربه ، قليل من فتات البلاستيك انزعه من البنغالور وأزرعه في أثناء لباسي ·

والبلاستيك منتن ، والرائحة المتصاعدة منه توقف هذه الضيوف الملحة عند حدها · وتضرب حولها سياجا ثم تطردها الى ملبس آخر والى جسم آخر محطم بالتعب، ولكن القمل يعود دائما · يقال انه ليست المقاذر هي التي تمسك به ـ رائحة الموت ـ

وصل جندى جديد أمس مع المؤونة٠ حلة شبه جديدة، حذاء جديد ، سلاحه فى كل مكان الا بجانبه ٠ يوزع سجائر كاملة ، سجائر حقيقية من التبغ الجيد ٠ قد لا يكون محافظا سياسيا ، ولو كان أياه لما تصرف هكذا ٠ ثم من أين جاءه هذا الإطمئنان الهادىء ؟ له بندقية ، سلاح الجندى الماشى ، سلاح الجوال رامى الرمان ٠

اذا بقى الجندى الجديد بيننا تكون الحراسة أقل اتعابا لنا من الآن فصاعدا ، سنستطيع أن ننام لحظة بعد السد ، بعد المنطقة الحرام ، نعم ٠ شريطة أن يدوم ، شريطة أن يبقى لنا ٠

يتحدث كثيرا ، أنا واثق بان هذه هى المرة الاولى التى يحاذى فيها رجال السد ، يقص قصته على من يتفضل بالاستماع اليه ، ولكن من ينصت اليه ٠ هنا كل ليلة تمر تنقص من ثرثرته ، مثلنا فى أول أمرنا ، كنا دائما هناك ـ بالفاظ ، باشارات ، بكل ما من شأنه أن يعيننا على كظم القلق القذر الذى يسبق الليل ٠ المنطقة المحرمة ، السد ، شبح الموت القلق أى الخوف ، هكذا ـ فى الايام الاولى الابتسام سهل ، وبعد ذلك كل شىء يمحى ، الوجوه تظلم ، والانظار تفر بعضها من بعض وتنحنى ، ونتعلم حين ذاك كيف ننتظر الليل كل ليلة ، هذه ، ليلة غد ، ثم الليلة التى تأتى من بعد ، ليلة السد وليلة المنطقة الحرام ، الليل دائما ، حيث يفلت الواحد منا من الليل سالم الجسم كاملا غير منقوص يشعر كأنه يعيش للمرة الاولى ، كيف نصف هذا الهذيان الاخرق ، هذا الكابوس الجنونى الذى يغمرنا كل مساء ؟

هاون ٠ صفيحة قاعدة ـ أنبوب ذو 81 مم ، رجل مثلثة القوائم ، رمى منحن ، وسادن الهاون متأكد من أنه لا يعيش أكثر من ثلاثة اشهر على أكثر تقدير ، أربعة أشهر أو خمسة اذا لم تتدخل المصادفة فى الامر ـ ولا يستخدم الهاون الا فى القطاعات الجبلية ـ ويتخذ كثير من الرجال لاستخدامه والاحتفاظ به فى منطقة حرام، يذهب طائفة من الرفاق ويستقرون بعيدا فى الجهة الامامية تفاديا من الخروج العادى للدبابات وهذه لا تتردد أبدا اذا لم تتوقع حضور بازوكة فى جوار الهاون ٠ ويخشى العدو الخسائر التى يسببها الهاون فى المراكز القريبة من السد ٠ والذين يستخدمون الهاون يجب أن يؤدوا عملهم فى أسرع من البرق لانهم لا يكادون يطلقون القنبلة الثانية

حتى ينصب عليهم وابل من نيران الجحيم ، ومن جهة أخرى لا يطلقون أكثر من خمس قنابل أو ست • وأحيانا أكثر ولكن قليلا ما يتأتى ذلك لان مدفعية الجهة المقابلة لا تسمح لهم بأى مهلة رغم عدم فاعلية كشافات النور فى هذه المناطق والملاجىء الطبيعية التى يقع اختيارها باعتناء قبل اطلاق النار •

الهاون سلاح ثقيل ، صفيحة القاعدة وحدها تزن أكثر من عشرين كيلوغراما • الرفاق الذين يحملونها يجب أن يكونوا أقوياء جد حركين ـ يسرعون لكسب ثوان هى دائما ثمينة فى منطقة حرام ، قناة الهاون تقلع جلدك اذا قبضت عليها سهوا ، بيديك عاريتين فور اطلاق النار عند اشتداد حرارة الحديد ، تطلق النار على التخمين ـ وتقوم فعالية الهاون على الشاحن ومطلق النار ، وتسقط القنابل أحيانا على ظلام الليل فى وسط المركز المصوبة اليه • وأحيانا يأتى درس اطلاق النار الدقيق من الجهة المقابلة ، من الناس الذين نقاتلهم ، ويجب على مطلق النار أن يصحح تصويب القذائف بأسرع من البرق •

أما ما يخص الشاحن فيجب أن يكون ذا أعصاب من حديد ومقدار كاف من البراعة ليضع القنابل بعضها فوق بعض فى الانبوب المعد لها فى الهاون ويجب أن يتجاهل كلاهما مئات الانفجارات المحيطة بهما والشظايا المنطلقة من كل صوب والموت الوشيك الوقـــوع •

وسدنة من هذا الصنف ذوو قيمة كبيرة فى نظر رفاقهم • والكتيبة الخامسة خبيرة بذلك حيث رأت فصيلة هاونها قد محيت كلها بسبب خطا ارتكبه شاحن • فقـــد أطلق فى قناة الهاون والمعركة على أشدها قنبلة مقلوبة •

يتجنب الحديث عن الهاون • وان تبدلا فيما يخص هذا السلاح يعادل ادانـــة نهائية ومحققة وموتا عاجلا •

كثير منا يتمنون أن يموتوا برصاصة ويقولون ذلك كثيرا • يبقى الجسم كامـــلا غير منقوص ولا يكابد المرء ذات موته • فلا ألم ولا وعى بالنهاية • كل شىء يتلاشى ويمحى فى بضعة كسور من ثانية واحدة • ثم الهدوء • وفناء الإنسان فى شكل أشلاء ممزقة شىء فظيع • وننتهى دائما ممزقين بلغم أو محطمين بقنبلة •

ما من كائن حي ينبغي له أن يموت هكذا · حتى ولو كان بهيمة أو نباتا ـ هنا يتعلم الانسان ثمن الحياة ·

اشعر احيانا ان العسكريين الفرنسيين لو واجهوا الخطر مثل ما نواجهه نحن ولو كان في حوزتنا ضدهم عين السلاح لما أفرطوا في الحقد واستخدام العنف · ان حياتهم في مأمن من الخطر وراء الاسمنت المسلح · أما حياتنا فلا يبالون بها ·

بنغالور · أنابيب طويلة من الرصاص محشوة بالبلاستيك · نتسلم منها عربات شحن مملوءة ـ وايقاد النار بسيط : مفجر وقطعة من فتيلة · نهجم على السد بالبنغالور · نضع كل ليلة أربعة أو خمسة منها في كومة تحت شبكة الاسلاك الشائكة ثم نضرم النار في الفتيلة فينسف الانفجار مقدار عشرة أمتار مربعة من السياج والاسلاك الشائكة مما يغطي ويحصر النظر · والانفجار هائل تجدده الالغام المزروعة في أسفل السد وأوتاد الحديد ·

ولكن الخسائر لا تدوم اكثر من صبيحة · والفراغ الذي يسببه البنغالور يملأه الجنود الفرنسيون فور طلوع الشمس · أوتاد أخرى ، سياج آخر ، حديد شائك كما لو كانت الكرة الارضية لا تنتج الا هذا · ولكن يجب الانتباه الى طول الفتيلة ـ عليها يتوقف خلاصنا ـ تذكرنا المدفعية بذلك دائما ، مرة من اثنتين نجد أنفسنا من جديد في قلب أتون بينما نكون معرضين لعصف البنغالور ـ وقد يخدع الظلام بعض الرفاق فيضعون أحيانا الشحنة على مرأى من حصن العدو ولا يجدون الوقت الكافي لاتمام عملهم فيمزقهم رصاص الرشاش شر ممزق ـ ولذلك ينبغي ان يكون المرء كله حذرا وانتباها عند اضرام النار في الفتيلة ويجب ان تشتعل الفتيلة لأول وهلة لأن أدنى حس يطلق كشافات النور · والعمل خطر لا سيما عند سقوط المطر · لأن أعواد الثقاب اذا تبللت لا تلبث أن تتفتت عند الفرك · ولابد أن يبقى واحد منا في المكان لفتح النار ويتوزع الآخرون على طول السد لتقليل المخاطر ، وحراق الفصيلة هو الذي يبقى · وهو حاضر لأجل ذلك · فأنا حراق ، مزيل الغام ·

والفتيلة حية دقيقة سوداء ينبغي ان يعتنى بوضعها في ميسها دافئة في ليالي الشتاء ، وعلى حرارتها تتوقف حياتنا ·

أحلم بفتائل طويلة تمنح مهلة للابتعاد ، مهلة لاتقاء انقنابل والرصاص ـ وهـذه الفتائل التى فى حوزتى هى جزازات ـ مادة عزيزة توفر لقاء أى حياة ·

الرمان يروعنى ـ لا أحمل رمانتى على جسمى أبدا ـ امتياز جنـدى قديم ـ ان الرمانة شىء فظيع أسود وثقيل تحمل دائما على الكشح هى سامة ترض البشرة وتمزقها رغم وعاء الجلد الذى يحتوى عليها ، ما من احد يستخدمها · وقد اراد احد يوما ان يختبر واحدة من رماننا فى منطقة الجنوب · فلم يبق منه الا أشلاء دامية · انفجرت فى كفه قبل ان يلقيها · نقص تقنى فى صنعها · ومنذ ذلك اليوم اشتهـرت القصة وسمع بها كل أحد واتقى كل أحد التفكير فيها ولكن ضد ماذا ، ضد من تستعمل ؟ فالحصـون المصفحة بعيدة وراء خطوط الاسلاك الشائـكة ـ آه الجنوب · لا سد ولا ألغـام ولا دبابات ولا كشافات نور · يموت المرء من قيام مواجهة فى وضح النهار ·

خضر مجففة · دائما · أحيانا شىء من البطاطس · اللحم نادر · الذين يأكلون عن طيب قلب يمتع منظرهم · أتمنى أن تكون لى شهية وأن أستطيع أن آكل بنزاهـة ـ من رآنا نمضغ فى صمت وفكرنا غائب كأننا نكابد عملا مرهقا ونأكل كـرها ·

الخبز الذى ترسله لنا السرية هو بلا طعم · او بالاحرى له طعم الورق الجديد·أيامى ملأى بالفكرة فى طعام شهى فى الصورة الراشحة بأنوار الشمس : برتقالة ·

كم نحن من البحر الى حدود الجنوب ؟ أربعة آلاف ؟ خمسة آلاف ؟ جيش التحرير الوطنى · منطقة الشمال ومنطقة الجنوب · كتائب ـ سرايا ـ فصائل ـ مجموعـات ـ فرق ـ ألفاظ · جماعات من الرجال مرابطة على امتداد الحدود الغربية · حرب هى أكثر من حرب ، براز متواصل حيث العنف والموت لا يفرضان أبدا أى هدنة · كـل ليلة تنتهى بأمواتها الطقوسية مجازر طاحنة فى أعقاب النهار وعند انبلاج الصبح وحين عبور المحاربين بين المناطق أو انتقالهم الى الداخل · وفى وضح النهار يكتسى الاحياء والاموات برداء الصمت واذا أرخى الظلام سدوله يستأنف العمل من جديد ·

جاء الجندى الجديد على خط مستقيم من قيادة المنطقة · حيث كان سكرتيرا وكـان أخرس حول سبب انتقاله · تبادلنا هذا الصباح كلمات · قد صار حديثه الآن أقل ·

أتينا أمس برفيق جرحته شظية قنبلة فى ركبته · هـو يشعـر الآن اعتمـادا عـلى سيما وجوهنا أننا صرنا لا نحسن الحديث ولا الانصات · وكلامنا يقتصر منذ زمـــن طويل على الفاظ روتينية تدعو الى الحراسة والسير والمنطقة الحرام · الفاظ ترهقنا وتغمـــرنا بعالمهـــا ·

المدفع الاستراتيجى ـ أكثر السلاح ايناسا · هو بندقية بسيطة : عقب بندقيـــة وأنبوب طويل ورجل قصيرة بقائمتين ورصاص ذو قطر أربعة عشر مم ـ رجل واحد يكفى لحمله واستخدامه · ولكن يجب الاستعانة ـ فى منطقة ـ حرام برفيق لحمله بسرعة · تطلق ثلاث رصاصات أو أربع عندما يساعد على ذلك مركز اطلاق النار ، لا أكثر ـ ويقع رد الفعل بسرعة من قبل العدو وتنصب القنابل كالمطر بتدقيق فور اطلاق الخرطوشة الثانيـــة ·

المدفع الاستراتيجى هو منقذنا · نستخدمه لا ضد الحصون المصفحة ولا ضد المدفعية بل لاعماء عين هؤلاء وهى كشاف النور ، ان شبكة النور الساطع التى تسلمنا عراة لرصاص الرشاشات وقنابل المدفعية تنطفىء فورا عندما يظهر المدفع الاستراتيجى ـ يقع من قبل الجنود الفرنسيين المصابين بعمى مؤقت رد فعل أشبه بتصرف حيـوان مفترس وضع فى قفص ـ فى الحين تقوم القيامة ويندلع الهول : قنابل مفجرة ـ اطلاق نار السد ـ هاونات ثقيلة ـ رشاشات ـ قذائف الدبابات الفظيعة · كل هذا فى أنوار الصواريخ المضيئة يتطلق بسرعة البرق ، كل أتاتين الجحيم تلقى على المنطقة المحرمـة طوال ساعات لا تنقضى · ثم يخاطر كشاف النور ظنا منه أن الخطر قد مضى · لا شىء هل ذهب المدفع الاستراتيجى ؟ نعم · لا شىء · سحب من الغبار أثارها انفجـــار القنابل فقط · فلا يكاد العدو يطمئن حتى يدوى المدفع الاستراتيجى من مركز رمى آخر ـ وينطلق الجحيم من جديد بعنف أشد وشراسة أكثر ـ وبعد ذلك عندما يعـود الصمت مرة أخرى ويشرع كل فريق فى عد أمواته ينطلق من قطاع آخر انطلاقا جديدا مدفع استراتيجى آخر · والنيران الجهنمية التى انطفأت هنا تندلع من جديد مرة أخرى من وراء التلال ومن وراء مخاوفنا ·

ولا يبقى الجنود الفرنسيون عاطلين فى النهار مثلنا · بل يحرسون بانتباه منافذ المنطقة الحرام وحركات الاشخاص ، ويأملون أن يكتشفوا هكذا مقر الفصائل الصديقة ، والرفاق الذين عليهم أن يتنقلوا لسبب ما فى وضح النهار متسربلين فى جلاليبهم يجب أن يكونوا حذرين حتى لا يراهم العدو ، فإذا رأى منهم احدا اطلق عليه جنود مدفعية الجهة المقابلة قنبلتين او ثلاثا كما اتفق حتى يروا فى اى اتجاه يذهب ، ويدرس هؤلاء الجنود ـ من دون ريب ـ الوضع كل صباح على ضوء جزء السد الذى أغـرنا عليـــه فى اليوم الماضى ، فان رجعنا للحين الى عين المكان فى مساء اليوم التالى فلا نكـــاد نجد الوقت للقفول حتى تنصب علينا القنابل بتدقيق مخيف ، ولعل العدو يرقم كل جزء من المنطقة الحرام ويهيىء هكذا رمى نيران كل ليلة يدلهم ظلامها ـ حتى عسكريو المراكز المتقدمة يعرفون بتدقيق بالغ كل زوايا وخبايا القطاع الذى يحرسونه ونسرى كل ليلة فى صحبة فصيلة لتنفيذ الاعدام والبندقية على الكتف فى حالة استعــــداد لاطلاق النار مهما كان الطريق الذى نسلكه للالتحاق بخطوط الاســـلاك الشائكة ، والمدفعية هى هناك لتقطع علينا طريق الرجوع ·

والجنود الفرنسيون يلاحظون وحدهم فى بياض النهار حركاتنا بل العسكريـون المغاربة هم أيضا يرقبون ويبقى منظارهم المزدوج مصوبا الى أجحارنا باستمرار ولكنهم جد كتومين للسر ـ ولا يزوروننا ابدا · فاذا توغلنا تحت ستار الظلام فى المنطقة الحرام تركناهم فى مأمن وراءنا ، ولا يعود حراسهم الى مراكزهم الا بعد صمت المدفعيـــة الفرنسية وانطفاء كشافات النور ·

لا أدرى مم يخاف عسكريو المغرب لان الجنود الفرنسيين لا يستطيعون ان يشنوا أى غارة عليهم · فلو فعلوا لتعرضوا لنكبة ما فى حالة اتجاههم الينا ولما استطاعت مدفعيتهم أن تمدهم بأى اعانة · لا ـ أنسى الدبابات ـ أنا مقتنع أحيانا بأن المغاربـة يخشون أن نستخدم ـ نحن ـ مدافع حقيقية ـ ومع هذا كثيرا ما تكون مراكزهم أنفسها عرضة للمدافع الفرنسية ·

قامت جماعة من العسكريين الفرنسيين بعملية تفتيش هذا الصباح فى المنطقة المحرمة الكائنة فى قطاعنا ، وكان يتقدمهم كلبان مقيدان ، وتحولوا عن طريقهم تحولا قصـــيرا

ذاهبين من جديد نحو مركز بيرى PERRET ورجعوا منه بعد زمن قصير لكن أقل عددا مما كانوا ــ فرقة على أكثر تقدير ــ وبعد أن وضعوا متفجرات على صناديق جروا كالسهام نحو السد . وقع انفجار مخيف ، ولعلها ألغام بلا ريب من النوع المدمر للدبابات وضعها رفاق هناك فى اليوم الماضى واستلفتت انتباه سكان المعقل المصفح . فقد اسدى الينا هؤلاء الجنود هكذا جميلا ، لاننا لا نكاد نذكر بالضبط المواقع التى دفنا فيها بانفسنا هذه الالغام القوية ، وليس لنا خرائط طوبوغرافية تذكر المناطق الملغومة . نخفى ألغامنا قرب السد ــ ليكن ــ ولكن فى مكان غير معين ، ان لم يلاحظ العدو فى اليوم التالى كومات التراب الصغيرة هذه الحديثة العهد بالحفر تعهد الزمان والمطر يغمسها فى طى النسيان ، وان لزمت الدبابات مرة مخابئها وراء الاسلاك الشائكة تتفجر هذه الالغام بفعل انفجار قنابل أو شىء آخر أمام رفاق جدد آخرين او امام رفاق من قطاع آخر ، ولكن قد يلاحظ العدو احيانا آثار التراب الجديد هذه فيتزود اذذاك بمفرقعات وبمفجرات ويخرج الى منطقة حرام ليمحو ما كنا قد صنعناه نحن بالامس .

عدد الالغام المتنوعة الاصناف الكامنة هكذا فى منطقة محرمة لا يتصوره الخيال ، والعدو يزرع منها بلا انقطاع منذ سنين ، ونضيف اليها ألغامنا ، حتى لو انتهت الحرب يوما لا ارى كيف نحقق ازالة مفعول هذه الملايين من مكامن الحتوف ، والمدهش هو أننا كم نستطيع أن نكون عباقرة وديناميين عندما نتصدى للقتل .

وممارسة البنغالور وشظايا القنابل كممارسة الاراضى الملغومة تعود الجسم على ردود الفعل الواقية ــ نتصرف أمام ما نتلقاه من ضربات العدو كمخلوقات آلية ، وكثيرا ما نتقى الخطر قبل ان نعرفه وقبل ان نعرف كنهه بالضبط . بالطريقة التى نعرفها وهى القاء أنفسنا على الارض ــ أما ما يخص المدفعية فان ممارستنا للمنطقة الحرام ، علمتنا أن نفرق بين الفتائل المعدة لنا وبين التى تصوب لساقة جيشنا ، والصفير الحاد الذى تسمعه هذه الكتل القتالة يجعلنا نعرف مكان سقوطها وربما يحدث أننا لا نكلف أنفسنا مؤنة الالتصاق بالارض لاتقاء الشظايا ، لا ادرى كيف ، ولكن نعرف أيضا المحارس والمعاقل التى تنطلق منها الرصاصات الاولى بعد انفجار البنغالور ، وصمت

الليل الذى يحيط بهذه التحصينات يمكننا من التنبؤ بما ينذرنا به • والقضية هى قضية تعود ـ كما أظن ، وهذه الآلية هى التى تجعلنا نبقى ونبعث مع الشمس ، فنحن مدينون لها بالحياة باستمرار ولكن الجسم يبلى وردود الفعل ترتخى ، والمخاطر تكثر على الرفيق المتعب ويهده القلق والفكرة الملحة أن الخطوات التى نخطوها هى الاخيرة من حياتنا • كثير من الاصدقاء ماتوا وأكثر ما قتلهم التعب وتهيج الاعصاب ـ وفيما يخص هؤلاء فلا دخل فى اهلاكهم لدقة مدافع ورشاشات الجهة المقابلة ، ان جسمهم كان قد قبل الموت سلفا ، والرجل الذى يشرع فى التوجه الى السد بفكر فارغ أو بعيد فقط عن كل ما يحيط بنا يعرض نفسه لموت محقق ، هو نفسه خطر على الرفاق الذين يسبقونه أو يتبعونه ، والجدد الذين يلتحقون بنا ـ ان كان الشقاء يطاردهم ـ يهلكون فور الخرجات الاولى للسد لأن أعصابهم وعضلاتهم لم تجد الوقت الكافى للتعود والهيمنة على الانفجارات التى تلتهمنا •

ما افظع الموت الذى يأتى مما لا نعلمه ، مما لم نعلمه قط •

جنود الفرقة الاجنبية هم الذين يحتلون دائما المراكز المتقدمة والمعاقل المصفحة ، وهؤلاء هم الذين يخرجون أحيانا عندما يعرفون مكان جثة ما فى منطقة حرام ، ويسيرون صفا بعضهم خلف بعض ويخشون من الغامهم أنفسهم أكثر مما يخشون الغامنا ، وتتقدمهم دائما كلاب الرعاة الألمان ، ولعلهم يستصحبونها ليعرفوا أى طريق سلكنا بعد مناوشة الامس •

مرت أربعة أيام على ذهاب الرفيق الجديد ـ تمزقت يده بانفجار مفجر تلمسته يده بتهاون ، وهى طريقة كطرق أخرى نختتم بها الحياة ، أو يتخلص بها من المنطقة الحرام والسد ، وليس هو بالاول الذى اختار هذا الخروج • قد عرفت الفصيلة الثانية حادثا من هذا النوع قبل اربعة أشهر •

خسر رفيق ساعده الأيسر برشاش صغير • أتساءل كيف صنع • وقع ذلك فى الليل أثناء الحراسة • ان الاصدقاء الذين كانوا نائمين ظنوا أن غارة وقعت من قبل رجال الجهة المقابلة • وهكذا انطلق كل احد فى الظلام والتعجل •

منذ ذهاب الرفيق الجديد خرجنا خمس مرات ، وفى اليوم السابق ألقينا أنفسنا على السـد مرتـين فى عـين الليلـة ٠

تصل الينا الاوامر مع التموين اليومى دائما عند المغرب ، اذا كان لزاما علينـا أن نذهب الى السد بكرة ينصحنا قائد الفصيلة أن نأكل بسرعة لاعداد البنغالورات ـ ويجب اخراج المفجرات وقطع الفتائل ، ولكن أؤخر كل مرة هذه العدد لآخر لحظة لامنح هكذا الاصدقاء مهلة يأكلون فيها ويتعودون مرة أخرى على السد الهائل ، وقبل الذهاب بدقائق يعين رئيس الفرقة الذين يسافرون ـ وأحيانا تخرج الفرقة كلها ، ولا نحصل من ذلك على هدوء أكثر ، نذهب الى السد كما هى العادة ـ كما يقع ذلك دائمـــا ٠

تأتينا الاوامر من السرية ، وهذه تستقبلها من الكتيبة ـ اذا كانت القضية عملا معمما ، أى اذا كان لزاما على كل الوحدات وعلى كل الرجال أن ينقضوا على الســد فان قيادة المنطقة هى التى تعطى الاوامر ٠ والاوامر ـ مهما كان مصدرها ـ لا تنقطع أبدا ٠ ان كتيبة تحترم نفسها هى كتيبة كفت عن عد رجالها الذين مزقتهم القنابل والرصاص ، ان فصيلة حريصة على سمعتها لا يزيد عدد رجالها على خمسة عشر رفيقا تجردت جسومهم من اللحم ـ الامر هكذا ، تقوم شهرة الاحياء عندنا على الاموات ، ولكن عندما نوجه نظرنا نحو السد مساء عندما تتحرك خطانا نحو المنطقة المحرمـة لا يفكر أحد منا فى الذين تقدمونا الى طرق الظلام هذه ٠ ليس من أحد يفكر فى غد ـ يختلط الاحياء والاموات فى مآثرنا ومفاخرنا وفى هذه العزيمة التى ألفتنا كما تعلمناها نحن وتبنيناها عبر الليالى ، السد ، يشبه أن قوة خفية تبعدنا عن كـــل ما يربطنا بالحياة اليومية ، بالحياة ـ ألفاظ نرددها همسا ، ألفاظ سر لا ينبـغى ان ننساها ، ولعل فى ذلك روابط تجسد رغبتنا فى الحياة مدة أطول ـ ممكن ٠

مهما جرت بيننا عبارات « صديق الكفاح ـ أخ الكفاح » ان موت الآخرين لا يؤثر فينا كثيرا ـ ولعل الامر هكذا لأن الليالى التى تنتظر تقطعنا عن الزمان الحاضر ـ وكثيرا ما حدث أن رجعت برفاق جرحى لم أقابل بعد منهم أحدا ٠ كنت أتألم ولم أفهم كيف صرت فى ذلك الى جمود العاطفة هذه ـهذا يخيفنى لاشعر بشىء ونتسى

الذين صاروا متغيبين الى الابد لاننا لا نتحدث عنهم قط · آباؤهم وامهاتهم اولادهم والذين ينتظرونهم هل يعرفون شيئا يوما ؟

اشتباك · أحد الالفاظ التى أدتنى الى هذا البلد ، عندما كنت طفلا لم أكن لأحلم الا بالاشتباكات ، وكنت أرانى فى كل حلم يقظة وراء رشاش مقاوما بمفردى أفواجا من الجنود الفرنسيين على قمة رابية علم أخضر وأبيض يخفق فى ريح الشجاعة والتضحية ·

ولكن الآن لم أعد أحلم ، ولم أعش الى هذا اليوم أى اشتباك ـ على أقل تقدير ـ كما كنت أتصوره فى أحلامى ، فى هذا القطاع الذى أعيش فيه منذ دهر على حسب ما يظهر لى ان واحدا من أبناء عمومتى تمزق جسمه بلغم ، مضى على ذلك عامان · الاخضر ـ كان قد بلغ سن ثمانى عشرة سنة ـ هو أيضا ـ من دون ما ريب ـ كان قد حلم طويلا بالبطولة والتضحية كيف يتصور أننا لم نحب أهواء طفولتنا هذه وسرابها ؟

ولدنا فى بداية الحرب ، ولدنا للحرب ، ولكن اين اليوم اولئك الرجال الجرحى أولئك الرجال المضرجون بالدماء والانوار ؟ الذين مروا على قريتنا فى ليالى المطر ؟ أين هم الآن · أولئك هم الذين علمونا نحلم بأنوارهم ·

قبل ان نتوغل فى منطقة محرمة نتفق على نقطة التقاء فى حدود المنطقة ، لا نستطيع أن نبقى مجتمعين قريبا بعضنا من بعض عندما نهجم على السد ، نقلل هكذا من المخاطر، والمخاطر لا تعد فى أرض الكابوس هذه ، عندما نتشتت نقلل من تعرضنا للخطر ولكشافات النور ولشظايا القنابل والمدافع والرشاشة أيضا · وعبثا يصول الضوء الضارى لكشافات النور على اشواك الغابات وعلى مجارى المياه فلا يمسك شيئا · ومن جهة أخرى ان كان الجنود الفرنسيون فى كمين فلا يشتبكون معنا جميعا فى آن واحد ـ والاصدقاء المتسربلون بظلام الليل حول المعركة فى استطاعتهم أن يلتحقوا بنا لاعانتنا أو لالهاء العدو على أقل تقدير ـ ذلك ما يفرق العدو شذر مدر ·

وعندما نجتمع ثانية فى نقطة الالتقاء نعد أنفسنا ، ونعرف حينئذ اذا كنا رجعنا جميعا من السد · وان تغيب واحد قفل واحد منا أو اثنان متطوعين فى فترة هدنة

ليأتيا بالغائب وأحيانا ننتظره فحسب ، واحيانا تتغيب جماعة منا وترجع من دون أن تعرف ماذا وقع لكل واحد منهم ـ وكم رفيق لم يرجع من السد الا فى الصباح الباكر ، وكم رفاق لم يعودوا قط ٠

ان الجنود الفرنسيين لا يخاطرون كثيرا بأنفسهم لبناء الكمائن ، لا سيما فى قطاعنا المسطح جدا ٠ أنا على يقين أنهم يخافون هذا النوع من المغامرات لانهم يفتحون النار بأسرع مما ينبغى فور استماعهم لاى حس ، ولا ينتظرون الجواب لينسحبوا جريا ، ولا يحققون أبدا نتيجة اطلاقهم النار ـ ذلك ما يشجعنا على الاتيان بجرحانا ان كانوا ـ عند ما ينصب رجال الجهة المقابلة كمينا تبقى كشافات النور منطفئة ولا تكنس الارض بالضوء خشية كشف الكمين ـ وكشف الكمين معناه قتل من يجتهدون فى تنظيم القتل ٠ وكشافات النور فى حركتهم المستمرة تلح على الاماكن المختبئة حيث لا يكمن فيها أى خطر يهددنا ٠ وهكذا يامل العسكريون الذين يسيرون شبكة النور أن يوجهونا على خط مستقيم الى الكمين الذى ينتظر ويرجو ، اذا شاءت ـ من جهتنا المصادفة أن يكون المدفع الاستراتيجى قد خرج لا يمكن حينئذ وصف هلع من فى الجهة المقابلة ، فور اعلان المدفع الاستراتيجى عن نفسه يفتح جنود الكمين النار على اى شىء كان بلا تمييز ويرجعون القهقرى بكل سرعة الى معقل من المعاقل تحت شؤيوب من الرصاص نطلقه عليهم لحماية أنفسنا ٠

ننتفع بهذه اللحظات الى أقصى حد اما لننسحب واما لاتمام العمل الذى أتينا لاجله : البنغالور ـ ومهما ظهر هذا غريبا لعل تلك الاوقات هى الوحيدة التى لا نخاف فيها شيئا ياتى من قبل العدو ـ من دون ما شك لاننا نعلم أن هذا الاخير لا يصنع شيئا ما بقى رجاله فى المنطقة المحرمة ـ وهؤلاء هم ضمان لنا أن المدنعية والرشاشات لن تتدخل ٠ نرى بضع قنابل وصواريخ مضيئة تحاول ان تعوض كشاف النور الاعمى مؤقتا ٠ وأثناء هذه الكمائن يتحمل الجنود الفرنسيون بدورهم خسائر خطيرة ـ يتركون دائما على أرض المعركة أمواتهم وجرحاهم ولا ياتون للبحث عنهم الا اذا انقشع ظلام الليل تماما ٠ وهكذا ينزف دما عسكريو الجهة الاخرى ـ فى المنطقة الحرام ـ مدرعين بالجلد والسلاح المتوهج ويموتون مكانهم قطرة قطرة بينما كان من الممكن جدا علاج جرحهم

ويجهز السواد والخوف على هؤلاء الرجال ويحرمانهم من كل اسعاف ، اذا طلعت الشمس يكشف النور الطبيعى ببطء جثثا شابة مسحوقة على شوك الغابات ، وفى هذا الوقت قد فات أوان التدارك _ انقضت الحياة أرض مسطحة ، قطاع لا مخابىء فيه ولا صدوع _ ومطلق النار بالبازوكة يتجدد نشاطه قبل ان يتحول الى البنغالور _ مثلنا لان ارضا من هذا النوع لا تسمح باستخدام البازوكة • ما من أحد يفكر فى ارسالها الى صيــــد الدبابات لانه يعرف جيدا أن السلاح وسادنه لن يعودا من المغامرة _ هنا فى هذه المنطقة تستطيع الدبابات أن تقوم بدوريات داخل السد أثناء الليل كله من دون أى خوف ، والارض التى تسحقها بكل سلاسلها هى أفضل واق لها، وان واحدا من كشافات نورها يكفى لانارة المكان المحيط حينا بعد حين عند سماع أدنى حس •

لو لم يخف سائقو الدبابات الالغام لو سبقنا لهم الى المنطقة الحـرام لعين الغرض لأتوا لانتظارنا فى اسفل السد ، ان السلاح المخيف الذى يستخدمونه يحميهم ويزيد فى ادعائهم ولا يرحم • والدبابة تضاعف حذرها وحيلتها اذا احست بوجود بازوكة فى القطاع _ تتماوت وتختفى كالاخطبوط وتشتبه علينا كثيرا جدا بأوتاد السد العملاقة وأديال السواد والضباب التى تلف الاسلاك الشائكة ، ولا تظهر الا بعـد انفجـار البنغالور لانها تعلم حين ذاك أنها وراءنا وأننا فى طريق العودة _ رمى متوتر _ قنابل اسرع من البرق _ تنبح كلها فى آن واحد •

مطلق نار البازوكة هو الوحيد بيننا الذى يعرف حقا نتيجة اطلاق نيرانه ، قــد احرق ست دبابات فى شهر عندما احتللنا أعالى العصفور ، رقم قياسى ، ولكن الالغام تكمن له _ وهى التى تقضى عليه غالبا • مطلق نار البازوكة يجب عليه لاصابة الدبابة احسن أن يحاذى السد ، يسير على رقعة من الارض لا يعرفها حيث ينتظره الموت •

نطلق نار البازوكة أحيانا على المعاقل ، وهكذا تضيع صواريخ الروكت ويتجاهلها الاسمنت المسلح الغليظ ولو أصابته ، هنا لا نستخدم هذا السلاح •

رصاص الرشاشات يشبه الابهام فى الغلظ ولا يدع لك الوقت لتكون ذا وعى بنهايتك ايا كان عضو جسدك الذى يمزقه ، بعضه ينفجر داخل الدبابات ، والرجـل

المصاب يكون قد فارق الحياة عندما يسقط ما بقى منه على الارض ، نلقط سلاحه بسرعة ونتابع جرينا وبعد حين يرجع رفيق أدراجه ليسحب ما بقى من الصديق المدمر فى الصمت الصاخب داخل المنطقة الحرام ، بعد القنابل والشظايا ، واذا أصابت هذه الاخيرة شخصا لا تعزل هدفها مما يجرى فى المحيط ، شظايا رقيقة من الفولاذ المحمى احماء بالغا تنشر العظام أو تمزق اللحم بسرعة بالغة لا يشعر الجسد بها فى عين لحظة الاصابة بهـــا ٠

يفقد الجريح حياته بدون اى شعور ولا يفهم ولا يعى ماذا وقع له ، عندما ترتخى ركبتاه فجأة وتعترى اطرافه برودة هائلة ، وتنفجر بعض القنابل قبل ان تلمــس الارض بثانيتين أو ثلاث ، وشظاياها تنتشر فى الجو فى شكل دوائر فوق الرفاق اللاصقين بالارض ومن أصابته منهم شدته هذه اليها ، ونوع آخر منها ينفجر بعكس ذلك عندما يصدم الصخر والارض ٠

وشظايا اولئك تصعد الى نصف قامة الانسان وتشق الهواء افقيا وتبيد الرفاق الوقوف ، وبينما تتعلق الاعصاب بالانفجارات وصفير القنابل ينهار الجسم فجأة لا ندرى لماذا ٠ وتلك هى آخر ثوانى الوعى والحياة ، وكل شىء يمحى حول ذلك المساء فى الريح الباردة ريح النهاية ٠ وأحيانا يتلمس المرء جسده ويبحث وتتصاعد اليد لزجة بالدم ، لزجة بالموت ٠ أيبكى ؟ وذات مساء تعجبت من رؤية صديق كان جالسا وظهره متجه نحو السد غير مبال تماما بوابل من القنابل المنصبة علينا ، ولم يكن له أى اهتمام بالحاضر ، تقدمت بينما كانت الدموع تسيل من وجنتيه وقد منحتهــا البروق الساطعـــة من الانفجارات لونا كئيبا ، وظن هذا الصديق أن ساعته الاخيرة قد حانت ، قال : ان سائلا كان يجرى على ظهره ، والحقيقة أن الذى سال ليس دمه بل هو الماء الذى كان يملأ قربة الصفيح التى عليه والتى شقتها شظية قنبلة ، وأكثر من يهلك من القنابل ٠

والشظايا هم الرفاق الجدد ، هى قضية تعود وتجربة وردود فعل ، شباب يلتحقون بنا وقلوبهم طافحة بالاباء والحماس ، يقولون لنا : « وأخيرا نحن منكم » ٠ وما أقل ما نجد الوقت للتعرف عليهم واطالة حياتهم ٠

لا ينقض علينا الموت دائما من المساء وفلك القنابل أو من حصون الاسمنت المسلح التى تتورم بها التلال والروابى · بل هو كامن أحيانا فى أكثر الاماكن أمنا وسلامة من المنطقة الحرام · فى باقة من العشب الجاف ، فى مخابىء مسيل ماء صغير ، تحت أغصان يابسة ، وفرارا من مخاطر السماء نرتمى فوق الارض على صدورنا مسابقين شظايا القنابل أو شبكة الضوء الساطعة من كشاف النور ، وفجأة ينبجس الموت من الارض ، من باقة كلا أو من صخرة ندوسها ··· من الالغام ، هى فى كل مكان تحاذى خيطا خفيا تعلق به القدم فى سيرها فيطلق حولك فوهات من النار او فقط فى شيء ما : قطعة حديد أو علبة سردين فارغة أو علبة كرتون غسلها ماء المطر ــ ان الالغام تتمم عمل المدفعية والرشاشات ــ فالموت المتوقع هكذا هو وتد حاد من حديد مغروز باستمرار فى أعمق مكان من قلب كل واحد منا ــ نكل أمرنا الى المصادفة لاننا نعلم جيدا اننا لن نحترس الاحتراس الكافى فى سفح السد ·

المنطقة المحرمة ملغومة ومنافذ شبكة الاسلاك الشائكة مزروعةبأجهزة شتى قابلة للانفجار ، وان أدنى حركة طائشة أو سهو كلمح البصر يطلق حلقة مفزعة من الحديد والنار تدك الارض ولن يبقى ممن داخل الحلقة الا أشلاء دامية أرجل بعظام بارزة مسحوقة ومزع لحم يعلوها الدخان والبنغالور الذى نستخدمه كل مساء يدمر الاسلاك الشائكة كما ينسف الالغام الموجودة فيها ، ولكن هل تبقى الالغام المنبثة فى المنطقة الحرام ؟ أحيانا ، ولكن يقع ذلك نادرا · هى بؤر انفجار عملاقة تلقى الارض على السماء السوداء وقد يفجر لغم آخر بعد انفجار البنغالور ــ فتشهد عند ذلك تفجرات ضخمة هائلة لا تتصور · ونتساءل هكذا كيف وبأى معجزة لا تسبب لنا الالغام أفدح الخسائر ·

نصب الجنود الفرنسيون الالغام فى المنطقة الحرام فى كل الجهات فى رقعة من الارض حيث يكمن الموت متربصا واثقا بالكوارث التى يسببها عاجلا أو آجلا · والعجيب ان افتك الالغام بالناس ليست هى التى نخافها اكثر ، اريد ان اتحدث عن الالغام الضخمة ، وهذه تقتل حالا ولا تلقينا فى واقع الفناء ، يجرى الحديث عن الانفعال المألوف عند العدم بدون اى مرحلة انتقال · وهذا الانفعال انواعه شتى وشكله يختلف ، وعلاوة على ذلك قد بلغت براعة الناس الذين فى الجهة المقابلة حدا

جعلنا لا ندرى كيف نتقى تسيير جهازهم الذى يطلق النار • واذا مشينا نتقى بقدر ما يسمح لنا بذلك ظلام الليل،أسلاك الحديد المنصوبة على الصعيد أو الملقاة على الارض ـ واذا أطلقت المدفعية والرشاشات نيرانها الجهنمية وكلنا أمرنا بدون شعور منا الى عناية الله ـ وما أكثر ما يذهب بنا الخوف من الالغام الى عين الكمين وتبقى اعيننا وآذاننا وانتباهنا لاصقة بجلبة الليل والاشباح الماثلة أمامنا وننسى الطريق الذى تسلكه أقدامنا وننسى الالغام •

والالغام التى تثير أعنف الاشمئزاز والنفور فى قلوبنا والتى تحيل ساعات راحتنا واستجمامنا الى كابوس لا يمحى أثره لا تقتل وتجعلك تأسف على أنك لم تكن ضحية قذيفة أشد خطرا • كيف نتحدث عن اللغم بهدوء ؟ لا يفلت منه شبر من الارض صغير • يد واحدة تكفى لتغطيته • يكشف عنه الريح والمطر ، دقيق مخيف فى وضح الليل ، ينفجر تحت ثقل الرجل الماشى يمزق الرفيق الشقى ويلقيه طريحا على الصعيد حتى يعرى عظمه ويجرى دمه جدولا على الارض ويزحف المصاب ويجر جسمه رغم الهلع والالم ولابد أن يدعو الصديق البعيد الذى يجب أن ياخذ حذره هو بدوره من الغام النواحى المجاورة • وان حادثا من هذا النوع لا ياتى وحده • فالرفيق الذى يهب لاسعاف الجريح يطا هو أيضا مرة من أثنتين لغما آخر • وأحيانا يجلس الجريح الاول المشدود الى الارض على لغم يجهز عليه بتمزيقه أشلاء ويموت الرجل منزوفا ويبدو على وجهه الجنون من الرعب وعدم الفهم ، كم اخوان فى الجهاد يجرون جسومهم المشوهة فى قواعد ساقة الجيش ، لا يحصون عدا ـ شموس محطمة الى الابد ـ •

أيقظتنى المدفعية أمس بعد السد الذى ذهبنا اليه باكرا جدا أخبرنى الرفيق الذى عهد اليه بالحراسة فى ذلك الوقت أن ثلاث شحنات بنغالور انفجرت منذ قليل فى الحدود اليسرى من قطاعنا ، كانت القنابل والرصاص الخطاط تتطاير من كل صوب ـ وكشاف نور المركز بيرى PERRET كان يظهر منه أنه قبض على ضحية وتعجبنا من اشتراك الدبابات فى المعركة • ودامت الانفجارات أكثر من ساعة وضاعفت فضولنا الصواريخ المضيئة المطلقة فوق المنطقة • واطلعنا هذا الصباح على

ما حدث ـ اخرجت فرقة من الفصيلة الثانية الى السد الاثنى عشر رجلا الذين كنا مشتغلين بهم أول أمس • قتل ثلاثة رجال وجرح أربعة ومشى رجل على لغم •

من الآن فصاعدا لن يمر مساء دون أن نخرج الى السد • ويجرى الامر هكذا بالنسبة الى كل الوحدات التى تحاذى السد فى قطاعنا ، فقد أقام العدو بطاريات مدافع على كل الروابى المشرفة على السد ، ومدافعوا هذه المراكز لا يهتمون بالتدقيق ، وتفتح كل المدافع نيرانها لادنى حس فى آن واحد ، نرى أيضا الدبابات فى الليل أكثر فأكثر ، كل هذا ينذرنا بليال طويلة الامد وبضراوة العنف والشراسة والرعونة •

الفرار من الخدمة العسكرية واغتنام فرصة دور الحراسة للفرار بعيدا جدا بعد ترك السلاح ، ملجا • مدن المغرب الكبرى ، لكن اى ملجا وضد أى تهديد ؟ ننسى بسرعة بالغة من يذهبون هكذا • ونسياننا لهم أسرع منه لمن نتركهم صرعى الحمام بعد السد وبعض الرفاق يهربون من مراكز العلاج ، ما من أحد يبالى بذلك • وهذا أفضل ـ أسماء نضرب عليها فى القوائم ، أسماء نشطب عليها فى حافظتنا ، هذا هو الموت الذى يخشاه كل أحد : موت الخزى والعار • أتمنى أن ينسى أولئك الذين نكصوا وأن لا يذكروا • ليبعثوا من جديد فى الهدوء فى العالم الذى فضلوه ، ثم انه فى الجهة المقابلة أيضا يهرب العسكريون الفرنسيون،أنا مقتنع بأنهم يصنعون ذلك لاسباب أخلاقية وبان التاكد من الموت العاجل لا دخل له فى تصرفهم ذلك ، وأعتقد أن الهروب لابد له من شجاعة كبيرة •

وصل الينا البارحة اثنا عشر رجلا عزلا بالمؤن ، ملابس جديدة وسجائر بكثرة • ذهبوا قبل طلوع النهار الى الفصيلة الثانية • شباب مثقفون جدا موجهون الى أركان حرب قواعد الساقية • كنا فى الطريق الى السد بعد وصولهم بساعتين ، وكانت الاوامر دقيقة فى أنه كان يجب علينا أن نريهم السد عن قرب بالغ قبل العمل ، الخوض فى القتال لاول مرة ان صح التعبير • وقد حملوا البنغالورات عند الذهاب ، ولكن فضلنا أن ندعهم متجمعين على العليق فى حدود المنطقة المحرمة لقد رجعنا جميعا، ما كنا لنستطيع أن نخاطر بالقائهم الى جانبنا على الاسلاك الشائكة ـ ليسوا متعودين

ولا يعرفون شيئا عن هذا العالم الخاص الذى تعودنا عليه بقوة الالف · ان أحدا من هؤلاء المتدربين أراد أن يودع عندى ساعته · ماذا كنت أستطيع أن أصنع بها ؟

وصلت الينا المؤونة على ظهور البغال ، طعام لاربع وعشرين أو لست وثلاثـــين ساعة ـ خضر مجففة وخبز مضى على نضجه عدة أيام · والغذاء الوحيد الذى نقدره جميعا هو القهوة ونتسلم منه كمية كافية ـ تؤثر القهـــوة فى أعصابنا كانها دواء ذو خاصية هى حل عقد الاعصاب وتوجيه جريان الدم وتجديد الرغبة فى البقاء تغسل القهوة أفكارنا عند الذهاب الى السد وتمحو كربنا الذى يلصقه السد على عيوننا ونحمله معنا عند القفول ·

نشرب قهوتنا فى أقداح من ألومنيوم ، كل واحد منا يحتفظ بقدحه باهتمام بالغ ـ ومن فاتته جراية قهوته فاته لقاء طيب · اما الطبخ فان لنا رفيقا يضطلع به بسرور ـ وتسكن بعض الفصائل نسبيا قريبة من بعض الاسر المهاجرة التى ألقى بها هى أيضا بين بلدين ، بين عالمين · والسكنى بالقياس اليها من جهة المنطقة أو من الجهة الاخرى لا تتوقف الا على مرمى المدافع · وتعنى هذه الاسر بشأن الرفاق الذين يختفون فى النهار على مسافة قريبة ، تعد لهم طعامهم وتغسل لهم حتى ملابسهم ولابد من القول أيضا اننا لا نعد الاشياء التافهة التى نمنحها لها والتى تعينها هى أيضا على ســـد الرمق · اما ما يخص فصيلتنا فلا جيران لها الا صخور شاحبة تعصف بها الرياح وهذه الارض السوداء التى تحدق بنا والتى تنذر بنيران الرصاص والمدافع ·

ان طائرة استطلاع فرنسية تحلق على المنطقة الحرام كل طائرة مـــن الشمال الى الجنوب ، وأحيانا فى الاتجاه المعاكس وأحيانا تعود فى المساء قبل أن تتلفع الطبيعة بمئزر الظلام ونسميها : « الواشية » أو : ت ـ 6 · هى طائرة لا تجاوز قوة نارهـا قوة رشاش خفيف ـ هى صغيرة ولا تكاد تخاطر بنفسها بالتدخل فى الليل ، تطـير قريبة من وجه الارض وتكتفى بفحص المنطقة المحرمة فى أدق خباياها وتخبـــر بما تلاحظه فيها · اذا اكتشف سائقها أى شىء غريب رجع الى الميدان فنرى « الواشية » تحلق وتحلق فوق شجيرة ما كأحد الطيور الجوارح فى حالة الصيد ، تخبر هذه الطائرة غالبا فور طلوع الفجر بمواقع جثث الرفاق الذين قتلتهم المدفعية فى الليلة السابقة ،

تخرج دورية حينئذ الى المنطقة المحرمة تاتى لتتأكد من صحة الخبر فى مكان وقوعه · وأحيانا ليست الجثث الهامدة الا فخا فتأسف الدورية على خروجها من قلعتها · ولكن هذا نادر أو أندر من النادر ··

والطائرة ت ـ 6 لا تكاد تغامر الى جهتنا لان بندقية بسيطة تستطيع بسهولة أن تنقصر عليها والرشاش يسقطها بكل تأكيد ، ذلك ما قد حدث مرارا ، لذلك تحذر أن تبتعد من السد أكثر مما ينبغى · وفى الليل عندما نشن غارة جد واسعة تتحدى هذه الطائرة الظلام وتتندرنا من فوق رؤوسنا ·

فى هذه الظروف فحسب تصير « الواشية » أنيسة لنا لانها فى عين الوقت الذى تخرق فيه ضوء القمر تقطع المدفعية حالا اطلاق نيرانها · ونغتنم نحن فرصة هـذه الهدنة فى حال اضرامنا النار فى البنغالور لننسحب بأسرع سرعة ممكنة ما دام طائر الشؤم هذا يخترق أجواز فضاء قطاعنا ·

استهدفت طائرة من هذا النوع قبل خمسة أيام فى وضح النهار قاعدتنا الخلفية الرئيسية فى وجدة : القاعدة بن مهيدى مستشفانا ، فقد أجهزت صواريخ الروكت التى أطلقتها هذه الواشية على بعض الجرحى · فنحن فى حالة انذار مستمر منذ وقوع هذا الحادث ·· ونخاف من كل شىء ويجب أن نتوقع هل تكون الغارة من قبل العدو هكذا على رجالنا الجرحى أو العزل ، وهذا التوقع ينعكس طبعا على أعصابنا المكدودة أكثر مما يحتمل وهذا يزيد فى متاعبنا · والحراسة ، منذ حين ، لم تعد تفتر حتى فى وضح النهار ـ اذا جن الليل واتجهت خطانا الى السد شعرنا بوطأة التعب على كواهلنا · ان الاوامر التى بلغتنا تلح على الحراسة وعلى اليقظة ، أى طائل لنا فى الاستماع الى هذا · نحن الذين أوسعنا حياتنا تحذرا واحتياطا ؟

لقد فاجأت الشايب وهو يأكل قطعة خبز عليها معجون أسنان ، أنبوب تركـه فى مكان ما أحد الرفاق الجدد الذين ينزلون عندنا والذين يزودون بكل شىء وبلا شىء ، لم ينقض عجب الشايب عندما أخبرته أن ذلك يصلح لتعهد الاسنان بالتنظيف · وقد أحرجتنى أسئلته ، لا يفهم كيف يفكر أحد فى ذلك بينما يعد معجزة حفظ حياتـه

كل ليلة فى السد • وتنظيف الاسنان بالفرشاة قبل السير الى المنطقة الحرام أمر لا يعقل فى نظره ، وصرت أعتقد أن الشايب أفلح فى حملى على أن أرى رأيه •

وقد التقطت أمس على طريق الرجوع ورقة مطبوعة دفعتها الريح وشغلتنى طوال النهار ـ شبه صفحة من جريدة ـ كتابة فرنسية وكنت أرجو أن تكون نصا مفيدا • مع الاسف لم يكن محتواها الا أسعار خضر وسباق وخيل ، وقد زاد هذا فى أسفى على أنى لم أقض زمانا أطول فى المطالعة قبل حمل البندقية • هنا طبعا لا محل لموضوع الكتب والقراءة • وغالبية الرفاق لم يسعدهم الحظ على تعلم القراءة والكتابة • هم رجال من الريف قد احتفظوا بوقتهم وطاقاتهم لخدمة الارض • وفى فصيلتنا طائفة من الرفاق يقرأون العربية قراءة جيدة جدا وقليل ما هم ، والكتاب القرآنى هو الذى حلاهم بهذا الفضل • ولكن لا جدوى لنا فى معرفة القراءة ولا فى القراءة أيضا ـ لفعل ماذا ؟ ربما يضر مضرة بالغة الاشتغال بما يجرى فى مكان آخر ـ وعلى الاصح ـ الاشتغال بما لا يجرى فى مكان آخر •

يثير فينا الرادار ذعرا عنيفا • ولم أر منه شيئا • ولا أكاد أدرى هل لمن فى الجهة المقابلة شىء منه حقا • جهاز يكتشف رجالا مساجين فى سيرهم ـ على حسب ما يقال ـ والاصدقاء هم متأكدون من ذلك • الواقع أن خطواتنا الاولى ـ فى المنطقة ـ فى أوقات أكثر مما ينبغى ـ يحطمها شؤبوب من القنابل كما لو أن شاهد عيان خفيا أخبر العدو بذلك • وعندئذ يفرض علينا ذلك أن نحتال ، ونتحول تحولات طويلة شتى عن الطريق المباشر لقطع المنطقة المحرمة والوصول الى السد ، وهذا يزيد فى المخاطر التى تهددنا لاننا نقطع هكذا رقعا عريضة من الارض نعرفها قليلا أو لا نعرفها تماما • وان قطاعا يشتهر بأنه تحت مراقبة الرادار يصير كابوسا مخيفا للاصدقاء الذين يجب عليهم أن يذهبوا اليه كل ليلة •

ويفقد هؤلاء كل مساء شيئا أكثر من ملكة الرؤية والكلام والفهم ويتجوف نظرهم • وان خوفا لا يوصف يأخذ بمخنقنا عندما نلقى بعضهم • ونحتفظ منهم بصورة لا تمحى، رجال صاروا لا يكسبون ما تقوم عليه الماهية البشرية ويؤثرون فينا •

وان كابوس الرادار يفرض نفسه علينا شيئا فشيئا • وينتظر العدو احيانا أن نقترب جدا من السد أو نتقدم تقدما عميقا فى المنطقة المحرمة ليوجه ضرباته توجيها أدق وليصيبنا اصابة أشد • ان جنود الحصون المصفحة وجنود المدفعية الواقعين على مسافة أبعد منهم يفتحون النار فى ثانية واحدة كأنهم متأكدون مما يقع فى كل ثانية • وتقيم المدفعية حالا سدا من النار وراءنا لتضرب حاجزا بيننا وبين كل انسحـــاب • وتتبع كشافات النور الدفعة الاولى من الرصاص الخطاط المنبعثة مـــن المصفحات والمحاربين تقد الصعيد والرجال ـ وأثناء هذه اللحظات يصير الانسان غير قابض على رقابة نفسه ، تخطفنا الارض وتلفظنا وتنسحق جسومنا وترتفع على الصوت الجهنمى للموت الذى ينقض علينا • ونلقى بانفسنا ونعيد القاءها على الصخر وعلى الشوك فى كل خطوتين ، نجرى بين الانفجارات ونغمس فى سحاب الدخان المنطلق من القنابل لنتخلص من كشافات النور والشظايا ، والفكر شارد ومعلق بصفير القذائف المتهاوية وصفير الرصاص وعند ذلك لا يعود لنا وجود ، وبعد ذلك • أى بعد ذلك بزمن طويل فى مكان أمين نتساءل : أليس الرادار هو الذى القانا فى اللهب ، ونعود لا نؤمـــن عند ذلك بالمصادفة وباخطاء بعض الرفاق وبالجلبة التى كنا نستطيع أن نحدثها أو فقط بسوء الطالع • اذا خامرنا الشك بصدد وجود رادار العدو يصير حمل أيامنا أقل ثقلا علينا • وفى الحالة المعاكسة يتسلل الرادار الى داخل كل واحد منا ويحطمه على ممر الايام ، الجسم يذبل والافكار تسوء والرادار يخربنا بمقدار ما يخربنا سم بطىء قاتل ، ونفكر فى الليالى القابلة • ان المفاجأة هى السلاح الاصلح الاكثر فاعلية الذى نملكه ضد قوة العدو المخفية لو انقلبت علينا ماذا يبقى لنا كم يجب من الآلاف والآلاف من الرجال لنصمد ونصمد للسد والرادار ؟

عند امتداد خطانا نحو المنطقة المحرمة أحرم على نفسى التفكير فى جهاز الهلـــع والذعر هذا واجتهد فى أن لا أفكر فيه حقيقة • ولكن أفكر فيه دائما • وأحس فى هذه الآونة بان حلقى يجف فجاة ، لا أحب الاشياء الخفية ، لا أتحمل الجهل والشـــك اللذين يأسراننا بصدد الرادار ، لا ينفصل جسمى وفكرى من الوجود القذر لهـــذا العدو الخفى المصنوع من الحديد الا عندما يكون الخطر هناك • الا عندما يجب أن لا نفكر

فى شىء غير بقائنا أحياء رغم شظايا القنابل رغم نار كل السماوات التى تنصب علينا ، وبعد ذلك بعد ذلك بزمن طويل ، فى اليوم التالى تعود أفكارنا بشكل خفى الى الرادار والى اللحظات المظلمة التى يخبئها لنا ٠ فيزيد انحناء مناكبنا قليلا وتنغلق الرادار شفاهنا أكثر وتتكدر أنظارنا بسرعة أقوى ٠ الرادار ٠

المدخنون منا يتسلمون علبتين من السجائر فى كل ثلاثة أيام ٠ علامة : « جندى » ٠ على وجهى العلبة العلم الجزائرى ٠ والرفاق الذين يستنشقون السعوط يتسلمون علبتين من التبغ ٠ والمدخنون لا يتعجلون أبدا فى تدخين سجائرهم ٠ والتبغ الاشقر جدا غير ممتع ولا طعم له البتة ٠ يجفف الحلق ولا يتعود عليه أحد ، ويقال ان ذلك تبغ بلغارى ٠ ومن الرفاق من يقامرون بجرايتهم : بسجارة بعد سجارة ، ومنهم من يلعب لعبة الضامة ويرسمونها على الارض ، والمتفوقون فى هذا اللعب تجتمع لديهم ذخيرة من السجائر يتعجلون فى المبادلة بها بوساطة الممرض ويأخذون بدلها لبنا مخيضا أو بيضا وهى الثروة الوحيدة للمدنيين الذين حولنا ، ولكن هؤلاء هم أيضا لا يقدرون هذا التبغ، ومن جهة أخرى يمنحوننا بارتياح لبنا مخيضا، الحاصل انهم يهبون لنا ما أمكنهم من دون أن يحرموا أنفسهم من الشىء والمدنيون الذين يقبلون هذه السجائر يفعلون ذلك ليبينوا بصفة خاصة لاقاربهم أنهم يحظون بتقديرنا ومودتنا ٠

يتسلم رفيق المؤونة حفنة من السجائر بدل كل قطعة من الكرتون يحملها الى ، وفى أيام قلائل صنعت سريرا جيدا من الكرتون الجاف لأتقى رطوبة الارض ، وهكذا تصلح سجائر « جندى » للتبادل ٠ اذا كان أحدنا لا يدخن يجد ما يصنع بهذه الانابيب البيضاء التى تتحشى بسرعة فى الجيب ٠ لم ينقطع سعال صديقين ٠ وقد مزقهما السعال فى الليل حتى قرب الفجر ، فقد اقتنع بعض الرفاق بأن التبغ الاشقر هو سبب ذلك ، ولا يكفون عن التدخين ، أنا أعرف انه لا يتأكد من أنهم مرضى حتى يبصقوا دما ٠ هذا الدم الذى لم تستطع المنطقة الحرام أن تشربه ، هذا الدم النفيس الذى ينخره ببطء التبغ البلغارى الذى يوافينا كل ثلاثة أيام ، دم المرضى ـ مرضى بانتظار الليل ، الليل الكبير للتخلص الى الابد من السعال ومن الزمان ٠

أنهرنا حزينة ، كل واحد منا يفكر في زاويته في الليالي القادمة أو في الليالي التي عاشها ــ ان طائفة منا يولوننا أظهرهم ويلصقون وجوههم بالحائط • هي طريقتهم في الافلات من المكان الذي هم مضطجعون فيه • نحترم انزواءهم ولا يقطع أحد سفرهم • ذلك فرارنا المؤقت • أنهر كاملة تقضي في قرارة النفس ــ وطائفة أخرى من الرفاق تنظف ساحها ، بعضنا لا يصنعون شيئا ــ غير أنهم يحلمون ووجوههم عارية وهم مضطجعون على غطائهم اللاصق بالارض الرطبة ، جزء من الارض ذاتها من شدة الالتصاق عليها طوال فصول كاملة • في أثناء هذه الايام الحزينة ما أقل الرفاق الذين يتحدثون ، نتجنب الحديث والنقاش ، لا أشق على الانسان من اجابته عن اسئلة حول نفسه ، حول الآخرين ، حول أمس ، حول غد ، لا يسأل صديق ، لا نتساءل ، نصمت • يكم مثل الجدار الذي ينظر الينا والذي نقص عليه كل شيء بالنظر والحافظة •

اذا سقط المطر صار الجو أشق والصمت أكثر مضايقة ، ننصت الى الاحلام ومواعيد الريح في السهل • الريح ، زائر هائل ينفخنا بالامل ويلقينا وراء أنفسنا ووراء هذا المكان الكئيب بالصمت والحضور • ترد أحيانا ، فجأة الى الزمان الحاضر مثلنا مثل رجل نائم تقلعه بقساوة من نومه • قطرة ماء تسقط على العنق ، على الرأس المكشوف، السطح الذي لم يعد يمسك ماء • هذا السطح المصنوع من الطين المجفف ومن القصب الذي يتدخل في أحلامنا ويحرم علينا الفرار من صوتنا وصوت أصدقائنا ، ستار يطيل الليل عندما يشرق ضوء النهار في الخارج على كل بقاع الارض • يشعل أحدنا شمعة عند ذلك ويهمس المطر بنذره القاتمة ، وبالذكريات الحزينة ذكريات الرجال الذين تقدمونا هنا والذين ليسوا هنا ليحدثونا ويستمعوا الينا •

لا أتكلف أبدا بما هو عائق ، لا فائدة فيه أو ثقيل أكثر مما ينبغي قبل أن أسير الى السد ، كاسكيت ، رمانة ، اناء ماء لم تصلح لي قط ــ رب رفاق ــ بعكس ذلك ــ لا يفارقهم اناء الماء • يملأونه تماما اتقاء الجلبة التي قد يسمعها الماء وتنم عن حضورهم في المنطقة المحظورة لان أقل حس يسمع في الليل من بعيد • ولكنهم لا يحملون اناء الماء لاجل الماء هؤلاء الرفاق المدرعون بعتاد لا طائل فيه ، في هذا القطاع الماء ملح لا يحتمل شربه • هم لا يتزودون منه اذن لازالة العطش ، يصلح الماء وقاية من الدخان

عندما يبقى الرجل مسحوقا على الصعيد داخل سحابة غاز لاصقا بمجرى ماء تدكـه بطاريات مدفع ، ان سحابة الغاز والدخان المنعقدة ببطء فوق رؤوسنا تنزل بسرعة ويقل الهواء . نخرج على عجل اناء الماء نبل شاشنا به ونغطي وجهنا . يخطف الفم والعيون قطعة النسيج المبلولة الملجأ الاخير للهواء . اما أن نصنع هكذا ونتحمـل مطر القنابل أو نتعرض لكل المخاطر ونلقى بأنفسنا عبر السحابة القتالة وشظـايا القنابل والرصاص . لا أغامر بنفسى أبدا باختيار الحل الاول لا ، ليست القضيــة قضية شجاعة ، لان المخاطرات متماثلة ، الانسان اللاصق بالارض لا يجعله لصوقـه بها فى مأمن من المدافع والموت . أفضل أن أخرج نفسى من المكان الذى تلح عليه قنابل الغاز لاتقاء الاحتراق بالدخان . اذا لم ناخذ حذرنا نقضى أياما وأياما قبل أن يعود الينا تماما استعمال بصرنا وصوتنا ، ان الدخان يحرق شبكية العين ويمزق الرئة . نحذر عند ذلك الاختناق مكاتنا ونفضل أن نسلم أنفسنا للمصادفة بالقاء أنفسنا عبر الانفجارات والخروج من الجحيم اللعمى .

اذا سرت الى السد لا أحمل اناء ماء ولا رمانة ولا ملقمات بندقية أكثر مما ينبغى . أعرف جيدا أننى مخطىء . ان الاهانة التى تحملتها فصيلة صديقة كانت جديرة بأن تحملنى على حذر أكثر ، لان هؤلاء الرفاق وجدوا جحرهم فارغا تماما بعد عودتهم من السد . وبينما كانوا يعملون فى المنطقة الحرام أخذ فدائى عدو كل ما كانوا قد تركوه فى ملجاهم : أغطية ، حقائب ظهر ، شموع ، لو لم يلق عمل معمم بكل رجال الفصيلة ضد السد لم يفلح هذا الفدائى فى عمليته ولم يعد من مغامرته كاملا ، ولكن لم نضيع شموعا فحسب .

ان المراكز العسكرية المغربية التى كانت مشخصة لحدود المنطقة الحرام تركهـا المحتلون لها وانسحب هؤلاء الى داخل البلد فمواقعهم اذن هى ابتداء من الآن وراءنا . ولم يحتل المغاربة دائما هذه المراكز . وهذا يرتفع على حسب ظنى الى العام المـاضى فقط ، ويرى رفاقى أن الجيش المغربى يخاف هجوما من قبل العسكريين الفرنسيين ويتوقع هكذا تكوين شبه منطقة حاجزة . لو وقع هذا لوجدنا أنفسنا فى وسط جحيم بين نارين ولاستحال علينا القيام بأى تمرينات عسكرية .

ونتصرف الآن كما لو توقعنا أن هذا سيتحقق غدا أو هذا المساء · وصار سلاحنا لا يفارقنا لحظة · وكنا خائفين من السد والمدفعية والمعاقل المصفحة التى تواجهنا ، نعيش من الآن في وسط دائرة من القلاع لم تكن لتخطر لنا على بال أبدا ·

اخبرنا رفيق بفرار جندى من الفصيلة الثالثة وسلم نفسه ، فقد رآه المدنيون أمس صباحا واقفا فى أسفل السد بلا سلاح ، وناس الجهة المقابلة لا شك أنهم يسرون بمثل هذه المفاجأة الطيبة · لان ذلك مصدر معلومات واخبار يحصلون عليها تنقلب علينا حالا ، ولن يبقوا جاهلين لمواقعنا وعاداتنا وخطوط سيرنا التى ناخذها فى المنطقة الحرام ··· ولابد حينئذ من تغيير واعادة كل شيء وحساب كل شيء من جديد يحدث ذلك وضعا خطرا لرفاق القطاع الذى كان يخدم فيه الجندى الهارب · سنرى بعد أيام سلاسل من المنشورات المعلنة لاسماء وأرقام مبعثرة فى المنطقة الحرام ، سيستخرج العدو من ضيفه غير الواعى كل ما فيه ضرر لنا واهانة واضعاف· كيف لم يفكر هذا الاخ الشقى فى الذهاب الى مكان آخر ؟ كيف يستطيع هكذا أن يذبحنا بكل بساطة ؟

لا عجب من أن تسحق قنبلة انسانا أو ينشره رصاص رشاش ، والموت هكذا هو نصيبنا اليومى · كل واحد منا يعرف معرفة جيدة أنه هنا لاجل ذلك · وفكرة الموت هكذا لا تكاد تلمسنا ، لان الموت على هذه الصفة هو طبيعى الى حد أن الفكر لا يطيل النظر فى هذا الموضوع ـ عندما نحس بالوحشة العمياء المتمثلة فى تخطيط الرشاشات للظلام بنور رصاصها حولنا وتعصف مئات القنابل المتفجرة بين السماء والارض نفهم هذه الحقيقة : نحن صائرون الى المنطقة الحرام ، وهذه تنتظرنا عاجلا أو آجلا · ولكن متى ؟ وبصفة خاصة : كيف ؟ لان الامر لا ينحصر فى أن هناك رصاصا وقنابل ، هذان هما السؤالان الوحيدان اللذان يتشبث بهما كل أحد فى أعماق نفسه ·

كلما سرنا الى السد طرحنا من افكارنا وقلوبنا هذه الاسئلة المستمرة · «فيما بعد» نقول هذا فى أنفسنا عندما تعتمد خطانا على هذين السؤالين ونحن فى وسط المنطقة الحرام ، مثلنا مثل اعمى يابى أن يسلم بعماه · لا موت أبدا قبل الأوان والامر أمر المصادفة فيما يخص حياتنا · ان المصادفة هى التى تقرر فى هذه الاراضى السوداء

حيث يحاذيك الموت ويلمسك ويمسحك بنفسه ويعدك بالوفاء والمحافظـــة ، وأملنا المشترك يكمن فى هذه الامنية البسيطة : لا نموت ببطء · أو ـ وهو دعاؤنا الاخير ـ أن يكون أحد بجانبنا فى اللحظة الاخيرة · شخص يعرفنا ويحسن الكذب حـــــول ما يجعلنا نسلم الحياة والدم ، ولكن الانسان هو دائما وحده فى هذه اللحظة لحظـــة الوضوح الاخير · الانسان وحده ، دائما وحده ولو أحاط به الاصدقاء · عندما تحيط بنا نار الجحيم تتجزأ الى ومضات حياة · كل أحد منفرد ، كل أحد يحس بأنه هـــو الهدف الوحيد للشظايا والرصاص · الانسان دائما وحده عندما تحين اللحظة الكبرى لحظة الحقيقة ، فى الظلام نشعر بأن كل قوانا تفلت منا ، حتى الجسم نفسه يظهر منه كانه يخضع لارادة غير ارادتنا · وهذه الارادة لا نتوصل أبدا الى التعرف عليها والى تبنيها فى الاوقات الخطيرة كلها ·

غارة معممة · كل وحدات جيش التحرير الوطنى المحاذية للحدود تنقض على السد والحصون المصفحة الفرنسية فى مساء واحد وساعة واحدة ، تستخدم كل فصيلـة الوسائل التى تملكها أو الوسائل التى يسمح الميدان باستخدامها · هاون ، بنغالور ، مدفع استراتيجى ، وأسلحة فردية فيما يخصنا · عندما احتلت كتيبتنا جبال العصفور الواقعة فى الجنوب كنا نستخدم الهاون والبازوكة أكثر من استخدام البنغالور · أكثر الخسائر فى الارواح تقع أثناء الغارات المعممة بسبب التعجل وتعقد الزحف من دون ما ريب · فعند ذلك تلتهب الحدود كلها على طولها لان الجنود الفرنسيين يظنون أن هذه الهجومات العظيمة تخفى عبور الرجال ومرور الجنود الى داخل البلاد · فيقـع فى هذه الاوقات رد فعل من قبلهم بأقسى عنف فى الظلام تاركين للمصادفة فاعليـــة وحشيتهم وانطماس بصيرتهم · وتلح المدفعية بشكل خاص على مدافع الهاون التى تحرم على الجنود المعادية الخروج المتسم دائما بالخطر بالنسبة الى الذين يقطعون السد ·

فيما يخص الغارات المعممة اننا نشن منها ثلاثا فى الشهر على أقل تقدير ، ولكنها لا تخص دائما عبورا حقيقيا للرجال والعتاد · لا ندع للعدو أى مهلة · ولا نضـــع البندقية من يدنا ولا ننسى لماذا نحن هنا · ولكن هذا الخروج الضخم يترك فى حافظتنا آثارا لا تمحى · تضطرب قلوبنا من الهلع مدة طويلة بعد الغارة ، عندما تفرض الشمس

الصمت على كل الاشباح ، ولو عدنا سالمين غير مصابين بأذى • وأحيانا لا يكاد النهار ينتهي حتى نستأنف الغارة المعممة التي كنا شنناها في اليوم الماضي •

كم من بنغالور ، كم من قنبلة ، كم من رجل محت هذه الليالي ، « معممة » أظن أن هذا اللفظ غير صالح وغير ملائم في هذا المقام ، رأيت نادرا قواد كتيبة أو منطقة معنا في جانبنا • رأيت على الاكثر محافظا سياسيا عندما يريد هذا الاخير ان يرفـع شأن اسمه أو يؤدي ثمن عدم اكتراث ما •

لا نستطيع أن نغير على المعاقل ولا على المراكز الواقعة وراءها نهارا • فهذا أشبه بالمستحيل • ان أكثر الجيوش تدريبا لن يغامر بنفسه في ذلك أبدا • ولو فعل لن تقوم له قائمة من بعد • وان رجلا يحاول أن يخرق صفائح التدريع الفولاذية بيـده العارية ربما يفلح في عمليته _ أثناء النهار لا نستطيع حتى أن ننتقل خشية أن نشعر العدو بمراكزنا • فالليل وحده هو الذي يحررنا • يحررنا للهجوم على السد وعلى المدافع ، ماذا تستطيع اذن اسلحتنا الفردية ضد جدار الكابوس هذا الذي يتعهده ويقويه العسكريون الفرنسيون يوما بعد يوم ؟

ليست لنا مصفحات ، ليست لنا مدافع ذات مرمى بعيد ، ليست لنا معاقـــل مصفحة بالاسمنت المسلح ، لنا فقط بنادق ذات مـــرمى قصير • ليس عندنا شيء بالقياس الى ما عند الذين في الجهة المقابلة • لا نملك الا أنفسنا والا هذا العناد الذي نقويه بشكل خفي من أعماق نفوسنا • مثلنا مثل ولد يعرض نفسه لضربات مجنون غضبـــان •

لكل منا بنطل عمل وقميص للتبديل ، نحتفظ بالابرة والخيط باهتمام بالغ لان اشواك وعثرات المنطقة الحرام تتلف النسيج بينما تمزق جلودنا • لا لباس جديد أبدا • وقد استقر في فكر الجميع أن لباسا جديدا يحمل الموت في طياته : مـــوت صاحب اللباس أو موت رفيق قريب له ، ربما يكون مصدر هذا الاعتقاد أن الرفاق المدعوين للانتقال الى منطقة أخرى لهم دائما ملابس جديدة • كثير منهم ينتهي أمرهم ممزقين تمزيقا دقيقا بين خطوط السد ، الخطاط الاولى • في فصل الشتاء نتدثر في الداخل

بكل الثياب التى تحملها فى حقيبة الظهر · ذلك ما يفرضه علينا البرد · اما ما يخص عدة الاسرة فمهادنا الارض · الارض الرطبة ·

حاجباه أشقران وعيناه زرقاوان رفيقى فى الخروج فى كل الليالى ، شايب عملاق يعادل فصيلة باكملها ، حث الخطى فى صمت كامل ، شحن ستة بنغالورات فى آن واحد محاذاة أوتاد السد اتقاء لنيران المدفعية ، كل ذلك طبيعى لديه وجد سهل ، لم أره قط وشبكة كشاف النور خاطفة له لم أره قط ثقيلا أو مضايقا ، شايب هو الذى علمنى محاذاة السد بدل الانقضاض عليه عبر منطقة الردى عند التهاب الارض تحت أقدامنا فى ضجيج القنابل الجنونى ، نخاطر ـ طبعا ـ بانفسنا على ميادين هى خطـرة مثل التى نتقيها بسبب وجود الالغام وكمائن العدو والمكنة دائما · والحاصل ان خطرا كبيرا يهددنا : لقاء وحدة صديقة قد لا تتاكد من هويتنا · ولكن هذا التصرف يخلصنا كل مرة · وكل مرة نتخذ من السد جنة لنا ، ولكن الوقاية التى يكفلها لنا ليست خالية من الخطر · لان العدو يستطيع جيدا ـ اذا عين مكاننا ـ أن يضحى ببعض أشرطة الاسلاك الشائكة ليصيبنا ، ومن جهة أخرى اذا لم ناخذ حذرنا قد نتوغل أيضا فى شبكة الاسلاك الشائكة ونجد أنفسنا فى قفص عند طلوع النهار · ادعو شايب باسمه، ويؤثر الرفاق أن يدعوه : الحاج · دعوه بهذا اللقب بسبب القرع الذى اتلف شعر رأس صديقى ·

لم ير شايب قط البحر ولا قاعة سينما · ابن الجنوب ولد فى ذرى جيش التحرير الوطني الذى هو فيه عضو ذو نصيب كامل منذ خمس سنوات مضت ـ لا يعرف شايب سنه ، يصير صوته بهيما عندما يتحدث عن اخوته الصغار الذين لم يلقهم ثانية · ترتقى صداقتنا الى الليلة التى قضيناها للبحث فى المنطقة الحرام عن مسدس ضيعه رفيق جديد ، ليلة كاملة حيث كل باقة عشب ، كل حجرة ، كل شبح فحص كل ذلك بالنظر وباليد معرضين لخطر الالغام وكشاف النور وطلــوع النهار · وفور رجوعنا متعبين خائبين سمعنا أن صاحب المسدس قد رجع لمجلس القيادة الذى كان مستعـدا للالتحاق به ومنذ تلك الخرجة صرنا متلازمين · تعلمت معه اجادة التفكير وملازمـــة

الصمت ، علمنى شايب ادامة حياتى • وبدل ذلك أحدثه عن البحر عندما تساعدنى الالفاظ على التعبير •

يكاد كل السلاح الذى نملكه يكون مستوردا من ألمانيا ؛ مفجرات، بازوكه، هاونات، بنادق ، رشاشات ، مسدسات ـ رشاشات • لكن بعض هـذه الاخـيرة علامتها تشيكوسلوفاكية ، ترتقى هذه الاسلحة الى الحرب العالمية الثانية ، ولكن لها فاعلية خارقة للعادة • لم أر بعد الى اليوم سلاحا منها معيبا • يخيل الى أنها لم تستعمل قط قبل السد • ما من أحد يعرف بالضبط من أين تأتى ، ولا يهتم أحد بذلك • هى هناك ، لنا • والعتاد الحربى لا ينقصنا أبدا • ولكن الرفاق الـذين يستخدمـون المسدس الاوتوماتيكى قليل ، ومن الشقاوة البالغة بالنسبة الى المهمة التى هى عملنا أننا لا نكاد نفكر فى دهنه وتنظيفه من حين لآخر •

لم تكن هذه الاسلحة دائما بهذه الجودة ، ان الرفاق الاولين كانوا فى الايام الاولى يفتخرون ـ على أكثر تقدير ـ ببنادق قصيرة ـ من نوع الموسكوتون ـ أو ببنادق صيد ، متينة متانة كافية لاطلاق النار • ومن جهة أخرى لم يكن التزود من العتـاد ليقع بدون خطر كبير • وقد أقام الجيش الفرنسى هذا السد بالضبط لقطع هـذا التزود ، واليوم ، بعكس ذلك ، انظروا الى هذه الاسلحة • هى متينة وحديـثة ، واخيرا لم نكن فى حاجة الى انتزاعها من أيدى العدو كما اضطر الى فعل ذلك رفاقنا السابقون • وهذه الاسلحة هى هنا •

ماذا يبقى لنا لولا شجاعة تجاهل الدبابات والطائرات التى لا نملكها • وبشكـل خاص : العدد ، ومما لا غنى عنه العدد الكبير من الاصدقاء الجدد لنقاوم السـد فى وضح النهار ، فى النور الساطع •

يحتفظ بعض قواد وحدات باهتمام بالغ باسلحتهم : بقربينات أمريكية أو ببنادق انكليزية • ولا تمتاز هذه الاسلحة بشىء عن أسلحتنا • ولكن تشهد فقط باقدميـة ملاكها ولا سيما ببسالتهم القديمة ، نحسدهم أحيانا •

يجذبنا وضح النهار الى الخارج ، نمد سوقنا ونضع غطاء رأسنا على اعيننا ونبقى طويلا معرضين للشمس وظهرنا للحائط · يغمرنا نصب عذب شيئا فشيئا وتسترخى أعصابنا بقدر ما تميل الشمس الى المغيب · أشياء خرساء ، كتلة أعصاب جامــدة · وبعد شفاء غليلنا من نور الشمس نحاول القيام فلا تكاد أرجلنا تمتثل · ترتجف وكأنها خلت من دربة السير وملكة التوازن ، وتمسكنا بالارض الشمس الضخمــة المغشاة بها شبكية أعيننا وتورثنا الدوخة ·· ولا تعرب حياتنا عـــن وجودها الا فى الليل ، ونبقى فى النهار مختفين مقبورين اتقاء لكل الانظار والعدو الذى يلاحظنا ، وهكذا يصير وضح النهار أكثر اختراقا لنا وأقوى من أن نستطيع أن نعب منه الشيء الكثير دون أن ينحرف منه مزاجنا · وحتى اختلاج العينين يصير مؤلما لنا بعد التزود من النور مهما كان ضعيفا · استحمام صامت بالنور بدون اشارة ، بدون تصويت · يعتمد الرأس على الكتف أو على الصدر وتنغلق العينان ببطء كما ينغلق نبات ثانية فى ظلام الليل ، ترطب الشمس قليلا حافظتنا وتنقص ليالينا من سمها وغياهبها ·

أثناء هذه الآونة لا نقص قصصنا على أنفسنا · بل ربما نقص · نتناول من جديد خير حوادث الاشهر المنقضية وشرها مختلطة فى دفعة واحدة ·

لقاءات جديدة سرية لنا مع أنفسنا ومع عشائرنا · انفلات الى من فارقناهم بدون ما وداع أو مواعيد - ألفاظ مخيفة وموجعة تحاشيناها تعود يوم ذاك الى السطــح حتى أطراف الشفاه والفؤاد ، نقوم فجأة عندما تحرقنا رؤيـــا أو وجه من أيامنــا السعيدة ، يبتعد الصديق بخطى شاسعة بعد احتراقه بذكرى الساعات القديمة ، يذهب بعيدا بعيدا ليخفى دموعه التى لا يسعه كشفها · ثم يرجع من ذلك الى ساعات الوقت الحاضر ، الى الساعات القاتمة وآونة أيامنا الراهنة · يعود من ذلك الى ليالينا والى ما تنذرنا به : البنغالور ، الالغم ، الموت فور اصطدام بشظية قنبلة أو ارتطـام فى أعماق مسيل ماء ··

غذاء ، حراسة ،، ليلة ، سد ، حارس ، كلمة السر ـ السد ـ هذا هو حديثنا ، هذه هى قصصنا ، هذا هو حوارنا ، مبادلاتنا وعالمنا · هى عين الالفاظ المألوفة التى تعود وتحدد جيدا الى أى مدى نستطيع أن نتقدم فى مناقشاتنا ، أحيانا فى الصباح ،

ألفاظ سعيدة لا صلة لها بالمكان والزمان ، ألفاظ تحسن الى القلب وتدفئه . ومنشأ هذا بدون ما ريب هو أن وجود السد والالغام والمدفعية يكاد يكون جزءا منا .

والالفاظ المنتزعة من صدورنا تؤدى جيدا الحضور فى مكان لهذه الآونة المشؤومة التى نتحملها كل ليلة ، كل شىء لا يخص المدفعية والمنطقة الحرام لا يبقى طويلا متصلا بأفكارنا وانتباهنا . مع هذا نحن الذين هنا متطوعون جميعا ، نحن رجال اختاروا هذا الطريق بحرية . نحن أردنا هذه الآونة وهذه الحياة ، وهبنا أنفسنا للمنطقة المحرمة ، للسد ، لهذه الليالى التى تشوهنا والتى تدفننا فى هذه الالغام العديمة الشكل ؟ ألزام أن نقول ان هذه القذارة المخدرة الضعيفة هى أقوى من ارادتنا للخروج منها ؟ ألزام أن نعتقد أننا عاجزون أمام هذا الصمت الذى يسحقنا ويقيدنا ؟

يلقى العسكريون الفرنسيون كثيرا فى المنطقة الحرام منشورات لها أبعاد ورقة من كراس مكتوبة بالعربية أو بالفرنسية ، تأتينا هذه المنشورات بـ «صوت فرنسا» ، وهنا البلد يعدنا فيها بـ « عفو » ، ويقول رجال الجهة المقابلة : « سلموا أنفسكم » ، تصف هذه المنشورات الحياة الهادئة التى يمكن أن نعيشها عند أهلنا ، لن نحرم من السلم والهدوء لو احتذينا حذو طائفة من رفاقنا الذين – فى نظر العدو – لم يترددوا فى الالتحاق برجال المعاقل والمدافع ، تذكر بعض المنشورات أسماء وتعرض صورا شمسية وتذكر الاماكن التى يقيم فيها طائفة من الرفاق ، وتروى أوراق أخرى كلام المواطنين الذين يخدمون العدو . يقص علينا هؤلاء ، اعتمادا على تفاصيل شتى يذكرونها ، الحياة السعيدة التى يعيشونها تحت الراية الفرنسية ، وآخرون أيضا يتعجبون مما يسمونه « حمقـ » نا ، و « عدم ادراكـ » نا ، وأولئك يرجوننا أن ننقاد للحق ونذعن للصواب ، أو بالاحرى ، ننقاد لحقهم . الحاصل أن كل المنشورات تطلب الينا أن نسلم أنفسنا فى أى مكان من السد نجد أنفسنا فيه ، بلا ابطاء . عدالة فرنسا ... صوت فرنسا ... اذا كنا لا نهتم بهذه المناشير ذلك لاننا نعرف بالضبط جيدا ماذا يحدث لا لنا نحن ولكن للاخوان الذين نتركهم وراءنا . نعرف أكثر من الكثير الحياة التعيسة التى يعيشها السكان المحاصرون المسيج حولهم داخل البلاد . نحن لا نجهل القصد الحقيقى للعسكريين الفرنسيين : معرفة مراكزنا بتدقيق ، معرفة

عدد قوانا المسلحة ، مناهجنا فى الازعاج والارهاق • الحاصل معرفة : كيف نتوصل الى الصمود والى البقاء ، أكثر عنادا من أى وقت مضى ، فعند ذلك ندوس هذه المناشير بالاقدام • ولا نذكرها حتى بلساننا • ولا تخلو أبدا من لفظة أو تفصيل فيه شتم ، ويجعلوننى اشعر بانهم يظنون أننا بدائيون غير صالحين للتاثر بالحضارة ـ حضارتهم طبعا ـ ولكن تغرينا مناشير أحيانا بان نبغض بغضا شديدا هؤلاء الاخوان الـــذين يحاربوننا بالسلاح ، نحن نعرف أنهم كثير وأنهم يخدمون تقريبا فى كل مكان من البلاد وأنهم قساة بله ، يقبلون ظهر المجن لاهلهم واخوتهم ، ولا يترددون أبدا فى أن يفتكوا بهم افظع الفتك وأخزاه • فهم الذين نلقاهم من جديد فى الخطوط الاولى واصبعهم على الزناد ، وهم الذين يسلبون ويخربون ويتعدون على الحرمات فى أغلب الاحيان بمرأى من أولياء الامر المتسامحين معهم المشاركين لهم فى الجناية • وهؤلاء الذين تعودوا الاجرام بحكم مهنتهم لا يتدخلون أبدا • كلاب صيد يرسلها ربها بين يديه ، والحركيون لا يدركون أى جريمة يرتكبون حين ينصبون لنا العداء • لا يدركون أنهم يقتلـــون الشعب ، شعبهم لقاء المال • لا يدركون ، ان السكان يخشونهم ويفـــرون منهـم ، والمجندون قهرا ـ بعكس ذلك ـ ان لم تجرهم وتدربهم وحشية هؤلاء البهائم الخالين من الذاكرة وان لم يكونوا متوحشين مثل جنود الفرقة الاجنبية ، انهم ـ رغم ذلك ـ ليسوا براء ينظرون ويصمتون ، شهود بكم •

اذن لسنا ـ فى نظر العسكريين الفرنسيين ـ الا قطيعا من البهائم أضلنا رعـاة أشرار ، غير مسؤولين سلم لهم لصوص سلاحا يغيرون به ـ من دون وعى منهم ـ على اصدقائهم فى كل زمان ، على حماتهم أى فرنسيى فرنسا التى نلقاها فى كل الاراضى التى لا تملكها ـ هم يتعجبون من أن نبقى طويلا قبل أن نذعن لـ « حكمة » الاخوان الذين سبقونا الى التشرف بخدمة فرنسا ، الى حكمة المسلمين الفرنسيين ، طبقـــة الاغنياء الذين يخشون ان يضيعوا ثروتهم ـ طبعا ـ لا تذكر المناشير أبدا ما هى الحياة التى يعيشها مواطنونا فى الارياف • ولا تصف أبدا ماذا يحدث للشباب فى المدن ، لا • لا شىء من كل هذا ، يصمتون عن تعاسة السكان وعن الاضطهاد الذى يعيشون فيه • لا يدرى العسكريون الفرنسيون أنه ـ منذ عين اليوم الذى اختارت فيه طائفة

من الشعب حل السلاح قد تقرر كل شيء ، ويصرون على الاعتقاد بأن القوة تنتصر على الحكمـــة ·

لا نلتقط المناشير عادة لانها تستخدم كثيرا كمفجرات لفخاخ ملغومة · هي رسائل موت غالبا ، « هم » يزرعون الغاما على الصعيد ويلقون عليها مناشير · هاهي ذي دوامة قد نصبت ، وويل لمن ينقاد لفضوله ·

اجتماع الكتيبة كلها في دار كبيرة تحت الارض ، قد حاذينا المنطقة الحرام مدة طويلة قبل أن نصل اليها حوالي طلوع الفجر متوشحين بسلاحنا · تركت حقائبنا في مقر الفصيلة كما ترك فيها العتاد الحربي تحت حراسة طباخنا ، طلع علينا النهار ونحن مختلطون بعضنا ببعض ومتعجبون وقلقون من أجل هذا الاجتماع المفاجيء ، والذين منا من كانوا حاملين معهم أقداحهم أخذوا حظا من القهوة ، أما الآخرون فقد تعلمـوا كيف ينبغي أن لا يتخلوا عن شيء قد يأتي بعائدة ــ وحوالي التاسعة ــ جمع رؤسـاء الفصائل رجالهم صفوفا اثنان في كل صف ، وفتش قائد الكتيبة كـــل الاخـوان الحاضرين ·

رجال منهارون متهدمون قذرون · ويظهر عليهم ــ ولو كانوا واقفين ــ انهم لـم يعرفوا قط متعة الضحك والكلام والرؤية ، والاسلحة ما كان أثقل عباها · ولكـن الانتظار لم يطل أكثر مما ينبغي ، وقبل الساعة الثانية عشرة بكثير وصل رجل بدين يتقدمه بعض المسؤولين من المنطقة كنا قد رأيناهم من قبل بدون وضوح ، وكان الرجل لابسا لباسا جديدا وكان يحمل على ذراعه جلابة ، وقع أداء تحية الشرف ثم صمت ــ خطاب ــ تحدث الرجل عنا ، عن البلاد ، عن الحرب · وتحدث طبعا عن المستقبل ، خبر سار ، ان مفاوضات مع فرنسا كانت جارية · وقال لنا : ــ مفاوضات ــ وكان للفظ أثر يثير الفضول لدى كل الاصدقاء ، فقد رفعوا فجأة رؤوسهم وأنظارهم ·

قد انقضت عشية هذا اليوم انقضاء أسرع مما ينبغي في نظرنا ، طفـــت علينا بسرعة موجة الاذواق والرغبة في السؤال عن أخبار الاصدقاء البعيدين ، الرغبة في الحديث فقط · مداولات ــ وفي المساء خضنا في طريق الرجوع بلا طعام ــ سير طويل ،

نعم . ولكن بلا بنغالور ولا سد ولا مدفعية . أنا ذاكر اجتماعا آخر مماثلا لهذا ، على أعالي جبل العصفور ، زارنا رئيس مجلس القيادة العامة العقيد بومدين ، رجل يجعلك تشعر أنه لم يغب البنغالور قط عن ذهنه ، جندى بقى قرنا فى أسفل سد ما مماثل لسدنا وقد قرر أن يجابه كل السدود على الكرة الارضية وعلى كتفه ملايين من البنغالورات . وكان هذا كلامه قصيرا مدة ذكرنا فيها بأن رفاقا كانوا يسقطون فى الداخل برصاص فرنسى ، مدة القاء واجبنا على وجوهنا : تدمير كل الاسلاك الشائكة ، كل الحواجز التى تفصل بيننا وبين أصدقائنا البعيدين الذين ينتظرون الاسعاف ، ينتظرون العتاد الحربى ، ينتظرون العلاج ، ينتظروننا .

نفكر كثيرا فى الرفاق الذين وراء السد فى داخل البلاد ، نعرف الحياة التى يتكبدونها والجبال التى تؤويهم ، نحسدهم ، هم لا يعرفون ـ على أقل تقدير ـ أين ومتى يموتون ، طبعا ، نستحيى من أننا لا نستطيع أن نمدهم بأى معونة ، هم الذين يعتمدون علينا لنزودهم بالعتاد وبشكل خاص لنؤيدهم بالرجال ، لنتمالك ـ على أكثر تقدير ـ وتجاهنا هؤلاء الحشود من عسكريين من كل نمط ، ان لم نركز هؤلاء على طول السد يخربوا البلاد . وقليل الاصدقاء المسلحون الذين يفلتون منهم ، واننا هنا كالبهائم ، نمشى كل ليلة على الرشاشات الفرنسية نتصلب بهيمة . ونموت فى الصمت حين لا اعانة لاحد فى هذا الموت ـ حياه منسوفة ـ .

ليست المسألة الآن ـ بالنسبة الينا ـ قطع السد فى كثرة بعنف . لم تقع ـ منذ شهور ـ أى محاولة للعبور . كلفنا العبور الاخير أربعين ضحية من الرفاق تقريبا ، هلكوا كلهم ، بين خطوط السد الاولى ممزقين بالالغام أو محطمين بالقنابل كانوا موقرين بعتاد الحرب ومحملين بأكثر مما يستطيعون حمله من الاسلحة ، كانت الرشاشات المعادية تطلق النار عن قرب . وقع ذلك فى العصفور ، والرفاق الذين نجوا من الموت فى المعركة واستبعدوا بسبب طلوع النهار حاولوا عبثا استئناف العملية فى الليلة التالية . نكبة ، رجال مكسوون بملابس جديدة هلكوا رميا بالرصاص من غير أن يستطيعوا تقديم أى معاونة للذين كانوا يريدون اعانتهم

ـ أصدقاء الداخل ـ وقد فهم العدو ومنذ ذلك الوقت أننا كنا قادرين على أن نتجاوز كل تكهناته ، قوى السد فى هذا القطاع ، وأتى بعدد أكثر مـــن المدافع والدبابات والرشاشات ـ أثناء النهار خلاطات الاسمنت تصب هذه المادة ـ معاقل ومحارس جديدة للدفاع عن السد دفاعا أجود ٠

لم يكن رفاقنا فى منطقة الجنوب أحسن حظا منا ٠ ترتقى محاولتهم الاخيرة للعبور الى عين الوقت تقريبا ٠ فى قطاعهم أسوأ عدو لهم هى الطائرة التى لا تبتعد أبدا من الحدود ٠ ولا يبقى لهم الا أن ينصبوا فخاخا للدوريات ويشنوا غارات سريعة ـ الحين بعد الحين ـ على التحصينات الصغيرة المتقدمة ٠

حاولت كتيبة صديقة ـ قبل عام ـ أن تحفر نفقا تحت السد ابتداء من المنطقة المحرمة ٠ ولكن العدو اكتشفه ٠

له حمار لتنقلاته ومزادة لحمل أدواته الـــتى يستخدمها : مقص ومجز ومشـــط ـ والحلاق ـ فى كل كتيبة حلاق واحد ـ هو أكثر الرجال الزائرين لنا تدربا ٠ ولا اعتقد أن له صديقا فى العالم ٠ جاوز الاربعين ؛ له قامة قزم وعينان جاحظتان، يتحدث بلا انقطاع عن أى شىء ، اذا أخبر الحارس باقترابه نخفى بسرعة القهوة والسجائر والكرتونات ٠ الحاصل كل ما من شأنه أن يغريه ، ولكن كل شىء يغريه ، نحرص اذن اما على أن نختفى فى مخبا ما بعيد ، واما على أن نتناوم ـ يستعطى كل شىء ولا سيما الثرثرة ٠ لا يعفى أحدا منا من ألفاظه وصوته واشاراته ، يحدث ، يتحدث بلا انقطاع وأتساءل هل هذا شىء طبيعى ؟ أليس هذا رجلا مريضا ؟ لان الشىء الحيوى بالنسبة اليه هو أن يتحدث وأن يسمع الى أى حديث كان من أى محدث كان فى أى وقت كان، ويبقى معنا المدة الكافية ليتزود بالالفاظ ، ويذهب الى فصيلة أخرى ، ولا يركب حماره وهنا يتقدمه دائما فى الطرق الملتوية التى تحاذى المنطقة الحرام ، صديقان ... من بعيد نرى الرجل يومىء يحادث حتى حماره ، كم مرة رأيناه ، رفيقان ٠

ضابط الارتباط ـ رفيق الرفاق الآخرين ـ يستعمل لنقل الرسائل ، أخبـــرنا بوجود مدفع غريب فى مقر الكتيبة ، يدعى أنه لم يره قط من قبل وسمع القول بأن

المدفع صينى لا يرجع إلى الوراء ، ليس ضخما جدا ، على رجل ذات ثلاث قوائم • نعيش منتظرين لاخبار أدق ، لان الخبر خطير جدا • نأمل أن هذا الموضوع يعنى فقط سلاحا للتجربة لا تجهيزا جديدا ، وقد يكون الامر من الاهمية بمكان ، مدفع • ولا نجهل أن تكوين رجال المدفعية يجرى فى قاعدة خلفية ، وأن عددهم كثير • وأن ذخائرنا بعيدة جداً من الحدود • كيف لا نخاف اليوم الذى تصير فيه هذه المدافع فى متناول يدنا • مدافع ثقيلة تساوى فى القوة مدافع القوم الذين تجاهنا ، اذا نزل هؤلاء المدفعيون الشباب بيننا علمنا بسرعة أن اليوم الخطير قد حل • ستهجم الدبابات المعادية وسنكون ، نحن بالضرورة ، أمام مدافعنا للدفاع عنهم •

الحراسة بعد وسط الليل وبعد السد جد متعبة ، ولا سيما فى الصيف ، الاعصاب تسترخى بسرعة بالغة ، قبل تباشير الفجر بقليل تغمر أشعة الشمس الحارس وتلقيه فى بئر بلا قعر ، تحطمه مهما فعل هذا الاخير لابقاء عينيه متفتحتين ، يتدلى الرأس على الصدر أو على الكتف ويسيل اللعاب على الذقن ، ويسقط السلاح ببطء من اليدين•

نحن سبعة نضطلع بالحراسة ، وغيرنا ـ رؤساء فرق أو فصائل ـ معفون منها •

فى الاسبوع الماضى أطلق حارس فى مركز الكتيبة النار على رفاق كانوا قد خرجوا للقيام بدوريات ، والمطر ينزل والريح تعصف • ومرد الامر أن كلمة السر قد نسيت ، ومن حسن الحظ أن الخوف كان أكثر من الضرر • وضحكنا مرة أخرى ، ولابد ممن الاعتقاد أيضا بأن بعض المسؤولين يتنازلون أحيانا لاى رغبة فى اسم أو لفظ • بينما يقتضى الامر أن نكون واقعيين ، اسماء مدن جزائرية ، أسماء رفاق ، ولكن أحيانا أيضا اسماء غريبة • من هنا الحادث •

اعود الى الحراسة • نتخاصم بلطف على الدور الاول اذا كان القلب راغبا فى النقاش • وهى أسهل حراسة فى التحمل • وتمكننا من أن ننام طويلا من بعد اذا لم يكن السد فى البرنامج واذا كان الرفاق الذين ينهضون لنوبتهم فى الحراسة محافظين على السد ولا يحدثون جلبة كثيرة ، الحراسة الاولى ، من لا يخاصم عليها ؟

ليست الليلة شديدة الظلام فى ذلك الوقت ، نستطيع حتى أن نغامر بتدخين

سجارة فى أنبوب سلاحنا ومؤخرة البندقية مفتوحة لاخفاء النار • ونحلم ان استطعنا أن نحلم • لتزجية الوقت نحسب الكواكب على ممر الثوانى والدقائق بمقدار ظهورها فى السماء اثنان ، ثلاثة ، ستة ، وعن قريب عشرة • وبعد ثوان تظهر خمسة عشر كوكبا ثم تظلم السماء وتكثر الكواكب ، تكشفها غياهب الليل ولا نعود نستطيع عدها • ونصير أثرياء أكثر مما ينبغى • فعند ذلك نختار الدرارى منها وهى أجملها • ثم نفكر فى جميع من نحبهم والذين لم نلقهم منذ دهر • وهذه الذكرى تـرد الى الواقع والى الارض السوداء التى ترتسم أمامنا ملأى بالريح والهيجان القابل • نحرس ، ونحترس من أن نضل فى تبعية السماء ، والنفس لا تكاد تتحمل هذا التخلص فى غسق الليل • ويتحول النظر الى الجبال التى تواجهنا ، المحارس والبروق المتوهجة اللامعة مـن القنابل والجحيم المنصب على رفاق آخرين يجرون فى المنطقة الحرام • الحراسة ، لعل ذلك هو الوقت الوحيد الذى نفهم فيه قليلا سر السد •

الاوامر بالغارة تنهل كالمطر بلا توقف • ومن قبل كنا نستريح ليلة من ثلاث ، من أربع • من الآن فصاعدا يجب أن نذهب الى السد كلما أظلم الليل ، ساعات الهجـوم وحدها تختلف • نخرق المنطقة الحرام فور مغيب الشمس أو عند تباشير الصباح • نغتنم دائما فرصة المفاجأة • نضايق من فى الجهة المقابلة ولا ندع لهم أى مهلة • لو كان ذلك سهلا هكذا كما يظن فى الايـام الاولى • والفصائل الاخرى التى تشاطرنا قطاعنا أيضا يظهر منها انها تتشبث بالسد باستمرار ونحن أيضا لا نكاد نعرف أى مهلة • تلتهب الجبهة أحيانا فور انتشار الظلام ولا تخمد نيرانها الا عندما يتبين الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر • والغارات المعممة التى كانت من قبل كثيرة الوقوع هى اليوم يومية • كم مرة نجد فى الملجأ ذخيرة جديدة من البنغالورات بينما تسلمت الذخيرة السابقة بالامس •

كم مرة فى الليلة الواحدة نشعر أنه لا فائدة فى القاء أنفسنا على الصعيد اتقاء لنشر الشظايا والرصاص لنا وأنه لا فائدة فى التحيل والتحذر واطالة الحياة •

توزع المدفعية الفرنسية الموت طوال الليل كأنها ماكينة ليست فى حاجة الى أذرع الرجال • وضعت هاونات ثقيلة وراء كل معقل على مقربة من خطوط الاسلاك الشائكة ،

وعلى مقربة منا ومن المصفحات فى عدد أكبر تنهال قذائفها على السد بلا انقطاع • ولم يعد محتلوها يختفون داخل كتلة الفولاذ • بل يسهمون حقا فى غارة زملائهم من المراكز الاخرى • ويستخدمون أيضا كل أسلحتهم : مدافع ، رشاشات ثقيلة ، مسدسات رشاشة ذوات سدنة • وقاذفات رمان عسكريى المراكز الاخرى لا تستريح هى أيضا • تتحطم ـ منذ حين ـ قنابل فى المنطقة الحرام آتية من عدة عشرات من الكيلومترات منطلقة من داخل البلاد • ويغلب على ظنى أن بحارة استخدموا مدافع ركزوها فى الشواطىء تعزيزا لقوتهم ومضاعفة لعنفهم وحقدهم • وتدقيقهم مخيف ، يخيل الينا أحيانا أننا نجتذب كالمغناطيس كتل النحاس هذه المحشوة بالموت السريع •

ثم كيف السبيل الى الاعتقاد بأن الموت قد يكون أيضا صعب الاحتمال مثل ما نتحمل كل ليلة ؟ لا يظهر لنا الموت أكثر ترويعا • ويجعلنا التعب نتمناه فى كل وقت . وهو هنا الآن يكاد يكون محققا • ويجب أن نهجم على السد مرارا وتكرارا وفى كل لحظة من لحظات الليل • ويجب أن نضايق المعاقل والمحارس بأسلحتنا التى هى أشبه بالتبن • وبأجسام مدمرة بالتعب والغضب وهى أجسامنا • يجب أن يستهلك العسكريون الفرنسيون كل ليلة ذخيرة العتاد التى يتسلمونها كل صباح بصبها علينا . يجب أن تطلق مدافع الجهة المقابلة علينا أكبر عدد ممكن من القنابل كل ليلة • يجب أن تصيب الحد الاقصى من عدد الجنود الفرنسيين للتخفيض من حدتهم وتقليل ادعائهم ونقص عددهم • ولكن فصيلتنا لا تكفى ، يجب أن تكون ضخامة غاراتها أشد وفاعليتها أقوى ومخاطراتها أكثر ، حتى ولو أردنا أن نحتال لاتقاء المجازر التى تمزقنا لما استطعنا • فنحن مضطرون بحكم قوة قاهرة الى شجاعة أكثر والى جرأة أقوى • لا نستطيع أن نغس ـ لا نستطيع أن نفجر البنغالور بعيدا عن السد ، لان الناس الذين فى الجهة المقابلة قد يفهمون حالا أننا صرنا أنذالا أخساء ، وأننا ليس لنا جرأة على اصابة السد وأنهم ـ هكذا ـ يستطيعون أن يقدموا قليلا مراكزهم • وقد يأتون الى هنا ـ فى قلب المنطقة الحرام ـ لنصب فخاخ أخرى لاختبارنا وجس نبضنا وسر أفكارنا • ولوضع محارس أخرى لاصابتنا اصابة أشد • لا • لا نستطيع أن نخفض من عنادنا وبسالتنا • قد يكون ذلك منا ـ لو وقع ـ سعيا الى حتفنا بظلفنا ، الى هزيمتنا •

ومهما يقل عنا ومهما كان الحكم على حياه الجنون والقسوة هذه يجب علينا أن نذهب الى أبعد مما نستطيع ، الى أن نتجاوز أنفسنا لنحتفظ بهذا التوازن غير الثابت · فقد رفع هذا التوازن كل الرفاق الذين سقطوا بدمائهم ودموعهم توازن القوة والشجاعة ·

كل المحافظين السياسيين الذين أعرفهم يتحدثون بصوت منخفض ويشكلون طبقة خاصة ولهم امتيازات يحسدهم عليها رؤساء الوحدات · لهم أن يلبسوا جلابتهم فى كل وقت ويذهبون الى حيث يشاءون · ويذهبون غالبا لزيارة الاسر القريبة من الحدود . وفى الليل لا شيء يوجب عليهم أن يكونوا معنا فى السد · يزوروننا متى سمحوا بذلك فى آخر النهار · وليس للمحافظين السياسيين سلاح حقيقى الا مسدس يتقلدونه علانية.

ان المحافظ السياسى فى حال عمله يثير دائما الاهتمام ، حتى الجو الذى يخلقه هو مؤثر · نبقى الساعات الطوال جالسين حوله فى شكل دائرة وتضيء علينا شمعة أو شمعتان · والمحافظ السياسى يتحدث · التاريخ، يحدثنا عن الرومان وعن الاتراك · يتحدث عن المستقبل الذى يعرفه جيدا ولا ينسى أبدا أن يستشهد فى حديثه بالقرآن الكريم · ان الله ـ هكذا ـ يؤيدنا دائما · ان الله يحب المقسطين · ان الله يحب الابطال · شيء من الجغرافية أحيانا · وهكذا يقوم المحافظ السياسى بعمله ويبعث فينا الشعور الوطنى · ولا تثار أبدا المناقشات حول السد ولا حول المدفعية ·

الليالى الممطرة مفزعة ، اذا فاجانا المطر فى المنطقة المحرمة تحتت فى دوى الامطار المنهلة فتات الشجاعة الذى جمعناه قبل الخروج وتثقل خطانا ، فى أسفل السد يجن القلب ، يلقينا كشاف النور على صدورنا نحو الامام لاصقين بالصعيد المتوحل ويزيد الرعد فى هول الموقف · وقد يجن بعض الاخوان بسرعة فى مثل هذه الظروف ـ أخذ رفيق ذات ليلة فجأة يصرخ ويطلق النار فى آن واحد وهو واقف فى الظلام ـ واضطررنا الى الرجوع الى عين المكان وفى عين الليلة قبل الفجر بقليل لتفجير البنغالور الذى تــرك مكانه ·

يملأ المطر المنطقة المحرمة بعدد وافر من الاصوات والاشباح المطلسمة وينشأ عالم غريب من ضباب الليل وصخب الامطار ، والفزع الذى يستولى علينا يقصى الى أعماق

أفكارنا الاحتراس البسيط ، وليس عجيبا أن نجد انفسنا فجاة فى أسفل دبابة مختفية بكتلتها الفظيعة داخل السد . والقليل الذى نحتفظ به من قلوبنا يجعلنا نضع ركبتنا على الارض وننتظر ، ننتظر أن تواصل الدبابة دوريتها فى مكان أبعد او تلتحق بمركزها ، ملفوفة فى جلبة، المغارة التى نعرفها عنها، اذا أوقد لسوء الحظ سدنة الدبابة المصابيح الدقيقة التى تهديهم الى الطريق عند وجودنا على خطوات فقط لا نجد أى قوة حتى للدعاء .

والرفاق الذين يحاولون أن ينسحبوا لا يؤدى عملهم ذلك الا للكشف عن وجود الاصدقاء . يعرضوننا هكذا لرشاشات الدبابة التى تطلق علينا النار عن كثب ، يجب اذن أن ننتظر فى السكون الاكمل فى صبارة المطر وركبنا على الوحل ، وفور انفجار البنغالور تنصب علينا مئات القنابل فى شكل غير معقول وتردنا الى الحياة . ويجد الجسم من جديد بسرعة كبيرة الوقت الحاضر وتلك هى اللحظات الوحيدة التى لا نهتم بشظايا القنابل وبالرصاص . اختار أن أكون هدفا لاى سلاح على أن أكون ضحية للانتظار عندما تكون دبابة جد قريبة .

تطلع علينا الشمس فى الصباح ونحن فى الخارج بنجوة من أنظار من فى الجهة المقابلة وثيابنا منشورة أمامنا ملأى بالوحل والهلع . الخوف ، المطر . الليل ، الزوبعة تلوينا مهما فعلنا . لو استطعنا لاجل عملنا أن نستعيض عن الليل بضوء النهار .

كل الوسائل حسنة لاتقاء القنابل والرشاشات . لم نعد نتوجه الى السد من أقصر طريق ، نحاذى المنطقة المحرمة حتى أقرب مركز مغربى قبل أن ننقض على خط مستقيم على خطوط الاسلاك الشائكة ثم نرجع أدراجنا على عين الخط بسرعة متزايدة أكثر فأكثر لان الجهل بالميدان جعلنا نبطىء فى المرار الاولى ، ويطلق عسكريو المعاقل النار على الظلام وعلى الاشباح والاشواك وتتبع المدفعية الحركة دون أن تشعر أن مئات القنابل المنصبة لا تشق الا الهواء والدخان ، الفراغ ، ان القنابل المضيئة والرصاص الخطاط للرشاشات تظهر منظرا ملونا لا ينسى ننظر اليه مرة أخرى من أوله الى آخره ، والنظر ثابت لان المركز المغربى الذى غادره محتلوه يمكننا من الاستراحة قليلا قبل أن نلتحق بفصيلتنا .

متفائل . قد ظن ذلك الرفيق أنه أحسن عملا عندما مزق ورمى رســـائل وصورا شمسية عائلية كان محتفظا بها ــ خوفا من افشاء أسرار أهله ــ .

أفكر في الليالى التى تحل ، وأتمنى أن لن يخرج واحد من هؤلاء الرفاق الحـديثى العهد الجدد الى السد قبل أيام ، قبل الوقت الكافى للشرح والبيان لهم ، هذا الوقت الذى يجب أن يعيشوه .

طلبت منى رسالة مع أسلحة وأمتعة سفر ، عقدت شيئا عــلى رقبتى وغادرت فصيلتنا فى عين الليلة يتقدمنى الرجل الذى لا يفارقنا : الحلاق ــ رجل الارتباط ــ العالق بحماره . كنت متخوفا جدا لانى لم أكن عالما بما خبأه لى القدر . منذ ذلـك الوقت أنا فى مقر السرية ، وقائدها يدعى هوباد ، هو من حدود الجنوب أراه خفيف الروح بصفته قائدا . ولا شك أن حنكته وهذا النوع من المرح والطلاقة التى كانت فى طبعه كل ذلك كان سببا فى حكمى ذلك عليه ، أقدمية ست سنوات . له معاونان وأمين سر لتحرير المحاضر الخاصة بالسد ، سليمان ولد طيب جدا يكبرنى بزمن قليل وكان كله فطنة ، قد أعطانى سليمان سترة وبنطال نظيفين أخذهما من ذخيرة الثياب ، وعدت بأنى آخذ عن قريب حذاء وفق رجلى . اما الحذاء الذى عندى الآن فهو أكبر مما ينبــــغى .

وأخيرا المحافظ السياسى ، وهذا يخص الرفاق المسؤولين ، أما غيرهم وأنا منهم فلا يكاد يجاوز عددهم أربعة ، يحتفظ بهم لحراسة مركز القيادة السرية .

هنا الغذاء لا يتغير كما فى كل مكان آخر . أما القهوة فهى أكثر من الكثير ، قد بعثت الى شايب وحامى وتافع كمية صغيرة من القهوة ملفوفة فى خرق ، أعرف أن هذا يسرهم ، والخبز الذى نأكله فى الوجبات له طعم خبز الجنة ولا ننام على الصعيـد مباشرة ، بل لنا حصير .

خيالى يهيم كثيرا منذ هذا الانتقال ، لا أدرى ما قد ينجم عن هذا التغيير . وناس هذا المكان ليس لهم عين العقلية التى عند أصدقائى فى الفصيلة ، ويجعلوننى أشعر ــ لولا دوى المدافع القريبة ــ كأنهم لا يأبهون لكل ما يحدث كل ليلة على مرآى منهم

في المنطقة المحرمة ، ألاتهم لا يذهبون اليها ؟ أو لانهم رأوا هذه الاخيرة مدة أطول مما ينبغي ؟ أو ... أو ... كنت أظن أنه قد انتهى ما بيني وبين السد والمنطقة الحرام ، انخدعت ، جريت أمس أكثر من أي وقت مضى تحت القنابل ، مدة ساعات بعد البنغالور . جن قلبي من ذلك ، أمثل السرية ازاء فصيلتي القديمة فيما يهم غارة معممة ، مشيت اذن كالعادة الى السد . مدة أطول مما هو مألوف لان مقر السرية هو أبعد من مقر الفصيلة ، تعب مضاعف ، وفي الرجوع صارت ساقاي لا تمتثل لي . التحقت بالسرية منذ خمسة أيام ـ ذهبت ثلاث مرات الى السد ـ علمت أن أحد معاوني قائد السرية هو ضابط صف قديم في الجيش الفرنسي ـ قد يكون خدم في الهند الصينية ـ أسمعه أحيانا يتحدث عن مزارع الارز في آسيا .

هذه جماعة من حاملي شهادة الباكالوريا عابرى سبيل انضم لكل فصيلة من فصائل السرية فرقة منها وجهت من ألحقوا بفصيلتي ، ومنها أتيت بهم في الصباح بعد البنغالور . فقدت فصيلة الهاون الثالثة واحدا في المنطقة الحرام مزقته قنبلة . وسيما عابرى السبيل هؤلاء لم نعد عينها عند رجوعهم ، كانوا يتحدثون بصوت منخفض . ولكن من لا يفهم ذلك ؟

انها عجوز جد نحيلة أضافتنا . تصنع لنا خبزا أحيانا ، والقهوة دائما ، أعتبرها رائعة بشجاعتها ، ذهب ابنها الوحيد يعمل في فرنسا قبل ثماني سنين ، لم يكاتب أمه ولم يواف أمه العجوز بأخباره قط ، هل فقد ؟ مضيفنا لا يدري أهي جزائرية أم مغربية ، ولا يدري أين يكمن الفرق ، عند الرجوع من السد ـ اذا احتفظت بفتات من قوتي ـ لا أنسى أن ألقط شيئا من الاغصان اليابسة ، ذلك ما يجعله في وقاية من دخان التبن . الحمار الذي يستعمله حلاق الكتيبة ملك له .

لا أدري لماذا نقلت ، لم يتغير شيء ، غير أني يجب أن أسير على طريق أطول عند ذهابي الى السد ، البنغالور ، المدفعية ، الحراسة ، لا تغير .

خلافا للحياة التي كنا نعيشها في الفصيلة ، لا نعيش هنا الا في النها . الليل هو للنوم أو للحراسة . وهذا له صلة بحالة الانسان ، في الصباح يأتي المسؤولون

من كل الآفاق للزيارة · رؤساء فصائل ومحافظون سياسيون بشكل خاص ، واحد منهم : التهامى رئيس الفصيلة الثانية هو نسخة طبق الاصل لشايب ، صديقى على الدوام ، ضحكه يدل عليه كل مرة · هو بنك من الحبور والتفاؤل حقا ، تراه يفاكه زملاءه حتى حين تكون الاخبار التى ياتى بها مفجعة ، يسخر التهامى بشكل خاص من معينى رئيس السرية وأحيانا يتهكم بهذا الاخير · قال لى رقافى فى الحراسة انه فى الفصيلة الثانية لا يقع خروج الى السد بدون التهامى ·

وتزورنا شخصية أخرى من حين لآخر ، المحافظ السياسى للكتيبة ، اشقر عملاق رأيته وسمعته فى الفصيلة · بينه وبين المحافظين السياسيين للكتيبة تباين كبير · يقود هؤلاء بكرامة ، ان الصراحة التى يمتاز بها تكفل له تقدير رفاقه له وتعاطفهم معه · ومع هذا يلقى هؤلاء نادرا · مضت على ثلاث ليال بدون بنغالور وبدون منطقة محرمة · فى هذا الصباح غسلت رجلى للمرة الاولى منذ ما يقل عن تسعة أشهر بقليل · رجعنا الى السرية حوالى السادسة وشاشنا على رأسنا والبندقية تحت جلابة الخدمة · حملنا الى مقر الكتيبة رفيقين جريحين كلاهما من فصيلة التهامى الثانية · جرح أحدهما جرحا خفيفا فى الفخذ سببه شظية قنبلة والثانى تمزقت قدمه اليسرى، لغم محبرة · رجله معلقة والعظم بارز يمسكه الجلد فقط · استمر أنين الاول وغشى على الثانى · رافقنا ممرض الفصيلة ، بقى فى مقـــر الكتيبة لا أدرى لاى سبب · وعند الرجوع شعرت بأن سترتى لاصقة بجسمى لصوقا شديدا · كان ذلك من الدم · وشعــرت بوجود الدم من رائحته الخاصة رائحة ملح البحر · أعرفهما معرفة جيدة · وكان على عنق أحد البغلين اللذين حمل عليهما الجريحان بقع دم عريضة سوداء · عين الدم البشرى .

سبع ليال بدون بنغالور · لا أدرى بماذا ينبىء هذا ، ورفاقى فى الحراسة لـــم يذهبوا هم أيضا الى المنطقة المحرمة · ننظر من مراكزنا تحطيم آلاف من قنابل المدفعية أظن أنه قد انتهى الزمان الذى كنا لا نهجم فيه على السد الا ثلاث مرات أو أربعا فى الاسبوع · يقطع الآن رفاق الفصائل الاشقياء كل ليلة مرة أو مرتين لهب الانفجارات ورصاص الرشاشات · ان رئيس زمرة من فصيلتى القديمة نسفه البنغالور الـــذى كان قد فجره هو نفسه من قبل بقليل · وكان كثير التحدث على أولاده أحرس كـــل

ليلة فى عين المكان فوق مستودع حبوب خرب ، يملأه بنغالور فى حالة انتظار · من مركزى اشرف على السهل الذى يمتد حتى السد ، يخيل الى أنى اترصد عدوا لن ياتى أبدا · اتلهى فى دقائق وساعات نوبتى فى الحراسة متابعا بعينى شبكات كشافات النور والرصاص الخطاط قاطعة غياهب الليل ، يبقى مركز الحراسة شاغرا أثناء دقائق يقتضيها تبديل الحارس · وأحيانا يصل مسؤولو المنطقة الى مقر الكتيبة فى آخر النهار · اما فى الجبهة فيأتون الى مركز الحراسة الذى فوق مستودع الحبوب ويبقون طويلا ونظرهم مثبت على المكان الذى أضرم فيه البنغالور والمدفعية النار · وهم ملتفعون فى جلاباتهم وأيديهم فى الجيوب · ذلك منظر يتذوقونه مليا وعند شن غارة معممة ياتون لاجلها وهم الذين يبتون فى أمرها لا ينصرفون عنا فور عودة الصمت الى السد ، ينتظرون رسائل الفصائل التى تحمل الاخبار · كم قتيلا ؟ كم جريحا ؟ أى مركز أصيب ؟ منذ ثلاثة أشهر تقريبا صارت هذه الغارات المعممة يومية ·

أتجنب دائما رؤية الجرحى الذين فى حالة عبور والناس يقومون بخدمتهم · أخشى أن أتعرف على واحد منهم ـ أخشى أن أتعرف على صديق ·

أكتشف شيئا فشيئا مقر الكتيبة والناس الذين يخدمون فيه ، أربعة مراكز حراسة كلها واقعة فى أماكن غير ملائمة ولا فائدة فيها تماما · ست حجرات مبنية بالحجر ، ثلاث لرجال الخدمة والحراسة والنقل ، الخ ·· اثنتان لمديرى الراديو وثلاثة للكتاب والسادسة للمحافظ السياسى ، وقائد الكتيبة كما انهما لمحمود المعاون الذى ليس له أى صفة محارب بينما هو محارب أكثر من أى شخص آخر ، رئيس مديرى الراديو ـ هم ثلاثة ـ هو من سوق أهراس ويدعى ديه زين وفر من مدرسة سان سير بفرنسا ـ ومعاونه من تلمسان اشقر ومتأنق مفرط فى الاناقة · لم يضع أحد منهما قط رجله فى المنطقة الحرام · ياكل المسؤولون على حدة فى حجرتهم · والكتاب الذين يراسهم شاب هائل قادرى ياكلون مع مديرى الراديو ، والحاصل أن الآخرين ياخذون نصيبهم فى أطباق كبيرة من فخار ·

هنا تطفأ المصابيح باكرا جدا ، أتساءل لماذا ؟ اذ مقر الكتيبة لا يرى الا من جهة المغرب · وفيما يخص الضوء ليس الا ضوء بعض شمعات · لمولد الكهرباء المسير للمحطة

المرسلة ـ المستقبلة جلبة هى التى تنبىء وحدها فى الليل بحضور انسان ، هنا لا يكاد أحد يتحدث أبدا عن المنطقة المحرمة ٠ وهو عالم على حدة ٠ ورفاق الحراسة وحدهم هم الذين يهتمون بما يحدث هنالك : فى الجبهة ، تجاهنا ، فى السد ٠

والآخرون يقصون ذكرياتهم الخاصة بالحياة المدنية على أولاد يشدهم الى جوارنا باستمرار حب الاطلاع على حياة الجنود ٠ كنت أول أمس قائما بالحراسة عندما ارتسم فى الظلام شبح زمرة أتت من قطاع التهامى الى الكتيبة بجندى من الفرقة الاجنبية قد هرب ، قصير ، أشقر ، قال لى انه ايطالى وأن اسمه ماريو وأنه هرب بسلاحه ٠ كانت يداه مطلقتين وكان ـ على حسب ما ظهر منه ـ فى وئام مع نفسه ، ولم يكـن خائفا من أى شىء أو انسان ، أذكر الليلة التى أتينا فيها شايب وأنا ببولونى عملاق ٠ كان واقفا فى قلب المنطقة المحرمة ٠ وكأنه كان ينتظر وصولنا ويداه مرفوعتان ، وقد قضينا دقائق طويلة قبل أن نقترب منه لمخاطبته خوفا من كمين ، فهذا لم يكن يتكلم بالفرنسية الا ألفاظا قليلة ، مد لنا سلاحه ، تساءلت كثيرا : أين كان ، ولعله كان فى قاعدة خلفية ٠ يعنى مجلس القيادة بهم عناية طيبة ٠

لى منذ قليل صديق جديد ، وأنا معتز بكونى صرت صديقه بسرعة ، يدعى فراد أرزقى ، هو من بويرة ، القبائل الكبرى ، هو الذى يوقظنى فى الليل لاخلفــه فى الحراسة ، نتحدث قليلا أثناء نوبته أو نوبتى ، بقى ثلاثة أشهر فى فصيلة هــاون قبل حضوره هنا ، علم الرياضيات فى ثانوية مغربية بعد ما فر من فرنسا ـ حيث تابع جزءا من دراسته ـ ليتخلص من القيام بالخدمة العسكرية ، هو متطوع مثلى ، لا أعرف أحدا فى هذا المكان يقول انه صديق أرزقى ٠ غضوب ذو طبع كتــوم ولا يتحدث الا باللهجة القبائلية أو بالفرنسية ، أظن أننى أعرف سبب هذا التعاطف السريع ٠ ولدت فى مسيرده على شاطىء البحر على ثلاثين كم ، تقريبا من الحـدود ، ويدعى سكان مسيردة القبائل ، والناس يسخرون أكثر مما يحتمل من لهجتنا التى تشبه لهجة سكان قرية صغيرة فى شرق البلاد ، لعل فى هذا سبب حظوتى لدى أرزقى ٠

أتعلم كثيرا معه ، وعلائقنا تتطور من أستاذ الى تلميذ ، لا ليجرح عواطــفى أو

ليغيظني لاني لا أعرف شيئا وأنا جاهل تقريبا بكل شيء • عندما يحدثني عن بلاد القبائل وعن جبالها المهجورة أصف له مسيردة ومضايقها الفخمة التي تنفتح فجأة على البحر ، يثني لي على البطولة الاسطورية لدى المحاربين القبائليين ، وأقص عليه قصة المعركة الاولى الحقيقية ضد العسكريين الفرنسيين في مسيردة على جبال فلاوسن ، اذا غضب وصفني بأني قروي جاهل وبصق على الارض وذهب بعد ذلك الى الاخبار من جهة مديري الراديو ، وهكذا بلغني بعد ذلك أن اطلاق النار وتبادل الرصاص والاغتيالات مستمرة داخل البلاد ـ رغم المفاوضات الجارية ـ وأن العسكريين الفرنسيين لا يكادون يتفقون حول ما يجب أن يأتوا أو يدعوا وأن أمواجا من المهالك تنقض على الشعب يطلقها عليه بقوة هائلة جيش لعله يتفكك ويتشتت ويأتكل في وحشيته وحقده•

أرزقي ينعزل ويلزم الصمت أياما بأكملها عند ما تبلغه هذه الاخبار ، تسكن أسرته في بويرة حيث أبوه مستخدم بريد • أرزقي يعلمني اللهجة القبائلية •

بقيت ست ساعات سجينا ويداي مغلولتان ـ تلك أفظع أوقات أذكرها ـ كنت أخشى ما كان ينتظرني وأذكر باستمرار ما كان يقال عن القطاع الخاص بالمتمردين على النظام وعن الآثام الكبيرة جاء أرزقي ليقابلني ، رجع الى حراسته بعد ما ألصقت بشفتي سجارة موقدة • كدت أبكي ، وفي المساء اجتماع كل الرجال الحاضرين في فناء صغير قريب جدا • أثناء الغداء كنت لطمت أحد مديري الراديو : التلمساني ، لا أدري كيف استطعت أن أتصرف هكذا • قد كان طلب مني فقط أن أذهب لآكل مع ناس الحراسة • يسكن روعي شيئا فشيئا بعد قلق هذه الليلة ، وكان قائد الكتيبة حليما ، أثناء وقوفي وقوف الجندي تلقيت ثلاث لطمات بيد عين مدير الراديو • وما تزال وجنتي اليمنى محتفظة بلهبها •

أراني أرزقي اليوم منشورا لجبهة التحرير الوطني ، هذا الاخير موجه لكل الفرنسيين المقيمين في بلاد الجزائر • تذكرهم جبهة التحرير الوطني بأن بلادهم هي التي يخربونها • وتقول لهم انهم ستكون لهم بقعة في الجزائر الجديدة التي تعدها حرة خالصة من الحقد •

رجع محمود معاون الكتيبة من جولة عند السرايا ، ضحك من المغامرة المزعجة التى وقعت لى ، كما لو كان هذا مضحكا • اعطانا علبة سجائر لنقتسمها ، وضعت منها أربعا جانبا ، اغتنم الفرصة من حضور اول عابر الى قطاع فصيلتى القديمة لابعث بها الى شايب ، تلك أجمل الرسائل بالنسبة اليهم •

نحن فى قلب الريف المغربى ، معسكر قرابة ثلاثين خيمة • مركز التدريب العسكرى ، لجيش التحرير الوطنى فى هذه الناحية ، كبدانى وزيغنغان ممتلئان بالرفاق القادمين من كل حدب وصوب فى قوافل لا تنتهى منذ الجنوب حتى الحدود الشمالية ، يجدون فى هذين المركزين ليل نهار ويشحنون آلافا من صناديق الاسلحة والعتاد الحربى توقعا لبعثها الى الجزائر ، أما ما يخصنا نحن فاننا محاصرون هنا قريبا من ميدان - أعلن وقف القتال لا أدرى متى • الجزائر مستقلة •

لا تصنع شيئا هنا ـ تنتظر ـ أدع سلاحى قرب صديق وأدخل بين صخور مسيل ماء فى برودة الظل • هنا تجتمع فرقا صغيرة بنجوة من وهج نور النهار ـ رفاق لم ألقهم قط ، كلهم من المزيلين للالغام ، جمعنا فى كتيبة واحدة من عين الاختصاص من مسرحى الحراقين الذين كانوا من قبل موزعين على طول الحدود •

منظر الريف جميل جدا ، طبيعة مهجورة ، قد تاتينا الريح بنفحات من هواء البحر ، زرافات من الاطفال يعيشون باستمرار فى المخيم ، بجانبنا فى انتظار العشاء ، الناس جد فقراء فى هذه الناحية - يبعثون بأولادهم للحصول على صبابة من العيش ـ وهؤلاء الاولاد يتحدثون باللهجة القبائلية مثل أرزقى ـ لم أقابل هذا الاخير بعد ثانية ، وشايب ايضا ، علمنى أرزقى درسا لن أنساه أبدا : أن لا أسال أحدا من أين هو ومن هو • وعند ذلك ، أنظر وأنصت للاحلام التى لا تحصى ، تضطرب وتنعقد حول محاورات الرفاق أتعلم نوعا جديدا من الحياة • وقد يحدث لى أن أستيقظ فى الليل مذعورا - فكابوس السد ما يزال عالقا بأجفان عيوننا احاذى مسيل الماء حتى يردنى التعب وأرجع أدراجى ، أرغب فى أن أسير الى طرف الدنيا ، لى رغبة حقا فى أن اعيش من جديد ••

قبل ثلاثة أشهر بلغت سن تسع عشرة سنة •

توضيح

ننشر هذه المحاضرات طبقا لمبدأ نشر كل محاضرات الملتقى الذى أعلنا عنه فى العدد الاول من « الاصالة » تعميما للفائدة ، ولطلب الكثير ممن تصلهم المجلة ولا تصلهم كتب الملتقيات .

وقدقررنا أن ندرج فى كل عدد على الاقل مقالين .

ونرجو أن يكون السادة الاساتذة الذين أرسلوا الينا بمقالات لم نصل بعد الى نشرها وعاتبونا على نشر القديم المتمثل فى هذه المحاضرات من ملتقيات سابقة،وترك الجديد من الانتاج ، قد فهموا الآن قصدنا من هذا .

كما سندرج فى المستقبل فى كل عدد ، بانتظام ، نصا أو نصين من المحاضرات التى درجت الوزارة على تنظيمها خلال القطر منذ سنوات باسم المركز الثقافى الاسلامى .

المرأة والأسرة فى الإسلام

دكتور على عبد الواحد وافى
أستاذ ورئيس قسم علم الاجتماع جامعة القاهرة سابقاً
وأستاذ علم الاجتماع بجامعة قسنطينة حاليا

لقد حفظ الاسلام أيها السادة ، للمرأة جناح الرحمة ، وشملها فى جميع تشريعاته بعطف كريم ورعاية رحيمة ، وسمى بها الى مستوى رفيع لم تصل الى مثله فى أية شريعة أخرى من شرائع العالم قديمه وحديثه ، وسوى يبنها وبين الرجل فى معظم شؤون الحياة ، ولم يفرق بينهما الا حيث تدعو الى هذه التفرقة طبيعة كل من الجنسين وما يصلح له ومراعاة الصالح العام وصالح المرأة نفسها ٠

فقد سوى الاسلام بين الرجل والمرأة فى القيمة الانسانية المشتركة فكلاهما فى نظره من عنصر واحد ومن طبيعة واحدة ، وليس لأحدهما من المقومات الانسانية أكثر مما للآخر ، وفى هذا يقول الله تعالى « **يا ايها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء** » ، أى أن المرأة مخلوقة من الرجل ومن عنصره نفسه لا من عنصر آخر ، وقدانبث منهما جميع الرجال والنساء ، فكلا الجنسين يرجعان الى أصل واحد ٠ ويقول الله تعالى فى آية أخرى : « **فاستجاب لهم ربهم انى لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر او انثى بعضكم من بعض** » ، أى ان الذكور من الاناث والاناث من الذكور وليس بينهما فرق فى جوهر الطبيعة وبذلك قضى الاسلام على جميع الآراء الفاسدة التى كانت سائدة فى كثير من الملل والنحل من قبله بشأن طبيعة المرأة واختلافها عن طبيعة الرجل فقد كان بعض هذه الآراء يذهب الى أن المرأة من طبيعة انسانية وضيعة بالقياس الى طبيعة الرجل ، وبعضها كان يذهب الى أنها من عنصر غير طاهر وغير زكيى ، بل لقد ذهب بعضها

(*) محاضرة القاها فى الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الاسلامى المنعقد بقسنطينة فى 17/8 جمادى الثانية 1390 هـ ــ 19/10 اوت 1970 م٠

الى أبعد من هذا كله ، فاعتقد أنها رجس من عمل الشيطان ، أو من عمل اله الشر ، وعلى أساس هذه العقيدة انتشر فى كثير من الشعوب عادة التخلص من البنات بقتلهن أو وأدهن عقب ولادتهن،حتى يتخلص من هذا الكائن الذى هو رجس من عم ل الشيطان أو من عمل الـــه الشر ، ومن أشهر الشعوب التى انتشرت لديها هذه العـــادة عـــلى أساس العقيدة التى نتحدث عنها بعض قبـائل العرب فى الجـاهلية وخاصة بعض بطون من قريش وتميم وطيى وربيعة •

وكما سوى الاسلام بين الرجل والمرأة فى القيمــة الانســانية المشتركة وقرر أنهما من طبيعة واحدة ومن عنصر واحد ، وأن ليس لأحدهما من مقومات الانسانية أكثر مما للآخر ، كما قرر ذلك وسوى بينهما فى هذ ه الناحية سوى بينهما كذلك فى شؤون المســؤوليــة والجزاء فى الدنيا والآخرة ، وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى : « **من عمل صالحا من ذكر وأنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم اجرهم باحسن ما كانوا يعملون** » ويقول فى آية أخرى : « **ومن يعمل من الصالحات من ذكر او انثى وهو مؤمن فاولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا** » ويقول فى آية ثالثة : « **للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن** » وكما سوى الاسلام بين الرجل والمرأة فى القيمة الانسانية المشتركة وفى شؤون المسؤولية والجزاء ، سوى بينهما كذلك فى الحقوق المدنية بمختلف أنواعها ، فأعطى المـــرأة الحقوق المدنية نفسها التى أعطاها للرجل ، لا فرق فى ذلك بين أن تكون متزوجة أو غير متزوجة ، فمن قبل الزواج يكون للمرأة فى نظر الاسلام شخصيتها المدنية الكاملة المستقلة عن شخصية أبيها أو من هى تحت رعايته فان كانت بالغة كان لها الحق فى اجراء مختلف العقــود ، وتحمل الالتزامات ، وتملك العقار والمنقول ، والتصرف فيما تملك ، ولا يجوز لوليها أن يجرى أى اجراء قانونى يتعلق بها أو بأموالها الا اذا أذنت له بذلك او وكلته فى اجراء عقد بالنيابة عنها ، وان كانت قاصرة وجب على وليها اذا كان لها مال انتقل اليها عن طريق الهبــة او الوراثة أو الوصية وما الى ذلك ان يحتفظ لها بمالها وأن ينميه وأن يستثمره ما استطاع الى ذلك سبيلا ، حتى تصل الى مرحلة البلوغ فيؤديه اليها مع ما عسى أن يكون قد أنتجه من فوائد ، ولا يحق لــه أن يأخذ شيئا من مالها ، وقد نهى القرآن عن ذلك نهيا شديدا وتوعد

مرتكبيه بأشد عذاب فى الآخرة ، وفى هذا يقول الله تعالى : « **وءاتوا اليتامى اموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تاكلوا امـوالهم الى اموالكم ، انه كان حوبا كبـيرا** » ويقول : « **وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم اموالهم ولا تاكلوها اسرافا وبدارا أن يكبروا** » ، ويقول : « **ان الذين ياكلون اموال اليتامى ظلما انما ياكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا** » ويقاس عـلى اليتيمات غيرهن اذا انتقل اليهن مال عن طريق الهبة أو الوراثة أو الوصية أو غير ذلك،هذا فيما يتعلق بوضع المرأة من الناحية المدنية قبل الزواج ، وكذلك شأنها فى نظر الاسلام بعد الزواج ، وذلك أن الزواج فى الاسلام يختلف اختلافا جوهريا عن الزواج فى معظم امم الغرب المسيحى فى أنه لا يفقد المرأة اسمها ولا شخصيتها المدنيـة ولا أهليتهـا فى التعاقد ولا حقها فى التملك ، بل تظـل المرأة المسلمة بعد زواجها محتفظة باسمها واسم أسرتها ، وبكامل حقوقها المدنية وبأهليتها فى تحمل الالتزامات وإجراء العقود بمختلف أنواعها مـن بيع وشراء وهبة ورهن ووصية وما الى ذلك ، ومحتفظة كذلك فى حقها فى التملك تملكا مستقلا عن غيرها وبحقها فى التصرف فيمـا تملك ، فللمرأة المتزوجة فى الاسلام شخصيتها المدنيـة الكاملـة وثروتها الخاصة المستقلتان عن شخصية زوجها وثروته ، ولا يحق لزوجها أن يأخذ شيئا من مالها قل ذلك الشيء أو كثـر . وفى هذا يقول الله تعالى : « **وان اردتم استبـدال زوج مكـان زوج وآتيتـم احداهن قنطارا فلا تاخذوا منه شيئا ، اتـاخـذونـه بهتـانا واثمـا مبينـا ؟ ! وكيف تاخذونه وقد افـضى بعضكم الى بعض واخـذن منكم ميثاقا غليظا** » ، ويقول فى آية أخرى : « **ولا يحل لكم ان تاخذوا مما آتيتموهن شيئا** » واذا كان لا يحل للزوج أن يأخذ شيئا مما آتاه لزوجته فانه لا يحل له من باب أولى أن يأخذ شيئا من مالها الأصيل الا أن يكون هذا أو ذاك برضاها وعن طيب خاطر منها ، وفى هذا يقول الله تعالى : « **وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فان طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا** » ، ولا يحق للزوج كذلك ان يجرى أى اجراء قانونى باسم زوجته الا اذا أذنت له بذلك أو وكلته فى اجراء عقد بالنيابة عنها،وفى هذه الحالة يجوز لها أن تلغى وكالته وتوكل غيره اذا شاءت .

ويبدو أيها السادة سمو هذه المبادىء الاسلامية بالموازنة بينها وبين الشرائع السابقة للاسلام ٠

فالشريعة اليهودية مثلا تجرد المرأة من معظم حقوقها المدنية وتجعلها تحت الوصاية المطلقة لأبيها قبل زواجها وتحت الوصاية المطلقة لزوجها بعد زواجها ، وتنزلها فى كلتا الحالتين منزلة لا تزيد كثيرا عن منزلة الرقيق ، بل ان هذه الشريعة لتتيح للوالد المعسر ان يبيع ابنته بيع الرقيق لقاء ثمن يفرج به أزمته ٠

وكذلك كان الشان عند قدامى اليونان والرومان حتى فى أزهى عصورهم وادناها الى النظام الديموقراطى ، فالقانون الرومانى يجرد المرأة من معظم حقوقها المدنية ويضعها قبل زواجها تحت سيطرة رئيس الأسرة ، الذى قد يكون اباها او جدها لأبيها ، وتعطيه هذه السيطرة كافة الحقوق عليها حتى حق الحياة أو الموت ، وحق اخراجها من الاسرة وبيعها بيع الرقيق ٠ وبعد زواجها واعتراف الزوج بها تصبح فى نظر القانون الرومانى بمثابة بنت من بنات الزوج ويحل زوجها محل ابيها أو جدها لأبيها فى كافة الحقوق السابق ذكرها ٠

ولا يقتصر القانون اليونانى على تجريد المرأة اليونانية من معظم حقوقها المدنية ووضعها تحت السيطرة المطلقة للرجل فى مختلف مراحل حياتها ، بل انه ليعتبرها هى نفسها من «ممتلكات» ولى أمرها قبل زواجها ومن «ممتلكات» زوجها بعد زواجها ، ولا يميزها فى الحالة الاخيرة الا بمميزات تافهة عن ملك يمينه من الجوارى والسريات ٠

بل ان هذه المنزلة من المساواة التى قررها الاسلام بين الرجل والمرأة فى الحقوق المدنية لم تصل الى مثلها احدث القوانين فى أرقى الأمم الديموقراطية الحديثة ، فحالة المرأة المتزوجة فى فرنسا مثلا كانت الى عهد قريب أشبه شىء بحالة الرق المدنى ، فقد جردها القانون من معظم حقوقها المدنية كما كانت تنص على ذلك المادة السابعة عشرة بعد المائتين من القانون المدنى الفرنسى اذ تقرر **« ان المرأة المتزوجة حتى لو كان زواجها قائما على اساس الفصل بين ملكيتها وملكية زوجها ، لا يجوز لها ان تبيع ولا ان تهب ولا ان**

ترهن ولا أن تملك بعوض او بغير عوض وبدون اشتراك زوجها فى العقد أو موافقته عليه موافقة كتابية » ، ومع ما أدخل على هذه المادة فيما بعد من قيود وتعديلات فان آثارها لا تزال عالقة بوضع المرأة الفرنسية المتزوجة من الناحية القانونية الى الوقت الحاضر ، ولتوكيد هذا الرق المدنى الذى فرضته الشعوب الغربية على المرأة المتزوجة تقرر قوانين هذه الشعوب ويقتضى عرفها أن المرأة بمجرد زواجها تفقد اسمها واسم أسرتها،فلا تعود تسمى فلانة بنت فلان، بل تحمل اسم زوجها واسم أسرته ، وفقدان المرأة الغربية لاسمها واسم اسرتها وحملها لاسم زوجها واسم أسرته ، كل ذلك يرمز الى اهدار شخصيتها المدنية واندماجها فى شخصية الزوج ،يرمز الى أن الزوج قد أصبح هو الممثل لها فى جميع الشؤون ، على حين أن الاسلام يحيط الشخصية المدنية للمرأة المتزوجة بسياج من الحماية والاحترام فيحتفظ لها باسمها واسم أسرتها ولا يحملها اسم زوجها ولا اسم أسرته مهما كانت مكانة هذا الزوج ، فزوجات الرسول عليه الصلاة والسلام أنفسهن كن يسمين بأسمائهن وأسماء آبائهن فكان يقال «عائشة بنت أبى بكر» «وحفصة بنت عمر»ولم تحمل واحدة منهن اسم زوجها ، مع أنهن كن زوجات لخير خلق الله ، واحتفاظ المرأة المسلمة المتزوجة باسمها واسم أسرتها وعدم حملها اسم زوجها كل ذلك يدل على احتفاظها بشخصيتها وعدم ذوبانها فى شخصية الزوج ،ومن الغريب أن كثيرا من سيداتنا العربيات المسلمات يحاولن ان يتشبهن بالغربيات حتى فى هذا النظام الجائر ، ويرتضين لأنفسهن هذه المنزلة الوضيعة ، فتسمى الواحدة منهن نفسها باسم زوجها ، أو تتبع اسمها باسم زوجها بدلا من ان تتبعه باسم أبيها وأسرتها ، كما هو النظام الاسلامى ، وهذا أقصى ما يمكن أن تصل اليه المحاكاة العمياء ، وأغرب من هذا كله أن اللائى يحاكين هذه المحاكاة يتألف معظمهن من المطالبات بحقوق النساء ومساواتهن بالرجال ، ولا يدرين أنهن بعملهن هذا يفرطن فى أهم ناحية من نواحى المساواة التى يطالبن بها ، وفى أهم حق منحه الاسلام لهن ورفع به قدرهن وساواهن فيه بالرجال .

وكما سوى الاسلام بين الرجل والمرأة فى القيمة الانسانية المشتركة وفى شؤون المسؤولية والجزاء وفى الحقوق المدنية بكافة

أنواعها ، فقد سوى بينهما كذلك فى حق التعلم والثقافة ، فاعطى المرأة الحقوق نفسها التى اعطاها الرجل فى هذه الشؤون ، وأباح لها ان تحصل على ماتشاء ان تحصل عليه من علم وأدب وثقافة وتربية وقد ذكر لكم الأخ مولود قاسم فى محاضرة الصباح نصوصا كبيرة عن المجاهد الكبير **عبد الحميد بن باديس فى هذا الموضوع** ، نصوصا تدل على أن الاسلام لا يفرق بين الرجل والمرأة فى حق التعلم والثقافة ، واضيف أنا الى ما قاله فى هذا الصدد ان الاسلام لم يكتف باباحة التعلم والثقافة للمرأة وبالمساواة بينها وبين الرجل فى هذا الحقل ، بل انه ليوجب عليها التعلم والثقافة فى الحدود اللازمة لشؤون دينها وحسن قيامها بأعبائها فى الحياة ، ولقد حث الرسول عليه الصلاة والسلام النساء على طلب العلم وجعله فريضة عليهن فى هذه الحدود • وفى هذا يقول عليه الصلاة والسلام « **طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة** » ، وقد ضرب الرسول عليه افضل الصلاة والسلام أروع مثل فى الحرص على تعليم المرأة وتثقيفها بما فعله مع زوجته حفصة بنت عمر أم المؤمنين فقد ذكر البلاذرى فى كتابه فتوح البلدان • **ان الشفاء العدوية ، وهى سيدة من بنى عدى رهط عمر بن الخطاب كانت كاتبة فى الجاهلية ، وكانت تعلم الفتيات القراءة والكتابة ، وان حفصة بنت عمر اخذت عنها القراءة والكتابة قبل زواجها بالنبى عليه افضل الصلاة وازكى السلام • ولما تزوجها النبى (ص) طلب الى الشفاء العدوية ان تتابع تعليمها وتثقيفها وان تعلمها تحسين الخط وتزيينه كما علمتها اصول الكتابة** وتدلنا شواهد تاريخية كثيرة ان أبواب التعليم والثقافة كانت مفتحة على مصاريعها للمرأة المسلمة فى جميع عصور الاسلام الزاهية ؛ فى عصر الرسول (ص) وعصر الخلفاء الراشدين وعصر بنى أمية وعصر بنى العباس ، وانه بفضل ذلك نبغ عدد كثير من النساء العربيات والمسلمات وبرزن فى علوم القرآن والسنة والفقه والادب واللغة وشتى أنواع المعارف والفنون ، بل لقد كان منهن معلمات فضليات تخرج على أيديهن كثير من أعلام الاسلام ، **فقد ذكر ابن خلكان ان السيدة نفيسة صاحبة المقام المعروف بمصر كان لها بمصر مجلس علم شهده الامام الشافعى نفسه وسمع عليها فيه الحديث وذكر ابو حيان من بين اساتذته ثلاثا من النساء درس عليهن واخذ**

عنهن العلم ، هن مؤنسة الايوبية بنت الملك العادل اخى صلاح الدين الايوبى وشامية التيمية وزينب البغدادية بنت الرحالة الطبيب المؤرخ الكبير عبد اللطيف البغدادى الذى زار مصر بعد وفاة صلاح الدين الايوبى وكتب عن احوال مصر كتابا جعل عنوانه (الافادة والاعتبار فى احوال مصر) .

ويظهر سمو هذه المبادىء التى سنها الاسلام فيما يتعلق بالمساواة بين المرأة والرجل فى حق الثقافة والتعلم بالموازنة بينها وبين الشرائع السابقة للاسلام ، فقوانين أثينا نفسها التى يعدونها من أرقى القوانين فى العصور القديمة وأدناها الى النظام الديموقراطى ما كانت لتتيح فرصة للتعليم والثقافة الا للذكور الاحرار من المواطنين بينما كانت توصدها ايصادا تاما فى وجه النساء ، وقد عبر عن وجهة نظرهم هذه كبير فلاسفتهم «أرسطو» وصاغها فى صورة نظرية علمية اذ يقول فى كتابه «**السياسة**» : **ان الطبيعة لم تزود المرأة بأى استعداد عقلى يعتد به ، وبذلك يجب ان تقتصر تربيتها على شؤون التدبير المنزلى والامومة والحضانة وما الى ذلك** . ولم يكن ارسطو فى ذلك معبرا عن رأيه الشخصى وانما كان مترجما لنظام كان يجرى عليه العمل فى أثينا التى يعدونها كما قلت لكم من أرقى الأمم فى النظام الديموقراطى فى العصور القديمة ، ولذلك لما نادى أستاذه افلاطون فى كتابه «**الجمهورية**» بوجوب المساواة بين الرجل والمرأة فى حق التعلم والثقافة وفى حق الانتخاب كانت آراؤه هذه موضع سخرية وازدراء من جميع مفكرى أثينا وفلاسفتها وشعرائها ، حتى أن ارستوفان عميد شعراء الكوميديا فى ذلك العصر قد وضع تمثيليتين كاملتين وقفهما على السخرية بآراء أفلاطون والتهكم بها وهما : **«برلمان النساء» و «بلوكوس»** .

بل لقد ظلت الامم الاوروبية الحديثة نفسها تنكر على المرأة حق التعلم والثقافة حتى القرن التاسع عشر الميلادى ، وقد عبر عن ذلك أصدق تعبير فى منتصف القرن السابع عشر الميلادى شاعر فرنسا (موليير) اذ يقول فى مسرحيته التى جعل عنوانها «**النساء المتحذلقات**» على لسان أحد أبطالها «**انه لا يليق بالمرأة لعدة اعتبارات ان تضيع وقتها فى التعلم والثقافة فوظائفها الاساسية التى ينبغى أن تستأثر**

بكل جهودها وفلسفتها لا تتجاوز تربية الاولاد وشؤون التدبير المنزلي والسهر على حاجة افراد الاسرة والاقتصاد في نفقات البيت» .

وفي أواخر القرن السابع عشر الميلادي ظهرت أصوات ضعيفة تنادي بتعليم المرأة في حدود ضيقة كل الضيق ، وكان على رأس المنادين بذلك العلامة الفرنسي «فنلون» في كتابه الذي ظهر في أواخر القرن السابع عشر تحت عنوان (تربية البنات) ، ولكن هذه الاصوات ـ مع شدة تحفظها وتواضعها فيما نادت به ـ لم تلق استجابة يعتد بها من معظم الامم الأوروبية في ذلك العهد .

بل لقد ظلت التيارات المعادية لتعلم المرأة مسيطرة على أوروبا الحديثة حتى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي ، واليكم مثلا عاهل بروسيا **بسمارك الذي حدد للمرأة الالمانية** ـ كما أشار الى ذلك معالي الاخ مولود قاسم في الكلمة التي القاها صباح اليوم ـ **حدد للمرأة الالمانية ثلاث مجالات لنشاطاتها لا تخرج عنها ، وهي : تربية اطفالها وشؤون مطبخها ، واداء شعائرها الدينية في الكنيسة» .**

من هذا يظهر أن الاسلام ـ على عكس الشرائع السابقة واللاحقة له ـ قد هيأ للنساء فرصا كثيرة لا للتعلم العادي بل كذلك للثقافة العالية ، وأن من انتهزن منهن هذه الفرص بلغن أعلى درجة أتيح للرجال أن يبلغوها كالاسماء التي ذكرتها لكم ، ويظهر كذلك أن الجهالة التي كانت متفشية بين النساء المسلمات في الاجيال السابقة لا يرجع سببها الى النظم التربوية في الاسلام ، وانما يرجع الى انحراف المسلمين عن النظم القويمة التي سنها الاسلام في شؤون التربية والتعليم ، واذا كانت الامم العربية والاسلامية قد أخذت في العهد الحاضر تتجه ، الى تعليم المرأة وتثقيفها فانها بذلك لم تأت بدعا من العمل ، وانما أحيت سنة صالحة قويمة سنها الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه وسار عليها أجيال كثيرة من بعده من المسلمين .

وكما سوى الاسلام بين الرجل والمرأة في القيمة الانسانية المشتركة وفي شؤون المسؤولية والجزاء وفي الحقوق المدنية وفي حق الثقافة والتعلم سوى بينهما كذلك في حق العمل ، فأباح للمرأة أن تظطلع بالوظائف والاعمال التي تحسن أداءها و لاتتناقض مع طبيعتها ، ولم يقيد هذا الحق الا بما يحفظ للمرأة كرامتها

ويصونها عن التبذل وينأى بها عن كل ما يتنافى مع الخلق الكريم ، فاشترط الاسلام اذا كانت المرأة تؤدى عملا فى خارج منزلها ، أن تؤديه فى وقار وحشمة ، وفى صورة بعيدة عن مظان الفتنة ، وان لا يكون فى عملها هذا ما يؤدى الى ضرر اجتماعى أو خلقى ، أو ما يعوقها عن تأدية واجبها نحو بيتها وزوجها وأولادها ، أو يحملها مالا طاقة لها به ، وأن لا تخرج فى زيها وزينتها وسترها لاعضاء جسمها واختلاطها بغيرها من الرجال أن لا تخرج فى هذا كله عن الاوضاع التى سنها الاسلام فى هذا الصدد ، هذا كل ما قيد به الاسلام حق العمل للمرأة ، وهذه القيود منصبة على ما تؤديه المرأة من عمل فى خارج بيتها ، وقد كانت النساء فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام يقمن بكثير من الأعمال فى داخل بيوتهن وفى خارجها ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقرهن على ذلك،واليكم مثلا : **اسماء بنت ابى بكر الصديق وهى أخت عائشة ام المؤمنين ، وزوجة الزبير حوارى الرسول عليه السلام وابن عمته ، كانت تؤدى جميع الاعمال اللازمة لبيتها وزوجها وانعامها فى داخل بيتها وفى خارجه لا تستنكف عن شىء من ذلك وهى نفسها تقول : «كنت اخدم الزبير خدمة البيت كله وكنت اسوس فرسه واعلفه ، واحتسى له ، وكنت احرز الدلو،واسقى الماء واحمل النوى على راسى من ارض له على ثلثى فرسخ»** ، بل لقد اضطلعت المرأة المسلمة ببعض شؤون الحرب فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ومن بعده ، فلم تخل غزوة من غزوات الرسول عليه السلام من نساء يقمن بمساعدة المحاربين وأعمال الاسعاف للجرحى ومن بين هؤلاء من سجل لهن التاريخ مواقف بطولة مجيدة كالسيدة **امية بنت قيس الغفارية التى اكبر الرسول عليه الصلاة والسلام حسن بلائها فى غزوة خيبر فقلدها قلادة تشبه الاوسمة الحربية فى هذا العصر ، وظلت هذه القلادة تزين صدرها مدة حياتها ولما دفنت دفنت معها عملا بوصيتها .**

ويظهر أيها السادة سمو هذه المبادىء التى قررها الاسلام فيما يتعلق بالمساواة بين الرجل والمرأة فى حق العمل ، يظهر سموها بالموازنة بينها وبين كثير من المبادىء التى كانت مقررة فى العصور القديمة بل بين كثير من المبادىء التى كانت مقررة فى العصور الوسطى والحديثة ، وقد ذكر معالى الأخ مولود قاسم بعض أمثلة

وبعض نصوص جاءت على السنة قواد ومصلحين وقادة يقولون فيها ان المرأة لا ينبغي لها من الاعمال الا الاعمال التي هي في داخل البيت أو في داخل الكنيسة أو في داخل المطبخ ·

هذه أيها السادة هي أهم وجوه المساواة التي قررها الاسلام بين المرأة والرجل مساواة في القيمة الانسانية المشتركة ، ومساواة في المسؤولية والجزاء ، ومساواة في الحقوق المدنية بمختلف أنواعها ، ومساواة في حق التعلم والثقافة ومساواة في حق مزاولة العمل ، وهذه هي أهم وجوه المساواة في الحياة ·

ولا يفرق الاسلام بين الرجل والمرأة الا حيث تدعو الى هذه التفرقة طبيعة كل من الجنسين وما يصلح له أو حيث تدعو الى هذه التفرقة مراعاة الصالح العام وصالح الاسرة وصالح المرأة نفسها واليكم مثلا تفرقة الاسلام بين الرجل والمرأة في الميراث اذ يقرر أن المرأة لها في معظم الاحوال نصف نصيب الرجل المساوى لها في القرابة ، فقد بنيت هذه التفرقة على أساس اقتصادى سليم ، بنيت على أساس التفرقة بين أعباء الرجل في الحياة وأعباء المرأة وذلك أن مسؤولية الرجل في الحياة أوسع كثيرا من مسؤولية المرأة وأعباؤه فيها أشق وأثقل كثيرا من أعباء المرأة ، فالرجل هو رب الاسرة وهو القوام عليها والمكلف بالانفاق على جميع أفرادها ، على حين أن المرأة لا يكلفها الاسلام حتى الانفاق على نفسها ، فنفقتها واجبة على أبيها أو وليي أمرها ما دامت غير متزوجة ونفقتها ونفقة بيتها وأولادها واجبة على زوجها بعد زواجها ، لا فرق في ذلك بين أن تكون موسرة أو معسرة ، فاقتضت العدالة اذن أن يكون نصيب الرجل من الميراث أكبر من نصيب المرأة حتى يكون في ذلك ما يعينه على القيام بهذه الاعباء الثقيلة التي وضعها الاسلام على كاهله ، وأعفى منها المرأة رحمة بها وحدبا عليها وحفاظا على سعادة الاسرة ، بل ان الاسلام قد بالغ في رعايته للمرأة اذ قرر لها نصف نصيب نظيرها من الرجال في الميراث مع اعفائه اياها من جميع الاعباء ، ووضعها جميعها على كاهل الرجل ·

وقبل أن أختم كلمتي هذه ، اريد ان أعقب تعقيبا يسيرا على الكلمة القيمة البليغة التي القاها في افتتاح هذا الموسم صديقي معالي الاستاذ مولود قاسم فيما يتعلق بزواج المسلمين من الاجانب فقد ذكر سيادته ان هذا الزواج مباح في الاسلام ولكن على الرغم من انه مباح ومن انه حلال فانه يتنافى مع واجب قومي ، وأنا أعقب على

هذا بان زواج المسلم بالنصرانية أو اليهودية ليس مباحا فى جميع المذاهب الاسلامية بل **ان هناك مذاهب اسلامية صحيحة تحرم زواج المسلم بالنصرانية واليهودية ، وهذا مذهب الامام جعفر الصادق بن محمد الباقر ابن على زين العابدين ابن الحسين رضى الله عنه الذى كان استاذا لابى حنيفة وهو المذهب الذى يسير عليه الآن نحو خمسين مليونا من المسلمين .**

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم وأساله لى ولكم الهداية والتوفيق .

الفقه الاسلامي وحرية الفكر

الأستاذ محمد بن سالم الفهري الفاسي

أستاذ التفسير والحديث
بجامعة القرويين
المملكة المغربية

بسم الله الرحمن الرحيم

سيدى الوزير

اخوانى ، أخواتى ،

قبل البداية فى الحديث أوجه شكرى للذين نظموا هذا اللقاء ، مع اخوة تربطنا بهم عدة روابط ، رابطة الجوار ، رابطة الدين ، رابطة التاريخ المشترك ، رابطة النضال ومقاومة الدخيل. وأتمنى أن يتجدد هذا اللقاء من حين لآخر ، فى ديار العروبة والاسلام ، وأن نعمل جميعا فى يد واحدة على تحقيق أفكارنا الهادفة .

عنوان حديثى «الفقه الاسلامى وحرية الفكر» أو «لماذا تعددت المذاهب فى الفقه الاسلامى» ،من حق الملاحظ أن يطرح هذا السؤال كلما سمع خلافا مذهبيا،أو انقساما فى الرأى ينتج عنه تعدد الاحكام بالنسبة للقضية الواحدة ، ومن حقه أيضا أن يواجه المتحدث بنفس السؤال : كلما رأى هذا المذهب يضيق الخناق وآخر يعتدل ، وآخر يفتح الباب على مصراعيه للرخص ونبذ التأويل ، والقيود المشددة وآخر يحكم الرأيى والقياس . ومسامعكم يحاول مع تواضع ، القيام ببحث علمى محدد الاطراف ، قاصدا من ورائه الوصول الى نتيجة مقنعة ، نطمئن اليها جميعا ، ونستطيع بها أن نذب عن فقهنا وما يصمونه به ، وما يخوض فيه الخائضون . ومن المفيد أن تكون البداية بعرض ما يعنى من الآيات ، التى ترشد الى الائتلاف ووحدة الصف، وتنهى عن التفرق والاختلاف .

وهذا التفرق قسم منه لا يمكن أن يسلم منه البشر،فالنهى عنه من قبيل التكليف بما لا يستطاع ، وليس بمراد فى الآيات القرآنية.وقسم

(*)محاضرة القاها فى الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الاسلامى المنعقد بقسنطينة فى 17/8 جمادى الثانية 1390 هـ ــ 10/19 اوت 1970 م.

يمكن الاحتراس منه وهو المراد بها٠أما الاول فهو الخلاف فى الفهم والرأى ولا مفر منه ، لانه مما فطر عليه البشر كما قال الله سبحانه « **ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم** » ٠ فاستواء الناس فى العقول والافهام مما لا سبيل اليه ولا مطمع فيه اذ هو من قبيل الحب والبغض ٠ فالاخوة الاشقاء فى البيت الواحد تختلف أفهامهم فى الشيء ، كما يختلف حبهم له وميلهم اليه ٠ وأما الثانى وهو الذى يجب اجتنابه ، وما جاءت الاديان السماوية الا للقضاء عليه ، وهو الذى يهدف الى تحكيم الاهواء ، فى الدين والاحكام ، لان اتخاذها حكما يضر البيئة والمجتمع ، وتدوس ما يسمى بالهداية التى نركن اليها لأزالة ما يضر ، وجلب ما ينفع ٠

واذا أمعنا النظر فى الاسباب التى حدت بالبشر الى تعدد اديانهم نراها تنطبق بالتالى على الفئة التى تعددت مذاهبها٠قال الاستاذ الامام فى تفسيره المنار ، الجزء الثالث ،الصفحة السابعة ، عند تفسيره لقول الله سبحانه « **ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا ، فمنهم من آمن ومنهم من كفر** » ٠ قال الاستاذ : «**لم يخلق الله الناس بقوى محددة متساوية ، كالانعام السائمة والطيور الحائمة ،بل خلق الانسان كما نعرفه الآن ، جعل له عقلا ، يتصرف فى أنواع شعوره ، وفكرا يجول فى طرق حاجاته البدنية والنفسية ، وجعل ارتقاءه فى ادراكه وافكاره كسبا ينشا ضعيفا فيتقوى بالتدريج حسب التربية التى يحاط بها ، وجعل هداية الدين له أمرا اختياريا لا وصفا اضطراريا ، فهى معروضة امامه ياخذ منها بقدر استعداده وفكره كما هو شانه فى الاخذ بسائر انواع الهداية والاستفادة من منافع الكون ٠**

هذه هى سنته تعالى فى الانسان ، وهى منشأ الاختلاف ، فهو يقول لو شاء الله الا يجعل سننه فى تبليغ الدين وعرضه على الناس هكذا ، بأن يجعله من الهاماتهم العامة ، وشعورهم الفطرى كشعور الحيوان والهامهم ما فيه منفعة ، لكانوا فى هداية الدين سواء ، يسعدون به أجمعين ، فتمنعهم بيناته أن يختلفوا فيقتتلوا ، ولكنه خلق الانسان على غير ما خلق عليه الحيوان وكان ذلك سبب اختلاف أهل الاديان ، فمنهم من آمن ايمانا صحيحا ، فاخذ الدين على وجهه اذ فهمه حق فهمه ، ومنهم من لبسه مقلوبا وحكم هواه فى تأويله

فكان كافرا به فى الحقيقة ، وان كان غاليا فيما احدث فيه من مذهب أو طريقة ، وكان ذلك مدعاة التخاصم ، وسبب التنازع والتقاتل · اختلف اليهود فى دينهم فاقتتلوا ، وأما النصارى فلم تختلف أمـة اختلافهم ولم يقتتل أهل المذاهب فى دين من الاديان اقتتالهم ، بـل كان المذهب الواحد من مذاهبهم يتشعب الى شعب يقاتل بعضهـا بعضا ، وكان يجب أن يحذر المسلمون من هذا الاختلاف أشد الحذر ، لكثرة ما نهاهم الله عن الاختلاف وأنذرهم العذاب عليه فى الـدنيا والآخرة ، وقد امتثلوا أمره تعالى بالاتحاد والاعتصام ، وانتهوا عمـا نهاهم عنه من التفرق والاختلاف فى عصر صاحب الرسالة وطـائفة من الزمن بعده ، فكانوا خير أمة أخرجت للناس · ثم لم يلبثـوا أن ذهبوا فى الدين مذاهب وفرقوا دينهم فكونوا فى شريعتهم مشارب ، فاقتتلوا فى الدين قليلا ، وفى السياسة التى صبغوها بصبغة الدين كثيرا وقد تنادوا فى هذا الشقاء والاختلاف فانتهوا الى زمن صاروا فيه أبعد الامم عن الاتفاق والائتلاف ، و نظرا لطول هذا النص تعـين ايضاحه ، مؤهلات بنى الانسان ومواهبهم متفاوتة ، ولذلك لم يكونوا فى مستوى واحد والا لكانوا مثل الحيوان ، لذا امتاز فريق بالنبوغ وفتحت فى وجهه الطرق المؤدية به الى نيل ما يتمناه ، واستطـاع بمواهبه أن يأخذ من الهداية ويستفيد من منافع الكون ، ووسم فريق آخر بالتحجيب الفكرى ، فحكم الهوى والغرض فى مجريات عقائـده وبالغ فى احداث هذا المذهب والطريقة ، كل ذلك خاضع للتـربية التى تحاط بالجميع وحوادث الزمان والمكان والاسوة والتجـارب ، الا اننا مع احترامنا لمكانة الاستاذ الامام العلمية والاصلاحية ، حـز فى النفس أن يقول عن المسلمين انتهوا من زمن صاروا فيه أبعـد الامم عن الاتفاق والائتـلاف ·

المسلمون والاستاذ الامام أعرف الناس بتاريخهم حدث لهم مثلما حدث لغيرهم ، ليسوا بشواذ عن الطبائع البشرية عجمت عـودهـم الاحداث ولصقت بهم طفيليات حان الوقت لان ينبذوها ويـؤسسوا جامعة اسلامية تبعث الامجاد وتسارع الزحف التقدمى ·

كان السبب فى الخلاف بين أئمة الفقه ، لكون مالك مثلا نشـأ فى المدينة وتتبع عن كثب ما فطر عليه أهلها · حسن حالهم وسلامة قلوبهم دفعته لان يقول فى حقهم : ان عمـل أهل المدينة أصـل من

اصولي وما كانوا كذلك الا لمعاشرتهم للرسول وصحبه • فمن المتعذر الا يتاسوا بالرسول ولا يسلكوا منهاجه سيما والاسلام فى بدايته • اما أبو حنيفة ، فنشا فى العراق وأهلها كما اشتهر عنهم ، أهل شقاق ونفاق،فهو معذور اذا لم يحتج بعملهم ولا بعمل غيرهم قياسا عليهم•

فلو اجتمع الامامان مالك وابو حنيفة ، وتبادلا الرأى ، لأقنع كل واحد منهما الآخر بالحجج التى يتسلح بها صاحبه ، لكن الاتبـــاع اعماهم التقليد فصار الهوى والغرض الشخصى ، هو الحاكم فى الدين حالت الاحقاد والضغائن بينهم وبين نشدان الحق فتعصب كل فريق لرأى امامه ، وانقاد انقياد الاعمى • وليت شعرى لو كان هذا التعصب فى بعض الاحيان ، مبنيا على أساس صحيح ، فكيف نستسيغ عقـلا أن نصدق كل ما قال الامام مالك اليوم ، وقد مر على وفاته أزيد من الف سنة ، وما قيل فى مالك يقال فى بقية الائمة • ويروقنى هنـــا ما قاله أستاذنا الامام ، فى المنار ،' الجزء الرابع صفحة 24 ، هــذا النوع من الخلاف هو الذى ذلت به الامم بعد عـزها ، وهوت بعـد رفعتها ، وضعفت بعد قوتها ، هو الافتراق فى الدين ، وذهاب أهلـه مذاهب تجعلهم شيعا تتحكم فيهم الاهواء ، كما حصل من الفـــرق الاسلامية لا يكاد أحدهم يعلم أن الآخر خالفه فى رأى الا ويبادر الـى الرد عليه بالتاليف ، وبذل الجهد فى تضليله وتنفيد مذهبه • ويقابله الآخر بمثل ذلك ، لا يحاول أحد منهم محادثة الآخر والاطلاع عـلى دلائله ووزنها بميزان الانصاف والعدل •

فالواجب أولا ، محاولة الفهم والافهام فى البحث والمذاكرة ، وألا يكون الخلاف مفرقا بين المختلفين فى الدين • فما دام المسلم لا يخل بنصوص كتاب الله ، ولا باحترام الرسول صلوات الله عليه ، فهـو على اسلامه لا يكفر ولا يخرج من جماعة المسلمين • فاذا تحكم الهوى فلعن بعضهم بعضا ، وكفر بعضهم بعضا ، فقد باء بها من قالها ، كما ورد فى الحديث الشريف • واذا رجعنا الى المبررات التى جعلـت ابا حنيفة يعتمد على الرأى أكثر من الحديث ، أولا : الاقتداء بالخليفة عمر رضى الله عنه ، فقد حكم رأيه فى نص قرآنى صريح ، يتعلــق بمصرف من مصارف الزكاة ، وهذا معناه انه لم يكن فى عهده رضى الله عنه ، مؤلفة القلوب وان اعطاء نصيب من الزكاة لهم شرع لعلة معينة ، والعلة كما هو معلوم ، تدور مع المعلول وجودا وعدما ، وليس

ما فعله عمر ناسخا لحكم ثبت بالكتاب والسنة ، لان عهد النسخ انقضى بوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، الواقع أن ما فعله الخليفة عمر فيه تضامن وتاييد لما قصده الرسول من اعطاء مؤلفة قلوبهم وهو اعزاز الاسلام • ثم منع عمر ما فعله الرسول لان الاسلام لم يعد فى حاجة اليهم ، ولو كان صنيعه نسخا لما أعطى الخليفة عمر بن عبد العزيز ، لمن يرى تالفه على الاسلام ، حيث أعطى البطريرق ألف دينار انظر الصفحة الخامسة عشر من كتاب «الفتح القديم» الجزء الثانى • واستمر الحال هكذا • وثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يعطى بعض الناس ، ليتالف قلوبهم للاسلام ، مثل أبى سفيان ، وصفوان ابن أمية ، الذى قال فى حق النبى صلى الله عليه وسلم : لقد أعطانى وهو أبغض الناس الى ، فما زال يعطينى حتى كان أحب الناس الى • واستمر الحال هكذا فى زمن أبى بكر فلما تولى الخليفة عمر مزق الكتاب وقال : «**ان الله اعز الاسلام واغنى عنكم ، فان تبتم عليه ، والا فبيننا وبينكم السيف**» •

عمر ـ كما ترون ـ اتخذ موقفا يتفق مع المصلحة ، لما كان المسلمون قليل العدد أوجبت الآية حسب رأيه جلب مؤلفة قلوبهم بالصدقة ، فلما كثر عدد المؤيدين ، ارتأى الخليفة منعهم منها ولم يقطع الخليفة عمر يد السارق فى عام المجاعة اعتمادا على الاصل الشهير فى الاسلام ، **ادرأوا الحدود بالشبهات** والامثلة من هذا القبيل كثيرة لا يأتى عليها الحصر • واشهر من لم يحد عن طريقته قيد انملة **الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، روى ابن القيم فى اعلام الموقعين ان ابن مسعود كان لا يكاد يخالف عمر فى شىء من مذاهبه حيث لا نص** ، وعمر رضى الله عنه لا يقول بحرفية النص ، وبما ان العراق كان يضم أكبر مدرسة للرأى وكان حامل لوائها ابن مسعود ، فقد وجد أبو حنيفة ضالته حيث أخذ عن تلامذة ابن مسعود فاسترشد بهم وسار على سننهم فلا غرابة اذا كان الرأى اصلا من اصوله ، ويرجع ذلك كما قال الاستاذ المرحوم أحمد أمين فى كتابه «فجر الاسلام» صفحة 241 الى أسباب ثلاثة :

اولا : ما ذكر من تأثيل عبد الله بن مسعود وهو ما علمت من ميل للرأى مشارك فيه استاذه عمر •

ثانيا : ما ذكره ابن خلدون من ان الحديث كان فى العراق قليلا وكان أكثر هواة الحديث فى الحجاز ، لانه موطن النبى وكبار الصحابة·

ثالثا : ان العراق قطر متمدن تأثر الى درجة كبيرة بالمدنية الفارسية واليونانية ، والمدنية تفع تحت عينى المشرع جزئيات كثيرة تحتاج الى التشريع ، لا يقاس بها القطر البدوى الذى عاش فيه امامنا مالك ، فاذا انضم الى ذلك ما وصل اليهم من الحديث أى الى العراقيين من الحديث ، أنتج ذلك لا محالة ، اعمال الرأى ، وقديما قال الخليفة عمر بن عبد العزيز تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور ، ونحن قياسا عليه نقول : تكثر للناس قضايا بقدر صلاتهم بالمدنية وتعقد حياتهم · ولذا اضطر المستفتون أن يطرحوا ما اعترض حياتهم من مشاكل على قادة الفكر ، فاذا وجدوا حلها فى أصلى التشريع ــ أى فى الكتاب والسنة ــ عملوا به ، والا قاسوا الامور بأشباهها والحقوا الجزئيات بكلياتها ، واستنبطوا حكمها الملائم ، ثم يتعمقون فى الاكثار من فروع القضية المسؤول عنها فيقلبونها على سائر الوجوه الممكنة ويفرعونها بقولهم : أرأيت لو كان كذا حتى سماهم المتشبثون بالحديث «الأرأيتيون» يضاف الى ما ذكر من أن أصحاب الرأىلايهتمون بالحديث النبوى كثيرا بل يبالغون فى شروط صحته تجعل الكثير من كلام الرسول لا يعمل به ، والذى دفعهم الى المجاوزة فى الشروط تطرق الشك الى الرواة وكثرة من جرحه المحدثون وأفرط قوم من أصحاب الرأى فنبذوا الحديث بالمرة · واذا اتجهنا الى الفئة المتشبعة بالحديث الهائمة به ، نرى شعارها الاخذ بالحديث مع تساهل فى شروط الاعتماد عليه ، والكراهية المفرطة فى أعمال الرأى · والمشاكل التى لم يرد فى حلها نص ، اختلف الرواة لها وانتحلوا أحاديث نسبوها للرسول ·

قال عتيق الزبيدى : **وضع مالك الموطا عن نحو من عشرة آلاف حديث ، فلم يزل ينظر فيه كل سنة ويسقط منه حتى بقى هذا ، ولو بقى قليلا لأسقطه كله** ، انظر «الديباج المذهب فى تراجم المالكية لابن فرحون صفحة 52» · يبدو من هذا النص أن الرواة كانوا يتبارون فى الاكثار من الحجج التى يقوون بها نظرياتهم ، يدل على ذلك أن أبا حنيفة الذىعرف بتشدده فىالاخذ بالحديث فان اصحابه المقلدون له لم يتورعوا فى تعزيز فقههم بوضع أحاديث ليكونوا طبعا

عند حسن ظن العامة التى تنطلى عليهم أساليب العلم الصحيح • قال امامنا مالك : اذا جاوز الحديث الحرتين ضعفت شجاعته،وكان يسمى الكوفة دار الضرب يعنى انها تصنع الاحاديث كما تخرج دار الضرب الدراهم والدنانير ، وقال ابن شهاب : يخرج الحديث من عندنا شبرا فيعود فى العراق ذراعـا ، واذا بحثنا عن العلـة التى دفـعت أولئك للتسلح بالعقل نجد ان الذين أسلموا فى عهد الرسول والعمريـن ، لم يكونوا فى حاجة الى فلسفة فى العقيدة والشرع بل يعتنقـــون الاسلام بمجرد كلمة التوحيد ، ولا يناقشون الداعى لبقية المبـادىء فلما اتسعت رقعة الاسلام وضمت امبراطوريته الاماكن التى تـؤوى المذاهب النصرانية ، التى كان بينها ـ كما قال الاستاذ أرنولـد ـ من العداء واضطهاد بعضها لبعض أشد مما كان بين أهل دين ودين آخــر •

وتاريخ الاسلام مدين بالفضل للمعتزلة ، لكونهم لقحوا الفكر الاسلامى ، واستعانوا بالرأى ، وقرعوا السن بالسن ، ليقنعوا أولئك الذين اتخذوا الاسلام دينا فى الظاهر • ولا عجب اذا راينا مـذهب الامام أبى حنيفة يستعمل نفس السلاح بواسطة المنطـق اليونانى ، لحل القضايا المعروضة والمشاكل التى تقف حجرة عثرة ، سيمـــا وكل أمة انتشر فى ربوعها الدين الحنيف تنظر اليه نظرة مغـــايرة للامة الاخرى،متأثرة بحياتها الاجتماعية بلغاتها،وعوائدها،وتربيتها، وعقائدها الموروثة عن آبائها الاولين • وزاد فى توسيع شقة الخلاف، بين الطبقات المتساكنة تعدد العناصر الدينية ، الصـوفى المعروف بزهده ونسكه ، لا يمكن بحال أن يلتقى مع المتدين المتحرر ، وهذا فى نظرى عامل يحسب له الحسابات اذ بسببه ظهر هذا المذهب أو ذاك، ليقوم بحفظ التوازن فى الوسط المسلم ، ولا يقل هذا العامل أثرا عن عامل آخر ، جاء على يدى راوية كبير ، لا يخلو مسند أو صحيـح من آثاره النبوية ، ذلك هو الصحابى الجليل أنس بن مالك المتـوفى سنة 90 هـ • قال رضى الله عنه : ما اعرف شيئا مما كان على عهـــد رسول الله صلى الله عليه وسلم • قيل له الصلاة ، قال : اليـــس صنعتم ما صنعتم فيها • فانس رضى الله عنه ، الذى عاشر الرسول ، وشاهد عصر النبوة وعصر الامويين ومع قرب العصرين لاحظ اختلاف الانظار والاعمال • قال عنه الاستاذ المرحوم أحمد أمين : فكيف اذا

شاهد العباسيين ومن بعدهم ؟ قد كان الاسلام سهلا يسيرا ، يقول الرسول عليه السلام : **«ان هذا الدين يسر ولن يشاد الدين احد الا غلبه»** ويقول عليه السلام : **«لا تشددوا على انفسكم فيشدد عليكم فان قوما شددوا على انفسهم ، فشدد عليهم ، فتلك بقاياهم فى الصوامع والديار ، رهبانية ابتدعوها ، ما كتبناها عليهم »** • وكان قاسم بن محمد يلبس الخز الحريرى ، وسالم بن عبد الله يلبس الصوف ويقعدان فى مسجد المدينة ، فلا ينكر هذا على هذا ولا ذا على هذا • وحتى فى عهد الرسول صلوات الله عليه ، ظهرت فئة تغالت فى الدين واعتقدت ان المداومة على العبادة رغب فيها الاسلام ، **فايقضها الرسول من غفلتها حيث قال لعبد الله بن عمر وهو الصحابى المعروف : يا عبد الله ان لك فى رسول الله اسوة حسنة ، رسول الله يصوم ويفطر ، وياكل اللحم ويؤدى الى اهله حقوقهم ، يا عبد الله ، انلله عليك حقا وان لبدنك عليك حقا ، وان لأهلك عليك حقا»**•

ولا يتسرب الى الذهن ان الاعتماد على الرأى ، واتخاذه أصلا ، خاص بالامام ابى حنيفة ، لكل مذهب صعد الى منصة التشريع بحكم الظروف والعوارض المحتفة به ، اضطر لاستعمال الرأى ووضع له اصطلاحا اشتهر به ، كالمصالح المرسلة عند المالكية ؛ ودرء المفاسد قائم على جلب المصالح ؛ وارتكاب أخف الضررين ؛ ولا ضرر ولا ضرار ، كل ذلك خلف لنا ثروة فكرية ، يصعب علينا اتهام هذا او ذاك بالتزمت والجمود ، والذى يهم من هذا كله ان السبب فى الخلاف وتعدد المذاهب راجع أولا وبالذات لتفاوت المدارك ، ومثلا فى قوله تعالى : « **والمطلقات يتربصن بانفسهن ثلاثة قروء** » فسره الحجازيون من الفقهاء بالاطهار والعراقيون فسروه بالحيضات،وكان اختلافهم تبعا لاختلاف الصحابة،فعمر وعثمان وعائشة وزيد ، قلدهم الحجازيون ، وقلد العراقيون عبد الله بن مسعود ، وقد يكون الاختلاف بسبب حمل الكلام على الحقيقة أو المجاز ، وقد يكون الاختلاف بسبب تفاوت المواهب كما سبق ، فريق استنتج من أحد الاصلين ، من الكتاب والسنة ، ولم يستنتج الفريق الآخر ، لكون مواهبه لم تساعده ، وقد يكون السبب فى الاختلاف توصل هذا الفريق بالاحاديث المتعلقة بالموضوع المراد حكم الله فيه وعدم توصل الفريق الآخر بالاحاديث • كالذى ورد عن ابن سعيد أنه قال:

قدمت مكة فالفيت بها أبا حنيفة فقلت : ما تقول فى رجل باع بيعا وشرط شرطا • قال أبو حنيفة : البيع باطل والشرط باطل • فأتيت ابن ابى ليلى فسألته عن ذلك فقال : البيع جائز والشرط باطل • فأتيت ابن شبرمة فسألته عن ذلك فقال : البيع جائز والشرط جائز • فقلت فى نفسى سبحان الله ثلاثة من فقهاء العراق لا يتفقون على مسألة ، فعدت الى أبى حنيفة فأخبرته بما قال صاحباه ، فقال : ما ادرى ما قالا لك ، حدثنى عمر بن شعيب عن أبيه عن جده قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيع وشرط • فعدت الى ابن ابى ليلى فاخبرته بما قال صاحباه فقال : ما أدرى ما قالا لك ، حدثنى هشام بن عروة عن أبيه ، عن عائشة قالت : أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أشترى ضريرة وأعتقها ، فاشترط أهلها الولاء لأنفسهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما كان من شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل ، البيع جائز والشرط باطل • قال : فعدت الى ابن شبرمة فأخبرته بما قال صاحباه فقال : ما أدرى ما قالا لك ، عن جابر قال : بعت النبى بعيرا ، وشرط لى حملانه ،أى نقله الى المدينة • البيع جائز والشرط جائز •

أولئك الذين يفضلون القياس، يضيقون دائرة الحديث، والعكس بالعكس • وكما كان الخلاف بين فقهاء القرن الثانى ، فمن بعده كذلك كان بين الصحابة انفسهم • **قضية قتال مانعى الزكاة فى عهد ابى بكر الصديق رضى الله عنه اشهر من ان تذكر ، فابوبكر قال برأى وعمر قال برأى ، وفى تفسير الالوسى قال : قال أبوبكر الصديق رضى الله عنه : ايها الناس ، انكم تقرؤون هذه الآية وتضعونها على غير مواضيعها « يا ايها الذين آمنوا عليكم انفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم » وانى سمعت رسو لالله يقول : «ان الناس اذا رأوا المنكر فلم يغيروه اوشك ان يعمهم الله بالعقاب من عنده»** •

ليس معنى هذا ان الحديث ناسخ للقرآن ، وانما هو تفسير له : **« يا ايها الذين آمنوا عليكم انفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم »** يعنى بعد ان تامروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر عليكم انفسكم • فهذا مبدأ من مبادىء الدين يجب اعتباره • وقدامة بن مضعون رضى الله عنه فهم من قوله تعالى : **« ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة »** انغماس الرجل فى العدو حتى بين له أبو أيوب الانصارى ، ان هذا ليس من

الالقاء بيده الى التهلكة بل هو من بيع ،رجل نفسه ابتغاء مرضــاة الله ، وان الالقاء بيده الى التهلكة هو ترك الجهاد ، والاقبال على الدنيا وعمارتها ، والصحابة أنفسهم كانوا يخالفون الرسول فيما لا وحى فيه اذا تيقنوا بأن ما قاله الرسول عن رأى ، كما فعلوا يوم بــدر اذ جاء النبى أدنى ماء من بدر فحل به فتساءل الحباب بن المنذر فقــال يا رسول الله : أرأيت هذا المنزل ، أمنزلا أنزلكه الله ، ليس لنا ان نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ فقال الرسول بل هو الرأى ، فقال : يا رسول الله ليس هذا بمنزل فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء فننزله ، ثم نردم ما وراءه ، قال عليه الســلام : **« ما كان من أمر دينكم فالى،وما كان من امر دنياكم فانتم اعلم به »**

وقد عقد صاحب الفكر الاسلامى الاستاذ المرحوم محمد الحجاوى الجزء الاول ، صفحة ١١٧ ، فصلا خصه لوقوع الاجتهاد فى العصــر النبوى وقال بالنص : ان وقوع الاجتهاد من الصحابة فى عصره عليه السلام واستنباط الاحكام الفقهية من أصوله لا تمترى فيه من له معرفة بالسنة . ولنأتى بأمثلة تصلح شاهدة لما نقول فى المرأة ، يعــنى فى المرأة التى وقع عليها ثلاثة رجال فى طهر واحد بالقرعة ، ومــن ذلك اجتهاد بعض الصحابة لما قال عليه السلام **«لا يصلين احد العصر الا فى بنى قريضة»** فصلى البعض فى الطــريق محافظة على الــوقت ، وبعضهم وقف مع الامر ولم يصل حتى وصل ، والحديث فى الصحيح فعذر النبىعليه السلام الجميع ولم يعنف واحدا منهم.وعن الاجتهادين المذكورين تفرع مذهبا القياسيين وأهل الظاهر . **ولما اسند النبى صلى الله عليموسلم الولاية الى معاذ بن جبل على اليمن قال له : بــم تحكم يا معاذ ؟ فقال : بكتاب الله ، قال : فان لم تجد ؟ فقال : بسنة رسول الله ، قال : فان لم تجد ؟ قال : أجتهد ولا آلو ولا أقصر . فقال رسول الله : الحمــد لله الذى وفــق رســول رسول اللــه .** وقال عليه السلام : **«عليكم بسنتى وسنة الخلفاء المهديين من بعدى»** ، وقال ـكما فى صحيح مسلم ـ **«ان يطع القوم ابا بكر وعمر يرشدوا»** فلو لم يكونوا مجتهدين واجتهادهم صائب لما أمر الرسول بالاقتداء بهم ، والادلة على ذلك كثيرة . وكما اجتهد أصحابه عليه الســلام ، اجتهد النبى بنفســه كما فى جمــع الجــوامع . ومما هو صريح فى اجتهاده قوله تعالى : **« يا أيها النبىء لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى**

مرضات أزواجك » ومنه قولـه تعالى : « **عفـا اللـه عنك لما اذنت لهم** » عوتب على الاذن لمن ظهر نفاقهم فى التخلف عن غزوة تبـوك ، ولا معنى لأن يعاتب النبى عما نزل به الوحى وانما هو اجتهاد ، فلو نزل به الوحى لما خالفه الرسول • ويدخل فى نطاق تحكيم الـرأى ما بناه الامام ابن تيمية على القاعدة الاصولية الشهيرة رضى الله عنه رأى هو وأصحابه فى عهد التتار ، جماعة تتناول الخمر فأنكر عليهم من كان مع ابن تيمية ، فقال ابن تيمية للملاحظين : انما حرم اللـه الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، وهؤلاء يصدهم الخمـر عن قتل النفوس وسبى الذرية وأخذ الاموال ، فاتركوهم •

وما دمنا بصدد بيان أسباب تعدد المذاهب فلنشر الى ناحية أخرى تستوجب الاهتمام ، وهى انه حينما يقع خلاف فى مسألة من المسائل يكون المختار فى كل بلد عند أتباع المذهب الذى ساد فيه ، بمعنى أن أتباع مالك مثلا ، فى الجزائر ، يعملون بكذا ، وأتباع مالك ،مثلا، فى العراق يعملون بكذا ، يعنى مخالفين لاتباع مالـك فى الجزائر ، لكون البيئة لها دور ولها آثار فى تكييف الفهم ، وفى تكييف الاخـذ من المذهب • وعلى هذا الدور انتشرت المذاهب ، مالك بالمدينة ، والاوزاعى بالشام ، والليث بمصر ، وسفيان بن ابى ليلى بالكوفة ، والملاحظ أن الحكومة المركزية اذ ذاك لم تتدخل فى فرض سياسة تشريعية موحدة ، بل تركت الحرية لكل بلد يختار الموافـق له ، وبسبب ما ذكر كثرت الآراء والمذاهب خصها مثل الطبرى والبيهقى بالتأليف • ولولا تشجيع الدول الاسلامية فيما بعد لهذا المذهب او ذاك ، والتحمس لنشره ، لعمرت مذاهب أخرى وكتب لها الخلـود ، مثل ما كتب للمذاهب الاربعة المشهورة • وبالمناسبة اذكر هنا ما روى أبو الحسن النباهى الاندلسى صاحب كتـاب «تاريـخ قضـاة الاندلس» صفحة 74 • قال فى ترجمة منذر بن سعيد البلوطى المتوفى سنة 355 هـ ، قال عنه : كان مفتيا فى ضروب العلم ، وغلب عليـه التفقـه بمذهب أبى سليمـان داوود الظـاهرى فكان يفضل مذهبه ويجمـع كتبه ويحتـج بمقالته ، ويأخـذ بها لنفسـه ، فاذا جـــاء مجلس الحكومة قضى بمذهب مـالك بن أنس وأصحابه الذى عليـه العمل فى بلده ولم يعـدل عنه ، غريبة هذه ، منذر بن سعد يتمذهب بمذهب داوود الظاهرى ولكن حين يحـكم يحكم بمـــذهب مـالك ،

وبالمناسبة أيضا اشير الى ما قاله الشافعي في حق الليث المتوفى بمصر سنة 175 هـ ، قال: الليث بن سعد أفقه من مالك الا أن أصحابه لم يقوموا به ـ يعني لم ينشروا مذهبه مثلما نشر أصحاب مالك مذهب مالك ـ .

والدكتور محمد يوسف موسى ، استاذ ورئيس قسم الشريعة الاسلامية بجامعة عين الشمس وصاحب «تاريخ الفقه الاسلامي والدعوة الى تجديده» ومؤلف الفقه الاسلامي ، تعرض لقيمة المذاهب المندثرة، وقال في شأنها ، صفحة 293 : **اذا اردنا أن نسند نهضتنا في الفقه والتشريع بدعائم من آراء الاسلاف الماضين وجب أن نعمل على احياء هذه المذاهب ونحوها ، فهي حرية وجديرة بأن تقدم لنا آراء خصبة لبعض مشاكل العصر .**

وما دام الحديث يتعلق بالاسباب التي حدت بالائمة الى وضع مذاهب باجتهادهم تعين أن نختم بالاشارة الى تسليط بعض الاضواء على تلك الاسطورة الخرافية التي تقول بأن الفقه الاسلامي ، متأثر بغيره يعتمد على القاعدة الشهيرة ، شرع من قبلنا ، شرع لنا ، فيكون فقهنا مقتبسا من الشرائع التي قبلنا ، والجواب عن هذا كما قال الاستاذ الحجاوي رحمه الله صفحة 14 الجزء الاول من فكره الاسلامي: «**فقهنا مرتقي ليس مقتبسا ، فهو كالعلم المرتجل**» نبينا عليه السلام أمي وأمته التي بعث فيها بدوية لم تكن لها في زمن تكوين الفقه حضارة تتمكن بها من الاقتباس من كتب قبلها ، ففقهنا مقتبس من قرآننا ، وسنة نبينا ، ناشيء بنشأتهم ، أما من قال من علمائنا ان شرع من قبلنا شرع لنا،فليس مراده أننا نطالع توراتهم مثلا،ونقتبس منها الاحكام ، فهذا لا قائل به ، وانما مرادهم ان ما ورد في القرآن أو السنة حكاية عن وقائع الامم السالفة ونوازلها الفقهية اذا لم يقم دليل على نسخه يكون شرعا لنا لكون الشرع قرره ، ولم ينكره ، فحكايته له وعدم انكاره بمنزلة قوله اعملوا به ، كقوله تعالى : « **وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس..الآية** » أما كتب الكتابيين فلا يجوز لنا أن نأخذ من الاحكام أصلا لقوله عليه السلام:«**لاتصدقوهم ولا تكذبوهم،وقولوا آمنا بالذى أنزل الينا وانزل اليكم**» ، ويجب أن نلاحظ أيضا التهمة القائلة بأن الفقه الاسلامي متأثر بالرومان فان

الشريعة الاسلامية وحدة كاملة، أي جاءت في زمن واحد مصدرها هو النبي عليه السلام ، ولم يلتحق بربه حتى تركنا على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، وما زاد الفقهاء شيئا سوى التصنيف ، فاذا لم يجدوا نصا صريحا استنبطوا قانونا مناسبا للقواعد الاساسية ، فاذا استعرضت قوانينهم الفقهية تجدها كلها واضحة لا التباس فيها ولا غموض • أما الفقه الروماني فتاريخه يشهد بأنه اختفى ثم اكتشف ، ولم يعمل به الا في القرن الثاني عشر او الثالث عشر ، بعد الميلاد ، أما قبل الحادي عشر فانه لم يكن معروفا حتى عند الرومان أنفسهم، والفقه الاسلامي كان قائم الذات ، بالغا درجة الرشد في أواخر القرن السادس •

قال صالح العلوي لدى مناقشته للموضوع ، في مجلة «الرسالة» للمرحوم الزيات ، السنة الثالثة الصفحة 781 : أليست هذه مهزلة مضحكة ، اذا كان أئمتنا درسوا ، وألفوا ، وصنفوا ، قبل أن تظهر للعيان القوانين الرومانية ، أو قبل أن يعرفها الرومان أنفسهم ثم نقل عن أحد الباحثين ما نشرته مجلة «**النظم الحضارية**» قال فيه ان دعوى اختفاء الفقه الروماني وظهوره بعد ستة قرون أكذوبة لاشك فيها ، وقد كان الفقه الروماني معروفا وهو أشبه شيء بالفصول المضحكة • أنظر ــ تاريخ الدولة الرومانية ــ•وذكر المرحوم العلوي الذي نقل عنه صاحب البحث أمثلتين من معاملة الرومانيين ، ثم قال: بمثل هذه المحاكمات القاسية كانت تجري الاحكام لغاية القرن الحادي عشر ، ولم تتبدل الا في القرن الثاني عشر أو الثالث عشر ، وقد قال ابن تيمية رحمه الله في القول الصحيح : ان النصارى في طائفة من بلادهم ينصبون لهم من يقضي بينهم بشرع المسلمين اذ لم يكن لهم شرع عام يحكم به الناس ، ليس في الانجيل حكم عام بل عامته الامر بالزهد ، وثبت تاريخيا يوم كان العرب والمسلمون في أوج الرقي ان البعثات الاوروبية كانت تفد على الاندلس لأخذ المعرفة ونشرها في ربوع أوروبا الجاهلية اذ ذاك ، لأن شرعهم كان يقضي بمرور المخطوبة على السنيور وكلما مكثت في منزله ازداد شرف الخطيب •

دخل الاسلام أوروبا وحكم أهلها ، وأسس فيها قواعده العادلة ، وبعد لم يبق بعد هذا الا أن أضم صوتي لأولئك الذين يطالبون بأن

يستمر باب الاجتهاد مفتوحا ، لمن توفرت فيهم شروطه وأن نخـول القاضي الكفء الحرية ليختار النص المحقق للعدالة ، وان نعمل لاحياء ما درس من المذاهب عسى أن تلهمنا ما نحل به مشاكلنا المعلقة مثل معاملاتنا البنكية وما شابهها ، كما نوجهها صرخة مدوية الى أولئـك الذين نبذوا فقههم جانبا ، ونقلـوا من أوروبا قوانينها الدخيلـة ، وصاروا يحكموننا بها،الى هؤلاء الماسخين المتنطعين لقوميتنا وعقيدتنا أناشدهم الله أن يعودوا الى تشريعهم الاســلامي ويـدرسونه ، والى ضمائرهم ويحكمونها ، فما على السادة والشعب الا أن يكون ضمـن مهامهم مقاومة الزيغ كيفما كان شكله ونوعـه ٠

والسلام عليكم ورحمة الله ٠

حول مقال : خطبة الجمعة ، وابتعادها عن واقع المسلمين المعاش (1)

عن هيئة التحرير الدينية
سليمان المدني

طالعتنا جريدة الشعب فى العدد (4219) ، الصادر يوم 01 ــ 06 ــ 1977 م ، بمقال فى ركن (بريد الشعب ، بعنوان : (خطبة الجمعة ··· وابتعادها عن واقع المسلمين المعاش) ·

فانتقد صاحب المقال ، الخطبة فى جميع الاحوال ، وعمم فى الانتقاد كالعوام والجهال ، وجردها من محتواها الى أن تجاوز المحال ، وصال وجال ، فى نقده وهدمه ، فدل بذلك على ركاكته ، وثقله ، وتبلده ، وعدم انتباهه وفهمه ، لما تشتمل عليه الخطبة من توجيه ، وتربية وتنبيه ، وحث على العمل الشريف النزيه ، وانما صاحبنا سيطر عليه الوسواس ، وجره الى هاوية الافلاس ، فأراد أن يجعل الامام كقسيس كنيسة تكساس ، بالولايات المتحدة الذى جلب راقصة تثير الاحساس ، لاجتذاب الناس ، فجاؤوا من كل حدب وصوب لا للصلاة ولكن لمشاهدة الفتاة ، لعل صاحب المقال يحبذ هذه الطريقة وتلك الفعال ، ليبعد جو النعاس ، عن أجفان بعض الناس ·

ولم يدر صاحبنا بعالم الناس ، وما تملك الوزارة من نظام ومقياس ، من الجزائر الى عين أم الناس ، ومن تلمسان الى سوق أهراس ، فتعطى لكل مناسبة قدرها من التشجيع والحماس ، والخطب كلها تسير على هذا الاساس ، من وعظ وارشاد ، لصالح المجتمع والبلاد ، والحث على تربية الاولاد ، ونهى عن المنكر والفساد ،

(1) المعاش خطأ شائع والصواب : «المعيش» ، مثل مبيع ، ومزيد ، من الثلاثى عاش ، باع ، زاد · وما أكثرن الاخطاء الشائعة التى تكاد تصبح الآن هى الكتاب !

وملاحقة ذوى الطيش والالحاد ، وهـواة المنكـر والفساد ، وتأديب مـن اتصفـوا بالمشاغبة والعناد ، وتوجيه قارص الانتقاد ، لبعض المعوجين من العباد ٠

وأظنك أيها الاخ ـ سامحك الله ـ تمر على المسجد من بعيد ، لئلا يصيبك مـن دخوله خوف من الله شديد ، أو لعلك ممن يترفع عما يقوله الامام ، فلا يسمع الدرس الذى يلقى قبل الخطبتين ويتناول كل يوم جمعة المشاكل الاخلاقية والاجتماعية الخاصة بالجهة ، ولهذا وصفت الخطبة بأنها خالية من أي موضوع ذى شأن جديد ، وجئتنا بخبر غريب فريد ، ولو تشجعت واقتربت لوجدت فيه ما يفيد ، ويزول غرورك وتتهذب وتزيد ، وتكون كالمؤمن السعيد ، فيلين طبعك الشريد ٠

واننا لنعجب ممن يدعى التقدم فى الهيئة ، ويقلد كل ناعق فى الصيحة ، ويحسب من قراء العربية ، وقد تراه لا يملك ذرة من الانتباه ، وهذا اسمه فقد تناساه ، فأخر الاسم وقدم اللقب ، فخالف بذاك سنة الاعراب والعرب ، وقد سمعتموه حينما ثـار ، ثم انهار كأكواخ القصب ، تعلو بها زوابع الرياح ثم الى الارض تنقلب ، من أعلى الى أسفل فى ارتعاش تضطرب ، تعفر الجو وتدنس الاشياء بغبار السحب ٠

أتسخر بالائمة وبالخطب ، وبما ادخره السلف الصالح فى الكتب ، من سجـع سلس عذب ، ينير الطريق ويثير العجب ، فارتضاه الناس وتأكد به الطلب ، والفصحى به تهذب النفوس وتزيل الغضب ، ولم يعبه الا من طبعه الغضب ، ويعاب بعدم الذوق وقلة الحياء وسوء الادب ٠

(وكـم من عائـب قولا صحيحا وآفتـه مـن الفهـم السقـيم)

عار عليك أن تنغمس فى حمأة الشتم والشغب ، وتتحامل فى حقد وحسد دون ما سبب ، أأنت صحيح فنتحدث معك أم أنك مصاب بالعطب ؟ أم ظننت أن التهوش نوع من الفكاهة والطرب ، أم أقلقك صوت المؤذن أم صوت القرآن حين يتلى فى الخطب ، أم أزعجك توجيه الامام بحث الناس على التحلى بالحياء فى وقار وأدب ؟

وهل هذا يفـزع ويروع ويثير الدهشة والعجب ، ويدفـع بمحمد خليفاتى الى المشاغبة،والمشاجرة،والغضب ، والتحامل على الائمـة وعلى الخطب ، فى رعـونة وسـوء أدب ٠

اننا لنندهش ، حينما نقرأ لـمن يدفعه الحقد فينحرش ، فيكذب ويموه ويغش ، ويبالغ فى الكبرياء وينتفش ، وقـد سمعنا صيحة خبث مـن بـاب الوادى ، بالغش

والتهور تنادى ، وانضمت الى كفة الفساد ، وليعلم الجميع أن الوزارة ليست فى حاجة الى موجه ، استغفر الله بل الى مشوه ، أبله مستبله ، يرشدها أو يساندها ، والى الاعو جاج يقودها ، وعن سبيل الحق ونصرة الدين يصدها ٠

انها ليست فى حاجة الى نقد منتقد ، أحمق ومعاند ، جهول متبلد ، ولم تكـن فى يوم من الايام تسمع الى نهيق أحمرة ، أو نقيق ضفادع بركة ، تتجاوب فى خبث ومكر كالصراصرة ، وهل يصم الآذان طنين الذبابة ، أو يلفت الانظار دبيب النملة ؟

وما الفرق بين ما يكتبه الائمة ، وما تشرف عليه الوزارة ، أو يحـور اذا جاءت المناسبة ، فليخرص المضللون اننا لهم بالمرصاد ، ممن لا يفرقون بين الضاد والصاد ، فى المدن والبوادى ، من بنى سليمان الى باب الوادى !

منشـــورات

وزارة التعليم الاصـلى والشؤون الدينيــة

صــدر كتاب :

الملتقى الثامن للفكر الاسلامى

بالعربية فى ثــلاثة أجزاء

ويشمــل سائــر المحاضرات ، والتعقيبــات ، والمناقشــات

كما صدر كتاب :

الملتقى السادس للفكر الاسلامى

بالفرنسية فى خمسة أجزاء

ويشمــل أيضا سائر المحاضرات ، والتعقيبات ، والمناقشــات

العدد 52

فهـــــرس الـعـــــدد

● **دراســات وابحــاث**

● **من محاضرات الملتقى :**

الجزائر فى العهد التركى

د. محفوظ قداش
معهد العلوم الاجتماعية
ـ جامعة الجزائر ـ



ينطوى العهد التركى الذى دام فى الجزائر نيفا وثلاثة قرون على عدد من المشاكل • والمشكلة الاولى فى هذا التاريخ ، هى انه لا يوجد تحت تصرف الباحثين الذين يريدون معرفته سوى عدد صغير من الوثائق ، ومعظمها من الكتب التى نشرت فى أواخر القرن التاسع عشر ، ولم يعن باعادة نشرها بعد ذلك •

وكذلك نجد ان عدم تقدم البحث التاريخى عن هذه الفترة ، مرجعه فى المكان الاول ، عدم وجود مراجع ووثائق مفيدة • وهذه المشكلة لم يمكن حلها تماما •

ومعظم الوثائق الموجودة بين أيدينا مكتوبة باللغة التركية القديمة ، أى اللغة التى كانت تكتب بالحروف العربية ، والتى تصعب قراءتها حتى على الاتراك المحدثين أنفسهم • والى جانب المصادر التركية ، يوجد عدد من مستودعات الوثائق (الارشيفات) باللغة الاسبانية ، لم تستغل بعد •

وفيما يتعلق بمعرفة اللغة التركية القديمة ، تبذل فى الجزائر جهود للتغلب على هذه المشكلة ، فى كلية الآداب فى جامعة الجزائر ، بتدريس اللغة التركية القديمة بالحروف العربية • هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، تجرى الآن محادثات مع الدوائر التركية المعنية لاستعادة ، أو على الاقل ، لتصوير عشرات الوثائق الموجودة فى اسطنبول والتى لم تسجل بعد •

ومع ذلك ، فان هذا التاريخ الذى يمتد على ثلاثة قرون يمثل أهمية خاصة بالنسبة الينا ، وخصوصا ، لان المعلومات التى وصلت الينا عنها ، انما تلقيناها من المدرسة الاستعمارية التاريخية ، التى كانت مضطرة ، بحكم الظروف الى تقديم نظرة متحيزة عنهـــا •

ونحن اذا أردنا الآن دراسة هذه الفترة من تاريخنا القومى التى تمتد على ثلاثة قرون ، فينبغى أن ندرسها من زاوية قومية • واذا نظرنا الى العهد التركى من هذه الزاوية ، فنحن مضطرون الى طرح بعض الاسئلة على بساط البحث ، حتى يمكننا توجيه أبحاثنا • واول الاسئلة التى تفرض نفسها فى هذا السياق ، هى كيف وصل الاتراك الى الجزائر ؟ ولماذا جاؤوا الى هذه البلاد ؟ فهل جاؤوا اليها مستعمرين أم محررين ؟ وعندما وصلوا الى هذه الديار ، ماذا كانت مواقفهم ، وكيف كانت علاقاتهم بسكانها ؟ فهل يقوم العهد التركى على أساس جماعتين عنصريتين متميزتين ، أم كانت هناك محاولة للاندماج بين الاهالى والاتراك ؟ وكذلك يمكن ان نتساءل ، ماذا كان دور الجزائر فى البحر الابيض المتوسط بعد وصول الاتراك ؟ ثم ما هو المظهر الذى اتخذه وجود الاتراك ، وماذا كانت العلاقات بين الجزائر وتركيا فى ذلك العهد ، فهل كانت هذه العلاقات علاقات تبعية ، أم هى من نوع العلاقات التى تقوم بين بلديـن مستقلين ؟ هل كانت الجزائر ولاية عثمانية أم مستعمرة ؟

والى جانب محاولة الاجابة على هذه الاسئلة ، سنحاول أيضا طرح بعض المشاكل الاساسية ، التى أثارها الفرنسيون غداة فتح الجزائر والتى تتعلق بوضع البلد من الناحية الحضارية ، وباتهام الجزائر بأنها بلد القرصنة ، ومشكلة الوضع الاقتصادى

وما اذا كان البلد يشكو من فقر مدقع ثم أصبح بلدا ثريا بعد مجيء الفرنسيين ، أم على العكس ، كان يتمتع بمستوى مرض من المعيشة ثم انخفض بعد الاحتلال الفرنسي ؟

فهذه الاسئلة كلها تهمنا في المكان الاول ، اذا أردنا محاولة وضع تاريخ من زاوية قومية . وفي هذه الحالة ، لا يسعنا الا القيام بجولة سريعة في هذه الفترة ، لا بقصد الاجابة عن هذه الاسئلة وحل هذه المشاكل ، بل لمحاولة توجيه البحث لوضع تاريخ قومي ، أي ، تاريخ يمثل وجهة نظر الاشخاص الذين يعيشون في هذا البلد وعلى ضوء اعتبار السكان الاصليين ، وليس على ضوء اعتبار رأي الاجانب الذين تعاقبوا في هذا البلـــد .

فالمشكلة الاولى ، اذا ، تتعلق بوصول الاتراك . فنحن نعرف ان هذه الفترة تقع في بداية القرن السادس عشر الميلادي ، وهي الفترة التي كانت تتعايش في المغرب ثلاث دويلات ، تتولى كل منها شؤون كل واحد من البلدان الثلاثة : بنو مرين في المغرب وبنو عبد الوادي في تلمسان (أي الجزائر) ، والحفصيون في تونس .

والملاحظة الاولى التي ينبغي تسجيلها ، هي ان البلدين الشقيقين كان كلاهمـا يتمتع بشخصيته الواضحة السمات في بداية القرن السادس عشر ، وان المغرب الاقصى أخذ يصبح فعلا وحدة قومية تحت بني مرين ، وان تونس كانت هي الاخرى في طور تكوين وحدة ، واما في المغرب الاوسط ، فقد فشل بنو عبد الوادي في محاولتهم خلق دولة تشمل جميع أطراف الجزائر .

ولكن لماذا فشلت مملكة تلمسان في هذه المهمة ؟ ربما كان السبب في ذلك يرجع الى وضع العاصمة ، تلمسان ، التي كانت مدينة مهمة ، ولكنها تقع في طرف المملكة الغربي وليس في وسط البلد ، والسبب الآخر ، هـو قلـة اتساع المراكز العمـرانية وضعف ازدهارها في المغرب الاوسط ، وذلك في مقابل انتشار حياة البدو الرحل في عدة مناطق ، ولا سيما في ولاية وهران ، فقد كان البدو الرحل يتجولون في كل اتجاه ، حتى الشواطىء . ونحن نعرف أن انتشار نمط حياة البدو أمر لا يساعد على اقامة الدول ومن ثم فان هذا الوضع الذي يقوم على الرعي والانتاج الذي يمارسه البدو

الرحل ، كان من العوامل التى أدت الى فشل مملكة تلمسان فى نشر سلطانها نحو الشرق • وكذلك يمكننا أن نضيف ان الطرق التجارية التى كانت تتجه من تلمسان الى افريقية الغربية ، كانت مصدر ثروة طائلة • ولكن أهمية هذه الطرق تضاءلت فى عهد بنى عبد الوادى ، وحلت محلها طرق أخرى • وهذا العامل يفسر لنا ارتخاء الحياة الاقتصادية والسياسية فى البلد • وأخيرا يجب ان نذكر ان المغرب الاوسط يقع بين تونس والمغرب الاقصى ، وبينما كان المغرب الاقصى يسعى لاقتطاع بعض المناطق الجزائرية فى المغرب ، كانت تونس تعمل للاستيلاء على مناطق أخرى فى شرق البلاد •

وهذا الوضع لم يكن يساعد ، هو الآخر ، على قيام دولة ثابتة قوية فى المغرب الاوســـط •

والسبب الآخر الذى يفسر هذا الفشل ، هو التهديد البرتغالى والاسبانى للمغرب الاقصى وللجزائر ، ولو ان التهديد الاسبانى كان يتجه خصوصا الى الجزائر • فبعد استعادة الاسبان حكم بلدهم ، اتجهوا الى الاستقرار عند البحر الابيض على الشواطىء المغـربيـــة •

وقد كانت الاسباب التى دفعت الاسبان فى هذا الاتجاه ، ذات طابع دينى واقتصادى فى نفس الوقت • فعلى الصعيد الاقتصادى ، كان الاسبان يبحثون عن قواعد لاستغلال البلد ، ولهذه الغاية احتلوا المرسى الكبير وشرشال ومستغانم وتنس وبجاية ، بل والجزائر أيضا حيث احتلوا الجزيرة الصغيرة التى تمتد فى الموقع المعروف حاليا باسم الامـيرالية •

ومن هذه القواعد ، كان الاسبان يهددون العالم الاسلامى كله • وهذا الاعتبار هو الذى يفسر تدخل الاتراك بالقوة • والاتراك ، هم الذين تصدوا للدفاع عن الاســلام فى ذلك العهد ، فى أوروبا وفى شرق البحر الابيض وغربه • وقد كانت تركيا تحارب فى جبهة برية ضد المجر والنمسا ، وفى جبهة بحرية ضد الدول البحرية الاوروبية • وكذلك دخل الاتراك فى حرب ضد اسبانيا التى كان نفوذها يمتد فى البحر الابيض وفى أوروبا ، بل وفى أمريكا أيضا •

ولمواجهة التهديد الاسباني ، استنجد سكان الجزائر وبجاية من الجزائريين بالاتراك لمحاولة الدفاع عنهم • وفي هذه المرحلة ندخل في تاريخ الاخوين عروج وخير الدين اللذين لمع اسماهما في المعارك البحرية وخصوصا بالمساعدة التي قدماها للمسلمين الاندلسيين الذين كانوا يلوذون بالفرار من أعمال محاكم التحقيق • وقد قام البحريان التركيان بمساعدة عدد كبير من الاندلسيين وبنقلهم الى المدن الرئيسية في المغرب حيث كانت المدنية في معظمها من أصل أندلسي •

لقد استنجدت بجاية بعروج وبأخيه وفشلا في انجادها ، ولكنهما نجحا في مهمتهما عندما استنجدت بهما الجزائر ، وذلك بعد جهد ومشقة • وقد نزل الاتراك في الجزائر ودمروا القلعة التي كان الاسبان متحصنين بها في موقع الاميرالية الحالي ، حيث لا يزال يوجد سور وبرج قائم ، من آثار القلعة • وبأحجار هذه القلعة ، ردم خير الدين لسان البحر الذي يفصل بين اليابسة والجزيرة التي كان يحتلها الاسبان ، وبهذه العمليات ، دخل خير الدين في تاريخ مدينة الجزائر ، ويدخل الاتراك رسميا في تاريخ بلدنا •

وقد كان من نتائج تدخل الاتراك ، قيام دولة جزائرية • وكذلك اقنع خير الدين علماء البلد وأعيانها بأن يطلبوا مساعدة الدولةالعثمانية واعتراف السلطان بسيادة الدولة الجزائرية • وقد قبل السلطان هذا الطلب الذي قدمه اليه وفد من الجزائريين وعين باي البايات ، أي حاكم الحكام على مدينة الجزائر وعلى جميع الفتوحات التي يقوم بها في الجزائر • وكذلك أصبحت مدينة الجزائر القاعدة الاساسية للعمليات التي يقوم بها الاتراك ضد توغل الاسبان •

وقد كان قيام دولة الجزائر التي سينتشر نفوذها في الداخل والتي ستستمر ثلاثة قرون تاريخا مهما • وفي هذا الوقت رسمت حدود الجزائر بوضوح ، وبعبارة أخرى ، فقد ظهرت الجزائر كوحدة سياسية وجغرافية • وهذه الخطوة تعتبر حدثا حاسما في تاريخ تكوين الامة الجزائرية • ومن عملية استقرار الاتراك في الجزائر ، يمكننا أن نستخلص النتائج التالية :

ان عملية نزول الاتراك في الجزائر قد تمت في نطاق اسلامي وفي سياق العمليات التي كانت تجري في البحر الابيض المتوسط ، وعلى هذا الاساس ينبغي النظر اليها

وتحليلها · لان المغرب الاوسط سيقوم بعد ذلك بدور فى النضال بين الامبراطورية الاسبانية والامبراطورية الاسلامية ·

والملاحظة الثانية الجديرة بالتسجيل ، هى أن عناصر من سكان الجزائر ، هى التى طلبت الى الاتراك مساعدتهم والاستقرار فى هذه البلاد · وقد كان الاتراك فى نظر الرأى العام الجزائرى ، يمثلون القوة الحقيقية التى تدافع عن الاسلام ·

والملاحظة الثالثة ، هى أن مدينة الجزائر ستصبح قاعدة للنضال ضد الاسبان ، كما سيخرج من هذه المدينة عدد من مشاهير نشاط القرصنة فى البحر الابيض ولما انتهى النضال مع الاسبان ، أصبح الاتراك أسياد الجزائر ومحتلين لها · وكذلك يمكننا أن نتحدث عن العلاقات بين الاتراك والجزائريين ، ابتداء من اللحظة التى تقلص فيها الخطر الاسبانى ، بأنها علاقات أقلية تتمتع بامتيازات وتحكم البلد ، بأغلبية من المحكومين ·

ونحن نلاحظ ان الاتراك كانوا يسجلون انتصارا تلو انتصار منذ استقرارهم فى الجزائر ، حتى قضوا نهائيا على الاحتلال الاسبانى للجزائر ، وذلك فيما عدا مدينة وهران التى احتفظوا بها حتى القرن الثامن عشر (1791 ـ 1792م) ·

وفى غضون هذا النضال وقع عدد من المعارك المشهورة ، نذكر منها ، على الخصوص تلك المعركة التى وقعت فى الحامة والتى خاض غمارها وانهزم فيها الاسطول الاسبانى باسره والذى كان يقوده الامبراطور شارل كينط نفسه ، فى سنة 1541م · فان الامبراطور أبى الا أن يقوم بنفسه باعداد هذه الحملة البحرية والسير على رأسها لغزو مدينة الجزائر · وقد تطلب الاستعداد العسكرى (بالاضافة الى الاستعداد الديبلوماسى) ما يتراوح بين 5 و 8 سنوات · وهذه الحملة تمت بموافقة الدول الاوروبية وبمساعدة البابا الذى باركها ومدها بالوسائل المادية · وقد نزل الاسبان هنا فى الجزائر وتسلقوا هضابها حتى كدية الصابون · (Fort de l'Empreur) فى طجرا · وهنا وقعت المعركة التى اضطر الاسبان اثرها الى العودة الى سفنهم ، قبل أن تهب عاصفة هائلة ستدفع بهم وبسفنهم الى أعماق البحر على مقربة من ضريح الوالى سيدى بوجدور ،

الذى تقول الاسطورة انه رمى بقدره الى البحر فى فورة من الغضب ، وهبت علـى اثر ذلك ، ونتيجة لهذا العمل ، تلك الزوابع التى قضت على قوة الاسبان • وبعد ذلك ، أصبح ضريح هذا الوالى ، فى القصبة مزارا يقصده الناس من كل صوب •

وكذلك كان لهذه المعركة صدى قوى فى الرأى العام الاوروبى وفى الرأى العـام الاسلامى ، وكسب الاتراك منها صيتا ذائعا فى العالم أجمع • وقد كان هذا النصر قاعدة لتحالف أدبى، أى أكثر من مجرد تحالف عسكرى وسياسى بين الاتراك والجزائريين • فان هذه المعركة التى قادها الاتراك ، اشتركت فيها القبائل الجزائرية الآتية من نواحى متيجة • بل ان هذه المعركة سيحتفل بها حتى اليهود الذين وجدت فى بيعتهم فى منطقة باب عزون وفى كتبهم المقدسة ادعية وصلوات تخلد ذكرى معركة 1841 • وهذا شىء لا غرابة فيه اذا عرفنا ان الاسبان كانوا يمثلون فى نظر اليهود محاكم التحقيق التى كانت تلاحقهم وتطاردهم من اسبانيا • وقد جاء اليهود الى الجزائر التى أمدتهم بالضيافة والملجأ فى نفس الظروف التى أخرج فيها المسلمون من اسبانيا •

وعلى كل حال ، فان هذه الحوادث كلها تدل على ذيوع صيت الاتراك وشهرتهم فى الدفاع عن الاسلام على الاقل فى الفترة الاولى التى نزلوا فيها فى الجزائر • وهـذا ما يفسر لنا قبول البلد للاتراك وتشتمل أيضا على أشخاص جاءوا بدافع من المثاليـة للجهاد من أجل الاسلام •

فهذه الانكشارية التى يجمع أفرادها فى تركيا ، تمثل تركيا • وهذه هى الحالة ، على الاقل فى العصور الاولى • من الاحتلال التركى • والمؤكد أن عدد أفراد الانكشارية لم يكن قط كبيرا ، وهم موزعون فى شكل حاميات تسمى « نوبة » ، لان جماعات العساكر ترسل بالتناوب الى مختلف المدن •

وعدد أفراد الانكشارية التركية يختلف باختلاف الازمنـة بين 1,000 و 7,000 و 17,000 و 20,000 رجل ، وهو عدد صغير • وهذه القوة لا يمكن أن تقف طويلا فى معركة مع سكان البلد الذين يبلغ عددهم ما يتراوح بين 2 و 3 ملايين نسمة •

فاذا كانت القوة العسكرية التركية ضعيفة ، وبقى الاتراك مع ذلك فى البلد ثلاثة قرون ، فيجب أن نبحث عن أسباب أخرى ، غير القوة لهذا البقاء · وهذه الاسباب يمكن البحث عنها فيما اعتقد فى الطريقة التى كان الاتراك يفهمون بها التعاون مع البلد ·ونحن نذكر ان الاتراك لم يكونوا يحتلون سوى المدن الشمالية · وأما القبائل فى الداخل ، فقد كانت فى معظمها تتمتع بالاستقلال فى حكم نفسها أو تدخل فى تحالف مع السلطات التركية ، وهنا أيضا ، يجب أن نستحضر فى اذهاننا صورة أخرى للوجود التركى ، اذا أردنا درس تاريخ الجزائر بتمعن فى هذه الفترة ·

وهذه القبائل التى تتمتع بالاستقلال الذاتى أو بالاستقلال التام ، كيف كانت تعيش فى ذلك الزمن ؟ وماذا كان نظامها السياسى والاجتماعى ؟

ونحن اذا درسنا الادارة التركية ، فسيتضح لنا أن البلد قد قبل بوجود الادارة التركية باعتبارها عنصرا من عناصر الدفاع عن الاسلام ·

ولكن ما هو المظهر الذى يتخذه الوجود التركى ؟ فى المكان الاول ، يتخذ هذا الوجود مظهرا عسكريا · فان الاتراك موجودون فى البلد ويحكمونه بالقوة التى تتجسم فى الانكشارية وفى الجنود الاتراك · والانكشارية التى تأتى من تركيا ، نجد لها ذكرا فى الادب والتاريخ الذى وضعه الاوروبيون ليس فيه ما ينطوى على المدح والتشريف · فالصورة المنطبعة عليهم تمثلهم غلاظا ومغامرين يأتون من سهول الاناضول ، وهم لا يمثلون شر ونقير ، ليبحثوا عن الثروة · اننى اعتقد ان هذه الصورة مبالغ فيها · والواقع ان مغامرين قد جاءوا الى هذه البلاد فى مختلف الازمنة والعصور · والمتعارف ان جميع الاشخاص الذين يهاجرون الى الخارج ، انما يتركون أوطانهم فى العادة بحثا عن المغامرات والمال · ولكنه توجد دائما أقلية يدفعها المثل الاعلى للهجرة · والكثيرون من الاتراك جاءوا ليجاهدوا ويقاتلوا · والمكتبة الوطنية تحتفظ بنسخة من وثيقة مهمة تسمح لنا بفهم نفسية الجنود الاتراك وعقليتهم · فنحن قد عثرنا على أغانى تركية تمجد الانكشارية وتتحدث عن حب الاسلام وتصف « سلطنة الجهاد » فى الجزائر · فهذه الاغانى تشيد بقيمة التضامن من بين البلدان الاسلامية من أجل النضال · ومن ثم ، فان من الممكن الاعتقاد بأن اللوحة السوداء التى رسمها المؤرخون للانكشارية

وللجنود الاتراك الذين يبحثون عن المغامرة واللذة ان الجواب عن هـذه الاسئلـة سيساعدنا على فهم حقيقـة البلد • ولكن هذا الموضـوع لم يدرس ــ مع الاسف بالكفـايـة •

والمهم انه كان يوجد فى البلد عدد كبير من القبائل التى تتمتع بالاستقلال ، فى الوقت الذى لا يحتفظ فيه الاتراك فى المدن الا بحاميات صغيرة • ونحن نلاحظ أيضا ان الاتراك قد حاولوا حكم البلد عن طريق الوسطاء والاعوان • وهذا النظام الـذى يسمى « المخزن » (أى السلطة) ، يتمتع بكثير من المزايا ، بحيث أصبح يعنى باللغـة اليومية ، نظام الحكم ، او الحكومة •

كانت توجد فى البلد قبائل تقوم بدور الوسيط فى الحكم بين الشعب والاتـراك وترتبط بنوع من التحالف مع السلطة المركزية ، كلفت بالقيام بأعمال البوليس وتلتزم بتقديم الجنود للحكومة فى حالة قيام ثورة • وفى مقابل ذلك ، منح الاتراك لهذه القبائل (المخزن) أراض وبذورا لحرثها ، وأسلحة لتمكينهم من القيام بدورهم فى المحـافظـة على الامن بين القبائل •

ومن جهة أخرى ، فان الاتراك بعدما استقروا فى البلد كانوا يرون ان مهمتهم الاساسية ، هى تعزيز الانكشارية لصد العدو الخارجى • وبالتالى ، فهم لم يكونوا يهتمون بالسيطرة على داخل البلد ، ولم يكن يعنيهم سـوى مسألتـين : الاعتراف بسلطانهم ــ ذلك الاعتراف الذى يجد تعبيرا عنه فى خطبة الجمعة التى تقرأ باسـم السلطان العثمانى ــ ودفع الضرائب للسلطة المركزية •

واذا ، فان الصلة الحقيقية بين الحاكم والمحكوم تتلخص فى الضرائب • وهذه الصلة قد يستحسنها البعض من حيث انها تترك للشعب حريته الكاملة • وقد ينتقدها البعض من حيث انها تركت للشعب الحبل على الغارب ، حيث لم يقم الاتراك بأى مجهود لمساعدته على التطور والتقدم ، وهو موقف سلبى • وبالتالى نجد أنفسنا أمام مظهر ايجابى ومظهر سلبى للحكم التركى فيما يتعلق بصلة الحكومة المركزية بالداخل •

ونحن نلاحظ أيضا ان الاتراك قد حاولوا الاعتماد على التضامن الاسلامى وعـلى المرابطين ورجال الدين فى الداخل حيث بنوا عددا كبيرا من المساجد والزوايا وارتبطوا

برؤساء بعض المناطق الداخلية • وبعبارة أخرى ، لقد حاولوا خلق اطار طبيعى للاتصال بالداخل عن طريق السلطة الروحية ورجال القبائل •

وهذه السياسة هى التى تفسر لنا كيف استطاع الاتراك القيام بحكم البلد ، فى الوقت الذى لا يملكون فيه الا عددا صغيرا من الحاميات •

ومع ذلك ، يجب ألا يفوتنا ان نذكر بأنه قد وقع عدد من الثورات والانقلابات فى البلد ، احتجاجا على ارتفاع الضرائب والعوائد التى كان الاتراك يستخلصونها • وهذه فى الحقيقة هى مشكلة الاحتلال •

والمشكلة الاخرى التى تستحق العناية ، هى مشكله العلاقات بين الجزائر وتركيا • فهل كانت الجزائر مستعمرة تركية ، أم دولة تتعامل مع الامبراطورية العثمانية على قدم المساواة ؟ واذا وقع تغيير فى هذا الوضع ، فمتى وقع ذلك التغيير ؟

يجب أن نلاحظ انه اذا كانت الجزائر فى غضون القرن السادس عشر ولاية تركية ، فان مدينة الجزائر كانت أيضا مركزا لما يسمى « بايلرباى » والذى كان يتمتع بالسلطة على الجزائر وتونس وطرابلس • وقد كانت الجزائر ولاية على قدم المساواة مع الولايات العثمانية فى أوروبا • وقد كان البايلرباى ، شخصية مهمة فى البلاط العثمانى فى القرن السادس عشر ، وكانت الجزائر وفية فى ولائها للسلطان ، حيث انها لم تقم قط بثورة ضد الاتراك • وتعليل ذلك ان هذه الفترة كانت عهد جهاد وتضحية • والجزائر كثيرا ما ضحت بمصالحها من أجل قضية الجهاد •

ولكنه فى القرن السابع عشر ، فى عهود الباشوات والآغاوات أخذت الجزائر تدريجيا تقدر مصالحها وتضعها فى المكان الاول قبل مصالح اسطنبول • وهذه الظاهرة تبدو واضحة اذا درسنا العلاقات الخارجية ، حيث نرى أن الجزائر كانت حريصة على أن ترتبط بعلاقات خارجية خاصة بها مع الدول الاجنبية • وقد كانت الجزائر توقع معاهدات مع الدول الاجنبية بصورة مستقلة عن الدولة العثمانية • وقد كانت هذه الحقيقة هى التى تمثل أقوى حجة فى القول بأن الجزائر كانت دولة مستقلة قبل سنة 1830 ، حيث كانت ترتبط بعلاقات مع فرنسا وانجلترا وهولندا والولايات المتحدة الامريكية •

-ومع مرور الزمن ، ظهرت طبقة من الحكام ـ من البايات والدايات ـ تعمل لارساء حكمها للبلد على العناصر المحلية ، فكانوا يعتمدون على الجنود الجزائريين الـذين يجمعونهم من متيجة أو من بلاد القبائل ، أو من قسنطينة ويفضلونهم على الانكشارية ، حين أدركوا ان هذه القوة تمثل البلد · ولعل أبلغ مثال لهذا الاتجاه ، هو علي خوجة الذي قام بثورة في سنة 1817 ، حين نقل قصر الداي الى القصبة وتحصن بأسوارها وأبعد الانكشارية عن مراكز الحكم ، واعتمد على الجزائريين وخصوصا القبائل · وهذه الحركة تدل على محاولة ادماج الادارة التركية في البلد ·

وهذه النزعة نلاحظها أيضا في الباي أحمد ، باي قسنطينة ·

توجد مشكلتان يرددهما المؤرخون الفرنسيون بقصد تبرير التدخل الفرنسي في الجزائر ، وهما ، أولا : القرصنة وأعمال النهب في عرض البحر · وانا أعتقد ان من الضروري القول بأن هذه الظاهرة التي تدعو الى الاسف ، هي ظاهرة اشتركت فيها جميع البلاد الواقعة على االبحر الابيض المتوسط وليست ظاهرة خاصة بالجزائر · واذا كانت الجزائر قد اشتهرت بأعمال القرصنة ، فذلك لان السفن الجزائرية كانت أسرع وأنشط من غيرها ، ولانها كثيرا ما كان النصر حليفها · واذا كانت مصارعة السفن في البحر نوعا من العراك والقتال في البحر قبل به المسلمون والمسيحيون معا ـ وهو شيء يدعو الى الاسف من وجهة نظر أخلاقية ـ فان هذا الصراع قد تحول الى عمليات للنهب والسلب · وهذا موضوع مهم يحاول البعض الآن ، الاتجاه الى بحثه · ونحن يجب ان نبحث عن أسباب هذا التحول في عدد من التطورات التي من بينها منع البلدان الاوروبية للتجار المسلمين بعرض بضائعهم في أوروبا ونقل سلعهم بواسطة السفن الاسلامية الى الموانيء الاوروبية · ونحن نجد تحت تصرفنا عددا من الوثائق في ارشيفات مرسيليا تدل على ان سر كهنوت فرسان مالطة هو أنهم فرضوا على أنفسهم مهمة دينية مقدسة ، وهي الهجوم على التجار المسلمين في البحر ومنعهم من الوصول الى الموانيء الاوروبيـة ·

والمشكلة الثانية التي يعرضها الاوروبيون لتبرير تدخل فرنسا ، هي مشكلة الرق · وهذه ، هي الاخرى ظاهرة شائعة في البحر الابيض المتوسط وتدعو الى الاسـف ·

ولكن هؤلاء المؤرخين حين يتحدثون عن مدينة الجزائر بوصفها مركزا للتجارة فى العبيد ، يتناسون المدن الاوروبية التى كانت توفر العبيد وتتاجر فيهم فى البحر الابيض ·

وتجارة الرقيق تدعو الى الاسف ، بدون شك ، ولكنه يجب النظر اليها من كلا جانبى البحر الابيض وليس من جانب واحد فقط ·

والنقطة الاخرى التى تستحق العناية والبحث ، هى تلك التى تتعلق بالحضارة والاقتصاد · فقد طالما وصفت الجزائر بأنها بلد بربرى ، بل ان البعض كان يزعم ان الجزائر لم تكن لها مدن · والقول بأن بلدا ليس فيه مدن ، معناه ان هذا البلد لا يملك حضارة · ولكن الواقع ان فى الجزائر آثار مدن ، بل وفيها مدن عرفت حياة من العز والبذخ والرخاء · وهذه المدن تنطوى على كنوز من الآثار ، يقتضى الامر بذل أقصى الجهد لدرسها والمحافظة عليها · فان كثيرا من مدننا تحتوى على قصور ومساجد ومنازل ذات قيمة أثرية لا تنكر بل ان بعض البيوت التى تسكنها عائلات كبيرة ولا تجد عناية فى حى القصبة ، تمثل آثارا قومية ثمينة · وبدرس هذه الآثار وتحليلها ، يمكن أن تكون فكرة عن حضارة الجزائر فى العصور الغابرة · ولكنه يوجد أيضا عدد كبير من المخطوطات التى يرجع تاريخها الى تلك الفترة والتى لا تزال نائمة فى المستودعات ، يمكن الاستعانة بها لتكوين فكرة عن النشاط الثقافى السائد فى ذلك العصر · وكذلك توجد شواهد تدلنا على درجة انتشار التعليم بين سكان المدن فى ذلك العهد · ومن الشهود الذين يمكننا ان نشير الى أقوالهم فى هذا السياق ، مؤلفان وسائحان فرنسيان ، اعلنا دهشتهما لان يروا ان نسبة الامية فى بعض المدن الجزائرية أقل من نسبة الامية التى تعرفها بعض المدن الفرنسية ·

وتبعا لذلك ، يمكن القيام بدرس عدد من الموضوعات لتعديل النظرة الشائعة عن تاريخنا وللقضاء على الترهات التى كان يذيعها الاستعمار ·

وأنا أعتقد ، كما سبق أن أشرت ، ان أهمية العصر التركى ، هى ان هذه هى الفترة التى تحددت فيها حدود الجزائر الحالية بحيث أصبحت أراضيها اطارا للحياة المادية · ففى هذه الفترة التى تحددت فيها معالم الجزائر المادية ، تكونت عادة بين سكان المغرب

الاوسط ليعيشوا تحت ادارة موحدة وفى ظل حكومة واحدة ـ حكومة تقرر مصير الشعب على ضوء مصالح الجزائر . ومن هنا ، فقد ظهرت ابتداء من العهد التركى تلك القومية الجزائرية التى كنا دائما ننادى بوجودها فى عهد الاستعمار الفرنسى ، والتى كنا نطالب باسترجاعها وباستعادة الجزائر لسيادتها القومية ، وبالتالى ، لاستقلالها .

والى جانب هذه العوامل المادية ، مثل الحدود والدولة ، والحكومة ، اعتقد انه كانت توجد أيضا رغبة روحية بين السكان للعيش فوق تراب واحد وللدفاع عن التراث المشترك . وبالاختصار ، كانت توجد فى الجزائر جميع المقومات التى تمثل الضميـــر الادبى والتى تشكل أهم الشروط التى لابد من أن تتوفر لدى أية أمة لكى تعتبر أمـة .

ففى العصر التركى تشكل الاطار المادى وروح القومية الجزائرية فى نفس الوقت .

الجزائــر فى كتابات محمــد عبــده

فرنسا اتخذت من التبشير وسيلة للسيطرة علــى البــلاد الاســلامية

د. محمــد بــرج
أستاذ سابقا فى جامعة الجزائر

« لو أسلمت الأمة الفرنساوية بأسرها وفى مقدمتها مسيو هانوتو ، وكانت معاملتها لغير الفرنسيين على ما نعهــده فى الجزائر ومــداغسكر ــ هــل ترجو من سكان مستعمراتها أن يميلوا اليها وأن لا ينتهــزوا الفرصة للثورة عليها » .
محمــد عبــده

لعل من أمتع الابحاث التى قدمها الينا امامنا الراحل محمد عبده تلك الدراسة التى انبرى فيها للرد على المؤرخ الفرنسى هانوتو Hanoteaux والمتعمق فى دراسة الاستاذ الامام يعرف عنه قدرته العجيبة على دحض الافتراءات التى يحاول خصوم الإسلام الصاقها به وكذلك تمكنه من معرفة ما يبطنه هؤلاء الخصوم وان تظاهروا عكس ما يبطنون .

ونحن حين نقرأ للاستاذ الامام نلمس غيرة دينية غير متعصبة وحماسة وطنية غير ضيقة الافق رحبة واسعة يعترف بنقائص قومه حين تكون هناك نقائص أنظر اليه يقول : « اما لو رجع المسلمون الى كتابهم واسترجعوا باتباعه ما فقدوه من آدابهم لسلمت نفوسهم من العيب وطلبوا من أسباب السعادة ما هداهم الله اليه في تنزيله وعلى لسان نبيه ومهده لهم سلفهم وخطه أهل الصلاح منهم واستجمعت لهم القوة ودبت فيهم روح الفتوة وكان ما يلقاه هانوتو وأتباعه من دين صحيح شرا مما يخشونه من دين شوهته البدع » .

وكان هانوتو قد نشر مقالتين في بداية هذا القرن تحت عنوان: «الاسلام والمسألة الاسلامية» تضمنت كثيرا من الافتراءات . والحقيقة أن الشيء الذى شغل بال هانوتو وأقض مضجعه ومضجع غيره من المستعمرين آنذاك كانت قضية الجامعة الاسلامية التى برزت للوجود آنذاك يدعمها السلطان العثمانى عبد الحميد . (1)

ويستطيع الباحث أن يصل الى ذلك ، ذلك أن صاحب صحيفة الاهرام انتهز فرصة وجوده فى باريس وقابل هانوتو ، ودار حديث بينهما أراد منه صاحب الصحيفة المصرية أن يصل الى السبب الذى من أجله كتب المؤرخ الفرنسى هانوتو ما كتب ، فكان من بين ما قاله هذا المؤرخ : كيف تنادون بوجوب الاتحاد الاسلامى ؟ أترضى به أوستريا ولها البوسنة والهرسك وهى طامعة فى غيرهما ؟ أم تقبل به فرنسا مع املاكها الافريقية الواسعة ؟ أم تؤيده انجلترا وعدد رعاياها المسلمين عظيم ؟ أم تعضده روسيا ؟ أليس ذلك خرقا فى الرأى من الذين ينادون بهذه السياسة ؟

والغريب فى الامر أن هانوتو وهو يهاجم فكرة الجامعة الاسلامية كان يبدو كالحريص على مصلحة المسلمين أكثر من حرصهم هم على مصلحتهم فهو يقول لصاحب صحيفة الاهرام انه كان يجب على رجالكم سواء الذين عركتهم حوادث السنين الغابرة

---

(1) ارجع لمجلة الاصالة العدد الخاص عن موقف المؤرخين الاجانب من تاريخ الجزائر بحث لنا بعنوان (فرنسا والنهضة القومية الجزائرية) لترى تهجم كاتب فرنسى آخر اسمه سرفيه على الجامعة الاسلامية .

أو الذين درسوا فى أروبا وتعلموا بعض علومها ان يهتموا بنشر العلوم العصرية وان يعملوا فى الخارج على ازالة سوء التفاهم بين الشرق والغرب بأن يتخذوا اقدام أوربا واجتهاد ابنائها مثالا يسيرون عليه ونموذجا يعملون بموجبه · ثم يعود فيؤكد لمحدثه « ان الرابطة الوطنية أشد من الرابطة الدينية وهى التى كانت قاعدة أوربا الاولى فى سياستها وبها تقدمت وتمدنت ونجحت » :

ولقد أردت بهذه المقدمة أن أوضح الهدف الذى دفع هانوتو لكتابة بحثيه عـن الاسلام والمسألة الاسلامية · يبدو الامر فى ظاهره وللقارىء له لاول وهلة وكأنه يدعو قومه لاتخاذ خط واضح وسياسة ظاهرة تجاه المسلمين حيث ان فرنسا صارت لها أملاك واسعة فى بلاد المسلمين · ولا ينبغى وقد أصبح لها ذلك ألا تكون لها هذه السياسة المرسومة التى يتبعها موظفوها فى تلك الاقطار الاسلامية · ذلك ان الموظفين الفرنسيين فى نظر هانوتو قسمين لا ثالث لها · قسم متعصب تماما ضد الاسلام وقسم متعاطف جدا معه ولا وسط بينهما · من أمثال الفريق الاول من يقول ان الديانة المحمدية جذام فشا بين الناس · ويرى القسم الثانى من الموظفين الفرنسيين ان الاسلام قنطرة للامم الافريقية ينتقلون بواسطتها من ضفة الوثنية الى ضفة المسيحية ، فليس الواجب والحالة هذه قاصرا على معاملة الاسلام بالتساهل والتسامح ، بل لابد من رعايته وتعضيده ·

يبدو اذا الهدف الظاهرى من كتابات هانوتو وكانه لا يقصد سوى مطالبة حكومة بلاده « أن تبحث بحثا علنيا فى علاقتنا مع الاسلام والمسلمين بمعرفة أناس خبيرين وعلماء عارفين لينجلى هذا البحث عن الخطة التى يتحتم على العموم اتباعها من حاكم منا ومحكـــوم » ·

لكن الحقيقة التى فطن اليها الاستاذ الامام أن هانوتو لم يكتب لينصح قومه بقدر ما كتب تهجما على العقيدة الاسلامية ·

وقال محمد عبده « لو لم يتعرض مسيو هانوتو الى الطعن فى أصل من أصول الدين ما حركت قلمى لذكر اسمه وكان حظى من النظر فى مقاله هو العظة والاعتبار

حظ الناظر في أحوال الامم واعمال رجالها • حظ المؤرخ الذى يقرأ ليفهم ويفهم ليعلم ويحكم ولا يهمه أخطأ القائل أو أصاب » •

ولم يكن هجوم هانوتو هجوم فرد مغمور فقد كان آنذاك شخصية مرموقة شغلت عدة مناصب فى الحكومة الفرنسية وكذلك على المستوى الدولى فضلا عن مكانته فى المجال العلمى • فمنذ دخل وزارة الخارجية الفرنسية كاخصائى فى الوثائق سنة 1879 بدا نجمه يلمع حتى انه اصبح نائبا فى البرلمان الفرنسى منذ سنة 1886 الى سنة 1889 وبعدها شغل منصب وزير الخارجية الفرنسية منذ سنة 1894 الى سنة 1896 • وكانت سياسته التقارب مع روسيا • أمـا عـلى المستـوى الدولى فقد أصبح نائبا من نواب رئيس منظمة عصبة الامم سنة 1922 ، سنة 1923 • أما شهرته العلمية فهى غنية عن البيان فهو صاحب الموسوعات المختلفة فى التاريخ •

من أجل هذا كان لكتاباته عن الاسلام فى سنة 1900 صدى ضخما وانبرى الاستاذ الامام للرد عليها فور قراءتها • فهو يقول رحمه الله فى رسالته الى صحيفة المؤيد : « قرأت الساعة مقالة مسيو هانوتو ••• » وبادر بالرد عليه •

وفى أول مقال كتبه الاستاذ الامام للرد على هذا المؤرخ الفرنسى أخذ يؤكد على تفنيد ما ادعاه هذا الاخير أن الفرنسيين وهم الشعب الآرى المسيحى الجمهورى يحمل الى الشعب الاسلامى السامى الاصل روح المدنية ! فأوضح الاستاذ الامام فضل الاسلام على العالم باسره •

وقد أخذ الغرب الآرى عن الشرق السامى أكثر مما يأخذه الآن الشرق المضمحل عن الغرب المستقل ثم أوضح بعد هذا ان الدين الاسلامى ليس دينا ساميا بل هو دين كل الاجناس والاقوام •

وانتقل بعدها الاستاذ الامام من مقالته الثانية للحديث عن مسالة القدر فى الاسلام • وكان هانوتو قد أشار الى الطرقية فى الاسلام وكيف أن أصحاب الطوائف الاسلامية يلقون الترحيب من جانب المسلمين فى كل مكان • قال هانوتو : ففى البقاع

الافريقية ترى المرابطين وقد افرغوا على ابدانهم الحلل البيضاء يحملون الى الوثنيين من العبيد العارية أجسامهم قواعد الحيـاة ومبـادىء السلوك فى هذه الدنيا .

ثم يمضى هانوتو فيقول : ان العالم الاسلامى منقسم الى طوائف وطرائق لاعداد لها ينخرط فى سلكها الالوف من رعايانا المسلمين ولكن ليس لها فى الغالب مراكـز ولا زوايا بالاراضى الداخلة فى دائرة نفوذنا . وغاية الامر أن العاملين فى هذه الطوائف والمذاهب الكثيرة يخترقون بلا انقطاع مستعمراتنا الافريقية فيستقبلهم أهلوها بالترحاب ... هذا عداما يجمعه له من صدقات ذوى البر والاحسان أو من المرتبات المالية السنوية التى يبلغ ما يدفعه أهالى الجزائر وحدهم منها ثمانية ملايين مـن الفرنكات كل عام . وهذا ما يستوجب الدهشة لان مقدار ما يجبيه من الضرائب كل سنة من أهالى الجزائر لا يتجاوز ضعف هذا المبلغ .

ويمضى هانوتو الى القول ان بعض الطوائف لها علاقة ود وصداقة مع « رجـال حكومتنا فى الجزائر وتونس على أحسن ما يرام » . لكنه يرى ان بعض الطوائف بلغت شدة العصبية منها مبلغا عظيما من ذلك « أن الشيخ السنوسى أسس فى جهة ليست بعيدة من الاصقاع التى تلى أملاكنا فى الجزائر مذهبا خطيرا له اشيـــاع وانصـــار » .

ثم يقول « كنا نرى منذ زمن حديث رعايانا الوطنيين فى الجزائر ينصاعون لاوامر سرية تناقلوها بالافواه وكانت تقضى عليهم بتأليف الزمر والافواج منهم لمهاجرة أوطانهم والذهاب الى آسيا الصغرى حيث يجدون الامن المرجو » .

وهنا يصل هانوتو الى بيت القصيد كما يقولون فهو يؤكد « أن جراثيم الخطر لا تزال موجودة فى ثنيات الفتوح وطى أفكار المقهورين الذين اتعبتهـــم النكبـــات التى حاقت بهم ولكن لم تثبط هممهم . نعم ليس لمقاومتهم رؤساء يديـرون هـذه المقاومة ، ولكن رابطة الاخاء الجامعة لافراد العالم الاسلامى باسره كافلة بالرئاسة .

وبالطبع وان لم يفصح هانوتو عما يقصد فانه يشير الى حركات المقاومة الجزائرية ضد الاحتلال الفرنسى وحركة الجزائر الفتاة ويرى وان لم يذكر ذلك صراحة على

نحو ما فعله سرفيه فى كتابه الحركة الاسلامية فى مصر وتونس والجزائر ، أن هناك تنسيقا بين افكار وآراء مصر الفتاة وتونس الفتاة من جانب وحركة الجزائر الفتاة من جانب آخر وبين هذه الحركات الثلاث وحركة الجامعة الاسلامية التى نشطت الدعاية لها آنـــذاك ·

أخذ الامام رحمه الله يفند ما زعمه هانوتو وحمل حملة شعواء على تلك الطوائف والطرق التى أدخلت الى الدين الاسلامى ما ليس فيه وأطمعت فيه كل مستعمر ·

قال محمد عبده : « لا أنكر أن الزمان تجهم للمسلمين كما كان قد تنكر لغـيره وابتلاهم بمن فسد من المتصوفة من عدة قرون فبثوا فيهم أوهاما لا نسبة بينها وبين أصول دينهم ···

ويمضى الامام رحمه الله فيقول : ما اضل هانوتو وامثاله مـــن قصار النظر الا أولئك الدراويش الخبثاء أو البله الذين يغشون اطراف الجزائر وتونس ولا يخلو منهم اليوم قطر من اقطار الاسلام ممن اتخذ دينه متجرا يكسب به الحطام وجعل من ذكر الله آلة لسلب الاموال من الطغام · أما لو رجع المسلمون الى الحقيقة من دينهم لادوا فرضهم واستنبتوا أرضهم واستغزروا من الثروة واعدوا لفرنسا ما استطاعوا من قوة واعتمدوا فى نجاح أعمالهم على معونة القدر وايقنوا فى صولتهم علما ان ليس من الموت مفر ، ثم صال صائلهم على مكان العزة منها ونال ما ينال القوى من الضعيف والعزيز من الذليل ، لانقلب جنوبهم لدى هانوتو عقلا وتحول هذيانهم حكمة وعلما » ·

ثم يمضى الاستاذ الامام فى مقال ثالث عن عقيدة التوحيد التى تهجم عليها هانوتو يقول : « يظن هانوتو ان الاسلام قطع الصلة بين العبد وربه ولكنه وهم فى ذلك ، فان الاسلام أفضى بالعبد الى ربه وجعل له الحق أن يقوم بين يديه وحده بلا واسطة تبيعه رضاءه · قضى الاسلام بأن لا يكون للكون الا قاهر واحد يدين له بالعبودية كل مخلوق وحظر على الناس مقامين لا يمكن الرقى اليهما : مقام الالوهية التى تفرد بها ومقام النبوة التى اختص بمنحها من شاء » ·

ثم يمضى الاستاذ الامام يعيب على ما أدخله بعض المسلمين فى الدين من بدع أكلت الفضائل وحصرت العقائل ويقول رحمه الله :

أما لو رجع المسلمون الى كتابهم واسترجعوا باتباعه ما فقدوا من آدابهم لسلمت نفوسهم من العيب ... الى آخر ما أوردنا . فى بداية هذا البحث .

ولا يتسرب اليأس الى نفس الامام وهى التى مضت طول حياتها تبث الثقة فى النفوس الحائرة وتدعو الى عدم القنوط لان الله وعد المسلمين النصر ان هم اتجهوا اليه وتخلصوا مما ران عليهم من ضعف . يقول امامنا اما فليعلم كل من يخدع نفسه أن الاسلام ان طالت به غيبة فله أوبة ، وان صدعته النوائب فله نوبه ويستشهد بقول قسيس انجليزى شهير أسحق تيلر انه (أى الاسلام) يمتد فى افريقيا ومعه تسير الفضائل حيث سار ويؤكد محمد عبده ان الاسلام لا يزال ينتشر فى الصين وغيره من أطراف آسيا وسترشده الحوادث الى طريق الرجوع الى طهارته وتنثنى به الملمات الى ما كان عليه لاول نشأته وتدرك منه الامم منه خير ما ترجو ان شاء الله .

« لو اسلمت الامة الفرنساوية بأمرها وفى مقدمتها مسيو هانوتو وكانت معاملتها لغير الفرنساويين على ما نعهده فى الجزائر ومداغسكر - هل ترجو من سكان مستعمراتها أن يميلوا اليها وان لا ينتهزوا الفرص للثورة عليها ؟ كلا فما ظنك بالمسلمين وهم يسمعون قصف هذا الرعد ولا يرون من المتغلبين عليهم الا الجد فى اهلاكهم والدأب فى افنائهم . ان القول ورعاية الحقوق واحترام المعتقدات بعد معرفة أصولها هى التى تخفف على المغلوب سلطة الغالب وتدنو به منه وتهون عليه الرضاء عنه . ولكن هانوتو واضرابه من ساسة الفرنسيين لا يعرفون شيئا من هذه الاركان الثلاثة ولا يزالون يهرقون بما لا يعرفون حتى يصلوا الى ما كانوا يحسبون : فلينتظروا انا معهم منتظرين » .

وظل قلب محمد عبده معلقا بالجزائر . فما ان بادر صاحب جريدة الاهرام آنذاك واجرى حديثا فى باريس مع هانوتو استوضح منه الدوافع التى دفعت به الى ما كتبه عن الاسلام ، حتى بادر محمد عبده مرة أخرى يرد على رد المسيو هانوتو .

كان هانوتو قد أفصح لصاحب الاهرام عدم رضاه عن دعوة الجامعة الاسلامية التى قويت آنذاك . وكان قد أوضح لصاحب الاهرام أيضا ان الرابطة الوطنية هى من

وجهة نظره أهم من الرابطة الدينية التى تنادى بها الدولة العثمانية آنذاك • وكان صاحب الجريدة قد سأل هانوتو :

اذا كنت تحب مصلحة المسلمين وتعتقد انهم راضون فى تونس فهل تعتقد ذلك فى أهل الجزائر ؟

فأجاب هانوتو : أما التونسيون فلا خلاف فى انهم مسرورون بحالتهم !! ويمضى هانوتو يقول : نحن دخلنا بلادهم وهى قاع صفصف مزق شملها أفراد حكموها • واما نحن فقد تركنا للسكان حقوقهم المذهبية فاحترمنا جوامعهم وعقائدهم ولم نسألهم الا أمرا واحدا أى احترام سلطتنا السياسية • ويقول هانوتو ولا أنكر انه يجب تعديل بعض قوانين الجزائر وقد شرعنا فى ذلك وسأكتب كثيرا فى هذا الموضوع لانى ذهبت بنفسى الى تلك البلاد ودرست أحوالها وأملى أن لا يمضى طويل زمن حتى ترى ذلك الاصلاح الذى طلبه غيرى قبلى وشرعت حكومتنا فى انفاذه •

وقرأ محمد عبده رد هانوتو فبادر يرد عليه على صفحات المؤيد فى 28 ربيع الاول سنة 1318 هـ (25 يوليو سنة 1900 م) العدد 3210 وقال رحمه الله انه يرجو من صحيفة المؤيد أن ترسل رده مترجما بالفرنسية الى هانوتو ليطلع عليه • ونفى محمد عبده فى رده ان سياسة الدولة العثمانية سياسة دينية • بل ان هذه الدولة وضعت فى بلادها قوانين مدنية وشرعت نظاما لطريقة الحكم وعدد الحاكمين ومللهم • وسمحت أن يكون فى محاكمها أعضاء من المسيحيين وغيرهم من الملل التى تحت رعايتها • « والذى أحب أن يعرفه مسيو هانوتو ان سياسة الدولة العثمانية مع الدول الاوروبية ليست بسياسة دينية ولم تكن قط دينية من يوم نشأتها • انما كانت فى سابق الايام دولة فتح وغلبة وفى أخرياتها دولة سياسة ومدافعة ولا دخل للدين فى معاملاتها مع الدول الاوروبية » •

وروى محمد عبده فى رده قصة طريفة قال فيها ان أحد أبناء جبل لبنان ممن تعلم فى مدارس التبشير فى لبنان كان ساذجا فذهب الى باريس 1884 واتصل بأحد السوريين المقيمين فى باريس وطلب منه أن يكون وسيلة فى نيل ما يرغبه

من معونة الحكومة الفرنسية لانشاء مدرسة فى لبنان · فقال له صديقه ان ما تخيلته ان فرنسا لا تساعد أحدا دون مقصد وغاية وان الحكومة الفرنسية وان كانت تطرد الجزويت من بلادها وتنازع الكنيسة فى سلطتها ، لكن سياستها فى الخارج دينية محضة ويمكن أن تعرف ذلك من حمايتها لبعثات التبشير · ومضى هذا السورى المقيم فى باريس يقول لصديقه ان كنت تريد انشاء مدرسة دينية ساعدتك فرنسا والا فارجع واشتغل بما يصلح لشأنك الخاص · فرجع الشاب خائبا » ·

وأراد محمد عبده من ذلك أن يؤكد لهانوتو ان فرنسا اتخذت من التبشير ومن تصدير السياسة الدينية وسيلة للسيطرة على البلاد الاسلامية وليست الدولة العثمانية هى صاحبة هذه السياسة ·

وبعدها مضى محمد عبده يحمل قلمه دفاعا عن تلك البلاد التى سعى المستعمر الفرنسى لتوطيد اقدامه فيها وفى مقدمتها الجزائر · فجاءها سنة 1902 وقد مهدت مجلة المنار لزيارته فاستقبله اهله استقبالا حافلا خالدا · وكون مجموعة من المريدين فى مقدمتهم الشيخ عبد الحليم بن سماية ومحمد بن مصطفى خوجة الذين تتلمذ عليهما امام الجزائر المرحوم الشيخ عبد الحميد بن باديس الذى بلغ اعجابه بالامام درجة لا حاجة بى الى سرد حديثها فى هذا البحث ·

وكان الامام رحمه الله يريد السفر الى المغرب وحادثه تلميذه رشيد رضا فى ذلك ولكن لم تتم هذه الزيارة وان كان قد اتصل به عدد من ابناء هذا البلد الشقيق فى مقدمتهم الشيخ المهدى الوزانى ·

أما صلته بالامير عبد القادر والرسائل التى تبودلت بينهما وما كان يعلقه الامام على جهاد الامير وحزنه الكثير على وفاة هذا المجاهد الذى رفع السيف فى وجه المستعمر الفرنسى فقد تناولته فى عدد من أعداد المجاهد الثقافى · وآمل فى بحث قادم باذن الله أن أتناول دور رشيد رضا وكتاباته وأثرها فى الجزائر والله الموفق ·

منشـــورات

وزارة التعليـم الاصـلى والشؤون الدينيـــة



بعض الوثائق الاسبانية

المتعلقة بتاريخ المغرب العربى فى القرنين الثانى عشر والتاسع عشر/الثانى عشر والثالث عشر من الهجرة

د. ميكال دى ايبالزا
أستاذ بجامعة مدريد (اسبانيا)



قد رتبت هذه الدراسة فى ثلاثة فصول :

أولا : بعض مشاكل التسميات بين مؤرخى تاريخ اسبانيا الاسلامية التى هى قسم من المغرب العربى الاسلامى فى القرون الوسطى .

ثانيا : الوثائق المهمة فى اسبانيا للدراسات حول الفترة فيما بين السنة 1780 يعنى المعاهدات السلمية بين اسبانيا والدول الاسلامية فى البحر الابيض المتوسط والسنة 1830 يعنى الاحتلال الفرنسى للجزائر .

ثالثا : كمثال لثروة الوثائق الاسبانية فيما يتعلق بهذه الفترة التاريخية ، أقدم هنا ثلاثة نصوص مختصرة .

أولا : كيف يستعمل المؤرخون الاسبان الاسماء التى يشيرون بها الى المغاربة ·

1) فيما قبل الاسلام يسمونهم " Africanos " أو " Mauritanos "

2) عندما يتكلمون عنهم فى القرون الوسطى " Norteafricans " أو " Berbères "

3) فيما بين القرن السادس عشر والتاسع عشر الميلادى هم berberiscos أو Moros

4) والمغاربة فى وقتنا الحاضر يطلق عليهم اسم Magrébies أو ينسبونهم الى أوطانهم الاصلية (تونس أو الجزائر أو المغرب الاقصى أو ليبيا) ·

والاسبان بالجملة يسمون المغاربة Moros فى الكتب الادبية الاسبانية وفى الحديث اليومى الشعبى ·

ثانيا : الكلمة " Moriscos " لا تترجم بـ " Mauresques " أو مغربى : " Moriscos " بل هم آخر المسلمين فى اسبانيا تحت الحكم والعادات المسيحية حتى هجرتهم الاخيرة فى أوائل القرن السابع عشر الميلادى ·

رابعا : " Aljauriado " هو أدب المسلمين الاخيرين فى اسبانيا باللغة الاسبانية لكن بحروف عربية ، ويلزم أن نسمى هذا الادب أدبا بالاسبانية فحسب ·

وأخيرا : أندلسيا كل ما يتعلق بالاندلس يعنى اسبانيا المسلمة ، ويلزم أن نكتب دائما بالفرنسية بسين فى آخرها ولا " Andalou "

2 الوثائق الاسبانية

منذ أكثر من أربعين سنة انعقد فى الجزائر مؤتمر حول تاريخ الجزائر ولكن الظروف السياسية التى انعقد فيها هى غير الظروف فى الوقت الحاضر ، وفيه أحد المحاضرين الاسبان Ortiz de Montalban قدم محاضرة عنوانها : الوثائق الجزائرية فى Simancas وانه من الممكن عند بحث هذا الموضوع أن تضيف له معلومات جديدة ·

لكنى لا أريد أن أتكلم عن الوثائق أو النصوص التى فى المخطوطات العربية من القرون الوسطى ، و El-Escorial هى أكبر مكتبة فى اسبانيا فى هذا النوع من الوثائق ·

أيضا لا أريد أن أبحث فيما يتعلق بالعلاقات بين الدول المسيحية والمغرب ، وتجد فى بعض المكتبات وثائق مهمة كالوثائق Covona de Avafou أى فى برشلون المعروفة ٠

فيما يتعلق بالمدن المحتلة فى القرن السادس عشر أو فيما بعد حتى وقتنا الحاضر ، والوثائق فى Simancas مهمة جدا ٠

وتجد أيضا وثائق أخرى مملوءة بالاخبار حول الحروب بين المغاربة والاسبان أو حول افتداء الاسرى أو حول العلاقات التجارية القائمة فى البحر الابيض المتوسط ٠

وانما نقتصر اليوم على الفترة التاريخية للمعاهدات السلمية بين اسبانيا والدول الاسلامية يعنى المغرب الاقصى ، تركيا ، طرابلس المغرب ، الجزائر وتونس وهى فترة غنية للمؤرخ لانه فيها تغير تماما الوضع السياسى بين الطرفين بسبب التغيير الفكرى العام فى البلاد ، ولحروب نابوليون فى اسبانيا ٠

وبالنسبة للدول الاسلامية صارت سياستها الخارجية وخاصة تجاه أوروبا معقدة فى البحر الابيض المتوسط ولهذه الاسباب أصبحت العلاقات الاسبانية المغربية علاقات سلمية بشكل عام ٠

والآن هذه الوثائق الاسبانية المهمة المتعلقة بهذه الفترة هى :

1) الوثائق العامة فى سيمانكس Archivo general de Simancas وفيها وثائق الدولة الرسمية وخاصة وثائق القرن الثامن عشر ٠

2) الوثائق التاريخية الوطنية فى مدريد Archivo historico national وتتضمن وثائق الدولة الرسمية بعد 1800 ٠

3)وثائق وزارة الخارجية Archivo del ministerio de Asun tos exteriores فى مدريد وخاصة بعد سنة 1822 ٠

4)معهد الدراسات الافريقية وبه وثائق حول المغرب الاقصى بداية من سنة 1860 ٠

5) الوثائق العامة العسكرية فى سيقوفيا Archivo general militar المتعلق بالتاريخ العسكرى والحمايات الاسبانية فى المغرب العربى ٠

6) وثائق وزارة البحر فى « الفيسو » Mused del ministerio de marina Elviso (Livdal Real)

7) الوثائق الاقليمية الخاصة بسواحل البحر الابيض المتوسط وبالمناطق الغربية الجنوبية لاسبانيا ٠

وتتعلق كل هذه الوثائق خاصة :

1) بالسياسة الاسبانية تجاه المغرب العربى ٠

2) بالسياسة الديبلوماسية المغربية المتعلقة ببعض الدول الاخرى ٠

3) الحوادث المهمة فى المغرب العربى ٠

4) القرصنة فى البحر الابيض المتوسط وما كان لها من تعاقدات وخاصة من النواحى القضـــائية ٠

5) التجارة فى البحر المتوسط بشكل عام وخاصة التجارة بين اسبانيا وبلدان المغرب العـــربى ٠

6) وأخيرا تنقل شخصيات متعددة جدا خاصة رجال البحر ورجال الحرب ورجال الدين والاسرى من جميع الانواع ٠

مــــدريد :

3 وأقدم لكم الآن ثلاثة نصوص غير منشورة مستخرجة من وثائق الخارجية فى مـدريـــد :

أ) يوميات القنصلية الاسبانية الاولى فى الجزائر من 1786 الى 1820 (مخطوط رقم 1066) المحتوى عـــلى :

1) تعليمات وزير الخارجية القدير لشارل الثالث وهو كونت (فلوريدا بـلانكـا) الى أو قنصل اسبانى فى الجزائر (1786) ٠

2) ارتقاء حسن داى الحكم والهدايا الاسبانية له بهذه المناسبة (1791) ٠

3) المفاوضات بين الجزائر واسبانيا حول المرسى الكبير ووهران ؛ وتخصص وكيل تجارى اسبانى فى الجزائر ٠ والنفقات الناتجة عنهما (1791) ٠

4) تولى مصطفى داى الحكم والهدايا الاسبانية له بهذه المناسبة (1798) ٠

5) الخلاف بين القتصل الاسبانى ونائب القنصل (1799م) ٠

6) المغامرات التى خاضها القنصل الاسبانى فى خصوص سفينة حربية جزائرية استولى عليها اسطول اسبانى فرنسى وكانت فرنسا فى حرب مع الجزائر ، وبعد تخليص السفينة الجزائرية بمساعى من الحكومة الاسبانية استولى عليها البرتغاليون الذين كانوا أيضا فى حرب مع الجزائر واعادة تخليص السفينة وارجاعها الى الجزائر صحبة البحارة الجزائريين الذين كانوا مسجونين فى برست Brest بفرنسا ٠ وكان كل ذلك تبعا لمعاهدة السلم بين الجزائر واسبانيا (1799 ـ 1800) ٠

7) صعوبات القنصل الانجليزى بسبب يهود الجزائر حسب رأى القنصل الاسبانى الجديد ، وتشير الوثائق الاقدم الى ودية العلاقات بين يهود وهران والجزائر والدبلوماسين الاسبان لمصالح اليهود الجزائريين فى اسبانيا (1802 ـ 1805) ٠

8) تولى حامد بن على الرابع السلطة والهدايا الاسبانية له وتوسيمه بوسام اسبانى لهذه المناسبة (1805) ٠

9) توسيم الداى حامد والقنصل الاسبانى واحتفالات الدبلوماسية بهذه المناسبة (1806) ٠

10) مبايعة الاسبان فى الجزائر للدستور الملكى الاسبانى فى السنة (1812) ٠

11) مبايعة الاسبان فى الجزائر وفى باية قسنطينة وباية معسكرة للدستور الملكى الاسبانى فى سنة (1820) ٠

ب) تقرير حول الوضع الدبلوماسى الاسبانى مع الدول المغربية فى سنة (1712) ٠

يقول التقرير بشكل عام أن الادارة الاسبانية لم تدفع مرتبات القناصل ولا ميزانيات القنصليات سنوات طويلة بسبب حروب نابليون ٠ فيتحدث عن صعوبات القناصل المالية بسبب مطالبة الدائنين والحكام المغاربة بالهدايا التى تعودوا الحصول عليها ٠ ومفصلا :

الجزائر : ديون القنصلية الاسبانية فى الجزائر لعائلة البكرى اليهودية فسبب لها صعوبات كثيرة ٠

طرابلس : لم تتحصل القنصلية على ميزانياتها وكذلك القنصل منذ سنة 1805 وكذلك طلبات الدائنين وباشا طرابلس .

تونس : علاقات ودية ممتازة لان الباى يكفيه دفع ولو جزئيا واشارة الى حسن العلاقات مع اسبانيا وتنكر لفرنسا .

المغرب الاقصى : علاقات ودية رغم سجن السلطان لبعض الاسبان الذين يصدرون الحبوب الغربية بطريقة غير رسمية فى منطقة الريف .

والخلاصة كان على اسبانيا أن تدفع كل ما يطلبها الحكام والدائنون المغاربة لان اسبانيا فى حاجة الى السلم أكثر من حاجة البلدان المغربية اليه .

ت) تسعة نصوص حول طلبات باى وهران من اسبانيا زمن ثولته ضد داى الجزائر سنة 1812 (ثمانية منها بالاسبانية وواحدة بالعربية) فى عموم العلاقات السياسية بين الدول المغربيـــة .

- استعداد الجزائريين لغزوات ضد تونس .
- ثورة باى وهران والقضاء على الاطراك فى منطقة وهران .
- اقتراض من الاسبان لاعانة سلطان المغرب لباى وهران وطلب الباى للاسلحة من اسبانيـــا .
- بيع البارود من السلطة العسكرية بقرطاجنة الى باى وهران بواسطة تاجر يهودى لحاجتهم الى المال .
- رفض الحكومة الاسبانية اعانة باى وهران .
- انتهاء ثورة باى وهران .
- الهجوم البحرى الجزائرى ضد تونس ونتائجه .

وأخيرا أقدم لكم أهم المصادر المطبوعة فى اسبانية حول هذه الفترة التاريخية (يعنى من نهاية القرن الثامن عشر والنصف الاول للقرن التاسع عشر) تجاه العلاقات الاسبانية الجزائرية فحسب .

شــواهــد مــن حضــارات عــالــم البــحــر الابــيــض المــتــوســط

د. هشـــام الصـفـدى
أستاذ سابقا فى جامعة الجزائر

الحديث عن البحر المتوسط حديث ممتع ، وبصفة خاصة بالنسبة لنا نحن الشعوب التى تعيش حول حوضه ، والتى ترتبط بهذا البحر باوثق الصلات ، منذ كان البحر المتوسط قلب العالم القديم ، ومهـــد الحضارة الانسانية • اليه نهرع فى الصيف لنغســل فى مياهه المنعشة تعب الشتاء ، وعلى شواطئه الساحرة ، وفى مناخه اللطيف ننسى لفترات ، هموم الحياة • وفوق أمواجه تنتقل مصالحنا وآمالنا وعلاقاتنا ذاهبة آتية •

وفى الحقيقة لم يكن الخطيب والكاتب الرومانى سيسرو مبالغا عندما قال عن عصره : « كانت العواصم والمدن تتوضع حول حوض البحر المتوسط كما تتوضع الكثير مــن الضفادع حول مياه الغدير ••• » • بحول هذا الحوض الكبير ، وتحت سمائه الزرقاء المشرقة، تفتحت الحضارات المصرية، والفينيقية، والاغريقية، والرومانية، والعربية •••

وكانت مياهه وما زالت شاهدا خالدا تقص للاجيال ما دار عبرها من تفتحات وفعاليات ، وما احتوته اعماقها من مآسى وكنوز ·

بدأت علاقة الانسان المتوسطى ببحره منذ أن صنع من الطوخر أو من جذع الشجرة أول مركب يستعين به على التنقل عبر مياهه · ثم ازدادت الصلة مع تطور صناعة المراكب وتشييد المرافىء · ونسمع ان الفينقيين كانوا أول من أجرى القياسات فيه قبل حوالى ثلاثة الاف سنة فقد كانوا يقيسون اعماق مداخل مرافئهم · واتبعوا لذلك أسلوبا هندسيا فريدا فى بناء الارصفة البحرية · اذ تركوا فتحات دائروية تحت خط الماء ، وضمن جدار الرصيف · فكانت مياه الامواج تتكسر على الجدار ، ثم تندفع عبر الفتحات الى داخل المرفأ مولدة تيارا يخرج من مدخل المرفأ جارفا معه ما ترسب من الرمال فى القاع · اضافة الى ذلك اتبع الفينقيون أسلوب بناء المرفأ المزدوج (1) ·

أما المصريون فقد تميزت علاقتهم الباكرة بالبحر المتوسط بصنع السفن الكبيرة المسماة « سفن أعالى البحار » وذلك منذ عصر الملكية القديمة · وهى سفن قوية قامت بتأمين المبادلات التجارية بين مصر وجيرانها ، وخاصة سكان الساحل السورى ، حيث تتوفر جذوع الاشجار الجيدة ، والمواد الاولية · ولحسن الحظ حفظ الفراعنة فى قبورهم نماذج حقيقية أو مصغرة للمراكب التى صنعوها · سواء لاغراض دينية أو تجارية · وهى تنم عن جودة فى الصنع ، ومهارة فى التصميم · وهنا لابد أن ننبه الى أن الفعاليات الاولى للانسان عبر البحر المتوسط كانت فعاليات سلمية تجارية · ولقد تطلبت أعمال العمران الضخمة التى ازدهرت فى عهد الملكية القديمة ، من بناء الاهرامات والمعابد ، والمدافن ··· تطلبت استيراد المواد الاولية : كالاخشاب ، والمعادن ، والحجارة النفيسة ، والزيوت ··· الخ · وبالتالى تأثر النشاط البحرى ، وصناعة السفن بهذه الفعاليات العمرانية الداخلية · ويكفى أن نذكر بأنه تم فى عهد الملك صنفرو أول ملوك السلالة الرابعة (بناة الاهرامات) بناء ستين مركبا فى سنة واحدة ،

---

1) أنظر B. H. Warmington, Carthage, p. 114 ff., London 1960.

واستيراد اربعين مركبا آخر (2) ٠ وان تتبع تطور صناعة السفن والملاحة البحريـــة فى المتوسط لامر شيق بقدر ما هو هام ، يخرج عن نطاق هذا البحث (3) ٠

يبدأ اهتمام الانسان بالبحر المتوسط ككل جغرافى منذ أن قام اناكسيماندر الاغريقى Anaximander حوالى 550 قبل الميلاد ــ على الاقل ــ بوضع خارطـة للعالم المعروف أنذاك ، كان البحر المتوسط يشكل مركزه ٠ ولا يستبعد أن يكون الملاحون الفنيقيون سبقوه فى هذا السعى بخمسة قرون ، غير ان اعمالهم لربمـا ضاعت مع دمار قرطاجة ٠ وقد اعتمد نشاطهم الملاحى الكثيف فى المتوسط والاطلسى على ملاحظات جغرافية أكيدة ، يأتى فى مقدمتها استعانتهم بنجم القطب فى التوجه ٠ وبينما يكاد اناكسيماندر ينجح تقريبا فى تحديد معالم وحدود حوض المتوسط الشرقى حتى شبه الجزيرة الايتالية ، نراه يعجز عن تصور الشكل الصحيح للحوض الغربى ، وخاصة أجزاءه الشمالية التى يرسمها مبسطة بشكل مثلث تقريبا ويتصور ان العالم يسبح فى المحيط ٠

مضت الآن حوالى 2500 سنة على محاولة اناكسيماندر الاغريقى وضع خارطة لعالم حوض المتوسط ، الا أن البشر لم يتوقفوا منذ ذلك الحين فى محاولاتهم المستمرة لدراسة هذه المنطقة الهامة من الكرة الارضية ، واشترك فى الدراسات علماء من مختلف الجنسيات ٠ وقد تم مؤخرا لفريق من العلماء اكمال هذه السلسلة الطويلة بعد ان نجحوا فى تسجيل قياسات لقاع حوض المتوسط ، ساعدتهم على تخطيط خارطة لتضاريس حوضه كما لو كان فارغا من المياه ٠ وبذلك أصبح للمتوسط خارطتان أساسيتان ٠ واستعانوا فى عملهم بأحدث ما توصل اليه العلم الحديث من أجهزة : من صور التقطت بواسطة القمر الاصطناعى ، الى آلات تصوير خاصة بالاعماق ، وقلم يسجل على الورق تضاريس القاع بواسطة الموجات الكهربائية المرتدة ٠

تبين على ضوء الدراسات « التحت مائية » للبحر المتوسط ان حوضه يتألف اذا نظر اليه (بشكل عمودى) من ثلاث أجزاء رئيسية :

2) أنظر R. Armstrong, The Early Mariners, p. 22, London 1967.
3) سنعالج هذا الموضوع فى بحث مقبل .

1 ـ **القاعدة القارية الصلبة** : وتتراوح اعماقها حوالى 200 متر • وهى تشبه الارض اليابسة • وكانت القاعدة فى الماضى الجؤلوجى أرضا يابسة فى معظم أجزائها • ويختلف مدى امتدادها الافقى بالنسبة للشواطىء الحالية من منطقة الى أخرى • والملاحظ ان القاعدة القارية غنية بالثروات الطبيعية كالنفط والغاز الطبيعى ، كما هو الحال فى منطقة بحر الشمال •

2 : **المنحدر القارى** : يمهد الى قاع البحر وعنده تنتهى القارة الافريقية فى الجنوب ، والاوروبية فى الشمال ، والآسيوية فى الشرق • ويهبط بانحدار قائم يتراوح بين 1500 ـ 5000 متر فى ماء البحر • وهذه منطقة عالم الاسماك حيث لا تعيش النباتات • وتبلغ ثروة المتوسط من الاسماك حوالى 540 صنفا بما فى ذلك سمك القرش ، ويزداد هذا العدد باستمرار بعد فتح قناة السويس ، وانتقال أكثر من عشرين نوعا جديدا من اسماك المحيط الهندى والخليج الفارسى الى مياه البحر المتوسط •

3 ـ **قاع البحر المتوسط** : تتميز أرضية القاع بقشرة رقيقة نسبيا تفصله عن باطن الكرة الارضية (السائل النارى) • وبسبب رقة هذه القشرة وحدثت كسور وشقوق فى وسطها ، اندفعت وتندفع عبر الزمن براكين وحمم فى منطقة المتوسط ، وخاصة فى منطقة البحرين التيرانى والايجى • هذه البراكين مثل « فيزوف » « واتنا » والزلازل الكثيرة التى عرفها تاريخ عالم البحر المتوسط كانت السبب فى دمار أو اختفاء عدد كبير من المدن والمراكز الحضارية الهامة مثل : كنوسوس 1450 ق • م فى جزيرة كريت ، هير كولانوم وبومبى (79 للميلاد) • وهنالك العديد غيرها من المدن والجزر التى خربتها البراكين فدمرت وضاع نهائيا كل أثر لها ، الا اذا تم للعلماء اكتشافها فيما بعد • وسنعود الى هذا الموضوع بالتفصيل فى الصفحات التالية •

لعل أبرز ما يميز تضاريس قاع البحر المتوسط هو تلك الكتلة الكثيفة الهلالية الشكل ، التى تمتد بشكل قوسى مفتوح نحو الشمال ، لتصل بين جزيرة قبرص ، وقدم شبه الجزيرة الايتالية • وهى منطقة وعرة التضاريس يصل قاع المتوسط فيها الى أخفض عمق له 5120 مترا جنوب غرب البيليبونيز •

وترتفع كتلة التضاريس المذكورة أحيانا الى 2500 مترا ضمن الماء ، وذلك جنوب جزيرة وددوس • بينما تكاد جزر بحر ايجة تشكل امتدادا للقاعدة القارية • والى الجنوب من قوس الكتلة المذكورة ، وعلى عمق يقارب 2000 مترا يصب نهر النيل ـ ولكن مياهه لا تضيع ـ خلافا لما قد يظن ـ في مياه البحر المالحة مباشرة ، بل تندفع الى الاعماق عبر المنحدر القارى ، لتتابع رسم دلتا جديدة على قاع البحر بتفرعات تشابه تفرعات دلتا النيل الافريقية • ويشكل السطحى المندفع الى قاع المتوسط كتلة مخروطية اطلق عليها الجغرافيون اسم مخروط النيل •

خلافا لحوض المتوسط الشرقى ـ الذى يتميز باضطراب فى تضاريس قاعه ـ يكاد الحوض الغربى يكون منسجم المعالم فى قاعه ، وذلك اعتبارا من جزيرتى كورسيكا و ساردينيا • وتشغل القاع هنا بطحاء أطلق عليها اسم « البطحاء البااليار » باعماق تتراوح بين 2600 ـ 2800 مترا • كذلك يشكل نهر الرون مخروطا فى قاع المتوسط على عمق 1500 مترا تتفرع من ضمنه دلتا الرون الى مسافة بعيدة ، مشابهة لدلتا النيل • أما المسافة الفاصلة بين تونس وصقلية فيميزها فجوة ضحلة تعرف باسم « شايح تونس » والتي تتصف بعمق متوسط قدره حوالى 500 مترا (بين رأس بون وصقلية الغربية) •

واقــع ميــاه المتوسط :

يختزن حوض المتوسط كمية من الماء المالح تقارب 4،1،8،000 كيلومتر مكعب من الماء • هذه الكمية الضخمة تنتشر فوق ساحة من الارض لا تجاوز 1٪20 بالمئـة من مساحة جميع البحار فى الكرة الارضية • وبالمقابل يتبخر فى كل ثانية حوالى مائة ألف طن من مياه المتوسط ، وهو نزيف خطير ، نظرا لقلة تهاطل الامطار أو ندارة الانهار الكبرى التى ترفد المتوسط بمياهها • هـذه المواد لا تعوض أكثر مـن 1٪3 الماء المفقود عن طريق التبخر • لذلك يلاحظ ان التوازن يكاد يكون معدوما ، لولا ما يتدفق من مياه المحيط الاطلسى عبر مضيق جبل طارق ، حيث تندفع مياه الاطلسى عبر مضيق جبل طارق بسرعة تقارب 5،6 كيلومترا باتجاه الشرق ، فتعيد ملء حوض

المتوسط • وبالمقابل يحدث بسبب اختلاف نسبة ملوحة الماء التى تبلغ 39 غراما من الملح فى الليتر من مياه الحوض الشرقى (4) ـ يحدث تيار ماء معاكس يزحف عبر مضيق جبل طارق نحو الاطلسى ، وذلك ان الماء المالح ثقيل ويرسب بالتالى نحو الاسفل • وقد أمكن التثبت من وجود مخلفات مياه المتوسط المالحة على مبعدة 3500 كيلومتر من شواطىء المحيط الاطلسى فى قاع المحيط •

البحر المتوسط حوض بلا مياه :

لنتصور الآن ان عملية التبخر الهائلة تتابع عملها فوق سطح المتوسط دون أن يجد البحر موارد لتعويض ما يفقده • ويمكن بعملية حسابية تحديد المدة التقريبية اللازمة ليفقد المتوسط ثروته من المياه • وعندها يمكننا ان نتصور الوضع الجديد الذى سيطرأ على ظهر الكرة الارضية • اذ ستتصل القارات الافريقية ـ الاوروبية ـ الآسيوية من جديد • وستتدافع شعوبها نحو امتلاك أكبر مساحة ممكنة من الرقعة الجديدة أو ستزول الحواجز الطبيعية التى تفصل بين العروق والحضارات •••

مثل هذه الفكرة العجيبة راودت قبل أربعين سنة مخيلة المهندس الالمانى هيرمان سوجل H. Sorgel ولكن بشكل آخر • فقد اقترح اغلاق البحر المتوسط عند مضيق جبل طارق ، وعند جاليبولى (الدردينل) بواسطة سدود • وبذلك ينخفض منسوب مياه البحر المتوسط مئة متر أو أكثر • وعندها يمكن للدول المتوسطية ربح مزيد من اليابسة ، واستغلال الاراضى الجديدة • وقد اطلق على المشروع اسم " Atlantropa " ولكن لم يكتب له الحياة ، وطمر تحت غبار الارشيف •

طرح المهندس سورجل مشروعه من الناحية النظرية لكى ينشىء على ضفاف المتوسط عالما جديدا ترتبط به أوروبا بأفريقيا • وذلك عند الموضع الذى تتقارب فيه القارتان ؛ أى فى صقلية وتونس • فيعود يابسة ذلك الجزء من القاعدة القارية ، مشكلا جسرا بريا بين القارتين • وكما نلاحظ ، لم يأخذ المهندس سورجل بعين الاعتبار ، الاعتراضات السياسية التى تقف فى وجه اجراء تغيرات جذرية على الحدود الطبيعية • اذ ستبتعد

4) تبلغ نسبة الملح فى مياه البالطيك سبعة غرامات فى الليتر الواحد .

وفقا لمشروعه مدن المرافىء الشهيرة : كالبندقية ، ومرسيليا ، وبرشلونة ، نابولى ، بيرائيوس ، بيروت ، اسكندرية ، الجزائر ، وهران ... الخ عن شاطىء البحر ، وتتحول من مرافىء الى مدن برية تحيط بها مساحات من المزارع والاشجار .

البحر المتوسط مستودع تاريخي - حضارى :

من المؤكد ان فكرة تجفيف حوض المتوسط ستجد من الانصار مثلما ستجد من المعارضين ، فهى تهم الجيولوجى ، وعلماء الاحياء النباتية والحيوانية ، وعلماء المناخ ، ومنتجى النفط ، مثلما تهم المؤرخ وعالم الاجتماع والاجناس .

ولنقتصر على المؤرخ ، لانه يشكل صميم موضوع هذا البحث :

سيتم فى حوض المتوسط اذا ، لقاء المؤرخ مع جانب لا بأس بهمن أحداث خمسة الالف سنة من التاريخ البشرى ، على الاقل . هناك فى قاع قلب العالم القديم تتناثر بقايا ثمينة من التاريخ الانسانى : فعلى الخط الممتد مثلا بين دلتا النيل وجزيرة كريت وجزر بحر ايجه والبر الاغريقى ، ترقد المراكب الغارقة التى كانت تنقل أثمن ما أنتجته حضارات هاتين المنطقتين من سلع وافكار . وعلى مقربة من شواطىء دلتا النيل بقايا مراكب واسلحة « شعوب البحر » الذين دمرت اندفاعتهم العاصفة على مدن المتوسط الشرقى حضارات بأكملها . أما فى الحوض الغربى فهنالك بقايا من مراكب « أسطول ترشيش » الفنيقى التى تولت نقل المواد الخام من فضة ، وقصدير ، ونحاس ، وذهب من أقصى المتوسط الغربى ومن انكلتره وافريقيا الاستوائية الى المدن السورية المزدهرة فى أقصى المتوسط الشرقى . وفى قاعه الغربى ترقد أيضا حطام الاساطيل الحربية الاغريقية - الفنيقة - الرومانية التى شهدت مياه المتوسط صراعها المرير الطويل ، خاصة خلال الحروب البونية - فى سبيل السيطرة والسيادة على مقدرات وموارد هذه المنطقة .

بالاضافة الى المراكب الحربية هنالك حمولات المراكب التجارية الغارقة ، من جرار زيت الزيتون ، وأوانى اغريقية للطيوب وللخمور ، مزينة بصور من المثولوجيا الاغريقية ، وأعمدة رخامية ملونة ، وتماثيل لكبار الفنانين ، وتوابيت حجريـــة

ومرمرية ، وحلى وسلع نفيسة صنعت فى مراكز الحضارة القديمة الشهيرة : كصور ، واثينا وكورنت وقرطاجة وروما ••• ولكنها لم تصل الاسواق التى استوردتها ، بسبب العواصف أو القرصان • هذا اذا لم نذكر المواد القابلة للتلف ، كالاقمشة الصوفية الجميلة المصبوغة بالارجوان ، والسجاجيد الجميلة ، والمصنوعات الجلديـة والعاجية ••• وغيرها كثير •هنالك فى قاع المتوسط بقايا معركة « ذات السوارى » ، وسفن الغزو الصليبى ، ثم حطام آمال نابوليون بونابرت قرب أبى قير • وعبر المتوسط تنتشر بقايا اساطيل المستعمرين ، والفاشيين وطائراتهم الذين أرادوا اعادة المتوسط « بحيرة رومانية » ، مثلما تنتظر مياهه حطام أساطيل المستعمرين الجدد وطائراتهم • لقد رأى البحر المتوسط سفن الغزو متجبرة عند قدومها ، وراقبها ذليلة عند تقهقرها ، وهذه وتلك ترقد عبر السنين فى قاع المتوسط ، يأكلها الصدأ وتغطيهـــا الاعشاب وتعشعش ضمنها الاسماك •

انقاذ البقايا الحضارية التاريخية فى حوض المتوسط :

انه لمستودع حضارات عجيب ، يندر العثور على مثله فوق سطح الارض • اذ ان يد الانسان التى تفوق يد الطبيعة أحيانا ، فى التشويه والتدمير والابادة ، لم تصل اليه بعد ، الا عبر « علم » آثار ما تحت المياه "Archéologie sous-marine" وهو علم حديث ذو منهج دقيق ، اسفر رغم حداثة عهده عن نتائج هامة للتاريخ البشرى • ويكفى هنا أن نستشهد بأول تجربة افتتح بها هذا العلم نشاطه فى مضمار انقاذ البقايا التاريخية من قاع المتوسط •

ففى عام 1907 عثر ملاحو مركب اغريقى لصيد الاسفنج على حطام مركب يعود الى القرن الاول قبل الميلاد • غرق قرب مدينة المهدية من الشاطىء التونسى ، واستقر على عمق ار ـِ مترا فقط من سطح المتوسط • وقد تبين بعد انقاذ حمولته الثمينة : من أعمدة معابد وتيجان ، وتماثيل برونزية وغيرها من المواد الهامة التى ملأت ست غرف فى متحف تونس « باردو » تبين أن المركب الغارق كان من بين المراكب العديدة التى حملها القائد الرومانى سوللا Sulla (عدو يوغرطه) غنائمه ومنهوباته من كنوز معابد أولمبيا ودلفى وابيداوروس والمدن الاغريقية اثر حملته المدمرة الى الشرق •

وقد ضل أحد هذه المراكب طريقه بفعل عاصفة حرفته عن مساره الاصلى نحو ايتاليا ، ودفعته نحو الجنوب ليتحطم قرب الشاطىء الافريقى • ويمكننا تصور أهمية الوثائق التاريخية التى احتواها هذا المركب • فهى لم تكن من عصر واحد أو بلد واحد ، بل كانت مجموعة ثمينة أهداها الاغريق معابدهم ، واحتفظوا بها فى بيوتهم • ثم جاء الغازى سوللا ليرسلها غنيمة حرب الى روما عاصمة المتوسط الجديدة • ولولا غرق بعضها ، لربما ما سمعنا عن هذه الوثائق التاريخية الهامة ، ولربما ضاعت كآلات غيرها خلال الحروب وعبر السنين (5) •

هناك حطام سفينة أخرى عثر عليه عام 1958 قرب الشواطىء الجنوبية الغربية التركية عند رأس Gelidonya ويطلق العلماء اليوم هذا الاسم على المركب وحمولته أما المركب فهو من عهد أبكر يعود الى حوالى 1200 قبل الميلاد • وكان يحمل حوالى طن من المعادن التى تتألف من 43 سبيكة كبيرة من النحاس ، وسبائك أخرى صغيرة ، وبقايا من سبائك من الزنك • وقد اختلط بهذا الحطام مئات الادوات البرونزية التى نقلت للمتاجرة بها فى صناعة الخشب ونت الحجارة • وتوحى هذه اللقى وغيرها بأن السفينة كانت سورية ، ملأت حمولتها من جزيرة قبرص الغنية بالمعادن ، ثم انطلقت باتجاه الغرب حيث فاجأتها العاصفة واغرقتها 0 مثل هذه السفينة تساعد الى حد كبير على القاء الضوء على الدور الهام الذى لعبته تجارة « المواد الخام » فى سياسة واقتصاد دول المنطقة • مثلما توضح آثارها على التطور الحضارى والصناعى فى عالم البحر المتوسط القديم (6) •

أما المركب الذى عثر عليه علماء جامعة بنسلفانيا قرب شواطىء مدينة تارنت ــ جنوبى ايتاليا ــ فقد ساعد العلماء فى بحثهم حول تجارة الرومان بالمواد الاولية : من أحجار الرخام والغرانيت والبورفير • اذ عثر ضمن حطام المركب على 22 تابوتا من الرخام لم ينته صنعها بعد • ثم عثر عام 1964 على حطام مركب آخر تضمن

---

5) أنظر H. P. Eydoux, « A la recherche des mondes perdus », pp. 260-262, Paris 1967.
6) أنظر G. F. Bass, « The UNESCO Courrier », May 1972, pp. 8 - 13, fig. 15

18 تابوتا و 23 كتلة حجرية أعدت للنحت • وتمكن علماء آثار ما تحت المياه من انتشال هذه اللقى بالاضافة الى أجزاء خشبية من ألواح المركب ، وأواني فخارية وقطع نقود ••• ساعدت جميعها على تاريخ عهد المركب وحمولته بأواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث للميلاد •

يتبين من الامثلة المتقدم ذكرها ، ان قاع البحر المتوسط يحتوي شواهد على درجة كبيرة من الاهمية ، ويقدم للباحثين في التاريخ السياسي والحضاري والاقتصادي ••• مفاتيح لمشاكل كانت تعتبر الى وقت قريب ألغازا محيرة • هنا يجدر بنا أن نتساءل : ترى هل يقدم البحر المتوسط بالمثل مفتاحا لأكبر وأغمض لغز عرفه التاريخ البشري ، وهو مصير وموقع الجزيرة المفقودة المسماة الاطلانطيس ؟

لغز مملكة الاطلانطيس المفقودة وعلاقته بشمال افريقيا :

نشر الفيلسوف الاغريقي افلاطون (427 ق• م•) لأول مرة اخبار مملكة الاطلانطيس أو الجزيرة الضائعة ، وذلك في كتاباته المسماة « قريتياس » و « تيحايوس » • واستند في ذلك على معلومات ومرويات قديمة جدا يقال بأن كاهنا نقلها الى جد قريطياس تلميذ سقراط ، وعبر الاخير الى تلميذه افلاطون • ومفادها « ان جزيرة اطلانطيس كانت تقع غربي اعمدة هرقل (جبل طارق) ، وكانت تحتوي معبدا للآلهة اثيناتريتونيس » • ويقول افلاطون في كتابه تيمايوس : « حدثت زلازل عنيفة وفيضانات ، وفي يوم واحد وليلة من الحظ التعس ، غرق جميع محاربيك ، واختفت جزيرة الاطلانطيس بصورة مماثلة في أعماق البحر • ولهذا السبب فان البحر في هذه المناطق لا يمكن اجتيازه ، ولا اختراقه نظرا لوجود تجمعات من الطين ••• » •

منذ أن كتب افلاطون هذه الكلمات ، وعبر القرون التالية ، ما فتيء الناس والعلماء في أرجاء الارض يبحثون عن سر الجزيرة الضائعة ، ويحاولون تحديد مكانها • وقد حرر حول هذا الموضوع آلاف الكتب والمقالات • وانطلقت بعثات عديدة وضعت نصب أعينها العثور على الجزيرة العتيدة ، وكان من أشهرها بعثة ترأسها الكولونيل فوسيت Faucett الانجليزي • غير أن البعثة التي توجهت الى غابات الامازون ضاع

اثرها هناك • ومع ذلك لم يفقد الناس الامل ، وخاصة بعد أن كتب شلايمان H. Schleimann قصته المثيرة عام 19I2 بعنوان : « كيف اكتشفت جزيرة الاطلانطيس ، نبع كافة الحضارات » • والناس ما زالوا بين مصدق ومكذب للاسطورة شأن ما لقيته أسطورة مدينة طروادة ، وشخصية الشاعر هوميروس ، أو شكسبير من جدل عنيف طويل فى الاوساط الاكاديمية والشعبية •

اختلف الناس حول تحديد موقع جزيرة الاطلانطيس : فبعضهم وضعها فى شمال افريقيا ، أو فى القوقاز ، أو فى جزر الآزور والكنارى ، أو فى جبال الاندلس ، والبحر البالطيكى ••• الخ • كما نسب بعض خبراء العروق البشرية ميلا والعرقين الاسبانى والايتالى الى جزيرة الاطلانطيس • وبالمثل حاول أحد الفلاسفة من مؤيدى هتلر ، أن يعيد أصل التفوق الآرى الى القارة الاطلنطية المجيدة ، وحدد موقعها على مبعدة أميال من الشاطىء الالمانى !! (7)

ويحلوا لكثير من الخبراء أن يحددوا موقع الجزيرة فى وسط المحيط الاطلسى •

فتكون جسرا بين العالم القديم والجديد ، يساعد على تفسير التشابهات المثيرة القائمة بين الثقافتين المصرية والهندية ـ الاميركية • ويستندون فى ذلك على ولع كلا الحضارتين بالابنية الهرمية الشكل • رغم انهم يتناسون الفاصل الزمنى الكبير ، والاختلاف الوظيفى بين أوابدها • (8) وفى أوائل القرن العشرين قام العالم الالمانى بورشاردت P. Borchardt بتحديد موقع الجزيرة قرب مدينة قابس فى الاراضى التونسية ، عند مصب نهر تريتونيس (شط الجريد) ، الذى كان متصلا بالبحر عند خليج السيرت الصغير • وأيده فى ذلك الرأى فيما بعد العالم هرمان A. Herrman الذى توصل الى أن منطقة تونس كانت تمارس صلة وثيقة مع سكان جزيرة كريت

7) أنظر A. Gonzalez, Aramco, May-june 1972, p. 20 ff.

8) تعود أهم المدافن الفرعونية المسماة بالاهرامات الى عصر الملكية القديمة وخاصة بين 2650 ـ 2190 قبل الميلاد ، أما اهرامات الهنود الاميركيين (الازتيك) فكانت معابد ، يقدر عهدها اعتبارا من 1200 ميلادية .

ومع الاغريق الذين استوطنوا مناطق افريقيا الشمالية (9) أما المؤرخ جوليان Ch. Julien فيستخلص : « بأن شهرة ما رواه افلاطون فى كتابه تيمايوس معروفة • فمملكة جزر الاطلانطيس تكون حسب هذه الرواية بسطت نفوذها على ليبيا ، وحاولت غزو مصر وبلاد اليونان ولكن المياه غمرتها فى آخر الامر ••• » (10) • وبالمقابل يحذر المؤرخ الالمانى ا• ماير E. Meyer بشدة تجاه كل محاولات تحديد موقع جزيرة الاطلانطيس ويقول بأنها مجرد قصة لا تثبتها مستندات تاريخية ولا طبيعية • (11) • ويماثله المؤرخ البريتينى E. Albertini فى الرأى ، بأن هذه القصة الفلسفية التى أثارت الكثير من التعاليق الغريبة ، أشد اتصالا بميدان علم الامراض العقلية (12) • ومع ذلك يحاول علماء آخرون نقض هذا الادعاء وتكذيبه •

فى الحقيقة تسمح النتائج الايجابية التى أسفرت عنها جهود باحث صبور محب للتاريخ هو هانريش شليمان فى الكشف عن مدينة طروادة (13) ـ التى اعتبرها الكثيرون مجرد أسطورة ـ تسمح للباحثين بأن لا يقطعوا الامل فى ظهور حقيقة الجزيرة المفقودة • وقد لاحت هذه البارقة وبشكل ملموس اثر أبحاث علمية مماثلة ، وان من بين ما يدفعنا للاهتمام بموضوع الاطلانطيس الصلة التى تربطها بتاريخ شمال افريقيا الباكر ، أى فى الالف الثانى قبل الميلاد • وهى فترة هامة ما زالت فصول من التاريخ المغربى تسبح خلالها فى ظلام (14) ، هذا بالاضافة الى التشابه الوثيق بين اسم الجزيرة واسم سلسلة جبال الاطلس المغربية (15) •

---

9) راجع M. Solignac, « L'Atlantide et le Sud Tunisien », revue tunisienne, 1931.

10) راجع خلاصة حول موضوع الاطلانطيس فى كتاب :
أحمد صفر ، مدنية المغرب العربى فى التاريخ ، ص 50 وما بعدها ، تونس 1959 .

11) جوليان ، تاريخ افريقيا الشمالية ، ص 70 ، تعريب مزالى وسلامة تونس 1969 .

12) راجع H. Lamer, Woerterbuch d. Antike, S. 56, Stuttgart 1963.

13) راجع ش. جوليان ، نفس المرجع ص 70 .

14) راجع هـ. الصفدى ، هاينريش شليمان أو ميلاد علم جديد ، مجلة الاصالة ، العدد 12 ص 41 ـ 50 .

15) راجع حول نقص مصادر هذه الفترة مقال : هـ. الصفدى : أضواء جديدة على تاريخ المغرب ، مجلة الاصالة ، العدد 14 ـ 15 ، ص 99 ـ 110 .

من مبعدة 1900 ميلا • وان حجارة الخفان Pumice المتطاير انتشر
البحر على مسافة مئة ميل • وبالمثل تشكلت موجة هائلة من المياه اندفعت
السفن الراسية فى مرافىء أمريكا الجنوبية تحطم سلاسلها (16) • وبالمقابل
بركان جزيرة سانتوريني يكون أقوى بثلاثة مرات من البركان الاندونيسى • ف
دمر ما مساحته تسعة أميال مربعة من الارض ، فى حين لا يقل ما دمره بركان سانتوريني
عن احدى وثلاثين ميلا مربعا من أرض الجزيرة •

ولقد دفنت تحت طبقات رماد هذا البركان الرهيب أجزاء من الجزيرة بلـــغ ارتفاع طبقات الرماد المتوضعة فوقها حوالى 33 مترا • وكان من ضمن المعالم المدفونة مدينة من مدن الحضارة المينوسية التى عرفت أوج ازدهارها فى جزيرة كريت خلال الالف الثانى ق• م• وهذه المدينة التى اكتشفت مؤخرا تحت الرماد فيما تبقى من جزيرة سانتوريني ، يرجح أن تكون الجزء المتبقى من حضارة الاطلانطيس ، التى أخذت بالباب الاغريقى نظرا لرقيها الحضارى ثم اختفائها المفاجيء ونهايتها المفجعة •

قام باكتشاف المدينة المطمورة تحت الرماد ، والتى تسمى حاليا مدينة تيرا Thera عالم أمريكى تابع الى « معهد أبحاث المحيطات » واسمه جميس مافور J. Mavor اذ كان يجوب منطقة خليج سانتوريني بالسفينة المسماة chain المخصصـــة للابحاث البحرية ، مستخدما جهاز السونار Sonar لاعداد خارطة لقاع الخليـــج • وقد استهدف الحصول على دلائل تبرهن وجود معالم حياتية كان البركان دمرهـــا • وبالفعل اثبتت التحريات وجود هذه المعالم تحت مياه الخليج وعلى طول خط الشاطىء أما المدينة فقد سلمت من الفناء بفضل طبقات الرماد الكثيمة (17) التى ت
الاسمنت • وما ان بدأ علماء الآثار بالتنقيب فى ثيرا حتى ظهرت انقاض
الى النـــور •

---

(16) أنظر ... CLXXIV, ...

(17) عثر الملاحون فى فتح قناة السويس على نماذج من ...
الجزيـــرة •

محاولة جديدة لاكتشاف جزيرة الاطلانطيس :

فى كتابهما الجديد : « الاطلنطيس ، والحقيقة وراء الخرافة » ·
"Atlantis, the truch behind the legend"

حاول المؤلفان : ادوارد باكون ، و آ· ج· جالانوبولوس (16) ان يقدما البرهان المقنع بأن جزيرة الاطلانطيس لم توجد فى المحيط الاطلسى على الاطلاق ، بل كانت تقع على مبعدة قليلة من شواطىء اليونان الجنوبية · وبأن الجزيرة الاصلية ماهى الا جزيرة « سانتورينى » Santorini الواقعة على مبعدة 78 ميلا الى الشمال الشرقى من جزيرة كريت · وبأن حضارة الاطلانطيس حضارة متوسطية شرقية أصابتها يد الفناء فى ظروف غامضة فى حوالى منتصف الالف الثانى 1450 ق· م·

بواسطة الابحاث التى أجراها العالمان باكون وجالانوبولوس امكن تفسير الظروف التى أطاحت بالجزيرة ، بأن اندفاعة بركانية كثيفة هوت بمعضم جزيرة سانتورينى تحت سطح الماء · فنتج عن ذلك موجات عاتية انداحت عبر البحر المتوسط الى الشواطىء الشرقية منه ، ودمرت الحياة فى مدينة كنوسوس (العاصمة المنيوسية) فى جزيرة كريت المجـــاورة ·

هذا الانفجار البركانى يشابه الى حد كبير الانفجار الذى دمر مدينة كراكاتوا فى اندونيسيا عام 1883 · أما الجزر الصغيرة الخمسة التى تبقت من جزيرة سانتورينى الاصلية ، فانها تشكل بوضوح الاسوار الدائروية ، لمركز المخروط البركانى الــذى انفجر ثم هوى فى البحر · ولكى يتفهم القارىء ابعاد الكارثة التى أصابت جزيرة سانتورينى ، يعيد الباحثان المذكوران الى الاذهان ، بأن بركان كراكاتوا سمع انفجاره

---

16) يبدأ اطلاق اسم جبال الاطلس على السلسلة المغربية اعتبارا مــن عهد المؤرخ هيرودوت الذى يذكر فى تاريخه : « ··· قرب هذه الكتل من الملح يوجد الجبــل الذى يسمى الاطلس Atlas وهو ضيق ومستدير من كل جهاته وشديد الارتفاع ويقال بأنه من الصعب رؤية قمته لان الغيوم لا تنقشع عنها أبدا لا أثناء الصيف ولا اثناء الشتاء . ويقول سكان البلاد بأن جبال الاطلس هى أعمدة السماء . والى هذا الجبل يدين هؤلاء الناس باسمهم لانهم يسمون بالاطلانطيين ... »

St Gselle, Hérodote, textes relatifs à l'Histoire de l'Afrique du Nord, p. 23, Alger 1915.

لاحظ المنقبون فقدان الهياكل العظمية البشرية ، وغياب الحلى والمواد الثمينة فى أطلال مدينة ثيرا • وهى ظاهرة لعلها تشير الى أن السكان شعروا بالخطر المهيمن على مدينتهم عندما رأوا الانذار الاول فى شكل اندفاعات دخانية أو تشقق فى قشرة الارض قبيل انفجار البركان • فسارعوا لركوب زوارقهم لاجئين الى المناطق الآمنة ، وحاملين معهم أثمن ما يمكنهم انقاذه • هذه الظاهرة تكررت مرارا فى التاريخ ، وخاصة فى تاريخ المناطق المعروفة باجتياح الزلازل والبراكين لها مثل : منطقة بحر ايجه ، والاناضول ، وشواطىء المتوسط الشرقية ••• الخ • وبالمقابل نجد ان اندفاع بركان فيزوف جاء مفاجئا لسكان مدينتى بومبى وهيركولانوم (79 • م) ، فلم يتح للكثيرين أن يفروا من الموت المحتوم • وهكذا بقيت جثثهم المتفحمة ، وممتلكاتهم محفوظة تحت طبقات الرماد والسائل البركانى ، حتى اكتشفها علماء الآثار مؤخرا •

الشواهد التاريخية فى جزيرة سانتورينى :

كنت أشرت فى بحث سابق نشرته مجلة الاصالة بعنوان « أضواء جديدة على تاريخ المغرب » (18) الى النتائج البالغة الاهمية التى اسفرت عنها الاكتشافات الاثرية فى مدينة ثيرا • واشرت خاصة الى الصور الجدارية الملونة التى عثر عليها العالم مارينياتوس سليمة فى أنقاض منازل المدينة • وتشير هذه الصور بالاضافة الى دلائل أخرى ـ على احتمال قيام علاقات وثيقة منذ منتصف الالف الثانى ق• م• بين جزيرة سانتورينى (أو الاطلانطيس) والساحل الليبى المقابل والقريب • كذلك أشرت فى البحث نفسه الى أن المغرب لم يكن فى عزلة عن التيارات الحضارية الكبرى ، بل يحتمل قيام المدن على شواطئه قبل تأسيس قرطاجة بقرون • أما مصادر هذه المرحلة الباكرة فنتوقع العثور عليها لا فى شمال افريقيا فحسب ، بل وفى أرجاء جزر وشواطىء البحر المتوسط •

18) راجع الملاحظة رقم 14 ، والتقرير عن نتائج التنقيبات الاولية فى مجلة « تايم » العدد السادس عشر 1973 .

مما تقدم يمكن الاستشهاد بالمثل القائل : « لا دخـــان بدون نار » ٠ فخلف الاساطير يكمن جانب ولو صغير من الحقيقة ٠ ورغم ذلك لم تكن الغاية من معالجـة هذا الموضوع اثبات أو نفى وجود جزيرة الاطلانطيس ، بل تقديم شواهد مقتطفة لما يتضمنه حوض البحر المتوسط من ثروات تهم المؤرخين وباحثى الحضارة ٠ والفضل يعود الى الاسباب والمناهج العلمية التى يتبعها علم الآثار ، وعلم آثار ما تحت المياه فى انقاذ الشواهد ، والكشف عن مزيد من فصول التاريخ الانسانى ، أما العبـرة كل العبرة فتكمن فى تحلى المؤرخ بروح البحث الموضوعى ، وعدم التسرع الى اطـلاق ، أو نفى نظريات ومرويات قبل التوصل الى اسانيد مادية وكتابية ٠ وعلى مستقبـل البحث فى جزيرة سانتورينى ومياهها يتوقف البت فى أمر مملكـــة الاطلانطيس العتيـــدة ٠

الـوطنيــون العــرب و نشــاطهـم السيــاسى و الصحــفى فى المــانيــا

حتى نهايــة الحــرب العالمية الاولى (١)

د. ورنير أنــده

استاذ فى معهد الدراسات
الشرقية بجامعة هامبورج
ـ جمهورية ألمانيا الاتحادية ـ



فى عام الف وتسعمــائة واربعــة وثلاثــين ، ألــف المستشرق الفــرنسى هنــرى بــيريس فهــرسا تنــاول فيــه الرحــالة العــرب الــذين قامــوا بزيــارات الى أوروبا فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وقد طبع هذا الفهرس فى القــاهرة بعد الانتهاء من تاليفه ببضع سنوات • واذا ألقينا نظرة على هذا الفهرس فسوف نجد أن عدد العرب الذين كتبوا عن ألمــانيا كان ضئيلا وخاصة فى القرن التاسع عشر • ولهــذه الظاهرة أسباب عديدة ، منها أن ألمانيا لم يكن لها كيان سياسى متكامل حتى عام 1871 ، بل وحتى مملكة بروسيا وهى التى تمثل جزءا كبيرا من الدولة الالمانية بعد اتحــادها لم يكن لها آنذاك علاقات تذكر بدول حوض البحر الابيض المتوسط ، سواء كان ذلك

(1) محاضرة ألقاها في المركز الثقافي الاسلامي [redacted] يوم 13 ربيع الثاني 1396 هـ بالعاصمة الموافق 13 افريل 1976 م .

من الناحية السياسية أو الناحية الاقتصادية ، وكان ذلك هو السبب فى عدم تشجيع الرحالة العرب الى التوجه الى المانيا اذا ما قورن ذلك برحلاتهم الى أسبانيا أو فرنسا أو انجلترا • ويلاحظ أن اهتمام الكتاب والسياسيين والصحفيين العرب بشؤون المانيا قد بدأ يزداد بعد وحدة ألمانيا فى عام 1871 وخاصة فى الربع الاخير من القرن التاسع عشر •

ونذكر على سبيل المثال الرحالة التونسى محمد بيرم الخامس الذى تعرض فى كتابه « صفوة الاعتبار » للكتابة عن برلين ، وكذلك العالم المصرى محمد أمين فكرى الذى وصف أيضا مدينة برلين فى كتابه « ارشاد الالباءالى محاسن أوروبا » وما زال هذان الكاتبان معروفين حتى الآن •

وعلى العكس من هذين الكاتبين فقد أهمل المؤرخون ذكر حسن توفيق المصرى الذى كان يقوم بتدريس اللغة العربية فى معهد الاستشراق بجامعة برلين فى الفترة من 1887 حتى 1889 • وله كتاب اسمه « رحلة حسن أفندى توفيق أو الرحلة البرلينية » وكان فى ثلاثة عشر جزءا صغيرا نشرت تباعا فى مصر فى الفترة من عام 1305 حتى عام 1307 من الهجرة (يوافق 1887 حتى 1889 ميلادية) ، الا أن معظم أجزاء هذا الكتاب قد فقدت على ما يبدو ، ولم أر منها شخصيا الا جزءا واحدا فى أرشيف عائلة بسمارك بالقرب من مدينة هامبورج ، وقد تناول المؤلف فى هذا الجزء شيئا عن حياة بسمارك وعن تاريخ امارته • وللمؤلف أيضا كتاب آخر بعنوان « رسائل البشرى فى السياحة بألمانيا وسويسرا » ، وقد طبع فى مطابع بولاق سنة 1891 وقد بحثت عن هذا الكتاب ولكنى لم أعثر عليه حتى الآن •

أما عن رواد حركة استقلال مصر فقد اتخذوا باريس وسويسرا مقرا لهم ومنطلقا لكفاحهم ، وكانت لهم اتصالات بألمانيا فى نهاية القرن التاسع عشر ، وزار الزعيم مصطفى كامل مؤسس الحزب الوطنى ألمانيا لهذا الغرض • وفى عام 1895 أشار مصطفى كامل وهو فى باريس على الخديوى أن يمده ببعض النقود للتأثير بها على بعض الصحف الالمانية لتقوم بالدعاية لمصر لمساعدتها فى نيل استقلالها من الاحتلال البريطانى ، ولكن الخديوى لم يستجب لهذا المطلب [redacted]

وقد بدا للوطنيين المصريين أنهم يستطيعون استغلال سياسة التقارب السياسى بين ألمانيا والدولة العثمانية للتخلص من الانجليز ، لان تركيا هى الاخرى كانت تود التخلص من الانجليز على أمل أن تعود لها سيادتها على مصر ·

أما فيما يتعلق بالسياسة الالمانية آنذاك فتتضح من تلك الواقعة : عندما قام القيصر غليوم الثانى عام 1898 بزيارته للاستانة ودمشق والقدس ، أظهر تعاطفه مع المسلمين فى كل العالم ، وكان فى أثناء خطاباته ومناقشاته يعمد الى ابراز تلويحات واشارات رمزية أثارت لدى بعض العرب والمسلمين أوهاما توحى بأن ألمانيا تعمل من أجل مصالح المسلمين وشعوبها التى كانت ترزح تحت وطأة الاستعمار الانجليزى والفرنسى والروسى · وأقول هنا أوهاما لان الواقع الذى لا يحتاج الى أى ايضاح أن الدولة الالمانية فى ذلك الوقت كانت دولة عظمى وكانت هى الاخرى لها مستعمراتها وأهدافها الاستعمارية ، ولكن الذى ساعد على قبول السياسة الالمانية آنذاك أن الدول التى وقعت تحت الاحتلال الالمانى كانت بعيدة عن الدول الاسلامية وكان عدد المسلمين الذين يقطنون تلك البلاد ضئيلا ·

ولقد تحفظت دولة ألمانيا فترة طويلة تجاه تقديمها المساعدة للوطنيين المصريين فى كفاحهم لتحرير مصر ، حرصا منها على علاقاتها الطيبة مع بريطانيا التى كانت معرضة للنقد الشديد من قبل فرنسا بسبب احتلالها لمصر ·

ومن جانب آخر فكانت دولة ألمانيا حريصة على مصالح حليفتها تركيا فى حقها الشرعى فى السيادة على مصر ، وكانت ترى أن أى تقارب مع الحركة الداعية الى استقلال مصر كان سيؤدى الى اغضاب تركيا · الا أن هذا التحفظ من جانب ألمانيا أخذ بمرور الزمن يتغير رويدا رويدا وخاصة عندما تم التفاهم بين انجلترا وفرنسا عام 1899 على عدم المساس بمصالح فرنسا فى المغرب العربى ، وبالذات عام 1904 عندما عقدت بينهما الاتفاقية المسماة « بالحلف القلبى » entente cordiale والتى تقضى باعتراف فرنسا باحتلال انجلترا لمصر · فمن قبل ، كانت ألمانيا تساعد انجلترا ضد فرنسا فى احتلالها لمصر ، أما وقد اتفقت انجلترا مع فرنسا على الاحتلال فكان من الطبيعى أن أصبحت انجلترا فى غنى عن مساعدة ألمانيا لها ، وقد أدى ذلك الى أن

تقلب ألمانيا لانجلترا ظهر المجن وتمديد المساعدة للوطنيين المصريين وان كان هذا التقارب قد ظل يأخذ سمة الحذر حتى لا تثير ألمانيا بذلك غضب تركيا ومطامعها فى مصر.

وقد أدى نشوب الحرب العالمية الاولى أن تقوم السياسة الالمانية بدور ايجابى فى مساندة الحركات التحررية فى كل من مصر والمغرب العربى وفى الهند ، وكانت المانيا تهدف من وراء ذلك الى تحقيق ما يلى :

أن الحكومة الالمانية والقادة العسكريين بها اذا استطاعوا تحريض الحركات التحررية فى كل من مصر والمغرب العربى والهند على الثورة فسوف تضطر كل من انجلترا وفرنسا على سحب أجزاء كبيرة من قواتها العسكرية وأساطيلها المرابطة فى أوروبا ، وارسالها الى مناطق الاضطرابات لاخماد الثورات بها فيسهل بذلك لدول التحالف « ألمانيا والنمسا وتركيا » تحقيق النصر على انجلترا وفرنسا فى أوروبا ·

وفى خريف عام 1914 كتب السياسى والمستشرق الالمانى البارون ماكس فون أوبنهايم Max von Oppenheim الذى كان يعمل فى وزارة الخارجية قسم الشؤون الشرقية ، كتب تقريرا بعنوان « أثارة المناطق الاسلامية ضد أعدائنا » · ومما جعل فكرة اثارة الشعوب هذه أقرب الى القبول أن تركيا كانت تطالب بأن يكون سلطانها خليفة على العالم الاسلامى كله · وقد تطلب هذا الهدف الاستراتيجى جمع معلومات دقيقة عن هذه الدول الاسلامية وبناء عليها توضع خطة ذكية للدعاية التى تؤدى الى التحريض على الثورة ، ورأت الحكومة الالمانية لتحقيق هذا الهدف أن تجلب الى ألمانيا بعض الوطنيين العرب ، وتجلب بالاضافة الى ذلك مكافحين من أجل الحرية من ايران والهند وغيرها ·

وعلى أى فان العربى الذى استطاع أن يلفت أنظار الرأى العام اليه عند زيارته لالمانيا لم يكن من المغرب ولم يكن من مصر بل كان من لبنان ، ذلك العربى هو الامير شكيب أرسلان ·

سافر الامير شكيب أرسلان فى صيف عام 1917 الى ألمانيا فى زيارة رسمية ، ثم سافر اليها مرة ثانية عام 1918 بصفته نائبا فى مجلس الامة العثمانى مبعوثا من الحكومة التركية · وكان عليه فى الرحلة الاولى أن يدرس الحالة السياسية والاجتماعية

فى ألمانيا وذلك بتكليف من وزير الحرب التركى أنور باشا ، أما الرحلة الثانيــة فكانت تهدف الى تقريب وجهات النظر بين الحكومتين التركية والالمانية بشأن سياسة تركيا فى القوقاز • ومما يلفت النظر أن وزير الحرب التركى أنور باشا قد اختار لمهمة الوساطة بين الحكومتين التركية والالمانية عربى الاصــل ، مفضــلا اياه على ان يكلف أحد الاتراك للقيام بهذه المهمة •

ولقد استقبل شكيب أرسلان فى ألمانيا استقبالا حافلا وعومل معاملة خاصة ، وسبب ذلك أن الحكومة الالمانية قد رأت على ما يبدو فى شكيب أرسلان عنصرا عربيا هاما لمساندة وتقوية السياسة التركية تجاه الشعوب العربية • ولقد كانت ألمانيا تود توطيد علاقتها بحليفتها تركيا ورأت ما يتمتع به الامير من صلة وثيقة بالحكومــة التركية ، هذا بالاضافة الى الصداقة المتينة التى كانت تربط شكيب بانور باشا ، فعومل لذلك أحسن المعاملة حتى ينقل عن ألمانيا صورة حسنة لانور باشا عند لقائه به مرة ثانية •

أما البارون أوبنهايم Oppenheim الذى كان صديقا للامير شكيب أرسلان مدة عشرين عاما فقد استغل هو الآخر نفوذه بالتمهيد لاستقبال شكيب أرســلان استقبالا حسنا اينما حل فى ألمانيا ، سواء كان ذلك فى برلين او فى المدن الالمانية الاخرى أو فى مناطق الاحتلال الالمانى كبلجيكا وفرنسا ، وقد غطت الصحافة الالمانية أنباء تنقلاته فى عام 1917 كما نشرت خطبه ومقالاته • ويحدثنا شكيب أرسلان فى مذكراته التى طبعت أخيرا فى بيروت سنة 1969 تحت عنوان : « سيرة ذاتية » يحدثنا فيها عن انطباعاته وهو فى ألمانيا ، ولكن شكيب للاسف لم يشر فى مذكراته الا الى عدد ضئيل جدا من السياسيين الالمان والموظفين والعلماء الذين اجتمع بهم خلال رحلاته • ومما تجدر ملاحظته أن من بين الاعداد الضئيلة التى كتب عنها شكيب أرسلان فى مذكراته يوجد اسم رئيس بلدية كولونيا آنذاك ، ذلك الرجل الذى عين بعــد ثلاثين عاما من لقائه به مستشارا لجمهورية ألمانيا الاتحادية ، ألا وهو الدكتور كونـــراد أديناور Konrad Adenauer.

وكما سبق أن ذكرنا فقد جاء شكيب الى ألمانيا بصفته نائبا فى مجلس الامـــة التركى ، ورغم ذلك فيمكننا ان نعد شكيب أرسلان من الوطنيين العرب الذين كانوا يعملون من أجل القضية العربية ، والسبب فى ذلك ما يلى :

أن شكيب قد أصبح فيما بعد من المكافحين البارزين من أجل الوحدة والاستقلال العربى ، وكفاحه من أجل المغرب العربى معروف للجميع . ومما تجدر الاشارة اليه أن شكيب فى محادثاته الخاصة والعامة وفى مقالاته التى نشرتها له الصحف الالمانية لم يخف موقفه على أنه وطنى عربى . صحيح أن شكيب قد دعا آنذاك العرب الذين كانوا يعيشون داخل نفوذ الدولة العثمانية وخارجه دعاهم جميعا للدفاع عن هـذه الدولة العثمانية ، وصحيح أيضا أنه وجه نقدا شديدا الى أنصار القومية العربيـة فى الحجاز ، الا أنه ليس من العدل أن يوصف موقف شكيب هذا عـــلى أنه خيانـة للقضية العربية ، فلشكيب أرسلان الفضل فى لفت أنظار الرأى العام فى ألمانيا لاول مرة على مسألة القومية العربية من جانب وعلى الاخطار التى تكمن وراء قيام الشوفنية التركية (أى التغالى فى العنصرية التركية) من جانب آخر . وقد أتاحت له اقامته فى ألمانيا أن يبرز هذه المسألة بوضوح ، ولم تكن الفرصة مهياة له من قبل للاعراب عن وجهة النظر هذه وهو فى اسطنبول . ونستطيع ان نلمس هذا الموقف واضحـــا من المقال الذى وجد قبولا كبيرا فى ألمانيا والذى نشر عام 1917 فى مجلة « الشرق الجديد » Der Nene Orient التى كانت تهتم بوجه خاص بتطورات الموقـف فى كل من آسيا وشمال افريقيا ، تلك المجلة التى يشرف عليها مكتب خاص تابـع لوزارة الخارجية الالمانية ، وكان هذا المقال بعنوان : « ماذا تنتظره سوريا من الحرب » . وقد أشار شكيب فى هذا المقال الى أن غالبية الشعب السورى (وأعنى به منطقـــة الشام التى كانت تضم سوريا ولبنان وفلسطين والاردن) يتمنون أن تظل هـــذه المنطقة تحت النفوذ العثمانى ، ولكن ليس تحت الشروط الحالية ، بل تحت شروط تكفل احياء العروبة واللغة العربية . ولقد تبنى وجهة النظر هذه ايضا المتحمســـون جدا لبقاء التحالف العربى مع تركيا ، والفرق بينهم وبين الداعين الى الانفصـــال نهائيا عن تركيا أن الاخيرين كانوا يعملون على بذر بذور الكراهية والحقد ضـــد

الاتراك • وكانت الكلمات التى يلقيها أتباع الشوفينية التورانية التركية (أى أتباع العقيدة التركية التورانية) فى اسطنبول والتى كانت تشيد بأمجاد جنكيز خان وتيمور لانك كانت تجسم فى الدول العربية صورة الاستعمار البغيض ، وقد مهد ذلك لانجلترا وفرنسا الطريق لكسب الكثير من الاصدقاء فى الدول العربية •

وفى المجلة السالفة الذكر أوضح شكيب أرسلان فى فبراير 1918 أنه رغم تحمسه لبقاء التحالف التركى العربى الا أنه مع ذلك ليس عميلا للاتراك ولا للالمان وليس تابعا لاى جهة ، ويبدو أيضا أن شكيب أرسلان قد أطلع الساسة الالمان على الاجراءات الطاغية التى يمارسها جمال باشا الحاكم التركى فى سوريا • وكان يبغى من وراء ذلك أن يستعمل الالمان نفوذهم لدى الاتراك لتخفيف وطاة هذه الاجراءات •

أما الوطنيون المصريون والمغاربة الذين أقاموا بالمانيا فى ذلك الوقت ، طالت مدة اقامتهم فيها ام قصرت ، فكانوا يساندون وجهة النظر الالمانية التركية بالتحريض على الثورة فى المحميات والمستعمرات الانجليزية والفرنسية •

ولقد كانت ألمانيا قبل الحرب العالمية الاولى هدفا لزيارة الوطنيين العرب • وعلى سبيل المثال فقد عاش الدكتور لبيب محرم ، رفيق مصطفى كامل فى الكفاح ، فى برلين لاجئا سياسيا وتوفى بها فى سبتمبر 1913 • ولكن لا يفوتنا ان نذكر أن معظم الوطنيين المصريين الذين طلبوا اللجوء السياسى قد اتخذوا سويسرا مقاما لهم ومن هناك شنوا ، أثناء الحرب ، حملاتهم فى الصحافة من أجل استقلال مصر • وقد فضلوا الاقامة فى سويسرا لعاملين هامين : الاول موقف سويسرا المحايد • والعامل الثانى هو وجود صحافة سويسرية حرة باللغتين الالمانية والفرنسية ، وكانت هذه الصحافة توزع على نطاق واسع فى كل انحاء أوربا • بل ووجد بعض هؤلاء الوطنيين مساعدة خاصة من فؤاد سليم الحجازى المصرى الذى كان صديقا لمصطفى كامل قبل وفاته والذى كان يعمل سفيرا لتركيا فى برن ، وبهذه المساعدات تمكن المكافح التونسى محمد باش حانبة من سنة 1916 حتى نهاية الحرب سنة 1918 وهو فى جينيف من اصدار مجلة المغرب Revue du Maghrib باللغة الفرنسية • ومن يود

أن يتتبع النشاط الصحفى والسياسى للوطنيين العرب وخاصة المصريين منهم فسوف يلمس ذلك بوضوح من سيل الرسائل المتبادل بين الوطنيين العرب وزملائهم فى كل من سويسرا وألمانيا وكذلك فى الزيارات المتبادلة والتنقلات المستمرة بين البلدين . ولقد ظهر على سبيل المثال فى مجلة الشرق الجديد Der Nene Orient سالفة الذكر والخاضعة لاشراف وزارة الخارجية الالمانية عدد هائل من رسائل القراء ومن المقالات لهؤلاء الوطنيين العرب الذين كانوا يعيشون فى سويسرا وكثيرا ما كان يصعب معرفة الشخصيات الحقيقية التى كانت تحرر هذه الرسائل والمقالات ، لانها كثيرا ما كانت تحمل أسماء مستعارة .

وجاء فى بعض هذه الرسائل كثير من الهجوم على الشاعر المصرى على الغاياتى الذى كان قد كتب قصيدة بعنوان : « وطنيتى » ونفى على أثرها من مصر حيث لجأ الى جينيف وأقام بها ، وكانت هذه الرسائل تتهمه بانه قد اصبح وهو فى سويسرا عميلا لدول التحالف انجلترا وفرنسا . وفى هذه الرسائل ما يفيد بالمتاعب الكثيرة التى كانت تخلقها السفارة البريطانية فى سويسرا للوطنيين المصريين المقيمين بها بسبب عدم تجديد جوازات سفرهم ومنع وصول الاموال اليهم من ذويهم فى مصر) . وتجدر بهذه المناسبة الاشارة الى كتاب حديث ظهر عام 1970 باللغة الالمانية لكاتب سويسرى مارك تريفتسجر Marc Trefzger يتحدث فيه مؤلفه عن الحركات الوطنية المصرية فى مرآة الرأى العام السويسرى .

واذا اردنا أن نفهم موقف الوطنيين المصريين فعلينا مراعاة ما يلى :

فى نوفمبر سنة 1914 دخلت تركيا الحرب متحالفة فى ذلك مع المانيا ، وردا على هذا الاجراء أعلن الانجليز خلع الخديوى عباس الثانى الذى كان يقوم فى هذا الوقت بزيارة للاستانة ونصبوا بدلا منه عمه حسين كامل سلطانا على مصر ، وأعلنوا بالاضافة الى ذلك فرض الحماية على مصر .

وقد أدى هذا الاجراء من جانب انجلترا الى حدوث تقارب جديد بين الحزب الوطنى وبين الخديوى عباس الثانى بعد أن كانت العلاقة بين الخديوى وبين الحزب الوطنى قد ساءت عقب موت الزعيم مصطفى كامل .

أما عباس الثانى فقد ترك الاستانة واتجه شطر فيينا ومن هناك سافر الى برلين للزيارة ٠

ورغم هذا التقارب الجديد فلم يكن هناك تفاهم تام بين الخديوى والوطنيين المصريين وخاصة من الجناح المتطرف الذى كان يتزعمه الدكتور منصور رفعت ٠ ولكن السياسة الجديدة كانت تقضى بأن يعلن الوطنيون العرب من حيث الظاهر فقط اتفاقهم مع الخديوى، وأن مصر ستظل جزءا من الخلافة العثمانية بعد انسحاب الانجليز منها ٠

وقد تركز النشاط السياسى بالطبيعة على برلين ، فأنشأت احدى اللجان الوطنية لحزب مصر الفتاة ناديا فى برلين ، ويسرت الحكومة الالمانية بالتالى لهؤلاء الوطنيين سبيل الحصول على حجرات كبيرة وصالات فى بعض الفنادق لاقامة حفلاتهم ، كما وضع النادى العثمانى أيضا تحت تصرفهم ٠ وفيما يلى أود أن أتعرض لابرز هؤلاء الاعلام :

1 ـ **محمد فريد** ، وقد خلف مصطفى كامل بعد وفاته فى قيادته للحزب الوطنى ٠ كان محمد فريد يقيم فى أوربا منذ عام 1912 ، وكانت معظم اقامته فى سويسرا ، وكثيرا ما زار ألمانيا وأقام فيها لفترات طويلة ، وكان وهو فى برلين يلقى خطبه ويصدر تصريحاته المناوئة للحكومة الانجليزية ٠

2 ـ **منصور رفعت** ، كان شعلة من النشاط ، وأسس فى سويسرا ناديا للوطنيين المصريين ، وكان فى بعض مواقفه السياسية أكثر تطرفا من محمد فريد ٠ طرد فى نوفمبر 1914 من سويسرا وأرسل الى ألمانيا ٠ وكتب وهو فى ألمانيا مقالات عديدة ضد الانجليز ، وكان يسانده فى ذلك مكتب خاص للرعاية الالمانية ٠ (ويؤكد بعض الالمان الذين كانوا يعملون مع منصور رفعت أنه كان رجلا صعب المراس ، لم يقتصر شجاره مع زملائه الالمان بل كان فى صراع وشجار دائم مع رفاقه الوطنيين المصريين ٠ واحيانا ما كان يدعى بانه يحمل الجنسية الامريكية ٠

3 ـ **محمد فهمى** ، عاش محمد فهمى فى سويسرا لاجئا سياسيا ابتداء من عام 1900 وأسس هناك اللجنة الدائمة للشباب المصرى فى أوربا ٠ وفى يناير 1915

فاوض فى برلين مع ممثلين من الحكومة الالمانية لتحديد موقفهم وموقف تركيا تجاه استقلال مصر . الا ان الرد الالمانى لم يكن كافيا لتحقيق أهدافه وقد ادى ذلك الى فتور علاقته بالساسة الالمان .

4 ـ **عبد الملك حمزة** ، كان يختلف فى موقفه كثيرا عن محمد فهمى حيث قرر العمل مع مكاتب الدعاية الالمانية ، ومثله فى ذلك الشيخ عبد العزيز جاويش التالى ذكره بعد هذا .. اصدر عبد الملك حمزة مجلة «العالم الاسلامى» Die islamische Welt باللغة الالمانية ، وقد هيأ له مركز رئيس تحرير هذه المجلة الفرصة للاتصال بكبار الساسة الالمان .

5 ـ **الشيخ عبد العزيز جاويش** : حاز على شهرة أوسع من عبد الملك حمزة ، وعرف جدا فى ألمانيا . كان وهو فى مصر محررا لمجلة اللواء ، غادر مصر عام 1912 ، واتجه الى اسطنبول وهناك التحق بجمعية « الاتحاد والترقى » ، وقيل انه كان وهو فى مصر على علاقة بالوكالة الالمانية . ثم غادر تركيا عام 1916 متجها الى المانيا ، فقدم للصحافة الالمانية على أنه مدير جامعة المدينة المنورة التى أسسها الاتراك عام 1914 . وفى الحقيقة ان الشيخ جاويش لم يسافر الى المدينة المنورة الا لوضع حجر أساس هذه الجامعة مع شكيب أرسلان ، وعلاوة على ذلك قدم أيضا على أنه عميد لكلية صلاح الدين فى القدس . والدافع الحقيقى الذى يكمن وراء رحلته الى المانيا لم يكن كما أعلن هو الاطلاع على نظام الجامعات الالمانية وانما كان للاعداد لاصدار مجلة العالم الاسلامى باللغة الالمانية ولالقاء محاضرات فى ألمانيا ولتقديم النصائح الى الخبراء الالمان فيما يختص بالدعاية التى تهم مصالح العالم الاسلامى .

وقد ظهرت مجلة العالم الاسلامى باللغة العربية فى اسطنبول ابتداء من 6 مايو سنة 1916 ، وظهر العدد الاول منها فى برلين باللغة الالمانية فى 19 نوفمبر سنة 1916، وكانت هذه المجلة تضم عددا كبيرا من المقالات للشيخ جاويش ولكبار المسلمين من العرب والاتراك والايرانيين والهنود وغيرهم ، كما كانت تضم أيضا مقالات للعلماء الالمان والصحفيين والسياسيين وهكذا . ولم يكتف الشيخ جاويش بالكتابة فى هذه

المجلة بل كان يكتب ايضا فى جرائد ومجلات المانية أخرى · وقد ظهر له على سبيل المثال مقال عن اللغة العربية وتاريخها عام 1916 فى المجلة البروسية Preussishe Jahrbnecher التى كانت تصدر مرة واحدة كل عام وهى مجلة تاريخية ثقافية هامة جدا ·

وبجانب الوطنيين المصريين نجد أيضا فى ألمانيا مكافحين آخرين كانوا يعملون من اجل تحرير المغرب العربى · ويعد الشيخ عبد العزيز جاويش ايضا ضمن هؤلاء المكافحين رغم انه ولد فى الاسكندرية حيث كان لأبوين تونسيين · ومن اشهر الوطنيين المغاربة الذين كانوا فى ألمانيا أثناء الحرب العالمية الاولى والذى مازالت شهرتـه باقية حتى الآن هو الشيخ محمد الخضر حسين التونسى الذى رحل الى مصر بعد الحرب العالمية الاولى وعـاش بها ، وقد عـين فى عام 1952 شيخا للازهـــر ·

كان الشيخ الخضر حسين يعيش فى دمشق منذ عام 1912 ثم رحـــل منهـــا الى اسطنبول ، ومن هناك رحل الى ألمانيا أثناء الحرب العالمية الاولى ليكتب مقالات فى الصحف للتاثير بها على الاسرى المسلمين الذين وقعوا فى قبضة الالمان والذين كانوا قبل ذلك يعملون فى الجيوش الانجليزية والفرنسية والروسية · ولكن الشيخ الخضر حسين لم يحظ لدى الرأى العام الالمان بتلك الشهرة التى كان يتمتع بها الشيـخ صالح الشريف التونسى ·

كان الشيخ صالح الشريف التونسى يعمل أستاذا فى جامعة الزيتونة ، ثم انتقل قبل اندلاع الحرب العالمية الاولى الى اسطنبول حيث عاش بها ، وقيل انه كان يقوم بتدريس اللغة العربية لانور باشا وزير الحرب ، ثم توجه الى ألمانيا فى نوفمبر أو ديسمبر سنة 1914 ·

أما عن نشاطه فى ألمانيا فيحدثنا عن ذلك الدبلوماسى الالمانى البارون شابنجر Schabinger فى مذكراته التى لم تطبع حتى الآن · كان شابنجر يجيد اللغـــة العربية ، وعمل مترجما فى القنصلية الالمانية فى طنجة لبضع سنوات ، وترجم أثناء الحرب العالمية الاولى الى اللغة الالمانية كتيبا للشيخ صالح الشريف عن الجهـــاد فى الاسلام وظهر هذا الكتاب فى برلين عام 1915 · رافق شابنجر الشيخ صالح الشريف الى الجبهة الغربية حيث وجه الشيخ صالح عن طريق مكبر الصوت نـداء الى الجنـود

والضباط المسلمين وحثهم فيه على الهروب واللجوء الى الالمان . وفى برلين القى الشيخ صالح الشريف مرة محاضرة أمام جمهور منتخب من الالمـــان ، ومرة أخــــرى أمـــام الدبلوماسيين الاجانب . ويبدو أن المحادثات التى أجراها الشيخ صالح مع الساسة عن أهداف ألمانيا تجاه المغرب العربى لم تجد القبول الذى كان يبغيه فاحس بشيء من خيبة الامل ، كما لم يحقق اللقاء مع القيصر الالمانى أى نجاح لان السفير التركى كان حاضرا أثناء هذا اللقاء وقد عمد القيصر على التحدث باللغة الالمانية مع السفير التركى ولم يرع الآخرين اهتماما وكان من بينهم الشيخ صالح الشريف والامير على ابن المجاهد الكبير عبد القادر الجزائرى .

كان الشيخ صالح الشريف قد جاء الى ألمانيا وكله أمل أن تحقق مساعيه بالنجاح. وصرح أمام المستشرق الالمانى Martin Hartmann بضرورة العمل على انشـــاء جامعة اسلامية فى ألمانيا يقوم بالتدريس فيها أساتذة مسلمون ولكن شيئا من ذلك لم يتحقق . ومع ذلك فقد كان سعيدا راضيا بحضوره لافتتاح مسجد أقيم للاسرى المسلمين الذين جمعوا فى مكان أطلق عليه معسكر الهلال Halbmoud Tager وسوف يأتى الحديث عن هذا المعسكر . أما عن شعوره بخيبة الامل فى جهوده التى بذلها مع الالمان تجاه استقلال المغرب فقد ظل كما هو ، لم يتغير ، وفى أوائل عام 1917 أرسل رسالة الى القيصر يطلب منه فيها ان يقوم بتصفية كل مستعمراتـه الالمـــانية حتى يستطيع أن يقدم الى العالم الدليل على حسن نواياه ، ويبدو أن القيصر لم يرد على هذه الرسالة .

وكما نرى فقد تبين للشيخ صالح وكذلك لزملائه الوطنيين الذين كانوا ينشدون مساندة ألمانيا آنذاك ، تبين لهم أن التعاون مع ألمانيا له حدود لا يمكن تخطيها . وقد اتضحت هذه الحقيقة أيضا للعالم المغربى محمد العتابى فلم يستطع أثناء مناقشاته مع الالمان أن يخفى تخوفه من أن ألمانيا قد تحل محل فرنسا فى احتلال المغرب . ومما يلفت النظر أنه كتب مقالا عن القضية المغربية تجنب فيه أى اشادة أو مدح لالمانيا أو لسياستها ، وقد نشر هذا المقال فى يناير سنة 1918 ، وزيادة على ذلك فقــــد

ناشد العتابى فى هذا المقال الشعوب الاوربية جميعها على العمل على مساندة المغرب فى نضالها من أجل الحرية والاستقلال .

وهناك من المغاربة من كانوا أقل شهرة ولكنهم على عكس العتابى قدموا قـــدرا أكبر من التعاون مع الالمان ، وأبرز هذه الشخصيات رجل جزائرى الجنسية كان يعمل فى الجيش الفرنسى برتبة ملازم ثان ، ثم فر منه هاربا الى صفوف الجيش الالمانى ووضع نفسه تحت خدمة الدعاية الالمانية . جاء هذا الجزائرى الى ألمانيا يحمل اسم الحاج عبد الله ، وكان قد أصدر وهو فى سويسرا كتيبا باللغة الفرنسية بعنوان : « الاسلام فى الجيش الفرنسى » l'Islam dans l'armée française وقد ظهر هذا الكتيب عام 1917 يحمل اسما للمؤلف هو Boukabouya « رباح بوكبوى » .

وممن قام بزيارة ألمانيا أيضا الامير على بن المجاهد الكبير عبد القادر الجزائـرى ولكن نشاطه فى ألمانيا لا يعد شيئا يذكر اذا قورن بالمجهود الصحفى الذى قام به الحاج عبد الله أى ان هذه الزيارة لا أهمية لها ولا تخرج عن كونها شيئا رمزيا .

وكانت ألمانيا تعمد دائما على اطلاع الضيوف العرب أمثال الامير على بن عبد القادر الجزائرى وغيره على معسكر الهلال للاسرى المسلمين الـــذى أنشئ فى ونسدورف Wunsdorf على مقربة من برلين . وقد جلب الى هذا المعسكر الاسرى المسلمون الذين كانوا يعملون فى صفوف الاعداء والذين كانوا قد وزعوا فى بادئ الامر على معسكرات مختلفة فى شتى أنحاء ألمانيا مع غيرهم من الاسرى الانجليز والفرنسيين والروس ، ثم نقلوا الى المعسكر السالف الذكر والذى أطلق عليه معسكر الهـلال . وكان يوجد فى هذا المعسكر مسلمون من العرب والتتار ومسلمو بعض الدول الاخرى .

وكان يقوم بالرقابة فى هذه المعسكرات بعض الضباط الالمان الذين يعرفون اللغة العربية أو لغات شرقية أخرى . ومنهم من كان يتفاهم مع الاسرى العرب بهذه اللغة .

وكان الهدف من وراء جمع المسلمين فى معسكر واحد بهذا الشكل هو تيسير مهمة نشر الدعاية بينهم لقبول الاهداف الالمانية التركية . وفى سبيل ذلك أنشئت مجلة أطلق عليها « الجهاد » وقد ظهرت هذه المجلة لاول مرة فى برلين فى شهر مارس 1915

وطبع من هذه المجلة 15 ألف نسخة ، وقد صدرت بلغات شرقية مختلفة ومنها اللغة العربية ، ولم يكن المقصود باصدار هذه المجلة توزيعها على الجبهة أو فى الدول الاجنبية بل كان توزيعها قاصرا على الاسرى المسلمين فقط .

وممن كتب فى هذه المجلة الحاج عبد الله الجزائرى والشيخ محمد الخضر حسين . وكانت ألمانيا تنتهز أيضا فرصة حلول الاعياد الدينية لاقامة احتفالات تلقى فيها الخطب للتأثير بها على الجنود ، ومن بين الذين ألقوا كلمات فى هذه الاحتفالات محمد فريد المصرى وضباط وسياسيون أتراك وآخرون . وكانت هذه الخطب تهدف الى التأثير على الاسرى المسلمين للقتال فى جانب تركيا .

وقبل اشتراك تركيا فى الحرب (أى قبل نوفمبر سنة 1914) جلب شابنجر بعض الاسرى من معسكر بالقرب من مدينة Paderborn وذهب بهم الى اسطنبول لكى يدعوا الناس هناك الى الجهاد . وهؤلاء الاسرى كانوا عبارة عن خمسة من المغاربة واثنين من الجزائريين وسبعة من التونسيين . وقد أرسل هؤلاء الاسرى تحت ستار انهم سيرك متجول وذلك للتغطية على جواسيس العدو .

وفى شتاء عامى 1917 و 1918 وضعت تركيا خطة تقضى بأن يجمع أسرى المغرب العربى الذين كانوا فى المعسكرات الالمانية والتركية والذين كانوا على استعداد للاشتراك فى الحرب بجانب الاتراك ثم يرسلون فى غواصات الى ليبيا بقيادة المجاهد التونسى على باش حانبة للاشتراك هناك فى الحرب الدائرة ضد الاحتلال الايطالى الا ان هذه الخطة قد باءت بالفشل بسبب التدهور السريع لحالة تركيا العسكرية وبسبب مرض على باش حانبة الذى مات على أثره قبل انتهاء الحرب العالمية الاولى . وبهذه المناسبة أود أن أذكر أن هناك غواصات كانت قد أرسلت الى سواحل ليبيا لمساندة الحركة السنوسية وأخرى الى سواحل المملكة المغربية مراكش لمساندة الحركة التحريرية بها ، وهذا موضوع يحتاج الى محاضرة مستقلة لعلاجه .

أما عن استعداد الاسرى المسلمين للاشتراك فى الحرب بجانب الاتراك فلم يلق قبولا ملحوظا ولم يظهر كثير منهم استعدادهم للاشتراك فى القتال بدليل أن بعضهم

وربما هم من الهند قد هرب الى الجيش الانجليزى عندما أتيحت لهم الفرصة وهم في العراق • ويمكننا القول أن مهمة معسكر الهلال كان دعاية للسياسة الالمانية التركية أكثر منه عملا عسكريا •

فى صيف عام 1917 أقيم فى استوكهولم Stockholm بالسويد المؤتمر الاشتراكى الدولى ، كما أقيم هناك فى شهرى أكتوبر ونوفمبر من نفس العام مؤتمر الشعوب الاسلامية ، وقد اشترك فى هذين المؤتمرين بعض الوطنيين العرب الذين كانــوا يقيمون فى ألمانيا • أما ما يتعلق بالمؤتمر الاشتراكى فمن الواضح أن غالبية الوطنيين العرب الذين زاروه لم يكونوا اشتراكيين وهذا ما أعرب عنه محمد فريد المصرى رسميا للصحافة السويسرية بعد رجوعه من استوكهولم باسمه وباسم الحزب الوطنى • ومن المؤكد ان محمد فريد وغيره من أعضاء الوفود العربية قد انتهزوا فرصة عقـد المؤتمر لعرض القضية العربية على أعضاء المؤتمر الاشتراكى العالمى •

أما عن مؤتمر الشعوب الاسلامية فقد ساهمت فيه مصر بنصيب كبير ، وكان يمثل المغرب العربى فى المؤتمر قاضى تونس السابق الشيخ اسماعيل الصفائحى ومعه الشيخ صالح الشريف سالف الذكر ، وكان يمثل ليبيا يوسف شتوان (أو شطوان ؟) النائب السابق لطرابلس الغرب فى مجلس الامة العثمانى ومعه الشيخ محمد بن صالح الشريف البنغازى ، وكان يمثل المغرب الاقصى الشيخ محمد العتابى المشار اليـه سابقـا •

وبعض الوطنيين العرب الذين ورد ذكرهم فى هذه المحاضرة قد عاصروا نهاية الحرب وهم فى ألمانيا ، وفى 19 ديسمبر سنة 1918 اجتمع فى برلين ممثلون عـــن الحزب الوطنى المصرى وأصدروا قرارات كثيرة يؤكدون فيها انهم سوف يواصلون النضال من أجل تحرير بلادهم وجاء فى هذه القرارات الاعراب عن شكرهم للصحافة الالمانية لمساندتهم للقضية المصرية •

أما فيما يتعلق بالتطورات الاخرى التى حدثت فى مصر فمن الواضح أنه قد برزت شخصيات أخرى على رأس الثورة التى اندلعت بعد ذلك بعام ، ولم يكن لمحمد فريد

فى هذه التطورات الاخيرة أى تأثير لانه كان بعيدا عن مصر ووافته منيته وهو فى برلين فى 15 نوفمبر سنة 1919 ٠

وبعض هؤلاء الوطنيين الذين كانوا فى ألمانيا أثناء الحرب من رحلوا منها الى تركيا وعاصروا نهاية الحرب هناك وعندما رأوا أساطيل الحلفاء تمر فى مضيق البوسفور هربوا منها الى ألمانيا وفيهم الشيخ جاويش وصالح الشريف التونسى والشيخ محمد الخضر حسين ، وذلك عن طريق روسيا فألمانيا ومنها الى سويسرا ، وانضم اليهم فى الطريق الامير شكيب أرسلان ٠ ورغم اقامة شكيب أرسلان فى سويسرا بعد ذلك فقد ظل على علاقة وطيدة مع ألمانيا ، ويعتبر شكيب أرسلان من أوائل الذين اهتموا بالادب الالمانى وبشعر جوته

وان هزيمة ألمانيا فى الحرب العالمية الاولى قد جعلت هؤلاء الوطنيين العرب الذين كانوا يتعاونون مع ألمانيا وينشدون مساعدتها فى حل قضاياهم ، قد جعلتهم أمام التاريخ يوصمون أيضا بالهزيمة ، ولعل فى ذلك بعض الصحة ، ولكن مما لا شك فيه أن الايام قد أثبتت صحة تنبؤات شكيب أرسلان ومحمد فريد وغيرهما وما كانوا يصرحون به من اهداف الحلفاء وخططهم والتى وضحت بعد نهاية الحرب ٠

ولقد تعرض هؤلاء الوطنيون للهجوم حتى من أتباع حركة التحرير العربية فى الحجاز الذين كانوا يصفون هؤلاء الوطنيين بأنهم حلفاء للاتراك اللادينيين الذين يحتقرون العرب والاسلام والذين كان لا ينتظر منهم اطلاقا أن يمنحوا مصر حريتها لو أنهم كانوا قد انتصروا فى الحرب ، وربما كانوا على حق فى اتهامهم هذا الا أنهم يغفلون تماما الظروف الصعبة والحالة القاسية التى كان يمر بها هؤلاء الوطنيون أثناء الحرب وهم فى أوربا ٠

صحيح أنهم أخطأوا أحيانا فى بعض تصوراتهم وصحيح أنهم ـ كأى سياسيين آخرين ـ قد لجأوا الى الحلول الوسط فى بعض المشاكل ٠ الا أن المصادر الالمانية تؤكد ـ وهذا ما أراه شخصيا ـ أن الوطنيين العرب لم يكونوا عملاء لا للالمان ولا للاتراك ٠ وهناك أدلة تؤكد مثلا على أن محمد فريد كان يعارض صراحة فى محادثاته مع الدبلوماسيين الالمان أى سيطرة لتركيا على حكم مصر فى حال انتصارها فى الحرب٠

صحيح أن محمد فريد كان لاسباب سياسية يصرح بموافقته على تبعية مصر لتركيا بعد الحرب ولكنه كان فى محادثاته الخاصة ومعظم محادثاته العامة يؤكد على ضرورة استقلال مصـــــر ٠

وكلمة أخيرة أود ان أوجهها الى سيادتكم قبل أن أختتم محاضرتى هـذه : انى أرجو من كل من يود الكتابة عن هذا الموضوع أن يكون عادلا منصفا فى حكمه وألا يكون متسرعا فى الحكم على هؤلاء الوطنيين لان تاريخهم ما زال طى كثير من المستندات ولم ينشر كله ٠ وقد أردت بهذه المحاضرة أن الفت النظر الى ضرورة البحث والتقصى عن الحقيقة قبل اصدار اى حكم حتى لا يغمطهم التاريخ حقهم ٠ ومن جانبى فانى أقـــوم حاليا بالتعاون مع زميلى الدكتور بيتر هاينه Peter Heine الاستاذ المساعد بجامعة مونستـر Muenster بألمانيا الاتحادية بكتابة بحث مفصل عن هذا الموضوع ٠

والله ولى التوفيق ، والسلام عليكم ورحمة الله ٠

توضيح

ننشر هذه المحاضرات طبقا لمبدأ نشر كل محاضرات الملتقى الذى أعلنا عنه فى العدد الاول من « الاصالة » تعميما للفائدة ، ولطلب الكثير ممن تصلهم المجلة ولا تصلهم كتب الملتقيات .

وقدقررنا أن ندرج فى كل عدد على الاقل مقالين .

ونرجو أن يكون السادة الاساتذة الذين أرسلوا الينا بمقالات لم نصل بعد الى نشرها وعاتبونا على نشر القديم المتمثل فى هذه المحاضرات من ملتقيات سابقة،وترك الجديد من الانتاج ، قد فهموا الآن قصدنا من هذا .

كما سندرج فى المستقبل فى كل عدد ، بانتظام ، نصا أو نصين من المحاضرات التى درجت الوزارة على تنظيمها خلال القطر منذ سنوات باسم المركز الثقافى الاسلامى .

جمال الدين الأفغانى والتجديد الإسلامى

دكتور عثمان أمين
أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة
الجمهورية العربية المتحدة

تقـــديـم :

الحمد لله أولا وثانيا ، كما يقول الشاعر العربى : أحمده أولا ، اذ يسر لى أن أشارك فى هذا الملتقى الفكرى بفسنطينة ، وان أظفر بتبادل الرأى مع الصفوة من العلماء والمفكرين من أقطار العروبـــة والاسلام ، ومع الشباب الجزائرى الناهض ــ فى الامور الخطـــيرة التى تواجهنا اليوم فى توتر والحاح ــ وأحمـــده ثانيـــا اذ سيكـــون حديثى هذا الصباح ، عن جمال الدين الافغانى ، امتدادا للخطـــاب المهم الذى استمعنا اليه أمس من الاخ الكريم الاستاذ مولود قاسم عن « الانية والاصـــالة » .

والحق ان هذا الموضوع كان وما يزال يشغلنى فى كل ماكتبته عن أعلام الفكر الاسلامى ، من الفارابى وابن سينا والغزالى وابن رشد الى الافغـــانى ومحمد عبده والكـــواكبى ورشيد رضا ومحمـــد اقبال ومصطفى عبد الرزاق وعباس محمود العقـــاد .

الاب الروحى لرواد الوعى الانسانى فى الشرق الاسلامى

ففى كتاب شعبى صغير نشرته بالقاهرة سنة 1961 ، اختـــرت أربعة من سميتهم ، **رواد الوعى الانسانى فى الشرق الاسلامى هم : جمال الدين الافغانى ، ومحمد عبده المصرى ، وعبد الرحمن الكواكبى السورى ، ومحمد اقبال الباكستـــانى .**

فقد رأيت أنهم جميعا قد نادوا « غفـــاة البشـــر » ــ كما يقـــول عمر الخيام فى رباعياته ــ وقادوا حركة التحـــرير والتنـــوير اللازم

(*)محاضرة القاها فى الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الاسلامى المنعقد بقسنطينة فى 17/8 جمادى الثانية 1390 هـ ــ 10/19 اوت 1970 م .

لتحقيق الابيه وتثبيت الأصالة • وكان هدفهم ايقاظ الوعى الانسانى فى النفوس،وتنبيه الناس الى الاخطار المحدقة بهم فى الداخل والخارج ورايت أن المبادىء التى دعا اليها كل واحد من هؤلاء المفكرين هى نفسها المبادىء الضرورية لقيام وعى للانسان بما هو انسان : كرامة الانسان ، ومثلها الافغانى ، وتنوير الاذهان ويمثلها محمد عبده ، وصيحة الحرية ويمثلها الكواكبى ، وفلسفة الآنية ، ويمثلها محمد اقبال •

ورأيت كذلك أن هؤلاء الاعلام جميعا يشتركون فيما بينهم فى سمات واضحة ، جعلتهم ، على اختلافهم فى الزمان والمكان ، ينتمون الى سلالة روحية واحدة :

السمة الاولى انهم مفكرون «جوانيون» على الأصالة : النظر والعمل عندهم متصلان أوثق اتصال ، وهم جميعا متفقون على أن « الدين فى أعلى صورة ، ليس احكاما جامدة ، ولا كهنوتية ولا أذكارا ، وانما ييسر بالدين تهيئة الانسان المعاصر لحمل العبء الثقيل الذى يحمله اياه تقدم العلوم والتقنية فى عصرنا • والدين الصحيح يرده الى الايمان والثقة اللذين ييسران له اكتساب انية فى هذه الدنيا والاحتفاظ بها فى الآخرة » •

والسمة الثانية هى انهم جميعا ، بعد نجاح دعوتهم لايقاظ الوعى الانسانى ، أصبحوا فى بلادهم من رواد الوعى القومى•والواقع ان الدعوة الى الوعى الانسانى لا بد أن تسبق الدعوة الى الوعى القومى خلافا لما يتوهم بعض المتوهمين : فانك لا تستطيع أن تحرك فردا من الافراد الى معنى أو عمل ينفع قومه ، ما لم تحرك فيه انسانيته أولا • ولا ريب ان من لوازم الانسانية الايثار والغيرة ، والعمل من أجل المجموع ، والتحرر من أسر الانانية ، وكل دعوة لا تعتمد على دعوة انسانية يكون نصيبها الفناء • فبالوعى الانسانى ترسخ فى النفوس القيم الروحية والمثل العليا والمعانى الجميلة • وبه يشعر الانسان – كما يقول الكواكبى – بأن «**الحرية افضل من الحياة واكرم وان الشرف أعز من المنصب والمال**» • والوعى الانسانى هو الذى «**ينبه الى الظلم كيف يرفع ، ويشير الى الكرامة البشرية وقيمتها**» •

والسمة الثالثة انهم جميعا وقفوا جهودهم على احياء الشرق

الاسلامى ، فقد كان ذلك الشرق هو الشغل الشاغل لهم جميعا،وكان لسان حالهم قول الشاعر العربى :

طمع ألقى عن الغرب اللثاما

فاستفق يا شرق واحذر ان تناما

وقد كانوا من أبناء جمال الدين الروحيين ، وكانوا أبرز أنصاره فى الحركة الفكرية التحريرية التى آذنت بان تؤتى ثمارها دانيات فى مختلف الارجاء ·

والسمة الرابعة انهم جميعا أدباء مفكرون ، فكان أدبهم كما قيل بحق «**أسرع ذيوعا وأهم مدى وأعظم دويا واحكم اصابة للهدف فى ميادين التحرر الفكرى والانقلاب الاجتماعى والتقدم البشرى**» ، لانه أدب «هادف» أو أدب «ملتزم» كما يعبر الوجوديون اليوم ·

ومن هذه الجهة كان لهؤلاء الرواد فى قومهم وزمانهم أثر كبير يندر أن نجد له نظيرا فى آداب الامم الاخرى وقد يصدق على دعوتهم ما ذكره الكواكبى عن دعوته من انها « **كلمات حق وصيحة فى واد ، ان ذهبت اليوم مع الريح فقد تذهب غدا بالاوتاد** » ، والواقع التاريخى شاهد على ذلك : فقد قيل فى وصف السيد جمال الدين الافغانى انه رجل «**يتناول السوط بيمناه ويوزع الثروة بيسراه !** » · وقيل عن الامام محمد عبده أن دعوته لتحرير الفكر من قيد التقليد تفوق ما صنعته الجيوش من فتح البلدان أو رد العدوان·وقيل عن الكواكبى ان كتابه «طبائع الاستبداد» كان من أبرز الكتب التى عرفها الادب العربى فى العصر الحديث عن الحرية · وقد كان بعيد الاثر فى حياة الفكر والسياسة والقومية العربية جميعا ، أما دعوة محمد اقبال فقد وصفت فى حينها بأنها ضرب من الجنون · ولكن سرعان ما استجابت لها النفوس ، وما لبثت أن اصبحت حقيقة واقعة بانشاء « **باكستان** » دولة اسلامية مستقلة · وهذا يؤكد ان المثالية هى الطريق الصحيح للتجديدية الاسلامية ولكل تجديد انسانى ·

صورة الافغانى :

بعد هذا التقديم نعود الى الافغانى ، فنقول : هذه صورة مشرقة اللمحات ، زاهية القسمات ، يسطع منها نور وتنبثق منها نار · اننا ها هنا أمام عبقرى من عباقرة العصر الحديث ، أصبحت شخصيته

فى نظر الشعوب الشرقية «رمزا» للكفاح المتواصل من أجل التحرر السياسى ، وأضحى اسمه علما خفاقا للاسلام المستنير النازع الى صون كرامة الانسان ، الساعى الى ايقاظ الشعور بحق المواطن ، فى البلاد المغلوبة على أمرها أو الواقعة تحت نير الاستعمار الغربى أواخر القرن الماضى ٠

الاختلاف حول الافغانى

وقد اختلفت الاقوال فى شخصية الافغانى ، واختلفت فى تبيين مرامى أقواله وأفعاله بل لقد اختلفوا فى اسمه ونسبته الى بلاد أفغانستان فذهب بعض الكتاب الايرانيين الى إنه ايرانى ، وحاول بعض الاتراك أن يثبتوا أنه من أصل تركى ، كما ذهب بعض الهنود الى أنه نشأ فى قرية «شيروت» فى بلاد الهند ، فترجمت الى أسعد آباد لاسباب سياسية ٠

وظاهرا ان كتاب الشرقيين يتنافسون فى نسبة السيد جمال **الدين الى بلادهم ٠ والحق انه لم يكن لجمال الدين وطن يستقر به ،** فقد كان بروحه ومنازع فكره شرقيا مسلما ، مواطنا للشرق الاسلامى ان لم يتيسر له أن يكون مواطنا للعالم كله ، على غرار « الحكيم الرواقى » القديم ٠

أما آراء الافغانى فكانت ولا تزال موضع جدال واختلاف بين الغربيين والشرقيين ، على السواء ٠ فمنذ أواخر القرن الماضى رأينا كتبا عنه بالعربية وباللغات الاجنبية ، بعضها يثنى عليه ويضعه **فى صف الانبياء ، وبعضها يطعن فيه ويجرده من كل فضيلة ٠**

ولنبدأ بمصر ـ وقد كان أثره فيها أعظم من أثره فى أى قطر آخر: نجد كاتبا يخفى اسمه يؤلف عنه كتابا بعنوان : «تحذير الامم من كلب العجم» ! وأعفيكم من سماع شىء من ذلك الهراء السقيم ٠ وفى مصر أيضا نشر عنه كتاب فرنسى بعنوان «جمال الدين الافغانى ودخائل علاقاته مع السلطان عبد الحميد» بقلم جورج كوتشى ٠ ومع الاسف أن هذا الكتاب الخطير قد نزعت أوراقه ولم يبق منه فى مكتبة الامام محمد عبده الا غلافه ! وفى السنين الاخيرة شهدنا حمله مسعورة تريد أن تشوه صورة الافغانى ومحمد عبده أمام أعين الشباب الاسلامى ٠ **وظاهرا ان الاستعمار يحرك بعض ضعاف النفوس فى غير واحد من** بلاد الاسلام ٠ وواجبنا أن نكون ايجابيين ، بمعنى أن ندرس ونتابع

الدرس لنجلو جوانب حياة الافغاني ، لا لكي نرد على المتخرصين ، ولنتركهم وشأنهم كما يقول اديبنا الكبير الاستاذ عمر الاميرى ·

ايديولوجية الافغاني

جمال الدين الافغاني ، في تاريخ الفكر الاسلامي المعاصر ، هو الرائد لحركة النهضة العقلية التي قدر لها أن تزدهر في أرض الاسلام منذ أواخر القرن الماضي حتى يومنا هذا · ولقد ذاعت أفكار الافغاني بفضل عدد من تلاميذه ومريديه الكثيرين ، مثل محمد عبده ومصطفى عبد الرزاق في مصر ، ورشيد رضا وعبد الرحمن الكواكبي في سوريا وابن باديس في الجزائر ·

ولا ننسى أن أثر الافغاني قد تجاوز العالم العربي الى ايران وتركيا والهند واندونيسيا ، على الرغم من المعوقات وردود الفعل الداخلية والخارجية التي اعترضت الحركة الاصلاحية الجمالية زهاء قرن من الزمان ·

لم يبالغ الشاعر الانجليزي (والغرد سكاون بلنت) حين وصف الافغاني بأنه (رجل ذو عبقرية طاغية) تفجرت تعاليمه القوية خلال «الظلامية» السائدة آنذاك كبريق يخطف الابصار ·

والتقى به الفيلسوف «رنان» بباريس فترك هذا اللقاء أثرا كبيرا في نفسه عبر عنه حين قال : « **ان حرية فكره ، ونبل أخلاقه ، وصراحته ، جعلتني أشعر أثناء حديثي معه بأني أمام واحد من معارفي القدماء وقد بعث الحياة مرة ثانية ، كابن سينا ، أو ابن رشد أو أي واحد آخر من اولئك الاحرار الكبار الذين مثلوا تقاليد الروح الانساني زهاء خمسة قرون** » ·

زار الأفغاني كثيرا من البلاد الشرقية الاسلامية وتعرض بسبب تعاليمه الثورية الجريئة لاضطهاد السلطات الحاكمة حينا وللابعاد عن البلاد أحيانا أخرى ، وانتهى به المطاف الى اسطانبول حيث مات ولكن تعاليمه الحية بقيت حية تلهم الأجيال من الثائرين ·

* * *

وكلمتي هنا عن الافغاني ليست بحثا بالمعنى الدقيق ، بل هي اشارات أو ملاحظات قد تصلح لان تكون مادة لاستكمال تاريخ الأفغاني ، ولتاريخ الحركات الفكرية التي ظهرت في الشرق الاسلامي

منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر وامتدت الى وقتنا هذا · وهى ضرورية بوجه خاص لفهم النهضة التى بدأت تلقى أضواءها علـــى الجامعات الاسلامية العتيقة فى فجر ما سماه «البرت حورانى» باســم «العصر الليبرالى» أو عصر التحرر ، والتنوير ·

وعلى الرغم من أن الأفغانى لم يؤذن له أن يدخل الازهر ، فان شهرته كانت قد سبقته الى القاهرة منذ زارها أول مرة سنة 1869 ، وتقاطر طلاب الجامعة الازهرية الى لقائه وكان أول مريديه منهم الامام محمد عبده ، وبفضل الافغانى تحول محمد عبده من التصوف الى المشاركة فى الحياة العاملة ، وتحول من مناصرة الأشاعرة الى مناصرة المعتزلة ·

* * *

وأول ما أود أن أسوقه من ملاحظات هو ان التاريخ الحقـــيقى لأى بلد أو أى أمة هو تاريخها «الجوانى» اذا جاز هذا التعبير وأعنى به ذلك الذى لا يقتصر على رصد الحركات الظاهرة والنظر اليها من الخارج ، وكأنه يرصـــد حركات الاجرام السماوية أو يتفرج عـــلى مشاهدة مسرحية دون أن يتفاعل معها أو يعانيها من الداخل واذا جاز لى أن أستعير تعبير «المتضمنات» الذى يستعمله الأستاذ جاك بيرك فى هذا الصدد ، قلت أن اهتمامى عند الحديث عن الافغانى انما ينصب عن المعانى المتضمنة فى الايديولوجية الافغـــانية ، وهى أيديولوجية جديدة ، بزغت ونمت فى القاهرة بعد مجىء ذلك العبقرى اليها وتردده عليها زمنا طال أو قصر · ولكن مما لا شك فيه أن مثل هذه الواقعة قد تركت آثارها العميقة عند الكثيرين من شباب المسلمين أزهريين وغير أزهريـــين ·

ـ **والمعنى الاول** من معانى هذه الايديولوجية هو **الـدعــوة الى قيام «نظام نيابى»** لمصر ولغيرها من البلاد الشرقية ، بدلا من النظم السائدة كالسلطنة أو الامارة أو الخلافة أو الخديوية أو الملوكية ·

وقد كان للافغانى أثر كبير فى هذا الاتجاه وبخاصه فى زيارتـــه الثانية للقاهرة سنة 1879 ، ومن المعروف أن (محمد عبده) تلميـــذ الافغانى الاول هو الذى صاغ مبادىء أول حـــزب وطنى ظهر فى مصر قبل الحركة العرابية ·

ـ **والمعنى الثانى** معنى الاشتراكية ٠ والافغانى أيضا هــو الذى بث هذه الافكار لاول مرة فى مصر ، وفى كتاب المخزومى باشا فصل عن «**الاشتراكية الاسلامية» ومدى اختلافها عن الاشتراكية الغربية** ٠ يقول جمال الدين : **شرع الاسلام الزكــاة درءا لجشــع الانانيــين ودفعا لحقد الفقراء على أرباب الثراء** ، ومن أقواله المأثورة فى مصــر قوله مخاطبا الفلاح المصــرى :

«أنت ايها الفلاح تشق الارض بفأسك لتقوم بأود العيال ٠ فلماذا لا تشق قلب ظالميــك» !

ـ **والمعنى الثالث** من معانى الايديولوجية الافغانية ما تجلى فى **حملتــه على الاستعمار** ، والاستعمار عنــده من قبيل أسماء الاضداد وهو أقرب الى «الخراب» والتخريب ، وأدنى الى الاسترقاق والاستعباد منه الى «العمار» و «العمران» و «الاستعمار» ٠

ـ **والمعنى الرابع** : هو بيانه أن الدعوة الاسلامية الاصيلــــة **هى دعــوة الى الايمان بحرية الانسان والانكار لفكرة الجبر ، والمكتوب والمقســوم كما هى مفهــومة لدى بعــض المسلمــين ، وكثير مــن الغربيين الذين ينسبونها خطأ الى الاسلام ، وهو منها برىء** ، والافغانى يفسر «القضاء والقدر» على معنى جديد ، معنى مخالف للجبر ، ومتفق مع ما يسمى بلغة المفكرين المعاصرين باسم الحتمية العلمية ، أو «العلية والسببية» وقد صرح الأفغانى غير مرة بأن الاعتقاد بالقضاء والقدر ، اذا تجرد من شناعة الجبر ، تتبعه صفات الجرأة والاقــدام وخلق الشجاعة والبسالة ، ويبعث على الصبر واحتمال المكاره ٠

ـ **والمعنى الخــامس** هو معنى «**العقلانية**» **التى تمـــيز بهــا الاسلام عن سائر الاديان** ، ويصرح الافغانى فى كثير من المناسبــات **بأن الاسلام** «**يكاد يكون منفردا بين الاديان بتقريع المعتقدين بلا دليل**» فان هذا الدين يطالب المتدينين بأن يأخذوا بالبرهان فى أصول دينهم وكلما خاطب خاطب العقل ، وكلما حاكم حاكم الى العقل ، تنطــق نصوصه بأن السعادة من نتائج العقل والبصيرة وأن الشقاء والضلالة من لواحق الغفلة واهمال العقل واطفاء نور البصيرة ٠ «وواضح أننا هنا نكاد نسمع صوت أبى العقلانية الحديثة ، الفيلسوف الفرنسى ديكا ت ٠

ـ **والمعنى السادس** هو الدعوة الى ما يمكن أن نسميه باسم «**الجامعة الشرقية**» ولا يسعنى هنا الا أن أخالف الكثيرين ممن كتبوا عن الأفغانى ، فحصروا دعوته فى الاتجاه الى «الجامعة الاسلامية» فالافغانى انما كان يريد وحدة شرقية عامة تكفل لدول الشرق سيادتها وتحررها من طغيان الغرب • وكان يريد أن يكون «مواطنا للشرق» كله ان لم ييسر له أن يكون «مواطنا للعالم» ، على غرار «الحكيم الرواقى» القديم • ولا عجب فقد كان ذلك الشرق هو شغله الشاغل ، يهتف باسمه فى حله وترحاله ، وكأن لسان حاله قول شاعرنا العربى المعاصر :

طمع ألقى عن الغرب اللثاما * فاستفق يا شرق واحذر أن تناما

ولا حاجة بنا الى الاطالة فى بيان أثر مدرسة الافغانى التى سيطرت على الحياة الثقافية والسياسية والاجتماعية والادبية فى مصر المعاصرة : من محمد عبده الى سعد زغلول الى قاسم أمين الى لطفى السيد وعلى عبد الرزاق ، لقد أقد أصبحت تضحية الأفغانى ـ فى نظر الشعوب الشرقية ـ رمزا حيا للكفاح المتواصل من أجل التحرر السياسى ، وأضحى اسمه علما خفاقا للاصلاح المستنير النازع الىصون كرامة الانسان،الساعى الى ايقاظ الشعور بحق المواطن فى البلاد المغلوبة على أمرها أو الواقعة تحت نير الاستعمار الغربى •

فدعوته فى صميمها دعوة الى الحياة الكريمة وارتفاع عن حياة الذل والمهانة وكأن لسان حاله ما عبر عنه الشاعر العربى حين قال :

عش عزيزا أو مت وأنت كريم * بين طعن القنا وخفق البنود

الثقافة الإسلامية بين الأمس واليوم

دكتور الحبيب بلخوجة
عميد الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين . الجمهورية التونسية

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

حضرة صاحب المعالي وزير التعليم الاصلي والشؤون الدينية ،
حضرات أصحاب الفضيلة ، حضرات الاساتذة ،
سيداتي ، سادتي :

انها لفرصة كريمة ، تتاح لي في هذا اليوم ، عند ما أتمكن من المشاركة في هذا الملتقى الكريم ، الذي جعل موضوعه الاصلي

«البحث عن الفكر الاسلامي ، أو الاشتغال بقضايا الفكر الاسلامي»

وما أحوجنا في هذه الوقفة ، وقفة التأمل التي نقفها اليوم ، لان نعود الى ماضينا ننظر أحواله ، ونسبر أغواره ، لنستعيد منه القوة ونستمد منه المدد ، الذي يمكن له ان يكون هاديا ومرشدا ، وسندا فيما نبنيه من صالحات في هذا العصر الحاضر ، وان نظرة واحدة على الموضوعات التي أدرجت في برنامج هذا الملتقى ، ونظرة ثانية على الشعارات التي كتبت في هذه اللافتات،في شوارع عاصمة الشرق الجزائري قسنطينة تجعلنا نهيب بهذه الحقيقة التيلم تفارقنا أصلا،ولم نكن عنها بمعزل ، حقيقة الفكر الاسلامي التي شارك في الحديث عنها ودرسها وسبر أغوارها عدد من الاساتذة بالامس واليوم ، وسيستمر هذا الملتقى معتنيا ببحثها ودرسها في مثل هذه الموضوعات ، التي وقعت الاشارة اليها بالعناوين التالية :

الفقه الاسلامي وحرية الفكر
الثقافة الاسلامية

(*)محاضرة القاها في الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الاسلامي المنعقد بقسنطينة في 17/8 جمادى الثانية 1390 هـ ــ 19/10 اوت 1970 م .

الاســلام والصحــة
حريـة الفـكر فى الاســلام
موقف الاســلام تجـاه العقـل
الاسـلام وشـرف الانسـان
الاسـلام عامل تاريـخى فى حيـاة الجـزائر ·
مشكـلة الاسـلام اليـوم
الاتجـاهات المعـاصرة فى الفـكر الاسـلامى
آراء حول مستقبـل الحضارة العربية الاسلامية ·

وغيرها من الموضوعات التى تشـع بالاسـلام ، وينبع منها تـراث الاسلام وتضيء بأنوار الاسلام ، واذا كانت هذه الموضوعات قد وقع بحثها أو الاشتغال بها بطريقة موضوعية مرة ، وبطريقة حساسيـة اخرى ، بطريقة فيها التركيز العلمى ، وبطريقة فيها شيء من التحديد للنفس ، لهذه الموضوعات ، ولهذه القضايا التى تهمنا جميعـا ، فان ذلك يدل دلالة واضحة على ان الملتقى الرابع للبحث عن الفكـر الاسلامى فى هذه الديار ، قد نجح أيما نجاح لانه حول الاتجـاهات كلها تحويلا تاما عن الاشتغال بغير الفكر الاسلامى ، وجعلها كلهـا منصبة ومركزة على هذا العنصر الهام ، الذى يلفت أنظارنا ، ويجعلنا نعيش هذه القضية عيشا دائما مستمرا ، لا يكون بمحض القول كما كان فى الماضى ، ولكن على أساس أن يكون مددا فى حياتنا،وسلوكنا ومستقبـل أيامنـا ·

وقد اخترت أن يكون حديثى اليكم ، هذا الحديث المتواضع عن « الثقافة الاسلامية بين ماضيها وحاضرها » وهذا الموضوع لعمرى ، لا يمكن التعمق فيه ، لكونه يحتاج الى دراسة طويلة ، والى امعان فى البحث ، هما الكفيلان فقط باعطاء الزكاة ، زكاة العمل ، وبتنـوير العقول ، وبتمكين الناس من الاستمداد من هذا البحث ، استمـدادا فيه جدوى وفيه نفع · أما عملى فسوف يكون مرتجلا لانى ارتجلـت اختياره ، كما وقع بالنسبة لكثير من اخوانى الذين دعوا فى آخـر الساعة للحديث عن موضوعات تتصل بالفكر الاسلامى من قريب أو بعيد ، واذا كنت قد اخترت هذا الموضوع فلمساسه بحياتنا القومية ولشدة ارتباطه بواقعنا الحاضر ، وواقعنا الماضى ، وأردت أن اتحدث

واذا كان التثقيف بمعنى : التسوية ، فان ذلك يشير الى المعنى الجديد الاصطلاحي الذى ارتبط بالسلوك أيضا ، وهو الذى تدل عليه الكلمة المأثورة ، عن أم المؤمنين عائشــة رضى الله عنها حيث قالت عن النبى (ص) تصف موقفه من صعبه وأقام أوده بثقافه ، فاذا كان التثقيف أو كانت الثقافة ، هى عبارة عن تعديل السلوك ، وتقويـم المعوج وهى بعد عبارة عن التكوين الصحيح الذى يطلب بالنسبة للفرد وبالنسبة للجماعة، فلنقل : ان الثقافة هى السياسة التى نستطيع بها أن نزكى النفوس وان نكون العقل، وأن نشحذ الاذهان، وأن نمدها بكل الطاقات التى تستطيع بها بعد ذلك أن تكون قائمة بدورها ناجحـة فى عملها ، مخلصة فى تحقيق ما يعهد به اليها ، والثقافة هذه ، بهذا الاعتبار لا تكون علما فقط ، وليست أبدا ثقافة ، ولكنها بحكـم مـا حققت من تقويم المعوج ، وبحكم ما هذبت من سلوك ، وبحكـم مـا عدلت من عمل ، هى عبارة عن التقاليد الموروثة الاسلامية ، وعـــن المناهج الرشيدة التى قام بها الصالحون من قبل ، وهى عنوان أيضا عن الاوضاع الحضارية التى لابست الامة الاسلامية فى ماضيهـــا ، وهذه الاوضاع الحضارية وتلك المناهج والتقاليد ، هى التى نلمسها فى العلوم الاسلامية كلها ، وفى آداب الاسلام ، وفى الفنون الاسلامية نلمسها فى العلوم ، لكون هذه العلوم مقوما حضاريا ، ولكونها أداة تقويم للاذهان واصلاحا للعقول ، ونلمسهـــا فى الآداب ، لان الادب تعبير عن السلوك ، ولان الادب تعبير جميل عن الاهواء والميـــول ، وعن الاعمال ، وعن الاغراض والمعانى ، وعن كل ما يلابس الفــرد ، ويلابس الجماعة من أحوال اجتماعية وغيـــرها ، وهو عنـــوان عن الاوضاع الحضارية أيضا ، لان الحضارة الاسلامية فى كل لون مـــن الوانها ، وفى كل صبغة من أصباغها ليست الا الثقافة ، تترجم عن ماضى ، وتحاول بعد الترجمة لذلك الماضى والتعريف به ، أن تمــد الحاضر ، أو من يعيش فى هذا الحاضر بشىء يستطيع به تعـــديل سلوكه ليكـــون على سنـــن الســـابقين ؟

وبذلك فانى أعتبر الثقافة شيئا أصيلا ، يجرى وراءه الناس فى هذا العصر الحديث وقد كان القدامى يعنون كثيرا بالعلم ، وبفنون العلم، ويدفعون الناس الى الاستفـــادة من منابعه ، ولكنهم لا يتلفتـــون الى الثقـــافة ولا يعطونها شيئـــا من الاهميـــة ، حتى طلـــع عليهم العصر

من الثقافة لان الثقافة فى الواقع ترجمان ومرآة ، ينعكس عليها الفكر الاسلامي الذى أريد أن أتحدث عنه · أو الذى هو بالاحرى موضوع هذا الملتقى ، فان الثقافة التى أهدف الى الاشتغال بها ، وأميـل الى الحديث عنها وهي ثقافـة اسـلامية تجعلنى مضـطرا لان ألتفت الى الماضى البعيد ، وأتابع الحلقات ، حلقة بعد حلقة ، حتى أصل فى هذه التطورات الثقافية الاسلامية الى العصر الحاضر ، ومنها ننطلق فى رسم المخطط الذى ينبغى أن نأخذ به لمستقبل ثقافتنا الاسلامية التى لا نبغى بها بديلا ، ولا نريد أبدا عنها تحولا ولا تحـويلا ، هذه الثقافة التى أساسها الدين ، وركنها القرآن ، وعمادها العمل الصالح والسلوك الحسن الذى كان من رجالنا فى الماضى ، من الاسوة الحسنة التى نقتدى بها فى عصرنا الحاضر ونعمل على تحمل الرسالة منها ، مبلغين لها لمن يأتى بعدنا من الاجيـــال ·

واذا كانت الثقافة الاسلامية هى الموضوع الذى أردنا أن نتحدث عنه ، فان ذلك يحتاج بالطبع الى أن نقف وقفة واحدة ازاء كلمـــة ثقافة ، ثم ازاء هذا الوصف الملابس لها ، الكاشف عنها ، المميـز لحقيقتها بين الثقافات وهو « الاسلامية » ، ثم نقف وقفة أخرى عند المراحل المتعددة المتوالية التى مرت بها الثقافة الاسلامية ، قوية غير ضعيفة ، منتجة غير ضحلة ، ومادة معينة وسندا قويما ، لا شيئا خائرا ، لا أصالة له ولا قوة فيه،ولا رائحة نستطيع ان نعتبرها غذى يمد النفوس به كثيرا ، هذه الثقافة التى نريد أن نقف ازاءها للتأمل وللبحث ، هى فى الواقع التراث الاسلامي الذى ورثناه عن السابقين، وهى قبل ذلك قبل أن تكون تراثا ، هى ـ أى كلمة ثقافة ـ مشتقة من الكلمة العربية المعروفة : ثقف ، يثقف بمعنى : سوى بمعـنى سوى الاعوجاج ، جعل المعوج قويما ، واذا كانت ثقـف ، بمعـنى سوى ، وهى أيضا بمعنى حذق ، وبمعنى غبط ، وبمعنى قوم ، كما جاء فى لسان العـرب لابن منظـور ، وكانت بعـد ذلك ـ أى هـذه الثقافة ـ هى التى استمد منها لفظ : الثقاف وهو الحديدة التى تكون مع القواس والرماء ، يقوم بها المعوج من الشىء ، فهى التى أشـــار اليها الشاعر بقـوله :

اذا عض الثقاف بها اشمأزت * تشز قفا المثقف والجبين

الحاضر ، فاذا فى كثير من البلاد وزارات ، تسمى وزارات الشؤون الثقافية ، واذا بالاهتمام يتجه أولا وبالذات الى الثقافة ، ويعتبرون الثقافة ، أو مهمة وزارة الثقافة هو بعث التراث الحضارى الفكرى بالنسبة للامة ، فاذا كانت الثقافة عبارة عن بعث او احياء هذا التراث المجيد بالنسبة للامم ، فان ربط الماضى بالحاضر يكون أساسا لتحقيق المستقبل ، وهى النظرية التى أشار اليها ولى الدين عبد الرحمن بن خلدون ، واعتبر أن بين الثقافة والعلم فوارق كثيرة ، لان العلم فى حد ذاته معرفة وليس هو بمقوم للاذهان ولا بمحسن للسلوك لان العلم فى ذاته هو حصول المعرفة والاكتفاء بذلك ، وكم من عالم لا سلوك له ، وكم من خبير بأشياء كثيرة تدل على الاختصاص لا ثقافة له ، فالثقافة اذن غير العلم ، لان الثقافة تتولد عن العلم ولا يلزم أن توجد معه ، ثم ان العلم قد يكون سببا للثقافة ، فهى مسبب عنه ، ومتولدة عن ذاته ، والعلم يشحذ الاذهان ويملؤها بما يحتاج اليه الانسان من أفكار وآراء ، ولكن الثقافة تقوم بصقل الاذهان ، ومن هنا نلمس النظرية القديمة التى هى فى الواقع النظرية الموروثة عن المسلمين ، والتى يباهى بها المربون حتى الآن ، ويجترونها اجترارا من التجارب التى كتبها مونتانى MONTAIGNE فى كتابه المعروف LES ESSAIS **والذى يقول فيه ليس الغرض من التعليم أن نحشو الادمغة بكثير من المسائل ، ولكن الغرض من ذلك أن نهذبها وأن نحسن تكييفها** ، فشحذ الاذهان والتكييف هو حقيقة الثقافة ، والعلم هو الاحاطة بتلك القضايا المختلفة التى تمس الفكر ، وتمس كثيرا من اختصاصات البحث عن الانسان ، والثقافة الاسلامية هى كل ذلك ، وهى غير ذلك ، هى كل ذلك لانها تتصل بالعلم ، وترتبط به،وتتولد عنه ، وهى التقاليد والمناهج والاوضاع الحضارية ولكن الثقافة الاسلامية هى كل ذلك منسوبا للامة الاسلامية ، ولهذه الملة الجامعة التى يلتقى فيها العرب ، والطورانيون ، والايرانيون ، والهنود من المسلمين ، واذا كانت الجامعة الاسلامية ، حين تلتقى فى بوتقة ما نسميه الثقافة الاسلامية ، قد قدمت فى الماضى،ومازالت تقدم حتى اليوم أشياء كثيرة تصلح أن تكون عنوانا على الحضارة الفكرية الانسانية فى ربوع العالم الاسلامى ، واذا كانت هذه الثقافة، حين تنسب الى هذا العالم الاسلامى لها مميزاتها ، فان فضيلة الاستاذ

المرحوم الشيخ **محمد الفاضل بن عاشور** قد أطلق تعريفا لهذه الثقافة ، كلمة جديدة هى التى اعتبر بها **الثقافة ترجمانا عن الاحوال الذهنية للعالم الاسلامى** فاذا كانت الاحوال الذهنية للعالم الاسلامى هى حقيقة الثقافة الاسلامية،فان الكلمة الفصل تكون بذلك قد قيلت.

ومن هنا يبدأ البحث وننطلق فى سبر المراحل التى مرت بها هذه الثقافة الاسلامية وقبل أن أمضى معكم فى دراسة هذه المراحل المتوالية للثقافة الاسلامية ، يحسن بنا أن نعود الى الاشارة ، الى ما بين العلم وبين الثقافة من صلات ، لان الامة العربية التى تولدت عنها هذه الحضارة العربية الاسلامية ، والتى انبعث فيها صوت الحق مدويا ، فأنار المشارق والمغارب ، والتى شع فيها نور الاسلام بمولد رسول الرحمة (ص) ، كانت هذه البلاد فيما اعطت وفيما أولت من نعم مصدرا لهذه الخيرات ، وما مصدرها فى الحقيقة الا الكتاب والسنة ، وعمل الصحابة ، وعمل النبى (ص) ، وما أجمع عليه المسلمون ، وبهذا تكونت تقاليد اسلامية ، وتكون سلوك اسلامى ، ووجدت معانى وقواعد ، وقوانين اجتماعية واقتصادية ، وسلوكية ومنهجية اسلامية ، وكان كل ذلك راجعا بنا بعد ذلك الى مصادر التشريع الاسلامى ، فاذا الثقافة الاسلامية بعد ذلك علم يشمل كل هذه الاختصاصات ، ويشمل كل هذه الجوانب ، وبينه وبين لازمه الذى تولد عنه ، بينه وبين المسبب الذى انفصل منه ، بينه وبين الاثر الذى كان العلم مصدرا لتحقيقه ، والمعلول شىء من الترابط الطبيعى الذى لا يمكن أن نشعر فى حالة من الحالات بالافتراق بينه وبين ذلك الوليد ، أو ذلك المتفرع ، أو ذلك الاثر ، لان الاثر والفرع والمتولد ، انما يرتبط بالاصل ارتباطا جوهريا لا سبيل الى انكاره ، ولا طريق الى اغفاله ، وهذا الترابط العظيم بين العلم وبين الثقافة الاسلامية يحدو بنا فى الاول الى النظر فى هذه الاصول الثقافية ، التى كانت مصدر العلم ، ومصدر الاشعاع بالمعرفة ، ومصدر الفقه ، ومصدر التكوين الثقافى فى الامة الاسلامية . انتم تعلمون أن الامة العربية فى فجر الاسلام ، لم تكن شيئا مذكورا ، وان الذى رفع من مقامها وانار السبل أمامها ، ووجهها التوجيه الصالح ، وأخذ بيدها حتى ارتفعت فى عنان السماء ، واستطاعت بعد ذلك أن تفرض نفسها فرضا ، وان تعدى بجهودها الثمار الكثيرة اليانعة ، واستطاع الناس

بعد ذلك أن يغترفوا من مناهلهــا ، وان يرتــروا من مــواردها وان يستفيدوا من معارفها ، انما كان ذلك بسبب الاسلام ؛ والمعـــرفــة الاسلامية ، والثقافة الاسلامية ، لا تكون لمن يجهــل القــرآن ، ولا تتحقق لمن يتنكر للسنــة ، ولا تثبت لمن يجهل أحوال الصحــابة وأعمالهم وتراثهم وما كان لهم من نشاط ومـــن اجتهاد ولا يمكـــن أن تلمس عند الذين لا يدركون حقيقة القياس ، وحقيقة الاجتهـــاد ومعنى الاجماع ، فان التفاعل الحضارى كان الاصل فيه التلقى عـن رسول الله (ص) ، وكان الامر الثانى فيه هو النظر فيما يدعو اليه الشارع ، وكان الامر الثالث هو الالتفــات الى الاحــوال الــراهنــة فى المجتمـــع الاسلامى الاول ، ومـــا جــاء مـــن التشـــا ريع لتطبيق تلك النصوص وقلاب الوجه الحكمى ، بالنسبة لما لا يجدنا عليه نص ، ثم الاجتهاد والعمل من أجل الارتفاع على أشياء يعتبرونها حلا أو حراما ، مما وقع عليه اجماع الأمة ، كل ذلك سببه تفــاعــل حضارى ، وسببه عمل ذهنى ، وسببه اجتهاد جماعى قام به المسلمون فى الرعيل الاول الذى سبْقنا زمانا واحسانا رضى الله عنهم ٠

واذا كانت الثقافة الاسلامية ، قد تمكنت فى الأول ، فى هــذه العناصر التى هيى عناصر الثقافة الاسلامية ، كمــا أنهــا مصــادر التشريع ، فانا لا نقف عند هذا الحد ، بل نتجاوزه الى أشياء جديدة أخرى ، لأن القرآن كقرآن ، كمادة تتلى ، ويتعبد بتلاوتها ويستمــد الحكم التشريعى منها ، قد كان موضع دراسة ، وسبيل استنــــارة وطريق التوعية فى كثير من مجالات الحياة ، لم يكن مقصورا عــلى الناحية التشريعية فقط ، بل أفاد العلماء والأدباء ، وأفــاد البلغــاء والخطباء ، وكان مددا للناس جميعا ، وكذلك السنة فيما هذبت من سلوك فهى ليست تشريعا فقط ، فان من حديث رسول اللــه (ص) «**الكلمة الجامعة ، أو خواتم الكلام**» ، ثم ان من عمل الصحابة وأقوالهم ومما أثر عنهم ،ما يعتبر دستورا فى الحياة الاجتماعية ، كل ذلك كان موضع نظر ودرس ، وسبيل بحث وتمحيص ، ومن ثمة تكونـــت الامة الاسلامية فى المرحلة الاولى ، بل فى الجيل الثانى من الاجيال المتعاقبة فى الاسلام ، جماعة أرادت أن تنظر فى مصادر التشريع ، وان تتأمل القــرآن ، وان تستمـد منه ، وان تستفيد فحواه ، وان تستخلص كثيرا من معانيه ، مما لم يسبق اليه ، وجاء التفسير وجاء

علم الحديث ، وجاءت علوم الشريعة من فقه وأصول الدين ، الى غير ذلك ، وجاء علم الكلام ، وجاءت الفلسفات ، وكان الى جانب هـــذه العلوم التى نعتبرها العلوم الاصلية ، العلوم الاسلامية الاصلية،كان الى جانبها مجموعة أخرى من العلوم ، هي التى لم تعرف بيننا بعلوم المقاصد ، ولكنها اعتبرت علوم الوسائل ، وعلوم الوسائل هي التى أخذت على أهلها الاشتغال باللغة مادة ، والاشتغال باللغة اعرابـــا وقواعد فى النحو والصرف ، واخذت عليهم ايضا الاشتغال باسرار التعبير وأفانين القول فى علوم أسرار العربية ، من بلاغة ومعـــان وبيان وبديع ، وكانت كل هذه العلوم تحتاج الى جهود متـــواصلة ، وقد عرفنا هذه الجهود المتواصلة فى القرون الاولى الى نهاية القرن الرابع ، فكان الازدهار الحضارى الفكرى ، وكنا نحن ندرس هذه العلوم فى جامع الزيتونة عمره الله ، عندما نأخذ فى دراسة مادة من هذه المواد ، التى تسمى « الوسائل » يقال لنا كما هو منصوص عليه فى مقدمات هذه الكتب،انما يطلب هذا العلم للكشف عن معانى القرآن ، أو يطلب هذا العلم لحماية الانسان عن الخطأ فى تـــلاوة القرآن ، أو يطلب هذا لعلم للتعمق فى دراسة أسرار التشـــــريع الاسلامى ، ومن أجل ذلك فان هناك ارتباطا كبيرا بين العلوم اللسانية والذوقية ، والبلاغية وغيرها ، والآداب شعرا ونثرا ، وخطبة وكتابة، وبين العلوم الاخرى التى نعتبرها أساسية فى الثقافة الاسلامية وهى علوم التفسير والحديث وما يتصل بهما ، واذا كانت هذه العلوم هى التى نسميها العلوم الاسلامية الخاصة ، وان شئتم لنسميها الثقافة الاسلامية الخاصة ، فان لنا ثقافة اسلامية مشتركة ، وهذه الثقافة الاسلامية المشتركة ، انما اشتملت وتناولت طوائف ومجموعـــات أخرى من العلوم،ليست وليدة عصر النهضة او الانبعاث LA RENAISSANCE كما يدعون ، ولكنها علوم قديمة عرفها العرب ودرسهـــا المسلمــــون قبل أن تستفيق أوروبا من غفلتهـــا .

فان المراكز الحضارية التى كانت أول الامر كما قال الدكتـــور أحمد أمين رحمه الله ، فى أم القرى ، ثم فى المدينة والتى تحولـــت الى دمشق ، ومن ثمة الى بغداد ، هذه المراكز الحضارية أو المراكز الفكرية للاسلام قد عرفت من المعتنقين للدين الجديد ، والآخـــذين أنفسهم بهدايته شيئا من العلم ومن الدرس ومن البحث ، الـــذى

أرادوا به تحقيق التفاعل الحضارى ، وايجاد السند الجديد للحياة الجديدة المعاصرة فى الاسلام ، وبذلك فان الامة الاسلامية ، عند ما انتقلت سيادتها الى البلاد المحكومة والآهلة بالاقباط ، وبالروم ، وبالفرس ، والذين تحولوا جميعا الى امة اسلامية مهتدية بهدى الدين ، ومتمسكة بالعروة الوثقى التى هى القرآن ، والتى أخذت نفسها بالآداب العربية ، وتفاصحت فى غير الاعجمية ، استطاع هؤلاء ان ينقلوا الى اللغة العربية كثيرا من الفنون،ومن الكتب القديمة اليونانية ، واستطاعوا بتجاربهم الخاصة ، وبأعمالهم وبقواهم الفكرية أن يستنبطوا علوما ، وان يكتشفوا اسرارا ، وان يتحولوا من الدراسات الذاتية ، او الدراسات الاسلامية الى الدراسات القائمة على التجارب الانسانية ، وهكذا اتجه المسلمون فى العصر الاول الى دراسة الحكمة ، والطب ، والصيدلة ، والبيطرة ، كما اتجهوا الى دراسة العلوم الرياضية ، من حساب ، وجبر ، وهندسة ، والعلوم الطبيعية ، من طبيعة ، وكيمياء ، وفلك ، والى الجغرافية بما قاموا به من رحلات ، ووضعوا من خرائط ، واتخذوا لهم المراصد ، لرصد الاجرام ، ومخابر لتحليل المعادن ، وتحليل المقطرات ، واكتشفوا كثيرا من الفنون ، ووضعوا الصناعات ، ووضعوا بعد ذلك مؤلفات جديرة بأن يبقى ذكرها مستمرا ، وان نعود اليها متيممين بما كان لاسلافنا من جهد فى تحقيق الحضارة الانسانية ، وهى دوائر المعارف التى وضعوها فى شتى العلوم والفنون ٠

واذا كانت الثقافة الاسلامية قد شاركت هذه المشاركة الجبارة فى تحقيق الازدهار الحضارى، وتكوين المستقبل السعيد،والمباهات بحقيقة البحث العقلى الانسانى ، الذى يعتمد قبل كل شىء هداية الدين وروح الاسلام ، فكيف بنا اليوم نقول ان هذه العلوم أجنبية عنا ، وهى ليست اسلامية ، واذا ما تحولنا اليها ، أو التفتنا لها اعتبرناها شيئا أجنبيا عن تكويننا ومفارقا لحقيقتنا ، فليست تلك العلوم اذا فى الواقع ، الا هاتيك العلوم المشتركة وتلك الثقافة الاسلامية المشتركة ، وما معنى الاشتراك ، الا لكونها كانت حقا لنا وحقا لغيرنا ، بل انها تجاوزتنا الى غيرنا ، ولم تتجاوز غيرنا الينا ، تجاوزتنا الى غيرنا ، وذلك لما كان فى العربى المسلم من سمح ، وما

كان فى العربى المسلم من اطمئنان للعلم ، وما كان فى العربى المسلم من قوة على تدبير الشؤون ومن معرفة واخلاص فى التبليغ ، وهـذا البلاغ الذى كان من العلماء المسلمين فى شتى نواحى الثقافة ، وكل مجالات العلم ، تشهد به أوروبا ، وتشهد به كتب التاريخ ، الـتى وضعت حول حضارة العرب وحضارة المسلمين ، ثم نجد البـرهان الصادق على ذلك فيما قام به الدارسون من المستشرقين أنفسهم ، وذلك فى الكتب التى وضعوها حول الحضارة المشرقية ، أو الحضارة المغربية الاندلسيـة التى كان العلماء من أبناء أوروبا يهـرعون الى مدارسها للاخذ عن الاعـلام المنتصبـين فى تلك المدارس ، وبهذا الشكل نستطيع أن نثبت للثقافة الاسلامية شمولا ، هذا الشمـول لم يكن خاصا ، ولا جامعا ، ولا مقصورا فى جمعه وشموله ، على البلاد الاسلامية أو العالم الاسلامى ، بل كان شاملا للانسانية كلها ، ومهيئا للاستفادة من كل الناس جميعا ، لان العلم أمانة ، لا بد من تبليغهـا الى كل انسان ، واذا كانت هذه الرابطة فى الثقافة الاسلاميـة ، هى رابطة ذهنية ، فان معنى الاخـوة الاسـلامية الذى جاء به القـرآن ، والذى سوى به بين أفراد المسلمين ، والذى جعل به الناس متحابين فى الله، يوجب لهم مددا من تلك الثقافة الاسلامية ، يسانده ويعززه ، ويقويه ، ويجعله بعد ذلك ركازا لكل نهضة جديدة ، ولكل تطـور فى سبيل الخـير ، وفى سبيل الصـلاح .

ولكننا بعد أن فصلنا القول فى الفرق بين هذه الثقافة الاسلامية المشتركة ، والثقافة الاسـلامية الخاصة ، يحسن بنا أن نعـود الى تحليل الثقافة الاسلامية من ناحية أخرى ، لنرى رأى البـاحثين فى ذلك ، ونقر هذا المعنى ، قاعدة لتجديد الثقافة الاسلامية ، كـانت الثقافة الاسـلامية يوم ذاك عند المسلمـين هى الوصول الى ادراك ما دعا الله الى ادراكه من هذا الوجود ، واذا كان العلم الاسـلامى والثقافة الاسلامية يرميان الى ادراك ما دعا الله الى ادراكه من هـذا الوجود ، هذا الوجود بنوعيه وبفرعيه ، الفرع المادى الدنيـوى ، والفرع الروحانى الدينى ، بحيث لا تكون الثقافة الاسلامية مفصولة عن هذه الارض التى وقفنا عليها ونعيش فيها ، كما انها لا تفصـل العالم الآخر الذى فيه الحياة الحقيقية الباقية ، وفيه السعادة الدائمة

اذا كانت الثقافة الاسلامية ترتكز على الواقع ، وعلى العالم الــذى نعيشه ، وعلى الارض التى نثبت عليها أقدامنا ، باعتبار كونها الحياة الدنيا فتلتفت بذلك الى دراسة أحوال المجتمع الانسانى ، وتحليــل التجارب الانسانية ، والاخذ بكل ما هو فى صالح الفرد ، وفى صالح الجماعة ، وتتحول بعد ذلك الى دراسة أحــوال الآخــرة ، وأحــوال الانسان فيما بينه وبين خالقه ، وفيما بينه وبين نفسه ، لا فيما بينه وبين اخوانه فى هذه الارض ، وما يقتضيه الاجتماع الانسانى مــن طبيعة العمران ، والعلوم،والثقافات التى تكون فى صالحه وفى خدمة الاسرة والجماعة ، فان النظــرة التى ينبغى أن يتجــه بها البــاحث الاسلامى فى الثقافة الاسلامية ، ينبغى أن تكون مركزة حين ننظر الى الدين ، على جوهر وعلى خطوات هى مطية لتلك النظرة ، وهى السبيل لتلك المعرفة ، لان الدين ينبغى أن ينظر اليه من عدسة الدنيـــا ، ولان الدنيا أيضا ينظر اليها من عدسة الدين ، فيستطيع بذلك أن يعدل المسلم سلوكه فى هذه الدنيا ، بمراقبة حق الله وبمراقبة أوامره ونواهيه وبالامتثال لما دعا اليه ، وبالانتهاء عما نهى عنــه ، وبذلك يستطيع أن يكون صالحا فى مجتمعه ، وان يكون قادرا عن القيام بأعباء هذه الامانة التى ثقلت عليه فى هذه الارض ، فـــاذا استطاع ان ينظر الى اعماله الانسانية كلها والى الجهود والطــاقــات التى يبذلها من أجل الجماعة ، نظرة خاضعة بحكم الشارع ، وبحكم الدين الاسلامى ، فانه يكون قد حكم الدين فى الدنيا ، ويكون قـــد أخذ من الدنيا بنصيب حسبما يسمح له به دينه ، ويكون فى تعلقه بهذه الدنيا متعلقا بها تعلق من ينظر الى آخرته ، لا تعلق من ينسى آخرته ، ولا يلتفت اليها ويزدحم مع كثير من الناس من الضــــالين المضلين ، فى تيارات الالحاد والشرك ، والنظر الى الدين من العدسة الاخرى وهى عدسة الدنيا ، يقتضى منا التفاتة جــديــدة ، ذلك لان الدين فى كثير من الشعوب ، والامم المتخاذلة ، والشعوب والامــم المتدهورة أخلاقيا ، والشعوب والامم التى نسيت كل معنى مـــن معانى الاصالة ، والتى لا تستطيع أن تجد لها جــامعا يجمعها ، ولا مقوما يجانس بين أفرادها قد اعتبر الدين عندها أفيونا OPIUM واعتبر الدين عندها شيئا آثما ، واعتبر الدين عندها أمرا لا ضرورة له ولا حاجة اليه ، بل هو من المخــدرات التى تفســد الجمــاعة ولا

تصلحها،اما اذا نظرنا نحن الى الدين من عدسة الدنيا ، فانا نستطيع أن نبلغ الى تحقيق المفهوم الصحيح من الدين ، فان بعض المحاضرين الذين سبقوني ، قد أشاروا الى ان العبادة وحدها ليست كافية ليكون الانسان مسلما ، بل ان الاخلاص في العمل والذود عن الحوض والدفاع عن الحمى ، والاستماتة في سبيل صلاح الغير ، والقيام بشؤون العلم ، وتشييد المباني الضخمة ، وتحقيق الثروة للامة ، هو من الجهاد في سبيل الله ، فاذا كان الدين الذي هو المطمح والغاية ، بل الملابس لحياتنا ، والاكسير الذي يدفع الحياة الحقة في شرايينا وأنفاسنا ، والذي يمدنا بكل الطاقات التي نحتاج اليها في الصراع الدائم في هذا الوجود ، اذا كان الدين هو هذا ، فان النظرة الى الحياة الدنيا ينبغي أن تكون سببا في التمسك شيئا فشيئا وأكثر فأكثر ، بحقيقتنا الدينية الاسلامية ، التي لا نبغي عنها معدلا، وخصوصا في هذا الشمال الافريقي ، وفي تونس،والجزائر،والمغرب، فمتى كان الدين مطية للدنيا ، وكانت الدنيا وسيلة لادراك حقيقة الدين على الوجه الاكمل ، لنأخذ بسبلنا الواضحة في هذه الطريق لتحقيق الثقافة الاسلامية على الوجه الاكمل ، ينبغي أن نقف هنا وقفة لنتأمل ما كان عليه الاسلاف ، في هذه الحياة الثقافية التي استطاعوا بها أن يملأوا الدنيا نورا ، وان يعمروها بمعاني الاكبار والمجد والخلود ، فان العالم الاوروبي الذي كان ذاهلا في غيبوبة ، والذي كان يخاف فيه المرء كل شيء من حوله ، لاستيلاء الجهالة على الانفس ، ولطغيان المظالم على العباد ، ولتحكم أصحاب الاهواء في الجماعات الكثيرة من الناس ، لم يخرج من القرون الوسطى ، التي هي قرون الظلام ، وقرون الجهالة وقرون التأخر ، الا عندما استمد من العالم الاسلامي كل أنوار المعرفة ، وكل سبل التقدم وبذلك فان المرحلة التي نسميها ، مرحلة القرون الوسطى ، ينبغي الا تفهم على الوجه الذي يتبادر الى الأذهان ، وخصوصا عند المحدثين ، أو صغار المثقفين الذين لم تملأ وطابهم بالمعارف الانسانية والاسلامية الصحيحة ان عصر الظلمات الذي هو القرون الوسطى ، وهذه الكلمة لقننا اياها الفرنسيون وغيرهم ، من رجالات أوروبا ، وحكاها لنا تاريخ أوروبا لا تماشى في شيء ولا تثبت في جزئية قلت أو كثرت ، شيئا من هذه السمات ، بالنسبة للعالم الاسلامي ، بل ان العالم الاسلامي كان

فى ذلك الطور فى حياة الازدهار الكامل ، والرقيى المثالى والتقدم العلمى العجيب ، وانما وقع التحول بعد ذلك ، فلما تقدمت أوروبا كتب للعالم الاسلامى أن يتأخر ، وذلك لأسباب يطول شرحها ، وليس من موضوعنا الأخذ بها فى هذه العجالة ، ويتحول العالم الاسلامى عن الحياة التى كان فيها ، وتتطور الاوضاع فى البلاد الأوروبية ، لكونها أخذت بالعلوم الاسلامية والانسانية القديمة بما ترجمت الى اللغات الفرنسية والايطالية ، والرومية البزنطية من كتب لليونان ، وكتب للعبرانيين ، وللسريانيين ، وللعرب ، استطاعت هذه الأمم أن تأخذ بحكمة اليونان ، التى فاتهم الشىء الكثير منها ، لو لم ينقذهم التراث الاسلامى ، وأخذوا بشىء كثير من الحضارة الاسلامية ، واستطاعوا بعد أن استرجعوا تلك الأمجاد وأخذوا بتلك المعارف أن ينتسبوا وأن يجتمعوا مؤتمرين على العالم الاسلامى وفى هذا الائتمار بالعالم الاسلامى ، محاولة لمقاومته ، محاولة لجزائه ، كما جوزيى سنمار من قبل ، فاذا كان العالم الاسلامى قد أعطاهم النور والمعرفة والخلاص مما كانوا عليه من الأوضاع فان جزاءه يكون بالانتقام منه والتحطيم له ، والتفريق لجماعته ، والتقسيم لبلاده ، والتجزئة لثروته والاستبداد لكل ما يملك ، من متاع وعتاد وقوة ، ورجال ، هذا الوضع الذى انتهى بعد ذلك الى سيطرة العقل ، بل سيطرة العلوم النظرية ، والعلوم الطبيعية ، على مفهوم الدين والحضارة الدينية ، لكون البلاد الاوروبية لا دين لها ، وانى فى ذلك أشاطر أستاذنا على عبد الواحد وافى فيما أشار اليه بالامس من كون النصارى ، ليسوا بأمة موحدة ، وانما هم من المشركين أيضا ، وقد بين ذلك ، فاليهودية والنصرانية وان حلت وحل ركابها بأوروبا ، لكن هذا العالم الاوروبى المتفسخ ، هذا العالم الاوروبى اليهودى أو النصرانى لم تكن حقيقة الدين عنده بالتى تستطيع أن تعايش العلوم الانسانية ، او العلوم الطبيعية والرياضية، حين انتقلت اليه ، ووجدوا عداوة كبيرة بين الطقوس،والعلوم الدينية عندهم ، وبين العلوم الحضارية الانسانية ، التى نبعت من حقيقة الاسلام ، الذى حث الناس وحضهم على طلب العلم فى أى مكان ولو فى الهند .

واذا كان الدين عند الاوروبيين لا يمكنه بحال أن يجتمع مع العلم،

ولا أن يتماشى معه ، ولا أن يتجانس فى شىء مع حقيقته ، لكون الدين النصرانى واليهودى قد حالا عن أصلهما أو تحولا عن أصلهما ، فأصبحا بعد ذلك مبنيين على أوهام ، وقائمين على خرافات ،ومفروضين فى تحقيق أغراضهما على تخيلات وهمية، لا يصدقها العقل ولا يماشيها المنطق ، من أجل ذلك كانت هذه العقائد لا تستطيع أن تماشى العلوم المنطقية ، ولا العلوم الرياضية ، ولا الطبيعية ، أما الدين الاسلامى فقد ماشاها طويلا ، وهو يماشيها الآن،وسيماشيها فى ركب الحضارة الجديدة ، ونظرنا الى هذا العالم الاوروبى فوجدناه يوما بعد يوم يفقد رشده ، وتضيع الحقيقة منه ، ويسلب معانى الايمان ، ولا تقوم فى ذهنه ، ولا تسيطر عليه ، بعيدا عن كل مناهج الرشد ، فجاءت جميع ألوان التفسخ الاخلاقى ، والانحلال العقلى والاجتماعى ، ووجد ما نشاهد ، وما نرى ، وما نلمس من هذه الاوضاع ، التى تسربت الى بلادنا الاسلامية ، ووقفنا منها موقف الحائرين ، الذين يريدون الذود عن حماهم ، حتى لا تمتزج بهم هذه الاخلاط وهذه الامراض التى استوردها كثير من أبنائنا الذين ذهبوا الى أوروبا ، فعادوا بها معهم معتبرين فى ذلك كل التقدم وفى حقيقتها كل معانى المدنية والازدهار ، ومن أجل هذا الوضع نكون مضطرين الى ملاحظة ان العالم الاسلامى فى هذه القفزة التى كانت من العالم الاوروبى ، وبعد ذلك التآمر الذى كان من النصارى واليهود عليه ، وجد نفسه ممزقا، ووجد بلاده مسلوبة ، ووجد أمواله مأخوذة ، وثرواته نافذة ، وجد كل سلطان لديه عاطلا ، فهو لا يستطيع بعد ذلك حراكا ، واستولى الخوف على النفوس ، كما استولى الفقر على النفوس ، وكان الفقر يفرض على بعض الناس أن يعاملوا الاجنبى ، وكان الخوف يفرض على آخرين ألا يقاوموا الاجنبى ، وظل الناس بين خوف وبين عدم قدرة – أى عجز على المقاومة – لولا أن ظهرت فيهم يقظة اسلامية ، يقظة ثقافية ، كل الفضل يرجع اليها ، وكل الخير مرتبط بها ، وذلك لان العالم الاسلامى فى الفترة التى تفصل بين عهد الانبعاث فى أوروبا ، وسقوط الدول الاسلامية ، او الامبراطورية الاسلامية تحت كلكلة الاستعمار الاوروبى ، الى عصر الانطلاق واسترجاع الحريات ، كان العالم الاسلامى – ولا يستطيع واحد أن ينكر ذلك – غير قادر على المضى فى الدراسات والبحوث ، وغير قادر على الاستمرار فى الكسب وفى

الاعطاء ، وغير قادر على الانتاج كما أنتج السابقون ، ولكنه شكى وبكى ، وترك أشعارا كثيرة وادبا غضبا ، ينطق بهذه الاحوال ، وهو الى ذلك قد حاول الحفاظ على كيانه ، ولو لم تقع المحافظة على هذا الكيان لما استطاع أن يستعيد سيادته ، وأن يسترجع مجده السليب ، والمحافظة على الكيان لا شيء حققها فى تاريخ العالم الاسلامى ، لا شيء حققها فى تاريخ الامة الاسلامية ، غير الدعوة الى الحفاظ أولا على الدين ، وثانيا على اللغة ٠ وليس عجيبا أن يقال ذلك ، **فان الدكتور عبد الرحمن بدوى فى دراسة سابقة له نشرها قديما فى مجلة الرسالة ، تحدث عن المؤسسات الثقافية الاسلامية الباقية ، التى حفظت على الناس دينهم ولغتهم ، فعد فى ذلك جامع الزيتونة الاعظم ، والقرويين والازهر الشريف ،** فهذه المدارس الثلاثة حفظت على المسلمين كيانهم ، واستطاعت أن تبقى على اللغة وعلى الدين ، بما نفثت من طاقات فى الاجيال المتوالية على حلقات الدروس وبما لقنت من مبادىء المعرفة الاسلامية والمعرفة العربية ، وما عن بعد ذلك كله ، الى أن وقف الجيل الجديد متنكرا لهذه المدارس ، بل متنكرا لهذا التعليم الذى حفظ عليه دينه ولغته ، ولا سبب فى هذا الا التطلع اذا كانوا مخلصين لتحقيق الامجاد الحقيقية المعاصرة التى لا يمكن ان تثبت ولا أن توجد الا باغتراف من المناهل الثقافية الموجودة فى أوروبا ، ونحن لا نقول شيئا هنا ولا نمانع فى هذا السبيل ، بل ندعو الناس ، بل يدعو الاسلام الى تلقى المعرفة من أوروبا ، بل لتلقى المعرفة من الشيطان الرجيم اذا لزم ، فالمعرفة ظالة المؤمن أين وجد ، والمعرفة سبيل التقدم كيف كان ، ولكن على شرط واحد ان ينظر اليهما النظرة الدينية ، وان تخضع للتفكير الاسلامى ، وان يقع الاستمداد منها ، استمدادا حقيقيا يتماشى وحقيقة الاسلام ٠

وهنا يلاحظ أن المسؤولين عن الثقافة فى ديار الاسلام تواجههم مشكلة كبرى ، هى مشكلة الحفاظ على التراث الانسانى الاسلامى ، والثقافة الاسلامية الخاصة ، أم تجاوز هذه الثقافة الاسلامية الخاصة، الى الثقافة الاوروبية التى بها نتمكن من تكوين الاطارات التى نحتاجها فى أمتنا الجديدة الشابة الفتية ، نحن لا نمانع فى تكوين الاطارات،

التى تتخرج فى أوروبا ، فى كل مجالات التكوين العامى ، وفى كل مجالات التكوين الصناعى،ولكن الذى نمانع فيه هو ذوبان الشخصية وهنا ينبغى أن نقف متأملين للوضع الذى عليه البلاد المتقدمة ، والوضع الذى عليه البلاد المتخلفة التى نحن منها لسوء حظنا ، أو بلاد العالم الثالث ، الذى يقاسى مرارات وأزمات كثيرة فى هذا المجتمع الحاضر ، فاذا أردنا التخلص من وضعنا الحاضر ، ينبغى أن نأخذ بتكوين الاطارات ، لكن ما شأننا وهذه الاطارات اذا عادت الينا كافرة ، وما شأننا وهذه الاطارات اذا عادت الينا متفسخة ، وما شأننا وهذه الاطارات اذا عادت الينا وقيادها قياد جموح لا نستطيع أن تمسكه ولا نستطيع أن نوجهه أبدا فى فى سبيل الخير والاسعاد ، ان هؤلاء الذين يعودون الينا يعودون الينا لسوء الحظ بأوبئة وأمراض ، أول هذه الاوبئة وهذه الامراض الشك فى حقيقتهم والانكار لذاتيتهم ، فهم يتمسكون بكل ما هو أوروبى وينتهون ويبرؤون ويتبرؤون من كل ما هو عربى اسلامى ، ولا ينطبق عليهم هنا ، غير قول الشاعر الكريم الخالد حافظ ابراهيم رحمه الله حين قال :

أنا لولا أن لى من أمتى خاذلا
ما بت أشكو النوائبا
أمة قد فك فى ساعدها
بغضها الاهل وحبها الغربا

وإذا كانت الاطارات التى تأتينا من الخارج تريد أن تفرض علينا غزوا استعماريا جديدا ، غزوا فكريا ، وأن تجعلنا تابعين لغيرنا ملحقين بهذا الغير ، لا وجود لنا ، ولا كيان لحقيقتنا فانهم لا يفعلون أكثر مما فعله الفرنسيون فى هذه الديار ، وأى شىء فعله الفرنسيون أكثر من محاولاتهم اطفاء هذا النور الذى هو من نور الله ، اطفاء هذا النور الذى هو من نور القرآن ، وما هو الا نور الاسلام ونور البيان العربى ، والذى يؤكد لنا ذلك ، أن المستر **زويمر** عندما كان يوجه الحملة الفرنسية على شمال افريقيا فى الايام الموالية لاحتلال الجزائر قال بالحرف الواحد : **ليس الغرض من تعليم الفرنسية فى شمال أفريقيا وخاصة فى الجزائر أن نكون عقولا كعقول مونتيسكيو أو**

فولتير ، أو روسو ، ولكن الغاية من ذلك ان نعوض لغة بلغـــة ، وعادات بعادات ، واذا كان مثقفونا وأبناؤنا الذين يعودون الى بلادنا من القارة الاوروبية أو غيرها من العالم الغــربى المتقدم المتفتــح ، يحاولون هذا ايضا فى ديارنا،فيطمسون على تقاليدنا وآدابنا وأذواقنا ومعارفنا ويريدون تعويض لغتنا العربية بلغاتهم الاجنبية التى تلقوها هنالك،وتعويض العادات الاسلامية بالعادات الاوروبية التى اعتادوها هنالك ، فانا لا نرضى بذلك مهما كان ثمنه ، ولو كان يؤدى بنــا الى العزة الدائمة ، ولا عزة الا بالقرآن ، ولا عزة الا بالله ، ولا عـــزة الا بالاســـلام .

واذا كان الابتعاد الحاصل عن سنن الرشاد يدعو الى أن يقــف اليوم المسلمون موقف المحاسبة لأنفسهم على المسالك الــرشيدة التى ينبغى أن يتبعوها فى سن الثقافة الاسلامية فان مرد ذلــك الى عدة أسباب ، شكى منها ونبه اليها شاعرنا المختار عمر بهاء الدين الاميرى فى قصيــدته الــرائعة التى قالها فى ذكــرى المعــراج والتى جاء فيهـــا :

والدين فى قشر الحياة عواطف * وهواتف ومظاهر وكلام
والجيل فى تيه التنابذ شارد * يعتام منه المذهب الهدام
أصل أصيل فى الحضارة والهدى * لمعات برق فى الظلام تشام
أما السلوك فنشأة غــربيــة * وتمــرد وتبــدد وقتــام
الكون تطحنه رحى مدنية * هوجاء جــل عظائمها أوهـــام

فهذه الاعتبارات التى تعود بنا الى اكتشـــاف حقيقة الــدين فى مجتمعنا الحاضر ، وتصور الملابسات الاجتماعية والفكرية التى عليها الاجيال الصاعدة والعدول الى ذكر هذا الامس الاصيل فى الحضارة التى نريد أن نهتدى بها ، ولكننا فقدنا لمعانها ، وهذا السلوك الذى أصبح خاضعا للتيارات الفكرية الغربية الاجنبية ، والذى جعلنا فى تردد وتمرد وهذا الكون الذى تطحنه رحى المدنية الهوجاء التى جل عظائمها الاوهام ، لكونها لا ترتبط بسند روحى عقلى ، من أجل هذه الاعتبارات هزت العالم الاسلامى ، والحمد لله ، من الهند آخـــر بــلاد الاســـلام فى المشرق ، الى الدار البيضاء أو الرباط آخر بلاد الاسلام فى المغرب ، هزة عنيفة ، ودعته هذه الاسباب ليستيقظ ،

فجاءت من اجل ذلك اصوات متجاوبة ، ودعوات متلاقية يؤيد بعضها بعضا من أجل وضع الخطة الجديدة فى مستقبل الثقافة الاسلامية وهذا هو الذى يطمئن استاذنا عثمان أمين على تخوفاته التى أشار اليها صباح اليوم من كون الناس قد استمروا على الحديث والمنادات بالعمل وهم لا يعملون ، فنحن بحول الله نعمل ونتواصى بالحق ، ونتواصى بالصبر ، ونتواصى بالصدق والاخلاص ، ومن أجل ذلك فان هذه الاصوات المتلاقية المدوية قد جعلت الناس فى كل بلاد الاسلام يلتفتون اليوم الى مشكلة التعليم الاسلامى والثقافة الاسلامية فهذا الاخ الوزير مولود قاسم يركز محاضرته الغالية النفيسة على الاصالة،والرجوع الى المنابع الاصلية وهو فى ذلك ليس الا مستجيبا لدعوة عبد الحميد بن باديس ، ولدعوة المصلحين والائمة السابقين، الذين ظهروا فى المشرق والمغرب ، وهذا الدكتور أحمد طالب وزير الاعلام والثقافة يدعو الى الانغماس فى المجتمع الجديد ، حتى نتعرف على حاجته ، ونتأكد طلباته ، ونتبين الوجهة التى يريد أن يتجهها لنمده بما يحتاج اليه من ثقافة دينية اسلامية أصيلة ، وهذا شيخ المسلمين وزعيمهم الاعلى المودودى ينادى فى مجلس الجامعات الاسلامية الذى انعقد فى سبتمبر الماضى بفاس المعمورة بالاحتراز من الاحوال الثقافية الجديدة،والتوجيه الى الثقافة الاسلامية الاصيلة ، وهذا الشيخ المرحوم محمد الفاضل بن عاشور ينادى بالذهنية الاسلامية ، ويدعو الى الاخذ بأسباب الثقافة المعاصرة التى تتماشى والحياة الجديدة على أساس اخضاع هذه الثقافة المعاصرة الى النظرة الدينية .

وهكذا نجد الامة الاسلامية جمعاء فى مشارق الارض ومغاربها تلتفت هذه الآونة الى تحقيق السبيل للنجاة بالمجتمع الاسلامى من الهوة الذى هو سائر اليها ، وذلك بالاخذ بيده عند ما نمده بالثقافة الاسلامية المشتركة ، والثقافة الاسلامية الخاصة ، الثقافة المشتركة التى تجمع بيننا وبين الغربيين ، والتى نجعلها على أساس من الدين وقواما من العمل الصالح والنظرة الى حق الله فينا،والاسلامية الخاصة التى تعود بنا الى دراسة العلوم الاسلامية التى لسوء الحظ هى آخذة فى التلاشى والتناقص والانخراط ، بحيث لا تجد واحدا من الناس يستطيع أن يفتيك بسهولة ، أو أن يحقق لك مطلبا شرعيا ، أوأن

ينبت لك معنى ، من المعانى الذوقية الاسلامية بالاستمداد من النص القرآنى أو الحديثى . فيكون من الضرورى أن يتوفر قوم على هـذه العلوم لنكون عند قول الله تعالى : «**فلولا نفر من كـل فرقـة منهـم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينـذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهـم يحذرون**» ، هذه هى الاطارات الجديدة التى ننتظرها ، والتى ينبغى أن نعمل على تحقيقها وايجادها ، والتى ينبغى أن نسهر على تكوينها ، وما ذلك الا لنتلافى الانقاص الذى أصبح يشكو منها العالم الغربى ، ولئلا تزل بنا الاقدام كما زلت بالعالم الغربى ، وهكذا نكون قد كونا لانفسنا ثقافة معاصرة أصلية وأصيلة ، وثقافة اسلامية روحية متينة ونكون قد حققنا بهذا وبذاك التوازن الضرورى بين الحياة المـادية والحياة الروحية،فاذا فعلنا ذلك كنا جديرين بأن نتمثل بقول القائل:

نبنى كما كانت أوائلنا ، ونفعل مثل ما فعلوا .

والسلام عليكم ورحمة اللـه .

منشورات

وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية

سيصدر قريبا كتاب :

الملتقى الثامن

للفكر الاسلامى

بالفرنسية فى ثلاثة اجزاء

ويشمل :

سائر المحاضرات ،

والتعقيبات ،

والمناقشات .

قضيــــة المــــرأة كمـا أراهـــا (*)

د. الحبـر يوسف نـور الدائـم
استاذ بكلية الآداب
جامعة الخرطوم ـ السودان

بســم اللـه الرحمـن الرحيـم



ينقسم هذا البحث الى ثلاث شعب : الاولى عن المرأة فى الجاهليات القديمة ، والثانية عن المرأة فى الجاهليات الحديثة ، والثالثة والاخيرة عن المرأة فى الاســـلام وهى كما تراها شعب متطاولة شامخة كل واحـــدة منها قد تكون كتابا قائما برأسه أو كتبا متعددات ان أريد لها التفريع والتدقيق والتجزئة ولكننا لا مفر لنا فى عجالة كهذه من المر السريع ، والايجاز غـــير المخل عندما نتعرض لضم الاشتات ، وتوحيد الفروع . وجمع الاجزاء .

(*) محاضرة ألقاها فى الملتقى الحادى عشر للفكر الاسلامى بورقلة (وارجلان) .

تقلبت قضية المرأة فى أطوار متعددات ، ومرت بأدوار مختلفات وكلما بعد الناس عن المنهج الربانى ، وصدفوا عن النور الذى أنزل اليهم ازدادت هذه القضية تعقيدا وبعدا اذ لابد من الخضوع لواحد من سلطانين سلطان الله وسلطان الاهواء والشهوات والنزوات • وقضية المرأة تكشف عن هذا الامر كشفا بينا ما له من مزيد • ولو نظرنا نظرة عجلى الى وضع المرأة فى الجاهليات القديمة ـ فى مصر وفارس وفى روما واليونان لوجدناه يتفق فى صفة واحدة هى صفة الظلم ،ويتخذ له طابعا واحدا هو طابـــع العدوان • ففى مصر تفقد الشابات الحسناوات المجدودات حياتهن قربانا للنيل ولعل فى هذا الامر ضربا من ضروب التجلة والاكرام ! : (1)

واضطرت الملكة حتسبشوت (2) أن تلبس ملابس الرجال احتراما للرأى العام ، ومراعاة للعرف والتقليد الذى لا يكاد يعترف للنساء بقيمة ، وضربت الجاهلية عنـد قدماء المصريين بجران فأباحوا الزواج بالاخت والام فى بعض العهود ، وأبطلـــوا تصرف الزوجات فيما يملكن ما لم يأذن لهن أزواجهن •

وعاش الفارسيون فى عهودهم المظلمة فى فوضى جنسية عارمة ضاربة فأباحت الزرادشتية الزواج بالامهات والبنات والاخوات واتخاذ الخليلات ، وعاشوا فى نفاق قاتل جعلهم يرتكبون الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ويحرمون فى الوقت ذاته على بعض المتزوجات رؤية آبائهن واخوانهن ، وجعلوا بينهم وبينهن حجابا •وللمرأة فى فارس معيشة ضنك ، وعذاب واصب فهى سلعة تباع وتشترى لا يرعى لها ال، ، ولا ترقب فيها ذمة ، يحكم عليها بالاعدام لاتفه الاسباب وأوهاها ، ويرى فى وجودها بأس ووبال • وروما التى تفاخر بأنها أم القوانين ، وربة التشريع لم تعبأ بالمرأة ، ولم تلتفت اليها ، ولم تعترف لها بحق ، وما زادت على أن أثقلت كاهلها ، ونقضت ظهرها بواجبات ثقال فطالبتها بالطاعة العمياء ، والخضوع الكامل ، والتسليم المطلق لسلطة

1) البيت من قصيدة قافية مشهورة لشوقى فى صفة النيل يقول فيها
أمـن السمـــاء نزلت أم فجـرت   من عليا الجنان جداولا تترقق
2) المرأة فى الشعر الجاهلى : 49 .

الرجل الذى لا ترد له كلمة ، ولا يخالف له أمر ، ولا يبطل له حكم فهى ملكه الخالص يتصرف فيه أنى شاء ان شاء قتل وان شاء أبقى ٠ وله أن يسىء معاملتها وينكر لهـا ويتنمر فان أظهرت شيئا من تذمر ، أو أبدت نوعا من تمرد ، أو كشف صفحة من اشمئزاز أو طالبت بطلاق وفرقة عوقبت على ذلك عقابا ، وذاقت وبال أمرها ، فالمتاع المملوك لا يحق له أن يرفع أنفا ، أو يحتج على معاملة ، أو يشمئز عن ظلم واقع به ٠

وأثينا التى تفاخر بأنها أم الفلسفة ، وربة الفكر ، ودار الفلاسفة ومثوى المفكرين لم ينبس فلاسفتها ومنكروها بكلمة واحدة تناصر المرأة ذات الجناح المهيض ، والظهر المكسور ، واذا شاء حظ المرأة العاثر وطالعها السىء أن تلد غلاما قبيحا حكم عليها بالاعدام كأنها قد اقترفت اثما أو كسبت خطيئة ، أو اجترحت ذنبا ٠ أما ان كانت امرأة ولودا ودودا فانها تؤخذ من زوجها كرها ، وتحـول الى مصنع للتفريـخ فما يجوز لها أن تكون وقفا على رجل واحد ٠ ولا تعجب لهذا التصرف اذ ان افلاطون ـ ومكانه عند القوم وعند بعض متعالمينا معروف ـ كان يرى ان النساء ينبغى أن يتداولن كما تتداول الحاجات ٠ أما أستاذه سقراط فقد كان أكثر تحرجا منه اذ زعم ان الامر حقه أن يقصر على الاصدقاء فالصديق الوفى ان يبر اصدقاءه باعارتهم زوجة ! ولم يكن للاناث عند اليونان حق فى ارث أو ملك ، والامر موقوف على الذكور فهـم الذين يرثون ويملكون ، وهم الذين يعددون الزوجات كيف شاءوا ويطلقون متى أرادوا من غير ما قيد أو شرط ٠

والعرب ـ قبل أن يكرمهم الله بالاسلام ـ كانوا ينظرون الى الاناث نظرة ازدراء واحتقار ، ومقت وكراهية والقرآن الكريم يصور لنا ذلك أبلغ تصوير وأوفاه فيقول : **(واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سـوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون)** ٠ « النحـل 58 ـ 59 » وفى أخرى يقول سبحانه : **(واذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهـه مسودا وهو كظيـم)** ٠

[illegible]

واذا فرح بقدوم الفتاة فانه انما يفرح بها لانها تزيد فى ماله غداة يأكل مهرهـــا أكلا لما لا يبقى ولا يذر ومن هنا جاء قولهم (هنيئا لك النافجة) أى التى تزيد فى مالـــك (5) ٠

ولم يكن لتعدد الزوجات غاية ينتهى اليها ، ولقد تفشى فى بنى ثقيف لانهم كانوا ذوى سعة ويسر وثراء ٠ روى الترمذى عن عبد الله بن عمر ان غيلان الثقفى أسلم وله عشر نسوة فى الجاهلية فأسلمن معه فأمره النبى (ص) أن يتخير منهن أربعة ٠ واتخذ العرب من التعدد وسيلة من وسائل تأديب النساء فكانوا يتهددوهن ويتوعدوهن كما قال الآخـــر :

شربت دما ان لـم أرعك بمنـرة   بعيدة مهوى القرط طيبة النشر

ولم يكن للطلاق حد يتتهى اليه أيضا فله أن يطلق كما يشاء ويعوذ متى أراد ٠ وكانوا يظاهرون من نسائهم ويؤلون منهن السنة والسنتين فلا يقربوهن أبدا ٠ وكانوا يعضلون النساء فيمنعوهن التزوج ويمسكوهن ضرارا ليعتدوا ، وكان للولد الاكبر أن يطرح ثوبه على امرأة أبيه فتكون له ملكا خالصا ان شاء تزوجها من غير مهـــر ، وان شاء زوجها غيره بمهر ٠

ولم يكن الجاهليون يورثون النساء ولا الصغار ويقولون لا يرث الا من طاعـــن بالرمح ، وزاد عن الحوزة ، وحاز الغنيمة ٠ قال طرفة ابن العبد محتجا على أعمامه الذين أكلوا مال أمـــه :

ما تنظـرون بمـال وردة فيكمـو   صغر البنون ورهط وردة غيب

أما الاماء فى الجاهلية فقد كان وضعهن انكى وأزرى وأحقر من وضع الحرائـر فمن الجاهليين من كان يكره فتياته على البغاء ان اردن تحصنا ليبتغى عرض الحياة الـــدنيا ٠

---

5) قال النابغة فى (أمن آل مية رائح أو مغتدى) :
والبطن ذو عكـن لطيـف طيـه   والصدر تنفجه بشـدى مقعـد

واذا تجاوزنا وضع المرأة فى الجاهليات القديمة الى وضعها فى الجاهليات الحديثة وجدناها مهضومة الحق ، مظلومة الجانب ، مهيضة الجناح · يقول Blackstone معقبا على قوانين انجلترا سنة 1765م (ان القيود التى ترزح تحتها المرأة يراد بها فى الغالب حمايتها وخيرها لان القانون الانجليزى يؤثرها بعطف شديد) ولنا أن نسأل ماذا فى تلك القوانين التى آثرت المرأة بذلك العطف المزعوم ؟ وأى عطف هذا الـذى يمنع المرأة حق التملك فمن المعلوم ان المرأة الانجليزية لم تخول هـذا الحـق الا منذ 1882م · وأى عطف هذا الذى يبيح للزوج أن يبيع زوجته بشرط واحد ـ وهو شرط أملاه التكريم للمرأة ، والتفانى فى احترامها ، والمبالغة فى تقديرها ! هذا الشرط هو أن يتم البيع بموافقة الزوجة المكرمة المحترمة المقدرة ولم يرفع هذا الامر الا فى سنة 1805م · وفى سنة 1931م باع أحد الانجليز زوجته فحكمت عليه المحكمة عشرة أشهر ولو حدثت هذه المقايضة الآثمة قبل سنة 1805م لافلت صاحبها من العقـاب فالامر مباح مشروع ، ولم يأت الرجل ما يوجب عقابا ، أو يستلزم مؤاخذة · رغم هذا كله يأتى المشرع الانجليزى ليزعم ان القانون يؤثر المرأة بعطف شديد (6) ·

أما فى فرنسا فلم تكن المرأة أحسن حالا من أختها فى انجلترا فالظلم سمة كل مجتمع جاهلى لا يزن أموره بميزان السماء ··· المرأة الفرنسية المتزوجة لا يحق لها أن تتصرف فيما تملك الا باذن زوجها ما لم تشترط فى عقد الزواج انها حرة حرية كاملة فى تصرفاتها المالية بعد الزواج ذلك لان سطوة الرجل وعنفوانه صفة ملازمة للمرأة فهى لابد أن تكون تحت نيره أبا كان أو زوجا · ونص الفرنسيون على ثلاثة أسباب من شأنها أن تؤدى الى الحجر ونفى الاهلية للعقود والمعاملات المالية وهذه الاسباب هى :

(1) صغر السن (2) زوال العقل (3) الانوثة ! ··· واستمر الحال على هذا المنوال أعواما متطاولات حتى عدل سنة 1938م وكان تعديلا يسيرا لم يأت بما يرضى طموح المرأة اذ لم يرفع عنها كل قيد وحجر فرضى الزوج لا يزال شرطا لصحة تصرف المرأة فيما تملـــك ·

---

6) فى المرأة بين الفقه والقانون : 211 ـ 212 يورد د. السباعى بعض الامثلة .

ولا يظنن ظان ان وضع المرأة الغربية اليوم وضع مريح أمثل كما تريد ان توهمنا الدعايات الغربية المكثفة ، وكما يروج له عندنا دعاة التقليد الارعن ، والمحاكاة الحمقاء . فالمرأة عندهم تشقى وتكدح ، وتبيت كآلة من عمل يدها لتأكل وتنفق على نفسهـــا ولا معين لها من أب أو أو أخ أو ولد أو قريب اللهم الا أن يفعل هذا من باب التكرم والتفضل والاحسان أما الالزام القانوني الصلت فلا . وكثيرا ما تتحدث الامهات عندهم مفتخرات مسروروت ان أولادهن المغتربين أرسلوا اليهن قائلين (Merry Chrismas) أو (Happy New Year) فاذا سل الشاب نفسه من زحمة الحياة الصاخبة ، وتذكر أبا شيخا كبيرا ، أو اما قد بلغت من الكبر عتيا استحق الثناء كله ، والشكر جميعه ودل على انه ذو نزعة انسانية ، وعاطفة حانية في مجتمع مادي غليظ لا يعرف للنوازع الانسانية مكانا ، ولا للعواطف الحانيات موضعا . وحسبنا أن نعلم ان القوانين لا تلزم الابناء عندهم الصرف على الامهات وان بلغت احداهن أرذل العمر ، ومسها الضر وولدها الوحيد يتقلب في عيش ناعم ، ورزق واسع وحال ميسور . وقد يتفضل الولد ان كان بارا بوالديه ، عارفا لحقهما بارسالهما الى ملجأ من الملاجىء التى تقيمها الدولة لترعى امثالهما ممن ضعف عن الكسب ، وأقعده الكبر ، وأخذت منه السنين في مجتمع يجعل من الانتاج المادى هدفا وغاية ولا يلتفت الى قيمة روحية . ولقد أدرك العقلاء منهم ان فقدان القيم الروحية (The Spiritual Values) يفقد المجتمع توازنه وترابطه ويؤدى به الى التفكك والاختلال .

أما وجدانية الزواج عند الغربيين ، وحملتهم على المسلمين أنهم يذهبون مذهب التعدد فهو لا يعدو ان يكون تمثيلية مضحكة مبكية فهجر الزوجات الشرعيـــات . والاتصال بنساء أخريات من الاساليب الشائعة عند القوم وهى أساليب تدل عـــلى أنانية الرجل الذى يريد أن يستمتع بوقت طيب ولكنه فى الوقت ذاته يريد أن يتملص من كل تبعة وأن يتخلص من كل مسؤولية فهو استمتاع لا يكلفه الا قليلا اذا ما قارنه بتبعيات البيت ومسؤوليات الزواج الذى يرى فيه قيدا ثقيلا .

وبالرغم من التفنن فى استعمال الوسائل الحديثة التى تخفى كثيرا من آثـــار الجرائم الخلقية الا أن الاطفال المتبنين وغير الشرعيين The adopted and illigitimate children

وحالات الاجهاض (Abortion) أصبحت من المشاكل الاجتماعية المستعصية التي يجأر العقلاء منها اذ انها تنذر بشر مستطير ، وعاقبة وخيمة ، والمرأة والرجل شريكان في الاستمتاع الآثم ، ومسؤولية الذنب وهي وحدها التي تشقى مع الوليد ثمرة ذلك الاستمتاع الاثيم • ولقد تخلى الآباء عن واجبهم تجاه الاولاد والبنات ومسؤوليتهم في التأديب والتقويم وظنوا ان في وضع الحبل على الغارب ضربا من ضروب الحرية ، وأنهم لا ينبغي لهم أن يتدخلوا في شئون أولادهم الخاصة وفقد كثير من الآباء والامهات الشعور بالمسؤولية والغيرة والنخوة ولقد شاهدت بعيني رأسي رجلا مفتول الشارب حملت بنته سفاحا يسأل من كان هذا التصرف يغيظه أو يقض له مضجعا فهز رأسه في شموخ وشمم قائلا انه تصرف لا يحرك منه ساكنا اذ ان بنته قد بلغت من السن مبلغا لا يحس معه بشيء من المسؤولية نحوها • ونتيجة لتفكك الاسرة ، واهمال المرأة الاوروبية لبيتها ، وتخلي الآباء عن مسئولياتهم خرج الابناء والبنات على سيطرة الآباء ، وسلطة الامهات فلم يعودوا يسمعون نصحا ولا ارشادا وتحت شعار الـ " Permissiveness " (7) ـ التي قال عنها مستر كالهان رئيس وزراء بريطانيا الحالي وكان وقتها وزيرا للداخلية انها أسوأ كلمة في القاموس ـ أصبح الجيل الجديد مشكلة المشاكل اذ انغمسوا في الجنس والعنف ، والمخدرات وارتكاب الجرائم بصورة مفزعة مخيفة (8) ••• وظهرت طوائف من الشبان والشابات كالهيبز والـ Monkeys والـ Beatles وما شئت من غرائب ومنكرات تمردت على كل قيمة ، وخرجوا من كل عرف وكفروا بكل نظام ، وأنكروا كل شيء حتى عرفوا بـ " The Droppers " أو الخارجون الذين خرجوا عن المجتمع بتقاليده ونظمه وأعرافه " The dropped out of the society " وهم محقون في خروجهم على النمط الذي يسير عليه الاوروبيون في حياتهم اذ احسوا ان الحياة المادية التي يعيشها الاوروبي لا ترضي طموح الانسان ، ولا تواكب تطلعاته ، ولا تشبع جوعه النفسي ، ولا تروي لروحه ظمأ ولا تشفي له حاجة ، ولكنهم لا يعرفون المخرج ، ولا يهتدون

7) يعنون بها التسامح .

8) هناك دراسات قام بها بعضهم كما فعل د. Donald West في كتابه The Young offender

السبيل وانما هو الانطلاق وراء النزوات ، واجابة الشهوات التى لا تزيدهم الا ظمأ على ظمأ وجوعا على جوع ووصل بهم الحال الى درجة جعلتهم يصفون الحياة بالعبث والقرف والعدم وفقدان المغزى " Meaninglessness "

ولم يصل المستوى الى هذا الدرك الا لان المرأة الاوروبية قد تخلت عن واجبها الاول وهو التربية والرعاية والعناية بالبيت والازواج والاطفال ذكورا واناثا وذلـــك لانها انشغلت أو شغلت بأشياء أخرى عن هذا الواجب الانسانى المقدس وقد تجد المسكينة نفسها مدفوعة للعمل والكدح خارج البيت ، فنظرة المجتمع الغربى نظرة مادية صرفة قل ان تجد فيها مكانا للمشاعر الانسانية النبيلة الخالصة التى تؤثر الايثار الكريـم الذى يدفع الى الترابط والتعاون والاخاء ، ولقد تظن انها اذا ما عملت استطاعت ان تستقل استقلالا اقتصاديا بمنحها ذاتيتها وشخصيتها ، ويجعلها تشعر بشىء مـــن الحرية وانها انسان مكرم ، وان مجتمعا لا يقدر فيه الا الجانب الانتاجى المادى وحده لجدير بأن يكون بؤرة للمشاكل المعظلة والمسائل المستعصية التى تعى من يحـــاول حلها من المفكرين والمخططين ٠

هذا ، ولقد ادرك جمهور من المفكرين المعاصرين من الاوروبين ان انشغال المرأة بتدبير المعاش أدى بالضرورة الى تفكك الاسر وهدم البيوت وفى ذلك يقول الفيلسوف الانجليزى B. Russell (ان الاسرة انحلت باستخدام المرأة فى الاعمـال العامة واظهر الاختبار ان المرأة تتمرد على تقاليد الاخلاق المألوفة وتأبى أن تظـــل أمينة لرجل واحد اذا تحررت اقتصاديا) والجزء الاول من كلام الرجل صحيح فى جملته صائب الا ان الجزء الاخير لا يمكن ان يقبل على علاته ، فالاقتصاد على أهميتـه التى لا تنكر ليس كل شىء فى حياة الناس فهناك من العوامل ما هو أشد سطوة وتأثيرا من الاقتصاد ، والمرأة ان كان لها وازع من دين وخلق وتربية وضمير يمكن أن تعيش أمينة لزوجها « الواحد ! » وان ملكت القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيـــل المسومة والانعام فالعبرة بالعقيدة الدينية الحقة التى تعطى الانسان رجلا كان أو امرأة تصورا صحيحا للوجود يجعله يتصرف فيما آتاه الله تصرفا عادلا رشيدا ، ويقيم حياته كلها ، وتصرفاته كبيرها وصغيرها وعلاقاته على ميزان قسط لا يجوز ٠

وكثير من الناس ـ والغربيون أولهم ـ يرى فى المرأة الجسد وحده (9) لهذا تجدهم قد مهدوا لها الطريق ، وذللوه لها وفرشوه بأنواع الورود وعبدوه لتخرج من بيتها ، وتكفر بدينها ، وتحتقر تقاليدها ، وزينوا لها بما يوحون من زخرف القول ان فى هذا تكريما لها ، وتحقيقا لحريتها ، واستبعادا لشبح استعباد الرجل لها ، واعترافا بمقومات شخصيتها فلها ان تغشى النوادى الليلية وتنفق الليل كله سهرا وسكرا وعربدة ولها أن تتلوى فى الطرقات كاسية عارية متبرجة ، ولها أن تتبذل وتتخلل من كل قيد ، وتخفف من كل أصر وتنال لذتها مع من تحب وتشتهى . ولقد أدركت النساء العواقل ان ليس فى هذا تكريم للمرأة وانما هو امتهان لها ، وعبث بكرامتها ومتاجرة بجسدها ، واستغلال لانوثتها فما من نكبة انكى على المرأة من ان تكون متاعا مبذولا لعيون جائعة ملتاعة ونفوس ظامئة مريضة ، وقلوب خاوية متحجرة لا يهمها من المرأة الا الجسد فاذا ناله فليقذف به قذف النواة فما له فيه من حاجة ولا وطر بعد ان قضى منه حاجة وطرا . ادركت النساء العواقل شيئا من هذا فارتفعت بعض الاصوات النسائية معلنة رفضها واستنكارها لهذا الاستعباد المغلف ، والاستغلال الملفوف ... ارتفعت تندد وتنادى بوقف ما يسمى بمباريات اختيار ملكات الجمال "Miss of the World" التى تقام من حين الى حين ، وتوزع فيها الجوائز ، وتصحب بضجة اعلامية هائلة ما لها من مبرر وفى استعراض جسم المرأة بتلك الصورة الغوغائية المزرية ارتداد بالانسانية الى الوراء ، وارتكاس بها فى حمأة الطين التى انفقت الانسانية عمرا طويلا مديدا فى محاولة للتخلص من وطأتها والنجاة من قبضتها ومحاولات التهذيب والتقويم والترشيد كلها تبوء بالفشل الذريع الماحق اذا ما أهلت التربية النسائية وانطلقت النساء متبرجات بزينة ينشرن الفتنة فى كل مكان ، ويبثثن ويبثثنها فى كل ركـن .

لقد قطع الاوروبيون أشواطا بعيدة فى مجال الكشوفات العلمية ولكننا نظلم انفسنا ظلما بينا ان ظننا ان التقدم العلمى يجعل منهم قدوة فى كل مجال ومحاولات التقليد

---

9) الاسلام يحترم فى المرأة فكرها وعقيدتها وايمانها **(ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو اعجبتكم ...)** « البقرة : 221 » .

عندنا لاستعارة انماط السلوك الاجتماعى عندهم انما تكشف عن انطماس فى البصيرة ، وسوء فى البصر مما آل اليه الاوروبيون اليوم الى مصير مظلم ، وحاضر قاتم دفع بالكثيرين منهم الى ادمان المخدرات ، ودخول المستشفيات العقلية والعصبية والنفسية ، والتخلص من الحياة قبل أن تتخلص منهم الحياة فللوجود هدف وللحياة غاية ومن يجهل هذه الحقيقة الكبرى رجلا كان او امرأة فلا حظ له سوى التعاسة والشقاوة والقلق وان ملك ما ملك والا فما الذى يدفع بامرأة كمارلين مارنو للانتحار وعندها ما تتمناه كثير من نسائنا الغافلات ٠٠٠ شهرة واسعة ، وثراء عريض ، وجمال جسدى طاغ ، وحرية فى الخروج مع من تحب وتشتهى ؟ ولكن ذلك كله لم يعصمها من وضع حد لحياة لم تهبها سكينة وطمأنينة وراحة ورضى ٠٠٠ والعجيب ان ما يبكى منه القوم يحسدهم عليه أقوام يعيشون بيننا يرون السعادة كلها فى تقليد الاوروبين سلوكا وأسلوب تفكير ، ونمط حياة ولسان حال الاوروبيين يردد مع شاعرنا المتنبى رحمه الله :

ماذا وجدت من الدنيا وأعجبه   انى بما أنا باك منه محسود !

ولا أود أن يفهم من هذا اننى انكر ان المرأة الاوروبية قد نالت بعض الحقوق السياسية والاجتماعية والاقتصادية كحق الانتخاب والترشيح والتعليم وتقلد المناصب رفيعها ووضيعها ولكننى أرى ان ما فقدته أقيم مما نالته وهى بعد ما نالت الا لانها انسان مكرم مسئول ، وهى بهذا الفهم ، وبهذا المستوى تستحق هذه الحقوق من غير ما مطالبة ولا مظاهرة ولا نصب ، وقد احتاجت المرأة الاوروبية لتنال بعض الحقوق التى وهبتها لها شريعة الله من غير ما مئونة وكلفة واحتجاج وتعب ٠

ان ما أطلقنا عليه وصف الجاهلية الحديثة لا يقتصر ــ أيها السادة ــ على الاوروبيين وانما يشملنا نحن الذين نتسمى باسم الاسلام أيضا ٠ فلا تزال المرأة فى كثير من المجتمعات العربية ترزح تحت وطأة الجهل الفاضح ، والتخلف الشنيع ، والجاهلية المظلمة ، ولا تزال فى كثير منها خاضعة لسيطرة الرجل فى ألصق المسائل بها كمسألة الزواج مثلا فلا يقام لرأيها حساب ولا وزن ، ولا تستشار فى كثير من الاحيان مجرد استشارة ولا تزال العلاقات الزوجية محكومة بالاستبداد والتحكم والقهر من جانب

الرجل ، ولا تملك المرأة خلاصا ، ولا تجد سبيلا للفكاك من حياة زوجية كلها أسر وضر وضرار · ولا تزال محرومة من حقها الخالص فى المهر والصداق ، والميراث فبعض الاسر الغنية فى بعض المجتمعات العربية تحرم البنات من فرصة الزواج ولا تزوجهن لئلا تنتقل ثرواتهم وتتفتت فى آخرين مرددين مع الفرزدق قوله :

بنونا بنو ابنائنا وبناتنا ... بنوهن أبناء الرجال الاباعد

وأسوء ما فى هذه الاوضاع الجائرة الظالمة انها فى زعمهم تستند الى الدين والدين منها براء · فهم يشيرون الى ان الرسول (ص) قد نهى عن تعليم البنات الكتابة قائلا : (لا تعلموهن الكتابة وعلموهن الغزل وسورة النور) · وفى صبح الاعشى للقلقشندى(10) بعض الآثار المنسوبة الى كبار الصحابة تنحو ذلكم المنحى وهى أحاديث موضوعة ، وآثار مختلفة لم تثبت من طريق صحيح موثوق به يمكن الاطمئنان اليه والاعتماد عليه ، وأحاديث الرسول (ص) لا تؤخذ من كتب الادب كصبح الاعشى ، والعقد الفريد وغيرهما وانما تؤخذ من كتب الاحاديث الصحاح كالبخارى ومسلم · ولقد روى بعض الائمة الكبار من المحدثين والفقهاء كابن حجر العسقلانى وابن عبد البر الاندلسى ان الرسول (ص) طلب من الشفاء العدوية ان تعلم زوجه حفصة بنت عمر الكتابة ففعلت ولا يستقيم عقلا ان يأمر الرسول (ص) بتعليم أزواجه الكتابة والخط ثم يحجر هذا الحق على النساء الاخريات والاسلام ـ بعد ـ دعوة الى الاخذ بأسباب العلم ، والتعلق بأهداب المعرفة وأقوال المسلمين واعمالهم ولا سيما فى عهود التيه والضلال لا تنهض حجة فى دين الله ·

لقد جاء الاسلام بالموازين القسط ، والاحكام العادلة فلم يحاب المرأة على حساب الرجل ولا الرجل على حساب المرأة ولم يجعل العلاقة بينهما علاقة صراع وعداوة وبغضاء وحرب وخصومة بل جعل منها علاقة محبة ووئام وسلام وتعاون على خلق المجتمع الربانى المسلم فكل عبد لله لا حد سواه · والبنت التى كرهها المجتمع واعتبرها منحة تستحق العرفان وهبة تستأهل الشكر وقدمها قائلا ﴿ **يهب لمن يشاء**

---

10) نقل د. الحوفى شيئا منها فى كتابه المرأة فى الشعر الجاهلى : 335 :

اناثا ، ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا واناثا ويجعل من يشاء عقيما) « الشــورى : 49 ـ 50 » ·

وطالب الاسلام بتعليمها وتأديبها وتثقيفها وحسن القيام عليها · وتأديب البنت واجب مفروض ، وتدريبها على الخلق الفاضل ، والدين الراجح مسألة لازمة (**يا أيهــا النبى قل لازواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين)** « الاحزاب : 59 » ومن يشترى لبنته الفساتين الضيقة الكاشفــة غير الساترة فلا يلومن الا نفسه ان بغى عليها ، ولقد كشف تحقيق فى عدد من اعـداد صباح الخير المصرية عن حقائق مذهلة فبعض الآباء لا يسأل بنته من أين له ثمــن الفساتين الغالية الثمينة التى تخرج بها متبخترة متمخرطة وهو لا يدرى من أى الجهات جاءتها ، ولا من أى المصادر أتتها ·

هذا وقد كان (ص) يظهر اهتماما كبيرا بالتربية النفسة للبنات فيدعو الى عـدم الايثار ايثار الذكور على الاناث ويقول (اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم) والبنت التى لا تربى تربة قومية لا تستطيع القيام بدورها كاملا من توجيه الابناء التوجيه الصحيح اذ ان فاقد الشيء لا يعطيه · وكان (ص) فى حياته العملية المثل الحى فى رحمة البنات والعطف عليهن ومعرفة حقوقهن والدعوة الى تأديبهن وتعليمهن ولقد آتت السياسة الاسلامية الجديدة ، والتصور الاسلامى الجديد للمرأة ومكانها أكلها فبرزت النساء فى مجال العلم والفضل فهناك عدد من الحوافظ اللواتى جمعن القرآن ، وعرفن السنن ورجع اليهن الرجال فى كثير من الاحكام والمسائل · وكان للنساء المسلمات دور بارز فى أكثر من ميدان حتى فى ميادين الحرب والقتال ومن منا لا يذكر غزالة التى استطاعت أن تهزم جيشا للحجاج ابن يوسف حتى قال فيها عمران بن حطان مخاطبا الحجاج :

أســـد عـلى وفى الحروب نعامة   ز بداء تجفل من صغير الصافر
هلا برزت الى غزالة فى الضــحى   بل كان قلبك فى جناحى طائر
خبلـت غزالـة قلبه بفـو ارس   تركت منـازل كامس الـدابر

وشاركت المرأة فى الحركة الفقهية الضخمة التى استمرت حينا من الدهر طويلا فى سعة وازدهار وغنى فها هى فاطمة بنت الشيخ علاء الدين السمرقندى تجادل وتناقش وتفتى وترد زوجها الشيخ علاء الدين الكاسانى وهو من هو علما وفضلا وفقها ·

وهكذا كان الاسلام انقلابا هائلا فى حياة النساء والرجال سواء بسواء واذا حلا لبعض الناس أن يضرب المثل بعمر ابن الخطاب ليبين فضيلة الاسلام عليه فلنا ان نضرب المثل بالخنساء أيضا فالخنساء فى الجاهلية لطمت الخدود ، وشقت الجيوب ودعـــت بدعوى الجاهلية أما فى الاسلام فقد كانت مثالا للصبر على المصائب والجلد على المكاره وعندما بلغها استشهاد أبنائها الذين دفعت بهم للجهاد فى سبيل الله لم تزد على أن قالت الحمد لله الذى نشأنى أحلى حتى اشهد استشهاد أبنائى (11) ··· وهكـذا تغيرت النظرة ، وانقلبت القيم ولم تعد النظرة البالية هى النظرة المسيطرة المهيمنة الغالبة فالفرعاء بنت طريف عندما ترثى أخاها وتبكى القيم الاسلامية الجديدة المتمثلة فى تقوى الله عز وجل وخشيته : ايا شجر الخابور ·

أيا شجـر الخابور مالـك مورقا   كأنك لم تجزع عـلى ابن طيف

فتى لا يحب الزاد الا من التقى   ولا المال الا من قنا وسيـوف

وكان لابد للاسلام من أن يواصل سيرة مع المرأة التى كرمها وأعزها ورفع عنها اصرها والاغلال التى كانت عليها فعرف لها حقها فى الانسانية المكرمة المفضلة على كثير ممن خلق وما يترتب عليها من حقوق فى الرجل والمرأة من أهل انسانى واحد **(يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ···)** « النساء » **(فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر وأنثى بعضكم من بعض)** « آل عمران : 95 » ·

وما دامت المرأة مساوية للرجل فى الانسانية فيمكنها بتوفيق الله وبما تبذل من جهد ان تشارك فى كل عمل طيب كريم وان تنال ثمرة عملها المتمثلة فى الاجر

11) مما يزيد فى صبر لنساء المؤمنات على فقد الاولاد قوله (ص) ما منكن امرأة تقدم بين يديها من ولدها ثلاثا الا كان لها حجابا من النار) زاد المسلم : 352/2 .

الرابح ، والثواب الجزيل (**ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم ، والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما**) « الاحزاب : 35 » .

وما دامت المرأة مساوية للرجل فى الانسانية فحقها فى الحياة محفوظ (**ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ...**) « الانعام : » ومن قتل امرأة قتل بها ولابد أن نشير هنا الى ان العرب فى جاهليتهم لم يكونوا يساوون بين المرأة والرجل فى الدماء (12) فان قتل اخشى رجل أشرف امرأة فانه لا يقتل بها فجاء الاسلام يجب هذا القانون المجحف ، ويبتره بترا فمن قتل امرأة قتل بها والنفس بالنفس .

ان الله الذى خلق الزوجين الذكر منها والانثى لا يحابى طرفا على حساب طرف آخر وهكذا رسم للجميع طريقا ، واختط لهم هدفا ، وأتى بقواعد تحكم الجميع ، ويخضع لها الكل . فالمرأة مطالبة فى الاسلام بما يطالب به الرجل من واجبات دينية كالصلاة والزكاة والصوم والحج والامر بالمعروف والنهى عن المنكر (**والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله ان الله عزيز حكيم وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ...**) « التوبة 71 ــ 72 » وان تعجب فعجب قول بعضهم ان صوت المرأة عورة ينبغى ان يستتر فلا يسمع مع ان الله سبحانه يأمرها امرا ان تكون آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر وان كان ثمة منع فهو منع الفتنة المتمثلة فى الاخضاع بالقول أما القول السديد ... أما القول المعروف فهو حق للمرأة لا يمارى فيه ذو بصر (**فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا**) « الاحزاب : 32 » .

---

12) الاسلام والمرأة : 32 .

والمرأة مطالبة مكلفة كالرجل سواء بالتمسك بالآداب الاسلامية الرفيعة (**يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا انفسكم ولا تنابزوا بالالقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان**) « الحجرات :   » (**قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ان الله خبير بما يصنعون وقل للمؤمنات يغضضن من ابصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ...**) « **النور : 30 ـ 31** » .

والعلاقة بين المرأة والرجل قائمة كلها فى شرع الله على المعروف والاحسان والبر والايثار (**ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف**) « البقرة : 228 » (**فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن باحسان**) (**الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان**) « البقرة : 229 » .

فالعلاقة بين المرء وزوجه لا تحكمها الانانية وحب التسلط والاستعباد فان أطاعت المرأة زوجها فانما هى الطاعة فى المعروف الا لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق فالامر كله يقوم على التفاهم والتشاور والاحترام المتبادل (**فان أرادا فصالا عن تراض منها وتشاور فلا جناح عليهما**) « البقرة : 23 » فالدين الذى يدعوا الى التراضى والتشاور فى مثل هذه الامور لا يقال عنه انه يفرض سيطرة على المرأة والزواج ذلك الميثاق الغليظ والعهد المؤكد مطلوب فيه أن يؤدى ثمرته حياة هادئة مستقرة بعيدة عن التنازع والشقاق (**خلق لكم من انفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة**) . والرجل المسلم مطالب بحسن المعاملة حتى فى حالة الكراهية لزوجه (**فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا**) « النساء : 9» (13) ولهذا ذهب بعض الفقهاء الى أن الزواج حرام على من يعرف عن نفسه سوء العشرة وحدة الطباع التى لا تحتمل علاقة دائمة .

---

13) هناك بعض الحالات التى يحرم فيها الطلاق انظر : مدى حرية الزوجين فى الطلاق : 84 وما بعدها .

ورای المرأة لابد أن يؤخد ـ ثيبا كانت أو بكرا ـ فهى أحق بنفسها من وليها ولا ينبغى لنا ان نتقيد بالمذاهب الفقهية تقليد ضيقا حرجا يفوت علينا كثيرا من المصالح الدينية والدنيوية ونحن متقيدون بما جاءنا به الرسول (ص) من ربه قرآنا كان أو سنة أما آاء الرجال فلكل عصر رجال ولا بد أن ننظر الى الادلة والبراهين والحجج لنعـــرف الرجال بالحق ولا نعرف الحق بالرجال وبعض الفقهاء قد يتشدد فى جانب ويلين فى جانب ولم يقل احد منهم ان رأيه حجة ملزمة يصادر اليها فان وجدت مفسرا يقـــول فى قوله تعالى (**ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما**) السفهاء ها هنا النساء والوالدان فلك أن تضرب برأيه عرض الحائط فهو افساد للغة وافساد للدين كما يقول الامام الطبرى (14) اذ السفيه الذى لا يحسن التصرف نزقا وطيشا وخفت وهذه صفة قد توجد فى الرجال كما توجد فى النساء وقد توجد فى الصغار كما توجد فى الكبـــار ·

ان الاصل فى الزواج الاستمرار اذ انه رابطة وثيقة لا يجوز فصمها الا لضرورة مستعصية قاهرة (**وكيف تاخذونه وقد افضى بعضكم الى بعض واخذن منكم ميثاقا غليظا**) « النساء : 21 » ·

ولهذا فالطلاق تشريع استثنائى وليس قاعدة أساسية والاسلام يدعو فى صراحة ووضوح الى أن يقوم كل من الزوجين بمسئوليته تجاه الطرف الآخر ويدعو الى الصبر على تلك المسئوليات ويدعو الى الاحسان فى المنشط والمكره ، والحب والبغض ، والامساك والتسرع · ونحن لا نزعم ان الطلاق أمر غير مشروع وما فى هذا الزعم بعد فائدة اذ أثبتت التجارب ان تحريمه يؤدى الى كوارث لا تنتهى وفضائح لا تقع تحت حصر ···(15) لا نزعم انه غير مشروع ولكننا نضعه حيث وضعه الشارع الحكيم فهو مشروع ولكنـــه بغيض لا ينبغى ان تقوم عليه ولنا عنه مندوحة وسعة · روى البخارى ومسلم عن ثوبان : (أيما امرأة سألت زوجها الطلاق فى غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة) ·

14) تفسير الطبرى/7 : 565 وما بعدها .
15) أنظر مدى حرية الزوجين فى الطلاق : ص 52 وما بعدها »

أما اذا كان على المرأة بأس ··· أما اذا كان هجرها ولم ينفق عليها ··· أما اذا ساء معاملتها ، وتنكر لها · ولم يرع لها حرمة ، ولم يرقب فيها الا ولا ذمة اما اذا لم تطقه بغضا فحقها فى الخلع مكفول (جاءت امرأة قيس بن ثابت الى الرسول)ص(فقالت له يا رسول الله قيس لا انقم عليه فى دين ولا خلق ولكننى نظرت اليه من جانب القوم فى عدة من الرجال فاذا هو أقصرهم قامة ، واشدهم سوادا ، وأقبحهم وجهـــا فلا انا ولا هو ( )16(·

وهكذا حفظ الاسلام للمرأة حقها فى الحياة وحقها فى الكرامة الانسانية وحقهـــا فى التعليم وحقها فى العمل **(للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن)** وحقها فى الاختيار وحقها فى الخلع ، وحقها فى المشاركة فى ألوان البر كله ، وحقهـا فى المهر **(واتوا النساء صدقاتهن نحلة)** وحقها فى التصرف **(فان طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا)** وحقها فى الميراث **(للرجال نصيب مما ترك الوالدان والاقربون** وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون فما قل فيه أو كثر نصيبا مفروضا) · « النساء : 7 » وهى بعد لا تطالب بنفقة وان ملكت القناطير المقنطرة الا ان تبرع ، ولا تطالب بعمل فى البيت كطبخ وغسل ورضاعة الا أن تطوع وعلى الرجل الانفاق والخدمة والسكن (**أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن**) · وبعد هذا كله يأتى بعض قصار النظر ، قليلى المعرفة ، ضحلى الاطلاع ليزعموا ان الاسلام يظلم المرأة ان قال قرآنه **(للذكر مثل حظ الانثيين)** (17) وأخيرا فأنا لا أنكر ان المسلمين فى حياتهم العملية ولا سيما فى عهودهم المظلمة قد تنكروا للمرأة ومنعوها بعض حقوقها ولكن هذه الحقوق ظلت امرا مثبتا مشروعا فى القرآن والحديث والكتب الفقهية التى استقت من هذين المصدرين العزيزين واعتداء المسلمين على المرأة فى بعض العهود لا يؤخذ به الاسلام الذى يؤخذ من النصوص القرآنية والاحاديث النبوية ومن يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ·

16) أنظر فى الخلع : أحكام الاحوال الشخصية ص 305 وما بعدها .
17) اعترف المنصفون من الباحثين الغربيين ان الاسلام منح المرأة حقوقا فى الميراث لا مثيل لها فى قوانينهم ــ المرأة فى لاشعر الجاهلى : 269 .

مراجـــع البحـث

1) القرآن الكريم .

2) زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى ومسلم : محمد حبيب الشنقيطى .

3) تفسير الامام الطبرى تحقيق محمود محمد شاكر ـ دار المعارف بمصر .

4) الاسلام والمرأة : سعيد الافغانى طبعة ثانية ـ دمشق 1964م .

5) المرأة بين الفقه والقانون : د. مصطفى السباعى ـ دمشق 1962م .

6) المرأة فى الشعر الجاهلى : د.

6) المرأة فى الشعر الجاهلى : د. احمد الحوفى : القاهرة 1954م .

7) مدى حرية الزوجين فى الطلاق ـ عبد الرحمن الصابونى : الطبعة الثانية 1968م .

8) أحكام الاحوال الشخصية فى الفقه الاسلامى ـ د. محمد يوسف موسى ـ دار الكتاب العربى 1958م .

فهـــرس العـــــدد

دور البترول فى تنمية الجزائر (*)

د. جيلالى صارى
أستاذ بمعهد الجغرافية
جامعة الجزائر



بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ·

أما بعد،يسرنى بمناسبة الاحتفال بـ 24 فبراير 1971 أن أقدم لكم النقط الرئيسية لدور البترول فى تنمية الجزائر، وقبل أن أعالج الموضوع لابد من الاشارة الى نقط تاريخية بهذه المناسبة السعيدة.فعلى الشباب أن يتذكر مرحلة الكفاح فى سنوات 1957 و 1958 عندما حاول المستعمرون تقسيم التراب الوطنى الى جزائر من جهة ، و صحراء من جهة أخرى ، وذلك لفصل الثروات الباطنية عن باقى التراب الوطنى ·

وعلى كل،بعد مجهودات متواصلة فقد تم تحقيق برنامج استرجاع المحروقات فى بداية سنة 1971 ولا زالت تتواصل المجهودات لتصنيع هذه المواد الحيوية كما يتجلى ذلك فى انشاء مجموعة من المعامل والمركبات التى لا تنحصر فى مينائى أرزيو وسكيكدة فحسب بل فى مدن أخرى بالاضافة الى تكوين عدد هام من الفنيين والاطارات العالية ·

(*) محاضرة القاها يوم 24 فيفرى 1977 بالمركز الثقافى الاسلامى بالعاصمة .

فموضوعنا يعالج الاقسام التالية :

- استرجاع الثروات ،
- تصنيع المحروقات ،
- الدور الاجتماعي للمحروقات ·

استرجاع الثروات :

استمرت مجهودات استرجاع الثروات منذ بداية الاستقلال الى صدور قرارات فيفرى 1971 التاريخية كما يبينها الرسم ، فأهم المراحل هي : بناء الانبوب الثالث ، ومراقبة توزيع المشتقات ، وتاميم الشركات الاجنبية غير الفرنسية ، وقرارات فيفرى 1971 ·

1) المرحلة الاولى :

ان بناء الانبوب الثالث للبترول (حاسى مسعود - أرزيو) يعد الخطوة الاولى الحاسمة فى سياسة استرجاع المحروقات ، فبفضل تحقيق هذا الانبوب فى سنة 1966 أصبحت الجزائر تراقب 11،8 ٪ من الانتاج كما انها أصبحت تقوم بتسويق هذه النسبة وتشرف أيضا عن البحث بـ 12 ٪ ، بعدما أصبحت الشركة الوطنية تتوسع ·

2) المرحلة الثانية :

لم تمر الا اشهر قليلة بعد بناء الانبوب الثالث حتى صدرت قرارات تجلت فى شراء شبكة B P للتوزيع ، ثم تاميم جميع شبكات التوزيع فى سنة 1967 ، وسنة بعد ذلك حولت كل العمليات المتعلقة بالاسمدة للشركة الوطنية بعدما شرع فى انجاز مركب الآمنياك بارزيو ·

3) المرحلة الثالثة :

تجسدت هذه المرحلة في تاميم جميع الشركات الاجنبية غير الفرنسية بعد صدور عدة قرارات من سنة 1968 الى 1970 ففى آخر هذه السنة صارت الشركة الوطنية تشرف على 62 ٪ من انتاج النفط و 100 ٪ من انتاج الغاز وما يقرب من 100 ٪ على البحث كما أن مراقبة معمل التكرير بالحراش ارتفع من 56 الى 80٪ ·

مراحل الاسترجاع



4) المـرحلة الرابعـة :

نظرا لـــفشل المفاوضات مع فرنسا والمتعلقة بارتفاع الاسعار قررت الجزائر أن تواصل مجهودات استرجاع الثروات وفى مثل هذه الظروف صدرت قرارات فيفرى التاريخية واهمها هـي :

- تـأميم جميع ثـروات الغـاز الطبيعى ·
- تـأميم النقل البرى لجميع المحروقات بما فيها البترول والغاز ·
- تـأميم 51 ٪ من الشركات الفرنسية العاملة بالجزائر ·

وهكذا أصبحت سياسة استرجاع الثروات حقيقة ملموسة بحيث صارت الشركة الوطنية تشرف على جميع العمليات من البحث الى التسويق 100 ٪ ، ما عدا 32 ٪ من انتاج النفط ، بالاضافة الى مواصلة مجهودات أخرى هدفها التصنيع وبناء مركبات هـــامـة ·

تصنيـــع المحـروقـات :

ان تصنيع المحروقات برنامج واسع النطاق يندرج فى سياسة بناء اقتصاد وطنى يتماشى ومتطلبات ترقية الجماهير ولذلك هناك عدة مشاريع ومنجزات نلتمسها فى النقـط التـالية :

1) تـوسيع شبكـة النقـل :

بالاضافة الى بناء الانبوب الثالث للنفط فقد تم بناء انبوب رابع للنفط (حوض الحمراء - سكيكدة) وفـرع بنى منصور - الحراش وذلك لتزويد معمـل التكريـر بالعاصمة مباشرة ، وفروع ثانوية أخرى ·

وأما ما يتعلق بنقل الغاز الطبيعى فقد تحقق انبوب حاسى الرمـل بسكيكدة ، وتجرى الآن الاعمال لوضع انبوب حاسى الرمل بايطاليا عبر تونس والبحر المتوسط كما أن الاعمال تتواصل لتوسيع شبكة توزيع الغاز الطبيعى عبر أهم مدن الوطن وجعل هذه الطاقة فى خدمة المواطنين ، وفى هذا الاطار فقد أنجزت عدة مصانع لتزويد السكان فى المناطق المحرومة ، كما تبينه خريطة هذه المصانع · عين وسارة ، سعيدة ، عين البيضـــاء ··

وكل هذه المجهودات لا تنحصر فى نقل وتوزيع المحروقات داخل التراب الوطنى بل تشمل أيضا النقل البحرى فالاسطول الوطنى يعزز من سنة الى أخرى فها هو الآن

يتركب من حاملة نفط وغاز تعد من أهم الوحدات فى العالم كما يشهد عن ذلك ناقلة العربى بن مهيدى (129 مليون م2) وفجأة أنشىء ميناء حديث يعد الاول من مثله وهو ميناء بطيوة ، بعد توسع ميناء ارزيو ٠

2) انشـــاء قطبـين للتنميـة :

بعد سنوات معدودة من الجد برز الى الوجود ومن العدم قطبان للتنمية ٠ ارزيو فى الغرب ، وسكيكدة بالشرق ، فالاول يتضمن وحـدات ومركبات ضخمة وحديثـة فالمنطقة الصناعية لهذا الميناء الذى ظل خلال فترة الاحتلال يصدر شيئا مـن الملـح والحلفاء تمتد الآن الى بطيوة وستصل قريبا الى مرسى الحجاج ٠

أما القطب الثانى فهو لا زال فى مرحلة التشييد وسيقضى على أسباب التخلف فى المناطق المجاورة ، خاصة وأنه ، يحتوى الآن على ميناء حديث وتشيد به مركبات هامة من أهمها مركب ضخم لتكرير النفط ، (15 مليون طن) ٠

3) الانجازات والمشاريع الاخرى :

عملا بسياسة محو الفوارق الجهوية ظهرت معـامل ومركبات خـارج القطبين المذكورين فبعد توسع حاسى الرمل وحاسى مسعود (انشاء وحدات فى كل حقل من حقولها) تتواصل الاعمال لتوسيع مصانع البلاستيك فى كـل مـن سطيف والاصنام بالاضافة الى مشاريع أخرى ستحقق فى عـدد من المدن الاخرى ففى مـدينة البويرة سيحقق مشروع المطاط (3500 عامل) مثلا ومركب الاسمدة بتبسة ٠٠٠

وهكذا يتجلى لنا بوضوح دور المحروقات فى التصنيع خاصة والتنمية عامة وأما دورها فى التنمية الاجتماعية فانه لا يقل أهمية ٠

الـدور الاجتماعى للمحروقات :

يبرز هذا الدور فى عدة ملاحظات ومعطيات يمكننا أن نلتمسها بايجاز فى التكوين والتشغـــيل ٠

1) دور المحروقات فى التكـوين :

ان المجهودات المتو صلة منذ بداية تطبيق سيـاسة استرجاع الثروات البـاطنية تجسدت أيضا فى بنـاء عدة مؤسسات ومراكز التكـوين ومـن أهمها افتتـاح مركز بومرداس سنة 1964 الذى يأوى الآن حوالى3000 طالب وطالبة ، وكذلك المعهد الجزائرى للبترول بالدار البيضاء وفروعه بوهران وحاسى مسعود وزيادة على ذلك فهناك عدة معاهدات ابرمتها الشركات الاجنبية والمتعلقة بتكوين وجزأرة المستخدمين ٠

فبفضل هذه المراكز أصبح عدد كبير مـن الطلبة والشباب يلتحقون بهذا الميدان الاقتصادى الحيوى ويشتغلون بـه ٠

2) دور المحروقات فى التشغيل :

ان المحروقات تلعب دورا هاما فى التشغيل وأصبحت تحتل المرتبة الاولى بالنسبة للزيادة السريعة خلال السنوات الماضية فقد ارتفع عدد المستخدمين مما يقترب مـن 7000 عامل فى سنة 1966 الى 20000 فى سنة 1971 ، ثم 35000 فى سنة 1974 ، وبعد سنتين فقط تضاعف المجموع تقريبا اذ قدر فى آخر 1976 بـ 62000 عامل .

ومن المعلوم فان معظم المستخدمين مـن الجزائريين اذ أن الاجانب لا يمثلون الا 3،4 ٪ وعددهم بالضبط يبلغ 2148 ٠ وهكذا أصبحت المعامل والمركبات تسير من طرف اطارات وفنيين جزائريين يأتون اليها من مختلف المناطق وهم غالبا فى ريعان الشباب أي من الجيل الصاعد ، الجيل الذى يساهم فى بناء الاقتصاد الوطنى من أجل تـرقية الجماهير الشعبية ، الهدف الاسمى الذى ضحت من أجله الاجيال السابقة ومن بينها شبـاب 1954 ٠

الخـــلاصـــة :

بعد مـدة وجيزة نسبيا أصبحت الجـزائر تشـرف مبـاشرة على هذه المـواد الاستراتيجية بالنسبة لكل اقتصاد ، وأصبحت تسخرها لمصـالح الجماهير الشعبية وذلك بفضل تحقيق مشاريع هامة ٠ الهدف منها انشاء مصانع ومركبات عبر التراب الوطنى لا تنحصر فى الشمال أو الساحل فحسب بل تتجلى شيئا فشيئا فى بروز مراكز جديدة كما هو الامر بالاصنام ، أو سطيف،أو تبسة فى المستقبل القادم ٠

وزيادة على ذلك فان الدور الاجتماعى للمحروقات يتجسد ويتجلى فى مضاعفة العدد الكبير من الفنيين والاطارات الذين يسيرون المصانع وهم فى ريعان الشباب ، والوافدين اليها من مختلف الاماكن بعد أن تكونوا فى المراكز والمعاهد ، سواء كانت داخل الوطن أو خارجه ، وفى المستقبل القريب ستصبح الجزائر من الـدول الكبيرة لتصدير الغاز الطبيعى بما فى ذلك المساهمة فى نقل قسم كبير من هذه المادة بواسطة ناقلات ضخمـة ٠

ملامح الحركة التعليمية فى تمبكتو خلال القرن السادس عشر



د. عبد القادر زبادية
معهد العلوم الاجتماعية
جامعة الجزائر

1 ـ نحو الأوج

كان القرن السادس عشر ، هو الفترة التى بلغت خلالها الحضارة الاسلامية أوجها بالسودان الغربى ، أما الحقبة الممتدة بين القرن الثامن والقرن الخامس عشر ، فقد كانت فترة تطورات متلاحقة لبلوغ مرحلة الأوج هذه . (1)

ومنذ استقرار الاسلام بالمنطقة مع نهاية القرن التاسع الميلادى ، بدأت تتكون بها عدة تنظيمات حكومية ، ظلت تتخطى الشكل القبلى القديم بالتدريج، وقد وصلت الى المرحلة الوطنية مع نهاية القرن الخامس عشر . (2)

---

(1) بدات أول محاولة استطلاعية قام بها العرب لتبليغ رسالة الاسلام الى غرب السودان فى القرن السابع الميلادى فقد ذكر ابن عبد الحكم ان عقبة بن نافع الفهرى ارسل فرقه صغيرة من جيشه الى الجنوب الغربى ، وذلك حينما بلغ برقة فى حدود 676 م . وقد وصل رجال تلك الفرقة الى جبال الطومو ، وتوقفوا عند مكان يدعى (ماء الفرس) ، وموقع ذلك المكان فى الوقت الراهن عند حدود فزان النيجر .

ولا نميل الى الاعتقاد بان هجومات المرابطين فى القرن الحادى عشر على بعض المناطق المحاذية لنهر السنغال من ناحية الشمال، كان لها اثر كبير فى حمل الناس على الاسلام ، لان المرابطين ما لبثت عنايتهم أن تعلقت بالشمال ، ولم تبق منهم بالجنوب الا جماعة صغيرة ، ما لبثت ان توقفت عن النشاط هى الاخرى ، وذلك حينما وصلت منطقة (كمبى صالح) فى حدود سنة 1076 م .

ولعل الاثر الاكثر اهمية فى اعتناق السودانيين للاسلام كان قد حصل كنتيجة لاسلام المغاربة ، فقد كان هؤلاء على اتصال منذ القديم بغرب افريقيا ، ولما ازدادت تلك الصلة قوة عن طريق التجارة خلال العصور الوسطى ، كان من اثرها المباشر اقبال أمراء وسلاطين السودان على اعتناق الاسلام ، وكان رعاياهم يتبعونهم بصورة تلقائية تقريبا .

(2) خلال العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة ، تكونت فى السودان الغربى ثلاث ممالك كبرى ، وقد ظهرت فى البداية مملكه غانا (فى منطقة شمال السنغال وجنوب موريطانيا حاليا) ، وقد اثبتت دراسات الاستاذ (بازل دافدسن) ، انها قامت منذ البداية فى شكل قبلى صرف ، طغت فيه قبيلة على مجموعة من القبائل ، وفرضت عليها الخضوع لحكمها . وبنفس الطريقة إقامت قبائل الماندينغ مملكة مالى التى بلغت قوتها خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، ولكن نوعا من الكونفيدرالية ظهر على مالى منذ القرن الثالث عشر ، فكان فى ذلك جمع بين الصورة القبلية السابقة والصورة الوطنية المقبلة .

ثم قامت مملكة سنغاى فى عهدها الاول فى شكل قبلى ايضا ، الا أن الاسقيا محمد الاول (1493 ـ 1528) أدخل عليها تعديلات جوهرية ، فابعدها عن الشكل القبلى واعطاها صبغة وطنية ، بحيث اصبحت تشترك فى تسيير المملكة معظم القبائل المنضوية تحت لوائها . وقد اضطر من اجل الوصول لذلك الهدف الى خوض معارك حامية ضد زعماء قبيلة سنغاى الذين لم يرضوا مشاركة بقية القبائل لهم فى الحكم ، ولما انتصر عليهم ، كان ذلك ايذانا بتخطى الاشكال القبلية القديمة ، وذلك لاول مرة فى تاريخ السودان الغربى حتى القرن السادس عشر .

لزيادة التفاصيل ، يمكن مراجعة المصادر التالية بصورة خاصة ، وهى :

- **دافيدسن** ، بازل ، **افريقيا تحت اضواء جديدة** ، دار الثقافة بيروت ، 1963 (ترجمة م. أحمد)
- **قداح** ، نعيم ، **افريقيا الغربية فى ظل الاسلام** ، مطبعة الوحدة ، دمشق (دون تاريخ) .
- **عبد القادر** ، زبادية ، **مملكة سنغاى فى عهد الاسيقين** ، الجزائر ، 1973 .

وقد اعتمد استقرار الاسلام منذ البداية على عنصرين أساسيين ، همـا : التجارة والتعليم ، وظلت المظـاهر الحضارية فى كـل السودان الغربى انمـا تزداد ازدهارا فى كل حقبة بالمدن التى تتلاءم مواقعها مع توارد قوافل الشمال عليها ، بالدرجة الاولى . (3)

وكان القرن السادس عشر قد قيض خلاله لمدينة تمبكتو أن تصبح محطة القوافل الاولى فى كل بلاد السودان ، فسكنها كثير من التجار وقصدها جـم غفير من العلماء والطلاب ، مما بوأها اثناءه مكانة المدينة الاولى للعلم والثقافة فى السودان الغربى كله . (4) وفى تلك الحقبة وصفت بأم مدائن السودانيين سواء فى العلم والحضارة أو فى العمران والتجارة . (5)

2 ـ من مظـاهر الازدهـار

خلال القـرن السادس عشر أصبـح سكان تمبكتـو يزيدون على خمسة وثلاثين ألف ساكن ، وربما لم تعـد تفوقها آنـذاك فى كثرة السكان مدينـة

— J. FAGE, *Introduction to the history of West Africa*, Cambridge, 1955.
— A. DIOP, *L'Afrique Noire, pré-coloniale*, Paris, 1960.
— J. Suret-Canale, *Afrique Noire, Géog. Civilisations*, Histoire, Paris, 1961.

(3) ظلت المراكز الحضارية بالسودان الغربى حتى القـرن السادس عشر ، هى المدن التى كـان ياتى اليها او يقطنها كثير من تجار الشمال ، إما البوادى والقـرى ، فقد ظلت تعيش على الاساليب البدائية القديمـة . ويرى الاستاذ (ديبـوا) انه لا يوجد فى تاريـخ السودان الغربى اثر حضارى وثقافى الا فى المدن التى كانت تتوارد عليها القوافل ، وبهذه الصورة قامت (والاتا) فى البدايـة كمركز ثقافى وحضارى كبير ، ولما ظهرت الاضطرابـات فى منطقتها كنتيجـة لتوسع مالى خلال القرن الثـالث عشر ، ضعفت والاتا بسرعـة منذ ذلـك الحين ، وهاجرها العلماء الى (تمبكتـو) التى اتخذها التجار من جديد محطة لنزولهـم ، انظـر
F. Dubois, *Tombouctou la mystérieuse*, Paris, (Flammarion), 1897, p. 263.

(4) يعود تاسيس مدينة تمبكتو الى القرن الحـادى عشر ، وقد اسسها طوارق (ايمغـراشن) حينما اتخذوا من مكانهـا مشتى لهم فى حدود ذلك التاريـخ . اما خـلال الصيف فانهـم يعودون الى (اروان) حيث مرابعهم الاصليـة ، ويقال ان اسمها اخذته من اسم العجـوز التى كان الطوارق قد عهدوا اليها بالبقـاء فى ذلك المكـان ، حينما يغادرونه فى رحلتهـم الصيفية ، وكانت تحرس لهم فيه بعض المخـازن والبيوت . ثـم ما لبث بعض التجـار ان عقدوا سوقا فى ذلك المكان واتخذوا فيـه مستودعات للبضائع ، وبذلـك اخذت المدينـة طريقها الى النمو التدريجى ، ولكن دون نظام ، وفى ايام كنكان موسى ملك مالى (القرن الرابع عشر) بنى له فيها قصر فخـم ، كما اسس اول مساجدها المسمى (دنقريبـر) ، وقد بناهما الشاعر الساحلى ، وهو مهندس غرناطى استقدمه كنكان موسى معه حين عـاد من الحج حوالى سنة 1326 م . وفى تلك الاثناء هاجر عدد من العلماء مدينة والاتا (المركز الثقافى الاول فى غرب السودان حتى ذلك الحيـن) ، وسكنوا تمبكتـو ، فزادهـا ذلـك ازدهارا ، اما التجارة فقد اخذوا يستعيضون بها عن والاتا بالتدريج ، وما ان اطل القرن السادس عشر حتى جمعت تمبكتو بين التجـارة الواسعة والنشاط الثقافى المتزايد ، وقـد بلغت فيهما مرحلة الاوج خلال الفتـرة بين 1496 و 1591 . وفى تلـك الاثنـاء انتظمت شوارع المدينة ، واكتسبت معظم ابنيتها شكلها الهندسى على النمط المغربى ـ الاندلسى ، كما نقله اليها الساحلى يقول السعدى : « وما تكامل البناء (فى تمبكتـو) فى الالتصاق والالتئام الا فى اواسط القرن العاشر ، فى مدة اسقيا داود » . انظـر :
ـ **السعدى** ، عبد الرحمان ، **تاريخ السودان** ، (ميزوناف) باريس ، 1946 . (تحقيـق هوداس وبونوا) ، ص 22
— Dubois, F., *op.cit.*, pp. 313-318.

(5) *Ibid*, p. 252.

سودانية أخرى في غرب افريقيا ، غير غاو العاصمة السياسية للامبراطورية السنغائية التي كانت تمبكتو آنذاك احدى مدنها الهامة . (6)

وفي تلك الاثناء أصبحت تمبكتو العاصمة الثانيه للامبراطورية في ميداني الاقتصاد والثقافة معا ، (7) وقد انتظمت شوارعها ، وأحيطت المدينة بسور ، اما المنازل فقد ازدانت نسبة كبيرة من بينها بواجهات في شكل زرائب أو حدائق صغيرة تربطها الى حيطان البيوت سياجات . (8) وقد احتوت تمبكتو في تلك الاثناء على ثلاث مساجد كبيرة (جوامع) ، مما لم يتهيأ لغيرها من كبريات مدن السودان الغربي آنذاك . (9) واخذت أسواقها طابعها الاسلامي، (10) كما كانت ترى توارد العديد من القوافل الكبيرة عليها ، (11) وسكنتها جماعة من التجار الاغنياء ، أما حركة التبادل، فانها كانت تمر بفترة

---

(6) جرت محاورة لطيفة في ذلك الوقت بين جماعة من سكان تمبكتو وجماعة من سكان غاو ، وقد احتد النقاش بين الفريقين حول اي من المدينتين أكثر بيوتا ، مما ادى بهما الى عد بيوت كل من المدينتين على حدة ، وقد استدل من ذلك على ان سكان تمبكتو يزيدون على الثلاثين الف ساكن ، انظر :

- **كعت** ، محمود ، **تاريخ الفتاش** ، ميزوناف . باريس ، 1964 (تحقيق هوداس) ص 145 :

Mauny R., *Tableau géographique de l'Ouest Africain,* Dakar, 1961, p. 491.

(7) في ميدان الثقافة تتفق مراجع تلك الفترة على ان تمبكتو لم يكن يجاريها في ذلك الوقت مدينة اخرى ، لكثرة العلماء، والطلاب بها ونشاطهم المتزايد . اما في ميدان الاقتصاد فان أمراء سنغاي ، كانوا حينما يحتاجون للمال في أوقات الشدة يلجاون للاقتراض من تجار تمبكتو ، كما ان بعضهم زوج بناته باغنياء التجار في تمبكتو، ولم يحصل هذا مع غيرهم ، وقد تأثر الحسن بن محمد الفاسي الوزاني بالنشاط التجاري الذي كانت عليه المدينة ، وكثرة بضائعها ، مما جعله يعتبرها امارة قائمة بذاتها ، انظر :

- **السعدي** ، عبد الرحمان ، **نفس المصدر** ، ص 22 .
- **احمد بابا** ، **نيل الابتهاج بتطريز الديباج** ، فاس ، 1317 هـ ، ص 41 .

— Jean Léon l'Africain, *Description de l'Afrique,* Trad. Schefer et Cordier, Paris, (Burdin), 1898, T. 3, p. 292.

(8) يذكر السعدي ، **نفس المصدر** ، ص 18 ، ان تمبكتو كانت حين نشأتها الاولى لا سور لها والواقف خارجها يستطيع مشاهدة داخلها ، وفي ايام الاساقي اصبحت تتوفر على ذلك السور كما ان البيوت لم تعد مكشوفة ، ثم يذكر انه في عهد الطوارق لم يكن لبيوتها نظام ، اما في القرن السادس عشر ، فقد انتظمت بيوتها ودكاكينها ، ووجدت بينها ممرات في شكل شوارع .

(9) وجود المساجد الكبيرة في مدينة ما ، كان يشير الى نشاط التعليم وتكاثر السكان واتساع الاحياء . والمدن الكبيرة بالسودان الغربي في تلك الحقبة ، هي : غاو ، جني وتمبكتو . اما جني فقد كان بها مسجدان احدهما صغير ، وربما لم يكن في غاو غير جامع واحد ، واما تمبكتو فقد كان بها ثلاثة مساجد كبيرة هي : أ) مسجد الونكريين (دنكريبير) ب) مسجد سنكري — ج) مسجد سيدي يحي .

(10) كان يغلب على نظام الاسواق في المدن الاسلامية الكبرى ، تقسيمها الى اقسام ، ويختص كل قسم بنوعية معينة من البضائع ، مما مكن الفاطميين من اتخاذ عرفاء على تجار كل نوع من البضائع ، في شكل نقابات ، ينظر : حسن ابراهيم حسن ، **تاريخ الدولة الفاطمية** ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، 1963 .

(11) لا نستطيع تقدير عدد القوافل التي كانت تجهز بين شمال افريقيا والسودان في القرن السادس عشر ، اما في القرن الرابع عشر ، وكان اقل من السادس عشر نشاطا بدون شك ، فقد قدر ابن خلدون في (التاريخ ج 7 ، ص 435 ط . بيروت ، 1963) حجم كل قافلة بما لا يقل عن اثني عشر جملا ، وذهب الى ان كل القرى والمدن الواقعة على مشارف الصحراء الشمالية كانت تشترك في تجهيز تلك القوافل باتجاه السودان .

من النشاط معتبرة . (12) واذا كان القرن السادس عشر قد ظهرت خلاله تمبكتو مدينة السودان الاولى فى علاقاتها التجارية مع بلدان المغرب ومصر ، فان ذلك القرن ، هو الذى أصبحت خلاله تلك المدينة أيضا ، مركزا هاما من مراكز الانتاج الثقافى ضمن ميدان الحضارة الاسلامية الفسيح ، وبذلك لم يقتصر دورها فى هذا الجانب على مجرد التبادل مع جزء من العالم الاسلامى ، وانما تجاوزه الى استيعاب ما أنتجه العالم الاسلامى ككل ، والمشاركة فى تنميته ونشره بين أمم السودان الغربى وشعوبه . (13)

3 ـ حركة التعليم

رأت تمبكتو فى القرن السادس عشر نشاطا فيما يختص بحركة التدريس ، وقد ضمت مدارسها العديد من الطلاب والاساتذة ، كما رأت لأول مرة فى تاريخ السودان الغربى ، اتساع التعليم الجامعى ، وتوارد عليها فى تلك الاثناء عدد من الاساتذة من بلدان المغرب ، فساهموا فى تنشيط التعليم وتعميقه ، (14) وفى تلك الفترة بدأ العلماء السودانيون فى الانتاج ، فكتبوا شروحا لعدد من المؤلفات الهامة التى الفت خارج السودان ، وقد صاحب ذلك انتظام مراحل التعليم ، وأخذه طابعا عاما ، كانت له مميزاته وخصائصه . (15)

---

(12) Cf. J. L. l'Africain, *op.cit.*, pp. 292-96; Dubois, *op.cit.*, chap. XIII.

(13) Incyclopédie de l'Islam, T. IV (S-Z), Leyde, 1934, p. 816.

غير ان صاحب الدراسة يذكر ان تمبكتو قد احتلت من قبل المغاربة فى ايام الاسقيا داود ، والواقع غير هذا ، لان المغاربة لم يدخلوا المدينة كفاتحين الا فى آخر عهد الاسقيا اسحاق الثانى 1591 .

(14) كان من ابرز من وفد عليها من علماء المغرب واكتسبوا بها شهرة فى تلك الاثناء : محمد ابن عبد الكريم المغيلى ، سيدى يحى التادلسى ، مخلوف البلبالى وابراهيم الزلفى ، وكذا عدد هام من علماء توات .

ـ ينظر السعدى ، **المصدر المذكور** ، صفحات 21 ـ 45 ، وعن المغيلى خاصة ينظر تحقيقنا لاسئلة الاسقيا واجوبة المغيلى ، الجزائر ، 1974 .

(15) من الجدير بالذكر هنا ان كل التأثيرات الخارجية التى عرفها السودان الغربى فى ميدان الحضارة ، حتى نهاية القرن السابع عشر ، كان الفضل فيها يعود للمغاربة وللمصريين بالدرجة الاولى ، وبالنظر للعوامل الجغرافية ، فان المغاربة كانوا أكثر تاثيرا من المصريين . اما الاوروبيون فانهم حتى القرن الثامن عشر كانوا لم يتجاوزوا السواحل ، وحتى نهاية القرن السابع عشر ، ظلت معلوماتهم عن الداخل نظرية بحتة ، وحتى نهاية القرن الرابع عشر بقى اكتشاف داخل القارة الافريقية عموما ، والسودان الغربى بشكل خاص ، للعرب وحدهم ، ولعل اول محاولة اوروبية للوصول الى المناطق الواقعة جنوب المغرب الاقصى ، كانت هى رحلة الاخوين (Vivaldi) من جنوا ، اللذين حاولا الوصول الى ريودى ارو (وادى الذهب) سنة 1291 م ولكن غابت اخبارهما من ساعتئذ . وفى 1447 حاول الرحالة (مالفانت) الايطالى الوصول الى تمبكتو عن طريق توات ، ولكنه لم يتمكن ، فبقى اياما فى تلك الواحة ثم عاد ، ومن هنا ، فاننا نميل الى الاعتقاد بان كل تقدم احرزه السودان الغربى فى ميدان التعليم ، ظل اسلاميا وبتاثير من الحضارة العربية وحدها ، وهذا حتى بداية القرن العشرين .

لزيادة التفاصيل ، يراجع بصورة خاصة :

Coquery, Catherine, *La décourerte de l'Afrique*, Paris, 1915.

De Zuraca, C.E., *Chronique de Guinée* (Trad. Bourdon). Paris, 1841, Chap. 9, p. 56.

Ca de Mosto, *Relation de voyages à la Côte occidentale de l'Afrique*, (Trad. Schefer), Paris, 1895, pp. 49-51.

De Baross, J., De Asia, *Lisbonne 1778*, T. I, Chap. 2.

أ) مراحل التعليم

كان التعليم في تمبكتو خلال القرن السادس عشر ، يقسم الى ابتدائي وثانوي وعال ، وكان التعليم الابتدائي تتجسم فيه المرحلة الاولى الاساسية لكل الطلاب ، (16) هذا بالاضافة الى ان مرحلته هي الوحيدة التي يبدو أنه كان يراعى فيها الى حد ما ، مستوى السن، فكان التلاميذ في السلك الابتدائي لا يتجاوزون في أغلبيتهم مرحلة الصبا . (17)

وبعد أن ينهي الطالب مرحلة التعليم الابتدائي ، يدخل مرحلة التعليم الثانوي والعالي ، ولم يكن لهاتين المرحلتين عرف معين في السن ، كما أن الفروق بينهما لم تكن واضحة ، ولعل مرد ذلك الى أن هاتين المرحلتين كان التعليم فيهما حرا بالنسبة لانخراط الطلبة ، (18) أما في المرحلة الابتدائية ، فلا شك أن الآباء هم الذين كانوا يقودون أبناءهم الى معلمي الصبيان ، ويجبرونهم على الدوام ، كما يراقبون مدى استيعابهم . (19) وكانت مرحلة التعليم الثانوي تمتاز بأن الكتب التي تدرس فيها ، هي الكتب المبسطة ، وكان يتولى تدريسها غالبا من يسمون بـ (الاشياخ) . (20) ويبدو أن الاشياخ في العرف العام آنذاك ، كانوا متوسطي الثقافة بالنسبة للاساتذة ، ولكن عددا من الاساتذة تعاطوا ايضا تدريس مثل هذه المؤلفات ، وهذا مما يجعل الانفصال بين المرحلتين واضحا للباحث ، لان أولئك الاساتذة في نفس الوقت كانوا يجمعون الى ذلك ، تدريس أمهات الكتب المفصلة في نفس الموضوع ، ويبدو أنهم كانوا يقسمون أوقاتهم خلال النهار ، فيدرسون مثلا في الصباح لطلاب في مستوى الثانوي ، ثم يجلسون بعد الظهر لطلاب المرحلة العليا أو العكس . (21) ومن هنا يبدو الانتظام في المراحل التي يمر بها الطالب من حيث التدرج في مستويات التعليم بين المراحل ، ووجود منهج قار لكل مرحلة .

---

(16) كان الاساتذة في المرحلتين الثانوية والعالية ، لا يتعاطون تعليم القراءة والكتابة ، ولهذا كان على كل طالب أن يدخل المدرسة الابتدائية أولا ، ليتزود منها بما يمكنه من معرفة القراءة والتسجيل ، وهذا قبل ان يجلس في حلقة اي استاذ كان .

(17) لا يشير المؤرخون السودانيون من تلك الفترة لتلاميذ المرحلة الابتدائية الا بعبارة (الصبيان) . ينظر مثلا :
- **كعت ، نفس المصدر** ، صفحات 95 ـ 178 ـ 180 .
- **السعدي ، نفس المصدر** ، صفحات 19 ـ 22 ـ 130 ... الخ .

(18) كان الاساتذة في هاتين المرحلتين يجلسون للتدريس ، ويتحلق حولهم الطلاب ، ويجلس الطالب في حلقة ما ، حسب رغبته في المادة التي يكون الاستاذ بصدد تدريسها اولا ، ثم حسب قدرته على الفهم والاستيعاب .

(19) تحدث ابن بطوطة (القرن الرابع عشر) عن حرص السودانيين على تحفيظ ابنائهم القرآن وتعليمهم الاخلاق منذ الصغر ، ويذكر من امثلة ذلك عن احدهم انه كتف ابنه بحبل يوم العيد ، ولم يفك وثاقه رغم توسل البعض اليه في ذلك ، حتى حفظ الجزء الذي يطلب منه . ولم يؤثر لنا شيء عن تغير تلك العادة لديهم ، فيما بعد .

(20) تحدث محمود كعت مثلا عن مدرس كان يشرح رسالة ابن ابي زيد القيرواني للاسقيا داود فسماه بـ (الشيخ) . وتحدث كل من السعدي واحمد بابا عن عدد ممن أخذا عليهم ، فوصفا من درسوهما الكتب المفصلة الكبيرة في مادة ما ، مثل الفية ابن مالك والعاصمية بـ (الاساتذة) . ووصفا اللذين كانا قد اخذا عنهم مثل الرسالة وابن عاشر والاجرومية بـ (الاشياخ) . وهناك فريق ثالث كانا قد اخذا عليهم ، مثل الاجرومية والألفية معا ، او الرسالة وخليل ، فوصفاهما بـ (شيخي واستاذي) . ينظر :
- **السعدي ، نفس المصدر** ، صفحات 20 ـ 33 ـ 94 .
- **احمد بابا ، نفس المصدر** ، ص 179 .

(21) احمد بابا ، **المصدر نفسه** ، والسعدي ، **المصدر السابق** ، ص 44 .

ب) المنـــاهج

رأت مناهج التدريس منحى وحدويا بين كل البلدان الاسلامية ، وخاصة منذ القرن الرابع الهجرى . (22) وكان العرف السائد والجارى به العمل ، هو أن التلميذ يدخل الكتاب اولا ، لتعلم القراءة والكتابة والخط ويحفظ شيئا من القرآن ، وقد تساعد امكانيات المعلم على تلقينه أوليات فى الفرائض والحساب واللغة أيضًا . على أن هذا كان قليل الحصول فى بلاد المغرب على ما يظهر ، وظل يغلب على منهج المغاربة فى المرحلة الابتدائية الاقتصار على تحفيظ القرآن مع تعليم الكتابة والخط . (23)

وبما أن السودانيين أخذوا أساليب التعليم مباشرة عن المغاربة ، فــان منهج هؤلاء هو الذى يبدو أنه ظل يجرى به العمل لديهم . (24)

اما مناهج المرحلتين : الثانوية والعالية ، فقد كانت واسعة حقا ، وكانت المواد الاساسية فيهــا ، هي : النحو وفقه اللغــة ، الحديث والفقه ، التفسيــر والتجويد ، التوحيد والمنطق ، ثم الحساب وشىء من العروض . (25) وكانت المناهج فى المرحلتين مرتبطة ببعضها غالبا ، بمعنى أن الطالب يدرس المؤلفات المبسطة فى موضوع مــا ، خــلال المرحلة الاولى (الثانوية) ، ثم يتــدرج الى دراســة المؤلفــات المفصلــة مــع شروحهــا وحواشيهــا بعد ذلــك وفى نفس الموضوع . (26)

ومن المؤكد أن المنــاهج كانت تشمل صفوة ما بلغته الحضارة الاسلاميــة فى ميدان المعــارف ، غير أنه لا يبدو أن تلك المنــاهج قد عصمت الناس مــن بعض الانحراف ، ذلك أن المتتبع لسيرة غالبية المدرسين فى تمبكتو خلال تلك الفترة ، يجد لديهم نوعــا من الصوفية المبالغ فيهــا ، مما حمل الكثيرين مــن

---

(22) ينظر شلبى ، احمد ، **تاريخ التربية الاسلامية** ، دار الكشاف ، بيروت ، 1954 صفحات 117 ـ 186 .

(23) يذكر العلامة ابن خلدون فى تاريخه اختلافا بين المغاربة والمشارقة فى هذا الميدان ، فحواه ان المغاربة يبداون بتحفيظ القــرآن قبل اى شىء آخر ، فى حين كان المشارقة يجمعــون الى ذلك بقية الفعاليات التي توصل التلميذ الى الفهم .

(24) يذكر عبد الرحمان السعــدى ان كل معلمى الكتاب فى تمبكتــو حين قدوم محلة الباشــا جودار سنة 1591 م. كانوا مجرد (معلمى قرآن) ـ انظر ، السعدى ، **نفس المصــدر** ، ص 180 .

(25) احمد بابــا ، **نفس المصدر** ، ص 179 ، والسعدى ، **نفس المصدر** ، ص 20 . هــذا وان المصادر لم تسعفنا بما يؤكــد او ينفى الافتراض بان الطب كان من المــواد التى تحتويهــا المناهج ، مع وجود اشارات الى تداول كتاب السيوطى فى الطب بين الناس ، كما ان عددا من مرضى العيون كانوا يقصدون الاساتذة المشهورين بـ (قدح العيون) على حد تعبيــر محمود كعت ، وكانوا حينما يجدون على ايديهم الشفــاء يقدمون لهم كثيرا من الهدايــا . اما العروض فبالرغم من انــه كان من المــواد التى تــدرس ، الا ان انتــاج السودانيين فى ميدان الشعر ظل ضعيفا فى تلك الفترة . ولعل مرد ذلك الى ان اساس الانتاج الشعرى، لا تكفى فيه معرفة القواعد وحدها .

(26) مما يلفت النظر ان عددا من المؤلفات المغربيــة عرفت فى تمبكتو خلال تلك الفترة ، ولــم تعرف فى المشرق ، مثل جامع المعيار للونشريسى وارجوزة المغيلى فى المنطق ، فقد كانــا من بين المصنفات التى كان يتناولهــا المدرسون بالشرح لطلابهم فى مساجد تمبكتــو ، فى حين ان كتب المشارقة عرفت كلهــا ، سواء فى المغــرب او فى السودان الغربى . ينظــر احمد بابا ، **المصدر السابق** ، ص 182 .

بينهم يعتقدون بالغيبيات ، ويعملون لحمل الناس على تصديقهم ، وكان المتخرجون على أيديهم يتطبعون بتلك الروح في الغالب . (27)

د) امكنة التدريس

كانت امكنة التدريس الاساسية هي المساجد والجوامع ، وكان من اشهرها واكثرها اكتظاظا بجموع الطلبة والمدرسين خلال القرن السادس عشر ، جامع (سنكوري) (28) وهو يقع في القسم الشمالي من مدينة تمبكتو، وقد بنته سيدة فاضلة ، قيل انها كانت من الموسرات ، (29) ثم جامع (دنقربير) ، وكان قد بناه في الاصل أحد الاندلسيين لكانكان موسى صاحب مالي ، (30) ثم ادخلت عليه تحسينات ووسعت مساحته مرتين خلال القرن السادس عشر ، وذلك لكي يسع جموع قاصديه من الطلبة والمصلين ، ويبدو ان تكاثر الازدحام عليه ، هو الذي كان يدعو باستمرار الى العمل على توسيعه . (31) ويأتي بعد هذين مسجد سيدي يحيى ، وقد بني تخليدا لأحد علماء المغرب الذين باشروا التعليم في تمبكتو خلال النصف الاول من القرن

---

(27) زخرت كتابات كل من احمد بابا وعبد الرحمان السعدي ومحمود كعت ، اثناء الحديث عن اشياخهم واساتذتهم ، بذكر كل ما كان يدعي معظمهم الاتصاف به من (معرفة الغيب) و (انطباق ما يرونه في المنام على واقع المستقبل) ، و (توقيفهم لنزول المطر من طلابهم حين يجتمعون بهم في العراء) ، او كـ (انفتاح باب قبر الرسول على مصراعيه لاحدهم حين الحج) ، و (انشقاق مياه النيجر الى شطرين اثناء عبور آخر للنهر) ، وغير ذلك .. وهم يفسرون هذا دائما بكون اولئك العلماء الذين تتفق لهم مثل تلك الخوارق من (اولياء الله) . ولعل مرد ذلك كله الى بقاء الروح الاسطورية القديمة في النفوس ، وليس لما ذهب اليه الاسقيا محمد في رسالته الى المغيلي مثلا ، من ان العلماء في بلاده لا يفهمون العربية فهما جيدا ، ثم يؤدي بهم الادعاء الى القول بما ليس في القرآن ، لان اولئك المدرسين كان يبدو من اعمالهم التضلع الكافي بما يدرسون ، وقد ترك اغلبهم شروحا وحواشي للمواد التي كانوا يدرسونها وقد قيدها عليهم طلابهم ، وبقيت موجودة حتى الان وهي تؤكد تضلعهم في العربية وفي المواد التي كانوا يدرسونها .

(28) اصبح جامع سنكوري في تلك الفترة ، بمثابة جامعة للسودان الغربي كله ، وقد توارد عليها جماعة من الاساتذة اللامعين ، وكانت المواد التي تدرس فيها بتعمق . ينظر بصورة خاصة :

— Delafosse, M., *Haut Sénégal-Niger*, Paris, 1912, T. 2, p. 346.
— Péfontan (Lieut.) « Histoire de Tombouctou », in *Bull. de l'Afrique occidentale, 1922*, (Tirage à part).

(29) بناء السيدات الموسرات للجوامع كان قاعدة مرعية لدى المسلمين على ما يظهر ، ويمكن ان نذكر من امثلة ذلك ايضا ، بناء السيدة فاطمة الفهرية لجامعة القرويين ، كما ان عددا من الخاتونات هي اللائي كن بنين عددا من المساجد في العراق والشام ومصر . ويلاحظ بهذا مدى تأثر التمبكتيين بالتقاليد الاسلامية من المشرق او المغرب على السواء .

(30) الاندلسي ، هو ابو عبد الله الساحلي احد شعراء غرناطة ، وكان معماريا ، ثم التقى في موسم الحج بالسلطان موسى الاول ، فاستقدمه معه الى السودان الغربي حوالي 1326 م وقد بنى في تمبكتو جامعا وقصرا للملك ، كما بنى في (ينى) عاصمة مملكة مالي انذاك ، قصرا آخر ، ويقال انه منذ ذلك الوقت أخذ الاسلوب المغربي - الاندلسي في فن البناء ينتشر بغرب السودان .

(31) وسع جامع سنكوري مرتين خلال القرن السادس عشر وكانت المرة الاخيرة حوالي 1485 وقد قام بذلك القاضي (العاقب) الذي تناهى الينا انه كان يصرف على الاشغال من ماله خاص ، ولم يقبل من بعض الموسرين رغم الحاحهم عليه مشاركتهم له في الانفاق ، الا اشياء رمزية فقط . ومهما يكن فان اعمال التوسيع في حد ذاتها تشير الى تكاثر الطلبة وازدهار التعليم في سنكوري ، مما جعله يحتل المرتبة الاولى بين جوامع تمبكتو في تلك الاثناء . انظر كعت ، **نفس المصدر** ، ص 41 .

السادس عشر ، فاجتهدوا فى تعليمهم وأفادوا الناس . (32) والى جانب هذه المساجد الثلاث ، كان يوجد جامع خالد ، وهو كما يدل اطلاق اسم الجامع عليه ، كان كبيرا نسبيا ، الا أن الدراسة فيه ربما كانت مقتصرة على المرحلة الثانوية فقط . (33)

وقد كانت بعض الجوامع تحتوى على مراحل التعليم الثلاث ، فيجلس فى جانب من الجامع طلبة القرآن مع تلاميذهم ، ويجلس فى فنائه وقاعاته غالبا أشياخ التعليم الثانوى وأساتذة التعليم العالى . (34) ولكن طلبة القرآن فى الغالب ، كانوا يتخذون دكاكين خاصة لعملهم أو يلتصقون بجنبات المساجد الصغيرة ، (35) كما أن بعض الاساتذة وكذلك الاشياخ ، كانوا أحيانا يتعاطون التدريس فى منازلهم ، الا أن هذا كان فى حالات قليلة ، أما غالب جلوسهم ، فقد كان فى رحاب المساجد والجوامع . (36)

هـ) طريقة التدريس

كانت المناقشة بين الاستاذ وطلابه جاريا بها العمل ، (36) أما التواضع ولين الجانب للطلبة ، فقد كانا من شيم الاساتذة اللامعين بتمبكتو فى تلك الفترة ، (37) وكان صبر الاستاذ على تفهيم طلبته يعتبره الناس من صفات الاساتذة الناجحين فى مهنتهم ، (38) وكانت الطريقة الشائعة فى الدرس ، هى أن يبدأ الاستاذ باملاء رأيه فى المسائل على طلبته ، وبعدها يقرأ الطلاب درسهم من الكتاب المقرر بحضور الاستاذ ، ثم يطلب كل منهم توضيح ما يشكل عليه ، وأثناء ذلك يقيد الطلبة التفاسير التى يعطيها الاستاذ كجواب على استفساراتهم . (39)

ويبدو أنه أثناء الشرح كان الاساتذة يختارون العبارات المبسطة لكى يتمكن طلابهم من استيعاب ما يقولون . (40) ولعلنا اذا أردنا أن نوجز معالم

---

(32) هو يحى التادلسى ، وقد سكن تمبكتو ، وكان فى حياته قد اتخذ فى مكان ذلك المسجد بيتا صغيرا للتدريس ، ويقول كعت : ان أهل تمبكتو (كانوا يعتقدون فيه) . فلما مات بنوا على قبره ذلك المسجد . وقد تحول سريعا الى جامع كما يبدو لتكاثر سكان الحى الموجود به ، ولازدهار التدريس فى المدينة ككل ، مما جعل الطلبة والمدرسين يملأون كل الرحاب .

(33) لا يذكره محمود كعت الا كجامع صغير ، ورغم ذلك فقد كان يتوارد عليه الطلبة والمعلمون ، ويفهم من كلامه انه كان يوجد بالمدينه آنذاك ، كثير من المساجد الصغيرة غيره ، ينظر كعت ، **المصدر السابق** ، ص 38 .

(34) هذا ما يفهم من كلام السعدى اثناء الحديث عن تمبكتو فى عهد الاسقيا داود ، انظر السعدى ، **نفس المصدر** ، ص 47 .

(35) كانت المدارس الابتدائية الخاصة بمعلمى الكتاب (خارج المساجد) قد تراوحت فى تلك الفترة بين مائة وخمسين ، الى مائة وثمانين مكتبا ، وكان معظمها يحتوى على العديد من التلاميذ ، وقد ذكر عن واحد من بينها ، وهو مكتب المعلم (على تكريا) انه كان يضم فى سنة 1591 م. أكثر من 123 تلميذا . (ينظر كعت ، **المصدر السابق** ، ص 180) .

(36) يشير الى ذلك بوضوح كل من أحمد بابا والسعدى ، اثناء الحديث عن أساتذتهم وأشياخهما . (انظر السعدى ، **المصدر السابق** ، صفحات 19 ـ 46 ، وأحمد بابا **المصدر السابق** ، ص 279)

(36) السعدى ، **المصدر المذكور** ، ص 46 .

(37) **المصدر نفسه** .

(38) **المصدر نفسه** ، ص 44 .

(39) أحمد بابا ، **المصدر السابق** ، ص 376 .

(40) **المصدر نفسه** ، والسعدى ، **المصدر السابق** ، ص 46 .

الطريقة المثلى فى اعتبار الناس آنذاك ، فاننا ربما نجد فى أبيات المرثية التالية ، وهى من تلك الفترة ، خير معبر عن ذلك : (41)

اطلاب علم الفقه تدرون ما الذى يثير هموم القلب من كل وافد ؟
يثير هموم القلب فقد سميدع فقيه حليم حامل للفرائد
بحسن تعليم مقرب فهمه وفتاق تهذيب بحسن الفوائد
محمد الاستاذ مؤدب ذى النهى رباطا صبارا امره فى التزايد

ويضاف الى هذا أن المدرسين على اختلاف مستوياتهم ، لم يكونوا يلتزمون بالتوقف عند مادة بعينها ، بل انهم كانوا يتصدون غالبا لتدريس مواد عديدة ، ولكنهم لا يدرسون الا المواد التى يكونون قد أتقنوها وأجيزوا فيها . (42)

و) الاجازات

عرف المدرسون والطلاب فى تمبكتو خلال القرن السادس عشر نظام الشهادات ، كما عرفته البلاد الاسلامية الاخرى ، وبما أن طلب العلم كان يتصف بالحرية التامة ، فيما يتصل بالطلاب ، فانه يبدو أن الاساتذة أيضا ، كانوا لا يجيزون الطلاب الا بعد التأكد من تمكنهم فى المواد التى يدرسونها لهم . (43)

أما طريقة الاجازة ، فقد كانت بسيطة ، ولكنها كانت مما يتلاءم والطريقة الحصيفة التى تستند الى تأكد الاستاذ من أن الطالب يكون قد أحرز على التمكن الكافى فى مادة بعينها ، ذلك أن الاستاذ لا يراعى أية شكليات فى منح الاجازة لطالب العلم على يديه ، ولكنه يراعى بدقة ، مدى الكفاءة التى يكون الطالب قد حصل عليها . (44) وقد كانت الشهادات تعطى فردية ، بمعنى أن الطالب يستطيع الحصول على شهادة من الاستاذ ، فى المواد التى يتقنها ذلك الاستاذ ويتعاطى تدريسها ، ولكنه يبقى طالبا فى مواد أخرى . وبناء على هذا ، فان الشهادات كانت فى شكل انطباع يسجله الاستاذ على مذكرات الطالب فى مادة

(41) الابيات للشيخ يحى التادلسى ، الذى كان احد المدرسين اللامعين بتمبكتو آنذاك . اما المرثى ، فهو محمد الكابرى احد المدرسين الكبار فى جامعة (سنكرى) فى تلك الاثناء . وقد اقتصرنا هنا على ايراد الابيات المتعلقة منها بتبيين طريقة الكابرى فى التدريس ، وقد اورد المرثية كاملة السعدى ، **المصدر السابق** ، ص 49

(42) لعل مما يجدر ذكره هنا ، ان طريقة الاختصاص بمادة واحدة ، لم يكن يعرفها العالم قبل القرون الثلاثة الاخيرة من تاريخه . اما فى السابق فان اسلوب (الموسوعات) هو الذى كان يجرى به العمل عند كل الامم .

(43) ذكر كل من احمد بابا والسعدى عديدا من الاساتذة والاشياخ الذين كانا قد اخذا عليهم العلم ، ولكنهما لا يشيران لمن اجازوهما من بين اولئك الاساتذة ، على كثرتهم ، الا للقليل ، بحيث لا يتجاوز عددهم اثنين او ثلاثة فقط .

44) يجد المتتبع لحالات الاجازات التى اعطيت فى ذلك الوقت ، ان الطلبة الذين يكونون قد لازموا مجلس الاستاذ لفترة طويلة ، واصبحوا حجة فى المواد التى يدرسها استاذهم هم وحدهم الذين اعطيت لهم الاجازة فى تلك المواد . وبعض الذين اعطيت لهم شهادات ، كانوا قد بلغوا درجة من التحصيل والتمكن ، جعلت استاذهم يضطر احيانا لنقل بعض تعليقاتهم على المسائل واجتهاداتهم فيها ، ويدرسها لطلاب آخرين بمحضر منهم . ينظر احمد بابا ، **نفس المصدر** ، ص 79 ، والسعدى ، **نفس المصدر** ، ص 46) .

أو أكثر ، بعد أن يكون هذا الاخير ، قد اطلع على كل المؤلفات الكبيرة والصغيرة فى موضوعها ، وأجاد تحصيل المعلومات الموجودة بها . (45)

ومن ناحية أخرى ، فقد كان الاساتذة يتحرون فى العبارات التى يكتبون بها الشهادات للطلاب ، بحيث ينحصر محتواها فى نطاق المعلومات التى يتقنها الاستاذ المدرس ، ولا يتجاوزها لغيرها (46) . ومن هنا يتضح مدى الدقة فى نظام تلك الاجازات ، رغم بساطته .

ز) تنقلات الاساتذة والطلاب

كان توارد الاساتذة من بلدان المغرب على تمبكتو قد أخذ شكلا أوسع خلال القرن السادس عشر . وكانت نسبة كبيرة من المدرسين بتلك المدينة من بلدان المغرب . (47) أما الطلبة فقد كانت لهم خلال القرن السادس عشر حركة نشيطة وراء طلب العلم ، وأكثر الذين كانوا يردون على تمبكتو كانوا من المناطق الغربية . (48) وكثير من الطلبة كانوا حينما ينهون دراستهم فى تمبكتو ، ينتقلون الى المغرب الاقصى أو الى المشرق . أما الى المغرب ، فانهم كانوا يذهبون الى مدينة مراكش بالدرجة الاولى ، وبعضهم كان يقصد فاس . (49) كما كان العديد من الحجيج يغتنمون الفرصة اثناء ذهابهم الى المشرق ، فيجالسون العلماء اللامعين بمصر والحجاز ، وقد تطول اقامة بعضهم عدة سنين فلا يعودون الى تمبكتو الا بعد أن يكونوا قد حصلوا على عدد من الاجازات . (50) وقد عرف عن سكان تمبكتو حرصهم على تهيئة كل ما يمكن لهم تقديمه من أنواع المساعدات للطلبة الذين كانوا يقصدون مدينتهم ، وقد كان لاولئك الطلبة مشاركة اجتماعية واسعة فى ولائم الافراح والجنائز . (52)

---

(45) يقول احمد بابا عن إحد الاساتذة الذين اجازوه : « احضرت إنا عليه إشياء عدة ، واجازنى فى جميع ما يجوز له وعنه ، وكتب لى بخط يده » ، **نيل الابتهاج** ، ص 79 . ولعل بهذا تثبت امامنا صورة الشهادة كما كانت تعطى . اما عبد الرحمان السعدى ، فيقول عن استاذه الذى اعطاه اجازة : « باحثته كثيرا فى المشكلات ، وراجعته فى المهمات ، وبالجملة فهو شيخى واستاذى ، ما نفعنى احد كنفعه وبكتبه ... واجازنى بخطه جميع مما يجوز له وعنه) ، **تاريخ السودان** ، ص 46 .

(46) **المصدر نفسه** ، صفحات 20 ـ 48 .

(47) منذ القرن الثالث عشر انتقل عدد من علماء (والاتا) الى تمبكتو ، كنتيجة لانتقال مركز التجارة بين المغرب والسودان الغربى ، الى تلك المدينة ، وكانوا فى اغلبهم من صنهاجة ومسوفة ، وهما قبيلتان مغربيتان سكنتا مشارف الصحراء فى عصور سابقة . والى قبيلة صنهاجة ينتسب احمد بابا ، ويقال ان نهر السنغال اخذ اسمه من اسم صنهاجة . اما خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، فقد كان كثير من التجار الذين وفدوا على تمبكتو يطيب لهم البقاء بين اهلها ، ويباشرون التعليم فيجدون اقبالا كبيرا على دروسهم ، وحينما زار ابن بطوطة تلك المنطقة فى القرن الرابع عشر وجد جماعة من معارفه مقيمين هناك ويتعاطون التدريس ، اما فى القرن السادس عشر ، فان معظم من ذكرهم احمد بابا والسعدى كاساتذة لامعين فى تمبكتو كانوا من أصول مغربية ، ويسجل محمود كعت وجود كثير من العلماء جاءوا من توات ، وإقاموا بتمبكتو خلال ذلك القرن

(48) كعت ، **نفس المصدر** ، ص 180 .

(49) احمد بابا ، **نفس المصدر** ، صفحات 84 ـ 79 ـ 273 .

(50) السعدى ، **المصدر السابق** صفحات 20 ـ 43 .

(51) **نفس المصدر** .

(52) كعت ، **المصدر السابق** ، ص 179 ، والسعدى ، **المصدر السابق** ، ص 22 .

ن) التعليم المهنـــي

لا يوجد فى كتابات المؤرخين من تلك الفتـرة ما يشير الى وجود تعليـم مهنى منظم فى تمبكتو الا فى ميدان الخياطـة . (53) وهذا بالرغـم من وجـود دكاكين يبدو أنها كانت عديدة ومتنوعة يشغلهـا أصحاب الحرف المختلفـة فى تلك المدينة . (54) أما فى ميدان الخياطة ، فانه يبدو أن المدينه كان بها تعليم منظم الى حد ما ، وكان طلابه كثيرين ، فقد ذكر كعت أنه كان يوجد بها حوالى (ستة وعشرون بيتا من بيوت الخياطين) ، وكلها من النـوع المتخصص فى تعليم مهنة الخياطة ، وكانت تسمى باللهجة المحلية (تند) بكسر الاول والاخير وسكون الوسط ، (55) وكان كل بيت من بينها يتراوح عدد الطلبه فيه بيـن خمسين الى سبعين طالبـا ، ويتولى التدريس فى كل بيت من بينها معلمـون متخصصون فى تعليـم تلـك المهنـة ، يـدعى كـل واحـد منهـم (الشيـخ الرئيس) . (56) ولا ندرى كيف كان يقبل الطلبـة فى كل مدرسة من تلـك المدارس ، غير اننا اذا قارنـا بما كان يوجد فى الجزائر انـذاك ، لان تمبكتـو كانت كثيرا ما تقلد المغاربـة ، نجد أنهم ربما كانـوا يدخلون تلك المـدارس المهنية ليشتغلوا بدون أجرة ، وذلك حتى يتقنوا الحرفة ويحذقونها . أما قبـل الوصول الى مثل هذه الغاية ، فان أجرتهم انما تقابل فى العادة بما يتعلمونـه مجانـا . (57)

خـاتمـــة

لقد حظيت مدينة تمبكتو خلال القـرن السادس عشر ، بما لم تحظ بـه مدينة أخرى فى غرب افريقيا فى ذلك الوقت . وكان من أبرز العـوامل التى هيأت لها ذلك ، ازدهار الحركة التعليمية بها فى المقام الاول . (58) ولذا اخذت نوعا من (القداسة) فى نظر الناس ، (59) مما حمل الحكومة على اسناد جميع امور الناس فيها للقاضى . (60) وقد بلغت شهرتها الآفاق فقصدها الطـلاب من جميع بلاد السودان، كما توارد عليها بعض الطلبة من مراكش أيضا . (61) اما الاساتذة فقد كان عدد كبير من بينهم مغاربة ، (62) وبهذه الصورة قامت

---

(53) عرفت بلاد المغرب فى تلك الفتـرة تعليما حرفيا كان يشمل الحياكـة والخياطة والنجـارة وبعض الحرف الاخرى المشابهة لها . ـ ينظـر (ابن مريم ، المديونى ـ البستان فى ذكـر الاولياء والعلماء بتلمسان ـ تحقيـق ابن ابى شنب) (م. الثعالبيـة) الجـزائر 1908 ص 63 .

J. Léon l'Africain, *op.cit.*, p. 293.

(55) كعـت ، **المصدر السابق** ، ص 180 .

(56) لا ندرى أصل هذه التسمية ، غير ان المعروف عن ابن سينا ، الفيلسوف الطبيب ، انـه كان قد لقب بمثـل هذه العبـارة ، ولعل اطلاقهـا كان يختص بمن يتقنـون حرفة مـا ، ويعلمونها للناس .

(57) ابن مريـم ، **نفس المصدر** ، ص 63 ـ 169 .

(58) يقول كعت انها أى تمبكتو كانت « يومئذ (1591 م) لا نظير لها فى البلدان ، من بـلاد السودان الى اقصى بلاد المغـرب » ، ثم يقرن ذلك بالحركة الثقافيـة فيقول عن أهلهـا ، انهم كانوا من أكثر الناس (تلطفـا بطلبة العلم واعانتهم ... كثر قراؤها وادباؤها مـن كوكى الى جنى) (**المصدر السابق** ، ص 179)

(59) W.R. July, *A History of the African people*, London (Faber), 1970, p. 68.

(60) كعـت ، **نفس المصدر** ، ص 180 .

(61) السعـدى ، **نفس المصدر** ، ص 44 .

(62) واعتمادا على هذا يقول السعدى ابن تنبكت الذى احبها من كل قلبه : (ما اتتها العمـارة الا من المغرب ، سواء فى الديانات او المعاملات) ، **نفس المصدر** ، ص 21 .

تلك المدينة بدور كبير فيما يتعلق بنشر الثقافة فى سهوب السودان الغـربى كلها ، كما اصبحت من بين المراكز الهامة فى العالم الاسلامى جميعه واسفـر ذلك عن تحضر السكان بها ولين عريكتهم وصلاح حالهم . (63) ولكن الباحث رغم ذلك كله ، لا يستطيع استجلاء كل المعلومات الكافية حول الازدهار الاكيد الذى عرفته المدينـة فى حقل التعليـم ، ولا يعـود ذلـك فقط لشح المصـادر الموجودة حول هذا الموضوع ، وانما يعـود ايضا لندرتها . ولنا الامـل فى أن يسفر النشاط الواسع الذى يقـوم به الباحثون حاليـا فى مختلف جامعـات العالم ومؤسسات البحث المنتشرة فى أرجائه ، عن نتائج طيبة فى موضوعات التاريـخ الافـريقى جميعهـا ، وكلها لا يزال الغمـوض يكتنف العـديد مـن جوانبها حتى الآن .

(63) يقول كعت فى هذا المعنى : (الا من خص الله به أهل تمبكتو ، ونرى من بينهم مائة رجـل ليـس لأحد منهم حريش ولا سيف ولا مدينة) ، **نفس المصدر** ، ص 180 .

عبد الرحمن الاخضرى واطوار السلفية فى الجزائر (*)

المهدى البوعبدلى
بحاثة فى التاريخ ومكلف بمهمة
لدى وزارة الشؤون الدينية



قبل أن اتعرض لترجمة نبذة من حياة عبد الرحمن الاخضرى ونشاطه فى مختلف ميادين الثقافة، نذكر بايجاز دور علماء الجزائر البارز فى السلفية ، ومساهمتهم فى المعارك التى اثارتها ، منذ ظهورها بصفة جلية ، فى بلاد المشرق والمغرب ، ابتداء من القرن السابع الهجرى .

وانى ساتناول بالبحث الظروف التى ظهرت فيها السلفية ، وطريق تسربها الى الجزائر ، وظهور انصارها فى الاوساط العلمية بالجزائر ، الى عهد عبد الرحمن الاخضرى ، ثم مواصلة مسيرتها الى أوائل القرن الجارى ، من غير تعرض للتفاصيل كانت السلفية تتلخص فيما أوصى به النبي (ص) فى خطبته المنهجية فى حجة الوداع التى قال فيها : « انى تركت فيكم ما ان استعصمتم به لن تضلوا أبدا ، كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، أو كما قال وعندما انتشر الاسلام ، وظهرت المذاهب لمختلف الملل والنحل ، وكان من بينها

(*) محاضرة القاها يوم 16 ماي 1974 م بالمركز الثقافى الاسلامى بالعاصمة .

مذهب التصوف ، الذى اسرف بعض أئمته ، وتغالوا فى الدعوة الى التحرر من التقاليد ، واسقاط التكاليف ، وزاد الامر تعكرا عندما ظهرت لكثير من ائمة التصوف طرق ، اقبل عليها كثير من العوام ، فعندئذ ، ظهر رد فعل الفقهاء ، الذين ضاقوا ذرعا بهذه التعاليم ، خصوصا بعد محاكمة الحسين بن منصور الحلاج ، الذى كان من دعاة مذهب الحلول ، كان رد فعل الفقهاء الذين انضم اليهم كثير من المحدثين ، اتهام المتصوفة بالمروق من الدين ، حيث اتهموا بأن تعاليمهم مستمدة من مذاهب غير اسلامية ، ان هذا الموضوع قتل بحثا ، وليس المقصود فى هذه المحاضرة التعرض لبحث الخلافات المذهبية اذ ذاك ، وانما ذكرت ذلك كتوطية ، ومدخل لموضوع البحث ٠

اشتدت حملة الفقهاء والمحدثين على التصوف ، حتى ظن انه اختفى للابد ، اذ صار جل المنتسبين اليه يرمون بالزندقة ٠ وفى القرن الخامس الهجرى ظهر العالم الشهير ، أبو حامد الغزالى الذى امكنه ان يهذب علم التصوف ، وحاول التوفيق بينه وبين علوم السنة ، وبالفعل جعل منه علما الى جانب ما فيه من العمل وجعل فيه بنوع خاص طريقا الى المعرفة اليقينية ٠ وقد تلقى أهل السنة تعاليم الغزالى بالقبول الحسن وأسر الفقهاء على مواقفهم منه ، خصوصا فقهاء المغرب العربى والاندلس مما هو مشهور ، وقد شذ من بينهم فقيه جزائرى له مكانته انتصر للغزالى وهو أبو الفضل ابن النحوى صاحب المنفرجة الشهير ، دفين قلعة بنى حماد ، وبعد ظهور دولة الموحدين ، مر الخطر الذى كان يهدد تعاليم الغزالى خصوصا فى المغرب العربى ، اما فى المشرق ، فقد ظهرت حملة ضد تعاليمه أهمها تآليف أبى الفرج عبد الرحمن الجوزى البغدادى ، المتوفى سنة 597 هـ ، ثم ظهر بعد الغزالى ، ائمة آخرون ، مثل محيى الدين ابن عربى وابن سبعين ، وتلميذه الششترى ، فاثاروا المشاكل من جديد ولم ينج من الحكم بالاعدام الا بمعجزة وقد تصدى لهم الامام ابن تيمية فى عهده فحكم على اكثرهم بالكفر ، والحق بهم العلماء الذين ايدوهم ، أو وقفوا مواقف سلبية ، ازاء دعوتهم ، كما تطرق ابن تيمية الى انكار التوسل وزيارة القبور الى ان اتهمه خصومه بانه منع زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكانت هذه التهمة من جملة التهم التى جرت له الويلات وسجن الى ان مات فى سجنه ٠ ترك ابن تيمية تآليف عديدة ، وتلاميذ لا يقلون عنه رتبة فنشروا تعاليمه وتآليفه التى ركز عليها محمد ابن عبد الوهاب مذهب الوهابية فيما بعد ٠

لنرجع الى السلفية بالجزائر ، فنجدها تسربت اليها على طريق عالم سلفى شهير هو أبو الحسن على بن عبد الحق الزرويلى الشهير بالصغير وبالصغير قاضى مدينة فاس ، فى أوائل القرن الثامن اذ توفى عن سن عالية سنة 719 هـ .

اشتهر أبو الحسن الصغير هذا فى المغرب ، بما اشتهر به معاصره ابن تيمية فى المشرق والفرق بينهما ، أن أبا الحسن كان فقيها مالكيا ، وأهل المغرب كلهم مالكيون بخلاف ابن تيمية ، فكان حنبليا ، وفى المشرق علماء ينتمون الى جميع المذاهب كما أن أبا الحسن الزرويلى كان نشاطه السلفي فى اطار المذهب السنى بخلاف ابن تيمية فان خصومه اتهموه بأنه كان يصرح بأن المقصود من شد الرحال الى المدينة المنورة هي الصلاة فى مسجدها ، لا زيارة قبر الرسول صلى الله وسلم وهذا لا يقول به فقيه سنى انتصر لتعاليم أبى الحسن الصغير بعض علماء الجزائر ، وفى مقدمتهم أعلم أهل عصره ، الحافظ ابن مرزوق الحفيد الذى أشاد بالفقيه المذكور ، ورد على زميله قاسم العقبانى التلمسانى الذى ألف رسالة انتصر فيها لمتصوفة زمانه ، وقد سمى ابن مرزوق تأليفه: « النصح الخالص فى الرد على مدعى رتبة الكامل الناقص » ، ثم ترجم لابى الحسن الصغير فقال : (انه شيخ الاسلام ما عاصره مثله ولا كان مثله فيما قارب عصره ، وبمقامه في الفقه يضرب المثل ، قد جمع بين العلم والعمل الخ .. وقد كان من جملة انصار قاسم العقبانى بعض اكابر العلماء ، مثل الشيخ عبد الرحمن الثعالبى دفين الجزائر ، الذى هو من تلامذه الامام ابن مرزوق المذكور ، كما انتصر للعقباني الامام أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسى الشهير بتآليفه ، فى علم التوحيد وقد خص هذه المعركة بتأليف سماه « نصرة الفقير ، فى الرد على ابى الحسن (1) الصغير » وقد كان مسرح هذه المعارك كتب النوازل ، كالدور المكنونة فى نوازل مازونة ، وفتاوى أحمد بن يحيى الونشريسى المجموعة ، فى المعيار ، وقد جمعت معظم هذه الفتاوى فى تأليف خاص مفيد فى موضوعه جمعت فيه فتاوى علماء الجزائر والاندلس وقد كان واضع هذه القضية على بساط المناقشة ، أبا فارس عبد العزيز القيروانى تلميذ أبى الحسن الصغير ، وشارك فيها بين محبذ ومنكر ، من الجزائريين عبد الرحمن الوغليسى فقيه بجاية الشهير ، وابن مرزوق الحفيد التلمسانى وسعيد العقبانى التلمسانى وعيسى الغبرينى البجائى ولد أحمد الغبرينى صاحب عنوان الدراية ومن غير الجزائريين والشاطبى وأبو سعيد ابن لب الاندلسى وأبو بكر الطرطوشى .

(1) ابى الحسن الصغير هو غير الاول ناشر مذهب السلفية بالمغرب .

وقد كان تأليف الامام السنوسى يختلف عن معظم الفتاوى المذكورة ، اذ تعـرض فيه صاحبه لنقض أفكار أبى الحسن الصغير جملة جملة ، وقد ذكر فى مفتتحة الاسباب الداعية الى تأليفه ، حيث قال : « لمـا لقيت الشاب الفقيه أبـا العبـاس أحمد رزوق ، وسألته عنه (أي عن أبى الحسن الصغير) لمـا قدم سنـة 841 قاصدا الحج الخ .. والمتأمل يشك فى نسبة هـذا التأليف للسنوسى ، فهو زيـادة على اهمـال مترجمى السنوسى لذكره ، ضمن مؤلفاته فيه عبارات بذيئة يتنزه عنها السنوسى الذى اشتهـر بالنزاهة والاعتدال وهو على سنن أستاذه الثعالبى الذى نجده ، عندما نتعرض لنفس الموضوع فى بعض تآليفه قال : « وقد وقفت على كتاب تلبيس ابليس ، فذكر أنواعا من الكلام يقع فى أكابر العلماء الذين جمعوا بين العلم الظاهر والباطن ، المجمع عـلى فضيلهم ، فوقع فى الغزالى ، وفى المحاسبى وأبى القاسم القشيرى ، وبالجملة طعـن على هؤلاء وضربائهم ، المجمع على فضلهم فى زماننا هذا ، ولما وقف شيخنا أبو مهدى عيسى الغبرينى خاتمة علماء افريقيا ، على هذا الكتاب وتأمله ، القاه من يده وقـال له عليك والله لبشر ابليس يا مسكين ، ورأيت هذا الكتاب هناك ـ أي بتونس ـ مهجورا لا يلتفت اليه ، وزعم كاتبه ان للجوزى ، وليس هو ان شاء الله بالجوزى صاحـب المورد ، الذى ألف كتبا عديدة فى المواعظ وحكايات الصالحين » والكتاب هو مـن تاليف أبى الفرج البغدادى المتوفى سنة 597 الذى تقدم لنا الحديث عنه تقتصر عـلى هذا القدر من مواقف بعض علماء الجزائر ، وهم بين محبذ ومنكر ، على قضية شائكة لفتت أنظار علمـاء الدين قـرونا ولا زالت تحدث الهزات العنيفة ، المرة بعد المـرة ، وتشغل الرأي العام العالمى ، وتثـير انتباهه ، وانطباعاته ، وكثيرا مـا شـارك فيها الاجانب ، وتداخل فيها المستشرقون طورا .

ثم تبنت الجزائر آخر للسلفية فى آخر عهدها ، وكانت قرية تامقرة بنواحى بجاية هي منطلق المذهب الجديد ، وهو الذى له ارتباط وصلة بموضوع هذه المحاضرة التى ركزناها على ترجمة عبد الرحمن الاخضرى ، الذى كان له الفضل فى تعميم المذهب الجـــديد .

ختم المطاف بالعالم أحمد زروق الفاسى الشهير الذى أقام بتامقره فى معهد يحيى العبدلى وألف فيه معظم كتبه التى ضبط فيها علم التصوف اقتداء بالغزالى ، اذ شاهد زروق بعد اقامته الطويلة بـين تلمسان والعاصمة وقسنطينة ، شـاهد الفوضى التى ادخلها العوام ، واشباههم على علم التصوف ، خصوصا المحترفين ، من مقترفى البدع فكرس حياته وألف كتبه المشهورة كقواعد التصوف «وأصول الطريقة» و «كتاب البدع»

هذه التآليف كتب لهـا الخلود ، وصارت حجـة عند المتصوفين الملتزمين ، وعلماء الحديث والفقه فى آن واحد ، وأجمع مترجمو زروق بانه خاتمة الجامعين بين الحقيقة والشريعة وقد ساعده على اداء مهمته تضلعه فى علوم الحديث والتفسير والفقـــه ، ثم استقامته المثالية ونزاهته حتى صار حكما عند جل الطوائف ، كان انتشار مذهبه ، على طريق تلميذه محمد بن على الخروبى دفـين الجزائر وأب تلميذه عبد الرحمن الاخضرى ، موضوع حديثنا ، واذا كان الخروبى اشتهر فى الاوساط الخاصة ، فان الاخضرى عمم نشر المذهب فى الطبقات العامة حيث كان جل معاهد التعليم بالبــلاد يلزمون طلبتهم بحفظ منظومة القديسة عن ظاهر قلب كان عبد الرحمن الاخضرى من اسرة علمية ، توارث أفرادها العلم قرونا ، وهو من بنطيوس الزاب الجزائرى ، وامتاز هو من بين أفراد أسرته بالنبوغ ، فقد نظم السراج فى الفلك وهو ابن سبع عشرة سنة ، كما نظم « ازهار المطالب فى علم الاسطرلاب » وهو ابن عشرين سنة ، اما تآليفه فى بقيـة فروع المعرفة ، وفنونها فهي تـربو على الثلاثين ، وقد وقـع الاقبال عليها مـن جامعات العالم الاسلامى كالازهر والزيتونة والقرويين اذ ادخلت فى برامج التعليم منذ ظهورها ، وتولى فطاحل علماء المشرق والمغرب شرحها والتعليق عليها ومنها منظومة القدسية ، وان لم يسعنا مجال هذه المحاضرة لتتبع مراحل حياته ، فلا يفوتنا ان نذكر ان والده تتلمذ على الزروق ، واخذ الزروق بدوره عن بعض أفراد أسرته حيث نجـد ذكر الاخضرى ضمن مشائخه ، وقد اجمع مترجمو الاخضرى ، انه لم يعمر طويــلا ومات حوالى سنة 953 هـ وهو من مواليد سنة 920 هـ وفى هذه السنوات الاخيرة اكتشف احد افاضل علماء الزاب وثيقة تدل على انه توفى سنة احدى وثمانين وتسعمائة ، أذ عثر على تاليف له نظم فيه الاجرومية قال فى ختامه :

تـــم بحمـد اللـــه مـــا قصـدنا	مـــن نظـم هـذه التـى أردنــا
سميتهـــا بـالـــدرة البهيـــة	فهـي لـــا فى أصلهـــا محـويـة
وكـــان فـــى محـــرم الحـــرام	بـــدءا وختـتمنـا لـذا النظـــام
فى عـــام احـدى وثمـانين سنـــة	

فتبين انـــه جاوز الخمسين سنة مـــن بعد تسعمائة مستحسنة وفى هذه الظروف كان تدهور البلاد بلغ نهايته فبجاية العاصمة الثانية لدولة بنى حفص سقطت فى ايــدى الاسبان ، ثم لحقتها العاصمة الاولى المركزية تونس ، وبلغ الضعف والتخاذل ببقايا الدولة الحفصية ، الى ان صاروا يستعينون بالاسبان لاخراج خير الدين باشا ، فثارت القبائل واغتنم الفرصة رؤساء الاقطاع فصاروا يستعينون برجال الدين الذين كــان

فيهم الغث والسمين ، وقد اهتم عبد الرحمن الاخضرى ، بتصوير حالة البلاد ، فى عدة قصائد ، مثل الوصية ، والاستغاثة ، وخصص القدسية التى تحتوى على 357 بيتا، لمتصوفة زمانه فقال فيهم :

قد ادعوا مراتبا جليلة   والشرع قد تجنبوا سبيله
قد نبذوا شريعة الرسول   فالقوم قد حادوا عن السبيل
لم يدخلوا دائرة الطريقة   فضلا عن دائرة الحقيقة
لم يقتدوا بسيد الانام   فخرجوا عن ملة الاسلام
قد ملكت قلوبهم اوهام   فالقوم ابليس لهم امام
كفاك من جميعهم خيانة   اذ ختلوا الدنيا بالديانة

الى ان يقول :

من كان فى نيل الامانى راجيا   وعن شريعة الرسول نائيا
فانه ملتبس مفتون   وعقله مختبل مجنون

ثم يتعرض للمتصوف الحقيقى فيصفه بقوله :

واعلم بان الولى الربانى - لتابع السنة والقرآن
والفرق بين الافك والصواب   يعرف بالسنة والكتاب
والشرع ميزان الامور كلها   وشاهد لاصلها وفرعها
والشرع نور الحق منه قد بدا   فانفجرت منه ينابيع الهدى

ثم ينتقل الى وصف حالة البلاد اذ ذاك فيقول :

هذا زمان كثرت فيه البدع   واضطربت عليه امواج الخدع
وخسفت شمس الهدى وافلت   من بعدما قد بزغت وكملت
والدين قد تهدمت اركانه   والزور طابق الهوى خانه
وظلمات الزور والبهتان   تزخرفت فى جملة الاوطان

ثم يرجع الى ما قاله فى وصف الولى الحقيقى فيؤكد ذلك بقوله :

وقابل بعض السادة الصوفية   مقالة جليلة صفية

اذا رايت رجلا يطير ... أو فوق ماء البحر قد يسير
ولم يقف عند حدود الشرع ... فانه مستدرج وبدعي
فارفضه انما الفتى دجال ... ليس له التحقيق والكمال

ثم يختم هذا الفصل ويعترف بانه استمده من شيخ شيوخه وشيخ والده زروق فيقول :

ومن يرد معرفة بالبدع ... وما انبنا عليه اصل المدع
ففى كتاب شيخنا الزروق ... فوائد بديعة الفتوق

ثم يعود مرة أخرى الى متصوفة زمانه الذين شوهوا نسبة الطريق بانحرافاتهم وتحملهم مسؤولية هجرانها فيقول :

واحسرتى على الصراط المستقيم ... قد ادعاها كل افاك اثيم
قد اشرفوا على كهوف الكفر ... وستروا بدعتهم بالفقر
واتخذوا مشائخنا جهالا ... لم يعرفوا الحرام والحلال
لم يقفوا عند حدود الله ... سنة الهادى رسول الله
فنفروهم من رعاة الدين ... أولى التقى والعلم اليقين
فاعرضوا عن سبل الرحمن ... واتبعوا مسالك الشيطان
وهدموا قواعد الاسلام ... واعتبروا خرائف الاوهام
وعكسوا حقائق الامور ... ونصبوا حبائل الفجور
وأولعوا بشهوات النفس ... بكل بدعى لهم تأسى

الى ان يقول :

آه على طريقة قد ذهبت ... وهميت أصولها وقلبت
وهاج افك المدعى فيها ... وصار من يطلبها سفيها
آها على طريقة الكمال ... افسدها طائفة الضلال
طريقة افسدها اهل البدع ... فتركت مهجورة لا تتبع

هذه فى الجملة الخطوط الجوهرية من منظومة القدسية ، التى كان لها الفضل فى تعميم مذهب احمد زروق السلفى ، بعدما افرغ فى بوتقة ، روعى فيها الراي العام ،

الذى كان ينقاد الى فقهاء المذهب المالكى حيث برهنوا انهم كانوا حماة الشريعة الاسلامية فى احرج الاوقات التى اجتازتها البلاد واصيبت بتيارات مذهبية جارفة خصوصا فى عهد الشيعة احدثت تآليف زروق ثورة فكرية ، امكنها ان تكون حصانة لتعاليم التصوف الاسلامى ، الذى انتصر له كثير من علماء البلاد من عهد الغزالى ، وقد اهتم بهذه المنظومة كثير من علماء المشرق والمغرب ، الى زماننا هذا ، حيث طبعت مع فتاوى ابن الصلاح ، وفى كتاب الزهر الباسم وأخيرا فى الرسائل الجلية ٠

وقد اهتم الاخضرى بالمجتمع فوصف نخبته ، وحذر أيضا من « علماء السوء » كما سماهم أي العلماء الانتهازيين الذين كانوا يقولون ما لا يفعلون ، ويتقربون الى رؤساء الاقطاع ويوالونهم فقال عنهم فى قصيدة أخرى :

واحذر علماء السوء فقد	خصوا بالفك وبالخطل
حفظوا الاقوال وما عملوا	بالعلم فساء القوم قل
ما حرفتهم الا لعب	ولحوم الناس بلا قلل
ارباب قلوب قاسية	للطاعة اصلا لم تمل
لا نطق لذكر الله لهم	الا باللهو وبالهزل
لا يكسبون العلم سوى	لرياء الناس وللجدل
طمس الاقوال تملقهم	لولاة السوء ذوى الخلل
من قبل اولى الاوثان قل الخ ٠٠	يصلون دارا كما وردا

وقد حظيت هذه المنظومة بشروح قيمة ، اهمها فيما ظهر لى ، شرح الحسين الورتلانى صاحب الرحلة ، لانه القى فيه اضواء ، على حالة المجتمع ، وأحصى تاثير العادات السيئة التى الصقت بالدين ، وقد ظهرت تآليف قيمة أخرى عززت تاليف الاخضرى ، منها كتاب « منشور الهداية فى كشف حال من ادعى العلم والولاية » للشيخ عبد الكريم بن الفكون القسنطينى المتوفى حوالى سنة 1073 هـ ، وكان من فطاحل العلماء حيث اثنى عليه كثيرا أبو سالم العياشى فى رحلته ، وأحمد المقرى التلمسانى فى نفح الطيب ، وغيرهما من علماء المشرق والمغرب ، وهذا التاليف من احسن ما الف فى موضوعه ، بل فريد فى بابه ، تعرض فيه مؤلفه لطبقتين أو طائفتين من معاصريه الطائفة الاولى ، ترجم فيها للعلماء الذين تولوا المناصب العلمية ،

وسلوكهم غير مرضى ، وليست لهم كفاءة لتولية تلك المناصب كالقضاء والافتاء والوزارة ، وغيرها ، والطائفة الثانية منتحلوا الرياسة الدينية ، ومشائخ الطرق الذين يحترفون الدجل والشعوذة ، وقد قال فى مقدمة تاليفه المذكور الذى قسمه الى فصول ثلاثة وخاتمة قال :

الفصل الاول : « فى ما لقيناه من العلماء والصلحاء المقتدى بهم »

الثانى : فى المتشبهين بالعلماء ، وهم الذين قصدنا بهذا التقيد ايضاح أحوالهم

الثالث : فى المبتدعة الدجاجلة الكذابين على طريق الصوفية المرضية ·

والخاتمة فى اخوان العصر وما هم عليه ·

هذه هي النقاط الرئيسية التى حللها المؤلف فى كتابه « منشور الهداية » وميزة التاليف هي ان مؤلفه لم يكتف بعرض الاوصاف التى ينكرها الشرع ، بل شخص المتصفين بها ، وافرد لكل واحد منهم ترجمة حياته · العامة والخاصة ومعظم من تعرض لهم ، معاصروه ، او من سبقهم بمدة لا تجاوز القرن ، والكثير منهم له بهم علاقة القرابة او التلمذة ، وهذه فقرات من مقدمة تاليفه قال فيها : « أما بعد فلما رأيت الزمان باهله تعثر ، وسفائن النجاة من أمواج البدع تتكسر ، وسحائب الجهل قد اظلت واسواق العلم قد كسدت ، فصار الجاهل رئيسا ، والعالم فى منزلة يدعى من أجلها خسيسا ، وصاحب اهل الطريقة ، قد أصبح واعلام الزندقة على رأسه لائحة ، وروائح السلب والطرد من المولي فائحة ··· فموهوا على العامة باسماء ذهبت مسمياتها ، واوصاف تلاشت اهلها منذ زمان واعصارها ، لبسوا بانتحالهم لها على اهل العصر انهم من اهلها ، كل ذلك والقلب منى يتقطع ، غيرة على حزب الله العلماء ، ان ينسب جماعة الجهلة المعاندين الضالين المضلين لهم ، او يذكروا فى معرضهم ، وغيرة على جناب السادة الاولياء الصوفية ان تكون اراذل العامة ، وأنذال الحمقى المغرورين ان يتسموا باسمائهم ، او يظن بهم اللحوق بآثارهم ، ولم آل فى التنفير من كلتا الطائفتين والتحذير منهم فى كل زمان وأوان ، وبين كل صالح من الاخوان · الخ

وفى هذا التاليف ترجم لعبد الرحمن الاخضرى ، وأشاد بمواقفه ، وذكرانه كان من العلماء الذين لا يكتفون بتغيير المنكر بالسنتهم وقلوبهم ، بل كان يغيره بيده ، ويستعين على ذلك بجيش طلبته ، كما أشاد المؤلف زروق وتآليفه ، وانفرد بنشر رسائل خاصة كاتب فيها زروق بعض خواص أصحابه فى الموضوع خصوصا انطباعاته المبنية على مشاهداته فى بلاد المغرب العربى الذى عاش فيه وهي قيمة جدا مجهولة تماما ، ثم

ظهرت فى نفس الوقت أي القرن الحادى عشر ثم الثانى عشر تآليف أخرى قيمة فى الموضوع ، وهي شبيهة بالقدسية ، كمنظومة عبد الرحمن ابن محمد ابن على المجاجى ، أستاذ سعيد قدورة وقد نوه بها ابن الفكون حيث تعرف بمؤلفها الذى زاره الى قسنطينة فى طريقه الى الحج ، وأهدى له منظومته ، وطلب منه ان يشرحها ، ولما توفى المجاجى هذا رثاه ابن الفكون بقصيدة بليغة ارسلها الى أخيه ، وظهرت بمستغانم منظومة للشيخ محمد ابن حواء دفين مستغانم ، من علماء القرن الثانى عشر سماها « سبيكة العقيان فيمن حل بمستغانم واحوازها من الاعيان » تعرض فيها لتراجم علماء البلاد ، ثم تطرق الى وصف حالة البلاد فى عهده ، وانتشار البدع ، والعجز عن النهي عن المنكر وتغييره وهي أيضا شبيهة بالقدسية ، وعلى نمطها وظهر كتاب « خاص للشيخ محمد ابن عبد الله الجلالى مدير المدرسة المحمدية التى بناها الباي محمد ابن عثمان فاتح وهران بمعسكر ، وكلفه أيضا برياسة رباط وهران ، كتب محمد بن عبد الله الجلالى هذا رسالة خاصة ، الى زميله فى الدراسة بفاس الشيخ أحمد التجانى مؤسس الطريقة التجانية ، كاتبه جوابا عن رسالته التى ذكر له فيها انه فتح عليه بما لم يفتح على من سبقه ، وانه تصدى للتربية وهو بصدد تاسيس طريقة صوفية فاجابه محمد بن عبد الله الجلالى جوابا مسهبا ناقشه فيه الحساب ، ان وجهت اليه من طرف منتقديه ، وحذره من مغبتها ، وهذه الرسالة افرغها مرسلها المذكور ، فى قالب توجيه وتحذير ونصح ، وأهم محتواها حرية الفكر اذ ذاك ، واليقظة ، كما ظهر من انصار السلفية اذ ذاك المؤرخ أبو راس الناصرى الذى لم يتقصر على سلفية مدرسة زروق ، بل جاوزها الى سلفية المذهب الوهابى ، وذلك انه اجتمع بالامير الوهابى فى الحج ، وتذاكر معه بحضور الوفد المغربى ، الذى كان يرأسه ولى عهد ملك المغرب اذ ذاك واوردوا عليه أسئلة اقنعهم فى جوابه عنها ، وقد أشاد المؤرخ أبو راس بمذهبهم وذكر ذلك كله بتفصيل فى رحلته ·

واننا ان تتبعنا قائمة علماء الجزائر الذين وقفوا مواقف تأييد أو انكار على السلفية لما وسعنا مجال هذه المحاضرة ، وقبل الختام نذكر مواقف بعض العلماء الجزائريين من السلفية بعد الاحتلال الفرنسى ، فنجد موقف ابن الحداد بطل الثورة المشهورة ، فانه خصص تاليفا للبدع التى كانت تقترف فى عهده ، وانكرها ، ويرأ الطريقة الرحمانية منها ، كما ظهرت حملة ضد البدع بمدينة قسنطينة ، كان مركزها نادى صالح باي حيث ألقى فيه بعد تأسيسه مباشرة الشيخ المولود ابن الموهوب سلسلة محاضرات ، تولى ترجمتها الى الفرنسية السيد الشريف ابن حبيلص القاضي الموثق

والنائب السابق بالبرلمان الفرنسي ونشرها الا ان هذه الحملة لم تكن تلقائية او مبنية عن عقيدة ، فيما يظهر ، بل كانت متصلة ومرتبطة بخيوط حركتها او شجعتها لمقاومة الطريقة الرحمانية بعد اندلاع ثورة المقراني وصهره ابن الحداد ، وقد كشف النقاب عنها احد اعضاء لجنة البرلمان الفرنسي التى ارسلت الى الجزائر تحت رياسة الوزير الفرنسي : جول فيري ·

وذكر هذا العضو من جملة وسائل مقاومة التعصب الديني الذى كانت تشخصه الطريقة الرحمانية ، الالتجاء الى الاستعانة بالموظفين الدينيين والشرعيين بالجزائر . الا انها محاولة فاشلة لخبر يطول وانما نذكر في هذا الباب عالما سلفيا يعد من ضحايا الفكرة السلفية في طورها السابق المتصل بالحرب العالمية الاولى ، وقد اثار موقفه اول هزة من نوعها في بلاد المغرب العربي بعد الاحتلال الفرنسي كان هذا العالم هو صالح بن مهنا القلي منشا والقسنطيني مقرا واقبارا ، تخرج من الزيتونة ثم من الازهر ، وبعد رجوعه انتصب للتدريس بمدينة قسنطينة ، وان لم يسعنا مجال المحاضرة للتتبع مراحل حياته بتفصيل ، فاننا نذكرها بايجاز ، كان احد علماء البلاد اي من القطاع القسنطيني يدعى احمد بن دادا المشهور بابي الهدى تخرج من القرويين ، الف رسالة سماها « ضوء الشمس » نوه فيها بالاشراف ، ولربما بالغ في ذلك فلما اطلع عليها صالح ابن مهنا رد عليه مبالغاته ووضع الامر في نصابه ، في تأليف سماه « تنبيه المغترين في الرد على اخوان الشياطين » وصادف هذا التاليف ظهور طبعة اولى لرحلة الورتلاني ، بتحقيق صالح بن مهنا في مطابع تونس سنة 1321 هـ ، لفت انظار القراء اذ ذاك ، تعليق ابن مهنا ، عما قاله الورتلاني في الاشراف قال الورتلاني « ان الاشراف ثلاثة اقسام : طايعون ومستورون ومتجاهرون ، والتعظيم للقسمين الاولين دون الثالث ··· فهذه الفرقة اي العاصية من الاشراف غير معتبرة عندنا » فعلق ابن مهنا على هذه الجملة بقوله : « قلت دل كلامه على ان من خالف السنة والشرع غير معتبر ولو كان مدعيا للصلاح او الشرف او العلم ، وهذه الفرقة التى انكر عليها الشيخ من الشرفاء قد كنت قلت مثل هذه المقالة التى قالها فيها وهي ان الشريف الفاسق لا يعتبر ، فانكرها بعض الارذال ممن قرأ مستلتين ، وتعلم باب مسح الخفين · الى ان قال وقد صرح به الامام الشعراني في كتابه المنن فقال قال بعض العلماء ولا ينبغي تعظيم الشريف ، اذا تعاطى المحرمات اهـ · وكذا الشيخ مؤلف هذه الرحلة لانه صرح بشرف هذه الفرقة المذكورة ، ثم قال فهذه الفرقة غير معتبرة عندنا ، وناهيك به علما ، وديانة ، وصلاحا وولاية ، فاين هو من اولئك الحمير » اهـ ، تعليق صالح بن مهنا وقد

صرح فيه بالرد على منتقديه على كتابه « تنبيه المغتربين » من فقهاء قسنطينة الا ان رده الثانى كان اعنف وعـده خصومه تحديا لا ينبغى السكوت عنــه ، ولربما كان بعض المسؤولين يهمهم الامر حيث كانوا بالمرصاد للافكار المستوردة (كمــا كانوا يعبرون عنها) خصوصا اذا كان الداعى لها متخرجا من الجامعات الاسلامية حينئذ ، فاختير للرد عليه ، امثل هجاء عرفته البلاد ، وهو الاديب العبقرى الشيخ عاشور الخنقى ، فكان تاليفه « كتاب منــار الاشراف على فضــل عصاة الاشراف ومواليهم الاطراف » المطبوع فى الجزائر سنة 1332 هـ 1914 م .

ولم يكن هذا الرد مقنعا ولم يوت بثمرته المرجوة ، حيث ان مؤلفه كان مشهـورا بثلب الاعراض ، وعاشور نفسه لم يخف فى تأليفه ، ان الرأي العام تأثر بتعليق صالح ابن مهنا واعجب به وفى ذلك قال : « وان تعجب فعجب » قول بعض جهالة الطلبــة ، وبعض العلماء بالغلبة ، حاشا فوارس الحلبة ، أي ما تضمنه هذا المجموع ، كـــلام « هائل ما راينا مثله فى كتب الاوائل ، فلا نظن ان يكون له طائل ، وجوابه ، ما هذا الا كلام مخلط جاهل، يستحق صاحبه ان يسجل فى ديوان الحيوان الناهق أو الصاهل ، ولذلك اختيرت اعظم شخصية علمية بالمغرب اذ ذاك وهو شيخ الاسلام بالديار المغربية المؤلف الشهير الشيخ المهدى الوزانى ، فجاء الى قسنطينة بسنة 1323 هـ واطلع عــلى تعاليق ابن متهنا ، وخصها بتاليف سماه « السيف المسلول باليد اليمنى ، لقطع رأس ابن مهنا » وقد اخفى الشيخ الوزانى الظروف التى جاء من أجلها الى قسنطينة ، وانما ذكر انه ورد اليها عابر سبيل واتصل بعلمائها ، فاطلعوه على ما ذكر ، ولنترك لـــه الكلمة حيث قال فى مقدمة كتابه بعد ان ذكر انه عقد الرحلة الى تونس ، ومر عــلى تلمسان ، ثــم العاصمة ثـم قسنطينة قال : « ولمـا وصلت الى قسنطينة ، اجتمع بــى جماعة » من علمائها ، وفضلائها ، ووجوه كثيرة من أهلها واعيانها ، واخبرونى ان عندهم رجلا من أهلها ، يقال له ابن مهنا، كان يتعلم العلم بمصر أزيد من عشرة أعوام، ولما رجع لبلده قسنطينة ، رجع بزى الفقر ، زاعما انه من أهل التصوف ، وينكر أمورا ضرورية ، ويسب الاخيار وينقصهم ، ويبالغ فى شتمهم خصوصا أهل المغرب ، ولــه مقالات تدل على قلة ادبه ، مع أهل البيت ، وسالونى عن حكم الله فيه ، فقلت لهم هل ثبت هذا عليه ببينة ، أو بخط يده أو بغير ذلك ما يثبت به شرعا ، فقالوا لى ثبت ذلك فى كتاب الفه بيده ، وطبع فى تونس على ذمته ، فطلبت منهم احضــار هذا الكتاب ، فأتونى بنسخة منه ، واذا هو رحلة الشيخ الامام سيدى الحسين الورتلانى وبهامشه ما كتبه الرجل المذكور كالحاشية عليه فوجدته كمــا قالوا فأردتان اذ كـرهنا بعض

مقالاته فى أهل المغرب ، وأهل البيت ، ونجيبه عنها باختصار » اه · ولا يمكننا ان نتتبع ما كتبه الوزانى فى الموضوع وانما نلفت نظر المستمعين الى ان صالح ابن مهنا قال فى تعليق آخر من الرحلة ، ذكر فيه الرحالة الورتلانى أهل المغرب ، وسمعتهم فى المشرق جره الى ذكرها سياق الحديث فقال ابن مهنا « ولقد صدق الورتلانى فى جميع ما ذكره ، فصار المغربى منسوبا عند المصريين الى الدجل ، والشعوذة والسحر ، حتى قال بعض العلماء ، جميع ما ألفه المغاربة ، يفوقه ما ألفه عالم واحد مصرى ، وهو الامام جلال الدين السيوطى ما عدا كتب السحر ، والشعوذة ، فانهم ألفوا منها كثيرا ، وملئوا بها لارض كابن الحاج الكبير وغيره ، وجلبوا بها أموال الناس ، واظنهم توارثوها عن اسلافهم الخ ··

وعلى كل حال كان هذا الكتاب الذى حظى بتقاريظ جل العلماء البارزين حينئذ بالمغرب ، موسوعة شتائم · وقذف انصبت على ابن مهنا الذى لم يقل عشر ما قاله من قبله من علماء المشرق والمغرب ، وكتب نوازل المغرب العربى مملوءة بأقوال شاذة احصيت على اصحابها وحوكموا من أجلها ، من دون ان تحرك ساكن أولائك العلماء ولهذا كله نرجح ان رد الشيخ المهدى الوزانى كان مدبرا ، ولنرجع الى عينات من هذه التقاريظ التى لم يقتصر فيها اصحابها على نقد وشتم صالح ابن مهنا بل شركوا فى هجوهم وسبهم والده الميت من زمان فقال احد أكابر الفقهاء غفل أو تناسى قول النبي (صلعم) اذكروا موتاكم بالخير « قال :

تبا لمهنى وابنه الكلب الذى　　　يعوى ويلهث سائر الاحيان
تعسا له من فاسق متجاهر　　　بفجوره يبغى رضى الشيطان
متسربلا برداء فحش نازعا　　　ثوب الحيا عن وجهه السرحانى
تسل عنه مصر ترى له من فحشه　　　شكوى بقلة دينه بعيان
سل عنه مصر ترى له من فحشه　　　حتى لقد منحوه بالهجران

وهذه المنظومة تبلغ ابياتها ثمانين كما قرض التأليف المذكور نقيب الاشراف العلويين مؤرخ المغرب فى عهده ، عبد الرحمن بن زيدان فقال :

الجهل فيه فضيحة الانسان　　　ويقوده لمواطن الكفران
وتجره اسبابه لمهامه　　　وعراء يسلكها ذوو الخسران

مثـل ابن مهنا الجاهل الغمـر الذى ... قـد قـام يـرمى الغـرب بالبهتـان
تبـالــه تبـالـــه تبـالـــه ... طـردا لـه فى سـائـر الاوطـــان
سحقـا لـه سحقـا لـه سحقـا لـه ... ويـل لـه مـن فـاسـق شيطـــان
ويـل لـه مـن فـاجـر متجـاهـر ... بالافـك والبغضـــاى والعـــدوان
فلـذا غـدا الشيخ الامـام المرتضى ... بحـر العلـوم العـالـم الربـانـى
أستـاذنا اعنـى ابـا عيسى الهمـا ... م المنتقـــى الاتقـــى الـــوزانـى
يسقيـه أكـواب الـردى ويـذيقـه ... غلـل المـرائر فى كـؤوس هـــوان
وسيفـه المسلـول يقطـع رأســه ... بـين الاحبـــة والعـــدو الشـانـى

كما الف فى الرد عليه محمد بن محمد بن مصطفى المشرفى الجزائرى الاصـل والفاسى دارا ووفاة سبـق لـه ان هجـا الامير عبد القادر فى تأليف خـاص وعلى ابن الحفاف المفتى المالكى الذى كان كاتبا عند الامير عبد القادر كما رد عليه عبـد السلام العمرانى فى تأليف سماه « الكي بمحاور البغال ، وقتل العقرب بالنعال ، فى رد ما فاه به بعض الانذال الذى جهل انه من أهل الضلال » ومحمد العابد ابن سودة الذى سمى تأليفه « سنان اليراع ، وبنادق القرطاس فى نحر من جازف وشتم الناس » الخ ..

أما الشيخ عاشور فانه بعدما نشر فى الاسواق والاوساط العلمية بكامل البـلاد هجوه البذىء جمعه فى كتابه « المنار » المذكور والكتاب هام فى موضوعه اذ تعـرض فيه لترجمة حياته وهو رغـم كل ما ذكرناه عنـه من الادباء الممتازين واللغويين الذين ذللوا اللغة العربية ومن الحفاظ النوادر فى تأليفه لا يستغنى عنه مؤرخو الادب العربى وتطور الحركة الثقافية بالجزائر وهذه بعض أبيات من قصائده فى هجو ابن مهنا قال .

تـأملـه ايضـا فى النسـاء دلالـة ... عـلى كفرهـم فيهم شقـاقـا جهالة
تجد من اذاهـم سـاء سمعا وجابة ... على مثـل هذا الكفـر افتـى رسالة

لنـا ابن مهنـا الصـالح السـالح الجعـل

غـــراب اذا لاقيتـــه فتعـــوذ ... لقـد خـالف الاسـلام فى كـل مأخذ
وحارب أهـل البيت فى كـل منفـذ ... وقـال باسقـاط اعتبـارهـم الـذى

تقدم فيمن لم يطعه علا وجل

ذهابا الى ان الشريف اذا اتقى فمعتبر من حيث تقواه والنقى
والا فمن أهل الاهانة والشقا قياسا لمن الفى مع الشرف التقى
على صحبة الاشقى جهل الاضل

تجاوز ابليس اللعين وصنفه وجاوز اجوات الخدوع ووصفه
بما غر فينا ارغم الله انفه عجبت لاقوام يصلون خلفه
وسائر ما صلوا اقتداء به بطل

لقد بان زنديقا تباح دماؤه على كل رأي لا يصح اقتداؤه
فمن امهم دهرا يطول اداؤه عليهم باجماع العلوم قضاؤه
كما ان اجواه الخبيث الذى دغل

على خدمة الناموس فى حركاته فغر اناسا فاقتدوا بصلاته
ولكن هذا زاد فوق صفاته خصوصا وقد حاط الجذام بذاته
وشعشع رمح القيم منه متى اطل

حوى جسمه صدرا وظهرا وشينا ذراعا وساقا منه حتى تلونا
على زرقة من جيفه الكلب اننا حكى لى ثقات انه ان يجز بنا
على الصف آذانابا خبث من بصل الخ ..

هذه خلاصة أطوار السلفية بالجزائر وقد تركنا الحديث عن حادثين هامين يتعلقان بصميم الموضوع ، هما زيارة الشيخ محمد عبده الى الجزائر فى أوائل القرن الجارى واتصاله بكثير من علمائها وآثار تلك الزيارة التى خصها العالم الاديب عبد الحليم ابن سماية برسالة قيمة ، اطلع عليها أخيرا د. عثمان أمين تلميذ عبده ، وجامع آثاره فرأى انها من أهم ما كتب عنه ، اذ وجد فيها ما لم يتعرض له رشيد رضا الذى علق على هذه الرحلة ، والثانى معركة أو محاورة اثارها عالمان جزائريان قبل زيارة الشيخ عبده بقليل انتصرا لمحمد صديق خان بها درامير هوبان الهندى وقرظا كتابه « الروضة الندية » فلا مهما على ذلك مفتى المدينة المنورة الشيخ عثمان بن عبد السلام الداغستانى اذ كان محمد صديق خان الهندى من أنصار السلفية الوهابية وتبادل معهما رسائل هامة فى موضوع السلفية والعالمان الجزئريان هما الشيخ الجيلالى بن المنور المجاجى والشيخ أحمد بن يحيى الشراطى الاصنامى الا ان هذا الحوار كان فى منطقة محدودة ولكن له وزنه خصوصا فى تلك العهود فالى فرصة أخرى ان شاء الله . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

تطـــور النثر الجزائـرى الحـــديث

1830 / 1974

تاليف الدكتور عبد الله الركيبى
تقديم ونقد الدكتور محمد مصايف


الدكتور محمد مصايف

ليس من اليسير على الباحث أن يقدم كتابا جديدا لم يصل بعد الى أيدى المثقفين ، لان اهتمام هذا الباحث ينبغى أن ينصب على منهج المؤلف فى الكتاب ، وعلى الافكار التى أوردها ، وطريقة معالجة هذه الافكـار · وهو ما لا يكفى بالنسبة الى هذا الكتاب القيم ، لان من حـق الحاضرين أن يعـرفوا ولو باختصار محتواه ، والفنـون التى تناولها ، حتى تتسنى لهم المشـاركة فى المناقشة ، وحتى يكون لهذا التقديم فائدته المرجوة ·

لذلك سينقسم كلامنا فى هذا التقديم الى قسمين ، الاول نخصصه لعرض الكتاب فى اختصار غير مخل ، والثانى نعرض فيه لمنهج الكتاب وطبيعة الافكار والمواقف التى يشتمل عليها · وفى هـذا القسم الاخـير ستتسنح لنا فرصـة تسجيل بعض الملاحظات والتساؤلات التى نرجو أن يتفضل المؤلف بالاجابة عنها فى حينها ·

قسم المؤلف مادة كتابه الى بابين ، عالج فى الاول مـا سماه « الاشكال النثرية التقليدية » ، وهي الخطبة ، والرسالة ، وأدب الرحلة ، والمقامة ، والمناظرة ، والقصة الشعبية · وتناول فى الباب الثانى ما أطلق عليه اسم « الاشكال النثرية الحديثة » ،

(1) ألقي هذا التقديم بقاعة اتحاد الكتاب الجزائريين من طرف الدكتور مصايف بتاريخ 3 – 4 – 1977 ·

وهي المقال الادبى ، والقصة القصيرة ، والرواية ، والمسرحية ، والنقد الادبى وسيتضح أن زميلنا الدكتور الركيبى يهتم بجميع الفنون الادبية النثرية فى الجزائر ، كما يهتم بما طرأ على هذه الفنون من تطور فى المضمون ، وما اكتسبته من سمات جديدة فى الاسلوب واللغة ·

يلح المؤلف فى حديثه عن الخطابة فى عهد الامير عبد القادر على مضمون الخطب وأساليبها المختلفة ، فيحصر المضمون فى الدعوة الى الجهاد ، والحث على الثبات أمام الاعداء الغزاة ، مما يؤكده،كما قال المؤلف ، ادراك الامير « خطر الخطابة فى الدعوة الى الجهاد واستنفار الذين يحاربون الاعداء ، خاصة وأن فترة الاحتلال كانت تساعد على هذا اللون من النثر » (ص 12) ·

ويلاحظ المؤلف نوعا من التطور فى أسلوب الخطابة على عهد الامير ، فيؤكد أن هذه الخطابة «تحررت من أسلوب السجع المتكلف المقصود لذاته ، ومالت الى البساطة فى التعبير والقصد فى القول دون اطناب » (ص 12) ، ويحصر سمات أسلوب الخطابة لهذه الفترة فى سمات الحماسة ، والنزعة الدينية ، والوضوح · وهي سمات دعت اليها حالة الحرب التى كان يعيشها بلدنا فى القرن الماضى ، والتى كانت تقوم على النزعة الدينية أساسا ·

ينتقل المؤلف بعد ذلك الى الحديث عن الخطابة فى هذا القرن ، فيركز كلامه على خطباء جمعية العلماء المسلمين ، وخطباء حزب الشعب الجزائرى · ويأبى الدكتور الا أن يفرق بين خطباء الحركتين قائلا : « ومنشأ هذه التفرقة يأتى من أن الموضوع يختلف الى حد ما ، فالطابع العام الذى تتسم به خطب المصلحين هو طابع الدين والوعظ والتركيز على فكرة الاحياء والرجوع الى الماضى والدعوة الى النهوض واليقظة · بينما خطب رجال حزب الشعب يغلب عليها طابع السياسة والحماسة والانفعال القوي والهجوم على الاستعمار وأعوانه والدعوة المباشرة الى النضال من أجل الاستقلال » (ص 22) · كما أبى الا أن يفرق بين أسلوب ابن باديس وأسلوب البشير الابراهيمى ، فقال : « فالابراهيمى أديب مصلح لا عالم مصلح فقط · والفرق بين الاديب والعالم أن الاول يعبر عن مشاعره وعواطفه بلغة جميلة موحية وهدفه احداث اللذة الادبية ، والامتاع الى جانب فكرة معينة يهدف الى تصويرها بينما تنصب عناية الثانى على الجانب العقلى ، والتفكير المتزن والوضوح فى التعبير لا بهدف اللذة الفنية وانما بهدف توصيل الافكار » (ص 27 – 28) ·

لا شك أن المؤلف مصيب فى التفريق بين الاتجاهين السابقين فى خطابة ما قبل الثورة ، وفى تفريقه بين أسلوب ابن باديس وأسلوب الابراهيمى فى الخطابة الاصلاحية فكل من قرأ « مجالس التذكير » و « عيون البصائر » يحس بأحساس المؤلف ، ويصل بعد النظر والتحليل الى النتيجة التى وصل اليها ·

وبنفس المنهج المقارن يدرس المؤلف فن الرسائل فى عهد الامير عبد القادر ، فيحصر هذا الفن فى اتجاهين ، الاول ويمثله حمدان خوجة يميل فيه صاحبه الى التعبير عن مشاعره وعواطفه ، ويستعمل السجع ، ويضرب المثل والحكمة ، ويمدح بالشريعة الاسلامية ، ويعنى بالبديع والجناس (ص 36 — 37) ، والثانى ويمثله الامير عبد القادر فى كتاباته للفرنسيين ، وبخاصة الجنرال بيجو ، يختفى فيه كما يقول المؤلف « أسلوب السجع والبديع بشكل ظاهر ، وطوعت فيه اللغة للتعبير بسهولة ويسر وفى بساطة تجعل منها أداة مرنة صالحة لصياغة المعانى الدقيقة والافكار العميقة » (ص 38) ·

ويعجبك من الدكتور الركيبى هذه الشجاعة التى تجعله يتخذ المواقف دون مواربة، كما سنرى ذلك فى تعليقه على أسلوب الابراهيمى فى المقال الادبى ، وكما حدث فى تعليقه على بعض مواقف الامير عبد القادر فى بعض رسائله · يقول الدكتور : « وانما الملاحظ فيها أن روح الفروسية كانت تطغى على فكر الامير ونظرته الى الامور ، فتصوره للاستعمار كان ساذجا لان العصر ليس عصر الفروسية والمبارزة كما كان الشأن فى القديم ، وانما هو عصر استعمار زحفت فيه الجيوش الغربية على العالم القديم من أجل السيطرة والاستغلال » (ص 40 — 41) ، وهي الشجاعة التى نفتقدها عند بعض الباحثين الجزائريين ، ومنهم الدكتور صالح خرفى ، الذين حاولوا تنزيه الامير عن كل خطأ ·

أما أدب الرحلات فقد كان المؤلف فيه واضحا كعادته ، اذ أنه حاول أن يعطينا نظرة محددة بقدر الامكان عن هذا الادب فى الجزائر ، وألح بصفة خاصة على رحلتين وقعتا فى القرن الماضى ، الاولى لمحمد السعيد بن على الشريف ، والثانية لسليمان ابن الصيام · وقد أعطى المؤلف لمحة مختصرة عن كلتا الرحلتين ، وناقش الافكار التى وردت فيهما ، وأخذ على كاتبيهما أنهما اهتما بالامور الثانوية فى عملهما ، ولم يقدما للادب الجزائرى ما قدمه رفاعة الطهطاوى وغيره للادب العربى فى المشرق · قال الدكتور : « وكان يمكن لهذين الكاتبين أن ينقلا لنا أشياء كثيرة من البيئة الفرنسية نستفيد بها مثل ما فعل رفاعة الطهطاوى حين سافر الى باريس سنة 1826 » (ص 49) ·

قد يكون الطهطاوى أفاد الادب والثقافة أكثر مما أفادهما ابن على الشريف وابن الصيام · ويمكن رد ذلك الى طبيعة الرحلة التى قام بها كل من الرحالة الثلاثة ، والى ثقافة كل منهم ، على أن الطهطاوى ذهب أساسا للدراسة ، فاستفاد وأفاد بما نقل عن البيئة الفرنسية ، فى حين أن الرحالتين الجزائريين ذهبا عضوين فى وفد رسمى للاشتراك فى الاحتفال لتنصيب نابليون الثالث سنة 1852 · وقد يكون للاوضاع السياسية التى ليست واحدة فى مصر والجزائر دخل فى طبيعة كتابة الطهطاوى وكتابة ابن على الشريف وابن الصيام ·

ويلاحظ المؤلف فرقا فى أسلوب الرحلتين ، فيقول : « فاسلوب ابن على الشريف يميل فى أغلب الاحيان الى السجع ، وخاصة فى مواقف الوصف أو الحديث عن الحكمة والوعظ والاخلاق · أما أسلوب الثانى فانه يخلو من السجع غالبا o كما يبدو الخلاف بينهما من حيث البناء الفنى » (ص 63) ، كما يلاحظ سمة مشتركة بينهما ، وتتمثل هذه السمة فيما يسميه المؤلف « روح المجاملة للادارة الفرنسية » (ص 64) ، وهو شيء طبيعى ما دام ابن على الشريف وابن الصيام سافرا الى باريس بطلب من هذه الادارة · وربما لم يستدعيا الا ليشيد بفرنسا بعد رجوعهما ·

وبعد تحليل الرحلتين ينتقل المؤلف الى الحديث عن أدب الرحلة فى عهد الاصلاح، أي فى هذا القرن · ويعتبر ما كتبه رجال الاصلاح نوعا جديدا من أدب الرحلة ، وهو تعبير عن مشاهدات هؤلاء الرجال خلال تنقلهم عبر مدن الوطن وقراه ، أو تجوالهم فى المشرق ، أو فى أوروبا والاتحاد السوفييتى · ويرى المؤلف أنه كان لهذه الرحلات غاية محددة ، وهي كما يقول : « بث الحركة الاصلاحية ، ونشرها بين جماهير الشعب، ودعوتهم الى اليقظة والنهوض » (ص64) · ويعد ابن باديس ، والبشير الابراهيمى ، وأحمد رضا حوحو ، والغسيرى ، أبرز رحالة جمعية العلماء فى نظر المؤلف ، فالاول كانت رحلاته وتنقلاته داخل الوطن ، وكان هدفه من هذه التنقلات ، بالاضافة الى الغاية الآنفة الذكر ، هو الاطلاع على ما يفكر فيه المسلمون الجزائريون ، وعلى مدى احترامهم للعلم ورجاله (ص 65) ·

وبعد أن يشير المؤلف الى رحلات البشير الابراهيمى ، والى أن معظمها ما يزال مخطوطا ، يؤكد خصوبة هذه الرحلات ، ويسجل عناية الكاتب كعادته « بالصياغة والبيان والجمال الادبى » (ص 67) ·

ولعل رحلة أحمد رضا حوحو كانت من أهم ما استحوذ على ذهن المؤلف ـ وربما كان ذلك لان عمل رضا حوحو يدخل فى فن الرحلة من بـابه الواسع ، حيث ان هذا الكاتب قد اهتم بما شاهد وسمع فى الاتحاد السوفييتى · يقول المؤلف فى التعليق على هذه الرحلة ، التى وقعت سنة 1950 : « ولعله اول كاتب جزائرى يذهب الى هذا البلد الصديق · وقد سجل حوحو فى رحلته هذه ما شاهده مـن تطـور حضارى وصناعى وتقدم ثقافى فى روسيا ، وحاول أن ينقل صورة صادقة للبيئة الجديدة التى ذهب اليها ولذا فان قيمة الرحلة فى موضوعها ومضمونها وما قدمته من معلومات واشياء جديدة أما من جهة أسلوبها فانه يغلب عليه اللون الصحفى ، ويبتعد الى حد كبير عن الاسلوب الفنى ، فهو يعتمد على المباشرة ومحاولة الوصول الى الافكار دون اعتبـار للجمال الفنـى » (ص 68) ·

ان تعليق المؤلف على أسلـوب حوحو فى هذه الرحلـة ، واشارته الى أن هـذا الاسلوب كان يميل الى الطابع الصحفى ، والى أن الرحلة قيمة بمضمونها لا بأسلوبها، كل ذلك يجعلنا نتساءل أمام الدكتور الركيبى عن الفروق الجوهرية بين كتابة الرحلة والكتابة الصحفية مثلا ، وعما اذا كانت تنقلات ابن باديس وكتابات الغسيرى أثنـاء زيارته للمشرق تدخل حقا فى فن الرحلة ، أو انما هي تحقيقات صحفية ومقالات أدبية من النـوع الخفيف ؟

ويتحدث بعد ذلك عن أدب المقامة والمناظرة ، فيسجل بداية المقامة فى المشرق على يد محمد المويلحى فى « حديث عيسى بن هشـام » · ثم يشير الى أوليـاء المقامة فى الجزائر على يد محمد بن محرز الوهرانى · أما فى العصر الحديث فيفرق المـؤلف بين ثلاثة أنواع من المقامة ، المقامة الصوفية ، والمقامة الادبية الاصلاحية ، والمقـامة الشعبية · ويرى أن بعض ما كتبه الامير عبد القادر فى كتاب « المواقف » تعبيرا عـن النزعة الروحية ، أو عما سماه المؤلف « الحقيقة الالهية » ، مقـامة صوفية · ويقول فى هذه المقامـة : « فهذه المقامـة اذن هـي أشبـه بالرحلة الدائـرية مـن الارض الى السماء ، ثم من السماء الى الارض · والحركة فيها ليست حركة بالمعنى المالوف ، أي ليست بالجسم وانما بالروح » (ص 75 ـ 76) ·

النوع الثانى من المقامات هي « المقامة الادبية » · وقد الـف عمـر بن ابريهمات مقامة من هذا النوع سنة 1903 ، وسماها مقامة ادبية o ويذكر المؤلف أن هذه المقامة كتبت على اثر سفر صاحبها الى باريس لحضور مؤتمر علمى عقـد بها سنة 1897 ·

وأسلوب الكاتب فى هذه المقامة ، كما يلاحظ المؤلف ، أسلوب نقدى كاريكاتورى ضاحك ، وهو وان كان اسلوبا قديما ، فان الكاتب استخدمه بطريقة خاصة ليرد على أحد المؤتمرين ، الذى هاجم العربية والاسلام بالرغم من لباسه العربى (ص 76 ـ 77) . ويؤكد الدكتور الركيبى أن هذا النوع من المقامات قد تطور خلال هذا القرن ، وذلك بسبب « ظهور الحركة الاصلاحية ودعوتها الى النهوض واليقظة » (ص 77) . وعد من هذا النوع كتاب « زفرات القلوب » الذى يرجح ان يكون لمحمد الصالح خبشاش ، الذى توفى سنة 1941 . ويقول المؤلف فى هذه الزفرات : « فهى تستمد شكلها من القديم ، ولكنها تطوره ليعبر عن الواقع الجديد فى البيئة الجزائرية فى الفترة المشار اليها خاصة فى مضامينها » (ص 78) .

ثم يتحدث بعد ذلك عما سماه « المقامة الشعبية » ، ويركز بصفة خاصة على لغتها التى يقول فيها انها « لغة متفاصحة تجمع بين العامية والفصحى » (ص87) ، كما يركز على أهمية القضايا التى كانت تعالجها ، وهي قضايا البيئة والمجتمع الجزائرى. ويذكر من هذا النوع مقامات محمد بن على ، الذى يسميها صاحبها « المقامات العوالية فى أخبار العلالية على اللغة المغربية » . وينبه المؤلف الى أن محمد بن على ألح فى مقاماته على وضع طلبة القرآن والعربية ، وعلى تعدد اللهجات فى القطر الجزائرى ، وقضايا أخرى تمس المجتمع الجزائرى من قريب أو بعيد . ويحلل الدكتور الركيبى أهم مقامات ابن على مشيرا الى السمات التى ميزت اسلوبها عن أسلوب المقامة القديمة ، او الحقتها بها فى هذا الاسلوب .

أما فى المناظرة فقد أشار المؤلف الى المناظرة الشعرية التى نظمها الأمير عبد القادر بين البادية والمدينة . وركز فيما يتعلق بالمناظرة النثرية فى العصر الحديث على مناظرة عبد الرحمن الديسى بين العلم والجهل . وقد كتب الديسى هذه المناظرة حوالى سنة 1904 . وأشار المؤلف الى أن الكاتب أطلق على مناظرته اسم «مقامة» مما يدل على أن الديسى ومعاصريه كانوا لا يفرقون بين المقامة والمناظرة ، وحدد المناظرة بأنها « تعتمد على المقابلة او المفاضلة بين أمرين ، والانتصار لاحدهما على الآخر باستثناء تلك المقدمة البسيطة التى يمهد فيها الكاتب للمناظرة » (ص 110) . والملاحظة العامة التى يسجلها المؤلف على أسلوب المناظرة عموما فى هذه الفترة هو أنه « تقليد للقديم لانه يجارى ما عرف لدى القدماء من اساليب » (ص 109) .

وفي الفن الاخير من الاشكال التقليدية يهتم المؤلف بما سماه « القصة الشعبية » ملاحظا أولا أن الدراسات الوطنية حول هذا الفن منعدمة ، وثانيا ان اهتمام الغربيين به قبل الاستقلال لم يكن لوجه العلم ، بل « لخدمة الفكر الاستعماري ومساندته » (ص 117) وبعد اعتذار المؤلف عن عدم قيام الباحثين الجزائريين بهذه الدراسات لظروف اجتماعية وثقافية ، يعود فيرى ان نظرة الدارسين الجزائريين للادب الشعبي ، ولاشكال التعبير فيه كانت تتسم بنوع من اللامبالاة أو التعالي وعدم التعاطف شأن الباحثين حين يتصدون للمأثورات الشعبية العربية عامة الى وقت قريب » (ص 117) ·

واذا كان المؤلف قد أغفل شرح الاسباب الثقافية والحضارية لموقف الباحثين من الادب الشعبي ، فانه على الاقل حدد ما يعنيه بالقصة الشعبية ، أو بعبارة أخرى ، ذكر العناصر التي تجعل فنا شعبيا يدخل في فن القصة ، فقال : « ونحن نعمم مفهوم القصة الشعبية على الاشكال التي استخدمت الاسلوب القصصي من سرد وحوار وحديث عن الشخصية والتركيز عليها او على الحادثة · وسواء كانت مجهولة المؤلف ـ وهو شرط في اعتبار القصة شعبية ـ أو معروفة المؤلف » (ص118) ·

ويذكر المؤلف ثلاثة أنواع للقصة الشعبية الجزائرية ، النوع الاول قصص السير الشعبية والبطولات العربية ، والثاني قصص دينية وخرافية تدور حول السحر أو الحيوان أو حول الامثال ، والثالث قصص العشق والغرام ، وهو ما ألف فيه جزائريون أمثال محمد بن ابراهيم مصطفى · ويربط المؤلف بين هذه الانواع القصصية وبين أمثالها في الادب العربي القديم ، مثل « ألف ليلة وليلة » · ويلح بعد ذلك على البناء المتفكك للقصة الشعبية (ص 126) ، وترديدها جملا معروفة في الادب الشعبي مثل « ونرجع الى ما كنا عليه » (ص 127) ، وكون السرد بلغة قريبة من العامية (ص 127) ، الى آخر السمات التي تميز في رأي المؤلف القصة الشعبية الجزائرية ·

هذا فيما يخص الاشكال النثرية التقليدية · أما فيما يتعلق بما يسميه المؤلف الاشكال النثرية الحديثة فيحصر الكلام فيه في المقال الادبي ، والقصة القصيرة ، والرواية ، والمسرحية ، والنقد الادبي · ويخرج من حديثه عن المقالة الصحفية لانها درست من طرف الاستاذ محمد ناصر ، ويقسم المقال الادبي ، موضوع حديثه ، الى نوعين ، المقال الادبي الانشائي ، والمقال الادبي الاصلاحي (ص 133) · ويحدد النوع الاول بأنه المقال الذي « يهدف كاتبه من ورائه الى التعبير عن مشاعره واحساسه تجاه الطبيعة أو تجاه الحياة ، ويعكس فيه تجربة ، ويعنى فيه بالصياغة والجمال واللذة الفنية ، ويراعى فيه التركيز ما أمكن » (ص 139)

ويربط المؤلف بين المقال الادبى الانشائى وبين الاتجاه الرومانسى لاهتمامه بالطبيعة بشكل ظاهر (ص 140) • ويمثل لهذا الاتجاه فى المقال بالكاتب البشير العلوى فى مقاله « نسمات الخريف » •

أما المقال الادبى الاصلاحى فقد اشتهر به كتاب الحركة الاصلاحية ، وعلى رأسهم البشير الابراهيمى • وكاتب هذا النوع من المقالات يجمع بين العناية بالصياغة والتعبير عن العاطفة والشعور وبين التعبير عن الفكرة الاصلاحية (ص 147) • ويركز المؤلف على فن الابراهيمى ، ويحدده بطريقة موضوعية لم يوفق اليها أحد قبل الدكتور الركيبى فيما أعلم ، فيقول : « انك تقرأ له المقال فيسيطر عليك بلغته وأسلوبه وحضور بديهته وقدرته على تصريف الكلام • ولكنك تحس بأن هذا الاسلوب ينقصه قدر من الخيال ، لا الخيال الذى يحلق فى اللا نهاية ، ولكنه ذلك الذى يساعد على تركيب الصور الادبية غير اللفظية » (ص 147) ، ويقول بعد ذلك مباشرة : « صحيح أن الابراهيمى يدهشنا بصوره البيانية ولكنه لا يدهشنا بصوره الخيالية التركيبية ان جاز التعبير • وصحيح انه يدهشنا بإلمامه الواسع بالقضايا التى يعالجها فى مقالاته ، ولكنه لا يدهشنا بالفكرة التى تدفعنا الى التأمل الطويل » (ص 147 — 148) •

وفيما يتعلق بالقصة القصيرة يلاحظ المؤلف أنها لم تظهر الا بعد الحرب العالمية الثانية • وما ظهر قبل هذا التاريخ انما كان « مقالا قصصيا » ، أو « صورة قصصية » ويذكر من بين أسباب تأخر ظهور القصة الفنية المفهوم الادبى الذى كان يقوم على الشعر ، وضعف النقد ، وقلة الاحتكاك بالحركة الادبية فى المشرق العربى والغرب الاوروبى (ص 162 — 163) •

وبعد تحديد المؤلف للمقال القصصى والصورة القصصية يلاحظ أن القصة القصيرة تطور من المقال والصورة ، ويذكر من عوامل هذا التطور اليقظة الوطنية التى عمت البلاد قبل اندلاع الثورة ، وتطور المفهوم الادبى ، وقيام الثورة المسلحة (ص 169 — 171) • ويحدد للقصة القصيرة فى الفترة الاولى اتجاهين ، رومانسيا وواقعيا • يقول : « والواقع أن الرومانسية لم تكن مرحلة خاصة معينة فى القصة القصيرة الجزائرية ، وانما عالجها البعض وعالجوا معها فى نفس الوقت القصة الواقعية حتى جاءت الثورة فسيطر التيار الواقعى تماما » (ص 171) •

وينبه الى أن تطور القصة القصيرة من الرومانسية الى الواقعية صاحبه تطور فى محاور هذه القصة ، بحيث ظهر الاهتمام بالانسان والنضال والروح الجماعية بدل

الحب والتقاليد والمرأة (ص 172) ، وبالقضايا القومية مثل قضيـــة فلسطين وقضيـــة بنـــزرت ٠

ويلاحظ المؤلف كذلك تأخر ظهـور القصة القصيرة الناطقة بالفرنسية ، ويذكـر لذلك أسبابا منها منع الادارة الاستعمارية الجزائريين من مواصلة تعليمهم ، وانعدام الايمان بالقضية الوطنية لدى بعض المثقفين بالفرنسية ٠ يقول الدكتور : « والاهم من هذا كله ان البعض منهم لم يكونوا يؤمنون بالوطنية الجزائرية ليدفعهم هذا الايمان الى التعبير عن روح الشعب » (ص 175) ٠

وبعد أن يشير المؤلف الى ان القصة القصيرة الجزائرية بعد الاستقلال لم تتضح اتجاهاتها ، وأن كثيرا من القصاص لم ينتجوا الا قصة أو قصتين ، مما لا يساعد على تصنيفهم فى اتجاه معين (ص 176) ، يحاول أن يحلل أهم النتاج القصصى ، مهتمـا بصفة خاصة ببحيرة الزيتون ، ودقت الساعة ، والطعنات ، والشمس لا تشرق مـن باريس ، ودار الثلاثة ، والكاتب ، وغيرها مـن القصص والمجموعات التى ظهرت فى فتـرة الاستقـلال ٠

ويؤرخ المؤلف لبدايات الرواية الجزائرية العربية باوائل السبعينيات ، وهذا بالرغم من ظهور بذور لها قبل هذا التاريخ ، مثل « غادة أم القرى » لاحمد رضا حوحو ، التى تعالج وضع المرأة فى البيئة الحجازية ٠ ويرى أن من أسباب تأخر ظهور الرواية الى هذا التاريخ صعوبة تناول هذا الفن لاحتياجه أكثر من أي فن آخر الى الصبر والاناة والتأمل الطويل (ص 198) ، وانعدام تقاليد روائية جزائرية يمكن محاكاتها ، واحتياج فن الرواية الى لغة طيعة مرنة قادرة على تصوير بيئـة كاملة ، وهو مـا كان يفتقده كتابنا قبل السبعينيات (ص 198) ٠ ويرى المؤلف أن أول رواية جزائرية كتبت بالعربية هي « ريح الجنوب » لابن هدوقة ، وان سبقتها رواية «مالا تذروه الرياح» الى الظهور ، ثم يضم الى الروايتين رواية « الزلزال » ورواية « اللاز » للطاهر وطار ٠

يكتفى المؤلف بدراسة « ريـح الجنوب » لانها الرواية العربية الاولى كما سبـق ، ولانها تلتقى فى نظره مع رواية « الزلزال » فى معالجة الثورة الزراعية من وجهة نظر خاصة ٠ ويقول فى تعليقه على أسلوب الرواية : « وأفضل ما فى الرواية فى تصورى هو أسلوب الكاتب ولغته السلسة الشاعرية فى كثير من المواقف » (ص 208) ، ويقول فى تفضيل الكاتب للبادية : « يحن الى القرية رغم أنه يعيش فى المدينة ، ويتعاطف مع

أهلها فى أفراحهم واتراحهم ، فهو مشدود الى صفاء الناس فى القرية والى بساطتهم وان كان يرفض بعض التصورات وبعض العادات فى القرية (ص 208) ·

ويرد بدايات المسرح الى أوائل العشرينيات ، وذلك بمناسبة زيارة جورج أبيض وفرقته للجزائر · ويسجل قلة الدراسات حول هذا الفن ، مشيرا الى أن أرليت روت ومحيى الدين باشترزى كانا من أوائل من كتبوا عنه · ويرى أن البدايات الحقيقية للمسرح ترجع الى ما بعد الحرب العالمية الثانية وحوادث ماي 1945 (ص 216) · واذا كان المؤلف قد أشار بحق الى صعوبة العثور على النصوص المسرحية التى لم تطبع فى كتاب ، فانه لم يوضح ما اذا كانت هذه النصوص ، وبخاصة نصوص ما قبل حوادث ماي 1945 ، تشكل بداية حقيقية للمسرح الادبى ، لان الذى يهم الباحث من المسرح هو النص بما يمثله من موقف وتقنيات ولغة ·

ويقسم المؤلف بعد ذلك الفن المسرحى الى ثلاثة اتجاهات ، الاتجاه التاريخى ويمثل له « ببلال » لمحمد العيد ، و « حنبعل » لاحمد توفيق المدنى ، و « يوغرطة » لعبد الرحمن ماضوى ، والاتجاه الاجتماعى الذى يمثل له بمسرحية « امرأة الاب » لاحمد ابن ذياب ، ومسرحيات حووح الاجتماعية ، ومسرحية « فى انتظار نوفمبر جديد » للجنيدى خليفة ، التى يعتبرها بعض الباحثين مسرحية اجتماعية من بعض الوجوه (ص 213) ، والاتجاه الثورى ويمثل له بمسرحية « مصرع الطغاة » للدكتور الركيبى ، ومسرحية « التراب » للدكتور دودو ·

ثم تطرق الى الحديث عن لغة المسرح ، فهل هي الفصحى أم العامية ، ويذكر الخلاف القائم حول هذه القضية ، ملاحظا أنه خلاف ناتج عن النقاش الجارى حول قضية التعريب · يقول المؤلف : « ومنشأ هذه القضية وسبب هذا الحوار أن هناك صداما حادا بين أنصار التعريب وخصومه · فالذين يجهلون العربية لا يتصورون أن يقوم مسرح للشعب يعتمد على اللغة القومية · وانما ينبغى أن يستخدم اللهجة الدارجة » (ص 235 ـ 236) · وسواء صح ما يقوله الدكتور الركيبى هنا أم لم يصح ، وهو صحيح الى حد ، فأن القضية فنية أكثر منها شيئا آخر ·

أما فيما يتعلق بالنقد الادبى ، وهو الشكل الاخير فى هذا العرض ، فموقف الدكتور منه واضح ومعروف ، وهو أن لا تقدم للادب بدون نقد · يقول : « ولا شك أن العلاقة بينهما حميمة ، علاقة جدلية · فاذا قلنا ان ضعف الادب من ضعف النقد ، فان العكس صحيح أيضا · ذلك أن من الصعب الفصل بينهما » (ص 237) · ويقول فى

وظيفة الناقد : « فان مهمة الناقد هي تفسير هذا الجمال ، واظهار طريقة الاديب فى الحث على الخير أو نقد الحياة وما فيها من زيف أو ظلم أو شر » (ص 237) · وليس من تناقض بين تحديد المؤلف لمهمة الناقد وبين قولــه قبل ذلك : « فعمله خلــق جديد للمادة التى ينقدها ، واعادة لها على نحو تظهر معه قدرته على التذوق والفهم وتوصيل ذلك للآخــرين » (ص 237) ·

نعرف ان كثيرين سيختلفون مــع الدكتور الركيبى فى تحديد مهمــة النــاقد بهذا الشكل · فلغيره أن يرى أن مهمة الناقد مستقلة عن مهمة الاديب ، أو هي غير تابعــة لها بالشكل الذى حدده الدكتور · فالناقد فى نظرى ليس مفسرا أو واسطة فحسب ، بل هو صاحب موقف يقفه فى تكامل أو تناقض مع موقف الاديب ·

ويحدد المؤلف بعد ذلك ثلاث مراحل للنقد الادبى الجزائرى ، الاولى تمتد مــن القرن الماضى الى قيام الحرب العالمية الاولى ، والنقد فيها تقليدى · والثانية بدأت فى أوائل العشرينيات ، وهي التى ظهرت فيها نظرة جديدة لمفهوم الادب ووظيفته · غير ان هذه النظرة الجديدة لم يكن لها صدى فى نفوس الادباء · يقول المؤلف : « على أن هذه الآراء التقدمية حول النقد والشعر لم تستمر ولم تجد لها صدى فى نفوس الادباء لاسباب كثيرة منهــا أن الشعراء والنقاد كانوا مــن المحافظين ، ومن رجــال الــدين المصلحين · ثم ان التقاليد النقدية لم تترسخ فى البيئة الادبية الجزائرية » (ص 247) ·

ويستدل المؤلف بمقال للسعيد الزاهرى نشره سنة 1925 يشتكى فيه من انعــدام النقد ، على أن هذا الفن كان دائما نادرا أو منعدما فى الجزائر · ويرد الدكتور انعدام النقد الحديث قبــل الحرب العالمية الثانية الى النظــرة الاصلاحية للادب ، فيقول : « فالنظرة التكاملية للشعر من حيث الموضوع الجديد والمضمون الجيد والشكل الجميل لم تكن من أهداف الفكر الاصلاحى · ومن ثم اقتصر فهمهم للتجديد على ناحية واحدة هي ما جد من أحداث · ونظروا للغة من زاوية اللفظ والمعنى مثل ما نظر القدماء لها وللشعر · ونظروا أيضا للموضوع نفس النظرة » (ص 249) ·

أما بعد الاستقلال فقد ظهــر النقد الانطباعى التاثرى ، وهو كمــا يقول المؤلف : « الذى يعبر فيه الناقد عن احساسه الاول بما يقرأ فيعبر عن هذا فى مقال يكشف فيه عما أحسه فى هذا العمل الادبى من أسلوب جميل ··· الخ » (ص 253) · وأما النقــد الذى يريده الدكتور فهو كما يقول : « ونحن ندعو الى منهج متأمل فى النقد الجزائرى يستفيد من العلوم الانسانية كلها ، ولكنه يراعى النص بالدرجة الاولى لا معزولا عن

صاحبه وعن بيئته ، ولكن معزولا عن المؤثرات الشخصية الذاتية بعيدا عـن الاهواء والاحكام العامة المسبقة » (ص 254) • والذى منع من قيام هذا النقد فى نظر الدكتور هو تكلف المثقفين للنقد ، ومما رسته ممن يحسنه ومن لا يحسنه ، مما أدى فى نظره : « الى خلط فى المفاهيم وفى المصطلحات وغـاب التقـويم الحقيقى فلـم يستفد الادب والادباء كثيرا مما ينشر من نقد » (ص 254 – 255) •

هذا هو موقف الدكتور الركيبى من النقد الجزائرى الحديث ، وهذه مواقفه من الاشكال الادبيـة النثـرية التقليدية والحديثة باختصار • ونحن اذ نعتـذر للمـؤلف والحاضرين معا عما قد يكون فى هذا العرض من غموض وقصور ، نرى أن الهدف من هذا التقديم لا يتحقق الا بالقاء نظـرة سـريعة على منهـج التاليف ، وعلى الافكـار والمواقف التى شكلت المادة الاساسية للكتاب • ومن حق المؤلف علينا أن نعترف منذ البدء باهمية هذا العمل العلمى الجامعى الهام • انه عمل هام من عدة وجـوه ، أولا من جهة أنه المرجع الذى كنا ننتظره منذ سنوات ، أي منذ أصبـح لـلادب الجزائرى الحديث كرسى فى جامعة الجزائر ، وثانيا من نـاحية أنـه سيدفع الحـركة الادبية الجزائرية الى أمام ، وسيساعدها على النهوض على ساقيها الاثنتين : الشعر والنثر . أما السبب الثالث الذى يجعلنا نعلق أهمية كبرى على هذا الكتاب فهو هذا المنهج العلمى الدقيق المحكم الذى اتبعـه المؤلف فى معالجة موضوعه • والدكتور الركيبى ليس جديدا فى ميدان التاليف ، فمؤلفاته تناهز العشرة أو تربو عليها • ويكفى هـذا العدد الهام من المؤلفات دليلا على أن ما يقدمه للمكتبة الجزائرية بخاصة ، والعربية بعامة ، سيكون له أهمية أساسية فى حقل التاليف الجامعى •

والدكتور الركيبى يعرف منذ البداية أنه سيقوم بمحاولة شاقة ، فهو يدرس فنونا ما يزال الغموض يكتنفها ، وهو يريد أن تكون دراسته لبنـة فى بنـاء صـرح الثقافة العربية الجزائرية • كل ذلك يتطلب منه منهجا مدروسا ودقيقا • فما هو هذا المنهج ؟

يحدد المؤلف منهجه باختصار فيقول : « والواقع أن المنهج الذى اخترناه هـو منهج النقد والتحليل والاستعانة بالتاريخ الى حد مـا » (ص 9) • هو منهـج نقـدى تاريخى اذن • واذا كان المؤلف يريد فى هذا التحديد أن يقلل من اعتماده على التاريخ ، فانما ذلك لان الذى يهمه بالدرجة الاولى ليس هو التاريخ فى حد ذاته ، بل هو العلاقة العضوية بين هذا التاريخ وبين الاشكال الادبية التى يدرسها •

ويواصل الدكتور الركيبي فيوضح لنا ، فى اطار هذا التحديد ، ما يعنى بكلمتى الحداثة والتطور · وهو يفعل ذلك منذ المقدمة ، حتى يكون القارىء على علم بما يريد المؤلف قبل الدخول فى الكتاب · يقول فيما يتعلق بالحداثة : « فالحداثة التى نقصدها فى النثر تعنى أن هناك جديدا فى الموضوعات ، وفى الاساليب والاشكال الادبية · أو بتعبير آخر تعنى الجديد فى الصياغة والشكل » (ص 7 — 8) ·

ان الحداثة التى يعنيها اذن هي الحداثة فى الافكار والصياغة معا · واذا كان قد ألح فى التحديد السابق على الشكل أكثـر مما ألح على المضمون ، فليس ذلك لانه يحصر الحداثة فى الاسلوب واللغة ، بل لان الحداثة فى هذا العنصر أبرز من الحداثة فى غيره ، أو لان الشكل أشد استقرارا ، وأكثـر مقاومة لدواعى الحداثة والتغيير · على أن فصول الكتاب كلها تبين بما لا يدع مجالا للشك أن اهتمام الدكتور الركيبى بالافكار والمواقف لا يقل أبدا عن اهتمامه بالاسلوب واللغة ·

ويحدد مفهوم التطور فيقول : « أما التطور الواضح فنلمسه فى الاشكال الجديدة التى ظهرت منذ عصر الانبعاث والاحياء ، ومنذ أن بدت بوادر النهضة الحديثة سواء فى الادب أو فى مجـالات أخرى أوجدتها ظـروف كثيرة سياسية واجتماعية وفكرية وحضارية كان لها أثرها وصداها فى البيئة الجزائرية مما ساعد على أن تظهر أنماط جديدة مثل المقال الادبى ، والقصة القصيرة ، والرواية ، والمسرحية ، والنقد الادبى » (ص 9) · فكل من الحداثه والتطور لا يظهر فى الادب اعتباطا ، بل ينشـأ عن ظروف خاصة سياسية وثقافية واجتماعية · وهي الظروف التى يستعين بها المؤلف فى تفسير التطور الذى يظهر فى بعض الفنون ·

منهج الكتاب واضح اذن ، وهو هذا المنهج الذى أوضحه لنا المؤلف عندما حدد لنا ما يعنى بالحداثة والتطور · فهو يريد أن يدرس الاشكال الادبية النثرية من سنة 1830 الى سنة 1972 ، أي يريد أن يوضح لنـا كيف كان الاديب الجزائرى يعالج هذه الفنون فى الظروف المختلفة · وهذه الظروف هي التى سيلح عليها المؤلف الحـاحا شديدا فى كل مـرة ، ويستفيد منها فى تحديد سمات كـل فـن مـن الفنون النثرية ، وخصائص كل أديب فى اطار الفترة التى يعيش فيها :

هذا هو منهج الكتاب من الناحية النظرية ، أو حسب ما حدده لنا المؤلف نفسه · أما من الناحية العملية فالدكتور الركيبى مخلص له فى كل خطوة تقريبا · فهو عندما يدرس أحد الفنون التى عالجها الكتاب ، يبدأ بتسجيل بدايات هذا الفـــن فى الادب

العربى · ولكنه يفعل ذلك فى اختصار شديد · ويحاول أحيانا أن يبين العوامل التى جعلت هذا الفن أو ذاك يظهر متأخرا فى بلادنا ، كما صنع بالنسبة الى القصة القصيرة ، والرواية ، والنقد الادبى ، والمسرحية · وبعد ذلك يعالج الفن فى الادب الجزائرى الحديث ، فيذكر رجاله ، ويسوق بعض النماذج الهامة ، ويقف عند هذه النماذج مركزا بصفة خاصة على الجديد فيها ، ورابطا بين هذا الجديد وبين الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية والحضارية · ثم يلتفت الى اللغة والسمات والخصائص التى تميز أساليب من أساليب سبقتها أو لحقتها · وكل ذلك يفعله دائما مستعينا بالظروف وما جرت اليه هذه الظروف من تغير فى الحياة العامة ، ومن ثم فى الفن ·

وكان وعي الدكتور الركيبى بالعلاقة العضوية بين الفن وبين الظروف العامة من العمق بحيث كثيرا ما كان يلح عليها الى حد الاطناب فى بعض الاحيان · وقد أكد فى غير موضع من الكتاب أن الفن انما هو ناتج تفاعل بين الاديب وبين المجتمع · يقول المؤلف : « ولا شك أن الاشكال الادبية تظهر لحاجة ملحة فى نفس الكاتب والمجتمع معا ، وتتطلبها البيئة الثقافية والاجتماعية أو السياسية والادبية » (ص 108) ·

ويعتمد المؤلف فى كثيرا من الاحيان على أسلوب الموازنة · وقد رأيناه يستخدم هذا الاسلوب فى تحديد الطرائق الخاصة فى التعبير · رأينا ذلك فى التفريق بين خطباء الحركة الاصلاحية وخطباء حزب الشعب ، ورأيناه فى المقارنة بين أسلوب ابن باديس وأسلوب الابراهيمى فى المقال الادبى والخطابة معا · وكثيرا ما كان يقارن بين نماذج الفن الواحد فى فترتين مختلفتين ، كما فعل ذلك بين الخطابة فى عهد الامير والخطابة فى عهد الاصلاح · ان الموازنة أسلوب محبب الى نفس المؤلف · وهذا الاسلوب لا يميل اليه الا الباحث المؤمن بفعالية المنهج التاريخى فى دراسة الظواهر الادبية · وقد أخبرنا المؤلف نفسه أنه اتبع منهجا مركبا يعتمد على النقد والتاريخ معا ·

ومن أهم خصائص أسلوب الدكتور الركيبى فى هذا الكتاب الشجاعة الادبية التى تجلت فى مختلف مواقفه النقدية · وقد أشرنا الى هذه الشجاعة فى مكان ما من هذا التقديم · ونلح هنا بصفة خاصة على شجاعته وصراحته وموضوعيته فى دراسة فنون القصة القصيرة ، والرواية ، والنقد الادبى · فان له فى هذا القسم من الكتاب مواقف تدل على وعي شديد بالظروف التى ترعرعت فيها هذه الفنون ، وعلى جرأة فائقة فى تحديد هذه الظروف ، وتقويم الآثار الادبية التى ظهرت فى اطارها · واذا كنا لا نشك فى أن كثيرا من هذه المواقف ستثير نقاشا حادا بين المؤلف وبين الادباء

المعنيين ، فان ميزة الدكتور الركيبى فى هذا الكتاب هي أنه لا يجامل فى ابداء الرأي واقـامة الحجـة ٠

وبهذا نصل الى تسجيل بعض الملاحظات التى نريد أن نختـم بها هذا العرض ٠ وهي ملاحظات عامة لا نشك فى أن المؤلف سيجيب عنها باختصار ، حتى يمكن للمناقشة أن تنطلق فى شيء من الموضوعية ٠

أولى هذه الملاحظات هي أن المؤلف كان يطنب أحيانا فى تحليل بعض النموذج ، حتى انه فى تقديمه لرحلة محمد السعيد بن على الشريف ملأ عشر صفحات (49 – 59) وتقديمه للمقامة العوالية لمحمد بن على مـلأ اثنتين وعشرين صفحـة (86 – 108) ٠ وبالرغم من أنه قد يكون للزميل الركيبى عذره فى هذه الاطالة ، الا ان الاطناب مـع ذلك يبعث بعض السأم فى نفس القارى ٠

والملاحظة الثانية ، وهي عكس السابقة ، هي أن المؤلف أوجـز كثـيرا فى بعض المواقف ٠ ونحن نعرف أن المادة أحيانا لا تسعف الباحث ، غير أن تخصيص صفحـة واحدة (44 – 45) لتطور فن الرسائل فى عهد الاصلاح ، ونصف صفحة لهذا الفـن نفسه فى عهد الثورة (33 – 34) شيء يلفت النظر حقا ٠

والملاحظة الثالثة هي أن بعض الاحكام ظلت بدون توثيق ، ممـا يجعـل القارىء يتساءل أحيانا لماذا لم يسق المؤلف شواهد أو نماذج تؤيد ما يقول ٥ كما نرى ذلك فى فن الرسائل وتطوره فى عهدى الاصلاح والثورة ، وفى الحديث عن خطباء رجال حزب الشعب الجـزائرى ٠

والملاحظة الرابعة والاخيرة هي ان المؤلف لم ير من الضرورى تحديد بعض الفنون المدروسة ، مما يحس معه القارىء مثلا ببعض التداخل بين الرحلة والتحقيق الصحفى فى عهد الاصلاح ، وبين المقامة الشعبية والقصة الشعبية ٠ لابد أن يكون للدكتـور وجهة نظـر فى اغفاله عـدم تحديد معظم الفنـون المدروسة فى هذا الكتاب ٠ ولكـن التحديدات مـع ذلك تساعد على تلمس الفـروق بيـن الفنون ، ولا سيما فى العهـد الاصلاحى الذى اختلطت فيه المفاهيم بالنسبة الى فنون الخطابة ، والرحلة ، والتحقيق الصحفى ٠ أما بالنسبة الى القصة القصيرة فقد كان الدكتور الركيبى فيها دقيقا الى حد بعيد ، اذ أنه تحدث عن المقال القصصى ، والصورة القصصية ، والقصة الفنية ٠

هذه هي الملاحظات القليلة التى كان على أن أبديها فى ختام هذا التقديم ٠ وهي ملاحظات عامة لا تمس صلب الكتاب الا مسا رفيقا ، ولا تحط من قيمة الافكار والمواقف

التى وردت فيه بحال من الاحوال · وان دلت هذه التساؤلات على شىء ، فانما تدل على مدى مـا يعانى الباحث عندما يتناول موضوعا غـير معبد · والنثر الجزائرى الحديث لم يدرس قبل اليوم كما هـو معروف · فاذا استثنينا الدراسة الجامعية التى خصصها الاستاذ محمد ناصر للمقالة الصحفية ، كان هذا الميدان بكرا لم يدخله أحد قبل الدكتور الركيبى · ونحن لا نقول هذا تخفيفا مما قد يوجه الى هذا العمل الهـام من نقد ، بل نقوله لبيان فضل الدكتور الركيبى على الحركة الادبية الجزائرية · فبعد أن درس القصة القصيرة الجزائرية الى سنة 1962 ، والشعر الدينى الجزائرى كأحسن ما تكون الدراسة · ها هو اليوم يدرس الفنون النثرية الباقية التى لا يمكن للنهضـة الادبية أن تنشط بدونها ، ولا ان تسلك طريقا سويا الا اذا عرفت جذورها حق المعرفة · ويعتبر كتاب « تطور النثر الجزائرى الحديث » مرحلة أساسية فى تعميم هذه المعـرفة وتعميقها · فهنيئـا للزميل والصديق الدكتور الركيبى بهذا التوفيق الكبير ، وهنيئـا للادباء الجزائريين بهذا الكتاب الجديد الذى سيوسع من ثقافتهم ، ويعرفهم بنشـاط أسلافهم ، ويضع أمامهم معالم الطريق السليم للدخول فى مرحلة الثـورة الثقـافية الجـزائـريـة ·

العربيـــــة خـــارج حـــدودهـــا (١)

د . يشــاد رجباغيتش
اعدها للعربية : محمد موفاكو
استاذ فى فرع الاستشراق
جامعة برشتينا ، يوغسلافيا


(*)

تنطلق هذه الدراسة من اعترافنا باهمية الخبرة الايجابية للمدارس ، فى الماضى والحاضر ، ومن كـــون التعرف على هذه المدارس مهمة أساسية مطروحة أمام الباحثين ، ومؤرخى التربية بشكل خاص . وكتوطئة مساعدة للتعرف على طابع هذه المدرسة ، سيكون حديثنا أولا عن البنية العامة ، والمهمات العريضة ، تاريخيا ، للمدرســـة .

(1) الدكتور رجباغتيش مرجع فى شؤون التعليم والتربية ، وله فى ذلك اسهامات عديدة ، حاليا أستـــاذ فى جامعة برشتينا ـ يوغسلافيا . وهذه الدراسة اقتبسناها مـــن دراسته الـوسعى التى صدرت تحت ذات العنوان ، مدرسة سكوبية الكبرى .
، المنشورة على خمس عشرة حلقة فى سبتمبر 1975 فى جريدة Rilindja

«*» محمد موفاكو ، شارك فى الملتقى العاشر للفكر الاسلامى بعنابة . وتفضل فأرسل للأصالة هذه الدراســة التى ننشرها شاكرين .

ترجع جذور هذه المؤسسات الى مدارس الصبية ، التى ألحقت فى بداية الامر بالمساجد • ونشهد بعد فترة ، أن مستوى أعلى للدروس ، بدأ يعقد فى غرف خاصة ، بالقرب من المساجد • ومؤسسات كهذه نجدها قائمة فى بغداد ، المدينة ، القاهرة ، تونس ، وأماكن أخرى • ومن هذه المؤسسات ، يشار بشكل خاص الى « الاكاديمية الجديدة » فى بغداد ، التى أسست فى نهاية القرن الثانى • وفيها كان يدرس الهندسة ، الفلك ، الكيمياء ، الموسيقى ، الطب ، الفلسفة ، المنطق ، وعلوم أخرى • ومن الشائع فى تاريخ التربية ، أن الثقافة الهلنستية قد تطورت هنا بشكل ملحوظ •

كذلك فقد قام عديد من الحكام ، والشخصيات الشهيرة ، بتأسيس مدارس مشابهة • وقد أطلق على هذه المدارس ، التى اهتمت بمادة دون أخرى ، أسماء منها « دار الحكمة » ، « دار العلم » ، « دار الحديث » و « دار الطب » •

من هذه المؤسسات انبثقت المدارس • وعلى ما يروى المؤرخون العرب عن تاريخ المدارس ، فان أول مدرسة هى تلك التى عرفت باسم « النظامية » ، التى أسست فى بغداد سنة 1066 •

وفيما بعد امتدت هذه المدارس الى مدن العراق ، سوريا ، مصر وبلدان أخرى • كذلك فقد انتشرت هذه المدارس عبر المدن الصغيرة ، بشكل أكثر تميزا ، خلال الحقبة الممتدة من القرن الحادى عشر الى الرابع عشر • وخلال الحكم العثمانى استمر هذا الانتشار أيضا ، لاسباب شرعية ، علمية ، دينية الخ ••• وقد تم افتتاح مؤسسات على هذا الطراز فى مناطقنا أيضا • فعبر الفتح العثمانى للمناطق الجنوبية من يوغسلافيا ، الذى توازى معه امتداد الاسلام ، شكلت مؤسسات عديدة تعليمية ، علمية ، ثقافية ، دينية وغير ذلك • هذه المؤسسات انتشرت تقريبا فى كل مدينة من مكدونيا ، كوسوفا ، وفى مراكز عديدة من الجبل الاسود ، صربيا ، البوسنة والهرسك • ولم يقتصر وجود هذه المؤسسات على المدن الرئيسية ، بل امتدت كذلك الى المدن الثانوية •

هذه المدارس المتوسطة والعالية (2) ، وجدت لدينا مع بداية القرن السادس عشر . على حين أنه فى مدن أخرى ، وجدت حتى قبل هذا التاريخ . ومن الطبيعى أن تكون هذه المدارس على نمط مدارس داخلية ، بغرفة أو عدة غرف للدروس . وقد نظمت المدارس فى مناطقنا ، على نمط مدارس استنبول ، والمراكز الاخرى فى الامبراطورية التركية . هذه المدارس كانت ، خلال حقبة امتدت من القرن 16 الى القرن 19 ، ذات طابع دينى ـ علمانى . اضافة الى ما قامت به من تأمين الكوادر الدينية ، اهتمت كذلك ـ مثلها فى ذلك مثل المدارس المتوسطة ـ باعداد الطلاب ليتابعوا دراستهم فى بلغراد ، والاسكندرية ، واستنبول ومراكز أخرى . ولم ينحسر هذا الطابع عنها الا مع النصف الثانى للقرن 19 ، حيث بدأ تشكيل المدارس الابتدائية والمتوسطة التابعة للدولة . بعد هذا التاريخ اقتسمت التركة بين النمطين السائدين ، فاختصت المدارس بالطابع الدينى الصرف . ومن هنا ، فان المحاججة التى تذهب الى أن هذه المدارس ليست الا مؤسسات دينية ، لا ترتقى الى الحقيقة الا بشكل جزئى . ومثلها فى ذلك الرأى الذى يقول بأن هذه المؤسسات كانت فى ذلك العصر مدارس متوسطة معاصرة .

فيما يتعلق بمدينة سكوبية ، التى هى موطن الحديث ، فان التاريخ يسجل لنا ، بأن أقدم المدارس فيها كانت تلك التى اشتهرت باسم مدرسة مداح Medah medresa التى أسستها فاتح سكوبية يغيت باشا Jigit basha بين 1297 ـ 1298 . وقد قدمت هذه المدرسة عددا ضخما من المثقفين ، لعل من أشهرهم الفيلسوف لطف الله افندى . وبعد هذه القاعدة ، قام اسحق بك بتأسيس مدرسة أخرى حوالى عام 1440 ، التى أراد لها أن تكون على شاكلة مدارس استنبول . وقد شيد هذا القائد العسكرى المدرسة لـ « رجال العلم » . كذلك فقد بنى فيما بعد ، فى 1460 ، مدرسة اخرى

(2) نود أن نتدخل هنا لنوضح هذه التعابير ، كى لا تثير لبسا للقارىء . تعبير « مدرسة متوسطة » فى يوغسلافيا يقابله فى التنظيم العربى : مدرسة ثانوية . أما تعبير « مدرسة عالية » فيقصد به المؤسسة المتوسطة بين المدرسة الثانوية والجامعة . وهو ما يسمى غالبا فى العربية : معهد متوسط ، م. موفاكو

ومكتبة • وقد اشتهرت مدرسته هذه خلال قرون لاحقة كاحدى أشهر المدارس فى الروملى • (3)

مع تطور المدن ذات الطابع الشرقى ، وبشكل خاص المراكز التجارية ـ الثقافية فى القرن 17 ـ 18 ، تنامى أكثر فأكثر عدد المدارس فى جنوب بلادنا • وحول هذا النمو ، نجد لدينا معلومات وافية فى كتاب الرحالة التركى أولياء شلبى ، أحد أشهر الرحالين الاتراك فى النصف الثانى من القرن 17 • فى ذلك الوقت برز من بين مدارس سكوبية : مدرسة السلطان مراد ، مدرسة عيسى باشا ، مدرسة مصطفى باشا، مدرسة يحيى باشا ، مدرسة كارلزاده • والى جانب هذه وجدت (9) مدارس لقراءة وحفظ القرآن (دار القرآن) • أما الرقم العام للمدارس ، فنجد أن هناك (100) مدرسة ، انتشرت فقط فى مكدونيا وصربيا حتى القرن 19 • وهذا الرقم يقفز الى (150) مدرسة ، اذا ماأخذت الاقاليم اليوغسلافية ككل بعين الاعتبار •

داخل هذه المدارس كان يدرس ، اضافة الى القرآن والدين والحديث ، اللغة العربية وكذلك الفارسية والتركية ، أصول الشريعة ، الفلسفة ، البلاغة ، التاريخ ، الرياضيات ، الهندسة ، العناية الصحية ، الفلك ، و «ما يتطلبه روح العصر» •

فى سكوبية بشكل خاص ، سنرى فى العقد الاخير للقرن العشرين ، أن مدارس البنين والبنات أتخذت شكلا متطورا ، بحيث نشهد مدارس ابتدائية ، مدارس متوسطة (رشدية) ، مدارس عليا (اعدادية) أو بما اشتهرت به ! السلطانية • ويضاف الى هذه « دار المعلمين » أيضا • ويعود الفضل فى هذا الى والى سكوبية حافظ محمد باشا ، الذى اشتهر كشغيل لا يعرف الملل فى حقل التعليم الثقافى •

هذا الامتداد التاريخى للمدارس فى سكوبية يطرح على أنه أحد الاسباب ، التى دفعت فى فترة ما بين الحربين العالميتين ، الى تأسيس احدى المدارس الشهيرة ، التى امتازت بنشاطها المنظم ، بنتاجها وتأثيرها الثقافى بين السكان • ان « مدرسة سكوبية

(3) الروملى تعبير منحدر من Rum-Eli التركية ، وقد استعمل الاتراك هذا التعبير للدلالة على البلقان ، أى بلاد الروم ، نسبة الى مذهب الروم الارثوذكس الذى ساد فيها ، م• موفاكو •

الكبرى » بكل تاكيد ليست امتدادا مباشرا للمدارس السابقة فى سكوبية ، الا انها تجاوزت العديد منها لما امتازت به من تاثير عريض ٠

ما تميزت به المدرسة، جاء نتاجا للمرحلة التى شهدت تقارب بلدان الشرقمع أوربا. تلك المرحلة التى بدأت فيها الاصلاحات فى المدارس ٠ وعلى هذا نرى مثلا فى الهند ، تاسيس المدارس المصلحة (العصرية) ، على نمط العديد من المدارس الاوربية ٠ فى هذه المدارس أبقى على عدد من المواد الدينية ، على حين أنه أتبع فى اعطاء الدروس وسائل حديثة ، اضافة الى التغييرات التى مست أشكال تنظيم الدروس ، كذلك فقد أصبح مضمون التعليم يهدف الى تهيئة الطالب للمرحلة الجامعية ٠ وعلى هذا الطراز ، أسست « مدرسة سكوبية الكبرى » ، التى تعد كواحدة من تلك المدارس العصرية ، كما هى الحال فى مدرسة كلكوتا فى الهند ، التى يجرى التعليم فيها على نمط رفيع ٠

« مدرسة سكوبية الكبرى » هذه ، التى تمتعت بنفوذ وبتأثير واسع فى الاوساط الاسلامية ، وغير الاسلامية الى حد ما ، تم تأسيسها فى ظروف نوعية ، تعليميـــة ، ثقافية ، اجتماعية ، سياسية ، المدرسة تشكلت أولا ، لان المدارس الاخرى لم تعـد تستجيب لحاجات ذلك الوقت الثقافية ، أو للاجتماعات المهنية ، والسياسية ٠ اذ أن تلك المدارس عجزت عن تهيئة كوادر تساهم فى تغيير المحيط الثقـــافى المختلف ٠ بتعبير آخر ، كان تدنى المستوى التعليمى فى الكتاتيب والمدارس ، وانحصار هـذا التعليم بالاتجاه الدينى ، اضافة الى النسبة الكبيرة من الاميين وعدم وجود العـــدد الكافى من المدارس الرسمية ، هو الذى دفع المهتمين بالتعليم والثقافة الى تاسيس مؤسسة عصرية ، تهدف الى « وضع العنصر الاسلامى فى الطريق القديم نحو التعليم والتقدم » ٠ كذلك فان المدرسة تم تشكليها فى سكوبية بالذات ، لان سكوبية اشتهرت على كونها مركزا للمدارس منذ قرون عديدة ، وكونها مركزا لـ « مجلس العلماء » المسلمين ٠

لقد استند تأسيس المدرسة الى المرسوم الصادر فى 28 نيسان 1924 ٠ الا أن المدرسة لم تفتح أبوابها الا فى بداية العام الدراسى التالى 1925 ٠ ومنذ افتتاحها ، جوبهت المدرسة بمحاولة الاوساط المحافظة ، التى على رأسها « مجلس العلـــماء »

لاضعاف تاثير المواد اللادينية ، بشكل تتخذ فيه المدرسة طابعا عقيديا بحتا • اضافة الى قيامهم الدورى بمراقبة النشاط التربوى ، واعاقة تنظيم الاشكال العصرية للنشاط التعليمى ـ التربوى •

مع كل ذلك حملت سنة 1933 نصرا هاما للمدرسة ، مع تخرج الجيل الاول منها ، حين تم الاعتراف بها على قدم المساواة مع المدارس الاخرى المتوسطة • كما كسبت المدرسة فى ذات العام ، بمرسوم خاص ، اعترافا آخرا يمكن طلابها المتخرجين من متابعة دراستهم فى المدارس العليا ، والكليات الجامعية •

استنادا الى ما تقدم ، يرى الاستاذ فيدا لاتكوفيتش ، بأن « مدرسة سكوبية الكبرى » لم تكن الا متوسطة عادية ، حيث تدرس فيها العربية والتركية عوضا عن اللاتينية واليونانية • وهذا الرأى يدافع عنه الكثير من طلاب المدرسة ، الذين يرون فيها أولا مدرسة متوسطة متميزة على غيرها ، ومن ثم كمدرسة دينية • وعلى ما نعتقد ، فانه من الممكن تجديد نمط هذه المدرسة بشكل قاطع • ولكن بالاستناد الى المعطيات العديدة ، نرى بان مدرسة سكوبية الكبرى • قد تفوقت على المدارس العادية ، وحتى أن تفوقها كان أوسع على المدرسة المتوسطة الشرعية فى سراجيفو • اضافة الى هذا تمكننا « اللائحة الدستورية » للمدرسة من أن نتعرف بشكل دقيق على طراز المدرسة فاللائحة تنص على ان المدرسة هى « مدرسة متوسطة كاملة ، حيث يدرس فيها اضافة الى مواد المدرسة المتوسطة ، التعاليم الاسلامية واللغة العربية والتركية • وينطبق بشكل رئيسى على هذا المدرسة كل ترتيبات القانون الخاص بالمدارس المتوسطة » •

كذلك فان ما جاء فى الجريدة الرسمية لعام 1940 يدعم هذا • ان يذكر هناك بأن من اهداف المدرسة أن تعد التلاميذ « كى يتمكنوا من متابعة تعليمهم فى المدارس العالية والجامعات » •

ومنذ افتتاح المدرسة ، كان عدد الطلاب يتصاعد من سنة الى سنة • وامتد تاثيرها الى المناطق الماهولة ، الكبيرة منها والصغيرة ؛ وبشكل خاص فى بلافا Plava غوسى Gusi نوفى بازار Novi Bazar ، جاكوفا Gjakova ، بريزرن Prizren وغير ذلك •

أما عدد الطلاب ، فتخبرنا معطيات عديدة عن تزايدهم • ففى العـام الدراسى الاول 1925 ـ 1926 تجمع فى المدرسة (58) طالبا ، هم عداد الصف الاول ، وبعد فترة نرى أن عدد الطلاب فى العام الدراسى 1930 ـ 1931 وصـل الى (194) طالبا فى ستـة صفوف ، وبعد عامين سيقفز عدد الطلاب الى (250) طالبا • وهذا العدد سجل نجاحا كبيرا للمدرسة ، ازاء مقاومة الاوساط المحافظة التى حاولت ، بشتى الوسائل ، أن تعيق الطلاب من الالتحاق بالمدرسة • هذه المقاومة كانت مدفوعة من قبل ممثلى السلطة السياسية ، والمشايخ غير المتعلمين ، وكانت أسبابها تعود الى عدم رضى هذه الاطراف الى نهضة الشبيبة ، والى انتشار الافكار العلمية •

ومع أن المدرسين كانوا هم المسؤولون عن سير الدروس ، فان وزارة التربية كانت تتدخل كثيرا فى سير دروسهم • لقد كانت تحدد ما يجب أن يعطى ، وكيف يجب أن يعطى • كما تقوم بتفتيش مبالـغ فيه لاعمال المدرسين والمديـر ومجلس المدرسين ، وبشكل خاص للنشاط الثورى للطلاب • كذلك فان « مجلس العلماء » لم يفوت فرصة فى عرقلة تنظيم الدروس ، مدفوعا بشخصيته من دروس أصول الدين من ناحية ، وعلى المحاولات التى هدفت الى ادخال الاناشيد والموسيقى كى تخدم بعض الدروس • على هذا ، أرسلت رسالة مغفلة من التوقيع الى وزارة التربية ، تشير الى أن المدرسة تحولت الى مدرسة للفن ، لان الالهيات (الاناشيد الدينية) أصبحت تنشد بالنوتة وحتى فى المساجد ! • وعندما أعادت الوزارة هذه الرسالة الى « مجلس العلمـاء » ، اصطحبها ليبرر القيام بجولة تفتيشية على المدرسة ، ليراقب كيف تجرى الدروس فى اللغة العربية ، القرآن ، والمواد الدينية الاخرى •

من ناحيـة أخرى ، يقـودنا تحليل بنية الدروس الى أنـه ، فى السنوات الاولى للمدرسة ، كان حجم المواد الدينية المطلوبة طاغيا أكثر من السنوات الاخيرة للمدرسة وهذه الحقيقة يعكسها لنا الجدول التالى المقارن لاتجاهات الدروس حسب السنين :

1925	1933	1940
1 ـ تاريخ الاسلام	1 ـ مدخل الى العلم الاسلامى والتاريخى وتاريخ الاسلام	1 ـ أصول الدين
2 ـ الفقــه	2 ـ الفقــه	
3 ـ أصول الفقه	3 ـ تفسير القرآن والحديث	
4 ـ الفرائض	4 ـ التاريخ الاسلامى والدينى العــام	
5 ـ العقيدة	5 ـ منهج الشريعة والتنظيمات الدينية الاسلامية	
6 ـ الحديث		
7 ـ تفسير القرآن		

هذه اللوحة تشير الى أنه ابتداء من 1940 ، لم يعد يعطى من المعارف الدينية سوى أصول الدين ـ وبتعبير ذلك الوقت ، علم الحال ـ الشىء الذى كان منسجما مع المدرسة الشرعية فى سراجيفو ، وللاتجاه السائد للمدرسة المتوسطة ٠

كذلك فان اللائحة التالية ، الماخوذة عام 1940 ، تبين لنا مدى التباين بين المـواد التى كان يتلقاها الطلاب فى مدرسة سكوبيه الكبرى بالمقارنة مع غيرها من المدارس :

مدرسة سكوبيه الكبرى	المدرسة الكلاسيكية (الحكومية العــامة)	المدرسة الشرعية سراجيفو
ـ أصــول الـدين (علم الحال)	ـ علوم حول الدين	ـ أصول الدين
ـ اللغة الصربو كراوتية	ـ اللغة الصربو ـ كراوتية	ـ اللغة الصربو كراوتية
ـ اللغة العربية	ـ اللغة اللاتينية	ـ اللغة العربية
ـ اللغة التركية	ـ اللغة اليونانية	ـ اللغة التركية
ـ اللغة الفرنسية	ـ لغة أجنبية (ألمانية فرنسية)	ـ اللغة الفرنسية
	ـ التاريخ	ـ اللغة اللاتينية

مدرسة سكوبية الكبرى	المدرسة الكلاسيكية (الحكومية العامة)	المدرسة الشرعية ـ سراجيفو ـ
ـ اللغة الالمانية	ـ الجغـرافيا	ـ التأريخ
ـ اللغة اللاتينية	ـ الرياضيات	ـ الجغرافيا
ـ التاريخ	ـ علوم طبيعية	ـ علوم طبيعية
ـ الجغرافيا	ـ الفيزياء	ـ الفيزياء
ـ علوم طبيعية	ـ الكيمياء	ـ الكيمياء
ـ الفيزياء	ـ العناية الصحية	ـ الرياضيات
ـ الكيمياء	ـ الفلسفة	ـ الفلسفة
ـ الرياضيات	ـ الفـن	ـ الرسم
ـ الفلسفة	ـ الرياضة	ـ العناية الصحية
ـ الرسم	ـ النشيد	ـ الخـط
ـ العناية الصحية		ـ النشيد
ـ الخـط		ـ الرياضـة
ـ النشيد		
ـ الرياضـة		

هذه اللوحة تكشف لنا عن التشابه الكبير بين المواد الدراسية ، التى يتعلمها الطلاب فى المدارس الثلاثة · بحيث يمكن أن يقال بحـق عن « مدرسة سكوبية الكبرى » ، بانها نمط خاص للمدرسة الكلاسيكية الاسلامية · اذ أن تتبع هذه اللوحة يبين بان « مدرسة سكوبيه الكبرى » تميزت حتى عن المدرسة الكلاسيكية بثلاث مواد · كذلك فقد امتازت عن المدرسة الشرعية فى سراجيفو بمادة اضافية هى اللغة الالمانية ، التى أدخلت ابتداء من العام الدراسى 1940 ـ 1941 ·

كذلك فان قراءة لائحة ساعات المواد ، تكشف بان طلاب السنوات الاخيرة كانوا مكلفين بشكل كثيف ، بالمواد الدراسية وخاصة مواد اللغة · ومن المعارف الاخرى التى كانت تعطى فى المدرسة نجد التاريخ ، الجغرافيا ، الرياضيات ، التى خصص لها حتى الصف الرابع 4 ساعات اسبوعيا ، وما فوق الصف الرابع ترك لها 3 ساعات اسبوعيا · ويلاحظ أيضا اهتمام خاص بالرسم والرياضة خلال الصفوف الستة الاولى .

الا أن مدرسة سكوبية الكبرى لم تكن مجرد قلعة علمية ، بل اشتهرت الى جانب ذلك ، لكونها قلعة وطنية · لذا لم يكن غريبا أن يغزوها البوليس عدة مرات ، وأن يعتقل العديد من طلابها · ولقد انتهت حياتها بسبب الهوية الوطنية لطلابها · لقد جاء هذا بسبب الاسهام الهام ، الذى قام به الطـــلاب فى مظاهرات 25 ـ 27 آذار 1941 (4) · فى ذلك اليوم كانت المظاهرة ، التى تحتج على دخول يوغسلافيا فى الحلف الثلاثى ، تتجه نحو المدرسة ، التى كان البوليس قد حاصرها لمنع الطلاب من الخروج . الا أن الطلاب تسللوا من النوافذ ، وعبروا الجدار البوليسى ، لينضموا الى المظاهرة كمتظاهرين وكمدافعين عنها · فى ذلك اليوم الذى لا ينسى، مشى أساتذتها وطلابها وهم ينشدون أغانى الحرية ، ويرددون الهتافات المعادية للفاشية ·

وباستثناء كل المدارس الاخرى ، أغلقت أبواب المدرسة فى اليوم التالى 26 آذار ، مع أن الطلاب كعادتهم قد أموا المدرسة لحضور الدروس · ومن يومها لم تفتح بعد ·

1925 ـ 1941 تضمنت حياة قصيرة نسبيا لـ « مدرسة سكوبية الكبرى » ، الا انها كانت كافية ليحتويها أرشيف التاريخ · ما بقى من ذكرى المدرسة ليس مجـرد انطباعات يحتضنها المحيط ، بل طلابها أيضا الذين سطرت اسماؤهم كشهداء ، على عدة صفحات من سجل حرب التحرير الوطنية ، وآخرون نجدهم اليوم زعماء ، وكتابا ، ومؤرخين ، ونقادا ، وأساتذة فى الجامعات ·

---

(4) فى آذار 1941 ، أراد هتلر أن يتوصل لاحتلال اليونان عبر يوغسلافيا كحليفة · وكان الوصى على العرش الامير بول ورئيس الحكومة ستكوفتشى ذوى ميول نازية · وهكذا تم الوصول الى معاهدة ، تضمنت انضمام يوغسلافيا الى الحلف الثلاثى · لكن مظاهرات اليومين التاليين 25 ـ 27 آذار أطاحا بالحكومة ، من خلال تغيير عسكرى · م · موفاكو ·

حول الملتقى الثاني عشر للفكر الاسلامي

نشـــرت جريدة النصر فى عددهــا 1940 الصادر بتاريخ 1978/01/08 م مقـــالا عنوانه : « الملتقى الثانى عشر للفكر الاسلامي،تحفظات شديدة حـــول تاريخ الانعقــاد وظروف الاستقبال » أثار فيه صاحبه مجموعة من الملاحظات والاستفسارات عـــن الاسباب الداعية الى تأخير الاعلان عن موعد انعقاد الملتقى المذكور ، مثلما كتب أو هتف لنا كثيرون غيره من الداخل والخارج يتساءلون ، ومنهم المؤرخ المصرى المعروف عالميا الاستاذ محمد عبد الله عنان ، الذى عبر عن اسفه لما سمعه من ان هذه الملتقيات لن تنعقد فى المستقبل وأنها الغيت نهائيا ... ويستفسرون عن صحة الخبر ...

ونحن اذ نشكر الجميع على اهتمامهم بهذه الملتقيات ، ومنهم السيد بشير فريك ، صاحب المقال فى جريدة النصر ، فاننا نلفت نظره هو خاصة الى أن الوزارة لم يسبق لها الالتزام بفصل أو شهر معين فى عقدها للملتقيات ، وانما تراعى فى ذلك اعتبارات معينة ، ولم تعقدها خارج فصل الصيف الا فى تجربة أولى ، وكانت فى بجاية فى ربيع 1974 م ، ثم فى ورجلان فى شتاء 1977 م ، لضرورة الطقس ، ومــا عداها فكلها فى الصيــف الى الآن .

فتاريخ انعقاد الملتقى مرتبط أولا بالعطل الدراسية ، لان الاهداف المتوخاة منــه هي توعية الشباب وتكوينه تكوينا يتماشى وحقائق الاسلام الصحيح النقي الخالى من الزيف والتشويه ، ومرتبط ثانيا بتوفر التجهيزات الاساسية ووسائل الاستقبال الكافية ، من قاعة تتسع لاكبر عدد ممكن من الملتقين ، وفندق يأوى جميع الاساتذة الضيوف ،

اذ لا يمكن اسكانهم فى فنادق أو ديار متفرقة ، لان ذلك يخلـق لنـا مشاكل لا يدرك نتيجتها الا من خبر الموضوع ، ونحن الآن فى الملتقى الثانى عشر وقد أصبحت لدينا تجربة وخبرة كافيتان ، وتوفر ذلك شرط أساسى وجوهرى فى نجاح الملتقى ٠

والجدير بالملاحظة ان هذه الملتقيات أضبحت تكتسى صبغة عالميـة ودولية ، اذ يحضرها أساتذة ومفكرون من القارات الخمس ، والملتقى الثانى عشر ليس الا حلقة فى سلسلة هذه الملتقيات ، وليس مجمعا لمجموعة من شيوخ لتلاوة سورة يس عـلى جنازة[1]، فغاية الملتقى هي احتكاك الافكار وتبادل وجهات النظر والنقاش المثمـر بين الاساتذة والشباب والصحافة لخدمـة الفكـر الاسلامى واجـلاء شـوائب التحريف والتزييف التى ما انفك الحاقدون على الاسلام يلصقونها به ٠

وبالنسبة لقضية ذهاب لجنة الملتقى مـن الوزارة المثارة فى الموضوع ، فنفـيد صاحب المقال بأن وفدا تمهيديا قد قام بتاريخ 30 أكتوبر 1977 م بزيارة الى مدينة باتنة للاطلاع فى عين المكان على سير الاعمال التحضيرية فى مختلف المرافق ، وعقد جلسة عمل مع السيد والى الولاية ، وستتلوها جلسات أخرى فى المستقبل ، ان شاء الله ، كمـا نفعـل عـادة ٠

والوزارة حريصة على ان تجعل من ملتقيات الفكر الاسلامى نموذجا فريدا ومرآة تعكس للعـالم وجـه الجزائر المسلمة ٠

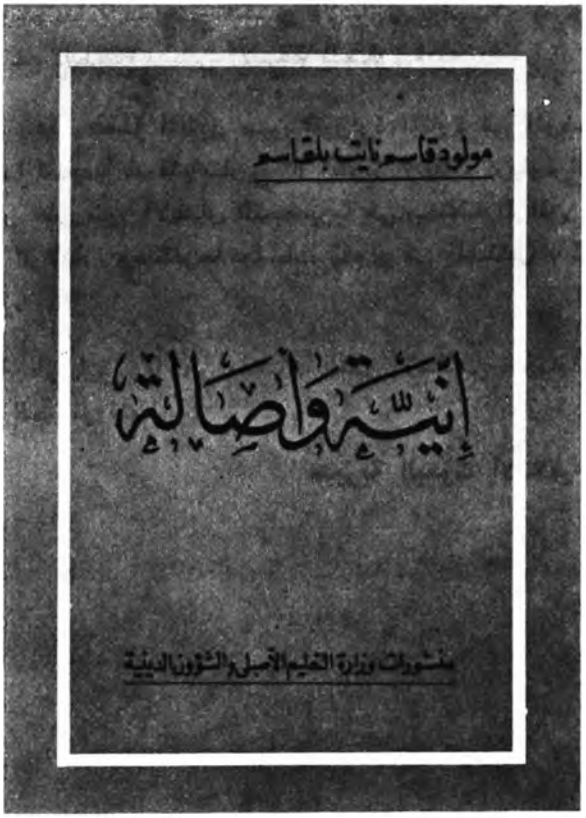
مديرية البحوث الاسلامية والملتقيـات

«1» هكذا يتصور الكثير ممن يعدون أنفسهم « اطارات » و « مسؤولين »، هـذه الملتقيات: فما دامت اسلامية فهى فى نظرهم مجامع لشيوخ معممين هدفهم الزردة ، والقعدة . والوعدة ! كما لو تقدمت قبعة أتاتورك به وبأمثاله خطوة الى الامام !

منشـــورات

وزارة التعليـم الاصـلى والشؤون الدينيـــة

صــدر أخـــيرا :



كلامنا لفظ مفيد كاستقم

أحمد حماني
رئيس المجلس الاسلامى الاعلى
الجزائر

أثناء أسبوع واحد من شهر رمضان (18 ـ 24 طلعت علينا صحيفتان وطنيتان، أسبوعية ويومية، بمقالين ، الاول تحت عنوان : « الكلام لفظ مفيد » ، والثانى تحت عنوان : « التوجيه الدينى والتفتح على الواقع » · والظاهر أن المقالتين استقتا الوحي من مصدر واحد ، وربما بعث بهما رسول واحد ! لان أقوالهما تشابهت وموضوعهما واحد : استهدف أحاديث رمضان الدينية وأصحابها ، وغض الطرف عن كل ما يذاع وما يرى ويسمع مما لا يناسب حرمة الشهر ـ ولكنه تناول كلمة الخير وأصحابها بالقول اللاذع ، والهجو المقذع ، والتهكم المرير ·



ومضمون المقالين أن هذه الاحاديث ـ أو بعضها ـ كلام لا معنى له ، ولا فائدة فيه ، فوق مستوى العامة ودون منزلة الخاصة ، سيئة الالقاء ، غثة المعانى والالفاظ ، مكررة معادة مجترة قيلت آلاف المرات ، فأصبحت لا تملك القدرة على الايحاء وعلى التأثير ولا على الهداية لعباد الله الضالين تفتقر الى الجدية والواقعية · ولهذا

فلا جدوى منها (لانها بذور فى سبخة رمل) ولا يقال هذا من قبيل التشاؤم ولكنه من باب تقرير الواقع · فما أكثر ما خطب الخطباء ووعظ الوعاظ وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولكن تيار الحياة ظـل يتدفـق بأخطائه وعيوبه ومنكراته ، وظـل عـدد اللصوص والمجرمين والمنافقين وأكلة حقوق غيرهم فى ازدياد ، وأصبحت المصلحة العامة آخر اهتمـام الناس رؤساء ومرؤوسين ، والسبب فى عـدم جدوى مثل تلـك الاحاديث أن أغلبها كلام غير مفيد ···) اهـ ·

لا نتهرب من النقد : هذا بعض ما جاء فى المقالين ، ولنا معهما مقال :

ان النقد النزيه البناء المبنى على قواعد علمية ، وسلامة النية ضرورى لحيـاة سليمة فى مجتمع صحيح راق · وان النقد الذاتى ـ حيث يعترف المخطىء بخطئـه على رؤوس الملأ ـ عنوان قوة الامة ومناعة الاخلاق فيها · ومن أجل ذلك فرض علينا معشر المسلمين الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والنطق بكلمة الحق أمام أشد الناس جورا ، كما كان بفعل علماء السلف أمام الحجاج وأمثاله · وان صاحب الشريعة عليه الصلاة والسلام علمنا بسيرته وعمله كيف نفسح المجال لانتقادنا ونعترف بأخطائنا على رؤوس الملا · ففى غزوة حنين بعث رسول الله (ص) (عينا) ليأتيه بأخبار العدو فلما جاء بالخبر قال له عمر بن الخطاب : انه يكذب ، فقال ذلكـم الصحابى لعمر ان كذبتنى فقد كذبت من هو خير منى يا عمر ، فشكا عمر ذلك لرسول الله فقال لـــه : (كنت ضالا فهداك الله يا عمر) أو كما قال · وقد انتفع عمر بهذه التربية ، لما ولي الخلافة فقد قام خطيبا ذات يوم يريد أن يعلن تحديد المهر فقالت له عجوز : (ليـس ذلك لك ياعمر) فقال : (ولم يرحمك الله ؟) فقالت : (لان الله يقول : **وآتيتم احداهن قنطارا**) فقال عمر : (كل الناس أفقه منك يـا عمر ، أصابت امرأة وأخطأ عمـر) · فهذا مثال رائع لقبول النقد البناء ، والقيام بالنقد الذاتى فى جماهير الشعب ، سبقت اليه أخلاقنا الاسلامية كل أمة من الامـم ·

فنحن ـ فى وزارة الدين ـ لا ننكر أن ينتقد أعمالنا أحد ـ ويبين لنا عيوب سلوكنا العام ، ونقصنا فى أداء وظيفتنا لنتجنب ذلك ونصححه ، ونصلح أعمالنا ، ونسـأل الله الهداية والعون والتوفيق ·

··· ولا نقبـل الهـدم :

ولكن اذا أراد شخص أن يحطم ويهدم ويجرح ويهزأ ويسخر ويحقر ، ويسد بابا من أبواب الخير فى وجوه عباد الله من القائلين والسامعين ، فاننا لا نقبل منه الهدم ، ومن حقنا بل واجبنا ان نبين له (أن بني عمك فيهم رماح) ·

هـل كلامك لفظ مفيد ؟

ان المقدمة الطويلة ـ نحو ثلث المقال ـ الشارحة لمعنى (الكلام لفظ مفيد) عند النحاة ، وفى مجتمع المسلمين وتاريخ ثقافتهم أيام الازدهار والانحطاط ، والحكم بأن هذا القيد ـ فى تعريف الكلام ـ لا ينطبق على الاحاديث الدينية مما يعطينا الحق فى التساؤل : أهذا خاص ببعض الاحاديث الدينية والخطب الجمعية أم يمكن أن يشمل خطب ومواعظ هذا الكاتب وأمثاله مما يلقونه من على منبر الصحافة ، وقراؤها يعدون بعشرات الآلاف ؟ أيجوز لنا أن نطبق مقاييسه المذكورة على خطبه ومواعظه وأمثاله التى يكتبونها كل يوم وكل أسبوع وكل شهر فى الصحافة ويسودون بها عشرات الآلاف من الصفحات ، ويضيفون بها أطنانا من الاوراق الى ما عند الناس ؟ سائل نفسك فى حيرة وأجب بانصاف ، أينطبق على خطبكم ومواعظكم مقايسكم فى تعريف الكلام المفيد ذى البيان والتجديد أم يجب أن تأخذ مكانها بجانب الاحاديث الدينية حيث وضعتموها ؟

فى كلامك ما هو لفظ غير مفيد :

أما نحن فنقول ان المحقق عندنا ـ وهذا مجرد مثال فقط ـ أن قولك : « حين تبحث عن المضمون على تلك الغزارة **فسوف لن تعود من البحث بشىء يذكر** » اه ليس من القول المفيد ـ حسبما عرفتم ـ لا فى معناه ومضمونه ولا فى لفظه العربى · ففى أشد عصور الانحطاط من تاريخ الكلام العربى كتب أروع الانتاجات العلمية والفكرية · كتب ابن خلدون فجدد واخترع ، مثلما فعل ابن الخطيب ، والشاطبى والمقرى ، والونشريسى ، وابن هشام ، والشيخ خالد ، والاشمونى ، وفعل كثير فعلهم · وان من يطلع على انتاج ما نتج فى كل عصر ليرجع بالشىء الكثير مما يذكر فيبهر ، ويرفعه الى منصب علمى فيه يتدكتر (أي يكون دكتورا) ·

على أن ابن هشام والشيخ خالد والاشمونى لو نطقوا ـ بعد أن اطلعوا على كلامكم ـ لحكموا حكما عادلا صحيحا بأنه ليس من الكلام الذى هو **لفظ مركب مفيد بالوضع** ، قولك فى هذه الفقرة (فسوف لن يعود) لانك أدخلت حرف التسويف على الفعل المنفى بلن ، تريد أن تخصص الفعل بزمن المستقبل البعيد ، ولا يجوز جمع حرفين عليه ، ولفظ (لن) يكفيك مؤنة ذلك فانها تخصصه للمستقبل الذى يمتد الى الابد فى نظر الزمخشرى · ومن ضروريات المبتدئين أنه لا يجمع على الفعل أو الاسم

حرفان فى ابتداء الجملة لاداء المعنى ، واذا تعلقت الارادة بالتأكيد فان أحدهما يزحلق من مكانه كما فى ان ولام الابتداء يقال :

(ان حكمك لعجيب) والاصل فيه (لحكمك عجيب) فتؤخر الـلام من المبتدا الى الخبر ، فان تقدم الخبر وتأخر المبتدأ تأخر معه نحو (ان فى موقفك لعبرة) ٠ هذه بحوث لفظية يتنزه عنها أمثال أستاذنا المربى الفيلسوف الذى أشبع مقـاله بكلمات الفلسفة أمثال : الميثافيزقيا ، والابداعية والرتابة ، والايحاء ، والواقعية ، والارضية ، والجدية الخ ٠٠ ولكن ألجأنا اليها البرهان على أن فى كلامه ـ الذى ظنه قطعا مفيدا ـ ما يحكم عليه النحاة وأهل العربية بأنه ليس بكلام ولا بمفيد لمخالفته الوضع العربى الذى فسروا به قول ابن اجروم (بالوضع) ٠

أحقا أنها بعيدة عن الموضوعية ؟

لقد عيـب على الاحاديث الدينية أن بعضها تكــرر آلاف المـرات فى مثـل هذه المناسبات كغيرها من الخطب والاحاديث التى ترددت على مسامع عباد الله ، فلـم تفد وكانت كبذور فى سبخة رمال ٠

ليس من العيب أن تتكرر الاحاديث فى معناها بتكـرر المناسبات كـل عـام ، ان المناسبة نفسها هي موضوع الحديث ، ولكل مقام مقال ، فأي موضوع أولى باهتمام الحديث الدينى فى رمضان من الحديث عن القرآن وهدايته ودراسته وتلاوته ، لانـه انزل فى رمضان ، ومن الحديث عن الصيام ومعانيه ومغازيه ٠ وعن التهجد والقيـام الذى هو من خصائص رمضان فى كل أعصار وأمصار المسلمين ، ومن حث المسلمين على التوبة والانابة والتسابق الى الخيرات ، والتعاون على البـر والتقـوى وعـدم التعاون على الاثم والعدوان ، والاستقامة على الاخلاق الفضلى ، وترك شهادة الزور والعمل بـه ، والـرفث ، والصخب والخصام والتنازع والكـذب ، والغيبة والنميمة والتباغض والتحاسد ، والغش واحتكار الطعام واللباس والتمسك بالعدل والاحسان ، والعمل المتواصل بالجهاد الاصغر والجهاد الاكبر واحياء ليلة بـدر ، ويوم الفتـح ـ وكلتاهما وقعت فى شهر رمضان ـ واستخراج العبر منهما ٠

ان هذه كلها من موضوعات أحاديث رمضان ، وفيها أيضا أحاديث عن تاريـخ أسلافنا وعوائدهم أثناء شهر رمضان فيما مضى من الـزمن مما يثـرى معلوماتنا ، ويعرفنا بحياة أسلافنا أثناء أدائهم لركن من أركان الدين وهو أهم مقومات شخصيتنا .

فهل ترى فى نفسك ـ ان كنت منصفا ـ أن كل هذا غريب عن حياتنا ، بعيد عن (الموضوعية) لا يناقش المشاكل الحقيقية التى يتخبط فيها المجتمع فى أكثر من مجال ؟ مجال من ؟ ان هذا مجالى أنا بصفتى المتكلم فى (الاحاديث الدينية) ، وقد قام الاستاذ محمد بوزيدى بالحديث فى المشاكل الاجتماعية ، وتحدث غيره فى المشاكل الاقتصادية والمالية أو السياسية ، وربما كانت أحاديثهم أطول وأشد ارهاقا للسامع لما يصحبها من اصطلاحات فنية والفاظ تقنية فأين معارفك وشجاعتك لتقول فيها وفيهم مثل ما قلت فى الاحاديث الدينية وأصحابها أم انك ـ على رأي المثل ـ (مغلوبتى من نغلب) ؟ !

ان شهر رمضان مناسبة تكون فيها نفوس المؤمنين متعطشة الى هذه الموضوعات ، ومتطلعة اليها مستعدة لوعيها ـ متسائلة عنها ، وعن كل ما يتصل برمضان •

فهل من اللائق أن (نجدد) فنحدثها عن (الافلام) والممثلين والممثلات فى (غرام وانتقام) ، وعن آخر الازياء والتقاليع ، وعن الحلويات والعنب والبطيخ و (الدلاليع) ؟ أو نفعل فعل الذين يحيون ليالى رمضان بحفلات الغناء والرقص والمكاء والتصدية ، والحياة الليـــليـــة ؟

ما قولكم لو طلب منكم أن تتحدثوا عن أحداث 8 مايو 1945 م فرأيتم أننا تحدثنا عنها كثيرا ثم تكلمتم عن ثورة الزنج بالبصرة عام 256 هـ أو قيل لكم حدثنا عن مؤتمر الصومام فاقتنعتم أننا تحدثنا عنه فى كل عام فحاضرتم عن مؤتمر فرساي للسلام ! هل تكون موضوعيا ان فعلت هذا ؟

هل من الضرورى أن يضمن الحديث الهداية ؟

ان من التجنى على الحقيقة ، ومن سوء التقدير أن يزعم زاعم أن الاحاديث الدينية لا معنى لها ولا جدوى فيها ، مستدلا بعدم الاهتداء بها وأن (تيار الحياة ظل متدفقا بسيول من الموبقات) • فمتى كانت (الدعوة) ـ وحتى على ألسنة الانبياء والمرسلين ، والعلماء والحكماء والمصلحين فضلا عن (الغلابة) أمثالنا من المساكين ـ متى كانت الدعوة عاصمة للناس أجمعين ، رادعة لكل المفسدين قاضيـــة على الشـــر وانحراف المنحرفين ؟ أيقول مثل هذا (فيلسوف) من المفكرين نصب نفسه لوعظ رجال الدين ؟ ان الصلاح والفساد ، والخير والشر والبر والفجور من مقتضيات الحياة الدنيا ولن ينقطع مـــن أي جيل مـــن أجيالها وجود الابـــرار والاشـــرار ، والمصلحين والمفسدين والطيبين والخبيثين • وظيفة الدعاة أن يدعوا الى ربهم بالحكمة والموعظة الحسنـــة مجادلين بالتى هـــي أحســـن ، ووظيفة ابليس مـــا تحدى به رب العالمين فى قـــوله :

(**فبعزتك لاغوينهم اجمعين**) . ان ما عجز عنه الحكماء والمشرعون والقضاة ورجال القوانين ، والامراء والحكام المنفذون لايلام عنه رجال الدين .

ان على الدعاة أن يقوموا بواجبهم الديني ، وليس عليهم حمل الناس على اتباع أقوالهم فالهداية من الله (قل ان الهدى هدى الله) (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء) . وقد تألم رسول الله (ص) من أعراض قومه وفساد قلوبهم وأعمالهم ، وسوء رأيهم حتى بلغ بهم أن قالوا : (قلوبنا في أكنة مما تدعوننا اليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب) وقالوا : (اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ايتنا بعذاب أليم) وحتى بلغ برسول الله من الالم ما قص الله في قوله : (**لعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يومنوا بهذا الحديث أسفا**) ومع ذلك فان الله أمره بمواصلة التذكير ، وأعلمه أن الذكرى تنفع المؤمنين فقال : (فذكر انما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر) وقال له : (وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين) وقال له معلما ومسليا : (انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء) .

وكانت دعوة النبي (ص) واحدة يدعو الى سبيل ربه على بصيرة بالحكمة والموعظة الحسنة . ولقد هدى الله من شاء من أولئك الجاحدين المعاندين المحادين بأسلم أمثال خالد بن الواليد وعمرو بن العاص والحارث بن هشام وعكرمة بن أبي جهل وابو سفيان ، وسهيل بن عمر ، وكان لهم أعظم المواقف وخصوصا بعد وفاة النبي أثناء حروب الردة . بل أسلم حتى عبد الله بن أبي أمية الذي قال للنبي : (لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى السماء . ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرءوه ...) ومات شهيدا في سبيل الله _ وقد حرص النبيء (ص) جدا على اسلام أعمامه فلم يسلم سوى حمزة والعباس رضي الله عنهما .

هل التكرار عيب ؟

ومن عجيب أمر المنتقدين أن يعيبا حديث رمضان والاحاديث الدينية بالتكرار في كل مناسبة كأن الحياة قد توقفت ، وكأن الذين سمعوا الحديث عام 1382 هـ هم أنفسهم الذين سمعوه عام 1397 هـ . ان الحياة متجددة ، وطفل أمس أصبح اليوم رجلا ، وكل

جيل محتاج للتذكير · ومن واجب رجال الدين أن يكرروا ويعيدوا الاوامر والنواهي والمعاني الدينية حتى تصبح لدى العموم (من المعلوم من الدين بالضرورة) · لو طبقنا هذه القاعدة ـ الايعاد معنى ما قيل مرة ، والا عدت اعادته تكرارا ممقوتا ـ لوجب أن نلوم جميع الهيئات والاحزاب والدول ، والعلماء ورجال القانون على التذكير بالمبادىء والاحداث ، ولن تفلت من هذا اللوم جريدة الشعب ومجلة (المجاهد) فكلتاهما تضع في صدرها في كل عدد بنودا من الدستور أو من الميثاق الوطني مع أن كل ذلك مما قرأه وناقشه كل القراء بأرض الجزائر وسمعه العوام وأدركوه ·

ان هذا لرأي عجيب يخالف ما عليه علماء التربية وعلم النفس من ان هذا التكرار يرسخ المبادىء في نفوس الجماهير ويؤدي بها الى اعتناقها والاقتناع بها وهذا ما ذكره الدكتور غوستاف لوبون في بعض كتبه ، وضرب له مثلا بحرص الشيوعيين على تكرار عبارات خاصة هي شعار لمذهبهم حتى تصبح عقيدة الجماهير · وقد ذكر الشيخ محمد رشيد رضا مثل هذا تعليلا لتكرار قصص الانبياء والامم الماضية في السور الطوال والمبين والمفصل من القرآن ·

مبالغات وخرافات ؟

ليت شعري أي مبالغات انغمس فيها الحديث الديني ؟ وأي خرافات انزلق فيها الدعاة مبتعدين عن الجوهر والاخلاقيات الحقيقية في التربية الدينية كما جاء في الانتقاد ؟ أئن قالوا : ان فئة أهل بدر القليلة غلبت الفئة الكثيرة باذن الله ؟ أئن قالوا ـ مثلا ـ ان رسول الله رمى قبضة من تراب واجه بها ألفا من المشركين يوم بدر فأصاب كل واحد منهم التراب في عينيه ، والقرآن نص على ذلك بقوله : (**فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى**) وقال : (**ولقد نصركم الله ببدر وأنتم اذلة**) فاذا كان في القرآن مبالغات أو خرافات ـ في رأي هذا الكاتب ـ فاننا نقول فيه : (آمنا به كل من عند ربنا) ، لا نبتغي الفتنة ولا نبتغي تاويله ·

هل الاحاديث الدينية في رمضان فقط ؟

ليست الاحاديث الدينية ـ كما يزعم ـ مقتصرة على شهر رمضان وحده من شهور السنة ، وليست قضية مناسبات كما يتصور ـ فان الحديث الديني يذاع كل يوم من الاذاعة الجزائرية مرتين صباحا ومساءا ، وثلاث مرات يوم الجمعة ومرة في الاسبوع في التلفزة وهو حديث مسموع داخل الوطن وخارجه ويتبعه المؤمنون بعناية في تونس وليبيا والمغرب كما حدثونا به ، وجماهير شعبنا تطلب أن يذاع من التلفزة

يوميا ، ولا ذنب للوزارة ولا للدعـاة فى حرمانهم مـن ذلك ولو أفسـح لهم المجـال لاستجابوا بسرعة وكفاءة ، فمن التجنى عليهم تحميلهم مسؤولية لا ذنب لهم فيها .

أظن أنه قد بان بالحجة والبرهان أن (كلامنا لفظ مفيد) لاهل الايمان ، باجماع أهل العربية النحاة المتقدمين منهم والمتأخرين ، لا يستنكره أهل المعرفة والذوق السليم من علماء الدين والاجتماع والفلسفة من المتقين ، ولا يمل من سماعه عـامة المسلمين ولا يعيبه من يهجوه من الشانئين ، ولم يكتب لحديث أن يرضاه كـل المستمعين ، ولا لمتحدث أن يسمعه برغبة كل الحاضرين فقد تحدث رسول الله صلى الله عليه وسـلم بكلام رب العالمين فبرم من سماعه قوم قال الله فيهم : (ومنهم من يستمع اليك حتى اذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم : ماذا قال آنفا ؟ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم ، والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) . والمعتدل من الناس من يستمع القول فيتبع أحسنه ، ويعرض اعراض الكرام عن سيئه ، وفى كـل قول ــ ما عدا كلام الله وحديث رسل الله ــ حسن وسيء .

وبعد ، فان الذين يريدون (حذف) الاحاديث الدينية ــ لانها على خلاف ذوقهم أو تحرجهم ويعملون لذلك بمثل هذه المقالات الهادمة ، ويدعون أنها تنـزل منـزلة كلام العجماوات وصوت الجمادات فلا جدوى منها ولا معنى لها ــ يخطئون فى تقديرهم ، ويسيؤون الى دينهم وأمتهم من حيث يشعرون أو لا يشعرون وكان عليهم أن يزنوا ما يقولون ويعرفوا عواقب ما يقترحون ، خصوصا وهم يتكلمون فى صحافة رسمية أو شبه رسمية ، ولكل مقام مقال : ولله در ابن مالك رحمه الله اذ يقول فى تعريف الكلام : (كلامنا لفظ مفيد كاستقم) ، فعلى المؤمن أن يستقيم فى فعله وفى قوله فان الاستقامة أساس النجاح فى الدنيا والسعادة فى الآخرة . وقد علمنا رسـول اللـه كيف نكون مستقيمين فى أقوالنا بالحديث الصحيح : (من كان يؤمن بالله واليوم الآخـر فليقل خيرا أو ليصمت) .

منشـــــورات

وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية

سيصدر قريبا كتاب :

الملتقى الثامن

للفكـــــر الاســـــلامى

بالفرنسية فى ثلاثة اجزاء

ويشمـــل :

سائر المحاضرات ،

والتعقيبـــات ،

والمناقشـــات .



حوادث 8 ماى 1945
حقائقها وأسبابها ونتائجها

الشاذلى المكى
نائب مدير فى وزارة التربية

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على اشرف المرسلين ، وعلى آله وصحابته والتابعين

أيها السادة والسيدات ،

أيها الطلبة ، أيها الاخوة المسلمون المؤمنون ،

سلام الله عليكم جميعا ورحمته وبركاته ، وحياكم الله وبياكم، وجعل النصر والنجاح معقودين على ملتقاكم هذا ، فى بلدكم هذا ، لخير الامة العربية والاسلامية ، ولعزة الملة والاسلام ·

أيها الاخوة المؤمنون ·

تلقيت منذ أيام بيد الامتنان والشكر ، رسالة من الاخ مولود قاسم،وزير التعليم الأصلى والشؤون الدينية،يدعونى فيها للمشاركة فى الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الاسلامى ، هذا الذى يعقد فى قسنطينة ، عاصمة الشرق الجزائرى ، ولقد حدد سيادته موضوع الكلمة التى أشاركم بها اليوم ، فى ملتقاكم الرابع هذا الذى أدعو الله أن يجعل فيه النور الهادى ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويجعل فيه أيضا النار المحرقة التى تاتى على المتآمرين على أمتنا ، وعلى المتربصين بملتنا الاسلامية ، متربصين الدوائر عليهم دائرة السوء ·

والموضوع الذى حدده الاخ الوزير لحديثى هذا معكم اليوم هو « حوادث 8 ماى 1945 حقائقها ، أسبابها ، ونتائجها » ولقد ارتأى لى أن أجعل الحقائق مشتملة على مقدمة ، وعلى أسباب الحوادث ودوافعها ، وعلى الحوادث نفسها ، بما بذل فيها من غال الفداء، وكريم الدماء ، وبما تلاها من القمع الارهابى،والبوليسى،والسياسى،

(*)محاضرة القاها فى الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الاسلامى المنعقد بقسنطينة فى 17/8 جمادى الثانية 1390 هـ ــ 10/19 اوت 1970 م·

كما ارتأى لى أن أجعل النتائج تنتظم الحالة السياسية بعد الحوادث، واليقظة القومية والملية ، التى ظهرت بصفة لا تذبذب فيها عند جماهيرنا الشعبية ، الامر الذى لا يترك مجالا للشك فى أن بلادنا الجزائر العربية المسلمة من اقصاها الى أدناها ، قد آمنت بأن الوسيلة الوحيدة لاسترجاع السيادة المسلوبة ، وافتكاك الحرية المنشودة ، واسترجاع الاستقلال المطلوب ، انما هى الكفاح المسلح، الامر الذى يأخذ بأيدينا الى النتيجة الاخيرة ، وهى ان حوادث 8 ماى 1945 هى الام الشرعية لثورة النور والنار ، لثورة غرة نوفمبر المباركة ، التى جاءت بعد تسع سنوات ، كنتيجة حتمية لتسلسل الحوادث .

ولعل الاخ مولود قاسم عند ما حدد لى موضوع محاضرتى هذه معكم اليوم ، كان يقصد ، وكان يرمى الى مغزى ومعنى الكفاح المسلح، كوسيلة حتمية لتخليص الشعوب وتحريرها ، خاصة وأن حديثى هذا معكم فى ملتقانا الرابع ، يصادف مرحلة من أمر وأصعب مراحل تاريخنا كعرب وكمسلمين ، وهى مرحلة القضية الفلسطينية ، هى مرحلة القضية الفلسطينية ، التى لا حل لها الا الكفاح المسلح الشاق ، المرير ، الذى كتب علينا كعرب وكمسلمين **«كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى انتحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون»** .

وأرجع الى المقدمة فاقول : فلئن كان الدين لازمة من لوازم الجماعات البشرية ، فمما لا شك فيه ، ومما لا جدال معه ولا مراء، أن الوطن لازمة من لوازم الدين ، فيه ينتشر ، ومنه ينطلق ، كما أن الوطن أيضا ، لازمة من لوازم الجماعات البشرية ، اليه تنوب ، وعليه تستقر ، وبه تحتمى ، ومن هنا جعل رسول الحق ، ونبى الهدى محمد صلوات الله وسلامه عليه ، جعل حب الوطن من الايمان ، وهكذا وعلى هذا المنوال ، وعلى هذا الدرب ينبغى أن يفسر هذا الاثر الشريف « حب الوطن من الايمان » ولست فى حاجة بعد هذا الى أن أتساءل معكم عما كاد يصير اليه الاسلام مبدأ ذى بدء لولا المدينة المنورة ، التى كانت منطلقه وموثبه ، والتى حمته وآوته ، ونصرته ، والانسان الجزائرى على العموم قد يتساهل بعض

الاحيان ، فى بعض الاشياء الخاصة به ، ولكن هيهات أن يتساهل فى امور وطنه ، وشؤون ملته ، وأصول معتقده ، وأسس قوميته ، ومن هنا كان حبه الشديد له يصور هذا الحب الشديد ، ضراوة دفاعه عنه ، وشراسة استماتته فى سبيله ،عبر العصور والدهور ، وذلك بعض ما يحدثنا به التاريخ مذ عرف لهذه الرقعة من الارض تاريخ ، وان استجابة المواطن الجزائرى العادى منذ ماصنيصا مرورا فى مختلف العصور حتى اليوم ، لنداء زعمائه ، وقادته،يفسر ذلك الحب ، ويدلل عليه ، وهذا بعض ما يجب على أبناء العروبة والاسلام فى أصقاع الاسلام ، وفى بلاد العروبة أن يتعرفوا عليه ، وأن يفهموه ، ويسلطوا عليه أضواءهم ، ويخصصوا له أبحاثهم حتى يقفوا بأنفسهم على خاصيات هذا القطر الاسلامى فى محافظته على تراثه ، وتعلقه بأمجاده ودفاعه عن ملته ، وعن بيضة الاسلام ، ولعل الجنرال بيجوBUGEAUDيدعم هو الآخر هذه الحقيقة التى اجنح اليها فى طليعة حديثى هذا معكم الليلة ، اذ يقول بالحرف الواحد سنة 1837 : **باستطاعتكم انتضعوا جمجمتين اثنتين احداهما عربية مسلمة ـ يعنى جزائرية ـ وأخراهما مسيحية ـ يعنى فرنسية ـ فى قدر واحدة وتجعلونهما تغليان معا لمدة مائة سنة ، ففى نهاية العملية تحصلون على شربتين مختلفتين ، انتهى النص •**

Vous pouvez mettre deux cranes 1 Arabo-Musulman - c'est-à-dire Algérien - 1 autre Chrétien - c'est-à-dire Français dans une seule marmite vous les faites bouillir durant cent ans à la fin du compte vous obtiendrez bien deux soupes différentes.

واسمحوا لى رعاكم الله فى هذا الصدد ، وفى نفس الاتجاه ، لرد قادة قسنطينة المحاصرة على رسالة القيادة الفرنسية سنة 1837 نص : **من الامة المحافظة على شرفها وبلدها ، الى المعسكر المعتدى على حقوق غيره ، لقد وصلتنا رسالتكم التى تبلغوننا فيها ان مركزنا العسكرى اصبح فى خطر عظيم ، ولكن اعلموا أن استلاءكم على قسنطينة المحمية بالابطال العربية ، الذين لا يهابون الموت ، موقوف على استشهاد آخر واحد منا ، واعلموا ان الاستشهاد والموت عندنا تحت اسوار بلدنا احسن واحب الينا من حياتنا تحت سلطة فرنسا ،** انتهى النص ، من الجزء الثانى لكتاب «تاريخ الاستعمار الفرنسى والايطالى فى بلاد العرب» ص 168 لصاحبه أمين سعيد ، مطبعة عيسى الحلبى وشركاه فى مصر •

وجاء فى دائرة المعارف الفرنسية الاستعمارية الجزء الاول ،

ـه ن‌الجزأين الكبيرين المخصصين للجزائر والصحراء ص 86 نص : **لقد تطلب منا الاستلاء على الجزائر ثلاثة أرباع القرن مـــن الحرب المتواصلة الضروس** ، انتهى النص . وهذا مما يعنى أن الجزائرى العربى المسلم فى دفاعه عن عروبته ، وحفاظه على اسلامه لايستسلم ولا يهين ، ولا يستكين . وذكرت لكم دائرة المعارف الفرنسية الجزء الاول ، فيه خارطة تبين أن الجزائر لم تقاوم سلاحا طيلة سبعة عشر سنة التى قامها وقاوم بها الامير عبد القادر ووالده ، ولكن الامـــــة الجزائرية تقــول :

يا شقيقات العربيات المسلمات ، ومن أركان الدنيا الاربعـــة ، أنه بالرغم من ذلك الحصار الاستعمارى الرهيب الذى كانت فرنسا قد ضربته على بلادنا منذ أن لوثت قدماها أرضنا الطيبة ، وبالرغم من تلك الاسوار الشاهقة السميكة التى أحكمت بناءها لتجعل بلادنا هذه بمعزل عما يجرى فى العالم من تيارات الحرية والتحرر ، ولتخنق كل‌صوت فى ربوعنا ينادى بتقرير المصير،فجزائرنا العربية المسلمة الثائرة دائما وأبدا كانت تعرف دوما كيف تسمع صوتها ، مسفهـة مطامع الاستعمار مخيبة آمال الصليبية ، وذلك القضاء المبرم الذى جعل حدا لسياسة الالحاق والادماج ، سياسة الفرنسة والتمسيخ ، سياسة السحق التى طالما انتهزتها فرنسا الاستعمارية الصليبيـة فى بلادنا ، باذلة الجهد الجهيد ، والمحاولات الشيطانية لمســـــخ شخصيتنا العربية الاسلامية ، ومحو مقوماتنا الذاتية ، والاتيان على منـــابع ثقافتنـــا .

أيها الاخوة المسلمــون :

قد يكون من الصعب رد أصول هذه الحوادث بالذات ، وربــط أسبابها بمسبباتها،ومنابعها الحقيقية فى شيء من التركيز والاختصار فى مثل هذه المناسبة ، وفى وقت قصير محدد كهذا ، على أنه يمكن القول بأن الحرب العالمية الثانية وبلادنا كانت مسرحا من مسارحها من جملة ما أسفرت عنه ذلك الوعى السياسى والتحرر لا تبتغى عنهما حولا ولا ردا ، ولا عدولا ، ولا ترتضى بهما بديلا أو عوضا ، وكـــان لا بد لهذا الاتجاه الشعبى العارم المبارك ، من منظمة سياسيـــــة تحتويه ثقلا وتتسعه تنظيما وتستوعيه توجيها وتعده ثورة جامحـة

جارفة تحقق تلك الاهـداف السامية التى طالمـا تطلبتها الامـة ، ونشدها الشعب ، وتغنت بها الجماهير ، ولم تكن فى الجزائر حـتى عامئذ منظمة أخرى من هذا الوزن الثقيل الا منظمة حزب الشعـــب الجزائرى سليل حـزب ما يسمى « الافريقية » الذى يرجع تأسيسه برئاسة الامير خالد الى سنة 1922 ، ولكن هذا الحزب كان منحـــلا اداريا مطاردا بوليسيا ، غير معترف به قانونيا ، وكانت السلطات الاستعمارية تتعقب رجالاته بالقمع والوعيد ، وبالتهديد والسجـن والتشريد ، بحيث أن الكثرة الكثيرة من أعضائه كانت فى غيـــاهب السجون عامئذ ، وهذا وحده كاف ليلازم هذا الحزب الطلائـــعى السرية ويتخذ له العمل فى الخفاء والظلال ، وهذا من جملة مـــا أعطاه ثقة الجماهير ، وألبسه وأصبغ عليه شيئا غير قليل من القـوة فى العمل ، والبأس فى المبادرة ، والتضحية فى تحمل المسؤولية، وانكار الذات فى القيام بأعباء الرسالة ، ومن أعماله الجريئة اتصاله بممثلى الحلفاء روسيا ، وأمريكا ، وانجليترا ، قبل نزول هـــؤلا الحلفاء فى الجزائر يوم 8 نوفمبر 1942 وبعيده ومذكرته لممثل الحلفاء هى التى أصبحت فى العاشر من شهر فيفرى سنة 1943 بعد حذف وبتر وبعد التقطيع والتحوير ، تدعى بيان الشعب الجزائرى الـذى قدم بدوره فى 31 مارس من نفس السنة الى الجنرال كاترو بصفته ممثلا للجنرال ديغول فى الجزائر ، وممثلا للجنة التحرير الفرنسية وحاكما عاما فى الجزائر ، والكـلام عن هذه الوثيقـة وعن تـلاعب الجنرال كاترو وتاريخه معروف فى سوريا الشقيقة ـ بمن تقدموا بها اليه يقول ـ : وان كانت هذه الظروف وهذا التلاعب من جملة الحقائق والاسباب التى أدت الى حوادث 8 ماى سنة 1945 ونزول الحلفاء يوم 8 نوفمبر سنة 1942 فى الجزائر ، قطع الصلة بيننا وبين فرنســـا ، فكان هذا حافزا شديدا يضاف الى حوافز أخرى كثيرة ، منها انكسار فرنسا أمام الالمان سنة 1940 ، لتحريك جماهيرنا الشعبية وتوزيـع المناشير السرية وتعليق المعلقات السياسية مطالبة باطلاق سراح اللاجئين السياسيين الذين كانت السجون تعج بهم ، وبحق تقرير المصير وفقا لما جاء فى المادة الثالثة من الميثاق الاطلنطى بـــين روسفلت ROSVELT وتشرشل CHURCHIL سنة 1941 وهذا النشاط السياسى المتزايد ، ازعج السلطات الفرنسية ، فجاء الجنرال

ديغول يهرول من برازافيل الى قسنطينة رأسا ، وكان ذلك يوم 12 نوفمبر سنة 1943 ليجعل من جزائرنا العربية المسلمة مركزه وقيادة أركان حربه حتى يكون ـ كما يقول ـ في وسط المعركة ، وخطابه في قسنطينة يوم 12 ديسمبر 1942 معروف ، وخدعه لم تنطل الا على برادع الاستعمار ومن لف لف برادع الاستعمار ، ولما رأى الجنرال انه سقط في يده ، وان خطابه لم يكن له صدى في أوساطنا لجأ الى جعبة الحيل ، فكان ان أمر بتأسيس لجنة مكونة من ثمانية عشر شخصا ، ستة من فرنسي فرنسا ، ومثلهم من فرنسي الجزائر وستة ـ بكل أسف ـ من الجزائريين أذكر منهم الشيخ الطيب العقبي ، والشيخ بيوض ، وأبو عزيز بن قانه ، واطلق على هذه اللجنة اسم «لجنة الاصلاحات الاسلامية» التي أسفر أمرها على قرار 7 مارس سنة 1944 يتكرم به سيادة الجنرال ديغول على حوالى اربعين أو خمسين ألفا من المسلمين الجزائريين باخراجهم من الجنسية الجزائرية العربية المسلمة وباعطائهم حقوق المواطن الفرنسي ، حتى لكأن الجزائري لا يرقى الى درجة التمتع بالحقوق والحريات الا اذا تنكر لارومته وقلب ظهر المجن لثقافته ولاجداده ولابناء جلدته .

وما علينا نحن قادة حزب الشعب الجزائري في ذلك الوقت ازاء هذه المحاولة الشيطانية الا ان نتصل بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين وبحزب أحباب البيان والحرية لنتدارس معهم هذه الوضعية الجديدة ، ولنتخذ على ضوئها قرارات موضوعية حاسمة نخرج بها في وجه هذه السياسة الديغولية الجديدة التي طلع بها علينا قرار 7 مارس 1944 ، وأثمرت اتصالاتنا المتكررة بالمنظمتين الآنفتي الذكر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، وأحباب البيان والحرية ، واستجاب قادتهما الى مخطط سطرناه ، وبرنامج سياسي أعددناه ، واتفقنا على أن يندمج جميعنا في حزب أحباب البيان والحرية وهو الحزب السياسي الوحيد المعترف به من جانب السلطات الفرنسية ، وعملنا على هذا مع المنظمتين لم يزد عملنا السري في الخلايا السرية بحزب الشعب الجزائري المنحل المطارد من طرف السلطات الاستعمارية الا تدعيما وتثبيتا ، وانتشارا ، وامتدادا ، ولم تكد سنة 1945 تستهل حتى عقدنا أول اجتماع عام باسم «حزب

احباب البيان والحرية، ووضعنا فيه الاسس الرئيسية لمؤتمر عام ينتظم خلايا هذا الحزب على المستوى الوطني بعقد أيام 2 ، 3 ، 4 مارس سنة 1945 ، وتم المؤتمر فى الموعد المحدد له وأسفرت اعماله عن لائحة نشرت فى الصحف ووزعت على وكالات الانباء ، وقدمت للسلطات الفرنسية ، نقتطف منها ما يلى :

ـ ان احباب البيان والحرية المجتمعين أيام 2 ، 3 ، 4 مارس سنة 1945 يعلنون بان بيان الشعب الجزائرى المؤرخ فى العاشر من شهر فيفرى سنة 1943 والمقدم للسلطات الفرنسية يوم 31 مارس 1943 يبقى القاعدة الاساسية الركنية لاعمالهم السياسية ، وانهم ليذكرون بان البيان جعل من مبادئه الاعتراف بالجنسية الجزائرية ووضع دستور جزائرى ديموقراطى جمهورى ، والمؤتمرون ياسفون على هذه المبادىء بعدما وافقت عليها السلطات الفرنسية فى ذلك الوقت ، ورضيت بها لم تحترمها ، بسبب تماديها فى اتباع سياسة مخالفة لمشارب الشعب الجزائرى ، ومحاولاتها اجبارنا على سياسة الادماج دليل على ذلك ، والمؤتمرون يقررون بان السياسة الوحيدة الرشيدة هى التى تقام على احترام ارادة الشعوب ، ومن هنا فمن غير المعقول أن يخاطر بمستقبل شعب بكامله دون استشارته او بغير نيل رضاه ، ولذلك وعملا بموجب الضمير واعتبارا للمسؤولية ورغبة فى مشاركتنا فى سياسة مبنية على التفاهم فالمؤتمرون يطالبون بانجاز المطالب الاستعجالية التالية ، كقاعدة اساسية يبنى عليها فى الغد القريب صرح الامة الجزائرية العربية المسلمة :

1 استبدال برلمان جزائرى بالمجالس الجزائرية المعروفة .

2 ـ استبدال حكومة جزائرية مسؤولة أمام البرلمان بالولاية العامة .

3 ـ الاعتراف بالعلم الجزائرى . . الخ المقررات .

وبدلا أن تستعجل السلطات الفرنسية لتلبية مطالب الشعب الجزائرى تمادت فى تعسفاتها وغلوائها ، فى ظلمها وعدوانها، فىسياسة القمع والارهاب، فىسياسة التسجين والتشريد، وكان فاتح ماى سنة 1945 وكانت المظاهرات التى نظمها حزب الشعب الجزائرى وهو منظمة سرية باسم العمال ، وأبى الا أن يسير الجزائريون فى

مسيراتهم ومظاهراتهم الخاصة فى المدن والقرى منفصلين عن المنظمات الاجنبية ، وصادف هذا اليوم سقوط عاصمة المانيا برلين فى يد الحلفاء ، الامر الذى أعطى المظاهرة طابعا خاصا حمل المتظاهرون فيه لافتات تندد بالاستعمار والمستعمرين وتنادى بحرية الجزائر وبتقرير المصير ، وباستقلالنا ، وبسقوط قرار 7 مارس 1944 وباطلاق سراح المساجين السياسيين ، وبحياة جامعة الدول العربية ، وبحياة الجزائر ، حرة مستقلة ... الخ، **وأسفر هذا اليوم الذى شارك فيه الشعب الجزائرى من اقصاه الى ادناه فى مظاهرات ضمت النساء والاطفال ، والرجال ، سبعة قتلى ونيف وخمسين جريحا ، واعتقال بضع عشرات فى كامل القطر ، سقط فى شارع العربى بن مهيدى خمسة امام سينما «الكازينو» وأمام محلات «أحذية أندرى» منهم الغزالى بلحفاف ، وزيار محمد عبد القادر ولقد احيت وزارة الداخلية بعد الاستقلال هذه الذكرى ، برفع لوحتين على جانب الطريق** ، ولفتت مظرات فاتح ماى هذه أنظار الروس ، والانجليز ، والامريكان ، وكان لنا بممثليهم اتصال، وكانوا حتى ذلك اليوم لا يصدقون بأن جماهيرنا الشعبية تقف معنا وتأتمر بأوامرنا ، وتستجيب لنداءاتنا ، وتطالب معنا بالانفصال وبالحرية والاستقلال ضاربة صفحا عن سياسة المعتدين ، كافرة بسياسة الاصلاحات كائنة ما كانت هذه الاصلاحات ، وكائنا من كان الاعوان لها المنادون باسمها ، وقد سبق لنا فى 12 ديسمبر سنة 1943 أن جعلنا الجنرال ديغول يفشل كل الفشل فى أول زيارة له لقسنطينة كما جعلنا لجنة الاصلاحات الاسلامية التى شكلها الجنرال ديغول فى جانفى (يناير) 1944 وأسفرت عن قرار 7 مارس من نفس السنة تفشل هى الاخرى كما فشلت مشاريع كثيرة ، وكما فشلت لجنة الاصلاحات الاسلامية التى ذكرتها آنفا ، والتى آسف أن يكون من جملة أعضائها الشيخ بيوض والشيخ الطيب العقبى وعقدنا العزم من جديد أن نجعل من يوم استسلام المانيا للحلفاء، بعد ان استسلمت عاصمتها فى يوم الثلاثاء غرة ماى سنة 1945 أن نجعل منه يوم استفتاء شعبى تقول فيه الامة الجزائرية كلمتها ، وتعلن فيه من جديد مطالبها جزاء وفاقا ، لمشاركتنا تحت راية الحلفاء طيلة الحرب العالمية الثانية، التى أوشكت أن تضع أوزارها،

والتى اكتوينا بنيرانها وعرفنا عواقبها فلا أقل من أن نتمتع بمزاياها وفى مقدمة هذه المزايا استرجاع الحرية المغصوبة ، وافتكاك السيادة المسلوبة ، واستكمال الاستقلال المنشود ، واخترنا هذا الحل :

أولا : مظاهرات ومطالب فحسب ، واخترنا هذا الحل لان حلفاءنا فى المنظمتين الوطنيتين أحباب البيان والحرية ، وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، لم يتفقا معنا على أكثر من ذلك .

ثانيا : لان استعداداتنا للعمل المسلح لم تستكمل بعد حلقاتها .

ثالثا : لاننا لم نكن قد كونا بعد مراكز فى الخارج تتولى الدعاية لكسب الرأى العام العالمى والضمير الدولى ، للوقوف معنا بالتأييد فى المجالس الدولية والمنظمات الشعبية ، وكان من سياستنا قبل شهر ماى 1945 وجوب تكوين هذه المراكز فى الخارج ، وكنا فكرنا حتى فى ارسال وفد الى الجامعة العربية فى القاهرة ، وآخر الى سان فرانسيسكو فى أمريكا ، لحضور ميلاد الامم المتحدة ، وشكل الوفد وعين أفراده قبل ماى سنة 1945 ورصدت الاموال **ووجدنا طيارا كنديا اتفقنا معه تلقاء مليون فرنك لياخذ ثلاثة من منظمتنا السرية الى سان فرانسيسكو** ، وجربنا هذا الطيار بأن بعثناه الى القاهرة مرتين وجاء لنا بوثائق من عبد الرحمن عزام ، واختبرناه فكان أمره صحيحا ، **ولكن الخلل جاء ممن كنا ننتظر منهم رئاسة الوفد** وتسابقت الحوادث ، فوضع أمر الوفد الى سان فرانسيسكو على الرف وهنا يجب على وفاء للتاريخ واعترافا للرجولة الحقة أن أذكر اسم الاخ **عباس التركى التاجر المعروف الذى كنا طلبنامنه ــ وكنا لا نزال شبانا قد لا ياتمنهم الناس ، وقد يكفرون حتى بآرائهم لحداثة سنهم وقلة تجاربهم ــ قرضا بمليون فرنك فى ذلك الوقت فلم يكتف باستجابة الطلب بل ضاعفه محولا الى دولارات** وحيث لم تنجح العملية ردت له المبالغ وكنا تسلمناها منه دون أن يطلب منا شيئا بدون أدنى ، أما باقى قصة الوفد فأتركها تهجع وتنام بين أوراق كثيرة كما تنام وتهدأ بينها كثير من الحكايات والوثائق والمشاهدات والقصص ذات الاتصال الوثيق بكفاحنا المعاصر وتاريخنا الحديث ، وثورتنا الثائرة ، ثورة غرة نوفمبر 1954

ثورة النور والنار . وشيء لم يفش قبل اليوم اننا قبل سنة 1954 كان عندنا 15 طيارا يسوقون بثقة وينقضون كما ينقض الطيارون الاحرار وكان عندنا أكثر من 40 يسوقون الدبابة وكانت أسلحتنا كثيرة وأكثر من أسلحتنا في غرة نوفمبر 1954 ولكن تنظيماتنا في غرة نوفمبر 1954 كانت أكثر وأمتن واقوى واهم من تنظيماتنا سنة 1945 رغم أن السلاح أكثر والطيارون أكثر ومن يسوقون الدبابات أكثر ، ذلك باننا فتية آمنا بربنا وبلادنا واندفعنا الى الامام غير مبالين بالسجون وبالتغريب والتشريد وبالهم والحزن ، وهكذا كانت بعد تسع سنوات ثورة النار والنور .

أيها السادة والسيدات :

تتعاقب الايام وتنسلخ الشهور وتتابع السنون وتنسى بعض الاحداث التي مرت في تاريخنا كأمة عربية مسلمة فخورة بعروبتها معتزة باسلامها ، محافظة على قوميتها ، وقد لا يذكر الجزائريون انفسهم ثورة أبي زيان ، ولا ثورة محمد بن علي ، وثورة جرجرة ، وثورة بني سناسن ، وثورة أولاد سيدي الشيخ ، وثورة المقراني ، وثورة الشيخ أحداد ، وثورة أبو عمامة وثورة بومعزة ، وعين التوتة ومعسكر ، والقل ، وغيرها من الثورات الجزائرية التي أضاف بها التاريخ العربي الاسلامي مجدا الى أمجاده ، وقامت بها الامة الجزائرية لتحقيق استقلالها ونيل حريتها ، ولكن حوادث 8 ماي 1945 لا يمكن للتاريخ أن ينساها ، ولا يليق بأبناء العروبة والاسلام الا يعرفوا عنها الشيء الكثير مهما تقادم الزمن ومهما تعاقبت السنون اننا اذ نتحدث في هذه الليلة وبعد مرور 25 سنة على حوادث 8 ماي 1945 فما ذلك الا اننا نؤمن بأن أكبر دفعة من غالي الفداء ومن كرم الدماء دفعت في ذلك اليوم المشهود ، وهذا مما يجعلنا نجتمع في ملتقانا الرابع لا لنبكي على ما فقدناه وعدده كثير ولا على التضحيات وانما لنقول للناس : **الثار ولا العار** .

ففي مثل هذه السنة من 1945 خرجت جموع الشبان والفتيات والكهول يتظاهرون في المدن والقرى ينشدون أغاني الحرية ويرتلون أناشيد الاستقلال وما كانوا يظنون أن الكثير منهم سوف لا يرجع الى أهله وذويه ، وان الردى هو منهم بالمرصاد ، اذ لم تمض ساعات

قلائل على خروجهم من دورهم حتى تبدلت الحال من مظاهرات سلمية الى معارك دامية ، دارت رحاها فى نواحى كثيرة من القطر الجزائرى **وراح ضحيتها أكثر من 45 الف شهيد ، دون أن يهن الاموات والسجنا. لما اصابهم فى سبيل الله والوطن ، أو ان يضعف من بقى بعدهم** يضطلع بأعباء الرسالة التحررية المقدسة أو يستكين للعدو الجائر الغاصب المستبد .

اننا كنا نجزم صادقين ـ أيها السادة والسيدات ـ بأن تلك الحوادث الكثيرة ليست هى القافلة الاخيرة من قوافل الشهداء التى يقدمها الشعب الجزائرى المجاهد فى سبيل استقلاله وسؤدده بل كنا نؤمن بأنها قافلة ستتبعها قوافل أخرى قبل أن يجر العدو أذيال الانكسار والفشل فى أراضينا وقبل أن يرتفع علمنا خفاقا مرفرفا مكللا بالنصر محفوفا بالعزة والكرامة محميا بسواعد أحفاد عقبة وطارق والمعز الفاطمى وعبد القادر ، وأبناء ابن باديس ، ومعنى هذا ـ أيها السادة ـ أن الشعب الجزائرى كان قد تحرك ساعيا ومريدا وهو من ذلك اليوم قد أخذ يشق طريقه الى الحرية ، الى المجد الى الاستقلال ، وكلفه ذلك ما كلفه ، **وكانت الثورة الكبرى ثورة نوفمبر المباركة ، وكان الاستقلال ، وكانت حوادث 8 ماى 1945 هى الام الشرعية الاصيلة لحوادث أول نوفمبر 1954**

ان الامة الجزائرية وقد تعودت أن تحيى هذه الذكرى قد اختار شاب من شبابها وهو وزير من وزراء ثورتها ان يتحف هذا الملتقى الرابع فى يومه الثانى بأن يجعل أخا له يتحدث اليكم فى هذه الذكرى عن تضحيات وعن غال وعن كرم الدماء حتى لكأنه يريد أن يقول لنا فى هذه الظروف التى نعيشها كعرب ومسلمين وهى من أمر تاريخنا بعد نكبة الاندلس ، كأنه يريد أن يقول لنا : ان ما يؤخذ بالسلاح ، لا يرد الا بالسلاح ، وكأنه يقول :**«ان تكونوا تالمون فانهم يالمون كما تالمون ، وترجون من الله ما لا يرجون»** فاننا نرجوا من الله ما لا ترجوه الصهيونية ، ونرجوا النصر هنا والفوز هناك .

أيها السادة المحترمون :

ان حوادث 8 ماى 1945 التى نتحدث عنها الليلة هى عبارة عن حلقة من سلسلة الارهاب الذى ما برحت فرنسا تقوم به عندنا فى

المغرب العربي بصفة عامة وفى الجزائر بصفة خاصة ، وفى مثل هذا اليوم من سنة 1945 كانت المجازر فى أكثر من ناحية من نواحى القطر الجزائرى ، ونختص من بعض الجرائم ومن بعض الوثائق الرسمية حالة القمع الارهابى والبوليسى ، أما ما وقع فى هذه الحوادث من فضائع وفى مدة زمنية لا تتجاوز ثلاثة أيام فنحن لا نسرده عليكم — أيها السادة والسيدات — طبقا لما شاهدناه باعيننا ، أو رويناه عن اخواننا اذ لو سلكنا هذا المسلك فى تقرير الفضائع لرمينا بالمبالغة والتحزب العاطفى ، وانما نسرده عليكم مما قرأناه فى الجريدة الرسمية للجمهورية الفرنسية ، وهذه مضبطتها ، أو فيما قرأناه فى بقية الجرائد الاخرى مثل جريدة «ليبرتى» و «كومبا» و «الجزائر الجمهورية» وكل هذه الجرائد وهذه الوثائق وكل ما صرح به كاربونال هنا فى قسنطينة أو شاتيليو فى الجزائر أو غير هؤلاء وهؤلاء ، فهذه كلها وثائق اما انتظمتها مضبطة الجريدة الرسمية الفرنسية ، أو بعض القصاصات التى تحت أيدينا ، وهذه هى أمامكم مجموعة الجرائد الرسمية لسنة 1945 وقد نشرت فيها المناقشات التى جرت فى الجمعية الاستشارية المؤقتة للجمهورية الفرنسية . واليكم بعض ما جاء فيها :

«على اثر فاجعة الجزائر انشئت المليشيا والغيت كل الحريات الديموقراطية وتقلدت السلطة العسكرية امور الشرطة فاعلنت السلطة القوانين الاستثنائية العرفية وسلحت كل الاوروبيين ، وأصبح الجزائريون لا يؤذن لهم بالخروج من دورهم الا اذا كانوا يحملون شارات على سواعدهم اذنت لهم بها السلطة بعد تحقيق دقيق يثبت ان لهم اعمالا فى المؤسسات العامة» . «ان الانتقام كان فضيعا ، فقتل بعض الاوروبيين أدى الى اعدام جماعات من المسلمين بمجرد الشك فيهم ، ففى الساعة السادسة والنصف من صباح الاثنين 14 ماى 1945 فتحت زنازن السجن فى مدينة قالمة وبعد ان نودى على 49 سجينا قيل يلزم ايضا احد عشر ليكون العدد 60 ، هكذا شاءت قوات الظلم والظلام ، واخذ هؤلاء عفوا من صفوف المعتقلين ، ثم حكم على الجميع من طرف اللجنة العسكرية التى تعقد اجتماعاتها لهذه المهمة بادارة (الجندرمة) واعدمتهم المليشيا رميا بالرصاص» .

نعم ان الحاكم العام فى الجزائر قد اجابنا عن سؤال وجهناه

اليه فى اجتماع مشترك للجان الداخلية لتنسيق الاعمال للشؤون الاسلامية ، اجابنا : بان احدى واربعين قرية قد دكت بالطائرات وبالوحدات البحرية فلم يبق منها ديارا ، وبما ان معدل سكان القرية الواحدة الف نسمة ان لم نقل الف وخمسمائة او الفان ، فلا مغالاة اذن ان نقرر بان العدد الحقيقى الواقعى من المسلمين الذين قتلوا يتراوح بين خمسة عشر الفا وبين عشرين الفا ، هذا اذا افترضنا أن نصف السكان قد فر واعتصم بالجبال ، فلا يزال النصف ، ومما لا شك فيه ان الانتقام الذى قمنا به كان ضربة قاضية على صداقة الشعب الجزائرى والامة الفرنسية ، او بالاحرى على مصالح بلادنا فى الجزائر ، هذا على انى لا اتكلم على بقية الاحكام الجائرة اذ ان ذلك يقتضى وقتا طويلا » .

ذلك ما ورد فى الجريدة الرسمية للجمهورية الفرنسية أوردته بدون تعليق وهو قليل من كثير ، وارجو أن أكون فتحت بذلك للمستزيدين والباحثين موردا من المراجع يكون من الخير او فى الحفاظ على تاريخنا أن يعطيه طلابنا وشبابنا المسلمون ما يستحق من البحث والتمحيص والتدقيق .

وان حوادث 8 ماى 1945 بجوانبها الكثيرة ونواحيها المتعددة تصلح أن تكون مواضيع رسالات وأطروحات لشبابنا المنتشرين فى ارجاء الدنيا الاربع ، وما أكثر مثل هذه المواضيع فى تاريخنا الجزائرى عموما والمعاصر خصوصا فلو توجه طلابنا المسلمون الى هذه المواضيع وبحثوها وقدموا فيها رسائل فى الجامعات لأسدوا بذلك خيرا عميما وكثيرا للعرب والمسلمين ، واما بعض ما جاء عن الحوادث فى الجرائد غير الرسمية فاليكموها :

أما فى مدينة سطيف ودائرتها وبجاية واحوازها ، وقالمة وضواحيها فقد أعلنت حالة الطوارىء وقررت الادارة الاحكام العرفية فى كامل القطر ، وحجر على الوطنيين الخروج من دورهم الا باذن خاص ، وان اى وطنى لا يحمل على ذراعه الشارة المخصوصة وهذه الشارة لا تعطى بسهولة يقتل دونما انذار اذا وجد فى الشارع بعد السابعة مساء ، ومن هنا لزم المسلمون دورهم أياما عديدة ، دون ان يكون لديهم ما يقتاتون به من الاطعمة ، فكانوا من جراء ذلك فى

جحيمين : جحيم التهديد بالقتل وجحيم الضائقة والجوع ، لقد وزع على جميع الاوروبيين السلاح وخاصة منه الخفيف الى حد ان النساء كن مسلحات وفى احدى المدن بينما طفل صغير مسلم لا يتجاوز العاشرة من العمر يمر فى الحديقة فاذا بضابط فرنسى كابتان يطلق عليه عيارا ناريا فيرديه صريعا ، ان الاهالى الذين لم يعرف عنهم قط انهم انخرطوا فى حركات سياسية أو فى منظمات اجتماعية قد نالهم هم أيضا من القمع والارهاب الشىء الكثير ، لقد كانت تقوم بالقمع والارهاب فى نفس الوقت ما بين سطيف وبين البحر القوات المسلحة البرية (الفرقة الاجنبية والسنغاليون) والفرقة الجوية وكان وزير الطيران عامئذ شيوعيا وعهدنا أن الشيوعية تميل وتجنح الى الشعوب المستضعفة الى الشعوبة المحكومة ٠

كان الشعب مسلما وكان عربيا ، فالحديد ياكله والنار تأخذه، وهذه فلسطيننا كادوا لها كيدا ، كانوا حمرا شيوعيين أو كانوا ديمقراطيين أو امريكان أو أنجليز كلهم تكتلوا وكلهم اتفقوا على أن يجعلوا من فلسطيننا ما تعرفونه ٠ أما هم فى نيجيريا مع بيفرا (أو بما تسمى) فعويلهم أو ضجيجهم تعرفونه حتى أنهم اذا قاموا لا يعرفون قعودا ، وحتى اذا صحوا لا يعرفون مناما ٠ لان المسلمين فى نيجيريا يريدون أن يستأصلوا بيافرا **(ذلك قولهم بافواههم قاتلهم الله انى يوفكون)** ٠

حديثى طويل وقد يستغرق أكثر من ساعتين ، وعلى هذا حديث يجيء بعد محاضرة دسمة لعزيز علينا وأخ كريم لعلى أطيل عليكم وأنا لا أتجاوز الربع من حديثى ، وحتى أترك للاخ الوزير أيضا مجالات اتصالاته وعمله فأقول : ان مما أسفرت عنه حوادث 8 ماى 1945 ذلك الوعى الذى جعلنا نتفهم حقيقة الرسالة ، وحقيقة الامر ، ومن ذلك اليوم ونحن نعمل جاهدين باذلين كل شيء حتى جاء نوفمبر المبارك 1954 وحتى جاءت ثورته ، الثورة الجزائرية ثورة النور والنار ، لم يبق فى عمرها الا ربع ساعة ، ولكن ربع ساعة حاول ان يكون فكى مقص يقص رأس الشر ورأس الفتنة ورأس فرنسا من هذه الديار ٠

أيها السـادة :

«كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وانتم لا تعلمون ٠ «يسألونـك عـن الشهـر الحـرام قتـال فيـه ٠ ٠ ؟» الآية معروفة ، والآية الاخرى : **«ياأيها الذين آمنوا اطيعوا اللـــه» « يا ايها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم »** والدعوة هنا ليست للصلاة وليست للزكاة ، وانما الدعوة للسيف والسيف هو الذى يرد الحقوق والسيف هو الذى يرد فلسطيننـا ، أما غير ذلك فلا يمكن أبدا ، واظن أن العروبة عينها لا تنام عن قذى٠ وأكرر شكرى للاخ الوزير على أن تصدر هذا الملتقى الرابع ولنا فى شبابه ولنا فى ثقافته ، ولنا فى اسلامه ولنا فى عروبته ، ولنا فى اندفاعه الشىء الكثير الذى نعلق عليه الآمال ٠ أما هذا الملتقى الرابع فتتبعه ملتقيات كثيرة فيها الخير الكثير للعروبة والاسلام٠ولينصرن الله من ينصـره ٠ والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ٠

الـــزواج بالاجنبـــات والاجـانـب
وخطـــره عـــلى الاســرة (*)



زهـــور ونيـسى
رئيسة تحرير مجلة « الجزائرية »

حيوا الحكيم ولا تنســوا قرينته
فهـــو سليمـــان والمـادام بلقيس
لـــه غـلام اطال اللـه مدتـــه
تنازع العـــرب فيه والفرنسيس
لا تعـــذلـــوه اذا مـا خان امتـه
فنصفـــه صـــالـــح والنصف موريس !

هذه الابيات الشعرية ، نظمها ارتجالا ، شاعرنا المرحوم الامين العمودى ، مداعبا بها صديقه المناضل ، الدكتور سعدان ، المتـزوج باجنبية ، منذ أكثر من ثلاثين سنة ، هذه الابيات كانت وما تـزال تمثل الابعاد التى ينظر منها ، وبها ، المفكر الجزائرى ، لمشكلـة اجتماعية وطنية جد خطيرة ٠٠ قد لا تشكل،بالنسبة لبعض المجتمعات الاخرى ، نفس الخطورة ، ونفس الحدة ، التى كانت وما زالت ، جزءا لا يتجزأ من المنطلقات الفكرية ، التى قامت عليها الثورة الجزائرية الظـــافرة ٠

وهى : أيضا ، تمثل جانبا حيا ، متحركا ، للمشكلة الاجتماعية، التى يهمنى ويشرفنى جدا ، أن أطرحها ــ هنا ــ أمام الملتقى الكريم لتعطى حقها من الاهتمام ، والتحليل ، ونستخلص جميعا من معطياتها النتائج الايجابية ، التى نرى ، انه قد حان الوقت لمجابهتها والوقوف أمام العواقب الوخيمة ، الناتجة عن اهمالها وتركها ٠

ان القضية التى برزت واضحة جلية ، فى هذه الابيات الثلاثه ، لهى النتيجة التى ترتبت عن الزواج بالاجنبيات ، والخطر الذى كـان منه ، وأشد ذلك كله ، على المجتمع أولا ، وعلى الوطن ثانيا ، وعـلى الاســرة عمادهما بداية

(*) محاضرة ألقتها فى الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الاسلامى بقسنطينة فى 17/8 جمادى الثانية 1390هـ ــ 19/10 أوت 1970 م ٠

ان مجموع الاعمال التى تتحرك بها الامة ـ أية أمة من الامم ـ وفى كل المجالات ، ونشاطات التقدم والرقى تقوم بداهة على :

ـ مواطن صالح سليم ٠

ـ وعلى مواهب ناتجة عن نمو طبيعى سوى ، وبالتالى على مجتمع موحد الشعور ، والنفس والثقافة ، أى سوى الشخصية وأصيلها ٠

وهذا الانسان ، أو هذا المجتمع ، الذى نتحدث عنه يقوم جوهرا ويمر اساسا على قاعدتين ومرحلتين :

القاعدة الاولى : ما نسميه بالبيئة الخاصة ٠

والقاعدة الثانية : هى البيئة العامة ٠

اما المرحلتان: فالاولى تلك التى ينمو بها الانسان ، بعد أن يخرج من بطن أمه ، لا يعلم شيئا ، قال الله تعالى : «**الله اخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئا**» ، وقال رسولنا (ص) «**يولد الطفل على الفطرة وابواه يهودانه او ينصرانه او يمجسانه**» ٠

هذه المرحلة الهامة من حياة الكائن ، هى كاساس لقيام اى بنيان قوى ، ماديا كان او روحيا ، اذ يقوم عليها ، وينمو فوقها كل بنيان آخر ٠

والمرحلة الثانية : هى ما يصيفه المجتمع ، أو يعطيه لهذا الانسان ، وهو ما يسمى بالمكتسبات ٠

فاذا أعطت الاسرة سلوكا ، أو ثقافة ، كان لهما التأثير المباشر على الاسرة ، وغير المباشر على المجتمع ، مهما كان نوع هذا السلوك والثقافة ٠

وبعض الوان المعرفة ، التى كانت ـ وربما ما زالت ـ نتيجة لمخططات استعمارية ، تركت فى النفوس أحكاما على المجتمع ، وأفكارا تدور فيه بصيغة المسلمات ٠٠ ساعدت على انتشار هذا الضباب الفكرى الذى ينمو ويترعرع فيه هذا الانسان الذى أشرنا اليه ٠

والمجتمع الاسلامى من هذه الزاوية ، ضللته أحكام خاطئة ، واستولت عليه صورة ذهنية وقلبية مرعبة ٠ فكم من اشياء درست

على انها دين ، فاذا محصناها ، وجدنا انها هراء ، او اجتهادات فردية محدودة جاءت فى زمن محدود ، نتيجة واقع محدود ، لأحد الباحثين من سجناء هذا الواقع ، وحرام أن نحبس أمة ضخمة كالامة الاسلامية فى تفكير ضيق ، مشوه ، بعيد عن جو وأصالة الدين ٠

وقد أشرنا الى هذه الحالة ، قبل الدخول فى صميم الموضوع لانها الارضية المساعدة على فهم المرتكزات التى نبنى عليها هذه الافكار العامة ، التى تشغل بالنا نحن العرب المسلمين ٠ حول خطورة بدعة الزواج بالاجنبيات والاجانب على الاسرة العربية المسلمة ٠

هناك مشاكل ، قد تبدو لفئة من الناس شديدة التعقيد ، وقد تبدو لفئة أخرى ، بسيطة وسهلة الحل ، ومن باين هاتين النظريتين تلتمس كل فئة منهما ، حلولا تأخذ فى الشكل الاول ، ما يسميه رئيسنا **(هروبا الى الامام)** وتأخذ فى الشكل الثانى ، مجابهة عبقرية نفاذة ، واذا تركت هذه المشاكل على غموضها ، استفحلت وزادها الزمن تعسرا ، وابهاما ، ثم يتواضع الناس ، بعدئذ ، على اعتبارها مشاكل مزمنة يدورون فيها ، ولا يخرجون منها ، لانهم لا يجدون من حلقتها المفرغة مخرجا ٠ ومن أشد هذه المشاكل تعقيدا ـ فى تصورنا ـ وخطورة على مجتمعنا أولا ، والفكر الاسلامى الذى ننتسب اليه ثانيا ، ما يمكن أن نطلق عليه ، المرض الشائع أو الحالة المرضية المسيطرة والآسرة لقطاع كبير من رجالنا وشبابنا المثقف ، أو غير المثقف وهو الزواج بالاجنبيات ٠ ان الزواج بالاجنبيات ـ فى رأينا ـ ما هو الا حالة مرضية يمر بها مجتمعنا ، هذه البدعة التى أصبحت سمة الانسان الجديد ٠

هناك من يتساءل ويقول ، وخاصة من الذين أنعم عليهم مجتمعهم وشعبهم ، واقتطع من طاقاته ، وعرقه ، وقوته الكثير ، ليدفع بهم الى نيل الثقافة والعلم ، يهدف خدمته بعد ذلك ومساعدته للارتقاء والنماء الطبيعى والحتمى ، يقول : بأن المرأة أو الفتاة العربية المسلمة جاهلة متخلفة ، قديمة ، لا تعرف من سلوكات الحياة العصرية شيئا وباختصار غير أهل لان يشركها المثقف فى حياته ٠٠٠

ولست أريد هنا أن ادافع عن المرأة ، وأخفى رأسى كالنعامة فى الرمال لاقول ان هذا غير صحيح ٠ ٠ فأنا مؤمنة أن المرأة عموما

متخلفة وجاهلة · لكنني مؤمنة أيضا أنها مناضلة وبطلة ، وانها أم وأخت وزوجة المليون ونصف مليونشهيد ردوا للعالم العربيالاسلامي اعتباره وأشعروه بوجوب وضرورة انتصاره · · صحيح ان المــرأة العربية تمر بظروف صعبة وقاسية ، تختلف طبعا عن ظروف الرجل كما وكيفا ، ولكن من هو السبب ياترى؟ أهو الدين كما يدعى الجهلة بالدين ؟أمهو الرجل الذى ابتعد عن جوهر الدين وروحه، ووضعته الظروف قاضيا ومدعيا ، على المرأة فى نفس الوقت،فاخفى صوتها تحت برنس الدفاع والقضاء ، أم أن الاثنين بريئان ، والاستعمـار وحـده هو المجرم ؟

هذا الاعتراف ، وهذه الحقيقة ، يجب أن لا نخجل من اعلانها، ونعمل على توفير العلم السليم ، والرعاية الصحيحة ، والتـوجيه القويم ، وبتوفيرنا هذه العوامل للمرأة ، نكون قد وضعنا الاسس السليمة لتنشئـة جيل صـالح أصيـل ·

ان هذه المرأة العربية المسلمة ، المتعلمة ، الواعية ثقافيـا واجتماعيا وسياسيا ، هى التى ستبنى لنا االمستقبل ، رجال ونساء الغد ، وتحمى لنا بذلك الاسرة ، وتزيد من تماسكها وترابطهـا ، ونقائها ، واستعدادها لتأدية دورها داخل المجتمع ، مساهمة فى معركة اللحاق بالركب الحضارى الذى يتشدق به ذلك الذى يبرر ، ويعلل ، ويفلسف ، سبب ادخال عنصر غريب الى بيئته الصغيرة، لتتولى تكوين جيل كامل من الغرباء للمجتمع الكبـير وللوطن ·

مع العلم والدليل ، أن هذه الامم التى تخرج منها هذه المرأة الاجنبية لم تسبقنا فى عملية التطور ، الا بسـلاحنا ، عندمـا تبنت علومنا وأبحاثنا وقيمنا ، ناسبة كل ذلك لنفسها ، فى الوقت الذى فرضت فيه علينا أوضاعا غريبة شاذة جمدت طاقاتنا للنمو والتطور السليمـين ·

ان هذا الرجـل المفضل للمـرأة الاجنبية ـ أى امرأة ـ لانـه لا اختيار له مع الاسف ، هذا الرجل اختلط عليه الجوهر بالشكل ، واصبح الشكل هو الشبح المسيطر على ذهنه ، فسقط بين مخالب الاغراء ، وفحولة المراهقة ، فهو عند ما ينال الشهادة ، اذا هو نالها ، ولم يخلط بين يومه وغده ـ يعود الينا بنواة غريبة عن أرضه وأصالته

زاعما ان لم يتغير من الامر شيء ، وانه سيساهم في بناء الوطن كأي مواطن آخر ٠

ان هذا بعيد تماما عن عملية البناء الحقيقية ، التي تعتمد أولا وأخيرا ــ على الأصالة والصيانة والانسجام الاسرى ، لا على الزيف والتجسس والتفكك الاسرى ، متغافلا أو متجاهلا القاعدة العامة : **ان الخطأ لا ينتج الا خطأ ٠**

وكيف نجده بعد ذلك ؟ نجده يعيش منفصلا غريبا في مجتمعه وبين أهله ٠٠٠ يحيا حياة تمزق نفسي وجمود ذهني ، واضطراب روحي ، بعيدا عن الطمأنينة ، والهدوء والرضاء أهم عوامل الاستمرار والخلق والابداع ٠

وتدفع به هذه الحالة ، لان يبحث ، ويلتف حول غرباء مثله ٠ وشيئا فشيئا ينعزل عن المجتمع الذي أنشأه وكونه ، غير متحسس لمشاكل مجتمعه وتطلعاته الا من خلال التيار الجديد الذي انتمى اليه ، أو من خلال المقاييس الجديدة ، الخاطئة التي ترى ، وتتعامل، وتحكم بها ربة بيته المرأة الغريبة ، وهكذا نرى أن حالة شاذة لا بد وان تفضي الى أخرى شاذة ، ومشكلة تفضي الى مشاكل ٠

ولعلنا لا نخطيء حين نقول : ان عنصرين مختلفين لا يمكن أن ينصهرا في بوتقة واحدة ، حتى لو كانت هذه البوتقة تقوم أساسا على العاطفة ، فالعربي المسلم من نسيج ــ عملت ظروف عديدة وعميقة اقتصادية وثقافية واجتماعية على اعطائه مميزاته وخواصه ، والغربي من نسيج آخر ، ساهمت نفس العوامل على وضعه في المكانة (المرموقة) التي يوجد فيها حاليا ، ولقاؤهما ضمن اطار تبادل الثقافة والفكر والفن ، قد يكون ممكنا ، لكن لقاءهما ضمن بيئة مشتركة ، أو ضمن أسرة واحدة من أجل تكوين وتنشئة اجيال في حالة سوية، موحدة الشخصية ، والفكر ، والنظرة ، غير ممكن على الاطلاق ، اذ لكل منهما طبيعته ، تاريخه ، تقاليده ، ثم تصوره للاشياء والقيم والمستقبل ٠

وهكذا نجد المرأة الاجنبية تتصدر سدة الحكم والتوجيه على أفراد الاسرة ، بطريقة مباشرة ، وعلى المجتمع والوطن بطريقة غير مباشر ٠

ومن هذه الحالة يكون المجتمع قد أطعم بجرثومة حية تنخر فيه وتعمل لكن سلبا لا ايجابا ، كل ذلك تحت ستار الثقافة والفكر ، والثقافة والفكر أكثر العناصر براءة ، من هذه الجريمة المرتكبة ، فى حق الدين أولا ، والمجتمع ثانيا ، والانسانية ثالثا ٠

لا نريد أن نقول بأننا من حيث المبدأ ، ضد التقاء الشعوب بعضها ببعض ، بل بالعكس ، نحن مسلمون ، والاسلام كرسالة وقيم هو الدين الوحيد الذى احتضن كل أهل الكتب السماوية فى الوقت لذى نجد ان المسيحى ، لا يتجاوز تفكيره ما هو موجود فى الاناجيل الموضوعة ، واليهودى لا تتجاوز نظرته كلمات ممضوغة ، ممجوجة عن الوصايا وعن ما يسمى بالافود منطلق النظرية الصهيونية ٠

ولكن الاسلام الذى جاء بعدهما لم يكتف بأن احتوى العناصر الجوهرية لهاتين الرسالتين ، بل احتضن كل من يؤمن بهما ، فاعطى الدليل الواضح لشموليته وانسانيته ٠

ان الاسلام عند ما أباح تزوج المسلمين من أهل الكتاب ، كان دافعه الاول خلق هذه النظرة الشمولية الانسانية ، كما كان هدفه نشر الاسلام ، لكن القضية اليوم ، قد دخلت عليها عوامل أخرى ، اقتصادية وسياسية ووطنية فدخلت فيما يسمى باطار القوميات والوطنيات ، وتجاوزت الاحداث ونوعية الحياة ، كل الاعتبارات المبررة لاستمرارها ٠

قال رسول الله (ص) : **«اختاروا لنطفكم الارحام الطيبة ، فان العرق دساس»** ٠

والخطر الاول : العام الذى يمكن أن نضع أصابعنا عليه ، بل ويعد منا حتى فى حياتنا اليومية هو هذا التشويه ، والتمزيق ، لشخصية المجتمع ككل ، من خلال دخول الغرب وحضارته وثقافته الى بيوتنا عن طريق المرأة ٠

الخطر الثانى : هذه الغربة والشعور بعدم الانتماء التى يعيشها العربى المسلم المتزوج بأجنبية،بعيدا عن تطلعات مجتمعه المشروعة وعن آماله وآلامه ٠

الخطر الثالث : حالة تمزق الاسر فى البيئة الاولى التى كان من

الواجب أن تكون كل أجوائها وروحها طيبة وأصيلة .

الخطر الرابع : وليس الاخير ، هـذا الجيـل من المـواطنين الذى يطلع نصفه صالح ونصفه خاسر ، نصفه محمد ونصفه جورج، فلا هو ينتمى لأبيه ولا لأمه ولا لوطنه . جيل ممزق الشخصيـة ، يعيش حيـاته فى صـراع كبـير متلف .

والصورة الاولى : التى تقفز الى الذهن ـ الآن ـ ونحن نتابع هذه التصورات ، هو أن الأم الاجنبية التى أشرنا الى البيئة التى أنجبتها، والتى انمت فيها مداركها ، ونظرتها للاشياء ستعمل ـ وهذا دورها أساسا ، كأم ولواقعية احتياج الاطفال للاخذ بايديهم ، ستعمل عـلى أن تعطى ـ عن وعى أو غير وعى ـ وهنا ليس مجال المناقشة ـ كل ما عندها لهؤلاء الاطفال ، ولا يمكن أن تعطيهم أشياء أخرى نابعـة من مجتمعنا ، هى فاقدة لها .. لأن فاقد الشيء لا يعطيه ...

اما الصورة الثانية : فهى للا ب، والمعروف عن الاب العربـى المسلم ، انه لا يالف البيت كثيرا ، بحكم المستوى الثقافى والاجتماعى والاقتصادى الذى يعرفه مجتمعه ، يعيش أكثر وقته خارج البيت ، وبالتالى ، ليس له دور يذكر من حيث الجوهر ، فى تنشئة هـؤلاء الاطفـال .

ومن هاتين الصورتين تبرز الصورة الكبيرة ، وهى النتيجة لهذه العملية ، فماذا نجد فى المجتمـع ؟

نجد أن هذين الابوين قد قذفا ببعض الاطفال للمجتمع ، تشكلت نفسياتهم ، وعواطفهم ، وعقولهم ، نتيجة الصراع النفسى والثقـافى الذى تجاذبهم من المجتمع الكبير ، وهو الذى يمثل الحقيقة والاصالة والبيت والاسرة ، وهو الذى أصبح يمثل الزيف والتشـويه بسبب تصور الام الغريبة مع العلم ان أساس الاصالة يبدأ من الاسرة .

ان النتيجة والصورة الاخيرة التى يجب أن نتصورها جميعـا ، لانها حقيقة واقعة ، ومستعجلة ، **ان هـؤلاء الاطفـال ـ اكبـادنـا ـ سيصبحون سرطانات تتاكل ان لم تاكل فى داخل المجتمع ، وهم على استعداد ـ بحكم العوامل التى تشكلوا بها ، والحالة التى اغترفوا منها فى البداية ـ على استعداد لتقديم انفسهم وتقديم مجتمعهم ايضا ، على صينية من الفضة لكل طالب .**

وننتقل الآن الى حالة مرضية أخرى فى مجتمعنا، تفرعت بالضرورة على الاولى لكنها ـ ويا للاسف ـ تبدا أكثر ايلاما للنفس ، وجرحا للكرامة ، ربما لان مجتمعنا لم يدر بذهنه ونحن حديثو عهد بحرب وجراحنا لم تلتئم بعد ـ انه سيصل اليها ، **وهى زواج المرأة العربية المسلمة بالاجنبى** • •

وهنا نرجع الى الاسلام الحنيف ، وجوهر تشريعه ، فنجده يحمل مسؤولية المرأة على المجتمع أولا ، والافراد ثانيا ، يحمل الدولة عبء موازنة الفروق بين شقى المجتمع المرأة والرجل ، ويحمل الرجل ـ كفرد ـ عبء المرأة كفرد ، كما يحملها عبئه كفرد ، فى حالة الحاجة حتى لا يقع الانحراف،وحتى لا تنحرف المرأة بالخصوص لان انحرافها ليس كانحراف الرجل • فهو انحراف أسرة كاملة ـ ولو أنه يتساوى معه من ناحية المبدأ ، لان الانحراف كل لا يتجزأ سواء كان صادرا من رجل أو امرأة •

ان خطر الانحراف ليس عليهما وحدهما ، بل على المجتمع بالضرورة ، بالاولاد الذين سيصبحون غرباء عن مجتمعهم أجانب ـ مهما كنا متفائلين ـ لسانا وروحا وسلوكا •

وهكذا نجد أنفسنا قد وصلنا الى هذه النتيجة الخطيرة فى وقت تعيش فيه الثورة بكل ابعادها • واذا لم نتدارك هذا الخطر الجديد من انحراف المرأة ـ أى زواجها بالاجانب ـ وهو حسب تصورنا الخاص المتواضع ـ نتيجة غزو قشور الثقافة الوافدة من الخارج ، وتفكك الرعاية الاسرية ، وانعدام التوجيه المجتمعى ، وغياب أجهزة مسؤولة ، وفقدان خطة فكرية ، واضحة تدفع بالمرأة ، وبالرجل أيضا نحو ثقافة مستمدة من ذاتنا وواقعنا وأصالتنا وشخصيتنا العربية الاسلامية ، تلائم بين مظاهر الحضارة المادية وجوهر الدين ، قلنا اذا لم نتدارك ـ هذا ـ ونحن فى مرحلة البداية ، وصلنا الى أخطر من الحالة التى نحن عليها •

من الصحيح كما أشرنا فى سياق الموضوع ، ان هذا العمل الذى تقوم به المرأة من وجهة نظر الدين ، أكثر خطورة من الذى يقوم به الرجل ، لكن من وجهة نظر المجتمع والوطن نؤكد على أن العملية

من كليهما ، تساوى أولا انفصال أعضاء من المجتمع فعالة ، وتساوى ثانيا اضافة أعضاء غرباء للمجتمع .

لذلك نعيد التشديد مرة أخرى على ا نهذه القضية ـ الزواج بالاجانب رجالا ونساء ، لم تعد قضية شخصية ـ أو ما يسميها بعضهم بالحرية الشخصية ـ انما تمس فى جوهرها وابعادها صميم المجتمع ، ودعائمه ، وكل القيم التى قام وينطلق حاليا فى ارساء قواعده عليها .. تهدده فى وجوده نفسه .

بعض المجتمعات الكبيرة تشبعت بوعيها القومى ، فاخذت باتباع تنظيمات قانونية واجتماعية ، تحول فيها بين اقدام المواطن ـ أى مواطن ـ على التزوج بالاجانب .

وبعض المجتمعات الاخرى ، أوجدت لهذه المشكلة ، نصف حل، أما النصف الباقى فما زالت تدور حوله ، أو تهرب الى الامام ، من مجابهته،فشرعت ووضعت بعض القوانين التى تمنع الزواج بالاجانب فى بعض القطاعات الهامة فى الدولة .

والاحسن فى رأينا ونحن نمر مرحلة ثورية تطويرية كبيرة ـ أن نعمل على ايجاد حل كامل جذرى لهذه المشكلة التى لا تجزئة لها .

اننا عند ما نشير الى هذا ، ليس معنى ذلك اننا ضد الانفتاح ، أو التقاء الشعوب ، أو ما يطلق عليه حاليا بالانغلاق او التقوقع .. بل ان كل قيمنا الثقافية ، لتدل دلالة واضحة على اننا أكثر الشعوب انفتاحا على الثقافات الانسانية .. وبامكاننا أن نقول : ان العديد من المشاكل التى نعانيها ، هى نتيجة لانسياقنا اللامحدود لهذا الانفتاح واستغلال الاجانب لهذه الخاصية التى نتميز بها ..

لقد أذل الغرب شعوبنا ، وهضم حقوقها ، وعمل على تجهيلها وتفقيرها ، كما عمل على استغلال الدين . كعامل عاطفى وعقلى لهذه الشعوب ، وقد لا يدرك الكثيرون من مفكرى الاسلام ما أدركه المفكر المسلم بالجزائر عن الاساليب والخطط التى وضعها الغرب لقتل شخصية الانسان العربى بالجزائر ، عن طريق تشويه واستغلال الدين ، فقد أنطق الغرب الدين بكلام ، وحركات واعمال ، لا صلة لها أصلا به ، وأخرسه عند ما اراد أن ينطق ويدافع ، ووضع الغرب نفسه ـ أى والله الغرب ـ وضع نفسه حارسا أمينا بل وحتى مفتيا

فى نصوص وآيات الـدين ·· وجعل من بعض الاسـرائيليات التى دست،واندست فى الدين ، قوالب تقدم للشعب ليمضغها كما تمضغ المخدرات وبذلك يصبح أسيرا لهذه الحالة · ومن هنا من هذه الكذبة الكبرى ، التى عمل الغـرب على نشرها ، داخل مجتمعاتنا ، جـاءت الكلمة التى بصرت مثقفينا ورجالنا وشبابنا ، فمضغوها دون علـم بمصدرها ، ولا غاياتها ، «**الدين افيون الشعوب**» ·

مع أن الغرب نفسه ، وعلى رأسهم المفكر الذى قال هذا السطر، هم الذين وضعوا كل هذه الشكليات ، والاسرائليات ، فى متنـاول المواطن المسلم ، وأبعدوا عنه ـ بحكم سيطرتهم على مقدراته وكيانه ـ المصادر الجوهرية ، والمبدئية : فى قيم ديننا وسماحته وشمـوليته وانسانيتـه ·

واننا عند ما نرجع الى الكتابات الجادة فى الغرب ، والتى تقدم فى مستويات عليا ، فكرية ، وعلمية ، جادة ، نجد هذا الغرب ـ الذى يقدم لنا فى بلادنا حيث كانت له السيطرة المباشرة ، وحيث كـان هو الذى يضع برنامج التعليم وحيث مازال حتى اليوم ، يغزو أسواقنا الفكرية ، بكل ما هو غريب عن اخلاقية العلم ، ومنهجيته ودقته ـ هذا الغرب يعترف ويقر ، بأن الدين الاسلامى هو أكثـر الاديان نقاء وصلة بالانسان والحياة ورسالتها والتطـور المتوازى بـين فضـل الحياة ، ورسالة الانسان فى عملية السمو نحو الكمـال ·

ان قوانين المنطق الاجتماعى ، نشير ، الى أن وحدة الظـروف الموضوعية ، تؤدى الى خواص نفسية مشتركة بين أبناء المجتمـع الواحد ، وان الامة ـ أية أمة ـ هى وحدة مستقرة ، تكونت تاريخيـا فى اللغة ، والارض والنفس ، وان نموها هو نتيجة لتطورها الثقـافى ولاقتصـادى ، والنفـسى ·

والاسرة النواة الاولى لبناء المجتمع ـ والكيانات الصغيرة المكونة للكيان الكبير ، الوطن ، هى فى أبعادها الاساسية تلاحم عميق ، لكل هذه المعانى ، وتماسكها وتلاحمها ، حتى تفرز فى الغاية النهائية ـ المجتمع الواحد المتوازن ·

وأمام هذه البديهيات الموضوعية ، يصبح من مستلزمات ملتقانا هذا ، الذى يضم مجموعة كبيرة من رجال الفكر الاسلامى ، الشجعان،

وفئة طيبة من شبابنا ، وشاباتنا ، رجال ونساء الغد ، ايجاد تصور عملي يقف فيه امام هذه الحالة ، ويعلن الرفض البات لها ، يـــوقف عمليات الامر الواقع الذى يمارسه بعض شبابنا ــ ويسوقون فيـــه المجتمع الى حد الاذعان لتقبـــل أخطائهم ·

ان الجدل الفكرى حـــول هذه القضية ، وغيرها من القضايـــا المصيرية التى تهدد تماسك ووحدة المجتمع ، وما يؤدى اليـــه أو يقترن به من خلافات وتمزقات حادة ، يدور فى الاغلب حول صيـــغ واشارات لا صلة لها بقيم المجتمع الاسلامى ، ومستويات أوضاعه، وهى فى أساسها دخيلة وافدة ، قد تصلح لمجتمعات أخرى ــ لانهـــا وليدة ظروفها واوضاعها ــ ولكنها غير قابلة للحياة فى مثل بلادنا ، لكنها مع الاسف الشديد عقدة النقص التى تركتنا نجرى ونلهث وراء كل غريب ، هذه العقدة التى تعانى منها كل بلادنا العربية بلا استثناء نتيجة عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية مرت بها بلادنا جميعـــا باختلاف بسيط فى النسبة فقط ·

اننا لكى نخلق ظروفا موضوعية جديدة ونوجد حقائق واضحة ، تلائم شخصيتنا أولا ، وتلائم التطور الحاصل فى العالم ثانيا يجب أن نسلط الاضواء من جديد على مبادئنا ، وافكارنا الحية ، والمتجددة دائمـــــا ·

وكيف يكون ذلك ؟

ان هذا موضوع هام ، وطويل ، يحتاج الى بحوث كثيرة ، ولقاءات متعددة على أنه يمكن القول فى ايجاز شديد :

اولا : ان الدعوة الى مبادىء وافكار الاسلام السليمة ، وتعاليمه السمحة ، أصبحت أكثر ضرورة من أى وقت مضى ، ولم يفت أوانها بعد ، على أن لا يأخذ ذلك شكل التقرير والتلقين ، بل يأخذ شكـــل وأسلوب الحوار ، والجدل ، والمقارنة ، شكل التوجيه الهادف ·

ثانيا : يجب أن نمتحـــن مبادئنـــــا دائما بمـــا هو مطـــروح من مبادىء وافكار أخرى فى عالمنـــا ·

ثالثا : يجب أن نواجه بشجاعة وجدية،الفرق بين سلامة المبادىء والافكار لدينا ، وبين أخطاء التطبيـــق ··

رابعا: ان الشباب يجب أن يحس ويعرف ما هو حقيقى وواقعى من المبادىء ، وما هو غير حقيـــقى وواقعى ·

خامسا : ان الثورة تنطوى ، أول ما تنطوى على اقتحام المستقبل ، والرغبة فى التخلص من أمراض الماضى بأقصى سرعة مستطاعة ، على أن تكون من داخل مبادئها ، وقيمها ، وذاتيتها ، وليس من مبادىء وافدة غريبة ، أو من فراغ نفسى ثقافى قاتل ·

سادسا : يجب على هذا الشباب المقبل على هذه البدعة ، (الزواج بالاجنبيات والاجانب) ان يدرك ، ادراكا عقليا ووجدانيا ، واثقا اصالته وشخصيته ، وما حققته هذه الاصالة وهذه الشخصية ، من مساهمات ايجابية ـ وأساسية فى بناء الصرح الحضارى الذى يمر فيه القرن العشرين ، حيث خاض شعبه ـ المرأة فيه كالرجل جنبا الى جنب ـ خاض ثورة جبارة رائدة كان نصيبه فيها النصر والسيادة ، فقط ، لانه كان يكافح للعقيدة والمبدأ ·

واخيرا : فان الشعور بالمسؤولية هو الذى دفعنى لتلبية دعوة كريمة شرفنى بها الاخ وزيرنا للتعليم الاصلى والشؤون الدينية ، حتى أدلى برأى ـ وانا امرأة أولا وقبل كل شىء ـ حول مشكل من أخطر المشاكل ، التى تمس بالاسرة مملكة المرأة · انه ـ مرة أخرى ـ لمن العار والظلم فى آن واحد ، ان تبقى المرأة الاصيلة بنت الوطن ، صانعة الاجيال الابطال ، على مر عصور تاريخنا الطويل ـ تبقى جاهلة منسية ، بائرة ، عرضة للانحراف والسقوط ، ورجالنا أبطالنا تزهو بهن الاجنبيات ··

قال تعالى : « **ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ، ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو اعجبتكم ، ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ، ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو اعجبكم** » ·

واخيرا وفاء منا لمبادىء ديننا ، وثورتنا ، وشهدائنا ، علينا أن ندعو جميع المفكرين ، وخاصة المشتغلين بالفكر الاسلامى أن يعطوا هذه المعضلة ، العناية ، والاهتمام اللازمين · ولست هنا فى مجال الاقتراح أو التوجيه ، ولكننى أبدى رغبة ثورية وطنية مشروعة ··· هى الخروج بخطة اعلامية ، قائمة على توصيات ثورية وطنية أولا ، منطقية موعية ثانيا ، قد تجعل عملنا ايجابيا ثوريا مثمرا ·

واشكركم جميعا على حسن الاهتمام ، واعتذر عن التقصير ·

والمجد والخلود لشهدائنا ·

منشـــورات

وزارة التعليـم الاصـلى والشؤون الدينيـــة

صـــدر:



مقارنة بين تزويج المرأة
فى الشريعة الاسلامية والقوانين الوضعية (1)

الاكحل بن حواء
محام لدى المجلس ـ الجزائر ـ



معالى السيد الوزير ،
السادة العلماء ،
أيها السادة والسيدات ،
أيها الاخوة والاخوات •

لا يسعنى فى بداية الحديث الا أن أعرب عن امتنانى وشكرى لمعالى السيد الوزير على دعوته الميمونة لنا بالمشاركة فى هذا الملتقى ، العظيم بعظمة المشاركين فيه والمشرفين عليه •

ايها السادة ، بعد السلام عليكم ورحمة الله ،

ان ما نحن بصدد الحديث عنه فى هذا الملتقى ليس من وحي الخيال أو القيل والقال ، أو مندرج ضمن خبر كان ، ولكنه مستمد من الواقع الذى يعيشه كل فرد وكل اسرة •

ذلك ان تزويج المرأة من الموضوعات الهامة الوثيقة الصلة بحياة الافراد ، أي فرد كان وفى أي مجتمع وجد ، كما انه من الموضوعات التى أحاطتها الشريعة

(1) محاضرة ألقاها فى الملتقى الحادى عشر للفكر الاسلامى بورجلان

الاسلامية بهالة من القدسية والاحترام كما أولتها التشريعات المعاصرة والقوانين الوضعية ما تستحقه من صدارة وعناية ، ويكفيه أهمية ، ان التزويج أو الزواج هو أساس الاسرة ولبنتها الاولى ٠

وألفت النظر من البداية الى أن الحديث عن تزويج المرأة بين الشريعة الاسلامية والقوانين الوضعية ، يعتبر جزءا من أصل وهو وضعية المرأة ـ ككل ـ فى الشريعة الاسلامية والقوانين الوضعية ، لان ما ذهبت اليه الشريعة الاسلامية بصدد تزويج المرأة وما تضمنته نصوصها بهذا الشأن من أحكام ، يعتبر ـ بالضرورة ـ منسجما ومستمدا من ذلك الاصل ٠ كما ان ما توصلت اليه القوانين فى مجال الاحوال الشخصية وبالاخص فى مجال تزويج المرأة يعتبر انعكاسا للوضعية التى عليها المرأة بصورة عامة ، والامثلة على ذلك كثيرة من التشريعات المعاصرة ٠

على أية حال ، فسوف اتعرض لهذا الموضوع ـ موضوع تزويج المرأة ـ من خلال أهم النصوص التى تضمنت هذا الموضوع من الكتاب ومن السنة وأحيانا من الآثار ومن المعقول ، غير متقيد بمذهب من المذاهب الفقهية بهذا الشأن ، ولا أذكر ذلك الا للتوضيح وعلى سبيل الاستطراد ، لان الحديث عن هذا الموضوع من خلال مذهب معين يضطرنا للحديث عن ولاية الاجبار وولاية الاختيار وولاية الاستحباب ، ولمن تثبت وعلى من تثبت هذه الولاية أو تلك وما يتفرع عنها من الحديث عن تزويج الصغار وتزويج المجنون والمعتوه وغير ذلك ٠

وذلك رغبة منا فى حصر الموضوع ، واحتراما للوقت المحدد لكل كلمة تلقى فى هذا الملتقى ومع ذلك ، فالعموم باق والحصر غير كاف ، ولهذا فان كلمتى هذه ستتركز حول تزويج المرأة البالغة العاقلة بكرا كانت أم ثيبا فقط ٠

ايها السادة والسيدات ،

انه ليتضح لدى اعداد هذا الموضوع ودراسة النصوص التى تمثلت ببيانه ، ان هذه النصوص منها ما يفيد صراحة وضمنا :

ـ ما يفيد ويفهم منه صراحة وضمنا ، انه لا يجوز للمرأة ان تزوج نفسها بنفسها وان ذلك يتوقف على اذن وليها ٠

ـ منها ما يفيد صراحة وضمنا انه يجوز للمرأة ان تزوج نفسها من اذن وليها ٠

ـ ومنها ما يفهم صراحة وضمنا ، انه يجوز للمرأة ان تزوج نفسها ، ولكن لابد من مشاركة واذن وليها ثم بعد ذلك ، لها الحق فى ان تتولى عقد زواجها بنفسها

وبعبارة أخرى ان هناك ثلاثة آراء بشأن تزويج المرأة البالغة العاقلة بكرا كانت أو ثيبـــا :

ـ رأي يقول بعدم جواز المرأة تزويج نفسها بدون وليها وبه قال الجمهور ٠

ـ الرأي الثانى ، يقول انه يجوز للمرأة ان تزوج نفسها بمن تشــاء بدون اذن وليها ، وقال بهذا الرأي الاحناف ٠

ـ الرأي الثالث ، يقول بأنه يجوز للمرأة أن تزوج نفسها ولكن لابد من مشاركة وليها لها فى ذلك ، وهو مذهب ابن أبى شبرمة وأبى ثور الشافعية وجماعته ٠

فما هي هذه الادلة ، أو ما هي أدلة كل فريق وكيفية استنباط الاحكام منها ، ذلك ما سنبينه بشيء من التوضيح والبيان تاركين تفصيل ذلك الى المناقشة والى ما قــد يطرح بشأنها من استفسار أو تعقيب ٠

فمن أدلة الرأي القائل بعدم جواز المرأة تزويج نفسها بغير اذن وليها ، نذكر ما يلى :

ـ من الكتاب الكريم ، قوله تعالى : « **فاذا بلغن أجلهن فلا تعضلوهن ان ينكحن أزواجهن اذا تراضوا بينهم بالمعروف** » (1) ٠

وهذا الدليل أو بالاحرى هذه الآية كما استدل بها الفريق القائل بعدم جواز تزويج المرأة نفسها قال به كذلك الفريق القائل بجواز تزويج المرأة نفسها ، فما هي أوجـــه الاستــدلال بالنسبة للفــريق الاول :

ـ ان ذلك يكــون من عــدة وجـــوه :

1) سبب النزول : فقد نزلت هذه الآية بشأن شخص منع اخته من الزواج عضلا وهو معقل بن يسار كانت أخته تحت أبى البذاخ فطلقها هذا الاخير وتركها حتى انقضت عدتها ثم ندم على هذا الطلاق فخطبها مرة ثانية وابى أخوه ان يزوجها منه وقال : وجهي من وجهك حرام ان تزوجته فنزلت هذه الآية ، فدعا النبى عليه الصلاة والسلام معقلا فقال له : ان كنت مؤمنا فــلا تمنــع أختك عن ابى البذاخ فقال : آمنت باللـــه وزوجتهـــا منـــه (2) ٠

فهذه الآية تبين لنا مدى سلطة الولى على المولى عليها فى التزويج حتى ولو كانت ثيبا وحتى لو لم يكن أبا ، فان المولى عليها فى هذه الحادثة كانت ثيبا والولى كـان

(1) الآية 231 ـ سورة البقــرة ٠
(2) ص 666 أحكام القرآن للقرطبى ج 2 ٠

أخا ، ومع ذلك بينت ان له (للولى) سلطة فى تزويج المولى عليها ، لانه لو لم تثبت له هذه السلطة لما استدعاه النبى عليه الصلاة والسلام وطلب منه ألا يمنع أخته عن الزواج ، ولابطل فعله من أول وهلة واذن لها بالتصرف فى نفسها فتتزوج بمن تشاء ، خاصة وان هذه الحادثة كانت تقتضى بيان حكم ·

2) اسناد المنع الى الاولياء فى قوله (ولا تعضلوهن) ، والعضل معناه الحبس والتضييق ، وكلا المعنيين وارد ومحتمل ، فلما نهى الله تبارك وتعالى الاولياء عن منع المولى عليها من التزويج أو التضييق عليها فى ذلك · دل ذلك على ان لهم (الاولياء) حقا فيما نهوا عنه (3) ·

وبهذا الخصوص ، نشير الى ما جاء فى كتاب الام ، للشافعى تحت عنوان : « باب ما على الاولياء » ، قال الامام الشافعى فدل كتاب الله عز وجل وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام على انه حقا على الاولياء ان يزوجوا الحرائر البوالغ اذا أردن النكاح ودعون الى رضا ، قال تعالى : (**واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن ان ينكحن أزواجهن اذا تراضوا بينهم بالمعروف**) ، وقال هذه أبين آية فى كتاب الله تعالى دلالة على أن ليس للمرأة أن تتزوج بغير ولى (4) ·

الدليل الثانى من الكتاب الكريم ، قوله تعالى : « **ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم** » (5) ·

ووجه الاستدلال بهذه الآية على ان المرأة ليس لها أن تزوج نفسها ، هو ان الخطاب فيها موجه الى الاولياء فنهاهم عن ان ينكحوا المولى عليها من المشركين لما فى ذلك من الضرر والغضاضة على المسلمة ، ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ·

وقد جاء فى أحكام القرآن للقرطبى لدى هذه الآية ما يلى : فى هذه الآية دليل بالنص على أن لا نكاح الا بولى وقال محمد بن على بن الحسين ، النكاح بولى فى كتاب الله ، ثم قرأ ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا (6) ·

وهناك نصوص أخرى كثيرة من الكتاب الكريم قد نتعرض لها لدى المناقشة والتعقيب ·

---

(3) ص 100 الجصاص ج 2 ·
(4) ص 163 الام للشافعى ج 2 ، وسبل السلام ج3 لدى شرح لا تزوج المرأة ·
(5) الآية 220 سورة البقرة ·
(6) ص 880 « أحكام القرآن » للقرطبى ج 3 ·

أما أدلة هذا الفريق من السنة فنكتفى بذكر حديثين اثنين :

ـ قوله عليه الصلاة والسلام : « لا نكاح الا بولى » (7) ·

ووجه الاستدلال بهذا الحديث واضح فالحديث صريح فى نفي الصحة عن النكاح الخالى من الولى (لان الاصل فى النفي نفي الصحة لا الكمال) (8) · وقد روى هذا الحديث عن عمـر بن الخطاب رضي اللـه عنه وعلى بن أبـى طالب وابن مسعـود وغيرهم (9) · ولهذا فقد حكى عن ابن المنذر انه لا يعرف خلاف ذلك عن أحد مـن الصحابة ، وعليه دلت الاحاديث ·

الدليل الثانى من السنة ما روى عن عائشة رضي الله عنها انها قالت : قـال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ايما امرأة انكحت نفسها بغير اذن وليها فنكاحها باطل باطل وان دخـل بها فلها المهـر بما استحل من فرجها لا وكس ولا شطط فان تشاجروا فالسلطان ولى من لا ولى له (10) ·

ووجه الاستدلال بهذا الحديث على ضرورة وجود الولى فى النكاح وانه لا يجب للمرأة أن تزوج نفسها بدون وليها ، ظاهر من النص والتصريح على بطلان نكـاح المرأة من غير وليها · وقد يفهم من هذا الحديث انه اذا اذن لها وليها جاز لها أن تعقـد عـلى نفسهـا ·

أما دليل الفريق من الآثار فنكتفى بالاشارة الى ما روى عن عمر بن الخطـاب رضي الله عنه من أنه فرق بين رجل وامرأة زوجها غير ولى وقال : « لا تتزوج المرأة الا بـولـى » ·

الى جانب هذه الادلة هناك أدلة كثيرة لا تحصى عدا من الكتاب ومن السنة ومن الآثار ومن العرف والعادة ومن المعقول ، قد نتعرض لذكر بعضها لدى المناقشة والتعقيب

فما هي أدلة الفريق القائل بجواز تزويج المرأة نفسها من غير اذن وليها ؟

فادلتهم من الكتاب الكريم قوله تعالى : (**فاذا بلغن أجلهن فلا تعضوهن ان ينكحن أزواجهن اذا تراضوا بينهم بالمعروف**) ·

---

(7) ص 177 سبـل السـلام ·

(8) مثل ابن مسعود وابن عباس وأبى هريرة و ···

(9) ص 117 سبل السلام لدى شرح هذا الحديث ·

(10) ص 118 سبل السلام ـ ج 3/باب النكاح ·

ولقد استدل بهذه الآية الفريق القائل بعدم جواز تزويج المرأة نفسها ، ونذكر الآية كدليل للفريق القائل بجواز تزويج المرأة نفسها الامر الذى يستفاد منه انه فى الآيـــة الواحدة النص الواحد يمكن ان يتسنبط منه أحكام مختلفة وأشياء كثيرة ، وهذا الامر قد يجرنا الى الحديث عن سبب اختلاف الفقهاء فيما ورد فيه نص .

وعلى أية حالة ، والمهم هنا ، هو ان نتعرف على أوجه الاستدلال بهذه الآية عــلى عدم ضرورة وجود الولى فى النكاح ، ان ذلك ثابت من عدة وجوه :

1) ان هذه الآية أضافت العقد الى المرأة حيث قالت : ينكحن من غير شرط اذن الولى

2) نهي الاولياء عن العضل ، ومنع المولى عليها من التزويج اذا زوجت نفسها ، واعتبرت الآية هذا المنع ، ظلما يجب رفعه ووضع حد له ، لان هذا المنع ليس وليـــد الولاية على النفس ومن ضمنها ولاية التزويج وانما هو منع بالقهر والقوة مثل ما كان الشأن فى الجاهلية لدى العــرب .

وبهذا الصدد ، نشير الى ما جاء فى أحكام القرآن للجصاص فى باب النكاح بغير ولى ما يلى : فان قيل ان الولى يملك منعها من النكاح لما نهاه عنه كما ينهى الاجنبى ، الذى لا ولاية له عنه قيل له هذا غلط لان النهي يمنع أن يكون له حق فيما نهي عنه فكيف يستدل به على اثبات الحق ، وأيضا فان الــولى يمكنه ان يمنعها مــن الخروج والمراسلة فجائز ان يكون النهي عن العضل منصرفا الى هذا الضرب من المنع .. كما لو نهي عن الربا والعقود الفاسدة لم يكن له حق فيما نهي عنه .

وقد علق صاحب « بداية المجتهد » على هذه الآية باعتبارها دليلا وحجة الفــريق القائــل بعــدم ضرورة وجــود الولى فى النكــاح بقولــه : فليس فيهــا أكثـر مــن نهي قرابة المرأة وعصبتها ان يمنعوها من النكاح وليس نهيهم عن العضل مما يفهم منه اشتراط اذنهم فى صحة العقد لا حقيقة ولا مجازا اعنى بأي وجه من أوجه الخطاب الظاهرة أو النص بل قد يفهم منه ضد هذا وهو ان الاولياء ليس لهم سبيل على مـــن يــولــونهـــم (11) .

وأجاب أصحاب هذا الفريق على الآيــة الاخرى التى استدل بها الفــريق القائل بضرورة وجود الولى فى النكاح بعدة أجوبة ، قد نتعرض لبيانها أثناء مرحلة المناقشة والتعقيـــب .

---

(11) ص 10 بداية المجتهـد ج 2 .

الدليل الثانى الذى استدل به الفريق القائل بعدم ضرورة وجود الولى فى الزواج هو قوله تعالى : « **فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره** » (I2) ٠

ووجه الاستدلال بهاته الآية على جواز تزويج المرأة نفسها هو :

I) انها أضفت النكاح الى المـرأة ٠

2) نسب التراجع اليهما معا من غير ذكر ولى (I3) ٠

هذه بعض أدلتهم من الكتـاب ٠

أما أدلتهم من السنة فنكتفى بذكر حديثين اثنين كما فعلنا مع الفريق الاول :

أولا : قوله عليه الصلاة والسلام : « الايم أحق بنفسها من وليها والبكر تستامر واذنهـا سكـوتهـا » ٠

والايم ، اسم للمرأة التى لا زوج لها بكرا كانت أو ثيبا وهذا هو الصحيح عند أهل اللغة وهـو اختبـر الكرخى حيـث قـال : الايم من النساء كالاعزب من الرجال بخلاف ما ذكره محمد من ان الايم اسم للثيب ، فالاستدلال بهذا الحديث واضح فى عـــدم اشتراط الولى فى الزواج وان للمرأة ان تزوج نفسها من غير ولى ٠

ثانيا : حديث ابن عباس رضي الله عنهما من أن جارية بكـرا أتت النبـي عليه الصلاة والسلام فذكرت ان أباها زوجها من ابن أخ له وهي كارهة فخيرها رسول الله صلى الله عليه وسلم (I4) ٠

ووجه الاستدلال بهذا الحديث على عدم اشتراط الولى فى الزواج وبالتالى القول بجواز تزويج المرأة نفسها من غير ولى يتمثل فى تخييره عليه الصلاة والسلام للفتاة البكر التى جاءت تستفسره عن تزويج أبيها لها وهي كارهة فخيرها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيدل ذلك على عدم اشتراط الولى فى النكاح ٠

وحمل الجمهور هذا الحديث على انها زوجت نفسها من غير كفء ويرفع بهـا خسيسته ولهذا ثبت لها الخيار ، كما أجيب عن هذا الحديث من جهة أخرى ، بأنـه يعتبر واقعة عين فلا يثبت الحكم بها تعميما (I5) ٠

(I2) الآية 229 سورة البقـرة ٠

(I3) ص I0I أحكام القرآن للجصاص فى باب النكاح لدى قوله تعالى : « **واذا طلقتـم النسـاء ...** » ٠

(I4) ص I22 سبل السلام ج 3 لدى الحديث I7 من باب النكاح ٠

(I5) ص I22 سبل السـلام ج 3 ٠

وفى أعتقادى ان هناك سندا آخر يدعم ما ذهب اليه الجمهور وهو أن التخيير فى حديث ابن عباس الآنف الذكر انما كان فى القبول أو عدم القبول بهذا الزواج لسبب من الاسباب وهذا لا ينافى ضرورة اشتراط الولى فى النكاح ..

وكما أجاب الجمهور عن الادلة التى اعتمد عليها الاحناف بعدة أجوبة وخرجوها تخريجات تتلاءم وذهبهم ، فان هؤلاء (الاحناف) بدورهم قد أجابوا عن الادلة التى اعتمد عليها الجمهور فى تأييد وجهة نظرهم وما ذهبوا اليه من استنتاجات .

اما أيها أرجح فى نظرنا وأيها يجدر التمسك به أو ترجيحه والاخذ به والاعتماد عليه فذلك ما سنتعرض له بعد حين ، وذلك بعد ان نتعرض لثمرة الخلاف بين ما ذهب اليه الجمهور من جهة وما ذهب اليه الاحناف من جهة ثانية .

ان لهذا الخلاف ثمرته من الناحية العملية تتمثل فيما يلى :

- الرأي القائل بضرورة اشتراط الولى وهو مذهب الجمهور يؤدى الى القول بأنه لا يجوز للمرأة ان تزوج نفسها أو غيرها .
- اما الرأي القائل بعدم ضرورة اشتراط الولى ، فيجوز فى ظله للمرأة أن تزوج نفسها أو غيرها .

وكمثال على ذلك ، نذكر بعض التطبيقات العملية فى الفقه . بالنسبة لما ذهب اليه الجمهور نكتفى بالمثال التالى من الفقه المالكى ، من المدونة الكبرى للامام مالك حيث جاء فى باب التزويج من غير ولى ما يلى : « أرأيت لو ان امرأة زوجت نفسها ولم تستخلف عليها من يزوجها فزوجت نفسها بغير أمر الولى وهي ممن لا خطب لها أو هي ممن لها الخطب ، قال مالك : لا يقر هذا النكاح أبدا على حال وان تطاول وولدت منه أولادا لانها هي التى عقدت عقدة النكاح فلا يجوز ذلك على حال . وقال ابن القاسم ويدرأ الحد (16) ، وعلى غرار هذا النموذج من الفقه المالكى ، توجد نماذج كثيرة فى الفقه الشافعى والحنبلى .

اما الامثلة بالنسبة للفقه الحنفى فكثيرة أيضا ، نكتفى منها بذكر المثال التالى :

سئل بشأن زواج بكر بالغة عاقلة بدون اذن وليها من كفء لها بمهر مثلها فهل يجوز ذلك وينفذ النكاح ؟ الجواب نعم ينفذ النكاح المذكور فى هذه الصورة .

---

(16) ص 179 المدونة الكبرى للامام مالك ج 2 .
ص 63 الفتاوى المهدية باب النكاح .

أيهـــا الســـادة :

بعد أن تعرضنا لما ذهب اليه الجمهور وما ذهب اليه الاحناف بما نحـــن بصدد الحديث عنه يتعين علينا أن نتعرض لمـذهب أبى ثور من الشافعية وجماعته ، ومفاد هذا الرأي ان الولى اشراك المرأة البالغة العاقلة فى اختيار وليها ، وبعد ذلك ، للمرأة أن تتولى عقد زواجها بنفسها .

وهكذا نرى ان هذا المذهب يتلاقى مع كل من المذهبين : الجمهور من ناحية مشاركة الولى للمرأة فى اختيار زوجها ، والاحناف من ناحية القول والتقرير بصلاحية تـولى المرأة تزويج نفسها وعقد زواجها بصيغتها .

حجـة أصحاب هذا الـرأي :

تقوم حجة هذا الفريق من الفقهاء على ان الادلة التى تظافرت بصدد انشاء عقـد الزواج تدل على ضرورة مراعاة اشراك الولى فى الاختيار صراحة فقط ، وهذا أمـر لا مجال لانكاره ، ولم ترد هذه النصوص بقصد التنصيص ـ صراحة ـ على ان عبارة المرأة لا تصلح لانشاء عقد الزواج كما أدى الى ما ذهب اليه الجمهور ، بدليل الحديث الصريح فقد قال النبي عليه الصلاة والسلام : « ايما امرأة انكحت نفسها بغير اذن وليهـا فنكـاحها باطـــل » .

فظاهر ومفاد هذا النص ان سبب بطلان عقد الزواج فى مثل هذه الحالة انما هو عقد زواجها بغير اذن وليها لان صيغتها لا تصلح لانشاء عقد الزواج .

كما ان النصوص التى أشرنا الى بعضها سواء من الكتاب أو من السنة تدل على ذلك حيث انها اضافت مرة النكاح الى المرأة ومرة أخرى الى وليها ، وليس هناك مـــا يدل على ترجيح أحد الامرين على الآخر بصورة عامة . وحيث لا دليل مرجح فلا مانع .

ويستأنس أصحاب هذا الرأي بأن الاساس فى هذا المجال هو رضى الولى فاذا وجد هذا الرضى فانه يندر ان تتولى المرأة صيغة عقد زواجها اما عرفا وعادة واما حيـاء وخجلا ، وانما يتصور تولى المرأة صيغة عقد الزواج وانشاءه فى حالة ما اذا اقدمت على الزواج من غير رضى وليها .

ثم ان التمسك بهذا الرأي يفند النظرية القائلة بعدم الاعتداد بقول المرأة فى انشاء عقد زواجها . وقد هجرت التشريعات المعاصرة هذه النظرية لما فيها من غلو وتحكـم وضرر بالمرأة ، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول : « لا ضرر ولا ضرار فى الاسلام » .

ويدعم هذا الرأي الدليل العقلى التالى : وهو ان نقيس حق ولاية الفتاة على نفسها لدى التزويج بمجرد بلوغها على حق ولايتها فى التصرف فى مـالها بمفردها بمجرد بلوغها ولابن القيم فى هذا المعنى كلام قيم نذكره فيما يلى :

ان البكر البالغة العاقلة الرشيدة لا يتصرف أبوها فى أقـل شىء من ملكهـا الا برضاها ولا يجبرها على اخراج اليسير منه بدون رضاها فكيف يجوز ان يزفها بغير رضاها الى من يريد وهي اكره الناس له وهو أبغض شيء اليها ومع هذا ينكحها اياه قهـرا ويجعلها أسـيرة عنده (17) ·

مع ملاحظة ان أهم الاسباب التى جعلت التابعين والفقهاء يقولون بعدم الاعتداد بقول المرأة لدى التزويج قد تغيرت فالمرأة لم تعد رهينة بيتها الى ان تزف لزوجها مـن غير ان تعرف شيئا عن الرجال وطبيعتهم · انها أصبحت تعمل الى جانب الرجل فى الجامعات والادارات والمحاماة ، وفى مثل هذه الملتقيات والندوات وحتى فى المصانع وفى سائر مجالات النشاط وبالاخص التربوية منها والثقافية ·

وفى تقديرى الذى أتيح لمن كان يقول بعدم الاعتداد بقول المرأة فى عقد زواجها ، ان يعيش عصرنا اليوم ويرى مدى مساهمة المرأة فى مختلف مجالات العمل ومـدى احتكاكها بالرجل ومعرفتها الشيء الكثير من أسرارهم فلم يعد الرجال بالنسبة اليهـا صناديق مغلقة لا يعرف بداخلها الا الرجال ، ـ لقال هذا الفريق بمثل ما ذكرناه هنـا وبما يتفق مع هذا المذهب ، لان الامر ـ والحالة هذه ـ لا يتعلق بمسألة ما وانما حتى يحجم عن الخوض فيه ثم ان مبنى الشريعة وأساسها على الحكم ومصالح العباد فى المعاش والمعاد ، وهي عدل كلها ورحمة كلها ومصالح كلها وحكمة كلها ، فكل مسـألة خرجت عن العدل الى الجور وعن الرحمة الى ضدها وعن المصلحة الى المفسدة وعن الحكمة الى العبث فليست من الشريعة ولا أدخلت فيها بالتأويل (18) ·

وبالاخذ بهذا المذهب ـ الوسط بين المذهبين مذهب الجمهور ومدهب الاحناف ـ يتبين بصورة جلية ان الخلاف بين هذين المذهبين ليس هو الباعث على وجود ضرورة الولي لدى تزويج المولى عليها وانما الخلاف فى مدى تأثير هذا الباعث على حـرية المرأة فى اختيار زوجها وشريك حياتها ·

(17) ص 116 من كتاب الولاية على النفس ·
(18) ص 27 اعلام الموقعين ج 3 ـ الفقه الاسلامى فى ثوبه الجديد للاستاذ مصطفى الزرقاء ج 2 ص 939 ·

فالجمهور يرى ان الباعث يؤدى الى تقييد حرية المرأة فى الاختيار ابتداء ، لما لزواج المرأة من غير ما تثير انعكاسات تعود على أسرتها فتكسبها فخارا وسمعة ان تزوجت بكفء ومهر مثل ، أو تكسبها شنارا وعارا ان تزوجت بغير ذلك ٠

وحتى لا يقع هذا المحذور وهذه النتيجة السيئة والسلبية رأى الجمهور أن يكون الولى شريكا للمرأة فى اختيار زوجها ٠

اما الاحناف فيرون ان الباعث لا يؤدى الى تقييد حرية المرأة ابتداء لانه ليس من المؤكد ان تتزوج بغير وبدون مهر مثل ، وليس من المؤكد ان تتوفق فى اختيار زوجها وشريك حياتها ٠ وحيث ان هذه النتيجة قد تقع وقد لا تقع ، وحيث ان تقييد المرأة فى حد ذاته يعتبر ظلما من جهة أخرى ٠ وجب القول برفع الظلم وبعدم تقييد حرية المرأة فى الاختيار ٠ ويبقى لوليها – على سبيل الاحتياط – فسخ العقد ان تزوجت بغير كفء على بعض روايات فى المذهب ، وفى بعضها الآخر ، له (للولى) حق الاعتراض ٠

ولهذه النتيجة ، فان أبا حنيفة يقول بانه يستحب للمرأة ان تشرك وليها فى اختيار زوجها ٠

وما ذهب اليه الاحناف من عدم تقييد حرية المرأة فى اختيار زوجها وشريك حياتها ، من شانه ان يلقى على المرأة عبئا كبيرا ويحملها مسؤولية عظمى فهي ملزمة بالبحث والاستفسار وتقصى أخبار وأحوال من قد تتزوج به ، والا كان زواجها – فى ظل هذا المذهب – عرضة أو الاعتراض عليه من قبل وليها ٠

وهكذا نرى ان المذهبين (مذهب الاحناف ومذهب الجمهور يلتقيان من حيث المبدأ وان اختلفا من حيث المبدأ ٠

وبالنظر لهذا التكييف أو التخريج المختلف بين الجمهور من ناحية ، وبين الاحناف من ناحية ثانية ، فان الاحناف يسمون الولاية فى هذه الحالة ، ولاية الاستحباب ، بينما الجمهور يسمونها ولاية الاختيار (19) ٠ اما الفرق بين ولاية الاختيار وولاية الاستحباب فليس مجاله هنا ٠

ايها السادة ،

اذا اتضح وثبت فى ظل مذهب الاحناف تزويج المرأة نفسها مقيد بقيدين ، ان تتزوج بكفء وبمهر مثل ، فانه يجب التنويه والذكر الى ان القول بضرورة وجود الولى ، أو

(19) ص 64 رسالتى الجامعية نظرية الولاية فى الزواج ٠٠٠ ص 298 السولى على التحقة ٠

بالاحرى الى عدم تزويج المرأة نفسها ، حتى فى حالة القول ، ولاية الاجبار ان هـذا القول مقيد بتوافر مصلحة المولى عليها ·

ويستنتج هذا التقييد والتخريج من آراء فقهاء المذهب من جهة ومن المبادىء العامة والقواعد الكلية فى الشريعة الاسلامية من جهـة ثانية ، ومـن ضرورة مراعاة تغيير ظروف وأوضاع الحياة الاجتماعية داخل كل أسرة تبعا لتطور هذه الاوضاع ·

اما سند هذا التقييد من آراء بعض فقهاء المذهب ، فنشير الى ما يلى :

1 ـ ما جـاء فى تحفـة ابن عـاصم :

والاب ان زوجهـا مـن عبـد   فهـو متـى اجبـر ذو تعـد

ولدى شرح هذا البيت والتعليق عليه نقل عن سحنون فى السليمانية ما يلى :

اذا أراد الاب أن يزوج ابنته مجنونا أو مجذوما أو أسود أو من ليس بكفء وابت البنت ذلك كان للسلطان منعه لان فى ذلك ضرر · يعنى أن الاب وان كان له جبـر ابنته البكر فانما ذلك فيما لا ضرر فيه ولا معرة ، اما ما فيه ذلك فلا يجبرها عليه ، فان جبرها فهو متعد ولا عبرة بجبره · وقد انتقد البعض صاحب متن العاصمية على عدم ادخال الكاف على (عبد) فى البيت اذ لو ادخل الكاف على (عبد) ليشمـل غيـره لكان احسـن واشمـل ·

2 ـ ما جاء فى المدونة الكبرى للامام مالك تحت عنوان : (فى انكاح الاب ابنتـه البكر والثيب) ما يفيد أن اجبار الاب ابنته على التزويج وانفراده بذلك منوط بتـوفر المصلحة ومرهون بنفي الضرر عن المولى عليها ، يستفاد هذا من الحادثة التـالية كما وردت فى المدونة : « سألت مالكا امرأة ولها ابنة فى حجرها وقد طلق الام زوجها عن ابنة له منها فأراد الاب أن يزوجها من ابن أخ له فأتت بالام مالكا فقالت له : ان لي بنتا وهي موسرة مرغوب فيها وقد أصدقت صداقا كثيرا فأراد أبوها أن يزوجها من ابن أخ له معدما لا شيء له ، أفترى لي أن أتكلم قال نعم ، انى أرى لك فى ذلك متكلما · قال ابن القاسم فأرى أن انكاح الاب اياها جائز عليها الا أن ياتى من ذلك ضرر فيمنع من ذلك · والذى أود استنتاجه ولفت النظر اليه من هذه الحادثة أمران :

ـ الامر الاول : اناطة جواز تزويج الاب بنته البكر بنفى الضرر عنها ، وقـد جاء لفظ الضرر نكرة ومطلقا فيشمل كافة أنواع الضرر المادى والمعنوى ·

ـ الامر الثانى : جواز ،.واذن الامـام مالك لـلام بالتدخل ومشاركة الاب فى تـزويج ابنتـه البكـر ٠

وقد تكون هذه الحادثة مستمدة أو مقيسة على حادثة الفتاة التى ذهبت الى النبي عليه الصلاة والسلام عندما زوجها أبوها من ابن أخ له وهي كارهة ٠

ولا شك ان الضرر الذى يجب توقيه ورفعه فى هذا المجال مندرج تحت قوله عليه الصلاة والسلام : « لا ضرر ولا ضرار فى الاسلام » ٠ وهذا الحديث يعتبر قاعـدة عامة يجرى بها تقييد جميع المطلقات وتخصيص جميع العموميات ٠

ثم أنَّ هذا المذهب الذى نتبناه ونميل اليه هو الذى يتفـق وطبيعة الزواج فى الشريعة الاسلامية ، كما يتفق ونظرة الشريعة الاسلامية للزواج ٠

فالمرأة لا تفقد شخصيتها بمجرد زواجها بل تظـل محتفظة بشخصيتها وبلقبها ، وتتصرف فى أموالها بملء حريتها ، سواء بعوض أو بدون عوض ، كما ان ذمتهـا المالية مستقلة عن ذمة زوجها فلها ان تنشىء ما تريد من الالتزامات والعقود ، قال تعالى : « **للرجال نصيب مما ترك الوالدان والاقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون مما قل منه أو كثر** » ، وقال فى آية أخرى أيضا : « **للرجال نصيـب ممـا اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن** » ٠

فالمرأة فى ظل هذا المذهب أو هذه النظرية ان صـح التعبـير ، ذلك الانسان المؤنث يتأثر بكل ما حوله سلبا وايجابا ، ويقوم بدور أساسى وفعال فى المجتمع الذى يمثـل نصفه لا يقل أهمية وخطورة عن الدور الذى يقوم به شقيقه الرجل ، قال عليه الصلاة والسلام : (النساء شقائق الرجال) ٠

فالزواج فى ظل هذه النظرية ليس محبة فقط وليس تحقيق رغبة فحسب ولكنـه فوق ذلك وقبله تكوين أسرة تسودها المحبة والتفاهم والانسجام التام بين الطرفين وميل كل منهما الى الآخر عملا بقوله تعالى : « **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجـا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة** » ٠ وحث احدهما على الصبر على الآخر من عيوب أو اضرّار ، وهنا تحضرنى الحادثة التالية التى وقعت فى عهد عمر بن الخطاب عندما جاءه شخص يستشيره أو يستفسره عن طلاق زوجته ، فسأله عمـر لماذا ؟ ، فقال السائل : انني لا أحبها ، ترى ماذا كان جواب عمر له ، انه أجابه بقوله : أو تبنى البيوت الا للحب ، فأين الرعاية وأين التذمم ؟ ، بمعنى أين المسؤولية العائلية ، وأين رعاية الاسرة ، (كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته) ٠

وقولة عمر هاته ـ أيها السادة والسيدات ـ كما تنطبق على الرجل تنطبق على المرأة من باب لا فرق ٠

وقد يكون المصدر الاساسى لقولة عمر هاته قول النبي عليه الصلاة والسلام . (لا يفرق مؤمن مؤمنة ، ان كره منها خلقا رضي منها آخر) ٠

ولا شك ان احساسنا مشترك بمدى الحاجة الى توافر وتواجد ما نص عليه هذا الحديث وما تضمنته قولة عمر تلك ؛ بين ركني كل أسرة بين الرجل والمرأة فى وقتنا هذا ، لان فقدانها قد أدى الى تفريق شمل كثير من الاسر وتيتيم أطفال ٠

ولكي نتجنب ذلك أو على الاقل ، التقليل منه ، يتعين القول باشراك كل من الآباء أو الاولياء ، وبين المولى عليهن لدى تزويجهن ، وتبادل الرأي بينهما بشأن زواجها ٠ يتجلى ذلك أيضا من المعيار الاساسى الذى بمقتضاه وعلى ضوئه تختار المرأة شريك حياتها ويختار الرجل شريكة حياته على ضوئه وبمقتضاه كذلك ٠

انه ليس معيار المال والجمال ؟ وليس معيار الحسب والنسب ، ولا معيار المنصب الرفيع أو الجاه العريض ، ولكنه صفة التدين والخلق الرفيع ، شيئان فى ذلك ، الانسان المؤنث أم الانسان المذكر ، قال عليه الصلاة والسلام : (اذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه الا تفعلوا تكن فتنة فى الارض وفساد كبير) ٠ وما الفساد المنتشر فى هذا المجال الا نتيجة عدم مراعاة الاخذ بهذا المعيار ، وقوله عليه الصلاة والسلام أيضا : (تنكح المرأة لمالها ولجمالها ولحسبها ولنسبها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك) ٠

والشريعة الاسلامية اذا ركزت على هذا الجانب ، جانب التدين والخلق الرفيع بكل ما فى الكلمة من معنى ، فذلك حرصا منها على ايجاد الثقة بين ركنى الاسرة ، الرجل والمرأة ، من جهة ومن جهة أخرى حرصا منها على تبادل الرأي والمشورة بين الولى والمولى عليها ٠

وتحميل المرأة مسؤوليتها أثناء الحياة الزوجية ، ناتج فعلها الارادى وعن اختيارها الواعى لشريك حياتها لدى تزويجها ، مثل فعل واختيار شقيقها الرجل سواء بسواء ، والخطاب اذا ورد موجها الى الانسان المذكر ، فى غالب الاحيان فانما ذلك من باب التغليب ليس الا ، يستنتج هذا التفسير من قوله تعالى : « **والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات** » فمن هذه المقابلة يتضح ان لكل من الطرفين (الرجل والمرأة) ان

يختار شريك حياته بملء حريته واختياره خاصة وان هذا العقد ـ عقد الزواج ـ يمتاز عن العقود الاخرى بأنه عقد عمرى مدى الحياة ·

ثم ان القول باعتبار المرأة مسؤولة عن فعلها واختيارها لدى التزويج يؤدى الى ان نتجنب أكبر عامل من عوامل الطلاق وهو تدخل أهلها فى شؤونها الخاصة ومع زوجها · ذلك ان كثيرا من القضايا المتعلقة بالطلاق والمعروضة على المحاكم ، سببها تدخل أهل أحد الزوجين · والذى يعنينا هنا تدخل أهل الزوجة فى شؤونها الخاصة مع زوجها ، مستغلين ذلك (أي هؤلاء الاهل) بدءا بتزويجها بمن أحبوا وتسيير شؤونها كما أرادوا أثناء فترة زواجها ولو أدى ذلك الى الطلاق · وليتأكد اخوانى الطلبة والطالبات البعيدين عن الحياة العملية بحكم مرحلتهم الدراسية من ذلك ·

واعتبار المرأة مسؤولة لا يقتصر على الفترة لدى تزويجها أو بعدها ولكن هذه المسؤولية وهذا الفعل الاختيارى الواعى ، والنظر الى ما تريد بعين الاعتبار ، بل يمتد كل هذا حتى نهاية فترة التزويج اذا اقتضت الضرورة ذلك يتمثل هذا فى جواز طلبها الطلاق عن طريق العدالة ان توفرت أسباب ذلك وتحققت ·

أيها السادة ، هذا باختصار شديد ولكنه ـ فيما اعتقد ـ يفيد ، وجهة نظر الشريعة الاسلامية لتزويج المرأة · أما تزويج المرأة على ضوء ما ذهبت اليه القوانين ، فالذى اتضح لى منذ سنتين لدى اعداد ودراسة هذا الموضوع ، ان هذه القوانين وخاصة فى بعض البلاد العربية ، قد اتفقت على القول بولاية الاختيار خلال فترة معينة وبعدها ترتفع هذه الولاية ويبقى للمرأة الحرية المطلقة فى تزويج نفسها بمن تشاء ، غير عابئة بارادة أهلها ولا بما قد يحدثه زواجها هذا من تأثير وانعكاسات على عائلتها · المادة   من المشروع الجزائرى ·

كما اتفقت على القول بنفي ولاية الاجبار ما عدا القانون السودانى باطلاق وما عدا المدونة المغربية فى صورتين ، والذى يهمنا هنا ، هو ان نقف قليلا عما ذهب اليه المشروع الجزائرى بهذا الشأن فنقول :

يتضح من خلال النصوص المتعلقة بتنظيم عقد الزواج والمطبقة حاليا ، أمران اثنان :

- الامر الاول : القول بعدم ضرورة وجود الولى لدى التزويج بعد مرحلة الترشيد ، وبهذا يتضح الرد على من قال ويقول ان المطبق فى الجزائر فى هذا المجال هو المذهب المالكى ·

ـ الامر الثاني : قسم الاشخاص المراد تزويجهم الى ثلاثة أصناف أو الى ثلاثة مراحل :

ـ مرحلة الصغر ، أو مرحلة ما قبل أهلية الزواج ·

ـ مرحلة أهلية الزواج ·

ـ مرحلة الترشيد ·

وسيان فى كل مرحلة من هذه المراحل الثلاثة ، الفتى أو الفتاة ، الرجل أو المرأة ،

وبما ان ما تضمنته وتتضمنه كل مرحلة من هذه المراحل ، يعتبر مشمولا كليا أو جزئيا لما تضمنته نصوص الشريعة الاسلامية الآنفة الذكر ، فاننا نتحدث عن كل منها فيما يلى :

أولا : مرحلة الصغر او مرحلة ما قبل اهلية الزواج : تستمر هذه المرحلة بالنسبة للفتى حتى 18 سنة ، وبالنسبة للفتاة حتى 16 من عمرها ·

والحكم فى هذه المرحلة ، هو أنه لا يجوز لاي واحد من الاولياء مهما كانت قرابته من الفتى ، أو من الفتاة ، أن يزوج الفتى أو الفتاة خلال هذه المرحلة بأي وجه كان ، كما لا يجوز للفتى أو الفتاة تزويج أنفسهما قبل بلوغهما السن المطلوبة ·

والى هذا ، أشارت المادة الاولى من القانون رقم 224 ـ 63 الصادر بتاريخ 29 ـ 6 ـ 1963 ، حيث نصت على ما يلى :

« لا يجوز للرجل الذى لم يبلغ 18 سنة كاملة ولا للمرأة قبل 16 سنة كاملة أن يعقد زواجا » (20) ·

ولكن قد يحدث أن يقدم شخص على تزويج ولده أو بنته قبل بلوغه هذه السن ، كما أن المراهق أو المراهقة قد تحدثه نفسه بالزواج قبل بلوغ السن المطلوبة ، فما حكم الزواج فى هذه الحالة ؟

الجواب : حكم الزواج فى مثل هذه الحالة ، البطلان المطلق ، بحيث يحق لكل ذى مصلحة من الزوجين أو من غيرهما الطعن فى هذا الزواج بالبطلان ، كما يحق للنيابة العامة ، الطعن فيه بالبطلان ، من تلقاء نفسها ، والدليل على ذلك ، ما جاء فى المادة الثالثة من القانون رقم 224 ـ 63 ، حيث نصت على ما يلى :

---

(20) أشارت الى هذا ، المادة 2 من مشروع مدونة الاحوال الشخصية ·

« كل عقد زواج أبرم بالمخالفة لاحكام المادة الاولى يكون باطلا اذا لم يلحقه ٠ ويجوز الطعن فيه من الزوجين شخصيا أو ممن يكون له مصلحة فيـه أو مـن النيابة العـامـــة » ٠

وهذا يعنى أن الزواج فى هذه المرحلة يعتبر مخالفا للنظام العام ٠

ومفهوم هذا الشرط ، وهو عدم الدخول ، انتفاء البطلان اذا حصل دخول ، وليس هذا قصد المشرع ، وانما قصده اذا لم ينتج عن الدخول حمل ، أو بلوغ الزوجين السن المطلوبة فى الزواج ٠ والى هذا أشارت المادة الرابعة من هذا القانون ، ونصها :

« لا يجوز مع ذلك ، الطعن فى عقد الزواج الذى يبرمه زوجان لم يبلغ كلاهما أو احدهما السن المشترطة وذلك ٠

1 ــ اذا بلغ الزوجان الســن القانونية ٠

2 ــ اذا حملت الزوجة التى لم تبلغ السن بعد ٠

اذن فبقاء نص المادة الثانية من قانون 224 ــ 63 على ما هي عليه لا يفى بقصـد المشرع ، فيتعين النظر لذلك لدى تعديل هذا القانون أو ادماجه فى مشروع مـدونة الاحوال الشخصية الجزائرية المنتظر صدوره ٠

الاستثناءات : ولكن يستثنى من حالة عدم جواز تزويج الصغار قبل بلوغهم (18) سنة بالنسبة للفتيان و (16) سنة بالنسبة للفتيات ، **الحالة التالية :** وهي ما اذا وجدت أسباب وعوامل ــ وصفها المشرع بأنها خطيرة (21) ٠ تقتضى تزويج الفتى أو الفتاة قبل بلوغهما السن المطلوبة ، ففي هذه الحالة ، يجوز للفتى أو للفتاة أن تتزوج ، ولكن بشرط أن يحصل على ترخيص يتضمن الاعفاء من السن ، صادر عن رئيس المحكمة ٠

وهذا ما تضمنت الفقرة الثانية من المادة الاولى من هذا القانون ، حيث ورد فيها مــآ يــلى :

« على أنه يجوز لرئيس المحكمة العامة أن يعفيها من شرط الســن اذا رأى لذلك أسبابا خطيرة وبعد أخذ رأي وكيل الدولة (22) ٠

(21) تعبير مرن وعام لا يفى بتحقيق النتيجة المتوخاة ٠

(22) مثل هذا ، تضمنته الفقرة 2 من مشروع مدونة الاحوال الشخصية المنتظر صدوره والمعيار الذى يبنى عليه المشرع ، اعطاء ترخيص بالزواج مــرن لدرجة كبيرة ، فينبغى فى نظرى تقييده حتى لا يشاع استعماله ٠

وقد تشدد المشرع فى هذا الشأن ، حيث قضى بعقوبة من أقدم على تزويج الفتى قبل بلوغه 18 سنة ، والفتاة قبل بلوغها 16 سنة ، بالحبس من 15 يوما الى ثلاثة أشهر ، وبغرامة تتراوح بين 400 الى 1000 دينار أو باحدى هاتين العقوبتين ·

والى هذا نشير ، الى ما جاء فى المادة الثانية من قانون 224 ـ 63 حيث نصت علـى مـا يـلـى :

« يعاقب ضـابط الاحوال المدنية أو القـاضى والزوجان وممثلوهما القانونيون والشركاء الذين لم يراعوا من الشرط المنصوص عليه فى المادة الاولى بالحبس من 15 يوما الى ثلاثة أشهر وبغرامة من 400 الى 1000 فرنك جديد (23) أو باحدى هاتين العقـوبتـين » ·

أما المادة 77 من قانون 20/70 الصادر بتاريخ 19 ـ 2 ـ 1970 فنصت على ما يلى :

« يعاقب القاضى الشرعى أو ضابط الحالة المدنية الذى يحرر عقد الزواج دون رخصة الاشخاص المؤهلين لحضور عقد أحد الزوجين بالعقوبات المنصوص عليها فى المادة 441 المقطع الاول من هذا القانون » ·

« يعاقب ضابط الحالة المدنية أو القاضى الشرعى الذى لـم يطبـق الاجراءات المقررة فى هذا الفصل بغرامة لا يمكن أن تتجاوز 200 د ج ، بموجب حكم صادر عن المحكمة الناظرة فى المسائل المدنية » ·

والمصدر التاريخى لهذين النصين ، هو المادة الثامنة من المرسوم رقم 1082 ـ 59 ، الصادر بتاريخ 18 ـ 9 ـ 1959 (24) ·

المرحلة الثانية : مرحلة أهلية الزواج : وتستمر هذه المرحلة بالنسبة للفتى مـن السنة 18 ، وبالنسبة للفتاة من سنة 16 الى الحادية والعشرين سنة لدى كل منهما ، وهي سـن الترشيد (25) ·

(23) ورد التعبير بالفرنك الجديد ، لان القانون صدر قبل بدء التعـامل بالعملة الجزائرية (الدينار) بعد سنوات ·

(24) نص هذه المادة : « يعاقب بالعقوبات المنصوص عليها فى المادة 40 مـن قانون العقوبات والخاصة بضباط الحالة المدنية ، كل قاض يثبت رضا قاصر أو محجور عليه قضائيا أو قانونيا دون أن يعـزز هذا بموافقة الاشخاص المؤهلين لذلك وفقـا للقانون » ·

(25) نص المادة الاولى من القانون رقم 778 ـ 57 ، الصادر بتاريخ 11 ـ 7 ـ 1957 والمنشور فى الجريدة الرسمية الصادرة بتاريخ 13 ـ 7 ـ 1957 م ·

ففى هذه الحالة ، يجوز للقاصر أن يتزوج ، مع ضرورة مراعاة ما تضمنته الفقرة الثانية من الامر رقم 274 ـ 59 والفقرة الرابعة من المادة الرابعة من المرسوم رقم 1082 ـ 59 ، من التعبير عن رضاه وموافقته أمام الجهة المختصة ، ولكن رضا الفتى أو الفتاة خلال هذه المرحلة ، يتوقف على رضا وموافقة وليهما ، كما تفيد ذلك ، النصوص التالية :

ـ نص الفقرة الثانية من المادة الثانية من الامر رقم 274 ـ 59 :

« اذا كان الرضا صادرا من قاصر أو محجور عليه قضائيا أو قانونيا فيجب أن يكمله رضا الوصى أو القيم » ٠

ـ نص الفقرة الرابعة من المادة الرابعة من المرسوم 1082 ـ 59 :

« بالنسبة لمن لم يبلغ سن الرشد من الزوجين أو المحجور عليهم قضائيا أو قانونيا ، يتعين اثبات موافقة الاشخاص الذين حددهم القانون للقيام بأعمالهم » ٠

ونرى فى هذه النصوص ، تقييدا للفقرة الثانية من المادة 135 من القانون رقم 778 ـ 57 الصادر بتاريخ 11 ـ 7 ـ 1957 والمنشور فى الجريدة الرسمية الصادرة بتاريخ 13 ـ 7 ـ 1957 ، حيث نصت هذه المادة على ما يلى :

« يكون المحجور عليه قضائيا عديم الاهلية ويعفى من ادارة أمواله ويوضع تحت الوصاية وتبقى أهليته منعدمة فى حالة الجنون المتقطع حتى فى فتراة الافاقة » ٠

ومع ذلك يجوز للمحجور عليه على وجه الخصوص أن يعقد زواجه وأن يطلق وأن يقبل الوصية أو الهبة التى لا تتضمن عبئا وله أن يوصى ، شريطة أن تتم هذه التصرفات في فترات الافاقة ٠

فظاهر هذا النص انه يجوز للمحجور عليه أن يتزوج من غير قيد ولا توقف على رضا وليه ٠ وهذا يخالف ما تضمنته النصوص المتعلقة بتنظيم عقود الزواج فى الجزائر وخاصة المرسوم رقم 1082 ـ 59 ف ـ 4 من المادة الرابعة منه ٠

والفقرة 2 من المادة 2 من الامر رقم 274 ـ 59 ٠

فان امتنع الوصي أو القيم وبالتالى الولى من الموافقة على رضا ورغبة القاصر أو المحجور عليه فى الزواج ، فالمشرع سكت عن ذلك (26) ٠ أما اذا وافق فتبقى

(26) فى حين أن مشروع الاحوال الشخصية قد نص على أنه فى حالة امتناع الولي ، برفع الامر الى القاضى ليأذن بالزواج ، المادة 6 ٠

الاجراءات الاخرى خاضعة لما نصت عليه المادة الثانية من الامر رقم 274 ـ 59 والمادة الثانية من المرسوم رقم 1082 ـ 59 ، والتى سنتعرض لها فى المرحلة التالية :

المرحلة الثالثة : مرحلة بلوغ الرشد : وتبتدىء هذه المرحلة من بلوغ كل من الفتى والفتاة ، الحادية والعشرين (21) سنة من عمرهما ، وتستمر لغاية الوفاة أو حدوث ما يستوجب الحجر من جديد ·

وفى هذه المرحلة يشترط لاتمام عقد الزواج بين الطرفين (الزوج والزوجة) ، أن يحضر كل منهما شخصيا أمام القاضى أو أمام ضابط الحالة المدنية ويعرب عن رضاه وموافقته بهذا الزواج من الآخر ، بحضور شاهدين عدلين ، بشرط أن يكون هذا التعبير واضحا لا لبس فيه ولا غموض بحيث يحتمل الوجهين ، والا كان عقد الزواج عرضة للبطلان ·

والى هذا أشارت : المادة (71) من الامر رقم 70 ـ 20 الصادر بتاريخ 19 ـ 2 ـ 70 حيث نصت على ما يلى :

« يختص بعقد الزواج ضابط (27) الحالة المدنية أو القاضى الذى يقع فى نطاق دائرته محل اقامة طالبى الزواج أو احدهما أو المسكن الذى يقيم فيه احدهما باستمرار منذ شهر واحد على الاقل الى تاريخ الزواج ·

والمصدر التاريخى لهذا النص هو نص المادة الاولى من المرسوم رقم 59/1082 (28)·

2 ـ الى ما نصت عليه المادة الثانية من المرسوم 59/1082 حيث جاء فيها ما يلى :

« يتعين أن يكون قبول الزوجين واضحا لا لبس فيه ولا غموض ولا يسوغ أن يتم

---

(27) يقصد بضابط الحالة المدنية : رئيس المجلس الشعبى ونوابه ، وفى الخارج رؤساء البعثات الدبلوماسية المشرفون على دائرة قنصية ··· 2/1 من الامر رقم 70 ـ 20 ·

(28) نص هذه المادة : « يكون ضابط الحالة المدنية أو القاضى المختص هو الذى يباشر عمله فى مكان تواجد سكن الزوجين أو أحدهما أو الذى يباشر عمله فى المكان الذى سيقيم فيه احد الزوجين مستقبلا بصفة دائمة وبشرط حصول ذلك لمدة شهر على الاقل حال انعقاد الزواج ·

على دفعات او مشروطا بشرط حصول أو عدم حصول واقعة مستقبلة وغير مؤكدة (29) ٠

3 ـ الى ما نصت عليه المادة 2 من الامر رقم 274 ـ 59 ، حيث تضمنت ما يلى :

« ينعقد الزواج بـرضا الزوجـين » ٠

ويجب أن يصدر الرضا شفويا وعلنيا ومن صاحب الشان شخصيا فى حضور شاهدين بالغين وذلك امام القاضى أم أمام ضابط الحالة المدنية ، والا كان العقد باطلا ٠ وقريب من هذا النص ، ما تضمنته المادة 73 من الامر رقم 70 ـ 20 ٠

فاجراء عقد الزواج امام ضابط الحالة المدنية او القاضى المختص فى ضـوء هذه النصوص ضرورى جدا ، لدرجة أنه لا يحق لاحد الزوجين المطالبة بحقوق الزوجية تجاه الآخر اذا لم يكن زواجهما مسجلا لدى ضابط الحالة المدنية ، والى هذا اشارت المادة الخماسة من قانون 224 ـ 63 ، حيث جاء فيها ما يلى :

« لا يجوز لاحد الزوجين أن يدعى انه زوج وأن يطلب بما يترتب على الزواج من آثار ما لم يقدم عقد زواج محرر ومسجل فى سجلات الحالة المدنية » ٠

قد يثـور سؤال ما هو الفرق بين اجراء عقد الزواج امام القاضى المختص أو أمام ضابط الحالة المـدنية ؟

الفرق بين اجراء عقد الزواج أمـام القاضى المختص أو أمـام ضابط الحـالة المـدنية

فالجواب عن هذا الاستفسار المتوقع ما يلى :

اذا تم عقد الزواج أمام ضابط الحالة المدنية وفق ما ينص عليه القانون ، فانـه (ضابط الحالة المدنية) يسلم الزوجين دفترا عائليا مثبتا لزواجهما ٠ فى نفـس الجلسة ٠ نصت على هذا المادة 2 ف 1 من الامر رقم 70 ـ 20 ، حيث جاء فيها ما يلى :

---

(29) نص هذه المادة : « يجب أن يبين فى عقد الزواج المحرر من قبل ضابـط الحالة المدنية أو القاضى بصراحة بأن الزواج قد تم ضمن الشروط المنصوص عليها فى القانون كما يجب فضلا عن ذلك أن يبين فيه ما يلى :
1 ـ الالقاب والاسماء والتواريخ ومحل ولادة الزوجين ٠
2 ـ القاب وأسماء أبوى كل منهما ٠
3 ـ القاب واسماء وأعمار الشهود ٠
4 ـ الترخيص بالزواج المنصوص عليه بموجب القانون عند الاقتضاء ٠
5 ـ الاعفاء من السن الممنوح من قبل السلطات المختصة اذا لزم الامر ٠

« يسجل ضابط الحالة المدنية عقد الزواج فى سجلاته حلال اتمامه أمامه ويسلم الى الزوجين دفترا عائليا مثبتا للزواج » ·

اما اذا تم عقد الزواج أمام القاضى المختص فانه لا يسلم الى الزوجين دفتـــرا عائليا ، ولكن يسلمهما فقط شهادة بانعقاد زواجهما أمامه ، وفقا للشروط المطلوبة · ويتولى القاضى ارسال نسخة من عقد زواجهما الى ضابط الحالة المدنية خلال مـدة ثلاثة أيام من أتمام عقد الزواج ، قصد تسجيله فى سجلات الحالة المدنية بالبلدية بعد خمسة أيام من تسليمه للزوجين دفترا عائليا يثبت زواجهما · وليقوم بتسجيل هـذا الزواج على هامش شهادة ميلاد كل واحد من الزوجين ·

والى هذا أشارت الفقرة الثانية من المادة 72 حيث جاء فيها ما يلى :

« يحرر القاضى عقدا عندما يتم الزواج أمامه ويسلم الى المعنيين شهادة ، كما يرسل ملخصا عن العقد فى أجل ثلاثة أيام الى ضابط الحالة المدنية الذى يقوم بنسخة فى سجل الحالة المدنية خلال مهلة خمسة أيام ، ابتداء من تاريخ تسليمه الى الزوجين دفترا عائليا ويكتب بيان الزواج فى السجلات على هامش عقد ميلاد كل واحد مـن الـــزوجيـــن » ·

والمصدر التاريخى لهذه المادة 72 بفقرتيها ، المادة الثالثة من الامر رقم 274 ــ 59 (30) ، وكذلك المادة 7 من المرسوم رقم 1082 ــ 59 ·

وبالاضافة الى كل ذلك فان المشرع الجزائرى يشترط بالنسبة للمراة التى تـريد أن تتزوج مرة ثانية أن تستحضر معها :

- اما نسخة من شهادة وفاة زوجها أو شهادة ميلاده مدون فيها وفاته ، وكذلك الدفتر العائلى ، هذا فى حالة الادعاء بالوفاة ·
- اما نسخة من الحكم بالطلاق بشرط أن يكون هذا الحكم قد صادر نهائيا ، فى حالة الادعــاء بالطــلاق ·

---

(30) نص هذه المادة « اذا تم تبادل الرضا أمام ضابط الحالة المدنية فعليه أن يدون محضرا بذلك فورا فى سجلاته ويسلم الزوجين دفترا عائليا يثبـت انعقاد الزواج ·
واذا تم تبادل الرضا أمام القاضى فعليه أن يثبت ذلك فى وثيقة وان يسلم الى أصحاب الشان شهادة بانعقاد الزواج · ثم يرسل الى ضابط الاحوال المدنية مستخرجا من عقد الزواج خلال ثلاثة أيام وعلى الاخير أن يسلم الزوجين دفترا عائليا » ·

والى هذا أشارت المادة 75 من الامر رقم 70 ـ 20 فى فقرتها الثانية حيث جـــاء فيها ما يلى : « يجب على المرأة التى حل زواجها السابق أن تقدم حسب الحالة :

- اما نسخة من عقد وفاة الزوج السابق أو نسخة من عقد الميلاد يشار فيها الى وفاته أو الدفتر العائلى الذى قيد فيه عقد الوفاة ٠
- واما ملخصا عن عقد الزواج أو الولادة يتضمن عبارة الطلاق أو الدفتر العائلى الذى يتضمن هذه العبارة أو نسخة من حكم الطلاق مرفوقا بشهادة القاضى او كاتب الضبط المختص يشهد بأنه صار نهائيا » ٠

ولا شك ان النصوص المطبقة سيدخل عليها بعض التعديلات على ضوء المبادىء العامة التى تضمنها الميثاق الوطنى ومواد الدستور ، اعتبار ان هذه النصوص كانت قد شرعت قبل اعداد الميثاق والمصادقة على الدستور ٠

وحسنا فعلت هذه القوانين ، فيما ذهبت اليه واتفقت عليه جملة وتفصيلا من القول بولاية الاختيار ومن نفي القول بولاية الاجبار ، ولكن لم توفق ـ فى اعتقادى ـ فيما ذهبت اليه جميعها نسبيا ، من القول برفع ولاية الاختيار عن المرأة بعد سن معينــة ، لان القول بهذا قد أدى ويؤدى الى تزويج المرأة نفسها من غير وليها وبدون اذن عائلتها ، سندها في ذلك ما تخوله لها النصوص القانونية الواجبة التطبيق والامتثال لها تحت طائلة العقوبة بالسجن أو الغرامة المالية أو تحت طائلة بطلان تصرف الولى فيما فعل ٠

وفى ظل هذا يمكننا ان نتصور الحادثة التالية :

افراد عائلة بأكملها من أب وأم وأربعة أولاد مثلا ينتظرون رجوع ابنتهم من العمل أو من المدرسة أو الجامعة ، البالغة من العمر ثلاثة وعشرين سنة ، مثلا ، واذا بها تدخل عليهم مع شخص أجنبى عن العائلة غريب عنها بدعوى انه ضيفها وشريك حياتها أو بدعوى شريك حياتها وزوجها ، عقدت معه عقد زواجها أمام ضابط الحالة المدنيه أو القاضى المختص ، بحضور شهود من أصدقائها وأصدقائه ٠ وليست هذه الحادثة من باب الامكان والجواز ، وانما هي من باب الواقع المعاش الملموس والذى تعـانى منه بعض الاسر آثاره السيئة كل هذا فى ظل أن القانون يخولها ذلك ٠

ولاشك ان الوصول الى مثل هذه النتيجة هو الذى حدا بالمشرع المصرى ان يعدل عن مذهب الاحناف القاضى بجواز تزويج المرأة نفسها ـ طبعا بكفء وبمهر المثل ـ الى مذهب الجمهور سنة 65 لدى اعداده النصوص القانونية المتعلقة بمجال الاحـوال الشخصيــة ٠

وانه بذلك يكون قد استجاب للحاجة الداعية الى هذا التعديل ووضع بذلك حدا للمآسى التى كانت تنجم عن تزويج المرأة نفسها بدون علم وليها ولا ارادته ، وقد كتبت عنه الصحف والمجلات ، الشيء الكثير ، ولقد لمحت الى كل هذا مجلة الازهر تحت عنوان : « الولي ضرورى فى عقد الزواج » ، نقتطف منها ما يلى :

« منذ أن استقر حكم الدولة العثمانية فى مصر ، وعين أول قاض حنفى والقانون ملتزم مذهب أبى حنيفة الذى يرى أن المرأة الرشيدة يصح أن تزوج نفسها من غير الولي ولقد توالت السنون ، وتعاقبت الدهور على هذا الرأي ، والمشرعون واقفون جامدون أمام الزمن المتجدد الذى لا يقف ولم يفتحوا أعينهم عن المآسى الاجتماعية والنكبات الخلقية التى نجمت من انفراد المرأة بعقد زواجها من غير أن يشرف عليها الولي الذى هو أبعد نظرا وأكثر تبصرا بعواقب الامور .

ولماذا نستند مذهبا واحدا ، وندع رأي الجمهور وقد نطقت الحوادث ودلت التجارب على أن وجود الولي أحكم ، وعدمه فى عقد النكاح كثيرا ما أوقع المرأة فى مآسى اجتماعية ونكبات خلقية .

وقد استفاضت كتب الحديث فى أن عقد الزواج لا يصح الا بولى للصغيرة استفاضة لا مطمع فيها لمنكر الا من أول تأويلا نائيا عن الصواب ... » .

ومن غير شك ، أن لمثل هذه المقالات أثرها فى لفت نظر المشرع الى ما يحدث من نتائج سيئة عن تطبيق القانون ، حيث ان هذه المقالات كانت قبل اعداد هذا المشروع .

الخلاصة :

يتضح مما تعرضت له فى هذه الكلمة ، أو مما هو موجود بين أيديكم ولم أتعرض له ، أن ما ذهبت اليه القوانين بهذا الشان ، وما ذهبت اليه الشريعة الاسلامية كذلك ، منسجم مع نظر كل منهما الى المرأة ككل ، الامر الذى اكدت عليه والفت النظر اليه فى بداية هذه الكلمة ، وهو أن الحديث عن تزويج المرأة يعتبر جزءا من حديث عام ونظرة شاملة الى المرأة .

وباختصار ـ أيها السادة والسيدات ـ ان ما أود الوصول اليه من هذه الكلمة المتواضعة هو :

« أن نجعل أمر التزويج شورى بين الولي والمولى عليها وبعبارة أخرى : القول : بضرورة موافقة ومشاركة كل من الفتاة ووليها لدى تزويجها .

ولقد كان النبي عليه الصلاة والسلام ، عندما يريد تزويج احدى بناته يقرب منها ويهمس فى اذنها ، بمـا يريده لها ، حتى اذا كان لهـا اعتراض ، ابدتـه مباشرة او بطريق غير مباشر ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : (شاوروا النساء فى بناتهن) .

والقول بهذه النتيجة ، معناه التوفيق بين النصوص المتعارضة ظاهريا لا حقيقيا ، من جهة ، وتحقيقا لمفهوم الاسرة فى الاسلام ، الذى حددت احكامه واوضحت معالمـه آيات من الكتاب الكريم واحاديث من السنة القولية والفعلية ، لان احكام الشـريعة الاسلامية ، كما قال احد اساتذتنا الافاضل الذين درسنا عنهم فى جامعة دمشق كلية الشـريعـة :

ان احكام الشريعة الاسلامية كل متسق لا تتناقض جزئياته مع كلياته .

ولعل هذا هو السر او من جملة السر ، فى اسناد الزواج مرة الى المراة ، ومرة الى وليها ، وهذا ما لاحظه ابن رشد فى كتابه القيم : « بداية المجتهد » ، وذلك فيمـا نظن ، هدف عظيم ، استهدفه الشرع الحكيم ، حتى لا يستبد احدهما الولي او المولى عليها بهذا الامر الخطير شانه العظيمة آثاره .

لان امر الزواج او التزويج ليس شخصيا محضا ، او فـرديا صـرفا ، يتعلـق بالزوجين فحسب ، بل انه ـ فضلا عن ذلك ـ يعتبر رباطا وثيقا بين اسرتـين لا بين فردين ، وهذا يقتضى بالضرورة اخذ نظر الاسرة بعين الاعتبار لدى تزويج المولى عليها .

ثم ان المتفهم لروح الشريعة الاسلامية والمتمعن فى احكامها ومقاصدها ، يبدو له ، ان الزواج كغيره مـن الامور الخطيرة ذات الشان العظيم في المجتمع ، بحيث تمس كيان الدولة ، فيتعين اعتباره قائما ومؤسسا على الصراحة التامة وتبـادل الراي والمشورة ، حتى لا يقام على شىء من النوايا المدخولة او على دخـن وحقـد من النفوس ، ولاسيما وان امر الزواج يتعلق بتاسيس القرابات وانشاء عـلائق المصاهرة ، مما يجعل مفهوم الاسرة فى الاسلام مفهوما ممتدا ، لا مفهوما قاصـرا على الزوجين فحسب ، يرشدنا الى اتساع مفهوم الاسرة فى الاسلام ، والى اثـر امتداد هذه الروابط التى ينبغى تاسيسها على اساس تبادل الراي والمشورة ، يرشدنا الى ذلك كله ، ودليلنا عليه ، امتداد المسؤولية التكافلية فى النفقات الملزمة عند العوز والعجز ، مما لا نعهد له نظيرا فى اى من تشريعات العالم .

كما أن القول بهذه النتيجة أو بهذه النظرية وهي جعل أمر التزويج شورى بين الولي والمولى عليها ، من شأنه أن يجنبنا من الوقوع فيما نراه من تفريط وافراط وغلو وتطرف فى هذا المجال ·

التفريط الناجم عن سيادة وسيطرة العرف القائم على التقاليد الموروثة والذى تتحكم فيه كل من الاهواء والمطامع ، حيث اهدرت حقوق المرأة فى تلك البيئات منذ عهود خلت ، سواء فى المشرق أو المغرب ، وأصبحت لا تلبى من أمر زواجها شيئا ، ولا تعرف عنه لا قليلا ولا كثيرا ، حتى تزف الى زوجها وكأنها بضاعة تسلم الى مشتريها ·

ففى ظل هذا العرف وتحت سلطانه ، ما يزال الآباء أو الاولياء يستبدون بتزويج المولى عليها أو بالاحرى بتزويج بناتهم بمن يريدون وحسب أهوائهم ومطامعهم ، غير عابئين بارادة المولى عليها ، وكأن الامر لا يعنيها لا من قريب ولا من بعيد ، وغالبا ما يقدمون على تزويجهم من ذوى الثروة والجاه والمنصب الرفيع والمكانة المرموقة ، وغالبا وأحيانا ، بالتأكيد يكونون جاهلين بمصلحة بناتهم الحقيقية ، ـ كل هذا وأكثر منه موجود فى الكثير من البيئات والقرى والمدن الصغيرة ، سواء فى المشرق أو المغرب ، على مرأى ومسمع من كل مشرع ومن كل مقنن ·

كما أن الاخذ بما توصلنا اليه من شأنه أن يجنبنا الوقوع فى الافراط الناجم عما ذهبت اليه القوانين حيث أعطت المرأة حق تزويج نفسها بمن تشاء ، من غير اذن وليها ، ان ذلك قد أدى كما ذكرنا منذ قليل ، الى مآسى خلقية وفواجع اجتماعية والى فقدان الثقة ، وافساد العلاقة بين الآباء وبناتهم ، فى مثل هذه الحالة ، وبين الاولياء والمولى عليهن بصورة عامة ، الامر الذى اتخذه وما زال يتخذه أصحاب الاهواء من فتيان وفتيات للوصول الى زواج لا يكون لاسرتيهما فيه أي دور ، غالبا ـ وأحيانا من المؤكد ـ يؤدى الى الفرقة والى اثارة الاحن والاحقاد بين الاسر ·

1978 No 54-55

العدد 54 - 55

فهـــرس الـعـــدد

● **دراسات وأبحاث**

● **قصــة :**

● **من محاضرات الملتقى :**

وجوه ازدهار الفكر العربى في المغرب الاسلامى

د. محمد أركون
أستاذ الفلسفة الاسلامية
بجامعة السربون الجديدة
باريس (فرنسا)
ترجمة : مروان القنواتى
مع مراجعة المؤلف



قال ابن طفيل : « **ولا تظنن أن الفلسفة التى وصلت الينا فى كتب أرسطوطاليس وأبى نصر الفارابى وفى كتاب الشفاء لابن سينا تفى بهذا الغرض الذى أردته ولا أن أحدا من أهل الاندلس كتب فيه شيئا فيه كفاية وذلك أن من نشأ بالاندلس من أهل الفطرة الفائقة قبل شيوع علم المنطق والفلسفة فيها قطعوا أعمارهم بعلوم التعاليم وبلغوا فيها مبلغا رفيعا ولم يقدروا على أكثر من ذلك ...** » *

(*). صدرت هذه المقالة باللغة الفرنسية فى مجلة DIOGENE عدد 93/1976 .

حى بن يقظان لابن سينا وابن طفيل والسهروردى ، تحقيق أحمد أمين وتعليقه ، دار المعارف بمصر ، 1959 (ذخائر العرب 8) ، ص 61 ·

لا نزال قاصرين عن أن نحدد تحديدا دقيقا وجوه ازدهار الفكر العربى ـ أى امتداده ـ الاجتماعى وتغلغله النفسى الثقافى فى الغرب الاسلامى · وللمسألة المطروحة هذا الطرح شأن تاريخى عظيم ولا سيما اذا درسنا الفترة الممتدة من مطلع القرن الثامن المسيحى (أو نهاية مطلع القرن الثانى الهجرى) حتى أيامنا هذه · والواقع أن سلسلة أفاعيل امتداد الفكر العربى وتغلغله فى أعماق المغرب قد تعددت وتسارعت منذ الاستقلال السياسى · ان هذا الوضع يكسب بحثنا جدة ينشأ منها محاسن ومساوىء ، فنحن نجنى نفعا حين لا نقصر المعرفة التاريخية على جمع واسع لمعلومات فى ماض لا صلة له بحاضر الجماعة ، بيد أنه يصعب علينا أن لا نلتمس الماضى فى تقوية مشروعات عقائدية راهنة ·

وبما أن مشروعنا تمليه علينا الرغبة فى الاسهام فى معرفة تاريخية وضرورة الاستجابة لامل شعب المغرب الذى يبحث عن هوية ينبغى لنا أن نبدأ فى وضع منهج ملائم للبحث · وعادة المؤرخ أن يتابع طريقه من غير أن يأبه للعقائد المحيطة التى تلون نظرته ولا لاستعمال الجيد أو السيء الذى يقوم فى تفسيره للماضى · والقادة السياسيون يخالفون المؤرخ ، فهم يشتغلون بالتاريخ وهمهم الوحيد احداث عقيدة تسوغ سلطانهم · ومؤرخ الفكر الذى يغض الطرف عن هذا المعطى المزدوج الفعال جدا فى حالة المغرب المعاصر لا يملك الا أن يحدث بدوره تجريدات باطلة خطيرة ·

نبدأ اذن بالنظر فى العلاقة بين ايديولوجية البناء الوطنى والتاريخ فى المغرب المعاصر ؛ ونحاول بعدئذ أن نجعل مفهومى **الفكر العربى والغرب الاسلامى** فاعلين عمليين · وفى مجال الفهم المحرر هذا التحرير نقيم المعالم الاساسية لبحث تاريخى طويل النفس فى درجات شخوص الفكر العربى ووظائفه الفعلية فى الغرب الاسلامى ·

الفكر الايديولوجى والتاريخ فى المغرب

نحن نعلم أن الاستقلال السياسى أطلق فى المغرب ضروبا من الاحتجاج الحاد على كل ما بذل من جهد للوصول الى معرفة مدعية للعلم ، فى الفترة الاستعمارية · وثمة

مؤلفون غربيون « تقدميون » جلهم من الفرنسيين يعززون عن طيب خاطر ما يورده المغاربة من مآخذ مسوغة تسويغا كافيا ۰ الا أن هذا النقد سرعان ما أصبح معادا مكررا لانه يلوك دعوى معروفة جدا بالتعبير نفسه ۰ وكما ينبغي لادب المغرب أن يتحرر مما تواضع عليه من عبارة لـ « قومية بالية لا تتفق مع مقتضيات العصر » ـ في تعبير مصطفى الاشرف ـ ينبغي لفكر المغرب أن يتخلى عن الانشغال بتكرير الاحتجاج لطرق مهام معلقة منذ قرون ۰

لا ريب أن علاقة المغاربة بتاريخهم وبمجتمعهم **الحقيقيين** حرفها عن مواضعها نظرة المستعمر القائمة على تفضيل الرجل الابيض وكره المسلمين ۰ غير أنه ينبغي اتمام هذه الحقيقة بملاحظتين تهملان في المجادلات غالبا :

1) ان النشاط « العلمي » في الفترة الاستعمارية كدس من حيث لا يريد وثائق لا بديل لها ينبغي أن تستخلص من غلافها الايديولوجي فيستغلها فكر مغربي موضوعي ۰

2) منذ العقد الخامس من قرننا هذا ، أخذ الفكر الغربي نفسه ينتبه الى ضلال مناهجه في البحث والضعف الابستمولوجي لعلم يزعم انه تاريخي ايجابي مثالي ۰۰۰ ان هذا النقد الابستمولوجي يتيح لنا أن نرى كذلك أن الاستقلال السياسي ، وهو يفرض اسبقية ايديولوجية البناء الوطني ، يؤخر أو يحرف الجهود التي يقتضيها الذود والكشف عن فكر مغربي ذي غائية معرفية لا جماعية فحسب (1)

وليست المسألة بأن نحط من قيمة ايديولوجية البناء الوطني ـ التي نحن أحوج ما نكون اليها ـ حتى ينتقم الفكر النقدي انتقاما نظريا ۰ وهو انتقام باطل بل محال في المرحلة الراهنة من تاريخ المغرب ۰ ولئن كان لايديولوجية البناء الوطني فضل الوجود وفضل أخذها مصير شعب برمته على عاتقها فان الفكر النقدي بدأ يظهر قليلا لدى عدد ضئيل من الباحثين ۰ ولهذا نعتقد أننا نعمل على **توليد لافكار** (2) البناء الوطني ونحن نستفتي أنفسنا في ما ينمي المغرب من علاقة بتاريخه والتاريخ على وجه العموم ۰

وحسبنا أن نعتبر المسائل الست المسجلة في برنامج ملتقى الفكر الاسلامي التاسع الذي انعقد في تلمسان (من العاشر الى التاسع عشر من يوليو 1975) برعاية

وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية فى الجزائر حتى نتخذ فكرة عن هذه العلاقة ·

المســـائـل الســت هى :

1) اسهام تلمسان الزيانية فى الحضارة والفكر الاسلاميين والعالميين ؛ واسبـاب ازدهارها وعوامل انهيارها ·

2) موقف استنبول وسائر العالـم الاسلامى من سقوط الاندلس ، وآخر مسلميها وأمام الغزو الاوروبى للعالم الاسلامى خصوصا ·

3) هل كان الشعر فى الاندلس سببا فى انحلال اخلاقها ، أم كان لها مجرد مرآة وانعكـــاس ؟

4) دور الآداب والفنون عموما ، والشعر والموسيقى خصوصا فى توطيد أخلاق أمة وانحلالها ، وفى شحذ عزائمها أو موت روحها ·

5) العدالة الاقتصادية والاجتماعية فى الاسلام وأوضاع الامة الاسلامية اليوم ·

6 مقصد الشريعة من الحج والطريقة التى يؤدى بها اليوم ·

ان كل ما سجل من مسائل فى برامج الملتقيات السابقة (3) يؤكد نـــداء دائمـا أساسيا للتاريخ : ففى التاريخ وبه انما يريد الشعب الافريقى المغربى أن يعثر عـلى « انيته » و « أصالته » (4) بتعبير مولود قاسم نايت بلقاسم · لا ريب أننا نقدر أن نشير الى اختلاف أسلوبى بين فى استخدام التاريخ بين ليبيا وتونس والجزائر والمغرب الاقصى. فتونس على وجه الخصوص تظهر بالامتياز الذى توليه نواة صلبة من الباحثين الطريقة الجامعية · ومع ذلك أيا كان المستوى « العلمى » للكلام ها هنا وهناك فانه يسهل علينا أن نبين أن علاقة المغاربة بتاريخهم تفصح عن نفسها :

ـ فى علاقة العرب العامة بتاريخهم والمسلمين بالاسلام · وتتسم هذه العلاقة بنزعة تختلف فى وضوحها الى تصييـر التاريخ العيانى تاريخا مثاليا نموذجيا (عصرا ذهبيا) والى اسقاط « أسباب الانحطاط » على قوى معادية لنا خارجة عنا والى رفع أفق الاسلام الى مقام أعلى من مقام سائر العقائد ·

ـ فى الرفض الجدلى بل الجدالى المحض غالبا للرؤية الاستعمارية ·

ـ فى النطاق الثقافى الخاص بالمغرب المعاصر٠ ولو أطلقت لنفسى العنان لطال الحديث بى عن هذا النطاق هاهنا٠ وموجز القول ان الكلام المسيطر(le discours dominant) يحاول أن يحمى على صعيد التعبير وحدة « للنفس » (بالمعنى المتافيزيقى القديم الذى يترجم بـ « الشخصية » اليوم) المغربية المندمجة فى « النفس » العربية الاسلامية ، الا أن هذه الوحدة تنفجر فى التاريخ الواقعى والحياة اليومية للناس ، فيحدث انفصال ـ ينكره ويوازنه التأكيد الايديولوجى ـ بين **الدين والدنيا** اللذين كان الاسلام يجمعهما **جمعا أنجع** (لكن لا **أكثر مطابقة** اذا اعتبرنا ما يطرح دائما من مشكلة مطابقة كل لغة للواقع الذى تزعم انها تعبر عنه) (5) ٠ ونحن نميز توترا متزايدا بين الاشكال **القبلية** (les formes à priori)لفكر ميتافيزيقى يريد أن يأخذ على عاتقه مصير «النفس» فى استمرار (التراث) العربى الاسلامى والاشكال **القبلية** لفكر سياسى واجتماعى ومعاشى يضبط حياة الجماهير اليومية بقرارات مذهلة فى أي اتجاه سيتطور هذا التوتر الجدلى الذى يسم كل القوة الاجتماعية الحركية للشعوب العربية الاسلامية اليوم ؟ ان هذه المسألة تفتح بابا من جديد الى مشكلة العلاقات بين البنية السفلى والبنية العليا وتفتح سبيلا فى البدء الى مشكلة المركبات الدائمة أو المتغيرة للبنية السفلى والبنية العليا ، وهما مشكلتان قد افترض الكثير انهما محلولتان ٠

ومن المناسب ان نتم هذه الملاحظات السريعة بالتحذير من تفسير مستعجل لمفهوم الاصالة الذى تستعمله دولة الجزائر والذى هو فعال جدا فى كل التفكير العربى الاسلامى الراهن ٠ فاذا اقتصرنا على النصوص الوحيدة التى يحيل اليها هذا المفهوم المتردد فى تاريخ الاسلام كله، ملنا الى أن نعيد كل ما يقال فيه الى مقصد الفكر الاصلاحى الاصلى والى مقولاته ٠ ولا ريب أننا نعثر فى ايديولوجية الاصالة وايديولوجية السلفية (فى موضوع الاصلاح أو الرجوع الى اسلام السلف الصالح من الصحابة فى الكتاب والسنة) على التأكيد المشترك بأن صدر الاسلام يجب أن يظل قدوة العمل التاريخى والامل الدينى للمسلمين ٠ غير أن حديث الاصالة بضعفه النظرى ووظيفته النفسية الاجتماعية يوافق، فى الواقع، الاحوال التاريخية التى يجتازها المغرب منذ الحرب العالمية الثانية ٠ وموجز القول أن **منظومة العمل التاريخى**(S.A.H. : Système d'Action Historique)

للمجتمع المغربى أصابها التدخل الاستعمارى وضرورات جهاد التحرير، اصابة بلغت الى أن جعلت الفكر والعمل يصطدمان فى كل مضرب بصنوف رهيبة من التفاوت : كالتفاوت التاريخى بين الامم المصنعة القريبة من المغرب كل القرب وأبنية عتيقة ما تزال غالبة ، والتفاوت الاجتماعى الاقتصادى بين ديمغرافية متضاربة ومقدرات الانتاج وبين الطبقات المالكة والطبقات العاملة والمحرومين ، والتفاوت الاجتماعى الثقافى بين الاميين والذين يعرفون القراءة والكتابة وحملة الثقافة التقليدية وحملة الثقافة المتفتحة (بشذور من الايديولوجية الثورية عناصر من الثقافة العربية الاسلامية ونظرات مقتضبة فى الثقافة الغربية) ، والتفاوت الاجتماعى السياسى بين الصفوة الحاكمة والجماهير المحكومة والطبقة السياسية والمثقفين ، والتفاوت الاجتماعى الديناميكى بين قوى الانفجار وعوامل حبك النسيج النفسى الاجتماعى والتحامه ··· ويعبر حديث الاصالة تعبيرا **غير مباشر** عن كل ما سبق من تفاوت بكل الحسرات الفردية والجماعية وعما يؤدى اليه من سوء العيش؛ فهو لا يشخص المرض تشخيصا مؤثرا مفجعا ؛ ان تم ذلك أدى الى تعطيل الطاقات فى مرحلة حرجة ــ بل يبرىء منه مستعينا طريق تأكيد الذات فيذلل صعوبات واضحة (7) · ومن هنا كان حديث الاصالة فى بنائه خيرا من غيره فى التلاؤم مع الاطر الاجتماعية الثقافية للمعرفة وللتأثير التاريخى فى المغرب المعاصر · فهل لنا أن نقول بأن الاحاديث المنافسة يجب أن تهمل بل أن تحذف ؟ وها هنا نلتمس الضرورة العاجلة للاجتهاد حتى نضع علميا وننشر ثقافيا ، علاقة جديدة بالشعور الجمعى وبالوعى التاريخى ·

2) الفكر العربى والمغرب الاسلامى

لقد كتبنا الكثير عن مدلول **الفكر العربى** (8)· ونحن حريصون على أن نذكر أولا أنه كل فكر يستخدم اللغة العربية للابانة عن تصوراته ولاستنباطات وللاعراب عن ذاته · بيد أن هذا التعريف اللغوى يشمل الفكر اليهودى والنصرانى اللذين عبرا عن نفسيهما باللغة العربية فى عصور الاسلام الزاهرة ويشمل الفكر النصرانى لاهل لبنان وسوريا والقبط فى أيامنا هذه · فينبغى أن نوضح أن الفكر العربى فى المعنى السائد هو الفكر الذى يعبر عن نفسه باللغة العربية فى المجال السيميوتى حيث تغلب بدرجة متفاوتة التأثير الاسلامى ·

ان هذا التعريف يتيح لنا أن نخرج من النطاق الضيق الذى عمل فيه مؤرخ « الافكار » حتى يومنا هذا • ولم يقتصر هذا المؤرخ على تفضيل المعانى الجوهرية بتتبع تطورها التاريخى خارج بيئتها الحية حيث تصبح فعالة بل استأنف كذلك أقساما جدالية أو شكلية للمعرفة كعلم الكلام والفلسفة وأصول الفقه والتفسير والنحو والتاريخ والعلوم وغيرها ••• أنا لا أقول بأن هذه المواد لم تبد سمات مميزة فى عصور الاسلام الزاهرة ؛ ولكن المرء يرى أنها لا ترتبط بمنظومة تسمى باليونانية épistêmê وهى ابنية من البنيات الخلفية التى تدعم بجهازها المتين ، خطابات متنوعة ••• ؛ انها تنظيم كامن للمعرفة يقوم ، وراء معطى المناهج بأساس لا شعورى لفترة من الزمن أو لقسم من العلم ، انها كخطاب خلفى ••• سلسلة من النسقات والمبادىء المنظمة والموجهة لمشروعات المعرفة ••• » (9) •

ان مدلول الـ Epistêmê الغنى الذى يتيح وصل تاريخ الفكر بالتاريخ العام آخذا الديمومة القصيرة والمتوسطة والطويلة (10) بعين الاعتبار ، لم يلفت بعد انتباه **أى** مؤرخ للفكر العربى (11) • بفضل هذا المفهوم يمكننا أن نفسر السبب الذى جعل الفكر الاصلاحى وفكر الاصالة راهنين وقديمين : فهما راهنان لان أكثر الناس فى المجتمعات الاسلامية يحتفظون بأبنية تقليدية ؛ وهما قديمان اذا اعتبرنا **المشروع** التاريخى لهذه المجتمعات التى تقبل ازدياد التزامها بالتجربة المغامرة للتنمية • ولا يستطيع المجتمع أن ينفتح على **الحداثة المادية** وهو يحافظ على منظومة عقائده التقليدية وغيرها فى منجى مما فى المبادىء المنظمة **للحداثة الفكرية** من قوة تحرر من الاساطير والتزوير • ان النزاع بين أصول الفكر القديم وأصول الفكر الحديث لن يعدم أن يقطع مراحل حادة كما حدث فى الغرب • ولا يقتصر الامر على الغرب ، ففى عالم الاسلام ما زلنا لا نستطيع الكلام عن انقطاع ابستمولوجى جذرى ؛ بيد اننا نملك أن نكشف فى الكتابة العربية المعاصرة عن أمارات مجابهة بين عالمين عقليين أو رؤيتين للعالم بما يوافقهما من

للمجتمع المغربى أصابها التدخل الاستعمارى وضرورات جهاد التحرير، اصابة بلغت الى أن جعلت الفكر والعمل يصطدمان فى كل مضرب بصنوف رهيبة من التفاوت : كالتفاوت التاريخى بين الامم المصنعة القريبة من المغرب كل القرب وأبنية عتيقة ما تزال غالبة ، والتفاوت الاجتماعى الاقتصادى بين ديمغرافية متضاربة ومقدرات الانتاج وبين الطبقات المالكة والطبقات العاملة والمحرومين ، والتفاوت الاجتماعى الثقافى بين الاميين والذين يعرفون القراءة والكتابة وحملة الثقافة التقليدية وحملة الثقافة المتفتحة (بشذور من الايديولوجية الثورية عناصر من الثقافة العربية الاسلامية ونظرات مقتضبة فى الثقافة الغربية) ، والتفاوت الاجتماعى السياسى بين الصفوة الحاكمة والجماهير المحكومة والطبقة السياسية والمثقفين ، والتفاوت الاجتماعى الديناميكى بين قوى الانفجار وعوامل حبك النسيج النفسى الاجتماعى والتحامه ··· ويعبر حديث الاصالة تعبيرا **غير مباشر** عن كل ما سبق من تفاوت بكل الحسرات الفردية والجماعية وعما يؤدى اليه من سوء العيش؛ فهو لا يشخص المرض تشخيصا مؤثرا مفجعا ؛ ان تم ذلك أدى الى تعطيل الطاقات فى مرحلة حرجة ـ بل يبرىء منه مستعينا طريق تأكيد الذات فيذلل صعوبات واضحة (7) · ومن هنا كان حديث الاصالة فى بنائه خيرا من غيره فى التلاؤم مع الاطر الاجتماعية الثقافية للمعرفة وللتأثير التاريخى فى المغرب المعاصر · فهل لنا أن نقول بأن الاحاديث المنافسة يجب أن تهمل بل أن تحذف ؟ وها هنا نلتمس الضرورة العاجلة للاجتهاد حتى نضع علميا وننشر ثقافيا ، علاقة جديدة بالشعور الجمعى وبالوعى التاريخى ·

2) الفكر العربى والمغرب الاسلامى

لقد كتبنا الكثير عن مدلول **الفكر العربى** (8)· ونحن حريصون على أن نذكر أولا انه كل فكر يستخدم اللغة العربية للابانة عن تصوراته ولاستنباطات وللاعراب عن ذاته · بيد أن هذا التعريف اللغوى يشمل الفكر اليهودى والنصرانى اللذين عبرا عن نفسيهما باللغة العربية فى عصور الاسلام الزاهرة ويشمل الفكر النصرانى لاهل لبنان وسوريا والقبط فى أيامنا هذه · فينبغى أن نوضح أن الفكر العربى فى المعنى السائد هو الفكر الذى يعبر عن نفسه باللغة العربية فى المجال السيميوتى حيث تغلب بدرجة متفاوتة التأثير الاسلامى ·

استراتيجيات معرفية • وهاكم على سبيل الاشارة المسلمات أو الموضوعات الاساسية التى تؤلف رهان التنافس :

مسلمات الفكر الكلاسيكى

ـ وجود ذات انسانية لها سيادة ، وهى (خليفة الله فى الارض) ؛

ـ فكر مركز على الله ونظر موجه الى الله ، أى مجموعة لغوية ممتازة (الوحى) أو (كلام الله) ؛ فحقيقة العالم الخارجى ، والتاريخ واحكام السلوك الانسانى مستنبطة من الوحى ؛

ـ الاستنباط من الموحى به بمنطق خطى قائم على المقولات واستنباطى ؛ أو صب رؤى الخيال المبدع على هذا الموحى به ؛

ـ تفكير جوهرى ذاتى ثابت ؛ فالالفاظ تدل على وقائع جوهرية مستقرة ما دام الله لم يغيرها ؛

ـ موضوعية وتاريخية ونزعة الى فقه اللغة تجلت فى الفكر الاسلامى فى العصور الاسلامية وعززها الفكر الغربى منذ القرن السادس عشر وابدال النظرة المركزة على الله نظرة مركزة على الانا الانسانى السائد (الانسية) ، (الا أن هذا الابدال لم يكن قط حاسما كما يعتقد التفكير الاسلامى الدفاعى الذى لا يزال يعارض غربا وثنيا ماديا بشرق موحد روحى) ؛

ـ تفكير تكوينى (الاصل والغاية) معيارى وعقائدى •

مسلمات الفكر الحديث :

ـ انبثاق ذات متجاوزة للافراد خاضع لانواع القسر البيوكيمياوى واللغوى والاجتماعي والبيئوى والكونى هو محل ضروب من الاكراه حيوية كيميائية ولغوية واجتماعية وبيئية وكونية ؛

ـ لجوء الى منطق جدلى والى ضروب من المنطق الجمعى ؛

ـ نظرة نقدية الى الانسان العيانى والعالم والتاريخ واللغة فى سبيل معرفة ايجابية قائمـة على التجـريب ؛

ـ نظرات لامركزية؛ فتحة افتراضات بنائية وتكوينية ووظيفية وتطورية وغيرها ···

ـ تمييز بين الاسطورة والتاريخ ؛ ادماج تاريخية الوجود الانسانى فى الفكر

ـ تمييز بين الاسطورة (الميث) والتاريخ ؛ ادماج تاريخية الوضع البشرى فى الفكر والعمـــل ؛

ـ عالم الانسان الرياضى وعالمه الرمزى ووضعه اللغوى (12) ·

ان مجرد تعدادنا يكفى أن يوحى بسعة الاستحالات الجارية فى ما هو معروف معرفة قليلة من مشكلات تاريخ الفكر الكبرى.فى الميدان **اليونانى السامى** (13) · ونحن نفقه كذلك لماذا نستعجل اتمام المنهج الوصفى بمنهج تحليل البنية أو بمنهـج الآثار فى دراسة الفكر العربى : فالمنهج الثانى وحده يتيح لنا أن نعين مكان الفكر القديم من الفكر الحديث تعيينا علميا فنضع حدا للتلاعب التمجيدى الذى يسقط على الفكر القديم مكتسبات الفكر الحديث كأنهما ينتسبان الى عالم عقلى متجانس (14) · زد على ذلك أن المنهج الاثرى يبعث مشكلة خصبة لا تزال محجوبة بالتاريخ المثالى الذى يستهدف الارشاد الدينى والاخلاقى والقومى ···) : وهى مشكلة **اللامفكر فيه** فى كل أثر فكرى · ومن الجدير بنا أن نقف وقفة أو بعض وقفة عند هذه النقطة حتى نســوغ النظرة الجديدة التى نحاول أن نعرفها ·

العلاقة بين اللامفكر فيه والمفكر فيه

يبدو للوهلة الاولى أن كل جهد فى حصر **اللامفكر فيه** يضطر الى الوقوع فى الخلط التاريخى ، فلان تفكيرا مّا اكتشف ميدانا جديدا ، يصبح تعيين **لا مفكر فيه** ممكنا من بعد · الا أن هذا الخطر الفعلى لا يعنى أنه غير قابل للتذليل ، فالواقع أننا نستطيع أن نفتـــرض :

1) أن كل تفكير مأخوذ فى مرحلة من مراحل تطوره يكشف عن وجه ايجابى وعن وجه سلـــبى ؛

2) وأن كل سنة فكرية تتكون بضغط اصطفاء على نفسه وعلى التيارات الغربية التى تحاول التغلغل فيها (51) ٠

سندرك قوة هاتين القضيتين ادراكا أحسن بايضاح محتوى مفهومى **اللامفكر فيه والمفكر فيه** ٠ فان **اللامفكر فيه** يشمل حسب الازمنة التاريخية المعتبرة ، ما يلى :

1) **ما لا يمكن التفكير فيه** نظرا الى العناصر الفاعلة لليقين الانسانى والى الجهاز المفهومى والمقولات العقلية وأبنية المعنى التى تتحكم على كل عملية التعقل وعلى التعبير فى اللغة ، فى اللحظة المعتبرة ٠ وهكذا نرى أن عناصر اليقين التى مكنها القرآن الكريم والتصويغ الادبى والتصيير المقولى والتصيير الموضوعى التى نتجتها العلوم المتسمة بالدينية،جعلت الزندقة وما يقترب بها من الاغراض كالعلمانية والمأساة فى الوضع البشرى والعبث والتمرد ، **مما لا يمكن التفكير فيه** ٠ وموقف السنة من التوحيدى والمعرى ذو دلالة فى هذا الصدد (16) ٠

2) كل ما يتجاوز **حد** المعرفة العلمية الذى لما نتخطاه وهو قابل للتخطى : نذكر أمثلة الرحلات بين الكواكب وزرع القلب فى زماننا أو دوران الارض حول **محورها** ودوران الدم والكيمياء العضوية وغيرها فى عصور الاسلام الزاهرة ٠ وهذا الحد ؛ على حسب الثقافات والعصور ، « مفكر فيه » أى مغطى بمفهومات غامضة كالطبيعة والسر والفائق الوصف والغيب والالهى والحقيقة والبداهة وغيرها ٠ ونحن نملك من هذه الوجهة أن نتكلم عن **اللامفكر فيه** فى الفكر المعاصر الذى بلغ فى التقدم أعلى درجة ٠

3) **الملبس :** فقد بين نقد المعرفة الذى أطلقه التحليل النفسى وفلسفة اللغة كيفية تحويل الفكر للواقع الى ما نسميه **المجال النطقى** Logosphère الذى هو محل اسقاط وتكوين ونقل للتصورات الاسطورية والمراسم العلمية والمنظومات المفهومية التى تنكر المعطى الايجابى بدرجات متنوعة ٠ وهكذا تألفت الاقوال الاسطورية والايديولوجية التى يسعى الى هدمها الفكر الايجابى اليوم حتى يبلغ المعطى الذى بقى غير مفكر فيه ٠ وهذا ما نقصده فى التفكير العربى الاسلامى ٠

4) **المكبوت و الراسب** اللذين ينتجان من أسلوب ثابت من التفكير العلمى وبصفة أخص،من التفكير الدغماتى فى خدمة العقيدة القويمة (17) ٠

5) **المنسى** الذى قد ينبعث ، مع ذلك ، فى سنة فكرية معتبرة من زاوية الديمومة الطويلة ، وهكذا نرى أن الاعتزال المكبوت تدريجيا المحصور الى حالة الباقى ثم المنسى قرونا طوالا ، انبعث فتجدد فى الشطر الاول من القرن العشرين ٠ ان المدخل السلبى لتاريخ الفكر يفرض بحثا منيرا يهمله المدخل الايجابى : فمن المناسب أن نعد **سوسيولوجية النسيان** بدلا من أن نحلق بازدراء فوق قرون « انحطاط » التاريخ الاسلامى ، اذ لا نصادف أى « عبقرية » نرفعها ولا أى مبتكر جدير بلفت نظرنا ولا أية مادة خاصة تغذى الكلام الايجابى ٠ ما هى الموضوعات والمشكلات والمشاغل والحلول التى تختفى من الافق الفكرى لزمن من الازمنة ولجماعة من الجماعات ولمنطقة من المناطق ؟ كيف يتدرج الاختفاء ؟ لم يفرض نفسه ؟ ان الاجابة عن هذه المسائل تضطر المؤرخ التقليدى الى أن يتم بحثه فى « الوثائق » المكتوبة عن الفكر المؤنس ببحث عن « الفكر الوحشى » ٠

ونحن نرى كيف يضطرنا اكتشاف **اللامفكر فيه** الى أن نعيد اعتبار ما نسميه على عجل الفكر فى ميدانه ومحتواه ووظيفته ٠ ان الفكر بالمعنى الواسع يشمل النشاط النفسى كله ، وقد كتب ديكارت عنه فقال : « أنا شىء يفكر أى يشك ويجزم وينكر ويعرف قليلا من الاشياء ويجهل كثيرا ويحب ويكره ويريد ولا يريد ويتخيل كذلك ويشعر » (التأملات ، 3) ٠ واذا اقتصرنا على هذا التعريف فنحن لا نستطيع أن نخط حدا واضحا بين اللامفكر فيه والمفكر فيه : ان فلسفة الانا الديكارتية تكشف بهذا تشابهها أو اشتباهها وينجم عن ذلك أنها تكشف ما فيها من لا مفكر فيه ٠ وثمة فى كل ما يصيب الشعور حظ عظيم من لا مفكر فيه يسهل علينا أن نعلمه ونكشفه اذا اتخذنا التفكير بالمعنى الدقيق كمعرفة بالمفهومات أى اجتهاد « الفهم والعقل من حيث يتيحان لنا أن نفهم ما يؤلف مادة المعرفة ومن حيث يحققان درجة من التركيب أعلى من الادراك أو الذاكرة أو التخيل » (18) ٠ ان سبل **الفهم** وأصوله وامتداده تتغير بتغير الازمان والمناطق الثقافية ولكنها تظل المعايير الاساسية لدراسة علاقة اللامفكر فيه والمفكر فيه ٠

ومن النتائج التى سنعتمد عليها فيما يلى ، أن التفكير ميدان معارف مفتوح بالضرورة بما أن فعل الفهم يتم فيه بحيث نجد أن « ما نصرح بـ « فهمه » لا يمكنه أن يكون غير ذلك وأن مناقضه ان كان فهو باطل » (19) ٠ يتضمن هذا التعريف :

1) أن المفكر فيه فى تراث ثقافى واحد فى وقت ما قد يظهر أنه مفكر فيه بنقص أو مفكر فيه على طريقة سيئة ، بل غير مفكر فيه ـ فى حالة الانقطاع الابستمولوجى ـ ٠

2) وأن المفكر فيه ومقابله الملازم اللامفكر فيه لهما بنيات مختلفة فى تراثين ثقافيين أو أكثر ٠

3) وأن ما ندرسه باسم الادب ولا سيما اللغة الشرعية والدينية ، **قد** يغنى التفكير ويفتح له آفاقا جديدة ويؤيده ويهيجه من غير أن يحصر الى ميدان المفكر فيه ولا الى ميدان اللامفكر فيه ٠ والادب بهذا **الموقع** يمثل فى شكل تعبيره وفى شكل محتواه ثروة تخترق الفلسفة وتتجاوزها : فى الجانب الاقرب من الفكر (حدوس لم تصغ بعد فى عبارات) أو ما يعدوه (كالحدوس المسقطة فى الابتكار الفنى) ٠ ان هذا التمييز يتيح لنا أن نعرف منزلة القرآن الكريم فى الفكر الاسلامى على وجه الخصوص ٠

أما مفهوم **الغرب الاسلامى** فسنقف عنده وقفة أقصر ٠ نلاحظ أولا أن التعبير ليس له من معادل حرفى في المصطلحات الجغرافية السياسية العربية ؛ فقد طرحه المؤرخون الغربيون (وتسميتهم بالمستشرقين غير صالح فى هذا المقام) للقسم الغربى من العالم الاسلامى (صقلية وليبيا وتونس والجزائر وموريتانيا والمغرب والاندلس التى تسمى اسبانيا الاسلامية أيضا) ٠ وتتكلم المصادر العربية القديمة عن **صقلية وافريقية والمغرب الاوسط والمغرب الاقصى والاندلس** ٠ الا أنها لا تجهل الخصائص السياسية الجنسية الاجتماعية الثقافية التى تميز هذه المناطق ٠ وهكذا نجد أن الموقع الجغرافى ليس المسوغ الوحيد لاسم **المغرب الاسلامى** ؛ فهو يفرض نفسه على المؤرخ وعالم الاجتماع وعالم الاجناس وعالم اللسان الذين يحاولون أن يتتبعوا صيرورة البلد **الحق** غير مقتصرين على صيرورة البلد الذى وصفه وصفا جزئيا المؤرخون والادباء المسلمون فى العصور المختلفة ٠ ونحن نجد منذ القرن العاشر تعبيرا « غربيا » عن الاسلام ينافس التعبير « الشرقى » أو يعارضه ٠ ويتطلب الاهتداء الى هذا التعبير تجاوزا لمنهج المؤرخين ووثائقهم المفضلة حتى أيامنا هذه ٠ وبعبارة أخرى ما يزال مفهوم **الغرب الاسلامى** فى حاجة الى النحت حتى يفرض نفسه فرضا أحسن ٠ وهذا ما نحاول فى صدد الفكر ٠

والشام أثناء التنازع على الخلافة. وينبغي لنا أن نتخلى عن المصطلحات الجدالية (الخوارج) التى أملاها الادب الاسلامى (اسلام الامويين والعباسيين) وعمل على استمرارها الى أيامنا هذه بعض الدراسات الاسلامية (21) حتى نفسر تفسيرا صحيحا اصطدام العقيدة الجديدة بمجتمع خاص (ان لم يكن تماثل فى الابنية والوظائف فثمة تشابه بين المجتمع العربى البدوى والمجتمع البربرى فى الجاهلية) . صحيح أن الخوارج الاباضية فى وادى ميزاب مجمدون فى شكل من الفكر أكل الدهر عليه وشرب بيد أنهم لا يزالون يعبرون تعبيرا بربريا عن **تجربة المدينة** كما أدركها طائفة من المسلمين وفهموها ودعوا اليها ونشروها فى القرن الثامن .

2) ان الفكر الفقهى الخلقى المالكى كان أكثر تأثيرا وانتشارا ودواما من كـــل أشكال الفكر التى أدخلها المسلمون فى الغرب الاسلامى . وقد ثبت هـــذا المعطى الاجتماعى الثقافى ثباتا جعله يشرط النشاط الفكرى كله من الوجهة العملية فى المغرب الاسلامى منذ ادخال المالكية سنة 796 حتى دخول الحداثة . ومنذ سنة 808 أثبتت ثورة الربض الشعبية قوة فقهاء المالكية الذين استطاعوا أن يؤلبوا الرأى العام على أمير اباحى (22) . وتشهد هذه الحادثة على ارتقاء طبقة الفقهاء الذين لا تأخذهم فى الله لومة لائم ويصدعون بالحق ويقفون فى وجه الفتن والخطر المحدق ؛ الا أنها تشير كذلك الى قوة الاندماج الاجتماعى الثقافى لهوية « اسلامية » تعبر عن نفسها فى نطاق المالكية الفكرى الخلقى الفقهى المذهبى .

لقد حاول الباحثون أن يدركوا أسباب نجاح المالكية الساحق الذى لا جدال فيه والمذاهب الاخرى تنافسها ودخولها يرجع الى مجرد طارىء سياسى (هو معارضو الحكم العباسى الذين فروا الى الاندلس) (23) . وقد طال البحث عن التفسير الاجتماعى فكان السؤال ألم تكن مناهج الفقه المالكى خيرا من غيرها فى استطاعتها مسايرة أعراف المجتمعين الاندلسى والمغربى وارضاء مطامحهما العميقة « فى ظل الاسلام » ؟ ومن المناسب أن نتابع هذا البحث ونحن أكثر اعتبارا لواقعات لم يشر اليـــها الباحثون حتى الآن الا بعض الاشـــارة .

2 أ) لم يعرف المجتمع الاندلسى ولا المجتمع المغربى التوتر الثقافى الذى أدى الى كل ما فى المذاهب والمدارس الفقهية من غنى والى الحركة الفكرية فى فارس والعراق من القرن السابع الى القرن الثانى عشر • وقد شهد المؤرخون هبوطا فى التوتر أضر بالحياة الفكرية للمسلمين جميعا لما رجعت فارس القهقرى الى حدودها وارتدت الى لغتها وتقوضت بدار الاسلام فأمست هى وغيرها من الولايات أشلاء (ثمة أسباب تاريخية أخرى لهذا الهبوط لا تجدى اثارتها فتيلا هاهنا) • وذلك يفسر تعلق الاندلس الثقافى بالشرق حتى القرن العاشر على أقل تقدير ؛ أما افريقية فقد ظلت تيمم وجهها شطر الشرق حتى القرن الثانى عشر لما اهتم الموحدون ثم الحفصيون ومسلمو الاندلس بالآثار الاندلسية • وقد كان ابن حزم مضطرا فى القرن الحادى عشر الى أن يرد على مآخذ القيروانى الذى كشف اللثام عن تأخر أهل الاندلس • والواقع أن ابن حزم يقيم البرهان على ضعف الفلسفة والكلام والعلوم والمناقشة بين المدارس من حيث لا يريد (24) •

2 ب) لم يكن البربر والاسبان ليملكوا أن ينتسبوا الى لغة ولا الى أثر ثقافى ولا الى دين ولا الى خبرة دولية أفعل مما حق على مصر والشام والعراق من لغة وأثر ثقافى ودين وخبرة دولية • وقد فكر ابن خلدون فى هذا الوضع فكتب قائلا بأن المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب فى شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده •

2 ج) ان التنافس بين أمويى الاندلس والعباسيين رجّح وغلّب موقفا اصطفائيا من تيارات الفكر فى الشرق • ينبغى لنا أن نذكر كذلك أن الحملات النصرانية (سقطت طليطلة منذ سنة 1085 وقرطبة سنة 1236) جعلت الاندلس تنتقل من ايديولوجية الاندماج الى ايديولوجية الجهاد : فقد اشتد الاصطفاء وأمسى قمعا لكل مذهب مبعد عن الالتزام (أنظر أمثلة المعتزلة والشيعة والفلسفة والغزالى) • وابن حزم نفسه الذى حاول الطبع العقلى للفكر الدينى باستسلام للنص القرآنى الظاهر زالت حظوته ، وابن طفيل كاد يسلم بالتصوف واضطهد ابن رشد نفسه وهو سليل أسرة من كبار قضاة المالكية ومجتهد من الطبقة الاولى ، ونقد ابن سبعين (المتوفى سنة 1269) أعظم مفكرى « الشرق » بطبع حاد ولهجة شديدة ؛ الا أن عناصر نقده

الايجابية فقدت قوتها الايجابية،ذلك بأن العقل التحليلي انتهى بزوال نفوذه لصالح الاعترافات الغنائية ونظرة العارف التضمينية • وفى خاتمة المطاف نجد فى الادب أن اختيار آثار الجاحظ المدروسة سراب خادع وأن الشعر عرف الرقابة الذاتية والرقابة الدينية (والامر بالمعروف) (25) •

2 د) سواء على الفكر المالكى أأدى وظيفةايديولوجية الاندماج أم ايديولوجية جهاد ، استطاع ، وهو التعبير المسيطر للفكر العربى فى الغرب الاسلامى (ما عدا الموحدين) أن ينشر « أبنية قابلة التصديق لعالم احتمالى » (26) • ان هذا العالم عالم « اسلامى » ينحصر الى ما تعترف به **المدرسة** من رؤية تاريخية وتعبير خلقى فقهى مذهبى وعالم جغرافى سياسى : وهذا ما يعين مدى واسعا من **اللامفكر فيه** داخل الاسلام بالقوة وداخل اسقاطه التاريخى الجارى بل فى الواقع التاريخى الاجتماعى للمحيط النصرانى الذى كذب فى اسبانيا من بعد تكذيبا **اختباريا** تاما الكلام التبريرى الشرعى الاسلامى وما يعزره من مناسك وفروض وشعائر اجتماعية وضروب **العلامات** الاجتماعية الثقافية فى اللغات والزى واللباس وأثاث البيت والمطبخ والمحرمات وغيرها •

أو نكون فى حاجة الى أن نوضح أنا لا نؤاخذ الفكر المالكى على جهله التاريخ وعلم الاجتماع الوضعيين ؟ وأن نجاح الحملات النصرانية لا يتضمن أبدا مسيرة للفكر النصرانى أقرب من الواقع والحق وأهدى سبيلا ؟ بل تحليلنا يرمى الى أن يبين الموقع التاريخى لاطر الفكر الاسلامى العلمية (كان الفكر النصرانى يستخدم كلاما فى التبرير الشرعى معادلا فى النقاط كلها الكلام الذى ندرسه) بموازنتها بأطر الفكر الحديث العلمية : وقد رأينا أنها موازنة لا غنى عنها فى جعل الفكر الاسلامى يتدبر مدلول الانقطاع الابستمولوجى فى العصر الراهن (27) • واذا أردنا أن نرهف أدواتنا فى التحليل قلنا بأن « أبنية قابلة التصديق » تخالف **استراتيجيات الفكر الوضعية** لتمكين الانسان فى العالم كما هو ؛ كلام التبرير الشرعى الذى يفرض سلوكا وتصرفات بمبادىء ايديولوجيا (قال المذهب المالكى أو الحنبلى كيت وكيت فيجب العمل بقول

المذهب) يخالف كلام **توليد الافكار** الذى يرمى الى أن يدفع الفكر على كل ما يقوى على تصوره من طرق والى أن يستخدم كل ما يقتضيه موضوع الدراسة من افتراضات والى أن يجند الحيل والوسائل كلها ويرمى آخر سهم فى كنانته حتى يستوعب الآفاق ٠

2 و) اذا أردنا أن نعلم حدود انتشار الفكر المالكى وأثره وجب أن لا يعزب عن بالنا أن التنشئة الاجتماعية للوعى لدى المالكية يتم بمسلمتى الادماج والابعاد : ادماج البربرى الجبلى أو البدوى أو الفلاح الذى تخلى عن شرعيته « الهمجية » لينحنى للمعايير والقواعد التى وضعها الحضر لانفسهم عامة ، وابعاد من عداهم نخص بالذكر الذميين الذين يصبحون خطرا حيث يكثرون ٠ وقد نجم عن ذلك فى المغرب القطيعة المعروفة بين دولة المدن من صوب والريف والجبال والصحراء من صوب آخر ٠ ودارس الاجناس فى أيامنا هذه لا يزال يكتشف بقاء الابنية الجزئية بكل ما يتولد عنه من عواقب اجتماعية سياسية (28) ٠

3) أية علاقة نستطيع أن نقيم بين هيمنة فكر صوفى ثم طرقى ومرابطى منذ القرن الحادى عشر وضغط الحملات النصرانية على الاندلس تبعها غزو الغرب النصرانى للعالم الاسلامى من القرن السادس الى القرن التاسع عشر ؟ ونحن لا نستطيع فى الحالة الراهنة للابحاث أن نجيب عن هذه المسألة التى تتيح لنا أن نطرق مصير الفكر العربى فى المغرب فى كل عظمته التاريخية والاجتماعية ٠ وترمى مسألتنا كذلك الى الارتياب فى ثلاثة تفسيرات جارية : الاول منها يقوم على السمو باللغة « الصوفية » آخذا أوصافها « الروحية » بحذافيرها والثانى يقوم على البحث عن عوامل الجمود فى أبنية الثقافة العربية الاسلامية وحدها والثالث يقوم على أن يرمى على ظهر « الغرب النصرانى المتسلط » مسؤولية تضييق آفاق الفكر العربى كله (ويرى بعض القوميين العرب أن العثمانيين يشاطرونه المسؤولية) ٠

واذا أردنا أن نبعث دراسة هذه النقطة الاساسية وجب أن ننتبه أعظم انتباه :

1) الى تحولات اللغة الدينية التاريخية التعليمية الادبية منذ القرن الثامن عشر ٠

2) والى أن موضوعى الجهاد والحنين الى عزة « اسلامية » مجرحة ثم مهدمة يظهران فينتشران (والمسألة أن نظهر كيف ينزع كلام ذو غاية نفسية اجتماعية الى أن يستبق كلاما ذا غاية معرفية لان الشعور الجمعى مكره على أن يذلل ما فرض التاريخ من خيبة أمل على حالة نفسية يحييها قول الله تعالى : « **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين** » •

وقد تكررت الظاهرة نفسها فى القرن التاسع عشر فى الكلام الاصلاحى لتذليل ما ولدته الحداثة من أزمة فى الوعى (29) •

3) والى امتداد ما سميناه **اللامفكر فيه** و **المنسى** و **الملبس** على حساب **المفكر فيه**

4) والى قراءة جديدة لابن خلدون (الذى ينصب العداء للفلسفة ولا يعبأ بابن رشد والذى سبت اللغة الصوفية قلبه) وابن الخطيب والمقرى وغيرهم فى سبيل تقويم للاستمرار والتقطع فى الفكر فى غضون مرحلة حرجة •

4) تنزع ايديولوجية البناء الوطنى الى أن تحبذ فكرة استمرار التراث الاندلسى والتراث العربى الاسلامى • ومن العدل أن نعترف بأن المغرب حتى الاستقلال الحديث لم يتقبل من الوجهة الفكرية السنية **أى تيار** من التيارات غير المالكية التى ارتاب فيها الناس وقضوا عليها فى الاندلس من قبل • ولهذا يرمى منهجنا فى البحث الى أن يجمع عناصر فى سبيل **سوسيولوجية الاخفاق** لأكثر تيارات الفكر العربى الاسلامى انفتاحا ونقدا وتجديدا • ولا يتعلق مدلول سوسيولوجية الاخفاق أبدا بالتاريخ الراوى الذى يهتم بالواقعات والامجاد والعباقر ؛ الا أنه وأجب وجوب سوسيولوجية النجاح لاشكال من الفكر والكتابة أو معاودتها • وهذا ما يبرهن عليه مثل الفلسفة والعلوم التجريبية خاصة •

5) لم يكن فى المغرب الاسلامى الا قليل من المشتغلين بالفلسفة : نذكر ابن مسرة (المتوفى سنة 931) الذى ترك من بعده خلفا من المتصوفة وابن باجة (المتوفى سنة 1138) الذى علا كعبه واضطهد فى عهد المرابطين وابن طفيل (المتوفى سنة 1185) وابن رشد (المتوفى سنة 1198) اللذين كانا محظوظين بالحياة فى ظل

أميرين من الموحدين يحبان الفلسفة • ونحن نستطيع أن نذكر كذلك المفكرين اليهود الذين كتبوا باللغة العربية : اسحاق الاسرائيلي (المتوفى سنة 932) المصرى الذى عاش فى القيروان وابن جبيرول (المتوفى سنة 1058) ونخص بالذكر ابن ميمون (المتوفى سنة 1204) الذى ترك الاندلس والتجأ الى مصر . ثمة العلماء كذلك كأبن زهر الزهراوى (المتوفى سنة 1009) وابن البيطار (المتوفى سنة 1248) والمجريطى (المتوفى سنة 1007) وغيرهم •

ان سيرة هؤلاء المفكرين تبين أنهم عملوا وهم يخشون الفقهاء فيضطرون الى مراعاة آراء أهل السنة والجماعة • وهذا ما يفسر ضياع آثارهم والنسيان الذى ضرب على تعليمهم بعد موت ابن رشد • وان النجاح العظيم الذى أحرزه الفكر الرصين لابن رشد فى الغرب النصرانى وجهل العالم العربى له حتى القرن العشرين لذو دلالة • وان يرى ابن طفيل ، وهو يدافع عن استقلال العقل ، رأى الموحدين فى الخضوع للمهدى المأذون له بتفسير الشريعة ، أمر ما هو بأقل دلالة (29 أ) •

6) كان لجاك برك الفضل فى تأليف كتاب من الكتب التى اتبعت نمطا من البحث نادى به • والصدى القليل الذى بعثه هذا الكتاب يوضح النزعات التى ما تزال تسيطر فى العلم الجامعى المطبق فى الميدان الاسلامى • وقد درس مع ذلك «مشكلات الثقافة المغربية فى القرن السابع عشر » (30) دراسة قائمة على الحوادث الواقعة فى وقت واحد تستحق أن تعاد فى كل ما فى المغرب من وحدات اجتماعية ثقافية معتبرة فى منعطفات من تاريخها • ويبدو لنا أن نتائج التحليل توحى الينا بأفكار ايحاء قويا يدفعنا الى أن نجمعها هاهنا مبينين مغزاها فى بحثنا الخاص •

أ) ان آثار اليوسى ـ وهو من مولويا العليا درس بتافيلالت وعلم عند الصنهاجة وتوفى بفاس ودفن بسفرو ـ « وكلها أماكن توجد فى الطريق السلطانى الى الاطلس الاوسط » الممتازة فى الاطلس الاوسط» ـ تكشف عن التوترات والتناقضات والضغط الاجتماعى فى ثقافة المغرب المقطوع عن آفاقه الاندلسية وينابيعه الشرقية والذى

يشتد رجوعه الى ضروب الامكان الثقافى **المصطفاة** فى غضون القرون الماضية ٠ فما هى ضروب الامكان هذه وكيف استخدمت ؟

ب) ان مدرسة القرويين فى فاس تجمع أهم الوسائل وتمارس السلطان الفكرى العلمى المذهبى المطلق ٠ وقد اقتدى بها المدارس والزوايا التى كثرت منذ عهد المرينيين فنسخت عنها « نسخا تقليديا » (بالمعنى الاجتماعى الذى حدده ب ٠ بورديو) ولم تكون نخبا جديدة من العلماء ٠

ج) « نظمت فاس علم بعض الشيوخ الكبار ووجدان المتصوفة تبعا لبنيتها الحضربية» ٠ ومنذ ذلك الوقت يتخذ مدلول المدرسة صورة المجمع العلمى الادبى والاهتداء بمن سبق والرقابة الغيورة وهى صفات تسم كل تعليم مدرسى ٠ والمهاجرون من الاندلس عززوا هذا التطور السلبى للفكر : فقد كونوا طبقة من المسلمين اجتثوا من أصولهم واستولى عليهم الحنين الى الاندلس ودارت عجلة الزمان بهم وعضهم الدهر بنابه وأبوا المحيط البربري وهم الحضر الذين همهم القول الجميل والعيش الظليل ٠ ولم تكن وظيفة هذا الفكر الكلامى اندماج الشخصية فى المغرب الاقصى، فقد أثبت تعارضا خطيرا بين معرفة منطوية على مصادر محلية وأشكال جامدة من التعبير ولغة عربية فصحى لكنها أفقرت وبين الحياة الغنية الصاخبة لجماهير الشعب وكلامهم الحى (العربى والبربرى) ومدخراتهم من الطاقات والايمان فى عصر فقدت القدرة على انفاقها في فتوح اسلامية كبرى كما كانت الحال فى عصر المرابطين والموحدين ٠٠٠ وثمة كذلك « محاباة القداسة » والعلم التى تعبر عن الجنوح بثقافة فى خدمة مصالح معاشية واجتماعية لـ « صفوة » قليلة من الناس ٠ وليس بالشيء العجاب « أن يساير استنباط شرع ذرائعى فى هذه « الثقافة » تاليف كتب عن «سير الاولياء» وأن لا ترحب الصفوة بالعناصر الشعبية كل الترحاب وأن تنكرها فى تعبير « عربى اسلامى » فى أغلب الاحوال ٠

د) بقى علم الفقيه المقطوع عن مصادر الشرق وشيوخ الاندلس يعارض علم الصوفية فى القرن السابع عشر؛ بيد أن التطور نحو هيمنة علم الصوفية هذا قد استأنف

بالتحولات التى اقتضاها التسليم بما تطلب الجماهير • وفى غضون هذا الانتقال من اسلام الحضر الكتابى الحالم الطوباوى (وهو الموضوع المتسلط المشهور **بالمدنية الفاضلة**) الى الاسلام الشعبى المعتمد على الطرائق ، كثر « المتظاهرون بالتنسك والدجالـون والمشعـوذون والقضـــاة الجشعـون والعلمـاء المنتفخـو الاوداج » • وتمحى الحـدود بين علوم كانت متميزة بل متنافسة على قدر ما يخلى العقل مكانه للحماسة الغنائيـة ولغزو العقائد الباطلة والمعطيات الاختبارية والابنية الخيالية والتمائم والشواهـــد المتأثرة والاوراد والذكريات والحكايات والنوادر (أنظر **فهرست** المرغيثى) •

و) نرى أن التغيرات الحادثة فى نشاط الفكر العربى نفذت الى مستوى الايبستمه Epistemé وهذا ما أكده بحثان جديدان آخران فى نطاق تونس (31) • لكن يجب أن لا ننسى أن نمط الفكر الذى استخدم بين القرنين السادس والتاسع عشر، أسهم بلا شك فى تعزيز **هوية اسلامية** فى المشاعر الجمعية على رغم انقطاعه عن الفكر فى عصور الاسلام الزاهرة أو على رغم ضعفه نظرا الى ما طرحه مجتمع المغرب من مشكلات • يجب أن نميز هذه الهوية الأسلامية من **الفكر الاسلامى** • فالاسلام الذى نشره المرابطون الدعاة فى مغرب « وحشى » رحب به أناس لم يكونوا ليملكوا أية عقيدة أدعى للسكينة وأكثر اقناعا ترحيبهم بعامل ادماج ورغبوا فيه رغبتهم فى عامل رفع الى منزلة انسانيـــة ســـاميـــة (32) •

وهذه **الهوية الاسلامية** أكثر من الصيغة العلمية للفكر العربى ، هى التى مكنت شعب المغرب من المقاومات الكبرى والجهاد فى سبيل الله كلما تهددته دار الحرب أو غزته أو تسلطتعليه (أنظر ثورات التحرير الاسلامية كجهاد المسلمين الاتراك ضد الاسبان وجهاد الامير عبد القادر الحسينى والشيخ أحمد المقرانى والشيخ الحدأد وسنة 1954 ضد الفرنسيين فى الجزائر وجهاد الامير عبد الكريم الخطابى ضد الاسبان فى الريف وجهاد تونس ضد الفرنسيين وجهاد السنوسية وعمر المختار ضد الطليان فى ليبية) •

7) ان هذا العرض التاريخى الاجتماعى السريع يجب أن يتمه تحليل الموقف أو الوضع « الحديث » ولا سيما منذ استقلال المغرب الاسلامى فى العقدين السادس والسابع من هذا القرن العشرين • بينا فى مطلع هذا البحث أن الفكر العربى الا سلامى

داخل فى مرحلة من النشاط والتوسع تجاوز بها وجوه النشاط التى أشرنا اليها حتى الآن • غير أن المشكلات التى يطرحها ما يسمى التعريب فى يومنا هذا شديدة الاشتباك بحيث ان معالجتها غير ممكنة فى فقرة • وحسبنا أن نقول : ان تعميق الواقع التاريخى الاجتماعى فى الخط الذى أتينا على رسمه لابد من أن يسبق كل سياسة سلمية للتعريب.

3 ـ 2) أنماط الفكر المنتشرة : فى سبيل تاريخ عميق للفكر العربى •

لا نملك أن نعالج هذا الباب من العرض برمته • فالواقع أن همنا ما هو بأن نقتصر كذلك على المنهج الوصفى الذى يعتبر الاطر والمواد التى خلفها الفكر الاسلامى لدراسة علم الكلام والفلسفة وأصول الفقه والنحو وغيرها دراسة فصحية • قلنا : ان هدفنا أن نحاول إعادة تصنيف لانماط الفكر الداخلة فى المغرب الاسلامى متخذين الايبستمه (épistémê) معيارا • فيجب أن نبلغ بنية المجال العقلى العميق الذى مكن المؤلف الواحد (أنظر ابن حزم وابن رشد والخطيب وغيرهم) من الاشتغال بعدة مواد ، ففرض التمييز بينها لاسباب جدالية أو ايديولوجية أو مدرسية •

ان دراسة مقدمات الفكر التى تصلح قاعدة لخطابات فترة بكاملها قد تكشف عن السداد العلمى لتقسيمات موروثة عن الماضى : وفى هذه الحالة نستطيع أن نفهم فهما أجود السبب الذى جعل قومنا لا يحسنون الترحاب بمادة كالفلسفة على حين ازدهرت مواد أخرى مدة طويلة •

يسهل علينا أن نرى العقبات التى تمنع من انطلاق دراسة كهذه الآن : ذلك بأنه لا ينبغى لنا أن نقتصر على قراءة جديدة لنصوص أمهات الكتب **كلها** فى منظور مختلف عن منظور تاريخ الافكار بل يجب أن نطلع على الدراسات الحديثة **جميعا** كذلك حتى نستمد منها المعلومات الصالحة لان تثمر من جديد فى المشروع الجديد • ولا يستطيع أن ينجز هذا العمل الا جماعة من الباحثين تشدهم اختيارات ايبستمولوجية واحدة • وانما نقترح برنامجا ممكنا للبحث هاهنا آملا أن نبعث مواهب الطلبة من مراقدها •

ثمة مشروع عام ينبغى له أن يثير اهتمام الباحثين فى فقه اللغة والتاريخ والفلسفة جميعا بيد أنه لم يبعث بعد الا محاولات وجلة : ألا وهو مشروع يرمى الى أن يحـــدد

دراسة أنماط الكلام أو الخطاب Discours في داخل كل دائرة لغوية • وانما يجدر بنا أن نتعاون على هذا المشروع فى مثل دائرة اللغة العربية • الا انه يجب أن نبين أن دراسة تقتصر على وصف الانماط (تصنيف الكلام على حسب القواميس وأساليب تلفظ الفكر التى تتجلى فيه) لا تجعلنا نسير فى سبيل تاريخ الفكر العميق أبدا • ان دراسة الانماط التى نرمى اليها لا تنفصل عن دراسة الانماط المعنى كما اقترحنا فى دراسة خلت (33) •

ان محور كل الفكر العربى الاسلامى تمثله المطالبة بوجود دلالة أخيرة للالفاظ ؛ والحال أن هذا الوجود أصبح **يبعث الشك** فى نظر الفكر المعاصر • فالفكر **العربى الاسلامى** لا يستحق وصفه المزدوج من الآن **الا اذا واجه كل المشكلات الناشئة مما فى دلالة الالفاظ الاخيرة من طابع يثير الاشكال من الآن** منطلقا من ميراثه التاريخى • ينجم عن ذلك سلم مندرج تدرجا من المهام التى ينبغى للمؤرخ المفكر (المسلم أو غير المسلم) أن ينجزها فى الميدان العربى الاسلامى :

– بيان تاريخى بالخطابات المعروفة فى اللغةالعربية يتضمن الخطابات فى اللهجات الدارجة ؛ ومن الضرورى أن ندخل دائرة اللغة البربرية فى الغرب الاسلامى •

– دراسة انماط هذه الضروب من الخطابات من وجهة تزامن دينامكى •
Synchronie dynamique

– دراسة أنماط المعنى يصحبها بحث عن معايير ايبستمية فى سبيل تقسيم تاريخ مذاهب الفكر فى الميدان العربى الى عصور •

– كيف تتعاقب معطيات البحث فى دراسة الانماط ودراسة طوبولوجية المعنى فى سبيلها الى نظرية فى نشوء المعنى واستحالاته بحسب المثل العربى •

لابد من أن نوسع البحث ليشمل الميدان العربى كله ذلك بأن أنماط الخطاب كلها فى المغرب تقتدى قليلا أو كثيرا بما ظهر من أنماط فى المشرق (نستثنى من ذلك الزجل وربما استثنينا الموشح) • ان ضرورة كهذه تبدو جلية فى المالكية : فنحن لا نملك أن نبين تطورها الا اذا حددنا الخطاب ومعناه المستخدمين فى **موطأ** الامام مالك بن أنس • يجب أن نمتحن بتحليل للجهاز المفهومى ولاطار الفكر النظرية التى ترى أن مالكا وأبا حنيفة نهايتان لدور اختبارى حر ومنطلقا الاتجاه المذهبى فى تاريخ

الفقـــه (34) • « ان آثار التلاميذ « المغاربة » لا تتخذ قيمتها الحق الا انطلاقا من هذه المعرفة المضبوطة لآلات الفكر فى المصدر المقتدى به • ومن المفيد جدا أن نرجع الى آثار عديدة من **الموطأ** الى **مقاصد الشريعة** لعلال الفاسي والطاهر بن عاشور معرجين على سحنون (المتوفى سنة 240 هـ/سنة 854 م) ، والباجى (المتوفى سنة 474 هـ • 1081 م) • وابن عبد البر (المتوفى سنة 463 هـ/سنة 1070 م)، والقاضى عياض (المتوفى سنة 544 هـ/سنة 1149 م) ، وابن رشد (المتوفى سنة 594 هـ/سنة 1198 م) • وخليل (المتوفى سنة 767 هـ/سنة 1365 م) ، والشاطبى (المتوفى سنة 790 هـ • سنة 1388 م) ، وغيرهم (35) •

وفى هذه المسيرة التاريخيه الطويلة لن تعدم ضروب الخطاب التاريخى والكلامى والفلسفى وغيرها أن تنبثق : وانما يكمن أكثر أجزاء البحث جدة فى ما نولى ضروب الخطاب هذه معا من اهتمام حتى نرى مدى ما تخضع له من استراتيجية واحـدة للفكر ومسلمات واحدة وحدود مفهومية واحدة •

وقد بين روجه أرنلديز الصلات الوثيقة بين اللغة والفكر أو « النحو وعلم الكلام » فى آثار ابن حزم ؛ ولكن ينبغى لنا أن نمضى قدما فنؤلف من جديد دعامة فكريـــة تشمل كذلك مسلمات فى المعرفة التاريخية المنطقية النفسية السياسية الاخلاقيـــة الاجتماعية الدينية الادبية • ونحن لا نملك كذلك أن نفصل الخطاب الفلسفى ـ من وجهة النظر التى تشغلنا ـ عن الايبستمه التى انتشرت أعظم انتشار وأدرك أبلغ نجعة فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر (36) •

ينبغى لنا أن لا نعتقد بأن قرار جمع المبادىء الموحدة للفكر ـ أو لرؤية العالم ـ فى عصر من العصور يمنعنا من أن نحفظ ـ اذا اقتضى الحال ـ المسلمات والقواعـد التى تتصل بعلم واحد أو بضرب واحد من الخطاب • فينبغى لنا على سبيل المثل أن نتبع الخط **الدقيق** الفاصل بين الاستنباط القياسى والمنطق الثنائى القائم على المقابلات والاضداد (37) • ولهذا التمييز عواقب لا تحصى لا فى القراءة السليمة للآثـــار القديمة وحدها بل فى نشاط الفكر المعاصر كذلك •

* * *

نشعر بأنا قلنا كثيرا ولم نقل قولا شافيا فى موضوع يشغفنا حبا لانه حى . ونرجو أننا استنبطنا أربع واقعات لا غبار عليها ، وهى :

ـ عرف الفكر العربى فى المغرب الاسلامى طرزا من الوجود ما لبثت أن زالت بل مر على لحظات من التجمد ؛ فثمة تيارات تبشر بالخير لم يكن لها الا وجود زائل فكانت سحابة صيف عن قليل تقشعت يمثل بعضها مفكر واحد أحيانا (كظاهرية ابن حزم) ؛ وثمة تيارات أخرى استأثر بها جماعات لم يستسغهم المجتمع الكبير الذى كانوا يمارسون نشاطهم فيه ـ وذلك لاسباب منها لغتهم « العلمية » التى ما لها من صلات حية باللغة الشعبيـــة ـ .

ـ ان الاحوال التاريخية الخاصـة بالمغـرب الاســلامى ـ ولا سيما ارتقـــاء النصرانية العقائدى والمعاشى وبقاء عالم عربى ـ بربرى لا يأبه لما يربط من تضامن وظيفى مدنى بين الدولة والدين الرسمى والثقافة الرسمية ـ أبرزت قصور فكر منحصر فى عالم عقلى خاص بالعصر الوسيط .

ـ غير أن هذا الفكر استطاع أن ينشر **الهوية الاسلامية** ويغرسها فى الاندلس من قبل، لكنه نشرها فى المغرب أمدا أبعد وغرسها فى شعبه كله حينما فقد فكر اسلامى ديناميكى نقدى مبدع متفتح كما هى الحال فى القرون الاربعة الاولى من الهجرة ، فى فارس والعــراق والشـــام .

ـ اذا أدركنا هذه المعطيات رأينا أن فكر المغرب **سيكون** فى يومنا هذا نقديا تاريخيا مفككا للبنيات محرِّرا ومحرَّرا من الاساطير والايديولوجيات ضاربا جذوره فى واقع المغرب **كما هو أو** لن **يكون** .

التعليقـــــات

1 ــ يجدر بنا ، من وجهة نظر فكر المغرب التى نرمى اليها ، أن نشير الى أن ثمــة منشورات جديدة لباحثين فرنسيين لا تفلت من المآخذ الموجهـــة الى العلم الاستعمارى ؛ والمؤلفون ينزعون كثيرا الى أن يخفوا جهلهم الذريع بالاسلام وبالمغرب بمجاهرتهـــم الشديدة بالعداء للاستعمار ! ونحن نؤثر أن لا نذكر أسماء اجتنابا لجدال عقيم .

2 ــ نميز الايديولوجية من توليد الافكار : فالايديولوجية استخدام منظم اعتقادى وثوقى لمسلمات غــير مضبوطــة لتبرير عمــل جماعة من الناس : انها تعقيل باطـــل للمعنى لتعبئة الرغبات الكامنة المعترف بها لاكبر عدد من الناس ؛ أما توليد الافكار فهو جهد لاكثار موضوعات التأمل والتفكر وتوليد أفكار جديدة وتيسير نموها بكل ما أوتينا من قوة تعقلية وادراكية .

3 ــ أنظر دراسات الملتقى السابع الذى عقد فى تيزى وزو ، 3 مجلدات ، قسنطينة 1975/1395 .

4 ــ أنظر مقالاته وتعقيباته المجموعة فى انية وأصالة ، قسنطينة ، 1975/1395 .

(5) Cf. M. Watt, *Islam and the integration of Society,* London 1961. L'auteur n'accorde pas l'attention nécessaire à l'aspect linguistique de la fonction d'intégration de l'Islam classique.

(6) Sur cet important concept de *S. A. H. Cf.* A. Touraine, *Production de la société,* Seuil 1973

7 ــ ان المشاركين فى كل ملتقى يشيرون الى هذه الصعوبات فى الوصايا التى يجمعون عليها اشارة واضحة . ونحن نشهد بهذا الصدد أن منشورات وزارة التعليم الاصلى لا تزال قليلة؛ فلا تمكن من دراسة هامة للاسلام فى الجزائر المستقلة .

(8) Cf. *Nos Essais sur la pensée islamique,* Maisonneuve - Larose 1973 et *la pensée arabe,* Que sais-je ? P.U.F. 1975.

(9) F. Wahl, *Qu'est-ce que le structuralisme ?* Seuil 1968, p. 305.

(10) Sur ces concepts, cf. F. Braudel, *Ecrits sur l'histoire,* Flammarion 1969, pp. 41 sv.

(11) Cf. notre essai sur *Logocentrisme et vérité religieuse...,* in *Essais,* op. cit. pp. 185 sv.

12 ــ للكون وجود ومعنى قبل أن يعرفهما الانسان ويعبر عنهما ؛ راجع مثـــلا ابن حجر العسقلانى ، بذل الماعون فى فوائد الطاعون ، ودراسة
J. Sublet, *La peste prise aux rêts de la jurisprudence,* Studia Islamica, XXXIII.

13 ــ ينبغى لمؤرخ الفكر أن يسعى الى أن يرأب العالم اليونانى السامى الذى صدعه صدعا اعتباطيا المذاهب الكلامية الدوغماتية التى أكدها تاريخ الفلسفة فى جامعات الغرب . فلا يزال تاريخ الفلسفة يلقى الفكر العربى الاسلامى فى « شرق » غريب عن ارتقاء « الوعى الغربى » فى الخط اليونانى النصرانى . ففى الجامعات كلها يلقى تعليم الفلسفة العربية فى أقسام « الاستشراق » عندما توجد !

14 ــ لنذكر مع ذلك أن هذه المناورات ضرورية ما دامت اللغـــات الكلاميـــة التقليدية أو اللغة اللاهوتية المستحدثة ، تستجيب لحاجات نفسية اجتماعية . وفى الاسلام

لابد لنا من الوجهة النفسية أن نؤكد صلاح فكر اسلامى « أصيل » تجاه ما يتسم به الفكر الحديث من انتقادات جذرية .

(15) Cf. M. Arkoun, *La pensée arabe,* op. cit. chapitre IV.

16 ــ فى ملتقى تلمسان أبدى الشاعر العراقى وليد الاعظمى ، المعرى هداما للقيم العربية الاسلامية .

(17) Sur la dialectique des puissances et des résidus présente dans toutes les sociétés, cf. H. Lefèbvre, *Métaphilosophie,* Paris 1965.

(18) A. Lalande, *Vocabulaire de la philosophie,* P.U.F. 1960, s.v. pensée.

(19 a) Dans *La pensée arabe,* op. cit. et *Comment lire le Coran ?* in Le Coran, trad. Kasimirski, Garnier - Flammarion 1970.

(20) Cf. les travaux de J. Van Ess, A. Khoury, M. A. Shaban, M. Watt, A,O. Udovitch, Ch. Chéhata, etc...

21 ــ ومن هذا الوجه قلما تتيح لنا دراسات T. Lewicki العديدة على سبيل المثل ، أن نعثر على جماعة بربرية قحة فى ثوب اسلامى « منفصل عن أهل السنة والجماعة » .

(22) Cf. H. Monès, *Le rôle des hommes de religion dans l'histoire de l'Espagne musulmane jusqu'à la fin du califat,* in Studia Islamica XX ; R. Idris, *Réflexions sur le mâlikisme sous les Umayyades d'Espagne,* in Atti del terzo congresso di studi arabi e islamici, Napoli 1967.

(23) Cf. R. Idris, *op. cit. et M. Tabli, Kairouan et le mâlikisme espagnol,* in Etudes dédiées à Lévi-Provençal, I, Paris 1962, A. Turki, *La vénération pour Màlik et la physionomie du màlikisme andalou,* in Studia Islamica XXXIII.

(24) Cf. Ch. Pellat, *Ibn Hazm, bibliographe et apologiste de l'Espagne musulmane,* in Andalus 1954/1 ; Voir aussi, dans le même sens, *La risàla d'Al-Shaqundi,* trad. A. Luya in Hespéris XXII, 1936.

25 ــ أنظر احسان عباس ، تاريخ النقد الادبى ، بيروت ، 1972 ؛ Ch. Pellat, *Note sur l'Espagne musulmane et Al-Jàhiz,* in Andalus, 1956.

(26) Expression de Peter Berger dans *La religion dans la conscience moderne,* Centurion 1971, p. 85.

27 ــ ان هذا الايضاح يبين أن مدخلنا يجب أن يتثبت أمام جمهورين مختلفين : فينبغى لنا أن ننزع السلاح من « المتدربين بحرفـــة التاريـــخ » فاستعجلـــوا فضح الخلط فى التواريخ من غير أن يشعروا بأن تاريخا واسعا لا يعين الجمهور غير المطلع أبدا على أن يفهم علاقته بالماضى ؛ لكن ينبغى لنا فى الوقت نفسه أن نقنع القراء العرب المسلمين بأن تفكيك بناء الماضى لا يعنى هتك حرمته بالضرورة ولا يعنى هدمه بأية حال .

(28) Cf. J. Waterbury, *Le Commandeur des croyants,* P.U.F. 1975 et E. Gellner, *Saints of the Atlas,* London 1969.

(29) Sur le *Jihàd en Andalousie,* Cf. D. Urvoy, *Sur l'évolution de la notion de Jihàd dans l'Espagne musulmane,* in Mélanges de la Casa Velazquez, IX, 1973 ; cette étude comporte beaucoup de notations qui confirment notre présentation de la pensée ; Voir aussi, à titre comparatif, E. Sivan, *L'Islam et la Croisade : Idéologie et propagande dans les réactions musulmanes aux Croisades,* Paris 1968.

(22 a) Cf. M. Arkoun, *Présentation d'Ibn Tufayl, in les Africains,* tome 6, éd. Jeune Afrique, Paris 1977. Cette présentation est conçue comme une application au cas d'Ibn Tufayl, de la méthode générale définie dans la présente étude.

(30) Cf. Al-Yûsî. *Problèmes de la culture marocaine au XVII^e siècle,* Mouton 1958.

(31) Cf. A. Abdesselem, *Les historiens tunisiens des XVII, XVIII et XIX siècles,* Paris 1973.

32 ـ يتبين ذلك جليا من مأثورات بربرية شفوية جمعتها بنفسى بمسقط رأسى تاوريرت ميمون (بنى ينى) عن مرابطين محليين : آلا وهم سيدى على أو يحيى وسيدى الموهوب والى وسيدى يحيى . وقد أدى الاول خاصة دورا حاسما فى القرن السابع عشر (؟) فى اخماد نار الفتن التى كانت تمزق قبائل متناحرة وفى نشر الاسلام من بعد .

1973 ; J. Lévi-Valensi, *Fellahs tunisiens : l'économie rurale et la vie des campagnes aux XVIII et XIX^e siècles,* éd. Mouton 1977.

(33) Cf. *Pour un remembrement de la conscience islamique,* in Mélanges H. Corbin, Téhéran 1977.

(34) Cf. Ch. Chéhata, *Etudes de droit musulman,* I.P.U.F. 1971, pp. 11 sv.

(35) Cf. La thèse récemment éditée (S.N.E.D. Alger 1977) de A. Turki : *Polémiques entre Ibn Hazm et Al-Bàji sur les principes de la loi musulmane* apporte de précieux renseignements, mais ignore la notion de système de pensée que nous visons ici.

(36) Pour l'Ifriqiyà, Cf. Ch. Bouyahia, *La vie littéraire en Ifriqiyà sous les Zirides,* Tunis 1972. Il faudrait entreprendre la même enquête pour la pensée que l'auteur a malheureusement trop séparée de la littérature prise au sens étroit.

(37) Cf. L. Gardet : *La « théorie des oppositions » et la pensée musulmane,* in Revue Thomiste 1975/2.

المجهولون من زعماء المقاومة في الشرق الجزائري

د. يحيى بوعزيز
جامعة وهران



يمتاز الشرق الجزائري بتعقد تضاريسه ، وكثرة جباله ، من الناحية الطبيعية . وبكثافة سكانه من الناحية البشرية . ولذلك وجد الاستعمار الفرنسي صعوبات كبيرة في احتلاله ، وتأثر السكان بمقاومة الحاج أحمد باي ، والامير عبد القادر ، فبذلوا كل ما في وسعهم ، وضحوا بالغالي والنفيس ، من أجل مقاومة جيش الاحتلال الفرنسي ، ومنعه من السيطرة على بلادهم .

وقد برز عدد كبير من الزعماء الوطنيين . وتصدوا للجهاد والمقاومة ، وقيادة الناس في المعارك ، البعض منهم في اطار مقاومة الامير عبد القادر ، والحاج أحمد باي ، خلال عهديهما . والبعض بصورة مستقلة ، تحدوهم الرغبة في تطهير البلاد من المحتلين الغاصبين الاجانب .

وفي هذه الدراسة حاولنا أن نلقي بعض الاضواء ، على بعض زعماء المقاومة المغمورين ، والمجهولين في هذه المنطقة من البلاد ، في اطار ابراز كفاح الجزائر الوطني

خلال القرن الماضى · وذلك اعتمادا على الدراسات الفرنسية خاصة شارل فيرو الذى اختص بدراسة هذه المنطقة بتوسع فى اطار تاريخه للاحتلال الفرنسى · وهذا الى حين الكشف عن وثائق جديدة قد تلقى أضواء أخرى على مثل هذه المواضيع ، ونشاط هؤلاء الزعماء ·

الحاج مصطفى ومحمد بن عبد السلام المقرانى :

بعد ابرام معاهدة تافنة يوم 30 ماي 1837 ، بين الامير عبد القادر والجنرال بيجو ، حضر الامير عبد القادر الى اقليم ونوغة جنوب شرق مدينة الجزائر العاصمة خلال شهر ديسمبر ليتفقد الامور ، ويحاول مدنفوذه الى الشرق الجزائرى · وكان من ضمن أهدافه اختيار خليفة له على اقليم مجانه والحضنة بجبال البيبان والحضنة ، وتأديب التيجانى فى عين ماضى الذى أظهر العصيان له ، ومال الى التعاون مع جيش الاحتلال الفرنسى وأعوانه (1) ·

فحضر اليه بونوغة كل من أحمد المقرانى ، ومحمد بن عبد السلام المقرانى · كل منهما يرجو الحصول منه على منصب الخليفة على مجانة ، فمال الامير الى الاخير وعينه خليفة على مجانة ، وكلفه بمقاومة الفرنسيين وأعوانهم بالمنطقة فالتحق بمركز عمله واعتقل غريمه أحمد المقرانى ، ونفاه الى الحضنة بعد أن استوثق منه بألا يعود الى مجانة مرة أخرى · ثم تصدى فى مطلع عام 1838 لمقاومة الشيخ مسعود زعيم ريغة القبالة الذى يعارض سلطة الامير عبد القادر · وخلال الصدام معه خسر 25 جنديا و 75 حصانا فى معركة جبل يوسف ، فغضب عليه الامير عبد القادر وعزله ، وعوضه بكاتبه الذى كان يشتغل معه بمجانة وهو أحمد بن عمر من أولاد سيدى عيسى بالمدية ، وكلف الحاج مصطفى ، وآغا الخيالة الخروبى بمرافقته الى هناك على رأس حوالى 600 رجل و 350 حصانا ، لتنصيبه وابلاغ السكان بذلك · وقد اشترك أحمد ابن عمر · والحاج مصطفى صهر الامير ، والخروبى آغا الخيالة ، فى شن عدة هجومات على القوات الفرنسية وأعوانها بسطيف وأحوازها ، وخاضوا معركة البحيرة ، ثم أنسحب الحاج مصطفى الى عين الروة ، وصدراته ، قبل أن يلتحق بالحضنة والزيبان ، وسيطر على مدينة المسيلة وأخضعها لسلطة الامير أكثر من عامين (2) ·

(1) الامير محمد : تحفة الزائر فى مآثر الامير عبد القادر وأخبار الجزائر · (الاسكندرية 1903) ج 1 ، ص 195 — 200 ·

(2) Charles Feraud : *Histoire des villes de la province de Constantine.* "Recueil des notices et mémoires de la Société Archéologique de la province de Constantine" (Alger 1872), pp. 312-314.

ويبدو أن أحمد بن عمر فشل هو الآخر فى أداء مهمته كوال وحاكم عسكرى على ولاية مجانة ، ولم يحقق ما كان ينتظره منه الامير ، فعزله ، واعاد بن عبد السلام المقرانى الى منصبه كخليفة على مجانة وونوغة ، فاشترك فى كل العمليات والمعارك التى حصلت بالمنطقة ضد القوات الفرنسية خاصة خلال عملية عبور مضايق البيبان

ففى الوقت الذى سيطر فيه الامير على مدينة المسيلة وبوسعادة عام 1838 ، وعين بن عبد السلام المقرانى خليفة له على مجانة ، وتأكد ابن عمه أحمد المقرانى من ضياع مركزه ، اتجه الى صديقه بوعكاز بن عاشور شيخ فرجيوه بالبابور وعرض عليه فكرة الاستسلام للفرنسيين ، فاتصل هو بالخليفة بن باحمد وعرض عليه القضية . فتوسط له لدى الجنرال قالبوا وقبل عرضه ، فاستسلم اليه وعينه قائدا على عامر باحواز سطيف فى شهر جويلية 1838 ، ثم لم قتل بن هنى فى شهر سبتمبر خلال اتجاهه الى قسنطينة مع عدد من زعماء المنطقة أصدر الماريشال فالى قرارا يوم 30 سبتمبر 1838 بتعيينه خليفة على مجانة التى تشمل سهل مجانة الواسع ، وأولاد خلوف ، والدريعات ، ومزيتة ، وونوغة ، وأولاد نايل . وكان غرضهم أن يضر بوابه نفوذ الامير عبد القادر وخليفته بمجانة بن عبد السلام المقرانى ، وسنحت لهم الفرصة فى خريف عام 1839 .

ففى شهر ماي من نفس العام اتجه الجنرال قالبوا Galbois ، الى سطيف ليمهد لعملية عبور مضايق البيبان . وكانت القوات الفرنسية قد أسست من قبل مراكز عسكرية فى ميلة ، والعلمة ، وجميلة ، ومحلة لضمان المواصلات بين قسنطينة وسطيف . وعندما علم بن عبد السلام المقرانى بالامر أسرع من مجانة الى قرية سيدى مبارك شرق عين برج بوعريريج لاعتراضه ، ولكنه عجز فانسحب الى قرية زمورة شمالا بعد أن فقد عددا من رجاله . وتعاون معه عدد من أنصار الامير عبد القادر ، ونشطوا فى مقاومة القوات الفرنسية التى أصبحت فى وضع مقلق حقا وخطير . ولذلك قرر الماريشال فالى أن يواجه هذه الوضعية بحملته المشهورة لعبور مضايق البيبان وفتح الطريق البرى بين الجزائر العاصمة وقسنطينة ، وتحدى الامير عبد القادر ونفوذه فى هذه المنطقة .

فأمر بتأليف ثلاثة فرق عسكرية اثنتان بقسنطينة ، والثالثة بالجزائر العاصمة . الاولى بقيادة الدوق دورليان فى قسنطينة ، والثانية بقيادة الجنرال قالبوا لتدعيم الاولى ومرافقتها حتى الى الحدود الغربية لولاية قسنطينة ، والثالثة بقيادة الجنرال

روليير Rullière من الجزائر العاصمة كلفت بالاتجاه الى واد القدرة بشرق بودواو لملاقاة قافلة الدوق دورليان وفالى عندما يصلان الى هناك بقواتهما · وجعلت القيادة العليا لهذه القوات بيد فالى (3) ·

غادرت القوات الفرنسية المعدة بقسنطينة ، مدينة ميلة يوم 18 أكتوبر 1839 ومرت بقرى : محالة ، وجميلة ، ووادى الذهب ، وسطيف · وعندما وصلت الى عين الترك ، وافاها هناك أحمد المقرانى خليفة الفرنسيين بمجانة ، بقواته التى كانت تعمل معـه · وأحاطها علما بنشاط المدعو عمار ، أحد رجال الامير عبد القادر ، وسعيه لاعتراض سبيلها · ويبدو أن هذا الشخص هو أحمد بن عمر الذى كان خليفة للامير على مجانة ·

وكان فالى عازما على المرور بقرية زمورة لمواجهة بن عبد السلام المقرانى ، فعدل عن هذا الرأي وعزم على الاتجاه مباشرة الى مضايق البيبان ، وكلف الجنرال قالبوا بالتوجه الى مجانة صحبة أحمد المقرانى لتنصيبه وتركيزه فى وظيفته ومنصبه الجديد ، ووضع حد لنفوذ الامير عبد القادر هناك ، وهو ما كان يهدف اليه الفرنسيون مـن وراء هذه الحملـة الكبرى ·

وقد جد المدعو سى عمار فى محاولاته لاعتراض هذه القوات عندما تصـل الى مضايق البيبان ، فجند عددا من الاتباع والانصار وأخذ يعمل على نصب الكمائن ، وتصارع مع الضابط الفرنسى الليوطنان كولونيل ميلتجن Miltgen فى نواحى ذراع الاحمر قرب المضايق · كما أن أحمد الطيب بن سالم عامل الامير عبد القادر على ولاية حمزة حاول أن يواجه هذه القوات عندما وصلت الى قرية البويرة (برج حمزة) ، ولكن تفوقها اضطره الى الانسحاب الى المدية ، وقامت القوات الفرنسية بسلب ونهب ما فى هذه البرج من مؤن ومواد غذائية ، وبعض المدافع القديمة التى لم يتمكن أحمد الطيب ورفاقه مـن حملها (4) · وقـد انجر على هذا العبور لمضايق البيبان ، نقض صلح ومعاهدة تافنة ، وعودة الحرب بين الامير عبد القادر ، وجيش الاحتلال الفرنسى لان الامير اعتبر هذا العبور تعديا على حقوقه وسيادته ·

وفى يوم 18 مارس 1840 هاجم بضع مائات من فرسان قرية العلمة شرق سطيف ، سكان عامر الذين يتعاونون مع القوات الفرنسية المتمركزة بسطيف ، فردت عليهم هذه

3) أنظر دراستنا بعنوان : وثائق جديدة عـن موقف الامير عبد القادر والدولة العثمانية من الثوار المقرانيين عام 1871 · **مجلة الثقافة** ، عدد 39 ، (الجزائر – يونيو يوليو 1977) ص 11 – 24 ·

(4) Feraud : Histoire des villes (Alger 1870) pp. 95-102.

القوات بعنف ، وهاجمت معهم سكان العوامرة كذلك ، وأنشأت مركز عين التـــرك العسكرى غرب سطيف لاحكام نوع من الرقابة على الطريق العام بين سطيف والبرج ، ولتدعيم مركز خليفتها أحمد المقرانى بمجانة ، ضد غريمه بـن عبد السلام المقـرانى خليفة الامير عبد القادر الذى بدأ مركزه يضعف ويتدهور خاصة بعد أن افتكت منـه مجانة فى شهـر ماي 1840 ، وفشـل فى مواجهة قوات الضـابط الفرنسى لافونتين Lafontaine ، واضطر أن ينسحب الى قرية زمورة ليعتصم بها بعد عـدة معارك فى عين الترك وغيرها ، شارك فيها معظم سكان المنطقة .

ونظرا لفشل بن عبد السلام المقرانى فى مواجهة الضابط لافونتين ، وقواته ، عزله الامير مرة أخرى من منصبه ، وأعاد أحمد بن عمر العيساوى الى مكانه ، فحضر الى المنطقة على رأس حوالى 500 جندى ، فانسحب بن عبد السلام الى جبال بنى عباس ، وأخذ من هناك ينظم لوحده الهجومات والغارات على المراكز الفرنسية ببرج بوعريريج وغيره ، بالتعاون مع عدد من الزعماء الآخرين أمثـال سى موسى ، ومولاي محمد ، ومولاي الطيب ، وسى ساعد التبانى .

وبينما هذه الاحداث تجرى حول سطيف وبرج بوعريريج ، ومجانة ، ثار سكان منطقة سكيكدة ، وهاجموا قرية الحروش ، وهددوا المواصلات بين قسنطينة والموانى البحرية فى الشمال . واضطر الفرنسيون الى اخلاء معسكر عين الترك غرب سطيف ، وقرر الجنرال قالبوا أن يخرب كل أملاك السكان وتحطيم حقولهم ومزارعهم عقابا لهم على مساندة أعوان واتباع الامير عبد القادر ، وفى المقابل تدعيم مركز الخليفة أحمد المقرانى بمجـانة .

غير أن هذه الاجراءات لـم تمنـع الثوار عـن مواصلة جهودهم ، فظهر الحاج مصطفى ، صهر الامير عبد القادر ، من جديد بمنطقة الحضنة ، وتقدم شمالا الى أحواز سطيف ، وأخذ ينظم المقاومة ضـد الفرنسيين وأعوانهم وأنجده الامـير بحوالى 300 فارس ، وأنضم اليه الحسن بن عزوز خليفة الامير على ولاية الزيبان بقواته ، وتقدموا جميعا الى برج الغدير بريغة القبالة ، وعضدهم أحمد الشريف بجهوده الواسعة فى حث الناس على عدم دفع الضرائب للقوات الفرنسية . وفى مهاجمة أعوان الفرنسيين جنوب سطيف . ورغم أن الفرنسيين عينوا محمد الصغير بن الشيخ ، شقيق أحمد ابن الشريف قائدا على ريغة ، الا أن ذلك لم يفدهم لان السكان عزموا على المقاومة ، والبقاء أوفياء لزعمائها من أعوان وخلفاء الامير عبد القادر (5) .

5) نفس المصدر ص 103 ـ 107 .

ورغم أن بن عبد السلام المقرانى ، عزل من منصبه كخليفة للامير الا أنه لم يتوقف عن نشاطه العسكرى ضد الفرنسيين واعوانهم ، وضد غريمه أحمد المقرانى خليفة الفرنسيين على مجانة ، وتمكن من طرده من مجانة الى زمورة رغم دعم الفرنسيين له ، وسيكون هذا من ضمن الاسباب التى تحمل سلطات الاحتلال على تغيير موقفها منه ، وسعيها لانزال مركزه شيئا فشيئا بعد ذلك (6) ·

وفى هذه الفترة قام ثوار أولاد تبان بجبال بوطالب ، وأولاد سيدى أحمد بريغة القبالة بمهاجمة القوات الفرنسية التى جندت لمقاومة نشاط الحاج مصطفى وأعوانه خلال شهر جويلية 1840 · وكان يعسكر فى مرج الزرقة غرب سطيف بحوالى أربعة مراحل ، وتجند للعمل معه كل سكان المنطقة الممتدة بين أولاد عبد النور غرب سطيف شرقا ، والبيبان غربا ، والصحراء جنوبا ، وبللزمة شرقا · ويتألف فيلقه من 700 جندى و 150 فارسا ، وانجده الامير عبد القادر بعدة مائات من الجنود والفرسان المسلحين ، فهدد القوات الفرنسية وأحدث ارتباكات فى طرق مواصلاتها بين قسنطينة وسطيف · وخاض عدة معارك فى مرج الزرقة نفسها أين يعسكر ، ثم انسحبت بعض قواته الى جهة زمورة شمال شرق برج بوعريريج ، وانسحب هو الى برج عين الغدير جنوب شرق برج بوعريريج ، ثم الى الحضنة جنوبا عن طريق أولاد ابراهيم بعد أن حاول الجنرال قالبوا نفسه أن يلاحقه خلال شهر سبتمبر 1840 ·

وفى ربيع عام 1841 هاجم الجنرال نيقرى مدينة المسيلة ، وافتكها من عمال الامير عبد القادر ، واضطر الحاج مصطفى ان يغادر المنطقة كلها مما جعل مركز الامير عبد القادر ونفوذه يضعفان فى الشرق الجزائرى (7) ·

وكانت مدينة المسيلة قد خضعت لنفوذ الامير عبد القادر منذ عام 1838 ، وأول عماله عليها المدعو نبي ، ثم بوضياف ، وأخيرا الحسن بن عزوز الذى أصبح فيما بعد خليفة للامير على ولاية الزيبان · وعندما عزله الامير عن هذه الولاية فى مطلع عام 1841 ، وعوضه بمحمد الصغير بن عبد الرحمن بن أحمد بلحاج ، التحق بجبال البيبان ، وحاول أن ينضم المقاومة ويتعاون مع الحاج مصطفى ، وتعرض لهزيمة فى جبل صالصون ، فالتحق بمدينة المسيلة ، وحاول أن يشيع فى الناس بأن الامير عبد

6) يحيى بوعزيز : دور عائلتى المقرانى والحداد فى ثورة 1871 (أطروحة جامعية مضروبة على الآلة الراقنة ـ الجزائر 1975) ص 44 — 47 ·

(7) Feraud : IBID, pp. 109-116.

القادر قد جدد رضاه عليه ، وأنه عن قريب سيعيده الى منصبه ولكن السكان قبضوا عليه وسلموه للخليفة أحمد المقرانى الذى سلمه بدوره الى الفرنسيين (8) ٠

ظهــور زعماء آخرين للمقاومة

وفى الوقت الذى كان فيه الامير عبد القادر يواصل كفاحه بغرب البــلاد ظهــر عدد من الزعماء فى شرق البلاد للمقاومة كذلك ، بعضهم باسم الامــير عبد القادر ، والبعض لصالحهم الخاص ، فى شمال غــرب سطيف ، وجبال بوطالب ، وبللزمة ، والحضنة ، وبوسعادة ، وحوض الصومام ، ومنهم : مولاي محمد أحد رفاق بومعزة فى منطقة بنى يعلى بصحبة بن عبد السلام المقرانى ٠ والخليفة سى ساعد التبانى من أولاد تبان بجبال بوطالب ٠ ومولاي الطيب بعموشة فى جبــال البابور الذى درس وتعلم فى مساجد مدينة قسنطينة ٠ وسى صالح بودرباله من واحة سيدى عقبــة ٠ والحاج موسى الاغواطى الذى أسيس زاوية له بتاغمة Tagma فى بنى يعــلى شمال غرب سطيف ، وعمل على تجنيد سكان زمورة للمقاومة وعضده ووقف الى جانبه بعض الوقت بن عبد السلام المقرانى وعمر بــن عبيد ، وغــزوا جميعا واد السبت ، وهاجموا زمالة القائد السعيد بن عبيد المتعاون مع الفرنسيين وأرغموه على اللجــوء الى سطيف ٠

الشــريف مــولاي محمد :

كان من رفاق بومعزة الذى تزعم حركة المقاومة فى جبال الظهرة ، وحوض الشلف وجبال الونشريس ، خلال عقد الاربعينات ٠ ومنذ عام 1846 ، التحق بقرية غبولة فى بنى شبانة بالضفة الشرقية لوادى الساحل والصومام ، وتمركز بها بعض الوقــت ، وهاجم مركزا تابعا لبوعكاز بن عاشور شيخ فرجيوه ، أقامه لاستقبال صهره ابن على الشريف شيخ شلاطة ٠ ثم انتقل الى جبال البابور واستقر لدى أولاد صالح ، وعمــل من هناك على مقاومة نفوذ بوعكاز بن عاشور خلال عام 1847 ، وجمع حوله عددا من الانصار وهاجم قرية جبسة فى بنى ورزالدين ، وعزم على مهاجمة القوات الفرنسية فى سطيف ، وأحوازها ٠

وبعد الاصطدام الذى حصل بينه وبين بوعكاز بن عاشور ، انسحب الى بنــى دراسن بالبابور كذلك ، وهاجم بعض المتعاونين مع جيش الاحتلال الفرنسى وتصدى

---

8) عن الحسن بن عزوز أنظر دراستنا : جهود الامير عبد القــادر وخلفائه فى تدعيم الجبهــة الشرقية القسنطينية ، **الاصــالة** عدد 48 ٠ (الجزائر ــ أوت 1977) ص 2 ــ 24 ٠ وكذلك فيرو ــ نفس المصدر ، ص 117 ٠

منصور بـن عبيد ، وبوعكاز بن عاشور ، لمقاومته بتأييد مـن القوات الفرنسية فى الدهامشة ، وأحرقوا قرية أولاد خلف الله المتعاونين مع مولاي محمد ٠

وقد حاول الشريف سى موسى ان يتعاون مع مولاي محمد فاتصل به ، واتفقا على الانتقال الى عين الترك غرب سطيف حيث بقيا هناك نصف شهر ، ودرسا مشاكـل المقاومة ٠ ثم افترقا ، فاتجه سى موسى الى بنى يعلى ، واتجه مولاي محمد الى أولاد عياض وقضى هناك فصل الشتاء ، بينما كان بن عبد السلام يقوم بجهود مكثفـة لقطع الاتصالات والمواصلات فى وجه القوات الفرنسية بين سطيف وبرج بوعريريج ٠

وقد استغل مولاي محمد تنقلات القوات الفرنسية وتشتتها بين سطيف ، وسيدى مبـارك ، وعين أزال ، ومجانة ، والحضنة ، فجمع أنصاره فى جبـل عنينى غـرب سطيف ، وزحف بهم الى سهل أولاد نايت ، وتعاون ضده كـل من عمر بن واسـى ، ودوادى بن كسكاس ، ولكن مولاي محمد تمكن من قتل بن واسى ، ومحمود بن موصلى قائد العلمة ، وصدراته ، وأولاد نابت منذ عام 1838 ، وحمل الثوار رأس الاخير الى مولاي محمد ٠ وجاء هذا الانتصار ليدفع سكان عموشة ، وقسم من أولاد نـابت ، الى الانضمام الى حركة الثورة مع هؤلاء الزعماء ٠

وبسبب نجاح المقاومة بزعامة مولاي محمد ورفاقة ، واشتداد المعارك ضـد الفرنسيين ، اتجه الكولونيل دومونتى : Dumontet على رأس قوات فرنسية الى شمال سطيف ، وواجه الشريف محمد بن عبد الله رفيق مولاي محمد فى جبل مغريس، وارغمه على الانسحاب الى بنى فوغال ٠ غير أن مولاي محمد سرعان ما ظهر باتباعه فى جبل عتينى وعين مدة ، ثم اتجه الى عموشة نفسها ٠ وتصدى لمقاومته الكولونيل شاسلو Chasselou فى ثنية طكوكة ، والكولونيل اينارد : Eynard فى جبـل شيلكان ٠ وجرح خلال الصدام مع هذه القوات ، وانسحب الى غبولة فى بنى شبانة ، وأظهر للناس استعداده لاجراء الاتصال بالفرنسيين ، وفى نفس الوقت جند أنصارا جددا للعمل من سائر أنحاء البابور الى مصالته ٠ واصطدم بالقوات الفرنسية خلال أيام 10 و 18 و 22 جويلية 1847 ، وقتل خلال المعارك مولاي الطيب ٠

وخلال اقامة مولاي محمد بغبولة لمعالجة جروحه ، حاول ان ينظم هجوما على القوات الفرنسية بجيجل ، فلم يوفق ، وفى نفس الوقت حاول قائد بنى يعلى بن جدو أن يدبر مؤامرة لاغتياله فوجه اليه رسولا اخطـأ فى اغتياله هو وقـتل احد اعوانه المقربين اليه ٠ ويظهر أن هذه الاحداث اثرت فيه وقل اتباعه وأنصاره ، فاختفى مـن

المنطقة ، وادعي فيرو بأنه اتجه الى الجزائر العاصمة وسلم نفسه للفرنسيين بعد مدة، بينما سيظهر كأحد زعماء ثورة الزواغة وفرجيوة عام 1864 (9) ·

وفى الوقت الذى اختفى فيه مولاي محمد ، أو استسلم للفرنسيين كما زعم فيرو ، اتجه بن عبد السـلام المقرانى الى يلولة أو مالو ، وقدم نفسه لابن عـلى الشريف ، فتوسط له لدى السلطات الفرنسية ، وسلم نفسه اليها ومات بسطيف فى نفس العـام 1847 وخلف ابنين هما : مسعود ، ومحمد · فعين الاول قائدا على قيادة عين تاغروط التى تشمل الغرازلة ، وصدراتة باولاد نايت ، وبقي حتى عام 1855 ، ثـم ذهب لاداء فريضة الحج وخلفه أخوه محمد الذى احتفظ بوظيفته هذه حتى عام 1871 ، ولعب دورا بارزا فى ثورة المقرانى والحداد (10) ·

واستسلم كذلك عمار بن عبيد وزعماء آخرون بواد الساحل ، وعموشة ، بواسطة بوعكاز بن عاشور شيخ فرجيوة ·

وبسبب أحداث هؤلاء الزعماء واشتداد المقاومة ضد القوات الفرنسية ، قـاد الجنرال بيجو قوات عسكرية كبيرة من الجزائر العاصمة وغزا منطقة حوض وادى الساحل ، وعموشة ، كما قاد الجنرال بيدو قوات أخرى من قسنطينة لتعضيده · فاتجه بيجو الى جبال بنى عباس ، واتجه بيدو الى غبولة وعموشة ، وأولاد سيدى ابراهيم . وأبدى السكان مقاومة شديدة فى بنى يعلى ، وبنى ورتلان ، وبنى عفيف ، وبنى وجهان، وايفسار · فى حين انضم شيخ العراش سى الموهوب ، وأولاد أورابح بالجبابرة فى حوض الصومام ، الى جانب القوات الفرنسية وتعاونوا معها ·

وبعد رحيل بيجو وعودته الى العاصمة عن طريق ميناء بجاية ، ورحيل القوات الفرنسية ، ظهر سى موسى مرة أخرى فى بنى يعلى ، وانضم اليه سكان بنى عيـدل وعزموا على تجديد المقاومة ضد القوات الفرنسية ، وخاضوا عددا من المعارك ضد الجنرال بيدو الذى حضر لمحاربتهم خلال شهر ماي واستعان بيدو بقوم بن عبـيد ، وكان ميدان المعارك : بنى عفيف ، وغبولة ، وبنى جماتى ، وبنى ورتلان ، وبنى يعلى ، التى دخلها بيدو على رأس القوات الفرنسية لاول مرة فى شهر جوان 1847 · وقامت القوات الفرنسية بتخريب قرية الشريف سى موسى زعيم الثورة بالمنطقة ، الذى طلب

---

9) فيرو : نفس المصدر ص 126 ـ 135 ·

10) يحيى بوعزيز : دور عائلتى المقرانى والحداد ، ص 91 ـ 98 ، وهنا وهناك ·

الامان حسبما ذكر فيرو ، ولكنه سيظهر من جديد عام 1849 عندما تندلع ثورة سكان الزعاطشة والشيخ بوزيان فى نواحى بسكرة (11) .

وفى عام 1849 ثار سكان بنى سليمان بحوض الصومام فى منطقة بجاية ، واتجه اليهم سانت أرنو ، والجنرال سال Salles على رأس قوات فرنسية وأحرقوا لهم قراهم ومداشرهم ، وتعددت المعارك فى مختلف المناطق الجبلية بالمنطقة ، ثم انسحبت القوات الفرنسية الى أولاد حناش والمعاضيد ، لمعاقبة السكان كذلك ، وهي فى طريقها الى الزعاطشة لمواجهة حركة الثورة هناك (12) .

حركة الشيخ بن شابيرة فى بوسعادة :

فى خلال عام 1849 قرر الجنرال شارون Charron انشاء مركز عسكرى فى بوسعادة ، وفى نفس الوقت تمركز الضابط الفرنسى الليوطنان لابير Lapeyre بهذه المدينة بمجموعة من الجرحى والمرضى من العساكر الفرنسيين ، فامتعض السكان من ذلك ، وأحسوا بأن الفرنسيين يسعون لاحتلال مدينتهم بصورة فعلية ، وأخذوا يقومون بحركات مريبة ، فاستغل الشيخ محمد بن شابيرة ، هذه الظروف ، واندلاع الثورة فى الزعاطشة بزعامة الشيخ بوزيان ، فأعلن الثورة والجهاد ضد الفرنسيين بين قومه من الشرفة ، وتعاون معه عدد من سكان أولاد نايل ، وأبوه أحمد الذى يقطن فى قرية عين الكحلة . وعقد اجتماعات عدة مع عدد من رجال الدين بالمنطقة يوم 11 أكتوبر ، والايام التالية لـه .

وفى يوم 19 نشبت الحوادث داخل المدينة (بوسعادة) التى انقسمت الى صفين متعارضين ومتعاديين . واعتصمت القوات الفرنسية وراء جدران الحي الذى تمركزت فيه ، الى أن وصلتها نجدات من مدينة برج بوعريريج بقيادة الضابط بيان Pein والخليفة أحمد القرانى بمجانة على رأس 400 فارس وخيال .

وخلال نشوب هذه الحوادث ببوسعادة ، مر بها أحمد بن عمر العيساوى الخليفة السابق للامير عبد القادر بمجانة ، وعمل على مساعدة الثوار ضد الفرنسيين ، كما مر بها الشريف سى موسى الاغواطى الذى كان قد تزعم الثورة فى ساحل قبلى بسطيف ، وبنى يعلى منذ عام 1845 ، ثم التجأ الى ورقلة عام 1848 . وكان بصحبته

(11) Feraud : IBID. pp. 134-142.
(12) IBID p. 144.

حوالى مائة رجل ، وعشرة فرسان · وهو فى طريقه الى الزعاطشة لمساعدة الشيخ بوزيان · وخلال مروره ببوسعادة استقبله أولاد عمر بن فراج ورحبوا به (13) ·

ورغم أن حركة بن شابيرة ، كانت معزولة الا أن الفرنسيين تخوفوا منها ، وجندوا ضدها قوات كبيرة من البرج ، والمدية ، وسور الغزلان ، واضطر بن شابيرة الى مغادرة بوسعادة والاتجاه الى أولاد عمر ، وعسكر بعض الوقت بواد الشعير ، ثم انتقل الى الرصفة حيث التقى بمحمد بن عزيز الذى هول عليه الموقف ، ونصحه بالاستسلام الى الضابط الفرنسى دوما : Daumas خلال شهر نوفمبر ، وتمكنت القوات الفرنسية فى نهاية المعارك من اعتقال ابن الشيخ بن شابيرة ، ولكن خسائرها وضحاياها كانت كثيرة بسبب اشتداد المعارك ، فى معظم جهات الجزائر الشرقية والوسطى ، الى جانب انتشار مرض الكوليرا فى صفوف الجنود (14) ·

وخلال حركة الشريف محمد بن عبد الله فى مطلع الخمسينات بورقلة ، ثار أولاد الساسى بمنطقة بوسعادة وخاضوا عدة معارك ضد قوات الكابيتان بان فى واد غمرة ، وجبل الزرقة ، وعين الريش ، خلال صيف عام 1852 ، وسلب الفرنسيون لهم 400 جملا ، وأربعة آلاف رأس غنم ، وخياما ، وأسلحة ، ودوابا أخرى (15) ·

وفى الوقت الذى ظهر فيه بوبغلة بحركته فى جبال جرجرة ، وحوض الصومام عام 1851 ، برز الحاج مصطفى كخليفة له ونائب ، وتزعم المقاومة فى منطقة برج بوعريريج ، والمسيلة بالحضنة ، وتصدى لهما الجنرالان : كامو ، وبوسكى بقواتهما فى عدد كبير من المواقع والمعارك خلال عدة سنوات (16) ·

وظهر كذلك الشريف بوصبع فى هضبة القل خلال ربيع عام 1852 وقاد عددا من المقاومين ، واضطر الجنرالان : بوسكى ، وماكماهون الى الاتجاه الى هناك لمواجهته (17) ·

---

13) عن دور الشريف سى موسى فى ثورة الزعاطشة أنظر : يحيى بوعزيز : أضواء على انتفاضة سكان واحة الزعاطشة والشيخ بوزيان عام 1849 · **الثقافة** ، عدد 32 (الجزائر – أبريل ، ماي 1976) ص 39 – 50 ·

Le C.N. ROBIN : Histoire du Chérif Bou-Bar'la (Alger 1884) p. 375.

(14) Feraud : Histoire des Villes (Alger 1872) pp. 356-365.

(15) IBID pp. 366-367.

16) عن حركة الشريف بوبغلة أنظر كتاب روبين :

(17) Feraud : Histoire des Villes (Année 1870) pp. 147-150.

أحداث البابور فى ربيع عامى 1856 و 1857 :

لم تنته أحداث بوبغلة حتى أندلعت أحداث أخرى فى منطقة البابور ، فى اطار المقاومة الوطنية للاحتلال الفرنسى · ففى يوم 7 ماي 1856 قتل شيخ خراطة بينما كان يحضر حفلة عرس ، وهو صديق للفرنسيين وعون لهم ، وعلمت السلطات الفرنسية بأن مقتله كان لغرض سياسى ، بينما أشاع السكان بأنه قتل خطأ وعرضا · ولذلك توجهت قوات فرنسية من سطيف الى مكان الحادث ، وخربت مسجد سيدى عطية ، وأحرقت كل منازل السكان ، فزاد ذلك فى هياجهم وغضبهم ، وحملوا السلاح فى معظم انحاء البابور ، وتجمعوا فى مضيق واد البرد ، وواجهوا قوات الجنرال ميسيات Maissiat حاكم قسنطينة الذى قدم بنفسه الى المنطقة · واعترضوه فى مجاز النوق ، وخلف الله ، وجبل متنانو ، وعين سلطان ، وخلال المعارك طبق الفرنسيون أساليبهم التقليدية واحرقوا القرى والمداشر ، وخربوها · ومن ضمنها تاقربوست (18).

وفى الوقت الذى اقتحمت فيه القوات الفرنسية جبال جرجرة فى ماي 1857 بقيادة الجنرال راندون الحاكم العام ، انتشرت اشاعات كثيرة فى جبال البابور حول نوايا الاستعمار الفرنسى ، خاصة بعد انشاء مركز تاقيطونت العسكرى · وراج بين الناس بأن الفرنسيين سيصادرون أراضيهم ويملكونها للمعمرين الاوروبيين ، ويجندون الشبان الجزائريين فى الجيش الفرنسى ، فكثر تجمع الناس فى الاسواق والمقاهى للتداول فى مثل هذه المواضيع والمشاكل ·

وكان بعض الناس قد عقدوا يوم 10 أبريل قبل ذلك ، اجتماعا فى سوق السبت ، واتفقوا على مهاجمة تاقيطونت للقضاء على المركز العسكرى الفرنسى الذى أقيم بها لمراقبتهم ، وعرقلة نشاطهم · واتفق الزعماء المجتمعون على اشراك سكان عموشة وأولاد يحيى فى هذا الهجوم باعتبارهم مجاورين ، لتاقيطونت ، ومحيطين بها ·

وفى يوم 12 أبريل نفذوا خطتهم ، وهاجموا تاقيطونت ، واضطر الفرنسيون الى ارسال نجدات سريعة اليها من سطيف حالت دون الحاق الضرر بها من طرف الثوار (19) ·

وفى عام 1859 تزعم سى الصادق ، وابنه ابراهيم ، الثورة فى قرية الخنقة ، ومنطقة بسكرة بالزيبان · وفى عام 1860 تزعم محمد بن بوخنتاش الثورة فى الحضنة،

(18) IBID pp. 155-159.
(19) IBID pp. 161-163.

وبريكة ، واتسع ميدان أحداثها الى الاوراس الغربية شرقا ، وسطيف شمالا ، وبوسعادة جنوبا ، وجند الفرنسيون قوات كبيرة لمواجهتها ، واستعملوا أقسى الوسائل وافضعها للقضاء عليها وعلى آثارها (20) ·

حركة ابراهيم بن عبد الله وسى الفضيل بالحضنة :

بعد اندلاع ثورة أولاد سيدى الشيخ بالجنوب الوهرانى عام 1864 ، حضر الى الحضنة سى الفضيل بن على ، كاتب الباشاغا سى سليمان بن حمزه زعيم ثورة أولاد سيدى الشيخ · والتحق بمقر عائلته فى زاوية قرية الديس ، وأخذ يحث الناس على حمل السلاح والقيام بالثورة ضد الفرنسيين أسوة بأولاد سيدى الشيخ · وعقد عدة اجتماعات فى واحة بنزو ، حضرها عدد من زعماء المنطقة أبرزهم ابراهيم بن عبد الله السوامى زعيم السوامة من صف بوعزيزبن قانة وأولاد شلال، وقيل ان القرانيين بمجانة حضروا اليه وزاروه سرا فى مقر اقامته ، مما جعل الفرنسيين يستدعون الباشاغا المقرانى الى برج بوعريريج ويستفسرونه عن أولاد نايل وحركتهم هذه طبعا (21) ·

وبسرعة انتشرت الدعاية فى المنطقة ، وحمل السلاح سكان دائرة بوغار ، وجزء من دائرة سور الغزلان ، مثل أولاد سيدى عمر ، وأولاد سيدى ابراهيم ببوسعادة · واهتم أولاد ماضى بشراء الاسلحة والذخائر فى أسواق المسيلة ، وأحوازها ·

ورغم النجدات الفرنسية الواسعة ، ومشاركة الباشاغا محمد المقرانى وقومه ، فى مقاومة حركة الثورة ، الا أن العصيان والتمرد امتدا وانتشرا ، وعصا أولاد نايل قائدهم السعيد بن بوداود المقرانى ابن عم الباشاغا محمد المقرانى · وبرز قائد السوامة ابراهيم بن عبد الله كزعيم لهذه الحركة ·

وفى أواخر شهر سبتمبر 1864 تجمع ثوار أولاد سيدى ابراهيم ، وأولاد فراج ، وأولاد عيسى ، فى أوقلت البيضاء ، وحاول الباشاغا المقرانى أن يراقب تحركاتهم

---

20) للمزيد من التفاصيل عن حركة سى الصادق ، وبوخنتاش ، أنظر : يحيى بوعزيز : نماذج من مقاومة سكان الواحات · **الاصالة** ، عدد 41 (جانفى 1977) ص 117 — 134 ·

21) يحيى بوعزيز : دور عائلة المقرانى والحداد ، ص 52 — 53 ·

من مضيق واد درميل ، حتى يزود القوات الفرنسية بالمعلومات الكافية لوضع الخطط لمواجهتهم على أساسها ·

وفى ليلة 30 سبتمبر هاجم الثوار معسكر الباشاغا ، وكادوا أن يفتكوا به لولا أن أسرع لنجدته الليوطنان كولونيل جيى Jaille الذى كان يعسكر بالقرب منه فى عين درميل مع الكولونيل دولاكروا · وانقده من أخطارهم · وعندما حاول ان يلاحقهم الى جبل بودنزيل ردوا عليه بعنف ، وأرغموه على التراجع هو وقواته وبعد عدة معارك انسحب الثوار الى ثنية عين الريش بعد أن قتلوا للعدو ضابطين ، وعدد آخر من الجنود ، الى جانب الجرحى ·

وفى يوم 12 أكتوبر 1864 هاجم الثوار معسكر دولاكروا مرة أخرى فى مرتفع عين درميل ، وقتلوا له أربعة جنود ، وجرحوا حوالى 15 شخصا · وذكر فيرو أن عدد الثوار فى هذه المعارك كان يقرب من أربعة آلاف رجل ، وهو عدد مبالغ فيه على ما يبدو ، وتعاون كل من دولاكروا ، والجنرال يوسف ، على ملاحقتهم الى مجدل ، والزاغر بالجلفة وأحوازها · وبقي ابراهيم بن عبد الله يقاوم حتى اعتقل فى يوم 12 سبتمبر 1866 من طرف قائد تقرت على باي فى بئر طوالى ، مع ابنه · ونفاهما الفرنسيون الى جزيرة سان مارقوريت بفرنسا (22) ·

أولاد بن عاشور فى فرجيوة :

تقع منطقة فرجيوة بجبال البابور شمال قسنطينة ، وينتمى سكانها الاصليون الى قبيلة كتامة المشهورة التى لعبت دورا بارزا فى تاريخ هذه البلاد ، خاصة خلال العصر الاسلامى المزدهر بالاحداث والتطورات فى العصر الوسيط ·

ومن بين العائلات المشهورة فى هذه المنطقة أولاد بنى عاشور الذين ينتمون الى قرية واد زناتى قرب قالمة وخلال عهد الاتراك نزحوا الى فرجيوة بالبابور ، ولعبوا دورا بارزا فى أحداث المنطقة · وعندما أصبح الحاج أحمد باي على رأس بايليك قسنطينة ابتداء من عام 1826 ، عين الحاج أحمد بوعكاز بن عاشور شيخا على فرجيوة حوالى عام 1834 ، فاشترك معه فى مقاومة الحملات الفرنسية على مدينة قسنطينة ، واتسع نفوذه شيئا فشيئا ، وامتدت سلطته على كل منطقة فرجيوة وساحل البابور ، وبنى فوغال ، وأولاد عمران ، وأولاد سيدى على ، وبوزقازن ، وبلاد التورة ، والرواشد ، وبولعيان ، وسواحل جيجل (23) ·

(22) Feraud : Histoire des Villes (Année 1872) pp. 368-378.

(23) Feraud : Notes historiques sur la province de Constantine R. A. (Alger 1878) pp 6-10 et 81-87.

وبسبب هذا النفوذ الواسع الذى اكتسبه بمرور الزمن ، تقرب من الفرنسيين بعد احتلالهم لقسنطينة وعمل على توثيق صلاته بهم ، فاغتنم الماريشال فالى فرصة وجوده بقسنطينة لتفقد أوضاعها ، وأصدر يوم 30 سبتمبر 1838 قرارا عين بموجبه أحمد بلحملاوى خليفة على فرجيوة ، والحاج أحمد بوعكاز شيخا بها تحته · وكان الحملاوى حاضرا حفلة التعيين والتنصيب بينما كان بوعكاز غائبا مع الجنرال قالبوا فى عملية استكشاف للطريق المؤدى الى مدينة سطيف عبر قرية جميلة الاثرية ، خلال نفس الشهر ولعب معه دورا بارزا خلال الذهاب والاياب · وكانت هذه العملية بداية لعمله الحقيقى مع الفرنسيين ، ولربما كانت السبب فى خلع منصب شيخ فرجيوة عليه فى نهاية الشهر (24) ·

وفى يوم 18 أكتوبر 1839 رافق الدوق دورليان ، والماريشال فالى الى قرية جميلة الاثرية شمال سطيف على رأس 150 فارسا ، فى طريقهما لعبور مضايق البيبان · وبعد ذلك تكلف بأمن القوات الفرنسية المتنقلة بين قسنطينة وسطيف عبر ميلة · واشترك مع القوات الفرنسية عام 1840 فى مقاومة الحاج مصطفى صهر الامير عبد القادر الذى فرض الحصار على مدينة سطيف ·

ويبدو أنه كان يحقد على الخليفة أحمد بلحملاوى الذى يعتبر رئيسه الادارى ، ولذلك أوقف مبعوثا له عام 1841 وانتزع منه رسالة كان متجها بها الى خليقة الامير عبد القادر بمجانة مفادها أنه (بلحملاوى) على استعداد لمساعدته ضد الفرنسيين باعتباره صديقا قديما له ، وأنه ليس صديق الفرنسيين ولو أنه يعمل معهم وتحت سيطرتهم وقد ابلغ بوعكاز هذه الرسالة الى السلطات الفرنسية فاوقفت بلحملاوى ، وحاكمته يوم 14 جويلية 1841 ونفته الى تونس مدة من الزمن ، تم صدر العفو عليه فعاد الى الجزائر ، وبقي بها حتى توفى ·

وقد ذكر فيرو ، أن هذه الرسالة مزورة ، ولم يكتبها بلحملاوى ، وانما كتبها بعض اتباعه دون علمه ، وختموها بطابعه دون علمه كذلك ، وأن بوعكاز له دور فى هذا التزوير (25) ·

(24) IBID pp. 92-95.
(25) IBID pp. 96-97.

ويبدو من الحوادث أن بوعكاز كان يبحث دائما عما يمكنه من كسب ود الفرنسيين له ، ولذلك كتب عام 1844 ، رسالة الى الدوق دومال الحاكم الجديد على عمالة قسنطينة يحثه فيها على غزو جبال البابور ، وفتحها فى وجه الاستعمار الفرنسى ، واكد لـــه بان الناس على استعداد للخضوع للسلطات الفرنسية .

وعندما حضر مولاي محمد رفيق بومعزة الى جبال البابور عام 1846 . هـاجم مركزا للشيخ بوعكاز فى غبولة ، أقـامه لاستقبال صهره ابن عـلى الشريف شيـخ شلاطة ، وحصلت بينهما حوادث دامية ، وعاقب بوعكاز سكـان غبولـة بمصادرة املاكهم ومنعهم من ممارسة التجارة مع منطقته كما اعتادوا قبل ذلك (26) .

وخلال ثورة سكان واحة الزعاطشة عام 1849 ، حاول سكان فرجيوة أن يستغلوها للقيام بالثورة ضد جيش الاحتلال الفرنسى كما اكـد ذلك الجنرال هيربيون (27) ، وهنرى قارو (28) ، ولكن بوعكاز فقد الامل فى تحقيق استقلال ذاتى لـه بفرجيوة ، واقتاده الضابط الفرنسى نفو Neveu الى مدينة قسنطينة يـوم 12 أكتوبر 1850 ، فرحب به سانت أرنو ، وطلب من السلطات أن تستغل نفوذه بالبابور لتركيز الوجود الفرنسى . ولم يكتف بهذا الاقتراح فأخذه معه فى حملته العسكرية الكبيرة عـلى جبال البابور عـام 1851 بين قسنطينة ، والقـل ، وجيجل واستعمله أداة لاخضـاع السكان ، ومنحته السلطات نيشان الشرف بعد عودته ، واذنت له بالذهاب الى الحجاز لاداء فريضة الحج حيث تغيب عدة شهور (29) .

وخلال السنوات التالية شارك الحاج أحمد بوعكاز فى كـل العمليات العسكرية التى شنها الجيش الفرنسى على هذه المنطقة . ففى عام 1856 اندلعت عـدة حوادث بجبال البابور وقتل الثوار ثلاثة من الشيوخ يتعاونون مع القوات الفرنسية بينهم شيخ خراطة الذى كان يتولى منصب قايد . واضطر الجنرال ميسيات Maissiat أن يقود بنفسه قوات عسكرية ليواجه الثوار فى عين سلطان ، ومنتانو ، وتاقربوست ، ويطبق

(26) Feraud : Histoire des Villes (Année 1872) pp. 126-127.

(27) Le Général Herbillon : Insurrection survenue dans le Sud de la province de Constantine. Relation de seige de Zaâtcha (Paris 1863) pp. 11-13.

(28) Henri Garrot : Histoire générale de l'Algérie (Alger 1910) pp. 385-387.

(29) Feraud : Notes Historiques, pp. 103 104 et 161.

الاجراءات القاسية ضد السكان . وأنشأ مركزا عسكريا فى تاقيطونت لحراسة السفوح الشمالية لجبال البابور .

وفى شهر جويلية 1858 اندلعت الثورة فى هضبة جيجل ، والقل ، وحوض واد الكبير ، بعد أن قامت السلطات الفرنسية بمنح غابات الفلين الى المعمرين الاوروبيين لاستثمارها ، وسمحت لهم بالتوطن الاستعمارى فى المنطقة . وقام الثوار باشعال الحرائق فى الغابات ، ورفضوا دفع الضرائب وأخذوا يقتنون الاسلحة ، والرصاص ، والذخائر، لمواصلة المقاومة.وعندما أصبح الامر خطيرا قاد الجنرال قاستو Gastu حملة عسكرية الى حوض واد الكبير ، وانشأ مركزا عسكريا فى الميلية على الضفة اليمنى لواد الكبير ، وأرغم الناس بالقوة على دفع ضرائب الحرب ، واستعان بالحاج أحمد بوعكاز فى كل عملياته العسكرية .

وفى عام 1859 عاد السكان الى التمرد مرة أخرى ، ورفضوا دفع الضرائب ، وهاجموا الاسواق التى يردها الفرنسيون واعوانهم ، وقطعوا خطوط الهاتف بين جيجل وقسنطينة . فالف الجنرال ديفو Desvaux قوة عسكرية من عشرة آلاف جندى ، اقتحم بهم فج الاربعاء بأولاد عسكر ، فى نهاية شهر ماي 1860 ، وهاجمه الثوار ليلتين متواليتين وعقدوا عدة اجتماعات فى سيدى معروف لدى بن خطاب ، واعلنوا الجهاد ضد القوات الفرنسية وأعوانها ، وخاضوا عدة معارك فى العروسة وبوطويل ، وتافرطاست ، وأبدى ثوار أولاد على ، وبنى عيشة ، وكايلمام ، وبنى حبيبى ، وبنى يدر ، وبنى فتاح ، شجاعة ، وبطولة فى المقاومة .

وفى يوم 16 جوان 1860 اصطدم الثوار بالضابطين : بوك Bock ودولاكروا Delacroix فى بنى مسلم ، وأولاد عوات ، وحاولوا ان يمنعوهما من اقامة مركزين لحراسة الغابات . وطبق الفرنسيون اجراءات قاسية ضد السكان ، وهاجم بنو طوفوط القوات الفرنسية التى حاولت أن تخترق منطقتهم ، كما أن قسما من أولاد عيدون ، وعرب تاسقيفت ، ثاروا فى الواد الكبير ، وقتلوا عددا من الناس (30) .

وفى عام 1861 اقتحم الجنرال ديفو مرة أخرى البابور بقوات كبيرة لغرض فتحها فى وجه الاستعمار الاوروبى . وصدر قرار 3 نوفمبر 1861 الذى نص على ابعاد الحاج أحمد بوعكاز بن عاشور من فرجيوة ، وفرض اقامة جبرية عليه بمدينة قسنطينة مع احتفاظه بلقب شيخ فرجيوة ، وقسمت منطقته الى منطقتين اثنتين : منطقة فرجيوة

(30) IBID (Année 1870) pp. 280-286.

ومنطقة البابور والدهامشة ، وعين سى أحمد خوجة على الاولى ، وسى أحمد ابن الدراجى على الثانية ، وهما من أقاربه ويمارسان السلطة تحت مراقة السلطات الفرنسية بقسنطينة ٠

وقد استقبل السكان ، حسب رأي فيرو ، هذه الاصلاحات ، والتغييرات بفرح وسرور ٠ أما بوعكاز التزم الهدوء بمدينة قسنطينة وقبل على مضض هذه الاجراءات تحت تأثير صهره ابن على الشريف شيخ شلاطة الذى حثه على قبول الوضع الجديد مهما كان ٠ غير ان اعتباره لدى السكان ضعف كثيرا بحيث لم يعد له أي نفوذ٠ولربما يكون هذا الوضع الجديد هو السبب الذى دفعه الى الاشتراك فى الثورة العارمة التى اندلعت بالمنطقة عام 1864 كما سيأتى (31) ٠

أولاد بن عز الدين فى الزواغة :

ينتمى أولاد بن عز الدين الى سى الناصر الذى كان قائدا على الزواغة فى جبال البابور ، تحت سلطة أحد الضباط الاتراك الذى كان متمركزا فى مدينة ميلة ٠ وبعد سقوط مدينة قسنطينة فى يد الجيش الفرنسى ، برز الشيخ محمد (بفتح الميم الاولى) بن عز الدين كزعيم لاولاد بن عز الدين ٠ وأخذ يعمل على خلق مركز له واعتبار لدى السلطات الفرنسية ٠ وقدم نفسه للدوق دومال والماريشال فالى عندما مرا بميلة فى طريقها الى مضايق البيبان فى أكتوبر 1839 ، وأعلن طاعته واخلاصه ، وعمل منذ ذلك الوقت على الاستعانة بأخيه بورنان بن عز الدين ، فى تسيير شؤون منطقة الزواغة مع رجال المخزن الذين يوجدون تحت تصرفه (32) ٠

وفى عام 1845 نظم أولاد بنى عز الدين هجوما على أهل موية فى جبل سقاو Segaou شمال شرق ميلة ، واضطر الاخيرون الى وضع أنفسهم تحت تصرف السلطات الفرنسية التى عينت الحاج مسعود بن زكرى شيخا ورئيسا عليهم ٠ وهو خصم وعدو لاولاد بن عز الدين ، وأولاد بن عاشور معا ، ولعب دورا بارزا لصالح الفرنسيين ، الذين استعملوه كدليل لقواتهم العسكرية التى هجمت مدينة قسنطينة عامى : 1836 و 1837 ، وعين قائدا على أولاد عبد النور بعد ذلك ٠ ولذلك فان تعيينه رئيسا على أهل موية أحدث غضبا ، ولو غير ظاهر ، فى أولاد بن عز الدين ٠

(31) IBID (Année 1872) pp. 165-166.
(32) IBID (Année 1870) pp. 244-251.

وفى عام 1847 غزا الجنرال بيدو Bedeau مناطق بنى قايد ، وبنى خطـاب ، وبنى عيدون ، تمهيدا للتوسع الاستعمارى الاوروبى فى البابور ، وتوطين المعمرين الاوروبيين بها • وذلك بعد أن عاد من الحملة العسكرية الكبيرة التى قادها بيجـو نفسه الى حوض واد الساحل والصومام ، وجبال بنى عباس ، وعندما وصل بيدو الى البابور تقـدم اليـه عدد من الشيوخ والرؤساء ووضعوا أنفسهم تحت تصرفه حتى يجنبوا السكان مخاطر القتل والتشريد التى اعتادت عليها القوات الفرنسية •

وقد تخلف الشيخ محمد ولم يتقدم اليه الا يوم 15 جوان فى حين تغيب أخـوه بورنان تماما • وذكر فيرو أن الشيخ محمد اشترط على بيدو ، لكي يتخلى هو وأخوه عن مسؤولية زعامة أولاد بن عـز الدين ، أن يعوضا بابينى أخيهما : بولخراص ، وفرحات ، اللذين كانا فى رفقة القوات الفرنسية الى القل ، لان ذلك سيمكنهما مـن الاستمرار فى الاحتفاظ بمركزهما عن طريق تأثيرهما على بولخراص ، وفـرحات الصغيرين • وهذا الكلام اذا ضح يشعر بأن الفرنسيين كانوا متضايقين من الشيخ محمد وأخيه • ومعلوم أن بولخراص هو ابن الشيخ القديم عز الدين ، الصديق الحميم للحاج أحمد باي (33) •

ويبدو أن سيرة وسلوك أولاد بن عز الدين فى المنطقة غير محمودة لدى السكان ، ولذلك حصلت اضطرابات بين الطرفين خلال شهر جويلية ، وهاجم البعض زاويـة الشيخ الزواوى ، وأحرق أولاد بن عز الدين بعض الدور والخيام للنـاس ، واضطر الفرنسيون الى توجيه قوات عسكرية الى جبل سيدى مروان اقتضت من أولاد عز الدين وفرضت عليها غرامة مالية عقابا لهـم ، وعندما عـادت الى قسنطينة اقتادت معها بولخراص ، وفرحات ، اللذين اعلنا طاعتهما واخلاصهما للسلطات الفرنسية •

غير أن أولاد عز الدين سرعان ما عادوا الى المشاغبة ، واثارة الاضطرابات ، فعادت القوات الفرنسية الى التدخل ضدهم فى سيدىَ مروان ، واضطر بورنان الى الانسحاب الى جنوب الزواغة • وحاول الشيخ الدينى مولاي الشقفة قرب جيجل أن يتدخل لدى القوات الفرنسية لصالح بولخراص بن عز الدين فى شهر أوت ، فى الوقت الذى شن فيه بورنان هجوما جديدا على معسكر سيدى مـروان ، وكـرر هجومه فى أوائل شهر سبتمبر 1847 على نفس المركز •

---

33) نفس المصدر ، ص 251 — 253 •

وقد حاول أولاد عز الدين تكوين قوات خاصة لقطع الطريق على القوات الفرنسية بين سكيكدة وقسنطينة ، وتعاون معهم في هذا العمل الشيخ بلقاسم بن فيالة ، وأولاد عيدون ، وعملوا على مهاجمة معسكر سيدى مروان ، واصطدموا بقوات الجنرال هيربيون ، والضابط بورباكى فى قرية جلامة ، وجرح بورنان خلال المعركة مع عدد آخر من الثوار • وبعدما ارسل الشيخ محمد بن عز الدين رسالة الى الجنرال أخبره فيها باستعداده لوضع نفسه تحت تصرفه ، وذلك خلال شهر سبتمبر 1847 (34) •

وفى عام 1849 أسندت لبولخراص بن عز الدين قيادة القبائل المستقرة على الضفة اليمنى لواد الرمل ، غير أن باقى أفراد اسرته ، والشريف بن يمينة ، واصلوا أعمال العنف والاضطرابات فى منطقة سكيكدة والحروش خلال شهر ماي ، فقرر هيربيون غزو المنطقة من جديد ، واقتحم الزواغة فى نفس الشهر ، وعسكر فى فج باينان ، بينما انسحب بورنان الى بنى ميمون ، وبنى رزلى ، وبنى يدر ، والتجأ الشيخ محمد كبير أولاد بن عز الدين الى صديقه بوعكاز بن عاشور فى فرجيوة ، وتمكنت القوات الفرنسية من تخريب قرى بنى ميمون فى شهر جوان ، وقتلت شيخ بنى حبيبى ، واضطر زعماء أولاد بن عز الدين الى الفرار بأنفسهم والاعتصام بالمناطق الجبلية الوعرة •

وعندما اندلعت ثورة سكان واحة الزعاطشة عام 1849 ، حاول أولاد بن عز الدين استغلالها لتصعيد الكفاح المسلح بمنطقتهم ضد القوات الفرنسية ، فاتجه بورنان الى أطراف واد أنجه ، وعين النكلة ، واصطدم بابن عمه القائد بولخراص الذى يعمل مع الفرنسيين ، وسلب له معظم ما كان معه من أمتعة ورجال •

وبعد هذا الحادث تدخل بوعكاز بن عاشور لدى السلطات الفرنسية ، واقترح عليها فى رسالة الى قسنطينة أن تعين الشيخ محمد بن عز الدين قائدا على المنطقة ، وأقنع الاخير بالاتجاه الى قسنطينة فى شهر أكتوبر 1849 ، ليطلب الامان ، ويقترح اسناد قيادة له ولاخيه بورنان فى المنطقة •

ويظهر أن السلطات الفرنسية كانت راغبة فى مصالحة أولاد بن عز الدين ولذلك اعدت مشروعا واسعا يقضى بأن يعين بولخراص قائدا على موية ، وبنى تليلان ، وبنى ابراهيم • والشيخ محمد المسن قائدا على الزواغة ، وعريس ، وأولاد عسكر ، وأولاد يحيى ، وأولاد عوات • وبورنان قائدا على حوض واد الكبير • ووجد هذا

34) نفس المصدر ، ص 254 ـ 258 •

المشروع صدى حسنا لدى أولاد بن عز الدين ، فالتحق بورنان بأخيه الشيخ محمد بقسنطينة وسلم نفسه للسلطات التى استقبلته مثل أخيه بنوع من الارتياح ، واقترح عليها أن تسند قيادة موية الى الشاب بولخراص بن محمد المنحدر من المدعو قيدوم ، بينما عين بولخراص بن عز الدين قائدا على واد زناتى وبقي فى منصبه حتى توفى (35)

وابتداء من هذا التاريخ بدأ نجم بورنان يعلو ويلمع • فاشترك مع الجنرال سانت ارنو فى حملته الكبيرة على جبال البابور خلال شهر ماي 1851 ، ولعب معه دورا بارزا فى محاربة الثوار بواد انجه ، وفج باينان ، والودية ، وفج العربة ، وقرية كازان ، وفج منازل ، والعروسة • وجرح خلال المعارك ومنح ميدالية نيشان الشرف مثل صديقه بوعكاز بن عاشور •

وفى شهر ماي 1852 اشترك مع الجنرال ماكماهون فى غزو حوض واد الكبير ، وتصدى لمقاومتهما الشريف بوصبع فى قرى أولاد عوات ، مع عدد من الثوار والمقاومين ، واستعمل الفرنسيون اقسى الوسائل كالتخريب ، والحرق ، والمصادرة •

وفى عام 1854 مات الشيخ محمد بن عز الدين المسن ، واشيع بأن أخاه بورنان هو الذى سمه ، ولم يوضح فيرو السبب • فخلفه ابنه الصغير عز الدين الذى أصبح تحت سيطرة عمه بورنان • وعين سى أحمد بلحاج بن عز الدين قائدا على بنى يدر ، وهو من اقارب بورنان (36) •

اشتعال الحرائق فى غابات الفلين بالزواغة عام 1858 :

سارت الامور بصورة طبيعية بعد هذا التاريخ حتى عام 1858 ، وكان بورنان خلال هذه الفترة هو صاحب السلطة والنفوذ فى المنطقة • غير أنه فى صيف عام 1858 اشتعلت الحرائق فى غابات الفلين بالمنطقة وأتت على حوالى 550 الف شجرة فى مساحة 5 آلاف هكتار • وقيل ان سبب هذه الحرائق هو قيام السلطات الفرنسية بمنح غابات الفلين للمستثمرين الاوروبيين الذين كونوا شركة فى الميلية لاستغلالها ، كما قيل بان بورنان كان وراء هذه الحرائق لان منح الغابات للمستثمرين الاوروبيين سيحرمه من المداخيل التى كان يحصل عليها لنفسه من المستغلين الوطنيين •

---

35) نفس المصدر ، ص 321 – 326 •
36) نفس المصدر ، ص 327 – 328 •

وبنصيحة من أبناء الزواغة الذين يعملون فى مهن الحدادة والبناء ، بقسنطينة ، تقدم الناس فرادى وجماعات الى السلطات الفرنسية لاخبارها بأمر هذه الحرائق ومطالبتها بارسال مبعوثين للتحقيق فى عين المكان ·

أما بورنان فقد ادعى للسلطات بأن أولاد حناش هم الذين ارتكبوا هذه الحرائق وطلب الاذن بمهاجمتهم فاذن له ، وهاجمهم يوم 10 جويلية فردوا عليه بعنف وقتلوا له بعض اتباعه ، بينما أحرق هو لهم قراهم ومنازلهم ·

ولما تطور الامر هكذا تدخلت السلطات الفرنسية ، ووجهت قوات عسكرية عاجلة الى المنطقة بقيادة الجنرال قاستو ، وضعت حدا للاضطرابات ، ووبخت بورنان على ضعفه وتهاونه ، وعجزه عن اطفاء الحرائق · وأرغمت السكان على تقديم غرامة جماعية كعقاب لهم ، وكلفت زعماءهم باستخلاصها وجمعها ، فعصى بعض الناس ورفضوا دفعها ، خاصة الذين يخضعون لبورنان ، وهاجموا الشيخ بوطمين وفرسانه يومى 13 و 14 نوفمبر على الضفة اليسرى لواد الكبير ·

وقد اعتبرت السلطات هذا الرفض تحديا لها فوجهت قوات فرنسية أخرى الى المنطقة تقدر بأربعة آلاف رجل قادها قاستو نفسه يوم 22 نوفمبر ومر بالواد الابيض ، وأولاد عيدون ، وأرغم السكان على احضار الضرائب اليه فى سوق الميلية يوم 26 ، وقد ذكر فيرو بأن الناس قدموا شكاوى كثيرة الى قاسطو بالميلية ضد بورنان ، واقترحوا عليه عزله وتعويضه بضابط فرنسى يحكمهم بصورة مباشرة ، فأمر فى الحال ببناء مركز بالميلية عين فيه الضابط سان مار Saint-Mars (37) ·

وخلال الحرب الايطالية ، وغياب القوات الفرنسية وضباطها عن الجزائر للمشاركة فيها ، انتشرت بين سكان البابور ظاهرة التمرد والعصيان ضد السلطات الفرنسية ، ولوحظ اهتمام الناس باقتناء الاسلحة والبارود ، ورفضهم لدفع الضرائب خاصة أولاد عسكر ، وأولاد بن عز الدين ، وأولاد يحيى (حيا Haia) ، وذلك خلال شهر جوان 1859 · ولذلك اتجهت قوات فرنسية الى هناك بقيادة الضابط لوفيفر Lefebvre ، والصبايحى بن نمان ، واكتشفت أن سبب الاضطرابات ومصدرها هم أولاد بن عز الدين ، وعلى رأسهم بورنان زعيمهم · فاستعملت القوة فى اعادة الهدوء واستخلاص الضرائب ، والقت القبض على عدد من الذين اعتبرتهم المرتكبين الحقيقيين

37) نفس المصدر ، ص 329 – 333 ·

لقتل العمال الثلاثة بالميلية الذين كانوا يعملون فى انشاء المركز العسكرى الذى قـرر قاستو انشاءه · وهم من أولاد بوزيد اتباع بورنان ·

وفى شهر أكتوبر 1859 ساءت الاوضاع مرة أخـرى فى الزواغة وحوضى واد الكبير ، وقسم من دائرة جيجل · وتم قطع الهاتف بين قسنطينة وجيجل أربع مرات · واكتشفت السلطات الفرنسية ، حسب رواية فيرو ، بأن بورنان هو المحرض الحقيقى على هذه الحوادث ، وعلى قتل عمال الميلية الثلاثة ، وتشجيع الناس على الثـــورة وحمل السلاح ، واضعاف سلطة القائد أحمد خوجة ابن أخ بوعكاز قائد بنى عافر · فجمعت كل هذه الحجج والدلائل ، وكونت ملفا هاما ضده وأفراد عائلته ، وانتظرت حتى سنحت الفرصة لها فى شهر ماي 1860 ، فعملت على تصفية الحساب معهم ·

فقد اتجه الجنرال ديفو الى المنطقة على رأس حملة عسكرية كبيرة ودعا الناس الى الطاعة والخضوع ، فاستجاب له البعض ، ورفض آخرون ومنهم زعماء بنى خطاب فى سيدى معروف الذين هاجموا مقدمــات القوات الفرنسية فى ليلتين متواليتين · فبادرت باعتقال بورنان وابن أخيه عز الدين بن الشيخ محمد · وتنقل ديفو فى المنطقة قرابة أربعة شهور حتى أواخر شهر سبتمبر ، وتمت تصفية أولاد بن عز الدين ما عدا اثنين هما : القائد بولخراص قائد موية ، والحاج بن عز الدين قائد بنى يدر فى جيجل·

وقدم بورنان ، وابن أخيه عز الدين ، الى مجلس حربى ، وحكم عليهما بالنفــي الى بلاد تونس ، أين توفي بورنان عام 1861 ، وسمح لولديه : علاوة ، وعبود بالعودة الى الجزائر · وبقي بولخراص قائدا على موية منذ عام 1850 ، والحاج بن عز الدين قائدا على بنى يدر منذ عام 1859 ، بعد أن تنازل أخــوه أحمد بلحاج عــن القيادة · وساد الهدوء بعد ذلك فى الزواغة حتى عام 1864 ، ولزم من بقي من أولاد بن عــز الدين الهدوء ، ولم يظهروا أي تمرد أو عصيان (38) · ولكن عام 1864 سيكون عــام التصفية الكاملة لاولاد بن عز الدين ، وأولاد بن عاشور معا كما سيأتى ·

أسباب اندلاع الثورة بالزواغة وفرجيوة عام 1864 :

فى خلال شهر مارس 1864 اندلعت الثورة فى الزواغة وفرجيوة ، وارتمى فيهــا أولاد بن عز الدين ، وأولاد بن عاشور · وهناك عدة عوامل ساعدت على نشوب هذه الحركة بعضها داخلى وبعضها خارجى :

38) نفس المصدر ، ص 334 – 341 ·

أولا : تاثير ثورة أولاد سيدى الشيخ بالجنوب الوهرانى التى اندلعت بالبيض وانتشرت فى معظم الجزائر الغربية والوسطى ، ووصلت تاثيراتها الى الشرق الجزائرى

ثانيا : تاثير ثورة على بن غذاهم بتونس ضد الباي الذى أصبح لعبة فى يد القناصل الاجانب ، ووصلت تاثيراتها عن طريق الحدود الشرقية الجزائرية ، خاصة مدينة الكاف ٠

ثالثا : بروز عدد من رجال الدين والمقدمين الرحمانيين بالمنطقة ، وحثهم الناس على حمل السلاح والقيام بالثورة ضد جيش الاحتلال وادارته ، ومن بين هؤلاء :

ـ الحاج حجوج بميلة الذى ادعى للناس بأنه تلقى تعليمات فى السنة الماضية بالحجاز خلال قيامه بأداء فريضة الحج من طرف نائب السلطان العثمانى ، بأن يقوم بالثورة ضد الاستعمار الفرنسى ٠

ـ والشيخ بوقرين فى أولاد عبد النور بقرية كارب الذى يعمل لصالح أولاد بن عز الدين ، وأولاد بن عاشور معا ٠ وسعى لتهييج الناس ودفعهم الى الثورة ٠

ـ والشيخ مولاي محمد مقدم الطريقة الرحمانية بالزواغة الذى كان من رفاق بومعزة ، وله أنصار فى مدينة قسنطينة نفسها ، فعمل على تجنيدهم ودفعهم الى الثورة فى الاجتماع الذى عقده يوم عيد الفطر لعام 1281 الموافق 10 مارس 1864 بدار الحمراء مقر اقامته ٠ وأخبرهم بأنه بعد ثمانية أيام ستندلع الثورة ٠ وقام بولخراص باستضافته وكل زعماء الحركة الذين كانوا يعدون للثورة ومنهم علاوة ، وعبود ، ابنا بورنان (39) ٠

وعندما بدأت هذه التحركات والاجتماعات ، عقد زعماء أولاد بن عز الدين ، وأولاد بن عاشور ، عدة اجتماعات فيما بينهم لتنسيق العمل رغم الخلافات التى كانت موجودة بينهم سابقا ٠ ولعب المقدم الرحمانى مولاي محمد بالزواغة دورا بارزا فى الدعاية والاثارة ، وتحميس الناس على حمل السلاح ٠ وفى يوم 18 مارس تجمع الثوار فى فج باينان ٠ وأسرع الحاج بن عز الدين قائد بنى يدر الى منزله ليحمل السلاح والرماح ٠ واشعل الثوار النيران فى الربوات ايذانا ببداية الحوادث ، وكانوا يعدون بالمائات ، ونزلوا الى برج القائد حمو بقرية الزغاية الذى خلف بورنان فى منصبه بعد نفيه ، وأحرقوه فى غيابه ٠ وقتلوا بعض الناس المعارضين لحركتهم ٠

(39) نفس المصدر ، ص 166 ـ 167 و 341 ـ 347 ٠

وبمجرد أن اندلعت هذه الحوادث اسرعت السلطات الفرنسية لاعتقال مولاي محمد الذى يبدو انه لم يتخذ الاحتياطات الكافية ، وأوقفت بوعكاز بن عاشور فى مدينة قسنطينة فى الوقت الذى كان يستعد فيه للالتحاق بفرجيوة مما يدل على وجود تنسيق بينه وبين الثوار فى المنطقة مسبقا . وقام الصبا يحيى بن نمان باعتقال القائد بولخراص بن عز الدين فى جيجل . كما اعتقل علاوة ، وعبود ، ابنا بورنان ، واحتجزا . اما بقية أولاد بن عز الدين فى مدينة قسنطينة فقد التحقوا بالزواغة سرا وحملوا السلاح ، والتحق بهم فى شهر جوان اخوانهم المنفيون بتونس منذ عام 1860 ، وأخذوا يحدثون الناس عن اخبار ثورة على بن غذاهم ضد باي تونس ، واشاعوا بينهم بأن سفنا حربية محملة بالسلاح هي فى طريقها من القسطنطينية الى تونس ، وأن السلطان عبد العزيز نفسه سيصل الى الجزائر ليحررها من الغزاة الاجانب (40).

وفى بداية شهر جويلية بدأ تجمع الثوار المسلحين ، وعزموا على مهاجمة برج الميلية الذى يقيم فيه الضابط الفرنسى الذى يدير منطقة حوض واد الكبير ، وتعاون كل من القائد بن حبيلس ، وبن عميروش ، وبن منية ، واتباعهم مع القوات الفرنسية ضدهم بعد أن طلبوا الامان يوم 11 أوت .

وفى مطلع شهر سبتمبر ، قاد الجنرال بيريقو Périgot الحاكم الجديد لعمالة قسنطينة ، خلفا لديفو ، قوات فرنسية كبيرة تقدر بحوالى خمسة آلاف رجل ، واتجه بها الى الزواغة لمحاربة الثوار ، واخترق الزغاية ، وواد فرجه ، وفج باينان ، وفج الاربعاء ، والعروسة ، ومنها الى فرجيوة . وفى يوم 23 من نفس الشهر هاجم الثوار معسكرا فرنسيا فى برج القانون قرب واد الحليب ، وأرغموا الجنرال بيريقو على نقل معسكره الى اطراف واد الكبير ليدافع عن نفسه وعن قواته ، ولم يطل به الامر كثيرا فقد صدرت اليه الاوامر ليتجه بسرعة الى منطقة الحضنة وبوسعادة التى وصلت اليها أحداث ثورة أولاد سيدى الشيخ ، فرحل عن واد الكبير بعد أن استخلف فى مكانه القائد بن حبيلس كبديل لحمو الدراجى صهر بوعكاز بن عاشور (41) .

وقد واجه بن حبيلس صعوبات كبيرة فى الزواغة والبابور من طرف الثوار خلال شهر أكتوبر ، عندما حاول استخلاص الضرائب من السكان فى بنى زنداي ، والريشية ، وبنى مراي ، وجرت محاولة لاغتياله ، واضطر الفرنسيون أن يسحبوا

40) نفس المصدر ، ص 347 – 349 .
41) نفس المصدر ، ص 349 – 353 .

العمال الذين كانوا يقومون بشق الطريق فى شعبة الاحرة بخراطة بين سطيف ، وبجاية ، بعد أن اصبحوا مهددين بالاخطار ، ووجهوهم الى تاقيطونت • وهدد الثوار زمالة قائد أولاد صالح بعموشة ، واحرقوا منزله يوم 14 نوفمبر • وهاجموا برج تاقيطونت يوم 24 نوفمبر ، وعضدهم سكان جرمونة ، وبنى مزى ، وبنى اسماعيل ، وكل منطقة تابابورت •

وفى أوائل شهر ديسمبر حاول القائد بن حبيلس أن يجدد محاولاته لاستخلاص ضرائب الحرب من سكان الريشية فهاجمه السكان وارغموه على الانسحاب ، وأدى عمله هذا الى امتداد الغضب ، والثورة الى أولاد عمر بفرجيوة الذين قتلوا شيخهم ، وحاولوا حمل سكان سوق الاربعاء على حمل السلاح معهم • وتمكن ثوار قرية الريشية من تخريب قرية الدهامشة يوم 14 جانفى 1865 • وهاجم ثوار بنى مراي ، برج القائد حمو أو عاشور يوم 24 جانفى ، وخربوا محطة العمل فى شعبة الآخرة • وأرغموا العمال والحراس على الانسحاب الى تاقيطونت ، وحصلت بينهم وبين بنى اسماعيل بعض المشاكل •

وفى يوم 8 فيفرى حاول القائد بن حبيلس للمرة الثالثة ، ان يستخلص ضرائب الحرب من بعض السكان ، ففشل واضطر أن ينسحب الى قرية أربعون وهاجم الثوار يوم 18 من نفس الشهر ، خصومهم من بنى اسماعيل ، وبنى تيزى ، وجرمونه ، كما هاجموا مؤسسات الاوروبيين فى أوقاس شرق بجاية وامتدت حوادث الثورة الى دائرة جيجل • وعمل الثوار على محاربة القائد السعيد بن عبيد فى ذراع القايد ببنى سليمان وساحل قبلى لانه يقوم بنشاط معاد لهم مع ضابط المكتب العربى • واستعان الضابط الفرنسى سان فوا : Saint-Foix بالقواد : بوزيد بن يلس ، والزروق بن هنى ودوادى بن كسكاس ، فى انجاد الدهامشة (42) •

وفى يوم 6 مارس انحدرت ثلاث فرق من الثوار ، من جبال البابور ، وينتمون الى أولاد صالح ، وبنى مراي ، وبنى فلكاي ، وجرمونة ، وبنى تيزى ، وبنى اسماعيل ، وعموشة • فاتجه ثوار أولاد صالح وثوار البابور ، وعموشة ، الى الدهامشة ، وهاجموا برج القائد السابق سى زادى الذى تصدى للدفاع عن الدهامشة ، واحرقوه وخربوه بعد أن فر منه صاحبه ، ومن كان معه من الاتباع •

(42) نفس المصدر ، ص 169 ــ 173 •

وفى الوقت الذى اتجه فيه الضابط الفرنسى Nayral الى قـرية قموش ، وساحل قبلى ، وجند معه القائد أحمد بن زيدان وقومه ، وعمـل على تدعيم مـركز تاقيطونت بقوات أخرى ، فى هذا الوقت هـاجم الثـوار معسكر الحراسة الفرنسى وقتلوا حوالى تسعة أشخاص ، وحاصروا الباقى داخل المركز الى ان حضرت نجدات أخرى بقيادة الضابط الكولونيل زنتا Zenta

وفى شهر أبريل 1865 هاجم الثوار معسكر أوقاس الفرنسى على ساحل بجاية ، وعمت الثورة مرة أخرى معظم المنطقة ، واضطر الفرنسيون ان يجندوا قوات أخرى ويوجهوها الى المنطقة بقيادة الكولونيل أوجورو Augerau والجنرال بيريقو . فهاجم الاول بنى اسماعيل ، وسكان تالوت ، وهاجم الثانى سكان الريشية فى ضَواحى سرج الغول ، ومضيق عين سران بين البابور وتابابورت .

وبعد هذه المعارك عسكر الثوار فى قمة جبل أدرار أملال بزعامة سى بكير الذى ينتمى الى سكان اغزر أو قطيس ، وعمر أو تاهرونت من أولاد صالح الذى كان يتزعم الثوار وحركتهم فى المنطقة الممتدة بين الدهامشة وبنى سليمان . وخلال الاصطدام بالقوات الفرنسية اعتقل عمر أوتاهرونت ووقع فى الاسر (43) .

وفى نهاية فصل صيف عام 1865 انتهت حوادث الثـورة ، وبقيت منطقة البابور هادئة بعد ذلك حتى عام 1871 ، ثم عادت الحوادث مرة أخرى ، فثـار أولاد عيدون بالميلية فى شهر فيفرى ، وعندما اندلعت ثورة المقرانى والحداد فى شهرى مـــارس وأبريل 1871 شار سكان البـابور وحملوا السلاح ولعبوا دورا بـارزا فى احداثها طوال فصل الصيف ، وبقيت الى أواخر شهر أكتوبر .

مصير أولاد بن عز الدين وأولاد بن عاشور :

وضع بوعكار بن عاشور فى سجن قصبة قسنطينة يوم 11 أبريل 1864 ، وبقـي به حتى شهر أوت ثم نفي الى مدينة بو Pau بجنوب فرنسا . وفى عام 1865 أصدر الامبراطور نابوليون عفوا عليه فعاد الى الجزائر العاصمة وفرضت عليه اقامة جبرية بها حتى عام 1870 ، ثم رفعت عنه فعاد الى قسنطينة .

---

43) نفس المصدر ، ص 173 – 177 .

أما أولاد بن عز الدين فقد نفوا الى مدينة كورتى Corté بشرق جزيرة كورسيكة ، وتوفي عبود ، وسمح لبولخراص ، والحاج بالاتجاه الى تونس للاستقرار بها مع بعض افراد عائلتهما الذين نفوا الى هناك منذ عام 1860 .

وبهذا الاسلوب تخلص الفرنسيون من هاتين العائلتين ، وهو الاسلوب الذى سيستعملونه مع العائلات الاخرى المشابهة لوضعهما خلال الثورات المقبلة خاصة عائلتى المقرانى والحداد بعد ثورة 1871 (44) .

---

44) نفس المصدر ، ص 168 ـ 169 و 348 . وللمزيد من المعلومات عن ثورة الزواغة وفرجيوة أنظر : يحيى بوعزيز : ثورات سكان الزواغة وفرجيوة والبابور ضد الاستعمار الفرنسى وقضية الحاج بن عز الدين . **الثقافة** ، عدد 40 . (الجزائر أوغسطس ، سبتمبر 1977) ص 11 ـ 21 .

المكانة التاريخية للشرق الجزائرى في نهاية القرن الثالث الهجرى

د. مرمول محمد الصالح
معهد العلوم الاجتماعية
ـ جامعة قسنطينة ـ

لا شك أن الاحداث التاريخية تتحكم فيها عوامل عدة سياسية واقتصادية ، وجغرافية ، وبشرية ، تؤثر جميعا في سيرها وتلعب دورا هاما في توجيهها وفي النتائج التي تترتب عليها سلبا وايجابا • وبعبارة أخرى يمكن القول بأن الاحداث التاريخية كيفما كان مظهرها ما هي الا نتيجة من نتائج تفاعل عنصر الانسان مع عنصري المكان والزمان • وأمثلة ذلك كثيرة • ولعل خير مثال على هذا ما جد من أحداث بالشرق الجزائري في نهاية القرن الثالث الهجرى والمتمثل في ظهور الدعوة الاسماعيلية (1) التي جعلت منطقة ايكجان ، بفج الاخيار (فرجيوة حاليا) مركز انطلاقها داخل بلاد كتامة (2) أولا ، وخارجها ثانيا • وتمكنت من السيطرة على بلاد المغرب الاسلامي (3) • وغيرت فيه الاوضاع السياسية السائدة لصالحها كخطوة أولى • ثم مدت نفوذها الى مصر ، والشام والحجاز وسيطرت على أجزاء واسعة من المشرق الاسلامي بفضل ما وفرته من امكانيات مالية وعسكرية بالمغرب الاسلامي ، الذي جعلته منطلقا لتجريد الحملات العسكرية على المشرق واخضاعه لسلطتها •

القت الدعوة الاسماعيلية بذرة دعوتها الاولى في المغرب الاسلامي على أيدي روادها الاوائل ، فوجدت فيه التربة الخصبة والمناخ الملائم فنبتت تلك البذرة ، وامتدت

جذورها وتفرعت أغصانها ، ثم أثمرت وأينعت أخيرا ٠ وبذلك تمكنت من تحقيق مـا عجزت عـن تحقيقه بالمشرق مكـان الدعوة الاصلى ٠ واتخذت مـن سكـان المنطقة وامكانياتها الاقتصادية والعسكرية ـ كما ذكرنا ـ وسيلة لتحقيق مطامحها المذهبية والسيـاسيـة ٠

لقد لعب المغـرب الاسلامى وسكانه دورا تاريخيا هـامـا فى مجـال الحضارة الانسانية بصفة عامة قديما وحديثا والاسلامية منها بصفة خاصة ٠ فمنه انطلق الفتح بقيادة طـارق بن زيـاد الى الاندلس التى ازدهرت فيهـا الحضارة الاسـلامية ايما ازدهار ، ومنها انتقلت الى أوروبا ٠ ومنه فتحت أيضا عدة جزر فى الحوض الغربى مـن البحـر المتوسط كصقلية وسردانية وكريت ، وجنوب ايطاليا وغيرها حتى اصبح الاسطول الاسلامى ، يتحكم فى مصير هذا البحر فى عهد الخلافة الفاطمية التى بدأت دعوتها كما ذكرنا فى ايكجان بفج الاخيار ٠ وقد قال ابن خلدون بشأن صولة الاسطول فى هذا العهد ٠ « وكان أبو القاسم الشيعى وأبناؤه يغـزون باساطيلهم مـن المهدية جزيرة جنوة فتنقلب بالظفر والغنيمة ٠٠٠ وانحازت أمم النصرانية بأساطيلهم الـى الجانب الشمالى الشرقى ٠٠٠ وأساطيل المسلمين قـد ضريت ضـراء الاسـد عـلى فريسته ، وقد ملأت الكثير من بسيط هذا البحر عدة وعددا فلم تسبح للنصرانئة فيـه ألـــواح ٠٠٠ » (4)

ومن بلاد المغرب الاسلامى أيضا انتشـر الاسلام فى منـاطق شتى مـن القـارة الافريقية ، وذلك فى عهود مختلفة ويقول جرجى زيدان بهذا الصدد منوها بالدور الذى قام به سكان المغرب : « وللبربر فضل كبير فى نشر الاسلام فى أواسط افريقيا مثـل فضل الاتراك فى نشره فى أواسط آسيا » (5)

ولكن لما كان المغرب الاسلامى تفصله عن مركز الخلافة بالمشرق مسافات بعيـدة وان أهله عرفوا بالشجاعة فى الحروب ، والميـل الى التمرد على السلطة المركزية ، خاصة اذا ما لحقهم حيف لانهم ألفوا الحرية الفردية فكثيرا ما قامت فيه الثورات منذ وقت مبكر فى وجه بعض ولاة الخلافة ٠ كما قصدته الجماعات المعارضة من خوارج وشيعة وتمكن بعضها من نشر مذاهبها وانشاء كيان سياسى لها ويتمثل ذلك فى قيام امارة بنى مدرار بسجلماسة جنوب غرب المغرب الاقصى حاليا منذ سنة 140 هـ ، وهي امارة بربرية على المذهب الصفرى ٠ وكذلك قيام الامارة الرستمية الاباضية بتيهرت فى المغـرب الاوسط (الجزائر) سنة 161 هـ ٠ والامارة الادريسية بفـاس فى المغرب

الاقصى سنة 172 هـ ، ثم ظهرت الدعوة الاسماعيلية التى نتج عنها قيام الخلافة الفاطمية سنة 296 هـ ، والتى قضت على الامارات المذكورة سابقا وعلى الامارة الاغلبية فى القيروان ، الموالية للخلافة العباسية · وقد شمل نفوذ دعوة الاسماعيلية كامل بلاد المغرب الاسلامى تقريبا · وتعددت دور هجرتها وعواصمها من ايكجان الى تازروت ، ورقادة ، والمهدية والمنصورية (6) ·

والجدير بالملاحظة أن كل دولة من الدول المذكورة سابقا اعتمدت فى نشر مذهبها وانشاء كيان سياسى لها على قبيلة أو قبائل بربرية معينة وبذلك جعل اللاجئون السياسيون والدعاة الوافدون البربر اداة لتحقيق مطامحهم ، وجنودا فى حروبهم ·

وكما كانت بلاد المغرب الاسلامى بعيدة عن مركز الخلافة الاسلامية وان سطحها الوعر يشجع على حرب العصابات فانها واسعة وغنية بمواردها الاقتصادية التى تعتبر حافزا من الجوافز المشجعة على الانفصال والاستقلال عن السلطة المركزية ، اذ لا يمكن ان تقوم أي دولة فى منطقة من المناطق الا اذا توفرت لها عدة أمور من بينها موارد مالية كافية ·

ان كل دولة قامت فى منطقة من مناطق المغرب الاسلامى اعتمدت فى ماليتها على ثروات تلك المنطقة التى ظهرت فيها ، كما اعتمدت فى حماية كيانها على سيوف سكانها بالدرجة الاولى · ومما يدل على غنى هذا الاقليم ، ووفرة ماله ، وتنوع موارده الاقتصادية ما ذكره العديد من الرحلة والجغرافيين المسلمين ، ومنهم ابن حوقل الذى عاصر قيام الخلافة الفاطمية وزار المغرب الاسلامى وشاهد ثراءه ، ويسار أهله · وذكر بأن الكثير من المشارقة قصدوه للاشتغال بالتجارة وان صادراته الى المشرق تنوعت ، ونصه : « فأما ما يجهز من المغرب الى المشرق فالموالدات الحسان الروقة كاللاتى استولدهن بنو العباس كسلامة البربرية أم أبى جعفر عبد الله بن محمد ابن علي بن عباس وقراطيس أم أبى جعفر هارون الواثق بن المعتصم · وقتول أم أبى محمد القاهر بن المعتضد ··· والعنبر والحرير ، والاكسية الصوفية الرفيعة والحديد والرصاص والزئبق » (7) ، ولاشك أن هذا يدل على مدى المكانة الاقتصادية التى كان يتمتع بها المغرب الاسلامى الامر الذى جعله محط انظار المعارضين السياسيين لانهم وجدوا فيه الحماية الطبيعية ووفرة المال بالاضافة الى كثرة الرجال ، ومن هؤلاء دعاة الاسماعيلية الذين تمكنوا من انشاء الخلافة الفاطمية التى فتحت فيما بعد مصر

وانتقلت اليها ، وانشأت بها حضارة معتبرة من مآثرها القاهرة والجامع الازهر . فشرارتها الاولى انطلقت من فج الاخيار بالشرق الجزائرى ، ثم أخذت تتسع وذلك بفضل رجال قبيلة كتامة بالدرجة الاولى .

لقد وقع اختلاف بين الباحثين فى أصل هذه القبيلة ، ولكن الراجح أنها من البربر البرانس الذين يستوطنون شمال المغرب الاسلامى فى الغالب (8) . وهي من أقوى القبائل وأكثرها عددا وعدة وموطنها الممتد بين بجاية وعنابة ، هو منبت الدعوة الاسماعيلية ومهدها الاول ، ويمتاز بحصانته الطبيعية واستراتيجيته العسكرية ، فهناك الجبال الكثيرة والشعاب الوعرة التى تساعد على حرب العصابات . وكثيرا ما وقفت شامخة فى وجه العدو الخارجى .

انطلقت الدعوة الاسماعيلية من فج الاخيار الى المناطق المجاورة كميلة وجيجل وسطيف وغيرها وتعتبر الحصانة الطبيعية لهذا المكان فى مقدمة العوامل التى جعلت الشيعى يختاره مقرا له ويجعل فيه مركز دعوته ودار هجرته . ومنه جند الجيوش واخذ يفتح المدن ويوجه الحملات العسكرية ضد بنى الاغلب وولاتهم . ثم ضد الرستميين وبنى مدرار والادارسة بفاس . ففى هذا المكان اشتد ساعد الدعوة وكثر اتباعها وانتصر الداعى الاكبر على خصومه واستطاع أن يخلق من الضعف قوة فى زمن قصير .

لقد كانت بلاد كتامة من أصعب المناطق من قبل ظهور الاسلام . ولاشك ان هذا ما جعل موسى بن نصير اثناء الفتح الاسلامى يجامل أهلها ، ويعاملهم بلين ومرونة ، حيث أولى عليهم رجلا من رجالهم واخذ رهائن من خيارهم خوفا من الثورة عليه . كما كانت مهدا للثورات والاضطرابات من قبل ظهور الدعوة الاسماعيلية وبعدها . وملجأ لبعض المعارضين على بنى الاغلب منذ منتصف القرن الثانى الهجرى (9) . وقامت فيها أيضا أول ثورة على عبيد الله المهدى الخليفة الاول الفاطمى (297 ــ 332 هـ) لما قتل داعيه الاكبر أبا عبد الله الشيعى سنة 298 هـ وقد قاد تلك الثورة زعيم كتامى يقال له المارطى ، وامتنعت أيضا من دفع الضريبة المالية التى أراد المعز الفاطمى فرضها لما عزم على الرحيل الى مصر سنة 361 . واضطرته على ان يتراجع عن ذلك القرار أخيرا (10) .

وحتى فى العصر الحديث فان الفرنسيين أثناء احتلالهم للجزائر لم يقصدوها مبكرا . وذلك نظرا لمناعتها وشدة مقاومة أهلها وواجهتهم بها عدة ثورات وانتفاضات.

كما كانت فى مقدمة المناطق التى اندلعت فيها ثورة التحرير الكبرى سنة 1954 واشتدت وطاتها على الاجنبى ، وفيها وقع الهجوم الشامل فى 20 أوت 1955 ·

ان الفاطميين لم يكونوا أول أو آخر من تشيع لابناء على بن أبى طالب وأحفاده ، كما انهم لم يكونوا أول أو آخر من قصد بلاد المغرب الاسلامى من المعارضين السياسيين المشارقة ، ولكنهم امتازوا عن غيرهم بالوعي والنشاط ، وحسن التنظيم ، وتعميم الدعوة ونشرها فى مختلف أرجاء العالم الاسلامى ولما لم ينجح لهم سعي بالمشرق توجهوا بدعوتهم الى المغرب وتمكنوا من تحقيق أهدافهم ـ رغم أن طريق الخلافة الفاطمية كانت شاقة ومحفوفة بالاخطار خلال مسيرتها الطويلة ـ وهي مدينة بالدرجة الاولى الى التضحيات النادرة ، والجهود المضنية التى قام بها داعى الاسماعيلية الاكبر أبو عبد الله الشيعى والى المؤازرة القوية ، والمساندة المستمرة التى بذلها الكتاميون أيضا ·

ولكن من جهة أخرى فان دعوة الاسماعيلية لم تكن طارئة على بلاد المغرب الاسلامى وظهرت فيه لاول مرة على يد الداعى الاكبر المذكور ، بل وجدت به من قبل · ومن ثم فان هذا الاخير وجد الطريق ممهدا على الاقل ، والعقول مهيأة لتقبلها ، وبالتالى تكللت أعماله بالنجاح أخيرا · ومن هنا يمكن القول بأن الدعوة الاسماعيلية مرت بمرحلتين : مرحلة تبشيرية ، أو تمهيدية تتمثل فى النشاط الذى قام به دعاتها قبل قدوم أبى عبد الله الشيعى ، ومرحلة تنفيذية ايجابية مثمرة تمت على يده ·

أ ـ الدعوة قبل أبى عبد الله الشيعى : لقد انتقلت دعوة الاسماعيلية الى بلاد المغرب الاسلامى وانتشرت فيه مثل غيرها من المذاهب الاسلامية الاخرى المتقدمة عليها والمعاصرة لها بواسطة المعارضين السياسيين والتجار ، والحجاج والبعثات العلمية ، والمؤلفات ، وغيرها لان هذه المنطقة مثل غيرها من بقية المناطق الاسلامية الاخرى كانت مفتوحة لمختلف المذاهب والتيارات السياسية والفكرية التى تظهر بالمشرق مركز الحضارة الاسلامية · ووجدت به منذ عهد جعفر الصادق (ت 148 هـ 746 م) بن محمد الباقر الذى بعث فى آخر حياته باثنين من الدعاة هما : الحلوانى ، وأبو سفيان وأمرهما بنشرها ، وقال لهما ما معناه : بالمغرب أرض بورفا ذهبا واحرثاها ومهداها حتى ياتى صاحب البذر · وبفضل جهودهما انتشر التشيع الاسماعيلى فى مناطق مختلفة مثل نفطة ، وقسطيلية بتونس وببلاد كتامة بين سكان وادى الرميل بنواحى قسنطينة وغيرها · وقد تظاهر كل منهما بالفضل والتدين كي

يلتف الناس حوله ، كما استعملا مختلف الوسائل ، ومنها المصاهرة لكسب عطف وتأييد السكان خاصة وأنهما تسترا بالدعوة لآل البيت (II) وأصبحت بعض المناطق التى قصداها مثل قسطيلية مركز الانطلاق دعاة الاسماعيلية فيما بعد الى جهات أخرى مما يدل على أن جهودهما أتت ثمارها ، وقد توجه أحد الدعاة الى (بنى ماغوس) بجبل درن ، وهو الاطلس الكبير حاليا فى المغرب الاقصى ، واسمه محمد بن ورستد ، يدعو الى المذهب (I2) وان دل هذا على شىء فانما يدل على مدى مرونة هذه الدعوة وتدرج القائمين بنشرها مرحلة بعد أخرى مع مراعاة الظروف والاحوال ، حيث استعملوا نظام اللامركزية ، فتعددت مراكز انطلاق الدعاة للتبشير بها وأصبح لها أتباع ومريدون · ولما جاء الداعى الاكبر وجد الجو مهيأ فقام باحيائها وتعميمها وتعميقها فآتت أكلها على يديه وحققت أهدافها ·

ب ـ الدعاة على يد أبى عبد الله الشيعى : مر كفاحه المرير من أجل انشاء الخلافة الفاطمية بمرحلتين داخل بلاد كتامة وخارجها · وكل منهمالهاميزاتها وأسلوبها وظروفها الخاصة ·

1 ـ مرحلة الكفاح داخل بلاد كتامة : لقد اتصل الشيعى بحجاج كتامة فى موسم الحج ، وبواسطتهم أخذ بعض المعلومات الضرورية عن الاوضاع السياسية ، والاجتماعية والعسكرية ببلادهم ، ولما تراءت له بوادر النجاح توجه معهم ·

كان الشيعى قبل توجهه الى بلد كتامة مقيما بالكوفة عاصمة الشيعة ، ومنها بعثه محمد الحبيب امام الاسماعيلية الى ابن حوشب داعى اليمن ليتدرب عليه · أو أنه من صنعاء اليمن ، ومنها توجه الى عدن لاعة ، واتصل بابن حوشب المذكور ، وصار من أكبر اتباعه ، وهو الذى بعثه الى المغرب الاسلامى وذهب البعض الى القول بأنه من البصرة وكان محتسبا بها ويقوم فى نفس الوقت بتعليم مذهب الامامية ، ولذا عرف بالمعلم فاتصل بمحمد الحبيب فلما رآه غزير العلم والمعرفة بعثه الى ابن حوشب ليتدرب عليه ، ثم يذهب الى بلد كتامة · وعلى هذا فان امام الاسماعيلية خصص له المكان الذى يتجه اليه (I3) والراجح انه كوفى الاصل ، لان الكوفة هي عاصمة الشيعية فمن المعقول أن يكون من أهاليها ومن المتشبعين بالمذهب الاسماعيلى حتى يكون محل ثقة ·

لقد اشتهر الشيعى بالذكاء والتدين · كما كان عالما يعلم تأويل ظاهر القرآن وباطنه ، وقد أوصاه محمد الحبيب لما بعثه الى ابن حوشب بالاقتداء بسيرته وتطبيق

تعليماته فواظب على حضور مجالسه والخروج معه في غزواته لا يفارقه في حله وترحاله . وكان وصوله الى اليمن في حدود 278 هـ/891 م (14) .

لم يتوجه الشيعي من اليمن الى بلد كتامة مباشرة بل قصد الحجاز وهناك التقى بحجاج كتامة فخالطهم وأخذ يستقصي أخبارهم ، ومعرفة امكانيات بلادهم وعلاقاتهم ببني الاغلب . ولم يعرفهم قصده وتظاهر لهم بالزهد والعبادة فازدادوا اقبالا عليه وخدموه ، حتى أنهم كانوا يمشون اذا مشى ، ويقفون إذا نزل ليقضي حاجته ، ويأخذ بعضهم ركابه اذا أراد الركوب (15) كل هذا اجلالا وتقديرا له لما حدثهم بشؤون أهل البيت وافاض في الحديث عنهم .

وهناك من ذكر بأن مذهب رئيس حجاج كتامة الذين خالطهم الشيعي انما هو المذهب الاباضي النكاري . ولما عرف ذلك دخل عليه من هذه الثلمة (16) ، ولكن هذا الرأي مردود لأمرين : فبلاد كتامة انما انتشر فيها المذهب الاسماعيلي من قبل قدوم الشيعي وليس المذهب الاباضي النكاري الذي انحصر غالبا في الجنوب ومركزه تيهرت وان وجد ببلاد كتامة الا أنه لم يكن منتشرا فيها على نطاق واسع حتى يطمئن الشيعي الى أتباعه ويعتمد عليهم في نشر دعوته . كما أنه انحصر وسط قوم يعرفون ببني عفنيت فهم من الكتاميين الذين كرهوا أمر أبي عبد الله الشيعي . ومن جهة أخرى فلا يعقل أن يركن ـ رغم ذكائه ـ الى أناس يعتنقون مذهبا خارجيا عرف أتباعه منذ عهد علي بشدة عدا وتهم لكل فرق الشيعة ، وزيادة على ما تقدم فان شمال المغرب الاسلامي ـ ومنه بلاد كتامة ـ انما ساده على العموم المذهب السني . ولذا كان دائما تحت نفوذ ولاة الخلافة الاسلامية في الوقت الذي قل فيه نفوذهم على القسم الجنوبي منه لتمركز الخوارج فيه .

لقد سحر الشيعي حجاج كتامة بفصاحته وقوة بيانه ، وغزارة علمه ، مما زادهم اقبالا عليه ، ورغبة فيه ، حيث أن قوة شخصيته كانت العامل الاول في ميلهم نحوه ، وتوطيد صلتهم به . ومن ثم أخذ يستدرجهم ويستقصي أخبارهم ويستفسرهم عن أمورهم العامة وأحوال بلادهم . وكان بينهم بعض الزعماء الذين تشيعوا بفضل دعوة الحلواني وأبي سفيان مثل حريث الجيملي ، وموسى بن مكارمة (17) . وسألهم عن علاقتهم بابن الاغلب فقالوا له ماله علينا طاعة وذكروا له أن المسافة التي تبعدهم عنه مسيرة عشرة أيام . واستوضحهم عن الامصار القريبة منهم فذكروا له ميلة وسطيف وبلزمة عليها رجال ملكوها وليس لابن الاغلب عليهم أكثر من الدعوة له على المنابر

(وهم له طاعة فى معصية) · وسألهم عمن يرجع اليه أمرهم ، فأجابوه بأن كلا منهم فى نفسه عزيز · ولهم أكابر فى كل قبيلة ، ومعلمون يستفتونهم فى أمورهم الدينية والدنيوية ، ويحتكمون اليهم فيما جد من المشاكل والخصومات وأخبروه بمناعة بلادهم وكثرة رجالهم ، وأنهم يملكون الخيل والسلاح حيث قالوا له : « بـه نفتخر وايــاه نعتد لحاجتنا » (18) وبعد هذه الاسئلة اطمـأن الى امكانياتهم المادية والعسكرية ، زيادة على ضعف سلطة بنى الاغلب عليهم · وتأكد بأن الاوضاع السياسية فى بلادهم تساعده على النجاح فازداد ميله اليهم ، وقرر فى نفسه أن يتوجه معهم ·

ولكي يتأكد من استعدادهم للانقياد له تظاهر لهم بأنه قاصد مصر ليشتغل فيها بالتعليم فرغبوا فى المسير معه ، ورغبوه فى التوجه معهم وقالوا له : ما نرى أنـك تجد بلدا أجدى عليك فى التعليم من بلدنا ، فتظاهر لهم بالتردد ، ولكنه فى حقيقة الامر يدرس نفسياتهم ، ويختبرهم ليرى مدى جديتهم فى الموضوع · وقد حث بعضهم بعضا على ترغيبه فى المسير معهم ليفاخروا به بقية القبائل الاخرى واعتبروه كنـزا لا يفنى ، وصاروا يلحون عليه فى ذلك قائلين : « عندنا كثير من اخوانك ممن يذهب الى ما أنت عليه » ومعنى هذا فانهم كانوا يعرفون مذهبه ، ويرى البعض بأن حجاج كتامة بايعوه فى موسم الحج بالامر والطاعة ، وأمروه على أنفسهم ، فسار معهم الى بلادهم (19) · ولكن هذا بعيد الاحتمال لعدة اعتبارات ، منها أن الحجاج الذين التقى بهم لم يكونوا يمثلون كل كتامة · كما أنه يستبعد أن يطلعهم على حقيقة أمره ، لان مخالطته لهـم لا تزال سطحية ، فلا يأمن جانبهم أثناء الطريق ، خاصة وأنه عـرف بالذكاء والدهاء السياسى ، فلا يعقل أن يتسرع ، ويكشف ما فى نفسه لاناس لـم يخالطهم طويلا ، وطريقة محفوف بالاخطار من طرف العباسيين ·

لقد سار معهم من الحجاز على أساس أنه سيقيم بمصر ، وأثناء الطريق ازدادت معلوماته عنهم ، فصاحبهم الى بلادهم ، ولما وصلوا حد افريقية ، لم يقصد القيروان ، بل سلك الطريق الصحراوى الى بلاد قسطيلية ، وبمنطقة تسمى سوجمار من أرض سماتة تلقاه أهلها ، وبينهم جماعة على المذهب الاسماعيلى منهم رجل يقال له أبـو المفتش ، وآخر يقال له أبو عبد الله بن الاندلسى ورغب المستقبلون فى استضافته حتى اقترعوا عليه ـ كما يقول القاضى النعمان ـ ووجد عند أهل سماتة أصلا قويا من علم الشيعة · وقد نظر اليه أبو المفتش وقال لـه : « والله لاظنك صاحب البذر الذى يذكره الحلوانى فكشف أمره فى تلك الليلة لابن الاندلسى وغيره » (20) · ولكن هذا

مستبعد نظرا لما يتصف به من الحزم وبعد النظر وعمق التفكير لان حجاج كتامة الذين رافقوه لم يكشف لهم أمره على الراجح ، فكيف يبيح سره فى أول لقاء لاناس تظاهروا له بأنهم على المذهب الاسماعيلى ؟

وهناك من يرى بأنه توجه من مصر الى القيروان مباشرة وبقي بها يستقصى أخبار القبائل حتى صح عنده أن كتامة اقواها وأكثرها عددا وعدة ، وأشدها شوكة على بنى الاغلب فعند ذلك قصدها (21) ·

ويظهر أن الرأي الاول أرجح ، لان توجهه الى القيروان يعرضه الى خطر الاعتقال خاصة وأنه مصاحب لحجاج كتامة المشتبه فى أمرهم نظرا لسوء علاقتهم بالاغالبة من قبل · وبما أنه مرسل الى بلد كتامة فمن الحكمة أن يختار الطريق الصحراوى نظرا لضعف سلطة الاغالبة ومذهب مالك به ، ووجود المذهب الاسماعيلى فى بعض مراكزه من قبل ·

استقرار الشيعى فى ايكجان ببلاد كتامة : بالرغم من أن أبا عبد الله الشيعى وجد فى بلاد قسطيلية ــ اذا اعتبرنا أنه مر بها ــ جماعة ممن يذهبون مذهبه ، كما سبق الا أنه لم يفضل البقاء فيها ولاشك أن ذلك يعود لعدة عوامل : فقسطيلية لا تتمتع بحصانة طبيعية ــ كما هي الحال بالنسبة لبلاد كتامة ــ وهي أيضا قريبة من عاصمة بنى الاغلب فمن السهل القضاء على دعوته · كما أنه لا يمكن أن يطمئن الى أهل قسطيلية ، ولو تظاهروا له بأنهم على مذهبه ، لانه لم يخالطهم مثلما خالط حجاج كتامة فى الحجاز ، واثناء الطريق وأصبحت له معلومات كافية عنهم من عدة جوانب وزيادة على ما تقدم فان بلاد قسطيلية يوجد بها المذهب الخارجى فهي احدى مراكزه ، وهو معاد للمذهب الاسماعيلى ·

ومن جهة أخرى فانه مبعوث الى مكان معين ، فلا يمكن أن يخالف رأي من بعثه · وقد عرف عن الاسماعيلية الامتثال لتطبيق التعليمات ، ولذا قصد بلاد كتامة دون غيرها (22) بقطع النظر عن كونه سلك الطريق الصحراوى أو طريق القيروان ·

لقد دخل منطقة ايكجان بأرض كتامة فى منتصف شهر ربيع الاول سنة 280 هـ/893 حسبما ذهب اليه ابن الاثير (23) وتنافس الكتاميون المصاحبون له على استضافته · كما تنافس السماتيون على ذلك من قبل · مما يدل على مكانته ، ولكن ابن خلدون يرى أن دخوله بلاد كتامة كان سنة 288 هـ/901 م وانه نزل عند شخص يقال له موسى بن حريث وذهب المقريزى هذا المذهب أيضا (24) · مما يدل على أنه

ناقل عن ابن خلدون · ولاشك ان تحديد دخوله بلاد كتامة بهذا التاريخ غير منطقي وذلك لوجود نشاط له بها قبل هذا التاريخ ـ ولذلك يرجح ما ذكر له ابن الاثير ·

نزل الشيعى فى بلد كتامة عند بنى سكتان بفج الاخيار · وبدأ اتصالاته ، واستمالة القلوب اليه حيث أخذ يشيد بفج الاخيار وأهله قائلا « والله ما سمى هذا الفج الا بكم · وقد جاء فى الحديث ان للمهدى هجرة تنبوعن الاوطان · فى زمان محنة وافتتان ، ينصره فيها الاخيار من أهل ذلك الزمان قوم مشتق اسمهم من الكتمان فانتم هم كتامة وبخروجكم من هذا الفج سمي بفج الاخيار » (25) ، بحيث عرف كيف يستميلهم اليه وذلك باطرائهم ، والاشادة بماضيهم ورفع مكانتهم ، كي يلتفوا حوله ويؤازوره ٥ وسرعان ما اقبلوا على دعوته فصار يأخذ العهد عليهم بالاخلاص للمذهب والتفانى فى الدفاع عنه · وتوارد عليه البربر من أنحاء مختلفة وانتشرت دعوته فى كل أنحاء كتامة واستحكم امره (ولم يبق فيها الا من يدخل دعوته اما راغبا واما راهبا أو مخدولا) (26) وعظم أمره وكثر اتباعه باستمرار ·

ان منطقة ايكجان التى استقر فيها الشيعى أول الامر تمتاز بوعورتها وحصانتها الطبيعية . وقد اختلفت آراء الباحثين بشأنها · قال الادريسى عنها « وبقرب سطيف جبل يسمى ايكجان به قبائل كتامة » وحدد المسافة بينه وبين بجاية بمرحلة ونصف (27) · ولكن أبا الفداء اتفق معه فى التسمية واختلف عنه فى تحديد المسافة التى بينه وبين بجاية حيث اعتبرها مرحلتين (28) ، وبالطبع فان كلا منهما يقصد بهذا المنطقة التى استقر فيها الشيعى والتى بنى بها دار هجرته · اما ياقوت الحموى فاطلق عليها اسم « انكجان » و « ايجان » (29) ، وسماها احد المؤلفين المحدثين باسم « تزاجان » وقال بأنها محل اجتماع الحجاج من الاندلس وشمال المغرب الاقصى (30) ولكنه لم يبين سبب هذه التسمية ولماذا كانت مقر اجتماع الحجاج مع انها ليست بحرية حتى ترسو بها السفن بالاضافة الى وعورتها ؟· كما انه لم يعلل سبب هذه التسمية · وحددها آخر بأنها تقع قرب بنى عزيز بنواحى فج مزالة (31) ، وقد استبدل اسم فج مزالة الآن باسم فرجيوة وهي احدى الدوائر الهامة فى ولاية جيجل والتى كانت تعرف باسم « فج الاخيار » كما ذكرنا ·

وبعد استعراضنا لمختلف الآراء حول منطقة ايكجان سواء من حيث النطق بها أو من حيث المسافة التى بينها وبين بجاية ، فاننا نرجح ما ذكره الادريسى لانه مغربى تنقل فى مختلف ارجاء المغرب الاسلامى وبالتالى فهو ادرى بما يتعلق بأموره أكثر

من غيره · خاصة وأنه جاب مختلف نواحيه وعاينها بنفسه · ومعنى ايكجان بالبربرية اثار الكلاب ، وتقع فى مكان حصين يحده من الجنوب العين الكبيرة ومن الغرب خراطة ، ومن الشمال تكسانة ، ومن الشرق فج مزالة ، وتقع شرق قرية بنى عزيز على بعد حوالى 2 كيلومتر ، وكانت فى العهد الفرنسى تابعة اداريا لفج مزالة لانها من وطن فرجيوة والتى ورد اسمها فى المصادر القديمة باسم (فج الاخيار) وهو المكان الذى نزل به الشيعى أول الامر ·

ان هذه المنطقة تابعة اداريا الآن الى دائرة العين الكبيرة بولاية سطيف · ولاشك أن الشيعى اختارها مقرا له لعدة عوامل : فى مقدمتها حصانتها الطبيعية بالدرجة الاولى لانها تستند من الناحية الغربية على الجبل المسمى الآن جبل سيدى ميمون الذى يتصل بدوره بجبل مقرس فى الجنوب وجبل بابور فى الغرب وجبال بنى مجالد فى الشمال ويعلو المكان المناطق المجاورة له حيث يمكن مراقبة العدو منه على مسافات بعيدة فهذه احدى المميزات التى جعلته يختار هذه المنطقة بالذات ويبنى بها دار هجرته · فمكانها وعر صعب المرتقى يشبه فى مناعته وكر العقاب · وآثاره الآن بادية ·

وبالرغم من أهميته التاريخية فان آثاره لا تزال مهملة ونعتقد أن ما به من الآثار على غاية من الاهمية نأمل ان يوليه المسؤولون فى ميدان الآثار ما يستحق من العناية ويبادروا بالتنقيب فى خرائبه لاستخراج كنوزه الاثرية التى ستكون فتحا عظيما فى ميدان الآثار الاسماعيلية بصفة خاصة والاسلامية بالمغرب الاسلامى بصفة عامة ·

ويتوسط مكان ايكجان قبيلة كتامة التى قصدها الشيعى واعتمد عليها فى نشر دعوته · ومن هنا تتجلى المكانة التاريخية للشرق الجزائرى فى نهاية القرن الثالث الهجرى (32) ·

التعــاليــق

I ـ الاسماعيلية احدى فرق الشيعة العلوية ، وتنسب الى اسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبي طالب ٠ أنظر بشانها : النوبختى ، فرق الشيعة ، ص 57 ٠ الشهرستانى ، الملل والنحل ، I : 2،195 : I،128 ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، 2 : 405 ابن خلدون ، المقدمة ص 348 ٠

2 ـ تمتد بلاد كتامة من بجاية غربا الى عنابة شرقا ، ومن البحر شمالا الى حدود جبل أوراس جنوبا ، أنظر : اليعقوبى ، كتاب البلدان ، ص 351 ، الادريسى ، وصف افريقيا الشمالية والصحراوية ، ص 167 ، ابن خلدون 6 : 301 ٠

3 ـ تمتد حدود المغرب الاسلامى من برقة شرقا الى المحيط الاطلسى غـربا ٠ ولمزيد من المعلومات أنظر : اليعقوبى ص 342 الاصطخرى ، المسالك والممالك ، ص 33 ابن حوقل ، صورة الارض ص 64 ٠ ابن خلدون 6 : 23 ، 213 ٠

4 ـ المقـدمـة ، ص 150 ، 151 ٠

5 ـ تاريخ التمدن الاسلامى ، 5 : 502 ٠ ابراهيم حركات ، المغرب عبر التاريخ I : 124 ٠

6 ـ ابن عذارى ، I : 156 ، 196 ٠

7 ـ صورة الارض ، 94 ، 95 ؟

8 ـ ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص 296 ، ابن خلدون ، 6 : 192 ، 301 .

9 ـ ابن عذارى ، I : 41 ، 77 ٠

10 ـ نفسه ، I : 166 ٠ خطط المقريزى ، I : 352 ٠

11 ـ القاضى النعمان ، افتتاح الدعوة ، ص 55 ، 58 ، 59 ٠ ابن خلدون ، 3 : 769 ما جد ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر ، ص 85 ٠

12 ـ البكرى ، المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص 147 ، 160 ٠

13 ـ القاضى النعمان ، ص 62 ، ابن الاثير ، الكامل فى التاريخ ، 6 : 127 ابن عذارى ، I : 125 ابن خلدون ، 4 : 66 ٠

14 ـ ابن الاثير ، 6 : 127 الاتايكي ، النجوم الزاهرة ، 3 : 124 ٠

EIT 1 (Art : Abu Abdellah Al-Chiet) p. 76

15 ـ القاضى النعمان ، ص 63 ، ابن الاثير ، 6 : 127 سيرة جعفر الحاجب ، نشر ايفانوف مجلة كلية الآداب ، جامعة فؤاد الاول ، م 4 ، م 2 ، ص 121 ·

16 ـ ابن عذاري ، 1 : 125 · دائرة المعارف الاسلامية ، م 2 (مقال بنو الاغلب) ص 327 ·

17 ـ القاضى النعمان ، ص 63 ابن الاثير ، 6 : 127 ابن خلدون ، 3 : 361 ·

18 ـ القاضى النعمان ، ص 66 ·

19 ـ نفسه ص 67 · كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص 251 ·

20 ـ القاضى النعمان ، ص 69 ، 70 ·

21 ـ ابن عذاري ، 1 : 125 · Gautier : Le Passé de l'Afrique du Nord, p. 324.

22 ـ القاضى النعمان ، ص 69 · ابن عذارى ، 1 : 125 ·

23 ـ الكامل فى التاريخ ، 6 : 127 · ابن عذارى ، 1 : 124 ·

24 ـ كتاب العبر ، 4 : 66 · خطط ، 1 : 349 ·

25 ـ القاضى النعمان ، ص 72 ·

26 ـ نفسه ص 72 · أبو الفداء ، المختصر فى تاريخ البشر ، 2 : 65 ·

27 ـ وصف افريقيا الشمالية والصحراوية ، ص 70 ·

28 ـ تقويم البلدان ، ص 141 ·

29 ـ معجم البلدان ، 1 : 273 ·

30 ـ حسن ابراهيم ، تاريخ الدولة الفاطمية فى المغرب ، ومصر ، وسورية ، وبلاد العـرب ص 49 ·

31 ـ الجيلالى ، تاريخ الجزائر العام ، 1 : 249 ·

32 ـ كانت منطقة ايكجان هذه ايضا من بين المناطق التى قامت فيها حوادث 8 مـــاي 1945 · وقد أمعنت فرنسا فى القتل والتنكيل بالاهالى ، وحرق منازلهم ، وأبادت بعض القرى المجاورة لها · فبعد 8 ماي كنا نشاهد يوميا النار تلتهم المنازل ، ونسمع طلقات البارود واستمر الوضع كذلك نحو شهرين · كما كانت احدى المناطق الهامة فى ثورة التحرير الاخيرة لانها همزة وصل بين جبال الحلفاء شرقا ، وجبال ميلة والميلية فى الشمال الشرقى ، وجبال تكسانة شمالا ، وبلاد القبائل فى الغرب ·

جـوانب مجهــولة من آثـــار زيــارة محمـد عبــده للجـزائـر

عــام 1903م ــ 1322هـ

المهدى البوعبدلى
بحاثة فى التاريخ ، مكلف بمهمة
فى وزارة الشؤون الدينية



بســم اللــه الرحمن الرحيم ،

حضرات الاخوة الكرام ان موضوع هذه المحاضرة هو جوانب مجهولة من آثار زيارة الشيخ محمد عبــده للجــزائر 1322 هجرية الموافق 1903 م ، نواصــل فى محاضرتنا هذه حديثنا السابق المتعلق بأطوار السلفية فى الجزائر وترجمة حياة أحد روادها وهو عبد الرحمن الاخضرى الذى تحدثنــا عنــه فى المحاضرة السابقة وتحدثنا فى ظهور السلفية وتطورها فى بــلاد المشرق والمغرب وطريق تسربها الى الجزائر ابتداء من القرن الثامن الهجرى كمــا ذكرنا أن السلفية التى تسربت الى الجزائر كانت على طــريق الفقيه أبــى الحسن الصغير أو الصغير الزرويلى المتوفى حوالى 720 هـ ٠

كان أبو الحسن الصغير الزرويلى هذا معاصرا لابن تيمية الا أن سلفيته كانت فى اطار المذهب المالكى وشعارها محاربة البدع كيفما كانت وكيفما كان دعاتها ولم أدر

محاضرة ألقاها فى المركز الثقافى الاسلامى بالعاصمة بتاريخ 18 جوان 1974 م ٠

هل كان بين الرجلين تعارف واتصال وكل ما نعرفه هو أن ابن تيمية كان معروفا عند العلماء الجزائريين اذ ذاك يذكر علماء التراجم أن العالمين الشهيرين الايمامين ابني الامام التلمسانيين واللذين أخذ عنهما عبد الرحمن بن خلدون وترجمهما ضمن أساتذته كما أخذ عنهما تلميذ ابن خلدون أبو عبد الله محمد ابن مرزوق الحفيد دفين تلمسان الذى كان فى مقدمة العلماء المنتصرين لابى الحسن الصغير ناظرا ابن تيمية بالمشرق قبل استيطانهما تلمسان وظهرا عليه وسكت هؤلاء المترجمون عن موضوع المناضر ولم يتعرضوا له بكلمة ولا زالت الى الآن مجهولة رغم أن كثيرا من الباحثين حاولوا كشف القناع عنها واسمحولى قبل تناول صميم موضوع المحاضرة أن أتعرض لمناخ البلاد الجزائرية فى الميدان العقائدى قبل هذه الزيارة وفى اثنائها • فمما لا شك فيه أن الجزائر كانت لا تختلف فى الميدان العقائدى على بقية بلاد المغرب العربى • وذلك حتى فى العهد التركى الذى ساد فيه المذهب الحنفى حيث كان المذهب الرسمى للدولة وبعد الاحتلال الفرنسى تغيرت الاوضاع ولا يمكننا ان نتعرض للاطوار التى مرت بها الجزائر حينئذ ، وانما نكتفى بذكر بعضها بايجاز عقب الاحتلال مباشرة الخلاف بين علماء البلاد فى قضية الهجرة وذلك أن كثيرا من العلماء الذين هاجروا الجزائر العاصمة والتحقوا بالثوار أو خرجوا من البلاد للمشرق والمغرب افتوا بكفر من بقي منهم مجاورا وراضيا باحكام الكفار وكان بين هؤلاء المهاجرين الشيخ على بن الحفاف الذى التحق بالامير عبد القادر وتولى ادارة ديوان الانشاء بمليانة وقد رد عليه زميله محمد ابن الشاهد الصغير وناقشه فى فتواه حيث بين أن بقاءه بالعاصمة مع بعض زملائه ليس رضا بالكفر ولكن كانت هناك أسباب أخرى ذكرها وقد احتفظ لنا التاريخ بهذه الفتوى وهي هامة فى موضوعها تعطينا وصفا دقيقا للعاصمة اثر الاحتلال ، وقد بقي أثر هذه الفتوى سارى المفعول الى أن زار الجزائر المحدث الشهير الشيخ الرضوى البخارى ، ثم بيرم الخامس صاحب الرحلة وخففا من وطأتها وافتيا بأن بقاء العالم فى وسط قومه أفضل من هجرته لنفسه ، ثم قاومت السلطات الفرنسية التعليم بالمساجد والزوايا وضيقت عليه الخناق وعوضته فى المدن بالتعليم الرسمى واحدثت لذلك مدارس ثلاث بقسنطينة والمدية وتلمسان ، ثم حولت مدرسة المدية الى العاصمة فكان مجموع تلامذة هذه المدارس الثلاث سنة 1892 م ثمانمائة واثنان وأربعون تلميذا (842) تخرج منهم فى نفس السنة أربعة عشرة تلميذ (14) وهذه احصاءات رسمية صرحت بها لجنة مجلس الشيوخ التى أوقدتها الحكومة الفرنسية سنة 1892 م تحت رئاسة الوزير الشهير (جول فيرى) لتبحث فى القضية الدينية والثقافية كان من

جملة من اتصل بهذه اللجنة الطبيب محمد بن العربى العضو بالمجلس البلدى فى العاصمة والشيخ محمد بن رحال الندرومى قدم النائبان المذكوران مطالب كانا يريانها مستعجلة تتلخص فى اصلاح التعليم وتعريبه واصلاح الضرائب والقضاء ، ثم تكلما على ما تبقى بالريع واسترجاعه اذ كانت هذه القضية اثرت سنة 1896 م ، عندما زارت الجزائر لجنة بحث برلمانية تحت رئاسة المارشال (روندون) وسنتحدث عنها اذ لها علاقة بموضوع بحثنا كانت احباس الجزائر بعد الاحتلال الفرنسى قدرت فى أواخر العهد التركى بأربعين مليون فرنك (40 مليون) وكان نصيب عاصمة الجزائر منها سبعة ملايين (7 ملايين) ينفق ربعها على مائة وخمسين مسجد (150) ، وفى سنة 1892 م عند زيارة لجنة (جول فيرى) كانت ميزانية الوظائف الدينية الاسلامية ستين ألف فرنك (60 ألف فرنك) وتشمل هذه الميزانية مرتبات السلك الدينى الذى كان من بين أفراده المدرسون · وقد بين النائبان سوء نوايا المتصرفين وعنصريتهم عندما قارن بينما كان يخصص للكنيسة من هذه الميزانية وضرب مثلا لذلك ان مرتب المفتى كان ثلاثة ألف فرنك (3000 فرنك) ومرتب الاسقف ثلاثين ألف زيادة على القصر زيادة على القر الذى أمم من أجله كما تكلم النائبان المذكوران على المؤسسات الخيرية التى كانت تعرف بالتكية وقد بلغ ريعها السنوى بعد الاحتلال مباشرة بمائة وعشرة آلاف فرنك (110000 فرنك) وكان عدد الفقراء الذين توزع عليهم صدقاتها سبع مائة (700) وفى تلك السنة أي سنة 1892 م وصل ريعها الى (40 ألف فرنك) أربعين ألف فرنك بينما تضخم عدد الفقراء من سبع مائة الىخمسة عشرةألف (700 الى 15000) كما اثارا قضية أخرى وهي مؤسسة خاصة للمرحوم القنعى ولنعتذر على عدم امكان التطويل بأكثر من هذا وانما ذكرنا هذه الفقرات لنبين أن سكان الجزائر لم يكونوا على الحالة التى لفقها بعض الكتاب ولا زال الكثير منهم يرددونها الى اليوم من أن الجزائر كان يسودها الخمول والجمود واللامبالات زيادة على الجهل الذى كان رابضا اترابه ولا زالت السجلات التاريخية الرسمية تثبت كثيرا من مواقف امثال هؤلاء النواب وابن رحال هذا شخصية لامعة أهملها الخلف فانه زيادة على موقفه هذا شارك فى مؤتمر المستشرقين المنعقد بباريس سنة 1897 م ، وقدم دراسة قيمة موضوعها مستقبل الاسلام يعجز عن كتابتها والتصريح بما فيها كثير من المعاصرين كما كان أول المدافعين على التعليم العربى واقترح فى مجلس النيابات المالية بعد الحرب العالمية الاولى جلب الاساتذة من المشرق وقد اتصل بهم مستشرق (غستاف لوبلان) والزعيم اليسارى (كارل ماركس) الذى زار

الجزائر اذ ذاك واقام بها مدة عند ابنته التى كانت متزوجة هنا ، وفى هذا الاسبوع فقط نشرت مجلة الشاب الافريقى استنطاقا للمؤرخ الفرنسى (شارل اندرى جنوليان) الذى خصص عدة تآليف لتاريخ الجزائر وذكر أن بداية اهتمامه بالجزائر كان فى العشرينات من القرن الجارى حيث عين أستاذا بثانوية وهران وانتخب عضوا بالمجلس العمالى وفيه تعـرف بزميله ابن رحال واشـاد بنظاله وعلمـه ومواقفه وان رجعنـا بالحديث عن اللجنة الاولى التى اثبت فيها قضية الاحباس ووعدت الحكومة أحداث لجنة خاصة لذلك فانها لما زارت الجزائر سنة 1869 م قابلها نواب الجزائر وقسنطينة ووهران وهم السادة حسن بريهمات والقاضى المكى بن باديس واحمد ولد قـادى ، وكان كل منهم يمثل المجلس العمالى وترأس هذا الوفد العالم الاديب حسن بريهمات نائب الجزائر ٠ وكان من جملة ما صرح به للجنة المذكورة أن التجنيس لا يوافق تعاليم الشريعة الاسلامية كان حسن بريهمات أيضا من الشخصيات اللامعة ذوى اتصـال بعدة زعماء وعلماء خارج البلاد ومنهم الوزير الشهير خير الدين التونسى ، ولما ظهر تاليف خير الدين سنة 1284 هـ الذى لا زال كثـير مـن الباحثين السياسيين مسلمين وغربيين يعدونه من دعائم النهضة الحديثة فى العالم الاسلامى قرظه حسن بريهمات تقريظا يدل على مكانته وعمق نظره وهذا التاليف وهو : « أقوم المسالك فى أحـوال الممالك » ولننقل بعض فقرات مـن هذا التقريظ الذى احتفظ لنا بـه التاريخ فبعد أن عرف بمؤلفه وبما لقيـه الكتاب فى بـلاد العالم الاسلامى مـن رواج قال : مؤسس الضوابط السياسية وبهجة الديار التونسية الاوحد الذى هو فى هذا الشأن منقطـع القرين السيد المولى خير الدين ابقاه الله للنصح باذلا وعن بيضة الاسلام مناظلا لله دره من ناصح أمين ومرشد صادق مبين قد نطق عن يقين ونصح نصح المثقفين وكيف يمين من اعطى على الصدق صدقة اليمين أم كيف يكون من أختار الحركة فيما ينفع الناس عن السكون أم كيف ينهم من قام عنه لله بهذا الامر المهم وانجز فيه والتهم رأي اهتضام الاسلام فامتعظ وشمر عن ساق الجد منتصرا بالله ونهض القريحة فأسرعت وذجر سحابة الجهل فانقشعت أعمل القلم حيث لم يكن للسيف أعمال وبعث بعـوث النصيحة عوضا عن بعوث الاسلحة الى الاعمال وآثر الرقة على العنف واشار الى تعيين المصلحة فى هذا الصنف وانبأ أن العدل لذلك هو الاساس وأن الايناس قبـل الاساس وحذر عن ركوب الخلف المفض الى الفشل والضعف وهذا لعمرى أسـد الاعمال وبعض الذل ابقى للاهل والمال وهو شأن الائمـة المنصفين وأهـل العـبء المتصرفين فقم بالنصائح لاهلها ودع الامور تجرى على ادلالها جزاك الله خيرا عـن

آثارك الحميدة وآرائك المستقيمة السديدة جئت على حين تصرف الناس بلا قيد ولا زمام وانتهكوا حمى المحارم كأن لم يكن عندهم للشريعة ذمام ولم يراعوا ما فى طيها من صلاح المعاش والمعال فتقطعت بهم الاسباب وتلاعبت بهم الاهواء فى كل واد فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم وأحاق بهم مكرهم وذنوبهم فاصبحوا وقد تقلص منهم ظل العمران والنوع وانقلب بساط الحضارة والرفاهية وانطوى وتناولتهم النوائب بالمحارب والبستهم وسوك الثعالب فعظمت بلواهم وانتقضت قواهم وانلحت عراهم وخسروا دنياهم وآخراهم وخطبوا فى ليالى الخطوب الحوالك وهلكوا ان لم يهديهم الله الى أقوم المسالك • الى أن يقول :

لله درك خير الدين من علم	أبدى منار الهدى للناس فى الامم
نهجت نهجا قويما يهدى سالكه	الى السياسة أو ينجى من الفتن
بينت من طرق السداد أقومها	وقمت منتصرا للدين والوطن
نصيحة تلك حق شكر باذلها	ومنة منحت من أعظم المنن

الى آخر القصيدة المحتوية على خمسة عشرة بيت (15) ويختم تقريره هذا ببيان الاسباب الداعية اليه فقال : فخذها اليك من قلم تكلم من غير دهش وصدى عاصفات الحق ومن صدع ولهش ولا تبسم فى وجه لئيم قط ولا بش ولا انذرت التقارير ولا حذرته شئم التخلف اعلانات المعاريض ولا الجاته الضرورة أن يتعد ميسورا ويتجاوز مقدورا ولا مترقبا ترويح وصفاته وتجويز وموضوعاته ومؤلفاته ولا مترجيا اصفاء مصافاته وتعجيل مكافئاته ولا متصنعا ولا متنطعا بل محبا محقا متطلعا شهادة عادلة وعلى الحق ليست عادلة تكاد شوقا اليك أن تسير قبل التحام وتطير مع القطى والحمام على ما بها من انتصار الخاطر الخ ••
وهي طويلة وانى صغتها هنا لاسباب أخرى وقد كتب هذا التقدير فى أواخر ربيع الثانى عام 1286 هـ واننا أشرنا الى بعض فقراته التى هي زيادة على تصوير صاحبها لمناخ البلاد الذى أعقب الاحتلال فانها فيها دلالة واضحة على مواقف بعض رجال الفكر فى تلك الظروف القاسية فلم يقتصر نشاطهم على حويجات أنفسهم بل كانت مجالات نشاطهم واسعة حيث ساهموا فى تتبع تطور الحركات العلمية والسياسية داخل البلاد وخارجها وسجلوا لبلادهم الجمع بين الجهاد بالسيف والقلم حيث كانت فى عهودهم الثورات متتابعة وهذا التقرير زيادة على ما ذكرناه هو من روائع النثر الفنى نكتفى بهذا القدر ولنرجع الى الحديث عن زيارة محمد عبده •

زار محمد عبده الجزائر سنــة 1322 هـ الموافقة لسنة 1903 م بعدما أقــام رفقــة أستاذه جمال الدين الافغانى سنين بأوروبا وقد تعرض لهذه الزيارة ووصفها كثــير من الكاتب مسلمين وأجانب ولا زالوا الى الآن يواصلون بحوثهم عنها واننا نقتصر على اختيار ثلاثة كتاب منهم لهم اتصال وثيق به خصوصا من ركزنا عليه موضوع المحاضرة وعنيناه بأنه صاحب الجوانب المجهولة من آثار هذه الزيارة أولا وهو الشيخ عبد الحليم ابــن سماية الاستاذ بمدرسة الثعالبية بالجزائر وان كتابته عنــه هــي انطباعاته الخاصة لم يكتبها للنشر ولا للاشادة بعبده أو لانتقاده وانما كتبها تــأدية لواجب الصداقة التى كانت تربطه بزميله الشيخ على بن عبد الرحمن الذى كان مفتيا بوهران اذ ذاك اما الكاتبان الآخران اللذان اخترنا نقل ما كتباه فهما الشيخ رشيد رضى والدكتور عثمان أمين فالاول كان ابنــا روحيا لعبده وخصص لحيــاته تاريخا ضخما جمع فيه كل ما يتعلق بحياته العلمية ونضاله السياسى وأما الدكتور عثمــان أمين فانه تخرج عن تلميذ عبده واقرب الناس اليه وهو الشيخ مصطفى عبد الرازق وزير المعارف المصرى السابق وشيخ الازهر وقد اختار مصطفى عبد الرازق هذا لتلميذه عثمان أمين حياة محمد كموضوع الاطروحة التى نال بها الدكتورة فى الاربعينات من القرن الجارى وقد قال مصطفى عبد الرازق فى مقدمته للدراسة المذكورة قرأت رسالتك لما أتممتها وكنت حاضرا مناقشاتها حين تقدمت بها لنيل الدكتورة فكنت من أشد الناس سرورا بك واعجابا بمصنفك الممتاز الذى يبرز صورة للشيخ عبده صادقة ناطقــة ويحيط بكــل الجوانب مــن نشــاطه الاصلاحى المترامى الاطراف ويعرض أنضارها بالشيخ عبده وفى الدراسات المتصلة بتاريخ نهضتنا الفكرية والاجتماعية الحديثة من ناحية اثــر الشيخ عبده فيها · علــق رشيد رضى على زيــارة الشيخ عبده للجزائر فلخصها فى نقط ثلاث هي : الجــد فى تحسين العــلوم الدينية والدنيوية من طرقهما القريبة الجد فى الكسب وعمران البلاد من الطرق المشروعة الشريفة مع الاقتصاد فى المعيشة ، ثالثا مسالة الحكومة وترك الاشتغال بالسياسة · انتهى تعليق رشيد رضى الذى نشره فى مجلة المنار ثم نقله فى كتابه تاريخ الشيخ عبده · أما ما عــلق بــه الدكتور عثمان أمين على هذه الزيارة فى كتابه « رائد الفكر الاسلامى محمد عبده » الذى نشره فى سنة 1945 م بتقديم مصطفى عبد الرازق قال : وقد كان للاستاذ الامام أثر ظاهر فى افريقيا الشمالية بفضل مجلة المنار وفى صيف سنة 1903 م أراد الاستاذ الامام ابان عودته من أوروبا أن يقف بنفسه على أحوال المسلمين فى شمال افــريقيا فقام بجولة الى الجزائر وتونس وقد اكتشف هنالك كما قال كاتب مقال فى جــريدة

« لوتان » الزمان وجود حزب اصلاحى كبير ينتمى اليه ونستطيع أن نذكر أيضا من أنصار تجديد الامام فى الجزائر الشيخ محمد بن الخوجة وهو مؤلف كتب اسلامية عديدة وكذلك الشيخ عبد الحليم بن اسماية ، ثم ذكر عثمان أمين فى موضوع آخر من الكتاب أن من جملة تآليف ، بن الخوجة تقريظ لتفسير سورة والعصر لعبده وقال عن عبد الحليم بن اسماية أنه مدح عبده بقصيدة بليغة وقد نشر التقرير والقصيدة المنار · انتهى ما ذكره الدكتور عثمان أمين هذا جل ما عرفه القراء من هذه الزيارة ولنشرع فى الحديث عن الجوانب المجهولة من هذه الزيارة وهي التى ذكرها عبد الحليم بن اسماية فى رسالة اجابة لزميله مفتى وهران الشيخ على بن عبد الرحمن المشهور بالجزيرى أي نسبة الى العاصمة تخرج على بن عبد الرحمن من مدرسة العالم الشيخ حميدة العمالي المتوفى بالعاصمة سنة 1290 هـ ، وكان من جملة زملائه عبد الحليم بن اسماية ومصطفى كمال المشهور بالمضربة الذى سماه الدكتور عثمان أمين محمد بن الخوجة وحسن بريهمات صاحب تقريظ «أقوم المسالك فى أحوال الممالك» للوزير التونسى خير الدين وغيرهم · ولما زار عبده الجزائر كاتب على بن عبد الرحمن زميله عبد الحليم بن اسماية يستقصيه عن أحوال الشيخ عبده وهذه جمل من كتابه ، قال بعد الديباجة : قد كثرت علينا القلاقل فى شأن ذلك الرجل الفرد الكامل الجليل الشيخ عبده الوارد لحضرتكم السعيدة ما بين قادح ومادح فمن قائل السيد من أهل الاجتهاد عالم بالمعقول والمنقول ذابا على الشريعة والدين سالك المحجة البضاء الخ ·· ومنهم من يقول : انه سنى فى الفروع معتزلى فى الاعتقاد الى غير هذا وتزاحمت علينا أقوالهم وتراكمت أهواءهم وخادمكم بحمد الله لا تزحزحه عواصف الاقوال ولا تزلزله عن موقفه لواعج البطالين من غير بيان قصارى الامر تزاحمت القلاقل من غير ترجيح فالذى يقتضيه النظر الصحيح هو الوقوف حتى يتبين الحق من غيره فى قوله تعالى : « **فتبينوا** » ولما اخرجه مسلم فى صحيحه من قوله صلى اللـه عليه وسلم : « كفى بالمرء اثما أن يحدث بكل ما سمع » وهذا السيد الجليل العالم الفريد ينزه جنابه بالمارجحات منها حسن الظن المطلوب ومنها العدالة أصل والجرح طارىء كما هو عند الامام الاعظم ومنها أنه نشأ ببلدة أهلها سنيون وقرأ مع قوم على علماء سنيين وأدرك مرتبة الافتاء الكبرى على علماء سنيين فبعيد أن يكون معتقده على خلاف أهل السنة والجماعة هذا الذى اقتضاه نظر الخادم وان كانت لست بشىء ولعل هذا السيد سبب ابتلائه بهوس القاصرين كلامه فى تأثير القدرة الحادثة الذى هو مذهب العارفين كالحاتمى واضرابه وهي مسالة فى غاية الغموض عند المقلدين الذين يزعمون انهم

خرجوا عن التقليد باتباعهم لاقوال لا يعرفون لها رأسا ولا ذنبا وهم الى الآن غارقون فى بحر التقليد الى أن يقول : قال صلى الله عليه وسلم : « الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها أين وجدها » ، وقال بعض تلامذ العارف افلاطون الحكيم اليونانى : « أحب افلاطون والحق ما اتفقا فان اختلفا فالحق » وقوله فى حق افلاطون العارف خلاف ما يعتقده القاصرون من أنه فلسفى كافر يقال لهم وان كان افلاطون رئيس الفلاسفة فى زمانه ومعلمهم فهو من الحكماء المشائين فالفلسفة ما دمت لاسمها فعلم الفلسفة علم الهي أتى به نبي الله ادريس على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام فاذا الفلسفى قال معناه يحب الحكمة والله يقول : « **يوتى الحكمة من يشاء ومن يوت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا** » نعم دخل القيل والقال فى الفلسفة من جهة الآراء الفلاسفة والعقول الكاسدة تكلموا فى الالهيات بعقولها ونبذوا الكتب الالهية وراء ظهورهم وسدوا أبواب الحضرة فى وجوههم الى أن يقول : ومسألة القدرة الحادثة هي احدى المسائل التى وقع فيها الخلط والسخط والتكفير · والزندقة للعارفين من غيرهم ومنها مسألة وحدة الوجود ومنها مسألة النعيمية الصفات ومنها مسألة العينية الذاتية والقرب الذاتى ومنها مسألة تعلق السمع والبصر بالمعلوم الذى علم الله أنه سيوجد ومنها مسألة سببية المعدوم الذى علم الله وجوده ومنها مسألة الحيي قولهم الحياة لا تتعلق بشيء مع اتفاق العارفين أنه لا تعطيل فى اسماء الله ومنها مسألة الكلام القديم بحروف وأصوات قديمة ومنها مسألة الآن الدائم المعبر عنه بالزمن الخ ··· ثم يختم رسالته بقوله : فنرغب من أخينا أن تنعشنا مما علمتم من ذلك الهمام وترسل لنا رسائله فى علم الكلام والله يبلغكم اقصى المرام وأرخ رسالته فى 17 ربيع الثانى 1322 هـ · وهذه فقرات من نص رسالة عبد الحليم بن اسماية التى أجاب بها زميله وهي هامة فى موضوعها افتتحها بقوله : مشرفنا الذى شرفنا بشموس انواره ورياض طبيب حياتنا الذى ننتعش باستنشاق أزهاره مولانا وسيدنا على بن عبد الرحمن امدنا الله من همته العالية ما يبلغنا الى المراقب ويدفع عنا كل ما يلم من المتاعب والمصائب والحواجب ازكى السلام ينافح الزهر فى الاكمام ويكافل قطر الغمام واوفى تحيات طيبات مباركة أخص بذلك مقامكم الاعلى زاده الله علوا ومن حضرة القدس دنوا وقد انهالت على رحمة ونعمة بكتابكم الشريف الذى عمنى أمسه الخ ···

ومما تضمنه كتابكم الرفيع استبداء رأيى فيما أعلم من فضيلة العلامة الذى شاع ذكره واشتهر أمره وانى عملا بالواجب على كل متدين من الذب عن أهل الله وان لم يكن العلماء أولياء الله فليس لله ولي اصدع بما اطلعت عليه من خصائص الرجل فى

هذا الزمان الشبيه بزمان الفطرة فاقول : هذا الرجل الجليل رجل حنكته تجارب الزمان واستقصى أحوال الامم حتى ميز منها ما شان وما زان وتطلع من الفنون على اختلاف أنواعها ومواضيعها وأعمل فكره أعمق تدبر وتفكر فى الحبل المتين والقرآن المبين فأدرك قوله عز وجل لنبيه الكريم : « **وما ارسلناك الا رحمة للعالمين** » فهو يرى أن كل خير صدر أو يصدر فى الوجود انما هو لمحة من شعاعه وبركة ناشئة من اتباعه فما سعد من سعد من الامم الا باتباع سننه والاهتداء بأنواره · وقد أفصح عن ذلك فى مقالة له طويلة يتأسف فيها على المسلمين من تركهم العمل بما أنزل عليهم من الامر بالتعاون والتناصر واتخاذهم بدل ذلك التخاذل والتقاطع والكذب والخداع الى أن صاروا حجة لغيرهم على دينهم وفتنة للذين كفروا وتأخروا وتقدم غيرهم بما كانوا يتقدمون اليه فى الازمنة السالفة الا أن عبر عن ذلك بقوله : قبس أضاء بالمشرق ونوره بالمغرب ويرمى فى جميع أبحاثه الى بيان المنازع التى منها ثار تأخر الاسلام وشقاقهم وتفرقهم أبدى سبى وقد بين فى صدر رسالته فى التوحيد بأن سبب أول شقاق وقع بين المسلمين فى الاعتقاد هو عدم اقتصارهم على كتاب الله فيما ارشدهم الى الوقوف عند حده وادخالها هوس الفلسفة واعجابهم بما ينقل عن ارسطو وافلاطون حتى تعمقوا بذلك واشرأبوا الى أمور ومباحث لا تطيقها عقولهم فتنازعوا وفرقوا دينهم وكانوا شيعا وكثيرا ما سمعته يستدل اذا ذكر هذا وامثاله بقوله تعالى : « **ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء** » ولقد شاهدت منه فعلا كما سمعت منه قولا أن يفر من الاختلاف فراره من الاسد ومن عجيب أمره أنه ما خالفه مخالف فى مجلسه الا وتمكن من القاء القبض عليه بجند الحق حتى يوقفه الى حده وكل ذلك بكلام لا يخالطه الضغط وعقل لا يستفزه الطيش وخلق لا يأتى على وسعه ضيق بمقدمات ينتزعها من وجدان مخاطبه حتى يضطر الى الاقرار والاعتراف بنفسه من نفسه ولعلها وراثة من شيخه جمال الدين الافغانى الذى تضافرت الرويات عنه أنه ما خاصم احدا الا وغلبه وهذا أمر معروف حتى بين علماء أوروبا ورسالته العجيبة التى الفها فى الرد على الطبائعيين كما يشهد لمثل هذا تلميذه الذى نحن بصدد الكلام عليه ما انشاه من المقالات العجيبة فى الرد على الوزير « هانوتو » بما افحمه وصيره يتشفع ويستغفر من الكلام ويعترف بغزارة علم الراد عليه عند تعرضه للطعن فى الديانة الاسلامية وفى مثل هذا المقام تتبين الرجال من ربات الحجاب وتظهر ارباب الغيرة من أصحاب الحيرة وبعد ما رد عليه واسمعه اليم الكلام وجرعه مر الزعاف مر على بلده عند سفره الى الجزائر وهو باق فى سطوة وزارته منطو على بثه فى ضمائره فأضافه واكرم

مثواه وأرسل الى النواحى التى يريد التجول فيها بالوصايا للقائمين بها على اكرامه واسعافه فى تجولاته ومثلكم لا تخفى عليه هذه الاسرار ، ثم ذكر عبد الحليم أدلة على ثقة الشيخ وتوكله على الله لا يسعنا المقام لتتبعها ، ثم انتقل الى رأي الشيخ فى نقص الثقافة الاسلامية اذ ذاك وركودها فقال : وانى لفى أول ملاقات بينى وبينه فى محـل ذكرته فيما عليه طلبة الزمان من اقتناعهم بتحصيل قواعد العلم دون تحصيل الملكـة الراسخة فى النفس التى هي المقصود بالذات من العلم فقال لي هذا الذى نحن قائمون بالحث عليه ، واننا لنرى أن تحصيل اللغة على الوجه المطلوب هو رابطة هذا الـدين القويم والدين كله كلام الله العظيم الذى لـما سمعه الاعرابى سجد لفصاحته فمرادنا أن الناس بالاقل يتعلمون لسـانه تعلمـا حقيقيا فيدركون ولـو رتبـة هذا الاعرابى واغرورقت عيناه بالدموع وهو يجتهد الا يظهـر عليه أثـر ذلك ، ثم يدخـل الشيخ ابن اسماية فى لب الموضوع ومرده فيلخص انطباعاته فى هذه الجمل التى قال فيها قبل ختامه لكتابه ، وبالجملة الذى يتلخص من أحوال هذا الرجل أنه لا يرضى لهذه الامة من علم اللسان الا أفصحه ومن علم العقائد الا أوثقه وأصدقه ومن علم الفقه الا أوفقه وأجمعه وابعده من الخلاف ويبين لهم أنه يمكنهم الاجتماع وان تعددت المذاهب فان دين الله واحد يرجع الى شريعة واحدة ويمكن لكل انسان أن يعمل بجميع المذاهب وبالتقليد والتأفيق وذلك أولى من التنافر والتفريق الذى صير الامة طرائق قـــددة وملخص ، أن التزام مذهب معين تحجير على الامة التى اتسعت بتعدد المذاهب ولا يعقل أن هذه المذاهب رحمة الا اذا كان العمل بها مفتوح لجميع الخلق فكل من عمل يقول من أقوال المذاهب فهو على شريعة سيدنا محمد صلى اللـه عليه وسلم الى أن يقول : ولذلك دعـى العلماء على أن يجمعوا من المذاهب مذهبا لا يخرج عن أقوالها يتيسـر به العمل لجميع الناس ويرتفع بينهم الخلاف وروغان القضاة فى الاحكام وجريهم على حسب الاغراض والاقوال التى تلائم اغراضهم ويجنح على من حضه بأن الناس كانوا قبل زمن الائمة الاربعة رضي الله عنهم يعملون بكل ما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويسأل احدهم سيدنا على رضي الله عنه وكـرم وجهه مثلا فيعمل بما اخبره به وصحابى آخر فيعمل به وهكذا فلما بدل هذا المنوال بعد عصر الصحابة رضي الله عنهم الى أن يقول : وله من مثل هذه الامور التى يقصد بها رفـع الخلاف بين الامـة وجرهم الى الوفاق فى كل مقام يلوح له فيه مثار الخلاف ما لا يمكن أن يعد ولا يحصى وهو مقاله فى هذا المقام لا يتغير ولا يتكرر ولا يألم من قدح قادح ولا يفرح بمدح مادح مع تمام التؤدة والرزانة والصبر والاحسان لمن أساء اليه والصفح عمن جنى عليـه

عاكف فى جميع أوقاته على تدبر آية القرآن واستنباط وجوه الحكم من كلامه وكفاك ما بلغنا أنه اذا أقبل شهر رمضان لا يخرج الى أحد من الناس ولا يلتقى بأحد ويشتغل فيه بتدبر القرآن قال : لانه يجد فيه قوة الادراك لمعانى القرآن ما لا يجده فى غيره من الايام ، ثم يتعرض لموقف معاصره منه وما جره له خصومه من الاتهامات فيقول : الا أن الرجل لما كان يتنزل فى كلامه للعقول بما الفته من الانكار والافكار والانضار والعلوم الجارية وكثيرا ما يجارى الافهام بما الفته فتجد الناس فى أمرهم بين فرقتين فرقة الفت التعبير بالعبارات القديمة وكادت أن تتخذ عندهم مما يتعبد بذكره ولا تحصل البركة والنفع الا بلفظه فربما تطرق الى اذهانهم أنه زنديق يحاول بعباراته تدريج الناس الى الاخلاق والافكار الاوروبية خصوصا مع كونه أنه قد دارس العلوم الاوروبية واتقن السنتهم فكان ذلك مما يقوى الشبهة فيه والله يعلم أنه ممن يستمع القنول فيتبع احسنه ويتخذ من كل شيء ما يراه أنه سلم موصل للنفع اللائق بالوقت . وفرقة الفت هذه الافكار الجديدة والقوانين الحادثة فهم كلما سمعوا كلامه أخذ بمجامع قلوبهم وعظم فى صدورهم ولكل عقل خطاب ولكل شبهة حجة ولكل وقت كيفية . ثم ينتقل بن اسماية الى الخوض فى مسألة علم التوحيد وكيف كان ينفر منه تلامذته الا أن استعمل معهم طرقا مناسبة للعصر ولعقولهم فأثر فيهم كثيرا وهذه الطريقة هي التى كان يستعملها عبده فى تدريسه ومحاضراته ، ثم ختم رسالته بأن أرسل اليه نسخة من رسالة التوحيد وأشار الى المواضيع التى استقصاه عنها مراسلة كمسألة الجن وانكار الولاية وخلق الافعال وكرامات الصالحين الخ ...

الفقير الى مولاه عبد الحليم بن اسماية
فى 29 ربيع الثانى 1322 هـ

هذا فحوى رسالة الشيخ عبد الحليم بن اسماية التى استوعب فيها جوانب من ترجمة حياة محمد عبده الذى لازمه مدة اقامته بالجزائر ولاشك أن محمد عبده قبل زيارته للجزائر لم يكن مجهولا فى أوساطها العلمية اذ كانت الجزائر متصلة بالمشرق فكانت التآليف والصحف والمجلات ترد اليها كما كان المتخرجون من الازهر فى عدة جهات من القطر وكان امثلهم الشيخ المولود البوشعيبى صاحب المعهد الشهير بنواحى مزونة والذى كان يقضى شهر رمضان فى التدريس فى البليدة بطلب من علمائها كان الشعيبى هذا من خواص تلامذة الشيخ عليش الفقيه المشهور الذى كان من الدخصوم عبده كل هذا لم يمنع عبد الحليم بن اسماية وزميليه من الالتفاف حول الشيخ عبده

والانتصار لتعاليمه بعد أن اطلعوا على تفاصيلها كان هؤلاء العلماء الثلاثة من خريجى معهد الشيخ حميدة العمالى المتوفى سنة 1290 هـ والذى تولى القضاء الفتوى وتـرك تآليف قيمة كما كان من خريجى مدرسته الاديب حسن ابريهمات صاحب تقريظ كتاب أقوام المسالك الذى تحدثنا عنه وغيره من كبار الكتاب الذين تركوا آثارا تدل عـلى علو مناصبهم فى ميادين العرفان اذا مصطفى المضربة كان مدرسا ثم اماما خطيبـا بجامع سفير ، وقد تولى تحرير جريدة « المبشر » الشبه رسمية وختم حياته وكيـل لضريح الشيخ الثعالبى ، وكـان يراعى فى هذه الوظيفة وظيفة وكالـة الشيخ عبد الرحمن الثعالبى نواحيها الادبية أكثر من ناحيتها المادية كما كان عبد الحليم بن اسماية مدرسا بمساجد العصمة الا أن عين أستاذا بالمدرسة الثعالبية وقد علمنا أن على بن عبد الرحمن الذى طرح قضية محمد عبده لاستقصئها كان مفتيا بوهران وكان ثلاثتهم تجانى الطريقة فلنقارن بين هذا الصنف من العلماء فى عهد الاحتلال الذى كان التعليم العربى مضيقا عليه وكان نصيب جل العلماء السجن والنفي فلنقارن بينهم وبين أئمة مساجدنا اليوم ولو فى المحيط الضيق أي فى نطاق العلوم الدينية وأنا واحد منهم ․ فبينما كان أولئك العلماء فى طليعة المهتمين بتطور الفكـر الاسلامى وكانت لمواقفهم وآرائهم وزنها وآثارها نجد هذه الطبقة اليوم مواقفها سلبية تماما والشىء بالشىء يذكركما كما يقال كنت منذ اشهر قليلة بمفتشية جهوية تابعة لوزارة التعليم الاصـلى والشؤون الدينية فقدم كاتب المفتشية ملف بعض الموظفين فاطلعنى عليها الاخ المفتش فوجدت صاحبه موظف يحمل ثلاث شهادات ليسانس واحدة فى الادب الفرنسى والثانية فى اللغة اليونانية القديمة والثالثة فى اللغة اللاتينية ، ثم دكتورة فى العلوم الدينية والموظف المذكور بصدد تحضير دكتورة فى حياة الامير عبد القادر بالعربية لكن هذا الموظف هو اسقف كنيسة وهران ولا زال لم يجاوز عمره خمسة وأربعون سنة (45 سنة) ان شهادات هذا القسيس تخوله شغل رتبة أستاذ فى كثير من جامعات العالم ولكنه اختار التضحية بشبابه وحياته الخاصة فى سبيل عقيدته ، فاذا كنا نشكوا من تدهور الاخلاق وطغيان المادة وبعد كثير من شيوخنا وشبابنا عن المساجد اليس من حقنا أن نحاسب أنفسنا ونستفتى قلوبنا كما يقال أو نخصص أوقات للنقد الذاتى على حـد تعبير أهل زماننا وإذا كانت الاجيال المتدينة الى وقت قريب تشكو من طغيان أمواج الالحاد والاباحية ويستدلون على ما قـاه به ماركس من أن الدين يخدر الشعوب ، فقد تطورت الحالة اليوم وظهرت فرق ترى أن شعار ماركس هذا رجعى وهذه الفرق ترى أن كل مؤمن سواء كان يهوديا أو نصرانيا أو مسلما فهو مصاب بداء عضال وهـو

الخبال ويرون أن الواجب على المجتمع أن يحسل جملة وهي واسعة لانقاذ هؤلاء المرضى حتى لا يسرى داؤهم فى المجتمعات وان خطرهم لا يقل عن الاوبئة المبيدة للشعوب انتهى ··· وهذه الفرق ليست من تصوير الخيال بل عقدت طائفة منها مؤتمرا فى هذا الشهر بسويسرا ، وهي تضم ما يزيد على خمسة آلاف عضو (5000 عضو) فيهم كثير من كبار العلماء والباحثين يشغلون مناصب راقية فى المجتمع · واسمحوا لى ان جرني سياق الحديث الى هذا الاستطراد الذى لربما يرى فيه بعض المستمعين خروج عن الموضوع ولنرجع الى موضوعنا لناتى بالخلاصة ·

ان زيارة الشيخ محمد عبده للجزائر كما نرى اثارت اهتمام الباحثين فى عهدها ثم لا زال الكتاب يتحدثون عنها وفى هذه الايام اطلعت على مقال نشرته مجلة البلاغ البيروتية بعددها الصدر فى 27 ماي 1974 م بمناسبة وفاة المرحوم السيد علال الفاسى تحت عنوان « علال الفاسى فى المشرق » قالت فيه بعد ذكر نبذة من ترجمته · وننشر له ملخص محاضرتين الاولى ألقاها فى دمشق فى نهاية الاربعينات بعنوان : « أهمية المغرب بالنسبة للعالم العربى » والثانية ألقاها فى القاهـرة فى بداية الخمسينات وركز فيها على تطور الحركة السلفية فى المغرب الى حركة وطنية وعنوانها : « زيارة محمد عبده للجزائر وتونس » ثم قالت المجلة المذكورة ويذكر علال الفاسى هذا زيارة قام بها الشيخ محمد عبده الى تونس والجزائر دون أن يتمكن من زيارة المغرب الاقصى ويذكر أن مراسله قامت بين هذا المصلح المصرى وبين زملاء له فى المغرب وراى علال الفاسى أن المكاتبات التى تبادلها محمد العربى العلوى شيخ الاسـلام بالمغرب وأبو شعيب الدكالى الوزير السابق رائد الاصلاح بالمغرب هي التى كانت بداية للحـركة الاصلاحية فى المغرب وما قاله الدكتور عثمان أمين من أن محمد عبده لـدى زيارته للجزائر وجد آثاره التى كانت تصل الى الجزائر على طريقة مجلة المنـار يمكننا أن نعلق عليها بأن السلفية كانت موجودة بالجزائر ومنتشرة فى عدة أوساط لا فرق بين السلفية التى تحدثنا عنها ، ووصلت الى الجزائر على طريق أبى الحسن الزرويلى ورد عليها الامام السنوسى فى كتابه « نصرة الفقير فى الـرد على أبى الحسن الصغير » أو السلفية التى تزعمها ابن تيمية وقد كنـا تحدثنا بنـوع من التفصيل فى المحاضرة السابقة على أحد روادها الذى ظهر فى أواخر القرن الميلادى الماضى وهـو الشيخ صالح بن امهنة دفين قسنطينة كما أشرنا فى المحاضرة السابقة الى عالمين سلفيين من نواحى الاصنام هما الجيلالى بن المنور المجاجى وأحمد بن يحيى الشراطى ، وذكـرنا

انهما تناظرا مع مفتى المدينة المنورة عثمان بن عبد السلام الدارستانى والسبب فى هذه المناظرة أن أحمد بن يحيى الشراطى هذا اطلـع على كتاب الروضة النديـة فى فى شرح الدرر البهية لصديق بن حسين بـن على البخارى الحسنى صاحب التآليف المشهورة التى من بينها تفسير فتح البيان فى مقاصد القرآن ، وقد ألف الكثير منهـا ابتداء من سنة 1290 هـ ، فانكر عليه بعض علماء البلاد الذين تخرجوا من الازهر وكان لـه صيت فى البـلاد فوجد الفقيه الشراطى الى بعض معارفه من المهاجرين بالمدينة المنورة فاطلع على كتابه مفتى المدينة اذ ذاك الشيخ عثمان الدارستانى فأجابه عـلى سؤاله بقوله : قـد اتانا كتابكم فى شـأن الرجل المسمى بصديق حسن الهندى زوج الهندية امرأة من حكام الهند على يد الانجليز الوهابى المشهور وانه اعجبكم وظهر لكم انه مجتهد ومجدد من غير معرفة لـه وما هو منطوى عليه من الظـلال والغواية اللذان لا يختلف فيهما اثنان من سائر علماء السنة من أهل الهند وسائر بلاد المشرق فان كنتم مجوزين للاجتهاد فى هذا الزمان فالعلماء المذكورون أولى بالاجتهاد ولكن معاذا الله أن يدع الاجتهاد وحاد منهم لان الاجتهاد أمره عظيم حتى انعقد اجمـاع علماء الامة أيام الغزالى على عدمه لعـدم وفور الاهلية وكيف يقـاس ائمـة السلف بزماننا هذا وابن الثرى من الثريا ومع هذا اردت مخالفتهم فى أمور اجمعوا عليها وان علماء الهند الثقات الذين يعرفون كمعرفة الآباء للابناء بين اظهرنا وكذلك يفدون جماعات كل سنة للحج ويشتكون ويستغيثون لعلماء الحرمين مـن فساده واظـلاله للمسلمين وسبب تواتره على أهـل السنة لا علينـا فان هذا الكتـاب الذى ارسلـه الدارستانى هذا وانكر فيه على العالمين الجزائريين لم يعملا به لانه أجاهما الامر الى أن وجهوا سؤالا عام نشر فى العالم الاسلامى ونوع بهذين العالمين وكونهما مثلا اتبعوا علماء المدينة الى توجيه سؤال علنى لعلماء الاسلام اذ ذاك هذه الجمل منها ما قولكم انسان مارق خارج وهادىء الى غير ذلك .. وقد اثارت هذه المراسلة ضجة الجـات والثانى ينتمى الى أسرة علمية توارث أهلها العلم قرونا الا انهما كانا احرارا فيـه دام فضلكم ونفع المسلمين بعلمكم فى حسن صديقى الداعى الاجتهاد المطلق ويفتـى الناس بأقوال أجمعت الائمة على خلافها هل يعد ذلك خرقا للاجماع الخ ... حتـى يقول . حتى بلغت اقصى بـلاد الاسلام واضطر منهم أقوام وصمموا على اجتباههم لنا أن هاذين الفقيهين لم يكونا من اكابر علماء البلاد فان احدهما كان له معهد قرآنى هذه يقصد بهم الفقيهين الجزائريين وقالوا هذا مجتهد ومبدد الخ ... من هذا يتبين والسلفية كما ذكرنا ذلك فى ماحضرتنا السابقة لم يكن الناس مدينين فيها لافراد أو

جماعات بل يجد العالم منبعها فى الدراسات الاسلامية التى تدعو الى الكتاب والسنة وقد حافظ عليها المحدثون وفرضوها على النخبة بسيادهم ونزاهتهم ولم يلوثوها باتخاذها وسيلة للاحتراف والارتزاق أو لخدمة ركاب المغرضين من طلاب الجاه والمال الذين يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ويدخلون فيها العوام واشباههم كما فعل كثير من المتصوفين الذين فتحوا باب طرقهم الى العوام فاتبعوا الجوانب السلبية من التصوف حتى زهدوا الناس فى التصوف وتصدى بالرد عليهم كثير من المتصوفين الذين ذكرنا من بينهم عبد الرحمن الاخضرى ، وكانت محاضرة البدع والمتصوفين المحترفين خصوصا طبقة الجهال التى تستغل الضروف والسذاجة وأوساطها الجاهلة وكثر هذا النوع فى أواخر القرن الماضى أي الميلادى وتولى أحد الادباء الجزائريين تصويرهم فى المقامات باللغة المهلهلة الجامعة بين الفصحى والعامية ، وقد كان فضل تخليد هذه المقامات أحد المستشرقين فجمعها وترجمها الى الفرنسية ، ثم نشرها فى المجلة الآسيوية التى كانت تصدر فى باريس ولا يسع الوقت لذكر هذه المقامات فاننى كنت اخترت منها اثنين عبارة عن تصوير بطل هذه المقامات وهو ما يدور فى الاوساط المنحطة مما يسمى فى تونس بالمروقية · هي طريقة جدا ولكن الوقت لا يسمح لنا بالقراءة لهذه المقامات كتبت فى آخر القرن الماضى أي قبل زيارة الشيخ عبده بسنوات صور فيها صاحبها جوانب من المجتمع الجزائرى وركزها على الاوساط المنحطة كالحفلات عند الاضرحة وبائع التمائم والسحرة أو المتمربطين من طبقة الدجالين وهذه الاشياء لا تجعلنا نعم حكمنا على المتصوفين كلهم بأنهم من هذا النوع وهذا ما تصدى له الاخضرى وغيره وقد كان الشيخ عبد الحليم بن اسماية ورفيقه مصطفى امضاربة عندما تعرفا بالشيخ محمد عبده تجانيين ولكنهما لم تمنعهما تجانيتهما من الانتصار لمبادىء عبده عن عقيدة وبيان وان حافظ الشيخ عبد الحليم على علائقه مع التيجانية فقد قطع زميله مصطفى امضربة كل صلة بهم بعد اتصاله بعبده كما نجد موظفين دينيين اذ ذاك ليسوا كلهم من طبقة على بن عبد الرحمن أو مصطفى امضاربة بل يحكى أن نابليون الثالث عندما زار الجزائر حوالى 1865 م وكان يميل الى تكوين دولة ملكية أو شبهها اراد أن يتصل بشخصية اسلامية ملحية يتذاكر معها فى الموضوع فدل على المفتى وفى أثناء الحديث سأل عما يقترحه وكان المترجم بينهما يهوديا فأجابه المفتى وكان شهر رمضان على بعد بان العادة أن يعطى له قنطار الزلابية بمناسبة رمضان وفى هذه السنة بلغه أنهم لا يرسلون اليه الا نصف القنطار فقط كان هذا الذى يهمه وقد حكى لى أحد الاصدقاء أن هذه الواقعة تكدرت فى العهد الاخير اثر الحرب

العالمية الثانية عندما زار أحد الضباط الامريكيين الكبار من أركان حرب الجنرال ازنهاور لمدينة تلمسان وتقابل مع المفتى وساله عن امانيه فكشف له المفتى عن صدره واطلعه على قميصه الممزق ، وقال له هذا ما ينقصنا أي الثياب واسمحوا لى ان أطلت واذا ذكرنا جوانب مجهولة من آثار زيارة محمد عبده للجزائر وهي كلها ايجابية فهناك نواحى سلبية تفرض علينا امانة البحث أن نذكرها لا زالت شخصية محمد عبده تثير الجدل الى يومنا .هذا عند المعاصرين واذا كانت نشاطاته فى الميدان العقائدى محل اتفاق وتقدير فان نشاطه السياسى بعكس ذلك والذى يهمنا من هذا هو ما يتعلق بزيارته للجزائر فان أحد الاصدقاء وهو معنا فى هذه الليلة اطلعنى منذ أسبوع على وثيقة تتعلق بالموضوع وهي تصريح الولي العام الفرنسي في الجزائر ابان الحرب العالمية الاولى صرح بها فى البرلمان الفرنسى فى الجلسة التى عقدها المجلس المذكور فى 9 فبراير 1914 م أي بعد وفاة الشيخ بنحو تسع سنوات وكان هذا الوالى هو « ليوتو » صرح اثر ما احدثه قانون الخدمة العسكرية الاجبارية التى فرضت على الجزائر ابتداء من سنة 1911 م وهاجر بسببها كثير من سكان البلاد خصوصا التلمسانيين الى دمشق فقد انتقد كثير من النواب سياسة الحكومة فتداخل الوالى المذكور وأجاب بأن فرنسا سعت فى تهدئة الافكار ومحاربة دعاة الهجرة الذين كانوا يفتون بأن البقاء تحت حكمهم كفر قال الوالى انهم حصلوا على ثلاث فتاوى من علماء مصر فحواها أنهم يمكنهم أن يعيشوا تحت حكم الكفار وأهم هذه الفتاوى فتوى الشيخ محمد عبده افتاها عند زيارته للجزائر وهي مهمة للغاية على حد تعبير الوالى « ليتو » وهذه الفتوى تتلخص فى أن أرض الجزائر ليست محتلة بأيدى الكفار لان المسيحيين أصحاب كتاب يدعى الانجيل الخ ··· ونجد صدى هذا التصريح عند كاتب جزائرى مشهور وهو المرحوم عمر راسم الذى لا يشك فى نظاله ووطنيته حيث سجنت السلطات الفرنسية سنين ابان الحرب العالمية الاولى قال فى مذكرات بخطه نقلها الاخ الاستاذ محمد اقنانش الكاتب بالخزانة الوطنية ولا زال يحتفظ بالاصل الموجود فى مذكرات عمر راسم ، قال راسم معلقا على زيارة عبده : وانه كان من الذين اجتمعوا معه · وهكذا كان نبغاء الشرق مسمومين بداء الماسونية فانهم يقدمون طاعة أوامر الماسونية على طاعة الله ولا جرم أن نقول أن الشيخ محمد عبده منهم لانه كان يفضل اللورد « كرومل » على عباس حلمى والسلطان عبد الحميد ويرضى بأن تكون مصر انجليزية

ولا تكون مستقلة أو عثمانية وانه كما صرح لنا باعتقاده أن انجلترا دولة البر والبحر ذات القوة والبطش وأن المسلمين ضعفاء لا يمكنهم مقاومة بريطانيا العظمى ٠ انتهى ما نقله الاخ اقنانش عن عمر راسم ٠ والشيخ عمر راسم مشهور فى الاوساط الادبية الجزائرية وهو مع فضله ومواهبه شاذ حتى أنه كان مقرئا فى الاذاعة وكان ينفق مرتبه فى شــراء طوابع البريد وفى كــل شهــر يرســل عشرات الرسائل للنواب والحكام والفنانين والمقرئين والمصلحين نثرا ونظما يسبهم ويشتمهم بل كثيرا ما يراسل رؤساء الدول واننا وان تعرضنا لهذه الجوانب السلبية من زيــارة الشيخ محمد عبده فانها لا تنقص من قيمة الرجل فى ميدان السلفية ووثيقة الشيخ بن اسماية لهــا أهمية اذا اطلع عليها الدكتور عثمان أمــين منذ سنتين وأطلــع عليها كثيرا من أصدقائه ورأى اهميتها واننا عرضنها عرضا من دون التعرض الى تحليلها بل كثيرا ما لخصناها من دون التعرض الى تحليلها ومقارنتها بما كتب عنه واسمحوا لى ٠

حيـــــاة كفـــــــاح

أحمد توفيق المدنى
وزير مفوض

بســم اللــه الرحمــن الرحيــم

سيادة الآخ الوزير الفاضل ،
سادتى وابنائى الاعزاء ،
سيداتى النابهـات .



انه لمن موجبات السعادة والاعتزاز ، أن اقف امامكم الآن ، لكى اقدم لكم من فوق هذه المنصة لا جسما فانيا صارع الايام ،وعركته الايام ، وقد عرفتموه يافعـا ، وكهلا ، وشيخا ، وعرفتم نضاله خلال حياته الطويلة المديدة ، بل لكى اقدم لكم ، وبكل اعتزاز ، ما احتوى عليه هذا الجسم من روح، واحساس، وشعور، وما اختلج فى نفسه خلال هذا النضال العنيف ، الذى استمر سبعين سنة ، ولا يزال والحمد لله فى شبابه وفى أوج قوته ، من عواطف الحب الصادق العميق الذى يكنه لهذا الوطن المفدى ، ولابناء هذا

(*) محاضرة ألقاها فى المركز الثقافى الاسلامى بالعاصمة بتاريخ 1978/8/1 .

الوطن الاعزة الاكرمين ، ومن عواطف النظال الشريف فى سبيل المستقبل الافضل ، وبتريد المستعمر الخسيس ، والاندفاع الجريئى فى ميادين التضحية والجهاد ، وولوج أبواب الاستشهاد ، فى غمرة شعبية ، اسطورية عملاقة ، كانت فاروقا بين الاستعمار والاستعباد والمهانة ، وبين الحرية والاستقلال والكرامة ، أقام الشعب بها الدليـل الناصع على انه سليل خير أمة اخرجت للناس ، فاذا ما اتاح لى اليوم المركز الثقافى الاسلامى ، هذه الفرصة لكى أقدم لحضراتكم الجزء الثانى من مذكراتى التى اطلقت عليهـا اسم « حياة كفاح » وكانت مصداقا لقول الشاعر :

هى مثل الكتاب أخفـــاه طى   فاستدلوا عليــه بالعنـــوان

فاننى اهتبل هذه الفرصة بجذل عظيم ، لا لكى اقدم لكم الكتاب ، وهو امامكم ، وفى متناول ايديكم ، بل لكى أقدم لكم روح الكتاب ، وفكرة الكتاب ، والارتسامات التى تمخضت عنها الذاكرة فاملت هـــذا الكتاب • وقد سبق لى ان قلت فى مقدمة الجزء الاول منه ، ان القلب يملى ، والقلم يسجل ، ولا اكاد اتدخل بينهما ، اذن فهذا الكتاب هو فيض الروح ، وهو صورة الوجدان ، كما هو مرآة الحوادث الصادقـة ، تسجل لك ما امامها ، دون زيادة أو نقصان

وفن المذاكرات ، سيداتى ليس بالفن الجديد ، وان كنا نتناوله للمرة الثانية فى حياتنا السياسيـــة والاجتماعيـــة والادبيـــة • فالمـــرة الاولى ، قد احرز بها قصبات السيف اخونا وصديقنا المفكر العظيم المرحوم مالك ابن النبى ، باصداره كتاب : مذكرات شاهد العصر Mémoires d'un témoin du siècle ولعلنا نفتخر فى جزائرنا الحبيبة ، بان العلامة الاكبر ، مفخرة الفكر والتحليل التاريخى العلمى ، عبد الرحمن بن خلدون ، قد كتب فى بلادنا مذكراته الغنية الثرية ، التى ازاحت الستار عن نقط غامضة فى تاريخ حياته ، وتاريخ محيطه ، وتاريخ الهوج السياسى الذى كان يسود بلاد العالم الاسلامى فى عهده ، ولولا مذكراته تلك ، لضاعت عنا تفاصيل هامة ثرية ، عما كان يجرى ببلاد غرناطة ، واشبيلية ، وفاس ، وتلمسان ، وبجاية ، وتونس ، والقاهرة ، ودمشق •

بل اذا ما نحن استثنينا كبار كتاب المذكرات فى الزمنين القديم والاوسط ، امثال

يوليوس قيصر ، ولاروشفوكول ومدام دى استيل وكامى ديمولان ، وجورج صائد ، ونابوليون الاول ، وعبد الرحمن الثعالبى ، والقينا نظرة على تاريخنا المعاصر ، وجدنا عددا جما من المذكرات الاصيلة الفائقة ، التى قدمت لنا صورا ناصعة عن حقائق ودخائل الحوادث التى مرت بالعالم ، واننا لنذكر من ذلك على سبيل المثال : مذكرات امبراطور المانيا غليوم الثانى ، ومذكرات الغازى مصطفى كمال باشا ، ومذكرات والى سورية الاسبق أحمد جمال باشا ، وهى النظرة العثمانية لحوادث النهضة العربيـة ، ومذكرات أحمد أمين المؤرخ المصرى ، عن النهضة المصرية والمجتمع العربى ، الى غير ذلك من مذكرات عديدة وفريدة ومفيدة .

وان الفرق ، سيداتى وسادتى ، بين المذكرات وبين مختلف كتب التاريخ ظاهر وجلى . فالمذكرات لا تأخذ من كتب التاريخ ، بل هى تصور الواقع لتقدمه مادة خاما لكتب التاريخ . فاذا ما كانت كتابة التاريخ تقتضى من الكاتب التدقيق والتمحيص ، والمقابلة والتحليل ، واستخلاص النتائج والعبر ، فان كتابة المذكرات ، أو مـادة التاريخ المقبل ، يجب ان تعالج على انها امانة تاريخية مقدسة موضوعة فوق كواهلنا ، نقدمها لاجيال الباحثين الذين يكتبون التاريخ ويدونونه .

فكتابة التاريخ المعاصر ، على شكل مذكرات ، أدق واشق من كتابة التاريـخ القديم وواجب كاتب المذكرات ـ وقد قمت بهذا الواجب حق القيام كما اعتقد ـ هو ان يقف من الحوادث ، ومن الرجال ، ومن المجتمع ، موقف الملاحظ ، المسجـل النزيه ، الذى لا يراعى فى كتابته صداقة ، ولا اخوة ، ولا عاطفة، ولا مصلحة، بل يجب ان يخترق حجب الاعماق ويجب حتما ان يذكر الوقائع أو ان يذكر الاوصاف كما شاهدها ، وكما اقتنعت نفسه بصحتها . انه المصور اللوذعى يجهد نفسه لاخذ الاتجاه المناسب ، حتى يضع ضمن علبة التصوير ، رسما حقيقيا ، ناصعا ، ناطقا ، معبرا ، يحفظ للمستقبل حقائق الحاضر ، بما لها ، وبما عليها .

هكذا ، والله يشهد ، وقفت فى تسجيل مذكراتى ، واعتقد ، دون ادعاء ودون غرور ، اننى وفقت الى حد بعيد .

لقد قدمت لابناء الجيل الحاضر ، كما قدمت لابناء الاجيال المقبلة ، فوق صفحات

احمد توفيق المدني

حياة كفاح

(مذكرات)

القسم الثاني

فى الجزائر

1925 - 1954

الجزئين الاول والثانى من هذه المذكرات ، بكل صدق ، وبكل نزاهة ، وبجميع ما فى الواقعية والاخلاص من مفهوم دقيق ، ما رأيته ، وما سمعته وتأكدت من صحته ، وما علمته ، وما شاركت بضلع وافر فى عمله ، خلال سبعين سنة • أى من سنة 1907 الى سنـــة 1977 م •

فانا خلال كتابى هذا ، اصف المجتمع الذى عشت بين احضانه ، بتونس العزيزة أولا، وبالجزائر الغالية اخيرا، واصور الجزئيات من حياته بصفة محايدة ، لا تحامل فيها ولا غرض • ثم أننى اتكلم عن الحوادث فى تسلسلها الطبيعى ، واصفها كما وقعت بالذات ، دون محاولة تحسين أو تقبيح • وما تكامت خلال ذلك عن أى رجل ، بمدح ، أو بقدح ، الا بعد ان اختلطت به ، وعجمت عوده ، وسبرت اعماق نفسه ، دون تحيز، دون دفاع ، دون هجوم ، فانا اقدم بهذا الكتاب شهادة حق وصدق واقتناع ، سجلتها ساعة وقوع حوادثها ، وبعد فحصى واختبارى للرجال الذين سجلوا اسماءهم فوق حلبتـــها •

الا انه توجد هنالك ، سيداتى وسادتى ، قضية فلسفية شغلت الفلاسفة والمفكرين ردحا من الزمن طويلا ، ولا تزال تشغلهم الى الآن ، والى امد طويل ، تلك هى قضية الحقيقة ، وهل هى واحدة اطلاقا ، أو متعددة •

لادع قول الفلاسفة والمتكلمين جانبا فأقول ان الحقيقة بالنسبة للانسان المفكر ، هى واحدة ، قارة ، لا تتعدد ، تثبت فى النفسْ بعد الدراسة والتمحيص ، الى ان تصبح اقتناعا وايمانا ، يدافع عنها الانسان بالحجة واليقين ، وبكل ما أوتى من قوة ومن صراحة ، بل هو مستعد كل حين للاستشهاد فى سبيلها •

لكن القضية تختلف بالنسبة للافراد الآخرين ، وبالنسبة للجمتمع • فما أراه انا وترونه انتم حقا وصدقا ، وحقيقة ناصعة لا تتجزأ ولا تتعدد ، يراه غيرنا باطلا وزورا، بل بهـتانا عظيما • لقد ايقنت نفسه بفكرة أو برأى يخالف على خط مستقيم فكرتنا ورأينا • اذن فالحقيقة التى يراها هو ، غير الحقيقة التى نراها نحن ، وان كنا نحن واياه ننظر شيئا واحدا ، وندرس قضية واحدة ، أو نحكم على شخص معين ، ولقـد

لخص القرآن العظيم هذا التشاكس فى اتجاه الحقيقة ، بقوله للمشركين : **لكم دينكم ولى ديـــن** •

فالحقيقة اذن ، سيداتى سادتى ، لا تفرض فرضا ، انما هى نتيجة بحث واستقراء وايمان واقتناع •

فما اعتقدته انا حقيقة ناصعة ، وسجلته فى مذكراتى اصف به حادثا ، أو احكم به على انسان ، ربما رآه غيرى من الباحثين مخالفا للحقيقة التى يراها هو ويؤمن بها • لا أقول عن هذا انه ممكن الوقوع ، بل أقول عنه انه واجب الوقوع • فقد قال ابو الوطنية العثمانية نامق كمال بك : باصطدام الافكار ، يصطع ثور الحق • وقال مالك بن انس المجتهد العملاق وهو يدرس الحديث عند ضريح المصطفى صلى الله عليه وسلم : كلكم راد ومردود عليه ، الا صاحب هذا القبر •

فانا ، سيداتى سادتى ، اقدم كتابى ، بجزأيه الصادرين ، وبجزئيه المقبلين ، الحقائق الناصعة التى اطمأنت بها نفسى ، وآمنت بها ، بحيث انى مستعد للنضال فى سبيلها ، الى آخر ما فى النفس من جهد وطاقة •

ففى الجزء الاول ، كان لى شرف تقديم الوسط التونسى وهو يتدرج خلال السنوات الاولى من هذا القرن العشرين وقد اطبق عليه الاستعمار بشدة خنقت انفاسه ، وان كان لم يمض على وجود الاستعمار يومئذ الا نحوا من ثلاثين سنة ، امتلك خلالها الخصب من الارض ، ووضع خلالها الى جانب ابناء البلاد المحرومين ، جالية أوروبية جشعــة ، خيل اليها زيفا وغرورا انها قد انحدرت من صلب جوبينو كما يقولون : وأخذت تعامل المواطن المسكين ، المشدوه ، معاملة السيد الارعن ، للعبد المحتقر ، بل وصل بها البذىء من الفاظ الشتمية المنكرة ، والاحتقار المبتذل ، الى قولها : اذا صادفت فى طريقك العربى والافعى ، فاسبق بقتل العربى هكذا كتبوا بالحرف الواحد فى ورقة تونس الفرنسية ، الحقيرة •

لكن ذلك الوسط التونسى الذى كان فى نظرهم شرا من الافعى ، كل يتململ ، كان يتأهب ، كان ينتظر بفارغ صبر ساعة الخلاص • انه قد وجد رجاله ، بل وجد

ابطاله ، من امثال المرحومين : عبد العزيز الثعالبي ، وعلى باش حامبة ، والبشير صفر، وعلى بوشوشة ، والجزائرى الفحل عبد الرحمن الصنادلي الذى قال بصراحة مدوية فى أول عهد جريدة الزهرة : وماذا استفادت تونس من وجود الحكم الفرنسى بالبلاد ، الا اباحة الخمور ، وتعميم ديار الفجور ؟

وكان جامع الزيتونة يومئذ ، وكانت المدرسة الصادقية يغذيان الوطن بالدفعة اثر الدفعة من الخريجين الميامين • حتى اذا ما نفخ فى صور النهضة ، وانفجر الحماس فى صدور الناس • اثر الانقلاب العثمانى الاول ، كانت ضربة سوط العدوان الطليانى الغادر على اختنا ليبيا العزيزة الغالية ، ضربة مؤلمة قاسية ، عاتية ، كان وقعها بتونس مدويا ، كما كان وقعها فى ليبيا العزيزة دمويا ملتهبا • وهكذا ، تمكنت ، سيداتى وسادتى ، من تصوير تلك الموجة الطاغية من احساس الكرامة ومن الاندفاع البطولى فى الوسط التونسى • وقد كنت اتجول خلاله ، واسجل أقواله ، بل واشترك على صغر سنى فى الهاب شعوره ، الى ان وقعت ثورة الزلاج ، ولا أقول حادثة الزلاج ، لانها كانت أول ثورة جامحة ضد الطغاة الظالمين ، وما كان معها من اضراب المواطنين عن استعمال عربات النقل العمومية ، حتى اذا ما رأت حكومة الاستعمار الطاغيــة تصاعد هذه الروح الوطنية المؤمنة ، وايقنت نفسها ان هذا الفوران الوطنى ، ما هو الا مقدمة لحركة ثورية منظمة ستأكل بعد حين اخضر الاستعمار ويابسه ، ركبت مركب الباس والعنف ، فابعدت عن البلاد التونسية رجالها وزعماءها وشردتهم فى مختلف الافاق ، وعطلت كل الصحف والمجلات التونسية المختلفة ، وكانت عديدة ، فلم تبق الا صحيفة يومية واحدة ، تركتها جسما دون روح •

كنت يومئذ بالمعهد الزيتونى الخصيب ، اتلقى بين عرصاته الفسيحة فيضا من العلم ومن الهدى ، وكنت منغمسا فى الوسط التونسى ، اتبادل معه ، فى مختلف طبقاته المشاعر والاحاسيس حتى اذا دقت نذر الحرب العالمية الاولى قلنا جميعا • حى الفلاح ! قد ازفت ساعة الخلاص • وما هى الا لحظة واحدة ، فاذا بى اجد نفسى منغمسا فى مؤامرة محكمة ، من أجل ضرب الاستعمار الفرنسى ضربــة قاصمة • انما لكل اجل كتاب ، فمؤامراتنا يومئذ لم تقض على الاستعمار ، انما قادتنى الى زنزانة رقم 24

الانفرادية بسجن تونس المدنى ، حيث قضيت اربع سنوات الا قللا ، وما انقذنى من حكم بالاعدام محقق ، الا سنى ، اذ كنت لم اتجاوز السادسة عشرة من عمرى • قالوا يومئذ ، بعد تدخل حازم من المحامى الجزائرى الكبير ، الاستاذ لادميرال • لنتركه فى سجنه دون محاكمة الى نهاية الحرب • وهكذا كان •

انما لم اقض سنوات سجنى لاهيا ، أو عابثا أو متبئسا ، بل قضيتها متعلما ، دارسا ، مستفيدا • ولعلنى كتبت عن تلك الحقيقة من حياتى ، فى مذكراتى ، صفحة شيقة ، مشرقة •

عند نهاية الحرب ، خرجت من قبر الحياة ، الى ميدان الحياة ، وقد قادتنى سنوات السجن والتضحية الى ساحة العمل الوطنى ، المثمر ، حيث كان الاخوة الزعماء ينظمون صفوفهم ، ويجمعون الامة حولهم ، ويستعدون لخوض ملحمة من أكبر الملاحم ضد المستعمرين الغاصبين •

هكذا نشأ الحزب الحر الدستورى التونسى ، وهكذا وجدت نفسى ، لا فى لجنته التنفيذية فحسب ، بل فى طليعة صفة الاول ، متبوئا مقعد الامين العام المساعد ، وقد كلفت بالقلم العربى ، وبادارة الحزب •

وكان النضال العنيف ، وكانت الحملة الصادقة فى سبيل الحرية ، وكان الاندفاع العارم بالقلم وباللسان ، وبالعمل الثورى الجريئى ، من اجل رفع رايات الحرية والاستقلال ، والتخلص من استعمار كان يزداد شراسة وعنجهية ، على مقدار ما كنا نزداد حماسا واندفاعا • وتزداد نار وطنيتنا توهجا والتهابا •

كل هذه التطورات ، كل هذه الاحداث ، وما تخللها ، وما لابسها ، وصفتها بدقة واخلاص خلال الجزء الاول من هذه المذكرات ، بصفة تجعل الذى يطالعها ، يشعر بانه قد عاش تلك الحوادث واندمج فى وسطها ، واصطلى بنارها ، واقتبس من نورها •

وجاء وقت الخلاف الشهير ، الذى اشترك الاستعمار بصفة ظاهرة وخفية فى اذكاء ناره ، والافادة منه ، وجاءت ساعة سفر الوفد التونسى الثالث الى باريس ، وكنت ضمنه بين الاربعة الموفدين فتروننى ابرز دور المشاركين فى كل ذلك ، واذكر حقائق وبيانات ناصعة بقيت وحدى الامين عليها • فاولا اننى سجلتها ، وامطت اللثام عنها •

ونشرتها بين الناس ضمن مذكراتى من أجل حفظ التاريخ الحق ، لضاعت وتلاشت الى الابد .

وهكذا أستمر فى ذكر الحقائق عن تونس ، وكفاحها العنيف ، ودخائله وثباتى بين اصحابى فى ساعة سوء قل فيها المساعد وعز النصير ، الى ان ضاق الاستعمار بوجودى ذرعا ، ورأى وجوب التخلص منى فى البلاد . فاخذنى على غرة ، وسار بى الى ما وراء الحدود ، وسلمنى ـ مقابل وصل ـ لمحافظ شرطة عنابة .

نشرت يومئذ بيانا ختمته بقولى : حرا خلقت ، وحرا أحيا ، وحرا أموت . وكان ذلك حدا فاصلا بين عهدين من عهود الكفاح العنيف .

اما عن العهد الاول ، فقد ذكرت لكم ما به الكفاية فى الجزء الاول . واما العهد الثانى فهو العهد الجزائرى ، منذ سنة 1925 م ، الى قيام الثورة العملاقة ، ثورة الاحرار الابرار ، الاطهار ، يوم غرة نوفمبر 1954 .

فهذه الفترة الاولى التى استغرقت ثلاثين سنة ، خلال هذه الارض الجزائرية المطهرة هى موضوع الجزء الثانى من « حياة كفاح » وهو السفر الذى يشرفنى أن اقدمه لكم الآن .

ان كفاح البلاد الجزائرية ، سيداتى وسادتى الامجاد ، كفاح مديد وعميق . تالد وطريف ، له ابتداء ، انما اكاد أقول ان ليس له انتهاء . فشعب الجزائر ـ وبهذا طفحت كتب التاريخ ـ شعب اصيل ، نبيل ، تعشق الحرية منذ عهد ماسنيسا ويوغورطة بل وما قبلها بكثير ، وهام بالحرية صبابة ووجدا ، وقدم خلال ما يزيد عن الثلاثة آلاف سنة ، مواكب الاحرار فى ساح الفدى ، يتلو بعضها بعضا دون انقطاع . فما اخفق مسعى الا وتلته مساعى أخرى ، وما سقط السيف من يد مقارع بطل ، الا وتلتقته أكف أبطال آخرين ، انه ليسكت أحيانا ، استجماما واستعدادا ، حتى يخاله الاعداء انه قد لفظ نفسه الاخير فوق الاديم ، انما نراه فى لمحة خاطفة ، ينقلب ماردا جبارا ، يصب فوق هام الظالمين جام غضبه ، ويلهب كيانهم بنار حقده ، لا يبالى اطلاقا بعدد من مات منه فى ساح الاستشهاد ، انما هو ينظر من وراء اجداثهم الطاهرة نور الامل

البسام فى المستقبل الحر السعيد ، ويرى نفسه ، وهو مضرج بدمائه ، فاذا به ينشىء الحياة ، ويحقق الامل ، ويتبوأ مقعده الفسيح بين الامم الحرة الحية التى تحتل مقعدا ثابتا ، تحت أشعة الشمس الساطعة • انه أمة من الاحرار ، لا أمة من العبيد •

ترونني أصف ذلك الشعب الحى الخالد وصفا دقيقا ، صادقا ، وأقدمه فى مذكراتى وهو يتململ ، ويتنور الطريق ، ويستعد لليوم الحاسم العظيم •

لقد كانوا يقولون عنه ، زورا وبهتانا ، انه شعب متخلف ، وانه شعب لا يهتم فى الحياة الا بلقمة ملوثة يزدردها ، وجرد بال يكستبه ، وانه آمن ايمانا عميقا بقول الدجاجلة الذين كذبوا عليه ، وقالوا له : ان الدنيا للكفار ، وان الآخرة للمؤمنين • والله يقول : **ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى واضل سبيلا •**

كلا ثم كلا ، لقد رأيته رأى العين ، لقد اندمجت فيه ، واختلطت روحى المناضلة بروحه الثائرة ، فاذا به لا يفكر فى اللقمة ، بل يفكر فى القمة ، لا يريد الجرد ، بل يريد الحرية والمجد ، لا يرضى سكنى القبور ، بل يتطلع لميراث القصور ، لقد حقق لنفسه ، بصدقة ، وجهاده ، وتضحياته المتواصلة ، ما كان الكثير من الناس يخالونه مستحيلا ، فما هى الا سنوات قليلة ، حتى رأيناه يهب عاصفة هوجاء طاغية ، تحطم الاستعمار ، كل الاستعمار ، وتحقق المجد ، وتسكنه القصور ، تحت رايات الحرية الحمراء والاستقلال العزيز •

ووصفته وامعنت فى وصفه فى ليالى قسنطينة الزاهرة ، على أول عهدى به ، وما كان خلالها من حديث مهم ، هادف بناء ، ووصفت رجاله الميامين بها ، وهم يتخطون عتبات البطولة الصادقة كعبد الحميد بن باديس ، ومبارك الميلى ، ومن التف حولهما من صانعى المستقبل وبناة الامل •

وصفته فى تلمسان الغناء ، حديقة التاريخ ، وواحة الادب ، بين آثار العظمة والمجد وشبابه وكهوله ، يتزاحمون بالمناكب قصد بلوغ الهدف ، وتحطيم الحنث الاستعمارى البغيض •

وصفته فى وهران ، وقد خالها الاعداء مدينة ميتة ، ومقبرة للاحياء • فاذا بها ـ منذ الساعة الاولى ـ مدينة الحياة ، مدينة البعث ، مدينة النشور ، تتذاكر علنا

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

الكبير ، كيف ان حكومتنا الحرة المستقلة ، الساهرة على شؤون البلاد والعباد ، قد غفلت عن ذكر الرجلين العظيمين ، فلم تطلق اسميهما ولو على شارعين من شوارع العاصمة أو احدى عواصم الولايات •

هذا مجرد سهو على ما اعتقد ، سوف يتدارك • وهكذا يستمر نمو النهضة العملاقة ، وتعم وتنتشر ، الى أن تتوج سنة 1927 بتأسيس نادى الترقى ، الذى كان دون ريب حجر الزاوية فى هيكل الحياة الحرة الجزائرية ، حياة العروبة والاسلام والوطنية الصادقة ، وانني خلال مذكراتى هذه ، لامعن فى وصف النادى ، وفى وصف رجاله ومؤسسيه ، وفى تفصيل أعماله ومساعيه ، وصفا يجعل القارىء شاعرا بانه عاش تلك الفترة ، وشارك فى هاتيك الاعمال •

ومن ثم يأتى دور الاحتفال المئوى الذى اقامه الاستعمار الاهوج ، احتفالا بمرور قرن على احتلال الجزائر واستعبادها • اذ كان ذلك اليوم الاسود المشؤوم ، مطلع هلال النهضة ومنبع النور الجديد • أرادوه يوم تخليد لموت الجزائر الابية وأراد الله الشعب ، ان يكون فى الحقيقة يوم بعث ويوم نشور • كان يوما فاصلا بين عهد استعمارى موبؤ ، وبين عهد نهضة صادقة ، صارخة ، واستعداد لليوم الآخر ، العظيم •

لقد كان ردنا ، فى النادى ـ على ذلك الحادث ، ردا حاسما ، قاطعا ، جسورا ، كان ردنا عليه ، هو اقدامنا على تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين • وما ادراك ما هية •

كان ردنا عليه ، اقدامنا على تأسيس ونشر الصحف الاسلامية الوطنية الحرة التى كانت تتكلم باسم الامة ، وتحمل شعور الامة ، وتبث أنوار الهدى واليقين بين صفوف الامة •

وهكذا ، سيداتى وسادتى ، ومنذ تلك الساعة • استمر التصاعد الوطنى متخطيا مدارج النمو ، واستمرت الفكرة سائرة فى طريقها لا تلوى على شيء ، فكنت امعن خلال ما كتبت فى المذكرات ، فى وصف الحركات الوطنية مثل حزب الشعب الجزائرى وحزب انتصار الحريات الديمقراطية مع مصالى الحاج ، وأحمد مزغنة ، واضرابهم ، وحزب البيان الجزائرى مع عباس فرحات ، والدكتور سعدان ومن اليهم ، وجمعية

العلماء المسلمين الجزائريين مع ابن باديس ، والابراهيمى ، والتبسى ، والميلى ، ومن التف حولهم • والمؤتمر الاسلامى وشباب المؤتمر ، مع الامين العمودى •

ولم أنس ما نسيه الناس أو حاولوا نسيانه ، لم أنس جبهة قوية ، ظهر فيها لاول مرة قبيل الحرب التحريرية ، تضامن حزب الشعب الجزائرى ، وحزب البيان ، وجمعية العلماء المسلمين ، وجماعة الشيوعيين ، وممثلى المناضلين المستقلين ، وهى جبهة الدفاع عن الحريـــة •

ثم انى ذكرت بين صفحات الكتاب شيئا مما كنت انشره كل شهر بمجلة الشهاب ، من أول اعدادها ، الى آخرها ، حيث كنت اصرخ بكلمة الحق ، وكنت ادعو الامة لما يحييها ، وكنت أقول الكلمة المؤمنة التى كان غير يحجم عن قولها ، فقد صرخت فى الشهاب ، فى وجه الادارة الاستعمارية ، ودعاة التفرنس والاندماج ، قائلا : « كلا ثم كلا • ان الجزائر ليست فرنسا • ولم تكن الجزائر فرنسا ، ولن تكون الجزائر فرنسا !» ولم أنس خلال كل ذلك ، ذكر تفاصيل ما قامت به الحكومة من مناورات ، وما اثارت من مشاكل ، وما ايقظته من فتن ، بلغت بها حد ازهاق الارواح من أجل اتهام الابرياء وتحطيم الجماعات •

كما لم انس ذكر ما نشر بين الصحف الوطنية المختلفة المناهج ، من مشاجرات بلغت حد الاقذاع ، وكيف تصديت لكل ذلك ، بايمان واقتناع ، الى ان محوته ولم ابق منه اثرا ، ونصرنى الله نصرا عزيزا •

وهكذا سيداتى وسادتى ، استمر فى البحث وفى الوصف وفى سرد الذكريات الصادقة ، ذاكرا خلال ذلك ما انتجته من كتب مختلفة ، خدمة لقضية الاسلام والعروبة ووطنية الجزائر ، الى ان كانت الحرب العالمية الثانية ، العرمة ، التى ساقوا اليها الافواج العديدة من رجالنا وابنائنا • يتعذبون ويموتون فى سبيل الغاصب المحتل ، جبرا وكرها • وكان الفرنسيون خلال تلك الحرب المدمرة ينافقون ، ويدجلون ، ويقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، حتى اذا ما وضعت الحرب أوزارها ، كان جزاؤنا عما قدمناه لهم ، جزاء سنمار • كانت مذابح 8 ماى 1945 م ، الرهيبة ، الفظيعة ، التى

اردوا خلالها ما يزيد عن الاربعين ألفا من رجالنا ونسائنا وابنائنا · ونادوا بغطرسة الجبناء : ان فرنسا هاهنا الى الابد !

يومئذ ايقن الشعب الابى ان لا حياة دون ضحايا · ان لا حريـة دون دم · ان لا خلاص من الاستعمار الا بمعركة قاسية ، شرسة ، طويلة الامد ، فيها موت الشهداء الابرار · وبعدها عيش السعداء الاحرار ·

هكذا سار الشعب سيره الموثق المطمئن يهيىء للثورة اطارها ، ويوقد فى المكامن نارها ، غير عابىء بما عاناه من اضطهاد ، فاذا ما دقت ساعة القدر · ونادى المنادى ان حى على الجهاد،وثب الشعب وثبـة الأسـد الهصور ، ووقف عمـلاقا مواقف البطولة والفداء التى لم يقفها شعب آخر قبله على ما اعلم ، وهانت عليه الارواح فداء الحريـة والاستقلال ، فكانت الانتفاضة شاملة عمت كل اطراف البلاد ، وارتوت الارض الطاهرة من دماء الشهداء الابرار ، من سوق اهراس الى تندوف ، ومن ساحل المتوسط الى ما وراء جبال الهقار ، الى ان حطمنا الاستعمار تحطيما واخرجناه ذليلا حقيرا ، لا من أرض الجزائر وحدها ، ولا من المغرب العربى فحسب ، بل من كامل القارة الافريقية ، والى الابد ! وسيأتى تفصيل كل جهادنا فى الخارج من أجل ذلك فى الجزء الثالث ، وقد قدمته الشركة الوطنية للنشر والتوزيع مشكورة للطبع ، وسيصدر بحول اللـه أواخر هـذه السنة ·

ذلك خلاصة ما ذكرته فى كتابى الجديد ، وما اطنبت فيه مـن وصف الحوادث والرجال ، اقدمه لكم سيداتى وسادتى ، واشهد أمام الله ، واشهد امام الضمير ، وامامكم جميعا ، انى ما قلت فيه الا الحق ، وما توخيت فيه الا الصدق ، وسترون ذلك رأى العين حين قراءته · وستقرأونه بحول الله ·

وشكرا لكم جزيلا ، والسلام عليكم ورحمة الله ·

حـول مـذكـــرات :
حيـــاة كـفـــاح

د. بشـــير التليـــلى
أستاذ فى الجامعة التونسية
تعريب : د. محمـد بلقـراد
أستاذ فى جامعة الجزائر

كنا نامل ـ منذ عدة سنـين أن الرواد والمنشطين والمسؤولين والمناضلين من الحركات المختلفة والمنظمات الاجتماعية والسياسية فى المغـرب المعـاصر يمدوننا بمذكراتهم ورواياتهم وذكرياتهم · كنا نلهنى ـ حقـا وبحرارة ـ أن التقاليد المحمودة فى حقـل المذكـرات والذكريات تشق أيضا طريقها فى المغرب المعاصر ولا تـدع المؤرخ المتعطش للاخبـار والتفاصيل والمعطيات الواقعيـة والتعليـلات المعمقـة والـدواعى الحقيقيـة والايضاحات وعناصر الاوضاع وتحديدات المواقف والمشاعر والمطامح والتفسيرات والمبررات أو التاويلات الرسمية أو الموجهة ·

فالتشكيل من جديد للحركة الاصلاحية والقومية والنقابية والاشتراكية والشيوعية أو الصهيونية وتطويرها فى المغرب المعاصر مع الاكتفاء باستقاء المعلومات من وثائق

(*) من مجلة « الصحائف التونسية » كلية العلوم الاجتماعية ـ عدد 97 ـ 98 ·
أحمد توفيق المدنى ، حياة كفاح (مذكرات) ـ الجزائر ـ الشركة الوطنية للنشـــر والتوزيع (لاسناد) ـ 1976 ، الجزء الاول 1905 ـ 1925 · 351 صفحة ·

الارشيفات (مذكرات بوليسية ، تقارير محضرة من قبل المصالح الرسمية ، مذكرات موجهة من قبل السلطات العاصمية ، مادة تاريخية من الواجب استخدامها بحـــذر بالغ والبحث فيها باعتناء مع استخدام واستغلال تقنيات أخرى مناسبة · ولو لــم يقع ذلك الا لان هذه الوثائق حضرها عمال دولــة أو موظفون لا يعرفون اضطرارا الحقائق الواقعية والثقافية والايديولوجية التى يتحدثون عنها والذين يجهلون غالبا الوسائل الحقيقية والتعليلات وحــركة التطــور ومقتضيات الحركات التى يشتغلــون بها ، الخ ···) أو نقل فى شكل جزازات متنوعة لخلاصات تقارير صحفية حررتها مصالح الاقامة العامة أو الولاية العامة · وهذا يــؤول ــ بكل تأكيد ــ الى انجـــاز أعمال جمع فائدتها محدودة · ذلك أن هذا المستوى من التقرب من الحقائق المغربية المعاصرة يتــرك جانبا تمــاما التعقد والاهمية والابهامات والتناقضات والتورطات المتعددة والعواقب والاسباب العميقة المخزية غــير المعترف بهــا ومطــامح السكــان الصحيحة ونشاطات المناضلين الحقيقية ــ وباختصار ــ التطورات المتعددة للتحركات الاجتماعية والسياسية التى تهيمن على تحولات هذه الحقائق · ففائدة واسهام وأهمية مذكرات وذكريات الشخصيات السياسية المغربية بالنسبة الى دراسة وثائق تاريخية تهم جوانب معينة من التاريخ · ولو اتسمت بالحماس والهوى والتحزب والتــوجيه والذاتية النابضة بالحياة ، ولو شحنت بالتفاصيل والمشاعر ، فانها تمد ــ بتدقيق ــ المؤرخ بأضواء أخرى وتأويلات أخرى وكشوف أخرى ومعطيات أخرى ووثائق مبتكرة أخرى لم تنشر من قبل وعناصر جواب أخرى واعترافات أخرى وأبعاد أخرى ومعلومات أخرى غير التى تنقلها نصوص الارشيفات ·

هذا بديهي ، ولكنه جدير بأن يذكر به الذين يظنون أنهم يخادعوننا بنقلهم لنـــا وثائق رسمية مستقاة ــ بدون نظام ولا بحث تاريخى ــ من الارشيفات العامة للحكومة أو لوزارة الشؤون الخارجية الفرنسية · ويحاولون ــ عبثــا ــ لدى انعدام تصرف أفضل ــ أن يخدعوا الاغرار منا بصدد أهمية هذه الوثائق من حيث الكــم والكيف · حقيقة ، ماذا يفهم مخبر الشرطة فى عهد الاستعمار عن المطامح الصحيحة لتجمــع سياسى أو عن نشاطات ســرية لهذا المناضل أو ذاك أو عــن المناقشات أو القرارات الحقيقية لادارة سياسية ما مثلا ؟

لنبتهج بالاطلاع ــ فى هذه السنين الاخيرة ــ على أن شخصيات مغربية صارت تؤلف وتنشر ذكرياتها ومذكراتها ــ الحين بعد الحين ــ وتسهم بذلك من دون ما ريب

فى اثراء جوانب من التاريخ المعاصر • فقد أسهمت هكذا مذكرات المدنى ليس فقط فى الاجابة عن عدة علامات استفهام • بل شاركت أيضا فى سد فجوات فى تاريخ تونس المتعلق بما بعد الحرب الكبرى • فبما أن أحمد توفيق المدنى عاش فترة شاهدت تطور تونس المعاصرة فى سنوات ما بين 1905 ــ 1925 ، بصفته من مؤسسى ومسؤولى الحزب الحر الدستورى التونسى ، وبما أنه شارك ــ بعمق ــ فى جميع أحداث المجتمع الجليلة وفى الايديولوجيات الاجتماعية والسياسية حتى يوم طرده من البلاد سنة 1925 • ان القسم الاول من مذكرات ا • ت • المدنى يلقى ــ حقيقة ــ من جديد ــ أضواء على كوكبة من التساؤلات التونسية حول نقط خاصة فى نشاطات الدستوريين والاصلاحيين وحول شخصيات العصر ويمدنا بوثائق استثنائية لم تنشر فى الماضى ، ولها ارتباط بالاصل الذى نبت منه تأسيس الدستور وبلجنة تأييد خلافة اسطنبول وبالوفود وبالخلافات بين الدستوريين والاصلاحيين وبذهاب الشيخ الثعالبى الى الشرق وبوضع الناصر باي وبحملة الدستور ضد سياسة التجنس • وفى الملاحق تقريران خاصان بنشاطات المؤلف وجههما المقيم العام لفرنسا بتونس الى وزارة الخارجية (12 ــ 12 ــ 1925 ـــ 9 ــ 6 ــ 1925) •

ومن جهة أخرى تصحح لنا المذكرات المظاهر الرئيسية من الحياة الاجتماعية والادبية والفنية فى تونس فى فترة ما بعيد الحرب الكبرى •

ولكن ليس ذلك سوى قسم من مصنف أ • ت • المدنى • والقسم الذى له صلة بما قبيل الحرب الكبرى (1905 ــ 1914) أهميته ليست اقل •

وهذا القسم من التاليف جد سخي أيضا بالمعلومات بالنسبة الى المؤرخ لانه يطلعنا على عدة مسائل اسلامية متوسطية فى هذه الفترة وعلى تاثيرها العميق على البلاد التونسية :

الحرب الايطالية التركية فى طرابلس الغرب ، النشاطات الصهيونية فى البلاد ، المؤتمر العربى الاول فى باريس ، الدستور العثمانى لسنة 1908 ، العلاقات بين الاصلاحيين الجزائريين والتونسيين ، ومسائل أخرى • ويمدنا هذا القسم ــ علاوة على ما مر ــ بشهادة حول حوادث الزلاج وحول سياسة تجنس اليهود التونسيين وحول الوضع فى الجنوب التونسى أثناء الحرب الكبرى • وحول نشاطات الاصلاحيين السياسية ، وهلم جرا •

ان القسم الاول من المذكرات هو بلا نزاع اسهام جد نفيس وفيه عبرة للمعتبر · ويسهم ـ على كل حال ـ فى اعادة النظـر فى معلوماتنا التاريخية وفى تصحيحها عـلى أقـل تقـدير ·

وذلك فيما يخص ثلاث مسائل أساسية فى تاريخ تونس المعاصرة :

أولا ملف الصلات بين القومية والنقابية فى تونس فى ما بعيد الحرب الكبرى ، (1919 ـ 1925) ان وثائق المذكرات تبين بحق وهـن وأوهام طائفـة من التفسيرات الحديثة العهد حول موقف الدستور من جامعة عموم العمال التونسيين ، وتقيم الدليل أيضا ـ وليس ذلك أقل أهمية ـ على خطر استخدام وثائق الارشيفات الرسمية بدون بحث تاريخى (تقارير قنصلية وتقارير صحفية ومذكرات بوليسية) · وعلى كل حال هي تحمل البرهان على تعقد أحداث العصر وعلى مخاطر التعميم وتبسيط التخطيط ·

ثم ملف العلاقات بين الدستور وبين حزب الاصلاح التونسى لاعوام 1921 ـ 1925 . ان نشر محاضر اجتماعات اللجنة التنفيذية الخاصة بهذه المسالة (محاضر مفصلة تم فيها تسجيل تدخلات المشاركين والقرارات والاقتراع ومحاولات توحيد المنظمتين ، الخ ··) يكون ذلك حقا مساهمة مبتكرة لـم يسبـق نشرها لها قيمة استثنائية فى الملف · وتجدد بصفة كاملة ضآلة ما نعلمه الى الآن حول حزب الاصلاح التونسى ·

وعلى كل حال يضطرنا نشر محاضر الاجتماعات الى مراجعة تقديراتنا الخاصة بالحركات الاجتماعية والسياسية فى تونس بعيد الحرب الكبرى · وهذا يؤيد من جهة أخرى توجيهاتنا فى التحقيق حول فن طرح المشاكل فيما يخص الازمات والتحولات فى العالم الاسلامى المتوسطى المعاصر ·

وأخيرا ملف شروط تكوين وتطوير الحزب الحر الدستورى التونسى (1919 ـ 1925) ·

ان أ· ت· المدنى يكشف لنا هنا عن عناصر تحقيق جد نفيسة ويدلنا ـ من بين أسباب شتى ـ على الدواعى الحقيقية التى حدت الشيخ الثعالبى الى الذهاب الـى الشرق الذى لم يعد منه الا فى سنة 1937 · مع أن حضوره فى تونس كان مستحبـا مرغوبا فيه · ان مما قد يعاب على أ· ت· المدنى هو ذكره باستمرار نشاطاته أثنـاء مذكراته · وهذا المتطلب من متطلبات فن المذكرات يبرره فى الواقع الدور الغالب الذى يقوم به المناضل المسؤول عن حركة فى طور تكوينها · وعلاوة عـلى ذلك لا يستطيع المؤرخ أن يناهض التقديرات وشهادات مناضلى العصر ـ بـل هو ـ بخلاف ذلك ـ يسعى فى المطالبة بها والبحث عنها ·

وان مطالعة بحث أ· ت· المدنى جد ممتعة فى القراءتين الاولى والثانية وهي مشوقة ومثيرة للاهتمام فى المعنى النبيل للفظ · ويعتبر هذا البحث من الآن فصاعدا مرجعا أساسيا للتاريخ الاسلامى المتوسطى المعاصر · لننتظر اذن صدور أقسام الكتـاب المعـلن عنهـا ·

وضع تعليم وعزف الموسيقى الكلاسيكية العالمية في الجزائر

د· حكيم بن عطية
مدير المعهد البلدى لتعليم الموسيقى ورئيس الجوق السيمفونى بالجزائر

يبدو موضوع هذه المحاضرة واسعا ، ولا تمكن معالجته فى هذا الاجتماع الوحيد · اذن نحدد فى عرضنا ملخص تاريخ الموسيقى (الوترية والصوتية) قبل جويلية 1962 ، والرقي المنجز ، ابتداء من هذا التاريخ ، فى عزف وتعليم الموسيقى العالمية ، وتاثير هذا التدريس من الوجهة الثقافية ، على الجماهير والجيل الجديد ·

فى جميع البلدان ، بما فيها الجزائر ، يوجد نوعان كبيران للموسيقى : الموسيقى الشعبية ، التى يرثها الابن عن أبيه وتدخل مع تاريخ كل شعب وكل بلد ·

هذه الموسيقى طبعا تختلف من ناحية لاخرى ، تبعا للشروط الاجتماعية ، الاقتصادية والاقليمية · وهكذا فغناء راع فى الهضاب العليا لا يمكن أن يتشابه مع الموسيقى الحضرية الغنية فى الجزائر · هذه الموسيقى الجهوية هى موسيقى سمعية وعلى وتيرة واحدة وتشمل أنواعا عديدة ، تختلف نهايتها وتتفاوت من حيث الصحة والواقعية : النوع البدوى ، الشاوى ، القبائلى ، الشعبى ، دون نسيان موسيقى المديح وغيرها · الى جانب هذا التنوع الكبير ، توجد فئة ثانية من الموسيقى :

(*) محاضرة القاها يوم 10 يناير 1977 م بالمركز الثقافى الاسلامى بالعاصمة ·

وسيقى المكتوبة أو الكلاسيكية أو أيضا الموسيقى العالمية • هذه الموسيقى ، عكس الاولى هي موسيقى توافقية ومتعددة الاصوات •

1 _ قبل جويلية 1962 :

أثناء العهد الاستعماري ، ميدان الموسيقى متعددة الاصوات كان خاصا بعدد قليل جدا من الجزائريين ، وبالتأكيد كان لجمهور الملاكين وهم المعمرين • وهذا لم يكن عدم مبالاة الوطنيين بالثقافة بل بسبب حالة المعيشة والبحث عن القوت لان من السهولة لمن يبحث عن عمل ، أن يفكر للغد في خبزه وخبز عائلته ، ويصعب عليه العثور على الوسائل والحاجة للثقافة •

دائما في أثناء هذه الفترة ، وللكفاح ضد الاستعمار الثقافي ، لم تستسلم الجزائر بل بالعكس ، كان نشاطها الموسيقى ، الادبي ، الفني ، والموسيقى العربية (من بدوية وفن شعبي الخ _) من الاشكال العديدة لمقاومة المحتل منذ سنة 1962 ، تغيرت الوضعية في بلادنا ، لاننا حصلنا على الاستقلال الوطني بعد تضحيات كبيرة ، وصرنا في حالة الخروج من البؤس والجهل الذين خلفهما 132 سنة من الاحتلال •

وليس أدل على ذلك من المجهودات المبذولة نحو تصنيع متقدم ، واقتصاد سليم ومشروع الاصلاح الزراعي •

حاليا ، لا ينبغي أن ننظر الى الموسيقى السامفونية فقط كفن خاص بالنخبة ، ولكن كجزء أساسي من الثقافة العالمية (كما يشهد بذلك حضور وزيرنا للتعليم الاصلي والشؤون الدينية سنة 1971 في ألمانيا للذكرى المئوية الثانية على مولد بيتهوفن

وكما أن العلوم يمكن أن تكون كعناصر محركة و منطلق نحو تنمية الصناعة والاقتصاد في البلد ورفاهيته المادية ، فالموسيقى ذات التكوين الجيد ، تتجاوب ويمكن وينبغي أن تساهم في التجديد الموسيقى ، والثقافة الوطنية والرفاهية الروحية لشعبنا ، ان موسيقى الفن الشعبي ، البدوي ، القبائلي ، العصري ، الخ •• تشكل مجموعة غنية ومنوعة ، لكنها محدودة جدا ، لانها غير موجهة الى داخل الوطن ولكن الى فئة من الجمهور • ففي الواقع لا وجود لموسيقى وطنية ، أي موسيقى تتوجه بالنوع والطابع الى جميع طبقات الشعب وكل الوطن •

واذا غضضنا الطرف عن كون كل موسيقى شعبية تدخل في اطار الموسيقى عموما ، فهذه الموسيقى ليس لها الا دور صغير ، لانها تتعلق ببلد ، وبالناحية المولودة

نيها ، دور سياسى ، جغرافى ، اجتماعى لهذا البلد ، اذن فالموسيقى الشعبية ليس لها غير دور محدود نسبيا بمقارنتها بالموسيقى العالمية ٠

بينما ، بالامكان أن يكون لها تاثير اكبر ، لو كانت الموسيقى الشعبية (التى تشمل البدوى ، الشعبى والاندلسى الخ ٠٠) ذات سند علمى ، أي لو كانت هذه الموسيقى مكتوبة حسب القواعد النظرية المعترف بها عالميا : والموسيقى الجزائرية التى كانت وما زالت ذات صوت واحد ، ينبغى أن يترقى نحو تعدد الاصوات ٠

اذن فالطريق الواجب اتباعـه لا يوجد الا فى الكتابة الموسيقية بكيفية علمية ٠ وعندما يحصل ابناؤنا هذا العلم بكفاية ، يتمكنون من تطبيقه للبناء ، بالقيام بأعمال سامفونية تكون نصوصها مأخوذة من تراثنا الموسيقى الحالى ٠

2 ـ بعد جويلية 1962 : احصائية عشر سنوات ٠ منذ الاستقلال الى عام 1973 ، احصائية الانجازات فى الميدان الموسيقى أهميتها قليلـة ٠ وهذا بالنسبة للاسبـاب التـاليـــة :

ـ عدم تخطيط علمى من حيث العمل أو التطبيق ٠

ـ لم تحل أية قضية للموسيقيين المتخرجين من المدارس ٠

اذ لا فائدة من تكوين عدد كبير من الموسيقيين ، يتحتم عليهم بعد نهاية دراستهم القيام بعمل آخر ، وممارسة حرفة أخرى ٠

ـ جميع التلاميذ الذين يدرسون أو أنهوا دراستهم الموسيقية ، يتخرجون مـن مدارس كانت موجودة قبل سنة 1962 (وفى طليعتها المعهد البلدى لعاصمة الجزائر الذى كـون أغلب موسيقيينا الحاليين) ٠

واذا كانت عاصمة الجزائر ـ نسبيا تكفـى نفسها فى الميدان الموسيقى ، واذا كانت تكسب معهدا بلديا مـع فـروع موزعة فى الجزائر الكبرى ، واذا كانت هناك مدارس موسيقية خاصة أو نصف خاصة تعلم الموسيقى لابناء العاصمة ، لكن ما هو الشان بالنسبة للمدن الاخرى ؟ فغدا وهران وقسنطينة اللتين فى كـل واحدة منهما مدرسة موسيقية مع عدد محدود مـن الاقســام والاساتذة ، تقريبا لا يوجد شىء فى بقيـة مـدن الوطـن ٠

حسب علمى ، المدارس الموسيقية التى كانت موجودة هي المستمرة فى العمل فقط ، ولم تفتتح أية مدرسة جديدة ، عدا مدرسة الموسيقى الخاصة بالمسرح الوطنى الجزائرى التى سنتحدث عنها ٠

والاهمية المستعجلة تقضى بفتح مدارس للموسيقى منتشرة فى كامل التراب الوطنى (تلمسان ، الجلفة ، قالمة ، بشار ، تامنراست ، توقرت الخ ٠٠) لضمان تعليم الجماهير الكتابة الموسيقية واكتشاف الموهوبين ٠

وفتح هذه المدارس المتخصصة يسمح أيضا بتعيين أساتذة ليعلموا الكتابة الموسيقية والعزف من بين التلاميذ الحائزين على شهادات ٠

3 ـ التجربة الطلائعية لمدرسة الموسيقى التابعة للمسرح الوطنى الجزائرى ٠

افتتحت هذه المدرسة فى نوفمبر 1965 وتواصلت الدراسة فيها بانتظام لغاية مارس 1970 ٠

كانت مدرسة طلائعية لان مبدأ التعليم فيها كان مستعملا كما فى البلدان الاشتراكية مع مضاعفة التعليم لانها كانت تشمل التدريس العام كبقية المدارس الابتدائية أو الثانوية ، ومن جهة أخرى تعليما موسيقيا موازيا (العزف ، الكتابة الموسيقية وتاريخ الموسيقى) ٠

كانت هناك أربع ساعات للتعليم العام صباحا وثلاث ساعات للتعليم الموسيقى بعد الظهر يوميا ٠ وتم تسجيل التلاميذ بعد اختيار « الاسعاف الوطنى » لهم من بين أبناء الشهداء ، أبناء العائلات الفقيرة ومتطوعين ٠ كان أغلب التلاميذ أميين وتعلموا القراءة والكتابة فى هذه المدرسة ٠

كما فى كل التجارب الطلائعية هناك مظاهر سلبية الى جانب الايجابية ٠

1) المظاهر الايجابية :

ـ مراقبة التلميذ عدة مرات فى الاسبوع من طرف أستاذ الموسيقى ٠

ـ النظام الداخلى يسمح بالتتبع فى جو رفاق ٠

ـ التعليم العام (ذو الطابع الادبى) يسمح للتلميذ بالحصول على تهذيب منوع ومتعدد الاشكال وباحراز شهادات ثانوية ، ثم جامعية بالاضافة الى الشهادات الموسيقية المحضة ٠

- مجانية الدراسة والغذاء واللباس ، واللوازم المدرسية بما فيها الادوات الموسيقية • وهذه المصاريف كلها يتعهد بها المسرح الوطني الجزائري •

2) المظاهر السلبية :

- لا دروس رياضة فالرياضة الموجهة هامة جدا لنمو الطفل جسميا وعقليا ولا سيما هو بحاجة الى سعة رئتيه كلها للنفخ في آلته الموسيقية ، وكذلك يبذل جهدا للامساك بآلة موسيقية وهو ماد ذراعه مدة طويلة • كما أن الرياضة البدنية تصحح الحالة السيئة للعمود الفقري أثناء العزف على الكمان أو البيانو الخ •

- لا توازن في الوجبة •

كمية الغذاء لطفل في وسط فترة النمو ويواصل دراستين مختلفتين مدة سبع ساعات ثم يعزف على آلته الموسيقية ويقوم بواجباته ، ينبغي أن تكون كمية غذائه مرتفعة نسبيا عن عامل بحاجة الى 3000 أو 4000 سعر حراري اذن فالمدرسة تعمل منذ خمس سنوات ، والنتائج مشجعة رغم مجابهة كل الصعوبات ، بالنسبة لتجربة طلائعية •

في مارس 1970 كان عدد التلاميذ 78 ، موزعين على ثلاثة اقسام (تحضيري وابتدائي ومتوسط) ، وتسعة اقسام للعزف على (البيانو ، الكمان ، الكمنجة ، الجهير والاجهر والناي ، اليراعة ، الزمخر ، والبوق) •

مدرسة الموسيقي للمسرح الوطني الجزائري كانت أول الامر في حي الكثبان (ببرج الكيفان) ، ومنذ سنة 1968 في حي سيدة افريقيا في مصحة قديمة للامراض العقلية • حاليا ومنذ قرار 19 جوان 1970 ، هذه المدرسة صارت تحت السلطة المباشرة لمعهد التمثيل ببرج الكيفان •

4 - الجوق السامفوني لعاصمة الجزائر :

هذا الجوق أسسته في نوفمبر 1965 • حينئذ جابهتنا صعوبات مختلفة : نقص في الآلات الموسيقية والعازفين والعتاد والميزانية الخ • وتوصلنا الى التغلب عليها وللاعتياد • ولاول حفلة أمام الجمهور في المسرح الوطني الجزائري في سنة 1965 جوقنا كان جزائريا بنسبة 25 ٪ كان تقييم لا بأس به بعد الاستقلال بثلاث سنوات • ففي نوفمبر 1969 صارت نسبة الجزائريين 50 ٪ • بطبيعة الحال ، كان بالامكان ، لكن بالديماغوجية ، الحصول على نسبة أكبر من الجزائريين ، لكن حينئذ مستوى الجوق ينخفض •

في جانفي 1970 ، تقدم جزائري في العزف المنفرد يرافقه جوقنا · وفي ديسمبر 1970 ، الجوق كان جزائريا بنسبة 70 ٪ ، أفراده لديهم شهادات من مدرسة موسيقية (المعهد البلدي والمسرح الوطني) ·

منذ 1970 ، استقبلنا رؤساء أجـواق وعازفين منفردين أجانب مشهورين · أي أننا على الطريق الحسن وينبـغي أن نعمل أكثـر حـتى يثق أبناؤنا وموسيقيو المستقبل فينا · طبعا ، جوقنا ما زال غير تام ، ولكن دون مبالغة ، وصلنا الآن مستوى كثـير من الاجواق السامفونية الاوروبية ·

5 ـ المعهـد البـلدي لعـاصمة الجـزائر :

1) أهمية التخطيط في التعليم الموسيقي :

تطور المعهد البلدي لعاصمة الجزائر كمؤسسة تعليم مختصة وثقافية قبل وبعد استقلال الجزائر ، سمح لنا لضبط تقييمه بمراعاة أهمية التخطيط في هذا الميدان من غير تجاهل الاخطاء الموروثة من الادارة الاستعمارية ·

منذ القيام باصلاح عميق لهيكل التعليم والتدريس ، أي منذ أربـع سنوات كان برنامجنا محددا بـوضـع برنامج للمدى القصير والمتوسط والبعيد ، كما تعين القانون الداخلي للمعهد · في سنة 74 ـ 1973 ، مع تبني نظام داخلي جديد ، أردنا وضـــع التعليم الموسيقي في اطار جدي ، منظم ، مخطط وجيد يتجاوب مع مبادئنا الوطنية ·

ـ فيما يتعلق بتعليم فن التمثيل والغناء ، عملنـا بضرورة التعريب الحتمية · ومنذ سنة 1974 تم تعريب قسم الغناء والتقنية الصوتية ، وكانت الخطوة الاولى نحو تكوين المجموعة الصوتية والمتعددة الاصوات ، والتمثيلية الغنائية والشعرية باللغـة الـــوطنيـــة ·

ـ في سنة 1974 ، علمت الكتابة الموسيقية ، وهي المادة الاساسية ، لكل التلاميذ دون أي تمييز ، لم يعد هناك تلاميذ من الفئة الاولى وآخرون من الثانية · ولم يعـد هناك تفاضل بين تلاميذ الفن الشعبي ، والعربي الاندلسي والموسيقى العالمية ·

في سبتمبر 1975 ، عربت الاقسام التحضيرية للكتابة الموسيقية ، وعولجت أداة عمل للنظرية الموسيقية ـ باللغة الوطنية ، بعد عمل مدة سنتين من طرفنا ووضعـت تحت تصرف التلاميذ والاساتذة ·

آخر كل سنة دراسية ، نقوم بالاحصاء الايجابي والسلبي ، ونسعى بعمل جماعي ، لتصحيح الاخطاء المرتكبة ٠

2) التعليم الموسيقى فى متناول الجماهير الشعبية :

بالتأكيد ، أحد أهداف المجلس الشعبي البلدى ـ طبقا لاجراءات القانون البلدى ـ هو وضع الثقافة فى متناول الجماهير الشعبية ٠

ـ أولا بمجانية الدروس : فالتلاميذ المسجلون فى المعهد يدفعون رسما سنويا رمزيا مقداره عشرة دنانير جزائرية ، ثم بتوزيع المدارس البلدية والتغطية الكاملة للعاصمة على مستوى الدوائر ٠

أخيرا وخاصة تعريب الدروس فى المواد الاساسية باعتبار هذه العوامل الثلاثة ، صار عدد التلاميذ فى زيادة مستمرة ٠

اذن ما مصير نوعية التعليم ؟ لا يكون التعليم جيدا الا اذا قام به أساتذة أكفاء ويحسنون التدريس :

وهذا ما جعلنا منذ أربع سنين لا نجدد التعاقد لبعض الاساتذة الاجانب الذين لا الكفاءة ولا طريقة التدريس لكل واحد منهم يمكن أن تناسب التربية الثقافية لابنائنا ولا المبادىء الاساسية لبلادنا ٠

أساتذة جدد (الجزائريين فنسبتهم 70 ٪ لعموم الاساتذة فى أكتوبر 76) وآخرون من بلدان صديقة تم تعيينهم بجدارة لتعويض المفصولين٠

طيلة السنة الدراسية 76 ـ 1975 ، فيما يتعلق بالتلاميذ ، قل عدد المنقطعين والمستقيلين عن السنوات السابقة ، بفضل رقابة دائمة ، وعمل بحزم زائد وعقوبات متخذة وذلك بعلم العائلات وخصوصا بفضل تحسن وعي أولياء التلاميذ ٠

الموسيقى علم يتطلب تضحيات ومجهودات من طرف التلاميذ وأيضا من الوالدين لان الموسيقى كما يظن البعض ، ليست فنا للتسلية ولا لتمضية الوقت ٠ الموسيقى لا تشترى ولا تباع بل تربى ٠

اذن فعملية الشرح للوالدين هي أيضا مهمة كما أن عمل التلميذ فى التطور النوعى مع الاحتفاظ بنفس العدد للاساتذة ونفس الحجرات الدراسية لعدد متزايد ومعتبر للتلاميذ ٠ تبقى لنا مشكلة ونكون وجها لوجه أمام حلين :

ـ اما تسجيل عدد محدود من التلاميذ يتناسب مع مستوى الكم مع مراعاة عدد المعلمين والاقسام ٠

ـ أو تسجيل كل المتقدمين ، ليكون التعليم الموسيقى حقيقة شعبيا ، وبعد ذلك اختيار النخبة من بين أكبر عدد ٠

وقد احتفظنا بهذا الحل الاخير ، مع الاختيار فى ثلاث فترات :

ـ الاختيار الاول فى الدورة الابتدائية ٠

ـ الاختيار الثانى فى الدورة التحضيرية ٠

ـ الاختيار الثالث فى الدورة العليا ، مع امكانية اختيار عدم الفائزين لتعلم العزف على آلة أخرى أو انتقالهم الى قسم آخر يتناسب مع أعمارهم ويكون الازدحام فيه قليلا ٠

3) اللامركزية فى التعليم الموسيقى هي قاعدة اللامركزية فى الثقافة :

ـ حتى سنة 1973 كانت لثلاث دوائر مدارس بلدية موسيقية : القبة ، ساحة أول ماي والحراش ٠

فى سبتمبر 1973 ، المجلس الشعبى البلدى لعاصمة الجزائر دشن ثلاث مدارس أخرى : الابيار ، ساحة الامير عبد القادر ، وبئر مندرايس ٠

فى جانفى 1975 ، دشنت مدرسة بلدية موسيقية فى بولوغين ، والثامنة والاخيرة ، فى سبتمبر 1975 بحي البدر ٠

المدارس البلدية الموسيقية تقوم بتعليم الموسيقى والرقص للمبتدئين وتحضر فى نهاية الدورة الابتدائية (3 الى 4 سنوات) لدخول المعهد البلدى (الدورة التحضيرية) فى الاقسام الاساسية الآتية : الكتابة الموسيقية ، الموسيقى العربية الاندلسية ، البيانو ، الكمان والرقص ٠ كل قسم من هذه الاقسام يناسبه عمر محدود يسمح بتوزيع التلاميذ الجدد ٠

هذه المدارس البلدية للموسيقى تستقبل جمهورا من الاطفال هم فى المدارس ، ولهذا يتلقون دروسهم بعد دراسة التعليم العام أي فى نهاية الامسية ٠ بطبيعة الحال ، كل الدوائر ، حاليا ، غير مزودة بمدارس بلدية للموسيقى ٠ والمجلس الشعبى البلدى لعاصمة الجزائر الذى لم تغب عنه هذه النقطة ، سيتمكن فى مستقبل قريب من ارضاء الدوائر المعنية كي يتمتع جميع المواطنين بتعليم موسيقى وديموقراطى ٠

الجمهور، بالتسجيل الجماعي لاطفاله في المدارس البلدية للموسيقى،يبرهن لنا بأن همه الكبير والدائم بعد دخول الاطفال للمدارس ، هو التكوين والرقي لشباب ممتاز بثقافة ممتازة ·

نستطيع أن نتحدث هنا عن شكل من اللامركزية الثقافية لان كل مدرسة بلدية للموسيقى تكون نواة ، حولها تجتمع عناصر مختلفة من : تلاميذ ، والدين جيران ، اصدقاء : وهذا يكون محيطا ثقافيا ذا قيمة ، يكون بقعة زيت تمتد تدريجيا الى المدارس البلدية الموسيقية المجاورة ، وتكون شبكة ثقافية تم نسجها على المدينة كلها ·

فاذا لم يكن المحيط مثقفا ومهيأ ، كل تظاهرة فنية لا يكون لها غير مستمعين ، عددهم محدود بالزمن والحجم · واذا لم يكن ثمة تخطيط معقول في البرمجة ، في تهذيب وتكوين جمهور ، فكل بادرة خاصة او عامة ، كيفما كانت الوسائل المتخذة ، لا تلاقي أي صدى ·

4) دور تعليم الموسيقى العالمية في اثراء التراث الموسيقي الوطني :

الموسيقى العربية الاندلسية ، موسيقى الفن الشعبي تدرس في المعهد البلدي بكيفية سمعية · بينما تلاميذ هذه الاقسام يجب أن يتعلموا الكتابة الموسيقية اجباريا · هذا التعليم للقراءة والكتابة الموسيقية الى الجمهور يسمح لهؤلاء الباحثين في المستقبل والملحنين بتثبيت الاغاني الفولكلورية ، نصوص الموسيقى العربية الاندلسية أو الجزائرية خاصة ،. وبعد ذلك يعملون لتطور أكبر ويعطون نبضة أشد لموسيقانا الوطنية · هكذا يمكن انشاء مؤلفات جديدة ابتداء من نصوص جزائرية محضة · موسيقانا يمكن حينئذ تصديرها وتعرف كثير من البلدان على المظاهر المنوعة لموسيقانا وثقافتنا ·

5) دور التنشيط في التعليم الموسيقي (أي العزف الموسيقي الحي وجعله في متناول شبان مبتدئين) ·

هناك دور ينبغي عدم اهماله هو التنشيط : فتعليم موسيقي نظري ، من غير أعمال تطبيقية ، هو بالتأكيد ناقص ، ونحن عازمون ابتداء من هذه السنة ، وفي كل مدرسة بلدية على القيام بجلسات تنشيط دورية (أي حفلة متبوعة بمداولة) فيها يعزف تلاميذ لتلاميذ ، وتطرح أسئلة ، وتقدم للاطفال آلات موسيقية لا يعرفونها ، وباختصار ، هذا يسمح للشبان بالدخول تماما في عالم موسيقى حقيقي ·

آخر حفلــة تنشيط كـانت فى 16 ديسمبر 1976 بعد الظهـر فى المســرح الوطنى الجزائرى ، مئات من الاطفال ، تلامذة مدارس ، بعضهم مصحوب بوالديه ، ابتــداء من الساعة الثانية بعد الزوال اكتسحوا قاعة المسرح لحضور حفلة التنشيط المقدمة من طرف الجوق السامفونى لعاصمة الجزائر بالاشتراك مع المعهد البلدى لعاصمة الجـــزائـــر ٠

تقــررت حفلتــان بعد الظهـــر :

الاولى الساعة 14،30 لتلاميذ المدارس الذين يبلغون أقل من 12 عاما ٠

الحفلة الثانية الساعة 17 للتلاميذ الذين تتجاوز أعمارهم أكثر من 12 عاما ٠

حفلــة التنشيط هذه ، التى سبقتها حفــلات تنشيط لموسيقى الغرفة قدمــت فى المدارس البلدية للموسيقى فى الدوائر ، كانت الاولى مــن نوعها خاصة بموسيقى الجــوق السامفونى ٠ وقــدم المنشط للجمهور الفتــي أدوات الاوركسترا المختلفــة وسمعوا الطابع الخاص لكــل واحدة منها ٠

وعزف الجوق قطعة وعرف نفسه للحاضرين ٠ وبعد ملاحظات عامة ، تتعلــق بالنظام ، الانتباه الصمت ، التى من الواجب أن يسود قاعة حفلة موسيقية ،تحدث المنشط باختصار عــن ترجمة وتأليف اثنين مــن الملحنين كانا مدرجين فى البرنامج (افتتاحية مغارة فانقال ، تأليف فيليكس مينديلصون ، والسامفونية البطولية رقم 3 لبيتوفن) ، وخاصة وضعهم التاريخى السياسى العالمى ٠ وهكذا تحدث المنشــط عن الامير عبد القادر الذى ولد قبل مينديلصون بعامين والذى كان منفيا من الجــزائر سنة 1847 أي العام الذى توفي فيه الملحن الالمانى ٠

أما بيتوفن لم يكن فقط معاصرا لبونابارت ، لكن لرسامين مشهورين (دافيــد ، برودون آنغــر ، غروس) ، وكتاب وشعراء عــرب (عبد الرحمن الجبرتى ، ناصف اليازجى ، رفاعة الطهطاوى ، وعبد القادر الجزائرى) أو كتاب أوروبيين مثــل غوته أوشيلـــير ٠

هكذا بفضل تقنية التنشيط خاصة الموجه لجمهور مدرسى ، كان من الواجــب وينبغى أن توضع الموسيقى فى اطار جديد يرجع لها بصفة طبيعية ، أي ليست فقط وسيلة تكوين وتربية ثقافية لشبيبتنا ، بل أيضا أداة تفكير فى القضايا الاجتماعية ، الثقافية والتــاريخية لــوقتنــا ٠

تأسفنا لكون ، اثناء حفلة التنشيط ، الاذاعة والتلفزة الجزائرية لم تتمكن من نقل الحفلة ، للاطفال الساكنين بعيدا عن المدن الكبيرة ، والذين لم يتمكنوا بعد من الاستفادة ومن تعليم وتربية موسيقية ·

6) التعليم الموسيقى فى رقي الانسان الجزائرى :

دور المعهد البلدى غير محدود فقط فى تكوين موسيقيين محترفين · فالتعليم الموسيقى فى المعهد البلدى يساهم أيضا فى تقديم ثقافة موسيقية ، فنية ، الى تلاميذ يصيرون من بعد والدي تلاميذ ، يستطيعون أن يتتبعوا ويراقبوا أطفالهم ، يكونون جمهورا عالما منتقدا ، يقدر أن يقيم المستوى الثقافى للحفلات التى يقدمها فنانونا والفنانون الاجانب الذين يزورننا ·

هذا التعليم الموسيقى يسمح أيضا بالحصول على موسيقيين هواة ، يقدرون من خلال كامل التراب الوطنى ، أن يكونوا أجواقا لموسيقى الغرفة ومجموعات صوتية الخ · سواء داخل جمعيات ثقافية أو داخل فروع نشاطهم المهنى الخاص (الجامعة ، المصنع ، لجنة التسيير ، القرية الاشتراكية ···) ·

وخاصة ، المعهد البلدى له دور ترقية الانسان الجزائرى بالتعليم ونشر ثقافة متعددة الاشكال (رقص ، مسرح ، غناء ، موسيقى) ممتازة ، ثقافة متممة حتما لتربية أطفالنا ·

6 ـ آفـــاق :

1) الجمهور : الآفاق المتعلقة بالجمهور هي سيئة فى حالتها الحاضرة ، لان تظاهراتنا الفنية لا يتبعها الا عدد قليل من الجزائريين ، بينما الحفلات الفنية الاجنبية ، قاعاتها تغص بجماهير مواطنينا حتى ولو كان مستوى هذه الحفلات فيه أخذ ورد ·

لنستنتج بأن هؤلاء المشاهدين الذين يحضرون حفلة مستوردة ويمتنعون عن مشاهدة نفس الحفلة اذا كانت مقدمة من تشكيلة جزائرية فهؤلاء المشاهدون معقدون ثقافيا · فأول الامر لا زالة هذا المركب ينبغى تكريس جهودنا حتى يهتم جمهورنا بثقافته ·

2) الصحافة : أما الصحافيون ، فنرغب فى أن نسهل لهم القيام بعملهم : نحن على علم ـ ما عدا النقد الموسيقى ـ بأنهم جزائريون يضمنون تغطية حفلاتنا الموسيقية بحماس كبير ونحن تحت تصرفهم نساعدهم فى مهمتهم ، نساعدهم فى تعريف الفرق

بين طبل ومزهر ، وبين ناي ومزمار ··· نشرح لهم عدم الكفاية أو الوضعية الفلانية فى الجوق · نعلم بانه من الصعب ، على صحافى ، بسبب الوقت أن يدرس الكتابة الموسيقية ، العزف ، العمل الذى يشاهده ويسمعه يعزف من طرف الجوق حتى يقدر أن يقدم نقدا ذا أساس ·

لكن رغم هذه الصعوبات ، فالصحافى يجب عليه أن يعلم ويكون جمهوره ، بوثيقة مختارة وبيبانات واضحة دون تحيز ·

3) الموسيقيون : هذه الآفاق هي ، حسبنا ، متفائلة جدا فيما يتعلق بالموسيقيين ، فالجزائريون محظوظون لان سمعهم غير مشوه :

ان آذاننا وعقولنا الباطنية ما زالت بكرا لم تؤثر فيها أية موسيقى صناعية ، الكترونية ، غير بشرية ·

وينبغى فى نفس الوقت تعميم القراءة والكتابة الموسيقية ، والسعي للحصول على اذن عمودية اي تعلم الانصات للموسيقى المتعددة الاصوات لا كضجة غير مفهومة بل كطائفة من الاصوات ، الاحساس بالتوافق ، كما نشم باقة ازهار · فالكتابة الموسيقية هي اذن ، عربة الجملة الموسيقية ، وذاكرة الموسيقى ·

4) التلامذة ـ جمهور المستقبل :

لاحظنا بعد عشر سنين من الحفلات العامة بأن الجمهور كان يتنوع غالبا جدا ، ولم يعد ابدا جمهور صدفة بل جمهورا منتظم أو مأخوذا · اذن فتجربة عزف موسيقى الحفلات أمام جمهور من هذا النوع تبين بأنها كانت سلبية ·

وابتداء من هذا العام ، شرعنا فى تقديم دورة من حفلات ـ مداولات ، حفلات ـ تنشيط خاصة لتلاميذ المدارس والطلبة ، وأغلبهم تلامذة المعهد البلدى · وهذا من أجل تحضير تكوين وتربية جمهور فتي ابتداء من تلاميذنا الى والديهم ، حتى تعلق جذور حفلاتنا وأعمالنا وتنمو على أرض خصبة مستقبلة ·

5) هل الموسيقى العالمية يتقبلها الشعب ؟

اذا حكمنا بناء على العدد الاجمالى للمسجلين فى المعهد البلدى بالجزائر العاصمة وحده ، واذا حكمنا بناء على النجاح الذى قوبل به مسلسل شتراوس المقدم على شاشة التلفزة ، نستطيع أن نقول بأن الشعب يذوق الموسيقى العالمية ·

ألم تقدم حفلات سامفونية فى تيزى وزو وبجاية ، أثناء انعقاد مؤتمر الفكر الاسلامى (فى سنتي 1973 و 1974) · حفلات لاقت اهتماما كبيرا من مستمعى المؤتمرين ، المعروفين بدفاعهم عن قيمنا العربية الاسلامية ؟ لكن اذا كانت المنظمات العمومية لا تساهم فى تكوين مناخ ثقافى ممتاز ، واذا كانت الدولة لا تشجع الموسيقيين الجزائريين ، فما هي الغاية من التعليم الموسيقى ، وما مصير فنانينا الشبان ؟ ومن سيعزف القطع السامفونية التى لحنها المرحوم ايقربوشن وملحنوها فى المستقبل ؟

7 ـ أمانينا :

1) فى الفترة الاولى ، من الضرورى مضاعفة المدارس البلدية للموسيقى فى المدن ونشر هذه المدارس حتى الى أبعد البلديات ·

نأمل فى الفترة التالية ، نشأة النشاطات الثقافية فى مستوى كل بلدية ، وكل ناحية من بلادنا من أجل تنمية ثقافية مندمجة ومنسجمة · وبالتأكيد بعد تكوين الاطار البشرى اللائق الذى ينبغى أن يسبق تجهيز هياكل الاستقبال ·

اذ ان العمل الثقافى على المستوى الوطنى ينبغى اعتباره سباقا أصيلا يتطلب من المتسابق توزيع مجهوداته بعدل ، وطاقته وذكاءه فى الزمن والفضاء ، ولا ينبغى الضغط على السير فى البداية حتى يلهث فيما بعد ويتخلى عن السباق فى النهاية ·

على كل حال ، تنظيم نشاطات ، مهرجانات ، أسابيع ثقافية يبقى بين أخذ ورد ، اذا لم تشد الى محاور ثابتة من تكوين وتربية ثقافية للجماهير · لاننا اذا تأخرنا عن تكوين مناخ ثقافى دائم وقار ، فان المراكز الثقافية الاجنبية تغرى بعض شبابنا بانشاء مناخ مصغر يختلف كونه صناعيا بين القلة والكثرة ·

2) الموسيقى ينبغى أن تدرس كمادة رئيسية منذ المدرسة الابتدائية · وهذا التعليم هو الوسيلة الاولى للوصول الى كل الاطفال سواء أكانوا من المدينة أم من الريف عن الشمال أو من الجنوب ، ولاختيار نخبة ممتازة بعد تعليم الجميع القراءة والكتابة الموسيقية ·

3) تكوين منشطين : التنشيط هو عمل تكميلى للتعليم النظرى ، هو تعليم حي ، عملى ، بصرى وسمعى ودوره الاساسى تجاوز النظرية الوحيدة لوضع التلميذ فى عالم ليس فقط فى الموسيقى بل أيضا فى الرسم ، الالوان ، الشعر ، وبكلمة فى عالم ثقافى مفتوح ومخصب ·

4) دور الاذاعــة والتلفزة الجزائرية فى بـث الموسيقى العالمية : هذه الموسيقى العالمية المذاعة للجمهور ، ينبغى أن يعزفها ويقدمها تلاميذ أو موسيقيون جزائريون تكون لهم الاولوية اذا كان لذلك هدف تربوى · وينبغى أن يعرف بموسيقييه ·

ـ دور ا· ت· ج· ، فى ارســال مباشر لحفلات ـ مداولات ، حفـلات تنشيـط بالمعاهد البلدية للموسيقى ، فى مدارس الموسيقى أو فى المسرح الوطنى : هذا دور هام جدا سواء فى الميدان التربوى أو الثقافى لانه يسمح بالاتصال فى أوقات مختارة ـ بجماهير المدارس ، بالعائلات وهكذا يسمح بتربيتهم تـربية موسيقية وبتكوينهم كجمهـــور ·

5) تكوين جوق سامفونى وطنى ممتاز : جوق سامفونى وطنى يجمع فى أغلبيته موسيقيين جزائريين مختارين عن طريق الاختبار ، ويسمح بعزف الموسيقى السامفونية للجزائريين (فى المسرح ، السينما ، الاذاعة ، التلفزة) ، وبمرافقة أصحاب العزف المنفرد من الزوار الاجانب ، أو فرق الرقص ، وبكلمة واحدة الدفاع عن الامتيـــاز الموسيقى الجزائرى داخل الوطن وخارجه ·

الخـــلاصـــة

فى نهاية هذه الدراسة المختصرة للتعليم الموسيقى وعزف الموسيقى العالمية فى الجزائر ، نستطيع أن نقول بانه انطلاقا من تعليم القراءة والكتابة الموسيقية وثقـافة للجمهور يمكننا أن نكون مرجعا ، ننسخ أو نثبت الاغـانى الشعبية لمختلف نـواحى بلادنا ، والتى منها يولد جنين موسيقانا الوطنية الاصيلة ·

لان موسيقانا الوطنية ينبغى أن تكون وحـدة جامعة لكـل موسيقانا الجهوية ، ورمز بلادنا ، التى تنتمى فى آن واحد الى العـالم العربى وهي جـزء مـن افريقيا والعـالم الثـالث ·

موسيقانا الوطنية ، بهذا الشرط تكون حينئذ موسيقى وطنيـة أصيلة · وهكذا يكون لها اشعاع ومستمعون فى العالم وتذوب حينئذ بطبيعة الحال فى الموسيقى العالمية.

منشـــورات

وزارة التعليـم الاصـلى والشؤون الدينيـــة

صــدر أخـــيرا :



قصـــة

ان بعـــض الظـــن اثـــم

محمد نسيـب
نائـب مدير فى المـركز الثقافى الاسلامى



كان خالد وزوجته خديجة يعيشان فى القرية عيشة يسودها الهدوء والرضى والتوافق مضى أكثر من عشرين عاما على زواجهما وهما يبنيان فى عشهما فكل منهما يبذل أقصى جهد طاقته لتوفير الرفاهية والسعادة للبيـت .

فكان خـالد يعـلم صبيان القرية يحفظهم القرآن الكريم وبعض مبادىء العربية وخديجة تنسج الصوف وتبيـع البرانيس .

جاءت ثورة نوفمبر 1954 فكان خالد أول من لبى نداء الثورة واستجاب لصـوت الوطن وانتظم فى صفوف الفدائيين فتراه فى النهار معلما ، وفى الليل مجاهدا ، وبقى فى هذا العمل حتى سنة 1958 عندما حاول جيش الاحتلال ان يلقى عليه القبض ، وفر من القرية والتجأ الى مدينة البليدة تحت اسم مستعار فوظف فى أحد المساجد كمؤذن وكان المرتب الذى يتقاضاه لا يتجاوز مائة دينار وهو راض عن نفسه وقانع بهذا المرتب الهزيل حيث يرى معظم أبناء وطنه لا يحصلون حتى على نصف هذا المرتب ، فكانت خديجة تشعر بالراحة والاطمئنان والرضى يغمر قلبها عندما يعود خالد فى المسـاء الى البيت سالما أمينا ، لا يؤلمها الجوع ولا الحرمان ولم تكن تفكر فى شىء سوى ان

تنتهي الحرب وتنتصر الجزائر ويرحل عنها جيش الاحتلال الذى يسوم أهلها الخسف والعذاب ، فيعود السلام الى البلاد وينجلى الظلام عن أفق الغائمة ، وتطمئن النفوس الخائفة ، وتستقر الارواح المضطربة ، وتعود خديجة مع أطفالها الى القرية الى ذلك الكوخ الحقير وتأكل الحشيش ، ولكنها فى عزة وشرف ، هذه أمنية التى كان يحــلم بها الجزائريون فى ذلك الوقت أثناء حرب التحرير ٠

انتهت الثورة واستقلت الجزائر وعادت اللغة العربية الى الوجود لاول مرة فى تاريخ الجزائر تدخل العربية الى المدارس الرسمية منذ الاحتلال الفرنسى للجزائر 1830 الى سنة 1962 ٠

ودخل خالد الى التعليم وعين فى احــدى المدارس الابتدائية فى مدينة البليدة ، وراح يعمل بكل عزم ونشاط ، بقى ما يزيد على خمسة أشهر لم يتقاض مرتبه الشهرى نظرا للمشاكل الادارية العويصة ، وراح خالد يقرض عند الاصدقاء ويتعامل مــع التجار ٠ الخباز ، والقصاب ، والخضار ، واللبان ، والبدال ، والحلاق ٠٠٠ ولــه دفتر الديون عند كل تاجر فى المدينة حتى صار معروفا لدى جميع التجار ، وكلما طلبوه بتسديد ديونه قال لهم : (آخر الشهر) ولكن كلما جاء آخر الشهر خاب أمله وخاب أمل التجار والاصدقاء أيضا ، فصار يتوارى عن عيونهم ويتهرب أمامهم حتى لا يتصادم ويتعرض للشتم والعتاب ربما للضرب ٠

وذات يوم دخل الى القسم وجلس خلف المكتب وأمــر تلاميذه ان يربعوا أيديهم ويلتزموا الصمت حتى يغيب لحظة عن دنيا الهموم والاحزان ويعيش بعض الثوانى فى عالم الخيال والاحلام ٠٠٠ لقد ساد الهدو وخيم السكون ووضع رأسه بين كفيه وراح يفكر كيف يقابل أطفاله الصغار عندما يعود الى المنزل فى منتصف النهــار ولم يحمل لهم الخبز كالعادة ، لانه لم يكسب ولو دينارا واحدا حتى يطمئــن قلبــه ، واستسلم لهواجسه ، لقد نسى أنه فى حجرة الدرس ، وتصور أطفاله قد تعلقوا به وهم يبكون ويصيحون الخبز ٠٠ الخبز ٠٠ فاذا بساعى البريد يطرق باب القسم ، طرقات عنيفة متوالية ، ففزع خالد وقفز عن الكرسى وهو يصيح الخبز الخبز ٠٠ وساعى البريد يواصل طرقاته ، وتذكر ان المفتش وعده بأن يزوره وهرع الى السبورة وأخذ الطبشور ليكتب بعض الجمل لكنه اضطرب وارتعشت فرائصه لا يدرى ماذا يكتب وراح يبحث عن المذكرة التى أعد فيها الدرس فلم يجدها وفتح درج المكتب يبحث بين الكراريس والاوراق ، فاذا بساعى البريد يفتح الباب ويدخل الى القسم ، فالتلاميذ يصيحون

جميعا « سيدى فكتور فكتور » ونظر خالد الى ساعى البريد وعادت اليه الآمال وهدأت أعصابه وسكن روعه ·· ومديده وصافحه وقال له ساعى البريد : أنت فلان أجابه خالد نعم انا بالذات ، ثم سلم له الحوالة فيها 8000 دينار وهزته الفرحة هزا وراح ينظر اليها نظرة الجائع الملهوف وأحس بالامل يتفتح فى قلبه ويضيء جوانب النفس المظلمة ويطرد غيوم اليأس القاتم ··· ولكن سرعان ما عاوده الشك فلم يكد يصدق هذه الارقام كأنها أرقام خيالية ليست حقيقية ، فأخرج منديلا من جيبه ومسح عينيه فوجد الارقام ثابتة ليس فيها تناقض ، فراح ينتقل فى القسم من زاوية الى أخرى ثم كتب الارقام على السبورة وقال للتلاميذ : من منكم يستطيع قراءة هذه الارقام ؟ وقالوا جميعا ثمانية ألف دينار ، واستبشر خالد وتهلل وجهه وقال لهم : بورك فيكم حقا أنكم تعرفون الحساب لا أخاف عليكم ·

ولم يعد خالد يفكر فى كتابة الدرس على السبورة ، أو تلقين تلاميذه ، بل كان يفكر فى الخروج من المدرسة وينتظر الساعة ويدق الجرس ويذهب الى البريد ليتسلم ذلك المبلغ · دق الجرس وأسرع الى الباب وراح يهرول حتى لا يفوته الوقت فيقول له موظف البريد عد فى المساء ·

ذهب تاركا تلاميذه فى الساحة ولم ينظمهم كالعادة ولم يقل لهم العبارة التالية : اصطفوا اثنين اثنين ، ثم يرافقهم حتى مدخل المدرسة ، فيعود الى القسم ويغلق الحجرة ويضع المفتاح فى مكتب المدير ، ثم يحييه وينصرف ·

ووصل خالد الى البريد ومن حسن حظه لم يغلق الشباك وتسلم ذلك المبلغ الذى كان يشك فى صحته ·

ولاول مرة فى حياة خالد يحصل على هذا المبلغ الهائل بالنسبة اليه ·

ها هو يسير فى الطريق بخطوات وئيدة والطريق يمتد أمامه والافاق تتسع ، ويتحدث مع نفسه ويعللها بالامانى والاحلام ويسلط أضواء الحاضر على الماضى المظلم ·· ويطرد أشباح الشؤم عن قلبه ·

وصمم أن يبدأ بتسديد تلك الديون المتراكمة على عاتقه حتى لا يتهرب من الاصدقاء ولا يتوارى عن نظر التجار بل يمشى فى شوارع المدينة مرفوع الرأس ، لا يخشى من أحد أن يطالبه بدفع الديون ·

ثم يغير حياته وحياة الاسرة فى الاكل واللباس وفى النظام حتى يحيا حياة عصرية ·

وبدأت حياة خالد تتغير يوما بعد يوم لقد نزع البرنوس والعمامة وصار يعتني بهندامه أشد العناية ، وتغيرت حالة الاسرة فى المعيشة لقد عرفوا أنواع الطعام والوان الفواكه وصاروا يشبعون ، وأحس خالد وأطفاله بالسعادة والهناء يغمران حياتهم وأحسوا بدفء الحرية يسرى فى أجسامهم كتيار الكهرباء وشكروا الله وحمدوه على هذه النعمة .

أما خديجة فبالعكس لقد ترك هذا التغير فى نفسها صدى عميقا أحست بخطر يدنو منها ويهدد شخصيتها ، ولا سيما عندما رأت خالدا قد وضع الدراهم فى البنك ، وهي فى هم وقلق .. لا تكاد تستقر على حال ... وكثيرا ما تمضى أياما وأسابيع دون أن تكلم زوجها ، وأحيانا تقضى أياما وهي تغلى كالمرجل فلا تسكت ولو لحظة وهي تدور كالرحى فى الفراغ .

تحول ذلك العيش الهادىء الساكن الى ميدان الصراع والخصام ، وخيم على جوه الحزن والظلام وتمثلت فيه الكآبة الخرساء .. أما النعيم الذى كان يحلم به خالد وأطفاله فقد انقلب الى جحيم لا يطاق .

ها هو خالد يعود فى المساء من العمل مرهق الجسم متوتر الاعصاب ينشد الراحة والهدوء وتستقبله خديجة بوجه كليح متجهم ولسان سليط كسياط وألفاظ كالصواعق تنزل على رأسه ، وتطرح عليه أسئلة متعددة ومختلفة .

أين ذهبت اليوم ؟

أين سهرت ؟

لماذا تأخرت حتى هذه الساعة ؟

أين الدراهم ؟

ويجيبها خالد بهدوء رغم ذلك الغليان الداخلى لقد عرف ان الغضب لا يحل المشاكل بل يعقدها ويؤدى الى الفشل والاندحار ... وقال لها .

أرحمى نفسك يا خديجة يرحمك الله دعى عنك هذه الوساوس الشيطانية وهذا الشك القاتل ... فالشيطان يلعب بقلبك ويعبث ويقودك الى الهلاك والخسران ، فاذا مرغك فى الاوحال أوغرقك فى بحر الهموم والاحزان وقف عند رأسك قال لك : انى بـرىء منك .

اتقى الله يا خديجة وثقى فى زوجك الطاهر العفيف ··· الذى يسعى ويكدح من أجل راحتك ورفاهيتك وسعادة أطفالنا ·

طهرى قلبك وطمنى نفسك حتى لا تقعى فى هذه الوهدة العميقة ··· **التى أعدها لك ابليس اللعـين ···**

تجنبى الشك وسمه القاتل ، الذى بدأ يسرى فى جسمك الواهى سريان السرطان الخبيث ، ابتعدى عن سوء الظـن ، الذى نهانا اللـه عنه وأمـر المؤمنين أن يتجنبوه ويبتعدوا عن شروره وآثـامه ···

انـه مرض نفسانى ووبـاء اجتماعى ·

« **يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم** » ·

أليس ابليس هـو الذى وسوس لآدم وحـواء وجعلهما يشكان فى الشجرة التى نهاهما الله عنها وراح يحرضهما حتى أوقعهما فى الشك ، والشك جرهما الى الاثم والمعصية ، وعندما اقترفا الاثم عاقبهما الله بالطرد من الجنة وجردهما من ثيابهما ··

اذن الظن خنجر مسموم ··· كـم سفك مـن دمـاء طاهرة وأزهق مـن أرواح بريئـة ··· ؟

وكم خرب من بيوت عامرة ··· وحولها الى خربة موحشة ؟

وكم مزق من أسر ، وقطع أوصالها وفكك اجزاءها ورمى بها فى الجحيم ؟

وكم يتم من أطفال وألقى بهم الى الشوارع وشردهم فى الفيافى ، وقـادهم الى الفساد والاجـرام ·

وكثيرا ما حول حب الزوجين الى بغض وكراهية وأوقد نـار الحقد والعداوة ، لا لشيء يستدعى العداوة سوى ذلك الظن الاثيم ··· الذى بدل سعادتهما بـؤسا وشقاءا ، واستقرارهما قلقا واضطرابا ··· وتفاؤلهما شؤما ويأسا ··· وبناءهما هدمـا وتخـريبا ···

اننا نشاهد له الضحايا فى كل يوم ، ونراها فى كل مكان وفى كل أسرة ·

لقد اطلقت العنان يا خديجة لهذا الظن واستولى على قلبك وملك كـل شعورك وهيمن على حياتك ، فاعلمى بأنك وضعت معولا فى يد الشيطان ، وسيخرب عشنـا الذى قضينا فيه عشرين عاما كاملة فى بنائه وتشييد أركانه وستذهب تلك الاتعـاب المضنية هباء وتضيع تلك الجهود الجبارة التى بذلناها من أجل ارساء دعائم الاسرة

ولكن انت تريدين القضاء على كل شيء فى لحظة وجيزة فاعلمى اننا سنكونا وقـودا لهذه النار التى أوقدتها ، وسيكون أول من يحترق بلهيبها ويكتوى بسعيرها انت وأنا وأطفـالنا الستـــة ٠

واذا لم تضعى حدا لافكارك الهدامة ٠٠٠ ستكونين مسؤولة أمــام اللــه وأمام المجتمع عن تشرد أطفالنا الستة ٠

ان خالدا قد حذر زوجته ونصحها لانه يخشى من العواقب الزوجية التى تنتج عن هذا الصراع العنيف ٠٠٠ ولكــن خديجة مصــرة على عنادها وجعلت أصابعها فى أذنيها لا تكاد تسمع سوى تلك الاصوات الداخلية التى تتجاوب مع فكرها الشارد وروحها التائه الذى لا يعرف الحدود وليس له آفاق ، صور مخيفة مزعجة ٠٠٠ تبعث القلق والاضطراب ،،، فلا تعرف راحة البال ولا طمأنينة النفس وهي تعيش مع تلــك المرأة الجميلة التى ولدها الظن وغذاها الخيال ، تتجلى لها فى أشكال مختلفة وألوان متعددة ، وتراها فى كل مكان ، لا تكاد تفارقها ليل نهار تتغذى من شعورها وخيالها ٠

وها هي خديجة تطارد ذلك الشبح الذى يهددها ويثير احاسيسها ، وتصيح فى غضب وحنـــق ٠

اخرجى عن بيتى استرى وجهك عنى لا أراه ، ابتعدى عن خالد (ملا بيتى) وأب أولادى لقد رافقته عشرين عاما وكافحت بجانبه طيلة أيام حرب التحرير وانجبت له ستة أطفال ، وذقت معه مرارة الجوع والحرمان حتى ذبل شبابى وتغير لونى ٠

جئت ايتها الملعونة لتقطفى الثمار التى سقيتها بعرقى ودموعى وتطريديننى مــن منزلى ، اخــرجى ، اخــرجى ٠

انــه عــراك عنيف مستمر مــع الاشبــاح ٠٠٠

دخل خالد فوجد خديجة على هذه الحالة المؤلمة فعلم أنها قد فقدت عقلها وضاع رشدها ويئس من شفائها ، ولم يبق له أمل الا أن يدعها فى مستشفى الامراض العقلية وكان ذلك وحملها الى مستشفى الامراض العقلية فى مــدينة البليدة ، وتركها هناك وسط هؤلاء المجانين الاشقياء تصارع الاشباح الرهيبة ٠٠٠

عاد خالد الى البيت كالح الوجه ذابل الشفتين مشغول البال لا يدرى كيف يبدأ وكيف ينتهى وأحاط به الاطفال الستة ، يسألونه :

أيـــن أمــــى ؟

أيـــن تركتهـــا ؟

متى تعود ؟ لم يجد لهم جوابا سوى ذلك الصمت العميق المعبر عن حيرته وقلقه ٠٠

يتزوج ، أم ينتظر شفاء خديجة ؟ وتعود الى أطفالها ٠ ولكن من يخدمهم ويقوم بشؤونهم حتى تعود ؟ ولكن متى ؟

ان فى الحياة غيبا مستترا لا يستطيع أكثر الناس ذكاء وعلما ، توقعه واكتشافه ٠

لقد علمتنى الحياة ما لم اتعلمه فى المدرسة كنت أعتقد أن المال هو الحياة هــو السعادة هو الامل بل هو كل شيء ، من حصل عليه فاز وانتصر ٠٠٠ فاذا به يجلب لبعض الناس الفوضى العقلية ويكون سبب شقائهم وتعاستهم ويقلب حياتهم رأســا على عقب ٠٠٠ وصدق الله العظيم : (**وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم**) ٠

توضيـــح حـــول نشر محـاضرات الملتـــقى

ننشر هذه المحاضرات طبقا لمبدأ نشر كل محاضرات الملتقى الذى أعلنا عنه فى العدد الاول من « الاصالة » تعميما للفائـدة ، ولطلب الكثير ممن تصلهم المجلة ولا تصلهم كتب الملتقيات .

وقدقررنا أن ندرج فى كل عدد على الاقل مقالين .

ونرجو أن يكون السادة الاساتـذة الذين أرسلوا الينا بمقالات لم نصل بعد الى نشرها وعاتبونا على نشر القديم المتمثل فى هذه المحاضرات من ملتقيـــات سابقة،وترك الجديد من الانتاج ، قد فهموا الآن قصدنا مـن هـذا .

كما سندرج فى المستقبل فى كل عدد ، بانتظام ، نصا أو نصين من المحاضرات التى درجت الوزارة على تنظيمها خلال القطـــر منذ سنوات باسم المركز الثقافى الاســـلامى .

الحرية المدنية في الاسلام



د. على عبد الواحد وافى
أستاذ علم الاجتماع
فى جامعة القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

سيداتى وسادتى .. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

اما بعد ، فيقصد بكلمة الحرية المدنية التى هى موضوع محاضرتى ، حالة الرشد القانونى التى تجعل الشخص أهلا لاجراء الحقوق وتحمل الالتزامات وتملك العقار ، والمنقول والتصرف فيما يملك ، هذا ولا نجد شريعة من شرائع العالم قديمه وحديثه قد وصلت فى مبلغ احترامها لحق الحرية المدنية للفرد الى ما وصلت اليه الشريعة الاسلامية ، فالاسلام قد أعطى هذا الحق جميع أفراد الناس ما عدا الصبى والمجنون والسفيه ، والسفيه هو المبذر لأمواله ،والذى ينفقها فى وجوه لا تحقق نفعا له ولا لاهله ، وقد استثنى الاسلام هؤلاء ، رحمة بهم ورعاية لمصلحتهم هم ، ومصلحة ورثتهم ومصلحة المجتمع ، ومصلحة النظام الاقتصادى العام ، بل ان الامام الاعظم أبا حنيفة النعمان ، قد ذهب الى انه لا يجوز الحجز على السفيه معللا مذهبه هذا بأن فى الحجز عيبا،وهو انسان عاقل بالغ فالحجز عليه اهدار لآدميته والحاق له بالبهائم ، وان فى هذا الاهدار وهذا الالحاق ضررا انسانيا بليغا يزيد كثيرا على الضرر المادى الذى يترتب على سوء تصرفه فى أمواله ، وانه لا يصح أن يدفع ضرر بضرر أعظم منه ، وهذا اتجاه اجتماعى جليل من الامام الاعظم ، وقد استوحاه من روح الاسلام وحرصه على احترام الحرية المدنية للافراد ، وقد سوى الاسلام فى حق الحرية المدنية بين الرجل والمرأة ، لا فرق فى ذلك بين أن تكون المرأة متزوجة أو غير متزوجة ، وقد بينت هذا الموضوع بالتفصيل فى كلمتى السابقة ، وقضى الاسلام بذلك على

(*)محاضرة القاها فى الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الاسلامى المنعقد بقسنطينة فى 17/8 جمادى الثانية 1390 هـ ـ 10/19 اوت 1970 م.

الآراء الفاسدة التى كانت سائدة فى كثير من الشرائع السابقة له ، والتى كانت تفرق بين الناس فى حق الحرية المدنية تبعا لاختلاف أجناسهم وطبقاتهم أو تبعا لتفاوتهم فى الاحساب والانساب • قضى الاسلام على جميع هذه الآراء وجعل الناس سواسية فى هذا الصدد ، وعاملهم جميعا على قدم المساواة ، وفى هذا يقول الله تعالى : « **يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا** » ، أى لن يفتخر بعضكم على بعض ، ولن يكون لبعضكم من الحقوق المدنية أكثر مما للآخر ، « **وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله اتقاكم ، ان الله عليم خبير** » •

ويقول **الرسول عليه الصلاة والسلام فى خطبة الوداع** ، التى لخص فيها طائفة من أهم الاحكام الاسلامية ، والتى شاء ان يجعلها دستورا للمسلمين من بعده ، يقول فى هذا الصدد فى خطبته هذه : «**ايها الناس ان ربكم واحد وان اباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، لافضل لعجمى على عربى ، ولا لعربى على عجمى ، ولا لأحمر على أبيض ، ولا لأبيض على أحمر الا بالتقوى ، الا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد ، الا فليبلغ الشاهد منكم الغائب**» •**وتناقش مرة ابو ذر الغفارى مع بلال بن رباح فى حضرة الرسول (ص) فاحتد ابو ذر على بلال وقال له : يا ابن السوداء ، فظهرت آثار الغضب الشديد فى وجه الرسول عليه الصلاة والسلام واتجه بالكلام الى أبى ذر ، وانتهره قائلا : انك امرؤ فيك جاهلية ، كلكم بنو آدم ، خف الصاع ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل الا بالتقوى أو بعمل صالح**، وسوى الاسلام كذلك فى حق الحرية المدنية بين المسلمين وغير المسلمين فقرر ان الذميين والمعاهدين فى بلد اسلامى لهم ما للمسلمين من حقوق وتطبق عليهم القوانين نفسها التى تطبق على المسلمين الا ما تعلق منها بشؤون دينهم فتحترم فيه عقائدهم وشرائعهم ، ومن هذا نرى ان الاسلام قد سوى بين جميع الناس فى حق الحرية المدنية ولم يستثن منه الا الطوائف التى ذكرتها ، وذكرت انه قد استثناها رحمة بها ورعاية لمصلحتها وحفاظا على مصلحة المجتمع وعلى الصالح الاقتصادى العام •

هذا ، وقد أخذ كثير من باحثى الفرنجة على الاسلام انه أباح الرق ، واسترقاق الناس بعضهم لبعض•وان فى هذا هدما لأهم ركن

من أركان الحرية المدنية لان حالة الرق تجرد صاحبها من جميــع الحقوق المدنية فلا يكون أهلا لاجراء أى عقد ولا لتحمل اى التزام ولا لتملك عقار أو منقول بل ان هذه الحالة حالة الرق التى يتصرف فيها المالك كما يشاء وتشاء له أهواؤه ، هذا المأخذ الذى يأخــذه الفرنجة على الاسلام والذى دائما يرددونه على الرغم من ان الرق قد انتهى وانتهى نظامه ، وردنا على هؤلاء ـ أيها السادة ـ يتلخص فى نقطتــين :

النقطة الاولى : ان الظروف الاجتماعية والاقتصادية التى كانت تكتنف العالم فى العصر الذى ظهر فيه الاسلام كانت تحتم على كــل مشرع حكيم أن يقر الرق فى صورة ما ، وكانت تجعل كل محاولــة لالغائه الغاء سريعا مرة واحدة مقضيا عليها بالاخفاق ، هذه هــى النقطة الاولى التى نرد بها على هؤلاء وسنفصلها فيما بعد .

والنقطة الثانية التى نرد بها على هؤلاء ان الاسلام لم يقر الــرق فى صورة مطلقة ، وانما أقره فى صورة تؤدى هى نفسها الى القضاء عليه بالتدريج ، وما أفرطت فيه هاتين النقطتين حتى يتضح موقــف الاسلام من هذا النظــام .

اما فيما يتعلق بالنقطة الاولى فان الاسلام قد ظهر فى عصر كان نظام الرق فيه دعامة تعتمد عليها جميع مناحى الحياة الاقتصاديـــة وترتكز عليها جميع فروع الانتاج فى مختلف شعــوب العــالم او فى معظم شعوب العالم ، فى هذا العصر ، فلم يكن من الاصلاح الاجتماعى فى شىء ان يحاول مشرع الغاءه مرة واحدة لان محاولة كهذه فــى عصر هذه أوضاعه الاقتصادية كان من شأنها ان تعرض أوامر المشرع للمخالفة والانتهاء «اذا أردت أن تطاع فمر بما يستطاع» وتشــريع كهذا ما كان من الممكن أن ينفذ ، واذا فرضنا انه قد أتيح لهــذا المشرع من وسائل القوة والقهر ما يكفل به ارغام العالم على تنفيذ ما أمر به فانه بذلك يعرض الحياة الاجتماعية لهزة عنيفة ويــؤدى تشريعه الى أضرار بالغة لا تقل فى سوء مغبتها عن الاضرار الــتى تتعرض لها حياتنا الحاضرة ، اذا ألغى مثلا بشكل فجائى نظــام العمال وقضى على كل مالك ان يعمل بيده أو بطل استخدام السكك الحديدية أو بطــل استخــدام البخار ، فالرقيــق كان بخار الآلـــة

الاقتصادية فى هذا العصر ، من أجل ذلك أقر الاسلام الرق وكان حكيما فى اقراره للرق تحت تأثير هذه الضرورات الاقتصادية والاجتماعية القاهرة . هذا فيما يتعلق بالنقطة الاولى التى نرد بها على هؤلاء .

واما فيما يتعلق بالنقطة الثانية فان الاسلام لم يقر الرق فى صورة مطلقة وانما أقره فى صورة تؤدى هى نفسها الى القضاء عليه بالتدريج بدون ان يحدث ذلك أى أثر سيء فى حياة الجماعات الانسانية وفى نظامها بل بدون أن يشعر أحد بتغيير فى مجرى الحياة ، والوسيلة التى ارتضاها للوصول الى هذه الغاية تعد من أحكم الوسائل وأبلغها أثرا وأصدقها نتيجة وهى تتلخص فى مسلكين : **المسلك الاول** الذى لجأ اليه الاسلام لتحقيق هذه الغاية وهى تصفية الرق والقضاء عليه بالتدريج ، يتمثل فى تضييق الروافد التى كانت تمد الرق وتغذيه وتكفل بقاءه وفى العمل على تجفيفها بالتدريج. **والمسلك الثانى** يتمثل فى توسيع المنافذ التى تؤدى الى العتق والتحرير تضييق الروافد من جهة والعمل على تجفيفها وتوسيع المنافذ التى تؤدى الى الحرية من جهة أخرى ، هذه هى سياسة الاسلام فى تصفية الرق وفى القضاء عليه بالتدريج وبذلك أصبح الرق أشبه شيء بجدول كثرت مصباته وانقطعت عنه منابعه التى يستمد منها الماء ، وخليق بجدول هذا شانه أن يكون مصيره الى الجفاف ، وبذلك قضى الاسلام على الرق فى صورة سلمية متدرجة هادئة وأتاح للعالم فترة للانتقال يتخلص فيها شيئا فشيئا من هذا النظام ، كل مسلك من هذين المسلكين – أيها السادة – يحتاج الى قليل من الشرح حتى نقف على سمو التعاليم الاسلامية وعلى حرصها على الصالح العام . أما فيما يتعلق بالمسلك الاولى وهو تضييق الروافد التى كانت تمد الرق وتغذيه وتكفل بقاءه والعمل على أن تجفيفها بالتدريج فقد كانت **روافد الرق قبل الاسلام كثيرة** متنوعة فكان من روافده الحرب بجميع أنواعها أى سواء أكانت حربا أهلية أم حربا خارجية فكان أسرى الحرب لا يخرج مصيرهم عن القتل او الاسترقاق هذا رافد من روافده ، كذلك الخطف والسبى والقرصنة فكان ضحايا هذه الاعتداءات يعاملون معاملة أسرى الحرب فيضرب عليهم الرق وكانت هذه وسيلة مشروعة بل ان الحكومات

نفسها كانت تزاولها ، فحكومة أثينا فى عهد سونو وقفت قسما من أسطولها البحرى على أعمال القرصنة والسبى والخطف ، خطف الرجال والنساء من السواحل ومن داخل البلاد وبيعهم بيع الرقيق لحساب الدولة ولمصلحة الدولة ، وكان من روافد الرق كذلك فى العصور السابقة للاسلام ارتكاب بعض الجرائم الخطيرة كالقتل والسرقة والزنا فكان مرتكبوا هذه الجرائم يحكم عليهم بالرق لمصلحة المجنى عليهم او لمصلحة أسرتهم أو لمصلحة الدولة ، أى أن الرق كان عقوبة من العقوبات كالسجن والاعدام وما الى ذلك ٠ وكان من روافده كذلك عجز المدين عن دفع دينه فى الموعد المحدد له فكان يضرب عليه الرق لمصلحة دائنيه ، وكان من روافده كذلك سلطة الوالد على أولاده فكان يباح للوالد وخاصة فى حالة عوزه أن يبيع أولاده بيع الرقيق ذكورهم واناثهم فى بعض الشرائع واناثهم فقط فى شرائع أخرى ، وكان من روافده كذلك سلطة الانسان على نفسه فكان يباح للمعوز أن يبيع نفسه بيع الرقيق لقاء ثمن يفرج به أزمته ، وكان من روافده كذلك بل ان هذا كان من أهم الروافد وان لم يكن أهمها جميعا تناسل الارقاء وهو ما يسمونه الرق بالوراثة وذلك ان الولد فى الامم السابقة للاسلام كان يتبع أمه رقا فكان من تاتى به جارية سواء أكان ذكرا أم أنثى يولد رقيقا مملوكا لسيده ولو كان أبوه حرا ولو كان أبوه سيد نفسه ٠ وكانت هذه الروافد ـ أيها السادة ـ تقذف فى تيار الرق كل يوم بآلاف مؤلفة من الانفس حتى ان عدد الرقيق كان يزيد فى كثير من الامم عن عدد الاحرار بل كان يبلغ أحيانا أضعافا مضاعفة بالقياس الى عدد الاحرار ٠

جاء الاسلام وروافد الرق بهذه الكثرة وهذه الغزارة وهذه القوة ، فما ذا فعل ؟ حرمها جميعا ما عدا رافدين اثنين عملا بسياسته الحكيمة وهى ألا يلغى الرق دفعة واحدة بل يلغيه بالتدريج ، حرم كل هذه الروافد ما عدا رافدين اثنين أبقى عليهما ، وهما : رق الحرب الذى يفرض على أسرى الحرب ، ورق الوراثة الذى يفرض على من تلده الجارية ولم يترك هذين الرافدين طليقين بل عمد اليهما فقيدهما بقيود تكفل نضوب معينهما بعد أمد غير طويل ، فمن أهم القيود التى قيد بها رق الوراثة انه استثنى منه من تاتى به الجارية من سيدها ، قلت لكم انه فى الامم السابقة للاسلام كان من تلده

الجارية يولد رقيقا بقطع النظر عن حالة أبيه ، أى ولو كان أبـوه حرا ، ولو كان أبوه سيد نفسه ، جاء الاسلام وأبقى هذا الرافد ولكن قيده بهذا القيد ، استثنى منه من تأتى به الجارية من سيدها ، فقرر أن من تأتى به الجارية اذا عاشر السيد جاريته وأتى منها بولد فان ولدها هذا يولد حرا ويلتحق نسبه بالسيد ، واذا لاحظنا ان معظم أولاد الجوارى كانوا يأتون من مواليهم لان الاغنياء ما كانوا يملكـون الجوارى الا لمتعتهم الخاصة ، اذا لاحظنا هذا تبين لنا ان هـــذا القيد الذى قيد به الاسلام رق الوراثة وانفرد به من بين جميــــع الشرائع التى كانت تبيح الرق من قبله ، ان هذا القيد وحده كفيـل بالقضاء على هذا الرافد ونضوب معينه بعد أمد غير طويل ، وما فعله حيال الرافد الاول الذى أبقى عليه فعل مثله حيال الرافد الثـــانى وهو رق الحرب ، وذلك انه استثنى من هذا الرافد الذين يؤسـرون فى حرب أهلية ـ أى بين طائفتين من المسلمين ـ فهؤلاء لا يضـرب عليهم الرق سواء أكانوا من الفئة الباغية أم من الفئة المبغى عليهـا أخرج طائفة كبيرة من الاسرى وجعل من المقرر أنه لا يصح أن يضرب عليهم الرق . واما الحروب الاخرى وهى التى تحدث بين المسلمين وغيرهم فانها لا تؤدى فى الاسلام الى استرقاق من يؤسرونه فيها ، الا اذ اتوافرت فيها شروط كثيرة منها أن تكون الحرب مشروعه أى يجيزها الاسلام وتنفذ وفـق تعاليمه ويعلنها خليفة المسلمـين ولا يجيز الاسلام الحرب الا فى ثـلاثة أحـــوال :

الحالة الاولى : حالة الدفاع عن المسلمين اذا هاجمهـم عـــدو ، وفى هذا يقول الله تعالى : « **وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلـونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين** » .

والحالة الثانية : حالة نكث العهد والطعن فى الـدين الاسـلامى وفى هذا يقول الله تعالى : « **وان نكثوا أيمانهم من بعـد عهــــدهم وطعنوا فى دينـكم فقاتلوا أئمة الكـفر انهـم لاأيمـــان لهم لعلهـم ينتهـــون** » .

والحالة الثالثة : وجود أسباب تدعو الى الحفاظ على أمن الدولة أو على القضاء على الفتنة أو على تأمين الدعوة الاسلامية ، اذا وجـدت أسباب تدعو الى ذلك جاز للمسلمين أن يقاتلوا فى سبيلهـا ، وفى

هذا يقول الله تعالى : « **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين** » • ولم تتجاوز حروبه (ص» هذه الحالات الثلاث سواء فى ذلك حروبه مع مشركى العرب وحروبه مع اليهود من بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريضة وحروبه مع نصارى الغساسنة والروم فى غزوة مؤتة ، فاذا لم تتوافر فى الحرب هذه الشروط بأن لم يعلنها الخليفة نفسه أو لم تعلن فى هذه الحالات الثلاث أو لم تنفذ وفق تعاليم الاسلام فانها لا تؤدى الى استرقاق من يؤسرون فيه وحتى مع توافر هذه الشروط جميعها فان الاسلام لا يجعل الرق نتيجة لازمة للاسر بل يبيح للامام أن يتصرف حيال الاسرى تصرفا آخر يبيح له أن يمن عليهم مجانا ويبيح له كذلك أن يقبل منهم فدية مالية أو يطلق سراحهم فى مقابل عمل يعملونه أو يطلق سراحهم فى مقابل أسرى عند العدو بل ان القرآن عند ما ذكر الامور التى يمكن أن يلجأ اليها حيال الاسرى بعد القتال **تحاشى أن يذكر الرق من بينها واقتصر فى ذلك على المن والفداء مما يدل على أن الرق مبغض الى الله تعالى فأغفله ، وفى هذا يقول الله تعالى : « فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فاما منا بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها •**

ومن هذا يتبين لنا أن الاسلام قد سلك حيال هذا الرافد المسلك نفسه الذى سلكه حيال الرافد الاول فقد قيده بقيود تكفل نضوب معينه بعد أمد غير طويل اشترط فيه شروطا شديدة من شأنها أن تجفف هذا الرافد فهو لم يجعله نتيجة لازمة للحرب بل أباح للامام أن يتجه وجهة أخرى حيال أسرى الحرب ولم يرغب فيه ولم يحبب فيه ، بل رغب فى غيره وحبب فيه بدليل ان القرآن أغفله اغفالا تاما من بين الامور التى يصح للانسان ان يلجأ اليها ، هذا ، الى أن الاسلام لم يجز الا بشروط لا تكاد تتوافر الا فى الحروب الاولى التى قام بها الاسلام للدفاع عن نفسه وتأمين دعوته ، أما بعد استقرار الاسلام وبعد تنظيم العلاقات بينه وبين الامم الاخرى فانه يندر ان تتوافر هذه الشروط • هذا ـ أيها السادة ـ فيما يتعلق بالمسلك الاول الذى سلكه الاسلام لتصفية الرق ، والذى يتمثل فى تضييق الروافد التى كانت تمد الرق وتغذيه وفى العمل على تجفيفها بالتدريج

فقد رأينا انه ألغى جميع الروافد السابقة ولم يبق منها الا رافدين اثنين وانه عمد الى هذين الرافدين نفسيهما فقيدهما بقيود تكفل نضوب معينهما بعد أمد غير طويل ٠

واما فيما يتعلق بالمسلك الثانى الذى سلكه الاسلام لتصفية الرق والقضاء عليه بالتدريج وهو العمل على توسيع المنافذ التى تؤدى الى العتق والتحرير ، فقد كانت منافذ العتق قبل الاسلام ضيقة كل الضيق لم يكن له الا سبيلا واحدا وهى رغبة المولى فى عتق عبده ، فبدون هذه الرغبة كان مقضيا على العبد ان يظل هو وذريته راسفين فى أغلال العبودية أبد الآبدين ، هذا الى أن كثيرا من الشرائع السابقة للاسلام ما كانت تجيز للمولى أن يعتق عبده الا بشروط خاصة وباجراءات معقدة من النواحى الدينية والقضائية، بل ان بعضها كان يفرض على السيد أن يدفع غرامة مالية للدولة اذا اراد أن يعتق عبده لانها كانت تعتبر العتق تضييعا لحق من حقوق الدولة ٠

جاء الاسلام وهذه حال العتق فى ضيق منافذه وقسوة شروطه، فحطم كل هذه القيود وفتح للعبيد أبواب الحرية على مصاريعها وأتاح لتحريرهم-آلافا من الفرص وتلمس للعتق من الاسباب ما يكفى بعضه للقضاء على نظام الرق نفسه ، فجعل الاسلام من اسباب العتق أن يجرى على لسان السيد فى صورة لفظ يدل صراحة على عتق عبده فبمجرد خروج هذا اللفظ من فمه يصبح العبد حرا سواء أكان السيد قاصدا معنى هذا اللفظ أم لم يكن قاصدا له بأن جرى خطأ على لسانه وسواء أكان جادا أم هازلا ، وسواء أكان مختارا أم مكرها عليه وسواء أكان فى حالة عادية أم كان فاقدا لرشده بفعل الخمر وما اليها من محرمات مجرد خروج الذبذبات من فم السيد التى تفيد كلمة العتق يصبح العبد حرا ، ومن هذا يتبين لنا مبلغ تشوف الاسلام للحرية ومبلغ تحايله على الحرية ، وانه يلتمس أوهى الاسباب لتحرير الرقيق ٠ ومن أسباب العتق فى الاسلام كذلك أن يجرى لسان السيد فى صورة ما بلفظ يفيد ما يسميه الفقهاء التدبير وهو أن يوصى السيد يعتق عبده بعد موته فبمجرد صدور هذا اللفظ منه تصبح الحرية مكفولة للعبد بعد وفاة سيده ، وقد اتخذ الاسلام احتياطات

كثيرة لضمان الحرية لهذا النوع من العبيد ، فحظر على السيد أن يبيع عبده المدبر أو يهبه أو ينقل ملكيته أو يتصرف فيه أى تصرف يعوق حريته ، ومن أسباب العتق فى الاسلام كذلك أن يعاشر السيد جاريته ويأتى منها بولد ، فهذا الولد يولد حرا كما قلنا فيما سبق ، ولكن الجديد هنا ان الجارية نفسها تصبح مستحقة للحرية بعد وفاة السيد ويسميها الفقهاء أم ولد ، وقد اتخذ الاسلام حيال هذا النوع من الجوارى الاحتياطات نفسها التى اتخذها حيال المدبرين ، فحظر على الموالى أن يبيعوا أمهات أولادهم أو يهبوهن أو يتصرفوا فيهن أى تصرف يعوق حريتهن ، وفى هذا يقول **عمر بن الخطاب** عند ما جاءه قوم يستفتونه فى جواز بيع أمهات أولادهم «**أفبعد ان اختلطت دماؤكم بدمائهن ولحومكم بلحومهن تريدون بيعهن**» ، ومن هذا يظهر ان معاشرة السيد لجاريته كانت تؤدى فى الاسلام الى تحريرها هى ، وتحرير جميع نسلها الى يوم القيامة ، ولعل هذا هو السبب الذى جعل الاسلام يبيح معاشرة السيد لجواريه ، وجعله لا يقيد هذه المعاشرة بعقد ولا بعدد ، لييسر بذلك سبيل التحرير وليتيح نعمة الحرية لاكبر عدد ممكن من الجوارى ونسلهن ، ومن أسباب العتق فى الاسلام كذلك أن يكاتب السيد عبده أى يتفق معه على مبلغ من المال يؤديه اليه ، وقد ذلل الاسلام لهذا النوع من العبيد الذين يسميهم الفقهاء «المكاتبين» ذلل لهم وسائل الحصول على المال فى صورة تدل على شدة تشوفه للحرية وعلى شدة حرصه على تصفية الرق وشدة حرصه على القضاء على هذا النظام يسر لهم سبل الحصول على المال فأجاز لهم أن يتصرفوا تصرف الاحرار فيبيعوا ويشتروا ويتاجروا ويعقدوا العقود حتى يجمعوا المبالغ اللازمة لتحريرهم ، ليس هذا فقط بل انه حث جميع المسلمين على التصدق عليهم ومساعدتهم ، وفى هذا يقول الله تعالى : « **والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم** » ثم قال : « **وآتوهم من مال الله الذى آتاكم** » . أى انه قد حث جميع المسلمين على أن يساعدوا هؤلاء حتى يستطيعوا أن يجمعوا المال اللازم لتحريرهم فتحرر رقابهم وبجانب هذا كله عمد الاسلام الى طائفة من الجرائم قبل الاسلام تؤدى الى استرقاق الاحرار ، اذا بها فى الاسلام تؤدى الى تحرير الارقاء فجعل الاسلام العتق كفارة للقتل الخطأ وما اليه ، وفى هذا يقول

الله تعالى : « **وما كان لمؤمن ان يقتل مؤمنا خطا ومن قتل مؤمنا خطا فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى اهله** » ، وجعل العتق كفارة للحنث فى اليمين ، وفى هذا يقول الله تعالى : « **لا يؤاخذكم الله باللغو فى ايمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان فكفارته اطعام عشرة مساكين من اوسط ما تطعمون اهليكم او كسوتهم او تحرير رقبة** » ، وجعله كفارة لبعض أنواع الطلاق وهو الظهار كان يقول الرجل لامرأته أنت على كظهر أمى ، ثم يريد أن يراجعها ، وفى هذا يقول الله تعالى : « **والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل ان يتماسا** » ، وجعله كفارة للفطر فى رمضان ، **جاء رجل الى رسول الله (ص) قال له : هلكت يا رسول الله ، وقال: وما اهلكك ؟ قال : وقعت على امرأتى فى نهار رمضان ، قال : هل عندك رقبة تعتقها فيكفر الله ما ارتكبته من اثم** ، الى آخر الحديث ..

هذه أمور لا علاقة لها بالرقيق ولكن فى الحقيقة الاسلام يعمد الى الجرائم والخطايا التى يكثر حدوثها عادة ويجعل كفارتها تحرير الارقاء ، فتحرير الرقيق يعتبره الاسلام قربة يتقرب بها العبد الى ربه ويكفر بها خطاياه ، ولم يكتف الاسلام بهذا كله بل جعل سهما من مال الزكاة اى جزءا من ميزانية الدولة وقفا على تحرير الرقيق اى أوجب على الحكومة نفسها أن تخصص جزءا من ميزانيتها لشراء العبيد من أسيادهم وتحريرهم وعتقهم،فبينما كانت الشرائع السابقة للاسلام توجب على السيد اذا اراد أن يعتق عبده أن يدفع غرامة مالية للدولة،اذا بالاسلام يخصص جزءا كبيرا من ميزانية الدولة لتقوم الحكومة نفسها بانفاقه فى عتق الارقاء أى فى شراء الرقيق وعتقه . وبجانب هذا كله وهذا دليله أيضا من القرآن دليل كون الحكومة يجب عليها أن تخصص سهما من مال الزكاة دليله فى القرآن نفسه، ففى هذا يقول الله تعالى : « **انما الصدقات للفقراء ، والمساكين والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب** » ، أى فى تحرير الرقاب والمراد بالصدقات فى الآية الزكاة التى كان يتالف منها أهم جزء من ميزانية الدولة وبجانب هذا كله حبب الاسلام الى الناس تحرير الرقيق وجعل هذا أكبر قربى فيما عدا الحالات السابقة كلها، جعله أقرب قربى يتقرب بها العبد الى ربه وقد بلغ من تعظيم الاسلام للتحرير أن الرسول (ص) يضرب به المثل فى جلال العمل وعظيم

القدر فيقول : من عمل كذا فكأنما أعتق رقبة ، ويقول الله تعالى : « **فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة** » أى ان العقبة التى يجب أن يقتحمها الانسان حتى يصل الى الجنة تقتضيه أن يكون قد عمل عملا جليلا فى دنياه ، وضرب القرآن مثلا لهذا العمل الجليل بفك الرقبة .

ومن هذا ـ أيها السادة ـ يظهر لكم صدق ما قلته من أن الاسلام على عكس ما يزعمه المستشرقون وما يشهر به الفرنجة ان الاسلام لم يقر الرق فى صورة مطلقة وانما أقره فى صورة تؤدى هى نفسها الى القضاء عليه بالتدريج ، وذلك كما قلت بأن ضيق روافده الروافد التى كانت تغذيه وتكفل بقاءه ووسع منافذ العتق والتحرير وبذلك أصبح الرق كما قلت أشبه شىء بجدول كثرت مصابه وانقطعت عنه منابعه التى يستمد منها الماء وخليق بجدول هذا شأنه أن يكون مصيره الى الجفاف .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

منشورات

وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية

سيصدر قريبا كتاب :

الملتقى الثامن

للفكر الاسلامى

بالفرنسية فى ثلاثة اجزاء

ويشمل :

سائر المحاضرات ،

والتعقيبات ،

والمناقشات .

مشـــــكلـة الحضـــــــارة

للمرحوم مـالـك بن نـبى
مفكـر جزائري

بســم اللــه الرحمــن الرحــيم
والصـلاة والســلام على خـير المرسلـين :

معـالى الـوزير

أصحاب الفضيلـعة

سادتى ، سيداتى ، أبنائى الطلبة والطالبات

نقف أولا عند تكميل أو تصحيح أراه لازما بالنسبة لعنوان الحديث : المعلن عليه فى برنامج هذا الملتقى «مشكلة الحضارة» . فلا أريـد : أن أترك السبيل ليتسرب أو ليذهب الى اذهان بعض اخواننا الطلبة اننى أتناول هنا قضية نظرية ، لأن العنوان قد يعلن بهذا ، فيجب على اذن أن أكمل أو أصحح هذا العنوان بشيء ، اننى دائما حريص على أن أتناول القضايا المعاشية حقيقة كما أراها وأدركها الآن،والحقيقة معناها نسبى ، قد أخطيء ، وانما أتناول دائما القضية أو القضـايا المعايشة فى العالم الاسلامى ، القضايا بجوانبها النفسية والاجتماعية التى يمكن جمعها فى كلمة موحدة أو عنوان موحد « أزمة الحضارة الاسلامية » ، هذا موضوع حديثى ، وطبعا وراء كل محاولة تعالج أزمة حضارية ، محاولة للخروج بحل اذا أمكن الامر لهذه الازمة ، وقـد تفضل على سيادة الوزير قبل أمس ، هذه نقطة ثانية ايضا يجـب أن نقف عندها قبل الاستمرار فى الحـديث ، تفضل على سيـادته وسألنى هل أتكلم باللغة الفرنسية أو اللغة العربية ،حرصا منه على أن يستفيد ربما بعض الطلبة المحرومـين من لغتهم ، لغة دينهم ، ولغة بلادهم ووطنهم ، وأمهاتهم ، ففضلت ـ وتركنى حرا جزاه الله خيرا ـ اختيار احدى اللغتين ، فأنا بدورى أترك لكم هذا الاختيار نزولا عنـد

(*)محاضرة القاها فى الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الاسلامى المنعقد بقسنطينة فى 17/8 جمادى الثانية 1390 هـ ـ 10/19 اوت 1970 م .

مصلحتكم ، وتلبية لما يمكن أن نلبيه من الضرورة الملحة عند بعضكم الذين يجهلون اللغة العربية ، فاذن نترك لاخواننا الحاضرين من الطلبة الاختيار هل أستمر فى الحديث باللغة العربية ، أم أتناول اللغة الاجنبية ؟ وارى أن سيادة الوزير أن يشاركم فى رأيكم فهتف على اختياركم ، وأنا بدورى أهتف لاختياركم شكركم الله ٠

أشرنا بكلمة وجيزة الى موضوع الحديث ، من زاوية خاصة وهى « الأزمة الحضارية » التى تسيطر على العالم الاسلامى ، أو فى المجتمع الاسلامى منذ أمد ، نحاول أن نحدد نقطة انطلاقه فى الزمن ، ولسنا بعيدى الذكرى بأحداث طرأت بفرنسا ، فى شهر مايو 1968 ، فعلق عليها كل معلق حسب هواه أو هوايته ، حسب نزعاته السياسية ، حسب تطرفه أو اعتداله ، لا يهمنا هذا ، وانما علق رجل يهمنا نظره فى القضايا العامة وهو (مالرو MALRAUX لاننا نعرف ما له من نظرة ثاقبة فى مثل هذه الأمور فعلق على تلك الأحداث بأنها أزمة حضارية وكانه باختيارى ، وهو يعلم مدلول المصطلحات،وهو الرجل الذى يقدر المفردة بالميليغرام ، نعرف ماذا اراد أن يقول للضمير الفرنسى من وراء هذا التصريح ، كانه يقول للضمير الفرنسى : ان هذه أزمة خطيرة جدا ، لانها لا تؤول فقط الى اسقاط حكومة وتغييرها بحكومة اخرى ، بل ربما تؤدى الى سقوط حضارة أو الى انهيار مجتمع بأكمله ٠ هذا هو المعنى الذى نجده فى تصريحه ، وكانه أراد بذلك أن يدق جرس الخطر فى الوعى الفرنسى فى بلاده ، فى الضمير الفرنسى كما يقولون ، حتى يشعر كل مواطن بأن الظروف ليست الظروف التى عاشتها فرنسا فى سنة 1934 مثلا ، مع أنها كانت شبه ثورة ، ولكن الثورة أسقطت حكومة فقط ، حكومة Camille Chautemps بينما هذه المرة يراها «مالرو» وربما يراها غيره انها أخطر من ذلك بكثير ، فهى أزمة حضارية لا أزمة سياسية ٠

ومنذ قرون أراد عملاق من عمالقة الفكر الاسلامى ، أن يطلق فى الضمير الاسلامى والوعى الاسلامى صرخة الخطر ، أن يطلق أبواق النذير والنفير ، **وهو ابن خلدون** ، لما كان يشاهد حوله من اضطرابات سياسية ، طبعا عاشها هو نفسه كرجل ديوان فى مملكات مختلفة ، تحت سلاطين مختلفين أبو فراس وغيرهم ، ورأى بوجه

خاص التدهور الاجتماعى ، والاشياء التى تنذر بان الخطر ليس بخطر يهدد الكيان السياسى ، ولكن يهدد الكيان الاجتماعى، الكيان الحضارى نفسه ، فبعد أن رسم بريشة بارعة لوحة زيتية،يصور لنا فيها بألوان قاتمة محزنة ، صورة المجتمع الذى كان يعايشه بعد ذلك يقول : **«وكأنى ـ وكان يكتب هذا فى قلعة بنى سلام ، ليس ببعيد من قسنطينة ـ بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب ، ولكن على نسبة ومقدار عمرانه ، وكأنما لسان الكون ينادى فى العالم بالانقباض والتقلص ، ثىء كذا ، فأجاب»** • هذه الكلمات أخطر بكثير مما قاله «مالرو» MARLAUX وأوضح بكثير مما أفصح به «مالرو» وتعبر عن شعور أدق ، وتصور أوضح ، للظروف التى كان يمر بها المجتمع الاسلامى فى وقته ، وكأنه أراد أن يسمع معاصريه صوت لسان الكون «لسان الكون ينادى» فلم يستمع اليه أحد ، وصدقت رؤياه المتشائمة التى صورها لنا فى لوحة زيتية •

ونشكر بهذه المناسبة أخانا العزيز الدكتور على عبد الواحد وافى الذى أعاد لنا من تراثنا هذه الدرة الثمينة التى نسميها «مقدمة ابن خلدون» بلونها وجوهرها كما ختمها صاحبها عند ما فارق هذا العالم ، فنشكره • ومرت القرون وغطت الامة الاسلامية فى نوم طويل ، فى تلك العصور التى رأينا فى دراسة نشرت بالعربية تحت عنوان «وجهة العالم الاسلامى» أن نعنونها بـ «عصر ما بعد الموحدين» ذلك العصر الذى تولدت فيه فى هذا العالم الاسلامى تلك الامراض التى كانت تنادى من بعيد الى الاستعمار ، واننى لآسف جدا لاننى لم أحتفظ بوثيقة كانت لدى فى دراسة تاريخية ، فى كتاب خرج من يدى ، فكان ملك اسبانيا PHILIPPE II أرسل ـ وهذا يعنى فى نهاية القرن السادس عشر ـ سفيرا له بالمغرب ، بمراكش ، ليراقب الاحوال ، لينظر فى الاشياء ، فوفاه سفيره بما نسميه اليوم «تقريرا» يقول له هذه الجملة الغريبة ، بعد ملاحظته ومعايشته ، ومعاشرته ، وممارسته للاشياء التى كان يراها ، أو يسمعها لانه سفير ، يقول له : **وكأن العناية الالهية تهىء الاشياء لسيدى** ، فكأنه يقول بلغة عصرنا : **ان الاشياء كانت تمهد السبيل لمجىء الاستعمار** ، وهذا التكهن ليس بتكهن عبقرى أو غريب ، ما هو الا تفسير واقعى للاشياء

كما كان يراها عقل المعتمد ، مثل العبقرى ابن خلدون الذى سبقه ، والذى كتب سطوره وأطلق صرخته قرنا قبل سقوط غرناطة،وخروج المسلمين من الاندلس ، وبعد قرن من سقوط عاصمة الخلافة تحت حوافر خيول هولاغو ، وفى الوقت الذى كان قدر له وهو لا يعلم ، وهو يكتب هنا فى ضواحي قسنطينة مقدمته،لم يكن يعلم أنه سيكون تقريبا سفيرا لمدينة دمشق ، سفيرا يدلونه من أسوار المدينة كى يذهب مطالبا بالعفو عليهم من الطاغية كما يقول هو TAMERLAN ومرت القرون كما شعر بذلك ابن خلدون ، وكما رأى سفير PHILIPPE II وتكونت مراكز استعمارية فى تونس ، فى الجزائر ، فى مراكش ، على طول الخط Portugais,Espagnole قبل مجيء الفرنسيين ، وغط العالم الاسلامى فى نومه قرونا حتى جاءت كارثة ، ورب كارثة تجر خيرا اذا اراد الله ، جاءت حملة نابليون بعد قيام الثورة بفرنسا ، جاءت حملة نابليون الى مصر ، واحتلاله للقاهرة ، ولم يتغير وضع العالم الاسلامى بذلك ، وانما طبعا الغيرة الاسلامية ، والشهامة العربية ، والشعور بالمحافظة على الكيان على الوجود ، هذه أشياء طبيعية تقريبا حيوانية ، هذه الدوافع كلها تحركت طبعا فى وجه الإستعمار كما نقول اليوم ، وقام شاب مسلم من حلب كان يدرس بالازهر الشريف ، فقتل المحتل الذى خلفه نابليون بعد عودته الى فرنسا ، لان طموح نابليون كان أكثر من احتلال مصر طبعا ، فقتل Général CLEBER ولكن لم ينطلق فقط سيف من أسياف الجهاد الاسلامى فى وجه الاستعمار ، ولكن انطلق قلم بسيط ، يكتب تقريبا بلغة الشعب ، وليست له أغراض سياسية حسب ما أرى ، كتب الجبرتى تاريخ هذه الايام بلغة الشعب ولكن نحن الذين نتلقى هذا الكتاب اليوم ، نرى أنه أول صدى صدر من الضمير الاسلامى فى صورة فكرية ، فى صورة يكتبها القلم ، بعد ابن خلدون ، يعنى بعد فجوة كبيرة من التاريخ ، تحرك قلم معناه تحرك فكر ، بكل بساطة ومن دون طموح سياسى فيما أعتقد ، هو صفاء الايام بلغة الشارع تقريبا ، وبدأ الاستعمار يدخل فى مرحلته الاستقرارية ، يستقر ، بتوسع ، وجاءت نكبة 1857 فى الهند التى حولت احتلال اقتصادى الى احتلال سياسى أولا ، وغيرت الدستور الضمنى لانه لا وجود لدستور فى الهند ولكن ضمنا ، كان يوجد

دستور يجعل السلطة والسيادة فى الهند يمثلها العنصر الاسلامى ، والتبعية يمثلها الهندوك ، فلما جاءت ثورة CYPAYES سنة 1857 انقلب الوضع رأسا على عقب ، تحولت شركة الهند الى احتلال الهند، وتصيير الهند الى قطعة ، أو جوهرة كما يقولون ، جوهرة فى تـــاج الامبراطورية الانجليزية تأسست فى ذلك العهد ، تأسست على اثـر هذه الاحداث الامبراطورية الانجليزيـة ، يعنى تأسست على مـوت السيادة الاسلامية فى شبه القارة الهندية ، وانقلب الوضع الاجتماعى والسياسى ، فصار السيد مسودا ، وصار المسود سيدا ، ونتجت عن هذه الاضطرابات ، وعن هذه النكبة ، نتج تيار فكرى معين ، يمثله أحمد خان ، فقام أمام هذا التيار ، وامام هذا الانقلاب الضمنى الذى وقع فى الهند بالنسبة للمسلمين وللاسلام ، وبالنسبة للحضـــارة الاسلامية التى هى موضوع حديثنا ، وقع رد فعل عنيف من طـرف شاب تفضل قبلى بالكلام عليه أخى الدكتور عثمان امين وهو جمـال الدين الافغانى ، دون أن يحدد منشأه ومولده ، لان هذه الايام ــ أعنى هذه السنوات بدأت ظاهرة غريبة جديدة ، وهى حملة جديـدة عـلى رواد الفكر الاسلامى ، من طرف أناس طيبين احيانا ، وأخطـر شىء علينا فى الصراع الفكرى هو ان تستخدم طيبة اسلامية أو طيبـــة بعض المسلمين فى الصراع الفكرى ضدنا ، ضد المعركة الاسلامية، وتتلمـذ عليه الامـــام عبـده ، وفى الحقيقـــة كـان مـن واجـبى أن أذكر مع الجبرتى وفى الموجة الفكرية التى اخترنا منها .ممثـــلا الجبرتى أذكر معه مثلا رفاعة الطهطاوى أيضا ، وهو من الموجة الفكرية الاولى التى اصطدمت بالحضـارة الغربية دون ان تستنتـج من ذلك الاصطدام منهجا يكون سبيلا للمسلمين وللامة الاسلامية للخروج من أزمتها ، وانما الجبرتى ما فعل الا أن ذكر الأشياء ، أما الطهطـاوى فعل أكثر من هذا ، الطهطاوى وخير الدين باشا فى تونس ، وكـانا تعارفا بباريز ، فى أول القرن التاسع عشر، فماذا قال باختصار رفاعة الطهطاوى فى كتابه «**تخليص الابريز فى تلخيص باريز**» لخص باريز هذا هو الموضوع ، لخص باريز من جوانب ممكن اذا لطفنا الحـكم نقول إجتماعيـة ، أنا عبرت عن هذه الجوانب فى كتاب «وجهة العالم الاسلامى» فقلت : ان الطلبة المسلمين عند ما يذهبون الى الاحيـــاء

اللاتينية مهما تكن فى باريز أو فى برلين ، أو فى لندرة ، لما يذهبون ليتتلمذوا عن الحضارة الغربية ، عن أساتذة غربيين غالبا يتجهون فى اتجاهين : فأما أهل الفضل ـ والحمد لله ـ عندنا نصيب من أهل الفضل فى هذه النخبات التى منهم رفاع الطهطاوى ، فهذه النخبات فيها جانب سليم يذهب الى الحى اللاتينى يعيش فيه طيلة دراسته ، ليرجع لنا بما اكتسب من علم ومعلومات ، والآخر ـ بكل أسف ـ تجب الاشارة اليه الجانب الآخر يذهب مثلا الى Place Blanche Place du Gal الخ · فاننى أشرت الى هذا ولا أعود الى هذا هنا والتطويل والحشو لا لزوم لهما ·

فالطهطاوى كان رجلا فاضلا ذهب الى الجانب السليم فى الحى اللاتينى ، ولكن رأى الحضارة الغربية ، ممكن ان نقول فى لونها الكتبى Livresque وخير الدين باشا أيضا تقريبا فى كتابه «مسالك التعريف بالممالك» يعنى تناول ، وانما على خلاف الطهطاوى الجوهرى الذى تناول الجانب الاجتماعى، تناول هذا الجانب السياسى فرأى الحريات ، وان الدستور الفرنسى ، وان الثورة الفرنسية، والقيم الديموقراطية التى أتت بها الثورة الفرنسية ، فكل هذا ربما ينقل لنا ، وبدأ تيار النقل والتقليد يسرى فعلا فى العالم الاسلامى ، على القاعدة التى أبرزها ابن خلدون ، فى أن المغلوب مولع أبدا بالاقتداء، أى يقلد الغالب ، ففعلت فعلها عندنا هذه القاعدة ، أعنى فى المجتمع الاسلامى منذ عصر محمد على باشا ، غير أننا نلاحظ أن كتاب الجبرتى والطهطاوى وخير الدين باشا لا نجد فيها ـ اذا حللناها ـ النزعة الثورية ، يعنى النوازع التغييرى الا بصيغة استيراد للاشياء ، أو للافكار ، او للمعارف ، استيرادها من الخارج ، دون نزعة ثورية ترمى الى تغيير فى نطاق المجتمع الاسلامى ، واذا بهذه النزعة الثورية التغييرية تأتى فى الموجة الفكرية الثانية ، التى تظهر مع جمال الدين الافغانى ، وفى شخص جمال الدين الافغانى ، لانه هو الرجل الثائر ، ولو كان لقصاص مسلم أن يقوم بتأليف قصة سياسية فذة ، واختار كبطل جمال الدين الافغانى ، لوجد الرجل الذى تتمثل فيه القيم الثورية ، ولكن القيم الثورية من دون أبعاد أخرى ، من دون أبعادها الاجتماعية والثقافية ، والتاريخية ، والتغييرية حقيقة ، أى لو نحلل هذه النزعة الثورية ، التى تتمثل فى شخص جمال الدين

الافغاني نرى لها تقريبا بعدا واحدا ، البعد السياسي ، يريد جمال الدين الافغاني وينادي جمال الدين الافغاني بتغيير التنظيمات السياسية والاوضاع الاسلامية ، لتحقيق ما يسميه الجامعة الاسلامية ، ولكنه رجل عند ما ندرسه ، وهذا ما قلت في شأنه ان لم أخطيء طبعا ، في كتاب « **وجهة العالم الاسلامي** » انه رجل طمح الى هدف شريف ، جليل بالنسبة اليه ، وبالنسبة الى عصره ، دون أن يفكر أن آلة التغيير السياسي لم تكن في يده ، ولم تكن في يده فعلا ، كانت في يد غيره شناه ايران ، والسلطان عبد الحميد ، واسماعيل باشا في مصر ، وغيرهم .. السلطة كانت موزعة في أيد مختلفة ، السلطة التي كان يريد ويستهدف توحيدها في الجامعة الاسلامية وخلافة اسلامية طبعا ، كانت موزعة ، موزعة على من ؟ موزعة في أيد متفرقة وموحدة خفية في يد من حديد ، يد الاستعمار، والصهيونية ، اذن لم تكن في يده ، الوسيلة لم تكن في يده ولا يجوز لي أن أترك الفرصة تمر دون أن أقول انه من هذه الناحية ، الثوري الذي فكر في الغايات او المقاصد دون أن يفكر في الوسائل ، ولكن الشيء الذي يهمني ليس هذا الجواب ، يهمنا كل الجواب ، ولكن يهمنا أكثر ما اجتنى المجتمع الاسلامي من أثر هذا الزعيم الثائر ، ومن أقواله ، ومن جهاده رحمه الله ، ورحمهم الله أجمعين ، ومن أعماله ، أظن فيما أعتقد أن النزعة التقليدية التي نشأت على أساس الاعجاب ، على أساس الشعور بالاعجاب الذي نقله لنا الطهطاوي وخير الدين ، والى حد ما الجبرتي ، على أساس الشعور بالاعجاب نحو الحضارة الغربية ، أتت النزعة الثورية الجمالية ، جمال الدين الافغاني ، تؤكد بطريقة ما ، لان اللغة التي استعملها جمال الدين الافغاني للتغيير هي أن نستورد السلاح – مثلا – من مصانع الاعداء والخصوم كي نقلب عليهم الوضع ، وهذه خرافة المسجون الذي يطلب من ساجنه أن يسلم له مفاتيح السجن ، نلخص هذا التيار بطريقة منهجية حتى لا نتورط ، وحتى نختصر في الكلام ولا نتورط في التفاصيل لانه لا يمكن ، ليس لدينا من الوقت ما يكفي للتفاصيل ، فنشأ عن هذا في العالم الاسلامي أمران سميتهما في «**وجهة العالم الاسلامي**» : **الشيئية ، والتكديس** ، يعني نقرر ضمنا ، أو علنا ، أو صراحة ، نقرر لما تحضر أمامنا مشكلة ، أو تواجهنا مشكلة ، نقرر اننا سنحلها

بأخذ الوسائل من عالم الاشياء ، مثلا كما كان يرى السيد جمال الدين الافغانى ، لو كان عندنا ما يكفى من رشاشات وما يكفى من بنادق ، فى نظره يكفى هذا ، حتى أنه بالغ فى الشيئية الى حد أنه قال يوما أثناء اقامته بالهند للجماهير الهندية والاسلامية طبعا :
«لو كل هندى ـ أكرمكم الله ـ بصق فى البحر لأغرقتم جزر بريطانيا»
اذن أصبحت الاشياء بسيطة ، ولا اريد أن أقارن هذه الكلمة ، وانا أقدر فوق ما يمكن أن أعبر هذا الرجل ، نحن ندرس كى نستفيد ، أما شعورى نحوه فهو شعور من يدين الى غيره بالفضل ، كمسلم ، وكانسان ، ولكن يجب علينا ان نرى جوانب الضعف ، لاننا نحن الذين ندفع ثمنه **الامة الاسلامية تدفع ثمن هذا الضعف ، ضعف التكديس ضعف الشيئية** ، ندفع ثمنه مرتين ، لا مرة واحدة ، ندفع ثمنه لاننا طبعا نقتنى الاشياء ، ولما أقول أشياء أضمنها أيضا بعض الافكار التى نستوردها مثل أفكار لينين LININE أو بالاخص MARXE العظيم ، وكوهين بنديت طبعا لا ننساه ، نحن الذين ندفع ثمنها مرة هذه ندفعها من جيوبنا بالبساطة ، أيام الابتلاء والبلاء الايام التى يريدها الله لعباده حتى يتبين السليم من السقيم كما حدث ولا أذكر الحوادث الكثيرة ، والنكبات الكثيرة التى نتجت عن تكريم الاشياء التى جمدت فى مكانها يوم البلاء ، جمدت بقت فى مكانها يوم الكارثة ·

واستمر العالم الاسلامى فى هذا الطريق يكدس الاشياء،ويكدس الافكار ، حتى الافكار نضمها الى عالم الاشياء ، لانها كانت من هذا القبيل ، اذا كانت مستوردة بضاعة ، يعرف قيمتها من كونها وصاغها ولكن لا يمكن أن يعرف قيمتها من استوردها ، ولا يمكن أن يجد فيها جدوى لانه ترك جذورها واصولها فى اوكارها ، واتى بها الى أرض لا يمكن أن تنبت فيها وتؤدى مفعولها ، ومرت هكذا الايام ، ومرت الحرب العالمية الاولى وقضت نهائيا ـ فى نظر المؤرخ ـ على فكرة الجامعة الاسلامية ، نحن لا نتكلم الا فى نطاق انسانيتنا ، لا نتكهن ولا نرجو من الغير ، لاننى كمؤمن أتكلم كلام غير هذا الكلام ، كمؤمن أومن بأن الله سبحانه سيهىء السبل لهذه الامة الاسلامية ، ويحفظها من كل كيد ، أما كرجل يبحث ويدرس القضايا ، يجب على أن أحلل القضايا كما اراها بقدر المخطىء والمصيب ، ككل انسان ، فانتهت

أو تبخرت مع الحرب العالمية أفكار أو دعوة جمال الدين الافغـــانى للجامعة الاسلامية ، انتهت مع سقوط الخلافة العثمانية نهائيـــا ، قضى عليها السيد كمال أتاتورك ، وعاش تلك الايام السودا، ضمير مسلم آخر ، تمثلت فيه المأساة الاسلامية وهو **شكيب أرسلان ،** **فنشر كتابه المعنون بسؤال : «لماذا تاخر المسلمون وتقدم غيرهم»** هذا هو السؤال ، لا أهدف هنا الى ذكر ما احتوى عليه الكتاب ، ولكن أقول : ان السنين لم تجب علىّ هذا الســؤال الى اليوم ، ونجـد أن السؤال يتردد فى كل مناسبة اسلامية ، مثل هذه المناسبة الكريمة التى ندين بها الى فضل والى رو حالجهاد أكثر من فضــل روح الجهاد التى نلتمسها فى معالى أخينا الوزير السيد مولود قاسم ، فى كـل مناسبة نرى أن هذا السؤال يتردد فى صورة أو أخرى وسمعتـــه أمس على لسان أخى وحبيبى الدكتور عثمان أمين عند ما قال لنـا : لماذا وقعت التعبئة ، وقعت توعية على كل حال قوله ، كلمة التعبئـة وقعت منذ سنة 1850 ولم نر نتيجة فى نطاق الامة الاسلامية ، أمـا التغيرات الاخرى موجودة فعلا ، اما فى نطاق الامة الاسلامية لا نـرى التغير المنشود الذى يضعنا فى مستوى الكتـل البشرية الاخـرى ، مثل الكتلة الصفرا. ، أو الحمراء ، أو البيضاء ، كما تريدون لم يحصل هذا التغيير الجذرى لاحد أمرين ، مثلا اذا حللنا نقول لاحد أمرين حتى لا نتكهن نقول لاحد الامرين ، ان طريق التغيير مغلق الى الابـد ، خلاص انتهينا ، يجب أن نذكـر الله ونحمـد الله ، ونشـكر الله ، وننتظر الساعة ، كما سادت فى القرون الوسطى التى مضت عندنا ، القرون التى نسميها ما بعد الموحدين ، كانت تسود عندنا حكمـــة شعبية ، لما يسأل احدنا : كيف الحال ؟ نأكل القوت وننتظر الموت، خلاص ، اذا كان الطريق لا وجود له خلاص نأكل الخبز وننتظر الموت وانتهينا ، واذا كان الطريق موجود فلا بد من البحث عليه والتنقيب عليه حتى نضع عليه الاقدام ، ثابتين متثبتين من صحة هذا الطريق ، حتى لا يضيع علينا قرنا آخر .

وهنا تمنيت ـ وحيث لاتنفع التمنيات ـ لوكانت أمامكم سبورة خشبية ، لان أحيانا بعض الاشيا، نستعين فى التعبير عليها رسمـا او كتابة على السبورة ، ولكن الحمـد لله ، نعـوض هذه السبـورة الخشبية بالسبورة الجوانية ، ان لدى كل واحد من ابنائنا الطلبـة

سبورة فى نفسه ، هل يسمح لى الكتابة عليها بقدر الامكان لأصور له ولأسهل على نفسى التعبير فى بعض الاشياء ، اذا كان الطريق مسدودا خلاص انتهينا ، نذكر الله ، ونحمد الله ونشكره على نعمه ولو كـان الطريق مسدودا الى الابد ، لان هذا الطريق ليس هو اهتمامى الاكبر ، أقول هذا كمؤمن ، لاننى خلقت وخلقنا وخلق الانس والجن ليعبـدوا الله ، لا ليصنعوا الصاروخ ، لا يهمنى الصاروخ ، والله لا يهمـنى الصاروخ ، واذا كان الطريق نبحث عليه ، نجتهد ، اذا كان موجودا يا حبـذا ٠

اسمحوا لى أن أرسم على سبورتكم الجوانية خطا ، يمثل لى ولكم خطا مستقيما ، لانه تقريبا هو خط زمنى ، ولكن ليس بالخط الزمنى، وسترون لماذا ، نرسم عليه فى الحقيقة الاطوار الاجتماعية أو الحالات الاجتماعية ، الاطوار الاجتماعية الكلمة مقبولة ، والاطوار الاجتماعية التى نجد فيها المجتمعات المتعاصرة مثل المجتمعات المتعاصـرة اليوم فى القرن العشرين ، اذن الخط ليس بالخط الزمنى مع أن فيه رائحة زمنية ، ولكن ليس بالزمنى ، لما نقول ان هذا الخط يصـور لنا أطوار المجتمعات المتعاصرة ، معناه أن المجتمعات كل أطوارها على هذا الخط ، كم سنجد من طور ؟ لا نجد أكثر من ثلاثة أطوار :

التطور الاول : هو ما قبل الحضارة PRE-CIVILISATION

التطور الثانى : الحضارة CIVILISATION

التطور الثالث : ما بعد الحضـارة POST-CIVILISATION

فى القرن العشرين نجد المجتمعات اما فى الحالة الاولى واما فى الحالة الثانية ، واما فى الحالة الثالثة ، وخلاص ، فنتساءل الآن أين التطور الذى نرسم فيه الأمة الاسلامية ؟ نجد مع التحرى أن الأمـة الاسلامية تمثل مجتمعا كبيـرا متنـوعـا ، متنـوع حتـى الأجناس واللغات الخ ٠ ٠ ولكن لا يمكننا اليـوم فى سنـة 1970 أن نخطىء فى شىء اذا قررنا ان هذا المجتمع ليس على أية حال فى طور الحضارة ، هذا بكل أسف هكذا ، واذا أردنا أن ندقق الأشياء الى حد ما نرى أن هذا المجتمع يتوزع على طرفيى الحضارة ، فيه أطـراف مثلا الشعوب الاسلامية الافريقية تعيش ما قبل الحضارة ، لا زالت الآن تعيش ما قبل الحضارة ، وأطراف أخرى كميرة وقيادية بالنسبة

للمجموعة تعيش ما بعد الحضارة ، مثلا العرب والارانيون ، والترك ، الهندوك ، الأندونسيين الخ · · هذه الشعوب كلها شعوب ما بعد الحضارة ، مع أن دخلنا فى الموضوع من باب تأزم الأوضاع الحضارية فيجب أن نجد اذن كيف ندخل بالقطاع الذى هو ما قبل الحضارة ندخله فى الحضارة ، وكيف نعود بالقطاع الذى خرج من الحضارة كيف نعود به للحضارة ؟

فالحقيقة لازدواج المشكلة لان اذا طبقنا المقياس العددى statistique بجانبى الكميى والكيفى ، الجانب القيادى فى هذه المجموعة هو تقريبا العالم العربى ، مثلا العالم الذى بعد قيامه بحضارة ، ولكن قبل هذا فاننى أريد أن أقول شيئا ، فاتنى أن أقف عند هذه الظاهرة : لماذا الامة الاسلامية اليوم فى مجموعها لا نراها فى المرحلة الثانية ، فى المرحلة الوسطى ، مرحلة الحضارة ، لماذا؟ والله الأمر طبيعى لا غرابة فيه ، وليس هذا بدعا فى التاريخ ، لا أجوز لنفسى مركب النقص ولا مركب الاستعلاء ، فالأمور طبيعية تجرى مجراها الطبيعى ، كما أرادتها سنة الله فى الكون ، فالآن لو أردنا الجواب عن سؤال شكيب أرسلان نقول والله السؤال فى غير محله لمثل أن الأمور الطبيعية هكذا ، لماذا أوروبا بعد انتهاء الحضارة الرومانية ، مع سقوط روما فى أواسط القرن الخامس المسيحى ، لماذا أوروبا دخلت فى القرون الوسطى أو العصور الوسطى كما يقولون ، يعنى فى الهمجية ، والجهل ، والوحشية ، لأنه أمر طبيعى لا طريق لنا لجواب آخر ، لأن الأمور الطبيعية هكذا ، يجرى سير البشر فى التاريخ ، لماذا خرجت الأمة الاسلامية من طور الحضارة فى مجموعتها القيادية ، لأنه أمر طبيعى ، لأنها قامت بدورها المدة الكافية وخرجت ، اذن ليست بالمشكلات ، لماذا خرجت من الحضارة لا ليست مشكلة ، أمر طبيعى ، فى الحقيقة نحن فى عدم لأنه يكفينا أن نفتح أيى كتاب تاريخ فنجد أن الحضارة تدوم مدة معينة وتمضى الى غيرها **(وتلك الايام نداولها بين الناس)** هذه سنة الله فى كونه ·

اما السؤال الذى يهمنا هو : نعم الامر طبيعى اذا كنا خرجنا ، اذا بعضنا خرج من الحضارة ، وبعضنا لم يدخل فيها ،فهذا أمر طبيعى يجرى طبقا لحكمة الله ، وطبقا لسنة الله فى خلقه ، وانما الشىء المهم العلمى الذى يهمنا نحن لمواجهة أزمة حضارية التى شعر

بها مالروفى فرنسا ، وشعر بها ابن خلدون فى قلعة بنى سلام ، كيف نحل المشكلة ليس الطبيعة ، نعم طبيعى ولكن نحلل المشكلة ، يجب أن نقول كيف تصاغ أولا بطريقة طبيعية مرة أخرى ، نعم الآن أؤكد هذه الكلمة كيف تصاغ بطريقة طبيعية الحضارة ؟

يا اخونى ، هل كان رصيد الحضارات القديم ولنا طبعا العبرة فى هذه الحضارات القديمة ، لانها هى المقياس التاريخى الذى فى أيدينا نقيس به الأشياء التابعة للتاريخ ، وهذا طبقا أيضا لحكمة نوه بها القرآن الكريم **(قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلكم)** • الحضارات لا تدوم ، ونوه بها الحديث **«اخشوشنوا فان الحضارات لاتدوم»** حتى لو لم يكن صحيحا لأن كلمة حضارة يضهر لى فيها أنها غريبة عن لغة قريش ، النعمة والله حضارة هذا أقرب للغة النبيى صلى الله عليه وسلم ، لأن كلمة حضارة ليست من لغة قريش العادية •

اذن يجب أن نسأل ما كان رصيد هذه الحضارات التى سبقت ومنها الحضارة العربية ، التى أنارت هذا العالم ، رغم ما كان يتصور السيد (قارودى) نفسه ، فى حديث دار بينى وبينه سنة 1948 هنا فى عاصمة الجزائر ، قال لى : أتساءل لماذا الحضارة الاوروبية استمرت والحضارة الاسلامية انقطعت ؟ قلت له يا أخى ــ وكنا فى جماعة ــ هذه الكلمات تعبر لى على ثقب وعلى فجوة فى ثقافه الغرب ، بعد هذه القصة بالذات ، هذا ما قلته فى تلك الايام فى كتاب **«شروط النهضة»** ونقلت القصة اشارة اليها ، قلت : دار بينى وبين أحد الغربيين هذا الحديث وبدون أن أسمى (قارودى) قال لى هذه ثقبة فى ثقافتكم تتصورون وتلقنون لابنائكم ، وأصبحتم تلقنون لابنائنا ان الحضارة الاوروبية مستمرة والحضارة الاسلامية انقطعت ، لا ، للحضارات كلها حظها وعمرها ما يكفى من القرون لأداء وظيفتها ورسالتها فى العالم ، الشيء الذى تسمونه ، أو يسمونه الآن ، أتكلم مع أبنائنا الطلبة ، الشيء الذي يسمونه القرون الوسطى ، قلت له ــ للسيد قارودى ــ العصور المظلمة ليست مظلمة فى كل مكان لو تنبهتم ، انها كانت عصور النور المشرق على العالم ، عصور الكندى والفرابى وأمثالهم ، الكندى الذى تصارع مع وقته ليثبت أن المد

والجزر ظاهرة تابعة لسير القمر ، انظروا اثنى عشر قرنا والاكتشاف هذا بدأ ، فى أوروبا بدأطبعا بعد اثبات قانون الجاذبية فى أواخـــر القرن الثامن عشر ، وقلت للسيد (قارودى) الحضارة الاسلامية أدت رسالتهافى مدى من الزمن ، كاف لأداء رسالتها ، كما ان الحضـــارة الرومانية التى سبقتها أدت رسالتها فى مدى كاف ((وتلك الايـــــام نداولهـا بين النـــاس))

أما الآن نحن نبحث ما كان رصيد هذه الحضارات التى تـوالت على وجه الارض الواحدة تلو الاخرى ، بأى رصيد دخلت المجتمعـات الانسانية من العدم الى التاريخ ، الى الوجود ، الى الحضارية ، بـــأى رصيد دخل العرب فى بداية القرن السابع الميلادى بأى رصيد ؟ .

الحمد لله أرادت الحكمة والعناية الالهية أن تبسط الاشياء لبنى آدم ، فجعلت الرصيد الحضارى على الشياع ، لم تجعله فى كنف الحضارات أوطانا متقدمة كما نقول أليوم ، وفى رعاية الخط البيانى لمتوسط الدخل السنوى فى العالم ، لا ، الرصيد رصيد على الشياع، طبعا يجب علينا بعد هذا ان نتأكد،ولكن الرصيد على الشياع للآدميين على وجه العموم هو : الانسان وامكانيته ، طبعا امكانياته كلهـــــا ، الذهنية ، والجسمية ، ترابه بما فوقه وتحته ، طبعا لما نقول تراب بالتعميم ، معنى التـــراب بالتعميم LA BIOSPHERE المجـال الجيـــوى الذى هو التـــراب ، ثم الـزمن العناصر الـثلاثة هـذه هى رصيد كل حضارة واذا أردنا طبعا ويجب علينا أن نتبين من هذا فى كل حضارة ، واذا اردنا طبعا ، ويجب علينا ان نتبـين من هذا فى تحليل عينات معينة على غرار الباحث عن المعادن ياتى عند ما يكتشف مثلا معدنا معينا فى قطعة أرض معينة يريد لان الاشياء ترتبط ببعضها التقدير الاقتصادى مرتبط بالكمية الموجودة من هذا المعدن ، لان اذا جاءت آلات ومشينات ، ومهندسون ، وأجهزة ضخمة الى استغلال طن من ذهب معناه خسارة كبيرة ، اذن التقويم كيف نقوم ؟ مثلا الحديد، منجم الحديد يؤخذ من عينات معينة بعيدة عن بعضها مائة متر أو مئتين ، أو ثلاثة ، أو كيلو مترا ، لست أدرى،وبعيدة أيضا على بعضها عمقا وسطحيا ، ثم تحلل هذه العينات ، ونقول مثلا المنجم الفـلانى فيه حديد مردوده كذا وكذا ، مثـلا ونزة مردودها أظن 65٪ أو 70٪ من الحديد،اذن نحن لو نأخذ عينة من العينيات الحضارية وهو المنتوج

الحضارى ، الكتاب منتوج حضارى ، الكلمة التى نتكلم بها المصطلحة طبعا ، الكلمة المصطلحة منتوج علمى ، هذه الادوات التى هى أمامنا، وهذا الذى نشرب منه ، هذه كلها منتوجات حضارية ، اذن لدينا وسائل التحليل ، **حتى نتبين من أن الرصيد ليس الا هذه الاشياء الثلاثة ، انسان + تراب + وقت** . اذا أردتم نحلل هذا مثلا ، نأخذ مثلا طبعا هو ممكن التحليل بالطريقة التبسيطية ، يعنى نقول هذا من أى مادة ، والمادة من أية ، هذا طريق الاطفال نتركوه للاطفال ، نحن نعمل شيئا آخر ، نعمل على السبورة الجوانية التى لدينا المعادلة البسيطة ، هذا مثلا يساوى انسانا + ترابا + وقتا ، وعندنا طريقة بسيطة فى علم الرياضية ، اذن المعادلة صحيحة ، عندنا طريقتان للتأكد من صحتها ، طريق الاضافة ، وطريق الطرح ، هيا نضيف للمعادلة شيئا تنظرونه أنتم لازم حتى يتكون هذا أمامكم ، وهكذا يصنعه مصنعه ، وهكذا فى باريز أو فى غير باريز ، مثلا نضيف كلمة ، أنا قلت هذا يساوى انسان + تراب + وقت ، ماذ ترون أن نضيف الى هذا ؟ شىء عظيم مثلا العلم ، كلمة عظيمة هذه ، العلم نضيفه ، هذا يساوى انسان + تراب + وقت + علم هل صحيح ؟ لا ، غير صحيح من الناحية العلمية ، لان العلم بدوره لما أضعه فى هذا الترقيم ، فى هذه القائمة أضعه على أنه منتوج حضارى هو العلم نفسه منتوج حضارى ، يساوى الانسان + تراب + وقت ، العلم هو نفسه مركب ، أما لما أقول انسانا فانى أذكر شيئا غير مركب لما أقول ترابا أذكر شيئا ــ الناحية الاجتماعية تتكلم ــ غير مركب ، لما أقول زمنا أذكر شيئا غير مركب ، أما لما أقول علم ، أقول شيئا يساوى الانسان + ترابا + وقتا .

لكن الدليل الآخر الآن الطرح ، ننزع من المعادلة أحد الاطراف الثلاثة ، مثلا الانسان هل يبقى هذا ؟ يذوب ينتهى ، اذا نزعت من هذه المعطيات الثلاثة مثلا الانسان زال هذا انتهى ، واذا أضفنا اليه هذا لست أدرى ، اذا نزعنا الزمن هل يمكن أن نتصور هذا ، نربط حلقة صغيرة ندرس فيها قيمة الزمن فى هذه المنتوجات الحضارية ، مثلا ــ ماركونى MARCONI تفضل على الانسانية فى سنة 12 أظن أو 11 بجهاز الراديو ، وهل كان يمكنه أن يتقدم بهذا الاختراع المهم لولا أن سبقه بنصف قرن تقريبا الالمانى ــ هرتز HERTZ الذى

اكتشف الموجة الكهربائية ، معناه انه لو لم يكن بين (ماركوني) وبين (هرتز) هذا المقدار من الزمن لم تكتمل شروط اختراع السيد (ماركوني) ، لم تكتمل الشروط ينقص شيء ، اذن الزمن شيء جوهري في كل المعادلات الاجتماعية ، معناه في كل المنتوجات الحضارية ، فاذا تأكدنا من هذا باضافة العلم فوجدنا العلم نفسه يحلل الى ثلاثة أشياء الانسان ، التراب ، الوقت ، اذ لا يضاف الى هذا شيء،اذا سحبنا شيء نرى أن السحب يزيل الشيء ، اذن المعادلة صحيحة صحت بطريقتين المعادلة صحيحة هذا يساوي الانسان + التراب + الوقت فعلا ٠

الآن نراجع في ضوء هذه المعادلة الطريقة المتبعة ، المتبعة بالضرورة ، لسنا في مقام النقد ، نحن في مقام الدراسة ، ولسنا في مقام كيف ولماذا ، لسنا في مرافعة ضد الماضي ، وضد الجدود ، وضد الاعداء ، لسنا في مرافعة ولكننا ندرس ، نحن ندرس ، نقول الآن اذا أردت أن أجعل على هذه السبورة الجوانية التي وضعناها أمامنا قائمة الاشياء الحضارية كلها ، مثلا من الابرة الى الصاروخ أبولو 13 أو 14 ، فلو نضع هذه القائمة على السبورة منتوج حضاري رقم واحد يساوي انسانا + ترابا + وقتا ، منتوج حضاري رقم 2 يساوي انسانا + ترابا + وقتا ، ، منتوج حضاري رقم 3 يساوي انسانا + ترابا + وقتا ، ونكتب عشرين سنة أو ثلاثين سنة ، أو مائة سنة لا نعرف ، نحن لا نعرف ، نكتب بعد مائة سنة ننتهي المنتوج الحضاري النهائي لا نعرف ما هو ، أبو لو لست أدري عدد كم، يساوي انسانا + ترابا + وقتا ٠ هذه الصيغة على السبورة الجوانية توحي لنا بشيء اننا نجمع هذه الاشياء يعني منتوج حضاري واحد ، منتوج حضاري اثنين ، منتوج حضاري ثلاثة الخ ٠ ٠ حتى المنتوج الحضاري النهائي نجمعها ونسميها كما يقولون Se gment Produit de civilisation يعني مجموع منتوج حضاري خلاص ، لا نعقد الاشياء ، مجموع منتوج حضاري يساوي من الناحية الاخرى ، الطرف الآخر مجموع انسان + مجموع تراب + مجموع زمن ، هذه من الناحية الرياضية المعادلة تكفي هكذا ، وهذا من الناحية الرياضية هذا هو الضبط على القاعدة الرياضية ، يعني لا مجادلة فيها ، العبرة لنا في هذه المعادلة النهائية مجموع منتوج حضاري يساوي مجموع

انسان + مجموع تراب + مجموع وقت أو زمن ، هذا الشطر الاوّل الطرف الاول مجموع منتوج حضارى كيف نفسره ؟

اولا : نفسر فى ضوئه ظاهرة التكديس والشيئية ، هنا نفهم استحالتين : استحالة منطقية ، واستحالة اقتصادية ، قائمة منتوجات الحضارة هذه هل يستطيع مجتمع من المجتمعات وأى مجتمع كان ، مثلا أمريكا اغنى المجتمعات اليوم ، هل تستطيع أمريكا أن تدفع ثمن هذه القائمة ؟ لا والله ، ولن تستطيع دفع ثمن مدينة واحدة من أمريكا وهى نيويورك رصيد أمريكا منذ سنتين ، رصيد أمريكا من الذهب قبل سنتين أو ثلاثة ، 13 مليار دولار ، ومدينة نيويورك وحدها تساوى أكثر من ضعفيى أو ثلاثة اضعاف أو أربعة اضعاف هذا المبلغ ، لا يمكن لامريكا أن تشترى نيويورك وحدها ، اما لما نقول أن الشعب الأمريكى صنع نيويورك فلا جدال فى هذا ، من صنعه ؟ هل صنعته الشياطين والملائكة ، صنعه الشعب الأمريكى فعلا ، اذن يجب علينا أن نفرق بين شيء نسميه الامكان المالى ، والامكان الاجتماعى

le pouvoir financier et le pouvoir social

هذان شيئان لا نخلط بينهما ، والا نحن نخبط الاشياء

Le pouvoir social est une chose le pouvoir financier est une autre chose et c'est le pouvoir social qui détermine le pouvoir financier.

اسمحوا لى أن نراجع هذه الفكرة، ان هذه القائمة تدلنا على شيء ، أنه ليس فى امكان أيى مجتمع أن يقتنيها بثمنها النقدى لايمكن غير ممكن ، لا يستطيع أحدا ، لا ألمانيا ، ولا أمريكا ، ولا الصين ، ولا غيرهم ، ولا أيى مجتمع حتى أننا اذا قدرنا أن أمريكا لا تستطيع أن تشترى ـ لا هذه القائمة ـ هذه القائمة فوق المستحيل ـ حتى نيويورك مدينة واحدة ، يعنى طرف صغير من هذه القائمة ، طرف صغير من هذه القائمة لأن محتويات نيويورك ليست القائمة هذه ، القائمة هذه أكثر منها بكثير ، أمريكا لا تستطيع ان تدفع ثمن نيويورك واحدة ومن ناحية أخرى نقول ان أمريكا صنعت الشعب الأمريكى ، يعنى مثلا صنع نيويورك ، والشعب الألمانى صنع برلين بعد تحطيمه البتة ، صنع المانيا ليست برلين فقط ، صنع المانيا

أعادها للوجود ، فى 8 ماى 1945 بقت المانيا قاعا صفصفا وبقى الشعب الالمانى فارغ الوطاب، ليس فى يديه ولا فى جيبه شيء فاعاد كل البناء اذن يجب علينا أن نفرق بين طاقتين أو امكانيتين الامكان النقدى المالى ، والامكان الاجتماعى ، هذان أمران يجب الا نخلط بينهما لأن الخلط هو الذى يجعلنا نتورط فى عملية عابثة فاشلة هى عملية التكديس لانها عملية مستحيلة ، مهما تكدس من ـ الأشياء المشتريات ، مهما نكدس ومهما ندفع من جيوبنا فلا نستطيع أبدا والى الأبد أن نستورد كل منتوجات الحضارة هذا مستحيل ، هذه استحالة اقتصادية ، ولكن هناك استحالة اخرى لعلها أشنع ، وهى استحالة منطقية لان من الناحية المنطقية ماذا يعنى لما نستورد الاشياء لنكون على أساسها الذى يسمى حضارة ، كى نخرج بها من ازمة حضارية معينة ، ايى لنعود بهذا المجتمع او ندخل بهذا الطرف الآخر لمجتمعنا الاسلامى فى الدورة الحضارية ، اذا أردنا على هذا الأساس أن نعود بهذا الطرف الى الدورة الحضارية على أساس اشتراء القائمة فاننا نجرى أو نسير على قاعدة من يريد انتاج السبب ، او تسبيب السبب عن نتائجه ، وهذا ضرب من المستحيل ، وهذا خطأ فضيع من الناحية المنطقية ، ان الحضارة لا تكونها منتوجاتها بل الحضارة هى التى تكون منتوجاتها كلها ․

والحمد لله ان المجتمع الاسلامى ، وفى هذا الوطن على وجه الخصوص بدأت بوادر خير واننا نعيد النظر فى قضايا كانت مهملة وهى الأن قائمة تحت نظر المسؤولين فى مختلف البلاد العربية والاسلامية ، والعربية على وجه الخصوص ، فاننا نعيد النظر اليوم فى اخطر قضية من هذه القضايا وراس هذه القضايا كلها هى قضية الانسان ، قضية الفرد ، قضية الرجل ، فالقضية ليست قضية الأشياء والمنتوجات الحضارية ، فهذه قضية هينة ، أما الشيىء الذى نفقده ـ كنا نفقده ـ والآن والحمد لله ـ ولست مبالغا فى التفاؤل اظن ـ دخلنا فى طور جديد وأننا نعطى لقضية الانسان مكانها الأول فى محاولات التغيير التى تجرى اليوم فى المخططات التى تطبق فى البلاد الاسلامية على العموم ، وفى البلاد الجزائرية على وجه الخصوص ومنها ما تلفت اليه نظر شبابنا الشباب العربى كله ، والشباب الجزائرى ، لأننا اليوم نعيش معركة كبيرة فى هذا الوطن ، معركة

التغيير التى تتنـاول جانبين : جانب المخطط الـــربــاعى ، الجانب الاجتماعى الاقتصادى المعروف ، وجانب التعريب ، ومعركة التعريب فاذا حققنا انجاح هتين الخطتين من ناحية المخطط الرباعى ، ومـــن ناحية اخرى قضية التعريب ، وعربنا ، ووحدنا ، عربنا معناه وحدنا لغتنا أولا فى عقربيتنا ، ثم لصلتنا مع الأشقاء ، اليوم أنا أتحدث وبينما يستمع الى واحد من الطلاب المراكشيين مثلا ، والتونسيين واخواننا من الأفارقة ، وأظن من الليبيين ، والسوريين ، ماذا وحد بيننا فى هذه اللحظات التى أسعدت بها للحديث معكم ، لولا أننى أتكلم بهذه اللغة ، بأمر منكم لأنكم أمرتم ، اقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ، وللمؤمنين ، وأرجو الله أن ينصرنا أولا على أنفسنا لانّ العدو الصهيونى ، والاعداء الظاهرين أقل خطرا علينا مـــن نفوسنا ، فاذا غيرنا ما بانفسنا يتغير العالم حولنا ، طبقا لما قال عز وجل **(ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم)** • صدق الله العظيم•

والسلام عليكم•

منشـــــورات

وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينيــة



1978 No 56

العدد 56

فهـــرس الـعـــدد

● دراســات وابحــاث :

● بـاب التفســير :

● فتـــاو :

● من محـاضرات الملتـقى :

لسنـــــا يتـــــامى التـاريـــــخ ! (1)

- الامة الجزائرية انشات وحدتها الحالية قبل قرون من الوحدة الالمانيـة ، والفرنسية بالنسبة لبعض مقاطعات هــذه الاخيرة .
- الالفاظ ، والتسميات ليست ذات قيمة شكلية فحسب ، وانما تـدل على مبادىء ، ومفاهيـم ووقائـع .

حديـث للسيـد
مولود قاسـم نايت بلقاسـم
الوزير لـدى رئاسـة الجمهورية
المكلف بالشـؤون الدينيـة



على اثـر انعقاد حلقـة دراسية حـول « المصادر المعاصرة لتاريخ الجزائر » بمقر المركز الوطنى للدراسات التاريخية يومى 3 و 4 مارس 1978 ، تفضل السيد مولود قـاسم نـايت بلقاسم ، الوزير لدى رئاسة الجمهورية ، المكلف بالشؤون الدينية ، والذى تولى افتتاح الدورة فادلى لنا ـ بطلب منا ـ بالحديث التالى :

سؤال : سيدى الوزير ، لقد توليتم مؤخرا رئاسة الحلقة الدراسية التى نظمها المركز الوطنى للدراسات التاريخية والمديرية الوطنية للوثائق حول البحث التاريخى ، فهل لكم ـ وقد اختتمت أشغال هذه الحلقة ـ أن تبينوا لنا لماذا كانت الوثيقة والوثائق المحفوظة من الاهمية بمكان للمؤرخ الجزائرى الذى يحدوه فى أعماله حرص شديد على كتابة تاريخ وطنى حقيقى ؟

(1) ترجمة حديث نشرته جريدة المجاهد اليومية بتاريخ 13 مارس 1978 .

جواب : يجب القول ، أولا ، إن الوثائق المتعلقة بالتاريخ أو ما يقوم مقامها ، باعتبارها أدوات رئيسية ، وباعتبار التاريخ يمثل ما تعارف الناس على تسميته بذاكرة الامم ، تعد ذات أهمية رئيسية • ولا تقتصر هذه الوثائق ـ حسب ما يراه كبار الاخصائيين ـ على الوثائق المخطوطة أو المطبوعة فحسب ، بل تشمل كل الآثار الدالة على الماضي •

فأي اكتشاف فى متيجة مثلا لاداة فلاحية كمحراث بدائى ، أو نظام للري ، مهما كان باليا ، يرجع تاريخه الى ما قبل سنة 1830 ، قد يقوم برهانا قاطعا لدحض كل حجة أو احصاء أيا كان نوعهما مما يرمى من ورائه الاستعمار الى اثبات أن متيجة كانت عبارة عن مستنقع واسع ، وأن المعمرين،أو بالاصح : المخربين (1) الفرنسيين هم الذين حولوها الى ما هي عليه اليوم •

ويجب التأكيد بخصوص الوثائق المكتوبة ـ وهذا أمر بديهى بالنسبة الى تاريخ أي بلد من البلدان ، وتاريخ بلدنا بوجه خاص ـ أن اقل قطعة ورق ، واقل قصاصة صحيفة من صحف الماضى ، من تلك الصحف ، أو بالاحرى : الصحائف أو الخفائف التى كانت تصدر مثلا فى كثير من جهات بلادنا ابان العهد الاستعمارى ، واية رسالة عائلية يعثر عليها فى سقف أو فى كهف « بلدية ممتزجة »(2) من ذلك العهد يمكن أن تكون ذات أهمية لا تقدر بثمن بالنسبة الى مؤرخ اليوم ، أو باحث المستقبل • انها كلها مصادر لاستقاء معلومات عن أحداث وقعت قد لا نجدها لا فى كتب التاريخ المقررة ولا حتى فى الموسوعات •

وعلى سبيل المثل ، الذى ربما كان من قبيل ما يتندر به ، ولكنه مما يحز فى النفوس أيضا ، أننا سنحاول عبثا لو بحثنا فى كتب التاريخ المقررة أو فى أي ضرب من ضروب الكتب الاخرى عن القرار السيىء الشنيع الذكر الذى اتخذته « المجالس العامة الفرنسية » بالجزائر فى الاربعينات بشأن تعليم اللغة العربية ، على اثر المشروع الذى لا يقل عنه شناعة مما كان يعرف « بالقانون الاساسى للجزائر » سنة 1947 •

وينص القرار حرفيا:

«وحيث ان اللغة العربية ذات اشكال ثلاثة :

1) اللغة الفصيحة الكلاسيكية ، وهي ميتة ،

---

(1) نوافق استاذنا الكبير الدكتور عثمان أمين فى تصحيح تسمية الاستعمار بالاستخراب ، وهي ترجمة أدق وأوفق •

(2) Commune mixte.

(2) اللغة الفصيحة الحديثة ، ولكنها لا توجد الا فى الشرق ، وبالتالى فهى غير معروفة فى الجـزائر .

3) اللغة الدارجة ، وهي غـير صالحة لتكون لغة رسميـــة ، ولا أداة للتعبـير عن المعـارف الحديثـــة .

توصى المجالس العامة الولاية العامة بعدم تعليم اللغة العربية إصلا ، بينما يمكن المرء أن يعثر على هذا التصريح فى أية صحيفة من صحف ذلك العهد . وهنا تتجلى أهمية هـذا النوع من الوثائق وغيرها من المستندات الاخرى الكثيرة . والواقع ان كل ما له دلالـة ما بالنسبة الى الماضى البعيد أو القريب يمكن تسميته بالارشيف سواء كان موجودا داخل التراب الوطنى أم خارجه .

سؤال : وبصدد هذه الوثائق الجزائرية بالذات ، أو التى لها صلة بتاريخ شعبنا ، والتى تتوزعها مكتبات عبر كثير من البلدان الاجنبية ، هل لكم أن تحدثونا عما اذا كانت هناك مبادرات جدية قد اتخذت لاسترجاعها أو لاستغلالها فى عين المكان ؟

جواب : فى هذا الباب بالذات ، وهو ابعد ما يكون عن أن يوصد ، لم نسترجع من وثائقنا الموجودة خارج البلاد ، رغم المساعى المتكررة ، الا جزءا ضئيلا مما لـه دلالة سياسية ، أو ديبلوماسية ، أو تاريخية غير ذات شان كبير .

اما مراسلات الدولة الجزائرية مع مجموع العالم ، والنسخ الاصلية للمعاهدات التى ابرمتها ابتداء من سنة 1534 حتى سنة 1847 مع البلدان الاخرى ، من فرنسا الى الولايات المتحدة ، فلم نسترجعها بعد ، وما تزال مخزونة فى كهوف مكتبات باريس ، وايكس انبروفانس Aix-en-Provence واماكن أخرى غيرهما . وقـد نقلـت الادارة الاستعمارية هذه الوثائق فى ايام جويلية المحمومة من سنة 1962 .

وثمة رصيد آخـر ذو أهمية قصوى قـد شرعت الجزائر منذ بضـع سنوات فى استغلاله . ويتمثل هذا الرصيد فى وثائقنا الموجودة بمدينة اسطنبول . وقد نتجت هذه الفجوة بصورة أساسية عـن افتقارنا الى مؤرخين يحسنون اللغـة التركية ، على أن الكلام التركى لذلك العهد ، ويدعى « العثمانى » ، كان نصفه على الاقل يتكون مـن كلمـات عـربية .

ويمكن القول ، فيما يتعلق بتاريخ الجزائر الذى له صلة بهذه الوثائق العثمانية ، إنه ، علاوة على مبادرتين خصوصيتين ، احداهما هي التى قام بها الاستاذ عبد القادر محداد ، الذى نعلم انـه يجرى ابحاثا منذ بضع سنوات (ما تـزال غير مطبوعة) ، والثانية هي التى قام بها الدكتور عبد الجليل التميمى ، الذى نشر او ترجم ، استنادا الى منشورات تركية ، بعض وثائـق بالغـة الاهمية (يمكن أن نـذكر منها الكتابين

الوحيدين الآتيين : كتاب الدكتور التميمي الذى هو حاليا تحت الطبع حـول مقاومة القطاع القسنطيني للاحتلال الاستعماري بقيادة احمد بـاي من سنة 1830 الى سنة 1848 ، واطروحة الاستاذ ارجوماند كوران لنيل درجة الدكتوراة حول « موقف الباب العالي من غزو فرنسا للجزائر سنة 1830 » ، اقول انـه الى جانب هاتين المبادرتين اذن ، هناك مبادرة اخرى هي أحدثها ، الا وهي قيـام الرئاسة بايفاد المؤرخ أحمد توفيق المدني الى تركيا حيث يجرى أبحاثا بفضل أصدقاء له من الاتراك ، والذى جلب معه اكثر من مائة وثيقة يقوم بترجمتها حاليا أستاذ تركي كان سابقا بالمعهد الاسلامي في تيزي وزو ، الحق أخيرا بالمركز الوطني للدراسات التاريخية ·

ووجه المأساة فى المسألة أن هذه الوثائق لم يجر ترتيبها أبدا فى اسطنبول ، بل بقيت ـ فيما قيل لنا من عدة جهات ـ مكدسة ، مشتتة ، مغبرة ، مصفرة ، بفعل الزمن والرطوبة فى الكهوف ، ومن ثم ضرورة التعجيل بتجنيد جميع الوسائل من أجـل استغلالها السريع ، ووجوب أن يكون المؤرخ الذى يتناول فى أعماله تاريخ الجزائر من القرن السادس عشر الى يومنا هذا عارفا باللغة التركية ، زيـادة على لغـات أجنبيـة أخـرى ·

وبالاضافة الى هذه الوثائق المطبوعة أو المخطوطة ، أود أن أشير الى انه مـا تزال بحوزة فرنسا وثائق جزائرية من نوع آخر ، وذات قيمـة أخرى ، مثل مكتبة الامير عبد القادر وغيرها من المكتبات الاخرى ، العمومية منها والخصوصية ، ومثل « المدفعين الرائعين الشهيرين المصنوعين من البرونز » واللذين يرجع تاريخهما الى القرن السادس عشر ، ذانك المدفعان اللذان اخذهما معه الفلاماندي « سيمون دانسر » Simon Danser الذى تلقب باسم مـراد رئيس (3) الذى بعد أن غـدا جزائريا ، راح فاستوطن بلدا ثانيا ، وبالذات فرنسا ، حاملا معه تينكم القطعتين من السلاح اللتين ذكرهما المؤرخ الفرنسي « هنري غارو » Henri Garrot فى كتـابه « تاريخ الجزائر العـام » ، وسلمهما سنة 1608 الى دوق دي غيز Duc de Guise أمـير البحر وقـائد أسطول الشرق ابان حكم الملك لويس الثالث عشـر · ومـن بين الاسلحة والروائع الاخرى التى ترجع الى مختلف العصور نذكر منها المدافع السبعمائة التى كانت فى الاصل فرنسية وغنمها الجزائريون من فشل غارة الدوق دي بوفور Duc de Beaufort فى عهد لويس الرابع عشر على جيجل يوم 23 يوليو 1664 ، وأخرى غنموها من فشل

(3) والذى أعطى اسمه ـ محرفا ـ لحي معروف بالعاصمة هو بئر مندرايس ·

غارة شارل الخامس (شارلكان) على الجزائر سنة 1541 ، والتى كان هذا الاخير قد غنمها بدوره من جيوش فرانسوى الاول ملك فرنسا فى معركة بافيا Pavie التى اخذ فيها هذا الاخير اسيرا ، يوم 25 فبراير 1552 . وكذلك المدافع الثلاثة المصنوعة فى تلمسان سنة 1833 والتى اخذها بيجو من الامير عبد القادر . وربما كانت هذه الاخيرة ما تزال موجودة فى الانفليد Les Invalides فى باريس .

سؤال : سيدى الوزير ، اذا كان استرداد المستندات التاريخية يعد عملية أساسية ، فان استغلالها لاغراض كتابة التاريخ كتابة أمينة قدر الامكان يظل ـ كما يبدو لنا ـ هو الهدف الرئيسى .

جواب : أجل ، ان عملية الاسترداد ليست غاية لذاتها . لان هذه الاشياء التى ذكرناها وغيرها وان كانت ذات أهمية تاريخية بالغة الا أنها تبقى أولا من نوع قطع المتاحف. بينما الوثائق والمستندات المكتوبة هى من النوع الآخر الذى يتطلب أن يستغل الى أقصى حد، وأن يدرس دراسة منهجية ، دقيقة ومنظمة ، وأن تكون تلك الدراسة ، على الخصوص ، بروحنا وعقلنا معا ، وبرغبة قوية فى تصحيح الوقائع ، وتسجيل نقاط الضعف فى تاريخنا ، لكن مع القيام كذلك بابراز الامجاد وعهود العز ، ذلك لان الاستعمار قد بالغ فى تزوير الوقائع والاحداث التاريخية قاصدا بذلك الى تعقيدنا ، اي جعلنا نشعر بعقد النقص ، والى اظهارنا بمظهر يتامى التاريخ ، دون ماض ، او وجود كدولة وكامة ، كانت لها مساهمتها فى الحضارة الانسانية .

لذلك ، كان لابد من الاسراع فى استكمال عملية استرجاع كل هذه الآثار الدالة على ماضينا ، سواء المكتوبة منها او المادية ، وابراز هذه الموسوعة التاريخية للجزائر تدريجيا وبنظام وترتيب ، نسير فيها خطوة خطوة ، لكن بوتيرة فيها شىء من السرعة وتجمع بين الكيف والكم .

سؤال : لقد اثرتم فى الكلمة التى القيتموها فى جلسة افتتاح الحلقة الدراسية حول الوثائق والتاريخ قضية تبدو لنا ـ لاهميتها ـ جديرة بأن تحظى بمزيد من التفاصيل ، الا وهي استعمال رجل الشارع والمؤرخ نفسه ، للاسف الشديد ، مصطلحات مغلوطة ، فماذا فى الامر بالضبط ؟

جواب : وهنا ايضا يتعين العمل بسرعة على اجراء مراجعة شاملة لبعض المصطلحات التى تبناها الكثير منا حتى الآن ، وخاصة فيما يتعلق بالتاريخ الحديث ، اي التاريخ الذى يتناول الحقبة الممتدة من العصر الموسوم بالعهد التركى (والذى بدأ

بوصول عروج وخير الدين بربروس وأخويهما أسحاق والياس الى بجاية وجيجل سنة 1510 ، استجابة لنداء البجائيين الذين كانوا يواجهون حملات مطاردة يمارسها الاسبان ضد الاندلسيين الملتجئين الى بلدان المغرب ، والتى كانت فى الوقت نفسه مدا صليبيا) الى العصر الحاضر . ومن المفيد أن نتحدث عن هذه الحقبة بالذات لابراز خطا العبارة القائلة « بأن الجزائر نالت استقلالها فى سنة 1962 » ، وعلينا أن نذكر اذن بأن اسبانيا قد انقضت على بلدان شمال افريقيا بعد خمس سنوات فقط من سقوط غرناطة وقيام فردناند الكاثوليكى ، الحفيد المباشر لشارلكان[1]، وزوجته ايسابيلا الكاثوليكية ، بطرد مسلمى الاندلس ، فاحتلت على التوالى سبتة ومليلة فى المغرب عام 1497 ، وما تزال تحتلهما حتى الآن ، والمرسى الكبير فى سنة 1505 ، بقيادة الكاردينال خيمنيث Gimenez وبيدرو دى نافارو Pedro de Navarro ووهران فى سنة 1509 ، وتونس ثم طرابلس سنة 1510 . وقام البرتغال من جهته بالاستيلاء على كامل الساحل المغربى : اغادير ، وسافى ، وأزمور ، وكل منطقة الدوكالة فى سنة 1507 .

ولم يطرد الاسبان من بجاية ومستغانم على التوالى الا فى سنة 1555 على يدى صالح الرئيس ، وفى سنة 1558 على يدى حسن بن خير الدين ، ولم تحرر وهران نهائيا الا فى سنة 1792 على يدى محمد بن عثمان الكبير ، وتونس سنة 1570 على يد على باشا الجزائرى الذى طردهم منها هم وعميلهم حميده الحفصى آخر ملوك الحفصيين .

وقد أسس الدولة الجزائرية الحديثة عقب الغزو الاسبانى خير الدين المدعو بربروس ، وذلك فى سنة 1519 ، وأطلق عليها اسم « دولة الجزائريين » . وامتدت هذه الدولة فيما بعد الى عين صالح وتمنراست ، وقد استمدت المدينة الاولى اسمها من زيارة صالح رئيس لها سنة 1555 . ويعنى هذا ـ بين قوسين ـ ان الامة الجزائرية أنشأت وحدة ضمن حدودها الحالية بقرون قبل الوحدة الالمانية ، والوحدة الايطالية ، بل وحتى الفرنسية بالنسبة الى بعض مقاطعاتها .

وبهذه الصفة وبهذا الاسم « دولة الجزائريين » تم ابرام المعاهدة الاولى بين الجزائر وفرنسا ، ووقعها فى سنة 1534 مفوض خير الدين باسم هذه الدولة من جهة ، وسليمان القانونى شخصيا باسم الخلافة العثمانية من ناحية ثانية ، وفرانسوا الاول نفسه باسم فرنسا من جهة ثالثة . ووقعت الجزائر هذه المعاهدة الثلاثية المدعوة بمعاهدة شاتلرو Chatellerault لا باعتبارها مقاطعة من مقاطعات

(1) من جهة الام .

الامبراطورية العثمانية، اذ لـو كانت كذلك ، مـا كانت لتحتـل مكـانها على مـائدة المفاوضات ـ بل باعتبارها طـرفا ثالثا مستقلا ودولة تتمتع بالسيادة الكاملة عـلى قدم المساواة مع امبراطوريتين من اكبر امبراطوريات ذلك العصر • وبعد سنة واحدة نزل سفير فرنسا الاول جان لافورى Jean Laforêt بالجزائر العاصمة ، ولم يتوجه الى القسطنطينية الا بعد ذلك • وعلى هذا ، فلو كانت الجزائر مجرد « ايالة » أو « مقاطعة » عثمانية لكان جان لافورى Jean Laforêt قد بدأ بالقسطنطينية ، ولما كان ليقدم الى الجزائر « مقاطعتها ! » الا بعد ذلك ، كما هو العرف الدولى فى الديبلوماسية بالامس واليوم •

وبعد هذه المعاهدة ، وقعت الدولة الجزائرية مع فرنسا فيما بين 1534 و 1847 (الوثيقة المشؤومة بين عبد القادر ودوق دومال Duc d'Aumale) 64 اتفاقية ومعاهدة واتفاقية ، من بينها الوثيقة التى اعترفت بموجبها الدولة الجزائرية باول حكـومة منبثقة عن الثورة الفرنسية فى 20 مارس 1793 ، والوثيقة التى منح داي الجزائر حسن بمقتضاها فرنسا قرضا ماليا قدر مبلغه (راس المال والفوائد) المؤرخ الالمانى جورى سيميونوف Juri Semionov فى كتابـه « ازدهار وانهيار الامبراطورية الاستعمارية الفرنسية » كما قدره مؤخرا الكاتب الفرنسى « ا• ديفور A. Dufour فى عدد افريل 1975 من مجلة « فرنسا والبلدان العربية » باربعين (40) مليار فرنك قديم •(1)

وبالنظر الى هذه الوقائع كلها ، لا يسعنا الا ان نستنتج بأن التاريخ قد زور بفعل منا وبفعل من غيرنا حين نتحدث عن الجزائر باعتبارها دولـة تـركية تحت الحـكم التركى • ومن ثم تتجلى اهمية هذه المصطلحات ، ذلك لان الالفاظ والتسميات ليسـت ذات قيمة شكلية فحسب ، وانما تدل على مبادىء ، ومفاهيم ، ووقائع • وليس مـن نافلة القول ان نذكر بعض الامثلة للتنديد بهذه الاخطاء :

مـن ذلك ان البرنامج الدراسى الاول الذى سطـر للتعليم الثانوى فى سنـة 1962/1963 ، اي سطر منا وبايدينا ، كان يتضمن ، لتعيين وتحديد اهم عصور التاريخ الجزائرى ، هذه العناوين الآتية :

1) العصـر الرومـانـى •
2) الغـزو العـربـى •
3) السيطـرة التـركيـة •
4) وصـول الفـرنسيين •

(1) ولم يسدد منه حتى اليوم فرنك واحد !

فهو العصر بالنسبة الى البعض وهو الغزو او الحكم والسيطرة بالنسبة الى الآخرين ، اما بالنسبة الى الاواخر فهو الوصول ! وهذا ما لا يحتاج الى تعليق ·

واذا كانت الدولة الجزائرية تبدأ من ماسينسا ويوغرطا دون انقطاع ، حتى طيلة العصور الكبرى للامويين ، والعباسيين ، والموحدين ، حيث كانت هناك كيانات تشكل مجموعات ، وحيث كان مفهوم الدولة بالمعنى الحديث لا وجود له بعد ، وحيث كانت الوصاية مجرد وصاية روحية حتى مع الدولة العثمانية ، فان الدولة الجزائرية فى العصر الحديث كان لها اسمها الرسمى وهو « دولة الجزائريين » (1) · اما سلطة الخلافة العثمانية فانها كانت ذات سمة روحية لا غير ، على غرار مـا كان يمـارسه الفاتيكان من سلطة على أوروبا المسيحية فى ذلك العصر ، بل اقل مباشرة منها ·

فمن الواجب اذن ـ حين نتحدث عن الجزائر ونشير الى حدث 1962 ـ أن نقول « استرجاع الاستقلال » ، « استعادة الاستقلال » ، أو « التحرير » ·

وهناك مثال اخر هو تعبير « الدولة الفتية » الذى يحمل فى ذهن وفم من يطلقونه من الاوروبيين على بلـدان العـالم الثالث معنى قادحا[2] تحقيريا لهذه البلـدان يعنى « فسيفساء »من قبائل لم تعرف ابدا كيانا موحدا وقد برزت لاول مرة على سطح هذا العالم ، اخذة مكانها الى جنب امم كانها كانت موجودة دائما ، وكانت ازلية ابـدية بالمعنى الفلسفى للكلمة ، اي ليست لها بداية ولا نهاية ، مما قد يقود الى تصنيف الامم الى : امم تاريخية ساهمت فى الحضارة الانسانية ، وامم اخرى لم تكد تخرج مـــن العـــدم !

ونفس الاستدلال ينطبق على مفهوم امم تقول انها كانت سيدة نفسها ابدا ومستقلة دائما ، بينما لم يكن من امر امم اخرى سوى انها حصلت على استقلالها ، اي استقلت لاول مرة فى التاريخ ! من ذلك اننا نسمع ونقرأ عندنا نحن انفسنا ، ما نقوله ونكتبه عن انفسنا ايضا عبارة « استقلال الجزائر » · ومن هذا القبيل ايضا ما صرح بـــه رئيس الدولة الفرنسية حاليا لدى زيارته لبلادنا حيث قال فـور نزوله بمطار الدار البيضاء : « ان فرنسا التاريخية لتحيى الجزائر المستقلة » !

وربما كان من اللائق ان ندرج تحت هذا الفصل ذاته ما ورثناه من الحالة المدنية عن البلديات الممتزجة التى تضع الاسم العائلى فى مكان سابق لـلاسم الشخصى ،

---

(1) الوثائـق الفـرنسية : "L'Etat des Algériens"

(2) قـــادح : péjoratif ، عكس مادح laudatif

هذا تفسير ما الححت عليه أثناء الحلقة الدراسية مـن ضرورة جمـع الوثائق والمستندات من أجل كتابة تاريخنا من جديد بعقلنا بطريقة منهجية ، ومنظمة ، حقـا ، بتلك « ألنزاهة العلمية » التى نسمع عنها كثيرا ويمدحونها لنا فى كـل مكان ٠٠٠ ولكن فيما يخص تاريخنا بالذات ، ذلك التاريخ الذى طالما كان موضوع تزوير ، بـل وانكار ونزاع ايضا ، من قبل البعض ، لابد أن نزيد بعدا آخر ، الى العقل ، والمنهجية ، والنزاهة العلمية ، الا وهو الروح ! فعلينا أن نكتب تاريخنا بفكر علمى ، حقا ، ولكن ايضا بروحنا ، تماما كما تفعل جميع الامم !

واختم حديثى هذا بكلمة اقتبسها من رجـل ليس بالحالم المتهوس ، ولا بالمهرج المتحمس ، انه الفيلسوف الالمانى الشهير فيخته ، الذى قال فى مطلع القرن الماضى ، وهو يوصى الالمان بكتابة أو اعادة كتابة تاريخهم ، ما يلى :

« وفى هذا السياق الخاص (سياق أستمرارية الامـة) يتحتـم علينا أن نكتب تاريخ أمتنا ، وان نجعله تاريخا يلهب ويبعث فينا الحماس ، تاريخا يدفع بنـــا الى الامام ، تاريخا يكون لنا بمثابة الانجيل ، ويقرأ بنفس الحب ، والتقديس ، والاجلال! وذلك تشـريفا لارواح أجدادنا،وحضا لانفسنا على التأسى بهـــم ، لنكـون جديرين بالانتساب اليهم ، ولكي نترك شيئا للاجيال المقبلة ، ونخلد شخصيتنا وإنيتنا » (5) ٠

(5) غوتليب فيخته : « نداء الى الامة الالمانية » ٠

الفتـــوحـــات الاســـــلاميـــة الاولى وآثــــارهـــــا الاقتصـاديـــــة فى الشرق الاســلامى والغــرب المسيحى

بقلـم موريس لومبارد
ترجمة اسماعيل العربى

تعتبر العصور الوسطى العليا ـ ابتداء من بنـــاء القسطنطينية فى القرن الـرابع الميلادى حتى اتســاع نطاق الحروب الصليبية منذ القرن الحادى عشر ـ تعتبر هذه الفترة شرقية فى تاريخ الانسانية ·

وهذه الملاحظة تصدق خصوصا على القرون الثلاثة التى تمتد من منتصف القرن الثامن حتى منتصف القرن الحادى عشر والتى تمثل قمة ما حققه العالم الاسلامى . فان المراكز الموجهة للحيـاة الاقتصادية والثقافية فى

(I) وضع أستاذى الراحل والماسوف عليه ، موريس لومبارد ، نصوص كتابــه « الاسلام فى مجده الاول » ولكن المنية عاجلته فلم يتمكن من ترتيبها ، فقام عدد مـن اساتذة جامعة السوربون والعلماء من اعضاء المركز القومى للبحوث العلمية (CNRS) وفى مقدمتهم العلامة فرناند بروديل ، بجمع هذه المواد وترتيبها فى سفر متوسط الحجم ونشر الكتاب الناشر الفرنسى « فلاماريون » · وقد قمت بترجمة هذا الكتاب ووضـع هوامشه بناء على تصريح منحه الناشر للشركة الوطنية للنشر والتوزيع التى ستتولى نشره · ويسرنى ان اقدم هذه الباكورة التى تمثل الفصل الاول واضعها فى متنـاول قراء مجلة « الاصالة » الغراء ـ المترجم ·

العالم فى تلك الفترة ، كانت كلها تقع فى الشرق الاوسط الاسلامى • واما الغـرب المسيحى ، فانه لم يكن يمثل الا فراغا ، حيث كان النشاط الاقتصادى والثقافى قـد انحسر عنه منذ الانحطاط والتدهور الذى أصاب الامبراطورية الرومانية وغــزو البـرابر (2) لارضــه •

ولكن فهم اقتصاد العالم الاسلامى بعد ما بلغ اوج نشاطه ، يتطلب نظــرة الى الوراء ، وخصوصا ، الى عهد الفتوحات الاسلامية الاولى (التى تمتد فترتها بـين منتصف القرن السابع ومنتصف القرن الثامن الميلادى) • فان هذه هي الفترة التى تشكلت فيها معالم العالم الاسلامى الاساسية •

عهــد الفتـوحـات :

قام بالفتوحات الاسلامية الاولى عرب الجزيرة من البدو الرحل وغيرهم ، فكانت هذه هي القوة العسكرية الاولى للاسلام بقيادة قريش مكــة الذين هم من الحضـر ، يمارسون التجارة ويجهزون القوافل • وفيما عدا الصحراء ومناطق الرعي فى شبة الجزيرة العربية . اتجه الفتح العربى منذ البداية الى بلاد الهلال الخصيب ، بـلاد ما بين النهرين وسوريا ومصـر •

ولكنه الى جانب هذا العنصر العربى « الاصلى » ، فتح جيش الاسلام صفـوفه للمجندين من ابناء البلاد المفتوحة • وهذه العناصر المحلية ستوسع نطاق حـركة الفتح الاصلية • وكذلك اتجه الايرانيون الى فتح آسيا الوسطى ، بينما اتجهت العناصر السورية المصريــة الى فتــح افريقيا الشماليــة ، ليقـوم البربر بدورهم « فى مرحلــة تالية » بفتح الاندلس وجزيرة صقلية •

وهؤلاء الفاتحون العرب ، أو غير العرب ، سوف لا يشكلون الا اقلية فى البلدان التى اخضعوها • وقد كان دورهم التاريخى هو تكوين منطقة دينية سياسية واسعـة وتوحيد بلاد شعوب مختلفة فى مملكة كبيرة لينصهروا بعد ذلك فى الشعوب القديمة

(2) نطلق كلمــة « البرابرة » فى هذا الكتاب عـلى العصابات المسلحة (القـوط والوندال والبورجند والسويف والافار الخ •) التى قامت بغزو الامبراطورية الرومانية خلال الفترة التى تمتد بين القرن الثالث والقرن السادس الميلادى ، واسقطوا اباطرة الغرب وشكلوا دويلات هنا وهناك ، وبذلك نميز هؤلاء الاقوام عن البربر ، سكــان افريقية الشمالية ، وذلك على الرغم من ان هذه التفرقة لا يوجد ما يبررها من حيـث الاشتقــاق ــ المتــرجم •

التى اخضعوها · وبذلك استمرت الجماعات والشعوب الشرقية القديمة فى نشاطها التقليدى بدون انقطاع فى ظل الاسلام وتحت لواء الخليفة · واما العرب الذين خرجوا من الصحراء فسيستقرون فى العراق وايران وفى مصر ، وهي بلاد ذات واحـات ومدن كبيرة عرف سكانها بتقاليد تاريخية قديمة ، وتمتد جذور الحضارة فيها الـى اعماق التاريخ · فان بلاد الشرق قد انتجت حضارة مـن اقـدم حضارات العالم · والعنصر العربى « الاصلى » الذى يشكل الموجة الاولى للفاتحين ، انما خـرج مـن الصحراء ، وذلك على عكس العناصر التى خرجت من المناطق الخلفية ذات الغابات والاراضى الزراعية « اوروبا الوسطى » ، أو ذات المراعى « آسيـا » ، ممـن كانوا يشكلون الاحتياطى البشري للبرابرة الغزاة الذين استقروا فى أمـواج متعـاقبة فى ارياف الغرب ذى الغابات الواسعة والضعيف السكان · وفى هذه الحالة « حـالة العـرب » ، كان الفاتحون لا ينصهرون بسـرعة فى جمـوع سكـان الحواضر ذوى الحضارات المتفوقة · وكذلك كان العرب ينزلون فى المدن ، أو فى ضواحى المدن التى سرعان ما تشكل نـواة لمـدن أخرى ، مثل الكـوفة والفوسطاط والقيروان · وهذه الظاهرة تفسرها ضرورة المحافظة على نمط الحياة العربية بميل سكـان الحواضر العرب الى التجارة وما يشعر به البدوى من اغراء المدينة ، وكل ذلك مع الكره الشديد للاعمال الزراعية وللاستقرار فى المناطق الريفية · فان جميع عناصر العرب الفاتحين كانت تواقـة الى الاستمـاع بما توفره حياة المـدن من المسرات . ولكن العناصر التى لم تكن قابلة للانصهار ، سرعان ما تدفع نحو الصحراء ومناطق الرعي · واحسن مثـال لهذه العناصر ، هـم بنـو هـلال الذين سيتسللون من صحراء الجـزيرة العربية الى سيناء ، فى المرحلة الاولى ، ثم من سيناء الى برقة وبقية بلدان المغرب فى المرحلة التالية ·

لقد احتفظت شعوب الشـرق القديمة : الارمـن والفرس والمصريون بكيانها تحت الفتح الاسلامى · فماذا كان دور الفاتحين تجاه هذه الشعوب ، يا ترى ؟

من الناحية السياسية كانت نتيجة الفتح ، قيام دولة اسلامية فى رقعـة فسيحة من الارض كان الخليفة رمزا لها · ومن الناحية الدينية كان من نتائج الفتح ، نشـر الاسلام · ذلك الدين الذى يقوم على القرآن الذى أوحى به الى محمد (ص) · ومـن الناحية اللغوية ، ادى الفتح الى اتساع انتشار اللغة العربية · وأخيرا ، فقد نجـم عن الفتح السلامى ، من الناحية الاقتصادية اتخاذ أراضى مختلفة فى تكتل اقتصادى كبـير · على ان انتهاء الفتوحات كـان ايذانا بتقلص العنصر العربى واندماجه فى

الشعـوب القديمة : الايرانيين والساميين والمصريين والبربر والاندلسيين · وهذه أيضا هي الحالة في المرحلة الثانية « مـن الفتـح » · وقد لاحظ المؤرخون خصوصا ضآلة القوات التي ساهمت بها سوريا وضعف العنصر البربري بين سكان الاندلس ، في القرن العاشر الميلادي (3) ·

كيف نعلل تلك السهولة والسرعة التي تمت بها الفتوحات الاسلامية الاولى عـلى يـد عدد صغير من الفاتحين ؟

لقد كانت لدى العرب جميع الفرص التي تتيح لهم حسن استقبال الشعوب القديمة السامية والسورية والمصرية وبلاد ما بين النهرين · فالى جانب العلاقات الاثنوغرافية واللغوية التي تربطها بالعرب ، كانت هذه الشعوب قد خضعت عهودا طويلة لحكم روما ثم لحكم بيزنطة في الغرب ولامبراطورية الساسانيين الفـرس في الشـرق · وكذلك كانت هذه الشعوب في حالة ثورة دائمة ضد ادارة القسطنطينية واكتزيفون (4) · وكانت ثورتهم ، كما هي حالة الثورات في الشرق دائما ، ذات طابع ديني في الظاهر ولكنها ثورات اجتماعية في الصميم · وقد اهتز عرش بيزنطة بالبدع ومخالفة المالوف وبنظرية النساطرة والمذهب الذي لا يعرف الا بطبيعة واحدة للمستتيح ، وهـي كلها نظريات تتعارض مع المذهب الرسمي الذي تدين به الكنيسة الشرقية · وفي مملكـة الساسانيين ، كانت المانوية والديانة اليهودية والمسيحية وغيرها من المذاهب تنتشر ، معارضة للمازدئية ، الديانة الرسمية ·

وفي مقابل كل ذلك ، نجد أن اتجاه الرسالة الاسلامية نحو الديمقراطية والمساواة، وابتعادها عن النظرة الوطنية الضيقة ، كان يستجيب للحركات الثورية الاجتماعية والدينية في البلاد المفتوحة · وهذا الاعتبار ، هو الذي سهل ، على الاقل جـزئيا ، الفتوحات الاسـلامية . ومن جهـة أخرى ، فان الرغبة في استتباب الامـن واستقـرار السلام تدفع بسكان المدن الى الانضواء تحت لواء الفاتحين الذين ينتظرون منهـم الحماية من الفوضى وعبث البدو · والمقاومة المتصلبة الوحيدة التي واجهها الفتـح الاسلامي في نهاية الامر ، هي تلك التي ابداها البربر ، الذين قاوموا قرطاجنة وروما ثم العرب ، وقاوموا الترك بعدهم · وكذلك ظل البربر تحت الحكـم الاسلامي ، في حالة مقاومة صريحة أو مكتوبـة ·

(3) راجـع : Lévi-Provinçal, l'Espagne musulmane au Xe siècle - Institution et vie sociale, Paris, 1932, pp. 8 et suiv.

(4) Ctésiphon مدينة اشورية تقع على دجلة وكانت مقرا في الشتاء لملوك البرث Parthes ثم الملوك الساسانيين من بعدهم « المترجم » ·

وعلى كل حال ، فان عدم تشدد الفاتحين ، وفتورهم ، بل وتشككهم فى الامور الدينية ، قد سهل قيام علاقات مرضية بينهم وبين الشعوب المغلوبة على أمرها • وكذلك نجد ان الفاتحين لم يمارسوا الاضطهاد أو القهر لحمل هذه الشعوب على اعتناق الدين الاسلامى • والشرط الوحيد الذى فرضه العرب ذو طابع ضريبى • فان معاهدة الصلح التى يوقعونها طبقا للاجراءات المعمول بها آنئذ مع السلطات الدينية المحلية ، تضمن ، فى مقابل ضريبة (الجزية) يقوم أعيان مختلف الجماعات بجمعها ، حرية العقيدة الدينية واستمرار النشاط الاقتصادى •

وقد تمت الفتوحات الاسلامية بسرعة كبيرة بحيث لم يقع أي انقطاع فى مجرى الحياة العامة • بل ان الحالة السابقة للفتح قد استمرت كما كانت فى جميع المجالات المؤسسات والاجهزة الادارية والموظفين والاجراءات واعمال المكاتب وجمع الضرائب ، وأخيرا العملة المتداولة • فان الدرهم الساسانى المضروب من الفضة والدينار البيزنطى المضروب من الذهب ، سيستمر تداولهما فى البلاد المفتوحة حتى القرن الثامن الميلادى • وعلى الصعيد الاقتصادى ، استمرت المدن وشبكات الاتصالات التجارية « وهي هياكل حيوية » ، بدون تغيير يذكر • فان ضريبة القمح التى تجبى على الغلة السنوية فى مصر والتى كانت توجه الى روما فى البداية ، ثم الى القسطنطينية لدى تحول السلطة الامبراطورية الى هذه المدينة ، لم تلغها السلطات الاسلامية بعد فتح مصر ، وانما اكتفت بتحويلها ، عن طريق البحر الاحمر ، الى عواصم الجزيرة العربية ، ثم الى دمشق ، عاصمة الخلفاء الامويين وكذلك احتفظ المسلمون بجباية الضرائب ، ولكن لمصلحة الجماعة الاسلامية وحدها • وقد كان فرض الضرائب على غير المسلمين مظهرا من مظاهر الفتح الاقتصادية ، حتى شعر الخليفة بالتهديد بفقد الدخل من الضرائب بصورة متزايدة ، نتيجة للاقبال على اعتناق الاسلام ، ففرض ضريبة عقارية شملت المسلمين وغير المسلمين على السواء •

والملاحظ أيضا أن الفتوحات الاسلامية لم ينجم عنها شيء من التخريب والتدمير . فان الفاتحين المسلمين لا يحرقون ولا ينهبون المدن المفتوحة • والحالة الاستثنائية الوحيدة التى تستحق الذكر ، هي حالة قصور الساسانيين التى كانت تحتوى على كنوز من الذهب • وبالتالى ، فان الفتوحات الاسلامية لم يرافقها اضطراب فى الحياة المدنية : وقد كانت الشعوب المغلوبة توفر بطريقة طبيعية الاطارات الادارية والطاقات الذهنية • وكذلك لعب المسيحيون واليهود والفرس الذين اعتنقوا الدين الاسلامى ،

او الموالى ، كما كانوا يسمون دورا حاسما فى اقامة دعائم هذه الحضارة التركيبية ، الحضارة الاسلامية · وحتى الموضوعات اللغوية ، مثل تنظيم قواعد النحو « العربى » وبعض المسائل التى تتصل بتثبيت نص القرآن بصفة نهائية ، ستكون مجالا لتدخل غير العرب من ابناء الشعوب الشرقية القديمة الذين كانوا يتمتعون بتدريب تقنى ذهنى فائق ·

وهكذا كان الشرق الاسلامى ، أي أراضى الساسانيين قديما « العراق وايران » وأراضى بيزنطية « سوريا ومصر » ، بمثابة بوتقة لصهر مختلف عناصر حضارة تركيبية ستنتشر فيما بعد فى جميع أنحاء العالم الاسلامى ، شرقا نحو آسيا الوسطى ، وغربا نحو افريقيا « تونس وشرق الجزائر » والمغرب الاقصى واسبانيا وصقلية ·

ومن هذا الامتداد الحضارى ، نشأت فى القسم الشرقى فى ممتلكات الساسانيين والبيزنطيين القديمة حركة استمرار تعززت واصبحت قاعدة انطلاق ، وفى القسم الغربى قامت نهضة وتجديد حقيقى ·

وعلى عكس نظرية بيرين المشهورة (5) ، فنحن نعتقد أن الغرب انما تمكن من الاتصال بالحضارات الشرقية ، وعن طريقها بالحركات التجارية والثقافية العالمية ، بفضل الفتوحات الاسلامية · فبينما نلاحظ ان الغزوات الكبرى التى قام بها البرابرة فى القرنين الرابع والخامس الميلادى ، قد نجم عنها تدهور اقتصادى فى الغرب الميروفانجى ثم الكرولانجى « نسبة الى شرلمان » ، نجد أن قيام الامبراطورية الاسلامية قد كان من نتائجه نمو مدهش لهذا الغرب المسيحى نفسه · فاذا كان الغزو الجرمانى قد اسرع بتدهور الغرب ، فان الفتوحات الاسلامية قد تسببت فى انبعاث حضارته · وبالاختصار ، فان المشكلة التى قامت فى الغرب بشان غزو البرابرة وبشان الاستمرار أو التدهور ، يجب حسمها ، فى حالة الفتوحات العربية فى جميع انحاء المملكة الاسلامية ، بالتاكيد بعدم وجود انقطاع ، بل ، زيادة على ذلك ، فان هذه الفتوحات كانت نقطة انطلاق عظيم فى طريق النمو والتقدم والازدهار ·

انتشار الاسلام واللغة العربية والعنصر السامى :

يجب أن نطرح ثلاثة مشاكل ، كلا على انفراد وبوضوح ، وهي : نشر الاسلام ، وتعريب البلدان المفتوحة وتاثير العنصر السامى فيها ·

(5) راجع : H. Perenne : Mohamed et Charlemagne, 4ᵉ éd. - Paris, Bruxelles 1937.
والمقالات المجمعة والتى نشرها P. E. HUBINGER تحت عنوان :
Bedeutung und Rolle des Islam beim Uebergang vom Altertum zum Mittelalter (Wege der Forschung, 202) Darmstadt, 1968.

فانتشار الاسلام ، معناه اعتناق سكان البلدان المفتوحة للدين الجديد · وقد ساعد على انتشار الاسلام الامتيازات الضريبية التى كان يتمتع بها من يعتنقون الاسلام وينضوون تحت لوائه ، وبعبارة أخرى ، الغاء الجزية التى يدفعها غير المسلمين.

واما التعريب ، فيجب أن نفهمه بمعناه اللغوى فقط ، واما الدم والعرق العربى ، فهو لا يكاد يكون ملحوظا (6) ·

واما التقاليد العربية الحقيقية ، فانها لم ينتقل منها الى البلدان المفتوحة الا الشىء اليسير · والشىء الذى يسمى فى كثير من الاحيان ، غلطا ، بالتعريب ، فهو انما يعنى فى الحقيقة اعتماد مجموعة من التقاليد والنظريات السامية والشرقية وتقبل بعض الافكار الاخلاقية والمحظورات المقدسة والروايات التى تتعلق بخلق الكون واطارات التفكير والتطبيق ، مما هو شائع بين الشعوب السامية « أو بعبارة أدق التى أصبحت سامية » من السوريين وسكان ما بين النهرين ، وخصوصا طبقات السكان التى هي بمثابة المحرك للنشاط : سكان المدن الذين تجمعت فيهم رواسب الحضارات القديمة ـ تلك الحضارات التى علمتهم الدقة والسلوك المهذب والفنون الثقافية والتجارية والحاجة الى نظام اجتماعى ثابت الدعائم ، كما جردتهم ايضا من « الفضائل الحربية » ـ وهي خصائص شائعة بين شعوب العصور القديمة ـ مما احتاج الامر معه الى الالتجاء الى الجنود المرتزقة · والفتوحات الاسلامية ، هي أولا وقبل كل شىء عبارة عن معارك انتصر فيها العرب البدو الذين خرجوا من الصحراء سالكين طرقا واضحة المعالم لينقضوا على مدن عامرة تحيط بها ارياف وفلاحون يمدونها بما تحتاج اليه من المنتجات · والفتوحات الاسلامية بعد ذلك ، هي من عمل البربر والصنهاجة «الرحل» وسكان الجبال من قبيلة كتامة·وفى مرحلة تالية ، هي من عمل الاتراك والاكراد والديلميين · فمن هذا الاحتياطى من المحاربين المرتزقة ، جند الاسلام قوته العسكرية ·

(6) ينبغى الا يغيب عن اذهاننا ان المؤلف يتحدث عن الفتوحات الاسلامية الاولى وعن الفترة الزمنية التى حددها لعملة هذا « بين القرن الثامن والقرن الحادى عشر الميلادى » · وبالتالى ، فهو لا يأخذ بالاعتبار هنا تلك النتائج الاثنوغرافية الهامة لبعض حركات الهجرة العربية ، مثل التى وقعت أثناء غزو بنى هلال لشمال افريقية « المترجم » ·

واما تاثير العنصر السامى ، فهو شيء آخر . انه عبارة عن حضارة مدن الشرق القديمة ، وهي تتركب من عناصر فارسية وهلينية ، انتشرت خارج الاراضى السامية بواسطة عدد من الطرق والوسائل . فقد انتشرت هذه الحضارة فى المكان الاول عن طريق اللغة العربية التى هي لغة القرآن ، ولغة الحكومة ، ولغة المكاتب ولغة التبادل التجارى بين البلدان المتباعدة ، ولغة الحضارة الادبيّة والعلمية . فان تفكير اليونان والايرانيين والهنود والصينيين انما وصل الينا معظمه عـن طـريق الترجمة باللغة العربية ، اي بواسطة اداة سامية . وكذلك سلك التاثير السامى للطرق التجارية التى استخدمها المشارقة ، وهجرة جماعات صغيرة وتكوين مجتمعات دينية فى نقـــاط استراتيجية فى التجـــارة العالمية . وهذه الجماعة من الرواد ستقـــوى وتتعزز بفضل مهاجرين جدد . وفى نفس الوقت اتسع نشاط هذه الجماعات التى كثر عددها وراحت تستكشف مناطق جديدة وتقيم المزيد من المراكز بينما تحتفظ بمؤخرة مواقعها لتتراجع اليها عند الحاجة ، وبوشائج تنقطع أحيانا بسبب الخلافات وتقوى احيانا أخرى وتشتد باعادة التكتل والتجمع . وكذلك تولدت الجماعات اليهودية التى تكتب باللغة العبرية أو الارامية وتتحدث بـاللغة العـربية ، والجماعات النسطورية التى تكتـب اللغـــة العربية ، والجماعات النسطورية التى تكتب اللغة السريانية وتتحدث باللغة العربية .

ونلاحظ أخيرا أن العمليات الثلاث التى حللناها باختصار : انتشار الاســـلام واللغة العربية والتاثير السامى « عن طريق الحضارة » ، كانت المـدن مسرحها فى بداية الامر . فان مناخ المدن كان ملائما لها نتيجة لنـــوع من الانسجام الذى كـان موجودا من قبل ومن المدن ، امتدت هذه العمليات الى البيئة الريفية . ونحن نعرف أن العالم الاسلامى كان خلال الفترة بين القـرن الثامن والقـرن الحادى عشر ، مركزا لحركة عظيمة لعمران المدن . والمناطق التى قوي فيها عمران المدن ، كانت هي المناطق الاولى التى تتـأثر أكثر من غيرها بهذه العمليات . واما المناطق الاخرى ، فستظـل وقتا طويلا تعيش على هامش هذه الحركة . بل ان بعض المناطق ستفلت الى الابد من هذا التاثير . وكذلك نرى معارضة تقوم فى .ﻫ ـيا الشمالية بين المدن الواقعة تحت التاثير العربى والتاثير الشرقى ، وبين جبال البربر التى لا يكاد التاثير الاسلامى يمس فى سكانها الا قشرة سطحية .

فضـاء الفتوحات : العـالم الاسلامـى :

يشمل الامتداد الجغرافى للفتوحات الاسلامية بين آسيا الوسطى واسبانيا ــ فى داخل هذه الحدود أو فى المناطق الخاضعة لنفوذه ــ الاراضى التى تقـع فى قلـــب

العالم القديم · وقد كانت هذه الاراضى فى ذلك العهد ، أهم مناطق فى العالم من الناحية الاقتصادية بانتاجها الزراعى والصناعى والمعدنى ، وخصوصا بتنظيمها التجارى : تجهيز الموانىء ، وشبكة طرق القوافل ، وأخيرا بنشاط سكانها · وقد أصبحت موارد تلك الاراضى منذ الآن تتمتع بقنوات واسعة للتسويق كما كانت موضوعا لنشاط اقتصادى فسيح الرقعة ·

كانت الاراضى ذات التربة الخصبة هي : الاراضى الواقعة بين دجلة والفرات ومصر ، وهي بلدان قديمة ذات واحات وامكانيات للري · وكذلك تشمل هذه الاراضى سهول افريقيا الشمالية الخصبة التى تنتج القمح والزيت كما تشمل الاندلس ·

وأما الاراضى التى تنطوى احشاؤها على المعادن ، فهي تشمل القوقاز وبلاد الارمن وافريقيا الشمالية واسبانيا ·

ولكنه الى جانب هذا الانتاج المعدنى المباشر ، كان العالم الاسلامى يسيطر على الطرق المؤدية الى مناجم الذهب الرئيسية فى العالم : افريقيا الجنوبية الشرقية والسودان وآسيا الوسطى ·

واما المراكز الصناعية التى سجلت تقدما كبيرا ، فهي تقع فى ايران وبلاد ما بين النهرين وسوريا والدلتا المصرية ·

وقد كان لدى العالم الاسلامى موانىء كبيرة تستقبل سفنه وتشتمل على احواض لبناء وتصليح السفن ، وتقدم البحريين المدربين على شؤون الملاحة · وفى هذا المجال كان لدى العالم الاسلامى ثلاث مجمعات فسيحة : موانىء الخليج العربى والبحر الاحمر التى يسير منها البحريون العرب والفرس سفنا فى اتجاه المحيط الهندى · ويكمل هذه المجموعة نظام للملاحة النهرية فى دجلة والفرات · وتأتى بعد ذلك موانىء سوريا ومصر ، وفى مقدمتها ميناء الاسكندرية الذى تكمله الملاحة فى نهر النيل · وأخيرا ، موانىء مضيق صقلية ومضيق جبل طارق · وتلحق بها الملاحة فى نهر اشبيلية وقرطبة الوادى الكبير Guadalquivir ·

وكذلك كان لدى العالم الاسلامى عدد من المدن التى كانت مراكز لتجارة القوافل وتتمتع بتنظيم محكم للنقل وتشرف على طرق التجارة التى تنطلق من بلاد ما بين النهرين « نحو سورية غربا والى ايران وآسيا الوسطى شرقا » ومن الجزيرة العربية وطرق التجارة التى تمر عبر الصحراء · وهذا النظام الذى يقوم على شبكة من طرق

المواصلات ، يتطلب توفير حيوانات النقل الضرورية « الجمال والخيل والبغال والحمير » وموظفين وعمالا ومرشدين اكفاء وتجارا ومجهزين للقوافل يمدونها بالزاد والعتاد · وقد كان سكان المشرق الذين يطلق عليهم اسم « السوريين » أو «المشارقة» والذين كانوا يمسكون بزمام التجارة العالمية ، خير خلف للفنيقيين فى هذا المجال ·

ومن جهة اخرى ، فقد كان رصيد الذهب الآتى من قصور الساسانيين ومن الكنائس البيزنطية ، موردا يعزز قوة العالم الاسلامى الاقتصادية ، تلك القوة التى تقوم خصوصا على الدور الذى كان العالم الاسلامى يلعبه بوصفه محتكرا لتجارة المرور « الترانزيت » ، بين الشرق الاقصى والمحيط الهندى والغرب من جهة ، وافريقيا الوسطى والبحر الابيض المتوسط ، من جهة أخرى ·

وكذلك كان الاسلام يحتل موقعا حيويا عند مفترق الطرق التجارية الكبرى فى ذلك العصر ، ولم يكن يفلت من سيطرته سوى طريق تجارية واحدة : تلك الطريق التى كانت تربط الشرق-الاقصى ومنغوليا وآسيا الوسطى ، متجهة الى السهول المجرية · وهذه التى تمتد فى شمال الحضارات الاسيوية القديمة والبحر الابيض المتوسط ، طريق ثانوية عرضية · وكذلك كان يفلت من سيطرة العالم الاسلامى مركز تجارى واحد ، وهو بيزنطة ·

وهكذا تتضح لنا قيمة موقع العالم الاسلامى فى قلب العالم القديم · فالاسلام ليس بحضارة هبطت الى الارض من كوكب آخر فجاة وبدون مقدمات · ولكنه يتصل اتصالا وثيقا بالبيئة والمناخ التاريخى الذى يحيط بهذه الرقعة الجغرافية التى انتشر فيها ·

وفيما يتعلق بالمناطق التى يقطنها السود ، من شواطىء افريقيا الغربية حتى شواطىء افريقيا الشرقية ، فقد كان مجيىء الاسلام اليها حدثا تاريخيا عظيما ويشكل اساسا لتاريخ افريقيا الحديثة ·

ومن جهة المحيط الهندى ، سينتشر الاسلام فى تلك الاصقاع حتى يشمل اندنوسيا ·

وفى آسيا الوسطى ، سيتعرض العالم التركى والصين معا ، لنفس التاثير · فان الفتوحات الاسلامية الاولى ، سيكون من نتائجها اعتناق الترك للدين الاسلامى · وهؤلاء الترك سيقومون بدورهم بنشر الاسلام فى الصين ·

واخيرا ، فقد سلك الاسلام ، من جهة بيزنطة والغرب المسيحى ، الطرق المؤدية من البحر الابيض المتوسط الى أوروبا الوسطى وحتى البلاد الواقعة على بحر البلطيق

وقد كان انتشار الاسلام فى هذا الاتجاه ملتقى ومثار تدخل ، اذا تذكرنا مطامع بلاد اسكندناوة للتوسع ، من جهتها ، فى اتجاه البحر الاسود وبحر قزوين ·

وجميع هذه المناطق والبلدان ، كانت تشكل آفاقا اقتصادية واسعة لنشاط المسلمين الاستكشافى . وقد ترك الاسلام فى كل منها آثارا لا تمحى من الناحية الدينية بانتشار هذا الدين بين السكان ، ومن الناحية التجارية ، كما تشهد بذلك قطع النقد الاسلامية التى اكتشفت فى هذه الاصقاع · ومن جميع هذه البلدان كان التجار المسلمون ينقلون سلعا متنوعة يتخذون منها أساسا لتيارات قوية للتبادل التجارى ·

واما مركز العالم الاسلامى ، فهو يقع فى المناطق التى تمتد بين الخليج العربى والبحر الاحمر والبحر الابيض المتوسط ، والبحر الاسود ، وبحر قزوين · وكذلك نجد ان العالم الاسلامى تلتقى فى احضانه منطقتان اقتصاديتان كبيرتان : المحيط الهندى والبحر الابيض المتوسط · فان هاتين المنطقتين اللتين اجتمعتا فى العصر الهلينى ، ثم افترقتا لتشكلا عالمين متنافسين ، الرومانى ـ البيزنطى والبرثى ـ الساسانى ، ستلتحمان وتشكلان وحدة اقتصادية من جديد ، بفضل الفتوحات الاسلامية ·

وهذه الوحدة تقوم على أساس علاقات تجارية واسعة بطرق القوافل وبالطرق البحرية ، والعملة الشائعة التداول ، الدينار الاسلامى واللغة التجارية الدولية حينئذ ، اللغة العربية · وقد سهل قيام هذه العلاقات ، تفتح العالم الجديد وتقبله للفنون والتقنية وتشجيعه لنشر طرق الانتاج فى جميع البلدان الاسلامية وللتنافس بين طرق الانتاج البيزنطية والشرقية ·

وأخيرا ، كان من أهم العوامل التى سهلت الوحدة الاقتصادية المذكورة ، عودة ظهور أسواق الاستهلاك الكبرى للتجارة العالمية فى المنطقة العربية للبحر الابيض المتوسط ، فى شكل مدن جديدة « القيروان وتونس وفاس » ، وانتعاش بعض الاسواق القديمة « مثل اشبيلية وقرطبة وبلرم » ·

فان هذه المراكز الجديدة الواقعة فى غرب العالم الاسلامى سترتبط ارتباطا وثيقا بالمراكز الشرقية القديمة المقابلة لها والتى من بينها مراكز انشأها الهلينيون ، مثل الاسكندرية وانطاكية ، وأخرى بناها العرب ، مثل القاهرة وبغداد ·

وهذه الحقيقة الاخيرة جوهرية · فان قيام شبكة جديدة من المدن وانتعاش مدن قديمة ، سيمد العالم الاسلامى الجديد باطار اقتصادى واجتماعى وثقافى · وكذلك ارتبطت كل مدينة باخرى بشبكة من العلاقات التى كانت مهمة ، لان المدن كانت نقط الارتكاز والمراكز المحركة للحياة الاقتصادية فى العالم الاسلامى · ونحن نلاحظ ان سيطرة المدن وتفوقها كان من الامور الرئيسية الثابتة خلال الفترة التى ندرسها ، أي بين القرن الثامن والقرن الحادى عشر الميلادى · فمن سمرقند الى قرطبة ، كانت الحضارة الاسلامية ترتكز على المدن التى يتردد عليها الرجال وتستقبل السلع والافكار الآتية من كل صوب · وهذه الحضارة الموحدة ، حضارة تركيبية تقوم على اساس حضارات اقليمية ريفية أو بدوية قديمة ·

وكذلك نتصور العالم الاسلامى ، وكأنه سلسلة من الجزر ، التى هي المدن ، ترتبط فيما بينها بالطرق التجارية ·

وهذا التنظيم الذى يقوم على أساس أهمية المدن ، سيتعرض لضربات قاضية نتيجة للازمات والاضطرابات والغزوات التى وقعت فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر · فان هذه الاحداث سيكون من نتائجها قطع التيارات الكبرى للتبادل التجارى ، وبالتالى خنق المدن وتدهورها ·

وفى المرحلة التاريخية التالية ، سيفقد العالم الاسلامى وحدته ويعانى من نتائج انقسامه · وسيكتسى الاسلام طابعا وطنيا فيكون هناك اسلام تركى واسلام فارسى واسلام سورى واسلام مصرى واسلام مغربى · وبذلك نشاهد انقطاعا فى الحضارة الاسلامية وظهور العناصر المميزة للاقاليم والتى تركب منها الحضارة بوضوح ·

بـــــــلاغ

الملتـــقى الثـــانى عشـــر للفـــكر الاســـــلامى

تعلن وزارة الشؤون الدينية ان الملتقى الثانى عشر للفكر الاسلامى سينعقد فى عاصمة الاوراس ، باتنة ، من الرابع الى الحادى عشر من شوال 1398 هـ (السابع الى الرابـــع عشر سبتامبر 1978 م) ·

وهو للطلبـــة (**الجامعيـــين**) من الجزائر وغيرها ·

وقد دعي الى هذا الملتقى أساتذة جامعيون وبحاثة من العالم الاسلامى وغيره ·

وستتحمل الوزارة ، فى اطار الملتقى ، نفقات الاقامة والتنقل داخل التراب الوطنى .

ويطلب من المشاركين اسهام رمزى قدره خمسون دينارا جزائريا ، ويعفى منـــه الطلبة الآتون من خارج الجزائر ، جزائريين كانوا أو غيرهم ، والساكنون فى باتنة ·

وترسل طلبات المشاركة الى وزارة الشؤون الدينية ، مديرية البحوث الاسلامية والملتقيات ، المديرية الفرعية للملتقيات ، 4 نهج تيمقاد ، حيدرة ، الجزائر ، مع ذكـــر كلمة « الملتقى » على زاويـــة الغـــلاف ·

وعلى كل مترشح ان يبعث مع طلبه شهادتين : دراسية وطبية وظرفا (ذا مقيـــاس 21×16) يحمل عنوانه وطابع بـــريد ·

وآخر أجل لقبول طلبات المشاركة هو 24 جمادى الثانية 1398 هـ (31 مايو 1978 م) ويكون ختـــم البريد شاهـــدا على ذلك .

هذا وسيكون جدول الاعمال كالآتى :

1) **الاوراس أمجـــاد وانجـــاد** (الامجاد : المقصود بها المفاخر ، فى مختلف المجالات ، على مر العصور ، والانجاد ج نجد ، كل ما سما وعلا ، حسا أو معنى ، أو كليهما ، والمقصود هنا ليست التضاريس طبعا ، ولكن المواقع التاريخية ، مسارح الاحداث العظام ، من يسر وعسر ، بالمعنى القرآنى : « **وهديناه النجدين** » الطريقين ، طريق الخير وطريق الشر ، أو قول الامام على : « أما بنو هاشم فأمجاد أنجاد » (والانجاد فى قوله هذا بمعنى الشجعان) . فكما تشرف قمم الجبال على السهول والبطاح ، تتميز الاحداث العظام عن المجريات اليومية العادية ، وتقفز الى العين الاماكن التاريخية كمعالم وعلامات بينة ، بارزة ، سائدة على

باقى الرقعة من الارض، ومسيطرة على الورق من الكتاب . الاسباب والآثار المعنوية لتلك الاحداث . الآثار المادية : الاطلال . . الباقية . التدابير المتخذة أو المنوى اتخاذها لابراز تلك الآثار والحفاظ عليهـــا) .

2) **الدين والعلـــم** (الكتب المنزلـــة ـ وخاصـــة منهـــا القرآن ـ والعلـــم . مدى صحة ما يقال اليوم من أطراف مختلفة : الجاهل المشعوذ ، والدجال السياسى الذى يلعـــب بعقول الجماهير ويستغل الدين ـ أي دين كان ـ سياسيا ، واقتصاديا ، واجتماعيا ، والملحد عن اعتقاد ، أو تعقد ، أوجهل ، الذى يزعم ان الدين ينافى العلم ولم يعـــد يقبلـــه العصر ... الى حـــد أن كثـــيرا من انصـــاف المتعلمـــين يتباهون بمعـــاداة الدين حتى يقال فيهم انهم ··· هل الدين دليل خير أم مخدر للفرد والمجتمع ؟ أم لا هذا ولا ذاك ؟ فماذا اذن ؟) .

3) **الى م تيسر فى العالـــم الاسرة : الى اليسرى أم العسرى ؟** (تيسر : تهيـــأ ، تعد ، توجه ، يقصد بها ، يذهب بها الى ··· والمراد : ما المصير الذى يهيـــأ ويراد للاسرة اليوم ··· على ضوء ما نرى ، ونسمع ، ونقرأ ··· هنا وهناك ·· فى العالم بأسره ؟ هل هي نظام يجب الغاؤه فى أسرع الآجال ؟ أم يكفى تركه ليموت ··· مونه الآجل أو العاجل ، باهماله على حاله ، ينخر السوس فى عظامه ؟ أم بالدفع به قصدا الى الموت بمختلف الوسائل والطرق ؟ أم يجب بذل جميع الجهود للحفـــاظ على هذا النظام ، بل وتعزيزه وتوطيد اركانه ؟ وكيف ذلك ؟) ·

4) **نظـــرة جامعـــة عـــلى الجامعـــة** (نشأة النظام الجامعى فى العالم وتطوره : مولـــد الجامعة فى تاريخ البشرية كنواة للنظام الجامعى بالمعنى العصرى ، دور الحضارة الاسلامية فى هذه النشأة وفى تطورها ؛ تطور النظام على مـــر العصور · معنى وجدوى ـ أو عبث ومضار ـ الاصلاحات المتتالية ، وخاصة منها الجارية على هذا النظام فى العالم اليوم · آثارها على الشباب والمجتمع) ·

5) **ماض ومضى هى الجزائر ، لا طفـــل أو طيـــف زائر !** (العـــلاقات بين الجزائر وبقية العالم قبل 1962 فى القديم والحديث ، وخاصة منذ بدء العصر الحديث : مـــع روما ، وقرطاجنة ، مع بلدان المغرب الاخرى ، والاندلس ، مع بقية البلاد الاسلامية ، مع الخلافة العثمانية ، مع افريقيا ، مع فرنسا ، واسبانيا ، وأوربا باكملها ، ومـــع الولايات المتحدة الامريكية منـــذ نشأتها ، ومـــع آسيـــا وباقى العـــالم ، فى مختلف المجالات · الاستمرارية فى تاريخها وشخصيتها رغم الداء والاعداء) ·

دور الشعر النضالي في تحرير بيت المقدس

د· عمر موسى باشا
استاذ فى جامعة الجزائر سابقا
واستاذ فى جامعة دمشق حاليا

كان الشعر الحماسى والادب النضالى فى تاريخ العرب والمسلمين يمثلان الكفاح المرير والصراع الكبير ضد اطماع الغرب والشرق فى بلاد المغرب والمشرق على السواء · والحروب الصليبية والغزوات التترية من اشد ما قاسته الامة العربية منذ اقدم عصورها ·

كانت الخلافة العباسية فى أشد فترات ضعفها قبل سقوطها على ايدى التتار ، ولا امل يرتجى منها لتحرير الثغور الشامية بعد احتلال الطراز الاخضر بكامله ، وتمكن الروم والفرنجة ، واستولوا على معظم حواضر الشام والجزيرة ، وقويت شوكتهم « وقد اصبحت ولايتهم من ماردين الى عريش مصر ، ما عدا البلاد الباقية بيد المسلمين » ·

وهكذا رات بلاد الشام ضرورة الاعتماد على نفسها بعد ياسها من الخلافة العباسية ، فظهرت امارات وممالك نذرت نفسها للكفاح والجهاد املا فى التحرير ،

ولم يتم القضاء على هذا الاحتلال الا بقيام ثلاث قوى كبيرة ، تمثلت فى الاتابكة الزنكيين والسلاطين الايوبيين والمماليك ٠

يرجع الفضل الاول للزنكيين ، لانهم أدركوا نذير الخطر الذى يتهدد البلاد ، فبدأوا معركة التحرير ، وجاء الايوبيون بعدهم ؛ فاتموا خطة سابقيهم وحرروا بيت المقدس ومعظم الثغور الفلسطينية ، ولم يتم التحرير النهائى الا على يد سلاطين المماليك ، اذ استطاع الاشرف خليل طرد الروم والفرنجة نهائيا بعد فتح عكا سنة (690 هـ ــ 1291 م) ، وقد مدحه شاعره الشهاب محمود بقصيدة مطلعها :

الله اكبر ذلت دولة الصلب — وعز بالترك دين المصطفى العربى

كما الف أحمد بن على الحريرى كتابا أرخ فيه هذا الحدث الهام ، وعنوانه : (الاعلام والتبيين فى خروج الفرنج الملاعين) ٠

وسوف أقتصر على تصوير ملحمة حطين ، وتحرير بيت المقدس وفلسطين من خلال الشعر العربى ، وذلك لتوضيح دوره وبيان أهميته فى معركة المقاومة والتحرير ٠

الاستثارة والتحريض :

تولى الشعراء مهمة التحريض على جهاد الفرنجة واستثارة همم الملوك وعزائمهم وذلك لشن حرب التحرير وانقاذ بيت المقدس من سلطان احتلالهم ٠

بدأت الدعوة التحريرية باكثر من نصف من الزمن ، ولعل أول اشارة كانت فى احدى مدائح ابن منير الطرابلسى فى عماد الدين زنكى :

وغدا يلقى على القدس لها — كلكل يدرسها درس الدرين
همة تمسى وتضحى عزمة — ليس حصن ــ ان تحطه ــ بحصين

كان كل فتح من الفتوح الاسلامية مناسبة يهتبلها الشعراء لتذكير المسلمين بمتابعة الجهاد المقدس ، فلما تم فتح الرها أنشد ابن القيرانى قصيدة يمدح وزيره جمال الدين ، ومما قاله :

أما آن أن يزهق الباطل — وأن ينجز العدة الماطل
فان يك فتح الرها لجة — فساحلها القدس والساحل
فهل علمت علم تلك الديار — بأن المقيم بها راحل

وحين قتل صاحب انطاكية البرنس عند حصن انب سنة 544 ، وحمل رأسه الى حلب ، مدح الشعراء نور الدين ، وانشده ابن القيرانى فى جسر الحديد بين حلب وانطاكية قصيدة جاء فيها قوله :

أغرت سيوفك بالافرنج راصفة ... فؤاد رومية الكبرى لها يجب

فانهض الى المسجد الاقصى بذى لجب ... يوليك اقصى المنى فالقدس مرتقب

وائذن لموجك فى تطهير ساحله ... فانما انت بحر لجه لجب

ولما تم أسر جوسلين ، وكان كثير الغدر والمكر ، اكثر الشعراء من وصف هذه الحادثة ، ومما قاله ابن القيرانى فى احدى قصائده مادحا :

فسر واملأ الدنيا ضياء وبهجة ... فبالافق الداجى الى ذا السنا فقر

كانى بهذا العزم ـ لافل حده ـ ... واقصاه بالاقصى وقد قضى الامر

وقد أصبح البيت المقدس طاهرا ... وليس سوى جارى الدماء له طهر

وقد ادت البيض الحداد فروضها ... فلا عهدة فى عنق سيف ولا نذر

وصلت بمعراج النبي صوارم ... مساجدها شفع وساجدها وتر

وان يتيمم ساحل البحر مالكا ... فلا عجب أن يملك الساحل البحر

انها تنبؤات وتصورات عبر المستقبل قبل خمسين عاما ، وفى هذه الابيات بالذات نجد الشاعر بين الحقيقة والحلم والحاضر والمستقبل ، ونجد الشاعر ينتقل من مرحلة القلق والحيرة الى الرضا والاطمئنان حينما يتخيل فى بصيرته لابصره البيض الحداد قد أدت فروضها ، والصوارم المشخصة التى بعث الشاعر الحياة بها اخذت تصلى راكعة ساجدة بعد أن كانت قائمة منتصبة ، فمساجدها شفع وساجدها وتر ، ذلك كله فى قبة الصخرة حيث انتهى اسراء محمد (ص) من مكة ، وبدأ عروجه السماوى ليحظى بالذات الالهية ويكون قاب قوسين او ادنى ·

لقد مات هؤلاء الشعراء أصحاب الاستثارة والتحريض ، ولم تكتحل اعينهم بيوم النصر الاغر · وجاء بعدهم آخرون ، تابعوا أسلافهم ، نذكر منهم العماد الكاتب الذى خاطب نور الدين بعد فتح منبج :

فانهض الى البيت المقدس غازيا ... وعلى طرابلس ونابلس عج

قد سرت فى الاسلام أحسن سيرة ... ماثورة وسلكت أوضح منهج

ولما توحدت مصر والشام فى عهد نور الدين بعد القضاء على الفاطميين وقطع صلاح الدين الخطبة لهم ، بعث العماد الكاتب اليه قصيدة يهنئه بذلك ، ومما قاله :

وطهر القدس من رجس الصليب وثب على البغاة وثوب الاجدل القطم
فملك مصر وملك الشام قد نظما فى عقد عز من الاسلام منتظم

وانتقلت دعوة الاستثارة والتحريض الى صلاح الدين حين تفرد بالسلطان بعد موت نور الدين ، وتابع الشعراء دعوتهم واستنفارهم فى تهيئة سبل التحرير والجهاد والمقاومة حتى كانت ملحمة حطين ، وافتتح بعدها بيت المقدس ·

ملحمة حطين الخالدة :

لاشك ان معركة حطين الخالدة كانت الملحمة الخالدة فى التاريخ الاسلامى ، وقد اكثر الشعراء فى التحدث عنها والتغنى بها ، والاشادة ببطلها الكبير صلاح الدين الايوبى ، نذكر منهم العماد الكاتب ، وزيره المقيم فى بلاد الشام ، فانه وصف هذه الملحمة فى بضع قصائد ، واشار اليها فى عدة مناسبات ، منها فتح نابلس ،وفتح القدس ·

اما اشهر قصائده الحطينية فهي قصيدته السينية التى جاء فيها قوله :

يا يوم حطين والابطال عابسة وبالعجاجة وجه الشمس قد عبسا
رايت فيها عظيم الكفر محتقرا معفرا خده والانف قد تعسا
يا طهر سيف يرى راس البرنس فقد اصاب اعظم من بالشرك قد نجسا
عرى ظباه من الاغماد مهرقة دما من الشرك رد اهابه وكسا
من سيفه فى دماء القوم منغمس من كل من لم يزل فى الكفر منغمسا
افناهم قتلهم والاسر فانتكسوا وبيت كفرهم من خبثهم كنسا

اشار العماد فى هذه القصيدة الى ابرنس الكرك ، ولمح الى حادثته المشهورة مع صلاح الدين ، وهو من جملة من وقع فى الاسر يوم حطين ، وكان السلطان قد استحضر الاسرى من ملوك الفرنجة وأمرائهم ، وهم الملك كي ، وامير الكرك أرناط ، واخو الملك جفرى ، وصاحب جبيل أوك Hugh II Embriaea وهنفرى بن هنفرى Hunphrey IV وابن صاحب اسكندرونة ، وصاحب مرقية ، واقعدهم فى الدهليز واستحضر منهم الابرنس بصورة خاصة ، اذ انه قد غدر بقافلة المسلمين

التى كانت متوجهة من مصر الى الشام ، وقال لاصحابها متهكما : « قولوا لمحمدكم يخلصكم » فابتدره السلطان قائلا : « ها انا انتصر لمحمد (ص) » ثم عرض عليه الاسلام تكفيرا لما اذنب فابى ، فضرب السلطان بيده ، واجهز عليه من حوله من جنده ، وذلك وفاء لنذره الذى قطعه على نفسه ، واشهد الله عليه ان هو ظفر به ·

تحدث العماد ايضا عن هذه المعركة فى قصيدة سينية اخرى وجاء فيها قوله :

سحبت على الاردن ردنا من القنا ... ر دينية ملدا وخطبة ملسا
حطلت على حطين قدر ملوكهم ... ولم تبق من اجناس لفرهم جنسا
ونعم مجال الخيل حطين لم تكن ... معاركها للجرد ضرسا ولا دهسا
كسرتهم اذ صح عزمك فيهم ... ونكستهم اذ صار سهمهم نكسا
بواقعة رجت بها الارض جيشهم ... دمارا كما بست جبالهم بسا
بطون ذئاب الارض صارت قبورهم ... ولم ترض ارض تكون لهم رمسا
وقد طاب ريانا على طبرية ... فيا طيبها ريا ويا حسنها مرسى

هكذا وقف بنا الشاعر على ضفاف طبرية التى كانت تشهد أمر ملاحم التحرير ، وقد طاب له الوقوف فيها يتذكر حطين الخالدة ، ويشهد التاريخ يخلدها على صفحة هذه البحيرة الهادئة ·

لا بأس أن نقف مع شاعر آخر هو ابن الساعاتى ، وقد دخل مدينة طبرية بعد سقوطها بيد صلاح الدين ، وانشده قصيدة جاء فيها قوله :

جلت عزماتك الفتح المبينا ... فقد قرت عيون المؤمنينا
رددت أخيذة الاسلام لما ... غدا صدف القضاء بها ضمينا
وهان بك الصليب وكان قدما ... يعز على العوالى أن يهونا
وما طبرية الا هدى ... ترفع عن أكف اللامسينا
قضيت فريضة الاسلام منها ... وصدقت الامانى والظنونا
تهز معاطف القدس ابتهاجا ... وترضى عنك مكة والحجونا
فلو أن الجهاد يطيق نطقا ... لناداك : ادخلوها آمنينا
أعدت بها الليالى وهي بيض ... وقد كانت بها الايام جونا

فـألم بالســـواحـل فهـــي صـــــور   اليـــك وألحـــق الهـــام المتـــونـا
فقلـــب القـــدس مســــرور ولـــولا   سطـاك لكـــان مكتئبـــا حـــزينـــا
أدرت عـــلى الفـــرنج وقـــد تـــلاقـــت   جموعهـم عليـك رحـــى طحـــونـا

نوه الشاعر بهذا الفتح المبين ، وأشاد بالبطل الكبير صاحب النصر الاغر ، ثم وقف عند طبرية يتغنى بما حققه ممدوحه فى جهاده الاكبر ، وود لو أنطق اللـــه الجهاد ، وعبر عن نداء مدينة القدس ، وفى هذا التشخيص مـا فيـه من براعة ومهارة فنيـة تثير النشوة فى نفس السامع ، كما أشار فى ذات القصيدة الى صليب الصلبوت ، وهو الصليب الاكبر ، الذى يقدمونه ، ويعتقدون أن المسيح عليه السلام قد صلب عليـه ، والمعروف أنه وقع فى حوزة المسلمين بعد معركة حطين ·

ثمة أمر هام فى القصيدة وهو الدعوة الى فتح بيت المقدس وتطهير الساحل والطراز الاخضر الشامى من الاحتلال الصليبى · ان قيام الشعراء بالدعوة الى الثار والحرب واستعادة الثغور المحتلة بدأت قبل أكثر من خمسين عاما من الفتح ولـو حاولت أن اذكرها لاستنفدت منى محاضرة بأكملها ·

تحـرير بيـت المقـدس :

آذنت موقعة حطين الخالدة بتحرير بيت المقدس بعد أن بقي نيفا وتسعين سنـة بيد الفرنجة ، وكان ذلك سنة 583 هـ ، وهي السنة الغراء كما دعيت وهي التى سجـل فيها صلاح الدين يوسف أروع انتصارات المسلمين فى العصر المذكور ·

كانت هذه المعركة نقطة التحول الكبرى فى التاريخ الاسلامى · ذكر ابن الاثيـر أهميتها وخطورتها وأشاد بها قائلا :

«وما أصيب الفرنج منذ خرجوا الى الساحل سنة احدى وتسعين وأربعمائة الى الآن بمثل هذه الوقعة» ، وعندما فتح بيت المقدس ذكر بأن هذه المكرمة من فتح بيت المقدس لم يفعلها بعد عمر بن الخطاب غير صلاح الدين » ·

أما الشعراء فقد أكثروا من نظم القصائد القدسية التى تخلد هذا الحدث الاكبـر حتى ان بعضهم قصر معظم شعره على التغنى بفتـح بيـت المقدس فى قصائد خاصة أسمـاهـا (القدسيات) ·

ابرز الشعراء الذين وصفوا هذه الملاحم هو العماد الكاتب ، وقد أورد منها جملة فى أواخر كتابه (البرق الشامى) ·

فمن قصائده التى هناه فيها بالنصر ، ووصفه وهو مخيم على بيت المقدس ، قصيدته التى جاء فيها قوله :

رأيت صلاح الدين افضل من غدا ... واشرف من اضحى واكرم من امسى
فلا عدمت ايامنا منك مشرقا ... ينير بما يولى ليالينا الرسا
جنودك املاك السماء وظنهم ... عداتك جن الارض فى الفتك لا الانسا
فلا يستحق القدس غيرك فى الورى ... فانت الذى من دونهم فتح القدسا
وطهرته من رجسهم بدمائهم ... فاذهبت بالرجس الذى ذهب الرجسا
نزعت لباس الكفر عن قدس ارضها ... والبسته الدين الذى كشف اللبسا
وعادت ببيت الله احكام دينه ... فلا بطركا ابقيت فيها ولا قسا
وقد شاع فى الآفاق عنك بشارة ... بان اذان القدس قد ابطل النقسا

نلاحظ فى هذه القدسية أن الشاعر اثنى على صلاح الدين كل الثناء ، اذ هو اهل لاكثر من ذلك بعد العمل الجبار الذى خلده على مدى الدهر . ولم يكتف الشاعر بما ذكره ، بل تابع حديثه ورسم كعادة شعراء العصر للبطل الظافر الخطة التى يجب أن ينهجها بعد فتح بيت المقدس ، فلا يقعد هذا الظفر عن متابعة الفتح ، لئلا يعبث به الغرور ونشوة الظفر ، وطلب اليه فى الابيات الختامية أن ينقذ بلاد الشرق كلها من فساد حكامها :

وان بلاد الشرق مظلمة فخذ ... خراسان والنهرين والترك والفرسا

زفت البشائر وسيرت أخبار الفتح الاغر الى كل مكان فى العالم الاسلامى ، نذكر منها البشارة الشعرية التى بعث بها صلاح الدين الى الخليفة العباسى الناصر فى بغداد ، وهي قصيدة قدسية ، نظمها العماد ، ومنها قوله :

أبشر بفتح ـ امير المؤمنين ـ اتى ... وصيته فى جميع الارض جواب
احيا الهدى ، وامات الشرك صارمه ... لقد تجلى الهدى والشرك منجاب
بفتحة القدس للاسلام قد فتحت ... فى قمع طاغية الاشراك ابواب
ففى موافقة البيت المقدس لل ... بيت الحرام لناتيه واعجاب
والصخر والحجر المكثوم جانبه ... كلاهما لاعتمار الخلق محراب
نفى من القدس صلبانا كما نفيت ... من بيت مكة ازلام وانصاب

عبر الشاعر عن البهجة الكبرى فى فتح القدس ، واعرب من خلال ذلك عن الاهمية الدينية فى موافقة البيت المقدس للبيت الحرام ، لانه اولى القبلتين وثالث الحرمين بعد مكة والمدينة · يضاف الى ذلك ان الحجر المكثوم فى الكعبة والصخرة المقدسة فى القدس كلاهما كان محرابا لاعتمار الخلق ·

ومن الشعراء الذين خلدوا هذه الملحمة ابن الساعاتى ، فلقد مدح صلاح الدين مشيدا بما حققه للمسلمين من نصر مؤزر ، وجاء فى مدحته قوله :

اعيا ، وقد عاينتم الآية العظمى	لاية حال تذخر النثر والنظما
وقد ساغ فتح القدس فى كل منطق	وشاع الى ان اسمع الاسل الصما
فليت فتى الخطاب شاهد فتحها	فيشهد أن السيف من يوسف اصمى
واصبح ثغر الدين جذلان باسما	والسنة الاغماد توسعه لثما
سلوا الساحل المخشى عن سطواته	فما كان الا ساحلا صادف اليما
فللحق شمس لا تقام بباطل	وللعدل فيه اية تنسخ الظلما

نلاحظ فى هذه الملحمة القدسية أن الشاعر اعرب عن فرحته الكبرى ، ولم يكتف بذلك ، وانما سما الى افاق الحكمة الخالدة ، وذكر الفرنجة المحتلين ان شمس الحق لابد أن تشرق ، وتعم البرية كلها ، وأن اية العدل ستنسخ كل جور وظلم ، كما تمنى فى هذه الملحمة القدسية ان يشهد عمر بن الخطاب نفسه هذا النصر ليكون شاهدة العدل · وقد اعرب الشاعر نفسه عن ذات المعنى فى قدسية ثانية حيث يقول :

هو الفاتح البيت المقدس بعدما	تحامته سادات الدنا ومسورها
فضيلة فتح كان ثانى خليفة	من القوم مبديها وانت معيدها

هكذا يقارن الشاعر بين الفتحين ، الفتح العمرى والفتح اليوسفى وهما فى نظره فضيلتان ، اولاهما كانت على يد ثانى الخلفاء الراشدين عمر وثانيها على يد الناصر صلاح الدين يوسف الذى استطاع ان يعيد الحق الى نصابه بمتابعة نهج سلفه ومولاه نور الدين زنكى الذى خطط لمثل هذا النصر ، فعاد الحق الى نصابه ، وأشرقت شمس العدل الوضاءة ، ونزلت آيته العظمى لتنسخ ضلال الروم والفرنجة ، وتعيد البيت

المقدس الى عرين الاسلام بعد أن عصفت به ريح الخطوب ردحا من الزمن كما يقول الشاعر نفسه فى قدسية ثالثة جاء فيها قوله :

عصفت بـه ريـح الخطـوب زعازعا   فلقين طودا لا تخف أناته
هو منقذ البيت المقدس بعدما   طالت ، فما وجد الشفاء شكاته
أمشتت الاعداء وهي جحافل   عن شمل دين جمعت أشتاته
أحسنت بالبيت العتيق ويثرب   ولك الفعال كثيرة حسناته
هذى سيوفك محرمات دونه   لبكائهن تبسمت حجراته

شاعر ثالث أيضا من أصل أندلسى ، كان مقيما فى بلاد الشام وقد صرف معظم شعره لنظم الملاحم القدسية هو أبو الفضل الجليانى عبد المنعم بن عمر بن حسان الطبيب الاديب الشاعر الملقب بحكيم الزمان ، فقد نظم قدسياته المشهورة ، وسماها (ديوان المبشرات والقدسيات) وهذا الديوان كان موضع اعجاب القدماء ، وصفه ابن أبى اصبيعة وذكر « أنه نظم وتدبيج وكلام مطلق يشتمل على وصف الحروب الجاية على يد صلاح الدين أبى المظفر يوسف بن أيوب فاتح بيت المقدس فى سنة 583 هـ » ·

كما ذكرها العماد الكاتب وذكر أنها جياد طوال كثيرة الفوائد ، واطلع عليها أبو شامة المقدسى صاحب الروضين فى أخبار الدولتين ، وأعجب بها كثيرا ، ونقل منها جملة لا يأس بها فى كتابه المذكور · ونرى من الواجب علينا أن نعرض القدسيات الجليانية ، ذات النفحات الاندلسية ، ونبرز أهم ما فيها من المعانى ·

تحدث أبو الفضل عن البطل صلاح الدين ، وذكر أنه لم يزل من أول ماولى الامر فى الشام ومصر يعلم أنه مؤيد بعناية الله سبحانه ، وأشار الى ما جاء فى شعره من التباشير القدسية التى تنبأ من ظلال مدحه ، وذكر أنه سيفتتح البيت المقدس على يديه·

امتدح أبو الفضل صلاح الدين قبل الفتح بثمانى عشرة سنة أي سنة 565 هـ بقصيدة نيفت على مائة بيت ، وجاء فيها قوله فى التباشير :

لتظفرن بما لم يحوه ملك   أبا المظفر حظا خـ..ـه الازل
دليل ذلك آراء لك اقترنت   بالحزم والعزم لم يخصص بها الاول
قد ساد اسكندر أهل الزمان معا   فى سن عشرين وامتدت لـه الحيل
وافى الثلاثين والاقطار أجمعها   طوعا لـه وملوك الارض والملل

هذه ارصاصات حكيم الزمان الاندلسى ، حيث يرى أنه الاسكندر الذى ساد العالم فى العشرين وها هو ذا فى الثلاثين وقد أذعنت له الاقطار أجمعها وملوك الارض والملل المختلفة .

أشار الشاعر الى الامر نفسه فى معرض تنبؤاته سنة 567 هـ عند قفوله من معركة غزة ، أي قبل الفتح بست عشرة سنة ، وذكر أنه سيأتى فى أخرى الزمان منقذا لدين كادينبتر :

أبا المظفر ، فاهنأ حظ منتخب — أخرى الزمان لدين كادينبتر
زهدت فيما سبى الاملاك مكنرزا — علما بملك نعيم ما به كرر
وطبت نفسا عن الدنيا وزخرفها — وجئت تقدم حيث الهول والخطر

وصف الشاعر هذا البطل المنتظر للفتح الموعود بانه كان زاهرا فى الدنيا وزخرفها ، وانه يفعل ما يفعله لنعيم أبدى لا يزول ولا يحول .

وأشار الشاعر الى النصر المقبل على يده قبل خمسة أعوام من الفتح فى قصيدة امتدحه بها سنة 568 ، وقد نيفت على مائة بيت ، وقد تخيل الراية الصفراء تخفق فى العالم كله على السواء بعد تحرير فلسطين :

أرى الراية الصفراء يرمى اصطفاقها — بني أصفر بالراعضات العهاذم
فتسبى فلسطينا وتجبى جزائرا — وتملك من يونان أرض الاساحم
وتعنوله الاملاك شرقا ومغربا — بذ احكمت حذاق أهل الملاحم

نلاحظ أن أبا الفضل كان يستثير صلاح الدين فى تباشير مدحه ، ويهيئه نفسيا ، ويحرضه على فتح بيت المقدس ، وتنبأ له بمستقبل عريض مشرق يملك فيه العالم كله ، ودليله ما حكمت حذاق أهل الملاحم .

لقد اطلع الشاعر حقا على ما فى نفس هذا البطل ، وهذا هو ذاته الذى سوف نراه حينما تتحقق امنية الفتح .

ولعله من المناسب أن نستمع الى الشاعر الحكيم قبل عام واحد فى معرض تهنئة بالعافية من مرض عرض له فى قصيدة بعث بها اليه من غزة وهو على حمص ، وجاء فيها قوله يستثيره ويعاتبه على تريثه ويؤكد له أنه المخصوص منذ الازل بهذا الفتح :

فيا ملكا لم يبق للدين غيره — وهت عمد الاسلام فاشدد لها دعما
فشؤم فريق الشرك فى الشام طائر — فقص جناحيه بأقصى القوى قصما

خصصت بتمكين فعم العداردى … فانهم ياجوج افرغ بها ردما

اذا صفرت من آل أصفر سلحة الـ … مقدس ضاهت فتح أم القرى قدما

فذا المسجد الاقصى وهمتك العلا … وعزمتك القصوى ورميتك الصما

فما هو الا أن تهم وقد أتت … فتوح كما فاض الخضم الذى طما

وان أنت لم ترد الفرنج بوقعة … فمن ذا الذى يقوى لبنيانها هدما

وليس كفتح القدس منية قادر … وما ان تلقاها سوى يوسف جزما

يلاحظ أن التحريض يشتد كثيرا ، اذ ان النصر أصبح قاب قوسين أو أدنى ، ذلك أن الله خصه بقوة وتمكين من لدنه ، وأنه كتب على فريق الشرك الذل والهوان ، ويخلص أخيرا الى تذكيره بالواجب القدس الملقى على عاتقه ، وهو طرد الفرنجة ، فهو البطل الوحيد القادر على القضاء على الباطل ، وهو الذى بيده مقاليد فتح بيت المقدس .

لم يكف الشاعر عن الاستثارة والتحريض ، وقد بلغ المنتهى قبل أسابيع قليلة فى المدحة التى أنشدها بين يديه ، وهي على غاية من الاهمية ، لانها فى الواقع صورة حقيقية عن نفسية صلاح الدين فى هذه المرحلة الخاسمة فى التاريخ الاسلامى ، وما أحلى نداء الشاعر (الله أكبر) ، نداء الجهاد ، وصرخة الكفاح ، ونفير التحرير :

الله أكبر ، أرض القدس قد صفرت … من آل أصفر ، اذ حين به حانوا

أسباط يوسف من مصر أتواولهم … من غير تيه بها سلوى وأمنان

لهم فلسطين ان يخرج عداتهم … عنها والا عدت بيض وخرصان

حتى يبيت رتاج القدس منفرجا … ويصعد الصخرة الغراء عثمان

واستقبل الناصر المحراب يعبد من … قد تم من وعده فتح وامكان

وجاز بعض بنيه البحر تجفل من … غاراته الروم والصقلاب واللان

حتى يوحد أهل الشرك قاطبة … ويرهب القول بالثالوث رهبان

ولابن أيوب فى الافرنج ملحمة … دلت عليها أساطير وحسبان

ومن أحق بملك الارض من ملك … كأنه ملك فى الخلق حنان

هذه التباشير القدسية ، وهذه الآمال العريضة بملك العالم كله ، قد سبقت الفتوح والبشائر ، ولابد لنا فى معرض القول من تبيان المقصود بالتباشير والبشائر ،

وان كأن اللفظان يؤديان معنى واحدا من حيث الاصل ، بيد أن القدماء قصروا لفظة التباشير القدسية على ما جاء من قول سابق يؤكد فتح بيت المقدس على يد صلاح الدين أو غيره ٠ وأما البشائر فقد قصرت على القصائد أو الرسائل التى كانت تسير حاملة أخبار الفتوح ٠

تحقق الحلم الاكبر والامل العظيم ، وصدقت تباشير الشاعر القدسية منذ سنين بعيدة ، ففتح بيت المقدس وحملت البشائر السلطانية الى كل مصر ، فهزته نشوة النصر ، وانبرى الشاعر الاندلسى يتغنى فيها بهذا الحدث الاغر ٠

نختار من قدسيات الشاعر (القدسية الكبرى) ، وبلغ عدد أبياتها مائتين واثنين وخمسين بيتا ، أختار منها قوله :

ووقعة يوم التل اذ قبضت به	جبابرة الافرنج حيرى وشردا
عليهم من البلوى سرادق ذلة	ومن ذل ماتت نفسه فتقيدا
ترى المنسر الديوي يلقى سلاحه	وينساب ما بين السبايا ملهدا
ألم تر للسلطان صدق نذره	دم الغادر الابرنس فاقتيد أربدا
وباشره بالقتل وسط جنابه	وعاينه الكند المليك فارعدا
وضاقت بنفس القمص الارض مهربا	فأدركه الموت المفاجىء مكمدا
وما طرق الاسماع من عهد آدم	كملحمة التل التى تلت العدا

استطاع الشاعر فى هذه الملحمة أن يصف وقعة المقدس بعد معركة حطين ، ووصف لنا هزائم الفرنجة المنكرة ، وأشار الى وفاء صلاح الدين بنذره ، وهو قتل الابرنس بيده ، ان اظفره الله به كما ذكرنا ، والمعروف أنه غدر بقوافل المسلمين ، وشتم الرسول (ص) ، وكان قد أزمع أمره وتأهب للمسير الى تيماء ، ومهاجمة المدينة المنورة حيث يرقد الرسول الأعظم ، وذلك سنة 577 هـ أي قبل الفتح بست سنوات فقط ٠

والقدسية الثانية هي (الفتحية الناصرية) ونختار منها بعض الابيات ، وهي أيضا من مدائحه المطولة :

فى باطن الغيب ما لا تدرك الفكر	فذو البصيرة فى الاحداث يعتبر
مالى أرى ملك الافرنج فى قفص	أين القواضب والمسالة السمر
والاستبار الى الداوية التاموا	كأنهم سد يأجوج إذا اشتجروا

والنفس مولعة عجبا بسيرتها وفى المقادير ما تسلى به السير
يا وقعة التل ما أبقيت من عجب جحافل لم يفت من جمعها بشر
ويا ضحى السبت ما للقوم قد سبتوا تهددوا أم بكأس الطعن قد سكروا
ويا ضريح شعيب ما لهم جثموا لدين أم لقوا رجفا بما كفروا
حطوا بحطين ملكا كافيا عجبا فى ساعة زال ذاك الملك والقدر
يتلوهم صلبوت سيق منتكسا وحوله كل قسيس له زبر
من ذا يقول لعل القدس منفتح اليك بل سفر يعقوب له السفر
هذا المليك الذى بشرى النبي به فى فتنة البغي للاسلام ينتصر

انسى ملاحم ذى القرنين واعترفت له الرواة بما لم ينمه أثر والملاحظ فى الملحمة القدسية هذه أن الشاعر كان دقيقا جدا فى وصف حال الفرنجة السيئة بعد وقوعهم فى ذل الاسر ، وكان يحرضه على تحرير ما بقى من الثغور الاسلامية تحت حكم الفرنجة ، كما نلاحظ من طرف آخر أن الشاعر كان يخطط للقائد خطة المستقبل ليتم التحرير والتطهير على يديه ، وذكره أن أمامه الفتوح الكبرى فى بلاد الروم والصقلاب والخزر ، وإن النية يجب أن تتجه نحو رومية الكبرى ٠

عبر الشاعر عن هذه المعانى فى قصيدة ثالثة يقول فيها :

يا فاتح المسجد الاقصى على بهم وقانص الجيش لا يحصى بقفزته
ابشر بملك كظهر الشمس مطلع على البسيطة فتاح بنشرته
حتى يكون لهذا الدين ملحمة تحكى النبوة فى أيام فترته

تقرر ـ والحق يقال ـ أن حكيم الزمان الاندلسى كان له الفضل الكبير فى حث البطل صلاح الدين وتهيئته نفسيا ليوم التحرير ، وبعث فى طموحه العزم والثبات ليملك الارض وينقذها من ضلال الشرك والوثنية ٠

أما الشاعر الرابع الاخير الذى أقف عنده فهو فتيان الشاغورتى ، وقد عاصر هذا الحدث وخلده فى شعره وصور كغيره بطولة صلاح الدين ، ونعته برب الملاحم التى لم يؤرخ مثلها فى قديم الاعصر ، وقد أنشد اياها فى قلعة دمشق ، واستهلها بقوله :

كسرت على كسرى لعدلك دولة قصرت مهابتها تطاول قيصر
رب الملاحم لم يؤرخ مثلها الـ علماء قدما فى قديم الاعصر

واستنقذ البيت المقدس عنوة — من كل ذى نجس بكل مطهر
وأريتهم لما التقى الجمعان بالـ — بيت المقدس هول يوم المحشر
ورددت دين الله بعد قطوبه — بالمسجد الاقصى بوجه مسفر
وأعدت ما أبد ه قبلك فاتحا — عمر فانت شريكه فى المتجر
حتى جمعت لمعشر الاسلام بيـ — ـن الصخرة العظمى وبين المشعر
فلصخرة البيت المقدس كفؤها الـ — حجر المفضل عند أفضل معشر

أصبح فتح بيت المقدس قصيدة عربية خالدة ، وملحمة اسلامية رائعة ، يتغنى الشعراء بذكرها ويتبارون ، فغدا صلاح الدين بطلا أسطوريا قارنه الشعراء بالاسكندر وقيصر وكسرى ، وقد مضى الشعراء الذين سبقوا التحرير وفى أنفسهم حسرة لانهم لم يروا يوم التحرير الاكبر ، وهم الذين تنبؤوا به قبل أكثر من خمسين عاما ٠

أما الشعراء اللاحقون الذين أتينا على ذكرهم فقد شهدوا بأمر أعينهم مواكب النصر ، ورأوا الفرحة الكبرى تعم البلاد فى كل قطر ومصر ، فلا غرابة ان رأيناهم يكثرون من الاوصاف والمدائح ، حتى انهم توقعوا أن يملك الارض كلها ، وأنه المهدى القائم المنتظر الذى سيملأ الارض عدلا ورحمة بعد أن ملئت ظلما وجورا ٠

أشار الى هذه المعانى الشاعر رشيد الدين أحمد بن بدر النابلى فى قصيدته القدسية التى يقول فيها :

هذا الذى كانت الامال تنتظر — فليوف لله أقوام بما نذروا
يا بهجة القدس اذ أضحى به علم الا — سلام من بعد طي وهو منتشر
يا نور مسجده الاقصى وقد رفعت — بعد الصليب به الآيات والسور
شتان ما بين ناقوس يدق به — وبين ذى منطق يصغى له الحجر
الله أكبر صوت تقشعر له — شم الذرا وتكاد الارض تنفطر
يا مالك الارض مهدها فما أحد — سواك من قائم للمهد ينتظر
هذا الذى سلب الافرنج دولتهم — وملكهم يا ملوك الارض فاعتبروا

تلك هي صورة عن الصراع الدينى فى هذه الحرب ، والتى كانت تخفى وراءها الاطماع الاستعمارية ليبقى للغرب الاوروبى الهيمنة على البلاد المقدسة التى كانت تداعب أحلامهم عبر العصور ٠

وهكذا نقل صلاح الدين المنبر الذى هيأه مولاه نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى الى بيت المقدس وحضر الصلاة فى قبة الصخرة ، والقى قاض دمشق محيى الدين بن الزكى خطبة الجمعة بعد فتح بيت المقدس واستهلها بقوله تعالى :

« **فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين** ··· » والخطبة طويلة ، وهي قطعة أدبية رائعة ، لا يسمح لنا الوقت حتى بذكر شذرات منها ·

مهما يكن من أمر فقد وضع صلاح الدين خطة المستقبل سرا فى رحلة صيد مع ابنيه وأخيه الملك العادل · وقال : « اقصد أنا بلد الروم ، وقال لاخيه تأخذ أنت بعض أولادى وبعض العسكر وتقصد خلاط ، فاذا فرغت أنا من بلد الروم جئت اليكم وندخل منها أذربيجان ، ونتصل ببلاد العجم فما فيها من يمنع عنها »·

هذه خطة صلاح الدين فى المرحلة التى تلى التحرير ، أما خطته الاخيرة فكانت تعيد الينا سيرة العرب الابطال الفاتحين ، وقد أسر بذلك لقاضيه بهاء الدين بن شداد عندما كان يودع أخاه الملك العادل ، قرب عسقلان ، وهو عائد الى مصر ، فقال : « فى نفسى أنه متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل ، قسمت البلاد وأوصيت ، وودعت ، وركبت هذا البحر الى جزائره ·· » ·

ولكن المنية وافته سنة 589 هـ ، ولم تتحقق أمنيته ، اننى أضع هذه الصورة الشعرية الاصيلة من الكفاح والنضال أمام شعراء العصر الحديث ، فلعلهم يجدون فى هذا التراث أصالة الادب العربى القديم الذى هو الاصول الراسخة للادب العربى الحديث ، ولا انفصام ولا خصام بينهما الا اذا أردنا نفي التراث والاصالة لانهما من بقايا السلف الصالح ·

وبعد : تلك هي قصة الشعر العربى وأثره الكبير فى معركة التحرير·

مساهمة الفلسفة
فى النهوض بالتربية

د· حنفى بن عيسى
كلية الآداب ، جامعة الجزائر

بسم الله الرحمن الرحيم ،

سيدى ، وزير التعليم الاصلى والشوؤن الدينية ،

سيداتى ، سادتى ·

كانت مشكلات التربية ، من اختصاص رجال التربية وحدهم ، لا ينازعهم فيها منازع · وكانوا أصحاب السلطة المطلقة ، فى توجيه الناشئة ، وتلقينها ما يشاءون من القيم ، والمعلومات ·

الا أن التربية ، أصبحت اليوم عنصرا فعالا من عناصر التقدم والرقي ، وعاملا أساسيا من عوامل الثورة الثقافية ·

تلك الثورة التى أشار اليها الشاعر ، فى بداية هذا القرن ، عندما قال :

فعلم ما استطعت لعل جيلا ‌ ‌ ‌ سيأتى ، يحدث العجب العجابا

هذا العجب العجاب ، الذى أشار اليه الشاعر ، هو النهوض من كبوة التخلف ،

(*) محاضرة ألقاها يوم الخميس 25 ربيع الاول 1394 هـ الموافق لـ 18 أفريل 1974 م بقاعة المحاضرات ، قصر حسن ، التابعة للمركز الثقافى الاسلامى بالعاصمة ·

واللحاق بركب الانسانية الزاحف ، والاخذ بأسباب التقدم · ولذلك فان التربية أصبحت اليوم مرتبطة ارتباطا وثيقا بمفهوم التنمية ، وبالتالى ، فلا يجوز ــ بحال من الاحوال ــ ان يستحوذ عليها رجال التربية دون غيرهم · فالمشكلات التربوية ، لا تهم المعلمين وحدهم ، بل تهم كذلك المتعلمين ، الذين يهمهم الامر بالدرجة الاولى ، وتهم الآباء الذين يضحون بالغالى والنفيس ، لضمان مستقبل أبنائهم · وتهم كذلك الجهات المحتاجة للاطارات ، لان هؤلاء يعلمون أن ازدهار المؤسسات ، لا يمكن أن يحصل الا عن طريق التربية والتعليم ، ويهم كذلك مديرى الشركات ، العامة ، والخاصة ، ورؤساء المصالح ، فى الادارات والمؤسسات ، لانهم يدركون بأن المردود مرتبط ارتباطا وثيقا بالتربية المستمرة · وهكذا نجد أن الاهتمام بالتربية ، لم يعد محصورا فى نطاق الجهات المعنية مباشرة ــ أي رجال التربية وحدهم ــ بل أصبح موضوعا يعكف على دراسته المربون ، والمفكرون ، والفلاسفة ، والخبراء ، والعلماء من مختلف فروع المعرفة · وهذا ما دعا منظمة « اليونيسكو » الى تاليف لجنة اسمتها « اللجنة الدولية للنهوض بالتربية » وأسندت رئاستها الى الرئيس الفرنسى السابق السيد « ادقار فور » وحشدت لها أعلى الكفاءات من مختلف أنحاء العالم ، ومن مختلف التخصصات ·

وهنا نتساءل : ما هو دور الفلسفة فى النهوض بالتربية ؟

أعتقد ان عمر بن عبد العزيز (I) هو الذى قال : « علموا أبناءكم ، فانهم خلقوا لزمان غير زمانكم » واذا أصح هذا القول ، فان المربى عليه دائما ، أن يدخل فى حسابه المستقبل ، كعنصر أساسى · وان يتخيل صورة الانسان الذى يريد ان يعده لذلك المستقبل . وان يبتدع ــ باستمرار ــ طرائق تربوية ، وأساليب جديدة فى التعليم . وعلى هذا فالابتداعات ، هي قوام التربية الحديثة ، وهذا ما ركزت عليه اللجنة الدولية السابقة الذكر عندما دعت الى انشاء مركز دولى للابتداعات التربوية ، للتعاون بين سائر الدول ، وتبادل المعلومات فى هذا الشأن · والابتداع فى نظرنا معناه :

اولا : الاحتفاظ من التربوى بما هو صالح ·

ثانيا : اعادة النظر فيما كان بائدا وفاسدا من ذلك التراث ·

ثالثا : التفكير باستمرار فى وضع طرائق جديدة ·

ان دور الفيلسوف ــ فى نظرنا ــ يتلخص فى التفكير ودفع الناس الى التفكير · ولهذا فان الابتداعات التربوية ، تستمد قوتها وحيويتها من الفلسفة التى يجب ان

تغذيها دوما بالافكار · لان تيار الفكر ، متى انقطع ، كان مآل التربية الى الخراب ، وسارت الحضارة الى الانحطاط والاندثار ·

يقول جون ديوى المربى الشهير : « ان أساس كل فلسفة ، هو فلسفة التربية وقوامها دراسة كيفية تشييد صرح الحضارة فى العالم » ·

ولقد يبدو هذا الكلام مجرد ادعاء · ولكن اذا نظرنا الى الاقبال الشديد على دور العلم · واذا نظرنا الى الضغط الشعبى المنقطع النظير على أبواب المدارس ، والثانويات ، والجامعات · فلا يسعنا حينئذ ، الا أن نستنتج بأن اغلب الشعوب مقتنعة بكلام « جون ديوى » وأن الدروب التى تؤدى الى الحضارة ، هي دروب التربية والتعليم فمما يسترعى النظر مثلا ، أن جميع الدول متجهة اليوم ، نحو تسجيل جميع الاطفال فى المدارس ، الا أن التعليم المدرسى النظامى ، لم يعد وحده يكفى · فلابد من التعليم خارج نطاق المدرسة · ويتم هذا فى المعمل ، فى المؤسسة ، فى المزرعة · ولابد أيضا ، من تنظيم برامج تربوية مذاعة أو متلفزة · ولابد من دروس لرفع المستوى واستكمال التعلم · ولابد من الدورات التدريبية · ولابد من الملتقيات ، والدروس بالمراسلة ، ودروس محو الامية ، وما الى ذلك من انواع التعليم الذى يحصل خارج نطاق المدرسة · بحيث أن المرء لا يسعه الا ان يلاحظ بأن مفهوم البيداغوجيا (يعنى : فن تعليم الطفل) قد تغير ، لانه بات لزاما أن يحل محله مفهوم لاندراغوجيا (فن تعليم الانسان) وهكذا أصبح الحديث الشريف الذى يوصى المرء بأن يتعلم من المهد الى اللحد ، أصبح هذا المبدأ حقيقة ملموسة · وصرنا نسمع من ينادى بالتربية المستمرة ، ومن يقول بأنه لا يجوز أن يستأثر الاطفال وحدهم بنفقات الدولة · لان الكبار أيضا لابد أن يحظوا بالتفات الدولة اليهم ، وصرنا نسمع كذلك من يقول – لتوضيح مفهوم التربية المستمرة – بأن الانسان لا يولد تمام الولادة الا عندما يموت · أي عندما يستكمل مقومات ذاته · فالولادة بأتم معنى الكلمة لا تتم الا عندما يلفظ الانسان انفاسه الاخيرة ، بعد تفتيق مواهبه ، وتحقيق ذاته من جميع النواحى ، الدينية ، والاخلاقية ، والاجتماعية ، والعلمية ، والتقنية ، والفنية ، والمهنية ، واليدوية ، والبدنية ، وهناك اتجاهات أخرى تدعو الى ما يلى :

اولا : تعديل البنيات التربوية ، لفتح مجال أوسع أمام المتعلمين ·

ثانيا : العناية بالحالات الفردية فى التعليم ووضع ما يسمى بالبرنامج الملائم للفرد من حيث الزمان والمكان ، والمحتوى ، والسرعة ، فهذه العوامل الاربعة يجب ان تؤخذ بعين الاعتبار فى وضع البرنامج ·

ثالثـا : توعية الطلبة بمشاكلهم ، وحقوقهم ·

رابعـا : القضاء على الانظمـة التربوية القـائمة عـلى السلطـة ، وتعويضها بالمؤسسات القائمة على مبادىء التسيير الذاتى ، والمسؤولية والحوار ·

ومن المبادىء التى اقرت ـ ايضا ـ مشاركة الجهات المحتاجة الى الاطارات ، فى وضع سياسة المدارس ، والمعاهد ، وفى تسييرها · منها الشركات على سبيل المثال · وكذلك ، اقرار مبدأ الديمقراطية واللامركزية ، وتجريد العمل التربوى مـن الطابع البـيروقراطى ·

ومن هذه المبادىء أيضا ، رسم أهداف تربوية أخرى من النوع التالى تنادى بها التـربية الحـديثة :

« تعلـم لتكـون ، « تعلـم كيف تعيـش »

« تعلـم كيف تتعلـم بنفسـك » · « تعلـم تنتقـد نقـدا بناء ».

« تعلـم كيف تنمـى مواهبـك » · هذه بعض شعارات التربية الحديثة ·

اذن هذه جملة من المذاهب والنظريات ، والآراء فى شؤون التربية ، وهي ـ كما ترون ـ على جانب كبير من الاهمية ، لانها تتعلق بمصير الانسان · فهل يصـح أن يظـل الفيلسوف بمعزل عنها ؟

وهنا يرد السؤال : هل الفلسفة لاحقة بالتربية ، أم رائدة لها ؟ هل هي محافظة أم تقدمية ؟ وبعبارة أخرى : هل يقتصر دور الفيلسوف على وضع التطبيقات التربوية فى قالب فكرى ؟ أم أن عمله هو التوقع والتبصر ، وتوجيه العمل التربوى ، واستصلاح ما يراه فاسدا فى الوضع التربوى ، بالنقد البناء ؟

اي أن هناك موقفين للفيلسوف ، اما أن يلاحظ ما يجرى ويصفه دون أن يتخـذ منه موقفا ، والموقف الثانى للفيلسوف هو أن لا يقتصر على الوصف وحده ، بـل يجب عليه أن يتدخل ، وان يقول كلمته وان يقول بأن هذا فاسد وهذا صـالح ، وهذه القيم التى تدرس فى المدارس لا تصلح وهكذا · لابد هنـا مـن أن نـلاحظ بأن كتاب جون ديوى (الديمقراطية والتربية) لم يصدر الا بعد قرن وربع قرن من خبرة مرت بها أمريكا فى المجال التربوى ، فكانه تسجيل وتوضيح لما عرفه من شؤون التربية فى بـلاده ، لا اكثر ولا اقـل بمعنى أن جون ديوى لـم يقتصر عـلى وصـف الاوضاع

التربوية فقط • اما انا فاعتقد بأن الفيلسوف لا يجوز أن يقتصر على الملاحظة والتسجيل ، بل لابد بأن يتدخل ويفيد بنى قومه فى هذا المجال الحيوى ، الذى يتعلق بمصير الانسان •

أول ما يلاحظه الفيلسوف فى شؤون التربية ، أن النظريات مختلفة فيما بينها أشد الاختلاف • وبعض المربين يرون مثلا أن العصر الذى نعيش فيه ، يتميز بالتبدل والتغير ، فيجب علينا اذن أن نواجه العصر بتربية تقدمية تساير تطورات العصر •

ويرى البعض الآخر أن هناك قيما ثابتة لا تتغير ، وأن مهمة المدرسة هي غرس تلك القيم فى الاطفال ، اذن الفيلسوف هنا يواجه مشكلة التغير من جهة ، والثبوت على حالة واحدة من جهة أخرى • غير أن هذا التضارب فى الجهات التربوية ، لا ينبغى أن يحول دون البحث عن القاسم المشترك فى الشؤون التربوية ، ودور الفلسفة يتمثل فى البحث عن هذا القاسم المشترك ، أو المبدأ العام الذى تنعقد حوله النظريات التربوية وأول مساهمة تتقدم بها فلسفة التربية ، هو انتقاد ما يسمى بالحس المشترك ، فالحس المشترك هو مجموع الاعتقادات ، والآراء الشائعة بين الناس ، وهي آراء توجه سلوكنا ونثق بها ثقة عمياء •

وكثيرا ما توقعنا فى خطأ مبين ، وهنا نلاحظ أن لكل معلم ، ولكل مدير ، ولكل مسؤول فى التربية والتعليم ، لكل واحد من هؤلاء فلسفة خاصة فى شؤون التربية • ولا شك أن هذه الفلسفة البسيطة ، كافية لحل المشاكل السهلة ، وتصريف شؤون المدرسة ، وانها صالحة كنقطة انطلاق • ولكن الملاحظ أنها عاجزة عن وضع سياسة تربوية ، ورسم استراتيجية مبنية على معطيات الواقع ، وعلى الاحتياجات المتلمحة فى المستقبل ، وهنا يرد السؤال : هل نقول بفلسفة واحدة للتربية أم بعدة فلسفات ؟ وابادر للاجابة على هذا السؤال لاقول ، أنه لا يمكن ان توجد عدة فلسفات على درجة واحدة من الصحة ، فتعددها يعنى أول ما يعنى ، أنها متفاوتة فى الصلاح ، وفى تجاوبها مع مقتضيات الواقع العملى •

فالخلاف اذن بين النظريات التربوية ، موجود لا سبيل الى انكاره ، ولكنه يمكن التغلب على المازق الفلسفى بالرجوع الى القاسم المشترك ، وهو الانسان ، فالانسان عاقل ، والعالم الذى نعيش فيه خاضع لقوانين العقل ، وبالتالى فانه يمكن حل المشاكل المتعلقة به ، مهما كان نوعها •

ونحن اذ ندعو الى تحكيم العقل فى الشؤون التربوية ، انما نحاول أن نعالج هذه الشؤون ، معالجة الفيلسوف الشاملة • وهذه المعالجة تقتضى نقد الاعتراضات

الاساسية ، فالفيلسوف مثلا يمكن أن يدلى برأيه فى محتوى البرامج الدراسية ، وقوام هذه البرامج كما هو معروف هي الوقائع من جهة (أي المعلومات التى تحفظ) والقيم من جهة أخرى ، هناك شيئان فى البرامج : الوقائع ، والقيم ·

فالوقائع من اختصاص العلم ، أي أن العالم هو الذى يعطى رأيه فيما اذا كانت صحيحة أم لا ، والقيم من اختصاص الفلسفة ، ان المدرسة تلقن بعض المعلومات المتصلة بالوقائع وتغرس بعض القيم فى نفوس الناشئة ، ولا شك ان المسؤول التربوى ، يستطيع أن يدرج تلك المعلومات وتلك القيم فى منهاج دراسى ، وان يبرمجها حصصا ومقادير · يتشربها ويتشبع بها المتعلم تدريجيا ، درسا فدرسا · أما السؤال عما اذا كانت هذه القيم هي التى يجب أن تكون ، فهذا من اختصاص الفيلسوف ، ولا شك أن نقد القيم شديد التعقيد ، لتداخل المتحولات مع الاطار الثقافى والاجتماعى ، الى درجة أنه يصعب أحيانا عزلها · ولابد هنا من الاشارة الى أن احجام الفيلسوف عن نقد بعض القيم الراسخة فى النفوس ، كثيرا ما فسح المجال لحركات الشغب وللمناهضة والمطالبة بالتغيير الجذرى ·

ونجد فى كثير من البلدان ان الفلاسفة لا يقومون بمهمتهم المتعلقة بنقد القيم التى تعلم فى المدارس ، فحينئذ ، ـ اذا كان الفيلسوف قد احجم عن القيام بمهمته ـ يتكفل بهذه المهمة قوم آخرون ، لا يحكمون العقل ـ للاسف الشديد فى كثير من الاحيان ، ونجد هذا الاتجاه لدى حركة المناهضة ، وكذلك لدى الحركة التى يتزعمها فى أوروبا ايليتش ـ من المفكرين ومن رجال التربية ـ وتقوم هذه الدعوة ـ أي دعوة المربى ـ الى تخليص المجتمع من الطابع المدرسى · ونقطة الانطلاق عند هؤلاء ، هو توجيه انتقادات شديدة للتربية كمؤسسة · فالتربية عند هؤلاء تشكل عاملا مباشرا من عوامل التناقضات الاجتماعية يقال : المدرسة لا تساعد على الانسجام ، بل تعمل على زيادة التناقضات ـ أي أن الغني قد يصبح أكثر غني ، والمثقف قد يعمل على المحافظة على الثقافة فى اطار أسرته ·

اذن التربية فى نظر هؤلاء عامل من عوامل التناقضات الاجتماعية · ولذلك فهي لا تستطيع أن تحقق غايات التربية المثلى ، التى تخدم الانسان بل هي تخدم أغراض المجتمع القائم على الظلم والاستيلاب ، والعبث بالكرامة الانسانية · ولذلك يقول ايليتش بأنه ينبغى قلب أوضاع المؤسسات والغاء المدرسة ، حتى يتمكن الانسان ، بعد استعادة حريته فى المجتمع المتخلص من المدرسة ، من استرجاع سلطته على

المؤسسة · يقال أن المدرسة خلقت من أجل الانسان ، ولم يخلق الانسان من أجل المدرسة ـ وبطبيعة الحال ان آراء ايليتش وجماعته ، لا تلائم أي نظام من النظم الاجتماعية ، والسياسية الراهنة · أما الحركة المناهضة التى نظمها المتعلمون أنفسهم ، فقد نشأت بعدما لاحظ هؤلاء أن النظام التربوى ، لا يزال جامدا ، ولا يزال خاضعا فى بعض البلدان للنخبة المثقفة المنبثقة عن الطبقة البورجوازية · فهي التى فرضته ، ووضعت قوانينه ، ولاحظوا أيضا أن هناك انفصالا تاما ، بين نوع بائد من التعليم ، وبين حقائق هذا العالم · ـ أي أن المدرسة تعلم شيئا وحقائق العالم شيء آخر ـ ان المناهضة التى قام بها الطلبة ، سوف تترك أثرا عميقا فى مجرى التاريخ · لانها استطاعت ، بما فيها من انتقاد جماهيرى للوضع التربوى ، ان تنفذ الى ميدان كان محصنا تحصينا قويا ، وفى السابق لم يكن أحد يجرؤ على انتقاد الاوضاع التربوية ·

أما حركة المناهضة هذه فلاول مرة أحدثت ثغرة فى هذا الحصن المنيع التربوى ورغم ما اتسمت به حركة المناهضة من فوضى ، وأحيانا من سذاجة الرأي ، وأحيانا أخرى من عنف كما كان الامر فى فرنسا سنة 1968 فانها استطاعت مع ذلك ان تزلزل كيان الانظمة التربوية · ما هي العبرة التى نستخلصها من هذه الحركات المناوئة ، المطالبة بالتغيير الجذرى ؟ العبرة هي أن الفيلسوف بعدما تخلى عن دوره فى انتقاد القيم وتمحيصها ، وتبيان الاصيل والزائف منها · حل محله قوم آخرون ، قل ما يحكمون العقل فيما يقولون ويفعلون ، ويبدو لى أن الفيلسوف ، لم يعد ينهض بمسؤوليته تجاه المجتمع ، فى الدعوة الى الاصلاح وانتقاد أوضاعه وتشخيص دائه ووصف الدواء الناجع له فشتان بين سقراط الذى كما قال شوقى : (أعطى الكأس وهي منية شفتى محب تشتهى التقبيلا) بمعنى انه شرب السم ، ومات شهيد العلم والفلسفة ·

والحقيقة أقول شتان بين سقراط الذى فضل أن يموت عوض أن يداهن · شتان بين سقراط وبين الفلاسفة من عصرنا ، المقطوعين عن حقائق شعبهم ، الغافلين كل الغفلة عما يختلج فى نفوس الجماهير · وهكذا · فعوضا من أن يكون الفيلسوف فى الطليعة يرشد الناس الى ما فيه صلاحهم ، اذا به اليوم كغيره من الناس ، قانع بوظيفته كأستاذ ، أو كموظف لا يكاد يحيده عن تلك الوظيفة قيد أنملة · ان المسألة تتعلق بترقية الانسان ، وباستكماله مقومات ذاته ، وبتحقيق هويته ، وتفتيق مواهبه ·

ولذلك فلا يجوز بحال من الاحوال ، أن يظل الفيلسوف بمعزل عن شؤون التربية ٠ وهناك منطلقات ثلاثة ، لابد للفيلسوف من أن يبدى فيهما رأيه ٠ المنطلق الاول : هو أن التربية تسبق التنمية ، بل هي الشرط الاساسى للازدهار الاقتصادى ٠ وهذا لم يحصل الا فى العصور الحديثة ، لان الناس لم يكونوا فى الماضى يهتمون بالشؤون التربوية ، الا بعد حصول الازدهار الاقتصادى ، فى السابق كانوا يتعلمون بعد الازدهار الاقتصادى ، أما الآن فى العصور الحديثة لازم أولا نضع الاسس التربوية ، ثم بعد ذلك بواسطة التربية يتم الازدهار الاقتصادى ٠

المنطلق الثانى : هو أن التربية تخطط للمستقبل ، فهي تعمل لاعداد رجال الغد المنشود ، لكي ينهضوا بمسؤوليات فى مجتمعات لم تخلق بعد ، لقد كان الهدف التربوى محصورا فى ربط ماضى الشعب بحاضره ٠ أما اليوم فلابد من رسم صورة المستقبل كما نريدها ان تكون ٠ ولابد من نتلمح تلك الصورة ، ومن هنا نشأت فكرة الصورة المتلمحة ، أو (الروفيل) أي أن المخطط التربوى يجب أن يضع ما يسمى بـ (البروفيلات) أي الصور المتلمحة ٠

ما هو الانسان الذى نريد أن نكونه للمستقبل لسنة 1980 أو سنة 2000 مثلا ؟

المنطلق الثالث : هو أن المجتمع يرفض بعض المتخرجين من المؤسسات التربوية ويستغنى عنهم ٠ فهناك أحيانا تناقض ملحوظ بين عدد المتخرجين ، وبين ما يحتاج اليه المجتمع ٠ فقد كان النظام التربوى القديم مقصورا على الخاصة من الناس ، الا أن التعليم ما لبث أن أصبح جماهيريا ٠ وقد نجم عن تزايد عدد الطلبة ، أن النظام الاجتماعى مضطر لرفض بعض المتخرجين ، اذا كانت مؤهلاتهم لا تلبى الاحتياجات المباشرة لذلك المجتمع ٠ فلابد اذا من وضع استراتيجية محكمة لوضع تقديرات صحيحة بالنسبة للاحتياجات فى الحاضر والمستقبل ٠

واذا سلمنا بهذه النقاط الثلاث كمنطلقات للعمل التربوى ، فان الفيلسوف يجب عليه ان يضع القاعدة الفكرية لذلك العمل وان يتقدم بنظرية يبدى فيها رأيه الصريح ، وأن ينتقد الوضع التربوى نقدا بناء ، وأن يناقض عند اللزوم الافكار الشائعة ، ومن جملتها ما يلى :

أولا : كان يعتقد بأن التعليم لا يتم الا فى المدرسة ، وقد آن الاوان أن نعوض عن كلمة التعليم (بالتعلم) وبذلك فان المدارس ينحصر دورها فى تعلم المرء كيف يتعلم

بنفسه ، متى أراد ، وحيثما أراد ، وبالسرعة التى تناسبه · وبهذا الاعتبار فان عملية التعلم ، يمكن ان تتم على فترات متقطعة ، وأن تستمر طوال الحياة ·

ثانيا : لا يزال أكثر الناس يعتقدون ان أفضل فترة فى حياة الانسان للتعلم تقع فى حدود الطفولة والشباب ، وان المعلومات التى يحصل عليها فى هذه الفترة من العمر ، سوف تبقى صالحة على مدى الحياة · وهذا وهم وخطأ كبير ، المعلومات لا تصلح الا لفترة معينة ، ثم بعد ذلك يجب على الانسان أن يستكمل معلوماته ·

ثالثا : يعتقد البعض أن مشاكل التربية يمكن ان تعالج بطريقة علمية رزينة متجردة من التخمينات الفلسفية الواهية · فبعض الناس يقولون نحن فى غنى عن الفلسفة فى معالجة قضايا التربية ويمكن أن نستعين بالعلم فقط ، لان العلم موضوعى ، فالفيلسوف يسلك سلوكا لا يناسب هذه القضايا · وهم بذلك ـ أي هؤلاء الناس ـ يضعون العلم والفلسفة على طرفى نقيض يقولون ان العلم فيه مجال للاتفاق ، وأما الفلسفة ، فالمجال فيها واسع للخلاف ، فهم يقارنون بين المعالجة الفلسفية للقضايا التربوية ، والمعالجة العلمية للقضايا التربوية ، يقولون : يمكن على صعيد العلم أن نصل الى الاتفاق ، وأما على صعيد الفلسفة فلا يمكن ان نصل الى اتفاق ، بل هناك دائما خلاف · العلم يحلل القضايا التربوية ، والفلسفه تركبها ـ أي أن هناك تحليل بالنسبة للعلم وهناك تركيب بالنسبة للفلسفة · العلم استقرائى ، فى حين أن الفلسفة استنتاجية · العلم ذرائعى ، نفعي مرتبط بمصالح الناس ومئاربهم فى هذه الحياة ، فى حين أن الفلسفة مثالية ، ومتنكرة أحيانا للواقع · العلم متحرر وتقدمى بينما الفلسفة جامدة ومحافظة · وينتهى هؤلاء الى القول ، بأن التفكير الفلسفى اسهل من التفكير العلمى ، وان دور الفلسفة فى حل المشاكل يتضاءل كلما كثرت الحلول العلمية · أي نستطيع أن نقول أن القرن العشرين وهو عصر الثورة العلمية ، ولذلك كثير من الناس يعتقدون بانه يمكن الاستغناء تماما عن الفلسفة ـ فهل يصح بعد هذا ان نستنتج بانه لا حاجة الى الفلسفة فى حل القضايا التربوية ؟

الحقيقة ان العالم اذ يتوخى الدقة والموضوعية ، مضطر فى نفس الوقت لان يضحي بالاتساع والشمول ، فكلما توصل العالم الى حل قضية تربوية ، سوف يجد نفسه أمام قضايا أخرى مطروحة بحيث ان القضايا الجديدة ، تزعزع ثقتنا بصحة الحلول القديمة العلم قد يتوصل الى حل بعض القضايا ولكن كلما حل قضية ، سوف يجد نفسه امام قضايا أخرى ·

وسآتى بمثال من قضايا اللغة : تجدون ان فلسفة النحو يمكن ان تساهم فى حل قضايا النحو ، فمن المعروف ان الفعل الماضى مبنى ، وان الفعل المضارع معرب ، وهذه القاعدة ليست مطردة ، باعتبار ان الفعل المضارع فى حد ذاته ، تارة يكون مبنيا ، وتارة يكون معربا · يكون مبنيا حينما يتصل بنون النسوة ، واذا اتصل بنون التوكيد الشديدة · اذا هذه القاعدة ليستمطردة · ففلسفة النحو تستطيع ان تتجاوز هذا المازق ، فهي تعالج المشكلة على مستوى الفلسفة فتضع قاعدة عامة تقول : ان الماضى شىء مضى وانتهى ولا يمكن تغييره اذا فهو مبنى لا يتغير ، اما المضارع ، فهو اما ان يقع الآن ، او سوف يقع ، وبالتالى تستطيع ان تغيره أن تتدخل بارادتك فتغيره ، اذا من الممكن جدا ان يتغير المضارع أي أنه معرب وليس مبنيا ·

ثم الفلسفة تضع هذا الحل الشامل للمشكلة ، ولا تنظر الى هذه المشكلة التى قد يتعرض لها عالم النحو · فالفلسفة تستطيع أن تضع حلا شاملا لبعض القضايا التربوية · لذلك تبقى الحاجة ماسة الى فلسفة تسمو على العلم فى المجالين ، النظرى والعملى ، وتهتم بالاسباب البعيدة ، وتتقدم بحلول شاملة ، يمكن ان يطمئن اليها الانسان ·

هناك امر ثالث يمكن ان ينتقد بالنسبة للافكار الشائعة ، وذلك أن بعض الناس يعتقدون ان العملى هو العمدة ، وأنه مقدم على النظرى ، لان النظرى هو دائما موضع للجدال والخلاف ، وقد نتج عن ذلك على الصعيد التربوى اعتقاد راسخ ، بأن الدروس النظرية لا تستحق الحضور ، وأن الدروس التطبيقية ، هي وحدها الجديرة باهتمام طالب العلم ، وهذا هو المطبق فى كثير من الجامعات · بمعنى أن الدروس النظرية يمكن للطالب ان يغيب عنها · أما الدروس التطبيقية فيجبر على الحضور ، وأعتقد أن هذا خطأ تربوى فادح بالنسبة للدول النامية واذا صح هذا بالنسبة للدول المتقدمة ، باعتبار أن الفكر فيها متقدم ، ولديهم فلاسفة كثيرون ولهم وباع طويل فى الفكر · فلا يصح هذا بالنسبة للدول النامية التى نجد فيها ضحالة الفكر ، أو الفقر الفكرى · فكيف نحرم الطلبة من الاحتكاك بالاستاذ · واذا شئنا ان نناقش المسألة من الاساس ، فاننا نقول بأن النظرى هو الكمال ، وان العملى هو الصورة ، وأن الخطأ قد يتسرب لا محالة الى النظرى · الا أن الواقع العملى ، قد يكون احيانا هو الخاطىء المتناقض · ولذلك فلا نستطيع ان نتصور كيف يمكن ان ينصرف الطلبة عن الدروس النظرية فى البلدان النامية · خاصة أن هذه البلدان فى أشد الحاجة الى الفكر · فكيف يمكن الاستهانة

بالنظرى فى هذه البلدان المعروفة بضحالة الفكر ، وجدب القـرائح ، وكيف يمكـن للطالب أن يشحذ فكره اذا لم يحتك بالاستاذ ولم يستمع اليه ولم يناقشه ، والحقيقة أن أزمة الفكر فى العالم العربى تكاد تشبه أزمـة الوقود فى العـالم الغربى كمـا أن الوقود قوة تحرك الآلات فكذلك الفكـر يدفـع الى النشاط ويولـد المشاريع فالفكرة الواحدة قد تكون منطلقا لعمل المهندس المعمارى ، والنجـار ، والكهربائى ، والمحامى ، والاستاذ ، والطبيب ، هؤلاء كلهم يشتغلون فى المجال العملى ، انطلاقا من الفكـرة الواحدة · ولذلك فان الاستهانة بالدراسات النظرية فيها قتل للفكر ، وتجميد للنشاط ، من حيث المنطلق · وأخيرا من الامور التى يمكن ان ينتقد بها الحس العام أو الافكار الشائعة وهـو مـا يـلى :

ان حرص الدول المتخلفة على اللحاق بالدول المتقدمة فى العلم والثقافة ، لا ينبغى ان يكون على حساب سعادة الانسان وسعيه الدائب فى استكمال مقومات ذاته · أي أن بعض الدول النـامية مشهورة اليوم باللحاق بركب الدول المتقدمة · وكثيرا مـا تتناسى أولوية الانسان فى هذا العالم · وذلك أن الهدف الاسمى ، الذى ينبغـى ان تسعى اليه التربية الاسلامية هو استكمال مكارم الاخلاق ، عملا بقوله عليه الصلاة والسلام : (بعثت لاتمم مكارم الاخـلاق)·

ولقد تساءل بعضهم عما اذا كان ينبغى أن نجعل التربية قائمة على بعد واحـد هو البعد الطبيعى (أن نعترف لما وراء الطبيعة من دور أساسى أو ثانوى فى تحديد السياسة التربوية ، فبعض التقدميين مثلا يرون بأن هناك بعدا واحدا لعالم التربية ، وهو الطبيعة ونحن نرد على هؤلاء فنقول : بأن نكران ما وراء الطبيعة ، يتضمن فى حد ذاته نظرية حول ما وراء الطبيعة · وأن ما وراء الطبيعة يمكن ان يغذى النفوس ، بقوة تحدث المعجزات ومن المعروف أن غرض المسلمين من التربية لم يكن دنيويا محضا ولم يكن دينيا محضا فقد كانوا يرمون الى اعداد المرء لعملى الدنيا والآخرة ·

قال تعالى : « **وابتغ فيما آتاك اللـه الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيـا** » وروي عن النبي صلى عليه وسلم أنه قال : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كانك تموت غدا » وقد امتدح احد الشعراء (المأمون) بقصيدة قال فيها :

تشـاغل النـاس بالدنيـا وزخـرفها وانت بالدين عـن دنيـاك مشغـول

فاستنكر المأمون قوله هذا ولم يعجبه هذا المدح ، قـال : (ويحك جعلتنى عجوزا فى محرابها ومعها سبحتها ، هلا قلت كما قال جرير فى عمر بن عبد العزيز :

فلا هـو فى الدنيا مضيـع نصيبـه ولا عرض الدنيا عـن الدين شاغله

بمثل هذه الفلسفة يمكن للتربية ان تحرر القـوة الكامنة فى نفوس الملايين مـن البشر وان تحولها الى طاقة مبدعة ، وأن تؤكد مـن جديد أسبقية الانسان فى هذا العالم الذى أخذ يتنكر للقيم الانسانية ، فهذه منطلقات للمزيد من النقاش ومن هنـا ننهى محاضرتنا ، والسلام عليكم ورحمة الله ٠

تشجيـــع الاختـــراعيـــة والابتكـــار
فى البلـــــدان الناميـــــــة (1)

يحيى زكرياسن (*)
ترجمة : د. خير اللـــه عصار
جامعة عنابة



مما لاشك فيه ان القوى الانسانية فى حقلى الاختراع والابتكار هي اثمن ما تمتلكه البلدان النامية من الموارد الطبيعية ليست هذه المـوارد موجودة عنـــد البعض ومعدومة عند البعض الآخر ، بل هي موزعة بين الافراد توزيعا متناسقا ومتوازنا ، ولكنهـا ، الا فى حـالات نادرة ، غير مستثمرة استثمارا حسنا على العموم · لقد اطلـــق اصطلاح (عدم تشغيل القوى) على هذه الحالة من عدم الاستثمار لهذه القدرات · وفى رأيـى انه آن الاوان كي نضع حدا لهذا الوضع فى اقرب اجل .

(1) كلمة القاها فى المؤتمر العالمى حول نظام تسجيل الاختراع واهميته بالنسبة للبلدان النامية ، والذى عقدته المنظمة العالمية للملكية الفكرية فى كولومبو ، سرى لانكا من 21 الى 24 فبراير 1977 .

(*) السيد زكرياسن ، مسلم دانمركى ، يشغل منصب مدير مكتب استشارى هندسى لتنمية Zac-Consult فى كوبنهاغن ، الدانمراك . وقد شـارك فى الملتقيـين العاشر والحادى عشر للفكر الاسلامى فى عنابة وورجلان .

الا التنمية الاجتماعية والاقتصادية الموجهة ، عملية تفتح من الداخل ، ولا يمكن أن تتم عن طريق نقل واستيراد التكنولوجيات من البلدان الاكثر تقدما مهما اسبغنا على هذه العوامل من أهمية • ولهذا يجب الاسراع ما امكن فى تشغيل الطاقات الانسانية الموجودة فى البلدان النامية •

ثمة عناصر جوهرية للتنمية الاصيلة ذات مظاهر مختلفة ، لا تتم بدونها نذكر منها : المشاركة الناشطة والبناءة فى الفعاليات التكنولوجية والسيطرة عليها واختيار المناسب منها ثم تكييف التكنولوجيات المستوردة حسب حاجات كل بلد ، وأخيرا التطوير الفعال للتكنولوجيا الحديثة •

ان الحاجة ماسة لوضع حد لحالة عدم تشغيل القوى الانسانية في حقلي الاختراع والابتكار التكنولوجيين ان العمليات النفسية والتربوية التى يتضمنها الاختراع والابتكار قد اصبحت واضحة لدرجة من الممكن تعليمها كمواضيع محددة فى الجامعات والمؤسسات التربوية والصناعية مهما كان مستوى المعرفة عند المتعلم ، رجلا كان أو امرأة أو طفلا •

سأعود بعد قليل الى هذه النقطة كي أفيها حقها من الشرح الموسع • أما الآن فانى التفت للاجابة على السؤال التالى :

من هم المخترعون ؟

من هم المخترعون ، وفى اية بيئة ينشطون ؟

فى محاولتى للاجابة على هذا السؤال سأعتمد على مراجع صدرت فى البلدان الصناعية • ولن يقلل هذا من أهمية طريقة المعالجة بل ان هذا سيجعل النتائج التى نصل اليها اكثر تشويقا بالنسبة للبلدان النامية •

أجل ، فقد تصورت الحكومات ومعها الكثير من الناس العاديين ان القسم الاهم من المخترعات الجديدة ذات الاهمية هو نتيجة لعمل فريق من العلماء والمهندسين (لا يعرف الناس أسماءهم) يعملون فى مختبرات تطوير التكنولوجيا المستقبلية ، والتى تملكها الشركات الكبيرة لكن عددا من الدراسات التى تمت خلال العقدين الماضيين ينفي صحة هذا التصور • فلقد ثبت ان المبادرات الرئيسية فى عدة حقول صناعية ، قد انجزت على ايدى مخترعين مستقلين بواسطة شركات صناعية صغيرة لعب مديروها انفسهم دورا هاما فى ابراز الاختراع الى حين الوجود •

لننظر الآن الى ما يقوله الباحثون فى هذا الصدد :

يذكر مؤلفو (2) كتاب « منابع الاختراع » ان أكثـر مـن نصف المخترعات التى أنجزت فى هذا القرن قد جاءت مـن طرف مخترعين يعملون لانفسهم أو يعملون فى شركات صغيرة · كما أن ايلكارت أثبت فى أحد بحوثه على الصناعة البريطانية ان عدد المخترعين الذين يعملون بامكانيات محدودة يصل الى 80 ٪ من مجموع المخترعين البارزين · كما أن هذه النسبة ذاتها (أي 80 ٪) من مجموع الاكتشافات التكنولوجية الهامـة قد كان نتيجة لصرف 5 ٪ فقط مـن مجموع المبالغ التى خصصت للبحـوث ولتطويرها ·

يقول م· ج· بيك (3) ان المنتجين الكبار فى حقل صناعة الالومنيوم الامريكية قـد اخترعوا فقط 1/7 مـــن مجموع الاختراعات الهـــامة ذات الصلة بلحام الالمنيوم ، تشكيله ودهنه · اما فى الصناعة البترولية فيصف البنوس الوضع كما يلي : « لقـد تحققت معظم الانطلاقات الفكرية الجذرية على أيدى مخترعين يعملون على هامـش الصناعة البترولية ، ولم يتحقق الا القليل من هذه الانطلاقات الجذرية على أيـــدى اناس يعملون فى الشركات البترولية الكبيرة · فاذا احصينا المخترعات الرئيسية فى مجال تحليل البترول (؟) Petroleum cracking لا نجد الا مخترعا واحداً قام بـــه موظف يعمل فى شركة كبيرة » · أما البقية فقد قام بها مخترعون مستقلون ·

يقول د· هامبرغ (4) لا وجود فى الولايات المتحدة لابتكار واحد ذى أهمية جـاء من صميم صناعة الفولاذ ومن طرف العاملين فيها ·

ونحن نـرى ان هامبرغ يجانب المغـالاة كثيرا عندما يدعى أيضا ان المختبرات الصناعية الكبيرة ليست الا مصادر قاصرة بالنسبة للمخترعات الكبـيرة وبالنسبة للمخترعات التى تتضمن تحسينا ، على أشياء سبق ان تم صنعها ·

(2) أنظر
Jewkes, Sewers et Stilerman, "Sources of Invention", Mc Millan, II^e nd éd. 1969.

(3) M. J. Pech, "Competition in American Aluminum Industry, 1945-1955", Harvard University Press, 1961.

(4) D. Hamberg, "Creativity and Innovation in Engineering", éd. S. A. Gregory Butterworths, 1972.

بيد أن فريمان (5) يرى ان معظم المخترعين فى حقل الصناعات البلاستيكية هم من العاملين فى الشركات الكبيرة • ويخالفه فى هذا الصدد مولر (6) الذى درس 18 منتوجا جديدا عرضت للبيع من طرف شركة : دوبونت فوجد ان خمسة منتوجات فقط اخترعها موظفون يعملون فى الشركة المذكورة لكنهم (أي الموظفين) قد شاركوا فى صنع اختراع واحد من الثمانية عشر منتوجا الذى درسه •

على كل ، يوجد فى صناعة البلاستيك ، مساهمات قام بها مخترعون يعملون بصورة مستقلة نذكر منها زيكلر الذى صنع مادة Polyéthylène ، وناتا الذى اقترن اسمه بمادة Polyropylène ، ووين فيلد مادة Térylène ، وكيبينغ Silicones

واختم اجابتى على السؤال : من هم المخترعون ؟ بأن أروي اليكم القصة التالية حول أحد مواطنى الدانمرك المسمى ج• م• ل• ثورسون والذى اخترع طريقة لتشكيل صفيحة من الفولاذ لا يصدأ ، حسب الطلب (لاستعمالها مثلا كمغسل فى المطبخ وما شابه ذلك) • لقد نجح ثورسون فى انجاز هذا الاختراع فى الوقت الذى كانت الجامعات التكنولوجية فى العالم المصنع تبث فى عقول طلابها ان هذه العملية مستحيلة نظريا وعمليا • أجل ، لقد جح ثورسون على الرغم من عقيدة العاملين فى الجامعات التكنولوجية ، فاصبح بذلك مليونيرا نتيجة لاختراعه • وعندما سئل ذات مرة كيف امكنه صنع ما بدا مستحيلا ؟ قال : ما كنت اعتقد انه مستحيل ، ولهذا نجحت فى صنعه.

لم يتلق ثورسون الا تعليما فى المدرسة الابتدائية فى قريته ولمدة ست سنوات ، كان يغيب اثناءها يوما ويحضر يوما • وعندما شب ، خدم حمالا فى فندق لكنه كان صاحب افكار مبادرة ، فبعد سنوات فتح ورشة ميكنيكية صغيرة حقق فيها ما حققه من اختراع وابتكار •

هل لكل ما قلت أهمية بالنسبة للبلدان النامية ؟

أعود فاكرر انى أرى بوادر أمل مشجعة فى البلدان النامية تتأتى من فكرة ان عددا كبيرا من المخترعات الحديثة ذات الاهمية ، والتى تمت فى البلدان الصناعية قد انجزه مخترعون يعملون بصورة مستقلة أو من جانب مخترعين يعملون فى مختبرات صغيرة وغالبا باستعمال موارد مالية محدودة جدا • وانى اضيف قائلا

(5) G. Freeman, "The Plastics Industry", National Institute Economic Review, Nov. 1963.
(6) W. F. Mueller, "The Rate and Direction of Inventive Activity", Princeton University Press, 1962.

ان الشركات الكبيرة كثيرا ما تتبنى المخترعات الصغيرة بعد نجاحها وذلك لان أوضاع هذه الشركات المالية تسمح لها بتحمل تكاليف تطوير المخترعات ·

انى متاكد ، على ايـة حال ، انـه يوجد آلاف الناس فى البلدان النامية الـذين باستطاعتهم القيام باختراعات وابتكارات هامة اذا أمنا لهم الجو المناسب ــ وسوف يكون من الممكن انجاز الكثير مـن هذه الاختراعات فعـلا لان المخترع لا يعـرف ان اختراعه مستحيل ·

البيئـة المشجعة ــ ما هي عناصر البيئـة التى تشجع على حدوث الاختراع والابتكار ؟ سأحاول فى الوقت المتبقى لى ان اصف بعض المظاهر الهامة لهذه البيئة ·

ان الجو الاجتماعى ــ النفسى هو أهم مظهر لها · انى أقصد بهذا وجهة نظـر المجتمع العامة نحو المخترعات والمبتكرات فاذا كان المجتمع يعتبر كل شىء جديد مـن عمل الشيطان ، فاقل ما يقال اذن هو أنه يصبح من الصعوبة بمكان بل ومن الميئوس منه ، ان يكون لدينا مخترعون ومبتكرون ·

اما العامل الثانى فهو ان نعترف ونحترم المخترعين ونكافئهم · فمن الضرورى الاعتراف بالمكانة الهامة للمخترعين واعطائهم المكافآت المالية لان لهذه تاثيرا تشجيعيا لاقتناعنا بجدواه ، وليس بسبب ميثاق الامم المتحدة حول الحقوق الثقافية والاجتماعية لاقتناعنا بحدواه ، وليس بسبب ميثاق الامم المتحدة حول الحقوق الثقافية والاجتماعية والاقتصادية الذى أصبح نافذ المفعول فى 3 جانفى 1976 ، ينص على ذلك ·

لقد اكدت على أهمية الوسط الشخصى الصغير لكن هذا غير كاف فى حد ذاته · يجب أن نؤمن للمخترع امكانية الاتصال مع العالم المحيط به ، لا أقصد زملاءه العاملين فى نفس الحقل ، بل اعنى الاطلاع على فروع العلوم المختلفة والتكنولوجيا والاسواق والمعارض وحضور المؤتمرات التى تقـام فى بلـده وفى البلدان الاجنبية · هـذا وان الاتصال بالانسان العادى ، سواء كان عاملا فى مصنع ، فلاحا أو صيادا ، له قيمة كبـيرة ايضـا ·

ان الاطلاع على المعلومات التكنولوجية ذات العلاقة بموضوع الاختراع له أهميته ايضا · انى لا أقصد الكتب التى تعالج موضوع تسجيل الاختراع وبراءته وما شابه ذلك والتى غالبا ما تكون مكتوبة بلغة يصعب فهمها من جانب الكثيرين من المخترعين · انى أقصد تلك المعلومات الخاصة والتى تتضمن لمحات جامعة عن المنتوجات والطرائق

التى يمكن الاستفادة منها فى البلدان النامية من الضرورى أن تكتب هذه المعلومات بلغة مبسطة يسهل فهمها من طرف الانسان العادى ، ويجب ان تتضمن أيضا التكاليف التى تصرف على المخترعات المختلفة وكمية العمل الذى تتطلبه • ان مثل هذه المعلومات المرجعية ذات فائدة كبيرة بالنسبة للمخترع المبتدىء اما بالنسبة للمخترع المتهن الذى يقوم بالاختراعات حسب الطلب ، فمثل هذه المعلومات ضرورة كبرى ، لابد منها •

مظاهر نظام تسجيل الاختراع والبراءة : لابد أن نكيف نظام البراءة والتسجيل حسب حاجات كل من البلدان النامية • وفى هذا الصدد أشير الى ما أطلق عليه اسم « سنة البركة » Grace Year أو « سنة التشجيع » والتى أصبحت أسلوبا شائعا فى الولايات المتحدة وعدد آخر من البلدان • ان فكرة « سنة التشجيع » مفيدة جدا ان لم نقل جوهرية بالنسبة للمخترع المبتدىء فى بلد نامى ، على شرط ان ندخل التغييرات اللازمة على نظام البراءة والتسجيل فما هي سنة التشجيع يا ترى ؟

انها فترة زمنية تمتد على مدى عام كامل يستطيع اثناءها صاحب الاختراع ان يصنع اختراعه ، وأن يستفيد منه ، ويبيعه ويعلن عنه ، وذلك كله قبل أن يقدم طلبا من أجل تسجيله فى مكتب البراءات • ففى حالة ما اذا كان الاختراع جديدا كل الجدة وتم صنعه استجابة لحاجة زبون معين أمر به ، أو نتيجة لتشجيعه ، أو استجابة لحاجة المجتمع ككل (وهذا غالبا ما يكون الامر عليه فى البلدان النامية) ، فمن غير المنطقى وليس علميا البتة ، ان نطلب من المخترع أن يسجل اختراعه فى مكتب البراءات وذلك قبل أن يعرضه على المهتمين به أو على أفراد المجتمع الآخرين ويستمع الى آرائهم حول الموضوع •

ليس لسنة التشجيع فى الوقت الحاضر وجود الا بشكل بسيط فى مؤتمر باريس الدورى الذى ينعقد بمناسبة المعارض الدولية • ولهذا فان طلب التسجيل (فى الوقت الحاضر) الذى يقدم ، بناء على « سنة التشجيع » لا يتضمن امكانية تسجيل الاختراع فى بلدان أخرى • لكن ، ربما يكون من المفيد أن نعيد النظر فى « القانون المثالى » المطبق الآن ، على الرغم من ان اي اقتراح لتغيير هذا القانون لا يبعث السرور فى نفوس الكثيرين والذين نشأوا فى ظل التقاليد المستقاة من تشريعات تسجيل براءة الاختراع الاوروبية •

لقد ثبت ان لـ « سنة التشجيع » مفعولا تحفيزيا كبيرا بالنسبة للعاملين فى حقل الاختراع فى الولايات المتحدة · ولذلك فمن المحتمل ان يكون لها نفس الاثر الطيب على جهود المخترعين فى البلدان النامية · وان عددا لا بأس به من المخترعين الاوروبيين الذين اعرفهم ، يتوقون الى أن تصبح « سنة التشجيع » مقبولة عالميا بعد بعض الوقت·

انتقل الآن الى فكرة أخرى تستحق مزيدا من العناية وتتعلق ببعض الاختراعات ذات الفائدة العملية · فى رأيى ثمة حاجة لشكل من أشكال شهادات الاختراع والتى تتضمن مبدأ « رخصة حقوق » (الاختراع) والتى تتفق مع أوضاع السوق فى البلدان ذات الاقتصاد الحر ، ومع أوضاع السوق فى البلدان ذات الاقتصاد الذى تسيره الدولة ، أيضا ·

للاسف ففى هذا المقام لن أستطيع أن اعطى مزيدا من التفاصيل حول الدور الذى يلعبه نظام تسجيل الاختراع · كل ما آمله هو ان يعالج هذا الموضوع بصورة مجددة ومبتكرة من الآن فصاعدا ·

انتقل الآن الى مجموعة من العوامل المشجعة · هذه العوامل هي عدد من الوسائل التى تساعد على تطوير اختراعات مفيدة وحيوية ، أذكر منها :

1 ـ تقويم الاختراعات الجديدة فى ضوء فائدتها للبيئة وقيمتها الاقتصادية والبيئية.

2 ـ تقديم المساعدات المالية والفنية للمخترعين حتى يستطيعوا صنع نماذج لمخترعاتهم وكي يتمكنوا من تقديم طلب لتسجيل الاختراع ومتابعته وتنفيذ التجارب وصنع النماذج الاولية والورشات النموذجية اللازمة ·

3 ـ المساعدة فى اطار تأمين المشترين الاولين للمنتجات والطرائق المخترعة و/أ وتأمين الرخصة اللازمة ·

من اللازب أن يقوم بالاشراف على ادارة وتنفيذ هذه الوسائل المساعدة مكتب مخصص لهذا الغرض ، اواية مؤسسة مشابهة وذلك على غرار ما يجرى فى البلدان السكاندينافية وبعض البلدان الاوروبية · ولقد حاز هذا الاسلوب من الاشراف على نجاح لا بأس به ·

هذا وان رابطات المخترعين وجمعياتهم التى تهدف الى ترويج المخترعات قد اثبتت انها عوامل جد هامة فى مجال تشجيع الاختراع والابتكار وتنفيذهما · كما ان الاتحاد الدولى لرابطات المخترعين (IFIA) قد كرس الكثير من جهوده من أجل تحقيق هذه الاهداف على المستوى الدولى ·

نشر المعرفة عن طرائق الاختراع والابتكار ـ بودى أن اتناول الآن مشكلة نشر المعرفة عن الاختراع والابتكار وبكل برود أقول انه يبدو انه يوجد فى البلدان النامية جهد مطبق بطرائق الاختراع والابتكار • انى اعترف ان هذه كلمات قاسية ، لكن يؤسفنى ان أقول ان الوضع فى البلدان الصناعية ليس بأفضل •

فلنتمعن فى هذه العبارة المقتطفة من تقرير خاص حضرته لجنة الخبراء القت لتقديم النصح لوزير التجارة فى الولايات المتحدة حول أوضاع الاختراع والابتكار فى تلك البلاد • وورد فى التقرير الذى صدر منذ أقل من عشر سنوات ما يلى : « ينتشر جهل كبير (فى الولايات المتحدة) بطرائق الاختراع والابتكار فى حقل روح المبادرة لارتياد المجهول » • اما الوضع اليوم فهو غير ما ورد فى هذا التقرير •

فى الوقت الحاضر توجد الكثير من المعرفة العملية والتى يمكن الحصول عليها بدون مقابل ، حول هذا الجانب الاساسى من السلوك الانسانى • انى أعتقد شخصيا وبناء على تجارب قمت بها مع زملائى على أطفال وكبار على أن القدرة على الاختراع والأبتكار تبقى فى حالة حذر عند نسبة معتبرة من الناس •

ان الاغلبية العظمى من الناس فى البلدان النامية وفى البلدان الصناعية لم تدرب على ممارسة الابداع ولم يجر تحفيزها بصورة كافية كي تضع المعرفة التى لديها موضع الممارسة العملية وبالتالى تنمى ملكاتها الخلاقة •

ان المشكلة تبدو مثل عملية تعلم العزف على المزمار من نوع Traverse • فالمحاولات الاولى لاخراج نغمة واحدة بصورة صحيحة تبوء بالفشل • لكن كل الناس يتعلمون فى خاتمة المطاف كيف يعزفون على هذا النوع من المزمار ، مع العلم أن عددا محدودا منهم يملك درجة عالية من الذكاء فى حقل الموسيقى وفى الحقول الاخرى من النشاط الانسانى •

ان الدول النامية بحاجة ماسة لايقاظ الملكات الاختراعية والابداعية « النائمة » عند أفراد شعوبها ، أي لدى الانسان العادى والمتفوق على السواء • ويجب على الانظمة التربوية ووسائل التربية الاخرى أن تتكفل القيام بهذه المهمة • وسوف تثبت التجارب ان الجهود المبذولة فى هذا المضمار هي أفضل استثمار من أجل تقدم البلاد •

فى الختام ارجو أن تسمحوا لى أن أقدم عددا من الاقتراحات :

(I) يجب أن تقوم المنظمة العالمية للملكية النكرية (Wipo) بتنفيذ برنامج عمل يهدف الى اعلام مخططى السياسة فى البلدان النامية بفحوى الخطوات العملية التى من واجب الحكومات أن تتخذها من أجل تشجيع وتحريك الاختراع والابتكار والتأكيد على الفوائد التى تعود عليها من هذا كله ٠

2 ـ يجب على حكومات البلدان النامية أن تقوم بصياغة الخطط المتعلقة بتشجيع وتحفيز على الاحتراعات والابتكارات فى اطار برامج التنمية التى تنفذها ٠

3 ـ يجب ادخال طرائق الاختراع والابتكار الى صلب المناهج المقررة فى الجامعات والمدارس الثانوية والمؤسسات التربوية العالية الاخرى ٠

4 ـ يجب تأسيس مكاتب ومنظمات من أجل ترويج الاختراع والابتكار الفنيين فى البلدان النامية وعلى حكومات هذه البلدان أن تدعمها وتسمح لها بالعمل خارج اطار الروتين وتسلسل السلم الادارى ٠

5 ـ لابد من تشكيل جمعيات خاصة بقصد ترويج الاختراع والابداع يكون اعضاؤها من بين المخترعين والعاملين فى الصناعة ومن لهم اهتمامات بهذا الموضوع٠

6 ـ يجب وضع الخطط اللازمة من أجل الاعتراف بوجود واحترام من يقدم اختراعات أو مبتكرات أصيلة ويجب تقديم المكافآت المالية وغير ذلك لهم ٠

7 ـ كذلك يجب تخصيص الوسائل المالية المناسبة فى كل بلد نامى بهدف تمويل والمساعدة على تمويل مشاريع تطوير الاختراعات التى قد تتمخض عنها فوائد ما ٠

8 ـ ويجب أن تخفف الضرائب المفروضة على المخترعين وعلى أولئك الذين يحاولون أن يستثمروا ما يجد من ابتكارات محلية ٠

9 ـ واخيرا يجب اعادة النظر فى المعايير الفنية والمتطلبات الرسمية الاخري وأيضا فى القوانين السائدة حول موضوع الاختراع وذلك بهدف ازالة كل العقبات فى طريق أدخال الابتكارات التكنولوجية المناسبة ٠

من الممكن أن يطول بى المقام اذا ما أردت أن أورد كل المقترحات التى فى جعبتى ، على انى آمل ان ما ذكرته حتى الآن سيشجع (أو يستفز ، اذا سمحت لنفسى ان استعمل هذه الكلمة بشكل ودى) البعض منكم كي يطرح مسائل الاختراع والابتكار فى المستقبل بشكل اكثر ابداعا وابتكارا ، والسلام ٠

ما وصل اليه العلم في ميدان الاشعة الشمسية (*)

د. عبد القادر حليمي
أستاذ الجغرافية بكلية الآداب
جامعة الجزائر

بسم الله الرحمن الرحيم ،

يسعدني في هذه الليلة أن اتحدث اليكم عن « اهمية الاشعة الشمسية في العلم الحديث » وهذا الموضوع في الواقع ، جديد جدا ، اذ منذ حوالي عشرين سنة فقط ، اتجهت عدة أبحاث نحو دراسة الاشعة الشمسية ، وتحليلها ، وضبط دورها في الحياة على سطح الارض، واخترعت عدة أجهزة لقياس الموازنة الشمسية ، وتحليل الطيف ، الى ان أصبحت دراسة الاشعة الشمسية من أهم الابحاث ، في الاتجاهات العلمية الحديثة ، يستعملها «الهيدروغرافي» لقياس المياه،لقياس ما تبقى من التساقط ، ويستعملها كذلك عالم النباتات لمعرفة ما تمتصه النباتات من الاشعة الشمسية ، ويستعملها الاقتصادي أيضا في معرفة ما تنتجه هذه النبتة من المادة الجافة الى آخره .

(*) محاضرة القاها في المركز الثقافي الاسلامي بالعاصمة بتاريخ 8 ذي القعدة 1393 هـ الموافق لـ 2 يناير 1974 م .

ولئـن كان العـلم الحديث يرتكـز على الابحاث القديمة ، والاختراعات العلمية ليست فى الواقع الا حلقات متواصلة لبني الانســان منــذ النشــأة الاولى · اذ أن الحضارة التى نعيشها الآن هي عبارة عن تجارب وابحاث متواصلة منذ النشــأة الاولى الى يومنا هذا ، وليست هي من اختراع انسان واحد ولهذا ، يجدر بنـــا ان نتعرض ـ ولو قليلا ـ الى تطور علم الفلك ، فمصدر الاشعة الشمسية هي الشمس التى تجرى لمستقر لها كما فى قوله تعالى : « **والشمس تجرى لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم** » · وقد أهتم بها القدامى اهتماما محدودا حسب امكانياتهم الحضارية واتجاهاتهم الفكرية ، وعقائدهم الدينية ، فمنهم من عبد الشمس مثلا ، ومنهم مـــن اتخذها دليلا للاتجاه ، ومنهم من اتخذها مصدرا للحياة ومنهم مــن اتخذها دليـلا على التوقيتات بصفة عامة.والمهم هو ان الشمس والكواكب والنجوم ، قد اهتم بها الانسان منذ نشأته الاولى · وهذا نجده واضحا فى الحضارات القديمة ، ففى المعابد الفرعونية صور للشمس ، وكذلك الآثار الكلدانية ، نجد فيها آثارا للشمس ونجـــد شعراء العرب أيضا قد اهتموا بالفلك باعتبار الشمس تمثل جزءا منه وفى العصـــور الوسطى ـ خاصة فى عهد المأمون ـ زاد اهتمام العرب برصد حركات الشمس ، فنبغ علماء منهم : البيرونى ، والاسطرلابى ، وسند بن على ، والخوارزمى ، وثابت بن قرة وغيرهم مــن علمــاء العــرب الذين كانوا بارعين فى هذا الميدان ، وكانت للعــرب ، محاولات ونتائج قيمة فى رصد القمر ، وحركة الشمس ما زالت آثارها واضحة فى أسماء كثيرة للنجوم التى نجدها فى اللغة اللاتينية · كالراعى ، والحمل ، والذئب التى هي نجوم نجد اسماءها لا تزال كما هي بالفرنسية ·

وهذا ما يدل على أن العرب قد برعوا فى علم الفلك وســـاهموا فـيـه وانهم لم يتركوا الزمان يمر دون اضافة لبنة من لبنات الاختراعات لتشييد قصـــر الحضارة الحديثة ، ولا غرو ، أن هذه المشاركة الاسلامية العربية كانت بدافع ايمانهم · ذلك ان القرآن يحث كثيرا على هذا الميدان ، الميدان العلمى ، ميدان البحث ، وهناك آيـات كثيرة تحث الانسان على التعمق فى التفكـير والبحث فى الحقـائق العلمية : « **ان فى خلق السماوات والارض ، واختلاف الليل والنهار ، لآيات لأوولى الالباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السماوات والارض** »

آية · « **أو لم ير الذين كفروا ان السماوات والارض كانتا رتقا ففتقناهما** » فهذه الآية جاء العلم الحديث ليقول ما قالت به ·· « لا بلاص » مثلا يقول ان مجموعتنا الشمسية كانت تمثل فى القديم كتلة غازية تدور حـول نفسها ، ثم وقـع لها انفجار فاندثرت وانقسمت الى شظايا ظلت هذه الشظايا تدور حـول نفسها ، وبحكـم دورانها تكون شكلها الكروى ، ثم تجمدت شيئا فشيئا وبعد ذلك ظهرت الحياة · فهذا واضـح فى قوله تعـالى : « **كانتا رتقـا ففتقناهما** » ونجـد عملية النحت ـ التى اتجهت نحوها الابحاث فى الوقت الحالى ، خاصة فى عـلم الجغرافيا ، نجدها واضحة فى القـرآن أيضا كقوله تعالى : « **وترى الجبال ، تحسبها جامدة ، وهي تمر مر السحاب** » آية · وفى قوله تعالى : « **رفع السماوات بغير عمد ، ترونها ، وجعل فيها رواسى** » نلاحظ معنى الجاذبية التى قيل عنها الكثير ، والتى يعتمد عليها علم الحركة فى الوقـت الحالى ، والتى وضحها جيدا « نيوتن » ففى هذه الآية ، معنى الجاذبية التى تـربط بين أجزاء المادة والتى تعتمد عليها العلوم الحديثة كعلم الحركة والكهرباء ، ودراسة الطاقة بصفة عامة ، فوزن الجسم مثلا ، ما هو فى الواقع الا قوة التصارع التى هي الجاذبية الارضية · والشحنات الكهربائية أيضا ما هي الا جزئيات دقيقة ، مرتبطـة ببعضها بقوة الجاذبية ولولا هذه الجاذبية التى هي أصل النشاة ، أو قاعدة الخلق لما كان الوجـود عـلى ما هـو عليـه . وقـد بين المولى تبارك وتعالى أهمية هذه الجاذبية فى تصويره ليوم القيامة ، وهو اليوم الذى يتحقق فيه هذا الخلل بين الكواكب وبـين الشمس فى قوله : « **اذا السماء انفطرت** »

وفى أواخر العصور الوسطى ـ وبفضل مـا وصـل اليه العـرب بصفة خاصة ، والانسانية بصفة عامة ـ بدا الغربيون ينفضون غبار التخلف ويأخذون بأهداب العلم والبحث ، ويحاولون استعمال الفكر ، واستخدام العقل ، متحدين فى بعض الاحيان المعتقدات الكنائسية ، وضاربين أحيانا أخرى التقاليد الاجتماعية البالية ـ واشتهر الفلكى البولندى « كوبرنيق » بعـلم الفلك وتابعه « كبلـر » الالمـانى أيضا واخترع « غاليلى الايطالى » المنظار المقرب الذى أصبح بفضله التطلع الى السماء متعة عجيبة ملأت الدنيا علما جديدا لم يعرفه الناس من قبل ، فقد وجه منظاره الى القمر ورأى فيه جبالا وسهولا ، وبحارا . وذلك فى مطلع القرن السابع عشر .

وكذلك وجهه الى « زحل » ورأى ما حوله من توابع · وكذلك « المشترى » بل اكتشف نجوما كثيرة ما كانت معروفة من قبل · وذلك بفضل هذا المنظار العجيب · وكذلك استطاع ان يخترع بعض المعادلات للحركات التموجية · أما « نيوتن » الرياضى الانجليزى الذى عاش فى القرن الثامن عشر ، فقد اكتشف قانون الجاذبية وقواعد أصول الحركة المعمول بها الى يومنا هذا ، والتى يمكن تلخيصها الى ثلاثة قوانين هي :

1 ـ كل جسم متحرك ، حركة خطية منتظمة وثابتة ، سيبقى على حالته ما لم تتدخل قوة خارجية أخرى ·

2 ـ اذا وضع جسم تحت فعالية قوة خارجية ، سيتسارع فى اتجاه هذه القوة بنسبة عكسية لها ·

3 ـ لكل قوة ، قوة مضادة مساوية ، ومعاكسة لها ·

وفى مطلع القرن الحالى ظهر نابغة آخر هو « البرت اينشتاين » الذى أدخل تغييرا خارقا على ما وصل اليه العلم منذ الاجيال العتيقة ، حيث خرج بالنظرية النسبية ، التى هزت الابحاث العتيقة وأضافت أشياء كثيرة منها البعد الرابع أي البعد الزمنى اذ أن الابعاد المعروفة قبله كانت ثلاثة فقط هي الطول والعرض والارتفاع · وكذلك ادخل أبحاثا جديدة ، فقد كانوا من قبل يقولون باللانهاية فجاء هو وقال بأن للانهاية نهاية ، ولكن هذه النهاية مجهولة · وقال بأن الذرة ما هي الا صورة مصغرة للكون العجيب ، تمثله احسن تمثيل · فالسيارات فى دورانها حول الشمس · والنجوم فى مجراتها ، يجمعها نسق واحد ، وتماثل حركى واحد · والكل يمثل وحدة الوجود · وفى السنوات الاخيرة · اتجهت الابحاث الى دراسة الطاقة والطاقة الشمسية بالخصوص ، واخترعت لذلك الصواريخ ، والاقمار الصناعية المجهزة بالآلات لرصد الاشعة الشمسية بصفة عامة والكونية بصفة خاصة ·

بعد هذه اللمحة السريعة · ندخل فى موضوع الاشعة الشمسية ، الذى يدخل ـ حسب التخصصات الحديثة ـ فى ميدان الطاقة . التى ما زالت غامضة فما هى الطاقة مثلا ؟

اننا نعرف الطاقة عن طريق آثارها فقط ، والاشعاع الشمسى ما هو فى الواقع الا طاقة لكن العلم الحديث يفرق بين الطاقات حسب مصادرها ، فهناك الطاقة الشمسية والطاقة الحرارية والطاقة النووية ، والطاقة الكهربائية الخ ··· والشمس عبارة

عن نجم ملتهب ضخم حجمه أكبر من حجم الارض بمليون مـرة ويبعد عـن الارض بحوالى 150 مليون كيلو مترا • وهي أعظم مصدر للطاقة بعد الطاقة النووية طبعا • سطحها الخارجى عبارة عن غازات كثيفة متضاغطة ضغطا شديدا ، يزيد عن الاربعين مليون كيلوغرام • هذه الغازات يبلغ عددها حوالى 67 عنصرا ، والمعروف على سطح الارض حوالى 107 عنصرا •

نعم ، هناك بعض الغازات لا تـزال مجهولة الى يومنا هذا ، ولا تـزال الابحاث جارية لمعـرفة ماهية الشمس ، الا ان أهـم الغازات التى تتكون منها الشمس هـي الهيدروجـين والهيليـوم ، والهيليـوم يمثـل نسبة مرتفعـة جدا . وكل هذه الغازات فى حالة انصهار وجيشان لا تستطيع الانطلاق من الشمس نتيجة للضغط الذى تتلقـاه • ودرجة حرارة الشمس حوالى ستة آلاف درجة « كلبر » اما درجة حرارة باطنها فهي أزيد من ذلك بكثير ، وتصل الينا الاشعة الشمسية فى ظرف زمنى يقـرب فى معدله من 8 دقائق أثناء النهار مباشرة • أما اثناء الليل فالاشعة الضوئية تصل الينا بواسطة القمر وكواكب أخرى • لانه يجب علينا ان نفرق ـ فيما يخص الاشعة الشمسية ـ بين أشعة ضوئية وأشعة حرارية وأشعة كيمياوية ، حقيقة ، عين الانسان لا ترى الا الاشعة الضوئية والاشعة الشمسية التى تصل الينا ثلاثة أنواع (1) أشعة ضوئية (2) أشعة كيمياوية (3) أشعـة حرارية •

والاشعة الشمسية تصل الينا فى شكل موجات ، تنتقل فى الهواء بسرعة ثابتة ، تقدر بحوالى ألف كيلو متر فى الثانية • ونعرف ان الضوء تختلف سرعته من مـادة الى أخرى ـ فسرعته مثلا فى الماء أقل منها فى الهواء • والضوء رغم تكونه من عدة موجات ، الا ان هذه الموجات لها نفس السرعة بشرط ان تكون فى مـادة واحـدة • وموجات الاشعة الشمسية تختلف عن موجات الاشعة الكهربائية فى أطوالها اذ انها من نوع الموجات الدقيقة التى ينحصر جلها فى الاشعة المرئية • والاشعة المرئية هـي التى يتراوح طولها بين 0،3 ميكرو و0،7 ميكرو o والميكرو هو عبارة عن جزء من ألف جزء للميلمتر • والاشعة عبارة عن جزئيات دقيقة تسمى « الفوتا » وكذلك « الكونتا » هذه الجزئيات الدقيقة تعمل ضوءا • وتسير كما نعلم بسرعة 300 ألف كيلو متر فى الثانية • وتختلف موجات الاشعة الشمسية عن غيرها من الموجات حيث انها تتكون من سبعة الوان مندمجة تعرف بلون الطيف ويمثلها قوس قزح ـ وكذلك زجاج كريستال عندما تعكس عليه الاشعة الشمسية فانه يتحلل الى سبعة ألوان • وهذه الالوان كل

منها يمثل موجة • وهذه الالوان السبعة هي : البنفسجى ـ الازرق ـ النيلى ـ الاخضر ـ الاصفر ـ البرتقالى ـ الاحمر • كل لون منها يمثل موجة يختلف طولها عن طـول الموجة الاخرى ، فأقصر طول هو طول الموجة البنفسجية الذى يتراوح ما بين 0،3 و0،4 من الميكرو • وأكبر كمية من الطاقة الاشعاعية الشمسية التى تصلنا هي التى تحملها الينا الاشعة الخضراء والصفراء ، والتى تدور أطوالها حول 0،5 من الميكرو • وقـد يتساءل بعضكم لماذا يكون الشفق أحمر ؟ هذا بسيط للغاية •

قلنا ان الاشعة الشمسية تتكون من سبعة الوان ، الاشعة البنفسجية قصيرة جدا ، والاشعة الحمراء طويلة ، الاشعة القصيرة تنعكس بسرعة والاشعة الطويلة لا تنعكس بسرعة • وعندما تطلع الشمس صباحا يبدو الافـــق أحمر لان المسافة التى يقطعها شعاع الشمس لكي يصل الى هناك ، بعيدة جدا • وعندئذ يمتص الغلاف الغازى كل الاشعة الدقيقة ويترك فقط الاشعة الطويلة التى يمثلها اللون الاحمر • وكذلك الحـــال فى تعليل ظاهرة احمرار الشفق عند الغروب •

لماذا نرى بعض الاجسام سوداء تماما ؟ لانها تمتص كل الاشعة • ولماذا نـــرى بعض الاجسام بيضاء ؟ لانها تعكس كل الاشعة ونحن نعلم ان اللون الابيض متكون من سبعة الوان • لماذا نرى قماشا أخضر مثلا ؟ لانه يمتص كل الالوان ما عدا اللون الاخضر الذى يعكسه الخ •••

المهم ان هناك اشعة مرئية وأخرى غير مرئية وهذه الاخيرة هي التى تحتوى على أطوال موجية قصيرة من الاشعة البنفسجية تعرف بالاشعة فوق البنفسجية وتأثيرها الكيمياوى أكثر من تأثيراتها الحرارية • كما ان هناك أشعة فوق الحمراء وموجاتها تزيد أطوال موجاتها عن أطوال موجات الاشعة الحمراء • وهي كذلك غير مرئيـــة وتعـرف بالاشعـــة الحرارية لان تأثيراتها الحرارية أكثر من تأثيراتها الكيمياوية • وتستغل هذه الاشعة فى الاكتشافات الموجية بالخصوص • ونعرف ان هناك أسلحـــة حديثة تكشف العدو من غير ان يراه الانسان •

وذلك ان الانسان فيه حرارة تفوق درجتها 36 درجة مثـــلا •

وهذه الحرارة تخرج من الانسان فى شكل أشعة ، فى شكل جزئيات دقيقة ، وتنتقل لمسافات بعيدة ، والآلة بمجرد ان تصلها هذه الحرارة تشير الى أن الناحية الفلانية تأتى منها الاشعة • ولهذا ، هناك بعض الاسلحة حاليا تكتشف العدو فى الليل الدامس • وخلاصة الحديث أن الاشعة الشمسية الواصلة الى سطح الارض ما هي الا كميـــة

ضئيلة من الطاقة الشمسية التى يتبعثر الجزء منها فى الفضاء،فى الكون ، ثم ان الجزء الواصل الى نهاية الغلاف الغازى ينعكس جزء منه مرة أخرى ، الى الفضاء وجزء آخر يعبر الغلاف الغازى المحيط بالكرة الارضية لكن قبل ان يصل الى سطح الارض يعكس منه الغلاف الغازى نسبة أخرى · وهكذا ، فلا تصلنا من الطاقة الشمسية الا كمية ضئيلة للغاية قدرها الباحثون بحوالى الواحد من المليار جزء من الطاقة الشمسية المنبعثة من الشمس ·

ولا يزال الانسان يحاول اكتشاف أسرار الاشعة ، ويحاول استغلالها فى التطور الاقتصادى ، ولئن استطاع ان يستغل فى تقدمه التقنى بعض الاشعة المرئية ، والقليل من الاشعة الحمراء الى حد ما · الا ان هناك أشعة أخرى كونية وبالخصوص تلك الاشعة ذات الموجات الدقيقة ، ما زالت فى سر عجائب الكون التى لا يحصيها الا الله ، وهي أعظم الادلة على قدرة الخالق ، وسوف يكون لموضوع الاشعة الشمسية فى المستقبل أهمية كبرى فى ميدان الطاقة ، خاصة وان الطاقة البترولية سائرة نحو النضوب · وستعوضها الطاقة الشمسية · ولهذا فان الابحاث الحديثة فى البلدان المتقدمة ـ خاصة فى الولايات المتحدة ـ متجهة نحو دراسة الطاقة الشمسية ·

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ·

جــــامـــــع قــرطبـــــة (*)

والآن وقد حـرك الانتعـاش روح الاسـلام ،
بلمسـة الهيـة غريبـة ، لا يمـكن ان يصفها لسـان ،
ارقبـوا اية ميـاه جديدة ستنفجر من أرض المحـيط ،
وأية الوان جديدة ستغـير سمـاء الاسـلام الزرقـاء .

للشاعر محمد اقبـال
1938 - 1877

تـرجمـة

د. سلمى الخضراء الجيوسى
أستاذة فى جامعة قسنطينة

محمد اقبال هو شاعر الباكستان الاول وفى طليعـة شعراء الاسلام ، جمع الى الورع ، رقى الروح ، وتهذيب العقل ، والثقافة الحديثة الشاملة .

وفى قصيدته الخالدة « جـامع قرطبة » التى نظمها فى زيارته الى اسبانيا يتحدث اقبال عن فلسفة العشق الالهى الذى تنبع منه جميع روائع الخلق والابداع .

(*) القت هذا القصيد فى الملتقى الثامن للفكر الاسلامى بمدينة بجاية .

[illegible]

☆ ☆ ☆

[illegible]

☆ ☆ ☆

[illegible]

☆ ☆ ☆

[illegible]

انــه شمس جــوالة ، لا تعــد مساكنهــا ولا تحصــى
وهــو الانمــل الذى يقتطف الاغـانى من أوتــار الحيــاة
العشــق هو بريق الحيــاة ـ العشــق هو نــار الحيــاة

☆ ☆ ☆

وانــت يا محراب قرطبة تــدين بوجودك للعشــق
العشــق الذى لا يموت ، العشــق الغريب عن الزمن عن الامــس والغــد ،
فالالوان والآجــر ، والحجر والكلمات ، والموسيقى والغنــاء
لا يغـذيها ســوى دم القلــب الفائــر
نقطــة واحدة من دم القلــب ويولد للرخــام قلــب ينبض
ومــن دم القلــب يتدفــق الــدفء والموسيقى والســرور

☆ ☆ ☆

ان لك يا جامع قرطبة البناء الذى يخلب الروح ، ولى الشعر الذى يلهب القلب
انت تنــادى قلوب الرجال ليجتمعوا امــام اللــــه ، وأنــا أفتــح قلوبهم
ان صـــدر الانسان قــوى وكبــير كقبــة السماوات ٠
ولو كان قبضة من غبــار محجوزة فى ذيــل السماء الزرقاء
كيف تــرى يرقــب اللــــه الذى هــو النــور تعبــدنا
لعلــه يشعــر باللذة والحرارة التى تبــرق فى أعطافنا الخاشعــة
انظرنى انــا ، الفقير الهندى ، أنــظر حماستى وحرارتى
وقــد مــلأ التسبيح للــــه ولرسول اللــــه روحــى وفمــى
ان صــوتى ينطلــق بحماســة واخــلاص
وقيثارتى تعــزف بشـــوق وحرارة
اللــــه عظيم ـ وعظمة اللــــه تنبض فى كل عرق من عروقى ، الفــانية

☆ ☆ ☆

أيها الجميل فى ظاهرك وفى باطنــك ، انك الشاهد بأن بانيــك
رجــل مثلــك جليــل ، وجميل الشكــل والــروح
ان أسســك متينــة واعمــدتك التى لا عــديد لهــا
تشمخ الى السماء كما تشمخ صفوف النخيل فوق رمــال الشــام

والنور ، النور الذى رآه يوما موسى ، يلتمع على هذه الجدران وعلى هذه القباب
وفوق هذه المنارة تجلى جبريل بعزة وكبرياء
ان المسلم الحقيقى لا يمكن أن يعرف الانكسار
لانه يسمع حل أحاجى موسى وابراهيم فى كل دعوة للصلاة
ان عالمه لا نهاية له ، وافقه لا حد له
ود جلة والدانوب والنيل ليست الا موجة من بحره
انه رأى أياما عجيبة ، وعرف اغرب الاقاصيص
انه ساق فى مملكة الفن ، وفارس فى ميدان العشق
خمره لا تشوبها شائبة ، وسيفه مجرب أصيل
انه محارب وسلاحه لا اله الا الله لمن درعه
وسلاحه لا اله الا الله تحت ظلال سيفه

☆ ☆ ☆

اننا نرى فى أحجارك كل أسرار المؤمن الحقيقى
نار ايامه الغائرة ، ونشوة لياليه الذائبة
رفعته وكرامته ، أفكاره وخياله العظيم
حماسته ، شوقه المحرق ، اذلاله لنفسه واعتزازه
وكما هي يد الله ، فان يد المؤمن ايضا قديرة فنانة ، قوية الخلق والحكم
لقد جبل المؤمن من التراب والنور عاشقا لروح الله وصفاته
قلبه الكبير ينبض فى غنى عن أهل الارض
ان هدفه لرفيع ـ فهو لا يعبأ باحلام الارض ـ
رجل على خلق عظيم يكسب القلوب بنظرة من عينيه
هادىء عند الحديث ، عنيف فى ملاحقة الهدف
نقي الفعل والعقل ، نقي فى المعارك وفى الاعياد
ان محور الله يدور حول ايمان عبده الصميم
وكل ما عداه خيال وسراب وأوهام
المؤمن هدف الحكمة وعمرة الحب
يلهب الارواح فى ساحة هذا العالم ويشعل القلوب

☆ ☆ ☆

يـا محراب أرباب الفـن ، يـا جوهرة الدين المبـين
لقد جعلت تـراب الاندلس مقدسا كتـراب مكـة
آه ، هؤلاء العرب الفرسان ، ذوو الاخلاق العظيمة والحكمة الساطعة
لقد مدنـت نظراتهم الشـرق والغـرب
وفى ظـلام أوروبا كانت حكمتهـم هي نـور الطريق
وحتى اليـوم نـرى الاندلس غنيـة بدمائهـم
عطـوف القلـب مرحـة ، بسيطة الوجـه مشـرقة
وحتى اليوم نرى فى هذه الارض عيونا كعيون المهى ناعمة الجفون
ترمى لحاظها نحونا فتقـع سهامها فى قلوبنا راسخة لا تريم
وحتى اليوم يعلق بنسيمها بقية من عطر اليمـن
وحتى اليوم يعيش فى أغانيها صـدى من أنغـام الحجاز

☆ ☆ ☆

كالسمـاء الجديدة تمتـد أرضك تحت النجـوم
آه ، لقـد مرت أجيال ، واحسرتاه منذ سمعت ساحاتك الاذان لآخر مرة
أي واد بـل أي مـرتع جديد وصلت اليـه
قافلـة العشـق الباسلة فى طريقهـا العـاصف
لقـد رأت أوروبا عاصفـة الاصـلاح
تمحـو الطـرق القديمة اثـرا بعد عـين
وراقبت فـرنسا بعيون جاحظة نـار الثـورة تشتعـل
وتقلـب عالمـا باكملـه هو كل ما عـرفه الغـرب
وهاهم ابنـاء روما العظيمة التى شاخت وهـي تعبـد القـديم
انسـاقوا مع جاذبية التجديد فوجدوا شبابهم مـرة أخرى
والآن وقـد حـرك الانتعاش روح الاسـلام
بلمسـة الهيـة غريبة ، لا يمكن أن يصفهـا لسـان
أرقبـوا آيـة ميـاه جديدة ستنفجـر من أرض المحيط
وأيـة الـوان جديدة ستغـير سماء الاسـلام الزرقـاء

حول مقال :

أبو القاسم الحفناوى وكتابه : « تعريف الخلف برجال السلف »

خرشى محمد بن أبى القاسم الديسى
أستاذ بمتوسطة الذكور القديمة
ـ بوسعادة ـ

أطلعت على مقال الاستاذة خديجة بقطاش المنشور فى العدد (51) ، ص (48 ـ 57) من مجلة « الاصالة » الغراء • ومع أننى أنوه بجهد الباحثة الفاضلة ، واشكر لها اهتمامها بأحد أعلام الوطن البارزين الشيخ أبى القاسم الحفناوى وبكتابه القيم (تعريف الخلف ، برجال السلف) • لا يسعنى الا أن أكتب هذا التعقيب الوجيز تصحيحا لهفوات تاريخية لا ينبغى اغفالها ، ومناقشة لاحكام وآراء لا يحسن السكوت عنها •

ويتناول هذا التعليق النقاط التالية :

1) تصحيح نسب الشيخ الحفناوى وتحقيق اسم والده • ورد فى مقال الكاتبة ما نصه : « هو الحفناوى بن الشيخ بن أبى القاسم يرجع نسبه الى سلالة سيدى محمد بن عروس ، وسيدى المازرى ابن يطو » • وهذا خطأ ، والصواب أن نسبه ينتهى

الى سيدى ابراهيم الغول ، أما سيدى محمد بن مرزوق (وليس ابن عروس كما ذكرت الكاتبة) فهو أحد أجداده الاعلين · كما أن سيدى المازرى هو جده من قبل الام لان والدة المؤلف هي السيدة خديجة بنت المازرى بن محمد بن يطو (1) ·

ثم قالت الكاتبة بعد أسطر قليلة : « وأبـوه هـو الشيخ المعروف بمحمد بن أبى القاسم الهاملى ··· وقد ترجم له ابنه فى كتابه فقال : سيدى أبى القاسم بن سائب المنصور الشريف الحسنى ··· » وهنا التبست الامور على السيدة الباحثة ولـم تنتبه الى ما وقعت فيه من التناقض ، والابتعاد عن الحقيقة ، لان الشيخ محمد بن أبى القاسم (2) مؤسس زاوية الهامل هو شخص آخر لا يمت بصلة الى المؤلف وقد أخطأت الكاتبة فى نسبـه أيضـا · والصواب (محمد بن أبى القاسم ابن ربيـح بـن محمد ابن عبد الرحيم بن سائب بن المنصور ···) ·

أما والد الشيخ الحفناوى فهو (الشيخ بن أبى القاسم بن الصغـير بن محمد المبـارك بن محمد بن أبى القاسم بن محمد بن مرزوق بـن محمد بن سيدى ابـراهيم الغول (3) دفين مدينة بوسعادة ابن سيدى ابراهيم السلامى دفين العاصمة وقـد ترجم المؤلف والده فى كتابه (4) ·

2) أشارت الكاتبة فى معرض حديثها عن طريقة المؤلف فى الترجمة الى ابتعاده عن المنهج العلمى · ويقتضى الانصاف أن نتوقف قليلا عند هذه النقطة ، للاعتبارات التالية : ان التحقيق فى كتب التراجم مغاير تماما للتحقيق فى الحوادث التاريخية ، وهو فى الغالب لا يعدو تخطئة قول وتصويب آخر بناء على القرائن والشواهد ، أو تصحيح ما قد يعترى الاعلام ، والالقاب ، والانساب مـن التصحيف والتحريف ، أو محاولة التوفيق بين الروايات المختلفة للتحقيق فى واقعية بعض الاعمال والمواقف ، أو لضبط تاريخ الولادة أو الوفاة · وينتهى التحقيق فى معظم الاحوال الى تخمينات ظنية تعتمد على الاحتمال والترجيح وقلما يتوصل الباحث الى نتائج مؤكدة موثوق بها الا اذا توفرت لديه الادلة المادية وهي قليلة فى هذا المجال ·

---

1) تعريف الخلف ج 2 ـ ص : 538 ـ معجم أعلام الجزائر ـ ص 185 ـ بيروت 1971
2) نفس المصدر ص 336 ـ وانظر ايضا معجم أعلام الجزائر : ص 176 ·
3) تعريف الخلف : ج 2 ، ص 18
4) نفـس المصـدر ص 178 ·

وعليه فان الشيخ الحفناوى لم يسلك هذا السبيل لجهله بالمنهج العلمى بـــل نعتقد أنه آثر طريقة العرض المحايد ، واحترام النصوص الاصلية ، مع التقيد بالنزاهة التامة ، والامانة العلمية · وهي طريقة سليمة لا غبار عليها ، وقد أعتمدها الكثير من المحققين فى الشرق والغرب · أما طريقة الاقتباس الجزئى والتصرف فى كلام الغير وانتحاله ، فهي طريقة لا جدوى فيها ، وكثيرا ما شوهت الحقائق وظللت الباحثين · يضاف الى هذا كله تعذر الوسائل وصعوبة العمل ، وأعنى بتعـــذر الوسائل ندرة المصادر ، وقلة المراجع · فكثير من علمائنا الذين ترجم لهم المؤلف لا توجد تراجمهم الا فى الكتاب الواحد ، ومن النادر جدا أن تتنوع المراجع وتتعدد ، كما هو الحال فى تراجم علمـــاء المشـــرق ·

أما صعوبة العمل فتتمثل فى اتساع الموضوع ، وكثرة التراجم ، اذ يشتمل الكتاب بجزأيه على (418) ترجمة ، ينتمى أصحابها الى عصور مختلفة وتحقيق هذا العـــدد الضخم من التراجم بانتهاج الاساليب العلمية المتبعة فى كتابة التراجم والسير أمـــر صعـــب المنـــال ·

ونظرا لهذين العاملين اعتمد الشيخ الحفناوى على طريقة الجمع والعرض المحايد التى سبقت الاشارة اليها آنفا ، وأراد لكتابه أن يكون مرجعا هاما للتعريف برجـــال الوطن ، وسجلا حافلا بالنصوص ، ومصدرا ثريا يغترف منه المؤرخون ، والباحثون ، والمحققـــون ·

ومما ذكرته الكاتبة أيضا فى هذا الصدد أن المؤلف « ينقل أشياء غريبة مثـــل بعض المعجزات ··· » والاصطلاح المناسب فى هذا المقام هو كلمة « الكرامات » لان المعجزة من خصوصيات الانبياء ـ وذكر المؤلف لهذه الحادثة دون تعليق لا يعنـــى تصديقه بها ، أو عدم تصديقه ·· الا أنـــه لا يؤاخذ على ذلك نظـــرا للنزعة الدينية المحافظة ، والاتجاه الصوفى السائدين فى ذلك العهد ·

3) تعرضت الكاتبة لاسلوب المؤلف فى الترجمة فذكرت من مآخذه أنه يبالغ فى الوصف ويعمد ··· (كثيرا) الى السجع (الممل) ـ والواقع خلاف ذلك ، فان أسلوب الشيخ يعد من السهل الممتنع لما يمتاز به من الدقـــة والوضوح والاصالة والبـــراءة من العيوب الشائعة فى كتابات ذلك العهد ·

وأبرز دليل على ذلك تراجمه لافراد أسرته · وأبناء قريته وطائفة من معاصريه · وتتجلى خصائص أسلوبه فى مقالاته الصحفية ، وكتبه المترجمة نذكر منها على سبيل

المثال « الخير المنتشر فى حفظ صحة البشر » فكتابته فى هذا المجال تعتبر نموذجا رفيعا للنثر العلمى الدقيق البليغ · أما ما يوجد فى « تعريف الخلف » من سجع فان المؤلف لا يتحمل وزره ، لان جله ـ باستثناء المقدمة ـ منقول من المصادر التى اعتمد عليها ، لا سيما « نحلة اللبيب » ونشر « أزاهر البستان » وبضع صفحات من كتاب « ديوان الصبابة » لابن أبى حجلة التلمسانى ، وأخرى من كتاب « حديقة الافراح » للشروانى ·· وغيرها ·

4) تضمن المقال أيضا دعوى عريضة ، فحواها أن الاتجاه السياسى تدخل فى اختيار المؤلف للشخصيات المترجم لها ، واهمال بعضها ، وضربت على ذلك مثلا باغفاله ترجمه الشيخ الحداد · والواقع أن هذا تحامل وتسرع فى الحكم ، ويجب البحث عن سبب آخر ، اكثر وجاهة وأقرب الى المعقول ·

ان الشيخ الحداد زعيم ثائر بحق · الا أن شهرته العلمية لا توازى شهرته الثورية وبعبارة أوضح ان مكانته الثورية تفوق بكثير مكانته العلمية ·· وهذا فى نظرى سبب وجيه يدعو الى عدم ذكره فى كتاب خاص بذوى الفكر وأرباب القلم ، كما ذكره المؤلف فى مقدمة كتابه ·

على أن اعتبار الشيخ الحداد من المثقفين قضية فيها نظر ، وكانت محل جدال وخلاف ، وقد أثار هذه القضية الدكتور يحيى بوعزيز على صفحات مجلة « الاصالة » حيث قال ما مؤداه : « فحول ثقافة الشيخ الحداد أو اميته هناك رأيان شائعان فى منطقته ، رأي يؤكد انه مثقف بدليل أنه خلف بعض التآليف ··· ورأي آخر يدعى انه أمي لا يقرأ ولا يكتب ·· » ثم يقول بعد ذلك ما نصه : « ورأينا الذى سيبقى قابلا للنقاش ، هو أن الشيخ الحداد لم يكن أميا تماما ، ولم يكن ذا مستوى عال من الثقافة ، بل كان ذا ثقافة متوسطة يعرف القراءة والكتابة (5) » · ولا ينقص هذا شيئا من قيمة ذلك الثائر العظيم ، فكتب التاريخ كفيلة بتخليد ذكره ·

وهذا يؤيد قولنا بأن الشيخ الحفناوى لم يكن متأثرا باتجاه سياسى معين ، ولو كان كذلك لاهمل ترجمة الثائر الكبير الامير عبد القادر (6) الذى أهلته مكانته العلمية كمفكر وشاعر أن يتبوأ مكانه فى « تعريف الخلف ، وتتحلى به صفحاته » ·

---

5) مجلة « الاصالة » العدد 46/47 ، ص 114 ·

6) تعريف الخلف ، ج 2 ، ص 308 ·

وأخيرا يجد ربنا أن نذكر الباعث الحقيقى الذى دعا الشيخ الحفناوى الى تاليف كتابه ، ان هذا العمل الجليل الذى قام به يعد تعبيرا صريحا عـن الوجود الوطنى ، وابرازا للشخصية الجزائرية ـ التى حاول الاستعمار طمس معالمها ـ واحياء للتراث القومى « كي لا يقع فى أغوار التناسى » ـ على حد تعبير المؤلف نفسه ـ كل ذلك أملته غيرة قومية عارمة ، وروح وطنية صادقة ، وحب خالص للوطن ، ورجاله ، وايمـان راسـخ بمستقبلـه ٠

وفى الختام أجدد شكرى للاستاذة الفاضلة خديجة بقطاش ـ وآمل أن يكـون الانصاف رائدنا واكتشاف الحقيقة غايتنا ٠ والسلام ٠



« انــا للــه وانــا اليــه راجعــون »

على اثر وفاة الشيخ محمــد الشاذلي بلقاضي أحد علماء الزيتونة الافـذاذ ، وجه السيد مولود قاسم نايت بلقاسم الوزير لدى رئاسة الجمهورية ، المكلف بالشــؤون الدينية ، برقية تعزية الى كل من السيد محمد مزالي وزير التربية القومية التونسيــة ، والى عائلة الفقيــد هذا نصها :

تلقينا ببالغ الاسى والاسف نبأ وفاة المغفور له الشيــخ محمد الشاذلي بلقــاضي •

وبهذه المناسبة الالمية نتقدم اليكم بأخلص التعازي ، سائلـين الله العلي القدير أن يعينكم على تحمل هذا المصاب الجلل ، ويتغمد الفقيد بواسع رحمته ، ويسكنــه فسيـح جنانــه •

رد السيــد محمــد مــزالي

اتصلت ببرقية التعـزية التي تفضلتـم بتوجيهها الى اثـر وفاة الشيـخ محمـــد الشــاذلي بلقــاضي •

واني اذ أتقدم اليكـم بأخلص عبارات الشكـــر ، أســأل الله أن يجازيكم عنــا خـيرا ، ويحفظكم بلطفــه •

محمـد مـزالي

هذا ، وسننشر في العدد القادم نص الكلمات التي ألقيت في الذكرى الاربعينيــة التي أقامهــا له المركز الثقافي الاســلامي بالعاصمة •

ان خـير الحـديث كتـاب اللـه

أحمد حمـانى
رئيس المجلس الاسلامى الاعلى

بدأنا فى عدد 39/40 من الاصالة بتاريخ ذىّ القعدة ذي الحجة 1396 هـ نوفمبر ـ ديسمبر 1976 م بتفسير القرآن فى خطب الجمعة تفسيرا مبسطا نستقيه من آخر ما وصلت اليه التفاسير ، وما صار اليه البحث العلمى ـ بقدر الامكان ـ ! ، وذلك تعميما للفائدة كما يقال ، وكلمة التعميم هنا فى الصميم يطابق فيها الحال المقال ، حيث ان الخطبة نفسها تذاع على أمواج الاثير من الجامع مباشرة ، فيستفيد منها لا جمهور المصلين فحسب ، بل جميع من يستمع الى المذياع داخل البلاد وخارجها ، من أستاذ جامعى يساعد زوجته فى المطبخ وقعد عن صلاة الجمعة ، الى الفلاح ، والراعى ، فى حقل هذا وغابة ذاك ، بفضل هذه الآلة العجيبة التى تسمى الترانزيستور · «الأصالة»

الحمد لله الذى أخرج الناس من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئا ، وجعل لهم السمع والابصار والافئدة لعلهم يشكرون ، وبعث الرسل مبشرين ومنذرين ، لئلا يكون على الله حجة بعد الرسول للمبطلين · نحمده أن شرح صدورنا للاسلام ، وجعلنا من أمة خير الانام ، وهدانا سبل السلام ، ونشهد أن لا اله الا اللـه الملك العـلام ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الهادى الامام ، فصل اللهم عليه وعلى آلـه وصحبه ومن اتبـع طريقه الى يوم الختـام ·

أما بعد أيها المسلمون ـ فان لله على عباده مننا لا تحصى ، وأعظمها علينا معشر المسلمين ، أن بعث فينا رسوله الامين يتلو علينا آياته ، ويعلمنا الكتاب والحكمة ويزكينا ، ويدعونا لما يحيينا ، ويخرجنا باذن ربنا من ظلمات الجهل والظلم والضلال ،

(*) خطبة الجمعة ليوم 13 جمادى الاولى 1398 هـ ـ 21 ابريل 1978 م ·

الى نور العلم والعدل والهدى ، ولقد ترك رسوله خاتم الانبياء وامام المرسلين فينا ما ان اتبعناه فلن نضل ابدا كتاب الله وسنة رسول الله ٠

ان أحسن الحديث كتاب الله ، وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه تنزيل من حكيم حميد ، وقد يسره الله للذاكرين ، وجعله الكتاب المبين ، وأمرنا بتدبر آياته والاتعاظ بمواعظه التى تضمنها ، وان نطلب الشفـاء ـ شفـاء النفوس ـ بهديه ، (كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر اولو الالباب) ، « يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين » ٠

ولقـد تدبره أسـلافنا ، ودرسوه وفهموه ، واستنبطوا منـه المواعظ والاحكـام وأقاموا الدين والدنيا بشريعة القرآن ، فصلح لهم دينهم واستقامت لهم دنياهم ، وعلى ضوئه بنوا أعظم الدول ، وأزهى الحضارات ، وحكموا الناس بالعدل والاحسان ، لان الله يقول فى القرآن : **(ان الله يأمر بالعدل والاحسان)** ، ويقول : **(ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها واذا حكمتم بـين الناس أن تحكموا بالعدل)** ، فكانوا بالحق خير أمـة أخرجت للناس ، ثـم خلف من بعدهم خلف أضاعوا القرآن ، فـلم يتدبروا آياته ، وأهملوا الاستنباط منه وطلبوا الهداية فى غيره ، وعطلوا أحكامه ، فخرجوا من النور الى الظلمات ، وقد أنزل القرآن ليخرجهم من الظلمات الى النور ٠

أيهـا المسلمـون ـ ان من الواجب علينا أن نعـود الى القرآن لنتلو آياته ونتدبرها ، ونتفهمها ونهتدى ان شاء الله بهديها ، فان أفضل الذكر ذكر الله بالقرآن ، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله (ص) قال : « من قرأ حرفا من كتـاب الله فله حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول الم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » رواه الترمذى ٠

وان أفضل الدراسة دراسة القرآن ، فقد صح فى الحديث عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « وما اجتمع قوم فى بيت من بيـوت الله يتلوَن كتاب الله ويتدارسونه بينهم الا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده » ، رواه مسلم ٠

أيها المسلمون ، ان الصلاة عماد الدين ، وركنه المتين وهي الفارق بين الكفـر والايمان ، فمن أقامها كان من المسلمين ، ومن تركها كان من الخاسرين ، وانما تصح الصلاة بقراءة القرآن ، وقد صح فى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » وفاتحة الكتاب هي سورة (الحمد للـه

رب العالمين) سميت فاتحة الكتاب لان بها تفتتح قراءة القرآن لفظا ، وتفتتح بها الكتابة فى المصحف خطا ، وتفتتح بها الصلوات ، ولها أسماء أخرى منها أم الكتاب ، وأم القرآن ، والسبع المثانى والقرآن العظيم ، صح بهذا الحديث عن رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فى قوله لابى سعيد بن المعلى رضي الله عنه : « لا علمنك سورة هي أعظم السور فى القرآن » ، ثم قال : له عند التعليم (الحمد لله رب العالمين ، هي السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته » رواه البخارى . ولقد امتن الله بذلك على نبيه عليه الصلاة والسلام ، اذ قال له : « ولقد ءاتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم ». فما أنزل الله فى التوراة ولا فى الانجيل ، ولا فى الفرقان مثلها كما صح فى الحديث ·

وكفاها عظمة أنها شرط فى صحة كل صلاة ، لو تركت من الفذ أو الامام فى ركعة منها بطلت الصلاة كلها ، فحق على كل مسلم أن يقرأها ويتدبرها ، ويفهم معنى كل لفظ وكل جملة فيها ليتضاعف الاجر بها · وقد ذم الله سبحانه من تحمل كتابه فلم يحمله اذ قال : « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا » ونحن نذكر لكم شيئا من تفسيرها ·

فمعنى (الحمد لله) الشكر بجميع أنواعه لله خالصا دون سائر ما يعبد من دونه، ومن دون من برأ من خلقه، بما أنعم على عباده، من النعم التى لا يحصيها ولا يحيط بها غيره أحد ، فالحمد الحقيقى المستحق استحقاقا انما يكون لله ، لانه المتصف بجميع صفات الكمال ، المنزه عن جميع صفات النقصان ، ولانه خالق كل شىء . والمنعم عليهم بالنعم الكثيرة ·

نسأل الله العزيز الحكيم ، الرحمن الرحيم ، ذا الفضل العظيم ، أن ينزل علينا سكينته ، وأن تغشانا رحمته ، وأن يرضى عنا فاننا راضون عنه · ربنا ءاتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار · ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الابرار آمين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان الا على الظالمين ، ونشهد أن لا اله الا الله الملك الحق المبين ، ونشهد أن محمدا رسول الله الامين ·

أما بعد أيها الناس فان المسلم اذ يحمد الله بهذه الصيغة · (الحمد لله) يعلن أنه يوحد الله بحصر الحمد بجميع أنواعه فيه ولا يعترف أن غير الله أهل لحقيقة الحمد لله الذى هو الثناء باللسان على جميل المحمود بصفات الكمال الذاتية كالعلم والقدرة ، والملك ، والعلو ، والغنى، وبالصفات المتعدية الى غيره كالانعام والاكرام ، والاحسان ، فالله سبحانه علام العيوب كاشف الكروب وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها الا هو يعلم السر وأخفى، وهو القادر الغني الحميد ، والعالى المجيد ، وهو الكريم ، خلق كل شيء فأحسن خلقه ، يجيب المضطر اذا دعاه ويرحمه فى كل حال ابتداء واستجابة .فالحمد على حقيقته انما يكون له وحده والشكر الحقيقى باللسان والقلب والجوارح والاركان ، انما يكون لله الملك العلام ، فهو (رب العالمين) ، ومالكهم والرب السيد ، والمالك المدبر والمعبود ، والمصلح والجابر والقائم ، وكل ذلك حقيقة فى صفات الله مجاز فى غيره فكلمة (الرب) هكذا بالتعريف اسم من أسماء الله تعالى ، ولا يقال فى غيره الا بالاضافة ، مثل رب المال ، ورب الدار ، ومنه قول يوسف عن العزيز (انه ربى أحسن مثواى) ، وقوله (أذكرنى عند ربك) ·

فالله سبحانه رب الارباب ، يملك المالك والمملوك ، وهو خالق ذلك ورازقه وكل رب سواه غير خالق ولا رازق ليس له ملك بل هو ملك غيره ، طرأ عليه ملكه الذى هو آيل الى غيره منتزع من يديه وما ملك الا يسيرا وان عظم فى عينيه وعيون غيره ما تصرف فيه ، أما الله سبحانه فهو (رب العالمين) ، والعالمون جمع عالم وهو كل موجود سوى الله سبحانه ، من الجن والانس والملائكة والشياطين ، ومن الحيوانات والنباتات والجمادات فى السماوات والارضين وما بث فيهما من دابة ، كل شيء فى الوجود قد خلقه وربه وملكه وتصرف فيه ، وكل هذه العوالم خاضعة له ، أتته طائعة تسبح بحمده ، بلسان الحال ، أو بلسان الحال والمقال : (وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم) فسبحان الله ، والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر.

اتقوا الله عباد الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد ، اللهم انا نحمدك ونستغفرك ونتوب اليك فاغفر لنا وارحمنا وتب علينا ، وانصر ـ اللهم ـ الاسلام والمسلمين ، واخذل أعداءك من الكافرين ، وصلى الله على محمد نبيه ورسوله ، وعلى آله وصحبه ومن سلك منهاجهم الى يوم الدين ·

عباد الله ، ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون ·

الفاتحة سر من أسرار الله لا يعرفه الا مولاه

سليمان المدنى

الحمد لله الواحد المنان ، الذى بيده الجزاء والغفران وأشهد أن لا اله الا الله الذى وسعت رحمته الاكوان ، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذى اكرمه ربه بمعجزة القرآن ، وعلمه ما يحتاجه الانسان ، من متطلبات الحياة على مدى الزمان ، وحبب اليه التقوى والايمان ، فاهتدى بفضل الله الى معرفة الرحمن ، وطفق يسعى جاهدا مترصدا أوجه الخير والاحسان ، كي ينال رضا الله يوم العرض والامتحان .

أما بعد ، أيها المسلمون ، فان الله جل جلاله ، وتعاظمت قدرته ، قد علمنا كيف نحمده ، ونثنى عليه ونشكره ، وكيف نوحده ونعبده ، ونستعينه ونمجده ، لنحظى بعفوه يوم الرجوع اليه ، والوقوف بين يديه ، خاضعين متواضعين لسلطانه ، متوسلين اليه بلطفه وصفحه ، طائعين لاوامره منتثلين لنواهيه ، طامعين فى رحمته ، وجزيل ثوابه ، متعهدين بتطبيق أحكامه ، خوفا من عذابه ، وشدة عقابه ، تائبين متضرعين لجلاله ، متوسلين اليه بقوله : « **اياك نعبد واياك نستعين** » متعهدين بأن لا نعبد الا اياه وأن لا نطلب المعونة من سواه ، واننا فى حاجة الى رضاه ، فهو الذى خلق كل شىء بقدرته ، وسير كل شىء بمشيئته ، سبحانه من عظيم عليم ، خبير حكيم ، حليم رحيم ، بيده مصدر الحياة والمماة ، وبيده التصرف المطلق فيما مضى وفيما هو آت ، وقد عاهدناه ألا نعبد أحدا سواه ، مما هو صائر الى زوال وهلاك ، أو ذوبان وتلاش وانفكاك ، وقد فوضنا أمرنا اليه ، وتوكلنا عليه « اياك نعبد واياك نستعين »

(*) خطبة الجمعة ليوم 27 جمادى الاولى 1398 هـ ــ 5 مايو 1978 م .

نعبدك يا ربنا ونستعينك ، لانك محيط بنا وفوق ادراكنا ، تراقبنا حيث كنا ، وأنى اتجهنا ، اننا نخشاك ، فانك ترانا ولا نراك « لا تدركه الابصار ، وهو يدرك الابصار ، وهو اللطيف الخبير ، قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ » قد حررتنا من العبودية والاستذلال ، وهيأتنا لطاعتك حيث السمو والشرف والكمال ، فحصرت العبادة فى عظمتك وعلاك ، وحررتنا من الخضوع والخنوع لسواك ، فتحرر الضمير البشرى من الاوهام ، ومن الاساطير وعبادة الاصنام ، ومن فساد الطباع والاطماع ، وسيء الاوضاع ، فعاد الى الله بعد انقطاع ، يدعوه ويرجوه « اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضّالين » ، أي ألهمنا الطريق الهادى ، الطريق السليم ، المعبد الواضح المستقيم لا اعوجاج فيه ولا ظلام ولا تأثيم ، ولا وسوسة شيطان رجيم ، وأرشدنا اليه ووفقنا الى اتباعه · والهداية هي الارشاد الى الخيرات قولا وفعلا ، وهي من الله تعالى على منازل بعضها يترتب على بعض ، « صراط الذين أنعمت عليهم » أي أهدنا طريق الذين كرمتهم بالطاعة ، وحسن العبادة وجزيل المثوبة ، وقلت فى حقهم وقولك الحق : « ومَن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ، ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما » · « غير المغضوب عليهم ولا الضالين » ، والمراد بالمغضوب عليهم والضالين : كل من حاد عن جادة الاسلام من أي فرقة ونحلة ، ومن هؤلاء اليهود ، الذين وصفوا بالنكران والجحود ، فقد غضب الله عليهم ولعنهم « ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار » فاليهود ، قد فسدت أخلاقهم ، وانحرفت ارادتهم ، فعلموا الحق وعدلوا عنه ، وحرفوا الكلم عن مواضعه ، لذلك لعنهم الله « وبـاءوا بغضب من الله » وأخص أوصافهم الغضب كما قال تعالى : « **من لعنه الله وغضب عليه** » ، أما الضلال فهو من أخص أوصاف النصارى كما قال تعالى : « **قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل** » فتبين من الآية الكريمة **غير المغضوب عليهم ولا الضالين** » أن الفئتين الضالتين هم اليهود والنصارى · قال تعالى : « **قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل** » ، وقال : « **من يضلل الله فلا هادي له ونذرهم فى طغيانهم يعمهون** » ·

اللهم وفق هذه الامة لحفظ كتابها ، وانشره بين أبنائها وبناتها ، فيتعلموه واهدهم سواءَ السبيل ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ·

الخطبـــة الثـانيـة

الحمد لله الذى أمرنا بالطاعة ، ونهانا عن المعصية ، نحمده ونشهد أنه الـواحد الاحد الفرد الصمد ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحـــق ليظهره على الدين كله ، صلى الله عليه وعلى آله ورضي الله عن أصحابه ، والتابعين لنهجه الى يوم الدين ·

أما بعد أيها المسلمون ، فان بعثة محمد عليه السلام ، جاءت لتثبت قواعد الاسلام ليستبشر من آمن واستقام ، وطبق ما أمره الله من أحكام ، فيجازى بالاحسان والاكرام·

هذا ونجد فى سورة الفاتحة توحيد الله فى قوله تعالى : « **الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم** » ، وشؤون الآخرة فى قوله : « **ملـك يوم الـدين** » وسائر الاحكام من اوامر ونواه وعبادات واعتقادات فى قوله : « **اياك نعبد واياك نستعين** » والشريعة كلها فى قـوله : « **اهـدنا الصراط المستقيم** » وذكر الانبياء والصالحين والشهـداء وغيرهم فى قوله : « **صراط الذين انعمت عليهم** » · وذكر طوائف الكفار والمنافقين والفجار ، فى قوله : « **غير المغضوب عليهم ولا الضالين** » ·

فهذه السـورة ، اذن ، جمعت أغلب الكليات الاساسية فى التصور الاسـلامى ، ومنها توحيد الله ، وتقرير حقيقة العلاقة بين الله والعباد والاعتقاد بالآخرة ويـــوم الجزاء ، ولهذا سميت أم القرآن ، بالاضافة الى كونها تقدم على سـوره تقـدم الام والاصل ، كما سميت فاتحة الكتاب ، لانها يفتتح بها كتابه المصاحف ، ويقرأ بها فى الصلـــوات ·

أيها المسلمون ، جاء فى صحيح مسلم من حديث العلاء بن عبد الرحمن عن أبيـه عن أبى هريرة عن رسول الله صلى اللــه عليه وسلم أنــه قال : (**يقول اللــه تعالى** : قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ، فنصفها لي ، ونصفها لعبدى ، ولعبدى مـا سال ، اذا قال العبد : (الحمد لله رب العالمين) قال الله : « **حمدنى عبـدى**) ، واذا قال : (الرحمن الرحيم) قال الله أثنى على عبدى ، فاذا قال : (**مـالك يوم الدين**) قال مجدنى عبدى ، واذا قال : (**اياك نعبد واياك نستعين**) قال هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سال · فاذا قال : (**اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين انعمـت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين**) قال هذا لعبدى ولعبدى ما سال ·

ولعل هذا السر هو الذى جعل الفاتحة تتلى الزاما في الصلوات الخمس سبع عشرة مرة ، فضلا عن النوافل ، الحوافل ، من قيام فى أيام الصيام ، لزهاد عباد ألفوا النظام والقيام ·

اللهم زدنا علما وفهما ، ومواعظ وحكما ، وأعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ، يا أرحم الراحمين يا رب العالمين ، اللهم أعنا على قيام هذا الدين ، واجعله نورا مشعا فى قلوب المؤمنين ، آمين والحمد لله رب العالمين ·

عباد الله :

« ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون » ·

اللـــــه الـرحمـــــن الـرحيـــم

أحمد حمـانى

الحمد لله الذى أنزل الينا كتابه المبين، على رسوله الامين، هدى ورحمة للمتقين، ونشهد أن لا اله الا الله الملك الحق المبين ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الامين ، بلغ ما أنزل اليه من ربه الى العامين ، فصل اللهم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ، وعلى التابعين لهم باحسان الى يوم الدين ·

أما بعد ، أيها الناس فان خير الحديث كتاب الله ، وأفضل الذكر أن يتلى لفظـه ويتدبر معناه ، وقد وجب على كل مصل أن يقرأ فاتحة الكتاب فى كل ركعة من ركعاته ويتلو قوله تعالى · **(الحمد لله رب العالمين)** فيعلن الثناء بالجميل لله وحده لا يشرك به سواه لانه الملك الحق ، المتصف بالكمال المنزه عن النقصان ، وهو رب العالمين ، من الانس والملائكة والجن والشياطين ، وكل ما فى الكون من سماوات وأرضين ، وهو خالقهم ومالكهم ومدبرهم ، والقيوم عليهم ، لا يشاركه فى ملكه أحد ، وكل ملك غير ملكه باطل ، طارىء على صاحبه منتزع من يده ، آيل الى غيره ، وكل مليك ســواه عاجز لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا الا ما شاء اللــه فالله ــ سبحانه ــ رب العالمين ، مرهوب الجانب من الخلق أجمعين ، وهو القاهر فوق عباده ولكنه (الرحمن الرحيم) «الرقيق الرفيق لمن أحب أن يرحمه ، والبعيد الشديد على من أحب أن يعنف عليه لمـــا استحقه بسوء فعله» ولا يظلم ربك أحـــدا (1)

والرحمن الرحيم « أسمان من أسماء الله الحسنى ، وصف بهما نفسه اثـر ما يقتضى الترهيب ، وهما مشتقان من الرحمة على صيغة المبالغة ، وفى الرحمة ــ لغة ــ

(*) خطبة الجمعة ليوم 20 ــ 5 ــ 1398 هـ ، 28 ــ 4 ــ 1978 م ·

(1) هذا عن تفسير ابن عباس رضي الله عنهما نقل بلفظه كما رواه ابن جرير بسنده فى تفسير « الرحمن الرحيم » من البسملة ، أنظره فى الجزء الاول ص 44 ·

الرقة فى القلب والشفقة والرأفة والحنان مما يبعث على الرفق والعطف والاحسان ٠ فالرحمة بمعناها اللغوى محال على الله وانما المقصود اثرها وهو الاحسان ٠ والله رؤوف رحيم رفيق ٠ جاء فى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ان الله رفيق يحب الرفق فى الامر كله ، وانه يعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف » .

والرحمن أشد مبالغة من الرحيم ، وهو اسم عام فى جميع أنواع الرحمة ولجميع الخلق فى الدارين ، اذا سئل أعطى ، وكم من مسىء هو أهل للعقاب الشديد أدركته رحمة الله فى الشدة.وهو اسم خاص بالله لا يسمى به غيره ولا يوصف به أحد سواه ، وقد أنكرته قريش ، كما قص الله عنهم (واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا : وما الرحمن ؟ أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا) والظاهر أن انكارهم انما كان جحودا وتعنتا وعنادا ، فان الرحمن مشتق على صيغة (فعلان) للمبالغة ، وهذه صيغة موجودة فى أشعار العرب وكلامهم ٠

أما الرحيم فانه على صيغة مبالغة من الرحمة والشفقة والرقة والحنان ، وهو من أسماء الله الحسنى ، أي الشديد الرحمة اذا سئل أعطى ، واذا لم يسأل غضب ، ولكن هذه الصيغة لا تختص بالله وقد وصف بها نبيه فى قوله تعالى : **(لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم)** أي أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان حريصا على أن يسلم قومه ويستجيبوا ، عظيم الرأفة والرحمة والشفقة بالمؤمنين،أحسن لهم من أمهاتهم ٠

فمن أسماء الله الحسنى ما يجوز أن يوصف به غيره ، ومنها ما لا يجوز أن يسمى أو يوصف به غير الله ومن هذه أسم الجلالة ، والرحمن ، والرزاق ، والخالق ، والرازق يقال عبد الله وعبد الرحمن وعبد الرازق أو الرزاق وعبد الخالق . وخير الاسماء ما عبد أو حمد ، وقد عمت رحمة الله الكون وشملته ، ثم خص الله برحمة منه المصطفين من عباده فهداهم الى الصراط السوى فسلكوه وآمنوا به وبرسله وكانوا من المتقين قال تعالى : **(ورحمتى وسعت كل شىء فساكتبها للذين يتقون)** ، وممن يرحمهم الله من رحموا غيرهم فقد جاء فى الحديث الصحيح قوله (ص) (الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من فى الارض يرحمكم من فى السماء) وفى حديث آخر انه صلى الله عليه وسلم قال : (انما يرحم الله من عباده الرحماء) ٠ وفى حديث آخر أن رجلا دخل الجنة فى كلب عطشان يأكل الثرى من شدة عطشه فرحمه واستخرج له الماء من بئر فسقاه (1) فاتقوا الله عباد الله ، وتعاملوا بالرحمة

(1) أصل هذا فى الصحيحين ، والموطا وأبى داود وابن ماجة ٠

والاحسان ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله (ص) قال : (من لا يرحم لا يرحم) رواه البخارى ومسلم ، ومعناه أن من لم يرحم الناس والخلق جميعا وقسا قلبه لا يكون أهلا لرحمة الله ورحمة الناس • وبنحو هذا صرح حديث أبى سعيد رضي الله عنه أن رسول الله (ص) قال : (من لا يرحم الناس لا يرحمه الله) فالعقاب على قسوة القلوب على الناس من عند الله الرحيم الرحمن • وفى حديث جرير بن عبد الله أنه (ص) قال : ومن لا يرحم من فى الارض لا يرحمه من فى السماء) •

اللهم ـ يا من سبقت رحمتك غضبك ، اغفر لنا واعف عنا وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين •

الخطبة الثانية

ان الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهد الله فلا مضل له ، ومن يظلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله •

أما بعد ، فان الله مالك الملك يؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء بيده الخير ، وهو على كل شىء قدير • فالله وحده هو الملك الحق ، الواحد القاهر القوي المتين ، وغيره ـ ان ملك ـ فملكه زائل ، والى غير آيل ، وهو المبتلى به ، فان عمل صالحا فلنفسه ، وان أساء كان ملكه وبالا عليه فى الدنيا ، ونكالا فى الآخرة ، ذلك لانه ملك باطل وشىء زائل وأما الملك الحق فهو (ملك يوم الدين) ، الله رب العالمين ، سينتهى مل كل ملك ومالك مجازى ، ولا يبقى الا وجه الله ، ويأتى يوم الحساب ، ويقول الله : « لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار» لا يدعى أحد هنالك شيئا ، ولا يتكلم أحد الا باذنه ، فاين ملوك الارض ؟ أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ يوم « الدين » هو يوم الجزاء على الاعمال والحساب بها ، كما روي تفسيره عن النبي (ص) ويدل عليه قوله تعالى : « **يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق** » أي حسابهم وجزاءهم وكما قال فيه : (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت) وقال (انا لمدينون) أي مجزيون ، وقال : (وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين) أي يوم الحساب والجزاء على الاعمال • وفى الحديث عن شداد بن أوس أن رسول الله (ص) قال : (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الامانى) رواه أحمد والترمذى وغيرهما ، ومعنى دان نفسه : حاسبها ليجبرها على الطاعة والامتثال لاوامر الله ونواهيه كما جاء عن عمر رضي الله عنه : (حاسبوا انفسكم قبل أن تحاسبوا) •

فالله سبحانه هو ملك يوم الدين ، له الحكم وحده ، لا يتكلم أحد فيه الا باذنه ، وقرئت الآية (ملك يوم الدين) و (مالك يوم الدين) وكلتا القراءتين سبعية متواترة تصح التلاوة والصلاة بها . وكلا الاسمين من أسماء الله الحسنى ، فالملك مأخوذ من الملك كما فى قوله تعالى : « **لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار**[1] » وقال : « **قل أعوذ برب الناس**) ، وقال : « **قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء** » وهذا فعل الملك المالك . ومعنى (ملك يوم الدين) أنه لا يملك أحد معه فى ذلك اليوم حكما كملكهم فى الدنيا . انه ليوم الفزع الاكبر ، يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والامر يومئذ لله » .

« يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، لكل أمرى منهم يومئذ شأن يغنيه » .

فيأيها الانسان : ماذا أعددت لذلك الزمان والمكان ؟ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا .

اللهم اليك المرجع والمفزع فانا مذنبون مقصرون ، قد ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ، اللهم أنا نعوذ بك من سوء المنقلب وعذاب النار ، ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار ، ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سياتنا وتوفنا مع الابرار .

وصل الله وسلم على نبيك ورسولك محمد وعلى جميع الانبياء والمرسلين ، والمؤمنين والمؤمنات الى يوم الدين .

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

(1) وفى آية الحشر: هو الله الذى لا اله الا هو الملك القدوس .

افطـــار المجاهـــدين فى رمضـــان

الســـــؤال :

اثناء حرب التحرير أيام الثورة الجزائرية (1374 ـ 1382 هـ) افطر المجاهدون من الثوار بأمر من القيادة العليا فى كل شهور الصيام التى مرت عليهم فى الجهاد بنـاء على فتـاو شـرعية ٠

ان كثيرا مـن المجاهدين يتساءلون اليوم : ماذا يجب عليهم أن يفعلوا ؟ أيجـب عليهم قضاء هذه الشهور فقط ؟ أم عليهم الاطعام مع ذلك ؟ أم يكفى عن ذلك كفارة ما ؟

افيـدونـا بمـــا يجـب مـاجـوريـن ٠

جماعـــة من المجاهديـــن
الجـزائـر

الجـــــواب :

« افطـار المجاهدين فى شهـر رمضـان »

ـ الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ،

افطار المجاهدين فى شَهر رمضان مأذون فيه اذا كان الافطار أقوى لهم على لقاء عدوهم ، وكانوا فى المعركة أو على وشك المعركة ، لان رسول الله صلى اللـه عليه وسلم أفطره وأذن لاصحابه فى فطره عام الفتح (السنة الثامنة من الهجرة) فمنهم

من افطر اخذا بالرخصة ومنهم من صام حتى قربوا من مكة فقال لهم : (انكم قــد دنوتم من عدوكم والفطر اقوى لكم) فمن الصائمين من افطر ومنهم من أصـــر على الصيام حتى قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : (انكم مصبحو عدوكم والفطـر أقوى لكم فافطروا) فكانت عزيمة ـ كما يقول أبو سعيد رضي الله عنه ـ فافطروا كلهم.

وقد استنتج العلماء من قوله صلى الله عليه وسلم ـ والفطر اقوى لكم ـ عـــلة للرخصة ، فلم يحصروا جواز الافطار فى السفر للجهاد وانما اباحوا للمجاهد أن يفطر ولو كان مقيما اذا كان الفطر أقوى له على لقاء العدو · وبذلك أفتى شيخ الاسلام ابن تيمية للعساكر الاسلامية المحاصرة بدمشق من طرف التاتار · وبذلك ـ أيضا ـ أفتى علماء الجزائر وعلماء مصر للمجاهدين الجزائريين أثناء حرب التحرير التـى نشبت عام 1374 هـ (1954 م) فافطروا أثناء سنوات الحرب كلها التى دامت سبـــع سنوات وبضعـــة أشهـــر ·

« وجــوب القضـــاء عليهم بعد انتهـــاء القتـــال »

كل من افطر فى رمضان لرخصة ثم زال عنه العذر المبيح لافطاره وجب عليـــه قضاء عدة الايام التى أفطرها ان كان قادرا على الصيام لقوله تعـــالى : « **فمــن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر** » ·

فهؤلاء الجنود الذين كانوا فى لقاء العدو أثناء حرب التحرير الجزائرية وأدركهم صيام رمضان فى سنواتها السبع فافطروا يجب على كل من بقي بالحياة منهم قضاء صيام عدة الشهور التى أفطروها ولا يغنى عنهم شيء آخر بدل الصيام ، بل لابد مــن صيامهم اياها · فمن صامها عام 1382 هـ أي عام الاستقلال فلا شيء عليه زائـــدا عــن الصيـــــام ·

ومن صامها من بعد أن مر على ذلك شهر من شهور الصيام فان عليه أن يطعـــم ـ مع الصيام ـ مسكينا عن كل يوم يصومه كفارة التأخير ·

ان الجهاد فى سبيل اللـــه أفضل أعمـــال المسلم بعد الايمان باللـــه كما جاء فى الحديث الصحيح · والجهاد فى سبيل الله هو الجهاد الذى يكون لاعلاء كلمة اللـــه ونصر دينه · وكانت حرب الجزائر جهادا واجبا على كل صغير وكبير ورجل وامرأة من المسلمين لان العدو فاجأهم فى بلادهم · وقد نصر اللـــه هؤلاء المجاهدين وطرد

العدو من بلادهم بحول الله وقوته لا بحولهم وقوتهم · وكل من كان مخلصا فى جهاده يرجو ثواب الله ويخشى عقابه فان عليه ان يتمسك بدينه ، ومن ذلك أن يصوم ما أفطره من رمضان قضاء للدين ـ ودين الله أحق أن يقضى ـ وشكرا لله على نعمته · وان له على صيامه ـ والصيام انما يكون لله ـ ثواب الله الجزيل يجزيه به كما وعد فى قوله فى الحديث القدسى : (كل عمل ابن آدم له الا الصيام فانه لى وأنا أجزى به) ·

ان أحـــق الناس بشكر الله عـــلى هذه النعمة لهم هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله ، فليصوموا عدة الايام التى أفطروها حتى يكتب اللـــه لهم أجرهم كامــلا غير منقوص ويجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ، وليس أحسن من اقامة أركان الدين التى منهــا الصيـــــام

رئيس المجلس الاســـلامى
أحمـــد حمـــانى

توضيـــح حـــول نشر محـاضرات الملتـــقى

ننشر هذه المحاضرات طبقا لمبدأ نشر كل محاضرات الملتقى الذى أعلنا عنه فى العدد الاول من « الاصالة » تعميما للفائـدة ، ولطلب الكثير ممن تصلهم المجلة ولا تصلهم كتب الملتقيات .

وقدقررنا أن ندرج فى كل عدد على الاقل مقالين .

ونرجو أن يكون السادة الاساتـذة الذين أرسلوا الينا بمقالات لم نصل بعد الى نشرها وعاتبونا على نشر القديم المتمثل فى هذه المحاضرات من ملتقيـات سابقة،وترك الجديد من الانتاج ، قد فهموا الآن قصدنا مـن هـذا .

كما سندرج فى المستقبل فى كل عدد ، بانتظام ، نصا أو نصين من المحاضرات التى درجت الوزارة على تنظيمها خلال القطـر منذ سنوات باسم المركز الثقافى الاسـلامى .

الاســـلام وكـرامـــة الانســـان

د. عبد السلام الهراس
أستاذ بكلية الآداب
جامعة الرباط ـ المملكة المغربية

بسم اللـه الرحمن الرحـيم

والصلاة والسلام على أكرم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم

لست أدرى كيف أستطيع أن أصور شعورى وقد رأيت وشاهدت هذا الشباب المؤمن الذى أمدنا بشعلة من الأمل بعد أن كاد اليـــأس يستولى على نفوسنا ، هذا الشباب الذى فى الحقيقة أعطانا أكثر ممـا أعطيناه ، استفدنا منه عزما وارادة واصرارا على اعلاء كلمة الله وعـلى توثيق عرى المحبة بين المسلمين فجزاكم الله خيرا ٠

وبهذه المناسبة أشكر من قلـبى الأخ الوزيـر على حسن طنـه والاخوان الذين تفضلوا باكرامنـا وأصروا أن نلقى هذه الكلمـة على الرغم من الحالة الصحية التى تعيقنى فى جسمى ٠

لست أدرى أيضا كيف تستطيع أن تتســرب هذه الكلمـات الى نفوسكم والى عقولكم والى مسامعكم بعد هذه المحاضرات العـــديدة القيمة التى استمعتم اليها ، على كل هذا جهد مقل أساهم به فى هذا الحفل الاسلامى ، رجاء من الله بان يسدد أقوالنا وأعمالنا لخـير المسلمين ولخـير الأمة الاسلاميـــة ٠

فى الاسلام وكرامة الانسان ، أحب أن أتناول **نقطا ثلاثا** ، تكريم الانسان بصفة عامـة ، انعكاس هذا التكريم فيما يتصـل بالحكم ، وانعكاسه فيما يتصل بالمال ، والنقط الثلاث مرتبطة فيما بينهـا أشد الارتباط، ولقد اقتصرت على مظهرين من مظاهر التكريم الاسلامى للانسان دون المظاهر الأخرى لأن أهم ما يشغل بال شبابنا اليـــوم **الحكم والمال** ٠

(*) محاضرة القاها فى الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الاسلامى المنعقد بقسنطينة فى 17/8 جمادى الثانية 1390 هـ ـ 10/19 اوت 1970 م٠

الاسلام فى الحقيقة ثورة لرد اعتبار الانسان ومكانته الحقيقية بعد أن مرغتها بعض المجتمعات وبعض السلط التى وجهت عبادة الانسان من السماء الى الأرض ، ولذلك كانت مهمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تهدف توعية الانسان بكيانه وكرامته وتمكينه من ممارسة تلك الكرامة فى حياته الواقعية ، وخلال مجالات علاقاته المختلفة تلك حقيقة الرسالة المحمدية ٠ فالانسان اقترن تكوينه بتكريمه ، ولقد أمر الله الملائكة بالسجود له ، فاستجابت للامر الا ابليس ، وهو مظهر قوى الشر الذى «**أبى واستكبر وكان من الكافرين**» وخلق الله الانسان فى أحسن تقويم وزوده باستعدادات هائلة كالمعرفة والعلم والاكتشاف اذ علمه الأسماء كلها ، واستخلفه فى الارض لتعميرها بالعدل ٠ ولكن تعمير الارض لا يتحقق الا بتحرير الانسان من النوازع التى تمسخ انسانيته وتمزق روابطه وتبعثه على التنافر والتناحر ، لذلك أمر الانسان بأن يعيش متحررا من كل ما يعرقل مهمته فى الحياة ومقتضيات استخلافه فى الارض ولذلك خاطب الله هذا الانسان بقوله تعالى : «**واعبد ربك حتى يأتيك اليقين**» وهناك تتحقق كرامة الانسان اذ تتحقق حريته وتحريره أمام الاشياء والاشخاص ، لأن عبوديته المطلقة لله وحده تستلزم تحرره الكامل المطلق فى نفس الوقت ، ولهذا لا يمكن أن يقتنع أى واحد بتطرف أولئك الذين يعبدون الله ويخضعون للبشر فيما هو عصيان لله فى نفس الوقت ، ولا يمكن أبدا أن نسمى هؤلاء متحررين وانما هم مزدوجون ، والازدواجية هى دائما على حساب عبوديته لله ٠ ولهذا كان أول ما دعى اليه الاسلام ابطال عبادة غير الله من الاشخاص والاقوام والاشياء ٠ ان فى تلك العبادة امتهانا للعقل وعصيانا للفطرة وهوانا بالانسان وسحقا لكرامته وتعويقا لمهمته فى الحياة ، ورسالته فى هذا الوجود وكان اقسى ما واجهه الرسول صلى الله عليه وسلم مصارعة تلك الصنمية المتغلغلة فى النفوس التى لوثت الفطرة وعفنت الحضارة وهددت وجودها واستمرارها وقد تجسدت تلك الصنمية فى أرباب الحكم فى الفرس والروم وأدعياء الدين ولهذا أعلن الرسول صلى الله عليه وسلم شعاره الخالد : «**لا اله الا الله**» ٠

وهنا كان منطلق الدعوة الاسلامية التى دعت أهل الكتاب الى

التوقيع على ميثاق تحرير الانسان وتحرره : «**قل : يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سوا بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون** » .

وقد الح الاسلام لذلك على بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم حتى لا ينزلق بعض ضعاف النفوس فيؤلهونه ، وعندما خاطب عامر بن صعصعة رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله **يا رسول الله انت سيدنا وذو الطول علينا فانتهره النبى صلى الله عليه وسلم قائلا : «السيد الله»لا يستهوينكم الشيطان** . واستئصال عمر لشجرة الرضوان كان الدافع الاحتياط حتى لا تتجه النفوس اليها بالتقديس أو ببعض مظاهر العبودية . وان عزل خالد بن الوليد كان أيضا بهذا الدافع حتى لا يظن الناس أن النصر فى سيف خالد وانما يعتقدون أن النصر من عند الله .

وأما الاعتداء على كرامة الفرد أو الجماعة فى الاسلام فيعتبر تهديدا للنظام يجب مقاومته والاقتصاص من مرتكبيه «**ولكم فى القصاص حياة يا اولى الالباب** » ذلك أن الظلم محرم ، « **انى حرمت الظلم على نفسى**» كما قال تعالى فى حديث قدسى «**وجعلته محرما بينكم فلا تظالموا**» وان الفرد والجماعة يتحمل كلاهما مسؤلية الاعتداء على كرامة الانسان وعزته .

ومما ينعكس عليه حرص الاسلام على كرامة الفرد والجماعة فى المجتمع الاسلامى نظام سياسى ، هذا النظام الذى يقوم على أساس انه تعبير عن ارادة الانسان لانه يحقق مشاركة الجماهير فى تسيير شؤون الحكم ، بصفة مباشرة لتحقيق الاهداف المطلوبة فى دولة الاسلام . «**كنتم خير امة اخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**» «**تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الارض ولا فسادا**» .

وتنجلى عظمة الاسلام حفاظا على كرامة الانسان المؤمن فى اتاحة الفرصة أمام الجماهير لممارسة واجبها فى القيام بدورها الايجابى فى مجال الحكم والادارة ، يقول الدكتور سليمان الطماوى عن التجربة الاسلامية الفريدة بعد أن تحدث عن مشاركة الجماهير فى النظم

الديمقراطية عن طريق المجالس النيابية ـ وسليمان طماوى عنــده كتاب نفيس عن ادارة عمـ ررضى الله عنه ـ مقارنه بين الاداريـــة العمرية والادارة الحديثة ، وهو كتاب نفيس • يقول فيه :

• • • ولكن تبين بالتجربة بعد ذلك أن قصر دور الشعب على هذا الجانب أى الجانب النيابى يجرد الحكم الشعبى من روحه ويجعله مجرد أشكال مسرحية ، قد لا تختلف عن الحكم المطلق الا من حيث المظهر ، ومن هنا ارتفعت الصيحة الحثيثة بافساح مجال أكبـــر للشعب لكى يشارك مباشرة لا عن طريق نواب يمثلونه فى مجال الحكم والادارة • • • وثارت كتب الفقه السياسى والادارى فى أوروبا تتحدث عن اصطلاحات الديمقراطية المباشرة ، أو الديمقراطية نصف مباشرة مظاهرها المشهورة ، فى استفتاء شعبى واعتراض شعبى ، واقتراح شعبى ، وحق الجماهير فى انهاء نيابة النواب أو البرلمان أو رئيــس الجمهورية قبل ميعادها بل ووصل الامر الى حد الحديث عن ديمقراطية الادارة ، ولكن بالرجوع الى تاريخ عمر نجد أنه أدرك بصدقه والهامه كل المعانى السابقة بل ووصل فيها من حيث التطبيق الى أبعـد ممـا وصلت كثير من الدول التى تفاخر بنظمها السياسية والاداريـــة ، والفرق بين ما أخذ به عمـــر وما تأخذ به الدول العصرية يكــمن فى الصياغة لا فى الجوهر ، ولقد أخذت مشاركة المسلمين فى شـــؤون الحكم صــورا ثــلاث :

1 ـ التعاون فى الوصول الى الحكم ، الى حكم الشرع السليـم في القرآن أو السنة •

2 ـ محاولة كشف الاخطاء الملازمة للحكم •

3 ـ الوصول الى الحل السليم فيما يجد من أمور •

وأسلوب الحكم الذى سلكه المجتمع الاسلامى الاول بعد موت رسول الله (ص) أطلق عليه اسم الخلافة التى تتباين ونظام القيصرية والكسروية التى كانت ذات نظام معاصر لنظام الاسلام ، اذ أن أمـر المسلمين شورى بينهم ومبدأ الشورى مقدس فى الاسلام لا يجـــوز الاعتداء عليه أو تزييفه لان ذلك اعتداء على كرامة الجمـاعة والافراد فى حقيقة الامر ومحاولة لتزييف ارادة المسلمين والانحراف بأهداف مجتمعهم ، وان الرسول (ص) لم يشأ أن يتدخل فى ارادة المسلمـين

بأن يعين لهم أميرا عليهم ، وقد توفى (ص) تاكا الامر للمسلمين يتشاورون فيه ويختارون من يرونه صالحا لسياسة الدين والدنيا ·
وهو نفسه (ص) يقول : «لو كنت مؤمرا على أمتى أحدا دون شورى المسلمين لامرت ابن أم عبد» ويعنى عبد الله بن مسعود ·

لقد تركز هذا المبدأ فى ضمير هذه الامة ولذلك ناظر دونه كثير من المسلمين وحتى أولئك الذين اغتالوا هذا المبدأ وهو لايزال فى أطوار نموه الاولى حافظوا على شكلية البيعة التى هى صورة من الخضوع لارادة المسلمين ·

ان انطلاقة الاسلام الكبرى وانتصاراته المدهشة ما كانت لتتحقق لولا شيوع اليقين بين الجماعة الاسلامية وافرادها لان النظام الاسلامى هو تعبير صادق عن ارادتهم وتطبيق أمين للميثاق المشترك الامر الذى أناط بكل فرد فى هذه الجماعة مسؤولية البناء والصيانة ·

ولقد تحمل الفرد هذه المسؤولية اقتناعا منه بجدواها فى توفير شروط سعادته ، وظروف كرامته ، وتلاحظ علاقة وثيقة بين تحرك وامتداد الخط البارز واتجاهه نحو الاسفل ، وبين الاستبداد وتعطيل مبدأ الشورى ، لان الحكم اذ ذاك اغتصاب وطغيان واعتداء على الكرامة واهانة للمسؤولية الجماعية ، ومن شأن الحكم الذى لا يفتح المجال لافراد المجتمع لممارسة كرامتهم وحريتهم فى تسيير شؤون الحكم أن يفقد نصيبه من الثقة والاحترام ، ويتحول الطرفان الى أعداء · يتبادلان البغضاء ويتوجس كل طرف من الآخر الخوف ويتوقع الشر وتستولى اذ ذاك على المجتمع ورجال الحكم نزعة فردانية التى تمزق الشبكة الاجتماعية ، على حد تعبير استاذنا مالك بن نبى ، ويخمد الاحساس بالمسؤولية الجماعية وبذلك يفتر الحماس من أجل البناء ، بل ان معاول الهدم تكثر وشيوع اللامبالات يتفاحش ، ومجموع ذلك يساوى حتما الانهيار المحقق ، فقضية الاندلس عندما ندرسها ماذا نجد ؟ كثرة العلماء والعباقرة ، والكتاب ، والشعراء ، ولكن المجتمع بالذات كان يتدهور ، لان كرامة الشاعر والعالم كانت مسحوقة ، كرامة المسلم كانت مسحوقة ، فى حين المسيحية كانت اذ ذاك بدأت بحضارتها وأصبحت تعطى كرامة لأفرادها ، ولهذا نجد مثلا ملوك الطوائف يتعاونون على بعضهم ، ويتآمرون على المسلمين بأنفسهم ، ويبلغ الذل

ببعضهم أن يقدم الجزية الى النصارى ، ويقدم هدايا كبيرة جدا ويأتى ملك نصرانى ويهدى قردا لأمير من هؤلاء الأمراء . يهدى له قردا ويقول له انك تساوى عندى هذا القرد .

الاندلس كانت عظيمة ، زخارف المساجد .. ليتهم ما تركوا لنا المساجد مزخرفة وتركوها لنا بسيطة ، ليتهم ما تركوا لنا هذه الكتب الكثيرة التى نسميها «التاريخ» وتركوا لنا « لا اله الا الله » فى قرطبة .

ندرس تاريخ المسلمين نجد من يتغـــذى بمعالق من ذهب وفضة وكل لقمة بملعقة ، ونام بعض الوزراء فى كل ليلة فى بيت فى غرفة خاصة على مدار السنة كلها . كل ليلة فى بيت فى غرفة مؤثثة كأنه الشمس يتنقل من برج الى برج ، وبجانبـــه البؤس المدقع ونقابات الشحاذين ودور العهارة والفحش ، ونجد بعض العلمـــاء والصوفية يعقدون مجالس السكر ويقول ابن تيميـــة فى بعض كتب التاريخ أن بعض القضاة بلحاهم الطويلة يسكر وتذهب به النشوة الى أن ينقع هو واخوانه لحاهم فى الخمر حتى اذا امتلأت بالخمر ابتدأوا يرشون على بعضهم البعض ، فى حين كرامة الاسلام مهانة ، كرامة المسلم مسحوقة كيف يتمنى لهؤلاء الخير ، كيف يتمنى لهم الخـــير أبدا لا يتمنى الخير أبدا لهؤلاء ، لا يتمنى لهم الانتصار بل سيكون عونا عليهم مع الأعداء كما وقع بالفعل فى معركة العرقاء ، وجاء الموحدون الطيبون والمرابطون وأرادوا ... ولكن الخيانات ... لماذا لأن كرامـــة الأندلسى كانت مسحوقة ، كما نرى ذلك فى أدب الأندلس ، لم تبق كرامة بل شعراء يمتدحون ابن عباد لأنه أعطى الجزية ويعتبرون هذا من انتصار الاسلام، لأنه أعطى الجزية عن يد وهـــو صاغر ، ومجالس اللهـــو . وكرامة المسلمين وأمانة الله فى عنق الحكام أن يعيدوا كرامة المسلمـــين ينبغى ان أراد المسلمون أن يعودوا عمليا الى الاسلام أن يعيدوا كرامة المسلمين وأمانة الله فى عنق الحـــكام أن يعيدوا كرامـــة المسلمين للمسلمين ، وأن يشعروهم بأن الدولة دولتهم ، وأن يقتنع المسلمون بأنها دولتهم ، وبهذا استطاع المسلمون خلال التاريخ أن يظهروا هذه العظمة وهذه المعجزات فى المقاومة ، أنا ابن الجبل وأعرف أن ثمانيـــة اشخاص أو عشرة فى قبيلة أنجرة أوقفوا جيشا قوامه 1000 مـــن الأسبان ، انهم فقط عشرة ولكنهم لا يتركون صلاة الفجر ويعتقدون أن هذا واجب ، وليس من ورائهم جيش التموين ، فتموينهم قليلا من

[illegible]

ملكية المال فى الاسلام عندما سئل لمن هذه الغنم التى ترعاها ؟ قال : هى لله فى يدى ، ولقد ترك للمسلمين وقادتهم المجـــال للاجتهاد على ضوء الكتاب والسنة فيما يتصل بتطبيق عملى لهذه الفكرة فى مختلف الظروف والأزمنة والأمكنة ، وقد كان الســـلف الصالح أكثر فهما وانسجاما لهذا المبدأ الاسلامى بحـــكم تربيتهم واتصـــالهم المستمر برسول الله (ص) الذى توفى ولم يخلف شيئا من حطام الدنيا لأهله وأسرته وجعل للأمة حق ارثه بأنها أولى بماله ، وعنـــدما استقرت أحوال المسلمين وتولى عمر خلافة المسلمين أبرز سلوكه وتطبيقاته العبقرية مبدأ الاسلام فى تمكين المســـلمين من التصرف فى مالهم والاستفادة منه على وجه يحقق لهم كرامتهم ، ويمنع عنهم كل صنوف الاستغلال ، وهنا سأقدم لأساتذتى الشباب الذين تعلمت منهم بعض تراثهم الحقيقى ، عندما قال **الربيع بن زياد الحارثى لعمر بن الخطاب : يا أمير المؤمنين ان أحق الناس بطعام لين ومركب لين وملبس ليـن لانت ، فرفع عمر جريدة كانت معه فضرب بها رأسه وقال : أما والله ما أردت بها اللــه ، ومـا أردت بهـا الا مقـاربتى ، هـل تدرى مـا مثلى وما مثل هؤلاء» ، قال : وما مثلك ومثلهم ؟ قال: مثل قوم سافروا فدفعوا نفقاتهم الى رجل منهم فقالوا له : انفق علينا ، فهل يحـق له أن يستأثر من هذا الشىء قال : لا يا أمير المؤمنين قال : فكذلك مثلى ومثلهم، أنا رجل أمير على أموال المسلمين لا يحق لى أن أتصرف فى أكثر مما أعطونى** وكتب عمر رضى الله عنه لعامل له ، أن أعطى الناس أعطيتهم وأرزاقهم ، فكتب اليه انا قد فعلنا وبقى شىء كثيـــر فكتب اليه عمر : انـــه فىء من الـــذى أفاء اللـــه عليهـــم ، ليس هـــو لعمـــر ولا لآل عمر ، وفى الرسالة الرائعة التى كتبها سفيان الثورى ـ هذا هو الفكر الاسلامى الصحيح ـ رضى الله عنه لهارون الرشيد فى شأن عدم شرعية التصرف فى بيت مال المسلمين الا على أساس دستور وفق القرآن والسنة دليل على أن المال مال المسلمين ، فقال هارون الرشيد : تعال نعطيك شيئا من المال ، لقد جاءنـــا علمـــاء وأعطيناهم من المال كذا وكذا ، فرد عليه سفيان الثورى رضى الله عنه ، من قال لك أن هذا المال لك ؟ ان هذا المال مال الله ، وهـــو للمسلمين ، ومن قال لك أعطيه للعلماء ؟ أبدا ! فان المال مال المسلمين تنفقه حسب كتاب الله ، وان زدت تكون قد خالفت كتاب اللـــه

والله لآت عندك ، وعنون له الرسالة : من عبد الله الميت الى هارون المغرور ، وقد كان صديقه فى الدراسة ، وتأثر هارون بهذه الرسالة رغم الحاشية الفاسدة التى أغرت هارون بسفك دم هذا الرجل الصالح .

وقد طبق مبدأ التكافل ، وهناك أمثلة كثيرة جدا رائعة كقضية أرض سواد العراق والشام اذ أبى عمر رضى الله عنه أن يقسمها بين المجاهدين وقال انها للمسلمين الى يوم القيامة ولاطفالهم ولليتامى والايامى ولكل المسلمين ، ولا تقسم بين المجاهدين فهى فىء جميع المسلمين ، وقد طبق هذا المبدأ على عهد الخلفاء الراشدين وعلى عهد عمر بن عبد العزيز أيضا ، فقد اجتمعت لدى عامل الكوفة زيد بن عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب أموال بعد أن أعطى الجند ، فأمره عمر بن عبد العزيز أن يوزع المال على كل من عليه دين فى غير فساد أو يعطى ذلك لمن أراد أن يتزوج ولم يقدر على النفقة والمهر كذلك تعطى الأموال لأهل الذمة لتقويتهم واعانتهم على فلاحتهم ، وكذلك **يقول يحى بن سعيد بعثنى عمر بن عبد العزيز على صدقات أفريقيا ، فاقتضيتها فطلبت فقراء لنعطيها لهم فلم نجد بها فقيرا ولم أجد من يأخذها منى قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس فاشتريت رقابا فأعتقتهم وولاؤهم للمسلمين .**

وهكذا نرى الاسلام انسجاما مع أساس رسالته وهى الوحدانية ـ وحدانية الله ـ ، والعبادة المطلقة للواحد الأحد ، يقرر أن شعار أمة محمد «**الكرامة الانسانية**» وانطلاقا من هذا المفهوم كان الانسان هو مصدر الحكم والتسيير فى نطاق تعاليم الاسلام ، وكان الانسان هو المرجع فى شأن سياسة المال والتصرف فيه ، وأن الحفاظ على هذا المبدأ لتقع مسؤوليته على جميع المسلمين الذين هم مطالبون للامر بالمعروف والنهى عن المنكر وأى منكر أفضع من أن يعتدى على حق المسلمين بتسيير أنفسهم بأنفسهم لتحقيق عدالة الله فى الارض وأى ذنب أخطر من أن يهجم على مال الله وتمنع الامة حق الاشراف عليه . وتسييره والتصر ف فيه وفق مبادىء الاسلام ، ولكن لن يؤدى المجتمع رسالة فى تحقيق كرامة الانسان الا عندما يفهم الاسلام كحضارة أبى كنظام شامل لحياة الانسان يشمل العقائد والعبادات

والأخلاق والتشريع ، ذلك أن الاسلام وحدة لاتقبل التناقض أو التجزئة أو الاخلال بعنصر من عناصره لان بناءه متكامل متكافل ، وقيامه فى تلك الوحدة وفى تآزر تلك العناصر الأربعة وانسجامها فيما بينها لتكوين المسلم .

ان الاسلام لا يؤدى دوره الحقيقى الا اذ أخذ كله فى السلوك وفى العلاقات وفى المحاكم ، وفى الادارات ، وفى السياسة الخارجية والداخلية ، ولا تخشى عدوا أبدا **(ان تنصروا الله ينصركم)** فهناك من يقول لو نقيم الاسلام فالاستعمار سيهجم علينا ، فالله هو الذى خلق هؤلاء المستعمرين وخلق الأرض والكون فيجب ألا نخشى أحدا ونعلن ديننا ، فنحن لا نريد اعتداء بل نحن نحب الانسانية كلها نحب لها الخير والتقدم ، ونحب لها التعاون والرفاهية ، ولكن أتركونا نعبد الله أحرارا نحن أيضا ، نريد أن نعبد الله ولا نريد أن نعتدى على أحد ، اننا نريد أن نعبد الله ولا نريد أن نعبد أصناما ولا أوثانا نريد أن نقيم شريعة الله فيما بيننا **(يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم ، والله يريد ان يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات ان تميلوا ميلا يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا)** صدق الله العظيم .

والسلام عليكم ورحمة الله

مـــن مســالك اصـــلاح الفكـــر والاخـــلاق

الشاذلى النيفـــر
أستاذ بالكلية الزيتونية
ورئيس جمعية تحفيظ القرآن الكريم
الجمهورية التونسية

بســم اللــه الرحمــن الرحــيم
والصلاة والســـلام على اشــرف المرسلين .

سعادة الوزيــر ،
حضرات الاساتذة ،
ســادتى ، سيـــداتى :

سأتحدث اليكم بصراحة تطرقا لمشاكلنا ، حتى نسعى لأزالتها، وأريد فى هذه الكلمة أن نتبين بعض ذلك ، فاننا لا تنسينا نشوة النصر الذى جلب استقلال شعوبنا فاصبحت أعلامنا خفاقة ، لاتنسينا أننا على أيــة عقبة ، حقا ان الاستقــلال لم يحصــل لشعوبنا هينا ، وبالاخص فى هذه الارض أرض الكفاح التى أقضت مضجع الاستعمار وكافحته منذ وضع أقدامه فيها ، ولكن هذا الاستقلال الغالى على عزته وفداحة ثمنه ومكانته فى نفوسنا ، وراءه ما وراءه ، وهى هذه المعركة التى نخوضها ، فبحول الله لا بد أن ننتصر فيها ونخرج ظافرين ، لكن هذا النصر ليس بالامر الهين ، اذ تعرفون أن الصهيونية هى فى ذاتها قوة وتمدها قوة من أعظم قوى الدنيا ، .

وقد اخترت أن يكون الحديث مسلسلا لفرص أغتنمنا بعضها ولم نغتنم البعض ، بسبب أننا فقدنا مسلكا من مسالك اصلاحنا فى فى فكرنا واخلاقنا ، معقبا ذلك الاصلاح المنشود ، فالموضوع يتناول حاضرنا لا حاضرنا الزاهى ، بل الحاضر المتجهم ، وآثــرت ذلك ليكون نداءا صارخا لنتحفز ونثب عاملين حتى نتخلص مما حاط بنا .

وشجعنى أن أطرق هذا الموضوع القاسى على النفوس اننى ألقيه فى القطر الشقيق الجزائر بلد المجد والكفاح الذى يقدر المواقف

(*)محاضرة القاها فى الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الاسلامى المنعقد بقسنطينة فى 17/8 جمادى الثانية 1390 هـ ــ 10/19 اوت 1970 م.

الجادة ، ويتطلع الى البطولة النادرة ، أتحدث اليكم واني على يقين سأجد آذانا صاغية ونفوسا متعطشة ، وقلوبا مليئة ، بـالايمـان ستخرج من هذا الملتقى وهي تتقد حماسا وتلتهب ايمانا ، أتحدث اليكم أيها النخبة من شبان الجزائر ، وتونس ، والمغرب ، والاقطار العربية والاسلامية ، لنغتنم هذه الهزة القاسية باقتطاع البلاد العربية وتمزيق أرضها ليتحرك الشعور وتتقد جذوة الايمان ، فهذه الهزة وان كانت شديدة عاتية ، لكن : جزى الله الشهداء كل خير ، وقـد أحيى الامل في نفسي أن نجتمع في أرض هذا الملتقى الفريد مـن نوعه ، فعوض أن تعقد الملتقيات التي لا نجني منها الا افلاس أفكارنا وانحطاط أخلاقنا ، بما لا يتلاءم والمبادىء الاسلامية وما أكثر تلك الملتقيات،عوض ذلك يعقد هذا الملتقى الذي يعالج مشكلات أساسية تهم المسلمين قاطبة ، وكم ملأ نفسي سرورا وقلبي حبورا الكلمة التي ألقاها سعادة الوزير السيد مولـود قاسم وزيـر التعليـم الاصلي والشؤون الدينية بالجزائر ، حيث رفع القناع وتناول الاصالة الاسلامية العربية ، وكيف نحافظ على هذا الكيان الذي لم يضيعه الأسلاف وان عاشوا في جو مليء بالمخاطر ، ملىء بالتحطيم وكيف نحافظ على الاسرة ، ان طرق المسؤول مثل وزير التعليم الاصلي والشؤون الدينية، ووزير الاعلام والثقافة لهذه المواضيع الاسلامية لبادرة خير ، واسفار عن صبح اصلاح ، وموضوعي هذا لا يتناول الا مسلكا واحدا من مسالك اصلاح التفكير والاخلاق على تعددها ، لأني جئت الى هذا الملتقى ولم أخمر الرأي ، فبمجرد تلقي الدعوة شددت رحلي لانها فرصة يفرض علينا ايماننا أن نأتيها بدون تزويق ولا تنميق ، حتى نكون من الذين يعملون في سبيل الله **(لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله)** ، فلم يلهنـا والحمد لله شيء وآثـت هـذا المسلك الذي سأتحدث عنه دون غيره ، لاني مؤمن الايمان الكامل اننا بدونه لا نستطيع أن نصنع شيئا لاني عرضت التاريخ والحاضر وبحثت ما حدث لنا في وقتنا الحاضر من نكبة ، مستلهما من ذلك هل استفدنا منه فيما مضى باستثناء العصور الذهبية كان التفكير غير مستفيد من ذلك ، أو مستفيد بحد ما ، فخشيت ألا نستفيد من ذلك ، أو نستفيد بحد ما ، فخشيت ألا نستفيد من هذه الهزة فقلت وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين بالتنبيه على ما رأيته سببا في عدم

الاستفادة وبالطبع اذا قضينا على السبب كنا أخذنا فى خطوات الاصلاح ، وقد اقتصرت فى المسلك الوحيد من مسالك الاصلاح التفكير والاخلاق على جانب واحد منه ، وهو التفكير المؤدى الى الاستفادة من حوادث الدهر العظمى المؤلمة ، وهو موضوع غير مدروس من قبل، فهو خوالج نفسية ، واستنتاجات تاريخية ، وصرخة مخلصة فى آذان الذين يسمعون ، تحتل مسألة التفكير الاسلامى المكانة الأولى من اهتمام المصلحين لانها الأساس فى بناء النهضة الاسلامية التى اشرف عليها العالم الاسلامى الحاضر المتطلع لبناء صرح اسلامى من جديد بعد تلك الفترة التى مر بها العالم الاسلامى رازحا تحت سلطات أجنبية وبعد هذه النهضات الاستقلالية حرى بالعالم الاسلامى أن يعير هذا الاهتمام للفكر الاسلامى لانه لا يمكن أن نخطو خطوة الى الامام فضلا عن خطوات اذا لم يكن هذا التفكير آخذا منهجه من الاستقامة والاعتدال فى كنف الرأى الصحيح ، واستقامة التفكير الاسلامى لايمكن فصلها عن القيم الاخلاقية ، فمتى يتجه الفكر الى المنهج الصحيح وبواعث الاخلاق لا تضعفه الجدية فيما يصنع ، فالصلة بينهما صلة وثيقة وكل منهما يتوقف على الآخر ، وينبغى أن نرفع التباسا وهو أن التفكير الذى نرمى اليه هو التفكير الجدى الذى لا يهيم بالناس فى الدين ، أما الذى يهيم بالناس فى الدين فهو وان أينعت به الآداب الخليعة وفنون أخرى لا يبعث الامم من مرقدها ولا يجدى نفعا ، بل هو يتماشى والخلق الردىء ، والعالم الاسلامى اليوم فى حاجة الى مايثير نفسه وتينع به أممه ، ان المسلمين ما أصيبوا الا من أجل اهمال هذا الجانب فعاشوا حياة الخلوة من التفكير الصحيح الممتزج بالاخلاق العالية ، فلا سبيل للوصول الى الغايات والمطامح الا باصلاح التفكير ، وقبل أن نلج الفكرة الاصلاحية نذكر لكم أشياء لتتبينوا بها ولتدركوا ان التفكير من المسلمين ليس معدوما فى كل عصورهم ، وانما هى عصور انحطاط مرت بنا فأصبحنا فريسة للامم ، حتى الامم الصغيرة التى لاتعد الا بضع ملايين من البشر ، ولكنها فى حضارة ناضرة تتملك رقعة من رقاع الاسلام تفوقها بالعدد ، ومن المؤسف ان البون اذ ذاك بون شاسع فى التقدم ولندرك ، أذكر أن المسلمين نزلت بهم الحملات الصليبية المسعورة وعرفوا كيف يتخلصون منها ، جاءت الحملة الصليبية

والتفكير الاسلامى مشغول عنها ولكنه غير خامد ، وانما هو فى اتجاهه الخاص وهو التحلل الذى انقاد اليه الرأى العام لاسباب كثيرة منها تلهيته حتى لا ينطلق وينتقد ، فانغمس فى التحلل ، وانساق الى شهواته يرضيها كأنه يعبدها من دون الله ، ويصور جانبا من هذا هجاء أبى نوس لابان بن عبد الحميد الفائقى عن كافر يتمارى بالفكر بالرحمن يريد أن يتصور بالعصبة ، المجانى والهـاجى والمهجـو سبيهلما سواء وهو التحلل من كل المقومات الاسلامية وحتى العقيدة فى مهب الريح ، يسمح الحكم حين ذاك بمثل هذا التحلل ولكنـــه ولكنه بالمرصاد لمن يبدى رأيا عاما جديا خشية من اطاحة السلطان فالافواه مكبوتة ، والعقول مغلوبة فى هذه الدائرة ، فبالطبع أن نرى ان الاء لام لا يعمل عمله كما يجب ، وكان الرأى العام اذ ذاك مقصورا على هذه الحالات التى يعيشها ، لذلك لا نجد أن تستطيع الحملات الصليبية أن تتركز فى النقطة التى هى اليوم محل صراع بيـــن المسلمين من جهة وبين الصهاينة ومن وراءهم من جهة أخرى ، لكن تخلص المسلمون والحمد لله فلم تضعفهم هذه الهـزة واضطلـــع تفكيرهم لا بايقاف الحملات الصليبية فحسب بل استطاعوا دحرها وتطهير القدس وغيرها منها ، فالتفكير الاسلامى صنع العجائب فى دحر هؤلاء المغيرين وذلك أن الرأى العام لم يخمد ولم يخمل فراجع الموقف فاستبان له أنه لا يدرك ثاره ولا يقصى الجائر الا اذا تخلص من التحلل ، فحين التفت المسلمون الى دينهم التقى دين التضحية استرجعوا فلسطين وعاد الا سلام من جديد اليها ، ولعل مثل ذلـك اليوم ليس منا ببعيد ، ويرجع اتخاذ هذا الموقف فى العود الى الوطن المسلوب ، الى أن التفكير الاسلامى لا يزال فى حيويته وجديتـه ، فعلاوة على ما ظهر من ابتكار فى اسلوب الحرب وايجاد وسائـــل للمقاومة جديدة **كان هناك تفكير اسلامى جذرى فى امرين اساسين :**

اولاهما : اعادة الروح الجديدة الاسلامية ، لكنها اصطبغت فيما بعد بالتصوف فكانت فى مشربها غير صافية ، والشعر من أبـرز مظاهرها ، فبعد شعراء المجون ظهر ابن الفارض وأضرابه ، وهذه الروح لو أخذت الصبغة الاسلامية الصرفة لكان فى امكانها أن تاتى بنتيجة أكبر ، فالفكر الاسلامى قد استعاد منهجه الاسلامى ، وخلقه

الاسلامى ، ولكنه ويا للاسف تمحض عن مزج فأثر التصوف على الفكر والأخلاق .

ثان الامرين : تفتح الفكر الاسلامى فى هضم القوميات وصهرها فى البوتقة الاسلامية فابتلت العالم الاسلامى هذه الصدمة دون فرق وهى الحملات الصليبية ، ولم يعتبرها تخص الخلافة العباسية وحدها ، أو أنها ملقاة على العرب خاصة ، بل اعتبرها الفكر الاسلامى قضية المسلمين عامة من أجل ذلك اضطلعت بها دولة كردية وهى الدولة الايوبية التى أسسها صلاح الدين يوسف بن أيوب المولود بتكريت من بلاد الكرد ، كانت هذه الحملة درسا عرف بها الغرب الذى يناوىء الشرق بأن القضاء على الدول الشرقية ليس ممكنا كما كان فى عهد الدولة الرومانية لان الاسلام وقف حاجزا للغرب المتسلط على الشرق ، اذا باءت هذه الحملات بالفشل رغم كثرتها وايقاد الحمية الدينية ، لكن بجانب هذه الحملات حملات أخرى نجحت مع امتداد نفس وهى حملات الاندلس ، التى هيأ لها أسباب النجاح المسلمون أنفسهم ، اذ انقسمت دولة الاندلس الى ملوك يعبر عنهم بملوك «الطوائف» ، فتساقطت بلاد الاندلس بلادا بعد أخرى الى أن كانت النكبة الكبرى بجلاء المسلمين عن شبه تلك الجزيرة .

مما يزهدني في ارض اندلس * القاب معتصم فيها ومعتضد
القاب سلطنة في غير مملكة * كالهر يحكي انتفاخا صولة الاسد

ونسأل الله أن لا نكون على طرف من ذلك ، ولا بد ها هنا من وقفة وهى أن هذه الحملات لماذا نجحت فى الاندلس حتى انقرضت الدولة الاسلامية من الاندلس ولم يبق لها ذكر فى تلك الربوع ، فما هو السر يا ترى ؟ المسمون هم المسلمون ، فى عدم قدرة هؤلاء على رد هذه الحملات لأسباب كثيرة ، وانما فى طليعتها أن نحصر السر فى عدم قدرة المسلمين فى شبه جزيرة الاندلس هو ان تفكيرهم ادى بهم الى اليأس ، ، ربما يقال أن هذا اليأس تطرق اليهم بعد طول تصاول معا لاسبان ، لا ، ليس الامر كذلك ، بل تطرق اليأس الى الاندلسيين منذ الجولة الاولى فانهم منذ سقوط طليطلة كانوا فى حال يأس ، حتى انهم منذ تلك الحقبة سنة 478 وفكرة الرحيل من الاندلس تخامرهم ، ويعبر عن هذا المعنى ما قاله الشاعر الاندلسى عبد الله بن فرج المشهور بابن العسال :

يا اهل اندلس حثوا مطيكمو * فما المقام بها الا من الغلط
الثوب ينسل من اطرافه وارى * ثوب الجزيرة منسولا من الوسط
ونحن بين علو لا يفارقنا * كيف الحياة مع الحيات فى سفط

فنفسية الاندلسيين غير نفسية المسلمين فى الشرق،فالمسلمون بالشرق كانو متطلعين لجولة أخرى ، تعفى آثار ذلك الواقع وتسترجع القدس الشريف كما قال ابن الوردى :

وكيف تنام العين مل، جفونها * على هفوات ايقضت كل نائم
فايها بنى الاسلام ان وراءكم * وقائع يلحق الذرى بالمناسم
واخوانكم فى الشام يضحى مقيلهم * ظهور المذاكى او بطون القشاعم
تسومونهم الروم الهوان وأنتم * تجرون ذيل الخفض فعل المسالم

فشتان بين حث المطيى للرحيل ، وبين تنبيه المسلمين بأن وراءهم وقائع تلحق الذرى بالمناسم ، فحث المطى قد تحقق ولو بعد مئات السنين ، وكذلك لم يمض قرن بالنسبة للشرق حتى خاض المسلمون وقائع أدت بالصليبيين للرحيل ، ومن فضل الله أن كان الشرق آنذاك سليما فى تفكيره متحفزا رغم ما أصابه من انحلال فى الاخلاق والتفكير ، فلو ان الحملات الصليبية نجحت فى الشرق والغرب لكانت الكارثة العظمى لا قدر الله ، وزرع اليأس هو ما نقاسيه اليوم ، فاننا لا نواجه اسرائيل فى الشرق فحسب ، بل نواجه من أقصى الغرب من أمريكا حملة أخرى تعزز بها امداداتها ، تريد زرع اليأس مثل الاندلس من ذلك ما طلعت به بعض الصحف الامريكية وهى صحيفة «نيويورك تايمز» **من ان اسرائيل تملك امكانية انتاج القنبلة الذرية ، وانها تستطيع ذلك فى سنة أو تسعة أشهر** ، لكن لا ينبغى أن ناخذ هذا الخبر على هذا الوجه فحسب ، وهو زرع اليأس والقنوط ، بل يجب أن نأخذه من جهة أخرى وهو انه الحق اليقين ولا نقابله آيسين بل يكون ذلك من بواعث حفز الهمم فى الامه العربية لتلتحق بالركب وتترك الفراغات حتى تنتج كذلك قنبلتها وحتى تقابل الفعل بالفعل والبادى، اظلم ونسال الله سبحانه أن يكون ذلك عندنا قريبا .

لكن الحيوية الفكرية فى المسلمين أخذت تضعف شيئا فشيئا كلما ابتعد المسلمون عن أن يكون لهم رأى عام مفكر فجاءت هزة

فى بغداد عاصمة الخلافة نظرا لفداحتها كان يجب أن تكون من أكبر البواعث لان يخرج منها العراق وبقية الشرق بتفكير جديد تظهر فيه مبتكرات تكون لها آثارها فى الحياة المستقبلة ولكنها هزة ضائعة لم ينبعث لها الفكر من مرقده ، ومن فضل الله أن هذه الهزة جاءت من أمة غير غربية وهى أمة التاتار التى زحفت على البلاد الاسلامية كالسيل الجارف ، فكان سقوط بغداد عاصمة الخلافة وكذلك غيرها فى الاندلس ، ولكن ما تأثر الشرق للغرب ، وما تأثر الغرب للشرق ، وكان العالم الاسلامى آنذاك كما قال ابن العربى فى تفسيره ، ورجفت بالمعاصى القلوب وصار كل أحد من الناس ثعلبا يأوى الا بجاره وان رأى المكيدة بجاره (فانا لله وانا اليه راجعون) ·

فالقرن السابع الهجرى كان مليئا بالمصائب على المسلمين ، ففيه سقطت مدن عديدة بالاندلس مثل شاطبة ، وعاصمة الاندلس قرطبة ، واشبيلية وفى الشرق سقطت بغداد تحت أقدام المغول ، والشرق المصاب بالنكبات لم ينتبه فى تفكيره ، ولولا أن المغول ليسوا كأولئك الغربيين لامتدت النكبة بالاسلام ، ولكن حصنه الله بأن أسلم أحد ملوكهم ودخل فى الاسلام فانحسم الداء ، ان هذه البواعث فى الاندلس والشرق لم تحفز الهمم لرد الفعل اذا نظرنا لجزء من العالم الاسلامى المصاب منها فى الصميم وهو الشرق العربى الذى قاسى الحملات من الصليبيين والتاتار فانه لم يستطع الا أن ينهض نهوضا محدودا يرد غارات التاتار أو حملات المرينيين فى الاندلس على ضعفها ، ووقف عند ذلك فلم تكن له تلك النهضة التى كانت فى صدر الاسلام ولولا تصفية بقايا الصليبيين لم يكن هناك عمل ما ، لكن بجانب هذا الجزء كان جزء آخر من العالم الاسلامى أينع فيه التفكير الحربى فاستطاع أن يحقق نهضة اسلامية فى الفتوح وهو الشعب التركى المحقق لفتح القسطنطينية والذى استطاع انقاذ جزء من العالم الاسلامى العربى من كارثة،ككارثة الاندلس فى الجزائر وتونس وبالاخص فى الأخيرة حيث أعان آخر سلاطينها من بنى حفص على تثبيت قدم الاسبان فى تونس فلولا الخلافة العثمانية لقضى على الشمال الافريقى، وعلى ما فى ذلك الحكم من أنقاص استطاع أن يجتاز بالعالم الاسلامى منطقة الخطر ، فان أوروبا فى ذلك العصر الذى وقع فيه الاستلاء على تونس مثل أوروبا وقت الاستعمار ، فانها وقت الاستعمار وان أرادت تحقيق شىء من ذلك انما هو بضور أخرى ملتوية

فلو أن عصر الامبراطورية الاسبانية تمكن من شمال افريقيا لالحقها بالاندلس ، وكان جلاء المسلمين منها ، وهذا الفكر الاسلامى الجديد بسبب انحصار مهمته فى الفتوح لم يستطع أن ينهض بالامم المنطوية تحت لوائه ، لكن استطاع ان يحافظ عليها بلا أفكار نيرة وأخلاق عالية ، لم ينهض التفكير الاسلامى رغم هذه الهزات بل ازداد تدليا حتى جاء الاستعمار والداء منشأه ان السواد من المحكومين يعيشون وقد سلبهم الحكم تفكيرهم وارباب السلطان والنفوذ لا يهمهم الا اشباع رغبة السلطان المطلق احيانا ، وأخرى اشباعهم شهواتهم الاخرى ، ثم جاء الاستعمار فعم الوطن ولم يترك شبرا لم يدخله اما مباشرة واما التواء ، وتقلب بنا تقلبات عدة الى أن جاءت الانتفاضة العامة المنادية بالاستقلال ، فهزة الاستعمار أحدثت الاستقلال . بعد ان بيننا تسلسل الداء الفكرى وكيف أن الهزات لم تحرك الا قليلا أحيانا وان كانت قد حركت فى العصور الذهبية او لم تحدث شيئا الى أن جاءت هزت الاستعمار فتحرك العالم الاسلامى بأسره وكـــان الظفر لها ، فها نحن فى فجر الاستقلال فهل تحدث فينا هذه الهزة حركة فكرية جديدة تهزنا أن نعمل للنهوض بالعالم الاسلامى والخروج به مما كان عليه ، فها هى دفة التسيير بأيدينا ، ونستطيــع أن نصنع شيئا ، وان كان المغتصب لم يتركنا نبنى بناءنا المراد ،قد سلط علينا من هم اشد من المستعمرين وهم الصهاينة المتعطشون للدماء والمتكالبون على التخريب والحالمون بملك اسرائيل على حساب الامة العربية ، فهل اننا اليوم بعد ادراكنا لخطورة الموقف سنكون أقوياء قد اعددنا للجولة القادمة عدتها وتدرعنا لها وتكوننا التكوين الصحيح فكريا وأخلاقيا ، ان الواقع أبان لنا اننا لسنا على أهبة صحيحة ، فتلك النكبة أبانت لنا اننا مغرورون بأنفسنا وندعى أكثر مما عندنا ، فبعث ذلك العدو على أن يقضى علينا بين نوبة عين وانتباهتها ،مما يحز فى نفوسنا كل لحظة ، لكن لنا الامل بحول الله واعتمادا على استعدادنا الكامل أن لا تعود تلك النكبة ان شاء اللــه .

فلا بد من انتشال ولا بد من اصلاح امرين هما عمادا النهضة الاسلامية : **التفكير الاخلاق** ، وهذا التفكير الذى نريده يتحتم أن يعتمد على القوة ، لهذا منذ أزيد من قرن فكر بعض الرجال المفكرين فى عصر تكالب الاستعمار الى أن يبعثوا التفكير الاسلامى الى ادراك

معنى القوة التى عليها العالم الغربى ، فبذلوا جهدا مشكورا فى انهاض الفكر الاسلامى بالتعليم والحد من عبث العابثين ، ونذكر لذلك مثلا وهو ما حدث على يد رجل مصلح خير الدين باشا فانه كان من العاملين لنهضة البلاد الاسلامية وظهر فضله فى وزارته التى لم تعمر الا قليلا اذدامت أربع سنوات من سنة 1290 الى سنة 1294، فانه اراد ان ينهض بالبلاد التونسية نهضة مثالية فكرية بالتعليم الذى قعد اسسه سواء كان تعليما للعلوم الاسلامية باصلاح نظام التعليم الزيتونى ، او كان تعليما حديثا بالمدرسة الصادقية ورأى ان فى ذلك عملا عظيما لاثارة التفكير الاسلامى وارشاده الى الطرق الصحيحة ، كان هذا العمل فى تاليفه كتاب «اقوم المسالك فى معرفة الممالك» وهو كتاب يتبين المقصود منه مما ذكره فى خطبة الكتاب اذ يقول :

«فمن لاحظ هذين الاعتبارين الذين لا تبقى المشاهدة فى صحتهما ادنى ريب».

يقصد بهذا كون ان الدنيا صارت متحدة والمطالبة بنفع أبناء الجنس ، كان بمقتضى ديانته من الدارين أن الشريعة الاسلامية كافلة بمصالح الدارين ، ضرورة ان التنظيم الدنيوى اساس متين لاستقامة نظام الدين ، من شهد هذا يسوؤه أن يرى بعض علماء الاسلام الموكول لأمانتهم مراعات أحوال الوقت فى تنزيل الاحكام معرضين عن استكشاف الحوادث الداخلية وأذهانهم عن معرفة الخارجية خالية ولا يخفى أن ذلك من أعظم العوائق عن معرفة ما يجب على الوجه اللائق افيحسن من اساءة الامة الجهل بامراضها أو صرف الهمة الى اقتناء جواهر العلوم مجردة عن أعراضها ، كما أنه يسوؤنا الجهل بذلك من بعض رجال السياسة ، والتجاهل من بعضهم فى اطلاق الرئاسة ، فلذلك هجس ببالى ما استذكيت لاجله ذو بالى من أنى لو جمعت ما استنتجته منذ سنين باعمال الفكر والروية مما شاهدته أثناء اسفارى للبلدان الاوروبية ان كتاب «أقوم المسالك» ليس المقصود منه حكاية ما فى المغرب وانما المقصود منه فتح عيون الامة الاسلامية على قوة الغرب ولهذا نرى الكتاب متركزا على الناحية الاقتصادية والناحية الحربية واذا نظرنا الى معنى القوة لنجد أنها تخرج عن هذين مع العلم كما يتضح ذلك من فحواه وهذا خلافا لما ذهب اليه الاستاذ الجليل مالك بن نبى ، ثم انه فى مقدمته قد بسط البسط

الكافى لتحرر الحكم ، اتضح السبب وظهر العامل المؤدى الى ضعف التفكير والى التدلى الاخلاقى ، اتضح أن هذا من فقدان فكر الرأى العام واختفائه من الميدان ، فهل اليوم من سبيل الى بعث الفكر الاسلامى بأن يكون فكـــرا فى مقـدوره أن يجابه الحيـــاة الحـــاضـــرة ويقضى على الرواسب المتخلفة عن عصور الانحطاط عصر الاستعمار وما تقدمه من عصور مظلمة ، وهل من سبيل الى تغيير الاخلاق فى المسلمين فانها أخلاق فى أوساط مختلفة لا نرتضى أن يبقى عليها المسلم لانها أخلاق لا تعين على التفكير بل تقضى عليه ، من ذلك مـــا يعامل به بعضنا بعضا ، فانه ينحط به الفكر بذلك الخلق لارضاء شخص مما فيه تزيين للباطل ، حتى أخذت الحياة طابعا خاصا وهو طابع حياة مبنية على غير الدعائم الحقة بل على رغبة شخصية تسخـر لها كل القوىٰ ، فلا تعمل الا فى فلكها ، وبذلك تفقد المواهب وتصبح آلات عاملة لتلك الرغبة ، وهذا له تأثيره فى الامـم الناهضـــة ، فى حاضرها وماضيها القريب ، فالامة الالمانية فقدت السياسة فى عصر بصمارك لانه لم يترك لها مجالا للعمل ، ولذلك رغم التقدم الصناعى لم تستطع المانيا أن تصنع شيئا أمام أساطين السياسة ودهاتها فلذلك وجدت ألمانيا نفسها فى الحرب العالمية الاولى وحدها وليس معها الا الدولة العلية المهيضة الجناح والنمسا الامبراطورية المفككة من الدول الكبيرة ، بينما كانت كفة الجلفاء راجحة بالامم الى أن دخل من رجح الكفة وأمال الميزان ، كان هذا التأثير فى أمة من أقوى الامم الاوروبية فما بالك بالامم الناهضة من كبوة ثم قامت ثم امتدت ولولا حيوية الاسلام لاضمحلت فان التأثير المفقـد للمـواهب عليهـــا أشد ، فلذلك قلت المواهب ونزرت ، ثم ان تأثيره كان أعم لانه حين أثر فى الغرب كان فى ناحية الافسـاح المجال فى نواح أخرى ، فالمانيا سواء فى عصر الامبراطورية او فى عصر الهتليرية نهضتها الصناعية واختراعاتها نابهة، فلم تغلب الا باختزال مدة الحرب، فلو امتدت زمنا لاستطـاعت المانيا أن تربـح الحرب بقنبلتهـا الذريـة وصواريخها المجهولة آنذاك ، لكن أين منا تلك النهضة الصناعية ، فعسى الايام تبعث الهمم للوصول الى تلك الغايات ونبنى أكثر مما بنوا ونفعل أكثر مما فعلوا فالافساح للفكر أمر ضرورى للمسلمين وقد أدرك المسلمون ذلك عيانا ، لكنهم سلكوا فى الخروج من هذا مسلكا هو الخطأ بعينيه،

وذلك بالحملة على الاحكام الشرعية وبالاخص الاحوال الشخصية منها ونفذوا ذلك فى شعارات مختلفة كان ذلك هو التحرير لفكر المسلمين، وبجانب ذلك لا تجد الافكار مجالات تعمل فيهـا اذ القيود كثيرة والعقبات جمة ، فالافساح للمواهب ليست له مجالات الا قدر معلوم ومع آثار التكوين الماضى لم نحقق شيئا مذكورا فى الميادين التى تجرى فيها الامم للسبق والفوز بالرهان ، لكن من المحقق لا مـن المتوقع أن الا فساح الفكرى سيعبث به العابثون ويتصرفون فيـه تصرفا مرديا ، والشواهد من الواقع تؤيد هذا فما المختار ياترى ؟ وماذا نصنع والتضييق سجن للفكر ، والحرية افساح للعابثين ، الامر ليس بالسهل ويتطلب روية واخلاصا ، وهنا يكون الدور الاسلامى ينشر حرية الفكر الاسلامى التى ليس كالحـرية التى يفسح فيها لاخلاق الدعارة والفساد، بل الحرية الفكرية الاسلامية تحتضن الاخلاق وتعاف الدعارة وتبنى على أسس بناءة للفردوالمجتمع وتقضى على الفوضى وهنا يتحتم أن نقوم بنشر الروح الاسلامية وتفهيمها للناس وتبيين دورها فى الفكر وما شرط الاسلام للحفاظ على عدم تلويث الحريـة الحرية الفكرية ، وهذا واجب المؤسسات الاسلامية حتى تتكـون الروابط بين طبقات المسلمين على أسس الدين الصحيح ، ويجب أن تسخر لذلك أكثر القوى وبالاخص الصحافة ليمكننا أن نخرج برأى عام عامل فى شتى الميادين يقدر المواقف ويتوزع فيه المسؤوليات ليضطلع كل صنف بما هو من اختصاصه دون توثب من البعض على البعض، وهذه المدنية الاسلامية ليست مجرد نظريات فهى حبر على ورق بل هى مدنية قد تحققت فى العصر النبوى على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، وفى عصر الخلفاء الراشدين وما اتصل بذلك مـن عصور ذهبية وحتى فى العصور الغير البعيدة حين تأسست بعض الدول الاسلامية ويطلع بالامر فيها ذوى الكفاءة ، فانهم وان ضيقـوا فى بعض النواحى فقد أفسحوا فى أخرى وشجعوا على النشاط الفكرى فالامر يتطلب وقتا ومجهودا ، ومن المفروض أن نخرج ونعمل مـن الآن فى خطواته الاولى وعلى الاساتذة علماء الاسلام أن يضحوا برفاهيتهم بل بما هو من الضرورات ويقوموا بحملة للتفكير الاسلامى واشادة مدنية اسلامية فاضلة، ويضعوا الخطط البناءة وتتوالى اجتماعاتهم وتتابع توصلا لهذه الغاية ، فان لم تبعثنا هذه الهزة يتسلط اسرائيل فمتى

نتبعث لما هو مطلوب منا بعد الاستقلال ، لبعث حركة فكرية واخلاقية تتكون فيها البلاد الاسلامية أمما مستقلة بحق ، فاننا اذا انبتنا الاسلام على وجهه الصحيح كان بامكانه أن يوجد شعوبا لهم رجالهم فى أخلاقهم وافكارهم مما ينسيهم حظوظهم النفسية ، فلا يزينون أهواءهم ورغباتهم بمقومات وشعارات انسانية ، بل يكون هدفهم الاسمى هذا العالم الاسلامى المنكوب اليوم باسرائيل ، وليس وجود الذين يذوبون فى تركين الاسلام بالامر العزيز ، فهؤلاء الصهاينة سخروا مواهبهم ومعارفهم لخدمة القضية الصهيونية ويكفى ما كنا فيه حتى وصلنا الى هذا الحال من الضعف،فقد كان المسلمون فى الشرق فى الحرب العالمية الاولى مقسمين على أنفسهم بين عرب وترك ، وتتقد الشرارة الاولى وينفصل ما بين العرب والترك ، وتنبعث القطيعة ، اذ الصهاينة يبذلون كل ما فى وسعهم للانقضاض على الفريسة وينفتح لهم الباب بالوعد المشؤوم .

ففلسطين لم تسقط بهذه النكبات بل سقطت من قبل منذ تلك الحقبة ، فحين تفرق المسلمون وطعنوا أنفسهم بأنفسهم ومكنوا الانجليز من أرضهم مكنوا عدوهم منهم ، مكن الله منا . ويكفى أن يكون هذا درسا لرجالنا ، حتى نقر فى أنفسنا الحرية الاسلامية التى تنتج أفكارا قادحة تعمل فى شتى الميادين ، فانه لا يمكن أن تنقدح الافكار وهى مغلولة مشلولة منقادة بزمام كانقياد الحيوان ، ومما عرفه لنا التاريخ ان الهزيمة انما تكون اذا كان المدافعون غير مقتنعين بوضعهم لعدم جولان أفكارهم فهم فى موقف حيرة يبعث فى نفوسهم لبلبلة فتخمد أفكارهم وتجمد نفوسهم ، وهذا ما رأيناه فى صدر الاسلام حيث لم تثبت أمم كثيرة أمام تفتح الدعوة للتقابل بين الحرية والاغلال ، فالغل لا بد أن يضمحل ، لم أتصور أن من يحمل العقيدة الاسلامية بحق تسيغ له نفسه أن يخالف ما ساس به النبى (ص) المسلمين ، فانه والوحى يرافقه ويسدده ما كان ليستبد برأى على المسلمين ، ففى مواطن الخطر التى تداس فيها الحريات كان الاسلام يفتح صدره للفكر ، ونذكر مثلا من ذلك فى غزوة بدر والعدو متفوق لم يخض صلوات الله عليه المعركة الا بعد أن تبادل معهم الراى فى احدى الطائفتين ، وحين حولهم عن رأيهم جعلهم

أنفسهم يتحولون ، وحين خاطبهم القرآن وهو كتاب الله المنزل خاطبهم بمثل هذا الخطاب المنبيء على احترام الرأى « **واذ يعدكم الله احدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله ان يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين** » ٠

وسيرته (ص) مليئة بذلك ناطقة بأن المجموعة الاسلامية لها وزنها فى تكييف الآراء فى الامور الدقيقة ، ونشير هنا الى سر من حكمة الاسلام وهو أن القرآن أبرز تبادل الرأى فى هذا الموطن الحرج ليبين ضرورة الحرية فى الرأيى ، فاذا كان تبادل الرأيى فى أحرج الاوقات فما بالك بحال الساعة ، ومن أبرز خصائص الرسالة انها جاءت لتحطيم ما أثقل كواهل الناس وغلهم باغلال ، فأصبحوا فى أسوأ حال ليس لهم وزن ولا قيمة فى سير الحياة ،ويشير الى هذا ما جاء فى سورة الاعراف « **الذين يتبعون الرسول النبى الامى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يامرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والاغلال التى كانت عليهم** » ٠ فالرسول (ص) كما يضع عمن سبقنا ثقل التكاليف السابقة يضع عنهم ما قيدوا به فى حياتهم بغير ارادتهم فيطلق لهم من كبتهم ، وهكذا كانت سيرة الراشدين رضوان الله عليهم فى المواطن الحساسة وغيرها ، فقد كانو يتبادلون الرأيى فلا يبتون فى القضايا الا بعد الشورى ، فكان الرأى فى عهدهم زاهرا طريفا ، ويكفى تدليلا على احترام الرأى ان القرآن ذكر ان الله سبحانه وتعالى يقول : « **ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** » فالمكرم من الانسان ما كرمه الله به ، فاذا لم نكرم ما كرم الله به ، فاذا لم نكرم ما كرم الله به المرء كنا قد خالفنا سنة الكون وأعرضنا عن الطبيعة التى خلق الانسان بها ، واذا كان المجتمع منصاعا للدين فانه يهتدى للحرية الفكرية ويمنحها أهلها فان الفكر بعد ذلك سيعمل جاهدا لانه يرى أن الوسيلة الموصلة الى رفع المستوى انما هى نتيجة فكرية وبذلك تتبارى الافكار فيما تغنم منه الامة مغانم جمة يكشف عنها المستقبل القريب وما الصبح عنا ببعيد ٠

ان الحرية الفكرية الرائجة اليوم هى الحرية المستوردة تلك

الحرية المنطوية على الخبائث التى تبيح للفتيان والفتيات اطــلاق العنان فى ارضاء الشهوات ، وهو ما نرى بعضه يمثلــه فى أرضنــا السائحون والسائحات من المتخنثين والمبتذلات جميع الرذائل ومــا هم السائحون وما هم الذين قال الله فيهم : « **الحامدون الســائحون**» ولا فى السائحات الذين قال الله فيهم : «**عابدات سائحات**» ، اننا نريد الحرية الاسلامية النقية البناءة التى أشادت هذا الدين ،وأبقته راسخا فى الارض ثابت الاوتاد أين منه ارم ذات العماد ، نريدها الحرية الاسلامية الباعثة فى النفوس روح الحماس المتقد ، نريدها الحرية الاسلامية التى قاد بها محمد (ص) الامة العربية المخرج للناس مــن الظلمات الى النور ، ومن العسر والاغلال الى فسيح الجمال، الى الحياة السالمة ، والاوضاع الباعثة على التفكير الممتاز،التفكير الذى لايعرف الانتماء ولا الرجوع الذى لا يقف فى وجهه شيء الا تخطاه وحطمه ، التفكير الذى لا يعرف **الا الثبات على المبدأ كما قال النــبى (ص) : «والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أتــرك هذا الامر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته»** ، هذا التفكير الذى نبغيه لناشئتنا ولانفسنا فلو وضعوا الشمس فى أيماننا والقمر فى أيسارنا لنتراجع لم نتراجع ، ولو ملكنا الافلاك هذا التفكير الــذى نبغيه للناشئة الذى اذا اعترضتها العقبات وقفت وجهها الســدود تغلبت بالفكر السديد والرأى الرشيد واتخاذ الحلول الفعالةعنــد الابان مفطورة على أخلاق العزيمة منقاة من الخور والهلع الذى لاتجزع وان تألبت الدنيا عليها فلها من عزيمتها الحديدية ما يذلل لهــا الصعاب ، ويمشى بها قدما بين الاشواك ، اذا كنا على هذا التفكير وبهذه الاخلاق لابد ولا محالة أن نقضى على العقبات ونجتاز السدود ونخرق الفولاذ توصلا وبلوغا لتحرير فلسطين مثوى النبيين،ومعراج الرسول صلوات الله عليه وسلامه ، وموطىء عمر بن الخطاب وفتح صلاح الدين ، ان هذا الداء الناخر فى قلب العروبة لا نتركه طويلا ان شاء الله ولا نقول له دعة ووداعا ولكن الى اللقاء .

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

مشكلـــة المسلمـــين اليـــوم

المهتدى محمد أسد
مفكر مسلم نمساوى
باكستانى الجنسية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى لا اله الا هو،والصلاة والسلام على من لا نبى بعده،
السلام عليكم أيها الاخوة والاخوات :

فبعد ما طلب منى القاء محاضرة ترددت فى نفسى مدة طويلـة لما أرى من نواقص ، ولذلك ما أريد ان أطيل عليكم كلمتى اليوم ، خصوصا بعد ان القى فضلاء المسلمين كلماتهم التى ربما بينوا فيها مشكلات الاسلام احسن مما أستطيع أن أبينه لكم . ولكن اريد ان أتوجه اليكم ببيان حقائق مرت علينا ، أعنى : الفرار من الدين الذى نراه اليوم فى الشباب المسلم ، فى كل الاقطار والنفور من الاسلام . وسبب ذلك كما أراه هو ان معظم الشباب المسلم يرى نفسه محبوسا فى جمود فكرى ويظن أن الشريعة الاسلامية تمنعه من الحصول على الحرية الفكرية ، والتقدم الاجتماعى والاقتصادى الذى يستحقه .

هذه الحقائق كما قلت لكم ، حقائق مرة . ويجب ألا نخفيها عن أنفسنا ، اذ لا يمكن أن نصلح حالتنا اذا لم نر الاحـــوال كما هى ، وليس كما نحب أن تكون . لقد سمعنا من اخواننا الاساتذة الذين قدمونى هنا بأن الاسلام هو دين الكمال المطلق لا مثيل له فى العالم كله . ولكن نعترف ونعرف أن الاسلام ليس له تطبيق واقعى حيى فى المجتمعات الاسلامية اليوم وفى تاريخ المسلمين من عهد بعيد .

فلماذا شبابنا يتركون هذا الدين ويلتفتون الى حضارات أجنبية ، تلك الحضارا تالتى بينت افلاسها فى الحروب وفى الازمات التى لم ير العــالم لها مثيلا . لكى نفهم حقيقة حالتنا يجب أن ننظـــر الى

(*)محاضرة القاها فى الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الاسلامى المنعقد بقسنطينة فى 17/8 جمادى الثانية 1390 هـ ـ 10/19 اوت 1970 م.

بعض مسائل أصولية . أما كلكم سمعتم وقرأتم فى مدارسكم ومعاهدكم أن المجتمعات فى العالم كله قائمة ومكونة على أساس ميثاق اجتماعى . ولكن العلم اليوم بين لنا أن هذا الميثاق الاجتماعى ما هو الا خرافة من الخرافات التى افتراها فيما أضن جان جاك روسو وقرروها من بعده وكرروها تكرارا الى يومنا هذا .

وفى الحقيقة ما تكون أيى مجتمع فى العالم على أساس ميثاق اجتماعى بل تكونت هذه المجتمعات على أساس ارتفاع القوى على الضعيف . كان اصحاب القبائل الاقويا. منهم يستولون على الضعفاء . وتكونت تدريجيا حكومة قبلية فى الاول ، بعد ذلك يثور الضعفاء على الحكام ، واذا حصل لهم التوفيق تقلبت الاحوال وصار الضعفا. حكاما والحكام ضعفاء وتكررت هذه المسالة فى تاريخ العالم . ولكنى قد اشرت ضمنا الى استثنا. :أنه يوجد فى تاريخ العالم مجتمع كان قائما ومتفقا على ميثاق اجتماعى ، وهذا المجتمع هو مجتمع الامة الاسلامية .

كانت العرب فى دور من الادوار التاريخية كما تعرفون تعيش فى قبائل شتى ، ليست لهم دولة الا فى ازمنة غابرة قد نسوها وزالت من شعورهم . وفى يوم من الايام قام فى وسطهم رجل وقال : انى بشر ليس عندى معرفة الغيب،ولا سلطة على السماوات ولكن اختارنى الله خالق الكون رسولا الى كافة الناس . وامرنى أن ادعو الناس الى اتباع القوانين والشرائع التى أنزلها الله من السما. على قلبى ولسانى، فمن اختار اتباع الله فليتبعنى . هذه خلاصة دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما كانت فى يده قوة ولا سلطة مادية ، والناس الذين انضموا اليه ما انضموا تحت اى خطر او ضغط ، بل بحرية نيتهم واخلاصهم لما فهموا منه ان هذه الدعوة صادقة . **وهذا هو الميثاق الاجتماعى الوحيد الذى رايناه فى تاريخ الانسان ، والذى هو اليوم فى خطر الفناء .**

لقد راينا أن كثيرا من الدول الاسلامية المستعمرة أصبحت مستقلة ، وربما يظن بعض الناس أن فى هذا الاستقلال اشارة الى مستقبل الاسلام ولكنه ليس كذلك . راينا فى كثير من هذه الدول المستقلة ان الناس يفرون من الاسلام يبدلون الاحكام الشرعية

باحكام غير اسلامية أخذوها من الاجانب ويظنون انها أفضل وأرقى من الشرائع الاسلامية ، وكل هذا مع الاعتراف بكمال الاسلام كذلك ليس عندنا أى أحد ــ ذكر او انثى ــ ينكر او يستطيع أن ينكر ان الاسلام أكمل عقيدة وأكمل فكرة ايديولوجية ظهرت فى تاريخ الانسان، وأكثر من هذا ان الاسلام حقق أول مجتمع ايديولوجى فى العالم. فلماذا اذن يفر الشباب ويتركون هذا الكمال بالنواقص التى يأخذونها من الاجانب ؟

أرى أن الجواب يكمن فى نواقصنا لفهم التشريع الاسلامى ، ان الشريعة الاسلامية هى دستور حياة الامة الاسلامية ، فكل شىء فى المجتمع الاسلامى مؤسس على الشريعة العادلة التى يتساوى فيها كل الناس ، اذ ليس لنا فخر بالعنصر «لا فضل لعربى على اعجمى ولا لعجمى على عربى الا بالتقوى» وهذا ما لا وجود له فى مجتمعات غيرنا فكل حياتنا كانت من ابتدائها مؤسسة على الشريعة ، وبالشرط ان الشريعة مفتوحة فاتحة لفهم كل فرد من الافراد المسلمين ، ففيها قوة دافعة لحياة الاسلام ، واذا غلقت أبواب فهم الشريعة عند المسلمين جفت هذه العناصر ونقصت هذه القوى الدافعة وأصبح المسلمون جامدين والقوى التى كانت عندهم مبدعة أصبحت قوى تقليدية .

هل تستطيع أن تقول ان معظم المسلمين يفهمون الشريعة اليوم ؟ لا ، بل أصبحت الشريعة والفقه الذى يدلنا اليها، مجالا لرجال متخصصين وليسوا هم الفئة الفاقهة المثقفة اليوم ، لفهم كل فرد من أفراد المسلمين . دعنا ننظر فى المسالة من الاساس نعيد كل الفقه نعيد كل الفقه والتفقه فى الدين الى نصوص القرآن والسنة، ولقد أجمع علماء المسلمين وعلماء اللغة الاسلامية على أن ــ كما عبر لسان العرب ــ نصوص القرآن ونصوص السنة هو ما ظل ظاهر لفظهما ينطوى على الاحكام، ولكن من المعلوم أن الاحكام التي استخرجها الفقهاء المسلمون لا تقوم كلها على النصوص فحسب ، أعنى الاوامر والنواهى المنصوص عليها فى القرآن والسنة ، بل قسطا كبيرا من الاحكام الفقهية كان من ثمرات التفكير والاجتهاد الخاص لكل واحد من المجتهدين ، وقد وصل اليها بوسائل الاستنباط المختلفة ، أما كل الاستنباط فيؤثر بطبيعة الحال فى الذهنية الخاصة للمستنبط ، والبيئة العقلية والثقافية

والاجتماعية التى سادت عصره ، ولذلك لا يمكن أن تكـون تلــك الاستنباطات ونتائج اجتهاد الاشخاص ملزمة على كل المسلمين فى كل عصر ، وذلك عكس الاحكام المنصوصة فى القرآن والسنة ، تلك الاحكام الخـالدة الثابتة التى تلزم كل مسلم فى كل العصــــور والازمنة ، وكان تحديد الاستنباط الذاتى مفهوما عند أكابر فقهائنا فى الازمان السابقة ، وكلكم تعرفون ان الامام أبا حنيفة مثلا والامام الشافعي قالا : «**اذا وجدتم شيئا فى كلامى يعارض سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتركوه ، وأما ما يوافق الحـديث والسنة فهو مذهبى**» ، هذا القول منقول عن الامام أبى حنيفة وعن الامام الشافعى أيضا ، ومن المعلوم ان الامام مالكا قدس الله روحه رفض وضع كتابه «الموطأ» كقانون للدولة العباسية على أساس هذا الاسراف فى تحديد الاستنباط الذاتى ، وما استهدف أكابر الفقهاء باجتهادهم أكثر من أن يتيسر تطبيق مبادىء شرعية منصوصة فى القرآن والسنة عـلى مساعى وأحوال قانونية خاصة فى أزمانهم ، ولكن بمرور الزمـــن اكتسب اجتهادهم فى نظر معظم أتباعهم درجة مقدسة ، حتى أصبحت نتائج استنباطهم واجتهادهم فى نظر كثير من المسلمين جزءا لا يتجزأ من الشريعة نفسها واكتفى هؤلاء المتبعين بتقليد أعمى لفقه علمائنا المتقدمين ، وقد ذكرنا آنفا أن كل الاستنباطات والاجتهاد الفقهى متأثر بالاهواء الثقافية والاجتماعية التى سادت فى عصر المستنبط ولما كانت تلك الاحوال تختلف كثيرا عن الاحوال التى نعيش فيها فى عصرنا هذا ، باتت هذه الاستنباطات الفقهية المذكورة تختلف بطبيعة الحال عن الاستنباطات التى نستطيع الوصول اليها فى عصرنا الحاضر،وان هذا من أهم الاسباب فى تردد كثير من شبابنا فى استخدام الاحكـام الشرعية فى تفكيره العلمى والاجتماعى ، وقد ذكرنا ان الشريعـــة الاسلاميـــة هى الدستـــور الخـــالد لحيـــاة الامة الاســـلامية وانه لا وجود للمجتمع الاسلامى بدون ان تطبق أحكام الشريعة على تكوينه الثقافى والاقتصادى . **شىء ثان** أنه لا يمكن لنـــا من هـــــذا التفكير ما نستطيع أن نطبق به هذه الاحكام الا عن طريق المعرفـة العامة المباشرة لتلك الاحكام من قبل كل مسلم مثقف ، وكيف نحل هذه المشكلة ؟ فاننا نجد جوابا لمشكلاتنا بوضوح فى القـرآن المجيد «**يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم**» فى تفسير هذه الآية الكريمة ذكر **السيد رشيد رضا** صاحب تفسير المنار

ما يلي : «**العبرة في هذه الآية أن كثيرا من الفقهاء وصلوا بأقيستهم دائرة التقاليد وانتهوا بها الى العسر والحرج ، المرفوع بالنص القاطع فأفضى ذلك الى ترك كثير من المسلمين وحكوماتهم للشريعة بجملتها وفتح لهم أبواب أخرى انتفعوا بها وأثرت عليهم**» هذا ما قاله صاحب تفسير المنار .

ولقد أوضح لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم معنى الآية المذكورة بتمامها في حديث شريف «ذروني ما تركتكم فانما هلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فاذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، واذا نهيتكم عن شيء فدعوه» وفي تحليل لهذا الحديث قال الامام الذى يمكن اعتباره بحق من أعظم فقهاء العالم الاسلامى أعنى : **الامام ابن حزم الاندلسي** قال في **مقدمة كتابه الجليل (المحلى) لقد جمع هذا الحديث جميع أحكام الدين أؤلها عن آخرها ففيه ما سكت عنه النبى صلى الله عليه وسلم ولم يأمر به ولا نهى عنه فهو مباح وليس حراما ولا فرضا ، وان ما أمر به فهو فرض وما نهى عنه فهو حرام ، وان ما أمرنا به فهو يلزمنا منه ما نستطيع فقط .**

فبلا شك ان الامام ابن حزم اذ يذكر فيقول . ما أمر به النبى صلى الله عليه وسلم ـ يعنى ـ به الشارع وليس فقط شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل القرآن وأحكام القرآن التى نزلت على قلبه ولسانه الكريم التى ألقاها لأصحابه . كل هذا يجب أن يفهم دائما أن معناه «الشارع» ويدل لفظ الشارع على الاحكام الواردة فى كتاب الله والاحكام التى وضعها الائمة والرسول الكريم، الذى لا ينطق عن الهوى وقال **الامام ابن حزم** أيضا : **ان الشريعة كلها اما فرض يأثم من تركه واما حرام يأثم من فعله ، وما هو مباح لا يأثم من فعله ولا من تركه وهذاالمباح ينقسم ثلاثة أقسام : اما مندوب اليه يأجر من فعله ولا يأثم من تركه ، واما مكروه يأجر من تركه ولا يأثم من فعله ، واما مطلق لا يأجر من تركه ولا من فعله ، ولا يأثم من تركه ومن فعله.** انتهى كلام ابن حزم .

أما الفائدة العظيمة من هذه النظرية التى تسمى «النظرية الظاهرية» لأنها تقوم على الظاهر من أحكام القرآن والسنة ، يمكن أن يصل بها كل مسلم الى فهم الشريعة عن طريق مباشر ، ولكن من

الممكن أن يقال اعتراضا لهذه النظرية «الظاهرية» ان الاوامر والنواهي الواضحة المنصوص عليها في القرآن والسنة لا تكفي وحدها للاحاطة بكل ما استحدث من الاحوال القانونية التي تحتاج الامة الى حلولها ولهذا فان توضيح نصوص القرآن والسنة بواسطة الاستنباط والقياس أمر لا مفر منه ، ولا مجال لغير هذا ، وليس لأي أحد منا اعتراض على العمل الفقهي بالاستنباط والقياس وكل نوع آخر من الاجتهاد . أما الذين ارتابوا فمن اللازم أن نعارضهم ، وصحيح أن نخالف تلك النتائج الفكرية الانسانية في دائرة الشريعة الالهية نفسها ، أي لا نقبل اجتهاد أي شخص بدل أو دون سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ، فحديثه يعتبر جزءا لا يتجزأ من الشريعة الخالدة التي هي الدستور العلمي للامة الاسلامية في كل عصر وزمان.

نعم الاوامر والنواهي المنصوص عليها في القرآن والاحاديث النبوية لا تفي بكل ما يطرأ من المسائل القانونية بالتفصيل ، ولكن لم يكن ذلك نتيجة قصور من الشارع نعوذ بالله من ذلك ، بل على العكس من ذلك . لكي لا تبقى الامة في الجمود الفكري والفقهي والاجتماعي فصوب كل الاعمال القانونية مع مقاصد الشريعة الخالدة نفسها الى اجتهاد المسلمين ، شرط ألا يعتبروا مسائل اجتهادهم أكثر من عمل اضافي للشريعة الحقيقية التي لا تغيير لها ولا تبديل ما دامت حياة الانسان في هذه الارض ، لان هالة صفة لشريعة هي كونها منزلة من عند الله على قلب خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ، وان أهم صفات كل التفكير الانساني انه كله متأثر بالثقافة والبيئة التي يعيش فيها صاحبها ومن كيفية العلم الذي اختبره وأحاط عليه في عصره واذا فهمنا هذا وفهمنا ان الشريعة الاسلامية الاصيلة لم يقصد لها أن تعتمد على الاجتهاد الاستنباطي أو القياس من قبل أحد ، فنقول نعم ان اجتهاد وقتنا واجتهاد من سبقنا من أكابر المفكرين المسلمين ، لا يمكن أن نعتبره جزءا من الشريعة نفسها التي وجدناها في نصوص القرآن والسنة ، تلك الاوامر والنواهي قد عبر عنها الشارع بصيغة أحكام جازمة ، افعل هذا لا تفعل هذا ، هذا خير فأتوه هذا شر فدعوه . تلك الاحكام الواضحة في طبيعة نفسها لا يلمسها غموض ولا ابهام . واذا اتفقنا على هذا التعبير للشريعة الاسلامية سيفتح لنا مجال واسع لتقنين أي قوانين اضافية تحتاج الامة الاسلامية اليها ، القوانين التي

نصوغها فى ظل القرآن والسنة وفى ظلال الشريعة الالهية ، قوانين نعالج بها مقتضياة العصر الخاصة طبعا بتغيير الظروف ، على العكس من الشريعة الالهية التى لا تتغير ولا تتبدل ٠

اذا اخترنا هذا الطريق للتطوير الفقهى سنجد أن شبابنا يتوقفون من فرارهم من الدين الاسلامى مما يرون فيه من المجال الغير المحدود لتقدمهم السليم،والا كما قاله صاحب تفسير المنار من شدد شدّد الله عليه،وقد امتثل سلفنا للامر فلم يشددوا على أنفسهم،فكان الدين عندهم فطريا ساذجا حنفيا سمحا ٠ ولكن من خلفهم فى الامر عفى الله عنهم استخرجوا أحكاما استنبطوها بالاجتهاد واكثروا منها حتى صار الدين حملا ثقيلا على الامة ٠ هذا ويتردد ربما بعض أصحابنا اذا اخترنا هذه الطريقة الظاهرية ، فيشع بين الامة الاسلامية الخلاف فى الآراء ولا يجتمعون على طريقة واحدة ، ولكن يجب ألا ننسى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: «**اختلاف علما. أمتى رحمة**» بمعنى أنه لا يمكن أى تقدم بدون اختلاف فكرى ، ولا يمكن أى اختلاف فكرى اذا قلدنا أفكـار أسلافنا ٠ فأذن لنا طريقان : أن نمشى على طريق فكرى مشينا عليه حتى الآن ، ونبقى فى هذا الجمود الذى هو سبب تخلفنا وضعفنـا يسلط علينا الاستعمار الاجنبى ، أو نختار طريق حرية الفكر ضمن الشريعة الاسلامية الخالدة ، وعلينا أن نعمل فى عصرنا هذا ونعرف أن المسؤولية علينا ثقيلة ، يعنى فى الحقيقة أننا فى مفترق الطرق ٠ يجب أن نتفكر فى هذه الكلمة التى ألقاها **عمر بن الخطاب** رضى الله عنه «**حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا**» ٠ وكما قلت لكم مقدما لا أريد ان أطيل عليكم كلمتى اذ أعرف أن فى كلمتى هذه نواقص كثيرة ما كان عندى وقت لاستحضر محاضرة كما يجب ، ولكنى أردت أن أناقش هذه المشكلة المطروحة أمام علماء المسلمين ، وأريد الاختلاف الفكرى البناء بيننا ذلك الاختلاف الذى ذكره الرسول صلى الله عليه وسلم حيث قال : «**اختلاف علماء أمتى رحمة**» ٠

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ٠

2°) Religion (ou Foi) et Science : (par rapport à telle ou telle religion, ou confession, ou à la religion en tant que telle. Les Livres Saints — et tout particulièrement le Coran — et la science. Science et religion (ou foi) — n'importe quelle religion ou foi — sont-elles conciliables ? Est-il vrai que la religion n'est plus de notre siècle ? L'hypocrite exploitant la religion à des fins politiques, économiques ou sociales. L'athée par conviction, par ignorance ou par complexe, prétendant tous que la religion n'est plus de notre siècle, à tel point que des semi-analphabètes se vantent de ne plus croire... pour que l'on dise d'eux... La religion est-elle guide ou garde-fou pour l'individu et la société ou, tout au contraire, une drogue ? Ou ni l'un ni l'autre ? Qu'est-elle alors ?)

3°) Crise de la famille à travers le monde : (Où va la famille, de par des cris et appels que l'on entend et les comportements que l'on observe dans le monde ? Où veut-on en venir ? Quel sort lui voue-t-on ? Est-elle un système qui doit disparaître dans les meilleurs délais ? Ou à laisser mourir sa mort... plus ou moins rapide, en laissant faire... ou en l'y poussant un peu plus ? Ou, tout au contraire, faut-il tout faire pour la sauvegarder, voire la renforcer ? Et comment ?)

4°) Naissance du système universitaire dans le monde et son évolution : (Naissance de l'Université en tant que noyau du système universitaire dans le sens moderne. Rôle de la civilisation islamique dans cette naissance et dans ce développement ; diverses réformes universitaires dans le passé et surtout en cours dans le monde. Leur sens et efficacité, ou leur non-sens et négativité ; effets sur la jeunesse et la société).

5°) Les relations entre l'Algérie et le reste du monde avant 1962 : (A travers l'Histoire, ancienne et moderne, et tout particulièrement depuis le début de l'ère moderne : avec Carthage, Rome, avec les autres pays du Maghrib, de l'Andalousie, des autres pays islamiques, du Califat ottoman, de l'Afrique, de la France, de l'Espagne, de l'ensemble de l'Europe, des Etats-Unis d'Amérique, de l'Asie et du reste du monde, dans tous les domaines. Permanence de sa personnalité et continuité de son Histoire, malgré les vicissitudes de l'Histoire).

COMMUNIQUE
XIIe Séminaire sur la Pensée Islamique

Le Ministère des Affaires Religieuses organise à Batna, capitale des Aurès, du 04 au 11 chawal 1398 (07 - 14 septembre 1978) le XIIe Séminaire sur la Pensée Islamique, à l'intention des étudiants (d'Université) aussi bien d'Algérie que d'ailleurs.

Des professeurs (d'Université) et chercheurs du monde musulman et d'ailleurs y sont invités.

Les frais de séjour et de déplacement, à l'intérieur du territoire national, dans le cadre du Séminaire, seront pris en charge par le Ministère. Une contribution symbolique de cinquante dinars algériens sera demandée aux participants. En sont dispensés ceux venant de l'extérieur du pays ou résidant à Batna.

Les candidats devront joindre à leur demande un certificat de scolarité ainsi qu'un certificat médical et une enveloppe (16 x 21) timbrée portant leur adresse.

Les demandes de participation doivent être adressées au Ministère des Affaires Religieuses, Direction de la Recherche Islamique et des Séminaires, Sous-Direction des Séminaires, 4, rue Timgad - Hydra - Alger.

En prenant soin de préciser sur un coin de l'enveloppe la mention : " SEMINAIRE ".

Le dernier délai d'envoi des demandes de participation sera le 24 djoumada II 1398 (31 mai 1978), le cachet de la poste faisant foi.

L'ordre du jour sera comme suit :

1°) Aurès ; hauts faits et hauts lieux : (à travers l'Histoire, dans la région des Aurès : grands jours et moins grands... Les grands événements, champs de leur déroulement, causes et effets, traces et vestiges. Les mesures prises, ou à prendre, pour faire « ressortir » et préserver ces derniers).

العدد 57

فهـــرس الــعـــدد

نشاط البحوث التاريخية حديثا في البحر الابيض المتوسط وفى العالم

المهدى البوعبدلى
بحاثة فى التاريخ ومكلف بمهمة
لدى وزارة الشؤون الدينية



مما لفت أنظار الباحثين المعاصرين فى الدراسات الاسلامية ، اهتمام نخبة من المستشرقين أضفوا على هذه الدراسات صبغة خاصة • وبوأوها مكانا رحبا بين الدراسات المنبثقة من مختلف الحضارات ، التى تركت بصماتها فى بلدان حوض البحر الابيض المتوسط ، مثل الحضارات اليونانية والفنيقية والرومانية •

هذا وأن كان اهتمام المستشرقين فى دراساتهم للثقافة الاسلامية ، والفن المعمارى وبقية الفنون الجميلة يرجع عهده الى ما يقرب من الـف سنة ، فان الظاهرة الجديدة التى يشملها موضوع حديثنا الليلة، هي كما يدل عليها عنوان المحاضرة : «نشاط البحوث التاريخية حديثا فى بلدان البحر الابيض المتوسط وفى العـالم » نجد جانبا مـن هذا النشاط يتجلى فى المؤتمر الاول لدراسات البحر الابيض المتوسط ، وتاثير الحضارة العربية ـ البربرية الذى انعقد فى أفريل 1972 بجزيرة مالطة •

محاضرة القاها فى المركز الثقافى الاسلامى بالعاصمة بتاريخ 19 سبتمبر 1975 •

ثم عزز بالمؤتمر الثانى ، الذى سينعقد فى هذا الشهر ، أي مـا بين 29 سبتمبر الجارى والرابع اكتوبر بالجامعة المستقلة ، فى مدينة برشلونة الاسبانية تحت اشراف « الجمعية العالمية لدراسة مدنيات البحر الابيض المتوسط » التى أطلق عليها بالفرنسية :

« Association Internationale d'Etudes des Civilisations Méditerranéennes »

وستفتح أعمـال هذا الملتقى تحت رئـاسة شخصية بارزة لهـا مكانتها فى الاستشراق العالمى ، وهي شخصية العالم الاسبانى قارسيا قوميز Garcia Gomez واشراف علماء أجلة منهم Rouald Syme رئيس المجلس العالمى للفلسفة والعلوم الانسانية .

يشمـل جدول وأعمـال هذا الملتقى دراسة امتداد وانتشار الحضارة الاسـلامية واثـارها ، مـن بيـن دراسات الحضارات اليونـانية والفنيقيـة والرومـانية ، التى اجتاحت هذا القطاع ، ويتناولها بالبحث هذا الملتقى ، وسيتشارك فى الاعمال وفـد جزائرى من بين أفراده الدكتور محمد أركون الاستاذ بجامعة الصوربون ، وقد وجـه المفكـر الفرنسي المعروف Paul Charnay بهذه المناسبة الى الاساتذة المشاركين فى المؤتمر دراسة عنوانها : « حـول روح الجمعية » حلل فيها أهداف الجمعية تبنـت المؤتمر ، قال فيها « من الناحية التاريخية والجغرافية والفكرية ، كان الحوض الغربى ، من البحر الابيض المتوسط ، هو ملتقى النقاط ، الذى تواجدت فيه ألمع حضارات الحوض الشرقى ، والطاقات الجديدة التى جاء بها المسلمون ، وبعبارة أدق يمثل هذا الحوض المنطقة الجامعة التى تمـت فيها احدى التحولات الكبرى التى عـرفها العالم الحديث ، ومن شـأن هذه الملاحظة البسيطة ، انها تفرض بعض الاتجاهات فى مستقبل أبحـاث الجمعية ، وبالفعل ، فانه يتعين على هذه الهيئة . أن مجنب الدراسات المتعمقة الضرورية حول كل من الحضارات التى تهمها ، من ان تتجزأ الى فـروع متخصصة ، رابطـة فى ميادينها المختلفة ، قليلة الاتصال ببعضها ، وباختصار يجب أن لا تكون الجمعية مجردا جزاء متجاوزة ، ألا ينبغى اذا أن نبحث من الآن عن بعض عناصر مشتركة للتفكير فى المستقبل ألم يكن هذا التكدس التاريخى الذى ، أشرنا اليه آنفا ، والذى يستعرض الآن لنظرة الملاحظ التركيبية محتوى كالرشيم فى تعاقب الحضارات ؟ أم هو ليس ناتجا الا عن مجرد عوامل عارضة ؟ ومن هنا تبدو ضرورة وضع الاوتاد عسانا أن نتبين فيما بعد .

أولا ـ هـل ان مختلف الحضارات التى أجتاحت هذه المناطق الجغرافية ، تحملها شعوب متغايرة ، ومختلفة فى آن واحد أم علامات مشتركة بينها اذا وما هي ؟ ، ومـن

هنا يتعين علينا أن نتبين هـل هذه العلامات المشتركة ، المحتملة ، ناتجة عـن عـوامل متفككة صدفية ؟ ، أم هي على العكس عوامل متجانسة ، فرضت نفسها فى هذا النطاق الجغرافى على الشعوب المتوالية التى استوطنته ؟

ثانيا ـ وهـل تبدو أيضا سمـات مشتركة للحضارات المختلفة فى الانتقلات بـين الواحدة والاخرى وفى كيفيات تغييرها وبعبارة أخرى ، ومن ناحية ، فى كيفية تألفها . وتوسعها ، وفى قاعدتها الدموغرافية والجغرافية ، وتنقلها أحيانا ، وانحطاطها بعداه تبث بعض مقوماتها التى اليها من الحضارات ؟ وختم دراسته بقوله : « من شأن هذه المناظرات أنها قد تعني على ايجاد عناصر من النقد العلمى والمبتودلوجيا Méthodologiques تمكن من ربط الاتصالات بـين مختلف فـروع الجمعية ومما يضاف لهذين المؤتمرين ، مؤتمر ثالث لا يقل عنهما أهمية ، وهو الذى انعقد فى السنة الماضية تحت المركز الوطنى للبحث العلمى بباريس « Centre National des Recherches Scientifiques » وكان مقر الاجتماع بالكوليج دوفرانس « Collège de France » وموضوعه : دراسة طرق البحث عن الوثائق المجهولة من مصادر تاريخ البلاد العربية فى فترة ما بين القرن السادس عشر والقرن العشرين الميلاديين (Les archives et les sources inédites d'histoire des pays arabes 16ᵉ et 20ᵉ siècles) كان المشرفان على ذا الملتقى المنعقد فى شهر أفريل 1974 الكاتب الشهير الاستاذ جـاك بيرك وزميله دومنيك شوفالى أستـاذ البحوث بالمركز الوطنى للبحث العلمـى بمعهـد التاريخ فى جامعة الصوربون كـان عدد المشاركين فى ملتقى باريس هذا يـربو عـلى خمسـة وثلاثين أستاذا ، معظمهم يمثلون ويديرون أشهـر الجـامعات ، والمعـاهد ، والمكتبات ، ومـراكز الوثائق ، والمحفوظات ، ومـن بينهم مديرو كثير مـن الجامعات بالبلاد الاسلامية كجامعات مصر ، والسودان ، وتونس ، والرباط ، وسوريا ، والعراق ولبنان وقد عين الملتقى فـرعا لبلاد المغرب العربى مقـره عاصمة الجزائر ، واسندت أمانته العامة الى الاخ محمود بوعياد ، مدير المكتبـة الوطنية ، وأحد أعضاء الـوفد الجزائرى ، المشارك فى الملتقى .

قدمت فى هذا الملتقى دراسات قيمة ، بين فيها أصحابها الطرق التى ينبغى أن تتبع للتنقيب عن هذه الوثـائق ، واستعمال الوسائل العلمية الحديثة لتصويرها أو نقلها ، حتى يتمكن للباحثين الاستفادة منها ، كما خصص بعض الباحثين ، دراسات عن الخزائن العامة والخاصة ، وبعض المحاكم الشرعية وبصفة عامة جميع المواضع التى توجد فيها هذه الوثائق ومـا يمث لها بصلة ، ومـع ملاحظات الكثير منهم ، الى الصعوبات التـى

يتعرض لها الباحثون ، عند محاولاتهم الحصول أو الاطلاع على هذه الوثائق بجهات عددوها ، والتمسوا من المشرفين على الملتقى أن يسعوا بدورهم فى تذليل هذه العراقيل ٠

ولا يفوتنا أن نذكر أن ملتقى باريس هذا ، امتاز ، بأنه علاوة على الاساتذة المشاركين بدراساتهم ومناقشاتهم التى أعقبت تلك الدراسات ، امتاز ، بحضور نخبة من أساطين العلم المشهورين ، عين أفرادها أعضاء باللجنة الشرفية ، التى أسند لها الاشراف على الملتقى ورعايته ، فكان أفرادها يتداولون رئاسة الملتقى ويشاركون فى مناقشاته ، رغم شيخوختهم وهرمهم ، اذ جلهم بلغ من الكبر عتيا ، وقد جمعت كل هذه الدراسات فى سجل هو الآن تحت الطبع ، ويمكننا أن نضيف لهذه المؤتمرات الثلاثة مؤتمر رابع ٠ انعقد فى منتصف يونيو 1959 بمركز البحوث العالية المتخصصة فى دراسة تاريخ الاديان السماوية بمدينة ستراسبورق الفرنسية Strasbourg ٠
(Centre d'Etudes Supérieures Spécialisé d'histoire des religions de Strasbourg)

كان موضوع البحث فيه « دراسة المذاهب الاسلامية » ، أي الفرق العقائدية ، لا المذاهب الفقهية ، كان المشاركون فى هذا المؤتمر مستشرقين مشهورين بالتخصص فى المواضع اللاتى تناولتها دراساتهم ، وهم الاساتذة كلود كاهن Claude Cahen ولويس ماسنيون Luis Massignon ولويس قاردي Luis Gardet وجورج قاجدا Georges Wajda وهم كلهم فرنسيون ٠

كما شارك المستشرق الايطالى فرانسيسكو قابريالى Francesco Gabrielli والمستشرق البلجيكى Abel والاستاذان هاملتون جيب Hamilton Gibb وسترى Stan المثلان لجامعتى هارفارد Harvard الاميركية وأكسفورد الانكليزية ٠

وما دام حديثنا عن ظاهرة مؤتمرات البحر الابيض المتوسط ، التى ذكرنا بعضها على سبيل المثال ، لا على سبيل الحصر ، نلحق بهذه المؤتمرات الاربعة ، مؤتمرا خامسا ، نختم به هذا الفصل ، أي القسم الاول من المحاضرة ، وهذا المؤتمر الخامس ، والاخير كان يختلف عن سابقيه التى تحدثنا عنها ، اذ كان خاصا بمستشرقى ايطاليا ، ولان هدفه كان يتفق فى موضوع بحثه ، مع المؤتمرات السابقة ، حيث انعقد للاشادة بالثقافة العربية ، فى تكريم شخص ، يمثل الفكر العربى المعاصر ٠

عقد المستشرقون الايطاليون فى بلادهم هذا المؤتمر بمناسبة الاحتفال بذكرى عيد ميلاد عميد الادب العربى طه حسين ، الخامس والسبعين ، وأهدي له كتاب دراسة وتكريم ووصف هذا الكتاب فى الرسالة التى وجهوها اليه بقولهم : « فى هذا الكتاب درسنا وناقشنا عملك العلمى والادبى ، دراسة حرة طلقة واعية » الخ ، ولربما كان

بعض هؤلاء المحتفلين بهذه الذكرى لا يتفقون مع طـه حسين فى جميع نظرياته ، ولكن هذا لم يمنعهم من الاعتراف بقيمة الرجل وبانتاجه الثرى الخصب ٠

وقد أشار الى هذه الخلافات عميدهم Gabrielli ، فى تقديمه لكتاب التكريم فقال مخاطبا طه حسين « لقد سمح صديقك كاتب هذه السطور لنفسه ٠ أن يختلف معك فى الرأي ٠ فى بعض الاحيان ، سالكا ـ كما تعلم ـ طريق المعاناة والتجربة المباشرة ولكن أحدا لا يستطيع أن ينسى أنك خضت باسم حرية النقد ، أجمل معارك حياتـك ، وضربت فى ذلك الصراع مثلا ، لا زال محل التقدير فى الشرق والغرب على السواء ، وهو مثل استمسكنا به بكل قوانا فى جانبنا » ، أما تحليل انتاجه الادبى والتاريخى فقد تنـاوله بالنقد والتمحيص ، المستشرق الشهير دولا قيدا ، الذى شارك زمـلاءه الايطاليين فى هذا المؤتمر وقسم انتاج طه حسين الى قسمين رئيسيين :

القسم الاول : هو القسم الفني ، المتضمن كتاباته الابتكارية ، الصادرة عـن الخيال ، ثم دراساته فى النقد الادبى ، القائم على التفكير المنطقى ، والقسم الثانى ، هو الجانب التاريخى ، الذى يشمل تاريخ الادب كالشعر الجاهلى ، وما كتبه عن أدب اليونان ، وتاريخهم ، وحياتهم الفكرية والاجتماعية ، ويرى دولاقيدا أن طه حسـين أسدى بعمله هذا خدمة كبرى لقراء العربية ثـم ينتقل بعد ذلك الى الحديث عـن كتابه « على هامش السيرة » ويختم دراسته فى قسم التاريخ منوها بكتاب « الفتنة الكبرى » بأجزائه المتعددة ، الذى أظهر فيه عبقريته فى دراسة التاريخ تلك الدراسة المنهجية التى جمع فيها بين طريقتى المؤرخين القدامى ، والمؤرخين المعاصرين ، فهو يقص الحوادث على سنة القدامى ، ثم يتعرض لها بالنقد والتعليق ، نقد الخبير بفنـه ، المتوفرة لـديه جميـع المعطيـات ٠

وبهذه النماذج ننهى القسم الاول من هذه المحاضرة ، وقبل مواصلة الحديث عن القسم الثانى الذى يشمل هذا النشاط فى بقية بعض جهات العالم كما يدل عليه عنوان المحاضرة ، نقف وقفة قصيرة عند انطباعات الباحثين المسلمين حيال هذا النشاط الفكرى

سبق لنا فى هذه الدراسة ، أن المستشرقين ، اعتنوا منذ قرون فى مختلف بلدان العالم بدراسة الثقافة الاسلامية ، وأحيوا جوانب ذات بال من تراثنا ، ولـم يقتصروا على احياء التراث ، ودراسة الثقافة الاسلامية فحسب ، بـل خصصوا لاعمالهم هذه كراسى فى جامعاتهم ، وانشأوا مكتبات ومطابع ومجلات ، وعقد والها المؤتمرات العامة والخاصة ٠ مما هو معروف ، وقد انضم اليهم وشاركهم فى نشاطاتهم ـ ابتداء مـن

منتصف القرن المنصرم ـ ثلة من كبار علماء الاسلام ، فى مختلف مجالات بحوثهم ، كما سنبين ذلك فى موضعه من هذه المحاضرة ، ورغم هذه المشاركة ، فقد تعرض نشـــاط المستشرقين لسهام كثير مــن النقاد المسلمين وهذا الموضوع وان قتـل بحثـا ، حيث خصصت لـه التآليف والدراسات العميقة ، فان سيـاق الحديث يقتضى أن نعيـد الى الاذهان ، ولو بايجاز وجهات نظر الباحثين المسلمين المعاصرين ، الذين انقسموا الـى قسمين : قسم يرى أن أعمال المستشرقين كلها ضرر وتخريب ، وسم فى دسم ، اذ هدفهم تتبع النقائص والعورات لاستثمارها فى بلبلة الافكار ٠

والقسم الثانى لا يوافق القسم الاول فى تعميم حكمه القاسى ، بل يفرق بين العمل المثمر المفيد الذى لا ينكره الا مكابر : وهو جمع التراث ودراسته ، ثم تحقيقه ونشره ، أما استنتاجات المحقق النـاشر ، ونواياه أو تصرفاته العقائدية ، أو السياسية ، فذلك يعد خارجا عن جوهر العمل ، فالكتاب الذى كان فى حكم المفقود واكتشفه المستشرق ، واخرجته لنا المطابع مصححا ، منقحا ، يعد مصدرا معتمدا ، اللهم الا اذا كان مزيفا ، أو مجهول المؤلف ، وحينئذ لا مانع للباحث من مناقشة صاحبه ، أو الرد على آرائـه ، المستنتجة من التاليف ، وقد رأينا أن كثيرا من المؤلفين المسلمين المشهورين ، لم تنـج تآليفهم فى مختلف العصور من تسليط الاضواء عليها ، وتوجيه سهام النقد لما فيها من ضعف أو تزييف ، وقد أعدت لها قوائم لتحذير القراء مما تحمله من الجوانب السلبية ، وقد رأينا كثيرا من المؤلفين كانت لهم وجهات نظر أو مذاهب عقائدية ، تخالف غيرهم ، ولربما كان الرأى العام ضدها ، فلم يلغها معاصروهم ، أو حتى من جاءوا بعدهم بل تركوا المسائل الفنية ، وجردوها مــن آراء أصحابها العقائدية وقدوة هذا الفريق فى موضوع بحثنا ، مواقف بعض علماء الاسلام المشهورين بالنزاهة وسعة الافـق الذين شاركوا فى هذه المؤتمرات ، ونوهوا بأصحابها ، أمثال احمد زكي باشا المصرى المشهور بشيخ العروبة ، فقد شارك فى عدة مؤتمرات ، منها مؤتمر لندرة الذى انعقد سنة 1893 ، وكان أول مؤتمر حضره ، وقد أبدى فيه انطباعاته حيث قال فى خطابه « أشكر مسعاكم عن ذلك الشرق الذى لم يقدره القوم حق قدره ، حتى جاءت أعمالكم وزحزحت عنـــه ستارات الاعتقادات الباطلة ، وأنتم تعلمون أن قومكم كانوا يجهلون قـدر ما عندنا ، ويحكمون بما نحن براء منـه ، حتى وقعت الالفة العلمية ، وانكشف لكم ما انطوى عليه العالم الاسلامى من جليل الشعائر المنبثقة عن الطوية الخالصة » ، لم يكن احمد زكـي ممن يطلقون القول على عواهنه ، بل كان فى طليعة خبراء معاصريه ، كما كانت مشاركته

فى هذه المؤتمرات لا تقل عن مشاركة جهابذة المستشرقين ، فقد شارك فى أربعة مؤتمرات ، كان يقدم فى كل منها أهم المخطوطات من خزانته المشهورة ، التى كانت تضاهى خزائن الدول ، وكان له الفضل حيث كونها بجهوده الخاصة ، فبذل أموالا طائلة فى اقتنائها من مختلف البلاد كما بذل جهودا جبارة فى تحقيقها وتعميم نشرها ، فعندما شارك فى مؤتمر اثينا سنة 1912 ، قدم عشرة كتب مخطوطة بعد أن صححها وحققها وستة كتب من تأليفه الخاصة ، وفى مؤتمر اثينا هذا اقترح احمد زكي على اعضاء المؤتمر ان يتخذوا اللغة العربية من بين اللغات الرسمية للمؤتمر ، فقبل اقتراحه ، وقبل ان تتخذ الاجراءات اللازمة للتعريب ضرب المثل لذلك بنفسه ، حيث قسم دراسته التى القاها فى المؤتمر الى قسمين : عربى وفرنسى ، وقد كان موضوع دراسته له أهمية ، اذ تناول فيه البحث عن عناية العرب فى فجر تاريخهم بترجمة المؤلفات اليونانية وغيرها ، مما يدل للخلف مصداق : (الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها فقد بين فى دراسته هذه ، مقادير الاموال التى كانت تبذل اذ ذاك من الملوك ، ورؤساء الدول والمنظمات العلمية ، الى المترجمين لاستحضار كتب الحكمة من اليونان) (كانت كتب الحكمة تطلق حينئذ على كتب الفلسفة والمنطق) ، كما اشار أحمد زكي فى دراسته هذه الى عناية الاندلسيين بالثقافة اليونانية وعلاقات عبد الرحمن الناصر « بالامبراطور » «رومانوس» ، وكيف أسست فى قرطبة جمعية علمية ، لتشرف على ترجمة «ديوسقوريدس» Dioscoride فى المواليد الثلاثة ، واشار الى النسخ النادرة الباقية من هذا الكتاب المترجم بالاندلس فى خزانة اصطمبول .

ولم يكن احمد زكي يحضر هذه المؤتمرات منفردا ، بل كان كثيرا ما يصحب معه كبار علماء وأدباء عهده ، أمثال أمير الشعراء أحمد شوقي وغيره ، كما كان يقابل بمزيد الحفاوة فى جميع المؤتمرات التى حضرها ، اذ جل كبار المستشرقين كانوا معه على اتصال ، فكانوا يزورون مكتبته ، ويستعينون بخبرته المثالية ويتبادلون معه الرسائل ، ولهذا كانوا يحتفون به فى مؤتمراتهم ، ويعقدون له الندوات الصحفية ، وكانت الصحف المحلية والمصرية تنوه بهذه الندوات وما يجرى فيها من بحوث .

لم يكن أحمد زكي العالم الوحيد من علماء الاسلام ، الذين كانوا يبجلون ويحتفى بهم فى مؤتمرات المستشرقين ، بل كان زميله ومواطنه أحمد تيمور باشا ، يقابل بنفس الحفاوة والتقدير ، حيث كانت خزانته التى يضرب بها المثل ، كانت بدورها مفتوحة للمستفيدين من جميع الاجناس ، وكان هو أيضا ممن يقدمون لهذه المؤتمرات نفائس

المخطوطات بعد تحقيقها ، كما كان يشاركهما مشاركة لها أهمية محمد كرد على وزير المعارف بسوريا فى عهده ، وطـه حسين عميد الادب العـربى ، وعبد العـزيز جاويش وغيرهم ، وقد احتفظت سجلات هذه المؤتمرات بدراساتهم القيمة فى مختلف فـروع المعرفة ، خصوصا فى البحوث التاريخية ، وبهذه المناسبة نذكر أن كثيرا من اعـلام الجزائر شاركوا فى هذه المؤتمرات ، وفى طليعتهم محمد ابـن شنب الاستاذ بجامعة الجزائر ، ومحمد ابن رحال نائب المجلس المالى بولاية تلمسان ، وشعيب بن على أبـو بكر قاضي تلمسان ، وعبد الحليم بن سماية الاستاذ بالمدرسة الثعالبية ، ولضيق الوقت نقتصر على جوانب من مساهمة ابن شنب وابن رحـال ٠

شارك ابن شنب فى مؤتمرات اكسفورد والرباط والجزائر وقـدم دراسات تهم تاريخ المغرب العربى والاندلس وتاريخ الثقافة الاسلامية بوجه عام ، وحقق عدة كتب تاريخية ، ورحلات ، فكانت مساهمته فى احياء التراث الجزائرى ، لها وزنها أما زميله الشيخ محمد ابن رحال فانه قدم فى مؤتمر عصب باريس المنعقد سنة 1896 دراسة كان لها صدى ، اذ كان موضوعها « مستقبل الاسلام » أبدى ، فيها نظريته وحللها ، فتناول قضايا شائكة ، لا زال جلها مطروحا على بساط البحث الى يومنا هذا منها مكانة المرأة فى المجتمع الاسلامى ، والنظام الاقتصادى ، وخطر قضية استغـلال الانسان للانسان ، فقد أثارها ابن رحال منذ ما يقرب من قـرن وبين بحجج دامغـة أن الاسلام هو أول من قطع جذورها قولا وعملا وقبل ختامنا لهذا الفصل ، وهـو مـوقف علماء الاسلام ازاء الاستشراق ، نذكر عالما من كبار علماء الدين ، وقف موقفا يدل على النزاهة الموضوعية ، والتفتح وحرية الفكر الى أبعد ما يتصوره الناس ، خصوصا أولئك الذين يعممون أحكامهم على علماء الدين ، فيرمونهم بالتعصب ، والجمود ، والانغلاق ، وهذا العالم هو الشيخ مصطفى عبد الرازق الذى تولى فى عهده مشيخة الازهر ثـم وزارة الشؤون الدينية بمصر فى الاربعينات ، وهو زيادة على ذلك من أبـرز تلامذة الامام محمد عبده الخواص ٠ ألف مصطفى عبد الرزاق تاليفا قيما موضوعه « الامـام الشافعى واضع عـلم الاصول » ، واثنـاء تناوله بحث تاريخ بداية تدوين التشريع الاسلامى ، بعد انقراض عهد الصحابة ، أي ما بين التسعين والمائة من الهجرة رجـح رواية مستشرق على آراء وروايات أئمة مسلمين من عهد تابعى التابعين ذكر مصطفى عبد الرازق أنه فى عهد التابعين شرع فى تدوين التشريع الاسلامى ، مستدلا بروايـة ساقها فى الموضوع قائلا : « عن سعد بن ابراهيم قال أمرنا عمر بن عبد العزيز بجمـع السنة ، فكتبنا دفترا دفترا ، فبعث الى كل بلد له عليها سلطان دفترا » ٠

ثم ذكر روايات أخرى عقب عليها بقوله : « ويقول جولد زيهر » ، فى مقاله عــن كلمة (فقه) فى دائرة المعارف الاسلامية « وينبغى ألا يعطى كبير ثقة ، لما نسب لهشام ابن عروة من أنه فى يوم الحرة ، حرقت لابيه كتب فقه ، ولا يمكن أن يتصور بحال أنــه فى ذلك العهد البعيد كانت توجد كتــب بالمعنى الصحيح وانما هــي صحائف متفرقة ، وتوفى عروة سنة 94 هـ ، وهي التى كانت تسمى سنة الفقهاء لكثرة من مات فيها مــن الفقهـــــاء » ٠

ثم يواصل مصطفى عبد الرازق حديثه فيقول « وبالجملة فانه اذا كان دون شــيء لضبط معاقل القرآن والحديث ، ومعانيها فى عهد بني أمية ، فان التدوين فى الفقـــه بالمعنى المحدث لم يكــن الا فى عهد العباسيين ، ثــم يسترسل مصطفى عبد الرازق فى حديثه فيقول : « هذا هو الرأي الذى كان مقررا بين الباحثين ، لكن « جولد زيهر » يذكر فى المقال الذى أشرنا اليه آنفا ما يأتى : وقد اكتشف « جرفينى » بين المخطوطات القيمة ببلاد العرب الجنوبية ، مختصرا فى « الفقه » اسمه (مجموعة زيد بن على) المتوفى سنة 122 هـ ـ 740 م ، وهو منسوب الى مؤسس فرقة الزيدية من الشيعة وعلى ذلك تكون هذه المجموعة أقدم مجموعة فى الفقه الاسلامى ، وعلى كل حال ، ينبغى أن يوضــع هذا الكتاب موضع الاعتبار ، فيما يتعلق بتاريخ التاليف فى الفقه الاسلامى ، واذا صح أنه وصل الينا من بطانة « زيد بن على » ، وجب أن نعترف بأن أقدم ما وصل الينا من المصنفات الفقهية هو من مؤلفات الشيعة الزيدية » ٠

من هذا يتبين أن مصطفى عبد الرازق رجح رواية المستشرق « جولد زيهر » المدعمة بالحجة والنصوص وختم فصله الذى عقده فى البحث عن تاريخ تدوين التشريع الاسلامى بفقــرتــين :

الاولى قال فيها « على أن البحث الذى أثير لتعيين مركز هذا الكتاب بين المؤلفات الفقهية لم يكمل » والفقرة الثانية قال فيها « ومن أسف أن هذا البحث لم يثره مسلمون ، ولا أثير فى بلاد اسلامية » ٠ فمن كل ما ذكرناه فى هذا الموضوع يتبين لنا أن مصطفى عبد الرازق لم تمنعه ثقافته الدينية المتينة التقليدية ، ولا المناصب السامية التى شغلها ولها صبغة دينية ، لم يمنعه هذا كله أن يرجح نصا أثبتته رواية مستشرق ، على روايات ساقها علماء مسلمون لهــم مكانتهم مــع أن هذا المستشرق كان مشهورا فى الاوساط

العلمية الاسلامية بتحامله على الفقه الاسلامي ، فقد أظهر ذلك في كثير من المناسبات لا سيما في تأليفه المشهور « العقيدة والشريعة في الاسلام»

نكتفي بهذا القدر ولننتقل الى القسم الثاني من موضوع دراستنا ، وهو « نشاط البحوث التاريخية في بقية بلدان العالم » .

ان نشاط البحوث التاريخية الذي ظهر حديثا في بلدان البحر الابيض المتوسط ، وتقدم لنا الحديث عنه في القسم الاول من هذه المحاضرة ، كان امتدادا لهذا النشاط ما يقرب من ألف سنة ، وأهم المراكز التي احتضنته من بلدان البحر الابيض المتوسط ، هي ايطاليا وفرنسا ، ومنها تسرب الى بقية بلدان العالم ، وتتبع هذا النشاط ولو بايجاز يحتاج الى مجلدات ولهذا نكتفي بذكر بعض هذه المراكز التي كانت منطلق هذا النشاط الفكري ، وظهور أعلام المستشرقين الذين عم نشاطهم ، وانتشر حتى بلغت مؤتمراتهم في الفترة التاريخية ما بين 1873 و 1964 ستة وعشرين مؤتمرا ، وقد خصص بعض هذه المؤتمرات بحوثه للعلوم التاريخية فقط ، كمؤتمر كوبنهاڤن Copenhague المنعقد سنة 1909 ، وقد أحصيت كتب التاريخ التي تناولها بالتحقيق المستشرقون في دراساتهم فبلغت 216 كتابا ، وبلغ عدد الرحلات 35 ، ودواوين الشعر 75 الخ .. ولهذا لا نقصد من دراستنا هذه الدخول في التفاصيل ، والجانب الذي ، تناوله بالبحث ، زيادة على مراكز انطلاق هذا النشاط ، هو سرد بعض أسماء بعض مشاهير علماء الاستشراق ، الذين امتازوا بتحقيق ونشر كتب ودراسات قيمة ، أسدوا بها خدمات ، سجلها لهم البحث العلمي العالمي ، ثم نتحدث عن أهم المكتبات العلمية ، التي لا زالت محتفظة بذخائرها ، كما لا زالت مفتوحة في وجوه الباحثين ، بقطع النظر عن أجناسهم وأديانهم وفي طليعة هذه المكتبات خزانة الاسكوريال بمدريد التي رغم الاحقاد الدينية والاحن التي شنها المتعصبون على التراث الاسلامي اثر سقوط مملكة غرناطة فقد احتفظت هذه الخزانة ببقية كتب معظمها من التراث الاندلسي ساقتها اليها المقادير لخبر يطول ، فكان فضل ولاة الاسبان وعلمائهم على هذه المكتبة ، مما سجله التاريخ بمداد الفخر ، اهتم ولاة الامر بهذه المكتبة فكلفوا الاب ميخائيل الغزيري الماروني اللبناني ، فشرع في تنظيم هذه المكتبة ابتداء من سنة 1849 وجعل لها فهارس باللغتين العربية واللاتينية ، ثم واصل عمله آخرون ، الى أن تولى أمرها المستشرق الشهير ليفي بروفنسال فأفاد واستفاد ، وقد

أبرزت الى الوجود أمهات كتب التاريخ الاندلسى فى ما بين سنوات 1883 – 1895 ، وكان المشرفان على تحقيقها ونشرها ، المستشرقين الشهيرين كوديرا وريبيسيرا ثم واصل المستشرقون الاسبان نشاطهم الذى يرجع عهده الى القرن الخامس عشر الميلادى مع المستشرق . والاب ملشور أنطونيا (1889 – 1936) Melchor Antunia مدير مكتبة الاسكوريال الذى ألف عدة كتب عن ابن حيان المؤرخ القرطبى ، والمحدث الرحالة ابن رشيد السبتى وابن الخطيب الخ ... ثم الاب آسين بالاثيوس 1944 – 1871 Asin Palacios الذى كان عضوا فى عدة مجامع علمية منها المجمع العلمى العربى بدمشق Gonzales Paenaâ (1889 – 1949 – وايميلو Emilio Garcia Gomez الذى لا زال فى قيد الحياة ، ولو لم تكن من أعماله الهامة الا تحقيق ديوان ابن قزمان الاندلسى الذى طبعه منذ ثلاث سنوات فى ثلاثة أجزاء بعد ، تحقيق ودراسة خصص لها عشرين سنة لكفاه فخرا ، وقد اهتم هؤلاء المستشرقون مع من انضم اليهم مثل Gomez Nogalès فاكتموا بأحياء ذكرى اعلام الاندلس ، أمثال الامامين ابن حزم وابن رشد ، ولا زالت الجهود مبذولة فى هذا الميدان ، وهناك مكتبة الفاتكان التى يرجع عهدها الى القرن الخامس عشر ولها فروع كمكتبة بولونيا ونابولى Palermo والمكتبة الامبروزيانية ، والمكتبة الميديتشيا ، والمكتبة الوطنية لمجمع العلوم فى Torino ولكل منها فهاريس مشهورة عند الباحثين ، فمكتبة الفاتكان اهتم بها كثير من المستشرقين وآخرهم المستشرق دولاقيدا ، الذى تقدم لنا الحديث عنه ، فقد وضع لها فهرسا يشتمل على 388 صفحة مع مقدمة اضافية ، وثبت باسماء المؤلفين ، ومصنفاتهم ، وتضم المكتبة اليوم ، ستين ألف مخطوط ، بين شرقى وغربى ، كما يوجد فهرس لمخطوطات المكتبة المديتشية فى فلورنسا ، قام به اسطقان عواد السمعانى فى 492 هـ ، أما المستشرقون الايطاليون فقد ظهرت منهم نخبة ، منهم ميشال امار Michel Amari (1806 – 1887) وفضله على الدراسات الشرقية وهو تخصصه فى دراسة حضارة جزيرة صقلية ، وقد جمع موسوعة لها أهمية ، حيث جمع نصوصها العربية المتعلقة بالجغرافية والتاريخ والتراجم من خمسة وثمانين مصدرا كما اشتهرت فرنسا بمكانتها كمركز للاستشراق ، فكانت أهم خزائنها المكتبة الوطنية بباريس ، التى انشئت سنة 1654 ، وهي تحتوى الآن على ستة ملايين من الكتب ، منها سبعة آلاف مخطوط عربى ، كما يضاف الى هذه المكتبة ، مكتبات جامعة Strasbourg ، ومكتبة الجمعية الاسيوية ، ومكتبة المدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية فى باريس ، أما أبرز مستشرقيها فلا يمكن استيفاؤهم للعذر

الذى قدمناه ، وكل ما يمكن هو ذكر افراد منهم ، لهم شهرة عالمية فى الدراسات الاسلامية ، وبالخصوص التاريخية موضوع دراستنا ، وهؤلاء هم : البارون ، د ، ساسى (1758 – 1898) ود ، موتيلانسكى Motylinski (1854 – 1907) المتخصصون فى تاريخ بلاد مزاب وائمة المذهب الاباضى ، وليقى بروفنسال (1894 – 1956) ، وغيرهم كثيرون ، ولا يمكننا تتبع مراكز الاستشراق فى بقية أنحاء العالم ، وقد ظهر هذا النشاط فى كثير منها كانكلترا وأمريكا وألمانيا وهولاندا والمجر وسويسرا الخ · وقبل أن نختم هذا العرض بمركز الاستشراق فى الاتحاد السوفييتى ، نذكر عينات من المستشرقين الممتازين فى مختلف أصقاع العالم ، وذلك كالمستشرق الهولاندى دوزى (1820 – 1893) الذى اشتهر بانه أول فاتح للدراسات الاندلسية ، وتآليفه الاندلسية ، تعد من أهم المراجع للباحثين ، كما ان نشاطه فى الميدان التاريخى شمل تاريخ بلاد المغرب العربى ، وبلاد المشرق ، وعلى ذكر دوزى لا نغفل عن ذكر هولاندا ومكتباتها ، ومطابعها خصوصا مطبعة ليدن ، التى ضربت المثل الاعلى فى اتقان الطبع والنزاهة ، ومن هذه العينات ، بروكلمان الالمانى (1868 – 1956) الذى بذل جهودا كللت بالنجاح ، ولو لم تكن من هذه الجهود الا كتاب «تاريخ الآداب العربية» ، الذى طبع سنة 1937 وجمع فيه تراجم العلماء والادباء فى مختلف العصور الاسلامية ، وذيل كل ترجمة بمصادرها ووصف الكتب ، وميزاتها ، وتاريخ طبعها ، وأمكنتها فى الشرق والغرب ، وأخص المخطوطات فى مكتبات أوروبا ، ومع الاسف لم تصدر من ترجمته العربية الا ثلاثة أجزاء ، أما ترجمته باللغة الفرنسية ، فهي على وشك النفاذ ، ان لم تكن نفذت بعد ، وقد جاوز ثمنها الالف دينار منذ سنوات ·

ولنختم دراستنا هذه بالاستشراق فى الاتحاد السوفياتى الذى كانت جامعة لينينغراد من أهم المراكز وقد امتاز قسم مخطوطاتها العربية الذى اقتناه القياصرة بواسطة المستشرق الفرنسى د. ساسى ، وكانت بعض هذه المخطوطات فريدة فى العالم ، كديوان ابن قزمان الاندلسى ، وقد تداول عليها محافظون مشهورون ، الى أن عين المستشرق الشهير كاراتشوقسكى (1883 – 1951) وصادفت لينينغراد حصارها الطويل أثناء الحرب العالمية الثانية ، فاهتم كراشكوفسكى بالمكتبة ، وكان ينقلها من مكان الى مكان ، الى أن مر خطر الحصار ، فكان جزاؤه من حكومته أعظم ، نيشان مكافأة له ، وهذا الحديث نوجهه الى كثيرا من أبنائنا واخواننا ، الذين يرون منافاة عصر التقدم العلمانى مع وجود هذا التراث ، وقد نوه وعرف بهذه الذخائر كراتشكوفسكى فى مختلف دراساته

بالمؤتمرات ، وسجل الكثير منها فى تاليفه القيم « مع المخطوطات العربية » الذى أتمه سنة 1943 ، ونقل الى عدة لغات ومن جملة مستشرقى الاتحاد السوفياتى Barthold (1869 ـ 1930) الذى خلف ما يربو على 400 دراسة وتآليف أمثال تاريخ الاستشراق فى أوروبا وروسيا ، وكتاب الاسلام ، الذى يرى فيه ، أن القرآن لا ينافى التقدم وتاريخ بعض الدول الاسيوية ، ولا زال عمل الاستشراق متواصلا فى الاتحاد السوفياتى ، وفى السنة الماضية نشرت مجلة علمية (المدار عدد 1 يناير 1974) ان هيئة من العلماء كلفت منذ سنوات بتحضير فهرس لمخطوطات مكتبة لينيغراد البالغ عددها عشرة آلاف كتابا ، وكان يشرف على هذه اللجنة الاستاذ خالدوف الاختصاصى البارز فى المخطوطات العربية ، والمرشح فى فقه اللغة ، وقد أشرف العمل على الانتهاء وهذا الفهرس يحتوى 2500 صفحة ، وقد نظم هذا الفهرس تنظيما منهجيا على أساس الموضوعات ولا يفوتنا أن نذكر أن من جملة هذه النشاطات ، أحداث « دائرة المعارف الاسلامية » ، التى سنخصصها بدراسة مستقلة ، والى هنا ننتهى من موضوع دراستنا التى سنعود اليها لتتبع هذا النشاط ببقية بلدان العالم كما يدل على ذلك عنوان المحاضرة ، وكل ما نأسف عليه هو أن تحقيق كثير من هذه الكتب ، ذلك التحقيق الذى يشمل التقديم والتعاليق ، كان باللغات الاجنبية ، وقد طبعت هذه الكتب منذ قرن وزيادة كموسوعة امارى فى تاريخ صقلية التى طبعت سنة 1857 بليبزيق ، ثم أعيد طبعها من جديد ، وهو عبارة عن صورة طبق الاصل ولم يتعرض الناشر الى ترجمة المقدمة ولا التعاليق ولا يخفى أن دور صقلية فى تاريخ حضارة البحر الابيض المتوسط له أهمية كبرى وما قيل فى موسوعة تاريخ صقلية يقال فى كثير من نفائس المخطوطات التى حققها هؤلاء المستشرقون ، قدموا لها باللغات الاجنبية وأملنا أن يتولى تكميل هذا النقص جيلنا الصاعد من الباحثين .

الاسلام فى بلاد المجر

د· الحاج عبد الكريم يوليوس جرمانوس
استاذ العلوم الاسلامية بجامعة بودابست
ـ المجر ـ



لقد حدث تحول اجتماعى مبارك وعميق الغور فى تاريخ البشرية نتيجة ايحات النبى الكريم محمد وقدرته الخلاقة · فبعد ان كانت قبائل شبه الجزيرة العربية وعبر قرون عديدة من الزمن تهدر طاقاتها سدى فى مواجهة الطبيعة القاسية المجدبة من جهة وفى الحروب القبلية المريقة لدماء الاشقاء من جهة أخرى ، فانها ، بعد نشر النبى الكريم لرسالته ، قد توحدت فى أمة عزيزة ، واصبحت ، بعد ان غدت ممتلكة للقوة المعنوية الضاربة الجذور فى الدين الحنيف ، ليست قادرة على التعايش فيما بينها وحسب ، بل قادرة كذلك على كسر شوكة جيوش امبراطورية فارس الساسانية وامبراطورية بيزنطة الشرقية المجاورتين رغم تفوقهما فى العدد والعدة ، وقادرة أيضا على اقامة دولة قوية فى الاراضى المفتوحة ·

ولقد دلت الدولة العربية الجديدة ، فى ظل الخلافة الاموية ، على قدرتها الاقتصادية ، وحولت القبائل العربية وشعوب البلدان المفتوحة الى مجتمع جديد مرتكز

على التعاليم الخلقية للقرآن الكريم · وعقب سقوط الدولة الاموية فان العباسيين قد استطاعوا ، بالارتكاز الى تعاليم القرآن الكريم والسنة الشريفة ، وباستغلال المعطيات والقدرات الفكرية للشعوب الاخرى التى انضمت تحت لواء الحضارة الاسلامية ، ان ينشئوا امبراطورية واسعة الامتداد ، اسبغت على الحضارة القديمة ثوبا من التعاليم الخلقية الدينية لم ينقذ التراث القديم وحسب بل قدم الدليل والمثل القيمين بالاحتذاء لشعوب أوروبا الغربية التى كانت تعيش تحت حكم الكنيسة المسيحية · كما ان الشعوب الآسيوية التى كانت تعيش فى بربرية متخلفة مثل : الاتراك والمغول قد تحولت الى الاسلام منشئة نتيجة لذلك حياتها كدول وكمجتمعات، تسود فيها احكام الشريعة ، التى هى النظام التشريعى المرتكز على التعاليم الخلقية للقرآن الكريم · اما الشعوب الاوروبية فلم تكن تعرف آنذاك الا النظام الكنسى القائم على اصدار الاوامر التى لا يقبل النقاش فيها والمرتكز على الطاعة العمياء وحسب · بينما كان الاسلام ، على نقيض من ذلك ، يتمتع بتعاليم متسلحة بالفلسفات القديمة ، وكان يضع التفكير وتحكيم العقل فى موضع الصدارة ·

حيث ان الاسلام لم يعترف بنظام كالنظام الكنسى ، بما يستتبعه ذلك من أوامر وتوجيهات ، بل حدد هدف الحياة بالايمان ،وبالتفكير الممنوح للانسان وبتحكيم الفكر وبتنفيذ حقوق واجبات الانسان تجاه ربه ، خالق الكون، وتجاه أخوته من بنى الانسان· وبذلك فقد سما الاسلام على كافة ما سبقه من نظم دينية ، لانه يمنح البشرية المعرفة والمحبة ، دونما تمييز بسبب اللغة أو العرق ، كما يمنحها السلوى عبر الايمان الالهى·

ظهر المجريون بين جبال اورال قوما باسلين يعتمدون فى معيشتهم على صيد الحيوان والسمك ويتكلمون بلغة هى مزيج من الفنلندية والاستونية ، وقد هجروا وطنهم الاصلى منذألفى عام تقريبا مولين وجوههم شطر الجنوب الشرقى ، وبعد ان اجتازوا قلب آسيا الغربية امتزجوا بالاتراك الجواشن والباشقير بالقرب من جنوب نهر الفولغا وضفاف بحر قزوين امتزاجا دام خمسمائة عام ، واخذ المجريون عنهم فنى الزراعة والحرب ، وعلق باللغة المجرية الكثير من الالفاظ التركية القديمة خصوصا

فيما يتعلق بالزراعة ، وقامت بين الشعبين صلات رحم وقربى ، فتحول الشعب المجرى من صيادى اسماك الى رجال عسكريين يحاكون الاتراك فى الكثير من مظاهرهم ·

ولقد عاش المجريون قبائل راحلة كالبدو ، وكان لكل قبيلة منهم زعيم تأتمر بأمره، وكانت هذه القبائل تتحد وتتألب عند نشوب الحروب ، لترد الاعداء عن البلاد ثم تعود الى سابق عهدها وعيشها ، ومن الغريب انه كثيرا ما انضمت قبائل اجنبية تركية وخزرية وقبرية الى المجريين الاصليين ، وكذلك قوم من البلغار أيضا ·

ولقد تطورت القبائل المجرية ونمت حسب مؤثرات البيئة التى عاشت فيها · فبعضها آمن بالشامانية ، وبمعنى أوضح كانوا يعبدون ، وفقا لتعاليم الشامان الاكبر (الكاهن الاكبر) ،والآلهة ، الموهومة التى اعتقدوا انها توزع الخير والشر على البشر ، وفى فترة لاحقة وبعد ان استقر المجريون عبر ثلاثة قرون فى أراضى دولة الخزر فقد اعتنق الكثيرون منهم الديانة اليهودية · ولقد اثارت حياة القبائل المجرية اهتمام الكتاب العرب أيضا · ومثال ذلك ان أحمد بن يحيى البلاذرى ، الفارسى الاصل ـ والمتوفى عام 279 للهجرة ـ قد تحدث عن أولئك المجريين من قبيلة سوارد ، والذين انقطعوا عن بقية القبائل الاخرى زمن الهجوم الذى شنه البشينيو (البشناك) عام 276 للهجرة ، والذين كروا راجعين الى موطنهم القديم فيما وراء القفقاس · اما أبو اسحق الفارسى ، والذى سمى بالاصطخرى نسبة الى أسم اصطخر العربى لبرسابوليس الفارسية ، وكذلك ابن حوقل فانهما يتطرقان فى اعمالهما الادبية الى الحديث عن المجريين ، وذلك حوالى العام 318 للهجرة ، معتبرين أياهم شعبا مماثلا للبشكيريين · اما الكاتب العربى ، الفارسى الاصل ، محمد بن رسته فانه فى كتابه المسمى « كتاب الاعلاق النفيسة » يتحدث عن المجريين زاعما بأن : « المجريين هم عبدة نيران » الا انه من المؤكد ان قسما من المجريين قد وقع تحت تأثير الامبراطورية الفارسية ، واعتنق مذهب زاردشت كذلك · ودليل ذلك وجود العديد من الكلمات الفارسية فى اللغة المجرية ·

وكانت نتيجة هذا الامتزاج بين المجريين والاجانب ان تولد جيل جديد وشعب جديد تأثر الى حد بعيد بالثقافة الفارسية ، وهناك الكثير من الالفاظ الفارسية المتعلقة بالصناعة أو بالافكار الدينية مبثوثة فى متن اللغة المجرية ٠

ولقد كانت تلك الالفاظ نتيجة تبادل تجارى بيننا وبين بلاد العجم وهذا التبادل كان منحصرا فى الاسلحة والاقمشة والحلى حتى انه من المشاهد فى ايامنا هذه ان الزينة والنقش وتطريز الملابس فى القرى المجرية هى فارسية الاصول ٠

وفى نهاية القرن الثامن للميلاد شدت هذه القبائل المجرية الممتزجة رحالها واتجهت شطر الغرب حيث اقامت هناك زهاء القرن من الزمن وذلك فى جنوب روسيا المعروف اليوم باسم أوكرانيا ، وفى هذه المنطقة هاجمتهم قبائل البجناق وهزمتهم فانشطروا الى نصفين :

احدهما وهو الاكبر اتجه صوب الغرب فاستقر فى جبال الكربات ، اما الشطر الآخر وهو الأصغر فعاد الى الشرق وقد اقتفت اثره بعض البعثات فى خلال اجيال عدة بقصد الوقوف على آثاره ، ولكن هذه البعثات لم تعثر حتى اليوم على شيء ٠

اما الشعب المجرى فقد وصل عام 283 هـ (896 م) من جبال الكربات الى بانونيا ، وهى المعروفة اليوم ببلاد المجر ، وهذا الشعب هو فى الواقع نتيجة تمازج بين المجريين الاصليين والسلافيين ، والشعب المجرى القديم ، أو بالاحرى القبائل المجرية آنذاك بدأ بشن غارات على البلدان المجاورة له بقصد نهبها والاستيلاء عليها ، حتى لقد بلغ فى غاراته تلك ألمانيا وايطاليا والاندلس ، ولكى تدرأ ألمانيا غارات المجريين عن بلادها ، شرعت تمهد السبيل للدخول فى النصرانية ، وتحت تأثير القائد المجرى اشتفان المقدس الذى نصب نفسه ملكا على البلاد ، وفيما بعد ذلك ، بدأ المجريون أيضا يدخلون فى النصرانية افواجا ، وكان بين هذه القبائل المجرية التى نزحت من موطنها الاصلى واقامت على ضفاف الدانوب ألوف من المسلمين ، وهم خليط شعوب متباينة كتجار ومزارعين اعجام وبلغار ، وقد ظلوا محافظين على شعائرهم الدينية واستوطنوا مناطق بالقرب من العاصمة بشت ، وانتشروا فى السهول الزراعية وأظهروا

براعة فى الشؤون التجارية والصناعية ، كما انهم قد اكتسبوا نتيجة لاتصالهم بالشرق الاسلامى ، وخلال أمد وجيز نسبيا ، مميزات اجتماعية واقتصادية ومكانة فى الدوائر الحكومية كذلك ٠

وما كانت أوروبا آنذاك لتسمح باقامة الشعائر الدينية الاسلامية فى ممالكها ، ولذا حاولت حمل أولئك المسلمين على الارتداد عن دينهم وعلى اعتناق النصرانية ، وقد سنت القوانين الصارمة فى اضطهادهم ، مثال ذلك : اذا عاد التجار المدعوون بالاسماعيلية الى دينهم الاصلى ثانية ، بعد تعميدهم ، واقدموا على ختان أولادهم فانه يجب ابعادهم عن مقر سكنهم ونفيهم الى قرى أخرى ٠

اما أولئك الذين يتوبون فانه يمكنهم البقاء فى امكنتهم ٠ وبعد عشر سنوات اصدر الملك المجرى كالمان كذلك قوانين صارمة فى حق المسلمين المجريين ونقتطف منها النصوص التالية : اذا لاحظ شخص ما ان اسماعيليا يصوم طبقا لدينه ويأكل مثل معظمهم ويمتنع عن أكل الخنزير ويغتسل حسب طقوسهم أو يقوم بأى شىء ما طبقا لعاداتهم فانه يجب على ذلك الشخص ان يغدو مقبوضا عليه وتجرى مصادرة نصيب من ثروته ٠ ويقول قانون آخر انه غير مسموح للاسماعيليين ان يزوجوا بناتهم من الاسماعيليين وانهم مجبرون على تزويجهم من نصارى ٠ ولم يقتصر الامر على ذلك فقط ، فان القانون كان ينص على انه فى حالة ما اذا دعا نصرانى اسماعيليا للطعام فان عليه ان يقدم له لحم الخنزير ، لكى يجبره على كسر الواجبات الدينية ، وهذا القانون يبين لنا ان النصرانى كان له اصدقاء اسماعيليين يدعوهم لتناول الطعام وان الاسماعيليين كانوا يزوجون بناتهم من ابناء دينهم ، غير ان هذه القوانين التى اصدرها الملوك المجريون لم يجر تطبيقها فى اطار الحياة العملية ٠

واسم الاسماعيلية اطلق عادة على المسلمين فى المجر ، وقد جاء هذا الاسم من اسماعيل بن هاجر الذى نزح الى جزيرة العرب ٠ ولا يفهم من هذا انهم من الشيعة الاسماعيلية ، كما يعتقد فريق من البحاثة المجريين ، فهم من أهل السنة ، على مذهب أبى حنيفة ٠ وجدير بالذكر ان الرحالة العربى الكبير ، ياقوت الحموى ، قد

أورد ان فى حلب قد كان عدد كبير من المسلمين المجريين وهم أعضاء بعثة رسمية مكونة من أربعين مجريا مسلمين أوفدوا لدراسة الفقه الحنفى تمهيدا لتعيين قضاة وائمة منهم فى بلاد المجر · وهذا الخبر المهم يدل على أهمية المسلمين فى بلادنا ، كما ذكر ياقوت أيضا ان مواطنهم فى المجر تزيد على ثلاثين منطقة ، وتوضح اسماء الكثير من هـــذه المستقرات ان أصل سكانها من المسلمين ، ففى المجر نجد ان كلمة بوسرمينى هى تحريف لكلمة مسلمان ·

وحينما عجزت موارد الدولة واصبحت فى حالة يرثى لها واضطرت الحكومة لان تضمن الضرائب من فريق من الناس فى مقابل ان يجبوها بانفسهم من المزارعين، وكانت الناقلة الاسلامية هى الملتزمة بتحصيل الضرائب للحكومة ، بل انها اقرضت الحكومة مبالغ عديدة مقابل ان تحتكر هى سك النقود ، وبذا استطاع المسلمون تأسيس عدة دور لضرب المسكوكات · وقد ظلت هذه النقود قيد التداول بعد قرن من ضربها ، ويوجد منها عدد كبير فى المتحف الوطنى فى بودابست ·

وكان هؤلاء المسلمون ذوى ثقافة عالية الى جانب انهم حملوا السلاح واعتبـــروا أنفسهم من المحاربين الاشاوس · وفى عام 557 هـ ، ارسل الملك المجرى جيزا الثانى خمسمائة سراسيتى (يعنى شرقيين) وهم المسلمون لمساعدة الامبراطور فريدريك فى حروبه · اما فى سنة 640 للهجرة ، فقد قاسى المسلمون المجريون شدائد ومصائب من طوفان التتار الذى غمر المجر ، وقد اختفوا من على مسرح الاحداث كمجتمع ، غير ان ذكراهم ظهرت فى اسم أسرة اسماعيلية من أصل اسلامى تدعى سراسينى ازدهرت خلال القرن الثامن للهجرة ، وكلمة سراسينى هى اشتقاق من سراسين بمعنى الشرقى، وقد ظهرت على الكثير من شعارات الاسلحة على شكل رأس زنجى ، اما فى العصور الوسطى فقد كانت كلمة سراسين تعنى عامة مسلمى اسبانيا ·

وبعد انتهاء القرون الوسطى بدأ فصل جديد فى التاريخ وبعد ان استولى العثمانيون على مصر اتجه السلطان سليمان القانونى صوب بلاد المجر ، واستولى على جزء كبـير منها وعلى عاصمتها بودا أو « بودين » واتخذ الاتراك منها ثكنة عسكرية مهمة · ولقد ازدهرت الثقافة الاسلامية التركية فى بلادنا فى غضون قرن ونصف وشيدت مساجد رحبة ومدارس علمية درست فيها الشريعة الاســلامية ، واعتنق عدد غير قليل مـــن

المجريين الاسلام الدين المبين ، ودخلت كلمات تركية عديدة فى لغتنا واعتاد الناس الاطعمة الشرقية التى لا تزال تمثل دورا مهما فى الطباخة المجرية ، كما ان الفن الموسيقى قد اثر فى الحان المجر وفى أسلوب التغنى ·

ولما كسرت شوكة العثمانيين وارتد الجيش الفاتح عن اسوار فيينا نزحوا الى بودا ، وتنازلوا عن قسم كبير من بلاد المجر فدخل فيما بعد فى حوزة الجيش النمساوى· وقد اضطهد النمسويون الكاثوليك المجريين البروتستانتيين ، مما ادى الى اندلاع ثورة المجريين ضد اسرة هابسبورغ الحاكمة واخذ القائدان المجريان توكولى وراكوتسى على عاتقيهمامهمة تحرير البلاد من نير النمسا · وخلال توقد تلك الثورات مد الخليفة العثمانى يد المساعدة للمجريين ، ولما انتهت الثورة بخيبة المجريين لجأ قوادها الى الآستانة حيث لقوا هناك ترحيبا كبيرا بهم ، وظلوا معززين مكرمين الى ان ماتوا ودفنوا فى الارض الاسلامية · وكذلك لجأ قواد الثورة الكبرى فى المجر فى عام 1265 هجرية الى دار الخلافة فاستظلوا فيها بحماية الخليفة واعتنقوا الدين الاسلامى ودخلت طائفة منهم فى الجيش العثمانى جنودا واشتهروا ببسالتهم فى حروب القرم ·

وبعد خروج العثمانيين من البلاد لم يتبق فيها من المسلمين الا عدد ضئيل جدا · وكانت الغالبية منهم من أصل يرجع الى بلاد البوسنة وكان أكثرهم من العمّال وصغار التجار · وقد اختاروا احدهم اماما لهم وكانوا يجتمعون لاداء صلاة الجمعة فى احدى قاعات احد الفنادق الكبرى · حيث لم يكن لهم مسجد خاص بهم · وعقب الحرب الكونية الاولى قام احد المعلمين البوسنياك واسمه دوريتش حلمى بتنظيم المسلمين البوسنياك ، ثم بعد قرون من الانقطاع ، وفى عام 1342 هـ ، ارتفع الآذان من جديد من احد ابراج بودا · ولقد انتشر نبأ ذلك فى العالم كله عن طريق الصحف السيارة وافعم نفوس المسلمين بالغبطة · وبعد ذلك بدأ دوريتش حلمى باقامة الصلاة بشكل منتظم فى قاعة احد الفنادق الكبرى فى بودا ، كما ان العديد من المجريين قد اعتنق الدين الاسلامى · وجدير بالذكر ان بودا قد احتفظت على الخصوص بالكثير من الآثار الاسلامية المتحدرة من العهد العثمانى ، حيث ان هذا القسم من العاصمة بودابست ،

هو الوحيد فى أوروبا الذى يحتفظ بين جدرانه بقبر احد روؤساء الطريقة البكتاشية وهو جول بابا ٠

ولقد كان من القدر للبوسنياكى دوريتش حلمى ان يواصل نشر تعاليم الاسلام بنجاح لولا وقوع الاحداث التى حالت بينه وبين ذلك ٠ ففى عام 1326 هـ ، اقدمت امبراطورية النمسا ـ المجر على ضم بلاد البوسنة اليها ، الامر الذى اعتبره الاتراك عملا عدوانيا ضدهم ، واقدموا فى استانبول على مقاطعة المنتوجات والسلع المجرية ٠ اما السلطات المجرية فقد اقدمت ، فى محاولة لتخفيف حدة السلوك العدائى التركى ، على الاعتراف بعبد اللطيف الذى كان يعمل محاضرا منذ سنوات فى جامعة بـودابست، بصفته اماما رسميا للمسلمين فى المجر ٠ وهذا الامر أوهن من عود المجموعة الاسلامية الصغيرة ٠ وكثيرون منهم لم يعرفوا من هو الامام بالضبط : أهو عبد اللطيف التركى ام هو دوريتش حلمى البوسنياكى ؟ اما واقع الحال آنذاك فقد كان يبين بأن لدوريتش حلمى حوالى 300 من الاتباع من بوسنياك ومجريين ، ممن كانوا يؤدون الصلوات بانتظام ويتقيدون بأحكام الشريعة ٠ اما عبد اللطيف التركى ، الذى اعترف به اماما رسميا ، فلم يكن له اتباع البتة ٠ ولقد ازدادت حدة ذلك الانقسام المؤسف ، وخلال ذلك فان القسم الاكبر من البوسنياك قد هاجروا من المجر الى يوغوسلافيا نتيجـة للازمة الاقتصادية العالمية آنذاك ، وهكذا لم يتبق من المسلمين فى بودابست الا القليل القليـــل ٠

وفى مطلع عام 1349 هـ ، وصل الى بودابست ممثل الطائفة الاحمدية فى الهند المسمى عياظ خان ، وحيث انه كان ملما باللغة المجرية ، فقد شرع فى نشر تعاليم الطائفة الاحمدية الخارجة عن تعاليم الاسلام الصحيحة ٠

وفى هذا المجال اذكر بأننى قد عملت مدرسا فى جامعة سنتينيكاتان (فى البنغال) وذلك ما بين 1348 ـ 1351 للهجرة ، حيث كنت استاذا محاضرا فى العلوم الاسلامية ٠ وهكذا فقد توجب على ان اتناول الطائفة الاحمدية كذلك ٠ ولقد تحدثت فيها عـن نشوء الاحمدية : ففى عام 1307 هـ، وفى بلدة كاديان الواقعة فى شمال الهند فان الملاك الصغير المسمى ميرزا غلام أحمد قد فاجأ المحيطين به هناك بأنه قد انعم عليه

برؤيا الهية وانه هو المهدى المنتظر · وقد قام بالتعريف برؤياه تلك فى كتب باللغتين الاوردية والانجليزية ، وسرعان ما غدا موضع اصطدام عدائى من اتباع طائفة آرجاسمادس الهندوكية ، الذين زعموا بأن الفلسفة الهندوكية هى التى ستنقذ الانسانية ، ورغم ان مسلمى الهند قد اعلنوا بأن ميرزا غلام احمد ليس الا دجالا مخاتلا الا انه خاض معهم الصراع بمراس شديد : وفى عام 1308 هـ أنشأ مجلة باللغة الانجليزية باسم « ريفيو أوف ريليجين » ـ مجلة الدين ـ كان يبين على صفحاتها بعين الانتقاد الحياة الدينية للعالم · ولقد بنى مزاعمه على أساس من « ان المسيح لم يمت على خشبة الصليب ، وانه انما فقد وعيه فقط ، ثم قام وتلاميذه بانزاله عن الصليب وعالجوه على مدى أربعين يوما بدلكه بمرهم سحرى المفعول ، اعاده الى وعيه ثم انطلق عقب ذلك صوب المشرق ، ليعثر على اسباط اسرائيل العشر المفقودة وليعيدها الى الطريق القويم ، وامضى بعد ذلك سنين عدة يعلم فى افغانستان وفى كشمير حيث توفى هناك بعد ان عمر مائة وعشرين عاما وذلك فى مدينة سرينيغار » ·

ولقد قمت بكتابة نقد جامع وقاطع وكشف لتخرصات ميرزا غلام أحمد المذكورة آنفا وذلك فى كتابى الله أكبر ـ برلين 1357 هـ ـ وكتابى سوللا أورما دى محمد ـ ك ميلانو 1357 ـ · اما فيما يتعلق بقبر المسيح المزعوم فقد تاكدت خلال اقامتى فى سرينيغار فى كشمير عام 1350 هـ ، ان ما هو مكتوب على شاهد ذلك القبر وهو « جوس اساف » ـ أى المسيح الجامع ـ (من فعل جمع) ، انما هى فى الاصل بوذا اساف وهى الكلمة المشوهة مبنى ومعنى لكلمة بوديساتوا البوذية وهى تعنى « سيدنا (سيدنا بوذا حتى قبل مولده على الارض) » ·

غير ان كل ذلك لم يكن وليد خيال ميرزا غلام احمد حيث انه قد نقل ذلك من كتاب نوتوفيتش الذى يتحدث فيه عن « أحد الاناجيل المفقودة » · وفى كتابه ذاك يزعم ذلك الكاتب الدجال بأنه قد عثر فى احد الاديرة البوذية فى التبت على احد الاناجيل المفقودة ، وهو « انجيل » يقول بان المسيح قد قام فى سنى شبابه بزيارة الهند حيث « استنشق » هناك كافة تلك التعاليم التى قام بالتبشير بها فيما بعد · وهكذا فان ميرزا غلام احمد قد قام ، بشكل مخادع ،

باستغلال ذلك الزعم الكاذب ، وهو المتعلق برحلة المسيح المزعومة الى الهند فى سنى شبابه ، ولكن مع تحويل التبشير بتعاليمه الى فترة **ما بعد وفاته** .

اما فيما يتعلق بالقبر القائم فى سرينيغار فقد تأكد لى بعد دراســـة وتمحيص أسلوب البناء فيه ، انه يرجع فى الغالب الى القرن العاشر للهجرة ، وان الاقـــرب الى التصديق كونه يشتمل على جثمان احد **الاولياء المسلمين** .

وبالطبع فان الاحمديين لم يستقبلوا براهينى العلمية تلك بطيبة خاطر ، حيث انهم اصروا على ايمانهم بتلك المعجزات المزعومة ـ بدلا من تصديق الحقائق العلمية الموضوعية ـ ، وهى « المعجزات » التى قام ميرزا غلام أحمد بتنفيذها مستخدما مراهمه ولعناته والتى أودت بحياة العديد من اعدائه الى مهاوى الردى .

ولذا فلم يكن غريبا اننى استقبلت النشاط التبشيرى لعياظ خان فى بودابست بشعور من الشكوك ، وذلك على الرغم من اننى كنت على سابق علم بأن الاحمديين يقومون بنشاطات تبشيرية فى مختلف انحاء العالم . وفى أوروبا وأميركا قاموا بانشاء جوامع عديدة كما ان الكثير من الشخصيات البارزة قد آمنت بتعاليمهم ، بعد ان دخلوا فى صفوف هذه الطائفة الاسلامية الغريبة الطابع .

كما ان عياظ خان نفسه قد لجا الى اسلوب جد غريب للتمهيد لنشاطه التبشيرى فى بودابست : ففى احد الايام وعند الظهيرة ، حيث تكون الحركة على اشدها ، وقف فى احدى تقاطعات احد الشوارع الكبيرة والشديدة الحركة ثم سجد وشرع فى الصلاة . ونتيجة لذلك انشلت حركة السير ، وجاء احد رجال الشرطة وطلب اليه ابراز أوراق اثبات شخصيته ، كمقدمة لايقافه . وعندئذ شرع عياظ خان فى مناقشة مع الشرطى ذاك آخذا عليه ازعاجه وهو يؤدى صلاته . ولقد تجمع حولهما حشد كبير من الناس ، وهو حشد كان متعاطفا لا مع الشرطى،وانما مع الهندى المثير ، المعتم بعمامة لافتة للنظر . ولقد تطلب امر تفريق الجمهور المحتشد جهدا كبيرا ، ورغم ذلك فان الكثير من الناس قد رافقوا عياظ خان الى مركز الشرطة ، حيث جرى تغريم عياظ خان بمبلغ من المال جراء اخلاله بالامن ، ولقد صدق الكثير من الناس كونه كان على حق ، واقدموا بمنتهى سلامة النية والطوية على الدخول فى الطائفة الاحمـــدية ، وذلك على يقين منهم بانهم انما قد

دخلوا فى الدين الاسلامى ، وأصبحوا بذلك مسلمين · ولم يمض الا وقت قصير حتى راوح عدد الاتباع الجدد الثلاثمائة شخص ، وقدم احد الناس الميسورين منزله الكبير ليكون مسجدا تؤمه الطائفة ، وحيث جرت فيه اقامة الصلوات بشكل منتظم · ولقد قام عياظ خان بالتعريف بتعاليم الطائفة الاحمدية عن طريق منشورات اصدرها باللغة المجرية · وقد ظهر الى حين ان تلك الطائفة ستقوى ويشتد عودها فى المجر ، الا ان وقوع الحرب العالمية الثانية ثم القصف المدمر لبودابست ودخول الجيوش المنتصرة اليها ، تبعها انحلال وتفرق شمل تلك الطائفة ·

وفى عام 1367 هـ ، ومع تقسيم شبه الجزيرة الهندية الى الهند وباكستان ، وانتهى مركز كاديان وتوقف ، وتابع الاحمديون نشاطاتهم فى ربوة القائمة فى باكستان · وقبل امد قصير اعتبرت الحكومة الباكستانية طائفة الاحمديين اقلية غير مسلمة ، وبذلك فانها قد شلت نشاطات تلك الطائفة ·

ولكن ان مضى مجد الاسلام المجسم فى مؤمنيه فما مضت الثقافة الاسلامية ابدا ، والجامعة المجرية افتخرت بعلمائها من امثال ارمين فامبيرى الذى سافر الى تركيا واسلم، وذهب باسمه رشيد افندى الى آسيا الوسطى لدراسة اللغات التركية ، وتلميذه ايغناتس غولد زيهر الذى أصبح تلميذ الشيخ العالم محمد عبده بالقاهرة وبعـــد عودته الى بلادنا صنف كتبا نفيسة عدة شرح فيها اركان الدين الاسلامى والعقائـــد المكرمة ، وأنا شخصيا افتخر بكونى تلميذه ، وقد مثلت دراسة التاريخ الاســلامى فى كرسى التدريس بجامعة بودابست ، الى حين تقاعدى وكان عمرى آنذاك 71 عاما ، ولقد صنفت آثارا فى تاريخ الاسلام المدنى وفى الادب العربى القديم والحديث ، واشتهر كتابى عن حجى بيت الله فى مكة المكرمة تحت عنوان : الله أكبر ، وترجم الى لغات شتى · وافتخر بأننى قد كنت العضو المسلم الوحيد فى مجلس النواب المجرى ، وامثل الدين الاسلامى لا على كرسى التدريس فقط بل بمجهوداتى الشخصية فى الحياة الاجتماعية ، ولا اترك الوفاء بالواجب على نحو مصلحة المسلمين والعروبة الى انتهــاء ايامــى ·

القانون والتعريب من خلال التجربة الجزائرية (1)

د٠ أحمد مطاطلة
الامين العام
لجمعية الحقوقيين الجزائرية

من مميزات المناهج الحديثة فى الدراسات والبحوث العلمية هى انها تقرب بين المفاهيم وتكون بينها روابط تجعلها تتجانس احيانا واحيانا تتمازج الى درجة تتضاءل معها الفروق وتتلاشى لا سيما اذا كانت هذه الدراسات تجرى حول مواضيع تسير نحو هدف مشترك كموضوع القانون والتعريب اللذين يتكاملان شكلا ومضمونا ٠ الا أنه لا يتصور ان يصدر قانون فى قطر عربى دون ان يكون مصاغا فى الفاظ عربية أو موضوعا فى شكل معرب على الاقل ٠ غير ان هذا ليس هو المقصود بذاته ولكن المقصود كغاية هو نقطة الانطلاق التى يلتقى فيها القانون والتعريب كمفهومين ثقافيين ٠

(1) عرض ألقاه فى مؤتمر الحقوقيين العرب المنعقد أخيرا فى بغداد .

اهمية التعريب ثقافيا وحضاريا

ان القانون فى تعريفه العام يعنى مجموعة القواعد القانونية الموضوعة لتنظيم العلاقات بين الافراد فيما بينهم أو بين الافراد والدولة فى نظام اجتماعى واحد من أجل مصلحة عامة مشتركة تسهر على تنفيذه سلطة قائمة يرمز لها بالدولة ، والتعريب يعنى عملية نقل للمعانى من لغات غير عربية الى اللغة العربية ، تصاغ فى ألفـــاظ متناسبة ومتناسقة فى صياغة فنية تعطى المعانى المنقولة شكلا معوضا أصالة عن الشكل السابق وقد يعطيها الشكل الجديد المعرب قوة وقد يكسبها جدة فتصبـح منقولة وكأنها لم تنقل وهذا هو المعنى الثقافى للتعريب وهو المنهج الذى اتبعه العرب الاوائل فى تعريب العلوم والآداب والفنون التى عرفها اليونان والروم والفرس فانتفعوا ونفعوا البشرية وأثروا الحضارة والثقافة الانسانية بتجديد ما عربوه وتطويره وتكييفه تكييفا ملائما لواقعهم وعقيدتهم وتقاليدهم وبذلك سجلوا مفاخر وأقاموا لهم مجدا وعزا ومنعة سجلت آثارها فى أحقاب زمنية مشهورة ·

فالتعريب اذن وطبقا لهذا المفهوم الحضارى هو مكسب وثروة وبعيدا عن أن يكون مجرد ترجمة ونقل بسيط لما كتب وسجل بلغات اجنبية الى ألفاظ عربية ، وهو اذا أخذ بمفهومه الحضارى هذا ومعناه العلمى الواسع فسيعطينا طاقة جديدة نتزود بها فى مسيرتنا من أجل قيام ثقافة عربية للقانون متحررة من العقد ومركبات النقص التى ورثناها عن عصور الانحطاط أو أورثنا اياها الحكم الاجنبى الظالم ·

ان العلاقة بين القانون والتعريب تتحدد بحسب حاجتنا الى هذا الاخير ومن ثـم يصبح التعريب اما مسألة ثقافية بحتة واما مسألة ثقافية وسياسية فى نفس الوقت · وهذا يخضع لواقع الاقطار العربية المتواجدة فى مناطق مختلفة من جهة ولمدى سيادة اللغة العربية فى مجالات التعليم والاقتصاد والادارة فى كل قطر من جهة أخرى · ففى أقطار المشرق العربى مثلا لا يمكن ان يتخذ التعريب شكله الحاد بمثل الشكل الذى يوجد له فى اقطار المغرب العربى ، وبالاخص الجزائر أو المغرب الاوسط كما تسمى جغرافيا · ذلك ان التعريب فى المشرق يقتضى الاستزادة من الثروات الفكرية المعاصرة

فى ميدان القانون عن طريق نقل ذلك من النتاج الاجنبى الصادر باللغات الانكليزية أو الالمانية أو الروسية أو غيرها مما يعطى نفسا جديدا للانطلاقة العربية فى مجال النهوض بالدراسات القانونية وحتى فى وضع واصدار التشريعات ، ففى القانون الدولى مثلا يمكن للمؤسسات القانونية العربية ان تحرز على امكانيات كبيرة للمساهمة فى تطوير البحوث القانونية المتعلقة بالفضاء وقانون البحار واتفاقيات ومعاهدات السلام واستغلال الثروات الطبيعية سواء كانت فى طبقات الارض أو على سطحها أو فى أعماق المحيطات وحتى فى الميادين الاجتماعية كاتفاقيات التعاون فى مكافحة الاجرام وحوادث الطيران وغيرها ومسائل النقل والمواصلات البرية والبحرية والجوية ، لا سيما وقد أنشئت مؤسسات متعددة فى هيئات علمية تعمل على ايجاد المقابل من الالفاظ العربية لاسماء المخترعات العلمية الحديثة باللغات الاجنبية كمجامع اللغة العربية ومكتب التعريب التابع للجامعة العربية والتى نأمل ان تتطور الى أكاديمية علوم عربية جامعة تنتفع بنتاجها كل الاقطار العربية فى مشرقها ومغربها . فالتعريب بهذا المعنى وبالنسبة للمشرق العربى اذن هو مسالة ثقافية تبحث فى نطاق حضارى وتحل فى نطاق الدور الذى تؤديه الامة العربية فى المساهمة الفعلية لانشاء ثقافة قانونية قائمة على قاعدة فكرية عربية أصيلة .

اما فى المغرب العربى وخاصة فى الجزائر فان التعريب يتخذ شكلا مغايرا ، لانه أكثر من مسالة ثقافية التى قد توجد حتى فى الدول المتقدمة صناعيا كالاتحاد السوفييتى أو الصين أو اليابان بل انه مسالة كيان ومسالة مصير شعب وبالتالى فهو مسالة سياسية تقوم على أساس يتعلق بسيادة لغة محتل أجنبى سابق فى بلد أصبح مستقلا ذا سيادة ولهذا لا أكون مبالغا اذا قلت ان التعريب فى الجزائر عمل من أعمال السيادة القومية الذى لا يقل عن أى عمل آخر من الاعمال التى تحققت فى ميدان التحرر الاقتصادى والسياسى ، وانه ثورة فى الثقافة لابد من النهوض بها والا بقيت بلادنا خاضعة للتبعية الثقافية الفرنسية لا سيما وان التاريخ ما زال يحتفظ لنا بذكريات أليمة عن الاستعمار وطريقة المحتلين فى محاربة اللغة العربية .

وضعية اللغة العربية فى بداية الاحتلال الفرنسى للجزائر

فى بداية فترة الاحتلال التى كانت بمثابة المرآة الكاشفة للوجه البشع لسياسة التضليل والمغالطة التى سلكها الغزاة المحتلون تجاه سكان الجزائر العربية وهى سياسة بدأت باظهار نوع من اللين نحو الثقافة العربية والدين الاسلامى ، حتى يستطيع المستعمرون كسب الطبقة المثقفة وعزلها عن المقاومة ، لكن هذه الحيلة لم تنطل على أحد وتنبه لها الاحرار من ابناء العروبة فى الجزائر حيث أدركوا ان الوطن واللغة والدين شىء وسقوط الحكم التركى شىء آخر ، لان سلطات الاحتلال حاولت فى البداية ان تتظاهر وكأن المعركة انما هى من أجل تخليص الشعب الجزائرى من طغيان الحكم الاقطاعى التركى ، بل ذهبت الى أكثر من هذا فادعت بانها جاءت لانقاذ ملايين الجزائريين من الجهل والبربرية بادخالهم الى النظام والمدنية غير أن حبل الكذب قصير كما يقول المثل اذ سرعان ما كشف الثعلب الاستعمارى عن خبثه فأخذ يضيق الخناق شيئا فشيئا على اللغة العربية باعادة تنظيم الادارة وتحويلها من عربية الى فرنسية لا سيما بعد ظهور الامير عبد القادر على رأس المقاومة المسلحة ٠ ثم بعد خفوت هذه المقاومة نتيجة للتآمر والغدر اللذين كانا سلاحا قويا فى يد العدو فاستطاع أن يرجح كفة الانتصار لصالحه ، وما ان استقر الامر لسلطات الاحتلال حتى بادرت الى خلق جميع الوسائل للقضاء على اللغة العربية وتجريد الجزائر من شخصيتها القومية ونادت بها جزءا من فرنسا وألحت على هذا فى قوانين اصدرتها تقضى بالحاق الجزائر بفرنسا ٠

ووصفت الجزائر بانها بلد ليس له تاريخ واضح وان شعبها مكون من خليط وبقايا أمم تعاقبت على حكم البلاد فى احقاب زمنية مختلفة ، وبالتالى فشعب الجزائر ليس عربيا ولا يمكن نسبته الى العروبة ٠ وهكذا تعرضت الجزائر منذ سنة 1830 تاريخ سقوط الدولة الجزائرية الى نوع من المسخ والتشويه انعكست على أهم مقومات شخصيتها الاساسية وهما اللغة العربية ، والعقيدة الاسلامية ، وما كانت اللغة العربية ولا الدين الاسلامى ليكونا هدفا لهذا المسخ والتشويه الا لانهما كانا يمثلان الركن الحصين لانتساب الجزائر بارضها وشعبها الى الامة العربية والى الحضارة العربية

التى كان لها شأن بعيد فى نقل مآثر الحضارات السابقة وتطويرها وتهذيبها لتصبح قاعدة سليمة لانبعاث الحضارة الحديثة .

ان النظام الاستعمارى الفرنسى الذى كان مبعثه الطمع والشراسة والحقد العنصرى الموروث عن الحروب الصليبية قد أودى بكل معالم الشخصية العربيـــة فى الادارة والثقافة والقضاء والسياسة منذ ان خضعت الامور الى مقاليد المعمرين فى الجزائـر . وكان السلاح الاول فى هذا هو العنف والاضطهاد ، العنف فى تخريب المعاهد والمدارس وتحويل المساجد الى كنائس والاضطهاد بالاستيلاء على الاموال والقضاء على الحقوق والحريات واخضاع السكان الجزائريين الى نظام عنصرى اشتهر باسم (لانديجينا) والذى قسم البلاد الى مناطق خاضعة لنظام عسكرى ومناطق خاضعة لنظام مختلط يخضع فيها الاهالى أو كما يسميهم هذا القانون Les indigènes لرقابة دائمة مـــن سلطات الاحتلال ، فمنع الجزائريون من التعليم بلغتهم العربية وفقدت البـلاد ذلك الازدهار الثقافى الذى كان منتشرا فى المدارس والمعاهد والجامعات التى كانـت موجودة فى مدن تلمسان ووهران وبجاية وقسنطينة حسب اعتراف الفرنسيـــين أنفسهم ، فهذا المؤرخ الفرنسى بولارد Poulard فى كتابه التعليم فى الجزائر قبـل سنة L'enseignement en Algérie avant 1830 يقول : «كتاب الجزائر فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر مراكز ثقافية مزدهرة كانت تدرس فيها الفلسفة والآداب والعلوم المختلفة من طب وفلك وطبيعة وسياسة وغيرها من طرف اساتذة لامعين » . وقال السيناتور كومب فى مجلس الشيوخ الفرنسى : « ان الجزائر كان فيها عند احتلالنا لها أكثر من ألف معهد ثانوى وعالى » ، ويضيف فالسين استرهازى Walsin Esthazy فى مجلة التاريخ الحديث والمعاصر « عدد يوليو ـ ديسمبر 1955 تحت عنوان : الحالة الثقافية والاخلاقية فى الجزائر سنة 1830 .

ان نسبة الامية فى الجزائر سنة 1830 كانت أقل منها فى فرنسا بالنسبة لتعداد السكان أى انهـا كانت أعـــلى فى فرنسا » . ويؤكد بولارد المذكـــور آنفـــا : « ان احتلال فرنسا للجزائر أحدث فوضى عامة فى ذلك العهد بين العلماء والمفكرين وكثير منهم هاجروا البلاد » .

وكانت المدارس العربية تغلق وأموالها تصادر ومعلموها يلقى بهم فى السجن أو فى المنفى ·

وتمشيا مع الخطة الرامية الى سحق اللغة العربية فى الجزائر أصدرت سلطات الاحتلال خلال سنة 1904 قانونا يمنع أى معلم عربى ان يتعاطى مهنته الا برخصة تحدد نشاطه وفق شروط أهمها :

1 ـ اقتصار التعليم على حفظ القرآن لا غير ·
2 ـ عدم التعرض لتفسير الآيات التى تدعو الى التحرر من الظلم والاستبداد ·
3 ـ استبعاد دراسة التاريخ العربى الاسلامى والتاريخ المحلى وجغرافية القطر الجزائرى والاقطار العربية الاخرى ·

4 ـ استبعاد دراسة الادب العربى بجميع فنونه ·

ولم يكن هدف الاستعمار من خنق العربية هو محو الشخصية الجزائرية واحلال الفرنسية محلها فحسب بل كان أيضا يرمى الى الجهل واسدال ستار الظلمات على الجزائر وعزلها عن العالم العربى عزلا كليا ولم يكن يسمح حتى بتعليم اللغة الفرنسية للجزائريين الا بخصوص القدر الذى يحتاج اليه من أعوان له فى مهمته من أجل السيطرة والمحافظة على بقائه وتدلنا على هذا الاحصائيات الفرنسية لسنة 1955 التى تقول : ان نسبة الامية فى الجزائر سنة 1954 بلغت 94٪ بين الرجال و 96٪ بين النساء ·

النضال الشعبى من اجل اللغة العربية وضد الادماج

ان هذه الوضعية السيئة أدت الى ظهور حركة قوية ورد فعل وطنى عنيف ضد مخطط التجهيل ومحاولة الادماج فى فرنسا ، فارتفعت أصوات الاحرار تنادى على لسان الشيخ عبد الحميد بن باديس الذى رد بعنف على مزاعم المستعمرين الفرنسيين القائلة بان شعب الجزائر ليس له تاريخ واضح ولا صلة له بالعروبة فقال فى نشيده المعروف :

شعب الجزائر مسلم | والى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله | أو قال مات فقد كذب
أو رام ادماجا له | رام المحال من الطلب

وكان يقول فى الرد على دعاة ادماج الجزائر فى فرنسا : « الجزائر لم تكن فرنسا وليست فرنسا ولا يمكن ان تكون فرنسا ولا تريد ان تكون فرنسا » · وأعلن شعاره المشهور « الجزائر وطننا والاسلام ديننا والعربية لغتنا » ·

ومآثر الجزائريين فى الكفاح من أجل اللغة العربية معروفة فى كثير من أشعارهم وأدبهم كالشعراء محمد العيد وأحمد سحنون ومفدى زكرياء وغيرهم ، وقد نال الشهادة عدد من المكافحين من أجل اللغة العربية كالاديب أحمد رضا حوحو والشيخ العربى التبسى مدير معهد عبد الحميد بن باديس سابقا ونائب رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والشيخ العدوى وأحمد بوشمال الذين اغتالهم الجيش الفرنسى فى بداية الثورة التحريرية وعشرات من امثالهم خلال استمرار هذه الثورة · لكن ورغم هذا القمع الوحشى فان ارادة الكفاح لم تضعف ووجدت اللغة العربية دعاة لها وابناء أوفياء أخلصوا لها وضحوا من أجلها فنهضوا بها فى المدارس الحرة التى كان الشعب يبنيها بماله حتى تجاوز عدد المدارس الحرة الابتدائية وثانوية المائتين · وقد عمدت السلطات الاستعمارية الى غلقها بمجرد اندلاع الثورة التحريرية فى فاتح نوفمبر 1594 ، واحالت بعضها الى محتشدات أو مراكز للجيش الاستعمارى الذى أوفدته فرنسا لمحاولة قمع الثورة المسلحة بقيادة جيش وجبهة التحرير · لكن هذا الاسلوب من الاضطهاد والعنف باء بالفشل اذ تصدى له الشعب بوعيه الثورى تحت قيادة جبهة التحرير برد فعل قوى وأخذ الناس يزدادون ايمانا بلغتهم العربية واقبلوا على تعلمها وتحولت السجون والمحتشدات ومراكز التجمع الى شبه مدارس سرية لتعليم اللغة العربية ·

والاهم من هذا هو ان القيادة الثورية كانت تعد لجنود جيش التحرير الذين عطبوا فى الحرب وأصبحوا غير قادرين على مواصلة الكفاح المسلح مراكز خاصة يتعلمون فيها الدروس بالعربية فارتفع عدد المتعلمين من الاميين من الجنود وتمكنت الدولة

الجزائرية بواسطة هذا العدد من سد الفراغ بعض الشيء فى التعليم الابتدائى · وقد واصل عدد من هؤلاء الجنود الذين كانوا فلاحين اميين بسطاء فى عهد ما قبل الثورة دراستهم الجامعية بعد الاستقلال وحصلوا على شهادات عليا من جامعات الجزائر ومن جامعات أجنبية ، ومنهم من يعمل الآن فى القضاء ومنهم من عاد الى الجيش ومنهم من التحق بسلك المعلمين كل هذا كان بفضل التوجيهات الثورية لجبهة التحرير وبفضل الدافع القوى الذى كان يتمثل فى ارادة الشعب ان يتخلص من لغة المحتل ليرفع راية اللغة العربية · وقد تغير الوضع بالنسبة للغة العربية وأصبحت هى اللغة الرسمية للبلاد منذ استرجاع الاستقلال سنة 1962 ·

وضعية اللغة العربية بعد استرجاع الاستقلال ·

وتحولت من لغة مسودة الى لغة سائدة الا انها مع ذلك اصطدمت بصعوبات سببها ظروف مخلفات الحرب ومنها الفراغ الرهيب الذى تواجدت فيه المدرسة الجزائرية والادارة والقضاء نتيجة لانسحاب الاوروبيين ـ الغير مأسوف عليه طبعا ـ انسحابا جماعيا بمؤامرة مدبرة قصد بها ترك البلاد فى دوامة من العجز الكلى فواجهت الدولة الجزائرية الفتية أزمة مصيرية فيما يتعلق بالتعريب اذ وجدت نفسها أمام ضرورة لابد من تحملها مهما كانت عواقبها وهى ان تسير بالامور كما هى عليه حتى يستقر الوضع وتتكون اطارات جديدة تعمل باللغة العربية لكن ورغم هذا فان الدولة الجزائرية لم تستسلم فى الواقع كليا الى هذه الضرورة وخاصة فى ميدان التعليم اذ سارعت باتخاذ بعض القرارات الحاسمة تقضى :

1 ـ بترسيم اللغة العربية فى جميع مستويات التعليم عند بداية الموسم الدراسى الاول لعام (62 ـ 63) ·

2 ـ الشروع فى تغيير نظام المدرسة الموروثة عن النظام الاستعمارى بتعريب السنة الاول سنة 1964 ، وتعريب السنة الثانية سنة 1966 ، والسنة الثالثة سنة 1968 ·

3 ـ انشاء مدارس اعدادية وثانوية معربة تماما لتستقبل الجيل الذى تكون فى المدارس العربية الحرة ولتكون نموذجا لتعليم المستقبل ·

4 ـ فتح مجموعة من الاقسام المعربة بالمدارس الاعدادية فى سنة 1969 استجابة للحاجة المتزايدة الى هذا النوع من الاقسام، أعنى الصفوف ٠

5 ـ الشروع فى تعريب الفلسفة والمواد الاجتماعية ماعدا الجغرافيا فى كل المراحل نظرا لاهمية هذه المواد فى تكوين المواطن واتصالها المباشر بالجوانب الروحيـــة والعقائدية ٠

6 ـ تعريب الجغرافية والعلوم ـ دراسة الهيئة ـ فى المرحلة الابتدائية ٠

7 ـ جعل اللغة العربية مادة اجبارية فى جميع المراحل وفى جميـــع الامتحانات المدرسية والمهنية ٠

كانت هذه هى المراحل الاولى من التعريب المدرسى، اما المرحلة الثانية فبدأت باصلاح النظام التعليم الرامى الى تعريب المدرسة الجزائرية مع بداية المخطط الرباعى الاول (70 ـ 71)، وتنتهى بنهاية سنة 1974 ٠ حيث عكف المسؤولون فى وزارة التعليم الابتدائى والثانوى على دراسة الوضعية التربوية لاول مرة فى اطار المخطط العام للتنمية ـ دراسة شاملة اسفرت فى النهاية عن اصدار مجموعة من القرارات متتالية تقضى :

1 ـ تعريب السنة الرابعة من التعليم الابتدائى ٠

2 ـ تعريب ثلث أقسام السنتى (الخامسة والسادسة) من التعليم الابتدائى ٠

3 ـ تعريب ثلث الاقسام المفتوحة فى السنة الاولى من التعليم المتوسط (الاعدادى) فى كامـل القطـر ٠

4 ـ تعريب ثلث الاقسام العلمية المفتوحة فى السنة الاولى من التعليم الثانوى فى كامـل القطـر ٠

5 ـ تعريب جميع الشعب الادبية المفتوحة فى بداية التعليم الثانوى ٠

6 ـ تعريب الجغرافيا فى المرحلة المتوسطة (تدريجيا) ٠

7 ـ تدعيم حصص اللغة العربية فى جميع المستويات وفى جميع أنواع التعليم ٠

8 ـ تعريب بعض الفروع من التعليم التقنى (المحاسبة ، التجارة ، السكرتارية) ٠

ان هذه الاجراءات قد مكنت من تعريب جيل مدرسى بكامله واستطاعت ان توسع حلقة التعريب وصارت المدرسة الجزائرية تقترب بفضلها من التعريب الشامل حيث جاء طبقا لاحصائيات سنة 1974 بان مجموع التلاميذ المعربين فى مختلف مراحل التعليم المذكورة قد بلغ 2.086،480 من المجموع العام البالغ : 2.749،740 ٠

أما عدد المعلمين المعربين فى الابتدائى فقد كان فى بداية الاستقلال حوالى 35000 معلم وارتفع هذا العدد فى سنة 1974 الى ما يقارب 38000 من مجموع المعلمين الذين بلغ عددهم سنة 1974 حوالى 54000 ٠

اما معلمو المواد المعربة فى المرحلة الثانوية فيقدر عددهم الآن بحوالى ستة آلاف من مجموع الاساتذة الذين بلغ عددهم سنة 1974 حوالى 14000 ٠

وهناك تطلعات جديدة فى اطار المخطط الرباعى الثانى (1974 ـ 1977) والمخططات التى تليه ، ترمى الى اصلاحات جذرية شاملة للنظام التعليمى ، تتمثل فى ازالة الحواجز المصطنعة بين ما يسمى بالتعليم التقنى وبين ما يسمى بالتعليم العام وانشاء مدرسة أساسية ذات تسع سنوات تكون مفتوحة للجميع يبدأ فى السنة السابعة ، منها تعليم متعدد التقنيات ، وقد تقرر ان تكون لغة التعليم بهذه المدرسة هى اللغة العربية فى جميع المواد ٠ كما تقرر فى هذا وضع سياسة واضحة لتعليم اللغة الاجنبية ٠

وفى التعليم العالى أخذت التجربة الجزائرية فى اصلاح التعليم طريقها الى الجامعة منذ سنة 1965 ، حيث أعلن الاخ هوارى بومدين رئيس الجمهورية ورئيس مجلس الثورة بأنه قد آن الاوان لان تخلع الجامعة عنها الحجاب الذى يلفها ليرى الشعب بأكمله ما خلف هذا الحجاب ويقصد بذلك النظام الموروث عن الاستعمار والذى كان سائدا فى التعليم الجامعى ٠

ومنذ هذه الصيحة المباركة بدأت عملية التعريب تسرى فى كان الجامعات الجزائرية ، فأنشئت بها اقسام معربة فى الحقوق والآداب والتاريخ والجغرافيا والتربية وعلم النفس ، وكلية العلوم والمدرسة العليا للتجارة والمدرسة العليا للصحافة ،

وقد استعانت الدولة الجزائرية فى هذا باستعارة اساتذة من مختلف الاقطار العربية الشقيقة • وقد ساهم هؤلاء الاساتذة المعارون الى الجزائر من جامعاتهم بقسط كبير فى تعريب التعليم الجامعى بالجامعات الثلاث الكائنة بالجزائر العاصمة وقسنطينة ووهران• وطبقا لقرار مؤرخ فى 4 رجب سنة 1391 ، الموافق لـ 25 أغسطس سنة 1971 القاضى بضبط تدابير التعريب فى مؤسسات التعليم العالى • فان اللغة العربية تقرر ادراجها ابتداء من السنة الجامعية 1971 ـ 1972 فى جميع برامج الدروس العليا باللغات الاجنبية المقررة فى مؤسسات التعليم العالى والبحث العلمى للطلبة غير المعربين وحدد العدد الاجمالى (م 4) من ساعات الدروس والاعمال التطبيقية بثلاثمائة (300) ساعة فى كل سنة مقررة وعدم النجاح فى المستوى المطلوب لمعرفة اللغة العربية يحرم الطالب غير المعرب من تسلم شهادته الجامعية حتى ينجح فى مادة اللغة العربية • ولم يعف من هذا الا الطلبة الحاصلون على :

1 ـ دبلوم اللغة العربية من مستوى مساو على الاقل للشهادة الابتدائية •

2 ـ دبلوم لقسم مزدوج اللغة يشتمل على اختبار للغة العربية يساوى مستواه على الاقل مستوى أهلية التعليم العام •

هذا عن التعريب فى التعليم بصفة عامة • اما عن التعريب فى الادارة • فان تعليم اللغة العربية للموظفين أصبح اجباريا منذ صدور المرسوم المؤرخ فى أبريل سنة 1968 المتعلق بتطبيق الامر رقم 68 ـ 92 المؤرخ فى 26 أبريل سنة 1968 ، والقاضى باجبارية معرفة اللغة الوطنية على الموظفين لا سيما المادة الاولى منه والتى تنص فى الفقرة الاولى على : ان الدخول الى أية وظيفة دائمة فى ادارات الدولة والجماعات المحلية والمؤسسات والهيئات العمومية يتوقف على معرفة اللغة العربية ابتداء من أول يناير سنة 1971 •

كما تقرر انشاء مكاتب للترجمة الى اللغة العربية فى مختلف الوزارات طبقا لمرسوم صدر فى 8 فبراير سنة 1969 وقد نصت المادة الاولى منه على ما يلى : يحدث فى كل وزارة مكتب للترجمة ، يكلف بالترجمة الكتابية والشفوية الى اللغة العربية للوثائق والمراسلات والنصوص الرسمية ومشاريع النصوص ذات الصبغة التشريعية والتنظيمية •

اما تعريب القضاء هذا الميدان الذى كان وقفا على الفرنسيين المحتلين فقط ، والذى تغير وضعه منذ الاصلاحات التى دخلت على الجهاز القضائى سنة 1955 ودخلت حيز التطبيق ، سنة 1966 ، فانه قد أصبح معربا نهائيا بجميع اجهزته ابتداء من صدور المنشور الوزارى فى 2 ماى 1974 ، بعد التعريب الجزئى الذى كان مقصورا على المناطق الجنوبية فقط ، وأصبحت جميع المرافعات وأعمال المحاكم بمختلف فروعها والاوراق الادارية والتوثيقية الصادرة من المصالح التابعة لوزارة العدل تجرى كلها بالعربية وتأكيدا لتعريب التشريع وتعزيز عملية التعريب فى ميدان القضاء صدر قرار رئاسى يقضى باستبدال جميع القوانين الصادرة فى العهد الاستعمارى بقوانين جزائرية فى أجل أقصاه 5 يوليو 1975 وقد كلفت بهذا العمل لجنة وطنية باشراف الرئيس بومدين نفسه ، وينوبه فى العمل وزير العدل .

ومن الجوانب التى لم تغفلها السلطة الثورية فى البلاد فى عملية التعريب ، مسألة الارقام العربية حيث صدر مرسوم فى 30 يونيو سنة 1971 ، يقضى ترسيم الارقام العربية الاصلية والعمل بها عوضا عن الارقام الهندية المعمول بها سابقا . كما اتخذت قرارات أخرى تقضى بتعريب اسماء الشوارع والمحلات التجارية ووسائل النقل والاختام التى تطبع بها الوثائق بصفة عامة فى الادارة والبنوك والشركات وغيرها .

وفى النطاق الحزبى فقد كونت لجنة وطنية للتعريب باشراف قسم التوجيه والاعلام بحزب جبهة التحرير مهمتها القيام بدور التنشيط فى عملية التعريب على جميع المستويات . وقد سارت فى عملها وفقا لخطة علمية قائمة على الاحصاء والدراسة الواسعة للمشاكل القائمة فى وجه التعريب وحصر الوسائل البشرية والمادية لتطوير عملية التعريب فى البلاد ، الى جانب التنظيم الدقيق لهيئاتها وتوسيع نطاقها الى درجة انها استطاعت الآن ان تكون لها مجلسا اشتشاريا يتكون من عدد من الوزراء منهم وزير العدل والاعلام والشؤون الدينية والشباب والرياضة. وعدد من المستشارين فى الرئاسة وكبار الموظفين بمختلف أجهزة الدولة ، ولها برنامج جامع يشمل جميع المجالات الحيوية كالادارة والثقافة والاقتصاد وغيرها .

ومما يزيد فى تدعيم قضية التعريب ان القرى النموذجية التى تبنى للفلاحين فى نطاق الثورة الزراعية ـ وعددها سيصل الى ألف قرية ـ لم يكتب عليها حرف واحد باللغة الفرنسية لا فى الشوارع ولا فى المصالح الادارية والمرافق العامة ولا فى المحلات التجارية ٠

ان هذا العمل الكبير فى نطاق المحاولة الجزائرية للتعريب يعد دليلا صادقا على جدية الاتجاه الثورى العربى الذى تبنته السلطة الثورية بقيادة الاخ هوارى بومدين ، وعلى ارادة العمل المخلص من أجل ارساء قواعد السيادة الوطنية من خلال استرجاع الذاتية العربية للبلاد والقضاء على الحواجز التى أقامها الاستعمار الفرنسى بين الشعب الجزائرى وبين أشقائه العرب طيلة مائة وثلاثين سنة٠

أخلاق الاوروبيين وخصائص شعوبهم

د· علي عيسى
أستاذ علم الاجتماع
ـ جامعة الجزائر ـ



مما تحتمه الظروف والاوضاع الحاضرة فى البلاد العربية ونحن نواجه الدول الاوروبية مواجهة مباشرة ونتعامل معها رأسا بحكم كوننا مستقلين ، على المستويات السياسية والاقتصادية وغيرها من المستويات ، أن نكون على علم بأخلاق شعوب هذه الدول وخصائصها القومية · وتحت أيدى علم الاجتماع دراسات تتعلق بهذا الموضوع قام بها العلماء الاوروبيون عن شعوب القارة الاوروبية ذات التأثير فى سياسات العالم للافادة منها فى الحروب والتفاوض وكل ضروب التعامل · قد يكون من المفيد أن يعرفها العرب للاغراض العملية · ولو انها فى الاصل كان المقصود بها أن يعرف الاوروبيون أنفسهم ·

ومن المهم أن نفطن الى أن الاوروبيين وغيرهم يستعدون دائما لمواجهة العرب بدراسة أخلاقهم وأمزجتهم وميولهم مسبقا ٠ واننا نحن العرب مازلنا مقصرين فى اجراء الدراسات عليهم لنسبر أغوارهم ونعرف ما يكمن وراء كل كلمة يقولونها أو كل حرف يخطونه ٠

ويلاحظ أولا وقبل كل شيء ان اهتمام الدول القومية بهذا الامر كان موجها الى البحث عن شخصيات الدول الاخرى التى تقوم معها منافسات سياسية أو عسكرية أو اقتصادية ٠ فمنذ بداية القرن التاسع عشر اهتم الالمان بدراسة الخصائص القومية الانجليزية فيما يرى بروفسور جنزبرج أستاذ علم الاجتماع فى جامعة لندن فى خطابه الافتتاحى أمام جمعية علم النفس البريطانية فى أفريل عام 1941 بمناسبة انشاء شعبة علم النفس الاجتماعى فى هذه الجمعية ٠ ومما جاء فى الخطاب المشار اليه ان الكتاب الالمان الاوائل وجدوا فى النمو العضوى البطىءلانجلترا وفى استقلالها القائم على أسس مثبتة نموذجا يحتذى فى الصراع الالمانى من أجل اعادة بناء ألمانيا ٠ كما أرجعوا الاخلاق الانجليزية الى أصل عنصرى جرمانى قديم من شمالى أوروبا ٠ واتجه الكتاب الالمان آخر الامر الى تحديد الاخلاق الانجليزية بالمادية المعنة والسعى الحثيث الى القوة والربح ، والمهارة فى اخفاء الميول الانانية تحت معطف من حب الانسانية على أساس أخلاقى ودينى ٠ وقد تعرضت هذه الاوصاف للتحليل وكثرة الترديد خلال الحرب العالمية الاولى بين عامى 1914 ـ 1918 التى واجه الالمان والانجليز أثناءها كل منهم الآخر ٠ ومما ورد فى كتابات الالمان عن الانجليز فى هذه الفترة ونخص من الذين كتبوا « ليفين شونكج » ، ان التظاهر بغير ما يجول فى النفس صفة عميقة الجذور فى الخلق الانجليزى ٠ وكذلك « ديبليوس » الذى ذكر فى كتابه عن انجلترا عام 1930 أن الانجليز يتميزون بالعقل والحكمة والرجولة والتوازن النفسى وان لم يخلوا من شغف بالقوة ٠

وتقابل هذه الدراسة دراسات أخرى عن خصائص الالمان قام بها باحثون فرنسيون ٠ وها هو « فوييه » الفرنسى الذى يرى ان الصفات الطيبة لشعب من الشعوب كثيرا ما تكون مستترة ٠ وان الذى يظهر على السطح منها لا يعدو أن يكون الصفات السيئة

والحماقات · ومما ذكره عن الالمان أنهم متزنون وميالون الى العدل ولكنهم « عسكريو التفكير » ومغالون أشد المغالاة فى حب وطنهم · وهذه جميعا اتجاهات تهتم بمعرفة الامزجة ·

وهناك اتجاه نجده عند علماء النفس الاجتماعى وأهمهم « مكدوجل » الذى يرى ان الشعوب تتفاوت خصائصها القومية تبعا لدرجة حدة الغرائز عند أفرادها · فهناك غريزة حب الاجتماع مع الآخرين وغريزة توكيد الشخصية وغريزة الخضوع وحب الانطواء أو الانطلاق ·

ومن الباحثين من يقيم الفروق بين الشعوب على أساس جماعى أو نمطى ينطبق على جميع أفراد المجتمع انطباقا تاما وشاملا · مثل دراسة « دو ما درياجا » عن الانجليز والفرنسيين والاسبان عام 1928 ، تلك الدراسة التى قال فيها ان الانجليز رجال عمل والفرنسيين رجال فكر والاسبان رجال عواطف جياشة · ويبدو أن أكثر الدراسات التى أجريت على الخصائص القومية وشخصية المجتمع تتعلق بالانجليز ، وذلك لما فى أخلاقهم وسلوكهم مما يدعو الى التأمل والدراسة ويلى ذلك الدراسات المتصلة بالفرنسيين أو بالمقارنة بين الانجليز والفرنسيين · ولهذا يجدر بنا أن نركز قليلا على هؤلاء · فهناك اجماع على أن الانجليز يميلون الى التجريب المادى ولا يتمسكون بالنظريات لذاتها ، وانهم يتمسكون بالفردية ـ وبصرف النظر عما ورد فى كتابات الفلاسفة الانجليز عن التجريب والمذهب التجريبى فى بريطانيا فأن عادة الاتجاه التجريبى فى التفكير شائعة فى كل نواحى الحياة عند الانجليز ـ فالسياسة الانجليزية والقانون الانجليزى مبنيان كلاهما على أساس تجريبى · بمعنى ان كلا منهما يعالج مسائل محدودة بالذات عند وقوعها ولا قبل وقوعها · ويمتنع الانجليز عن وضع مبادىء عامة فى أى أمر من الامور ويفضلون الحلول الجزئية شيئا فشيئا · فاذا أرادوا مثلا سن قانون ما فانهم يبحثون فى ضوء الحاجة المحدودة والعملية لهذا القانون · لكنهم لا يبحثونه أبدا فى ضوء متطلبات النظرية العامة للقانون وأمامنا مثال حى وملموس فى تصرفات بريطانيا فيما يتعلق بالازمة الايرلندية بين الكاتوليك والبروتستانت وبين ايرلندا الشمالية وحكومة لندن فى السنوان الاخيرة ·

ولنبحث اثر هذه العقلية الانجليزية ودورها فى السياسة الدولية : نلاحظ هنا أن القرارات الانجليزية تتسم بأنها محاولات متئدة حذرة تهدف الى حل جزء من المشكلة فاذا تم ذلك اتجهت الى حل جزء آخر وهكذا • وتتجنب هذه العقلية التحديد القانونى الدقيق كما انها لا تثق بما يسمى الحلول النهائية أو التخطيط بعيد المدى • ومن رأى بعض المفكرين الفرنسيين ان هذه الصفات الانجليزية هى العقبة الكؤود فى سبيل أى تعاون فرنسى انجليزى • وفى مقابل هذه العادة الانجليزية فى التفكير التى تفضل أن تحصر نفسها دائما فى الشىء المباشر والمتعين بالذات أمامها ، نجد العقلية الفرنسية تتجه دائما الى العام لا الى الخاص • وتتوق الى الحلول النهائية الواضحة المعالم والتى لا تقبل أى تأويل والمتوافقة منطقيا من جميع الوجوه •

والصعوبة الكبرى التى تعترض الباحثين فى شخصية أمة من الامم أو فى خصائصها القومية منشأها تنوع الجماعات القومية داخل المجتمع الواحد وافتقار بعضها الى التجانس فيما بينها • فأجزاء كل أمة متعددة • ومهما قيل عن تجانس الانجليز مثلا فان تقسيمات بريطانيا الاقليمية الى انجلترا ، اسكتلندا ، ويلز ، ايرلندا تجعل كثيرا من الفروق فى التفكير واضحة بين السكان • وكذلك نفس الظاهرة عند الفرنسيين فالبيكاردى يختلف عن الفاسكون والنورماندى يختلف عن السافويار • ومحاولات التوحيد بين الجماعات الاقليمية هى الشغل الشاغل للدول الاوروبية • الا اذا كان الامر يتعلق بالمستعمرات الاوروبية حيث نجد المستعمرين يعمقون هوة الاختلاف بين الجماعات واقسام المجتمع فى البلاد التى يستعمرونها •

ولا يخفف من حدة الفروق الاقليمية فى المجتمع الواحد الا وسائل المواصلات الحديثة السريعة التى تربط بين الاجزاء مع العناية الخاصة بتوحيد اللغة المسموعة فى الاذاعة ولهجة النطق بها وذلك عن طريق معاهد اللسانيات وخلق علاقات ثقافية واقتصادية تأسيسية أى لا غنى عنها بين أجزاء الوطن الواحد والقضاء عن طريق التعليم والتربية القومية على ما قد يوجد من فروق بين السكان •

وأهم الآراء فى موضوع الشخصية العامة للامة أو عقليتها أو خصائصها ما ذهب اليه « س • ف• ستاوت » فى كتابه : علم النفس الاجتماعى ويتلخص فى أن هذه

الشخصية أو العقلية أو الخصائص لا تظهر واضحة المعالم تماما الا فى حالة وحدة الامة واستمرار حياتها الواعية وهى أمور تؤدى بالضرورة الى سلوك متوافق بين الافراد ·

ونحن نخطىء خطأ كبيرا اذا تحدثنا عن الخصائص القومية لامة ما دون أن ندخل فى الاعتبار ثلاث مسائل :

أولا ــ امكان تجمع أفرادها بانتظام مهما كان عدد سكانها فقد يكون عدد السكان كبيرا ولكن فرص التجمع قليلة عندهم ·

ثانيا ــ البيئة الجغرافية · فكون أمة من الامم تعيش فى جزيرة أو مجموعة جزر مثل الجزر البريطانية يختلف عن العيش فى صحراء أو فى صحراء تتخللها المدن أو فى اقليم مزدحم بالسكان · فلابد أن تخلق الظروف البيئية اخلاقا وصفات معينة · فكثيرا ما يوصف البريطانيون بأنهم سكان جزر وأن كونهم محاطين بالبحر جعلهم يتهيبون الغريب ويتقنون علوم البحر ·

ثالثا ــ تاريخ الامة · وهو فى نظرنا أهم مقومات الشخصية لاية أمة · فمن هذا التاريخ الذى تحفظه كل أمة كأسمى مدخراتها الحضارية ، سواء فى صدور أبنائها أو فى بطون الكتب ويتناقله المواطنون من جيل ويروون أخبار بلادهم ووقائعهم التاريخية واحداثهم عن مقاومة المعتدين وما صاحب كل ذلك من تقاليد وصفات نضالية من كل أولئك تتأصل صفات الشعب وتقوى أصالتها مع مرور الزمن · ولذلك يكون الالمام بتاريخ الامة عملا ضروريا لمعرفة الخصائص القومية لابنائها ·

ولما كان تاريخ أمة خاصا بها ويختلف عن تاريخ أية أمة أخرى فالنتيجة المنطقية لهذا الاختلاف هى اختلاف أخلاق الشعوب وصفات أفرادها ·

وكثيرا ما يصعب علينا تفسير صفة من صفات أمة ما لاننا لم نحط تماما بكل مقومات بيئتها وثقافتها وكل أحداث تاريخها · وفى وسعنا أن نربط سلوك الشعب فيما يتعلق بعادات الطعام وما يفضله من صنوفه بظروف البيئة ومنتجاتها وما يسهل

استيراده من هذا الطعام وكذلك يمكن أن نربط بين موقف أى شعب من الاجانب بكثرة ما عاناه منهم فى تاريخه القديم ٠

ولابد لنا أن نطرح جانبا الفكرة القائلة بأن هناك خصائص محتومة لا مفر منها على الشرقيين أو الغربيين أو على الاوروبيين أو الافريقيين ، لا سبيل الى تغييرها ٠ وهذا البحث اختلط بآراء باطلة قصد من ورائها استغلال شعوبنا العربية والافريقية ٠ فالقول مثلا بأن الشعوب الافريقية ترفض التقدم ولا تعرف ماعندها من خيرات وان من حق الاوروبى أن يستعمرها ليخدم أهلها ويرقى بهم الى ما لم يستطيعوا تحقيقه من تقدم ، هذا القول يخفى وراءه الميول الاستعمارية ويمنح الاوروبى أو المستعمر حقوقا ليست له ٠ وفى التاريخ المعاصر للشعوب الشرقية والافريقية ما يثبت انها جادة وقادرة على النهوض وملاحقة الحضارة لو تركت حرة التصرف فى شؤونها الخاصة ٠ ويطول بنا المقام لو أردنا أن نذكر هؤلاء المفكرين الاوروبيين المنحرفين الذين خططوا للمستعمرين فى الماضى وقدموا اليهم التبرير العقلى لانقضاضهم على الشعوب المستضعفة ٠ ويكفى أن توالى الاحداث فى القرن العشرين تثبت ان كل فلسفاتهم باطلة وان الشعوب التى تخلصت من نير الاستعباد والتبعية تقف الآن على أرض صلبة لتعلن للعالم خصائصها الحقيقية ٠

وأود قبل أن أختم هذا المقال أن أوجه الانظار الى ضرورة أن يدرس العرب الاوروبيين ولو اقتضى هذا العمل زمنا طويلا فقد أشبعونا دراسات أطلقوا عليها مرة « الاستشراق » ومرة أخرى البحث من أجل البحث !! وكان من نتائجها انهم فهمونا دون أن نفهمهم وكفانا أن نذهب الى أوروبا للتخصص فى اللغة العربية وفقهها أو فى شعر الفرزدق أو الدين الاسلامى ٠ ان علينا أن نهجم على دراسة فلاسفة أوروبا وفلاحيها وعمالهم لنعرف ماخفى من خصائصهم القومية بدلا من أن نزيد من حصيلتهم عن خصائصنا ٠

الحلاج والقرامطة وماسينيون (1)

المرحوم د. محمود قاسم
عميد كلية العلوم
جامعة القاهرة سابقا

حاول لويس ماسينيون أن يصور لنا الحلاج نموذجا لمأساة التصوف فى الاسلام . وذلك أنه اعتقد أن الحلاج جاء يبشر بدين المحبة أو بحكم الله فى القلوب ، فضحى بحياته حتى يدعو الناس الى السمو عن حرفية الشرع وقشوره التى حجبت عنهم لبه وجوهره . غير ان ماسينيون يؤكد لنا ان الحلاج اعتمد فى تصوفه على بعض العناصر الاسلامية كهبوط آدم واسراء الرسول ، وهو يرى ان هذين العنصرين كان لهما أثرهما العميق فى بناء نظريته الصوفية التى يعرضها فى بعض فصول كتاب الطواسين ، أي فى طاسين الازل ، وفى آخر فصل فى هذا الكتاب وهو « بستان المعرفة » حيث يجعل العرفان أرقى مرتبة للسمو الروحى ، ابتداء من أول مرتبة فيه وهي طاسين السراج ايماء الى الشريعة المحمدية . لكن نلاحظ أن ماسينيون يعترف ضمنا باثر الفكر اليونانى والفكر الفارسى فى العصر الذى عاش فيه الحلاج ،

1) كان المرحوم قد أرسل الينا مجموعة من الدراسات القيمة قبل وفاته بايام قليلة ، سنشرع ابتداء من هذا العدد فى نشرها .

وان لم يكشف بوضوح عن تلك العناصر اليونانية والفارسية التى امتزجت فى المذهب الصوفى للحلاج مع أنها هي العناصر الجوهرية التى يـدور حولها مذهبه · فعلينا اذن أن نبـرز هذه العناصر التى نجـدها فى كتابات ماسينيون وفى كتابات غيره عـن الحلاج ممن كانوا اقرب الى العصر الذى عاش فيه هذا الرجل · غير أنه ينبغى ، قبل ذلك أن نبين انه كان أشد الناس تاثرا بفلسفة القرامطة وهي فلسفة باطنية فى جوهرها.

ولا بأس من أن نشير اشارة موجزة الى تاريخ حياة هذا الرجل بناء على ما نقـل الينا رواية عـن ابنـه وعن الآخرين الذين ترجموا لـه · لقد ولد الحسن بن منصور الحلاج فى البيضاء سنة 244 هـ ، ثم أقام فى واسط التى تقع بين بغداد والبصرة · فلما قامت ثورة الزنج ترك واسط فى سنة 260 هـ وذهب الى الاهواز لكي يتتلمذ على سهل بن عبد الله التستوى مدة سنتين · ثم سار الى بغداد على قدميه وهو فى الثامنة عشرة من عمره مارا بالبصرة ، أي فى الوقت الذى كانت ثـورة الزنـج تجتاح هذه المنطقة · وفى بغداد لقي بعض الصوفية ، كعمرو بن عثمان المكي والجنيد ، ثم تزوج بابنة أبى يعقوب الاقطع · وقد زار الجنيد بن محمد عدة مرات · ثم سافر الى مكـة فأقام بها سنة · وعندما رجع الى بغداد عاد ومعه جماعة قال انهم من فقراء الصوفية . ويقال انه ذهب الى الجنيد ووجه اليه سؤالا لم يجبه الجنيد عليه · ولهذا السـؤال مغزاه لانه يرتبط ارتباطا شديدا بمذهبه الصوفى وهو : « ما الذى يصد الخلق عـن رسوم الطبيعة » · ويمكن فهم ماذا كان يعنيه الحلاج بسؤاله هذا على ضوء التاثير المزدكى والدعوة الى تأويل العبارات على طريقة القرامطة بانها مجرد قواعد تنظيمية للحياة الاجتماعية ورموز يمكن تأويلها · كذلك « روى أن الحلاج مر يوما على الجنيد فقال له : أنا الحق · فقال له الجنيد : أنت بالحق · أية خشبة تلسد ؟ فتحقق فيه مـا قال الجنيد انه صلب بعد ذلك » (1) · ويميـل ماسينيون الى ان الحـلاج اختلف مـع صوفى آخر ، وهو عمرو بن عثمان المكي بسبب زواجه من ابنـة أبى يعقوب الاقطع ، فكان ذلك سبب القطيعة بينهما · لكن صاحب كتاب الفرق بين الفرق يرى رأيـا آخر ، وهو أن ابن عثمان المكي انما تبرأ من الحلاج لانه كان يقول : « يمكننى أن اقول مثـل القرآن » (2) ، وكان الحلاج يعنى ما يقول ، فقد ألف كتابه « الطواسين » يعارض بـه القرآن · وهذا هو ما أشار اليه محيى الدين بن عربى فيما بعد ، أكثر من مرة فى كتابه « الفتـوحات المكيـة » ·

(1) الفرق بين الفرق للبغدادى ص 262 .
(2) المصدر السابق نفس الصفحة .

ويرى ماسينيون ان الحلاج غضب من صوفية بغداد ، فأخذ زوجته ، ورحل بها الى تستر وأقام بها نحوا من عامين ، فأعجب بـه الناس اعجابا شديدا دعا الى اثارة حنق الصوفية المعاصرين له ، فأرسل عمرو بن عثمان الى صوفية « تستر » كتابه يجرحه فيه . فترك الحلاج لباس الصوفية وعقد روابط الصداقة بالعامة . ويقول أحمد بن الحلاج ان أباه تركه هو وأمه خمس سنوات ، وكان ذلك فى الوقت الذى بدأ فيه القرامطة نشاطهم الحربى ، فذهب الى خراسان وما وراء نهر جيحون ، ودخل الى سجستان وكرمان ، ثم عاد يعظ الناس ويدعوهم الى الله ، ونلاحظ أن هذه الدعوة تقترن بتاريخ الثورة الكبرى التى قام بها القرامطة فى 290 هـ ويضيف ابن كثير فى كتابه « البداية والنهاية » أنه ثبت ان الحلاج دخل الهند وتعلم بها السحر » وقال : أدعو به الى الله ، وكان أهل الهند يكاتبونه بالغيث ، ويكاتبه أهل خراسان بالميز ، وأهل فارس بأبى عبد الله الزاهد ، وأهل خورستان بأبى عبد الله الزاهد حلاج الاسرار ، وكان بعض البغاددة ، حين كان عندهم ، يقولون له : المصطلم ، وأهل البصرة يقولون : المحير ... وقد كان الحلاج يتلون فى ملابسه ، فتارة يلبس لباس الصوفية ، وتارة يتجرد فى ملابس زرية ، وتارة يلبس لباس الاجناد ، ويعاشر أبناء الاغنياء والملوك » (3) كذلك وصفه ابن الجوزى فيما بعد فقال : « كان الحلاج متلونا تارة يلبس المسوح ، وتارة يلبس الدراعة ، وتارة يلبس القباء ، وهو مع كل قوم على مذهبهم ، ان كانوا أهل سنة أو رافضة أو معتزلة أو صوفية أو فساقا أو غيرهم ولنا أن نضيف أن مسلك الحلاج فى تغيير اسمه ومهنته ومعتقده يتسق مع ما درج عليه دعاة الباطنية من القرامطة والاسماعيلية من تغيير أسمائهم ومعتقداتهم ظاهريا باختلاف المناطق التى يرتادونها تمهيدا لظهور صاحب الزمان أي صاحب دولة الفاطميين ، ثم لظهور صاحب القيامة الكبرى ، وتتلخص تلك القيامة الكبرى فى نسخ الشرائع وادعاء الالوهية ، بعد استقرار هذه الدولة .

ثم قصد الحلاج مكة للمرة الثالثة وجاور سنتين وادى فريضة الحج فى سنة 295 هـ ، ويقال انه قلد الرسول فخطب خطبة الوداع على جبل عرفات فى تلك السنة (4) ولما غاد الى بغداد عاد متغيرا عما كان عليه من قبل كما يقول ابنه أحمد . ويفسر ماسينيون هذا التغير بأن الحلاج وصل الى مرحلة « عين الجمع » ، وهي المرحلة

(3) البداية والنهاية ج II ص 133 .
(4) ماسينيون المصدر السابق ص 116 .

التى يستحوذ فيهـا الصوفى على الـذات الالهية فى أعمـاق نفسـه دون أن تنمحى شخصيته وأفعاله الارادية ٠ وتلك مرحلة أسمى من مرحلة العبادة الشرعية والوجد الصوفى (5) ٠ أما ابن الحلاج فيقول عن أبيه انه اشترى عمارة فى بغداد وبنى لنفسه منزلا وأخذ يعظ الناس بمذهب كان لا يعرف عنه الا قليلا ٠ واستقر الحلاج فى حـي التستريين على الشاطىء الايمن لدجلة حيث كان يسكن اتباعه من أعيان الاهواز الذين أقنعهم بالمجىء الى بغداد منذ سنوات ، ثم استطاع أن يستميل اليه قائدين وكثيرا من العامة وأدعى الالوهية فقال بعضهم انه مجنون وقال آخرون بل له معجزات ٠ ولنـا أن نتساءل فنقول وما مصدر هذا الثراء المفاجىء ؟ فهل سلك الحلاج مسلك صاحب الزنج فى جمع هذا المال ، أو اتبع منهج شيخ القرامطة مع المنتمين الى المذهب ، أم كان هذا المال ياتى عن طريق الاحتيال على البسطاء بأساليب السحر التى تعلمها فى الهند ؟ فقد قيل ان الحلاج كان يستخرج الدنانير من الارض وكان يجدها تحت وسادته أو يقبضها بيده مـن الهواء ، وكانت دائمـا دنانير من تلك التى يتداولها الناس فى عصره ٠ لكن بعض معجزات الحلاج أو كراماته أو حيلـه ربمـا أرشدتنا الى بعض مصادر ثروته ٠ وهنا سنعتمد على ما يرميه لنا « لويس ماسينيون » ، فقد أخبرنا أن جماعة من الصوفية زاروه ، فذهب بهم الى معبد مزدكى ، فطلب مفتاح المعهد فلـم يجده ، فمر بكمه أمـام القفل فانفتح الباب ، فدخل هـو وأصحابه ، فوجدوا شمعـة موقدة ٠ فقال لهم حارس المعبد ان هذه الشمعة لا تنطفىء لا ليلا ولا نهارا ، وقد أوقدها ابراهيم ولن يطفئها سوى عيسى بن مـريم ٠ فمـر الحلاج بكمه أمـام لهب الشمعة فانطفأت ، وظن الحارس أن تلك هي علامة الساعة فجعل يبكى أمام الحلاج فقال له : اذا أعطيت شيئا لهؤلاء المشايخ أوقدتها لك ٠ فأخرج الحارس صندوق النذور فأخذه الشيوخ ومد الحلاج كمه فاشتعلت الشمعة (6) ٠ كذلك روى لنا ابن الازرق ، عـن كثير من الشهود من بين أصدقائه ، قصة رجل اتفق مع الحلاج على الاحتيال ٠ ذلـك أن هذا الصوفى أرسل أحد أصدقائه الى قرية من قرى الجبل ، فتظاهر ، على عـادة الباطنية ، بالعبادة والتقوى وترتيل القرآن حتى اطمأن اليه أهل القرية ٠ ثم ادعى انه فقد بصره ٠ فأخذ بعض أهل القرية يقوده الى الجامع كل يوم ٠ ولما مضت سنة آمـن الناس جميعا انه فقد بصره دون رجعة ٠ فخرج عليهم يوما يقول انه رأى الرسول فى

(5) المصدر السابق ص 117 .
(6) المصدر السابق ص 91 .

المنام فاخبره أن رجلا صالحا سيمر بالقرية ، وانه سيمسح على عينيه فيعيد اليه البصر · فظل أهل القرية يترقبون هذا الرجل الصالح ، فجاء الحلاج فتوسلوا اليه أن يمسح على عينى صاحبهم حتى يسترد بصره · فنزل على رغبتهم بعد كثير من التمنع ، وشفى الرجل ، وتجمهر الناس حول الحلاج فصرفهم عنه وغادر القرية · أما مدعى العمى فقال لاهل القرية بعد قليل انه سيذهب الى الخلوة والعزلة شكرا لله الذى رد عليه بصره · لكنه سيعود · فاذا أراد أحدهم شراء شىء من المدينة فسيحضره له ، عند عودته · ويقول ابن الازرق ان هذا الشيخ المحتال حصل على آلاف من الدنانير اقتسمها مع الحلاج فيما بعد ·

لكن لنترك هذا القصص عن كرامات الحلاج أو حيله ، فان وقتنا لا يتسع لسرده · ولنعد الى حديث ابنه الذى يقول : انه قامت بين أبيه وبين جماعة من الصوفية مناظرات ومجادلات ، وقام بمعجزات وكان يجاب دعاؤه فاختلف الناس فى أمره ، فحبسه السلطان فاقام سنة فى السجن يزوره الناس · ثم منعت زيارته خمسة أشهر زاره فيها رجلان خلسة ، وهما أبو العباس بن عطاء وأبو عبد الله بن خفيف · ولما جاءت الليلة التى سيخرج فيها من زنزانته عند الفجر لتنفيذ الحكم فيه صلى ركعتين · وبعد أن فرغ منهما لم يفتأ يكرر : مكر ! مكر ! حتى قضى شطرا كبيرا من الليل · وبعد أن سكت طويلا صاح : حق ! حق ! ثم اتجه الى القبلة وجذب ، وتكلم مع الله · ثم يستمر ابن الحلاج ،يصف هذه اللحظات الاخيرة ، فيقول وكان معى ابراهيم بن فاتك وحفظنا بعض كلامه « فكان من مناجاته : نحن شواهدك نلوذ بسنا عزتك لتبدى ما شئت من شانك ومشيئتك وأنت الذى فى السماء اله وفى الارض اله ··· يا من تجلى لما شاء كما شاء كيف شاء ، مثل التجلى لاحسن الصورة ، والصورة هي الروح الناطقة التى أفردته بالعلم والبيان والقدرة ثم أو عزت الى شاهدك فى ذاتك الهوى اليسير لما أردت بدايتى » ويتضمن هذا الكلام القول بوحدة الوجود ·

وقد روى عن الشبلى أنه قال : كنت أنا والحلاج على فكرة واحدة ، فانقذنى جنونى وفقد عقله · وهذا ما يمكن تفسيره على ضوء ما قاله أبو منصر اليمانى عندما مر به وهو مصلوب : « علمت كما علمنا وبحت وكتمنا ، فضلبت ونجونا » ·

فما الذى كان ينبغى للحلاج أن يخفيه حتى ينجو ؟ ان من يدرس مذهب الحلاج فى كتابه الطواسين وفى ديوان شعره وفى رسائله يفاجأ بكثرة ما يحتوى عليه هذا

المذهب وتلك الكتابات من معتقدات نجدها عند القرامطة والباطنية الاسماعيلية بصفة عامة · وقد اعترف « ماسينيون » بأن الحلاج لما غادر بغداد وأخذ ينشر دعوته فى الاهواز كان يعتمد فى وعظه على مجموعة من الرموز التى اخذها من القرآن كالقلم واللوح المحفوظ والسماء والطارق والنجم الثاقب وهي الرموز التى كان يستشهد بها دعاة القرامطة ممن كانوا يجوبون فى هذا الاقليم (7) · فيستشهدون فى وعظ من يريدون ادخالهم فى مذهبهم بالآيات الظاهرة فى المخلوقات على أنها أدلة تشهد بصدق هذا المذهب · كذلك أشار الى أن الحلاج يشبه القرامطة فى أنه كان يدعو مثلهم الى دين عالمى ، لكن « ماسينيون » يريد أن يبرىء الحلاج من أن يكون قد ساهم بصورة ما فى حركة القرامطة التى كانت ، على حد قوله ، حركة تمرد ضد النظام باسم العدالة ، وشبيهة بحركة الخوارج الاول ، وان نادى القرامطة بامام علوى هو المهدى الذى انتشرت الدعوة الباطنية له فى أماكن عدة من العالم الاسلامى كالبحرين والاهواز والاحساء واليمن ومصر والمغرب ، وهي الدعوة التى تشيع لها كثير من الفلاسفة كاخوان الصفا والطبيب الرازى وبعض رجال الدولة ·

غير أننا نجده يتساءل بعد ذلك كله فيقول : هل حاول القرامطة ضم الحلاج اليهم · ويتظاهر بالموضوعية فيقرر أن هناك ما يدعو الى قبول هذا الاحتمال ، بناء على تماثل الرموز والاستعارات التى استعملها كل من القرامطة والحلاج فى استمالة العامة · لكنه لا يلبث أن يشكك فى الصلة بين الحلاج والقرامطة بدعوى أن الحلاج كان يعتقد أن العبادات الشرعية هي السبيل الى تحقيق الاتحاد الصوفى بالذات الالهية ، فى حين أن القرامطة يرون أن هذه العبادات ليست سوى رموز لقواعد ترمى الى تحقيق غايات اجتماعية · لكننا نميل الى رأي مخالف لاننا سنرى « ما سينيون » يؤكد فى موطن آخر أن الحلاج قال باسقاط شعائر الاسلام ، وعلى رأسها فريضة الحج ، هذا الى أن الدعوة واحدة والهدف واحد عنده وعندهم من الناحيتين الدينية والسياسية · فليس الاتحاد الصوفى عند الحلاج الا تاليها عند البشر · وقد وجد من آله خلفاء الفاطميين · وهذا هو ما روج له اخوان الصفا فى رسائلهم وما أعلنته الاسماعيلية الشرقية فيما بعد عندما جاء صاحب القيامة الكبرى وادعى الربوبية وقال بنسخ الشرائع ·

---

(7) ماسينيون ـ نفس المصدر ص 66 .

لقد ادعى الحلاج أنه بلغ مرتبة الكمال بعد عزلته الصوفية فى مكة فأصبح الاله الذى دخل فى نطاق الزمن وتجلى فى صورة الحلاج ، كما تجلى من قبل فى عيسى ، وفى هؤلاء الذين أدعوا الربوبية لانفسهم من أمثال ابن أبى الفوارس وغيره ، فأصبح الحلاج ، على حد زعمه ، « الشاهد الآنى » للذات الالهية · وقد حكى عن الحلاج أنه قال : « من هذب نفسه فى الطاعة ، وصبر على اللذات والشهوات ، ارتقى الى مقام المقربين ، ثم لا يزال يصفو ويرتقى فى درجة المصافاة ، حتى يصفو عن البشرية · فاذا لم يبق فيه من البشرية حظ **حل فيه** روح الاله الذى حل فى عيسى بن مريم ، ولم يرد حينئذ شيئا الا كان كما أراد ، وكان جميع فعله فعل الله · زعموا أن الحلاج ادعى لنفسه هذه الرتبة (8) · ويفسر لنا هذا الزعم سبب الخلاف بينه وبين الامامية فقد قالوا عنه انه اغتصب لنفسه حق الدعوة ، كما حاول الاسماعيلية اغتصابها من الامامية الاثنا عشرية ، وانه ادعى لنفسه حق تقرير قواعد العبادة وهي من حق الامام ، ثم انتهى بأن ادعى الربوبية التى هي لله وحده ، والتى لم يعهد بها حتى الى انبيائه (9) ·

وبعد ذلك كله ، يؤكد لنا « ماسينيون » ، دون دليل ، أن الحلاج لم يكن قرمطيا ولم يكن مبتدعا دينيا ، بل كان متصوفا سنيا ، يجمع بين القواعد التقليدية للعبادة وبين التجارب الصوفية الذاتية ، ويؤمن بأن عيسى هو خاتم الاولياء ، وانه سيتجلى أمام البشر جميعا باسم الملك الازلى · فليس المسيح اذن سوى تجسد زمنى لنور الذات الالهية · غير أن « ماسينيون » يسلم بأن الحلاج كان على صلة وثيقة بالفكر اليونانى وبالزنادقة وبالقرامطة ، فقد اطلع على ترجمة التراث الفلسفى اليونانى واتصل بسنى مطعون فيه بالزندقة وهو الطبيب الرازى ، كما كان على صلة بأبى سعيد الجنابى الكبير وبكبار الدولة السامانية وبأمير الطالقان · وتفسير « ماسينيون » لصلة الحلاج بالقرامطة تفسير طريف يستحق أن يكون موضوعا للتامل · ذلك أنه يقول ان الحلاج كان يريد أن يضمهم الى الصوفية ، كما حاول ذلك فيما بعد مع ابن حمدان ونصر القشورى وهما من كبار رجال الجيش فى دولة الخليفة العباسى (10) وما نظن ، حسب فهمنا نحن ، أن القرامطة كانوا فى حاجة الى ما يدعوهم الحلاج اليه ، اذ كان لهم عمل

(8) الفرق بين الفرق للبغدادى وانظر الطواسين ص 133 – 134 ·
(9) ماسينيون نفس المصدر ص 115 ·
(10) نفس المصدر ص 74 ·

آخر يعرفه الحلاج جيدا · وقد سبق أن أقسم بالسنة التى سيبلغ فيها هذا العمل أوجه من العنف · وهي سنة 290 هـ · ومن جانب آخر فان بعض رؤساء القرامطة ادعـوا لانفسهم الربوبية كما ادعاها الحلاج لنفسه · فكيف يفكر فى ضمهم اليــه اذا كانوا عــلى مذهبــه ؟

أما اتصاله بكبار رجال الدولة وبأمراء الجيش فيمكن تفسيره تفسيرا يتسق مــع طبيعة تلك الفترة التاريخية الحاسمة التى كانت تتمخض عن دويلات جديدة فى المشرق تساند دولة الفاطميين فى المغرب ، وهي فترة تحتاج الى الاعوان من داخل الحصن المحاصر أو الى ما يسمونه « الطابور الخامس » · ففى مثل تلك الفترة يجند دعـــاة الدولة الجديدة كل رجل يمكن أن يفيدوا منه من الدولة القديمة · وهذا هو ما يعترف به « ماسينيون » عندما يحدثنا عن أسلوب الحـــلاج فى تجنيد بعض رجال الخليفة المقتدر كمحمد القنائى وأخيه فيقول : « لقد كان منهجه فى الدعوة بسيطا وجريئا فى محاولة ضم مختلف الرجال من مختلف الاتجاهات الى مذهبه ، مستخدما مع كــل منهم مصطلحاته ، وهو المنهج الذى وصفه خصومه بأنه ضرب من الخديعة ، لانه كان ينتسب الى الاعتزال اذا قصد مدينة تدين بالاعتزال · أما اذا كانت من الامامية فانــه ينتسب الى الامامية · » وليس هذا المنهج البسيط الجرىء الا منهج دعاة الاسماعيلية فى ضم الاتباع اليهم ، وبخاصة من الرافضة · أما فيما يتصل بتجنيد رجال الدولــة للدعوة الجديدة فقد روى البغدادى فى كتابه « الفــرق بين الفــرق » : « ذكروا أنــه استمال ببغداد جماعة من حاشية الخليفة ، ومن خدمه ، حتى خاف الخليفة ، وهــو جعفر المقتدر بالله ، معرة فتنته فحبسه ، واستفتى الفقهاء فى دمه » ومن المؤكد أنـــه استمال رجالا لهم خطرهم كنصــر القشورى الذى لبس ثيــاب الحداد بعد مصــرع الحـــلاج (11) ·

أما أسلوب الحلاج فى استمالة العامة عن طريق السحر أو التظاهر بأنه عــلى مذهبهم فقد نبهنا اليه ابن كثير عندما قال : « ولما ورد بغداد جعــل يدعو الى نفســه ويظهر أشياء من المخاريق والشعوذة ، وغيرها من الاحوال الشيطانية · واكثر مــا كان يروج على الرافضة ، لقلة عقولهم ، وضعف تمييزهم بين الحق والباطل » (12)

(11) نفس المصدر ص 294 .
(12) البداية والنهاية جـ 11 ص 137

واذا كانت دعوته استمالت كثيرا من السذج فى الطالقان فانها لم تلـــق النجاح فى بغداد « لبعد أهل العراق عن الانخداع » (13) .

وأمام هذه الحقائق لا يجد « ماسينيون » مفرا من التسليم بأن هذا الاسلوب البسيط الجرىء فى ضم الاتباع يشبه أسلوب القرامطة فى الدعوة التدريجية الى طائفتهم . لكن سرعان ما يفرق بين هذين الأسلوبين تفرقة مصطنعة ، فيقول : لم يكن هذا الاسلوب عند الحلاج الا منهجا تعليميا . وفى رأينا أن هذا لون من الدفاع الساذج ، لان هذا المنهج البسيط هو الذى دفع بعنق ابن عطاء الله الى سيف الجلاد كما دفع بآخرين من أتباع الحلاج الى التهلكة . وهو فى الوقت نفسه المنهج التعليمى الذى طبقه اخوان الصفا لتجنيد طبقات الاسماعيلية وهي عندهم نفس مراتب أو طبقات القرامطة . وقـد حدد اخوان الصفا هذا المنهج التعليمى الذى طبقه القرامطة والحلاج على حد سواء فقالوا : « ينبغى لمن حصلت له هذه الرسائل من اخواننا الكرام أن يدفع منها الى كل من يستحق ما يقرب من فهمه ، وما يعلم أنه يصلح له أو **يليق بمرتبته** أولا فأول ، على الترتيب الذى رتبناه فى رسالة الفهرسة » (14) .

ويحاول « ماسينيون » جاهدا أن يبرىء الحلاج من أية نزعة سياسية ، دون أن يفلح . فهو يقول : **أعتقد** أن الحلاج ، مع بقائه خاضعا للسلطة القائمة فى البلد الذى عاش فيه ، كان يسلم نظريا بأحقية العلويين فى المطالبة بالامامة » (15) أما نحن فنجد فى هذا القول دليلا كافيا على صلة الحلاج بالقرامطة والاسماعيلية ، لانه فشـــل فى ضم زعيم الامامية الاثناعشرية الى مذهبه . أما خضوعه للسلطة الحاكمة فذلك أمر يسهل تفسيره بدوافع عديدة ، كدافع التقية وهو مبدأ يسلم به العلويون عـادة ، أو كالرغبة فى أداء رسالة معينة وهي كسب الاعوان فى حاشية الخليفة وفى أمـراء جيشه بل فى أسرته أيضا وهذا ما حققه الحلاج بالفعل . وهذا تفسير أكثر قبولا لدى العقل . ومن السذاجة فى التفكير أن نترك هذه القرائن كلها حتى نسلم بأن الحــلاج كان يؤمن بحق العلويين فى الامامة من الوجهة النظرية فحسب . ويبقى من المقــرر أننا لا نتهم « ماسينيون » فى عقله أو تفكيره ، وان جاز لنا أن نتهمه فى عاطفته عندما يحاول ايهامنا أن الحلاج ظل فى الاتجاه السنى فى الوقت الذى يدعو فيـه للامـام

(13) ابن خلكان وفيات الاعيان ص 408 .
(14) رسائل اخوان الصفا 4 ص 288 .
(15) ماسينيون نفس المصدر ص 73 .

العلوى الاسماعيلى وفى الوقت الذى يزعم فيه أن الله حل فى روحه ، وأنه التجسد الزمنى للاله الذى يترك ساحة الازل لكي ينخرط فى الزمن كما قيل بالنسبة الى تجسده فى عيسى وفى ابن أبى الفوارس · والحق أن الحلاج لا يريد أن يكون مسيحيا كما ظن « ماسينيون » وبعض تلاميذه · وانما أراد تأليه البشر بادئا بنفسه عندما زعم أنه رب الارباب · فقد نقل الينا البغدادى : « أنهم ظفروا بكتب له الى أتباعه ، عنوانها من « الهو » الذى هو رب الارباب ، المتصور فى كل صورة الى عبده فلان · فظفروا بكتب أتباعه اليه وفيها : يا ذات الذات ! ومنتهى غاية الشهوات ! نشهد أنك المتصور فى كل زمان بصورة ، وفى زماننا هذا بصورة الحسين بن المنصور · ونحن نستجيرك ونرجو رحمتك يا علام الغيوب » (16) وتلك هي فكرة « الشاهد الآنى » التى شرحها «ماسينيون» ووضحها فى كتابه وفى تعليقاته على كتاب الطواسين للحلاج ·

هذا الى أن الحلاج لم يكن هو الوحيد الذى ادعى الربوبية فقد ادعاها أحد أتباع مذهبه فى القرن الخامس ، وكان معاصرا للامام الغزالى ، كما أشار الى ذلك « ماسينيون » وقد حدثنا الغزالى عن الحمقى من الناس الذين يسارعون الى اعتقاد الباطل تجملا به وتظاهرا بفهمه مع تركهم الحق الواضح لانه جاءهم عن طريق التقليد، فقال : ان بعض الادعياء فى عصره لقب نفسه بناصر الحق ، وزعم العصمة لنفسه ، فصدقه الحمقى من سكان هذا القطر ، وآمنوا بعصمته ، وهرعوا اليه بأموالهم لكي يقطعهم أرضا فى الجنة ، فكانوا لا يترددون فى شراء الذراع فيها بمائة دينار · ويرى الغزالى أن هذه الحماقة ليست وقفا على هؤلاء الذين سارعوا الى قبول فكرة الامام الاسماعيلى المعصوم ، بل هي نهب مشترك بينهم وبين الحمقى من عامة الناس بدليل أن مدعيا فى جزائر البصرة ، وهو أبو عمرة (17) ، لم يكتف بادعاء العصمة وقيامه مقام الرسول ، بل زعم الربوبية لنفسه « وقد شرع دينا ، ورتب قرآنا ، ونصب رجلا يقال له على بن كحلا ، وزعم أنه بمنزلة محمد ، صلى الله عليه وسلم ، وأنه رسوله الى الخلق · وقد بلغ عدد الحمقى الذين آمنوا به زهاء عشرة آلاف نفس ، مع أنه ادعى العصمة وما فوقها لنفسه ، عندما قال أن الله قد حل فيه وفى جده من قبل» (18)

(16) الفرق بين الفرق .

(17) ماسينيون ، نفس المصدر ص 335 ، ويسمونه سيدنا وهو أسمى ألقاب طائفتهم وكان أحول العينين .

(18) الغزالى فضائح الباطنية — وانظر كتابنا دراسات فى الفلسفة الاسلامية الطبعة الثالثة دار المعارف .

ويبدو أن الحمقى فى بغداد لم يبلغوا هذا العدد والا لقامت الثورة فيها عقب مصرع الحلاج كما كان يتنبأ بعض هؤلاء الذين أرادوا أن يثنوا الخليفة عن تنفيذ الحكم فى الحسين ابن منصور ·

ويبدو أن « ماسينيون » يشعر بينه وبين نفسه بكثير من الحرج عندما ينكر الصلة بين الحلاج والقرامطة ، لانه كثيرا ما يعود الى تلك المسألة محاولا تبرئة صاحبه من الاشتراك فى التآمر على الدولة السنية التى يعيش فيها ويخضع لقوانينها · لذلك نراه يقول بأنه من الممكن أن الحلاج ، فى أثناء دعوته الصوفية التى تركزت فى خراسان وفى جوزجان والطالقان ، عبر علنا عن **آرائه السياسية** لهذه البلاد السنية التى كانت تميل ، مع سنيتها ، الى آل البيت · فلما سمع الناس كلامه عن عودة المسيح ، واقتراب الساعة ظنوا ، بناء على التقاليد المتوارثة أن مجيء المهدى قد أصبح أمرا مؤكدا وأن ذلك بشارة بالنصر القريب للعلويين ، وقد حدث ذلك فى نفس الوقت الذى كان فيه دعاة الباطنية يبشرون أيضا فى خراسان جنبا الى جنب مع الحلاج بظهور صاحب الزمان وهو المهدى بعد أن حددوا لظهوره سنة 290 هـ · لكن لنا أن نتساءل : وأي شيء يمنع من أن يقتسم الدعاة الفاطميون ، سياسيين كانوا أم متصوفة ، العمل السياسى فيما بينهم ؟ وما الذى يحول أن تكون هناك دعاية دينية أكثر خطرا يقوم بها الحلاج دعما للعمل السياسى والحربى الذى ينهض به القرامطة منذ عدة سنوات ؟ لقد أظهر « ماسينيون » عجبه الشديد من هذا التوافق المذهل بين الحلاج والقرامطة فى هذه النقطة على الرغم من أن دولة الفاطميين لم تظهر الا فى 299 هـ (19) وقال ان ذلك التاريخ المشترك بين الحلاج والقرامطة يوجد على رأس أحد الاحاديث القدسية للحلاج وهو الحديث الخامس عشر وفيه يقسم بجوهر الميزان وبسنة 290 هـ ، ويتحدث عن الانوار الالهية والارواح التى يتبع بعضها بعضا حتى اليوم الذى يبشر بالسنة السابعة للرسالة ·

غير أن « ماسينيون »يحاول التملص هنا بأسلوب قد يظنه بعضهم ضربا من الموضوعية ، ويراه آخرون ضربا من الدهاء الساذج · فهو يقول : كدت أميل الى القول بأن هذا التاريخ دليل على أنه دخل فى نظام القرامطة · لكن ذكره للسنة السابعة للرسالة يدل على بدء حياته العامة ، ويشير الى أن الله سيعهد اليه برسالة فردية

(19) وهي نفس السنة التى انتشر فيها ذكر الحلاج كما يقول ابن النديم · ويفسر لنا ذلك كثيرا من الامور التى أحاطت بحياة الحلاج منذ ذلك التاريخ ·

وشخصية أي برسالة صوفية · ومن الضروري أن يقهر المرء عقله أو يسخر منه حتى يقبل تفسير « ماسينيون » الذى لا يمكن قبوله فى حين أن هناك تفسيرا آخر أكثر قبولا · فان ذكر السنة السابعة للدعوة له دلالة واضحة عند الاسماعيلية التى كانت تنتظر ظهور صاحب الزمان ، وهو المهدى المنتظر الذى ينحدر من نسل الامام السابع فى سلسلة أئمة آل البيت · هذا الى أن الاسماعيلية كانت تعرف أيضا بالسبعية · ويعود « ماسينيون » الى الشك فى جدوى محاولة تبرئة الحلاج من الدعاية السياسية فيتساءل مرة أخرى . هل شاطر الحلاج أهل خراسان أملهم السياسى وردد معهم تاريخ سنة 290 هـ ؟ ويجيب بأن هذا التفسير ممكن فعلا وهو يتسق مع نص تاريخى معاصر له يعد أقدم وثيقة تاريخية عن الحلاج ··· ومضمون هذه الوثيقة أن الحلاج كان يدعو الناس فى بدء حياته الى العلويين ، وبأنه كان يقوم بالدعاية فيثير محبة الناس لآل البيت وذلك اما لصالح صاحب الزمان (أي المهدى) واما لفكرة الامام المعصوم بصفة عامة · وقد قال البلاذورى ان الحلاج كان يطلب الى أعوانه أن يدعوا للرضا من آل محمد دون أن يسموا أحدا · وأخيرا أليس لنا أن نكتفى بمثل هذه النصوص والشواهد التى نجدها عند « ماسينيون » لنذكر أن تبرئة الحلاج من الاتصال بالقرامطة لا تستند الى اي أساس موضوعى ·

ومن جانب آخر فان زيارات الحلاج العديدة لخراسان والطالقان والاهواز ، وجرجان وأصفهان وشيراز وقم ونهاوند والبصرة وبغداد ثم العودة الى مركزه الاساسى فى تستر ليست دليلا على حياة صوفية وذاتية ، بل طابع التجول السياسى فيها يفجأ البصر مما دعا « ماسينيون » نفسه الى التساؤل عما اذا كانت هناك صلة بين الدعاية الصوفية والدعاية السياسية للقرامطة فى تلك المناطق التى كانت مسرحا لدعاية مركزة يقوم بها أحد أبناء ميمون القداح منذ سنوات عديدة ؟ والحق أننا لا نرى موجبا لهذا التساؤل ، الذى يمكن أن يوصف بالسذاجة أو الدهاء · ذلك أن كلتا الدعايتين وجهان لعملة واحدة · فقد مزج الباطنية السياسة بالتصوف كما ظل دعاتهم من الفلاسفة ، ونعنى بهم اخوان الصفا وغيرهم ، يمزجون بين الفلسفة والتصوف ويبشرون خلال هذا المزج كله بصاحب القيامة الكبرى الذى سيفسر البعث والحشر والثواب والعقاب تفسيرا يتسق مع الاسس التى قامت عليها الدعوة الباطنية منذ نشأتها ، اي على أن هذه الامور كلها مجرد رموز (20) ·

(20) أنظر كتابنا جمال الدين الافغانى حياته وفلسفته . الفصل الخاص بالباطنية .

هذا الى أن تقسيم العمل بين أهل الدعوة الواحدة أمر توجبه دقة التخطيط والتنفيذ معا . ففى الوقت الذى تخرب فيه جيوش القرامطة مدن العراق والشام والبحرين كانت الدعاية الصوفية ، أو السياسة ان شئت ، تؤدى مهمتها بنشاط فى الاقاليم التى انسلخت منذ عهد قريب عن الدولة العباسية ، ولاسيما اذا كانت هذه الاقاليم تدين بمذهب أهل السنة وهو مذهب الخليفة فى بغداد .

وهناك شىء يدعو الى العجب وهو أن ماسينيون ، على الرغم من سذاجة حججه لا يمل من التساؤل عن مدى الصلة بين القرامطة وبين الحلاج . ويمكن تفسير ذلك الاصرار العجيب ، فى الدفاع عن أمر لا يمكن الدفاع عنه ، بكثرة القرائن التى تشهد بوجود هذه الصلة مما يدعو ماسينيون الى محاولة هدم هذه القرائن واحدة بعد أخرى متظاهرا بالموضوعية التى قل أن تقنع أحدا ، بل هي أحرى أن تثير الشك وتكاد تفوح منها رائحة سياسية معاصرة ترمى الى تجميد الوضع فى العالم الاسلامى الراهن على نحو ما كان عليه فى القرن الرابع الهجرى . وربما فسر لنا هذا الفرض الدور السياسى الذى قام به « ماسينيون » فى القرن العشرين فى كثير من البلاد الاسلامية وفى الجزائر والشمال الافريقى بصفة خاصة ، والدعاية المركزة فى كثير من البلاد لاسطورة الحلاج .

ولا نريد أن نثقل على الآخرين بأن نستقصى جميع محاولات « ماسينيون » للبرهنة على عدم وجود صلة ما بين القرامطة وبين الحلاج . فهي لا تخرج عن طبيعة المحاولات التى عرضناها حتى الآن . وتكاد تنحصر مهمة « ماسينيون » هنا فى التشكيك فى كل نص قديم يشير الى أن الحلاج كان يدعو الى المهدى الاسماعيلى .

كذلك وقف ماسينيون وقفة طويلة أمام نصوص عديدة تشهد بزيارة الحلاج للهند لتعلم السحر الذى سيدعو به الى الله ، على نحو ما كان يفعل دعاة القرامطة . ومع اعترافه بهذه الزيارة فان منهجه فى تجريح هذه النصوص لا يختلف كثيرا عن منهجه فى محاولة البرهنة على عدم وجود صلة بين الحلاج والقرامطة عن طريق الطعن فى نصوص عديدة أخرى . وقد رأى أن يتصدى لابن حزم الذى اتهم الحلاج بالشعوذة حتى يؤكد لنا أن الحلاج كان صاحب معجزات . ولن نستطرد هنا لمسالة المعجزات أو الحيل فربما عرضنا لهذه المسالة فى مناسبة أخرى بشىء من التفصيل ، وان كنا لا نكتم اشفاقنا على المجهود الذى بذله « ماسينيون » فى البرهنة على صدق وجهة نظره ، مع أنه يؤكد لنا أن بلاد الهند التى زارها الحلاج كانت تموج فى تلك الفترة

بدعاة القرامطة والاسماعيلية · لقد قال الذهبي في كتابه « ميزان الاعتدال فى نقد الرجال » ، « الحسين بن منصور المقتول على الزندقة ، ما روى ، ولله الحمد ، شيئا من العلم · وكانت له بداية جيدة ، وتاله وتصوف · ثم انسلخ من الدين وتعلم السحر ، وأراهم المخاريق · اباح العلماء دمه فقتل » أما رد « ماسينيون » على هذا النص ، فيتلخص فى أن الله ابتلى الذهبي بالعمى فى آخر حياته ، كانه يوحى بأن ذلك العمى كان أحد كرامات الحلاج بعد مصرعه !

ولن تغرينا طرافة هذا الموضوع الخاص بكرامات الحلاج أو معجزاته أو حيله على أن نستطرد أكثر مما فعلنا ، بل علينا أن نستمر فى البرهنة عن طريق كتابات « ماسينيون » على أن الحلاج كان يقوم بمهمة سياسية فى المقام الاول · فقد نقل الينا هذا المستشرق قصة طرد الحلاج من مدينة « قم » عندما أراد ضم أهلها الى دعوته فارسل كتابا الى أحد كبرائها وهو ابن بابويه يدعى فيه أنه رسول الامام اليه · فلما لقيه ابن بابويه رفض الاستجابة اليه وأمر بضربه ، وسخر منه ومن معجزاته ، ثم شيعه بلعناته · فلم ير أحد الحلاج فى مدينة « قم » بعد ذلك أبدا (21) ·

وقد اخفق الحلاج ايضا فى استمالة كبير الامامية ببغداد وهو أبو سهل اسماعيل ابن نويخت وكان لاسرته فى بغداد مكانة كبيرة شبه مكانة أسرة البرامكة فى صدر دولة العباسيين · وقد مهدت أسرة بنى نويخت هذه الدولة بنى بريه فيما بعد · وكان أبو سهل رئيس هذه الاسرة شاعرا ومتعلما وهو الذى اتجه بالامامية الاثناعشرية الى اعتناق آراء المعتزلة وله كتاب ضد الغلاة من الشيعة القائلين بتأليه الامام · فهو اذن صيد ثمين فى نظر دعاة الدولة الاسماعيلية فى دور الظهور · وقد روى ان الحلاج ظن أن أبا سهل بن نويخت ربما صدق دعوته وآمن بمعجزاته وأعانه على أمره فكتب اليه بانه **وكيل صاحب الزمان عليه السلام** ، وكانت تلك هي الخطوة الاولى فى محاولة ضم الاعوان التى تتلوها خطوات أخرى ، كما هي عادة دعاة الغلاة من الباطنية · ثم أخبره الحلاج فى كتابه أن صاحب الزمان قد كتب اليه لكي يطلعه على المعجزات الكفيلة باقناعه · « ذلك أن صاحب الزمان يشفق عليك وهو يريد أن يضمك اليه » فأجابه أبو سهل : انى أسألك عن شيء صغير جدا لا تعجز عنه الى جانب ما جرى على يديك حتى الآن » ثم يرجو الحلاج أن يعيد اليه سواد شعره لانه يحب الجوارى ، وعنده عدد كبير منهن · لكنهن ينفرن منه لبياض شعره مما يضطره الى صبغه · ثم

(21) ماسينيون ، المصدر السابق ص 152 ·

يقول له انه لو أعاد اليه سواد شعر لحيته لاسرع اليه ولاطاعه ولتكلم بلغته ، ولاعتنق مذهبه بكل ما لديه من ذكاء ، وسيكون خادما له ثم يطمئنه فى نهاية كتابه قائلا : اجعل الشعر الاسود ينبت فى لحيتى وساقول لك انك نائب الامام أو الامام أو الرسول أو اللـــه ان شئـت !

ويجب أن نقدر « لماسينيون » اعتداله فى نقد تلك القصة التى لا ينكرها • فقد فسر مسلك أبى سهل بن نويخت بأنه كان متأثرا بصديقه أبى على الجبائى شيخ المعتزلة ، وهو رجل شديد النقد لكرامات الصوفية أو حيلهم ، وبأن ابن نوبخت اعتقد ، مـــن جانب آخر ، بسبب خبرته السياسية الطويلة ، أن الحلاج ليس الا أداة فى يد مؤامرة سياسية ضد السلطة القائمة • ومن ثم رأى من المناسب أن يدرسه عن كثب لكي يعجم عوده • وانا لنتفق تماما مع « ماسينيون » فى هذا التفسير لانـــه يؤكد مـــا جاء فى نصوص كثيرة ، رواها « ماسينيون » نفســـه ، من أن الحـــلاج كان من أكبـــر دعـــاة القرامطة ، بل يمكن القول بناء على كتابه الذى ارسله الى ابن نوبخت ، بأنه كان يحتل فى التنظيم السرى للاسماعيلية درجة عالية هي درجة الحجة أو الباب • لكننا لا نتفق مع « ماسينيون » عندما ينسب الى بنى نويخت أنهم هم الذين أوقعوا بالحلاج واتهموه بادعاء الربوبية بعد أن نجح فى استمالة بعض خصومهم السياسيين من كبار رجـــال الدولة (22) ، ولا سيما أن الاوراق التى ضبطت مع الحلاج عندما قبض عليه فى مدينة السوس كانت تشهد بادعائه للربوبية : ولقد لجأ « ماسينيون » فى تجريح بنى نوبخت الى أسلوب لا نرضاه لباحث موضوعى فانه يصر على أن الحلاج كان متصوفا سنيـــا حاربته أسرة شيعية ، مع أن الحكم على زندقة الحلاج كان باجماع الفقهاء من أهـــل السنة ، وان حاول « ماسينيون » الطعن فى نزاهتهم • ان « ماسينيون » يعرف الشىء الكثير عن حقيقة تصوف الحلاج وعن مدى تاثره بآراء المانوية والمزدكية والفيثاغورية وماسونية القرامطة • وقد كان ينبغى له أن يتحرج بعض الشىء فى وصف الحـــلاج بانه متصوف سنى ما دام يعترف فى الاقل بأن الحلاج كان يؤكد أن الولى أسمى مرتبة مـــن النبـــى •

ويكفى أن نقرر أن مسلك « ماسينيون » فى هذه التهمة التى يوجهها الى الامامية الاثناعشرية تفوح منها رائحة سياسية معاصرة • وكان ينبغى له أن يشيد ، على عكس ذلك ، بحنكة أبى سهل بن نويخت وذكائه وبعد نظره السياسى • وهل لنا أن نـــزعم

(22) ماسينيون ــ المصدر السابق ص 157 .

ان « ماسينيون » يتظاهر هنا بعدم الفهم ؟ فمن الثابت أن الاسماعيلية فى دور الستر كانت حريصة على جر الامامية الاثناعشرية وراءها فى الثورة السياسية ضد الدولة العباسية السنية منذ منتصف القرن الثانى · لكن بنى نوبخت فى أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع كانوا أكثر فطنة مما تصور دعاة القرامطة ، لانهم رأوا أن التحالف مع أهل السنه فى تلك المرحلة الدقيقة أفضل بكثير من الانضمام الى دولة جديدة بدأت طلائعها بثورة الزنج ثم امتد نشاطها فى ثورة القرامطة التى كانت لا تفرق فى حروبها غير الانسانية بين أهل السنة وبين الامامية الاثناعشرية (23) · وقد أدت فراسة بنى بويه الى نتائجها · فاستولى بنو بويه على السلطة الزمنية ابتداء من سنة 334 وان لم يحل ذلك دون سيطرة الاسماعيلية على الحكم فى بغداد لفترة من الزمن فيما بعد · وقد أراد « ماسينيون » أن يربط بين استيلاء البويهيين على السلطة وبين انتهاء غيبة الامام الاثنى عشرى الصغرى وقيام الغيبة الكبرى (24) بعد أن تحققت للامامية الاثناعشرية أهدافها السياسية ·

وقد سلك « ماسينيون » مسلكا ضعيفا فى الدفاع عن الحلاج عند حديثه عن محاكمته · فهو يصر أصرارا عجيبا على نفى الصلة بين الحلاج وبين القرامطة بالرغم من كثرة الشواهد التى تؤكد وجود هذه الصلة فى الاوراق التى ضبطت مع الحلاج وقدمت الى هيئة القضاء ، تلك الاوراق التى كانت تحتوى على كثير من الرموز والنظريات التى لم تفهم فى بدء المحاكمة سنة 301 ثم بدأ فك رموزها فيما بعد · وقد حاول ماسينيون أن يزعم أن الحلاج لم يحاكم كقرمطى أو داعية من دعاتهم ، بل حوكم بتهمة الزندقة وادعاء الربوبية فحسب كأنما ينسى أن تهمة الزندقة وجهت من قبل الى دعاة القرامطة كابن أبى الفوارس ، كما ينسى أن الحلاج انما أدين فى المقام الاول لمحاولة أبطال فريضة الحج ، وأن القرامطة انتقموا له بهدم الكعبة ونزع الحجر الاسود منها ، وقالوا انهم نزعوه بأمر وردوه بأمر (25) ·

ومهما يكن من امر ، فان محاكمة الحلاج التى امتدت من سنة 301 هـ الى 309 كشفت عن أمور كثيرة أهمها ما تميز به القضاء الاسلامى ، حتى فى أحلك عصوره

(23) فيما بعد أي فى سنة 352 أثار عضد الدولة بن بويه الصراع بين هاتين الطائفتين .

(24) ماسينيون ، نفس المصدر ص 159 .

(25) انظر مقالنا السابق الحلاج والقرامطة .

وفى فترة الرعب التى كان يعيش فيها أهل العراق ، عن شدة الحرج من اصدار حكم بالتكفير على من ينطق بالشهادتين • وهذا الحرج هـو الذى يصفه ماسينيون بانـه كان من أسباب ضعف الدولة الاسلامية (26) ، وان اعترف بأن اجماع الفقهاء عـلى ادانة الحلاج لم يتم ، الا بعد أن اقتنع الناس بزندقة الحلاج الذى يرى أن النطـق بالشهادتين فى مرحلة من مراحل تصوفه يعد شركا ، وأن صلاة العارفين تعد كفرا •

ولا نـريد أن نعرض لتفاصيل محـاكمة الحـلاج ، التى يمكن أن تعرض بصـور مختلفة ، بل سنقتصر على ذكر الوقائع التى تتصل بموضوع الصلة بين الحـلاج والقرامطة • فقد فر الحلاج عندما بدأت الشكوك حوله فاختفى فى مدينة السـوس وجعل يدعو الى الله سرا على حد قول « ماسينيون » ، وظل يتـابع دعوته هذه حتى قبض عليه «صادفة » وكان السبب فى أخـذه أن صاحب البريد بالسوس اجتـاز فى موضع بالسوس يعرف بالربض والقطيعة • فرأى امرأة فى بعض الازقة وهي تقول : ان تركتمونى والا تكلمت • فقال لاعرابى معه : اقبضوا عليها • فقال لها : اي شـىء عندك ؟ فجحدت » • فأحضرها منزله وتهددها . فقالت : قد نزل فى جانب دارى رجل يعرف بالحلاج ، وله قوم يصيرون اليه فى كل ليلة ويوم خفية • ويتكلمون **بكلام منكر** • فوجه من ساعته الى جماعة من اصحابه وأصحاب السلطان ، وأمرهم بكبس الموضع ففعلوا • فأخذوا رجلا أبيض الرأس واللحية • قبضوا عليه وعلى جميع ما معه (27) •

وقد وجدوا معه أيضا نقودا فضية ومسكا وثيابا وعنبرا وزعفران • ثـم سالوه هل أنت الحلاج ؟ فانكر • ولما ذهبوا به الى دار صاحب البريد انكر انه الحلاج • لكن تعرف عليه أحد الحاضرين • فساروا به الى بغداد • فادعى أولا **أنه المهدى** ، ثم غير أسلوبه فقال انه رجل تقى يعبد الله • ولما دخل بغداد فى شهر رجب سنة 301 نـودى عليه بأنه أحد رجال القرامطة • ثم حبس مدة طويلة فافتتن به جماعة من الناس ومن بينهم نصر القشورى وتناقل الناس أخبار معجزاته • وفى أثناء محاكمة الحلاج ، التى طالت ، كان القضاء يبحث عن أعوانه الذين وجدت أسماؤهم فى أوراقه • فظفر صاحب الشرطة بثلاثة من أصحابه « وهم حيدرة والشعرانى ، وابن منصور ، فطالبهم بالرجوع عن اعتقادهم فيه فلم يرجعوا فضرب رقابهم وصلبهم فى الجانب الشرقى » •

(26) ماسينيون نفس المصدر ص 184 .

(27) الفهرست لابن النديم جـ 1 ص 191 وماسينيون ص 228 .

وظل الوزير حامد بن العباس يبحث عن أعوان الحلاج واستخدم الجواسيس فقبض على السامرى ومحمد بن على القنائى وأبى بكر الهاشمى الذى سماه الحلاج أبا المغيث وكان يقال انه نبيه ٠ وقد عثر عند القنائى وعند تلميذ آخر للحلاج على عدد كبير من الاوراق ، وعلى كتب مكتوبة على ورق الصين بماء الذهب ومجلدة بالحرير والجلد الفاخر ٠ كذلك عثر على أوراق بأسماء أتباع آخرين للحلاج ومنهم ابن بشر وشاكر البغدادى وكانا يجوبان فى منطقة خراسان ، كما فعل الحلاج من قبل ، وقد احتوت بعض الخطابات التى كان يرسل بها الى أتباعه وعماله فى مراكز الدعوة على تعليمات محددة لجذب الناس اليهم ولضمهم الى الدعوة درجة بعد درجة حتى ينتهوا بهم الى الغاية القصوى من مذهبه ، مع مخاطبة كل منهم على قدر عقله وفهمه (28) ، وتلك هي طريقة القرامطة واخوان الصفا كما رأينا من قبل ٠ أما الاجابة على تلك الرسائل فكانت تحتوى على رموز يفهمها الحلاج وتلاميذه ٠ وكانت بعض هذه الرسائل تحمل شعارا على هيئة دائرة يوجد داخلها اسم على وفى وسطه كلمة الله ٠ وقد قال « ماسينيون » معلقا على هذا الشعار انه شعار أمامى ولم يكن الحلاج اماميا ، وان حامدا ومساعديه لم يفهموا شيئا من المصطلحات الصوفية الفنية فى مراسلات الحلاج ٠ ولا ريب عندنا فى أنهم لم يستطيعوا أيضا حل رموز الشفرة التى كان يستخدمها القرامطة فى ذلك الحين ٠

ومع ذلك ، فان بعض الرسائل التى كان يبعث بها عماله فى الاقاليم كانت لها دلالة خاصة ، اذ جاء فيها أنهم يبشرون به فى كل البلاد بالاسم الذى يقدسه الناس ، فبعضهم يبشر به على انه **باب الامام** ، وبعضهم يبشر به على أنه صاحب الزمان (الامام) وآخرون يقولون انه « هو هو » أي الله ٠ وعلى الرغم من هذه الالقاب التى تكشف عن حقيقة الدور السياسى الذى قام به الحلاج فان « ماسينيون » اكتفى بأن شكك فى صحة بعض هذه الالقاب فقال : ان « باب الامام » مصطلع امامى ، ويعبر عن الامام المهدى الذى تنتظر الامامية ظهوره ٠ ونسى هنا أن عمال الباطنية كانوا يخاطبون كل قوم حسب فهمهم ومعتقدهم ٠ لكنه لم يعلق بشىء على مصطلح « صاحب الزمان » وهو مصطلح اسماعيلى ، ولا على مصطلح « الهو هو » مع أنه يدل على نظرية أساسية عند الحلاج فى كتاب الطواسين الذى حققه « ماسينيون » ونشره ٠ وأخيرا يختتم دفاعه الضعيف فى هذه المسالة بقوله ان هذه الرسائل خاصة بابن القنائى وهو شيعى ؟!

(28) ماسينيون ، المصدر السابق ص 252 ٠

كذلك عثر فى تلك الاوراق المضبوطة على منشور أرسله الحلاج الى أتباعه وعماله وفيه يخبرهم أن الزمان دارت دورته ، أي بعد أن ظهرت دولة الفاطميين فى سنة 299 ، ويطلب اليهم أن يدعوا الناس الى الاسرة الفاطمية التى طال انتظار الارض والسماء لها • فان الله قد سمح بظهورها وبأن تمتد الى خراسان حتى يكشف الحق حجابه ويفتح العدل ذراعيه (29) ، وفعلا ظهرت الاسماعيلية النزارية فيما بعد وهي الفرع الذى ينتمى اليه الحسن الصباح الذى يصفه الماسون بأنه الاستاذ الاكبر للماسونية فى العالم الاسلامى • ويكتفى « ماسينيون » فى رد هذه التهمة السياسية بأن الخطاب كان مزورا مع أن الدولة الفاطمية كانت قد ظهرت بالفعل وكانت ثورة القرامطة لا تزال تعمل لحسابها فى الشرق • ومع ذلك لا يجد « ماسينيون » مفرا من الاعتراف بأن بعض الرسائل الاخرى كانت بأسلوب الحلاج مثل قوله : من « هو هو » من الازلى ، من النور الشعشعانى ، من النقطة الاصلية ، من دليل الادلة ، من رب الارباب ، يا مجمع السحب يا رب سينا ، ومن تشكل بكل صورة ، الى عبده فلان لكن ينكر « ماسينيون » ما احتوت عليه هذه الرسائل بعد تلك المقدمة • وما كان من المستطاع أن يشكك فى مقدمة هذه الرسائل لان ذلك يتسق تماما مع فكرة الحلاج التى عرضها فى الطواسين •

واحيانا نجد « ماسينيون » يحاول التهرب من التعليق على مضمون الرسائل التى كان يتلقاها الحلاج من أتباعه ، اذ لا يمكن القول بأنها مزورة • لكنه لا يلبث أن يعترف بأنها تحتوى على أفكار حلاجية لانها تقول بأن الله يتجسد فى بعض الافراد فى كل زمن • وفى أثناء المحاكمة جيء بخطاب عثر عليه مع رجل فى دينور ، وكان يخفيه فى مخلاة لا يفارقها ليلا ولا نهارا وكان بخط الحلاج نفسه وقد بدأه بقوله : « من الرحمن الرحيم الى فلان بن فلان » فارسل الخطاب الى المحكمة ببغداد وعرض على الحلاج فاعترف أنه بخطه وأنه كتبه • فقيل له كنت تدعى النبوة فصرت تدعى الربوبية • فقال ما أدعى الربوبية » وانما هذا ما نسميه « عين الجمع » (أي الاتحاد بالله) وهذا هو جوهر الاتحاد ، وهي حالة صوفية يكتب فيها الله ولست الا آلة • ثم سئل هل هناك من هو على رأيك ؟ قال : نعم ، ابن عطاء الله وأبو محمد الجريرى وأبو بكر الشبلى لكن الجريرى والشبلى يستتران • فدعى الجريرى وسئل فأجاب : « هذا كافر ويقتل » ويقتل كل من يقول هذا القول • أما الشبلى فقال : اذا تكلم أحد

(29) ماسينيون ، نفس المصدر ص 254 .

بمثل هذا الكلام فيجب منعه . ثم سئل ابن عطاء عن مقالة الحلاج ، فصرح كتابة انـه يؤمن بهذه العقيدة ، وبأن من لا يؤمن بها فهو كافر . فأمر الوزير بمحاكمته ، فحضر وجلس فى الصف الاول وسأله الوزير هـل هذا خطك فقال نعم . فقال لـه الوزير : أتوافق على هذا المعتقد ؟ فقال : ما شأنك وهذا الرجل يعنى الحـلاج ، لماذا تتبعـه بحقدك ؟ لماذا تصادر أموال الناس وتسىء معاملتهم وتقتلهم . وحوكم ابن عطاء ثم أعدم بعد ذلك بأيام (30) وفيما بعد سيحتج « ماسينيون » لمعجزات الحلاج بشهادة ابن عطاء الذى ضحى بنفسه ايمانا بصدق الحلاج فى ادعاء الالوهية .

ويبدو أن ابن عطاء كان من أشد خلصاء الحلاج بدليل أن هذا الاخير كان حريصا كل الحرص على أن يحتفظ ابن عطاء بما عنده من مخطوطات شخصية وكان من بينها « كتاب الطواسين » الذى لم يظهر الا بعد فترة طويلة من الزمن . وقد نقل ابن خفيف هذه الوصية الى ابن عطاء ، ذلك أن ابن خفيف اتيح له زيارة الحلاج فى سجنه الذى أعده له نصر القشورى وجمله بأفخر الاثاث . فلما علم ابن عطاء بالوصية قال لابن خفيف : لئن رأيته قل له اننى سأحفظ هذه الكتابات فى مكان أمين ولو أدى ذلك الى أن يقع لى ما وقع له (31) .

وعلى الرغم من هذه الشواهد العديدة التى لا ينكرها « ماسينيون » ، والتى تدل على أن مذهب الحلاج لم يكن يتسق ، لا مع مذهب أهل السنة ولا مع مذهب الامامية الاثناعشرية ، فقد كان السبب فى ادانته هو موقفه من فريضة الحج التى أراد ابطالها والاستعاضة عنها ببديل ، مع أن الاسلام لم يوجبها الا ، على من يستطيع القيام بها . وقد عثر حامد بن العباس فى الاوراق المضبوطة مع الحلاج على ما يثبت تلك التهمة . فقد رسم الحلاج طقوس الحج الذى رأى الاستعاضة به عن الذهاب الى مكة فقال : متى أراد المرء اداء فريضة الحج فله أن يقيم فى حجرة من منزله فيجعل فيها محـرابا بشروط معينة ، ثم يتطهر ويحرم ، وأن يقول كذا ويفعل كـذا وان يصلى هكذا ، وأن يقوم بأفعال أخرى يفصلها الحلاج تفصيلا . فاذا قام بذلك سقط عنه الحج الى بيت اللـه الحـرام .

وقد ذكر ابن عياش ان أحد رؤساء الحلاجين اعترف له بذلك وقال : ان الحلاج أخذها عن آل البيت . غير انه اضاف انه ليس بصحيح أن هذه الطريقة تغنى من الحج ولكنها تعد بديلا منه عندما يعجز المرء عن السفر الى مكة لفقر أو لمرض .

(30) ماسينيون نفس المصدر ص 259 ـ 260 .
(31) نفس المصدر السابق ص 272 .

وفى رسالة أخرى يحدد الحلاج مناسك الحج فى تلك الحجرة التى يمكن أن تكون بديلا عن المسجد الحرام ، ثم يقول فاذا ما انتهى المرء من هذه المناسك جمع ثلاثين يتيما وأعد لهم أفضل طعام ودعاهم الى دخول هذا الحرم الذى أقامه فى بيته ثم يخدمهم بنفسه فاذا ما انتهوا من الطعام كسا كل واحد منهم ثوبا وأعطاه سبعة دراهم ، ومتى فعل ذلك سقط عنه الحج · فلما قرأ القاضى ذلك التفت الى الحلاج وقال : من أين أخذت ذلك ؟ فقال : من كتاب الاخلاص للحسن البصرى · فقال : كذبت يا حلال الدم سمعنا قرأءة كتاب الاخلاص للحسن البصرى ولم نجد فيه هذا الكلام الذى تذكره · ولا يبعد أن يكون للحلاج واخوانه هدف خاص فى اختيار اليتامى فربما كان ذلك لتجنيدهم للدعوة أو لصرفهم عن الحج الحقيقى فيما بعد · ومهما يكن من شىء ، فان الحلاج جعل يحتج عندما صدر الحكم بادانته بسبب ابطاله لشريعة الحج ويقول ان له كتبا سنية توجد عند الوراقين ·

ويعترف ماسينيون أن كتابات الحلاج تحتوى على نصوص أخرى يعالج فيها الشعائر الاسلامية الباقية على نحو ما فعل بالحج · فقد جاء فى هذه الكتابات أن الانسان اذا صام ثلاثة أيام أو أربعة ، دون أن يتناول شيئا ثم أكل أوراق الهندابة كغذاء أعفاه ذلك من صوم رمضان ، واذا صلى فى ليلة ركعتين تبدآن من الليل الى الصباح سقطت عنه الصلاة الشرعية طيلة حياته ، واذا تصدق مرة بكل ما يملك سقطت عنه فريضة الزكاة ، واذا بنى حرما وطاف به عاريا عدة مرات سقط عنه الحج واذا لزم قبر الشهداء فى مقبرة قريش عشرة أيام يصلى ويدعو الله ويصوم دون أن يتناول شيئا سوى قليل من خبز الشعير والملح الخشن ، فان هذا يسقط عنه كل عبادة طيلة حياته لكن ماسينيون يضيف شرطا للحلاج وهو أن يفعل المرء ذلك وهو بملابس الاحرام (32) · وأخيرا يؤكد لنا ماسينيون ، الذى بذل جهدا خارقا للعادة لانكار أية صلة بين الحلاج والقرامطة ، أن نظرية الحلاج فى الحج « قد جردت مكة من أفضليتها وقداستها ، بل شجعت العدوان على الحجاج ، فنهب القرامطة مكة وهدموا الكعبة ونزعوا منها الحجر الاسود فى الرابع عشر من ذى الحجة سنة 317 هـ ، أي بعد مصرع الحلاج بثمان سنوات » (33) ·

---

(32) ماسينيون ، المصادر السابق ص 284 .

(33) المصدر السابق ص 248 .

وشىء آخر له دلالته العميقة فى دراسة ماسينيون وهو أنه يقرر دون تـردد ولا حرج أن نسخ شرائع الاسلام يرتكز على مبدأ أساسى عند الحلاج وهو مبدأ اسقاط التكاليف ، اذ ليس ثمة جدوى من وجود هذه الشعائر التى تعـد وسائط بين اللـــه والانسان : أليس هذا هو لب المذهب القرمطى الذى يصف العبادات بأنها مجرد رموز يراد بها بعض الغايات الاجتماعية ، والذى يدعو الى تأليه البشر صرفا لهم عن عقيدة التوحيد · ثم يأتى « ماسينيون » بعد ذلك كله ويزعم أنه من المحتمل جدا أن يكون ما نسبه الحلاج الى الحسن البصرى فى مسألة الحج أمرا صحيحا ، مع ما نعلمه مـن حرص « ماسينيون »على استخدام النصوص وان كان يؤولها تأويلا غريبا فى أكثـر الاحيـــان ·

لكننا لم نره يكشف لنا عن النص الذى يزعم أنه من المحتمل أن يكون فى كتـاب الاخلاص على الرغم من أن فقهاء بغداد وصفوا دعوى الحلاج فى هذا الصدد بالكذب · فمن الواضح أن ماسينيون لا يجد حرجا فى محاولة تدنيس تاريخ الحسن البصرى التابعى الجليل نصرة لقضية خاسرة أراد أن يجعـل منها ملحمة فى عصـر أصبـح لا يتسع للاساطير · ومن جراة ماسينيون على الحق أنه يطعن فى القضاة الذين لم يبتوا فى قضية الحلاج الا بعد ثمان سنوات ، فيقول : انه من المحتمل جدا أن يكـون هناك اتفاق سابق بين القضاة وبين الوزير حامد ، مع اعتراف هذا المستشرق بـأن القول باسقاط التكاليف أو نسخ شعائر الاسلام نظرية حلاجية أكيدة ·

ولابد من أن نقرر أن الغاية التى وضعها ماسينيون نصب عينيه كانت تبرر له أن يسلك مسلك التناقض وأن يتهجم دون حياء على الحسن البصرى وعلى قضـــاة المسلمين نصرة للحلاج الذى اعتقد أنه الجسر بين المسيحية وبين الاسلام السنى · ان تلك الفكرة السابقة هي التى افسدت على « ماسينيون » أشياء كثيرة على المستويين النظرى والعملى · فقد أخفق مثلا فى الربط بين المسيحية والاسلام عن طريق نظـام الآبـاء البيض فى الشمال الافريقى ·

من قضايا النخبة المثقفة فى الاقطار العربية

د. الحبيب الجنحانى
أستاذ بالجامعة التونسية



ان موضوع النخبة المثقفة ، وما يتصل به من قضايا قد درس بعمق فى البلدان المتطورة ، ولا سيما خلال العقدين الاخيرين ، وبالرغم من ذلك فما فتىء الباحثون فى شؤون الفئات الاجتماعية ، أو المهتمون بعلم الاجتماع الثقافى ، يولونه ما يستحقه من عناية وتدقيق .

وقد حظى ببعض الدراسات السريعة فى الاقطار العربية ، حاول فيها أصحابها دراسة الموضوع حسب معطيات المجتمع العربى ، وقد تسرب الى بعضها خطأ أساسى ، وهو الانطلاق من المفهوم الاوروبى للنخبة المثقفة ، ومن المعروف انه مفهوم تطور حسب مراحل تاريخية معينة ، وهى متباينة فى معطياتها الاساسية مع المرحلة التاريخية التى تمر بها الاقطار العربية .

انه من المعروف ان ليس هنالك اتفاق حول تحديد مفهوم النخبة المثقفة ، وخاصة حول تصنيف المنتسبين اليها ، ولذا فاننا نبادر بالقول بأن الفئات المعينة هنا هي :

- **فئة الفنيـــين التكنوقراطيـــين ٠**
- **أصحاب المهن الحرة من حاملي الشـهادات الجامعيـة مثل المحـامين ، والاطبـاء والصيـــادلة ٠**
- **فئة الفنانين المبدعين مثل الرسامين ، والمخرجين السينمائيين ٠**
- **رجال الفكر ، وفي مقدمتهم الكتاب ٠**
- **فئة المساهمين في نقل الانتاج الثقافي ، ونشره مثل الصحافيين الثقافيين ، ومن لهم علاقة بالتنشيط الثقافي ٠**
- **فئة الجامعيــــين ٠**

اننا قصدنا اعطاء مفهوم النخبة المثقفة في الاقطار العربية طابعا شاملا ، لان تعريف المنتسبين الى النخبة المثقفة بأنهم أولئك « **الذين يعيشون من ممارسة العمل الفكرى ، ومن أجله** » حسب تعبير (ريمون ارون) يخرج مثلا حاملي الشهادات الجامعية البعيدين عن الانتاج الفكرى ، وهم أولئك الذين أصبحوا بعد تخرجهم يمارسون مهنة يومية مثل التدريس ، أو معالجة المرضى بالنسبة للاطباء ، أو المحاماة ، أو الهندسة ٠

ان مجرد حمل شهادة جامعية لا يكفي ـ اذن ـ ان يكون مبررا للانتساب الى النخبة ، ويمكن أن يصنف ضمنها شخص آخر مثقف ثقافة ذاتية للشخصية ، ولم ينتسب يوما ما الى هيكل جامعي ٠

ولكن بالرغم من هذا المفهوم الشامل الذى أردنا اضفاءه على مصطلح النخبة المثقفة فان فئة الكتاب والفنانين المبدعين تبقى في قمة الهرم ، وهي التي اجمع الباحثون على انتسابها للنخبة ، بل قد حسبوها عصبها المحرك باعتبارها المجموعة الوحيـدة القادرة على أداء رسالة النخبة المثقفة في مجتمعها ، وهي رسالة نستطيع تلخيصها في النقاط التالية :

1 ـ قيادة عمل التقدم ، وتفسير الواقع حسب رؤية شمولية مستقبلية ٠

2 ـ تدعيم النظرة العقلانية لشؤون المجتمع ٠

3 ـ اضفاء مظاهر الجمال على الحياة اليومية الرتيبة مع عمل هادف لغرس روح السمو والتفاؤل فى العلاقات البشرية ، وهنا يبرز عمل الفنانين بالخصوص ضمن فئة النخبة المثقفة .

4 ـ نقد السلطة الحاكمة ، وفضح أدوارها الخفية ، والتصرفات المشبوهة ، كلما ظهرت فى قطر من الاقطار ، وذلك عن طريق العمل المسرحى ، او القصة ، و الفيلم النقدى الهادف ، أو الدراسة التحليلية .

وحين نعود الى مشاكل النخبة المثقفة فى الاقطار العربية ، فاننا نلاحظ أمرين بارزيـــن :

أولا ـ ان هذه النخبة المثقفة تشكو تخلفا مهولا باعتبارها بنية فوقية لهياكل المجتمعات التى تنتسب اليها ، وذلك بالرغم من الدور الطلائعى المناط بها ، فهى مطالبة بالمساهمة الفعالة فى معركة الخروج من التخلف فى نفس الوقت الذى تعانى فيه من مظاهر تخلف رهيب !!

ثانيـــا ـ ان التخلف الذى تشكو منه الاقطار العربية يقتضى منطقيا أن يكون للنخبة المثقفة دور واضح فعال فى تسيير شؤونها ، والمشاركة فى تحديد مصيرها ، ولكننا نجدها فى الواقع تعيش هامشيا فى مجتمعاتها ، بل قل محاصرة تكاد تختنق فى أغلب الاقطار العربية ، ونعنى بالخصوص المجموعات الفعالة ذات النظرة العميقة المحللة لقضايا بلدانها ، والتى بلغت درجة النضج الفكرى فأصبحت لها رؤية شمولية كونية ـ أما الاصناف الاخرى المشار اليها ضمن فئة النخبة فسنرى أن بعضها يتمتع بامتيازات كبرى ثمنا لفقدان الوعى ، والتملص من رسالة النخبة ، وخاصة فى مجتمع متخلف ـ اننا نكاد نلمس المظهرين المذكورين فى أكثر الاقطار العربية ، أما التناقضات الاخرى فهى تتباين أحيانا من بلد عربى لآخر حسب النظام السياسى والاجتماعى ، وحسب التطور العام الذى بلغه هذا النظام ، أو ذاك ولكننا سنكتفى بالتلميح الى المميـــزات الاساسيـــة .

ان النخبة المثقفة العربية الحاملة لمشعل التحديث والتجديد تعيش تناقضات

عميقه ، فهى باعتبارها جبهة موحدة تعيش صراعا مستمرا ضد فئات محافظة تقليدية تتمسك بقوالب عصور الانحطاط فى تاريخ المجتمع العربى الاسلامى ، وما أفرزته من عقليات متحجرة ، وشعارات زائفة جوفاء ، وهى مستعدة أن تسلك جميع السبل فى سبيل المحافظة على امتيازات مرتبطة بالدوران فى فلك السلطان ، ولعل هذا النوع من الصراع أخف وطأة عليها من الصراع الداخلى الذى تكمن وراءه خلافات عقائدية وبالتالى سياسية ، فهو صراع يقود الى التصدع ، ثم الى الهزال واضطرار ضعفاء الايمان الى اعلان التوبة ، والركض وراء ركب ذوى السلطان • ولا مناص من الملاحظة هنا أننا نقرأ أحيانا ، أو نسمع نقدا لاذعا موجها الى رجال النخبة المثقفة لما يبدو من تباين فى وجهات نظرهم ، واختلافاتهم العقائدية •

اننا نؤمن ان هذا الصراع الايديولوجى المعروف اليوم فى صفوف النخبة المثقفة العربية أمر طبيعى ، فهو مرتبط بنظرة أفرادها المستقبلية ، وبتحديد رسالتهم فى تغيير أوضاع مجتمعاتهم ، فقضية المصير العربى ما تزال مطروحة : أى سبيل ينبغى أن تسلـــك ؟

هذا وقد أشرنا الى أنهم أبناء بيئاتهم بتناقضاتها ومظاهر تخلفها •

ان المؤلم فى هذا الصراع الداخلى ليس الاختلاف فى الرؤية بل انعدامها لدى عدد كبير من أفراد النخبة المثقفة العربية بالمفهوم الواسع الذى حددناه •

اننا لا نذيع سرا حين نقول ان هنالك عددا كبيرا من أفراد النخبة المثقفة فاقـدا للوعى ، عديم الرؤية ، وهذا مظهر من مظاهر تخلف النخبة ، وهو أشد وطأة ، وأفضح من تخلف الآخرين •

ونلاحظ أن انعدام الوعى هذا لا نكاد نجده فى صفوف الفئة الطلائعية داخل النخبة، وأعنى رجال الفكر والفنانين المبدعين ، ولكننا نلمسه فى فئة التكنوقراطيين والاطباء والمهندسين ، ونميز فى هذا الصدد بجلاء بين انعدام الوعى والانتهازية اننا لا نعنى ـ اذن ـ أولئك الواعين بقضايا مجتمعاتهم ، وبرسالتهم تجاهها ، يسلكون طريقـا انتهازيا لتحقيق مآرب شخصية حينية ، مفضوحة •

ومن المتناقضات البارزة فى حياة النخبة المثقفة العربية محاولة بعض المنتسبين اليها التوفيق بين المشاركة فى الحياة السياسية والاجتماعية وبين الابداع الفكرى والثقافى ومعطياته ، فقد اتضح بالتجربة ان هذا التوفيق صعب ، فهى معادلة تكاد تكون مستحيلة فى ظروف أكثر الاقطار العربية ، وقد باءت كثير من التجارب بالفشل الذريع ، وبعد كثير من المثقفين العرب عن الحياة السياسية ليس انهزاما ، أو مـــيلا للراحة ، بل نتيجة قرار واع بعد أن تأكدوا من صعوبة التوفيق ، ومن استحالة أداء رسالتهم تجاه قضايا بلدانهم ، فقد انقلبوا الى بيروقراطيين منفذين لأوامر مراكـــز النفوذ ، وقد يتهمون زورا وبهتانا بالبرعاجية ٠

ان جل المثقفين العرب ملتزمون لقضايا مجتمعاتهم بحكم منحدرهم الاجتماعى ، ووعيهم السياسى والاجتماعى ، ونتيجة لمعطيات البيئة التى يعيشون فيها ، ويتفاعلون معها ، ولكن ما يلوح من عزلة ، أو انكماش ناشىء عن قضية عميقة هى قضية حرية التعبير فى الاقطار العربية ٠

انه من الصعب جدا أنتصور فى الاقطار العربية فى المرحلة التاريخية الراهنة أسلوبا ديمقراطيا ، وضمانا لحرية التعبير شبيها بما نعرفه فى كثير من البلـــدان الغربية ، ولكن الفئات الواعية ضمن النخبة المثقفة تطالب بتوفير ما يمكن أن نطلق عليه « الديمقراطية الداخلية » ، ونعنى داخل المنظمات الشعبية والمؤسسات بعد الاتفاق طبعا على الاختيارات المصيرية ٠

وحتى هذه الحرية « الحرية المقيدة » غير متوفرة ، ومن هنا تبدأ أزمة النخبة ، وسوء التفاهم المستمر بينها وبين النظم السياسية القائمة ٠

ان القضية الاساسية فى حياة النخبة كانت ، وما تزال علاقتها بالسلطة الحاكمة ، وهى قضية كلاسيكية فى المجتمعات الغربية ، ولكن النخبة تتمتع بحل تعويضى فى هذه المجتمعات حين تتأزم علاقاتها مع السلطة يتمثل فى حرية التعبير٠، وهى مفقودة فى مجتمع ثيوقراطى يرزح تحت عبء الحكم المطلق ، ونظرا لانعدام هذا البديل ـ ان امكن القول ان لحرية التعبير بديلا ـ فان المجموعة الواعية من النخبة تلتجىء للعمل

فى الهياكل النقابية ، وفى المؤسسات الثقافية والمهنية آملة امكانية الذود عن الحد الادنى من مبادئها ، وليس من الصدفة ان الترخيص لجمعيات ثقافية يمنع فى بعض الاقطار العربية بحجة حماية أمن الدولة !! وقد آن الاوان للتمييز بين فئات النخبة ، فقد جعلت ظروف موضوعية النظم السياسية تعتمد على الفنيين التكنوقراطيين ، ومنحهم امتيازات كبرى ، وفى صفوفهم نجد النسبة الكبيرة من فاقدى الرؤية والالتزام، ومن همت عليه ريحهما يشغل بالمظاهر المادية ، ولهو الحياة العصرية ، ولا سيما وقد وفرت لديه وسائلها المادية .

أما الفئة التى احتار الناس فى فهم موقفها فهى مجموعة الاطباء ، فبالرغم من أنها اقدر الفئات على الاستقلال المادى عن السلطة فانك تجد أكثر أفرادها مرتبطين بالنظم القائمة ، بل قل فى طليعة المهللين ، فهل هو ضعف الوعى ، أم هى قضية تحول المهنة الانسانية الشريفة الى حرفة تجارية لدى عدد كبير ، أم ان هنالك أسبابا أخرى ؟ انها ظاهرة تحتاج الى المزيد من التعمق والتحليل .

وهكذا تبقى فئة رجال الفكر هى الفئة القليلة الحاملة لشعل النضال رغم ظروفها المادية المعقدة . ولا شك ان السبب الرئيسى يعود الى الوعى ، ووضوح الرؤية فى التحليل ، وعمق المنطق السببى الذى يتسلح به أكثر أفرادها ، لكن بالرغم من هـذه التناقضات التى لمحنا الى بعضها ، وبالرغم من مظاهر التخلف التى نلمسها فى صفوف النخبة المثقفة العربية ، ومن دورها الهامشى فى المرحلة التاريخية الحاضرة فاننا نؤمن بانها تحاول أداء رسالتها ، وقد تنحصر فى الظروف السياسية الراهنة فى عملية تحديث جذرى للفكر العربى المعاصر ، وتدعيم طرق جديدة فى التفكير والتحليل ، وهى فى حد ذاتها رسالة ذات شأن تتجاوز الحاضر بمشاكله اليومية العويصة ، وتنطلق نحو المستقبل ، فهو عمل مستقبلى طويل النفس لا يستطيع أن يقوم به غير المثقفـين الملتـزمـين .

ان هذا القرآن

هداية ورحمة للانسان

سليمان المدني
عضو هيئة التوجيه الـ[illegible]
بوزارة الشؤون الدينية - الـ[illegible]



بدانا فى عدد 40/39 من الاصالة بتاريخ ذى القعدة ذي الحجة 1396 هـ نوفمبر ـ ديسمبر 1976 م بتفسير القرآن فى خطب الجمعة تفسيرا مبسطا نستقيه من اخر ما وصلت اليه التفاسير ، وما صار اليه البحث العلمى ـ بقدر الامكان ـ ! ، وذلك تعميما للفائدة كما يقال ، وكلمة التعميم هنا فى الصميم يطابق فيها الحال المقال ، حيث ان الخطبة نفسها تذاع على أمواج الاثير من الجامع مباشرة ، فيستفيد منها لا جمهور المصلين فحسب ، بل جميع من يستمع الى المذياع داخل البلاد وخارجها ، من استاذ جامعي يساعد زوجته فى المطبخ وقعد عن صلاة الجمعة ، الى الفلاح ، والراعى ، فى حقل هذا وغابة ذاك ، بفضل هذه الآلة العجيبة التى تسمى الترانزيستور · «الاصالة»

الحمد لله الواحد القهار ، الذى أرسل محمدا الى قوم عتاة عصاة كفار ، فجاءهم بالرحمة المهداة مـن الله الكريم الغفـار، وبالحكمة والموعظة الحسنـة ، وبالترغيب والاستبشار ، وبالوعيد والانذار ، واشهد أن لا اله الا هو العزيز الجبار ، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله النبي المختار ، الذى اصطفاه ربـه مـن صفوة الابرار ، صلى الله عليه وعلى آلـه الطيبين الاطهار ، ورضي الله عن الصحابة مـن مهاجرين وانصـار ·

أما بعد أيها المسلمون ، فيقول الله فى كتابه الكريم : « **الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يومنون بالغيب ويقيمون الصـلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** » ·

(الم) هذا اللفظ مؤلف من ثلاثة أحرف أفتتح الله سبحانه وتعالى به هذه السورة الثانية وهي سورة البقرة ، وهو نظام فريد ، وأسلوب جديد ، جاءت هذه اللفظة على هذا الوضع وتقرأ هكذا · ألف ، لام ، ميم ، بتسكين آخر كل لفظ منها ، ولها أخوات ، من الحروف المقطعات هي أقل تركيب منها ، أو تكبرها فتزيد عليها،فاقتضى الحـال أن نوردها على سبيل المثال ، والتوضيح يغني عن السؤال ، وهي مختلفة الاعداد ، فوردت على طريق الافراد ، (ص ، ق ، ن) على حرف ، و (طه ، وطس ، ويس،وحم) على حرفين ، و (الم ، والر ، وطسم) على ثلاثة أحرف ، و (المص،والمر) على اربعة

خطبة الجمعة ليوم 5 جمادى الثانية 1398 هـ ، 12 مايو 1978 م ·

أحرف،و (كهيعص ، وحمعسق) على خمسة أحـرف · فسمى العلماء هذه الالفـاظ فواتح لبعض السور من القرآن ، كما سيأتى التوضيح والبيان ، وهي سر من أسرار الرحمان ، وفوق ما يدركه الانسان ، وهذا أبو بكـر الصديق رضي اللـه عنه قال : « لله فى كل كتاب سر ، وسره فى القرآن أوائل السور » ·

وروي ابن الجوزى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الحروف ثناء أثـنى الله به على نفسه · وقال الاخفش : (ان الله تعالى أقسم بهذه الحروف على أن هذا الكتاب ، هو ذلك الكتاب المثبت فى اللـوح المحفوظ) وورد عن قطـرب قـوله : (ان الكفار لما قالوا : (**لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون**) وتواصوا بالاعراض عنه أراد الله تعالى لما أحب من صلاحهم ونفعهم أن يورد عليهم ما لا يعرفونه ليكون ذلك سببا لاسكاتهم واستماعهم لما يرد عليهم مـن القرآن فأنزل اللـه هذه الحروف ، فكانوا اذا سمعوها قالوا كالمتعجبين : اسمعوا الى ما يجيء به محمد عليه السلام ـ فاذا أصغوا هجم عليهم القرآن ، فكان ذلك سببا لاستماعهم وطريقا الى انتفاعهم · وقال المبرد : (ان الله تعالى انما ذكر هذه الفواتح احتجاجا على الكفار ، وذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما تحداهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بعشر سور أو بسورة واحدة ، فعجزوا عنه أنزلت هذه الحروف تنبيها على أن القرآن ليس الا مـن هذه الحروف وأنتم قادرون عليها وعارفون بقوانين الفصاحة ، فكان يجب أن تأتـوا بمثل هذا القرآن ، فلما عجزتم عنه دل ذلك على أنه من عند الله لا من عند البشر) ·

و (ألم)،هذا اللفظ أفتتح الله به سورة البقرة ليشعر أهل الفصاحة والبلاغة من العرب أن الله معجزهم فلن يستطيعوا مجاراة القرآن فى أسلوبه ، وبلاغته واعجازه · روى الترمذى عن عبد الله بن مسعود قال : (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ حرفا من كتاب الله تعالى فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها · لا أقول (**الـم**) حرف ، لكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف) الحديث ·

وروي أبو ظبيان عن ابن عباس قال : عجزت العلماء عن ادراكها · واحتـج المتكلمون على هذا القول وقالوا لا يجوز ان يـرد فى كتاب اللـه تعالى مـا لا يكون مفهوما للخلق ، واستدلوا بعدة آيات نذكر بعضا منها اتماما للفائدة · قال تعالى : « **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها** » أمرهم بالتدبر فى القرآن ، ولو كان غير مفهوم فكيف يأمرهم بالتدبر فيـه · وقال تعـالى : « **وانـه لتنزيل رب العـالمين نـزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين** » ، فلو لم يكن مفهوما

بطل كون الرسول صلى الله عليه وسلم منذرا به · وأيضا قوله « بلسان عربى مبين » يدل على أنه نازل بلغة العرب واذا كان الامـر كذلك وجب أن يكون مفهوما · وقـال تعالى : « **هذا بلاغ للناس ولينذروا به** » فكيف يكون بلاغا وكيف يقـع الانذار به ، مع أنه غير مفهوم · وقال عليه السلام : (انى تركت فيكم ما أن تمسكتم به لن تضلوا : كتاب الله وسنتى) فكيف يمكن التمسك به وهو غير مفهوم ·

اللهم زدنا علما وفهما ، لندرك أسرار القرآن ، ونكون من أهل التقوى والايمان ، يا رحيم يا رحمان ، آمين والحمد لله رب العالمين ·

الخطبـــة الثـانيـة

الحمد لله الذى جعل القرآن ، شفـاء لـما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ، ونشهد أن لا اله الا الله الذى جعل كتابه الكريم (تبيانا لكل شىء)،ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذى أكرمه ربـه بالرسالة وحملـه أداء الامانة ، فبلـغ رسالة الاسلام ، ونصح فى الدين لكافة الانام ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وكل مـن سار على منهاجه الى يوم الدين ·

أما بعد ، فيقول الله تعالى : « **ألـم ذلك الكتاب لا ريب فيـه هدى للمتقين** » هذه الاشارة اللافتة للانتباه ، فهي تعظيم وتفخيم لكتاب الله ، انه الكتاب الذى نزل بعضه ولاشك أن هذه الاشارة الى ذلك البعض الذى سبق نزوله فى مكة المكرمة ، قبل الهجرة النبوية ، حيث كانت الدعوة بها سائرة ، والمعارضة من الكفار على أشدها قائمة ، وقد سمي بعض القرآن قرآنا قال تعالى : « **واذا قرىء القران فاستمعوا لـه وانصتوا لعلكم ترحمون** » وقال حاكيا عن الجن : « **انا سمعنا قرانا عجبا يهدى الى الرشـد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا** » وقد وعد الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسـلم عند مبعثه أن ينزل عليه كتابا لا يمحوه الماحى ·

وسورة البقرة نزلت كلها فى المدينة المنورة الا بعض آياتها التى سنوضحها فى حينها ، حيث كانت السورة كلها احتجاجا على اليهود وعلى بنى اسرائيل ، وقـد أخبرهم موسى عليه السلام كما قفى الله بعد ذلك بعيسى عليه السلام وكلاهما أخبرا بأن اللـه سيرسل محمدا صلى اللـه عليه وسلم وينزل عليه كتابا ، فقال تعـالى : « **ذلك الكتاب** » أي الكتاب المتقدم الذى أخبـر الانبياء عنه بأنـه سينزل على النبـي المبعوث من ولد اسماعيل ، ودعوة ابراهيم عليه السلام كانت تشير الى ذلك الكتاب ·

« ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم » ، انه ذلك الكتاب المثبت فى اللوح المحفوظ بدليل قوله تعالى : « **وانه فى ام الكتاب لدينا لعلى حكيم** » وقال : « **يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب** » أي فى اللوح المحفوظ واتفق العلماء على أن المراد من الكتاب هو (القرآن) قال تعالى : « **كتاب أنزلناه اليك** » هذا الكتاب المشار اليه ·

« لا ريب فيه » أي لاشك فيه ، وانتفى عن القرآن الكريم الشك والحيرة لانهما يفضيان الى القلق وعدم الاطمئنان ، وهذا الكتاب حق وصدق « **لا يأتيه الباطل من بين يديه** ، ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » فقد تعهد الله بحفظه وصيانته وجعله « هدى للمتقين » انه شفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ، وهو نور وكتاب مبين · وقال تعالى : « **قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا** » وقال : « **فمن تبع هداي فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا** » وقال : « **ان هذا القرآن يهدى للتى هي أقوم** » انه طريق مستقيم لا اعوجاج فيه ، وهنا يجدر بنا ان نذكر مدى التناسب والترابط بين السورة السابقة (الفاتحة) وبين هذه ، ففى الاولى قال تعالى : قولوا فى دعائكم : « **اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم** » وهنا ذكر الهداية والتقوى ، فالهداية هي التوفيق من الله لعباده ومعرفة طريقه المستقيم الموصل الى اليقين ، فالتقوى حساسية فى الضمير ، وشفافية فى الشعور ، وخشية مستمرة ، وحذر دائم ، وتوق لاشواك الطريق ، طريق الحياة الذى تتجاذبه أشواك الرغائب والشهوات ، والميول والنزعات · اللهم نجنا واعف عنا واهدنا ·

ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم ، سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ·

صفـــات المتقـــين

الحمد لله الذى ألهمنا الايمان ، وجنبنا الالحاد والعصيان ، ووقانا من نزعات الشيطان ، وأشهد أن لا اله الا هو الرحيم الرحمن ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى أكرمه بالقرآن ليقارع به أهل الشرك والاوثان ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين تمسكوا بالايمان ، ودافعوا عن العقيدة فى كل ميدان ·

أما بعد أيها المسلمون ، فيقول اللّه تعالى فى كتابه العزيز : « **آلــم ذلك الكتــاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يومنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون والذين يومنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون** » ·

فالقرآن هو الكتاب المشار اليه ، وهو النبراس المشع بالايمان فى قلـب المـؤمن التقى الذى أخلص للحى القيوم نيته ، واتبع هداه ، واتقى ربه الذى خلقه وســواه ، وأرشده فهداه الى سواء السبيل ، والتقوى موطنها القلب الطاهر ، وهي التى تهيء الجوارح للعمل الصالح وتدفعها الى كسب الثواب « **والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا** » · والمؤمن العاقل المنصف يصدق بأن القرآن من عند الله ، وكـل ما اشتمل عليه من حقائق وأحكام فهي من عند اللــه · وفى القــرآن الهداية الكاملة للذين يستعدون لطلب الحــق ، ويتوقون الضرر وأسباب العقاب ، وهؤلاء هــم الذين يصدقون ، فى حزم واذعان ، بما غاب عنهم ، ويعتقدون فيما وراء المحسوس كالملائكة واليوم الآخر ، لان أساس التدين هو الايمان بالغيب ، ويؤدون الصلاة تأدية كاملـة

---

1) خطبة الجمعة ليوم 12 جمادى الثانية 1398 هـ ·

بالتوجه الى الله فى خشوع حقيقى ، وبهذا الايمان الصادق فى النفس المؤمنة تقام الصلاة ، وتنظم الطاعات ، ويجتاز الانسان مرتبة الحيوان ، الذى يقف ادراكه حيث يحس ، ويشاهد ويتلمس ، أما الانسان ، فانه بفضل الايمان يدرك بطاقة عقله المحدود معرفة خالق الخلق وصانع الوجود ، وبذلك يثبت ايمانه ، ويصحح أعتقاده ويقبل على الصلاة فيعبد ربه فى خشية وخشوع ، وطاعة وخضوع ، فتنحنى الجباه للواحد القيوم ، امتثالا لطاعته ، واشعارا بالخضوع لعظمته ، وعلى قدر سعته ، وكسبه ، يؤدى ما عليه من حق ربه لينال رضاه ، وخيره وبره ، واحسانه : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » وعلى قدر الانفاق ، تكثر الارزاق ، وبقدر الثناء على الله والشكر ، يتواصل مدد الخير ، و « لئن شكرتم لازيدنكم » · والذين ينفقون جانبا مما يرزقهم الله به فى وجوه الخير والبر سينالون سعادة الدارين « وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين » ·

أيها المسلمون : يقول تعالى : « **والذين يومنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون** » أي الذين يصدقون بالقرآن المنزل على محمد من الله ، وبما فيه من أحكام وأخبار وقصص وأطوار ، ويعملون بمقتضاه ، ويصدقوُن بالكتب الالهية التى نزلت على من سبقوا رسول الله من الانبياء والرسل ، كالتوراة والانجيل وغيرهما ، لان رسالات الله واحدة فى أصولها ، وأهل الايمان يتميزون عن غيرهم ، اذ يعتقدون اعتقادا جازما بمجىء يوم القيامة وبما فيه من حساب وثواب وعقاب ·

وخلاصة القول أن صفات المتقين ثلاثة : **أولا** ، الايمان بالغيب : « آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله » · **ثانيا** : المحافظة على الصلاة وأداؤها فى أوقاتها بنية الاخلاص لله فى فعلها واستيفاء شروطها : « ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » وانها تنهى عن الفحشاء والمنكر · **ثالثا** : الانفاق فى سبيل الله : « **مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم** » ·

ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيآتنا وتوفنا مع الابرار ·

الخطبـــة الثـــانيـــة

الحمد لله الحليم الغفور ، الذى أخرج الناس من الظلمات الى النور ، نحمده حق حمده ونشهد أن لا اله غيره ونشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين آمنوا بكل ما جاء به من عند ربه ٠

أما بعد ، فيقول تعالى فى كتابه الكريم : « **والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** » ٠

أيها المسلمون : بعد أن بين الله سبحانه وتعالى الصفات الثلاث للمتقين التـى يجب على المسلمين أن يؤمنوا بها ، كما آمن المتقون بها وجزموا بصحتها ، وهـــي الايمان الكامل بالغيبيات ، وتأدية ما فرض الله من الصلوات ، وبذل الاموال بسخاء على المشاريع الخيرية والمؤسسات ، التى يــدر نفعها ويعــود خيرها على الافــراد والجماعات ، ذكر الله بعد ذلك الصفة الرابعة للمتقين ، وهي قوله : « **والذين يومنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك** » أي يجب الايمان بالقرآن المنزل من عند اللــه على رسول الله ، بكل مــا تضمنته السور والآيــات ، كما يجب الايمان بالكتب السماوية كالانجيل والتوراة ، بغض النظر عما وقع لها ، بعد أصحابها ، حيث تناولتها يـــد الزمان ، والحاد الانسان بالتزييف ، والنسخ والمسخ ، والتحريف ، « **يحرفون الكـلم عن مواضعه** » أي يصرفونه لغير وجهه ٠

والايمان بهذه الكتب هو الاطمئنان برعاية الله لخلقه ، وببعثات أنبيائه لامـــم الارض ، ليثبتوا دينه ، وينشروا يقينه ، وهديه ونوره بين العالمين ، وقد جاءت رسالة محمد عليه السلام بنور الاسلام ، تدعو الى السلام ، والاخاء والوئام ، والتضامن والتعاون بين الانام ، وان أمتنا تعتز بالقرآن ، وتؤمن به كل الايمان « وبالآخرة هـم يوقنون » ٠ فلم يبق للمسلمين شك ، أو انحلال فى العقيدة أو تفكك ، فقد تـم ايمانهم بربهم وازدادوا يقينا : « **انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلـت قلوبهم واذا تليـت عليهم آيــاته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون** » فقد استيقنوا أن الآخرة دار قـرار واستقرار ، وأن الدنيا ما هي الا سفينة أسفار « **وللآخرة خير لك من الاولى ولســوف يعطيك ربك فترضى** » ثم يقول تعالى فى أول السورة التى بدأنا تفسيرها : « **أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** » فالمتقون هم الفائزون عند الله ٠

أيها المسلمون ، بعد أن ذكر الله الصفة الخامسة للمتقين ، الذين آمنوا بعـــدل الله الذى بيده الثواب وبيده العقــاب ، وبيده المغفــرة انه الواحد التواب · جــاءت الاشارة الى المتقين الذين عرفهم بسماتهم وصفاتهم ، فهؤلاء هم الذين أنعم الله عليهم انهم الفائزون بما قدموا من صالح الاعمال ، فكان سعيهم حميدا ، حين آمنوا بـــكل ما أخبر الله به ، وبتأدية فرائضه ، وبما أنفقوا من مال الله الذى استخلفهم عليه ، كما آمنوا بالقرآن وبكل مــا أنــزل الرحمان ، واستيقنوا بالوقوف أمــام الواحد الديان : «ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ الى ربه مآبا » « يوم تجد كل نفس ما عملت من خــير محضرا ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا » · وهنا يجنى المتقون ثمرة أعمالهم ويحظون بالرضا والرضوان ، لانهم كانوا يمتثلون لــا أمر اللــه بــه ، ويجتنبون ما نهى الله عنه ، بدافع نيل الثواب ، والنجاة من العقاب ·

ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، يا عزيز يا غفار ، يا من رحمته أوسع من عقابه ، وتسع كل شيء فى ملكه · « **ربنا انك من تدخل النــار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار** » ·

ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ·

عباد الله : « ان الله يامر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون » ·

سليمان المدني

الذكرى الاربعينية لوفاة الشيخ محمد الشاذلي بن القاضي

عبد الرحمن شيبان
المفتش العام بوزارة التربية

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الاخ الوزير ،

أيها السادة ٠



لقد نكبت الجامعة الزيتونية في السنوات الاخيرة نكبات متتالية ، بوفاة مجموعة من أساطينها ، نذكر منهم أصحاب الفضيلة العلماء أساتذتنا اجلاء : عبد العزيز جعيط ، الفاضل ابن عاشور ، محمد الطاهر ابن عاشور ، محمد البشير النيفر ، المختار بن محمود ، وأخيرا الفقيد المحتفل بذكراه الاربعين ، العالم العامل الاستاذ محمد الشاذلي ابن القاضي ، عليه وعليهم رضوان الله أجمعين ٠

(*) نص الكلمة التى ألقاها الاستاذ عبد الرحمن شيبان المفتش العام بوزارة التربية بمناسبة الذكرى الاربعينية لوفاة فضيلة الاستاذ محمد الشاذلي ابن القاضي ، التى اقامها المركز الثقافي الاسلامي يوم الاربعاء 78/4/26 بالعاصمة .

والشيخ محمد الشاذلي ابن القاضي، الذى نعته الينا أبناء الجمهورية التونسية الشقيقة فى اليوم السابع من شهر مارس 1978 م ، شخصية علمية اسلامية بارزة ، كان لها أثر كبير فى حياتنا الفكرية ؛ فكل كلمة مقتضبة تقال ، فى مناسبة كهذه ، قاصرة عن الاحاطة بحميد خصاله وجلائل أعماله .

لهذا أعتذر عما أعتبره قصورا فيما أقوله عنه الليلة ، موجزا حديثى فى بدايته عن حياته العامة ، مركزا بعد ذلك على ما قدمه للجزائر وأبنائها من خدمات يذكرها له التاريخ بمزيد من التقديد والاكبار .

حياتــــه العامــــة :

أيها السادة ، بوفاة العلامة الشيخ محمد الشاذلي ابن القاضي ، انتهت حياة صرفت كل لحظة منها فى التفكير فى شؤون المسلمين ، والعمل لاصلاح أحوالهم ، وتعليـم أبنائهم ما ينفعهم فى دنياهم وأخراهم . وحياة كهذه تستحق الدرس الشامل العميق، للافادة منها والنسج على منوالها .

لقد عاش الفقيد للعلم ينشره ، وللاسلام ينصره ، وللعربية يحميها من كيــــد الكائدين وتنكر المتنكرين ؛ فما وهن له عزم ، ولا ضعفت له ارادة ، ولا فت فى عضده طغيان الاجنبى الدخيل ، ولا تثبيط المتخاذل الذليل . وهذا شأن أصحاب المبادىء الذين آمنوا بالحق فحالفوه ، وكفروا بالباطل فقاوموه .

لا يغريهم نعيم الحياة ودعة العيش ، وسط مجتمع من البؤســـاء الذين تسلط الاستعمار على خيراتهم فنهبها ، وعلى أجسادهم فأهزلها ، وعلى أرواحهم فأخمدها ، وعلى أخلاقهم فشوهها ، وعلى عقولهم فاستلبها أو حجرها ؛ فهم بين منبهر ببريـــق حضارة لم يساهم فى صنعها ، ومتحجر فى كهوف الانحطاط قد استطاب العيش فى ظلماتهـا .

لم يطمئن الفقيد العظيم لهذه الحالة المادية والمعنوية المتدهورة التى انتهى اليها أمر المسلمين ، فثار عليها مستلهما فى ثورته مبادىء الاسلام وأسسه ، كما فهمها السلف الصالح ، لا كما شوهتها عصور التدهور والانحطاط ٠ ومؤمنا بأن تطهير العقيدة من الجمود والانحراف ، وتنوير العقول بهدى الشريعة وعلوم الحياة ، وانقاذ الارواح من الهوة السحيقة التى انحدرت اليها ، هى المنطلقات الصحيحة للتطور المنشود للعرب والمسلمين ٠٠٠

ولم يكن هذا الايمان حبيس نفس الفقيد ، بل تجسد فى نضاله المستميت ، ونكرانه للذات ، وتضحيته بالذات ، حتى شهد بلادا عربية واسلامية كبيرة تظفر بحريتها واستقلالها ٠ غير أن مجرد خروج الاستعمار من البلاد المبتلاة به ـ لم يكن فى نظره كافيا ؛ فالغاية المنشودة لا تتحقق الا بتطهير العقول والارواح من رواسبه ، وتخليص الاقتصاد من سيطرته وتوجيهه ٠ وذلك لا يتم الا بامتلاك القوة المادية ، والسيطرة على العلم والتقنية وتوجيه نتائجهما وفق منهج العقيدة الاسلامية ، ووضعها فى خدمة غاياتها الانسانية السامية ٠ كما أشار فقيدنا الى ذلك فى محاضرته التى ألقاها فى الملتقى السادس للتعرف على الفكر الاسلامى المنعقد بالجزائر سنة 1972 م ٠

والفقيد فى منطلقاته الفكرية هذه يلتقى مع أقطاب الحركة السلفية فى وطننا ، وفى مقدمتهم العلامة الجليل الامام عبد الحميد بن باديس الذى يعتبر ثمرة من ثمار الجامعة الزيتونية وامتدادا للتيار السلفى فيها ٠

ميــــادين جهــــاده :

ان العلامة محمد الشاذلى ابن القاضى شعلة متوهجة من النشاط ، تعددت ميادين نشاطه وتنوعت أساليبه ، وان كان هدفه واحدا هو تحرير العرب والمسلمين ٠

فقد ناضل بقلمه فى « المجلة الزيتونية » التى أنشأها مع نخبة من خيـار الزيتونيين سنة 1935 م ، وكان مديرا لها ٠

وساهم فى الحركة السياسية مساهمة بارزة ، أهلته لعضوية الديوان السياسى للحزب الحر الدستورى التونسى ، فى أحلك فترات الاحتلال ، وكان محل تقـدير

من جميع السياسيين على اختلاف ميولهم واتجاهاتهم ، وذلك لما امتاز به من اخلاص في العمل وصلابة في الحق ·

اصــلاح التعليــم الزيتوني :

وكان من الاركان الاساسية التي اعتمد عليها الامام محمد الطاهر ابن عاشور ، مدير الجامعة الزيتونية ، في اصلاح التعليم الزيتوني ، الذي استهدف تطويـــر البرامج ، وتنظير شهادات الجامعة الزيتونية بشهادات المؤسسات العلمية بفرنسا ، وعن هذا الاصلاح يقول العلامة المرحوم الاستاذ محمد البشير الابراهيمي في جريدة البصائر في عددها الخاص بمعهد ابن باديس والصادر في شهر جويلية سنة 1948 ، محددا شروط هذا الاصلاح ودوافعه :

« لم ير جامع الزيتونة في عهوده الاخيرة أزهر من هذا العهد · ولم ير في الرجال المسيرين له رجلا أقدر على الاصلاح وأمد باعا فيه من شيخه الحــالي · واذا كان الاصلاح يسير ببطء فما الذنب ذنبه ، وانما الذنب لطبيعة الزمان والمكان ، وضعف المقتضيات وقوة الموانع · وحسبه أنه حرك الخامد ، وزعزع الجامد ، وأجال اليـد المصلحة في الادارة ، وفي كتب الدراسة ، وفي أشياء أخر » ·

« ··· والحق أن في جهاز التعليم بجامع الزيتونة خللا يحتاج الى الاصلاح ، وعللا يجب أن تزاح ، ونقائص يجب أن تعالج ، وتوافه من النظم يجب أن تلغى » ·

« ··· فاذا اطمأن بعض أصدقائنا واخواننا من علماء الزيتونة على ابقاء ما كان على ما كان ، فليعلموا أن وراءنا من الزمن سائقا عنيفا حطمة ، يستحث البطاء ، ولا يغض من أعنة العجال ، وان بين أيدينا ودائع من شباب متطلع الى الكمال ، تواق الى السبق ، حريص على دقائق عمره أن تنفق الا فيما ينفق · وهو يريد أن يكون كزمنه وأبناء زمنه ، وزمنه ثلاثة : جد واتقان ونظام · وأبناء زمنه أحالهم العلم

عقبان جو (1) وغيلان دو (2) • وفرضت عليهم الحياة أن يأخذوا الكثير من العلم ، فى القليل من الوقت ، وأرتهم مصداق ذلك حتى لا يرتاب مرتاب » •

« ••• وليعلموا ان خصوم الاسلام فى ازدياد ، وان سير الالحاد فى اطراد ، وان العلوم الغربية زاحمت العلوم الاسلامية على نفوس شبابنا فافتتنوا ، وأن ضرائر العربية من اللغات الاوروبية يتبرجن تبرج الجاهلية الثانية ، وقد زاحمنها على ألسنة شبابنا فافتتنوا ، وان التعليم فى كلياتنا المشهورة بوضعه الحالى ، لا يكفل لنا سد أبـواب هـذه الفتـن » •

« ••• ان الاصلاح المرجو لجامع الزيتونة لا يبلغ مداه الا اذا توفرت فيه ثلاثة شروط : الاستقلال والمال والرجال » •

« ••• وأما الرجال فان فى الزيتونة رجالا لو تعاونوا وسلموا من داء المنافسة على الرياسة ، لحققوا الآمال فى الاصلاح ، ولعجلوا به ، وقد كانوا ينتظرون القائد الحازم فقـد وجـدوه ••• » •

مـــع الجـزائـر :

هذه بعض الجوانب من الحياة العامة للفقيد ، أما فيما يتعلق بخدمته للجزائـر وأبنائها فيتمثل فى مده يد العون للطلبة الجزائريين الزيتونيين فى فترة يصفها أستاذنا العلامة المرحوم الشيخ العربى التبسى فى عدد البصائر الخاص بمعهـد ابن باديس المشار اليه آنفا فيقول :

---

(1) عقبان : جـ ــ عقاب وهو : الصقر الذى يصيد ولا يصاد • ويشير به الابراهيمى الى الاسراب من الطيارين المتقاتلين فى الجو أثناء الحرب العالمية الثانية بين الالمان والحلفاء .

(2) غيلان : جـ ــ غول . وهى : الحيات أو كل ما اغتال الانسان فأهلكه من جـن أو شيطان أو سبع .

والدو : الفلاة الواسعة . والاشارة هنا الى جيش رومل الالمانى ومنتغمرى الانجليزى حين اشتبك جيشاهما فى صحراء العالمين .

« والامة الجزائرية لا يقال عنها : انها فى أيام احتلال بـــلادها لـــم تؤسس المؤسسات . ولم تقدم للانسانية فى هذا الوطن خدمة عقلية أو دينية أو اجتماعية. بل يقال عنها : شر من ذلك اذ هى قد عوقبت شر عقوبة عرفها تاريخ العصر الحديث: فقدت ما بين يديها ، وسلب منها ما أنشأه الاوائل لهذه النواحى وما أسسوه لخدمة العلم قبل الاحتلال . اغتصبت أوقافها ، ونزعت منها مساجدها ، ومنعت حـــق التصرف فيها ، وفرضت عليها قوانين من شر ما يعرفه البشر فى عالم التشريـــع الانسانى ، فالتعليم الدينى والدنيوى سلطت عليه قوانين لا انسانية فيها ، وكلف بسنها وتنفيذها أولئك الذين كلفوا بتشريع وتنفيذ قوانين الجرائم . وبات تعليم العلم والقرآن فى الجزائر فى عداد الجزائر . يحاكم معلم القرآن والعلم ومحارب الامية ، من غير رخصة من الحكومة ، مع القتلة والمجرمين (بقوانين واحدة ، وفى محكمة واحدة وعلى يد قاض واحد ، وفى يوم واحد . وكم لهذه القوانين من ضحايا أدمت القلـــوب » .

مع أبنائنا فى الزيتونـــة :

وفى هذه الظروف القاسية أضطر الجزائريون ـ محافظة على شخصيتهم العربية الاسلامية ـ أن يتوجهوا الى أى مكان تسير لهم الاتجاه اليه لتعلم العلوم العربيـــة والاسلامية . وكانت تونس الشقيقة أوفر البلاد العربية حظا فى استقبال هؤلاء الجزائريين الوافدين على زيتونتها المباركة ، يقتبسون من نورها ما يغذى نفوسهم ، وينير عقولهم ، وقد وجدوا من الفقيد ، باعتباره مديرا لمدارس سكنى الطلبة ، كل رعاية وعناية ، حيث فتح لهم المدارس يسكنونها ، وساعدهم على اتمام اجراءات الالتحاق بصفوف الدراســـة .

مـــع جمعيـــة العلمـــاء :

ونظرا لحبه للجزائر وتعلقه الشديد بها فقد أسندت اليه « جمعية العلـــماء المسلمين الجزائريين » مهمة تمثيلها بالقطر التونسى الشقيق ، فكان بهذه الصفة

مشرفا على « جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين » بتونس يوجه نشاطها ويرعاه ، ويساعد أعضاءها بالنصح ومختلف أنواع المساعدة ·

وبهذه الصفة أيضا اشترى دارين لسكنى الطلبة الجزائريين باسم « جمعيـــة العلماء المسلمين الجزائريين » ، وتشاء المصادفات أن يدفع العقيد الشهيد عميروش ـ المشهود له بحب العلم ومساعدة طلابه ـ ما تخلف بذمة الجمعية من أقساط احدى الدارين ، وهى « المدرسة الباديسية » ، وذلك قبيل استشهاده بأمد قصير ·

مـع معهـد ابن باديس :

ولما قطعت جمعية العلماء أشواطا واسعة فى تنفيذ أهدافها المرحلية فى تنظيم التعليم ، بانشائها مدارس ابتدائيـة عربيـة فى معظـم أنحاء البـلاد ، فكـــرت فى انشاء معهد ثانوى بعاصمة العلم قسنطينة ، تواصل به رسالة ابن باديس التعليمية فى الجامع الاخضر بقسنطينة ، والتى اضطلع بها ـ بعد وفاته ـ المرحوم الشيخ العربى التبسى بمدينة تبسة ، وتتوج به مجهوداتها فى مجال التعليم الابتدائى وتستقبل فيه الراغبين فى مواصلة دراستهم من تلاميذ المدارس الابتدائية الحرة ، وغيرها من المؤسسات القرآنية والعلمية بالجزائر ، بل وحتى من بعض البـــلاد الافريقية ، حيث وفدت على المعهد بعثات من بعض بلاد افريقيا · ورأت الجمعيـــة أن تضمن لطلبة المعهد الدراسة المنتظمة فى مراحل التعليم العليا ، وفى مختلف التخصصات من ناحية ، وتدعم روابط الاخوة بين الجزائر وغيرها من البلـــدان العربية من ناحية أخرى · فعملت على ربط المعهد بالجامعة الزيتونية أولا ، على أن يرتبط بغيرها من الجامعات العربية فى مرحلة ثانية · ولتحقيق هذا الهدف وجـه رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الشيخ محمد البشير الابراهيمى فى شهر جوان سنة 1947 رسالة الى جمعية الطلبة الزيتونيين الجزائريين ـ التى كان لى شرف رئاستها آنذاك ـ يعلمنا فيها بأن جميع التحضيرات قد تمت ليفتح معهد (عبد الحميد ابن باديس) بمدينة قسنطينة أبوابه فى شهر أكتوبر من السنة نفسها · وطلب الينا أن نطلب من مدير الجامعة الزيتونية فضيلة العلامة محمد الطاهر ابن عاشور الاعتراف بالمعهد كفرع من فروع الزيتونة المباركة ·

ولتنفيذ هذه المهمة الدقيقة والعظيمة أقامت الجمعية ـ بناديها الكائن بنهج عبد الوهاب بتونس ، وباتفاق سابق مع الشيخ المحتفل بذكراه الاربعين ـ حفلة تكريم للامام محمد الطاهر ابن عاشور بصفته رئيسا شرفيا لها ، حضرها معه ، بالاضافة الى الشيخ الشاذلى ابن القاضى ـ مدير المدارس ـ بعض أعضائه : الشيخ على النيفر ، نائبه ، والشيخ محمد المختار بن محمود ، والشيخ الفاضل ابن عاشور . وفى هذه الحفلة التكريمية ـ فى ظاهرها ـ عرضنا على مدير الزيتونة رغبة جمعية العلماء ؛ فأكبر هذه المبادرة العلمية ، واعرب عن اغتباطه الشديد بأن يعترف بمعهد يحمل اسم أحد تلاميذه الاصفياء ـ الامام عبد الحميد بن باديس ـ كفرع للجامعة الزيتونية ، فقدمنا له شكر الجزائر العربية المسلمة على هذه الخطوة المباركة ، وسارعنا ـ بعد انتهاء الحفلة التى أقيمت صباحا مباشرة ـ الى تسجيل هذا الاعتراف فى بلاغ سلمناه الى الجريدتين المسائيتين : « النهضة » و « الزهرة » ؛ لنباغت به الاقامة العامة الفرنسية فى نفس المساء ، وجعلناه تحت عنوان : « جمعية الطلبة الزيتونيين الجزائريين تحتفل برئيسها الشرفى : فضيلة مدير الجامعة الزيتونية » حتى نغالط الاقامة العامة ونفوت عليها فرصة التحرك السريع لابطال الاعتراف ، فنضعها بذلك أمام أمر واقع لا يسعها الا اقراره .

وقد نجحت الخطة التى رسمناها بمساعدة العلامة ابن القاضى وتحت اشرافه .

وبعد سنة من الدراسة بالمعهد الباديسى وقع حدثان هامان : أولهما اصدار جريدة (البصائر) عددا خاصا بالمعهد ، قدم فيه رئيس جمعية العلماء الى الامة المعهد وأساتذته وتلامذته ... وكان فى مقدمة من خصهم بكلمة تقديرية ، بهذه المناسبة ، مدير الجامعة الزيتونية : الامام محمد الطاهر ابن عاشور ، وفقيدنا العظيم الاستاذ محمد الشاذلى ابن القاضى ، تنويها بدوره فى الاعتراف بالمعهد ، واشادة بفضله على الجزائر وأبنائها . والحدث الثانى : ايفاد « جمعية العلماء » وفدا الى تونس لتمثيل المعهد فى احتفالات الزيتونة الرسمية بنهاية السنة الدراسية ، يتالف من الاساتذة : عبد المجيد حيرش ، أحمد حسين ، على المغربى وعبد الرحمن شيبان . وقد خص

مدير الجامعة الزيتونية فى خطابه ، بهذه المناسبة ، المعهد بكلمة أبدى فيها اعتزازه بميلاد فرع جديد للزيتونة بالجزائر ، ورحب بالوفد الجزائرى أحر ترحيب ·

وهكذا ازدادت الصلة بين الجزائر وتونس وغيرها من البلاد العربية الشقيقة توثقا ، وفى ذلك يقول الاستاذ محمد خير الدين ، نائب مدير معهد ابن باديس وأمين مال جمعية العلماء ، فى العدد الخاص بالمعهد : « وما ارتباطه بجامع الزيتونة ـ كعبة العلم بالمغرب العربى ـ من يوم افتتاحه ، الا خطوة أولى لتحقيق وحدة العروبـــة بالعلم والعمل ··· وسيرتبط بمعاهد الشرق العربى · فتتم الوحدة وتتجلى فى أجلى مظاهرها» · ويزيد العلامة الابراهيمى هذه الفكرة تأكيدا فى العدد نفسه فيقول :

« والمعهد ـ وان كان فرعا عن جامع الزيتونة لا يخرج عن برامج أصله فى الجملة ، ولكنه قد يزيد عليها لفائدة محققة أو راجحة ، وهو ينوى التوسع فى مبادىء علوم الحياة وينوى توجيه النوابغ فيه الى استكمال معلوماتهم فى جهة أخرى غير الزيتونة على نفقته وتحت اشرافه ورقابته ، ليأخذوا من العلوم التطبيقية بنصيب فينتفعوا وتنتفـــع الامـــة بهـــم » ·

وقد تحققت هذه الاهداف بربط المعهد علاقاته وتوثيق صلاته بجامعات القاهرة والاسكندرية ودار العلوم والازهر وعين شمس بمصر ـ وجامعة دمشق ـ بسوريا ـ وجامعة بغداد بالعراق ـ والسعودية والكويت والاردن والمغرب وليبيا · ومن طلبته الذين أتموا دراساتهم العليا بهذه الجامعات عدد كبير يقدمون اليوم خدمات جلى للوطن فى شتى المجالات ·

مع الثــورة الجزائرية المسلحة :

وفي أثناء الثورة الجزائرية المسلحة كان المرحوم ابن القاضى على صلة بكبار مسؤوليها، ينصحهم ويساعدهم بكل ما يستطيع · وعند ما أعلن عن تأليف الحكومة المؤقتـــة للجمهورية الجزائرية احتفل بهذه المناسبة ؛ فأقام ـ بداره بالمرسى ـ مأدبة دعا اليها رئيس الحكومة والشيخ الابراهيمى وبعض المسؤولين فى الثورة · وحضرها ـ من الجانب التونسى الاساتذة : محمد الطاهر ابن عاشور ، ومحمد المختار بن محمود ،

وعبد العزيز جعيط ، ومحمد الفاضل ابن عاشور . ودار الحديث أثناء المأدبة حول حاضر الثورة الجزائرية ومستقبلها بعد حريتها واستقلالها . وكان الفقيد فرحا بهذا اللقاء فرحا شديدا ، وقد أعلن فيه عن ثقته المطلقة فى انتصار الجزائر المحقق باذن الله ... ومن بين ما أوصانا به الفقيد بمحضر المرحوم الشيخ نعيم النعيمى ـ أثناء الثورة ـ : العمل على اقامة « مجلس اسلامى أعلى » فى الجزائر بعد استقلالها، وقدم لنا قانونا أساسيا لهذا المجلس ، آملا أن لا تقع الجزائر فيما وقع فيه غيرها من البلاد الاسلامية المستقلة حديثا ، من تبعية واستلاب .

مع الجزائر المستقلة :

ولما استقلت الجزائر وأنشىء المجلس الاسلامى الاعلى ، دعت وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية الراحل العظيم لالقاء محاضرة فى الملتقى السادس للتعرف على الفكر الاسلامى المنعقد بالجزائر سنة 1976 ، ودارت محاضرته حول القضية التى جند حياته لخدمتها وهى « الاسلام فى حاضره ومستقبله » .

ولا يفوتنا فى نهاية هذه الكلمة ـ أن نطلب من العلماء المسلمين ـ فى مشرق الارض ومغربها ـ مواصلة رسالتهم فى خدمة أوطانهم عملا بقوله تعالى : « **ولتكن منكم أمة يدعون الى الخيرويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون** » .

ونأمل أن يتعزز التعليم الاسلامى بالجزائر حتى يكون تطورها فى اطار الاصالة . وأن يدعم المجلس الاسلامى الاعلى صلاته بالمنظمات الاسلامية لخدمة الفكر الاسلامى ومسايرة ركب الحضارة .

ورحم الله الفقيد الجليل محمد الشاذلى ابن القاضى ، وجازاه أحسن الجزاء على جهاده فى سبيل العلم والعروبة والاسلام .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

محمد الشاذلى بن القاضى
العالم المصلح

أحمد حمانى
رئيس المجلس الاسلامى الاعلى
الجزائر



نعت الينا أخبار تونس الشقيقة فقيدا عزيزا علينا ، ورجلا عظيما من رجالنا ، وأبا روحيا من الذين لهم حق التربية على اجيالنا : انه أستاذنا الجليل الشيخ محمد الشاذلى بن القاضى الاستاذ بالكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين ، وصاحب (المجلة الزيتونية) وعضو رابطة العالم الاسلامى بمكة المكرمة رحمه الله . وافته المنية بتونس يوم الاثنين 26 ربيع الاول 1398 هـ (6 مارس 1978 م) فعزمنعاه على كل من يعرف فضله وايمانه العميق وصلابته فى الحق ، ونشاطه فى خدمة الاسلام .

(*) نص الكلمة التى ألقاها الاستاذ أحمد حمانى رئيس المجلس الاسلامى الاعلى بمناسبة الذكرى الاربعينية لوفاة فضيلة الاستاذ محمد الشاذلى بلقاضى التى أقامها المركز الثقافى الاسلامى يوم الاربعاء 1978/04/26 بالعاصمة .

انه يودعنا بعد حياة طويلة ، مليئة بجلائل أعمال ، والسعي المتواصل فى خدمة الامة والنفع العام ، والنصح لله ولرسوله ولكتابه وللائمة المسلمين وعامتهم · فلم يكن يدخر وسعا ولا ينى ، ولا يتوقف أمام الصعاب ولا ينثنى ·

ولد رحمه الله من عائلتين كريمتين : فأبوه هي العلامة الشيخ محمد بن القاضى ، قاضى تونس ، وأمه من آل النيفر المعروفين بالشرف والعلم ـ بمدينة تونس عام 1318 هـ (1901 م) ورباه أبوه فاحسن تربيته · وانخرط فى سلك الجامعة الزيتونية عام 1333 هـ (1915 م) وتخرج منها عام 1340 هـ (1922 م) وكان من أساتذته العلامة الشيخ محمد ابن يوسف ، والشيخ محمد الطاهر بن عاشور شيخا الاسلام،والشيخ محمد النخلى ، والشيخ بلحسن النجار والشيخ محمد بن الصادق بن القاضى والشيخ محمد العزيز جعيط الوزير السابق والشيخ محمد البشير النيفر قاضى الجماعة ، وما منهم الا كان الامام الركن والمحقق المتقن ، والعلامة المفتن ، وابتدأ التدريس بالجامعة وهو فى شبابه متدرجا من درجة (معاون) عام 1346 هـ (1928 م) الى درجة أستاذ عام 1372 هـ (1953 م) وكانت هذه الدرجة بالزيتونة عزيزة لا ينالها الا الفطاحل المبرزون · وبهذه الصفة دخل الجامعة التونسية ليدرس فى كلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين · حتى وافاه الاجل المحتوم ·

عرفت الاستاذ فى ميدان العلم والعمل منذ امد طويل ، عام 1354 هـ (1935 م) ، وكان أستاذنا بالزيتونة ، فتلقيت منه دروسا نافعة فى العربية وكان رحمه الله يبذل مجهوداته الكبيرة فى ايصال النفع لابنائه بمختلف الطرق ، محبا لهم ، مشفقا عليهم ، عظيم الحلم عن اخطائهم وهفواتهم ، كريما معهم جميعا يشجع المتفوقين ويثيبهم ، ويأخذ بيد الضعفاء ويرشدهم ، فكانوا يجلونه ويقدرونه ، ويحلونه من أنفسهم وقلوبهم المحل الرفيع · ذلك انه لم يكن من الذين يكتفون فى تلقين طلابهم بالقواعد الجافة ، ولكنه كان يتجاوز بهم حد تلقين القواعد الى التربية والتهذيب وحسن التوجيه ، مما يجعل الطالب يحس من أستاذه انه أيضا رفيق له ، وصاحب يستأنس بصحبته فيقبل نصحه ، ويفتح له فؤاده ، وتجلب خصاله الحميدة فى أروع مظاهرها يوم تولى ادارة مساكن الطلبة وما فى ذلك من مشاكل كان يجد لها حلولا ترضى جميع الاطراف وتريح الطلبة ·

لقد كان الاستاذ محمد الشاذلى بن القاضى ـ كأحد علماء الزيتونية ، أو الجامع الاعظم ـ ممن يحسون بعظم المسؤولية التاريخية الملقاة على عواتقهم : انها امانة

الاجيال ، وهم حلقة الاتصال بين الاجيال الماضية والاجيال المقبلة ، ولا يجوز ان ينسى المدرسون بالزيتونة انهم جالسون مجالس ابن عرفة ومشائخه وتلاميذه ورفاقه • وكل من جاء بعدهم الى عصرنا ، لقد جلس برحاب الجامع الاعظم للتلقى أو الالقاء امثال ابن خلدون ، والبرزلى ، وابن عبد السلام والابى ، والغبرينى ، فى القديم وآل بيرم ، وآل ابن عاشور ، وابن أبى الضياف ، وبوحاجب ، وآل النيفر وآل ابن مراد فى الحديث • ولقد ادركنا فى الزيتونة طائفة الحافظين المتزمتين المشفقين من كل تغيير لا يرون ان يلحق بالجامعة الزيتونية ، أو بالكتب المدروسة فيها أو بالبرامج المتبعة فى التدريس أي تبديل أو تغيير.وكان فيهم المحب للزيتونة والمشفق عليها ، الخائف أن تتجاوزها الاحداث ، وتحل بها المصائب اذا لم يسع أهلها ـ بانفسهم ، فى الاصلاح والتجديد ، وتطوير أنفسهم بأنفسهم ، وتجديد مناهجهم وتأليف الكتب الحديثة ، والتزود بكل جديد مفيد ، مع المحافظة على الروح الاسلامية القومية أصيلة نقية سليمة بعيدة عن كل انحراف .

وكان أستاذنا رحمه الله من هذه الطائفة المتبصرة المدركة ، فكان من رجال الاصلاح وحزبه واعوانه ، ومن شيعة رواده ، المستجيبين لدعوته بل من دعاته ، فكان على رأس فتية رفعوا رأس الزيتونية عاليا •

وأذكر فى هذا الميدان أن اليقظة كانت قد عمت اثناء السنوات السابقة للحرب العالمية الثانية وخصوصا منذ عام 1933 م ، وأرتفع صوت العلماء والزعماء والمفكرين والكتاب فى كل مكان من العالم الاسلامى شرقا وغربا • ولم يكن لعلماء الزيتونة صوت خاص بهم ، كان تلاميذهم يملأون السهل والجبل ، بتونس وبالجزائر ، يعمرون الوظائف السياسية والادارية والاجتماعية ، ترتفع أصواتهم بالخطب المهيجة المثيرة والمقالات القيمة فى الصحف والمجلات تعالج أمراض المسلمين ، وتكشف أدواء مجتمعاتهم ، وتصف الدواء النافع لسلامتهم وبقى صوت شيوخهم خافتا ، فعز هذا الوضع على ابناء الزيتونة الاحرار ، وخريجيها الاوفياء ، من العلماء المصلحين من التونسيين والجزائريين •

وفى عام 1354 هـ (1936 م) وجه الاستاذ عبد الحميد بن باديس رحمه الله فى جريدة البصائر ، العدد الاول من السلسلة الاولى نداء الى علماء الزيتونة يذكرهم فيه بان علماء مصر ، وعلماء المغرب ، وعلماء طرابلس (ليبيا) وعلماء الجزائر كلهم قد ارتفعت أصواتهم بالاصلاح الاسلامى (وما بقي ساكتا الا جامع الزيتونة ، وقد

ارتفعت الشكوى فى الصحف التونسية ـ هذه المرة الاخيرة ـ من بلدان عديدة فى القطر التونسى الشقيق بالبدع والمنكرات · وبقي علماء الزيتونة واجمين ساكتين كان الامر لا يعنيهم ثم : (اننا ندعوكم بكلمة الله الى الصدع بالحق وانقاذ المسلمين)

ولم يذهب هذا النداء صرخة فى واد ، أو نفخة فى رماد ، بل كان له اثر استحسان عظيم فى أوساط العلماء الشبان أعوان الاصلاح وانصاره وعلى رأسهم الفقيد الكريم ، والاستاذ العلامة الشيخ المختار بن محمود والعلامة الاستاذ محمد الهادي بن القاضى وغيرهم فتحركوا للعمل المفيد ، وكانت ثمرته الاولى (المجلة الزيتونية) ·

لقد كان الوسط الزيتونى ـ الى ذلك العهد ـ يتسم بالتزمت والمحافظة ، وكثير من شيوخه لا يرون للطالب الاشتغال بقراءة الجرائد ، والاهتمام بمطالعة مقالاتها ، لانها تشغله عن دراسة الكتب الجافة المقررة ، وتعوقه عن تحصيل العلوم النافعة : وكان القيمون بالجامع يراقبون الطلاب ، ولا يسمحون لهم بفتح صفحات جريدة فى قلب الجامع الاعظم ـ فاصدار (مجلة) من علماء زيتونيين رسميين ، مؤيدة من شيخ الجامع الاعظم ، ومن شيوخ الاسلام والعلماء الاعلام ، كان بحق حدثا جديدا ، وكسبا عظيما للاصلاح ، وكان لاصدار هذه المجلة ـ بالفعل ـ صدى عظيم فى جميع الاوساط أزال غشاوة على أعين كثير من الناس ، اذ ان كثيرا من الناس كانوا يرمونها بالعقم والجمود ، ويسمون شيوخها بالتحجر والعجز والكسل ، بينما كان محبوها وأولياؤها مشفقين عليها ، وجلين من مصيرها ، آملين ان تبدر منها ومن شيوخها بوادر تقر عين الودود ، وتكبت كل حسود ، فكان صدور (المجلة الزيتونية) مبشرا بطور جديد ، مبرهنا على الحيوية والنشاط والكفاءة فى ميدان التحرير والتفكير والعلم والاجتماع والسياسة والاصلاح ·

وقد استقبلتها عائلة الاصلاح بما هي جديرة به ، وكتب بقلمه الاستاذ عبد الحميد ابن باديس فى العدد العاشر من المجلد الثانى عشر يقول :

(يحق لى ـ وأنا تلميذ من تلاميذ الزيتونة ـ أن أغتبط بالمجلة الزيتونية غبطة خاصة ، ويحق لى ـ وأنا جندى من جنود الاصلاح الاسلامى العام ـ أن أسر سرورا خاصا بتعزز معاقل الاصلاح بها) ثم يقول (فجاءت المجلة الزيتونية تعلن الاصلاح وتحمل رأيته وتدعو اليه باسم جامع الزيتونة المعمور ، فكان فوزا مبينا للاصلاح والمصلحين ونصرا عظيما للاسلام والمسلمين) ويقول عن محرريها (قد ازدانت عزتها باسماء أربعة من خيرة الشبان العاملين : الاستاذ محمد الشاذلى بن القاضى ،

والاستاذ محمد الهادى بن القاضى وكنت تلقيت شيأ من البلاغة على المنعم والدهما ، والاستاذ محمد المختار بن محمود والاستاذ الطاهر القصار ٠٠٠) ثم يقول فى النصيحة والتوجيه : (ان اسم الزيتونة اسم اسلامى علمى تاريخى عظيم ، فيجب ان تكون المجلة الزيتونية ممثلة له مجددة لعهده ٠٠٠ وانى أقترح على اخوانى القائمين بها ان يضموا الى قلم تحريرها رجالا من الزيتونيين الذين يعرفون بعض اللغات الغربية ولهم خبرة بحركات العصر ، من وراء البحر فان العلوم والاداب والفنون تراث الانسانية كلها ، لا تستقل فيها أمة عن أمة ، وأكمل الامم ازاءها من تحسن كيف تحافظ على حسنها ، وتستفيد من حسن غيرها) اه ٠

وكتب فى تقريظها والترحيب بها الاستاذ الشيخ مبارك الميلى رحمه الله وبعد التنويه بالجامعة الزيتونية وما لعبته من أدوار قال : (أكتب هذا وبين أيدينا أثر من آثار ذلك الجامع المعمور وهو الجزء الثالث من المجلة الزيتونية الممتعة التى يحمل عرشها أربعة من شيوخه المدرسين ، وفتايانه الاقوياء ، ممن جمعتنا واياهم حلق الدروس ٠٠٠) ثم يقول (ان الذى سرنى جدا وملانى ثقة بحسن مستقبل مجلتنة وتحسين سمعة جامعتنا هو اشتباك امضاءات فتية ناشطين ، بامضاءات شهب متبصرين ، وان تعاون فتوة الفتيان وحنكة الشيوخ على الاخذ بيد هذه المجلة لما يبشر بثبوت قدمها فى سلم الكمال ٠٠٠ وامتزاج هاتين الطبقتين قضاء على الجمود وسلامة من التطرف) اه ٠

صدرت هذه المجلة بعد بضعة أشهر فقط من صدور نداء الشيخ عبد الحميد ابن باديس الداعى علماء الزيتونة الى التحرك واعلان القول ، ونصر الاصلاح ، ولا ازعم ان هذا النداء هو الذى كان سببا وحيدا فى اصدار المجلة ، ولكننى أتيقن أنه أحسن الضرب على الوتر الحساس وتر اثارتهم لانه ذكر ـ رحمه الله تحرك علماء الازهر ، والقرويين وعلماء طرابلس والجزائر ، ونحن نعرف شدة حساسية اخواننا وأساتذتنا التونسيين الذين يحبون ـ دائما ـ ان يكونوا السباقين لا المسبوقين ، ومما لاشك فيه أن التجاوب سريع وعظيم بين القطرين والاحتكاء شديد فى القديم والحديث ، وكل منهما متمم للاخر ٠ شقيق له يحسى باحساسه فى السراء والضراء ويتأثر بما يقى فيه ٠ لقد متنت العلاقات بين رجال الاصلاح سريعا ، ففى عام 1356 هـ (1937 م) زار تونس أستاذنا الشيخ عبد الحميد بن باديس لاول مرة بعد انقطاع كبير فلقي شيوخه وزملاءه وتلاميذه وابناءه الكثيرين من جزائريين وتونسيين ، واستقبل من

الشعب التونسى استقبالا كريما ، واحتفى به فى الاوساط العلمية احتفاء كبير وخطب فى العامة والخاصة فنال الاعجاب ، واثار كوامن الاحساس . ثم اتبــع هذه الزيارة بزيارتين أخريين احداهما بمناسبة اقامة حسلة لذكرى المرحوم الشيخ البشير صفـر أحد رواد النهضة التونسية ، والاخرى بمناسبة عودة المرحوم الاستاذ عبد العــزيز الثعالبى مؤسس الحزب الحر الدستورى التونسى .

وكان أستاذنا الشيخ محمد الشاذلى بن القاضى ممن يحف بالاستاذ ابن باديس ويلازمه واثناء اقامته بتونس لذكرى الشيخ البشير صفر ، استدعى للالقاء محاضرة عن الحالة فى الجزائر قالت عنها جريدة الزهره اليومية ما نصه :

(وقع اقبال عظيم جدا على سماع هذه المحاضرة الكبرى ، وكان الاستاذ ابن باديس يتوسط المسرح وعن يمينه حضرة العلامة الفاضل ، الشيخ السيد الشاذلى بن القاضى صاحب رصيفتنا (المجلة الزيتونية) الفيحاء والسيد السرى الامثل حســن بوجدرة كما كان على يسار الاستاذ المحاضر السيدان الشاذلى المكى ، وقلش الزين) ولحضت جريدة الزهرة محاضرة الشيخ ابن باديس وختمت مقالها قائلة :

وباثر ذلك وقف حضرة العالم الفاضل الاستاذ الشيخ السيد الشاذلى بن القاضى المدرس بالجامع الاعظم دام عمرانه وصاحب رصيفتنا (المجلة الزيتونية) الغــراء ، وارتجل خطابا قيما ، قدم فيه خالص الشكر للاستاذ ابن باديس بالنيابة عن الزيتونيين واثنى على هذا المصلح الكبير والزعيم الاسلامى العظيم الذى تتمثل فيــه الناحيتان العلمية والسياسية وقال فى هذا الصدد .

ان الجزائر اليوم اذا اعتمدت فانما تعتمد على هذا الشيخ الجليل ثم قال الاستاذ ابن القاضى ونحن ان شــاء اللــه مقتفون خطوات هذا الاستاذ فى خــدمة العــروبة والاسلام واذا قال الاستاذ ان العلم يجب ان ترافقه السياسة فاننا نقول : ان لنا علماء ضربوا فى الحركة السياسية بهم مصيب . واذكركم بان أول كلمة صدرت فى بنــاء الدستور كان مصدرها العالم الكبير الاستاذ الشيخ الصادق النيفر) اهـ . نقلا عــن مجلــة الشهــــاب .

وكان مما عاتب به الشيخ ابن باديس رحمه الله علماء الزيتونة انهم أفرطوا فى عزلتهم عن محيطهم واسرفوا فى انكماشهم الذى فصلهم عن الشعب المسلم الذى من حقه عليهم انْ يتصلوا بطبقاته وجماهيره . ويبثوا الوعي الصحيح فى أفراده وجموعه وان يستمدوا منه قوتهم وطاقتهم لاداء مهمتهم الدينية القومية على أكمل وجوهها .

ولم تذهب صيحته سدى بل استجاب لدعوته ، وانتصح بنصحه شباب من شيوخ الزيتونة • وعلى رأسهم الفقيد والاستاذ المختار بن محمود رحمهما الله فعقدوا رحلات علمية تهذيبية الى الآفاق ، أذكر منها رحلة الى باجة والشرق التونسي ، فاتصلوا مباشرة بالشعب والقوا في جموعه المحاضرات والدروس والمسامرات ولولا الاحداث السياسية التى هزت تونس هزا عنيفا ، وأعلنت حالة الحصار فيها منذ عام 1938 م حتى نهاية الحرب لشهدت تونس وجها جديدا لنشاط الدعوة الاصلاحية الاسلامية فيها ، وهكذا نجد ان فقيدنا الشيخ الشاذلى قد وفي بعهده ، وكان يعني ما يقول عندما صرح أمام ابن باديس (نحن ان شاء الله مقتفون خطوات هذا الاستاذ فى خدمة العروبة والاسلام) اهـ • ونحن نشهد ان الفقيد رحمه الله قد وفى بقوله فعاش طول حياته وفيا لعهده فى خدمة العروبة والاسلام حتى لقي ربه •

لم تطل هذه الحقبة فى الاتصال بالشعب والتأثير فيه مباشرة ، لاعلان الحرب العالمية الثانية فى شهر سبتمبر 1939 م • فشلت كل نشاط سياسى أو اجتماعى ، وتوقفت الصحافة الوطنية الصادقة عن الصدور بسبب حالة الحصار وفرض الرقابة وخنق الحرية ، بحيث لا يصدر الا ما يريد الغاصبون ، ومات عبد الحميد ابن باديس رحمه الله فى 8 ربيع الاول 1359 هـ (16 ابريل 1940 م) ، واعتقل الاخيار من الزعماء السياسيين والدينيين ، وعلى رأسهم ـ فى بلادنا ـ الشيخ محمد البشير الابراهيمى ، والشيخ العربى التبسى الذى كاد يذهب ـ لولا لطف الله ـ الى الجلاد،ثم نال من بعد درجة الاستشهاد ، ومات الشيخ مبارك الميلى عام 1945 م وما تزال الحرب وقيودها تشل الحركات •

علن ان هذا النشاط لم يخف تماما ، بل استمر يجرى فى طي الكمان بقدر الامكان وخصوصا لما انهزمت فرنسا وبانت عورتها للعيان ، ثم نزل بالجزائر الاميريكان ، وبتونس الطليان والالمان ، وكان لبعض علماء الزيتونة وعلى رأسهم أستاذنا وصديقنا الشيخ محمد الشاذلى النيفر ، وأستاذنا الشيخ محمد الصالح النيفر صولات وجولات فى الميدان بجانب رجال تونس الاحرار وزعمائها الابرار ، وكنت معهم ، وعضوا فى جماعتهم • والله شهيد على اننا كنا السبب فى الافراج عن زعماء تونس وعلى رأسهم الرئيس الحبيب بورقيبة اذ كان ما يزال مع بعض رفاقه بسجون فرنسا ومعتقلاتها بالجنوب الفرنسى فقد تدخلنا لدى قيادة الالمان وقلنا لهم : لا يمكن ان يعطف عليكم العرب وزعماؤهم فى سجون فرنسا أو فى الاقامة الجبرية تحت

حكمـــكم فـأفـرج عنهـم فى نحـو 24 سـاعة · كمـا كنـا فيمـن سعـى لتـأسيس الهـــلال الاحمـر التـونسى لاسعـــاف ضحـايـا القـــذف الجـــوى الفظيـــع ، والمنقطعين عن أوطانهم ، واللاجئين ، ومما اذكره اننـا لـا أرسلنا طلب الانخراط فى مؤسسة الصليب الاحمر الدولى بجنيف رجع الطلب مرفوضا مرفقا بكلمه : حيثمـا وجد الصليب الاحمر الفرنسى لا يسمح بوجود الهلال الاحمر) ! وانما ذكرت هـذا لاقول ان المشائخ الزيتونيين ومنهم أستاذنا الفقيد لم يبقوا ـ حتى فى أحرج الاوقات ـ مكتوفى الايدى ، بل تحركوا لخدمة أمتهم ودينهم ، وتعرضوا لاعظم الاخطار.

وانتهت الحرب ، وعادت الحياة الى مجراها الطبيعى ، وصراعها العنيف ودخلت الجامعة الزيتونية فى حياة جديدة ، وتطور عظيم ، بالنسبة الى ما كانت عليه قبـر عام 1939 م · فاما الجامعة فقد دخل برامجها اصلاح كبير جعلها ـ بحق ـ جامعـ حقيقية حرية ان تؤدى مهمتها على أحسن الوجوه قابلة ان تتطور مع الزمن ، واتسعـ وامتدت فروعها حتى تجاوزت حدود تونس الى الجزائر ، واما طلبتها فقد اصبحوا قوة رهيبة لها وزنها الثقيل فى الحياة العامة وفى الاجتماع والعلم ، والسياسة والكفاح المـرير ضد الاستعمار واعوانه · وامـا المشـائخ فقد اندمجوا فى محيطهم وتـركوا عزلتهم ، واصبحوا فى اتصال متين مع الشعب ، تخطب ودهم الاحزاب والجمعيات وتلتمس عونهم ، وتستفيد من كفاءاتهم فى الراي والفكر والقيادة والخطابة والكتـابة ومن أشهر رجالهم فى هذا الميدان أستاذنا محمد الفاضل بـن عاشور رحمه اللـه ، وأستاذنا محمد الشاذلى النيفر عميد كلية الشريعة وأصول الدين حفظه الله ونفع به وبعد الاستقلال أصبـح الاول مفتى الجمهورية التونسية الفتيـة والثانى عضوا فى برلـانها الـرشيد.

ثم جاءت أحداث الثورة الجزائرية عام 1374 هـ (1954 م) وانقطع ما بينى وبين أستاذى الفقيد وغيره من مشائخى بتونس ، ولم أجتمع به الا بعد الاستقلال بمـدة طويلة ، ففى عام 1392 هـ (1972 م) ورد الى الجزائر بمناسبة ملتقى التعرف على الفكر الاسلامى السادس المنعقد بالعاصمة الجزائرية بمناسبة مرور عشر سنوات عـلى الاستقلال ، وقد حضر هذا الملتقى فى صبحـة صديقة ورفيقة فى العمـل الاسـلامى والنشاط السياسى والاجتماعى أستاذنا المبرور المختار بن محمود رحمه الله · واذا كان كر الغداة ومر العشي قد تركا آثارهما على الاجسام ، ووجدت الاستاذ ابن محمود لا يكاد ينطق ولا يبين فان هذه السنين لم يكن لها اي تاثير على النفوس ، وما زالت لهما

روح الفتيان وحماسة الشبان · وقد حاضر الاستاذ ابن القاضى فـابدع واجـاد ؛ وتضمنت محاضرته ـ وهي منشورة بالمجلد الرابع من الملتقى السادس ـ أراء ناضجة وأفكارا سديدة فى كيفية النهوض بالاسلام وأهله ، والسير فى ركب الامم الراقية ·

بقيت ـ أيها السادة ـ كلمة أقولها عن أستاذي الفقيد رحمه الله كزميل لي فى عضوية رابطة العالم الاسلامى · فقد انتخب فى الرابطة بديلا من المرحوم الفاضل بن عاشور ، كما انتخبت عام 1393 هـ عوضا عن أستاذنا الجليل محمد البشير الابراهيمى وحضرت أولى جلسات الرابطة الدورية عام 1394 هـ ومنذ ذلك الحين كنا نلتقى فى كل موسم لمدة تزيد عن الشهر · كان الفقيد رحمه اللـه يقوم بدور هـام فى الرابطة ففى صائفة 1393 هـ انتدب على رأس وفد لجولة فى دول غربى افريقيا فزار معظم بلدانها وشعوبها ، وعرف الكثير من اخبارها ومشاكل الاسلام والمسلمين فيها ، وتقدم الـى مجلس الرابطة بحلول عملية واقتراحات مفيدة نفذ الكثـير منها ، وكان يتمتـع فى المجلس بمكانة سامية ، معروفا بشجاعته ونزاهته ، واخلاصه · يحضر جميع الدورات ويتابع الجلسات ، ويعمل فى اللجان ، ولم يتخلف الا عن الدورة الاخيرة (ذى القعدة 1397 هـ) لاشتداد وطأة المرض عليـه · واثناءها انتخب عضوا فى المجمـع الفقهى ، وها هو ذاير تحل دون ان يحضر جلسة من جلساته ·

وخير ما أختم به عن اخلاقه ونصحه وصراحته ما شهدته منه أثناء آخر لقـاء معه فى المؤتمر الثامن لوزراء خارجية الدول الاسلامية المنعقد بمدينة طرابلس الغرب عاصمة الجماهيرية العربية الليبية فى صيف 1397 هـ ، وكنا حضرناه كعضوين فى وفد الرابطة ذلك انه كان على رأس وفد من وفود الدول الافريقية المسلمة احـد الطلاب من قدماء تلاميذ الجامعة الزيتونية · فلما عرضت قضية الثورة الايريترية كان موقف وفد هذه الدولة ورئيسه متناسقا مـع موقف معظـم دول افريقيا السوداء يناصرون دولة الحبشة ضد ثورة هذا الشعب المسلم،فما كان من أستاذنا المرحوم الا أن وجه ـ فى جلسة خاصة ـ مر العتاب واللوم لتلميذه ، وصرح له بان موقفه كسياسى يتعارض تماما مع موقفه كمسلم ، اذ كان يجب عليه ان يقف موقف التضامن الاسلامى ضد من يفتك بالمسلمين ويعتدى على أرضهم وأموالهم ، وانه لا يرضى لـه مثل هذا الموقف · ولاشك أن دافعه الى ذلك هو النصح لله ولكتابه ولرسوله ولائمة المسلمين وعامتهم ، رحم الله أستاذنا الفقيد محمد الشاذلى بن القاضى وأسكنه مع الذين انعم الله عليهم ·

توضيـــح حـــول نشر محـاضرات الملتـــقى

ننشر هذه المحاضرات طبقا لمبدأ نشر كل محاضرات الملتقى الذى أعلنا عنه فى العدد الاول من « الاصالة » تعميما للفائـدة ، ولطلب الكثير ممن تصلهم المجلة ولا تصلهم كتب الملتقيات .

وقدقررنا أن ندرج فى كل عدد على الاقل مقالين .

ونرجو أن يكون السادة الاساتـذة الذين أرسلوا الينا بمقالات لم نصل بعد الى نشرها وعاتبونا على نشر القديم المتمثل فى هذه المحاضرات من ملتقيـــات سابقة،وترك الجديد من الانتاج ، قد فهموا الآن قصدنا مـــن هـذا .

كما سندرج فى المستقبل فى كل عدد ، بانتظام ، نصا أو نصين من المحاضرات التى درجت الوزارة على تنظيمها خلال القطـــر منذ سنوات .باسم المركز الثقافى الاســـلامى .



فلسفـــة اللغة العربيـــة

للمرحوم الفيلسوف د. عثمان أمين
استاذ الفلسفة بجامعة القاهرة سابقا - ج م ع -

تقديم : بسم الله الرحمن الرحيم

ان الموضوع الذى أود أن أحدثكم فيه هذا المساء موضوع شاق مشغب منوع دقيق ، ويحتاج منا الى وقفات تدبر وتأمل وفحص ومعاناة والنظر فيه يتناول جوانب عديدة من حياتنا الاسلامية ، وربما أسفرت عن جواب محتمل عن السؤال الذى طرحه الامير شكيب أرسلان عـن أسباب تأخر المسلمين ، على نحو ما بين لنا المفكر الالمعى الاستاذ مالك بن نبى فى محاضرته اللماحة أمس · واعتقادى أن حركة التعريب التى أينعت فى مصر منذ نحو ربع قرن من الزمان ، والتفت اليها ذووا العزائم فى المغرب العربى بعد الاستقلال ، تدل على وعى تام لسبب أساسى من أسباب هذا التأخر الذى تردى اليه المسلمون المغلوبون أما لأنهم قصروا جهدهم على مكافحة الاجنبى الغالب ، فقلدوه فى لغته وعاداته ، وفقا لرأى ابن خلدون ، أو لأنهم جبلوا من أنفسهم مطيـة ذلولا لدعاة التخريب والتنصير ، كما لاحظ جمال الدين الافغـانى ومدرسته فى العالم الاسلامى ·

قلت ان «فلسفة اللغة العربية» موضوع مركب متعدد الجوانب :

فهو أولا موضوع **فلسفى** ، على المعنى الصحيح للفلسفة ، وأعنى به مفهومها القديم جدا والعصرى جدا ، ذلك المفهوم الذى يجعل مـن الفلسفـة تأمـلا روحيـا فى معـنى هذه الحيـــاة الانسـانية · وتحقيقا لوعى الانسان لذاته أو «لانيته» ، وبحثا عن دعائم الاخلاق والسلوك · ان **للفيلسوف** بهذا المعنى شعارا لا يبغى به بديلا : **«ان يعمل كرجل فكر ، وأن يفكر كرجل عمل»** ·

(*) محاضرة القاها فى الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الاسلامى المنعقد بقسنطينة فى 17/8 جمادى الثانية 1390 هـ ــ 19/10 اوت 1970 م ·

ثم ان الموضوع **لغوى** طبعا ، وهو من هذه الجهة جدير بالبحث والعناية ، لان علم اللغة من العلوم الانسانية على الأصالة • واللغة «ترجمان الفكر» كما قال الامام محمد عبده ، وهى وسيلتنا الاولى الى استكشاف جوانى الامة التى تتكلم بها واستكناه خصائص روحها وعبقريتها •

والموضوع **اجتماعى** أيضا ، فان شواهد الماضى وتجارب الحاضر — فى الشرق والغرب — تثبت أن اللغة هى أقوى عوامل الوحدة والتضامن بين أهلها • ولا بدع **فان اللغة — كما قال الفيلسوف (نيتشة) «تلازم الفرد فى حياته ، وتمتد الى أعماق كيانه، وتبلغ الى اخفى رغباته وخطراته•انها تجعل من الامة الناطقة بها كلا متراصا خاضعا لقوانين ، انها الرابطة الحقيقية الوحيدة الرابطة بين عالم الاجسام وعالم الاذهان»** •

ولست أعرف لغة من لغات الدنيا ، يصدق عليها قول «نيتشة» أكثر مما يصدق على لغتنا العربية • فلم يعد خافيا على أحد أن للعربية أثرا فى تكوين عقليتنا وتدبير تفكيرنا وتصريف أفعالنا وهداية سلوكنا يفوق كل أثر سواه ، وبالاجمال نستطيع أن نقول : ان نظرتنا الى الكون والى الناس محكومة بلغتنا ، أردنا أم لم نرد ، وشعرنا أم لم نشعر •

وللموضوع جانب **سياسى** قطعا : فان المتتبع لسير الحركات الفكرية فى بلاد العروبة والاسلام يتبين فى وضوح أن كثيرا من تلك الحركات قد اتخذت لبلوغ أغراضها صورا ثقافية مختلفة ، وأنها تنادى دائما بالتحرر من قيود الماضى وطرح أعباء القديم •

وان نظرة فاحصة الى ما وراء المظاهر المتعددة التى تتخذها هذه الحركات ، سواء فى الادب أو الفلسفة أو الفن أو السياسة ، تقنعنا بأنها جميعا تصدر عن هوى واحد وترمى الى مقصد واحد كذلك •

أما الهوى فهو اشاعة التشكك والاضطراب فى مفاهيم الامة ومقوماتها ، حتى تضيع معالم تراثها الروحى ولا يبقى أمام أدباء الفكر فيها الا صورا مهزوزة وعقائد ممسوخة •

وأما المقصد فهو التمكين للنفوذ الاجنبى من نواحيها ، متى نام وعيها ، وتفرقت كلمتها ، فنسيت تاريخها ، وضلت عن طريقها ،

وفقد الثقة بنفسها ، وأخذت بعض طوائفها أو أفرادها تردد صيحات مستوردة دخيلة لا تمت الى روحها بأدنى الاسباب ٠

وقد تبين ذلك **المقصد** منذ أواخر القرن الماضى ومطلع القرن الحالى فى حملات **«التخريب»** التى شنها النفوذ الغربى وأعوانه فى آسيا وافريقيا ، مصوبا هجماته الى **التراث الاسلامى العـربى بوجه عام والى اللغة العربية بوجه خاص ٠**

وبدت آثار هذه الحملات فى عديد من الدعايات التبشيرية ، كما وقع فى أندنيسيا والهند ومصر وسوريا وبلاد المغرب العربى ، كما بدت فى فيض من الكتابات «الاستشراقية» ملأت الاسواق فى أوروبا وأمريكا ، مثل كتاب سنوك هيرجونجة ومرجيليوث وزويمر وهويار ولوبرتران ٠

وقد قيض الله لهذه الامة الاسلامية من نهضوا بعبء الكشف عن خفايا هذه الحملات ، ووقفوا فى تنفيذ ادعاءاتها والتنبيه الى أخطارها بأسلوب علمى هادىء رزين ، بعيد عن الصخب واللجب والمهاترات «فقد اضطلع جمال الدين بالرد على دعاوى «رنان» وتصدى محمد عبده لأقاويل «هانوتو» وانبرى قاسم أمين للرد على مزاعم «داركو» وناقش مصطفى عبد الرزاق مقالات «تينمان» و «لامانس» وحويتيه» وتصدى مصطفى الخالدى وعمر فروخ للكشف عن الصلة بيـن التبشيـر والاستعمار ٠

وواضح من الوثائق التى يضمها كتاب «التبشير والاستعمار» أن هناك صلة وثيقة بين العاملين فى هذين الميدانين المتباعدين فى الظاهر ٠ فالتبشير بدأ مبكرا فى البلاد العربية والاسلامية ، وكانت بدايته بمثابة طلائع للاستعمار الغربى ، وتهلل له وتمهد الطريق أمامه وتسعى الى تثبيت أقدامه فى البلاد التى أبتليت به واتخذ الاستعمار من التبشير أداة طيعة فى يديه،فجعل همه الاول تحطيم اللغة العربية٠

وأقل تأمل فى الامر يقنعنا أن هدم اللغة العربية يحمل فى طياته تقويضا لمفاهيم الاسلام ٠ لان العربية لغة القرآن ، والقرآن لا سبيل الى ترجمته ترجمة صحيحة الى أى لغة أجنبية ٠

وعند الكثيرين من اخوانى وعندى أن ترجمة القرآن يكاد يكون جزءا من مخطط مرسوم لهدم الدين الاسلامى من أساسه ٠

لذلك رايناهم فى السنين الاخيرة يبثون العملا. هنا وهناك ، للدعوة بالعلم واللسان الى اطراح اللغة الفصحى والعناية باللغاة العامية واللهجات الاقليمية • فاذا تم لهم ما يريدون حققوا فى نفس الوقت ما يرمون اليه من تقويض وحدة العرب ، وتفتيت القومية العربية الفصحى •

* *

*

وواضح مما قدمت أن الامر جد خطير ، ويحتاج الى ملتقى فكرى كهذا الملتقى الرابع ، لا للتعرف على الفكر الاسلامى ، بل لانقاذ لساننا وضميرنا ، لان زوال اللغة فى أكثر الامم يبقيها بجميع مقوماتها غير الفاظها • ولكن **زوال اللغة العربية** ، كما قال المرحوم العقاد ، **«لا يبقى للعربى او المسلم قواما يميزه عن سائر الاقوام ، ولا يعصمه ان يذوب فى غمار الامم ، فلا تبقى له باقية من بيان ولا عرف ولا معرفة ولا ايمان» •**

* *

*

فاذا كنا جادين فى أقوالنا فلنكن جادين فى أفعالنا ، وأعنى بذلك أننا اذا كنا نريد حقا أن نجاوز مرحلة الخطب الحماسية ، وعقدنا العزم فى وعى وبصيرة على أن نعيد مجد الاسلام ، وأن نصون وحدة العروبة ، فواجبنا أن نحافظ بكل ما فى وسعنا على خصائص لغتنا وأن نستمسك فى الوقت نفسه بالسمات الفكرية الاصلية التى تجعل لهذه اللغة فلسفة متميزة •

خصائص اللغة العربية :

منذ ما يقرب من ثمانين عاما كتب المستشرق «فا نديك» ما ترجمته : **«ان اللغة العربية من أكثر لغات الارض امتيازا ، وهذا الامتياز من وجهين : الاول من حيث ثروة معجمها ، والثانى من حيث استعاب آدابها» فمنذ** نيف وثلاثين سنة كتب المستشرق «بركلمان» : **بفضل القرآن بلغت العربية من الاتساع مدى لا تكاد تعرفه أى لغة أخرى من لغات الدنيا • والمسلمون جميعا مؤمنون بأن العربية وحدها اللسان الذى أحل لهم أن يستعملوه فى صلواتهم،وبهذا اكتسبت العربية منذ زمان طويل مكانة رفيعة فاقت جميع لغات العالم الاخرى التى تنطق بها**

شعوب اسلامية» • وقبل «بروكلمان» بمآت السنين قال أبو منصور الثعالبى : **ان الاقبال على تفهم العربية من الديانة «اذ هى اداة العلم ، ومفتاح التفقه فى الدين وسبب اصلاح المعاش والمعاد ، ولم يكن فى الاحاطة بخصائصها والوقوف على مجاريها ومعارفها ، والتبحر فى جلائلها ودقائقها ، الا قوة اليقين فى معرفة اعجاز القرآن ، وزيادة البصيرة فى اثبات النبوة التى هى عمدة الايمان ، لكفى بها فضلا من فيها أثره وبطيب فى الدارين ثمره»** •

* *

المثـاليـــة :

وأول السمات التى تتميز بها لغة القرآن هى أنها تنحو نحوا من المثالية لا نظير له فى أى لغة من اللغاة الحية المعروفة : ففلسفة اللغة العربية تفترض لأول وهلة مثالية عميقة صريحة، تحسب حساب «الفكرة» و «الخاطر» و «المثال» وتضعها فى مكان الصدارة والاعتبار ومنذ أفلاطون والمفكرون الغربيون يجاهدون من وراء لغاتهم ، الى رفع النقاب عن هذه المثالية ، فلم يستطع استكشافها منهم الا اثنان من كبار فلاسفتهم المحدثين : «ديكارت» فى القرن السابع عشر ، «كانط» فى القرن الثامن عشر • وكان مؤدى هتين المثاليتين أنه يوجد الى جانب صور الحسن ، وفوق التجربة الحسية الجزئية ، «صور» أو «معان» عقلية كلية ، وأن حقيقة العالم الخارجى أو عالم الايمان هيى كونه مدركا بالذهن الانسانى•غير ان هذا الاكتشاف الذى توصل اليه الفيلسوفان الغربيان بعد جهد جهيد لم يستقر بعد فى أذهان الناس هناك وما زال موضع جدال وتنفيذ : وآية ذلك ما نفتأ نسمعه فى الحين بعد الحين من القضايا المعارضة التى يدلى بها انصار «المادية» و «الوضعية» و «الواقعية» ، وكلها دلالة على مغامرات «الانسان الغربى الممزق» ، فى القرن العشرين ، ومعبرة عن ضراوة خصومتها للاتجاهات الروحية عامة والمثالية خاصة •

ولايضاح مثالية اللغة العربية أقول ان لغتنا فى طبيعة بنيتها وتركيبها لا تحتاج الجمل الخبرية فيها الى ما يسمى فى اللغات الغربية «فعل الكينونة» فى الفرنسية ETRE ، وفى الانجليزية TOBE وفى الايطالية SEIN فنحن نقول فى العربية على سبيل

الاخبار . «**كل انسان فان**» وهذه فى العربية جملة خبرية تامة لا تحتاج الى اثبات فعل الكينونة هذا ، فى حين أن الفرنسية مثلا تقول Tout homme est mortel ومعناه : كل انسان يكون فانيا ، أو «كل انسان يوجد فانيا ! والفكرة المفهومة من الارتباط بين المسند اليه والمسند فى النحو العربى أو «الموضوع» و «المحمول» بلغة المناطقة ، فكرة واضحة ماثلة دائما فى نفس الناطقين بالضاد، يلتفتون اليها ويخطرونها ببالهم حين يواجههم المعنى ، فاذا أرادوا أن يبرزوها أو أن يؤكدوها عمدوا الى لفظ مثل قولهم : «انه هو الحق» .

نخلص من هذا الى أن **الاسناد فى اللغة العربية يكفى فيه انشاء علاقة ذهنية بين «موضوع» و «محمول» دون حاجة الى التصريح بهذه العلاقة نطقا أو كتابة** ، فى حين أن هذا **الاسناد الذهنى لا يكفى فى اللغات «الهندو ــ أوروبية» الا بوجود لفظ صريح مسموع أو مقروء»** يشير الى هذه العلاقة فى كل مرة ويحمل معنى الوجود وهو «فعل الكينونة» فى اصطلاحهم ، ويسمونه فى تلك اللغاة «رابطة» بالفرنسية COUPLE من شأنها أن تربط بين «الموضوع» و «المحمول» فى الذهن اثباتا او نفيا .

وقد التفت بعض مناطقة الغربيين فى العصور الحديثة الى تكلف هذه «الرابطة» اللفظية فى أكثر اللغات الهندو ــ أوروبية : فقد بين «جون ستيوارت ميل» أننا لا نحتاج فى القضايا المنطقية الى شىء سوى «الموضوع» و «المحمول» ، وأن «الرابطة» انما هى مجرد علامة على ارتباطها من حيث هما موضوع ومحمول ، وفى هذا المقام نفسه قال «بوزانكيه» : «جرى المنطق الصورى على تحليل القضايا تحليلا صناعيا متكلفا الى عناصر ثلاثة يمكن فصلها بعضها عن بعض ، وهى : الموضوع ، والمحمول ، والرابطة ، وعمليات المنطق الصورى تقتضى فى أغلب الاحيان ضرورة الحصول على الاجزاء الثلاثة ، لان المقصود حينئذ هو التخلص من مصنع الزمن التى تتصل بالحكم العلمى ، والتى هى مجهدة شاقة فى القياس الصورى ، ولكن هذا النموذج ليس فى الحقيقة نهائيا : لان الحكم يمكن أن يتم بدون موضوع نحوى وبدون فعل الكينونة ، بل بدون أى فعل من أفعال النحو على الاطلاق.

على أن علماء اللغات أنفسهم ــ وفى مقدمتهم «فندريس» ــ

يلاحظون أن فعل الكينونة الذى يبدو وكأن اللغات الهندو ـ أوروبية لا تستطيع الاستغناء عنه ، لم يستخدم فيها الا متأخرا فى الزمان ٠ ولهذا كله لا نستطيع أن نقبل ما ذهب اليه أستاذنا هنرى دولاكرو من أن فعل «الكينونة» من سمات اللغات التى بلغت من الحضارة مقاما عظيما ٠

ولسنا ندرى كيف تكون تلك النافلة من القول «فتحا من فتوح الروح المنطقى» ! ولا نرى وجها لان يكون هذا النزوع الى التشخص «ثمرة جهد كبير من جهود التجريد» كما جاء فى كتاب **الدكتور ابراهيم مدكور عن منطق أرسطو فى العالم العربى** ٠

* * *

ومن طريف ما أذكره فى هذا المقام أننى عرضت مرة للمقارنة بين لغتنا وبعض اللغات الغربية ، فى محاضرة ألقيتها على جمهور فرنسى وكان موضوعها : «ديكارت واللغة العربية» فخيل الى حينئذ أن المستمعين قد اقتنعوا بما ذهبت اليه من أن «**الفلسفة الديكارتية**» هى فى نظرى **أقرب** الفلسفات الغربية مطابقة **لروح اللغة العربية** ٠ غير أن شيئا واحدا كان عندهم موضع استغراب ، وهو أن تخلو اللغة العربية من فعل الكينونة ٠ ولكنى ذكرت لهم أن دلالة الكينونة التى استغربوا خلو العربية منها هى على التحقيق الشىء الذى أراه ميزة فلسفية امتازت بها لغتنا على غيرها من اللغات ٠ فالعربية ترى من نافلة القول أن نضطر الى اثبات رابطة الكينونة فى كل حقيقة كما تصدق بها ٠ بل أكثر من هذا ، أن العربية تفترض «أولانيا» وابتداء أن مجرد اخطار المعنى فى الذهن ، ومجرد ثبوت «الآنية» ـ كما يقول الفرابى وبن سينا ـ أو وجود الذات العارفة الناطقة التى تقرر المعنى كاف وحده وبنفسه لاثبات هذا المعنى ٠

وبعبارة أخرى نقول : ان اللغة العربية تفترض دائما أن شهادة الفكر أصدق من شهادة الحس ، وبتعبير فلسفى شائع لدى فلسفة العرب وصياغتها ، تقرر أن «**الماهية متقدمة على الوجود**» وغنى عن البيان أن «التقدم» هنا هو تقدم «الرتبة» و «الحيثية» ، لا تقدم الزمان أو الوضع فى المكان ٠ وهذا التقرير أو الافتراض «**الاولانى**» عند اللغة

العربية هو الامر الذى تجاهد بعض الفلسفات الغربية المعاصرة أن أن تنقضه حين تقرر أن «الوجود سابق على الماهية» ·

وبين عند من له المام بالفلسفة الغربية الحديثة او هذه المثالية ـ التى هى أصيلة فى اللغة العربية ـ انما عبر عنها ديكارت فيما بعد بما اصطلح على تسميته باسم «الكوجيتو» الديكارتى ، وعبر عنها كانط فيما سماه هو باسم «الثورة الكوبرنقية» ومعناهما اجمالا أن الفكر هو المقياس الذى تقاس به الاشياء ، وان «عالم الاعيان» (أى العالم المحسوس) مقدود على قد «عالم الاذهان» (أى عالم الوعى والوجدان) · وليس من شك لدى الباحثين فى قضايا الفكر العربى أن هذه القضية بالذات قد انعقد لها لواء النصر ، لا عند كبار فلاسفة العربية وحدهم ، كالفرابى وابن سينا وابن رشد ، بل عند علماء الكلام المسلمين ، كالنظام والخياط والجاحظ ·

فاذا رجعنا الى تأمل الفكرة فى ضوء فلسفة اللغة العربية ، وجدنا غالب الرأى عند علماء اللغة قد عبر عنه صاحب كتاب «**الطراز**» **(يحى ابن حمزة اليمنى)** فى قوله : «**ان الحقيقة فى وضع الالفاظ انما هو الدلالة على المعانى الذهنية دون الموجودات الخارجية** ويمضى المؤلف العربى فيقيم البرهان على هذه الحقيقة بقوله «**اننا اذا راينا شبحا من بعيد وظنناه حجرا سميناه بهذا الاسم · فاذا ازداد التحقيق بأنه طائر سميناه بذلك ، فاذا حصل التحقيق بانه رجل سميناه به · فلا تزال الالقاب تختلف عليه باعتبار ما يفهم منه من الصور الذهنية فيدل ذلك على ان اطلاق الالفاظ انما يكون باعتبار ما يحصل فى الذهن · ولهذا فانه يختلف باختلافه**» ·

وينتهى صاحب «الطراز» الى تأكيد ما نحن بسبيله ، وهو المعنى الذى اشرنا اليه فى مذاهب كبار الفلاسفة من قدماء ومحدثين ، من أن تصور الاشياء فى الذهن هو المرتبة الاولى فى تحقيقها فى الذهن وتصورها · وهذه الرتبة هى الاصل ، وعليها تترتب الموجودات الاخرى لان الشىء اذا لم يكن له تصور فى الذهن وتحقق ، فانه لا يمكن وجوده فى الخارج بحال · ثم ان بعض التصورات الذهنية قد يستحيل وجودها فى الخارج ، كما تقول فى القديم تعالى ، والقدرة

القديمة ، فان هذه وان أمكن تصورها فى الذهن ، لكن لا حقيقة لهـا فى الخارج بالبرهان العقلى ٠

*   *
*

الحضور الجـواني :

وبالاضافة الى تلك المثالية الاصيلة التى بينا معالمها فى العربية تمتاز لغة القرآن بخاصية فريدة بين اللغات الحية ، وأعنى بها مـا سميته باسم «الحضور الجوانى» للانية والناطقية ٠ ومعنى هذا «أن الذات العارفة» أو «الانية المفكرة» ماثلة فى كل قضية صياغة عربية وحضورها حضور روحى داخلى ، يسرى فى الضمائـر والأفعـال ، الداخلة فى بنية الالفاظ ، دون حاجة الى اثباته بالوسائل الخارجية كالرموز والعلامات الظاهرة ٠ والفعل فى العربية لا يستقل بالدلالة بدون الذات ٠ والذات متصلة بالفعل فى نفس تركيبه الاصلى وفى حين أن اللغات الغربية الحية تضطر أحيانا الى اثبات الانية «او الذات» عن طريق ضمير المتكلم أو المخاطب والغائب مصرحا به فى كل مرة ، بحيث لاتفهم نسبة الفعل الى الفاعل بدون هذا التصريح ، ولذلـك يقولون مثلا «أنا أفكر» و «انت تشك» و «هم مجادلون» ٠ تجد فى العربية أن تكتفى بقولك «أفكر» و «تشك» و «مجادلون» دون حاجة الى اثبات ضمائر المتكلم أو المخاطب أو الغائب ٠

*   *
*

وكذلك الاضافة أو النسبة فى العربية تتم بانشاء علاقة ذهنية ــ وبالتالى جوانية ــ لاتحتاج الى لفظ زائد يشير اليها ٠ فقولنا مثلا «ملتقى قسنطينة» كاف لايقاع النسبة بين «قسنطينة» و «الملتقى» خلافـا للغات الغربية الحديثة ٠ ففى الفرنسية يضطر المتكلم أن يقـول le Séminaire de Constantine وفى الانجليزية me seminar of Constantine مع التصريح دائما باللفظين اللذين يشيران الى الاضافة de أو of وفى هذا المعـنى يقول ابن خلـدون : «**والكلمـات الحاصلة للعرب فى ذلك أحسن الملكات وأوضحها ابانة عن المقاصد لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعانى مثل الحركات التى تعين الفاعل من المفعول والمجرور أعنى المضاف ، ومثل الحروف التى**

تقفى بالافعال الى اللوات من غير تكلف الفاظ أخرى . وليس يوجد ذلك الا فى لغة العرب واما غيرها من اللغات فكل معنى أو حال لا بد له من ألفاظ تخصه بالدلالة ، ولذلك نجد كلام المعجم فى مخاطبتهم أطول ما نقدره بكلام العرب ، وهذا هو معنى قوله (ص) : «أوتيت جوامع الكلم ..»

وتعريف البلاغة فى العربية تعريف «جوانى» وهو الوصول الى كنه ما فى القلب ، كما يقول صاحب «الطراز» بل ان مزايا البلاغة العربية «جوانية» كذلك . وفى هذا يقول عبد القاهر الجرجانى فى «دلائل الاعجاز» ، بعد أن أفاض فى بيان مزايا الكلام التى يتفاضل بها ويتقارب وبين أن هذه المزية «من حيز المعانى دون الالفاظ» وأنها «ليست لك من حيث تسمع بأذنيك ، بل تنظر بقلبك وتستعين بفكرك وتعمل برويتك وتراجع عقلك وتستنجد فى الجملة فهمك» .

وجملة القول أن العربية بطبيعة بنيتها وتركيبها تعين الذهن الانسانى على أن يسلك الطريق الطبيعى فى تحصيل المعرفة ، وأعنى بذلك أنها يقينة على الانتقال انتقالا مسيرا مما هو «معطى» وما هو «ظاهر» الى ما هو خفى وما هو باطن .

ومنطق التفكير فى اللسان العربى منطق «صاعد» أعنى انه يسير دائما من الادنى الى الاعلى ، ومن البرانى الى الجوانى .

وللغة العربية سمات لا يتسع الوقت لشرحها ، فحسبى الآن أن أشير اليها اشارة سريعة ، فأقول ان من سماتها ، بالاضافة الى المثالية والحضور الجوانى ، صدارة المعنى ، والاعراب ،ورسم الظلال والالوان والحرص على الاجاز والتركيز مع دقة التعبير ، والدعوة الى الحركة وتوخى الوعى والفهم قبل المنطق والسمع والكتابة .

* *

*

ويحلو لى فى الختام أن أورد شهادة المرحوم «لوى مسنيون» الذى وصف اللغة العربية بأنها «**تملك دياليكتكا المعجزة التى ترنو الى الابدى ولا يستغرقها المتغير الزائل** ثم قال : **اللغة العربية لغة وعى** ولغة شهادة . **وينبغى انقاذها سليمة** بأى ثمن ، للتأثير فى اللغة

الدولية المستقبلة · واللغة العربية بوجه خاص هى شهادة دولية يرجع الى ثلاثة عشر قرنا ·

* * *

واذن فالامر الذى ينبغى أن نضعه نصب أعيننا هو انقاذ اللغة من المصير الذى يتهددها اذا ضلت فى مهب الريح على نحو ما نراهم اليوم · فان المستمع لأحاديث الاذاعة وخطب المحافل ، وان القارىء لما تنشره الصحف والمطابع ، ليهوله ما انحدرت اليه اللغة العربية فى هذا العصر ، على ألسنة قوم قد يكون منهم من يستنكرون أن يلحن واحد فى لغة أجنبية · وقد رأيت بعض المستشرقين يعجب مما بلغه اليوم استخفاف أبناء العروبة برعاية لغتهم ، وقصورهم من التعبير بها واستهانتهم بقواعد نحوها وصرفها ورسم حروفها وقلة مبالاتهم بأساليب الهبوط فى مستوى المعرفة باللغة العربية عند أهلها والقوامين عليها وجدناها ترجع فى صميمها الى قلة العناية بالتعليم فى المدارس والمعاهد وتجنب الصراحة فى معالجة عيوب ذلك التعليم منذ المدارس الابتدائية ، وتشتت جهود المشتغلين بالتعريب فى البلاد العربية ·

فحبذا لو نعقد ملتقى فكرى خامس ، فى أرض الجزائر ، للنظر فى مصير اللغة العربية فى الشرق العربى بل فى العالم الاسلامى كله ·

الفكـــر الاســلامى والتيارات المعاصرة

عبد الحي العمراوي
استاذ بجامعة القرويين - المملكة المغربية

بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد القلوب ودوائها ، ونور الابصـــار وضيائها ، اللهم انى أعوذ بك أن اضل أو اضل أو اعتدى أو يعتدى على ، أو أقول زورا ، أو اغشى فجورا • اما بعــد :

معالى الوزير

حضرات العلماء والدكاترة والاساتذة

اخوانى الطلبة ، سيداتى سادتى

يسعدنى أن أساهم فى الملتقى الرابع بهذا الحديث المتــواضع موفيا حق الشكر وأنقل الكم جميعا تحية عاطرة الانفاس من اخوانكم علماء مدينة فاس واذا كان الشكر المنعم والاعتراف بالجميل واجبين بالعقل والشرع والطبع فانى أسجل هنا باسم وقد المغرب الاقصى شكرنا واعترافنا بالجميل للذين نظموا هذا الملتقى وللاصدقا، بــل للاخوة الجزائريين الذين أكرموا وفادتنا وسهروا عــلى راحتنــا حتى شعرنا بأننا بين أهلنا وذوينا، وان كان فى حديثى هذا توفيق وصواب فهو مقتبس من علومكم الوافرة ومستلهم من أرواحكم الزكية الطاهرة وان رأيتم فيه انحرافا عن الحق والصواب فهو منى والى ، ومعذرة عن حديث هيئت بعض عناصره فوق عجلات القطار، وكتبت بعض سطوره فى ملاحقة الاسفار وقد اختصرت حديثى اختصارا استجابة لرغبــة كريمة من أخ كريم هو الاستاذ رشيد بن عيسى ، وموضوع حديثى هو الفكر الاسلامى والتيارات المعاصرة • التيارات المعاصرة التى يقف بعض الشباب بينها حائرا مترددا أربعة :

(*)محاضرة القاها فى الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الاسلامى المنعقد بقسنطينة فى 17/8 جمادى الثانية 1390 هـ ــ 19/10 اوت 1970 م•

ـ أولها يتصل بالعقيدة والايمان وهل التدين من الضروريات الحتمية للانسان ؟ فأما ثاني التيارات فيتعلق بالتيار الديني المناسب فما هو هذا الدين المناسب الذي يرضى العقل ويملأ القلب ويجاري الحياة وثالث التيارات يرجع الى الانضمة الاقتصادية القائمة والمستجدة من اشتراكية معتدلة ، الى شيوعية متطرفة الى رأسمالية طاغية والتيار الرابع والاخير ، تقاليد اجتماعية وعادات غربية وأخلاق وسلوك ٠ وسنحاول باذن الله وحوله ان نتحدث عن هذه التيارات الاربعة على النسق الذي ذكرناه ،

أول التيارات وأخطرها على الشباب والامم ما يثيره خصوم الاديان وما يزعمه الملحدون والمعطلون أن لا حاجة بالانسان الى الدين الى الدين وانه ليس لهذه الحياة غاية فاذا مات الانسان انتهى أمره ولا يمكن معاده وحشره هؤلاء الملحدون يلغون الدين ويرفضون نظامه للحياة ثم يخضعون لقانون فلماذا يفعلون ذلك ، وهل الدين الا قانون ونظام قائم عام شامل عجبا لهم انهم يرفضون نظاما عاما يرتبط به جميع البشر ، ثم ينشئون نظاما اقليميا خاصا ينفصل معه البشر ٠ فاذا كانوا يودون أن ينشروا بين الناس ألوية الصفاء والاخاء بقانونهم ، فذلك مانادى به الدين بصفة أكثر شمولا وقوة واذا كانوا يريدون أن ينفي الظلم من العالم ويسود التضامن والوئام فذلك ما نادى به الدين قبلهم بصفة أكثر صدقا وتجربة ، واذا كانوا يودون أن يحاربوا الاجرام والجوع والفقر والجهل ، فذلك هو ما أكده الدين قبلهم وألزم الناس به بصفة أكثر اقناعا وأجدى منفعة هي طريق القانون والضمير ، ان الدين السماوي يفرض على الناس جميعامحبة الانسان للانسان ، وايصال الخير اليه وابعاد الضرر واستعمار الارض بالحق والانصاف ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : **«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه»** أي حتى يحب لاخيه في الانسانية لا في النسب فقط ولا في الدين فقط ، ما يحب لنفسه من الهداية والرشاد والخير والكمال ، فاذا كان ذلك هو الدين فلماذا يحاول هؤلاء ان يهدموا نظاما عاما شاملا يربط بين الانسان وبين قيمات الوجود ليبنوا على أنقاضه نظاما خاصا يربط بين الانسان وبعض ما في الوجود ، ويربطنا كذلك فكريا مع الانسان الذي مضى في الاجل البعيد والانسان الذي سيوجد في الاجل القريب وهذا الارتباط

الفكرى أيها السادة له أهمية عظيمة فى السير الحضارى للحياة اذ به يستفيد الناس من بعضهم وتكون نقطة انطلاق الابناء من حيث انتهى الآباء لا من حيث ابتدأوا ·

ان الدين كما قدمنا يدعو الناس أن يربطوا بعضهم تحت لواء واحد وان فصلت بينهم قرون بعيدة ، بل الدين هو هذا الرباط البشرى الذى كان السبب فى المحافظة على نوعنا ، وتحصين نسلنا وحماية ضعيفنا واطعام جائعنا ، والا فلماذا أطعم الجائع وأحمى الضعيف اذا لم أرج بعملى جزاء موفورا وسعيا مشكورا ، فلماذا لا أرتكب الجرئم بعيدة عن القانون وفى خفاء من الناس اذا كنت لا أخشى عقابا أليما ، فالانسلاخ عن الدين والعقيدة يصير البشرية فصيلة من الحيوان لا ترجو ثوابا ولا تخاف عقابا ، ان الدين أكثر زجرا من القانون ،فالقانون انما يراقب الظواهر بينما الدين يراقب الظواهر والسرائر ، فأيها اذن أجدر بالبقاء والخلود ·

هؤلاء الذين ينكرون وجود اله خالق ترى من أرشدهم أن يمسكوا الثدى حينما خرجوا من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئا ، ومن علمهم التفكير ومن غرس فيهم الغرائز لا يستطيعون لها دفعا ولا لغيرها جلبا من أرشد الفرخ الذى يخرج من البيضة الى أن يلتقط الحب التقاطا ويرتوى من الماء ارتواءا فان زعموا أن الطبيعة تفعل ذلك فالطبيعة صدفة والصدفة لا تكون بطريق الدوام والاستمرار هذا الى أن الطبيعة غير عاقلة ولا حية ولا عاملة فلا تهب اذن العقل والعلم والحياة لان فاقد الشىء لا يعطيه فالميت لا يعطى الحياة والجاهل لا يعطى العلم والعاجز لا يعطى القدرة ·

اننا دخلنا هذا العالم مكرهين وسوف نخرج منه مكرهين وبين دخولنا وخروجنا ننفعل بالاحداث مكرهين فنفتقر ونحن نحب الغنى ونمرض ونحن نحب العافية ونعجز ونحن نحب القوة ونذل ونحن نحب العزة ومع هذا فان هناك قوة جبارة أقوى من آمالنا وهى التى تسيرنا رضينا أم كرهنا ، اننا لا نستطيع أن نتحكم فى عواطفنا فى حبنا للناس وكراهيتنا ، فى رضانا وغضبنا ، فمن يتحكم فينا اذن ؟ الجواب الفطرى الذى يوحى به عقل العاقل وقلب المتأمل أن فاعل ذلك كله هو الله تعالى مبدع ومنشىء الكائنات ، والانسان الذى خلق

من ماء دافق من جعله هكذا ؟ تام الاعضاء والاجهزة والحواس ولم يكن قبل ذلك في الماء الدافق بحسب علمي ٠٠ تصوير للاعضاء ولا تقدير للاجهزة ولا رسم للحواس ولا تخطيط لهيكل ، أمعنو النظر أيها الاصدقاء في هذه القاعة وفي العالم كله امعنوا النظر في هذه الاوجه البشرية هل يشبه بعضها بعضا شبها تاما تختلط علينا معرفتها وتختلط لمحاتها وقسماتها ، ولو طلبت الى أي مهندس أن يضع تصميما لقطعة أرضية لجاء بعضها قطعا يشبه الآخر شبها تاما ، هذا والقطعة الارضية ذات أمتار كثيرة ووجهنا ذو سنتمترات معدودة ، وفي اختلاف الاصوات دليل على وجود اله خالق ، فأنت تستطيع أن تتعرف على صوت مألوف لديك ، من بين آلاف الاصوات من غير أن تستعمل حاسة النظر بل انك تستطيع أن تتعرف على مائة شخص عن طريق أصواتهم وتميز بين أشخاصهم وأسمائهم ، وفي القرآن الكريم « **ومن آياته خلق السماوات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم** »

ان الملحدين يقولون لمن يتصل بهم من شبابنا اذا كان هناك اله قادر رحيم فلما خلق الشر وأثار الحلق وأفقر هذا وأغنى هذا وأعمى وأبصر وسلب وأعطى،ويقولون لم لم يجعل عالمنا مملوءا بكل خير ورفاهية وسعادة،ولعل هؤلاء لايدركون المعاني الحقيقية لأوصاف الكمال،فالانسان لايكون سعيدا الا اذا كان آخر بجانبه شقيا،ونحن لانعرف لذة الشبع حتى نجوع ولا نستطيب الشرب حتى نعطش،ولا نتذوق لذة العافية حتى نمرض.ولا معني للكرم بدون متكرم عليه ولا معنى للصبر بغير الشدة ، فصفات الشر في الحقيقة ممتعة ومكملة لصفات الخير تبرزها وتحددها وتوضحها٠ولو كان العالم خاليا من الشر لكان أيضا خاليا من الذات ، على أن هذه المشكلة من أساسها غير موضوعة لانها ليست مشكلة كونية الاهية بقدر ما هي مشكلة الانسان يريد أن يستلذ ويستمتع ويسعد ونحن نوجه له هذا السؤال ، فلماذا يريد أن يسعد والسعادة لا تكون الا على حساب شقاء الآخرين بشرا نتحكم فيه أو حيوانا نسخره ونذبحه ونلتقمه التقاما أو شجرة نكسرها أو آلة نحركها فان زعم هؤلاء أن الشجرة والآلة ليستا بذات روح قلنا لهم بأن الانسان عندكم أيضا ليس بذى روح ولو أثبتم له روحا لكفيتمونا الامر وأقررتم بالاله الحكيم الخبير ٠

ومن مسلمات العلم الجديد وحقائقه أن الشك لا يبطل فرضا من

الفروض الا اذا كان قاطعا فى البطلان والشبهات التى يثيرها الملحدون فما كانت فهى مجرد شكوك لا تستطيع أن تبطل عقيدة راسخة ودينا يقينيا وهم لحد الآن ما زالوا يشكون ، أى مازالوا لم يخرجوا عـــن دائرة الشك الذى لا يبطل اليقين، وفى الدين القويم من القوة الروحية ما يجعلها ترد الشك باليقين وتحافظ على استمراره وشموله وقـــد شاهدنا دائما فى الماضى والحاضر أن القوة الروحية المستوحاة من الدين تقهر قوة السلاح وقوة المال وقوة العلم ، وقد تقدمت أمثلـة فى التاريخ وخير مثال لها فى العصر الحاضر هى الثورة الجزائرية المباركة التى استوحت قوتها من الدين والعقيدة أفلم تقهر قوة السلاح وقوة المال وقوة العلم ، والشريط السنمائى الذى شاهدناه ليلــة الخميس مثال صادق أيضا ذلك الشريط الذى أثبت أن قوة الديـــن قهرت قوة السلاح وقوة المال وقوة العلم ·

هذه بعض البراهين على وجود اله خالق قـادر ذكرنـاهـا غير مستفيضين ولا مستوعبين حججا أخرى ربما كانت أدل وأقوى ، والتى استعملها القرآن الكريم ليجادل بها المعطلين والملحدين : ففى النطفة فى الارحام وتكوين الانسان من العلقة التى هى الحيـــوان المنـوى بالتعبير الجديد ، وقد قال الله تعالى: « **ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنـا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم انشاناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين** » وفى الاشــارة الى أن الشمس والقمر يجريان بحسبان دقيق لم يكن العرب يومئذ قد عرفوه وفى سورة الرحمن « **الشمس والقمر بحسبان** » وقد تحدى القرآن الكريم الناس جميعا بأنهم لن يستطيعوا أن يخلقوا ذبابا واحدا ولو اجتمعوا له ، وقد مضى على هذا التحدى أربعة عشر قرنا ، وما زال هذا التحدى قائما موضوعا ، لقد وصل العلم الى أجواء الفضاء وربط الارض بالقمر ونفذ فى أعماق الارض والبحار وجال مع الافلاك فى مدارها ولكنـــه لم يستطع أن يخلق ذبابا حقيرة أو حشرة صغيرة ·

فما زال هذا التحدى قائما ، وما زلنا منتظرين ، أن العلم الحديث فى شموله واتساعه ما زال عاجزا أيضا على أن يبطل آية واحدة مـــن آيات الكون المذكورة فى القرآن بصفة قاطعة لا تقبل الشك ، بل ان

العلم يؤكد ويشهد بحقائق علمية جاءت فى القـرآن ، ولعـل بعض الشباب فى الامة العربية تستميله أفكار من الغرب ، عرفت مساوىء الكنيسة واختبرتها فالحدت فيها ويحق لها أن تلحد لان الكنيسة كما كما سنبين فى التيار الثانى ، لا ترضى باستعمال العقـل والفكـر فى الايمان وهى من أساسها نخرة واهية ، فلعل هؤلاء يظنون أن مبادىء الاسلام تقوم على هذه الاسس النخرة قاسوا فى غير موطن القيـاس وعموا فى غير موطن العمـــوم ٠

التيار الثانى مع المسيحيين ، وحيث أنهينا مناقشة الملحدين واطمأن العقلاء الى أن هناك اله خالق ، وحيث تبينا أن الدين ضرورى للناس فى حياتهم ترى ماهو هذا الدين الذى سنختاره ؟ أهو اليهودية ؟ ونحن نعلم أن اليهودية كفتنا أمرها وكشفت عن وجهها بعد أن انزوت فى عقر بيتها وانطوت على نفسها ، ثم انها الآن فى معظمها صهيونيـــة آثمة ماكرة معتدية لا تدين بشريعة الله ولا تحسب لنداء السماء،وهل سنختار المسيحية التى تطمع فى استمالتنا اليها ٠

هذه المسيحية التى تركت شبابها فى أوروبا للالحاد والانحراف ويئست منهم ، تحاول أن تنهى بين المسلمين كنيستها وتفتـــح مكاتبها وتصدر صحفها ونشراتها وتجند رهبانها لخدع شبابنـــا وتستميل أطفالنا وتنصر ضعفاءنا ، ونقاشنا للمسيحيين يرتكز أولا على ابراز طبيعة المسيحية والاسلام ، فالمسيحية نظام خاص للأخلاق والتسامح لم تعن بجميع النظم التى يحتاج اليها الانسان فى الحيـاة واذن فهى دين ناقص ، اضطر الانسان الناقص الى تكميلها وتتميمها دين ناقص كمله انسان ناقص ، أما الاسلام فقد كا فى أول وهلة دينا تاما نظم كل شؤون الناس وتدخل بالحكمة فى كل ميدان، ومن المعروف أن الاديان التى سبقت الاسلام كانت كلها مقتصرة على مبادىء خاصة لطائفة خاصة ، وبشارة القرآن الكريم الى ما قلنـاه قولـه تعـالى : « **وأرسلناه الى مائة الف أو يزيدون** » وهذا سر تعدد الرسل فلكل بلد نبيه ولكل ظرف معين رسوله الذى يبلغ شريعة الله ، لان الظروف تتغير والمفاهيم تتجدد ، أما الاسلام فمبادىء عامة للبشر عامة وهذا سر كونه خاتمة للاديان السماوية زيادة على أن الاسـلام قـد أعطى الحرية للعلماء فى أن يجتهدوا فى وضع أحكام وفق الخطوط الرئيسية

فى النازلة التى لا يوجد فيها نص ، بل ان بعض الصحابة أعطوا لانفسهم الحق أن يجتهدوا مع وجود النص .

اننا نؤمن بما أنزل على عيسى وموسى ومن بعد موسى وعيسى ولكن المسيحيين يؤمنون بالبعض دون البعض فلماذا ؟ والتاريخ الامين الذى نقل الينا رسالة عيسى هو التاريخ الاكثر أمانة الذى نقل الينا رسالة سيدنا محمد صلوات لله عليه وسلامه فلماذا يصدقون التاريخ تارة ويكذبونه تارة أخرى ، وقد رأيت أن أبرز بعض الجوانب الضعيفة فى تدينهم فضحا لهم وتشهيرا لمساوئهم وان ايمانهم بسيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام يثير الضحك والفكاهة ، فولادة عيسى الخارقة واختفاؤهم الخارق أثار فى أنفسهم خيالا ما زال يتسع ويتسع حتى سلخوه عن مصاف البشر ، وصارت هذه العقيدة دينا رسميا للكنيسة فى القرن الرابع للميلاد ، وكذلك كانت ولادة عيسى من غير أب مثار خلاف واسع بين اليهود الذين تطرفوا الى الجبهة السفلى فزعموا أنه لقيط وأن أمه بغى وبين المسيحيين اللذين تطرفوا الى الجانب الآخر فزعموا أنه اله فى صورة بشر ، لكن المسلمين توسطوا فنفوا عن أمه الزنا وبذلك خالفوا اليهود كما نفوا عنه الألوهية وبذلك خالفوا النصارى ، وخير الامور أوسطها وأتم الآراء أعدلها ، وبهذا فسر بعضهم قوله تعالى : « **وكذلك جعلناكم أمة وسطا** » اى وسطا فى غلو النصارى وتطفيل اليهود ، وسطا فى العمل بين طقوس اليهود المرهقة وطقوس النصارى المجحفة ، وقد اعترف المسيحيون أن عيسى قد اختلط به اللاهوت بالناسوت اختلاط الماء باللبن ، أو الغذاء بالبدن والنار بالحديد فهو عندهم اله أو جزء اله أو ابن الاله،وهم قبل أن يبرئوا اليهود من دمه فى السنوات الاخيرة فقط كانوا يعتقدون ان اليهود أهانوه وضربوه وقتلوه وصلبوه ، ترى كيف يكون هذا الاله المضروب المهان المعذب المقتول وهلا دافع عن نفسه ، ومن كان يدبر أمر السموات والارض حين دفن ثلاثة أيام بزعمهم ومن ناب عنه ، وهل الله فارقه حينما دفن أو صاحبه فى قبره ، فان كان قد فارقه فكيف ذلك بعد أن مازجه وان صاحبه فكيف دفن الله تحت التراب والصليب الذى صلب فوقه عيسى بزعمهم لماذا يقدسونه وكان الاجدر بهم أن يهينوه ويكسروه ، وما أجدر النصارى تبعا لمنطقهم أن يتخذوا موسى الها بدلا من عيسى لان عيسى اذا كان قد أحيى الموتى

فموسى صير الجماد حيا ، فقلب العصا حية أقرب للألوهية من اعادة الحياة للميت ، ثم ان عيسى كما نقلوه هم أنفسهم كان دائم العبادة والطاعة للاله فهل كان يعبد نفسه وأصل خطئهم هذا انهم استنبطوا بنوة عيسى للاله من ألفاظ الاناجيل التى تعبر فى غالب الاحيان عن سيدنا عيسى بالابن ففى الآية الثامنة والعشرين من الباب الرابع عشر من انجيل يوحنا مرقس : «**ان أبى أعظم منى**» وفى انجيل لوقا الآية السادسة والاربعون من الباب الثالث والعشرين :

«**ونادى يسوع بصوت عظيم فقال يا أبتاه فى يديك استودع روحى**» وهذا الاستنباط غير صحيح لان استعمال ابن انسان فى أناجيل عادى بالنسبة الى عيسى ولى جميع أتباعه من الحواريين وغيرهم ففى الآية السابعة عشرة من الباب العشرين من انجيل يوحنا قول عيسى مخاطبا مريم المجدلية : (لا تلمسينى لانى لم أصعد الى أبى ولكن اذهبى الى أبى ولكن اذهبى الى اخوتى وقولى لهم انى أصعد الى أبى وأبيكم و الهى والهكم ، وأحيل المستمعين على قراءة كتاب اظهار الحق لمؤلفه المسمى (رحمه الله الهندى) ففيه ما يكفى ويشفى .

ولذلك تعلموا أن المسيحيين خلطوا بين الخالق والمخلوق فاستحالا فى التصوير واستعصيا على الفكر وضاعا معا على الفهم ، أما الاسلام فانه يذكر بصراحة أن محمدا بشر عادى ، وانه عبد الله ورسوله ولا سيطرة له على الناس ففى القرآن : «**لست عليهم بمسيطر**» وانه لا يعلم الغيب ولا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا بل كثير ما عوتب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عتابا شديدا فى القرآن نفسه ،

اعتراف الاسلام ببقية الاديان :

وفى تسامح الاسلام أنه هو الدين الوحيد الذى يعترف ببقية الاديان ويضع نظاما للتعايش بينها ويرفض رفضا باتا أن يكره أحد على الخروج من دينه ، وفى القرآن الكريم « **لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى**» وفيه أيضا : «**فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**» أما فى الانجيل فقد جاء : «**أجبروهم على اعتناق دينكم**» وقد نشأ عن هذا أن المسلمين تسامحوا مع أتباع الاديان الاخرى . هل تعلمون أيها الاصدقاء أنهم جعلوا من اليهود والمسيحيين وزراء وعمالا ونصبهم المسلمون رؤساء على المسلمين ومسؤولين مقربين فى الشرق وفى

الغرب ، بل كانوا أحيانا قليلة يلزمون المسلمين بتقبيل أيديهم على عادة الحكام يومئذ ، فهل يوصف المسلمين بعد هذا بالتعصب وهل استطاع المسيحيون أو اليهود أن يجعلوا من المسلم مسؤولا كبيرا فى مجتمع يهودى أو مسيحى ذلك هو الامر الذى لم يثبت فى التاريخ أو على الاقل لم أطلع عليه ، هذا مع ما عرف من المسيحيين من روح اضطهادية لمن هو على غير دينهم ، فكم سالت من دماء بين الكاثوليك والبروتستانت ، صحيح أن المسلمين حاربوهم ورفعوا السيف فوق أعناقهم ، لكن المسلمين حاربوا المسيحيين لا المسيحية ، وقاوموا اليهود لا اليهودية فلم تغلق كنائسهم وبيعهم ونهينا عن قتل رهبانهم وصبيانهم ونسائهم ولم يمنعوا عن أداء طقوسهم الدينية بيننا وهم قد أغلقوا مساجدنا وقتلوا علماءنا وأهانوا نساءنا ونكلوا بأطفالنا وشيوخنا واذا كان الاسلام يعترف بدينهم فهو انما يعترف بأصول دينهم لا بما غيروا وحرفوا وهم دائما يغيرون ويحرفون لانهم أعطوا لرهبانهم سلطة روحية وعملية بها اللهو عيسى وقدسوا الصليب وتجاوزوا عن سيئات الناس وغفروا ذنوبهم وبها أدانوا اليهود من دم عيسى ثم برؤوه منهم فى السنوات الاخيرة ،وقد اضطررت أن أتحدث عنهم وعن تاريخهم وديانتهم لانهم لما يئسوا من شبابهم اتجهوا الى شبابنا وأطفالنا فانشأوا بين قومى كنائسهم ومكاتبهم وأخذوا يبثون دعايتهم ويغرون ضعفاءنا بالمال ومع ذلك فهل استطاعوا أن يكسبوا فردا أو أفرادا بقدر ما ينفقون من امكانيات ؟ ذلك مالا أظن لقد فشلوا بيننا كما فشلوا بين قومهم وهل اتجهوا الى العلماء والمثقفين يعرفون تاريخهم ومكرهم وانا على استعداد لننشد معهم الحقيقة باحثين عنها ، مستعملين المنطق الخالص لابرازها فهل هم فاعلون ؟ فان لم يفعلوا دعوناهم الى ما دعاهم اليه معالى الوزير فى خطبة الافتتاح ، وانى لارفض بعد هذا كله أن يسمح الاسلام فى هذا العصر بالذات بالتزوج من بناتهم ومصاهرتهم للاسباب التى قدمها اخوان لى وأخوات من قبل ، ولسبب آخر تاريخى ، فهل تعلمون ـ أيها الاصدقاء أن بعض الاسباب التى ضاعت لنا بسببها وطننا فى الاندلس هو التزوج بالاجنبيات هو اتجاه الحكام والاغنياء الى التزوج بالاسبانيات ، وهل تعلمون أن آخر عرش سقط فى الاندلس كان من بعض أسبابه أن صاحب العرش متزوج بمسيحية ، واستعرضوا معى الدول المتوالية

على حكم الشرق خلال عصوره القديمة ، فحينما تكون قائمة على أساس عربى الاب والام يثبت بنيانها ويستقر سلطانها فاذا قامت على أساس عربى الاب أجنبى الام ، أسرع الخراب اليها وانحلت عروتها وذهبت أصالتها **وقد حافظ أجدادنا على أصالة خيولهم فكيف لا نحافظ على أصالة رجالنا وابنائنا ، وقد قال عليه الصلاة والسلام :**

«اياكم وخضراء الدمن ، قيل ما هى خضرا. الدمن يارسول الله؟ فاجاب : المراة الجميلة فى منبت السوء» واى سوء أسوأ من امرأة نشأت فى غير بيت الاسلام وتغذت بغير لبن العروبة · فلنا أن نمنع شبابنا من التزوج بالاجنبيات دينا ووطنية ، ولا حاجة الى القول بأنهم ليسوا من أهل الكتاب فقد أثبت القرآن بأنهم من أهل الكتاب على الرغم من اخباره فى نفس الوقت بأنهم بدلوا وحرفوا وقالوا ان الله ثالث ثلاثة وعزير بن الله · وقد عاملهم الرسول معاملة أهل الكتاب ، مع اخبار الله له بتبديلهم وتحريفهم ، ولو أن التحريف يخرج المحروف من أهل الكتاب لاخرج من دائرة الاسلام أيضا طائفة غير قليلة من المسلمين ·

التيار الثالث : الانظمة الاقتصادية :

نظرة تاريخية موجزة وننتقل الى الانظمة البشرية بعد أن تحدثنا عن الانظمة السماوية ، والانظمة البشرية هى الانظمة الاقتصادية القائمة عند بعض الدول وهى أنظمة لم يعرفها العالم الا فى فجر القرن السادس عشر وقد كان الجمهور الاوروبى قبلها يعيش فى عهد الاقطاع والطبقات والامرا. والنبلاء والقياصرة ، فيملكون الارض وما عليها من عمال وفلاحين ويتصرفون فيهم تصرف المالك لسلعته ، فقد كان العمال سلعة تباع وبذلك كان الجمهور فى غنى عن التفكير فى شؤونهم واقتصادهم فلما تحرروا تشابكت مصالحهم ونشأ بينهم نظام اقتصادى أسموه مذهب التجاريين أيده فريق يرى أن تدخل الدولة لحماية الاقتصاد وعارضه فريق يرى حرية المضاربة التجارية ، وكان فلاسفة فرنسا فى طليعة المعارضين فرأوا أن يجرى النظاما الاقتصادى على طبيعته فسموا بالطبيعيين، ثم تلاشى هذا المذهب ودخل فى أعماق التاريخ حينما وضع آدم سميث الانجليزى مبادئه الاقتصادية بعد عزلة دامت عشر سنين ، ويقوم مذهبه على أن العمل هو قوام الثروة

الاهلية ، والعمل عنده هو الذى يبذل فى انتاج سلع انتاجية أو استهلاكية ، ذات منافع اقتصادية ، أى ذات قيمة استبدالية وغير هذا لا يسمى عنده عمل ، وأخذ الناس بهذا المبدأ فاستغنى بعضهم وانزلق عامة الناس نحو البؤس والفقر ، فبرز نظامان أولهما يرى العلاج فى القضاء على الرأسمالية وهم الاشتراكيون ، وثانيهما يرى أن البؤس والفقر يرجعان الى نظام الطبيعة وقانون الحياة وما كاز كذلك استعصى على الفلسفة علاجه ، وهؤلاء هم المتشائمون ومن كبرائهم مايست الراهب الانجليزى الذى يرى أن تكاثر السكان يجرى وفق متوالية هندسية أى واحد اثنان أربعة ثمانية ستة عشرة، بينما الانتاج الزراعى يجرى وفق متوالية حسابية واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة .. الخ وهكذا ثم يقول فالحكمة تقتضى على أن تكون الولادة على متوالية حسابية لماذا ؟ ليقع التوازى بين انتاج الارض وانتاج البطن ، وزعم أن تكاثر السكان له مانعان هما : مانع قهرى هو الامراض والزلازل والاوبئة ومانع اختيارى وهو تحديد النسل ، وزعم أن العالم كالمائدة المملوءة بالآكلين ، فليس للمولود الجديد موضع فيها ، والحقيقة أن الاشتراكية تعنى بالجماعة وعلى الفرد أن يخضع للجماعة ولو ضحى بمصالحه وهى لا تحرم الا الملكية الفردية لعوامل الانتاج بينما تحرم الشيوعية الملكية الفردية عموما وان وقع فى دستور بعض البلدان الشيوعية اباحة الملكيات كمنازل السكنى ، وقد زعم بعظهم أن الاشتراكية تهب لكل بقدر انتاجه اما الشيوعية تهب لكل قدر حاجته على أن الاشتراكية تختلف فى التفسير والتطبيق باختلاف الاحزاب والدول ، وقد ظهر كارل ماركس أخيرا وكان أبوه يهوديا ثم تنصر ونشر بيانا دعا فيه العمال الى الاتحاد والاعتماد على القوة والعنف وتكوين دعائم الانتاج الفردى ثم جاء لينين فآمن بالمبادىء الماركسية وسماها شيوعية والف كتابه **الدولة والثروة** لشرح برامجه وأهدافه ويتلخص مما ذكرنا أن هذه المبادىء تقوم على نظريات فلسفيه حول العمل والعمال والارض وزراعتها والآلة وانتاجها وغير ذلك من اسباب الحياة ورفاهيتها ،ونحن نرى أن قيام بعض هذه الحركات فى البلدان القاصية قد يكون له سبب معقول اذا كان رد فعل قوى لنظام الطبقات والاقطاع والتسخير الذى كان سائدا فى أوروبا .

أما المجتمع الاسلامى الحق فليس نظامه طبقيا ولا اقطاعيا على أن

الاسلام وضع حلولا لبعض هذه المشاكل ، قد تلتقى معها بعض النظريات الحديثة وقد تختلف والامر من أساسه لا يعدوا أن يكون نظاما اقتصاديا لا عقائديا ، اذا استثنينا النظام الشيوعى الذى يعتبر الدين أفيونا للشعب وسندا للطغاة وتضليلا للجمهور .

موقف الاسلام مما يسمى رأسمالية وشيوعية :

ان القرآن الكريم وقف وسطا بين هذين المذهبين فقد رد على الرأسمالية بقوله تعالى : «**واذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا : انطعم من لو يشاء الله أطعمه ان أنتم الا فى ضلال مبين**» فلا يجوز فى نظر الاسلام أن يبقى الجائع جائعا بين الاغنياء فان كان قويا وفرنا له سبيل العمل وان كان عاجزا وفرنا له ما يحتاج اليه فى الحياة ، والزكاة المفروضة بالقرآن ، أو المفروضة بالسلطان ، أو بطريق الضمير والاحسان قد تساهم فى حل مشاكل هذا العاجز الضعيف ، كما رد القرآن الكريم على الشيوعية أنه : اذا كان الناس متفاوتين فى المواهب العقلية والذكاء والبلادة والقوة والصحة والعمل والكسل فهم أيضا متفاوتون فى الرزق والمال وفى القرآن الكريم : «**والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق ، فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء**» ، فالاسلام وسط شيوعية مغالية ورأسمالية طاغية ، فالمال عنده هو مال الله لا يملكه أحد الا بطريق الانتفاع وانما المسلمون خلفاء الله فى أرضه على ما أعطاهم من خيرات وأولهم من فضل ، فلننفع الناس بمال الله وفى القرآن : «**وآتوهم من مال الله الذى آتاكم**» وفى القرآن أيضا «**أنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه**» والميزان الذى يعبر به القرآن الحكيم فى كثير من الآيات هل هو الميزان المعروف الذى نزن به البضائع كلا ، بل هو الميزان الذى يضبط به المصلحون والحاكمون أحوال الناس وأوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية على أحسن ما يرون من حكمة ، وكون المسلمين شركاء فى الاشياء ذات المصالح العامة مفهوم من روح التشريع أيضا ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : «**ان المسلمين شركاء فى النار والماء والكلأ**» وانما خص هذه الثلاثة بالذكر لانها يومئذ الاساس فى الجزيرة العربية ، ولنا أن نقيس عليها اليوم المعادن والمعامل والشركات وغيرها ، فالناس شركاء أيضا فى المعادن والمعامل ، فالمسلمون شركاء فى المعادن والمعامل

والشركات وغيرها ، ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام : **«أيما اهل عرصة أصبح فيهم امرء جائعا فقد برئت منهم ذمة الله»** وقد جعل القرآن الكريم الشخص الذى لا يحض على طعام المسكين من المكذبين بالدين ، فما ضنك بالذى لا يطعمه ، فليس البر أن نصلى ونصوم ونحج فحسب ولكن البر كل البر من أطعم الجائعين وعلم الجاهلين وهذب المنحرفين وأعان العاجزين .

وفى اعتقادى أن الجماهير الاسلامية الجائعة المتخلفة فى حاجة الى توفير العمل لها واسعادها بالمال والغذاء والدواء أكثر من حاجتها الى الموعظة والدعاء .

أما تحديد الملكية فللحكام أن يحددوها اذا رأوا حاجة ماسة اليها كما فعل عمر فيما أظن ولهم ألا يحددوها اذا لم تدع الحاجة اليها كما فعل غير عمر فهل يقتنع الشباب بهذا ، ويكتفى به عن الدعوة الى الشيوعية أو الرأسمالية التى أضاعتا فلسطين ، فبين شيوعية ملحدة ورأسمالية طاغية عاتية ضاعت فلسطين الحبيبة . وهل حلت الرأسمالية فى بلدها مشاكل الفقر والبطالة ، وهل حلت الشيوعية فى بلدها مشاكل التغذية والرفاهية ، أما التجربة الاساسية للاشتراكية فقد نجحت وأعطت أكلها وانى لاتبين هذه الاشتراكية المسلمة المطمئنة الناجحة فى الاراضى الجزائرية التى مررت عليها عبر القطار ، رأيت الاراضى المشجرة والحقول المستثمرة والمعامل المستكثرة والايادى الجزائرية التى القت البندقية لتحمل المعول ، وودعت القنبلة لتدير الآلة ، انهما معركتان اثنتان ، انتصرت الجزائر الشقيقة فى أولاهما انتصارا باهرا وقد بدأت ملامح النصر تبدو عن كثب فى ثانيهما ، وليس الجهاد الثانى بأقل ولا أهم من الجهاد الاول لكن اليد التى عرفت كيف تحمل البندقية ستعرف أيضا كيف تدير الآلة ، وانى لأتبين أيضا هذه الاشتراكية المسلمة فى الجدية المتوفرة والحركة الدائبة والفكرة المتوثبة الثائرة ، وفى المساجد العامرة وفى المرأة المحتشمة كل ذلك فى هذا البلد الامين ، الذى اشرقت شمسه وانجلت ظلمته وأسفر صبحه ، وان شاء الله أن ينطفىء نور فى مكان من الامكنة ويتقلص ضل التعليم الاسلامى فى جهة من الجهات فقد شاء الله أيضا وله الحمد أن يشتعل نور الاسلام فى هذه الارض الطيبة وينبسط دين الله فى هذه المرابع .

التيار الرابع الأخير :

أما التيار الرابع والاخير فهو آثار ونتائج لبعض المذاهب التي تحدثنا عنها آنفا فالشيوعية والرأسمالية جردتا الانسان من مفاهيم النبل والاحسان والحب والتضحية والشهامة والخير والحق والضمير والايمان فصار الانسان انسانا ماديا آليا مجردا من كل عاطفة ، وأصبحت المرأة في بعض البلاد الاوروبية تكتسي مظاهر الرجولة في لباسها وتصفيف شعرها واخشوشنت أعضاؤها بحكم المساواة في العمل والارهاق ، فهي ذات كتف عريض بحكم الشغل ووجه متلبد بحكم التعب وبشرة خشنة بحكم الارهاق ويد قوية وعضلات مخيفة ، قد برز زندها وتصلب ساقها وقصت شعرها واختفت أنوثتها ، وصارت بحق هي الجنس الخشن ، فهل سيحتل الرجل مكان المرأة عندهم،ذلك ما أظنّ ولا سيما عند ما تخلق الشباب الاوروبي وبعض الشباب العربي المسلم بأخلاق المرأة فأرسلوا شعر رؤوسهم ورشوا مساحيق الزينة على وجوههم ودلكوا بالادهان المرطبة بشرتهم وعلقوا السلاسل الذهبية في أعناقهم وجعلو أساور الذهب والفضة حول معاصمهم ورققوا حواجبهم وأرسلوا أضافرهم وضيقوا سراويلهم ونقلوا الينا مفاسدهم وأمراضهم وأوبئتهم، ولبسوا الملابس الشفافة المزخرفة البراقة ، واهتم الشباب بمشطه وعطره وزينته قبل اهتمامه برجولته ورسالته ٠

وتلك المناظر أيها الاخوة الجزائريون قد طهر الله منها بلادكم واعينكم وأبعد عنكم شرها وأهوالها ، وقد يكون الرجل عندهم مغرورا فيما صنع لانه تلمس المرأة في البيت فافتقدها والفاها رجلة مع الرجال ، وعاملة مع العمال ، فقام بدورها واحتل مكانتها ، وافتقدت المرأة أيضا عندهم الرجل فلم تجده بجانبها فتطلبته في الاماكن القاصية من العالم الذي لا يزال يحتفظ بالرجال والنساء. فهل الشباب العربي في هذه الدروب الضيقة داخل ؟ أم عنها راغب ولها محارب ان الرسل لما بعثوا اعتمدوا على الشباب ، في تبليغ الدعوة وتحمل الرسالة وان المصلحين أيضا يعتمدون على الشباب ليخلفوهم وينصروا دعوتهم ، ترى ماذا سيقع لو تخلف شباب العالم عن مسؤولياته ، انه قطعا خراب للعالم وفناء ورجوع بالانسان الى الوراء فهل الشباب العربي سيكونون رسلا لمبادىء الحق والخير والجمال

فيقتنعون بها ويبشرون بها الناس ، واذا كان آباؤكم أيها الشباب قد قد تحملوا رسالتهم الفكرية ٠ لما كانت الرسالة دما مراقا وسفرا ممتعا ، وأمانا شاملا ، واسمحوا لى فى الاخير ايها الاخوان أن أصارحكم ولا أنافقكم ، فانى قد تلمست فى الجزائر جدية متدفقة وروحانية ثابتة واشراقة قريبة ورفاهية منتظرة ، وديانة متينة وعروبة أصلية وثقافة أصيلة ومساجد عامرة وامرأة محتشمة فاذا بقى الامر هكذا ونرجو أن يبقى فسوف تتبوأ الجزائر زعامة الامة العربية والاسلامية بعد بضع سنين ٠

بـــــلاغ

الملتــقى الثــانى عشــر للفــكر الاســلامى

تعلن وزارة الشؤون الدينية ان الملتقى الثانى عشر للفكر الاسلامى سينعقد فى عاصمة الاوراس ، باتنة ، من الرابع الى الحادى عشر من شوال 1398 هـ (السابع الى الرابــع عشر سبتامبر 1978 م) ٠

وهو للطلبــة (**الجامعيــين**) من الجزائر وغيرها ٠

وقد دعي الى هذا الملتقى اساتذة جامعيون وبحاثة من العالم الاسلامى وغيره ٠

وستتحمل الوزارة ، فى اطار الملتقى ، نفقات الاقامة والتنقل داخل التراب الوطنى .

ويطلب من المشاركين اسهام رمزى قدره خمسون دينارا جزائريا ، ويعفى منــه الطلبة الآتون من خارج الجزائر ، جزائريين كانوا أو غيرهم ، والساكنون فى باتنة ٠

وترسل طلبات المشاركة الى وزارة الشؤون الدينية ، مديرية البحوث الاسلامية والملتقيات ، المديرية الفرعية للملتقيات ، 4 نهج تيمقاد ، حيدرة ، الجزائر ، مع ذكــر كلمة « الملتقى » على زاويــة الغــلاف ٠

وعلى كل مترشح ان يبعث مع طلبه شهادتين : دراسية وطبية وظرفا (ذا مقيــاس 21×16) يحمل عنوانه وطابع بــريد ٠

وآخر أجل لقبول طلبات المشاركة هو 24 جمادى الثانية 1398 هـ (31 مايو 1978 م) ويكون ختــم البريد شاهــدا على ذلك .

هذا وسيكون جدول الاعمال كالآتى :

1) **الاوراس أمجـــاد وانجـــاد** (الامجاد : المقصود بها المفاخر ، فى مختلف المجالات ، على مر العصور ، والانجاد ج نجد ، كل ما سما وعلا ، حسا أو معنى ، أو كليهما ، والمقصود هنا ليست التضاريس طبعا ، ولكن المواقع التاريخية ، مسارح الاحداث العظام ، من يسر وعسر ، بالمعنى القرآنى : « **وهديناه النجدين** » الطريقين ، طريق الخير وطريق الشر ، أو قول الامام على : « أما بنو هاشم فأمجاد أنجاد » (والانجاد فى قوله هذا بمعنى الشجعان)، فكما تشرف قمم الجبال على السهول والبطاح ، تتميز الاحداث العظام عن المجريات اليومية العادية ، وتقفز الى العين الاماكن التاريخية كمعالم وعلامات بينة ، بارزة ، سائدة على

باقى الرقعة من الارض، ومسيطرة على الورق من الكتاب . الاسباب والآثار المعنوية لتلك الاحداث . الآثار المادية : الاطلال . . الباقية . التدابير المتخذة أو المنوى اتخاذها لابراز تلك الآثار والمحافظ عليهـــا) .

2) **الدين والعلـــم** (الكتب المنزلــة ـ وخاصــة منهــا القرآن ـ والعلـم . مدى صحة ما يقال اليوم من أطراف مختلفة : الجاهل المشعوذ ، والدجال السياسى الذى يلعـب بعقول الجماهير ويستغل الدين ـ أي دين كان ـ سياسيا ، واقتصاديا ، واجتماعيا ، والملحد عن اعتقاد ، أو تعقد ، أوجهل ، الذى يزعم ان الدين ينافى العلم ولم يعـــد يقبلـــه العصر ... الى حـد أن كثـيرا من انصـاف المتعلمـين يتباهون بمعـــاداة الدين حتى يقال فيهم انهم ··· هل الدين دليل خير أم مخدر للفرد والمجتمع ؟ أم لا هذا ولا ذاك ؟ فماذا اذن ؟) .

3) **الى م تيسر فى العالــم الاسرة : الى اليسرى أم العسرى** ؟ (تيسر : تهيـــأ ، تعد ، توجه ، يقصد بها ، يذهب بها الى ··· والمراد : ما المصير الذى يهيـأ ويراد للاسرة اليوم ··· على ضوء ما نرى ، ونسمع ، ونقرأ ··· هنا وهناك ·· فى العالم بأسره ؟ هل هي نظام يجب الغاؤه فى أسرع الآجال ؟ أم يكفى تركه ليموت ··· موته الآجل أو العاجل ، باهماله على حاله ، ينخر السوس فى عظامه ؟ أم بالدفع به قصدا الى الموت بمختلف الوسائل والطرق ؟ أم يجب بذل جميع الجهود للحفـاظ على هذا النظام ، بل وتعزيزه وتوطيد اركانه ؟ وكيف ذلك ؟) ·

4) **نظــرة جامعــة عــلى الجامعــة** (نشأة النظام الجامعى فى العالم وتطوره : مولـــد الجامعة فى تاريخ البشرية كنواة للنظام الجامعى بالمعنى العصرى ، دور الحضارة الاسلامية فى هذه النشأة وفى تطورها · تطور النظام على مـــر العصور · معنى وجدوى ـ أو عبث ومضار ـ الاصلاحات المتتالية ، وخاصة منها الجارية على هذا النظام فى العالم اليوم · آثارها على الشباب والمجتمع) ·

5) **ماض ومضى هى الجزائر ، لا طفـل أو طيـف زائر** ! (العــلاقات بين الجزائر وبقية العالم قبل 1962 فى القديم والحديث ، وخاصة منذ بدء العصر الحديث : مـــع روما ، وقرطاجنة ، مع بلدان المغرب الاخرى ، والاندلس ، مع بقية البلاد الاسلامية ، مع الخلافة العثمانية ، مع افريقيا ، مع فرنسا ، واسبانيا ، وأوربا باكملها ، ومــع الولايات المتحدة الامريكية منــذ نشاتها ، ومــع آسيـا وباقى العــالم ، فى مختلف المجالات · الاستمرارية فى تاريخها وشخصيتها رغم الداء والاعداء) ·

1978 N° 58-59

العدد 58 - 59

فهـــرس العـــــدد

الجزائر وابن خلدون : تأثيرها في حياته ومقدمته

● ضرورة اعادة قراءة ابن خلدون بمنظار جديد ، وروح جديدة ، ومنهجية علمية جديدة ، لكن في الوقت نفسه أقرب الى عصره .

مولود قاسم نايت بلقاسم
الوزير لدى رئاسة الجمهورية
المكلف بالشؤون الدينية

بسم الله الرحمن الرحيم ،

حضرات الاساتذة الافاضل ،

حضرات السادة والسيدات ،



انه لشرف كبير لي أن ألقى هذه الكلمة الموجزة لاختتام أعمال ملتقاكم .

فشكرا لكم على ما تجشمتم من مشاق السفر لاستجابة دعوة الجزائر ، وعلى ما بذلتموه من جهد في التحضير ، وعلى ما قمتم به هنا من حضار ونقاش لخدمة العلم، بمناسبة الذكرى المائوية السادسة لمقدمة أبي زيد ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون ، احد عباقرة هذا المغرب، والعالم الاسلامي بأجمعه، بل والانسانية كلها .

وان الجزائر التي درجت منذ استعادة استقلالها وسيادتها على الاحتفال بالرجال وآثارهم ، من جزائريين ، ومسلمين عامة ، وغيرهم،من مختلف القارات ، لجدير بها أن تتولى كبر (I) الدعوة الى الاحتفال بهذه المقدمة التي جمع كثير من عناصرها على أديمها، وألفت في أرضها، وكان لها مع مؤلفها ذلك الارتباط الوثيق والصلة الوشيجة .

(*) كلمة اختتام الملتقى الدولي حول ابن خلدون والذكرى المائوية السادسة لمقدمته الذي عقد في الجزائر العاصمة بتاريخ 20 رجب 1398هـ / 26 يونيو 1978م .

(I) كبر (بالكسر ثم السكون) : مبادرة ومسؤولية في لغة ابن خلدون .

وتلخيصا لما قد يكون لا شك قيل هنا ـ ونحن في آخر الملتقى ـ ، عن هذه العلاقة الحميمة بين الجزائر وابن خلدون ، نذكر فقط بأنه هو نفسه قد أشاد مرارا، في تعريفه بنفسه، بأساتذته الجزائريين الذين لقيهم وأخذ عنهم سواء بتونس ، أو في فاس ، أو في تلمسان ، أو ببجاية ، مثل ابني الامام ، ابي زيد عبد الرحمن وأبي موسى عيسى ، من برشك (2) ، قرب تنس ، وأبي عبد الله محمد بن ابراهيم الآبلي ، « شيخ العلوم العقلية بالمغرب ، الذي شهد لي بالتبريز فيها » ، كما يقول ابن خلدون ـ ، وهو من تلمسان مولدا ومنشأ ، وأبي العباس أحمد بن محمد الزواوي ، من بجاية ، وهو ، « إمام المقرئين بالمغرب ، وقد أجازني بالاجازة العامة » ، وأبي العباس بن ادريس ، كبير العلماء ببجاية ، وأبي عبد الله المقري ، وهو جد المقري صاحب النفح ، وأبي علي ابن باديس القسنطيني ، وغيرهم ·

وكما درس على جزائريين ، فقد درس لهم أيضا في جامع القصبة في بجاية ، ومدرسة العباد في تلمسان ·

وفي ميدان التجربة العملية في الجزائر ، فقد شارك عبقرينا في كثير من الحوادث ، والتقلبات ، والانقلابات ، (3) وكان وزير مالية في بجاية ، حيث تعرف على وديانها وجبالها ، « يجمع المغارم ، ويستوفي الجباية ، ويستخلص الاموال » · وكان فيها حاجبا ، أي رئيس وزراء ، « خلص له فيها الاستبداد » ، أي الحكم المطلق و «التصرف المنفرد في الامور » ·

---

(2) برشك بلدة صغيرة اسسها اندلسيون ، وخربها سنة 1608 سيمون دانسر Simon Danser ، الذي جاء من بلجيكا ، واعتنق الاسلام وكان « رئيسا » بحريا ، وأخذ اسم مراد رئيس ، ثم فر « بمدفعين برونزيين ممتازين » ، الى فرنسا وسلمهما للدوق دوغيز Duc de Guise في عهد حسين باشا في الجزائر ولويس 13 في فرنسا ، وتسبب في حرب بين فرنسا والجزائر ، ولم يرجع المدفعان الى الجزائر الا سنة 1628 . وقد ترك لنا اسمه محرفا على الحي المسمى بئر مندرايس · أنظر : Garrot : Histoire générale de l'Algérie وإنية وأصالة لصاحب هذه الكلمة ·

وقد انتهى المشكل بين البلدين بعد مدة من عقد معاهدة تور Le Traité de Tours بين سنان آغا ، مندوب حسين باشا ، ولويس الثالث عشر ، ملك فرنسا ، سنة 1618، برجوع المدفعين ، كما ذكرنا ، سنة 1628 ·

هذا وقد بنى الفرنسيون في العهد الاستعماري بلدة على موقع برشك وسموها : Francis Garnier ، وتسمى الآن بني حواء ، في نواحي تنس ·

(3) أو « العيهات »، كما يقول هو ·

واخيرا ، وليس آخرا ، عندما مل وكل من كل بيعة وهيعة ، وجد في الجزائر السكن (4) والسكينة ، اذ تزوج من قسنطينة زوجته الوحيدة ، حتى مات ، وأم أولاده ، وخلا لنفسه للتفكير والروية في بسكرة ، وتفرغ للدرس والعلم ، وعكف على اجراء القلم في قلعة بني سلامة قرب تيهرت (تيارت) مع أسرته ، « متفرغا عن الشواغل كلها ، « عاكفا على تدريس علم ، أو قراءة كتاب ، أو إعمال قلم في تدوين أو تأليف» ، مدة « أربعة أعوام » ، وشرع في التأليف حتى أخرج لنا هذه « المقدمة على ذلك النحو الغريب الذي اهتديت اليه في تلك الخلوة » ·

هذه بعض صلات ابن خلدون بالجزائر ، هذا العالم العبقري الذي كان لكم جميعا شرف الاحتفال بمقدمته ، بتبادل وجهات النظر ، واستخلاص نتائج بحوثكم ، وإعمال فكركم بشأنها ·

ولئن اتفقتم كلكم في الاشادة بعبقريته وابتكاره ، وأصالة عمله ، وجدة بحوثه ، وسبقه الى انشاء علم هام ، فقد اختلفتم واختلف معكم غيركم من غير الموجودين في هذه القاعة حول طبيعة هذا العلم الذي أنشأه ، واسمه ورسمه ، بحسب اختلاف تخصصاتكم واهتماماتكم ·

فلقد كنا درسنا وسمعنا حتى اليوم ان العلم الذي أنشأه ابن خلدون هو « علم الاجتماع ، قبل أوغست كومت ، ومدرسة دور كايم ، ومن سبقهما ، وعاصرهما ، ولحقهما ، وانه فعل ذلك كله أحسن منهم جميعا ، بل هو أول منشيء علم الاجتماع بحق ، وان علم الاجتماع اليوم لم يزد شيئا على ما قرره ابن خلدون » ، كما يرى أستاذنا الدكتور علي عبد الواحد وافي ·

كما سمعنا أو قرأنا آخرين يقولون ان العلم الذي أنشأه ابن خلدون ليس علم الاجتماع ، السوسيولوجيا ، وانما علم الاجناس ، الاتنولوجيا ، أو علم الانسان ··· الانتروبولوجيا ، كما يرى صديقنا الدكتور عبد العزيز الحبابي ، فيما نذكر (5) ·

وها نحن اليوم نسمع أو نقرا لبعض الاساتذة الحاضرين في ملتقاكم الموقر هذا ان ابن خلدون مهد في الواقع لانشاء علم الايديولوجيات أو المذهبيات السياسية ، البوليتولوجيا Science des idéologies أو Politologie ، كما يرى

---

(4) بمعنى الزوجة والمعنى العام ·

(5) أنظر كتاب الملتقى السادس للفكر الاسلامي ــ الجزائر ·

الاستاذ جورج لبيكا ، Georges Labica ، حسبما قرانا فى الجرائد ، أو ، كما يرى الدكتور جيلالى سارى ، انه أنشأ جغرافية المدن والبوادى ·

ولاحدنا أن يقول ـ وقد يكون ذلك قد قيل قبل اليوم ـ ان ابن خلدون أنشأ علم الحضارات وأعمار الدول ، وسبق بذلك أمثال طوينبي وآخرين بقرون ، ولنا أيضا أن نقول انه أول منشىء للطرق التربوية أو البيداغوجية ، بالنسبة لتدريس كثير من العلوم ، بناء على استقرائه للطرق المعمول بها فى عصره فيما شاهده فى البلدان التى مر بها أو عاش فيها ·

وبالنظر الى المدة الطويلة التى قضاها فى القضاء والتشريع فى مصر ، وهي تقرب من الربع قرن ، وما لمح به ، بل وفصله أحيانا ، من تجربته فى الميدان ، ألن يحق لاحد غدا أن يقول ان ابن خلدون فيلسوف من فلاسفة التشريع والتقنين ، بعد تجربته الطويلة بالشرائع والقوانين ، والمشرعين ، والمقنين ، والمشرع أو المقنن لهم ، وما أبانه وانتقده ، ووضحه مما يتصل بمجموع السياق ؟

وآخرون قالوا انه مبدع اقتصادى ، مهد برأيه لنظريات هي الآن لا تزال موضع النقاش ، ومعمولا بها فى دول كبرى ، ومتوسطة ، وصغيرة ، وآخرون قالوا انه قال قبل داروين بنظرية النشوء والارتقاء ، وحكاية القرد كجد للانسان ـ مثل أستاذنا الدكتور وافي ، في تحقيقه للمقدمة وفى محاضرة له بالمركز الثقافى الاسلامى بالجزائر ·

ولعلنا اتفقنا هنا ان ابن خلدون لم يكن هذا أو ذاك فقط ، بل كان ذلك كله وزيادة · ولعل فى نتائج بحوثكم اليوم وبحوث من سبقكم ما يبعث على القول بما نادى به بعضكم هنا من ضرورة اعادة قراءة ابن خلدون ، بمنظار جديد ، وروح جديدة ، ومنهجية علمية جديدة ، ولكن فى الوقت نفسه أقرب الى عصره ، وتأخذ بالاعتبار كل تلك الظروف المكتنفة لحياته العلمية والعملية ·

واذ ذاك ربما وجدنا أنفسنا أمام عبقرى متعدد العبقريات ، وانه منشىء عدة علوم ، لا علم واحد ، وانه آخر ذلك الرعيل المتعدد الجوانب من أمثال ارسطو ، والفارابى ، وابن سينا ، وابن رشد ، وآخرين من قمم عصر النهضة الاوروبية وما بعدها مباشرة ·

حضرات الاساتذة الافاضل ،

انى اذ أجدد لكم مرة أخرى شكر الجزائر ، على ما قمتم به فيها من خدمة للعلم والعلماء ، أهنئكم بعملكم المثمر ، والى اللقاء فى فرص أخرى ·

والسلام عليكم

وصـــف مـدينـــة قسنـطينـــة

حسب معلومات جديـــدة للقبطان هيبوليت الضابط بهيئة أركان الحرب الفرنسية بتاريخ شهر مارس 1832

د٠ ناصر الدين سعيدونى
معهد العلوم الاجتماعية
جامعة الجزائر



لا يعرف عن صاحب هذا الوصف الا انه كان مــن الضباط المنتسبين لهيئة أركان الحرب الفرنسية العاملة بالجزائر ، والمتحمسين لشن هجوم على قسنطينة قصد الاستيلاء عليها ، وهذا ما نستدل عليه من سياق هذا الوصف الذى يحمـل امضاء هذا الضابط ، بتــاريخ شهر مارس 1832 ٠

وقد أورد هذا الوصف مــع وثائق هيئــة أركان الحرب الفرنسية العاملة بالجزائر بأرشيف وزارة الحرب بفانسان ــ باريس ــ ضمن العلبة التى تحمل رقم 245 ٠

أما مضمون هذا الوصف فانه يمس النقاط التالية :

1 ــ مدخل فى ست صفحات ، يتناول الامكانيات العسكرية والاساليب التكنيكية لباي قسنطينة (الحاج أحمد باي 1826 ــ 1837) ، مع ذكر بعض الشروط التى يجب أن يتوفر عليها الجيش الفرنسى المهاجم كالعتاد واللباس وغيره (ص 1 ــ 6) ٠

2 ــ صفحة واحدة خصصت للوصف الطبيعى العام لاقليم قسنطينة (ص 7) ٠

3 ــ سبع صفحات أخرى ، تتعلق بالمواصلات والطرق المزمع انشاؤها ، بعد اخضاع قسنطينة (ص 8 ــ 14) ٠

4 ـ بعدها وصف لمدينة قسنطينة ، وذكر أماكنها الحصينة ونقاطها الاستراتيجية وذلك فى تسع صفحات (15 ـ 23) ، وهذه الفقرة هي موضوع ترجمتنا هذه .

5 ـ ثم الاستعدادات المتعلقة بالهجوم على قسنطينة ، فى أربع صفحات (ص 24 ـ 28) .

6 ـ مذكرة حول أحمد باي .

7 ـ معلومات تاريخية حول مدينة قسنطينة .

8 ـ اضافات تتعلق بالملكات الفرنسية بالقالة .

ومما يلاحظ على تقرير هيبوليت Saint Hyppolyte أنه يتألف من نسختين . نسخة أصلية مختصرة ومركزة ، تتعلق بوصف مدينة قسنطينة ، ونسخة ثانية تتضمن بالاضافة الى ما ورد فى النسخة الاولى ، اضافات وشروحا اقتضتها التحضيرات الحثيثة للحملة الاولى ضد قسنطينة (نوفمبر 1836) .

هذا وقد رأينا من المفيد ترجمة الفقرات الخاصة بوصف مدينة قسنطينة اعتمادا على النسخة الأولى مع بعض الاضافات المقتضبة من النسخة الثانية ، وذلك حتى يتعرف القارىء الجزائرى على الوضع الطبغرافى ، والحالة العمرانية لمدينة قسنطينة عشية الاحتلال ، لا سيما وأن تحصينات المدينة ومواقفها الحربية لعبت دورا مهما فى مقاومة القسنطينيين عبر التاريخ .

د.ناصر الدين سعيدونى

وصف مدينة قسنطينة للضابط هيبوليت سنة 1832

مدينة قسنطينة (سيرتا لدى القدماء وقسنطينة لدى العرب) عاصمة الاقليم أو البايليك الذى يحمل اسمها وهي واقعة على وادى الرمال خلف الاطلس التلي على مسافة 35 مرحلة جنوب غرب عنابة (1) . ومن المفروض أن سكانها يتراوح عددهم ما بين 25 و 30 الف نسمة من حضر ويهود وعرب (2) .

---

(1) على الطريق المباشر تقدر المسافة بـ 35 مرحلة بريد Lieues de poste بينما على الطريق التى سلها الجيش الفرنسى عام 1836 ، تقدر المسافة بـ 40 مرحلة بـريد . (هيبوليت)

(2) يوجد بقسنطينة 1700 منزل مغطاة بالقرميد و 8000 رجل قادرين على حمل السلاح ، ويقال بأن قسنطينة أقل اتساعا من الجزائر ، ولكنها أكثر مرتين من المدية . (هيبوليت)

أما موقعها فهو على شكل مدرج يرتفع فى الشمال الغربى عند سفوح جبل المنصورة الذى يفصله عنها انهدام متعرج تسلكه مياه وادى الرمال ، هذا الوادى الذى يرفده واد بو مرزوق الآتى من الجهة الشرقية ، فى المكان المعروف بدار الاقواس (الحنايا القديمة) ويبلغ طول وادى بومرزوق ما بين 7 الى 8 فراسخ (3) ·

وإلى الشمال الشرقى لمدينة قسنطينة ينتصب جبل المنصورة فى اتجاه جنوبى شرقى الى شمالى غربى ، وهذه الجبال مع أنها جرداء من الاشجار الا أنه يمكن استغلال أرضها فى الزراعة حتى أنه يمكن مقارنتها من حيث الخصب بأراضى برج الرياح المقابلة لقسنطينة ·

ويقوم فى أعلى هضبة المنصورة نتوءان · احدهما شرقى يشرف على المدينة على بعد مرمى مدفع منها يتوجه ضريحان من أضرحة المرابطين يعرفان عادة بسيدى المبروك · أما النتوء الثانى الواقع فى الشمال الغربى لهضبة المنصورة فيحمل اسم ضريح سيدى مسيد ، ومن هاذين النتوءين يمكن أيضا قنبلة قسنطينة ·

وإلى الشمال الغربى من مدينة قسنطينة وعلى ألف متر من الاسوار التى تحيط بها توجد مرتفعات كدية عاتي ، وتطل على الجانب الآخر للمدينة حيث تتناثر عليها بعض القبور ·

اما شكل قسنطينة فهو اهليلجى ذو سطح مسق يرتكز فى أساسه على الانحناء الالتوائى الكبير المتجه نحو الجنوب الغربى فى خط يكاد يكون مستقيما ، وعلى مسافة يقدر طولها بخمسمائة متر من خط هذا الانحناء الكبير ، وضمن سور قديم يعلو ثلاثين مترا ، توجد ثلاثة أبواب:الباب الغربى الذى يوجد وسط هذا الخط المستقيم يعرف بالباب الجديد ، وتنتهى اليه طريق الجزائر ، والباب الاوسط يعرف بباب الواد ويؤدى الى الجنوب ، ويمكن ان يؤدى الى طريق الجزائر عند مسلك متفرع منه ، بينما الباب الثالث ويدعى باب الجابية فيتصل بوادى الرمال · وبين هذه الابواب الثلاثة تنتصب بطاريات المدافع المجهزة بأربعين مدفعا لتتصدى لكل قوة معادية تريد الاقتراب من المدينة ·

وعلى منحدر كدية عاتي المواجهة للمدينة ، وأمام الابواب الثلاثة توجد ضاحية قليلة الاتساع يسكنها الصناع ، وتقام فيها الاسواق ، وعلى بعد منها اسطبلات الباي

Lieux de cours (3)

مع بعض المساكن المتفرقة ، وبجوارها بعض الاضرحة والبساتين المحاطة بالسياجات والاسوار الصغيرة ·

أما باقى تحصينات مدينة قسنطينة فمتكون من أسوار قديمة بالية تستند اليها المنازل ، وان كانت كثيرا ما تجاوزت هذه المنازل فى علوها تلك الاسوار المستندة عليها على ان تلك الاسوار المنخفضة تشكل وسيلة دفاع ممتازة لانها مقامة على حافة الصخرة ، ويحف بها الجزء الاكبر من مجرى وادى الرمال السحيق ·

ويوجد بحافة جبل المنصورة باب رابع يعرف بباب القنطرة ، قبالة جسر مقام على الوادى ، يصل بين حافتى الانغلاق الذى يفصل قسنطينة عن جبل المنصورة ·

وباب القنطرة هذا محصن بستة مدافع ، وتنتهى اليه الطرق الآتية من الجهات الساحلية والشرقية لاقليم قسنطينة · وبجانب باب القنطرة ترتفع أسوار المدينة فى شكل منعرجات ، وهي فى حالة سيئة ، ويمكن ان يصل منها الى أعماق الخانق الذى يسلكه وادى الرمال ·

أما القصبة فتوجد فى الزاوية البارزة للمثلث الذى تشكله الاسوار بين باب القنطرة والباب الجديد فوق الصخور المطلة على الجزء الاكبر من المدينة على ارتفاع مائة متر فوق أعماق الوادى فى انحدار رأسى سحيق · وهذه القصبة عبارة عن بناء قديم فى شكل قلعة صغيرة محصنة بثمانية مدافع · كانت تستعمل بمثابة ثكنة للحامية .

ونذكر من جملة تحصينات قسنطينة بطارية مدفعية ذات أربعة مدافع هاون منتصبة فوق جبل المنصورة ، مع أن هذه البطارية كثيرا ما أكد بعض الاشخاص عدم وجودها فى هذا المكان (4) ·

---

(4) لقد هاجم التونسيون مدينة قسنطينة منذ حوالى ثلاثين سنة (يشير الى حملة حمودة باشا باي تونس على قسنطينة سنة 1807 ، المترجم) وبعد ان طوقوا المدينة من الجهة الشرقية نصبوا بطاريات المدافع بأعالى سطح المنصورة ، ولكن مع ذلك لم يتمكنوا من السيطرة على هضبة كدية عاتي ، نظرا لمقاومة القسنطينيين الشديدة ، وتعرضهم للكمائن قرب المنازل والبساتين فى هذه الناحية ، ورغم أن طلقات المدافع من سطح المنصورة بدأت تثير قلق المدافعين عن المدينة ، فان التونسيين فكوا الحصار وتراجعوا عن قسنطينة ، وذلك لتوقعهم وصول تعزيزات لنجدة القسنطينيين المحاصرين وبالفعل بعث باشا الجزائر امدادات مكونة من 2500 رجل عن طريق عنابة · =

أما وادى الرمال الذى يأخذ منبعه على مسافة خمسة أيام سيرا من قسنطينة فيمكن اجتيازه طيلة فصول السنة كلها · ولا يتعذر عبوره الا فى فترات نزول الامطار الغزيرة اذ يبلغ ارتفاع مياهه حينئذ أربعة أقدام ، فى حين لا يزيد عمقه عادة عن قدم أو قدمين فقط · وعلى حافة وادى الرمال اليسرى عند مشارف مدينة قسنطينة ، توجد سهول زراعية يحف بها جبل المنصورة من الجهة اليسرى · هذا ويشكل وادى الرمال عند بلوغه باب الجابية شلالاً من المياه ، يشرف على تجويف أرضى تنحدر اليه مياه الوادى لتظهر بعد ذلك من جديد وسط الخندق العميق ،

الذى هو عبارة عن خندق Fossé هائل يحاذى امتداد أسوار المدينة حتى حصن القصبة ، وهو بذلك يلف بأكثر من نصف المدينة ، على أن عمقه لا يزيد عن خمسين مترا وعرضه لا يتجاوز تسعين مترا ما بين بأبى الجابية والقنطرة على أنه يزداد فى الاتساع بعد ذلك عندما يقترب من حصن القصبة ·

وهناك شلال آخر يعترض وادى الرمال عند مخرجه من الخانق فى أسفل المدينة تعلوه بعض مطاحن الحبوب وتنتشر عند حافته اليسرى البساتين ، بينما الحافة اليمنى يشرف عليها جبل المنصورة ·

وفى أعلى الصخور المقامة عليها المدينة يقوم حصن القصبة (5) ، ومنها يشرف على الباب الجديد وباب القنطرة · أما باقى الصخور فيقل ارتفاعها ما بين بأبى القنطرة والجابية حيث ينمو نبات الصبار ويصبح من الممكن اجتيازها · وكذلك الصخور الواقعة ما بين بابى الجابية والواد · فهي قليلة الارتفاع ، وهي تعلوها الاسوار الحاجزة Rempart المزودة ببطاريات المدافع · ومع هذا فيمكن الوصول الى المدينة صعودا على الانقاض والنفايات التى تلقى من أعلى الاسوار بجوار سيدى ميمون ·

= وهكذا يتضح لنا من خلال هذه العملية الحربية مدى الخطر الذى يمثله احتلال سطح المنصورة على مدينة قسنطينة ، اذ من المؤكد أن تصبح قسنطينة تحت رحمة الطلقات الاولى للمدافع التى تنصب فوق سطح المنصورة ، ولهذا أرى أن أفضل هجوم قد يشنه الجيش الفرنسى على قسنطينة ، هو الذى يعتمد على اقامة جهاز هجومى فوق جبل المنصورة (هيبوليت) ·

(5) تنفذ بعض أحكام الاعدام فى المجرمين بالقائهم من أعلى حصن القصبة نحو أعماق الوادى السحيقة ، أما بقية أحكام الاعدام الاخرى فكانت تنفذ عادة عند باب الوادى · (هيبوليت)

5 Janvier 1837

Description de la ville de Constantine

§ 4.

La ville de Constantine (Cirta des anciens, Cossamtina des Arabes) est la capitale de la province (le Beylik) qui porte son nom. Elle est située au delà du petit Atlas sur le Oued-Rumel, à 35 lieues de poste au S. O. de Bone (1). Sa population doit être de 25 à 30,000 âmes, maures et juifs (2) Cette ville est placée en amphithéâtre, s'élevant vers l'Ouest, dans une presqu'île contournée par la rivière et dominée par les hauteurs de Mansoura et de Sidi-Mécid, dont elle est séparée par une grande et profonde enfractuosité, où coulent les eaux du Oued-Rumel (rivière de sable) qui au-dessus de la ville, reçoit le Oued Boumerzoug, dans un lieu appelé el Kouas (les arceaux, aqueducs antiques). Ce ruisseau de 7 à 8 lieues de cours, vient de l'Est et aboutit à la rive droite du Rumel.

Au N. E. de la ville s'étend le plateau el Mansoura, il est dépouillé d'arbres et la terre est annuellement mise en culture. Ce plateau domine

(1) Par le chemin direct on compte 35 lieues de poste, par la route suivie par l'armée en 1836 il y en a 40, 3/4.
(2) Il y a 1700 maisons, couvertes en tuiles, et 8000 hommes capables de porter les armes, on dit Constantine moins étendue qu'Alger et deux fois grand comme Médéah.

ولقسنطينة ساحات عمومية عديدة ، لا يجدر ذكرها لضيق مساحتها باستثناء ساحة واحدة فقط تقع بالقرب من باب القنطرة ، أما الشوارع فهي ضيقة ومتعرجة ، والمساجد جميلة ومزينة بالرخام الجيد ، والثكنات كبيرة ، والاسواق رحبة ، والمخازن ضخمة تحفظ بها الضرائب العينية · ورغم أن خزينة الباي وثروات سكان المدينة يفترض انها ضئيلة ، الا انها تقيهم شر الكوارث التى تدبر ضدهم ، وهناك قصر الباي الواقع وسط المدينة الذى تتوسطه شجرة السرو الضخمة التى هي بمثابة سارية للعلم · وهو يتميز بقرميده الاخضر وببيوته الكبيرة المتصلة ببعضها ·

وعلى كل فان مدينة قسنطينة اقل امتدادا من الجزائر ، رغم أنها تكبر مدينة المديه بثلاث مرات ·

ومما يذكر أن منابع المياه بقسنطينة منعدمة ، اذ لا يوجد داخلها الا قليل من صهاريج المياه ، ولهذا يتزود السكان بالماء من الوادى الذى يمكن الوصول اليه خارج أسوار باب الجابية بواسطة ممر · على أن هناك المجارى والعيون متوفرة فى الجهات القريبة من قسنطينة ·

كما انه من الراجح أن الاقوات من الحبوب وكثير من الاصواف والزيوت مع كميات من التين متوفرة بقسنطينة رغم أنه لا يوجد داخل الاسوار مطاحن للقمح لان العديد منها يقع على ضفة وادى الرمال عند خروجه من قسنطينة ، أما ما يخص حطب التسخين ، ولا سيما خشب البناء فهو نادر جدا ، وهذا ما جعل السكان يستعملون الفحم فى أغراضهم ·

أما ما يخص العتاد فان الباي أحمد لم يعد يتلقى ما يحتاجه من البارود من الداي بعد الاستيلاء على الجزائر · ولهذا أصبح يصنعه فى مدينة قسنطينة من ملح البارود المتوفر بالمغاور القريبة من المدينة ·

على أن المسافرين يرون أن الباي أحمد ليس له من الامكانيات ما يمكنه من صنع الاسلحة ، وان كان فى استطاعته اصلاحها والمحافظة عليها ·

امضاء هيبوليت
قبطان بهيئة اركان الحرب
مارس 1832



ONSTANTINE
Bab el Cantara
Fontaine et Lavoir
Bab el Djedid
Condiat Aty
Redoute
606
Fontaine Thermale
el Bardo
Mesalla
Retaba
Aqueduc
Route de Tunis
d'Alger
Bou Chacun
Route de
Mm ruine
513
Oued
Oued B
Mansoura
Casbah
Fontaine
Dessiné au Dépôt général de la Guerre, sous la Direction de Mr le Lt Général Pelet,
d'après les levés des officiers du corps royal d'Etat major.
Echelle (1/10,000e)

مدينـــــة أرزيــــو

المهدى البوعبدلى
بحاثـة فى التاريخ ، ومكلـف بمهمة لـدى وزارة الشـؤون الدينية



عرفها أبو عبيد عبد اللـه ابن عبد العزيز البكرى فى كتابه « المسالك والممالك » الذى الفه حوالى سنة 460 هـ 1067 م · فقال « قلعة هوارة ويسمونها تسقدالت وهـي قلعة فى جبل لها ثمار ومزارع وتحت هذه القلعة يجرى نهر (1) سيرات وهو النهر الذى يسقى به فحص سيرات ، وطول الفحص نحو أربعين ميلا · ليس منه شيء الا يناله ماء هذا النهر الا انه اليوم غامر غير عامر ، ولاء أهـل لان الخوف أجلى أهله وفى ساحل هذا الفحص مـدينة أرزاو ، وهي مدينة رومية خالية ، فيها آثار عظيمة للاول باقية ، يحار من دخل فيهـا لكثرة عجائبها ، وبقرب مدينة أرزاو جبل كبير ، فيه قـلاع ثلاث مسورة رباط يقصد اليه ، وفى هذا الجبل معدن للحديد والزئبق ··· الى أن يقول ··· وبين مدينة ارزاو هذه ووهران أربعون ميلا » اهـ كلام البكرى ·

كما عرفها الادريسى فى كتابه : « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » الذى ألفـه حوالى سنة 548 هـ ، الموافق لسنة 1154 م · فقال « ومن طرف مشانة الى مرسى ارزاو 18 ميلا ، وهي قرية كبيرة تجلب اليها الحنطة فيسير بها التجار ويحملونها الى كثير مـن البـــلاد » ·

(1) وهو المعروف بوادى المقطع حيث وقعت معركة الامير عبد القادر المشهورة مع الجيش الفرنسى تحت قيادة الجنرال تريزيل ·

فالبكرى عرف ارزاو التى بنيت على انقاض المدينة الاثرية التى لا زالت تحتفظ بآثار الفنيقيين والرومان ، وهي المعروفة الآن ببطيوة ، اما الشريف الادريسى فقد عرف بمرساها الذى كان يعرف دائما بالمرسى أو بمرسى ارزيو ، وذلك فى العهد الاسلامى ، وادخل عليها التغيير بعد الاحتلال الفرنسى فقط ، فصاروا يطلقون اسم ارزيو على المرسى ، وفرنسوا ارزاو وأطلقوا عليها اسم (سانلو) الذى هو اسم قرية فرنسية بضواحى باريز

اما الاصل فى تسمية مدينة ارزيو فيقال انه اسم بربرى دخل عليه بعض التغيير ، اذ كانت فى عهد الرومان تسمى المرفأ الكبير Portus-Magnus (بورتوص مانيوس) فى القرن السادس قبل المسيح Scylax ذكر الجغرافى اليونانى سيلاكس البلدة وموقعها الحالى الا ان اسمها اذ ذاك غامض ، فكل ما يعرف عنها اذ ذاك انها كانت من المراكز التجارية فى عهد سيرتا الشرقية وسيقا الغربية الفنيقيتين ، وقد اكتشف علماء الآثار مقبرة فنيقية وأوانى خزف ومعمل لتصبير الحوت ، أما الآثار الرومانية فان جلها الموجود الآن فى متحف وهران عثر عليها فى أرزيو خصوصا الفسيفساء التى تمثل صور الالعاب الرياضية كما لا زالت البلدة تحتفظ بكثير من البناءات والاسواق التجارية والشوارع والحمامات وقنوات المياه .

اما بطيوة التى تغلب اسمها على ارزيو حتى صار يطلق عليها الآن ، فان جماعة من قرية بطيوة الصنهاجية من ريف المغرب أي شماله هاجروا الى هذه الناحية واستقروا بها ، واختلف المؤرخون الذين اهتموا بدراسة هذه القرية فى تاريخ نزوحهم اليها ، فمنهم من قال بانهم وردوا عليها فى عهد أبى الحسن المرينى فى منتصف القرن الثامن الهجرى ، وذلك ان الملك أبا الحسن المرينى كان له أحد القواد المشهورين يدعى محمد البطيوى ، اقطع له الملك المذكور هذه القرية وناحيتها خصوصا معدن الملح الذى كان بقربها – ولا زال – فجلب القائد المذكور بعض اقاربه وأفراد عشيرته ، ومنهم من ذكر ان أهل القرية أي بطيوة لجأوا الى الجزائر حوالى القرن العاشر الهجرى وبعد ان سكنوا مدينتى البرج (2) ومزغران انتقلوا الى بطيوة فى عهد الباي محمد الكبير فاتح وهران سنة 1206 هـ . وهذا قول باطل اذ عثرنا على وثائق تدل على بطلانه ، وذلك ان احد علماء القرية يدعى الشيخ عمرو بن أحمد البطيوى السعيدى (3)

---

(2) نسبة الى قبيلة بنى سعيد التى تنتمى الى بطيوة وهي فى ريف المغرب .
(3) مدينة البرج قرب معسكر .

دفين مقبرة القرية القديمة (أي قبل الاحتلال الفرنسي) كان حيا في أواخر القرن الحادي عشر الهجري حيث وجدنا بعض الكتب نسخها بخطه سنة 1085 هـ وكثير من سكان القرية من سلالته ، كما أخبرني الاستاذ البحاثة محمد العابد الفاسي محافظ مكتبة القرويين ان احد علماء بطيوة الجزائرية له تاليف يشمل جزءين على طريقة احياء علوم الدين للغزالي وله فهرس ذكر فيه بعض اشياخه منهم ابن مريم المليثي التلمساني صاحب « البستان في ذكر العلماء والاولياء بتلمسان » وهو من علماء أوائل القرن الحادي عشر فتاريخ نزوح سكان القرية يظهرانه ، كان بعد استيلاء الاسبان على مليلية وسبتة ، بقي اتصال القرية الجزائرية بقبيلة بنى سعيد بريف المغرب متواصلا طيلة هذه القرون الاربعة ، وقد كانت للقرية أهمية في العهد التركي حيث اتخذت قاعدة لولى عهد باي وهران ، وبنى فيها الاتراك مسجدا جامعا ـ لا زال الى وقتنا هذا ـ وكانت بها محكمة رئيسية للقاضي وكان من قضاتها المتاخرين السيد ابو العباس أحمد بن الطاهر ، ذكره القاضي محمود ابن حواء في مجموع الفـــه مسلم بن عبد القادر الحميري كاتب بايات وهران توجد منه مخطوطة بالمكتبة الوطنية (بخط محمد ابن حواء المذكور نسخ سنة 1237 هـ) ٠ بالجزائر تحت رقم 893 جمع فيه محمود ابن حواء بعض القصائد لمسلم بن عبد القادر المذكور وسماه « نظم الجواهر في سلك البصائر » وعندما ذكر بعض القصائد للمؤلف المذكور وتعرض للحديث عمه شرحها قال « ومنهم الفاضل الجليل الجامع بين كل تعظيم وتبجيل ذى المكارم والمفاخر أبى العباس أحمد بن الطاهر وهو الذى شرح العينية (العينية في الغزل المتقاربة في الاصداف الدرية) وقال في موضع آخر (« وقد شرحها ـ أي العينية المذكورة ـ بعض العلماء وهو الاديب أبو العباس أحمد ابن الطاهر قاضي أرزيو سنة 1237 هـ ») والقاضي أحمد بن الطاهر هذا هو الذى أخذ عنه الامير عبد القادر في شبابه بارزيو اذ كان الامير على عادة طلبة ذلك العهد يسافر جلهم لقراءة القرآن أو العلوم بالنواحي البعيدة عن أهلهم وكان طلبة تلك النواحي يسافرون لطلب العلم وحفظ القرآن الى ناحية الغرابة ـ بين سيق وأرزيو ـ وارزيو ، بقيت هذه العادة سارية المفعول الى زماننا هذا ، رغم اندثار جل المعاهد التى كان يحفظ فيها القرآن ويدرس العلم ، كما كانت عادة سكان غريس ـ الى وقت قريب في الخمسينات ـ الانتقال الى ناحية الغرابة

(3) مسلم بن عبد القادر الحميري الزائري كان دفتر دار بايات وهران وكان معاصروه يصفونه بالوزير الاكبر ، توفي سنة 1294 هـ ٠

المذكورة حيث توجد المروج فيعزبون فيها ببقرهم وكثيرا ما يرافقهم أولادهم للالتحاق بمعاهد الناحية والامير عبد القادر قــرا فى بعض هذه المعاهد يعرف منها معهدان « أهل محمد » و « الرحامنة » لا زالا الى يومنا هذا ، وفى معهد الرحامنة لا زالــت أسرة الفقيه الذى قرأ عليه الامير القرآن وقد ذهب اليه لما كان بدمشق ، وأقام بجواره مدة ، وله معه حكايات ، وللفقيه المذكور منظومة فى السهو ، نظمها باللغة الدارجة ، لا زال احفاده يحفظونها ويتناقلونها ولد عن والد ، ثم التحق الامير بارزيو (بطيوة الحالية) فاخذ عــن قاضيها أبى العباس أحمد بــن الطاهر المتخرج مــن القرويين ، وشاءت الاقدار انه لما تولى الامير الملكة ونقض الجنرال تريزيل معاهدة دو ميشال المبرمة سنة 1834 منع الامير كل اتصال أو معاملة تجارية مع الجيش الفرنسى المرابط بوهران ، وكانت الحراسة شديدة على الطرق المؤدية لوهران وذات ليلة القى الحرس القبض على جماعة تسوق اغناما ، وجدوهم مــن أقارب القاضى أحمد بن الطاهر ، فحملوه المسؤولية (4) ونقلوه الى معسكر حيث اتهم بموالاة الفرنسيين لخبر يطــول فحكم عليه بالاعدام ونفذ فيه الحكم ، قيل ان الامير حاول ان يستبدل حكم الاعــدام بغرامة مالية ثقيلة ، الا انه نظرا للظروف الحرجة التى كانت تجتازها البلاد حينئذ ضرب المثل لــردع البقية ، وقد ذكر هذه القضية صاحب « تحفــة الزائر » كما ذكرها بمزيد من التفصيل الجنرال بواي Boyer الذى عين قــائد حامية وهران اذ ذاك وغيرهما خصوصا المؤرخين الفرنسيين (5) ·

قسم الفرنسيون بعد الاحتلال ارزيو الى قسمين القسم الاهلى الذى بنــي عــلى انقاض المدينة الاثرية وكان عليه وحده يطلق اسم ارزيو عند الجغرافيين والمؤرخين القدامى والمتاخرين الى عهد الاحتلال الفرنسى ، واعطوا اسم السكان للمكان فسموه دوار بطيوة ، والقسم الثانى الذى بنوه مسامتا للقرية الاصلية اطلقوا عليه كما ذكرنا اسمــا فرنسيا وهــو ســانلو St Leu الا ان المسلمين حافظوا على اســم ارزيو وصاروا يطلقونه على القرية ، ولم يلتفتوا الى الرسميات ، ولما اطلق الفرنسيون اسم أرزيو على المرسى صار السكان يسمونها أرزيو الجديدة والقرية الاثرية ارزيو القديمة

---

(4) كان القاضى أحمد بن الطاهر هو رئيس القبيلة وزيادة على خطة القضاء كان يصدر الحبوب الى الخارج من العهد التركى ·

(5) تعرض الامير عبد القادر فى مذكراته التى كتبها بقصر امبواز ، واكتشفت منذ سنوات قليلة الظروف التى اعدم فيها استاذه المذكور ، وهي تخالف ما ذكره المؤرخون ·

الى زماننا هذا ، اما سكان البلدتين فلا زالوا يطلقون اسـم ارزيو على قـرية بطيوة واسم المرسى على أرزيو الحالية (5) كان لم يقع أي تغيير ٠

كان لسكان بطيوة صلة مع اقاربهم بالمغرب والهجرة بين البلدين لم تنقطع ، وقد حافظ الكثير منهم على أراضيهم ومساكنهم ومصاهراتهم ، وان معظم سكان القـرية هنا يتحدثون بالبربرية خصوصا الكبار منهم الى يومنا هذا ، كما احتفظوه عـلى عوائدهم فى الولاتيم والعادات والتقاليد ، وقد تعرض لتحليل سكان هذه القـرية البطيويين كثير مـن كبار الكتـاب الفرنسيين المعتنين بالدراسات البربرية ، منهـم س٠ بيارناي S. Biarnay فى تاليفه : « دراسة لهجة بطيوة سكان أرزيو القديم » (طبع جوردان الجزائر 1911) وبربريقجير Berbrugger فى كتابه « الآثار بارزيو القديمة » بالمجلة الافريقية الجزء الخامس والسابع ثم احدثت فى الثلاثينات من القرن الجارى المسيحى ادارة خاصة للتنقيب على الآثار فى نفس المكان وكانت على رأسها الكاتبة الروسية الشهيرة فى ميدان الآثار الرومانية والفنيقية مالفا موريس فانسان Malva Maurice-Vincent وقد بدأت نتيجة عملها بنشر سلسلة مقالات فى المجلة الافريقية سنة 1935 ، وقد احدثت الكاتبة بمساعدة زوجها الطبيب الفرنسى بوهـران موريس فانسان Maurice Vincent متحفا بنفس القرية وقد كان يتردد عليها كبار الكتاب وعلماء الآثار الجامعيين من الفرنسيين والاجانب ، وبقى عملهما مستمرا الى ان استقلت البلاد ، وبقوا بها ما يقرب من سنة ، ثم تكلفت بالمحل ادارة الآثار بالجزائر هذه فقرات تتعلق بتاريخ هذه القرية ذكرناها بايجاز ٠

ولنرجع الى الحديث عن الخلاف الذى طرأ فى النطق بها ، فان الجغرافيين القدامى كالبكرى والادريسى نطقا بها ارزاو بفتـح الزاي وسكون الواو ، اما بقيـة الكتاب المسلمين فكانوا ينطقون بها ارزيو بكسر الزاي وسكون الواو ومنهم المؤرخ أبو راس الناصرى (1165 ـ 1237 هـ) فقد ذكرها فى معـرض حديثـه عـن مصيـر اللاجئين الاندلسيين الذين لجأوا الى الجزائر بعد كارثة سنة 1018 هـ ، ونزلوا بمرسى ارزيو ، كما ذكرها الامير عبد القادر فى معاهدته مع دو ميشال المؤرخة فى فيفري 1834 ، فقد اتفق فى هذه المعاهدة ان تكون مرسى ارزيو هي مقر الصادرات والواردات من الحبوب

(5) ذكر بعض المؤرخين الفرنسيين ان السكان كانوا يطلقون على أرزيو الاثـرية « أرزيو امسلم » تمييزا لها عن ارزيو الحديثة التى كان معظم سكانها أوروبيين ٠

كما ذكرها صاحب « الثغر الجمانى فى ابتسام الثغر الوهرانى » بان ابراهيم قائد جيش الباي محمد بن عثمان وصهره كان بارزيو قبل احتلال وهران سنة 1206 هـ .

وقد غير اسمها الفرنسيون فسموها بعد الاحتلال أرزو أي بضم الزاي رغم ان الكاتب دو صلان De Slane الذى ترجم « المسالك والممالك » للبكرى رسمها كما كانت فى الاصل أي ارزاو ، وقيل ان هذا التغيير طرأ على هذا الاسم بسبب تآليف القسيس الانكليزى شاو الذى أقام سنوات بالجزائر قبل الاحتلال بنحو القرن ... حافظ السكان المسلمون على النطق بها كما نطق بها كتابهم فى العهد الاسلامى كما حافظوا على تسمية القرية الاثرية ارزيو القديم ، وأخيرا تغلب اسم بطيوة عليها واهمل الاسم الفرنسى .

ولنرجع الى ذكر نبذة من تاريخ هذا البلدة كانت أرزيو أي المرسى مركزا هاما لاسطول الموحدين ثم لعبت أدوارا فى عهد دولة بنى زيان الذين اتخذوها مرسى للواردات والصادرات اللتى كان من أهمها الحبوب والمواشى والملح الذى يستخرج من معدن قريب منها حتى عرفت بمرسى بنى زيان ، وفى العهد التركى رغم قربها من وهران التى كانت تحت حكم الاسبان فانها حافظت على استقلالها ، وقد ساهم أسطولها فى الدفاع عن مستغانم التى هاجمها الكنت دالكادوت D'Alcadante والى وهران وصديق شارلكان الحميم حاول الكنت دالكادوت احتلال مستغانم مرتين ، وفى الثالثة لقى فيها حتفه (6) وخسر تسعة عشر ألف جندى نصفهم قتيل والنصف الآخر أسير ، كما امتاز سكان هذه الناحية بعدم خضوعهم للاسبان طيلة الثلاثة قرون التى بقى فيها الاسبان بمدينة وهران وامتد نفوذهم الى عدة نواحى وقد سجلت هذه البلدة فى أول عهد الاحتلال الفرنسى المعركة الخالدة التى خاضها الامير عبد القادر مع الجنرال تريزيل المشهورة فى كتب التاريخ بواقعة وادى المقطع ، (وقد اكتشفت مقبرة الشهداء منذ سنوات على حافة الوادى) ، المؤرخون الفرنسيون وعلى رأسهم الوالى العام بالجزائر متفقون ان الجنرال تريزيل هو الذى أداه غروره وطموحه الى تحدى الامير بمجرد ما عين قائدا على وهران خلفا لدو ميشال الذى أبرم المعاهدة مع الامير فى فبراير 1834 لخبر يطول ، ولما خاض أول معركة بنواحى سيق دامت ثلاثة أيام تحقق ان استخفافه بجيش الامير خلاف ما كان يتصوره

(6) مات دالكادوت فى واقعة مستغانم وفدى جثته ولده والى وهران ودفنها بكنيسة سانت دومينيك .

فاختار طريق الانسحاب الى مدينة أرزيو ، وجعل طريقه على وادى المقطع فكانت الكارثة التى خسر فيها تريزيل كل عتاده ونحو 300 قتيل ووقع الهلع فى الباقى ففروا عراة هشاة الى أرزيو والامير وراءهم الى ان وصل بهم الى أبواب المدينة ، وقد اتفق جل مؤرخى هذه الواقعة ان الامير لو أراد لدخل البلدة ولاستسلم تريزيل وبقية جنده اذ لما وصلوا منهزمين ارسلوا الى وهران ليبعثوا لهم باخرة ينتقلون عليها ورفضوا الذهاب مشاة والمسافة قصيرة ــ ولتجنب الفضحة أرسل اليهم رائد مشهور ليقنعهم فى صالح سمعة فيالقهم ، اما الجنرال تريزيل فلم يسعه الا الاعتراف بخطيئته وبغلطاته وهزيمته .

هذه صفحات من هذه الناحية التى شاءت لها الاقدار ان تصبح بين عشية وضحاها مركزا لمنطقة صناعية عالمية ، وكل ما ننتظره ، هو ان لا يتسرع بعض الجهلة الى انشاء اسماء لبعض القرى لا صلة لها بالواقع التاريخى كالقرية القريبة من هذه المنطقة التى اطلقوا عليها اسم مرسى الحجاج ، وكان الفرنسيون يطلقون عليها اسم مرسى الدجاج Port-aux-Poules ــ وهي بين وادى المقطع وبطيوة كانت من المصايف المشهورة ــ وبعد الاستقلال ارتجل بعض المسؤولين المحليين اسم الحجاج بدلا من الدجاج الا انه لم يقف عند اختياره اسما جديدا لم يعهد من قبل ، بل اراد أن يظهر معلومات جديدة فى اللغة ، فلما كانت الكلمة باللغة الفرنسية يزاد فى آخرها سين للدلالة على الجمع ، فزيد نفس الحرف ــ أي سين ــ فى آخر الكلمة العربية لنفس الدلالة اذ صيغة الجمع غير كافية فاصبحت : « مرسى الحجاجس » وقد كتبت باحرف غليظة فى مدخل القرية ورغم أنها مكتوبة بالفرنسية وبالعربية الا ان سين آخر الحجاج حير قراء العربية اما قراء الفرنسية فانهم لم يجدوا فى الكلمة ما يحيرهم

ميتافيزيقا علم الاجتماع

د· علي عيسى
أستاذ علم الاجتماع
جامعة الجزائر



من تعاريف الميتافيزيقا أو الفلسفة الاولى بالمعنى الارسطى انها بحر لا مركب لنا فيه ولا شراع · وفى علم الاجتماع آثار أو بقايا ميتافيزيقية لا ترتبط بواقع الحياة الاجتماعية اليومية بقدر ارتباطها بصورة الكون الشاملة التى هي موضوع الميتافيزيقا أو علم ما بعد الطبيعة ·

ويرى علماء الاجتماع المعاصرون أن هذه الآثار أو البقايا الميتافيزيقية العالقة بعلمهم والمتعة كرياضة عقلية هي خير ما يهدونه الى الفلاسفة للحفاظ عليها اذا شاءوا أو لزيادة امتاعهم العقلى · ومن الحقائق أن علم الاجتماع يدين بقدر كبير من النظريات الاجتماعية لفلاسفة القارة الاوروبية · ولسنا الآن فى صدد تقييم شامل لهذه النظريات الفلسفية ومعرفة مدى ما أفادت به فى تقدم العلوم الاجتماعية أو تأخرها · وانما سنختار مدرسة من مدارس علم الاجتماع الاوروبية وما أكثر هذه المدارس ـ لنحلل بعضا من الآراء التى تنادى بها · ونبادر قبل طرح هذا الموضوع

بأن نبين وجهة نظر علم الاجتماع الحديث التى ترفض فكرة المدارس وتصر بحق على أن المدارس تصلح للفلسفة ولا تصلح لعلم الاجتماع المتغير فى نظرياته واكتشافاته تبعا لتغير المجتمعات والتوسع فى الدراسات الميدانية · وتؤكد فى نفس الوقت ان تفسير الظاهرة الاجتماعية قد تتطلب نظريات عديدة من التى تنسب الى أكثر من مدرسة من هذه المدارس (ومنها المدرسة البيئية والمدرسة البيولوجية والمدرسة النفسية وغيرها) ·

وتكمن خطورة فكرة المدرسة فى علم الاجتماع الى انها تنطوى على تعصب ومذهبية ولا يعرف العلم مثل هذه الاتجاهات الضارة بتقدمه · ان المدرسة التى أتعرض لها الآن هي مدرسة علم الاجتماع الفزيائى Ecole physico sociale التى تتجاوز الفيزياء الى ما بعدها ـ والتى كادت ان تظفر بالمكان الاول بين سائر مدارس هذا العلم فى القارة الاوروبية لولا ان تقدم الدراسات الاجتماعية الميدانية أو الحقلية فى بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية حال دون نجاحها ·

لقد شاهد الربع الاخير من القرن التاسع عشر صراعا عنيفا بين المفكرين فى بريطانيا والقارة الاوروبية حول السعى للحصول على الاولوية أو المكان المتميز فى علم الاجتماع · ففى هذه المرحلة نادى تايلر فى بريطانيا بأن الظاهرة الثقافية أو الحضارية تختلف عن الظاهرة الحيوية التى نولد بها من حيث انها خارجة عن كياننا ويفرضها المجتمع علينا · وذهب دوركايم فى فرنسا الى انها شىء خارج عنا وموضوعى · وأصر ، كتليه البلجيكى على ان يسمى علم الاجتماع ، علم الطبيعة الاجتماعية أو الفيزياء الاجتماعية وألف بهذا العنوان كتابا ضخما كما ألف فى موضوع (النسق أو النظام الاجتماعى والقوانين الطبيعية التى تحكمه) ثم وضع كتابا عنوانه : الانثروبولوجيا المترية أو قياس القدرات المختلفة للانسان · وفى كتابه علم الفيزياء الاجتماعية يقرر بناء على احصاءات دقيقة جمعها من المجتمع البلجيكى ان الناس فى مجتمعه ليسوا أحرارا فى ان يتزوجوا فى أي شهر يعجبهم ولا أن يولدوا أو يموتوا كما يشاءون · هذا ما استخلصه من دراسته ، ويقرر ان الاحداث الانسانية لا تختلف عن الاحداث فى الطبيعة الجوية · فكما ان للامطار موسما ولنزول الثلوج موسما ولهبوب الرياح مواسم فكذلك لميلاد الانسان وزواجه وأمراضه ووفاته مواسم لا تخطىء · واذا كان الضغط الجوى ظاهرة طبيعية فان الضغط الاجتماعى ظاهرة طبيعية كذلك · كلنا نحسها حينما تشتد علينا التقاليد وتضغط بكل كلكلها

لترسم لنا سلوكا معينا لا نستطيع أن نحيد عنه · ولقد رأى أدولف كتليه فى الفروق بين الافراد مجرد ابتعاد أو اقتراب من الفرد الاوسط المجـرد · وهو يستخدم (الفروق) لتعنى كل أنواع الفروق بما فى ذلك الفروق العقلية والفروق فى التفاعل الاجتماعى مع المجتمع · والفرد الاوسط هنا كالمادة الوسطى فى الطبيعة · فمثلا أي قطعة من الذهب نراها ، لا تمثل الذهب الاوسط المجرد ، وانما تبتعد عنه أو تقترب منه · وهكذا الامـر بالنسبة لاية مادة نجدها فى الطبيعة · ويمضى كتليه فى شرح نظريته قائلا انك لو أذبت كمية من الملح فى الماء تقل حدة الملح أو درجة ملوحيته كلما كثرت كمية الميـاه ، وقياسا على هذا وبنفس الكيفية يبرهن على أن تداخل الاجناس والسلالات البشرية على نطاق واسع داخل المجتمع يساعد على نشر صفات خفيفة لهذه الاجناس والسلالات تزول معها اشكالها الصارخة · وبذلك تتلاشى جميع آثار التفرقة العنصرية الحـادة بين البشر · ويمضى هذا المفكر البلجيكى فى الدفاع عن نظريته الفيزيو سوسيولوجية قائلا انه لو لم يكن عند الانسان الى جانب فروقه الفردية ذبذبات واهتزازات نفسيـة ما كان يستطيع ان يسوى مواقفه مع مواقف الآخرين ولظل باستمرار فى صراع دائم مع الغير · وبنفس الطريقة الفيزيائية تفسر العلاقة بين الصديق وصديقه وبين الزوج وزوجته وأولاده بأنها انجذاب اقطاب سالبة واقطاب موجبة نحو بعضها البعض ·

ومن قبل كتلية بقرون عديدة تعرض المفكر العربى عبد الرحمن بن خلدون لنظرية فيزيائية النمط ، ولكنه لم يتوسع فيها · اذ قال ان سلطة الحكم المركزى فى الدولـة تضعف كلماً امتدت الى حدودها تماما كما تضعف الموجات الدائرية على سطح مـاء النهر او البحر الهادىء كلما اتسع نطاقها بعد القاء حجر عليه · وكـان ابن خلدون بالطبع خالى الذهن عما يخبئه المستقبل مـن استخدام الموجات الاثيرية فى الاتصال المباشر والسريع بالمقيمين على الحدود وفى الاماكن النائية داخل الدولة ·

اما كيف نشأت فكرة الاجتماع الفزيائى فهي فيما يـرى الاستاذ روبير كوطـان البلجيكى فى كتابه (مدارس علم الاجتماع) المنطقى الاسلوب ، فان ذلك كان نتيجـة حتمية لتقدم العلوم الفيزيائية ابتداء من القرن السابع عشر على أيدى علماء الطبيعة أى الفيزياء المعروفين : نيوتن ، غاليلى ، ديكارت ، ليبنتز ، باسكال ، بيكون ، بويل ، وغيرهم · وجميعهم اسهموا فى الكشف عن القوانين الاساسية المتحكمة فى المادة · وترتب على هذا أن تساءل الناس عما اذا كان فى الامكان تطبيق هذه القوانين تطبيقا

كونيا شاملا لكل ما فى الكون · ومن هنا بدأ علم الاجتماع يدخل الميتافيزيقا التى لا مركب لنا فيها ولا شراع ···

واذا كان المجتمع قائما فى الطبيعة وجزءا منه · هكذا مضى التساؤل ــ أفــلا يمكن أن يخضع الى نفس القوانين ؟ وفى هذه الحالة يكون الانسان ذرة فى المجتمع أو كائنا ميكانيكيا ــ وقد تخلى العلماء عــن التطرف فى هذه الفكرة على أساس ان الانسان يمتاز عن الآلة بأنه حر · وقصروا التطبيق على المجتمع مــن حيث هو كذلك وليس من حيث كونه مجموعة أفراد · واعتبروا الظواهر الاجتماعية ليست بالضرورة انسانية وانما هي ظواهر تثــير مشكلات تتعلق بتحولات المــادة · وفى هذا الاتجاه وضع فورونوف كتابه : أساسيات علم الاجتماع سنة 1909 ووضع هاريت مؤلفه عن الميكانيكا الاجتماعية سنة 1910 كما أخرج بارسيلو بحثه الموسوم : محاولة لتــأييد الميكانيكا الاجتماعية سنة 1925 ــ ومعنى ذلك كلــه ان الاتجاه الفيزيائى فى تفســير الظواهر الاجتماعية استمر حتى الــربع الاول مــن القــرن العشرين ولــم تساعده ميتافيزيقيته على الصمود أمام الدراسات الحقلية أو المعملية ·

ويجدر بنا أن نشير الى فرع من المدرسة الاجتماعية الفيزيائية اهتم علماؤه بمــا سموه تارة الطاقة الاجتماعية وتارة أخرى التفاعل الكيميائى · ويلخص هذا الاتجاه العالم ارنست سولفى سنة 1902 بقوله : لا يوجد فى عالم الاحياء ولا فى عالم الجمادات اية ظاهرة خالية من كمية معينة من الطاقة قابلة للقياس · ويذهب الى أن أول مظاهر الطاقة تبدو فى حلات التأكسد · وهذا التأكسد كما يراه هو السبب الاول للحيــاة · وكل المشاكل الانسانية يمكن ارجاعها الى رغبة الانسان الملحة فى البحث عن أفضل الوسائل للتأكسد · وفى رأيه أيضا ان الانسان يتغذى أو يقيم مسكنا له أو يغطى جسمه بالمــلابس استجابة للرغبة فى التأكسد ··· والمقصود بالتأكسد ليس التفاعل مــــع الاكسجين بالمعنى الاصطلاحى فى علم الكيمياء ولكن ما يرمز اليه التأكسد عنده هو التفاعل مع مادة أخرى وتحولات الى مواد جديدة · فالاغتذاء تفاعل مع الطعام يحول الانسان الى شخص صحيح الجسم قادر على العمل · وبناء المسكن الخاص يشعــر بالتملك ويحفز على العمل وارتداء ملابس معينة يعطى احساسا طبقيــا أو مهنيــا أو حرفيا يجعل الانسان شيئا آخر · ويفسر الزواج أيضا بنفس الكيفية ·

ولقد حاول علماء الاجتماع الفيزيائى الخروج من نطاق الفلسفة عبثا رغم بعض محاولات فردية كانت تظهر من وقــت لآخر لجعله علمــا تجريبيا بمعنى الكلمة مثــل

محاولات الميكانيكا الاجتماعية التى تنظر الى المجتمع على انه حقيقة قائمة بذاتها لا مجموعة أفراد – ونذكر من المحاولات المشار اليها واحدة ما يزال يقوم بها باصرار فى الولايات المتحدة الامريكية الدكتور وليم ماسترز تحت تأثير محاولات علماء بلجيكا (أنظر كتابه : التفاعلات الجنسية Reaction sexuelles paris 1965 Robert Laffont الناشر للترجمة الفرنسية ·

ولقد أتيح لنا الالتقاء بهذا الباحث فى المراحل الاولى لمحاولاته منذ أكثر من خمسة عشرة سنة وكان يحيط مشاهداته وتجاربه بالكتمان لانه بدأ بدراسة أصعب علاقة اجتماعية تستعصى على الباحثين وهي العلاقة بين الزوج والزوجة والعلاقات الجنسية بصفة عامة ولم تنجح مثل هذه البحوث حتى الآن الا فى أمريكا ·

والنظرة السليمة انه ليس لدى العلم الادلة الكافية على صحة علم الاجتماع الفزيائى واتباعه طرق العلوم التجريبية اتباعا صارما · وذلك لان موضوعه الانسان والمجتمعات الانسانية ولان الانسان ولو أن فيه جانبا ماديا كغيره من المواد الكونية الا أنه يمارس قدرا من حرية التصرف فى نفسه لا يوجد فى أية مادة أخرى · ويزودنا عالم الانثروبولوجيا الاجتماعية البريطانى بالرأي السديد الآتى : ان مناهج العلوم الطبيعية يمكن تطبيقها على الانسان فى حالات معينة – وهي كثيرة على كل حال – ولكن ليس فى كل الحالات · وقد وضع فى هذا كتابا بعنوان : (حول علم طبيعى لدراسة المجتمع) ولا يقصد منه أكثر من الدعوة لمنهج علمى طبيعى لدراسة المجتمع · وقد توصل الى بعض حتميات تشير الى ان المجتمعات الانسانية تسير فى اتجاهات معنية ولا تسير فى غيرها ·

وملخص رأي العلماء فى القارة الاوروبية (وهذه العبارة تستبعد دائما علماء الجزر البريطانية) ممثلا فى النصوص التى أوردها روبير كوطان فى كتابه (المدارس السوسيولوجية أو مدارس علم الاجتماع) انه مما لاشك فيه ان الكون يسير طبقا لخطة مرسومة · وان تحركات المواد والحياة والمجتمعات فيه تخضع للوحدة فيما بينها ولذلك يحاول العلماء ربط العلوم بعضها ببعض لتفسير هذه الخطة الكونية وبصفة خاصة ربط العلوم الاجتماعية بالعلوم الطبيعية لاحكام التعرف على الظواهر الاجتماعية والتنبؤ بما سيحدث داخل المجتمعات فى المستقبل ، على نحو التنبؤ بالظواهر

والتقلبات الطبيعية والجوية • ومع فشل هذه المحاولات التى اخذت آخر الامر طابعا ميتافيزيقيا يتجه علماء القارة الاوروبية الى عدم التخلى عن الفكرة نهائيا واعــادة الموضوع برمتــه الى حظيرة الفلسفة باســم الميتاسوسيولوجيا أو ميتافيزيقا عــلم الاجتماع ليضم الى الميتافيزيقا أو ما بعد الطبيعة واخضاع هذين العلمين الفلسفيين معا الى مبدأ كونى واحد •

مملكة سنغاي في عهد الاسيقيين

1591 ـ 1493

تأليف
د٠ عبد القادر زبادية
معهد العلوم الاجتماعية
جامعة الجزائر



كان العرب المسلمون اول أمة توغل رحالتها ومكتشفوها في مجاهل القارة الافريقية ، وتعرفوا بسكانها وأوصلوا اليهم كل جديد في ميدان الحضارة الانسانية ، وذلك منذ القرن السابع للميلاد ، وحتى نهاية القرن السابع عشر ظل الاوروبيون يجهلون كل شيء تقريبا عن داخل افريقيا ، باستثناء ما كانت تتيحه لهم كتابات الرحالة والجغرافيين العرب ٠ وقد أطلق العرب على افريقيا الشرقية اسم (بلاد الزنج) في حين أطلقوا على المناطق الغربية المحاذية لبلدان المغرب اسم (السودان) ، وكثيرا ما كانوا يستعملون هذا الاصطلاح في صيغة الجمع مراعين في ذلك اتساع المنطقة وتعدد قبائلها ، فيقولون (السوادين) (1) ٠

ولما احتل الاوروبيون السودان الغربي وبلدان المغرب جميعها ، كادت تنقطع مجالات الاتصال بين الطرفين في شكلها المثمر الذى كانت عليه في القديم ٠ ولم يكتف المستعمرون بالعمل على قطع تلك الصلة ، وانما راحوا يحاولون المس بالحقائق

(1) ينظر مدخل الكتاب كما أثبته المؤلف ٠

التاريخية ذاتها ، فذهب الكثيرون من كتابهم الى التركيز على أن العرب بصورة عامة والمغاربة من بينهم بشكل خاص ، لم يكونوا الا تجارا للعبيد ومستغلين لشعوب السودان الغربى • وكما هي العادة فى كل بلد يصير مآله الى التحكم المباشر له من طرف الاجانب ، فقد نشأت طبقة من بين السودانيين أنفسهم تدعو الى ما يدعو اليه غلاة الاستعمار من اعتبار حقبة الحضارة الاسلامية بالسودان الغربى فترة عارضة ، أما الاساس الذى يجب أن يعتنى به ، فهو عهد البدائية السابق للاسلام وأعمال (التحضر) التى أدخلها المستعمرون منذ نهاية القرن التاسع عشر • وهذا هو أساس فكرة الزنجية التى تدعو اليها ، وتعمل على تعميقها واكسائها ثوبا فلسفيا بعض الفئات السودانية المتخرجة من المدارس الفرنسية ، ومن ورائهم جمع كبير من فلاسفة ومفكري الاستعمار الغربى فى عالم اليوم • والهدف واضح من وراء عمل الطرفين ، وهو يتلخص فى طمس الدور الهام للمسلمين والحضارة الاسلامية بالمنطقة • ولما استردت الجزائر شخصيتها وملكت مصيرها بنفسها ، كان من واجب الباحثين الجزائريين والمغاربة بصورة عامة أن يلقوا الاضواء على الدور الجليل للحضارة العربية وللمغاربة منذ القديم فى ربط الاتصال مع جيرانهم فى جنوب الصحراء والتعامل معهم لما فيه فائدة الجميع •

وقد كان من أبرز آثار الحضارة العربية فى السودان الغربى ، هو مساعدة السكان على تخطى الشكل القبلى القديم ، وتأسيس ممالك لها صبغة وطنية ، وكانت امارة سنغاي التى تأسست منذ القرن الثامن للميلاد ، من أهم الامارات التى ظهرت فى غرب السودان ، وقد قيض لها فى القرن السادس عشر أن تصبح امبراطورية كبيرة ضمت تحت لوائها معظم شعوب غرب السودان ، وقد مثل عهدها هذا أوج ازدهار الحضارة الاسلامية فى الغرب الافريقى • وقد كان هذا هو الموضوع الذى اخترته لهذا البحث •

وتعود بداية اهتمامى بالبحث فى تاريخ افريقيا الى وقت تخرجى من جامعة بغداد سنة 1961 • أما الحوافز فمصدرها عدة اعتبارات ، يتمثل الاعتبار الاول منها فى أن هناك حركة دائبة حاليا فى مختلف الجامعات العالمية ، لتقصى التاريخ الافريقى واستجلائه ، ولعل فى هذا ما يجعل مساهمة الاوساط الجامعية لدينا على درجة كبيرة من الاهمية ، خاصة وأن جامعة الجزائر توجد على أرض افريقية لا يبخل شعبها بشىء فى سبيل خدمة شعوب القارة الافريقية والمساهمة فى نهضتها • ومن هنا فان انشاء كرسى للدراسات الافريقية فى جامعتنا أمر تتطلبه المعطيات التاريخية

وحاجة التعاون الجزائرى – الافريقى فى الظروف الراهنة والمستقبل ·

ويتمثل الاعتبار الآخر فى اعتقادى بأن من واجب الجامعة الجزائرية أن تساهم فى فرع مهم من النشاط الذى يتوالى الاهتمام به حاليا فى جامعات العالم ، وذلك مما يجعل منها عنصرا ايجابيا بين تلك الجامعات ، ويساعدها على التبادل والحركة ·

واذا اجتزنا اعتبارات الحاضر ، فان الحوافز الاخرى لاهتمامى بأبحاث التاريخ الافريقى ، يتجسم قسم منها فى أن العرب فى ابان ازدهار حضارتهم ، هم الذين جابوا القارة الافريقية وكتبوا عنها ، وساهموا ما أمكنهم فى نهضة عدد كبير من الشعوب الافريقية وتحضرها ، والباحثون اليوم يكادون لا يجدون من الوثائق الهامة عن التاريخ الافريقى غير الكتابات العربية · أما القسم الآخر من تلك الاعتبارات فيتمثل قبل كل شىء فى أن سكان المغرب العربى هم الذين أوصلوا الاسلام الى غرب افريقيا ، وكان لهم النصيب الاوفر فى التبادل التجارى والتعامل الثقافى مع سكانه ·

ولا أزعم أن بحثى فى موضوع سنغاي على عهد الاسيقيين ، يؤدى أكثر من مجرد المساهمة فى الدخول بأبحاث التاريخ الافريقى الى مرحلة الشروع فى محاولات التعمق الكفيل باخصاب ميدانها ، فان جاء عملى يتناسب وهذا الحد ، فذاك هو هدفى منذ البداية ·

ولعله من الواجب على أن أقر هنا ، بأن كثيرا من الصعاب اعترضت سبيلى ، ويتمثل قسم منها فى التعارض بين بعض الحقائق التى تزخر بها المصادر الاساسية ، وبين عدد من الآراء التى احتوتها المراجع الحديثة ، التى يبدو أن مؤلفيها غالبا يستوحون مبادىء ونظريات يظهر أنهم كانوا قد اعتنقوها مسبقا ، وتأثروا فيها ببعض الفلسفات السياسية المعاصرة لهم ، سواء فى افريقيا أو من خارج افريقيا ، وهذا مما يجعل مهمة الباحث النزيه عويصة فى التأكد من الصحيح ونبذ غيره ·

وقسم من تلك الصعاب يتمثل فى أن الموضوع لم يكن قد طرق فى السابق من طرف المختصين الا بشكل عارض ، حيث ان أوسع الحالات التى عولج فيها كان كسرد سياسى لتاريخ سنغاي العام من حدود القرن السابع قبل الميلاد حتى القرن السابع عشر الميلادى ، وفى الغالب حصل ذلك من طرف أشخاص هواة للتاريخ وليسوا مؤرخين ، وهذا كله مما يجعل تجسيم كل ما يتعلق به فى شكل مستقل وقائم بذاته ، يتطلب المضاعف من الجهود والكثير من الاحتراز والتحري والاستقصاء ·

والثابت أن الجانب السياسى الذى يعنى بحياة العترة الملكية فى سنغاي ، سواء فى عهد الاسقيين أو قبلهم ، قد طـرق معظمه ، امـا من طـرف المؤرخين القدماء أو الحديثين • أما الجوانب الاجتماعية والثقافية والاقتصادية ، التى تبين وضعية سكان المملكة ككل ، فلم تطرق من طرف المؤرخين المحدثين الا لما ما ، ولكن الاشارات اليها ، لا تعوز الباحث ان هو دقـق النظـر فى مختلف المؤلفات القديمة وأحاط بها ، وهذه الجوانب المغفلة هي التى اعتنى بها بحثى الحالى ، وسعى الى استجلائها وتجسيمها • وان كنت لا أعد هذا الا جزأ من مهمة كل الباحثين ، فانى لا أريد أن أغفل ذكر الصعوبة التى اقتضاها منى استنطاق النصوص ، والاشارات ومقارنتها وتحليلها •

والواقع ان الابحاث فى موضوع التاريخ الافريقى قد تكاثرت منذ بداية الخمسينات من هذا القرن ، ولكنها فى معظمها لم تفتأ تعنى بـ (العموميات) ان صح التعبير ، ولم تكد تتجاوزها الى الابحاث الجزئية المتخصصة الا فى النادر اليسير ، وفى معظـم الحالات التى ظهرت فيها بعض الابحاث من هذا النوع الاخير ، انما غلبت عليها النزعة الى سـد الحاجة التى اقتضاها ظهـور الدول المستقلة فى افـريقيا خـلال السنوات الاخيرة ، ومن ثم فقد جاءت المؤلفات فى هذه الناحية ذات صبغة وطنية وعملية أكثر منها أكاديمية صرفة ، واعتمدت على الحكايات الشعبية والمصادر الغير مؤكدة أكثر من اعتمادها على الحقائق لذاتها •

وهناك قسم آخر منها كتبه أشخاص ربما كان همهم البحث لذاتـه ، ولكنهم فى الواقع ، كثيرا ما تحكمت فى توجيههم مآرب أو مبـادىء سياسية معينـة ، فجاءت أبحاثهم فى حالات عديدة ، لا تقنع الباحث النزيه ، ولا يستطيع ان يتغافل عما يلاحظه عليها مـن المآخذ (2) •

ان البحث فى صبغته الحالية ربما يكون الاول فى موضوعه ، وقد انطلقت فيـه من اعتبار أن الابحاث العامة فى التاريخ الافريقى ، قد توفرت بشكل أصبح فى الامكان معه القيام بالابحاث الجزئية المتخصصة في عدة نواحى منه ، وموضوع أيام الاسيقيين

---

(2) مـن أوضـح الامثلـة فى هذا الميدان ، كتـاب تـاريخ افـريقيا لبييركورنوفان فبالرغم من أن الكتاب أطروحة جامعية ، الا أن المؤلف يتعمد طمس معالم الحضارة العربية ودورها فى افريقيا ، كما يعمد الى التشويه ، وافتعال عصور (مسيحية) فى افريقيا جنوب الصحراء ومجتمعات متأثرة بأوروبا ، وهذا كله قبل القرن 16 •

فى سنغاي هي محاولة من هذا النوع ، وان كنت لا أستطيع تقييم مدى الاهمية التى تمثلها هذه المحاولة ، فانى أريد أن أؤكد اقتناعى بأن الابحاث الجزئية المفصلة هي وحدها الكفيلة باغناء موضوع التاريخ الافريقى وتوسيع ميدانه ٠

أما النتيجة العامة التى انتهيت اليها فيمكن ايجازها فى أن سكان السودان الغربى قد أخذوا بالحضارة الاسلامية فى الوقت الذى أصبحت تسير فيه الى ضعف فى مواطنها الاولى الاصلية ، ويعتبر عهد الاسيقيين فى سنغاي أزهى عصور انتشار الثقافة العربية ــ الاسلامية ، فى السودان الغربى كله ، كما يمثل الفترة التى بلغ فيها ازدهار التبادل بين سكان السودان الغربى والعالم الخارجى أوجه ٠ وقد كانت مملكة سنغاي فى القرن السادس عشر أقوى الممالك الاسلامية فى المنطقة ، وبمثل ما يمكن اعتبار القرن العاشر هو عصر مملكة غانا فى السودان الغربى ، والقرن الرابع عشر هو عصر مملكة مالى ، فانه يمكن اعتبار القرن السادس عشر هو عصر سنغاي ٠

وقد كان المنهج الذى سرت عليه فى الكتابة هو عرض الحقائق لذاتها بعد تمحيصها بقدر الامكان ٠ وكان مما أدانى هذا اليه هو أن أهمل جميع المعلومات التى لا تؤيدها النصوص الاصلية أو الابحاث المستندة الى الحفريات أو الآثار المادية الملموسة وذلك دون أن أهمل الدلالة الاجتماعية كما كانت تقتضيها روح العصور ٠

وعلى هذا الاساس انتهيت مثلا الى ان الوظيفة الادارية كانت امتيازا طبقيا فى سنغاي الاسيقية ، كما أن مناصب القضاء والامامة التى كانت فى ظاهرها عملا دينيا واصلاحيا ، انما كانت تمثل امتيازا طبقيا أيضا ، وأن الوظيفة الدينية فى البلاد بالرغم مما كانت تظهر فيه من ثوب اصلاحى ، الا أنها لم تسلم من الوقوع فى خدمة الطبقية وامتيازاتها فى البلاد ، وتتجسم امامنا حقيقة ذلك فى أن الملوك كانوا شديدى الحرص على انتظام الوظائف الدينية وقبول نصائح أو استنكارات الائمة والقضاة حتى أمام العامة ، ولكنهم فى نفس الوقت الذى كانوا فيه يسعون جاهدين ، لنيل رضى رجال الدين والعلماء ، فانهم كثيرا ما كانوا يأتون فى سلوكهم الفردى من الاعمال ما لا يتناسب ومفاهيم الدين ٠

وفى هذا المضمار وجدت أن وصول الدين الاسلامى والعرب قد أديا للمنطقة التى حكمها الاسيقيون فوائد حضارية لا يمكن انكارها ٠ واذا كان بعض المؤرخين الحديثين يذهبون الى انكار الدور الحضارى للعرب فى السودان الغربى ، وتفسير كل فعالياتهم

فى المنطقة على أساس استغلالى فقد تـأكد لى أن هذا الـزعم لا يمثل الحقيقة بكـل جـوانبهـا (3) ٠

ومن ناحية أخرى فقد حاولت توسيع مضمون البحث حتى يعطى صورة شبـه متكاملة عن المملكة فى عهد الاسيقيين من جوانب عديدة ، وعلى هذا الاساس أدرجت فيه موضوعات يمكن أن تعتبر مبدئيا من مشمولات الجغرافيا البشرية مثل الزراعة والصناعة والحيوانات الموجودة آنذاك ، وطريقة الاستفادة فيها وأثر تلك الاستفادة فى حيـاه السكان ٠ ولكنى بحثت هذه الجوانب من ناحية اتصالها بحيـاة السكـان ونشاطهم ، فـلم تعـد نابية عن مشمولات التاريخ فى البحث ، وانما أصبحت جـزء هاما منهـا ٠

وقـد أعطيت للجوانب الحضارية والاقتصادية فى البحث الاهميـة التى أوليتها للجوانب السياسية ، وتطلب مني هذا أن أسلك فى الكتابة أسلوبا تحليليا ، حاولـت فيه أن لا أقتصر على مجرد الوقوف عند حدود سرد الوقائع التاريخية ، وانما سعيت الى العمل على تحليلها وتعليل دوافعها ونتائجها بقدر الامكان ٠

وقد حاولت أن أكتب عن شرائح السكان ، كما كتبت على الرؤساء والامراء ، وما ذلك الا لاعتقادى بأن الطريقة القديمة فى التاريخ ، قد أهمل أصحابها الجوانب الاكثر أهمية فى التاريخ ، وما أهملوه هو ما يبين وضعية السكان على كل مستوياتهم ٠ وعلى هذا الاساس تضمن البحث صورا عن تقاليد الحياة الاجتماعية ومعيشة السكان ككل ، فيما يخص الملبس ومستوى المعيشة والمسكن ، كما جسم صوراً عن حياتهم اليوميـة وطرق التعامل فيما بينهم ٠ وقد صادفتنى فى سبيل تضمين هذه الافكار فى البحـث صعوبات عديدة ، لان المصادر الاساسية كانت تعنى بحياة الرؤساء وسيرهم ، دون أن تابه لغيرهم الا فى اليسير النادر ، ولكن الباحث رغـم ذلك يستطيع أن يصـل الى بعض النتائج الهامة اذا جمع الى استكناه اشارات المؤرخين القدماء توسيع مجـال المقارنة وتتبع مدلول الوثائق الفقهية وغيرها ٠ وقد أفادتنى هذه الطريقة فى الاهتداء الى بعض ما أغفل المؤرخون الاستفادة منه كما يجب ، مثـل الاسئلة التى كـان قـد

(3) من أبرز السائرين فى هذا الاتجاه دعاة الزنجية Négritude ويترعمهم فى ميدان التاريخ حاليا المؤرخ السنغالى أنتاديوب ، ومن أبرز مؤلفاته l'Afrique Noire Précoloniale ويتجمع حوله مجموعة من الباحثين فى هذا الاتجاه ، منهم نسبة هامة من الفرنسيين ، كانوا يعملون ضمن معهد IFAN للدراسات التاريخية فى السنغال ٠

وجهها الاسقيا محمد الكبير الى الامـام عبد الكـريم المغيلى ، واجابات هذا الاخير عليها ، وموضوعها الحياة الاجتماعية ، كما كانت عليه فى أيام الاسقيا الكبير ، ثم جاءت أجوبة المغيلى عليها لتزيدها توضيحا وشرحا (4) ٠

ولم اقتصر فيما كتبته عن تتبع الوضعية الداخلية وحدها ، وانما أفردت للعلاقات الخارجية والتجارة الخارجية فصلين ، حاولت فيهما أن أبرز صورة عن التاثر والتاثير كما حصلت عن طريق التجارة والاتصالات الخارجية على أيام الاسيقيين فى سنغاي ، وقد وجدت أن كثيرا من التجاوز قد ارتكب من قبل بعض المؤرخين ، فيما يتعلق بالاتصال الخارجى وأثره فى المملكة ، اذ من المعلوم أن ذلك الاتصال كان يحصل بالدرجة الاولى مع بلدان المغرب ومصر ، والمؤرخون الاوروبيون الا اقلهم وبعض السؤدانيين المحدثين أيضا كتبوا عن هذا الاتصال بين سكان السودان الغربى والشمال الأفريقى متأثرين بدوافع خاصة على ما يبدو ، فأهملوا الاسلوب الرزين فى بعض ما ذهبوا اليه ((5) ٠

ولقد كانت الحملة المغربية على سنغاي سنة 1591 تمثل كارثة حلت بالبلاد ، وكان لهذه الكارثة دوافعها لدى المنصور الذهبى ، كما كان فى الاوضاع الداخلية بالبـلاد آنذاك ما سهل أمام تلك الحملة ظروف النجاح ، فلم أغفل هذين الجانبين معا فيما كتبته عن حملة المنصور وظروفها ٠

وقد كان عهد الاسيقيين فى سنغاي ، تتمثل فيه المرحلة التى بلغ فيها انتشار الاسلام واستقراره بالمنطقة عصره الذهبى كما يقولون ، فحاولت أن تتجسم فى البحث الصورة الحقيقية لاوضاع السودان الغربى فى هذه الناحية ، وهذا ما بينته فيما كتبته عـن الثقافة والتعليم ومراكز الثقافة آنذاك ٠

---

(4) لحسن الحـظ ، فـان هذا المخطوط استطعت العثـور على نسختـين منـه ، وبمقارنتهما ، فـانى آمـل أن أقـدمه قـريبا للنشـر ، ثـم أخـيرا طبـع هـذا المخطـوط لـدى (ش٠ و٠ ط٠ ن٠ ـ الجـزائـر 1974) بتـحقـيق وتقديم الدكتور عبد القـادر زبادية ، ولـي اليقـين بأن ذلـك سيسـاهم فى تسهـيل مهمة الباحثين فى مجال العلاقات المغربية السودانية فى الميدان الثقافى ، الى جانب ما يحتويه من معلومات عن الحياة الاجتماعية فى السودان الغربى خلال القرن 16 ٠

(5) معظم الباحثين الفرنسيين ساروا فى اتجـاه لا تبدو عليه الرزانـة باستثناء أبحاث الاستاذ R. Money وعلى العكـس مـن ذلك يبـدو على دراسات الباحثين الانكليز مثل الاستاذ Fage والاستاذ A. Smith النزاهة العلمية ، وربما يعـود الفـرق بين الطآئفتين ، للعـلاقة الخاصة للفرنسيين بمعظم شعوب افريقيا الغـربية ومحاولتهم تكييفها وطبعها بطابع له علاقة بالحاضر ٠

وقد وجدت أن السكان بعد انتشار مبادىء الاسلام بينهم وأخذهم بها بقوا محافظين على جانب هام من تقاليدهم القديمة ، وأبرز ما يتمثل لنا ذلك فى موضوع الفنـــون ، وكذلك تقاليد الجيش فبالرغم من أن جيش سنغاي كان أكبر جيش فى المنطقة خـلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، الا أن أساليبه فى التعبئة والتسلح ظلـــت عتيقة حتى القضاء على المملكة ، فى سنة 1591 (6) ٠

ولقد كانت ظروف الحياة التى ربما حتمتها طبيعة الاقليم فى أغلب نواحى البلاد ، قد جعلت مناطق الاستقرار الكبرى حـول النيجـر وروافده ، أو عند ملتقى القـوافل التجارية ، هي التى قـام سكانها بنصيب أوفـر فى المبادرات الحضارية ، وهذا مـا حاولت أن أبرز صورة عنه فى الفصل الذى خصصته للحديث عن مراكز الحضارة ٠

وقد وجدت لدى بعض المؤرخين انحرافا عن الواقع أحيانا ، ولعل أبرز ما يظهر لنا ذلك الانحراف فى ربط طراز الهندسة المعمارية فى السودان الغربى بأوروبا (7) ، وفى هذا ما ينفى عن سكان المنطقة كل طابع للاصالة ، كما أن فيه ما يخالف الحقيقة المتمثلة فى ان التأثر الاول فى هذا الجانب ، قد كان مبعثه بلاد النوبة قبل غيرها ، ثم تلاه التاثير الذى انبعث من بلدان المغرب ومصر ٠

وفى جميع فصول البحث حاولت أن أنتهى الى استنتاجات تجسم اقتناعى بمـــا وصلت اليه فى موضوع كل منها ٠

ثم أنهيت البحث بخاتمة عـامة أبرزت فيها الاتجاهات التى ســـار عليها بعض المؤرخين الذين اشتهروا بكتاباتهم فى موضوع تاريخ افريقيا الغربية ، والافكار التى جاءوا بها فى موضوع سنغاي بالذات ، ثم ضمنتها أخيرا النتائج التى توصلت اليها فى موضوع البحث كـكل ٠

وعلى العموم فقد حاولت الاحاطة بتطور المملكـة ونظمها فى الفترة بـين 1493 و 1591 ، ما أمكننى وهذا بعد أن خصصت فصلا فى البداية أوجزت فيه أهم الوقائع عن تطور المنطقة قبل 1493 وذلك حتى يكون مضمون البحث واضحة معالمـه السابقـة للدراس ، ورغم هذا كله ، فانه لا يمكن القول بأن كل شيء عن سنغاي فى عهد الاسيقيين قد احتواه البحث حتى فى خصوص المواضيع التى تطرقت اليها ٠ وانما يمكن القول

(6) من الثابت أن جيش مملكة البورنو كان قد اقتنى الاسلحة النارية ، فى حـين لم يفعل ذلك جيش سنغاي ، وهذا ما سهل على حملة المنصور مهمتها ٠

(7) من أبرز من ساروا فى هذا الاتجاه المجانب للحقيقة المؤرخون المتشبعون بفكرة الزنجية وفى مقدمتهم Anta Diop.

بأن كل فصل فيه ، قد اشتمل على جانب هام من الحقائق المتعلقة به ، ومن ثم فانه لا يزال امام الباحثين بذل الكثير من الجهود الخلاقة · وان الدافع على هذا القول ، هو اعتقادى بأن موضوعا حينما يطرق لاول مرة ، على أساس أكاديمى صرف لا يمكن ان يبلغ من التعمق الدرجة الكافية ، مهما كانت الجهود التى بذلت فى تحضيره · ورغم ذلك فانى أريد أن أسجل اقتناعى بأنه من الآن فصاعدا ، لا يبدو أن مهمة الباحث فى هذا الموضوع يمكن أن تقتصر على تحرى الحقائق وجمع المعلومات من المراجع والمصادر المعروفة فقط ، اذا ما أريد لهذه المهمة أن تسفر عن جديد بمعنى الكلمة ، وانما يمكن لها أن تأتى بجديد فعلا ، اذا انصرفت الى ميدان البحث الاثرى ، اذ الواقع أن كثيرا من المعالم الاثرية فى المنطقة التى قامت فيها المملكة لا تزال تحتاج الى جهود من المختصين ، ونعتقد أن عملا من هذا النوع ، اذا تصدى له باحثون مجدون فانهم سيصلون الى نتائج يحمدون عليها بدون شك ·

واذا كانت جهودى لم تمكنى باكثر مما احتوته صفحات الرسالة فكل ما أرجوه هو أن تكون محاولتى الاولية هذه ، بمثابة لبنة صغيرة يمكن للباحثين أن يستندوا عليها لينطلقوا الى مجالات أرحب وأعمق ، تفيد أبحاث التاريخ الانسانى فى منطقة لا يزال تاريخها فى حاجة ما سة حقا الى جهود الباحثين النزهين ·

واخيرا فانى أريد أن الفت الانتباه فى هذه المناسبة ، الى مدى الحاجة التى يقتضيها واقعنا التاريخى والجغرافى فى الماضى والحاضر ، فأدعو لتأسيس معهد للدراسات الافريقية ببلادنا ، ففى كل من القاهرة وروما ولشبونة ولندن ، توجد معاهد من هذا النوع ، وتوجد فى بلدان أخرى مؤسسات مشابهة ، وكلها تقوم بنشاط اثبتت جميع الوقائع فائدته ، سواء لتلك البلدان أو لفائدة تمتين وتوسيع العلاقات التى تربطها ببلدان افريقيا النامية ، وليس هنا مجال الاطناب فى ذكر الفوائد التى تنجم عن انشاء مثل هذا المعهد ببلادنا ، اذ يكفى أن نجمل ذلكفيما هو معروف للجميع من أن الجزائر لا تبخل بشىء فى خدمة القارة الافريقية ككل ، والمساهمة فى ترقيتها وتحريرها ومن ثم فهي معنية مباشرة بالمبادرة الى تأسيس معهد للدراسات الافريقية ببلادها ، ولي اليقين مسبقا ، فى أن ذلك المعهد اذا ما أسس ، فستتمخض عن تأسيسه نتائج ايجابية ، وسيلمس الجميع فوائده العديدة فى كثير من المجالات ·

العــرف وأثــره عــلى التشريـــع في الفقــه الاســلامى

محمد سعود المعيني
معهد اللغة والادب العربى
جامعة قسنطينة



مقـدمـة :

ان المصادر التى تستقى منها الاحكام الفقهية ، ترجع الى ما جاء عن طريق الوحي أصلا أو تبعا ، فالقرآن من عند الله بلفظه ومعناه ، والسنة هي اخبار الرسول صلى الله عليه وسلم ، عن حكم الله تعالى ، لانه لا ينطق عن الهوى ، والاجماع يرجع تبعا الى ذينك المصدرين ، فلابد له من سند شرعى من القرآن والسنة ·

وما عدا ذلك مجرد امارات ترشد العقل الى استنباط الحكم الشرعى ·

وبناء على ذلك تكون المصادر كالآتى :

I ـ المصادر الاصلية ، وهـي :

I ـ القرآن الكريم : وهو الكتاب المنزل على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، لفظا ومعنى ، المكتوب فى المصحف ، المنقول الينا متواترا ، باللسان العربى ·

ولاخلاف أن القرآن حجة على الجميع ، وهو المصدر الرئيسى للشريعة الاسلامية وهو يفيد القطع من حيث الثبوت ، ويجب العمل به ، ولا يعدل عنه لغيره ·

أما من حيث دلالته على الاحكام ، فـانه يكون قطعيا ، اذا كان اللفـظ لا يحتمل التأويل ، ويكون ظنيا اذا كان يحتمل التأويل ·

وقد اشتمـل القرآن على أحكـام كثيرة ، يمكن حصرها بثـلاثة أقسام ، هـي : العبادات ، والاخلاق ، والمعاملات ·

2 ـ السنة النبوية : وهي ما أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، مـن قـول ، أو فعـل ، أو تقـرير ·

وهي الدليل الثانى بعد القرآن . وهي واجبة الاتباع عند الجميع · ودلالة السنة على الاحكام قطعية ، اذا كان اللفظ لا يحتمل التأويل ، ومقطوع بثبوته عـن الرسول صلى الله عليه وسلم · والا فانه يكون ظنيا من ناحية الدلالة ، أو الثبوت ، أو هما معا .

والسنة تبين مجمل القرآن ، وتقيد مطلقه ، أو تخصص عامه ، أو تضيف حكمـا جديدا ، أو تعاضد ما ورد فى القرآن ·

والسنة أنواع ، المتواترة ، والمشهورة ، وسنة الآحاد ·

2 ـ المصادر التبعية النقلية : وهي التى اعتبرها الشارع دليلا مرشدا يهتدى به المجتهدون للتعرف على حكم الله تعالى ، وهي :

1 ـ الاجماع : وهو اتفاق المجتهدين من الامة الاسلامية فى عصر من العصور على حكم شرعى بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، فاذا انعقد الاجماع الشرعى ، كان دليلا قاطعا ، وحجة ملزمة للمسلمين ، لا يجوز الخروج عليه ، وهو على قسمين :

صريح : وهو ما صرح به المجتهدون ·

وسكوتى : وهو أن يبدى المجتهد رأيا فى مسألة ثم يسكت الجميع عنها ، دونما مـانع من ابداء الرأي ·

2 ـ شرع من قبلنا : وهي الاحكام التى شرعها الله تعالى لمن سبقنا من الامم ، وذكرت فى الكتاب والسنة ، فما قام الدليل بنسخه فهو منسوخ فى حقنا ، وما قـام الدليل باعتباره فهو حجة ملزمة ·

3 ـ قول الصحابى : والصحابى الذى نبحث فى حجية قوله ، هو من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وغزا معه ، واشتهر بالفقه والتقوى وتوافرت لديه الملكة الفقهية

وقول الصحابى لا يلزم صحابيا آخر · أما بالنسبة لغيرهم ، فهو اذا لم يعارض كان حجة ملزمة · اما اذا كان مختلفا فيه ، فلا يترك ، وانما يتخير فيه ، ويقدم على القياس ·

4 ـ العرف : وهو الموضوع الذى ساتكلم عنه بالتفصيل فى موضعه ·

3 ـ المصادر التبعية العقلية ، وهي :

1 ـ القياس : وهو الحاق امر لا نص فيه ولا اجماع ، بأمر منصوص على حكمه ، أو مجمع عليه لاشتراكهما فى نفس العلة التى شرع الحكم من أجلها ، فالمراد من القياس هو اظهار الحكم ، لا انشاء الحكم والقياس مرجعه الكتاب والسنة ، وما هو الا الغوص فى أحكامهما ·

2 ـ الاستحسان : وهو العدول عن قياس وضحت علته الى قياس خفيت علته ، أو الى دليل آخر ·

أو عدول المجتهد عن حكم كلي ، الى حكم استثنائى لدليل رجح لديه هذا العدول ، وقد يكون الاستحسان مستندا الى نص أو اجماع ، أو عرف ، أو مصلحة ·

2 ـ المصلحة المرسلة : وهي جلب المنفعة ، ودفع المضرة ويشترط فيها أن تكون حقيقة عامة ، وأن لا تتعارض مع نص شرعي ثابت ·

4 ـ سد الذرائع : والذرائع هي الوسائل التى تؤدى الى الحرام · فاذا كانت الوسيلة مفضية الى ما هو محرم حتما ، كانت محرمة منعا لمنابع الفساد ·

3 ـ الاستصحاب : وهو عبارة عن ابقاء الحكم الثابت فى الماضى على ما كان عليه واعتباره موجودا مستمرا الى أن يوجد غيره أو يرفعه ، وهو آخر مدار الفتوى .

وهذه الادلة لا تنشىء حكما جديدا ، بل تكشف عن الحكم الشرعى ·

العرف

تعريفه :

العرف فى اللغة ضد النكر · يقال أولاه عرفا ، أي معروفا ، والعرف أيضا : الاسم من الاعتراف ، وقد يطلق على عرف الفرس (1) ، وهو الشعر على محدب رقبة الفرس ·

---

(1) مختار الصحاح مادة عرف ·

وقد يطلق ويراد به الامور الحسنة • قال الحطيئة :

مـن يفعـل الخـير لا يعـدم جوازيه   لا يذهب العرف بين اللـه والنـاس

ويطلق على عرف الديك (2) ـ وهو اللحمة المستطيلة فى أعلى رأس الديك •

وهو من مادة عرف (بكسر الراء) •

ومن هذا يفهم أنه المشهور الذى لا يخفى •

اما فى الاصطلاح ، فقد ذكرت له تعريفات كثيرة أهمها :

1 ـ هو ما استقر فى النفوس من جهة العقول ، وتلقته الطبائع السليمة بالقبول (3).

2 ـ هو ما ألفه المجتمع واعتاده وسار عليه فى حياته ، من قول ، أو فعل (4) •

3 ـ هو عادة جمهور قوم فى قول أو فعل (5) •

4 ـ العرف ما تعارفه الناس وساروا عليه من قول أو فعل أو ترك (6) •

والمتأمل فى هذه التعريفات ، يجد أن الاتفاق يكاد يكون موجودا بينها على القدر المشترك ، وهو الاعتياد من قبل قوم ، ثم الظهور والتعارف ، بحيث يفهم بالتعامل ، أو التكلم ، أو الادراك •

ويعتبر التعريف الثالث من خير التعريفات لو أنه وضع مكان كلمة (عادة) ما تعارفه ، وذلك لان العادة جنس اعم تندرج تحتها أنواع من بينها العرف ، ثم كلمة عرف أقرب للمعنى اللغوى من كلمة عادة ، حيث أنها مأخوذة من العود ، والمعاودة بمعنى التكرار •

نسبة العرف للعادة

ان نسبة العرف للعادة هي نسبة العموم والخصوص والمطلق ، فكل عرف عادة ، وليس كل عادة عرفا •

---

(2) المنجد مادة عرف
(3) أنظر رسائل بن عابدين ص 42
(4) الوجيز فى أصول الفقه زيدان ص 240
(5) الفقه الاسلامى فى ثوبه الجديد ص 557
(6) أصول الفقه خلاف ص 99

فالعادة جنس أعـم ، تشمل العادات الشخصية الفردية كزيارة المريض مثـلا ، أو التمرين الرياضى بعد النهوض من النوم مبكرا · وقد تكون العادة مشتركة ، الا أنها لم تبلغ حد التعارف للعمل بها · ومثال ذلك خروج القاضى من محله الى بيـت أهل الزوجة ، لاجراء تسجيل العقد بعد دفع الرسوم المطلوبة ·

وقد تكون العادة قهرية تشمل جميع الناس ، الا أنها ليست عـرفا لخلوها عـن عنصرين مكوننين للعرف ، هما العقل ، والاختيار ، وذلك مثل البلوغ على اختلاف البيئات والحيض ، وغير ذلك مما لا يدخل تحت تفكر الانسان واختياره ·

وقد تكون العادة عرفا ، وهو ما نتكلم عنه ·

فالعرف اذا هو ما تعارفه جمهور قوم ، من قول أو فعل ، أو ترك · ومعنى هذا أنه متفكر به مع الاختيار ثم الفته الطباع السليمة ·

العـــرف والاجمـــاع

من تعريف العرف يتضـح أنـه يخالف الاجماع لغـــة واصطلاحا وموضوعا · فالاجماع فى اللغة العزم · وفى الاصطلاح : هو اتفاق مجتهدى أمة محمد صلى الله عليه وسلم بعد وفاته فى عصر من العصور على أمر شرعى دينى ، ولا عبرة بما تعارفه جمهـور النـاس ·

اما العرف ، وهو ما تعارفه جمهور قوم ··· دون النظر الى أنه حكم للشارع ، وهذه هي نقطة افتراقه عن الاجماع والتقائه مع المصلحة التى حملت اليه ·

ومن ذلك نفهم أن موضوع العرف هو الظاهرة الاجتماعية ·

تقسيمـــات العـــرف

للعرف تقسيمات مختلفة بالنظر لاعتبارات مختلفة ، وهي كالآتى :

1 ـ يقسم العرف باعتبار مشروعيته الى صحيح ، وفاسد : العرف الصحيح ·

وهو ما تعارفه الناس ، ولم يدل دليل من الشارع على فساده وبطلانه ، ولـم يعارض نصا صريحا بكل وجوهه · ومن ذلك البيع بالتعاطى ، وتقسيم المهر الى معجل ومؤجل ، وقبض المعجل قبل الدخول · فقد تعارفه النـاس وأجروا جـل فتواهم على مقتضى العرف فى هذه المسائل ·

قال ابن عابدين : « هذا كله صريح فيما قلنا : من العمل بالعرف ، ما لم يخالف الشريعة كالمكس والربا » (7) ٠

العرف الفاسد :

وهو ما تعارض مع النص ، وذلك ، مثل جلب الراقصات وتقديم الخمور فى المناسبات ، وتعامل الناس بالربا ، وجعل الفاكهة الممتازة اعلا الصندوق ، لايهام المشترى ٠ فكل ذلك عرف فاسد ، لم يقل به أحد ، لان المسألة المنصوص عليها ، والتى ثبت لها حكم شرعى ، فتغيرت عادة الناس فيها ، من استحسان الى استقباح ، أو من استقباح الى استحسان ، لا يتغير حكم الشرع فيها ، فالحرام ، حرام لو استحسنه جميع الناس ٠

قال الشاطبى : « لو صح مثل هذا لكان نسخا للاحكام المستقرة المستمرة ، والنسخ بعد موت النبي باطل ، فرفع العوائد الشرعية باطل » (8) ٠

وعليه فليس كل ما تعارفه الناس ينظر اليه بعين الاعتبار ٠ والمقياس فى ذلك ، هو النظر الى كل ظاهرة اجتماعية من زاوية الشرع ، فما خالف احكام الشريعة كان فاسدا ٠ وما وافقها كان صحيحا ، وكذلك فيما لا نص فيه ٠

2 ـ ويقسم باعتبار المتعارفين عليه الى عام وخاص :

العرف العام :

وهو ما تعارفته الامة كلها من غير نكير ٠

قال السرخسي : وتعامل الناس من غير نكير أصل من الاصول كبير ، من ذلك الاستصناع (9) ٠

وهذا التعامل حجة يترك به القياس ، ويخص به الاثر (10) ٠ ومن ذلك ظاهرة التدخين ، وشرب المرطبات غير الكحولية ٠ ودخول الناس للحمام دون تحديد كمية الماء المستهلك ٠ ومثل هذا العرف هو المنظور اليه فى تشريع الاحكام ، وهو الذى يمثل ظاهرة اجتماعية عامة ٠

(7) رسائل ابن عابدين ص 46
(8) الموافقات ص 284
(9) المبسوط ح 12 ، ص 128
(10) رسائل بن عابدين ص 47

العــرف الخـــاص :

وهو ما كان مخصوصا ببلد دون آخر ، أو بأرباب مهنة دون أخرى ٠

ولكل قوم أن يصطلحوا على ما شاؤوا من غير ما هو محرم ٠ وذلك كتعارف أهل اللغة على كلمة (الرفع) ٠ والنقاد على كلمة (النقد) ٠ ومن ذلك ما تعارفه أهـل العراق من جعل المهر المعجل أقل من المهر المؤجل ، وكتعارف أهل مصر من جعل المهر المعجل أقل من المهر المؤجل ، وكتعارف أهـل مصر من جعـل المقدم مـن المهر ضعف المـؤخـر (11) ٠

ومثل هذا يثبت بـه الحكم الخاص ، مـا لم يخالف القياس أو الاثر ، ولا يصلح لتخصيص العـام (12) ٠

ففى عرف التجار أن ما ينقص الثمـن يعتبر عيبا ، وكذلك اضافة أجـور النقـل وبعض الخدمات الى رأس المال ٠ قال الكاساني : ولا بأس بأن يلحق برأس المال أجرة الفتال والصباغ والغسال والخياط والسمار وسائق الغنم والكراء ونفقة الرقيق ، من طعام وكسوتهم ، وما لا يدلهم منه بالمعروف وعلف الدواب ، ويباع مرابحة وتولية على الكل اعتبارا بالعرف (13) ٠

وفى عـرف المحامين قبض بعض الاجرة قبل المرافعة ٠ وغير ذلك مـن الاعراف الخـاصـة ٠

وهذه الاعراف تلقى ضوءا ساطعا على ما كتب ومضت عليه السنين من صكوك ومعـامـلات ٠

2 ـ ويقسم باعتبار نوعه الى قولى ، وعملى :

العـرف القـولي :

وهو ما تعارفه الناس فى بعض الفاظهم وذلك كأن تكون بعض الالفاظ قد وضعت لمعنى عام ، ثم خصصت عرفا الى بعض مسمياتها مثل لفظة (دابة) فقد وضعت لكل ما يدب على الارض ، ثم خصصت عرفا بذات الاربع ، وأحيانا يصير الاسم شائعا فى غيرما وضع له أولا ، بل فيما هو مجاز فيه مثل لفظة « مفازة » للصحراء ، وقد سميت

(11) أصول الفقه ، المتولى ص 160

(12) رسائل ابن عابدين ص 47

(13) بدائع الصنائع ج 5 ، ص 332 ٠

بذلك تيمنا بالفوز بقطعها بسلام · وكذلك لفظة (غائط) وضعت للمطمئن المنخفض من الارض والعذرة ، وأصل وضعها للغائط الذى يستتر خلفه لقضاء حاجته ، فصار أصل الوضع منسيا والمجاز معروفا سابقا الى الفهم يعرف الاستعمال (14) ، فاصبحت هذه الالفاظ على ما نعرفه الآن ، والامثلة على ذلك كثيرة ، فكثير من الكلمات قد تغير مدلولها عما كان عليه سابقا ·

العـرف العمـــلى :

وهو ما تعارفه النـــاس فى معاملاتهم ، وذلك كالبيع بالتعاطي (15) · وكتعارف أعضاء الجمعيات الاستهلاكية على تقسيط الثمن ، وكتعارف تجار الحبوب على كون أجرة النقل على البائع ، وغير ذلك ·

ومثل هذا التعامل حجة يترك به القياس ، ويخص به الاثر ·

وقد أجرى العرف مجرى النطق عملا ، فلو أن انسانا لاحظ شاة لاخيه أشـرفت على الهلاك ، وجب عليه ذبحها ، خلافا للقياس · ومما يؤيد ذلك أن النبي صلى اللـه عليه وسلم اعطى لعروة دينارا يشترى له بـه شاة فاشترى شـاتين بدينار ، فبـاع احديهما بدينار ، وجاء بالدينار والشاة الاخرى (16) وعروة باع وقبض بغير اذن لفظى اعتمادا منه على الاذن العرفى الذى هو أقوى من اللفظى فى أكثر المواضع ·

شــروط العـــرف

لا يمكن أن نأخذ العرف بمعناه اللغوي ، فليس كل عرف معتبرا ، ولكي نعـرف العرف الصالح لبنـاء الاحكام عليـه ، لابد مـن ذكـر الشروط الواجب توافرها فى الظاهرة الاجتماعية المعتبرة ، وأهمها :

1 ـ ان يكون العرف مطردا وغالبا فى المكان الجارى فيه ، كتعارف الناس عـلى تقديم هدية للمخطوبة قبل العقد على أن لا تعتبر من المهر · فاذا كانت هذه العـادة شائعة بحيث لا ينكرها أحد من الناس كانت صالحة لبناء الاحكام ·

---

(14) المستصفى للغـزالى ج 1 ، ص 146

(15) أنظر رسائل ابن عابدين ص 27

(16) اعـلام الموقعين ص 294

وقد نصت المادة (4I) من مجلة الاحكام العدلية على ذلك بقولها « تعتبر العادة اذا اطردت أو غلبت » وتكون الغلبة بانتقال الاسم من طائفة الى أخرى حتى يستفيظ ويتعدى الى غيرها ، فيشيع فى الكل على طول الزمان (I7) ٠

اما اذا لم تكن العادة غالبة فلا يمكن اعتبارها عرفا صالحا لبناء الحكم ٠

ومن هذا يتضح أن العادات الخاصة والمشتركة والقهرية ، ليست من العرف ٠

2 ـ أن يكون العرف المراد تحكيمه فى التصرفات موجودا ، وقائما عند انشائها ليصح حمله عليه ٠

قال ابن نجيم : العرف الذى تحمل عليه الالفاظ انما هو المقارن السابق دون المتأخر لذا قالوا لا عبرة بالعرف الطارىء (I8) ٠

فلو باع انسان عقارا قبل عشر سنوات بعملة (الليرة) مثلا ، ثم تبدلت هذه الليرة بغيرها ، ولم يشر الصك على نوع من أنواع الليرات ، فالمعتبر هو الليرة المتداولة ، وقت العقد ، ولا عبرة بالعرف الطارىء ٠

2 ـ عدم معارضته للنص الشرعى من كل وجه ، والذى يلزم بالاخذ به ، أبطال النص ، لان ذلك يعتبر نسخا للاحكام الظاهرة المستقرة الثابتة ، وبما أن النسخ بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم باطل فهو باطل ، وحكم الشرع باق على أصله ، وان تغير عرف الناس ٠

فكل عرف يعارض النص فهو فاسد لا ننظر اليه مهما كانت درجة الاعتياد عليه ، وذلك كالربا وكشف العورة وغيرها ٠ اما اذا كان العرف شائعا ولا نص يعارضه فهو معتبر اذا حقق مصلحة أو دفع مفسدة ، وكان مبناه العقل ٠

اما اذا عارض النص من وجه ، فهو التخصيص ، فاذا كان النص عاما خصص بالعرف ٠

3 ـ أن لا يعارضه نص بخلافه فى العقد ، حيث كل ما يثبت بالعرف اذا صرح المتعاقدان بخلافه بما يوافق مقصود العقد ويمكن الوفاء به صح ٠ فلو اشترط العراقى جعل جميع المهر معجلا جاز له ذلك ولو خالف العرف ، فاذا ذكر الشرط فى العقد

(I7) الاشباه والنظائر لابن نجيم ح I ، ص I22 ، المعتمد فى أصول الفقه للبصرى ص 20I

(I8) الاشباه والنظائر ح I ، ص I22 ، راجع الفقه فى ثوبه الجديد ص 5I

لا يلتفت الى العرف السائد . قال فى شرح المجلة : ان العرف يكون حجة اذا لم يكن مخالفا لنص أو شرط لاحد المتعاقدين .

فاذا توفرت فى العرف هذه الشروط كان صالحا لبناء الاحكام عليه ، امـا اذا عارض البعض منها فلا عبرة بـه .

أهميــة العــرف

لابد للمفتى والمجتهد أن يطلع على اعراف الناس وأحوالهم قبل اعطاء حكمه فى المسألة المعروضة عليه ، ولا يكون العالم عالما الا اذا علم بأمور البلد واعرافه ونظام حياته ، ولعل هذه المسألة تحتل مكانها فى عصرنا الحاضر ، فقد اهتمت الامم بأعرافها دراسة ومنشـأ ، لانها تمت الى عـلم الاجتماع بأوثـق الصلات ، وبقدر مـا تكـون الاجتماعيات عريقة ، يتمتع الشعب بالاصالة .

ولقد سبق المسلمون غيرهم فى هذا المضمار ، وذلك لان الظاهرة الاجتماعية ذات علاقة بالتكوين النفسى ، فهي تنعكس على الافعال ، وهذا هو السر فى كون الاسلام ، أول ما بدأ بتقويم النفس وتهذيبها ليكون العمل صالحا .

وقد اهتم الفقهاء قديما بالعرف ، حيث قالوا : لو أن الرجل حفظ جميع الكتب ، لابد أن يتتلمذ للفتوى حتى يهتدى اليها ، لان كثيرا من المسائل يجاب عنها على عادات الناس ، فيما لا نص فيه (19) .

فاذا كان المفتى من بلد غير الذى يقيم فيه وجاءه رجل يستفتيه فى لفظة من ألفاظ الطلاق فلا يفتيه بما عرفه وألفه ، بل عليه أن يتأكد من المقصود المتبادر من هذه الكلمة أولا ، ثم يرتب الحكم بمقتضاها .

فالعرف موضوع خصب لمعرفة الاحكام لا سيما فيما لا نص فيه ، ولابد للدارس أن يلم بأحكامه ليعرف مدى صحة الاعراف السائدة .

وللعرف مجالات واسعة تختلف باختلاف طبيعتها تضييقا وتوسيعا ، وأهمها :

1 ـ اثبات حكم لما لا نص فيه :

اذا وجد العرف مستكملا شروطه ، ولا نص فى المسألة ، فهو صالح لبناء الحكم عليه ، ولقد أقـر الشـرع بعض اعراف العرب الصالحة ، مـن ذلك اقراره أنـواع

---

(19) أنظر رسائل ابن عابدين ج 1 ، ص 46

المتاجرات ، والمشاركات الصحيحة عندهم ، كالمضاربة والبيوع والاجارات الخالية من المفاسد ، من ذلك جواز بيع السلم لجريان عرف المدينة به ، والاستصناع ، ومبدأ جعل الدية على العاقلة ، بالرغم لمخالفتها للقياس ، حيث بيع المعدوم محرم ، ولا يعاقب انسان بفعل غيره ·

فاذا كان العرف صحيحا محققا مصلحة غير جالب مفسدة ، فهو صالح لبناء الحكم عليه ، على اعتباره كشف عن الحكم الشرعى المعتبر · وقد نصت المادة (27) من مجلة الاحكام العدلية على أن « استعمال الناس حجة يجب العمل بها » ·

على أن العرف لا يثبت حكما بنفسه ، وانما هو المرشد الى الحكم · وهذا الحكم قد تشترك فى مكوناته عدة أمور كالاستحسان والمصلحة المرسلة ، والعقل ، ولكنه يجب أن يعود الى دليل معتبر ·

2 ـ تخصيص العام وتقييد المطلق : الالفاظ التى خاطبنا الشارع بها ، منها ما هو عام ، أو مطلق غير مقيد · والعرف مصدر مهم لتشخيص المعنى المراد ، والمتبادر فهمه من اللفظ ، وقد ذكره الفقهاء فى معرض معرفة المدلول · وقد اتفق جمهور الاصوليين على أنه يخصص العام ويقيد المطلق ، لان الشارع انما يخاطب الناس بما تعارفوه من الاطلاقات · لذا قالوا : الالفاظ محمولة على مقتضاها (20) · فكل لفظ ورد الينا من جهة الشارع فانا نحمله على عرفه ، أو على اللغة أو عرفها · لذا قالوا : العادة والعرف العملى مخصص (21) ·

والحقيقة أن تخصيص النص الشرعى ، أو تقييده بالعرف ، انما هو بيان واستعانة على معرفة مقصود الشارع ، وليس تعديلا طارئا عليه · فقوله تعالى : « **وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف** » (22) · لم يبين مقدار النفقة ، وانما المرجع فى ذلك الى العرف · ومن ذلك قوله تعالى : « **واشهدوا ذوي عدل منكم** » (23) وما يخل بالعدالة مرجعه الى العرف ، وذلك مثل كشف الرأس ، كان مخلا بالعدالة ، وقد ترد شهادة مكشوف الرأس ، فتحديد العدالة يعود للعرف ، فمثلا كل الناس فى زماننا قد تعارفوا كشف الرأس ، فلا يعتبر مخلا بعدالة الانسان · ثم أن حقيقة اللفظ

(20) رسائل ابن عابدين ص 27
(21) التقرير والتحبير ح 2 ، ص 28
(22) البقرة آية 322
(23) سورة الطلاق 2

قد تتعذر ، أو يتعذر العمل بها ، والمعول عليه هنا هو العرف ، اذ تأخذ بالمجاز المستفاد من تعامل الناس · فلو حلف انسان أن لا يطير فى الفضاء ، انصرف يمينه على ركوب الطائرة ، لان حقيقة الطيران بدون آلة متعذرة ·

وفى باب الايمان مادة غزيرة يتجلى فيها استعمال الناس ، ومدى الالتزام به ·

كما أن للعرف أهمية فى كيفية فهم الخطاب ، اذا كان مبناه العرف ، فمثلا نفهم من قوله تعالى : « **وأعدوا لهم ما استطعتم من قـوة** » هو كل مـا من شأنه قوة البلد ثقافيا وعلميا وعسكريا وغير ذلك ، وهذه الامور تختلف من عصر الى عصر ، لذلك بين القرآن حاجة المسلمين فى ذلك الى جمع الخيول والاعتناء بها ، واعداد السيوف وما يرافقها ، فقال « ومن رباط الخيل » (24) ·

وقد يكون التأليف والاهتمام بالمسرح من لوازم القوة المطلوبة ، لان هذه الاشياء ، انما تفهم من أعراف الناس وأحوالهم ، ومدى ما وصلوا اليه ·

فالعرف عون على مراد المتكلم حيث لكل قوم ما تعارفوا عليه ، ويجب أن يحمل كلامهم على لغتهم وعرفهم ، فينصرف الى المعانى المقصودة بالعرف حين التكلم ، ولو خالفت المعانى اللغوية الحقيقية ·

فقد ينصرف معنى عبـارة عـن مدلولها ، الى معنى جديد · نحـو كلمـة مفازة أصبحت تدل على الصحراء عرفا · ومن ذلك ما يجرى فى بعض المعاملات من تسميات نحو « ضمان ، تضمين » أصبحت تدل على نوع من العقود والبيوع ، خلاف حقيقتها ، فيقال : ضمنتك البستان ، ويفهم منه بيع الثمر الذى فى شجر البستان بلا قرينة ، أو توضيح ، وقد لا يفهـم ذلك شعب آخـر ، وكقول الخاطب ـ فى اعراف بعض البدو ـ جئت اطلب فرسا تأكل بيدها · يفهم من هذه العبارة أن هذا الرجل قد قصد الخطوبة ·

وفائدة ذلك تظهر فى معرفة معنى ومدلول الصكوك القديمة على اختلاف أنواعها ، والاقرارات كذلك · فمثلا لو اطلعنا على مستمسك يقول صاحبه فيه (عينت فلانا ناظرا على الوقف » يجب علينا أن نرجع الى العرف فى زمن كتابة المستمسك لنفهم ما المقصود من كلمة (ناظر) · ويحمل على ما كان مستعملا ·

---

(24) الانفـــال 60

حجيـــة العــرف

الفقهاء امام العرف اصناف ، فمنهم من الغى اعتباره ، ومنهم من اعتبروه ، والذين اعتبروه يختلفون تضييقا وتوسيعا .

والقائلون بحجية العرف يستدلون بالآية الكريمة « **خذ العفو وأمر بالعرف** » (25) فظاهر الآية يدل على اعتبار الشارع للعرف ، فاذا تعارف الناس أمرا حسنا فهـــو حجة ملزمة . وكلمة (العرف) يفهم منها هنا ، ما وجب اتباعه من قبل الشارع على اعتباره أمــرا حسنا اشتهـر وتعــارفه النـــاس ، وليس كـل مـــا تعــارفه النـــاس حسنا ، حيث الغت الشريعة كثيرا من الاعراف الفاسدة .

واحتجوا كذلك بما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم « ما رآه المسلمون حسنا **فهو عند الله** حسن » (26) . **فالحديث** يدل على حجية ما تعارفه المسلمون وساروا عليه بـــدون نكـــير (27) .

وقد ضعف **الاستدلال بهذا الحديث** من ناحيتين :

الاولى : انه موقوف على ابن مسعود حيث قال : أن اللـــه نظر فى قلوب العبـــاد فاختار محمدا صلى الله عليه وسلم ، فبعثه برسالته ، ثم نظر فى قلوب العباد فاختار له أصحابا ، فجعلهم أنصار دينه ووزراء نبيه مما رآه المسلمون حسنـــا فهو عند اللـــه حسن وما رآه المسلمون قبيحا فهو عند الله قبيح .

والثانية : على فرض صحة الحديث فانه يدل على حجية الاجماع لا العرف ، لان **المقصود** بتمييز الحسن والقبح ما صدر عن ذوى الكفاءة والنظر ، وهم مجتهدو الامة ، ولا عبرة بنظر غيرهم . وهذا ما يؤيده الواقع العملى ، فمثلا تعارف الناس على ايواء المجرم والدفاع عنه ، اذا كان من الاقارب . وتعارف عامتنا مديئات وأخلاقا تتنافى مع أصول العقيدة دون أن يشعروا بهذا التناقض .

اما المانعون للعرف ، **فدليلهم** هو عدم اعتبار الشارع له ، فمسألته ظنية ، لا يصح أبتناء **الاحكام** عليها ، فهم يرون أن امضاء الشارع لبعض الاحكام العرفية ، انما هو امضاء قام على أحكام عرفية خاصة لا على أصل العرف (28) .

(25) الاعــراف 199
(26) أنظر المقاصد الحسنة للسخاوى ص 267
(27) راجع الفروق للقرافى ح 1 ص 146 ، بدائع الصنائع ح 5 ص 332 ، المبسوط ح 12 ص 128
(28) الاصـــول العــامة ص 432

وقالوا : كما أقر الشارع بعض الاعراف هـدم بعضها ، وما أقره الشارع ثبـت بالنص ، ليس بالعرف ، وعليه لا يصلح العرف لبناء الاحكام عليه ·

والحق أن العرف ليس أصلا مستقلا قائما بذاته الا أنه يرجع الى بعض أدلة الشرع المعتبرة ، كالاستصحاب وحكم العقل ، وسـد الذرائع ، والمصلحة المرسلة ، فالعرف عبارة عن كاشف للحكم الشرعى ، وليس مثبتـا لـه ·

قـال ابن عابـدين :

والعـرف فى الشـرع لـه اعتبـار لذا عليـه الحـكم قـد يدار (29)

واعتباره انما يعود لرجوعه الى أدلة الشرع المعتبرة ، من جلب مصلحة ، أو دفـع مفسـدة ·

وقد سار الناس قديما على مقتضى اعرافهم ، حتى أصبحت مـن نظـم حياتهم الاجتماعية ، ولا داعى لحملهم الى غيره ، اذا كانت منسجمة مع طبائعهم ، مستكملة لشروط العرف ، ذلك دفعا للمشقة والحرج ، فمثلا بيع السيارات من قبل الوكلاء من غير رؤية من قبل المشترى ، وتقسيم المهر الى معجل ومؤجل ، وغير ذلك ·

وقد سار المانعون له بمقتضى العرف ، شعروا ، أو لـم يشعروا ، فمثـلا اذا ركـب الانسان سيارة مصلحة النقل ، فانه يعطى النقد المطلوب ويستلم البطاقة من المحصل ، دون اجراء صيغـة العقـد ·

وكذلك لو ادعت المرأة مهرها المؤجل قبل الدخول ، فان جوابهم ، هو أن المهـر المؤجل انما هو ضمان ، والضمان لا يكون الا بعد الدخول ، وغير ذلك من المسائل ·

وبالتأمل يتضح لنا أن الجميع قد أخذوا بالعرف وبنوا احكامهم عليـه كظاهرة اجتماعية تستحق الرعاية · ولكن البعض علل ، حيث يقول : أن الحكم ثبت بالعقـل ، والآخر يقول : ثبت بالمصلحة ، والآخـر باستصحاب الحـال ، فالخلاف هنـا شكلى لا يترتب عليه أي أثـر عمـلى ·

والعرف يستند الى دليل شرعى معتبر ولو ظاهرا ، بما يفيده قوله تعالى : « **خـذ العفو وأمر بالعرف** » فان فيه دلالة ظاهرة على الاخذ بالعرف ، ومن ثم بناء الاحكام عليه ، ولكن تبقى هنا مسألة دلالة الامر فى الآيـة ، على الوجوب هـو أم يـدل على

(29) رسائل ابن عابدين ص 44

الاباحة كما فى قوله تعالى : « **كلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسـود** » (30) ٠

والآية تفيد كـلا المعنيين فى الظـاهر ، ونحن على الخيرة فى ذلـك بأيهما أخذنا حكمنا فى العرف ، بمقتضى تلك الدلالة ٠ فان قلنـا أن الامـر يفيد الوجوب ، أخذنا بالعرف على الوجوب ، وقضينا به بشرط عدم وجود نص أصلا ٠ أو عدم تعارضه مع نص صريح بكل وجوهه ٠ وان قلنا أن الامر يفيد الاباحة، أخذنا به على سبيل الاختيار .

والظاهر فيما يبدو لنا من دلالة الآية على الكون الامر للوجوب ظاهرا ، ومـن قيام آثار وشواهد كثيرة على الاخذ بالعرف ، أن نأخذ به كدليل واجب يلزم الحكم به وجوبا ٠ وما دام هكذا يمكن القول بأن العرف معتبر فى الشرع وصالح لبناء الاحكام عليه اذا توفرت شروطه ٠

طبيعــة الخــلاف

اذا عدنا قليلا الى معنى العرف ، نـرى أنه منبعث عن الفكـر والاختيار ، يتبين بوضوح اشتباك دليـل العقل مـع المصلحة كعناصر مكونة للعرف المعتبر ، لذا قـد يستغنى عنه من اعتبر دليل العقل ، أو المصلحة ، أو الاستصحاب فى التوصل الـى الحكم الشرعى ، هذا لم تتاثر الاحكام العملية المترتبة عليـه ، ونستطيع أن نحصـر الخلاف فى الشكل والتسمية فقط ٠

تغـير الاحكام بتغـير العـرف ٠

ان الاحكام التى تتغير بتغير الازمان هي الاحكام المستندة على العرف والعادة ، لانه بتغير الازمان تتغير احتياجات الناس ، وبنـاء على هذا التغيير يتبدل العرف ، وبتغيره تتغير الاحكام ، بخلاف الاحكام المستندة على الادلة الشرعية الثابتة ، كالقرآن والسنة ، فانها لا تتغير ، فمثلا جزاء القاتل العمد هو القتل ، فهذا لا يتغير (31) ٠ وقد نصت المادة (29) من مجلة الاحكام العدلية بقولها «لا ينكر تغير الاحكام بتغير الازمان» .

وقال القرافى « ان الاحكام المترتبة على العوائد تدور معها كيفما دارت ، وتبطل معها اذا بطلت كالنقود فى المعاملات ، فلو تغيرت السكة الى سكة أخرى ، فالمعتبر فيها السكة التى تجددت العادة بها » (32) ٠

(30) البقـــرة 187
(31) أنظر شرح المجلة ج 1 ص 42
(32) الفـروق للقرافى ج 1 ص 55

ولقد خالف أبو يوسف ومحمد أبا حنيفة فى بعض المسائل نظرا لتغير حياة الناس واختلاف أعـرافهم ·

ولقد غير الشافعى كثيرا من أقواله التى قالها فى العراق حين نزل مصر تمشيـا مع أعرافهم وعاداتهم هناك · فقد نجد الاختلاف فى الحادثة من قطر الى قطر نظـرا لاجوائها وحياتها ، فمثلا فى تحديد كمية الماء الصالح للوضوء لا يمكن أن يكون واحدا فى الصحراء والمدينة ، ولقد اشترط الامام أبو حنيفة عدالة الشهود ، واكتفى بالعدالة الظاهرة ، وعندما فشـا الكذب وحصـل الزور ، اشتـرط أبو يوسف ومحمد تزكية الشهود ، وعندما حصل التزوير فى الصكوك اقتضى تسجيل العقد فى دائرة كاتب العدل ، وهكذا تحصل التغيرات فى الاحكام ، ومنشؤها زمان الناس واعرافهم ·

ولو نظرنا الى طبيعة التشريع الاسلامى لوجدنا أن اختلاف الاحكام ليس معنـاه اختلافا فى أصل الحكم بنسخه مثلا ، لانا نعلم أن الشرع وضع على أنه دائم ، ولكننا نجد الحكم قد انصب على سبب ، وكيفما وجد ، وجد حكمه الشرعى فمثلا نهى الشارع عن الشذوذ عن المألوف ، فوجدناه يتحقق بكشف الرأس فى زمن ، اما فى زماننا فهو المألوف · فالاحكام الشرعية ثابتة تتبع أسبابها حيث كانت باطلاق (33) ·

تـرك القيـاس بالعـرف :

تنص الاجتهادات الاسلامية على ان القياس يتـرك بالعرف ، وذلك لان العـرف دليل الحاجة ، فهو وليد المصلحة ، لذا كان أقـوى مـن القياس ، فيترجح عليه عند التعارض « العرف بمنزلة الاجماع شرعا عند عدم النص » (34) ·

فمثلا منع الامام أبو حنيفة الانتفاع بدودة القز قياسا على الحشرات · وقـد جعلها أبو يوسف حلالا نظرا للعرف ، ومـن ذلك عـدم سماع دعـوى الزوجة بمهرها المؤجل قبل الفرقة للعرف ، خلافا للقياس ·

اما تعارض العرف والاستصلاح ، فالعرف مقدم لان مصلحته اعم ·

والحجية هنا للعرف العام ، فهو الذى يترجح على القياس والاستصلاح ويخص بـه الاثـر (35) ·

---

(33) الموافقات للشاطبى ج 2 ص 285
(34) فتـح القدير ح 6 ص 157
(35) أسباب اختلاف الفقهاء ص 256

العــرف بين الفقــه والقانون :

يحتل العرف مصدرا مهما بين مصادر القانون الرسمية ، وقد اعتبر مصدرا قائما بذاته لثبوت الاحكام ، فالمصادر الرسمية للقانون هي : التشريع ، والعرف ، والقانون الطبيعى ، وقواعد العدالة ، وأحيانا الدين ·

فأعراف الناس منظورة بنظر الاعتبار ، بغض النظر عن مشروعيتها ·

اما بالنسبة للشريعة الاسلامية ، فالعرف لا يستقل بنفسه لثبوت الحــكم ، وانما يفتقر الى من يقومه من الادلة الاخرى · فصلاحيته للاثبات ، لا للثبوت ، الا اذا رجع الى دليل معتبر · فهو مقيد ·

ولعل ذلك يرجع الى طبيعة كل من الدراستين ، فالقانون من صنع المجتمع ، فهــو متأخر عن تطوره وطبيعة تفكيره ، لان الانسان قد يعتاد الامر فاذا فشا وتعارفه الناس فأصبح ظاهرة اجتماعية التفت المشرع الى هذه الظاهرة ، وذلك لان القانون لا يمكنه التغير بسرعة تغير تفكير المجتمع وتطوره · وعليه فالجماعة هي التى تضع القانون وتكونه بعاداتها واعرافها وتقاليدها وتاريخها (36) ، لان هذه الامور ذات أثر فعــال فى نفس المشرع لا يمكنه تجاهلها بأي حال من الاحوال ، بل تدخل فى كيفية صياغــة القــــانون ·

وما دام القانون متأخرا عن المجتمع فلا غرابة اذا حصل التناقض بين ما وصل اليه الانسان ، وما هو مدون · بل يجب أن يحصل هذا التفاعل ، لان تفكــير الانسان فى مجتمعه ، هو المنبع الذى يغذى القانون على طول الزمن ·

فلا يمكــن أن يوصف القانون بالثبات والاستقرار ، كما لا يمكــن وصفه بصفــة التجرد ، لان سنه جاء تلبية لميل الانسان فى تنظيم حياته ، فلا مانع مــن دخول هذه الميول من قبل جماعة من الناس فى مواده دون أن يشعر المشرع بضررها على الآخرين أو حرمانهم مما هم أهل له ·

كذلك لا يمكن وصفه بالتقدمية ، لانــه متأخر عــن الفكر الانسانى ، وحــين تســن الظاهرة الاجتماعية وتصاغ على شكل مادة قانونية ، يكون التفكير الانسانى قد اتخذ شكلا آخــر فى التصور ·

(36) راجع التشريع الجنائى عودة ح I ص 3I

كما لا يمكن وصفه بالشمول ، لانه اختص بحل المنازعات والفصل فى الخصومات وقد يهمل كثيرا من الجوانب الانسانية ، من زاوية البدء بما هو أهم ٠ وعلى فرض بذل الجهد لسد جميع الثغرات تبقى مسألة مهمة وهي أنه نتاج الانسان وهو قاصر على ادراك جميع ما يحيط به ، أو يحتاج اليه ٠

اما الشريعة الاسلامية ، فهي من صنع الاله الحكيم المنزه عن الميل والهوى ، العالم بكل شيء ، خالق الانسان ، وهو أعرف بما يصلح شأنه فى مختلف العصور ٠

فالشريعة ليست نتيجة لتطور المجتمع ، بل هي أوسع دائما منه وكلما تسلق الانسان سلم الرقي والحضارة ، وجدها أمامه ، فهي لهذا ليست متخلفة ، بل سابقة ، وذلك لما أودع الله فيها من المرونة والشمول والذاتية ٠

ويصح القول : أن الجماعة واعرافها وتقاليدها ، من صنع الشريعة ، ولا عكس ٠

لذا يمكن أن توصف الشريعة بصفة الذاتية والشمول والتقدم والثبوت والاستقرار حيث أن اطار النظرية ثابت وفروعها مرنة متغيرة تتسع لتطور الانسان ٠

كما توصف أيضا بصفة التجرد والتنزه عن الهوى والميل ، لانها لم توضع من قبل فئة معينة من الناس ٠

بين الشراح والفقهاء :

على ضوء ما تقدم نفهم كيفية تناول الموضوع من قبل رجال القانون وهم يتكلمون عن مصدر من أهم المصادر ٠ وبين الفقهاء وهم يحاولون أن يتوصلوا لحكم شرعى ٠ وربما تأثر البعض بالدراسات القانونية الغربية ، فراح محاولا مجاراة تلك الدراسات حرصا منه على ابراز الشريعة بمظهرها اللائق ، فحصل خلط واضطراب فى محاولة التوفيق بين الفكر الغربى والاسلامى ٠ ولكن يجب أن لا يغيب عن البال أن لكل طبيعته . واننا يجب أن نسير بخطا ثابتة ، وأن نظهر الشريعة على حقيقتها ، وافقت الفكر الغربى أم خالفته ٠ فليس كل غربى صحيحا ، والمدنية الحديثة فيها الغث والسمين ، ولئن هزمنا ماديا فلا ينبغى ان نهزم روحيا ٠

اما بالنسبة للفقهاء فقد اختلفوا كما عرفنا فى عد العرف مصدرا صالحا لبناء الحكم عليه ، والذين اعتبروه يختلفون أيضا تضييقا وتوسيعا ، فمنهم من جعله بمنزلة الاجماع شرعا عند عدم النص ، ومنهم من ترك به الحقيقة المستعملة كأبى يوسف ومنهم من جعل السلطان للعرف السابق فقط ومنهم من حكم العرف الحادث ٠

قال مصطفى الزرقاء : وهذه الاجتهادات تكاد تكون متفقة على أن الحكم بالقياس يترك بالعرف ، ولو كان عرفا حادثا (37) ، ومنهم من جعله مخصصا للعام ، ومقيدا للمطلــق فقــط ·

وخلاصة القول ، أنهم يتفقون على اعتبار العــرف لتشخيص الاحكام الجــزئية معنوية كانت أم لغوية أو فقهية ·

كما يتفق الجميع على عدم جعله مصدرا قائما بذاته ، أما الخلاف فقد وقــع فى مسألة التماس المستند والاعتبار الشرعى له ·

وبناء على ذلك أصبح العرف من أسباب اختلاف الفقهاء فى الاحكام ، فقد ذكــر غير واحد من الفقهاء الخلافات الناجمة عن الاعراف ، واختلاف الزمان ، وذكــروا الامثلة الكثيرة مما عدوه خلافا قد يوهم انه فى جوهر الحكم · فقد يفتى عالم بقضية فى بلد ويفتى بخلافها فى بلد آخر كما فعل الشافعى فى مصر ·

ولقد منع الامام أبو حنيفة استئجار معــلم القــرآن ، واباحه الصاحبان (محمد وأبو يوسف) الى غير ذلك من المسائل الكثيرة ولو نظرنا الى ظروف كل مسألة ومالها من صلة بالحكم مع روح التشريع الاسلامى ، لما وجدناه خلافا فى حقيقة الحكم ·

خـــاتمـــة :

تقدم أن العرف دليل له حجيته نظرا لرجوعه الى أدلــة الشرع الاخرى ، وعليه لا ينبغى التنكر له لان اخراج العرف من مجال أدلة الاستنباط تضييق لتلــك الدائرة بلا موجب ، ولا حرج بالاخذ به ·

والعرف دليــل كاشف عن الحــكم الشرعى وليس بمنشىء له ويكون باستكمال شروطه واستناده الى دليل شرعى معتبر ·

(37) الفقه فى ثوبه الجديد ص 610

رائد الدعوة الى التضامن الاسلامى
عمر بن قدور الجزائرى

د. محمد ناصر
معهد اللغة والادب العربى
جامعة الجزائر

تمهيد :

ان الاحساس النابض الذى كان يملأ جوانح المسلمين الجزائريين ، فيطبع تفكيرهم ، وحياتهم بطابعه الخاص ، هو شعورهم الفياض بانهم ينتمون الى العالم الاسلامى الكبير أولا وقبل كل شىء .

وان المتتبع للثورات الجزائرية بداية من ثورة الامير عبد القادر بعد الاحتلال الفرنسى مباشرة ونهاية بالثورة التحريرية فى نوفمبر 1954 لا يجدها فى بعض معانيها الا امتدادا للجهاد الاسلامى ضد الغزاة الصليبيين .

ذلك لان الجزائريين كانوا لا يرون فى الحدود التى خطها الاستعمار الفرنسى ، ليغلهم بداخلها ، الا حدودا فاصلة بين المسيحية والاسلام ، ومن هنا كانت الفكرة التى

تعايش الوطنيين ، وهم يدافعون عن أرضهم عقيدة راسخة بانهم يدافعون أيضا عن حمى الاسلام ، وان انتصارهم على عدوهم الدخيل انتصار للامة الاسلامية جمعاء ، ولولا ذلك الاحساس الشريف لما تتابع الشهداء الى ميدان الشرف أفواجا ... وان المجاهد منهم لتخرج كلمة « الله أكبر » من فمه مدوية لتعانق الرصاصة المنطلقة من فوهة البندقية .

ولقد ادرك بعض المؤرخين الفرنسيين أنفسهم ، بان المسلمين الجزائريين كانوا يحاربون فرنسا ، دائما ، بوحي من هذا الشعور الدينى ، وان عداوتهم المستحكمة للاستعمار الفرنسى يقف وراءها انتماؤهم الى الوطن الاسلامى العريض (1) .

ونحن عندما ندرس أفكار الذين كتبوا فى الصحافة من المسلمين الجزائريين نجد عندهم هذا الشعور المتوقد وهذا الاعتقاد الراسخ بالانتماء الى الوطن الاسلامى ، ونراهم ينظرون الى كل الاحداث التى كان يمر بها هذا الوطن فى محنه القاسية من هذه الزاوية ، وذلك الاعتقاد ، وهذه النظرة يدلان دلالة قاطعة على ان ارتباطهم باخوانهم المسلمين ، وتعلقهم بالتضامن معهم لم يستبدل عندهم قطعا باي شعور قومى آخر ، وسيستمر هذا الميل قويا عندهم حتى سنة 1930 على الاقل .

وعلى الرغم من الحصار الحديدى الذى ضربه الاستعمار الفرنسى حول الجزائريين بغية عزلهم عن بقية العالم الاسلامى فانه لم يفلح قط فى هذه المحاولة ، بل لم يزد بذلك الضغط احساساتهم بالانتماء الى العالم الاسلامى الا تعلقا وشوقا ، واذا بالافئدة التى حاول الصليبيون تحويلها الى العالم الغربى ، تولى وجهها شطر المشرق العربى ، وتتفتح لكل نفحة أمل تهب عليها من اخوانها المسلمين : من الجريدة أو المجلة ، حتى الخليفة أو الزعيم . فوجد ذلك الكبت الذى مارسته السلطات الاستعمارية منذ السنوات الاولى للاحتلال ضد الاهالى ، وجد له متنفسا فى الشعر الشعبى ، والهجرة الى المشرق ، والمشاركة فى الجمعيات السرية الاسلامية (2) ، كما فعل الامير عبد القادر اذ كان عضوا فى جمعية العروة الوثقى التى انشأها جمال الدين الافغانى بالهند عام (1882 م) (3) .

---

(1) انظر أبو القاسم سعد الله الحركة الوطنية ص 182
(2) أنظر الحركة الوطنية ص 397
(3) أنور الجندى الفكر والثقافة المعاصرة فى شمال افريقيا ص 39

ثم ذلك التعاطف الشديد الذى كـان يحس به المصلحون الجزائريون مـع مجلـة « المنار » العبدوية حتى اعتبرها محمد بن مصطفى بن خوجة وعبد الحليم بن سماية بانها « مدد الحياة » للمسلمين الجزائريين (4) .

ولعل الاحداث السياسية التى يمكن أن نعتبرها سببا رئيسيا فى بعث هذه المشاعر من المناجاة الهامسة الى الحديث الجاهر ومن الخاطرة الفكرية الى المقال الصحفى ، هي تلك الحروب التى اجتاحت أجزاء من العالم الاسلامى عندما كانت أرض البلقـان مسرحا للصراع العنيف بين الدولة العلية ، والدول المسيحية وكانت البـلاد الليبيـة أتونا مستعرا بين المجاهدين الليبيين والغزاة الايطاليين ، ثم دخول تركيا الحرب ضد الحلفاء فى اكتوبر مـن سنة (1914) ..، فـان هذه الحوادث الكبرى قد اشعلت فى القلوب المرتبطة بدولة الخلافة الاسلامية حماسا متقدا لـم تنجـح فرنسا فى تحويله لصالحها رغم ما استعملت من وسائل الترهيب ، وأساليب الدعاية مستعينة فى ذلك ببعض الشباب المتفرنس ، ورجال الدين الرسميين ، وشيوخ الزوايا المنحرفة .

ثم توالت أحداث أخرى هزت العالم العربى هزا عنيفا ، وكانت لا ترى من وجهـة نظر أغلبية الجزائريين الا بعين مسلمة ، وذلك مثل وقوع أجزاء من المشرق العـربى تحت قبضة الاستعمار الانجليزى ، أو الفرنسى ، ابان الحرب الكبرى وصدور وعـد « بلفـور » المشؤوم فى شـأن فلسطين الذى كان فى تقديرهم اتفـاقا بـين اليهودية والمسيحية ضد الاسـلام .

وتتمخض الحرب العالمية الاولى عن أحداث جسام وتتغير معها خريطة العـالم العربى الاسلامى تغـيرا كبيرا وتترك فى نفـوس المسلمين مشرقا ومغربا ، طعنـات نجلاء (5) ، ولكن هذا الجرح ازداد عمقا ونزفت منه الدماء نزيفا مروعا يوم تقوض عرش الخلافة تحت معاول الكماليين (1924 م) ، ويعصر نفوسهم هذا الفراغ المهـول الذى حفره « اتاتورك » وانصاره فى مسيرة الامة الاسلامية فى وقت كانت فيه أحوج ما تكون الى راية تجمعها ، وتوحد خطاها ، غير ان مخاوف التشتت والضياع مـا لبثت ان انقلبت عند الجزائريين بصفة خاصة الى دعوة ملحـة الى التوادد والاخاء حول « القرآن الكريم » وايمان أشد بوجوب التـلاحم حـول مقدسات الاسلام (6) .

(4) أنظر رشيد رضا تاريخ الاستاذ الامام ج 1 ، ص 871

(5) أنظر عبد الحميد بن باديس ، الشهاب ، ج 2 ، م 8 ، ص 81 (فيفرى 1938)

(6) أنظر ، عبد الحميد بن باديس ، الفاجعة الكبرى ، النجاح ع 152 (1924/3/20)

وتطبع هذه الاحداث جميعها أفكار كتاب المقالة الصحفية الجزائرية بطابعها الخاص . وتترك فى أساليبهم الكتابية صفات فنية ملحوظة ، ولكن الكاتب الذى اخلص لفكرة التضامن الاسلامى الاخلاص كله ، وسخر لها صحافته وقلمه منذ وقت مبكر جدا هو عمر بن قدور الجزائرى ..

عمر بن قدور الجزائرى والدعوة الى التضامن الاسلامى :

ان الحديث عن « القومية الاسلامية » أو الدعوة الى التضامن الاسلامى ..

« أو الجامعة » الاسلامية ، لم يظهر على صفحات الجرائد العربية الجزائرية ، الا مع ظهور الصحافة الوطنية ، وكان ذلك على يد كاتب بارز هو « عمر بن قدور الجزائرى » صاحب « الفاروق » ولم يكن منتظرا بطبيعة الحال أن تعنى صحافة استعمارية ، أو ورقات كان يشرف عليها فرنسيون أو مستشرقون بهذا الموضوع الحيوى الذى يخالف مبادئها . كما ان الكتابة حول هذا الموضوع من طرف الجزائريين قد يكون من قبيل المجازفة ، فان الدعوة الى مثل هذه الروابط الروحية فى مفهوم الاستعمار الفرنسى تحريض على التمرد والانفصال وتطاول على نفوذ فرنسا وهيمنتها على الشعب الجزائرى، وان المآل الذى انتهى اليه عمر بن قدور منفيا فى دار الغربة دليل ناطق على تخوفات المستعمرين من هذه الافكار (IO) ، ولم يكن موقف السلطات الفرنسية بدعا فى هذا التصلب ، فان بعض المفكرين الاوروبيين نظروا الى الجامعة الاسلامية على أنها نذير بحرب صليبية ، وغلا بعض هؤلاء فى عقيدتهم الدينية أو السياسية ، ولم يجدوا حلا لهذه القضية الا القضاء على المسلمين فى جميع أنحاء العالم وابادتهم من هذه الحياة ونبش قبر الرسول (ص) بالمدينة ونقل رفاته الى متحف « اللوفر » بفرنسا (II) .

والحق ان هذا الكاتب كان الجزائرى الاول الذى تخطى الصفوف فى جرأة صادقة ، وصدع بمعتقده دون خوف أو وجل ، واخلص للدعوة الى القومية الاسلامية الاخلاص كله ، وتحمل عبأها وحده وكرس لها مهجة نفسه طوال عمر

(IO) نشر فصلا فى جريدة الفاروق يدعو فيه الى مناصرة تركيا ابان الحرب الاولى فنفته السلطات الفرنسية الى الاغواط

(II) أنظر : رشيد رضا ، تاريخ الاستاذ الامام ج I ، ص 8oI

« الفاروق » (1913 – 1915 م) وقبل ذلك بمقالاته التى كان يبعث بها الى جريدة الحضارة فى الآستانة ، واللواء ، والمؤيد بالقاهرة (12) ·

ولم تكن المقالات الكثيرة الحارة التى اتحف بها الصحف العربية مشرقا ومغربا ابتداء من الآستانة ، ومرورا بالقاهرة ، وانتهاء بالمغرب الاقصى (13) أو تلك التى شغلت الحيز الاكبر من جريدته المشار اليها سابقا ، هي كل ما قدمه للاسلام والمسلمين بل تخطى باب النظريات الى الميدان العملى يدفعه ايمان قوى بوجوب التضامن والتعارف بين المسلمين ، فقدم للامة الاسلامية « مشروعا عظيما » ليكون نواة للتعارف بين أبنائها عندما راح يسائلهم : « ··· هل فى الامكان تاليف جماعة من مفكرى مسلمى الجزائر ، وتونس ، والمغرب الاقصى ، تدعى ، « جماعة التعارف الاسلامى » ؟

« ··· لقد شعرنا باحساس شريف يسرى بين المفكرين فى هذه الامة الاسلامية فى غضون ما نفثته صدورهم ولذلك رأينا ان نهذب هذا الاحساس ونزيده طموحا ··· ينصب هذا المشروع العظيم امام اعين اخواننا المفكرين ليجعلوه قبلة آمالهم ··· فليبذلوا كل نفيس لاعلاء وتنمية التعارف بينهم ··· واننا لننتظر جواب كل فرد منهم على السؤال المرسوم اعلاه ليتسنى لنا ان نسجله فى دفتر التعارف ··· وحصر كافة الانصار فى مشاهدة الائتلاف والاتحاد حيث يسهل العمل على الاثر والله ولي التوفيق سبحانه » (14) ·

ان الفكرة العامة التى تبقى حية فى اذهاننا بعد دراستنا لمقالات عمر بن قدور ، هو ذلك الايمان الراسخ بوجوب العمل للتضامن الاسلامى والدعوة التى لا تعرف الكلل « للقومية الاسلامية » كعلاج فعال لكل ما أصاب المسلمين من ادواء الضعف ، والتفرقة ، والهزيمة · والكفر بكل العصبيات الجنسية ، والتمرد على الاقليميات الضيقة جميعها ·

أما الفكرة فانه لم يعرضها عرضا منسقا يتسم بالترتيب المنطقى ، لانه كان ينتقل من فكرة الى أخرى يدفعه الى ذلك استطراد معروف لدى بعض الكتاب القدامى ، ولكنه عوضنا عن هذا الترتيب بدراسة شاملة للموضوع فلم يترك جزئية من الجزئيات فى

(12) أنظر مجلة الثقافة التى تصدرها وزارة الاعلام الجزائرية ع 1 و 4 (1971)
(13) أنظر صالح خرفى ، شعراء من الجزائر ، القاهرة معهد الدراسات العربية (1969) ص 37 – 55
(14) الفاروق ، ع 66 (1914/6/22)

القضية الا واعطاها حقها من البحث والاستقصاء : فقد شخص حال المسلمين المتدهورة ، وبين أسباب هذا التدهور ، ثم اقترح لها الحلول المناسبة · فكيف رأى ابن قدور حال المسلمين آنئذ حتى استوجبت منه هذا الاعتناء الشديد ؟ « ··· ان كل مسلم فى هذا الوقت ليس بمسلم حقيقة ، بل هو تركى ، أو عربى أو بربرى بحسب العناصر ، أو مغربى أو جزائرى أو تونسى أو سورى أو مصرى ··· بحسب الاوطان وذلك التنافر أحدثه انحلال الرابطة الاسلامية التى كانت تربط كل مسلم بأخيه ، وان كان أحدهما باقصى الشرق والآخر بأقصى الغرب ··· وتلكم أمة الاسلام التى ما زالت تسمى بالامة الحنيفية وواسطة عقد الامم ، أصبحت تابعة بمركزها الحالى ، وراضية بان تنسحب عنه الى المراكز الاخرى التى تبصرها من تحتها فى الدرك الاسفل، وما ذلك الا لان الغرور أوحى اليها كما أوحى الى الامة الاسرائيلية من قبلها بانها أفضل الامم ، وانشؤها فوقف بها العجب عند هذا الموقف ، وانتشت من خمرة القناعة فبقيت متقاعسة متخاذلة ، لا يروق لها ما يروق للعاملين ، وها هي ذى قد اشرف سلطانها على الزوال الى الابد كما باد سلطان الاسرائيليين من قبل · أفبهذا الحديث هم يكذبون ؟ (15) ·· تلك هي حال المسلمين كما شخصها من خلال ما أصاب دولة الخلافة (تركيا) تفرق فى أمرهم ، وتضارب فى أهوائهم ، واختلاف فى مذاهبهم · وفوق كل هذا وذاك غرور تحكم فى نفوسهم فانصرفوا عن الاعتراف بواقعهم المرير · وقد جمع الكاتب حال المسلمين فى كلمات جعلها عنوانا لاحدى مقالاته : ·· قصور ، ثم فتور ، فريح الدبور ، وسكنى القبور ، فهل من نشور (16) ؟

والكاتب لا يكتفى باستعراض حال المريض ، ثم ينفض يديه منه يائسا تاركا اياه نهبا للجراثيم الفتاكة والآلام النفسية ، بل انه ليحاول جاهدا ان يشخص أسباب المرض ويصفها بكل دقة فيكون بذلك الزعيم الاصلاحى الذى لا يطوح به اليأس مهما تكن الازمة مستحكمة « ··· ان هذا الداء هو عبارة عن نسيان الناس لاهمية نفوسهم من شدة ما أحاط بهم من هول الجهل ، وتملك الاجنبى ·· » (17) ·

والجهل ، وتسلط الاجنبى · فى نظر ابن قدور هما سبب ما أصاب الامة الاسلامية من ويلات · فقد نشأ عنهما فريقان مزقا الامة بينهما تمزيقا ، طائفة جامدة متحجرة

(15) عمر بن قدور ، دان النهوض ولم يدن .. الفاروق ، ع 15 (1913/6/6)
(16) أنظر م ، س : ع 14 و 15 و 16
(17) عمر بن قدور : معضلات اليوم والغد م ، ع 5 (1913/3/28)

وطائفة أخرى منحلة مستهترة ، فقد ترعرع عن الجهل طائفة العلماء الجامدين الذين يتعصبون لمستحدثات القرون الوسطى ، يعتبرونها هي الاسلام ولا اسلام سواها فقيدوا الفكر الاسلامى عن الانطلاق ، وغلوا المسلمين فى سلاسل الخرافات والبدع ، والقوا بهم على اعتاب الاولياء جثثا لاحراك بها يقعدهم عن العمل عقيدة التوكل والتسليم بالقضاء والقدر ... كما نشأ عن تسلط الاجنبى طائفة من الشباب المتفرنج المؤمن بالحضارة الاوروبية اغشى الاستعمار ابصارهم ببريق المدنية الزائف فأضلهم عن طريق الدين وفصلهم عن « القومية الاسلامية » « ... وتلك سطوة المدنية المتغلبة تفعل فى الظواهر والبواطن فعلها فتصير المغلوب دائما يتبع الغالب فى عوائده واخلاقه (18)».

وهو يصف الدواء الذى يعتقد انه ناجع لا محالة ، فلا يكتفى بتبيانه فقط ولكنه يلح على تحبيب الدواء الى المسلمين الحاحا بما يضرب لهم من امثلة واقعية وشواهد تاريخية محسوسة .

« ... ان المسلمين لا يهمهم فى هذا العصر الا اصلاح حالتهم الروحية ، وتنظيم حياتهم الاخلاقية .

وهذه الغاية تهم المسلمين جميعا لانهم اذا تمكنوا منها تشرق عليهم شمس القومية الاسلامية التى جاء بها المرسلون ، وبشر بها النبيئون ، وهي لا تتوقف الا على اصلاحات اعتقادية ، وعملية تبرز بعدها الى عالم الظهور ... ومن ثم يستأنف التاريخ فى تدوين دور جديد للقومية الاسلامية (19) .

ولكن ما هو مفهوم « القومية الاسلامية » عند عمر بن قدور ، وما هو تصوره لها ؟

« ... ان الصورة الاصلية للقومية الاسلامية العامة صورة يدركها المسلم بداهة من نفس نظام الاسلام العام وفى امكان الرجل التقى ان يطلع عليها من نفس خواطر نفسه ، وهو اجس ضميره .

... وتلك الصورة تنحصر فى قضيتين أو ثلاث . الاولى الاخلاص لفالق الحب والنوى فى السر والعلانية ، والثانية الاستقامة نحو هذا المجتمع الانسانى ، ولنا ان نزيد الثالثة وهي اعتبار ان المسلمين اخوة قبل كل شيء (20) .

(18) أنظر م ، س ، ع 6 (1913/4/4)
(19) عمر بن قدور الجزائرى ، معضلات اليوم والغد ، الفاروق ع 4 (1913/3/14)
(20) م ، س ، ع 4 (1913/3/21)

« ··· وتلك الرابطة هي قوة روحية اذا تمكنت من ضمير المرء تجعله يحن الى أخيه حنوا لا يرى به عند أخيه عيبا ينكره عليه أو شذوذا يخذله بسببه ، رابطة حث عليها الاسلام قبل ان يحث على الصلاة والصيام ، فاصبح بها أهلوها المعتنون بتنميتها متضافرين ، وقلوبهم صخور مرصوصة الى بعضها ، يتألف منها سور ضخم لا تهزه زوابع الشقاق ولا تمسه أمواج التخاذل (21) » ·

من هذه الفقرات نستطيع ان نفهم بان الكاتب يريد ان تكون « القومية الاسلامية » التقاء لجميع المسلمين فى المشرق والمغرب يجعل منهم اخوة قبل كل شيء ، غاضين الطرف عن عيوب بعضهم بعضا ، حفاضا على ذلك الود ، ناكرين العصبيات الاقليمية الضيقة فى سبيل الرابطة الدينية ، متجاوزين الاختلافات المذهبية اكتفاء بالكتاب والسنة.

وهذا التضامن الذى يجعل من المسلمين بنيانا مرصوصا على أساس من التقوى هو فى نفسه غاية يرمى اليها عمر بن قدور كما صرح بذلك ، ولكن الذى نلمحه من خلال الاسطر ان وراء هذه الغاية غاية أخرى أجل واعظم اشار اليها فى قوله : « ان القومية الاسلامية التى كان أصلها ناميا فى أفئدة عرب الحجاز حتى سادوا العالم فى ظرف ثمانين عاما هي القومية التى فطر الله الناس عليها ولكن اكثر الناس لا يعلمون ··· » (22) ·

ولعلها اشارة من الكاتب لما أصاب الدولة التركية من ضعف وهوان · وحث غير مباشر للمسلمين ليعملوا يدا واحدة لانقاذ دولة الخلافة ، فقد عرف عند « ابن قدور » نزعة نحو الاتراك لا تقاوم (23) ·

والحق ان الرجل كان نسيج وحده من بين الكتاب الجزائريين حرارة ايمان بهذه المبادىء الاسلامية كشفت عنده عن طموح فذ ، وتمرد عنيف على كل ما يقف أمام هذه الوحدة الشاملة ، وقد جسمت أمام اعيننا داعية اسلاميا يتصف بكل صفات الدعاة من حماس فى غير تهور ، وحذر فى غير جبن ·

(21) دان النهوض ولم يدن .. م ، س ، ع 15 (1913/6/3)
(22) عمر بن قدور الجزائرى ، معضلات اليوم والغد ، الفاروق ع 5 (1913/3/28)
(23) أنظر محمد ناصر ، المقالة الصحفية الجزائرية ، جامعة الجزائر (مخطوط) ص 374

فهو لم يندفع مع آماله العريضة متجاهلا واقعه المرير ، ولـم يطـغ عليه الحماس فيضرب صفحا عن العراقيل المتوقعة ، ولكنه حذر اخوانه المسلمين من تلك الصعوبات الشاقة التى ستواجه هذه الدعوة لو قدر لها ان تخرج من حيز النظريات الفردية الـى مجـال العمـل الجماعى ·

« ··· ان جمال القومية الاسلامية لا يبرز الى الوجود الا اذا أتيح له اضمحلال تلك الصور التى ذكرناها ، ولا تضمحل تلك الصور الا اذا تبين للمسلمين جهلهم بشرف فطرتهم ، وفضل أنفسهم فيسعون فى مصادرته · وتلك مسألة لاشك تتشعب ان احتملت مباشرة حلهـا ، والمصلحون أنفسهم فى ذلـك يختصمون ، وان اجتهدوا يتحتـم عـن اجتهادهم الاختلاف ·· وعلى فرض ان المصلحين يتحدون فان العوائد التى يحاولون محوها تقاومهم بالاختلاف العام المبثوث بين الشعوب الاسلامية (24) ·

واذا دفعته نظرته الواقعية الى الامور ، الى التصريح ، بهذه الحواجز المتوقعة ، فانه يتمتع من ناحية أخرى بروح متفائلة ، ووجه طلق فلا ييأس من أمر المسلمين رغـم واقعهم المرير ولا تتغلب عنده الزفرة المتصعدة على الابتسامة المستبشرة ·

« ··· والباحث الآن عن جرثومة تلك الصورة الاصلية (للقومية الاسلامية) ··· يعثر عليها ساكنة تحت صور مدلهمة احدثها تبدل الزمان والناس واخلاقهم ومحيطهم ، ولقد حصل لها ضير عظيم من جراء طلوع تلك الصور الحاضرة ، ولكنه ضرر غير مزمن أو مهلك ، ولذلك فليس من العسير علاجه **لان هذا الـداء هو عبارة عـن نسيان الناس لاهمية نفوسهم من شدة ما أحاط بهم من هول الجهل ، وتملك الاجنبى** (25) » ·

ذلك هو تصور « ابن قدور » للقومية الاسلامية وذلك هو ايمانه الحار بوجوبها ، واننا نقدر بان الكاتب كان على صلة وثيقة بكتابات المشارقة فى هذا الموضوع لاننـا نلمح بين أفكاره وأفكار بعضهم شبها دقيقا · ولعله اطلع على ما كتبه مصطفى كامـل عن هذه القضية فى جريدة « اللواء » لانه كان من قرائها · ولعلها كانت من آثر الجرائد عنده لاهتمـام مصطفى كامـل الشديد بالمسائل الاسلامية ، وعنايته الكبـرى بقضايا المسلمين ودعوته الملحة الى العناية بفكرة الجامعة الاسلامية ·

---

(24) أنظر الفاروق ، ع 5 (1913/3/28)
(25) م ، س

وان بين الكاتبين شبها جد قريب فى فكرة التضامن الاسلامى اذ أن كليهما يؤمن بضرورة مساندة المسلمين للدولة التركية كقاعدة اسلامية تجمع قلوبهم حول راية الخلافة كما يتضح لنا ذلك من فقرة لمصطفى كامل :

« فواجب المسلمين ان يلتفوا جميعا حول راية الخلافة الاسلامية المقدسة وان يعززوها بالاموال والارواح ، ففى حفظها حفظ كرامتهم وشرفهم وفى بقاء مجدها رفعتهم ورفعة العقيدة الاسلامية ذاتها » (26) .

---

(26) عبد اللطيف حمزة ، أدب المقالة الصحفية فى مصر ، ج 5 ، ص 21

كتب

العهد الذهبي لتجارة المسلمين في شمال افريقيا وغربها

تأليف : وو. بوفيل
عرض : حمزة ج٠

عرف الاستاذ وو٠ بوفيل بين الباحثين بعنايته بالدراسات المرتبطة بتاريخ المسلمين فى المغرب والاندلس فكتب ثلاثة كتب معروفة ، أولها عن تجارة القوافل فى صحراء شمال افريقية ، وثانيها عن موقعة القصر ، والقصر بلدة فى الاندلس شيد بها المسلمون قلعة حصينة ، أما الكتاب الثالث وهو موضوع بحثنا فيتناول العصر الذهبى لتجارة المسلمين فى شمال افريقية وغربها عبر الصحراء الكبرى ٠

والمحور الرئيسى الذى يدور حوله موضوع الكتاب هو أهمية الصحراء الكبرى فى الربط بين شمال افريقية من ناحية وغرب القارة ووسطها من ناحية أخرى ، فقام المؤلف بدراسة أكاديمية مدعمة بالاسانيد والشواهد التاريخية للروابط المختلفة التى ربطت بلدان شمال افريقية ببلدان غرب افريقية ، وتتبع طرق القوافل ومراكزها عبر الصحراء الكبرى ٠ وبعبارة أخرى فان خطورة البحث الذى قام به المؤلف تتركز فى فكرة كبرى هي أن الصحراء بما يتخللها من طرق ودروب للقوافل كانت عاملا للربط

بين شمال افريقية من ناحية وغربها من ناحية اخرى ، وبناء على ذلك فان الوحدة الافريقية حقيقة قائمة فى التاريخ رغم عوامل الطبيعة وقسوة بعض هذه العوامل · ولاشك فى أن هذه الفكرة فى حد ذاتها تهدم الراي الذى ينادى به الاستعمار اليوم ، وهو الراي الذى يستهدف تمزيق الوحدة الافريقية والذى ينادى بان شمال افريقية لا تربطه رابطة بغربها ووسطها ، وان الصحراء الكبرى تشكل فاصلا كبيرا يحول دون قيام روابط ذات شان بين شمال افريقية من جهة وغربها ووسطها من جهة اخرى ·

وقد قسم المؤلف كتابه الى اثنين وعشرين فصلا خصص الفصل الاول منها لدراسة الجغرافية التاريخية لشمال افريقية والصحراء الكبرى ، وركز كلامه فى الشطر الاول عن مشكلة قلة المياه فى شمال افريقية ، وهي المشكلة التى لجأ الرومان فى محاولة التغلب عليها ببناء السدود والخزانات فضلا عن حفر الابار · أما الشطر الثانى الخاص بالصحراء فقد تعرض فيه المؤلف الى التاريخ القديم للصحراء الكبرى وكيف انها كانت مطيرة فى العصور الجيولوجية البعيدة بدليل ما فيها حتى الآن من بقايا آثار تدل على وفرة ما كان فيها من نبات وحيوان · ثم يتتبع المؤلف بعد ذلك التطورات التى ألمت بالصحراء والتى حولتها تدريجيا الى حالة جفاف شبه شامل نتيجة لقلة الامطار ، الا بعض مراكز محدودة توفرت لها المياه الباطنية أو غير الباطنية مما جعلها محطات طبيعية لتجمع سكان الصحراء من ناحية واستراحة التجارة والمسافرين من ناحية أخرى ·

وتحت تاثير تلك الظروف الطبيعية القاسية أحس سكان الصحراء الكبرى دائما بأن المسافة بين الحياة والموت ضيقة جدا ، وأن حياتهم وحياة مواشيهم تتوقف على جرعة الماء التى كثيرا ما يفتقدونها فلجأوا الى المحافظة على حياتهم بكافة الطرق المشروعة وغير المشروعة ، حينا بالهجرة الفصلية الموسمية الى المناطق التى يسقط بها بعض المطر وبالتالى يتوافر فيها بعض الكلأ ، وأحيانا بتنظيم الاغارات على البلاد الواقعة عند أطراف الصحراء لنهب ما يمكن نهبه وسلب ما يمكن سلبه ·

وفى الفصل الثانى يتكلم المؤلف عن شمال افريقية والصحراء الكبرى قبل سيادة روما · وقد استشهد المؤلف ببعض كتابات هيرودوت التى وصف فيها حياة الاهالى فى جوف الصحراء وصفا واقعيا ينطبق على ما وجد أخيرا من نقوش ورسوم معاصرة، مما يدل على أن ثمة صلات كانت قائمة عندئذ بين سكان جوف الصحراء من ناحية وسكان المناطق والاقاليم الساحلية فى شمال القارة من ناحية أخرى · ولما كان

الجمل غير معروف فى شمال افريقية عندئذ ، فان المؤلف يرجح أن الثور كان وسيلة الانتقال والربط بين شمال افريقية وغربها عبر الصحراء ، بدليل أن الثـور لا يزال من الحيوانات المألوفة الشائعة الاستعمال فى السودان الغربى وفى كثير من أجـزاء الصحراء الكبرى من فزان · ويقارن المؤلف بين الجمل والثور فى قوة احتمال العطش والمقدرة على حمل الاثقال والسير مسافات بعيدة دون ملل أو تعب، ويستخلص من ذلك أن التقارب شديد بينهما فى تلك النواحى مما لا يجعل مبررا للاعتقاد فى أن تجارة القوافل فى الصحراء لم تنشط الا بوصول الجمل الى شمال افريقية · واذا كان الفينيقيون قد ركزوا نشاطهم فى الجانب البحرى واكتفوا بالمستعمرات التى أسسوها لانفسهم فى شمال افريقية ، فان القرطاجيين مدوا نشاطهم الى داخل الصحراء وأقاموا عـلاقات تجارية قوية مع أهالى الصحراء الكبرى وغرب افريقية · وهكذا حتى كان القـرن الثانى قبل الميلاد عندما انتهت الحروب البونية بين روما وقرطاجنة بسقوط الاخـيرة مما اذنْ بسيادة روما على حوض البحر المتوسط ·

ويبدو أن روما نظرت نظرة عداء الى أهالى شمال افريقية والصحراء · ويشرح المؤلف فى الفصل الثالث من الكتاب كيف أن الرومان أطلقوا اسم البرابرة ـ ومنها اشتق اسم البربر ـ على أهالى شمال افريقية ، كما رفضوا المحافظة على العـلاقات الطيبة التى ربطت قرطاجة بقبائل الصحراء الكبرى ، حتى غدت تلـك الصحراء فى العصر الرومانى مأوى لاعداء رومـا والخارجين عليها · على أن ثمـة ثورة خطيرة تعرضت لها الصحراء الكبرى وصـل اليهـا الجمل عندئذ · ولكن الجمل أخذ ينتشر بعد ذلك تدريجيا فى الصحراء الكبرى ويرجع الفضل الى الرومان فى اتساع نطـاق استخدامه ، ولـو أن الوثائق الاولى التى تحت ايدينـا تشـير الى أن أعداء رومـا والخارجين عليها من أهل الصحراء ، كانوا أسبق من الرومان فى استخدام الجمل · ومهما يكن من أمر فان الجيوش الرومانية أخذت تستخدم الجمال فيها بين سنتى 46 ق‌م و363 م · كذلك ادى انتشار استخدام الجمال فى شمال افريقية الى تسهيل هجـرة القبائل من مكان الى آخر · وهكذا أوغل الرومان فى الصحراء الى فزان وغيرها من المواقع الداخلية ، وأخذت تجارة القوافل تنتشر عبر الصحراء الكبرى تحمل الى روما خيرات افريقية وبخاصة الذهب والعاج وريش النعام والعبيد ·

أما الفصل الرابع من الكتاب فقد جعل المؤلف عنوانه « الطوارق » واستهله بـأن قسم سكان الجزء الداخلى من شمال افريقية الـى قسمين : زنـوج وغير زنـوج أو

حاميين · وكان أن ركز المؤلف كلامه على الفريق الاخير ، فقال ان قبائل الطوارق من الحاميين كانوا ينتشرون فى الصحراء الكبرى جنوبى النطاق الجبلى الذى يمتد فى شمال افريقية من الغرب الى الشرق ، وقد اطلق عليهم العرب اسم الملثمين نظرا لان رجالهم اعتادوا وضع اللثام على وجوههم بحيث لا يظهر من الوجه سوى العينين · وبوصول الجمل الى الطوارق أصبحوا المتحكمين فى طرق القوافل وتجارة الصحراء الكبرى · وقد اشار المؤلف الى أربعة طرق كبرى فى الصحراء الافريقية الكبرى بجنوبها : أولها طريق سجلماسة وهو الطريق الذى يؤدى الى مناجم الذهب فى السنغال وأعالى النيجر وثانيها طريق غدامس ـ غات ، وثالثها طريق طرابلس ـ فزان ـ بحيرة تشاد وأخيرا فى أقصى الشرق يأتى طريق برقة ـ كفره فى وسط افريقية · وكانت السيادة للطوارق على الطرق الثلاثة الاولى ·

على أن ثمة أهمية خطيرة للطوارق فى تاريخ القارة الافريقية تتلخص فى أنهم أخذوا يعتنقون الاسلام عندما تم للعرب فتح المغرب فى القرن السابع للميلاد ، ومن ثم قام الطوارق بدور الوسيط بين المغرب العربى من ناحية ، وأقاليم غرب افريقية من ناحية أخرى ، واليهم يرجع الفضل فى نقل ديانة الاسلام وثقافته الى تلك الاقاليم · وقد خصص المؤلف الفصل الخامس من كتابه للكلام عن العرب فى شمال افريقية وذكر فى صفحة 60 ما نصه « لم تكن هناك قبل وصول العرب الى افريقية أية معلومات معروفة عن الاقاليم الافريقية جنوبى المغرب · ونحن من الناحية العملية ندين بكل ما نعرفه عن التاريخ الاول للاقاليم الداخلية فى افريقية الى مجموعة من الكتاب العرب وأهمهم المسعودى وابن حوقل والبكرى والادريسى وياقوت الحموى وابن بطوطة وابن خلدون · ونحن نشعر فى هذا الكتاب الذى اعتمدنا فيه الى حد كبير على ما كتبه أولئك العلماء ، باننا ندين لهم بالشىء الكثير ، ولا أقل من أن نخص كلا منهم بكلمة قصيرة» ·

وبعد أن تكلم المؤلف كلمة موجزة عن أهمية كل واحد من أولئك الاعلام ، انتقل فى الفصل السادس من كتابه الى الكلام عن المرابطين · ذلك أن الملثمين ما كادوا يعتنقون الاسلام حتى اشتدت حماستهم لهذه الديانة الجديدة فاندفعوا فى صورة موجة عارمة صوب جنوب الصحراء لنشر الاسلام بين القبائل الزنجية فى غرب افريقية · وقد ترتب على هذه الموجة وصول الاسلام الى غانا ، ولكن الملثمين لم يقنعوا بهذه النتيجة بعد عدة قرون من الجهاد ، فقرروا توحيد صفوف قبائلهم ، واستدعوا أحد فقهاء المالكية ـ ويدعى عبد الله بن ياسين ـ من المغرب الاقصى ليثبت

دعائم الاسلام وقواعده الصحيحة فى قلوب الناس · وكان أن أقام عبد الله بن ياسين فى رباط فى جزيرة عند مصب نهر السنغال حيث ذاع صيته وكثر عدد أتباعه ومريديه الذين أطلق عليهم اسم المرابطين ، ومن ثم بدأ حركة جهاد واسعة أوصلت المرابطين الى مدينة أودغشت جنوبا والمغرب الاقصى والاندلس شمالا · وهكذا ارتبطت غـانـا والمغرب الاقصى برباط الاسلام · ولم تقف الصحراء الكبرى حائلا دون انتشار الاسلام فى السنغال والنيجر ، حتى غدت مدينة تنبوكتو ومدينة جنى من أكبر مراكز الاسلام فى غرب افريقية · ولاشك فى أن هذه الوحدة الدينية والثقافية التى ربطت شمـــال افريقية بغربها ساعدت على ازدياد النشاط التجارى فى ذلك الجزء من القارة فازدهرت الدول الاسلامية التى قامت فى غانا ، وحاول ملـوك هذه الدول أن يحاكوا المظاهر الاسلامية فى حياتهم ونظمهم ، مما شرحه المؤلف فى الفصل السابع من كتابه ·

ومن ملوك دول غرب افريقية المشهورين فى القرن الرابع عشر الملك منسا موسى الذى اختصه المؤلف بالفصل الثامن من كتابه · وقد خرج منسا موسى من بلاده سنة 1324 لاداء فريضة الحج وصحبه عدد كبير من أتباعه ، فمـر بمصر حيث أنفـق عن سعة استرعت نظر المعاصرين وقـدم هدايا جليلة للسلطان الناصر محمد بن قلاوون سلطان المماليك فى مصر ومن هذه الهدايا حمل جليل من الذهب الخام · أما السلطان الناصر محمد فقد أكرمه وبعث اليه والى أفراد حاشيته بالخلع والسيوف ، كما أمده بالخيول والجمال والمؤونة ليتمكن من مواصلة سفره الى الحجاز · هذا الى أن منسا موسى أراد أن يبسط حدود دولته ــ التى عرفت باسم سلطنة مـالى ــ فقام بأعمـال توسعية مكنته من السيطرة على السهول الفسيحة الممتدة مـن السنغال غـربا حتى اقلـيم تشـاد شـرقا ·

على أن أحوال سلطنة مالى لم تلبث أن تعرضت للتدهور بعد عهد منسا موسى · وقد قام الرحالة المغربى ابن بطوطة برحلته المعروفة فى ذلك الدور ، فأمدنا بمعلومات شيقة جعلت المؤلف يخصص الفصل التاسع مـــن كتابه عـــن سجلماسة سنة 1352 فوصل سلطنة مالى بعد شهرين ، وصف بلاط ملكها وصفا طريفا ، وصف أهل السودان (الغربى) بأنهم من أعظم الناس تواضعا لملوكهم ·

على أن ثمة سلطنة أخرى فى السودان الغربى صار لها شأن فى أواخر القـــرن الخامس عشر وفى القرن السادس عشر هي سلطنة سنغى قرب منتصف نهر النيجر · وقد خضعت هذه الدولة فى أول أمرها لسلطنة مالى ولكنها لم تلبث أن استقلت وقامت

بحركة توسعية حتى امتد نفوذ سلاطينها الى شمـال نيجريا حيث نشـروا الاسـلام والثقـافة الاسـلامية ٠

وقد تكلم المؤلف فى الفصل العاشر من كتابه عن هذه السلطنة وأشار الى سلطانها سنى على (1464 – 1493) الذى كون جيشا كبيرا استولى به على مدينة تمبكتو وتمكن بواسطته من نشر نفوذه على منطقة واسعة من سهول غرب افريقية ٠ وقد خلف سنى على فى سلطنة سنغى اسكى محمد الذى قام بأداء فريضة الحج ومر بمصر سنـة 1494 فى موكب حافل لا يقل فى مظهره وروعته عن موكب منسا موسى ٠

والى هنـا يعترف المؤلف بأن ظاهرة الوحدة الافريقية كانت أتـم مـا تكون بين المغرب العربى من جهة وغرب افريقية من ناحية أخرى ٠ ذلك أن انتشار الاسلام عـلى أيدى البربر بين أهالى غرب افريقية جعل هؤلاء الآخرين لا يتشربون تقاليد الاسـلام فحسب بل يتأثرون أيضا بالثقافة العربية الاسلامية ، والباحث يقرأ ما كتبه ابن بطوطة وغيره من المعاصرين فلا يسعه الا أن يشهد بقوة الروابط الدينية والتجارية والثقافية التى ربطت بلاد غرب افريقية بالمغرب العربى ٠

هذه الروابط وغيرها بين بلدان شمال افريقية وغربها فى ظل الحضارة العـربية الاسلامية ذكرها بوفيل فى صورة أو أخرى فى الفصول العشرة الاولى مـن كتابه ٠ غير أن الاستعمار الغربى لم يشأ أن يترك افريقية للافريقيين ، واختار أن يتدخل ليمزق العلاقات الخالدة التى تربط أهالى شمال افريقية بأهالى غربها ٠ وكان أن بـدأت فى القرن الخامس عشر جهود بعض القرى البحرية فى جنوب أوروبا وغربها للبحث عن طـريق جديد الى تجـاره التوابل غير طريق دولة المماليك فى مصر والشام ٠ وقـد شـرح المؤلف فى الفصـل الحادى عشـر تلك الجهود المبذولة للوصول الى شواطىء غانا ٠ وحتى فى جهود الاوروبيين لاكتشاف افريقية لم يستطيعوا الاستغناء عن معارف العرب وما دونوه فى كتبهم من معلومات وما رسموه من خرائط ٠ وثمة شخصية عربية أفاد منها الاوروبيون فائدة ضخمة وأفرد لها المؤلف الفصل الثانى عشر من كتابـه ، وهـى الحسن الفاسى الذى أسـره القراصنة الاوروبيون سنة 1518 وأطلقـوا عليـه اسم ليو الافريقى ٠ وقد كتب الحسن الفاسى هذا كتابا ضمنه معلوماته عن افريقية وافاد منه الاوروبيون فائدة ضخمة منذ القرن السادس عشر ٠ ويذكر الاستاذ بوفيل ان ما كتبه الحسن الفاسى ليدل دلالة قاطعة على أن تجارة السودان الغربى لعبت دورا كبيرا فى الحياة الاقتصادية للمغرب العربى ٠

وقد ساعد الغرب الاوروبى فى تحقيق سياسته الاستعمارية فى غرب افريقية أن أحد سلاطين مراكش وهو مولاي أحمد المنصور الذي خصص له المؤلف الفصل الثالث عشر من كتابه ـ أرسل حملة ضخمة لغزو السودان الغربى سنة 1590 ، مما أدى الى انكماش دولة سنغى ثم القضاء عليها • ولكن المراكشيين لم يستطيعوا الاحتفاظ بغرب افريقية فتركوه وشأنه بعد أن حطموا قوته المعنوية ، مما جعل السودان الغربى يواجه مصيره منفردا • وقد تنـاول المؤلف فى الابـواب التالية أحـوال السودان الغـربى أثناء الغـزو المراكشى وبعده ، مـع الاشارة الى محاولات الاوروبيين وبخاصة منذ القرن السابع عشر للوصول الى غرب افريقية والسيطرة على تلك البـلاد واحتكار خيراتها وبخاصة الذهب والتوابل •

حقيقة أن أهالى غرب افريقية لـم يرضوا عـن سوء أحوالهم ، فظهرت حركات اصلاحية تطالب بالعودة الى تقاليد الاسلام والتمسك بنظمه وعاداته وذلك كوسيلـة لمقاومة الخطر الاوروبى الذى أخذ يزداد وضوحا • ومن أمثلة هذه الحركات الاصلاحية حركة عثمان بن فودي فى نيجيريا فى أوائل القرن التاسع عشر • وقد تكلم الاستاذ بوفيل عن حركة عثمان هذه بالتفصيل فى الفصل الحادى والعشرين من كتابه • ولكن هذه الحركات الاصلاحية لم تستطع أن تنقذ غرب افريقية من براثن الاستعمار وبخاصة بعد أن امتدت يد الاستعمار الى شمال افريقية • وبسيطرة الاستعمار الغربى عـلى شمال افريقية من ناحية وغربها من ناحية أخرى انتهى العصر الذهبى لتجارة القوافل عبر الصحراء الكبرى وبدأ عصر آخر اعتمد فيه الاستعمار على سفنه التى تجـوب البحار لاستنزاف موارد القارة الافريقية •

التيســـير فى أحكـــام التسعـــير
لأبى العبـــاس أحمد بن سعيـــد المجيلدى

تقديم وتحقيق :
الاستاذ موسى لقبال

عرض : **عمرو بـن خروف**

لقد صدر سنة 1971 عن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع كتابان من الحجم المتوسط ؛ الاول من تقديـــم وتحقيق الاستاذ موسى لقبال أستاذ التاريخ بكلية الآداب جامعة الجزائر وعنوانه « التيسير فى أحكام التسعير » .

والثانى يحمل عنوان « الحسبة المذهبية فى بلاد المغرب العربى نشـأتها وتطورها » وهو من تاليف الاستاذ موسى لقبال أيضا .

وكما هو واضح فان الكتابين يبحثان فى موضوع الحسبة أو أحدى ركائزها كالتسيـــر .

وصدور هذين الكتابين فى موضوع واحد ينم عن اهتمام الاستاذ موسى لقبال بموضوع الحسبة المذهبية ، وقد قال صراحة : « ان رغبتى الخاصة جعلتنى اختار الحسبة فى المغرب موضوعا لبحثى هذا ، بالاضافة الى ذلك ما لاحظته فعلا من ندرة التأليف فى بيئتنا حول هذا الموضوع » (1) .

(1) لقبال موسى : الحسبة المذهبية ص : 41 .

وللاستاذ موسى لقبال كتاب آخر فى تاريخ المغرب الاسلامى ··· ونحب أن نقدم لجمهور قراء الاصالة أحد الكتب الثلاثة ، وقد رأينا أن نقدم فى هذا العدد ، « كتاب التيسير فى أحكام التسعير » الذى ظل مخطوطا منذ أن وضعه مؤلفه فى القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر ميلادى) ·

واذا نحن أصبحنا ـ بفضل تقديم وتحقيق الاستاذ موسى لقبال لكتاب التيسير فى أحكام التسعير ـ نعرف من هو صاحب هذا الكتاب فان المحقق قد كلفه الكشف عن هوية واضع المخطوط جهدا كبيرا قبل أن يتوصل الى الاسم الحقيقى لمؤلف الكتاب والى من ينتسب والى معرفة عصره وازلة الغموض الذى ران على شخصيته وأوقع مستشرقين كبيرين فى الخطا وهما فانيان ، وليفى بروفانسال · فمن هو مؤلف التيسير فى أحكام التسعير ؟

المــؤلف :

انتهى المحقق الى أن مؤلف التيسير فى أحكام التسعير هو **أبو العباس ابن سعيد المجيلدى** الذى توفى سنة 1094 هـ 1683 م ، ولم تعط المصادر تاريخا لميلاده ·

كان المؤلف قاضيا فى فاس الجديدة ثم مكناسة الزيتون ··· تولى القضاء فى أواخر عهد أحمد المنصور الذهبى أو على الاقل فى عهد أبنائه واستمر فى القضاء حتى بعد سقوط الدولة السعدية وقيام دولة العلويين ·

ولعل فترة الاضطرابات التى عاش فيها المؤلف هى السبب فى الغموض الذى أحاط بحياته ، وجعلها غير بارزة فى فترة الفتن التى حدثت بين أبناء أحمد المنصور الذهبى والتى كان فيها أحمد بن سعيد يؤثر الصمت عن القيام بأى دور هام فى خضم الاحداث الخطيرة ، ولكنه لا يلبث أن يصبح من « أهل الحل والعقد » مع قيام دولة العلويين ·

ومن صفات أحمد بن سعيد التواضع ودماثة الخلق والعدل ، واشتهر المؤلـف زيادة عن القضاء بالتدريس للفقه خاصة ومن شيوخه : أبو محمد عبد القادر الفاسى ، وأبو سالم عبد الله بن محمد بن أبى بكر العياشى صاحب « الرحلة » وقد أجاز هذا الاخير تلميذه وأثنى عليه ·

ولاحمد بن سعيد تآليف أخرى فى ميدان الفروع والنوازل والاحكام ·

التيســير فى أحكام التسعير فى ثوبه الجديد :

اعتمد المحقق لكتاب التيسير فى أحكام التسعير على ثلاث نسخ محفوظة هى : نسخة المكتبة الوطنية بالجزائر ، ونسخة المكتبة الكتانية بالرباط ، ونسخة دار الوثائق والمخطوطات بخزانة الرباط · وكان اعتماده بالدرجة الاولى على نسخة الجزائر لانها أكمل نسخ المخطوط ، وفيها فروع وتنبيهات سقطت من نسختى الرباط ، ولان نسخة الجزائر تكاد تكون خالية من الاخطاء الاملائية ·

والنص المحقق قصير · فهو فى نسخة الجزائر يتألف من عشر ورقات أما فى النسختين الاخريين قد يزيد عن أربع عشرة ورقة (2) ·

غير أن الاستاذ موسى لقبال الذى قـام بتقديمه وتحقيقه ووضـع له كشـافا عاما بالمصطلحات وآخر بالفهارس وأثراه بالملاحق بلغ عددها أحد عشر ملحقا جعله يبعث من جديد فى ثوب أنيق لطيف ·

وكتاب التيسير فى أحكام التسعير الذى بين أيدينا يتالف من 152 صفحة موزعة كالآتى :

36 صفحة خصصها لمقدمة الكتاب ومصادر تحقيقه ·

53 صفحة لمتن الكتاب ، أما الصفحات الباقية فتشتمل على المصطلحات والفهارس والملاحق ، ونماذج من نسختى المكتبة الكتانية بالرباط والمكتبة الوطنية بالجزائر ·

وقد اتبع المحقق فى الصفحات الـ 36 الاولى من الكتاب لتحقيق مخطوطه خطة تعتبر نموذجا يمكن أن يحتذى فى تحقيق مخطوطات شبيهة الصعوبة بالتى اعترضت محقق كتاب التيسير فى أحكام التسعير ومراحل الخطة هى :

1 ـ استشارة كتب الفهارس لاختيار المخطوط

2 ـ تحديد عصر المؤلف والقاء ضوء عليه

(2) أبعاد ورقات نسخة الجزائر 172 × 221مم .
أبعاد ورقات نسخة دار الوثائق بالرباط 165 × 113مم .
أبعاد ورقات نسخة المكتبة الكتانية 145 × 100مم .

3 ـ تحقيق اسم المؤلف ونسبه

4 ـ دراسة شخصيتـــه

5 ـ شيوخ المـؤلف وتلاميذه

6 ـ تآليفـــه

7 ـ وفاتـــه

8 ـ نســـخ المخطـوط

9 ـ محتـــوى المخطوط

10 ـ مصادر المخـــطوط

سبـــب التاليـف :

يذكر أحمد بن سعيد أن الحامل له على تســـطير هذه الأوراق وجمع نقول الائمة بعد الافتراق الحاح بعض من ابتلى بخطة الحسبة (3) ·

و « الحسبة نظام للرقابة على سير الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بطريقة تجعلها فى اطار قواعد الشرع الاسلامى وفى نطاق المصلحة العامة للمجتمع » (4) ·

وسمى الكتاب بالتيسير فى أحـــكام التسعير لأن الجـزء الأكبر من الكتاب مخصص لقضية التسعـير ·

والتسعير فرع هام من فروع الحسبة ، وقد خصص له المؤلف أربعة أبواب هى : الثانى والثالث والرابع والسادس بالاضافة الى المقدمة ·

مصادر الكتـــاب :

أعتمد المؤلف على مصـــادر عديدة ولكنه اعتمد اعتـــمادا كليـا على ثلاثة كتب لعلماء من افريقية هم : ابن هارون فى مختصره وابن عرفه فى مختصره والونشريسى فى معياره ·

---

(3) أحمد بن سعيد المجيلدى : التيسير فى أحكام التسعير ص : 38 تقديم وتحقيق موسى لقبال .

(4) موسى لقبال : المرجع السابق ص : 21 .

أقســـام المخطـوط :

ينقسم نص هذا المخطوط الى مقدمة وعشرة أبواب وخاتمة ٠

والابواب في نص المخطوط لا تزيد عن صفحة واحدة كما هو الشأن في الباب الثالث مثـــلا ٠

ويقدم مؤلف الكتاب بنفسه أقسام كتابه الذى يعبر عنه بـ « هذه الاوراق » فيقول :

أما المقدمة ففى تعريف ما رمت جمعه (5) ، وأما الابواب فهى :

الباب الاول : في فضل من قام بهذه الخطة الشريفة التى هى الحسبة وشروط المحتسب ٠

الباب الثانى : في حكم التسعـــير ٠

الباب الثالث : في الاشياء التى تسعر والتى لا تسعر ٠

الباب الرابع : فيما يسعر عليه وما لا يسعر عليه ٠

الباب الخامس : في المعيار الشرعى والعادى ، وما يباع وزنا أو كيلا أو بهما وفى كيفيتهمـــا ٠

الباب السادس : في رد سعر الواحد والاثنين لسعر الجماعة ٠

البا بالسابع : في الاشياء التى يمنع بيعها أو يكره في الاسواق ، وفى منع ذوى العاهات والقروح من بيع المائعات وغيرها ٠

الباب الثامن : في وجوب رفع ضرر عام من الازقة والرحاب وغيرها ٠

الباب التاسع : في حكم اختلاط المسلمين في أحكامهم مع أهل الذمة والتشبه بهم ٠

الباب العاشر : في بيان الغش وما يعاقب به من ظهر عليه أو اتهم به ٠

وأما الخاتمة ففى جمع مسائل لها تعلق بالمعنى الذى هو أساس الكتاب وعليه المبنى وسميته « التيسير في أحكام التسعير » (6) ٠

---

(5) أى في التعريف بالتسعير وكلام الائمة فيه لغة واصطلاحا على اختلاف التفسير ، انظر كتاب التفسير ص : 41 .

(6) أحمد بن سعيد نفس المصدر . ص : 39 ـ 41 . تحقيق موسى لقبال .

أهميـة الكتـــاب :

لكتاب التيسير فى أحكام التسعير أهمية فهو يعطينا صورة عن خطة الحسبة فى الصورة المتأخرة لها ، والاطلاع عليه يغنى عن الاطلاع على كتب أحكام السوق .

وفائدة مثل هذا الكتاب وكتب الحسبة العامة كبيرة اذا ما استعين بها ويجب الاستعانة بها فى وضع خطة ونظام متكامل للرقابة على شؤون حياتنا اليومية من اقتصادية واجتماعية وثقافية وأخلاقية سيما وأن البديل للحسبة لم يثبت فعاليته ، فصاحب الحسبة لم يكن ليترك ما نهى الشرع عن بيعه أو شرائه أن يباع فى أسواق المسلمين ، وها نحن نرى الخمر مثلا يباع ويشترى فى محال المسلمين للمسلمين علانية !!

ولم يكن صاحب الحسبة أيضا ليتهاون مع من يشتغل بالكهانة والخط والسحر حتى تتفشى فى القرى والمدن أو يتسامح مع المفسدين والمتخنثين ، وغير ذلك من الاعمال والصفات المنافية للاخلاق والمضرة بالصالح العام التى كانت الحسبة شديدة الحرص على مقاومتها والقضاء عليها قبل تفشيها وانتشارها .

تقييـــم الجهـــد :

لاشك أن تحقيق أى كتاب يتطلب بذل جهد كبير ربما كان هذا الجهد الذى يصرفه المحقق يكفى لتاليف أضعاف أضعاف ما يتضمنه الكتاب المحقق من صفات .

وأن تحقيق كتاب قديم أو مخطوط مغمور واعادة الحياة له أهم من تاليف كتاب جديد فى نفس الموضوع وبناء على هذين الموضوعين يمكننى أن أقول : ان من يقرأ أو يقف على كتاب التيسير فى أحكام التسعير الذى قام الاستاذ موسى لقبال بتقديمه وتحقيقه واثرائه بفهارس وملاحق يقدر الجهد الكبير الذى بذله المحقق فى سبيل اعادة بعث هذا الكتاب الى الوجود من جديد فى ثوب جميل صحيح بعد أن ظل زهاء ثلاثة قرون محفوظا فى أركان المكتبة عرضة للتلف والتأريض .

وانه لمن الاحسن والأفيد أن يقع الاهتـــمام بالتصحيحات الشـــكلية لكل الكتب والمقالات قبل صدورها ووصولها الى أيدى القراء ، ومن قبيل لفت النظر ألاحظ أن اسم مؤلف كتاب اليسير فى أحكام التسعير كما حققه الاستاذ موسى لقبال هو أبو العباس أحمد بن سعيد المجيلدى وليس أحمد سعيد المجيلدى كما وقع على الغلافين الخارجى والداخلى ·



قلوب ختم الله عليها فلم تسمع نداء ربها

سليمان المدني
عضو هيئة التوجيه الديني
بوزارة الشؤون الدينية - الجزائر

بدأنا في عدد 39/40 من الاصالة بتاريخ ذى القعدة ذي الحجة 1396 هـ نوفمبر ـ ديسمبر 1976 م بتفسير القرآن في خطب الجمعة تفسيرا مبسطا نستقيه من آخر ما وصلت اليه التفاسير ، وما صار اليه البحث العلمي ـ بقدر الامكان ـ ! ، وذلك تعميما للفائدة كما يقال ، وكلمة التعميم هنا في الصميم يطابق فيها الحال المقال ، حيث ان الخطبة نفسها تذاع على امواج الاثير من الجامع مباشرة ، فيستفيد منها لا جمهور المصلين فحسب ، بل جميع من يستمع الى المذياع داخل البلاد وخارجها ، من أستاذ جامعي يساعد زوجته في المطبخ وقعد عن صلاة الجمعة ، الى الفلاح ، والراعي ، في حقل هذا وغابة ذاك ، بفضل هذه الآلة العجيبة التي تسمى الترانزيستور · «الأصالة»

الحمد لله الذى أحيا قلوب المؤمنين بالقرآن ، وأمات قلوب الكافرين بالمكابرة والعصيان ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، واشهد ان سيدنا محمدا عبده ورسوله الذى بلغ رسالة القرآن للكفرة والمنافقين وأهل الايمان ، صلى الله عليه وعلى آله ورضي الله عن الصحابة والتابعين الى يوم الدين ·

أما بعد ، أيها المسلمون فقد تقدم في بداية سورة البقرة التوضيح الكامل لعباد الله المتقين والمؤمنين ، فالمتقون آمنوا بالغيب وداوموا على الصلاة ، وبذلوا مما رزقهم الله في سبيل الطاعات ، أما المؤمنون فآمنوا بالله وبما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبما أنزل من قبله ، وأيقنوا بيوم الجزاء والحساب ، فهؤلاء وأولئك شملهم رضا الله ورضوانه ، وغمرتهم رحمته واحسانه ، فكانوا من الفائزين في الدارين · اذا عرفنا الايمان والمؤمنين والتقوى والمتقين ، فلا بد أن نجد في الطرف المقابل صفحة الكافرين والمنافقين قال تعالى : **« ان الذين كفروا سواء عليهم آنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ، ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم »** ·

وقد جرت سنة القرآن في التعبير عن هذه الطائفة بالكافرين ، والفاسقين ، والخاسرين ، والظالمين ، والمجرمين · « ان الذين كفروا » أي غطوا الحق وستروه ، ووضعوا الاشياء في غير موضعها ، وخرجوا عن طاعة الله ورسوله بمحض اختيارهم

1) خطبة الجمعة ليوم 19 جمادى الثانية 1398 هـ 26 مايو 1978 م ·

وبحكم اندفاعهم ، وقصر عقولهم فوصلوا الى حافه الخسران ، قال تعـالى فيهـم : « **الذين خسروا انفسهم فهم لا يؤمنون** » ، « **وقالوا قلوبنا فى اكنة مما تدعونا اليـه وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب** » فهؤلاء قد خيـم الجهـل عليهم ، وتحجرت قلوبهم ، وماتت ضمائرهم ، وفقدوا كل احساس وشعور « سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » لان الكفر من معانيه : الستر والتغطية والظلام والسحاب · ان هؤلاء الكافرين لا يؤمنون بما دعا اليه رسول الله وبما انزل عليه من ربه كما قـال تعالى : « **ان الذين حقت عليهم كلمات ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل اية حتى يـروا العذاب الاليم** » انهم صمموا على الكفـر والعناد فقد نفروا مـن الايمان ، وكفـروا بالقرآن ، وعصوا الرحمان ، وتعادل لديهم الانذار وعدمه فهم لا يؤمنون بما جئتهم به · وقال على ابن ابى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى : « **ان الذين كفـروا سـواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** » قال كان رسول الله صلى اللـه عليه وسلم يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى فأخبره الله تعالى أنه لا يؤمن الا من سبق له من الله السعادة فى الذكر الاول ، ولا يضل الا من سبق له من الله الشقاوة فى الذكر الاول » ·

اختلف المفسرون فى أن : كفر الكافر الاصلى اقبح ، أم كفر المنافق ؟

قال قوم كفر الكافر الاصلى اقبح لانـه جاهـل بالقلب كاذب باللسان · والمنافق جاهل بالقلب صادق باللسان ·

وقال آخرون : بل المنافق أيضا كاذب باللسان ، فانه يخبـر عن كونـه على ذلك الاعتقاد مع أنه ليس عليه · ولذلك قال تعالى : « **قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم** » ·

وقال: « والله يشهد ان المنافقين لكاذبون » ·

ثم ان المنافق اختص بمزيد امور منكرة ذكرها الامام الرازى فى تفسيره ، وهي أن المنافق قصد التلبيس والكافر الاصلى ما قصد ذلك ·

والثانية ان الكافر على طبع الرجال ، والمنافق على طبع الخنوثة ·

والثالثة ان الكافر ماض لنفسه بالكذب ، بل استنكف منه ولم يرض الا بالصدق والمنـافق رضـي بذلك ·

والرابعة أن المنافق ضم الى كفرة الاستهزاء ، بخلاف الكافر الاصلى ، ولاجل غلظ كفره قال تعالى : « **ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار** » ٠

وذكر الرازى فى تفسيره كذلك ما يوضح معنى قوله تعالى : « **الذين كفروا** ٠٠٠ الآية » وأرشدنا الى ما اختلف المفسرون فيه ، فقال بعضهم المراد بقوله : « الذين كفروا » هم رؤساء اليهود المعاندون الذين وصفهم الله تعالى بأنهم يكتمون الحق وهم يعلمون وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما ٠ وقال آخرون بل المراد قوم من المشركين كأبى لهب وأبى جهل والوليد ابن المغيرة وأضرابهم ، وهم الذين جحدوا بعد البينة ، وانكروا بعد المعرفة ، ونظيره ما قاله تعالى : « **فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه** ٠٠ الآية » ٠ وكان الرسول عليه السلام حريصا على أن يؤمن قومه جميعا حيث قال الله تعالى له : « **فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا** » وقال : « **أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين** » ثم انه سبحانه وتعالى بين له عليه السلام أنهم لا يؤمنون ليقطع طمعه عنهم ولا يتأذى بسبب ذلك ، فان اليأس احدى الراحتين ٠

فالرسول عليه السلام بعثه رحمة للعالمين كما قال : « **وما أرسلناك الا رحمة للعالمين** » ولكن عناد المشركين وتكبرهم جعلهم منكرين غير معترفين بهذه الرسالة السماوية ، ولا بمن جاء بها فكانت المعارضة شديدة من المشركين ، فلم ينتفعوا بالقرآن ، ولم يهتدوا الى نور الايمان : « **لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها** » ٠ وتلك هي نهاية العناد ، ولو أنهم فتحوا قلوبهم بالتأمل واسماعهم بالاصغاء الى ما يتلى من آيات بينات ، وأبصروا ما خلق الله من كائنات ، لتأثروا بالقرآن ، واهتدوا الى توحيد الرحمان « **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم** » وقال : « **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون** » ٠

اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ٠ وأزل حيرتنا وغفلتنا واجعلنا من الذاكرين الشاكرين فى كل حين آمين والحمد لله رب العالمين ٠

الخطبة الثانية

الحمد لله الذى اكرمنا بالسمع والبصر ، فنحمده حق حمده بالثناء عليه والشكر، ونشهد أن لا اله الا الله شهادة تنجينا يوم الحشر ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده

ورسوله الشافع فى أمته يوم الحساب والنشر ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن والاه الى يـوم الـدين ٠

أما بعد أيها المسلمون فان الله أنذر أهل الكفر ، بما أنزل على نبيه من الذكر ، ودعاهم الى التدبر ، والى ما يحييهم وينبه قلوبهم ، ويؤثر فى أسماعهم ، فأبى أكثر الناس الا كفورا ، وأصروا على عدم الايمان بالله وبرسوله لذلك كله : « **ختم اللـــه على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ، ولهم عذاب عظيم** » طبع اللـــه وختم وكتم على هذه القلوب المريضة الفاسدة التى لا تفرق بين الحق والضـــلال ، كما طبع على أسماع هؤلاء المكابرين فكأنه غطـى آذانهم وسترها وسدها فـلا تسمع انذارا ، لا ســرا ولا جهارا ، وجعل سترا كثيفـا على أبصارهم فـلا يرون حقا ، ولا ينطقون صدقا ، وذلك لانهم أختاروا طريقة العناد ، ولم يعبدوا رب العباد ٠ « **أفمـن زين له سوء عمله فرآه حسنا ، فان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء ، فـلا تذهب نفسك عليهم حسرات ان الله عليم بما يصنعون** » علم الله صنعهم وتصرفهم وقد حكم عليهم ، فلا معقب لحكمه فختم وكتم ، بعد انذار وتحذير ، من الله العليم الخبير ، ان قلوب الكفار اغلقت على الكفر ، وأحكـم اغلاقها بالكتم والختم ٠ وهذا هـو مصداق قوله تعالى فيهم وفيمن ســار على طريقهم « **لهـم قلوب لا يفقهون بهـا ، ولهم أعـين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها** » ٠ أي زودهم الله بالمعرفة بالقلوب الحية النابضة وبالاعين الباصرة ، وبالاسماع المرهفة ، فعطلوها ولجوا فى العناد والالحاد فجاء حكم الله عليهم قاسيا ، وخصوا بالعذاب العظيم الذى كان عاتيا ، « **وأمـا من خفت موازينه ، فأمه هاوية ، وما أدراك ما هية ، نار حامية** » ٠

وينبغى للمسلم أن يتعظ بما صار اليه الكافر المكابر ، وأن يسمع قول الله الذى ينادى الناس كافة بقوله : « **يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله ، والله هو الغنـــي الحميد ، ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ، ومـا ذلك على الله بعزيز** » ٠ فأنتم تحت سلطة الواحد القهار ، الذى بيده الاعمار ، فتوبوا اليه ، واستغفروه ووحدوه ، انــه نعـم المـولى ونعـم النصير ٠

اللهم أعنا على أداء فرائض ديننا وأهدنا واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنــت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ٠

المنافق يظهر الايمان ، ويخفى المخادعة والعصيان (1)

سليمان المدنى

الحمد لله الذى طبع على قلوب الكافرين ، وجازاهم بالعقاب الشديد يوم الدين ، واشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، واشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذى أرسله ربه لكافة خلقه بشيرا ونذيرا ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن والاه الى يوم الدين ٠

اما بعد ايها المسلمون ، فقد سبق الحديث عن المؤمنين المتقين ، وعن الكافرين المتجبرين ، الطغاة العتاة الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ، وفى هذا الصدد قال ابن جرير ، فأخبر رسول الله صلى الله عليه أن الذنوب اذا تتابعت على القلوب أغلقتها ، واذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله تعالى ، والطبع ، فلا يكون للايمان اليها مسلك ، ولا للكفر عنها مخلص ، فذلك هو الختم والطبع الذى ذكر فى قوله تعالى : « **ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم** » نظير الختم والطبع ما تدركه الابصار من الاوعية والظروف التى لا يوصل الى ما فيها الا بفض ذلك عنها ثم حلها فكذلك لا يصل الايمان الى قلوب من وصف الله أنه ختم على قلوبهم وعلى سمعهم الا بعد فض خاتمه وحله رباطه عنها ٠

ايها المستمع الكريم ، اذا عرفت الكفر وما قيل فى الكافرين ، فاستمع الى الطائفة الثالثة (من النافقين) الذين وصفهم رب العالمين بقوله : « **ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ، يخادعون الله والذين آمنوا وما يخادعون الا أنفسهم وما يشعرون** » هؤلاء الناس اي الطائفة المنافقة تظهر الايمان وتبطن الكفر ،

(1) خطبة الجمعة ليوم 26 جمادى الثانية 1398 ﻫ 2 يونيو 1978 ٠

لتبالغ فى الخديعة والمكر ، ولتفعل كل أفعال الشر ، لذلك حذر الله رسوله منها ومن شرها ، وفضحها بقوله : « وما هم بمؤمنين » والدافع لذلك أنهم أصبحوا قلة معزولة لم يستطيعوا مجابهة المسلمين فى المدينة المنورة ، لذلك اتخذوا طريقة التكتم والتستر . ليفعلوا ما بدا لهم من شر ، وليأمنوا على مصالحهم وذراريهم ، وعلى نسائهم وانفسهم من كل خطر وضرر .

ولمزيد من التوضيح لحالة هذه الفئة الباغية بين الله تعالى لرسوله بقوله : « **اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله ، والله يعلم انك لرسوله** » أي يقولون ذلك بالسنتهم المخالفة لاعتقادهم بشهادة الله الذى لا يخفى عنه خبث هذه الطائفة الكاذبة الماكرة ففضحها بقوله : « **والله يشهد ان المنافقين لكاذبون** » . لان النفاق هو اظهار الخير ، واسرار الشر ، والمنافق هو من يخالف قوله فعله ، وسره علانيته ومدخله مخرجه ، ومشهده مغيبه ، وقد جعلهم الله فى صف الكافرين وأمر نبيه بجهادهم والغلظة عليهم والتنبه لتصرفاتهم بين المسلمين فقال تعالى : « **يا ايها النبيء جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير** » . أي جاهد الكفار بالسيف ، والمنافقين باللسان ، وشدد على كلا الفريقين بالقول والفعل انهم من طينة آسنة فاسدة ، فلا تنفع فيهم الموعظة ، ولا تردعهم الزاجرة ، فمصير هؤلاء وأولئك الى أسوا مصير ، « **ان هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا ، نحن خلقناهم وشددنا أسرهم ، واذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا ، ان هذه تذكرة ، فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا ، وما تشاءون الا أن يشاء الله ، أن الله كان عليما حكيما ، يدخل من يشاء فى رحمته ، والظالمين اعد لهم عذابا اليما** » . وقد ظهر النفاق بالمدينة المنورة بعد أن هاجر اليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقويت شوكة المسلمين بها ، وعظم سلطانهم بالتصرف فى شانها ، فعظم الامر على من كانوا قبل ذلك يسيرونها ويتهيأون لرئاستها وسياستها من منافقى الأوس والخزرج ، فلما جاءها الرسول وأسلم اغلب سكانها ، ظهر النفاق فى قلة قليلة ، وتضامنوا مع اليهود المتساكنين بها ، وهم بنو قينقاع حلفاء الخزرج ، وبنو النضير ، وبنو قريظة حلفاء الاوس . ولعل اكبر الناس عداوة للمسلمين هو (عبد الله بن أبى ابن سلول) وهو من قبيلة الخزرج وكان من السادة والقادة ، فلما كان انتصار المسلمين فى واقعة بدر ، أظهر اسلامه واتبعه من اتبعه فى ذلك من شيعته ، من العرب واليهود وتفننوا فى الكتمان والسرية والجهود ، فأعلنوا الايمان وأخفوا الكفر والعصيان . وهؤلاء هم

المنافقون الذين ظنوا بجهلهم وغباوتهم أنهم « يخادعون الله والذين آمنوا » ويفتنونهم فى شتى الميادين فبين الله أن فعلهم هذا وهو اظهار الايمان باللسان ، ونكرانه بالاعتقاد فى الجنان ، مضر بهم وحدهم وخدعوا به أنفسهم فقال تعالى : « **وما يخادعون الا أنفسهم وما يشعرون** » فكان خداعهم ومخادعتهم على كلا الوجهين مضرا بأنفسهم ، وهم لغباوتهم غير شاعرين . وقرىء قوله تعالى : « **وما يخادعون – وما يَخْدَعُونَ** » وكلا القراءتين ترجع الى معنى واحد ، فاذا عرفت أيها السامع حالة هؤلاء المنافقين المذبذبين مجملة فانها ستأتى مفصلة فى الآيات اللاحقة ، ان شاء الله ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .

الخطبة الثانية

الحمد لله الذى أحيا قلوب المؤمنين بالموعظة الحسنة ، وأمات قلوب الفئة المنافقة ، الكاذبة المخادعة ، وأشهد أن لا اله الا الله الواحد القهار ، وأشهد أن سيدنا محمداً النبي المختار ، الذى بشر بالجنة وحذر من النار ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه ومحجته .

أما بعد أيها المسلمون ، فيقول الله فى المنافقين ، أعداء الدين ، الذين وصفهم بما يتفق مع حالهم : « **فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ، ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون** » هؤلاء جمعوا الى الكفر ، رذائل المكر ، والخديعة والغدر ، انهم يكذبون على المسلمين بأنهم آمنوا بالله وباليوم الآخر «وما هم بمؤمنين وهذا هو الخداع والنفاق وهو المرض بعينيه ، والمرض نوع من الشك والريب ، خالط ضمائرهم فأفسدها وزادها بعدا عن طاعة الله ، واتباع رسول الله ، فزادهم الله شكا ونفاقا ، « **فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم الى يوم يلقونه بما اخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون** » انهم اظهروا الايمان ، فكانوا بهذا مسلمين وقالوا كلمة التوحيد ، فاستحقوا الامان من المسلمين والمعاملة الطيبة منهم ، وابطنوا الكفر والعصيان ، وهذا لا يطلع عليه الا الله الرحيم الرحمن ، الملك الديان .

وثبت فى الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : « أكره أن يتحدث العرب أن محمدا يقتل أصحابه » ، ومعنى هذا كما يقول المفسرون : أن يقع بسبب ذلك القتل تغيير لكثير من الاعراب عن الدخول فى الاسلام ولا يعلمون حكمة قتل الرسول لهؤلاء المنافقين . اذ لا يعلمون حقيقة كفرهم وخبثهم

يقتلونهم ، وهذا الحال منهم يستوجب قتلهم ، والقضاء عليهم ، ولكن حكمة الرسول صلى الله عليه وسلم فى عدم الاقدام على قتلهم ، معوضة بجهادهم بالقرآن ، الـذى فضحهم فى كـل ميـدان ٠

وقال الامام الشافعى انما منع رسول الله صلى الله عليه وسلم من قتل المنافقين ما كانوا يظهرونه من الاسلام مع العلم بنفاقهم لان ما يظهرونه يجب مـا قبله ٠ امـا الامام مالك فقال : انما كف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنافقين ليبين لامته أن الحاكم لا يحكم بعلمه ، ووضح القرطبى هذا المعنى بقوله : قال : وقد اتفق العلماء عن بكرة أبيهم أن القاضى لا يقتل بعلمه ، وان اختلفوا فى سائر الاحكام ٠

وما جاء فى الصحيحين أن رسول الله قال : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا اله الا الله فاذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم الا بحقها وحسابهم على الله عز وجل) ومعنى هذا أن مـن قالها جرت عليه احكام الاسلام ظاهرا ٠ وانمـا كان التحذير بالقرآن لهؤلاء اتباع الشيطان ، فقال تعالى : « **لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها الا قليـلا ، ملعونين اينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا** » ٠

أيها المسلمون : ان هؤلاء المنافقين المتسترين قد حاربهم القرآن بأوضح بيـان ، وأشار اليهم فاتضحت سماتهم وتبين لحنهم فى قولهم فلم تبق الا فضيحتهم والاشارة بالاصابع اليهم ، فقال تعالى : « **ولو نشاء لاريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول** » « **فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون** » ذكر بعض المفسرين أسماءهم فقال : وهم المنافقون (عبد الله بن أبى ، وجد بن قيس ، ومعتب بن قشير) وذكر الزمخشرى أن عبد الله ابن أبى ، قد شفع فيه سعد بن عبادة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (اعف عنه يا رسول الله واصفح ، فوالله لقد أعطاك الذى أعطاك ، ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة أن يعصبوه بالعصابة فلما رد الله ذلك بالحق الذى أعطاكه شرق بذلك) حديث متفق عليه ٠ وقرى (يكذبون) بالتخفيف وبالتشديد للمبالغة من كذب ، كما بولغ فى صدق فقيل صدق ٠

اللهم أعنا على الحق ، والصدق ، وقنا من كل منافق متملق ، يا أرحم الراحمين يا رب العالمين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين آمين ٠

دور المسجـــد فى بـــث الـــوعي والثقافـــة والحضـــارة الاســـلاميـــة

أحمد حمـانى
رئيس المجلس الاسلامى الاعلى
الجــزائر



ردا على كلمة السيد عبد القادر بن يسعد ، التى نشرتها جريدة الشعب فى ركن « بريد القراء » ، فى عددها 4421، الصادر بتاريخ 15 صفر 1398 هـ ، (24 يناير 1978) ، تحت عنوان : « متى نجعل من مساجدنا جامعات » والتى تساءل فيها عن دور المسجد اليوم ، بودنا أن نجيب عن تساؤلات الاخ القارىء بما يلى :

اننا نوافق السيد ابن يسعد فى اعتقاده بأن الحضارة المادية التى تسود العالم اليوم جعلت الانسانية تعانى من حيرة فكرية وتذبذب عقيدى ، وفراغ روحى تسبب فى تفكك الاسر وانحلال المجتمعات وانتشار القلق القاتل ، خاصة لدى الشباب • ومجتمعاتنا الاسلامية لم تسلم هى الاخرى من عدوى أمراض الحضارة المادية ، ووقع شبابنا فى كثير من الاحيان ضحيتها ، لافتقارهم الى الحصانة الفكرية والعقيدية ، وتسرعهم لقبـول الافكـار والاتجاهات الغريبة عن أصالتهم ومقوماتهم •

ولقد كانت المساجد دوما هي الحصن المنيع الذى تحطمت دونه محاولات تفكيك المجتمعات الاسلامية وسلخها من مقوماتها · كما قامت المساجد بدورها كاملا منذ العصر الاسلامي الاول ، وعلى امتداد عصور التاريخ الاسلامي ، وخاصة في العصر الذهبي ، حيث أسهمت بقسط وافر في ازدهار الحضارة الاسلامية · بل وأمدت الحضارة الانسانية بأجيال من العلماء في شتى المجالات ، ساهموا بالكثير في ازدهار حضارة عالم اليوم ·

ومنذ القديم كانت مساجد الجزائر تخرج كبار العلماء في علوم الدنيا والدين لهم شهرة عالمية ، أمثال ابني الامام ، وعبد الرحمن الثعالبي ، والشريف التلمساني ، والمقرى ، وابن مرزوق الجدو الحفيظ ، والقلصادى ، والوانشريسي ، ممن لا يحصرهم العد · وعلى بعضهم تخرج ابن خلدون ، والشاطبي ·

وفي العصر الحديث أخرجت مساجدنا رجال النهضة العربيه الاسلامية بالجزائر أمثال عبد الحميد بن باديس ، والبشير الابراهيمي ، ومبارك الميلي ، والعربي التبسي ، وحمدان الونيس ، وتلامذهم ، الاحياء منهم والاموات ، وهم كثير ·

ولقد كان الفضل للمساجد ، أثناء عهد الاحتلال البغيض ، في المحافظة على مقوماتنا وقيم شعبنا المتمثلة خاصة في الاسلام والعربية والايمان بالارض الجزائرية وطنا اسلاميا ، وكانت المساجد تكاد تكون الاماكن الوحيدة لسماع الدروس والقائها وخصوصا قبل عهد الاستقلال ـ ولكن الدراسة اليوم تطورت وأصبحت المساجد لا تقوم بواجبها لعدم صلاحيتها صحيا ، لايواء العدد الغفير من الطلاب ، وعدم ملاءمة الدراسة لاقسام كثيرة في أماكن قريبة بعضها من بعض ، لهذا أسست المعاهد لتعويضها وبقيت المساجد وملحقاتها لتعليم القرآن · للكبار والصغار ، والقاء دروس الفقه والتفسير والحديث ، والوعظ والارشاد ، وهذه هي مهمتها الاساسية ·

فمنذ استرجاع الاستقلال ، بدأ السعي حثيثا لكي يستعيد المسجد رسالته الحقيقية كمؤسسة روحية وتربوية · ودور المساجد في بلادنا اليوم ، ليس ـ كما يقول

السيد عبد القادر بن يسعد ـ مقصورا على أداء الصلوات الخمس فحسب ، بل انها ، بالاضافة الى اقامة الصلاة فيهـا وهى مهمتها الاساسيـة ـ تقـوم بتعليـم القـرآن للصبيـان فى أوقـات منتظمـة ، حسـب ما تسمح به أوقـات فراغهـم ، وحسـب درجة اقبالهم واقتناع أوليائهم بفائدة ارسالهم الى المسجد لحفظ ما تيسر من القرآن الكريم ، فقد ثبت ، للاسف الشديد ، أن بعضا من الاولياء لا يبعثون بأبنائهم الى المسجدلتعلم القرآن الا فى فترة العطل المدرسية ، بهدف واحد لدى بعضهم هو ابعادهم عن المنزل للاستراحة منهم ، وهذا رغم الدعوات الملحة التى ما انفكت يوجهها السادة أئمة المساجد الى سكان أحيائهم •

واذا كان بعض المواطنين غير مستعدين للاستجابة الى هذه النداءات المشكورة • فما ذنب المسجد والامام اذا لم تجد دعوته آذانا صاغية ؟ على أن هذا ، لحسن الحظ ، ليس هو وضع كل المساجد • بل ان كثيرا منها فى جهات مختلفة من البلاد تشهد فيها عملية تحفيظ القرآن الكريم اقبالا كبيرا ، والتعليم القرآنى فيها منتظم وفق جدول يمكن لاى واحد الاطلاع عليه • وتتخرج من مساجدنا سنويا أفواج من صغار حفظة القرآن الكريم يشاركون خلال شهر رمضان من كل عام فى مسابقات جهوية ، وفى المسابقة الوطنية التى تنظم فى العاصمة ، وتوزع الجوائز عى الفائزين فيها ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان من كل سنة وبانتظام ، بمناسبة الاحتفال بذكرى نزول القرآن الكريم، بحضور الجماهير والسلك الدبلوماسى الاسلامى فى الجامع الكبير بالعاصمة أو جامع الابيار تحت اشراف السيد رئيس الجمهورية وبعض الاعضاء من مجلسى الثورة والحكومة ، وكم من مرة رأينا فيها صغار الحفظة بنين وبنات من هم فى العاشرة من عمرهم أو دونهـا •

كما يلعب المسجد دورا هاما فى اعطاء دروس للكبار فى اطار مكافحة الامية ببلادنا، واذا كانت هذه العملية محدودة فى بعض الجهات ، نظرا الى أوقات العمال المتفاوتة ، التى لا تسمح للجميع بحضور هذه الدروس • فانها أعطت فى جهات كثيرة نتائـج مشجعة • والذين تابعوا هذه الدروس بانتظام ، استطاعوا أن يصلوا بفضلها الى مستوى الاهلية ، بل ان بعضهم نجحوا فى الحصول على هذه الشهادة •

وبالاضافة الى ما سبق ذكره ، فان دروس الفقه والتفسير تعطى فى المساجد بعد صلاة المغرب من كل يوم ، تشهد هذه الدروس نجاحا كبيرا واقبالا متزايدا فى كثير من الجهات ٠

واذا كان صاحب المقال قد لاحظ خلو بعض المساجد من هذا النشاط ، فان ذلك قد يعود الى عزوف بعض المواطنين عن حضور هذه الدروس فى هذا الحى أو ذاك ، كما سبقت الاشارة اليه آنفا ، وللاسباب السالفة الذكر ٠ ولعجز الائمة فعلا فى حالات أخرى وهذا وضع مؤقت لا ننكره بل نأسف له ونحن بصدد معالجته ٠

وليعلم الاخ عبد القادر بن يسعد أن هذه النشاطات المسجدية المتمثلة فى تحفيظ القرآن الكريم ، ودروس محو الامية ، والدروس المسجدية ، تعتبر من صميم أعمال الائمة ، التى وظفوا من أجل القيام بهذا بالاضافة الى امامة الناس فى الصلوات الخمس ، وصلاة الجمعة ، وقيامهم بالوعظ والارشاد والافتاء ٠

وفى الختام ، أملنا أن يكون السيد ابن يسعد قد عرف الدور الحقيقى الذى يلعبه المسجد اليوم فى بلادنا ، وأن يعلم أن هناك مراقبة صارمة من طرف الوزارة حتى يقوم المسجد بالمهام التى ينتظرها الجميع منه ، بقدر الامكان ٠

وهذا لا يعنى أننا قانعون بهذا العمل ، فرسالة المسجد أكبر وأجل ، وننتظر أن تسترجع مساجدنا دورها الكامل تدريجيا ، وتعود كما كانت فى عصورنا الذهبية مراكز اشعاع روحى وعلمى ، **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون** ، واننا لنرحب بكم للمساهمة فى هذا العمل ان كان لكم استعداد وبكل من له حسن استعداد ٠

توضيح حول نشر محاضرات الملتقى

ننشر هذه المحاضرات طبقا لمبدأ نشر كل محاضرات الملتقى الذى أعلنا عنه فى العدد الاول من « الاصالة » تعميما للفائدة ، ولطلب الكثير ممن تصلهم المجلة ولا تصلهم كتب الملتقيات .

وقدقررنا أن ندرج فى كل عدد على الاقل مقالين .

ونرجو أن يكون السادة الاساتذة الذين أرسلوا الينا بمقالات لم نصل بعد الى نشرها وعاتبونا على نشر القديم المتمثل فى هذه المحاضرات من ملتقيات سابقة،وترك الجديد من الانتاج ، قد فهموا الآن قصدنا من هذا .

كما سندرج فى المستقبل فى كل عدد ، بانتظام ، نصا أو نصين من المحاضرات التى درجت الوزارة على تنظيمها خلال القطر منذ سنوات باسم المركز الثقافى الاسلامى .

تأملات حول مستقبل الحضارة العربية والاسلامية



الاستاذ ابراهيم غافة
سفير الجزائر فى اليابان

سيداتى سادتى :

أتى الاسلام ثورة فى الاخلاق وفى التنظيم الجماعى وفى تجنيد وصهر القبائل العربية للقيام بالدعوة المحمدية ونشرها فى كل آفاق المعمورة .

الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، التثقيف فى الدين ، المساواة والحرية ، لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى ، وكل من آمن بالاسلام وانتظم تحت لوائه أصبح قوة ضاربة معباة يبادر الى الاستشهاد حتى يظفر بالفوز المبين ويكون فى عداد الخالدين بالعقيدة وبالجهاد ، ظفر الاسلام بحضارات ثلاث ، حضارة الفرس العجم وحضارة الرومان وحضارة الفراعنة ، كما جعل الاسلام من القاعدة العربية الارضية المتينة التى رد بها على بنى اسرائيل بعزم وتصميم وبنى عليها صرح الحضارة العربية الشامخ التى عاركت الحياة والوجود وبقيت لحد الآن فى عداد حضارات العالم الرئيسية بفضل الفتوحات الاسلامية ، وبفضل تجنيد العرب وجهادهم فى سبيل الله، صارت اللغة العربية لغة الكتاب المبين ، المعبر القيم للحضارات الغابرة ، عرفت بتاريخ الهند القديم ، وبتاريخ الصين ، كما سطرت المعالم الاولى لتاريخ الاجتماع فى المغرب ، وتاريخ العلوم فى المشرق ويكفى أن نستشهد هنا بابن خلدون و بالبيرونى .

لم يعق اللغة العربية التعبير عن فلسفة اليونان والفرس والهند والرومان ، كما لم يعقها أن ترسى قواعد الجبر والكيمياء والفيزياء والرياضيات ، وما تبقى من كتب البيرونى يغنى عن المناقشة والاستشهاد بمزايا اللغة العربية وقدرتها على استيعاب عيون الحضارات

(*)محاضرة القاها فى الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الاسلامى المنعقد بقسنطينة فى 17/8 جمادى الثانية 1390 هـ ـ 10/19 اوت 1970 م .

السالفة ، والتعريف باختراعات وابتكارات قادة الفكر فى الماضى ٠

اذن بالعقيدة وبالجهاد وبتنظيم القبائل العربية ، تنظيم البدو الرحل ، وبالفتوحات لنشر الدين الحنيف ، وبث دعوة محمد ، أصبح للعرب والاسلام شأن عظيم ، وتاريخ حافل ، كبير ، طبع به الانسانية جمعاء قرونا طوالا ٠ وبنى الغرب نهضته على الحضارة العربية ، وكانت اللغة العربية هى اللغة السائدة ، لغة العارفين الباحثين فى الكنيسة فى اسبانيا وفرنسا وايطاليا ، ومن ينكب على دراسة النهضة الاوروبية فى القرون الوسطى يرى تأثير فسلفة ابن رشد وابن طفيل وابن سينا والمعرى ، وابى حيان التوحيدى ، أفكار مترجمة برمتها الى اللاتينية،أدت الى خلق مدارس الفكر الفلسفى الاوروبى وحتى الفكر العلمى كالطب مثلا ٠ والدكتور عبد الحليم منتصر فى عدد اغسطس 1970 م لمجلة العربى فى مقال عنوانه تعريب العلم يطالب بمتابعة كل ما ينشر من الكتب والمطبوعات والدوريات فى اللغات المختلفة من انجليزية وفرنسية وألمانية وروسية ، ثم يقول : لعلنا بذلك نسيد عصر المأمون الذى جمع جمهرة العلماء وأنفق على الترجمة بسخاء حتى تم فى عهده نقل التراث الاغريقى الى اللغة العربية واعتبر بذلك واضع أساس النهضة العلمية فى العلم الاسلامى الزاهر وحافظ التراث الاغريقى من الضياع ٠ تلك النهضة التى قدمت لاوروبا زاد نهضتها العلمى ، فقد ظلت مؤلفات العلماء العرب من أمثال الكندى وابن الهيثم والخوارزمى والخازن وابن سينا والبتانى والبيرونى والرازى وابن النفيس وغيرهم ظلت المراجع المتعددة فى جامعات أوروبا حتى أواخر القرن 17 والقرن 18 فقد نقلت الكتب العربية الى اللغات الاجنبية وطبعت عشرات المرات لتكون بين أيدى الدارسين فى معاهد أوروبا طيلة

..

تذكيرنا هذا الموجز لأسباب نشر الحضارة العربية الاسلامية منذ الدعوة المحمدية من القرن السابع الى القرن الخامس عشر بعد المسيح أى بعد انهيار العرب فى الاندلس فى (1492) انما لنبين ، ان الحضارة كائن حى ينمو ويترعرع مع وجود أهلها وأصحابها وان الحضارة لا تنفصم عن وجود الامم فى جميع مظاهر حياتها فى آمالها

ونشاطاتها فى انتصارها وفى هزيمتها ، فى بقائها وفى فنائها.

انا فى يوم من الايام اخذنا الكلمة باسم جبهة التحرير الوطنى الجزائرية وربطنا كفاح الجزائر بالدفاع عن عروبتها واسلامها وكان ذلك فى احدى مؤتمرات أدباء العرب وأمام الدكتور طه حسين ، فما كان منه الا أن رفض أن يربط الادب بالسياسة ، ومنذ ذلك الحين ونحن نفكر فى هذا الموقف **ولا زلنا نصر وأكثر من أى وقت مضى وخاصة بعد استقلال بلدنا العزيز بربط الادب بالسياسة** أى بجعل معركتنا الحضارية فى اطار اختياراتنا الاشتراكية لانه لايمكن لحضارتنا اليوم أن تنهج منهج التجربة الفردية أن تسلك سبيل المجهود الفردى ان تحذو طريق من يسرد حياته عبر الايام ويعبر عنها فى أسلوبه الخاص ليصبح نموذجا لمن يريد أن يصل الى القمة بمفرده منعزلا عن أحداث أمة برمتها ، معتكفا فى برجه العاجى ينظر الى أمور الادب نظرة التقنى المتخصص لينقد وينتقد ليبقى على هامش المصير .

ومدرسة احياء اللغة العربية واحياء التراث الاسلامى تنسى ان وجودنا اليوم يقتضى مجابهة صراعات أخرى متفاعلة مع الاحداث فى عالم تغير تماما عما كانت عليه بلادنا حتى فى بداية القرن العشرين.

طريقة محمد عبده وقبله جمال الدين الافغانى المعتمدة على التفسير الحديث – مثلا – للقرآن والهاب الشعور واذكاء الضمائر للنهضة غير كافية لانها تعتمد على التأويل لجعل تعاليم الدين تطابق مبتغيات العصر دون ان يحدث تغيير يذكر فى المجتمع الذى عاش فيه عبده وجمال الدين الافغانى ، وهذا ايضا لجهل مقتضيات الجغرافية السياسية العصرية .

فالاصلاح فى الجزائر – مثلا – بخصوص الدين أتى على أسس من الواقع وسياسة الدفاع عن النفس وتنازع البقاء ولم يأت فقط لزيادة ألوان فى الفكر باعثها الخيال والالمعية .

فمثلا ، عند ما أوجز **ابن باديس** فى مثلث واحد الحفاظ عن وجودنا بقوله : **«الاسلام ديننا ، والعربية لغتنا ، والجزائر وطننا»** أعطانا السلاح الفكرى لنقاتل به دفاعا عن بقائنا فوق هذه الارض بذاتيتنا وشخصيتنا . وعند ما نظم الشيخ البشير الابراهيمى تعليم شعبنا باللغة العربية عن طريق المساجد الحرة والمعلمين

الاحرار معبئين مثل المجاهدين بروح الايمان والحرية فاننا نجد ان الشعب الجزائرى امتحن فى معتقده وفى مقومات وجوده وخرج منتصرا بعد ما عارك الحياة فى كل مظاهرها السيئة وطبق بواقعية ملموسة ما أراد له رواد فكره ، فكان المفكر فى محك الاحداث لا مجرد استنتاج أو تأويل لشرح الشرح أو العنعنة المحفوظة ، أعطينا مثل الجزائر وهى تؤدى معركة التحرير مع معركة المعتقد والحضارة التى تنتسب اليها كدليل قاطع لضرورة ربط الحضارة بوجود الشعب فى جميع مراحل الحياة وجميع النشاطات الثقافية والعلمية والدفاعية .

تجربتنا فى الجزائر تزداد قيمة وبرهانا عند ما نتأمل فى أحداث الشرق الاوسط الراهنة وتأثيرها على مستقبل الحضارة العربية الاسلامية .

فبعد 5 حزيران 1967 م أصبح المفكرون والساسة فى الشرق الاوسط يتساءلون عن مصيرهم ومصير الحضارة العربية الاسلامية عن وجودهم وعن أراضيهم ، فربطوا بين سرعة ضربة العدو وعمق ذهولهم ، وصاروا ينتقدون المستوى العلمى والثقافى السائد فى بلادهم ، وسخطوا على عجزهم وجهلهم فى ميادين التقنية الحديثة ، وراحوا يعزون الهزيمة الى عدم استعدادهم للحرب الالكترونية الحديثة ، وطغت هذه النغمة فى جميع المحافل والاوساط فىالشرق الاوسط ولم نعد نسمع الا هذه الجملة : **خسرنا الحرب لاننا لم ندخل عصر الذرة ولم نعرف حضارة الآلة .**

وقرأنا فى احدى المجلات العربية مقالا لأحد الأساتذة فى جامعة مغربية ، يعزو الهزيمة الى حضارة الكلام والفخر والتبجح والعنتريات الفارغة التى لم تتغير من عهد المعلقات فى وقت عنترة بن شداد وعمر بن كلثوم .

طبعا ، اننا لا نشاطر رأى هذا الاستاذ لعدم اعتباره أسباب ودوافع الصراع فى الشرق الاوسط وظروف تطوره ، وتاريخ أحداثه وهى المنطقة الحيوية بالنسبة للمعسكرين الكبيرين الغربى والشرقى كممر استراتيجى وكمخزن عظيم للطاقة والمحروقات .

فى ازمة فكرية حادة ، فى أزمة مصير ، ازمة حضارة ووجـود ٠

لقد سمعنا احدى الشخصيات الشرقية الكبـيرة المتضلعـة فى علوم الدين الاسلامى ، وهى تتساءل عن مصير القومية العربية بعد جوان 1967 م ٠

هذه الشخصية كانت تدلل بأن مصر هى التى ورثت بفضـل الازهر الدفاع عن العروبة والاسلام ، وهى التى صمدت قرونا طوالا فى سبيل التثقيف الدينى وتبينت الدعوة المحمدية العربية الاسلامية وبثها ، وان مصر تخلت عن الفرعونية ، وأصبحت مهد الحضـارة العربية الاسلامية ، وحيت بذلك وتابعت رسالتها الحضارية ، ولم يك مصيرها مصير حضارة الفرس والرومان ٠

على هذا الاساس خاطبت هذه الشخصية الولايات المتحـدة الامريكية متسائلة ، كيف يصح لهذه الدولة العظمى وهى التى أنقذت العالم من كارثة النازية أثناء الحرب العالمية الثانية ، أن تسـاند نازية أخرى وهى الصهيونية ، وتريد أن تمكنها من أرض العـرب وتساعد على اذلالهم والحط من شأنهم ، وراحت الشخصية تحـذر الولايات المتحدة من الاستمرار فى الغلطات مثل تلك التى مكـنت الشيوعية من الاستتباب فى الاتحاد السوفياتى (هكذا) ، وان تمادت الولايات المتحدة الامريكية فى غيها ، فمن يمنع الشيوعية من بـلاد العروبة والاسلام ؟ ٠

هذا الحديث قديم فعلى عهد المستشرق ماسينيون كانت الفكرة فى اتحاد المسيحية والاسلام ضد الشيوعية فى الصراع الفكرى ٠

اليوم اننا نرى التعايش السلمى يتجاوز هذه الافكار ويغلب عليها المصالح الاقتصادية والاستراتيجية ٠

اوردنا هذا الحديث للتدليل على أزمة الحضارة السائدة اليـوم فى الشرق الاوسط٠مفكرون يربطون الآن بين سيادة بلادهم وأهمية الدور الذى تلعبه فى الميادين الدينية والثقـافية لتبصير الآخـرين بالخطر الذى يرونه والذى يمكن أن يمسهم جميعـا ٠

وهؤلاء المفكرون قدامى فى تفكيرهم وفى أسلوبهم ، عتـادهم قديم ووسائلهم بالية والتعبـير عنها اظهار لأزمتهـم ٠

عند ما انتصرت الجزائر لشخصيتها ولمعتقداتها وضحت بمليون ونصف مليون شهيد وعند ما خاضت الجزائر معركة الوجود المريرة لم تتساءل هل العدو المقابل سوف يسحقها بما لديه من عتاد الكترونى وذرى اليوم أو غدا ، فكانت ارادتها ان توجد أولا وان توجد بما هو معروف عنها من عروبة واسلام وبما هى تنتسب اليه من أمة عربيـة وحضارة عربية اســلامية ٠.

واليوم والجزائر تقوم بثوراتها الثـلاث الثـورة الصنـاعية والثورة الزراعية والثورة الثقافية لا بد وان تجعل هذه الثورات فى اطار من العصرية والتقنية بمكان ولا بد أن تتساءل عن مصير الحضارة التى تنتسب اليها ولا بد أن تساهم فى تشييدها وفى احيائها وتقويم اعوجـاجـاتهـا ٠

لقد انتهى دور التقليد،فللجزائر تجارب لم يخضها العالم العربى بعد ، للجزائر انضباط وسلوك ثورى لا يعرفه العالم العربى بعد ، للجزائر صيت عالمى فى التحرر والتغيير والتجديد والاندفاع ، على مثقفيها ان يسجلوا أبعاد ثورتها الشعبية كمساهمة فى حضارة العرب فى القرن العشرين ، التجربة الجزائرية تجربة شعبية اشتـراكيـة ليست تجربة فردية أو نجاح فرد تلمس طريقه ثم ضرب بنفسه مثلا كـآلهـة ٠

فمثلما نجحت الجزائر فى اثبات كيانها الوطنى لا بد ان تـأتى تجربتها الثقافيةُ الحضارية مكرسة لحياة ووجود ونجاحات الشعب الجزائرى ، وهذه النجاحات نجاحات الإنسانية المعذبة التى اهتدت الى سبيل السعادة والعمل والخلق والابتكار والتى ظفرت بقـادة تسكنهم همم الرجال الذين دخلوا التاريخ بالاعمال لا بالاقوال ٠

ثم مساهمة الجزائر فى بناء صرح الحضارة العربية الجـديد العصرى ستزداد قوة ومكانة بمساهمة بلاد المغرب العربى ، وليس فيها فصل او تباين بين الشرق والغرب ، وكذلك ليس هناك نية فى الاحتكار أو الانفراد بأية زعامة ثقافية ، لاننا نريد قبل كل شىء أن نكون نحن ثم نغتنى بتجارب الآخرين ثم نساهم بما عاركناه وبلوناه فى الحيـاة ٠

فالاطارات التى نثقفها لا نأمل أن تكون بضاعة فى السوق نؤجرها 97

ونقضي بها بعض المآرب أو لنتخلص من مشاكلها ، وانما نـريدها أن تكون خميرة الصعود وبذرة الرقى والتغيير والتطور فى تحقيق الاهداف الاشتراكية لا النجاحات الفردية التى تجعلها نخبة منحلة منفصلة عن واقـع الشعب تعيش على هامـش المصير والاختـيارات الوطنيـة ٠

ثورة الجزائر التى لم يعطها الكتاب العرب حقها من كتابة ومن تعريف والتى تغنى بها بعض الشعراء العرب كملحمة وكمفخرة على النمط والاسلوب العربى القديم ، أمامها مستقبل فكرى عظيم ، فـلا بد أن يسكن الطموح ابناءها للتعريف بها ولادخال ابعادهـا فـى الحضارة العربية التى لا تزال تتسم بالفردية والتى تتسـاءل فى الشرق عن مصيرها بعد جوان والتى هى اليوم فى اعتى امتحان تكون او لا تكـون ٠

فالحضارة مجموعة من الاعمال والابتكارات والنجاحات المادية والروحية ، لقد أتى دورنا لقد حانت ساعتنا ونحن نبنى ثـوراتنـا الثلاث لنخلق أدبا من حياتنا وعلوما نابعة من تجاربنا وأخلاقا سامية برهن على جديتها شهداؤنا فى أروع جهاد عرفه تاريخ العرب والاسلام

الثورة الثقافية فى الجزائر لا بد أن تكون فى مستوى ثـورتهـا السياسية العارمة الثقافة والعلم للجميع والمعرفة والعمل للجميـع هكذا نعطى للمشرق ولغير المشرق مثل انتفاضة الشعوب فى القرن العشرين ، وهكذا نعطى بعدا جديدا فى حضارة القرن العشرين ٠

لنعلن من هذه المنصة من صخرة قسنطينة ان عهـد التبعيـة الثقافية قد انتهى ، وان عهد الفكر والاختراع والابتكار والتجارب قد بدأ فى الجزائر وان الشرح وشرح الشرح قد ذهب الى غير رجعـة وان مركبات العجز والفشل قد فات أوانها وان التقليد لن يعـود غاية لنا ، ان مصيرنا بأيدينا واننا لا نتسـاءل عما سنعمل وعمـن سنكـون ٠

لقد سبقتنا ثورة مسلحة واننا ساعون فى ثورات ثلاث واننا غير مذبذبين فى الرأى ومراهقين أو عاطفيين أو خياليين ، اننا آخـذون بأسباب الثقافة والحضارة وبعد أن تعرفنا على أوضاع الشرق الاوسط الشيء الذى كنا محرومين منه على عهد الاستعمار وبعد أن مرت بنـا

التجارب والمحن وعلمتنا الحياة اعتبار مسيرة شعبنا الداخليــــة والتركيز على تغيير أوضاعه وتثقيفه والانكباب على مصالحه واعتبــار واقعه لصهر ثقافته والاخذ بيده كليا فى جميع الميادين لا يمكننــا فى الفترة الراهنة الا أن نعتمد على أنفسنا ولأمد طويل لخلق الثقافة الوطنية التى تجعلنا نقول ان الثورة الثقافية الجزائرية هى نتــاج أدمغة الجزائريــين الذين ساهموا فى التــراث الانســانى ولقد أتت ثورتهم المسلحة ومثل ثورة الاسلام الاولى التى أعطت غذاء للاجيــال طيلة القرون السابقـــة ٠

فبعد أن فسح لنا شهداؤنا مجال الاستقلال والسيادة واسعا ٠

فتكوين الادمغة الجزائرية لن يكفيه التغذية بالوان حضـــــارة العرب الماضية أو التشبع بمعارف الغرب كفرنسا وغيرها فلا بد أن يجتاز بناحب المعرفة الى اكتساب ما يسميه البعض اليوم حضــارة الصعود الى الكواكب حضارة سر الذرة والالكترون ، فعهد جمــال الدين الافغـــانى ومحمد عبــده وطه حســين والعقـــاد قد فــات ، **ان استقلال الجزائر وازمة الحضارة العربية بعد جوان 1967 يوجبان علينا أن نغير كليا افكارنا وان نبنى على أسس جديدة وجدية حضارة المستقبل فى بلدنا التى هى لا فردية ولا تقليدية ولا كلامية وانمـا حسب الواقع والملموس والنقد والبحث العلمى والفكرى المتطور أبدا٠**

اننا ندعو جميع المثقفين فى بلدنا الحبيب الى مراجعة الافكـار والى اعلان بدء العهد الجديد حتى لا يكون بناء صرح حضارتنا منقوصا معتمدا على التقليد البالى وعلى تجارب الآخرين الغير الناجعة أو تحقيق خرافات من مات وفات من الاجداد الغابــرين ٠

فكما نــرى ليست معركة الحضــارة اليوم فى استعــادة اللغــة وحفظ التراث الماضى فقط وانما بناء المستقبل باسم المستقبل وما يستلزم ذلك من تغيير فكرى واجتهاد ونقد وتمحيص ٠

فثورتنا الثقافية ليست أهدافها قريبة فقط وانما هى بعيدة حتى لا نفشل فى معركة النفوس معركة الادمغة معركة الايمان والاعتــزاز بالوجود والتى يعانى منها اليوم الشرق العربى

ومن يتعدى لتاريخ الحضارة فى بلدنا يرى انه تعاقبت علينــــا حضارات متتالية من الفينيقيين الى الرومان الى الوندال الى العرب الى

الاتراك ثم الى الفرنسيين واننا لم نتأثر بها فحسب بل أثر فيها بعض من اعلامنا على الاقل كحضارات الرومان والعرب والفرنسيين فالى اليوم يعتبر القديس اوجستان أحد آباء الكنيسة الكاثوليكية وكتابه «بيت الله» احدى المراجع للمتدينين المسيحيين ، اما الحضارة العربية فقد أسهم فيها علماؤنا ومن يريد استقصاء البحث عليه أن يراجع كتاب «عنوان الدراية فى تاريخ علماء بجاية» و «البستان فى تاريخ علماء تلمسان» ثم كتاب «نفح الطيب» للمقرى و «مقدمة ابن خلدون» التى كتبها صاحبها بالقرب من مدينة تاهرت الجزائرية ٠

ثم هناك شخصيات فذة لعبت دورا تاريخيا عظيما مثل ابن تومرت ٠

اما الحضارة الفرنسية فالى حد الآن يمكننا أن نعد بعضا من الكتاب الجزائريين الذين تأثروا بالثقافة الفرنسية وتشبعوا بها ٠

وهذه التأثيرات فردية أتت عن سلوك وطموح فردى لا يمكننا أن ننعتها بانها الثقافة الوطنية أو بالمثل الذى يجب أن يحتذى به وانما هى للتدليل على انعدام الثقافة الجماعية والمجهود الثقافى الجماعى المعبر عن مسيرة أمة برمتها وهى تنهض بمهام الخروج من التخلف والفقر والجهل ٠

ان **الدولة الجزائرية** التى تعطى اليوم التعليم الابتدائى والثانوى والعالى مجانا لمليونين من ابنائنا والتى تشد العزم على اعطاء السيادة المطلقة للغتنا العربية بعد حرمان شعبنا منها طيلة قرن ونيف كونت **لجنة وطنية لاصلاح التعليم ولجانا فرعية فى الولايات** حتى تضمن لبلدنا تعليما ناجعا وثقافة صالحة وحضارة حسية مبنية على الملموس والواقع والمعرفة الصحيحة ٠

حينئذ لا يضمن النجاح للتجربة الجزائرية الا اذا اجتازت الدائرة العربية العتيقة وتخطت البحث عن «**كان العرب وكا نالاسلام**» وأصبحت تترجم ذاتيتها وعبقريتها بالمنطوق الحديث وأسس عالمية العلوم العصرية بالبحث والتجربة والتمحيص والتبادل العلمى والتجارب العالمية فى الاختراعات والابتكارات ، ولا بد من تعلم اللغات الرئيسية العالمية ٠

لتكون لنا المدخل للعلوم التى لا بد من كسبها لنضمن الوجـود والبقاء فى عالم القرن العشرين والواحد والعشرين ·

فروسيا تأخذ عن أمريكا ، وأمريكا تأخذ عن أوروبا ، والصين تأخذ عن روسيا وأمريكا ، ونحن يجب أن لا نبقى متأثرين بالكلاميات والادبيات فقط ، أو نبقى محدودين عند عاصمة معينـة ·

فتخطيطنا الثقافى ينبغى أن يقيس انتاجنا الفكرى ، لا بروائع ماضينا فحسب ، بل بما يمكن أن يؤثر فى الانسانية جمعاء ، ويجعلها من روائع الفكر العـالمى الحـديث ·

هكذا نرى مستقبل حضارتنا العربية الاسلامية مستقبـلا يمـر اجباريا بتفوقنا الثقـافى والعلـمى والتقـنى يتغـذى من سياستنا الاشتراكية المضطهدة ، تستنير به للخروج من الظلمات التى تتخبط فيها · حينذاك تكتب لنا الحياة ، ونكـون صالحين ونـرث الارض ، قال تعالى : «**ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**» ، وقـال « **يرفع الله الذين آمنـوا منـكم والذين اوتوا العلم درجات** » ·

عند ما نطالب بتجاوز الاطار العربى العتيق والدخول الى عصـر التقدم التكنولوجى دون تردد لان التجدد أصبح ضرورة حتمية ملحة وحياتية ، لا بد لنا من أن نفهم رموز العالم الجديد وان نساير ركب الانسانية المتحضرة ، اننا ثرنا ثورة مسلحة لندك حصن التخلـف ولنتقدم أبدا ، والا فما معنى التضحيات ان عدنا الى الجمود والماضى البـالى ·

لقد رأى أحد علماء الاجتماع فى الغرب ان الشرق فى سعيـه اليوم وراء حضارة الآلة أصبح شرقا ثان ، ليس ذلك الشرق الـذى تعلم عنه الصليبيون والذى نقل حضارات العجم واليونان والرومان الى أوروبا فى القرون الوسطى ، وحتى ذلك الشرق الذى تأثر بـه الكاتب الالمانى جوته أو الذى تعرفت عليه أوروبا وكتابها الباحثون عن الخيال وعن النور بعد حملة نابليون على مصر ·

شرق الاستلهام ، شرق الخيال ، شرق الاخلاق والادبيات ، هذا تغير وأصبـح هو نفسـه يبحث عن الآل وهى عبارة فى القـواميس معناها السراب ، ولكنها حقيقة وقوة الدول العظمى التى توزن بثقل اختراعاتها وآلاتها على أمن وسلامة العـالم ·

اننا اليوم في الشرق العربي وفي المغرب العربي ، نبحث سويا تقريبا في نفس المستوى عن حضارة الآل ، والمعلم هو المجتمعات التي بلغت شوطا بعيدا في التكنولوجيا في أوروبا وفي أمريكا وفي آسيا ٠

ان التزامنا بالتكنولوجيا شرط أساسي للبقاء ٠ ان الاستعمار بالتقدم التكنولوجي يتوسع على حساب **المجتمعات المتخلفة** في بلاد العالم الثالث ، ولا بد أن نتسلح بسلاح التكنولوجيا ، للحد من الظلم ، والنهب الاستعماري الشره ، وهذا هو السر في اتباع سياسة الاكتفاء الذاتي ٠

فالحضارة الصناعية تمكننا من نفوذ مادي عظيم يسخر لنا امكانيات طبيعية ومدهشة ويصون استقلالنا وسيادتنا التي هي شرط أساسي لنمو شخصيتنا وحضارتنا ٠

ولقد سبقنا ابن رشد وابو حيان التوحيدي الى فلسفة الاستلهام الطبيعي **وكان ابن رشد يرى أن الطبيعة قاعدة يتدرج منها العقل الجماعي** ٠

وهذا دليل على تفتح التراث العربي نحو الطبيعيات ٠

نعم شرق عربي ومغرب عربي في نفس التساؤلات ونفس التأملات نحو الوجود والبقاء والتجدد والاصالة كل يأسف على اننا لم نكن نساهم بشيء في عهد البخار وعهد الكهرباء واليوم في عهد الذرة والالكترون وكل يعزو مصابه الى التخلف التقني والفني وكل يبحث عن الطريق المثلى في الاخذ بتلك الحضارة التي يطالب بها أحد فلاسفة الاجتماع الغربيين بان تمنح للفرد والجماعات امكانيات التحول المستمر بين الاشياء والسمات بين الافعال والكليات بين الطاقات والرموز ٠

اننا لا نريد التضييق على انفسنا وحشرنا في دائرة مغلقة ، فالشرق العربي منذ حملة نابليون وهو يوفد البعثات الى أوروبا وأمريكا ليغترف من العلوم الحديثة ، فالشرق نفسه يسعى لاقامة صناعات ولدخول عصر الذرة والالكترون ، فالشرق يترجم ويتعلم ويتفتح ، لقد لاحظنا هذه السنة ظاهرة معبرة في الشرق العربي ما

من مجلة فى العالم العربى الا وكتبت عن حياة لينين واشادت بمواقف الرجل بمناسبة مرور مائة عام على ميلاده ·

الصراعات الفكرية والاتجاهات السياسية المختلفة تغير من فكر الشرق وتهيء لعهد جديد فى خضم الصراع الدولى المتهافت على خيرات البلاد العربية ·

هذه الظواهر بعثت أحد الكتاب الاجانب الى اعتبار الشرق انه أصبح شكلا ثان أى ان الشرق الذى كان يلهم أصبح يستلهم ·

ودعوتنا الى بناء ثقافة وطنية انما هى استيفاء لشرط من شروط وجودنا الحر المستقل الذى يحتفظ بشخصيته مع الاقتران بالتقدم التكنولوجى ·

نعم نحن هنا فى الجزائر نبنى وجودنا دون أن تأخذنا الحيرة ودون تردد ، والحافز العظيم فى هذا هم الشهداء الذين بنوا استقلالنا ودكوا العقبات التى كانت تعترض طريق شعبنا دون حيرة ودون تردد لاننا انقذنا من مرض وضعف الخاملين اليائسين المتسائلين فى أمرهم الذين لم يستطيعوا دك حصون واسوار الظلم والاستبداد ، اننا لاحظنا فى الشرق العربى قلة الكتاب الذين يتناولون الثورة الجزائرية كمجهود انسانى جديد جبار وكطريقة للانقاذ والنهوض من العدم ·

اننا مثلا **قرانا فى مجلة العربى الشهيرة مقالا بقلم رئيس تحريرها الدكتور احمد زكى بعد ازمة حزيران بمناسبة مرور 3 سنوات على الهزيمة تناول الكاتب عددا من الثورات مركزا على الصمود** وذكر ثورة الفيتنام التى نجلها ونقدرها ، وذكر صمود انجلترا أمام هتلر وعظمة تشرشل **ولم يذكر كلمة واحدة بخصوص الثورة العربية فى الجزائر التى حققت اهدافا جلى ·**

كل التراب الجزائرى تحرر لا قواعد ولا سيطرة سياسية أو مالية لاجنبى وشعب برمته ينهض دون قيود وعوائق معبأ كله للصالح العام ، **لماذا هذا التجاهل لماذا هذا التناسى والعالم الثالث كله يذكر باحترام وتقدير معجزات الثورة الجزائرية التى انتصرت** بالسلاح والتى هى فى طريقها الى تقبيط جيش من المفكرين والمثقفين

ومن الفنيين والعلماء لتحقيق نصر مبين في ميادين الاقتصاد والاجتماع والصناعة عددا وعدة لبناء الحضارة في بلدنا بانفسنا ولتشع بدورها على غيرنا بمشاهمتنا في التراث الانساني العـــالمي ٠

خطواتنا مليئة بالثقــة في نفوسنا. مثــل تلك الثقة التي مكنت المجاهدين عندنا من احراز الغلبة في ميادين الشرف والقتال ٠

اننا ضربنا أمثلة بالكفاح الجزائري وبالصراع في الشـــــرق الاوسط والبحث عن المصير مرتبط بالتصدي الى مشاكل حضارتنا العربية الاسلامية وأكدنا على ضرورة الدخول بها الى الحضارة الصناعية والتكنولوجيا والاسلحة اليوم في متناولنا الكتاب والسنما والتلفزيون والمصنع والجامعات والمعاهد الثقافية والتكنلوجية ، علينا فقط أن نخطط اختياراتنا وان نخوض التحديات بايمان في النصر مع اليقين وبآمال الكادحين الذين يسبعون دوما في سبيل حياة أفضل ومستقبل باســم مشـــرق ٠

فجيلنا لا بد أن يعيش مع زمانه وان يصارع مشاكله الحاضرة والمقبلة ، لا فائدة في البكاء على الماضي ، لقد عادت لنا الحـــريــة وعادت لنا السيادة ورقص شعبنا لها وفــرح بها ولا بد الآن من أن يضمن البقاء والخلود لأبنائه فوق أرض يغيرها وبآله تغيره وتطور مجتمعـــه ٠

بلد أعطى المثل في الكفاح المسلح لا بد أن يحقق المعجزات عن طريق المختبرات والاختراعات والانجازات في البناء. والتشييد فـــي الفنون المعمارية والصناعية والهندسية ، والاوائل سبقونا الى هــذا في الاندلس وفي تاج محل روعات وآيات هندسية تصدى لها باعجاب كتاب عالميون مثل مالرو المستنطق للحضارات العظيم ٠

سكنت حضارة العرب منذ القرن الخامس عشر بعد المسيح لان العرب غلبوا واليوم ينهض العرب رويدا رويدا يتخبطون في صعوبات لا حد لها ويدركون شيئا فشيئا ان القوة سر الوجــود وان الشعــر والخطابة لا يكفيان للحياة وان الانظمة السياسية الواهية والهياكــل البالية والمتطفلين على المسؤوليات دون تحضير ووعي وادراك كلهــا عوائق في بناء الحضارة التي تستوجب التفاني في العلوم وفي الاخلاق

الحميدة الفاضلة وفى الهمم القعساء التى تريد أبدا القمم فى الفنون والآداب والعلوم الانسانية فى التقدم والرقى بالشعب كله لتنهض به من عهد التخلف والجهل الى عهد رجل الفضاء ٠

كما نرى ينبغى لتفكيرنا وللتفكير العربى ان يتوسع وان لا يبقى متجمدا فى عهد الفقهاء القدامى او محدودا فى عهد المجددين الذين كانوا يعتمدون على التأويل الذهنى دون تحليل العناصر الاجتماعية والانسانية للمجتمع الذى يعيشون فيه ودون دراسة العالم الذين هم فيه همهم فقط الابقاء على الماضى فى اسلوب الجديد الظاهر ٠

الحياة لحضارتنا العربية فى التجدد وفى المقارنة وفى التحدى مع الحضارات السائدة فى عالمنا تأخذ وتعطى تترجم وتتطور تتفتح لا تنطوى على نفسها اننا نريد لنا ابن خلدون ثانيا وبيرونى ثانيا ولكن بأسلوب وطراز العصر الحديث فى البحث الجماعى والانتاج والابتكار العلمى الملموس ، كفانا من حضارة الكلام ولندخل فى حضارة الملموس ففيها سر الحياة والوجود ٠

وعلى شبابنا فى هذا البلد أن يعتنق هذه المهمة فكل الوسائل لديه وكل الشروط متوفرة أمامه ٠

على شبابنا أن يدرك كنه وسر التطور فى التكنولوجيا وفى الالكترون وفى علوم الفضاء بذلك يتغير ويتطور فكر الامة بذلك يعرف ماضيه وحاضره وحقيقته لانه لا يمكن للانسان أن يمجد التخلف أو يفخر ويواصل التفاخر بما يجهله وبما لم يقمه بنفسه ٠

ولقد قال قائل :

ان الفتى من يقول ها انا ذا
ليس الفتى من يقول كان ابى

سيداتى سادتى :

أصالتنا عديمة الجدوى والفاعلية بدون تجدد شخصيتنا وتعدد مناهل معارفنا خارج حضيرة القديم وجعجعة طواحين الهواء ٠

لا بد أن نكون نحن وان نكون موجودين فى قطاعات المعرفة العصرية الحية ولقد عرفت فرنسا وانجلترا والدول الاوروبية أزمات فى الحضارة وفى الفكر وتغلبت عليها واعتنقت الكفاح من أجل الوجود

بتجديد جامعاتها ومعاهدها وبتغيير هياكلها الاقتصادية والفنيـة ، واشركت المثقفين في الاشراف والتسيير واعتنت بمشاكل الشباب، والتعليم أيما اعتناء ، وصارت هذه المشاكل موضوع العصر ، وكيف بنا نحن حـديثي العهد بالاستقـلال وبأمـور البحـث في التطـور والحضـــارات .

فتعرضنا لها واجب يمليه علينا ضميرنا وطموحنا في بناء الدولة الجزائرية التي لن تقل شأنا عن الدول الحية التي تبذل الكثـير من الجهد والمال ومن التفكير ، لتعمل على البقاء ودوام الوجود .

في التجدد سر وجـودنا ، وفي معركـة الفكر والتقنيـة أسباب حضارتنا . لنعمل اذا كلنا لنساهم في تجديد الحضارة العربيـــة الاسلامية التي ننتمي اليها ، ولندخل فيها بعد ثورتنا المسلحـــة ثورتنا الثقافية ، حتى نكون أحد عناصرها البارزين الخالدين .

والســـلام عليـــكم ورحمـــة اللـــه .

الـــروح الـــدينى فى الاســـلام
مصـــدره وأثـــره فى السلـــوك

[redacted]

د. الحبيب بلخوجـة
مفتش،الجمهورية التونسية
مفتي

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمدوعلى آلهوصحبه وسلم

معالى الوزير ،

أصحاب الفضيلة حضرات الاساتذة ،

سيداتى سادتى ،

لقد دعانى الى اختيار هذا الموضوع «الروح الدينى فى الاسلام ، مصدره وأثره فى السلوك» ما يعانيه العالم الاسلامى اليوم من أوضاع تجعله فى كل حين يجرى وراء الاضواء التى يتخيلها ، والتى يريــد أن يستمد منها الهدى ، وأن يستنير بها لتحقيق غايته ، والخروج من وضعه المؤلم ، وان هذا الوضع الذى هو عليه الآن بعد ان استطاع أن يقضى على الطغاة المستعمرين ، والمغرضين المستبدين ، الذين حكموا أرضه ، واستطاعوا أن يسخروا لانفسهم كل خير عنده ، وان يقتلوه ويضيعوا الحياة منه ، وجد نفسه بعد هذه الفترة فى وضع أشد ، وحالة أكثر خطورة ، ذلك أن غزو الارض قد تبعه غزو العقل،واستعمار البلاد قد تبعه استعمار العقول ، وهذه الحالة هى التى حاول كل واحد من اخوانى المحاضرين ، والشعراء ، والذين تناولوا الكلمة متداولين على هذه المنصة أن يتعرضوا لها باحثين عن أسباب هــذه الاضــواء ومحاولين الاشارة الى العلاج ولو من بعيد الى طرق العلاج ، لاماطـة اللثام عن هذه الاوضاع وتمكين الناس من طريق الخلاص ، وماذا عساى أقول بعد هذه الروائع البينة ، وبعد هذه الكلمات التى فتنتنا بسحرها وبقوتها ، وبالايمان المتجلى فيها ٠

(*)محاضرة القاها فى الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الاسلامى المنعقد بقسنطينة فى 17/8 جمادى الثانية 1390 هـ ـ 19/10 اوت 1970 م ٠

ولكني مع ذلك اعتبرت من الواجب على أن اتبع كلمتي الاولى عن ماضي الثقافة الاسلامية ، وحاضرها ، بهذه الكلمة الثانية التي أعتبرها متممة لاختها ، ووصلة لها ، وقبل أن أتناول بحث هذه الجوانب ، أرى لزاما على أن أستهدى بمقالات الاخوان ، وتحريات المحققين ، وافكار الخطباء الذين تداولوا على الخطابة في هذا الملتقى الرابع لاكشف عن بعض الحقائق التي أعتبرها حقائق ثابتة ، لا سبيل الى تغييرها ، ولا الى التنكر لها لكونها ستكون ذات أثر بعيد في مستقبل حياتنا لجهادية .

فقد كانت الاحاديث الذى تداول الخطباء عليها فى هذا الملتقى موقظة للهمم فاحصة للادواء ، متكاملة فيما تناولته من أغراض وموضوعات ، لكونها بحثت أحوال المسلمين وتحدثت عن الاسلام وحاولت مع ذلك أن تغوص على الحقائق الايمانية ، وما لابسها من أحوال ، كانت مرة تمكن من المجد ومرة تحول دون هؤلاء المسلمين وبين الامجاد التي يتعلقون بها فاذا التفتنا الى هذه الاوضاع ، ، وجدنا في الواقع الامة الاسلامية فى هذا الظرف العصيب الذى تمر به ، قد حاول المصلحون أن يأخذوا بيدها وأن يخرجوها مما هى فيه ، من ازمات ، ومن أحوال ، مازلنا حتى الآن ننكرها على أنفسنا ونتشاكاها ونحاول التخلص منها ، ولعل ذلك هو ما دعى بعض المحاضرين فى هذا الاسبوع لان يقول : ان الاصلاح فشل ، أو دعا بعض المتسائلين والمناقشين لان يقول : لماذا فشل المصلحون ؟ وأنا لا أرى شيئا من هذا الوهم الذى يدفع اليه اليأس لان المصلحين قد قاموا بدورهم على أكمل وجه ، ولان المجاهدين العلماء والزعماء قد قاموا بدورهم في أيقاظ النفوس ودفع الهمم واخراج الناس مما كانوا عليه ، فاذا الامة الاسلامية فى كل الاقطار ، فى المشارق والمغارب تعلن الحرب الضروس وثورة حمراء على الاعداء ، وبذلك استقلت معظم البلاد الاسلامية ، ولولا أن المصلحين قد قالوا قولتهم ، ووجهوا بشيء من النور تلك العزائم القوية لما وجدت من أرض الاسلام اليوم رقعة مستقلة متحررة ، فهذا الاستقلال اذن هو برهان لماكان للمصلحين من ذوق فى تحقيق المراحل الاستقلالية ، وفى تحقيق الخلاص للتبعية الاجنبية .

لكن هذا الوضع ليس هو الغاية فى حد ذاته ، فان التخلص من

601

والى أسبابها ، والى طاقاتها ، والى ما تجمع من قوة تشهد بفضل تلك الحضارة على غيرها ، خصوصا وقد كانت هي السبب في تقدم أوروبا وغيـرهـا .

لكننا حين نميل الى الرأى الاول نكون قد أسأنا التصور ، وحين نميل الى الرأىالثانى نكون قد غالينا فى التعلق بأشباح مـاضيـة لا سبيل لتحقيقها اليوم على الوجه الذى كانت عليه،لان التعلق بالاسباب الموجودة فى الغرب ، يكون تعلقا بالناحية المادية الصرفية التى لا وجود فيها للطاقة الروحية ، والتعلق بالاسباب القديمة الحضاريـة الموجودة فى العالم الاسلامى هو تعلق أيضا لا يفيـد اذا كـان عـلى المقاييس القديمة فحسب ، والذى لا ينظر الى التطورات الحديثة فى هذا العصر الجديد ، الذى يملؤنا فى كل يوم بطاقات جديدة متولدة عن هذه الصناعات والمخترعات .

ومثل هذه الاوضاع يدعونا بغير شك لنتوقف متأملين فى وضعنا الجديد ، والاسباب التى نأخذ بها لعزتنا وتحقيق مستقبلنا السعيـد ولا يظنن واحد منا ان الاسلام لن يجد غدا أفضل ، أو أن المسلمـين لن يستعيدوا مجدهم وحضارتهم ، فان كل قائل لذلك يكون مخطئا مخطئا فى عقيدته ، وبالتالى مخطئا فى سلوكه ، لان الخطأ فى العقيدة يتفرع عنه الخطأ فى السلوك ، واذا ماكان السلوك خاطئا لم يتحقق شيء مما نأمله ونتمناه للمجتمعات الاسلامية .

وهنا لابد أن نعود الى السيد جمال الدين الافغـانى ، صـاحب الدكتور عثمان أمين الذى حدثناعنه طويلا ، وذهب بين الجوانيـة والبرانية ، يصف المجالات التى شغل نفسه بها، والطاقات الاصلاحية التى بذلها لهذا المجتمع الاسلامى ، وأرى لزاما من أجل انارة الحق ، والكشف عن الطاقات الاسلامية انأذكر بقصتين لجمال الدين الافغانى يميطان اللثام عن حقيقة الاصلاح فى نظره ، ويكشفان عن المـــدد الموجود فى الدين الاسلامى ، من أجل تجديد هذه المجتمعات ، والخروج بها مما هى فيه ، فالسيد جمال الدين لافغانى لم يكن بالرجل الـذى يرضى النسب ، ويتلهى عن الحسب ، لم يكن بالرجل الذى يرضى أن يفاخر بما كان لاسلافه من غير أن يعمل هو ، والمسلمون من حوله من أجل تحقيق أشياء جديدة تكفل لهم العزة والمنعة ، والذى يـدل

على ذلك ان السيد شكيب أرسلان زاره وهو صبى ، وهو شاب صغير السن ، فى معتقله بالاستانة ، وقال له ، لقد وقع الاعلان عن مسابقة من كلية ديجو فى فرنسا موضوعها : «من الذى اكتشف أمريكا أولا ؟ » وقد فكر كثيرون فى الكتابة والدراسة ، من أجل أن يحصلوا على أشياء مادية ، وأردت أنا شخصيا أن أقوم بمثل هذه الدراسة ، لان عندى ما يثبت ان العرب هم الذين اكتشفوا أمريكا ، وغايتى من هذا ليست الحصول على المنافع المادية ، ولكن أريد أن أثبت حقا تاريخيا ينساه الناس ويتجاهلونه ، فقال له السيد جمال الدين الافغانى : وأى شىء ينفعنا اذا ثبت الدليل القطعى أن العرب فتحوا أمريكا ؟ وما هم عليه الآن ؟ فاذا قارنا بين وضعهم الحالى وما كانوا عليه انما يزيدنا ذلك يأسا وقنوطا ، لان المرحلة البعيدة بين أسلافنا وبين ما نحن عليه تجعلنا نحقق شيئا من تلك الامجاد التى كان يستطيع أسلافنا تحقيقها ، ومن أجل ذلك ينبغى ان تبحث فى موضوع آخر يكون على أجدى وبك أنفع .

وأما النقطة الثانية التى مازلت أحفظها **لجمال الدين الافغانى** رضى الله عنه فهى تتمثل فى كونه قد سئل ذات يوم من بعض أصدقائه غن رأيه فى الاصلاح ، وكيف يرى تغيير المجتمعات الاسلامية مما هى عليه ؟ وعند ذلك قال : لو وكل الى أمر المسلمين جميعا ، وأذنت **ان اقوم بها اريد لقتلت كل فرد تجاوز عمره اثنتى عشر عاما ، من الرجال والنساء جميعا ، ذلك لانى اريد أن اطهر الامة الاسلامية من عقول دخلها الشك ، ودخلها اليأس ومرضت القلوب فيها بأدواء لا سبيل الى علاجها ولا الى ارجاعها مما هى عليه ، فان كانت هى النخبة بعد ذلك ، نخبة الشباب او نخبة الاطفال ، فانى انشؤها تنشئة اسلامية تكفل لها بعد ذلك استرجاع كل معانى المجد ،وكل أسباب العزة والمنعة** ، فاذا كانت هذه الآراء التى تحدثنا بها الدراسات عن السيد جمال الدين الافغانى ، فان هذا يؤكد لنا فى عصرنا هذا الجديد الذى يختلف عن عصر جمال الدين الافغانى ، اذ لم نعد فى حاجة الى قتل النفوس ووأد البنات ، ولا القضاء على من تجاوز عمره اثنتى عشر عاما ، لان وسائل التبليغ اليوم وطرائقه فى المجتمعات الاسلامية المتحررة التى استطاعت أن تتخلص من كل شر تمكننا من قيام المصلحين ، أو تمكن المصلحبن من القيام بواجباتهم

لتحقيق العزة القومية ، والذى يملأ نفوسنا ايقانا بأن العزة القومية راجعة لابد والسيادة الاسلامية متحققة وان بعد قرن ، ما دلت عليه طبيعة الاسلام والمسلمين من قوى لا نجدها فى غيرها من الامم ، فقد **جاء فى بعض هذه المحاضرات** ان الحضارة الاسلامية لعبت دورها وانتهت ، واذا كانت لعبت دورها وانتهت فاننا لسنا فى حاجة لان نترقبها من جديد لتأتى بدورها الثانى أو تقوم بعمل آخر ، لانها ككل الحضارات القديمة قامت بدورها، وأصبحت حلقة من حلقات الحضارة الانسانية ، **فكما مرت الحضارة** اليونانية تتبعها الحضارة الرومانية تتبعها الحضارة الفارسية ، تتبعها الحضارة العربية ، تتبعها الحضارة الاوروبية،فان المستقبل لحضارات أخرى ولا يمكن أن يكون للحضارة الاسلامية ، لان الحضارة الاسلامية أدت واجبها ، وقامت برسالتها وانتهى الامر .

الجواب عن هذا الرأى الذى يقول بأن الحضارة الاسلامية انتهى دورها ليس رأيا آفلا ، ولا هو بالضعيف فى الواقع ، لكنه يسند الى شىء عادى ، يمكن أن نلمسه فى كل الحضارت ،ولا يعتمد فى شىء النقطة القوية ، والطاقة الفياضة الموجودة فى الدين الاسلامى ، وفى الجماعة الاسلامية ، اذا كانت الحضارة راجعة ومنسوبة الى الامم التى قامت بها وحققتها ، قد مرت كما تمر الحلقات ، وكما تمر الاسر والافراد بمرحل ، هى المراحل الاربعة التى أدرانا بها الدكتور على عبد الواحد وافى ، هذه المراحل التى أشار اليها ولى الدين عبد الرحمن بن خلدون فى مقدمته ، وهى المراحل الاجتماعية ، الطبيعية التى لابد أن تتوفر وأن تتحقق بالنسبة لكل أسرة ، وبالنسبة لكل فرد ، وهى مرحلة الشباب ، مرحلة الفتوة أو مرحلة الولادة، ثم مرحلة الشباب ، ثم مرحلة الكهولة ، ثم مرحلة الفنى أو الشيخوخة اذا كان كل فرد يمر فى المرة الاولى بمرحلة الطفولة فيكون دارجا ويكون متعلما ، ويكون محاولا ، ولكن ليست له قوة الشباب ، ولا أصالة الكهول ، ولا حكمة الشيوخ فانه فى هذه المرحلة يكون محاولا ، يكون محاكيا ، وبمحاكاته وبمحاولاته تتكون شخصيته وينتقل من طور الطفولة الى طور الشباب ، فيضاف اليه عنصر جديد وعنصر الحماس وعنصر الشجاعة والقوة ، لكنه بعد مرحلة الشباب ينتقل الى مرحلة الكهولة ، التى يتم فيها عقله ، وتكمل له بها مداركه واذا مر بهذه

المرحلة وتجاوزها الى المرحلة الرابعة والاخيرة ، وهي مرحلة الشيخوخة ، لا يمكن أن يؤتي الثمار ، وان يحقق ما يريد تحقيقه من الغايات ، ولكنه لا يعيش بعد ذلك طويلا ، ولا بد أن يفل نجمه ، واذا مراحل العمر هي طفولة وشباب ، وكهولة ، وشيخوخة ، ففنى ، لان كل موجود قبله عدم ، وبعده عدم وأريد الكائنات الحديثة لا الكائن القديم الازلي ، فان المجتمعات والاسر التي تكتنف من الافراد لا بد أن تمر بهذه المراحل ، فالاسرة هناك من ينشؤها ويكونها ، ثم هناك من يمضي بها قدما حتى تلمع ، ثم تأتي مرحلة أخرى تبدو فيها تلك الاسرة أرقى الاسر ، لكنها بعد ذلك تنتابها الامراض وتشيخ وتضعف وتتلاشى الاسرة بعد أن كانت معروفة ويذهب ريحها ، وتصبح بعد ذلك مسجلة في الدواوين أخبارها ، وهذا شأن الدول حين كانت الدول أسرية ، لانها مرتبطة بالاسر ، وقائمة على عائلات ، فان الاسرة والدولة تكون أولا مؤسسة ثم تكون بعد ذلك مباشرة ، ثم تكون بعد ذلك مقلدة ، ثم تكون بعد ذلك هدامة ، تكون مؤسسة للملك وللسيادة وللقوة ، وللثروة ولكن طاقات المجد في طور الفتوة ، لكن اذا ذهب المؤسس يوجد بنوه الذين عاشوا تلك الفترة فيباشرون نفس العمل خلفا لما قام به آباؤهم من قبل ، فاذا ابتعد الظرف وطال الجيل فان الفترة الثالثة يكون بها المقلدون ، والمقلد مهما حاول أن يأتي ما أتى به السابقون لا يكون في تقليده ناجحا ، ويكون أقل نضجا ، وأقل حماسا مما كان عليه المباشر والمؤسس ٠ فاذا جاء الطور الاخير فان ابناء المقلدين ينظرون فيما حولهم فاذا أسر جديدة تلمع ، واذا دول جديدة تظهر ، واذا طاقات وقوات لم يكن بعدها من قبل ، فاذا هو يرى أن الوضع الذي يعيشه ليس بالوضع الذي يحقق مجده ، فيسرع الى تهديمه وتقويضه ، وبذلك تنهار الدولة أو الاسرة ٠

فاذا كان الذي يقول ان الحضارة الاسلامية هي حضارة قامت بدورها وانتهت من وضيفتها وتبليغ رسالتها ، وأن على غيرها من الامم أن تقوم بعدها بوضيفة الحضارة ، وتكميل هذا الجدار الحضاري الانساني ، اذا كان رأيه هذا مبينا على النظرية التي قلناها ، وهي نظرية ابن خلدون ، فان لنا من ديننا ومن روح عقيدتنا ومن مذاهبنا الاجتماعية والسلوكية ما يتحول بنا من نظرية ابن خلدون الى نظرية محمد بن عبد الله (ص) ، فان النبي الاعظم والرسول الاكرم محمد

صلى الله عليه وسلم ، قد أعطانا طاقات أخرى لا توجد فى حياة الاسر ولا الافراد ، وانما توجد مقترنة بالعقيدة صلفية ، مقترنة بالايمان ، مقترنة بالروح الدينى ، واذا كان الروح الدينى باقيا ، واذا كانت العقيدة صافية ، واذا كان الايمان قويا ، فان هذا الايمان وتلك العقيدة يستطيعان مالا تستطيع الاسر فى أعمارها ، ولا الافراد فى أحوالها الاجتماعية التى تمر بها ، والذى يدل على ذلك أن النبى (ص) بشرنا بان الله يبعث على رأس كل قرن أو كل مائة عام من يجدد أمر هذا الدين ، وهؤلاء المجددون المصلحون هم الذين يعيدون الى الدين والى الامة الاسلامية شبابها ، فاذا رفع الكابوس الاستعمارى ، فانا من حقنا ومن حق العلماء والمسلمين أن يستعيدوا شباب الاسلام مما يوفرونه من طاقات تمكنهم من استرجاع السيادة الحقة ، والعزة والمنعة التى وعدها الله المؤمنين ، ويدلنا على هذا فى الماضى اللغة التى كانت من بعض المستشرقين الفرنسيين (رونى قروسى)فى كتابه «تاريخ آسيا» اذ قال : ان هجمة هولاغو على بغداد كانت قاضية على الخلافة العباسية ومبيدة للروح الاسلامى فى جميع الاقطار التى كانت تابعة لتلك الخلافة ، وان الامة الاسلامية فى مختلف أقطارها ، وان فى مصر حيث قامت الخلافة الجديدة التى حاولها رجال المماليك ودعوا من أجلها آخر ملوك العباسيين أو خلفائهم ، الى أثر منطقى شرعى فى الولاية والحكم ، فاذا هم بعد ذلك يريدون تجديد الخلافة العباسية فى البلاد المصرية ، وظهر كثير من العلماء، وتشجعوا للقيام بادوارهم على أكمل وجه ، لكن الوضع فى البلاد المصرية ، والوضع فى بلاد الشرق كلها ، فى العراق ، وفى الشام ، لم يكن يسمح أبدا بتجديد تلك الروح ، وتكوين تلك الدولة الجديدة التى تستطيع أن تعيد للاسلام شبابه ، فكانت هذه الاحوال تحتاج الى قوة ، والى فتوة ، والى شجاعة ، والى ايمان وحماس ، وكان من أجل تحقيق كل ذلك نشأة الخلافة العثمانية فى البلاد التركية التى استطاعت أن تعيد للاسلام بهجته وان تقوم بغزو البلاد الاوروبية وفتح الاستانة ، وتكوين الدولة الاسلامية ، والامبراطورية العظيمة التى امتد سلطانها الى كثير من البلاد العربية ، ثم هى أيضا انتابها ما انتاب العالم الاسلامى ، وما انتاب الدول الاسلامية ، لانها مرت بتلك المراحل ، ثم انتهى دورها وربما انقلبت الى الضد فكانت معول تحطيم ، بعد أن كانت معول بناء.

لكن هذا جميعه لا يدفع الى قلوبنا اليأس ، ولا يجعلها عامرة بشيء من الخوف على المستقبل ، بل ينبغي أن يكون في الطاقة الايمانية ، ما يدفعنا الى الاعتزاز بعقيدتنا والايمان بمستقبلنا الجديد ، الذى نـراه نيرا وضاء يستطيع فيها المسلمون أن يقوموا بواجباتهم كما قام بها الاسلاف من قبل ، والذى يوافق ذلك أن الشريعة الاسلامية التى وقع الحديث عنها حديثا عن فلسفتها ، وحديثا عن فقهها ، حديثا عن فلسفتها بما يثبت لها الجدة ، والقوة ، والروعة ، والطاقة الخـلاقة ، وحديثا عن فقهها حديث من يشك فى هذا الفقه أحيانا ، وحديث من يفقه بهذا الفقه أحيانا أخرى ٠

هذه الشريعة الاسلامية التى دستورها القرآن ، واساسهاالحديث وطريقها الاجماع ، وسبيلها القياس ، فى كل الجزئيات التى تحدث وتجد بالنسبة للمجتمعات الاسلامية اليوم هذه الشريعة الاسلاميـة باقية ما بقى الدهر ، وهى متطورة ونامية ومتجددة ما تجددت الايام وبهذه القوة من البقاء ومن التجدد يكون للاسلام غده ، ولا يكـــون بماضيه فقط والذى يشهد بذلك أن الله سبحانه وتعالى تكفل بحماية هذا الدين ، قال تعالى : «**انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظـون**» ، وحفظ الذكر حفظ لامة الذكر، وحفظ الذكر حفظ للغة العربية وآدابها وحفظ الذكر حفظ للطاقات التى تستطيع بها الامة أن تطول وأن لا تزول ، أن تبقى ولا تفنى ، أن تستعيد الشباب وأن تستعيد الفتـوة ، بما فى طاقات هذا الدين من روائع خلاقة وآيات مبدعة ، ومثال صغير لذلك : هذه الفتن التى قامت فى داخل العالم الاسلامى ، وتريد أن تكيد للدين وللغة ، تريد أن تكيد للدين بما أحدثت من محن وأهواء وتريد أن تكيد للغة بما أحدثت من بلبلة وشك،فاذا كثير من الدارسين اليوم يقولون ان هذه اللغة لانعرف شأنها،أهى لغة عربية تستطيع أن تساير العصور الحديثة ، وتتحمل الرسالة كما تتحملها اللغات الحية الجديدة ؟ أم هى لغة كتلك اللغات التى نقرؤها ونجدها فى الدساتير القديمة مثل اللاتينية واليونانية ، وبذلك فهى لغة ميتة ٠

لكن اللغة العربية لها أصالتها كتلك التى وجدت فى اللغة اللاتينية وفى اللغة الرومانية ، وفى اللغة اليونانية ، ولها الجد الموجود فى اللغات الحية ، فهى مستمرة نامية ومحافظة على أصالتها ، مع تطورها وحياتها التى تقوم البراهين الكثيرة عليها من كلامكم ، وأحاديثكـم ،

ومحاضراتكم ، ودراساتكم التى تقرؤونها كل يوم ، فاذا كانت هذه الاوضاع تجعلنا مؤمنين بأن الامة الاسلامية لم تنتـه ، والحضـــارة الاسلامية سوف تعود ، لا باعتبار ذلك أملا ولا باعتباره أمنية مــن أمانينا العذاب ، ولكن باعتباره حقا وشرعا واننا نستطيع ان نحقـق ذلك ، ونحن مسؤولون عن تحقيقه ، اذا كان ذلك ايمانا يملأ قلوبنـا وكان ذلك عقيدة تنير سبيلنا ، فنحن قادرين لا محالة على بعث الاسلام الجديد فى عهده الجديد كما نريد ، ممدا للعالم الانسانى والحضارى الجديد بالطاقات التى يفقدها اليوم ، وهى طاقات الروح الاسلامى ، ولذلك فأنا لا أرى فى هذا الوضع الذى يعيشه العام الاسلامى ، والذى نجابه به المشاكل المختلفة داعيا للحيرة ، ولا موجبا لليأس ، لان الاصلاح والبحث عن وسائل الحلول كفيلان بتحقيق هذه الحيـــاة الجديدة التى نعمل من أجلها ، نبذل قصارى الجهد لتحقيقها ، فاذا حاولنا بعد ذلك أن نلتفت الى سببلنا فى تكوين هذا الغد الجـديد ، وبعث تلك الامجاد القومية على النحو الذى تكون به متلائمة مع الحضارة العصرية والوضع الراهن فى المجتمعات الغربية • فانى لا أدعوا بأن نأخذ بأسباب الغرب فحسب ، وان كانت هذه الدعوة لاسبيل للابتعاد عنها فيما يعود الى الطاقات التى نحتاجها من حضارة الغرب ، ولا أدعو الى التمسك بالقديم تمسكا نموت عليه ، ويكون قوامنا فقط فيما يعود الى الطاقات القديمة التى تصبح مماشية لركب حضارة اليوم ، ولكنى أقول ينبغيأن نأخذ بالاسباب الحضارية الجديدة واسبابالتقدم العلمى والتقنى ، واالعمرانى ، وما الى ذلك ، وينبغى أن نضيف اليه سببا آخر هذا السبب الآخر هو الذى لا نعيش به حاضرنا متحولين عــن ماضينا ، ولا نعيش به التقدم التقنى متحولين عن عقيدتنا ، هذا الذى أدعو اليه هو الرجوع الى الروح الدينى الاسلامى الذى كان الطاقة التى تمد النفوس باكسيرها فى العصور الماضية وهى الطاقة الباقية التى تستطيع أن تمد النفوس باكسيرها فى حياتنا الجديدة ، فاذا مـــا تحولنا الى هذا الروح الدينى نبحثه ، يكون علينا لزاما أن نتصـــور الروح الدينى قبل كل شىء وعيا ، وادراكا للحقيقة الاســلاميــة فى جوهرها الكامل ، الذى لا يمكن أن تنخره قادحة ، وينبغى أن نتصور الروح الدينى تكوينا فكريا خاصا تتميز به الجماعة الاسلامية عــن غيرها من الجماعات ، كما تميز الصحابة رضوان الله عليهم فى عهد

النبى (ص) بروحهم الدينى عن غيرهم من الامم ، فاذا توفر هذا الوعى الاسلامى وتكون ذلك الفكر الخاص الدينى ، فان لنا من هذين مـن الوعى الاسلامى ومن التكوين الفكرى الخاص ثقافة ، يكون لهـا سلطان بعد ذلك على سلوكنا ، وعلى أعمالنا ، وعلى كل ما نأتى ونذر فى حياتنا الفردية ، وحياتنا الجماعية ، وهنا لا أكون فى حاجة لان أشرح مدى تأثير الروح الدينى فى السلوك ، ولا ما فى الروح الدينى من طاقات ، لان حضراتكم تعلمون ان الروح الدينى يقوم على شعب ثلاث من الطاقات :

الشعبة الاولى : تتألف من عناصر ثلاثة :

العنصر الاول : هو المعرفة ، والمعرفة هنا هى معرفة الله معرفة الاسلام ، أو معرفة المسلم ربه ، **ثم ثانيا : ايمان بالله** ، والايمـان لا يثبت ، ولا يقوى ، ولا يستطيع أن يخلق المعجزات الا اذا انبنى على المعرفة ، أما ايمان بلا معرفة فانه لا يولد حماسا ، ولذلك فان المعرفة التى يتولد عنها الايمان ، والايمان الذى يتولد عنه الحماس تكون هذه العناصر الثلاثة

الشعبة الاولى التى تعتبر طاقة من الطاقات للروح الدينى ، وقد عرفنا ذلك فى حياتنا الاجتماعية فى كفاحنا ، فان الامة الاسلامية حين عرفت ما انتابها فى هذا العصر الاخير وما اقض مضجعها ، وآمنت بواجبها الذى رأته قدسيا لا يجوز لها أبدا أن تتخلى عنه ، استطاعت بعد ذلك أن تتحمس له ، وأن تطرد الاعداء والمستعمرين من الاراضى الطاهرة المغصوبة التى كانوا يقضونها بما يرهبون به المسلميـن الضعفاء العاجزين بالامس ، الاقوياء باليوم .

اما الطاقة الثانية ، أو الشعبة الثانية من هذه الطاقات فى الروح الدينى فهى بعد ذلك للايمان ، الذى يقول عنه الشاعر :

روح الفـــداء   قـــوية الايمـــان

يجعل المسلم ويجعل العارف بربه ، الموقن بعقيدته ، المتمسك بدينه ، شاعرا بأن عليه أن يتحمل مسؤولية ، وتلك المسؤولية هى فى تلقى الرسالة ، الرسالة التى أمر النبى (ص) فى حجة الـــوداع بتبليغها للناس حين قال : «اللهم انى قد بلغت ، اللهم فاشهد وليبلغ منكم الشاهد الغائب» فهذه الامانة التى وضعها فى أعناقنا ، هى التى

نحن مسؤولون على تبليغها ، وهذا التبليغ يحتاج مع الحماس له الى خلق سبل جديدة للدعوة ، الى خلق سبل جديدة لتطهير النفوس الى خلق أمثلة قوية رائعة تستطيع أن تعيد للمسلمين عزتهم ، فيتأسى بذلك غير المسلمين ويتبعون الحق الذى يجدون عليه الدلائل من الدين .

وعقيدتى أن هذا الروح الدينى ، وتلك الطاقات الموجودة به ، لا تؤثر فقط على الفرد أو على الاسرة ، بل هو متنقل ومتعدد بتعدد الافراد ، من الاسرة الى الجماعة والحى ، ومن الحى الى الشعب أو الوطن ، ومن الشعب والوطن الى الامة والملة ، ومن الامة والملة الى الانسانية جمعاء ،وهذا الروح الدينى وهذه الطاقة الخلاقة، وهذه القوة العجيبة التى توجد فى الدين الاسلامى ، هى التى نبه عليها الشارع ولفت القرآن اليها الانظار حين قال : **«كنتم خير أمة أخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله»** .

فالدعامة الاولى اذن هى الامر بالمعروف ، أمر بالمعروف لا يعرف فى الحق هوادة ، امر بالمعروف ينشر الاسلام والسلام، أمر بالمعروف ينبه النيام ، ويوقظ الناس من سباتهم ، ويحملهم على الخيرات ، ونهى عن المنكر يحال بين الناس وبين الشر ، يحال به بين المسلم وألوان الطغيان والافك ، يحال به بين المسلم والآثام ، التى لا يكون شرها مقصورا على من يأتى الشر ، ولكن شرها يكون مستطيرا لانه يتجاوز ذلك الفرد الى الجماعة .

واذا كانت الدعامة الاولى أمر بالمعروف ، والدعامة الثانية نهى عن المنكر ، فان الدعامة الثالثة التى تكون كقطب الميزان بين الكفتين ، انما هى الايمان بالله وحده لا شريك له ، لان فى الايمان بالله ما يتكفل بالمضى فى خدمة الاسلام ، وتحقيق هذين الامرين الجليلين ، اللذين دعا اليهم الاسلام ، وهما الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، واذا كان هذا هو روح الدين ، وتلك هى الطاقات فيه ، وكانت هذه هى الدعائم التى تقوم عليها الشريعة الاسلامية ، فلا بد علينا من أن نعود الى مصادر هذا الروح الدينى ، أين نطلبها ؟ وفيما نجدها ؟ وكيف السبيل اليها ؟

مصادر الروح الدينى معروفة واضحة ، **هى قبل كل شىء القرآن**

عشرات المرات في صلواتنا وفي وقوفنا بين يدى ربنا . هذه السبع المثانى، هذه الآيات التى هى آيات سورة الفاتحة ، هى آيات لو أدركنا مغزاها ، وتصورنا على الحقيقة معناها ، لتبينا أنا نكذب على أنفسنا كل يوم بقدر ما نقرأ الفاتحة ، نكذب على أنفسنا كل يوم وفى كل تلاوة بأن لا نعبد الا اياه ، وان لا نستعين الا به ، وقد نظر الى هذه الآيات البينات كثير من المفسرين، ومن بينهم ابن قيم الجوزية فقال : ان الآيات تشتمل على عناصر رائعة للايمان ، وطاقات قوية فى الاسلام مردها ثمانية :

أولا : حمد الله حمدا خالصا لا يمكن أن يلحق فيه به غيره،فالحمد بهذه الاداة ، الحمد لله ، يجعل ذلك التعبير خالصا لله بحيث يمدح الناس ولا يحمدون ، ويشكر الناس ولا يحمدون ، والحمد لله على آلائه الظاهرة والباطنة ، فهو الذى خلق الانفس وبرعها ، وهو الذى يدفع عنها الاخطار فيما تشعر به وما لا تشعر به فى أناء الليل وأطراف النهار ، فالخالق البارىء المصور يحتاج منا الحمد ، ويحتاج منا بالتالى الى الاعتراف به والايقان بوحدانيته ، والاخلاص فى عبادته ، ثم الايمان والايقان باليوم الآخر لكونه ملك يوم الدين ، فهذه العناصر لا بد منها وهى ضرورية فى عقيدة المؤمن ، ثم نجد التعبير الرائع الاسلامى العربى الذى يجعل العبادة صورة على ذات الله تعالى ، والاستعانة مقصورة عليه فيقول (اياك نعبد) نخصك بالعبادة ، (واياك نستعين) نخصك بالاستعانة ، فنحن لا نعبد غيرك أبدا ، ولا نستعين بأحد سواك ، وقد يكون هذا مذلا باللسان ، وتشدقا بالقول ، فيما نأتيه كل يوم لكوننا فى الواقع نشرك بعبادته اذا ملنا عن الدين ، ونستعين بغيره اذا كنا لا نتمسك بحقيقة اليقين ، وما ذلك الا الفتنة التى نجد أنفسنا فيها ، فتنة الحياة الدنيا، لاننا حين خرجنا من العدم الى الوجود،ونزلنا هذا المجتمع أو هذا المحيط الانسانى ، وهذه الافلاك السابحة فى الاجرام المختلفة ، أو مع الاجرام المختلفة فى جو السماء بين يدى الله وفى قبضته، نزلنا وهبطت الروح، كما قال ابن سينا :

هبطت اليك من المحل الارفع * ورقاء ذات تعزز وتمنع

هبطت هذه الروح لتكون فى هذه الدنيا فى دار ابتلاء فى دار امتحان ، ولذلك أشفق بعض الناس منها وأحبها آخرون ، فاذا

بطائفة تعتبر هذه الدار الدنيا دارا مؤلمة ، دارا يتعذب فيها الناس دارا ينبغي الانصراف عنها :

ياطالب الدنيا الدنيــة انها * شرك الردى وقرارة الاقدار

دار متى ما اضحكت في يومها * أبكت غدا تبا لها من دار

ويقول أبو القاسم الحريري :

مسكين ابن آدم وأى مسكــين ، ركن الى الدنيا بغــير ركــين ، وذبــح من حبها بغــير ســكين ، يكلف بها لغباوته ، ويكلب عليهــا لشقاوته ، ولا يتــزود منها لآخــرته ٠

اقسم بمن مــرج البحرين ، ونور القمــرين ، لو عقل ابن آدم لما نــدم ، ولو فكــر بما قدم لبــكى الدم ٠

وننظر الى الشيخ الرئيس بن سينا لنرى رأيه في الدنيا وأهلها فاذا هو يقول :

دار أليمهــا موجــع ، ولــذيــذها مستبشــع ، وصحتهــا قــسر أضــداد ، على وزن أوعـــداد ٠

اليمها موجع لا يتحمل ، ولذيذها مستبشع لانه ينتهب الففــر والشعور بالحرمان ، وصحتها ـ أى بناؤها ـ قسر أى قهــر أوزان وأضداد ، أى قهر لاشياء الغير المتناسبة على أن نتعايش وأن تتعاصر، فالبليد مع الذكى ، والجاهل مع العالم ، والصالح مع الطالح ، والمصلح مع المفسد ، والخير مع الشرير وهكذا الدنيا ٠

واذ القرآن يصفها لنا حين ينتهى المنتهون، ويعيش فيها المترفون لاهين عن أخراهم ٠ ٠ ٠

وفى نظر رسول رب العالمين محمد (ص) فهى متجر أولياء الله ، واذا كانت متجر أولياء الله فان الانسان يعلم أنه لا يحيا ليعيش أبــد الآبدين فى هذه الدنيا ، ولكنه يعمل فيها لآخرته ، ويتحول من طاقة فانية الى طاقة باقية ، ومن جهد يذوب ويتلاشى الى شيء يستطيع أن يبعث وان تكون له الكينونة الدائمة ، وبذلك فان استقامة الدنيا فى الواقع لا يمكن أن تتحقق لاصحاب المذهب الاول ، ولكنها تتحقــق للذين يستطيعون أن يوازنوا الميزان الحق فى أعمالهم ، بينما تطلب الحياة الدنيا منهم ليقوموا بذلك أودها ، وما تتطلبه الحياة الاخرى

منهم ليحققوا لهم السعادة الابدية ، وبهذا لا يكونون قد أفرطوا كما افرط اليهود ، وافرط النصارى ، وأفرط الملاحدة ، لان هؤلاء ألهتهم دنياهم عن أخراهم ، وذهب منهم الروح الديني ، وأصبحوا اليوم يشكون اليأس والقلق والاضطراب ، وهم مع تقدمهم في العلوم الآلية والتقنية يكثر فيهم الضلال ، وتكثر فيهم الفتنة وييئسوا من روح الله ومن الحقائق الحقائق الوجودية الكامنة في الطاقات التي خلقها الله ، فاذا بالكثير منهم يقتل نفسه وينتحر ، لا يريد أن يتشجع لحمل الاعباء في هذه الحياة الدنيا ، ثم هو بعد ذلك لا يقوم بالرسالة الفاضلة التي قام بها المسلمون من قبل ، واذا كنا لا نريد أن نكون مفرطين كما فعل النصارى واليهود والملاحدة والمعطلة فكذلك لا نريد أن نكون مفرطين ، كما كا نالامن بالنسبة لاسلافنا المباشرين لاسلافنا القريبين ، لاسلافنا الذين ذهلوا عن واجباتهم وقضوا ردحا طويلا في سباتهم ، وتحملو الاهانة والمهانة والذل والاستعباد، ورضوا بالحياة الذلية ، حياة الحرمان خفوا من مقارعة الاعداء ومجابهة الاقوياء والانتصار عليهم بكلمة الحق التي هي كلمة الله ٠

واذا كنا لا نريد أن نكون مضطرين فان سبيلنا فيذلك قول رسول الله (ص) : «**اعمل لدنياك كانك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كانك تموت غدا**» ، فاذا التفتنا الى الدنيا وحققنا ما يمكن أن يظمن لنا الحياة الكريمة والتفتنا الى الآخرة فضمننا ما يكفل لنا الحياة الأبدية السعيدة ، فاننا نستطيع أن نقول بعد ذلك مستعينين على هذا لتحقيق السلوك الناجع **الصراط المستقيم** فبعد البذل والجهد ، والاتجاه الرشيد في حياتنا ، نلتفت الى الله جل وعلا ونطلب منه الهداية أن يهدينا الصراط المستقيم ، وقد فسر كثير من العلماء الصراط المستقيم ، صراط محمد عليه الصلاة والسلام ، ثم قال تعالى : **الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين** وبذلك فاننا نكون قد اهتدينا ، واتبعنا سنن الرشاد وتحولنا عما كان عليه المجرمون الضالمون لانفسهم ، والباغون في حياتهم ٠

تلك هي الحقائق الاسلامية التي يمثلها الروح الديني ، وهذه هي مصادرها ، فهي الكتاب والسنة ، وعمل الرسول وصراطه وسبل المصلحين ، أما تطبيق ذلك على السلوك ومحاولة تحقيق

جدوى هذه المعرفة للاسلام ، فان ذلك يكون فيما ناتيه من أعمال فالعمل الصالح الذى نعتبره قربى ووسيلة الى الله ، وفى العمل الآخر الذى حذرنا الله منه ونهانا عنه رسول الله (ص) أمرنا بالخير ، والهدى ، والصلاح ، ونهانا عن الشر وعن سبله ، فاذا كان عملنا مثلا ، فى العبادات الدينية ، فى الصلاة التى نتقرب منها الى ربنا صالح ، وسلوكنا عبادة ، فان العبادات نفسها تقتضى منا ملاحظة ومراقبة ، اذا كان الروح الدينى مسيطر على نفوسنا ، ففى الطاعات نجد النبى (ص) يفرق بين المسلم والكافر ، ويميز بين الهداة المهديين والضالين المضلين **بقوله (ص) «بين المسلم والكافر ترك الصلاة»** ، ولا يقف التوجيه النبوى الكريم عند هذا الحد ، بعد بيان حقيقتها ، وشروطها ، وأركانها ، وأسبابها ، وأشكالها ، بالوضع الذى تعلمناه من سيرته النبوية الرشيدة ، وبقوله (ص) **«صلوا كما رايتمونى اصلى»** .

فنجده (ص) مع ذلك ينبهنا الى ما فى الصلاة من خيرات ، وما فيها من بركات ، فهى نقاوة للمؤمن ، وطهارة للضمير الانسانى ، وكمال فى النفس ، وبعد عن كل المضار والاوشاب والادران التى تتعلق بالنفس ، لذلك قال (ص)فيما رواه مسلم عن جابر رضى الله عنه : **«مثل الصلواة الخمس كمثل نهر بباب احدكم يقتحم فيه كل يوم خمس مرات ، فما ترون ذلك يبقى من درنه ، قالوا : لا شئ. قال (ص) : فان الصلوات الخمس تذهب الذنوب كما يذهب الماء الدرن»** فهذه النقاوة انما سببها أن الذى يأتى ليقوم بوظيفة الصلاة فى الصباح ، فى صلاة الصبح أو الفجر ، يتهيأ لذلك بالوضوء ثم يقف بين يدى ربه يناجيه ، ويدعوه مخلصا ، ويقوم بامتثال أمره ويتقرب اليه فاذا ما وفى بواجبه الدينى ووفى لعمله اليومى ، وأراد أن يعود عند الظهر للصلاة ، فانه يخشى أن يلقى ربه فى وقفته الثانية ومناجاته الموالية ، وقد اتى شرا فيما بين الصلاتين ، لذلك فان الصلاة الثانية ينبغى أن تدرأ ما فى النفس من ادران آن تطهر النفس من أدرانها ، وأن تبعد عنها ما يلوثها من أوساخ ، وأن تجعلها مراقبة لحق الله فى كل الحالات والاوقات التى تكون بين الصلوات ، ثم نجد فى الصلاة سندا قويا عظيما ، ذلك أن المؤمن يكون اقرب لربه من اية حالة أخرى، حين يكون فى صلاته ، لقوله (ص) فى الحديث الذى يرويه مسلم

أيضا عن أبي هريرة رضي الله عنه : **«ان أقرب ما يكون العبد من ربه تعالى أن يكون ساجدا»** فهذه الحال من القربى ، هذه الحال من القرب من الدنو من الله ، تجعله شاعرا بطمأنينة وبراحة ، وبقوة تمكنه من القيام بواجباته على أكمل وجه ، مع بعده عن كل الشرور التي يمكن ان تحيد به عن الطريق السوى ثم نجد فى الصلاة مناجاة وذكرى ، وهذه المناجات التى هى أحب شىء الى العبد حين يكون مع ربه ، لا يمكن أن تتحقق اذا كان فى هذه الحركة بصورة آلية لا يفقه لها معنى ولا يراقب فيها نفسه ، لأن المصلى حين يناجى ربه ويخاطبه ، لا يمكن أن يكون لكلامه أثر فى نفسه ، اذا كان هذا الكلام صادرا عنه آليا مع الغفلة عن حقيقته وعدم الادراك لفحواه ، هذه صورة أوردناها فى عبادة وركن من أركان الاسلام ، وهى التى تكملها وتصورها الآية القرآنية الكريمة حين تقول : **«ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر»** ومثل هذا يلاحظ فى غير هذا الركن من أركان الاسلام ، فى الزكاة ، وفى الصيام ، وفى الحج ، وما أستطيع ابدا ان أحدثكم عن كل ذلك وقد ضاق الوقت ، ولكن أنتقل توا الى عنصر آخر ، أعتبره ضرورى فى هذه الحلقة ، لانه لا يتصل بالاعمال الصالحات ، ولكنه يتعلق بالاعمال الاخرى التى يدفع اليها الانسان بطبيعته ، وينبغى أن يكون من نفسه رقيبا عند اتيانها ، وذلك هو المضار والعيوب التى قد يتعلقها البشر ، فى سلوكهم الفردى وسلوكهم الاجتماعى وما بينهم وبين الله ، وما بينهم وبين الناس ، فاذا فكر المؤمن ورأى أنه سيقع لا محالة فى الخطيئة أو وقع بالفعل فى الخطيئة ، فان عليه أن يعمد الى سبل أخرى ، تكون بها يقضة الروح الدينى ، ويكون بها الخلاص مما وقع فيه ، وذلك فى الرياضة النفسية والتهذيب للاخلاق ، والمعالجة لأمراض القلوب ، معالجة أمراض القلوب لان الشارع أمرنا بذلك ، أمرنا بتزكية نفوسنا ، فقد قال تعالى : **«قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها»** ، والنبى (ص) امرنا بان ناخذ بالسبيل الارشد فى سلوكنا الاجتماعى ، وفى سلوكنا الفردى ، ولذلك **قال (ص) : «الا ان احبكم الى واقربكم منى مجالس يوم القيامة الموطؤون اكنافا ، احسنكم اخلاقا ، الذين يالفون ويؤلفون ، وان ابغضكم الى وابعدكم منى مجالس يوم القيامة الثرثارون المتشدقون المتفيهقون»** ، ثم نجد أن النبى (ص)

قد حملنا على الخلق الحسن بهذا الحديث النبوى الشريف وحرضنا عليه ، ونبهنا الى ما فى الخلق السىء من الامراض والادواء التى تميت القلوب وتميت النفس ، وتميت الامة جمعاء ولذلك يقول أبو حامد الغزالى فى كتاب الاحياء عندما أراد أن يعرف لنا الخلق الحسن والخلق السيىء ، الخلق الحسن صفة سيد المرسلين ، وأفضل أعمال الصديقين ، وهو على التحقيق شطر الدين ، وثمرة المجاهدة للمتقين ، ورياضة المتعبدين ، والخلق السيئة هى السموم القاتلة ، والمهلكات الدامغة ، والمخازى الفاضحة والرذائل الواضحة ، والخبائث المبعدة عن جوار رب العالمين ، المنخرطة بصاحبها فى سلك الشياطين،أما ثمرتها فانها تتجلى لنا فى كون الخلق الحسن ، من الابواب المفتوحة الابواب المفتوحة من القلب الى نعيم الجنان ، وجوار الرحمن ، والخلق السيئة هى الابواب الى نار الله الموقدة التى تطلع على الافئدة ، ولذلك يكون من الحتمى علاج القلوب، ومن الحتمى علاج النفوس، من أدوائها وأمراضها ، فان الاخلاق الخبيثة أمراض القلوب ، وأسقام النفوس الا أن المرض يفوت حياة البدن وأين منه المرض الذى لايفوت الا حياة الجسد ، ومهما اشتدت عناية الاطباء بضبط قوانين العلاج للابدان وليس فى مرضها الا فوت الحياة الفانية ، فالعناية بضبط قوانين العلاج لامراض القلوب ، وفى مرضها فوت حياة باقية أولى وأوكد ، ولذلك يكون على المسلم فى سلوكه الذى يستمد من روح الايمان هذ الطاقات أن يقدم بأعمال كثيرة فيما يأتيه من أعمال فى دنياه ، هى :

أولا : المشارطة ،

وثانيا : المراقبة ،

وثالثا : المحاسبة ،

ورابعا : المجاهدة .

المشارطة بأن يبيع نفسه لله ، وأن يتحلى بتقاه ، وأن يلتزم الحق والخير والجمال فى كل ما يأتيه من أفعال ، وأن يعتبر الحياة الدنيا ومتاعها قليلا ، وأن يعتبرها فانية ، وأنها لا يمكن أن تدوم ، وأن من الخير أن يتعلق بما هو دائم ، وبما هو باق ، لقول الشاعر :

اشد الغم عندى فى سرور * تيقن عنه صاحبه انتقالا

أما المراقبة فهي التي أوصانا بها جبريل على لسان الملك الحق، ثم أمرنا بها نبينا (ص) حين قال في تفسير الاحسان : «**أن تعبد الله كأنك تراه، وان لم تكن تراه فانه يراك**»، فلنجعل الله مراقبا لاعمالنا ولنجعل الايمان قائما على نفوسنا يهديها سبل الرشاد، ولكن فيما نأتي ونذر مراقبين لحق الله، في تصرفاتنا، وفيما نقوم به من أعمال لانفسنا في كل ذرة من ذرات وجودنا، وفي كل شيء من أشياء هذا الوجود، ثم هناك المحاسبة وهي أن نعود الى أنفسنا باللوم والتقريع والرجوع الى الحق والتوبة والانابة، ثم التمسك بحبل الله المتين وما ذلك الا لان هذا القلب الذي يحركنا الى الخيرات حينا، ويدفعنا الى الشرور أحيانا، الذي يميل بنا الى الطهر والصدق والخير مرة، ويتوجه بنا ويلح علينا في أن نرتكب الشرور مرات كثيرة، لكون الشرور من أنفسنا ولكونها شهوات، ولكون النار حفت بالشهوات ولكون الخير من الله، ولكونه ـ أي الخير ـ حف بالمكاره، ولكون الجنة حفت بالمكاره ولذلك فان تطهير النفوس، يكون بمراقبة النفس وتطهير القلب، الذي اذا صلح، صلح الجسد كله، واذا فسد فسد الجسد كله، هذا القلب الذي هو في طريقنا الى الله مركبه البدن، وزاده العلم، فما يزيدنا ذلك الا بوجوب مراقبة جوارحنا وتحكيم علمنا أو معرفتنا بالله، وهذه الاشياء التي اعتبرها ضرورية، اذ لا يمكن أن تتحقق ولا أن تثمر في نفوسنا، وأن توجهنا سبيل الرشاد الا اذا عاد المسلمون، وهو والحمد لله أمر واقع ملموس في مجتمعنا هذا، وفي كل المجتمعات الاسلامية اليوم، اذا عاد المسلمون في مشارق الارض ومغاربها بعد الويلات التي نزلت بهم، والهزات التي أذلت نفوسهم، والثورات الجامحة التي أخرجتهم مما كانوا فيه الى ما صاروا اليه، ينبغي أن نكون شاعرين بالوضع الخطير الذي نحن عليه ولا يكفي هذا الشعور، بل ينبغي أن نتساءل عن السبيل الموصل الى تحقيق الغد الافضل وما تلك السبيل في اعتقادي الا سبيل مراقبة السلوك الفردي والاجتماعي، مراقبة تجعلنا نعيش دنيانا وديننا، ولا نعيش دنيانا معرضين عن ديننا، أو ديننا في الصوامع وفي المساجد معرضين عن دنيانا، لكوننا نريد أن نجمع بين الدين والدنيا ·

والذي هو قادر على بذل هذه الحقيقة في النفوس وتنميتها في الشباب الصاعد في الجماهير الغفيرة، انما هي الدعوة الى الاسلام

الدعوة الجديدة الى الاسلام ، والدعوة الجديدة المركزة على العلوم الاسلامية ، والتى والحمد لله نجد اليوم وزراء التربية فى البلاد الاسلامية، وزراء التعليم فى البلاد الاسلامية، يلتفتون اليها ويقدرونها حق قدرها ، ويريدون بعد ذلك النماء لها ، والاثمار ، واذا كان وزراء التربية فى الدول الاسلامية ووزراء التعليم الاصلى قد عنوا بهذا الامر الجليل ، واتجهوا اليه بكلياتهم ، وأخذوا يتدبرونه ويضعون الخطط لتحقيقه وتنفيذه ، فان جمعية الجامعات الاسلامية التى اجتمعت فى العام الماضى فى شهر سبتمبر بفاس المجيدة، والتى سيجتمع مجلسها قريبا فى تونس فى شهر نوفمبر تقوم أيضا على دراسة المناهج ، وبحث الاساليب والطرائق التى يعاد بها الى مجتمعاتنا الاسلامية الشابة مما تحتاج اليه من علوم زاهرة بهذا المدد الدينى ، ومن طاقات اسلامية تجعلها متصورة للروح الدينى ، وممتثلة له مطبقة لحقيقته ، وان فى الجامعات الاسلامية القديمة والحديثة مثل الازهر الشريف ، الذى قام بدوره على مر القرون ، حتى قال شوقى مبايعا له ، ومفاخرا به ، ومحييا لحقيقته :

قم فى فم الدنيا وحى الازهر * وانثر على سمع الزمان الجوهر

هذا الازهر الذى آمد البلاد الاسلامية بكل ما تحتاجه من علوم وبكل ما تحتاجه من كتب ، وبكل ما تحتاجه من طاقات ، هى الآن كما يقال البقية الباقية التى نحتفظ بها لبناء مستقبلنا الجديد، وقد تحول الازهر وتطور ، ونرجوا أن يكون فى تطوره ونحوله مباركا مثمرا يانعا ، كما كان غرسه بالامس ، وجاء من بعده كثير من الجامعات الاخرى الاصيلة مثل القرويين ، التى قامت بدورها الخطير ، فى بث العلوم الاسلامية ، وتركيز الحقيقة الايمانية ، والحفاظ على القومية الاسلامية فى بلاد المغرب الذى صال فيه الفرنسيون وأرادوا بالظهير البربرى أن يقسموا جماعته ، وكانت جامعة القرويين هى المتصدية لذلك والمانعة لهم ، ثم نجد بعد ذلك الجامعة الاسلامية الفتية فى المدينة النبوية الشريفة والتى تقوم بدورها الخطير لتحقيق هذه الامجاد الاسلامية ، بالنسبة لغدنا الافضل ، وجامعة اسلامية فى ليبيا القطر الشقيق التى لها من يمثلها فى هذا الحفل البهيج والتى تقوم على خدمة العروبة والاسلام ، بما تحققه من رسالة خالدة فى هذا البلد الاسلامى الكريم ، ونجد الى جانب ذلك الزيتونة ، الزيتونة التى

ابتدأت رسالتها فى القرن الثانى الاسلامى ، والتى استمرت مضطلعة بهذه الرسالة فترة بعد فترة ، وطورا بعد طور ، ومرحلة بعد مرحلة ، حتى اذا قيل أنها انتهت من القيام بدورها ، وأفل نجمها ، عــادت مشرقة كما كانت بالامس ، تؤكد تلك الحقيقة وتضطلع بالرسالة الثقيلة التى حملها المسلمون الصالحون من قبل .

وهذا التعليم الاصلى فى كل قطر ، وفى هذه البلاد المباركة ، فى هذه البلاد التى ثارت على الظلم ، وثار تعلى المكر ، وثارت على الشر وشقت سبيل الخير فى هذه البلاد الجزائرية الشقيقة التى هى منا ونحن منها ، والتى لا نكــون فيها الا خادميــن لرسالــة الاســلام ، ومؤيدين لدعوة الحق التى صدرت من أخينا معالى الوزير فى خطابه الافتتاحى لهذا الملتقى ، الذى دعا فيه الى الانية والاصالة للتعليـــم الاسلامى وللشخصية الاسلامية ، فى هذه البلاد الجزائرية ، واذا كان أبناء عبد الحميد بن باديس رحمه الله ، وتلاميذ المرحوم البشير الابراهيمى رضى الله عنه ، قد تحملوا هذه الرسالة ، وتلقوا هذا المشعل ، وتخرجوا من الزيتونة ومن غيرها من الاقطار ومن الجامعات الاسلامية ، وتقلبوا فى البلاد الاوروبية ، يتطلعون الى الخيــر والى الطاقات الجديدة ، التى يمكن أن تشد أزر المسلمين ، وأن تســـدد خطاهم فنجد بعد ذلك تفتحا الى التعليم الاصلى الجديد ، الذى هــو أصلى بالاعتبار الذى شرحناه ، والذى يفسره ما قلناه فى محاضرتنا السالفة ، عن حقيقة الثقافة الاسلامية المشتركة التى تجمع بين خيرى الدنيا والآخرة، فاذا وجد هذا التعليم، وزكت مناهله، وعذبت موارده واستطاع الناس بعد ذلك أن يقرأوا منه ، فان الروح الدينى لا محالة بعد ذلك يفىء وان المصادر الاسلامية لهذا الروح الدينى لا محــالة ستكون بين أيدى الناس يتفهمونها ويستمدون منها ، ويستعينون بها على قضايا الساعة ، وان فى مراقبتنا لانفسنا ، ومراقبة المسؤولين للأمانة الملقاة على أعناقهم ، ومراقبة كل فرد منا لحق الله فى ذاته وفى المجتمع من حوله ما يكفل لنا العزة القومية ، ويعيد لنا السيادة السياسية ، ويتكفل بتحقيق الحضارة الاسلامية الجـديـدة ، التى سيكون أبناء الجيل الصاعد هم الذين يحملون مشعلها ، وهم الذيــن يحققونها فى هذا المجتمع الانسانى الكبير .

والسلام عليكم ورحمة اللــه .

1978 N° 60-61

العدد 60 - 61

فهـــرس العـــــدد


المرحوم عثمان امين

مـــات عثمــــان أمـــين
فيلسوف الجوانيــة ومفند « الخواجــات » !

مولـود قاسـم نايت بلقاسـم
الوزير لـدى رئاسة الجمهورية
المكلـف بالشـؤون الدينية



منذ بضعة أسابيع نعت الينا مجلة المصور المصريــة وفاة الاستاذ الدكتور الفيلسوف المجمعى عثمان امين ، رحمـــه الله !

زلت به القدم فى الحمام ، فوقع مغشيا عليه ، وبقى أياما فى حال الغيبوبة ... أسبوعا واحدا ، وغادر فيها هذا العالم فى العام الثالث والسبعين من حياته المليئــة بالجهد والجهاد ، والعناء والمعاناة !

هذا نصيب الانسان الضعيف الذى كثيرا ما يجنح الى التكبر ، ويميل الى التجبر ، عوض التواضع والتدبر ...

ومن المفارقات العجيبة المؤكدة لضعف الانسان أن يموت فيلسوف الوعى والجوانية وهو غير واع ، ويغادر هذا العالم فى حال غيبوبة وغير شاعر باللحظات الاخيرة له فى هذه الحياة ... الدنيا اسما على مسمى ، ولكل شىء أجل مسمى !

ولقد ظل منذ شبابه ، كما كان يذكر لنا ذلك باستمرار وكما سجله فى أبيات من قصيدة طويلة نظمها فى مقهى مونبارناس ، فى باريس ، وهو طالب بالسربون ، واعيا حاد الوعى بوضع الامة الاسلامية المسكينة ، وساعيا جاد السعى للمساهمة فى إخراجها من تلك الحالة المستكينة، متألما شديد التألم لحالها ، وغير ممتلىء أملا بمستقبلها ، ناقدا مرير النقد لتهاونها فى مهام الأمور وسبهللتها ، وغفلتها عن مدى الهوة التى تردت اليها، وعدم شعورها بما يجرى فى العالم حواليها ، ناسية ماضيها ، وجاعلة من الخصم قاضيها، غير مدركة لواقع حاضرها ، وان اصبحت مكشوفة لناظرها ، ولا عابئة بمصيرها فى غدها ، جاهلة ان هناك من يرمى الى وأدها !

كان رحمه الله يلخص هذا كله ، وما يصاحبه من مجاملات فارغة ، ونفاق شنيع ، وعدم اكتراث ولا مبالاة ، وغفلة وضياع باستمرار وموالاة ، بتلك الأبيات التى يقول إنه نظمها على سطح مقهى فى الحى المذكور ، وهو يشاهد أفواجا من شباب المسلمين يغدون ويروحون فى زهو ولهو ، وكأن أمتهم فى عصر هارون الرشيد ، معبرا عن تأففه ، ومرارته بل ويأسه ، ومسجلا وضع الأمة ــ الغمة ، قائلا :

اذا كنت فى دولة النفاق — فمل بساق واعدل بساق
ولا تخاصم ولا تصادق — وقابل الكل بالعناق
ولا تحقق ولا تدقق — وانسب شآما الى عراق
فأى شىء كأى شىء — بلا اختلاف ولا اتفاق!

كان رحمه الله يدرس لنا فى بداية الخمسينات (1953 – 1954) فى السنتين الثالثة والرابعة ليسانس من قسم الفلسفة فى كلية آداب جامعة القاهرة ، التى كانت تسمى اذ ذاك جامعة فؤاد الاول ... يدرس لنا الفلسفة الحديثة : ديكارت وكنط، وكان باستمرار يبرز لنا السبق عند الفارابى أو ابن سينا ، عند إخوان الصفا أو المعتزلة، عند الغزالى أو ابن رشد، على ديكارت وكنط وغيرهما من فلاسفة أوروبا، ويذكى فينا الحماس، ويحثنا على التنقيب والبحث «بلاسبهللة»، ويقرن جميع ملاحظاته، وهو فى صميم التعمق فى كتاب «المبادئ» لديكارت ، أو نقد العقل الخالص لكنط ، بالوضع

في أمه الاسلام اليوم ، ويطبق عليه هذه الاشارة أو تلك ، « وكأن ابن سينا وضع عنوان مؤلفه الكبير «الاشارات والتنبيهات» لهذه الامة المسكينة ، ولكن عبثا وسدى ! »

وكم كان يسرني أن أسمع اسم الجزائر في أكثر من مرة في محاضراته تلك ، في وقت كان فيه ذلك الاسم مجهولا في مصر وغير مصر من المشرق العربي ، حتى من كثير من الخاصة · ولم يكن يذكر اسم الجزائر ، إذ ذاك ، الا شخصيات تعد عـــلى أطراف الاصابع : مثل المرحوم عبد الرحمن عزام ، والدكتور محمد صلاح الدين ، أماالباقي ممن كنا نتصل بهم أو يتصلون بنا فكثيرا مـــا كانوا يسالوننا عما اذا كانت الجـزائر في اندونيسيا ، أو واق واق ، وعما اذا كان فيها نهر النيل ، والا فكيف نزرع ونحيـا ؟

أما اذا ذكرت الاستعمار الفرنسي ـ أو الاستخراب، كما كان يفضل د· عثمان أمين أن يقول ، أو الاستدمار ، كما يفضل كاتب هذه السطور تسميته ـ فكانوا يستغربون ويقولون : كيف ؟ فرنسا ؟ وأحدهم تمنى أن لو كان له جوز سفري الفرنسي ! (1)

وقد كان رحمه الله يقدر الرجال من أي بلد كانوا ، وخاصة اذا ما كانوا فلاسفة ومفكرين « وعاة » ، كما كان يحب أ نيقول ، ويعني بذلك المهتمين سياسيا وثقافيا بالوضع في العالم ، مثل الفيلسوف الالماني كنط الذي كان يعجب به كل الاعجاب ، لتاكيده على أن النظام الجمهوري هو النظام الصالح الوحيد للامم والجدير بكرامتها ، ـ وهذا في عهد فاروق ! ـ ، ولحرصه على حرية الشعوب ، وتنديده بالاستعمار الاوروبي عموما (2)،ولذا حرص على الاحتفالبالذكرى المائة والخمسين لوفاة الفيلسوف العظيم ، سنة 1954 ، والقى في تلك الحفلة التذكارية كلمة لخص فيها فلسفة الحريـة عند كنط وأهميتها لجميع الشعوب المضطهدة ، وخاصة منها الشعوب العربية ·

وكان حرصه على ابراز فضل الفلاسفة المسلمين ، في العهود الزاهرة للاسلام ، على أوروبا لا يعادله الا إلحاحه على أن يغرس فينا مزايا اللغة العربية على اللغات ، وضرورة ارجاعها الى مكانتها في جميع ميادين حياة الامة الاسلامية ، وهو الذي درس في أوروبا ،

1) أنظر هذه النكتة المرة في هامش ص 241 ـ 242 من الجزء الاول من كتاب إنية وأصالة لصاحب هذه الكلمة .
2) أنظر : « مشروع السلام الدائم » لايمانويل كنط .

والمتزوج بفرنسية ثم بانجليزية ، والعارف بعدة لغات أجنبية ، والمؤكد كل التأكيد على ضرورة اللحاق بأوروبا فى جميع الميادين الايجابية ٠

وكان فى صميم محاضراته عن ديكارت وكنط ينعى على كثير من زملائه ومن الشخصيات السياسية البارزة فى مصر والعالم العربى تقليدهم الاعمى لسلبيات الحضارة الحديثة ، وتعبيتهم الفكرية لأوروبا ، ويسميهم «الخواجات»، أى «المطورنيين» (أى المتجنسين) ، كما نسميهم نحن ، ولكن المتجنسين بدون أن يكونوا قد تجنسوا فعلا على الورق ، وانما بسلوكهم ، وعقليتهم ، وتصرفاتهم ، ومنطقهم ، وسحنتهم ، بل ومجرد وجودهم ٠٠٠ حيوانات تمشى على الارض ، « مشيا سبهللا » !

ونفس الروح تتخلل جميع محاضراته ، فى جامعة القاهرة ، أو فى ملتقيات الفكر الاسلامى فى الجزائر التى ظل يحضرها ويشارك فيها منذ الرابع سنة 1390 هـ (1970) حتى العاشر سنة 1396 هـ (1976 م) ٠ وتسود سائر مؤلفاته العديدة روح الوعى ، ورغبة التوعية ، روح « الجوانية » ، كما كان يسميها ، ويدافع عن اسمها ، ويجهد نفسه فى التماس الاصول للفظها ، فى كتب اللغة وفى الحديث الشريف ، وان كان البعض يشك فى صحة ذلك الحديث الذى يرويه ويشتمل على لفظتى « الجوانى والبرانى » ٠

ونسيت ، سامحنى الله ، أن أضيف له سندا فى نظرى ذا قيمة ، وهو بقاء اللفظين فى اللغة المالطية الرسمية اليوم ٠٠٠ اذ يسمون وزارة الداخلية « وزارة الافاريات الجوانية » ، ووزارة الخارجية « وزارة الافاريات البرانية » ٠٠٠ وهى بقية من بقايا الوجود الاسلامى الغابر فى الجزيرة ، التى لا تزال فيها حتى اليوم متنوعة غزيرة ، ولا تستطيع أن تزيلها اية ملكة ولا وزيرة !

وقد تعددت مؤلفات الفقيد ، كتعبير عن اهتماماته المتنوعة ، الدائرة كلها حول محور واحد : **هذه الجوانية التى يمكن أن تلخص فى الإنية ، او المطابقة التامة لجذور الأنا ، والمحافظة على جميع عناصر الذاتية ، والمتمسكة بسائر مكونات الشخصية ، مع الاستفادة ، بعد ذلك ، وبعد ذلك فقط ، مما يتلاءم مع تلك الإنية لدى الغير ، ومع التعبير عن ذلك كله من عميق النفس ومن وحي الذات الواعية ، « الجوانية » !**

وهذه الفكرة تقريبا هي التى حاولنا تلخيصها فى كلمة واحدة هي الأصالية، وسبق لنا تحديدها بالصيغة الآتية : « **أن يكون الانسان ابن عصره ، مع البقاء على اديم مصره ، ودون أن يصبح نسخة غيره** » . (1)

وانا لندين لأستاذنا الكبير باهتمامنا بمفهوم الإنية ، بمبناها ومعناها ، وهى الواردة فى الاشارات والتنبيهات لابى على بن سينا ، وقد كان أستاذنا رحمه الله ــ وهو الذى كتب ما كتب عن ديكارت وفلسفته ــ لا يفتأ يذكرنا بأن ديكارت لم يأخذ ذلك المبدأ الذى جعله محور فلسفته ، الكوجيتو : « **أفكر فانا اذن موجود !** » . الا من إنية ابن سينا المذكورة ، التى شبه لها بذلك الانسان المعلق فى الهواء ، بين السماء والارض ، والذى يعتبر وجوده الجسمى معدوما ، ولم يبق له فى تلك اللحظات الحرجة من وجود الا شعوره بذاته . وهو ما يسميه ابن سينا بالإنية ، وما عبر عنه ديكارت بالكوجيتو !

وما دمنا قد ذكرنا عثمان والكوجيتو وأصله السينى ، فلنذكر القارىء الكريم هنا بعثمان آخر، الفقيد الآخر : عثمان الكعاك، الذى قال لنا من منصة الملتقى العاشر للفكر الاسلامى فى عنابة ، قبيل وفاته بيوم واحد، ان ديكارت أخذ فعلا فكرته عن ابن سينا ، ولقد قرأه ودرسه، اذ اطلع هو بنفسه ــ عثمان الكعاك ــ فى مكتبة العطارين بتونس ــ التى كان المحافظ لها ــ على تعليق بخط ديكارت على هامش ترجمة لاتينية للإشارات والتنبيهات يقول فيها الفيلسوف الفرنسى : « وهذا رأينا أيضا !» معززا رأي ابن سينا بعدة قرون بعد وفاته !

ولقد كنا اذ ذاك فى صميم حركتنا الوطنية ، المنادية بضرورة ابراز شخصيتنا ، والتذكير بأمجادنا ، وفصل ذاتيتنا عن « الوجود الفرنسى » ، وانكار « جزئيتنا التى لا تتجزء » من الوطن الام ... فرنسا ــ ولم يقولوا لنا من الاب ؟ ــ ، ولذا اهتممنا طبعا كل الاهتمام بهذا الاساس الفلسفى لفكرة الوجود المستقل ، ــ بل هو وحده الوجود للامم والا فلا وجود ! ــ ، وتحمسنا لها تحمسا لا فلسفيا فحسب ، أو ــ ان شئنا استعمال لفظة عصرية لاكتها الالسن وخربشتها الاقلام ، أكثر من اللازم ــ كنا نستمد اذ ذاك من تلك الفلسفة « الملتزمة » بحق ، ولم يبرحنا من ذلك الوقت الاهتمام بهذه الفكرة ، وظللنا نشتغل بها ، ونركزها فى نفسنا ، حتى بعد استرجاع الاستقلال ،

1) الجزء الثانى من « إنية وأصالة » تحت الطبع .

بل ونرى انها ضرورية لنا ـ ولكل من فى وضعنا ـ اليوم أكثر من أى وقت مضى ، ويظن البعض ـ خطأ ـ انه انقضى !

ويكفى أن نقول ان نشازا يستفحل اليوم ، تحت صور مختلفة ، وبتأثيرات متعددة، بفعل عوامل متنوعة ، وبدوافع متباينة . وكم نرى ونسمع اليوم من كل قدور وماريز ، من داكار الى باريز ! وكم من بومة ذات دميغة من المحيط الى الجدار تظن نفسها ماهرة، وتعتقد أن لها آراء باهرة ، وهى فى الواقع دمى لتأثيرات قاهرة ، ظلت ترعاها بعيون ساهرة ، مسرة ذلك أو به جاهرة ، صانعة منها « نجوما زاهرة » ، بعد أن كانت وضعتها فى بواتق صاهرة ، وأصبحت تبرزها اليوم بطرق ظاهرة ، بنوايا كالامس غير طاهرة، بل خبيثة لعينة عاهرة ، ولكل من يخالفها مكشرة ناهرة ، وعليه سلاح دعاياتها شاهرة !

انهم الخواجات ، كما كان يسميهم فقيدنا ، موضوع هذه الكلمة ، فقيدنا الدكتور عثمان أمين ! كان صديقنا المشترك الدكتور ابراهيم بيومى مدكور ، أمين عام مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، طلب منا فى السنة الماضية أن نكتب كلمة لكتاب خاص يصدر تكريما لاستاذنا الفقيد (العضو فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة) . وقد قصرنا ... لا بروح تلك السبهللة ، التى كان يندد بها فقيدنا ، ولكن ـ كما أصبحنا نقول اليوم ، وليس بعذر ! ـ بسبب كثرة العمل ، والتزامات سابقة ...! ، وكم آسف اليوم على عدم خربشة هذه الحروف فى وقتها ، وان كانت ، على كل ، كلها اعترافا ببعض فضله على ما بقى من أمة الاسلام اليوم ، وعلينا شخصيا وبالذات !

فى النسخة التى أهدانا اياها من كتابه : « الجوانية » اثناء الملتقى الخامس للفكر الاسلامى فى وهران سنة ١٣٩١ (١٩٧١) ، كتب ، رحمه الله ، « الى فيلسوف الإنية والأصالة الخ » .

نظن اننا توضيحا لما كتب فى ذلك الاهداء ، وان كنا نعتز بذلك التشجيع ، وردا للحق الى نصابه ، واستجابة لطلب الدكتور مدكور ، ولو ... بعد فوات الوقت ، قد أدينا بعض الواجب بخربشة هذه الصفحات فى حق فقيدنا ، فقيد الفكر الاسلامى ، فقيد الفكر العالمى ، فقيد الإنسانية ، أستاذنا الدكتور عثمان أمين ، رحمه الله !

أوراس محطم الاستعمار الروماني (1)

احمد توفيق المدني
وزير مفوض



سادتي الفضلاء الجالة • ابنائي الاحرار الميامين :

ان اول كلمة ينشرح لها صدري ، ويعبر عنها لساني ، هي كلمة اجلال واحترام وتقدير ، لشهداء هذا الصقع الغالي العزيز ، أوراس الاشم • اولئك الشهداء الكرام البررة ، الذين تعاقبت وتسلسلت مواكبهم الرهيبة ، خلال آلاف السنين ، يدفعون للحرية الحمراء دماءهم الطاهرة النقية ؛ ويرصعون باجسادهم طريق الاستقلال الغالي ، ويعبدون بارواحهم العلوية ، ارض الوطن المفدى •

فطوبى لهم وحسن مآب •

اننا لا نزال نرى آثارهم الطيبة فوق اديم الارض ؛ ولا نزال نشاهد آثار جهادهم العنيف بين أودية هذا البلد الخصبة ، وبين ثنايا جباله الشاهقة ، إننا نكاد نشعر بارواحهم ، ونحن في هذا الجمع الحافل ، وهي ترفرف حوالينا ، بين روح وريحان ، في

1) محاضرة القاها بمدينة باتنة •

سرابيل مطهرة من رضـــوان الله ، تنادينا الى خوض غمرات الجهاد الاكبر ، تدعونا الى القيام بجلائل الاعمال . لتعمير هذا الوطن الغالى العزيز ، الذى دفعوا ثمن حريته أرواحهم ودماءهم . لقد طهروه من الارجاس الادناس · وابعدوا عنـــه والى الابد جماعة الخناس ، فلنجعله ، ونحن خلفاؤهم الابرار ، درة لامعة فى أعين كل الناس ·

ثم كلمة ثانية ،اتوجه بها من قلب مؤمن سليم ، لهذه الهيأة البلدية الصـالحة ، التى اوليتموها ثقتكم . وهم لها أهل ، والتى وضعتم على عاقتها امانة القيـــام بكل ما يحقق السعادة والرفاهية والعزة . لهذه الناحية التى شهد التاريخ الحق ، انها كانت ومنذ أقدم العصور ، تضحى فى سبيل السعادة ، وتبذل الجهود الغالية فى سبيل العزة والكرامة · فلبلديتكم الفاضلة ، ايها الأعزة الأكرمون تحياتى المخلصة من أجل ما حققته من أعمال ؛ وخاصة من أجل اقامتها هذا المهرجان الثقافى الحافل ، الذى غمرنى بالسعادة ، ومكننى من مواجهة هذه الوجوه المجاهدة النيرة ؛ ومن الاندماج مع هذه القلوب الطاهرة النقية . وقد طال شوقى اليها ، ولم تنمح ولن تنمحى صورتها الوضاءة من فكرى ومن قلبى ومن كل مشاعرى ·

انكم تفتخرون ايها الامجاد ، ونحن نفتخر بكم ، ومعكم ، بجهادكم العنيف ، القاسى ، الشديد ، أثناء حرب التحرير العارمة ، التى يحق للجزائر ان تفتخـــر بها على العالمين ، لكننى اسالكم : هل كان هذا هو جهادكم الاول ؟ وأجيب عنكم ، لا ! ما جهاد اوراس أثناء حرب التحرير وما ضحاياها الابطال الذين قدمتهم فداء الحرية والاستقلال الا حلقة من سلسلة نورانية سرمدية، تعاقبت فيها الاجيال تتلوا الاجيال، وتوالت فيها جحافل الفداء والتضحية يتلو بعضها بعضا ، منذ ما عرف التاريخ هذه الناحية من الوطن العزيز · ولنعم ما عرف ، وانـىلأتساءل عن عظمة جبالكم الشاهقة الرفيعة ؛ ألم تكن عظمتها نتيجة من ضمتهم بين ثناياها من شهداء الحرية والاستقلال والكرامة ، منذ نحو الالفى سنة ؟

لقد اخترت لحديثى معكم الساعة ؛ موضوع تقويضـكم لذلك الاســتعمار الرومانى الشرس ، ومشاركتكم الفعالة فى انقاذ كامل الوطن من ذلك الداء الوبيل الذى حكم على الشعب بالمهانة والمذلة ، وحكم على الوطن بالرضوخ والاستسلام ، الى ان صاح صايحكم

من قمة اوراس : كلا ! لن نموت ، لن نضمحل ـ لن نستسلم ـ لاعـــدائنا الموت · ولنا طول البقاء ، ولوطننا الخلود ما دامت الدنيا ·

هذه صرخة احراركم ورجالكم وأبطالكم ،·منذ ما يزيد عن الالف والثمانمائة سنة · وانه لحديث عجب ، سأحاول اختصاره ضمن ساعة · واســـأل الله ان يوفقني في هذا الاختصـــار ·

كان الوطن حرا مستقلا ؛ وكان أهل البلاد عاملون دائبون ، قبل ثلاثة آلاف سنة من التاريخ ؛ عندما جاء رجال ونساء من بني عمومتكم من الشرق العـربي ، هم بنو كنعان ، الذين يدعوهم اليونانيون بالفنيقيين ، جاءوا يؤسسون لانفسهم ، ولانفس أهل البلاد ، مراكز تجارية مسالمة ، لم تكن مراكز حرب ولا تدمير ، بل كانت مراكز حضارة ومدنية ، ومقايضات تجارية تنفع الجانبين معا · هكذا وجدت : عتيقة ، وجيجل ، وبجاية ، وتنس وغيرها · واختلط الشعبان وتعارفا وتآلفا · كان ذلك منذ ثلاثة آلاف عام ·

وفي سنة 480 قبل المسيح · أسس الفنيقيون بنو كنعان مدينة « قرطة حدثت » أي القرية الحديثة ، وهي التي عرفها التاريخ باســم قرطاجنة · ونمـت وانتشرت ، وعظم سلطانها بعد حين ، فكانت دولتها تشمل كامل البلاد التونسية اليوم ، والجزء الشمالي الغربي من طرابلس الغرب · اما كامـل بلاد المغرب العـــربي ، فقـــد كان تحت النفوذ القرطاجني ، مدنية ، وتجارة ، وعمرانا · انما لم يكن احتلالا ، ولم يكن استعمارا · وكان أهل المغرب الكبير كافة ، احرارا في بلادهم ، مالكين زمام أرضهم ، لا ينافسهم فيها طيلة تلك الفترة الصالحة منافس ·

لكن · واي صفاء لا ينكده الدهر ·

فهنالك ، على الضفة الاخرى من البحر المتوسط ، نشــــات دولة أخرى ، هي دولة روما · واتسعت رقعتها حربيا وسياسيا الى ان شملت كل ايطاليا ، ووجهت أعين الطمع والجشع الى جزيرة صقلية الكنعانية ، فحدثت هنالك المصادمات الاولى بين الدولتين ، وبين الحضارتين ، وبين النظامين : بين روما وقرطاجنة ، بين حضارة التجـارة والتبادل الحر ، وحضارة السلاح والقوة والجبروت · بين نظام حرية الشعوب ، ونظام الاستعمار واستعباد الشعوب ·

دامت تلك الحرب ، بصورة شرسة بشعة ، فوق أديم الارض وفوق عباب البحر ، قرنا كاملا ، من سنة 264 الى سنة 146 قبل ولادة السيد المسيح عليه السلام . وهى التى تعرف فى التاريخ باسم الحروب البونيقية .

لقد سجل رجال قرطاجنة وأبطالها ، خلال تلك الحروب المنهكة صحائف فخار لا تستطيع محوها الايام . ناهيك بحملة (حنبعل » الشهير ، واتخاذه اسبانيا مركزا عاما لاعماله الحربية ضد روما ، ثم اقتحامه لجبال البيرينى الفاصلة بين اسبانيا وفرنسا ؛ ثم اجتيازه الصعب لجبال الالب ، الرهيبة ، والانحدار منها على رومة ، فى موجة قاسية دافقة ، ودحرهم فى مدينة « كان » فكان انهيارهم عظيما وكانت خسارتهم فادحة : نحو الخمسين الفا من القتلى ، بينهم عدد عظيم من الاشراف . وانهزم الجيش الرومانى لا يلوى على شىء ، الى ان احتمى بجدران المدينة الكبرى ، صائحا فى لوعة وارتياع : « حنبعل على الأبواب » .

لكن حنبعل لم يستثمر هذا النصر العظيم ، الذى شارك فى احرازه عدد كبير من المتطوعين الافارقة ، اجدادكم . ونزل الى جنوب ايطاليا ، كى يستريح جنده ، ويستعد . لكن ذلك الجند قد انغمس الى الاعماق فى « ملذات كابو les delices de capou حيث كانت الخمرة الطيبة ، وحيث كان النساء الحسان .

فى تلك الاثناء ، جمع الرومانيون قوتهم ، وحزموا أمرهم ، وبدل ان يجابهوا حنبعل فى ايطاليا ، هاجموا جيشه فى اسبانيا فقضوا عليه ؛ثم تجرأ القائد الرومانى « شيبو الافريقى » على مهاجمة الدولة القرطاجنية فى عقر دارها ، فنزل ببلدة افليبية ، على نحو 100 كم ، من قرطاجنة ، ومعه 30 ألف من المقاتلين .

هنا تغيرت الوضعية بالنسبة للقرطاجنيين ، واكثر من ذلك ، بالنسبة لاهل مملكة نوميديا ، ومنها الاوراس ، التى لم تعرف حربا اجنبية قبل ذلك ، فاذا بها ترى نفسها تجاه المطامع الرومانية وجها لوجه ؛ وترى رجالها وملوكها يختلفون : هذا يؤيد قرطاجنة ، وذلك يؤيد روما . وانقسم اجدادكم وكل أهل نوميديا : هذا يؤيد الملك سيفاكس حليف قرطاجنة ، وذلك يؤيد الملك ماسنيسا الذى كان من أكبر أنصار قرطاجنة ، وشارك

حنبعل في حملة ايطاليا · ثم رأى ان قرطاجنة خاسرة ، فذهب الى شـــيبو وعرض عليه اعانته ، وكان معه على رأس رجاله عندما وقف على أبواب قرطاجنة ·

عاد لكي يجابه معركة «زاما» الشهيرة ، قرب مدينة الكاف ، وليخسر امام شببو وامام وخسر نهائيا ما كسبه خلال 36 عاما !

عاد لكى يجابه معركة « زلما » الشهيرة ، قرب مدينة الكاف ، وليخسر امام شببيو وامام ماسنيسا جنده وسلاحه ، سنة 202 وما تمكن من النجـاة الا بجهد جهيـــد · ورضيت قرطاجنة صلحا يائسا ، مزريا ، نزع عنها كل شيء ، ولم يبق بها الا الجسـد البالى دون الروح ·

كانت النتيجة ــ أولا : زوال سلطان قرطاجنة ، وتقلص نفوذها ·

ثانيا : استقرار « ماسنيسا » ملكـــا على نوميديا ، ومنها بلد أوراس ، وعاصمتها « قرطة » تحت رعاية ونفوذ روما ·

ثالثا : امتداد النفوذ الرومانى العنيف شيئا فشيئا ، فى كامل بلاد المغرب الكبير ·

وما عتم الملك «ماسنيسا» حتى هاجم قرطاجنة ، واحتل القسم الاكبـر من بلادها · وكان يهاجم اعداءه وسنه 88 سنة ! ربما كان يفكر وهو يهاجم قرطاجنة ، فى توســـيع ملكه ، لكنه لم يخطر على باله ــ ساعتئذ ــ انه كان يحفر قبر المغرب الكبير ، وانـــه كان يهيىء استقرار قدم الرومان بالبــلاد ، ليمحقوا اســـتقلالها ، وليســـتعبدوا أهلها . وليستعمروا شر الاستعمار ارضها ·

هكذا كانت النتيجة ، ويا للاسف ! لكن ، هل يصبر الاوراسيون الاحرار على هـــذه الحالة المزرية ؛ وهل تستكين بقيةأهل نوميديا المكافحون لهذا الاستعمار الذى أخذ يبدى مخالبه فى البلاد ؟

كلا ! لقد جاء دور يوغورطة العظيم ، يوغورطة المجاهد ، يوغورطا الزعيم العملاق ·

كان النفوذ الرومانى عظيما بالبلاد ، وكان يزداد قوة وانتشارا بعد خراب قرطاجنة ، وبعد استقـ ار روما الطاغية حاكمة بأمرها ·

جاء يوغورطا النوميدى ، وكانت عزيمته الصلبة تساوى فى ضخامتها عظمة اوراس العظيم ، فابتدأ جهاده بتوحيد نوميديا كاملة ، واحتل قرطة عنوة ونصب بها قاعدة ملكه ، واخذ يوالى الجهود حتى وحد هذا القسم ، ومنه بلادكم أيها السادة ، وجعل منه مملكة قوية ، رفيعة العماد ؛ ووقف عملاقا ، مخاصما لروما ، لا يأبه لسلطانها ، ولا يخاف عقابها ، بل اكتشف مفاتيح سرها وهو الذهب ، فما بعثت رومة من رجال بحث عن اعماله ، الا وابتاع شرفها بذهب جزيل ، فترجع الى رومة شاكرة اعماله ، محبذة سلوكه ؛ بل انه وقف يوما امام مجلس رومة ، متهما ، وابتاع ذمة اغلب الاعضاء ، وكانت الرشوة داء رومة الفتاك ، فاذا بالمجلس يبرئه ، ويشكره ، ثم ينظر الى رومة وهو راجع لوطنه فيقول : آه أيتها المدينة المعرضة للبيع ، ليت لى من المال ما يكفى لشرائك ؟

واخذ سلطان روما يشتد الى ان أصبح غير مطاق ٠ مثله تماما مثل الاستعمار الفرنسى الفتاك الذى انحط علينا بكلاكله طيلة قرن وثلث قرن ، بل كان سلطان رومة من الناحية الاقتصادية افظع واقسى كما سترون الآن ، واخذت تلك الكلابة الرهيبة تطوق جسم البلاد بغل من حديد ، فاخذ يوغورطة العظيم ، ينظم البلاد فيحسن تنظيمها : يختط المدن ، وينشط الحركة الزراعية ، وينشىء طرق المواصلات ، وقد اسر فى نفسه ان ينقذ وطنه وان ينقذ قومه من تلك السلطة الرومانية الرهيبة التى انحطت عليه كابوسا فظيعا ، فاخذ يجهز جيشا عظيما ، قويا من فتيان قومه البواسل الاشداء ، اجدادكم أيها الاحرار ، واستعد الشعب لليوم العظيم ، فما جاءت سنة 110 حتى ارسلت روما جيشا قويا لمحاربته والقضاء عليه ، لكن رجال نوميديا البواسل الاشداء ، تصدوا لذلك الجيش الرومانى ، وامعنوا فى قتل رجاله ، والاستيلاء على سلاحه ، وكسب يوغورطة وقومه الاحرار المعركة الاولى ، وباءوا بالنصر المبين ٠

لكن رومة الطاغية الجبارة لم تصبر على تلك الاهانة التى اصابتها فى الصميم ، فصممت على القضاء نهائيا ، مهما كلفها الثمن ، على هذا الاستقلال البربرى الامازيغى الذى يريد ان يتخلص من سلطتها القاهرة ٠ فجهزت جيشا عظيما ، ووضعت على راسه القائد القاسى ميتيلوس ، فهاجم الاحرار اليوغورطيين من الجنوب ، من بلادكم أيها السادة ، وعلم انه اذا قطع اوراس عن يوغورطه ، فان أمره لا محالة الى زوال ٠ واخذ

الرومانيون يسلكون السياسة الفظيعة التى سلكها من بعدهم الغزاة الفرنسيون : قتل السكان ، اتلاف المدن والقرى ، احراق المزارع . وهكذا تقدم الطاغية ، ويوغورطة البطل يقاوم المقاومة العنيفة ، ويجهز الرجال البواسل ، يبعث بهم الى ميادين القتال . ويباشر الحرب التى حذقها اجدادكم ، ان لم يكونوا هم الذين اخترعوها . حــرب الكمين ، التى كبدت الرومانيين الخسائر الفادحة العظيمة ، لكن رومـة كانت قد اتخـذت قرارها ، وصممت على استعمار البلاد ، مهما كلفهـا ذلك ، فارسـلت على يوغورطا ، مـدى اربع سنوات (106 ـ 110) أغلب فرق جيشها، وأخذت تتبع خطى البطل العظيم الى أن تمكنت من احتلال كامل نوميديا ، بين شرقية وغربية ، وآوى يوغورطة الى موريطانيـا (المغرب الاقصى) حيث صهره الملك بوكوس ؛ فأمنه غدرا ، ثم سلمه للرومانيين القساة ، الذين عرضوه على شعبهم ، وقد فقد عقله من هول الصدمة ، ثم ارجع الى سجنه ، فمات فيـه جوعا وظمأ • وهكذا انتهت ، بين الحديد والنار ، والتضحية والاستشهاد ، مملكة نوميديا الابية ، التى أعطت العالم يومئذ مثالا حيا للجهاد الفاضل فى سبيل الحرية والاستقلال والكرامــة •

اخذت روما تتعامل فى البلاد التى امتلكتها ، مع حثالات من العبيد الذين يدعونهم ملوكا ، وما كانوا فى الحقيقة الا خداما لركاب الاستعمار ، وأعوانا لرجال الســلطة الطاغيــة ، الى ان انقضى دور اولئك الملوك المائعـين ، فضمت رومة كامل البلاد اليها ، واخذت تنفذ منهاجها الاستعمارى الرهيب •

لكن ، هل رضخ الاحرار حقا لرومة ، وهل رضوا حكمها الاستعمارى المطلق ؟ كلا • ان أوراس الشاهقة العملاقة ، تقول لكم كلا •

لقد قام حر من احرارها ، تاكفاريناس ، يوقد نار الثورة فى وجه الغاصبين ، وانضم له رجال اوراس وابطالها ، وجاءه الفتية الاحرار من كل ناحية • واشتعلت نار الثورة الموقدة فى اغلب جهات القطر • وبعد حرب سجال غير متكافئة اندحر الثائرون ابـاة الضيم سنة 22 ق٠م ، وخيم الظلام الاسود على الوطن وانتصب الاسـتعمار الرومانى القتال حاكما بامره ، بعد ذلك ، الا أن الجهات الجبلية المنيعة ، كجهـة أوراس ، بقيت محافظة بعض الشيء على اصالتها وعلى الكثير من ارضها •

ثم اخذت جموع المستعمرين تفد على البلاد المفتوحة ليلا ونهارا ، كانوا يقدمون شبه حفاة وعراة ، كانوا يفدون جياعا على هذه الارض ، أرض الخير والبركة ، فيستاثرون ـ كخلفائهم الفرنسيين ـ بالارض الخصبة ، وحتى الارض الغير الخصبة ، يبعدون عنها أهلها ، تقتيلا او تشريدا ، ويكتسبون منها الثروة والغنى ، تحت امرة حكام من الرومان لا يراعون فى مواطن الا ولا ذمة ٠

يقول عنهم المؤرخ م٠ اوغستان تيارى : « ان الظلم الذى لا يعرف له حد ، كان ينزل من هؤلاء الولاة على رؤوس القرويين ، فيصيبهم فى أموالهم وفى ابدانهم » ٠

وكانت الثورات العنيفة تقوم احيانا ، انما كانت تخمد دائما فى بركة من الدماء ٠

وهكذا ، أخذ المستعمرون الرومانيون ، يبتنون لانفسهم المدن الجميلـــة ، المنسقة احسن تنسيق (كتيمقاد ـ وجميلة ـ وغيرها) ٠ وينشئون لانفســهم الملاعب الفخمة ، والمسارح الفارهة ، والحدائق الغناء ، ويعيشون عيش الرفاهية والبذخ الجـارم ٠ وابن البلد المسكين ، يرى ، ويسمــع ، ويغتاظ ، انما هو كاظم غيضه ، ينتظر الفرج ، سواء كان قريبا او بعيدا ٠

لقد كانت سياسة الاستعمار الرومانى اسوأ سياسة استعمارية عرفت مدى الزمن فى أى قطر من الاقطار ٠ فالارض الزراعية فى كامل بلاد المغرب الكبير ، الخاضع لرومة ، كانت ملكا للرومانيين اغتصبوها من أهلها ، الذين كانوا منذ اقدم العصور قيمين عليها ، وجعلوها من أملاك الدولة 30 000 000 هكتار ! يملك الامبراطور الرومانى نصفها ، بينما يملك **ستة أشخاص** من كبار الرومانيين نصفها الآخر ، فكل من أراد من أهـــل البلاد مباشرة اعمال زراعة فى جهة ما ، كان عليه ان يتوجه لمثل هؤلاء المالكين ، ليستأجر منهم قطعة الارض المطلوبة ، على ان يدفع بعـــد ذلك ضريبة الدولة ، العشر من محصـــوله

وكانت الدولة الرومانية تملك الى جانب كامل الاراضى الزراعية جميـــع المناجـم والمعادن ، ومقاطع الحجر والرخام ، وغيرها ٠

بهذه الطريقة ، أصبح البربر المازيغون الاحرار ، فى بلادهم وبلاد اجدادهم منذ فجر التاريخ ، عبيدا ، من نوع « السيرف » الشهير فى نظام الاقطـــاع الفرنسى والاوروبى .

لا يستطيعون اطلاقا مغادرة الارض التى يعملون بها · وكان المستعمرون الرومانيون يبعثون سنويا الى ايطاليا مقدار مليون وثمانماية الف هكتو ليتر من الحبوب ، أى ثلث ما تستهلكه ايطاليا ، ترسل من المراسى الافريقية الى مراسى ايطاليا ، فوق اسطول خاص ، بنى لذلك الغرض ؛ هذا زيادة عن كميات عظيمة من ريت الزيتون ، والعنب والتين ، وما الى ذلك من خضر ، وفواكه متنوعة ·

أيها السادة والابناء :

لقد وصل عدد المستعمرين الرومان بالمغرب الكبير ، الى ثلاثة ملايين من البشر ، انتشروا فى كل الربوع والاصقاع كالجراد المنتشر ، ملكوا كل الارض ؛ وسكنوا كل المدن ، واستحوذوا على الحكم وعلى الادارة وعلى البلديات · والامازيغى مبعد عن كل ذلك بعدا يزداد يوما بعد يوم ، ويبشر بالويل الوبيل ·

فهل يعقل ان شعبا كاملا ، يمتد من حدود ليبيا ، ويصل الى سواحل المحيط الاطلسى ، يبقى طيلة قرون عدة ، بعيدا عن أرضه ، بعيدا عن خيرات بلاده ، بعيدا عن حكم موطنه ، بعيدا عن مجتمع مستأثر بكل الخيرات ، لا يخالطه ولا يختلط فيه ؟ ابدا · هذا محال ·

لقد أكد لنا التاريخ ان البربر الامازيغيين ، قد بقوا كامل امد الاحتلال الرومانى ، محافظين كل المحافظة على لغتهم، على تقاليدهم، على ثقافتهم البونيقية القرطاجنية التى ما رأوا ثقافة سواها . واندمجت فى الامازيغية اندماجا تاما ، حتى قال المؤرخ الفرنسى الكبير ، بواسيار : انه لم يبق فى افكار أهل شمال افريقيا ، ولا فى عوائدهم ، ولا فى اخلاقهم ، ولا فى طرق حياتهم ، أى تأثير قرطاجنى او رومانى ، انما لم يبق بها الا البربرى الصرف ·

جاء الدين المسيحى بلاد المغرب ، منجرا اليها من ايطاليا ؛ جاء دينا طاهرا ، نقيا ، يحمل كلمة الله الحق الى الشعوب ، داعيا الى العدل والفضيلة ، مناديا باخوة البشر · أى انه جاء مناقضا على خط مستقيم سياسة الاستعمار الرومانى · فاعتنقه مؤمنا مخلصا، ضعاف القوم، وجماعة كثيرة من رجال البربر · وما كان جزاء المؤمنين منهم، الا التقتيل،

والتعذيب ؛ او تقديمهم رجالا ونساء وصبيانا الى الاسود الكاسرة ، الجائعة ، فى موسم علنى يقام من أجل ذلك ، لتتخذ منهم الاسود طعاما شهيا ٠

وما زادهم التعذيب والتنكيل الا قوة فى الايمان ، وصلابة فى العقيدة ٠ وقد خال البربر انهم يستطيعون بواسطة هذا الدين القويم ان ينزعوا من اعناقهم اغلال التسلط الاستعمارى ، والخزى العنصرى المنصب عليهم ٠ لكن جاء الامبرطور الكبير قسطنطين ؛ فاعلن المسيحية دينا رسميا للدولة ، اعتنقه الامبراطور ورجاله ، وشعبه ، ومستعمروه ، فيومئذ رأى البربر ان هذا الدين قد أصبح غلا جديدا يستعمله الظالمون لتأييد ظلمهم وتأييد سلطانهم ، فهربوا منه ، الا الاقل ، واعتبروه وسيلة من وسائل الظلم والارهاق ٠

انما ارتفع صوت الحق من اوراس سنة 265 ، كما ارتفع دائما من قبــل ومن بعد ، واعلنت الثورة العارمة ضد الرومان حكاما ومستعمرين ؛ واستجابت جبال الجرجرة الابية لرجال الثورة الاحرار ؛ فالتقى الســاعد بالساعد ، وتزعم الثــورة العارمة الزعيم « اراديون » الكبير ٠ وهدد مركز السلطة فى قرطاجنة الرومانيين ٠ لكن الزعيم قتل ، والثورة اخفقت ، والاضطهاد قوي بعد ذلك وزاد ٠ انما هيهات لصوت الثورة ان يخبو وان يلين ٠ ان الثورة نار متأججة ، مقرها النفوس والصــدور ، تبدو احيــانا حامية مستعرة ، فاذا ما خبت حينا ، بقيت فى القلوب وفى الصدور ، نارا تحت الرماد ، الى ان تهب عليها من جديد رياح تحريرية ، فاذا بها نارا تلظى ، لا تبقى على الظالمين ولا تذر ٠ وتذكروا محاضرة الاستاذ الكبير عمار طالبى بالامس ٠

وجاء النذير سنة 311 ، وارتفع الصوت الرهيب ، صــادرا من روح ومن قلب ومن ايمان ابن اوراس الشهم الابى ، المسيحى الصميم ، الراهب دونات العظيم ، الذى وصل به ايمانه ووصلت به تقواه الى مرتبة بطريرك قرطاجنة ٠ وكان هو وسلفه دونات الاول قد اعتنقا من قبل مذهبا مسيحيا جديدا ، ظهر به الراهب « اريانوس » البربرى ؛ وهــو الدين المسيحى الحق ، الطاهر ، الصادق ، الذى يقول : اولا ــ ان المسيح ليس ابنا لله ، وان قاعدة التثليث : الاب والابن والروح القدس ، انما هى ضد الحقيقة المسيحية ، وانها بدعة ومخادعة ٠ فالله واحد احد ٠ والمسيح عبده ورسوله ٠ ويقول ثانيا : انما هى بدعة

وضلالة ما نراه من عمل رجال الدين من بيع الغفران او منحه لمن طلبه من المخلوقات · بل ان الله الخالق هو الذى يغفر الذنوب ان شاء ·

بهذه الفكرة السليمة ، المؤمنة الصادقة ، قام ابن اوراس العظيم دونات ، مبشرا ، وداعيا ، فكان في بلادنا أول رجل اصلاح دينى ، مستقيم ، يدعو الى احياء السنة ، سنة المسيح رسول الله ، واماتة البدعة ، بدعة التثليث التى هى اشراك بالله ، ونقض لديانة المسيح ·

يقول كبار المؤرخين ، ان دونات الاوراس ، ومن تبعه من المؤمنين ، لم يقتنع بهذه الفكرة دينيا فحسب ، انما هو قد اتخذها أيضا ، فكرة سياسية ، واقتصادية · يحاول بواسطتها تحطيم السلطان الرومانى العاتى من جهة ، ويريد بها ، من جهة أخرى ، القضاء على الاستعمار الرومانى الفظيع الذى رأيتم سادتى الجلة كيف كانت طريقته البشعة ، وكيف كان سلوكه الشنيع ·

وهكذا ، شيئا فشيئا ، اخذت الدعاية الدينية التوحيدية تتطور شيئا فشيئا ، الى دعاية سياسية اقتصادية بحتة ، واخذ اولئك المؤمنون الموحدون ، ينقلبون من دعاة اصلاح دينى الى دعاة انقلاب سياسى ، ،واتخذوا من مدينة تيمقاد الاوراسية مركزا عاما لاعمالهم ، وألفوا عددا طائلا من العصابات الثائرة ، التى تسربت الى كل جهات البلاد ، ويدعوها التاريخ باسم عصابات « السركانسيليون » الذين اجدلهم تعريبا قرآنيا صحيحا هو « الجواسون » من قوله تعالى : « بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد ، **فجاسوا** خلال الديار » أى تسربوا خلال الديار يقتلون أهلها ·

اشتد ساعد هؤلاء الجواسين الاوراسيين رجال العصابات ، وانضمت لهم فصائل العبيد ، وجماعات الذين استعبدهم الاستعمار الرومانى فلم يترك لهم دارا ولا متاعا · ان اولئك المعذبين فى الارض ، الذين طال عذابهم واستمر التنكيل بهم قرونا ، قد اندفعوا من جبال اوراس ومما حواليها ، يعذبون الذين عذبوهم ، وينكلون بالذين نكلوا بهم · كانوا يقتلون دون شفقة ولا رحمة ، كل من صادفوه من المستعمرين الرومان ، كانوا يحرقون مزروعاتهم كانوا يحطمون منازلهم ، ويخربون قراهم ، ويدمرون لهم ما ألفوه من منازل الراحة والرفاهية · وهكذا استطاع الاوراسيون

الاحرار ، ومن انضم اليهم من الامازيغيين الناقمين على المستعمرين ، أن يضعوا أسس الثورة النهائية على الرومانيين ، وان يبعدوا عن ساحتهم أمر المستعمرين الذين اخـذوا يتركون البلاد جماعات اثر جماعات ، خوفا من القتل والتنكيل ٠ فحرروا بذلك قسـما كبيرا من أرضهم الزراعية التى عادت اليهم ، ريثما يحررون الوطن كله من مستعمريه الغاصبين ٠

لقد ارسلت روما فرقها القوية تنكل بالجواسين والدوناتيين تنكيلا شـنيعا ؛ لكن هيهـات للاستعمار الرومانى أن يعود بعـد ذلك سيرته الاولى ؛ فأخذ ينحسر عن داخل البلاد الى سواحلها ٠

لكن ثورة البربرى العصامى ، فيرموس ، سنة 372 ، اعادت الى الحـركة الدوناتية شبابها ؛ واعادت تنظيم كتائب الجواسين ، فانهالوا على الفرق الرومانية تقتيلا وتنكيلا ، وتخريبا للمستعمرات الزراعية الغنية المزدهرة ٠ ثم دخـل فيرموس على رأس كتائب الانتقام منتصرا الى مدينة قيصرية الرومانية « شرشال » وكانت أحدى عواصمهم الكبرى ، فخربها ، ودمرها حتى أصبحت رمادا ، ثم لوى عنانه نحو مدينة ايكسـيوم « الجزائر » فدخلها ظافرا منصورا على رأس جموعه الناقمة الثائرة ، وهنالك اسند له جيشه لقب « ملك » واستمرت حروبه ظافرة تارة ومدحورة تارة أخـرى ، مارا بسطيـف ، وأخيرا بسور الغـزلان ، حيث احاط به الجيش الرومانى ، وخشى الوقوع بين براثنهم ، فخنق نفسه بحبل ٠

الا ان الثورة التى ابتدأت ، واستمرت ، وقوى ساعدها ، وقضت القضاء المبرم على أهـم مستعمرات الرومان ، واحرقت ثروتهم ، وقوضت اركان ملكهم ، لم تنقرض بل استفحل بعـد ذلك أمرها ٠ وويل للظالم من يد المظلوم اذا ما هى انطلقـت وامسكت بالخناق ٠ وتألق نجم بربرى جديد فى سماء الحرية ، هو الثـائر جيلدون ، الذى تعاون حينا من الدهر مع الرومانيين ، لكنه بقى بربريا صميما ، فما كاد يمسك بين يديه بزمام السلطة الرومانية ، حتى جمع حوله من جديد كتائب الدوناتيين ، وجماعات الجواسين ،

واعلن سنة 397 ولاول مرة منذ مآت السنين ، استقلال بلاد الشمال الافريقى عن روما ؛ واعلن نهاية استعمار الرومان : وحجز فى الموانىء الجزائرية كل السفن التى كانت تحمل الى روما حبوب المغرب الكبير ٠

هكذا انقطع الحبل ، هكذا تم الانفصال ، هكذا انتقم المظلوم من الظالم ، انتقم العبد من السيد ؛ انتقم الاجير من المستعمر الشرير ٠

نعم ، ان جيلدون قد مات منتحرا ، كما انتحر قبله فيرموس ، لكن حركة الدوناتيين ، ورفيقتها فى الكفاح حركة الجواسين ، قد كبرت ، وعظمت ، وذاع انتشارها ، حتى عمت كامل الشمال الافريقى ٠ واختل النظام فى اقسام البلاد التى بقيت صوريا فى ايدى الرومانيين ٠ ولم يكتف المستعمرون الرومانيون بالانسحاب الى سواحل البلاد ؛ بل اخذت جموعهم تغادر البلاد بلا رجعة الى روما ، كما فعل خلفاؤهم من بعد ، سنة 1962 ، اثر ثورة خلفاء الدوناتيين والجواسين،والاولون اباؤكم واجدادكم ، والاخيرون ابناؤكم وأحفادكم ٠

كانت تلك هى نهاية الاستعمار الرومانى ؛ وما بقى بعدها الا فترة احتضار مريرة ، سادتها الفوضى والاضطراب ، واسترجع البربر الامازيغ خلالها ارضهم وترابهم ، فرجع الحق الى أهله بعد غياب طويل ٠

عينت روما ، وهى واهية ضعيفة ، منهوكة القوى ، واليها الاخير على ما بقى بأيديها من بلاد المغرب الكبير ، هو الكونت بونيفاس ، وكان قد تزوج باسبانيا احدى أميرات الوندال ، الاندلسيين ؛ وفى نفس السنة التى اعلن فيها الامبراطور تيودور قسمة البلاد الرومانية الى قسمين : قسم شرقى عاصمته القسطنطينية (استامبول اليوم) وقسم غربى عاصمته رومة ، اي سنة 395 ، كان امر الحكم الرومانى بالبلاد الافريقية قد انتهى امره ، وأصبح كخيال الظل ، ليس وراءه أى شىء ٠

فالكونت بونيفاس ، آخر ولاة الرومان ، ولم يكن بيده شىء كثير من حكم البلاد ، علم ان عدوه فى روما ، القائد ايتوس ، يغرى عليه الوصية على العرش ، « بلا سيدية » فارسل الى بلاد الاندلس ، يطلب الى الملك جنصريق (عبد الرمح) ملك الوندال القدوم

الى المغرب الكبير ، ويزين له الاستقرار فيه ، ويعده بعونه وعون أهل البلاد له ٠ فراقت الفكرة للملك جنصريق الذى كان متخوفا من تالب الاعداء عليه ببلاد اسبانيا فجمع جموعه ، رجالا ونساء واطفالا ٠ وجمع ذخائره وسلاحه وأمواله ؛ وامتطى البحر الى الساحل الافريقي المقابل ، دون أن يلقى أى مقاومة ، فالرومانيون لم يبق لهم فى الحقيقة وجود بالبلاد ، والبربر لم يقاوموا ، لانهم رأوا في القادمين الجدد ، معينا على القضاء النهائي على بقايا دولة الرومان ٠ وهكذا انتهت سنة 429 ، وبصفة ابدية ، سلطة روما واستعمارها ، وكانها لم تكن ، بعد ان مكثت فى ربوع البلاد ، متسلطة ، ظالمة ، عاتية ، سالكة اسوأ سياسة استعمارية ، مدة 576 سنة ٠ أى نحوا من ستة قرون ٠

وهكذا تكون بلادكم أيها السادة والابناء ، هى التى نفخت فى صور الجهاد العظيم ، ضد الاستغلال والاستبداد والاستعمار الخبيث ، وهى التى قضت عليه ، بالروح الوطنية أولا وبفكرة الاصلاح الدينى الدوناتي ، ثانيا ؛ وبتجهيز كتائب الجواسين التى عظمت من بعد وانتشرت ثانيا ٠

وانى لأغتنم هذه الفرصة التى اتيحت لى ، لكى أطلب الى بلديتكم الشعبية الصالحة ، وبكل الحاح ، انتطلق بسرعة على ساحة من ساحاتكم العمومية ، أو على جادة كبرى من جادات مدينتكم العامرة ، اسم البطل « دونات » الذى جاهد الجهاد الاكبر فى سبيل توحيد الله ، وتطهير المسيحية من ادران « التثليث » ثم جاهد الجهاد الموفق ، هو وخلفاؤه من بعده ، فى سبيل الاستقلال الوطنى ، ونسف الاستعمار الروماني ، وانكم لفاعلون ذلك بحول الله وقوته ٠

واننا اذا ما خرجنا من العرض الى التحليل ، وجدنا ان هذه الثورة العارمة التى طهرت البلاد من الاحتلال الرومانى الرهيب ، كانت معتمدة على ثلاثة أسس متينة ، جمعت فى آن واحد : صلابة العقيدة الدينية الاصلاحية ـ ومتانة الروح الوطنية التواقة دائما الى الاستقلال والتخلص من الاجنبى ، والرغبة الجامحة فى التخلص من المستعمر واستعادة الارض ٠

اذا جمعنا هذه الثلاثة ، فهمنا روح الثورة ؛ وعلمنا كيف انتهى أمرها بالانتصار المبين ٠

اننا نقول ختاما لهذه المحاضرة ، ان الاحتلال الرومانى الطويل ، ما كان الا احتلالا عسكريا ، ونظاما استعماريا بشعا ، مر على البلاد كسحابة سوداء عابـرة ، وان مكثت قرونا ، ولم يكن من هم للبربر خلاله ، كما يقول الاساتذة : مرسيى ، وديث ، وفورنيل ، الا خلع نير الرومان والتخلص منهم ٠

يقول الاستاذ شارفيات : ان روما لم تترك بهذه البلاد الا الخرايب ليس الا ٠ ولو ان سلطانها كان وطيدا ، لتركت شيئا غير ذلك ٠ »

لقد كان احتلال رومة ماديا بحتا ٠ ولم تتسرب منه لاهل الوطن المساكين ، اية فائدة أدبية ، أما اسباب هذا الاخفاق العظيم ، بعد وجود دام نحو الستة قرون ، فترجع فى نظرى لثلاثة أسباب :

أولها ـ محافظة البربر الامازيغ ، وخاصة أهل اوراس واهل الجرجرة ، على لغتهم ، وعوائدهم ، واخلاقهم ، وعلى كل فضائلهم القومية ٠ لقد عاش البربر على هامش الاحتلال الرومانى ، ولم يندمجوا فيه اطلاقا ٠ الا افرادا قلائل ٠

وثانيها ـ ان رومة ما كان يهمها من حكم البـلاد ، كما قال الاستاذ بواسيار ، الا الاستيلاء ، والتوسع المادى ، واقامة المستعمرين ، والافادة من نتائج البلد الزراعية ٠

وثالثها ، وهو الاهم ـ سوء سياسة روما مـع البربر وسلوكها سياسة استعمارية فظيعة ، منافية لكل عدل وانصاف ناهيك انها اغتصبت من البـــربر الامازيغيين كامل الارض الزراعية ؛ فلم يكن ابن البلاد قادرا على استثمار قطعة من أرض آبائه واجداده ، الا اذا ما هو استأجرها من مغتصبيها الرومان ٠

والذى يدلك على عدم وجود أى تاثير للرومان بهذه البلاد ، وقد اســـتعمروها قرابة الستمائة سنة ، هو زوال كل أثر لهم ـ ما عدا الخرائب ـ فلو وجد هنالك بعض التآم وبعض التحام بين الرومان والبربر ، لبقى لذلك بعض اثر فى حياة هؤلاء ٠ فزوال كل اثر للرومان بهذه الارض المغربية ، بمثل هذه السرعة الغريبة ، انما هو ، كما يقـــول الاستاذ بيرونيت : « حادث تاريخى خارق للعادة » ٠

ولنختم حديثنا بشهادة قاطعة نأخذها عن الاستاذ الكبير البحاثة بوأسبار ٠ يقول :

« انما الأمر الخارق للعادة ، هو ان البربر أثناء كل هذه التطورات ، قد حافظوا على الروح القومية . فان هذا الشعب البربري الذى ظهر لنا سريع التغير ، سريع التطور مع المدنيات التي تعيش معه ، انما هو من الشعوب التى استطاعت ان تحافظ احسن احتفاظ ، بطباعها الاولى ، ومميزاتها الخاصة . واننا لنراه اليوم ، على نفس الطريقة التى رآه عليها الكتاب الاقدمون . وانه ليعيش اليوم ، كما كان يعيش تقريبا أيام يوغورطة ، ولا نقول انه قد احتفظ فقط على كيانه وسط الاقوام التى عاشت معه ، بل انه قد ابتلعها واسدل عليها رداءه » . انتهى .

هذا صحيح جدا بالنسبة لكل احتلال جرى لهذه البلاد ، قبل بزوغ الهدى المحمدى ، الالاهى ، الذى جاء البلاد مع الفاتحين العرب الميامين ، مبشرا بقول الله تعالى : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون . » منفذا لقول الرسول الاعظم صلوات الله وسلامه عليه « الناس كاسنان المشط ، لا فضل لعربى على اعجمى الا بالتقوى ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب » . هكذا فتح الله صدورنا وقلوبنا للاسلام الطاهر النقى ، وهكذا أصبح البربر والعرب ، وكل شعب اعتنق الاسلام دينا ، اخوة اشقاء متضامنين فى السراء والضراء ، رفعنا راية الاسلام . وجاهدنا فى سبيل الاسلام ؛ وعاش رجالنا ، ومات شهداؤنا وهم يهتفون من صميم الفؤاد : ان لا اله الا الله ، وان محمدا رسول الله !

بهذا انتصرنا ، بهذا افلحنا ، بهذا فرضنا على التاريخ وجودنا . بهذه الكلمات النيرة ضربنا اول طلقة من بندقية يوم 1 نفامبر 1954 . وبهذه الكلمات النيرة ، ودعنا آخر طائفة من جموع المستعمرين الظالمين ، وحكامهم المتهوسين يوم 2 سبتامبر 1962 .

اننا لن نزال نصعد ؛ ولن نزال نسعد ، ولن نزال ندهش امم العالم بنهضتنا ، وثورتنا ، وأعمالنا ، ومنشآتنا ، ولن نزال فارضين وجودنا على التاريخ ، ما دمنا نصيح مخلصين ، بقلوب مؤمنة ، موحدة صامدة :

الاسلام ديننا ، العربية لغتنا ، الجزائر وطننا . فى سبيل ذلك نحيا ، وفداء ذلك نموت .

وفى ذلك فلينافس المتنافسون .

وشكرا لكم جزيلا . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

حول الدوناتية وثورة الريفيين بنوميديا
خـــلال القـــرن الرابـــع الميـــلادى

د. محمد البشير شنيتي
معهد العلوم الاجتماعية
جامعة الجـزائر



يحتوى تاريخ المغرب القديم على فترات واضحة تظافرت حولها جهود الباحثين الاجانب فابرزت احداثها مختلفة عمقا وشـــموليّة وتفســـيرا بحسب اتجاهات الباحثين واجتهاداتهم . كما يحتـــوى على فترات غامضة لا تزال التساؤلات والافتراضات حولها مطروحة (1) .

ومن بين المواضـــيع التى أسالت حبـــرا كثيرا قضية المسيحية فى افريقيا (بلاد المغرب) ، وما اعترض سبيلها من مصاعب فى هذه البلاد ، خاصة ما يتعلق منها بالصراع الدينى وانقسام المسيحية الى كنيستين : الدوناكية زعيمة المقاومة ورمز الاســـتقلالية ، والكاثوليكية زعيمة الاندماج والوحدة الدينية فى ظل الامبراطورية .

وقد تبوأت هذه القضية مركز الصدارة فى اهتمامات الباحثين ، سواء اللاهوتيون منهم أو اللائيكيون ، وحظيت بدراسات عديدة ساهمت فى اثراء مصادر تاريخ « المغرب النصرانى » مساهمة كبيرة • الا أن هذه الدراسات قد جنحت نحو اللاهوتية متاثرة بوجدانيات الدارسين (وهم مسيحيون بطبيعة الحال) (2) ، ومن ثم أغفلت العوامل التحتية المحركة لتلك الاحداث والكامنة وراء الحركة الانقسامية التى لزمت تاريخ المسيحية فى أفريقيا • كما جانب بعض الباحثين الموضوعية فحمل الانسان المغربى (البربرى) مسؤولية ذلك الصراع الدينى المرير ، على اعتبار أن ذلك يدخل ضمن طبيعة « البربرى » الميالة للانقسامية والتناحر المذهبى (3) •

والواقع أن رسل المسيحية الاوائل فى افريقيا قد وجدوا استجابة فى أوساط الاهالى منذ أواسط القرن الثانى الميلادى ، بحيث اندفع الناس الى اعتناق المسيحية ، وصبروا للأذى الذى لحقهم من طرف الوثنيين ورجال السلطة بسببها • ولا يسعنا مجال هذه العجالة أن نلم بالملابسات التاريخية المتعلقة بالكيفية التى انتشرت بها المسيحية والأحداث التى صحبت ذلك ، والضحايا الذين سقطوا فداء مبادئها ، وهى جوانب نالت من الاهتمام والدراسة الشيء الكثير (4) • الا أن الذى يهمنا فى هذه الظاهرة هو تفسير العوامل التى دفعت باولئك المغاربة لاعتناق دين سماوى مجرد ، يدعو للوحدانية ونبذ المعبودات الوثنية التى الفها القوم منذ آلاف السنين ، خاصة وأن الذين بادروا للتنصر لم يكونوا من الطبقة المتنورة عقليا ، أو المتاثرة بالتيارات الفلسفية ، بل كانوا من الطبقة الاقل شأنا فى مجتمع ذلك العصر •

وفى تصورى أن تفسير هذه الظاهرة يساعدنا على فهم الاحداث اللاحقة المتمثلة فى الانقسام الدينى وعلاقته بالمقاومة السياسية وبالثورة الريفية التى لم تنل حظها من الدراسة الموضوعية (5) •

لقد احتفظت الوثائق المتعلقة بانتشار المسيحية فى افريقيا (بلاد المغرب) بما يؤكد ان المعتنقين الاوائل للمسيحية كانوا من الاهالى الاكثر تضررا بنتائج التوسع الرومانى فى البلاد ، فضحايا عام 180 م كانوا من الفقراء المضطهدين ، كما أن « شهداء

Martyres سنة 203 ببلدة طبرية (Thurburbo كان من بين خمستهم عبدان ورجلان فقيران وفتاة تدعى فيبيا بيربتوا (Vibia perpetua)

لقد وجدت الطبقة المحرومة فى المسيحية ملاذا للنفوس التى جرحتها الآلام وعصرها الشقاء وأنهكها الاجحاف الاجتماعى والضيم الاستعمارى (7) · ومن ثم لم تنجح أعمال الاضطهاد فى وقف انتشار المسيحية ، بل زاد حماس الناقمين على الاوضاع فى الدفاع عنها ، وراح « البربر » كما يقول جوليان ، يقدمون الضحايا للمضطهدين (8) (بكسر الهاء) ·

ولا يمكننا أن ندرك دوافع التنصر وعوامل المقاومة التى لبست ثوبا دينيا فيما بعد دون الالمام بالاوضاع الاقتصادية والاجتماعية آنذاك · والتى ترتبت عن اشتداد حركة التوافد الاجنبى على المدن وامتداد الاستيطان الرومانى فى الارياف · وهى أوضاع كانت تشكل مناخا ملائما ساعد على انتشار المسيحية فى افريقيا بتلك الصورة العفوية المثيرة للانتباه ، كما كان يشكل أرضية مناسبة للثورة الريفية التى اندلعت عبر نوميديا مكتسحة مؤسسات الاستعمار ·

لقد ركز الاباطرة اهتمامهم فى تلك الفترة على توسيع مجال الاستيطان نحو الداخل وانتزاع الارض من أصحابها ، وازاحة القبائل الرعوية عن مضاربها كى تترك المجال للمعمرين الايطاليين ، فضلا عن اكتظاظ المدن الافريقية والنوميدية بالجاليات الاجنبية ، فنتج عن ذلك تفكك فى البنية الاقتصادية والاجتماعية للاهالى (9) ، وتزايد الكثافة البشرية فى المدن وفى الريف بصورة أوحت لأديب ذلك العصر ترتوليانوس (Tertulianus) بالقول : « يزداد استغلال العالم ، وتعظم ثروته يوما بعد يوم ، ففى كل مكان ديار ، وفى كل مكان سكان ، وفى كل مكان بلديات ، وفى كل مكان حياة · انه أبلغ دليل على تزايد الجنس البشرى اننا عالة على الدنيا ، فالعناصر الطبيعية لا تكاد تسد حاجتنا · لقد أصبحت الضرورات أشد الحاحا ، وأصبحت لا تسمع الا صيحة واحدة هى ان الطبيعة سوف تضيق بنا » (11) ·

لقد ألحقت تلك التحولات ضررا بالغا بالاهالى ، اذ عملت على امتصاص الانتاج الريفى ووضعه فى خدمة الجاليات الاجنبية بالبلاد ، أو تصريفه نحو روما · وبالتالى جندت

الانسان والارض لصالح جمهور المدينة المكون من الارستقراطية المحلية والجاليات الاجنبية المتزايدة ، كما أصبحت البلاد مطالبة بتزويد روما وأسواق الغلال المتوسطية بما تحتاجه من منتوج · فانجر عن ذلك تفاقم الشقاء الاجتماعي في أوساط الطبقة الدنيا من الناس ، وأشتد البؤس والحرمان ، وعسر العيش على جمهور الاهالي ، وهو بعض ما دفع بهم الى الارتماء في أحضان المسيحية التي قدمت لهم حلا بديلا ، تمثل في التآخي في الله والتضامن الانساني والتآزر الاجتماعي · وقد متنت هذه الاسس الاخلاقية العملية ايمان الفرد ، وعززت أواصره بالآخرين ممن هم في مستواه · كما وجدت تلك الطبقة المحرومة في تعاليم المسيحية محتوى فكريا عبرت به عن موقفها من المؤسسة المدنية القائمة على القوة العسكرية والتمايز الاجتماعي · وقد خاطب ترتوليانوس في هذا المعنى مجتمع الوثنيين قائلا : « ان ما يؤاخي بيننا هو هذه الممتلكات التي تفرق فيكم الاخوة ، ان لنا قلب واحد وروح واحدة ، ولا نتردد في تقسيم الممتلكات بيننا ، فكل شيء مشترك بيننا ما عدا نسائنا » (12) ·

وقد وجدت مثل هذه الافكار في نفوس المقهورين صداها العميق ، فكانت استجابتهم لها طواعية وعفوية · وغدت تلك الافكار سندا قويا للمتنصرين اتخذوها سلاحا لهم ضد الضيم الاجتماعي والغبن الاقتصادي والتسلط الاستعماري ، فهي مقاومة صامتة وسلمية ، سلاحها قوة الروح ، وهدفها العدل والمساواة وتحطيم المقومات المعنوية للمجتمع الوثني الاناني ·

ولنا في موقف السلطة والطبقة الارستقراطية من المتنصرين ما يعزز هذا التفسير · ذلك أنه رغم ما اتصفت به الدولة من تسامح ازاء الديانات الوثنية المتعايشة تحت لوائها ، فان موقفها من حركة التنصر كان مغايرا ، نظرا لما تنطوي عليه مبادئها من خطر على السلطة وعلى المفاهيم الاجتماعية الوثنية · فهي كدين مسالمة طالبت معتنقيها بالامتناع عن العنف والتخلي عن الاسلحة لأنها تؤلم الآخرين · وهو ما دفع بالجنود الى رمي أسلحتهم في وجه قادتهم عندما تنصروا (13) ·

وكان مبدأ المسالمة النصرانية يناقض مبدأ القوة والقسر الذي تقوم عليه السلطة ، كما كان مبدأ العدالة والمساواة مناقضا من الناحية الاجتماعية لمفهوم الطبقية الذي يقوم

عليه المجتمع الوثنى آنذاك . ومن ثم حاربت الدولة متضامنة مع الارستقراطية الوثنية حركة التنصر واضطهدت النصارى بعنف شديد . غير ان الدولة قد غيرت موقفها أمام صبر وجلد المتنصرين واتســاع حركتهم فى أوســاط جنودها ، وحاولت مصالحتهم وتظاهرت بالتسامح معهم قصد التخفيف من خطر الحركة على السلطة (14) .

الا أن المسيحية التى قدر لها ان تكون فى مناطق أخرى من العالم دين جميع الطبقات لم تسر فى بلاد المغرب على هــذا المفهوم . فقد أراد معتنقوها ان يحافظوا على محتواها الاجتماعى الخاص ، اى أن تبقى دين الطبقة المسحوقة ، ورمزا للمقاومة والنضال . لقد هادن المسيحيون فى جهات أخرى من كانوا يعذبونهم من رجال السلطة والاثرياء عندما تراجعوا عن غيهم وتنصروا ، فعفوا عنهم وتآخوا معهم . أما فى بلاد المغرب فقد بدا الموقف معاكسا . لقد تنصرت الامبراطورية ، وتبنت المسيحية دينا رسميا (15) . وتنصر وجهاء القوم من الطبقة الارستقراطية فى البلاد اقتداء برجال الدولة وبالامبراطور نفســه ، واغدقوا من اموالهم على الكنيسة وعلى فقراء النصارى ابتغاء مرضات رجال الدين وجلبا لقلوب الفقراء وتهدئة لخواطر الغاضبين (16) . غير أن تبنى الدولة للديانة المسيحية قد اعتبره الافارقة (والنوميــديون منهم خاصة) ضربا من الهيمنة الروحية ، فرفضوها وقاوموها ، ومن هنا بدأ يبرز التصدع بين المسيحيين فى افريقيا ، ثم تفاقم حتى أصبح انشقاقا مزمنا لم يتم لأمه اطلاقا .

وكان المتمسكون بفكرة استقلالية الكنيسة (الدين) ، وهم الذين اشتهروا بالدوناتية يمثلون فى واقع الامر استمرارية للمقاومة اليقظة ، فرفضوا مبادرة الامبراطورية لأنها تشكل ابتلاعا لأقوى سلاح فى يد المقاومة ، وهو المبادىء المسيحية . واعتمد الدوناتيون على الطبقة الاجتماعية التحتية ، يستمدون طاقتهم منها ويستوحون اتجاههم ومواقفهم من مطامحها . بينما عكست الكنيسة الكاثوليكية الاتجـاه الارســتقراطى الفوقى ، واستمدت افكارها من خلفاتها السياسية الموالية للدولة . وهكذا برزت الدوناتية كدين للفقراء المســتغلين (17) ، فى حين عبرت الكاثوليكية عن التحالف المصلحى بين الطبقة الارستقراطية والسلطة الامبراطورية . ذلك التحالف الذى كان ممثلا سابقا فى الديانة الوثنية الرومانية وفى عبادة الامبراطور التى شــهر بها المسيحيون نظرا لخطورتها على

الجمهور الجائع ، اذ كانت الاحتفالات بعيد الامبراطور مناسبة لكسب الفقراء بما كان يقدم لهم من فضلات الموائد ، فضلا عما كانت تتيحه للناس من ضروب التهتك والمجون (18) .

لقد اعتاد المؤرخون على تجاوز هذه الجوانب من تاريخ حركة الانشقاق ، ودرجوا على ابراز العوامل الشخصية والتنظيمية باعتبارها كانت تكون حجر الزاوية فى قيام حركة الانشقاق وتطورها . فقد ركز بول مانصو (19) مثلا على الخلافات الشخصية التى حدثت بين أساقفة نوميديا وأساقفة قرطاجة والناتجة عن سوء التفاهم حول الترشح لمنصب أسقفية افريقيا ، كما أكد على فكرة سوء التنظيم فى سلم الوظائف الكنيسية ، وعلى قلة وعى الشمامسة بمهامهم الدينية ، الى غير ذلك من التبريرات التى تبدو لى مجانبة للواقع فى كثير من جوانبها . ذلك انه بالنظر الى تطور العلاقات بين المسيحية فى افريقيا والسلطة الامبراطورية ، فان هناك عوامل أخرى أعمق من هذه قد أغفلها المهتمون بهذا الموضوع .

لقد كان اضطهاد الدولة للمسيحيين فى البداية يستهدف اجتثاث جذور المسيحية كدين يحمل فى طياته عوامل هدم للامبراطورية ، خاصة ما يتعلق بموقفها من حمل السلاح . ولما فشلت الامبراطورية فى القضاء على المسيحية بافريقيا (20) ، تراجعت ، وحاولت مهادنة المسيحيين شريطة أن يكف زعماؤهم عن دعوة الجنود للامتناع عن القتال . فظهرت بوادر السلم بين الطرفين ، وقلت حوادث تمرد الجنود عندما اباحت الكنيسة الاقتتال فى صورته العسكرية والوطنية .

غير أن هذه الحالة لم تدم طويلا بسبب موقف بعض رجال الدين الاحرار الممثلين للرأى العام الرافض للتصالح مع السلطة والذين كانوا يرون فى تلك المهادنة ردة وتواطؤا ازاء مبادىء المسيح ، وبالتالى خيانة (للشهداء) أى ان المسيحيين فى أفريقيا قد اختلفوا فيما بينهم حول العلاقة بالسلطة الزمنية (الامبراطورية) قبل أن تحدث مشكلة الخلاف حول الأسقفية عام 303 م . وهو الحادث الذى اعتبره المؤرخون نقطة البدء فى الانشقاق وظهور الحركة الدوناتية (21) .

والظاهر أن الاتجاه الرافض قد مارس تاثيره على الجنود ، وبالتالى قلل من مفعول الفتوى التى أصدرتها الكنيسة الرسمية فى قرطاجة بخصوص اباحة القتل فى صورته العسكرية . ولنا فى تراجع الامبراطور دقليانوس (Dioclitirnus) على سياسة التسامح دليل على كون الدولة لم تستفد من التصالح مع المسيحيين ، اى أنها شعرت بكون المسيحيين المناهضين للسلطة وللطبقية لا يزالون أقوياء ومؤثرين مما يستدعى العمل على التخلص منهم بالقوة (22) .

وقد أراد الامبراطور قسطنطين (Constintinus) أن يحصل على ضمانات أشمل وأمتن من الكنيسة لصالح الدولة مقابل اعتناق الدولة لدين المسيح ممثلة فى شخصه . فأعلن عن تنصره عام 312 م . ثم دعا زعماء الكنائس بجميع أنحاء الامبراطورية الى الاجتماع فى مدينة آرل Arle سنة 314 (23) . من أجل التباحث فى ايجاد الصيغة النهائية لدمج الكنيسة فى الدولة ، وتجنيد مبادئها ورجالها لدعم السلطة ، وتمتين اللحمة بين الامبراطورية والشعوب الخاضعة ، كل ذلك ضمن وحدة الكنيسة والمذهب . وجاء فى تقارير ذلك المجلس بخصوص قضية فرار الجنود ما يلى : « ان كل جندى مسيحى يرمي بسلاحه يطرد من المسيحية » (24) .

ويوضح لنا هذا البند مدى تراجع ممثلى المسيحية فى ذلك الاجتماع عن مبادئهم . مما دفع بالاتجاه المسيحى المقاوم الى المضى فى رفضه وعدم اعترافه بالتصالح . وكان النصارى النوميديون فى طليعة الذين أعلنوا رفضهم لتلك القرارات ، واعتبروها خيانة كبرى ، ولم يتاثروا باجماع مجلس آرل حول عودتهم (الدوناتيين) الى الكنيسة الرسمية وخضوعهم لاوامر مطرانها كايكيليانوس Caecilianus

ونتج عن رفض الدوناتيين لقرارات آرل أن قرر رجال السلطة الولائية بالاتفاق مع الكنيسة الرسمية بقرطاجة منع الدوناتيين من دخول الكنائس والاعتصام بها ، فهلك من الدوناتيين خلق كثير (26) ، وهو ما زاد فى تعميق جذور الخلافات ، وقوى من تمسك الدوناتيين بمواقفهم ازاء الكنيسة الرسمية ، واعتبروها كنيسة الكفار الشياطين وأن كنيستهم كنيسة الاطهار القديسين (l'Eglise des diables

(l'Eglise des Saintes) وأنه على من ينضم اليها من الكاثوليك أن يعاد تعميده وادخاله فى المسيحية من جديد (27) ٠

يتبين لنا من خلال هذا أن عوامل الانقسام ليست كلها نابعة عن كوامن شخصية ، أو خلفيات فكرية أو اجتهادات فقهية ، بقدر ما هى صادرة عن مواقف سياسية ، وتطلعات اجتماعية ضاغطة ٠ ونلمس مثل هذا بوضوح فى تاريخ تلك الحركة ومن الارضية البشرية لنشاطاتها ٠ لقد اعتمد الدوناتيون فى مجال نشاطهم الجماهيرى على فكرة الصراع الطبقى ٠ وكان من دواعى نجاحهم أنهم استمدوا طاقاتهم من الطبقة الاكثر تضررا بالنظام الاقتصادى والاجتماعى ، والمناهضة للاستعمار الرومانى ٠ وهو عكس ما فعلته الكنيسة الكاثوليكية الرسمية التى اعتمدت على السلطة وعلى الطبقة الثرية فى المجتمع ٠

وهكذا أصبح الخلاف الدينى صراعا اجتماعيا ، أساسه التمايز الاقتصادى والاجتماعى ، معبرا عما كان بين العبد والسيد من مفارقات ، وما بين الفلاحين الاجراء وأصحاب الضياع من متناقضات ، وما بين الثائرين على السلطة من الاهالى والامبراطورية من أحقاد وتطلعات ٠

وقد وجد هذا الصراع فى أوضاع البلاد خلال القرن الرابع ما ساعده على التفاقم ، واكتسابه تلك المضاعفات التى تبلورت فى صورة مقاومة عنيدة لا تكل ولا تنى ٠

وكان لاعتماد الكاثوليك على عصا روما من أجل ارجاع الدوناتيين الى الكنيسة الرسمية أثره البالغ فى دفع الدوناتيين الى تنظيم المقاومة فى أوساط الاهالى النوميديين الذين كانوا مهيئين لذلك (28) ٠ وقد أصبحت النحلة الدوناتية دينا وطنيا يجمع حوله مختلف الفئات الشعبية الناقمة على الوضع (29) ٠

وكان من عنف المقاومة أن تحولت منطقة الاوراس الى صحراء بما أحدث فيها الجيش الرومانى من حرائق وتدمير وابادة للسكان انتقاما من المقاومين الذين اعتصموا بها (30) ٠

ونجد فيما حدث عام 347 م ٠ بمدينة باغاى تعبيرا جليا عن تحول الدوناتية الى ثورة بعد اتحادها بثورة الريفيين (الدوارين) (31) ٠ لقد اتخذت الثورة من باغاى مركزا

لقيادة المقاومة ، وحول دوناتوس كنيسة المدينة الى مخزن للمؤن والذخيرة ، وتم تحصين المدينة كي تستطيع الصمود في وجه الحملة العسكرية الرومانية .

وجاء في النصوص أن التضامن قد بلغ مـداه الاقصى في أوسـاط الاهالي بجميع نواحي نوميديا ، خاصـة منها منطقة الاوراس . من ذلك أن سـكان مدينة فجيزيلا Vegezila (تقع بين تبسة ومسكيانة) قد انتفضوا في وجه الاسقف الكاثوليكي ماكاريوس Macarius الذي صحب الحملة العسكرية على باغاي . وعبـروا عن غضبهم البالغ الشدة عندما أمر هذا الاسقف بجلد مبعوثي مجلس سيرتا Concile de Cirta الدوناتي على مرأى من الجمهور وذلك في 29 جويلية 347 م (32) . مما اضطر الاسقف الى اطلاق سراح بعضهم وتظاهره بالعفو عنهم .

والظاهر أن تلك الحوادث قد سجلت بداية للتلاحم الثوري بين الحزب الديني المنشق عن الكنيسة الرسمية وبين ثورة الريفيين (الدوارين) الذين أصبحوا يدعون بجـنـود المسيح (Milites christi) ، وأصبح رؤساؤهم امثال فازير (Fazir) وأكسيدو Axido) يلقبون برؤساء القديسين (Sancorum Duces) وردد الجميع عبارة « لله الحمد Déo Loudes كشعار ديني للثورة ، وهي عبارة يبدو أن وقعها كان شديدا في نفوس أعـدائهم ، اذ وصفها أوغسـطين بانها كانت اكثـر رعبا من زئير الاسد (34) ، وأنها عبارة عن بوق للمجازر . واصبح ضحايا العنف الروماني يعـدون شهداء قديسين في نظر الدوناتية ، وهو ما يدل على شمولية النظرة الدوناتية وتبني الحـزب الديني الدوناتي لمبـادىء وأهـداف الثـورة الريفية . وقد اعتبر بريصون (J. P. Brisson) ذلك دمجا للواعز الديني بالواعز الاقتصـادي في الحـركة الدوناتية (35) .

وقد وجدت الدوناتية في ثورة الريفيين سندا طبيعيا ويدا طولى للنيل من خصومها ، بدليل أن اوغسطين كان يحمل الدوناتيين مسـؤولية الاعمال الثورية التي يقوم بها الريفيون (الدوارون) فكان يردد مثلا « تذكروا الاعمال التخريبية التي كان يقـوم بها (الدوارون) الذين كانوا دائما تحت قيادة شمامستكم » (36) .

ويبدو كذلك ان الثوار الريفيين قد فهموا مبادىء المسيحيه على أنها قوانين الهية تستهدف تحطيم الطغيان وازالة الفوارق الاقتصادية والاجتماعية واحلال العدالة والمساواة بين البشر المتعايشين ، وبالتالي تقويض البناء السياسي والاقتصادي الاجتماعي القائم على التمايز والتفرقة والاضطهاد والانانية .

ونجد فى أعمال أولئك الثوار الريفيين ما يدعونا الى هذا التصور . فهم كانوا يجبرون الاسياد على تسريح العبيد ، وان امتنع بعضهم يهاجمونه فى ضيعته أو فى قصره بالمدينة ويأسرونه كى يعرضوه للسخرة فى مراكز خاصة فيذيقوه الوان العبودية ومرارة السخرة التى كان يمارسها مع عبيده .

ويصفهم أوبطا (Optatus) الميلى ـ وكان عدوهم اللدود ـ بأنهم كانوا يعترضون عربات السادة فينزلون السيد ويجبرونه على السير حافى القدمين ، ويركبون بدله عبده (37) . ولعل مبالغتهم وتطرفهم فى عدم الاعتراف بالانظمة القائمة قد أحرج بعض رجال الدوناتية فطالبهم بالكف عن العنف (38) . وهو ما حدا ببعض الباحثين الى القول بأن (الدوارين) لم يكونوا يمثلون وجهة نظر الدوناتية فى الصراع القائم آنذاك ، ومن ثم لم يلتزموا بالعمل ضمن اطارها ، وتجاوزوا ارادة الاساقفة الدوناتيين (39) .

لكننا نستطيع ان نفهم من تلك التجاوزات مبدأ التطرف الثورى الذى لا يقبل التعاطف* أو الحلول الجزئية .

ومن جهة أخرى ينم التركيب البشرى المتنوع والمحتوى الفكرى والسلوك الثورى العنيف لتلك الثورة (الدوارين) على أنها كانت تمثل احدى الثورات الشعبية الباكرة فى التاريخ . فهي لم تكن ترتكز على خلفية اثنينية قبلية أو على عرقية معينة أو جهوية ضيقة ، كما أن نشاطها كان موجها ضد الفئة الارستقراطية الثرية المستحوذة على الثروة والمسيطرة على الانتاج الاقتصادى ، وضد النظام السياسى الذى كان يستمد نفوذه من ذلك التمايز الطبقى ، ومن التركيب الاقتصادى والاجتماعى المجحف ، فالقاسم المشترك بين الثوار تمثل فى التجانس الاجتماعى وفى التقارب فى الاوضاع الاقتصادية وفى الاحساس الجماعى بالقسر والهوان . ومن ثم فنموذج الثورة الريفية (الدوارين) بهذا

المفهوم يبدو فريدا من نوعه في تاريخ المغرب القديم ، ان لم نقل انه من الثورات القليلة التى عرفها العالم القديم بصفة عامة ٠

وليس معنى هذا ان الدوناتية بمحتواها الروحى كانت تمثل غذاء عقائديا يساريا كما قد يتبادر الى الذهن ٠ بل ان ثورة (الدوارين) قد سبقت وزامنت الحركة الدوناتية ولم تتحالف معها وتلتحم بها الا فى الاربعينات حسب المعلومات التى زودنا بها رجال الجدل الكاثوليكى المعاصرين لتلك الاحداث ٠ وأما قبل ذلك فقد كانت ثورة الريفيين (الدوارين) حركة شـعبية تجوب فرقها الارياف النوميـــدية مخلفة الرعب والفزع فى اوســـاط الارستقراطية وأصحاب الضياع ورجال السلطة على حد سواء ٠

وعلى الرغم من أن كتابات المجادلين الكاثوليك (وهى مصدرنا الاســاسى حول تلك الاحداث) لم يهتم فيها أصحابها بتاريخ الثورة الريفية قبل اتحادها بالدوناتية ، الا ان هناك اشارات عديدة لاعمال عنف ثورية حدثت فى نوميديا قبل عام 347 م لم تكن أسبابها دينية أو قبلية ، فهى من أنشطة الثوار الريفيين قبل تلاحمهم بالدوناتية ٠ هذا التلاحم الذى اعتبره رجال الجدل الكاثوليكى تحـــولا خطيرا فى الحركة الانشـــقاقية الدوناتية فقاوموه بأقلامهم وألسنتهم زيادة على أسلحة روما وجندها ٠

ويبدو انه يمكن النظر الى ذلك الاتحاد على انه كان يمثل بداية لتعميم نشاط الثوار الريفيين ، فأصبح يشمل الكاثوليك بعد ما كان مقتصرا على أعدائهم من الارستقراطيين والسلطة الامبراطورية ٠ فاخذ الكاثوليك يشعرون بالضرر الذى لحق جانبهم من طرف اولئك الثوار الاشداء فشــــهروا بهم وحملوا الدوناتيين مســـؤولية أعمالهم الثورية العنيفة (40) ٠

والظاهر أن ثورة الريفيين كانت محتاجة الى من يســـاندها فى المدن ، والى تجنيد الرأى العام المثقف من المتدينين والغاضبين على السلطة وحلفائها ، من أجل تقوية الصف وتوسيع جبهة النشاط الثورى ٠ كما أنها كانت فى حاجة الى قيادة كفاة وزعامة سياسية مناسبة ، جديرة بتحمل المهام والدفاع عن المبادىء ٠ ولعل فى موقف الثوار الريفيين من ثورة الامير فيرموس Firmus ما يؤكد هــذا الاحتـــمال ٠ لقد انضوى الثوار

الريفيون مثل رجال الدين الدوناتيين تحت لواء فيرموس ، وعملوا فى صفوفه كقوة ثورية وراءها ماضى نضالى حافل بالتجارب الناجحة ، وكحزب دينى وطنى يستهدف الاستقلال عن السلطة الكنيسية الرسمية .

وكان لهذا الاندماج بين القوى الثورية الثلاثة ، أثر بالغ فى نجـــاح ثورة فيرموس وسيطرتها على الوضع فى البلاد . وبذلك التمازج عبر كل طرف عن رغبته فى العمل تحت زعامة سياسية وطنية توحد الجهود وتجند الامكانيات لتحقيق الهدف المشترك .

ويظهر أن فيرموس قد أحسن فى بداية الامر استغلال ذلك الشعور الثورى الفياض لدى كل من الدوناتيين والثوار الريفيين فحقق نجاحات على الصعيد الداخلى والخارجى ، فانضمت اليه جموع القبائل (42) ، وهلل لـه رجال الدين وجندوا لحســابه الكنائس الدوناتية تمجد أعماله وتدعو الجمهــور للعمل معه ، وهو ما يفسر انتـقام الامبراطور فالانتيان من الدوناتيين عقب هزيمة فيرموس (43) .

وفى تصورى ان هناك ظاهرة سلبية هامة صحبت ذلك التمازج الثـــورى وعجلت بافشاله ، وتكمن تلك الظاهرة فيما كان يوجد بين ثورة الريفيين كحركة شعبية تحتية وبين ثورة فيرموس القبلية المحتوى من متناقضات . لقد دخل الثوار الريفيون صفوف فيرموس كفئة اجتماعية متجانسة تسوى بينها ظروفها الاقتصـــادية والاجتماعية ، ولم يدخلوا كقبائل أو مجموعات اثنينية تخضــع لظاهـــرة التعصب القبلى ولعشـــوائية رؤسائها . وهذا ما جعل ثورة الريفيين متحدة مع الدوناتيين تأخذ قبل ذلك طابعا شعبيا ديمقراطيا يسعى لتحقيق الحرية والعدالة بمفهومهما البسيط . ولكنها عندما اندمجت بثورة فيرموس وانحلت فيها تخلت تدريجيا عن طبيعتها كثورة قاعدية ، وتحـــولت الى الارتباط بالزعامة القبلية التى مثلها فيرموس ثم أخوه جيلدو من بعده ، ومن ثم تمكنت روما من اجهاضها بقضائها على ثورتى الاخوين لأنها كانت تحسن تأليب رؤساء القبائل على بعضهم ، وتتقن فن سياسة فرق تسد (44) . وهكذا كان فشـــل ثورة فيرموس ثم جيلدو ضربة موهنة اصابت الدوناتية والثورة الريفية (الدوارين) فقللت من نشاطهما ومكنت الخصم من السيطرة على الموقف من دونهما (45) .

الـــهوامش

1 ــ ان أهم القضايا التاريخية المطروحة للمناقشة تتعلق فى تقديرى بالتاريخ الوطنى ، كاصول الممالك الوطنية الباكرة ، واللغة الليبية ، وموقف الاهالى من الدول الاجنبية العابرة ، ومشاكل التكون التاريخى التى صاغ حولها الباحثون الفرنسيون نظريات غير موضوعية فى بعض جوانبها ٠

2 ــ أهم من درس الدوناتية متأثرا بالعاطفة الدينية : بول مانصو ، صاحب كتاب « التاريخ الادبى لافريقيا المسيحية » :

Manceaux (Paul), Histoire litteraire de l'Afrique chritienne. 7 vol.

والأب ميناج ، صاحب كتاب « افريقيا المسيحية » ، وكتاب « رومنة افريقيا الشمالية »

Mesnage (J-P), l'Afrique chritienne —, la Romanisation de l'Afrique du nord.

وبريصون فى كتابه « الاستقلالية والمسيحية فى افريقيا » ٠

Brisson (J-P), autonomisme et christianisme en afrique.

وكذلك كريستيان كورتوا فى كتابه « الوندال وافريقيا »

Courtois (ch.), les Vandales et l'Afrique.

هذا فضلا عن مآت الكتب والابحاث والمقالات الدينية والتاريخية التى تحتويها سلسلة « الدراسات الاغسطية » ٠

3 ــ شاع بين الباحثين الفرنسيين المهتمين بتـــاريخ المغرب مفهوم مغرض حول نفســـية « البربرى » ، نجده عند أغلبـــهم ، من قـــزيل الى غوتى الى جوليـــان الى كورتوا الى بوسكى ٠٠٠ وكثيرا ما قارنوا « الدوناتية » بالاباضية فى الجزائر ، وهى مقارنة غير موضوعية فى كثير من جوانبها ، وليس بامكاننا مناقشتها هنا ٠

4 ــ انظر حول الموضوع : مانصو وبريصون وكورتوا وميناج فى الكتب الآنفة الذكر ٠

5 ــ نعنى بالثورة الريفية تلك الحركة التى اعتاد المؤرخون على تســـميتها بالدواريز (Ciscum cellas) أو (Circoncellions) ومعناها الذين يطوفون حـــول المزارع ومخازن الحبوب للاستيلاء على الغلال ٠ وهو الوصف الذى احتفظت به نصوص أعداء تلك الحركة من المجادلين الكاثوليك أمثال أوبطا الميلى واوغسطين ٠

6 ــ تم اعدامهم بواسطة رميهم بين مخالب الوحوش المفترسة بقرطاجة ٠ وقد خلد ذكراهم ترتولياتوس (Tertulianus) فى قصة مؤثرة ٠ أنظر ، جوليان (ش ٠أ٠ تاريخ افريقيا الشمالية ، ج 1 (ت٠ امزالى) ، ص 257 ٠

7 ـ عبد العزيز فهى : ملاحق مدونة جوستنيان ، ص 56 ، ط القاهرة ، 1951 .

8 ـ جوليان : نفسه ، ص ، 255 .

9 ـ شنيتى (م.ب) : التوسع الرومانى نحو الجنوب وآثاره الاقتصادية والاجتماعية ، الاصالة 41 .

10 ـ هو سبتيميوس فلونس ترتوليانوس (Septimus Florens tertulianus) افريقى الاصل « بربرى » . ولد بقرطاجة (155ـ160) ، ودرس بها علوم العصر وثقافته . اتقن اليونانية واللاتينية ، اذ كانت ثقافة ذلك الوقت مزدوجة اللغة ، وبرز فى الخطابة والجدل . اعتنق المسيحية فى ظروف مجهولة ، ودافع عنها بحماس شديد فى كتابه « الدفاع عن المسيحية » (Apologilum) . وكان يدعو الناس للتخلى عن مشاهدة الملاهى والالعاب الشائعة آنذاك ، ويحرضهم على الامتناع عن عبادة الامبراطور وعن حضور موائده . كما طالب الجنود المتنصرين بالتخلى عن أسلحتهم لأنها غير مجدية فى نظر المسيحية . توفى عام 240 م . انظر ، المزيد عند مانصو ، ج I ، وكذلك جوليان ، ص 258ـ263 .

11ـ جوليان ، ص 219

12ـ ترتوليانوس ، الدفاع (Apol. 39) ، عن مانصو ، نفس المصدر ، ص 20ـ21 .

13ـ حول هذه الحوادث انظر : جوليان ، ص : 257 ، 259 ، 287 ، 288 .

14ـ كان ذلك بعد الاباطرة السيفريين ، أى من عهد غاليوس الى عهد دقليانوس الذى نكل بالمسيحيين أشد التنكيل .

15ـ تمثل ذلك فى اعلان الامبراطور قسطنطين عن تنصره وحمايته المسيحية عام 312 م .

16ـ حاولت السلطة الامبراطورية احصاء الفقراء والاغداق عليهم بالصدقات ، لكن دوناتوس وقف فى وجه تلك الحملة مناديا اتباعه أن يرفضوا الصدقات من أيدى « الادناس الشياطين » . فلم تستفد الامبراطورية من سياسة (ملء البطون) .

17ـ انظر : Manceaux (P.) — l'église donatiste, (R. H-H.') tome 64 (1911) pp. 21-58.
وكذلك : Brisson (J-P.) — aut. et chr., pp. 341-349.

18ـ ترك لنا ترتوليانوس وصفا جيدا لما كان يجرى فى تلك الاحتفالات ، اذ يقول : « حقا انه لتكريم عظيم هذا الذى توقد بمناسبته المواقد ، وتوضع موائد الطعام فى الساحات

العمومية ، وتقام أثناءه المآدب فى كل جهة من المدينة ، فتتحول الى ماخورة يختلط فيها الوحل بالخمر ، وينطلق القوم جماعات الى طروب المجـــون والخلاعـــة والاعتداءات · (جوليان ، ص 263) ·

ويثير فى أذهاننا هذا الوصف المقتضب تصورا للاهداف السياسية التى كان يتوخاها الاباطرة من وراء اقامة تلك الاحتفالات والمآدب العمومية · فالامبراطور اله نافع ، يمنح السلم لعباده المطيعين كما يمنحهم الخبز والخمر والتهتك ، انه رب رازق وولى نعـــم القـــوم ···

19ـ اقر مانصو ذلك فى كتابه « التاريخ الادبى لافريقيا المسيحية » وكرره فى مقاله الآنف الذكـــز ·

20ـ قاوم المسيحيون عمليات الاضطهاد بالصبر والجلد ، وواصلوا ممارسة شـــعائرهم فى الاديرة الخفية ، وتزايد المتنصرون أيام الاضطهاد ·

21ـ يوعز المؤرخون بداية القطيعة الى موقف مطران قرطاجة منصوريوس (Mansurius) الذى اظهر تخاذله تجاه السلطة المدنية ، فرماه أساقفة نوميـديا بالخيـــانة · وظل الصراغ يزداد حدة الى عام 311 حيث امتنع اساقفة نوميديا عن انتخاب كايكيليانوس (Caecilinus) كخلف لمنصوريوس · وكان دوناتوس أقوى عنصر محرك لذلك الامتناع فنسبت الحركة اليه · انظر المزيد من التفاصيل فى كتاب مانصـــو الآنف الذكـــر ، ج 1 ، 5

22ـ اذاق دقليانوس المسيحيين أمر العذاب ، وفرض عبادته على الجميع ··

23ـ مهد الامبراطور قسطنطين لذلك بعـــدة اجتماعات منح فيها بعض الامتيازات المدنية لرجال الدين كي يستميلهم من أهم تلك الاجتماعات مجلس ميلانو عام 313 م ·

24ـ مانصو : المصدر نفسه ، ج 5 ، ص 22 وما بعدها ، وكذلك الملحق ص 489 ·

25ـ نفسه ، ص 24 ، 25 وما بعدها ·

26ـ سن الامبراطور قسطنطين قانونا عام 316 يقضى بتوحيد كنيسة افريقيا ، وكلف كلاى ليونتيوس Leontius وارصاكيوس Ursacius المســؤولين فى افريقيا بتطبيق ذلكالقانون بالقوة ،فكانت مجازر رهيبة ، انظر المزيد عند مانصو . ج·5 ، ص 26 وما بعدها ·

27_ انظـــر : Manceaux (p.) —l'église donatiste. R. H-R.), tome 64 (1911) pp. 21-58.

28_ نفسه ، ص 23 وما بعدها .

29_ نفسه ، وكذلك :
Martroye (F.) — une tentative de revol. soc. (R.Q.H.) : tome 76. (1904). pp. 353-416.

30_ مانصو : نفس المصدر .

31_ نقل مانصو عن أوبطا الميلى وصفا لأولئك الثوار فيه تحامل واضح ، جاء فيه :
«أنهم قوم لا مبادىء لهم ولا اتجـاه ، مغامرون من الاهالى ومن خلعاء القبائل ، والمعمرين المفلسين والعبيد الفارين ، كلهم يعمل للدفاع عن كنيسة المسيح ودوناتوس ضد الكاثوليك والشيطان ..» ـ التاريخ الادبى لافريقيا المسيحية ـ ج 1 ، ص 27

32_ نفس المصدر ، ص 37 .

33_ نفسه ، ص 43 .

34_ نفسه ، ص 46 .

35_ بريصون : المصدر السابق ، 350 ، 351 . والملاحظ ان بريصون يرفض أن تكون ثورة الريفيين (الدوارين) مقاومة واعية ، بل يعتبرها عصـــابات من الجائعين المشردين ويصفهما « بحركة الشياطين الفقراء » .

36_ بريصون : نفس المصدر ، ص 347 ؛ مقال مانصو السالف الذكر ، ص 52 .

37_ بريصون : نفس المصدر ، ص 329 ، نقلا عن أوبطا الميلى .

38_ يظهر ذلك من خلال ما صرح به المدافعون الدوناتيون بمحكمة قرطاجة عام 409 . انظر بريصون ، ص 354 ، 355 .

39_ تذكر النصـــوص أن الدوناتيين قد أيدوا حملة الاخضـــاع التى شنها البرو قنصل طورينوس Tournus ضد الريفيين (الدوارين) عام 340 م . وأن أساقفة الدوناتية قد واسوا المعمرين المتضررين من جراء أعمال العنف التى قام بها الريفيون عام 310 م . انظر مقال مانصو السالف الذكر : ص 48 . لكن ينبغى أن نلاحظ أن تلك الاحداث قد سبقت زمن الاتحاد بين الدوناتية والثورة الريفية الذى يبدو أنه تم حـــوالى عام 347 م . ومن ثم فالثوار الريفيون لم يكونوا يستثنون أصحاب النحلة الدوناتية أو الكاثوليكية من نشاطهم الثورى قبل تلاحمهم بالدوناتيين .

40ـ أشهر من عاصر عنف الثورة الريفية وشهر بها كثيــرا أوبطا الميلي الذي ترك لنا أدبا زاخرا بأخبار زمانه وحوادث عصره ·

41ـ هو الامير فيرموس ابن نبول Nebul ، كان مواليا للرومان ثم ثار ضـدهم في ظروف غامضة ، يبدو أن للوضع الاقتصادي والسياسي فيها دخل كبير ، استمرت ثورته من عام 372 الى 375 ، كابد فيها الرومان متاعب شتى · انظر حـــول هذه الثورة : اميانوس (Amianus) وكلود يانوس (Claudianus) وهما من كتـــاب العصر ، وكذلك عند : Cagna (R,), l'armée romaine d'afrique, tome 1. pp. 78-91.

42ـ انظر كاينا Cagna (R.) المصدر السابق ؛ وكذلك :
Gsell (St.), observations géographiques sur la revolte de Firmus (C.R.I.) 1903.

43ـ اصدر الامبراطور فالانتيانوس قرارا بتوحيد الكنيســـة الافريقية ، وبمنع ثنائية التعميد ، وأمر بمطاردة الدوناتيين ، فاضطروا للهجرة خارج البلاد ، انظر المزيد عند مانصو ، ج 5 ، ص 46 ، 48 ·

44ـ تمكن الرومان من تحطيم شوكة فيرموس باثارة أخيه جيلدو ضـــده ، وكذلك بعض رؤساء القبائل الذين كانوا يساندونه فتخلوا عنه · كما قضى الرومان فيما بعد (عام 398 م) على جيلدو بنفس الطريقة والاســلوب ، حيث حرضـــوا عليه أخاه مفزيزل Maczezel انظر المزيد عند كلوديانوس ، حرب جيلدو :
Claudianus, bell. gildinico, pp. 217-257.

45ـ كان للمجادل الكاثوليكي الكبير أوغسطين دور معنوي هام في التقليل من أهمية النحلة الدوناتية لدى الرأي العام المسيحي في بلاد المغرب ، وخاصة في المدن البروقنصلية ، كما نجح في اقناع الســلطة الامبراطورية بمحاكمــة الدوناتيين والثوار الريفيين ومصادرة أملاكهم ومعاقبتهم · فتم ذلك فيما بين عامي 409 و 412 بقرطاجة ·

التطور المذهبى بناحية أوراس فى العصر الوسيط

د· عبد الحميد حاجيات
معهد العلوم الاجتماعية
ـ جامعة الجزائر ـ



كانت ناحية أوراس فى العصر القديم معقلا من معاقل المقاومة البربرية ضد هجمات الغزاة المستعمرين، من رومان ووندال وبيزنطيين · وكانت جبالها أمنع معتصم لقبائل البتر التى كانت تقطن أرجاءها ، وتعيش فيها حياة البدو الرحل · ولم تتمكن مختلف الموجات الاستعمارية ، التى تعرض لها المغرب قبل الاسلام ، من إخضاع منطقة أوراس ، فراحت تشيد الحصون والقواعد العسكرية بجوارها، مثل طبنة وباغاية وبلزمة، لايقاف غارات قبائلها ، ومواجهة خطرها ·

غير ان حصانة جبال أوراس ومنعتها لم تمنعا سكان المنطقة من التأثر بمختلف التيارات الفكرية ، وخصوصا الدينية ، التى تعرض لها المغرب ؛ وكانت تشمل عناصر مختلفة تنتمى الى شتى الديانات ، منها عناصر محلية قديمة راجعة الى الوثنية ، (1)

(1) راجع ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج 6 ، ص 212

وأخرى فينيقية ، بجانب اليهودية والنصرانية ٠ واذا كانت الديانة اليهودية تحتل مكانة خاصة فى ناحية أوراس ، (2) فلاشك أن معتقدات السكان كانت تحمل رواسب تعود الى مختلف التيارات القديمة الاخرى ، التى يصعب عليهم التخلى عنها ٠

وكانت النصرانية منتشرة بين الروم والافارقة وبعض من وقع تحت نفوذهم من البربر ، (3) وكانت بلاد افريقية كلها قد شهدت صراعا دينيا عنيفا بين أنصار المذهب الكاثوليكى وأنصار المذهب الدوناتى ، ادى الى نشوب حرب طاحنة بين الفريقين ، ذهب ضحيتها العديد من الاهالى ، ويبدو أن هذا الصراع كانت له خلفيات سياسية واقتصادية ، اذ أن الدوناتيين كانوا ، بصورة عامة ، ينتمون الى الطبقة المحرومة من الاهالى البدو ، التى سئمت من حكم الاجانب وحلفائهم الافارقة ٠

انتشـــار الاســـلام فى ناحيــة أوراس

أما الفتح العربى فلم يمس منطقة أوراس قبل ولاية أبى المهاجر دينار ، وكانت جبال أوراس والهضاب المجاورة لها تأوى قبائل بربرية اشتهرت بقوتها ومنعتها ٠ فكانت قبيلة أوربة تقطن الناحية الغربية منها ، ورئيسها كسيلة بن لمزم ٠ أما الناحية الشرقية منها ، فكانت تقطنها قبائل أخرى ، منها جراوة ، وهم من زناتة ، وكانت ترأسها امرأة تدعى الكاهنة ٠ وكانت هذه القبيلة على ديانة اليهودية ٠ ومنها أيضا ، ورفجومة ، وهم بطن من قبيلة نفزاوة ٠

ومن الطبيعى أن تشكل هذه القبائل أشد العناصر المحلية مقاومة للفتح العربى فى بلاد افريقية ، اذ انها لم تخضع لسلطة الروم ، الذين كانوا يخشون غاراتها ، ويحمون الاراضى الواقعة تحت حوزتهم بواسطة الحاميات المتمركزة فى القواعـــد العسكرية التى كانت تحيط بالناحية ، مثل طبنة ونقاوس وبلزمة وباغاية ٠ ولذا ، فان الفتح العربى ، حينما اصطدم بجموعها ، لقى من جرائها أكبر المشاق ٠

(2) كتاب العبر ، ج 6 ، ص 214 ٠
(3) كتاب العبر ، ج 6 ، ص 213 ــ 216 ٠

وكانت سياسة أبى المهاجر دينار تعتمد على اللين والمرونة فى معاملة البربر . فبعد أن هزم كسيلة ، لم يهنه ، بل حاول كسب صداقته ، ونجح فى سياسته هذه نجاحا كبيرا ، فاسلم كسيلة ، وصفا الجو بين العرب وقبيلة أوربة .

غير أن قدوم عقبة بن نافع الى افريقية ، فى ولايته الثانية ، سنة 62 هـ ، كان له أثر سيء على هذا الاتجاه السليم . فأهان عقبة أبا المهاجر وكسيلة ، وألقى القبض عليهما ، وقيدهما . ثم نهض بالجند قصد غزو بلاد المغرب ، وقام بحملة واسعة النطاق ، شملت نواحى عديدة . ثم عاد متجها نحو القيروان ، مقر ولايته ؛ وعندما وصل الى طبنة ، أرسل الجند الى القيروان ، وانصرف هو ، مع فئة قليلة ، لتفقد الحصون الواقعة جنوب أوراس . وعندما بلغ حصن تهودة ، غشيته جموع كسيلة ـ الذى كان قد تمكن من الفرار قبل ذلك ـ وأحلافه ، وقتلوه ومن كان معه (حوالى سنة 63 هـ) . ثم ملك كسيلة القيروان ، وخسر المسلمون ثمرة الجهود العظيمة التى بذلوها منذ ما يزيد على 15 سنة . (4)

ثم جهز عبد الملك بن مروان ، الخليفة الاموى ، جيشا أرسله تحت قيادة زهير ابن قيس البلوى ، سنة 69 هـ ، وقضى على امارة كسيلة ، الذى قتل مع جمع من أنصاره فى معركة ممس . ولما غادر زهير بن قيس القيروان متوجها الى ليبيا لصد هجوم الروم على ساحلها ، لم يقو على مدافعتهم وقتل مع كثير من أبطال جنده .

ثم قدم حسان بن النعمان ، حوالى سنة 73 هـ ، على رأس جيش قوى ، فوجه أولى ضرباته نحو الروم . وكان يرى أن لا راحة للعرب فى افريقية الا بالقضاء على نفوذهم ، واجلائهم من قرطاجة وغيرها من مدن افريقية ، واخضاع قبيلة جراوة ، التى ربما كانت قد شاركت قبل ذلك بسنوات قليلة ، بجانب كسيلة وقومه ، فى مقتل عقبة ابن نافع ورفاقه ، بتهودة . ولاشك أن مشروع توسيع الفتوح فى اتجاه المغرب الاوسط

---

(4) أنظر : ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، ص 265 ـ 269 ؛ شكرى فيصل ، حركة الفتح الاسلامى فى القرن الاول ، ص 165 ـ 170 ؛ لقبال موسى ، المغرب الاسلامى من بناء معسكر القرن حتى انتهاء ثورات الخوارج ، ص 44 ـ 55 .

كان يقتضى ، قبل كل شىء التغلب على الكاهنة وقومها ، وابعاد الخطر الناجم عن احتمال تحالفها مع الروم . والاتصالات المستمرة التى كانت تجرى بينها وبينهم ٠

وقد ادرك العرب مدى خطورة الموقف بعد هزيمة حسان ، وانسحابه من افريقية ، وسيطرة الكاهنة وجموعها على تلك البلاد مدة لاتقل عن خمس سنوات ٠ وبينما عاملت الكاهنة الاسرى المسلمين معاملة حسنة ، اذا بها تقرر تخريب المدن والضياع واحراق الاشجار وافساد المزارع ، قاصدة بذلك أن تيئس العرب من التمتع بخيرات البلاد ، وأن يجد الجند العربى مشقة كبرى للحصول على المؤن الضرورية لمواصلة الحرب ٠

ويبدو أن التسامح الدينى الذى أظهرته الكاهنة كان ناتجا عن تعدد الديانات بافريقية ، آنذاك ، بين البربر ، من نصرانية ويهودية واسلام ووثنية ٠ فكانت رغبتها فى توحيد جهود البربر وتوجيهها لمقاومة الفتح العربى تقتضى ذلك التسامح ٠ الا أن سياسة « الارض المحروقة » ، وما أدت اليه من تخريب مدينة باغاية وغيرها ، ومن اتلاف المزارع والغابات ، .قد أغضبت الاهالى وجعلت الكثير منهم ينفضون من حولها ، وبعضهم يلتجئون الى العرب ويطلبون مساعدتهم ٠

فكان زحف حسان ، اثر ذلك ، موفقا ؛ وانهارت امارة الكاهنة ، وقتلت هذه حوالى سنة 82 هـ ٠ وبموتها تقلص ظل مقاومة البربر للفتح العربى فى افريقيا ، وأذعنت القبائل الزناتية وغيرها ، القاطنة بمنطقة أوراس ، للسلطة العربية ، واعتنق الكثير منها دين الاسلام ٠ وقد ذكر صاحب كتاب الاستقصا ، ان حسانا اقتحم جبل أوراس ، بعد مقتل الكاهنة ، « واستلحم فيه زهاء مائة ألف من البربر ، واستأمن اليه باقيهم على الاسلام والطاعة ، وشرط عليهم حسان أن يكون معه منهم اثنا عشر ألفا لا يفارقونه فى مواطن جهاده ، فأجابوا وأسلموا وحسن اسلامهم » ٠ (5)

ثم هدأت الاحوال فى ناحية أوراس وبلاد افريقية حوالى نصف قرن ، قضاها الولاة العرب فى مواصلة الفتوح فى المغربين الاوسط والادنى وفى الاندلس ٠ وفى هذه

(5) الناصرى ، الاستقصا ، ج 1 ، ص 94 .

الاقطار كلها لقى الاسلام اقبالا منقطع النظير لدى الاهالى البربر . وشارك هـؤلاء ، مع العرب ، فى فتوح الاندلس ، فنشأ بين العنصرين تقارب مثمر ، عززته الوحدة الدينية .

ولما ساء تصرف بعض ولاة الامويين وعمالهم، الذين أقدموا على اهانة البربر المسلمين وعاملوهم معاملة الذميين ، تمســك هؤلاء بالمبادىء الاســلامية السمحة ، فطالبوا بالمساواة مع العرب فى الواجبات والحقوق ؛ الا أن صوتهم لم يسمع ، واحتجاجهم لم يلق اذنا صاغية . وفى تلك الاثناء ، ظهرت فى المغرب دعوة الخوارج .

المـذهب الخارجى فى ناحية أوراس

ومما حمل دعاة المذهب الخارجى على مضاعفة نشاطهم فى المغرب ، فى أوائل القرن الثانى الهجرى ، أنهم لقوا هزائم كبرى فى المشرق ، ولا سيما فى عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد ، فأصبحوا يفكرون فى نشر مذهبهم فى أطراف العالم الاسلامى ، وبخاصة فى أقطار المغرب .

ولقد لقى الصوفية اقبالا عظيما لدى كثير من القبائل البربرية ، كقبيلة مطغرة ، التى كان يرأسها ميسرة ، فى المغرب الاقصى ، وقبيلة بنى يفرن ، فى ناحية تلمسان ، وكان اميرا عليها أبو قـرة ، وقبيلة ورفجومة ، فى الناحية الشرقية من منطقة أوراس . أما الاباضية فانهم نشروا مذهبهم فى جبل نفوسة ، وفى ناحية تاهرت ، وفى بعض المناطق الاخـــرى .

وكانت الاسبقية فى رفع راية الثورة ضد ولاة بنى أمية ، للصفرية . وذلك أن صفرية المغرب الاقصى أعلنوا الثورة بقيادة ميسرة ، سنة 122 هـ ، فقتلوا عامـــل طنجة ، وانضمت تحت لوائها جموع غيرة ، منها بنو يفرن ، قوم أبى قرة ، فتمكنت من بسط نفوذها على مناطق واسعة من المغربين الاقصى والاوسط ، وهزمت جيوش ولاة القيروان ، وبخاصة فى وقعـــة الاشراف ، وفى معركة وادى سبـــو (123 هـ) . (6) وأصبحت تهدد نفوذ بنى أمية فى افريقية .

---

(6) ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج 6 ، ص 221 ـ 222 .

وأمام تفاقم الوضع ، رأى هشام بن عبد الملك ، الخليفة الاموى ، أن يرسل جيشا جرارا بقيادة حنظلة بن صفوان الكلبى (124 هـ) ، فتمكن الوالى الجديد من ايقاف زحف الصفرية من قبيلة هوارة وأحلافهم ، على القيروان ، وهزمهم فى معركتى القرن والاصنام ·(7)

وعندئذ ، أصبح هم ولاة افريقية منحصرا فى الحفاظ على الوجود العربى بافريقية ، اذ كانت هذه المنطقة أقوى مراكز العرب بالمغرب ، وبقيت قبائل المغربين الاوسط والاقصى متمادية فى شق عصا الطاعة ·

ومما زاد فى الطين بلـــة أن عبد الرحمن بن حبيب الفهرى قـدم من الاندلس الى افريقية ، ثائرا ضد بنى أمية ، وتسلم السلطة من يد حنظلة بن صفوان (126 هـ) · وانقطعت بذلك العلاقات التى كانت تربط بين افريقية ودمشق ، الى أن انهارت الدولة الاموية بالمشرق ، الامر الذى عزل ولاية افريقية عن السلطة المركزية ، ولـــم يمكنها من تلقى المساعدة لمواجهة الموقف بحزم ، واسترجاع النفوذ العربى فى المناطق الواقعة غربى افريقية ·

ولما انقرضت دولة بنى أمية فى المشرق ، وقامت مكانها الدولة العباسية ، دعا عبد الرحمن بن حبيب لابى جعفر المنصور ، ثم رجع عن الدعوة له ، وأعلن خلعه ، معربا بذلك عن عزمه على تأسيس امارة مستقلة ، على غرار الامارة الاموية بالاندلس ·

ولكن سرعان ما تعكر الجو بالقيروان ، حيث قتل عبد الرحمن بن حبيب من طرف أخويه الياس وعبد الوارث (137 هـ) ، ثم قام حبيب بن عبد الرحمن يطالبهما بثار أبيه ، وقتل عمه الياس (138 هـ) · أما عبد الوارث فانه التجأ الى ناحية أوراس ، حيث أجاره عاصم بن جميل ، شيخ ورفجومة ، وهم بطن من قبيلة نفزاوة · (8)

(7) ابن خلدون ، العبر ، ج 6 ، ص 222 ــ 223 .

(8) وقد ذكر ابن خلدون ان ورفجومة كانوا « أوسم بطون نفزاوة وأشدهم بأسا وقوة » ، انظر : العبر ، ج 6 ، ص 231 ·

وعندئذ رأى عاصم بن جميل وقومه ، وكانوا على مذهب الصفرية (9) ، أن الفرصة قد سنحت لهم للتدخل فى شؤون افريقيا ، والاستيلاء على القيروان ، الامر الذى لم تتمكن من تحقيقه ثورات الصفرية السابقة · فأجار عاصم بن جميل عبد الوارث بن حبيب ومن كان معه من أنصار الياس أخيه . واظهر عزمه على مناهضة حبيب بن عبد الرحمن ، وكان هذا الاخير قد أرسل الى عاصم بن جميل يطلب منه أن يوجه اليه عمه عبد الوارث وأصحابه ، فأبى عاصم أن يمتثل لامر حبيب ·

ولما علم حبيب ذلك ، نهض بجيشه قاصدا ناحية أوراس ، لاخضاع عاصم بن جميل ، والقبض على عمه ومن كان معه من الجند · وزحف اليهم ، فلقيه هؤلاء . وكانت الهزيمة على حبيب ، الذى فر الى قابس ·

وكان حبيب قد استخلف على القيروان القاضى أبا كريت · غير أن بعض أهـــل القيروان لم يطمئنوا للاوضاع السياسية التى نجمت عن فرار حبيب الى قابس ، وتخوفوا من انتشار الفوضى فى مدينتهم اذا لم يكن فيها أمير يدبر شؤونها · فكتبوا الى عاصم ابن جميل يدعونه للقيام بأمرهم ، بشرط الدعاء لابى جعفر المنصور ، فأجابهم الى ذلـــــك · (10)

وحينئذ توجه عاصم وأخوه مكرم وقومهما ، ومن لجا اليهم من العرب ، صـــوب القيروان · فخرج القاضى أبو كريت ، بمن معه من المقاتلين ، للقاء ورفجومة ؛ ولكن انفض من حوله كثير من رجاله لاول لقاء ، فثبت أبو كريت ومن بقى معه ، الى أن قتل أكثرهم، ودخل عاصم القيروان · ثم استخلف عليها عبد الملك بن أبى الجعد اليفرنى ، وقصد الى قابس لقتال حبيب ، فهزمه ، ولجأ حبيب الى جبل أوراس ، فأجاره أهل تلك الناحيـة · فتوجه عاصم الى أوراس ولقى حبيبا هناك ، ولكن الهزيمة كانت على شيخ ورفجومة ، الذى قتل أثناء المعركة ·

---

(9) راجع : البيان المغرب لابن عذارى ، ج 1 ، ص 70 . وقد ذكر ابن خلدون انهم كانوا اباضية ونقل عنه ذلك صاحب الاستقصا .أنظر : العبر، ج 6، ص 231 ، س 18 ، الاستقصـــا ، ج 1 ، ص 22 .

(10) أنظر : البيان المغرب . ج 1 ص 70 ؛ الاستقصا . ج 1 ص 122 .

ثم قصد حبيب الى القيروان ، فخرج الى لقائه عبد الملك بن أبى الجعد ، ونشبت الحرب بين الفريقين ، وانتهت بمقتل حبيب وهزيمة جماعته (محرم 140 هـ) · وبموت حبيب أصبحت ولاية افريقية كلها معرضة للوقوع فى قبضة الصفرية · وغدت القيروان ، لاول مرة ، تحت سيطرتهم ·

وقد أجمعت المصادر التاريخية على اعتبار احتلال ورفجومة للقيروان كارثة كبرى تعرضت لها هذه المدينة ، اذ أن ورفجومة لم يوفوا بالعهد لاهل القيروان ، فاستحلوا المحارم ، وربطوا دوابهم فى المسجد الجامع ، وقتلوا كل من كان ينتمى الى قريش ، وساموا أهل القيروان أنواع الذل والعذاب · (11)

ويمكن أن نستنتج من هذه التصرفات ان اسلام ورفجومة كان لا يزال سطحيا ، آنذاك ، اذ لم يراعوا شيئا من الحرمات ولم يحترموا قداسة بيت الله ، وأطلقوا العنان لشهواتهم ولعصبيتهم وبطشهم وكرههم للعرب · ولعلهم تلقوا مبادىء الاسلام عن طريق الصفرية ، فوجدوا فى مذهب هؤلاء ما يتلاءم مع ميولهم وعصبيتهم · فكان الصفرية مثل الازارقة ، يستحلون سبى النساء المسلمات ، ويرون تكفير غيرهم من الفرق الاسلامية ، ووجوب محاربتها (12) · ولا يستبعد أن يكون اسلام ورفجومة ، آنذاك ، مختلطا برواسب دينية قديمة ، قد تعود الى اليهودية ، وهي ديانة جراوة ، قوم الكاهنة، الذين كانوا مجاورين لورفجومة فى ناحية أوراس الشرقية · ومما يؤيد هذا الافتراض ما ذكره ابن خلدون عن عاصم بن جميل ، شيخ ورفجومة ، من أنه « كان كاهنا » · (13)

وفى تلك الاثناء كانت اباضية جبل نفوسة قد اغتنمت فرصة ضعف أمراء القيروان الفهريين ومقتل آخرهم حبيب بن عبد الرحمن ، فاستولت ، بقيادة امامها

(11) راجع : البيان المغرب ، ج 1 ، ص 70 ؛ العبر ، ج 6 ، ص 232 ؛ الاستقصا ، ج 1 ، ص 122 ــ 123 ؛ الدرجينى ، طبقات المشائخ بالمغرب ، ج 1 ، ص 26 ــ 27 .

(12) والجدير بالملاحظة أن الصفرية كانوا أقل تشددا من الازارقة ، اذ كانوا يرضون بالعقود (التوقف عن حرب الفرق الاخرى) والتقية (كتم الانتساب الى المذهب الخارجى) . أما الاباضية فكانوا ، خلافا للازارقة والصفرية ، لا يرون تكفير مسلمى الفرق الاخرى ، مما يسمح لهم بمسالمة مختلف النحل الاسلامية . عن آراء الخوارج ، راجع مثلا ، أحمد أمين ، فجر الاسلام ، ص 306 ــ 317 ؛ ضحى الاسلام ، ج 3 ، ص 330 ــ 347 .

(13) العبر ، ج 6 ، ص 231 ، س 16 .

أبى الخطاب عبد الاعلى بن السمح المعافرى ، على طرابلس وما يليها ، وأخذت تتطلع الى امتلاك مناطق أخرى من بلاد افريقية · وكان تدهور الاوضاع بالقيروان ، وعيث ورفجومة فيها ، أحسن مبرر لتحقيق رغبتهم هذه ، والسيطرة على الموقف بافريقية ·

فزحف أبو الخطاب بجموعه ، من زناتة وهوارة ، الى القيروان ، ولقى عبد الملك بن أبى الجعد ،فهزمه هزيمة كبرى ، انجلت عن مقتل قائد ورفجومة وكثير من أتباعه ، واستيلاء أبى الخطاب على القيروان (صفر 141 هـ) · وبذلك انتهى تغلب صفرية جبل اوراس على عاصمة ولاية افريقية · (14)

وبعد ذلك ، ضعف شان ورفجومة ، وغزاهم ابن الاشعث ، والى افريقية العـربى الجديد ، وفرق جموعهم ، وأخضعهم لطاعة الدولة العباسية · فاستقر بعضهم فى جبل أوراس ، بينما تشتت البعض الآخر فى مختلف المناطق · ولما عين عمرو بن حفص واليا على افريقية ، أنزل بعضهم فى طبنة (151 هـ) ، عندما حصن هذه المدينة وأعاد بناءها · وكانوا عونا كبيرا له ضد اباضية عبد الرحمن بن رستم وأحلافه من بنى يفرن وغيرهم ، عندما حاصروها سنة 153 هـ · (15)

ولكن ، بعد مقتل عمرو بن حفص (سنة 154 هـ) ، ضربت الفتنة أطنابها فى افريقية، فثارت نفزاوة جبل أوراس ضد الوالى الجديد يزيد بن حاتم ، فارسل اليهم الجيوش وأخمد ثورتهم (157 هـ) · (16)

ثم ثارت نفزاوة ، بعد وفاة يزيد بن حاتم (فى رمضان 171 هـ) ، على ابنه داود · وكان يقود ثورتها نصير بن صالح الاباضى · (17) وقد ذكر ابن خلدون أن نفزاوة ، فى

---

(14) راجع : الدرجينى ، المصدر المذكور ، ص 26 ـ 31 ، العبر ، ج 6 ، ص 232 ·

(15) وهذا مما لا يستغرب ، اذ أن ورفجومة لم تنس الحملة التى شنها أبو الخطاب واتباعه سنة 141 هـ ، عليها ، حينما استولت على القيروان .

(16) العبر ، ج 6 ، ص 232 .

(17) البيان المغرب ، ج 1 ، ص 32 ؛ ويسميه ابن خلدون صالح بن نصر (العبر ، ج 6 ، ص 232) .

هذه المرة ، « دعوا الى دين الاباضية » ٠ (18) فعادت الى محاربتهم عساكر والى افريقية ، « وقتلوهم أبرح قتل ٠٠٠ وافترق بنو ورفجوم بعد ذلك وانقرض أمرهم ، وصاروا أوزاعا فى القبائل » ٠ (19)

ولاشك أن انتساب نفزاوة هذا الى مذهب الاباضية يدل على تحول هام فى تطور ناحية أوراس المذهبى ، اذ أن هذه الثورة لم تقم باسم الصفرية ، كما كان الامر قبل ذلك ، وانما قامت باسم الاباضية ٠ ويستنتج من هذا أن فشل الصفرية ، وكره أهالى افريقية لهم بعد زحف ورفجومة على القيروان قد أدى الى قلة انصارهم ، وتضاؤل عدد مؤيدى مذهبهم فى ناحية أوراس بعد حركة ورفجومة المشؤومة الى القيروان ، وأقنعوا الاهالى بصحة آرائهم وفساد بعض معتقدات الصفرية ، المنافية لروح الاسلام ، دين التسامح والمسالمة ٠

والغالب على الظن أن الاباضية بقيت منتشرة فى ناحية أوراس الى تأسيس دولة العبيديين ، واستيلائها على معظم مناطق المغرب ٠ فلما توفى عبيد الله المهدى ، سنة 322 هـ ، وخلفه ابنه أبو القاسم ، رأى هذا أن يأمر الناس بترك مذهب أهل السنة واتباع مذهب الشيعة ٠ « فمن تكلم عذب وقتل ، واشتد الامر على المسلمين » ٠ (20)

وأمام هذه الاجراءات التعسفية ، اندلعت ثورة لم ير العبيديون أعنف ولا أشد منها ، وكانت انطلاقتها من جبل أوراس ، تحت قيادة أبى يزيد مخلد بن كيداد اليفرنى (332 هـ) ؛ واجتمع تحت لوائه اباضية أوراس ، ومن بينهم بنو كملان ، من قبيلة هوارة ٠ (21)

---

(18) العبر ، ج 6 ، ص 232 ، س 18 .

(19) العبر ، ج 6 ، 232 ــ 233 .

(20) البيان المغرب ، ج 1 ، ص 216 ٠

(21) انظر : العبر ، ج 6 ، ص 287 ٠

وقد تحدث ابن عذارى عن أبى يزيد ، فذكر انه « كان ··· أحد أئمة الإباضيـة النكار بالمغرب ··· وتسمى شيخ المؤمنين » · (22) غير أنه كان يدعو لعبد الرحمن الناصر ، خليفة الامويين بالاندلس · (23)

وبعد أن انتصر أبو يزيد على عمال العبيديين فى المدن الواقعة شمال وشرق ناحية أوراس ، مثل باغاية وتبسة ، استولى عنوة على الاربس ، « وأحرقها ونهبها ، وقتل فى الجامع من لجا اليـــه » · (24) ثم ملـــك باجـــة « وأحرقها وقتـــل الاطفال وسبى النســـاء » · (25)

ثم دخلت تونس فى حوزة أبى يزيد ، وقوى جانبه ، فاتجه نحو القيروان ، وقـد انضمت اليه كثير من قبائل البربر · وحاصر رقادة « فى مائتى ألف مقاتل » ، (26) ثـم دخلها « فعاث فيها ، وبعث أيوب الزوب الزويلى فى عسكر القيروان ، فملكها فى صفر سنة 333 هـ ، ونهبها ··· وخرج (الى أبى يزيد) شيوخ القيروان ، فأمنهم ورفع النهب عنهـــم » · (27)

ويبدو من هذا العرض الوجيز أن أبا يزيد وجماعة النكارية ، التى كان ينتسب اليها ، كانوا أقرب الى الصفرية منهم الى الاباضية ، وان انتماءهم الى الاباضية لم يؤد الى اعراضهم عن بعض الاعمال الشنيعة ، التى اشتهر بها صفرية ورفجومة وغيرهم · فأبو يزيد وأصحابه لم يتأخروا عن قتل الاطفال وسبى النساء المسلمين ، واحراق المدن وتخريبها ونهبها · وما معاملة أبى يزيد لاهل القيروان ، فى نظرنا ، وايقافه للنهب بها ، الا وسيلة لكسب تأييدهم ومشاركتهم فى حرب العبيديين ، ولا نظن أن كثيرا من المسلمين والاباضية الوهبية قد انخدعوا بذلك ، وانضموا الى صفوف النكارية ، لما ذاع

(22) البيان المغرب ، ج 1 ، ص 216 ــ 217 ·
(23) انظر : العبر ، ج 4 ، ص 84 ·
(24) العبر ، ج 4 ، ص 85 ·
(25) العبر ، ج 4 ، ص 85 ، انظر كذلك : البيان المغرب ، ج 1 ص 219 ·
(26) العبر ، ج 4 ، ص 86 ·
(27) الغبـــر ، ج 4 ، ص 86 · راجع ايضا : الدرجينى ، طبقات المشائخ ج 1 ، ص 100 ــ 101 ·

من أنباء حول ما اقترفه هؤلاء من تخريب وتقتيل وسبى ونهب ، فى مختلف الانحاء . (28)

كما يبدو أن هذه الثورة كانت تحمل نفس الطابع الذى حملته ثورة الكاهنة وثورة ورفجومة ، وكلها انطلقت من جبل أوراس . وكان طبيعة هذه المنطقة القاسية قد أثرت ، منذ أقدم العصور ، فى نفوس أهلها ، فجعلتهم أميل الى القسوة والبطش وانتهاك الحرمات .

ولم تمض بعد ذلك الا اشهر قليلة حتى وصل ابو يزيد الى المهدية (29)،وضرب حولها الحصار ، وشن حملة عنيفة عليها ، بغية اقتحامها ، ولكن لم يتمكن من ذلك ، وتمادى فى حصارها ، فلقى أهلها من ذلك أشد المشقة .

وكان أبو القاسم بن عبيد الله قد أرسل الرسل الى كتامة وصنهاجة يستنجد بهم ، فاجتمعت كتامة لتلبية طلبه ، وعسكرت بقسنطينة ، فارسل اليها أبو يزيد « بعثا من ورفجومة وغيرهم ، فهزموا كتامة » . (30)

وعندئذ عظم الخطر على المهدية ، وكادت تسقط فى حوزة أبى يزيد ، لولا وصول زيرى ابن مناد الصنهاجي بالمدد والمؤن (آخر جمادى الاولى 333 هـ) . (31)

وتتابعت هجمات أبى يزيد وجموعه على المهدية ، ولكن بدون جدوى . وأمام صمود أبى القاسم القائم وجنوده ، بدأ الملل يفت من عزيمة أنصار أبى يزيد ، فانفض الكثير من حوله . وقد عزا ابن خلدون انتقاض البربر عليه الى « ما كان منه من المجاهرة بالمحرمات والمنافسة بينهم » . (32) وقد يكون ذلك عاملا هاما لانصرافهم عنه ، الا انه لا يكفى لتفهم ذلك.ولعل أهم العوامل ترجع الى طول المدة وقساوة الحرب وتشدد أبى يزيد واذا راعينا أن معظم انصاره كانوا من البدو،ادركنا أن انصراف الكثير منهم كان

(28) انظر الدرجيني طبقات المشائخ ، ج 1 ، ص 100 .

(29) وذلك فى جمادى الاولى 333 هـ . (العبر ، ج 4 ، ص 87) . ويذكر ابن عذارى ان ابا يزيد وصل الى المهدية فى سنة 335 هـ ، أي فى عهد اسماعيل بن القائم (البيان المغرب ، ج 1 ، ص 219) .

(30) العبر ، ج 4 ، ص 88 .

(31) العبر ، ج 4 ، ص 87 .

(32) العبر ، ج 4 ، ص 88 .

لسبب اقتصادى ، هو الالتحاق بأهاليهم وتفقد أحوالهم وما تتطلبه حياة الرحل من تنقل عبر النواحى ورعى الماشية وغير ذلك • وهذا لا يمنع أن يكون ، الى جانب ذلك ، عامل سياسى وايديولوجى ، دفع الكثير من السنيين والاباضية غير النكارية الى مغادرة صفوف الثورة ، لما عاينوا من تصرفات أبى يزيد ورفاقه الشنيعة •

ولما أطلت سنة 334 هـ ، بدأ نجم أبى يزيد فى الافول ، فاضطر الى رفع الحصـــار عن المهدية ، وثار أهل القيروان على انصاره فأخرجوهم وراجعوا طاعة القائم•وعندئذ قدم على بن حمدون ، أمير المسيلة ، بقومه ، لمساعدة القائم على حرب أبى يزيد ، فانشغل هذا الاخير بمقاتلتهم ، (33) ثم زحف الى سوسة فى جمادى الثانية 334 هـ ، وحاصرها • وفى تلك الاثناء توفى أبو القاسم بن عبيد الله (شوال 334 هـ) ، فخلفه ابنه اسماعيل • وكان أول عمل قام به ، أن أرسل الاساطيل لانجاد سوسة ، فانهزم أبو يزيد ، ولحق بالقيروان ، فمنعه أهلها من الدخول ، ورحل الى سبيبة (34) •

ثم نهض اسماعيل بن القائم لمطاردة أبى يزيد ، فقدم الى القيروان • وزحف اليه أبو يزيد ، فجرت بينهما معارك ضارية ، لم تسفر عن تغلب أحد من الطرفين • فرحل عنها أبو يزيد (أواخر ذى القعدة 334 هـ) • ثم عاد اليها وعاود القتال ، الى أن هزم هزيمة كبرى ، فى منتصف محرم 335 هـ ، ففر الى ناحية باغاية •

وانطلق اسماعيل بن القائم فى اتباع أبى يزيد ، ومطاردته عبر الهضاب والجبال والمفاوز • ولم يفتأ أمر أبى يزيد يضعف ، الى أن أخذ فى حصن من بلاد كتامة ، وهو جريح ، ومات من أثر جراحه فى آخر محرم 336 هـ • (35)

هكذا انتهت ثورة أبى يزيد وأتباعه من أهالى أوراس • وقد نتج عنها خراب « عمران افريقية من سائر الضواحى » ، (36) ومقتل كثير من السكان ، وتشتيت القبائل التى أيدته وناصرته ، كما افترق شمل قوم الكاهنة ورفجومة قبل ذلك • وخلفهم قوم آخرون ، تمذهبوا بغير مذهبهم ، ونشروا فى ربوع أوراس المذهب السنى •

(33) أنظر : العبر ، ج 4 ، ص 88 ـ 89 •
(34) أنظر : العبر ، ج 4 ، ص 89 ـ 90 ، البيان المغرب ، ج 1 ، ص 219 •
(35) أنظر : العبر ، ج 4 ، ص 92 ـ 93 ، البيان المغرب ، ج 1 ، ص 220 •
(36) العبر ، ج 4 ، ص 86 ـ 87 •

المـذهب السنى فى ناحيـــة أوراس

ومن الصعب أن نحدد الزمان الذى انقرض فيه المذهب الاباضى من ناحية أوراس . ولاشك أن ما لقيته قبيلة ورفجومة الصفرية ، وبنو كملان النكارية ، وغيرهم من خوارج أوراس ، من تشريد وتقتيل بعد الهزائم التى تكبدوها ، قد شتت شملهم وأخلى كثيرا من جهات بلاد أوراس .

وعلى كل فان الاوضاع الاجتماعية قد عرفت تحولا جذريا غداة قدوم بنى هلال أيام الزيريين والحماديين ، فتوغلت فى مختلف المناطق الجنوبية من كلا الدولتين .

فاستقرت حينئذ كرفة ، من قبيلة الاثبج الهلالية ، فى جبل أوراس (37) ، كما تمركز أولاد فارس وأولاد عزيز وأولاد ماضى ، من الاثبج أيضا ، بسفح جبل أوراس المطل على بسكرة (38) . وكان أولاد محمد ، من الدواودة ، وهم بطن من قبيلة رياح فى أواخر النصف الثانى من القرن السابع الهجرى ، قد تغلبـوا على الزاب وجبـل أوراس ، فاقطعهم الحفصيون ما امتلكوه من الاراضى .

وفى أواسط القرن الثامن الهجرى ، كان جبل أوراس تابعا لامارة بجاية الحفصية ، غير أن أمراء بجاية عهدوا ببجاية هذه الناحية لابن مزنى ، أمير بسكرة .

ولا ريب أن اختلاط القبائل الهلالية بأهالى أوراس القدماء ، قد أدى الى نتيجتين هامتـــــين :

ـ الاولى ، فى المجال المذهبى ، هى انتشار المذهب المالكى فى الناحية ، واقبال اهالى جبل أوراس على اتباعه وتعلمه ؛

ـ والثانية ، فى المجال الثقافى والاجتماعى ، هى تعريب القبائل البربرية تدريجيا ، واختلاطها بالقبائل الهلالية .

فنتج عن ذلك التلاحم ، تقارب فى مجالى الدين واللغة ، وهدأت الافكار ، وسادت الطمأنينة والمسالمة ربوع جبل أوراس .

(37) انظر : العبر ، ج 6 ، ص 48 ـ 50 .
(38) انظر : العبر ، ج 6 ، ص 55 .

الحلف بين أهل السنة والنكارية
في القرن 4 هـ/10 م ، وأثره في تطور أوضاع مدن افريقية والزاب ، والحضنة والاوراس .

د. لقبال موسى
معهد العلوم الاجتماعية
جامعة الجزائر
نائب بالمجلس الشعبي الوطني

معارضة أهل السنة ، والمالكية منهم ، للحكم الفاطمي الاسماعيلي ، تعتبر من بين العقبات الكبرى التي حالت دون استقرار النفوذ الفاطمي ، في بلاد المغرب العربي الاسلامي ، كما حالت دون تحقيق الانسجام ، والتعاون المطلوب ، بين الخلفاء الفاطميين ، وجمهور السكان لان هؤلاء كانوا يستوحون مواقفهم من توجيهات فقهاء السنة، والمالكية بنوع خاص ، الذين كانوا في نظر الجماهير بمثابة زعماء شعبيين .

ولئن كان الخلفاء الفاطميون في الدور المغربي للخلافة ، وبدءا من عهد مؤسس النظام ، عبد الله المهدي ، الى نهاية حركة النكارية في أواخر عهد المنصور ، قد مكنوا لانفسهم ، ولمذهبهم ، الخاص ، بالاعتماد على الامكانيات الضخمة التي كانت طوع

ارادتهم ، ففرضوا آراءهم المذهبية ، وارادتهم السياسية بالقوة وبالعنف ، وبالاضطهاد، والمصادرة ، وشراء الذمم ، على جماهير السنة فى حواضر افريقية والزاب ، وخصوا المالكية باعنف المواقف واشد الاضطهاد · فان هؤلاء فى جملتهم بقوا على ولائهم السياسى ، للخلافة العباسية الشرعية ، وعلى انتمائهم المذهبى للسنة ، وآراء الجماعة · ورفضوا مختلف أشكال التعاون مع الفاطميين ، وبقوا يهيئون أنفسهم لرد الفعل ، وللقتال الحقيقى ثارا لشهداء المالكية ، فى هذا العصر ، الذى كان يعتبر فى نظرهم عصر المحنة والشهادة (1) ·

وقد اتيحت فرصة الانتقام من الفاطميين ، عندما لاحت فى الافق السياسى والمذهبى حركة النكارية الاباضية ، بزعامة شيخ المسلمين أبى يزيد مخلد بن كيداد اليفرنى الزناتى ، النكارى « الذى خرج من جبل أوراس فيمن تبعه يطوى البلاد ويزيد اليه أهل الفساد والعدوان» (2) ·وهذه الحركة ، وان لم تخل من طابع العنصرية البترية ضد فرع البرانس ، وضد كتامة ومجيسة ، وزواوة ، وصنهاجة بنوع خاص ، كما لم تخل أيضا من طابع المغالاة المذهبية تجاه أهل السنة والشيعة ، فانها كانت ميدانا مفضلا ، وفرصة متاحة لرجال المذاهب الاسلامية المتصارعة ، ولرجال الحكم والسياسة، ولفرعى البتر والبرانس ، ولطبقة الفتيان الصقالبة ، ولكل المغامرين الطموحين · فكل فريق من هؤلاء وجد فى الحركة ضالته المنشودة لايذاء خصمه ، ولاكتساب موقع خاص (3) · اما الجانب الذى لم يضعه اي من الفرقاء فى اعتباره فى غمرة النزاع والاحقاد فهو العمران الحضرى ، ومظاهر الاستقرار ، والرخاء ، وآيات التمدن ، ومظاهر الحياة الاقتصادية والفكرية التى أصيبت بضربة قاسية ·

(1) وقد منع الفاطميون الفقهاء من التدريس ، والافتاء بمذهب مالك ، وأحيوا العمل بمذهب جعفر بن محمد (الصادق) وكلفوا أحد المتشدين العميان بأن يهزج بذم النبى (ص) وأصحابه بقوله « العنوا الغار ، وما وعى ، والكساء وما حوى » ، مبالغة فى ايذاء أهل السنة ، وفقهاء المالكية .

(2) النعمان : افتتاح الدعوة ص 277 .
أنظر : عياض : ترتيب المدارك مجلد 2 ، ح 3 ، 318 ط بيروت .

(3) ابن حماد : أخبار ملوك بنى عبيد ص 19 وما بعدها ، وجاء فيه عن أوراس وقبائلها قوله «وسار الى جبل أوراس وفيه قوم من هوارة ، يقال لهم بنو كملان من أهل مذهبه فقام فيهم وقوى بهم واشتدت شوكته واستفحل أمره » ·

والى هذه الحركة التى يعتبرها أعداؤها ، حركة فوضوية تخريبية ، ويعتبرها الخلفاء الفاطميون فتنة أو محنة كبرى من نوع خاص ، (4) ويعتبرون صاحبها : أبا يزيد لعينا ، ودجالا مثل مؤرخى الاباضية الوهبية الذين قسوا عليه فى الحكم عندما عد فى نظرهم أحد المفسدين فى الارض · (5) الى هذه الحركة ، أنظم أهل السنة ، وفقهاء المالكية خاصة ، لانهم اعتبروها أملا وحيدا فى الخلاص ، من حكم الشيعة الفاطميين ، وقد ساندوها بكل قواهم ، ايضا ، لان وجه الحركة فى بداية الامر ، كان سنيا ، يظهر الترحم على أبى بكر وعمر ، ويحث على قراءة مذهب مالك وعلى الالتزام به ، ويستند فى تطبيق قواعد الشرع الاسلامى على الكتاب والسنة ، ويعمل على مراقبة التنفيذ بواسطة الاحتساب على الولاة ، والعمال ، وأوساط الناس ·

وكان الشيخ ابو يزيد كما لقبه فقهاء المالكية ، يدعو الى التكتل ، وضم الجهود لقتال الشيعة الفاطميين ، والحط من شأنهم ، وشأن أئمتهم بما فى ذلك على بن أبى طالب (6) ومن أجل ذلك انظم الى حركته ، وملأ صفوفه ، زهاد افريقية وعبادها ، وفقهاؤها ، الذين أشرف وجوههم ، وزعماؤهم على التهيئة للمعركة المرتقبة ضد الفاطميين ، بتعبئة القوى السنية بواسطة الخطب التى ألقيت فى المساجد ، وبالاحاديث التى وضعت بالمناسبة ، لتشجيع الجماهير على التجنيد الجماعى ، لاعلان الجهاد المقدس ضد الرافضة · وأثناء المؤتمر العام الذى عقد باشراف هؤلاء الزعماء ، وأظهرهم : ابو الفضل عباس بن عيسى الممسى ، وربيع بن سليمان القطان ، وأبو اسحاق السبأى وأبو عبد الملك بن مروان بن منصور الزاهد ، وابراهيم بن محمد العشماء،وأبو العرب تميم صاحب كتاب : « طبقات علماء افريقية » ، الذى تولى ، بمعية عباس الممسى ،

---

(4) خلدها القاضى النعمان فى قصيدة مشهورة سماها « ذات المحنة » أنظر : المجالس والمسايرات 1 ، 79 وما بعدها . خ القاهرة ؛ سيرة جوذر : 53 ، 189 ، تعليق 135 منه .

(5) أبو زكرياء : السيرة ورقات 34 ، 35 ، 36 ، 37 ، الدرجينى : الطبقات ، ورقة 113 ، 14 . وقارن ما ورد عنه أيضا فى الاستبصار (المجهول) ص 205 ـ 206 حيث يوصف هنا خطأ بالصفـــرى .

(6) ابن عذارى البيان ج 1 ، 307 ـ 308 نقلا عن ابن سعدون فى تعزية أهل القيروان .

توجيه أعمال المؤتمر ، وعندما اتفق الرأى على مبدأى الثورة ، والحلف مع أبى يزيد لقتال الفاطميين جهزوا أنفسهم واتباعهم بالعدة الكاملة ، وأعطيت الزعامة لعباس الممسى .

وتذكر النصوص كيف أن زعماء المالكية ركزوا بنودهم ، وكان عددها سبعة وتحمل شعارات متنوعة ، وتتخذ ألوانا شتى ؛ قبالة مسجد القيروان وهو أول مسجد فى افريقية الاسلامية أسس على تقوى من الله ورضوان . وفى ذلك اشارة الى ذور المسجد ، كمركز للاشعاع ، ومهد للاصالة ؛ ونقطة مهمة للبدء فى الاصلاح .

ومن بين البنود السبعة ، تميز بند زعيم الحركة عباس الممسى (نسبة الى لمس : قرية فى نواحى القيروان تميزت بمعركة ممس أثناء الفتح سنة 79هـ) ، ومثله البندان اللذان رفعهما ربيع بـن سليمان القطان ، باللون الاحمر ، لكــن اختلفت الشعارات المكتوبة على هذه البنود ، فحمل بند الممسي شعار : « لا اله الا الله محمد رسول الله ، لا حكم الا لله ، وهو خير الحاكمين » . وحمل أحد البندين اللذين رفعهما القطان شعار : « بسم الله الرحمن الرحيم ، لا اله الا الله محمد رسول الله » بينما حمل البند الثانى شعار :« نصر من الله ، وفتح قريب على يد الشيخ أبى يزيد ، اللهم انصر وليك على من سب نبيك وأصحاب نبيك » .

وكان بند أبى العرب تميم ذا لون أصفر ، وكتب عليه بعد البسملة آية قرآنية هى : « قاتلوا أئمة الكفر » . أما البند الاخضر الذى رفعه أبو نصر الزاهد فكتب عليه قوله تعالى : « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ، ويخزهم ، وينصركم عليهم » وحمل البند ومن بين البنود السبعة ، تميز بند زعــيم الحركة عبــاس الممسى ، نسبــة لمس ، الابيض الذى رفعه السبأى بعد البسملة ، شعار : « محمد رسول الله ، وأبو بكر الصديق وعمر الفاروق » .

أما أكبر البنود جميعا ، وكان ذا لون أبيض ، فقد تولى رفعه ابراهيم العشماء وكتب عليه قوله تعالى : « الا تنصروه فقد نصره الله اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما فى الغار ، اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا : التوبة آية 40 » .

واكتملت التهيئة المادية والمعنوية بخطبة القاها أبو ابراهيم أحمد بن أبى الوليد يوم الجمعة ، وضمنها : التشهير بالخلفاء الفاطميين ، والطعن فى حكمهم واغراء جماهير

السنة بهم ، وحثهم على العمل المادى الجاد ، وعلى الجهاد المخلص بجانب الشيخ أبى يزيد، لتصفية نفوذ الشيعة الفاطميين (7) ·

ومن ملاحظة هذه الشعارات تبدو أسباب الغضب من الحكم الفاطمى ، والرغبة فى انهائه ، وقد تركزت بالخصوص على مبادىء : وحدة الاله ، ونبوءة محمد (ص) وفضل الخلفاء الراشدين واهمال على بن أبى طالب ، وتفضيل أبى بكر عليه · كما تضمنت أيضا اشارة الى آثار الحلف الجديد بين السنة ، والمالكية منهم ، من جهة وبين النكارية الخوارج من جهة أخرى · وذلك فى اتخاذ شعار تاريخى قديم لرواد حركة الخوارج ، والقصد منه مجاملة الشيخ أبى يزيد ·

وبفضل قوة الحلف الجديد وتأييده للثورة ضد الفاطميين أحرز أبو يزيد انتصارات كبرى واستخلص حواضر افريقية السنية ، ومنها القيروان مركز القوة المالكية وهـدد نظام الخلافة بالسقوط · وغدا القائم بأمر الله ، محصورا فى المهدية حيث قيل انـه « مات محسورا وفى نفسه مقهورا » ، وعند هذا الحد من القوة الذى بلغه أبو يزيد ، بدأ يتآمر على حلفائه السنيين ، ويمهد لقتلهم بالمكر ، على أيدى الجند الفاطميين ليصفو له الجو ومما قاله لجنوده « اذا التقيتم مع القوم) جند الخلافة (انكشفوا عن أهل القيروان حتى يتمكن أعداؤكم من قتلهم ، فيكونوا هم الذين قتلوهم لا نحن ، فنستريح منهم » وقد كان غرض أبى‌يزيد ، ازاحة هؤلاء الزعماء الشيعيين ليتمكن نفوذه فى أوساط العامة ، وتشير النصوص الى أن فقهاء المالكية وجماهير السنة لم يتفطنوا لتدبير أبى يزيد ، وتحايله ، لذلك أخلصوا فى القتال عند اللقاء حتى سقط أغلبهم فى ميدان المعركة وعندئذ عرفوا حقيقة ما يراد بهم وبأهل السنة عموما · فقالوا « قتل أوليـاء

---

(7) عياض : المصدر السابق مجلد 2 ج 3 ، 319 ـ 321 ، ابن عذارى : المصدر السابق 1 ، 308 ـ 309 ، 411 ـ 412 ، ومما جاء فى خطبة ابن أبى الوليد قوله « اللهم ان هـذا القرمطى الكافر المعروف بعبيد ، ادعى الربوبية من دون الله ... فانصرنا اللهم عليـه ، وأرحنا من دولته ، واهلك اللهم شيعته وشتت كلمته » . أبو العرب تميم : طبقات علماء افريقية ص 19 . هامش 2 ط الشابى .

(8) ابن عذارى : المصدر السابق 61 ـ 309 ، 4/2 ، عياض : المصدر السابق مجلد 2 ج 3 ص 321 ـ 330 وقد قتل فى الفتنة ، المسى زعيم الحركة ، وربيع القطان .

الله شهداء» وانسحبوا من معسكره وانقلبوا اليا عليه ، وحربا ضد أعوانه ، حتى تمت التصفية النهائية لحركته الخطيرة بالمعركة الحاسمة التى خسرها ، فى عمق افريقية ، هذا الى جانب انفصال مدينة القيروان عنه ، وثورتها ضده ، وطردها لاتباعه وواليه فيهـــا (9) ٠

والذى يميزحركة النكارية بقيادة أبى يزيد عند غيرها من حركات المعارضة المادية لنفوذ الفاطميـــين أنها :

أ ـ كانت أول امتحان رهيب للوجود السياسى والمذهبى للفاطميين فى بلاد المغرب ، وهذا بعد أن سقطت كل حواضر افريقية عدا المهـــدية ، وسوسة اللتين ذاقتا مرارة الحصار ، وويلات الحرب والمجاعة فى أواخر عصر القائم ، وبداية عصر المنصور ، وهذان الامامان هما اللذان واجهاها ، فتعبا بشدة ؛ ولاهمية دورهما فى الحفاظ على استمرار ظل الخلافة الفاطمية سياسيا ومذهبيا ، بتصفية الحركة ، كان المعز لدين الله فى مجالسه ، يترحم على روحهما ، ويأسف لما أصابهما اثناء هذه المحنة الكبرى ٠

ب ـ وقد أرهقت الحركة مالية الخلافة وكلفتها نفقات باهظة ، وحملتها خســـائر لا تدخل تحت حصر فى وقت كانت فيه بلاد افريقية تمر بمجاعة ، وبأزمة اقتصاديـة مظهرها ، غلاء الاسعار ، حتى بلغ عليق كل دابة دينارا ونصفا ، وبلغت قربة الماء دينـــارا (10) ٠

ج ـ وقد أضرت الحركة بمظاهر الحياة الاقتصادية والثقافية والحضارية عموما فى افريقية واقليم الزاب ، على نحو لم تفقها فيه أية حركة معارضة سابقة أو لاحقة ولقد تكرر هنا ما وقع فى عصر الكاهنة وحسان ، وما وقع فى عصر الوندال ثـم بمناسبة

---

(9) ابن حماد : المصدر السابق ، 24 ، المقريزى : المصدر السابق 1 ،، 82 س 6 . ط 1967 .

(10) المقريزى : المصدر السابق 1 ، 84 ـ 45 ، النعمان : المجالس والمسايرات 2 ، ورقة 642 وما بعدها خ مكتبة العزيزى : المصدر السابق 44 وما بعدها ، ابن الاثير : الكامل ج 8 ، 67 ، 157 ، ابن عذارى المصدر السابق 1 ، 273 . ابن حماد : المصدر السابق ، 28 حيث بلغت شربة الماء ثلاثة دراهم فى معسكر المنصور .

الزحوف البدوية أثناء تغريبة بنى هلال ، فلم يحترم البدو المدن ومظاهر العمران المستبحرة ، كما لم يحترموا المساجد ، والاربطة ، والحصون ، والنساء والولدان ، « وقد كان البربر ياتون الى أبى يزيد من كل ناحية فينهبون ويرجعون الى منازلهم حتى أفنوا ما كان فى افريقية » (11) .

د ـ أما تاثيرها على القبائل وعلى السكان خاصة فى الزاب ، وأوراس فكان سيئا ، فهذه المنطقة ، كانت تضم حلفاء أبى يزيد ، وهي منطقة ترتبط بفترة فى حياته وكانت معبرا للجيوش المتحاربة ، وللقبائل الموالية ، والمعادية ؛ هذا فضلا عن قيام بعض الطموحين فيها بثورة ، ضد الفاطميين تاييدا لحركة أبى يزيد ؛ وقد تزعمها شاب وسيم ، زعم انه الامام القائم بالحق ، وافتتنت به قبائل الجهة وانضم اليها حلفاؤهم من زواوة، وصنهاجة وعجيسة ؛ واتسعت الحركة واصبح لها مؤيدون فى عدة جهات ، وقد تصدى لها أمير الزاب ، صاحب المسيلة جعفر بن على بن حمدون الاندلسى ، وقبض على زعمائها ، وأوثقهم وأوصلهم الى المنصور اسماعيل الذى أمر بصلب زعيم الحركة الاوراسى ، والتمثيل به ؛ كما فعل ذلك بالنسبة لقوم من بسكرة تورطوا فى تأييد حركة أبى يزيد ؛ وأثناء هذه الثورة ، كان المنصور فى حركة دائبة يتنقل بين قرى ومدن أوراس والحضنة ، وخاصة فحص طاقة ويلزمة ، ونقاوس ، ومقرة ، وطبنة (بجوار بريكة) عاصمة الاقليم ؛ ففى طبنة ، كبرى مدن الاقليم ، وحاضرته ، تلقى المنصور من أمير المسيلة أول خبر عن ثورة الاوراس ، فأقام فيها مدة طويلة للتهيئة والاعداد حيث تذكر النصوص انه « أعطى بطبنة الارزاق ووسع على الرجال واسقط جماعة من الزمنى ومن لم يرض صحبته ورجع من طبنة فأتاه جعفر بن حمدون هدية » (12) .

وفى مدينة مقرة ، التى انتقل اليها المنصور ملأ صفوفه بخيرة الرجال وبفرسان المعركة المرتقبة مع أبى يزيد ، وقد أجزل الهبات ، ووسع على الجهة ، واستمال جماهير

---

(11) النعمان : المصدر السابق 1 ، 183 وما بعدها ، المقريزى : المصدر السابق 1 ، 79 .

(12) بن حماد المصدر السابق26 .

كثيرة ، بالطعام والكسى ووسع على كل من جاءه وأحسن الى كل من أعطاه ، (13)
وبفضل هذه السياسة الحكيمة ، انضمت اليه حشود من صنهاجة وعجيسة كانوا خير عدة له عندما استقر فى المسيلة ، وبدأ منها يطارد عدوه أبا يزيد · وحول أرباض هذه المدينة ، التى لعبت دورا كبيرا الى جانب المنصور فأفادته (14) ، دارت معارك حاسمة صيرت أبا يزيد شريدا طريدا يندب حظه محصورا فى مضارب عجيسه ، ينتظر مصيره فى قلعة كيانة (تاقربوست) التى لم تعصمه من الهزيمة والاسر فى نهاية الامر (15)
ومعنى ذلك أن قلعة الشيعة فى الزاب وهى المحمدية (المسيلة) أدت مهمتها كاملة تدعيما للشرعية ·

هـ ــ وقد تركت أعمق الاثر بالنسبة لعصبية الدولة الفاطمية وأصابتها فى خيرة من قادة كتامة وزواوة ، وصنهاجة وعجيسة ؛ ومن طبقة الفتيان الصقالية من ولاة الاقاليم الفاطمية أيضا ·

و ــ وقد تخللت الحركة أعمال فروسية ، ودهاء ، وصور ميكافيلية ؛ ومن ذلك أن الخليفة المنصور أكرم أسرة أبى يزيد ولم ينتقم منها ، وأبو يزيد ، نراه يتظاهر بالمالكية وبالتسنن ويتصرف بدهاء مع الفقهاء ليخلصوا للحلف المشترك · ولم يف ــ هو ــ بوعده للمنصور بأن يسلم اليه نفسه ، بمجرد تأمين أسرته ؛ بل قال أمام ملأ من أصحابه «انما وجههم خوفا منى » · أما الخليفة القائم بأمر الله فقد شجع المعارضين لابى يزيد ، من داخل عصبيته كى يتخلصوا منه وكادوا ينجحون لولا انكشاف أمرهم · والتجأ ابنه المنصور الى اجزال الهبات ، وبــذل الاموال رشوة بقصد القضاء على خصمه

---

(13) المصدر نفسه ·

(14) المقريزى : المصدر السابق 1 ، 72 وفيه « ومن المحمدية (المسيلة) كان يختار ما يريد ، اذ ليس بالموضع مدينة سواها » . ابن حماد : المصدر السابق 30 .

(15) المصدر نفسه 29 ــ وما بعدها ، ويشير ابن حماد الى « ان الطعام كان عنده (أبى يزيد) رخيصا ، كانت الرفاق تأتيه به من سدراتة ، وبنطيوس ، وهى من بــلاد بسكرة » ولذلك انتقم منهم المنصور باغراء بنى حزر الزناتيين بهم ·

ووافق بدون تردد على منح الامان لاخص انصاره من هوارة ، وبنى كملان ، ثـــم لمحمد ابن حزر المغراوى الزناتى فى مقابل رصد حركات أبى يزيد ، وتبليغها فى حينها (16) ·

ز ـ وقد تكاثرت الزحوف والمعارك أثناء الحركة ، حتى اختلطت ، ومع ذلك فقد ظفرت بعض المعارك باهمية خاصة وعرفت باسماء الامكنة ، والازمنة التى جرت فيها ، ومن ذلك : واقعة وادى الملح بين المهدية ، وتماجر ، (333هـ/944 ـ 945م وخسرهـــا الفاطميون ، وواقعة عين السودان فى جبال الناقة ، وحسرها أبو يزيد ، وواقعة قصور الحيتان فى الزاب ، التى كانت كارثة على حركة أبى يزيد ، وبشيرا للمنصور الفاطمى ، بقرب الخلاص النهائى من عدوه · واهميتها انما تفوق أهمية واقعة يوم الجمعة بجوار مدينة القيروان · التى جرت فى محرم 335هـ/أغسطس 946م) (17) ·

ح ـ وقد حاول بعض الطموحين استغلال فترة الصراع ، للحصول على امتيازات شخصية ، تحت ستار النسبة والولاء للعباسيين ؛ ومن هؤلاء داعية ، ظهر فى محرم 334هـ/أغسطس 945م واستمال الناس اليه ، ودعاهم الى العودة الى التمسك بالولاء للخلافة العباسية حامية السيادة الشرعية تاريخيا ، فى هذه البلاد ، وقد استعمل شعار السواد شعار العباسيين ، للتمويه ، فاستجاب له كثيرون ممن ملوا الحرب ، وتضرروا بسياسة الفاطميين ، وسياسة أبى يزيد فى اطلاق يد انصاره للسلب والنهب، وهتك الحرمات ، وكان يمكن لحركته أن تعمـــر ، وتستقطب ولاء جهات كثـــيرة فى افريقية ، لولا سرعة تحرك أنصار أبى يزيد للقضاء على هذه الحركة التى يبدو وكانها كانت تضر بهمأكثر من غيرهم · وقد اسر صاحب الحركة ، وقتل على يد أبى يزيد (18)·

ط ـ وقد ابلى زيرى بن مناد زعيم صنهاجة بلاءا حسنا فى حرب أبى يزيد، حتى قيل انه الح عليه فى احدى المعارك ، وطعنه حتى القاه على الارض ، واستمر القتال حوله بينأنصاره،واعدائه ، واخيرا تمكن أنصاره من النجاة به ، انما بعد تضحيات كبرى ·

---

(16) المقريزى : المصدر السابق 1 ، 83 ـ 85 ، ابن الاثير المصدر السابق 8 ، 157 ، ابن حماد : المصدر السابق 28 وما بعدها .

(17) ابن عذارى : المصدر السابق 1 ، 310 ، العزيزى : المصدر السابق ، 44 ـ 45 ، 48 ، 52 ، وتعليق 51 .

(18) المقريزى : المصدر السابق 1 ، 80 .

وموقف زيرى وصنهاجة الشمال ، فى هذه الحركة ، عنوان على بداية أهميتهم ، وتعاظم دورهم فى حياة الخلافة الفاطمية ، كخلفاء مؤتمنين ، مساندين لكتامة ، ولطبقة الفتيان ؛ ومن ثم فان منحهم نيابة الخلفاء الفاطميين فى حكم بلاد المغرب ، بعد رحيل المعز لدين الله الى مصر انما أتى بعد فترة اختبار طويلة ويعتبر من ناحية أخرى نضجا للعلاقة الحميمة بين هؤلاء وأولئك ٠

ى ـ ومعركة أبى يزيد ، فضلا عن طابعها السياسى والمذهبى والعنصرى أيضا ، فانها تعتبر ضمن الكوارث والازمات الاقتصادية ، والاجتماعية والحضارية التى أصابت فى الصميم ، بلاد افريقية ومنطقة الزاب واوراس والحضنة ، ومنطقة كتامة ، فى العصر الفاطمى ٠ وقد تنوعت هذه الازمات فكانت : فى شكل حرائق شبت فى أسواق القيروان، وتاهرت ، وفاس ، وارباض مكناسة ، وفى شكل مجاعات وأوبئة وغلاء فى الاسعار ، وقلة فى المؤن ، كما تمثلت أيضا فى مظاهر الجفاف وحدوث الزلازل ، وأخيرا فى سياسة المصادرة ، والجور فى الاحكام (19) ٠ والانتقام من بعض فئات المجتمع ، لا سيما الذين أيدوا حركة أبى يزيد ، أو اشتبه فى ولائهم ٠ وقد أصاب أهل السنة ، وفقهاء المالكية شر كثير على يد الخليفة المنصور ، ولم يخف عليهم الضغط والاضطهاد الا بعد وفاته 341هـ/952م (20) ٠

ومما سبق يتضح كيف ان البتر الذين تغيوا ـ من وراء مساندة النكارية ـ انهاء الوجود السياسى وطمس الظل الحضارى للخلفاء الفاطميين وحلفائهم من فرع البرانس، لم يستطيعوا ، رغم البلاء الحسن ، وضخامة التعبئة المادية والمعنوية ان يصلوا الى هدم ما شاده فرع البرانس المستقرين ، فاستمر البنيان شامخا سليما ، وانتصرت من خلال ذلك ، الرؤية الواضحة والاهداف المحددة ، والحضارة ، والفكر ، ومظاهر العمران عموما ٠ وفى ذلك عبرة ٠

(19) نفسه 1 ، 85 ، ابن عذارى : المصدر السابق 1 ، 230 ، 242 ، 254 ، 273 ، 276 ، ابن أبى زرع : روض القرطاس 68 .
(20) ابن عذارى : المصدر السابق 1 ، 213

مصادر ثورة
أبي يزيد مخلد بن كيداد

د . احسان عباس
الجامعة الامريكية ـ بيروت



بين سنتي 332 ـ 336 كانت الدولة الفاطمية او العبيدية في افريقية مهددة بالزوال على يد ثائر من زناتة، نكاري المذهب ، هو أبو يزيد مخلد بن كيداد الذي عرف بصاحب الحمار . وكانت ثورته من اشد ما واجهه الفاطميون في تاريخهم من عنف ، لكن دراسة هذه الثورة في تطورها ونتائجها ليست موضوع هذا البحث ، وانما اكتفي هنا بدراسة تقييمية للمصادر التي تحدثت عن تلك الثورة .

وأول ما يجذب انتباه الدارس أن المصادر التي تحدثت عن أبي يزيد وثورته تنتمي الى ثلاث زوايا متباعدة ، وهي الزاوية الاسماعيلية الشيعية ، والزاوية السنية ، والزاوية الاباضية . وربما لم تكن هذه القسمة المذهبية تستدعي ـ في

ذاتها ـ فروقا فى النتائج ، غير أن تعيين الانتماء المذهبي للمؤرخ ـ مع معرفة موقعه زمنياً ـ يعين على تصور منهجه وأحكامه ٠

1 ـ المصادر الشيعية الاسماعيلية

تتميز المصادر الشيعية والاسماعيلية عن أبى يزيد وثورته بانها أقرب المصادر الى عصره ، ولذلك أعطت للمؤرخين المتاخرين ما حسبوه مجموعة الحقائق التاريخيـة التى لا يملكون لها مناقشة أو رفضا اذ كانوا فى أكثر الاحيان نقلة ٠ فابن حوقل التاجر البغدادى (ـ 380) ربما كتب ما كتبه عن أبى يزيد بعيد عام واحد من اخفاق ثورته ؛ ومع انه جاء على ذكره فى أسطر قليلة ، فان المفهوم الذى تضمنته تلــك الاسطر بقى ذا صدى يتردد فى كثير من المصادر ؛ فتصويره لابى يزيد بانه « مـن أهل سماطة ومن فراعنتهم » (1) سيرد حتى فى المصادر الاباضية (2) ٠ وقد لخص ابن حوقل فى جملة واحدة الروح التى سيظل يحكم بها على أبى يزيد وثورته حين قال « واتسق له من الظلم والعدوان ما جعل الله بغيه نكالا عليه » ٠ (3)

ويمثل كتاب « فنون المعارف وما جرى فى الدهــور السوالف » للمسعودى (ـ 346) أول مصدر مشرقى تفصيلى فيما يتصل بثورة أبى يزيد ، وقد الف هذا الكتاب قبل « التنبيه والاشراف » اذ فرغ المسعودى من هذا الثانى فى صورته النهائية سنة 345 ؛ وقد شرح المسعودى فى كتاب فنون المعارف « خروج أبى يزيد وما كان بينه وبين جيوش أبى القاسم من الوقائع والحروب الى أن غلب على أكثر افريقية ، وحصاره أبا القاسم فى المهدية الى أن مات بها ، وخروج ابنه اسماعيل بن أبى القاسم ومواقعته أبا يزيد وما كان بينهم من الحروب ، وانفضاض الجيوش عن أبى يزيــد ٠٠٠ الخ » (4) ٠ ولسنا نعرف المصادر التي اعتمد عليها المسعودى فى تاريخ تلك

---

(1) صورة الارض : 94 ٠
(2) انظر تاريخ أبى زكريا (الترجمة الفرنسية) : 240 ٠
(3) صورة الارض : 94 ٠
(4) التنبيه والاشراف : 334 ٠

الاحداث ، كما لا نعرف مدى التفصيلات التى أوردها ، اذ لا يشير أحد بعده الى النقل عن كتابه « فنون المعارف » .

ومع أن كتاب « سيرة الاستاذ جوذر » لابى على منصور الجوذرى خادم جوذر ربما لم يكن ثالثا فى الترتيب من حيث تاريخه فان المادة التى احتفظ بها ـ وهى فى أكثرها وثائق فاطمية ـ تمثل آخر عهد القائم وجانبا من عهد المنصور ، كخطبة القائم التى القاها المروزى أيام حصار المهدية حول « اللعين النكارى » (5) وخطبة المنصور حول انتصاره فى وقعة يوم الجمعة بالقيروان (6) ، ووصف الايام الاخيرة من الصراع بين المنصور وأبى يزيد (7) . ومما يلفت النظر أن هذه البيانات الرسمية رغم اعترافها بأن أبا يزيد نكارى لا تزال تسمى أصحابه « الحرورية » حينا و « الازارقة » حينا آخر، وتربط بين موقفه من الخلافة الفاطمية وموقف الخوارج من على بن أبى طالب ، ولعل أبا زكريا الاباضى نفسه كان ـ من بعد ـ يستلهم هذا الموقف حين تحدث عن التدمير الذى أحدثه أبو يزيد وعن أخذه الاطفال عبيدا وشفع ذلك بقوله ان سلوك نافع ابن الازرق كان كذلك الا أن أبا يزيد كان أشد اسرافا (8) . أما تسمية أبى يزيد باللعين الدجال أو اللعين بن اللعين فى تلك البيانات ، فهى غير مستغربة من مصادر تتحدث عن ثائر قام يحطم خلافة أسسها « المهدى » عدو الدجال اللعين .

وتلك هى التسمية التى أطلقها القاضى النعمان بن محمد (ـ 263) فى كتاب «رسالة افتتاح الدعوة» حيث قدم تلخيصا جيدا للخطوات التى سارت فيها ثورة أبى يزيد (9) ، حسبما يمكن أن يتضمنه كتاب يجمل الموقف بعد وفاة المهدى اجمالا سريعا لا يسمح بكثير من التفصيلات ، خصوصا وأن القاضى النعمان استقصى أخبار أبى يزيد وحدها فى كتاب ضخم (10) ؛ وهناك ما قد يطمئن الدارس الى أن هذا الكتاب لم يضع ، وان صورته على نحو ما ـ ربما كان كاملا ـ موجودة فى الجزء الخامس من كتاب « عيون الاخبار » للداعى ادريس ؛ فهذا المؤلف قد سمح لنفسه بنقل كتاب

(5) (6) (7) سيرة الاستاذ جوذر : 54 ، 44 ، 48 .
(8) تاريخ أبى زكريا : 236 .
(9) رسالة افتتاح الدعوة : 277 ـ 279 .
(10) انظر المصدر السابق : 279 .

افتتاح الدعوة كاملا ولهذا لا يستبعد أن يكون قد نقل ايضا كتاب القاضى النعمان عن ثورة أبى يزيد كاملا كذلك (11) ، واذا كان يرد فى هذا الكتاب بين الحين والحين فقرات مصدرة بـ « قال القاضى النعمان » فليس معنى ذلك أن سائر الكتاب ـ عدا تلك الفقرات ـ من وضع رجل آخر · بل ان هذه الفقرات لتؤكد أن الكتاب كله من تاليف المؤلف المذكور اذ أنها لا تجىء فى فواتح تلك الفقرات الا لتسجل رواية مباشرة كان القاضى النعمان طرفا فيها ، أى هى تتميز عن الاخبار الاخرى التى نقلها القاضى رواية عمن شهدوا تلك الاحداث ، أو التى استخرجها من الوثائق · ويتميز هذا الكتاب بخصائص كثيرة اظهرها تلك الصفة التفصيلية التى لا يضاهيه فيها أى مصدر آخر ، فهو كتاب يكاد يؤرخ ثورة أبى يزيد شهرا اثر شهر ، ويكاد الالحاح على عمليات الكر والفر ، لكثرته ، يضيع على الدارس قدرته على التصور للمواقف الحاسمة التى مرت بها تلك الثورة ، كما قد يحرمه من ايجاد تعليل واقعى لحركات الانتصار والانهزام ، اذ تغدو الحروب ـ فى نظر هذا المصدر ـ عملية آلية محضا ، ويلتف الناس حول أبى يزيد أو ينفضون عنه ، ويقوى أمره أو يضعف دون أن يكون هنالك علة مقنعة فى كل ذلك · ويبدو أن هذا المصدر أفاد كثيرا من الوثائق الفاطمية ، اذ أننا نجد فيه جميع البيانات التى وردت فى « سيرة الاستاذ جوذر » ، فهو من هذه الناحية حاول أن يكون وثائقيا ولكن من زاوية واحدة · وقد يقال ـ دون تردد ـ انه أخطر مصدر تناول شخصية أبى يزيد وثورته لانه طبع بطابعه أكثر المصادر التى جاءت بعـــده ، ورسخ ما شاء أن يرسخ من معلومات حول تلك الثورة وصاحبها ؛ فهو الذى أخضع حركة التاريخ للرؤيا التنبؤية حين زعم أن المهدى كان يعرف ـ بعلم سابق ـ أن « اللعين الدجال » سيعلن الثورة ، ومن اجل ذلك بنى المهدية ومـــلأ أهراءها بالطعام ، ومـن أجل ذلك لم يعبأ القائم بمقاومة أبى يزيد لانه كان يعلم أين يبلغ فى ثورته · وهذا المصدر هو الذى حدد المبادىء التى كان يدين بها أبو يزيد وأضفى عليه من استباحة القتل

---

(11) تحتل ثورة أبى يزيد فى هذا الكتاب من 356 ـ 706 . واذا صح هذا الفرض ، فان هذا الكتاب شىء مختلف أيضا عن « ذات المحن » وهى منظومة تتحدث عن تلك الثورة . انظر تعليق محققة افتتاح الدعوة : 279 (الحاشية 2) ·

2 ـ المصادر السنية

لعل أكبر مؤثر في توجيه هذه المصادر عاملان هما : قربها أو بعدها الزمني من ثورة أبي يزيد ، وطبيعتها في النظر الى الاسماعلية بعامة وتلك الثورة بخاصة . وقد تاثرت المصادر السنية المشرقية بكتاب يبدو انه الف في دور مبكر للرد على الاسماعيلية ومؤلفه هو أبو عبد الله ابن رزام الذى كان ما يزال حيا في عهد أبي تميم معد (12) (341 ـ 365) وقد لخص ابن النديم (ـ 388) في « الفهرست » بعض ما جاء في ذلك الكتاب (13) ويعد كتاب ابن رزام أصلا لامرين ستكررهما المصادر السنية من بعد وهما : نسبة الاستخفاف بالشريعة للعبيديين ، وانصراف الناس عن أبي يزيد بعد انضوائهم في صفوفه لانه أظهر الاباضية . ومما يلفت النظر في هذا المصدر تسميته أبا يزيد باسم « المحتسب » ، وهي كلمة نجد لها مشابها في المصادر المغربية حيث جاء في وصف أبي يزيد « ويحتسب على الناس في كثير من أفعالهم ... » (14) . وقد تقوت هذه الصورة للاسماعيلية بما كتبه عنهم أبو بكر ابن الطيب الباقلاني (ـ 403) في كتابه « كشف أسرار الباطنية » (15) . ولكنا لا نعلم هل تعرض هذا المؤلف في كتابه لثورة أبي يزيد أولا ، فان النقول عنه لم تورد شيئا من ذلك ، وان كان يغلب على الظن أنه لم يكن ليمر بتلك الثورة مغفلا لها .

ويجيء كتاب « تثبيت دلائل النبوة » للقاضي عبد الجبار بن أحمد المعتزلي (ـ 415) في سياق المؤلفات التي تأثرت بكتاب ابن رزام ، فكتاب القاضي ليس مصدرا تاريخيا بالمعنى الدقيق ، ولكنه يكشف عن تفسير خاص للثورة ولشخصية صاحبها : فأبو يزيد امرؤ ضعيف في حاجة الى حمار لانه يعجز عن ركوب فرس ، وقد اتبعه الناس لانه

(12) هذا مستنتج مما جاء في تثبيت دلائل النبوة للقاضي عبد الجبار 2 : 611 « قال أبو تميم مرة : لا يهونكم ما صنع ابن رزام ... » .

(13) الفهرست : 238 ـ 239 .

(14) ابن عذارى 1 : 193 وانظر ابن خلدون .

(15) يسميه ابن عذارى (1 : 158) كشف الاسرار وهتك الاستار .

ازال الظلم والمكوس عنهم (16) ؛ والقائم لم يكف عن محاربة أبي يزيد لانه كان يعلم اين سيبلغ ومتى يبدأ نجمه في انحدار ، وانما لان القائم عرض له وسواس وزال عقله مما نزل به من الذل (17) ، وما انصرف الناس عن أبي يزيد الا لان المنصور ضمن لهم تغيير سيرة أبيه وجده وألا يتعرض للديانات كما انه اخذ يتالفهم باعمال البر (18) . أما في بادئ الامر فان الناس التفوا حول أبي يزيد ـ وهم يعلمون انه نكاري ـ لانهم قالوا « هذا وان كان من الشراة فليس ينكر الربوبية ولا يكذب الرسل ولا يلعن الانبياء ومعه حفظ الاموال » (19) وقد انفرد القاضي عبد الجبار ـ بين جميع من ارخوا تلك الثورة ، بتفسيره الخاص لبعض مظاهرها وتقلبات الاحوال فيها .

وبينما كانت المؤلفات المشرقية السنية المبكرة تنتحي منحى جدليا ، بتاثير من ابن رزام ، كانت المؤلفات المغربية القريبة نسبيا من عصر تلك الثورة تخضع بدرجات متفاوتة ـ لوقوع مؤلفيها في حيز الدولة الفاطمية او المؤثرات الفاطمية ، وللمصادر الفاطمية المبكرة . وفي أول قائمة المؤرخين هؤلاء يجيء محمد بن يوسف الوراق القيرواني (292 ـ 363) (20) ، ومن السهل أن نجد أثره الجغرافي واضحا لدى البكري (ـ 487) ولدى كل من اعتمد البكري من بعد كصاحب « الاستبصار » ومؤلف « الروض المعطار » ولكن أثره التاريخي غير واضح كثيرا ، وان كان الترجيح يميل الى أن الرقيق ربما تاثر به وافاد من مؤلفاته . ولعل القطعة التي احتفظ بها ابن عذارى (21) عن أولية أبي يزيد منقولة عن الرقيق نفسه ؛ غير أن ضياع ما دونه الرقيق عن ثورة أبي يزيد يكون ثغرة في تصورات الدارسين لتلك الثورة . كما انه لا يمكن الدارس من أن يحكم جزما هل تاثر الرقيق بكتاب القاضي النعمان والى اي مدى كان ذلك ، وهل هو الواسطة في نقل روح ذلك الكتاب الى المصادر التي جاءت

---

(16) تثبيت دلائل النبوة 2 : 391 ، 2 : 602 .

(17) (18) المصدر نفسه .

(19) تثبيت 2 : 391 وانظر 1 : 107 ، 2 : 602 .

(20) ذكر سنة ولادته ابن عذارى في البيان المغرب 1 : 139 .

(21) ابن عذارى 1 : 193 .

من بعد . ان الرقيق عاش جانبا من حياته حين كانت افريقية ما تزال تعترف بالنفوذ العبيدى ولهذا ليس ما يمنع أن تكون مادة التاريخ التى كتبها المؤلفون الاسماعيليون مقبولة لديه بقوة . ويبدو أن الرقيق انفرد أيضا بذكر أمور لم ترد فى المصـــادر الاسماعيلية وحين يصرح ابن عذارى بالنقل عن الرقيق نجد هذا المؤلف ينفرد بذكر تسمية جديدة لابى يزيد وهى « شيخ المؤمنين » . (22)

ويأتى كتاب « رياض النفوس » للمالكى (ـ 453) مكملا للنقص المتعمد فى كتاب القاضى النعمان ، اذ ابرز المالكى (وعنه القاضى عياض (ـ 544) فى كتابه ترتيب المدارك) الدور الكبير الذى قام به علماء المالكية القيروانيون فى تاييد ثورة أبى يزيد بالخروج معه وحث الناس على الانضمام اليه واصدار الفتاوى بذلك . وبين الفتوى التى أصدرها الممسى ـ وهى فتوى نموذجية ـ وما استنتجه القاضى عبد الجبار شبه قوى يوحى بأن عبد الجبار صاغ فحواها بأسلوبه الخاص ، اذ يقول الممسى : « ان الخوارج من أهل القبلة لا يزول عنهم اسم الاسلام ... وبنو عبيد ليسوا كذلك لانهم مجوس زال عنهم اسم المسلمين » (23) . ويقوى المالكى من الدواعى التى هيات لاعلان الثورة على بنى عبيد حين يعدد الكبائر التى ارتكبوها (24) وألوان التعذيب التى أنزلوها بعلماء المالكية (25) . ولا ريب فى أننا هنا ازاء موقف مذهبى تطغى فيه الاتهامات ، وهو يمثل نقضا مباشرا للمصادر الشيعية ؛ ولكن هذا اللون من المصادر السنية لا تعنيه شخصية أبى يزيد أو ثورته الا بمقدار ما كانت تمثله من انقاذ مأمول للمذهب المالكى ـ أو للسنة ـ من سيطرة العقائد الاسماعيلية . ولهذا فان هذا اللون مـــن المصادر ـ حين تخفق تلك الثورة ـ لابد من أن يبحث عن سبب اخفاقها فلا يجده الا فى شخصية أبى يزيد .

(22) ابن عذارى 1 : 217 وهذه التسمية عند ابن حماد : 20 « شيخ المسلمين » .

(23) رياض النفوس 2 : 144 وانظر رأى أبى اسحاق السبائى 2 : 164 وفى ترتيب المـــدارك 2 : 388 .

(24) رياض النفوس 2 : 163 ـ 164 .

(25) انظر رياض النفوس 2 : 28 ـ 29 ، 167 ، 318 ، 334 ، 345 وترتيب المدارك 2 : 318 ، 334 ، 338 .

وليس يتضح لمحمد بن سلامة القضاعي (ـ 454) أى موقف من ثورة أبى يزيد فان النقول عنه فى هذه الحادثة (26) قاصرة عن تصويره ذلك • ولكن يبدو أنه كتب على نحو « حيادى » ، فان الرجل كان شافعيا وكان فى الوقت نفسه كاتبا للجرجرائى وزير الدولة الفاطمية •

ومع أبى عبد الله محمد بن سعدون بن على ، الذى ربما كان معـــاصرا للمالكى والقضاعى (27) تعود الخصائص التى أبرزها كتاب المالكى ، اذ نجد عند ابن سعدون تفصيلات دقيقة عن الرايات التى حملها فقهاء القيروان حين انضموا الى أبى يزيد ، شبيهة بالتى ذكرها المالكى ، كما ان ابن سعدون عد من انضم للثورة من الفقهـــاء والعباد رجلا رجلا (28) • وتدل الخلاصة التى أوردها ابن عذارى نقلا عن كتـــاب ابن سعدون « تعزية أهل القيروان بما جرى على البلدان من هيجان الفتن وتقلـــب الازمان » (29) على ان موقف ابن سعدون من العبيديين لا يختلف كثيرا عن موقف ابن رزام أو الباقلانى ، وانه كان يكن عداء شديدا لهذا المذهب ، وعصبية مشوبة بالحزن على ما اصاب بلده • وقد أكد ابن سعدون الرواية التى اتهمت أبا يزيد بانه عرض العلماء للقتل « لانه ـ فيما ظن ـ اذا قتل شيوخ القيروان وائمة الدين تمكن من أتباعهم فيدعوهم الى ما شاء فيتبعونه » (30) • ومن ناحية أخرى ابرز المالكى ان انضمام الفقهاء لثورة أبى يزيد لم يكن عن ايمان خالص بعدالة ثورته وسلامـــة شخصيته وانما كان موقفا انتهازيا الى حد ما ، فقد روى عن أبى اسحاق السبائى قوله : « فان ظفرنا بهم لم ندخل تحت طاعة أبى يزيد ، والله يسلط عليه اماما عادلا يخرجه عنا » (31) •

---

(26) انظر مثلا ابن عذارى I : 220 ، 228 وابن حماد : 49 ، 5I •

(27) يتوقف تلخيص ابن عذارى عن كتاب ابن سعدون بذكر المستنصر ، وقد تـوفى المستنصر 487 •

(28) ابن عذارى I : 2I7 •

(29) ابن عذارى I : 28I ـ 287 •

(30) ابن عذارى I : 2I8 •

(3I) رياض النفوس 2 : I64 وترتيب المدارك 2 : 3I8 •

وبسبب الصلة بين ثورة أبى يزيد والخلافة الاموية فى الاندلس يمكن أن يعد كتاب « المقتبس » لابن حيان (ـ 469) من المصادر الهامة عن جانب من تلك الثورة ، أعنى جانب البعوث والسفارات التى وفدت على الخليفة عبد الرحمن الناصر من لدن أبى يزيد تطلب الامداد . وتكمن أهمية ابن حيان ـ الى جانب خصائصه الاخرى ـ فى اهتمامه بالتفصيلات الدقيقة (32) . وقد نقل ابن الابار (ـ 658) قطعة عن المقتبس فى كتابه « الحلة السيراء » (33) ولكنها شديدة الاضطراب ، ويمكن ضبط ما فيها ـ الى حد ما ـ بعرضها على ما نقله ابن عذارى حول أبى يزيد عن المقتبس أيضا (34) . وليس فى هذين المصدرين ما يدل على ان الناصر حقق شيئا من رغبة أبى يزيد ، ولكن ما ورد فى « عيون الاخبار » يدل على النقيض اذ يصرح هنالك أن الناصر أرسل لابى يزيد مددا مع أيوب ابنه (35) ، كما أمر ـ فى مرة أخرى ـ محمد بن رماحس عامل بجانة بالابحار في أسطول فيه عسكر كثيف وسلاح لمعونة أبى يزيد (36) . وتشير بعض الروايات الى أن أبا يزيد دعا للناصر منذ بداية ظهوره ، فمن المستبعد أن يهمله عبد الرحمن الناصر ويتركه دون مدد .

وهناك كتاب فى تاريخ القيروان باسم « الجمع والبيان فى أخبار المغرب والقيروان » لابى محمد عبد العزيز بن شداد من ذرية المعز بن باديس الصنهاجى ، وكان من أمراء العساكر فى دولة صلاح الدين الايوبى ، فهو على ذلك كان حيا فى أواخر القرن السادس ، وقد اعتمد النقل عن كتابه ابن خلكان والتجانى صاحب الرحلة والنويرى فى نهاية الأرب ، ولعله هو الذى سماه ابن الاثير الامير عبد العزيز (37) ونقل عن

(32) وقفت النسخة من المقتبس التى ظهرت حديثا فى الخزانة الملكية بالرباط قبل قيام ثورة أبى يزيد .

(33) الحلة السيراء 2 : 390 ـ 391 .

(34) ابن عذارى 2 : 212 ـ 214 .

(35) عيون الاخبار 5 : 522 .

(36) عيون الاخبار 5 : 541 .

(37) تاريخ ابن الاثير 8 : 27 .

كتاب له فى تاريخ افريقية والمغرب (ربما كان هو عين الكتاب المذكور آنفا باسم الجمع والبيان) • ولا ريب أن ابن شداد قد تصدى فى كتابه (أو كتابيه) لثورة أبى يزيد ، ولكن ليس من السهل أن نعرف المصادر التى اعتمدها ، إذ لم يصرح أحد بنقل شىء من أخبار أبى يزيد عنه ، ويعتقد الاستاذ شتيرن أن ابن الاثير نقل أحداث ثورة أبى يزيد عنه (38) ، ولو وضع ذاك بصيغة الفرض لكان أسلم •

وحين نبلغ ابن حماد (أو ابن حماده) صاحب كتاب « القبس » (39) تقف عند حلقة هامة فى سلسلة المؤرخين السنيين الذين كانوا ما يزالون ينظرون إلى ثورة أبى يزيد والى الخلافة الفاطمية نظرة مقارنة وموازنة ، فابو يزيد ـ عند هذا المؤرخ ـ عقوبة من الله للشيعة الذين أمروا بسب الغار والعباء واقترفوا القتل والتعذيب • ولكن ابن حماد يمعن فى البحث عن السبب الذى جعل الناس يتبعون أبا يزيد فيهتدى الى أنهم لم يكونوا يعلمون مذهبه ، « فرجوا فيه الخير والقيام بالسنة » (0) ، وفى هذا تجاهل متعمد لما أقر به الفقهاء في بياناتهم وفتاويهم • وابن حماد هذا الذى ينقل عنه ابن عذارى هو غير ابن حماد الذى نشر باسمه كتاب « أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم » (41) ، فالاول منهما كان معاصرا للقاضى عياض (ـ 544) (42) بينما يذكر الثانى أنه انتهى من كتابه سنة 617 (43) ؛ ثم ان المقارنة بين ما ينقله ابن عذارى عن ابن حماده وما ورد فى كتاب « أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم » يؤكد خلافا أصيلا فى المنحى والموقف بين الرجلين • ذلك لان هذا الكتاب يمثل تعاطفا واضحا مع

---

(38) الموسوعة الاسلامية I : 164 (الطبعة الجديدة) •

(39) ذكره ابن عذارى وقرن اسم كتابه به فى البيان I : 5 وانظر مفاخر البربر : 64 حيث ذكر الفقيه الحافظ التاريخى أبا عبد الله محمد بن حمادوه البرنوسى مؤلف كتاب لمقتبس (اقرأ : القبس) فى أخبار المغرب والاندلس •

(40) ابن عذارى I : 216 •

(41) أشار الى ذلك شتيرن (الموسوعة I : 164) •

(42) قال ابن حماده (ابن عذارى I : 227) رأيت هذا السجل (سجلا من الحكم المستنصر لاهل سبتة) عند القاضى عياض •

(43) أخبار ملوك بنى عبيد : 64 •

الفاطميين ، وبهذا نفسه يثير مشكلة لدى الدارس فاذا صح ان مؤلفه هو أبو عبد الله محمد بن علي بن حماد بن عيسى الصنهاجي (ـ 628) (44) ، صاحب كتاب « النبـذ المحتاجة في أخبار صنهاجة » (45) الذي كان قاضيا في عهد الموحدين فليس هناك ما يسوغ هذا التعاطف مع الفاطميين لدى قاض سني مالكي . ورغم ملاءمة تاريـخ الكتاب كي ينسب لابن حماد ، فالشك لدي في صحة نسبته اليه أقوى . أما الكتاب نفسه فانه موجز في مجمله ومصادره بعد المستنصر فقيرة (46) . وتعد القطعة التي أوردها عن أبي يزيد تفصيلية نسبيا ، وهي تحتوي معلومات هامة وخاصة عن أحواله قبل اعلان الثورة ، ويبدو أنه قد تاثر فيها ببعض المصادر الاباضية أو بمن نقـل عن تلك المصادر ، فهو الوحيد الذي يذكر أن من بايع أبا يزيد وأقام معـه سموا « العزابة » ، ومن بايعه وانصرف عنه سموا « عدة المسلمين » (47) . وقد أولى المؤلف اهتماما خاصا بالمرحلة الاخيرة من الصراع بين أبي يزيد والمنصور وأغفل ما قبـل ذلك (48) . واذا قورن هذا الكتاب بالمصدر الاسماعيلي الكبير لكشفت المقارنة عـن اتساق في الاحداث وتوافق أحيانا في بعض العبارات (49) ، مع اختلاف في أسلوب العرض ، وهو اختلاف يشير الى أن المصدر الذي ينقل عنه المؤلف شاء أن يمنح كتابه مسحة أدبية مميزة .

(44) ترجمة في عنوان الدراية : 218 ـ 220 ويكنيه صاحب مفاخـر البربر : 65 بأبي الحسـن .

(45) ما نقله أماري (المكتبة الصقلية : 317) عما يسمى كتاب نبذة المحتاجة مأخوذ نصا عن كتاب « أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم » .

(46) يعتمد على الرقيق والقضاعي وابن حيان وبعد عهد المستنصر يعتمد الرواية الشفوية عن أبي المكارم هبة الله المصري وأحد الطلبة من الحجاج .

(47) أخبار ملوك بني عبيد : 20 .

(48) أشار الى ذلك الاستاذ لوترنو في مقاله عن ثورة أبي يزيد : 104 .

(49) قارن ما جاء في أخبار ملوك بني عبيد : 30 بنص عيون الاخبار : 574 ، وهنا أيضا يرى الاستاذ شترن أن هذا المؤلف ينقـل أيضا ـ دون ريب ـ عـن الرقيـق (الموسوعـة 1 : 164) .

ها قد مرت ثلاثة قرون على ثورة أبي يزيد ولم يعد سوطا أرسله الله على معطلي الشريعة ، كذلك زالت دولة الفاطميين ، وعاد الفريقان يستويان في أنهما كانا خارجين على السنة ، دون ترجيح أو مفاضلة ـ ولهذا لم يعد المؤرخ يهتم كثيرا في اختيار مصادره ، فاذا تناول تاريخ أبي يزيد فلا ضير في ان يكون المصدر اسماعيليا معاديا ، ولهذا لا تختلف المصادر التاريخية ابتداء من القرن السابع وما بعده ، أحدهما عن الآخر ، الا في طبيعة المصادر التي تنقل عنها ، فابن الاثير (ـ 630) يلخص المصدر الاسماعيلي بلباقة ، حاذفا منه الاشعار والتفصيلات والخطب والرسائل (50) ، وابن الابار (ـ 658) ينقل في « الحلة السيرا » عن هذا المصدر نفسه أو عمن نقل عنه (51)، وابن خلكان (ـ 681) يورد عن أبي يزيد فقرة يستخلصها ـ على عادته في الحذر ـ عن أستاذه ابن الاثير أو عن ابن شداد (52) وابن عذارى (ـ 695) يجمع مادته من عدة مصادر منها الرقيق وابن حماده البرنوسي والقضاعي وابن سعدون (وهو الوحيد الذي يعتمد النقل عن هذا الاخير) والبكرى وربما نقل عن غيرهم دون أن يصرح بذلك • ولخص لسان الدين ابن الخطيب (ـ 776) ثورة أبي يزيد في عبارات قليلة ـ لكنها جامعة ـ تدل على أنه مطلع على المصادر الاولية (53) • ولا يختلف موقف ابن خلدون (ـ 808) كثيرا عن موقف سابقيه الا في أنه أرخ ثورة أبي يزيد مرتين : مرة لخص ما جاء عند ابن الاثير بشيء من التضييق ، ومرة أخرى جاء بتفصيلات يتفق فيها مع « أخبار ملوك بني عبيد » وهذه المادة ماخوذة ـ في أغلب الظن ـ عن تاريخ الرقيق (54) • ونقل المقريزي (ـ 845) في كتابه « اتعاظ الحنفا » ما جاء به ابن الاثير ولم يضف اليه الا أشياء قليلة (55) •

(50) تاريخ ابن الاثير 8 : 422 ـ 441 •
(51) الحلة السيراء 2 : 387 ـ 389 •
(52) وفيات الاعيان 1 : 235 •
(53) أعمال الاعلام 3 : 53 ـ 54 •
(54) كتاب العبر 4 : 40 ـ 44 ، 7 : 13 ـ 17 •
(55) اتعاظ الحنفا 1 : 75 ـ 85 وما ذكره في الخطط 1 : 351 ليس الا موجزا يسيرا ؛ أما المصادر الاكثر تأخرا مثل المؤنس لابن أبي دينار والحلل السندسية للسراج فقد أغفلتها لانها تلخص عن المصادر المشهورة كابن الاثير والنجاني ••• الخ •

وهذا الموقف الذى بلغه المؤرخون ـ فى القرن السابع وما بعده ـ هو الموقف الذى تبناه الجغرافيون منذ البداية، اذ كانوا ينقلون عن المصادر أيا كانت لونها دون محاكمة، منذ عهد البكرى (56) • وعلى مثل ذلك جرى الزهرى (بين 541 ـ 556 (57) ومؤلف الاستبصار (بعد 587) (58) وياقوت (ـ 624) فى « معجم البلدان » (59) والقزوينى (ـ 682) فى « آثار البلاد » (60) ، وابن عبد المنعم الحميرى (ـ 727) فى « الروض المعطار » (61) • وللس يشذ عن هؤلاء الجغرافيين الا التجانى (بعد 717) فى رحلته ، فانه ينطلق من موقف الكره للاباضية ، وهو يعتقد أن خوارج زمنه « من بقايا الشرذمة الضالة التى قام بها أبو يزيد مخلد بن كيداد فى افريقية ، فانه لما أظفر الله به وأراح منه البلاد والعباد تفرقت أتباعه فى الاقطار » (62) • ولهذا انفرد التجانى عمن سواه من الجغرافيين باختيار مصادره ، واكثر من ايراد المادة التاريخية المفصلة ، وهناك مشابه فى السياق ـ لا فى حرفية العبارات ـ بين بعض ما يذكره وبعض ما ورد فى « عيون الاخبار » (63) • ولعله يستمد مادته من تاريخ الرقيق ، وهو لا يصرح بالمصادر التى ينقل عنها ولكنه يتعمد أن يوحى أحيانا بانه يلخص من عدة مصادر اذ يبتدأ عبارته بقوله : « قال المؤرخون » • (64)

---

(56) انظر البكرى : 49 ، 57 ، 59 ، 145 •

(57) الجغرافية : 111 وهو يسمى أبا يزيد « عدو الله » ويقول « فأراح الله منه البلاد والعباد » •

(58) الاستبصار : 205 وهو يردد تهما ورد مثلها فى المصدر الاسماعيلى •

(59) معجم البلدان فى مادتى « سوسة » و « وقلعة أبى طويل » والنقل عن البكرى •

(60) آثار البلاد : 276 •

(61) المواد : الاخوان ـ أذنة ـ أوراس ـ باغاية ـ ترنوط ـ تقيوس ـ تحاجر ـ تونس ـ سجلماسة ـ قلعة أبى طويل ـ قلعة الحجار ، وينقل عن البكرى والاستبصار ، ويقول فى مادة أوراس « الى أن قتل واستراح المسلمون منه ومن خبائث سيرته وقبيح أفعاله ••• » •

(62) رحلة التجانى : 119 •

(63) قارن ما ورد فى الرحلة : 22 بما فى عيون الاخبار 5 : 448 ـ 449 •

(64) رحلة التجانى : 327 وانظر سائر اخباره : 24 ، 27 ، 119 ، 253 ، 321 ، 323 ، 325 ـ 327 •

3 ـ المصادر الاباضية :

لما كان أبو يزيد نكاريا ـ أى منشقا على الاباضية ـ (65) • فليس من المنتظر أن يعامله مؤرخو الاباضية بتسامح كثير ، أو أن يعتبروه « مجاهدا » قام لمحو الباطل • ولعل أبا زكريا الاباضي (أواخر القرن السادس) أميل الى صف الفاطميين منه الى جانب أبى يزيد ، فهو يقترن عنده بفرعون ، بل ان أبا يزيد اقترف من أعمال العنف والكفر ما فاق به ما يروى عن فرعون وعن أشد عماله ظلما ؛ وهو يسميه « عدو الله » ، ويلصق به حكايات لا نجدها عند أشد المصادر الاسماعيلية عداوة لابى يزيد • ثم هو فى المقابل يتقبل الرواية التى تتردد عن علم المهدى بالغيب وأنه كان يعرف بخروج بربرى عليه ، ومن أجل ذلك بنى المهدية (66) • ولدى أبى زكريا معلومات لم توردها المصادر الاخرى عن أولية أبى يزيد ونشأته ، ولكن ميل المؤلف الى الاساطير يجعل الدارس مترددا فى حمل رواياته على محمل القبول ، وخاصة فى أخباره عن مرحلة المد فى انتصارات أبى يزيد ، كما أنه يردد عن « فحولة » أبى يزيد قصصا كالتى أوردها المصدر الاسماعيلى • ولعل معظم المادة التى أوردها أبو زكريا هو مجموعة الحكايات التى ظل يتناقلها الناس البسطاء فى مجالس سمرهم وان لون التاريخ فيها أصبح باهتا •

وفى القرن السابع كتب أبو العباس الدرجينى طبقاته ، وفيها تلخيص ـ دقيق نسبيا ـ لتاريخ أبى زكريا (67) • وعلى تاريخ أبى زكريا اعتمد أيضا أحمد بن سعيد

---

(65) ليس هذا موضع البحث فى القرون القائمة بين النكار وبين أصلهم الذى انشقوا عنه (أى الاباضية) ولكن نلاحظ أن المصادر السنية لا تميز بين فرق الخوارج الفرعية (أنظر مثلا وصف افريقية والاندلس من نزهة المشتاق للادريسى : 128 ، 121) وليد مؤلف الاستبصار : 205 أبا يزيد من الصفرية ، وتابعه فى ذلك صاحب الروض (سجلماسة) وكذلك قال ابن خلدون 4 : 40 •

(66) تاريخ أبى زكريا : 226 ـ 228 ـ 246 ـ 236 ـ 242 (الترجمة الفرنسية) •

(67) أنظر مقالة لوترنو : 104 •

الشماخي (ـ 928) في سيره ، حيث جاء على ذكر أبي يزيد عرضا (68) • ان البعد الزمني للمصادر الاباضية (وهي ترتد الى مصدر واحد) عن أبي يزيد وثورته جعلها لا ترى فيها سوى « ظلمة » الانشقاق على المذهب الأم ، وبهذا ترى صاحبها « عدوا » هزم لتنكبه الطريق السوى •

مما تقدم نرى أن المصادر عن أبي يزيد وثورته مرت في ثلاث مراحل :

1 ـ مرحلة القضية تصارع قضية أخرى ، وفي هذه المرحلة استطاعت المصادر الفاطمية أن تؤكد ـ بالسبق الزمني ـ كل ما تريد أن تصم به أبا يزيد وثورته ، ووضعت حول كثير من الحقائق الموضوعية ستارا كثيفا من دخان العداوة المذهبيـــة ، لم يستطع أحد اختراقه •

2 ـ مرحلة القضية المضادة : وقد تولتها مصادر سنية لكنها في الوقت نفسه لم تستطع أن تتعاطف مع شخصية أبي يزيد ، وقد ادى بها ذلك الى تقبل كثير من التهم التي رددتها مصادر المرحلة الاولى ، وشاركتها في ذلك المصادر الاباضية •

3 ـ مرحلة النقل المحض • واذا استثنينا ابن عذارى الذي مال الى النقل عن مصادر « المرحلة المضادة » وجدنا أغلب المؤرخين والجغرافيين قد لجأوا الى نقل روايات مؤرخي المرحلة الاولى ـ مباشرة أو بالواسطة ، وباستثناء القاضي عبد الجبار ـ وهو يتجنب الدخول في التفصيلات ، لا نجد أحدا يحاول أن يرى ثورة أبي يزيد من زاوية ايجابية • وعلى هذا ظل أكثر ما عرف من تفصيلات عن هذه الثورة يمثل ما يريده « التاريخ الرسمي » لا صورة ما جرى في الواقع •

(68) سير الشماخي : 279 ـ 280 •

مصـــادر البحـــث

ابن حوقل (ــ 380) : صورة الارض ، دار مكتبة الحياة ، بيروت .

المسعودى (ــ 346) : فنون المعارف وما جرى فى الدهور السوالف (انظر التنبيه والاشراف) .

المسعودى (ــ 346) : التنبيه والاشراف ، صورة عن الطبعة الاوروبية ، مكتبة خياط ، بـيروت .

أبو على المنصورى الجوذرى (؟) : سيرة الاستاذ جوذر ، تحقيق الدكتورين محمد كامل حسين وعبد الهادى شعيرة ، دار الفكر العربى ، القاهرة .

القاضى النعمان بن محمد (ــ 363) : رسالة افتتاح الدعوة ، تحقيق وداد القاضى ، بـيروت 1970 .

ابن النديم (ــ 388) : الفهرست ، تحقيق رضا تجدد طهران 1971 .

القاضى عبد الجبار بن أحمد (ــ415) : تثبيت دلائل النبوة (1 ــ 2) تحقيق الدكتور عبد الكريم عثمان ، بيروت ، 1966 .

الرقيق القيروانى (القرن الخامس) : تاريخ افريقية والمغرب (نقول عنه فى المصادر).

أبو عبد الله المالكى (ــ 453) رياض النفوس ، ج 2 (مصورة عن مخطوطة تونس) .

محمد بن سلامة القضاعى (ــ 454) : تاريخ القضاعى (نقول عنه فى البيان المغرب) .

أبو مروان بن حيان الاندلسى (ــ 469) : المقتبس من تاريخ الاندلس (نقول عنـه فى البيان والحلة السيراء) .

أبو عبيد البكرى (ــ 487) : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، تحقيق دى سلان، الجزائـر 1857 .

القاضى عياض بن موسى (ــ 544) : ترتيب المدارك (1 ــ 4) تحقيق الدكتور محمود بكـير ، بيروت 1967 .

أبو زكريا الاباضى (أوائل القرن السادس) : تاريخ أبى زكريا .
Chronique d'Abou Zakaria par Emile Masqueray, Alger, 1878.

ابن حماد (أو حماده) البرنوسى (أواسط السادس) : كتاب القبس فى أخبار المغرب والاندلس (نقول منه فى البيان المغرب) .

محمد بن أبى بكر الزهرى (أواسط السادس) : كتاب الجغرافية ، تحقيق محمد حاج صادق ، دمشق 1968 .

مؤلف مجهول (أواخر السادس) : الاستبصار فى عجائب الامصار ، تحقيق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية ، 1958 .

ياقوت الحموى (ــ 624) : معجم البلدان (1 ــ 6) ، تحقيق وستنفلد .
ابن حماده الصنهاجي (ــ 628) : أخبار ملوك بنى عبيد وسيرهم ، تحقيق م . فاندرهايدن ، الجزائر ــ باريس ، 1927 .
أبو العباس الدرجيني (القرن السابع) : طبقات الدرجيني .
ابن الاثير (ــ 630) : الكامل فى التاريخ ج : 8 ط . صادر ، بيروت .
ابن الابار (ــ 658) : الحلة السيراء (1 ــ 2) تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة 1963 .
ابن خلكان (ــ 681) : وفيات الاعيان ج 1، تحقيق الدكتور احسان عباس، بيروت 1968.
زكريا بن محمد القزوينى (ــ 682) : آثار البلاد ، ط . صادر ، بيروت .
ابن عذارى المراكشى (نحو 695) : البيان المغرب (1 ــ 2) تحقيق ليفى بروفنسال ، ليدن ، 1948 .
مؤلف مجهول (بعد 712) : مفاخر البربر ، تحقيق ليفى بروفنسال ، الرباط ، 1934 .
أبو محمد التجانى (بعد 717) : رحلة التجانى ، تحقيق حسن حسنى عبد الوهاب ، تونس ، 1958 .
ابن عبد المنعم الحميرى (ــ 727) : الروض المعطار ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، بيروت 1975 .
لسان الدين بن الخطيب (ــ 776) : أعمال الاعلام ج : 3 ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادى والاستاذ ابراهيم الكتانى ، الدار البيضاء ، المغرب ، 1964 .
ابن خلدون (ــ 808) : تاريخ ابن خلدون ج : 4 ، 6 ، 7 ط . بولاق .
تقى الدين المقريزى (ــ 845) : اتعاظ الحنفا ، ج : 1 ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ، 1967 .
تقى الدين المقريزى (ــ 845) خطط المقريزى ، ط . بولاق .
القاضى ادريس عماد الدين (ــ 872) : عيون الاخبار ج : 5 (نسخة خطية بحوزة الدكتور مصطفى غالب) .
أحمد بن سعيد الشماخى (ــ 928) سير الشماخى ، ط . قسنطينة ، الجزائر .
ابن أبى دينار (القرن الحادى عشر) : المؤنس فى أخبار افريقية وتونس ، تحقيق محمد شمام ، المكتبة العتيقة ، تونس 1387 .
محمد الوزير السراج (ــ 1149) : الحلل السندسية ج : 4 ، تحقيق محمد الحبيب الهيله ، الدار التونسية للنشر ، 1970 .
La révolte d'Abou Yazid au Xᵉ siècle, par Roger Le Tourneau. Les Cahiers de Tunisie, I (1953) pp. 103-125.
Abu Yazid Makhlad b. Kaïdad by S.M. Stern Encyclopaedia of Islam (New édition), vol. I, p. 163, 1960.

طبنـــة مدينـــة الـــزاب، والاوراس
فى العصـــور الوســـطى

د. لقبـال موسى
معهد العلوم الاجتماعية
جامعة الجزائر
نائب بالمجلس الشعبى الوطنى

1 ـ الموقع الجغرافى لمدينـة طبنـة :

تقع آثار مدينة طبنة على بعد حوالى 4 كلم جنوب مدينة بريكة الحالية على الطريق المؤدية الى مدينة بسكرة النخيل ، والى بلدية مدوكال التابعة لبريكة .

ـ وطبنة تقع ضمن بلدية أخرى من بلديات دائـرة بريكة ، تسمى الآن بلدية بيطام .

ـ تعد طبنة فى نظر الجغرافيين القدماء ، ضمن اقليم الزاب الواسع الامتداد الذى يوجد حداه عند مشارف اشير ، وأطراف المغرب الادنى أو افريقية . ويصفونها بمدينة « الزاب » الكبرى ، أى عاصمته ، وقاعدته الاولى . تضاهى فى أهميتها فى المنطقة ، أهمية القيروان فى افريقية . واهمية سلجماسة وفاس فى المغرب الاقصى .

ـ وفى نظر الجغرافيين المحدثين ، تعتبر طبنة مدينة شط الحضنة ، وفى منطقة الشطوط ، أى فيما يسمى بالجزائر الوسطى ·

وميزة التوسط تنعكس آثارها فى المنطقة ، فى تلقى تأثيرات الشمال البحرية ، وتأثيرات الجنوب الصحراوية ، وتظهر عمليا ، فى المناخ ، وفى الحيوان ، والنبات ، وفى نوع الانتاج ، والكسب ، ثم فى انماط الحياة الاجتماعية عموما ·

وفى اطار شط الحضنة ، تحتل منطقة طبنة الجزء الشرقى منه ، وتمثل سهولا واسعة تمتد على بضعة كلم ··· وتنحصر بين وادين هامين فى المنطقة هما :

وادى بريكة جنوبا ، ووادى بيطام شمالا ·

ويعتبر وادى بيطام بالنسبة لمنطقة طبنة أهم بكثير من وادى بريكة حتى ان الجغرافيين المسلمين جعلوه السبب الرئيسى فيما تمتعت به من ثروة زراعية وحيوانية ، ورخاء ·

2ـ المناخ :

ومناخ المنطقة كلها ، قارى ، فمميزات الصيف : الطول ، والحرارة والجفاف والرياح الشديدة والمترية أحيانا والسماء الصافية التى لا سحب فيها ·

ومميزات الشتاء : البرد القارس الذى قد تصحبه رياح ، وأمطار ، أما السماء فى الشتاء فغير صافية بسبب السحب الخفيفة ·

والجو اللطيف والمطر أحيانا من مميزات فصلى الربيع والخريف ·

ومن تسجيل درجات الحرارة لمدينة بريكة يلاحظ :

ـ أن متوسطها فى شهر جانفى هو 8 درجات مأوية ·

ومتوسطها فى شهر جويلية هو 31 درجة ·

أما كمية الامطار السنوية فلا تتجاوز أحيانا فى مدينة بريكة 224 ملم ومن أجل ذلك ، تبدو الحياة النباتية فقيرة مظهرها : الحشائش والاعشاب والاشجار القليلة ،

والزراعات الخفيفة . وعلى هذه تقوم حياة البشر وقطعان الماشية لان المنطقة مشهورة بتربية أجود الانواع منها • لا سيما الشاء ، والخيل •

3 ـ طبيعة الارض في منطقة طبنة (بريكة) :

يميز بالنسبة للارض في منطقة طبنة ، بين نوعين :

أ ـ نوع يسمى في عرف المنطقة (الحي) ويعتمد على الري المنتظم بواسطة الينابيع ، والاودية ، والسدود ؛ والآبار ، ومساحته قليلة جدا ، بالقياس الى النوع الآخر الذى يعتمد على الطبيعة ؛ بسبب قلة مشاريع الرى فى هذه المنطقة الفقيرة .

ب ـ أما النوع الثانى ويسمى فى عرف الجهة « بالجلف » أو « البعل » فيعتمد على كرم الطبيعة ، أى على الامطار . والفيضانات • ومساحة هذا القسم كبيرة جدا •

والذى يلاحظ أن أية رغبة فى احياء هذه المنطقة وانعاشها اقتصاديا انما تكون بالعناية باستصلاح أراضى الجلف ، وجعلها منتجة فى كل وقت بتوفير المياه وذلك بالتوسع فى حفر الآبار ، واجراء مسح كامل على مناطق الثروة المائية ، وتشجيع السكان بالقروض لحفر الآبار ؛ وتنظيم الثروة المائية الموجودة فعلا ، واحياء الآبار القديمة ، وتسهيل الحصول على محركات بأسعار معقولة ؛ هذا الى اصلاح السدود الموجودة وايجاد مشاريع سدود جديدة ؛ مع الاتجاه نحو التوسع فى التشجير •

ـ ويبدو أن وزارة الرى واصلاح البيئة ؛ فى عهدها الجديد الحافل بالنشاط والحيوية، يمكنها أن تقدم خيرا كثيرا لهذه المنطقة الفقيرة ، ولكل دوائر ولاية الاوراس المحرومة ؛ التى أعلنت منكوبة فى هذه السنة بسبب الجفاف •

4 ـ طبنة وعصر ما قبل التاريخ •

لم تنل منطقة طبنة حظها من الدراسة العلمية التى تكشف عن ماضيها السحيق ؛ ولم تقم فيها حفريات متنوعة ، وذلك على الرغم من المظاهر التى تبدو فى المنطقة ، من كثرة الحلزون ، وقطع الحجارة المهذبة ، وغير المهذبة التى تشير فيما يبدو الى نشأة صناعة حجرية قديمة ، والى حياة بشرية وحيوانية فى هذه المنطقة فى عصر ما قبل التاريخ بفترتيه : البعيدة والقريبة •

وقد كشفت حفريات علمية عن نماذج قديمة جدا لانسان قديم فى منطقة العلمة وشلغوم العيد ، وتمثلها نماذج انسان عين الحنش ، ومشتى العربى · وما دام الفأس لم ينشط ، للكشف عن نماذج لحضارات ما قبل التاريخ فى منطقة طبنة فانما تؤكد جهلنا بحياة المنطقة فى هذه الفترة الطويلة من عمر الانسانية · كذلك العصر الفنيقى القرطاجى الذى يعتبر بداية لعصر التاريخ فى شمال افريقية كلها · فانه هو الآخر ، لا يفيدنا بأية معلومات عن هذه المنطقة والسبب يبدو فى طبيعة الهجرة الفنيقية أو الاستيطان الفنيقى ، حيث لا يهتم الفنيقيون ، والقرطاجيون ، بغير السواحل، أما الدواخل فلم تنل من عنايتهم ـ ، باستثناء تونس وما جاورها ـ الا قليلا ·

5 ـ طبنة فى العصرين الرومانى ، والبيزنطى ·

لم تدخل اذا منطقةطبنة اطار التاريخ المعروف ، الا عندما استولى الرومان فى القرن الاول الميلادى على ولاية افريقية القرطاجية ، (تونس) وعلى « نوميديا » وتمثل السهول العليا القسنطينية وعلى « موريطانيا » ، التى تمثل منطقة الاطلس التلى الاوسط ·

وانشأوا لأول مرة ، ولغرض استراتيجى ، طرقهم الحربية وسلسلة تحصيناتهم الدفاعية ضد السكان (الليميس) ·

وكانت فى هذه الفترة (القرن 1 م) تمر شمال جبال النمامشة وجبال أوراس ، وجبال الحضنة ، وجبال وانوغة ·

وفى الفترة التالية أى فى القرن 2 م · وفى عهد الامبراطوريين الرومانيين تراجان ، وهادريان ، تقدمت خطوط الليمس ، نحو السفوح الجنوبية لهذه الجبال السابقة الذكر ؛ بل وتتوغل قليلا فى الدواخل وهكذا فقد استمرت فى تقدمها التدريجى فيما تلا ذلك من عصور ؛ وحسب الاحداث · وقد تعهدها الاباطرة الرومان على مدى فترة ثلاثة قرون بالاصلاح ، والتجديد خدمة لاهم أهدافهم الاستعمارية ·

ـ ومن بين هذه الطرق الحربية ، نميز طريقا رئيسيا كان ينطلق من اقليم الجريد (جنـوب تونس) ويمر ببسكـرة ، ومنها يتفـرع الى فرعـين أحـدهما : يمـر بالقنطرة وباتنة وينتهى فى معسكر لا مبيس فى الاوراس ، (تازولت الآن) حيث كانت

ترابط الفرقة الرومانية الثالثة • وثانيهما يشق منطقة الحضنة وينتهى فى (عوزبة) سور الغزلان ، بعد أن يمر بحصون طبنة ، ومقرة ، وزابى (الرومانية = قرب المسيلة) •

ويعنى ذلك : أن طبنة ، ومقرة ، وزابى ، وكذلك نقاوس وهى مدن الحضنة الرئيسية أو اقليم الزاب القديم . (من المسيلة الى نقاوس) ابتدأت حياتها حصونا دفاعية للرومان ، ونقطا هامة لمراقبة سكان أودية الانهار وسفوح الجبال ، أولئك الذين لم يذعنوا بعد مثل الجيتوليين (سكان اقليم جنتوليا) للنفوذ الرومانى •

فكانت مدينة طبنة تراقب من يأتى من منخفضات جبال أوراس ، ومدينة نقاوس كانت بدورها تراقب ممرين يؤديان الى منطقة الزيبان ومقرة كانت تتحكم بسبب موقعها، فى ممر وادى سوبلا القريب منها ؛ ومدينة زابى كانت تتحكم فى ممر وادى القصب (وادى المسيلة الآن) •

ومن الواضح أن هذه المراكز الحصينة السابقة ، ما كان لها أن تبقى ، وتقوم بالدور المنوط بها لولا توفر ينابيع المياه فى هذه المنطقة •

فطبنة مثلا كانت تعتمد على وادين هما واهى بيطام ، ووادى بريكة ومقرة كانت تستفيد من مياه وادى سوبلا ، وزابى كانت تقوم حياتها على مياه وادى القصب (تحولت الى سد بهذا الاسم) • وقد أفاد المياه على قلتها فى حفظ حياة سكان المنطقة ، والحاميات العسكرية الرومانية ، وساعدت على تحقيق نوع من حياة الاستقرار للزراعة والغراسة ؛ وعلى تربية المواشى بحيث غدت الحضنة وأوراس بالنسبة لمناطق نوميديا الاخرى ، منطقة رعوية ، وزراعية ، فضلا عن كونها تشتمل على نقط دفاعية ، طرقية ، ذات ميزة استراتيجية هامة للرومان وللبزنطيين • بحيث لا يوجد وراءها غير عالم البدو المتنقلين الذين لم يتأثروا بعد بالحضارة الرومانية ، ولم يخضعوا لسيادة الرومان وبقوا عنصر شغب وقلق ، ومقاومة فى اطار حريتهم المحلية ، وحياتهم التقليدية •

ولقد أصاب طبنة ومنطقتها شر كثير ، وتضررت أكثر من أى حصن آخر ، من حركات البدو ، واغاراتهم المستمرة التى كانت تعنف فى عهود الفوضى ، واختلال الاحوال منذ أواخر القرن الرابع ، وبداية القرن الخامس الميلاديين ، كما تضررت أيضا فى عصر

الوندال ، عندما أصبحت منطقة تجمع ، ونفى للعناصر المناوئة للوندال : وللمذهب الآريوسى الذى كان مذهبهم الرسمى ، وهكذا أصبحت تعج بالمغضوب عليهم وأغلبهم كانوا من الآخذين بالمذهب الكاثوليكى ·

ولم تهدأ أحوالها ، وتستعيد نشاطها ، وازدهارها الا عندما صفى النفوذ الوندالى من شمال افريقية ، وعادت الادارة البيزنطية فى عهد الامبراطور جستنيان ، (ق 6 م) الذى عين قائدا كفؤا لشمال افريقية يعرف بسالمون (سليمان) تولى الحد من نشاط وتحركات البدو ضد الحصون والمراكز البيزنطية فى المنطقة ·

وحظيت طبنة ، وزابى باهتمام البيزنطيين فجددت استحكامات الاولى وســـورت ، كما جددت الثانية أيضا بعد شبه خراب ، وسميت « مدينة جستنيان » (زابى جستنيانة) ويبدو أن نقاوس ، ومقرة لم ينلهما ما نال طبنة وزابى فى عهود الفوضى ، بسبب حصانتها لذلك لم تكونا محل عناية خاصة فى هذه الفترة (ق 6 م) ·

وقد استمرت مدن طبنة ، وزابى ، ومقرة ، ونقاوس ، تؤدى مهمتها كاملة فى عصر الروم البيزنطيين ، مثلما كانت من قبل تخدم أغراض الرومان ، وأهدافهم الاستراتيجية، وهكذا حتى اطلالة الثلث الاول من القرن 7 م ·

وفى هذ االقرن دخلت طبنة ، ومدن الزاب والاوراس عصرا جديدا ·

6 ـ طبنة وسير عمليات الفتح الاسلامى فى بلاد المغرب ·

استقبل شمال افريقية ، ومنطقة الزاب ، ومدينتها الكبرى طبنة ، بظهور الاسلام ، والعرب المسلمين فى المنطقة ، مبشرين بدين جديد ، وعصر جديد ، وحضارة جديدة عهـدا جديدا ·

ولقد تم فتـــح طبنة فى أواخر القرن 1 هـ ـ 7 م · فى عهد موسى بن نصـــير الذى ألجأ عامل المدينة ، وكان يعرف بكسيلة ـ وهو غير الامير المشهور ـ الى الفرار ، بسبب انصراف الروم عن شمال افريقية ، بعد تصفية قاعدتهم الكبرى فى قرطاجنة منذ عهد حسان بن النعمان الغسانى ؛ أما الافارقة ، والامازيغ ، فقد أعياهم طول الجـــلاد · واستسلموا ، بعد أن لم يجدوا سندا وحليفا ·

وباستيلاء موسى بن نصير على طبنة ، تصبح المدينة مشمولة بنفوذ الولاة العرب ، وللأسر العربية الاسلامية التى كانت تشرف على بلاد المغرب الاسلامى من قاعدته الاولى ؛

وقد راعى أمراء بنى الاغلب هـذه المزية لطبنة ، فاهتمـوا بهـا اهتماما خاصـا وحصنوها ، وحشدوها بالجند ، وانتدبوا للاشراف على شؤونها خيرة من مساعديهم الامناء • بحيث غدت من أهم مراكز نفوذهم فى منطقة الزاب والحضنة •

واثناء ظهور حركة الشيعة الاسماعيلية بين قبيلة كتامة (شمال قسنطينة) ونشاط الداعى أى عبد الله الشيعى بينهم • وعلى حساب حواضر الزاب ، وافريقية • كان يشرف على شؤون طبنة ، الادارية والعسكرية من طرف الامير الاغلبى الاخير ، زيادة الله الثالث : رئيس ديوانه المعروف « بأبى المقارع » يساعده اثنان من رجال الحرب ، والادارة هما : شبيب القمودى ، وخفاجة العبسى • وثلاثتهم ، اشتهروا بالشجاعة ، وقـوة الشخصية ، وكانوا محل ثقـة الامير الاغلبى •

وقد مثلت طبنة دورها كاملا الى جانب السلطة الشرعية ، فأصبحت بمثابة معبر للجيوش المحاربة ، ومركزا متقدما للهجوم على قبائل كتامة التى أخذت تناصر الداعى الشيعى وأيدت حركته ضد الاغالبة والعباسيين نصرة لآل البيت • والقصد ارهـاب الكتاميين ، وتخريب مظاهر الاقتصاد فى بلادهم لكى يتخلوا عن نصرة الشيعى •

ولما تمكن الشيعى ، بعد زحوف واعدادات ، من اقتحام طبنة عنوة ، ووصلت الانباء بذلك الى زيادة الله فى رقادة حزن حزنا عميقا ، وأمر بضرورة التعبئة الكاملة ، المادية ، والمعنوية ، لمواجهة هذه الحركة الجديدة التى مزقت شمل افريقية ؛ ومن تدابيره انه أمر بلعن الداعي الشيعى من على منابر القيروان ورقادة ، كما أمر بتعميم ذلك فى المنابر التابعة لنفوذه فى سائر حواضر افريقية والزاب والحضنة ، والأوراس •

غير ان الوضع بقى يتطور لصالح الشيعي وحلفائه الكتاميين خاصة بعد اقتحام مدينة باغية (قرب خنشلة فى الاوراس) ؛ وكانت هى الاخرى قاعدة هامة ، من قواعد المنطقة بالنسبة للاغالبة •

وكانت بداية النهاية لنفوذهم فى افريقية كلها ، نجاح الشيعى فى كسب معركة الاربس الحاسمة (قرب الكاف بتونس) 296 هـ وقد تلا ذلك انسياح الكتاميين فى

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

وكان فرع الذواودة من رباح يهيمن على منطقة الزاب كلها بما فيها مدن الحضنة . وكانت رئاسة نقاوس مثلا لأولاد عسكر من الذواودة ، ورئاسة مقرة ، والمسيلة لآل شبل ابن موسى من الذواودة أيضا ، هذا بينما غدت طبنة ومنطقتها مسرحا لفروع زغبة ، حيث تمثل قبائل « السحارى » في بيطام بعض بقاياهم . حتى وقتنا الحاضر .

ولم ترجع الاوضاع نسبيا الى حالتها الطبيعية الا فى القرن 7 هـ/13 م وذلك عندما ظهرت على المسرح السياسى فى المغرب الاسلامى على انقاض امبراطورية الموحدين ، أسر محلية حاكمة ، تنتمى اما الى زناتة ، مثل المرينيين فى فـاس والمغرب الاقصى ، وبنى عبد الواد ، فى تلمسان والمغرب الاوسط ، أو الى هنتاتة من مجموعة مصمودة ، مثل أسرة الحفصيين فى تونس والمغرب الادنى الذين استغلوا قربهم من منطقة الحضنة والجزء الشرقى من المغرب الاوسط ، من جهة ، وضعف دولة بنى عبد الواد ، وعدم سيطرتها على كامل حدود المغرب الاوسط . من جهة ثانية استغلوا ذلك فى السيطـرة على كامل المنطقة السابقة بحيث كانت واقعة تحت تأثيراتهم .

ولقد تأثرت كامل المنطقة ، وخاصة مدن الحضنة ، بالحروب القبلية ، وبالزحـوف المستمرة ، وبالنزاعات على النفوذ ، التى كانت طابـع الحياة السياسية والعلاقات بين هذه الانظمة السياسية التى ورثت تراث ومجد وأراضى الموحدين . فخربت مدينة طبنة، أكبر مدن الحضنة ، وثالثة المدن الكبرى فى المغرب الاسلامى بأكمله ؛ واختفت الى الابد ، الا آثارها ، بنهاية القرن الثانى عشر (12 م) . كما لقيت مقرة ، مسقط رأس أجداد أبى العباس المقرى صاحب نفح الطيب ، مصيرا سيئا على أيدى المرينيين ، ووقعت مدينة المسيلة ضحية لموقعها شبه الامامى بين مراكز النزاع بين الحفصيين والمرينيين فبدأت تضمحل ، وتفقد حيويتها ونضارتها وهدوء الاوضاع فيها .

ان المدينة الوحيدة من بين مدن الحضنة ، التى قاومت عوامل التخريب والفناء وسط أسوارها الحجرية الحصينة ، انما هى مدينة نقاوس المحروسة ، وقد بدت مظاهـــر حيويتها وازدهارها ، كما أوضح الرحالة المتأخرون نسبيا ، فى جامعها الشامخ ، ومعهدها ، وحماماتها المتعددة ، وينابيعها المتفجرة ، وبساتينها الفيحاء ، وزروعهـــا الباسقـــة .

وهكذا غدت مدن الحضنة باستثناء نقاوس ، بين مخربة تخريبا كاملا ، مثـل طبنة ومقرة ، التى تعيش اليوم نهضة عمرانية جددت شبابها ، وحيويتها ، وأهميتها ؛ أو فى حالة اضمحلال مثل المسيلة التى نراها اليوم تبنى معالم نهضتنها بعد قرار السلطة الثورية بترقيتها الى ولاية • وبقيت طبنة ، التى ورثتها بريكة ، تسير نحو مستقبل مشرق بالآمال ، والامانى ، فى تحقيق نهضتها فى ظل تعديل وتنشيط أوضاعها الادارية والاقتصادية ، والعمرانية ؛ بفضل عناية السلطة الثورية بكامل جهات البلاد ، لا سيما، المحرومـة منهـــا •

لقد ظل البدو هم سادة منطقة الحضنة ، منذ القرن 13 م الى القرن 16 م أى حتى ظهور الاتراك العثمانيين حماة للاسلام ، والمسلمين فى كامل المغرب الاسلامى •

7 ـ طبنة ومنطقة الحضنة فى العصور الحديثة :

نلاحظ عن هذه الفترة أنها تميزت بظاهرتين بارزتين هما :

أ ـ تبعية المنطقة كلها لنظام بايليك الشرق ، الذى كان مركزه قسنطينة واستمر الامر كذلك ، بعد الاحتلال الفرنسى ؛ حيث أصبحت المنطقة ضمن عمالة قسنطينـــة والاوراس •

ب ـ أما الظاهرة الثانية فهي ما كان يلاحظ من تارجح ولاء سكانها وقبائلها ، بين عائلتين كبيرتـــين هما :

أ ـ عائـلة المقرانى وكان مقرها فى قلعة بنى عباس ، بمجانة من جهة •

ب ـ وعائلة بوعكاز ، شيخ منطقة الزيبان ، وحفيد عرب الذواودة من بنى هلال من جهـــة أخرى •

وسياسة الاعتماد على شيوخ القبائل وعلى الاسر الكبيرة فى الحكم المحلى سنها الاتراك العثمانيون ، وتبناها الفرنسيون عموما ، حتى الالقاب الشائعة من قبل استخدموها طيلة استعمارهم للبلاد •

والحادث الذى رجح الكفة لفائدة عائلة بوعكاز الصحراوية ، وجعل الغلبة النسبية لهم ، هو فشل ثورة المقرانى فى السبعينات من القرن 19 م (1871 م) ومدينة بريكة

التى ورثت مكانـة طبنـة . وبنيت بعض مبانيهـا ، ومصالحهـا الادارية بأنقاضهـا . حديثة النشأة نسبيا ، بحيث لا ترقى الى أكثر من القرن 11هـ/17 م ، وقد وردت عند الرحالة الورتيلانى ، كمركز هام من مراكز أولاد دراج الذين ينتمون مثل أولاد رحمة ، ومقدم ، وأولاد خلوف الى ربيعة ··· وفى عصر الورتيلانى كان أمير ركب الحجاج · من أولاد سيدى محمد الحجاج ، وهو محمد المسعود ابن السيد الموهوب ؛ وهم من مدوكال بلدية تابعة لدائرة بريكة ، وتوجد فيها قرية اشتراكية ؛ ومشهورة أيضا بكثرة النخيل · وبتربية المواشى فى ساحاتها الشاسعة ·

ومستقبل دائرة بريكة ، كغيرها من دوائر الاوراس الاخرى وهى : باتنـة (مقر الولاية) وآريس ، ونقاوس ، ومروانة ، وقايس ، وعين التوتة يتوقف على تنشيط مشاريع الرى ، واستصلاح الاراضى ، واقامة معالم الحياة الصناعية ، والتحديث العمرانى ، وبذل مزيد من العناية بالريف ، وبالمناطق الجبلية ؛ لترقية الانسان هناك ، ولحمل مشاعل النمو والحضارة اليه ·

والذى يلاحظ أن الثروة المائية فى منطقة الحضنة ، وبريكة خاصة ، لم تستغل استغلالا كافيا رغم الجهود المكثفة فى هذا السبيل · وامكانيات المنطقة تصبح هائلة لو وجدت عناية أكثر ، بموضوع توفير المياه للزراعة والغراسة ، وتربية المواشى · والامل معقود على وزارة الرى واستصلاح الاراضى فى ظل توجيهها الجديد ·

ومنطقة الحضنة والاوراس ، قامت شهرتها قديما ، على الزراعة وعلى تربية المواشى، وعلى جودة أصناف المزروعات وأنواع المواشى · فالجغرافيون القدماء لاحظوا مثلا : توفر اللحوم وكثرة الانعام فى أفق المسيلة ، وكثرة الاشجار المثمرة فى أفق نقاوس حتى كان لوزها ، يصدر فى القرن 11 م الى حاضرتى قلعة بنى حماد ، وبجاية ، مثل المشمش فى الوقت الحاضر ، الذى يغطى أغلب أرجاء البلاد · بسبب جودته ، وطيب مذاقه ·

أما سفرجل المسيلة ، فكان يصل فى القرن 11 م الى القيروان · ومثله تمور طبنة ، ومحاصيلها الزراعية ، وزيتون سوبـلا ، ومزروعات مقرة . فقد كان نخيل طبنـة يكفى

بانتاجه المنطقة كلها ؛ واشتهرت منطقة سوبلا بأجود أنواع الزيتون بعد جرجرة ؛ ومزارع القمح والشعير وحقول القطن كانت تحف بطبنة ، وتملأساحاتها وضواحيها . وحول مدينة مقرة وحدها كانت تنتشر سبع قرى زراعية ورعوية .

ولاريب أن هذه المحاصيل الزراعية كانت نتيجة لعناية الانسان ونشاطه وارتباطه بالارض ، ورغبته فى تحسين الانتاج ، واستغلاله لكل الامكانيات البشرية والطبيعية المتوفرة . ان كل هذا يراد تقويته وتدعيمه الآن بفضل الثورة الزراعية .

وكانت مدينة طبنة وحدها ، تتوفر على خزان كبير (صهريج) يحفظ المياه لاستعمالها فى رى الحقول والمزروعات . ولقد أفاد السكان من مياه الخزان ، كما أفادوا من مياه وادى بيطام ، وبيطام كما سبق بلدية ريفية جديدة في دائرة بريكة ؛ وبجوارها ستقوم قرية رعوية قريبا ــ ان شاء الله .

وسكان بريكة ، والمزارعون منهم بنوع خاص ، يستفيدون كثيرا من مياه وادى بريكة خاصة عند الفيضان . وقد اقتضى الامر ، حصر هذه المياه وتجميعها فى شبه سد ، يعرف بسد العطعوطة ؛ لينتفع بها عند الحاجة . وحتى لا تضيع البقية فى السباخ ، شرع فى بناء سد صغير يعرف بسد « بوشيبة » .

عناصر السكان فى طبنة ونواحيها :

سكن طبنة وبقية مراكز وحصون الرومان والبيزنطيين فى الحضنة ، جنود الحاميات العسكرية ، وموظفون كانوا ينتمون الى مختلف جنسيات البحر الابيض المتوسـط ، وعنصر الافارقة هذا فضلا عن سكان الجهة الاصليين . ولقد تكاثر فيها فى العهد الوندالى المضطهدون المسيحيين الكاثوليك كما اسلفنا .

أما الفترة التى تميزت بحركة بشرية قوية ، فهى الفترة الاسلامية بدءا من القرن 7 م . فالفتح العربى الاسلامى جلب عناصر شرقية جديدة ومتنوعة الجنسيات كما جذب مجموعات امازيغية محلية كثيرة ، ومن ذلك ان قبيلة ورفجومة الصفرية ، وهى من قبيلة نفزاوة الكبرى ؛ اختارت فروع منها مدينة طبنة كمركز قرار وسكنى ، ثم ذلك بعد اخراجهم بالقوة من مدينة القيروان على يد أبى الخطاب عبد الاعلى بن السمح المعافرى الاباضى ، أحد حملة الدعوة الاباضية ومؤسس أول دولة اباضية بافريقية (فى طرابلس

الغرب) كما التجأ اليها جند العباسيين الذين كانوا تحت امرة عمر بن حفص هزارمرد المهلبى ، لما اشتد عليهم ضغط الخوارج فى مدينة القيروان ، واحرجوهم منها قسرا بظباء السيوف ، وحد الرماح ·

وبدون شك فانهؤلاء الجنود الذين ترسبوا فى الجهة ، كان بينهم عناصر شرقية مختلفة، فارسية، وعربية ؛ من شبه الجزيرة ، أو من بلاد الشام ومصر والعراق واليمن ·

ومعنى ذلك ان سكان مدينة طبنة كانوا خليطا من جنسيات شتى · سامية ، وآرية ، وقد بقى هذا الوضع حتى القـرن الخامس الهجرى (II م) ، وقـد سجله الرحالـــة والجغرافيون الذينزاروا المنطقة ، بدءا من اليعقوبى صاحب كتاب البلدان ·

وفى هذا القرن 5 هـ/11 م نقل جانب كبير من سكان (المسيلة) (المحمديـة) بالقوة ، كى يعمروا قلعة بنى حماد الصنهاجية بعد تمصيرها على يد القائد حماد بن بلكين ابن زيرى بن مناد ؛ كما نقل جانب من سكان قرية حمزة (البويرة) أيضا لنفس الغرض ·

وقد شهدت طبنة ومنطقتها فى هذا القرن (11م) حركة تنقل عجيبة لجماعات محاربة ، ولعصابات مسلحة ، ولفروع قبائل ، عبرت هذه الجهة لسبب أو لآخر ، ومن دون ريب ، فقـد ترسب من هـذه المجموعـات بعض افراد ، او أسر ، او عشائر ، أو قبائل باكملها ، فاصبحت ، جزءا من سكان المنطقة ·

وقد صارت الغلبة فى هذا القرن ، لعرب بنى هلال وهم : الاثبج ، ورباح وزغبة ، وسليم ، حيث نلاحظ بين سكان الحضنة ، ومنطقة طبنة الآن قبائل هامة ترفع نسبها الى اعراب بنى هلال ومن أهمها : قبائل السحارى فى بلدية بيطام ، الذين ينتسبون الى فرع زغبة ، ويكونون فى الوقت الحاضر اغلب سكان منطقة طبنة · والسحارى : مزارعون ، وأبالة ويربون المواشى فى سهول ، ومراعى ومزارع بيطام وطبنة وعلى جانبى وادى بيطام ·

ومن فروع السحارى فى هذا الوقت ، أولاد منصور ، والمزاريق ، والاعراف وتجاورهم بيوتات قليلة من قبيلة الصمامات ، ومن قبائل أولاد سحنون ·

ومنذ القدم ، تسببت المجاورة ، والماء وحدود الارض فى حدوث مشاكل بين هذه القبائل • مثلما كان قد حدث ويحدث فى عالم البدو فى العصر الوسيط • ويقف الى جانب كل مجموعة فى نزاعاتها ؛ حلفاء وأنصار •

ويلاحظ أن سياسة التفرقة وتغذية النزاعات التى سار عليها الفرنسيون فى المنطقة ، اسوة بالرومان ، مع قلة الوعى الثقافى والدينى والقومى • بسبب الفراغ الفكرى وتغلب النزعة الفردية هي المسؤولة قديما عند هذه النزاعات بين قوم تجمعهم روابط اللغة ، والدين ، والوطن ، والآمال المشتركة • وهذا ما أدركته هذه القبائل ، أخيرا ، بعد حركة اليقظة الكبرى التى خلفتها الحركات الاصلاحية ، والحركة القومية التى مهدت لقيام الثورة الكبرى فى نوفمبر 1954 م التى صهرت كل القوى وكانت حدا فاصلا بين عهدين ، عهد الظلام ، الذى ولى ، وعهد النور والحرية والاستقلال الذى أقبل ؛ ومعه وبعد حركة التصحيح التحرر من جميع أنواع التبعية ؛ سياسات التطوير للبيئة وللانسان والتكافل ، والتوازن ، بين جهات البلاد وارساء معالم الدولة الوطنية الاشتراكية الحديثة ؛ التى تعتمد على قواعد الثورات الوطنية الثلاث : الزراعية، والصناعية ، والثقافية ؛ التى يعتبر ملتقى الفكر الاسلامى السنوى أحد مظاهرها الحية والايجابية •

9 ـ معالم العصر الذهبى لمدينة طبنة :

كانت مدينة طبنة فى عهد ازدهارها منذ أواخر القرن الثانى الهجرى (8م) مدينة كبرى وحاضرة الاقليم واسعة الارجاء هو «اقليم الزاب» كان عاملها ، وقاضيها ، وقائد حاميتها ، يشرف كل فى اختصاصه على نواحى الاقليم كله •

كانت مسورة شأن الحواضر الكبرى • وكان لاسوارها عدة أبواب تذكارية كل منها ينفذ الى ضاحية من ضواحيها منها : باب خاقان ، وباب تهودة (قرب سيدى عقبة ولاية بسكرة الآن) ، وباب الفتح ، والباب الجديد ، وباب كتامة •

وكان للمدينة مقبرتها التى توجد الى الشرق منها على مسافة غير بعيدة من أحد ينابيعها المشهورة باسم منبع فرغان ، الذى كان يجرى وسط مصلى العيد ، وهو أيضا أحد معالم المدينة فى العصر الوسيط •

وقد اخترقت المدينة عدة طرق رئيسية يسمى كل منها (سماطا) ، تشقها جداول الماء . وكانت أسواق المدينة كثيرة على عدد أحيائها . وأول ما كان يلاحظه الزائر الى المدينة عند اقترابه منها . هى المزروعات وأشجار الفواكه ، والنخيل . ولهذا لا غرابة اذا وجدنا كل الرحالة والجغرافيين الذين زاروها منذ عهد ابن واضح اليعقوبى (ق 3هـ/9م) الى عهد الشريف الادريسى (ق 6هـ/12م) يتفقون على القول بأن طبنة مدينة مستبحرة العمران ، وحاضرة كبرى ، تقع وسط اقليم واسع المساحة ، بيد أن حال المدينة تغير بعد هذا العهد ، فصارت منذ أواخر القرن 12 م ، وبداية القرن 13 م، عبارة عن مجموعة من الانقاض والاكوام والرسوم ، كأن لم تغن ، ولم تزدهر بالامس .

وتغطى الاكوام مساحة كبيرة ، قد تصل الى حوالى خمسين هكتارا . وقد اهتم رجال الآثار باجراء الحفريات فيها ، بيد أن مجالها ما زال فيما يبدو قابلا لاجراء مزيد من الحفريات خاصة عن المدينة الاسلامية لتحديد مكانها وابراز بعض معالمها . ويبدو هذا الامر هاما . لان المدينة الاسلامية جددت بأنقاض المدينة الرومانية القديمة ، ومديرية الآثار والمتاحف بوزارة الثقافة عازمة على المضى فى احياء مشروع الحفر من جديد على آثار مدينة طبنة ، وغيرها من المدن الاسلامية فى البلاد كلها .

10 ـ رجالات طبنة المشهورون :

لقد انجبت بيئة طبنة فى عصرها الذهبى ، أي منذ أن جددت فى عهد ولاية عمر ابن حفص المهلبى ، الى ما بعد تأسيس المحمدية فى القرن 4 هـ/10 م أعلاما فى الفقه ، والادب ، واللغة والعلوم التقليدية والفنية . ازدانت بهم السنة ، وارتفع بعلمهم لواء المذهب المالكى الذى بقى مرتفعا حتى فى عهد الشيعة الفاطميين ، الذين حاولوا بعد استقرار نفوذهم السياسى والعسكرى فى المنطقة ، النيل من اشعاعه ، وتأثيره على الجماهير السنية ؛ وذلك بواسطة المناظرات المذهبية لتخذيل الناس عنه ، وبواسطة الاغراء بالمال ، أو جبر الناس على اعتناق المذهب الشيعى ، ولكى يتمكنوا من عامة الناس ويفتنونهم عن مذهبهم السنى ، كانوا يضطهدون زعماء السنة ، ويعملون على تشريد فقهاء المالكية خارج حواضر افريقية الكبرى ؛ ولهذا السبب مع أسباب أخرى فيما يبدو نجد عدة أسر طبنية تنتقل باكملها

من موطنها اما الى الاندلس ، السنية المالكية ، أو الى مصر ، أو الى بغداد · وليس ببعيد ان يكون بعض علماء ، وفقهاء طبنة قد انتقلوا مثل غيرهم من بعض علماء السنة فى القيروان ورقادة الى المشرق العربى ، بعد معركة الاريس ، وفرار زيادة الله الاغلبى من رقادة اليـــه ·

وعلى ذلك فكتب التاريخ والطبقات ، تتحدث عن عدة أسر طبنية فى مصر وفى الاندلس فضلا عمن بقى فى افريقية من علمائها ونبهائها حتى بعد قيام دولة الفاطميين ونوابهم الزيريـــين ·

ومن هذه الاسر التى استقرت فى مصر :

أ ـ أسرة أبى محمد القاسم بن علي الطبنى ،

ب ـ وأسرة علي بن منصور الطبنى أيضا ·

أما أشهر رجال الاسر الطبنية في الاندلس ، وفى قرطبة خاصة فهم :

1 ـ أبو مضر زيادة الله الطبنى (ق 5 هـ/11) وقد سكن قرطبة واشتهر برواية الحديـث ، والتبحر فى اللغـة والآداب ، وبالتفنن فى صناعة الطرائـف وقرض الاشعار .

وقد روى الحديث عنه أكبر أبنائه ، وأشهرهم على الاطلاق ، وهو :

2 ـ عبد الملك بن الطبنى (ق 457 هـ) الذى حفظ كثيرا من طرائف أبيه وأشعاره ومن ذلك رسالته اليه من مصر وقد تضمنت شوقا وحنينا الى قرطبة ومفاضلة بين أدب المشارقة وأدب الاندلسيين والمغاربة · وجاء فيها قوله :

يا أهـــل أندلس مـا عنـــدكم أدب   بالمشرق الادب النفـــاح بالطيـــب
يـــدعى الشبــاب شيوخا فى مجالسهم   والشيـخ عندكـم يـــدعى بتلقيـــب

ومن أبناء أبى مضر زيادة الله :

3 ـ أبو الحسن عبد الرحمن (ت 401 هـ) ، وعبد العزيز (ت 326هـ) ، وأبو مروان عبدالملك السابق الذكر · وهو أوضحهم شخصية ، وأكثرهم نباهة ، وعلما ، لا يكاد يشبهه فى لقانته غير ابن عمه وهو أبو محمد ابراهيم بن يحيى (ت 461هـ) والاثنان معا من معاصرى أبى محمد بن حزم الاندلسى الظاهرى صاحب كتابى : الفصل فى الملل

والنحل وطوق الحمامة . وبينما قامت شهرة ابراهيم بن يحيى على البراعة فى علم الطب ، عرف عبد الملك كما اسلفنا ، بالعناية بالسنة ، والشعر ، والطرائف والعلوم اللغوية ، والقرآنية ، تاثرا بأبيه أبى مضر زيادة الله . وبشيوخـــه الاعلام الذين أخذ عنهم لفترة طويلة ، أو قابلهم سواء فى مصر ، أو الحجاز أثناء رحلاته الى المشرق العربى ، وكان هؤلاء كثيرين ، ولكثرتهم ، وتاثره بهم ، واعجابهم به سجل لقاءاته معهم ، فى شبه مذكرات .

أما عن رجال الطبنة الآخرين ، فمنهم مثلا :

أحمد بن فروخ الطبنى ، وقد عاصر الفتح الشيعى لمدينة رقادة والقيروان ؛ واسندت اليه بعض المهمـــات فى هذا العصر فيما يبدو ، ثم ابراهيم بن الطبنى وكان شـــريكا لسحنون بن سعيد فى قضاء القيروان لفترة ؛ ثم أبو الفضل عطية بن على بن الحسين وكان راوية للحديث ، وشاعرا مجيدا ؛ ومن أشعاره المحفوظة وملحه قوله فى آثار المشيـــب :

قـــالوا التحى وانكسفـت شمســه ... ومـــا دروا عـــذر عـــذاريـــه
مـــرآة خـــديه جـــلاها الضيـــا ... فـــلاح منـــها فى صـــد غيـــه

11 ـ بعض معالم طبنة والاحداث

توجد بقرب طبنة معالم أثرية ، وتذكر بأحداث تاريخية هامة فأما المعالم غـــير المعروفة الآن فمن أهمها حسب كتب الرحالة :

ـ فج زيدان ، وهو ممر مرتفع يشرف على المدينة من بعيد . ومنه نفذ أبو عبد الله الداعى الشيعى ، لاخذ مدينة طبنة فى أواخر القرن الثالث هـ/9 م ـ واليه يشير بقوله :

من كان مغتبطا بلـــين حشيـــة ... فحشيـــتى وأريكـــتى ســـرج
مـــن كـــان يعجبـــه ويبهجـــه ... نقـــر الدفـــوف ، ورنـــة الصنـــج
فـــانا الـــذى لا شىء يعجبـــنى ... الا اقتحـــامى لجـــة الـــوهـــج
ســـل عن جيـــوشى اذ طلعـت بها ... يـــوم الخميـــس ضـحى مـــن (الفج)

وأما الاحداث التاريخية التي نذكرها بذكر طبنة فمن أهمها :

أ ـ معركة تهودة (63هـ) في عصر الفتح الاسلامي لافريقية ؛ التي ذهب ضحيتها الصحابي عقبة بن نافع الفهري ؛ وأبو المهاجر دينار ؛ بتدبير كسيلة بن لمزم البرنسي واحلافه الافارقة ، اذ عند طبنة ، فرق سيدي عقبة جيشه اطمئنانا بما حصل عليه من نتائج في حملته الكبرى . وأرسل معظمه الى القيروان لحمايتها من الاخطار . فكانت النتيجة سيئة على سير الفتح الاسلامي في افريقية ، وعلى مسلمي المنطقة كلها طيلة خمس سنوات .

ب ـ حملة القائم بأمر الله الفاطمي ضد زناتة وقبائل المغرب التي لم تعلن طاعتها للفاطميين ونوابهم على الجهات والاقاليم ، وقد سجل مراحلها بتفصيل احمد المروزي الشيعي في شبه ملحمة ، تحاكي ملامح العصور القديمة والوسطى . وعن طبنة قال المروزي :

سرنا وقد حل بقرب طبنة　　وصار منها أهلها في محنة

فأعظم الله العزيز المنة　　وبدلوا من بعد نار جنه

والسبب في هذا الوضع ، أن طبنة ، ونواحيها ، كانت مسرحا لنشاط القبائل المعادية للفاطميين وعلى رأسهم قبيلة زناتة ، وزعيمها محمد بن خزر المغراوي .

ج ـ أما الحدث الآخر الذي يذكر بمناسبة ذكر طبنة فهو حركة الثائر الاباضي النكاري مخلد بن كيداد المشهور في التاريخ بأبي يزيد ، وبصاحب الحمار ؛ في العصر الفاطمي أيضا . وقد سجل أحداثها بتفصيل أيضاء هذا الشاعر الشيعي السابق الذكر؛ وهنا ابلت طبنة بلاء حسنا الى جانب الخليفة الفاطمي المنصور بالله ، الذي أقام فيها فترة طويلة لملء صفوفه ، واعداد خططه ، وتفريق الارزاق ، والهدايا استجلابا للاحلاف والانصار .

ـ واخـــيرا ...

فسماحة أهل طبنة وكرمهم ، المستمر فى قبـائل السحارى الآن وجودة أنـــواع المزروعات ، والانعام ، فيها وفى أفقها ، بسبب نشاط السكان ، فى عملية الانتاج ، وفى تجويد الاصناف ، ثم بسبب نهر بيطام ، الذى يبدو حاضره متواضعا بالنسبة لماضيه ، ان هذا كله قد أوحى بمثل عربى أصبح سيارا فى الجهة لذلك حفظه الرحالة والجغرافيون فى كتبهم وهو : « بيطام بيت الطعـام » .

شخصيات لامعة من الاوراس

عبد الرحمن الجيلالي
مؤرخ جزائرى



الاوراس علم لسلسلة أعلام راسية شاهقة ، واطواد سامقة باذخة ، وقنن عالية الذرى شامخة ، واغوار ومغارات ذات مضائق ومعاطف وشعاب ملتوية سحيقة ، وتلك هى ما يعبر عنه الجغرافيون باسم الاطلس الصحراوى القائم بجنوب ولاية قسنطينة من ارض الجزائر ، وتشتمل هذه السلسلة الصخرية الهائله عل طائفة من شوامخ الجبال ذات الروعة والجمال ، فتخترق كامل القطر الجزائرى من اقصاه الى اقصاه بحيث تكون هذه الجبال مثل جبل احمر خدو ، وجبل كاف المحمل ، وجبل عيدل ... نقطة اتصال بين جبال الحضنة وبين جبال الجنوب ؛ وهى تشكل فى وضعيتها الطبيعية شكلا رباعيا طوله من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب نحو 65 ميلا وتغطى فى جنوب اقليم قسنطينة مساحة قدرها 3600 ميلا ، وتعد هذه الجبال هى أضخم واعلى كتلة جبلية جزائرية فى هذه البلاد ، بحيث يرتفع اعلاها المعروف باسم (قمة الشلية) 2328 مترا ، وقاعدة هذه الولاية اليوم هى مدينة (باتنة) التى ينعقد فيها هذه السنة (1398 هـ / 1978 م) الملتقى الثانى عشر للفكر الاسلامى .

ففى القديم كانت تسمى هذه الجبال او قل الاعلام ، باسم « اوريس » او « اورايوس اوروس » وهذا الاسم كما نراه هو قريب جدا مما نسميه به اليوم وينطق بـه الناس (اوراس) وذكره البكرى فى القرن الخامس باسمه الحاضر : (اوراس) ، قال : « وهو مسيرة سبعة ايام ، وفيه قلاع كثيرة يسكنها قبائل هوارة ومكناسة ٠٠ الخ ٠٠٠ ، وكذلك هو مسمى بنفس هذا الاسم عند الادريسى ـ وسط القرن السادس ، فهو يقول : « وجبل أوراس قطعة يقال انها متصلة من جبل درن المغرب وهو كاللأم منحنى الاطراف ، وطوله نحو من 12 يوما » ٠ وهكذا ذكره بهذا الاسم ياقوت الحموى (626 هـ) فى معجمه وابن خلـــدون (808 هـ) فى تاريخه ٠

وليس عندنا اليوم لكلمة « أوراس » هذه معنى معروف ، والراجح انها تكون كلمة بربرية لها معناها عند قدماء البربر ، اما كلمـــة « الاطلس » التى كانت معروفة عند اليونان فالظاهر انها محرفة عن كلمة « ادرار » أو « ادرارن » البربرية والتى معناها : الجبـــل ٠

وبينما كان علماء التاريخ والجغرافيا على هـــذا الرأي اذا بصاحب الرحلة ـ نزهة الانظار ٠٠٠ المعروفة بالرحلة الورثيلانية (آخر القرن الثانى عشر) يقول : ان هـــذا الجبل كان يسمى « جبل الرس » هكذا بالسين وبالصاد ، وزاد الى ذلك فقال بانه هو موطن خالد بن سنان ، ناقلا ذلك عن الخفاجى شارح الشفاء ؛ وقال عن خالد هذا بانه نبى ورسول أرسل بجبل الرس الملقب الآن : أوراس ٠ وعبارته كما يلى : « ٠٠٠ عام مشينا لزيارة النبى سيدى خالد عليه السلام على القول بنبوته (1) وقد شهر غير واحد من المتاخرين رسالته بجبل الرس الملقب الآن أوراس » ٠

على ان الذى نعرفه من خلال كتب اللغة والتفسير لمعنى كلمة الرس : انه الأثـــر القليل الموجود فى الشىء ٠ يقال سمعت رس الخبر ، وعندي رس حديث ، وفى جسمى رس من حمى ، اى اثر ٠ كما جاء ايضا فى معانى الرس انها البئر ، والمعدن ، أو الجب ، وجاء فى دائرة المعارف الاسلامية ان الرس هو النهر المشهور الذى عرفه القدماء باســم

1) راجع ما جاء حول هذا الموضوع فى كتابنا : تاريخ الجزائر العـــام ، ج 1 ، ص 161 و 285 ، ط 3 الجزائر 1971 م ٠

« أراكسيس » وكل هذا كما ترى لا يمت بصلة الى ما نحن فيه من الكلام على جبال أوراس بالجزائر ؛ اللهم الا اذا أريد به ـ عند الورتيلانى معنى البئر التى يقال انها موجودة بالأوراس ونعنى بها : « بئر الكاهنة » ، اذ كل بئر رس ؟ او يكون المراد به معنى المعدن ، فيحتمل ؟٠٠ اذ ليس هنالك شك فى وفرة ما بهذه الجبال والصخور الشاهقة المشمخرة من مغادن ٠٠٠

وورد فى « الرس » انه علم على مواطن وامكنة متعددة مفترقة ، وليس فيها إشارة الى مكان واحد منها انه يوجد بأرض المغرب ، بل ولا فى القارة الافريقية بأسرها : فليت شعرى من أين لصاحب نزهة الانظار ان جبل الرس هو الملقب الآن « أوراس » ؟٠٠

يتكون سكان هذا الجبل من عناصر مختلفة بالاضافة الى سكانه الاصليين وهم البربر ؛ فلقد انضم اليهم فى أحقاب متقدمة سلائل من غزاة الرومان والروم البزنطيين والوندال ؛ وفى أيام الفتح الاسلامى كانت تسكنه قبائل من زناتة ، (اوربة وجراوة) ، ثم حل به قبائل هوارة ولواته لا سيما فى أيام اشتداد الحرب بين حسان بن النعمان وجيوش الكاهنة ؛ على ان اغارة الهلاليين (442 هـ/ 1050 م) قد غيرت من موقف الشعوب بهذا الجبل ، فجعلت من بنى دريد وهم فرع من الاثبج يسكنون التلال الشمالية منه ؛ ـ والأثبج من الهلاليين وهم أوفر عددا واكثر بطونا ، كما عند ابن خلدون ٠ ثم تقدموا نحو الجنوب فسكنوا هذه الأطواد الشامخة من جبال اوراس ونزلوا بتلك التلال والهضاب والاعضاد المحيطة بها ٠

والسبب فى نزوح قبائل هوارة البربرية الى هذا الجبل بعد ما كان موطنها الاصلى هو اقليم طرابلس والجزء الذى يجاوره من اقليم برقة فهو كما يقول ابن خلدون : انه لما ذهب عنهم ما كان لهم من الاعتزاز والمنعة أيام الفتوحات ، وقد صاروا عبيدا للمغارم فى كل ناحية وقع منهم هذا الافتراق فى الاودية بسبب القلة فانصرفوا لرعى الغنم وسكنوا بهذه الجبال ونزلوا بتلك السفوح وما حولها من المدن والقرى وما احاط بها من البلاد ، مثل مدينة باغاية ، وطبنة ، وخنشلة ، ومنعة ، والريس ، ولامباسييس ، اولامبيس ـ لمبيز ، ونقاوس ، وبلزمة وتيمقادى ، الى حدود بسكرة وتهودة ٠٠٠ فامتزج هنالك يومئذ العنصران امتزاج الماء بالماء فتبربر العرب وتعرب البربر واصطبغ كل

منهما بصيغة الآخر ، وعرف الجميع حينئذ باسم الشـاوية ـ جمع شاوى اى راعى الغنم ، ثم أصبح هذا النعت أو الوصف اسم جنس على عدة جماعات تقطن أرض هـذا المغرب العربى ، أهمها هؤلاء شاوية أوراس ـ بالقطر الجزائرى ، وشاوية (تامسنا) باوض المغرب الأقصى . ومن ثم انتهى الامر باطلاق اسم الشاوية على بربر زناتة وهوارة وكل من امتزج بهم من العرب أو مساكنيهم فى مواطنهم هذه ، وهم اليوم منقسمون الى احدى عشرة عشيرة متكونة من نحو 36 دوار أو تزيد ، تختلف كثافة السكان بها بين مكان وآخر . فمن هذه الجبال التى قال عنها الشاعر الثورى : من جبالنا طلع صوت الاحرار، ينادينا للاستقلال .

ففى هذا الاقليم من القطر الجزائرى ؛ ـ اقليم جبـل اوراس الاطلس الصحراوى الواقع الى الشرق من مدينة بسكرة ، وفى عصور مختلفة من التاريخ الاسلامى لمع فى ميدان الثقافة والعلم جمع من ابناء الجزائر الاوراسيين ، ازدان بهم تاريخ الجـزائر وطفحت بذكر اسمائهم كتب التراجم والسير ؛ وها نحن اليوم بمناسبة انعقاد الملتقى الثانى عشر للفكر الاسلامى بقاعدة الاوراس ـ باتنة ، نلقى بنظرة تاريخية خاطفة على حياة ثلة من رجال الفكر الاسلامى بهذه الناحية من أرض الجزائر للتدليل على طيبة هذه التربة المباركة وسير الحركة العقلية بها .

ففى أواسط القرن الثالث من خير القرون نجد عالما أوراسيا يلمع اسمه ويتردد ذكره فى بلاط ملوك وامراء بنى الأغلب ـ الدولة التى ملكت تونس والجـزائر (184 ـ 296 هـ / 800ـ909 م) ذلك هو اسحاق بن عبد الملك الملشونى ـ وملشون قرية من احدى قرى المدن الكثيرة المطل عليها جبل أوراس ؛ فعن هذا العالم الاوراسى كان أمراء الدولة يتلقون دروسهم فى الأدب والفقه والتاريخ وأخبار الامم ... وعنه وعن والده كان يحمل العلـم .

قال أبو العرب : كان أبو القاسم بن شبلون الفقيه رضى الله عنه يروى فيما كان يرويه ان الامام سحنون بن سعد دخل على الامير محمد بن الاغلب أول يوم من شـهر رمضان ، فوجده خاليا بنفسه ، فقال له : أراك أيها الامير خاليا ، فقال نعم ، انفردنا فى هذا الشهر المعظم وخلونا فيه وتركنا ما كان لغير الله عز وجل ، فقال سحنون : فأيـن

أنت ايها الامير من اسحاق الملشونى يحدثك بأخبار الامم السالفة والأعوام الماضية ؛ فامر محمد بن الأغلب باحضاره ، فكان يحضر عند محمد بن الأغلب فى كل يوم يحدثه بذلك حتى انقضى شهر رمضان . قال أبو العرب : وسمعت بعض المشائخ ممن يروى البرىء من الأخبار يحدث عن اسحاق بن عبد الملك الملشونى انه قال : لم يدخل افريقيا نبى قط ، وأول من دخلها بالايمان بعض حواريى عيسى بن مريم عليه السلام . وهذه منه فائدة جليلة تنير لنا الطريق حول البحث عن وجود (خالد بن سنان) على القول بنبوته ـ بهذه البلاد .

وفى حديث للبكرى يذكر فيه وصف جبل أوراس وما اودع الله فيه من خصائص وما احاط به من البلاد ... وكان فيما ذكره منها ان ذكر مدينة باغاية ـ وهى باغاى ، الموجودة حاليا بشمال خنشلة ، فقال : هى مدينة جليلة أولية ذات انهار وثمار ومزارع ومسارح ، وهى على مقربة من جبل اوراس . ففى نفس هذه المدينة ولد العالم المحدث المقرىء أبو العباس احمد بن محمد بن عبد الله الربعى الباغائى سنة 345 هـ/956 م ودخل الاندلس سنة 376 هـ/986 م وقدم للاقراء بالمسجد الجامع فى قرطبة ، واستأدبه أمير الاندلس المنصور ابن ابى عامر لابنه عبد الرحمن ، ثم عتب عليه فاقصاه ، ثم رقاه المؤيد بالله هشام بن الحكم فى دولته الثانية الى خطة الشورى بقرطبة مكان أبى عمر الاشبيلى الفقيه ؛ وكان كما ذكره ياقوت : من أهل العلم والفهم والذكاء ، وكان لا نظير له فى علوم القرآن والفقه على مذهب مالك ، روى بمصر عن ابى الطيب بن غلبون وابى بكر الادفوى وتوفى لاحدى عشرة ليلة خلت من ذى القعدة سنة 401 هـ/16 جوان 1011 م .

وفيما بين القرن الرابع وأوائل الخامس نجد طائفة من سراة العلماء والادباء كلهم يحمل لقب « الطبنى » أى الانتساب الى مدينة طبنة ، وطبنة هذه هى من أهم المراكز الحيوية باقليم الزاب يومئذ ، بل هى عاصمة الزاب ، وثيقة الاتصال بالاوراس وقريبة منه جدا حيث ان خرائبها على بعد ثلاثة أميام جنوبى « بريكة » .

كان فيمن اشتهر بهذا البلد أسرة بيت ابى مضر زيادة الله بن على الطبنى فكان هذا البيت من ألمع وأنبه بيوتات هذه المدينة فى العلم والرئاسة ؛ ولم يقتصر حسن صيت

اعضاء هذه الاسرة على بلادهم فقط ، بل تعداها الى خارج الوطن ، ففى بلاد مصر نجد اسم الطبنى ذائعا ، وفى الاندلس كذلك أيضا نلقاه شائعا ، وبأرض الحجاز مستفيضا . وكان أبو مضر هذا مشتهرا بعلم الحديث والأدب ، كما اشتهر كذلك ابناؤه الثلاثة بثقافة واسعة : أبو مروان عبد الملك ، وأبو الحسن عبد الرحمن ، وعبد العزيز ؛ وكان اجلهث علما وأدبا هو أبو مروان (457 هـ/1064 م) . قال الصفدى : انه امام فى اللغة له رواية وسماع ، رحل الى المشرق وحدث عن ابراهيم بن الافليل ؛ وهو من بيت جلالة ورئاسة ومن أهل الحديث والأدب .

كما ذكره ابن بسام فى الذخيرة أيضا فقال : كان أبو مروان هذا أحد حماة سرح الكلام ، وحملة الوية الاقلام ، من أهل بيت اشتهروا بالشعر اشتهار المنازل بالبدر ، اراهم طرؤوا على قرطبة قبل افتراق الجماعة ، وانتشار شمل الطاعة ، وأناخوا فى ظلها ، ولحقوا بسروات أهلها ، وسمع - أبو مروان من جماعة من المحدثين بمصر والحجاز ؛ ولما عاد من المشرق الى قرطبة واجتمع حوله الناس فى مجلس الاملاء انشد :

انى اذا حضرتنى ألف محبرة ... تقول حدثنى طورا وأخبرنى
يا حبذا ألسن الأقلام ناطقة ... « هذى المكارم لا قعبان من لبن »

قال ابن بسام : وأبو مضر أبوه زيادة الله بن على التميمى الطبنى هو أول من بنى بيت شرفهم ورفع بالأندلس صوته بنباهة سلفهم .

ومن أهل طبنة أيضا ابو عبد الله محمد بن حسين الطبنى علا صيته فى الأندلس أيام سنة 323 هـ/935 م 0 وكان شاعرا عظيما ، قال ابن شكوال : لم يصل الى الأندلس اشعر منه ، ومنهم أحمد بن الحسن الطبنى (390 هـ/1000 م) وابراهيم الطبنى ، وأبو الفضل عطية بن على الطبنى (532 هـ/1137 م) وهو القائل :

قالوا التحى وانكسفت شمسه ... وما دروا عذر عذاريه
مرآة صدغيه جلاها الصبى ... فلاح منها فى خديه

ومن نبغاء الادباء بالاوراس فى القرن السابع الأديب الكبير والشاعر المفلق محمد بن أحمد الاريسى المعروف بالجزائرى - وهذا اذا حققنا انه من بلدة الريس الاوراسية ، والا فهو على كل حال جزائرى من بلد جبال أوراس .

كان يسلك فى شعره كما يقول الغبرينى سلوك المتنبى وينحو نحوه ، فلقد كان حسن النظم والنثر مليح الكتابة حسن الوراقة فى البطاقة ، سهل الشعر كثير التجنيس يأتيه عفوا من غير تكلف ، ولأجل ذلك حسن نظمه ، وكان مليح التوشيح ، ان طال فى شعره أعرب ، وان اقتصر واقتصد أعجب ، وله شعر كثير فى كل فن من فنون الشعر ، ومنه قوله :

يا من على جوده المعهود أتكل	ويا ملاذى اذا ضاقت بى الحيل
غرقت فى بحر آثامى فخذ بيدى	وامنن بعفو فانى خائف وجل

وكان فى علمه نظير العالم المؤرخ ابى عبد الله محمد بن الحسن القلعى شيخ الغبرينى . تولى رئاسة « كتبة الديوان ببجاية » وتوفى سنة 673 هـ/1274 م .

ومن الشخصيات العالمة اللامعة بالاوراس فى أواسط القرن الثامن : الشيخ أحمد بن العباس النقاوسى المنسوب الى مدينة نقاوس غربى مدينة باتنة عروس الاوراس ، والقرية من طبنة ، كان رحمه الله مشاركا فى علوم التفسير والفقه والحديث والأصول واللغة والمنطق والبيان ... لقيه أبو النقاء خالد بن عيسى البلوى الأندلسى فترجم له فى رحلته وقال :

كان حافظا مجيدا ، وحافلا مجيدا ، وناقلا سديدا ، وناقدا شديدا ، وعارفا مديدا ، ومدرسا مفيدا ، له طبع حل فيه الذكاء والنبل ، وقل من كرمه الطل والوبل ، رحل من تلمسان قبل الحصار ، وتلاقى ريحها بالاعصار ، فدخل تونس مشمرا عن الجد ، وقائدا بالجد ، فطلع فى آفاقها كوكبا ، وسار فى ساحاتها كبكبا ، ولم يزل يفحص عن الكمال ، ويستسقى من عذبة منالها الزلال ، حتى بلغ المنتهى ، وخول ما اشتهى ، فهو الآن أحد مدرسيها الامام ، وأوحد من برع فى علمى البيان والكلام ، وأوجد الناس للدر اذا خاض بحر العلوم بسوابح الاقلام ، أديب العصر ونحويه وبيانيه وحكميه ومنطقيه ... الى الاحاطة بالتفسير والحديث ، مع المطالعة والمذاكرة فى القديم والحديث ، وكذا الفروع والاصول ... الى ان قال : قرأت عليه تاليفه المسمى : « الروض الأريض فى علم القريض » ، وتأليفه فى الأدب ؛ و « حديقة الناظر فى تلخيص المثل السائر » فى

البيان ؛ و « شرح المصباح » لابن مالك ؛ و « ايضاح السبيل الى القصد الجليل فى علم الخليل » وهو شرح على عروض ابن الحاجب ؛ وله تآليف غيرها عرف قدرها واشتهر ذكرها ؛ توفى سنة 765 هـ /1364 م ·

وهذا نقاوسى آخر أيضا ، من أهل القرن التاسع ، يسمى محمد بن محمد النقاوسى ، أخذ علمه أولا عن والده قاضى نقاوس وعن علماء بلده ، ثم ارتحل الى مدينة قسنطينة ثم تونس ودخل مصر فاخذ عن الشمنى والكافيجى والسخاوى وأضرابهم من علماء القاهرة ··· وتولى قضاء العسكر لحفيد المولى مسعود ، ثم عاد الى بلده نقاوس ، وهاجر فسكن مصر وانتقل منها الى الحجاز فجاور الحرمين الشريفين وجلس هنالك للاقراء والتدريس ·

وكان من مشايخ الامام عبد الرحمن الثعالبى الذين أخذ عنهم العلم ببجاية الشيخ أحمد النقاوسى ، قال الثعالبى : هو شيخنا الامام المحقق الجامع بين علمى المعقول والمنقول ، ذو الأخلاق المرضية والأحوال الصالحة السنية ···

ويحيى الشاوى غنى بنسبته هذه الى التعريف بنسبه ، فهو ابو زكرياء يحيى بن محمد الشاوى المولود بمدينة مليانة (1030 هـ/1621 م) ، من مشائخه الجزائريين الشيخ سعيد قدوره شارح سلم الاخضرى فى المنطق ·

حج الشاوى سنة 1074 هـ/1663 م ونزل القاهرة فتصدر للتدريس بالأزهر ، ورحل الى تركيا ثم عاد بعدها الى القاهرة وحج للمرة الثانية (1096 هـ/1684 م) وتوفى بالقاهرة ومن تآليفه شرح التسهيل » لابن مالك ، وله شروح وحواش ومصنفات فى النحو والاعراب والتوحيد الخ ··· ومن تلامذته : محمد أمين المحبى صاحب « خلاصة الاثر » (مطبوع) والشيخ على النورى صاحب كتاب « غيث النفع » فى القراءات والروايات السبع ، (مطبوع) ·

ومن اعيان علماء الاوراس فى القرن الحادى والثانى عشر العالم الفاضل المدرس الشيخ عثمان الاوراسى ، أخذ عن علماء بلده ثم ارتحل الى تونس فاخذ عن الشيخ محمد المغراوى ، وحميدة المفتى ، وعلى شعيب ، ومحمد بن عمران وابى القاسم بن سليمان وغيرهم ··· ومثله فى ذلك الشيخ على الاوراسى ···

وبما ان مدينة بسكرة تقوم على السفح الجنوبى من جبل اوراس ، واوراس يقوم الى الشرق من مدينة بسكرة ويطل عليها كما يقول ابن خلدون ، فهى معتبرة من أهم المدن المرتبطة بالأوراس والمتصلة به اتصالا وثيقا ، لا سيما وانها كانت طيلة هذه العصور التى مررن بها تضم بين جدرانها طائفة من كبار العلماء الذين اخترق ذكرهم الآفاق ، مثل الشيخ عبد الرحمن الاخضرى البسكرى الطائر الصيت • وابى القاسم بن جبارة البسكرى ، وابى زيان ناصر بن مزنى البسكرى ، والشاعر المكثر عبد الله بن عمر البسكرى ، والشيخ احمد بن الفاكهة اللياني فى آخرين ••• وعليه فلا أقل من ان نشير ولو بايجاز الى بعض علمائها المحققين ومن كان منهم من اهل الاجتهاد الراسخين •

فهذا ابو القاسم يوسف بن على بن جبارة البسكرى ولد سنة (403 هـ/1012 م) وشد رحله فى طلب العلم وتخصص فى علوم اللغة والنحو والقراءات فطاف البلاد شرقا وغربا ، فدخل بغداد ونيسابور واصبهان وغيرها من حواضر العلم يومئذ ولقى بها جمهورا من جلة العلماء ؛ قال : « فجملة من لاقيت فى هذا العلم 365 شيخا ـ بعدد ايام السنة ، من آخر المغرب الى باب فرغانة ، يمينا وشمالا ، جبلا وبحرا ، ولو علمت ان احدا تقدم على فى هذه الطريقة فى جميع بلاد الاسلام لقصدته » ؛ وكان فيمن اخذ عنهم من كبار علماء المشرق الاستاذ ابو نعيم احمد بن عبد الله الاصبهانى ، صاحب الحلية ، والاستاذ ابو القاسم القشيرى صاحب الرسالة الصوفية المشهورة ، وكان هذا يراجعه ويحاوره فى مسائل من النحو والقراءات مراجعة مستفيد ، حيث كان لمترجمنا هذا استقلال فى آرائه واختيارات وترجيحات اختص بها دون غيره من أهل التقليد ، فكان مجتهد متخصصا فى فنه ـ القراءات والنحو ، قال ابن الجزرى : لا أعلم احدا فى هذه الأمة رحل فى القراءات رحلته •

استدعاه الوزير نظام الملك الطوسى وزير ملك شاه السلجوقى للتدريس بمدرسته التى أسسها فى نيسابور ، مثل ما استدعى لها امام الحرمين الجوينى بل اسسها من اجله ، وبها قرأ وتعلم الامام الغزالى وعلم بها ، فانتصب يومئذ شيخنا ابن جبارة البسكرى لنشر علمه بين جدران هذه الجامعة الطائرة الصيت فى مدينة نيسابور التى يقول عنها الحموى (626 هـ/1229 م) هى مدينة عظيمة ، ذات فضائل جسيمة ، معدن

الفضلاء ، ومنبع العلماء ، لم ار فيما طوفت من البلاد مدينة كانت مثلها ٠٠٠ وهناك وضع الشيخ ابن جبارة البسكرى كتابه «الكامل» وهو معلمة كبرى فى فن القراءات ضمنه خمسين قراءة بالفين ومائتين وتسعين طريقا ٠ قال يصفه : « الفت هذا الكتاب فجعلته جامعا للطرق المتلوة والقراءات المعروفة ونسخت به مصنفاتى كالوجيز والهادى » ٠ وعلق امام القراء ابن الجزرى على كلمة المؤلف هذه فقال : كذا ترى همم السادات فى الطلب ٠

ويبدو ان هذه المدارس النظامية ـ المنسوبة لنظام الملك كانت رسمية تحت رعاية الحكومة ، بدليل ما أشار اليه بعض المؤرخين بأن مدرسا صدر له التعيين بها ولكنه لم يؤذن له بالتدريس الى ان جاءت موافقة الخليفة على تعيينه ٠

ومن أدباء بسكرة وفقهائها فى القرن الثامن : عبد الله بن عمر البسكرى ، كان فقيها أديبا شاعرا ، ارتحل الى المشرق فحج واستقر بالمدينة المنورة ملازما للحافظ المحدث المؤرخ الشيخ عبد الله بن محمد المطرى ، وكثيرا ما كان المطرى نفسه ينشد قصـــائد عبد الله البسكرى هذا ويرددها من حفظه اعجابا بصاحبها ٠ توفى البسكرى الشـــاعر سنة 765 هـ/1364 م ٠

واما ابن مزنى الذى أشرنا اليه فيما سلف فهو العالم المقرىء المؤرخ ابو زيان ناصر بن مزنى البسكرى ، المولود فى المحرم سنة 781 هـ/1379 م ، فنشأ فى بيت علم وامارة ، والى هذه الاسرة كان مرجع التصرف والحكم بناحية الحضنة والزاب ، انصرف ابو زيان الى الاشتغال بالعلم ولقاء العلماء ، فاخذ عن جماعة من بنى وطنه ومن علماء تونس مثل الامام ابن عرفة ، وعبد الرحمن التوزرى ، وابى فارس عبد العزيز بن يحيى الغسانى. البرجي ، ومحمد بن على بن ابراهيم الخطيب ، وعيسى بن احمد الغبرينى فى آخرين ٠٠٠

ثم انتقل الى مصر فنزل بها سنة 803 هـ/1400 م وكان بها يومئذ وحيـــد افريقيا العلامة ابن خلدون وقد جمعتهما أواصر العهد القديم ببسكرة ، فاكرمه واسكنه بخانقاه ومدرسة الشيخونية ، وبها اسمع ابن مزنى صحيح البخارى ولازم الامام ابن حجر ٠٠٠ وهناك عكف على وضع كتابه الكبير للرواة ، لم يكمله ، قال ابن حجر : انه لو اتمه لكان مائة مجلد ، فانه جمع منه فى مسوداته ما لا يعد ولا يدخل تحت حد ، ومات فتفرقت

مسودته شذر مذر ، ولعل أكثرها عمل بطائن مجلدات ؟!!٠٠ وكان رحمه الله جماعة للكتب ضابطا متقنا حريصا على جمع الفوائد والشوارد ٠ وأصيب فى آخر عمره ببصره فانتقل من الشيخونية الى مدرسة خانقاه الظاهر برقوق ـ بالقاهرة ، وعاجلته المنيـــة فتوفى سنة 823 هـ/1420 م 0 اثنى عليه المقريزى فى كتابه درر العقود ، وأثبت بانه كان يتردد عليه ، وقال : رحمه الله ماذا فقدنا من فوائده عوضه الله الجنة

وأما العلامة الأخضرى فهو أشهر من نار على علم واسمه عبد الرحمن بن محمد الصغير بن محمد بن عامر الشهير بالاخضرى ، ورغم شهرته بهذه النسبة نراه ينكرها فى شرحه على سلمه فى المنطق ، فيقول : « ان هذا نعت لنسبنا على ما اشتهر فى السنة الناس ، وليس كذلك ، بل المتواتر عن أعالى أسلافنا واسلافهم ان نسبنا للعباس بن مرداس السلمى (الصحابى الجليل) ٠ وامه رحمها الله اسمها (حدة) من قرية تيفلفال ـ من صميم الاوراس ـ ولد عبد الرحمن سنة 910 هـ/1504 م وكان ابوه رجلا صالحا وعالما جليلا فاخذ عنه ولده النجيب وعن من لقيه من مشائخ بلده ٠٠٠ وامتاز بالنبوغ المبكر ، ولازم الدرس الى ان برع فى اكثر الفنون العربية والعلوم الاسلامية ، والف فيها مصنفاته العديدة النافعة المفيدة ، فكتب فى الفقه والتوحيد والمنطق والنحو والبيان والفرائض والحساب والفلك والتصوف الخ ٠٠٠ نظما ونثرا ، وفيها ما هو مطبوع ٠٠ وانتشرت كتبه فانتفع بها الناس شرقا وغربا وترجم بعضها الى لغات اوروبا ، ومنها الفرنسية ، واعتقد انه ليس هناك اليوم أحد من أفراد العلم والادب ـ أو أقول معظمهم ـ بالجزائر وتونس والمغرب ومصر ٠٠٠ الا ولمصنفات الشيخ عليه فضل ومنة ٠ توفى رحمه الله سنة 983 هـ/1575 م ودفن بزاوية قرية (بنطيوس) جنوبى غرب مدينة بســـكرة ، وضريحه مشهور بها ٠

مراجع البحث

اعلام الجزائر : عادل نويهض ، ط بيروت ، 1971 م

بغية الوعـــاة : جلال الدين السيوطى ، ط ، القاهرة ، 1326 هـ

تاريخ الجزائر العام · عبد الرحمن الجيلالى ، ط 3 ، الجزائر 1971 م

تعريف الخلف ··· : أبو القاسم الحفناوى ، ط الجزائر 1906 م

دائرة المعارف الاسلامية : النسخة العربية ، ط مصر ، 1971 م

الذخـــيرة ··· : ابن بســـام ط بيروت ، 1975 م

ذيل بشائر أهل الايمان : حسين خوجة ، ط تونس 1908 م

شجرة النور الزكية : محمد مخلوف ، ط تونس ، 1349 هـ

طبقات علماء افريقية : ابو العرب محمد التميمى ، ط باريس ، 1915 م

العبـــــر ··· : عبد الرحمن ابن خلدون ، ط بولاق 1274 هـ

عنوان الدراية ··· : أحمد الغبرينى ، ط الجزائر 1910 م

المسالك والممالك : عبد الله البكرى ، ط الجزائر 1857 م

نزهــة الانظـــار ··· : الحسين الورثيلانى ، ط الجزائر ، 1108 م

نزهــة المشتاق ··· : الشريف الادريسى ، ط ليدن ، 1864 م

نيل الابتـــهاج : أحمد بابا التنبكتى ، ط القاهرة ، 1329 هـ

الانسان الاوراسي وبيئته الخاصة

دراسة في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لمدينة الاوراس قبل وأثناء العهد العثماني

د. ناصر الدين سعيدوني
معهد العلوم الاجتماعية
جامعة الجزائر



تتميز منطقة الاوراس بكونها احدى الكتل الجبلية الحصينة التي يسهل الدفاع عنها ولكن يصعب اختراقها والتغلغل داخلها ، وهذا ما جعل الاحداث التي عرفتها منطقة الاوراس عبر العصور تكتسي أهمية بالغة ، جعلتها تؤثر بصفة محسوسة ، ليس فقط على الجهات الشرقية من البلاد الجزائرية ، ولكن على جزء كبير من بلاد المغرب العربي .

فاذا رجعنا الى الفترة القديمة من تاريخ الاوراس نجد أن توطيد الاستعمار الروماني المرتبط باستغلال الارض وتوسيع زراعة الحبوب والزياتين بجهات نوميديا الجنوبية (الهضاب العليا القسنطينية) قد تطلب مرابطة الجيش الروماني الثالث بالمراكز

العسكرية المتاخمة للاوراس ، والتى كان يتشكل منها خط اللمس الرومانى الشهير ، انطلاقا من تيفست Théveste (تبسة) ومسكولة Mascula (خنشلة) وباغاى Bagaï وتمغاد ، ولمبيز Lamaesis (تازولت) ـ مركز قيادة هذا الجيش الرومانى ـ ومروزا بطبنة Thubunae ، وذلك قبل ان تعرج تحصينات اللمس هذه على كل من فسكرة Vescera (بسكرة) وجميلى Gemellae وتهودة Thaudeos وبادس Badis وميدياس Medias (تديرت) ونقرين Aa-mu-Javes (1)

وفى نفس الفترة نجد ان الثورة الدوناتية التى حدثت فى عهد متأخر من الحكم الرومانى (القرن الرابع الميلادى) كانت هى الاخرى لها قواعد راسخة بمناطق الاوراس ، انطلق منها الثائرون لاجتياح المستعمرات الرومانية بالهضاب العايا القسنطينية .

أما بعد الغزو الوندالى فان محاولة ارجاع السيادة الرومانية ـ المسيحية ، فى شكل الادارة البيزنطية فى النصف الاول من القرن السادس الميلادى ، لم تحقق الهدف المرجو منها ولم تنته الى نتيجة حاسمة ، رغم تعقب القائد البيزنطى صولومون داخل الاوراس لزعيم الثائرين يبداس Yabas ، والتجاء هذا الزعيم الثائر عام 539 م الى موريطانيا حسبما تفيدنا بذلك كتابات المؤرخ البيزنطى بروكوب Procope (2)

وفى هذا السياق من الاحداث الهامة التى عاشتها الاوراس نشير الى ذلك العون الذى وجده كسيلة من أهالى المنطقة الاوراسية ، والذى سمح له بتحقيق نصر أولى على الجيش العربى الفاتح بقيادة عقبة بن نافع الفهرى ، الذى أستشهد بسفوح الاوراس الجنوبية اثر معركة ضارية بالقرب من مدينة تهودة كما هو متداول فى كتب الفتح الاسلامى ، ثم تلا ذلك تزعم الكاهنة للمنطقة وتجنيدها لسكان الاوراس وفى مقدمتهم قبيلة جراوة التى كانت تنتسب اليها ، وقد أدى ذلك ـ كما هو معروف ـ الى هزيمة حسان بن النعمان على ضفاف نهر مسكيانة (3) عام 69 هـ (688ـ689 م) ، وذلك قبل أن ينتهى أمر هذه الزعيمة على يد حسان بن النعمان نفسه بعد مدة قصيرة لم تتجاوز خمس سنوات . بعدها لم تسكن منطقة الاوراس لحكم ولاة القيروان على عهد بنى أمية ،

اذ وجد بها الخوارج التأييد والمساندة فى ثوراتهم المتكررة (القرن الثانى الهجرى ـ الثامن الميلادى) التى أعادت الى الذاكرة انتفاضات الدوناتيين ، وأثارت التساؤل عن مدى مقارنة الحركة الخارجية فى المغرب بالدعوة الدوناتية فى نوميديا ، من حيث موقف الحركتين من الحكم المركزى ، ونظرة دعاتهما الى المذهب الرسمى للحكام ، لا سيما وأن الثورة النكارية بزعامة أبى يزيد مخلد بن كيداد ، الملقب بصاحب الحمار ، ضد الحكم الفاطمى (القرن العاشر الميلادى) كانت انعكاسا صادقا لمثل هذا الموقف الذى ظل يقفه سكان المنطقة من مذهب الحكام ٠

على ان ما يجدر ذكره فى هذا الصدد ان مثل هذا الموقف المعارض للحكام تحول مع الزمن الى عداء مستحكم وصراع مستميت بين طرفى النزاع الرئيسيين بالمغرب الاوسط ، وهما حلف كتامة المتشيعة وصنهاجة المتزعمة ، وحلف زناتة الثائرة التى يتركز قسم منها بمناطق الاوراس ٠ ولم ينته هذا النزاع المرير الا بمجىء الاعراب الهلاليين واحداثهم تغييرات فى البنية السكانية والطابع الحضارى للبلاد المغربية ٠

لكن بعد كل هذه المقاومة العنيفة والثورات المدمرة التى سبقت الاشارة الى بعضها لم تلبث الاوراس ان تحولت بعد هذا الماضى المضطرب الى منطقة فاقدة الحركة ، وذلك ابتداء من القرن الثانى عشر الميلادى ، اذ لا نجد الا ما ندر من أخبارها فى الكتب التاريخية ، لا سيما ما يتصل منها بالفترة العثمانية مدار هذا البحث ٠

وعلى كل فان هذا الوضع الذى أصبحت عليه الاوراس يدفعنا الى طرح عدة تساؤلات علنا نجد جوابا مقنعا لهذا التحول الذى عاشته الاوراس ، ولعل أكثر الاحتمالات تواردا ما يلى :

1 ـ احتمال يرجع تغير أوضاع الاوراس بهذا الشكل الى نوعية العلاقات الاجتماعية التى أدت الى اضمحلال المنطقة اقتصاديا وبشريا ، وبالتالى انطبق عليها حكم ابن خلدون ، الذى مفاده ان كل قبيلة رئيسية من المغرب العربى ، غالبا ما تتعرض للتلاشى والذوبان اذا ما تحملت عبء قيام دولة أو نشر دعوة أو تزعم حركة مناهضة او التصدى لغزو او الدخول فى حروب مستمرة ، مما يترتب عن ذلك ذوبان مثل هذه القبائل

وتشتتها عبر مواطنها الاصلية او الهجرة نحو مناطق أخـــرى ، مع العلم بأن تاريخ الاوراس حافل بمثل هذه الاحداث ، وخير شاهد على ذلك ثورة بيداس ومقاومة كسيلة وتزعم الكاهنة وانتفاضة صاحب الحمار التى سبقت الاشارة اليها والتى قامت على كاهل المجموعات السكانية الرئيسية بالمنطقة كجراوة وزناتة وبنى يفرن وضريسة ومزاتة ولواتة وهوارة ومكناسة وغيرها ٠

لكن هذا الاحتمال مع وجاهته لا يقنـــع الباحث ولا يرضى المؤرخ ما دامت المنطقة الاوراسية كما نعرف ظلت طيلة تاريخها الطويل منطقة تؤثر فيما جاورها دون أن تكون للجيوش او الدول تاثير واضح عليها ، نظرا للمنعة الطبيعية والتكوين الاجتماعى المتميز بحب الاستقلال وعدم الخضوع لأى قوة غازية ، مما أبقى على تماسك المنطقة بشريا وحال دون تلاشى قوتها الحربية وامكانياتها الاقتصادية ٠

2 ـ أما الاحتمال الثانى لتفسير هذا الركود ، فيدخل فى نطاق التحولات السياسية التى أصبحت تعيشها الجزائر مع باقى اقطار المغرب العربى ، والتى سمحت باستقرار نظم الحكم المركزى على يد الحماديين وما اعقبهم من موحدين وحفصيين وزيانيين ، وقد أدى هذا الحكم المركزى بالخصوص الى ازدهار الحواضر الكبرى مثل بجاية وتلمسان وفاس وتونس وقسنطينة وبونة (عنابة) والجزائر ، بحيث أصبح مدار اهتمام المؤرخين لا يتعلق بالمناطق الداخلية ، وانما يتركز على شؤون الحواضر الكبرى ، وهذا ما جعـــل المنطقة الاوراسية يلفها النسيان ويكتنفها الغموض وتستبد بها العزلة ، لا سيما وان ابتعاد طرق المواصلات الرئيسية عن المنطقة نحو جهات التل عبر مدن تلمسان والجزائر وقسنطينة وتونس ، او الى داخل الصحراء انطلاقا من تافلالت ومرورا على توات وورجلان وســوف ، كان هو الآخـــر عاملا مســـاعدا على اهمال المؤرخين والرحالة فى المنطقة الاوراسية ٠

على أن هذا الاحتمال مع مطابقته للواقع السياسى للمنطقة وانعكاسه على الاوضـــاع المحلية للاوراس ، فانه لا يقدم لنا الدليل الكافى عن هذا التحول ، فهو يكاد يكتفى بعرض الوضع دون التطرق الى الاسباب البعيدة التى أدت الى هذا الوضع بالذات ، مما يجعلنا لا نسلم به ولا نطمئن اليه فى بحثنا هذا ٠

3 ـ وهناك احتمال ثالث يكمن في الظروف التي اثرت على الوضع الاجتماعي وتحكمت في الحالة الاقتصادية، التي تنعكس بالخصوص في اختلال التوازن بين الانسان الاوراسي وبيئته الخاصة ، مما ترتب عن هذا الاختلال ان أصبحت الاوراس من أكثر الجهات الجزائرية انزواء وانغلاقا ، اذ لم تخرجها من هذه السلبية سوى ردود الفعل الوطني العنيفة ضد التوسع الاستعماري وسياسته الجائرة ، ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر وانتهاء بالثورة التحريرية التي وجدت في الاوراس حصنا منيعا وقاعدة راسخة ٠

وما دامت هذه الحالة من اختلال التوازن تكاد تشكل الميزة الرئيسية للاوراس طيلة العهد العثماني ، فاننا نميل الى تاييد هذا الاحتمال الاخير ، والاخذ به في دراستنا هذه ٠

وهذا ما يفرض علينا التعرف على الاوراس في آخر مراحل ازدهاره في الفترة الاسلامية التي تعود الى ما قبل القرن الثاني عشر الميلادي ، اذ بدون هذا الوصف لا يمكن لنا أن نتعرف على اختلال التوازن بين الانسان الاوراسي وبيئته الخاصة الذي اتصف به الوضع الاجتماعي وتميزت به الحالة الاقتصادية اثناء الفترة العثمانية ٠

وفي هذا الصدد نجد ان كتب الجغرافيين والرحالة العرب تقدم لنا وصفا حيا وصورة دقيقة للاوراس في آخر عهده بالتوازن الاقتصادي والاجتماعي ، سواء عن طريق المشاهدة أو بواسطة الرواية ، ولعل الانطباع الاول الذي نأخذه من هذه المصادر هو ان منطقة الاوراس كانت قبل القرن الثاني عشر تشتهر بازدهار حواضرها الواقعة بمحاذات السفوح الشمالية والجنوبية على حد سواء ، كما كانت تشتهر بخصبها وكثرة زياتينها وتنوع ثمارها وتعدد اسواقها ، وأمن مسالكها ، فأبن حوقل يصف الاوراس في القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) بقوله : « وجبل أوراس ٠٠٠ فيه المياه الغزيرة والمراعي الكثيرة والعمارة الدائمة ٠ » (4) بينما الادريسي (القرن السادس الهجري ـ الثاني عشر الميلادي) ينعت الاوراس : بأن « مياهه كثيرة وعماراته متصلة » (5) ٠

واذا تجاوزنا هذا الوصف العام ، فان المصادر العربية تقدم لنا معلومات أكثر دقة وتفصيلا واقرب الى الواقع من خلال ذكرها لمسالك منطقة الأوراس ، هذه المسالك التي نوردها حسب الترتيب التالي حتى تكتمل الصورة الحضارية للاوراس في فترة ازدهاره :

أ ـ **طريق السفوح الشمالية** : الآتى من القيروان ، والمار على كل من سبيبة ومجانة وتبسة ومسكيانة ، قبل ان يبلغ باغاى ليصلها بسوق ابن خلف والدوفانة ، ولينتهى بعد ذلك عند كل من سوق حمزة (البويرة) وأشير (6) (بجوار عين يوسف الحالية) ٠

ويتميز هذا الطريق الرئيسى المتاخم للهضاب العليا القسنطينية ، بأنه كان يتحـول فى الشتاء شمالا فى محاذات الشطوط المالحة (السباخ) ، بينما فى فصل الصيف يظل مرتبطا بسفوح الكتل الجبلية ، فهو فى هذا الفصل كان يمر على مركز مرمجانة ويجتاز نهر ملاق حيث ينفصل عنه طريق تجيس ، ثم يتجه اثناء هذا الفصل نحو مسـكيانة ومنها الى باغاى ثم دفانة ، فدار ملول ، ومنها الى طبنة فالمسـيلة ، مرورا على كل من بلزمة ونقاوس ومقرة (7) ٠

وهذا الطريق الشمالى هو الذى أشار اليه البكرى ـ عندما ذكر ان المسافر عبره ـ يتوجه من باغاى نحو فاساس ومنها الى قبر مادغوس ومنها الى بلزمة فنقاوس فطبنة (8)؛ فالطريق بهذا التحديد يكاد يساير فى أغلب مراحله الطريق الرومانى القـديم ، الذى سلكه عقبة بن نافع الفهرى عندما هاجم باغاى وتصدى لمقاومة لمبيز (لمبسة) ليمر بعد ذلك بأراضى الزاب (الحضنة) فى طريقه نحو تلمسان وطنجة (9) ٠

ومما يلاحظ على هذا الطريق أنه أصبح فى هذه الفترة يتحاشى كتلة بلزمة الجبليـة بحيث يلتف حول سفوحها الشمالية ـ الغربية ، مما جعلـه يبتعد بعض الشىء عن خط التحصينات الرومانية « اللمس » المعهود ، بعد أن فقدت مدن ماسـكولا وتمغاد ولمبيز وزانة اهميتها العمرانية وتحولت مع الزمن الى مجرد أنقاض وخرائب ٠

أما أهم المراكز الحضارية الواقعة على هذا الطريق فهى حسب الاهمية ما يلى : **باغاى أو باغاية** ، تعود أهميتها التاريخية الى عهد جستنيان البزنطى ، وقد تعززت مكانتها فى أوائل الفتح بعد ان استقر بها الاروام وجماعات البرابر مع عائلات الجند العربى قبل أن يستولى عليها عبد الله الشيعى عام 294 هـ/906 ـ 907 م ، وقد ذكرها المقدسى ، بقوله : « مدينة كبيرة مسورة تحت جبـل يقال له أوراس يجرى اليـها منه ماء ، كثـيرة البساتين » (10) ، وقد أضاف الى هذا الوصف ابن حوقل العبارات التالية : « وهى

كبيرة وعليها سور أزلي من حجارة ، ولها ربض وعليه سور والاسواق فيه ، وكانت الاسواق قديما فى المدينة فنقلت ، ولها ماء جاء من واد يأتيهم [كذا] من القبلة ومنه شربهم مع آبار لهم عذبة ، ولهم من البساتين الكثيرة مرحلة ، وهو بلد بربرى البادية وأكثر غلاتهم الحنطة والشعير » (11) · ونفس الاوصاف أثبتها لها البكرى (القرن الخامس الهجرى ـ الحادى عشر الميلادى) ، عندما ذكر باغاي بقوله : « فهى مدينة جليلة أولية ذات أنهار وثمار ومزارع ومسارح » (12) ·

لكن باغاى لم تلبث ان انكمش عمرانها وتناقصت أهميتها بعد فتـرة قصيرة ، اذ نجد الادريسى يذكرها بهذه العبارة : « باغاى مدينة كبيرة عليها سوران من حجر وربض وعليه سور ، وكانت الاسواق فيه ، وأما الآن فالاسواق فى المدينة والارباض خاليـــه بافساد العرب لها » (13) · بعدها يندر ذكر باغاى ، اذ لا نجد من يصفها وصفا دقيقا ، باستثناء صاحب الاستبصار (القرن السادس الهجرى ـ الثانى عشر الميلادى) الذى اكتفى بعبارات نقلها من مصادر سابقة مما جعل وصفه لباغاى سطحيا ، فهو يقتصر على هذه العبارات التالية : « مدينة باغاى وهى مدينة عظيمة جليلة فيها آثار للاوائل ولها انهار عامرة وعيون ومزارع ومسارح وهى تحت جبل أوراس » (14) ·

نقاوس : حسب وصف الجغرافيين العرب ، تعتبر المركز الحضـارى الثانى بمنطقة الاوراس اذ تأتى بعد باغاى من حيث الاهمية والشهرة ، وقد حضيت نقاوس بأوصاف حسنة لدى أغلب الرحالة العرب فالمقدسى ينعتها بقوله : « نقاوس باردة بلد الجـوز والثمار الجبلية » (15) ، وابن حوقل يتعرض لها بهذه العبارات التى تدل على المكانة التى كانت لها : « مدينة نقاوس مدينة كبيرة عليها سور من حجارة قديمة ازلية وبها مياه كثيرة واجنة عظيمة وبها جميع الفواكه كاللوز والجوز والكروم وزرعهم غزير كثير » (16) ·

وبذلك يتضح لنا أن أهمية نقاوس تكمن فى خصب اقليمها وجودة محاصيلها ، ولهذا نجد الادريسى بعد وصف ابن حوقل لها بحوالى قرن ، يوردها بهذه العبارة « نقاوس صغيرة » رغم انها حسب وصفه ظلت تشتهر « بكثرة البساتين والاشجار المثمرة كالجوز الذى يتجهز به الى ما جاورها من الاقطار » ، كما أن بها نظرا لهذا الخصب « سوق قائمة

ومعايش كثيرة » (17) . وهذا الوصف الاخير يؤكده لها صاحب الاستبصار بعد ذلك بقوله : « نقاوس كثيرة الانهار والثمار والمزارع كثيرة شجر اللوز ، منها يحمل الى قلعة بني حماد والى بجاية والى اكثر تلك البلاد والله أعلم » (18) .

ولعل أحسن وصف لنقاوس نجده لدى حسن بن الوزان المعروف بليون الافريقي (القرن الخامس عشر الميلادى) الذى أطنب فى وصفها وذكر مميزاتها ، فهى حسب وصفه كانت مدينة محاطة بالاسوار القوية ، يجرى بجوارها نهر عليه مزروعات النبي وأشجار اللور . وقد عقب على هذا الوصف بقوله : « ان تين هذه البلاد مشهور بجودته فى مملكة تونس وهو يحمل الى قسنطينة ، كما ان بقرب تلك البساتين تمتد سهول القمح الخصبة ، أما سكان نقاوس فهم ـ حسب ليون الافريقى ـ اغنياء يشتهرون بالكرم والاناقة مما جعل ملابسهم تشبه ملابس حضر بجاية من حيث الجمال والجـــودة ، كما أصبحت مدينتهم محطة للغرباء الذين طالما وجدوا باحدى مدارس المدينة ضرورات العيش من مأوى ولباس ومآكل ، وهذا ما جعل الكثير من المسافرين والرحالة يأسفون لمغادرة نقاوس والارتحال عنها نظرا لخصال الكرم وحسن الاستقبال الذى تميز به سكان نقاوس .

بعد هذا الوصف يطنب ليون الافريقى فى وصف عمـــران نقاوس مبتدئا بذكر مسجدها الذى كان يتميز بسعة مساحته وحسن تجهيزاته ، ومتطرقا الى الاشارة الى منازلها التى كانت تجمع بين جدرانها حدائق الازهار والورود ، ومعقبـا على ذلك كله بالاشارة الى جمال نســـــاء نقاوس اللاتي كن يتميـــزن ببياض بشرتهن وســـواد شعورهن (19) .

بلزمة : تأتى فى درجة ثالثة من حيث الاهمية ـ وهى مدينة محصنة تشرف على المناطق المجاورة لها ، وتتحكم فى الجهات القريبة منها ، وهى لذلك كثيرا ما وصفها الجغرافيون العرب بأنها حصن ، مثل وصف ابن حوقل لها بقوله : « مدينة بلزمة حصن لطيف فيه رجال جلد وله ماء جار وهى فى وسط فحص عليه سور وتراب وزروعهم تسقى بمائهم ... وهو من الرخص والسعة وكثرة الكراع والماشية والعز والمنعة فى غاية حسنة » (20) ؛ ونفس الوصف يثبته لها البكرى اذ يقول : « بلزمة حصن أولى ، وهى فى بساط من

الارض كثيرة الانهار والثمار والمزارع والقرى » (21) ؛ لكن أحسن وصف لها نجده لدى الادريسى الذى يخصها بهذه العبارات التالية : « حصن بلزمة ··· وهو حصن لطيف وفى أهله عز ومنعة ولها ربض وسوق وبها آبار طيبة وماؤها أيضا غدق ، وهو فى وسط فحص أفيح وبناؤه الحجارة الكبار القديمة ، ويذكر أهل تلك الناحية أنه من أيام السيد المسيح ، وهذا السور يراه الراؤون من الخارج عاليا والمدينة ذاتها مردومة بالتراب والاحجار ، فاذا نظر الناظر الى السور من خارج رأى سورا كاملا واذا دخل المدينة لم يجد لها سورا لأن أرض الحصن مساو للشرفات وهى مردومة كما ذكر وهذا غريب فى البناء » (22) ·

كل هذه الاوصاف تؤكد لنا ان بلزمة كانت اقرب الى حصن للمراقبة منها الى المدينة العادية ، ولعل هذا ما جعلها تلعب دورا هاما فى احداث العصر الوسيط ، فحولها تقرر مصير الدولة الاغلبية اثر المعركة الكبيرة التى سمحت لابى عبد الله الشيعى ان يهزم القائد الاغلبى ابن حبيش ويستولى على حصن بلزمة ، وبالتالى التمكن من اخضاع باغاى وطبنة ودفع فلول الاغالبة الى الشرق (292 هـ ـ 907 م) (23) ·

دار ملول : وهى من المراكز العمرانية التى لم تحافظ طويلا على ازدهارها ، بحيث انها ما لبثت ان تحولت الى خرائب ، حتى اننا الآن لا نعرف موقعها بالضبط ، رغم ان الادريسى يحدد موقعها بمرحلة كبيرة الى الشرق من مقرة وسط سهول زراعية فسيحة ، وقد وصفها ابن حوقل بأنها : « مدينة قديمة رزحت أحوالها وصارت منزلا ينزله المجتازون » بحيث أصبح قبل اندثارها عبارة عن حصن مراقبة ومحطة للقوافل بدليل ان ابن حوقل يعقب على وصفه السابق بهذه العبارة : « وفيها مرصد قديم على جميع ما يجتاز بها وماؤها من عين بها مرحلة » (24) ، كما أن الادريسى يذكرها بهذه العبارات : « دار ملول كانت فيما سلف من الدهر مدينة عامرة وأسواق قائمة ··· وفيها حصن مطل فيه مرصد من البلد ينظر الى مجال العرب فى بلادهم ويتطلع منه الى ما بعد من الارض ، وشربهم من ماء عيون بها جارية ، وجبل أوراس منها على مرحلة » (25) ·

دوفانة : تعود أهميتها الى كونها احدى محطات طريق السفوح الشمالية ، ولهذا أغفل ذكرها أغلب الجغرافيين العرب ، فلم يتعرض الى ذكرها سوى القليل منهم مثل

ابن حوقل الذى أشار اليها فى معرض وصفه لمراحل طريق السفوح الشمالية بقوله : « دوفانة قرية فى جبل أوراس لها سكان من اللهان ، وكان البلد لهم ولبنى عمهم من اللهان مرحلة » (26) .

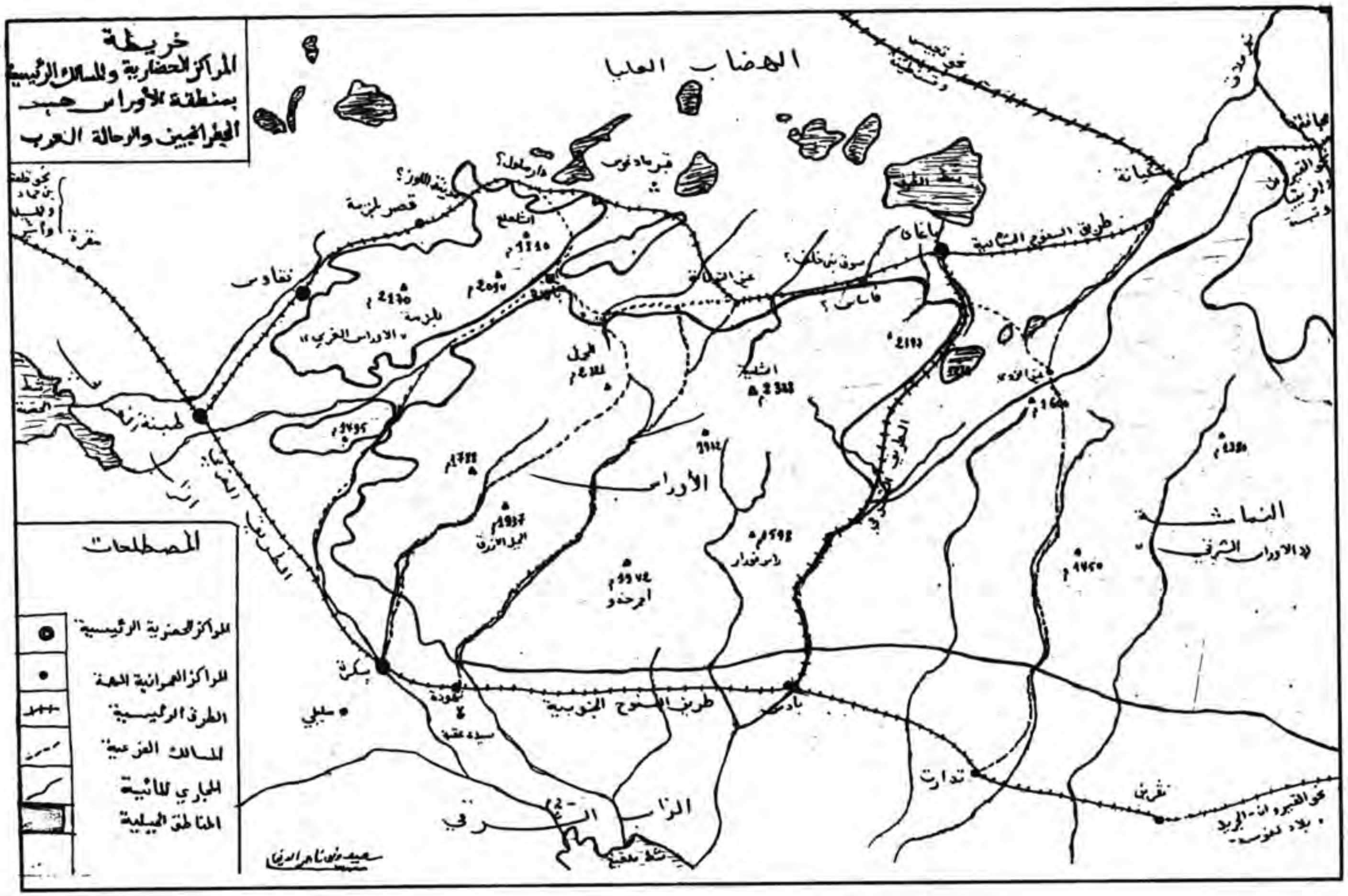
ومن المراكز العمرانية الاخرى على طريق السفوح الشمالية، مدينة فاس التى أشار اليها البكرى بقوله : « مدينة فاساس على نهر فى غربها جبل شامخ » (27) ، وهذا ما يرجح ان موقعها الحالى كان قريبا من قرية قايس الحالية ، لا سيما وان البكرى يحدد هذا الموقع بانه يقع ما بين باغاى وبلزمة ؛ ويضاف الى هذه المدينة مراكز عمرانيه أخرى مثل سوق بن خلف وعين العصافير وقصر مادغوس « مدراسن الحالية » ومدينـــة اللوز الواقعة الى الشرق من حصن بلزمــة حسب ما يورده البكرى فى ســياق عرضـــه عن الاوراس (28) .

ب ـ طريق السفوح الجنوبية المتاخمة للزيبان :

يساير هذا الطريق فى أغلب مراحله الطريق الرومانى الذى يلتف حول الاوراس من الجهة الجنوبية المتاخمة لمنخفضــات الزيبان . مشكــلا فيما مضى خط تحصينات اللمس «Limes et Fossotum africae» الذى بلغ أقصى توسعه فى المناطق الجنوبية من الاوراس عند انشاء المعسكر الكبير بجمليلى«Castellum Dimmidi» جنوب واحة ورلال الحالية ، وذلك فى عام 126 م على عهد الامبراطور الرومانى هدريان (29) .

ويربط هذا الطريق الجنوبى حسبما نستنتجه من كتب الرحالة العرب مدن طبنة وبسكرة وتهودة وبادس وتامديت (تديرت) ومدالة وأخيرا نفطة بالجريد (30) ؛ وقد ذكر بعض اجزائه البكرى بقوله : « الى مدينة بنطيوس ـ وبجوفى بنطيوس طولقة ـ ومن بنطيوس الى بسكرة الى تهوذا مدينة السحر ، الى مدينة بادس الى قيطون أول بلد سماطة الى نفطة » (31) .

أما أهم المراكز العمرانية الواقعة على هذا الطريق فهى حسب الاهمية بسكرة وتهودة وبادس ، ورغم ان هذه المدن تقع بمنطقة الزيبان التى وصفها صاحب الاستبصار بأنها مدن كثيرة وانظار واسعة وعمائر متصلة فيـــها المياه الســـــائحة والانهار والعيون الكثيرة » (32) ؛ الا أننا نذكر عنها بعض الاوصاف حتى يكتمل الاطار الحضارى للاوراس


خريطة
المراكز الحضارية والمسالك الرئيسية
بمنطقة الأوراس حسب
الجغرافيين والرحالة العرب
الهضاب العليا
الأوراس
النمامشة
الأوراس الغربي
بسكرة
باغاي
نقاوس
طبنة
بادس
تهودة
تبسة
مليلي
تدارت
طريق السفوح الجنوبية
طريق السفوح الشمالية
الطريق الغربي
المصطلحات
المراكز الحضرية الرئيسية
المراكز العمرانية الهامة
الطرق الرئيسية
المسالك الفرعية
المجاري المائية
المناطق الجبلية

بسكرة : التى ذكر عنها البكرى بأنها : « كورة فيها مدن كثيرة وقاعدتها بسكرة ... وتعرف ببسكرة النخيل » (33) وقد خصها ياقوت الحموى بهذه العبارة : « بسكرة هى مدينة مسورة ذات أسواق وحمامات ، وأهلها علماء على مذهب اهل المدينة ، وبها جبل ملح يقطع منه كالصخر الجليل ، وتعرف ببسكرة النخيل » (34) .

وعقب على ذلك ابو الفداء اسماعيل صاحب حماة فى تقـــويم البلدان نقلا عن ابى سعيد المغربى : « ان بسكرة بلاد ذات نخيل وزروع كثيرة ومن بســـكرة يجاب التمر الطيب الى تونس وبجاية » (35) .

طبنة : مركز الزاب الغربى وهى تماثل بسكرة فى الاهمية والشهرة ، ولهذا نكتفى بوصف صاحب الاستبصار لها بقوله : « طبنة تشتهر ببساتينها وكثرة نخيلها وثمارها ، كما كان يتخللها نهر يجرى وسط غاباتها » (36) .

تهودة : ثانى مدن الناحية ، وصفها صاحب الاستبصار بقوله : « حديقة أزلية عليها سور عظيم مبنى بالحجر الجليل ولها رياض كثيرة ولها ارباض كثيرة ، يدور بجنبها خندق ولها نهر كبير ينصب اليها من جبل أوراس » (37) . بينما البكرى ، يذكر عنها بأنها : « مدينة السحر ، واعداؤها هوارة ومكناسة ، اباضية وهم بجوفها » (38) . وعلى كل فان تهودة لم تحافظ على عمرانها بعد القرن الحادى عشر تاركة مكانتها لقرية سيدى عقبة القريبة منها والواقعة حول ضريح المجاهد عقبة بن نافع الفهرى «ض» .

أما باقى المراكز العمرانية بالاقاليم الجنوبية للاوراس والتى يرتبط أغلبها بطريق السفوح الجنوبية ، فنذكـر منها حصـــن بادس الذى عـــرفه ياقوت الحمـــوى ببادس الزاب ، (39) وحصن بنطيوس الذى ذكره المقدسى بقوله بنطيوس تقيوس مدينـــة القصر (40) ، وكذلك مليلى وجمونة وملشون وطولقة ، وهذه المراكز الاربع الاخيرة تقع على مسالك متفرعة من طريق السفوح الجنوبية .

جـ ـ المسالك الرئيسية الرابطة بين شمال وجنوب الاوراس :

أهمها مسلكان أحدهما شرقى يصـــل باغاى ببادس والآخـــر غربى يربط نقاوس ببسكرة ، وقد ذكر الطريق الاول من طرف البكرى بهذه العبارة : « وبين باغاى الى بلدة بسكرة أربعة أيام ... وفى الطريق الى بسكرة جبل يعرف بزيغيزى ، فى وسطه كهف

فيه رجل قتيل لم يغيره قدم الزمان ولا تقادم الدهور » (41) · وهــذا المسلك الشرقى حسب هذا الوصف يكون نفس الطريق الرومانى الذى كان يحاذى واد العرب ، كما أن جبل زيغيزى لا يعدو ان يكون جبل شاشار أو جبل برقة المقابل له من الجهة الغربية ·

أما المسلك الآخر الواقع الى الغرب والـرابط بين نقاوس وبســكرة ، فقد ذكره الادريسى فى معرض كلامه عن المنطقة بقوله : « ومن مدينة نقاوس الى حصن بادس وهو فى أسفل جبل أوراس » (42) مكتفيا بهذه الاشارة الخاطفة ، مما يجعل الباحث يتساءل عن تحديد هذا المسلك ، هل انه يربط نقاوس بحصن بادس مباشرة دون المرور باحدى المراكز العمرانية الهامة ، ام انه يمر على طبنة وبسكرة قبل ان يبـلغ بادس ، وعلى كل فانا نرجح الاحتمال الاخير لا سيما وان المسلك المباشر عبر خوانق القنطرة لم تعد تشير اليه المصادر منذ نهاية العهد الرومانى ، فضلا على أن الادريسى يقدر المسافة بين نقاوس وبسكرة ثلاث مراحل (43) مما يرجح ان المسلك لابد ان يمـر أولا عـلى كل من مدينتى طبنة وبسكرة قبل ان ينتهى عند بادس الزاب ؛ باعتبار المدينتين من المراكز العمرانية الرئيسية بالمنطقة التى لا يمكن لاى مسافر ان يتحاشاهما فى طريقه هذا ··

ويضاف الى هاذين المسلكين مسالك فرعية أخرى لم تتناولها المصادر ولم يشر اليـها الرحالة ، كانت تربط شمال الاوراس بجنوبه بدليل ان جلها كان مستعملا منذ العهد الرومانى ، وهذا ما جعلنا نثبتها فى الخريطة الملحقة بالمقال ·

بعد هذا العرض الموجز للاطار الجغرافى والحضارى لمنطقة الاوراس عشــية تعرضها لتحولات اثرت على المقومات الاقتصادية والشروط الطبيعية والنشاط البشرى لا ســيما أثناء الفترة العثمانية التى تبتدىء بالقرن السادس عشر وتستمر لغاية الثلث الاول من القرن التاسع عشر الذى عرفت فيه الجزائر الاستعمار الفرنسى الذى زاد الاوضاع سوءا فى المنطقة الاوراسية ، مما ترك آثارا سلبية لا زالت يشكو منها الاوراس حتى الآن رغم جهود التنمية الوطنية وسياسة محو الفوارق الاقليمية ·

وهنا نحاول ان نتعرف أولا عن العوامل التى أدت الى هذا التحول الســلبى الذى أصبحت تعيشه الاوراس ، هذه العوامل التى نوجز بعضها فى ما يلى من النقاط :

أولا : **الأثر المدمر للحروب والثورات التى اجتاحت منطقة الاوراس** : منـــذ عهـد قديم ، والتى بدأت آثارها السلبية على المنطقة تنعكس على نوعية الحياة مع مرور الزمن لا سيما بعد ان تكاثر عددها وزادت حدتها منذ انهيار الحكم الرومانى وحتى قدوم الهجرة الهلالية ، وقد سبق ان ذكرنا بعضها فى مستهل هذا البحث نظرا لاهميتها فى تاريـخ المقاومة الوطنية بالمنطقة مثل ثورة بيداس التى نشرت الخراب والدمار واشاعت النهب والفوضى خاصة بالمناطق المحيطة بالاوراس. وكذلك أعمال الكاهنة التىأرادت من خلالها حسب رواية أغلب المؤرخين ، ابعاد الخطر العربى بتدمير المنطقة واشاعة الخراب بها ، ويضاف الى ذلك اسلوب ابى يزيد صاحب الحمار فى مقاومة الحكم الشيعى الفاطمى ، والذى انجر عنه تخريب قرى وسهول المنطقة الاوراسية وبالخصوص نواحى باغاى منها (44) . هذا بالاضافة الى طبيعة النزاع العشائرى لقبائل زناتة المتحالفة مع العشـائر الهلالية الذى ترك هو الآخر آثارا مدمرة على اقتصاديات المنطقة ، بدليل ان بعض الجغرافيين أشاروا الى ذلك كالادريسى مثلا ذكر : « ان ارباض باغاى كانت خالية بافســاد العرب لها » (45) ، وكانت هذه الجهات قبل ذلك قرى وعمارات متصلة .

ثانيا : **تغلب طابع البـــداوة على أغلب جهات أوراس** ، لا ســـيما الجهات الشرقية والجنوبية والجنوبية الشرقية ، وقد كان هذا الوضع المضر بالحياة الحضرية نتيجة حتمية للسياسة التى انتهجها الرومان عند احتلالهم للمنطقة ، هذه السياسة المتميزة بأسلوب الاستعمار الزراعى المعزز بسلسلة من الحصون والخطوط الدفاعيـــه (اللمس) والتى كانت تهدف اساسا الى طرد البدو من مناطق الهضاب العليا وتعقبهم حتى تخوم الزيبان، وهذا ما نتج عنه مع مرور الوقت تكاثر جموع البدو وراء خط اللمس الرومانى ابتـــداء من جنوب تونس وطرابلس وحتى حصن مسعد Castellum Dimmidi وهذا ما شـــكل ضغطا بشريا هائلا وجد فى انهيار السلطة الرومانيـــة تدريجيا بالمنطقة فرصة سانحة للتزحزح نحو الشمال وتحويل جهات شاسعة من الاوراس الى سهوب رعوية ، لا سيما بعد أن تزعمت هـذا التحـــرك البشرى قبيلة لواتة وعلى رأسها زعماؤها مثل انتلاس وكوترنياس (46) ، وبالفعل بدأت آثار هذه الهجرة البشرية السلبية تظهر للعيان عندما تحركت عشائر كثيرة من زناتة أثناء العهد البيزنطى لتحتل الجهات الشرقية والجنوبية من

الاوراس ولتتجاوزها نحو الجهات الشمالية والغربية ، يساعدها في ذلك الفراغ السياسي الذى أصبح يعيشه الاوراس ، وهكذا تغلب طابع البداوة بصفه خاصة على نواحي الحضنة (الزاب الغربى) وعلى جزء كبير من الهضاب العليا (السباخ) حيث تتوفر الظروف الملائمة للحياة الرعوية .

ورغم الفتح العربى وسياسة الولاة العرب والحكام الاغالبة الرامية الى ابقاء الاوضاع كما هى قدر المستطاع الا أن تحرك زناتة الذى عززته انتفاضة الخوارج ، استمر حتى القرن السابع الميلادى ، الذى شهد بلوغ هذه العشائر البدوية المناطق الوسطى من الاوراس والانحدار منها نحو سهول باغاى الذى استوطنها آنذاك بطون هوارة الاباضية من ضريسة ومزاتة واصبحت مجالا للرعى تنتقل عبره هذه البطون بين جهات الصحراء ونواحي الهضاب العليا (47) .

كل هذا يدفعنا الى طرح الفكرة الشائعة التى ليس لها أساس من الصحة والقائلة بأن الهجرة الهلالية هى السبب الرئيسى فى تغلب الطابع البدوى على الجهات المتاخمة للصحراء من بلاد المغرب العربى ؛ لان كل ما فى القضية هو أن عشائر الهلاليين التى بلغت المنطقة فى القرن الحادى عشر الميلادى كانت خير سند للقبائل الزناتية فى تعزيز سيطرتها على المراعى والوقوف فى وجه منافسيها من صنهاجة وكتامة ، وقد كان لهذا الحلف الواقعى المستمد قوته من طبيعة الحياة اليومية خير وسيلة لتسهيل عملية امتزاج الهلاليين بالزناتيين مكونين بطون رئيسية اسمها عربى وأصولها مغربية بطون الاثبج التى أصبحت لها السيادة على الحضنة والزيبان ، وفروع الدواودة المنتمين الى رياح والذين أصبحت لهم الكلمة المسموعة على مناطق شاسعة تمتد من واد ريغ والزيبان الى نواحي مجانة فى أقصى الشمال الغربى للهضاب العليا ، هذا فى وقت أصبحت فيه اسرة بنى مزنى تحكم بسكرة وجهات واسعة من الزيبان من القرن الثالث عشر الى القرن الخامس عشر ، كل هذا عمل على تغيير الاوضاع بالاوراس ، وبالتالى لم يعد هناك مجال للأخذ بالفكرة التى ترى ان هناك تغيرا مفاجيء للشروط الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية والتى حاولها بعض الدارسين الاخذ بها من خلال دراساتهم الجغرافية ذات الطابع التاريخى مثل بيار سلامة ، صاحب اطروحة المسالك الرومانية بافريقيا الشمالية (48) ، وقوتى

صاحب كتاب العصور المظلمة من تاريخ افريقيا الشمالية (49) ، وجـان دى بوا الذى أرجع هو الآخر هذا التغير فى الآثار المدمـــرة للحملة الهلالية فى دراســـته الجغرافية والتاريخية للمنطقة المتاخمة للصحراء الشرقية (50) ·

ثالثا : **شيوع الحياة العشائرية بالمنطقة الاوراســية** ، مما جعل العلاقات الاجتماعية تتصف بالخشونة والقسوة ، وتتميز بالعداء والتناحـــر الذى جعل أهالى الاوراس على استعداد دائم لمواجهة المهاجمين دفاعا عن استقلالهم وذودا عن مواطنهم ، وهذا الواقع الذى أصبح يعيشه سكان هذه الجهة هو الذى دفع بعض الكتاب الى الصـــاق الصفات المستهجنة واطلاق العبارات القاسية التى كثيرا ما تجاوزت جادة الصواب ، مثل وصف ابن حوقل لسكان الاوراس : « بأنهم قوم سوء ··· وبانهم متسلطون على من جاورهم من البربر وغيرهم ··· فهلكوا وأتى الله بنيانهم من القواعد » (51) ونفس الفكرة يحملها عنهم الادريسى الذى وصف طبيعة الحياة العشـــائرية لاهالى الاوراس بقوله : « جبل أوراس ··· وفى أهله نخوة وتســـلط على من جـاورهم من الناس » (52) ، أما ليون الافريقى فانه يتحامل عليهم كثيرا بسبب اسلوب معيشـــتهم فهو يصــفهم بانهم كانوا مشهورين بالسرقة وارتكاب اعمال القتل رغم ان ذكاءهم محدود » (53) ·

لكن الواقع عكس ذلك ، لان الوضعية الاجتماعية والحالة الاقتصادية التى كانت عليها الاوراس جعلت المحافظة على المياه وحيازة مجال الرعى ضمن رباط العشيرة أمر حيوى بل شيء مقدس فى حد ذاته لا يمكن التفريط او التســـاهل فيه دون الالتجاء الى القتال واستعمال القــوة ·

رابعا : **تلاشى السلطة الادارية وغياب الحكم المركزى بمنطقة الاوراس** :

وذلك منذ عهد مبكر قد يعود الى فترة الحـكم الفاطمى للمنطقة (906 ـ 969 م) مما أدى الى تعزيز النزعة الاستقلالية لدى ساكنى الاوراس ، وبالتـــالى ساهم فى اضعاف الصلات التجارية والروابط البشرية بين الاوراس وبقية الجهات الاخرى ، وهذا ما لفت انتباه بعض الرحالة والجغرافيين الذين أشاروا الى ان باغاى مع كونها المركز الرئيسى للمناطق الشرقية من الاوراس كانت منذ عهد باكر مستقلة بشؤونها ، فابن حوقل فى

هذا الصدد يذكر بأن : « باغاى عاملها على صلاتها ومعادنها ووجوه أموالها عامل بنفسه لا من تحت يد أحد » (54) ، كما أن الادريسى هو الآخر يذكر بعد ذلك بقرن « أن باغاى ، قبض معادنها وتصرف أحوالها لمشايخها » (55) ؛ اما ليون الافريقى فانه يشير الى أن سكان الاوراس قد اعتادوا التستر على الطرق والمسارب المؤدية الى مواطنهم الجبلية الحصينة ، بعد ان امتنعوا عن عقد أى صلات مع سكان المناطق المجاورة لهم ، وذلك خوفا من تعسف الامراء وظلم الحكام المعادين لهم (56) .

وهكذا تعزز استقلال المنطقة الاوراسية ، بحيث ان الحفصيين رغم مد نفوذهم الى كل من بجاية ودلس وبسكرة ، الا أنهم لم يتمكنوا من بسط نفوذهم على الاوراس ، وذلك رغم المحاولات المتكررة التى انتهى أغلبها بالفشل الذريع ، مثل الحملة التى قام بها الحاكم الحفصى أبو فارس أحمد بن أبى العباس ، التى أوردها ابن قنفد القسنطينى فى فارسيته بهذه العبارات : « وفى هذه السنة (ثمانمائة هجرية) كانت وقيعة الاوراس بوصول أمير المؤمنين (أبو فارس أحمد) الى مكان لم يصله ملك غيره وهو اقصى الجبل ، واخطا المنصرفون من الجند طريق الخروج وراصدهم البرابر فى الشعب وفى بطن الوادى لولا ان أمير المؤمنين ثبت حتى انصرف أكثر الناس » (57) .

بمثل هذه المقاومة بقيت المنطقة الاوراسية ممتنعة حتى أثناء العهد العثمانى الذى شهد هو الآخر شن حملات سواء من بايليك قسنطينة او من الايالة التونسية وذلك للحد من الغارات التى كان يتعرض لها العديد من المسافرين والحجاج فى طريقهم من المغربين الاقصى والاوسط نحو بلاد الجريد ومنها نحو اقطار المشرق العربى ، ونذكر فى هذا السياق احدى الغارات التى تعرضت لها المنطقة على يد أحد حكام الايالة التونسية من أجل تأمين الطرق التجارية ، وتتلخص أحداث هذه الغارة فى أن عشائر النمامشة امتنعوا عن تقديم رسوم مقابل اختلافهم الى البلاد التونسية وتعاملهم مع اسواق الجريد ، ثم انتهى بهم الامر ان تعرضوا لركب حجيج فاس سنة 1164 هـ (1750ـ1751) ، وهذا ما دفع على باشا بن على التركى حاكم تونس الى تجهيز حملة انتقامية ضدهم بعد ان استغاث به هؤلاء الحجاج حتى يرد لهم ما سلب النماشة من خيل وابل وأحمال وأموال ؛ وقد اثبت ابن ابى الضياف فى كتابه الاتحاف وصفا دقيقا لهذه الغارة نقتبس منه هذه

العبارات : « وامتلأت ايديهم (يعني النمامشة) من أموال بيت الله ومسكن رسالته وتوزعوه بينهم ... فارسل اليهم وفدا فحبسوه وامتنعوا واغلظوا في الرد ... فعزم على غزوهم فخرج اليهم بمحلة عظيمة استوعب فيها المزارقية ، ومحلة الترك عليها ابنه سليمان ، وابنه يونس في محلة صغيرة ... وطار لهم من توزر وصبحهم ، واجفلوا أمامه والخيل تأخذ باعناقهم وتجافلهم حتى الخنقة فسرح لهم الاعراب والجنود فآستأصلتهم » ... وقد مدح ابو عبد الله الورغي بهذه المناسبة الباي بقصيدة جاء فيها :

دعتـــه جبـــال الزاب لما تبســـطت يــد الظـلم في أوســاطها والجوانب .
شكت ناعم الاعشـــاش أقوام غلظة وبأس شـــديد بالحليـــقة واصب .
وقد جرعوا الاقيال في الحرب غصـــة لـوت بصيـاصي تركهـم والاعــارب .
فما رفعوا رأســـا لهم بعــد وقعـــة أشابت بفج «أمغيل» سود الذوائب(58)

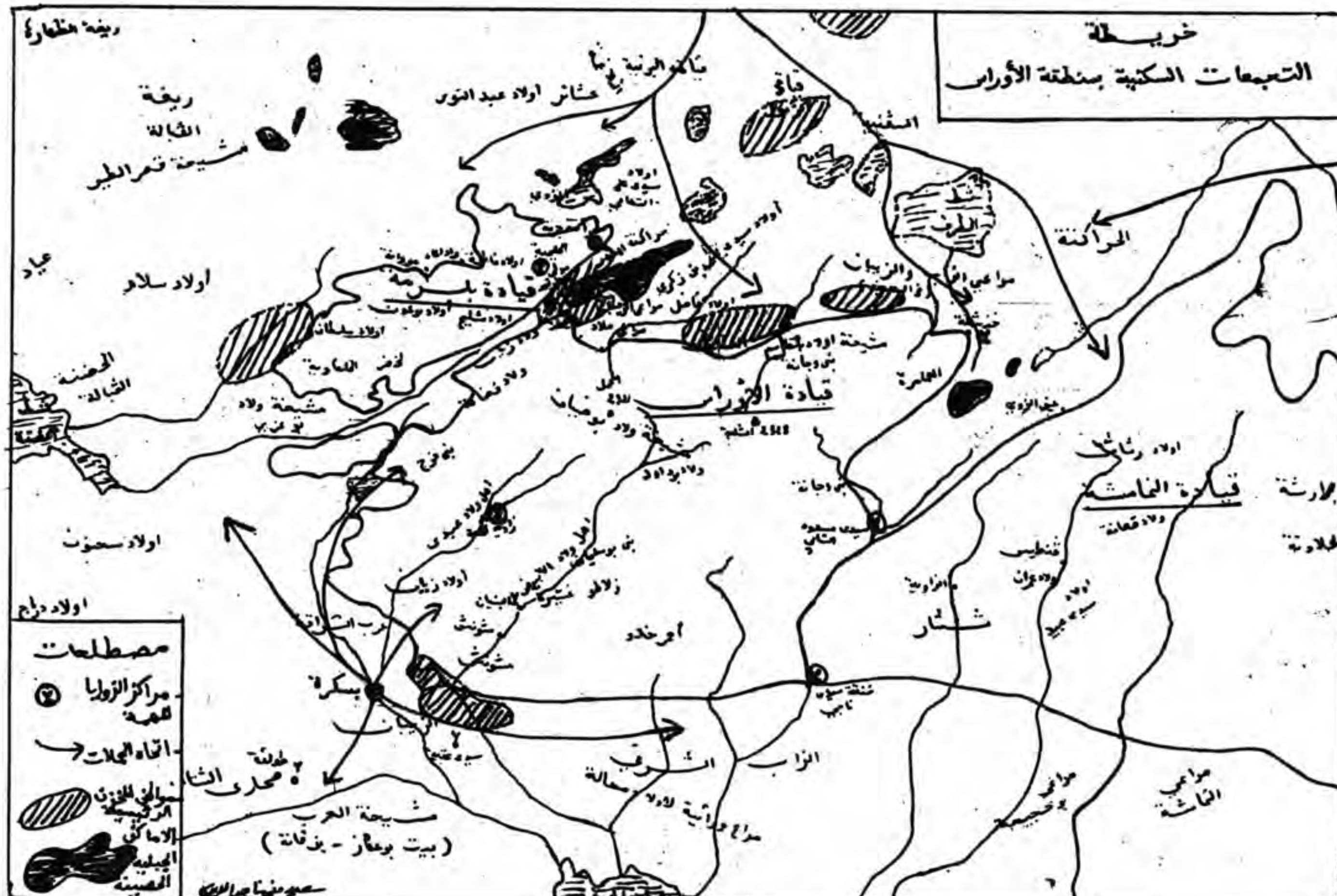
كل هذه العوامل السابقة عملت على ابقاء الاوراس محتفظا بوضـــعه الخاص المتميز باستقلال داخلي ، مما جعل الادارة التركية لبايليك الشرق تلجأ لاقرار هيبتها وتأكيـد سيطرتها على المناطق الجبلية من الاوراس الى انتهاج عدة أســاليب ادارية واجـــراءات حربية نجملها في هذه النقاط :

1 ـ **اقرار الحاميات العسكرية** المكونة من الجنود الاتراك « النوبة » بالمدن الرئيسية القريبة من اقليم الاوراس ، مثل حامية تبسة المكلفة بمهمة مراقبة تحركات النمامشة ، وحامية بسكرة التي خولت لها صلاحيات مراقبة الجهات الجبلية حول المنعة ومشـــونش والخنقة والقنطرة ، بالاضافة الى حامية مركز البايليك بقسنطينة التي كانت تقوم باقرار الهدوء بالهضاب العليا الجنوبية « السباخ » وبالتوجه الى الجهات الشـــمالية والشمالية الشرقية من الاوراس بحملات تأديبية عرفت عند السكان بمحلتي الخريف والربيع .

2 ـ **العمل على تنصيب عشائر المخزن في الاماكن المهمة بالاقليم** ، قصـــد مراقبة السكان والحيلولة دون اندلاع ثورة قد يكون فيها خطـر على ســـلطة البايليك بالمناطق الاخرى من الشرق الجزائري ، وقد تأكدت أهمية هذه القوة الحربية التي يتكون أغلب فرسانها من العشائر الحليفة للاتراك ، التي أصبح لها دور هام بالمنطقة منذ عهد صالح

باى (1792/71) اذ حسب المعلومات المتوفرة نذكر من بين هذه القبائل المخزنية : مخزن قبيلة الزمول التى اقتطعت الاراضى الصالحة للزراعة والرعى ليتمكن من حراسة الممرات الجبلية بنواحى باتنة حتى تظل طريق بسكرة مفتوحة امام تحركات الحاميات التركية ، فضلا عن ان هذا المخزن كان يشرف على مراقبة كتلة بلزمة الجبلية الحصينة ؛ وكذلك قبيلة مخزن الصحارى التى كانت تحرس الجهات الشمالية والشرقية لبسكرة ، ومخزن عشيرة الاعشاش بزعامة عائلة بن سديرة الذى كان يجوب السفوح الشمالية للاوراس ابتداء من رأس أسرذون « بمحاذاة خنشلة الحالية » الى نواحى بوعريف موطن هذه العشيرة المخزنية التى طالما وجدت المساندة للقيام بمهمتها لحراسة هذه الجهات من فرسان الحراكتة وأولاد فاضل (59) أما فى الجهات الغربية للاوراس ، فهناك فرسان مخزن ابن دايخة الذى كلف بحراسة السفوح الجنوبية ألغربية حيث تنتشر قبائل أولاد سلطان القوية (60) · يعاضدهم فى ذلك رجال قبيلة بنى يفرن الذين منحوا الاراضى الواسعة لهذا الغرض من طرف البايليك (60 مكرر) ·

3 ـ **تدعيم المشيخات الوراثية المتعاملة مع البايليك** ، هذه المشيخات التى اصبحت الطابع المميز لارياف الشرق الجزائرى بعد أن هيمنت منذ عهد متقدم من الحكم التركى على ثلثى بايليك الشرق بما فيها الاوراس ، مما اضطر معه حكام البايليك ان يتعاملوا معها لصالحهم ، ففى المنطقة الاوراسية نجد العديد من هذه المشيخات مثل مشيخة أولاد بوعزيز ، بجهات بلزمة الى الشرق من بريكة ، ومشيخة أولاد عبدى بجهات المنعة ، ومشيخة أولاد بوضياف بالاوراس الاوسط والشمالى ومشيخة أولاد بلقاسم بنواحى الشلية ، هذا بالاضافة الى الاحلاف القبلية الكبرى بالمناطق الجبلية مثل حلف البرابر بنواحى مشونش الذى وجد المساندة والتأييد من بيت بوعكاز بالزيبان ، وحلف الاعشاش وحلف أولاد خيار · وذلك فضلا عن المشيخات المجاورة المرتبطة بالحكام الاتراك مثل مشيخة العرب « بيت بن قانة » بالزيبان ، ومشيخة قصر الطير بالهضاب العليا الغربية ، واحلاف اولاد عبد النور والحراكتة التى كان على رأس فرسانها بعض القادة من رجال البايليك المشهورين مثل صالح باى الذى تولى قيادة حلف الحراكتة قبل ان ينصب بايا على قسنطينة ·



خريطة
التجمعات السكنية بمنطقة الأوراس
مصطلحات
مراكز الزوايا المهمة
اتجاه الحملات
الأماكن الجبلية المحصنة
قيادة بلزمة
قيادة الأوراس
قيادة النمامشة
بسكرة
اولاد سلام
اولاد سحنون
اولاد دراج
الحراكتة
الزاب الشرقي
الزاب
شيخة الحرب
(بيت بوعكاز - بن قانة)
شيخة ثمر الطير
ريغة
الشالة
ريغة ظهارة
عياد
الحضنة
اولاد رشاش
مراعي النمامشة
شيخة اولاد شليح

4 ـ **السعى للحصول على تاييد ومساندة شيوخ الزوايا ومرابطى الطرق الدينية ،** نظرا لما كانوا يتمتعون به من نفوذ قوى وكلمة مســـموعة فى الجهات الجبليـــة داخل الاوراس ، وذلك عن طريق منح الامتيازات لمثل هؤلاء الشيوخ والمرابطين مثل اسقاط المطالب المخزنية ومنح الاقطاعات وتقديم الهدايا واصـدار الفرمانات ، ولعل أحسن شاهد على ذلك نجده فى رسالتين عثرنا عليهما مؤخرا ، احداهما اصدرها الباى محمد (سنة 1241 هـ ـ 1825 م) والاخرى وجهها الحاج أحمد باى فى عام (1242 هـ ـ 1827 م) الى احدى العائلات ذات النفوذ والتأثير بمنطقة بلزمة (61) ، مما يظهر لنا طبيعة العلاقات بين رجال البايليك وشيوخ الزوايا بالاوراس ، ففى مقابل الامتيازات كان هؤلاء المرابطين يحرصون على تقديم خدمات للادارة التركية ، والقيام بدور المدافع عن مصالح البايليك ، ففى هذا الصدد نورد على سبيل المثال ان مرابطى زاوية بن عباس بالمنعة كانوا يعملون على تأمين الطريق عبر مضايق واد عبدى ، حتى تتمكن الحامية التركية ببسكرة « النوبة » من تجديد أفرادها بعد انتهاء مدة الخدمة العسكرية وذلك رغم حالة التمرد التى كان عليها سكان تلك الجهة (62) .

5 ـ **شن الحملات الانتقامية المفاجئة فى بعض الاوقات** ، وذلك عندما لا يجد الحـكام مفرا من استعمال هذا الاسلوب لفرض نفوذهم على السكان واستخلاص بعض الرسوم والضرائب ، فبغض النظر عن الحملات الفصلية الاعتيادية « المحلات » كان بعض البايات يقومون بحملات واسعة النطاق يتعقبون اثناءها العشائر الممتنعة ، وغالبا ما تنتهى هذه الحملات بالحصول على الغنائم الوفيرة والثروات الطائلة ، مثل حملة شاكر باى عام 1817 ، على مناطق النمامشة ، مما اضطر هؤلاء السكان الى الهروب امامه وبالتالى لم يتمكن من اللحاق بهم مما دفعه الى الانتقام مـــن جيرانهم قبائل سيدى عبيد (63) ، وحملة الباى ابراهيم بن على عام 1822 ، على قبائل النمامشـــة كذلك ، وقد تمكن هـذا الباى من الاستحواذ على أربعين ألف رأس من الغنم حسب بعض المصادر (64) . كما نذكر من هذه الحملات ، حملة الباى مصطفى الوزناجى عام 1797 على عشائر الحراكتة والتى انتهت باخضاعهم والحصول منهم على غنائم ضخمة ، ولم يكتف بذلك بل أعاد الكرة عليهم مما مكنه من الاستحواذ على مغانم أخرى (65) وقد كانت هذه الحملات الكثيرة سببا مباشرا

في اعلان العصيان والقيام بثورات عديدة من طرف بعض القبائل الاوراسية في أواخر العهد التركي ، مثل الثورات المتكررة التي عرفتها الجهات الشرقية والوسطى من الاوراس من 1818 الى 1823 ، والتي نتج عنها اضعاف سلطة البايليك في هذه الجهات .

وعلى كل فان هذه الوسائل التي اتبعها الحكام وما نتج عنها من ثورات جعلت الوجود العثماني بالاوراس يتميز بفترتين متعاقبتين ، أولاهما ابتدأت مع تحكم الاتراك ببايليك الشرق وانتهت بتولي صالح باي مقاليد بايليك قسنطينة سنة (1771 م) ، والمرحلة الثانية تبتدىء مع حكم صالح باي وتستمر حتى سقوط قسنطينة في يد الفرنسيين (13 اكتوبر 1837) ، ولعل أهم ما يميز الفترة الاولى ـ التي لا نعرف عنها الا القليل لندرة مصادرها ووثائقها التاريخية ـ هي محاولة أغلب البايات اقرار الاوضاع في المناطق الجبلية كما كانت عليه قبل ذلك ، وذلك بانتهاج سياسة مهادنة معتمدة على خلق احلاف محلية تستند الى نفوذ العائلات الاقطاعية ورجال الدين نظرا لكون مصالح هذه العائلات تتماشى مع مصالح الحكام الاتراك ، أما المرحلة الثانية ـ التي لا تخلو من المصادر ـ فانها تتميز بانتهاج سياسة تعتمد في أساسها على الوسائل العديدة التي التجأ اليها الحكام والتي سبقت الاشارة لها .

أما الاطار الاداري الذي مارست بواسطته هذه السياسة صلاحياتها فهو يتمثل في خلق قيادات محلية تشمل جهات شاسعة من الاوراس ، وهذه القيادات هي كالتالي :

1 ـ **قيادة الاوراس** ، تتالف من الجهات الجبلية الوسطى الواقعه الى الجنوب من بلاد الحراكتة والزمول ، وهي تضم احدى عشر قبيلة رئيسية هي على التوالي : الاعشاش ، أولاد بوحالة ، بني وجانة ، العمامرة، أهل الواد الابيض ، أهل واد عبدي، المعافر، أولاد سعيد ، أولاد فاضل ، بني مومنين ، أولاد زيان (66) ، ويتولى أمر هذه القيادة شيخ برتبة قائد يعرف بشيخ الخلعة يتسلم منصبه مقابل حق التولية الذي يتعهد به لادارة بايليك قسنطينة ، والذي كان يقـــدر في أواخر العهد العثـــماني بثلاثة آلاف بوجو « ريال فضـــة » (67) .

هذا ويمارس قائد الاوراس « شيخ الحلعة » صلاحياته الادارية بمعاضدة قوة مسلحة من الفرسان المسلحين بالبنادق والمعروفين بالمزارقية ، وقد جرت العادة ان تتكفل قبائل أولاد فاضل وبنى مومنين وأولاد سعيد ، بتوفير هذه القوة من الفرسان المشكلة من مائة وخمسين فارسا (68) ، والتى كانت تستخدم خاصـــة فى استخلاص الضرائب وفرض الغرمات وتنفيذ أوامر البايليك .

اما اسناد منصب القيادة فغالبا ما يكون من نصيب رجال أظهروا اخلاصهم وتبعيتهم لادارة البايليك مثل عائلة بن بوضياف التى تولى بعض أفرادها منصب شيخ الحلعة . وكان آخرهم حسب تقارير الفرنسيين سيدى العربى بن بوضياف ، الذى اســـتولى الفرنسيون فى عهده على اقليم الاوراس ، ثم اعادوا تنصـــيبه من جديد قائدا تحت سلطتهم عام 1842 (69) .

ب ـ قيـــادة بلـزمة :

تتكون من المناطق الجبلية الغربية الممتدة من تخوم الصحراء جنوبا حتى بلاد أولاد سلام شمالا ، حيث تتاخم قبائل عبد النور وعلمة البحر كما تمتد من كتلة جبال اوراس المركزية الى بلاد اولاد سلطان بالقرب من منخفضات الحضنة ، وتشتمل هذه القيادة على الكثير من القبائل المنعزلة داخل الجبال بالاضافة الى بعض العشائر الاخرى مثل اولاد فاطمة والاخضر والحلفاوية وأولاد شليح والحليبية (70) .

ويشرف على هذه القيادة « شـــيخ بلزمة » الذى يماثل شـــيخ الاوراس من حيث الامتيازات المخولة له والاجراءات المتعلقة بمنصبه ، فهو ينال « الحلعة » الحاصة بالمشيخة مقابل مبلغ مالى يقدر بحوالى ثلاثة آلاف بوجو فضة ، كما أنه كان يمارس ســـلطته على قيادته نيابة عن البايليك بمعاضدة فرسان «المكاحلية»، المنتمين الى قبيلة بوعون، وذلك مقابل اعفاء هذه القبيلة من المطالب المخزنية من ضرائب وغرامات ورسوم مختلفة (71) .

جـ ـ قيادة النمامشـــة :

تخضع لها المناطق الشرقية من الاوراس ، ويتولى شؤونها قائد مقابل تقديمه حق التولية المقدر عادة بألفى بوجو فضة « ريال » ، ومما يلاحظ على هذا القائد أن سلطته

ظلت في أغلب الاوقات سلطة اسمية أكثر منها سلطة عملية ، فهو يستعين بمحلة البايليك الفصلية لاستخلاص الضرائب وأخذ الرسوم من سكان قيادته ، أما في أوقات غياب هذه المحلة التي قد تطول لعدة سنوات في بعض الاحيان ، فانه لا يجسر ان يتجول في قيادته ، وان هو حاول ذلك فانه غالبا ما يعرض نفسه لخطر محقق (72) ٠

ولعل هذا الوضع الذى كانت عليه قيادة النمامشة يعود الى كون سكانها كانوا يعيشون حياة قوامها الترحل والانتقال وراء قطعان المواشي بحثا عن مصادر المياه وطلبا للمراعى ، الامر الذى ساعدهم كثيرا على التهرب من سلطة البايليك والامتناع عن الخضوع للقياد الذين يمثلون السلطة التركية بتلك القيادة ٠

وعلى كل فان قيادة النمامشة كانت تشتهر بكثرة خيامها وشجاعة فرسانها ووفرة قطعان مواشيها ، فحسب احدى الاحصائيات التي تعود الى أوائل عهد الاحتلال ، نجد ان الجهات الشرقية من قيادة النمامشة ، كانت تضم 4500 خيمة يحرسها 3600 فارس و 2150 رجل قادر على حمل السلاح ، أما الجهات الغربية من نفس القيادة ، فهي تقدر بـ 22500 خيمة تتوفر على 1500 فارس و 2000 رجل قادر على الحرب (73) ٠

لكن المهم في هذه التنظيمات الادارية المتمثلة في القيادات الثلاث ، انها كانت تتماشى ومصالح سلطات البايليك ، فهي كانت تعمل على توفير مصادر دخل دائمة لخزينة بايليك الشرق ، كما أنها كانت ترمى الى توثيق الروابط الاقتصادية والسياسية بين مركز الحكم بقسنطينة وبين بقية جهات الاوراس ٠

فبالنسبة للهدف الاول المتمثل في ايجاد مصادر دخل قارة لحكومة البايات ، فاننا نذكر أن قيادات الاوراس الثلاث كانت توفر مبالغ مالية وعوائد عينية ضخمة فقيادة النمامشة كانت تساهم بما يقدر بـ 3000 رأس غنم كلما توجهت لها المحلات الفصلية ، هذا فضلا عن رسم التولية « الفرح » الذى يقدمه القائد مقابل خلعة التولية والذى يتجاوز 3000 بوجو فضة ، ليبلغ في بعض الاحيان 6000 بوجو فضة « ريال » حسبما تفيدنا به بعض وثائق الارشيف (74) ٠

ويدخل فى هذه المصادر القارة ما تقدمه قيادة الاوراس (الوسطى) عندما تتعرض لمحلة الباى ومزارقية القائد ، من كميات هامة من خشب البنـــاء ومن الفواكه الجبلية كالجوز مثلا ، مع العديد من قطعان المواشى واعداد كبيرة من الخيل والبغال . ولاخذ مثال على ذلك نذكر ان اهالى بنى فرح كانوا يدفعون كل ســــنة 30 دورو « ريال » لحاميــــة بسكرة . وعندما تقصدهم المحلة فانهم يضيفون الى ذلك سبعين حصيرا (75) .

اما اذا توجهت المحلة الى أولاد عبدى فانها تستفيد من ضيافة الاهالى بالمنعة حيث تجد التأييد من زاوية بنى عباس . ولا تتحرك من هناك الا بعد التأكد من خضوع السكان واستخلاص الغرامات المؤلفة من كميات كبيرة من البرانس والحصر تضاف الى 30 دورو « ريال » أى ما يقدر بـ 150 فرنك فى أوائل عهد الاحتلال (76) .

ولا تكتمل هذه المصادر التى كان يحصل عليها البايليك من قيادات الاوراس الا بذكر ما توفره قيادة بلزمة ، التى تزود البايليك هى الاخرى باعــــداد هامة من الخيل والبقر والغنم وبكميات ضخمة من الاخشاب الصالحة للبناء ، زيادة عما تقدمه من رسوم نقدية تساهم بها خاصة العشائر الجبلية اثناء توجه الحملات العسكرية لها (77) .

على ان ما يلاحظ على هذه المداخيل انها غير محددة ، اذ غالبا ما ترتبط كميتها بقوة المحلة الفصلية وفعالية فرسان المكاحلية ، كما ترتبط ايضا بالوقت الذى تتوجه فيـه هذه الحملات الى المناطق الجبلية ، اذ كلما زادت قوة المحلة وبرهن الفرسان على فاعليتهم فى الوقت المناسب ، كلما تضاعفت كميات هذه المصادر النقدية والعينية التى تزود خزينة البايليك بقسنطينة . وكلما ساءت المحاصيل ولم تتمكن المحلة والفرسان المعززين لها من التوجه فى الوقت الملائم كلما قلت تلك المحاصيل واختصرت على أعداد محدودة من المواشى وحمولات قليلة من اخشاب البناء حسبما لاحظه روسو فى تقريره المالى عن بايليك الشرق (78) .

اما بالنسبة للهدف الثانى الذى كانت ترمى اليه سلطات البايليك من وراء تنصيب قيادات الاوراس ، فهو يتلخص فى محاولة الحكام المستمرة لربط المنطقة الاوراسية سياسيا واقتصاديا بمركز البايليك ، وذلك بتسهيل التعامل التجارى لاهالى الاوراس

مع الاسواق التى يشرف عليها البايليك سواء الواقعة بالهضاب العليا كاسواق السقنية والعثمانية أو التى تقع داخل المدن الرئيسية مثل بسكرة ، بالنسبة لمناطق الاوراس الجنوبى وقسنطينة بالنسبة لمناطق الاوراس الشمالى ، لا سيما وان هذا التبادل كانت تفرضه الحاجة اليومية والانتاج المتكامل بين جهات التل واقليم الصحراء من جهة وبين اقليم الاوراس من جهة أخرى . فبفضل هذا التشجيع للتبادل التجارى أصبحت قسنطينة بمثابة سوق رئيسى تصرف عن طريقه منتوجات الاوراس من صوف وحبوب وجلود وتمور وفواكه واخشاب ، مقابل الحصول على المواد الضرورية من مصنوعات جاهزة ومحاصيل زراعية لا تتوفر بمنطقة الإوراس ، وهذا ما تؤكده بعض التقارير الفرنسية التى تفيد بأن السلطات الفرنسية القت القبض على شيوخ الاوراس فى شهر اكتوبر ـ نوفمبر 1837 عندما قدموا الى قسنطينة لتقديم فروض الطاعة وتسلم خلعة التولية من الباى الحاج أحمد ، وقد اتهمهم الفرنسيون بالتآمر والجوسسة على جيش الاحتلال وبذلك انقطع أهالي الاوراس عن التردد على أسواق مدينة قسنطينة كما كانوا يفعلون سابقا ، بل أصبحوا يقصدون أسواق السقنية بالهضاب العليا التى لم تحتل بعد ، ان لم يتوجهوا رأسا الى تونس لتصريف انتاجهم من الصوف والحبوب والتمور (79)، مما يسمح لنا بالقول بأن هذا النوع من العلاقات التجارية والاتصالات الادارية التى عمل البايات جاهدين على تنميتها وتطويرها ، وجدت فى الاحتلال الفرنسى حائلا لها مما زاد فى عزلة الاوراس وانكماشه :

بعد هذه التنظيمات الادارية وتلك الاساليب السياسية التى سبقت الاشارة اليها ، يجدر بنا ان نتعرض الى الحالة الاقتصادية التى كانت تتميز بأنها كانت تقوم على تلبية مطالب البايليك المادية وسد الحاجات الضرورية لاهالى المنطقة الاوراسية وهذا ما عمل على خلق توازن اقتصادى سلبى يعتمد على نشاط زراعى ـ رعوى مزدوج ، يغلب عليه الطابع الاستهلاكى المحلى ويهدف الى ايجاد علاقة متكافئة بين البنية الخاصة للاوراس وبين امكانيات الانسان الاوراسى ومستواه الحضارى ، وهذا ما تعكسه لنا الاصناف التالية للنشاط الاقتصادى لتلك الفترة من تاريخ الاوراس .

أ ـ **المحافظة على زراعة بسيطة ، معززة بنشاط رعوى محدود :**

فى السفوح الشمالية المتاخمة للهضاب العليا وفى بعض السهول الصغيرة المحصورة داخل الكتل الجبلية ، بالاضافة الى بطون الاودية الغنية بمصادر المياه حيث تتوفر الشروط المناخية الملائمة لقيام زراعة الحبوب البسيطة المعروفة بالشارة ولانتاج بعض الكميات من الخضر والفواكه ، على ان الشيء الجدير بالذكر ان سكان هذه الجهات غالبا ما يزاولون بجانب زراعة أراضيهم تربية المواشى ، وهذا ما يضطرهم الى الارتحال الموسمى المحدود الذى لا يتجاوز نطاقه السفوح الجنوبية للاوراس ، وأحسن مثال على هذا النشاط الزراعى ـ الرعوى المتكامل نجده فى أسلوب حياة قبيلة أولاد داوود هذه القبيلة التى كانت تقضى فصل الشتاء فى فلاحة سهول المدينة وتحمامات القريبة من جبلى اشمول والشلية ، لتنتقل بعد ذلك بقطعانها نحو أعالى الجبال ، أما فى فصل الخريف فان رجال هذه القبيلة يتوجهون بمواشيهم نحو الاودية الجنوبية حتى يبلغوا فى رحلتهم الفصلية هذه قريتى البنيان ومشونش حيث يحصل رجال القبيلة على ما يحتاجونه من التمور . بعدها يعودون نحو الشمال بأحمال التمر وقطعان المواشى حتى لا يعوزهم العمل فى حصاد حقولهم فى أوائل الصيف ، قبل ان يتوجهوا من جديد نحو مرتفعات الجبال طلبا للكلا المتوفر هناك (80) ، وهكذا تعيش هذه القبيلة مثل غيرها من قبائل الاوراس الاخرى فى رحلة موسمية دائمة لا يتخللها سوى العمل الزراعى المؤقت والتبادل التجارى المحدود .

2 ـ **التحول الى الرعى الموسمى فى بعض المناطق** التى تتميز بعدم ملاءمتها للزراعة مثل هضاب النمامشة ومنخفضات السباخ والسهول المتاخمة لاقليمى الحضنة والزيبان التى أصبحت تؤلف بفعل هذا الرعى الموسمى مجال تلاحم بشرى يقرب أهالى جبال أوراس من سكان الجهات المجاورة من الزيبان والهضاب العليا . وقد عرف هذا المجال الرعوى توسعا ملحوظا أثناء العهد العثمانى حتى أصبح يغطى مساحات شاسعة من الاوراس أصبحت مع مرور الزمن بمثابة قطاع خاص لعديد من العشائر البدوية التى تمتهن تربية المواشى وتزاول حرفة الرعى .

ويمكن تصنيف العشائر التى كانت ترتبط بمجال الرعى الموسمى حسب المراعى الشتوية أو الصيفية · فمن أهم العشائر التى كانت تقيم بالمراعى الصيفية نذكر :

- عرب الشراقة المقيمين بنواحى الوطاية وبلزمة والسهول القريبة من قايس ·
- عرب الزاب الشرقى الذين يفضلون الجهات الممتدة من خنشلة الى سريانة ·
- عرب الصحارى الذين كانوا ينزلون جهات تازولت وباتنة والنواحى الشرقية لبريكة
- أولاد ملاد وأولاد زيان الذين كانوا يقصدون السفوح الشمالية القريبة من تمغاد وبنى مناصر وباغاى ·
- العلاونة والبرارشة ، المنتشرون فى البطاح الممتدة من خنشلة حتى باتنـــة ·

أما العشائر التى كانت تنزل المراعى الشتوية ، فهى فى أغلبها عشائر جبلية تنحدر من معاقلها الحصينة نحو جهات الجنوب طلبا للدفء وبحثا عن الكلا فى فصل الشتاء مثـــل :

- بنى سليمان واهالى مشونش وتوات وأحمر خدو الذين يستقرون شتاء بالســفوح الجنوبية الممتدة من خنقة سيدى ناجى الى ناحية سيدى عقبة ·
- أولاد رشاش الذين يقصدون المراعى الشتوية الواقعة الى الشرق من خنقة سيدى ناجى ·
- أولاد زيان : يقصدون الشتاء بسهول الوطاية ، تاركين بســـــاتينهم بقرى قديلة وجمورة وسويق وبرانيس التى يشتغل فيها بعض الخماسين الاجراء ·
- البرارشة والعلاونة وقد كان الاولون ينزلون فركان أما الاخرون فهم يترددون على مراعى نقـــرين ·
- عرب الصحارى وعرب الزاب الشرقى يقيم الاولون بالقرب من بسكرة بينما يفضل الآخرون نواحى الخنقة ·

وقد كان لهذا الاقتصاد الرعوى الزراعى تاثير مباشر على الاوضاع الاجتماعية بحيث أصبحت العلاقات الاجتماعية تتميز بعدة مظاهر مثل شيوع فكرة الصف وهجرة بعض الاهالى خارج المنطقة الاوراسية ·

فبالنسبة لظهور الاحلاف العشائرية المعتمدة على فكرة الصف والمستمدة قوتها من واقع الحياة اليومية للانسان الاوراسى آنذاك ، التى جعلت فى مقدمة المطالب الضرورية للحياة حيازة مجال ملائم للرعى مع ضمان مصادر مياه كافية . وقد وجد سكان الاوراس فى هذه الاحلاف « الصفوف » وسيلة فعالة لحماية القبيلة من أى اعتداء قد تتعرض له من القبائل المجاورة . فى وقت لم يكن فيه للحكومة المركزية « البايليك » مصلحة فى اقرار الهدوء وحفظ النظام ، لا سيما بعد أن وجد بعض الحـــكام الاتراك فى هذا الصراع العشائرى والتنازع القبلى فرصة للتدخل فى شؤون القبـائل وعاملا مســاعدا لابقاء نفوذهم بالجهات الجبلية التى يصعب السيطرة عليها .

وعلى كل فان هذه الصراعات العشائرية يجب ان ينظ راليها من الجانب الاقتصادى وما يترتب عليه من وضع اجتماعى دون ان نعطى أى قيمة للخصــائص العرقية وهذا عكس ما داب عليه بعض الدارسين المغرضين لا سيما مؤرخى الاستعمار الفرنسى فى الجزائر الذين كانوا يرمون من وراء دراستهم التاريخية الى ابعاد المنطقة الاوراسية عن الواقع الوطنى الجزائرى المتكامل .

فمن خلال مفهوم التكامل الاقتصادى والاجتماعى لاقاليم الجزائر نذكر أهم الاحلاف التى عرفها الاوراس فى أواخر العهد العثمانى :

- صف الغرابة المؤلف من أولاد زيان ونارة وتاغوست وبوزينة والفضالة وبعض الفرق من بنى فرح ومشونش ، الذى كان فى صراع مستمر مع صف أولاد عبدى المشكل مـــن أهالى الرحا من أولاد عبدى والارباع وبعض الاسر من المعافة وأولاد عزوز ، وبنى بوسليمان وأولاد ملول وأولاد جانة والاغشاش (81) .
- صف أولاد سلطان المعادى لصف أولاد خيار ، من أجل حيازة أراضى تاريتشة التى أخلتها قبائل النمامشة عندما تحولت الى الهضاب الواقعة الى الشرق (82) .
- العشائر المتنازعة على سهول نارة ومنعة والمؤلفة من أهالى نارة فى الشرق وأولاد داود فى الشمال وأولاد عبدى فى الوسط (83) .

ـ الصفوف المتنافسة على حيازة سهول المدينة وتاحمامات · والمشكلة من أولاد داود « التوابة » وبنى بوسليمان والوجانة وأولاد عبدى وأولاد زيان (84) ·

أما ما يخص ظاهرة الهجرة التى تأثرت بها بعض العشائر الاوراسية فانها تعود الى سببين رئيسيين أولهما كون المنطقة الاوراسية ظلت طيلة الفترة العثمانية منطقة « طرد بشرى » تفتقر الى توفير الغذاء الكافى لسكانها نتيجة فترات الجفاف والمجاعات والحروب الاهلية ، وهذا ما دفع كثيرا من السكان من التحول من ممارسة الزراعة الى مزاولة الرعى فى وقت أصبحت فيه المناطق المجاورة للاوراس تمثل مناطق جذب بشرى لتوفرها على المراعى الملائمة والاراضى الخصبة · أما السبب الثانى لظاهرة الهجرة ، فهـو يكمن فى نتيجة الصراع العشائرى ، الذى يؤدى فى كثير من الاحيان الى ارتحال القبائل المنهزمة عن مواطنها بحثا عن اماكن خارج الاوراس يتوفر فيها الامن والهدوء ·

وقد عمل هذان السببان على حدوث عدة هجرات بشرية افقـــرت الاوراس بشريا واضعفته اقتصاديا ، فرغم سياسة البايليك الرامية الى اقرار العشائر فى مواطنها وخلق نوع من التوازن البشرى والاقتصادى بالمنطقة حدثت هجرات عديدة من الاوراس نحـو الجهات الشمالية حيث مزارع التل الخصبة « الصرا » ومراعى الهضاب الغنية « السباخ » ، وهذا ما جعل بعض الجهات من الهضاب العليا تتاثر بالاوراس من حيث نوعية الحيـــاة وأسلوب الزراعة وطريقة البناء فضلا عن التشابه فى العادات واللهجات المحلية ·

ومن أهم هذه الهجرات التى حدثت أثناء العهد العثمانى نذكر بالخصوص هجـــرة العيشاوية نحو الجهات الواقعة بين ايدوغ وسطورة ، وكذلك هجرة عشائر عبد النور والتلاغمة وأولاد سلام واولاد لخضر واولاد سلطان والسعيد واولاد معوش نحو جهات الهضاب العليا القسنطينية القريبة من جبلى نيف النسر وقريون (85) · ويضاف الى هذه الهجرات ، انتقال النمامشة الى الشرق والممتدة من الشريعة شمالا الى نقرين جنوبا ، ولعل اقرب هذه الهجرات الى الذاكرة الشعبية هى هجرة عائلة العباس بن خير الدين الى مواطنى يحى بوطالب بعد انهزامها على يد منافسيها من اسرة بلقاســـم بن بوعون المعروفة ببوضياف (86) ، وكذلك هجرة اولاد عزيز الى نواحى الزمول وسلاوة بالهضاب العليا بعد ان انهزموا فى صراعهم المرير مع أولاد زيان ، وتذكر الروايات الشعبية التى

اوردها ماسكوراى فى كتاباته (87) بهذا الصدد : أن فرســـان أولاد زيان تمكنوا من مباغتة حصن أولاد عزيز بتاغوست شمال جبل النواصر بالاوراس ، مما مكنهـــم من الاستيلاء عليه ، وتعريض ساكنيه الى الاسر والقتل ، وعندها لم يجد الناجون بدا من مغادرة مواطنهم ، بعد ان ظلوا يتمتعون لمدة طويلة بالسيادة على قسم كبير من الاوراس ، مما سمح للقبائل المجاورة اقتسام أراضيهم بوادى عبدى والاحمر ، وذلك فى فترة متقدمة من حكم البايات قد تعود الى القرن السابع عشر ٠

وتضاف الى هذه الهجرات ظاهرة اجتماعية اخرى تتمثل فى تزايد نفوذ المرابطين وشيوخ الزوايا ، الذين أصبحوا منذ مطلع الفترة العثمانية يحظون بالاحترام والتقدير من قبل سكان المناطق الجبلية بالاوراس لما كانوا يقومون به من خدمات اجتماعية وثقافية كالتوسط فى النزاعات واقرار احكام الشريعة الاسلامية والقيام بشـــؤون العبادات والتعليم ، وقد دفع هذا الوضع الذى كان عليه رجال الدين بالمنطقة حكام البايليك الى منحهم الامتيازات وتقديم الهدايا لهم ، وذلك حتى يجعلوا هؤلاء الشيوخ والمرابطين واسطة بينهم وبين الاهالى ، وأداة طيعة يستخدمونها فى بسط النفوذ والتحكم فى القبائل القوية بالمنطقة ٠

ومن أهم هذه الزوايا التى ظلت بمثابة رباطات اسلامية تعمل لغرس الروح الدينية وتعميق الحضارة الاسلامية ـ العربية بالمنطقة نذكر بالخصوص :

ـ زاوية بن عباس بالمنعة المعروفة ـ بمول السبيل ـ والتى يعود تأسيسها الى أوائل العهد العثمانى ، عندما تمكن المرابط محمد الشيخ بن سيدى ابراهيم بن موسى ، التى تذكر عنه الروايات الشعبية انه ينتسب الى الشيخ عبد القادر الجيلانى صاحب الطريقة الجيلانية ، وقد أتى من نواحى الساقية الحمراء ليستقر بالمنعة ، تاركا مشيخة الزاوية لعقبه الذين ما فتؤوا يقدمون خدماتهم الثقافية والدينية للعشائر المجـاورة . ولحكام البايليك على السواء ، ومما يجدر ذكره أن آخر شيوخ هذه الزاوية فى العهد العثمانى ، هو سيدى محمد بن عباس الذى استضاف بزاويتـــه كلا من الحاج أحمد وأحمد بلحاج البسكرى أثناء مقاومتهما للتوسع الفرنسى فى مناطق الجنوب (88) ٠

ـ زاوية سيدى أحمد بن بوزيد ، المعروفة بزاوية مولى القرقور ، التى يعود تاسيسها الى الولى الصالح سيدى أحمد بن بوزيد الذى انزوى بدشرة القرقور بجبل تلات للعبادة والذكر ، بعد أن قضى شبابه فى خدمة العلم عند عشائر الحراكتة ، وقد أكتسب عقبه سمعة كبيرة واحترام فائق لدى أهالى بلزمة ، وكان آخر شيوخ هذه الزاوية قبل الاحتلال هى سيدى محمد بن سى بلقاسم مقدم الطريقة الرحمانية بنواحى بلزمة (89) ٠

ـ زاوية أولاد سيدى يحيى بن زروق ، على وادى فضالة بالقرب من دشرة بنى معافة ، وقد كان آخر شيوخ هذه الزاوية فى الفترة العثمانية هى سيدى أحمد الزروق مقدم الطريقة الرحمانية بالجهات الوسطى من الاوراس ، التى تقطنها عشائر بنى فرح وأولاد عبدى (90) ٠

ـ زاوية بلقاضى : يعود تاسيسها الى احد أبناء ابن القاضى الشهير الذى كان فى آخر العهد الحفصى عاملا على بجاية وبونة قبل ان يتحالف مع الاخوين بربروسة (خير الدين وعروج) للوقوف فى وجه الاسبان ، لكن ما لبث أن قلب لهم ظهر المجن كما هو معروف ، وانتهى امره بالقتل اثر معركة ثنية بن عائشة ، وقد ترك ثلاثة أبناء ، احدهم بقى بمنطقة جرجرة ، والثانى نزل الحضنة ، اما الثالث فهو الذى قصد جهات الاوراس ، وأسس زاوية بناحية جرمة (بين سريانة ونانة) عرفت فيما بعد بزاوية بلحاج ، وأصبح عقبه يتمتعون بالنفوذ والاحترام بتلك الجهات ، مما مكنهم أخيرا من تنصيب أنفسهم حلقة وصل بين الاهالى وسلطات البايليك ، وقد كان آخر شيوخ هذه الزاوية قبل دخول الفرنسيين للمنطقة هى سيدى بلقاسم بلقاضى ، الذى ترك شؤون الزاوية عند الاحتلال لابنه سى محمد بلقاضى ليواجه الاوضاع الجديدة التى خلقها الاحتلال بتلك الجهات من الاوراس (91) ٠

ـ زاوية سيدى مسعود الشابى ، الموجودة بأراضى بنى بربار والتى يعود تاسيسها الى سيدى مسعود الشابى، الذى عمل جاهدا هو ومن سيخلفه على رأس الزاوية من عقبه، للتحكيم فى النزاعات المستمرة بين قبائل النمامشة وأهالى شاشار (92) ٠ هذا بالاضافة

الى زوايا أخرى أقل أهمية مثل زاوية تمرسين وزاوية خنقة سيدى ناجى ، وزاوية البنيان ، وزاوية سيار على وادى باجر بالقرب من بنى بربار ·

ولا تكتمل هذه الاوضاع الاجتماعية الا بالاشارة الى المظاهر العمرانية التى أصبح يتميز بها الاوراس والتى جعلت من التجمعات السكنية « الدشر » ترتبط بالاماكن المحصنة والنقاط الاستراتيجية ، وذلك حتى يسهل الدفاع عنها والتحصن داخلها أثناء الغارات المفاجئة ، ولعل احسن نموذج لفن العمارة المحصنة بالاوراس نجده فى هندسة مداشر أولاد عبدى وأولاد داوود ، حيث تتخذ المساكن شكلا مستديرا يعلو الاماكن المرتفعة ويشرف على الوديان العميقة ، وهذا الوضع هو الذى دفع أحد الرحالة الاوروبيين الى القول بأن سكان الاوراس لم يروا من الضرورى تحصين مدنهم لكونها ذات مناعة طبيعية (93) ·

على أن هذه المداشر الحصينة لم تكن رغم مناعتها فى مامن من الهجومات والحروب ، وهذا ما تطلب تشييد حصون بجوارها تكون ملجا أخيرا لسكان هذه الدشر فى فترات الفتن وأوقات الهجوم · وقد تميزت هذه الحصون المعروفة محليا بتاقلعيت ، بكونها كانت تقام فوق المرتفعات المشرفة على المنحدرات الغربية للاودية الرئيسية (94) ، فهى من حيث طريقة بنائها وهندستها المعمارية أشبه شيء بقصور جبل نفوسة والجنوب التونسى او باغاديرات الجهات الجنوبية الغربية من المغرب الاقصى ·

وقد كانت هذه القلاع المحصنة عرضة لمحاولات التخريب والتدمير المتكررة سواء من طرف العشائر المعادية او من قبل حاميات البايليك وفرسان المخزن (95) · لأنها كانت بمثابة رمز لاستقلال القبيلة الاقتصادى كما كانت دعامة تلاحمها البشرى ، مما أصبح معه اخضاع القبائل الجبلية مرهون بالسيطرة على هذه القلاع المحصنة ، كما أن سقوط هذه الحصون كان أهم دافع لمغادرة السكان مواطنهم بحثا عن ملجأ جديد ، مثلما فعل أولاد عزيز الذين سبقت الاشارة اليهم ·

بعد هذه النبذة عن ماضى الاوراس أثناء وقبل العهد العثمانى يجدر بنا ان نذكر فى ختام هذا البحث بعض النتائج العامة التى تعكس لنا الوضع الاجتماعى والحالة الاقتصادية التى كان عليها الاوراس ، والتى يمكن أن نوجزها فى هذه النقاط ·

1 ـ عرفت الاوراس منذ القرن الثاني عشر الميلادى تحـولات اجتماعية وتغيرات اقتصادية عميقة انعكست خاصة في اختلال التوازن بين امكانيات المنطقة الاقتصادية واحتياجات الاهالي ، مما أدى الى تحول قسم كبير من السكان الى الاشتغال بالزراعة المكملة للرعي الموسمي ، أو التحول نهائيا الى حياة البداوة المعتمدة أساسا على تربية المواشي ، وذلك حسب طبيعة المناخ ونوعية الارض ، كما فرض هذا الوضع أيضا علاقات اجتماعية خاصة تميزت بالاحلاف المتصارعة التي غالبا ما دفعت بعض القبائل الى الهجرة نحو مناطق مجاورة للاوراس طلبا للامن وبحثا عن وسائل العيش ٠

2 ـ تميزت ادارة البايليك بمنطقة الاوراس باتباعها سياسة خاصة ، يمكن ان توصف بانها عملية في أسلوبها ٠ واقعية في أهدافها ، فهي ترمي الى المحافظة على الاوضاع وخلق حالة من الهدوء والامن النسبي تتمكن اثناءها سلطة البايليك من الاستفادة من ثروات الاوراس بأقل كلفة ممكنة ، وهذه السياسة المعتمدة على عدة عوامل سبقت الاشارة اليها حالت دون تطور المنطقة اقتصاديا وانفتاحها اجتماعيا ، مما جعل علاقات الانتاج تتصف بكونها ذات طابع عشائري ، يهدف الى الانتاج المحدود الموجه لسد الاستهلاك المحلي ولارضاء حاجة البايليك في وقت واحد ٠

3 ـ يتضح لنا من خلال نوعية النشاط الاقتصادى وطبيعة العلاقات الاجتماعية ووضعية النظم الادارية والعشائرية ، ان المنطقة الاوراسية كانت أثناء العهد العثماني ، تتألف من منطقتين متمايزتين احداهما تخضع مباشرة لسلطة البايليك وتتألف من السفوح الجنوبية والشمالية وما يتصل بها من سهول وما ينفتح عليها من أودية ، حيث تقيم عشائر المخزن ويسود نفوذ المرابطين ويمارس الحكام الاتراك نفوذهم التام عن طريق القياد المحليين ٠

أما المنطقة الثانية التي ظلت ممتنعة عن سلطة البايات في أغلب الاحيان ، فهي تتكون من الجهات الجبلية الحصينة ، حيث تعيش القبائل المتنعة في شبه استقلال تام ، فهي لا تتعامل مع الحكام الا من خلال شيوخها ومرابطيها ولا تتصل بسلطات البايليك الا عند تعرضها للحملات الفصلية التي تقوم بها المحلة المعززة بفرسان المخزن في فصلي الخريف والربيع من كل سنة ٠

وهذا ما يسمح لنا اعتمادا على التصنيف السابق الذكـــر ان نعرف المنطقة الاولى « الخاضعة » بأنها تمثل الاوراس النافع الـذى يعرف بأراضى المخـــزن ، بينما المنطقة الثانية « الممتنعة او المتحالفة » فهى بمثابة الاوراس التقليـــدى غير النافع ، الذى هو أقرب شىء الى أرض السيبة التى غالبا ما تنعت بأنها أرض الخلا او البارود .

وهكذا يتضح لنا مما سبق ، أن الدراسة التاريخية لمنطقة الاوراس سواء ما يتصل منها بالحياة الاقتصادية والاجتماعية ، أو ما يتعلق منها بالوضع السياسى ، تخضع لظروف خاصة وشروط محددة ، تتلخص فى علاقة الانسان الاوراسى ببيئته الخاصة ، دون اعتبار للنواحى الاثنوغرافية والقضايا العرقية والوضع الاقليمى الذى اهتم به بعض الدارسين المغرضين والاوروبيين المتحيزين لخدمة اغراضهم تحت غطاء النـزاهة العلمية والبحث الموضوعى ، متناسين ان هذه النزاهة وهذا البحث لا يمكن ان يتحقق الا من خلال ابراز مساهمة الاوراس التاريخية فى نطاق التكامل الوطنى الجزائرى ، الذى يفرض على الباحث ان يتصور الماضى حسب مفهوم الحضارة الاسلامية ذات الطابع العربى والروح الجزائرية الطموحـــة .

ملحق : قائمة باهم القبائل التى كانت تقيم بالاوراس فى أوائل عهد الاحتلال (96) .

اعتمادا على تقديرات المكاتب العربية بتاريخ 15 جويلية 1856 التى تجمل السكان بما يربو على : 192199 نسمة ، يتوزعون على القيادات بالنسب التالية :

1 ـ قيادة باتنة (*)	الأخضـــر	9828
	أولاد سيدى يحى بن زكرى.	3752
	أولاد شليح	10520
	الحـــراكتـة	5152
	التـــلات	1456
	أولاد على متاع منصور	1792
	أولاد سيدى أحمد بن السعيد	420
	أولاد سيدى أحمد بن بوزيد	896
	أولاد القــاضى	1650

2 ـ قيادة أولاد سلطان :	أولاد سلطان	11428
	بني يفــــرن	1260
	أولاد سي خسن	677
	أولاد ســـــلام	10696
	أولاد علي بن صابر	12012
	أولاد دراج	30520
3 ـ قيادة أولاد بوعون :	أولاد بوعــون	1392
	أولاد مهنــة	1536
	أولاد سيدى حملة	144
	الهــــواورة	672
	أولاد اوجـــرتان	600
	أولاد سيدى عبد الرحمن	960
	الحلـــيمية	2888
	أولاد سيدى الحاج بن عمر	1392
	حيدوســـــة	2256
	أولاد فاطمــة	2352
	أولاد منـــاح	240
4 ـ قيادة الأعشاش :	الاعشــــاش	2286
	أولاد فاضــل	3470
	أولاد فضــالة	2784
	بــني معافــة	1152
	أولاد سي منصر	980
5 ـ قيادة أولاد داوود :	أولاد داوود	16242
6 ـ قيادة بني وجـانـة :	بــني وجــانــة	11648
	المناصــــــر	1020

٣ ـ **قيادة العمامـرة :**	أولاد سعيد	5376
	أولاد زرارة	1790
	العمامـــرة	8276
٤ ـ **قيادة أولاد عبـدى :**	أولاد مومن	3122
	أولاد عزوز	2050
	بوزينـــة	1080
	العـــرابـة	950
	تـاقـوست	920
	أولاد عبـــدى	8275

★ **ملاحظة** : مع العلم أن قرية باتنة المعروفة فى العهد العثمانى بالعين الكبيرة أصبحت مركز الادارة العسكرية بالمنطقة عندما احتلت من طرف الدوق دومال أثناء حملته على الزيبان فى شهر فيفرى 1844 لتتحول بعد ذلك الى مركز ادارى وعاصـــمة اقليمية للاوراس ·

المــــراجـــــع

1 ـ لزيادة الايضاح راجع :

— (René) cagnat l'armée romaine d'afrique et l'occupation de l'afrique sous les empereurs paris, imp. nationale, 1892. p. 562-600 et 753-759.

2 ـ اعتمادا على :

— Courtois christian les vandales et l'afrique paris p. 342.

3 ـ الراجح ان هذه المعركة وقعت على وادى نينى الذى يبعد عن باغاى بحوالى 18 كلم · اعتمادا على طبيعة الوضع الجغرافى للمنطقة ·

4 ـ ابن حوقل (أبو القاسم ، النصيبى) المسالك والممالك والمفاوز والمهالك ، المعروف بصورة الارض ـ بيروت دار الحياة ، بدون تاريخ ، ص 84

5 ـ الادريسى : (الشريف) وصف شمال أفريقيا والمقتبس من نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق من طرف هنرى بريس ، الجزائر ، 1957 ، ص 66

6 ـ المقدسى : (تـ 375 هـ ـ 985 م) ، احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ، نشر دى غوية ، طبعة ليدن 1906 ، ص 217

7 ـ ابن حوقل : نفس المصدر ، ص 85

8 ـ البكرى ، ابو عبيد الله : (487 هـ) المغرب فى ذكر بلاد افريقيا والمغرب وهو جـزء من كتاب المسالك والممالك ، نشر دى سلان ـ الجزائر ، 1857 ، ص 50 ·

(9) Fournel (H.) les berbères, Etudes sur la conquête de l'afrique par les Arabes paris, imp. nationale. M.D.CCC.2 XXV, tome 1, p. 166-167.

10 ـ المقدسى : نفس المصدر ، ص 227

11 ـ ابن حوقل : نفس المصدر ، ص 84

12 ـ البكرى : نفس المصدر ، ص 50

13 ـ الادريسى : نفس المصدر ، ص 74

14 ـ مجهول : الاستبصار فى عجائب الامصار ، يعود تاليفه الى عام 587 هـ ، نشر الفيرد دى كريمر ، طبعة فيينا ، 1852 ، ص 50

نتعته بصاحب الاستبصار لكون مؤلفه مجهولا ٠

15 ـ المقدسي : نفس المصدر ، ص 230

16 ـ ابن حوقل : نفس المصدر ، ص 91

17 ـ الادريسي : نفس المصدر ، ص 66 و 74

18 ـ صاحب الاستبصار : نفس المصدر ، ص 61

(19) Léon l'Africain (J.) description de l'afrique, publiée par H. Epaulard. paris, A. Maison neuv, 1956, tome 2, p. 363.

20 ـ ابن حوقل : نفس المصدر ، ص 91 و 92

21 ـ البكري : نفس المصدر ، ص 50

22 ـ الادريسي : نفس المصدر ، ص 71

(23) Vonderheyden, la berbérie orientale sous la dynastie des benoû-L-Arlab. 800-909 paris, P. Genthner, 1927, p. 293-305.

24 ـ ابن حوقل : نفس المصدر ، ص 85

25 ـ الادريسي : نفس المصدر ، ص 66

26 ـ ابن حوقل : نفس المصدر ، ص 85

27 ـ البكرى : نفس المصدر ، ص 50

28 ـ المصدر السابق ، ص 50

(29) Albertini (E.) l'afrique romaine, mis à jour en 1949 par L. Leschi. Alger, imp. officielle, 1955, p. 23 et 27.

30 ـ راجع الخريطة الملحقة بالمقال والخاصة بطرق المواصلات في الفترة الاسلامية

31 ـ البكرى : نفس المصدر ، ص 72

32 ـ صاحب الاستبصار ، ص 59

33 ـ البكرى : نفس المصدر ، ص 52

34 ـ ياقوت الحموى : معجم البلدان ، القاهرة ـ مطبعة السعادة ، ط 1323 هـ ـ 1906 م ، الجـــزء الثانى ، ص 182

35 ـ أبو الفداء اسماعيل ، صاحب حماه ، تقويم البلدان ، القســـم الخاص بذكـر بلاد المغرب ، نشر سولفى ـ الجزائر ، 1839

36 ـ صاحب الاستبصار : نفس المصدر ، ص 61

37 ـ المصدر الســـابق ، ص 62

38 ـ البكرى : نفس المصدر ، ص 72

39 ـ ياقوت الحموى : نفس المصدر ، ج 2 ، ص 29

40 ـ المقدسى : نفس المصدر ، ص 218

41 ـ البكرى : نفس المصدر ، ص 51 و 52

42 ـ الادريسى : نفس المصدر ، ص 66

43 ـ المصـــدر الســـابق ، ص 66

(44) Fournel, op. cit, tome 2 p. 228-229.

45 ـ الادريسى : المصدر السابق ، ص 74

46 ـ لزيادة التعرف على هذا التزحزح البشرى راجع : شنيتى (محمد بشير) سياســة الرومنة فى بلاد المغرب اطروحة غير مطبوعة ، الجـــزائر ، 1975 ، فصلى وضـــعية الارض وسياسة الاستيطان (ص 101/136)

(47) Idris, H. R. la berberie orientale sous les Zirides de X au XII siècle. paris, A. Maison neuve, 1962, tome 2, p. 475 et 476.

(48) Salama, Pierre-Albert, les voies les Romaines de l'Afrique du nord. Alger, imp. officielle, 1951, p. 103.

(49) Gautier (E.F.) le passé de l'Afrique du nord, «les siècles obscurs». nouvelle édition, paris, Payot. 1952.

(50) Despois (J.) la bordure saharienne de l'Algérie orietale, in. Revue Africaine, 1942, p. 116-117.

51 ـ ابن حوقل : نفس المصدر ، ص 84 و 85

52 ـ الادريسى : نفس المصدر ، ص 66

(53) Léon l'Africain, op-cit, tome 2 p. 407.

54 ـ ابن حوقل : نفس المصدر ، ص 84

55 ـ الادريسى : نفس المصدر ، ص 74

(56) Léon l'Africain, op-cit, tome 2, p. 407.

57 ـ ابن قنفد ، أبو العباس أحمد بن حسين بن الخطيب القسنطيني (تـ 810 هـ ـ 1407 م) الفارسية ، تقديم وتحقيق : محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي ، تونس ـ الدار التونسية للنشر ـ النشرة الثانية ، 1968 ص 195 ـ 196

58 ـ ابن أبي الضياف : اتحاف أهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، تونس ـ الدار التونسية للنشر ـ النشرة الثانية ، الجزء الثاني ، ص 162 و 163

(59) Masqueray (E.) Djebel chechar, in revue africaine, 1878, p. 132.

(60 bis) Archives d'outre mer, à aix-en-province, 10 H. 17.

60 ـ الارشيف الوطني الجزائري ، مخطوط فرنسي يعود الى أوائل عهد الاحتلال ، غير مفهرس ، ص 17

61 ـ سوف ننشر نص الرسالتين مع التعليق عليهما بمجلة التاريخ بمركز الدراسات التاريخية العدد القادم ، وذلك لما لهما من أهمية في مجال العلاقات الاجتماعية في المنطقة الاوراسيـــة .

(62) Masqueray (E.) note concernant les Aoulad-Daoud de mont Aurès Alger, A. Jourdan. 1879, p. 26.

(63) Mercier (E.) Histoire de Constantine — Constantine,1903, p. 346.

(64) Vayssettes (E.) Histoire des derniers Beys de Constantine. in revue africaine, 1863, p. 115.

(65) Mercier (E.) op-cit, p. 303

(66) Archives de Ministère de la guerre, à vincennes (A M G) H. 226. service financier de la province de Constantine dérigé par Rousseau à Mr. Blondel, p. 08. = (A M G).

نشير الى هذا الارشيف في الهوامش اللاحقة هكذا :

(67) A M G, H. 228 p. 22-23 et X.

68 ـ المصـــدر السابق

69 ـ مخطوط فرنسي يعود الى أوائل عهد الاحتلال ، ص 19

(70) A M G, H. 228, p. 22-23.

71 ـ المصـــدر الســـابق ، ص 22 و 23

72 ـ المصـــدر الســـابق ، ص 21

نشير اليه فى الهوامش اللاحقة بهذه الحروف

(73) Archives d'Outre-Mer à Aix-en-Provence, F 80, 538, Tribu de Nememcha, par le capitaine de l'Etat-major, Dieux.

نشير الى هذا الارشيف فى الهوامش اللاحقة هكذا (A.O.M.)

(74) — A. M. G. H. 228, p. 21.

— A. M. G. H. 226 Ch. 8.

(75) Masqueray, (E) : *Documents Historiques Recueillis dans l'Aurès, Juillet* 1876, in Revue Africaine, 1877, p. 101.

76 ـ المصـــدر الســـابق ، ص 122

(77) A. M. G. H. 228, p. 22 et 23.

(78) A. M. G. H. 226 (Rapport Rousseau, p. 109).

(79) A. M. G. H. 228, p. 6.

(80) Masqueray : Note, op. cit., p. 21.

(81) Masqueray : *Voyage dans l'Aurès,* Etudes Historiques, in Bulletin de la Société de Géographie, Juillet 1876, p. 15.

(82) Masqueray : *Dj. Chechar,* op. cit., p. 131.

(83) Busson, (H.) : *Les Vallées de l'Aurès,* Annales de Géographie de Paris, T. I....., année

(83) — Busson, (H.) : *Les Vallées de l'Aurès,* Annales de Géographie de Paris, T. IX, année 1900, p. 49.

— Masqueray : Document, op. cit., p. 122.

(84) Masqueray : Note, op. cit., p. 12.

(85) A. M. G. H. 227, notice sur la Province de Constantine, p. 8 - 9.

86 ـ الارشيف الوطنى الجزائرى ، مخطوط فرنسى ، ص 19

(87) Masqueray : Voyage, op. cit., p. 6 - 7.

(88) — Octave Dupont et Xavier Coppolani : *Les Confréries Religieuses Musulmanes,* Alger. A. Jourdan, 1897, p. 311 - 312.

— Masqueray : Voyage, op. cit., p. 15.

وكذلك مخطوط فرنسى بالارشيف الجزائرى ، ص 22

89 ـ الارشيف الوطنى الجزائرى ، مخطوط فرنسى ، ص 13

90 ـ المصـــدر الســـابق ، ص 24

91 ـ المصـــدر الســـابق ، ص 17

(92) Masqueray : *Dj. Chechar,* op. cit., p. 143.

(93) Dureau de la Malle : *Recueil de Renseignement, Province de Constantine,* Paris, Gide, 1837, p. 60.

(94) Despois, (J.) : *Les Greniers Fortifiés de l'Afrique du Nord,* in Cahiers de la Tunisie, N° 1, 1953, p. 34.

95 ـ المصـــدر الســـابق ، ص 55 و 56 .

(96) A. O. M. 10 H. 17.

مــواقف الرسميــين التونسيــين من ثورة الصبــايحيــة والكبلــوتي فى منطقــة الحــدود الشرقيــة عــام 1871

د· يحيى بوعزيز
معهد العلــوم الاجتماعية
جامعة وهران



تتالف فرق الصبايحية من المتطوعين الجزائريين الذين يطلق عليهم اسم : الحركة،والاورطة ، والصبايحية · وقد استحدثها الفرنسيون فى القرن الماضى لتساعدهم على فرض سيطرتهم على البلاد ، ويبدو أنهم قلدوا فى ذلك نظام (الشواش) الذى كان سائدا فى عهد الاتراك، واهتموا بتنظيمها وتطويرها خــلال عهد الامبراطورية الفرنسية الثانية ·

ويتكلف الصبايحية بحراسة المناطق التى يسكنونها ، ومراقبة السكان من الناحية السياسية تحت اشراف الضباط الفرنسيين · ويطلق على الثكنات التى يتمركزون بها ، اسم : « الزمالات » · ومعظمهم متزوجون ، ويتقاضون مرتبات شهرية ، ويعملون فى أراضيهم الخاصة ، أو التى تضعها السلطات الفرنسية تحت تصرفهم · وعندما يحدث أي تشويش أو اضطراب فى البــلاد يدعون لمواجهته تحت ارشــاد وقيادة الضباط الفرنسيين ·

ولم يكن من العادة تجنيدهم للحرب خارج الجزائر ، غير أن السلطات الفرنسية رات أن تجند البعض منهم للحرب فى فرنسا أوائل عام 1871 ابان الحــرب الفرنسية البروسية ، فاصدر وزير الحرب الفرنسى قرارا بتاريخ 18 جانفى 1871 يقضى بتسفير عدد منهم الى أوروبا ، وتسبب ذلك فى ثورتهم بزمالات مجبر ، والطارف ، وبوحجار ، وعين قطار ، بشرق البلاد ، ووسطها ·

غير أن ثورة الصبايحية هذه فى الحقيقة بدأت قبل هذا التاريخ لاسباب أخـــرى غير قرار التجنيد ، مما يؤكد بأن التذمر والسخط لم يكونا لاسباب شخصية ، وظروف مادية ، وانهما تجاوزا السكان العاديين الى طبقـــة الموظفين الذين كانوا فى نظـــر البعض « محظوظين » ·

ففى زمالة مجبر على بعد 13 كلم شمال شرق بوغار ، بدأت الحوادث فيها أواخــر سبتمبر 1870 ، فى شكل فرار بعض الصبايحية من ثكناتهم الى مستغانم لاسباب غــير معروفة لدينا ، وقد يكونون فعلوا ذلك بسبب تذمرهم من السياسة الاستعمارية · وقد تكون دعاية ابن خدومة قد أثرت فيهم لانه بدأ دعوته ، وحركته فى هذه المنطقة عندما ظهر قبل أن يلتحق بذراع الميزان (1) ، غير أن السلطات الفرنسية عندما اعتقلتهم ، وأعادتهم الى بوغار ، حاكمتهم بتهمة السرقة . ففر البعض منهم من السجن واختفوا مـــرة أخـــرى ·

وفى الايام الاولى لشهر نوفمبر فر خمسة وسبعون من جنود الزواف بأسلحتهم وامتعتهم من معسكر بوغار الى المـــدية ، وقصر البخارى ، فلاحقهم رجال الــدرك والصبايحية ، وأوقفوهم واحالوهم على محكمة عسكرية ، حكمت عليهم مـــن سنتين الى عشر سنوات سجنا مع الاشغال الشاقة (2) ·

وعندما وصـــل أمـــر التجنيد الى الجنرال لالمان يوم 20 جانفى 1871 كان جنود الصبايحية فى مجبر ببوغار من الذين شملهم القرار ، فجندوا واقتيدوا الى الجزائر العاصمة يوم 23 من نفس الشهر ليرحلوا الى فرنسا ، ولكـــن أبناءهم ، ونساءهم ، وأهاليهم ، اعترضوهم فى الطريق خارج البلدة ليحولوا دون سفرهم ، فحصل اضطراب

---

1) عن حركة ابن خدومة أنظر المصدر التالى :
Le colonel N. Robin : *L'Insurrection de la Grande Kabylie en* 1871 (Paris 1901) pp. 38 - 43 et 70 - 71.

(2) Ernest Watbled : *Un Episode de l'Insurrection de* 1871 *en Kabylie*. Revue des Deux Mondes (Paris 1873) pp. 43 - 48.

وتشويش فى القافلة ، وأطلق شخص ، قيل أنه أجنبى عن القافلة ، والصبايحية ، النار . وقتل شخصا . فعاد الصبايحية فى الحين الى زمالتهم الى أن حضرت مجموعة مـن فرسان بوغـــار فاقتادهم بالقوة الى الجـــزائر العاصمة ، ولكن الجنرال لالمـان ، ودو بوزى ، أعلنالهم بأن السفر الى فرنسا حر للمتطوعين فقط ، ولا يجبر أحد عـلى ذلـــك (3) .

وفى الوقت الذى كان فيه صبايحية مجبر ثائرين على هذا الشكل ببوغار ، ثـــار الصبايحية ايضا فى زمالات شرق البلاد ، بالطارف على بعد 22 كلم جنوب غـــرب القالة ، وبوحجار على بعد 43 كلم شمال شرق سوق أهراس ، وعين قطار على بعد 22 كلم جنوب شرقها . وكانت ثورة هؤلاء أخطر من ثورة زملائهم بمجبر ، لتـدخل أطراف أخرى فيهـا .

ففى عين قطار رفض الصبايحية الامتثال لاوامر السفر الى فرنسا ، وهرب 135 منهم بأسلحتهم وامتعتهم الى مزرعة (عمى موسى) على بعد 4 كلم من زمالتهم ، يوم 22 و 23 جانفي 1871 . وتبعهم فى اليوم الموالى 102 آخرون ، وتوالى بعد ذلك تجمعهم حتى اصبحوا حوالى الفي رجل .

وتجمع حولهم أهاليهم ، والغاضبون والقانطون من السلطات الفرنسية ، وانضم اليهم عدد من أهالى الحنانشة بزعـامة أحمد الصالح بن رزقى والفضيل بن رزقى ، والتحق بهم محمد الكبلوتى بن الطاهر رزقى من تونس وهو شقيق الفضيل بن رزقى ، وبذلك أصبحت الحركة خطيرة وتجاوزت نطاقها المحلى . وقام هؤلاء الثوار بقتـــل ضابط جاويش فرنسى ، وباشعال الحرائق فى بعض مزارع الاوروبيين حـول سوق أهراس ، وقتلوا تسعة منهم ثـم زحفوا على ســـوق أهراس نفسها يوم 26 جانفى ، وحاصروها لمدة ثلاثة أيام ، وقطعوا خطوط اســلاك الهاتف التى تربطها بقالمـــة ، وخاضوا معركة كبيرة فى عين سنور يوم 30 من نفس الشهر ، ودامت المناوشات حتى اليوم الثامن من الشهر التالى ، وارتفع عدد قتلى الفرنسيين الى حوالى 15 شخصا (4) ثـــم انسحب الصبايحية والكبلوتى واتباعه الى داخـــل الحدود التونسية (5) حيث

---

(3) Le général commandant de la division : *Rapport sur l'Insurrection de* 1871 *dans la Province d'Algérie* (le 20/01/1871) A.O.M. Carton H. 73.

(4) André Nouschi : *Correspondance du docteur A. Vital avec Ismaïl Urbain* 1845 - 1874 (Paris 1959) pp. 316 - 317.

(5) Le général commandant la division de Constantine : *Rapport sur l'Insurrection de* 1871 (Camp d'El-Hadjira - le 1/01/1872) A.O.M. Carton H. 73.

استقبلهم الشيخ الميزونى بحفاوة فى مدينة الكاف (6) . وهذا مما يؤكد أن ثورة الصبايحية بهذه المنطقة لم يكن سببها قرار الترحيل فقط بل انه كان بمثابة عامل مباشر لقيام الحوادث أما الاسباب الحقيقية فكانت مرتبطة بالتذمر والغضب العام ضد السلطات الفرنسية الاستعمارية . وما مشاركة اللاجئين الجزائريين السياسيين فيها من أفراد عائلة رزقى ، الا دليل على ذلك .

وقد طبقت السلطات الفرنسية اجراءات قاسية ضد عائلات الثائرين فحاكمت 134 شخصا أمام محكمة عسكرية استثنائية بعنابة أصدرت الحكم بالاعدام على خمسة ، وبالاشغال الشاقة المؤبدة على عشرين ، وبالنفي والاقامة الجبرية على أربعين . وغرمت الثوار بمبلغ 376 الف فرنك . واعدم الفرنسيون عددا من الناس أمام الجمهور فى الساحة العامة بمدينة سوق أهراس بعد فك الحصار عنها مباشرة ، وصادروا املاك وأراضى سبعة دواوير بالجملة . وأخذوا رهائن حتى يتم دفع الغرامات المفروضة عليهم . أما الاوروبيون الذين اتهموا ببعض الحوادث فقد برأت المحكمة ساحتهم (7) .

وهذه القسوة فى المعاملة هي التى جعلت دو بوزى يبرق من العاصمة الى سلطات قسنطينة لتراجع موقفها حتى لا تفلت الامور من أيديها . ويندفع الناس الى الثورة العامة فى الوقت الذى توجد فيه فرنسا فى حالة ضعف (8) . وعلى العكس منه فان فريديك سيمون اتهم الضباط الفرنسيين ونوابهم بالتسامح ، والثقة فى رؤساء الاهالى الجزائريين مما أدى الى ثورة مرؤوسيهم . فقرار التسفير فى نظره ، لم يكن وحده هو السبب فى ثورة الصبايحية وانما هو ما أسماه : «الثقة والتسامح مع رؤسائهم» (9)

وقد أعترف التقرير الذى وضعته سلطات منطقة القالة بأن المشاكل السياسية لها دخل فى حوادث الصبايحية بمنطقة الحدود ، الذين كانوا ممتلئين غضبا . ولم يكن قرار التسفير ، والتجنيد للحرب ، الا وسيلة لاظهار غضبهم ، وتفجيره ، كما اعترف

---

6) أ. ج. ت. صندوق 212 ، ملف 240 ، وثائق رقم 15 و 16 و 31 و 32 و 33 ، حيث راسل الكبلوتى بــاي تونس المشـــير مصطفى باشا ، ورئيس وزرائه مصطفى خزندار ، يطلب الحماية ، وتقديم العون له وللصبايحية الذين دخلوا معه الى هناك ، فأذن الوزير بابعادهم عن منطقة الحدود وتقديم الحبوب لهم . فوزعوا على أربعة مناطق فى عرش دريد . وألح الوزير التونسى على ضرورة ابعادهم عن منطقة الحدود ومراقبتهم حتى لا يتسببوا فى مشاكل لدولته مع فرنسا .

(7) Louis Rinn : *Histoire de l'Insurrection de* 1871 *en Algérie* (Alger 1891) pp. 122 - 127.
(8) Ibid.
(9) Frédéric Simon : *Les Spahis et les Smalas* (Tebessa - le 2/2/1871) pp. 1 - 20.

التقرير بأن أصداء هذه الحوادث امتدت الى المناطق الداخلية البعيدة (10) • ويعنى بذلك أحداث أولاد عيدون بالميلية ، ولربما يعنى كذلك أحداث المقرانى والحداد بعد ذلك فى مارس وأبريل التى امتدت الى مطلع عام 1872 •

أحــداث ومشــاكل الكبــلوتى :

ينتسب محمد الكبلوتى بن الطاهر بن رزقى الى عائلة رزقى الحناشية التى تقطن فى شرق جبال الاوراس • وكان عمه رزقى الحناشى قد عينه الحاج احمد باي شيخا على الحنانشة بدلا من الشيــخ الحسناوى الحناشى الذى كــان يتآمــر عليه ويشاغب سلطته • وقد حكى الحاج أحمد فى مذكراته شيئا عن ماضى رزقى ، وعن مشاكــل بوعزيز بن قانه تجاهه (11) ، وأشرنا نحن اليها فى دراستنا بعنوان : جهود الامير عبد القادر وخلفائه فى تدعيم الجبهة الشرقية القسنطينية (12) •

ومحمد الكبلوتى من أحفاد هذا الرجل ، وفى أواخر الستينات من القرن الماضى ، أصبح ثائرا ومتمردا على السلطات الفرنسية لاسباب لم نتعرف عليها ، والتجأ الى تونس واتصل هناك بباقى اللاجئين الجزائريين الآخرين ، وأخــذ يشــن الغــارات والهجومات على الفرنسيين وأعوانهم فى منطقة الحدود ، ما بين القالة شمالا عــلى البحر ، وتبسة جنوبا على مشارف الصحراء •

وقد ذكر رين أنه رفض عام 1871 أن يذهب الى الصحراء ليشارك فى الاحداث التى كان يقوم بها هناك غيره من الثوار والمقاومين الجزائريين لكونه ، كما ذكر رين دائما ، كان يرى ألا قدرة له على الحرب هناك فركز نشاطه الثورى فى الشمال وشارك أحداث زمالة عين قطار مع الصبايحية (13) كما أشرنا الى ذلك آنفا •

وعندما التجأ مع الصبايحية الى تونس فى النصف الاول من شهر فيفري 1871 ، راسل المشير مصطفى باشا ، ورئيس وزرائه مصطفى خزندار ، طلب منهما الحماية ، والعون له وللصبايحية الذين دخلوا معــه الى هناك ، فأذن الوزير بتقديم مساعدة

(10) Cahen : *Résumé des faits historiques et politiques accomplés pendant l'année* 1871 (Cercle de la Calle - le 21/12/1871). A.M.G. Carton H. 264.

11) الحاج احمد باي : مذكرات أحمد بــاي وحمدان خوجة وبوضربة • ترجمة : العربى الزبيرى (الجزائر 1973) ص 69 و 85 ــ 86 •

12) أنظر مجلة الاصالة عدد 48 (الجزائر ــ أوت 1977) ص 2 ــ 42 •

(13) Rinn : Ibid, pp. 614 - 623.

غذائية لهم وابعادهم عن منطقة الحـــدود ، ووزعتهم السلطات التونسية على أربعة عروش من عروش دريد (14) ·

ويبدو من الرسائل التى عثرنا عليها فى أرشيف تونس ، أن الكبلونى لم يمتثـل للتعليمات الرسمية للحكومة التونسية ، فأخذ يقوم بنشاط ثورى فى منطقة الحدود ، رغم أن المكان الذى حدد لاقامة عائلته هو الكريب من عمل تبرسق ، وشارك فى عدد من الاحداث والمعارك التى كانت تجـــرى وتدور بالمنطقة بعد اندلاع ثورة المقـــرانى والحداد ، وامتداد آثارها الى المنطقة الشرقية · ومن ضمن المعارك التى اشتـــرك فيها حسبما ذكر رين ، معركة 24 جوان ، ومعركة 30 أوت 1871 التى قتل فيها أخـــوه الفضيل بن رزقى وبقي يتردد بين تونس والجزائر الى أن طرد بصفة نهائية من تونس عام 1875 بصحبة بن ناصر بن شهرة (15) ·

وقد أفاد تعقيب للوزير ، خير الدين عن رسالة أمير اللواء مراد ، عامل دريد : « بان الكبلوتى هوجنى على نفسه اننا كنا وجهناه أولا الى الشرق وأعناه بالدراهم وغيره ، ثم رجع بدون اذن ورجعناه مرة ثانية على شرط عدم الرجوع بدون اذن الدولة واذا يرجع بدون اذن فانه يسجن وعليه فهو الجانى على نفسه » (16) · أي أنه طرد أكثر من مرة من تونس ·

والحقيقة أن الكبلوتى بعد التجائه الى تونس قام بنشاط واسع اقلق السلطـات الفرنسية ، والسلطات التونسية التى تعرضت لضغط مـــن طـرف سلطات الاحتلال الفرنسى بالجزائر · فأخذت حكومة تونس تبحث عنه ، وتلاحقه ، وكلفت عددا مـــن أعوانها بتتبع أخباره والتفتيش عنه لاعتقاله ، ومنهم : مصطفى بن قطوم (17) ، ويوسف ابن على أليقرو (18) ، وأحمد عبد بن حميدة (19) · والطيب بن البرانى (20) ، وأمير

14) أ· ج· ت· صندوق 212 وثيقـــة رقم 15 و 16 بتـــاريخ 3 ذو الحجـــة 1287 (جانفي 1871) ·
15) رين ، نفس المصدر ، ص 614 ـ 623 ·
16) أ· ج· ت· نفس المصدر ، وثيقـــة رقم 14 بتاريخ 25 جمـــادى الاولى 1289 (31 جويلية 1871) ·
17) نفس المصدر ، وثيقة رقم 21 بتاريخ 2 صفر 1288 (أواخر فيفرى 1871) ·
18) نفس المصدر ، وثيقة رقم 25 بتاريخ 23 جوليت 1871 (4 ربيع الثانى 1288) ·
19) نفس المصدر ، وثيقة رقم 28 بتاريخ 14 جمادى الاولى 1288 (أوت 1871) · ووثيقة رقم 32 بتاريخ 12 شوال 1288 (جانفى 1872) ·
20) نفس المصدر ، وثيقة رقم 33 بتاريخ 12 شوال 1288 (جانفى 1871) ·

اللواء مراد عامل دريد (21) ، الذين كاتبوا الوزير خير الدين برسائل وتقارير عـــن أخبـــاره ونشاطاته ·

وبسبب هذا النشـــاط الواســـع والمكثف مـــن جانب السلطات التونسية ، أرغم الكبلوتي على مغادرة تونس بحرا من ميناء حلق الوادى خلال عام 1872 ، ولكنه عندما وصل الى مالطة عاد متخفيا الى تونس ، لكونه لم يطق صبرا على فراق أهله وأولاده ، وأمه · ولكن العيون كانت تترصده وتبحث عنه ، فغادر تونس مرة أخرى الى الشام ، وعندما وصل الى مالطة كتب من هناك رسالة الى الوزير مصطفى خزندار أخبره فيها بعودته المخفية الى تونس ، ومغادرته لها ثانيا ، وطلب منه أن يرعى أولاده وأخوانـــه كوديعـــة لـــديه (22) ·

تدخل الامير عبد القادر والصدر الاعظم لصالحه :

وعندما وصل الى دمشق عرف أن القرانيين حصلوا على اذن للاقامة بتـــونس بسعي من الامير عبد القادر (23) · فطلب منه أن يتدخل لصالحه كذلك ليستفيد مـــن ذلك القرار أسوة بالقرانيين ، فلبى رغبته ، وكتب رسالة الى الوزير التونسى خزندار شكره فيها على قبوله ايواء القرانيين ، وطلب منه أن يطبق ذلك على الكبلوتى أيضا · وأن يخبره بقراره ، غير أن خزندار اعتذر عن قبول هذا الرجاء بقوله : « يجاب بمـــا يناسب وأن الكبلوتى منعت من الاجابة لطلبه موانع سياسية » (24) ·

وتدخل فيما بعد ، لصالحه ، فى وقت لاحق ، الصدر الاعظم محمد رشدى باشا ، فكتب رسالة الى باي تونس طلب منه أن يأذن له بالاقامة فى تونس (25) ·

---

21) نفس المصدر ، وثيقة رقم 14 بتاريخ 25 جمادى الاولى 1289 (31 جويلية 1872) ووثيقة رقم 13 بتاريخ 30 جمادى الاولى 1289 (أوت 1872) ، ووثيقة رقم 11 بتاريخ 4 ذو القعدة 1289 (جانفى 1873) ·

22) نفس المصدر ، وثيقة رقم 12 بتاريخ 26 جمادى الثانية 1289 (سبتمبر 1872) ·

23) راجع دراستنا عن ذلك بعنوان : وثائق جديدة عن موقف الامير عبد القـــادر والدولة العثمانية من الثوار القرانيين عام 1871 · الثقافة ، عدد 39 (يونيو ــ يوليو 1977) ص : 11 ــ 24 ·

24) ·أ· ج· ت· صندوق 78 ، ملف 929 ، وثيقـــة رقم 63 بتاريخ 2 محـــرم 1290 (2 مارس 1873) ·

25) ·أ· ح· ت· صندوق 212 ، ملف 240 ، وثيقة رقم 4 بتاريخ 26 ذو القعدة 1290 (جانفي 1874) ·

ويبدو أن السلطات التونسية أجابت طلبه ، أو انه كان ينتظر ذلك منها فحضر الى طرابلس الغرب عام 1876 ، وكتب من هناك رسالة الى الوزير التونسى خير الدين ، أخبره فيها بوجوده هناك ، وطلب منه اعانة مالية ليقوم بفلاحة الارض ، كما طلب منه أن يوصي عليه « وكيل الدولة التونسية بطرابلس ليكون مني ببال » (26) ٠

ان موقف السلطات التونسية من الكبلوتى ، هو عين الموقف الذى وقفته من محيى الذين ابن الامير عبد القادر عام 1871 ، وقد نشرنا دراسة مستفيظة ووافية عنه بالوثائق اللازمة فى مجلة الاصالة ، يمكن أن تراجع للمقارنة (27) ٠ والاسئلة التى تبقى مطروحة بعد كل هذا للبحث والاجابة هي : كيف بدأ الكبلوتى ثورته قبل عام 1871 ، ومع من ؟ ولماذا ؟ وعندما عاد الى طرابلس عام 1876 ، هل استقدم أسرته اليه ام بقيت بتونس ؟ وهل عاد هو فعلا الى تونس أم لا بعد ذلك ؟ واذا عاد أين استقر ؟ وأين مات ؟ ومتى ؟ وما مصير أمه ، واخوته ، وأولاده ؟

اننا نعرف أن هناك بتونس حاليا أسرة تدعى بأسرة الكبلوتى تستقر بالقيروان ، وقد كلفنا الزميل التونسى محمد مجدوب ، والزميل الباحث محمد أبو الاجفان بالبحث والاتصال بهذه العائلة لمعرفة ما اذا كانت تنحدر من الكبلوتى الذى هو موضوع هذه الدراسة ٠ وقد اخبرنى محمد أبو الاجفان بأنه يعرف زميلا له من عائلة الكبلوتى بالقيروان يعمل فى التعليم ، واشتغل معه فى أواخر الستينات هناك بالقيروان ، وراسله ليقدم له بعض المعلومات فلم يرد عليه ٠ وعلق أبو الاجفان على عدم رده عليه بأنه قد لا يكون من عائلته ، والا لبادر للجواب ، لان البحث عن الاجداد الابطال فى ميدان مقاومة الاستعمار ، أمر مثير يبعث على الجد والتحمس ، بل والفخر ٠

وعلى أي حال فان أحفاد الكبلوتى اذا كانوا أحياء بتونس ، أو بالحنانشة فى منطقة تبسة وشرق الاوراس ، فسوف تدفعهم هذه الدراسة عندما تبرز ، الى الاجابة على هذه الاسئلة وغيرها ، فيثروا بذلك مقاومة أجدادهم وبلادهم فى أحلك أيامها بالقرن الماضى ، وسوف يقدمون لتاريخ وطنهم ، وللبحث العلمى ، خدمات جليلة يحمدون

---

26) نفس المصدر وثيقة رقم 3 بتاريخ شعبان 1292 (سبتمبر 1871) ٠

27) أنظر دراستنا بعنوان : وثائق جديدة عن دور محيى الدين ابن الامير عبد القادر فى ثورة 1871 ، وعن موقف أبيه والسلطات التونسية منه ٠ مجلة الاصالة ، عدد 38 (أكتوبر 1976) ص 25 ـ 62 ٠

عليها ، كما نحمد اليــوم ونمجد نحن تاريخ جـدهم البطـــل المكافح الصامد ، محمد الكبلوتي بن الطاهر بن رزقى الحناشي ٠

التعــريف بالـوثـائـق :

يشتمل ملف رسائل هذه الدراسة ، على خمسة عشر وثيقة ، أربعة لمحمد الكبلوتي وتسعة للرسميين التونسيين وأعوانهم ، وواحدة للامير عبد القادر ، وأخرى للصدر الاعظم العثماني رشدى باشا ٠ وقد رتبناها حسب تواريخها تمشيا مع تسلسل الحوادث

الاولى : رسالة الكبلوتى الى باي تونس محمد الصادق باشا ، شكره فيها عـلى ايوائه فى بلاده واكرامه اياه ومن معه ، وأخبره بأنهم قــد دخلوا الآن تحت حكمــه ويمتثلون لاوامره ، وقال له : « فان أنعمت علينا بأعز جواب من عندك مرقوما بأمرك ونهيك فالحمد لله على فضل الله ثم فضلك » (28) ٠

الثانية : رســـالة الكبلوتى الى الوزير التونسى مصطفى خزندار ، أخبره فيهـا بدخوله هو ومن معه الى تونس ، وطلب منه قائلا : « فالمقصود مــن جزيل فضلك أن تجعلنا تحت جناحك وتنظرنا بعين رضاك » ٠ ولكن الوزير علق على هذه الرسالة بقوله الى عامله : « ان الاذن صدر بأن هؤلاء السبايس لا ينبغى بقاؤهم بالمحل الذى هم فيه الآن لما يلحقهم من التهمة ، وأن ينقلوا لسمنجة » وذلك « لمصلحة أنفسهم وأن يبعدوا عن الحدود راحة لانفسهم وراحة للدولة والا فانهم ان بقوا هناك فان الدولة الفرنساوية لا تسمح ببقائهم هناك لما فيه من موجبات التحير » (29) ٠

الثالثة : رسالة مصطفى بن قطوم آلى الوزير خــير الدين ، أخبره بأن النمامشة والكبلوتى قد رحلوا من بلادهم التى عاد اليها الامن ، وأنه هو والفراشيش ، ومشايخ عرش أولاد على قد جمعوا الزمالة ، ويقومون بمراقبة الوضع ، « ولما يبلغ مرادنا من هؤلاء الناس النازلين بقربنا نرجع الى البلاد مع جملة اخواننا الفراشيش » ، « والذى يريد الدخول من الناحية الغربية الى المملكة التونسية ٠٠٠ نصرف عنايتنا فيه كمـا اذنتنا » ، وطلب منه أن « يأذن لامير اللواء رشيد عامــل الكاف ليساعدهم ويقــدم اعانتــه لهم » (30) ٠

---

28) أ٠ ح٠ ت٠ صندوق 212 ، ملف 240 ، وثيقة رقم 16 بتاريخ 3 ذو الحجة 1287 (أواخر جانفي 1871) ٠

29) نفس المصدر ، وثيقة رقم 15 بتاريخ 3 ذو الحجة 1287 (أواخر جانفي 1871) ٠

30) نفس المصدر ، وثيقة رقم 21 بتاريخ 2 صفر 1288 (أواخر فيرفى 1871) ٠

الرابعة : رسالة يوسف بن على أليقرو ، الى الوزير خير الدين ، أخبره فيها بأنه ثبت عنده بأن الكبلوتى « حل بوشتاتة بموضع يقال له الصرية ، وأن السبايس الذين كانوا معه افترقوا من عنده ، البعض منهم الى عند ورغة ، والبعض منهم عند أولاد سديرة ، والحدادة هاته الساعة عافية كاملة ما بين الشرق والغرب ، والطرقات مأمونة ذهابا وايابا » ، وأكد له بأن القضاء « على هذا (كذا) الكلب الكبلوتى » لا يتم الا بقدوم الحملة العسكرية التى يقودها الوزير التونسى للحرب رستم · وطلب منه أن يخبر عامل الكاف قبل وصول الحملة الى مدينة الكاف ، ليخبره حتى يقدم للاقاتها قبل وصولها الى الكاف بيوم أو يومين · واستدرك بعد ذلك فأخبره « أن الشريف بن البوخارى الذى كان فى الكاف وصدرت منه هفوات كثيرة ، واقام حجج باطلة وأوقد الفتن بين الشرق والغرب ، ونوازله جلها على يد العمدة الصدر الاعظم سيدى الوزير الاكبر فانه الآن هنا بسوق أهراس صار يوقد الفتنة أكثر مما كان سابقا بين الحكام الفرانصوية ، وانه عامل يدا مع المير حكم السفيل » (31) · واضاف فى الاخير قائلا : « فانه اذا وجدت مسلكا لنفيه لبلد قسنطينة أو غيرها فبذلك تنطفى نار فتنته اذا ظهر لك تخبر عليه السيد القنصل متاع الدولة الفرانسوية الذى فى تونس بنفيه للجزائر أو بعض الاماكن البعيدة » وختم رسالته بخبر مفاده أن البارود تكلم فى هذه الايام بعمالة وهران ، وأن الذى اثار هذا البارود حسبما يشاع ، هو بن ناصر بن شهرة الذى هرب من نفزاوة (32) ·

الخامسة : رسالة أحمد عبد بن حميدة الى الوزير خير الدين ، أخبره فيها : « أن الكبلوتى لا زال يكاتب فى أهل الغرب على أنهم يحملون معه فيما يفعل من الفساد ، ويهنوه فى ذلك » ، وانهم وعدوه بأن ينظموا اليه بعد أن يحصدوا زروعهم ، وأن

---

31) يعنى بكلمة المير شيخ البلدية من الكلمة الفرنسية Le maire ، وبكلمة السفيل : المدنيون ، من الكلمة الفرنسية Civil

32) نفس المصدر ، وثيقة رقم 25 بتاريخ 23 جويلية 1871 (4 ربيع الثانى 1288) ، ويوسف اليقرو : Y. Allegro هذا أصله من جزيرة كورسيكة ، عينته حكومة تونس قنصلا عاما لها فى مدينة عنابة ، وعمل على خدمة المصالح الفرنسية ، وقدم خدماته المتعددة لتسهيل العمل لفرض الحماية الفرنسية على تونس ، ولتوسيع حدودها الجنوبية الشرقية على حساب ولاية طرابلس الغرب · أنظر : الدكتور عبد الرحمن تشايجى · المسالة التونسية والسياسة العثمانية 1881 ـ 1913 · ترجمة عبد الجليل التميمى (تونس ـ دار الكتب الشرقية فيفرى 1973) ص 66 ، 1859 ـ 187 ·

الباشاغا المقرانى ، والشيخ الحداد قد كاتباه على ما قيل أيضا فى نفس الامر ، وأن رجلا آخر يدعى على الشريف « يسعى فى الفعل المذكور ولم تنقطع بينه وبين الكبلوتى المكاتبة » ، ولذلك يستحسن أن تقدم الحملة المنصورة الى أطراف أعراش الكـاف . وأورد أيضا خبر هروب الهمامة ، واضمار العيايشة السوء كذلك مما يستوجب عقابهم لانهم يتجسسون لصالح الهمامة ، كما أورد خبرا عن أن « ســـيرة يوسف بن بشير لا ترضى » .

وقد علق الوزير على هذه الرسالة بقوله : « يجاب بعدم الغفلة عما يتزايد عنـده من أحـــوال الكبلوتى وغيره ويرسل نسخـــة بهذا المكتوب لوزير الحــرب المكلف بالحملـــة » (33) .

السادسة : رسالة أحمد عبدو ابن حميدة ورفاقه الى الوزير خير الدين ، أخبره فيها بأنه اتصل بالاذن الصادر من الجناب العلى ، ومنه هو ، مع أمير الاي باش حانبة ، الخاص بتقسيم الصبايحية اتباع الكبلوتى الى أربعة أقسام ، ووضع كل قسم لـدى عرش من عروش دريد الاربعة ، والذى يحذر من عودة البعض منهم الى الناحية الغربية أو اجتماع الاقسام مع بعضها البعض مرة أخرى . وأوضح له بأنه لما اتصل بهـذا الاذن ، ركب هو وباش حانبة ، وعدد من الرجال الكبار ، « وتوجهنا نحوهم فوجدناهم نازلين بالكريب من عمل بلدة تبرسق . جلهم بانين الاخيام بالحطب ، والقش واشتكوا لنا بالجّوع وعدم السكنة (كذا) من غير خيام » ، وذكروا لهم بأن الدولة تفضلت عليهم بالبيوت وجانب من الطعام ، ولكن البيوت رجعت والطعام لم يتصلوا به . وقد طلب الصبايحية منهم ألا يقسموهم الا بعد وصول الاغاثة المطلوبة ، ولكن الوفد رفض ذلك وقسموهم الى أربعة أقسام واتصل كل عرش بقسمته . وكتبوا قائمة وكشفا بذلـك وجهوه مع باش حانبة الى الوزير خير الدين . وفى الاخير استدركوا بأنه : « توصل من الطعام المذكور من ذكرهم بقدر ستة عشر قفيز قمح تونسى وأربعة وعشرون أقفزة شعـير تـونسى » (34) .

33) نفس المصدر ، وثيقة رقم 28 بتاريخ 14 جمادى الاولى 1288 (أوت 1871) . وهناك أشكال فى اسم صاحب هذه الوثيقة بحيث لم نستطع أن نقرأ اسمه بوضوح . فلا ندرى هل عبد ، أو عبده ، أو عبو ، ولا ندرى هل حميده بالحاء أو صميده بالصاد .

34) نفس المصدر ، وثيقة رقم 32 بتاريخ 12 شوال 1288 (جانفى 1872) .

السابعة : وثيقة بها كشف بأسماء عروش دريد الاربعة ، ومجموع الخيام وأسر لصبايحية التى وزعت عليهم · وهذه العروش هي :

عرش شيخ بنى زرق (أو رزق) ووزع عليه سبعة عشر عائلة ·

عرش شيخ أولاد جوين ، وزع عليه ستة عشر عائلة ·

عرش أولاد مناع وزع عليه خمسة عشر عائلة ·

عرش شيخ أولاد عرفة وزع عليه خمسة عشر عائلة ·

وفيما يــلى بيان باسماء كل قسم :

ـ قسمة عرش شيخ بنى رزق :

احمد بن عمار
عمارة بن جاب الله
مبارك بن محمد
سعيد بن مخلوف
مسعود بن محمد
السبت بن القندوز
العبيدى بن عمار
الاخضر بن عبد الحفيظ
على بن سرحان
محمد بن زيتونى
عمار بن محمد
جاب اللــه
عمار بن محمد
بلقاسم بن جاب الله
أبو الاعراس
أحمد بن عبيد
صالح بن نصر ·

ـ قسمة عرش شيخ أولاد جوين :

أحمد بن قاسم
بلقاسم بن علي
علي بن المبارك
قاسم بن عمار
بلقاسم بن أحمد
محمد بن بخوش
ابراهيم بن الصامت
عبد الله بن نصر
بلقاسم بن عثمان
علي بن محمد
محمد بن الزين
الطيب بن عبد الواحد
علي بن الساسى
مخلوف بن الساسى
الهامل بن أحمد
أحمد بن عبيد الدريسى

- قسمة أولاد مناع :	- قسمة شيخ أولاد عرفة :
بوعزيز بن محمد الصالح الحناشي	صالح بن طلحة
أخـوه محمود	الفاطمي بن الزين
علي بن الحاج	عمار بن سوسي
عمار بن صالح	محمد بن عبد الله
بلقاسم بن الساسي	عمار بن محمد
ابراهيم بن بخوش	أحمد بن الهوري
الاخضر بن المبروك	الطاهر بن خالد
سي الطاهر بن أحمد الصالح	العبيدي بن عمر
محمد بن البهلول	محمد بن عبد الله
محمد بن مبروك	محمد بن رمضان
رابح بن عبد الرحمن	فرحات بن أحمد
الطيب بن بلقاسم	مسعود بن بالغيث
بلقاسم بن علي	وناس بن العلمي
علي بن محمد	معمر بن عبد السلام
محمد بن خالد	عمار بن العميري (35)

الثامنة : رسالة الطيب بن البراني الى الوزير خير الدين حول توطين الصبايحية والكبلوتي بالتراب التونسي · وقد أخبره فيها بأنه اتصل برسالته المؤرخة بيوم 6 من نفس الشهر ، والتي تنص على تقسيم الصبايحية الذين كانوا مع الكبلوتي الى أربعة أقسام من عروش دريد ، وعلى مراقبتهم حتى لا يحدثوا تشويشا أو اضطرابا · وساق له نفس الاخبار التي ذكرها أحمد بن حميدة في رسالته السابقة رقم 32 ، من تقسيمهم وتوزيع بعض الاطعمة عليهم ، وتوجيه كشف بذلك اليه مع باش حانبة · ووعده بان يكون يدا واحدة مع سي أحمد بن حميدة (36) ·

التاسعة : رسالة أمير اللواء مراد عامل دريد الى الوزير خير الدين حول البحث عن الكبلوتي ، أخبره فيها : « انه بلغنا خبر من الكـــاف ووطنها خبر محقق هــو أن

35) نفس المصدر ، وثيقة رقم 31 لا تاريخ لها ، وهي ملحق للرسالة السابقة رقم 32 بتاريخ 12 شوال 1288 (جانفي 1872) ·

36) نفس المصدر ، وثيقة رقم 33 بتاريخ 12 شوال 1288 (جانفي 1872) ·

الكبلوتي توجه الى بلد طرابلس ومن هناك أتى الى وطننا وأتى الى خيمته خفية ، ولما حل بها صار يختفي بالنهار ويأتيها ليلا » وأكد له بأنه اجتهد غاية الجهد للظفر به ، وكلف الطيب بن البراني شيخ أولاد جوين بالتوجه الى الكاف للبحث عنه ، فوجد الخبر شائعا هناك لدى الخاص والعام ، ولكن من غير اثبات واقعي ، وأن عامل الكاف السيد رشيد تناهى اليه أمر ذلك . وفي آخر الرسالة استفسر كيف سيفعل بالكبلوتي اذا اعتقله . فعقب الوزير على الرسالة بقوله : « واذا ضفر (كذا) به يوجه حالا للحضرة العلي ولابد يعمل غاية الجهد مع المشايخ في التمكن عليه اذ لا يعقل أن مثله يقرب نجع دريد ويخفى عليكم أمره ، ثم ان الكبلوتي هو جنى على نفسه اننا كنا وجهناه أولا الى الشرق وأعناه بالدراهم وغيره ، ثم رجع بدون اذن ورجعناه مرة ثانية على شرط عدم الرجوع بدون اذن الدولة ، واذا يرجع بدون اذن فانه يسجن وعليه فهو الجاني على نفسه » (37) .

العاشرة : رسالة أمير اللواء مراد عامل دريد وأولاد سيدي عبيد الى الوزير خير الدين حول البحث عن الكبلوتي ، أخبره فيها بأنه اتصل بالرسالة التي وجهها اليه يوم 26 من نفس الشهر ، وحثه فيها على البحث عن الكبلوتي ، وأحاطه علما : « أنه ثبت عندنا قدومه وأنه نزل على صفاقس وقدم الى محله بالكريب ، وانه يختفي بالنهار ويأتي الى منزله بالليل » ، كما أخبره بأنه اتصل برسالة من عامل الكاف رشيد حملها اليه الاوضة باشي علي بن شلبي ، يحثه فيها على التمكن منه وارساله الى الكاف ، فاحضرنا مشايخ وأعيان دريد وأرسلنا معهم الاوضة باشي ، والشاوش الذي جاء معه واتجهوا الى نزله وأحدقوا به ليلة كاملة بصورة خفية ، حتى طلوع الفجر فلم يظهر له أثر ، وعند ذاك قصدوا الى الخيمة التي يسكن بها في الربع » ودعوا أخاه أبو عزيز فحضر بين أيديهم وسألوه عنه فاعترف لهم بقدومه ووجوده ، ثم توجه من عندهم الى خيمته بقصد الاتيان به وأجاب والدته بقوله لها ان ابنك يطلبونه الناس فاجابته والدته بقولها له توجه الى المكان الذي أتى منه ولم يبق هنا وتوجه أمس يوم التاريخ والناس المتوجهين (كذا) له يسمعون ذلك خلف خيمته ورجع لهم أخوه من غير انفصال فأتوا لنا بأخيه وبرجال من أعيان الغرابة » ، فحثهم على البحث عنه ، وطمأنهم بأنه لن يناله أي شيء من الدولة ، فعادوا للبحث عنه طوال اليوم ، ثم عادوا

---

37) نفس المصدر ، وثيقة رقم 14 بتاريخ 25 جمادى الاولى 1289 (حوالى 31 جويلية 1872) .

من غير طائل ، فوجهناهم جميعا الى الكاف صحبة رسالة الى العامل السيد رشيد . وفى الاخير استدرك بأنه اتصل بخبر صحيح من مخبرين آخرين يفيد بأنه رحل ليلة الجمعة الفارطة على نفس الطريق الذى أتى منه بعد أن أخذ من بيته ما يلزمه من المؤن والمصروف ، وتوجه صحبة تابعه والحمار والبغل اللذين أتيابهما من صفاقس . وقد عقب الوزير على هذه الرسالة بقوله : « فان التغافل عن الاعلام بذلك حتى ورود الاعلام من غيركم يعتبر من التفريط والتساهل فى الخدمة » (38) .

الحادية عشرة : رسالة الكبلوتى الى الوزير مصطفى خزندار من مالطة أخبره فيها : « اننى لما صفرت (كذا) من هناك من مرصت (كذا) حلق الوادى وبلغت مالطة رجعت منها الى بيتنا شف (كذا) أولادى لانى لا طقت صبر على الكبد وراني (كذا) رجعت فى طاعة الدولة المنصورة ... وبلغت الى مدينة مالطة متوجه (كذا) الى الشام ... وأولادى واخوانى راهم (كذا) محاجير الى المعظم ... أبنك سيدى محمد » (39) .

الثانية عشرة : رسالة أمير اللواء مراد الى الوزير خير الدين ، أخبره فيها بأنه اتصل برسالته المؤرخة بيوم 1 من الشهر تحت رقم 661 ، التى تتضمن « تشكى قنصل الفرنسيس من الصبايحية الذين مع الكبلوتى الموزعين على نجوع دريد » ، والذين خالفوا أوامر الدولة ، واصبحوا يقتربون من منطقة الحدود ، ويتسوقون الى مدينة الكاف . وأحاطه علما : « أنه حين اتصال المكتوب بأيدينا بادرنا بالمكاتبة لمشايخ دريد بجميع ما تضمنه المكتوب المذكور وحرضناهم عليه فى ذلك غاية التحريض ، وأنذرناهم غاية الانذار » ، وختم رسالته بقوله : « أعلم جنابكم أن الذى ظهر لنا أن هؤلاء الناس ليس عندهم تفريط ولا اياس فى وطنهم وهاته الامور التى تصدر منهم تجسسا على وطنهم وحذرنا على مشايخ دريد فى رد البال منهم » (40) .

الثالثة عشرة : رسالة الامير عبد القادر الى الوزير مصطفى خزندار يتشفع فيه للكبلوتى ، فبعد أن شكره على ايوائه للمقرانيين ووضعهم تحت حماية دولته قال له : « ثم ان القائد الكبلوتى كان حضر لطرفنا منذ شهور وهو الآن عندنا يطلب شفاعتنا فالمرجو ... أن يلحقه بهم فى الاذن والسكن ويشمله معهم ومن يلوذ به » ، وأضاف فى

38) نفس المصدر ، وثيقة رقم 13 بتاريخ 30 جمادى الاولى 1289 (أوت 1872) .
39) نفس المصدر ، وثيقة رقم 12 بتاريخ 26 جمادى الثانية 1289 (سبتمبر 1872) .
40) نفس المصدر ، وثيقة رقم 11 بتاريخ 4 ذو القعدة 1289 (جانفى 1873) .

آخر رسالته : « فلا نشك فى رد الجواب بطلق سراح هذا المأسور من يد الاغتراب » . وقد عقب الوزير على هذه الرسالة بقوله : « يجاب بما يناسب وأن الكبلوتى منعت من الاجابة لمطلبه موانع سياسية » (41) .

الرابعة عشرة : رسالة الصدر الاعظم رشدى باشا الى باي تونس حول السماح للكبلوتى بالاقامة فى تونس ، وقد ذكره فيها برسالته السابقة التى أرسلها اليه يوم 16 جمادى الاولى 1290 حول الاهتمام بالمهاجرين القرانيين ومنهم الكبلوتى الذين التجأوا الى تونس . وأوضح له بأنه اتصل فى الايام الاخيرة بعرض الى الباب العالى « ممض من الكبلوتى بن الطاهر شيخ قبيلة الحنانشة يعرف فيه أنه بعد أن حصل له ولمن معه المساعدة التامة والمساعفة اللائقة للتوطن بولايتكم الجليلة تحت حماية دولتكم أمرتموه بالرحول (كذا) منها الى مكان آخر بموجب طلب قنصل فرنسا الذى هناك وما يسعه الا الامتثال لامركم السنى . وبلغه الآن أن جمهورية فرنسا قد أعلنت بالعفو العمومى للذى كأمثاله واعتمد على ان لا يقع له التعرض من الجمهورية المذكورة فى المستقبل وبناء على ذلك استرحم من الدولة العلية على الاقامة بايالتكم الجليلة آمنا ومطمئنا مستريح البال ... فها نحن بادرنا حضرت (كذا) عليائكم بمطلبه فلا بأس بمراعاته حيث أن الحماية والوصاية فى حق المهاجرين كمثلهم من مقتضيات الدراية الاسلامية » (42) .

الخامسة عشرة : رسالة الكبلوتى الى الوزير خير الدين قال له فيها : « اننى الآن مقيم ببلدة طرابلس وأريد الحرث هنا ولا وجدت طاقة وطالب الاعانة من فضل السيادة لانى خديمك ولا عندى احد سواك فى ذلك البلاد (كذا) ولا فى غيرها وأيضا سيدى توصى علي وكيل الدولة التونسية بطرابلس يكون منى ببال » (43) .

---

41) نفس المصدر ، صندوق 78 ، ملف 929 ، وثيقة رقم 63 بتاريخ 2 محرم 1290 (2 مارس 1873) .

42) نفس المصدر ، صندوق 212 ، ملف 240 ، وثيقة رقم 4 بتاريخ 26 ذو القعدة 1290 (جانفي 1874) .

43) نفس المصدر ، وثيقة رقم 3 بتاريخ شعبان 1292 (سبتمبر 1876) .

نصــــوص الرســائل وأصــولها

الاولى : رسالة الكبلوتى بن الطاهر رزقى الى باي تونس محمد الصادق باشا

الحمد لله (44) ، صلى الله على رسول الله وسلم تسليما ·

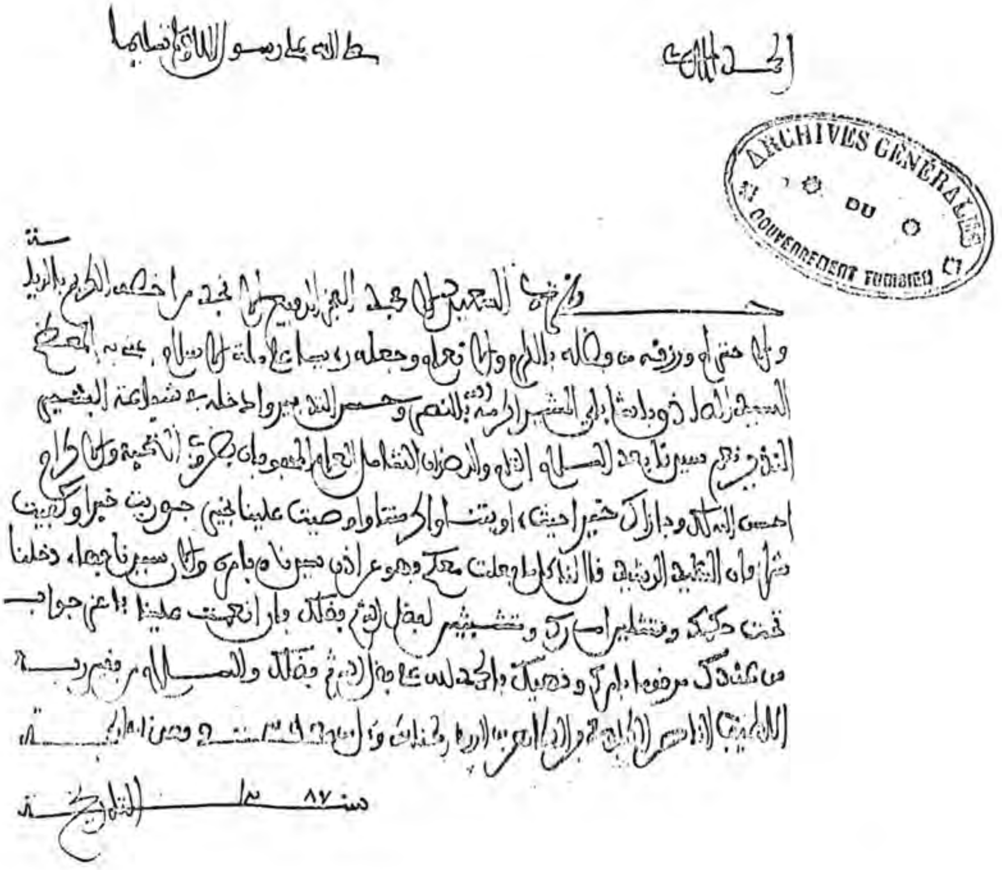
حظرة السعيد الامجد الفخر الرفيع الانجد من أخصه الكريم بالرياسة والاحترام ورزقه من فضله بالكرم والانعام وجعله رئيسا على ملة الاسلام أعنى به المعظم السيد الصادق باشا باي المشير أكرمه الله بالنصر وحسن التدبير وأدخله فى شفاعة البشير النذير نعم سيدنا بعد السلام التام والرضوان الشامل العام المحفوفان بضروب التحية والاكرام أحسن الله لك وجازاك خيرا جيث ءاويتنا واكرمتنا واوصيت علينا بخــــير جوزيت خيرا وكفيت شرا فان السيد الرشيد قال لنا كل ما فعلت معكم فهو عن اذن سيدنا وبأمره والان سيدنا فها دخلنا تحت حكمك وممتثلين أمرك ومتشبثين لفضــــل الله ثم فضلك فان أنعمت علينا بأعز جواب من عندك مرقوما بأمرك ونهيك فالحمد لله على فضل الله ثم فضلك والسلام من فقير ربه اللطيف الناصر الكبلوتى بن الطاهر ابن الرزقى الحناشى وكل من معه فى 3 من ذي الحجة سنة 1287 (45) ·

الثانية : رسالة الكبلوتى بن الطاهر رزقى الى الوزير التونسى مصطفى خزندار حــول التجائه الى تــونس ·

الحمد للــه (46) ، صلى الله على الحبيب المصطفى ·

حظرة النبيه الاسعد الفخير الارشد المحترم الامجد السيد مصطفى رئيس الاكابر والولات (كذا) وعمدة النجباء والثقات من جعل الله أمره مطاع (كذا) وشأنه رفيع (كذا) ذو نفع وانتفاع نعم أيه (كذا) الرئيس الافخر والملاذ الاكبر بعد تبليغ السلام ولطايف التحية والاكرام فهاءنا دخلنا وطنك وتشبثنا بجلال قدرك كما بلغنا وتقرر فى ذهننــا أن من حام حماك لا يخشى بفضل الله سواك وأيضا فالمقصود من جــــزيل فضلك أن تجعلنا تحت جناحك وتنظرنا بعين رضاك فان عين الرضى عن كـــل عيب كليلة فان ءاويتنا فقد قال قال جل من قائل « والذين ءاووا ونصروا » وقال « وما تفعلو من خــــير

44) أ· ح· ت· صندوق 212 ، ملف 240 ، وثيقة رقم 16 ·
45) الموافق أواخر جانفي 1871 ·
46) أ· ح· ت· صندوق 212 ملف 240 ، وثيقة رقم 15 ·



الشكل رقم 1 ـ رسالة محمد الكبلوتي الى باي تونس محمد الصادق باشا ،
١٠ ح٠ ت٠ صندوق 212 ، ملف 240 ، وثيقة رقم 16 ٠



الشكل رقم 2 ــ رسالة محمد الكبلوتي الى الوزير التونسي مصطفى خزندار حول التجانه الى تونس ، أ٠ ح٠ ت٠ صندوق 212 ، ملف 240 ، وثيقة رقم 15 ٠

يعلمه الله ، ونسئل الله أن يزيدنا وأياك من فضله ورضاه بجاه نبيه الاواه انه على ذلك قدير وبالاجابة جدير والسلام من فقير ربه الغني القادر الكبلوتى بن الطاهر بن الرزقى الحناشى لطف الله بحاله والمؤمنين اجمعين وجميع من معه فى 3 ذي الحجة سنة 1287 (47) ·

المكلــف بالكــاف

وبعد فانه ورد كتاب من فلان وهو أعلاه بشكر الفضل وعرضناه على الحضـرة العلية وصدر الاذن العلي باعلامكم بأن الاذن صدر بأن هؤلاء السبايس لا ينبغى بقاءهم بالمحل الذى هم فيه الآن لما يلحقهم من التهمة وأن ينتقلوا لسمنجه وأن الدولة تعطيهم نصيبا من القمح طبق ما عرفناكم به فالمراد أن تحرظهم على الارتحال من قرب الحدود وأن يقدموا لسمنجة طبق الاذن لان المراد اثباتهم بوجق المحمدية وتعرفهم بأن يغتنموا الفرصة بالارتحال لمصلحة أنفسهم وأن يبعدوا عن الحدود راحة لانفسهم وراحة للدولة والا فانهم ان بقوا هناك فان الدولة الفرنساوية لا تسمح ببقائهم هناك لما فيه مـن موحيات التحيير ·

الثالثه : رسالة مصطفى بن قطوم الى الوزير خير الدين حول مشاكل الكبلوتى ·

الحمد للــه (48) ، وصلى الله على سيدنا محمد وسلم ·

حفض (كذا) الله ذات مولانا علي المقام ومسرف عنايته لصني دين الاسلام · وبلغ الله مراده لهنات الخاص والعام مولانا الاوحد الثيقة الاعز أمير الامراء سيدى خير الدين الوزير المباشر حرصه الله ءامين أما بعد التقبيل بيدك الكريمة أمنها الله ءامين وبعد نعم سيدى أذنتنا أننا نجمع الزمالة مع اخواننا الفراشيش ببلادنا فلما توجهت من عند السيادة فوجدت محلنا بالزوارين صحبة أحبابنا المشاييخ وبقية عرشنا أولاد علي فرغبت الخلاص على رجوعنا الى البلاد كان بلادنا هاته الساعة لما رجعوا مـن نواحيها النمامشة والكبلوتى فبقت فى هنات (كذا) وعافية مع وجودك والحمد للــه على ذالك وارغابنا فى الخلاص لاننى نظرت من أهلنا يريد دخول فريقية ليلا يتفرض علينا ويشتد عنا الامر فى بعدهم لانهم اذا دخلوا يتفرق ويذهبون نسبتهم ويمنـع

47) الموافق أواخر جانفي 1871 ·

48) أ· ح· ت· صندوق 212 ، ملف 240 ، وثيقة رقم 21 ·

أنفسهم من الخلاص في قلة اثباتهم في أي مكان ولما يبلغ مرادنا من هؤلاء الناس النازلين بقربنا نرجع الى البلاد مـــع جملة اخواننا الفراشيش كما اذنتنا ونحن واقفين على ساق الجد في ما يجلب الخاو (كذا) بين الجانبين وعدم مد اليد في تلك الناحية والذى يريد الدخول من الناحية الغربية الى المملكة التونسية حفضها الله من كل بلى نصرف عنايتنا فيه كما اذنتنا ونطلب من سيدى أن تاذن لنا الهمام الارفع امير اللواء سيدى رشيد عامل الكاف يكن لنا اعانة في الخلاص ونطلب الله سبحانه وتعالى أن يبقى لنا وجودك مع وجود سادتنا هناهم الله ءامين والسلام من خديمك ومقبل الارض تحـت أقدامك عبدك مصطفى بن قظوم وفقك اللـــه ءامين وكتب في 2 في صفـر الخير سنة 1288 (49) ، كتب لعامل الكاف ويرجع للوزارة في بقية فصوله .

الرابعة : رسالة يوسف بن علي اليقرو الى الوزير خير الدين حول نشاط الكبلوتي ابن الطـاهر رزقـي .

الحمد للــه (50) ، وحده واليه يرجع الامر كله .

المقام الذى زاحمت الكواكب كتفه وحاز من المكارم والكمالات ما هو اهله ومحله الامجد الهمام وبدر المجد الذى لا يفارقه نخبة الاعيان من اهل الرفعة والشان أمـير الامراء وواسطة عقد الكبر الوزير المباشر سيدى خير الدين اعزه الله ءامين السلام عليكم بعد تقبيل الكريمتين يديكم ورحمة الله تعالى الشاملة فالذى يجب به اعلامكم الرفيع هو أن الكبلوتي بن الطاهر ثبت عندنا وأنه حل بوشتاته بموضع يقال له الصرية وأن السبايس الذين كانوا معه افترقوا من عنده البعض منهم الى عندورغه والبعض منهم عند أولاد سديرة والحدادة هاته الساعة عافية كاملة ما بين الشرق والغـرب والطرقات مامونة ذهابا وايابا ولا يكون اتمام الفرض الا في قدوم الحملة المنصورة التي بها الافخم سيدى رستم لاتمام غرض الدولتين في التمكن على هاذا الكلـــب الكبلوتي ليكون الهنا والعافية في الوطن والاولى المبادرة بقدوم الحملة عما قريب ان شاء الله يكون الظفر به والمؤمل منكم انه يوم بلوغ الحملة للكاف تخبر الهمام سيدى رشيد ءاغه الكاف يخبرني بالقدوم لملاقات الحملة قبل بلوغها الكاف بيوم أو يومـين

49) الموافق أواخر فيفري 1871 .

50) أ. ح. ت. صندوق 212 ، ملف 240 ، وثيقة رقم 25 .



الشكل رقم 3 ـ رسالة مصطفى بن قظوم الى الوزير خير الدين حول مشاكل الكبلوتي
أ· ح· ت· صندوق 212 ، ملف 240 ، وثيقة رقم 21 ·



الحمد لله وحده واليه يرجع الامر كله

الشكل رقم 4 ـ رسالة يوسف بن علي اليقرو الى الوزير خير الدين حول مشاكل الكبلوتي ، ١٠ ح٠ ت٠ صندوق 212 ، ملف 240 ، وثيقة رقم 25 ٠

وأعرفكم سيدى رعاك الله أن الشريف بن البوخارى الذى كان فى الكاف وصدرت منه هفوات كثيرة وأقام حجج باطلية وأوقد الفتن بين الشرق والغرب ونوازله جلها على يد العمدة الصدر الاعظم سيدى الوزير الاكبر فانه الان هنا بسوق أهراس صار يوقد فى الفتنة اكثر من ما كان سابقا بين الحكام الفرانصوية وأنه عامل يدا مع المير حـكم السفيل وبعض أمور الدولتين انصرقت (كذا) من قبيح افعاله ووقود فتنته • فانه اذا وجدت مسلكا لنفيه لبلد قسنطينة أو غيرها فبذالك تنطفى نار فتنته اذا ظهر لك تخبر عليـه السيد القنصل متاع الدولة الفرانصوية الذى فى تونس ينفيه للجزائر أو بعض الاماكن البعيدة وأعلمكم أنها وقعت العافية فى الغرب كافة وأن الناس العاصون طلبوا الامان وأكثرهم أتوا مذعنين طائعين وأن هاته الايام البارود وقع فى عمالت وهران ويقول ابن ناصر بن شهره هو الذى أقام مفسدا فى عمالة وهران وهرب من نفزة الى العمالة المذكورة وكل ما يقع فى عمالت الدولة الفرانصوية نعلمك به ودمتم فى أمن الله والسلام من خديمكم الفقير الى ربه يوسف بن علي النيقرو وكيل الدولتين فى 23 جوليت سنة 1871

فى 4 ربيع 2 سنة 1288 • Y. Allegros

الخامسة : رســالة احمد عبدو بن حميده الى الوزير خـــير الدين حول الكبلوتى ابن الطــاهر رزقى •

الحمد للــه (51) ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد واله وصحبه وسلم •

جناب الهمام المفخم أمير الامراء الوزير المباشر سيدى خير الدين حرس الله تعالى مجده • ءامين السلام عليكم التام المقبل براحتيكم الكرام وبعد بلغنا أن الكبلوتى لا زال يكاتب فى أهل الغرب على أنهم يجملون معه فيما يفعـــل مـــن الفساد ويهنوه فى ذالك وأوعدوه على اتمام زرعهم ويكون معه وقد قيل انه كاتبه بن ءاغه وابن حداد بعمــالة الاجانب وجرت بينهم المكاتب فى ذالك ولعله يتم لهم ما ذكر وذكروا أيضا رجل يقــرا جبل الرقبة يقال له علي ويعرف بالشريف انه يسعى فى الفعل المذكور ولم تنقطع بينــه وبين الكبلوتى المكاتبة وان ثبت قدوم الحملة المنصورة ونزولها بأطراف أعراش الكاف فهو حسن وأما بلغنا بعد هروب الهمامة أن جماعة من العيايشة ظهر سيدى وزير الحرب عقابهم لما ثبت عنده أنهم كانوا ممن يتجسسون مع المذكورين وأما سيرة يوسف بن بشير

(51) أ• ح• ت• صندوق 212 ، ملف 240 ، وثيقة رقم 28 •



الشكل رقم 5 ــ رسالة احمد عبد بن حميدة الى الوزير خير الدين حــول الكبلوتي
أ · ح · ت · صندوق 212 ، ملف 240 وثيقة رقم 28 ·

لا ترضى وهذا ما حصل عندنا الان عرفناكم به وربنا يدم لنا وجودكم ووجود سادتنا نصرهم ءامين والسلام من خديمكم فقير ربه أحمد عبد بن حميدة فى 14 جمادي الاول سنة 1288 (52) ·

يجاب بعدم الغفلة عما يتزايد عنده من أحوال الكبلوطى وغيره ويرسل نسخة بهذا المكتوب لوزير الحرب المكلف بالحملة · صح ·

السادسة : رسالة أحمد عبده ابن حميدة ورفاقه الى الوزير خير الدين حول توزيع الصبايحية اللاجئين من الجزائر مع الكبلوتى الى منطقة الحدود ·

الحمد لله (53) ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وسلم ·

اسعد الله مقام الهمام الاكمل الوجيه الاحزم العمدة المفخم أمير الامراء ووزير المباشر سيدى خير الدين ادام الله اجلاله وأمده فى المعالى كماله السلام عليكم السلام التام ورحمة الله وبركاته ويليه بعد التقبيل براحتى الايدى الكرام نعم سيدى بانه أتانا فى شهر التاريخ الاذن من الجانب العلي مصحوب باذنكم الرفيع صحبة أمير الاي السيدى باش حانبة فى تقسيم أنفار الصبايس جماعة الكبلوتى الى أربعة اقسام كل قسم يكون مع عرش من عروش دريد الاربع والتحذير عليهم بأن يرجع أحد منهم الى الناحية الغربية ويسعى الفساد مع الاجانب ورد البال من أن يرجع ويجتمع مع بعظهم بعد القسمة المذكورة الى ءاخر ما تظمنه الاذن العلي مع ما اقتضاه نظركم المؤيد ورأيكم السعيد فلما بلغ لنا ذلك ركب السيد باش حانبة ونحن وكافة الرجالة الكبار وتوجهنا نحوهم فوجدناهم نازلين بالكريب من عمل بلدة تبرسق فوجدناهم جلهم بانين الاخيام بالحطب والقش واشتكوا لنا بالجوع وعدم السكنة من غير خيام وذكر لنا أنه كانت الدولة العلية تفضلت عليهم بالبيوت وجانب طعام أما البيوت رجعت الى المحروسة والطعام لم يتصل به فطلب منا الامهال بالقسمة الى أن يجيء الجم حيث لم يتصل بالفصلين المذكورين فلم نوافقوهم على ذلك وقسمناهم على أربعة أقسام على مقتضى ما صدر به الاذن واتصل كل عرش بقسمته كما تتصل بجانب السيادة تجريدة بها بيان كل قسمة وحيوانها ونسبتها صحبة السيد باش حانبة كما يحكى لجانب السعيد السيد

52) الموافق أوت 1871 ·

53) أ· ح· ت· صندوق 212 ، ملف 240 ، وثيقة رقم 32 ·



الشكل رقم 6 ـ رسالة احمد عبد بن حميدة الى الوزير خير الدين حـول الكبلوتي والصبايحية ، ٠١ ح٠ ت٠ صندوق 212 ، ملف 240 ، وثيقة رقم 32 ٠

باش حانبة فهاذا ما عندنا عرفنا به سيدنا ودامت السيادة فى أمان الله وحفظه والسلام من الفقير لـــربه خديمكم أحمد عبد ابن حميدة والطيب بن البراني وسليمان بن عبيد واحمد بن عمار عفا الله عن السيادة ءامين · فى 12 فى شوال المبارك سنة 1288 (54) ·

الحاق خير يكون معلوم السيادة توصل من الطعام المذكور من ذكرهم بقدر ستــة عشر قفيز قمح تونسى وأربعة وعشرون أقفزة شعير تونسى والسلام صح من سليمان ابن عبيد · صح الطيب (امضاء) ·

السابعة : ملحق به كشف بأسماء عروش دريد الاربعة ، وأسماء عائلات الصبايحية والحنانشة التى وزعت عليهم ·

الحمد لله (55) بيان بيوت الغرابة من الحنانشة والسبايس والهمامة المنقسم عــلى اعراش دريد على مقتضى الاذن العلي المصحوب على يد سيدى باش حانبة ·

ـ بيان القسمت (كذا) التى صعت مع

عرش شيخ بنى رزق :

خيـــل خيـــام

1 ـ أحمد بن عمار

1 ـ عمارة بن جاب الله

1 ـ بيت مبارك بن محمد

1 ـ بيت سعيد بن مخلوف

1 ـ بيت مسعود بن محمد

1 ـ السبت بن القندوز

ـ ـ العبيدى بن عمار من غير خيالى

ـ ـ الاخضر بن عبد الحفيظ ، مثله

1 ـ على بن سرحان

1 ـ محمد بن زيتونى

1 ـ عمار بن محمد

1 ـ جاب اللــه

1 ـ عمار بن محمد

1 ـ بلقاسم بن جاب الله

1 ـ أبو الاعراس

1 ـ أحمد بن العبيد

1 ـ صالح بن نصر ·

جملة القسم حنانشة وشامية (؟)

15

54) الموافق جــانفي 1872 ·

55) نفس المصدر ، وثيقة رقم 31 بدون تاريخ وهي ملحق لرسالة أحمد بن حميدة السابقة الى الوزير خير الدين بتاريخ 12 شوال 1288 (جانفي 1872) ·

- قسمة شيخ أولاد جوين :

1 – أحمد بن قاسم – 2
1 – بلقاسم بن على
1 – على بن المبارك – 3
1 – قاسم بن عمار
1 – بلقاسم بن احمد – 1
1 – محمد بن بخوش
1 – ابراهيم بن الصامت – 1
1 – عبد الله بن نصر – 1
– بلقاسم بن عثمان من غير خيالى – 1
1 – على بن محمد – 2
1 – محمد بن الزين – 1
1 – الطيب بن عبد الواحد
داخل فى قسمة سى أحمد بن حميدة
1 – على بن الساسى
1 – مخلوف بن الساسى
1 – الهامل بن أحمد
توجه بخيمته مع احمد بن حميدة
1 – أحمد بن عبيد الدريسى
جملة القسم حنانشة

- قسمت (كذا) أولاد مناع من بيوت الحنانشة

1 – بوعزيز بن محمد الصالح الحناشى
1 – أخوه محمد
1 – على بن الحاج
1 – عمار بن صالح
1 – بلقاسم بن الساسى
1 – ابراهيم بن بخوش

1 – الاخضر بن المبروك
1 – سى الطاهر بن أحمد الصالح
1 – محمد بن البهلول
1 – محمد بن مبروك
1 – رابح بن عبد الرحمن
1 – الطيب بن بلقاسم
1 – بلقاسم بن على
1 – على بن محمد
جملة بيوت الحنانشة وأولاد خيار
——
13

- قسمت شيخ أولاد عرفة

خيـــل
3 – صالح بن طلحة
1 – الفاطمى بن الزين
2 – عمار بن سوسى
1 – محمد بن عبد الله
1 – عمار بن محمد
1 – أحمد بن الهورى
1 – الطاهر بن خالد
– العبيدى بن عمر ، من غير خيالى
1 – محمد بن عبد الله
1 – محمد بن رمضان
1 – فرحات بن أحمد
1 – مسعود بن بانبيث
1 – وناس بن العلمى
1 – معمر بن عبد السلام
1 – عمار بن العميرى



الشكل رقم 7 ـ كشف ببيان اسماء عروش حريد الاربعة واسماء عائلات الصبايحية التى وزعت عليهم ا· ح· ت· صندوق 212 ، ملف 240 ، وثيقة رقم 31 ·

الثامنة : رسالة الطيب بن البرانى الى الوزير خير الدين حول توطين الصبايحية والكبلوتى بتــراب تــونس ٠

الحمد للــه (56) ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى ءاله وصحبه وسلم

أسعد الله مقام الهمام الاكمل والوجيه الاحزم العمدة المفخم أمير الامراء والوزير المباشر سيدى خير الدين حرص الله كماله ويليه بعد التقبيل براحتى الايد الكرام نعم سيدى والسلام التام بانه قدم لنا الاعز جواب السيادة مورخ فى 6 التاريخ وما ذكرتم فيه من صدور الاذن العلي مصحوب باذنكم بأن أنفار الصبايس التى كانوا مع الكبلوتى ينقسموا الى أربعة اقسام كل قسم ينزل مع عرش من عروش دريد وأن لا يفعل أحــد منهم ما يقتضى أو يسعى فى التحيير فى الحدود وصدر الاذن العلي بتوجه بــاش حانبة لترحيلهم من تبرسق الى نجوع دريد لاجل ما ذكر ٠ نعم سيدى وقت أن اتصــل بأيدينا جواب السيادة المذكور ركبت انا ومشايخ دريد والسيد باش حانبة وتوجهنا الى نحوهم فوجدناهم نازلين بالكريب من عمل بلدة تبرسق فعرضنا عليهم الاذن العــلي وقررنا لهم ما صدر به الاذن من تحذيرهم من فعل ما تمنع به السياسة وقسمناهم على أربعة أقسام وكل منهم اتصل به شيخ من مشايخ دريد وها نحن لا زلنا بـــرد البــال ومتقصين من فعل ما يصدر منهم حتى وان كانوا اشتكوا لنا بالجوع وعدم السكنة من الخيام والقسم التى صح لنا منهم نزلناه مع اهلنا وكما يتصل بجانبكم جريدة بها بيان بأسماء القسم ونسبتها وخيلها وقولكم سيدى اننا نكون يد واحدة انا والاجل محبنا سي أحمد بن حميدة على ذلك ٠ الجواب سيدى لا زلنا يــــد واحدة فى الخَدمة وفيما ينضفنا عندكم ولو مع غيره لان قدم الخديم على قـــدم سيده وربنا يعيننا على ذلك ويبقى لنا وجودكم وفى ذلك كل الخير ولا زايد لسيادة سوى الخير ودامت السيادة فى أمان الله وحفظه ورعايته والسلام من الفقير الى ربه خديمكم وغرس احسانكم الطيب ابن البرانى عفا الله عن السيادة ءامين فى 12 شوال سنة 1288 (57) يلخص ٠

---

56) أ٠ د٠ ت٠ صندوق 212 ملف 240 ، **وثيقة رقم 33** ٠

57) الموافق جانفي 1872 ٠



الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الشكل رقم 8 ـ رسالة الطيب بن البرانى الى الوزير خـــير الدين حـــول توطين الصبايحية بتونس ا· ح· ت· صندوق 212 ، ملف 240 ، وثيقة رقم 33 ·

التاسعة : رسالة أمير اللواء مراد عامل دريد الى الوزير خير الدين حول البحث عـن الكبلوتي بن الطاهر رزقي ٠

الحمد لله (58) وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وءاله وصحبه وسلم ٠

سعادة لا تنقضي وبلوغ ما تهوى النفوس وترتضي جناب الهمام الافخم أمـير الامراء الوزير المباشر سيدى خير الدين أدام الله اجلاله وحرس بمنه كماله ءامـين أما بعد اهداء التحية اليكم والتقبيل بالكريمتين يديكم أن مما ينهي الى شرفهم عـلم السيادة هو أنه بلغنا خبر من الكاف ووطنها خبر محقق هو أن الكبلوتى توجه الى بـلد طرابلس ومن هناك أتى الى وطننا وأتى الى خيمته خفية ولما حل بها صار يختفي بالنهار ويأتيها ليلا ولما بلغنا ذلك اجتهدنا فى البحث عن ذلك كل الاجتهاد باذلين جهدنا فى ذلك لعلنا نضفروا به ووجهنا من طرفنا الاجل المرعى سى الطيب بن الحاج أنبراني شيـخ أولاد جوين الى بلد الكاف بقصد البحث والفحص عنه وثبوت ذلك ٠ ولما ذهب الى هناك وتجسس عن ذلك وجد هاذا الخبر شائعا ذائعا عند الخاص والعام من الاعلى الى الادنى لكن عن غير ثبوت وقدم الينا واخبرنا بذلك حتى انه تناها خبره وبلغ الى الهمام الافخم أمير أمراء عساكر الخيالة سيدى رشيد عامل الكاف ولكن المراد منك أنك تعرفنا بأنه ان ثبت ذلك وضفرنا به ما يكون وجه العمل فيه ونحن لازلنا مجتهدين فى البحث والفحص عنه حتى نثبتوا ذلك وهاذا ما عندنا عرفنا به جناب السيادة ودمتم فى عز دائم وسعـد قائم والسلام من الفقير لربه أمير اللواء مراد عامل دريد وأولاد سيدى عبيد عفى عنه بمنه وكرمه ٠ ءامين وكتب 25 أولى جمادى سنة 1289 (59) ٠

يجاب فى عمل الجهد فى التمكن عليه واذا ضفر به يوجه حالا للحضرة العـلي ولابد يعمل غاية الجهد مع المشايخ فى التمكن عليه ٠ اذ لا يعقل أن مثله بقرب نجع دريد ويخفى عليكم أمره ثم أن الكبلوتى هو جنى على نفسه اننا كنا وجهناه أولا الى الشرق وأعناه بالدراهم وغيره ٠ ثم رجع بدون اذن ورجعناه مرة ثانية على شرط عدم الرجوع بدون اذن الدولة واذا يرجع بدون اذن فانه يسجن وعليه فهو الجاني على نفسه ٠

58) أ٠ د٠ ت٠ صندوق 212 ، ملف 240 وثيقة رقم 14 ٠

59) الموافق حوالى 31 جويلية 1872 ٠



الشكل رقم 9 ـ رسالة أمير اللواء مراد عامل دريد الى الوزير خير الدين حول البحث عن الكبلوتي ، ١٠ ح٠ ت٠ صندوق 212 ، ملف 240 ، وثيقة رقم 14 ٠

العاشرة : رسالة أمير اللواء مراد عامل دريد وأولاد سيدى عبيد الى الوزير خير الدين حول البحث عن الكبلوتى بن الطاهر رزقى ٠

الحمد للــه (60) ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وءاله وصحبه وسلم ٠

جناب الهمام الافخم نخبة الاعيان وخلاصة أهل الرفعة والشان أمير الامراء الوزير المباشر سيدى خير الدين أدام الله اجلاله وحرس بمنه وكرمه كماله ءامين أما بعد اهداء التحية اللائقة اليكم والتقبيل بالكريمتين يديكم أن مما ينهى الى شرف عــلم السيادة المؤرخ فى 26 شهر التاريخ المتضمن الحث على التمكن على الكبلوتى وتوجيهه الجواب عن ذلك أنه ثبت عندنا قدومه وأنه نزل على صفاقس وقدم الى محله بالكريب وأنــه يختفى بالنهار ويأتى الى منزله بالليل وقدم الينا من طرف الهمام الافخم أمير أمــراء عساكر الخيالة السيد رشيد عامل الكاف الاوذه باشى علي بن شلبى وصحبته شاوش من وجق الكاف وبأيديهما مكتوب منه يتضمن الحث على التمكن عليه والظفر به وتوجيهه الى بلد الكاف بمقتضى الاذن الصادر له المضمن بمكتوبة وحين قدما الينا ليلا احضرنا ميعاد دريد مشايخ وأعيان وركبناهم صحبتهما فى الحين وتوجه جميعهم ركبانا ورجالا الى نزله وباتوا محدقين بنزله خفية على وجه العسة يترقبون خروجه الى أن بان الفجر فلم يظهر لهم فعند ذلك قصدوا جميعا النزل الذى به خيمته ودعوا أخاه أبو عزيز فحضر بين ايديهم وسألوه عنه فأعترف لهم بقدومه ووجوده ثم توجه من عندهم الى خيمتــه بقصد الاتيان به وأجاب والدته بقوله لها ان ابنك يطلبونه الناس فأجابته والدته بقولها له توجه الى المكان الذى أتى منه ولم يبق هنا وتوجه أمس يوم التاريخ والناس المتوجهين له يسمعون ذلك خلف خيمته ورجع لهم أخوه من غير انفصال فأتوا لنا بأخيه وبرجــال من أعيان الغرابة وحضروا لدينا وحثينا عليهم كل الحث وكل الحرص فى التفتيش عليه والاتيان به مع الملاطفة منا لهم واظهار الامان منا له فى عدم الخوف من جانب الدولــة لئلا يحفلوا عن البحث عنه وتوجهوا من عندنا جميعا بقصد ذلك وصحبتهم الاوذه باشى والشاوش المذكورين هاذا كله بعد اقرارهم جميعا لدينا واعترافهم قدومه حقا غير أنهم لم يطلعوا عليه لاختفائه بالنهار واتيانه بالليل ثم رجعوا لنا عشوة عــن غير فصــل ٠ يذكرون أنهم فتشوا عنه الغابة والجبال التى حولهم ولم يجدوه ولم نقبلوا عنهم ذلــك ووجهنا الجميع الى الكاف الى الهمام الافخم أمير الامراء السيد رشيد وصحبتهم مكتوبا

---

60) أ٠ ح٠ ت٠ صندوق 212 ، ملف 240 وثيقة رقم 13 ٠

منا بما وقع وهاذا ما عندنا عرفنا به جناب السيادة والنظر الاعلى لله ولكم وفى أمن الله دمتم وبحبله اعتصمتم والسلام من الفقير لربه أمير اللواء مراد عامل دريد وأولاد سيدى عبيد عفى عنه بمنه ءامين · وكتب فى 30 منسلخ أولى جمادى سنة 1289 (61) ·

صح من مراد · (امضاء)

استدراك مبارك وبعد صدور هاذا المكتوب أتانا بخبر صدق يحكى تحقيق من الناس المكلفين بالتجسس عليه لاننا بعد ان وجهنا الناس المذكورين ببطن هاذا المكتوب الى الكاف كلفنا غيرهم بالتجسس عليه انه ليلة الجمعة الفارطة رجع عن طريقه الذى أتا منه بعد أن رفع من بيته ما ينو به من مؤونة ومصروف وغير ذلك وتوجه صحبة تابعه والحمار الذى أتى به من بلد صفاقس على بغل وحمار وهاذا ما علمناه عرفنا به جنابكم العلي وفى أمن الله دمتم والسلام · اه صح من مراد · هـ (امضاء)

يجاب بأن ورود المذكور لمحله بالليل وأختفائه بالنهار لا يكاد يخفى على المجاورين له ودليل ذلك عليهم بذلك وتعيينهم محل اختفائه · ولما كان المجاورون له هم لنظركم فان التغافل عن الاعلام بذلك حتى ورد الاعلام من غيركم يعد من التفريط والتساهل فى الخدمة لا سيما وقد نشأ عن ذلك عدم التمكن على المذكور ·

الحادية عشرة : رسالة الكبلوتى بن الطاهر رزقى الى الوزير مصطفى خزندار بعد خروجه من تونس الى بلاد الشام ·

الحمد لله (62) ، وصلى الله على سيدنا ومولا محمد وعلى ءاله وصحبه وسلم عليه

والى الله سعودك على الدوام وخذ ولايتك على مر الليالى والايام والبسك رداء ستره الجميل وألاك من نعم كل جزيل ودا عليك من نعمه الضافية الكافية وأرزقة العافية وخيراته المتوالية أعنى بذالك ذات المعضم الارفع الامثل الاكمل الاسعد الهمام المنتخب الامجد الانجب الصدر الاعظم سيد مصطفى خزندار سدق (كذا) أقواله وبلغ ءاماله سلام الله عليك ورحمته تعالى وبركاته ما دام الفلك وحركاته وتحياته ورضوانه وفضله واحسانه كثير السؤال منا عن سيادتك العلية زادها الله عزا وشرفا وعن جملة من احتوى عليه مجلسك الحميد السعيد ولا زايد بحمد الله سوا الخير والعافية ونعم الله

61) الموافق أوت 1872 ·

62) أ· د· ت· صندوق 212 ، ملف 240 ، وثيقة رقم 12 ·


الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم

الشكل 15 ـ رسالة أمير اللواء مراد عامل دريد الى الوزير خير الدين حول البحث عن الكبلوتى ، ا٠ ح٠ ت٠ صندوق 212 ، ملف 240 وثيقة رقم 13 ٠



الشكل رقم II ـ رســـالة الكبلوتي الى الوزير خزندار بعد خروجه من تونس في طريقه الى الشام ۰ ۱۰ ح۰ ت۰ صندوق 212 ، ملف 240 ، وثيقة رقم 12 ۰

الضافية المتوالية دامكم الله فى هنا وعافية بجاه أشرف البرية أما بعد أعليك (كذا) سيد خير ان شاء الله اننى لما صفرت (كذا) من هناك من مرصت (كذا) حلق الوادى وبلغت مالطة رجعت منها الى بيتنا شفت (كذا) أولادى لا اننى لا طقت صبر على الكبد ورانى رجعت فى طاعة الدولة المنصورة نصرها الله ءامين وبلغت الى مدينة مالطة متوجه (كذا) الى الشام بحول الله وقوته وأولادى واخوانى راهم محاجير الى المعظم الارفع الامثل الاكمل قرة عينك وثمرة فؤادك ابنك سيدى محمد دام الله وجوده لنا ولك بجاه سيد الاولين والآخرين والسلام من خديمك ومقبل أقدامك فقير الى ربه محمد الكبلوتى بن الطاهر آمنه الله ءامين ءامين ءامين . فى 26 جمادى الثانى 1289 (65) . يجاب بانه ان يقدم يناله الحكم .

الثانيه عشرة : رسالة أمير اللواء مراد عامل دريد وأولاد سيدى عبيد الى الوزير خير الدين حول الصبايحية والكبلوتى بالتراب التونسى .

الحمد لله (64) ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وءاله وصحبه وسلم .

المقام الذى أحاطت به العناية وأنتشرت فضائله فى البداية والنهاية المقام الذى ثناؤه عظيم وجلاله خطير الهمام المفخم أمير الامراء الوزير المباشر سيدى خير الدين حرسه الله تعالى بعين عنايته ءامين أما بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ودوام الخير ومسراته ان مما ينهى الى شرف علمكم هو أنه أتصل بنا الاعز مكتوبكم المؤرخ فى 1 شهر التاريخ وعدده 661 المتضمن تشكى قنصل الفرنصيص من الصبايحية الذين مع الكبلوتى الموزعين على نجوع دريد بالاذن من الحضرة العلية والنهي على عدم خروجهم من وسطهم ولا يصلوا للكاف ولا لجهات الحدود وقد صدر الآن منهم خلاف ما صدر به الاذن العلي فى أنهم يخرجون من وسطهم ويصلون الى جهة الحدود ويتسوقون الى الكاف وصدر الان منكم بالمكتوب المذكور بموجب تشكي القنصل المذكور اذن لمشايخ دريد بموجب المحافظة على الاذن العلي من ابقايهم بوسط نجع دريد ومنعهم من الخروج من وسطهم لاي جهة كانت حتى ينقطع التشكي الخ ما تضمنه المكتوب والجواب عن ذلك أنه حين اتصال المكتوب بأيدينا بادرنا بالمكاتبة لمشايخ دريد بجميع

(63) الموافق سبتمبر 1872 .

(64) أ. د. ت. صندوق 212 ، ملف 240 ، وثيقة رقم 11 .


الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم

الشكل رقم 12 ـ رسالة امير اللواء مراد الى الوزير خير الدين حول الصبايحية الكبلوتى بتونس ، ا· ح· ت· صندوق 212 ، ملف 240 ، وثيقة رقم 11 ·

ما تضمنه المكتوب المذكور وحرضنا عليهم فى ذلك غاية التحريض وأنذرناهم غـاية الانذار والله ولي اعانة الجميع ولكن أعلم جنابكم أن الذى ظهر لنا أن هؤلاء النـاس ليس عندهم تفريط ولا اياس فى وطنهم وهاته الامور التى تصدر منهم تجسسا عـلى وطنهم وحذرنا على مشايخ دريد فى رد البال منهم على خروجهم من وسطهم ومنعهم من التوجه لاي جهة كانت والله المسؤول الاعانة وبقاء السّتر ودمتم كما رمتم والسلام من الفقير لربه أمير اللواء مراد عامل دريد وأولاد سيدى عبيد عفى عنه ءامين وكتب فى 4 ذى القعدة الحرام سنة 1289 (65) ٠ صح من مراد (امضاء) ٠

يـوجه للوزارة الخـارجية ٠

الثالثة عشرة : رسالة الامير عبد القادر الى الوزير مصطفى يتشفع منه للكبلوتى ابن الطـاهر رزقى ٠

الحمد لله وحده (66) . وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وءاله صحبه سلم ٠

ان أحلى ما تمتزج به كؤوس المودة وأعطر ما تستنشقه الخواطر المستعدة سـلام له الود مبتدا ودعاء يرويه الصدق عن صميم القلب مسندا وثناء أعبق من شميم اللبا وألطف من نسيم الصبا أخص به حضرة انسان الفضل ومقلة أماقيه وبـارع هضبة الكمال وراقى مراقيه من زرت على المحاسن أطواقه وما اهتاجت الا للحامل أشـواقه سيادة الوزير الاعظم والامير الافخم السيد مصطفى الاكرم لا زالت الايام باسمة الثغر بمعاليه والانام حالية النحر بأياديه وبعد فقد ورد علينا من حضرتكم العلية كتـاب يروق الناظر ويسر الخاصر ويخفى عند نوره النجم الزاهر صحبة المنـال الشريف والنيشان السامي المنيف فتلقيناهما بالقبول والتعظـيم وقابلناهما بالتكريم والتفخيم اعطاء لمقامهما العلي حقه ولحسن موقعهما المتعالي مستحقه ٠ وكيف لا وقد لاحا عنوانا على حسن النية وصفاء الطوية وتذكرة بالعهد الذى أسست عليه المودة ولا يزداد على توالي الازمان الا جده ثم بلغنا ماثلث القضية واكد لكم فى القلوب المحبة القلبية وعطر المحافل بالاثنية والادعية وهو قبول الحضرة العلية للمهاجرين أولاد مقران فسمحـت لهم بالدخول تحت أنظارها السنية والانخراط فى سلك مملكتها المحروسة المحمية فيا

---

65) الموافق جـانفي 1873 ٠

66) أ٠ د٠ ت٠ صندوق 78 ، ملف 929 ، وثيقة رقم 63 ٠



الشكل رقم 13 ـ رسالة الامير عبد القادر الى الوزير مصطفى خزندار يتشفع فيها للكبلوتى ، ٠١ ح٠ ت٠ صندوق 78 ، ملف 929 ، وثيقة رقم 63 ٠

لها من مزية عظيمة لا يقام بشكرها ولا يزال الناس فى طيب ذكرها ثـــم أن القـــائد الكبلوتى كان خضر لطرفنا منذ شهور وهو الان عندنا يطلب شفاغتنا · فالمرجو من المقام الاسمى والجناب الاسنى ان يلحقه بهم فى الادن والسكن ويشمله معهم ومـــن يلوذ به بما يفيضه من المكارم والمنن لا زالت حضرته تقلد أعناق الرجال بقلائد نعمهـا وتدبج رياض الآمال بهواطل سحب كرمها وانتم أبقاكم اللــــه ومتــع المسلمين بطول ارتقائكم حيث أنه لم تزل عينكم فى اكتساب المحامد ممتنعة السنات وصحيفة محياكم كلها قربات وحسنات فلا نشك فى رد الجواب بطلق سراح هذا المأسور من يد الاغتراب والله تعالى يشكر مساعيكم الحميدة وعوائد نفعكم العديدة بمنه وكرمه ، فى 2 محرم سنة 1290 هـ (67) ·

الداعي المخلص عبد القادر الحسني ، (الطابع)

يجاب بما يناسب وأن الكبلوتى منعت من الاجابة لمطلبه موانع سياسية ·

الرابعة عشرة : رسالة الصدر الاعظم رشدى باشا الى باي تونس حول السماح للكبلوتى بالاقامة فى تـونس ·

الحمد لله (68) ، تعريب مكتوب من الصدر الاعظم السيد محمد رشدى باشا الى المعظم الارفع مولانا وسيدنا دام عزه وبقاءه مؤرخ فى 26 قعدة 1290 (69) ·

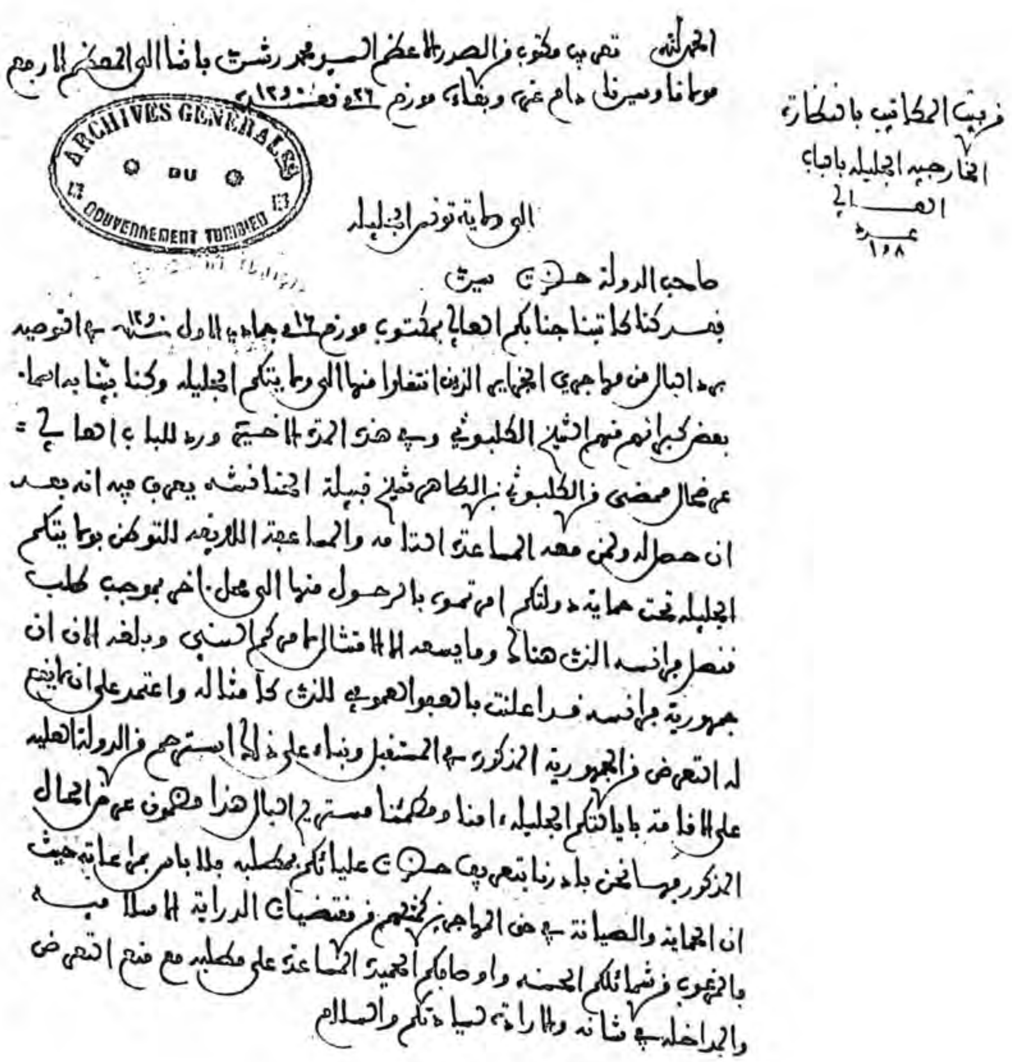
من بيت المكاتيب بالنظارة
الخارجية الجليلة بالباب العـالي
عـدد 198

الى ولاية تـونس الجليلة ·

صاحب الدولة حضرت سيدى

فقد كنا كاتبنا جنابكم العـالي بمكتوب مؤرخ فى 16 جمادى الاول سنة 1290 فى التوصية برد البال من مهاجرى الجزائر الذين أنتقلوا منها الى ولايتكم الجليلة وكنـا بينا به أسماء بعض كبرائهم منهم الشيخ الكبلوتى وفى هذه المدة الاخيرة ورد للباب

67) الموافق 2 مارس 1873 ·
68) أ· د· ت· صندوق 212 ، ملف 240 ، وثيقة رقم 4 ·
69) الموافق جـانفي 1874 ·



الحمد لله تعريب مكتوب من الصدر الأعظم السيد محمد رشدي باشا الى الحضرة العلية
مولانا وسيدنا دام عزه وبقاه مؤرخ في 26 قعدة 1290

فريق الكاتب بالنظارة
الخارجية الجليلة بالباب
العالي
عدد
128

الى والي ايالة تونس الجليلة

صاحب الدولة حضرة سيدي

فقد كنا كاتبنا جنابكم العالي بمكتوب مؤرخ في 16 جمادى الاول سنة 1290 في التوصية
بعد الباب من مهاجري الجهات الذين انتقلوا منها الى ولايتكم الجليلة وكنا نبهنا به انها
بعض كبرائهم منهم اثنين الكلبوطي وفي هذه المرة الاخيرة ورد للباب العالي =
عن حال مضى من الكلبوطي بن الطاهر شيخ قبيلة الحنانشة يعرف فيه انه بعد
ان حصل له ولمن معه المساعدة التامة والمساعدة اللائقة للتوطن بولايتكم
الجليلة تحت حماية دولتكم ام تموا بالرحول منها الى محل اخر بموجب طلب
قنصل فرانسة الذي هناك وما يسعه الا الامتثال لامركم السني وبلغه الان ان
جمهورية فرانسة قد اعلنت بالعفو العمومي للذي كان مثاله واعتمد على انه لا يقع
له التعرض من الجمهورية المذكورة في المستقبل وبناء على ذلك استرحم من الدولة العلية
على الاقامة بايالتكم الجليلة امنا ومطمئنا مسترحما في اقباله هذا مضمون عرض الحال
المذكور وحيث نحن بلاد زمان نتعرف حضرة علياتكم بمطلبه فلا باس بمراعاته حيث
ان الحماية والصيانة في حق المهاجرين كغيرهم من مقتضيات الدراية الاسلامية
بالخصوص من شمائلكم الحسنة واوصافكم الحميدة المساعدة على مطلبه مع منع التعرض
والمداخلة في شانه والارادة لسيادتكم والسلام

الشكل رقم 14 ـ رسالة الصدر الاعظم العثماني رشدي باشا باي تونس يطلب السماح للكبلوتي بالاقامة في تونس ٠ ح٠ ت٠ صندوق 212 ملف 240 وثيقة رقم 4 ٠

العالي عرض ممضى من الكبلوتى بن الطاهر شيخ قبيلة الحنانشة يعرف فيه أنه بعد أن حصل له ولمن معه المساعدة التامة والمساعفة اللائقة للتوطن بولايتكم الجليلة تحت حماية دولتكم أمرتموه بالرحول منها الى مكان آخر بموجب طلب قنصل فرانسة الذى هناك وما يسعه الا الامتثال لامركم السني وبلغه الان أن جمهورية فرانصة قد أعلنت بالعفو العمومي للذى كأمثاله واعتمد على أن لا يقع له التعرض من الجمهورية المذكورة فى المستقبل وبناء على ذلك أسترحم من الدولة العلية على الاقامة بايالتكم الجليلة ءامنا ومطمئنا مستريح البال هذا مضمون عرض الحال المذكور فها نحن بادرنا بتعريف حضرت عليائكم بمطلبه فلا بأس بمراعاته حيث أن الحماية والوصاية فى حق المهاجرين كمثلهم · من مقتضيات الدراية الاسلامية فالمرغوب من شمائلكم الحسنة وأوصافكم الحميدة المساعدة على مطلبه مع منع التعرض والمداخلة فى شأنه والارادة لسيادتكم والسلام ·

الخامسة عشرة : رسالة الكبلوتى بن الطاهر رزقى الى الوزير خير الدين يطلب اعانة مالية وتوصية الى حاكم طرابلس ·

الحمد لله (70) · وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى ءاله وصحبه وسلم عليه ·

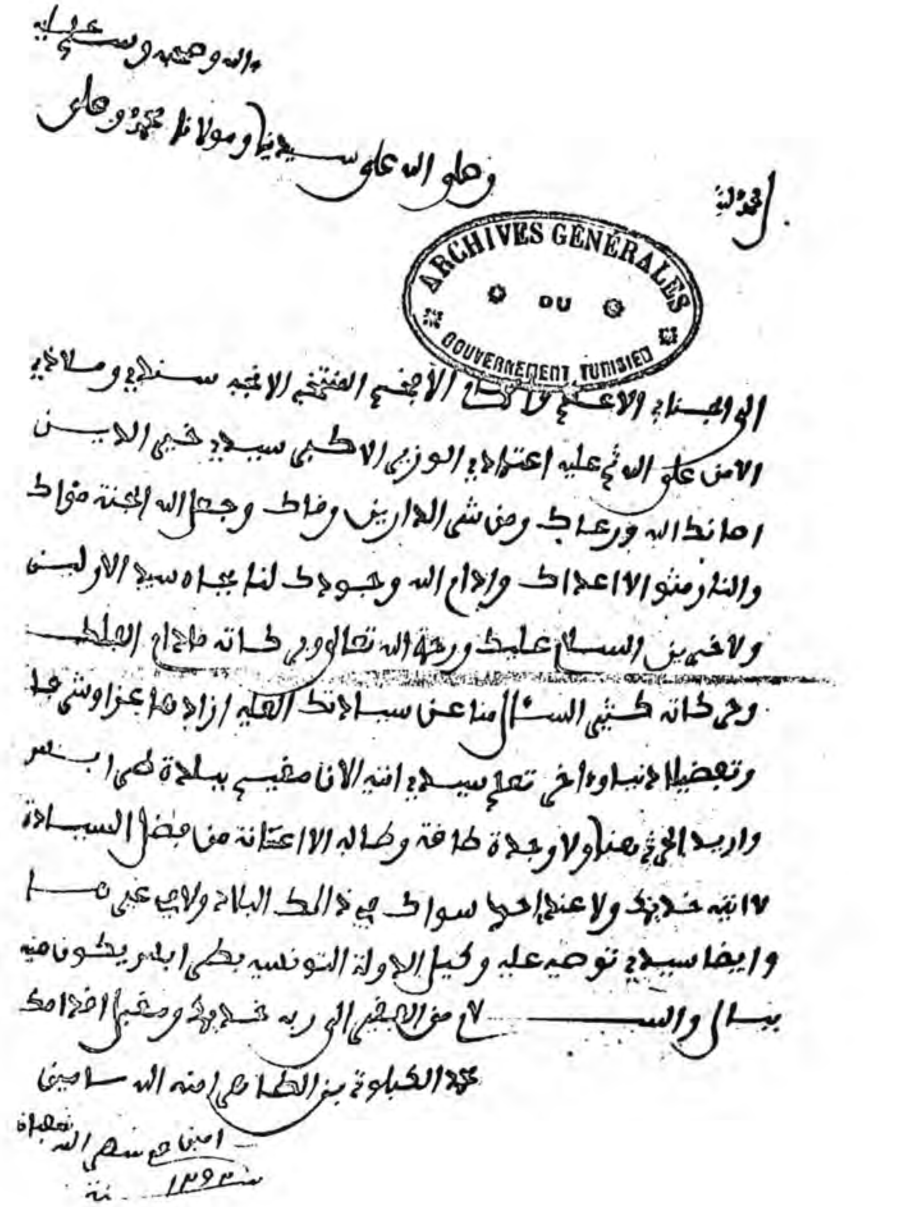
الى الجنابي الاعظم والهمام الافخم المنتخب الانجب سندي وملاذي الآمن على الله ثم عليه اعتمادى الوزير الاكبر سيدى خير الدين أصانك الله ورعاك ومن شر الدارين وقاك وجعل الله الجنة مثواك والنار مثوى لاعداك وأدام الله وجودك لنا بجاه سيد الاولين والآخرين · السلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته ما دام الفلك وحركاته كثير السؤال منا عن سيادتك العلية أزادها عزا وشرفا وتفضيلا دنيا وءاخره · تعلم سيدى أننى الان مقيم ببلدة طرابلس وأريد الحرث هنا ولا وجدة طاقه وطالب الاعانة من فضل السيادة لاننى خديمك ولا عندى أحد سواك فى ذالك البلاد ولا فى غيرها وأيضا سيدى توصي علي وكيل الدولة التونسية بطرابلس يكون مني ببال والسلام من الفقير الى ربه خديمك ومقبل أقدامك محمد الكبلوتى بن الطاهر امنه الله ءامين ءامين ·

فى شهر الله شعبان سنة 1292 هـ (71) ·

---

70) أ · د · ت · صندوق 212 ، ملف 240 ، وثيقة رقم 3 ·

71) الموافق سبتمبر 1876 ·


الحمد لله

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى
آله وصحبه وسلم

الى الجناب الاعلى والكهف الاحمى الفخيم الانجب سيدي ومولاي
الامين على الدين عليه اعتمادي الوزير الاكبر سيدي خير الدين
احاطك الله ورعاك ومن شر الدارين وقاك وجعل الله الجنة مثواك
والنار منها لاعداك وادام الله وجودك لنا بجاه سيد الاولين
والاخرين السلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته ما دام [illegible]
وبعد فانه كثير السؤال منا عن سيادتك العلية ازادها [illegible]
وتفضيلا لانباء واخي تعلم سيدي انني الان مقيم ببلاد طرابلس
ولا بد لي [illegible] ولا وجدة طاقة وطالب الاعانة من فضل السيادة
لانه [illegible] ولا عندي احد سواك في تلك البلاد ولا [illegible]
وايضا سيدي توصي عليه وكيل الدولة التونسية بطرابلس يكون في
بال والسلام من الفقير الى ربه [illegible] اعتابكم
محمد الكبلوتي بن الطاهر [illegible] امنه الله [illegible]
[illegible] سنة 1292

الشكل رقم 15 – رسالة الكبلوتي من طرابلس الى وزير تونس خير الدين يطلب اعانة وتوصية ، ا٠ ح٠ ت٠ صندوق 212 ، ملف 240 ، وثيقة رقم 3 ٠

وثيقتان عن ثورتي الاوراس لسنتي
1859 ـ 60 ـ 1879

د. عبد القادر زبادية
معهد العلوم الاجتماعية
جامعة الجزائر

1 ـ قائمة أولية بأهم ثورات الاوراس خلال العهد الفرنسى :



ان هناك كثيرا من الثورات المحلية التى رأتها مختلف مناطق الجزائر خلال العهد الفرنسى لا يزال كثير من الجزائريين لا يعرفون عنها شيئا ، وقد كان مما فت فى ساعد أبطال تلك الثورات والقائمين عليها ، أن انتفاضاتهم كان يعوزها التنسيق مع نواحى الجزائر الاخرى، وهذا يعنى ان عنصر التهيئة الواسعة لها كان ضعيفا ، وقد ساعد ذلك الفرنسيين فى القضاء عليها واخفاء كل المعلومات حولها الا ما خرج منها عن مراقبتهم بصورة اضطرارية . فنحن نعرف عن ثورة المقرانى وعن ثورة بوعمامة وعن انتفاضة 1945 لأن عنصر المحلية فى هذه الثورات كان ضعيفا نسبيا ، وكلماكان هذا العنصر قويا

في انتفاضة ما كان حظ السلطات الاستعمارية في اخفاتها قويا جدا ، وبنـــاء على هذا فنحن لا نعرف الا القليل مثلا عن ثورة بنى مناصر في جبال الظهـرة ، وكذلك الامر عن ثورة الكبلوتى في نواحي سوق أهراس ، وغيرهما من الانتفاضات والثـورات التى ظل عددها يتزايد بتزايد الضغط الاستعمارى على الاهالى طيلة فترة الاحتلال الطويلة ٠

ونعود لجبال الاوراس . فنجد أن ثوراتها ربما ضربت الرقم القياسى من حيث العدد ، ولكن المحتلين كان الحظ حليفهم في القضاء على تلك الانتفاضات كلما كان عنصر التنسيق الموسع والتحضير الجيد ينقصها ٠ ولعل أهم تلك الثـورات التى رأتها منطقة الاوراس خلال الحقبة الاستعمارية الفرنسية بالجزائر هى :

أ) ثورة 1859 : وقد اشتركت معظم نواحى الاوراس بها والتحق بها المجاهدون من نواحى بسكرة وسيدى خالد أيضا ، واستمرت حوالى سنتين كاملتين ٠

ب) ثورة 1871 : وكانت بمثابة استجابة وامتداد لثورة المقرانى . وتعطينا القائمـة الرسمية بأسماء القبائل التى صودرت أراضيها بعد القضاء على الثوار في سـنة 1872 فنجد أن كل المناطق فى الاوراس وخاصة الشمالية منها قد اشتركت مشاركة كبيرة فى تلك الثورة ، واصابها من العنت الشىء الكثير ٠

ج) ثورة 1879 : المعروفة بثورة اللحالحة أولاد داود ، وقد اتســـمت هـذه الثورة بالقضاء النهائى على قبيلة اللحالحة بكاملها تقريبـــا ، كما تضررت كل المناطق الاخرى وخاصة منطقة يابوس شلية كنتيجة لتصميم الثوار على عدم التســـليم وتوفر الجيش الاستعمارى على قوات للقمع كانت هائلة ٠

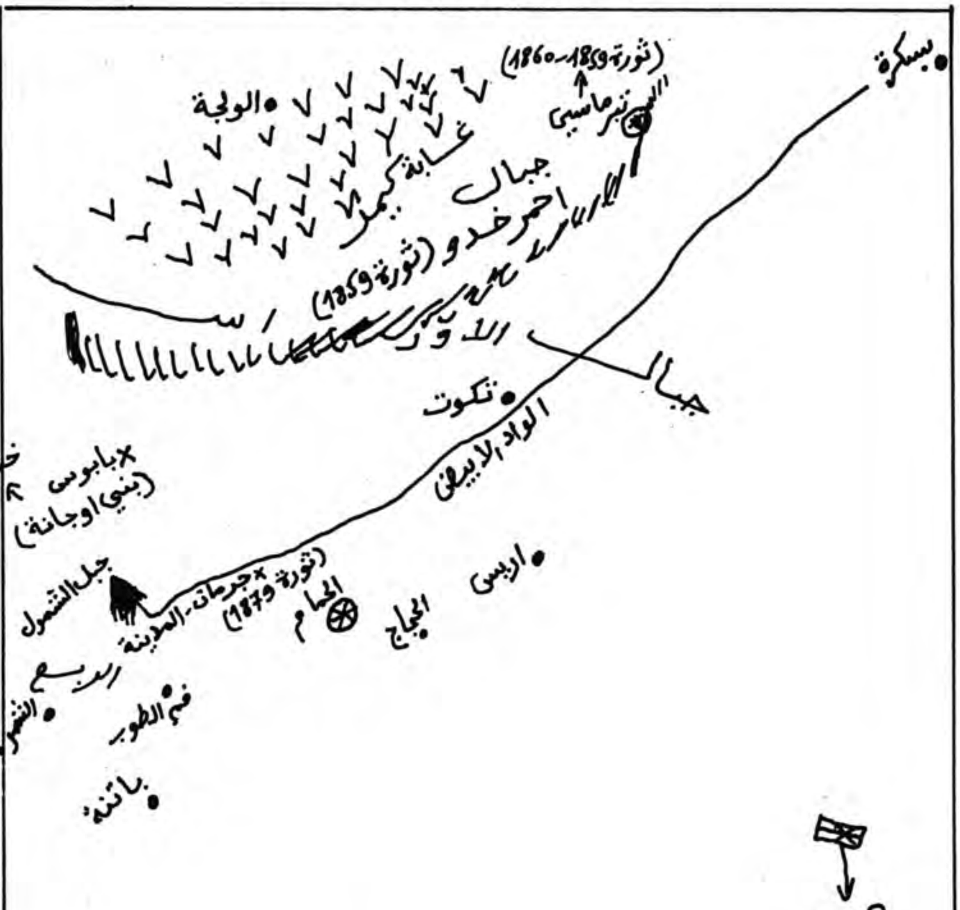
٠ د) ثورة 1911 : المعروفة بثورة أحمر خدو وقد اشتركت فيها كل نواحى الاوراس وخاصة الوسطى والجنوبية منها ، واستمرت هذه الثورة حوالى ثلاثة أشـــهر كاملة ، وزادها قوة اشتراك كل رجال الدين والزوايا فى المنطقة وتزعمهم لها ، وعلى اثرها جلب الفرنسيون مهندسى الطوبوغرافية لاول مرة فدخلوا منطقة الغابات الكبرى ورســـموا مخططات لها ؛ لان جميع سكان منطقة أحمد خدو الواسعـــة قد اعتصموا بتلك المنطقة خلال فترة الثورة مما كلف الفرنسيين الكثير لمعرفة خباياها وشعابها ، وتتبع الثائرين المعتصمين بها ٠

هـ) ثورة 1916 : المعروفة بثورة عين التوتة ـ أولاد سلطان، ـ وقد شملت كل مناطق الاوراس الشمالية حتى حيدوسة ومروانة بالاضافة الى معافة ونواحيها التى انطلقت منها الشرارة الاولى للهجوم على عين التوتة مركز الحاكم الفرنسى للمنطقة آنذاك · وقد جرد لها الفرنسيون جيشا كبيرا من العساكر والمتعاونين الذين جلبوا من مختلف النواحى فى الجزائر . وأذاقوا المنطقة كل أنواع التعذيب والقهر ·

و) حركة المتمردين الدائمة : ظلت منطقة الاوراس طيلة العهد الفرنسى لا تخلو من عناصر ترفع السلاح وتنزع الى التمرد ، متحصنة بالجبال المنيعة ، كان الفرنسيون وأعوانهم يطلقون على هؤلاء مصطلح « المنافقين » ، وقد اشتدت هذه الظاهرة بعد الحرب العالمية الثانية . فلا تكاد تخلو جبال الاوراس من وجود هذه الحركة بشكل مستديم قبل ذلك غير أنها اشتدت منذ سنة الخمسين ويحتوى ما تبقى بأيدينا من وثائق الحكام الفرنسيين فى كل من أريس وخنشلة على ملفات عديدة لرجال هذه الحركة والمجهودات الفرنسية لتتبعهم ، وكذلك الاموال الطائلة التى كانت تعتمد كاغراء لمن يرشد الى القاء القبض على رجالات هذه الحركة أو يأتى بأحدهم حيا أو ميتا ، وكل واحد منهم كان لرأسه سعر معين فى تلك الاعتمادات ، وحينما اندلعت ثورة 1954 الكبرى كان رجال هذه الحركة وفى مقدمتهم الشهيد المعروف بلقاسم قرين الذى يتشرف اليوم أحد الشوارع الكبيرة فى عاصمة الاوراس (باتنة) بحمل اسمه الخالد ، فى مقدمة المنصهرين فيها ومن أوائل شهدائها الميامين ، وذلك فى معركة (عين الطين) المهيبة ، التى كانت من بين أولى المعارك الكبيرة التى استفتحت بها الاوراس عهد ثورة نوفامبر العظيمة ، سواء فى النطاق المحلى منذ البداية أو على المستوى العالمى والافريقى بعد ذلك ·

وبما أنه ليس فى الامكان اعطاء التفاصيل عن هذه الثورات العديدة لمنطقة الاوراس طيلة العهد الفرنسى ، فانى أريد فقط أن ألفت الانتباه هنا الى وثيقتين أهليتين هامتين تتعلقان بانتفاضتين من بين تلك الانتفاضات ، وكان لرجال الطريقة الرحمانية حسب منطوق الوثيقتين دورهم فى تأجيجهما · وقبل الحديث عن هاتين الوثيقتين فانى أريد أن أسجل امتنانى لصديقين مكنانى من الاطلاع عليهما ، وهما : الاستاذ محمد الامير صالحى

مخطط المواقع المذكورة في الوثيقتين



مفتش الادارة الدينية في باتنة ، والنقيب درنوني ، الاستاذ بالمدرسة العسكرية لمختلف الاسلحة في شرشال ٠

2 ـ الوثيقة الاولى : انتفاضة 1276 هـ (1859/1860 م) في كتاب « حكمة المغانم » من تأليف . ابراهيم بن أدهم

عرف المؤلف بنفسه في المقدمة بأنه (الشيخ ابراهيم بن أدهم بن محمد الصادق بن الحاج ابن منصور نسبا ، أحمر خدو منشأ ومولدا (وديارا وسكنا) ٠ (1)

أما الكتاب فقد ذكر المؤلف أنه سماه (حكمة المغانم في البلوى في جميع النعائم) ٠ وهذا الكتاب في معظمه شروح وتفصيلات في الفرائض والسنن والاشادة بالطريقة الرحمانية التي يصفها المؤلف بـ (الطريقة المستقيمة السالكة الجادة) (2) ٠

ويقع المخطوط في 152 ورقة ، 24 سطرا لكل ورقة ، خط مغربي واضح . وهو يحتوي على كثير من الادعية والذكر ، وينسب المؤلف لابيه الكثير من الكرامات ولطريقته الكثير من الصلاح والخفة والاستقامة على حد تعبيره ٠ ويسوق المؤلف لابن العربي والغزالي وابي موسى الاشعري والحسن البصري الكثير من التفاسير والاقوال التي تثبت آراءه في الكرامات والتصوف وتدعمها ٠

ويشير المؤلف في ثنايا الكتاب الى أن أباه كان قد اشترك (على سبيل الجهاد) حسب تعبيره في ثورة 1859 التي شملت منطقة الاوراس الجبلية بكاملها ، ثم ألقي عليه القبض ونفي الى الجزائر العاصمة حيث أودع السجن بالحراش ، ويصف المؤلف سجن الحراش بكونه كان يحتوي على المجرمين وقطاع الطرق ، ورغم ذلك فقد سجنت فرنسا أباه به ، ونقلت أولاده وكثيرا من أتباعه الى كورسيكا ٠ ولا يعطي المؤلف التفاصيل الكافية عن مصير أولئك الذين نقلوا الى خارج الوطن . ولكنه يسهب في الحديث عن أن أباه عندما أطلق سراحه بعد سنتين من السجن رجع الى الاوراس ، وأثناء طريقه الى مسقط رأسه وزاويته في تبرماسين ، مر بالمسيلة وبسكرة حيث تجمع حوله أتباعه الكثيرون ورافقوه

(1) أنظر : الخريطة عن موقع أحمر خدو في قلب جبال الاوراس .
(2) ورقة 2 .

وأكرموا وفادته . ويعطي المؤلف لتلك الثورة تاريخ سنة 1276 هـ (60/1859 م) . والمعروف أن تلك السنة كانت قد شهدت تمردا شمل جميع جبال الاوراس ومدنه وقراه . وتزعم تلك الثورة رؤساء وشيوخ الطريقة الرحمانية بالمنطقة ، وقد نكل بهم بعد فشل تلك الثورة ، وهرب بعضهم الى الجريد بالجنوب التونسي (1) .

3 ـ الوثيقة الثانية : ثورة 1879 وبعض حوادثها كما تثبتها وثيقة من ذلك العهد :

كانت ثورة الاوراس لسنة 1879 من الثورات المهمة التى شهدتها المنطقة . وكان من ورائها أتباع رجال الطريقة الرحمانية من أحمر خدو (تبر ماسين) . وكان من أبرز حوادثها هي المذابح التى تعرضت لها قبيلة أولاد داود اللحالحة ، الذين يسكنون المنطقة المعروفة بـ (الحمام) بين أريس والمدينة . وقد جردت عليهم فرنسا جيوشا جرارة وأبوا الاستسلام ، وهربوا أمام اشتداد الحملات عليهم الى منطقة يابوس . وتضرروا كثيرا غير انهم لم يقبلوا بالاستسلام ، ثم دخلوا الغابة الاوراسية الكبيرة بين كيمل والولجة فتابعتهم الجيوش الفرنسية ويقال : ان أكثرهم مات جوعا وعطشا وخاصة الاولاد الصغار . ومنذ ذلك الحين فقد معظمهم ولم يبق فى منطقتهم المعروفة بالحمام الا قليل من الافراد حتى الآن .

واذا كانت حوادث تلك الثورة قد ذكرت فى الوثائق الفرنسية لماما ، فان الوثائق الجزائرية الاهلية حولها قليلة جدا . ان الوثيقة التالية تعطى بعض المعلومات عن تلك الثورة . ونظرا لأهمية هذه الوثيقة واختصارها النسبى فاننا نترك للقارىء الكريم الاطلاع بنفسه على محتواها كاملا ، واستكناه هوية صاحبها .

نص الوثيقة :

وبعد أن فتنة عرش أولاد داود وقعت فى سنة 1879 والمتسبب فى اضطرام نارها هو المسمى محمد بن محمد الصالح بن عبد الرحمان عمره 30 (1) من عرش بنى بوسليمان فريق أولاد جار الله كان ساكنا بقرية الحمام احدى قرى أولاد داود وهو من اخوان (2)

(1) يحتوى أرشيف فرنسا لما وراء البحار الموجود فى مدينة بروفانس على وثائق عديدة بأسماء الذين نكل بهم ونفوا الى فرنسا والى كايين ، نتيجة اشتراكهم فى هذه الثورة

(1) كتبت هذه العبارة بين السطرين

(2) المقصود هنا ـ الاتباع بالمعنى الطرقي الصوفي

سى ابراهيم بن سى الصادق بن الحاج طريقته رحمانية وأول من اغـــواه من أولاد داود فرقة اللحالح (3) وهم أهل القرية التى هو ساكن بها وهى قرية الحمام وبث فى قلوبهم الوساويس وطبعهم ببغض الدولة وأملى قلوبهم غيرة على دينهم ونشر فيهم المواعظ المشتملة على الترغيب والترهيب فى ايقاد نيران الفتنة فأنصت اللحالح الى وساويسه واجتمعـوا فى دشرة (4) الحمام المشار اليها أعلاه التى نسبت اليه الفتنة . فعندما بلغنى خبرهم من بعض أقاربى بادرت حينا بالذهاب الى قايدهم وقتئذ وهو المسمى سى محمد الهاشمى بن السيد أبو الضياف ووجدته نازلا بفسطاط بالموضع المسمى العناصر باعلى المدينة بجبل أولاد داود وقت الضحى وخبرته بما بلغنى مّن اجتماع اللحـالح مع المفســـد المذكور وشاورنى فيما نصنعه من الحيل فى تحصيل المفسد المذكور وأمرته بأن نكلف المشـــايخ جميعا ليأتوا به حينا الينا لكون اللحالح لا يقدرون وقتئذ على قتـــال أولاد داود كافة . وخالف أمرى وأرسل زوج (5) من خدامه وعما سى محمد شوشان غلام أبيه ، وعمار بن عبد الله ، فلما بلغا الدواير (6) الى شيخ الفرقة (7) ، وهو المســـمى محمد بن عثمان أمرهما بالرجوع حتى يجتمع عليه كافة العرش لكى يجد الفرصة فى قبضه . أما عمار بن عبد الله (فقد) (8) امتثل لامره وأما محمد شوشان (فقد) امتنع ، وقدما اليه ومعهما الشيخ المزبور فلما بلغوا الى دار المفسد المذكور وجدوا عماله واقفين على بابه منهم على بن عمار بن أحمد أسن وسى بلقاسم بن بلخير ومحمد بن عمر (9) ··· وأطلقوا عليهما ، أما عمار بن عبد الله (فقد) أصيب برصاصة فى رأسه وسقط من أعلى ظهر جواده ومات حينا ، وأما سى محمد شوشان (فقد) انجــــرح جـرحا خفيفا وهرب الى مدشر الحجاج

(3) بفتح الحـاء الأخيرة

(4) أى قرية الحمام

(5) أى اثنـــين

(6) أى أعـوان البـلدية

(7) أى القبيلة

(8) لا توجد (فقد) فى الاصل وأضيفت هنا لتستقيم العبارة

(9) عبارة انمحت من المخطوط

واختفى في دار الباش عدل ابن عمنا وهو سي معيوف بن سي عبد الحفيظ الذى قتل مع بن عباس في وادى الطاقة حسبما يأتي الكلام عليه ، فلما وقع ذلك رجع الشيخ المسطور هاربا الى بيته بقرب قرية الحمام وركب على فرسه من غير سرج ومعه ابن عمه المسمى الطيب بن عمار راكبا على فرسه من غير سرج أيضا . فبينما نحن ننتظر الخبر واذا بالفارسين المذكورين أشرفا علينا ووجههما مطليان بالحموم (10) وأخبرانا بالواقع ، واتفقت مع القايد المذكور على أن نركب جوادى ونجمع جميع من هو فى طاعتنا من عرش الزحاحفة الساكنين بالعناصر وجرمان ولعله يعيننا الله على المفسدين ، ووافقنى لذلك وركبت جوادى وتقلدت سلاحى وجمعت من كان حولنا من الرجال من عرش الزحاحفة منهم على بن المبارك بن أحمد بن عيسى وعمار بن محمد بن تازروالت ولفيف من الناس يطول علينا ذكرهم كلهم من عرش الزحاحفة يكون مبلغ عددهم نحو الثلاثين رجلا ، فلما بلغت بهم جرمان بالموضع المسمى عين بال عيسى بقرب دار عبد الله بن الصالح ، واذا بالمنافقين (11) أشرفوا علينا وامامهم معهم والجميع على خيول الخدام المذكورين أعلاه فى نحو العشرين فارسا ومثلهم رجال متقلدون بآلة حربهم ، فلما رأيناهم هرب جميع من معى وبقيت فريدا لا واحد معى سوى الله تعالى ، وكان بينى وبين رفقائى أى القايد ومن معه من الخدام نحو الاربع كيلو مترات ، وكان بينى وبين العدو نحو من نصف كيلو متر .. وعرفونى معرفة تحقيقية وبادرونى بالضرب بالرصاص ونجانى الله من كيدهم وأثنيت العنان للجواد نحو رفقتى هاربا طالبا النجاة وهم فى أثرى بخيولهم وأميرهم معهم يغريهم على قبضى ولم يلحقوا بى ووصلت الى القايد ومن معه وأمرتهم بالركوب والفرار بأنفسنا وعارضنا بعض من كان هناك من أناس الزحاحفة ولم نصغ لقولهم وتوجهنا هاربين الى الربع (12) أنا ومعى القايد وهو سي محمد الهاشمى المزبور وابن عمته سي بولحرام بن أحمد بن الحاج . وابن عمنا سي معيوف بن سي عبد الحفيظ الباش عدل . والعدو فى أثرنا .

(10) السواد
(11) أى الثائرين (هذه العبارة يبدو أنها من اختراعات مكاتب الشؤون الاهلية لأننا لا نجدها فى معظم الوثائق الصادرة عن أعوانها)
(12) اسم مكان

فلما بلغنا الى الموضع المسمى عين أيوب . يكون بينه وبين العناصر نحو الثلاث كيلو مترات وقف جوادى لما حل به من كثرة الجرى ، وعزمت على النزول لافر على قدمى ، فبينما أنا متحير فى أمرى ... (13) الى ان بلغنا قرية الطوب المقاربة لرسم بنى اوجانة ، ورجع علينا العدو (14) ، فعند ذلك سرنا فى اختيارنا . فلما بلغنا الربع وجدنا السيد أبى الضياف بن محمد قايد بنى وجانة فى ذلك الوقت ، وصاح بى أنا الاول دون رفقائى لما بينى وبينه من الصدق والمودة مع أنى كنت متوليا جميع أمره بأولاد داود وقت قيادته عليهم نحو الاربعة عشر عاما ، ولذلك سألنى أنا دون رفقائى وأخبرته بالواقع المشار اليه أعلاه . وبادر رحمه الله تعالى بدواة وقرطاس وكتب جوابا (15) لسعادة السيد القبطان ... (16) مع جواب ثان لسعادة السيد الجنرال لوجروا الحاكم على عمالة باتنة ونواحيها وردا (17) اليه الخبر مع سعادة السيد اليوطنه كوربوا ومعه الصبايحية منهم سعد بن الزرارى ، وعبد الله بن عمار ، وأخوه الطيب بن عمار والاخضر بن النقيش ، وابن عاشور ، بأن يذهبوا جميعا الى العناصر ويختبروا الامر على الصحيح ، وانقاد لامره وسار هو وولده المذكور وابن عمه سى محمد بن سديرة قايد عرش العشاش وقتئذ وأولاد عمه الطيب وهما المحبوبى بن الطيب ، ومحمد بن الطيب ، وصديقه يزيد بن الطاهر بن العربى الزمولى وجميع خدامهم مع فرسان العشاش وأولاد فاضل يكون عددهم نحو السبعين فارسا على التحرى ، وفى ذلك اليوم الذى سرنا من الربع بلغنا خبر بقتل السيد مصطفى بن باش تارزى قايد أحمر خدو وبنى بوسليمان ، قتله المفسدون فى برجه بتكوت ، وتمادينا على المسير وتلاقينا مع سعادة السيد اليوطنه أمبروجى فى بلاد يابوس وتغدينا جميعا هناك ، وانصرفنا من عنده على الساعة بعد الزوال (18) ونزلنا بالعناصر

(13) ثلاثة أسطر ذكر فيها الكاتب أن أحدهم قد ساعده بالتنازل له عن فرسه فهرب بها
(14) أى تراجع الثوار عن ملاحقتنا .
(15) أى رسالة
(16) أربع كلمات غير واضحة فى النص الاصلى من بينها وفى أولها الاسم الشخصى للقائد الفرنسى المذكور (القبطان كذا ...)
(17) أى أبلغوه الخبر
(18) لعله يقصد الساعة الواحدة بعد الزوال

على الساعة الرابعة عشية . وبلغنا جواب من المفسد (19) المزبور . مضمونه الى سى بو الضياف بن محمد بعد السلام فلا بد منك أن تحذر عرشك منى وتأمرهم بالانقياد والطاعة الى وأن تكون من جملتهم والا فلا تلوم الا نفسك . فلما قرأه استغاض وشـــخر ونخر وتمنى القتال له ولمن معه حينا غير أننا حال بيننا وبينهم سواد الليل ، وعمـد الى دواة وقرطاس وأمرنى لنكتب جوابا الى كبراء اللحالح مثل محمد بن أحمد بن اتقلفنت الذى كان شيخا وعزل مع شيخهم ومن معه لنوعظهم ونهددهم على ان سطوة الدولة جايرة لا يعز عليها أحد من المعتدين وأنها رحيمة للراجع عن عصيانه وتأتوا بالمفسد ولا عليكم حرج ، ووافقته لما أمرنى به ، وأرسلنا ذلك الجواب مع المسمى ســليمان بن عمارة مع عرش الزحاحفة فريق أولاد سى قاسم ، فبينما نحن منتظرون لرد الجواب منهم الى ثلث الليل الاخير ، واذا بالبارود قد تكلم من العسة التى رتبناها بعيدة منا على نحو الكيلو متـــر وعمدنا الى السروج لنسرج خيولنا وتقاتلهم . ركبنا ومعنا فى ذلك القايد المرحوم خشية من هروب الاوباش من أولاد فاضل ، ولم تنفع فيهم تلك الحيلة وهربوا جميعا ، ولم يبق منهم سوى رجلين ، واحد يسمى الصالح بن ابراهيم كان شيخا وجرح من فخذه الايمن جرحا خفيفا ، وواحد يقال له عبد السلام بن افجويل فى عمره 30 قد قتل وشبهوه على ومثلوا به أعظم مثلة من جملة ذلك قطعوا يديه وشقوا بطنه وقصوا لســانه وذلك كله يدرونه أنا لمخالفتى لتعديتهم وانكارى عليهم فسادهم بقريحة القلب ، ولنرجع لما نحـن بصدده . فلما فر أولاد فاضل ومن معهم من الاعشاش وبقى القايد ومن معه من أقاربه والسيد اليوطنه وطباخه رودومينيك وسيموا وصديقه المســمى بوزيد بن الطاهر بن العربى الزمولى ، والميلود العمرى من سكان الشمرة مع الصبايحية وخدام القياد ، واذا بالعدو أشرف علينا . فأول من تلقاه القايد المرحوم الحى القيوم السيد أبو الضياف بن محمد وبيده بندقية كبيرة ذات جعبتين المعبر عنها بالفوشى ، وضرب الاول وصرعه والثانى كسره الى ان قتل منهم نحو العشرة رجال وجرح أزيد من الخمســة عشر رجلا فرجعوا القهقرى ولم يطيقوا الدخول الينا . فبينما نحن ··· (20) واذا بوجه بارود (21) تكلم

(19) أى الثـائـر
(20) كلمة انمحت من المخطوط
(21) أى طلقة بندقية

بعرب الزمل ، واذا بالقايد سقط ولم نلحق بروحه ، أخذها برصاصة على ضلعته السفلى من جهة الشمال ... (22) ظهــــره ، ورفعناه الى دار هناك وكتمنا موته لئلا يهجم علينا العدو ، بينما نحن كذلك واذا بالعدو حمل حملة ثانية وأردفه الصبايحية وجميع خدامه مع السيد اليوطنه المذكور وطباخه وزوج فرنساويين ، واحد يسمى دومينيك والآخـر يسمى سيموا ومعه ابنه صغير ، وقتل في تلك الصدمة طباخ الســـيد ... ... (23) وأصيب الطيب بن عمار في بطنه ضربة أفضته القتل بعد يومين ، وقتل أخوه عبد الله بن عمار ، وقبضوا على سعد بن ... (24) فبينما نحن واقفون واذا بوجه بارود تكلم بقربنا ولم نعين ضاربه ، واذا بالقايد قد ســـقط في الارض ، ولم نلحق بروحـــه ، وأصيب برصاصة صغيرة في الضلعة الصغيرة من جهة الشمال ، ولمست موضع الجـــرح ودللته بأنملة سبابة يسراي ولم تدخل فيه ، ولعله مات ببندقية ذات سنة جعب ، وكتمنا موته لئلا يهجم علينا العدو ورفعناه الى الدار بقربنا ورآه طباخه يســمى كاكا المعافى وعرفه وصاح بالويل والثبور يا سيداه قد قتل وســـمع العدو تلك المقالة ، وحمل علينا حملة صادقة واغتنم الفرصة فينا ، وقتل في تلك الصدمة منا فرنساوى كان طباخا للســـيد اليوطنه كوربوا ، وعبد الله بن عمار الصبايحي وأخوه الطيب بن عمار أصيب برصاصة في بطنه ومات بها بعد اليومين ، ومات دايرة السيد أبو الضياف (25) يسمى على بن عمر من بنى وجانة ، وجرح الصالح بن ابراهيم شيخ أولاد فاضل وقتل عبد السلام المذكور أعلاه ، وقبضوا سعد بن الزرارى الصبايحى وضربه ضربة واحدة بالســـيف على زنده اليسرى ضربة دامية أفضته الى التعطيل ، فلله در فرنسيين وهما المســـميان دومينيك وسيموا أنهما ضربا ضربا وجيعا ولم يجدا النصرة ، فعند ذلك اجتمع القايد محمد بـن سديرة وسى محمد الهاشمى بن بوالضياف والمحبوبى بن الطيب وأخوه محمد بن الطيب مع سعادة السيد اليوطنه كوربوا ، وركبوا خيل الدواوير وهربوا وبقيت أنا وحـــدى

(22) كلمة انمحت من المخطوط
(23) سطر انمحى من المخطوط
(24) شخط الكاتب على كلمة هنا ولم يعوضها
(25) ى عـــونه

في وسط العدو ولم يعــرفوني لاني متنكر في لباسي مع أنهم يدرون (26) أنا المقتــول المذكور ، وبادرت الىالفرس التي أعارها الى اللحلوحي أول مرة وحليت عليــها القيود وأسرجتها وركبتها ، وبمجرد استوائي على ظهر الفرس عرفوني وهمزت الفرس بالركاب وأطلقوا على الرصاص ونجاني الله من كيدهم بعد ما سقطت بين ربعهم . واستفــززتها وقامت بحمد الله سالمة صحيحة وثقفوا أثري الى أن دخلت الجبل المسمى تيسوراس بينه وبين موضع القتال نحو الثلاث كيلو مترات فرجعوا عني ، فبينما أنا أسير واذا بأربعة فرسان وهم المسمون الطاهر بن بوزيد بن الطاهر بن العربي الزمولي أحد أصدقاء السيد أبو الضياف ، والثاني هو المسمى الميلودي المعمري من سكان الشــمرة . والثالث هو المسمى محمد بن عمار بن سعيد بن عبد الله ، وأحمد بن خلاف ، والاثنان من عرش أولاد داود فريق أولاد والزه ، وتمينا هاربين الى أن بلغنا الى الموضع المسمى تاحمامت يبوس ووجدت بن عاشور الصبايحي هناك وطلبت له بغلا من أولاد مفرج الســاكنين بيابوس وركبته وذهبنا جميعا الى الربع ، أما سعادة السيد اليوطنه وسي محمد الهاشمي (فقد) قدما الى باتنة ، وأما أنا (فقد) بقيت بالربع ، وفي صبيحة ذلك اليــوم رفع ابن عمي المسمى سي عبد الحفيظ ابن سي احمد جثة القايد السيد أبو الضياف على بغلتي وأتى به الى الربع ونزلته على البغلة وأدخلتــه في بيت من برجه الكاين بالربع . وبقيت عساسا عليه ليلتين ويومين ولم يأتني أحد ، وفي اليوم الرابع من موته أتاني كفنه من باتنة صحبة خديمه المسمى أحمد بن ضيف الله ودفناه في الموضع المسمى الحباسي في مقبرة جدوده ، وفي الليلة الثامنة من واقعة العناصر هجم المفسدون على برج وادي الطاقة وقتل فيه ولد السيد محمد بن عباس قايد اولاد عبدي وخدامه وابن عمنا سي معيوف بن سي عبد الحفيظ الباش عدل ، وفي عشية ذلك اليوم أمرني سعادة السيد الجنرال لوجروا وجميع من كان معنا من الزمال (●) بالذهاب الى الشمرة لما بلغه من الخبر أن المفسدين سيهجمون على برج الشمرة ، وبلغنا الى الشمرة وقت الساعة التاسعة ليلا في هناء وعافية ، وفي صبيحة

(26) أي يظنون أو أنهم كانوا يعتقدون
(●) الزمالة مكان التجمع للمقاتلين - والزمال هنا من الزمالة

ذلك اليوم ... (27) الى الربع ، ووجدت سعادة السيد القبطان آش بالربع ، معينا هو الذى يعس هناك وبقيت عساسا معه فى الليل والنهار . ويأتينى الخبز من عند أهلى من أوراس على عودة المفسدين حتى نزل علينا سعادة السيد الكومندان نوبل بالجنود العسكرية ، ومكثنا نحو الاربعة أيام أو خمسة واذا بالمفسدين قد أصبحوا علينا بالربع وقت سدس الليل الاخير . وأنا فى تلك الليلة عساس ومعى أحد الصبايحية يسمى اليوطنه العربى من خيالة باتنة ، وضربناهم بالبارود ودخلنا الى المحلة ووقع القتال بين المفسدين وعسكر الترايور الجزائرى وصارت الغلبة لجنود الدولة وانقلب المفسدون على أعقابهم خائبين ومات منهم خلق كثير بقرب المحلة ، فلما طلع النهار حمل المفسدون حملة ثانية على خيولهم ، فأول من خرج الى قتالهم سعادة السيد قبطان آش ومعه صبايحية البيروعرب وشرذمة من خيالة السيد الكومندان نوبل يكونون نحو الستين فارسا وحملوا حملة صادقة وأفشوا فيهم القليل وهرب المفسدون الى الجبل طالبين النجاة بأنفسهم ، فلما افترق الجمعان كل واحد رجع لمكانه أمرنى سعادة السيد القبطان آش المذكور باحصاء القتلة من المفسدين وجلت على جثثهم واحدة بعد واحدة واطلعت على مائة واثنى عشر نفسا من أبطالهم . البعض أعرفه والبعض لا معرفة لى به ، وبعد فراغى من احصاء الاموات تلاقيت مع أربعة من خيالة الدولة وركنت اليهم لما فى قلبى من الاركان للدولة ، وعند ظنى لا يكذبوننى فى قولى ، ووجدتهم قد قبضوا رجلين من المفسدين واحد نعرفه معرفة تامة وهو المسمى بال بن بيا من أولاد داود فريق أولاد والزه من سكان قرية بوسداح ، والآخر من بنى أوجانة لم نعرفه وسألت عن نسبه وقال لى انه من بنى أوجانة فريق أولاد أوصيف ، الاول فى عمره 35 على التحرى ، والثانى نحو الستين عاما ، ونزلونى عن الفرس ، وشدونى وثاقا ونزعوا لى آلة حربى مثل البندقية والسكين . وقادونا جميعا الى أن أوقفونا الثلاثة لدى سعادة السيد الكومندان نوبل واستفسرنا الثلاثة فى نازلتنا ، أما الاثنان المذكوران (فقد) عجزا عن النطق لما اقتحموه من الذنب ، وأما أنا جاوبته بأمرى من أوله الى آخره ، أما الاولان الاثنان أمر بقتلهما حينا ، وأما أنا (فقد) أمر بأن يشدونى وثاقا حتى يستفسر على أمرى ، وأرسل لسعادة القبطان آش نازلا بقربه

(27) كلمة انمحت من الاصل . ولعلها ذهبنا أو ذهبت

بفسطاطه وحضر لديه حينا ، فلما استفسره فى أمرى نظر الى وعرفنى ولم يتمالك حتى بادر الى قطع الوثاق وبكيت فى وجهه وغرغرت عيناه بالدموع رحمة لما حل بى من المكيدة على غير قصد من الجانبين . فعند ذلك تجمعت بالسادات المذكورين ، وهما سعادة القبطان آش وسعادة السيد الكومندان نوبل ودفعتُ لهما جريدة محتوية على احصاء جثث القتلى من المفسدين ، وحمدنا الله جميعا ؛ أنا حمدته على خلاصى من تلك الورطة ، وهما حمداه شفقة على وتخليصا من الغلطة فى قتل خادم الدولة ، وبقيت من تحت يد سعادة السيد القبطان المذكور وفى نظره أين يأمرنى أتوجه الى اليوم الذى ارتحلت الجنود من الربع الى جبل أولاد داود وعيننى سعادة السيد قايد على خيالته ، أما سعادة السيد الجنرال ومن معه من الجنود والخيالة (فقد) هجموا على قرية الطوب ونواحيها ، وأما سعادة السيد القبطان المزبور ومن معه من الصبايحية والقياد وخيالاتهم (فقد ذهبنا) تعرضنا للهاربين من العدو على طريق أسلاف الى ان بلغنا تيبكاوين وأنا أكاشف الطريق أمامهم ، فلما بلغنا الى تيبكاوين ولم نجد أحدا من العدو أمرنى سعادة السيد القبطان بأن نختبر الطريق المارة على جبل بوييلف بأعلى قرية الطوب . ووافقته لمطلوبه غير أننى رغبت منه أن يعين لى فرسا من جياد الخيل لاركبها وأذهب ، فوافقنى فى مقصودى ... (28) من خيالة سى احسون بن باش تارزى ، وركبتها وكشفت المكامن ولم أجد خاطرا قط ، فلما رجعت اليهم ووجدتهم قد رجعوا على أعقابهم ولحقت فى أثرهم وأرجعتهم وأنا أمامهم ومعى سعادة السيد القبطان وواحد من خيالة البيروعرب يسمى موسى السلطانى الى الآن فى قيد الحياة ، والى أن بلغنا قرية الطوب ووجدنا القرية مدخولة وأضرم العسكر فيها نارا وقتل من المفسدين نحو الثلاثة رجال أو أربعة ، وبتنا تلك الليلة بقرب قرية الطوب ، وفى صبيحة غد عيننى سعادة السيد القبطان قايد على جميع الجنود وصرت أسير أمامهم الى ان بلغنا المدينة ونزلت المحلة (29) . وفى وقت الساعة الثالثة عشية بلغنا خبر من رجل من المنافقين (30) اسمه لخضر بن عمر بن سعيد من دوار الزحاحفة بأن المفسد قد هرب هو ومن معه من المفسدين وبقت قرية الحمام خالية ، وركب سعادة السيد القبطان المزبور

(28) كلمتان انمحتا من النص
(29) أى مجموعة العساكر
(30) الثائرون

ومن معه من القياد وخيالاتهم والبعض من خيالة الدولة وعينني أنا القايد عليهم أكاشف الطريق أمامهم لان الطريق فى وسط الغابة من شجر الكروش (31) والصنوبر والطاقة وغير ذلك من الاشجار ، فلما بلغنا الى قرية الحمام ولم نجد بها أحدا سوى عجوز كبيرة السن عمياء من أناس اللحالة ، وأمر السيد القبطان باضرام النار فى الدشرة واحترقت حينا (32) ورفعنا تلك العجوز ورجعنا غانمين سالمين الىٰ مباتنا مع المحلة ، وفى صبيحة ذلك اليوم استأذنت من سعادة السيد القبطان ليذهب معى الى سعـــادة السيد الجنرال ديفزيون ليأذن لى فى الذهاب الى أهلى لحمايتهم من المنافقين ، ولم يأذن لى فى ذلك غير انه كتب الى كارطة مرسوما عليها (33) وأن حاملها من المطيعين للدولة لا يتعرض له أحد ، وأمرنى لنمكنها لابن عمى ويذهب بها الى الاهل ويرحلهم من وسط المفسدين ، ودفعتـها لابن عمى المسمى سى عبد الحفيظ بن سى أحمد وأمرته ليرحل الاهل ويقصد بهم الى الربع ليستقروا فى برج المرحوم القايد السيد أبو الضياف ، وفعل ما أمرته به ، وسار بجميع الاهل والاولاد وما ملك الله لنا من الحيوان والبغال والاثاث والبيوت وما احتوت عليه ، فلما بلغ أثناء الطريق للموضع المسمى تيسفيفين بقرب آفرا بتراب أولاد داود تصادفوا مع أناس أولاد عبدى كانوا يرصدون السائرين من العدو، وهجموا عليهم وأخذوا لهم جميع ما بأيديهم من الحيوان والبغال والحمير والبيوت وما احتوت عليها من الاثاث والآلات والسلاح ، وعرضوا عليهم كارطة سعادة السيد الجنرال فلم ينظروا اليها قط ، وأنا فى ذلك اليوم مع سعادة السيد القبطان بمدشر الحجاج ، واذا بابن عمى قد أتانى وأخبرنى بما وقع لهم من أولاد عبدى ، وأنزلوا أبى عن البغلة وهو كبير السن فى عمره ســبعون عاما كما أنه أعمى لا يبصر شـــيئا وتركوه فى فلاة من الارض وهرب عليه الاهل طالبين النجاة بأنفسهم الى الربع وتركوه فى موضعه ، فلما أخبرنى بذلك أخبرت سعادة السيد القبطان المذكور وقدم معى الى سعادة السيد الجنرال ديزفو فأركب معى عشرين فارسا وبغلة ومعها ربها فلما بلغنا الى أبى وجدته فى جهـد من العطش وأركبته ورجعت به الى

(31) البلوط البـرى
(32) لا يزال رماد القرية يعرفه الناس حتى يومنا هذا
(33) أى وثيقة مكتوب فيها

[illegible] صلى الله [illegible] بالمواضع [illegible]

[illegible]

وبعد [illegible] والتجيبا [illegible]
[illegible] بن عبد الرحمن [illegible] الحاج [illegible] واحد
[illegible] ابراهيم [illegible] الحاج [illegible]
[illegible] العالم [illegible] التي [illegible] الحاج [illegible]
[illegible] الدولة [illegible]
على الترغيب والترهيب [illegible] الحاج [illegible]
[illegible] الحاج [illegible] التي [illegible]
[illegible]
[illegible] بالموضع [illegible]
[illegible] الحاج [illegible]
[illegible] الحاج
[illegible]
[illegible]
[illegible] عبد الله [illegible] وهو [illegible]
[illegible] حتى [illegible]
[illegible]

[illegible]

[illegible]
[illegible] الحاج [illegible]
[illegible] الحاج [illegible]
[illegible] الشيخ [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] جواد [illegible]
[illegible]
[illegible] جواد [illegible]
[illegible] الله على [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] بالموضع [illegible]
[illegible]
[illegible] جميع [illegible]
[illegible]

المحلة وأرسلته الى الربع واجتمع مع الاهل هناك ، فعند ذلك سل خاطرى سعادة السيد الجنرال بأن كل ما ضاع لى تخلفه الى الدولة الفرانساوية وكتب إلى سعادة السيد الجنرال ديفزيون جوابا الى قايد أولاد عبدى ، وهو المرحوم السيد محمد بن عباس يأمره ... (34) وكلفت ابن عمى بالذهاب به ، وهو المسمى سى بلقاسم بن سى أحمـــد الذى هو خوجـة الآن (35) بدوار رأس الذراع وأمره بالرجوع اليه فى مدة ثلاثة أيام بالرد أو عدمه ، فلما بلغ اليه وناوله الكتاب وقرأه صار يلهيـه حتى جاز الإجل وقال له اننى دفعتـــه للبايلك (36) ورجع الى خائبا واشتكيت اليه ثانيا ، ووبخ سى بلقاسم على تعطله فـوق ثلاثة أيام ، وأمرنى باحصاء ما ضاع لى من حيـــوان وأثاث وآلات وزرع وندفعه له ولعل الدولة تخلف على ما ضاع لى وجردت جميع ما ضاع لى من غير زيادة ولا نقصان . وصار مبلغ ذلك اثنى عشر ألف فرنك وأنعمت على الدولة الفرانساويـة بثمانية آلاف فرنك واستكثرنا خيرها . ثم بعد ذلك أنعمت على بوضيف المشيخة بكمين أوراس ، دوار بعلى حكم باتنة عمالة قسنطينة ، ونطلب من الله أن يحن علينا قلوب الولاة ويرزقنا بالعافية التامة آمين ، كاتبه محاية الصالح ابن عمر شيخ دوار بعلى واثلاث وفقه الله آمين .

4 ـ ملاحظات هامشية حول مدلول الوثيقتين :

1 ـ عرفت جبال الاوراس الشامخة طيلة أيام الاحتلال الفرنسى بثوراتها المتتالية ، وكثير منها لم تنلها عناية المؤرخين بما تستحقه من الاهتمام والتحليل اللازمـين بعد ، كما عرف رجال الطريقة الرحمانية فى أيام صـفائها ، والتى كانت منتشرة فى معظم مناطق الشرق الجزائرى خلال القرن التاسع عشر بتمردهم القطعى وعدم قبولهم معايشة المحتلين الفرنسيين لهم بأى شكل من الاشكال . ولقد كان دورهم فى ثورة المقرانى من أبرز الامثلة على موقفهم الصامد هذا . ومن جملة ما يقود اليه محتوى الوثيقة الثانية بصورة خاصة ، امتداد المعارك الى مختلف جهات الاوراس ، وشدة احتدام القتال واستبسال الثائرين فى الهجوم وتكبد الطرفين لخسائر جسيمة أثناء ثورة 1879 .

(34) نصف سطر انمحى من المخطوط
(35) كاتب لدى القايد (وأصل الكلمة تركى)
(36) كلمة من أصل تركى تعنى الدولة أو الادارة الحكومية

2 ـ ان منطقة الاوراس بالنظر لموقعها الجغرافي وتركيبها التضاريسي ظل سكانها في تمرد مستمر على الفرنسيين ، فمنذ البداية اعتصم أحمد باي بعد تغلب الفرنسيين عليه في قسنطينة بمنطقة جبال أحمر خدو في قلب الاوراس وصمد هناك مع السكان خلال الفترة بين 1837 الى 1848 وحينما تمكن حكم الفرنسين نسبيا من منطقة الاوراس في 1853 نجد المنطقة لا يستقر لسكانها بال ، فيقومون بالثورة تلو الاخرى ؛ ابتداء من 1856 حتى 1954 · فهناك اذن عديد من الثورات المتتالية عرفت بها المنطقة ، وواجب شبابنا الباحثين في القاء الاضواء عليها يستحق كل التأكيد هنا · ومن أبرز من اعتنى من الباحثين الفرنسيين القدماء بثورات الشرق الجزائري عموما وثورات الاوراس من بينها ، هو فيرود (1) · وحديثا تطرق الاستاذ ش· ر· آجرون بموضوعية لتحليل دوافع ثورة 1879 على الخصوص . وذلك في أطروحته القيمة (المسلمون الجزائريون وفرنسا 1871ـ1919) (2) · وتحدث زميلنا يحيى بوعزيز عن ثورة بلزمة في الاوراس وعلاقتها بثورة المقراني أيضا · (3)

3 ـ والحقيقة ان الوثائق الفرنسية عن كل الثورات الجزائرية في جميع الانحاء الجزائرية قد لا يعوز المؤرخ كثيرا الآن ، ولكن جانب الوثيقة الاهلية (استكشافها واستعمالها) هو الذي يجب أن يكون محل عناية أكثر الآن · وهذه القضية ليست جديدة أيضا ، فالمؤرخون الفرنسيون ، والنزهاء من بينهم بصورة خاصة ، يشتكون دائما من قلة المصادر الاهلية حينما يتصدون للكتابة عن تلك الثورات أو حينما توجه اليهم ملاحظة ما ، حول استنتاجهم في خصوصها. ولا تزال هذه القضية قائمة ، واذا كانت أسبابها في الماضي معروفة ، فانه من الاليق بشبابنا الباحثين اليوم أن يتجهوا بعد استرجاع السيادة الوطنية ، لاكتشاف تلك المصادر الاهلية واستعمالها بدل التوقف عند المصادر الفرنسية السهلة الاستعمال نسبيا وتكرار ما كتبه بعض المؤرخين

(1) Feraud, Charles : *Histoire des Villes de la Province de Constantine*. Recueil des notices et mémoires de la société archéologique de la Province de Constantine - Alger, 1972.
Feraud : *Notes Historiques sur la Province de Constantine* - Alger, 1878.

(2) Charles - Robert Ageron : *Les Algériens Musulmans et la France* 1871 - 1919 - Paris, 1968.

(3) مجلة الثقافة (الجزائر) عدد 38 ·

الفرنسيين الذين يكونون قد سبقوا الى استعمال تلك المصادر وربما يكونون أكثر خبرة في استعمالها ·

واذا كان هذا هو السبب الذى حدانى هنا للحديث عن هاتين الوثيقتين الاهليتين ، فان ما احتوياه من المعلومات قد يكون قليلا جدا ، ولكن الفات انتباه الباحثين من شبابنا الى أهمية الوثيقة الاهلية نعتقد ان فيه كل الفائدة لخدمة تاريخنا، كما ان القاء الاضواء على الجانب الذى تكون قد عجزت جهود المؤرخين الاجانب عن الوصول اليه هو من صميم أعمال المؤرخ الجزائرى ومن واجبه وحده وهو ميدان واسع مفيد وغنى دون شك ·

منشورات

وزارة الشؤون الدينية

صدر كتاب :



في ثلاثة أجزاء

انتفاضـــة سكـــان الاوراس
عـام 1878

د· يحيى بوعزيز
معهد العلـوم الاجتماعية
جامعة وهران



التعريف بجبال الاوراس :

تمثل كتلة جبال الاوراس أكبر تضاريس الجـزائر الشمالية علوا وارتفاعا ، اذ يبلغ ارتفاع قمة جبـال الشلية فيها 2330 م عـن سطـح البحر · وتحتضن فى سفوحها الشمالية ، الزاوية الشرقية الحادة لمثلث اقليم الهضاب العليا ، الذى يعرف هنا باسم السهول العليـا القسنطينية بعد أن استصلح وتحول الى اقليم اقتصادى هام لانتاج الحبوب منذ عهد الرومان · ويشتهر بكثـرة احواضه ، وشطوطه ، وبحيراته المالحة ·

وتشرف هذه الجبال فى سفوحها الجنوبية على اقليم الزيبان الذى يشتهر بواحاته الجميلة فى منطقة بسكرة ، ووادى سوف ، فى حـوض ايغرغر · وتلتقى فى غـربها سلسلتا جبال الاطلس التلية الشمالية ، والصحراوية الجنوبية · وتمتد شرقا عبـر جبال النمامشة ، وتبسة ، الى داخل البلاد التونسية · فى اطار ما يعرف باسم جبال التل العليا ، أو جبال الظهر التونسى ·

وهي جبال جيرتة التربة ، معقدة التضاريس ، مكسوة بغطاء نباتى متوسط الكثافة ، من الغابات المتوسطية المتنوعة كالصنوبر ، والسرو ، والبلوط ، والعرعار · ينالها قسط كبير من الرطوبة فى شكل امطار وثلوج خلال فصل الشتاء ، بسبب علوها الشاهق ، وقربها من جبهة البحر المتوسط الشمالية الرطبة · يشتد فيها البرد شتاء ، وتسودها ظاهرة الجفاف والحرارة فى سفوحها الجنوبية والشرقية ، بسبب اتصالها بالصحراء ·

وتعتبر هذه الجبال منطقة نموذجية للفلاحة التقليدية ، كتربية الحيوانات ، وفلاحة الحبوب فى المنحدرات ، والخضر والاشجار المثمرة ، فى منخفضات وأحواض الاودية · ويتنقل الرعاة بحيواناتهم فى فصول خاصة من السنة حسب ظروف المناخ · ففى فصل الشتاء البارد ينحدرون بقطعانهم من الجبال فى الشمال ، ويتجهون الى السفوح ، والى الجنوب نحو مشارف الصحراء حيث يكثر الدفىء ، وتتوفر الحشائش · وفى فصل الربيع عندما تذوب الثلوج ، وتورق الأشجار ، وتنمو الحشائش ، وتزدهر ، يعود هؤلاء الرعاة بقطعانهم نحو الشمال ، وهكذا دوليك ·

وتمتاز السفوح الجنوبية بوجود أشجار النخيل كذلك · ومن أهم مراكز العمران فى هذه الجبال ، مدينة باتنة عاصمة الولاية ، ومروانة ، وأريس ، وخنشلة ، وعين البيضاء ، ، وتازولت (لامبيس) الاثرية ، والقنطرة ، وغيرها · ويشتهر معظمها بالصناعات التقليدية ، كالادوات الحديدية ، ونسيج القشابية ، والحايك ، وصناعة الجلود ، والاخشاب ، وغيرها ·

وكانت جبال الاوراس ، عبر التاريخ قلعة للصمود وملاذا ومعتصما ، للاحرار الوطنيين الذين قاوموا الغزو الاجنبي خاصة فى عهد الرومان والبيزنطيين ، وفى صدر الفتح العربى الاسلامى ، وخلال الاحتلال الفرنسى الاخير ·

ففى عهد البيزنطيين برز فى هذه المنطقة البطلان الشجاعان : بيداس ، وتاكفاريناس ضد هذا الاستعمار ، وفى صدر الفتح العربى ، برز كسيلة ، والكاهنة لمقاومة بعض قادة الفتح مثل : عقبة بن نافع ، وزهير بن قيس البلوى ، وحسان بن النعمان ·

وخلال الاحتلال الفرنسى فى القرن التاسع عشر · اعتصم بهذه الجبال عدد من أبطال المقاومة الجزائرية ، وتصدوا لمقاومة الغزو الفرنسى من ضمنهم : الحاج أحمد باي ، آخر بايات بايليك قسنطينة ، ومحمد الصغير بن عبد الرحمن شيخ قرية سيدى عقبة ، وخليفة الامير عبد القادر على ولاية الزيبان ، والحسن بن عزيز ، والشيخ

محمد الحسناوي بن بلقاسم الخنانشى (1) ، وزعماء عائلة رزقى ، ومحمد بن عبد الكريم القسنطينى (2) • وشهدت هذه الجبال معارك بطولية فى أولاد سلطان ، واحمر خدو ، وباتنة ، وخنشلة ، والشمرة ، وغيرها •

وخلال معظم الثورات التى خاضها السكان ضد الاستعمار الفرنسى فى الشرق الجزائرى ، والواحات الشرقية ، كانت جبال الاوراس ملجأ ، ومعتصما ، كما كانت منطلقا كذلك ، لكثير من الثوار والزعماء • ففى عام 1937 التجأ اليها الحاج أحمد باي بعد أن ضاعت منه قسنطينة ، وبقي معتصما بها يجاهد ويكافح حتى ارغم على الاستسلام فى صيف عام 1848 بجبل احمر خدو • وفى عام 1849 التجأ اليها من نجا من ثوار الزعاطشة وليشانة ، وفرفار • كما التجأ اليها قبل ذلك شيخ قرية سيدى عقبة أحمد بلحاج محمد الصغير بن عبد الرحمن خليفة الامير عبد القادر ، وفى أعوام 1858 ـ 1860 ، التجأ اليها ثوار حركة سى الصادق ، ومحمد بن بوخنتاش بالحضنة ، والخنقة ، وبسكرة • وفى عام 1876 التجأ اليها من نجا من ثوار حركة واحة العمرى (3) •

وفى هذه الدراسة سنقدم انتفاضة أخرى قام بها سكان منطقة الاوراس الغربية عام 1879 ، ضد الاستعمار الفرنسى ، فى الوقت الذى كان فيه الساسة الفرنسيون يتصورون ويعتقدون ، أن عهد الثورات بالجزائر قد انتهى بالقضاء على ثورة المقرانى والحداد عام 1871 • والحقيقة أن سكان الاوراس سيثورون حتى فى مطلع القرن الحالى عام 1916 ، فى الوقت الذى كانت فيه الحرب العالمية الاولى على أشدها ، كما أن الانطلاقة الاولى لثورة أول نوفمبر الكبرى عام 1954 ، بدأت من هذه الجبال الشامخة •

أسباب هذه الانتفاضة :

1) عن محمد الصغير ، والحسن بن عزوز ، والشيخ الحسناوى : انظر دراستنا بعنوان : « جهود الامير عبد القادر وخلفائه فى تدعيم الجبهة الشرقية القسنطينية » ، الاصالة ، عدد 48 (الجزائر ـ أوت 1977) ص 2 ـ 42 •

2) عن محمد بن عبد الكريم ، انظر دراستنا بعنوان : أربعة أحداث فى ثلاثة وثائق المجلة التاريخية المغربية ، عدد 2 (تونس ـ جويلية 1974) ص 94 ـ 102 •

3) عن حركة سى الصادق ، وبوخنتاش ، وحركة واحة العمرى ، انظر دراستنا ، بعنوان : نماذج من مقاومة سكان الواحات • الاصالة ، عدد 41 (الجزائر ـ جانفي 1977) ص 117 ـ 134 •

ظهرت هذه الانتفاضة المسلحة فى منطقة جبال الاوراس الغربية أواخر شهر ماي 1879 بزعامة الشيخ محمد أمزيان بن عبد الرحمن ، وسكان أولاد داود فى دائـــرة باتنة وبنى بو سليمان فى دائرة بسكرة · وكان وراءها عوامل سياسية ، واقتصادية ، واجتماعية ·

فمن الناحية السياسية اشتد النظام العسكرى ، وضباط المكاتب العربية ، فى سوء معاملة السكان وفى قهرهم ، واذلالهم ، واحتقارهم ، بشتى الوسائل · وهو أسلــوب الاستعمار الفرنسى ضد الشعب الجزائرى كله فى ســـائر أنحاء البلاد ، ولكن هذا الاسلوب اشتد أكثر فى البوادى والارياف ، وفى الجبال بصورة خاصة ، ومنها جبال الاوراس · على أساس أن السكان بدو متخلفون لا يفهمون للحياة معنى ، ولا يستأهلون أن يعتنى بهم ، ولا يحق لهم أن يتمتعوا بأي حق ·

ومن الناحية الاجتماعية هناك صراع وخصومات حادة بين عائلــة بن قـــانة ، وعـــائلة بن شنوف المنحدرة من عـــائلة بوعكاز ، حول السيطرة والنفوذ السياسى والقبلى · فقد حرض جماعة بن شنوف ، السكان ضـــد أولاد بن قـــانة حتى يثبتوا للسلطات الفرنسية عجزهم عن أداء مهماتهم فى وظائفهم ، فتعز لهم ويتسع المجــال لاولاد بن شنوف ليحتلوا أماكنهم ووظائفهم ، وهي حزازات نابعة من الصراع القبلى ·

وقد اتهم على باي من عائلة بوعكاز ، الآغا ابن ادريس ، وأولاد بن قانة ، معـــا ، باثارة حوادث الاوراس هذه ، ليحولوا دون تطبيق الاصلاحات والتنظيمات الادارية المدنية الجديدة بالصحراء ، حتى يحتفظوا بمناصبهم ويبقوا فى وظائفهم · وجاءت كل هذه الحوادث لتساعد على تفجير الحوادث ·

ومن الناحية الاقتصادية ، كان السكان فى هذه الفترة بمنطقة الاوراس ، كما فى غيرها ، يعانون أوضاعا سيئة ، وحادة · فلقد اشتد القحــط ، والجفاف ، وقـــل الانتاج الحيوانى ، والفلاحى ، وزيادة على هذا تشدد جباة الضرائب ضدهم وأرهقوا بمستلزمات القواد ، والآغاوات الاقطاعيين ، التى تفرض عليهم كعنوان وعربون على الطاعة ، والخضوع ، والامتثال ، وعانوا ، نتيجة لذلك ، من تشدد السماسرة اليهود ، والاوروبيين ، فى رفع نسب فوائد وربا الديون ، والقروض ، التى كانوا يأخذونها منهم ليواجهوا بها مشاكل الحياة ، والواجبات المفروضة عليهم (4) ·

---

(4) Ch. R. Ageron : *Les Algériens Musulmans et la France* 1871 - 1919 (Paris 1958) pp. 56 - 57.

وبذلك كانت الوضعية سيئة الى أبعد حد فى هذه الفترة ، بهذه المنطقة ، وأصبح واضحا ، ومتوقعا ، اندلاع أعمال العنف ، والتمرد ، اذا ما حصل أي ضغط آخر على السكان ، وهو ما حصل فعلا فى خريف عام 1879 كما سنرى ·

شخصية زعيم الثـــورة :

تزعم هذه الحركة والانتفاضة ، الشيخ محمد أمزيان بن عبد الرحمن الذى يعرف فى المنطقة باسم : محمد بن جار الله ، ويلقبه الناس باسم « الشيخ بوبرمة » كما روي ذلك لوسيانى (5) ·

وكان اماما بجامع قـرية الحمـــام ، وشيخا للزاوية الدينية بها ، ورث المشيخة الدينية كرئيس للرحمانيين ، عن الشيخ ابراهيم بن سى الصادق زعيم ثورة 1859 ـ 1859 بمنطقة بسكرة (6) ·

وبفضل منصبه الدينى هذا حاول أن يحيى سيرة سى الصادق ، وسى ابراهيم ، فأخذ يوسع نفوده الدينى ، ويكثر من الانصار ، والاتباع ، والمريدين ، ومع حلول عام 1879 ، بدأ « الشيخ بوبرمة » ، يظهر عداءه ضد السلطات الفرنسية المحتلة · واستغل مركزه الدينى للتاثير على جماهير السكان · ولم نستطع ان نتعرف على الاسباب التى دفعته الى تزعم الانتفاضة ، من خلال ما امكننا الاطلاع عليه مـن كتـب ودراسات فرنسية · وهذا مما يستوجب الاعتناء بهذه الحركة ، ودراستها ، وبحثها ، من جديد ، والبعث عن وثائقها فى الارشيفات الفرنسية ما وراء البحر ، وفى أرشيفات تونس ، والجـزائـر ·

ومنذ شهر جانفي أخذ سى محمد أمزيان يقوم بزيارات متعددة لزاوية سى الصادق القديمة بقرية تيمرماسين للاتصال باصدقائه ورفاق سى الصادق القدماء والاوفياء ، لتوثيق الصلات والعلاقات معهم ، ولتدارس الاوضاع السياسية السائدة انذاك ، ولربما لوضع الخطط والبرامج لما كان يعتزم القيام به ، وهو الثورة والتمرد ضد السلطات الفـرنسية (7) ·

ويتضح من هذه السفرات ، والاتصالات ، أن محمد أمزيان كان غير مرتاح لاوضاعه الخاصة ، وللمشاكل العامة فى البلاد · وكان يبيت أمرا · وعندما بدات بوادر الغضب

---

(5) D. Luciani : *Souvenir de l'Insurrection de* 1879. Revue Africaine (Alger 1925) pp. 190-196.
(6) Chareles Feraud : *Notes Historiques sur la Province de Constantine R.A.* (Alger 1886) pp. 103 - 107.
(7) Le commandant De Margon : *Insurrection dans la Province de Constantine de* 1870 *à* 1880 (Paris 1883) pp. 149 - 165.

والتذمر ، تبرز ، وتظهر فى مطلع عام 1789 ، اعتقل القائد بوضياف ، عددا من زعماء أولاد داود كرهائن لديه ، بينهم أحد شيوخ أهل حلحة ، وذلك بتهمة عملهم على تحطيم نفوذه ، ومركزه ، وادارته · وقد يكون هذا الاعتقال سببا فى حملهم السلاح بعد ذلك والتحاقهم بالثوار عندما تفجرت أعمال العنف ، والاحداث المسلحة ·

وفى خلال شهر ماي اتصل القائد الهاشمى بن بوضياف ، برسالة من أبيه ، وكلاهما كان عونا للفرنسيين ، أخبره فيها بأن محمد أمزيان بن عبد الرحمن قدم الى قرية الحمام ليعلن من هناك الجهاد الدينى المقدس · ونحن نعلم انه امام بها ، وقد يكون عاد اليها بعد سفراته المتعددة ، واتصالاته ، واستنادا الى أخبار هذه الرسالة كلف القائد الهاشمى عددا من الاعوان ليذهبوا اليه ويعتقلوه يوم 29 ماي ، ولكن سكان القرية هاجموهم وردوهم على أعقابهم بعد ان جرحوا لهم المدعو بن شوشة ، وبن عبد الله · وجدد القائد الهاشمى الكرة فى اليوم الموالى وارسل كاتبه على راس عدد آخر من الاعوان ، فتعرضوا لما تعرضى له سابقوهم ، ولم ينج كااتبه ، الا بفضل سرعة حصانه

انـدلاع الثـورة :

كان هذا الحادث بداية لاندلاع أحداث العنف والثورة · فاتجه على اثرها محمد أمزيان بن عبد الرحمن ، ورفاقه ، الى قرية العتصر ، لاعتراض سبيل القائد الهاشمى ابن بوضياف الذى كان يحاول اعتقالهم · فخاف من مغبة الامر ، وأسرع فى الانسحاب الى قرية الربعة ، حيث كان أبوه بوضياف بن محمد قائد بنى وجانة ، ينتظره حتى ينجو من الخطر (8) ·

وفى يوم 31 ماي تجمع الثوار فى قرية تكوت لدى سى سليمان بن الحاج ، وهاجموا القائد مصطفى بن باش تارزى ، وقتلوه فى منزله ، وحزوا راسه ، وقتلوا بعض أعوانه · وفى نفس الوقت تمركز الضابط الفرنسى كوربى CORBE ، والقائد بوضياف فى العناصر قرب مشينة ، ثم أسرعا الى قرية الشمرة عبر الربعة ، بعد أن كثر عدد الثوار ، واشتد نشاطهم ابتداء من أول شهر جوان ، خوفا من الوقوع فى قبضتهم ·

وفى ليلتى 5 و 6 جوان ، هاجم الثوار برج القائد محمد بن عباس مقدم الطريقة القادرية بواد عبدى ، وكان متغيبا عنه فى باتنة بسبب مرضه وكبر سنة ، فاحرقوه ،

8) نفس المصدر ، ص 167 ـ 168 ·

وخربوه ، ولم يستطع ولده أن يحميه ، وينقده ، لان غضب الناس كان شديدا ضد الفرنسيين واعوانهم جميعا ، وقد قتل خلال محاولته الدفاع عن منزل ابيه ٠

اما الشيخ بوبرمة ، محمد امزيان ، فقد اهتم بمراسلة سكان المناطق المجاورة يحثهم فيها على حمل السلاح ، والانضمام الى صفوف المجاهدين ، وادعى للناس بأن الفرنسيين لم تبق لهم اية قوة فى هذه البلاد ، وان هزيمتهم محققة ٠ وكان من ضمن من كاتبهم قبائل الحراكتة بالاوراس ، وأورد لوسيانى نموذجا لهذه المراسلات برسالة موجهة الى أولاد عيسى ادعى أنه تسلمها من أحد مقدمى الطريقة الرحمانية بالمنطقة الذى رجاه الا يعلن عن اسمه ، كما ادعى أن رسالة مماثلة لها انتزعها القائد على بن العربى بن بوزيد من أحد الرسل الذين أوقفهم ، وسلمها الى رئيس المكتب العربى بعين البيضاء ٠ ونصها :

« تبلغ الى يد كبار أولاد عيسى

الحمد لله وحده يتعرف به كبار أولاد عيسى السلام عليكم والرحمة والبركة من المسلم امام المهدى يخبركم أنه قد جاءه النصر من عند الله لقتال الكفار ولابد لكم أن تقوموا للجهاد لتكون كلمة الله هي العليا ٠ ومن كذب فى هذا الامر فقد كذب (على الله) (9) ورسوله ولكم أجر عظيم بذلك والسلام ممن كتب عن اذنه محمد بن عبد الله المهدى نصره الله » (10) ٠

ولم يكتف محمد امزيان بمراسلة السكان ومكاتبتهم ، فاتخذ بعض الاجراءات التنظيمية الاخرى ، وعين المسمى ابن محمد بن الطرابلسى خليفة له ، وكلفه بأمور الحرب والجهاد ٠ واتخذ قرية الحمام مركزا لنشاطه ، ورفع علم الجهاد على منارة مسجد سيدى فتح الله بالقرية ٠ وخلع على نفسه هو لقب عبد الله الفاطمى ليوحي للناس بأنه الامام المهدى المنتظر (11) ٠

9) كلمة : على الله ، التى وضعناها بين قوسين أضفناها من عندنا ليستقيم المعنى ويظهر أن كاتب الرسالة أو ناسخها ، قد نسيها ٠

ان هذه الرسالة ممضاة باسم محمد بن عبد الله المهدى ٠ ولكن لوسيانى صحح ذلك وأورد الاسم الحقيقى وهو محمد أمزيان بن عبد الرحمن ٠ وذكر أنه يعرف لدى سكان المنطقة باسم محمد بن جار الله ، ويلقبونه باسم الشيخ بوبرمة ، كما مر ، انظر نفس المصدر ص 194 ٠

(10) Luciani : Ibid, p. 192.
(11) Margon : pp. 169 - 175.

وخلال يومي 8 و 9 جوان ، تجمع حوالى الفي رجل ثائر مسلح ، واحرقوا رحـا القائد بوضياف فى قرية واد طوبة قرب قرية الربعة ، وهاجموا المعسكر الفرنسى الذى يعسكر فيه الضابط كوربى ، على رأس عدد مـن القوم ، والقناصة ، والصبايحية ، والرماة · وكانت نتيجة المعركة مقتل خمسة ، وجرح ستـة ، من القوات الفرنسية ، ومقتل عدد آخر من الثـوار ·

وتميزت هذه المعركة بالدور البارز الذى لعبته النساء الجزائريّات خلالها · بحيث كن يشجعن الثوار المقاتلين على الصمود ، بالزغاريد ، والولولة ، ويرقصن أمـام جثث الضحايا حتى لا يتسرب اليهم الفشل ، ويعيرن الاسرى ، ويؤنبنهم على جبنهم (12) وهذا الدور يذكرنا بدور المرأة الجزائرية فى الكفاح الوطنى خـلال معارك التحـرير الكبرى طوال القرنين التاسع عشر ، والعشرين ، خاصة فى ثورة أول نوفمبر الكبرى عام 1954 ، واسم فاطمة نسومر ليس غريبا على الجميع ·

استعدادات الفرنسيين ضـد الثـورة :

ونظرا لخطورة الحركة ، وتفاقمها ، وتطورها ، على هذا الشكل ، اهتم الفرنسيون بامرها · وطلـب حاكم مقاطعة قسنطينة مـن الجنرال فورجيمول دو بوسكينار : Forgemal De Bostquenard ، أن يعد ، ويجهز ، ثلاث فرق عسكرية فى أماكن مختلفة ، وتوجه الى قرية : « مدينة » التى تقع فى مركز وسط بين باتنة ، وخنشلة ، والقنطرة · وذلك لمحاصرة الثوار والتضييق عليهم ، وحصار الحركة حتى لا تنتشر الى جهـات أخـرى :

- الاولى تجهز من مدينة باتنة بقيادة الجنرال لوجرو : Logerot
- والثانية تجهز من بسكرة بقيادة الكولونيل كاجار : Cajard
- والثالثة تجهز من خنشلة بقيادة الكولونيل قـوم : Gaume

واعطيت الاوامر الى المسؤولين فى كل من عنابة ، وسكيكدة ، وقسنطينة ، وسطيف ، والجزائر العاصمة ، ليعدوا قوات اخرى ، ويعجلوا بارسالها الى المنطقة ، مما يـدل على أن الامور خطيرة ، وأن حركة الثورة والتمرد واسعة ·

وفى يوم 12 جوان ، أمر الجنرال فورجيمول بالبدء فى عملية الزحف على منطقة الثورة بالاوراس ، انطلاقا من قرية الربعة · فانطلقت قافلة الجنرال لوجرو الى مضيق

(12) Ibid, pp. 181 - 182.

واد طوبة ، وتعرضت لهجوم الثوار يوم 15 جوان ، فردت عليهم بتدمير منازل السكان ، واحراق الخيام ، وكل مظاهر العمران ، ثم اتجهت الى قرية (مدينة) على الواد الابيض.

وفى نفس الوقت كانت قافلة الكولونيل كاجار تمر بمشونش الى الـــواد الابيض كذلك ، وخاضت أول معركة مع الثوار فى مضيق تيرانيمين ، ثم اتجهت الى صانف يوم 16 ومن هناك الى واد عبدى ، فذراع لكحل ، حيث عسكرت فى تيزى أوقارين (13) .

خطـط الثـــوار ومصـيرهم :

وفى الوقت الذى كان فيه الفرنسيون يقومون بهذه الاستعدادات الواسعة ، اتجـه زعيم الثورة محمد أمزيان ورفاقه الى زاوية سيدى فتح الله فى قرية الحمام بـــواد الشرفة التابعة لقيادة جبل احمر خدو ، وذلك من أجل دراسة الوضع على ضـــوء استعدادات أعدائهم ، ولكن الفرنسيين لم يتركوا لهم الوقت والفرصة ، فجندوا ضدهم قوم عرب قبالة ، وعرب شراقة ، من أولاد سكرى ، والصحارى ، وتقدمت قوات كاجار نحو الزاوية ، وهاجم قوم باش تارزى ، الثوار يوم 19 جـــوان ، وقتلوا منهم حوالى ثمانين شخصا ، ينتمون الى بنى سليمان ، وجرحوا عددا آخر ، وأسروا أربعين .

وفى يوم 24 جوان ، هاجم الثوار قافلة فرنسية ، كانت فى طريقها الى معسكـــر كاجار ، وذلك فى قرية مدنة ، وأسر الفرنسيون خلالها ثلاث رجال ينتمون الى أولاد داود . وأعدمت قافلة خنشلة الفرنسية واحدا وعشرين شخصا من الشاوية قبل ذلك يوم 15 جوان ، بينما كانت متجهة الى قرية تاقزوم (14) .

ونظرا لاشتداد ضغط القوات الفرنسية وكثرة تخريباتها ، انسحب محمد أمزيان وانصاره الى الجنوب الشرقى ، ومروا بقرية زريبت الواد ، ووصلوا الى نقرين يوم 29 جوان . ومـــن هناك عبروا الحدود الى منطقة الجريد بالبـــلاد التونسية صحبة نسائهم ، وأطفالهم ، وأهاليهم ، بعد أن فقدوا حوالى ثلاثمائة شخص فى الطريق ماتوا كلهم من جراء الجوع ، والعطش ، وشدة الحرارة ، والاجهاد . وعثرت عليهم القوات الفرنسية التى كانت تلاحقهم وتطاردهم من مدينة تبسة ، مرميين فى العراء على الرمال فى شكل مجموعات صغيرة متناثرة هنا وهناك ، ثلاثة ، وأربعة ، وخمسة ، وكـان

13) نفس المصدر ، ص 177 ـ 178 و 183 ـ 185 .
14) نفس المصدر ، ص 188 ـ 190 .

البعض منهم عبارة عن هياكل عظيمة ممسوكة بالجلود اليابسة عليها · مما يدل على مدى الجهد الذى عانوه وقاسوا منه خلال هذه الحركة (15) ·

صرامة العقوبات الفرنسية ضد الثوار :

وكعادة السلطات الفرنسية ، فانها طبقت عقوبات صارمة ، وقاسية ، ضد سكان المنطقة دون استثناء · فصادرت أملاك الثوار ، والمؤيدين لهم ، بصورة جماعية ، وفرضت غرامات حربية زادت عشرين مرة على الضريبة العادية ، على سكان حلحة ، وأولاد داود ، وبنى سليمان ، وبلغ مجموع ما صادرته من أولاد داود وحدهم 2777 هكتارا من أراضيهم الجيدة ، ونكبت السكان فى قطعان مواشيهم ، وابلهم ، واغنامهم ، واحتجزت رهائن منهم حتى تستوفى هذه الضرائب ، والعقوبات (16) ·

وفى نفس الوقت قامت السلطات التونسية بتسليم محمد امزيان بن عبد الرحمن ، زعيم الثورة ، ورفاقه الى السلطات الفرنسية التى قدمتهم الى المحاكمة أمام مجلس عسكرى بمدينة قسنطينة فى شهر جوان 1880 ، أي بعد مرور عام على اندلاع هذه الثورة · وكان عددهم خمسة وخمسين شخصا · وأصدر هذا المجلس العسكرى احكامه ضدهم يوم 16 جوان على الشكل التالى :

اربعة عشر شخصا بالاعدام على رأسهم زعيم الثورة محمد امزيان ·

عشرة أشخاص بالاشغال الشاقة لمدة عشر سنوات ·

سبعة أشخاص بالاشغال الشاقة لمدة خمس سنوات ·

شخصان بالاقامة الجبرية لمدة خمس سنوات ·

سبعة أشخاص بعامين شجنا عاديا ·

ستة عشر شخصا برئت ساحتهم ، فأطلق سراحهم ·

وبعد صدور هذه الاحكام الجائرة ، حاولت السلطات الفرنسية أن تتظاهر بالرأفة والرفق ، فأصدرت عفوا جزئيا على المحكوم عليهم بالاعدام ، وعوضت الاعدام بالاشغال الشاقة المؤبدة ·

وكان محمد أمزيان بن عبد الرحمن ، قبل تقديمه للمحاكمة ، قد كتب رسالة طويلة الى رئيس المجلس العسكرى يوم 24 ماي 1880 ، أورد مارقون نص ترجمة لها بالفرنسية

(15) Henri Garrot : *Histoire Général de l'Algérie* (Alger 1910) p. 994.
(16) Ageron : Ibid, pp. 59 - 62.

وحاول صاحبها ان ينفي عن نفسه ، وعن رفاقه ، التهم الموجهة ضدهم ، وأكـد أن المسؤول عن كل ما حصل من الشغب ، والقتل ، والحرق ، والتخريب ، والتشريد ، هـم الضباط الفرنسيون ، وأعوانهم ، وجماعة باش تارزى (17) ، ولاشك أنه محق فى ذلك ، وهو مما يؤكد ضرورة البحث عن وثائق هذه الثورة ·

د· يحيى بوعـزيز

جامعة وهران
معهد العلوم الاجتماعية
دائرة التاريخ

فى 1978/4/15

(17) De Margon : pp. 195 - 206.

منشـــورات
وزارة الشـــؤون الدينيـــة

سيصـــــدر قريبا كتـــاب :

الملتـــقى التـــاســـع
للفكـــر الاســـلامى

بالعربيـــة فى أربعـــة أجـزاء

ويشمـــل :
سائـر المحـــاضرات ،
والتعقيبـات .
والمناقشات .

أثــر القــرآن
فى شعـــر محمـــد الـعيـــــد

شلتاغ عبود شراد
المعهد التكنولوجى للتربية
الأصنام

تمهيـــــد :

لم يكن محمد العيد آل خليفة بدعا فى الشعـراء من حيث صلته بالقرآن الكريم ، وتاثره به ؛ ذلك أن الثقافة العربية على توالى العصور الاسـلامية كانت فى مجملها تعتمد القرآن مصدرا تدور حوله الابحاث اللغوية والأدبية والفكرية • وبأمكاننا أن ناتى بنماذج لكثير من الشـعراء من العصر الاسلامى الى العصر الحديث ، ولكننا سنعرض عن ذلك خشية الاطالة • غير أن شاعرنا، فى الواقع، فاق كثيرا من الشعراء العرب فى اعتماد اللغة القرآنية والصـورة والرمز القرآنى ، ووظف المعانى القرآنية توظيفا حالفه النجاح فى الغالب من شعره •

ولقد كان لنشأة محمد العيد الدينية ، وبيئته الاجتماعية والسياسية اثر على حياته وشعره • فقد كان أبوه السيد خليفة حم على شيخ طريقة دينية فى العين البيضاء (1) ، فلم يشذ العيد عن هذا الجـو الدينى واساليبه التعليمية ، ثـم كان لنشأة الحـركة

الاصلاحية التى وجد الشاعر نفسه محاطا بها ، ومن ثم عضوا عاملا فيها ، كان لها أثر كبير فى تعميق ثقافته الدينية واعتمادها وسيلة للاتصال بالجماهير فيما بعد ، فضلا عن ذلك ، فان بيئته الاجتماعية والثقافية لم تكن منفتحة على الثقافات العربية والعالمية الحديثة ، عدا القليل من الصحف والمجلات التى كانت تصل من تونس والقاهرة ·

ولهذا كان لا بد من العودة الى النبع : القرآن الكريم ، والتراث العربى القديم الذى لا يخلو هو الآخر من الأثر القرآنى ، ان لم يكن يدور حوله ويستقطبه ·

وقد لاحظنا أن صلة الشاعر بالقرآن كانت عميقة ، فتركت آثارها فى أكثر من جانب ، ولذلك ارتأينا أن ندرسها من حيث اللغة والموسيقى والصورة والرمز ، وان كان هذا التقسيم اعتباريا من أجل الوقوف على الجزئيات ؛ لأن القارىء يستطيع أن يلمح هذه الجوانب متجسدة فى نموذج واحد من شعره ·

(1) اللغة :

من الشعراء من يتفرد فى تعامله مع أداة التجربة الشعرية ، اللغة ، فيحس القارىء بطريقته فى تناول اللغة بشكل يميزه عن الشعراء الآخرين · ومنهم من ياخذ المفردات والتراكيب الجاهزة دون محاولة منه للأبداع والاكتشاف فى مجال العلاقات اللغوية ، ولا نريد هنا أن نزعم أن العيد خليفة علم بارز فى ميدان العلاقات اللغوية الجديدة ، ولكننا نريد أن نؤكد بدءا أن للشاعر أسلوبا خاصا يستطيع القارىء أن يميزه به ، ألا وهو التصاقه الشديد بالقرآن ، ونهله منه مفردات وتراكيب ، وطريقة نظم ، ولا عجب فهو الذى يقول :

يقولون هل نقبت فى الكتب باحثا ... فقلت لهم لم أقف آثار كاتب
وعفت ، فلم أشرب من الكأس فضلة ... يزاحمنى فى رشفها الف شارب
ومن كان للأسفار فى العلم راغبا ... فانى للأسفار لست براغب
فحولى كتب الله من كل شارق ... تزودنى علما ، ومن كل غارب
غنيت بها عن كل درس معذب ... وعن كل بحث فى المراجع ناصب (2)

وحين نواجه هذا الشعر لم يبق أمامنا الا البحث عن طرائق تأثر الشاعر بكتاب الله الذى أغناه عما سواه كما يقول · ونحن ، وان كنا نميل الى ما ذكره الدكتور ابو القاسم

سعد الله في أنه من الصعب أن يفلت الشاعر في هذا العصر من التأثيرات غير القرآنية ، مهما ادعى ذلك (3) ، نرى أن الأثر القرآني كان أكثر الآثار ظهورا وانعكاسا لثقافة الشاعر . فهو اذا ما كتب نصا شعريا تواردت اللغة القرآنية على خاطره ، حتى أنه في الغالب يبدأ البيت الشعري بالقرآن ، ولا يغير من اللفظ القرآني الا اذا اضطرته قوانين الوزن ، كقوله يخاطب الفرنسيين :

لن تنالوا البر حتى ترفضوا ... ما لكم من عنصر باق ودين (4)

أو قوله مرحبا بالمحتفلين في مدرسة الشبيبة الاسلامية بالعاصمة :

سلام عليكم طبتم اليوم فادخلوا ... على اليمن مفضالا الى جنب مفضال (5)

بل انه لا يحذف الا حرف العطف حتم يستقيم له الوزن كقوله :

لا تخافوا ، لا تحزنوا ... ان عقباكم الظفر (6)

وفي أحيان أخرى يأتي بألفاظ قرآنية ، ولكنها ليست من سياق واحد ، كقوله :

أتوا النساء نصيبهن من الهدى ... يخرجن نشئا كالرماح الشرع (7)

قال تعالى : « **وآتوا النساء صدقاتهن نحلة** » النساء ـ 3 ولما كان الشاعر في صدد آخر غير الصدقات ، راح يستمد من القرآن نفسه اللفظة المناسبة للسياق ، فجاء بـ (نصيبهن) في قوله تعالى : « **للرجال نصيب مما ترك الوالدان ، والأقربون ، وللنساء نصيب** » النساء ـ 7 . مما يدل على أن القرآن حاضر في ذكراة الشاعر ، يأخذ منه ما يناسب المقام .

ويلاحظ على الشاعر أنه لا يغادر النعوت القرآنية للاشياء في أغلب الاحيان . فهذه الخمرة ـ وهي خمرة الجنة ـ يمنحها الشاعر نعتها القرآني ، وينقلنا الى الجو الذي رسم فيه القرآن أهل النعيم :

ستسقاها مشعشعة وصرفا ... مداما لذة لا كالمدام
فليس تضر شاربها بغول ... وليس تجر شاربها لذام
يطاف عليك من وقت لوقت ... بها بين احتفاء وآحتشام (8)

فهذه الابيات تستحضر أمامنا كثيرا من الألفاظ القرآنية ومن مشهد واحد فى قوله تعالى : « **يطاف عليهم بكاس من معين ، بيضاء لذة للشاربين · لا فيها غول ، ولا هم عنها ينزفون ·** » سورة الصافات 45 ، 46 ، 47 ·

ألا تلاحظ معى الى أى مدى كانت صفات الخمرة فى القرآن هى نفسها فى شعر محمد العيد ؟ أكثر من ذلك أن هناك بعض الصفات الملازمة للاعداد ، يلتزم بها الشـــاعر كما وردت فى القرآن :

سنو يوسف السبع الشـداد تصرمت   وأعقبـــــها عـــام الاغاثة والعصر (9)

ولعل قارئا يقول بان الألفاظ التى احتواها القرآن هى ملك اللغـــة العربية قبل ان يستخدمها القرآن · ومن هنا فالشاعر يتصرف حرا فى التعامل معها ، وان استخدامه لهذه الألفاظ لا يدل على أنه انتهلها من القرآن · نقول : اننا لا نتصيد الألفاظ القرآنيـة لدى هذا الشاعر ، وانما نجد القرآن مبسوطا أمامنا فى ديوانه بشـــكل لا يدع مجالا للقول ، بأن الشاعر يصدر عن قاموس اللغة العام فى تعامله مع ألفاظ بعينها ، بل يحدد قاموسه فى اطار هذا المصدر ، فيكرر الألفاظ والتراكيب ويلح عليها ، ثم يخلق جـوا شبيها الى جوها القرآنى · أضف الى ذلك أن هناك ألفاظا معينة وردت فى القرآن ، ولم يعد يستعملها الأدباء ، ولكن الشاعر يؤثرها على غيرها ، مثل لفظة « ضيزى » فى قوله :

يا قسمة القدس أنت ضيزى   لم يعدل القاسمون فيك (10)

وترد الفاظ قرآنية ذات دلالات تصورية دينية خاصة مثل : الرين ، وهو الصــــدا المعنوى الذى يتراكم على القلب من كثـــــرة الذنوب والآثام · قال تعالى : « **بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون** » (11) · ويقول العيد :

عـــف كى تســــــلما   من أذى الـــــرين (12)

كما أن هناك الكثير من الألفاظ التى وردت فى شعر محمد العيد ، وهى قرآنية الدلالة مما يؤكد أنه نحا فيها منحى القرآن مثل : طوبى ، الشانىء ، سجيل ، عدن ، أبابيل ، تبت يدا ، اصدع ، حصحص الحق ، السبع المثانى) · ولما كان للقرآن أسلوب خاص فى ايراد الألفاظ ، فهناك بعض الألفاظ تأتى متصاحبة غالبا مثل : « الصلاة والصيام ; الجوع

والخوف · الجنة والنار · الرغبة والرهبة · المهاجرون والانصار · الجن والأنس · » (13) ، فالشاعر يحافظ على هذا التزاوج بين الألفاظ الذى يعكس الموروث من حفظه للقـرآن الكريم · فيقول مثلا :

وله تضرع راغبـا أو راهبـا — فهو الحفيظ عليك وهو الراعى
الله عـز وجـل ربك فادعـه — فهو المجيبلكل عبد داعى (14)

ويقول أيضـا :

هيهات يحـرز غاصب نصرا ولو — بالجنوالأنس احتمى وآستنصرا (15)

بعد ما لاحظنا هذه الانعكاسات القرآنية على لغة محمد العيد ، لابد أن نلقى نظـرة على طبيعة هذه اللغة ، فنقول : انها لغة سهلة غير معقدة تحكى لنا عن مذهب شعراء الطبع ، ولكن ينبغى ألا نذهب بعيدا بهذا الاتجاه · فهى بالوقت نفسه لغة متينة ، محـكمة ، فخمة ، قاموسها أكثر ميلا للقديم · فقد وقف الشاعر مرة فى باتنـة عام 1954 يلقى القصيدة التى مطلعها :

حثثنـا نحـو باتنـة المطـايا — وجئنـاها نزف لهـا التحايا (16)

وعلى الرغم من أن هذه الفترة متأخرة بالنسبة للشاعر ، ولكنه لم يتخلص من تأثير اللغة القديمة على شعره · فبالوقت الذى جاءها مسافرا بالقطار نراه فى شعره يحث مطاياه نحوها · قلنا ان هذه اللغة خالية من الغريب والعويص من الألفاظ الا القليل منها فى المراحل الاولى من حياة الشـاعر ؛ لأنها كانت تخاطب مجتمعا غلبت عليه الأمية ، وأحيانا تخاطب حفلا غالبيته من التلاميذ ، ولذلك تأتى هذه اللغة خطابية واضحة ·

ولما كان الشعر لدى محمد العيد ذا هدف دينى ووطنى أيضا ، فهو يبحث عن « الكلمة الطيبة دائما قبل أن تكون الكلمـة الجميلة · التعبير الصـادق قبل أن يكون التعبير المزخرف » (17) · ولقد كان لمهنة محمد العيد تأثير كبير على هذه اللغة التى تجد طريقها الى ذهن القارىء أو المستمع الأمى بالسرعة نفسها ، فهو الذى قضى حياته معلما للصغار ، فلا تستغرب اذا ما خاطب المحتفلين من الطلاب بقوله :

وأرى دراسـتكم دراسـة خبرة — ودرايـة ورعايـة ونظـام (18)

فالمناسبة والجو الخطابى هو الذى يقتضى أن ينتقى الشاعر اللغة السهلة الواضحة ، هذا الجو نفسه حمل الرصافى ان يقول شعرا بهذه الطريقة الهزيلة الخالية من أية اثارة :

عقـــل وتجــربــة وجـــد زائد   هــذه صفات حـــازها المتقاعد (19)

ولقد قيل بأن العيد كان ينقح لغته ، ويختار من الالفاظ ، أجودها وأكثرها تعبيرا عن هدفه (20) · ولكنها فى كثير من الاحيان تأتى انسيابية يحكيـها كما يحـكى الحديث العـــادى :

ما شــــعرنا ـ يعلـم الله ـ حتى   جـــاءنا أن ابن دالى قتيـــل (21)

وهنا لا بد من الاشارة الى ما اصطلح عليه النقاد بلغة الحياة اليومية ، وهى أن يقترب الشاعر من لغة الشعب ، ويعبر عن مشاغلهم اليومية ، فهل وفق العيد الى ذلك ؟

نقول بدءا ان احدا لم يقل باستخدام اللغة الدارجة ، وانما ينبغى للشاعر أن يكون قريبا من روح الشعب ، يخاطبه بلغة أليفة لديه ، اثيرة عنده · ومحمد العيد يبدو أنه يدرك ذلك على ضوء فهمه لرسالة الشعر · فكان أن لجا الى القاسم المشترك الاعظم ـ كما يعبرون بالرياضيات ـ الى القرآن · وبلجوء العيد الى اللغة القرآنية ، يقتبس منـها الكثير ، ويستحضر اجواءها ، يكون قد نفذ الى قلوب مستمعيه وقرائه ، واختصر المسافة بينه وبين جمهـــوره ·

بقيت مسألة لا بد من أن نقف عندها قليلا ، وهى أن لغة العيد قد وصفت بأنها لغة تحاكى لغة البهاء زهير ، وهذا ما يفهم من قول الأمير شكيب أرسلان (22) ، فالى أى مدى يصدق هذا الــرأى ؟

يبدو لى ان لغة العيد لا يمكن أن نقرنها بلغة البهاء ، اذ ان هذا الشاعر الأخير صاحب مدرسة معروفة لدى النقاد برقة اللفظ وشفافيته ، وبموسيقيته الواضحة ، فضلا عن تمثيله لما يسمى بلغة الحياة اليومية احسن تمثيل · انظر اليه ، وهو يقول :

اياك يدرى حديثـــا بيننا احـــد   فهم يقـــولون للحيطان آذان (23)

الا ان ما يربط بين العيد والبهاء زهير هو البساطة وعدم التكلف · ولعل سهو أبى القاسم سعد الله يعد صحيحا ! فقد نقل كلام شكيب أرسلان ، وقال بان الأمير قرن محمد

العيد بزهير (24) · ولعمرى فان لغة العيد ـ من بعض الجوانب ـ أقرب الى لغة زهير الجاهلى منها الى لغة البهاء زهير المصرى · وقد أكد البشير الابراهيمى ذلك حينما قدم الشاعر الى جمهوره ، فقال : « ولعلكم فى هذا المجلس سترتفعون بالذكريات الى الماضى الخالد حين تسمعون من الشعر ما يمثل زهيرا والنابغة فى الاولين ، وأبا العتاهية والمتنبى فى المحدثين » (25) ·

ان فراغ البهاء زهير للغزل ادى به الى هذه اللغة الرقيقة ، فى حين كان العيد يصارع الاستعمار اشد ما يكون عليه الصراع · وحتى قصائد الغزل التى خجل العيد من درجها فى ديوانه لم تش بهذه الرقة ، بل تؤكد ما اشرنا اليه ، وهو ميله الى الأثر القديم ، والقرآن منه بشكل خاص · يقول العيد ، مخاطبا العذال :

على رسلكم ، دين الهوى غير دينكم لكم دينكم، يا عاذلون ، ولى دينى (26)

ولكن لا ينبغى أن نذهب بعيدا فى ابعاد صفة الرقة عن شعر العيد ، ففى شعره الذاتى خاصة نجد هذه اللغة الرقيقة الرومانسية :

انمـــا الشـــــعر ريشـــــة كـل نفس لـهـــا وتـــــر

انمـــا الشـــــعر لوحـــــة غير محــــــدودة الصــور (27)

وفى أكثر من قصيدة من الديوان ·

وفى مرحلة الثورة ، والاســـتقلال خاصة ، تطورت لغة الشـــاعر قليلا ، فالالفاظ « ماخوذة من قاموس الثورة ، ومستوحاة من الاستقلال » (28) ، فأنت تواجه بالفاظ مثل الثورة والتحرير والنضال والكفاح والاستقلال بشكل واضح · وهى الفاظ لم يكن بوسع الشاعر أن يقولها زمن الاحتلال · وانما كان يرمز اليها رمزا · وعلى أيـة حال ، فهو تجديد جزئى ، اذ ليس من السهولة أن يتخلص الشاعر من ركام هائل من المحفوظات ، بل انه مال فى شعره الى التجنيس أكثر من ذى قبل ، مما يؤكد أن مفهومه للغة الشعرية لم يتطور :

اليـــــوم يذكـــر شــــعبنا حـــرية بالشـــــكر منـــه حـــرية أن تذكـــرا

ـــاع النـــفائس والنفـــوس لأجلهـــا وبها اشترى فى العمر أغلى ما اشترى (29)

ولا غرابة فقد انتهى الرجل شعريا ، وانقطع عن قول الشعر الا قليلا ·

(2) الموســـيقى :

ما دمنا قد انتهينا الى القول بأن لغة العيد تعتمد اللغة القرآنية فى الصياغة والمنحى ، وجئنا بنصوص كثيرة منها ما كانت صياغته باللغة القرآنية ، ومنها ما كانت ســـائرة على منهجها · بقى علينا أن نتحدث عن الجانب الموسيقى فى هذه اللغة · فاللغة العربية بشكل عام ذات طابع موسيقى تحكى فيه الالفاظ صور المعانى ، وتوحى بها من خلال موسيقى الحروف والبنية · وكثير من الألفاظ القرآنية جاء معبرا عن المعنىٰ من خـــلال الصياغة ، وان لم يكن ذلك مطردا فى الألفاظ كافة · وقد استفاد العيد من هذه الخاصية فى اللغة عموما ، ومن الألفاظ القرآنية بشكل خاص · فهو يختـــار من هذه الألفاظ أكثرها حكاية للمعنى ، فيقول مخاطبا رافعى القصور والاغنياء :

ألا تذكـــــرون حفـــاة عـــراة أصـــــابهم الفقـــر بالفاقـــرة ؟
ألا تكـــــرمـــون ألا تنقـــذون وجـــوها تكبكب بالحافـــرة ؟ (30)

فلفظة (تكبكب) ذات موسيقى موحية بمعناها ، وهى صورة حركية للمعنى · وقد جاءت فى القرآن تجسد موقفا للمشركين ، وهم يساقون الى النار « **وكبكبوا فيها هم** والغاوون » (31) ، الا أن الشاعر استعمل اللفظة فى تصوير مشهد حياتى للفقراء · ويقول الشاعر فى زلزال الأصنام :

أســـــفى على الأصـــــنام رجت دورهـــا
تحـت الظـــلام وزلـــزلت زلـــزالها (32)

فواضح أن (زلزلت) حكاية صوتية للزلزال ، وما يحـــدثه فى الأرض ، ومن هذا الكثير فى القرآن مثل الفاظ الصاخة ، القارعة ، يصطرخون ، سالتمونيها يغشيكم هذه الألفاظ التى تجسد المعنى من خلال بنيتها الايقاعية · ولكنّ العيد ـ للاسف ـ كانت استفادته من القرآن محدودة فى هذا المجال · أما من حيث تكرار الالفاظ وترجيعها ، فالملاحظ أن شعر محمد العيد يكثر فيه تكرار اللفظ فى البيت الواحد ، ويلجأ أحيانا الى التجانس بين الالفاظ ، وأحيانا يأتى بما يسمى بالبديع برد العجز على الصدر ، حتى

أنك فى الغالب لا تواجه البيت الا وقد اشتمل على جانب من هذه الجوانب · وواضح أن توافر هذه المحسنات البديعية فى الشعر يكسبه عنصرا موسيقيا ، على ان يجىء صادقا وعفويا ، فهل كان للقرآن أثر فى ذلك لدى العيد ؟

فى الواقع ان التكرار يرد فى القرآن كثيرا ، وفى السور المكية خاصة من أجل تنبيت المعانى وتقريرها ، ولكن الذى ارجحه أن العيد ينحو فى هذا التكرار والتجنيس منحى مدرسة البديع التى قرأ الكثير لشعرائها كمسلم بن الوليد ، وابى تمام الطائى ، ومن ثم شعراء الفترة المظلمة · وان كان للقـــرآن اثر فهو لا يتعدى الى أكثر من مواضع محـــدودة ·

وقبل أن نتجاوز هذه الموسيقى الداخلية الى الموسيقى الخارجية التى تتمثل بالوزن والقافية ، لابد أن نشير الى ما احتدم من حوار بين اصحاب الدراسات البيانية القرآنية حول القرآن والشعر · وليس هذا مجال عرض هذه القضية مفصلة ، ولكن الذى نريد تقريره هو أنه « ليس يعيب القرآن أن نحكم على أن فى الفاظه موسيقى كموســـيقى الشعر ، وقوافى كقوافى الشعر او السجع ، بل تلك ناحية من نواحى الجمال فيه » (33)· وقد كان لهذا أثره على نفوس العرب الذين تلقوه بالدهشة والاعجاب ، وبهذا فليس بدعا أن نقول ان للقرآن موسيقى قد يتاثر بها الأديب ناثرا أو شاعرا · بعد هذا نقول ما مدى تاثر الموسيقى الخارجية فى شعر محمد العيد بالقرآن ؟

تواجهنا الموسيقى القرآنية حين ياتى الشاعر بشطر موزون كما هو فى القرآن :

من يقـــل لا تأمنوا الغـــدر قلنـا (حسبنا الله ونعم الوكيل) (34)

من البحر المديد · انظر الى قوله تعالى : « **وقالوا حسبنا الله ، ونعم الوكيل** » (35) · وعلى الرغم من قلة الآيات التى جاءت على أنماط الأوزان الشعرية كاملة ، فالشاعر حريص على أن ياتى بهذا القليل ليكون شطرا شعريا قوامه القرآن ، كما فى المثال السابق · واحسبنى مصيبا اذا قلت ان ذلك ياتى دونما اعمال فكر ، كقوله :

ومـــا قـدمت من خـــير خفى (فأن الله كان به عليما) (36)

ذلك أن كثيرا من الفواصل القرآنية تنتهي بمثل (عليما ، حكيما ...) لهذا ترى الشاعر كيف استفاد من هذه الظاهرة القرآنية ، ووظفها في شعره .

ولما كان من الصعب أن تأتي الالفاظ في الشعر كما في القـــرآن ، لانه نثر ، يلجأ الشاعر الى جمل قرآنية على نمط معين من الوزن ، ولكنها لا تمثل صدرا او عجزا من البيت الشعري ، كقوله :

علنـــــوا البشرى فـــرادى وثبـين   جاء نصر الله والفتــح المبـــين (37)

(من الرمل) فجاءت التفعيلة الاولى والثانية وجزء من الثالثة من القرآن وجاء الشاعر بلفظة (المبين) ليكمل بها الشطر ، بل انه أحيانا يغير لفظا في الآية التي يمكن أن تشكل شطرا شعريا لضرورة يراها في المعنى ، كما قال :

(لن تنالوا البر حتى) ترفضـــوا   ما لـــكم من عنصر باق ودين (38)

فقد كان بامكانه ان يكمل الشطر فيقول : « **لن تنالوا البـــر حتى تنفقوا** » (39) . ولكن المعنى لا يستقيم مع ما أراد . وقد أعانه على ذلك كله ان اسلوب القرآن نفسه ، فهو يجيء « متناسق المقاطع ، يصلح ان يضمن في شعر الشاعر دون مشقة او عنت » (40)

فقوله تعالى : « **فقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل** » (41) ، يمكن للشاعر الذي ينظم قصيدته على (المديد) أن يأتي منه بـ (حسبنا الله ونعم الوكيل) ، كما فعل العيد ، وقد أشرنا اليه قبل قليل ، والذي ينظم قصـــيدته على (الهزج) يأتي منه بـ (وقالوا حسبنا الله) .

بقي من الموسيقى الخارجية القافية ، وهي عنصر هام دون شـــك . فما مدى تأثر شاعرنا بالقرآن في هذا الجانب ؟

ان نهايات الفواصل القرآنية يمكن أن تحسب قوافي تغني الموســـيقى الخارجية للشعر . وكان بعض الشعراء يلجـأون الى القواميس التي رتبت على أســـاس أواخر الأفعال ، حيث يتصيدون قوافيهم . ولكن العيد كان يلجأ الى قاموسه الأثير : القرآن . واغلب الظن أنه عندما نظل قصيدته في زلزال الأصنام كان واقعا تحت تأثير الفاصـلة القرآنية التي صورت الزلزال أيضا في سورة الزلزلة :

أســـفى على الاصنام رجت دورها   تحت الظلام ولـزلزت زلزالها (42)
دوت دوى الرعــــد ثم تدكـدكت   بالآهلـين وأخـــرجت أثقـــالهـا

وليس من قبيل التمحل أن نقول ان الفاصلة القرآنية قد لونت قافيـــة العيد ، وكانت الموئل لها والمعين · صحيح أن حروف الروى قد نظم بها من قبل كثير من الشعراء، ولكن الفارق الأساسى هو أن العيد يستحضر مع حرف الروى الجو القرآنى ، مما يجعلنا نميل الى نسبة ذلك الى أثر الفاصلة القرآنية موسيقيا · انظر اليه ، وهو يقول فى حفل تكريم السنوسى بمناسبة طبع كتابه (شعراء الجزائر فى العصر الحاضر) :

قـــد عرفنـــاك بالجـــزائر بـــرا   يـــوم احييت ذكـــرها الأدبيـا
يوم احييت شـــعرها بعد أن لم   يكن الشـعر فى الجـــزائر شـــيا
كان بالامس مودع القبـــر ميتـــا   كيف أخرجته من القبـــر حيا (43)

ألا تلاحظ أننا نقف وجها لوجه أمام سورة مريم ، ليس من حيث حروف الروى ، ولكن من حيث الجو العام لسورة مريم ، فقد لاحظنا السنوسى برا بالجـزائر ، كما كان عيسى برا بوالدته « **وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا** » (44) ، وقد أحيا السنوسى الشعر بعد أن لم يكن شيئا ، كما خلق الله زكريا بعد أن لم يكن شيئا « **قال كذلك قال ربك هو على هين ، وقد خلقتك من قبل ، ولم تك شيئا** » (45) · ولا نريد تتبع الفاصــلة القرآنية فى القصيدة كلها ، ففيها (حفيا ، مليا ، زكيا -) · واذا كانت هذه اليــاء المدودة مناسبة لاسلوب القصة المسترسل (46) ، فان العيد لم ينح منحى القرآن فى القصص ، ولكنه استفاد من الفاصلة التى اكسبت القافية رقة وحيوية موسيقى ·

ويظهر اثر الفاصلة المكية واضحا على قافية العيد لكثرة ترديد السجع فى الســور المكية · انظر الى الشاعر ، وهو يخاطب المعمر الفرنسى :

ايـن المفـــر من الآلـ   ـه وحـكمه ايـن المفر ؟
او تبتغى وزرا يصـــــو   نك منه، كلا، لا وزر !(47)

هذه الموسيقى الحادة تحكى لنا جو الوعيد فى مشهد من مشاهد يوم القيامة « **يقـول الانسان يومئذ أين المفر ، كلا لا وزر ، الى ربك يومئذ المستقر** » (48) · فالشـــاعر

لا يتأثر ـ كما تلاحظ ـ بالفاصلة وحدها ، وانما ينقل جوها وروحها · والشواهد كثيرة ، ومن يريد الاستزادة فليراجع الديوان ·

(3) الصـــــورة :

بدءا يمكن القول بأن محمد العيد لم يكن شاعر صور بل هو يفضل التعبير المباشر ، واذا ما لجأ الى التصوير ، فان هذا التصوير يعتمد الأدوات القديمة ، وبذلك فهو تصوير غير مبهم · ويعود ذلك الى أن موهبة العيد نفسها محدودة التخيل ، بالاضافة الى أنه كان يكتب لوسط اجتماعي محدود الثقافة أو معدومها · ولم يكن يريد أن يبتعد عن هذا المجتمع الذى التزم قضيته ، ووجد فى الدعوة الى تحرره هدفا نبيلا · وهذا ما يفسر لنا لجوءه الى الصورة القرآنية ، فقد ادرك الشاعر دلالة هذه الصورة وأثرها على نفسـية جمهوره القريب من الجو القرآنى · ولما كان « التصوير هو الأداة المفضلة فى أسـلوب القرآن (48 م) ، ولما كان هذا القرآن دائم الحضور فى ذاكرة الشاعر ، راح يسـتمد غالبية صوره منه بالنص حينا ، وبالاشارة حينا آخر · وفى الجدير بالذكر أن مفهومنا عن الصورة سيكون اوسع مما اصطلح عليه البلاغيون ، كالتشبيه والاستعاره ، وسنجد نصوصا ليس فيها من هذا شيء ، ولكننا نفهمها على أنها صورة · فمن الصور القرآنية التى يغير الشاعر فيها شيئا قوله مخاطبا المجلس الادارى لجمعية العلماء عام 1933 :

صف الجـزائر فيما شـئت من كرم ولذ بها حـرما ناهيـك من حـرم
ألـم ركبـك ، فاهتـزت لـه وربت كالارض غب نـزول الهاطل العمم (49)

اقرأ قوله تعالى : « **وترى الارض هامدة ، فاذا أنزلنا عليـها الماء اهتزت وربت ، وانبتت من كل زوج بهيج** » (50) · فالجـزائر فى حضرة جمعية العلمـاء لا تختلف عن الأرض التى اصابتها هزة الفرح بهطول المطـر ، وهى صـورة قرآنية كما لاحظت · وعندما يحذر الشاعر مصر من أن تثق بوعود الانجليز :

ولا تثـقى بوعـد غير صـدق تألـق كالسـراب لكل صـاد (51)

تظل الصـورة القرآنية تلح عليـه ، فوعود الانجليز السرابيه هى صورة لأعمال الكافرين التى جسدها القرآن : « **والذين كفروا اعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء** » (52) · ولا يختلف الفرنسيون فى وعودهم عن الانجليز :

ومـــا وعـــدهم الا سراب بقيعــة   وما عهدهم الا مداد بقرطاس (53)

والصورة هنا تبدو مركزة أكثر من ســـابقتها ، ولكنها تبقى محتفظة بأصـــولها القرآنية • وفى لحظات الصمت الصوفية التى عاشها العيد بعد الحرب العالمية الثانيــة تتحول الصورة ذات الموقف الثورى الى صورة يائسة ، فيصبح السراب أمل النفس الانسانية الخائب •

وفى الوقت الذى تأتى الصورة لدى العيد انعكاسا لصورة قرآنية ، فقد تـــأتى أحيانا مكثفة لمشهد قرآنى ملموس ، كقوله مشيرا الى دحض ابن باديس لآراء المستشرق آشيل الذى استهدف الاسلام بسوء :

دفعت أقـــوال آشـــيل كما دفعت   ابطال ابرهة الطـير الأبابيل (54)

فى هذه الصورة يختصر العيد مشهدا بل سورة كاملة ، ويوفق فى استثارة جمهوره المتهيء لتلقى ايحاءات الصورة القرآنية •

وقد يلجأ الشاعر الى ما يسمى بالصورة الاشارية ، وهى أن نشير الى موقف او مضمون من نص آخر ، حتى ولو لم يكن ذلك النص صورة ؛ « لأن الفنـــان يقابل عن طريقها ، ويقارن بين حالتين ، او موقفين ، او غرضين » (55) ، ومع ذلك يبقى الشاعر بعيـدا عما يسمى بالتضمين البديعى الى الحرية :

عاطنى من خمـــرة الآمال جـــاما   ان فيها نشـــوة تحيى العظـــاما

ان فيـــها لى بـــردا وســـــلاما   من لظى اليأس ،ومن نار الحسار (56)

فقوله (ان فيها لى بردا وسلاما) ليس صورة ، وان كان ذا ايحاء شـــعرى ، ولكن اقترانه بموقف ابراهيم فى القرآن يحيله الى صورة معبرة ، ويمنحه حركة وحيوية ، اذ أنه ينقل المتلقى الى ابراهيم (عليه السلام) وهو أمام مجمـــرة النار الكبيرة ، وكيف تحولت الى برد وســـلام بقدرة قادر • وبهذا يكون الشـــاعر ، باعتماده على الموقف القرآنى ، قد عبر بالصورة مع أن تعبيره كان مباشرا ، أضف الى ذلك الدلالة النفسية ، والظلال الموحية للتعبير الجديد • واقرأ معى هذا النموذج الذى يشير فيه الشـــاعر الى وعود الاستعمار الفرنسى ونهايته :

كل وعد له مضى — فهو حبر على ورق

قد تولى بركنه — فترقب له الغرق (57)

واذا ما استعدنا الى الذاكرة قوله تعالى : « **وفى موسى اذ أرسلناه الى فرعون بسلطان مبين ، فتولى بركنه ، وقال ساحر مجنون ، فاخذناه وجنوده ، فنبذناه فى اليم ، وهو مليم** » (58) ، اذا قرأنا هذا النص القرآنى نحس أن الشاعر استلهم موقفا آخر فى حديثه عن الاستعمار الفرنسى ، موقف فرعون الذى (تولى بركنه) ، وكانت عاقبته الغرق ، وهو ما ارتقبه الشاعر لفرنسا ، وان لم تكن هذه النهاية غرقا ، فهى هزيمة على أية حال · وبعقد هذا التقابل بين الموقفين يمنح الشاعر فنه طاقة من الايحاء كبيرة ، ويعطى القارىء فرصة للتأمل تثرى فهمه للنص وتغنيه ·

ومن الحق أن نقول ان الشاعر يعتمد فى بعض هذه الصور على ذاكرته وذكائه ، ولا يحاول اكتشاف الصورة أو يعطيها بعدا جديدا · وتأتى بعض صوره التى يستوحيها من القرآن غير موفقة أحيانا ، لأنه لا يعنى بظلال اللفظة القرآنية فيها ، كقوله ، وهو يرسم صورة للبحر :

وبدا البحر ساكنا غير موجا — ت علتها طير أبابيل بهق (59)

ان الألفاظ القرآنية تحمل دلالتها معها ، وتشير الى سياقها بالضرورة · فالطير الأبابيل تذكرنا بمشهد مدمر رهيب فى حين أن الشاعر أراد بها هنا تلك الطيور الوادعة المتراقصة على سكون الامواج · ألا تحس معى أن هناك تناشزا واضحا فى الصورة بسبب استعارة الشاعر الفاظا من مشهد قرآنى يختلف ، بل ويتضاد مع مشهده ·

ونجد الشاعر أحيانا يحذف جزءا مهما من الصورة القرآنية بحيث تفقد عمقها :

ما عز مجتمع يعيش شبابه — متسكعا فى الطرق كالانعام (60)

لاحظ التعبير القرآنى : « **اولئك كالانعام ، بل هم أضل سبيلا** » (61) ، فالروعة فى هذا التصوير ليست فى تشبيههم بالانعام ، ولكن فى هذه الاضافة التى تجعلهم أقل ادراكا من الأنعام ، فى حين ظل تعبير العيد بسيطا وغير مدهش · ننتهى من ذلك كله الى القول بان صور العيد معظمها قرآنى الأصل ، حتى بعض الصور التى قال عنها أبو القاسم

سعد الله أنها جديدة (62) ، تحس أنها مستوحاة من القرآن كقوله واصفا حيرته وضلاله :

حيران كالتائه الضليل ليس له   هاد بأجرف واد كله زلق (63)

قال تعالى : « **افمن اسس بنياته على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنياته على شفا جرف هار ، فانهار به** » (64) · ألا تلاحظ أنه صدر عن القرآن فى رسم صورة الضال الموشك على السقوط والانهيار ·

(4) الرمز :

لقد ذاق الشعب الجزائرى شتى ألوان التعذيب والقهر من الاستعمار الفرنسى · ولولا هذه السياسة الرهيبة لما استطاع أن يحتفظ بوجوده فى الجزائر أكثر من قرن وربع · وقد طبعت هذه الظروف الفن والادب بطابع خاص ، فهو مصرح حينا ، ورامز حينا آخر · وعلى الرغم أن العيد كان متمردا ، لا يعبأ بالعواقب ، ولكنه كان يلجأ فى بعض الاحيان الى الرمز استجابة لغريزة المحافظة على الذات · فقد رمز للاستعمار والحرية والاستقلال والحرب ، ولكن هل وقف الشاعر عند هذه الرموز التى ذكرها الدكتور أبو القاسم سعد الله (65) ، وهل صحيح أن الشاعر يحشو الاعلام فى شعره لسبب ولغير ما سبب (66) ؟ لا اظن ذلك ، واذا صدق هذا القول ، فانه ــ فى الأقل ــ لا يصدق على الاعلام القرآنية التى تحمل معها صدق دلالتها الرامزة ·

لقد عثر العيد على كنز من الرموز من خلال تعامله مع القرآن ، واستطاع ان يفجر طاقة هائلة فى نفوس جمهوره ، دونما اثارة للسلطات الحاكمة ؛ ذلك أن هذه الرموز كامنة فى الضمير الجمعى للأمة ، كما يقول علماء النفس · فقد مر بنا فى بحث الصورة (67) ، أن الشاعر ــ فى تصويره للصراع الذى احتدم بين ــ ابن باديس والمستشرقين الفرنسيين ــ قد نقلنا الى ابرهة الحبشى والطير الأبابيل · ان ذكر ابرهة وحده يكفى لأن يعيد تاريخ الغزو والالحاد الى ذاكرة الجمهور ، ومن ثم يعمق فهمه لما يقوم به الاستعمار ، من اغلاق للمساجد ، أو تحويلها الى كنائس · فالموقف واحد : فرنسا هى ابرهة الحبشى ، والظلم واحد ، والتحدى واحد ، والعاقبة أيضا سواء ! ، وبهذا فقد

استطاع الشاعر أن يمنح الصورة بعدا ايحائيا ورمزيا يثير الجمهور أيما اثارة ، ويمر على الاستعمار دونما التفات منه · كما استطاع الشاعر أن ينفس عن الكبت الذى كان يعانيه ، ويشد كلماته للهدف الكبير ، بل ويجد فى ذلك تعويضا عن حمل السلاح ، ان لم يكن أمضى من السلاح المادى ·

ومن الشخصيات القرآنية التى لا تذكر الا ويتجسد معها موقفها وصفاتها ، فرعون ، وهل هناك رمز للجبروت أشهر من فرعون ؟ يقول الشاعر مخاطبا الفرنسيين :

فرعـــون أعـتى منهـم وثمود   لا يأمنـــوا صب العـــذاب عليهم (68)

وكفاه بذلك أن يدل على بشاعة الظلم الفرنسى دون حاجة منه الى أى تفصيل · ولكن هل هذا الرمز اعتمده العيد هو الذى يطلبه النقد الادبى الحديث ؟ نستطيع أن نقول ، بكل تاكيد ، ان لغة محمد العيد لغة تقريرية مباشرة ، وليست من الكثافة بحيث نحكم لها بانها لغة رمزية موحية ، ولكننا واجدون لدى العيد ما يسمى بالرمز الموضوعى ، وهو نمط من انماط الرموز الكثيرة التى يلجأ اليها الشعراء ، وهو أن يذكر الشاعر اسماء او مواقع او حكاية تحمل معها دلالتها الرامزة كلما ذكرت منسحبة على أكثر من موقف لاحق ، ومتسمة بسمة الاستمرارية والخلود · ويهمنا الآن أن نلاحظ مدى استفادة الشاعر من الاعلام القرآنية فى ميدان الدلالة الرمزية · يقول :

انمـــا تربـــة الجـــزائر مهـــد   عبـــقـــرى لثـــــورة العظمـــاء

ما شـــككنا ، والشـعب فيـــها كليم   أن نار (الأوراس) فى سيناء) (69)

ألا تلاحظ معى أن سيناء هنا رمز للوصول الى الحقيقة المضيئة والتبشـــير بها بقوة وانطلاق ، فقد آنس موسى النار ، وكان قبسه منها طـــريق اضاءة للبشرية · ومن هذا الرمز تكتسب الاوراس ايحاءها ، وتتحول هى الأخرى الى رمز للبحث عن الحق من خلال الاصرار والرفض · ويلح العيد على ذكر نار موسى ، فاذا ما رثى محمد بن أبى شنب البحاثة الجزائرى ، قال :

ان ذكـــرى (محمـــد) نـــار موسى   سوف يأتى من بعدها الخير يترى (70)

وهو يختلف عن شوقى الذى نظر الى موسى نظرة اقليمية :

مصـــر موسى عنـــد انتـــماء وموسى　　مصـــر ان كان نســـبة وانتماء (71)

ولعل هذا الميل الى تقليب النظر فى شخصية موسى ، وما يتصـــل بها ، يرجع الى كثرة ذكر قصـــة موسى فى القرآن ، والى موسى الزعيم الثائر الذى لا يعبأ بالعقبات فى سبيل دعـــوته ٠

وتاتى شخصية ابراهيم (عليه السلام) بعد موسى من حيث استفادة الشـــاعر مما ترمز اليه ٠ واحب أن اذكر هنا بيتا من قصيدة خاطب بها الشاعر صديقه العقبى بعـد الاعلان عن براءته :

لـك الـف ليس يتـــسى الفـــه　　و (خليـــل) لا يحـــب الآفلين (72)

فالبلاغيون ينظرون الى (خليل) هنا على أنها (تورية) وكفى ، ولكننى اشعر أنها مشحونة بدلالة عميقة ٠ فقد صار الخليل رمزا وعلما للايمـان بالعقيدة والتضحية من اجلها ، خاصة وان اضاءة كافية سلطها الشاعر على هذا الرمز (لا يحب الآفلين) ، هذه الاضاءة قيدت الرمز بدلالة معينة ٠

ويعنى الشاعر عناية خاصة بشخصية (يوسف) ، هذه الشخصية الرامزة للجمال ، والعفة ، وعلم الرؤيا ٠ انظر الى قوله :

وطـــنى الذى همـــوا بـه ودليله　　كدليل يوسف ثوبه المقـدود (73)

الا ترى أن ثوب يوسف يكفى ذكره ليوحى بالبراءة ، ويعرض بمدنسى هذه البراءة ؟ وذلك ما أراد الشاعر أن يشير به الى فرنسا قاتلة البراءة ٠ وقميص يوسف أكثر غورا فى اعماقنا ، فهو مرتبط بالصبر الجميل ، وجلال الحنان الأبوى :

قـــد ارتددت بصـــــيرا　　فكيـــف يغـــوى البصير ؟

قميـــص يوســـف الـقى　　بـــه عـلى (البشـــير) (74)

كتب الشاعر ذلك حينما جاءه كتاب من البشير الابراهيمى يلومه على تشاؤمه ٠ وقد احسن الشاعر حين جعل من قميص يوسف رمزا يتجاوز حادثة بعينها ، وينسحب على كل حادثة مشابهة ٠

اننا لا نريد أن نحصى هذه الشخصيات القرآنية ، ولكننا نريد ان نرسم صورة لمدى استفادة شاعرنا من اتخاذ هذه الشخصيات رمزا للافكار والمواقف ، ونود أن نؤكد هنا أن العيد شديد الميل الى الشخصيات الرامزة للبطولة والثورة والتمرد ، وهو يريد ، وراء ذلك ، رسم مواقف ثورية مماثلة ·

وتأتى روعة هذا التناول فى شعر العيد فى أنه يمنح الرموز القرآنية حياة جديدة من خلال الدلالة الجديدة · ف (الصور) الذى يرمز فى القرآن الى اعلان البعث والحساب (75) ، يحمله الشاعر معنى الحياة والبعث الأرضى · فاذا كان الناس فى الصور القرآنى يقومون من القبور ليواجهوا الحساب ، ففى صور العيد ينهضون الى العمل ، بعد فترة من الخمول والضياع ، ليستردوا ما سلبهم اياه الاستعمار :

أعلن الصور بالقيامة فى الار ض ، وقامت من القبور العباد (76)

ومن الجدير بالذكر أن بعض الرموز القرآنية لدى العيد ليست على قدر كبير من التكثيف والايجاز ، لانه لا يطلق الرمز بمفرده ، ويتركه وتأثيره فى نفسية المتلقى ، وانما يلجأ الى تفسيره احيانا · وبذلك يمطط اللغة ، بل ويفسد على القارىء لذة الاكتشاف والمعايشة · ولكننا نستطيع أن نقرر أن الرمز القرآنى لدى العيد بصورة عامة بقى أقرب الى التركيز قياسا على رموزه الأخرى غير القرآنية التى رمز بها العيد للحرية والاستقلال والاستعمار ·

يمكن القول بأن ثقافة محمد العيد القرآنية قد أعانته كثيرا على تصريف مناحى القول الشعرى ، والتعبير بيسر عن مختلف المضامين والاهداف · ومن الجدير بالملاحظة أن هذا التواصل بين الشاعر والقرآن بلغته وصوره ورموزه لم يكن وقفا على المناسبات الاسلامية كالمولد النبوى او الحج مثلا ، وانما ظهر على معظم ما قاله الشاعر فى عمره الشعرى الطويل · فلقد أصبحت اللغة القرآنية لغة الشاعر ، ومضامين القرآن والمواقف التى صورها ملكا للشاعر يسحبها على صراع الحياة المعاصرة · وقد لاحظنا الى أى مدى كان العيد موفقا فى الربط بين فنه وثقافة جمهوره وميوله ·

ان العودة الى التراث أصبحت ضرورة فنية وفكرية لاغناء حياتنا الأدبية الحاضرة ، فلم يعد النقد الأدبى الحديث يحاكم الشاعر ، ويعتبره (سارقا) اذا ما اشار الى موقف سبق اليه ، او تاثر بصورة لأثر فنى او فكرى آخر • ان هذا التلاقح بين الماضى والحاضر لا يتعارض مع مفهوم التفرد أبدا ، فهو التفرع من النافورة النابعة من القاعدة ، ورمز التواصل مع النهر الكبير •

وننتهى من ذلك كله الى التساؤل التالى : هل صحيح أن مأساتنا اللغوية متمثلة « فى كون نموذجنا الثقافى الاول هو دينى قبل ان يكون ادبيا » كما يرى باهى محمد ؟ (76) • واعتقد أن غنى تاريخنا الادبى القديم رغم صدوره عن هـذا النموذج الدينى ، وتطور أدبنا الحديث يرد هذه الدعوى غير العلمية • وما محمد العيد ـ موضوع بحثنا ـ الا نموذج للتاثر المحمود بهذا النموذج الثقافى والدينى •

المصـــــادر والمراجـــع

★ هذا البحث قدم الى معهد الآداب والثقافة العربية بجامعة وهران ـ قسم الدراسات المعمقة لامتحان المنهجية ، وقد حذفت بعض جوانبه تسهيلا للنشر ٠

1 ـ الدكتور أبو القاسم سعد الله ـ محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجـزائرى فى العصر الحديث ـ دار المعارف بمصر ـ بدون تاريخ ط 2 ، ص 86 ٠

2 ـ المصدر السابق ـ ص 95 ، وهو من شعره غير المنشور فى الديوان ٠

3 ـ المصدر السابق ـ ص 93 ٠

4 ـ ديوان محمد العيد محمد على خليفة ـ منشورات وزارة التربية الوطنية بالجزائر 1967 ، ط 1 ـ ص 173 ٠ وانظـــر قوله تعالى : « **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون** » آل عمران ـ 92 ٠

5 ـ الديوان ـ ص 125 ، وانظر سورة الزمر ـ 73

6 ـ الديوان ـ ص 134 ، وراجع سورة فصلت ـ 30

7 ـ الديوان ـ ص 149

8 ـ الديوان ـ ص 152

9 ـ الديوان ـ ص 433

16 ـ الديوان ص 314

11 ـ ســورة المطففــين ـ 14

12 ـ الديوان ص 39

13 ـ الدكتور محمد سلام زغلول ـ أثر القرآن فى النقد العربى ـ دار المعارف بمصر ـ 1968 ، ط 3 ، ص 82

14 ـ الديوان ص 140

15 ـ الديوان ص 444

16 ـ الديوان ص 216

17 ـ د. شكرى فيصل : المجاهد الثقافى 12/ ماى 1970 ، ص 68

18 ـ الديوان : ص 240

19 ـ ديوان الرصافى ، دار العودة ـ بيروت ، 1972 ، مج 1 ، ص 462

20 ـ د. أبو القاسم سعد الله : محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائرى الحديث ، ص 62

21 ـ الديوان : ص 129 ، وابن دالى مفتى الجزائر الذى اغتالته السلطات الفرنسية عام 1936 ، وأتهمت جمعية العلماء بقتله .

22 ـ مقدمة ديوان محمد العيد نقلا عن صحيفة الشهاب ج 1 ، م 13 ، 1356 هـ ـ 1937 م

23 ـ ديوان البهاء زهير ، دار صادر ـ بيروت ، 1963 ، ص 37

24 ـ محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائرى الحديث ط 2 ، ص 128

25 ـ الديوان : ص 202

26 ـ الثقافة : 28/ أوت ـ سبتمبر 1975 ، ص 115

27 ـ الديوان : ص 402

28 ـ أبو القاسم سعد الله : محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائرى الحديث ، ص 50

29 ـ الديوان : ص 445

30 ـ الديوان : ص 251

31 ـ سورة الشعراء ـ 94

32 ـ الديوان : ص 68

33 ـ ابراهيم أنيس : موسيقى الشعر ، مكتبة الانجلو ـ مصرية ، ط 3 ، القاهرة 1965 ، ص 47

34 ـ الديوان : ص 131

35 ـ سورة آل عمران ، 173

36 ـ الديوان : ص 282

37 ـ الديوان : ص 169

38 ـ الديوان : ص 173

39 ـ سورة آل عمران ، 92

40 ـ ابراهيم أنيس : موسيقى الشعر ، ص 309

41 ـ سورة آل عمران ، 173

42 ـ الديوان : ص 68

43 ـ الديوان : ص 24

44 ـ سورة مريم ، 23

45 ـ سورة مريم ، 9

46 ـ سيد قطب : التصوير الفنى فى القرآن ، دار الشروق ـ بيروت ! ، ص 90

47 ـ الديوان : ص 309

48 ـ سورة القيامة : 10 ، 11 ، 12

48 ـ سيد قطب : التصوير الفنى فى القرآن ، ص 33

49 ـ الديوان : ص 102

50 ـ سورة الحج ، 39

51 ـ الديوان : ص 345

52 ـ سورة النور ، 39

53 ـ الديوان : ص 327

54 ـ الديوان : ص 86

55 ـ الدكتور نعيم اليافى : الشعب الاسبوعى 36/20 مارس 1976 ، ص 18

56 ـ الديوان : ص 50

57 ـ الديوان : ص 384

58 ـ سورة الذاريات : 38 ، 39 ، 40

59 ـ الديوان : ص 23

60 ـ الديوان : ص 241

61 ـ سورة الأعراف ، 178

62 ـ محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائرى الحديث ، ص 240

63 ـ الديوان : ص 377

64 ـ سورة التوبة ، 109 . وقد عبر القرآن عن هذا المعنى فى آيات أخرى ، راجع سورة آل عمران ، 103 ، وسورة الحج ، 11

65 ـ محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائرى الحديث ، ص 214ـ215

66 ـ المصدر السابق : ص 226

67 ـ راجع ص 12 من هذا البحث

68 ـ الديوان : ص 22

69 ـ الديوان : ص 436

70 ـ الديوان : ص 452

71 ـ الشوقيات ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ، 1958 ج 1 ، ص 27

72 ـ الديوان : ص 171

73 ـ الديوان : ص 22

74 ـ الديوان : ص 392

75 ـ انظر الى قوله تعالى : « **ونفخ فى الصور ، فاذا هم من الأجداث الى ربهم ينسلون** » سورة يس ، 51

76 ـ المجاهد الثقافى : 4/ جانفى 1968 ، ص 9 .



استدراك

سقطت ـ لأسباب فنية ـ صورة المرحوم الشيخ محمد الشاذلى ابن القاضى ـ التى ننشرها مع هذا الاستدراك ـ من الكلمتين اللتين نشرتا فى عدد 57 ، ص 81 ـ 91 ـ من الأصالة .

والكلمتان ألقيتا فى المركز الثقافى الاسلامى بالعاصمة بمناسبة الذكرى الأربعينية التى أقامها له هذا الأخير .

فمعذرة .

برنامج

الملتقى الثانى عشر للفكر الاسلامى

باتنة 04 ـ 11 شوال 1398 هـ

(07 ـ 14 سبتامبر 1978 م)

الرقم	التاريخ	اسم المحاضر والوظيفة	عنوان المحاضرة	اللغة
	الخميس 04 شوال (07 سبتامبر) الساعة 10,00	**الافتتاح** كلمات الترحيب وتقديم الولاية من سلطاتها ، وكلمة الافتتاح من السيد مولود قاسم نايت بلقاسم ، الوزير لدى رئاسة الجمهورية ، المكلف بالشؤون الدينية .		
		النقطة الاولى		
1	الساعة 1700 ـ 17,30	الشيخ سليمان داود بن يوسف بحاثة في التاريخ ـ الجزائر	الأوراس قلعة الثورات ضد الظلم ، والاستعمار ، والكفر قديما وحديثا	بالعربية مع ترجمة فورية
2	الساعة 17,30 ـ 18،00	د. شارل روبير آجرون الاستاذ بكلية علوم الانسان معهد التاريخ ، جامعة فرانسوا رابلى ـ تور (فرنسا)	الاضطرابات الثورية فى الجنوب القسنطينى (نوفمبر 1916 جانفى 1917)	بالفرنسية مع ترجمة فورية
3	الساعة 18،00 ـ 18,30	السيد المهدى البوعبدلى المكلف بمهمة ، وعضو المجلس الاسلامى الاعلى والمركز الوطنى للدراسات التاريخية ـ الجزائر	لقطات من تاريخ الأوراس السياسى والثقافى	بالعربية مع ترجمة فورية

الرقم	التاريخ	اسم المحاضر والوظيفة	عنوان المحاضرة	اللغة
4	الساعة 18,30 – 19,00	د. فيلفرد مادلونق جمهورية المانيا الاتحادية الاستاذ بقسم لغات وحضارات الشرق الادنى ، جامعة شيكاغو	ثورة أبي يزيد الخارجي ، صاحب الحمار، في الاوراس	بالعربية مع ترجمة فورية
	الساعة 19,00 – 19,15	استراحة قصيرة		
5	الساعة 19,15 – 19,45	د. ابراهيم حركات استاذ التاريخ بكلية الآداب جامعة محمد الخامس الرباط	ثورة كسيلة والكاهنة ومصير الاسلام بالمغرب الكبير	بالعربية مع ترجمة فورية
	الساعة 19,45 – 21,00	نقاش		
	النقطة الثانية (القسم الاول)			
6	الجمعة 05 شوال (08سبتامبر) الساعة 08,30 – 09,00	د. موريس بوكاي الرئيس السابق لعيادة الجراحة بالكلية (جامعة باريس) وعضو الجمعية الفرنسية للأمراض الباطنية ، وعضو الجمعية الفرنسية لعلم الآثار المصرية الفرعونية باريس	الدين والكتب المقدسة والعلم	بالفرنسية مع ترجمة فورية
7	الساعة 09,00 – 09,30	د. التهامي النقرة استاذ بالكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين تونس	العلم في القرآن بين الغيب والشهادة	بالعربية مع ترجمة فورية

الرقم	التاريخ	اسم المحاضر والوظيفة	عنوان المحاضرة	اللغة
8	الساعة 10,00 - 09،30	د. بشير التركي مدير مجلة العلم والايمان - تونس	الايمان بالله منطلق العلم	بالعربية مع ترجمة فورية
9	الساعة 10،30 - 10,00	د. ايفادى فيتراى مايروفيتش الاستاذة بكلية البنات بجامعة الازهر - القاهرة وعضوة فى المركز الوطنى للبحث العلمى - باريس	شهادة الاسلام تتحدى الالحاد	بالفرنسية مع ترجمة فورية
	الساعة 10,45 - 10,30	استراحة قصيرة		
10	الساعة 11،15 - 10،45	د. سليمان اتش الاستاذ فى كلية الالهيات بجامعة انقرة - تركيا	القرآن كلام الله يوافق العقل والعلم ويؤيدهما	بالعربية مع ترجمة فورية
11	الساعة 11,45 - 11,15	الاستاذ د. انعام الله خان باحث في التنظيم بمركز حضارة آسيا الوسطى ، جامعة القائد الاعظم اسلام اباد - باكستان	المفهوم القرآنى للانية	بالعربية مع ترجمة فورية
12	الساعة 12،15 - 11,45	د. مارسيل بوازار احد مديرى البرامج الدبلوماسية بالمعهدالجامعى للدراسات الدولية العليا جنيف	هل يمكن للدين أن يقوم بدور المرشد فى حماية « حقوق الانسان ؟ »	بالفرنسية مع ترجمة فورية
13	الساعة 12,45 - 12،15	د. وليام مونتقمرى وات الاستاذ بقسم الدراسات العربية والاسلامية ، جامعة ادنبره(اسكوتلاندا) بريطانيا العظمى	الايمان بالله فى عصر العلم	بالانجليزية مع ترجمة فورية

الرقم	التاريخ	اسم المحاضر	عنوان المحاضرة	اللغة
	الساعة 14،30	صلاة الجمعة		
	الساعة 15،00	الغذاء لجميع الملتقين (الاساتذة والطلبة وجميع المشاركين فى الملتقى بصفة أو أخرى) لدى عائلات مدينة باتنة .		
	الساعة 17،00	**رحلة سياحية دراسية الى بريكة** باتنة ، قرية مدياز ، محجر الولاية ، قرية اشتراكية فى طريق الانجاز ، عين التوتة (محور انتفاضة سنة 1916) ، تامدة ، القنطرة ، برج الروز : قرية اشتراكية رعوية ، بيطام ، بريكة . العشاء لدى عائلات المدينة . ثم ابتئناف الرحلة فى طريق الرجوع . مرورا بـ : قرية سقانة ، متليلى . عين التوتة ، الوصول الى باتنة .		
	السبت 06 شوال (09سبتامبر) الساعة 08،30 ـ 13،00	نقاش		
		النقطة الثانية (القسم الثانى)		
14	الساعة 1700 ـ 17،30	د. محمد أركون (الجزائر) الاستاذ بجامعة السوربون الجديدة ـ باريس	مفهوم العلم فى القرآن والتفكير المعاصر	بالعربية مع ترجمة فورية
15	الساعة 17،30 ـ 18،00	د. عبد الحليم عويس الاستاذ المساعد بجامعة الامام محمد بن سعود الرياض	التقاء الدين والعلم ضرورة انسانية	بالعربية مع ترجمة فورية
16	الساعة 18،00 ـ 18،30	د. محمد رشيدى أستاذ الاسلاميات بالجامعة الاندونيسية ـ جاكرتا	الدين والعلم	بالعربية مع ترجمة فورية

الرقم	التاريـخ	اسم المحاضر والوظيفة	عنـوان المحاضرة	اللغـة
17	الساعـــة 18,30 ـ 19،00	د٠ خير الله عصار (سوريا) استاذ بكلية الآداب جامعة عنابـة	العلم الحديث : يقينـــه وسرابـــه	بالعربية مع ترجمة فورية
	الساعـــة 19,00 ـ 19،15	استراحـــة قصـــيرة		
18	الساعـــة 19,15 ـ 19،45	د٠ محمـد حبيب الرحمن شـودرى الاستاذ بالقسم العربى والدراسات الاسلامية جامعة داكا (بنغلاديش)	الدين والعلـم	بالانجليزية مع ترجمة فورية
19	الساعـــة 19,45 ـ 20،15	د. محمد سعيد رمضان البوطى الاستاذ بكلية الشريعة جامعة دمشق	العلم والدين أيهما يجب أن يكون ميزانا للآخر	بالعربية مع ترجمة فورية
20	الساعـــة 20,15 ـ 20،45	د٠ سعيد شيبان استاذ طب العيون بمعهد العلوم الطبية جامعة الجزائر	الاسلام والطب فى 1398 هـ ـ 1978 م	بالعربية مع ترجمة فورية
21	الساعـــة 20,45 ـ 21،15	د٠ يوسف رامتش الاستاذ فى كلية الدراسات الاسلامية ساراييفو (يوڤوسلافيا)	الدين والعلـم	بالعربية مع ترجمة فورية
22	الاحـــد 07 شوال (10سبتامبر) الساعـــة 08,30 ـ 09،00	معالى د٠ الحاج مالك زوررومى مفكر ـ وقادوقو (فولتا العليا)	هل الدين دليل خير للفرد والمجتمع أم مخدر لهما ؟	بالفرنسية مع ترجمة فورية

الرقم	التاريخ	اسم المحاضر والوظيفة	عنوان المحاضرة	اللغة
	الساعة 13،00 ـ 09،00	نقاش		
النقطة الثالثة				
23	الساعة 17،30 ـ 1700	السيدة فرانس كيرى كاتبة ـ باريس	حول دور الافكار فى تطورات الاسرة الغربية	بالفرنسية مع ترجمة فورية
24	الساعة 18،00 ـ 17،30	د. عبد الله عبد الغنى نائب رئيس الادارة الدينية لمسلمى آسيا الوسطى وقازاخستان طشقند	دور الاسرة فى المجتمع المعاصر	بالعربية مع ترجمة فورية
25	الساعة 18،30 ـ 18،00	د.عبد الكريم سايتوح استاذ الاقتصاد بجامعة تاكاشوكو ـ طوكيو	الاسرة والمستقبل	بالانجليزية مع ترجمة فورية
26	الساعة 19،00 ـ 18،30	د. ادوارد شورتر استاذ التاريخ بجامعة تورنطو ـ كندا	تكوين (وحل) الاسرة العصرية	بالانجليزية مع ترجمة فورية
	الساعة 19،15 ـ 19،00	استراحة قصيرة		
27	الساعة 19،45 ـ 19،15	د. امر كونغر الاستاذ المساعد بجامعة انقرة	تركيب الاسرة فى المجتمع الاسلامى	بالفرنسية مع ترجمة فورية
	الساعة 21،00 ـ 19،45	نقاش		

الرقم	التاريخ	اسم المحاضر والوظيفة	عنوان المحاضرة	اللغة
	الاثنين 08 شوال (11سبتامبر) الساعة 08,00	رحلة سياحية دراسية الى تيمقاد ، أريس ، ثم شرفات الغوفى : باتنة ، قرية بوييلف ، فسيديس ، تاميزونت ، بومية ، العين السخونة ، أولاد بوجمعة ، دغاسن ، (هرم يقال بأنه قبر ملك أمازيغى يسمى مدغاسن) ، اجندلى ، كواشية (قرية اشتراكية) ، بولهالات ، اشمرة ، عجاج ، تيمقاد (زيارة المدينة الرومانية ، تناول الغداء فى الهواء الطلق تحت ظلال الاشجار لدى تعاونية للثورة الزراعية) ، ثم مواصلة السير نحو شرفات الغوفى (نخيل) مرورا بـ : ثنية الخرشف ، دوفانة ، (على اليمين تشاهد سلسلة جبال الاوراس) ، تاغريست (سفح جبل شلية) ، المدينة الجديدة قرية الحمام ، أولاد موسى (فى هذه القرية وزع السلاح على المجاهدين الاول ، نواة جيش التحرير الوطنى فى المنطقة ، ليلة أول نوفامبر 1954) ، دشرة الحجاج ، تفرطاسين ، أريس (مقر دائرة) ، تاغروت عمرو ، ايلهود سامر ، شير ناعشة ، تابندوت ، ثيغانمين ، خنقة بنى سليمان (فى هذا المكان نصب جيش التحرير الوطنى أول كمين له فى المنطقة ليلة أول نوفامبر 1954 م ، قتل فيه القائد مشونش ، المدعو صدوق) قرية تفلفال ، أولاد هلال ، أولاد عايد ، أولاد فاتح ، غوفى ، شرفات الغوفى ، العودة الى أريس حيث يتناول الملتقون العشاء لدى عائلات المدينة والقرى المجاورة ، ثم استئناف السير نحو باتنة مرورا بـ : قرية تبحرين ، آفرا ، مرجت حامد ، عين الطين ، تزوكت ، واد الطاقة ، عفان ماركونة ، تازولت (لامبيز الشهيرة !) الى باتنة .		
		النقطة الرابعة (القسم الاول)		
28	الثلاثاء 09 شوال (12سبتامبر) الساعة 09,00 ـ 08،30	**الاستاذ محمد عبد الله عنان** المؤرخ وعضو مجمع اللغة العربية ـ القاهرة	**تطور الفكرة الجامعية فى ظل الحضارة الاسلامية**	**بالعربية** مع ترجمة فورية
29	الساعة 09,30 09،00	**الاستاذ محمد الشاذلى النيفر** عميد الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين تونس	**دور الحضارة الاسلامية في نشأة الجامعة وتطورها**	**بالعربية** مع ترجمة فورية

الرقم	التاريخ	اسم المحاضر والوظيفة	عنوان المحاضرة	اللغة
30	الساعة 10,00 ـ 09,30	د٠ رفعت ى٠ عبيد الاستاذ بقسم الدراسات السامية ، جامعة ليدز بريطانيا العظمى	فضل العرب على أوروبا فى ميدان نشأة وتطور النظام الجامعى في العصور الوسطى	بالعربية مع ترجمة فورية
31	الساعة 10,30 ـ 10،00	د٠ عبد العزيز الدورى (العراق) الاستاذ بكلية الآداب الجامعة الاردنية ـ عمان	الجامعة والمجتمع العربى	بالعربية مع ترجمة فورية
	الساعة ٠ 10,45 ـ 10،30	استراحة قصيرة		
32	الساعة 11,15 ـ 10,45	صاحب المعالى د٠ محمد فاضل الجمالى (العراق) الاستاذ بالجامعة التونسية تونس	من مشاكل الجامعة فى عالمنا الاسلامى	بالعربية مع ترجمة فورية
33	الساعة 11,45 ـ 11،15	الاستاذ د٠ يوسى آرو أستاذ اللغات والآداب الشرقية ـ جامعة هلسنكى	المدرسة البابلية ، أصل الجامعات	بالعربية مع ترجمة فورية
	الساعة 13,00 ـ 11،45	نقاش		
	الساعة 18,00 ـ 17,00	نقاش		
		النقطة الرابعة (القسم الثانى)		
34	الساعة 18,30 ـ 18،00	الاستاذ د. يينس قليب موللر استاذ الفلسفة بجامعة روشيلد ـ الدانمارك	بعض ملاحظات حول التطور الحالى للنظام الجامعى فى الغرب ، وخاصة فى الدانمارك	بالفرنسية مع ترجمة فورية

الرقم	التاريـخ	اسم المحاضر والوظيفة	عنـوان المحاضرة	اللغـة
35	الساعــة 19,00 ـ 18،30	د. وداد القاضي الاستاذة بالجامعةالامريكية بـيروت	نحو جامعات عربية أفضل	بالعربية مع ترجمة فورية
	الساعــة 19,15 ـ 19,00	استراحــة قصــيرة		
36	الساعــة 19,45 ـ 19،15	الاستـاذ د. س. مقبـول أحمــد مدير مركز دراسات شرق آسيا ، جامعـة عليكرة المسلمة ـ الهنـد	التنظيم الجامعى فى العالم وتطــوره	بالعربية مع ترجمة فورية
37	الساعــة 20,15 ـ 19،45	د. داود كاون الاستاذ فى قسـم الشرق الادنى والاوسط ، معهـد الدراسات الشرقيـة والافريقية ـ جامعة لندن	الجامعات فى طليعة تقـدم الشعـوب	بالعربية مع ترجمة فورية
	الساعــة 21,00 ـ 20,15	نقـــاش		
	الاربعاء 10 شوال (13سبتامبر) الساعــة 10,30 ـ 08،30	نقـــاش		
	الساعــة 10,45 ـ 10،30	استراحــة قصــيرة		
	الساعــة 13,00 ـ 10,45	نقـــاش		

الرقم	التاريـخ	اسم المحاضر والوظيفة	عنـوان المحاضرة	اللغة
		النقطـة الخامسـة (القســم الاول)		
38	الساعـة 17,30 ـ 1700	د· يحيى بوعزيز أستاذ التاريخ بمعهد العلوم الاجتماعية جامعة وهران	علاقات الجزائر مـع دول وممالك أوروبا فيما بين القرن16 ومطلع القرن19	بالعربية مع ترجمة فورية
39	الساعـة 18،00 ـ 17,30	د· شارل قيـدز مدير المعهد الامريكي للدراسات الاسلامية جامعة دنفـر ـ كولورادو	سياسة الولايات المتحـدة الامريكية تجاه الثـورة الجزائرية	بالانجليزية مع ترجمة فورية
40	الساعـة 18,30 ـ 18،00	السيد اسماعيل العـربي مؤرخ ومديـر الدراسات بالمركز الوطني للدراسات التاريخية ـ الجزائر	العلاقات الدبلوماسية بين الجزائر والولايات المتحدة الامريكية في الربع الاخير من القرن 18	بالعربية مع ترجمة فورية
41	الساعـة 19,00 ـ 18،30	د· دونيس ووكر كاتب ومدرس اللغة العربية بدائرة لغات وآداب أندونيسيا ، جامعة استراليا الوطنية ـ كنبرا	أصداء الثورة الجزائريـة في العالم الثالث وأمريكا السوداء	بالعربية مع ترجمة فورية
	الساعـة 19,15 ـ 19،00	استراحـة قصـيرة		
42	الساعـة 19,45 ـ 19،15	د· آمـال ايسن عضو معهد البحـوث الثقافية التركية،اسطنبول	نظرة المؤرخين والرسامين الاتراك في القرنـين 16 و 17 الى خضر رئيس ، الملقب غازى خـير الدين باشا بربروسا	بالفرنسية مع ترجمة فورية
43	الساعـة 20,15 ـ 19،45	د· يوردن بييف استاذ التاريخ بجامعة صوفيا ـ بلغاريا	العلاقــات الجزائريـة البلغارية اثـناء الحـرب التحريرية الجزائرية	بالفرنسية مع ترجمة فورية

الرقم	التاريخ	عنوان المحاضرة	اسم المحاضر والوظيفة	اللغة
44	الساعة 20،15 ـ 20،45	د. عبد الهادى التازى مدير المعهد الجامعى للبحث العلمى ـ الرباط	فكرة المغرب العربى من خلال الوثائق الدبلوماسية	بالعربية مع ترجمة فورية
	الساعة 20،45 ـ 21،00	نقاش		
	الخميس 11 شوال (14سبتامبر) الساعة 08،30 ـ 10،00	نقاش		
	النقطة الخامسة (القسم الثانى)			
45	الساعة 10،00 ـ 10،30	الشيخ عبدالرحمن الجيلالى مؤرخ ـ الجزائر	لمحة عابرة الى ما كان من العلاقات التاريخية بين الجزائر واسبانيا الاندلسية	بالعربية مع ترجمة فورية
	الساعة 10،30 ـ 10،45	استراحة قصيرة		
46	الساعة 10،45 ـ 11،15	د. الحبيب الجنحانى استاذ التاريخ بكلية الآداب ، الجامعة التونسية تونس	العلاقات السياسية والاقتصادية بين افريقيا والمغرب الاوسط فيما بين القرن الثانى والخامس للهجرة (الثامن والحادى عشر للميلادى)	بالعربية مع ترجمة فورية
47	الساعة 11،15 ـ 11،45	د. سلفاتورى بونو استاذ التاريخ بجامعة بروجيا ـ ايطاليا	شهادات ايطالية حول الجزائر من الاستعمار الى استرجاع الاستقلال (1830 ـ 1962)	بالفرنسية مع ترجمة فورية

الرقم	التاريخ	اسم المحاضر والوظيفة	عنوان المحاضرة	اللغة
48	الساعة 11،45 ـ 12،15	معالي السيد أحمد توفيق المدني مؤرخ ـ الجزائر	الوجود العثماني بالبلاد الجزائرية	بالعربية مع ترجمة فورية
49	الساعة 12،15 ـ 12،45	د. ارجمند كوران استاذ التاريخ بجامعة هاكتب ـ انقرة	الامبراطورية العثمانية والجزائر في التاريخ	بالفرنسية مع ترجمة فورية
50	الساعة 12،45 ـ 13،15	د. أورال سندر الاستاذ المساعد بجامعة أنقرة	العلاقات الجزائرية التركية	بالفرنسية مع ترجمة فورية
	الساعة 16،00 ـ 19،00	نقاش		
	الساعة 19،00 ـ 21،00	كلمات الوفود		
	الساعة 21،00	كلمة الاختتام من السيد مولود قاسم نايت بلقاسم ، الوزير لدى رئاسة الجمهورية ، المكلف بالشؤون الدينية .		

1978 N° 62 - 63

العدد 62 . 63

فهــــرس العـــــدد

إيـــه سيــدتنـا الجـامعــة !
أتبقــين فى ضلالــك هامعــة ؟ (1)

مولود قاسم نايت بلقاسم
الوزير لدى رئاسة الجمهورية
المكلف بالشؤون الدينية
ـ الجـزائـر ـ

بســم الله الرحمن الرحيــم
والصلاة والسلام على أشرف المرسلين

حضرات الاساتذة الافاضل والاستاذات الفضليات ،
حضرات السادة والسيدات ،
اخوانى الطلبة ، أخواتى الطالبات ،



أود أن أبدأ هنا بما ختمنا به فى ورجلان ، فارحب بكم فى معقل لنا قبل الفتح وبعده ، وجد فيه فاتــح نوفمبر منذ البدء مهده ، لدى سفح الشلية والشلعلع ، وان كان هذا أو ذاك شبه أصلع ، مراتع تنتشى بالحرب عند الضرورة ، اذ ينادى المصير والصيرورة ، فى جبال ترى فى البارود النبراس ، وفى حمى الاستشهاد بهيج الاعراس ، فى باتنة عاصمة الاوراس !

(1) كلمة افتتاح الملتقى الثانى عشر للفكر الاسلامى المنعقد بباتنة فيما بــين 4 ـ 11 شوال 1398 هـ (7 ـ 14 سبتمبر 1978 م) .

امامنا للحضار والنقاش نقاط خمس ، سنطرقها بصراحة وجهارا لا بالتواء وهمس ، وستبقى هذه طريقتنا كما هى اليوم وبالامس ، حتى نعجز عن النطق والقراءة وان باللمس ، ونكون اذ ذاك أجدر بأن يطوينا الرمس ، ونختفى عن الضوء والشمس ، ولكن لن يلحق روح الملتقيات الطمس !

انها روح النقاش الحر ، الذى نذوق فيه الحلو والمر ، ونتلقى فيه أحيانا الشعير أكثر من البر ، لقدح زند الافكار الغر ، واستخلاص الفصوص الدر ٠

1) **النقطة الاولى هى** : « الاوراس أمجاد وانجاد »

نتطرق فيها لما للمنطقة من ليال وأيام ، ومن قعود وقيام ، وكم من ليلة هى أغر من يوم ، وهذا يعرفه وعاناه القوم ، المجبولون على الصبر والصوم ، وتدبير الاحداث وحسن العوم ، وعدم الخشية فى الحق من أى لوم ، والتضحية له بالرغد والنوم !

2) **والنقطة الثانية هى** : « الدين والعلم » ،

نبحث فيها ما يقال عن الدين ، من كل خصم أو سدين ، ومن جميع من ذمته بريئة أو مدين ، سواء بأعلاه أو سفلاه يدين !

هل الدين للعلم حقا مائق ، وعن كل تقدم صحيح عائق ، وليس لهما بالجو الرائق ، ولا بالاطار المناسب اللائق ؟ هل لأحد عن هذا الحجج الوثائق ؟ أين هذا العارف الذائق ، ذو الرأى المدعم الشائق ، والفكر الثاقب الفائق ؟ هل هو مخرج لنا من المضائق ، أم الى الهاوية بنا مندفع سائق ، بنفسه غير واثق ثائق ؟

3) **والنقطة الثالثة هى** : « نظرة جامعة على الجامعة » ، عن دور الاسلام فى تطويرها من جامع الى جامعة ، وكيف لم تعد شمسها طالعة ، وبدورها كما ينبغى ضالعة ، بل أصبحت لكل اهانة بالعة ، ولتقاليدها قالعة ، ولسلطتها بنفسها خالعة ، وأمام كل شرذمة هالعة ٠

وهكذا لم تعد مكانتها لامعة ، ولا ادارتها للفوضى قامعة ، ومن زميعة غدت زامعة ، ولم تعد لصوتها سامعة ، بل فى رضا بنديت (1) طامعة ، فاستحقت هذه الدراسة الجامعة ، بعزم وعين دامعة • إيه سيدتنا الجامعة ! أتبقين فى ضلالك هامعة ؟

فلقد قل فيك المحتوى ، وانخفض لديك المستوى ، وكاد ينضب المرتوى ، ويصبح المعين الزلال هو المشتوى ، وللطلاب الجادين هو المكتوى ، وللأخلاق والسلوك هو الملتوى ، وعن مصلحة الشعوب أقصى المنتوى !

4) **وبالنقطة الرابعة** : « الى مَ تيسر فى العالم الأسرة ، الى اليسرى أم العسرى ؟ » ، قصدنا الى اماطة الغطاء عما يعد للأسرة من مصير مختبل ، وان أصبح اليوم جد مستنبل ، من نداءات كم من مناد ، فى كل علبة ليل وناد ، على اركانها متهجم عاد ، وبموتها البطىء فرح شاد ، وبنعيها قبل الاجل رائح غاد ، والسرور الوقح عليه باد ، والكل يعى انه ليس بهاد !

لقد أحسنت هيئة الامم بعام المرأة (2) ، وعام الطفل (3) تقتضيه المروءة ، وثلاثة للرجل والعاجز والحيوان (4) عين الجرأة ، للشر عنهم جميعا دفع ودرأة •

فكيف يعقل أن يبقوا بدون عام ؟ ألن يكون هذا بالخرق العام ، وبحسن المبادئ الجهل التام ؟ هل يسترخص الثلاثة كالمواد الخام ؟ أليس اهمالهم بالجرح السام ؟ أم أسكت عنهم ضجيج المرأة الصام ؟ ان هذا للبلاء الطام ، والخطر على البشر السطام ، وعن إنسيتهم الفاصل الفطام !

---

(1) كوهين بانديت ، الطالب الالمانى – الفرنسى الفاشل فى دراسته ، الذى كان منطلق فوضى عارمة فى مظاهرات مايو 1968 فى الجامعة الفرنسية كان لها أسوأ الاثر فيها وفى كثير من توابعها ، بل وفى العالم ، حتى أصبح الطلبة فى كثير من الجامعات هم الذين يحددون منهجية ومواد الدراسة ، فانخفض المستوى ، وشذ السلوك ، وأصبح الكثير الآن يشتكون .

2) و 3) و 4) كانت هيئة الامم المتحدة قد أعلنت سنة 1976 عاما دوليا للمرأة ، وسنة 1979 للطفل ، ونحن نقترح عليها هنا اقرار ثلاثة أعوام أخر : للرجل ، والعاجز (من رجل وامرأة طبعا) والحيوان ، بقطع النظر عن فعالية أو شعرية هذه الاعوام !

فاذا أصبحت محنة الرجل دائمة ، وحياته فى العالم أضحت عائمة ، والقيامة عليه دوما قائمة ، والمصائب عليه من كل صوب حائمة ، وكاد أن يبيت دون السائمة ، حتى غدت نفسه معقدة له لائمة ، والحظوظ عن مصيره نائمة ، وهو مهمل كالحيوانات الهائمة ، وتئن بذلك الآن هيئات عديدة ، بأسماء متنوعة جديدة ، قوائمها فى أوروبا مديدة ، واحتجاجاتها كل يوم شديدة ، وآراؤها غالبا سديدة ، « للدفاع عن حق الرجل » ، كى لا تقطع لجنسه الارجل ، فان مأساة العجزة رجالا ونساء ، والاطفال الصغار البؤساء ، والحيوان الابكم صباح مساء ، لتبدو فظاعتها خاصة فى كبرى العطل ، حيث يشتد على القوم الخطل ، فيلقون بالعجزة فى الملاجى ، التى ليست اطلاقا بالمناجى ، بل هى للموت حقا عن المراجى !

انه ليرمى بالكلب عنوان الوفاء ، من سيده صاحب الجفاء ، مطرودا موكولا للشارع ، يجوبه كالتائه الذارع ، من الانسان « الذكى البارع » ، أو يربطه للموت بالعمود الفارع ، والمسكين من الجوع والعطش كارع ، الا إن هرع اليه صدفة هارع ! انه الانسان للشر الزارع ، وان كان تذبا الى الله الضارع ، والموعد الحق هو اليوم القارع !

هكذا تربط الكلاب بالاشجار ، حيث يعذبها الصغار بالاحجار ، وكل ذلك لراحة الفجار ، الذين هم بالارواح التجار ، اذ لم يجدوا ضدهم الزجار !

5) **والنقطة الخامسة** هى : « ماض ومضى هى الجزائر ، وليست بطفل ولا طيف زائـر » ، نذكر بها شبابها بماضيها العريق ، وبالمعدن الاصيل لا الزائف البريق ، ولئن أصاب بعض الاذهان الحريق ، فتاهت وضلت عن سواء الطريق ، ونالت فى نظر العلم نصيب الغريق ، فالمؤرخون ليسوا طرا من هذا الفريق !

نلقن بها الشباب تاريخ الوطن الأم ، الذى زيف ليكون له فعل السم ، حتى قيل عنا : « هم عن معنى الدولة والامة الصم ! » ، بينما التاريخ يروى عن الامجاد الشم !

أليس ماسنيسا أول من قال : « افريقيا للافارقة » ؟ (5) ألم يذكر ذلك رومان وأغارقة ؟ وهل تنكرونه اليوم مغاربة كنتم أو مشارقة (6) ، شيعة أو أشاعرة أو أزارقة ؟ فلقد أقربه أحبار وبطارقة !

---

(1) Salluste : *Bellum Jugurthae.*

(5) حرب يوغورطا .

(6) بمعنى « مشارق الارض ومغاربها » و « رب المشرقـين ورب المغربين » ، أى مخربشى العالم كله ، عدا النزهاء الذين أشرنا اليهم ، وهم موجودون أيضا ــ والحمد لله ــ فى العالم كله .



من اليمين الى اليسار السادة :
النقيب بلقاسم نواصرية ، مسؤول بالقسم العسكرى وممثل لقائد القطاع العسكرى السيد أحمد لقبايلى فى باتنة ، نور الدين صحراوى ، والى باتنة ، مولود قاسم نايت بلقاسم ، وهو يلقى كلمة الافتتاح ، والمقدم محمد علاهم ، قائد المدرسة التطبيقية لأسلحة القتال بباتنة وممثل قائد الناحية العسكرية الخامسة .

وان ينكر الحقيقة ناكر ، فهو محرف مزيف ماكر ، لا يشكره صادق ذاكر ، لا بالعشى ولا فى باكر ، فى خيم نشأ أو دساكر !

هذا بعض تاريخنا وان نسى أو تنوسى ، ولم ير البعض منه الا الرومى (7) والفرنسى ، والباقى أصبح المعدوم والنسى المنسى ، كأن لم نكن شعبا بين الاناسى ، كالنبىء يوسف فى قعر الحاسى (8) !

واذا كان صحيحا أن التاريخ ذاكرة الامم ، وان باعتباره تبلغ القمم ، وصدق شوبنهاور ان التاريخ للأمم عقل الافراد (9) . وانه للعاقل ليس كالاوراد ، وان تزييفه كتزييف العملة ، يضر البشرية فى الجملة ، وان على الامم منه استخلاص التجارب ، واقامة العدل والتقارب ، فهذا مغزى طرق ملتقاكم ذه النقطة ، مع تجنب كل مبالغة وسقطة ، والدقة فى العرض وإحكام اللقطة ، والا سخطنا من الله سخطة ، ونضب علمكم وأقحط قحطة !

أعاذنا الله من ذلك شره ، ولا أرانا غدا حره وقره ، وجنب كلاًّمنّا من غيره ضره ، وليغفر للخائف من النقاش فره ، وعد فى الحسنات للجرىء كره ، وفسح لنا فى العلم بحره وبره ، واشع على ملتقانا نوره ودره ، رفعا ونصبا ووقاه جره ، والسلام عليكم سلاما أغزره وذره !

---

(7) المقصود به جميع المحتلين للبلاد قبل الاسلام ، من رومان ، وروم (بيزنطيين) ، ووندال ...

(8) البئر ، غيابات الجب (سورة يوسف)

(9) شوبنهاور :

Schopenhauer : (Aphorismen) « *Was die Vernunft dem Individuum, das ist die Geschichte dem menschlichen Geschlechte* ».

الاضطـــرابـات الثـوريـــة
فى الجنـــوب القســـنطينى
(نـــوفمبـــر 1916 ـ ينـــايـــر 1917)

د٠ شارل روبير آجرون
الاستـاذ بكلية علوم الانســان :
معهد التاريخ ـ جامعة فرانسوا
رابلى ـ تور ـ (فرنسا)



من الثابت الشائع ، ومن الصحيح أيضا أن الاوراس؛ « هذه المنطقة القبائلية الجنوبية »، كان أحد معاقل المقاومة الجزائرية طيلة الحقبة الاستعمارية كلها : ألم يكن مسرحا لثورات متكررة تكاد تكون دورية ؟ على أن مسجلى الاخبار والوقائع ربما تساهلوا كثيرا لدى تعدادهم لهذه الثورات، فى ربط ثورات 1859 ، 1860 ، 1864 ، 1871 ، و 1879 بانتفاضات سنة 1916 ، وقد تحدث بعضهم عن ثورة كبرى للأوراس فيما بين نوفمبر 1916 ومايو 1917 ، ومهما كان فى هذا القول من مبالغة فان المرء لا يسعه الا أن يقتنع به لدى تحليله للاضطرابات التى هزت الجنوب القسنطينى طيلة شهرين تقريبا ، من الحضنة الشرقية الى جبل شرشار ، أما الاوراس فى حد ذاته فلم تلحقه هذه الاضطرابات الا قليلا ، (1) ٠

وفى حدود عرض قصير كهذا : سنقدم لمحة تاريخية موجزة عن الحوادث ، مع العنايـة بعد ذلك بتقييم خاصياتها وأسبابها ، وذلك بنقد مختلف التفسيرات المقترحة لها بوجه خـــاص ٠

غير أن هذا البحث المستند الى الوثائق الفرنسية وحدها ، لا يمكن أن يكون وافيا ، فهو قد يستدعى ، كتكملة له ، تحقيقا استرجاعيا (استذكاريا) لدى الجزائريين الذين شاركوا فى الحركة التمردية ، ومراجعة ما يمكن أن يكون محفـــوظا من الوثائـق بشأنها (2) ٠

1 ـ لمحة تاريخية عن الحـــوادث ،

فى العاشر من شهر نوفمبر 1916 ، أخبر الوالى العام للجزائر الحكومة الفرنسيـة بأن حالات مقاومة التجنيد الاجبارى التى بدأت منذ نهاية شهر سبتمبر قد أخذت منعطفا يبعث على القلق فى الجنوب القسنطينى حيث سجل خلال اثنى عشر يوما ثمانية عشر اغتيالا أو محاولة اغتيال ٠ ففى بلدة (بريكة) المتزجة اضطرت سرية عسكرية صغيرة، جاءت للتأثير على السكان ، الى التراجع أمام عزم هؤلاء السكان المهدد بالانفجار ٠

وفى بلدية الاوراس المتزجة ، قدم « دوار » واحد مجنديه ، كما ان حاكم هذه البلدية كان يتوجس خيفة من هجوم قد يشن على (مدينة) ٠

وقد وقع هذا الهجوم بالفعل غداة ذلك اليوم ، ولكن بعيدا عن هذا المكان فى الواقع ، اذ شن على برج « ماك ماهون » مقر البلدية المتزجة لعين توتة ، فبعد أن تمت بهدوء عملية الفحص العسكرى لاختيار المجندين بمحضر نائب عامل العمالة لباتنة ، وهو « كاسينيلى » والحاكم « هنرى مارساى » قام جمع يقدر بما بين 800 و 1500 رجل ، فى الليلة ما بين 11 و 12 من الشهر بالهجوم على القرية ، فأحرقوا ونهبوا البرج غـــير المحروس ، وقتل فى هذا الهجوم الموظفان الفرنسيان ٠ وفى نفس الليلة ، قتل عريف من رجال حرس الغابات فى محطة تاماران كما اتلفت مزرعة فى بلدية بريكة بالقرب من نقاوس وفى يوم 12 طوقت قرية بريكة وتواصل حصارها حتى وصول سرية عسكرية فى الليلة التالية ٠ وفى يوم 14 ، هوجمت تشكيلة من جنود الزواوة بالقرب من سقانة ٠ وفى يوم 18 ، تعرضت نفس التشكيلة لطلقات نارية فى دوار تيلاتو المجاور ٠

وفى الايام الموالية ، ثار عدد كبير من دواوير بلدية بلزمة المتزجة ، والتحق رجال مسلحون بالاحـراش المحيطة بهـا ، ولا سيما فى جبل مستاوة كما سبق أن اعتصم بالجنوب رجال آخرون بجبال متليلى ·

وفى الشمال ، رفض أربعة أو خمسة دواوير فى دائرة قسنطينة وفى بلدية عـين مليلة بالذات تقديم مسجليهم « بعين كرشة » والتحق بعض هؤلاء بالجبال القريبة وهى جبال قريون و فرجوج و بوعريف وتم إختطاف بعض المسجلين للتجنيد · وفى يوم 18 هاجم نحو مائة من رجال أولاد صباح ببلدية عين القصر قرية شمورة القديمة المأهولة بالمسلمين ، وأعرضوا عن قرية شمورة الجديدة المأهولة بالمعمرين ·

وظلت قبائل الاوراس ، التى كان يتخوف منها ، متركبة ، باستثناء فرقتين من دوار زلاطو لدى بنى بوسليمان ، وقد أعلن العصيان 1500 من سكان هذا الدوار البالغ عددهم 35 ألفا ، وأظهروا ذلك ببعض أعمال النهب · وفى بلدية خنشلة المتزجة ، حمل السلاح غداة يوم 11 نوفمبر عدد من عشائر دوار أولاد ششار (وهم بين 2 و 5 حسب المصادر) وكذا دوار عليناس برمته ·

وقد تشكلت فى الجملة ثلاث مناطق تمردية : أهمها فى : « بلزمة » و متليلى وسهل بريكة ، والمنطقة الثانية فى الاوراس الشرقى وششار ، والثالثة فى الجبال الواقعة بين عين كرشة و خنشلة (فجوج بوعريف) ·

وأول ما قامت به القيادة العسكرية الفرنسية التى لم تكن تتوفر فى الواقع الا على ستة آلاف جندى فى حالة استعداد للقيام بالعمليات العسكرية ، وهم من السنغاليين المعسكرين ببسكرة خاصة ، وهو استخدام هذه القوة لحماية مراكز المستوطنين (مثل بيرنيل وكورناى وغيرهما ···) والنقاط الاستراتيجية مثل : أريس وطكوت · وأمام سلبية المتمردين النسبية الذين اقتصروا على بعض أعمال « لتخليص اخوانهم المجندين بالقوة » انتقلت القيادة العسكرية الفرنسية الى الهجوم المعاكس فى 18 نوفمبر · وقد وجهت القوات السنيغالية للقيام بعمليات فى جبل بوسدآن ثم فى مستاوة حيث خسرت

عشرة قتلى فى الخامس من شهر ديسمبر • ثم قامت طوابير من جنود الزواوة والسنيغاليين من 19 الى 30 ديسمبر بتمشيط « بلزمة » التى سبق أن طوقتها القوات العسكرية وكان لابد أيضا من تعزيز حاميات الاوراس •

ولما تبين أن عدد الجنود غير كاف لاعداد مثل هذه العمليات ، طلب الجنرال دى بونيفال مزيدا من المدد مساء يوم 30 نوفمبر عندما بلغه نبأ هجوم شنه الثائرون على قافلة عسكرية بالقرب من برنيل ومكن المجندين من الفرار • وفجأة طالب الوالى العام ليتو الذى كان الى ذلك الحين يقلل من شأن هذه الحركة بلواءين اثنين من التعزيزات وبطائرات « لإرهاب الاهالى » وبعد لأى ، قبلت القيادة الفرنسية العليا بسحب لواء قوامه ست آلاف رجل من جهة القتال ، وارساله الى الجزائر ، وقد وصلت هذه الامدادات الى الجزائر للقيام بعمليات أواسط شهر ديسمبر ، واستمرت هذه العمليات فى شهر يناير : اذ جابت سرايا عسكرية كل المواقع الجبلية مفتشة الانفاق والمغارات ، وملقية القبض على العصاة والفارين • وقد قامت بعملياتها فى مستاوة و متليلى و شنشار و الحضنة والاوراس (3) •

وكان معظم هذه العمليات عبارة عن مجرد دوريات بوليسية ، اذ لم تنشب معارك بعد شهر ديسمبر 1916 كما لم تحدث مقاومة مسلحة ، على أن الادارة المدنية حفظت بصفة رمزية تاريخ 24 يناير 1917 الذى أطلقت فيه بعض عيارات نارية على حاكم بلدية المعاضيد الممتزجة واعتبرت هذا التاريخ نهاية للحركات التمردية • وفعلا ، فقد اعتبر الجنرال دى بونيفال الثورة فى حكم المنتهية منذ الخامس يناير باستثناء ناحية شنشار ودوار زلاطو ، واقترح الوالى العام فى 19 يناير ارجاع لواء المشاة رقم 250 الى فرنسا • ولكن هذا اللواء لم يلتحق بفرنسا الا فى شهر مارس ، وبعد المشاركة فى « عمليات كان القصد منها هو اظهار القوة العسكرية » حتى فى بلدية عين مليلة (جبل قريون) ولم تنته العمليات العسكرية فى نظر الجنرال دى بونيفال الا فى 27 أبريل •

وكان القمع ـ حسب ما جاء فى تقرير مفتش البلديات الممتزجة ديبونت Depont « على ما يجب أن يكون عليه ، سريعا وصارما ، ولا هوادة فيه » ، وقدر الجنرال دى بونيفال الذى خسرت قواته 15 قتيلا و 30 جريحا ، ومفقودين اثنين ما منى به

المسلمون من خسارة خلال العمليات بنحو مائة قتيل ٠ الا أن هذا الرقم كان يبدو فى الواقع للنواب البرلمانيين أعضاء لجنة الشؤون الخارجية التى جاءت للتحقيق فى عين المكان ، أقل مما هو فى الواقع ٠ وقد شنع تقرير أعضاء اللجنة بهذه « المذبحة التى لا يمكن قبولها » تلك المذبحة التى كان يطلق فيها النار أحيانا على الاشخاص الفارين ٠ واستنكر التقرير ما حصل من رفض استسلام دوار أولاد مسعود لكونه جاء متأخرا ٠ كما أدان النواب البرلمانيون أساليب الانتقام الجماعى المتمثل فى احراق المشاتى (المداشر) وافراغ المخازن ، ومصادرة الحبوب والمواشى ثم بيعها ، وقد اشتكى الجنرال موانيه ذاته من تجاوزات جنود الزواوه من أوروبيى الجزائر الذين « تسببوا فى اثارة أحداث بلدية بلزمة » ٠ ولا تزال ذاكرة الجزائريين الجماعية تذكر بوجه خاص أعمال « السود السنيغاليين الذين كانوا يضرمون النيران، وينتهكون الاعراض، ويقتلون» (4) ٠

ان مجرد هذا التذكير بالوقائع ليطرح السؤال الاول الآتى : ترى أيكون القمع العسكرى قد قضى فى المهد على ثورة أوسع ؟ ذلك ما لمحت اليه التقارير العسكرية ، لكن دون التأكيد عليه ٠ ويقول نبأ اعتمدته القيادة العسكرية : ان ثوار الاوراس وششار ربما قرروا فى سيدى فتح الله مهاجمة « مدينة » ثم أريس و تكوت فى الليلة بين 28 و 29 ديسمبر ، وذلك للتأثير على المتمردين ٠ ويقال بأنهم لم يعدلوا عن مشروعهم الا عندما شاهدوا وحدات مسلحة بالرشاشات والمدافع ٠ الا أن هذه المعلومات مستقاة من مصدر وحيد ، ولم يمكن التثبت منها ٠

ويرى المدنيون بأن الرعب الذى أثاره سرب طائرات فارمان كانت له آثار ايجابية ٠ والواقع أن الطائرات الست القادمة من التراب التونسى قد قامت ببعض تحليقات استكشاف ابتداء من فاتح فبراير ، وسرعان ما لحقت أضرار بثلاث منها عرضا ٠ وقد لاحظ حاكم خنشلة بأنها « كانت موضوع تسلية لايثار رهبة » ٠ لذلك أخذت ابتداء من 12 فبراير فى القاء بعض القنابل بعيدا عن القرى ، وذلك على سبيل الانذار ٠ واذا كان هناك من أثر رادع فليس مرده الى الطائرات بل مرده دون شك الى مضاعفة عدد الجيوش المستخدمة البالغ فى فاتح ديسمبر 1916 ـ 6142 جنديا ، و 106 ضابط ، والبالغ عددها فى فاتح يناير 1917 ، 13892 رجلا و 275 ضابط ٠ لكن يجب أن نلاحظ بأن حركة

العصيان هذه أخذت تتراجع قبل وصول القوات القادمة من فرنسا وقبل اقحام هـــذه القوات بالفعل فى العمليات العسكرية فى 22 ديسمبر (5) مما يسمح بالتساؤل الثانى التالى · ترى ألا يمكن أن تكون الثورة أقل شأنا مما كانت السلطات العسكرية تتوقعه فى البداية ؟ فاذا كانت حركة العصيان ، ورفض التجنيد وتسخير العمال قد شملت منطقة واسعة جدا ، فانها شملتها فى الواقع بصورة غير متكافئة · ولسوء الحظ ، لا يمكن أن نثبت على وجه اليقين عدد الدواوير أو الفرق المتمردة : فهو يتراوح بين 22 و 30 من جملة 113 دوارا على ما يبدو ، ويختلف ذلك بين أن نأخذ بعين الاعتبار تلك الدواوير التى تدعى بالدواوير « المشمولة بالعدوى » أو لا نأخذها · وحسب ضباط المخابرات الذين كانوا يضعون فى عداد « الثوار المتمردين » تلك الدواوير التى رفضت التجنيد أو سمحت بارتكاب أعمال تخريب ، فان 22 من الدواوير المأهولة بـ 75068 ساكنا قد سلكوا سبيل التمرد والعصيان · وهكذا تبلغ نسبة الفرق التى شملتها هذه الحركـة نحوا من 22٪من سكان دائرة باتنة ·

(6) (راجع الجداول المرفقة) ·

وأخيرا فان هذه الثورة لم تعبىء ـ على ما يبدو ـ غير الفارين الذين هربوا بأسلحتهم، والمتمردين ذوى الاسلحة المتباينة ، وقليلا جدا كان عدد الجزائريين الآخرين الذيـــن شاركوا فى هذه الحركة ، ويرجع ذلك دون شك الى افتقارهم للاسلحة (7) كم يمكن أن يقدر عدد هؤلاء « الرجال المسلمين المعتصمين بالجبال » ؟ ان اللجنة التأديبية التى نصبت فى باتنة « للادانة فى القضايا التى قد لا يقنع القضاء فيها بالحجج غير الكافية » قد أدانت ـ حسب تقرير لجنة النواب البرلمانيين ـ 805 من المتهمين القصارى من بين 825 متهما ، وأن 165 متهما من الراشدين قد حوكموا أمام مجالس الحرب ، وهذا لا يعنى أن هناك فقط نحـوا من ألف ثـائـر ، بل يقوم دليلا على مدى اتساع الحركـة · وقد قدرت مصالح المخابرات العسكرية عدد الثوار فى البلديات الثلاث المعنية جدا بـ 2614 ثائرا ، وعدد ثوار بلدية الاوراس الممتزجة بـ 290 ثائرا · (8)

وفى الجملة ، يبدو أن التحدث عن ثلاثة أو أربعة آلاف من المتمردين المنظمين بقدر أو بآخر من بين بضع عشرات الآلاف المعدودين فى عداد المتمردين فى ناحية يسكنها أكثر

من 300 ألف ساكن ، أمر يطابق الواقع • وأكيد أن اثنين من سامى الموظفين اقترحا فى روايتهما التاريخية للحوادث بصورة خاصة أرقاما أعلى (9) • الا أن نقد المصادر لا يسمح بالاخذ بها • كما انه من الخطأ أن نحصر ـ باسم ما لا أعلمه من الرومانطيقية ـ هذه الثورة فى « الشاوية المتصلبين من سكان جبال الاوراس » « حادثة » فاندى « هذه للقضايا الخاسرة » كما قال أحد المروجين الفرنسيين •••

لكن السؤال يجب أن يطرح : ما هى الاسباب الحقيقية لهذه القلاقل والثورات التى قامت بالجنوب القسنطينى والتى ألهمت كل هذا الادب الاستعمارى الخصب والمشبوه فى نفس الوقت ؟

2 ـ محاولة تحقيق تاريخى •

لقد كان حرصنا على اعلام نزيه ، هو نفس الحرص الذى كان يبديه أيضا بعض المعاصرين لهذه الاحداث • فقد طلب كليمونسو فى 16 نوفمبر 1916 ، وكان حينئذ رئيسا للجنة مجلس الشيوخ المكلفة بالجيش ، أن تقدم له معلومات صحيحة عن أسباب وطبيعة هذه الاضطرابات • وأجابه وزير الحرب بصراحة صارمة : « لقد حلت محل الحماس الذى قام فى بداية الحرب كراهية تزداد شيئا فشيئا للخدمة العسكرية ، تلك الكراهية التى من أسبابها الخسائر التى منى بها الجنود القناصة الجزائريون • (10)
ويجب أن يضاف الى دواعى الاستياء هذه فى الجنوب القسنطينى ، الحقد الكامن المتراكم والناشىء عن قيام مراكز المعمرين (ماك ماهون ، كورناى ، باستور) تلك المراكز التى تدفع بالدواوير الى أراض قاحلة تقريبا » • (11)

وقدمت تشخيصات أخرى كثيرة يمكن للمؤرخ أن يعتمد منها أحكام السيناتور فلاندان التى ضمنها لتقريره المفصل الذى رفعه الى لجنة الجيش فى 16 نوفمبر 1917 ، وتشخيصات وزارة الداخلية بتاريخ 23 ديسمبر 1916 • الا أنه يجب اللجوء أساسا الى تحقيقين أجريا فى الجزائر ، وقد أجرت احدهما لجنة الشؤون الخارجية لمجلس النواب فى مطلع سنة 1917 ، وأجرى التحقيق الثانى بعد ذلك المفتش العام للبلديات الممتزجة أوكتاف ديبون Octave Depont (12) وجميع هذه النصوص المتناقضة بشكل واسع يجب أن تفسر وتقرأ بمنتهى الحيطة ولا سيما التقرير الكبير الذى رفعه ديبون

Depont في فاتح سبتمبر 1917 (454 صفحة مطبوعة) · انه لعمل جدلي كتب لتبرير موقف الادارة المدنية ، وعمل تدوى فيه العواطف الاستعمارية ، وهو أيضا عمل صدر عن رجل اختصاصي يحركه هلع حقيقي من الطرقية الاسلامية ومقتنع سلفا بأننـا « نجد دائما يدا مرابطية وراء كل هذه الانتفاضات التي يقوم بها الاهالي ضدنا » (13) أما النواب البرلمانيون أعضاء لجنة التحقيق فقد رفضوا هذا التفسير وكتبوا يقولون : « ولم يكن لتعصب المسلمين دور في اضطرابات باتنة . كما ان التأثيرات الطرقية كانت ـ على عكس ما يقال ـ لفائدتنا نحن ··· » ·

ولا تتفق مختلف التقارير أيضا على مسؤوليات مرسوم 14 سبتمبر 1916 (الذى ينص على تشغيل العمال أو تسخيرهم اذا لزم الامر) ، وعلى اثر الدعاية الاجنبية وأهمية الحوادث · فأوكتاف ديبون مثلا ، حين يتحدث عن « اعلان الثورة » في 11 نوفمبر 1916 ، انما يعتمد نظرية انتفاضة سياسية ، بينما يرى النواب البرلمانيون ، على العكس أنه « ما من لحظة واحدة ، اتسمت الحركة بطابع حركة ثورية موجهة ضد السيادة الفرنسية وسيطرتها » · فهذه الاحكام المتناقضة تستدعى تحكيم المؤرخ الذى قد يدفع ـ وهذا صحيح ـ الى اعطاء تفسيرات تختلف عن التفسيرات التي يذهب اليها المعاصرون للاحـــداث ·

فعليه أولا أن يستمع الى شهادات الجزائريين بعناية أكثر مما فعله فرنسيو ذلك العهد · فما تم الاحتفاظ به من هذه الشهادات يسمح بتخيل ردود فعل الرأى العام ·

اولا ـ شهـــادات الجـزائريين ·

لم يكن بعض الجزائريين الذين اعترض سبيل مراسلاتهم ، يخفون آمالهم في بداية الحرب · فقد كتب أحد المثقفين في طولقة الى شاب جزائرى بمدينة الجزائر يقول : « لقد وجدت الافكار مضطربة جد الاضطراب في بسكرة (14) ··· وأرجوا أن تحدث ثورة كبرى يمكن أن نسميها بالثورة الجزائرية (···) ان الايام المقبلة علينا ببشائـر ، وان الاخوان لفي فرح كبير ، وان شفة الزمان لتبتسم » (15) وهو بعد ذلك ، يشكو في رسالة وجهها الى شخصية ايطالية من « وحشية فرنسا » ، قائلا : « انها تجند أبناءنا

وترسلهم الى الموت ، وهى تدفع بهم الى الصف الاول عند التلاحمات والهجومات ، رغما عنهم ، وكأنها تشترى أنعاما من السوق (٠٠٠) فلماذا نشن الحرب على الالمان ؟ لان فرنسا وضعتنا فى صف الانعام، وتدفع بنا دفعا لمقاتلة أناس ليس بيننا وبينهم أى علاقة ولا أسباب عداوة (٠٠٠) عاش السلام ! وعاشت افريقيا الشمالية حرة مستقلـة ومتخلصة من قيد العبودية ! » ٠

وعلى الرغم من أن هذه الشهادات الوطنية شهادة وحيدة من نوعها ، الا انها تترجم دون شك عن مشاعر أوسع ذيوعا وانتشارا ٠

وفى ناحية بريكة ، كان الناس يقولون فى سنة 1916 ان ألمانيا على وشك الانتصار ، وان فرنسا لسائرة الى الاندحار ٠٠٠ وكانت تنبؤات وأهازيج تعلن عن ثورات قادمة : « سيكتسح فيها التل ، ويحال الى رماد ، كما يسحق القش الحقير من سطيف الى بـرج بوعريريج » وكانت الجزائر قد جردت من فيالق الجنود العاملين الذين أرسلوا الى الميدان، وكانت أغنية نضمت فى الحضنة تؤكد بأن « المسيحيين ذهبوا بسراياهم ، وابتلعتهم أمواج البحر ٠٠٠ » ولم تزدد هذه الاشاعات الا انتشارا من سنة 1914 الى سنة 1916 ٠

وفى 15 أكتوبر 1916 ، كتب عامل عمالة قسنطينة الى الوالى ليتو Lutand يقول « لقد راجت شائعة مفادها أنه اذا كانت الحكومة لا تجند الشباب فقط ، بل تعمد أيضا الى تعبئة الرجال الذين تتراوح أعمارهم بين الاربعين والخمسة والاربعين ، لتأخذهم كعمال ، فذلك لاننا بحاجة أكيدة الى الرجال » ، وقد اعترف كثير من المجندين الهاربين الذين ألقى القبض عليهم فى شهر ديسمبر 1916 قائلين : « لقد قيل لنا بأنه لم يبـق هناك فرنسيون » ، وقال آخرون انه لم يعد يشاهد فى بسكرة وباتنة الا بعض جنـود من « الزواوة ٠٠ والجنود الاضافيين المحليين ذوى اللحى البيضاء » ، الذين لا تبدو عليهم أى مهابة ٠ وكان أحد رؤساء الثائرين فى متليلى وهو محمد بن النوى يشجع رجاله قبيل مهاجمة مركز « ماك ماهون » صارخا فيهم : « الى الامام ! الى الامام ! أأنتم خائفون من عشرين جنديا من جنود الزواوة ؟ » ٠

كذلك فان ما يثيره التجنيد الاجبارى من نفور لدى السكان الجزائريين لم يفتأ يزداد اتساعا ٠ ففى نهاية شهر أغسطس من سنة 1914 ، أشار حاكم بريكة الى « بداية حركة

اضطراب مبعثها الاعمال التحضيرية للتجنيد » · ورد الناس على حاكم الاوراس قائلين . « نحن على استعداد لامدادكم بكل ما تطلبونه منا ، بأموالنا ومحاصيلنا ، ولكننا نفضل الموت هنا على أن نمنحكم أبناءنا » وترددت كثيرا صرخة احتجاج انطلقت باديء ذى بدء فى ناحية وادى عبدى وفحواها : « نحن لا نريد أن نقدم أبناءنا للسلطة الفرنسية لكى تجعل منهم مرتعا لمدافع أعدائها) · (16) وأمام هذه الضروب من ضروب المقاومة ، عمدت السلطات العسكرية الى ارسال سرية كبيرة الى الاوراس لتقوم بتحركات من 29 الى 11 نوفمبر 1914 ، كما عدلت عن استدعاء المجندين · وقد استدعى للخدمة العسكرية فى مجموع بلديات دائرة الاوراس 123 رجلا فى سنة 1914 ، ولكن هذا العدد قد ارتفع فى سنة 1915 الى 246 رجلا ، وفى سنة 1916 الى 506 رجلا · وبالنظر الى المتطوعين ، والمستخلفين ، نجد الارقام الحقيقية للمدعوين الى الخدمة العسكرية قد بلغت فى الواقع سنة 1914 ، خمسة وسبعين وفى سنة 1915 مئة وثمانية وثلاثين ، وفى سنة 1916 أربعمائة وتسعة عشر رجلا ·

وقد أثار تجنيد البالغين سن الخدمة العسكرية سنة 1916 والذى تم فى 2 أغسطس فى بلدية بريكة ، وفى النصف الثانى من الشهر فى غيرها من البلديات ، احتجاجات حادة للغاية · غير أنه حين علم الناس فى نهاية شهر أغسطس بنبأ احصاء الافواج المجندة فى سنة 1917 والتى ستجند برمتها بينما يسخر الرجال للعمل فى فرنسا ، كان الرأى العام مجمعا تقريبا فى الدواوير الى درجة أن الحكومة نظمت عملية تجنيد اجبارية لجميع الرجال الذين تتراوح أعمارهم بين 18 و 45 سنة · كما انه جرى الحديث عن الغاء تراتيب الاعفاء بسبب أعباء الاعالة ، وحق التعويض والاستخلاف ، وهكـــذا شعرت جميع هذه العائلات بأنها مقصودة بالذات ، وتضامنت جميعها فى الاحتجاج · فقد صرخ رجال قرية طالب من دوار متكواك (بلدية بريكة الممتزجة) فى وجه الحاكم فى الرابع والعشرين سبتمبر 1916 قائلين : (نحن لا نبذل أبناءنا · ونفضل أن نراهم يموتون فى الجزائر بدلا من فرنسا » ، وقد روى جزائريون من توقرت ، بعد رحلة لهم الى باتنة أن « الغليان الذى كان يسود منطقة الشمال مرده الى الاوامر الصادرة بعدم السماح باستخلاف المسجلين للتجنيد ، وبشمولية التجنيد للجميع من سن 18 الى سن



منظر جانبى من القاعـــة

45 سنة · وان كل من لم يؤخذوا جنودا سيؤخذون عمالا ، مالم يكونوا من أصحاب العاهات ··· لذلك أعلن سكان الجبال رفضهم وأنهم سيعمدون الى الثورة بدلا من الاستجابـــة » ·

وكذلك احتج أعيان مدن القطاع القسنطيني ضد استدعاء فئة شباب 1917 ، ثم ضد تسخير العمال ، ومما جاء فى عريضتهم قولهم : « ان التخلى عن النساء والاطفال والاموال من أجل العمل فى فرنسا هو تضحية تتجاوز حدود قوانا » (17) · وكان الوالى العام يرى فى هذا الاحتجاج حملة من تنظيم الشباب الجزائريين ، غير أن وزير الداخلية الذى أقلقه تضاعف رسائل الاحتجاج أوصى فى 28 سبتمبر بالتباطؤ فى عملية التجنيد عن طريق التسخير فى المناطق المستعصية ·

لكن عدد المتمردين عن القانون والفارين لا يفتأ يرتفع فى هذه المناطق · فقد أخبر القائد العسكرى لاقليم توقرت فى 15 نوفمبر 1916 بأنه « لم يبق لديه الا 85 من رجال الخيالة » من بين 150 فارسا الذين كان لواء الفرسان Spahis الموضوع تحت تصرفه فى سنة 1915 يتالف منهم » ، أما لواء الفرسان الثالث فى بسكرة فانه لم يعد يضم أكثر من ثمانية فرسان لخمسين جوادا · وفيما يتعلق بالجنود القناصة الجزائريين ، فقد قدر عدد الذين تركوا وحداتهم المرابطة بالتراب الجزائرى ، بثلاثة آلاف ومائتين وأربعة عشر (3214) جنديا ، وذلك منذ سنة 1914 · وكان 286 منهم من سكان دائرة باتنة · أتكون الحركة حركة مبنية على تشاور واتفاق ؟ وقد انتظم بعض الفارين فى عصابات تقوم باعتراض سبيل القوافل وقطع الطرق · وكانت « عادات الكرامة والشرف » هذه أحيانا تنصب رؤساء عليها مثل اخوة بن زلماط فى الاوراس ، أو ابن على محمد بن النوى الذين انتصبوا فى متليلى منذ سنة 1915 (18) · وكان الفارون من الخدمة العسكرية والخارجون عن القانون يحرضون أبناء ملتهم على عدم الالتحاق بالخدمة العسكريــة ، بل وقد قيل بتهديد من يستجيبون داعى التجنيد فى بعض الدواوير · وقد أوضح أحد الكتبة بأن رجال أولاد عوف من سقانة وكامل بلدية بريكة قالوا انهم لا يريدون اعطاء شبابهم المدعوين للخدمة العسكرية ، وان الدوار الذى يطيع اوامر الحكومة فى هــذا الصدد ستهاجمه دواوير أخرى · ويرى هذا « الخوجة » أن اخلال بعض الدواوير الذين

سلموا مسجليهم للخدمة العسكرية هو ما قد يكون دفع شيخ سقانة الى أ نيقرر مهاجمة « ماك ماهون » بالاستعانة « بعصابات متليلى » (19) . واذا فرضنا صحة هذا الخبر الذى قد يكون مكذوبا ، رأينا أنه يكفى أن تصدر ايحاءات من شخص واحد من الدرجة الثانية لاضرام نار ثورة يتمناها كثيرون فى هذه المنطقة .

غير أن هذه الثورة انما كانت ترمى فقط ـ على ما يبدو ـ الى حمل السلطة الفرنسية على التراجع فى مشروعاتها التجنيدية . وحسب الشهادات المجمعة الصادرة عن هيئات الجماعة فان « الثورة قد حدثت فقط بصدد أبنائنا » . « وكان يقال بأن المسلمين فى كافة أنحاء الجزائر سيقاومون القانون ، وأن الحكومة ستضطر بذلك الى التراجع » . وهكذا يتضح أنه ، باستثناء الهجوم الذى شن على مركز « ماك ماهون » لم تكن هناك أية حركة قائمة على الاتفاق والتشاور : فقد تمرد عدد كبير من الدواوير تباعا فى اليوم المقرر لاجراء الفحص الطبى على شبابهم المدعو للخدمة العسكرية . وبعض هذه الدواوير حال دون ثورتهم قيام عمليات عسكرية . وحسب رئيس فرع بسكرة ، فان مقاومة شاملة قد تقررت بين جميع سكان (النمامشة ، والحراكتة ، وأولاد رشايش) الجبليين منهم وسكان الهضاب العليا للقيام بثورة ضد فرنسا ، لكن من أجل المقاومة قدر الامكان » . غير أن القبائل المتبلبلة كانت فى منتصف شهر ديسمبر بسبب رؤيتها سرايا عسكرية تجوب « كل مكان فى آن واحد » فى قلق واضطراب كبيرين . (20) هذا ولم يمنع مع ذلك تكوين مجموعة أو عدة مجموعات مسلحة ، ومقدم جيش فى 22 يناير 1917 لتحرير مسجلين للخدمة العسكرية بالقرب من خنقة سيدى ناجى .

ثانيا : الضغائن والاحقاد من جراء الطرد الاستعمارى للسكان من أراضيهم .

يبقى علينا أن نجد تفسيرا ، لماذا كانت قلة من الدواوير هى المعنية فقط ؟ وأى هذه الدواوير هى ؟ ان حركة الخروج عن الطاعة التى بدأت منذ شهر سبتمبر 1914 فى بلديات بريكة ، وبلزمة ، والاوراس ، وخنشلة ، فقد اندلعت من جديد بعد سنتين فى سهل الحضنة الشرقى بعد فشل السرية العسكرية التى أرسلت الى بريكة . وقد عاشت شائعة منذ شهر أكتوبر باحتمال شن هجوم على الابراج ، وذاعت هذه الشائعة

حتى فى الاوراس ، ثم تجسمت بصورة غريبة بعد شهر من ذلك الهجوم على مركــزى « ماك ماهون » وبريكة · وكان سكان قبائل أولاد سلطان (دوارى أولاد عوف ومركوندة) وأولاد بوعون من بلزمة (دواوير أولاد فاطمة ، ومروانة ، وأولاد الماء) هم الذين كانوا أول الثائرين المتضامنين (21) · لماذا هذه الدواوير بالذات ؟ هنا نجد أن السكان الذين سبق أن ثاروا وصودرت أملاكهم فى سنة 1871 هم الذين شملتهم اجراءات الطرد من ديارهم قبل سنة 1916 بنحو اثنى عشر عاما من أجل انشاء مراكــز للمستوطنــين الاستعماريين فى « كورناى » (1903) وفى « برنيل » و « باستور » ·

واذ أصبح هؤلاء السكان محاصرين بين أعالى بلزمة والاراضى التى احتلها المعمرون ، لم يجدوا أبدا بعد أن فقدوا أسباب عيشهم من مضاعفة تطاولهم على الغابات ، ومن ثم نشوب صراع حاد بين مربى المواشى ومصالح المياه والغابات ، (22) فقد أوضح حراس الغابة مثلا أن « انشاء مركز « كورناى » قد دفع بثلاث « مشاتى » (مداشر) من دوار مروانة التى لا تتوفر على أى مرعى الى اللواذ بالغابة » (23) · وكان السكان قد أظهروا رد فعل قبل سنة 1914 باظهارهم ما اصطلح على تسميته « بمعاداة عنيفة لمراكــز المعمرين » وذلك عن طريق مضاعفة الجنايات ومن أجل تدارك حالة اللا أمن التى خلقت سنة 1904 ، أمرت بلدية بلزمة الممتزجة فى سنة 1905 الحاكم الذى كان يسكن فى باتنة بالانتصاب فى « برنيل » وذلك ريثما يتم بناء برج ادارى فى كورناى · وفى نفس الوقت أصدرت محكمة باتنة الجنائية فى أقل من 18 شهرا ، أحكاما تبلغ فى مجموعها نحوا من 200 من الاشغــال الشاقة من أجل اعادة النظام والامن الى نصابه ·

وفى مثل هذا الجو والمناخ ، نفهم جيدا نفسية سكان هذه المنطقة : ففى شهر ديسمبر 1914 كانوا يطالبون جهارا بأراضيهم ويسرحون مواشيهم فى الاراضى التى أصبحت ملكا للمعمرين · بل وكانوا يحذرون هؤلاء بأنهم سيسترجعون أملاكهم بعد وقت قليل بمساعدة الالمان · فثورتهم كانت متوقعة اذن · ومما يلفت الانتباه عند تأمل الخريطــة أن الدواوير الواقعة بالقرب من الاراضى التى استولى عليها المعمرون حديثا هى الدواوير التى تأوى جميع الثائرين أو الفارين المسلحين ، فى حين ظلت الدواوير البعيدة عن هذه الاراضى هادئة ، وعلى ذلك تكون ثورة بلزمة فى سنة 1916 هى النتيجة الواسعة لحرب

بدأت فى الواقع سنة 1904 ، وأعربت عن نفسها من 1912 الى سنة 1916 بسبعة عشر اعتداء على أشخاص • فما من مهادنة قد حصلت ، بل ان الوضع الاقتصادى لم يزدد الا تدهورا ، وقد كانت المحاصيل صفرا فى سنة 1914 ، ورديئة فى سنة 1916 • لقد كان من المفروض أن يكون فى تفاقم البؤس ما يشجع على التطوع للخدمة العسكرية (24) الا أن الادارة المحلية خلقت متاعب فى وجه تسديد المخصصات اليومية العائدة الى الاسر • وفى 17 مارس 1916 وجهت لجنة الشؤون الخارجية فى مجلس النواب دعوة فيها خشونة الى الحكومة « لتأمين الدفع المنتظم للتعويضات العائدة الى أسر الاهالى المجندين » ومع ذلك لم تكن اللجنة تعلم كل شىء ، اذ لم تتلق الا 121 أسرة فقط مخصصاتها المشروعة فى بلدية عين توتة المتزجة مثلا لغاية 12 نوفمبر 1916 ، فى حين أن حوالى 250 أسرة كانت تنتظر هذه التعويضات حسب مفتش البلديات المتزجة (25)، وهكذا فهو يتحدث عن « اهمال غير مقبول » •

ثالثا : معارضة مراسيم سبتمبر 1916 •

ربما زاد من حدة الاستياء ـ حسب الرأى العام الفرنسى بالجزائر ـ تعطيل العمل المفاجىء بنظام الاعفاء والاستخلاف • فقد أوضح أحد النواب الماليين وهو ديلفان Delphin أنه لم تحدث الثورة الا لانه وقع المساس فى آن واحد بجميع فئات المجتمع الجزائرى ، ولم يقتصر الامر على العمال اليوميين والفقراء فقط • على أن هذه الحجة التى تبدو للنظرة الاولى حجة واضحة ليست صحيحة تماما • حقا لقد كان مرسوم 7 سبتمبر 1916 يسمح بتعطيل العمل بحق الاعفاء والاستخلاف ، ولكن الوالى العام أخبر فى 22 سبتمبر بأنه لا يسعه تطبيق مثل هذا الاجراء • وقد نال بغيته • وفى وزارة الحرب حيث كان المعتقد أن « تمديد التجنيد الاجبارى معناه الالقاء بالجهات صاحبة النفوذ من الوسط العربى فى أحضان المعارضة مما قد ينشأ عنه الخطر » عادوا الى الاخذ بحجج ادارة الجزائر : فقد كتب الوالى يقول : « ان الغاء الاستخلاف قد يجعل الطبقات الغنية تنفر منا » (26) واذا ظل العمل بنظام الاستخلاف قائما مسموحا به ، فذلك لان الشائعة المعاكسة راجت لدى الاوروبيين والمسلمين على السواء •

غير أن الابقاء على هذا النظام الجائر الذى يعفى الاسر الغنية وحدها ، ويؤدى الى تحايلات دنيئة كان ينتقص من سمعة الادارة الفرنسية • وبما ان السلطة العسكرية كانت تتشدد فى قبول المستخلفين ، فان الاسر كانت تعتقد انه كلما كان المستخلف ثقيل الوزن ، كان حريا بأن لا يرفض • ولذلك كانت تشترى الرجال تبعا لاوزانهم بأثمان تتراوح بين 20 و 30 « دورو » للكيلو غرام الواحد فى الشمال ، وأغلى من ذلك بكثير فى الجنوب القسنطينى ، ومن ثم قيام سوق حقيقية للاتجار بالرجال : فقد كان المستخلف يباع بثمن يتراوح بين 2000 و 3000 فرنـك ، وأحيانا بأكثر من ذلك سنـة 1916 ، وكان الاعيان ، وهم وحدهم القادرون على تدبير المستخلفين ، يدفعون مبالغ طائلة الى أسر المجندين ، بل وحتى الاعفاءات المشروعة ، أو التسريحات التى تحددها القرعـة ، وكان مقررا الغاؤها فى شهر أغسطس 1916 ، ثم أبقيت ، كانت ـ كما يقال ـ تجر رؤساء الفرق أو شيوخ القبائل الى طلب الرشاوى

وكان الذين يرفضون دفع الرشاوى لا يأمنون غائلة التجنيد ان فى أشخاصهم أم فى اخوتهم (27) • كما أن تسخير العمال كان يجرى أيضا على قوائم التجنيد العسكرى ، وكان الاعيان هم الذين يعينون من سيدعون الى العمل فى فرنسا ، ومن لا يدعون اليه • ومن المعقول اذن ، فى مثل هذه الظروف ، أن يجتاح العصيان والتمرد أفقر الدواوير بصورة خاصة ، وأن يشمل الاسر الاشد حرمانا تلك الاسر التى لم تكن تستطيع شراء المستخلف أو الحصول على اعفاء كخطوة من **كبارهم** أو **شيوخهم** (28) •

والحاصل انه عند الاستماع الى شهادات الجزائريين ، وعند التعرف على مدى حقدهم على اجراءات الطرد من أراضيهم ، ومعارضتهم لمطالب السلطات الفرنسية ، لا نجد بدا من الاقتناع بأن الاسباب الجوهرية والمباشرة للثورة كانت تكمن وراء التجنيد الكامل لفئة شباب 1917 ، وراء تسخير العمال •

ثالثا ـ تفسيرات الادارة الاستعماريـــة •

أ ـ أهى الدعاية الالمانية ؟

على أن مناخ الحرب ، وذهنية الادارة الاستعمارية قد أثارت نمطا آخر من التفسير لهذه الثورات • فقد كان أوكتاف ديبون O. Depont يرى فى تجليات الدعاية الالمانية سببا لهذه الثورة » كما ان الوالى العام ليتو Lutaud لم يتردد فى التأكيد أمام النواب

الماليين أن « ثورة الاوراس كان ينتظرها الالمان » ٠ الا أنه لم يقدم أى دليل فى تقاريره التى رفعها الى الحكومة بينما أجهد ديبون نفسه فى جمع بعض مؤشرات لا تقوى على الاقناع ٠ حقا ، لقد أشار المخبرون المسلمون الى الشائعات الرائجة فى الدواوير والتى مفادها أن « أجانب جاؤوا لمساعدة بنى سليمان بالمدافع » ٠ وقيل أيضا بأن « السنوسيين كانوا يعدون العدة لثورة تونس والحدود الصحراوية بقيادة ضباط من الاتراك والالمان والنمساويين » ٠ بل وزعم بأن رجالا من الالمان ومن الهاربين من جنود اللفيف الاجنبى يوجهون العصابات الثائرة الا أن كل هذا محض افتراء ٠

هل يعنى هذا انه لم تكن ثمة دعاية أجنبية لحث الجزائريين على الثورة ؟ نحن نعلم ـ بالعكس ـ مدى المجهود الذى قام به الالمان والاتراك لاغراق الجزائر بعوامل محرقة : دعوات الى الجهاد المقدس ، رسائل من سى على باشا نجل عبد القادر الجزائرى ، الخ ٠٠٠ (29) وكان البعض يقول بمعارضة الاعيان للتجنيد الاجبارى ويخلص الى نتيجة مفادها أن « السكان ينبغى ألا يكتفوا بتقديم المطالب ، بل عليهم أن ينهجوا سبيلا أكثر قوة وفعالية » ٠ (30) وهناك من كان يعد بنجدة تأتى من الجيوش العثمانية : « اعلموا أنكم اذا ما فجرتم ثورة فى بلدكم ضد العدو ، وطالت مقاومتكم ، فاننا سنهب بسرعة لنجدتكم موفدين من قبل أمير المؤمنين » ٠ وكان هذا النص يعد بصورة قاطعة أن : « كل الممتلكات التى اغتصبها المضطهدون الفرنسيون من أجدادكم ستقسم على جميع الذين يشاركون منكم فى خلاصها » ومن بين كل هذا الادب الدعائى (31) « قصيدة موجهة الى الشاوية » لم يحتفظ لسوء الحظ بنصها ، ومناشير مكتوبة باللهجة العامية يفسر فيها التجنيد الاجبارى على انه دليل على خوف الفرنسيين ٠ وانما تسعى فرنسا الى ابعاد الجزائريين والزج بهم فى أتون الحرب تفاديا لثورة قد يشنونها عليها (32) ٠

وطبيعى أنه يتعذر معرفة ما اذا كان للدعاية الالمانية التركية أى تأثير على مثقفى الجنوب القسنطينى ٠ ومن المحتمل أن يكونوا قد أطلعوا على بعض هذه النصوص ، لانه قد تم احتجاز دعوة الى الجهاد فى خريف سنة 1916 وجهها سلطان اسطنبول (33) ، لكن حتى « الاخبار الكاذبة الناجمة عن المناورات الالمانية ، لم يكن لها سوى تأثير غير مباشر على الثورة » ٠ ذلك ما خلصت اليه لجنة الشؤون الخارجية ٠ فما من تأثر ، ولا مخبر

قد لمح أحداث طرابلس أو الى الحركة المناهضة لفرنسا ، تلك الحركة التى تزعمها فى « الريف » عبد المالك حفيد عبد القادر • ان سكان الحواضر هم وحدهم الذين قد يكونون بلغتهم أنباء ألمانيا تجعل من الامير خالد شريكا لعمه عبد المالك فى حركته •

ب ـ نشاط الطرقية ؟

والى جانب « الدسائس المعادية لفرنسا القادمة من الخارج » وهو التفسير الدائم والكسول الذى تعطيه ادارتنا الاستعمارية للاحداث ، عمد المفتش العام ديبون وجانب من الرأى العام الفرنسى بالجزائر الى اتهام العمل الخفى الذى تقوم به الطرقية الاسلامية ، « تلك الاهابات ، التى يهيب بها الصوفيون المعتكفون بزواياهم » كما قيل للنواب الماليين •

وحيث ان سكان بلزمة والاوراس كانوا أساسا من أتباع الطرقية الرحمانية ، وبمشاركة واسعة فى هذه الطريقة المتمركزة بالمنطقة منذ أمد بعيد (نحو 6000 من الاخوان من بين 60000 ساكن فى بلدية خنشلة المتزجة حسب ما يراه الكولونيل دى لارتيك De Lartigue فى سنة 1904 (35) ولكنهم 12334 من الاخوان فى سنة 1916 حسب الحاكم) (36) ذهب كثير من الناس الى الاعتقاد بأنها هى السبب فى قيام الثورة • الا أنهم وجدوا بعض الصعوبات فى العثور على مسؤولين ، (« اننا لم نستطع أن نكتشف حتى الآن يد أى شيخ من مشائخ الطرقية » ذلك ما أبرق به فى 23 نوفمبر الوالى ليتو Lutaud المسمونى المنافح الذى كان يفرز رجال الدين) • ثم ان أوكتاف ديبون Depont جرم فى نهاية الامر زاوية طولقة التى كان نفوذها يشمل جزءا كبيرا من بلزمة ، وذلك لعدم « قيامها بأى محاولة لتهدئة الخواطر » وكان يؤكد بشىء من التحفظ أن النشاط الطرقى الذى يوحى ويقوم به شطر من رحمانيى بلزمة يبدو وكأنه خاضع لاوامر شيخ سقانة « المقدم بلودينى » •

تلك كانت « الشائعة العمومية » ـ على ما يظهر ـ (وهى فى الواقع بعض وشايات من أوروبيين ومسلمين) • والحال انه لم يكن لهذا الشيخ البالغ من العمر آنذاك واحدا وخمسين عاما ، الا نفوذ دينى قليل ، على الرغم من أن زاوية طولقة دافعت عنه ، ولم

يكن ينظر اليه حاكمه بأيـــة نظرة ارتيـاب • ولكنه كـــان غنيـا ـ 6000 فرنـك ريعا بقطع النظر عن مرتبـه الشهرى ـ وقد حج مرتـين ، وكان يخالـــط الشبان الجزائريين وقد وشى به خوجة نقاوس حيث كان يستغل خطا للنقل البرى • واذ ذاك طلب حاكمه فصله من مهمته ، ثم ألقى القبض عليه وأودع السجن وحكم عليه • وكان معروفا بعدائه للباش آغا ابن قانا الذى قد لا يكون غريبا عن كل هذه الشائعات التى تجعل منه منظم الثورة •

وألقى القبض على مقدم ثان هو محمد رحمانى • ولكونه من سكان مشتى الخنزارية « مركز الثورة » اعتبر مقامه بهذه القرية مشبوها من قبل أوكتاف ديبون Depont على الرغم من أنه أنقذ زوجة وبنات ماك ماهون • على أن هذا الاخير يذكر بامتداح بعض الشيوخ الرحمانية الذين تدخلوا لفائدة الفرنسيين ، وخاصة منهم عبد الصمد من زاوية عين الشفاء ، (بلدية عين القصر المتزجة) الذى كان أيضا من مخبرى الادارة ، وأثنى خاصة على سى التهامى حسونى الشريف مقدم دوار « مقرة » الذى سبق أن أكدت اللجنة البرلمانية « مشاركته الصادقة النزيهة » (38) • على أن الغالبية الكبرى لهؤلاء المرابطين قد وقفت موقفا سلبيا وهو ما يفسره ديبون Depont بترقب متعمد • والحاصل أن ثلاثة منهم فقط قد ألقى القبض عليهم بينما يبلغ عددهم سبعة فى بلدية عين توتة المتزجة ، واثنى عشر فى بلدية بريكة ، وستة وثلاثين أو أربعين فى بلدية بلزمة المتزجة • وفى بلدية خنشلة المتزجة ، لاحظ الحاكم انه « ما من شخصية دينية أظهرت بادرة من العداء ، بل ان كثيرا منهم قد تدخلوا لفائدتنا » •

واستطاع العسكريون الذين أمروا بجمع كل المعطيات الاحصائية حول الزوايـــا الطرقية بالجنوب القسنطينى أن يلاحظوا دون شك بأن انتصاب الزوايا هناك لا علاقة له بحال من الاحوال بمراكز الثورة • (39) فليس فى بلدية بريكة المتزجة الشديدة الاضطراب أية زاوية ، كما ان عدد الاخوان بها ضئيل جدا : 920 من بين 41288 ساكن • ولم يكن يوجد من الاخوان ببلدية عين توتة المتزجة الا 1،200 فقط من بين 31،337 ساكن • وعلى النقيض من ذلك ، لم يثر فى بلدية الاوراس المتزجة حيث تقوم ست زوايا 3600 من اخوان الطريقة الرحمانية ، و 330 من أتباع الطريقة القادرية من بين 34326 من السكان الا دوار واحد • مما يؤكد أن مقاومة التجنيد لا علاقة لها لا بكثافة أتباع الزوايا الطرقية ، ولا بانتصاب أو تاطير هذه الزوايا (40) •

ج ـ أهو التنافس بين الصفوف ؟

ولم يتردد فى تقديم تفسير تقليدى آخر للجزائر الاستعمارية وهو : أن الثورة ربما كانت راجعة فى جزء منها الى عمل الصفوف الاسرية ، وأن هذه الثورة شملت الحدود الجغرافية لمجالات نفوذ هذه الصفوف الاسرية • ولنعترف بأن هذه النظرية تبدو لنا نظرية مرفوضة بعد تفحص مدى صدقها •

فلاثبات صحة هذه النظرية ، يتعين اقامة الدليل على أن صفوف الاوراس وبلزمة (ان صح وجودها فى هذه المنطقة الاخيرة) تمتزج بنفوذ أسرة ابن قانة واسرة ابن شنوف بل وحتى بوعكاز وبن ناصر • ويتعين بعد ذلك اقامة الدليل على أن سكان الجنوب القسنطينى كانوا لا يزالون منقادين لقيادة هذه الاسر الكبيرة التى أخذت سلطة معظمها تضعف بل وتبطل فى الاقليم الخاضع للحكم المدنى : فقد لاحظ لوسيانى فى سنة 1888 (41) أن « أسرة دواودة بلزمة قد أخذ ظلها ينحسر » •

ويبقى أن نفسر أخيرا كيف يمكن لاسرتى ابن قانة وابن شنوف المعتبرتين من الاسر « الموالية » لفرنسا أ نتسعيا الى دفع الناس الى الثورة •

ان بعض المظاهر وحدها هى التى استطاعت أن توقع بعض معلقى ذلك العهد فى الخطا • وحقيقة انه لا نزاع فى أن الاسرتين المتعاديتين عادة قد ألهبتا نار تنافسهما فى تلك الحقبة المضطربة • فاغتيال الباش آغا على باى بن ميهوب بن شنوف فى 9 أكتوبر 1915 مما يسمح بأسوأ الافتراضات • وقد كان القائد محمد الازهرى بن أحمد ناصر المتهم بالتواطؤ فى هذا الاغتيال حليفا لاسرة ابن قانة • ومن ناحية أخرى ، كان رئيس بيت ابن قانة منذ سنة 1910 وهو بوعزيز باش آغا الزيان يضاعف من اتهاماته لرئيس أسرة ابن شنوف الجديد المسمى سى بوحفص ، واذا ما صدقناه ، يكون هذا الاخير قد أعلن على الملأ فى سيدى عقبة عن قيام ثورة وشيكة فى الاوراس ، وقد أقام حرسا يتألف من أولاد زيان ومن 80 فارسا من فرسان الزاب الشرقى فى برجه ببلدة تكوت كما اختزن أسلحة فى مشونش ، لكن أتراه كان يهدد أسرة ابن قانة باستعداداته هذه للثورة أم أنه كان يفكر فى الدفاع عن نفسه فقط ؟ ان الآغا العجوز بوحفص الذى مات فى سنة

1918 كان من قلة الاستعداد للثورة ما جعله يشعر السلطة الفرنسية بالخطر ويمكنها من القيام فى الوقت المناسب باتخاذ التدابير العسكرية • انما كان يحتمى فى الواقع من ثورة محتملة ذات لهجة بدوية • وقد التجأ الخارجون عن الطاعة الى الجبال على الرغم من أنهم ليسوا بربريى اللسان • ومع ذلك فان الرد الفعلى المباشر للولاية العامة هو أن الثورة ثورة بربرية (43) • وأصبح من الشائع فى هذا الوسط أن « السكان المتوحشين الاجلاف ، والبرابرة الذين هم من أصل شاوى هم وحدهم الذين استطاعوا أن يثوروا على فرنسا » • وعندما يوهمون بأن « هذه النواحى المتخلفة جدا ، والتى لم تكد تحتك بالاستعمار هى وحدها التى ثارت ، انما يريدون تبرئة الاستعمار من جريمة طرد السكان من أراضيهم • بل وقد أكدوا للنواب البرلمانيين بأن المناطق التى أنشأت فيها السلطة الاستعمارية « مدارس أهلية » فى وادى عبدى بوحماص « لم تقم فيها أى صعوبة لايجاد المجندين والمتطوعين » (44) •

خاتمــة •

لم تكن حركات الخروج عن الطاعة والثورة فى الجنوب القسنطينى بالتى تقارن بحال من الاحوال بالثورات التى سبق أن شهدتها الناحية فى القرن التاسع عشر • وهى لا ترجع ـ كما يبدو ـ لا الى الطريقة الرحمانية ، ولا الى تنافس الاسر الكبيرة الحريصة على نفى بعضها البعض ، والاحتماء ، كما حصل فى سنة 1871 من احتمال التخلى عن الجزائر بل كانت رد فعل جماعى تلقائى فى مجموعه لمطالب السلطة الاستعمارية العسكرية التى لا تطاق • واذا كنا لا نجد أمرا معينا على رفض شامل قد يكون وجهه أعيان تقليديون أو رؤساء مرتجلون فذلك فقط لان السكان ربما كانوا معارضين تلقائيا للتعبئة العامة ، ويريدون الافلات منها بقدر الامكان • فالاعيان ورجال الزوايا والقياد كانوا جميعا أشد ما يكونون ارتباطا بالسلطات الفرنسية ، وكان معظمهم من شدة التورط ما يجعلنا نستبعد أن تكون له كلمة مسموعة • فهم لم يستطيعوا الحيلولة دون قيام حركة الثورة التى كانت تدوى فى أوساط عامة الناس (الجماهير) ولم يكونوا يريدون تزعمها لانهم كانوا يرون بأنها حركة بدون طائل •

وفى النواحى المجاورة لبلزمة حيث تلتهب الاحقاد ضد قرارات الطرد الاخيرة للسكان من أراضيهم ، أو فى جبال زلاطو أو شمشار حيث يعيش السكان بعيدا جدا عن الحياة الاوروبية ، بحيث لا تصدق بعض الشائعات القائلة (برحيل الفرنسيين ، أو افتقارهم الكامل الى الجيوش) ، فان انعكاسا جماعيا أوسع من التضامنات القديمة قد دفع بالرجال المصممين أكثر من غيرهم على اختيار سبيل الخروج عن الطاعة أو الثورة • فقد كانت روح المقاومة أمرا جامعا لهم أمام ما كان يتراءى لهم تجنيدا شاملا للرجال بأمر من المسيحيين • الا أن كثيرا منهم لزم جانب التريث • فلم يثر الا بعض الشبان من أفقر الدواوير ، وفى القطاعات التى تسمح الظروف الجغرافية بتوفير ملاجىء ومخابىء طبيعية للثائرين •

وهكذا كان من السهل القضاء بسرعة على هذه الثورة الشعبية المتوزعة فى الزمان والمكان ، والتى لم تكن تتوفر على رئيس معروف لها أو قيادة جماعية تتولى تنسيقها • ومع ذلك فقد استلزم الامر شهرين كاملين حيث كان يكفى أسبوعان لسحقها فى سنة 1879 • غير أن المطاردة قد استمرت أطول من ذلك ، وأخذت السلطات الفرنسية تتحدث عن عصابات الاجرام كما لو كانت من مخلفات ثورة خائبة •

والواقع أن هذه الثورة انما كان القصد منها فقط هو حمل السلطات الاستعمارية – كما حصل فى سنة 1914 – على التخلى عن مشروعها الرامى الى التجنيد الجماعى بيد أنه تبين أن هذه الاخيرة كانت عاقدة العزم على المضى قدما فى تنفيذ مشروعها ، وعلى القيام برد فعل عنيف ، واذ ذاك ، حكم معظم الناس العقلاء – حسب كلام بعض الاوراسيين – على رجال بلزمة « بأنهم كانوا ناقصى العقل لقيامهم بمثل هذه المغامرة » وأخذ رؤساء الجماعات الذين خاب ظنهم فى تسليم المسجلين للتجنيد والمستخلفين والعمال المسخرين ، ولم يبق الا بعض رجال مسلحين من المصممين الذين حاولوا تخليص هؤلاء الناس الذين « لم يسلموا عن طواعية بل أخذوا قسرا » كما يقول البعض •

وأخيرا يجب ألا ننسى أنه اذا كانت دراستنا قد اختارت دائرة باتنة ، فان هذه المنطقة لم تكن هى المنطقة الوحيدة التى أظهرت عصيانها (45) قبل أن تضطر الى

الرضوخ بالقوة • وقد جرت عمليات عسكرية أخرى فى نفس الوقت بناحية الظهـرة خاصة حيث اعتقل مآت من الاشخاص ، الا أن ما تسميه الادارة الاستعمارية «باستسلام المجندين انما تم تحت التهديد والقوة فى جميـع الانحاء • وفى مجال ضبط الحصر المادى ، رأت القيادة العليا بأنها اضطرت الى الهاء 6000 جندى عن جبهة القتال لمدة بضعة أسابيع ، ولكنها حصلت على 25549 مجندا من الشباب المجند فى سنة 1917 • واستخلص النواب البرلمانيون الثلاثة أعضاء لجنة التحقيق العبرة من هذه الاحـداث قائلين : « لقد كنا بحاجة الى رجال ، وكان من حقنا أن نطالب بهم وها نحن قد حصلنا عليهـــم » •

الجماعات التى اعتبرها القائد الاعلى للقوات المسلحة فى الجنوب القسنطينى بمثابة جماعات ثائرة فى 17 ديسمبر 1916

بلدية بريكة المتزجة :

دوار بريكة	4 مشاتى
دوار متكواك	2 فرقتان (5 مشاتى)
دوار مقرة	2 فرقتان
دوار عين كلبة	1 فرقة
دوار سقانة	بأكمله
دوار سفيان	2 فرقتان
دوار أولاد سى سليمان	2 فرقتان
دوار نقاوس	2 فرقتان

بلدية بلزمة المتزجة :

دواوير : مروانة ، مركوندة ، أولاد فاطمة ، بأكملها + أولاد الماء جزئيا .

بلدية عين توتة المتزجة :

دواوير : تيلاتو ، بريكات ، أولاد عوف بأكملها + 2 من مشاتى دوار أولاد شليح .

بلدية عين القصر المتزجة :

لقد ساد نوع من الغليان دواوير شمورة ، حرمان ، الحراكتة ، جرمة ، وفى جزء من دوار أولاد عمر بن فاضل الا انه ما من دوار اعتبر ثائرا .

بلدية خنشلة المتزجة :

دوار ولجة ششار	2 فرقتان
دوار عليناس	2 فرقتان

بلدية الاوراس المتزجة :

دوار زلاطو	3 فرق

جدول يلخص السكان الثائرين

البلديات الممتزجة	عدد الدواوير المعتبرة في عداد الثائرين	مجمل سكان البلدية الممتزجة	سكان الدواوير الثائرة	عدد الثوار	الدواوير التي سرت اليها العدوى في زعمهم
بريكة	8 من جملة 13	48139	29207	2463	
بلزمة	3 من جملة 14	41288	8448	142	1
عين توتة	3 من جملة 15	31337	8450	؟	3
عين القصر	0 من جملة 18	27671	0	0	4 أو 5
خنشلة	2 من جملة 17	65345	8267	9 أو 61	
الاوراس	1 من جملة 15	34326	6437	290	
مجموع البلديات الممتزجة الست لدائرة باتنة	17 من جملة 92	248106	68889	2904 أو 2956	
عين مليلة	4 أو 5 من جملة 21		13899	؟	
المجموع	21 أو 22 من جملة 113		74708		8 أو 9

(×) 3 دواير و 2 من مشاتي دوار أولاد شليح (× ×) 4 دواوير حسب تقرير دسون

تعاليــق ومــراجــع

1) يطلق اسم « ناحية الاوراس » فى الجزائر الاستعمارية على جميع المناطق الجبليـة الممتدة من بلزمة الى النمامشة ، وهو ما يمثل الجزء الاكبر من دائرة باتنة .

2) روجعت مستندات الحرب فى فانسان ووثائق ما وراء البحر فى ايكس أون بروفانس وكذا وثائق لجان مجلس الشيوخ ومجلس النواب . كما روجعت من جهة أخرى مناقشات النواب الماليين ، ومؤلفات كليمونسوو لوبران وأوراق الجنرال نونيغال . كما اعتمدت مختلف تقارير التحقيق فى القلاقل الثورية .

لمحـــة تاريخيـــة عن الحـوادث

3) لقد تحدث الجنرال بونيفال بالتفصيل عن هذه العمليات فى تاريخ القوات المسلحة « بالجنوب القسنطينى » من 1 نوفمبر 1916 حتى 15 فبراير 1917 وفى سرد تاريخى آخر يغطى الفترة من 15 فبراير الى 30 أبريل ، ويمكن استكمالهما بفضل برقيات الجنرال موانيه القائد الاعلى للجيش التاسع عشر .

4) كتبت صحيفة الاقدام فى سبتمبر 1922 تقول : « فى سنتى 1916 و 1917 أحرق الاهالى الذين ثاروا ضد تجنيد أبنائهم وارسالهم الى الخنادق ، وشووا ولعنوا ... وما تزال فظائع بلزمة ماثلة فى الاذهان . ونحن نعلم ماذا تستطيع القيام به هذه الجيوش التى تطلق العنان لغريزتها الحيوانية » .

5) وقد أوضح الجنرال موانيه فى 22 ديسمبر ما يلى : « ان التغييرات الحاصلة فى موقف الثائرين والعدد الكبير للمسجلين للتجنيد الاجبارى ، والهاربين من الجندية ، وانتظام عمليات التجنيد فى البلديات المجاورة للنواحى الثائرة كل ذلك يقوم دليلا على تغييرات ملحوظة لم يكن وصول اللواء 250 غريبا عنها » .

6) اعتمدت لجنة التحقيق البرلمانية الارقام المقاربة ووجدت 75906 ساكنا فى الدواوير الثائرة بما فيهم 10221 فى بلدية عين مليلة المتزجة أى 65684 ساكنا بالنسبة الى دائـرة باتنة، ومن جملة مجموع سكان يبلغ عددهم 289898 أى 22,6٪ (وربما وصلت النسبة المائوية الى 30٪ بالقياس الى سكان البلديات المتزجة وحدها وكتب أوكتاف ديبون من جهة يقول : « ان القبائل الثائرة بالفعل لا تمثل الا نسبة تزيد قليلا عن 20٪ من مجموع سكـان الدائرة » .

7) استرجعت السرايا الفرنسية خلال تطوافها بالناحية ما مجموعه « 3759 بندقية أو مسدس » وهي عبارة عن أسلحة صيد قديمة ، وبنادق عربية تقدح بالحجارة ·

8) هذه التقديرات هي الحد الاقصى في الواقع · أما حاكم بلدية بلزمة المتزجة فقد قدر عدد الثائرين في 24 نوفمبر 1916 بما يتراوح بين 1000 و 3000 رجل · واعتمدت مصالح الاستخبارات رقم 2453 ، (وهو في الواقع 2463 نتيجة لخطأ في الجمع) ·

9) يؤكد الجنرال بونيفال مثلا في تاريخه الاول أن بلدية عين القصر المتزجة قد انضمت الى الثوار ، ولكنه لا يذكر الا الدواوير التي « شهدت نوعا من الهيجان » أو « السارية اليها العدوى جزئيا » وما من تقرير يضعها في اعداد الدواوير الثائرة · وقد عارض عامل عمالة قسنطينة في يناير 1917 في قيام سرية عسكرية بالعمليات هناك ·

محاولـــة تحقيـــق تاريـــخي

10) سجلت وزارة الحرب لغاية 7 أكتوبر 1916 ، 7822 من القتلى الجزائريين و 30354 من الجرحى ، و 2611 من الاسرى ·

11) وثائـق الحـرب 7 ن 2116 ·

12) ما يزال هذان التقريران غير منشورين ، ويوجدان ضمن وثائق فانسان الا أن نسخا أخرى توجد في ايكس وفي الجزائر ـ المدينة ـ ويمكن الاطلاع على تقرير فلاندان في وثائـق مجلس الشيوخ ·

13) « في دائرة باتنة ، وضعت مختلف الثورات (···) عمل احدى الهيئات الطرقية في المقام الاول ، تلك الهيئة الطرقية التي نجدها في نفس المقام سنة 1916 » **الاضطرابات الثوريـــة** ··· صفحة 231 ·

14) واستنادا الى السيناتور كولان سيناتور مدينة الجزائر لدى ادلائه بشهادته أمام لجنة مجلس الشيوخ المكلفة بالجيش في 23 ديسمبر 1916 يكون قد حدث نوع من المسيرة المعادية لفرنسا في مدينة بسكرة بعيد اعلان الحرب ·

15) ذكره أوكتاب ديبون صفحة 241 ونفس الكاتب يتحدث أيضا عن « عبارات هدامة صدرت عن قاضي طولقة الذي كان ابنه ومعه ثلاثة أو أربعة شبان آخرين يستنسخ مناشير معادية لفرنسا ومزينة بالهلال والنجمة الاسلاميين » ·

16) وعلى النقيض من ذلك ذكر بأن ولدا قد يكون قتل أباه في دوار بني بوسليمان لانه سجله أو كان يريد تسجيله في قائمة المجندين ·

17) عريضة أعيان قسنطينة المؤرخة في 26 سبتمبر 1916 (وقد وقع العريضة بالخصوص ، الدكتور موسى ، ابن باديس محمد ، لفقون ، أورابح) راجع أيضا احتجاج أعيان « شاطودان دى ريمال » (13 سبتمبر) واحتجاجات أعيان ناحية باتنة (مستندات الحرب 7 ن 2116) ويرى الوالى العام أن الشبان الجزائريين قد يكونون اختلقوا عرائض مزعومة واردة من دواوير بريكة (مستندات الحرب 5 ن 154) .

18) اعتصم على بن أحمد بن زلماط وأخوه مسعود بالجبل من سنة 1915 الى سنة 1921 · وألقى القبض على ابن النوى في فبراير 1917 ، وقد حكم عليه بالموت لاعتباره قاتل الحاكـــم ·

19) بموجب هذه الوشاية ، تمت متابعة شيخ سقانة قضائيا وهو محمدى الحـــاج المدعو بلوديني ·

20) تقرير النقيب فورنيه رئيس ملحق بسكرة (12 ديسمبر 1916) وثائق ما وراء البحر 8 × 221 ·

21) يطلق اسم أولاد بوعون في آن واحد على سكان سهل القصر ، وعلى فرق لا تنتمي الى نفس الاصل والارومة ، ولا تجمعها نفس العوائد وخاصة منها « الحليمية » الذين كانوا يسكنون سفوح جبل مستاوة وأولاد فاطمة (وهاتان الفرقتان تعتبران من أشد الفـــرق مشاكسة وعدائية في الناحية) ولذلك فلا طائل من تأكيد تضامنها القبلي ·

22) ونفس الامر في متليلي « فسكان دوار تيلانو يرون ان الغابة العمومية ملـــك لهم ، وكانوا يصرون على حرثها ورعيها · وكان مركز تاماران لحراس الغابة يضاعـــف من تغريمهم واثارة حفيظتهم ·

23) أيكون من محض الصدفة اذا ما اعتبرت هذه الفرق الثلاث : أولاد علي ، وأولاد مهنة ، وأولاد محمد هي نفس الفرق التي اعتبرها ديبون متزعمة حركة الثورة ؟

24) في 25 مارس 1917 كتب الوالى العام ليتو Lutaud بلهجة فيها كثير من الاستخفاف يقول : « ان المجاعة التي تهدد باجتياح المنطقة بنهاية فصل الصيف ، ستدفع بالاهالي حتما الى التطوع بالجنود وبالعمال » ·

25) ان رقم 250 فى حد ذاته ليبعث على الدهشة ، لان نفس المفتش كان قد لاحظ بأنه كان هناك 153 متطوعا و 313 من المجندين ·

26) تم الابلاغ بقانون الاعفاء الجديد الاكثر تضييقا فى 16 أكتوبر · فلم يعد بموجبه اخوة المتطوعين ممن يشملهم الاعفاء . والحال أن أحد الابناء فى بعض الاسر قد تطوع فى الجيش ابتغاء سلامة اخوته ·

27) حكمت محكمة باتنة الجنائية فى 28 ديسمبر 1916 على طفلين بتهمة الخروج من طاعة القانون ، ويبلغ أحدهما 12 سنة بينما يبلغ الثانى 14 سنة · وكان شيخ الجماعة قد سجلهما فى قائمة من سيجندون سنة 1917 ·

28) يقول المخبرون . « ان الشيوخ (رؤساء العشائر) قد ارتكب معظمهم أعمالا شنيعة أثارت استياء الاهالى » . ويعطى بعض الوشايات أرقاما مشبوهة : فالآغا بوحفص قد يكون طلب 500 فرنك عن كل شخص لاعفائه من الجندية · وفى بريكة كان الكبراء يطالبون بعشرين فرنكا فقط ·

تفســـيرات الادراة الاستعمارية

29) أسمح لنفسى بالاحالة فى هذه القضية الى كتابى « **الجزائريون** المسلمون وفرنسا » المجلد الثانى الصفحات 1174 الى 1189 .

30) وثائق ما وراء البحر 9 H 5.

31) كانت المصالح الفرنسية قد صادرت بالجزائر فى سبتمبر 1916 ثمانية من هذه الكتيبات الدعائية المكتوبة باللغة العربية ، ولكنها أحصت فى الجملة 110 من المنشورات الدعائية الموالية لالمانيا ·

32) ذكره تقرير فلاندان (26 سبتمبر 1917) ·

33) كان يعلن قرب مقدم سليمان البارونى المعروف جدا فى مزاب الذى سبق أن زاره فى أبريـــل 1914 ·

34) أعلنت الدعاية الالمانية على مرات ثلاث أن النقيب خالد يتزعم حركة ثوريـــة فى الجنوب الجزائرى . وكانت عائلته قد التحقت حقا بتطوان . وحسب الماريشال ليوطى فان خالدا كان قد وجه الى عمه فى سنة 1915 رسالة « أكثر ما تكون اشتباها » بيد أنـــه كانت هناك رسالة سرية تزاوج الاولى ولا تترك أى مجال للشك عن مشاعر خالد الحقيقية نحونا ، وعن تعاطفه مع أعمال عمه ضدنا » (رسالة من كليمانسو 26 أكتوبر 1917) ·

35) دى لارتيق : **دراسة الاوراس 1904**

36) وثائق ما وراء البحار 8×222 ·

37) لاحظ تقرير عسكرى بسداجة انه « من المؤكد قد لعب دورا فى الحوادث اذ أنه ألقى القبض عليه وأودع السجن » · وقد حكمت عليه المحكمة التأديبية اداريا ، ولم يحكم عليه الا بسنة واحدة من السجن وألف فرنك غرامة ، مما يقوم دليلا على انه لم تقم براهين قاطعة لادانتـــه ·

38) ربما حكمنا على الحماس الساذج لهذا الشيخ الطرقى من خلال تصريحاته التى يقول فيها : « ألا ترون أن الحكومة تعامل كل رعاياها دون تمييز أو تحيز يقوم على أساس من الطبقة أو الاصل ؟ وأنها تحيطهم جميعا بنفس الرعاية والعطف وتنعم عليهم جميعا (...) وتغدق احسانها على مختلف طبقات السكان » ·

39) أنظر الخريطة فى وثائق ما وراء البحر 8×222 · والذى تجدر ملاحظته هو أنه كلما قدمت الاستخبارات أرقاما مختلفة نرى العسكريين يعتمدون الارقام الاعلى دائما ···

40) لقد قدمت البرهان العكسى ثورة دوار مقرة التى كانت مصممة رغم تحذيرات وتأنيبات مقدمة · غير أنه لا ينبغى أن نستنتج من ذلك أن حالات الخروج عن الطاعة كانت تحدث على الدوام ضد رؤساء الزوايا ، ولا أن نتشكك فى تشبث الشاوية العميق بدينهم ، ذلك التشبث الذى ربما يفوق مدى تمسك عرب السهول العليا بدينهم ·

41) يرى لوسيانى أن أولاد بوعون كانوا ما يزالون يذكرون فى سنة 1888 أن صفين كانا يقتسمان بلزمة قبل سنة 1830 . الا أن الجماعة الثائرة تجد نفسها مرة أخرى فى أحضان الصفين الاثنين : أولاد شليح وأولاد سيدى عبد الرحمن من جهة ، والبراكتة ، والحاليمية وأولاد فاطمة من جهة ثانية ، وما من شىء يدل على أن منازعات التحزب قد ظلت باقية بينهما ·

42) ونفس الشىء يمكن أن يقال بالنسبة الى أسرة موالية هى أسرة ابن ناصر من خنقة سيدى ناجى المتدينة · فهى المرتبطة بابن قانة قد أظهرت عجزها على الحيلولة دون قيام حالات من الخروج على الطاعة لدى سكان ولجة ششار · وعلى النقيض من ذلك ، دخل أولاد دراج فى ثورة بعد أن حاولوا عبثا استمالة الآغا دباح العجوز ، رئيس أولاد بوعكــاز المناوئـين لابن قانة الى قضيتهم ·

43) ان الصياغة المختصرة لبعض البرقيات لتوضح جيدا مدى هذه النماذج ٠ مثلا : « فى بلدية عين مليلة المتزجة ، ومن جملة 735 مسجلا للجندية ، أخذ 646 وتغيب 89 ٠ والشاوية وحدهم هم الذين قاوموا ٠ وقد امتثلت القبائل العربية دون صعوبة » (17 ديسمبر) وتقول برقية 22 ديسمبر : « لقد بعث دوار راس العيون اليوم بجميع مجنديه ٠ وكان هذا الدوار الذى يبلغ عدد سكانه 8000 ساكن قد أعلن منذ الايام الاولى أنه سيظل على ولائه : انه عربى اللسان » ٠ وثائق الحرب 5 ٠ ن ٠ 210 ٠

44) بلغ عدد المدارس الاهلية فى بلدية الاوراس المتزجة 8 من جملة 21 مدرسة التى تشتمل عليها دائرة باتنة ٠

الخاتمـــة

45) فى 12 فبراير 1917 ، التحق 6358 من المجندين من بين 6643 مدعوا للخدمة العسكرية فى عمالة قسنطينة ، و 4612 للخدمة الرافدة من بين 4796 (وثائق الحرب 4612)، ولم يسجل فى عمالة وهران الا خمس حالات استعصاء من بين 5652 مدعوا للخدمة العسكريـــة ٠

46) فى شهر يناير 1917 ، رفض المسجلون للخدمة العسكرية فى دوار مزالة (بلدية الصومام المتزجة) ومسجلوا دوار المعاضيد (بلدية المعاضيد المتزجة) الالتحاق بالجندية ، وفر ثلاثة من المجندين فى ندرومة الى المغرب ٠

توصيـــات الملتقى الثـانى عشر للفكر الاســـلامى

المنعقد بباتنة بتاريـخ : 11/04 شوال 1398 هـ (14/07 سبتامبر 1978 م)

لجنـــة النقطـــة الاولى

الاوراس أمجـــــاد وأنجـــــاد

اجتمعت لجنة توصيات النقطة الاولى وتتألف من السادة :

المهدى البوعبدلى،مكلف بمهمة وعضو المجلس الاسلامى الاعلى والمركز الوطنى للبحوث التاريخية بالجزائر · رئيسا ·

يحيى بوعزيز،أستاذ التاريخ بمعهد العلوم الاجتماعية بجامعة وهران مقررا ·

ويلسرد مادلونق Wilferd Madelung أستاذ بقسم لغات وحضارات الشرق الادنى،جامعة شيكاغو · عضوا ·

ابراهيم حركات،أستاذ التاريخ بكلية الآداب جامعة محمد الخامس بالرباط ·

الاستاذ مصطفى العسلاوى عضو المجلس الاعلى بوزارة العدل بالجزائر ·

الاستاذ عبد الرحمن العقون،أستاذ بوزارة التربية وعضو المجلس الاسلامى الاعلى بالجـزائـر ·

عبد الرشيد مصطفاى ؛ أستاذ بمعهد اللغة والادب العربى ـ جامعة الجزائـر ·

السيدة عسيلة فتيحة طالبة بكلية العلوم الحيوية جامعة قسنطينة ·

السيد عبد الكريم أبو الحليب ، طالب بمعهد العلوم الاجتماعية ـ جامعة قسنطينة ·

ـ بعد الاستماع الى محاضرت الاساتذة وتعقيباتهم ، وأسئلة الطلبة والرد عليها ؛
ـ ونظرا الى مكانة منطقة الاوراس فى التاريخ قبل الفتح الاسلامى وبعده ؛
ـ ونظرا لموقعها الجغرافى الهام ، الذى جعلها حلقة الوصل بين الشمال والجنوب والشرق والغرب ، وأهلها لان تكون حصنا للمقاومة عبر التاريخ من أقدم العصور الى اليـــوم ؛
ـ ونظرا لاحتوائها على آثار القاعدة الثانية للخلافة الاسلامية بافريقيا وهى طبنة ، وعلى مقبرة الفاتح الاسلامى الكبير عقبة بن نافع ورفاقه ؛
ـ ونظرا للعلاقات المتينة بين تاريخ هذه المنطقة ، والتاريخ الرومانى والبيزنطى فان اللجنة توصى بما يلى :
ـ أولا : الاهتمام باحياء التراث المحلى للمنطقة . بالبحث عن المستندات التاريخية من وثائق وآثار ، وابرازها ، والتعريف بها ، فى اطار اعادة صياغة تاريخ الجزائر من جديد من واقع هذه الوثائق والمستندات ·
ـ ثانيـــا : العمل على ابراز خصائص السكان وطبيعة حياتهم والتعريف برجالات المنطقة ودورهم فى احداثها وتطورها خاصة فى المجال الفكرى والثقافى ·
ـ ثالثـــا : التعريف بالمواقع الحاسمة ، وابراز دور عقبة بن نافع وموسى بن نصير وطارق بن زياد وغيرهم فى تثبيت أركان الاسلام والحضارة الاسلامية بهذه البلاد ·
ـ رابعـــا : الاهتمام بجامع عقبة كأقدم وأكبر أثر اسلامى بهذه البلاد وتوسيعه ، وانشاء مؤسسة علمية بجواره ·
ـ خامســـا : الاهتمام بالمقاومة المسلحة التى اشتهر بها سكان هذه المنطقة عبر التاريخ ضد الغزاة وخاصة خلال الفترة الرومانية والبيزنطية ، وذلك باعادة صياغتها من واقع الوثائق والمستندات التى تزخر بها مكتبات ومتاحف جنوب غرب أوروبا خاصة ايطاليـــا ·
ـ سادســـا : الاهتمام باحداث ثورة أول نوفمبر الكبرى عام 1954 التى اندلعت شرارتها الاولى بهذه المنطقة وذلك لجمع المعلومات من أفواه الذين عاشوها ومايزالون أحياء لتكون خير شاهد على أهمية ماضى هذه المنطقة ·

الدين والكتب المقدسة والعلم

د. موريس بوكاي
الرئيس السابق لعيادة الجراحة بالكلية (جامعة باريس)
وعضو الجمعية الفرنسية للامراض الباطنية، وعضو الجمعية الفرنسية لعلم الآثار المصرية (الفرعونية) - باريس (فرنسا)



ما الاسباب التى تدفعنا فى القرن العشرين الى الايمان بالله ؟ السؤال مطروح هنا مع اندراج عامل « الزمن » فى صيغته . أى مع أخذ بواعث خاصة بالعالم الحديث بعين الاعتبار . اذ ليس من المفارقات القليلة الشأن فى عصرنا هذا أن تكون البواعث ذات العلاقة بالعلم قادرة على صرف البعض عن الايمان بالله بينما تقوى لدى الآخرين نفس هذا الايمان .

فقد أرادوا فى الواقع أن ينزعوا ، باسم العلم ، كل قابلية تصديق عن الميراث الدينى الذى تركته لنا القرون السالفة فى أشكال متنوعة ، وفى أنحاء مختلفة . وأرادوا ألا يثقوا بالمعرفة الانسانية التى لا تفتأ تتقدم فى المعرفة العقلانية للحقيقة ، وألا يروا فى الدين الا نتاجا لخيال جامع .

وهكذا استبعدت قبليا كل وثيقة تتعلق بالايمان بالله : فهم يقبلون أن يأخذوا بالحسبان كل ما استطاع أفلاطون أن يكتبه عن سقراط الذى لا يفكر وجوده ، أما أن يحدثنا العهد القديم أو القرآن الكريم عن موسى ، أو أن تنقل الينا الاناجيل قصصا وأخبارا عن عيسى ، فان هذه النصوص لا يحكم عليها بالصدق وانما تنبذ جملة وتفصيلا بالنظر الى طبيعة الموضوعات المطروقة فيها • ذلك هو موقف المنكرين لما فوق الطبيعة (أو ما يتجاوز نطاق المحسوس) أولئك المنكرين الذين وجدت مواقفهم فى الغرب قبولا لدى مفكرى القرن التاسع عشر ، وأدت الى قيام نظرية المادية الملحدة •

وهناك ، بالمقابل ، من يؤمنون بالله ولكن كثيرا منهم ، للاسف ، فى البلدان الغربية ـ وهم وحدهم الذين أسمح لنفسى بالحكم عليهم فى هذا الصدد ـ ما يزالون ، بحكم تربيتهم السابقة وتعاليمهم الراهنة التى ما تزال متحجرة متصلبة ، لا يرضون بأن يتجرأ فكر موضوعى ، حتى ولو استمسك بايمانه كاملا على الاهتمام بأسس هذا الايمان المتمثلة فى الكتب المقدسة ، من أجل دراستها دراسة نقدية مجردة من أى حكم مسبق •

ولكن التطرف فى التشبث بالحرفية جعلت الايمان بالله فى البلدان الغربية وفى عصرنا هذا ، يتعرض لهذا السبب فى نظرى ، الى ضرر بالغ •

لقد كنا فى مرحلة ما من وجودنا ، نقبل دون مناقشة بكل ما نلقن اياه فى هذا الميدان : فالطفل يظل متأثرا حتى يبلغ سنا ما من عمره ، بالاعتبارات التى يحتل فيها الغموض مكانا بارزا ، وقابلا لكل ما يقدم له على أنه من الحقائق التى لا نزاع فيها • ويظل بعض الناس حتى وهم فى سن الرشد على هذا الخضوع لتعاليم الطفولة ، بل ويمنحون حيزا كبيرا فى معتقداتهم الدينية لكل ما هو من قبيل الحالات النفسية الخاصة والمشروعة مع ذلك • الا أن شعور الايمان ، يتعرض على العموم ، لهجومات قاسية منذ اللحظة التى يكبر فيها الفرد ، وتحصل له معلومات عن العالم الذى يحيط به ، وينظر باعجاب الى هذه الانجازات البشرية القائمة على المعرفة الدنوية التى تتقدم فى عصرنا هذا بصورة مذهلة ، فكيف لا تغرى المادية الجذابة الشاب العصرى وهو ماخوذ فى دوامتها ؟ •

لذلك ؛ فان الشعور الدينى بالغرب تحت التأثير السائد من اليهودية المسيحية ، ليشهد اليوم انحسارا كبيرا جدا • والترجمة المادية لهذا الهبوط قابلة للقياس بمنطلق الدقة : فنحن نجدها فى هبوط الاتجاهات أو الميول الدينية بين الشباب • واليكم لمحة عن ذلـــك :

تقول الاحصائيات الاسقفية الفرنسية انه كان بفرنسا فى سنة 1965 ما يقرب من 36000 قسيس ، وكان من الممكن لسلك رجال الكنيسة أن يتجدد بصورة مرضية بمتوسط عدد سنوى قدره 1500 من القساوسة الجدد ، الا أن هؤلاء لم يبلغوا فى سنة 1967 أكثر من 489 ؛ ومنذ ذلك العام أخذ عددهم ينخفض باطراد ليصل الى 136 فى سنة 1976 ، و 99 فى سنة 1977 • ثم ان عدد الطلبة المسجلين فى المدارس الاكليريكية من القلة بحيث يمكن معه التأكيد بأن عدد ما سيتم تكوينهم سنويا من القساوســـة فى السنوات القليلة القادمة لن يصل الى مائة ، الامر الذى يمكن معه القول أن الكنيسة بالنظر الى هذا التواتر ، والى العدد المتزايد سنويا من الاستقالات ، لن يكون لها فى غضون عقود قليلة سوى عدد ضئيل من الرجال •

ومن الاسباب الاساسية لهذا النفور من الحياة الدينية فى البلاد المسيحية فقدان الثقة فى الكتب التوراتية ، وفيما يلى بيان ذلك :

لم يكن يجرى الحديث حتى مجمع الفاتيكان الثانى (1962 ـ 1965) عن أصالة نصوص التوراة التى كان الناس يقبلونها على ما هى عليه حاليا باستثناء حالـــة اختصاصيين نادرين • من ذلك أنه ما من أحد كان يتجرأ ـ فيما يتعلق بالاناجيل ـ على أن يتشكك فى كونها تنقل الينا كلام عيسى بدقة واحكام : فهو ـ كما كان يقال ـ نتاج شهود مباشرين لرسالته • ألم تكن الاناجيل تدعى « مذكرات الحواريين » ؟ ولكن لائحة من لوائح مجمع الفاتيكان الثانى فى سنة 1965 لم تنح هذا النحو بصـــورة قطعيـــة •

غير أن هذا التصور قد هاجمته بعد سنوات قلائل من المجمع الاخير بحوث أخذت تظهر ابتداء من سنة 1970 وهى من انتاج لاهوتيين مسيحيين انفسهم • فقد قام هؤلاء بدراسة دقيقة للنصوص مستعملين كل العناصر التى تمنحها نهم المعرفة العصرية فى

مجال علم اللغة وعلم الآثار ، والتاريخ ... الخ ... فقد أصبح الناس اليوم يسلمون بأن الاناجيل الشرعية الاربعة ليست سوى ترجمة لما كانت تعتقده فى عيسى جماعات مختلفة لا تتفق فيه ـ كما يبدو من النصوص ـ على رأى واحد ، لان أحداثا من رسالته قد عولجت بصورة تختلف باختلاف نظرة أصحاب الاناجيل الناطقين بلسان تلك الجماعات • ان شروح الترجمة المسكونية الاخيرة للتوراة (العهد الجديد 1972) وهى عمل اشترك فى انتاجه أكثر من 100 اختصاصى من الكاتوليك والبروتيستانت لتصرح بذلك دون أدنى التباس أو غموض ، كما تعبر عنه أيضا أعمال مدرسة القدس التوراتية، هذا اذا اقتصرنا على أهمها فقط • وقد أثبتت مراجع دقيقة وعديدة عن هذه الدراسات فى كتابى « التوراة والقرآن والعلم » الذى نشر بالفرنسية فى سنة 1976 ، وبالعربية والانجليزية فى سنة 1978 •

بيد أن مجمع الفاتيكان الثانى كان قد استثنى ، فى الحقيقة ، العهد القديم ، اذ أكد فى التصريح المجمعى رقم 4 أن هذه الكتب « تتضمن نقصا » بل وحتى ـ باطلا ـ وتبين الاعمال الحديثة أنه من المشروع تقييم الاناجيل بمثل هذه التقييمات •

فكيف نتصور كون هذه الاناجيل لا تنقل الينا الا الحقيقة التى أوحى بها الله عندما نجد فيها مقاطع لا يقبلها العقل اطلاقا ، مثل هذه السلاسل من نسب عيسى التى هى من تلفيقات خيال « لوقا » « ومتى » المقدمين لنا قوائم لاجداد مختلفة والتى يتجلى فيها للعيان عدم صحة قائمة « لوقا » بالخصوص ، ألا ينسب هذا الانجليزى خمسة وسبعين جدا لعيسى منذ آدم ؟ ان ما نعرفه من الحد الادنى لقدم الانسان على وجه البسيطة ليجعل مثل هذا القول فى عصرنا هذا أمرا غير مقبول • فكيف يلقن الله للناس ما لا يطابق الواقع كما سبق أن لاحظ القديس أوغوستين بصدد أصالة نصوص الكتب المقدسة ؟

وكيف يمكن أن نقبل بتناقضات بين قصص سبق أن أوردت أمثلة واضحة منها كمثال « الحوخة المعجزة » التى قال لوقا أنها حدثت فى زمان عيسى ، بينما قدمها يوحنا على نها حدث سيحصل ـ كما قال ـ عندما يبعث عيسى من جديد ؟ وكيف لا نلاحظ أن انجيليا كيوحنا ينسى أن يصف مؤسسة سر القربان المقدس كما فعل « مرقص » « ولوقا»

« ومتى » : أثناء وجبة الغداء الاخيرة التى تناولها عيسى مع الحواريين ، تلك المؤسسة التى أوردها الانجيل الرابع مع ذلك بتفاصيل عديدة ؟ وكيف لا نلاحظ أن الانجيليين الثلاثة لا يذكرون وصية عيسى الروحية الطويلة جدا وهى موضوع مقاطع طويلة فى انجيل يوحنا ؟

ان جميع هذه التناقضات تجد تفسيرها فى البحوث العصرية التى أجراها الخبراء المسيحيون السابق ذكرهم ، والذين بينوا بأن صياغات متتالية لنصوص انجيلية قد لفقت انطلاقا من روايات سمعية عن عيسى كانت ذائعة لدى الجماعات المسيحية الاولية ، وأن ذلك كله أفضى الى الاناجيل الحالية • هكذا يقوم الدليل القاطع على تلاعب الرجال بالمعلومات الاولية بهدف انتاج نصوص مكتوبة يصفها سماحة الاب » كانجيسر « الاستاذ بمعهد باريس الكاثوليكى « بنصوص مكتوبة للمناسبة أو للنضال » لانها كانت نتيجة لصراعات بين جماعات متنافسة تسعى كل واحدة الى انفاذ نظراتها الخاصة •

وعلى صعيد العقيدة ذاتها ، ماذا نقول اليوم عن أعمال كتلك التى قام بها اللاهوتيون البريطانيون السبعة بما فيهم رئيس لجنة مذهب كنيسة أنكلترا والذين نشروا نتائج أعمالهم سنة 1977 تحت عنوان : (وهم الاله المجسم) ، وهو عبارة عن منازعة حقيقية لفكرة التثليث •

أما العهد القديم الذى يمكن لقصصه أن تكون متناقضة كقصص الخلق والطوفان أو يمكن ألا تتفق تماما مع المعلومات الحديثة عن تكون العالم ، أو مع معطيات التاريخ ، فكيف نأخذ بحرفيتها طالما أن تلاعب الناس بنصوصها خلال العصور بات أمرا واضحا للغاية ، وهكذا فقد أدت المعارف العصرية والمتنوعة والمطبقة على دراسة النصوص بالافكار الموضوعية الى عدم منح التوراة تلك الاصالة التى كانت تضفى عليها ، ودون برهان أو دليل ، فى القرون الماضية •

وعلى ذلك يمكن القول أن المعارف العصرية والاستعانة فى دراسة التوراة بالمعطيات المفيدة لهذا البحث أدت فى الغرب ، الى تغيير المفاهيم التى كانت الى ذلك الحين ، مفاهيم تقليدية ومسلما بها دون مناقشة • ولقد كانت النتائج المترتبة على ذلك نتائج معتبرة •

وكل شيء يحمل على الاعتقاد بأنه لا يمكن الخروج من القلق الحالى فى الغرب عن طريق صيغ تقريظية ليست كفيلة بازالته أبدا حين تكون هذه الصيغ موجهة الى عقول تفكر كعقول الشباب المتعلم فى عصرنا هذا .

والانتقال من التشكيك فى أصالة مجموع الكتب اليهودية المسيحية بواسطة معلومات عصرية الى رفض الايمان بالله هو ما يفعله ـ لسوء الحظ ـ كثير من العقـــول المضطربة بفعل هذه الاكتشافات والتى تجهل أو لا تريد الاعتراف بأن وحى الله لا يقف عند حد عيسى . وهم اذ يرفضون اعتبار ما يمكن أن يقدمه لهم الاسلام ، يصلون الى الاعتقاد بأن المعارف الدنيوية تقدم المفتاح لجميع المشاكل ، وأن العلم القوى جدا قد سبق نهائيا كل ايمان بالله .

وقبل أن أعرف بزمن طويل ما يمكن أن تقودنى اليه أى دراسة للاسلام الى الاكتشاف فيما بعـد ، كنت دائم الاعتقاد بأن المعرفـة العلمية كانت ـ مهما قيل فيها ـ كفيلة جدا بأن تعود الى التفكير فى وجود الله .

وفعلا فنحن اذا تساءلنا دون أى تحزب أو فكرة مسبقة عن التعاليم الميتافيزيقيـة المترتبة على بعض معارف عصرنا كمعرفة الجزء الذى لا يتجزء (متناهى الصغر) أو مشكلة الحياة ، فاننا سنجد كثيرا من الاسباب التى تدفعنا الى تركيز التفكير فى هـــذا الاتجاه . وحين نأخذ بعين الاعتبار ذلك التنظيم العجيب الذى يقف وراء نشوء الحياة ، وبقائها ، أفلا يبدو عامل الصدفة كما لو كان أقل احتمالا أكثر فأكثر ؟ ألا يؤيد التعقد البالغ للكائنات العليا وجود تنظيم محكم جدا يقف وراء هذا الترتيب العجيب لظواهر الحياة . لقد وجدت هذا التوافق بين الدين والعلم فى تفكير يقوم أساسا على معطيات مادية ، لقد وجدتها ـ والحمد لله ـ يوم أن شرعت فى دراسة القرآن وبحثت طويلا ، ووجدت فى قراءته تجسيدا جديدا لهذا التوافق بين الدين والعلم ذلك التوافق الذى كان يمكن لدراسة النصوص التوراتية من حيث المنطق أن تصرفنى عنه .

ولنقل من الآن بأن الدراسات الموضوعية لنص قرآنى على ضوء المعارف العصرية أى تطبيق مكتسبات العلم على دراسة الكتاب المقدس « قد جعلتنى أكتشف كلاما يتعلق

بظواهر طبيعية عديدة لا يمكن أن ننسبها الى انسان نظرا لما نعرفه عن تاريخ العلوم . ولقد تجلى لى أن مكتسبات العلم ضرورية لفهم كثير من الآيات وان دراسة القرآن على ضوء المعارف العصرية تقود من جهة أخرى الى اكتشاف كلام قرآنى سابق لزمانه بما يزيد عن ألف سنة . ان ما نعرفه عن تاريخ العلوم ليجعل من المستحيل أن يكون انسان ما قبل نحو من أربعة عشر قرنا هو قائله ، وحيث أن القرآن يضع أمام تفكيرنا تأكيدات تمثل تحديا للتفسير البشرى ، فانه يبدو أن كل تناقض بين الدين والعلم قد أبطله هو بالذات

وكيف نعجب لوجود مثل هذا الكلام ألقرآنى حيث نتأمل هذا الحديث النبوى : « أطلب العلم من المهد الى اللحد » ، أو هذا الحديث النبوى الآخر . « أطلب العلم ولو فى الصين » . بهذا نفسر دون صعوبة ذلك التقدم العلمى العجيب الذى شهده العالم الاسلامى فيما بين القرن الثامن والقرن الثانى عشر الميلادى ، بينما لم نكن نجد لدى البلدان المسيحية سوى التقليد المطلق مع المدرسة اللاهوتية السائدة ، وركود المعرفة . وفى عهد قرطبة الزاهر ، كان الناس من مختلف بلدان أوروبا يؤمون جامعتها الشهيرة للتزود من العلوم العربية والاغريقية والهندية والفارسية .

ان الوقت المسموح به لا يمكننى من التوسع فى هذه المقابلة بين القرآن والعلم بالقدر الذى يتطلبه الموضوع لذلك أحيلكم على كتابى لمزيد من التفاصيل وانما سألح فقط على بعض النقاط الخاصة .

أرجو أن أكون قد بينت بما وصفته فى البداية كيفية نزول النص القرآنى ، ولكيفية جمعه وتبليغه وبما ذكرته من وجود محفوظات قديمة للكتاب ، ان النص الموجود اليوم بين أيدينا هو عينه الذى كان متداولا فى فجر الاسلام . فهذا اليقين شرط أساسى لصحة المقابلة بين نص القرآن والمعارف العصرية .

هناك عنصر هام يكمن فى المقارنة بين نصوص القرآن ونصوص التوراة فيما يتعلق بالخلق على ضوء التصورات العامة الحديثة عن خلق الكون وتصوره ، فنحن لا نجد فى القرآن ما نجده فى التوراة من أخطاء وهى ملاحظة تقضى نهائيا على الفرضية التى سبق

أن أيدت فى الغرب ـ ودون أى حجة ـ والتى مفادها أن ما فى القرآن يكون قد نقله انسان ما من التوراة .

ماذا يفيدنا القرآن عن خلق العالم ؟ ان الكون ـ كما تسمح باعتقاده معلومات الفلك الحديث ـ قد تكون من كتلة أولية وحيدة ، هى السديمية الابتدائية التى تجزأت بعد ذلك ، والقرآن يروى لنا ذلك بدقة كما يحدثنا عن التطور الموازى للسموات وللارض ، وعن تعدد السموات والاراضى ، أى وجود عوالم متعددة من الاراضى شبيهة بكوكبنا وهو ما يعتبره الفلكيون المحدثون أمرا محتملا جدا خارج النظام الشمسى .

ألم تتأكد مفاهيم علم الفلك ، ومحتوى السموات ، والنجوم والكواكب السيارة ، وحركات الاجرام السماوية ، والتوضيحات الدقيقة بشأن الليل والنهار اللذين يتبع أحدهما الآخر فى حركة تذكرنا بالعمامة المكورة حول الرأس كما يفيده فعل « كور » عن غزو الفضاء فى عصرنا هذا ، وفى عصرنا هذا فقط . ؟

لقد خصصت فى كتابى عدة فصول للمعلومات التى يفيدنا بها القرآن عن الارض ، ولا سيما عن دورة الماء فى الطبيعة وتكون التعاريج ، وعن مفاهيم تهم العلوم الطبيعية ، والفيزيولوجيا، وتوالد البشر . وكل هذه الآيات تفرض القول على كل انسان موضوعى، صادق النية ، أنه يستحيل على انسان كان يعيش فى العصر الذى نزل فيه القرآن أن يعبر بمثل هذا الكلام من تلقاء نفسه ، وقد علقت أهمية كبرى على هذه الوقائع الى درجة أنى قدمتها فى نوفمبر 1976 فى أكاديمية الطب الوطنية بباريس ملحا على أنه بناء على ما نعرفه عن تاريخ العلوم ، لا يوجد تفسير بشرى لوجود مثل هذه التأكيدات فى القـــرآن

وأنتهز فرصة ذكر هذه الرسالة الموجهة الى مجتمع عالم . لأبين باختصار بأنى استعملت فى كتاب لى بعنوان « التوراة والقرآن والعلم » عبارة « العلم » للدلالة على ما أسميه « المعارف العصرية » فى عنوان فرعى للكتاب ، وقد أوضحت بأن عبارة المقارنة الدنيوية تعنى أحداثا تثبتها وتؤكدها التجربة ، وليست قابلة للنقض فيما بعد ، فى حين أن العلم المتغير بتغير العصور ، غالبا ما يضع نظريات صالحة لزمان معين من أجل

تفسير ظاهرة ما أو مجموعة ظواهر ، ثم امكان التخلى عنها فيما بعد لتبنى مفاهيم أو تصورات أقدر على تفسير ما يسجل من ملاحظات ·

وأود أن أؤكد أخيرا جدوى القيام ، على ضوء المعارف العصرية ، بمقارنة قصص قرآنية وقصص توراتية وردت فى نفس الحدث · وقد قمت بهذه المقارنة على وجه الخصوص فى موضوع الخلق والطوفان وخروج موسى من مصر ، وسأقتصر على القول بأن الطوفان مثلا قد حددت التوراة زمانه فى عصر لم تحصل فيه أية كارثة كونية لاسباب تاريخية باتت معروفة جيدا فى عصرنا الحديث ، فى حين أن القصة التى أوردها القرآن للطوفان بوصفه عقابا سلطه الله على شعب نوح بسبب كفره ، لم يحدد له زمان ، قصة لا يرقى اليها أى نقد من هذه الوجهة ·

فهل استطاع الناس ، فيما بين الحقبة التى وضعت فيها قصة التوراة ، والعصر الذى أوحى فيه القرآن الى المعرفة الانسانية ، أن يحصلوا على معارف عصرية عن هذا الموضوع ؟ من المؤكد أنهم لم يحصلوا على شىء من ذلك ، لان التوراة كانت هى المرجع الوحيد فى هذا الصدد طيلة الفترة الممتدة ما بين العصر أو العصور التى تمت فيها صياغة القصص التوراتية ، والعصر الذى نزل فيه القرآن · ولا وجود لأى معلومات كانت عن أى معرفة انسانية يمكن لها أن تكشف عن النقاط التى يختلف فيها القصص التوراتى اختلافا بينا مع التاريخ · فكيف يتسنى لرجل ـ اذا صح أنه هو الصانع للقرآن أن يستبعـد منه كل ما لا يقبلـه العقل فى العصر الحديث وأن لا يعتمد من الاحداث والاخبار الا ينِد عن كل نقد من الوجهة العلمية ؟ وكما تصدق هذه الفكرة على قصة الطوفان ، تصدق أيضا على ما جاء فى القرآن بصدد موضوعات أخرى ·

ولا مناص من التسليم هنا بتفسير آخر غير التفسير البشرى لا يمكن الا أن يكون وحيا من الله جاء لتصحيح ما اقترفه الناس من أخطاء فى صياغة الكتب السماوية السابقة · فنحن قد وضعنا القرآن ، اذن أمام وضعية تدعو بصورة خاصة الى التفكير فى العلاقات بين الدين والعلم ، وانه لتعبير مفاجىء لكثير منا عن مدى تداخل مجالات أحدهما فى مجالات الآخر ·

وكانت التوراة ـ العهد القديم والعهد الجديد ـ قد وفرت مجالا للتفكير فى تعارض صارخ بين بعض مقاطع نصوصها ، وبين المعارف الحديثة ، وما كان جديرا بالبحث عنه هو سبب وجود هذه التعارضات فى نصوص تنقل الينا وحى الله · على أن ما يجرى مجرى اليقين منذ أن حصلت لنا مفاهيم كانت الى ذلك الحين ، تعوزنا عن أصول نصوص التوراة وعن صياغتها التحريرية ، وبلوغها الينا ، هو أن دور التلاعبات البشرية بها دور كبير جدا ، وأن كثيرا من النصوص هى كتابات المناسبة الظرفية مثل قصة التكوين الكهنوتية ، أو حتى كتابات النضال ، كما يقول سماحة الاب « كننجيسر » فى وصفه للاناجيل ، وفى هذه الظروف تجد حالات عدم التوافق مع المعارف العصرية تفسيرها الكامل والذى كان يمكن أن يدهشنا هو عدم تضمنها لمثل هذه الحالات المتنافية ·

أما القرآن فانه لايتضمن شيئا مما يمكن للعلم أن يرفضه ، لان كلامه وقائع ثابتة مؤكدة ، وغير قابلة للتغير ، كما ان عددا من المعلومات الواردة فيه لا يمكن فهمها الا فى عصرنا هذا · اذن فالمقابلة هنا بين الكتاب المقدس والعلم تتراءى لنا بوجه آخر فلم يعد هناك مجال للفصل بين الاثنين · وهذا مخالف بصورة خاصة لما يعتقده مفسرون للتوراة مهما كانو بارزين مثل الاب « دوفو » (Devaux) الذى كان يرفض القيام من حيث المبدأ بأى مقارنة مع المعارف الحديثة مما قد لا يؤدى ـ كما كتب ـ « الا الى معارضة غير حقيقية ، أو الى توفيقية مصطنعه » ·

ألا يقضى بنا الامر ـ باتخاذ مثل هذه المواقف ـ الى كوارث ؟ لابد من ادراك الواقع البديهى والاعتراف به ، ألا نشهد فى البلدان الغربية التى يغلب فيها التأثير اليهودى والمسيحى عجزا كاملا لاساتذة الفكر الدينى على مواجهة المادية بمعارضتها معارضة فعالة تقوم على حجج دامغة من شأنها أن تقف سدا منيعا فى وجه أمواجها العارمة ؟ ربما كان لدينا الكثير مما يمكن أن نقوله عن تطور الافكار حيال هذه المشكلة فى البلدان الاوروبية واللاتينية منها بالخصوص ، حيث يعد الهبوط القوى للميول الدينية أقوى دليل على هذا الانهيار · وعندما نقارن هذا الوضع بما يجرى فى الوقت ذاته بالبلاد الاسلامية ، نلاحظ أن تطورا معاكسا للاول هو الذى ترتسم ملامحه هنا · فالاسلام

هو الدين الوحيد الذى يشهد توسعا وانتشارا فى الآونة الراهنة ، ومن المهم أن نلاحظ اذن أن هناك ، من جهة أخرى ، ديانات تتقهقر فى عصرنا هذا من حيث توزعها العددى ، وأن هناك من جهة ثانية ، ديانة تتقدم على المستوى العالمى ٠

وسواء أكنا مؤمنين أم متشككين أم مسيحيين أم يهودا ، فان هذه المعلومات من الكتب المقدسة فى مواجهة العلم ، لا ينبغى أن تترك أحدا فى موقف اللامبالاة بسبب عناصر التقييم الجديدة التى تقدمها لنا ، وامكانيات المستقبل التى ترتسم فى الافق ٠

ان اشتمال القرآن على جميع هذه العناصر التى هى من الوقائع الراهنة ٠ والتى أخذت فى هذا القرن العشرين ، بفضل المعارف الحديثة ، بعدا كان مجهولا الى هذا الحين ليحملنى ـ وأنا أختتم عرضى هذا ـ على دعوتكم الى التدبر فى هذه الآية الكريمة من سورة البقـــرة : « **كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون** » ٠



الملتقون لدى جسر الغوفى الذى فيه الرمان !

لجنـــة النقطـــة الثانيـــة

الـــــدين والعلــــم

1 ـ د• **محمد سعيد رمضان البوطى** (الاستاذ بكلية الشريعة بجامعة دمشق) رئيسا

2 ـ د• **عبد الحليم عويس** (الاستاذ بجامعة الامام محمد بن سعود بالرياض) عضوا

3 ـ د• **محمد رشيدى** (الاستاذ بالجامعة الاندونيسية بجاكارتا) عضوا

4 ـ د• **التهامى النقرة** (الاستاذ بالكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين بتــونس) عضوا

5 ـ د• **سليمان آتش** (الاستاذ بكلية الالهيات بجامعة أنقرة) عضوا

6 ـ د• **سعيد شيبان** (الاستاذ بمعهد العلوم الطبية بالجزائر) عضوا

7 ـ د• **خـير الله عصار** (الاستاذ بجامعة عنابة بالجزائر) عضوا

8 ـ د• **محمد أركون** (الاستاذ بجامعة السربون الجديدة بفرنسا) عضوا

9 ـ **انعام الله خان** (الباحث بجامعة القائم الاعظم بباكستان) عضوا

10 ـ **الشيخ أحمد حمانى** (رئيس المجلس الاسلامى الاعلى بالجزائر) عضوا

11 ـ د• **ايفادى فيتراى مايروفيتش** (الاستاذة بكلية البنات بجامعة الازهر بمصر) عضوة

12 ـ **الطالب موسى عبد العزيز** عضـــوا

31 ـ **الطالب موسى قفاف** عضـــوا

14 ـ **الطالب أونيس قرقاح** عضـــوا

ان اللجنة الثانية التى أنيط بها معالجة النقطة الثانية من نقاط ملتقى الفكر الاسلامى الثانى عشر « الدين والعلم » ، فى ضوء اطلاعها على المحاضرات التى ألقيت ، واستيعابها للمناقشات التى دارت ، وتعرفها على العناصر الاساسية للموضوع ، وأهمها : الكتـب المنزلة،وبخاصة منها القرآن والعلم ، ومدى صحة ما يقال اليوم من أطراف مختلفة : الدجال المشعوذ والملحد عن اعتقاد أو جهل ، الذى يزعم أن الدين ينافى العلم ولا يقبله العصر ، ويتساءل هل الدين دليل خير أم هو مخدر للفرد والمجتمع : أم لا هذا ولا ذاك ؟

انه فى ضوء استيعاب اللجنة لهذه العناصر التى يتضمنها الموضوع ، وفى ضـوء نتائج المحاضرات والمناقشات وروح الملتقى العامة ، فى ضوء هذا كله انتهت اللجنة الى تقرير ما يـــلى :

1 ـ ان العلم هو ادراك الشىء على حقيقته ببرهان ، نظريا كان أو تطبيقيا ، وأن الاسلام كما أتى فى القرآن والسنة الصحيحة هو الخضوع المطلق للحقيقة الكلية ٠

2 ـ ان المقارنة بين الدين والعلم تؤكد أن العلم نبراس يهدى الى الدين الحق وأن القرآن الذى هو المصدر الاول للدين يتفق تماما مع أى حقيقة علمية تجاوزت مرحلـــة النظريات الخاضعة للمناقشة واعادة النظر ، علاوة على انه يحث الناس جميعا على استعمال كل وسائل الفكر والنظر للوصول الى الحقائق الثابتة ٠

3 ـ وان الدين فى معناه الحقيقى هو الذى يبث فى العلم روحه ، ويمكن للانسان أن يقطف ثمراته الصالحة الضامنة لسعادة الانسانية ، فلا سبيل لتلاقى الناس على عمارة هذا الكون ، ولا لسعادتهم خارج نطاق الدين والعلم مجتمعين ، وانطلاقا من كل ذلك ، انتهت اللجنة الى التوصيات التالية :

1 ـ ضرورة دعم مكانة الدين فى النفوس والعقول ، ونشر الدين الصحيح والتربية الاسلامية فى مراحل التعليم المختلفة ٠

2 ـ الاهتمام بتلقين التلاوة الصحيحة للقرآن ، وحفظ ما أمكن منه ، بدءا من المرحلة الدراسية الاولى ، بحيث يستطيع الطالب التزود بزاد كبير من القرآن وعلوم الدين ٠

3 ـ الاهتمام بتدريب التلاميذ على التلاوة الصحيحة للقرآن ، بحيث يتقنون فى آخر المرحلة الابتدائية أكبر قدر ممكن من سور القرآن ، مع حفظ وتفسير ما يتيسر منه ، وذلك بأحدث الطرق التربوية ٠

4 ـ تزويد الطلاب فى المرحلتين المتوسطة والثانوية بقدر كاف من الثقافة الاسلامية وعلوم الدين ، بحيث لا تقل الحصص الدراسية عن ساعتين أسبوعيا ، كما هو الشأن فى معظم بلدان العالم الاسلامى ٠

5 ـ الحفاظ على مراكز الثقافة والعلم الاسلامى المتخصصة ، وتنمية الروافد التى تغذيها بالعناصر البشرية ، كالمعاهد الدينية المتوسطة والثانوية .

6 ـ اعتبار مادة التربية الأسلامية مادة رسوب ونجاح أساسية فى المراحل المختلفة حتى لا يستهان بها كما هو حاصل فى بعض البلدان .

7 ـ العمل بما أقره اتحاد الجامعات العربية فى عام 1977 م من ضرورة تدريس مادة الثقافة الاسلامية فى كافة كليات الجامعات العربية .

8 ـ تدريس التاريخ المقارن للاديان فى الكليات الاسلامية المتخصصة .

9 ـ تبادل الخبرة بين الدول الاسلامية فيما يتعلق بمناهج التربية الاسلاميـــة ووسائلها التعليميـــة .

10 ـ احياء رسالة المسجد باعتباره مؤسسة تعليمية وتربوية وذلك لبث الوعى الاسلامى الصحيح عن طريق الدروس العلمية ومجالس التذكير بالقرآن الكريم .

11 ـ انشاء كليات مختصة بالعلوم الدينية فى البلاد العربية التى لم تتوافر فيها بعد هذه الكليات ، مع ضمان روافدها البشرية .

12 ـ وفى الاطار العام لمحيط التربية نوصى بأن يبعد عن رسالة التربية كل من عرف بمجاهرته بالالحاد أو الاستخفاف بالقيم الدينية أو الدعوة الى ذلك .

13 ـ تبسيط العلوم ، وتقديمها فى كتيبات مشوقة جذابة ، وبأسلوب سهل ، تستطيع أن تفهمه جماهير المثقفين ، مع تيسير تقديم التراث العلمى الاسلامى بالطريقة نفسها ، للربط بين العلم الحديث وتراثنا العلمى .

14 ـ العمل بكل الوسائل على اعادة الكفايات العلمية المسلمة التى هاجرت الى البلاد الاجنبية ، ويستفيد منها غيرنا ، بينما الامة الاسلامية فى أمس الحاجة اليها .

15 ـ تشجيع تبادل الكتب الاسلامية والعلمية بين البلاد العربية والاسلاميــة باعتبار الكتاب وسيلة هامة من وسائل الاتصال الحضارى ، وتحقيق الوحدة الفكرية ، ورفع كل الحواجز التى تحول دون تحقيق ذلك ، وعدم النظر الى الكتاب على أنه وسيلة تجارية بل خدمة ضرورية ·

16 ـ استخدام كل وسائل الاعلام فى بث الوعى الدينى والعلمى الصحيحين ، ومحاربة البدع والخرافات والاباطيل والآفات الاجتماعية ، والانحرافات الخلقيــة ، وتخصيص حصص يومية بالاذاعة والتلفزة لتحقيق هذا الهدف ·

17 ـ وأخيرا ، فاننا نوصى بالاكثار من المؤتمرات الاسلامية التى تعنى بدراســة العلاقات القائمة بين الدين والعلم ، على أن ينهض بذلك علماء مسلمــون من كــل الاختصــاصات ·

تكـــوين (وحـــل) الاســـرة العصريـــة

د٠ ادوارد شورتر
أستاذ التاريخ بجامعة طورنطو
ـ كندا ـ



دعونى أستهل هذا الحديث بأن أخبركم بالمكان الذى أعيش فيه ، فأنا أعيش فى مدينة طورنطـــو ، شـــارع ماركهم ، وماركهم شارع هادىء يقوم على جنباته خط من الاشجار الوارفة ، وتمتد فيه منازل جميلة مبنية على طراز فيكتوريا ، ولها شرفات تطل على الشـــارع ، وسقوف مسطحة ٠ هل تتخيلون هذه الصورة فى أذهانكم ؟ اننى أحب الجلوس على شرفة منزلى لأتأمل الناس فى غدوهـــم ورواحهـــم ٠

اننى أرى فى الشارع منتجين يصورون فيلما للتلفزيون ، أرى سيدة وابنتهـــا وصديقا لها ٠ وفى أسفل الشارع أشاهد شابين من ذوى الشذوذ الجنسى ، أحدهما ذا مظهر مسرحى يلبس أحذية عالية الساق ومعه صديق له فى ثياب طيار ٠ وعلى يمينى امرأة أخرى يرافقها ثلاثة أطفال أنجبتهم من زوجين مختلفين ٠ انها تعيش وحـــدها .

ان ولدى يتردد على منزل امرأة أخرى ليقوم بالعنايه باطفالها عندما تخرج مع صديقها لتمارس رياضة التزحلق على الثلج ـ وأما زوجها فقد تخلى عنها ، وفى مقابل منزلى مباشرة يقف المنزل الوحيد الذى تسكنه أسرة عادية فى منطقتنا ، انها أسرة مستقيمة السلوك فيما عدا كون هذا هو الزواج الثانى للرجل ، وفيما عدا أن للاسرة نزيـــلا يتناول الطعام على مائدتها كل ليلة ٠

وهكذا تـرون اننى أعيش فى بيئـة غير عادية وفى حى ، سلوك الناس فيـه غير طبيعى ، ولكننى لست الوحيد فى ذلك ٠ عقدنا اجتماعا فى قسم التاريخ فى جامعـة تقع شرق البلاد ، وفى نهاية الجلسة أعلن رئيسها أن حفلة ستقام فى الكلية فى هـــذا المساء وأنتم كلكم مدعوون اليها فى رفقة زوجاتكم » ٠ ولكن العبارة الاخيرة كانت مثارا للضحك بين العديد من الحاضرين ، بل بعضهم وجدها نكتة مستظرفة ٠ فان بعض الحاضرين يعيشون مع سيدات لم يتزوجوا بهن ، والبعض الآخر من الاساتذة نساء ليس لهن أزواج ! وفى جميع أقسام هذه الادارة لم يكن يوجد سوى عدد صغير من الزوجات اللائى يستطعن حضور حفلة مسائية ٠

وهكذا فقد يبدو أن المؤرخين فى كليتنا جماعة من الحمقى ، ومع ذلك ، فأنا واثق من أن هذه القصة قد تنطبق على حالات كثيرة من كليات العلوم الغذائية والحيوانية ، وكليات الطب ، فى جميع الجامعات المنتشرة فى عرض البلاد ٠

ورب قائل يقول ان كثيرا من الناس يعيشون فى خلايا عائلية دون أن يعتريهـــا الضلال والفساد ودون أن يحدث فيها هذا الشقاق الذى يجعل المرأة تذهب للتزحلق على الثلج مع خليلها ٠ وهذا صحيح أيضا ٠

والنقطة التى أريد أن ألفت النظر اليها هى أن أحياء مثل الحى الذى أسكنه لا تمثل الحاضر بقدر ما تمثل المستقبل ٠ والاضطراب الذى لحق بحياة الخلية العائلية من النوع الذى أشاهده من شرفة منزلى لم يمس الا أقلية صغيرة من السكان ، ولكنه اذا كانت للاحصاءات التى صدرت مؤخرا قيمة الدليل والمؤشر ، فان هذه من موجة المستقبل ٠

ان هذه الحالة لا تدعو الى الغبطة ، لانه مهما كانت عيوب الخلية العائلية ، فهى قد كانت دائما مصدرا لرضى الكثيرين · وأنا شخصيا لا أشعر بأى سرور حين أقف أمامكم لاخبركم بأننا تحت رحمة موجة عارمة من التغيير فى تاريخ الاسرة ، ستتكشف عــن أسلوب جديد لحياة الاسرة ، ولكن هذه هى الحقيقة · ونحن قد عرفنا فى غضون السنوات العشر الاخيرة ثورة فى حياة الاسرة ، تشبه تلك الثورة التى حدثت فى الشعور منذ قرن ونصف ، فان ما حدث فى حياة الناس الشخصية فى سنة 1800 أو 1850 ، يمثل تغييرا رئيسيا تاريخيا فى حياة الاسرة · ونحن الآن مقبلون على ثورة مماثلة · هذه هى القضية توجد مدرسة فى علم الاجتماع تعارض هذا التحليل المتشائم فهؤلاء الباحثون لا يفتأون يرددون القول بأن الاسرة الحديثة فى صحة جيدة أساسيا ، وعلى خير ما يرام ، وأنه على الرغم من كل المشاكل التى تواجهها ، مثل الطلاق ، فان « الاسرة الامريكية ستبقى » (وأنا أستعير هنا عنوان كتاب ظهر مؤخرا فى الموضوع بقلم مارى جوبانز ، ويمثل النزعة السوسيولوجية التى ذكرتها) ·

وهذه المواقف السوسيولوجية تعتمد خصوصا على ما هو ملاحظ من أن جميع الناس تقريبا ، يتزوجون « على الاقل مرة واحدة » وأن كل امرأة تنوى أن تنجب طفلا فى فترة ما من حياتها ـ وكذلك يستخلص أولئك الباحثون من هذا الاتجاه ان الامور لم تتغير بالقدر الذى يبدو لاول وهلة ·

وأنا هنا لا أزعم أن خلية الاسرة مقضى عليها حتما وأن الامر سينتهى بكل انسان الى أن يعيش وحده · وعلى العكس ، فنحن سوف نستمر على تكوين عائــلات فى كل مكان ، ولكن هذه العائلات ستكون مختلفة عن النوع المتعــارف · تلك هى القضية ·

والاسرة القديمة التى تربى معظمنا فى أحضانها ليست الشكل الوحيد الممكــن للاسرة ، والنمط الذى سبق هذا الشكل كان يختلف عنه اختلافا كبيرا ، وأنا أسمى ذلك بـ « النمط التقليدى » ، والشكل الجديد للاسرة هو نوع جديد من حياة الاسرة ·

وكذلك نرى أن الاسرة قد مرت فى نموها التاريخى فى الغرب بثلاث مراحــل : المرحلة التقليدية ، والمرحلة الحديثة ، وما بعد المرحلة الحديثة ، كيف وقع هذا التطور ؟ ولماذا يقع الناس فى الحب الآن أكثر من ذى قبل ؟ ولماذا يغيرون حفاظ الطفل بانتظام

أكثر من ذى قبل ؟ ولماذا يخرجون للسهرة أكثر من ذى قبل ؟ فهذه الامور كلها ذات صلة بالخلية العائلية وبتحولات جذرية فى حياتنا الشخصية ، ولكن ماهى الاسباب فى كل هذه التطورات ؟

كان نموذج الحياة العائلية قبل الثورة الصناعية يختلف اختلافا كبيرا عن النمط الذى يقدمه لنا الاستعراض المسرحى المعنون « أوز وهاريت » ·

وفى المكان الاول ، كانت الزيجات تعقد بطريقة تقليدية ولا يعير الحب أى اعتبار ، ومن ثم ، فهى أبعد ما تكون عن الرفقة التى تقوم على علاقات الحب وهو النمط السائد فى الزيجات الحديثة · وقد كان الرجل فى ذلك الوقت يختار امرأته عن أساس سعة مزرعة أبيها (وبالتالى ضخامة المهر الذى تدفعه له العروس) ، أو على أساس ضخامة جسمها وقوتها العضلية التى تمكنها من القيام بأعمال فى الحقل الزراعى · ونحن يجب أن لا يغيب عن أذهاننا أن المرأة فى بعض المناطق ، مثل جنوب ايطاليا ، هى التى تزاول أعمال الحرث وهى المسؤولة عن اعالة الاسرة ، وبالتالى ، فقد كان من المحتم أن تكون قادرة على الاعمال التى يقوم بها الثور ·

وأمثال القرويين فى هذه المناطق مليئة بالتحذير من المرأة الجميلة المتقلبة المزاج والتى لا تحب أعمال الحقل · وكذلك كانت الزيجات فى تلك العصور لا تراعى جانب العواطف الا قليلا ، ولم يكن الرجل والمرأة يخرجان ويسيران يدا فى يد أيام الخطبة · ومتى اعترض الوالدان على اقتراح بالزواج ، فما على الشاب والفتاة الا أن يتخليا عن فكرة الزواج كلية ، بدلا من أن يهربا ويتعرض كل منهما لحرمانه من حقه فى الارث فى الوقت الذى ينتصر فيه حبهما ·

وعندما يتم الزواج فعلا ، يكون السلوك العدائى القائم على استعمال العنف هو النمط السائد فى حياة الاسرة · فنحن اليوم نغضب عندما نسمع بضرب المرأة ، ولكن ضرب المرأة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، كان قاعدة مقبولة فى المجتمـــع ·

فقد كان من الضرورى تعليم المرأة أن تقبل سلطة زوجها · وقد كان نموذج العائلة التى يسيطر فيها الاب على الزوجة والاطفال ، على غرار ما يجرى فى فرق العمل ، هو النموذج الذى كان سائدا فى المجتمع كله · وكما كان الاب يحكم الاسرة ، كان الملك يحكم بنفس الطريقة البلد كله ·

وفى بعض الحالات كانت الادوار تنعكس فى الاسرة التى لا تقوم على الحب فكانت المرأة تضرب زوجها · وبالطبع ، فان الذنب فى مثل هذه الحالة هو ذنب الزوج الذى يصر على اختيار امرأة مفتولة العضلات فى الوقت الذى يكون فيه هو بنفسه صغير القامة ضعيف البنية ! ونحن نعثر فى الارشيفات على شكاوى من الازواج الذين ضربتهـــم زوجاتهـــم ···

ومتى حدث ذلك كان عارا ووصمة ، حيث أن استيلاء المرأة على السلطة بهذه الطريقة كان يتعارض مع الفكرة السائدة بأن الرجل هو صاحب الكلمة العليا فى أسرته · وكذلك تقوم مظاهرة صاخبة (وأحيانا مع موسيقى غليظة) حول المنزل الذى خرجت فيه الزوجة عن الطاعة والعرف ، ويضرب الناس أثناءها الدفوف والابواق · وعند ذلك يستولون على المرأة وزوجها ويجبرانهما على الركوب على ظهر حمار ، وظهر كل منهما مسند الى ظهر الآخر ، يشربان الخمر ويمسح فماهما بذيل ذلك الحيوان ·

وهذا يفضى الى النقطة الثانية التى أريد أن أقررها حول الاسرة التقليدية ـ وهى أنها ذات صلة وثيقة بالمجتمع المحيط بها · فان عيون الناس تلحظ دائما من الخارج ما يجرى بالمجتمع فى حضن العائلة وترقبها عن كثب لتتأكد من أن الزوجين يعيشان وفقا للمبادىء التى تخضع لها القرية أو المدينة كلها ، وأن الرجل لا يدخل فى علاقات جنسية مع الخادمات (والكثيرون كانوا يفعلون ذلك ، على كل حال) وأن الارامـــل لا يستنفدن ما فى البلد من العذارى باختيار الزواج منهن وأن الزوجات يدبرن منازلهن بحكمة ولا يفرطن فى الشرب · وفى الوقت الذى كانت تسود فيه كثير من هذه المظاهر من حياة الاسرة التقليدية فى العالم القديم (لدرجة أقل فى أمريكا الشمالية) كان الرأى العام يشكل مؤسسة يقظة للمراقبة فى كندا فى القرن التاسع عشر · وحـــتى فى المدن الصناعية الصغيرة ، مثل « هاملطون » و « أونطاريو » ، كانت تجمعات من الشباب المحلى فى الخمسينات من القرن الماضى تنظم مظاهران ضد المرأة الزانية وضد العائلة التى يسود حياتها الاضطراب · وهكذا نرى أن هذه اليقظة الحادة من الرأى العام كانت موجودة على الجانبين من المحيط الاطلسى معا ·

وكذلك يحدث أن تأخذ الجماعة أحد أفراد العائلة لينغمس فى نشاط اجتماعى دون أى عتبار لحاجة الاسرة ووحدتها وحرمتها : فاليافعون مثلا ، ولا سيما الشبان ينغمسون بدون حدود فى حياة جماعات الشبان المحليين · وهذه الجماعات قد تقوم ، فيما تقوم به من النشاطات بتنظيم احتفالات وأعياد الكرنفال أو تشرف على تنظيم الزيجات بين الرجال والنساء · وهذا التنظيم للزيجات والخطبة قد تحول الى عادات سادت خصوصا فى البلدان السكاندينافية وفى ألمانيا · ففى عشية يوم السبت تجتمع عصابة من الشبان فى الساحة العمومية ليشربوا قليلا ثم يأخذون فى التجوال والطواف بالمنازل التى توجد فيها فتيات فى سن الزواج · وعند باب كل منزل ينشدون ويغنون حتى تخرج الفتاة وتختار واحدا من الشبان لقضاء الليل ·

ان هذه العادة تبدو لنا قذرة ، ولكنها لا تنطوى على حرام · وان الشاب يخلع جاكتته وقبعته (ولا شىء غير ذلك) ثم يضطجع قريبا من فراشها ورأسها على ذراعه ، ولكن أرجلهما لا تتلامس · ولربما قبلته قبلة خفيفة فى عنقه ، ولا شىء غير ذلك · وبعدما يتعب ذراع الشاب يسحبه ويدور ليرقد على جنبه الآخر · ولكن هذه العادة لا تنص على صيغ أخرى ولذلك ، فان الشابين قد يتعانقان دون أن تقع علاقة بينهما · والفكرة تهدف الى جمع شابين على انفراد حتى يتعرف أحدهما على الآخر ·

وبعدما تنتهى العصبة من تنظيم الزيجة الاولى تنتقل الى منزل عذراء أخرى وهكذا · وقد يحدث أن يقضى الشبان الاخيران الباقيان الليلة مع فتاة واحدة ·

ولضمان عدم التحايل وخرق العادة ، قد تعود العصبة أدراجها فجأة لكى تتحقق أن الشاب لم يأت بأكثر من المتوقع وأنه لم يرتكب أى اثم · ولكنه متى حدث وارتكبا اثما فان عقابا صارما سينزل بالشابين وذلك بأن تسرق سراويل الشاب أو يعلق شال الفتاة بمسمار على حائط الكنيسة · وعلى كل ، فان الشابين لم يعد لاحدهما مكان فى عصبة الشبان فى مثل هذه الحالة ·

لقد شملت هذه العادة أمريكا أيضا ، ولكنها لم تكن تقوم على نفس التنظيم المحكم · ففى ولاية بنسلفانيا ، مثلما كان الامر عليه فى أوروبا الشمالية ، كانت الجماعة هى

التى تراقب عملية الخطبة والزواج ، فى الوقت الذى تتاح فيه فرصة للشاب للتعرف على الفتاة لكى يتجنبا قيام الوالدين بتنظيم الزواج ، (وهو أمر لم يكن قط يشكل قاعدة فى المجتمع الاوروبى) ٠

اليكم مثلا آخر عن الطريقة التى تلتحم بها العائلة بالجماعة المحيطة بها فى المجتمع التقليدى ٠ ففى فصل الشتاء يجتمع النساء فى مستودع الحبوب فى أحد المنازل لاعمال الغزل والنسيج ومعهن بناتهن المراهقات ، وقد تقع هذه الاجتماعات مرتين أو ثلاثا وتستمر بعد العشاء حتى منتصف الليل ٠

وفى نفس الوقت يعقد الرجال اجتماعات مماثلة فى الحانة أو فى المقهى المحلية (وجميع القرى توجد فيها على الاقل حانة أو مقهى واحد) وبعد ما يشرب كل واحد منهم مع رفيقه يعود الى منزله حيث يأوى الى فراشه قبل زوجته لانه من المحتم أن ينهض مبكرا فى الصباح ليقوم بالاعمال الزراعية ٠ وهكذا يقضى السهرة كل من الجنسين بمعزل عن الآخر ويذهب الرجال مع الرجال والنساء مع النساء ٠ ومتى قصد الرجل والمرأة الفراش فى أوقات متغايرة ، فمعنى ذلك وجود علاقة جنسية بينهما فى تلك الليالى ، والتحول الموسمى للحمل يؤكد هذا الفرض ٠

والنقطة الاخيرة فى هذا العرض حول الاسرة التقليدية ، هى أن هذه الاسرة لا تكترث بحياة الطفولة . ونحن لا نكاد نصدق امكان وقوف المرأة فى الازمنة السابقة بدون اكتراث ولا عاطفة أمام منظر طفلها المريض أو المحتضر ، وذلك لاننا نتخذ موقفا مشبعا بالعطف والحنان على الاطفال الصغار بحيث أن موت طفل قد يترك فى نفس الزوجين أثرا يبقى مع الحياة ٠ ولكن الحقائق لا تقبل النقاش ٠ فان الام ترتفع من صدرها حسرة استسلام وهى تقول « نعم ! لقد ارتفع ملاك آخر الى السماء » ٠ بل ان الاب والام قد لا يعبآن بحضور جنازة ابنهما ، وقد يطلقا اسم الطفل الذى اختفى على على طفل آخر بعده ، وهو أمر يستنكره العرف فى عصرنا هذا ٠

ولكن لننظر كيف كان يعامل الاطفال ٠ فبدلا من أن ترضع الام طفلها ، تغذيه بدقيق معجون بالماء ، وهو غذاء صعب الهضم على معدة الطفل الصغيرة ، ومعظم نساء القرى والمدن يقمطون الاطفال الصغار ويكبسونهم فى قماش ويشدونهم بضيق من الرأس الى

القدمين بحيث لا يستطيعون الحركة • وهذا معناه أن الطفل لا ينظف الا فى أوقات متباعدة ، بسبب مشقة فسخ القماش من جهة ، وبسبب مشقة غسله ، (والكثيرون لا يغسلون سوى ثلاث أو أربع مرات فى السنة) • وتبعا لذلك فان هؤلاء الاطفال عرضة لمختلف أنواع العدوى والامراض الاكزيما التى يشكو الاطباء من كثرتها مر الشكوى • والاسوأ من كل هذا هو عادة ابعاد الاطفال الصغار عن منزل الاسرة • فقد كان الامهات فى فرنسا يبعدن أولادهن لمنظمات فى الريف تقوم بتربية الاطفال ليصبحوا مرتزقة ، وذلك حتى تجد المرأة الوقت الكافى لكى تساعد زوجها فى أعمال الحقل • ومتى ابتعد الطفل عن المنزل ابتعد عن القلب • فان الابوين لن يقوما بزيارة الطفل أو يهتما بحالته الصحية • وعدد كبير جدا من هؤلاء الاطفال يموتون على يد الحاضنات العاملات فى تلك المراكز • وبينما كانت نسبة الوفيات العامة شخصا واحدا من كل أربعة ، كانت نسبة وفيات الاطفال تقرب من 50 فى المائة • وهذا فى حقيقة الامر ليس الا شكلا من أشكال جريمة قتل الاطفال • وأما الآباء الذين لا يستطيعون دفع المبلغ الذى تطالب به تلك المنظمات فهم يلقون بهم فى الشوارع أو يعهدون بهم الى الكنيسة (يضعون الطفل على باب الكنيسة ثم يقرعون الجرس ويهربون) •

ان العلاقات العاطفية التى تجمع بين أفراد هذه العائلات ليست علاقات حب حقيقى واستمتاع برؤية الاطفال ينمون ويزدهرون ، ولكن الروابط التى تربطهم هى استمرارية الميراث العائلى من جيل لجيل واستمرار اسم العائلة مع المزرعة ومبانيها ودكان صناعتها ، عبر الاجيال • والشىء المهم فى نظر العائلة التقليدية هو تحويل الجيل ممتلكاته الى جيل آخر ، طبقا لقواعد دقيقة للسلوك الاجتماعى وضعها المجتمع الذى يحيط بها • وكذلك كانت العادات والتقاليد التى تتعلق بسلوك المرأة ثقيلة قاسية ، وأما كونها لا تحمل أية عواطف أو شعور مخلص فهو أمر لا صلة له بالموضوع • فان الهدف من الحياة ليس هو المتعة ، بل القيام بالواجب الذى يرى الآخرون أنه واجب • ذلك هو محور الاسرة التقليدية •

وقد اختفى هذا النمط من الحياة العائلية حينما ظهر النمط الجديد وانتصر فى منتصف القرن التاسع عشر •

ونمط العائلة الذى يقوم على العواطف المتبادلة بين الاب والام والاطفال الذين يلتفون حول مائدة واحدة للعشاء انما هو تطور وقع فى غضون المائة سنة الماضية • ولكن لننظر فى الخصائص الرئيسية لخلية الاسرة الحديثة •

بدلا من أن تختلط بدون تحفظ بالمجتمع الذى يحيط بها ، فهى تتدرع وتتحصن وراء أستار الحرمة العائلية حين تتمكن من الاستمتاع بالعلاقات العاطفية الحديثة الظهور فى حضنها • وبينما كانت فى الماضى تستقبل سيلا لا ينقطع على مائدتها وفى حوشها من الاشخاص الذين لا تربطهم بها روابط عائلية ، أصبحت الخلية العائلية تعيش وحدها فى عزلة (ونحن نجد فى الوثائق آثار للشكاوى من رب الارض الانجليزى الذى منع العمال الزراعيين من التردد عى مائدة طعام وجبة الغذاء) •

وبينما كان عالم المواسم والحفلات الغنية فى الماضى يجتذب اليه الافراد وينتزعهم من حضن العائلة ، فاذا بالعائلة أصبحت تغلق الابواب على نفسها وتقضى السهرة فى المنزل ـ الاب يقرأ الصحيفة والام تقوم بأعمال النسيج فى الوقت الذى يأوى فيه الاطفال تحت رعايتها الى الفراش • والمثل الذى يقول : « شرق أو غرب فلن تجد أفضل من عشك » وهو المثل الذى كان شائعا فى أوساط العمال فى أواخر القرن الماضى •

وهذه الحكمة كان لها مغزى ، فان نوعا جديدا من الحب أصبح يربط الرجل بزوجته، وهو نوع من الحب الرومانسى الذى ينمو ويقوى فى العزلة والانفراد • ان المرء لا يستطيع أن يجلس ماسكا بيد زوجته أمام أعين جمع غفير من العمال • والنوع الجديد من العلاقة الزوجية يفترض أن الزوج والزوجة قد يقومان ببعض الامور معا ولا يسير كل منهما فى رفقة الآخرين • وبذلك ظهرت عواطف جديدة من الحب تربط الزوج والزوجة وبذلك لم تعد الحياة الزوجية تقوم على مجرد القواعد المتصلبة التى يفرضها العرف السائد فى القرية • واسمحوا لى بأن أبين الاساس المتين لهذه العواطف هو حب الاطفال أكثر من ذلك النوع من الحب الذى يساور القلوب أثناء فترة الخطبة ، فان هذا النوع من الحب قلما يبقى متى اصطدم بالظروف المادية الصعبة التى كانت كثير من هذه العائلات تعيش فيها • ولكن الزوجين يحبان أطفالهما ، والمرأة أصبحت تلازم منزلها وتعتنى به ، وبذلك تبنى الاسرة لنفسها عشا يلقى فيه الاطفال التربية الاجتماعية الملائمة •

والاطفال فى حضن العائلة الحديثة يلازمون منزل الاسرة حتى يحين وقت الزواج بدلا من أن يخرجوا منه للتدرب على المهن أو للعيش خدما فى منازل الاغنياء كما كان الامر من قبل . وكذلك أصبح الاطفال يعربون عن شكرهم وامتنانهم للام من أجل التضحيات التى قدمتها من أجلهم خلال حياتها (والام فى الاسرة التقليدية لم تكن تضحى بشىء من أجل أطفالها حيث كن ينهمكن فى الاعمال الزراعية والصناعية اليدوية) . ومتى وقع شقاق بين الرجل والمرأة (وهذا يحدث كثيرا فى الاسرة الحديثة ولو أنه أقل عنفا من ذى قبل) . فان الزوجين يبقيان معا فى حضن الاسرة « من أجل الاطفال » .

وأنا ألح هنا على الدور الجديد فى العناية بالاطفال لاننى أريد بعد حين أن أعقد مقارنة مع مواقف الاسرة التى بدأت تظهر الآن نحو الاطفال .

ولكى نضع الامور فى موضعها، ينبغى أن نذكر أن الاسرة الحديثة قد بدأت تمد عروقها فى الطبقة المتوسطة العليا فى أواخر القرن الثامن عشر . (وقبل ذلك قليلا بين البريطانيين الذين استقروا فى امريكا الشمالية) . وانما بدأ هذا النمط من الحياة العائلية ينتشر فى الطبقات السفلى من الموظفين فى المدن والصناع وأصحاب الحرف والفلاحين فى المدن الصغيرة والارياف فى منتصف القرن التاسع عشر . وأخيرا ظهر هذا النمط فى أوساط عمال الصناعة والبروليتاريا فى المجتمع الغربى فى أعقاب الحرب العالمية الاولى .

ولم يكد يحل العقد الثالث والعقد الرابع من هذا القرن حتى أصبح نموذج الاسرة الحديثة هو النموذج الشائع من المناطق الريفية فى الدانمارك (كما أخبرنى مؤخرا سيدة ولدت هناك) . حتى أرياف ولاية المسيسيبى ، حيث نمت وتربت أسرتى . ومنذ بداية القرن ساد نمط الاسرة الحديثة من الخياط اليهودى فى لندن (وأما الحياة التقليدية اليهودية فى القرى الصغيرة فى بولندا فأمرها يختلف) ، حتى أوساط البورجوازية الراقية فى أماكن مثل شارع ماركهم فى طورنطو .

ورب قائل يقول : ما أبطأ عملية ظهور العائلة الحديثة التى احتاجت الى مائة سنة حتى تنتصر فى المجتمع الغربى .

ولكنه اذا اعتبرنا السرعة التى تتطور بها العائلة الآن ، فان من الممكن الاعتقـــاد بأن تدميرها سوف يستغرق وقتا أقل من ذلك كثيرا • ها نحن الآن قد وصلنا الى أعمق نقطة فى هذا الحديث : نهاية الخلية العائلية الحديثة وتحولها فى المستقبل القريب •

اننا لا نزال نتحدث عن الاسرة لأن 95٪ من الناس لا يزالون يتزوجون ويتعايشون تحت سقف واحد مدة من الزمن ، وينجب كل زوج منهم طفلا أو طفلين ، وهو ما نسميه طبقا لكل التعاريف باسم الاسرة • ولكن الزواج الجديد يختلف عن الاسرة الحديثـة من عدة أوجـــه :

أ ـ لان تفاعل الزوجين العاطفى أكثر حدة وذا طابع جنسى أكثر صراحة •

ب ـ لأن علاقاتهما بالاولاد تختلف اختلافا جوهريا عن تلك التى لاحظناها عند الحديث عن الاسرة الحديثة ، ولا سيما فى سن المراهقة (انها علاقة البرود وقلـــة الاكتراث) •

ج ـ لان الزيجات الجديدة أقل ثباتا واستقرارا من خلية الاسرة الحديثة ، ونتيجة لذلك ، فهما تختلفان فى نظرتهما الى الاطفال والعلاقات الجنسية وشجرة الاسرة •

فان الاسرة الحديثة تمثل وحدة متقاطعة تخضع لقيود الزمن (باحساساتها بأهمية شجرة الاسرة) ولقيود المكان (بالعلاقات والاتصالات التى تربط بها الاقارب والجيران والاصدقاء) وفى مقابل ذلك نجد الزوجين الجديدين عبارة عن ذرة عائمة فى الفضاء ولا تخضع لاى من هذه القيود والعلاقات الاجتماعية المتينة • وهذه الزيجات تنبض بالعواطف الداخلية العنيفة بحيث انها تنفجر من حين لآخر وتظهر أعراض كل ذلـك فى الخط البيانى الاحصائى المتصاعد باستمرار عن حوادث الطلاق فالزوجان يرتبطان بحب عنيف بينهما فى الوقت الذى لا تربطهما فيه رابطة بالخارج • انهما يعيشان فى جنة شقتهما التى تقع فى الدور السابع عشر ويتمتعان بسعادتهما ، حتى تقـــع الكارثة •••

اننا هنا نستعمل عبارات كبيرة المدلول ، لكن ما هى الدلائل التى تؤكد أن ما نقوله حق وصدق ؟ من يدرى ؟ فقد يكون علماء الاجتماع الذين يرون فى أحداث الطلاق أحداثا عرضية ليس من شأنها أن تؤدى الى انقراض الاسرة ، على صواب !

لننظر مثلا ، فى علاقات الزوجين بأولادهما اليافعين ، تلك العلاقة التى كانت العروة الوثقى للاسرة فى الاربعينات ، والخمسينات ، فان الدلائل قوية على أن الوالدين لم يعودا يهتمان بتربية أبنائهما اليافعين تربية اجتماعية (يجب ألا يغيب عن أذهاننا أننا نتحدث عن اليافعين : وأما الاطفال الصغار فان معاملتهم لم تتغير) • وجرائم الاحداث قد انتشرت انتشارا فضيعا فى السنوات العشر الاخيرة فى ولاية طورنطو المعروفة بالهدوء والرزانة بحيث زادت حوادث الاعتداء على العفاف والسرقة والهجوم على النساء زيادة فاحشة • وقتل العجائز قد أصبح طاعونا فى كثير من المدن الكبيرة ، مثل نيويورك •

ومهما تكن جذور جرائم الاحداث متعددة ، فان من بين أسباب هذه الجرائم كون الاحداث لا يلازمون المنزل مع عائلاتهم • ولو بقى الاحداث فى المنزل يتفرجون على برامج التليفيزيون لما خطر فى بالهم أن يرتكبوا جرائم سرقة السيارات ، مثلا •

لا توجد احصاءات بشأن تشتت الاسرة ولكن تدهور حالة وجبة العشاء أمـــر محقق ، فان الشبان يخرجون مع رفقائهم ليلتهموا لقمة فى أحد المقاهى دون أن يكترثوا بوجبة العشاء المنزلى • ونظرة عابرة فى المساء على مقهى مكدونالد الذى يقدم الشطائر بين السادسة والثامنة مساء ترينا أن معظم الزبائن من جماعات اليافعين ، ومن الكبار الذين لا عائلة لهم • ونحن نتحدث عن وجبة العشاء ، ولكن وجبة الفطور العائلى أكثر تدهورا •

ونحن نعرف ، على كل حال ، بفضل دراسة العالمين جانينج ، ونيامى ، أن موقـف اليافعين نحو السياسة يعتريه التغيير • فقد كان المصدران الذى يستقى الشبان منهما معلوماتهم السياسية فى الماضى ، هما الآباء ، والى حد أقل المدرسة • فان تصويت الانسان للحزب الديمقراطى أو الحزب الجمهورى أو للفاشيين انما يحدده انتماء الابوين لاحد هذه الاحزاب ، أما الآن ، فقد تناقص نفوذ الابوين ونفوذ المدرســة فى توجيـه الشاب سياسيا الى حد كبير ، وحل محل هذين المصدرين نفوذ الرفقاء وتأثير أجهزة الاعــلام •

والاحصاءات المستقاة من الاحصاء العام للسكان الذى أجرى مؤخرا فى الولايات المتحدة ، تشير الى أن زيادة هائلة فى النسبة المئوية للشبان (تحت سن 19) الذين يعيشون خارج منزل الاسرة • وعلى العكس ما تدعى الباحثة مارى بانز ، وغيرها ، فان بقاء الشبان فى المنزل العائلى استجابة لنداء الواجب حتى الزواج أو دخول الكليـــة أو الحصول على وظيفة لم يعد كما كان من قبل • واحصاءات سنة 1974 (وهى آخر احصاءات متوفرة) تدل على رغبة متزايدة فى التحرر المادى من قيود العائلة • ولكنه حتى بالنسبة الى أغلبية الشبان الذين يبقون فى منزل العائلة وقتا أطول ، فان تحررهم من القيود العاطفية نحو آبائهم يبدأ فى وقت مبكر ولا يلبث أن يصبح كاملا • فان الشبان يصعب عليهم مع مرور الايام تذكر أسماء أقاربهم البعيدين • واهتمامهـــم بالاجتماعات واللقاءات العائلية يقل تدريجيا • ويوم الاحد يقضونه فى كل اتجاه ، وأما حمل باقة من الزهور لوضعها على ضريح الجدة ، فهو أمر لا يخطر ببال الآباء ، أنفسهم فضلا عن الاحفاد • فهؤلاء اليافعون يهربون لا من مراقبة الآباء ، بل من جميع فروع الشجرة العائلية • ونحن نعرف أن جزءا مهما من الفكرة التى نكونها عن أنفسنا فى الاسرة الحديثة انما يأتينا من الاجداد • أما الآن ، فان فكرتنا عن أنفسنا انمــا يحددها النمط الذى تتطور به شخصيتنا •

وهكذا ، فان انطلاق الابوين وتحررهم من الارتباطات يترك مشكلة كبيرة ، وهى مشكلة الاطفال البالغين • هل التغير الذى طرأ على موقف الآباء من أبنائهم ، هو الذى دفع بالابناء الى المقاهى والحانات والملاهى، أم ان هذه المغريات هى التى أثرت ، خصوصا على جيل الستينات والسبعينات هى التى تجذبهم بعنف من منزل الاسرة ؟ ذلك سؤال يذكرنا بالجدل الذى قام حول قضية من هو الاسبق : البيضة ، أم الدجاجة • والشىء الواضح الآن تماما هو قلة عدد الآباء الذين يرتبون أمورهم لكى يعيشوا ليستجيبوا لحاجات أبنائهم • فالمال الذى يدخره الزوجان لشراء منازل فى انتظار وقت الاحالة على المعاش ، بدلا من أن يودع فى حساب الوصاية فى مصرف • وانما المحافظة على منزل الاسرة جميلا ليستقبل زيارة الاحفاد ، فهى فكرة لم تعد ترد فى أذهان الناس • فان الابوين يعملان للتخلص من ذلك المنزل للانتقال الى شقة •

تلك هي النقطة الاولى التي أريد أن أسجلها عن الزيجات الجديدة :ان الاطفال اليافعين لم يعودوا مصدرا للغبطة والسرور للابوين كما كانوا في عهد الاسرة الحديثة • انه لم تعد هناك أسباب عائلية تستحق الاهتمام ، والزوجان يريدان أن يبقيا زوجين ولا شيء أكثر من ذلك • والزوجان لم يعودا يعتقدان أنهما يمثلان حلقة من سلسلة الاسرة التي تمتد على اجيال عديدة • فاذا كان الشبان يبتعدون عن الاسرة ليعيشوا في عالمهم الخاص فما الفائدة ، فما الفائدة من تلقينهم تقاليد الاسرة ؟ ان الحيوانـــات لا تؤمن بالشجرة العائلية ، والشبان أيضا لا يوجد سبب يحملهم على ذلك •

ولكن العاقبة الكأداء التي يواجهها استمرار العائلة هي ما تقرره الاحصاءات من أن نسبة تتراوح بين 35 و 45٪من الزيجات تنتهي بالطلاق ، فاذا كان من المنتظر أن ينتهي زواجك بالفراق بعد سبع سنوات من عقده (وهذا هو متوسط أعمار الزيجات التي تنتهي بالطلاق) ، فاية أهمية لان تعلق صورة الجدة في مكان ملائم في قاعة الجلوس • ان تشيجفارا ورفقاءه يدلون الناس على طريق للحياة أفضل من ذلك •

والفرق الاساسي الثاني بين العائلة الحديثة والزيجات الجديدة هو : عدم الاستقرار • فان فرص افتراق الزوجين لسبب أو لغير سبب فرص كبيرة • وحينئذ يتوزع أعضاء العائلة وكل في اتجاهه ليشكل زوجا جديدا • لقد أصبح الناس مثل عربات القطار ، يرتبط كل منهم بالآخر ثم ينحل ارتباطه ، ليرتبط بعربة أخرى ، وهكذا دواليك • ان الزواج يحتاج الى شجاعة ، والعزوبة كذلك والخوف من مشاكل الزواج هو السبب في ازدياد عدد المواليد غير الشرعيين في غضون العشرين سنة الاخيرة • وفرص انهيار العلاقات الزوجية غير الشرعية فرص كبيرة مثل التي تواجهها العلاقات الزوجية الشرعية • والمشكلة التي نتحدث عنها ليست مشكلة العلاقات الزوجية وحدها ، بل هي أزمة عدم الاستقرار في العلاقات البشرية كلها • وهذه الازمة تشمل أمورا مثل الثقة والولاء والحب الخ • ، وقد عمت الآن مجتمعنا بأسره • ترى ما هي الاسباب التي تتصل بحياتنا والتي تجعل الكثيرين منا غير قادرين على المحافظة على علاقات ودية مخلصة لمـــدة طويلة ؟ ترى ماهي الميزة التي خص الله بها سنة 1977 م والتي تسلخنا بدون أسف

عن الاشخاص الذين نحبهم ، والذين كنا نحبهم ؟ وأية عوامل نفسية تجعل طاقتنا على الحب محدودة ومن نوع غير جيد ؟

ان أزمة خلية الاسرة الحديثة هى أزمة مجتمعنا كله • فان الجرس الذى ينعى الاسرة التى تجتمع حول مائدة العشاء ، ربما كان نذيرا بزوال بعض المثل العليا العاطفيـــة التى كنا نحرص عليها أكثر من أى شىء آخر فى المجتمع الغربى فى غضون قرن ونصف من الزمن : مثال حب الغير والتضحية من أجله •

لماذا وقع هذا التطور ؟ لدى بعض الافكار لتفسيره ــ أعتقد أن أحد الاسباب التى أدت الى هذا الانفجار الهائل فى الاسرة ، هو الثورة التى شهدتها السنوات الخمس عشرة فى العلاقات الجنسية • ان الكبار لا يستطيعون تصديق ما يشاهدونه بأعينهم الآن : انك تستطيع أن تشاهد فى أحد المتاجر الكبيرة صورا للناس وهم يمارسون علاقات جنسية مع الكلاب •

ان شركة النشر « ماكيلان » قد ظلت تنشر يوميا منذ وقت واعلانا كبيرا وباهظ التكاليف حول كتاب بعنوان « ذى هايت ريبورت » وهو كتاب يأخذ بالانفاس ووثيقة تعتبر بحق مساهمة كبيرة فى البحث العلمى حول السلوك الجنسى • انه يعالج الطريقة التى تحقق بها المرأة شهوتها ، ما تفعله لنفسها وما يفعله الآخرون بها • وهكـــذا نعرف الآن أن هناك عدة طرق لتحريك البظر كما نعرف أمورا أخرى • وهذا الكتاب قد نال جائزة أدبية من النوع الذى حصل عليه كتاب « ذهب مع الريح » •

ان ثقافتنا كلها تتعرض للسوس ــ سوس العلاقات الجنسية التى تغير بصورة لا رجعة فيها ديناميكية الحياة الزوجية • فان الاسمنت التى تقوم عليه العائلة ويربط بين أفرادها ، هو حياتها فى السرير ، وليس العناية بالاطفال أو الشعور بالانتماء الى شجرة نسب طويلة أو الرغبة فى العمل والكدح والادخار لشراء زورق للتنزه فى البحر • ولكى نتحقق من ذلك يكفى أن نتذكر ما تعرفه الكتب التى تعالج المسائل الجنسية من النجاح • فان كتابا واحدا يفسر التمتع بالحياة الجنسية قد وزع مؤخرا ثلاث ملايين ونصف مليون نسخة • والازواج أكثر الناس تسابقا لاقتناء مثل هذه الكتب لانهم

بدأوا يعتقدون أن العلاقة المنطقية الوحيدة التى تجمع كل واحد منهم بزوجه هى العلاقات الجنسية • ومن هنا فما عليه الآن الا أ نيتقن مبادىء الفن ويتخلى عن الزواج •

واتخاذ الزواج طابعا من العلاقات الجنسية أمر يظهر فى الاحصاءات • لقد كانت فرص اختلاط امرأة متزوجة برجل آخر فى عهد كينسكى واحدة على عشرة • أما الآن فقد أصبحت واحدة على أربع •

لقد أجرى مورطن هانت منذ سنتين دراسة فى موضوع العلاقات الجنسية بين المتزوجين ، فاكتشف أنواعا لا تحصى من الطرق التى لم يكن الفريد كينسكى يعير معظمها منذ 25 سنة أى انتباه لقلتها • ولكن هانت وجد أن واحدة من أربع زيجات من الذين تقل أعمارهم عن 35 سنة يستعملون هذه الطرق بين الحين والحين •

اننى لا أريد أن أظهر بمظهر من يتكلف الاحتشام ، فان العلاقات الجنسية لها مكانها بالتأكيد • والمسألة هى أن الانجذاب الجنسى أمر لا يمكن التنبؤ به ، فان الغريزة الجنسية بعيدة الجذور فى النفس البشرية ، ونحن عاجزون عن فهم هذه الغريزة بمنطق عقلانى • وهذا الهوى وهذه الرغائب غير مستقرة • فأنت اليوم تشعر بانجذاب الى شخص ما وغدا تشعر بنفس الانجذاب لشخص آخر • وهكذا • ومتى قام الزواج على قواعد الجنس غير الثابتة ، فسوف ينهار حتما ، حيث أن الرغبة الجنسية تزول أو تتحول الى شخص آخر ، ان اعطاء الاهمية القصوى للجنس فى الحياة الزوجية هو أشبه ما يكون بوضع قنبلة زمنية على السرير • انها ستنفجر ويتحطم بانفجارها الزواج نفسه •

وفى رأيى أن ما حدث هو أن ثورة العلاقات الجنسية قد تملقت الطاقة الجنسية فى كل شخص • فان أجهزة الاعلام تضع أمام أعيننا كل يوم صورا صارخة لمختلف الاوضاع والحالات فى العلاقات الجنسية ولا يستطيع سوى القليلون القول بأن حياتهم كاملة اذا لم يخوضوا فى مغامرات الشهوة والاثم • ونحن متى حاولنا تطبيق المثل الشهوانية الجديدة اصطدمنا بصورة الواقع ، وماذا يمكن أن ينتظره المرء بعدما يشاهد هذه الصورة الجنسية ويمارس العلاقات مع زوجة عاش معها سبع سنوات ليستيقظ فى اليوم التالى على هموم الشؤون المنزلية • ؟

اننا ضحايا الثورة الجنسية التى تقدم لنا صورا عليا للحياة الجنسية وراء ما تسمح الامكانيات بتحقيقه • انها ثورة أخرى من هذه الثورات التى تبعث فى النفس آمالا لا سبيل الى تحقيقها • ونحن نعرف ماذا يحدث لشخص تندفع به الآمال والاحلام ويتجاوز مقدرته على ارضائها • ستخيب آماله ويحز الفشل فى نفسه ويصبح عدوانيا • ان آمالنا وأحلامنا الجنسية تتجاوز مقدرة العائلة الحديثة على تحقيقها ــ ونحن متى حولنا العلاقات بين الزوجين الى قاعدة للاستكشاف الجنسى ، فقد بذرنا البذور التى تدمر كيانهـــا •

انه لمن حسن الحظ أن الذين يطلقون (أو على الاقل الرجال) يتزوجون من جديد ، ولكن العملية تبدأ من جديد •

وهكذا فان الثورة الجنسية هى التى خلقت الظروف المواتية لانتشار الطلاق • والامر الذى جعل ذلك ممكنا فعلا ، هو تلك الزيادة الكبيرة فى عدد النساء المتزوجات اللائى يمارسن العمل • ولقد أثبتت ايزوبل شاول احصائيا وجود علاقة واضحة بين كون المرأة تمارس عملا وبين الطلاق • والشىء الذى يحدث عادة ، هو أن المرأة تدرك عندما تزاول العمل فى استطاعتها الاعتماد على نفسها متى دعت الحاجة الى ذلك • وفى وقت من الاوقات ستظهر الحاجة الى ذلك فعلا الى الاستقلال ، وعند ذلك تنحل العلاقات الزوجية ــ وأنا أرى أن عدم الانسجام الجنسى يعتبر فى مقدمة الاسباب المؤدية الى هذا الانحلال ــ وكذلك تنفصل المرأة عن زوجها بسبب عدم رضاها بالعلاقات الجنسيـــة وبطريقة لم تكن لتجرؤ عليها فى الماضى فى المجتمع الغربى •

وهكذا خلقنا الظروف التى تسمح بانحلال العلاقات الزوجية ، وهى :

1 ــ اليافعون الذين لم يعودوا فى حاجة الى العناية بهم أو الذين لا يمكن العناية بهـــم •

2 ــ أسباب الانفصال : العلاقات الجنسية التى أفلتت من كل سيطرة للتطور •

3 ــ امكانيات اقتصادية للمرأة تجعلها تستغنى عن الظروف المادية التى كانت توفرها لها العائلة الحديثة •

وأنا أستطيع أن أمنع نفسي عن تسجيل كلمة بشأن عدم تقديم السوسيولوجيا للعائلة أية مساهمة تذكر في سبيل فهم هذه التغييرات ـ فالمرء يتصفح عبثا المجلات العلمية مثل Journal of Maraige بحثا عن أي تحليل يلقي ضوءا على الاسباب التي أدت الى هذه الحالة . واذا استثنينا الابحاث التي تعالج النمو الديموغرافي فان البحث في هذا المجال لا يكاد يخرج عن دائرة المسائل التي لا قيمة أو التي لا صلة لها بالموضوع ، مثل « الامور التي تحدد توزيع السلطة » في الاسرة (ونحن لا نريد أن نعرف لماذا يسعى كل من الزوجين للسلطة وانما نريد أن نعرف لماذا لا يستطيع أحدهما أن يحب الآخر) . ان الامر المهم حقا هو لماذا كان الازواج سعداء في الماضي ثم يقررون فجأة أن الوقت قد حان للانفصال ! ان البحث المنظم قليل بشأن توضيح الاسباب التي تؤدي الى انحلال العلاقات الزوجية وعن كيفية تأقلم الاسرة في شجرة النسب وعن مدى قوة العلاقات بين الابوين والابناء البالغين (وأما تلك الشعارات الفارغة ، مثل « فجوة الجيلين » فان أحدا لم يعد يهتم بها الآن) وعن تأثير اشباع الغريزة الجنسية في مجموع العلاقات العائلية ، وبدلا من كل ذلك ، فان المجلات والكتب تمطرنا وابلا من النتائج التي لا قيمة لها والثقيلة على النفس ، لانها تكتب في عبارات ومصطلحات من الغرابة والصعوبة بحيث أن المتخصصين أنفسهم يعجزون عن فهمها .

ان الناس لا يفتأون يتساءلون حول هذا التحول في حياة العائلة : أهو شيء حسن أو قبيح ؟ ان المسألة ذات وجهين .

فمن جهة نجد جميع العواطف المرضية التي رافقت العائلة الحديثة في الماضي : ثقة قوية أو ضعيفة بالمكانة التي يحتلها الفرد في سلسلة الاجيال (وهذا يصدق على الرجل خصوصا . لان شجرة نسبه هي المحفوظة والمعتبرة) ، ملجأ عاطفي في المساء ومهرب من عويل الرياح ومن ضجيج الاعمال في النهار ، الاطفال الذين لا تقلقهم الواجبات العائلية الثقيلة ويتفرغون لالعابهم .

ولكن خلية الاسرة كانت تقوم على أساس حل وسط عاطفي لا يساهم بعض أعضائها بموجبه الا بالقليل نسبيا ، بينما يقدم الآخرون شيئا كثيرا نسبيا . فان الاطفال والرجل

لا يقدمون الا القليل ، وفى مقابل ذلك ، تدفع المهر الزوجة والام التى تطبخ الطعام وتغسل الثيـــاب ٠

وكثير من النساء كن يشعرن بالغبن والاجحاف فى هذه الصفقة التاريخية ٠ وبالطبع، فهن يحصلن على تامين اقتصادى ، ولكن ثمن ذلك هو تنازل المرأة عن حاجاتها العاطفية وعن آمالها فى ممارسة مهنة ، لصالح الزوج والاطفال ٠ والبنات البالغات هن أيضـا مغبونات ، اذ أنه فى الوقت الذى لا يتوقعفيه منهن ممارسة العلاقات الجنسية الا مع الرجل الذى يخترنه للحياة كلها ، يجد اخوتهن الذكور أنفسهم أحرارا للتمتع هنـــا وهنـــاك ٠

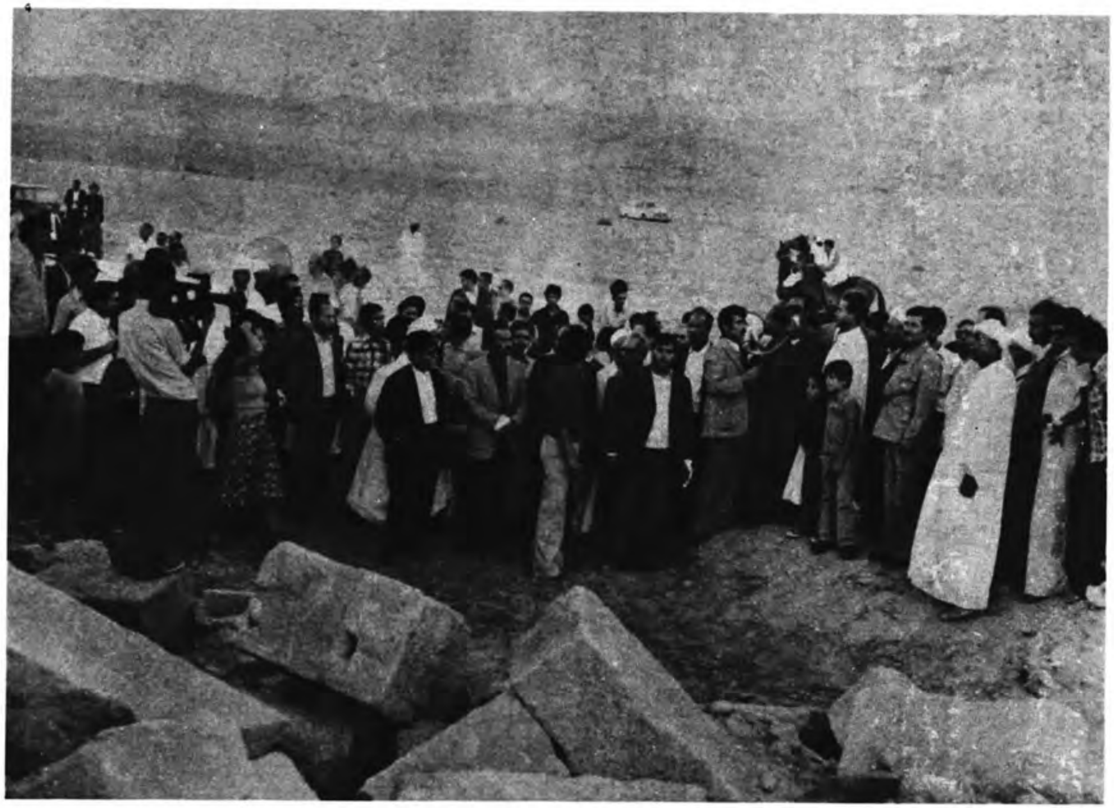
والزيجات الحديثة ليست فى صالح كثير من هؤلاء الرجال ٠ فالمرأة التى تمارس مهنة كثيرا ما ترفض القيام بأعمال فى المنزل ، ومطالبهن فى العلاقات الجنسية لا تقل عن مطالب الرجل فى العهد السابق (وفى هذه الاثناء نزلت بالرجل هذه الموجة من العجز الجنسى التى شملت ضفتى المحيط الاطلسى) ٠ والفتاة البالغة أصبحت الآن حرة فيما يتعلق بممارسة العلاقات الجنسية ، تماما مثل شقيقها اذا صدقنا الاحصاءات التى تتعلق بسن الفتاة عندما مارست هذه العلاقات لأول مرة وبمتوسط عدد الرجال الذين مارستها معهم ٠

وهكذا نرى أن الزواج الجديد يساير عن كثب حركة تحرير المرأة ٠

ونحن نتساءل : ترى هل هذا الاتجاه حسن أم قبيح ؟

ولكن السؤال المعقول هو : من ذا الذى تتضرر مصالحه ؟

عندما غادرت شارع ماركهم لاحضر الى هنا ، كانت الشمس ساطعة وتلقى بأضوائها على الشوارع التى يسير فيها أزواج يتأبط أحدهم ذراع الآخر فى ظلال الاشجار ٠ انه لمنظر جميل وكأنه منظر مسرحى ٠ ولكنك اذا أتيح لك أن ترى هؤلاء الازواج والزوجات بعد عشر سنوات من الآن ، فسترى أن أكثرهم يتأبط ذراع شخص آخر ٠



الملتقون فى مشاهدة لآثار طبنة مع شرح من الدكتور موسى لقبال ، أستاذ التاريخ بجامعة الجزائـــر

لجنـــة النقطـــة الثـالثـة

الى م تيسر فى العالم الاسرة ؟ الى اليسرى أم العسرى؟

أعضاء اللجنة :

الرئيس :

- **الدكتور عبد الله عبد الغنى**
نائب الادارة الدينية لمسلمى آسيا الوسطى وقازاخستان ـ طشقنـــد ـ

المقرر :

- **الاستاذ محمد الطاهر فضلاء**
أستاذ اللغة العربية ، وقائم بمهمة فى رئاسة الجمهورية ـ الجزائـر ٠

الاعضاء :

- **الدكتور عبد الكريم سايتوح**
أستاذ الاقتصاد بجامعة تاكاشوكو ـ طوكيو
- **الدكتور ايمرى كونغر**
أستاذ علم الاجتماع بجامعة هاكتب ـ أنقرة
- **الدكتور عبد الحليم عويس**
أستاذ مساعد بجامعةالامام محمد بن سعود ـ الرياض

ـ **الدكتورة فاطمة الجامعي الحبابي**

أستاذة بجامعة محمد الخامس ـ الرباط ـ

ـ **الدكتور حكيم بن عطية**

مدير المعهد البلدي للموسيقى والفنون المسرحية ـ الجزائر ـ

ـ **الاستاذ مصطفى عسلاوي**

مستشار بالمجلس القضائي الاعلى ، ومسؤول التكوين بوزارة العدل ، وأستاذ محاضر بالمدرسة الوطنية للادارة ـ الجزائر ٠

ـ **السيد حميدة بويفرو**

نائب مدير المعهد البلدي للموسيقى والفنون المسرحية ـ الجزائر ٠

ـ **الآنسة صابرينة بقطاش**

طالبة بكلية الحقوق جامعة الجزائر ٠

ـ **السيد محمد عاشور**

طالب ومدرس بمدرسة محمد بن العابد الجلالي ـ ولاية بسكرة

ان اللجنة الثالثة ، وقد اجتمعت بكامل أعضائها ـ بعد النظر في المحاضرات والمناقشات التي دارت حول موضوع هذه النقطة الثالثة من برنامج الملتقى الثاني عشر للفكر الاسلامي ـ وقد اتجهت بالاتفاق التام والاجماع الكامل الى الاقتناع بأن الاسرة ، المكونة من الاب والام والاولاد والوالدين ـ هي اللبنة الاساسية التي يقوم عليها البناء الاجتماعي كله ٠

وأن أي خلل في هذا البناء أو تركه دون رعاية مادية ومعنوية كاملة ، سوف يؤدي الى انهياره ، وتقع المسؤولية بذلك على الفرد وعلى المجتمع ٠

وبالمقارنة التي تعرفت عليها اللجنة بين وضعية الاسرة المسلمة والوضعية العامة التي أشار اليها بعض المحاضرين منهم الدكتور عبد الكريم سايتوح من جامعة طوكيو ، والدكتور ادوارد شورتر من جامعة تورنتو بكندا ، والتي تشير الى اهمال الضوابط الاخلاقية المتسببة في تدهور وضعية الاسرة ، توصي اللجنة بما يلي :

أولا : على النطاق العالمى :

أ ـ العمل على وضع القوانين التى تكفل ثبات واستقرار النظام الاسرى بصفة عامة على أساس العدل فى الحقوق والواجبات طبقا لاجماع الرأى العام الصالح لكل مكان ولكل زمان ووفقا لما أوصت به جمعية الامم المتحدة فى هذا الموضوع •

ب ـ اتخاذ جميع التدابير الضرورية اللازمة التى من شأنها أن تساعد على توطيد دعائم الاسرة ، وتحافظ على كيانها ، لمواجهة التيارات المتطرفة التى أصبحت تشكل خطرا كبيرا على سلامة الاسرة •

ثانيـــا : على مستوى العالم الاسلامى :

أ ـ الاعتراف للمرأة بحقوقها الطبيعية ، وفقا لتعاليم الشريعة الاسلامية •

ب ـ اعتبار الزوج هو المسؤول الاول عن الاسرة وعليه يقع عبء قيادتها وحمايتها ماديا ومعنويا ، من غير استبداد أو تعسف •

ج ـ بما أن مهمة البيت هى رسالة المرأة الاولى ، فان على الزوجة أن تتكفل بشؤونه، ورعاية كل أفراد الاسرة فيه •

5) تشجيع الزواج وتيسيره وتوفير كل الظروف الملائمة له ، طبقا لاحكام الشريعة الاسلامية فى بساطتها •

6) على الدول الاسلامية أن تحمى الاسرة ماديا ، سواء فى مرحلة النشأة أو فى مرحلة النمو •

7) كما أن على الدول الاسلامية أن تصون الاسرة خلقيا ، بمراعاة القيم العائلية الاسلامية ، ويكون ذلك بكل وسائل الاعلام ، والتربية والتثقيف •

8) ضرورة الاخذ بقواعد الشريعة الاسلامية عند التقنين للاسرة الاسلامية •

9) توفير كل الوسائل الفعالة لحماية الاسرة ، والفتاة المسلمة بصفة خاصة ، من كل التيارات الدخيلة على المجتمع الاسلامى •

10) دعم الاسرة بمفهومها الكبير ، عن طريق توثيق صلات القربى بين ذوى الارحام أصولا وفروعا وذلك بطرق التوعية والتوجيه المختلفة .

11) تكوين جمعيات لحماية الاسرة وتشجيعها للقيام بكل المهام التى من شأنها أن تعالج مشاكل الاسرة ، وترفع من مستواها .

خاتمـــة :

وأخيرا فان اللجنة فى ضوء ما تقدم ـ ترى ضرورة العمل على تحقيق وجود نموذج عائلى اسلامى يحافظ على الترابط والتوازن فى الحقوق والواجبات بين كل أفرادها ، بحيث يكون هذا النموذج تعبيرا صحيحا على قدرة النظام الاسلامى الاجتماعى عـــلى هداية البشرية وتحقيق سعادتها .

فضــل العــرب عــلى أوروبــا في ميــدان نشــأة وتطــور النظــام الجــامعي في العصــور الــوسطى

د. رفعت ى. عبيـد
استاذ بقسم الدراسات السامية
جامعة ليدز ـ بريطانيا العظمى ـ



ان أنظمة المستشفيات والمراصد والجامعات فى عصرنا الحديث هى امتداد لتلك الانظمة التى كانت سائدة فى العصور الوسطى ، ومما لا خلاف فيه أن المستشفيات والمراصد هى انجازات حضارية أنتجتها الحضارة الاسلامية العربية . وعلى الرغم من أن الفضل فى اختراع بعض المعدات والآلات الفلكية يرجع الى اليونانيين الا أن المراصد كمؤسسات لها أنظمتها الدقيقة برزت وتطورت نتيجة للعناية التى أولاها لها الحكام المسلمون . ولعل أول مرصد له ذكر فيما لدينا من مصادر هو ذلك الذى أسسه الخليفة المأمون (813 833 م) عام 830 م فى بغداد عاصمة الدولة الاسلامية آنذاك .

أما فيما يتعلق بالطب فان تأسيس وادارة الكثير من المستشفيات كان من أهم ما قدمه العرب فى هذا المجال الى حضارة العصور الوسطى . ولو سلمنا جدلا بأن العرب لم يؤسسوا المستشفيات كما نعرفها فانه مما لا شك فيه أنهم قد أولوها أهمية

بالغة فيما يختص بتنظيمها وتمويلها وصيانتها ، وأرسوا في ذلك الكثير من الملامح التي ما تزال حتى الآن من الصفات المميزة للمستشفيات الحديثة .

أما بالنسبة للجامعات فهناك دليل استنتاجي واضح يشير الى أن الجامعة كانت الى حد كبير احدى ابتكارات الحضارة الاسلامية . ومما لا خلاف فيه أن الجامعات الاوروبية القديمة كانت لها خصائص وملامح بارزة تشبه الى حد كبير خصائص وملامح مراكز التعليم الاسلامي التي سبقتها (والتي اسست خلال القرن العاشر والحادي عشر م) . الا أن المؤرخين الغربيين ما يزالون يترددون في الاعتراف بأن هذا التشابه بين مراكز التعليم العالي الاسلامية والمسيحية كان أكثر من مجرد « صدفة » . وعدم الاعتراف هذا ربما يعود الى عدم توافر المستندات والوثائق التي تدل بوضوح على أن هذا التشابه لم يكن مجرد سلسلة من المصادفات العريضة فقط . على الرغم من أنه ليس هناك أي خلاف في أن معظم كتب الدراسة الجامعية التي كانت تستخدم في مراكز التعليم المسيحية الجديدة في العصور الوسطى كانت مترجمة من العربية الى اللاتينية . ومن بين مؤلفي هذه الكتب العلمية والطبية والفلسفية تألق كثير من العلماء المسلمين مثل ابن سينا وابن رشد والفارابي وابن زهر وأبو القاسم الزهراوي وغيرهم . واذا لم يكن هناك أي دليل آخر على تأثير الحضارة الاسلامية على المسيحية في مجال التعليم العالي ، فان هذه الاسماء بمفردها كفيلة بترجيح الاعتقاد السائد بأن الجامعات الاوروبية التي استخدمت مؤلفاتهم في برامجها الدراسية لابد وأن تكون قد تأثرت بالحضارة الاسلامية التي أنتجت مثل هذه الكتب .

وهناك دليل واضح يشير الى أن « الجامعة » في العصور الوسطى نشأت وتطورت تحت لواء الاسلام . ولنبدأ بالحقيقة المسلم بها ، وهي أن بعض مراكز التعليم العالي الاسلامية كانت قد تأسست قبل تأسيس أول جامعة في أوروبا بأكثر من مائة عام في الاقل . فقد أنشئت كلية جامع القرويين في فاس بمراكش عام 859 م ، وكلية قرطبة في النصف الاول من القرن العاشر ، وكلية جامع الازهر في القاهرة عام 972 ، ودار الحكمة بالقاهرة في أوائل القرن الحادي عشر ... الخ . أما في أوروبا فان انشاء أول مراكز للتعليم العالي جاء متأخرا ، فان جامعات بولونيا وباريس ومونبيلييه لم

تتواجد بالتأكيد قبل القرن الثانى عشر • (1) وعلى اثر نشأة هذه الجامعات فى أوروبا المسيحية كانت هناك أوجه تشابه عديدة بينها وبين مثيلاتها من الجامعات الاسلامية التى سبقتها بقرون • فان تنظيم الطلاب على سبيل المثال كان يتم وفقا لجنسياتهم (nations) بحيث كانوا يقسمون الى مجموعات سكنية طبقا للبلاد التى وفدوا منها (2) . وهذا على نمط ما كان يحدث فى جامعة الازهر بالقاهرة حيث كانت هناك مساكن مستقلة خاصة بالطلبة الوافدين من مراكش أو الصعيد أو العراق ... الخ • ففى جامعة باريس مثلا كان الطلاب يقسمون الى جماعات أو « أمم » مثل « الامة الانجليزية » و « الامة الفلمنكية » وغيرهما • وقد بقيت آثار هذا التقسيم الجغرافى للطلاب فى بعض أسماء الكليات بجامعة اكسفورد مثل لنكولن وورشستر وهارتفورد وغيرها •

ومن ملامح التشابه أيضا بين تنظيم الجامعات الاوروبية والاسلامية هو أن مدرسى الجامعة كانوا يرتدون زيا خاصا مميزا وهو ما يعرف بالروب الجامعى أثناء المحاضرات والمناسبات الرسمية • ومما يذكر أن ارتداء مثل هذا الارواب الفضفاضة كان ممارسا منذ وقت مبكر فى مراكز التعليم الاسلامية خلال العصور الوسطى • وهناك ناحية أخرى من نواحى التشابه ، وهى أن بعض المصطلحات الاكاديمية المستعملة فى جامعات أوروبا تشبه الى حد كبير تلك التى كانت تستعمل قبلها فى الجامعات الاسلامية • فاللفظ الاوروبى الاصلى للجامعة (studium generale) (3) من المحتمل أن يكون ترجمة مباشرة للتعبير العلمى العربى « مجلس عام » أو الدروس المنتظمة •

هذا علاوة على عادة التدريس المجانى للطلبة ، وفى ذلك تشابه كامل بما كان يحدث فى الجامعات الاسلامية •

ومما يجدر ذكره ونحن بصدد تعداد أوجه التشابه بين مراكز التعليم المسيحية وسابقاتها من المراكز الاسلامية أن حصول ما نسميه « الرحلة فى طلب العلم » كان تقليدا معروفا فى النظام التربوى الاسلامى قبل أن يصبح من ملامح الحياة العلميـــة فى البلاد المسيحية بزمن طويل ، فلم يكن الطلاب المسلمون ينخرطون فى معاهد معينة لاكمال تحصيلهم ، أو يفترضون أن هناك أستاذا واحدا يلم الماما كاملا بمجال دراسى

معين . ولذلك أصبحت الهجرة من مركز دراسى لآخر احدى الملامح المعترف بها فى الحياة الثقافية فى البلاد الاسلامية . (4)

وربما كانت هجرة طلبة العلم من مدينة لأخرى هى التى أدت الى قيام أهم التقاليد التعليمية فى النظام التربوى عند المسلمين ، والتى كانت تنتهى دائما بالحصول على الاجازة العلمية ، وهى عبارة عن اذن ورخصة تتضمنها وثيقة تجيز للطالب رواية ما أخذ عن أساتذة . فكان الشيوخ يمنحون مثل هذه الاجازة لمن يبيحون له الرواية عنهم أو تدريس الآخرين الموضوعات التى تعلموها منهم . ويعود تاريخ هذا التقليد التعليمى الاسلامى الى القرن الثانى للهجرة . (5) ولو فحصنا تاريخ تطور الجامعات المسيحية لوجدنا أن أقدم صيغة للشهادة أو الدرجة التى كانت تمنحها هذه الجامعات تعرف بـ (Licencia docendi) 6 أى « اجازة التدريس » .

وهكذا تمتعت الجامعات الاسلامية فى العصور الوسطى بحرية أكثر فى « الدراسة » و « التدريس » وبقدر أوفر مما حظيت به مثيلاتها من الجامعات المسيحية . فليس من الغريب ، اذن ، أن كل أستاذ فى الجامعات الاسلامية كان من حقه أن يمنح تلامذته اجازته ، الشفهية أو التحريرية ، للتدريس بينما فى أوروبا كان هذا الحق مقصورا على رئيس الجامعة .

ويبدو مما سبق أن « الاجازة العلمية » والتعبير اللاتينى : (Licencia docendi) كانا أداتين متطابقتين تستعملان للدلالة على الاذن والترخيص بالتدريس بغض النظر عن اختلاف الجهة التى تصدره .

واذا تذكرنا الدور الهام الذى لعبته اسبانيا فى خلال العصور الوسطى فى تمرير ونقل المعارف الاسلامية الى أوروبا ، فان أهمية هذا التشابه بين التنظيمات العلمية الاسلامية والمسيحية تزداد الى حد كبير . فقد كانت اسبانيا الاسلامية أعظم مراكز الثقافة والتعليم القريبة من أوروبا فى العصور الوسطى ، فبعد سقوط طليطلة على أيدى المسحيين عام 1085 م أصبحت اسبانيا منفذا رئيسيا تسرب خلاله الانتاج العلمى للعلماء المسلمين ليصل الى أوروبا المسيحية . وفى طليطلة أسس الاسقف ريموند

(الذى توفى عام 1251 م) مدرسة خاصة بترجمة الكتب العربية الى اللغة اللاتينية • (7) وهكذا نقلت ذخائر الكتب العربية فى علوم الفلسفة والطب وغيرها الى اللاتينية ليسهل على الطلبة والاساتذة الاوروبيين استعمالها فى الجامعات المسيحية • وليس من الغريب اذن أن يكون الاساتذة المسيحيون قد جلبوا معهم من اسبانيا بعض أوجه تنظيم الجامعات الاسلامية بالاضافة الى الكتب الدراسية • السؤال الذى يتردد على أذهاننا هو : كيف يمكن اثبات هذا الاحتمال ؟ أو بعبارة أخرى كيف يمكن اثبات أن ما استبعد حتى الآن على أنه مجرد سلسلة من الاحداث التى وقعت بطريق الصدفة أنه سلسلة من الاستعارات الثقافية التى حدثت بالفعل ؟

ومن الجائز أن نفترض أن بعض هذه الاسباب القديمة فى النظام التربوى الاسلامى كانت قد نقلت الى أوروبا المسيحية عن طريق الطلبة المسيحيين العائدين الى باريس واكسفورد ••• الخ ، بعد اكمال تحصيلهم ، أمثال
Adelard of Bath, Michael Scot, Robert of Ketton, etc.
ولكن لسوء الحظ لم يترك هؤلاء الطلبة أية وثيقة أو أى سجل خاص بنظام التعليم الاسلامى (8) ، وذلك لانهم ركزوا جهودهم فى كتاباتهم على مضمون المادة التى درسوها فى صيغة الترجمات اللاتينية للكتب العربية •

لقد اقترح الفريد جيوم ، المستشرق الانجليزى المشهور ، فى مقال له نشر فى كتاب « تراث الاسلام » (The Legacy of Islam) المطبوع فى اكسفورد عام 1931 أنه يمكننا التوصل الى حل لمشكلة العلاقات بين الجامعات الاسلامية والمسيحية اذا أمكن تفسير أصل الاصطلاح (baccalareus) (أو (baccalaureus) المستعمل فى العصور الوسطى للدلالة على الشخص الحامل للدرجة الجامعية العلمية « بكالوريا » تفسيرا مرضيا • (9) وجدير بالذكر أن هذا الاصطلاح بهذا المعنى استعمل لأول مرة فى جامعة باريس فى القرن الثالث عشر وذلك فى « نظام » الدرجات العلمية الذى ظهر عام 1231 م فى المرسوم البابوى (Parens scientiarum) الذى أصدره البابا جريجوريوس التاسع ، (10) الا أنه من الجائز أن نفس الاصطلاح كان مستعملا فى اللهجة العامية قبل هذا التاريخ •

وأشار جيوم فى مقاله أيضا الى اشتقاق هذه الكلمة الوارد فى قاموس اكسفورد الانجليزى (Oxford English Dictionary) لا يمكن أخذه أو قبوله بصورة جدية · ففى محاولة يائسة لاثبات انه مشتق من تعبير لاتينى اقترح مؤلف المقال فى هذا القاموس أن اصطلاح « البكالوريا » ربما يكون مشتقا من كلمة vaca) اللاتينية التى تعنى « البقـــرة » !

واستطرد جيوم مشيرا الى أن كلمة « البكالوريوس » من المحتمل أن تكون فى الاصل اصطلاحا عربيا صرفا كان قد حرف نتيجة لكتابته بالحروف اللاتينية مثل « بحـــق الرواية » بمعنى « الحق فى التدريس المخول من شخص آخر » ، باعتباره تعبيرا مناسبا للاصطلاح اللاتينى من ناحية المعنى ومشابها له أيضا من ناحية النطق · الا أن جيوم بادر بالاعتراف بأنه لم يسبق له أن رأى مثل هذا التعبير مستخدما فى أى مستنـــد عربى ، وعلى ذلك ظل اقتراح جيوم هذا حتى الآن مجرد تخمين شيق · والمعروف أن كثيرا من الكلمات العربية المحرفة دخلت فى اللغة اللاتينية واللهجات الاوروبية الدارجة فى العصور الوسطى ومازال عدد كبير من هذه الكلمات المألوفة يستعمل فى أيامنا هذه فى هذه اللغات ، منها :

(أمـير البحر)	a miral	(صـــك)	cheque
(دار الصناعـــة)	arsenal	(تعريـــف)	tariff
		(طـــرح)	

ويمكننا الآن أن نبين فيما يلى أن اصطلاحا عربيا مطابقا للفظ « البكالوريا » كان مستخدما منذ منتصف القرن الثانى عشر الميلادى (فى الاقل) وخلال فترة من الزمن لا تقل عن ستة قرون فى الوثائق العربية ، الاجازات العلمية ، التى يحمل المجاز بمقتضاها الاذن برواية (أو تدريس) الكتب التى صدر التسويغ فى روايتها عن المجيز اجمالا أو تفصيلا · فلقد عثرنا أثناء دراستنا للنماذج المختلفة للاجازات العلمية القديمة والحديثة ، بالاشتراك مع زميل لنا (د· مايكل يونج) ، على تعبير « بحق الرواية » الذى كان قد اقترحه جيوم كأصل للفظ « البكالوريا » ، وذلك فى اجازة يرجع تاريخها الى

عام 542 هـ (= 1147 م) ملحقة بنص كتاب سقط الزند لابى العلاء المعرى فى مخطوطة محفوظة بخزانة جامعة كمبردج · (11) واليك نص الاجازة المشار اليها آنفا :

« (سمع) الكتاب الموسوم بسقط الزند لابى العلاء المعرى على الشريف الاجل الامام الاوحد العالم أبى المعمر المبارك بن أحمد بن عبد العزيز بن المعمر الانصارى **بحق روايته** عن أبى زكرياء يحيى بن على الخطيب التبريزى عن أبى العلاء بقراءة الشيخ الاجل الامام الاوحد السيد العالم أبى محمد عبد الله بن أحمد بن أحمد بن أحمد الخشاب النحوى أولى الله عزه صاحبه الامير الاجل العالم أبو المرهف نصر بن المنصور بن الحسن بن جوشن النميرى نفعه الله بالعلم . والرئيس الاجل أبو غالب محمد بن المبارك بن محمد ابن محمد بن ميمون ، ومثبت السماع على بن يوسف بن الحسن بن على بن يوسف ابن المحولى ، وذلك فى مجالس آخرها السبت خامس عشر ذى القعدة من سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ، والحمد لله وصلواته على سيدنا محمد النبى وآله وسلامه · هذا صحيح وكتب المبارك بن أحمد بن عبد العزيز بن المعمر الانصارى فى التاريخ » ·

ولقد ورد ذكر تعبير « بحق الرواية » مرتين فى اجازة متضمنة فى مخطوطة أخرى محفوظة فى استامبول (12) تحتوى على كتاب سقط الزند أيضا ثم نسخها فى سنة 542 هـ (= 1147 م) · وفيما يلى نص هذه الاجازة :

« كنت سمعت سقط الزند أجمع على شيخنا الامام العالم ظهير الدين أبى غالب محمد بن المبارك بن محمد بن محمد بن ميمون قديما من على هذه النسخة بقراءة
.. .. .. أبى القسم على بن محمد بن ابراهيم الكاتب فى شهر رجب سنة .. ..
وخمس مائة **بحق روايته** عن الشريف ابى المعمر بن أحمد بن عبد العزيز بن المعمر الانصارى عن أبى زكرياء يحيى بن على التبريزى عن أبى العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمن المعرى · ونقلت طبقة سماع شيخنا ظهير الدين أبى غالب محمد بن مبارك بن محمد بن محمد بن ميمون من على نسخة القاضى بهاء الدين أبى ابراهيم بن أبى اليسر ما نسخته · سمع جميع سقط الزند على الشريف أبى المعمر المبارك بن أحمد بن عبد العزيز بن المعمر الانصارى **بحق روايته** عن أبى زكرياء يحيى بن على التبريزى بقراءة الاجل الامام أبى محمد عبد الله بن أحمد بن أحمد بن الخشاب الاجل أبو

المرهف نصر بن منصور بن الحسن بن جوشن النميرى والاجل أبو غالب محمد بن محمد ابن محمد بن ميمون ، ومثبت السماع على بن يوسف بن الحسن بن على بن يوسف المحولى فى عدة مجالس آخرها السبت خامس عشر ذى القعدة سنة اثنتين واربعين وخمس مائة . كتب ذلك أجمع محمد بن الحسن بن محمد ابراهيم بن محمد الكاتب صاحب هذه النسخة المعروف بابن الكريم البغدادى ، والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا نبيه وعلى آله وسلم كثـيرا » .

وتحتوى مخطوطة كتاب سيبويه المحفوظة فى المكتبة الاهلية بباريس (13) والتى نسخها زيد بن الحسن بن زيد الكندى فى عام 595 هـ (= 1198 م) على اجازة ورد فيها تعبير « بحق روايتى » . واليك نص هذه الاجازة :

« بسم الله الرحمن الرحيم . سمع جميع كتاب سيبويه ، فقرأ على الشيخ العفيف الفاضل أبو الحسن محمد وأخوه الولد النجيب أبو الحسين اسماعيل ابنا الشيخ الامام العالم الورع أبى جعفر أحمد بن على بن اسماعيل القرطبى ، وفقهم الله لمرضاته ، وسمع والدهما معهما الا قدرا يسيرا أجزته له . وهو مذكور فى طبقة السماع فى آخر الكتاب، وذلك **بحق روايتى** أياه عن شيخى الامام الحبر أبى محمد عبد الله بن على النحوى المقرى بالاسناد المذكور فى طبقة السماع متصلا الى سيبويه . وكنت سمعته عليه مرتين احداهما قبل التاريخ المذكور . وكتب زيد بن الحسن بن زيد الكندى فى سنة خمس وسبعين وخمس مائة . والحمد لله كما هو أهله ، وصلاته على أكرم خلقه المصطـــفى وســـلامه » .

وتشتمل مخطوطة كتاب معالم السنن لحمد الخطابى المحفوظة فى مكتبة فيض الله باستانبول (14) على اجازة مؤرخة فى 556 هـ (= 1160) ورد فيها تعبير « بحـــق روايته » مرتين كما يلى :

« ... بقراءة أبى الفضل أحمد بن صالح الجيلى سنة ست وخمسين وخمس مائة ببغداد بحق اجازته من الرويانى المذكور **بحق روايته** من البلخى المذكور **بحق روايته** عن المصنـــف ... » .

وتتضمـــن المخطوطـــة رقم 591 المحفوظـــة بمكتبة غازى خسرو بك بسراجيفـو (يوغوسلافيا) (15) اجازة بن همات الدمشقى التى منحها له الفقيه المصرى بن الميت فى 10 رمضان سنة 1134 هـ (= 1721 م) وفيها يرد تعبير « بحق روايته » كما يلى :

« ... انى أرويها من مشايخى ولا سيما عن علامة زمانه وفريد أوانه خاتمـــة المحققين على بن محمد الشبراملسى عن قطب زمانه سيدى الاجهورى المالكى **بحق روايته** اجازة عن النور على القرافى عن الجلال السيوطى ... »

يتضح مما سبق أن أقدم اجازة معروفة لدينا والتى ورد فيها تعبير « بحق الرواية » يرجع تاريخها الى عام 1147 م (مخطوطة كمبردج) فى حين أن مصطلح « بكالوريوس » الذى يدل على حامل الشهادة الجامعية لم يبدأ استعماله فى أوروبا كما ذكرنا آنفا قبل عام 1231 م . ومن المحتمل اذن أن لفظ « البكالوريا » المستعمل فى الجامعات الاوروبية يرجع اشتقاقه الى التعبير العربى « بحق الرواية » الذى استخدم فى الاجازات العلمية الاسلامية منذ عام 1147 م فى الاقل . واذا أخذنا هذا الاحتمال فى الاعتبار الى جانب غيره من ملامح التشابه الاخرى الهامة والتى سبق أن أشرنا اليها فان ذلك يشير بوضوح الى أن الجامعات الاوروبية كانت قد أسست على غرار سابقاتها من الجامعات الاسلامية .

ان الكتاب الاوروبيين لم يعنوا كثيرا بدراسة الاجازات العلمية عند المسلمين ولـــم يولوها ما تستحقه من العناية والاهتمام . (16) ومن المحتمل أن التعمق فى دراســـة هذا النوع الهام من الوثائق يلقى ضوءا على العلاقة بين معاهد التعليم العالى الاسلامية القديمة ومثيلاتها فى أوروبا المسيحية فى العصور الوسطى ، كما انه يثبت أن مراكز التعليم الاسلامية لم تسبق معاهد التعليم فى أوروبا فقط وانما كانت نموذجا أصليا خططت على غراره الجامعات الاوروبية المسيحية .

وفى الختام نود أن نعترف بأننا لا ندعى الكمال لبحثنا هذا ، وانما نرجو ان يكون بداية ومساعدا على حل بعض مشكلات موضوع العلاقات بين معاهد ونظم التعليم العالى الاسلامية والمسيحية فى العصور الوسطى .

(1) أنظـــر : H. Rashdall, *The Universities of Europe in the Midle Ages*, ed F.M. Powicke and A.B. Emden vol., I (Oxford, 1936) ;

A.B. Cabham, *The Medieval Universities* (London, 1975).

(2) راجـــع :
P. Kibre, *The Nations in the Medieval Universities* (Cambridge, Mass., 1948).

(3) أى الاسم الذى كانت تعرف به الجامعات الاوروبية قبل أن تسمى « جامعات » . أنظر : راشدال ، الجامعات الاوروبية فى العصور الوسطى (المصدر المذكور فى الهامش رقم 1) ، ج 1 ، ص 6 .

(4) عبد الله فياض ، الاجازات العلمية عند المسلمين (بغداد ، 1967) ، ص 37 . 105 ـ 110 .

(5) أنظر المصدر السابق ، ص 21 ـ 23 .

(6) قارن راشدال ، الجامعات الاوروبية فى العصور الوسطى (المصدر المذكور فى

(7) راشدال ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص 353 .

(8) أنظـــر :
A. Guillaume, "Philosophy and Theology" in The Legacy of Islam (Ist. edition), ed. T. Arnold and A. Guillaume (Oxford, 1931), p. 244.

(9) جيوم ، المصدر السابق ، ص 244 ، التعليق رقم 1 .

(10) راجـــع : L. Halphen, *A travers l'histoire du Moyen-Age* (Paris, 1950), p. 304 ; Encyclopaedia Britnnica (111 th edition, 1910), s. v. "Bachelor".

(11) خزانة مكتبة جامعة كمبرد ، مخطوطة رقم (QQ 115)

(12) المكتبة السليمانية ، مجموعة لاليلى ، مخطوطة رقم 1765 .

(13) المكتبة الاهلية ، مخطوطة رقم 5068 . راجع مقال صلاح الدين المنجد « اجازات السماع فى المخطوطات القديمة » المنشور فى مجلة معهد المخطوطات العربية ، ج 1 (1955)، ص 245 .

أنظر أيضـا :
G. Vajda, *Certificats de Lecture et de transmission dans les manuscrits de la B.N. de Paris* (Paris, 1956), p. 48.

(14) المكتبة السليمانية ، مجموعة فيض الله ، مخطوطة رقم 543 . ولقد نشر هـ. ريتر نص هذه الاجازة فى مقاله :

"Autographs in Turkish Libraries" in *Oriens,* VI (1953), pp. 84-86.

(15) أنظر مقالتى (بالاشتراك مع زميلى م. ج. ل. يونج) التى تتضمن النص الكامل لهذه الاجازة مع ترجمته الى اللغة الانجليزية :

"An Early Eighteenth-century Ijàzah issued in Damietta" in *Le Muséon,* vil. 87 (1974), pp. 445-465.

(16) صلاح الدين المنجد ، « اجازات السماع فى المخطوطات القديمة » (المصدر المذكور فى الهامش رقم 13) . ص 232 . قارن أيضا :

G. Vajda, *The Encyclopaedia of Islam* (2 nd edition), s.v. "Idjàza".

لجنــة النقطــة الرابعــة

نظــرة جامعـــة عـــلى الجامعـــة

الرئيس :

معالى الدكتور فاضل الجمالى ـ العراق ـ أستاذ بالجامعة التونسية ·

المقــرر :

شهاب الدين يلس ـ باحث بالوثائق الوطنية برئاسة الجمهورية ـ **الجزائر** ·

الاعضـــاء

- **الاستاذ أحمد حمانى** ـ رئيس المجلس الاسلامى الاعلى ـ **الجزائر** ·
- **الشيخ محمد الشاذلى النيفر** ـ عميد الكلية الزيتونية للشريعة وأصــول الدين ـ تونس ·
- **الاستاذ محمد عبد الله عنان** ـ مؤرخ وعضو مجمع اللغة العربية ـ القاهرة ـ مصر ·
- **الدكتور رفعت · ى · عبيد** ـ الاستاذ بقسم الدراسات السامية جامعة ليدز ـ بريطانيا العظمى ·

ـ **الدكتورة وداد القاضي** ـ الاستاذة بالجامعة الامريكية ـ بيروت ·

ـ **الاستاذ يونس آرو** ـ أستاذ اللغات والآداب الشرقية بجامعة هلسنكي ـ فنلنده ·

ـ **الدكتور ينس قليب موللر** ـ أستاذ الفلسفة بجامعة روشلد ـ الدانمارك

ـ **الدكتور داود كاون** ـ الاستاذ بقسم الشرق الادنى والاوسط بمعهد الدراسات الشرقية والافريقية بجامعة لندن ·

ـ **الدكتور غريب الجمال** ـ المستشار الفنى للامين العام للشؤون الثقافية لمنظمة المؤتمر الاسلامى ـ جدة ·

ـ **الدكتور محمد العزيز الحبابى** ـ أستاذ بجامعة الرباط ـ المغرب ·

ـ **الاستاذ عبد الرحمن شيبان** ـ مفتش عام بوزارة التربية ـ الجزائر ·

ـ **الاستاذ محمد صلاح الدين المستاوى** ـ صحفى ومدير ورئيس تحرير مجلة جوهر الاسلام ·

ـ **الاستاذ أحمد درار** ـ المدير السابق للتعليم الاصلى ونائب المجلس الشعبى الوطنى ـ الجزائر ·

ـ **الاستاذ محمد شبوكى** ـ أستاذ وعضو المجلس الشعبى الولائى بولاية تبسة ـ الجزائر ·

ـ **الاستاذ محمد أمزيان الثعالبى** ـ أستاذ بالمعهد التكنولوجى بابن عكنون ـ الجزائر ·

ـ **الآنسة خناثة بن هاشم** ـ الطالبة فى معهد اللغة والثقافة العربية بجامعة تلمسان ـ الجزائر ·

ـ **السيد حسن عجايلية** ـ طالب بمعهد الحقوق والعلوم الادارية بجامعة الجزائر ـ ابن عكنون ·

اجتمع أعضاء هذه اللجنة في جلسات عديدة ، واستعرضوا ما ألقى فى جلسات الملتقى من محاضرات ومناقشات المعقبين والطلبة فى موضوع النقطة الرابعة (نظرة جامعة على الجامعة) واستخلصوا من ذلك ما يأتى :

ان البلاد الاسلامية كان لها فضل السبق فى انشاء النظام الجامعى فى العالم ، اذ كان المسجد النواة الاولى لنشأتها ، فكانت شاملة ، قائمة على أسس من العلم والايمان والفضيلة والعمل الصالح ، والدراسة المجانية ، وتوفير الامور المعاشية لطلابها ، واتصالها اتصالا وثيقا بالمجتمع ، تعالج مشكلات الناس وتحلها • وتعين على صقل مواهب الفرد وتطويره ، وتعنى بشتى العلوم والمعارف ، وتمد الانسانية بكبار العلماء الذين كان لهم أثر عظيم فى تطور ورقى الحضارة العالمية • وقد كانت الجامعة ـ وماتزال ـ ذات أثر فعال فى دفع عجلة التقدم، فمنها انطلقت الحركات العلمية والفكرية والاصلاحية فى مختلف البلاد الاسلامية • وتسربت الى غيرها من أقطار العالم • ولئن قامت بمهمتها أحسن قيام فى عهود الدول الاسلامية الزاهرة • فقد أصابها ـ من بعد ـ جمود وخمود فى عهد الانحطاط التى أعقبها عهد الاستعمار ، والتدخل الاجنبى وهيمنته على مصائر الثقافة الاسلامية ـ وبعد انحسار عهد الهيمنة الاستعمارية وبعد استقلال معظم بلاد الاسلام ـ أخذت الجامعة تمضى من جديد ـ وتعد بالعشرات فى مختلف البلاد الاسلامية ، كما أخذت المشاكل العويصة تقف أمامها • وتعرقل سيرها ، وقد أصبح من الواجب التفكير والعمل الجدى لتسهيل سيرها حتى تقوم بمهامها وتحقيق أهدافها على أكمل وجه • ومن هذه المشاكل :

أنها أصبحت تتأرجح بين الاصالة والمعاصرة من جراء هبوب تيارات فكرية متناقضة متضاربة مما هددها بالشلل والانحراف وبالعجز عن تلاؤم برامجها الدراسية مع حاجات المجتمع الحديث • ومن أزماتها أن العديد من الجامعات الناشئة لم تتوفر لها الامكانيات المادية والادبيه الضرورية لجعلها فى المستوى المطلوب ، من ذلك الاطارات من الاساتذة الاكفاء والتجهيزات الضرورية من مكتبات ، ومختبرات ، ومن ضعف المستوى فى بعض الملتحقين بها من الطلبة ، ومن هضم حق اللغة العربية فى السيادة بكل كليات الجامعة

ومعاهدها أو محاولة حصرها فى كليات الآداب والعلوم النظرية ، وطردها من كليات العلوم الكونية ، ومن ذلك اضعاف دور العقيدة الاسلامية والاخلاق القومية مما أعطى صورة باهتة عن دور الجامعة فى اخراج رجال يقودون أمتهم نحو الرقى والنهوض ، ملائمين مع واقع أمتهم . مرتبطين بماضيهم وتاريخهم كحلقة رابطة بين الماضى والحاضر والمستقبـــل ·

وبعد هذا الاستعراض المجمل لهذا الواقع المر الذى تعيشه اليوم جامعاتنا فى البلاد العربية والاسلامية ، اتفق أعضاء اللجنة على التقدم للدول الاسلامية ، ووزارات التعليم، وجامعة الدول العربية ، ومنظمة المؤتمر الاسلامى وغيرها من المنظمات الاسلامية ، بالتوصيات الآتية :

الاولى : مهمة الجامعة الاولى أن تحافظ على الاصالة والمعاصرة ، وقبل انشائها يجب أن يكون التصور الواضح لمهمتها ، مستلهمة التراث الجامعى الاسلامى العريق ، مستفيدة من التجارب الجامعية المعاصرة لدى الامم الراقية . وبذلك تجمع بين الاصالة والتفتح ·

الثانيـــة : لما كانت العروة الوثقى بين أعضاء الامة الاسلامية هى الاسلام . والقرآن الكريم كتاب أنزله الله بلسان عربى مبين ، فا ناللجنة تؤكد على الجامعات فى كل أنحاء العالم الاسلامى أن تبنى برامجها على أمرين ·

أ ـ أن تكون الثقافة الاسلامية الصحيحة مادة أساسية فى جميع جامعات الدول الاسلامية ، وكذلك الجامعات الاسلامية التى تنشأ فى دول الاقليات الاسلامية ·

ب ـ أن تكون اللغة العربية لغة التدريس الاساسية فى جامعات الدول الاسلامية الناطقة باللغة العربية ، وأن تعطى لها الاهمية الكبرى فى جامعات الدول الاسلاميـــة غير الناطقة باللغة العربية ، بالاضافة الى اللغة القومية لهذه الدول الاخيرة ، ودول الاقليات الاسلامية ·

الثالثـــة : أن يوفر لكل جامعة المناخ الضرورى لضمان الاستقرار والازدهار ·

الرابعـــة : أن تلبى الجامعات كل المتطلبات الضرورية للتنمية فى جميع المجالات : ثقافية واقتصادية · واجتماعيـــة وذلك بدعـــم الدراسات النظرية والمخبرية بالاعمال الميدانيـــة ·

الخامســـة : الاستجابه لمتطلبات الجامعات بتوفير كل ما يلزمها من تجهيزات الجامعة العصرية من مبان ومكتبات ومختبرات ٠

السادســـة : لما كان يجب أن يوفر للجامعة اطار من الاساتذة الاكفاء المثاليـين في عملهم وسلوكهم ٠ فيجب أن يوفر لهم ما يستحقونه من احترام وتقدير ومستوى لائق في المعـــاش ٠

السابعـــة : قيام تعاون وثيق بين مختلف الجامعات في البلاد الاسلامية في جميع الميادين ٠ بحيث تستفيد كل جامعة من خبرات الجامعات الاخرى :

أ ــ بالاكثار من اللقاءات المفيدة بين العاملين فيها ، وعقد المؤتمرات الدورية ٠

ب ــ بتبادل الاساتذة والمعلومات والرسائل والاطروحات والمجلات ٠

ج ــ بتبادل الوثائق والكتب والمخطوطات والقوائم والفهارس ٠

الثامنـــة : الاهتمام بالطلبة ماديا وأدبيا ، وذلك بتوفير المناخ الملائم لتلقي دروسهم، واقامتهم ومعيشتهم وحفظ كرامتهم ، وصون أخلاقهم ، وبمراعاة مواهبهم ورغائبهـم ، والتوفيق بين ذلك ، وبين حاجيات البلاد بمختلف اختصاصاتهم التقنية والاقتصادية والعلمية والثقافية ٠

التاسعـــة : مع وجوب العناية بالدين والتربية الاسلامية في كل جامعة ومعهـــد وكلية ــ يتحتم انشاء جامعة اسلامية في كل دولة اسلامية يكون اختصاصها دراســـة الشريعة الاسلامية وعلومها النقلية والعقلية واللسانية، وتعلم اللغات الاسلامية المختلفة، والدراسات المقارنة بين الاديان والملل والنحل ، وذلك بقصد تخريج علماء مختصين ، ودعاة مقتدرين ، وعلى هذه الجامعات أن تقبل الطلاب من جميع الاقطار الاسلامية، وتسهل الالتحاق بها على أبناء الاقليات من الدول غير الاسلامية ٠

العـــاشرة : اعداد مؤلفات محكمة باللغة العربية من علماء أكفاء مختصين فى مختلف العلوم والفنون التى تفقد مثل هذه الكتب ، وخصوصا الاقتصاد الاسلامى والرياضيات والصنائع حتى يسد حاجة التعليم العالى والثانوى ، وتثرى المكتبة العربية ، وتغنى عن استيرادها من الخارج ، وتبطل احدى الحجج القوية لخصوم العربية فى بقاء جامعاتنا وثانوياتنا مستعمرة استعمارا فكريا وروحيا خطيرا ·

الحادية عشر : قيام نخبة من علماء من ذوى اختصاص بتأليف كتب تتناول تاريخ جامعاتنا الاسلامية القديمة فى مختلف بلادنا الاسلامية وتطويرها وتدرس بالتفاصيل ما قامت به كل جامعة من أعمال وما خرجت من رجال ، وما حققت من نتائج واكتشافات ، حتى تكون ناشئتنا على بينة بماضيها العريق ·

سياسة الولايات المتحدة الامريكية تجاه الثورة الجزائرية

د. شارل ل. ڤينز
مدير المعهد الامريكى للدراسات الاسلامية
جامعة دنفر - كولورادو -
(الولايات المتحدة الامريكية)



ربما كانت أهم خاصية مميزة لسياسة الولايات المتحدة الخارجية فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية هو تناقضها ، وهذا التناقض ملحوظ بصفة خاصة فى سياستها تجاه بلدان افريقيا والشرق الاوسط وشعوبها .

وكذلك نعرف عن طريق معلومات صدرت بصفة غير رسمية أن الولايات المتحدة كانت قد انغمست فى مساندة ثورة جمعية الضباط الاحرار فى مصر فى سنة 1952 م ، ولكنها بعد ذلك بست سنوات رفضت الاعتراف بمبدا تقرير المصير للشعب الجزائرى . واذا اعتبرنا أن الولايات المتحدة قد قامت نتيجة لثورة ضد حكم استعمارى ، فسيبدو من الغريب أنها لم تقبل نفس المبدا فى نضال الجزائر ضد السيطرة الاجنبية . والهدف من هذه المحاضرة هو بحث هذا الموقف .

بأنفسهم . ولكن عددا آخر من الامريكيين كانوا يستنكرون أعمال القمع التي كان يقوم بها المعمرون والقوات الفرنسية المسلحة في محاولة لقمع الوطنية الجزائرية . وأما تأثير هذه العناصر وما تذيعه من التقارير ، على الشعب الامريكي فهو أمر من المستحيل تحديده . على أنه من الممكن التصريح بدون تردد بأن هذه العناصر لم يكن لها أي تأثير على الاطلاق على كبار القادة الامريكيين .

ففي سنة 1952 ، انتخب الجنرال دوايت ايزنهاور ، القائد الاعلى سابقا لقوات الحلفاء أثناء الحرب وأحد أبطال الحرب العالمية الثانية ، رئيسا للولايات المتحدة . وفي غضون معظم مدة رئاسة ايزنهاور ، كان وزير الخارجية الامريكية هو فوستر دالس ، وهو رجل ذكي جدا ولكنه قصير النظر . وبسبب عدم ميله الى الشؤون الخارجية وبسبب مرضه أيضا ، ترك ايزنهاور هذه الشؤون في يد وزير خارجيته ، دالس ليس من شك في أن الرجلين كانا متفقين في قرارة نفسيهما على أنه ينبغي أن تؤيد الولايات المتحدة فرنسا لتعود الى شغل مركز قوي كدولة عظمى ، بقدر ما كانا مقتنعين بأهمية وقف تقدم الاتحاد السوفييتي والشيوعية الدولية . وسياسة منع تقدم الشيوعية كانت هي محور السياسة الخارجية الامريكية في غضون الخمسينات ، وكانت ، بدون شك ، عاملا حاسما في علاقات الولايات المتحدة مع شعوب الشرق الاوسط وشمال افريقية .

واذا حملنا في أذهاننا هذه الحقائق نستطيع أن نبحث باختصار عن الاسباب الخمسة الرئيسية التي كانت وراء تأييد الحكومة الامريكية لفرنسا في محاولاتها لقمع النضال الجزائري ولاسترجاع زمام الامور في ذلك البلد .

أولا ، بسبب تأييد بريطانيا والولايات المتحدة لها أصبحت فرنسا من أشد أنصار منظمة معاهدة الحلف الاطلسي ، وهي منظمة أسست لحماية أوروبا الغربية من توغل الشيوعية ومن مخططات الاتحاد السوفييتي . وقد كان الاعتقاد السائد هو أن تأييد الولايات المتحدة وتشجيعها للوطنية الجزائرية سيعتبر اهانة لفرنسا وقد يكون من نتائجه ، تبعا لذلك اضعاف الحلف الاطلسي .

ثانيا ، لقد صرح ممثلو الولايات المتحدة في الامم المتحدة وفي فرنسا مرارا وتكرارا : بان النزاع الجزائري الفرنسي انما هو نزاع داخلي، حيث أن الجزائر قد ابتلعت وأصبحت

جزءا من فرنسا . وفى هذا السياق قامت مشكلتان : احداهما أن أى بلد ينبغى أن يتجنب التدخل فى شؤون بلد آخر الداخلية (ولا سيما متى كان ذلك بلدا صديقا) . وثانيهما أن فرنسا أكدت أن الجزائر مهمة لاسباب اقتصادية واستراتيجية . وتبعا لذلك ، فلو اضطرت فرنسا الى الخروج من الجزائر على يد الجزائريين أنفسهم أو بواسطة ضغط خارجى ، ستصبح بلدا ضعيفا ماديا وبذلك يضعف الحلف الاطلسى .

ثالثا، كان كبار الموظفين والمسؤولين الامريكيين يشعرون بقلق عميق بأنه اذا اضطرت فرنسا للخروج من الجزائر ، فان ذلك البلد سوف يكون عاجزا عن حماية نفسه عسكريا وسيكولوجيا ، وبذلك يقع تحت نفوذ الاتحاد السوفييتى أو تحت سيطرة الـــدول الشيوعية مجتمعة . واعتبارا لاهمية الجزائر الستراتيجية فى البحر الابيض المتوسط ، لم يكن من الممكن السماح بهذا التطور فى نطاق سياسة منع توغل الشيوعية .

رابعا ، كان يسود قلق حقيقى ، ولو أنه خاطىء ، حول مصير المليون والنصف من المسيحيين الفرنسيين الذين كانوا يقيمون فى الجزائر بين الاغلبية من المسلمين . وعلى الرغم من أن هذا العامل لم ينص عليه صراحة فى الوثائق المتوفرة حاليا ، فهو يمثل انحرافا وتحيزا دينيا مؤسفا ، على أساس اعتقاد خاطىء بأنه لا يمكن للمسلمـــين والمسيحيين أن يعيشوا ويعملوا جنبا الى جنب بطريقة ودية .

خامسا وأخيرا ، يوجد ادراك بان فرنسا هى أقدم أصدقاء الولايات المتحـدة ، حيث أنها هى التى ساعدت ثورتنا التحريرية ، وتبعا لذلك ينبغى ألا نقوم بعمل من شأنه أن يعكر هذه الصداقة الطويلة الامد بالاختلاف معها فى اصرارها على رفض منح الاستقلال للجزائر .

والجدير بالملاحظة أن الولايات المتحدة كانت دائما ، على الصعيد الرسمى وغـــير الرسمى تعارض فى اراقة الدماء وأعمال الثار التى كانت سمة مميزة للثورة الجزائرية ، وقد نادى الممثلون الرسميون الامريكيون مرارا وتكرارا بوضع حد للحرب حتى يمكن ايجاد حـل سلمى للنزاع بـين الحكومة الفرنسية والممثلين الذين ينتخبهم الشعـب الجزائرى .

وعلى نقيض السياسة الرسمية التى انتهجتها الادارة الامريكيه ، كان هناك عدد من أعضاء مجلس الشيوخ يعارضون موقف كل من الولايات المتحدة وفرنسا • وأحد هؤلاء المعارضين المشهورين ، هو عضو مجلس الشيوخ سابقا ، ثم رئيس الولايات المتحدة فيما بعد ، الرئيس جون كيندى • ففى 2 يوليو 1957 ، أى قبل عيد استقلالنا بيومين فقط ، تقدم كيندى أمام مجلس الشيوخ بمشروع قرار يدعو الى احداث تغيير فى سياسة الولايات المتحدة تجاه الثورة الجزائرية ، وبذلك فتح بابا لمناقشة طويلة وهامة فى مجلس الشيوخ • ففى الخطاب الذى ألقاه بهذه المناسبة والذى أشعر بأسف لاننى لا أستطيع قراءته عليكم اليوم ، صرح عضو الشيوخ كندى أنه بالنظر الى أن الولايات المتحدة نفسها انما نالت استقلالها بوسائل ثورية ينبغى أن تكون سياستنا سياسة تأييد لاستقلال الجزائر بدلا من عرقلة الشعب الجزائرى . وذلك حتى لو أدى الامر الى فقد صداقة فرنسا • وقال ان فرنسا قد جردت جيشا يتكون من 400000 مقاتل فى الجزائر وتنفق مبالغ طائلة من المال وتتلف كثيرا من العتاد الحربى فى محاولة اخضاع الثورة الجزائرية تتسبب فى ضعف نفسها وفى ضعف الحلف الاطلسى أيضا ، وبالتالى ، فان تأييد الولايات المتحدة للثورة الجزائرية لا يمكن أن يحدث ضررا أكبر بمنظمة الحلف الاطلـــــسى •

وبتأييد من عدد من أعضاء مجلس الشيوخ قدم كيندى مشروع قرار جاء فيه :

« يصرح لرئيس الولايات المتحدة ولوزير الخارجية بموجب هذا القرار ، ويشجعان على وضع نفوذ الولايات المتحدة وراء جهود تعمل : اما فى نطاق منظمة الحلف الاطلسى، او بواسطة مساع حميدة يقوم بها رئيس وزراء تونس وسلطان المغرب للوصول الى حل ينظم شخصيـــة مستقلـــة للجـــزائر ويقيم أسسا لتسوية مستقلة مع فرنســـا والامم المجاورة »•• وعلى الرغم من التأييد الكبير الذى لقيه المشروع فقد أحيل الى لجنـــة الشؤون الخارجية حيث أقبر بالاهمال • وأهمية هذه المناقشة والمشروع الذى جرت حوله ليس فى أنها أحدثت تغييرا فى سياسة الولايات المتحدة الرسمية ، بل فى اعتراف كثير من ممثلى الشعب الامريكى بأنه يجب أن تتجه سياسة الولايات المتحدة الى تاييـــد استقلال الجزائر وجميع شعوب العالم من السيطرة الاستعمارية •

وفى هذا السياق يجب أن نتذكر أن حكومتنا ليست حكومة وزارية يمكن للكونجرس أن يغير سياستها أو يقيلها • ومن ثم ، فان مشروع القرار الذى تقدم به كيندى لم يكن ليؤثر تاثيرا مباشرا ـ لو صادق عليه الكونجرس ـ فى سياسة الرئيس ايزنهاور وجون فوستر دالس • ومع ذلك ، نحن نلاحظ تغييرا طفيفا فى نغمة الوثائق التى صدرت عقب المناقشة لانه ظهر موقف متصلب تجاه فرنسا • وكذلك تحمل هذه الوثائق طابعا من الموافقة على موقف الجنرال دوغول وجهوده لايجاد حل للوضعية الجزائرية ، ولا سيما اذا أدت الى استقلال الجزائر •

ليس من شك فى أن كيندي كان يشعر بالرضى والغبطة ، حيث أنه كان يشغل منصب الرئاسة حينما نالت الجزائر استقلالها فى 5 يوليو 1962 • وبوصفه مؤيدا منذ أمد طويل لاستقلال الجزائر ، فقد اعترف على الفور بالدولة الجديدة وبحكومتها •

لجنـــة النقطـــة الخامســة

مـــاض ومضـــى هى الجـزائـــر

أعضاء اللجنــة

- **الاستاذ اسماعيل العربى** مؤرخ ومدير الدراسات بالمركز الوطنى للدراســات التاريخية ـ الجزائر ـ **رئيسا**
- **الشيخ عبد الرحمن الجيلالى** مؤرخ ـ الجزائر ـ **مقــررا**
- **د. يحيى بوعزيز** أستاذ التاريخ بمعهد العلوم الاجتماعية جامعة وهران ـ الجزائر ـ **عضــوا**
- **د. شارل ڤيــلز** مدير المعهد الامريكى للدراسات الاسلامية ، جامعة دنفر ـ كولورادو ـ **عضــوا**
- **د. آمال ايسين** عضوة معهد البحوث الثقافية والتربية ـ اسطنبول ـ **عضــوة**
- **د. جوردن بييف** أستاذ التاريخ بجامعة صوفيا ـ بلغاريا ـ **عضــوا**
- **الشيخ المهدى البوعبدلى** عضو المجلس الاسلامى الاعلى والمركز الوطنى للدراسات التاريخية ـ الجزائر ـ **عضــوا**

ـ د٠ سلفاتورى بونو	أستاذ التاريخ بجامعة بروجيا ـ ايطاليا ـ	**عضـوا**
ـ الاستاذ احمد توفيق المدنى	مؤرخ ـ الجـزائـر ـ	**عضـوا**
ـ د٠ أرجمند كوران	أستاذ التاريخ بجامعة هكتب ـ أنقرة ـ	عضـوا
ـ د٠ أورال سنـدر	أستاذ مساعد بجامعة أنقرة	عضـوا

1) نظرت اللجنة الخامسة فى مسالة العلاقات بين الجزائر وبين مختلف البلدان فى القديم والحديث حتى سنة 1962 ٠

2) لاحظت اللجنة الخامسة على ضوء العروض التى قدمها المساهمون فى الملتقى أن لهذا الجانب من تاريخ الجزائر أهمية خاصة ، حيث انه يرمز الى استقرار ادارة البلد والى قوته العسكرية والبحرية التى كانت تشكل قاعدة وسندا للمكانة الدبلوماسية التى أحرز عليها واحتفظ بها عدة قرون ، ولا سيما فى حوض البحر الابيض الغربى ٠

3) رأت اللجنة أن الأبحاث والدراسات التى قدمت فى هذا الملتقى حول النقطـة الخامسة يمكن أن تشكل نموذجا لنوع الدراسات التى يمكن القيام بها فى المستقبل فى هذا المجال على مختلف المستويات وفى مختلف الاطارات للتعريف بماضى الجزائر ، بوصفها دولة مستقلة كانت تلعب دورا حيويا فى المجتمع الدولى ٠

ولذلك قررت أن تتقدم بالتوصيات التالية :

1) القيام بمسح تمهيدى عن طريق المركز الوطنى للدراسات التاريخية لمظان الوثائق فى أرشيفات البلدان الاجنبية ولاسيما فى الولايات المتحدة واسبانيا وفرنسا وايطاليا وهولندا وتركيا ٠

2) العناية بجميع الوثائق التى تتصل بهذا الموضوع من الكتب المطبوعة والمخطوطات ووضعها تحت تصرف الباحثين الذين يهتمون بتاريخ السياسة الخارجية للجزائر ٠

3) تنظيم ندوة خاصة بتعاون بين الوزارة والمركز الوطنى للدراسات التاريخية بقصـد وضـع مخطط عام للبحث ومنهج عملى للعمل فى هذا الحقل على أساس توزيع المهام بينهم لوضع دراسات ثنائية الطابع (مثل علاقات الجزائر بفرنسا وباسبانيا وعلاقاتها بالولايات المتحدة وتركيا الخ ٠) ٠

4) العمل بجميع الوسائل الممكنة للحصول على الآثار الكتابية والصوتية التي تركتها الثورة الجزائرية في مختلف بلدان العالم (مثل الكتب والمحاضرات والاشرطة الاذاعية والسنمائية وقصاصات الصحف الخ ٠) ٠ وذلك للمحافظة عليها حتى تكون مستندا يرجع أليه الباحثون الذين يتناولون الجانب الدولي من الثورة الجزائرية في المستقبل ٠

5) تكليف جماعة من الباحثين لوضع ببيليوغرافيا شاملة لتاريخ العلاقات الجزائرية مع الخارج في مختلف العصور ٠

6) وضع بحث على ضوء المعلومات المطبوعة والخطية المتوفرة عن الاسطول الجزائري في مختلف العهود يتناول أمورا مثل تنظيمه وبناء قطعه وتجهيزه وقواده ودوره في الدفاع والهجوم في البحر الابيض والمحيط الاطلسي ٠

7) العمل لادخال موضوع العلاقات الخارجية الجزائرية بوصفه موضوعا مستقـلا في برنامج التعليم الثانوي ، والتوسع في التعليم العالي بصفة خاصة ٠

8) الاهتمام بابراز دور الجزائر في الدفاع عن منطقة المغرب العربي في العصر الحديث ودفع كل المغالطات والوصمات التي حاول الاوروبيـــون الحاقها بالبحريـــة الجزائرية ، وذلك بالاستناد الى الوثائق التي تزخر بها المكاتب والارشيفات الفرنسية والتركية والايطالية والاسبانية ٠

9) وضع برنامج في اطار يجمع بين الوزارة والمركز الوطني للدراسات التاريخية لترجمة ما يمكن من الكتب الكثيرة التي وضعها العلماء الاجانب عن تاريخ العلاقات بـين الجزائر والدول الاوروبية والولايات المتحدة ٠

فليــدق اذن جـرس الخطـر والحيطـة ،
بالطبــل والمزمــار والغيطـــة ! (1)

مولود قاسم نايت بلقاسم
الوزير لدى رئاسة الجمهورية
المكلف بالشؤون الدينية
ـ الجـزائر ـ

بسم الله الرحمن الرحيم
والصلاة والسلام على أشرف المرسلين



حضرات الاساتذة الافاضل ،

ها أنتم فى نهاية السعى ، وقد أحسنتم الرعاية والرعى ، وجهدتم ولم تفقدوا الوعى ، وانشدتم الحياة وتركتم النعى !

1) لقد أبنتم للأوراس من تاريخه ماضيه ، وأنرتم له من سجله غاضيه ، ولم يعد فيه فصل قد يعتبر فاضيه •

وقلتم ان له فى الكتاب صفحاته ، أودع فيه خالد نفحاته ، التى تصبح عند الحاجة لفحاته !

(1) كلمة اختتام الملتقى الثانى عشر للفكر الاسلامى المنعقد بباتنة فيما بين 4 ـ 11 شوال 1398 هـ (7 ـ 14 م) .

2) وقلتم ان العلم يؤيد الدين ، اذ الاول للثانى خدين ، لا من هزيل ولا من بدين ، وكل منهما للآخر ناصر ، وبدونه ناقص قاصر ، بل هو له ملازم محاصر ، اذ بينهما وثيق الأواصر ، فالعلم بلا الدين ضلالة مسطورة ، والدين بلا علم خرافة أسطورة !

3) ونظرتم فى موضوع العائلة ، هل تسلم أم تنتظرها الغائلة ؟ هل ستبقى أم هى زائلة؟ وما من خير أو شر نائلة، وما هى اليه آئلة مائلة، نفسها فى قلق دوما سائلة، وليس فى ذلك طائل ولا طائلة .

وقلتم انها على نفسها جانية ، وقبرها حافرة بانية ، بسلبية تجعلها محتضرة فانية ، ونهايتها مقتربة دانية !

أليست للأمة هى النواة الخلية ؟ أليست هذه قضية جلية ؟ أليست الحافظة للنشئ والعجوز الولية ؟ ألن يكون تخريبها عين البلية ؟ أم هناك حيلة منطليـــة ، كالمؤامرة بالأمس على الدولة العلية ؟ انها ضمان استمرار صالح الذرية ، وموتها كالقنبلة الذرية ، يدعون له باسم مبدا الحرية ، يغالطون بذلك البرية ، التى هى باليقظة الحرية ، سامية ، حامية ، آرية !

4) والجامعة تعليم تكوين تربية ، وليست تجهيلا تبليدا تغبية ، معدن النظام ضد الفوضى ، التى تكاد تصبح المعيار والموضى ، وقد أصبحت من جذورها مبتورة ، ولم تعد عيوبها اليوم مستورة !

لقد تتبعتموها حتى بابل ، بل الى هابل وقابل ، واختلط عليكم الحابل بالنابل ، اذ أصبح علمها كالزهر الذابل ، الذى افتقد الرذاذ والوابل !

حاربوا فيها كل لعب ولهو ، وكل تسكع وسبهللة وسهو ، واقضوا فيها على كـــل انحلال وزهو ، فى كل مدرج ومكتبة وبهو ، بكل حرص وجد وحزم ، وشديد صرامــة وعزم، بسلطة وروح ونظام وجزم ، وأرجعوا الجامعة للدراسة، للقلم والكتاب والكراسة، للبناء والتصنيع والغراسة !

فليدق اذن جرس الخطر والحيطة ، بالطبل والمزمار والغيطة ، ولو أحدث ذلك فى البدء الضجيج والزيطة !

لتعد فى الجامعة الأمور حسب النواميس ، بالمخابر والمراجع والقواميس ، ولتستبعد منها الثيران والجـواميس !

لتعد الجامعة فى العالم هى القائدة ، هى الرائدة هى السائدة ! ولتعد عن القيم هى الذائدة ، باطراد وعناية زائدة ، لتصبح للجميع هى المائدة ، ومن جديد فيها الفائدة ، ولتختـف منها المساوئ البائدة !

5) واستعرضتم علاقات الجزائر والكون ، وما بين الحق والزيف من بون ، واستمددتم فى ذلك من الله العون ، وتبين لكم ان مكانتها فى التاريخ مكينة ، وأثبتم الحقيقة بطمأنينة سكينة ، بموضوعية ومنهجية ركينة .

فشكرا لكم وللسيد والى الولاية ، على ما أولى الجميع من حسن الرعاية ، وللسيد المحافظ والخلايا ، وأبعد الله عن الجميع البلايا .

إيه بلدة وسكان آريس ، ذكرنا لديكم باريس ، والشهداء والقنابل والمتاريس ، والفرق بين الأسود والعتاريس ، وحى الله الشعب والتضاريس !

ومنك الى اشمول وبريكة ، وجهاد الزوج والشريكة ، وتلك الروح كانت من الاسلاف التريكة ، كنا على المحرك أو الاريكة .

إيه أولاد موسى ومدغاسن وطبنة ، فزيارتكم حقا حجة وحقنة ، صدقا لازعم كليلة ودمنـــة !

وأحذر الطلبة من التأخر فى البهو والفوضى ، لئلا يجعلوا من ذلك عادة وموضى ، اياكـم ورمّان الغوفى ، وكم منكم هناك البطنى الجوفى[1] ، ويدعى انه المسلم الصوفى ، فاحذركم بالبصرى والكوفى ، ليتبعنكم السوط للواد السوفى !

لنستعملن سوطا ودرة (2) ، فى كل فوضى من أى هر أو هرة ، بعد التنبيه لا عن غفلة وغـــرة !

---

(1) تسلل عدد قليل من الطلبة الى حديقة فى الغوفى وسرقوا منها الرمان .

(2) العصـــا

سلاما والى اللقاء فى قلب المهارق (2) . فى الهوادج وعلى الزرابى النمارق ، على طريق وحدة الافارق ، الماحية للحواجز الفوارق ، عند الملثمين ذوى الرسوم الشوارق ، والمهارى الخاطفة البوارق .

الى أصحاب المعجزات الخوارق ، الى الصخور الصلدة للغزاة دوما حوارق ، الى السمح الا مع ذوى الدعاوى الموارق ، الى تمنغست (3) الهقار عاصمة الطوارق !

والسلام عليكم ورحمة الله .

---

(2) الصحـــارى .

(3) تمنغست : هو الاسم هناك لتمنراست الذى هو الصيغة المفرنسة للاسم .

أبعاد ثقافية وتربوية (1)

السؤال 1 :

سيدى الوزير ، هل من الممكن ان تتفضلوا باخبارنا، على ضوء المحاضرات العديدة المقدمة حول النقاط المختلفة التى تضمنها جدول أعمال الملتقى الثانى عشر للفكر الاسلامى ، عما اذا كانت أعماله قد لبت الرغبات المنتظرة منها ، وبلغت الهدف المرسوم لهذه التظاهرة ؟

الجواب :

نعم ، يمكن لنا أن نقول، من خلال المحاضرات المختلفة التى تم القاؤها ، بأن المحاضرين ، بصفة عامة ، كانوا ، الى حد بعيد ، عند حسن ظننا ، فيما يخص جميع النقاط المدرجة فى جدول أعمال الملتقى الثانى عشر .

فقد أعرب البعض عن وجهات نظرهم ، وقدموا مساهمتهم بوضوح ومنهجية . وأما البعض الآخر ، فانهم ربما لم يراعوا هذه المقتضيات الشكلية ، ولكنهم أدلوا بمعلومات مفيدة وقيمة ، فى غالب الاحيان .

(1) ترجمة حديث مع السيد مولود قاسم نايت بلقاسم ، الوزير لدى رئاسة الجمهورية ، المكلف بالشؤون الدينية ـ أجراه معه السيد مولود عاشور ، مندوب جريدة المجاهد اليومية ونشر بتاريخ 20 سبتمبر 1978 .

غير أنه مما تنبغي ملاحظته ، في هذا الصدد ، أنه ، رغم ما جاء ، في نص الدعوة وفي برنامج الملتقى ، من تفصيل مدقق في ذكر النقاط المطلوب التطرق الى احداها ، فيبدو أن بعض المحاضرين لم يعنوا أصلا بقراءة هذه النقاط · وهذه الملاحظة تتعلق ، بصفة خاصة ، بنقطة « الدين والعلم » · فقد أطال الجميع وأطنبوا في شرح العلم ، مع سرد الكثير من أقوال العلماء ، سردا كأنه حفظ عن ظهر قلب !

وكان غرضنا ، بصفة خاصة ، أن يدرس موقف الدين ، ـ أيا كان ، وخصوصا الاسلام،والقرآن ، كتابه المنزل ـ والدين عند الله الاسلام ! ـ أمام التطور المعاصر ، ولكن أيضا موقف العلم الحديث من الدين والاديان · ولم تتعمق أبحاث بعض المحاضرين في هذا المجال ، كما يظهر ذلك بوضوح ، لا من خلال نصهم فحسب ، بل أيضا من خلال أجوبتهم على الاسئلة المطروحة عليهم من طرف الطلبة ·

وعلى كل ، فلا ريب انه حتى هؤلاء المحاضرون ، الذين لم يسلكوا منهجية دقيقة ، قد قدموا مساهمة ايجابية ، بما أدلوا به من معلومات قد تشكل المادة الخام التي يتسنى للباحثين المنهجيين أن يستفيدوا منها بشكل دقيق وعلمي ·

★ ★ ★

السؤال 2 :

فيما يخص النقطة الاولى ، وكذلك النقاط المدرجة في نفس الباب في الملتقيات السابقة ، يبدو أن مساهمة كل محاضر قد تتماشى مع سعي الجزائر حاليا الى تحقيق اعادة كتابة التاريخ الوطني · فهل يمكن معرفة رأيكم حول المساهمة الحقيقية التي قدمتها أعمال الملتقى من هذه الحيثية بالذات ؟

الجواب :

نعم ، ان هذه الاعمال تندرج ، كما قلتم ، في ذلك الاطار · فلقد دأبنا على أن ندرج على رأس برنامج كل ملتقى نقطة تختص بالمدينة بل والناحية كلها التي تستقبل تلك التظاهرة ، أو تعم أرجاء الوطن ، كما كان الامر بالنسبة لدراسة تاريخ بعض الدول ،

مثل الرستمية ، والحمادية ، والزيانية ، فى الملتقيات السابقة • فبالنسبة لهذه النقطة الاولى ، وكذلك بالنسبة للنقطة الاخيرة ، (1) نوجه اهتمامنا الى منح الفرصة للجميع لتوسيع وتعميق معرفة تاريخ بلادنا • ويحصل هذا سواء عن طريق المحاضرات التى يلقيها الاساتذة المدعوون ، القادمون من القارات الخمس ، والمنتمون الى أديان ، وثقافات، وايديولوجيات مختلفة ، أو عن طريق المناقشات التى تتلوها ، والجولات الدراسية • وهذه الاخيرة تعتبر تطبيقا لما يقال فى قاعة الملتقى ، اذ أننا نزور آثارا تاريخية ـ فيما يتعلق بالماضى ـ ، ونشاهد انجازات حديثة فى شتى ميادين النشاط الوطنى ـ بالنسبة للحاضر ـ •

وقد قام ، من بين المحاضرين ، أساتذة جامعيون مختصون فى التاريخ بعرض تاريخ بلادنا فى فترات مختلفة من عصر ما قبل الاسلام الى يومنا هذا •

وعلاوة على معرفة العناصر المتعلقة بالموضوع ، فهناك أيضا الشكل ، أى المنهجية ، التى تنحصر فى معرفة طرق البحث المختلفة ، والمراجع ، والمصادر ••• كل هذا يهمنا أيضا جميعا ، لانه يزودنا بعناصر يعتمد عليها للحكم ، ووسائل للمقارنة •

ومن جهة أخرى ، فان الاساتذة أنفسهم يقولون لنا انهم يستفيدون كثيرا بعضهم من بعض ؛ وقد يضطرون الى تصحيح العديد من الآراء المسبقة والمتحيزة ، سواء حول بلادنا (ماضيها وحاضرها) ، أو حول الحضارة العربية الاسلامية عموما • وأرى أن هذا يساعد على التفاهم بين الناس •

هذا ، وانكم لتذكرون لا شك أننا تناولنا بالدراسة سنة 1392 (1972) فى العاصمة نقطة اعادة كتابة تاريخ بلادنا منذ الملتقى السادس ، حيث كان هذا الموضوع عنوانا لاحدى نقاط جدول الاعمال • واعتقد شخصيا أن هذا من شأنه أيضا أن يثير

---

(1) النقطتان الاولى والاخيرة من الملتقى الثانى عشر بباتنة هما ، على التوالى :
ـ الاوراس : أمجاد وأنجاد .
ـ العلاقات بين الجزائر وبقية العالم قبل 1962 .

انتباه كل من يهتمون بذلك ، ـ أو ينبغى عليهم أن يهتموا بذلك ـ ، فى بلادنا ، من بين الاساتذة ، والمؤرخين ، الجامعيين وغير الجامعيين ، الامر الذى يفتح أمامهم آفاقا جديدة ، ويحثهم على مضاعفة الجهود من أجل البحث ، وبمزيد من الجدية ·

أضف الى ذلك أن هذه النقطة لم تفتأ ، منذ الملتقى السادس ، تحظى بالدراسة عبر منطقة البحر الابيض المتوسط وخارجها ، من تونس الى مالطة ، الى بغداد ، الى فرنسا ، وغيرها من الاقطار العربية والاوروبية وغير العربية والاوروبية · واذا كنا ، حسب علمنا ، أول من تناول هذا الموضوع ، فذلك يرجع الى أن بلادنا قد منيت أكثر من غيرها بتزييف تاريخها ، سواء من طرف أعداء الامس ، أو من طرف اخوة الامس والغد ، وكما يقول الشاعر العربى القديم :

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة ···

وفيما يخص المساهمة الحقيقية التى قدمتها أعمال الملتقى لعملية اعادة كتابة تاريخنا ، أرى شخصيا أنها هامة جدا ، لكونها صادرة من آفاق مختلفة ، حاملة روايات عديدة ، مستعملة لكثير من المصادر والمنهجيات · وأعتقد أن أساتذتنا وباحثينا وطلبتنا ، ـ وأنا شخصيا ، على كل حال ، مما لا شك فيه ـ ، قد استفادوا كثيرا من ذلك ، وعليهم أن يستخلصوا منه العبرة الكافية للقيام بعملية اعادة كتابة تاريخنا الوطنى وتحقيقها على أكمل وجه ·

* * *

السؤال 3 :

يرى الملاحظ ، من خلال الملتقيات المتتالية ـ ونعتقد انه محق فى ذلك ـ ، أن التعرف على الفكر الاسلامى أصبح لا يشكل الا جانبا من الملتقى · فهذا التطور (اذ أن ذلك تطور حقا) ، هل هو نتيجة لادارة واعية ترمى الى توسيع اهتمام هذه الملتقيات الى الفكر العالمى عامة ، ومن شأنها أن تدرج فى المستقبل مجالات مختلفة ، كالفلسفة ، وعلم النفس ، وعلوم أخرى ؟

الجـــواب :

نعم ، الفكر الاسلامى ، اذا فهم جيدا ، وطبق تطبيقا سليما ، فهو مثل الاسلام ، يشمل سائر مجالات الحياة ، ولا يختص بالآخرة ، بل يمتد الى الدنيا · أضف الى ذلك أن الدنيا والآخرة مقترنتان فى الآيات القرآنية ، فى أغلب الاحيان ، مع تقديم الدنيا على الآخرة لاسباب زمانية ومنطقية معا · وقد جاء فى الحديث مرات عديدة ، وفى روايات مختلفة ، أن العمل عبادة ، وأن افضل الاعمال هو العلم ·

هذا ، وقد كنا دائما ، منذ الملتقى الرابع، نربط بين الموضوعات الثقافية (أو الدينية بمدلولها الضيق) ومجالات الحياة الوطنية والعالمية عموما ، حاضرا ومستقبلا ·

وهكذا تحدثنا عن نشاطنا فى مختلف المجالات ، عن الاسرة ، وعن الشبـــاب ، وعن المغتربين، وعن الفلاحة ، والصناعة ، والطاقة ، وعن التعليم والتربية ، وعن الثقافة عامة ، كما تناولنا بالـــدراسة ، فى كل مرة ، مختلف فترات تاريخنا ، وتاريـــخ الحضارة العربية الاسلامية، وكذلك مساهمة التراث العالمى بشكل عام وفلسفة الحضارات والامم ، وفى الشريعة طبعا ·

وقد شارك فى كل من تلك الملتقيات مؤرخون ، وفلاسفة ، واختصاصيون فى علم النفس ، وعلم الاجتماع ، والاقتصاد ، والشريعة ، والفلسفة ، وفلسفة التاريخ خاصة ، فدرست موضوعات فلسفية ، واجتماعية ، وسياسبة ، واقتصادية ، وفقهية طبعا ، وقضايا تاريخية ، وجميع مناحى الحياة فى أغلب الملتقيات · حتى أن هناك نقطة خصصت لدور المفكر في الحياة الوطنية والدولية ، يعنى أمام المشاكل التى تواجهها الانسانية بصفة عامة ·

ولذا ، فيمكن أن نستخلص من هذا كله أن الاهتمامات العالمية لم تغب عن انتباهنا، منذ الملتقى الرابع ، وأنها أدرجت بشكل من الاشكال فى كل الملتقيات التالية ·

لقد تحدثنا عن فلسفة الانسان ، وعن فلسفة الحضارات ، كما وصفهما كبار فلاسفة التاريخ ، منذ المفكرين اليونان ، الى ابن خلدون ، وطوينبى ، (انجلترا) ، وخوسى

أورتيڤا إى ڤاسيت (اسبانيا) ، وفوستال دى كولانج (فرنسا) ، وِمومسن (ألمانيا) •
وسنتابع هذه الطريقة فى المستقبل ، اذ الحضارة حصيلة جهود الانسانية كلها ، تشارك فيها كل حضارة وكل قطر ، كما سنتمادى فى استخلاص العبرة ، فى اطار مسيرتنا الجديدة ، تماشيا مع مسيرة الدول المتقدمة •

★ ★ ★

السـؤال 4 :

سيدى الوزير ، لقد ذكرتم مرارا أن المحاضرات لا تشكل بالنسبة للطلبة الا حافزا للتفكير الشخصى ، ونقطة انطلاق للبحث ، معربين بذلك عن المقصد التربوى لهـذه الملتقيات • فهل يمكن لكم أن تتفضلوا بشرح هذه الفكرة ؟

الجـواب :

نعم • ولهذا الغرض فقد ذكرنا ، فى نص الدعوة ، أن الرجاء من الاساتذة ألا تتجاوز المحاضرة ثلاثين دقيقة على الاقصى • وقد وضع خط تحت عبارة « على الاقصى » ثلاث مرات • ثم اننا أضفنا ، فى نص الدعوة نفسه ، أن المحاضرين يستطيعون أن يتداركوا كل ما لم يمكن ادراجه ضمن نص محاضراتهم فى المناقشة ، التي يهتم بها الطلبة أكثر ، ويكون انتفاعهم منها أكبر ، لان المناقشات أشد حيوية من المحاضرات ، وأجلب لانتباه الطلبة •

وفعلا ، فنحن نرى ، ـ وأعتقد أن ذلك عين القاعدة التى ينبغى اتباعها ـ ، أن المحاضرة ليست الا مجرد حافز ، وأنها نقطة انطلاق كما ذكرتم ، لمناقشة مثمرة ، وحوار حى ومباشر ، مما يكون له لدى المستمع مزيد من التأثير ، وحتى لدى المحاضر ، فيما أعتقد ، الامر الذى يحث على التعمق فى البحث فى نفس الموضوع •

وتستند وجهة النظر هذه الى رغبة الطلبة والطالبات ، اذ علينا ألا ننسى أن هذه الملتقيات تنظم لاجل هؤلاء الطلبة • ومما يدل على تعطشهم الى هذه المناقشات الحاحهم

على مواصلتها مع الاساتذة خارج جلسات الملتقى الرسمى ، فى الداخليات والاحياء الجامعية ، الى ساعات متأخرة من الليل ، كما انهم يواصلونها حتى أثناء الجولات . ويطيب لى أن أذكر فى هذا الصدد أن كثيرا من أولئك الاساتذة يسرون كثيرا بذلك الاهتمام الذى يبديه الطلبة ، ويشكرونهم عليه ، وعلى سبيل المثال ، أذكر مثالا مؤثرا، هو المؤرخ التونسى الشهير ، المرحوم عثمان الكعاك ، الذى كان أثناء الرحلة الى القالة ، أيام الملتقى العاشر الذى انعقد فى عنابة ، فى شدة حرارة شهر جويلية ، يقضى الاوقات المخصصة للاستراحة واقفا والطلبة محيطون به ، يوجهون اليه العديد من الاسئلة ، وهذا قبل وفاته ببضع ساعات . وعندما دعاه مواطنه وزميله وتلميذه أستاذنا محمد الصادق بسيس (1) الى أن يستريح قليلا، أجابه قائلا : « الراحة فى القبر يا سيدى ! »

والحقيقة أن المحاضرات والمناقشات لا تشكل الا الاساس ، والمنطلق ، والباعث على التفكير المعمق ، والبحث الشخصى ، والتنقيب فى المكتبات وغيرها من مراكز الابحاث ، ولتوسيع حقل المعلومات ، وبصفة خاصة للاطلاع على المناهج ، وتنويع المصادر ، وجمع وسائل المقارنة والحكم .

★ ★ ★

السـؤال 5 :

سيدى الوزير ، هل يمكن القول اليوم ان البحث العلمى ، وما يمكن أن نسميه التحرر الفكرى ، قد تم تحقيقه ، أو هو لا يزال بصدد التحقيق ، فى العالم الاسلامى ؟

الجـواب :

ليقع اختيارنا على الثانى من هذين الاحتمالين ، بل فى هذه النقطة بالذات ، علينا أن نحكم على أنفسنا بشىء من الشدة ، ونقول : اننا بصدد الاهتمام بذلك ، ولم نصل بعد الى التحقيق ! ولتلمسوا ذلك ، فما عليكم الا أن تقارنوا ــ من دون مازوخية أو اغتياب ذاتى ــ ، بين المحاضرين الذين سبق لكم أن استمعتم الى محاضراتهم فى باتنة

---

(1) وقد توفى هو بدوره أخيرا ، رحمه الله .

أو فى ملتقيات أخرى ، ممن ينتسبون الى العالـم الاسلامى ، وأولئك الذين ينتمون الى الاقطار الاخرى من القارات الخمس ، من حيث المنهجية ، ومن حيث نوع من الدقة العلمية ؛ أقول : « نوع من الدقة » ، لان الدقة العلمية ، والامانة الفكرية الشهيرة ، أى التى يتحدث الناس كثيرا عنها ، والموضوعية التى لا تقل عنها شهرة ، كلها مفاهيم نسبية جدا ، ذات مستويات مختلفة فى تلك النسبية ، وذلك فى جميع البلدان ، وفى سائر فترات الوجود الانسانى ، الى عهدنا هذا على كل حال ٠

لكن ، ــ ومن دون أن نقع ، على عكس ذلك ، فى التفاؤل الساذج ــ ، ينبغى أن نقول ، مع مراعاة تقلبات الماضى وفترات الجمود ، والخمود ، والهمود،التى أصابت كل حضارة ، ان العالم الاسلامى قد خطا خطوات لا يستهان بها فى مستهل هذه المسيرة نحو التحرر الفكرى ، واستئناف المحاولة الذاتية ، المستقلة ، نحو مساهمة أصيلة ومثمرة من أجل تقدم الانسانية ٠

ولسنا نرجو الا مزيدا من السرعة والثبات فى هذه المحاولة ، وذلك هو المقصـــد الذى نسعى اليه بتنظيم هذه الملتقيات ، وباللجوء أحيانا الى الاثارة ، عن قصد ، لاحداث التأثير والصدمة النفسية ، والحث ، والتحفيز ، والتحريك ، صوب ذلك الاتجاه ٠

★ ★ ★

الســـؤال 6 :

يبدو لنا أن هناك جوا ملائما لتجديد طرق البحث فى مجال الدراسات الاسلامية ٠ هل تعتقدون أننا على وشك نبذ التحليل والشرح التقليديين ، المعتمدين خاصة على التحليل واستعمال البلاغة ؟

الجـــواب :

انى أوافق على تقدير هذا الشعاع التجديدى ، فيما عدا النسبية التى تخص دقة المناهج فى العلوم الانسانية أو غير الدقيقة ، وهذا رغم ما حقق من تقدم فى بعض هذه العلوم ٠ غير ان هذه الطرق جديرة بأ نتصبو الى درجة علوم ، وأن تقوم بكل

المحاولات التى تكفل لها هذه الدرجة وهذه المشروعية • وميدان الاسلاميات هو أحد تلك الميادين • وعليه ، فهذه الطريقة المنعشة محبذة من وجهة نظرنا ، ولو أدى ذلك الى ازعاج بعض « التقليديين » ، الذين لا نتردد فى وضعهم فى نفس مستوى أولئك المعجبين بكل ما هو تغيير ، سواء كان حسنا أو قبيحا • ويطابق هذا ذلك المثـــل الواضح الذى ضربناه مرارا ، وهو أننا أنصار الأصالة مع التفتح ، أى مـــن أجـــل الاكسجين والنور ، مع الحفاظ على أسس البناية ، ضد الجامدين المتزمتين ، الذيـــن لا يفتأون يمجون أسماعنا بنداءاتهم الى سد الابواب بل والنوافد ، معرضين الجميـــع للاختناق ، من جراء انعدام الاكسجين ، وللعمى باستمرار الظلام ، باسم المحافظـــة والتقاليد ••• ، كما هو موقفنا أيضا ضد المعجبين بكل تغيير ، الذين لا تهمهم طبيعة ذلك التغيير وغائيته ، بل يهمهم التغيير فقط ، صالحا أو طالحا ، وهم الذين يصمون آذاننا بشعاراتهم الجوفاء باسم القرن العشرين ••• والتقدم ، والانفتاح ، الذى يؤدى الى الانبطاح ••• وهم يساوون فى نظرنا فى الضرر والسلبية مخالفيهـم من الطرف الآخر ، المذكور آنفا ، بنداءاتهم الى التغيير بأى ثمن ، الى فتح الابواب والنوافذ ، لكن أيضا الى هدم السقوف والرفوف ، ونسف الاسس ، مما يعرضنا لخطر تقلبات الجوء وخراب الدار ، والزوابع ، ولانهيار البناية • لنعد الى القسم الاخير من سؤالكـــم لنلخص كلامنا ، فنقول : ان البلاغة شىء هام ، غير أنها مجرد شكل ووعاء فى حاجة الى محتوى ، وهذا المحتوى هو الغاية • فالافضل اذن هو الجمع بين الشكل والمحتوى • ولذا ، فنحن نؤيد كل منهج جديد ، كل اختراع ، كل بحث ، وكل تنقيب يخدم هذا الهدف ، ونوصى بذلك بكل ما لدينا من قوة وحماس وبكل الحاح • كما لا يسعنا الا تقديم شكرنا لاصحابه ، وتشجيعهم على مواصلة محاولاتهم الجريئة ، مع اتخاذ المحاذير ودقة التمييز بين المنهج والهدف •

★ ★ ★

الســـؤال 7 :

سيدى الوزير ، أقل ما يقال عن هذه الملتقيات ، أنها أصبحت من أهم المظاهرات الثقافية الوطنية • فيا ترى ، هل كان لها صيت على المستوى العالمى ؟

الجـــواب :

أنا أكتفى بتقديركم فيما يخص المستوى الوطنى ، وأشكركم على تشجيعكم ، أما على المستوى العالمى ، فسأقتصر ، ربما ، على ذكر ثلاثة أو اربعة آراء ، أو مقارنات ، وردت من العالم الاسلامى.ومن غيره ٠

سئل الدكتور محمد الفحام ، شيخ جامعة الازهر سابقا ، من طرف رجال صحافتنا، اثر انعقاد الملتقى السادس ، سنة 1972 ، حول قيمة هذه الملتقيات ، فكان جوابه عبارة عن مقارنة ، أجراها من تلقاء نفسه ، بين مختلف الندوات والملتقيات المنعقدة عبر العالم الاسلامى ، والملتقيات الاسلامية بالجزائر ، فأشار الى تفوق هذه ، لانهـا تنفرد بميـزة خاصة ، هى أن الجمهـور المشارك فيها يتكـون من عناصر الشباب ، فى كل ما تمثل من استمرارية للمستقبل ، بينما تدور المظاهرات الاخرى ، المنظمة عبر العالم ، الاسلامى خاصة ، وغيره ، فى جلسات سرية ، أو فى اطارات ضيقة ، وتختص بجماعة ضئيلة من الاختصاصيين ، ينهمك كل واحد من أعضائها فى مناجاة نفسه ، بدل اجراء الحوار مع غيره من المشاركين ، بينما يصبح عنصر الشباب أشد ما تحتاج اليه هذه المظاهرات لاجراء حوار حى ، مفتوح ، موسع ، خصب ٠

وكتب باحثون آخرون من ألمانيا الغربية ، فى صحافتهم ٠ أن هذه الملتقيات تكتسى طابعا فريدا ، بما تمتاز به من دقة فى التنظيم ، وتنوع الآفاق التى ينتمى اليهـا الباحثون ، وحضور عنصر الشباب ، كما انها تحمل طابع الشمولية ، من حيث النقاط المطروقة والاقطار الممثلة ٠

أما الاستاذ الدكتور سالفاتورى بونو (Salvatore Bono) من جامعة بروجيا (Perrugia) بايطاليا ، فانه كتب بعد ملتقى ورجـلان،فى السنة الماضية ، مقالا أخذ صفحة كاملة من جريدة « الاوسرفاطورى رومانو »، اللسان الرسمى للفاتيكان، تناول فيه عرضا شاملا للملتقى الحادى عشر ؛ وذكر فى آخره البرامج الخاصة لفائـدة الولايات فى الجزائر ، منطلقا من أن أول هذه البرامج الخاصة كان مخصصا لورقلة بالذات

كما خصص الاستاذ فهمى هويدى ، رئيس تحرير مجلة العربى الكويتية حاليـا والمسؤول عن الصفحة الدينية فى جريدة الاهرام سابقا،مقالا فى هذه أخذ صفحـة

كاملة أيضا لخص فيه الملتقى العاشر فى عنابة وتكلم عن ميزة هذه الملتقيات وخصائصها بالنسبة لغيرها وعن صداها ومفعولها ·

وحتى فى اليابان ، فان جريدة « يوميورى سنبون » (Yomiori Sinbun) التى هى أوسع الجرائد انتشارا فى البلاد (7 ملايين نسخة يوميا)،قد نشرت مقالا وصفته بأنه ذو مغزى خاص حول الفتوى الصادرة بعنابة فى شأن عمال الافران العالية والذين يعملون فى مثل ظروفهم · وصدور هذا التقدير من بلد بلغ شأوا بعيدا فى التصنيع، مثل اليابان ، ينبئ عن مدى الاهتمام الذى تحظى به هذه الملتقيات ·

ويضاف الى هذا أن المراسل الدائم السابق لجريدة « لوموند » (Le Monde) فى الجزائر ، السيد بالطا ، الذى حضر ملتقي بجاية ، قد أشار هو أيضا ، اثر انعقاد الملتقى الثامن، الى « الصدى العالمى لهذه الملتقيات »، كما نشر الكاتب والصحافى المصرى المعروف الاستاذ أنور الجندى عدة مقالات فى جرائد ومجلات عدة ، ومنها فى مجلة دعوة الحق المغربية ··· ، والصحافى المصرى الكبير صبرى أبو المجد فى المصور ، والمرحوم صالح جودت فى المصور أيضا وعدة مجلات أخرى ، وغيرهم كثيرون فى عدة بلدان عربية واسلامية ، من علال الفاسى فى جريدة الرأى العام فى المغرب الى السيد عمر عبيد حسنة فى مجلة « حضارة الاسلام » فى سوريا ، والشيخ المجاهد الشماحى فى صحف يمنية ، والدكتور صفوان القدسى ، وزير الاعلام والثقافة فى سوريا،فى مجلة « المعرفة » السورية ، وغيرهم كثيرون ، وليس هذا بحصر ولا حتى شمول ·

وأخيرا ، أذكر أن طلبات عديدة تصل الى الوزارة من جامعات، وحتى من شخصيات، من أوروبا وأمريكا ، علاوة على العالم العربى والاسلامى عامة ، معربة عن رغبتها فى الحصول على الوثائق الكاملة لاعمال الملتقيات · وقد أبلغنا أن هناك دكتوراه دولة قد سجلت فى جامعة السوربون حول هذه الملتقيات ، ولم يجر الى الآن تحقيق صحة هذا النبإ · على أننا ندرك،ونقدر بطبيعة الحال ، نقاط الضعف المرتبطة بكل جهد انسانى ؛ وسنسعى دائبين للتغلب عليها ، من ملتقى الى آخر ، فذلك ما ينبغى أن تسعى اليه كل محاولة واعية وجدية ، وذلك ما تطمح اليه هذه الملتقيات ·

أجرى الحديث : **مولود عاشور**

استــــــــدراك



الدكتور عثمان أمين



الاستاذ محمد الصادق بسيس

جاء فى الكلمة التى كتبها السيد مولود قاسم نايت بلقاسم ، الوزير لدى رئاسة الجمهورية ، المكلف بالشؤون الدينية ، عن المرحوم الدكتور عثمان أمين ان الاستاذ الدكتور ابراهيم بيومى مدكور هو أمين عام مجمع اللغة العربية فى القاهرة ، والواقع انه رئيسه .

وقد تداركنا هذا عندما نقلت جريدة الشعب عن الأصالة المقال المذكور ـ ونؤكد مرة أخرى هذا التصحيح ونعتذر لكل من الاستاذ الدكتور ابراهيم بيومى مدكور ، رئيس مجمع اللغة العربية ، والقراء الكرام .

البقـــــاء للـــــه

وبالمناسبة أقامت وزارة الشؤون الدينية بالمركز الثقافى الاسلامى بالجزائر العاصمة يوم الاربعاء 15 نوفمبر 1978 م حفلة تابين للفقيد الدكتور عثمان أمين ، فيلسوف وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، بمناسبة مرور ستة أشهر على وفاته .

كما أقامت حفل الإربعينية للمرحوم الشيخ الصادق بسيس ، الاستاذ بكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين بتونس ، يوم الاثنين 20 نوفمبر 1978 م ، بنفس المركز .

بـــــــلاغ
حـــول الملتـــقى الثـالث عشر للفكــــر الاســلامى

تعلن وزارة الشؤون الدينية أن الملتقى الثالث عشر للفكر الاسلامى سينعقد فى عاصمة الهوقار تمنغست (تامنراست) من التاسع الى الخامس عشر شـــــوال 1399 (الفاتح الى السابع سبتمبر 1979) للطلبة (الجامعيين) من الجزائر وغيرها .

وقد دعى الى هذا الملتقى أساتذة جامعيون وبحاثة من القارات الخمس ، اى من العالم الاسلامى وغيره .

وستتحمل الوزارة ، فى اطار الملتقى ، نفقات الاقامة والنقل داخل التراب الوطنى .

ويطلب من المشاركين اسهام رمزى قدره خمسة وسبعون دينارا ، ويعفى منه الطلبة الآتون من خارج الجزائر ، جزائريين كانوا أو غيرهم ، والساكنون فى تمنغست .

وترسل طلبات المشاركة الى وزارة الشؤون الدينية ، مديرية البحوث الاسلاميـــة والملتقيات ، المديرية الفرعية للملتقيات ، 4 ، نهج تيمقاد ، حيدرة ، الجزائر ، مع ذكر كلمة « الملتقى » على زاوية الغلاف .

وعلى كل مترشح أن يبعث مع طلبه شهادتين : دراسية وطبيـــة وظرفـا ذا مقياس (16×21) يحمل عنوانه وطابع بريد .

وآخر أجل لقبول طلبات المشاركة هو 01 صفر 1399 (31 ديسمبر 1978) ، ويكون ختم البريد شاهدا على ذلك .

هذا وسيكون جدول الاعمال كالآتى :

1) أهقـــار تاسيـــل : أنجاد أمجاد .
2) هل افريقيا منطلق أو مجرد ملتقى لهجرات ، وحضارات ، وثقافات ؟
3) على أبواب القرن الخامس عشر الهجرى : تقييم وآفاق .
4) الطفل فى عام الطفـــل .

منشـــورات

وزارة التعليـم الاصـلى والشؤون الدينيــة



منشـــورات

وزارة التعليم الاصـــلى والشؤون الدينيـــة

صـــدر كتاب :

الملتقى الثامن للفكر الاسلامى

بالعربية فى ثـلاثة أجزاء

ويشمـــل سائـــر المحاضرات ، والتعقيبـــات ، والمناقشـــات

كما صدر كتاب :

الملتقى السادس للفكر الاسلامى

بالفرنسية فى خمسة أجزاء

ويشمـــل أيضا سائر المحاضرات ، والتعقيبات ، والمناقشـــات

[illegible]


22.10 1973
22.10 1393

[illegible]

[illegible]

COMMUNIQUE

XIII^e SEMINAIRE SUR LA PENSEE ISLAMIQUE

Le Ministère des Affaires Religieuses organise à Tamanghast (Tamanrasset), capitale du Hoggar, du 09-15 chawal 1399 (1-7 septembre 1979) le XIII[e] Séminaire sur la Pensée Islamique, à l'intention des étudiants (d'Université) aussi bien d'Algérie que d'ailleurs.

Des professeurs (d'Université) et chercheurs des cinq continents, donc du monde musulman et d'ailleurs, y sont invités.

Les frais de séjour et de déplacement, à l'intérieur du territoire national, dans le cadre du Séminaire, seront pris en charge par le Ministère. Une contribution symbolique de soixante quinze dinars sera demandée aux participants. En sont dispensés ceux venant de l'extérieur du pays, algériens ou autres, ou résidant à Tamanghast.

Les candidats devront joindre à leur demande un certificat de scolarité ainsi qu'un certificat médical et une enveloppe (16 x 21) timbrée portant leur adresse.

Les demandes de participation doivent être adressées au Ministère des Affaires Religieuses, Direction de la Recherche Islamique et des Séminaires, Sous-Direction des Séminaires, 4, rue Timgad - Hydra — ALGER.

En prenant soin de préciser sur un coin de l'enveloppe la mention : «SEMINAIRE».

Le dernier délai d'envoi des demandes de participation sera le 01 safar 1399 (31 décembre 1978), le cachet de la poste faisant foi.

L'ordre du jour du Séminaire sera comme suit :

1) Ahaggar (Hoggar) Tassili : hauts faits et hauts lieux.
2) L'Afrique est-elle un point de départ ou un simple lieu de rencontre d'émigrations (respectivement : d'immigrations), de civilisations et de cultures ?
3) A la veille de l'avènement du XV[e] siècle de l'Hégire : bilan et perspectives.
4) L'enfant en « l'Année de l'Enfant »...

monde se confinaient dans le huis-clos, l'auditoire étant réduit à quelques spécialistes qui mènent des monologues plutôt que des dialogues, l'élément jeunesse étant ce qui leur manque le plus.

D'autres chercheurs ouest-allemands ont écrit dans la presse de la R.F.A. que ces séminaires, par la rigueur de l'organisation, la diversité des horizons dont viennent les chercheurs, et la présence de l'élément jeunesse, revêtent un cachet unique et en même temps une universalité, de par les thèmes qui y sont traités et les pays représentés.

Le professeur Salvatore Bono, de l'Université Perrugia, d'Italie, a consacré l'année dernière, après le séminaire de Ouargla, une page entière du célèbre « Osservatore Romano », organe officiel du Vatican, à un article de synthèse du 11e Séminaire, terminant par un compte rendu sur les programmes spéciaux des wilayas en Algérie, dont le premier avait été précisément celui de Ouargla.

Jusqu'au Japon où le journal au plus fort tirage du pays, le « Yomiori Sinbun », a publié une dépêche hautement significative de son point de vue sur la Fetwa faite à Annaba pour les ouvriers des hauts fourneaux et ceux qui travaillent dans des conditions semblables. Ceci, venant d'un pays hautement industrialisé, comme le Japon, donne toute la mesure de l'attention portée à ces assises.

Par ailleurs, l'ex-correspondant permanent du journal « Le Monde » à Alger, après le séminaire de Bidjaïa, auquel il a assisté, n'a pas manqué lui non plus de signaler la portée internationale de ces sémniaires (1).

Je noterai enfin que des demandes parviennent au Ministère, d'Universités et aussi de personnalités d'Europe et d'Amérique, en plus du monde arabo-musulman, qui désirent recevoir les actes intégraux des séminaires. Il y aurait même, nous a-t-on signalé, une thèse de doctorat d'Etat qui se préparerait en Sorbonne, sur ces séminaires, information qui n'a pas encore été vérifiée.

Nous sommes conscients naturellement des lacunes inhérentes à chaque effort humain et nous nous efforçons de les réduire de séminaire en séminaire. Ce doit être le propre de toute entreprise consciente et sérieuse et c'est là l'ambition de ces séminaires.

(Entretien réalisé par Mouloud ACHOUR)

(1) Paul Balta, in Le Monde du 18 avril 1974.

Je partage l'appréciation de ce rayon de renouveau, abstraction faite de la relativité quant à la rigueur des méthodes dans les «sciences humaines» ou non exactes et ce, malgré tous les progrès réalisés dans certaines de ces «sciences». Néanmoins, dans ce domaine, ces disciplines ont le droit légitime d'aspirer au rang de sciences et d'accomplir toutes les démarches leur conférant ce titre et cette légitimité. Et le domaine de l'islamologie en est un. Donc cette méthode revivifiante serait la bienvenue de notre point de vue, même si l'on risque de choquer par là certains « traditionnalistes » que nous mettons volontiers sur le même pied que les snobistes de tout changement, bon ou mauvais, et ce, selon notre fameuse image que nous avons répétée à maintes reprises : nous sommes partisans de l'authenticité dans l'ouverture, donc pour l'oxygène et la lumière, tout en gardant les assises de l'édifice contre les conservateurs immuables qui ne cessent de nous rebattre les oreilles par leurs appels à fermer portes et fenêtres au risque de nous étouffer et même nous aveugler, par le manque d'oxygène et l'obscurité permanente. Comme nous sommes contre les snobistes invétérés du changement surtout à contresens qui, au nom du 20e siècle, nous assomment, à l'instar de leurs opposés, par leurs appels au changement à tout prix non seulement à ouvrir portes et fenêtres mais aussi à faire sauter les toitures et les assises, nous exposant ainsi aux intempéries et à l'effondrement de l'édifice.

Donc, revenons à la dernière partie de votre question pour nous résumer et disons que la rhétorique est une bonne chose, mais n'est qu'une forme à laquelle il faut un contenu, lequel est l'essentiel. L'idéal serait par conséquent de réunir forme et contenu et toute méthode nouvelle, toute innovation, toute recherche ou investigation servant ce but ne peuvent être que bien vues par nous et recommandées vivement. Leurs auteurs ne peuvent qu'en être remerciés et encouragés à poursuivre leur démarche.

Le moins qu'on puisse dire de ces séminaires est qu'ils sont l'une des plus importantes manifestations culturelles nationales. Qu'en est-il au plan international ?

Sur le plan national, je m'en tiens à votre appréciation et je vous remercie pour l'encouragement. Sur le plan international, il me suffirait peut-être de rappeler trois ou quatre appréciations ou comparaisons du monde musulman et d'ailleurs.

L'ex-recteur de l'Université d'Al-Azhar, le docteur Fahham, répondant à une question de nos mass-media, après le 6e Séminaire tenu en 1972, sur la valeur de ces manifestations, fit de lui-même la comparaison entre les diverses réunions ou séminaires organisés dans le monde musulman et ces séminaires organisés par l'Algérie, disant à l'avantage de ces derniers qu'ils avaient quelque chose d'unique qui consiste à avoir comme auditoire la jeunesse dans tout ce qu'elle incarne de continuité pour l'avenir, alors que les autres manifestations organisées à travers le

aux étudiants pour cet intérêt. A titre d'exemple, je citerai celui, émouvant, du célèbre historien tunisien, le regretté Othmane el-Kaâk. Lors de l'excursion à El-Qala, au séminaire de Annaba, en pleine canicule de juillet, le maître devait passer les quelques moments réservés au repos debout entouré d'étudiants qui le harcelaient de questions, et ce, quelques heures seulement avant sa mort. Répondant à son compatriote et collègue le professeur Sadek Bessyès, qui l'invitait à prendre un peu de répit, il disait : « Le repos est pour la tombe ». (1)

Conférences et débats ne sont en réalité que la base, le stimulant à la réflexion approfondie, à la recherche personnelle, à l'investigation dans les bibliothèques et autres centres de recherches, pour élargir le champ de connaissances et surtout acquérir les méthodes, varier les sources et accumuler les moyens de comparaison et de jugement.

Peut-on dire actuellement, Monsieur le Ministre, que la recherche scientifique et ce qu'on pourrait appeler la libération intellectuelle, soit réalisée ou en voie de l'être dans le monde islamique ?

Optons plutôt pour le deuxième volet de l'alternative et, même pour ce point, être brutal avec nous-mêmes et dire que nous sommes en voie de nous y intéresser. Vous n'avez d'ailleurs pour cela qu'à comparer — sans pour autant tomber dans le masochisme ou l'auto-dénigrement — les conférenciers que vous avez entendus à Batna ou à d'autres séminaires, venant du monde musulman et ceux venant d'autres pays des cinq continents, quant à la méthodologie, quant à une certaine rigueur scientifique, je dis une certaine rigueur, parce que la rigueur scientifique, la fameuse probité intellectuelle et la non moins fameuse objectivité ne sont que très relatives, à des degrés divers dans cette relativité, et ce, dans tous les pays et à toutes les périodes de l'existence humaine, du moins jusqu'ici.

Toutefois, sans tomber à l'inverse dans l'optimisme béat, il faut dire que, compte tenu des vicissitudes du passé et des stagnations et régressions intervenues à chaque civilisation, on peut dire que le monde musulman a fait des pas non négligeables au début de cette voie vers la libération intellectuelle, la reprise de la démarche autonome vers une contribution originale et fructueuse à la progression de l'humanité.

Nous souhaiterions seulement un peu plus de célérité et de suivi dans cette démarche. Et c'est ce à quoi nous œuvrons par ces séminaires, même en provoquant parfois à dessein pour produire l'effet, le choc psychologique, dans ce sens.

Nous avons cru déceler une atmosphère favorable au renouvellement des méthodes de recherche en islamologie. Croyez-vous qu'on soit sur le point de rompre avec l'analyse et l'exégèse traditionnelles, fondées surtout sur le commentaire et le recours à la rhétorique ?

(1) "الراحة في القبر".

Des philosophes, des psychologues, des sociologues ont été associés à chacun de ces séminaires et des sujets surtout philosophiques et sociologiques ont été étudiés à maints séminaires. Il y a eu même un point consacré exclusivement au rôle du penseur dans la vie nationale et internationale, c'est-à-dire face aux problèmes qu'affronte l'humanité dans son ensemble.

On peut en conclure par conséquent que les préoccupations universelles n'ont jamais échappé à notre attention depuis le 4^{e} Séminaire et qu'elles ont figuré sous une forme ou une autre dans tous les séminaires suivants.

Nous avons parlé de philosophie tout court, de la philosophie des civilisations, vues par d'éminents philosophes de l'histoire, depuis les penseurs grecs jusqu'à Ibn Khaldoun, Toynbee (Angleterre), José Ortéga y Gasset (Espagne), Fustel de Coulange (France) et Mommsen (Allemagne). Nous continuerons à le faire dans l'avenir, la civilisation étant une œuvre humaine, chaque civilisation et chaque pays y apportant sa contribution, et à en tirer les leçons dans le cadre de notre reprise de la marche, en symbiose avec celle des nations avancées.

En répétant volontiers que l'audition des conférences ne constitue pour les étudiants qu'une amorce à la réflexion personnelle et un point de départ pour l'effort de recherche, vous avez en quelque sorte exprimé la portée pédagogique de ces séminaires. Pourriez-vous nous développer cette idée ?

En effet. Nous avons même précisé dans le texte d'invitation qu'il était demandé aux professeurs de ne pas dépasser un maximum de 30 minutes pour la présentation de leur communication. Le mot maximum y est même souligné trois fois. Dans le même texte d'invitation nous avons précisé qu'ils auraient toute latitude pour se rattraper pendant le débat de ce qu'ils n'ont pas pu inclure dans le texte de la conférence, les étudiants apportant infiniment plus d'attention aux débats qu'aux conférences, et tirant moins de profit de ces dernières qu'ils n'en tirent des débats, plus vifs et vivants, captant davantage leur attention.

Nous pensons, en fait, et je pense que ce devrait être la règle, que la conférence ne devrait servir que de stimulant et de point de départ, comme vous le dites, pour un débat fructueux, un échange vivant et direct qui laisse plus d'impact sur l'auditeur et, je pense, même sur le conférencier, ce qui incite à une recherche plus poussée sur le sujet en question.

Cette conception se fonde sur la demande des étudiants et étudiantes, et n'oublions pas que ces séminaires sont organisés à l'intention de ces derniers. Et leur soif de ces débats s'exprime par leur insistance à les poursuivre avec les professeurs en dehors des travaux, dans les internats et les cités universitaires, jusqu'à des heures avancées de la nuit, comme ils les poursuivent du reste même pendant les excursions. Je dois dire que beaucoup parmi ces professeurs sont très sensibles et reconnaissants

pays parmi les professeurs, les historiens, universitaires ou non, auxquels sont ouverts ainsi des horizons nouveaux, qui sont incités à se livrer à davantage de recherches et surtout avec plus de célérité.

Ce thème, du reste, depuis le 6e Séminaire, n'a cessé d'être abordé dans la région méditerranéenne et même en dehors. C'est ainsi qu'il a été traité en Tunisie, à Malte, à Baghdad, en France et dans d'autres pays européens ou extra-européens. Si nous avons été les premiers, pensons-nous, à aborder ce sujet, on peut à cela trouver l'explication dans le fait que notre pays a subi plus que tout autre les atteintes de falsification de l'histoire et ce, aussi bien de la part des adversaires d'hier que de celle des frères d'hier et de demain. Et, comme dit le poète arabe : « L'animosité des frères est celle qui fait le plus souffrir ».

Concernant la contribution réelle de ces travaux à l'entreprise de réécriture de notre histoire, j'estime personnellement qu'elle est de la plus haute importance, venant de divers horizons, apportant plusieurs versions, indiquant plusieurs sources et démarches méthodologiques. Je pense que nos professeurs, chercheurs et étudiants — moi-même en tout cas, ce dont je suis sûr — en ont tous profité et doivent en tirer le maximum d'enseignements pour entreprendre et mener à bonne fin ce que nous avons appelé l'entreprise de réécriture de notre histoire nationale.

Au fil des séminaires successifs, l'observateur est amené à penser — à juste titre croyons-nous — que la connaissance de la Pensée Islamique ne constitue qu'un volet de la manifestation. Cette évolution (car ç'en est une) est-elle le fait d'une volonté délibérée d'élargir ces assises à la pensée humaine en général, susceptible d'intégrer dans l'avenir des domaines comme la philosophie, la psychologie et autres disciplines ?

Effectivement, la Pensée Islamique est comme l'Islam bien compris et bien appliqué. Elle porte sur tous les domaines de la vie. Pas seulement l'au-delà, mais également l'ici-bas. Du reste, l'ici-bas et l'au-delà sont presque toujours liés dans les versets du Coran, en commençant naturellement par l'ici-bas, pour des raisons chronologiques et logiques. Dans le hadith, d'ailleurs, il est dit plusieurs fois en diverses versions que l'action et surtout l'acte de savoir est un culte.

Ceci dit, depuis le 4e Séminaire, nous n'avons cessé de lier les sujets proprement culturels ou religieux (au sens restreint du mot) avec ceux de la vie nationale et internationale dans son ensemble, dans le présent et l'avenir.

Ainsi, nous avons parlé de notre action en divers plans : de l'enseignement, de l'éducation ; des divers domaines économiques : de l'agriculture, de l'industrie, de l'énergie ; de domaines sociaux : de la famille, de la jeunesse, de notre émigration, comme nous avons étudié à chaque fois les diverses périodes de notre histoire, de l'histoire de la civilisation arabo-islamique et même de l'apport du patrimoine universel en général.

S'agissant du premier thème, ainsi que des thèmes placés sous le même chapitre dans les précédentes rencontres, il y a lieu de penser que les apports de chaque conférencier peuvent répondre au souci actuel de l'Algérie de procéder à la réécriture de son histoire nationale. Peut-on connaître votre opinion sur la contribution réelle de ces travaux dans cette perspective précise ?

Comme vous le dites, ceci s'inscrit effectivement dans ce contexte. Notre souci en incluant à la tête du programme de chaque séminaire un point se limitant à la région qui accueille la manifestation ou débordant à l'échelle nationale, comme ce fut le cas pour l'étude de certaines dynasties : rostomide, hammadite, zianide, lors de séminaires précédents, sur ce premier point, comme du reste en ce qui concerne le dernier (1), notre souci par conséquent est de donner la possibilité à tous d'élargir et d'approfondir la connaissance de l'histoire de notre pays. Cela se fait aussi bien par le biais des conférences données par les éminents professeurs invités, originaires des cinq continents, de religion, de culture et d'idéologie différentes, que par celui des débats qui s'ensuivent et des excursions d'études. Celles-ci sont en quelque sorte l'illustration de ce qui se dit dans la salle du séminaire, puisque nous visitons des vestiges historiques — ceci pour le passé — et des réalisations dans divers domaines de l'activité nationale — pour le présent.

Parmi les conférenciers, des professeurs d'universités spécialisés en histoire ont abordé l'étude de l'histoire de notre pays en diverses périodes depuis l'antéislam jusqu'à nos jours.

En plus de cette connaissance des éléments portant sur le fond, il y a aussi la forme, la méthodologie, qui consiste à connaître diverses démarches de recherche, les références bibliographiques, les sources de documentation... Tout ceci est aussi important pour nous tous, car cela nous donne des éléments de jugement et des moyens de comparaison.

Par ailleurs, les professeurs eux-mêmes nous disent qu'ils apprennent beaucoup les uns des autres et qu'ils sont surtout amenés à rectifier maints préjugés et idées préconçues aussi bien sur notre pays (son passé et son présent) que sur l'ensemble de la civilisation arabo-islamique. Je pense que cela sert la compréhension entre les hommes.

Ceci dit, vous vous souvenez bien que nous avons abordé ce thème de la réécriture critique de l'histoire de notre pays dans chaque séminaire, depuis le sixième où ce sujet figurait comme intitulé même de l'un des points de l'ordre du jour. J'estime que cela est valable également pour susciter l'attention de l'ensemble de ceux qui s'y intéressent ou devraient s'y intéresser dans notre

(1) Les premier et dernier points sont respectivement, pour le 12e Séminaire de Batna : « Aurès, hauts faits et hauts lieux... » et « Les relations de l'Algérie avec le reste du monde avant 1962... ».

" UNE PORTEE CULTURELLE ET PEDAGOGIQUE " (1)

Monsieur le Ministre, à la lumière des nombreuses communications présentées sur les différents titres composant l'ordre du jour de ce 12e Séminaire sur la Pensée Islamique, pourriez-vous nous dire si les assises qui viennent de s'achever ont répondu aux attentes et atteint l'objectif assigné à cette manifestation ?

On peut dire, en effet, que dans l'ensemble, à travers les diverses communications, les conférenciers ont répondu dans une large mesure à ce que nous attendions d'eux, se rapportant à tous les points inscrits à l'ordre du jour du 12e Séminaire. Les uns ont exprimé leur point de vue et apporté leur contribution avec clarté et méthode, d'autres, même s'ils n'ont pas satisfait à ces exigences formelles, ont fourni des éléments d'information utiles et souvent très valables.

Toutefois, il y a lieu de signaler que, malgré une formulation détaillée à l'extrême (aussi bien dans le texte d'invitation que dans le programme) des points de l'ordre du jour, certains conférenciers ont semblé nettement n'avoir pas examiné ces thèmes. Cela concerne surtout le point relatif à la science et à la religion ; ils se sont épuisés à nous expliquer la science, avec force citations successives, énoncées dans un débit rapide. Or, notre intention était surtout d'examiner la position de la religion — n'importe quelle religion et notamment l'Islam et son Livre, le Coran — face à l'évolution d'aujourd'hui. Ceci n'a pas été suffisamment approfondi par certains orateurs, ce que révélait clairement non seulement leur texte, mais également leurs réponses aux questions posées par les étudiants.

Il n'en demeure pas moins que même ces derniers, qui ne se sont pas conformés à une méthode rigoureuse, ont apporté une contribution positive sous la forme de connaissnaces, un matériau à mettre entre les mains des méthodologistes qui sauront en tirer profit de façon rigoureuse et scientifique.

(1) Titre donné par le quotidien El-Moudjahid à l'entretien avec Monsieur Mouloud Kassim NAIT-BELKACEM qu'il a publié dans sa livraison du 20 septembre 1978.

5°) Charger une équipe de chercheurs de dresser une bibliographie générale portant sur l'histoire des relations de l'Algérie avec tous les pays étrangers, à toute époque.

6°) Elaborer une étude portant sur la marine algérienne en s'appuyant sur la documentation éditée ou manuscrite pour éclaircir des questions telles que son organisation, sa construction, son équipement, son commandement et le rôle joué par cette marine en Méditerranée et dans l'Océan Atlantique.

7°) Introduire les relations extérieures de l'Algérie en tant que matière à part entière dans le programme de l'enseignement secondaire en l'approfondissant au niveau de l'enseignement supérieur.

8°) Mettre en relief le rôle de l'Algérie dans la défense du Maghreb-Arabe à l'époque moderne, refuter tous les mensonges et les calomnies dont a fait l'objet la marine algérienne de la part de certains Européens en s'appuyant sur les nombreux documents qui se trouvent dans les bibliothèques et archives en France, en Turquie, en Italie et en Espagne.

9°) Elaborer un programme d'activités communes entre le Ministère et le Centre National des Etudes Historiques à l'effet de traduire certains des nombreux ouvrages écrits par des historiens étrangers portant sur les relations de l'Algérie avec des pays européens et les Etats-Unis d'Amérique.

10 - Docteur Ercümend Kuran, *professeur d'Histoire à l'Université de Hacettepe - Ankara (Turquie)* »

11 - Docteur Oral Sander, *professeur-assistant à l'Université d'Ankara (Turquie)* »

1°) La Commission s'est penchée sur la question des relations de l'Algérie avec les autres pays à travers l'histoire, jusqu'en 1962.

2°) Elle considère, à la lumière des communications faites au Séminaire, que cet aspect de l'histoire de l'Algérie revêt une importance particulière, car il s'agit de l'instauration de l'administration du pays et de sa force militaire, terrestre et navale qui constitua un solide appui à la place qu'elle occupe sur le plan diplomatique et s'y maintint pendant des siècles surtout à l'ouest du bassin méditerranéen.

3°) Elle estime que les exposés et les études qui ont été présentés au Séminaire autour du cinquième ponit peuvent servir de modèles aux études qui seront menées ultérieurement sur ce sujet, à tous les niveaux et dans tous les cadres, pour faire connaître le passé de l'Algérie en tant qu'Etat indépendant jouant un rôle vital au sein de la Communauté internationale.

Aussi, a-t-elle convenu de formuler les recommandations suivantes :

1°) Procéder à un recensement préliminaire, au niveau du Centre National des Etudes Historiques, des documents et références existant dans les archives des pays étrangers et notamment les Etats-Unis, l'Espagne, la France, l'Italie, la Turquie et la Hollande.

2°) Entreprendre la collecte des documents relatifs au sujet à partir des ouvrages imprimés et manuscrits et les mettre à la portée des chercheurs qui s'intéressent à la politique extérieure de l'Algérie.

3°) Organiser au niveau du Ministère, en collaboration avec le Centre National de Recherches Historiques, un colloque spécial en vue d'élaborer un plan global et une méthode scientifique de travail dans ce domaine basés sur une répartition des tâches entre les deux organismes afin d'effectuer des études à caractère bilatéral telles que les relations Algérie-France, Algérie-Espagne, Algérie-Etats-Unis, Algérie-Turquie, etc...

4°) Réunir les moyens nécessaires pour collecter les échos écrits et sonores qu'a eu la Révolution Algérienne dans le Monde (livres, conférences, émissions radiophoniques, films, articles de presse, etc...) en vue de les conserver afin qu'ils servent de référence aux chercheurs qui étudieront l'histoire de la Révolution Algérienne sur le plan international.

RECOMMANDATIONS

DU XIIe SEMINAIRE SUR LA PENSEE ISLAMIQUE

(Cinquième Point)

CINQUIEME COMMISSION

La cinquième Commission, réunissant les conférenciers ayant apporté une contribution au cinquième point de l'ordre du jour du XIIe Séminaire sur la Pensée Islamique tenu à Batna du 04 au 11 chawal 1398 (07 au 14 septembre 1978) a tenu une séance de travail à laquelle ont participé :

1 - Monsieur Ismaïl Al-Arabi, *historien, directeur des études au Centre National des Etudes Historiques* (*Algérie*)	Président
2 - Cheïkh Abderrahmane Djilali, *Historien* (*Algérie*)	Rapporteur
3 - Docteur Yahia Bouaziz, *professeur d'Histoire à l'Université d'Oran* (*Algérie*)	Membre
4 - Docteur Charles L. Geddes, *directeur de l'Institut Américain des Etudes Islamiques - Université de Denvers* (*U.S.A.*)	»
5 - Docteur Emel Esin, *membre de l'Institut des Recherches Culturelles Turques - Istanbul* (*Turquie*)	»
6 - Docteur Jordan Peev, *professeur d'Histoire à l'Université de Sofia* (*Bulgarie*)	»
7 - Cheikh Mehdi Bouabdelli, *membre du Conseil Supérieur Islamique et du Centre National de Recherches Historiques* (*Algérie*)	»
8 - Docteur Salvatore Bono, *professeur d'Histoire à l'Université de Perugia* (*Italie*)	»
9 - Monsieur Ahmed Tawfiq Al-Madani, *Historien* (*Algérie*)	»

enseigneront par ailleurs des différentes langues des peuples musulmans et assurant des études comparées entre différentes religions et doctrines philosophiques, et ce, dans le but de former des savants spécialistes et des missionnaires compétents. Elles devront admettre des étudiants de tous les pays musulmans et faciliter l'inscription des jeunes appartenant aux minorités musulmanes en pays non-musulmans.

Dixièmement : faire élaborer par des savants spécialistes des ouvrages bien conçus en langue arabe pour toutes les disciplines qui manquent de manuels dans cette langue telles l'économie islamique, les mathématiques et les techniques afin de répondre aux besoins de l'enseignement supérieur et secondaire, enrichir la bibliothèque arabe et permettre de nous passer des importations de l'étranger. Par sa réalisation, ce projet fera taire les adversaires de la langue arabe qui prétendent que nos universités et nos lycées sont colonisés intellectuellement et idéologiquement.

Onzièmement : faire élaborer par des spécialistes des ouvrages portant sur l'histoire de toutes les anciennes universités musulmanes, relatant leur évolution, l'action menée par chacune d'elles et signalant les savants qu'elles ont formés et les découvertes atteintes afin d'informer notre jeunesse de notre prestigieux passé.

a) La culture islamique authentique, doit constituer une matière fondamentale dans toutes les Universités des pays musulmans ainsi que dans les Universités musulmanes existant dans les pays à minorité musulmane.

b) La langue arabe doit constituer la langue d'enseignement fondamentale dans les Universités des pays musulmans d'expression arabe. Une grande importance doit lui être accordée par les pays musulmans d'expression non arabe et par ceux, à minorité musulmane, parallèlement à leurs langues nationales.

Troisièmement : chaque Université doit trouver le climat propice à sa stabilité et à son épanouissement.

Quatrièmement : l'Université doit répondre à toutes les exigences du développement dans les différents domaines culturel, économique et social et ce, en appuyant les études théoriques et de laboratoires par des travaux opérationnels.

Cinquièmement : l'Université doit disposer de tous les équipements nécessaires à l'université moderne, tels que, amphithéâtres, librairie et laboratoires.

Sixièmement : les professeurs doivent faire l'objet de respect, de considération et bénéficier d'un niveau de vie décent, afin que l'Université puisse disposer de cadres universitaires compétents ayant une conduite exemplaire.

Septièmement : un échange étroit doit être établi entre les différentes Universités des pavs musulmans, pour échanger leurs expériences dans tous les domaines et ce, par :

a) La multiplication de rencontres entre les cadres universitaires et la tenue de réunions périodiques.

b) L'échange de professeurs, d'informations, de correspondance, de thèses et de revues.

c) L'échange de documents, d'ouvrages, de manuscrits et de listes bibliographiques

Huitièmement : accorder aux problèmes matériels et moraux des étudiants toute l'attention qu'ils exigent en créant le climat propice aux études, en améliorant les conditions d'hébergement et de vie, en sauvegardant leur dignité et leur moralité, enfin en tenant compte de leurs aptitudes et de leurs vœux, tout en conciliant ces vœux avec les besoins du pays dans les domaines technique, économique, scientifique et culturel.

Neuvièmement : outre la nécessité de veiller à l'éducation religieuse dans toute université, institut ou faculté, il est impérieux de créer une Université Islamique dans chaque Etat musulman destinée à dispenser un enseignement spécialisé englobant la théologie et la législation musulmanes, les sciences de la tradition, les sciences spéculatives ainsi que les disciplines linguistiques. Ces universités

scientifiques intellectuels et réformateurs dans les pays islamiques d'où ils se propagèrent dans le monde. Après avoir assumé dignement sa mission à l'époque du rayonnement de la civilisation islamique, elle fut atteinte par l'inaction au cours des siècles de la décadence, suivis par l'époque coloniale et l'intervention étrangère visant à contrôler les destinées de la civilisation islamique. Avec la fin de cette dernière époque et l'avènement de l'ère de l'indépendance dans la plupart des pays musulmans, l'Université islamique reprend son chemin. Les universités se comptent par dizaines dans les différents pays musulmans ; cependant elles affrontent des difficultés inextricables qui entravent leur marche. Il s'avère nécessaire de penser et d'œuvrer pour leur faciliter la tâche afin qu'elles s'acquittent dignement de leur mission et qu'elles atteignent leurs objectifs.

Car à l'heure actuelle, elles oscillent entre l'authenticité et la modernité par la faute des courants intellectuels contradictoires qui les menacent d'atrophie, de déviations et de manque d'adaptation des programmes d'enseignement aux nécessités de la société moderne. Les universités nouvelles souffrent du manque de moyens matériels et moraux nécessaires pour la hisser au niveau idéal, tels que : cadres, professeurs qualifiés, bibliothèques, laboratoires et autres équipements nécessaires, de la faiblesse du niveau de certains étudiants, de la non-imposition de la langue arabe comme langue dominante dans toutes les facultés et institutions, de la tentative de l'isoler dans les facultés de lettres et des sciences spéculatives et son exclusion des facultés des sciences universelles. Ceci conduit à l'affaiblissement de l'idéologie islamique et des bonnes mœurs, et c'est ce qui donne une image étonnante du rôle de l'Université dans la formation d'hommes qui conduiront leurs nations à l'épanouissement et au renouveau, prenant en considération les réalités de leurs nations, liés à leur passé et à leur histoire en tant que trait d'union entre le présent et l'avenir.

Après ce bref aperçu concernant la dure réalité que vit aujourd'hui notre Université dans les pays arabes et musulmans, la Commission recommande aux pays musulmans, aux Ministères de l'Enseignement, à la Ligue arabe, à l'organisation de la Conférence Islamique et autres organisations musulmanes,

Premièrement : que l'Université s'attache à sa mission première qui consiste à préserver l'authenticité et la modernité. Avant sa création, l'idée de sa tâche doit s'inspirer du patrimoine universitaire islamique traditionnel et de l'expérience universitaire contemporaine des pays avancés. Ainsi, l'Université sera à même de sauvegarder son authenticité, tout en gardant son ouverture.

Deuxièmement : considérant que l'Islam et le Saint Coran qui a été révélé dans une langue arabe éloquente, constituent le bien sacré entre les différentes composantes de la nation musulmane, la Commission insiste auprès des Universités du monde musulman pour que leurs programmes soient basés sur deux points à savoir :

— Docteur Gharib Al-Djammal, *conseiller technique du Secrétaire Général, chargé des Affaires culturelles. Organisation des pays islamiques - Djeddah* »

— Docteur Mohamed Al-Aziz Lahbabi, *professeur à l'Université de Rabat - Maroc* »

— Monsieur Abderrahmane Chibane, *Inspecteur général au Ministère de l'Education Nationale - Alger* »

— Monsieur Mohamed Salah-Eddine Al-Mistawi, *journaliste, directeur et rédacteur en chef de « Majallat Al-Islam »* »

— Monsieur Ahmed Derrar, *ancien directeur de l'Enseignement Originel et député à l'Assemblée Populaire Nationale* »

— Monsieur Mohamed Chebouki, *professeur et membre de l'Assemblée Populaire de la wilaya de Tébessa - Algérie* »

— Monsieur Mohamed Ameziane Thaâlibi, *professeur à l'Institut de Technologie de Ben Aknoun - Alger* »

— Mademoiselle Khannatha bent Hachemi, *étudiante à l'Institut de la Langue et de la Culture Arabes de l'Université de Tlemcen Algérie* »

— Monsieur Hassan Adjailia, *étudiant à l'Institut du Droit et des Sciences Administratives de l'Université d'Alger - Ben Aknoun Alger* »

Les membres de cette commission ont tenu plusieurs séances et passé en revue toutes les conférences, débats et commentaires de tous les séminaristes concernant le point (4) : « Vue d'ensemble sur l'Université ». Ils sont arrivés à la conclusion suivante :

Les pays islamiques ont eu le mérite d'être les fondateurs du système universitaire dans le monde. La mosquée fut à l'origine de sa naissance. L'Université Islamique dispensait un enseignement total. Elle avait comme fondements : la Science, la Foi, la vertu, la bonne action gratuite de l'enseignement et la prise en charge de ses étudiants. Elle était en liaison étroite avec la société et s'occupait des problèmes de cette dernière et de leur résolution. Son rôle consistait également à mettre en valeur et développer les aptitudes de l'individu, se consacrant aux différentes disciplines de la science et de la connaissance.

Elle donna à l'humanité de grands savants qui avaient profondément marqué le développement de la civilisation mondiale. L'Université exerce toujours une influence sur le processus du progrès. Elle était le point de départ des mouvements

RECOMMANDATIONS

DU XII[e] SEMINAIRE SUR LA PENSEE ISLAMIQUE

(Quatrième Point)

QUATRIEME COMMISSION

— Son Excellence le docteur Fadhel Al-Djammali - Irak, *Professeur à l'Université de Tunis.*	Président
— M[r] Chehab-Eddine Yelles, *chercheur, Documentation Nationale. Présidence de la République - Alger*	Rapporteur
— Professeur Ahmed Hamani, *Président du Conseil Supérieur Islamique - Alger*	Membre
— Cheikh Mohamed Chedli Nayfer, *doyen de la Faculté de la Théologie « Zëitouna » Tunis*	»
— Docteur Abdallah Inan, *historien et membre de l'Académie de la Langue arabe - Le Caire*	»
— Docteur Rifaât Il-Abid, *professeur à l'Institut des Etudes Sémitiques, Université de Leeds - Grande-Bretagne*	»
— Docteur Widad Al-Kadi, *professeur à l'Université Américaine Beyrouth*	»
— Docteur Jussi Aro, *professeur des Langues et Lettres Orientales Université de Helsinki - Finlande*	»
— Docteur Jens Philip Muller, *professeur de philosophie, Université Roskilde - Danemark*	»
— Docteur David Cowon, *professeur à la Section des Proche et Moyen-Orient, Institut des Etudes Orientales et Africaines, Université de Londres*	»

d) D'encourager le mariage, de le faciliter et de réunir toutes les conditions propices, conformément aux prescriptions de la législation musulmane dans sa simplicité.

e) Lance un appel aux pays musulmans afin de protéger matériellement la famille, dès sa constitution et au cours de son développement.

f) Demande également aux pays musulmans de protéger moralement la famille, en inculquant le respect des valeurs familiales, musulmanes, en employant tous les mass-média et les moyens d'éducation.

g) De prendre en considération les règles de la législation musulmane en élaborant les lois de la famille musulmane.

h) De réunir tous les moyens efficaces pour protéger la famille musulmane et notamment la jeune fille musulmane de tous les courants étrangers à la société musulmane.

i) De soutenir la famille, dans son sens le plus large, en renforçant les liens entre tous ses membres, ascendants et descendants, grâce à différentes actions de sensibilisation et d'orientation.

j) D'encourager la création d'associations, destinées à la protection de la famille, de les aider à régler les problèmes de la famille et ce, afin d'améliorer sa condition.

En conclusion, la commission considère à la lumière de ce qui précède, qu'il est nécessaire d'agir, en vue de promouvoir un modèle de famille musulmane, qui sauvegarderait les liens et l'équilibre entre les droits et les devoirs de chacun, si bien que ce modèle devienne l'expression fidèle de la capacité d'organisation sociale musulmane de conduire l'Humanité à son bonheur.

Que Dieu nous guide dans le droit chemin.

RECOMMANDATIONS

Après examen des conférences et des débats concernant le troisième point du programme du 12[e] Séminaire sur la Pensée Islamique,

Considère à l'unanimité que la famille qui se compose des parents, des enfants et des grands-parents, est la cellule fondamentale de la structure sociale.

Que toute fissure en son sein et tout défaut de soutien moral et matériel à la famille, conduisent à sa dislocation, l'individu et la société en portent la responsabilité.

Tenant compte de l'enseignement tiré de la comparaison entre la situation de la famille musulmane et la situation générale faite par certains conférenciers dont le docteur Abdelkrim Saïtoh (Université de Tokyo) et le docteur Edward Shorter (Université de Toronto - Canada) qui ont fait état d'un abandon des freins moraux qui a ébranlé la situation de la famille.

LA TROISIEME COMMISSION RECOMMANDE :

I - Sur le plan international.

a) D'œuvrer pour l'institution de lois assurant le maintien et la stabilité de la structure familiale en général, sur la base d'un équilibre entre les droits et les devoirs, conformément à un consensus sur l'intérêt général, valable en tout lieu et en tout temps, et à la recommandation de l'Assemblée Générale des Nations Unies sur ce point.

b) Prendre toutes les mesures nécessaires susceptibles de consolider les fondements de la structure familiale et de la sauvegarder des courants extrémistes qui la menacent dangereusement.

II - Au niveau du Monde musulman.

a) De reconnaître à la femme, ses droits naturels conformément à la législation musulmane.

b) De considérer l'époux comme étant le premier responsable de la famille, chargé de la diriger et de la protéger moralement et matériellement, sans abus.

c) La mission de la femme étant en premier lieu de diriger le foyer, elle doit s'acquitter de ses tâches avec toute sollicitude à l'égard de tous les membres de la famille.

RECOMMANDATIONS

DU XII[e] SEMINAIRE SUR LA PENSEE ISLAMIQUE

(Troisième Point)

TROISIEME COMMISSION (3[e] Point)

« LE DEVENIR DE LA FAMILLE »

Membres de la Commission :

— Docteur Abdallah Abdelghani, *Vice-président de la Direction spirituelle des Musulmans d'Asie Centrale — Kazakhstan Tachkent*	Président
— Monsieur Mohamed Tahar Foudala, *Professeur d'arabe, chargé de mission à la Présidence de la République - Alger*	Rapporteur
— Docteur Abdelkrim Saïtoh, *Professeur d'économie à l'Université Takashuku - Tokyo.*	Membre
— Docteur Emre Kongar, *Professeur de Sociologie à l'Université d'Ankara*	»
— Docteur Abdelhalim Aouis, *Professeur-assistant à l'Université Mohammed Ibn Séoud - Ryadh*	»
— Docteur Fatma Al-Djami'i Lahbabi, *Professeur à l'Université Mohamed V - Rabat*	»
— Docteur Hakim Ben Atia, *Directeur du Conservatoire Municipal de Musique et d'Art dramatique - Alger.*	»
— Professeur Mustapha Aslaoui, *Conseiller à la Cour Suprême, responsable de la formation au Ministère de la Justice, Professeur conférencier à l'Ecole Nationale d'Administration*	»

14°) Oeuvrer par tous les moyens au rapatriement des cadres scientifiques musulmans qui ont émigré vers des pays étrangers qui en tirent profit alors que la nation musulmane en a grand besoin.

15°) Encourager l'échange des ouvrages islamiques et scientifiques entre les pays arabes et musulmans, car le livre constitue l'un des meilleurs moyens d'échange entre la civilisation et de la réalisation de l'unité de pensée. Puis œuvrer à lever tous les obstacles dressés sur cette voie et cesser de considérer le livre comme un simple produit de commerce mais plutôt comme un instrument utile et nécessaire.

16°) Employer tous les moyens d'information en vue de susciter une prise de conscience religieuse et scientifique authentique ; lutter contre les déviations, les superstitions, les inepties, les maux sociaux et le relachement des mœurs et consacrer des émissions quotidiennes radiophoniques et télévisées pour la réalisation de cet objectif.

17°) Enfin, œuvrer à multiplier la tenue de conférences islamiques traitant des relations existant entre la religion et la science avec la participation de savants musulmans de toutes les disciplines.

Dieu nous guide à la vérité et au droit chemin.

Pour la Commission,

Docteur Abdelhalim Aouis

2°) Veiller à l'enseignement du texte exact du Qoran et encourager sa mémorisation à partir du cycle primaire de manière à ce que l'élève acquiert une large connaissance du Qoran et des Sciences Religieuses.

3°) Veiller à l'initiation des élèves par des méthodes modernes à la lecture exacte du Qoran de façon à ce qu'ils en apprennent le plus grand nombre possible de chapîtres durant le cycle primaire et maîtrisent l'exégèse d'un minimum de son contenu.

4°) Dispenser la culture islamique et les sciences religieuses aux élèves des deux cycles moyen et secondaire, selon un horaire suffisant qui ne doit pas être inférieur à deux heures comme cela est pratiqué dans la plupart des pays musulmans.

5°) Préserver les centres de culture et de sciences musulmanes spécialisés et œuvrer au développement des établissements qui préparent à l'admission dans ces centres tels que les instituts religieux, moyen et secondaire.

6°) Considérer l'éducation musulmane comme une matière fondamentale éliminatoire dans les différents cycles afin qu'elle ne soit pas négligée comme c'est le cas dans certains pays.

7°) Oeuvrer à l'application des décisions prises par l'Union des Universités Arabes en 1977 concernant la nécessité d'enseigner la culture musulmane au sein de l'ensemble des Facultés des Universités arabes.

8°) Enseigner l'histoire comparée des religions dans les Facultés Islamiques spécialisées.

9°) Echanger les expériences entre les Etats musulmans en matière de programmes de l'enseignement islamique et des moyens pédagogiques.

10°) Réanimer la fonction de la mosquée en tant qu'institution d'enseignement et d'éducation en vue de susciter une véritable prise de conscience chez le Musulman, au moyen de causeries sur la science et sur le Saint Qoran.

11°) Créer des facultés spécialisées dans les Sciences Religieuses dans les pays arabes qui n'en sont pas encore pourvus tout en garantissant leur dotation en effectifs nécessaires.

12°) Ecarter, dans le cadre général de l'environnement éducatif, toute personne connue par son athéisme, par son mépris des valeurs religieuses ou d'y inciter.

13°) Vulgariser les sciences et les présenter sous forme de livres attrayants dans un style accessible aux masses. Il en est de même pour le patrimoine scientifique islamique qui doit servir de trait d'union entre la science moderne et notre patrimoine scientifique.

11 - Docteur Eva de Vitray Méyérovitch, *Professeur à la Faculté de filles de l'Université d'Al-Azhar* (Egypte) »

12 - M. Moussa Abdelaziz (*étudiant*) »

13 - M. Mohammed Kefaf (*étudiant*) »

14 - M. Ounis Fergag (*étudiant*) »

A la lumière des communications présentées et des débats dont elles ont fait l'objet et en connaissance des éléments essentiels du thème « Religion et Science », notamment les Ecritures révélées et tout particulièrement le Qoran, la Science et la justesse de ce qu'en pensent aujourd'hui les diverses tendances : le croyant convaincu, le charlatan ou l'athée conscient ou inconscient qui prétend que la religion est incompatible avec la science et notre siècle, et s'interroge si la religion est un guide ou bien un garde-fou pour l'individu et la société ou ni l'un, ni l'autre !

Et considérant les éléments du thème et compte-tenu de la portée des communications, des débats et de l'esprit animant le Séminaire, les travaux de la deuxième Commission à laquelle a été impartie l'étude du second point, « Religion et Science », du XII[e] Séminaire sur la Pensée Islamique ont abouti à la formulation des conclusions suivantes :

1°) La science est la perception de la réalité des choses sur une preuve théorique ou expérimentale. L'Islam, tel qu'il a été formulé dans le Qoran et la Sunna authentique, signifie une entière soumission à la vérité universelle.

2°) Le parallèle entre la Religion et la Science confirme que cette dernière est un phare sur la voie de la véritable religion. Le Qoran, première source de la religion, s'accorde parfaitement avec n'importe quelle vérité scientifique ayant dépassé le stade théorique et susceptible d'être discutée et remise en question, outre qu'il exhorte tous les hommes à user de tous les moyens de pensée et de réflexion pour atteindre des vérités tangibles.

3°) La religion véritable est celle qui insuffle son esprit à la Science et permet à l'homme d'en récolter les fruits qui garantiront le bonheur de l'humanité. Il n'y a pas de société et de bonheur possibles en cet univers hors du cadre réunissant la Religion et la Science.

Partant de tout cela, la Commission formule les recommandations suivantes :

1°) Nécessité de renforcer la place de la religion dans le cœur et la raison et de dispenser l'instruction et l'éducation islamiques authentiques dans les différents cycles de l'enseignement.

RECOMMANDATIONS

DU XII[e] SEMINAIRE SUR LA PENSEE ISLAMIQUE

(Deuxième Point)

DEUXIEME COMMISSION

LISTE DES MEMBRES DE LA COMMISSION

1 -	Docteur Mohammed Saïd Ramadane, *Professeur à la Faculté de la Chari'a - Damas*	Président
2 -	Docteur Abdelhalim Aaouis, *Professeur à l'Université Imam Mohammed Ibn Séoud de Riad*	Rapporteur
3 -	Docteur Mohamed Rachidi, *Professeur à la Faculté de la Chari'a à l'Université de Djakarta (Indonésie)*	Membre
4 -	Touhami Negra, *Professeur à l'Université de la Zeïtouna (Tunisie)*	»
5 -	Docteur Souleiman Atès, *Professeur à la Faculté de Théologie de l'Université d'Ankara (Turquie)*	»
6 -	Docteur Saïd Chibane, *Professeur à l'Institut des Sciences Médicales à l'Université d'Alger*	»
7 -	Docteur Kheïr Allah Assar, *Professeur à l'Université de Annaba (Algérie)*	»
8 -	Docteur Mohammed Arkoune, *Professeur à la Nouvelle Sorbonne (France)*	»
9 -	Docteur In'âmullah Jân, *Professeur à l'Université Alqâid Al'A'dam de Karachi (Pakistan)*	»
10 -	Cheïkh Ahmed Hammani, *Président du Conseil Supérieur Islamique (Algérie)*	»

Après avoir entendu les conférences et les débats concernant le premier point inscrit au programme ainsi que les questions posées par les étudiants,

— considérant la place qu'occupe la région des Aurès dans l'Histoire de l'Algérie, avant et après la conquête musulmane,

— considérant sa position géographique importante qui en a fait un trait d'union entre le Nord et le Sud d'une part, l'Est et l'Ouest d'autre part, et un foyer de résistance à travers l'Histoire depuis les temps anciens jusqu'à nos jours,

— considérant que les vestiges de « Tobna » 2ᵉ capitale islamique en « Ifriquia » et que les sépultures de l'illustre conquérant Okba Ibn Nafâa et de ses compagnons se trouvent dans cette région,

— considérant le lien étroit entre l'Histoire de la région de celle des Romains et des Byzantins, la commission recommande :

1°) D'œuvrer en vue de ressusciter le patrimoine local de la région des Aurès par une recherche et une vulgarisation des documents historiques, graphiques et archéologiques, dans le cadre de la reformulation de l'Histoire de l'Algérie à la lumière de leur contenu.

2°) Mettre en évidence les vertus de la population et les aspects de leur vie sociale et faire connaître les figures illustres de la région ainsi que le rôle qu'elles ont joué dans son Histoire et son évolution intellectuelle et culturelle.

3°) Faire connaître les évènements décisifs et mettre en relief le rôle joué par Okba Ibnou Nafâa, Moussa Ibnou Noceir, Tarek Ibnou Ziad et autres dans l'implantation de l'Islam et de sa civilisation dans cette région.

4°) Accorder au mausolée d'Okba l'importance qu'il mérite en tant que monument islamique le plus ancien et le plus grand dans notre pays, le restaurant, l'agrandissant et lui adjoignant une institution scientifique en hommage à la mémoire du grand martyr.

5°) Accorder de l'intérêt à la résistance armée des populations de la région à travers l'Histoire contre les envahisseurs, notamment pendant les périodes romaines et byzantines, et réécrire l'histoire de cette résistance en s'appuyant sur les nombreux documents et vestiges qui se trouvent dans les bibliothèques et musées du sud-Ouest de l'Europe, notamment en Italie.

6°) Accorder toute l'importance voulue aux événements de la grande Révolution du 1ᵉʳ Novembre 1954 dont la première étincelle a jailli de cette région en recueillant des témoignages de la bouche même de ceux qui ont vécu ces événements et qui sont encore en vie afin de mettre en relief l'importance du passé et du présent de la région des Aurès.

R E C O M M A N D A T I O N S

DU XII^{e} SEMINAIRE SUR LA PENSEE ISLAMIQUE

(Premier Point)

RECOMMANDATIONS DE LA PREMIERE COMMISSION

La première commission chargée d'étudier le premier point de l'ordre du jour du Séminaire s'est réunie en présence de ses membres :

— Monsieur El-Mehdi El-Bouabdelli, chargé de mission, membre du Conseil Supérieur Islamique et du Centre National des Etudes Historiques, Alger.

— Docteur Yahia Bouaziz, professeur d'Histoire à l'Institut des Sciences Sociales. Université d'Oran.

— Docteur Wilferd Madelung, professeur à la Section des Langues et des Civilisations du Proche Orient, Université de Chicago.

— Docteur Brahim Harakat, professeur à la Faculté des Lettres, Université Mohamed V, Rabat (Maroc).

— Monsieur Mustapha Aslaoui, membre du Conseil Suprême, Ministère de la Justice, Alger.

— Professeur Abderrahmane El-Aggoun, professeur, Ministère de l'Education, membre du Conseil Supérieur Islamique, Alger.

— Docteur Abderrachid Mostefai, professeur à l'Université d'Alger.

— Madame Assila Fatiha, étudiante à la Faculté des Sciences Biologiques, Université de Constantine.

— Monsieur Abdelkrim Boulahbib, étudiant à l'Institut des Sciences Sociales, Université de Constantine.

5°) Ayant passé en revue les relations de l'Algérie avec le reste du monde, à travers le passé, en dénonçant les manipulations et les falsifications, en rétablissant, le cas échéant, la vérité avec méthode, objectivité et probité, il vous est apparu, en fin de compte, que la place qui lui revient dans l'Histoire, à travers les âges, est enviable.

Notre gratitude vous est acquise, de même qu'à Monsieur le Wali et ses collaborateurs, Monsieur le Commissaire du Parti et les Cellules locales, pour les soins et la bienveillance dont les uns et les autres se sont ingéniés à entourer de bout en bout notre présent Séminaire.

Ville et habitants d'Arris, combien avons-nous évoqué à votre contact les martyrs et les bombes, les combattants et les envahisseurs.

Mais gloire est restée en définitive au peuple et aux cîmes légendaires !

Et vous, Ichmoul et Barika, qui n'avaient pas hésité à lever les armes, hommes et femmes, isolément ou en groupe, avec cet esprit de sacrifice et d'abnégation hérité de vos ancêtres !

Oulad Moussa, Medghacen, Tobna ! Combien le pèlerinage à vos sources est, en vérité, revigorant et immunisant !

Me tournant maintenant vers nos étudiants, je les convie à l'avenir à plus de discipline afin que les vagabondages inconsidérés dans les couloirs ne deviennent pas une habitude et une mode. Qu'ils respectent aussi avec plus de scrupules le bien d'autrui pour que ne se répètent pas des incursions à couleur de rapines, indignes d'étudiants et plus encore d'étudiants se disant musulmans (1).

Autrement nous serions contraints, bien malgré nous, de recourir à la manière forte, en la faisant précéder, toutefois, d'un avertissement salutaire.

Salut et à nous revoir au cœur du Sahara, au pays des palanquins et des tapis, sur la Route de l'Unité Africaine qui efface les clivages et les différences ; auprès des hommes masqués et de leurs gravures rupestres, au fief des méharis qui sillonnent le désert telles des vedettes sur l'immensité des mers. Vers les auteurs de prodiges, au pied de ces rocs indomptables où tant de conquérants se sont brûlé les ailes, à la rencontre des hommes tolérants et ouverts sauf pour le prosélytisme missionnaire et autres menées subversives, à Tamanghast (2) du Hoggar, capitale des Touaregs !

Que le salut de Dieu et sa bénédiction soient sur vous.

(1) Un seul cas s'est produit à Ghoufi . une incursion dans un jardin.

(2) Orthographe exacte de Tamanrasset, selon la prononciation locale, qui, seule, fait foi.

Il est clair que vous vous êtes posé ces questions dans une démarche qui s'est efforcée de cerner autant les maux dont elle est accablée que les tentatives de tout bord visant à sa désintégration, et d'en préconiser la parade et les remèdes.

Votre opinion unanime a été que la famille était coupable envers elle-même et qu'elle creusait sa propre tombe en se confinant dans une attitude inconsciente et passive !

N'est-elle pas la première cellule et le noyau de la nation, la protectrice et la garante des générations ? Son effondrement ne constituerait-il pas le mal suprême ? Ne s'agirait-il pas là, d'un complot contre la base de toute société et de la communauté humaine tout court ?

Comble d'imposture : c'est au nom de la liberté que l'on souhaite sa mort, à travers une campagne de dénigrement et de sape à l'échelle mondiale, persistante et insidieuse.

4°) L'Université, avez-vous dit, est enseignement et éducation et non point obscurantisme et abêtissement. Creuset où se forgent les vertus de pondération et de discipline, elle se doit de faire front au désordre qui tend à être le critère et la mode et ne vise pas moins qu'à son éclatement et à son écroulement.

Pour avoir suivi les traces de son évolution depuis Babylone, vous avez convenu — non sans tristesse — que le savoir qu'elle prodigue de nos jours fait songer de plus en plus à ces fleurs fânées et flétries qui ont perdu éclat et parfum.

Il vous incombe d'y traquer le divertissement et le jeu, la paresse et l'oisiveté, la dissolution des mœurs aussi bien dans l'amphithéâtre que dans le campus, en toute fermeté et autorité, pour redonner à l'Université sa vocation première et son rôle primordial dans la formation intellectuelle et l'édification.

Il est temps de jeter un cri d'alarme salutaire, d'appeler à la vigilance la plus instante, même si cela peut susciter vacarme et protestation.

Que l'Université revienne au plus vite aux normes et aux vertus qui ont fait sa grandeur et sa fierté et que soient éloignés de son enceinte les fauteurs de troubles et les brebis galeuses.

Qu'elle redevienne, à travers le monde, le guide, l'éclaireur et le maître ! Son devoir est plus que jamais de défendre, avec une persévérance et un soin accrus, les valeurs qui doivent la réintégrer, sans défauts et sans taches, dans sa vocation ennoblissante de rempart et de recours.



« UN CRI D'ALARME » (1)

par

Mouloud Kassim NAIT-BELKACEM,
ministre auprès de la Présidence de la République, chargé des Affaires Religieuses

Au Nom de Dieu, le Clément, le Miséricordieux.

Eminents Professeurs,

Vous voici arrivés à la fin de vos travaux au cours desquels vos efforts et votre sollicitude constante auront tendu — dans la pleine conscience de votre mission — non pas à ranimer de vains et vieux regrets, mais, tout contraire, à entonner un véritable hymne à la vie !

1°) En dévoilant à l'Aurès son passé, en jetant l'éclairage sur ses annales oubliées, vous avez tenu à en fouiller le moindre chapitre pour arriver à la conclusion que les riches heures de cette contrée, tout en constituant sa fierté, pouvaient lui être, à l'occasion, un précieux stimulant.

2°) Vous avez proclamé que la science corroborait la religion et qu'elle en était l'alliée dans une symbiose où chacune conservait néanmoins sa fonction et son rôle spécifiques. Se soutenant mutuellement, chacune d'elles serait incomplète sans l'apport de l'autre et les liens qui les unissent sont étroits au point que la science sans la religion ne peut être qu'errance, comme la religion sans la science ne peut être que légende !

3°) Vous vous êtes penchés sur le problème de la famille pour savoir si elle surmonterait sa crise actuelle ou si elle courait à sa perte. Quels lendemains attendent cette institution ? Quel sera son destin ?

(1) Allocution de clôture du 12e Séminaire sur la Pensée Islamique, à Batna le 14 septembre 1978.

En dépit du grand soutien dont a bénéficié la résolution, elle fut votée devant la commission des affaires étrangères où elle resta lettre morte. L'importance du débat et de la résolution ne réside pas dans l'accomplissement d'un changement de la politique officielle, mais plutôt dans la reconnaissance par un grand nombre de représentants du peuple américain que la politique des Etats-Unis doit être favorable à l'indépendance du peuple algérien et de tous les peuples sous domination coloniale. Il faut rappeler que notre gouvernement n'est pas un gouvernement ministériel dans lequel les politiques d'une administration peuvent être changées par le congrès ou bien ce dernier peut provoquer la chute de l'administration De ce fait, la résolution du Sénateur Kennedy, même si elle était passée, n'aurait pas pu directement influencer la politique du Président Eisenhower et du Secrétaire d'Etat Dulles. Néanmoins, nous avons bien remarqué un imperceptible changement de ton dans les documents qui ont suivi les débats car il y a eu apparemment un durcissement d'attitude envers la France. Il y a eu également des signes d'approbation marqués dans les efforts ultérieurs du Président De Gaulle pour trouver une solution satisfaisante à la " situation algérienne " surtout si elle devait aboutir à l'indépendance de l'Algérie.

Cela avait dû être une satisfaction particulière pour le nouveau Président John F. Kennedy que d'avoir été lui-même au pouvoir à la date de l'indépendance de l'Algérie, le 5 Juillet 1962, et en tant qu'avocat de longue date du mouvement d'indépendance, il fut l'un des premiers à reconnaître le nouveau gouvernement et le nouvel Etat.

Cinquièmement enfin, il faut noter la prise de conscience du fait que la France a toujours été et reste l'alliée des Etats-Unis, car ce fut la France qui nous a aidés dans notre propre guerre révolutionnaire et nous ne devions pas par conséquent troubler cette longue amitié en contestant son refus infléxible d'accorder l'indépendance au peuple algérien. Il est à remarquer que les Etats-Unis, que ce soit officiellement ou non, n'ont pas cessé de condamner l'effusion de sang et les répresailles qui ont caractérisé à ce point votre combat et les représentants officiels ont maintes fois exigé l'arrêt de la guerre afin qu'une solution juste et pacifique puisse être trouvée entre le gouvernement français et les représentants élus du peuple algérien.

En opposition avec la politique officielle de l'administration que je viens d'esquisser, certains membres du Sénat américain étaient opposés aux agissements et attitudes des Etats-Unis et de la France. L'un de ces critiques résolus était l'ancien sénateur et défunt président John F. Kennedy. Le 2 Juillet 1957, deux jours à peine avant la célébration de notre propre indépendance, le sénateur Kennedy déposa une résolution demandant un changement de la politique des Etats-Unis vis-à-vis de la Révolution algérienne annonçant ainsi un débat très long et très intéressant au sein du Sénat. Dans son allocution (que je regrette ne pas pouvoir vous lire ici aujourd'hui, faute de temps) le Sénateur Kennedy a déclaré que vu les moyens révolutionnaires qui ont servi de base à la constitution des Etats-Unis, notre politique devra consister à soutenir l'indépendance du peuple algérien et non à l'entraver, au risque de voir cette politique entraîner la perte de l'amitié de la France.

La France, a-t-il ajouté, en déployant des troupes de quatre cent mille hommes en Algérie et en dépensant d'énormes sommes d'argent et de matériel de guerre dans ses tentatives de réprimer la révolte, était elle-même en train d'affaiblir l'alliance atlantique si bien que le soutien des Algériens par les Etats-Unis ne pouvait en lui-même porter un plus grand préjudice à l'OTAN.

Avec l'aide de quelques autres membres du Sénat, Monsieur Kennedy déposa sa résolution dont voici un extrait :

« Le Président et le Secrétaire d'Etat sont, par la présente, autorisés et vivement encouragés à apporter la contribution des Etats-Unis aux efforts déployés, que ce soit par l'intermédiaire de l'OTAN ou par celui des bons offices du Premier Ministre tunisien et du Sultan du Maroc, pour parvenir à une solution qui reconnaîtra la personnalité souveraine de l'Algérie et établira la base pour un règlement mutuel avec la France et les pays voisins ».

En tenant compte de tous ces éléments, il nous est donc possible d'examiner brièvement quelles semblent être les cinq raisons majeures qui ont poussé le gouvernement des Etats-Unis à apporter son aide à la France dans ses efforts pour mettre fin à la guerre de libération algérienne et maintenir son autorité sur le pays.

Premièrement, avec l'aide des Etats-Unis et de la Grande-Bretagne, la France était devenue l'un des membres les plus importants et l'un des défenseurs les plus fermes de l'Organisation du Traité de l'Atlantique Nord, une organisation destinée à préserver l'Europe de l'Ouest de l'empire communiste et des visées de l'Union Soviétique. On considérait que si les Etats-Unis venaient à appuyer ou à encourager les nationalistes algériens, ce serait un affront pour la France et par conséquent cela risquerait d'affaiblir sérieusement l'alliance de l'OTAN.

Deuxièmement, il a été réaffirmé à maintes reprises par le représentant américain aux Nations-Unies et en France même que le conflit franco-algérien était une affaire strictement intérieure étant donné que l'Algérie avait été absorbée au sein de la métropole française. Il y avait deux problèmes : le premier était qu'un pays ne devait pas s'ingérer dans les affaires intérieures d'un autre Etat (surtout si cet Etat était une puissance amie). Le second était que la France avait souligné l'importance qu'avait l'Algérie pour elle sur les plans économique et stratégique.

En conséquence, dans le cas où la France serait forcée de quitter l'Algérie, quelle y soit obligée par les Algériens eux-mêmes ou en raison d'une pression extérieure, elle en sortirait matériellement affaiblie, ce qui affaiblirait l'alliance Atlantique

Troisièmement, un grand nombre de hautes personnalités officielles s'inquiétaient sérieusement car dans le cas où la France aurait été obligée de se retirer de l'Algérie, cette dernière, n'ayant pas les moyens militaires ou psychologiques d'assurer sa propre protection, se retrouverait sous l'influence de l'Union Soviétique ou du bloc communiste collectif. Et ceci était inadmissible dans l'optique de la "politique d'endiguement", lorsqu'on sait l'importance stratégique de l'Algérie dans le bassin méditerranéen.

Quatrièmement, les quelques un million et demi de français chrétiens qui résideraient en Algérie parmi une population musulmane bien plus importante suscitaient une inquiétude réelle, quoique sans fondement. Bien que ce ne soit pas explicitement déclaré dans les documents actuellement disponibles, il semble y avoir un préjugé bien fâcheux dans la fausse croyance selon laquelle il n'est pas possible que les Chrétiens et les Musulmans cohabitent et collaborent dans la cordialité.

Mes remarques sont par conséquent basées sur des documents incomplets. Mais je ne crois pas que les documents qui seront publiés à l'avenir viendront contredire ce que j'avance aujourd'hui.

À l'époque de la Révolution algérienne, il y avait aux Etats-Unis une faible connaissance ou peu de compréhension au sujet de l'Algérie ou de la situation algérienne. Ceci semble avoir été particulièrement vrai parmi les plus hautes personnalités du gouvernement aussi bien au sein de l'Exécutif que du Congrès.

En voulant simplifier au maximum la situation, j'attribuerai ce manque de compréhension et d'intérêt à deux facteurs principaux : premièrement, avant la seconde guerre mondiale, les Etats-Unis étaient un pays isolationniste témoignant peu d'intérêt dans les événements extérieurs à la sphère occidentale et ne souhaitant pas être impliqués dans les affaires extérieures, et, deuxièmement, l'Algérie avait été partie intégrante de l'empire français pendant plus d'une centaine d'années et les Etats-Unis se souciaient peu des territoires colonisés par les puissances étrangères amies.

Avec leur entrée en guerre en 1941, les Etats-Unis se sont vus obligés d'occuper un rôle de puissance mondiale, tâche pour laquelle leurs dirigeants n'étaient pas préparés. Lors du déclenchement de la guerre de libération, il y avait quelques citoyens qui de par leur ferme conviction que les peuples opprimés ont droit à la révolte contre le régime colonial, estimaient que le peuple algérien devait s'autodéterminer. D'autres étaient horrifiés par les pratiques répressives des colonialistes français et des forces armées qui tentaient de réprimer le nationalisme algérien. Il est impossible de juger quel a été l'effet que ces individus et leurs compte-rendus avaient eu sur le peuple américain.

On peut toutefois dire sans hésitation qu'ils n'eurent aucune espèce d'influence sur les principaux responsables des Etats-Unis. En 1952, le général Dwight D. Eisenhower, l'ancien commandant en chef des Forces Alliées durant la guerre et héros national, fut élu président des Etats-Unis. Durant la plus grande partie de son administration, John Foster Dulles, un homme très intelligent mais peu clairvoyant, avait servi comme secrétaire d'Etat (ministère des Affaires Etrangères). Par inclinaison et pour raison de santé, le président Eisenhower a dû confier la poursuite des affaires étrangères à Monsieur Dulles.

Sans nul doute, les deux hommes étaient également convaincus de la nécessité d'aider la France à reprendre son rang de puissance mondiale et, objectif tout aussi important, d'endiguer l'Union Soviétique et le communisme international. Cette "politique d'endiguement" était prépondérante dans les relations extérieures des Etats-Unis au cours des années 1950 et certainement un facteur déterminant dans les relations des Etats-Unis avec les peuples du Proche-Orient et d'Afrique du Nord.



LA POLITIQUE DES ETATS-UNIS D'AMERIQUE A L'EGARD DE LA REVOLUTION ALGERIENNE

par le Professeur Charles L. GEDDES
Directeur de l'Institut des Etudes Islamiques, Université de Denver (Colorado) (U.S.A.)

La caractéristique la plus dominante de la politique extérieure des Etats-Unis depuis la seconde guerre mondiale a consisté peut-être en son illogisme Cet illogisme a été particulièrement notable dans leurs relations avec les peuples et pays du Proche-Orient et d'Afrique du Nord. Ainsi nous trouvons, selon des informations privées, que les Etats-Unis étaient impliqués en 1952 en appuyant la révolte menée par le groupe des officiers libres en Egypte, mais, seulement six années plus tard, ils refusaient d'accepter le principe de l'autodétermination au peuple algérien.

Etant donné que les Etats-Unis se sont constitués à partir d'une révolution contre le joug colonial, il est évidemment étonnant qu'ils n'aient pas accepté le même principe en ce qui concerne votre propre lutte contre la domination étrangère.

Le but de ce bref exposé est d'examiner cette attitude. Durant des années, j'ai été particulièrement intéressé par les fluctuations de la politique et de l'attitude des Etats-Unis (et ici je fais allusion simplement à la politique officielle) envers les pays du Proche-Orient.

L'un des thèmes sélectionné cette année pour le Séminaire sur la Pensée Islamique — Les relations entre l'Algérie et le reste du monde avant 1962 — m'a finalement poussé à examiner la politique des Etats-Unis vis-à-vis de la Révolution algérienne. Je dois vous informer qu'à cause de la " loi des vingt cinq ans " (avant la période d'expiration durant laquelle la plupart des documents ne peuvent être consultés), mon enquête a été essentiellement basée sur des documents publiés par le Département U. S. et les journaux du Congrès.

(1) voir : H. Rashdall : **Les Universités en Europe au Moyen-Age.** Ed. F.M. Powicke and A.B. Emden. Vol. 1 (Oxford 1936). A.B. Cobham : **Les Universités du Moyen-Age (Londres 1975).**

(2) revoir : P. Kibre : **Les nations dans les Universités du Moyen-Age** (Cambridge mass... 1948).

(3) C'est-à-dire le nom sous lequel étaient connues les Universités européennes avant qu'elles ne fussent appelées universités. Voir : Rashdall : **Les Universistés en Europe au Moyen-Age** (source citée au n° 1).

(4) Abdallah Fayadh : **Les diplômes d'Etudes chez les Musulmans** — Bagdad 1967, pp. 37, 105, 110.

(5) Voir la source précédente, pp. 21 - 23.

(6) Comparer Rashdall : **Les Universités européennes au Moyen-Age.** (source citée au n° 1). Tome 1, pp. 221, 231, 278, 284.

(7) Rashdall : La source précédente. Tome 1, p. 353

(8) voir A. Guillaume : **Philosophie et théologie dans le patrimoine de l'Islam** (1re édition). Ed. T. Arnold and A. Guillaume (Oxford 1931) **p. 244.**

(9) Guillaume : source précédente. p. 244, commentaire n° 1.

(10) revoir : L. Halphen : **A travers l'histoire du Moyen-Age** (Paris 1950), p. 304. **Encyclopédie britannique** (11me édition - 1910). S.V. Bachelor.

(11) Bibliothèque de l'Université de Cambrige. Manuscrit nw OO 115.

(12) Bibliothèque Souleimanïa. Recueil Lalili. Manuscrit n° 1765.

(13) Bibliothèque Populaire. Manuscrit n° 5068. Revoir l'article de Salah Eddine el-Moujid **diplômes oraux dans les vieux manuscrits**, publié dans la revue l'Institut des Manuscrits Arabes (1955), p. 245. Voir également G. Vajda : **Certificats de lecture et de transmission dans les manuscrits arabes de la Bibliothèque Nationale de Paris** (Paris 1956), p. 48.

(14) La Bibliothèque Souleimanïa. Recueil de Faidallah Manuscrit n° 543. H. Reiter a publié le texte de ce diplôme dans son artice : **Autographs in Turkish librairies** in Oriens. VI (1953) pp. 84 - 86.

(15) voir mon article (en association avec mon collègue M.J.L. Young) qui contient le texte complet de ce diplôme avec sa traduction en langue angaise : **An Early Eighteenth - century Ijazah Issued in Damietta** in le muséon vol. 87 (1974), pp. 445 - 465.

16) Salah Eddine El-Mounjid : **Les diplômes oraux dans les vieux manuscrits** (source citée au nw 13) p. 232. Comparer également : G Vajda · **L'encycopédie de l'Islam** (2me édition) S.V. Ijâza,

tois dont l'une avant la date précitée. Ecrit par Zeid Ibn El Hassan Ibn Zeid El Hindi en l'an 575. «Louange à Dieu, que sa bénédiction soit sur la plus généreuse de ses créatures El-Moustapha».

Le manuscrit du livre « Les écoles des traditions » de Hamd El Khattabi, conservé à la bibliothèque Faidh Allah d'Istamboul (14) comprend un diplôme daté de 556 (1160 de l'ère chrétienne) où l'on retrouve l'expression "bihaqi riouayatih". Avec lecture de Abou El Fadhl Ahmed Ibn Salah El Djili en 556 à Baghdad avec l'autorisation d'Erraouyani précité, avec *le droit de transmission* de El Balkhi précité également qui rapporte de Mossannif...".

Le manuscrit n° 591 conservé à la bibliothèque Ghazi Khesrou Bek de Sarajevo (Yougoslavie) comprend le diplôme de Ibn Hammat Edimechki qui lui a été délivré par le juriste égyptien Ibn El Mait le 10 du mois de ramadhan année 1134 (1721 de l'ère chrétienne). On y retrouve l'expression "bihaqi erriouaya" comme suit :

"Je la rapporte de mes maîtres notamment le savant de son époque, l'unique de son temps. Le sceau des chercheurs, Ali Ibn Mohammed Echebramelsi El Malik avec le droit de transmission de Nour Ali El Kirafi qui rapporte de Jalal Essiouti".

Il apparaît de ce qui précède que le plus ancien diplôme connu par nous et qui contient l'expression "bihaqi erriouaya" remonte à l'année 1147 de l'ère chrétienne (manuscrit de Cambridge) alors que le terme "baccalaurions", qui désigne le titulaire du diplôme universitaire, n'a pas commencé à être usité en Europe, comme nous l'avons dit, avant l'année 1231. Il est donc possible que le mot baccalauréat, utilisé dans les universités européennes, soit dérivé de l'expression arabe "bihaqi erriouaya" qui a été employée dans les diplômes d'études islamiques depuis 1147 au moins. Si nous considérons cette possibilité parmi les autres traits de ressemblance importants, sur lesquels nous avons attiré l'attention précédemment, il est clair que les universités européennes ont été créées sur le modèle des universités islamiques qui les ont précédées.

Les écrivains européens ne se sont pas beaucoup intéressés à l'étude des diplômes d'études islamiques. Ils n'ont pas, non plus, accordé à celle-ci l'intérêt qu'elle mérite (16). Il est possible que l'approfondissement de l'étude de cette partie importante de documents fournira une lumière sur les relations entre les établissements d'études supérieures islamiques anciens et leurs semblables en Europe chrétienne au Moyen-Age. Il prouvera de même que les établissements d'études islamiques ne furent pas seulement les prédécesseurs de ceux d'Europe mais également des modèles originaux sur lesquels ont été tracés les universités européennes chrétiennes.

En conclusion et sans vouloir prétendre que notre exposé soit parfait, nous souhaitons qu'il fut un commencement et un appui en vue d'une solution des problèmes concernant les relations entre les établissements d'études supérieures islamiques et chrétiennes au Moyen-Age.

L'expression «bihaqi erriouaya» est reproduite deux fois dans un diplôme situé dans un autre manuscrit conservé à Islamique (12), se rapportant également au livre «Saket Ezend» manucrit en 541 (1147 de l'ère chrétienne), voici le texte de ce diplôme :

" J'avais écouté entièrement « Saket Ezend » présenté par notre maître l'imam Dahir Eddine Ali Ghaleb Mohammed Ibn Moubarek Ibn Mohammed Ibn Mohammed Ibn Mimoun". Cette copie a été honorée par la lecture de Ali El-Kassim Ali Ibn Mohammed Ibn Brahim qui a écrit pendant le mois de radjeb, année cinq cents avec le droit de transmission du Chérif Abou Maâmar Ibn Ahmed Ibn Abdelaziz Ibn Maâmar El-Ansari qui rapporte de Abou Zakaria Yahia Ibn Ali Etabrizi qui rapporte d'Abou El Ala Ahmed Ibn Abdallah Ibn Souleiman El Maâri. J'ai transcrit ensuite la catégorie d'écoute de notre maître Dahir Eddine Abi Ghaleb Mohammed Ibn Moubarek Ibn Mohammed Ibn Mohammed Ibn Mimoun.

La copie du cadi Baha Eddine Abi Ibrahim Ibn Abi El Yousr, a été honorée par ma transcription. On écouta entièrement « Saket Ezend » présenté par le Chérif Abou Maâmara Moubarek Ibn Ahmed Ibn Abdelaziz Ibn, Maâmar El-Ansari avec *le droit de transmission* de Abi Zakaria Yahia Ibn Ali Etabrizi avec lectures de l'éminent Imam Abou Mohammed Abdallah Ibn Ahmed Ibn Ahmed Ibn Khacheb, de l'éminent Imam Abou El Marhaf Nasr Ibn Mansour Ibn El Hassan, de l'éminent Imam Abou El Marhaf Nasr Ibn Mansour Ibn El Hassan Ibn Jaouchen Ennamiri et l'éminent Abou Ghalib Mohammed Ibn Mohammed Ibn Mimoun. Coordinateur de l'écoute Ibn Youssef Ibn El Hassan Ibn Ali Ibn Youssef El-Mahouli. Ceci se passa dans plusieurs assemblées dont la dernière eut lieu le samedi 15ᵉ jour du mois de doul kaâda année 542. Ecrit par Mohammed Ibn El-Hassan Ibn Mohammed Ibn Ibrahim Ibn Mohammed, auteur de cette copie, connu sous le nom de Ibn El Karim El Baghdadi. Louange à Dieu seul, que sa bénédiction soit sur notre Seigneur le Prophète et sur sa famille".

Le manuscrit du livre de Sibaouih, conservé dans la bibliothèque publique de Paris (13) fut transcrit par Zeid Ibn El Hassan Ibn Zeid El Kindi en 595 (1198 de l'ère chrétienne) comprend un diplôme contenant l'expression «bihaqi erriouaya» dont voici le texte :

«Au nom de Dieu de bonté miséricordieux. Il écouta entièrement le livre de Sibaouih puis le lut au Cheikh, le respectable Abou El Hassan Mohammed et à son frère, le fils généreux Abou El Hissein Ismail, enfants du cheikh, l'imam, le grand savant Abou Jaâfar Ahmed Ibn Ali Ibn Ismail El Kortobi, que Dieu soit satisfait d'eux. Leur père n'écouta que le peu que j'ai autorisé et qui est enregistré dans la catégorie d'écoute située à la fin du livre. Ceci en vertu de mon droit de transmission émanent de mon maître l'imam, le savant Abou Mohammed Abdallah Ibn Ali Ennahoui El Makasri avec les citations mentionnées dans la catégorie d'écoute et qui remontent à Sibaouih. Je l'avais écouté chez lui deux

Guillaume poursuit en indiquant que le mot "baccalaurions" est probablement, à l'origine, un terme arabe radical qui a été altéré à la suite de sa transcription en lettres latines comme "bihaqi erriouaya" c'est-à-dire "le droit d'enseigner occroyé par un tiers". Cette expression se rapproche du latin en ce qui concerne le sens et même la prononciation. Mais Guillaume continue à reconnaître qu'il n'a précédemment utilisé ce terme dans aucun ouvrage arabe. C'est pour cela que sa supposition demeura, jusqu'à présent, une estimation pieuse. Par ailleurs, il n'échappe pas que beaucoup de mots altérés sont passés dans la langue latine et dans les langues parlées d'Europe au Moyen-Age. Beaucoup sont encore utilisés de nos jours par ces langues :

chèque	صك	amiral	أمير البحر
tarif	تعريف	arsenal	دار الصناعة
tare	طرح		

Il nous est possible de montrer dans ce qui suit qu'un terme arabe, correspondant au mot baccalauréat, a été utilisé, dans la documentation arabe, depuis la moitié du XII^{e} siècle au moins et ce, pendant une période qui est peut être inférieure à six siècles : diplôme (d'études) mot auquel il est permis d'attribuer le sens d'autorisation d'enseigner les matières, d'une manière globale ou détaillée, dont l'enseignement a été permis par l'autorité qui a délivré le titre.

Nous avons découvert, dans un manuscrit conservé dans la bibliothèque universitaire de Cambridge (11), au cours de notre étude des différents modèles de diplômes d'études, anciens et modernes, en compagnie de notre collègue Michael Young, l'expression "bihaqi erriouaya". Guillaume l'avait proposée comme étant l'origine du mot baccalauréat, dans un diplôme remontant à 542 de l'Hégire (1147 de l'ère chrétienne) suivi d'un texte du livre de Abou El Ala El-Maâri « Sakt Ezend ». Voici le texte de ce diplôme : "On écouta le livre de Abou El Ala El-Maâri, intitulé « Saket Ezend » présenté par le Chérif, l'éminent, l'imam unique, le savant Abou Maâmar Moubarek Ibn Ahmed Ibn Abdelaziz Ibn Maâmar El Ansari avec *le droit de transmission* de Abou Zakaria Yahia Ibn Ali El-Khatib Etabriei qui rapporte de Abou El-Ala El-Maâri avec la lecture du cheikh, l'imam, le savant, Abou Mohamed Abdallah Ibn Ahmed Ibn El-Khachab Ennahoui, que Dieu gratifie de sa puissance son ami l'Emir, le savant Abou El Marhaf Nasr Ibn Mansour Ibn El Hassan Ibn Jaouchen Ennamiri, que Dieu le comble de savoir, le président Abou Ghalile Mohammed Ibn Moubarek Ibn Mohammed Ibn Mohammed Ibn Mimoun et le coordinateur de l'écoute Ali Ibn Youssef Ibn El Hassan Ibn Ali Ibn Youssef Ibn El Mahouli. Ceci se passa dans des assemblées dont la dernière eut lieu le samedi, 15^{e} jour du mois doul kaâda année 542. Louange à Dieu, que sa bénédiction soit sur notre Seigneur le Prophète et sur sa famille. Ceci a été reconnu et noté dans l'histoire par Moubarek Ibn Ahmed Ibn Abdelaziz Ibn Maâmar".

le domaine de la transmission des connaissances islamiques à l'Europe, nous remarquons que l'importance du rapprochement des systèmes éducatifs musulman et chrétien devient de plus en plus sensible. En effet, l'Espagne musulmane était le centre éducatif sensible. En effet, l'Espagne musulmane était le centre éducatif et culturel le plus proche de l'Europe au Moyen-Age. Après la prise de Tolède, en 1085, par les Chrétiens, l'Espagne est devenue une ouverture importante par laquelle transitaient les œuvres scientifiques islamiques vers l'Europe chrétienne.

A Tolède, l'évêque Raymond (décédé en 1251) a créé une école chargée de traduire les livres arabes en langue latine (7). C'est ainsi que les trésors des livres arabes, dans les domaines de la philosophie, de la médecine, etc... furent transférés au latin afin de faciliter aux professeurs et étudiants européens leur utilisation dans les universités chrétiennes. Il n'est point étonnant que les professeurs chrétiens aient pris l'Espagne, avec les livres d'études, quelques traits propres à l'organisation des universités islamiques. Une question se pose cependant. Comment confirmer cette supposition ? Ou autrement, comment prouver que ce qui a été considéré depuis longtemps comme une simple série de coïncidences est une série d'emprunts culturels qui a vraiment eu lieu ?

Il est permis de supposer que quelques styles anciens du système éducatif islamique ont été transférés en Europe chrétienne par l'intermédiaire des étudiants chrétiens se rendant à Paris ou à Oxford après avoir accompli leurs études comme : Adelard of Bath, Michael Scot, Robert or Ketton etc... Ces étudiants n'ont, malheureusement, laissé aucun document ou note réservés à l'enseignement islamique (8). Ils ont orienté leurs efforts, dans leurs écrits, vers le contenu de la matière qu'ils ont étudiée dans la traduction latine des livres arabes.

L'orientaliste anglais Alfred Guillaume, pense, dans son livre «Patrimoine de l'Islam » (The Legacy of Islam) imprimé à Oxford en 1931, qu'il est possible de trouver une solution au problème des relations entre les universités islamiques et chrétiennes, si on parvient à expliquer convenablement l'origine du terme "baccalarens" ou "baccalaurens" utilisé, au Moyen-Age, pour désigner la personne munie du titre universitaire, "baccalauréat" (9). En effet, ce terme a été utilisé, dans ce sens, pour la première fois, à l'université de Paris, au XIII^{e} siècle, à l'occasion de l'organisation des grades universitaires, parue, en 1237, dans le décret papal "parens scientiaren", pris par Grégoire IX (10).

Il est possible que le même terme ait été utilisé dans la langue parlée avant cette date. Guillaume dit encore, dans son article, que la dérivation de ce terme contenue dans le dictionnaire anglais d'Oxford (Oxford english dictionnary) ne peut être prise au sérieux. En effet, essayant, en vain, de rattacher l'origine du mot au latin, l'auteur déclare, dans ce dictionnaire, que le terme "baccalauréat" est peut être issu du mot latin "vacca" qui signifie vache.

que ces amples robes étaient utilisées, depuis longtemps, dans les centres intellectuels islamiques pendant le Moyen-Age. Un autre trait de ressemblance est que certains termes académiques utilisés dans les universités d'Europe ressemblent énormément à ceux qui ont été précédemment utilisés par les universités islamiques. L'appellation européenne d'origine de l'université "studium général" (3) est probablement la traduction directe de l'expression arabe "assemblée générale" ou "cours organisés" ceci en plus des cours gratuits pour étudiants qui avaient leur penchant dans les universités islamiques.

Parmi ce qui mérite d'être encore cité, toujours dans le cadre du rapprochement entre les centres éducatifs chrétiens et les centres musulmans qui les ont précédés, ce qu'on appelle "le voyage pour la recherche de la science" qui était une tradition connue du système éducatif musulman bien avant qu'elle ne fasse partie de la vie intellectuelle des pays chrétiens.

Les étudiants musulmans ne se contentaient pas de s'inscrire dans un établissement désigné pour accomplir leurs études. Ils ne pouvaient supposer non plus qu'il y eut dans ces établissements un seul professeur spécialisé dans un domaine éducatif donné. C'est pour cela que le déplacement d'un centre d'études à un autre est devenu un des traits reconnus de la vie intellectuelle en pays islamique (4).

Le déplacement des étudiants d'une ville à une autre, qui finissait toujours par l'obtention d'un diplôme, fut, peut être, à l'origine des plus importantes traditions pédagogiques du système éducatif chez les Musulmans. Le diplôme était une sorte d'autorisation présentée sous forme de document permettant à l'étudiant de transmettre les connaissances que ses professeurs lui ont données. Ainsi ces derniers accordaient ce diplôme aux étudiants à qui ils permettaient de transmettre ou d'enseigner aux autres, les sujets qu'ils ont étudiés chez eux. Cette tradition intellectuelle islamique remonte au II[e] siècle de l'Hégire (5). Si nous réexaminons l'histoire du développement des universités chrétiennes, nous nous apercevons que la plus ancienne forme du diplôme ou grade délivré par ces universités était **connue sous l'expression «licentia docendi» (6) ou «diplôme d'enseignement».**

C'est ainsi que les universités islamiques ont bénéficié, au Moyen-Age, d'une grande liberté dans les domaines des études et de l'enseignement beaucoup plus que n'en ont bénéficié les universités chrétiennes. Il n'est pas étonnant que dans les universités islamiques, tout professeur pouvait délivrer à ses élèves un diplôme, après un examen oral ou écrit, alors que dans les universités chrétiennes, seul le directeur était habilité à le faire.

Il découle de ce qui précède que l'expression "diplôme d'études" et celle latine de "licentia docendi" furent deux expressions concordantes signifiant autorisation d'enseigner sans tenir compte des sources qui ont délivré ce parchemin. Si nous nous reportons au rôle important joué par l'Espagne, au Moyen-Age, dans

blance entre les centres éducatifs supérieurs musulmans et chrétiens soit due à autre chose que le hasard. Ce refus de reconnaissance est dû peut être à l'insuffisance des documents indiquant avec clarté que cette ressemblance n'est pas le résultat d'une série de coïncidences seulement.

Il n'y a pourtant aucune divergence sur le fait que la majorité des livres universitaires, utilisés dans les nouveaux centres éducatifs chrétiens du Moyen-Age furent traduits de l'arabe en latin. Parmi les auteurs de ces livres scientifiques, médicaux et philosophiques, se sont distingués plusieurs savants musulmans comme Ibn Sina, Ibn Rochd, El-Farabi, Ibn Zahr, Abou El-Kassim Zahraoui et autres. S'il n'y a ici aucune autre preuve de l'influence de la civilisation islamique sur la civilisation chrétienne, dans le domaine de l'enseignement supérieur, les noms de ces auteurs suffisent, à eux seuls, à cautionner la conviction assez répandue selon laquelle les universités européennes qui ont introduit dans leurs programmes les œuvres de ces derniers, ont certainement été impressionnées par la civilisation islamique qui les a créées.

Il existe, par ailleurs, une preuve très claire indiquant que l'Université, au Moyen-Age, a vu sa création et son développement s'effectuer sous l'étendard de l'Islam. Commençons par la réalité courante qui admet que certains centres islamiques d'enseignement supérieur ont été créés plus de cent ans avant que ne soit créée la première université en Europe. Ainsi l'Université de Karaouine de Fez a été créée en 859, la Faculté de Cordoue, dans la première moitié du X[e] siècle, celle de la mosquée d'El-Azhar, en 972, la maison de la Sagesse du Caire, dans les débuts du XI[e] siècle. En Europe, les centres destinés à l'enseignement supérieur ont ouvert tardivement. Les universités de Pologne, de Paris et de Montpellier n'existaient pas effectivement avant le XII[e] siècle (1).

A la suite de la création de ces universités en Europe chrétienne, il y eut de nombreux côtés de ressemblance entre celles-ci et les universités islamiques qui les ont précédées de plusieurs siècles. Par exemple l'organisation des élèves se faisait en fonction de la nationalité. C'est ainsi qu'on logeait ces derniers par groupes et par pays d'origine (2), exactement comme on faisait à l'université d'El-Azhar où il y avait des chambres indépendantes réservées aux étudiants venus du Maroc, d'autres à ceux venus de la Haute-Egypte et d'autres pour ceux de l'Irak, etc... A l'université de Paris, les étudiants étaient divisés en groupes ou "nations" comme "la nation anglaise", "la nation flamande", etc... On retrouve les traces de ce partage géographique des étudiants dans les noms de quelques facultés d'Oxford comme Lincoln, Werchester, Hartford, etc...

Parmi ces traits de ressemblance entre l'organisation des universités européennes et celle des universités islamiques, on peut citer également le fait que les professeurs d'université portaient, pendant les conférences et les cérémonies officielles un vêtement spécial connu sous le nom de robe universitaire. On dit



MERITE DES ARABES SUR L'EUROPE DANS LA NAISSANCE ET LE DEVELOPPEMENT DU SYSTEME UNIVERSITAIRE AU MOYEN-AGE

par le Docteur Rifaât Y. EBIED

Professeur au Département des Etudes Sémitiques - Université de Leeds (*Angleterre*)

L'organisation des hôpitaux, des laboratoires et des universités, à l'époque actuelle, n'est que le prolongement de celle qui existait au Moyen-Age. Il est indéniable que ces hôpitaux et ces laboratoires, résultats de la civilisation, ont été créés par la civilisation islamo-arabe. Bien que les Grecs aient le mérite d'avoir inventé quelques équipements et appareils astronomiques, les laboratoires, en tant qu'établissements minutieusement organisés, ont vu le jour et se sont développés grâce à l'intérêt que les dirigeants musulmans leur ont accordé. Le premier laboratoire, cité dans les sources dont nous disposons, fut celui qui a été créé par le Calife El-Maâmoun (813-833) en l'an 830 à Baghdad, capitale de l'Etat musulman de l'époque.

En ce qui concerne la médecine, la fondation et l'administration de beaucoup d'hôpitaux furent parmi les œuvres les plus importantes présentées, dans ce domaine, par les Arabes à la civilisation du Moyen-Age. Si nous admettons que les Arabes n'ont pas créé des hôpitaux dans la forme actuelle, il n'y a pas de doute qu'ils ont attaché beaucoup d'importance à leur organisation, leur équipement et leur entretien. Ils y ont laissé un grand nombre d'empreintes qui font partie, aujourd'hui, des aspects distinctifs des hôpitaux modernes.

En ce qui concerne l'Université, une preuve obtenue par déduction indique que celle-ci fut, il y a très longtemps, une des inventions de la civilisation musulmane. Ce dont on ne peut douter cependant c'est que les universités anciennes d'Europe avaient des particularités apparentes rappelant beaucoup les centres éducatifs musulmans qui les ont précédées (créés au cours des X^e^ et XI^e^ siècle) sauf que les historiens occidentaux hésitent encore sur le fait que cette ressem-

Les jeunes filles aujourd'hui sont presque aussi libérées sexuellement que les garçons. D'après les statistiques sur l'âge de la première relation sexuelle, et sur le nombre de partenaires avec lesquels elles ont eu ces relations, etc...

Donc la famille couple du futur va de pair avec le mouvement de libération de la femme. Nous posons la question : Est-ce bien ou mal ? Mais ne serait-il pas plus censé de se demander : **de** qui ce bœuf est-il en train de recevoir des coups de cornes ».

Quand j'ai quitté la rue Markhan pour venir ici, le soleil brillait, des couples se promenaient le long de la rue, bras dessus, bras dessous, alors que les feuilles d'été formaient un arc sur leur passage. Cela pourrait être étranger à Norman Rockwel. Mais dans dix ans, si vous revoyez ces couples, la plupart d'entre eux seront constitués de partenaires différents.

On a engagé peu de recherche systématique pour déterminer :

— la raison qui pousse les gens à se séparer ;

— comment la famille s'adapte à l'arbre des générations ;

— la distance entre les parents et les adolescents (de toute façon, maintenant, tout ce non-sens sur le conflit de générations est dépassé) ;

— le rôle de la satisfaction sexuelle dans l'ensemble des émotions conjugales.

Au lieu de tout cela, nous sommes bombardés de découvertes dont l'insignification dépasse l'esprit, et tout cela est écrit dans un jargon que même les spécialistes ont du mal à comprendre.

Les gens s'inquiètent toujours sur cette transformation de la famille en cours. Est-elle bonne ou mauvaise ? La médaille a deux faces : d'un côté, on y trouve toutes les satisfactions sentimentales accompagnant la famille nucléaire qui était plus ou moins confiante de par la place qu'elle tenait dans la chaîne des générations (spécialement du côté de l'homme, puisque c'était son arbre familial qui comptait). La famille nucléaire représentait un refuge sécurisant le soir après les vents mugissants qui accompagnent le monde des affaires de la journée. Les enfants étaient relativement à l'abri des troubles dûs au drame familial ; ils étaient libres de concentrer leur esprit sur leurs jouets.

La famille nucléaire reposait sur un compromis sentimental fait de concessions. Certains de ses membres cédaient relativement peu, d'autres cédaient relativement beaucoup. Les hommes et les enfants cédaient peu et obtenaient en retour des femmes et des mères attentionnées, une soupière chaude à la fin de la journée et des chaussettes reprisées. Beaucoup de femmes se rendaient compte que leurs intérêts étaient lésés dans cette situation historique. Naturellement, elles avaient une sécurité économique de longue durée ; mais cela, en faisant abstraction de leurs propres besoins sentimentaux, de leurs aspirations professionnelles devant les exigences de leurs maris et de leurs enfants.

Les jeunes filles n'avaient pas aussi la bonne part. Elles étaient supposées n'avoir de relations sexuelles qu'avec l'homme avec lequel elles devaient passer le restant de leur vie. Alors que leurs frères étaient libres de fôlatrer à leur gré.

Maintenant la famille couple s'oppose aux intérêts de beaucoup de ces hommes. Souvent les femmes travaillent, refusent de faire toutes les corvées domestiques, et sont aussi exigeantes que les hommes sur le plan sexuel. Pendant ce temps, les hommes sont atteints par cette vague d'impuissance sexuelle qui est venue échouer sur les deux côtés de l'Atlantique.

Nos aspirations sexuelles dépassent les moyens que nous offre notre système de famille nucléaire pour les satisfaire.

Quand nous transformons les relations du couple en un coussin de lancement pour une exploration sexuelle, nous semons les grains de sa destruction. Heureusement que chacun se remarie (du moins les hommes) et alors le processus entier recommence.

Ainsi la révolution sexuelle a créé les premières conditions pour l'explosion du divorce. Cependant, ce qui facilite actuellement ce divorce, c'est l'augmentation considérable de femmes mariées qui occupent un emploi rétribué. Statistiquement comme l'a démontré Isobel Sawhill, il y a une relation très nette entre le travail féminin et la possibilité de divorce. Ce qui se passe, c'est que les femmes apprennent par le travail qu'elles peuvent se suffire et se débrouiller seules si besoin en était. Et puis voici l'occasion qui se présente, et pour des raisons indépendantes, leur mariage s'écroule. Je pense qu'une mauvaise association sexuelle est presque toujours à la base de ces raisons. Ainsi des femmes peuvent rompre pour des raisons de relations non satisfaisantes ; motif qu'elles n'auraient jamais osé invoquer dans le passé historique de la société occidentale. Ainsi nous avons créé la base pour le couple flottant et libre :

1) Les adolescents dont on ne peut plus s'occuper ou qui n'ont plus besoin qu'on s'occupe d'eux.

2) Les motifs de séparation : c'est-à-dire la sexualité qui est absolument indépendante de toute sorte de contrôle volontaire.

3) Possibilités économiques pour les individus de se débrouiller seuls, indépendamment du contrôle de la famille nucléaire.

Je ne peux m'abstenir de dire un mot sur l'énorme absence de contribution de la grande industrie de sociologie sur la famille, pour comprendre ces changements. On pourrait examiner en vain les pages des journaux spécialisés tel que le journal « Du mariage et de la famille », on n'y trouve aucune lueur permettant de pénétrer ces causes. Exceptés des rapports sur la démographie, en pratique, toutes les recherches dans ce domaine semblent embourbées dans des questions qui sont, soit triviales, soit dépassées, telle que : détermination de la distribution du pouvoir à l'intérieur de la famille. (Nous ne cherchons pas à comprendre pourquoi ils divisent le pouvoir ; nous voulons savoir pourquoi ils ne peuvent pas s'aimer). Autre titre : « Prédicateurs du bonheur congugal ». Mais, pour l'amour de Dieu, ce qui importe c'est de savoir pourquoi des couples qui, jusqu'ici étaient tout à fait heureux décident tout d'un coup de rompre.

La sexualisation du mariage prend de l'importance dans les statistiques.

A l'époque de Kinsey, le taux d'adultère chez les femmes mariées âgées de vingt cinq ans était de 1 sur 10. Maintenant il est de 1 sur 4 (quatre).

Il y a quelques années, un couple, Morton Hut avait fait une innovation sur les pratiques sexuelles. Il a trouvé une satisfaction absolue dans toutes les nouvelles positions folles : sexualité orale, durée de la relation sexuelle.

Il y a vingt cinq ans, Alfred Kinsey ne s'est même pas soucié de faire des statistiques sur des choses comme les relations sexuelles anales, tellement le cas était rare. Hunt a trouvé chez les gens de moins de trente cinq ans que un couple sur quatre raffolait de ce genre de relation. Je ne voudrais pas choquer les oreilles chastes. La sexualité c'est bien bon ! Mon point de vue est que l'attraction sexuelle est imprévisible. Notre sexualité est enfouie profondément dans notre inconscience. Nous ne pouvons ni comprendre ni raisonner ce qui se passe en nous. Les fantasmes et les désirs tendent à être très instables : un jour on est attiré par quelqu'un, le jour suivant on ne l'est plus ; et personne ne sait pourquoi.

Maintenant, si on bâtit les mariages sur les sables mouvants de la sexualité. inévitablement ils s'écrouleront puisque l'intérêt sexuel s'estompe, ou est transféré à un nouvel objet. La sexualité est comme la pause d'une charge explosive puissante sur le lit conjugal avec un vibrateur miracle qui fonctionne et qui peut faire éclater le couple.

Je pense que ce qui s'est passé est dû à une révolution sexuelle qui a énormément loué les espérances sexuelles de chacun. Des images d'une vie érotique idéale, d'un plaisir complet, d'orgasmes palpitants, de corps généreux et de bouches aux lèvres humides éternellement ouvertes s'offrent à nous à tous moments dans chacun de nos contacts avec les mass-média. Peu de gens peuvent dire qu'ils ont une vie complète, si d'une façon ou d'une autre, ils ont manqué ce voyage au pays des fantasmes érotiques. Evidemment. quand nous essayons de mettre ce nouvel idéal érotique en pratique, la réalité est loin d'égaler l'image. Il y a encore mieux ; dans « The joy of sex with mirrors » (les joies de la sexualité dans les miroirs) on dit que cette jambe est supposée aller ici, et l'autre jambe... Et les merveilles promises ne se produisent pas avec l'épouse qui a dix sept ans de mariage. Le matin il n'y a que le trou dans le linoléum à regarder.

Nous « swingers » sommes les victimes ; victimes d'une révolution sexuelle qui nous a donné un idéal concernant les relations humaines et qui est complètement contraire à toute possibilité de stabilité.

Nos ambitions croissantes engendrent une autre révolution : quand les aspirations des gens dépassent leur possibilité de les satisfaire, ils deviennent frustrés, agressifs et... boom !... Révolution.

humains que nous aimons ou que nous avons aimés. Qu'est-ce qui dans notre for intérieur a donné à notre habilité d'aimer une force aussi limitée, avec des bornes aussi étroitement fixées ?

La crise de la famille nucléaire est une crise de notre société entière. La suppression du rassemblement de papa, de maman et des enfants autour de la table du dîner peut signaler la fin d'un certain idéal auquel nous étions tant attachésdans la civilisation occidentale, pendant le siècle dernier : idéal d'un amour désintéressé pour les autres dans le cadre d'une situation sexuelle.

Pourquoi cela est-il en train de se produire ? Je peux avancer quelques idées. Je pense que l'une des raisons de cet accroissement incroyable des ruptures découle de la révolution sexuelle que nous avons vécue ces quinze dernières années. Les vieilles personnes ne peuvent en croirent leurs yeux. On peut se promener dans les rues marchandes et voir des photos de personnes qui ont des relations sexuelles avec les chiens. La compagnie « Mac Millan » a diffusé régulièrement une série d'articles dans le quotidien « New York Times. ». Ces articles devaient servir à un ouvrage intitulé « The Hite report », document assez fascinant pour plusieurs raisons, et qui, certainement, a été d'une contribution importante à notre connaissance scientifique de la sexualité. C'est un livre qui décrit comment les femmens atteignent l'orgasme, et exactement quelles sont les manipulations à faire pour obtenir un orgasme des plus parfaits.

Ainsi il y a de longues explications techniques sur la façon d'exciter le clitoris...etc... C'est une sélection littéraire « Guildes ». Pouvez-vous croire que « Gone With the Wind » (Les parapluies de Cherbourg) fut une sélection littéraire « Guildes » ? Notre culture tout entière est en train de subir une sorte de sexualisation totale (racines et branches) qui change irrévocablement le dynamisme de la vie conjugale. Le premier trait d'union qui lie le couple est réduit à la vie de ce dernier dans le lit. Cette vie dans le lit l'emporte sur la préoccupation au sujet des enfants, sur le sens d'appartenir à une chaîne interminable de générations, ou sur le désir de travailler dur et d'économiser de l'argent pour acquérir un bateau glisseur.

Remarquez simplement le grand succès des manuels sur la sexualité. Sachez que « Joy of sex » est devenu le nouveau compagnon et le livre de chevet. Trois millions et demi d'exemplaires ont été vendus. De même, on peut parler des exhortations de Alex Confort encourageant les personnes âgées à demeurer sexuellement actives ou alors à mourir ; on peut parler encore de toutes les nouvelles idées folles que l'on trouve dans les manuels sur la sexualité : Sex for advanced swingers. Les couples mariés raffolent de ces ouvrages parce qu'ils commencent à croire que leur liaison est basée rationnellement sur leur vie sexuelle, et qu'il vaut mieux la réussir ou abandonner.

avec les besoins de leurs enfants. Oeufs dans un nid ? L'argent est dépensé dans des maisons de repos en Floride, au lieu d'être accumulé et déposé soigneusement dans des comptes. Préserver la maison familiale pour que les petits enfants puissent profiter de la belle pelouse quand ils viendront en visite ? Non, pas question, merci... On déménage dans un appartement.

Ceci est le premier point concernant la famille couple. Les adolescents sont beaucoup moins reconnaissants qu'ils ne l'étaient dans la famille nucléaire, il n'y a donc aucune raison familiale pour qu'après un état de grossesse, le couple ne soit réduit qu'à un couple : deux personnes vivant ensemble. La famille couple se considère beaucoup moins comme faisant partie d'une chaîne de générations s'étendant au fil des années. Si les jeunes se retirent dans un monde sentimental tout fait, et qui leur est propre, à quoi bon leur inculquer les traditions familiales ? Le « Fonz » après tout, ne pense pas beaucoup à son arbre généalogique... les jeunes non plus.

Mais un obstacle encore plus grand s'oppose à la continuité de la famille. Les 35 ou 45 % des couples qui se marient aujourd'hui divorceront. S'il y a une bonne chance pour que vous vous sépariez après sept années de mariage (c'est maintenant la moyenne de la durée des mariages qui finissent par un divorce) vous n'allez pas vous tracasser à suspendre la photo de grand'mère au mur. Che Guevara fera mieux l'affaire.

La seconde différence importante entre la famille nucléaire et la famille couple réside dans son instabilité. Le couple est beaucoup plus disposé à se séparer au signal donné, alors, très vite, chacun de ses membres s'attache à d'autres personnes pour former de nouveaux couples. C'est comme si l'on aiguillait les wagons sur une voie ferrée : on attache, on sépare, on rattache et chaque fois avec l'idée que c'est pour de bon. Et puis le couple est déçu en apprenant que ce n'était pas pour de bon après tout.

Les couples mariés prennent courage. Savez-vous que les couples non mariés ont les mêmes problèmes ? Voilà ce qui a causé l'accroissement invraisemblable des unions illégitimes ces vingt dernières années. Les chances de séparation d'un couple non marié sont les mêmes que celles d'un couple marié. Nous ne sommes pas en train d'évoquer un problème qui concerne seulement le mariage. Nous assistons à une non permanence chronique qui affecte notre société entière dans toutes les relations humaines, une instabilité dans les valeurs telles que la confiance, la dévotion et l'amour.

Que se passe-t-il dans notre vie ? Pourquoi beaucoup d'entre nous s'avèrent incapables de conserver des liens intimes pendant une longue durée ? Qu'est-ce qui, en cette année 1977, nous déchire sans remords et nous sépare des êtres

par deux, ou des adultes dans différentes configurations non familiales. Ces chaînes de restaurants à service rapide (P.R. Flacks, B Q Burgers) offrent-elles des occasions pour le regroupement familial ? La réalité est bien différente. Ne posez surtout pas de questions sur le déclin du petit déjeûner familial. Grâce à des études comme celle de Jennings et Niemi, nous savons comment la socialisation politique des adolescents est en train de changer. On disait que les deux plus grandes influences responsables des idées politiques acquises par les jeunes étaient exercées par les parents et dans une mesure moindre par l'école. Que vous votiez démocrate, républicain, fasciste ou autre, votre façon de voter était determinée par la façon dont ont voté vos parents. Maintenant les parents et l'école sont de plus en plus écartés, et les influences majeures sur le choix politique des adolescents semblent venir du groupe et des mass-média. O.K., ceci est un fétu de paille dans le vent.

Des données récentes provenant d'une étude en cours sur le recensement de la population des Etats-Unis ont montré une augmentation dramatique dans le pourcentage des jeunes gens (de moins de 19 ans) vivant seuls, loin de leur famille Contrairement aux arguments avancés par Jo Banes et son groupe, cette volonté des adolescents de faire leur devoir en restant à la maison jusqu'au mariage, en allant au collège, ou en travaillant à la poste, n'est plus du tout ce qu'elle était auparavant. Les données de 1974 (les plus récentes) montrent une émancipation physique croisante.

L'émancipation sentimentale des jeunes, qui en majorité continuent à vivre un peu plus longtemps à la maison commence plut tôt, et s'acquiert plus complètement. Les enfants se rappellent de moins en moins des noms de leurs parents éloignés ; leur intérêt pour les réunions de famille diminue ; la promenade en voiture du dimanche suit le même chemin ; quant à aller mettre des fleurs sur la tombe de grand-mère, même les parents n'y attachent plus d'intérêt. Ce sont des adolescents qui, non seulement se détachent du contrôle parental, mais de l'arbre familial tout entier.

Dans la famille nucléaire, on était déterminé d'après la descendance ; maintenant l'identité est déterminée principalement par la façon dont se développe la personnalité.

Etant donné que le couple lui-même a éclaté et qu'il a brisé tous les liens, l'un des plus grands liens qu'il a par conséquent perdu est celui qui l'unissait à ses enfants devenus adolescents.

Est-ce un changement dans l'attitude des parents qui a conduit les enfants à la boisson (Rootbeer A et W) et à la « disco-scène » ou bien est-ce l'attraction incessante de tout le culte de la jeunesse des années 60 et 70 qui les entraîne ? Qui vient en premier ? Le poussin ou l'œuf ? Ce qui est du moins clair maintenant, c'est que beaucoup moins de parents organisent leur vie en rapport

c) Parce qu'il est infiniment moins stable que celui de la famille nucléaire. Tout cela résulte de ses attitudes différentes à l'égard des enfants, de la vie sexuelle et de l'arbre familial.

La famille nucléaire représentait une unité d'affection solidement implantée dans le temps (par sa sensibilité à l'arbre familial) et dans l'espace (par toutes sortes de contacts avec les membres de la famille, les voisins et les amis). D'autre part, le couple est un atome flottant et libre qui n'est fondé sur aucun de ces contacts extérieurs stabilisants qui sont en harmonie avec les émotions intérieures. Au sein même du couple se produisent, de temps en temps, des éruptions sentimentales horrifiantes qui accentuent la montée irrémédiable des statistiques des divorces. Le couple est incroyablement complexe intérieurement, et détaché extérieurement. Joyeusement blotti dans ce petit appartement du 17^{e} étage jusqu'à ce que........... Boom !

Tout cela est une belle sottise ! Des atomes flottants et libres ? Des explosions périodiques ?

Qu'est-ce qui justifie actuellement toutes ces transformations supposées se produire ?

Peut-être que tous ces sociologues "Polyanna" ont raison après tout et que le divorce n'est qu'une légère secousse sismique et non un véritable tremblement de terre.

Considérons par exemple les relations d'un couple à l'égard de ses enfants adolescents. Ils étaient le meilleur soutien sentimental de la famille nucléaire des années 1940-1950. Evidemment, aujourd'hui les parents sont de plus en plus dépassés par ce qui se rapporte à la socialisation de leurs adolescents (je vous rappelle que nous parlons d'adolescents, puisqu'il y a peu de changement dans la façon de traiter les enfants plus jeunes).

La criminalité juvénile a tout simplement explosé en ces dix dernières années dans la province canadienne de l'Ontario — Province qui est pourtant paisible Ainsi, les viols, les vols, les agressions etc... commis par les adolescents ont dépassé le plafond. Voyez un peu cette vague de meurtres de grand-mères dans les villes comme New-York... Quelles qu'en soient les causes profondes, l'une d'elles provient du fait que ces adolescents ne vivent pas dans leur famille. En effet, si vous êtes en train de suivre les "Waltons" avec maman et papa, vous ne serez pas dehors à chercher à faire exploser une voiture.

Bien qu'il n'y ait pas de statistiques à ce sujet, vous voyez un peu comment les dîners de famille tendent à disparaître, véritable désagrégation du repas du soir, les enfants sont de plus en plus dehors avec les copains pour manger un bout dans un "Mac Donald's". Asseyez-vous un soir entre 6 h et 8 h devant un "Mac Donald's" et voyez ce qui se passe : il y a surtout des jeunes en groupes ou

produisait souvent, les enfants restaient à la maison jusqu'au mariage. Ils exprimaient avec reconnaissance leur gratitude à "maman" pour sa vie de sacrifice. Les mères traditionnelles se sacrifiaient très peu pour leurs enfants ; elles étaient beaucoup trop préoccupées par le travail de la ferme et par le rendement de la récolte. S'il y avait désaccord entre les parents — comme cela se produisait souvent même dans la famille nucléaire (bien que moins brutal) — les parents restaient néanmoins ensemble ne serait-ce que par amour pour leurs enfants.

Je voudrais donc souligner l'importance de l'état de grossesse dans la vie de la famille nucléaire parce que j'aurais tout à l'heure à l'opposer à l'attitude de la "famille couple" à l'égard des enfants. Mais en nous plaçant dans cette perspective, vous devriez savoir que cette nouvelle famille nucléaire a commencé à prendre forme dans les classes moyennes vers la fin du XVIII^e siècle (un peu avant, chez les puritains qui s'installaient en Amérique du Nord). C'est vers le milieu du XIX^e siècle que la famille nucléaire a commencé à s'étendre aux employés de bureau, aux clercs des villes, aux artisans des petites villes, aux paysans de la campagne et finalement aux environs de la première guerre mondiale, aux ouvriers d'usine et aux prolétaires des sociétés occidentales. Ainsi, vers les années 1930 et 1940, la famille nucléaire triomphait un peu partout, depuis les zones rurales du Danemark (comme me le racontait l'autre soir une dame originaire de là-bas) jusqu'aux zones rurales du Mississipi où ma propre famille a vécu. Vers le début de notre siècle, la famille nucléaire a dominé en commençant par les tailleurs juifs des magasins londoniens (la vie traditionnelle des Juifs des petits villages de Pologne était tout à fait différente) jusqu'aux habitations bourgeoises et élégantes des lieux semblables à la rue Markham à Toronto.

Vous voyez comme les choses ont évolué lentement. Il a fallu une centaine d'années à la famille nucléaire pour accomplir sa marche triomphale dans la société occidentale. Et voilà où en est la situation à présent : sa destruction sera accomplie en beaucoup moins de temps.

Nous arrivons maintenant au dernier point de mon petit exposé : la fin de la famille nucléaire qui se dresse en perspective et sa transformation en famille couple.

Qu'est-ce que j'entends par "famille couple" ? Nous avons toujours affaire à une famille figurez-vous ! Les 95 % de la population continuent à se marier, cohabitent pendant un certain temps et ont un enfant ou deux. Ce qui est par définition même une famille. Mais le couple est différend de celui de la famille nucléaire.

a) Parce que sa propre situation sentimentale est beaucoup plus intense, elle est explicitement sexuelle.

b) Parce qu'il a des relations fondamentalement différentes avec ses enfants spécialement avec les adolescents (ce sont essentiellement des relations distantes).

yeux des autres. Voilà comment était bâtie la société traditionnelle. Elle est donc arrivée à sa fin quand la famille moderne triompha aux environs du milieu du XIX[e] siècle.

La famille moderne : ce chaleureux petit noyau intime composé de maman, papa et les enfants assis le soir et dînant autour de la table, a été la création des derniers siècles.

Considérons les principales caractéristiques de la famille nucléaire **moderne** :

Au lieu de se mélanger librement avec la communauté environnante, ses membres se ramassaient derrière les murs de l'intimité et de l'isolement afin de jouir de cette intimité chaleureuse nouvellement trouvée.

Autrefois un défilé interminable d'étrangers passait à la maison ; toutes sortes de personnes n'appartenant pas à la famille étaient présentes au dîner familial, ou sur les paillasses de paille éparpillées autour de la cabane pour passer la nuit. Maintenant la famille nucléaire dîne seule. (Il y a toutes sortes de plaintes au sujet de ces fermiers gentlemen anglais qui, par exemple, commencent à supprimer la présence des ouvriers agricoles à la table familiale). Autrefois, il y avait un environnement riche de festivités communales et de rites qui arrachaient chaque membre de la famille au foyer. Maintenant, la famille reste fermée, unie pour les soirées : papa avec son journal, maman avec son tricot, et les deux enfants au lit à l'étage.

Au début du siècle, dans une famille anglaise de classe moyenne, on pouvait lire la vieille devise suivante : "A l'Est ou à l'Ouest, le nid est le meilleur". Cela avait en effet un sens : une nouvelle sorte d'intimité née d'amour apparaissait pour unir le mari et la femme ; c'est une tendresse que nous associons à l'expression "amour romantique" qui exigeait certainement l'intimité et le détachement des autres. Vous ne pouvez pas rester la main dans la main sous le regard étonné des ouvriers des champs... La nouvelle conception du mariage voulait que le mari et la femme fassent les choses ensemble, et non pas errer chacun de son côté, séparément, avec des bandes de copains.. Ainsi le sens nouveau donné au sentiment est devenu le ciment qui unit le mari et la femme, plutôt que le simple désir d'avancer stupidement sur des marches prescrites par la coutume du village.

Permettez-moi de relever que la base essentielle de cette sentimentalité était probablement due à l'amour porté aux enfants plutôt qu'à l'attachement romantique intense que les époux avaient contracté durant la période de la « cour ». La vie étant ce qu'elle est, l'amour véritable ne semblait pas avoir longtemps survécu aux conditions matérielles pénibles qui pesaient sur beaucoup de ces familles ; mais elles adoraient leurs enfants ; ainsi on réussissait à garder la maman à la maison, et la famille bâtissait son propre petit nid pour célébrer la socialisation de ses enfants. Plutôt que de partir comme apprentis ou servantes à demeure dans une autre maison pendant leur pré-adolescence, comme cela se

cela est bien évident. Les mères résignées soupiraient en disant : "Voilà un autre petit ange envoyé au ciel". Les parents ne se tracassaient pas à assister aux funerailles de l'enfant ; ils utilisaient à nouveau le nom de l'enfant mort pour le nouvel enfant qui venait au monde. De nos jours, on ne penserait même pas à cette pratique. Imaginez un peu comment les enfants étaient traités ; au lieu de les allaiter au sein, les femmes d'Europe Centrale donnaient souvent à leurs bébés une "bouillie" (mélange de farine et d'eau) ce qui était tout à fait mauvais pour leur petit appareil digestif. Beaucoup de parents des fermes ou des petites villes emmaillotaient leurs bébés en les enveloppant de la tête aux pieds dans une sorte de bandage en tissu que l'on serrait afin qu'ils ne puissent pas bouger leurs bras et leurs jambes ; cela voulait dire que les langes sales n'étaient pas changés souvent parce que, d'une part, il était ennuyeux de démailloter le bébé, et d'autre part, cela donnait trop de travail de lessive (les grosses lessives se faisaient seulement trois ou quatre fois par an).

Evidemment, ces petits bébés contractaient toutes sortes de maladies de peau, telles que les eczémas ce dont les docteurs se plaignaient inlassablement. Cette indifférence des parents à l'égard des enfants est réellement confirmée par le procédé qui consiste à placer les petits hors du foyer familial. En France, les mamans envoyaient souvent leurs nouveaux-nés à des nourrices vivant à la campagne ; cela leur permettait d'être plus libres pour aider leurs maris au métier à tisser ou dans les champs. Puis, loin de la vue, loin de l'esprit... Les parents ne rendaient jamais visite à leurs bébés, et n'envoyaient que rarement des lettres pour avoir des nouvelles sur leur santé. Beaucoup, beaucoup de ces enfants périssaient entre les mains des nourrices. Alors que la mortalité infantile était à peu près de un sur quatre, la mortalité de ces bébés ainsi envoyés en nourrice était proche de 50 %. Nous avons clairement affaire à une forme masquée d'infanticide, et qui était pourtant fort répandue. Les parents qui ne pouvaient se permettre ces nourrices, abandonnaient simplement ces enfants non désirés sur la route, ou sur une table spéciale qui se trouvait devant la porte de l'église (ils tiraient la cloche pour avertir le Sacristain,puis se sauvaient.

Le lien sentimental qui unissait ces familles n'était pas fondé sur un amour véritable, ou sur la joie de voir des enfants se développer et prospérer. Ce lien était plutôt fondé sur la passation du patrimoine de génération à génération, sur la préservation du nom de famille et du domaine familial à travers les âges ou sur la boutique familiale de tonnelier. Ce qui comptait, c'était de transmettre la propriété de génération en génération avec un respect strict des règles du comportement social établies par la communauté environnante. Donc la fonction de la coutume dans le comportement des époux était écrasante, et en fait on ne rencontrait que très peu d'attachement véritable ou d'émotion spontanée. Le but de la vie n'était pas d'en jouir pleinement, c'était de faire son devoir aux

tissait, la tête dans les bras du jeune homme. Pas de contact de jambes ni d'autres choses... Elle pouvait l'embrasser un peu sur le cou, quand il avait le bras fatigué, il changeait de côté ; mais il y avait très peu de formules et de paroles, afin qu'ils puissent se retourner sans aucun contact intime. Le but était de permettre aux deux jeunes gens de faire connaissance. Ensuite le groupe se dirigeait vers la maison suivante, puis la suivante... Les deux derniers jeunes pouvaient terminer la nuit avec la même fille. Pour s'assurer qu'il ne se produisait pas de bêtises, le groupe pouvait revenir dans la maison, par surprise, juste pour voir si le gars ne s'était déshabillé plus qu'il ne devait, ou s'il ne se passait pas quelque chose de non permis. Si cela venait à se produire, ils étaient sévèrement punis (comme celui à qui l'on vola le pantalon, ou celle à qui l'on a cloué l'écharpe sur la porte de l'église, évidence montrant qu'elle a dépassé les normes). Et, naturellement, ils seront rejetés du groupe. Ce système de "groupe" a atteint aussi l'Amérique du Nord, mais d'une façon moins organisée. En Pennsylvanie, comme en Europe, c'était un moyen qui permettait à la communauté de superviser le processus de l'union des jeunes, de leur donner en même temps une petite chance de faire connaissance, et d'éviter ainsi les mariages arrangés (qui n'ont jamais été typiques de la société occidentale).

Permettez-moi de vous donner un autre exemple qui montre comment la communauté et la famille étaient intimement liées dans la famille traditionnelle : pendant l'hiver, les femmes se rassemblaient souvent dans la grange d'une d'entre elles pour tricoter ou pour filer. Elles avaient toujours les jeunes adolescents avec elles, afin de pouvoir les surveiller de près. Elles se rencontraient ainsi deux ou trois fois par semaine, depuis l'après-souper jusque vers minuit. Pendant ce temps les hommes aussi avaient l'habitude de se rencontrer au bar ou au café local (tous les villages en avaient au moins un). Ils passaient leur temps à boire avec les bons vieux copains, puis retournaient à la maison pour se mettre au lit avant leurs femmes, parce qu'ils devaient se lever tôt le matin pour battre le grain.

Imaginez un instant ces nuits d'activité passées à tricoter et à filer. Hommes et femmes sont complètement séparés. Ils partaient rejoindre les membres de leurs groupes pendant le temps libre que la famille nucléaire consacrait plus tard à des pauses dans la joie de se retrouver en famille en ces soirées d'hiver autour du feu. Si les hommes et les femmes allaient au lit à des moments différents, cela voulait dire qu'ils n'avaient probablement pas de relations sexuelles ces nuits-là. Les variations brusques dans les périodes de conception confirment de plus cette hypothèse.

Voici encore un dernier point concernant la famille traditionnelle : elle était marquée par une indifférence froide à l'égard de la vie de l'enfant. Nous remarquons des cas incroyables, telles ces femmes de l'ancien temps qui assistaient sans aucune émotion à la maladie ou à la mort de leurs tout petits enfants. Notre attitude est pourtant chaleur et amour envers ces petits bébés ; la mort d'un enfant laisse une marque indélibile sur un couple, pour le restant de sa vie ;

(alors qu'eux-mêmes étaient chétifs et petits comme des professeurs). La femme pouvait être capable de tabasser le mari. On a trouvé dans les archives, des plaintes de maris qui ont été battus par leurs femmes. Quand cela se produisait, toute la communauté faisait un esclandre, car les femmes se saisissaient de cette autorité, allaient tout à fait à l'encontre des normes de ceux qui gouvernaient ; alors, un charivari était organisé. Dans ces manifestations, les villageois paradaient autour de la maison de la femme qui a bafoué l'autorité du mari, en soufflant dans des trompettes et en tapant sur des casseroles ; puis, ils se saisissaient de la femme et du mari et les forçaient à faire le tour du village à dos d'âne, en leur faisant boire du vin, et en leur fouettant la bouche avec la queue de l'animal.

Ceci me conduit au second point que je veux développer sur la famille traditionnelle ; à savoir qu'elle avait des liens étroits avec la communauté alentour : les yeux des étrangers étaient constamment fixés sur le cercle familial, pour le diriger, le superviser, et s'assurer que le couple vit dans les normes du comportement imposées par le village entier ou la petite ville. Voici quelques exemples de ces normes : le mari ne devait pas avoir de relations sexuelles avec les servantes (bien que cela se produisait de toute façon), les veufs ne devaient pas épuiser le stock des vierges candidates au mariage en se remariant avec l'une d'elles, les épouses devaient bien tenir leur ménage et ne pas boire à l'excès...

On rencontrait beaucoup de ces traits de la vie familiale traditionnelle dans le vieux monde (toutefois moins en Amérique du Nord). Une institution de contrôle social tel que le charivari était en vigueur sur ces côtes au XIX^{e} siècle. Même dans une petite ville industrielle comme Hamilton (Ontario) par exemple, durant les années 1850, la jeunesse locale se rassemblait souvent et manifestait contre les femmes pécheresses ou contre les ménages en désaccord. On rencontrait donc cette sorte de vigilance intense de la communauté, des deux côtés de l'Atlantique. La communauté environnante allait jusqu'à enlever individuellement des membres d'une famille, pour les arracher au foyer chaleureux afin d'exécuter des activités collectives, sans se soucier des besoins d'intimité et de regroupement qui seront si chers à la famille nucléaire.

Les adolescents par exemple, spécialement les jeunes hommes étaient très intéressés par les groupes locaux de jeunes. C'était le groupe qui organisait les festivités du carnaval annuel, et qui supervisait l'union des jeunes hommes et des jeunes filles. Cette pratique de faire la «cour» menait à la coutume du « groupe constitué» qui prévalait en Scandinavie et en Allemagne du Nord : le samedi soir, une bande de copains se retrouvait au square du village, prenaient quelques boissons, puis allaient de maison en maison, là où se trouvaient des filles à marier. Devant chaque maison, ils récitaient quelques vers, ou chantaient. La fille décidait alors de choisir un membre du groupe qui lui plaisait, pour passer la nuit avec elle. Maintenant cela semblerait grotesque. Cependant, ils n'avaient pas de relations sexuelles. Le jeune homme enlevait son manteau, son chapeau, ses chaussures, (et rien de plus) et s'allongeait sur la couverture près de la jeune fille. Elle blo-

L'ancienne famille nucléaire dans laquelle chacun de nous a grandi n'est pas la seule forme imaginable de vie familiale ; elle était précédée historiquement par un style très différent de cohabitation maritale que j'appellerai "la famille traditionnelle". A présent, un autre style nouveau de vie familiale : la famille couple, qui prend la place de la famille nucléaire.

Nous avons donc trois étapes essentielles dans l'histoire de la famille occidentale : la famille traditionnelle, la famile moderne, et maintenant la famille post-moderne.

Comment se sont passés ces évènements ? Comment se fait-il que des hommes et des femmes aient commencé soudainement à s'aimer plus qu'avant ? A changer les couches de leurs bébés plus régulièrement ? A sortir moins souvent le soir ? Parce que, et c'est de cela précisément que l'on parle, des changements massifs se sont produits au fond même de nos vies intimes ; beaucoup de gens aimeraient savoir ce qui produit ces changements.

Retournons à la période qui précède la révolution industrielle. La vie familiale était énormément différente du style qu'on nous présentait dans les spectacles "d'Ozzie et Harriet". La raison des mariages était fondée sur des accouplements de convenance, plutôt que sur l'association intime que l'on rencontre dans les temps modernes. Les gens choisissaient leurs compagnes, sur la base de la superficie des fermes du père (donc sur le montant de la dot de la mariée) ou sur la base de la force physique de la femme qui devait être capable de supporter les charges lourdes du travail de la ferme. Sachez que dans des endroits comme le Sud de l'Italie, c'était la femme qui poussait la charrue, et que pour subvenir aux besoins de la famille, elle devait être capable de faire le travail d'un bœuf. Les proverbes de paysans sont pleins de mise en garde contre les belles femmes (elles sont capricieuses et n'aiment pas biner la terre, dit-on).

Dans le passé, très peu de sentiment était manifesté au sein du couple. Il y avait peu de couples qui se tenaient par la main, ou qui se disaient des romances. Si des parents s'opposaient à une union, le couple rompait tout à fait naturellement de crainte de se voir déshérité ; plutôt que d'essayer de s'enfuir pour faire triompher son amour. Après le mariage, la brutalité et la violence étaient souvent la règle du mariage. De nos jours, nous sommes bouleversés par la vue d'un homme qui bat sa femme, mais aux XVII^{e} et XVIII^{e} siècles, battre sa femme était tout à fait normal. Le mari devait enseigner à sa femme d'accepter son autorité. Dans le ménage patriarcal, l'homme qui dominait la femme, les enfants et les cohabitants, était considéré comme un modèle par toute la société. Le père dirigeait le ménage, tout comme le roi gouvernait le pays.

Dans ces unions violentes et sans amour, on renversait souvent les tables ; il arrivait que les femmes battent les maris, du fait que beaucoup de ces hommes choisissaient des femmes grandes, solides qui pouvaient accomplir cette tâche

Bien, diriez-vous, ces historiens ne sont que des détraqués, et vous auriez un peu raison. Pourtant, je suis sûr que cette situation pourrait être retrouvée dans toutes les facultés, depuis la diététique jusqu'à la science vétérinaire, des universités situées de l'autre côté du pays. Vous êtes persuadés que la plupart des gens vivent encore en familles nucléaires stables, sans aucun tracas, que ces familles ne suivent pas le mauvais chemin, qu'elles ne vivent pas dans le péché, et que les hommes ne se séparent pas de leurs partenaires pour aller skier avec leurs amies. Pourtant, tout cela est vrai.

L'idée que je veux exprimer est que : des lieux comme la rue Markham sont beaucoup plus typiques du futur que du présent.

Ces divisions dans les familles nucléaires que je vois de mon porche n'ont jusqu'à présent affecté qu'une minorité de la population. Cependant, si nous nous en tenons aux récentes statistiques, elles représentent la future vague. Ce n'est pas une histoire tellement gaie !

Quels que soient ses défauts, la famille nucléaire était une source de contentement personnel pour beaucoup, beaucoup de personnes. Je ne me réjouis pas de tenir ce rôle de Cassandre qui se dresse devant vous et vous dis que nous sommes sous l'étreinte d'un changement historique massif de la vie familiale, et qu'un nouveau style que j'appelle "la famille couple" est en train de se dresser pour prendre la place de la famille nucléaire. Et le fait est là...

Durant ces dix dernières années, nous avons vécu une révolution dans la vie familiale, comparable à celle des sentiments qui a eu lieu il y a cent cinquante années, et qui a amené la famille nucléaire à se hisser à la première place. Ce qui se passait dans la vie intime des gens entre 1800 et 1850 était un changement historique très important. Actuellement, nous assistons à un second changement. Tel est mon message...

Il y a une sorte d'école de sociologie "Polyanna" qui désapprouve complètement ce sombre diagnostic. Oh ! La famille moderne est tout à fait bien portante à la base, nous assure-t-on ; et ce, malgré quelques problèmes de désaccord. Tels que ces gens qui divorcent. La famille américaine est "ici pour demeurer" (je prends le titre d'un ouvrage récent de Mary Jo Banes, relatif à ce sujet, et qui présente parfaitement cette approche empirique des développements.

Cet immobilisme sociologique montre que, virtuellement, dans notre société, chacun continue à se marier (au moins une fois) et que presque toutes les femmes projettent d'avoir un enfant à un moment de leur vie, et conclus que les choses n'ont pas tellement changé.

Effectivement, je ne suis pas en train de démontrer que la famille est en déroute, et que chacun va terminer sa vie seul. Nous continuerons à avoir des familles, mais ce seront des familles d'un genre différent. Voilà mon point de vue.



EDIFICATION (ET DISSOLUTION) DE LA FAMILLE MODERNE

par le Docteur Edward SHORTER
Professeur d'Histoire à l'Université de Toronto (Canada)

Permettez-moi de commencer par vous dire brièvement où je vis. J'habite à Toronto, rue Markham. C'est l'une de ces rues calmes, où les arbres s'alignent le long de la route, avec de charmantes vieilles maisons de style victorien, à deux étages avec balcons et aux toits en pignon. En avez-vous une idée ? J'aime bien m'asseoir dehors, sous mon porche pour observer les gens.

Au bas de la rue, habite une famille de producteurs T.V., comprenant la femme, la fille et un ami ; plus bas réside un de ces couples "gais" (homosexuels), une sorte de bonhomme amusant en bottes hautes, avec son ami en jacquette courte d'aviateur. A ma droite, vit une femme avec ses trois enfants, issus de deux mariages différents. Elle habite seule.

Mon fils va s'occuper des enfants d'une autre femme abandonnée par son mari quand elle va au ski avec son ami. Juste en face, vit le seul ménage "normal" que je connaisse. C'est une famille nucléaire modèle, si on ne tient pas compte du fait que l'homme en est à son deuxième mariage, et que le couple reçoit un pensionnaire qui mange à la table familiale tous les soirs...

Bon ! Diriez-vous... Shorter n'a vraiment que des amis singuliers, ou bien, il se trouve qu'il habite dans un quartier bizarre ! Mais il ne s'agit pas seulement de moi. Récemment, lors d'une réunion du département d'histoire d'une grande université, le président a annoncé : " Nous aurons un cocktail au niveau de la faculté, vous serez les bienvenus, et nous invitons aussi vos épouses à y assister. Les auditeurs se mirent à rire. Certains commençaient à se dévergonder, d'autres vivaient avec des concubines qui n'étaient pas leurs épouses, et les autres enfin étaient des femmes professeurs qui se trouvaient ne pas avoir "d'épouses". Dans tout le département, il n'y avait que très peu d'épouses disponibles pour ce cocktail.

ce problème dans les pays européens, surtout latins, où la chute vertigineuse des vocations religieuses est le meilleur test chiffré de cet effondrement. Quand on compare cette situation à ce qui se passe dans les pays d'Islam dans le même temps, on constate que, là, c'est une évolution contraire qui se **dessine : l'Islam** est la seule religion présentement en expansion. Il est donc intéressant de noter qu'à notre époque d'un côté, il y a des religions qui reculent pour ce qui concerne leur répartition numérique et que, de l'autre, il y a celle qui progresse à l'échelle mondiale.

Que l'on soit incroyant ou sceptique, Musulman, Chrétien ou Juif, ces données sur les Ecritures Saintes face à la Science, ne devraient pas laisser indifférent en raison des éléments d'appréciation nouveaux qu'elles apportent et des perspectives d'avenir qui se dessinent.

La présence dans le Coran de tous ces éléments d'actualité qui ont pris en ce xx^{e} siècle, grâce aux connaissances modernes, une dimension jusqu'alors inconnue m'invite, en terminant cet exposé, à vous demander de méditer sur ce verset de la sourate :

كذلك يبـين الله لكم آياته لعلكم تعقلون . (البقرة)

biblique en désaccord absolu avec l'histoire. Comment un homme aurait-il pu, si tel avait été l'auteur du Coran, écarter tout ce qui va être considéré comme inadmissible à l'époque moderne pour ne retenir que ce qui sera exempt de toute critique du point de vue scientifique ? Cette réflexion vaut aussi bien pour le récit du Déluge que pour des énoncés coraniques sur d'autres sujets.

Il faut admettre ici une explication autre qu'humaine qui ne peut être qu'une Révélation, corrigeant les défauts introduits par les hommes dans la rédaction de l'Ecriture antérieure. Nous sommes donc placés par le Coran devant une situation qui donne singulièrement à réfléchir sur les rapports de la Religion et de la Science, traduction, ô combien inattendue pour beaucoup, de l'intrication des domaines de l'une dans l'autre.

La Bible — Ancien Testament et Nouveau Testament — avait donné à méditer sur des oppositions flagrantes entre certains passages de ses textes et les connaissances modernes. Ce qu'il était intéressant de rechercher était la raison de leur présence dans des textes qui apportent par ailleurs une Révélation divine. Ce qui coule de source depuis que l'on a des notions qui jusqu'alors faisaient défaut sur les origines des textes de la Bible, sur leur rédaction et sur leur transmission jusqu'à nous, est que la part des manipulations humaines est considérable, que beaucoup de textes sont des écrits de circonstance, comme le récit sacerdotal de la Genèse, ou même des écrits de combat, comme le dit le R.P. Kannengiesser pour les Evangiles. Dans ces conditions, les incompatibilités avec les connaissances modernes s'expliquent parfaitement : ce qui aurait étonné est qu'il n'y en eût pas.

Le Coran, lui, ne contient rien que la Science moderne puisse rejeter puisque ses énoncés sont conformes à des faits dûment établis, contrôlés et non susceptibles de changement. En outre, nombre de données coraniques n'apparaissent compréhensibles qu'à notre époque. Alors, ici, la confrontation Ecritures Saintes - Science se présente tout autrement. Il n'y a plus de partage à faire entre les deux, singulière différence avec ce que pensent des exégètes de la Bible, aussi éminents que le fut le R.P. de Vaux qui se refusait, en principe, à faire tout rapprochement avec les connaissances modernes, ce qui n'aboutirait, écrivait-il, « qu'à une opposition irréelle ou à un concordisme factice ».

En prenant de pareilles positions, n'aboutit-on pas à des catastrophes. Il faut se rendre compte de l'évidence et l'avouer : n'assistons-nous pas, dans les pays occidentaux à l'influence judéo-chrétienne prédominante, à l'incapacité totale des maîtres de la pensée religieuse à opposer efficacement, à l'aide d'arguments qui porteraient, une digue susceptible de faire barrage au flot envahissant du matérialisme ? Il y aurait beaucoup à dire sur l'évolution des esprits vis-à-vis de

Les notions sur l'astronomie, le contenu des Cieux, les étoiles, les planètes, les mouvements des astres, les précisions sur l'évocation de la nuit et du jour à la poursuite l'un de l'autre avec un mouvement qui rappelle de turban enroulé autour de la tête par l'utilisation du verbe ***kawwara,*** l'annonce de la conquête de l'espace, tout cela n'est-il pas vérifié à notre époque et à notre époque seulement ?

J'ai consacré dans mon livre plusieurs châpitres aux données du Coran sur la terre, en particulier le cycle de l'eau dans la nature et la formation des reliefs, sur des notions intéressant les sciences naturelles, la physiologie et la reproduction humaine. Tous ces énoncés font dire à qui est objectif et de bonne foi qu'il n'est pas possible qu'un homme, vivant à l'époque où le Coran fut communiqué, ait pu s'exprimer ainsi de sa propre initiative. J'ai attaché une importance tellement considérable à ces faits que je les ais présentés en novembre 1976 à Paris à l'Académie Nationale de Médecine en insistant sur le fait que, compte tenu de ce que nous savons de l'histoire des sciences, il n'existe pas d'explication humaine à la présence dans le Coran de telles affirmations.

Je profite de cette évocation d'une communication à une société savante pour bien préciser que j'ai dû, dans un ouvrage intitulé : « La Bible, le Coran et la Science », utiliser le vocable « science » pour exprimer en un mot ce qui est plus justement appelé connaissances modernes dans le sous-titre du livre. J'ai expliqué que le terme de comparaison profane concernait des faits dûment vérifiés et contrôlés par l'expérience et non susceptibles d'être remis en cause plus tard, alors que la science, changeante selon les époques, émet souvent des théories valables à une période pour expliquer un phénomène ou un groupe de phénomènes et qui pourront être plus tard abandonnés au profit de conceptions plus aptes à faire comprendre les observations faites.

J'aimerais souligner enfin l'utilité d'avoir comparé à la lumière des connaissances modernes des récits coraniques et des récits bibliques d'un même événement. Je l'ai fait tout spécialement pour la Création, le Déluge et l'Exode de Moïse. Je me bornerai à dire que le Déluge par exemple, est fixé par la Bible à une époque où une catastrophe universelle n'a pas pu avoir lieu pour des raisons historiques parfaitement connues seulement à l'époque moderne, tandis que le récit coranique d'un déluge, punition sélective infligée au peuple de Noé pour son impiété et non défini dans le temps, est, lui, exempt de toute critique de ce point de vue.

Or, entre l'époque du récit biblique et celle où le Coran fut révélé à la connaissance humaine, les hommes avaient-ils pu acquérir des connaissances modernes sur ce sujet ? Assurément pas, car entre l'époque ou plutôt les époques de la rédaction des textes bibliques et la Révélation coranique, la seule documentation à ce propos était la Bible. Aucune donnée n'existe sur une connaissance humaine, quelle qu'elle soit, qui aurait pu faire déceler les points du récit

modernes aboutissait à la découverte d'énoncés coraniques en avance de bien plus d'un millénaire sur leur temps. Ce que nous savons de l'histoire des Sciences rend impossible qu'un homme ait pu, il y a près de 14 siècles en être l'auteur. Le Coran offrant à notre réflexion des affirmations qui constituent un défi à l'explication humaine, *par lui* tout parait remis en question de cette antinomie entre Religion et Science.

A vrai dire, comment s'étonner de l'existence de ces données coraniques lorsqu'on médite ce hadith du Prophète : « Recherche la Science même en Chine » ou cet autre : «Recherche la Science du berceau à la tombe ». أطلب العلم ولو في الصين أطلب العلم من المهد الى اللحد . On explique ainsi sans peine le prodigieux développement scientifique entre le VIIIe et le XIIe siècle de l'ère chrétienne en pays islamique alors qu'en pays chrétien c'est toujours le conformisme absolu avec la scholastique triomphante et la stagnation du savoir. A la grande période de Cordoue, on allait de divers pays d'Europe, dans la célèbre Université pour s'instruire des sciences arabe, grecque, indienne ou persane.

Le temps qui m'est imparti ne me permet pas de développer cette confrontation entre le Coran et la Science comme le sujet le mériterait. Je renvoie pour de plus amples détails à mon livre. J'insisterai seulement sur quelques points particuliers.

J'espère avoir tout d'abord montré, en décrivant comment le texte coranique fut révélé, transcrit et transmis, et, en mentionnant l'existence de manuscrits anciens du livre, que le texte possédé de nos jours est rigoureusement le même que celui qui circula dans les premiers temps de l'Islam. Cette certitude est la condition sine qua non de la validité de la confrontation entre le texte du Coran et les connaissances modernes.

Un premier élément d'importance réside dans la comparaison des textes du Coran et de la Bible relatifs à la Création, à la lumière des conceptions générales modernes sur la formation de l'Univers et sur son évolution. On ne retrouve pas dans le Coran les erreurs du texte biblique, constatation qui réduit à néant l'hypothèse qui fut soutenue en Occident — sans le moindre argument d'ailleurs — selon laquelle un homme aurait, pour écrire le Coran, copié la Bible.

Que nous apprend le Coran sur la création du monde ? Comme les données de l'astronomie moderne permettent de le penser, l'Univers s'est formé à partir d'une masse initiale unique, la nébuleuse primitive, qui s'est morcelée par la suite : le Coran nous le dit avec précision, comme il nous parle de l'évolution parallèle des Cieux et de la Terre, de la pluralité des Cieux et de la pluralité des Terres, c'est-à-dire l'existence de mondes multiples et de Terres semblables à la nôtre, ce que les astronomes modernes considèrent comme des plus vraisemblables en dehors du système solaire.

On peut donc dire que les connaissances modernes et les études de la Bible à l'aide de toutes les données utiles à cette recherche ont abouti à transformer en Occident des notions jusqu'alors classiques et indiscutées. Les conséquences en sont considérables. Tout permet de penser qu'en Occident on ne sortira pas du malaise présent par des formules apologétiques, qui ne sont en aucune sorte propices à le dissiper lorsqu'elles s'adressent à des esprits qui réfléchissent, comme ceux de la jeunesse instruite de notre époque.

Passer de cette mise en doute de l'authenticité d'ensemble des Ecritures judéo-chrétiennes à l'aide des données modernes au refus de croire en Dieu c'est malheureusement ce que font bien des esprits troublés par ces découvertes et qui ignorent ou ne veulent pas reconnaître que la Révélation Divine ne s'arrêta pas à Jésus. Refusant de prendre en considération ce que l'Islam pourrait leur apporter, ils arrivent à penser que les connaissances profanes fournissent la clef de tous les problèmes et que la Science toute puissante a définitivement pris le pas sur toute croyance en Dieu.

Bien avant de savoir ce qu'une étude de l'Islam allait me faire découvrir plus tard, j'ai toujours pensé que la connaissance scientifique était, quoiqu'on en dise, très propice à conduire la réflexion sur l'existence de Dieu. En effet, si l'on s'interroge, sans idée préconçue et sans parti pris, sur les enseignements métaphysiques qui découlent de certaines connaissances de notre époque, comme celle de l'infiniment petit ou le problème de la vie, que de raisons trouvons-nous d'axer la réflexion dans ce sens ! Quand on prend en considération l'organisation prodigieuse qui préside à la naissance de la vie et à son maintien, est-ce que la part du hasard n'apparait pas alors comme de moins en moins vraisemblable ? Est-ce que la fantastique complexité des êtres supérieurs ne milite pas en faveur de l'existence d'une organisation extrêmement méthodique ayant présidé à ce prodigieux ordonnancement des phénomènes de la vie ? J'ai trouvé cette compatibilité entre Religion et Science dans une réflexion basée essentiellement sur des données matérielles. Je dois dire que je l'ai retrouvée le jour où — Dieu en soit remercié — j'ai abordé l'étude du Coran et recherché longuement et trouvé dans sa lecture une illustration nouvelle de cette compatibilité entre Religion et Science dont l'examen des textes bibliques aurait pu logiquement m'écarter.

Disons tout de suite que les études objectives du texte coranique à la lumière des connaissances modernes, c'est-à-dire l'application à l'examen d'une Ecriture Sainte des acquisitions de la Science, m'a fait découvrir des énoncés relatifs à de multiples phénomènes naturels qu'on ne peut attribuer à un homme en raison de ce que l'on sait de l'histoire des Sciences. Il m'apparut que les acquisitions de la Science s'avéraient absolument indispensables à la compréhension de nombreux versets et que d'autre part l'étude du Coran à la lumière des connaissances

n'aurait osé mettre en doute le fait qu'ils rapportent avec exactitude les paroles de Jésus : ils étaient, disait-on, l'œuvre de témoins directs de sa Mission. Les Evangiles n'étaient-ils pas appelés les « Mémoires des Apôtres ». Une résolution de 1965 du Concile de Vatican II ne concluait-elle pas formellement dans ce sens ?

Or, voici que quelques années après le dernier Concile, cette conception fut battue en brèche par des travaux parus à partir de 1970, œuvre de théologiens chrétiens eux-mêmes. Ceux-ci ont procédé à une étude rigoureuse des textes avec tous les éléments qu'offrent le savoir moderne en matière linguistique, archéologique, historique, etc... On admet parfaitement aujourd'hui que les quatre Evangiles canoniques ne sont que la traduction de ce que pensaient de Jésus des communautés diverses qui n'avaient pas sur lui, cela ressort des textes, le même point de vue, puisque des événements de sa mission sont traités de façon différente selon l'optique des Evangélistes porte-parole des communautés. Les commentaires de la toute récente Traduction Oecuménique de la Bible (Nouveau Testament 1972), œuvre de plus de 100 spécialistes catholiques et protestants. nous le disent sans la moindre ambiguité ; l'expriment également des travaux de l'Ecole Biblique de Jérusalem, pour ne citer que les plus autorisés. J'ai donné de ces études des références précises et nombreuses dans mon livre « La Bible, le Coran et la Science », qui a été édité en 1976 en français et en 1978 en arabe et en anglais.

A vrai dire le Concile de Vatican II avait cependant fait une exception pour l'Ancien Testament puisqu'il affirmait dans la Déclaration Conciliaire n° 4 que ses livres « contiennent de "l'imparfait" et même du "caduc" ». Les travaux modernes démontrent qu'il est légitime de porter ces mêmes appréciations sur les Evangiles.

Et sur le plan du dogme lui-même, que dire aujourd'hui de travaux comme ceux de ces sept théologiens britanniques, dont le président de la Commission de la Doctrine de l'Eglise d'Angleterre, publiant en 1977 leurs conclusions sous le titre : « Le mythe de Dieu incarné », véritable contestation de la Trinité.

Quant à l'Ancien Testament dont les récits peuvent être contradictoires comme ceux de la Création ou du Déluge, ou tout à fait incompatibles avec des données modernes sur la formation de l'Univers ou des données de l'histoire, comment les prendre au pied de la lettre, tant sont évidentes les manipulations des textes par les hommes au cours des âges. Les connaissances modernes diverses appliquées à l'étude des textes ont ainsi conduit les esprits objectifs à ne plus accorder à la Bible l'authenticité dont elle fut parée, sans aucune preuve, dans les siècles passés.

n'admettent pas qu'un esprit objectif, tout en gardant intacte sa foi en Dieu, ose se pencher sur les fondements de cette foi que sont les Ecritures pour en faire un examen critique, sans préjugé.

L'intransigeance dans le conformisme fait que dans les pays occidentaux à notre époque la croyance en Dieu subit, à mon avis pour cette raison, un grave préjudice.

Dans une première période de notre existence nous acceptons sans discuter ce que dans ce domaine on nous enseigne : l'enfant reste très sensible jusqu'à un certain âge à des considérations où le mystère a une grande place et accepte facilement ce qu'on lui présente comme des vérités qui ne se discutent pas. Certains conservent à l'âge adulte cette même soumission aux enseignements de l'enfance et même donnent une grande place dans leurs croyances religieuses à ce qui relève d'états d'âme particuliers, au demeurant fort légitimes. Mais généralement le sentiment de foi subit de rudes assauts à partir du moment où l'individu grandit, est instruit sur le monde qui l'entoure et regarde avec admiration les réalisations humaines basées sur le savoir profane progressant à notre époque de façon vertigineuse. Pris dans le tourbillon du matérialisme alléchant, comment le jeune homme moderne ne serait-il pas gagné par sa séduction?

De ce fait, le sentiment religieux en Occident, sous une influence judéo-chrétienne prédominante, accuse actuellement une chute impressionnante. Sa traduction matérielle est mesurable avec une rigueur absolue : on la trouve dans le déclin des vocations religieuses parmi les jeunes. En voici un aperçu :

Selon les statistiques de l'Episcopat français, il y avait en 1965 en France approximativement 36.000 prêtres. Le corps ecclésiastique aurait pu se renouveler de façon satisfaisante avec un apport moyen annuel de 1 500 nouveaux prêtres. Mais en 1967 ceux-ci n'étaient plus que 489 ; depuis, leur nombre a régulièrement baissé pour tomber à 136 en 1976 et à 99 en 1977. Le nombre d'étudiants inscrits dans les séminaires est tel qu'on peut être assuré que pour les toutes prochaines années moins de 100 prêtres nouveaux seront formés chaque année, ce qui permet de dire qu'à ce rythme et compte tenu du nombre, croissant chaque année, des démissions, l'Eglise n'aura plus que des effectifs squelletiques dans très peu de décennies.

Une des raisons fondamentales de cette désaffection de la jeunesse pour la vie religieuse en pays chrétien est la perte de la crédibilité dans les Ecritures bibliques et je m'en explique :

Jusqu'au Concile de Vatican II (1962 - 1965) on ne discutait guère, en dehors du cas de rares spécialistes, de l'authenticité des textes de la Bible qu'on acceptait en leur état actuel. C'est ainsi que, pour ce qui concerne les Evangiles, personne



RELIGION, ECRITURES SAINTES ET SCIENCE

par le Docteur Maurice Bucaille

Ancien Chef de Clinique Chirurgicale à la Faculté (Université de Paris)

Membre de la Société Française de Gastro-Entérologie
et membre de la Société Française d'Egyptologie - PARIS (France)

Quelles raisons avons-nous au XX^e siècle de croire en Dieu ? La question est posée ici en introduisant dans son énoncé le facteur « temps », c'est-à-dire en prenant en considération des motifs particuliers au monde moderne. En effet, ce n'est pas un des moindres paradoxes de notre époque que des motifs en relation avec la science puissent écarter certains de la croyance en Dieu alors qu'ils fortifient d'autres dans cette même croyance.

On a voulu en effet au nom de la raison retirer toute crédibilité à l'héritage religieux que, sous des formes diverses, en des régions différentes, nous ont légué les siècles passés. On a voulu ne faire confiance qu'au savoir humain en incessant progrès dans la connaissance rationnelle de la vérité et ne voir dans la religion que le produit d'une imagination dépourvue de contrôle. On a ainsi écarté à priori tout document relatif à la croyance en Dieu : on accepte de tenir compte de ce que Platon a pu écrire sur Socrate dont on ne nie pas l'existence, mais que l'Ancien Testament ou le Coran parlent de Moïse et que les Evangiles nous transmettent les récits concernant Jésus, leurs textes ne sont pas jugés crédibles et on les rejette en bloc en raison de la nature des sujets traités. Telle est l'attitude des négateurs de l'ordre surnaturel dont les prises de position ont eu, en Occident, une grande faveur auprès des intellectuels du XIX^e siècle et ont conduit à l'élaboration de la théorie du matérialisme athée.

A l'opposé il y a ceux qui croient en Dieu, mais hélas ! dans les pays occidentaux — les seuls sur lesquels je me permets de porter un jugement à cet égard — trop nombreux sont encore ceux qui, du fait de leur éducation passée et d'enseignements actuels encore figés dans une rigidité inflexible,



Vue partielle de la salle.

(35) De Lartigue : **Monographie de l'Aurès** (1904).

(36) Archives Outre-Mer 8 X 222.

(37) Un rapport militaire note naïvement qu'il « a certainement joué un rôle dans les événements puisqu'il a été arrêté et incarcéré ». Jugé administrativement par la Cour disciplinaire, il ne fut condamné qu'à un an d'emprisonnement et 1.000 francs d'amende, ce qui semble prouver qu'on n'arriva pas à réunir de preuve contre lui.

(38) On jugera du zèle naïf de ce marabout à telle de ses proclamations : « Ne voyez-vous pas le gouvernement traiter tous ses sujets sans distinction de caste, ni d'origine ? Leur accorder la même sollicitude et la même compassion, étendre ses faveurs et ses bienfaits à tous (...), prodiguer ses bontés aux différentes classes de la population ».

(39) Cf. la carte **in** Archives Outre-Mer 8 X 222. A remarquer que, lorsque les renseignements fournis donnent des chiffres différents, les militaires retiennent toujours les plus élevés...

(40) La preuve **a contrario** est fournie par la révolte du douar Magra qui se détermina malgré les prédications et admonestations de son muqaddam. Mais il ne faudrait pas non plus en tirer la conclusion que les insoumissions se produisirent systématiquement contre les marabouts, ni mettre en doute la profonde religiosité des Chaouïas peut-être supérieure à celle des Arabes des Hautes Plaines.

(41) Selon Luciani, les Ouled Bou Aoun conservaient encore en 1888, le souvenir des deux çoffs qui divisaient le Bélezma avant 1830. Mais les collectivités insurgées se retrouvent dans les deux anciens çoffs : Ouled Chelih, Ouled Sidi Abderrahmân d'une part, Brakta, Halimïa, Ouled Fatma d'autre part, et rien n'indique que les querelles de çoff se soient maintenues entre elles.

(42) On en pourrait dire autant pour une autre famille ralliée, celle-ci de noblesse religieuse, les Ben Nacer de Khanga Sidi Nadji. Liée aux Ben Ganah, elle se montra également impuissante à empêcher l'insoumission chez les Ouldja Chechar. Inversement, les Ouled Derradi entrèrent en insurrection après avoir tenté en vain de rallier à leur cause le vieil aghâ Debbah, chef des Bou 'Okkaz, rivaux des Ben Ganah.

(43) La rédaction concise de certains télégrammes précise bien la portée de ces stéréotypes. Ex. : « Dans la commune mixte d'Aïn M'lila, sur 735 conscrits 646 ont été emmenés, 89 absents. Les Chaouïas seuls ont résisté. Les tribus arabes se sont soumises sans difficultés » (17 décembre) ; télégramme du 22 décembre : « Le douar Ras el-Aïoun a envoyé aujourd'hui tous ses conscrits. Ce douar de 8.000 habitants avait annoncé, dès les premiers jours, qu'il restait fidèle : il est arabophone ». A. G. 5 N 210.

(44) On comptait 8 écoles indigènes dans la commune mixte de l'Aurès sur 21 dans l'arrondissement de Batna.

CONCLUSION

(45) Au 12 février 1917, avaient rejoint 6.358 conscrits sur 6.643 appelés dans le département de Constantine (pour le service armé) et 4.612 pour le service auxiliaire sur 4.796. (A. G. 4.612). Le département d'Oran n'eut que 5 insoumis sur 5.652 appelés.

(46) Au mois de janvier 1917, les conscrits du douar M'zala (commune mixte de la Soummam) et ceux du douar Maâdid (commune mixte des Maâdid) refusèrent de rejoindre : trois conscrits de Nedroma s'enfuirent au Maroc.

(16) En revanche, ont rapporta que chez les Beni bou Sliman un fils aurait tué son père qui voulait le faire inscrire (ou l'avait fait inscrire) sur les listes des conscrits.

(17) Pétition des notables de Constantine du 26 septembre 1916 (avaient signé notamment : le Dr Moussa. Benbâdis Mohammed, Lefghoun, Ourabah). Cf. aussi la protestation des notables de Chateaudun du Rhummel (13 septembre) et de ceux de la région de Batna. (Archives Guerre 7 N 2.116). Selon le gouverneur, les Jeunes Algériens auraient fabriqué de prétendues pétitions venant des douars de Barika. (Archives Guerre 5 N 154).

(18) Ali ben Ahmed ben Zeimat et son frère Messaoud devaient tenir la montagne de 1915 à 1921. Ben Noui fut pris en février 1917 ; considéré comme l'assassin de l'administrateur il fut condamné à mort.

(19) C'est sur cette dénonciation que fut poursuivi le cheikh de Seggana, Mohammedi el-Hajj, dit Beloudini.

(20) Rapport du capitaine Fournier, chef de l'annexe de Biskra (12/12/1916). Archives d'Outre-Mer 8 X 221.

(21) Le nom d'Ouled Bou Aoun désigne à la fois les populations situées dans la plaine d'El-Ksar et des fractions qui n'avaient ni la même origine, ni la même coutume, notamment les Halimïa qui habitaient les flancs du djebel Mestaoua et les Ouled Fatma (ces deux dernières fractions passaient pour les plus belliqueuses et les plus intrépides de la région). Il serait donc vain d'affirmer leur solidarité tribale.

(22) Il en allait de même dans le Metlili. Les gens du douar Tilatou considéraient que la forêt domaniale leur appartenait et persistaient à y labourer et à y faire pacager. La brigade des Tamarins multipliait contre eux les procès-verbaux et les exaspérait.

(23) Est-ce un hasard si ces trois fractions Ouled Ali, Ouled Mehenna et Ouled Mohammed, furent également celles qu'Oscar Depont considère comme ayant dirigé le mouvement de rébellion ?

(24) Le 25 mars 1917, le gouverneur Lutaud écrivait avec cynisme : « La famine qui menace de sévir, dès la fin de l'été, conduira fatalement les indigènes aux engagements dans les tirailleurs et dans les travailleurs ».

(25) Le chiffre de 250 lui-même étonne, puisque le même inspecteur notait qu'il y en avait eu 153 engagés volontaires et 313 appelés.

(26) La nouvelle réglementation des dispenses, plus restrictive, fut signifiée le 18 octobre. Les frères d'engagés n'étaient plus dispensés. Or dans certaines familles, un fils s'était engagé pour mettre ses frères à l'abri. Elles purent juger avoir été trompées.

(27) Le Tribunal répressif de Batna eut à juger pour insoumission, le 28 décembre 1916, deux enfants, l'un de 12 ans, l'autre de 14 ans, que le cheikh avait inscrits sur la liste des conscrits de la classe 1917.

(28) Selon les informateurs « les cheikhs se sont livrés pour la plupart à un fourbi formidable qui a mécontenté les indigènes ». Quelques dénonciations donnant des chiffres suspects : l'aghâ Bou Hafs aurait demandé 500 F. par tête pour faire exempter les conscrits. A Barika, les **Kebar** exigeaient seulement 20 F.

III - Les explications de l'administration coloniale

(29) Je me permets de renvoyer sur cette question à mon ouvrage **Les Algériens musulmans et la France**, tome II, p. 1.174 à 1.189.

(30) Archives Outre-Mer 9 H 5.

(31) En septembre 1916, les Services français avaient saisi en Algérie huit de ces brochures de propagande en arabe, mais ils avaient recensé au total 110 factums de propagande germanophile.

(32) Cité par le rapport Flandin (26 novembre 1917).

(33) Elle annonçait la prochaine arrivée de Sliman el-Barouni, bien connu dans le M'zab qu'il avait visité en avril 1914.

(34) A trois reprises, la propagande allemande annonça que le capitaine Khaled dirigeait un mouvement insurrectionnel dans le Sud algérien. Sa famille avait, il est vrai, rejoint Tétouan et, selon le maréchal Lyautey, Khaled avait envoyé à son oncle en 1915 une correspondance « des plus suspectes. Mais il y avait en outre une correspondance secrète doublant la première, qui ne laissait aucun doute sur les véritables sentiments de Khaled à notre égard et sur ses sympathies pour l'entreprise de son oncle contre nous ». (Lettre à Clémenceau, 26 octobre 1917).

NOTES

(1) Dans l'Algérie coloniale on appelait « région des Aurès » tous les massifs montagneux allant du Bélezma aux Nememcha, ce qui représentait la majeure partie de l'arrondissement de Batna.

(2) Ont été consultées les Archives de la Guerre à Vincennes (A.G.), celles d'Outre-Mer à Aix-en-Provence (A.O.M.), ainsi que celles des commissions du Sénat et de la Chambre des Députés, et en outre, les débats des Délégations financières. Les fonds Clémenceau et Lebrun, les papiers du général de Bonneval ont été spécialement mis à contribution, ainsi que les divers rapports d'enquête sur les troubles insurrectionnels.

I - Bref historique des evenements

(3) Le général Deshayes de Bonneval a longuement détaillé toutes ces opérations dans un **Historique des troupes du Sud-Constantinois** du 1[er] novembre 1916 au 15 février 1917 et dans un second historique couvrant la période du 15 février au 30 avril. On peut les compléter grâce aux télégrammes du général Moinier, commandant en chef du XIX[e] corps.

(4) Le journal **Iqdam** écrivait en septembre 1922 : « En 1916 - 1917, on a enfumé, rôti, lardé les indigènes qui s'étaient révoltés contre la conscription et l'envoi aux tranchées... Les horreurs de Bélezma sont encore présentes à nos mémoires. Nous savons de quoi sont capables ces troupes livrées à leur instinct animal. ».

(5) Le général Moinier expliquait ce 22 décembre : « Les modifications survenues dans l'attitude des révoltés ; le grand nombre de conscrits inscrits d'office et de déserteurs amenés, la régularité des opérations de recrutement dans les communes voisines des régions en révolte sont preuves de changements notables, auxquels arrivée 250[me] brigade n'est pas étrangère ».

(6) La commission parlementaire d'enquête retint des chiffres voisins et trouvait 75.906 habitants dans les douars rebelles, dont 10.221 dans la commune mixte d'Aïn M'lila, soit 65.684 habitants pour l'arrondissement de Batna et sur une population totale de 289.898 habitants, 22,6 %. (Le pourcentage atteindrait 30 % par rapport à la population des 6 communes mixtes seules). Octave Depont écrit de son côté : « Les tribus effectivement soulevées ne représentent qu'un peu plus de 20 % de la population totale de l'arrondissement »

(7) Au cours de leurs tournées, les colonnes françaises récupérèrent au total « 3.759 fusils ou pistolets » : vieilles armes de chasse, fusils arabes à pierre.

(8) Ces évaluations sont en fait des maxima L'administrateur de la commune mixte de Bélezma évaluait le 24 novembre 1916, le nombre des rebelles entre 1.000 et 3.000. Le service des renseignements a retenu 2.453 (en fait 2.463 par suite d'une erreur d'addition).

(9) Dans son premier historique, le général de Bonneval affirme par exemple, que la commune mixte d'Aïn el-Ksar se joignit aux rebelles, mais il ne fait état que de douars ayant « connu une certaine effervescence » ou « partiellement contaminés ». Aucun des rapports ne les range parmi les douars rebelles. Le préfet de Constantine s'opposa en janvier 1917 à ce qu'une colonne y vînt en opération.

II - Un essai d'enquete historique

(10) Au 7 octobre 1916, le Ministère de la Guerre avait enregistré 7.822 Algériens tués, 30.354 blessés et 2.611 prisonniers.

(11) Archives de la Guerre 7 N. 2.116.

(12) Ces deux rapports sont restés inédits et figurent aux Archives de Vincennes, mais d'autres exemplaires existent à Aix et à Alger. Le Rapport Flandin peut être lu aux Archives du Sénat.

(13) « Dans l'arrondissement de Batna, les divers soulèvements (...) ont placé au premier plan de l'action une confrérie religieuse que nous retrouvons au même plan en 1916 ». **Les troubles insurrectionnels...** p. 231.

(14) D'après le sénateur d'Alger Colin déposant devant la commission sénatoriale de l'Armée, le 23 décembre 1916, une sorte de procession hostile à la France se serait déroulée à Biskra peu après la déclaration de la guerre.

(15) Cité par O. Depont : p. 241. Le même auteur parle aussi des « propos subversifs du cadi de Tolga, dont le fils aidé de trois ou quatre Jeunes Algériens, faisait prendre copie de tracts anti-français ornés de l'étoile et du croissant islamiques ».

Collectivités considérées comme « rebelles »
par le commandant en chef des troupes du Sud-Constantinois
au 17 décembre 1916

COMMUNE MIXTE DE BARIKA :

douar	Barika	: 4 mechtas
»	Metkaouak	: 2 fractions (5 mechtas)
»	Magra	2 »
»	Aïn Kelba	: 1 »
»	Seggana	: en entier
»	Sefiane	: 2 fractions
»	Ouled Si Slimane	: 2 »
»	N'gaous	: 2 »

COMMUNE MIXTE DE BELEZMA :

douars Merouana, Morcounda, Ouled Fathma : en entier
+ Ouled el-Ma partiellement.

COMMUNE MIXTE D'AIN TOUTA :

douars Tilatou, Briket et Ouled Aouf : en entier
+ 2 mechtas du douar Ouled Chelih.

COMMUNE MIXTE D'AIN EL-KSAR :

« Une certaine effervescence a régné dans les douars Chemora, Hermane, Harakta Djerma, dans une partie du douar Ouled Amor ben Fadel », mais aucun douar n'est considéré comme rebelle.

COMMUNE MIXTE DE KHENCHELA :

douar	Ouldja Chechar	: 2 fractions
»	Alienas	: 2 »

COMMUNE MIXTE DE L'AURES :

douar Zellatou : 3 sous-fractions

TABLEAU RECAPITULATIF DES POPULATIONS « REBELLES »

Communes mixtes	Nombre de douars considérés comme «rebelles»	Population totale de la commune mixte	Population des douars « rebelles »	Nombre de « rebelles »	Douars dits « contaminés »
BARIKA	8 sur 13	48 139	29 207	2 463	
BELEZMA	3 sur 14	41 288	8 448	142	1
AIN TOUTA	3 (*) sur 15	31 337	8 450	?	3
AIN EL-KSAR	0 sur 18	27 671	0	0	4 ou 5
KHENCHELA	2 sur 17	65 345	8 267	9 ou 61	
AURES	1 sur 15	34 326	6 437	290	
Total des 6 communes mixtes de l'arrondissement de Batna	17 sur 92	248 106	60 809	2 904 ou 2 956	
AIN M'LILA	4 ou (**) 5 sur 21		13 899	?	
TOTAL 21 ou	22 sur 113		74 708		8 ou 9

(*) 3 *douars et 2 mechtas du douar Ouled Chelih.*
(**) 4 *douars selon le Rapport Depont.*

plus large que les vieilles solidarités porta les hommes les plus décidés à choisir l'insoumission ou la révolte. Devant ce qui apparut être un enrôlement général des hommes décrété par les Chrétiens, l'esprit de résistance fut quasi-unanime. Mais beaucoup se réfugièrent dans l'attentisme. Ne se révoltèrent que quelques hommes jeunes des douars les plus pauvres et dans les cantons où les conditions géographiques permettaient d'offrir aux insoumis des refuges naturels.

Cette révolte populaire, échelonnée dans le temps et dans l'espace, sans chef connu ou sans direction collégiale qui eussent pu la coordonner, fut donc facilement, sinon rapidement, écrasée. Il y fallut tout de même deux mois là où en 1879 il avait suffi de deux semaines. Mais la chasse à l'homme se poursuivit plus longtemps et les autorités françaises parlèrent du banditisme comme l'une des séquelles de la révolte manquée.

En fait, celle-ci avait seulement visé, plus ou moins consciemment, à faire renoncer, comme en 1914, les autorités coloniales à leur projet d'enrôlement massif. Mais il s'avéra que celles-ci entendaient au contraire ne pas reculer et qu'elles réagirent avec brutalité. Dès lors, la plupart des hommes réfléchis jugèrent, pour reprendre le propos de certains Aurassiens, que « les gens du Belezma étaient insensés pour se lancer dans une pareille aventure ». Découragées, les *djemâ'as* livrèrent peu à peu les conscrits, les remplaçants ou les travailleurs requis ; seuls, quelques hommes armés s'accrochèrent tentant de délivrer ces hommes « non pas donnés mais pris » comme le disent certains.

Enfin, il ne faudrait pas oublier que si notre étude a privilégié l'arrondissement de Batna, cette région ne fut pas la seule à manifester son insoumission (45) avant de devoir s'incliner devant la force. D'autres opérations militaires eurent lieu simultanément, dans le Dahra notamment où il y eut plusieurs centaines d'arrestations ; mais partout ce que l'administration appelait « l'enlèvement des conscrits » fut obtenu sous la menace. Tirant le bilan matériel, le haut-commandement jugea qu'il avait dû distraire 6.000 soldats du front pendant quelques semaines, mais qu'il avait obtenu 25.549 recrues de la classe 1917. Les trois députés de la commission d'enquête conclurent eux aussi : « Nous avions besoin d'hommes ; nous avions en conscience le droit de les demander ; nous les avons eus ».

Charles-Robert Ageron
Professeur d'Histoire contemporaine
à l'Université François · Rabelais
Tours (France)

d) *Une révolte berbère ?*

Enfin, on pense inutile de s'appesantir sur la thèse raciale d'Octave Depont selon laquelle la révolte fut le fait des seuls Berbères Chaouïa de la montagne, ces rebelles par atavisme : « Les Chaouïa de l'arrondissement de Batna se sont insurgés sous tous leurs dominateurs. Il ont la rébellion dans le sang ». Or, le fait est que la très grande majorité des Chaouïa de l'Aurès proprement dit (à l'exception de trois sous-fractions) ne se révoltèrent pas et ne tirèrent pas un coup de feu contre les colonnes du général Bonneval. D'autre part, les premières rébellions furent le fait des tribus de la plaine du Hodna oriental, de part et d'autre du chott el-Hodna, et nul n'ignore que celles-ci sont purement arabes et de parlers bédouins. Les insoumis se réfugièrent dans la montagne bien qu'ils ne fussent pas berbérophones. Une révolte berbère. Telle fut pourtant la réaction immédiate du gouvernement général (43) et il fut désormais entendu dans ce milieu que seules « des populations sauvages et frustes, Berbères de race chaouïa, avaient pu s'insurger contre la France ». En laissant entendre que seules « ces régions fort arriérées, ayant à peine et quelquefois pas du tout pris contact avec la colonisation », s'étaient soulevées, on innocentait du même coup le refoulement colonial. En l'on affirma même aux parlementaires que là où l'autorité coloniale avait créé des « écoles indigènes », dans la vallée de l'oued Abdi notamment, « nous avons trouvé aisément des conscrits et des engagés volontaires » (44).

CONCLUSION

Les mouvements d'insoumission et de rébellion du Sud-Constantinois ne furent nullement comparables à ceux que la région avait connu au XIX[e] siècle. Ils ne paraissent imputables ni à la Rahmâniyya, ni à la rivalité de grandes familles soucieuses de s'évincer ou de se prémunir, comme en 1871, contre l'éventualité d'un abandon de l'Algérie. Ils furent une réaction collective quasi spontanée contre les exigences militaires insupportables du pouvoir colonial. Si l'on ne décèle pas de mot d'ordre précis, de refus généralisé qui aurait été lancé par des notables traditionnels ou des chefs improvisés, c'est peut-être seulement parce que, instinctivement, les populations étaient opposées à la mobilisation générale et entendaient s'y soustraire dans toute la mesure du possible. Aussi bien, les notables, marabouts ou caïds, étaient tous trop liés aux autorités françaises et la plupart s'étaient trop compromis pour être encore entendus. Ils ne purent empêcher le mouvement de révolte qui grondait dans la plèbe et ne voulurent pas en prendre la tête parce qu'ils le jugeaient vain.

Dans les régions voisines du Bélezma où flambaient les haines contre les récents refoulements de la colonisation ou dans les djebels Zellat ou Chechar qui vivaient trop à l'écart de la vie européenne pour n'attacher point foi à certaines rumeurs (le départ des Français, l'absence totale de troupes), un réflexe collectif

Seules quelques apparences ont pu tromper les commentateurs du temps. Que ces deux familles en particulier, traditionnellement opposées, aient avisé leur rivalité en cette période troublée est certes incontestable. L'assassinat, le 9 octobre 1915, du bâchaghâ 'Ali Bey ben Mihoub ben Chenouf autorisait les pires hypothèses. Inculpé de complicité dans ce meurtre, le *caïd* Mohammed Lazhari ben Ahmed Nacer était lié aux Ben Ganah. Par ailleurs, le chef du *bayt* Ben Ganah depuis 1910, Bouazîz, bâchaghâ des Zibân, multipliait les accusations contre le nouveau chef des Ben Chenouf, Si Bou Hafs ; à l'en croire, ce dernier avait annoncé publiquement à Sidi Okba l'insurrection imminente de l'Aurès. Il avait installé une garde composée d'Ouled Zian et de 80 cavaliers du Zab Chergui dans son bordj de Tkout et emmagasiné des armes à M'chounèch. Mais menaçait-il pour autant les Ben Ganah en se préparant à l'insurrection ou songeait-il seulement à sa propre défense ? Le vieil aghâ Bou Hafs, qui devait mourir en 1918, se préparait si peu à la rébellion qu'il prévint l'autorité française du danger et lui permit de prendre à temps les mesures militaires. C'est contre le soulèvement possible de ses administrés qu'il entendait se prémunir. Toutefois, lorsque le gouverneur Lutaud vint à Arris lui intimer l'ordre d'évacuer sa garnison de Tkout, il obéit malgré ses craintes.

Inversement, Si Bou Hafs accusait Bouazîz ben Ganah de tenter de soudoyer les gens de son clan par des dons divers et de dresser les autorités militaires contre lui. Il remontrait aux officiers que c'était là une détestable politique car, rappelait-il, « lorsque l'autorité française retire sa confiance à un chef indigène, ses amis à leur tour deviennent hésitants et les choses tournent mal ». On peut supposer que c'est lui qui dénonça le premier à l'administrateur de Barika, comme étant déjà réalisée, une velleité d'intervention des goums de Ben Ganah, levés au lendemain des événements du 11 novembre. Pénétrer en territoire civil était une illégalité ; intervenir auprès des Saharis en était une autre. Ben Ganah, bien défendu par les militaires qui avaient plus ou moins sollicité ces gestes, n'eut aucune peine à se justifier. En envoyant quelques goumiers dans le sud de la commune de Barika, à M'doukal, il entendait maintenir ses anciens administrés, les Sahari, dans l'obéissance et les réconcilier avec les Ouled Zian qui passaient pour dévoués aux Ben Chenouf. Il n'y réussit pas totalement puisqu'une partie des Sahari s'insurgea dans le douar Bitam et que la réconciliation entre Sahari et Ouled Zian se fit sous les auspices du sous-préfet de Batna.

Si l'on rapproche cet échec de celui de l'aghâ Bou Hafs qui ne réussit pas à éviter l'insubordination des Beni bou Slimân, on mesure à cette double impuissance des deux dernières grandes familles du Sud-Constantinois les limites de leur influence (42). Leur rivalité n'eut qu'une portée insignifiante dans le mouvement.

le « concours dévoué et désintéressé » (38). Toutefois, la grande majorité de ces marabouts se seraient montrés passifs, ce que Depont interpréta comme un attentisme volontaire. Il demeure que 3 seulement furent arrêtés, alors qu'on en comptait 7 dans la commune mixte d'Aïn Touta, 12 dans celle de Barika et 36 ou 40 dans celle de Belezma. Dans la commune mixte d'Aïn Khenchela, l'administrateur notait « qu'aucun personnage religieux n'avait manifesté quelque hostilité ; mieux, beaucoup sont intervenus en notre faveur ».

Les militaires qui firent procéder au rassemblement de toutes les données statistiques sur les confréries du Sud-Constantinois purent sans doute constater que l'implantation des *zâwiya* ne coïncidait nullement avec les épicentres de la rébellion (39). Dans la commune mixte de Barika la plus agitée, ne se trouvait aucune *zâwiya* et le nombre des *ikhwân* était particulièrement faible 920 sur 41.288 habitants ; dans la commune d'Aïn Touta ne se trouvaient aussi que 1.200 affiliés pour 31.337 habitants. Au contraire, dans la commune mixte de l'Aurès où l'on comptait 6 *zâwiya*, 3.600 *ikhwân* de la *Rahmâniyya* et 330 de la *Qâdiriyya* pour 34.326 habitants, un seul *duwâr* se révolta. Autant dire que la résistance à la conscription n'eut rien à voir avec la densité d'affiliés ni avec l'implantation ou l'encadrement confrérique (40).

c) *Les rivalités de çoffs ?*

Une autre explication, traditionnelle dans l'Algérie coloniale, ne manqua pas d'être avancée : La révolte aurait été amenée en partie par l'action des çoffs familiaux et elle aurait épousé les limites géographiques de leurs influences respectives. Avouons qu'après en avoir examiné le bien fondé, cette thèse nous paraît devoir être rejetée.

D'abord, pour en établir la vraisemblance, il y aurait à prouver que les çoffs de l'Aurès et du Bélezma (existaient-ils encore dans cette dernière région ?) se confondaient avec l'influence des Ben Ganah, des Ben Chenouf, voire des Bou 'Okkaz et des Ben Nacer. Il faudrait ensuite démontrer que les populations du Sud-Constantinois restaient encore dociles au commandement de ces grandes familles de *jawad* dont la plupart avaient vu leur autorité affaiblie, voire annihilée, en territoire civil : « les *Douaouda* du Bélezma sont rentrés dans l'ombre » notait Luciani en 1888 (41).

Il resterait enfin à expliquer comme les Ben Ganah et les Ben Chenouf, considérés comme très « loyalistes » envers la France, auraient pu vouloir pousser à l'insurrection.

b) *L'action des confréries ?*

A côté des « menées anti-françaises venues de l'étranger », éternelle et paresseuse explication de nos administrations coloniales, l'inspecteur général Depont et une partie de l'opinion française en Algérie mirent en cause, d'une manière non moins traditionnelle, l'action occulte des confréries musulmanes, « les exhortations de mystiques abrités dans leurs zaouias », ainsi qu'il fut dit aux Délégations financières.

Comme les populations du Bélezma et de l'Aurès étaient essentiellement affiliées à la confrérie *Rahmâniyya,* avec même dans certaines régions une adhésion massive à cet ordre depuis longtemps implanté — (quelque 6.000 *khouân* sur 60.000 habitants dans la commune mixte de Khenchela, selon le colonel de Lartigue en 1904 (35), mais 12.334 en 1916 selon l'administrateur (36) — nombreux furent ceux qui voulurent se persuader que la rébellion lui était imputable. Mais ils eurent quelques difficultés à trouver des responsables (« On n'a pu encore découvrir la main d'aucun marabout », télégraphiait le 23 novembre le gouverneur Lutaud, franc-maçon combatif qui exécrait les hommes de religion). Finalement, O. Depont incrimina la *zâwiya* de Tolga qui étendait son obédience sur une grande partie du Bélezma pour n'avoir pas « tenté de calmer l'agitation ». Il affirmait avec quelques réserves que « l'action maraboutique suggérée et conduite par une partie des Rahmanias du Bélezma semblait obéir à un mot d'ordre du cheikh de Seggana, le mokaddem Beloudini. ». Tel était, paraît-il, la « rumeur publique » (en fait, quelques dénonciations d'Européens et de Musulmans). Or, ce cheikh, alors âgé de 51 ans, n'avait que peu d'influence religieuse, bien que la *zâwiya* de Tolga l'ait défendu, et il n'était pas jugé suspect par son administrateur. Mais il était riche — 6.000 francs de rentes sans compter son traitement —, avait fait deux voyages à La Mecque, fréquentait les jeunes Algériens et fut dénoncé par le khodja de N'gaous où il exploitait une ligne de diligences. Son administrateur ayant demandé alors sa révocation, il fut arrêté et incarcéré, puis condamné. Il était connu comme adversaire du bâchaghâ Ben Ganah qui ne fut peut-être pas étranger aux rumeurs le désignant comme l'organisateur du soulèvement

Un second *muqaddam* fut arrêté, Mohammed Rahmani. Résidant dans la mechta Khanzaria, « centre du soulèvement », bien qu'il eût sauvé la femme et les filles de l'administrateur de Mac-Mahon, sa présence sur les lieux fut jugée suspecte par O. Depont. Mais ce dernier cite avec éloge quelques dignitaires de la Rahmâniyya qui intervinrent en faveur des Français, notamment 'Abdes-Semed de la *zâwiya* d'Aïn Chefâa (commune mixte d'Aïn el-Ksar) qui servait aussi d'informateur à l'administration et surtout Si Touhami Hassouni Chérif, *muqaddam* du douar Magra, dont la commission parlementaire soulignait déjà

et le Gouverneur général Lutaud n'hésita pas à affirmer devant les Délégations financières que « l'insurrection de l'Aurès était attendue par les Allemands ». Mais il n'en donna jamais aucune preuve dans ses rapports au gouvernement, tandis que Depont s'efforça laborieusement de rassembler quelques indices peu convaincants. Certes, les informateurs musulmans firent état de rumeurs qui couraient dans les douars : « Des étrangers étaient venus aider les Beni Bou Sliman avec des canons » ; « on dit que les Snoussis menés par des officiers turcs, allemands et autrichiens préparaient le soulèvement de la Tunisie et de la frontière saharienne ». Et l'on prétendait même que des Allemands, des légionnaires déserteurs, conseillaient les bandes rebelles. Mais ce sont là pures fabulations.

Est-ce à dire qu'il n'y ait pas eu de propagande étrangère pour inciter les Algériens à la révolte ? On sait au contraire le grand effort des Germano-Turcs pour inonder l'Algérie de factums incendiaires : *Appels à la guerre sainte. Lettres de Si Ali Pacha, fils de l'Algérien 'Abdel Qâdir,* etc... (29). Certains disaient l'opposition des notables à la conscription et concluaient : « La population ne doit plus se contenter de faire des réclamations ; elle doit suivre une voie plus énergique » (30). Tel autre promettait le secours d'armées ottomanes : « Sachez que si vous faites éclater une insurrection dans votre pays contre l'ennemi et que votre résistance se prolonge, nous arriverons rapidement à votre secours, envoyés par l'Emir des Croyants ». Et ce libellé promettait formellement : « Tous les biens que les oppresseurs français ont spoliés à vos ancêtres seront partagés entre tous ceux d'entre vous qui auront participé à sa délivrance ». Parmi cette littérature de propagande (31), on relève même une « poésie à l'adresse des Chaouïas » dont le texte n'a malheureusement pas été conservé et des tracts en arabe dialectal où l'on expliquait la conscription par la peur des Français. C'était pour éviter une insurrection que la France entendait mettre les Algériens hors d'état de nuire, en les envoyant se faire tuer (32).

Il est naturellement impossible de savoir si cette propagande germano-turque eut une influence sur les lettrés du Sud-Constantinois. Qu'ils aient connu certains de ces textes est probable, puisqu'on saisit en automne 1916 une proclamation de guerre sainte faite par le sultan de Stamboul (33). Mais, même « les fausses nouvelles issues des manœuvres allemandes n'ont eu sur la révolte qu'une influence très indirecte », concluait sagement la commission des Affaires extérieures. Aucun révolté, ni aucun dénonciateur, ne firent allusion aux événements de Tripolitaine ou au mouvement anti-français dirigé dans le Rif par 'Abdal Malik, petit-fils d'Abdel-Qâder. Seuls les citadins des grandes villes eurent peut-être vent des informations allemandes qui associaient l'émir Khaled à l'entreprise de son oncle 'Abdal Malik.

et les miséreux. Cette argumentation, qui paraît à première vue éclairante, est toutefois assez inexacte. Certes, le décret du 7 septembre 1916 autorisait la suspension du droit de dispense et de remplacement, mais le gouverneur fit savoir, le 22 septembre, qu'il ne pourrait appliquer pareille mesure et obtint satisfaction. Au Ministère de la Guerre où l'on pensait qu'« étendre la conscription forcée, ce serait jeter dans l'opposition les parties influentes du milieu arabe, et c'est alors que le danger peut naître », on se rendit aux raisons de l'administration d'Alger : « la suppression du remplacement nous aliénerait les classes riches », avait écrit le gouverneur (26). Si le remplacement demeura donc autorisé, le fait est que la rumeur contraire courut chez les Européens et chez les Musulmans.

Mais le maintien de ce système injuste qui exemptait les seules familles riches et aboutissait à de honteux trafics disqualifiait tout autant l'administration française. Comme l'autorité militaire se faisait très difficile pour l'acceptation des remplaçants, les familles pensaient que plus le remplaçant pèserait, plus il aurait de chance de n'être pas récusé. Elles achetaient donc des hommes, selon leur poids, à 20 ou 30 *douros* le kilo dans le Nord, plus cher encore dans le Sud-Constantinois ; d'où un véritable trafic d'hommes : un remplaçant était vendu 2.000 à 3.000 F. parfois plus en 1916. Les notables, seuls en mesure de procurer des remplaçants, se faisaient verser des sommes d'argent considérables par les familles des conscrits. Même les dispenses légales ou les exemptions déterminées par le tirage au sort, qu'il avait été question de supprimer en août 1916 et qui furent maintenues, entraînaient, dit-on, de la part des *chioukh* ou des chefs de fraction des demandes de *bakhchich*. Ceux qui refusaient de payer pouvaient se voir inscrits, eux ou leurs frères, sur les listes d'appelés (27). Les réquisitions de travailleurs devaient se faire aussi sur les listes de recrutement militaire et ce furent les notables qui désignèrent ceux qui seraient appelés et ceux qui ne le seraient pas. Dans ces conditions il est logique que l'insoumission ait sévi particulièrement dans les douars les plus pauvres et parmi ceux-ci dans les familles les plus démunies, celles qui n'avaient pu acheter de remplaçants ou obtenir d'exemption par faveurs de leurs *kebar* ou de leurs *chioukh* (28).

Bref, à entendre les témoignages des Algériens, à mesurer leurs rancœurs contre le refoulement colonial, leurs oppositions aux exigences des autorités françaises, on se convainc aisément que les causes essentielles et directes de la révolte furent bien la levée intégrale de la classe 1917 et la réquisition des travailleurs.

III - Les explications de l'administration coloniale.

a) *La propagande allemande ?*

Le climat de guerre et la mentalité de l'administration coloniale devaient provoquer pourtant un autre type d'explication à ces révoltes. O. Depont trouvait « à l'origine de l'insurrection des manifestations de la propagande allemande »,

Coïncées désormais entre les hauteurs du Bélezma et les terres de colonisation, les populations qui avaient perdu leurs moyens d'existence avaient tendance à multiplier leurs empiètements sur les forêts ; d'où un conflit aigu entre les éleveurs et le service des Eaux et Forêts (22). « La création du centre de Corneille, expliquaient par exemple les gardes forestiers, a refoulé en forêt trois mechtas du douar Merouana qui ne disposent d'aucun terrain de parcours » (23). Les populations avaient déjà réagi, avant 1914, en manifestant ce qu'il était convenu d'appeler « une violente hostilité à la colonisation », par la multiplication des délits. C'est en partie pour remédier à l'insécurité qu'on avait créé, en 1904, la commune mixte de Bélezma et prescrit, en 1905, à l'administrateur qui habitait Batna de s'installer à Bernelle en attendant la construction d'un bordj administratif à Corneille. Simultanément, en moins de 18 mois, la cour criminelle de Batna avait infligé, pour rétablir l'ordre, un total de quelque 200 années de travaux forcés.

Dans ce climat, on comprend l'état d'esprit des habitants de cette région : en décembre 1914, ils revendiquaient hautement leurs terres et faisaient paître leurs troupeaux sur les nouvelles propriétés des colons. Ils prévenaient même ceux-ci qu'avec l'aide des Allemands ils ne tarderaient pas à retrouver leurs biens. Leur rébellion était donc prévisible et, à regarder la carte, il est frappant de voir que les douars situés à proximité des périmètres de colonisation récente abritaient tous des réfractaires ou des déserteurs armés, alors que les douars plus éloignés restèrent calmes. La révolte de Bélezma en 1916 fut donc très largement l'aboutissement d'une guerre commencée en fait en 1904 et qui s'était manifestée de 1912 à 1916 par 17 attentats contre des personnes.

Aucune détente n'était intervenue et la situation économique s'était dégradée ; les récoltes avaient été nulles en 1914 et médiocres en 1916. L'accroissement de la misère aurait pu faciliter les engagements (24), mais l'administration locale fit des difficultés pour verser les allocations journalières dues aux familles. Le 17 mars 1916, la commission des Affaires extérieures de la Chambre invita sèchement le gouvernement « à faire assurer le paiement régulier des indemnités dues aux familles des indigènes recrutés ». Encore ne savait-elle pas tout. Dans la commune mixte d'Aïn Touta, par exemple, 121 familles seulement percevaient au 12 novembre 1916 les allocations légales alors que, selon l'inspecteur des communes mixtes, 250 environ eussent été habilitées à les toucher (25) ; il parlait d'« inconcevable négligence ».

3°) *L'opposition contre les décrets de septembre* 1916.

Le mécontentement aurait été accru, selon l'opinion française en Algérie, par la brusque suspension des dispenses et du remplacement. Un délégué financier Delphin, expliqua qu'il n'y avait eu révolte que parce qu'on avait touché à la fois toutes les classes de la société algérienne et non plus simplement les journaliers

Les déserteurs et les insoumis excitaient leurs coreligionnaires à ne pas rejoindre ; dans certains douars, on aurait même menacé ceux qui se soumettraient. « Les gens des Ouled Aouf de Seggana et de toute la commune de Barika avaient dit qu'il ne voulaient pas donner de conscrits et que le douar qui obéirait au gouvernement serait attaqué par les autres », expliqua un khodja. Selon lui, la défaillance de certains douars qui livrèrent leurs conscrits, aurait décidé le cheikh de Seggana à commander l'attaque de Mac-Mahon avec le concours des « bandits de Metlili » (19). A supposer exacte cette affirmation, peut-être calomnieuse, on voit qu'il aurait suffi des suggestions d'un seul personnage de second plan pour allumer une révolte souhaitée par beaucoup dans cette région.

Mais cette révolte visait seulement, semble-t-il, à faire reculer l'autorité française dans ses projets de conscription. Selon les témoignages unanimes des *djemâa* : « la rébellion s'est produite uniquement au sujet de nos enfants ». « On disait que, dans toute l'Algérie, les Musulmans résisteraient à la loi et qu'ainsi le gouvernement reculera ». Ainsi s'expliquerait qu'à l'exception de l'attaque contre Mac-Mahon, il n'y ait pas eu de mouvement concerté : plusieurs douars se rebellèrent successivement, le jour prévu pour le conseil de révision des conscrits. Certains en furent empêchés par le déclenchement des opérations militaires. Selon le chef de l'annexe de Biskra, « une résistance générale avait été décidée entre toutes les populations (Nememcha, Harakta et Ouled Rechaïch) de la montagne et des hauts plateaux pour une insurrection, non contre la France, mais pour résister dans la mesure du possible ». Mais à la mi-décembre, devant la vue de colonnes circulant « partout à la fois », les tribus déconcertées étaient en plein désarroi (20). Cela n'empêcha pas la formation d'un ou plusieurs groupes armés et le 22 janvier 1917, encore un *djîch* vint libérer des conscrits près de Khanga Sidi Nadji.

2°) *Les rancœurs contre le refoulement colonial.*

Au total, il reste à expliquer pourquoi une minorité de douars fut concernée. Lesquels ? Le mouvement d'insoumission, esquissé dès septembre 1914 dans les communes de Barika, Bélezma, Aurès et Khenchela, s'alluma à nouveau deux ans après dans la plaine du Hodna oriental après l'échec de la colonne militaire envoyée à Barika. La rumeur d'une attaque des bordjs courut même l'Aurès dès le mois d'octobre et se matérialisa curieusement un mois après contre les postes de Mac-Mahon et Barika. Ce furent les gens des tribus Ouled Soltane (douars Ouled Aouf, Markounda) et Ouled Bou Aoun du Bélezma (douars Ouled Fatma, Merouana et Ouled el-Ma) qui s'insurgèrent solidairement les premiers (21). Pourquoi ces douars ? Là se trouvaient impliquées des populations qui, insurgées et séquestrées en 1871, avaient été refoulées une douzaine d'années avant 1916 pour la création des centres de colonisation de Corneille (1903), Bernelle et Pasteur.

appeler des conscrits. Pour l'ensemble des communes de l'arrondissement de Batna, 123 hommes avaient été appelés en 1914, mais 246 en 1915 et 506 en 1916. En fait, compte tenu des engagés et des remplaçants, les chiffres réels d'appelés furent de 75 en 1914, 138 en 1915 et 419 en 1916.

L'incorporation de la classe 1916, réalisée le 2 août dans la commune de Barika et ailleurs dans la deuxième quinzaine du mois, avait déclenché des protestations très vives. Mais lorsqu'on apprit, fin août, le recensement de la classe 1917 qui devait être tout entière incorporée, cependant que des hommes seraient réquisitionnés pour aller travailler en France, l'opinion presque unanime dans les douars fut que le gouvernement organisait une conscription forcée de tous les hommes de 18 à 45 ans. Il avait été de plus question de la double suppression des dispenses pour charges de famille et du droit au remplacement. Toutes les familles se sentirent donc visées et furent solidaires dans leurs protestations. « Nous ne donnerons pas nos enfants ! crièrent à l'administrateur, le 24 septembre 1916, les hommes de la mechta Taleb du douar Metkaouak (commune mixte de Barika). Nous préférons les voir mourir en Algérie plutôt qu'en France ». Des Algériens de Touggourt, après un voyage à Batna, rapportèrent : « L'effervescence dans la région du Nord est due aux ordres donnés que les conscrits ne peuvent plus se faire remplacer et que la conscription est générale pour tous, de 18 à 45 ans. Tous ceux qui ne sont pas pris comme soldats doivent partir comme travailleurs, sauf les impotents... C'est pourquoi les montagnards ont déclaré qu'ils ne marcheraient pas et se révolteraient plutôt ».

Les notables des villes du Constantinois pétitionnèrent eux aussi contre l'appel de la classe 1917, puis contre la réquisition des travailleurs : « Abandonner femmes, enfants et biens pour aller travailler en France nous paraît un sacrifice au-dessus de leurs forces » (17). Le Gouverneur général voulut y voir une campagne organisée par les Jeunes Algériens, cependant que le ministre de l'Intérieur, rendu inquiet par la multiplicité des lettres de protestation, recommandait, le 28 septembre, de ralentir le recrutement par réquisitions dans les régions difficiles.

Or, dans ces régions, le nombre des insoumis et déserteurs augmentait. Le commandant du territoire de Touggourt signalait, le 15 novembre 1916, que sur les 150 cavaliers du 1er régiment de spahis mis à sa disposition en 1915, « il n'en reste plus que 85 ; quant au 3me régiment de spahis à Biskra, il ne compte plus qu'une huitaine d'hommes pour 50 chevaux ». En ce qui concernait les tirailleurs, on évaluait à 3.214 le chiffre de ceux qui avaient quitté, depuis 1914, leurs unités stationnées en Algérie ; 286 étaient originaires de l'arrondissement de Batna. Le mouvement fut-il concerté ? Certains déserteurs s'étaient organisés en bandes, lesquelles arrêtaient les diligences et coupaient les routes. Des « bandits d'honneur » prenaient parfois leur tête, tels les frères Ben Zelmat dans l'Aurès ou Ben 'Ali Mohammed ben Noui installés dans le Metlili depuis 1915 (18)..

un peu plus tard dans une correspondance adressée à une personnalité italienne de « la sauvagerie de la France » : « Elle incorpore nos enfants dans l'armée et les envoie à la mort. Elle les pousse au premier rang dans les mêlées et dans les assauts, malgré eux. On dirait qu'elle achète des bêtes de somme au marché (...) Pourquoi faisons-nous la guerre aux Allemands ? Parce que la France nous a mis au rang des bêtes et qu'elle nous pousse contre des gens avec qui nous n'avons ni relations, ni causes d'inimitié ...) Vive la paix ! Vive l'Afrique du Nord indépendante débarrassée du collier de la servitude ! ».

Bien que ce témoignage nationaliste soit unique, il ne faisait sans doute que traduire des sentiments plus largement répandus.

Dans la région de Barika, on disait en 1916 que l'Allemagne était sur le point de remporter la victoire et que la France était perdue. Des prophéties, des chansons annonçaient de prochaines insurrections : « Le Tell sera dévasté et réduit en poussière comme un bois vil, de Sétif à Bordj bou Arréridj ». L'Algérie était dégarnie des régiments d'active et une chanson composée dans le Hodna assurait : « les Chrétiens sont partis avec leur colonnes et ont été engloutis par les vagues de la mer ». Ces rumeurs ne firent que se multiplier de 1914 à 1916.

Le 15 octobre 1916, le préfet de Constantine écrivait au gouverneur Lutaud : « Le bruit se répand que si le gouvernement appelle non seulement les jeunes gens (comme soldats), mais les hommes de quarante à quarante cinq ans (comme ouvriers), c'est que nous manquons totalement d'hommes ». Plusieurs des conscrits réfractaires qu'on arrêta en décembre 1916 avouèrent : « On nous avait dit qu'il n'y avait plus de Français » ; d'autres expliquèrent qu'à Biskra et Batna on ne voyait plus que quelques zouaves, des territoriaux « à barbe blanche », qui ne paraissaient guère redoutables. L'un des chefs des insurgés du Metlili, Mohammed Ben Noui, encourageait ses hommes peu avant l'attaque de Mac-Mahon en leur criant : « En avant ! En avant ! Auriez-vous peur de 20 zouaves ? »

La répulsion qu'inspirait aux populations algériennes l'appel sous les drapeaux français n'avait elle aussi cessé de s'amplifier. Dès la fin d'août 1914, l'administrateur de Barika signalait « un commencement d'agitation inspiré par les travaux préparatoires de la conscription ». Et celui de l'Aurès s'entendit répondre : « Nous sommes prêts à vous donner tout ce que vous nous demanderez, notre argent, nos récoltes. Mais nous préférons mourir sur place plutôt que de donner nos enfants ». Une protestation, lancée semble-t-il d'abord dans la région de l'Oued el-Abdi, fut souvent répétée : « Nous ne voulons pas donner nos enfants à l'autorité française pour qu'elle les offre en pâture aux canons de ses ennemis » (16). Devant ces résistances, les autorités militaires avaient cru devoir faire circuler dans l'Aurès, du 29 octobre au 11 novembre 1914, une grosse colonne et elles renoncèrent à y

Bien d'autres diagnostics furent formulés, parmi lesquels l'historien peut retenir les jugements du sénateur Flandin, dans le rapport détaillé qu'il fit devant la commission de l'Armée le 16 novembre 1917, et ceux du ministre de l'Intérieur en date du 23 décembre 1916. Mais on doit essentiellement avoir recours à deux enquêtes menées en Algérie, l'une au début de 1917, par la commission des Affaires extérieures de la Chambre, et l'autre postérieurement, par l'inspecteur général des communes mixtes, Octave Depont (12). Tous ces textes, largement contradictoires, doivent être interprétés et lus avec précaution, mais surtout peut-être le monumental rapport Depont du 1^{er} septembre 1917 (454 pages dactylographiées). C'est une œuvre au fond polémique, écrite pour la justification de l'administration civile et où grondent les passions coloniales ; c'est aussi l'œuvre du spécialiste animé d'une véritable phobie contre les confréries musulmanes, et d'avance persuadé qu'« à l'origine de toutes les insurrections indigènes dirigées contre nous, on rencontre toujours une main maraboutique » (13). Les députés de la commission d'enquête avaient au contraire rejeté cette explication en écrivant : « Le fanatisme musulman n'a pas non plus joué de rôle dans les troubles de Batna ; bien au contraire, les influences maraboutiques sont intervenues en notre faveur ».

Les divers rapports diffèrent également sur les responsabilités du décret du 14 septembre 1916 (qui prévoyait l'embauche ou à défaut la réquisition de travailleurs), sur l'effet de la propagande étrangère et sur l'ampleur des événements. Par exemple, O. Depont, en parlant d'une « proclamation de la Révolution » le 11 novembre 1916, accrédita la thèse d'une insurrection politique, tandis que les députés jugèrent au contraire : « Pas un instant, le mouvement n'a eu le caractère d'un mouvement insurrectionnel dirigé contre la souveraineté et la domination française ». Ces jugements contradictoires appellent l'arbitrage de l'historien qui peut être conduit, il est vrai, à des explications différentes de celles retenues par les contemporains.

Il lui appartient d'abord d'écouter plus attentivement que ne le firent les Français de cette époque les témoignages des Algériens. Or, ceux qui ont été conservés permettent d'imaginer les réactions de l'opinion.

1°) *Les témoignages des Algériens.*

Quelques Algériens dont la correspondance fut interceptée, ne cachaient pas au début de la guerre leurs espérances. Un intellectuel écrivait de Tolga à un jeune Algérien d'Alger : « J'ai trouvé à Biskra les esprits très agités (14)... J'espère qu'il se produira une grande révolution qu'on pourra appeler la Révolution algérienne (...) Les jours viennent à nous avec des visages amis. Les frères sont dans la joie, la lèvre du temps nous sourit » (15). Et il se plaignait

comme « rebelles » les douars qui avaient refusé la conscription ou laissé commettre des sabotages, 22 douars peuplés de 75.068 habitants seraient entrés en rébellion. Les fractions touchées représentaient ainsi environ 22 % de la population de l'arrondissement de Batna (6). (cf. tableaux annexes).

Enfin cette révolte ne mobilisa guère, semble-t-il, que des déserteurs partis avec leurs armes et des insoumis à l'armement hétéroclite ; très peu nombreux furent les autres Algériens qui y participèrent, sans doute faute d'armes (7). A combien peut-on évaluer le nombre de ces « maquisards » ? La commission disciplinaire établie à Batna « pour condamner là où la justice ne se serait peut-être pas contentée de preuves insuffisantes » selon le rapport parlementaire, condamna 805 prévenus « mineurs » sur 825 inculpés et 165 inculpés « majeurs » furent traduits devant les conseils de guerre ; cela ne signifie pas qu'il y eut un millier d'insurgés, mais donne un premier ordre de grandeur. Les services de renseignements militaires ont évalué à 2.614 les rebelles dans trois communes les plus concernées et à 290 ceux de la commune mixte de l'Aurès (8).

Au total, il paraît donc conforme à la réalité de parler de trois à quatre mille insoumis plus ou moins organisés parmi les quelques dizaines de milliers qui furent tenus pour entrés en état d'insubordination dans une région peuplée de plus de 300.000 habitants. Certes, deux hauts fonctionnaires suggérèrent notamment dans leur historique des événements des chiffres plus élevés (9), mais la critique des sources ne permet pas de les suivre. Ce serait de même une erreur d'attribuer, au nom de je ne sais quel romantisme, l'exclusivité de cette révolte aux « rudes montagnards Chaouïas de l'Aurès », « cette Vendée des causes perdues » selon un publiciste français.

Mais alors le problème doit être posé : quelles furent les origines exactes de ces troubles insurrectionnels du Sud-Constantinois qui ont inspiré une littérature coloniale aussi abondante que suspecte ?

II - Un essai d'enquete historique.

Notre souci d'une information impartiale fut aussi celui de certains contemporains. Le 16 novembre 1916, Clémenceau, alors président de la Commission sénatoriale de l'Armée, demanda à être exactement renseigné sur les causes et la nature de ces troubles. Le Ministère de la Guerre lui répondit avec une rude franchise : « L'enthousiasme du début de la guerre a fait place à une aversion progressive du service militaire à laquelle les pertes subies par les tirailleurs algériens ne sont pas étrangères (10). A ces causes de mécontentement il faut ajouter dans le Sud-Constantinois la sourde rancune accumulée par la création de centres de colonisation (Mac-Mahon, Corneille, Pasteur) qui refoulent des douars sur des terres à peu près incultes » (11).

La répression avait été, selon le rapport de l'inspecteur des communes mixtes O. Depont, « ce qu'elle devait être rapide, énergique, sans faiblesse ». Le général de Bonneval, dont les troupes eurent 15 tués, 30 blessés et 2 disparus, estimait qu'une centaine de Musulmans avaient pu être tués au cours des opérations. Mais pour les députés de la commission des Affaires extérieures qui vinrent enquêter sur place, ce dernier chiffre paraissait être inférieur à la réalité. Leur rapport stigmatisa comme « un massacre inadmissible » le fait qu'on avait parfois tiré sur des gens qui s'enfuyaient ; il déplora qu'ait été refusée, comme trop tardive, la soumission du douar Ouled Messaoud. Enfin, les députés condamnèrent les procédés de représailles collectives : mechtas brûlées, silos vidés, blé et bétail saisis et revendus. Le général Moinier devait lui-même se plaindre des excès des zouaves européens d'Algérie « qui au Bélezma ont provoqué des incidents ». La mémoire collective des Algériens a surtout retenu l'action « des Noirs sénégalais qui incendièrent, violèrent et tuèrent » (4).

Ce simple rappel des faits pose une première question : la répression militaire avait-elle écrasé dans l'œuf une insurrection plus vaste ? On le laissa entendre dans les rapports militaires, sans toutefois y insister. Selon une information retenue par le commandement, les rebelles de l'Aurès et du Chechar auraient décidé à Sidi Fathallah, dans l'espoir de faire basculer les indécis, d'attaquer dans la nuit du 28 au 29 décembre, Medina, puis Arris et Tkout. Ils n'y auraient renoncé qu'à la vue d'unités armées de mitrailleuses et de canons. Mais ces informations reposaient sur une source unique et ne purent être vérifiées.

Selon les civils, la terreur provoquée par l'escadrille d'avions Farman aurait eu des effets positifs. En réalité, les 6 avions venus de Tunisie firent quelques vols de reconnaissance à partir du 1er février et 3 furent aussitôt accidentés. L'administrateur de Khenchela constata qu' « ils étaient un objet de distraction, non de crainte ». C'est pourquoi, à partir du 12 février, ils jetèrent quelques bombes loin des villages, à titre d'avertissement. S'il y eut effet dissuasif, il tint sans doute plutôt au doublement des forces engagées : 6.142 hommes et 106 officiers au 1er décembre 1916, 13.892 hommes et 275 officiers au 1er janvier 1917. Mais on doit bien remarquer que le mouvement de rébellion régressait avant même que les troupes venues de France fussent réellement engagées, le 22 décembre (5).

Ce qui autorise une seconde question : l'insurrection n'aurait-elle pas été moins importante que les autorités militaires ne le redoutèrent au début ? Si l'insubordination, le refus opposé à la conscription et à la réquisition des travailleurs touchèrent une très vaste région, ce fut très inégalement. Malheureusement, on ne peut pas établir avec certitude combien de douars ou de fractions se montrèrent réfractaires ; de 22 à 30 sur 113, semble-t-il, selon qu'on enregistre ou non les douars dits « contaminés ». Selon les officiers de renseignement qui considéraient

Au total, s'étaient constituées trois zones de rebellion : la plus importante dans le Bélezma, le Metlili et la plaine de Barika ; la seconde dans l'Aurès oriental et le Chechar ; la troisième dans les massifs situés entre Aïn Kercha et Khenchela (Fedjouj, Bou Arif).

Le commandement militaire français qui ne disposait en fait que de 6.000 hommes en état de faire campagne, notamment des Sénégalais cantonnés à Biskra, les employa d'abord à protéger les centres de colonisation (Bernelle, Corneille, etc...) et des points stratégiques (Arris, Tkout). Puis, devant la relative passivité des insurgés qui se bornèrent à quelques coups de main pour « délivrer leurs frères » incorporés d'office, il passa à la contre-attaque le 18 novembre. Les troupes sénégalaises furent lancées dans le djebel Bosdan puis dans le Mestaoua où elles eurent dix tués le 5 décembre ; des bataillons de zouaves et des Sénégalais ratissèrent ensuite du 19 au 30 décembre le Bélezma préalablement encerclé par des barrages de troupes. Il avait fallu aussi renforcer les garnisons de l'Aurès.

Les effectifs se révélant insuffisants pour la préparation de ces opérations, le général de Bonneval demanda des renforts au soir du 30 novembre quand il apprit l'attaque d'un convoi, près de Bernelle, qui permit aux recrues de s'enfuir ; le gouverneur Lutaud qui, jusque là, minimisait le mouvement réclama soudain deux brigades de renfort et des avions « pour terrifier les indigènes ». Le haut commandement français accepta, non sans réticences, de retirer du front une brigade de 6.000 hommes qui arrivèrent en Algérie pour les opérations de la mi-décembre. Celles-ci se poursuivirent en janvier : des colonnes parcoururent tous les massifs montagneux ; fouillant les grottes, arrêtant insoumis et déserteurs, elles opérèrent aussi bien dans le Mestaoua, le Metlili, le Chechar que dans le Hodna et l'Aurès (3).

La plupart de ces opérations furent de simples tournées de police : il n'y eut nulle part de combats après décembre 1916, ni même de résistance armée. L'administration civile retint à titre symbolique la date du 24 janvier 1917 où l'on avait tiré quelques coups de feu sur l'administrateur de la commune mixte des Maadid comme signifiant la fin des mouvements insurrectionnels. En fait, dès le 5 janvier, le général de Bonneval considérait la révolte comme terminée, sauf dans le Chechar et le douar Zellatou et le gouverneur général proposait, le 19 janvier, le renvoi de la 250^{me} brigade d'infanterie. Elle ne regagna la France qu'en mars après avoir participé à des « tournées destinées à montrer la force militaire » jusque dans la commune d'Aïn M'lila (djebel Guerioun). Pour le général de Bonneval les opérations ne prirent fin que le 27 avril.

I - Bref historique des evenements.

Le 10 novembre 1916, le gouverneur général de l'Algérie signalait au gouvernement français que les résistances à la conscription qui s'étaient manifestées depuis la fin de septembre avaient pris un tour inquiétant dans le Sud-Constantinois où l'on avait enregistré en 12 jours, 18 assassinats ou tentatives d'assassinat. Dans la commune mixte de Barika, une petite colonne militaire destinée à impressionner les populations avait dû rebrousser chemin, face à leur menaçante détermination. Dans la commune mixte de l'Aurès, un seul douar avait présenté ses conscrits et l'administrateur faisait craindre une attaque contre Médina.

Celle-ci se produisit en réalité loin de là, le lendemain, contre le bordj de Mac-Mahon, siège de la commune mixte d'Aïn-Touta, après que les opérations du conseil de révision se fussent déroulées calmement en présence du sous-préfet de Batna, Cassinelli, et de l'administrateur, Henri Marseille. Une troupe évaluée de 800 à 1.500 hommes envahit dans la nuit du 11 au 12 le village, incendia et pilla le bordj non gardé ; les deux fonctionnaires français furent assassinés. Dans la même nuit, un brigadier forestier de la station des Tamarins fut tué et dans la commune de Barika près de N'gaous une ferme saccagée. Le 12, le village de Barika était encerclé et assiégé jusqu'à l'arrivée d'une colonne militaire dans la nuit suivante. Le 14, un détachement de zouaves fut attaqué près de Seggana ; le 18, la colonne essuya des coups de feu dans le douar voisin Tilatou.

Dans les jours qui suivirent, plusieurs douars de la commune mixte de Bélezma s'insurgèrent et des hommes armés se jetèrent dans les montagnes boisées d'alentour, notamment dans le djebel Mestaoua, comme plus au Sud d'autres se réfugiaient dans le massif du Metlili.

Au Nord, dans l'arrondissement de Constantine, quatre ou cinq douars de la commune mixte d'Aïn M'lila refusèrent de présenter les inscrits à Aïn Kercha et certains de ceux-ci gagnèrent les montagnes proches, djebels Guerioun, Fedjouj et Bou Arif. Des conscrits furent enlevés Le 18 décembre, une centaine d'hommes des Ouled Sebah allèrent attaquer dans la commune mixte d'Aïn el-Ksar, au S. W., le vieux village de Chemora peuplé de Musulmans et négligèrent le nouveau Chemora peuplé de colons.

Les tribus de l'Aurès, dont on redoutait l'action, demeurèrent dans l'expectative : seuls, chez les Beni bou Sliman, deux fractions du douar Zallatou, 1.500 habitants sur les 35.000 de la commune, passèrent à l'insoumission et le manifestèrent par quelques pillages. Enfin, dans la commune mixte de Khenchela, plusieurs fractions du douar Ouldj Chechar (2 à 5 selon les sources) et la totalité du douar Aliennas avaient pris les armes au lendemain du 11 novembre.



LES TROUBLES INSURRECTIONNELS DU SUD-CONSTANTINOIS

(novembre 1916 - janvier 1917)

Par le Docteur Charles-Robert AGERON

Professeur à l'Institut d'Histoire,
Faculté des Sciences de l'Homme,
Université François Rabelais — Tours (France)

C'est une affirmation courante mais exacte que l'Aurès, « cette Kabylie du Sud », représenta un des hauts lieux de la résistance algérienne pendant toute la période coloniale : ne fut-il pas le théâtre d'insurrections répétées, quasi périodiques ? Toutefois, dans l'énumération de celles-ci, les chroniqueurs ont peut-être trop facilement rattaché les soulèvements de 1859, 1860, 1864, 1871 et 1879 aux agitations de 1916, et certains ont parlé d'une grande insurrection de l'Aurès entre novembre 1916 et mai 1917. Qu'il y ait là quelque exagération, on s'en convaincra aisément en analysant les troubles qui, durant deux mois environ, agitèrent assez profondément le Sud du Constantinois du Hodna oriental au djebel Chechar, l'Aurès proprement dit étant à peine touché (1).

Dans les limites d'une brève communication, nous présenterons d'abord un historique succinct des événements, en nous attachant ensuite à en apprécier les caractères et les origines, notamment par la critique des diverses explications qui en ont été proposées. Mais cette recherche fondée sur l'utilisation des seules archives françaises ne saurait être exhaustive ; elle appellerait en complément une enquête rétrospective auprès d'Algériens ayant participé au mouvement insurrectionnel et la consultation de documents qui pourraient avoir été conservés (2).

S'il est avéré que l'Histoire est la mémoire des nations, que celles-ci peuvent atteindre les cîmes si elles en tiennent compte, si Schopenhauer a dit vrai en affirmant que « l'Histoire est, pour les nations, ce que la raison est pour les individus » (1), si elle n'est donc pas matière à apprendre par cœur et à ânonner, s'il appartient aux nations de tirer la leçon des expériences, de promouvoir le rapprochement des peuples sur la base de la justice, afin de renforcer leur solidarité, c'est là tout le sens à attribuer à l'inclusion de ce thème dans l'ordre du jour de votre séminaire, en demandant à chacun de nous d'éviter les outrances et les faux pas, d'observer la plus grande rigueur scientifique et probité intellectuelle possibles, pour ne nous en tenir qu'aux faits précis et aux arguments convaincants.

Dans le cas contraire, craignons que la colère de Dieu ne nous pétrifie et qu'Il ne condamne votre science au tarissement et à la sécheresse !

Puisse Dieu nous préserver de pareilles calamités, qu'Il éloigne de chacun de nous le mal de la critique passionnée, pardonne à celui qui n'ose pas affronter les libres débats (2), multiplie les récompenses de celui qui les aborde avec témérité et élargisse pour nous les horizons du savoir.

Qu'il dispense enfin à notre séminaire Sa lumière et Sa générosité, l'inspire chaque fois un peu mieux, l'élève toujours plus haut et le porte plus loin.

Que le salut soit sur vous !

---

(1) Schopenhauer (Aphorismen) : « Was die Vernunft dem Individuum, das ist die Geschichte dem menschlichen Geschlechte ».

(2) De ce Séminaire, s'entend.



De droite à gauche : Capitaine Belkacem NOUASRIA, adjoint du chef de la Ve Région Militaire, MM. Noureddine SAHRAOUI, wali de Batna ; Mouloud Kassim NAIT-BELKACEM, prononçant l'allocution d'ouverture et le Commandant ALLAHOUM, chef du Secteur Militaire.

Le chien, ce symbole de la fidélité, est jeté à la rue par son maître, l'être dit humain, ou bien on l'attache à des poteaux ou à des arbres et autres piquets pour qu'il meure sous les coups, sous les jets de pierres des enfants, de faim et de soif, et tout ceci pour la tranquillité des vacanciers et autres profiteurs et jouisseurs assurés de l'impunité et même de simples observations ou remontrances.

5°) Le cinquième thème a pour titre : « Passé et continuité : telle est l'Algérie, et ce n'est ni un enfant ni un fantôme ». Nous rappelons à notre jeunesse la pérennité de son Histoire, son passé authentique, son Algérie non moins historique que des pays dont les dirigeants se plaisent à rappeler qu'il est (leur pays) « historique » et que d'autres pays ne sont que « jeunes », «récemment promus à l'indépendance » et autres formules sibyllines ou flagrantes qui ne signifient ni plus ni moins que ceci, avec un lourd sous-entendu péjoratif : « ces pays qui viennent à peine d'émerger du néant et de l'anonymat » !

Nous rectifions donc tout cela à l'intention de notre jeunesse, en ayant présent à l'esprit que, si certains professionnels de l'historiographie ont perdu la mémoire ou se sont fourvoyés dans des labyrinthes, les historiens, heureusement, ne sont pas tous de cet acabit !

Nous dirons à la jeunesse l'histoire de la patrie, cette histoire qui a été dénaturée pour agir à la manière d'un poison, à telle enseigne que d'aucuns ont pu dire, sans rougir, que nous étions « imperméables aux concepts d'Etat et de Nation ! ».

N'est-ce pas pourtant Massinissa qui disait : « l'Afrique aux Africains » ? (1) Et ceci n'est-il pas confirmé par les historiens romains et grecs ? Oserez-vous encore le nier, hommes du Maghrib ou du Machriq (2), chiîtes, achaârites ou azraquites ? Alors que des rabbins et des patriarches l'ont bien reconnu !

Nier cette réalité, outre que c'est un acte gratuit et arbitraire, ne peut provenir que d'un vil falsificateur, fût-il né dans une chaumière ou dans un palais, à qui aucun historien digne de ce titre ne sera reconnaissant !

C'est là un exemple de notre histoire oubliée ou que certains ont feint d'oublier pour ne retenir que les époques romaine (3) et française, comme si notre peuple n'avait pas existé, ou avait été oublié, tel le prophète Joseph au fond du puits biblique et... coranique !

---

(1) Salluste : « Bellum Jugurthae » (La guerre de Jugurtha).

(2) Dans le sens d'habitants de l'Orient et de l'Occident (Dieu des deux Machriqs et des deux Maghribs), c'est-à-dire les plumitifs du monde entier, excepté les intègres auxquels nous faisons allusion et qui existent aussi — Dieu en soit loué — dans le monde entier.

(3) Il s'agit de tous les envahisseurs du pays avant l'Islam : Romains, Byzantins, Vandales...

cet examen nous semble intervenir à son heure, afin que l'Université — notre ex-grande dame vénérée — soit sauvée de l'effondrement. Car nul ne conteste, de nos jours, que le contenu de celle-ci s'est amenuisé, que son niveau a régressé, que ses sources risquent de se tarir. Pour tout dire, l'Université aujourd'hui inflige parfois une cuisante déception aux étudiants studieux et sérieux, tandis qu'elle laisse assassiner entre ces murs la morale et les bonnes mœurs et qu'elle s'éloigne de plus en plus de l'intérêt bien compris des peuples !

4°) Quatrième thème : « Où va la famille dans le monde ? Vers des temps fastes ou difficiles ? » Nous voulons, par ce débat, lever le voile sur ce qui se trame contre cette institution vénérable, sur le sort hélas prévisible qui semble la guetter, à en juger par les sirènes qui s'acharnent contre elle et jubilent par anticipation à l'idée de son prochain déclin.

Certes, l'organisation des Nations Unies a bien fait en proclamant « l'Année de la femme » (1) et « l'Année de l'enfant » (2). Mais combien serait-elle audacieuse et inspirée en organisant trois autres années : pour l'homme, les vieux et les animaux (3).

Car il n'est pas concevable que ces trois entités n'aient pas, elles aussi, leur année. Seraient-elles dévaluées à l'instar des matières premières ? Ou serait-ce que le vacarme assourdissant déclenché par la femme les a reléguées à l'arrière plan ?

La situation actuelle de l'homme n'est pas brillante, car les coups qui sont dirigés contre lui de toutes parts, la cible permanente qu'il est devenu pour les uns et pour les autres, font que sa vie quotidienne est devenue un véritable calvaire et qu'il est moins bien traité que les animaux !

De nombreux organismes commencent à dénoncer cet état de fait, sous des appellations chaque jour nouvelles et multiples. Implantés en divers points de l'Europe, ils mènent campagne pour la « défense des droits de l'homme » *homme*, afin que le sexe mâle ne soit pas mis définitivement hors d'état... d'exister !

La tragédie vécue par les vieux, (hommes et femmes), les petits enfants et les animaux apparait dans toute son horreur lors des grandes vacances, quand la folie du départ s'empare de tout le monde et que les vieux sont jetés dans les asiles, lesquels, loin d'être des lieux de sauvetage, sont, au contraire, de véritables antichambres de la mort !

(1, 2, 3) L'O.N.U. avait déclaré l'année 1976 « l'Année de la femme », et 1979 « l'Année de l'enfant ». Nous lui suggérons ici d'adopter trois autres années : pour l'homme, les vieux (des deux sexes évidemment) et les animaux. Abstraction faite de l'efficience de telles « Années » et de leur aspect purement platonique, poétique et théorique.

Car c'est bien cet esprit de libre discussion qui nous fait goûter tour à tour la douceur et l'amertume, recueillir souvent l'orge des humbles là où nous escomptions récolter du blé, dans notre quête obstinée des joyaux qui naissent immanquablement du choc des idées et du dialogue ouvert à tous.

1°) Le premier thème de notre ordre du jour s'intitule : « Les Aurès : hauts faits et hauts lieux ». Nous aurons là l'occasion de parcourir les annales de cette région, ses jours et ses nuits. Nous constaterons, chemin faisant, qu'il est des nuits éminemment lumineuses, et ce ne sont certes pas les habitants de cette contrée qui nous démentiront, eux qui excellent à préparer et à mener à bien des événements majeurs, soutenus par leur sobriété et leur foi légendaires, ne reculant devant aucun danger ni sacrifice lorsqu'il s'agit de défendre la justice et le droit.

2°) Le second thème a pour titro : « Religion (ou foi) et Science ».

Il s'agira d'examiner sous cette rubrique ce que pensent et disent de la religion (ou de la foi) aussi bien le croyant convaincu et zélé que l'athée et le restrictif, le spiritualiste et le matérialiste.

Est-il vrai que la religion étouffe la science, qu'elle empêche le progrès et ne s'accorde donc ni avec l'un ni avec l'autre ? Nous attendons de pied ferme l'esprit génial qui nous en fera la démonstration péremptoire. Les auteurs de telles assertions en sont-ils sûrs et, partant, sont-ils en mesure de nous tirer de l'impasse avec eux-mêmes? A moins que ces assertions ne dénotent chez leurs auteurs un manque de confiance en eux-mêmes et qu'ils n'aspirent qu'à nous attirer à leur suite aux abîmes ?

3°) Nous aborderons en troisième lieu le thème : « Vue d'ensemble sur l'Université » .

Nous nous efforcerons de faire ressortir le rôle de l'Islam dans la naissance et l'évolution de l'Université à travers le monde à partir du noyau initial représenté par la mosquée. Nous verrons comment l'Université a perdu de son lustre d'antan, les atteintes qui sont portées à son autorité et à son prestige et le déclin de ses traditions, son incapacité à répondre au travail de sape d'une poignée de trublions. L'Université, jadis foyer de rayonnement et de courage lucide, est devenue aujourd'hui cette pusillanime qui sollicite le bon vouloir d'un Bendit (1). Aussi,

(1) Cohen Bendit, l'étudiant germano-français qui avait raté ses études et qui déclencha un grand désordre lors des manifestations en mai 1966 à l'Université française. Ces événements ont eu les effets les plus graves au sein de cette Université, des Universités à sa traîne et dans le monde. A telle enseigne que dans de nombreuses Universités, ce sont maintenant les étudiants qui décident des méthodes et des matières enseignées. D'où baisse du niveau, dissolution des mœurs, autant de résultats négatifs déplorés par le plus grand nombre qui ne cessent de s'en plaindre et de lancer des cris d'alarme .



« O, MADAME L'UNIVERSITE ! » (1)

par
Mouloud Kassim NAIT-BELKACEM,
ministre auprès de la Présidence de la République, chargé des Affaires Religieuses

Eminents professeurs,

Mesdames et Messieurs,

Frères étudiants, sœurs étudiantes,

Permettez-moi d'inaugurer cette allocution par les termes dont nous nous sommes servi pour clôturer nos précédents travaux à Ouargla et de vous souhaiter donc la bienvenue « dans l'une de nos citadelles avant et après l'avènement de l'Islam, là où le 1er Novembre a trouvé dès le début son berceau, au flanc des monts Chélia et Chalaâlaâ, même si l'un et l'autre sont presque chauves, en ces contrées qui n'hésitent pas à déclencher la guerre en cas de nécessité, quand retentit l'appel du destin, dans ces montagnes qui considèrent les lueurs de la poudre comme un flambeau et fêtent le martyr à l'égal d'une noce, à Batna, capitale des Aurès ! »

Cinq thèmes sont proposés à nos conférences et à nos débats, et nous les traiterons, comme à notre habitude, dans la clarté et la franchise qui nous dispensent des chemins tortueux et du chuchotement. Cette ligne de conduite restera nôtre comme elle l'est aujourd'hui et comme elle le fut hier. Il en sera ainsi jusqu'au jour où nous deviendrons incapables de parler et de lire même par le toucher, et le mieux qui puisse nous advenir dans pareille conjoncture serait la retraite du tombeau qui nous célerait à la clarté. Mais l'esprit des séminaires est désormais impérissable !

(1) Traduction de l'allocution d'ouverture du 12e Séminaire sur la Pensée Islamique, Batna le 07 septembre 1978.

TABLE DES MATIERES

1978 No 64

العدد 64

فهـــرس العـــــدد

انا للــه وانا اليــه راجعـــون

فقدت الجزائر احد قادتها الابرار ، الرئيس هوارى بومدين ، الذى كرس حياتـــه المليئة بالكفاح لخدمة الامة ، واشاعة الثورة فى كل مجال .

مات بومدين ، ولكن المبادىء التى ناضل من أجلها ، مبادىء الاشتراكية ، والتقدم ، واسترجاع الاصالة ، ستنمو ، وتتطور ، وتتعمق فى الوجدان الوطنى يوما بعد يوم .

وان المؤسسات المختلفة التى ،قيمت فى عهد الفقيد الراحل ، والتى ستقام فى هذا الاطار ، لتمثل ضمانا لسلامة الامة ، واستمرار الدولة ، وحماية مكاسب الثورة ، واطارا امثل ، لكل تطور حقيقى جدى .

واذا كانت أجهزة الاعلام الوطنية قد تكلمت عن النشاط القومي في مختلف القطاعات خلال عهد الرئيس الراحل، فنحن نكتفي بالاشارة فقط الى جانب لم يطرق، وهو النشاط الاسلامي.

واول ما يتبادر الى الذهن ــ ونحن نتحدث عن هذا النشاط ــ هو تلك الثانويات التى انشئت فى اطار التعليم الاصلى ، والتى قامت بدور كبير فى معركة استرجاع الشخصية العربية الاسلامية ، وامداد البلاد باطارات لمختلف الوظائف ، وانقاذ الآلاف من الشباب وانتشالهم من هوة الضياع ، واعادتهم الى حضيرة النشاط القومى العام ، واستقطاب العديد من الطلبة الافارقة والاسيويين ، من بورنــدة الى تايلنــد »

ولئن توحد هذا التعليم مع التعليم العام ، فقد تقرر انشاء شعبة اسلامية فى نطاق وزارة التربية تكون روافد لكلية الشريعة واصول الدين فى قسنطينة ، التى شرع فى بنائها منذ سنوات والتى نرجو ان تفتح ابوابها فى الخريف القادم .

ومن هذا النشاط أيضا ، ملتقيات الفكر الاسلامى السنوية التى تطورت واصبحت لها شهرة عالمية تتزاحم عليها نخبة من اساتذة الجامعات ، والبحاثة فى شتى فروع المعرفـــة الانسانية ، من القارات الخمس ، مسلمين ، وغير مسلمين .

بالاضافة الى انشاء المركز الثقافى الاســـلامى بالعاصمة ، وفروع له فى بعض الولايات ، وما يقوم به من نشاط ثقافى واسع ، ومتنوع ، لايصال الثقافة الى اوســـع عدد من المواطنين فى جميع انحاء البلاد .

وهذه المجلة ايضا ، التى قامت وتقوم بدور فى التعريف بالثقافة العربية الاسلامية بمفهومها الواسع ، واصبحت اليوم منبرا عالميا لمختلف الاقلام .

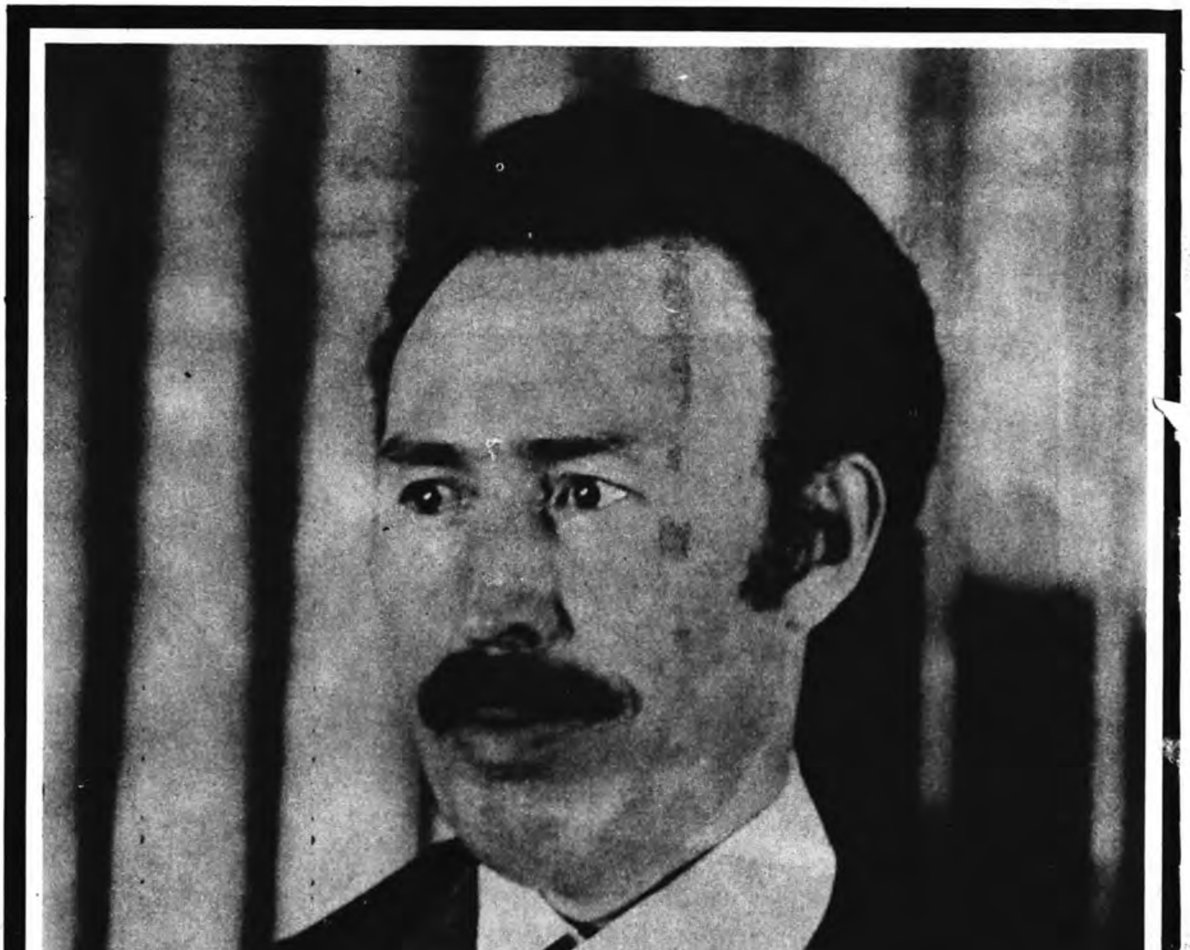
ومن هذه المكاسب ايضا ، ترسيم السلك الدينى وما ضمنه له ذلك من حقوق ، من الراتب المتدرج كما هو حال جميع الموظفين ، الى الضمان الاجتماعى ، والاجازة السنوية ، والتقاعد .

بالاضافة الى انشاء مدارس لتكوين الائمة فى مفتاح (ولاية البليدة) وسيدى عبد الرحمن اليلولى (ولاية تيزى وزو) وتلاغمة ، (ولاية قسنطينة) ، وسيدى عقبـــة (ولاية بسكرة) بعضها بدأ يشتغل والاخرى بصدد الانجاز .

هذا جزء من تلك المنجزات التى تحققت فى عهد الرئيس الراحل .

رحم الله الرئيس بومدين ، وأسكنه فراديس جنـــاته .

«الأصـــالة»



فقيد الامة الرئيس هواري بومدين رحمه الله

الامة تكبر فيك تفانيك
لبعث دولة لا تزول بزوال الرجال



الاخ عبد العزيز بوتفليقة ، عضو مجلس الثورة ووزير الخارجية ، يلقى كلمة **التابين** أمام جثمان فقيسد الامة ، الرئيس **هواري بومدين**

- **اسمك برنامج عمل ، ومخطط نهضة ، وأمل .**
- **لقد بقى منك فى كل جزائرى عظة**
- **لقد كنت لا تدخر جهدا فى الدفاع عن السيادة الوطنية ، ووحدة الامة**

بسم الله والله أكبر ،

أيها القائد العملاق ،

لقد تواضع الاخوة والرفاق وتواضع الاصحاب والخلان ، وآثروني على انفسهم لاقول كلمة الامتنان باسم الجميع ، وباسم شعبك العظيم ، فاين أجد الكلمات يا بومدين ؟ ومع ذلك فانني اقرأها في تماسك شعبنا ووحدته ، وأقرأها في عيون الكادحين الذين جعلت منهم عمالا منتجين ، انني أراها في عيون الفلاحين الذين أخرجتهم من الاكواخ وأسكنتهم ديار الكرامة ، انني أقرأها في طموح الشباب الذى فتحت له طريق الشموخ وطريق العزة ، انني أراها في هيبة جيشنا الوطني الشعبي الذى حملته لواء جيش التحرير الوطني ، يا قائد جيش التحرير •

انني أراها في شوارع مدننا المضطربة بمشاعر المحبة والعرفان ، انني أراها ، يا بومدين ، في وجه الاشقاء والاصدقاء الذين جاؤوا من كل حدب وصوب ، وفزعوا من كل فج عميق ليكونوا شهداء عليك ، ولتكون شهيدا عليهم • فبقلوب يعصرها الالم وتخفق بالوفاء ، ويعز عليها فراق واحد من المجاهدين والشهداء ، نقف أمامك أيها الرجل الذى قضى حياته بين ساحات الوغى مقاتلا جحافل الشر والعدوان ، وقائدا لكتائب النصر والايمان ، وبين ساحات البناء موطدا أركان الدولة ، وذائدا عن حمى الامة ، وجامعا للكلمة ، ومعبئا للطاقات ، ومتفانيا في تحقيق العدل والمساواة •

نقف أمامك في خشوع لا تحيط به الكلمات ، نقف أمامك في اجلال لا تستوفيه العبارات • وكيف نستطيع ان ننعاك وانت دائما ودوما حاضر في القلوب ، وكيف يمكن تابينك يا بومدين ، واسمك أيها الرئيس الراحل برنامج عمل ، ومخطط نهضة ، وأمل • انها مؤسسات وطيدة الاركان ثابتة البيان ، انه ميثاق أجمع عليه الشعب ، يشير الى الخطوات ، ويرشد الى الاهداف والطموحات • انها منجزات هي شواهد بارزة حية ، ومعالم مسيرة أمة كريمة أبية •

لقد برزت من صفوف هذا الشعب العظيم ، من بين فلاحيه الفقراء الذين اعتصموا بالجبال ، وقاوموا جحافل الطغاة عبر العصور ، فكانوا قلعة المقاومة وحصن الشخصية الوطنية ، وينبوع ثورة فاتح نوفمبر الخالد ، وهذا ما جعلك تأبى الضيم وتتعاطف مع المحرومين ، وتؤاخي المكافحين أينما كانوا ، وتغار على مقومات حضارتنا العربية الاسلامية ، ولا تدخر جهدا في الدفاع عن السيادة الوطنية ووحدة الامة •

أيها الاخ الرئيس ، أيها الشقيق الحبيب ، يا بن الشعب المفدى ، بارواحنا نفديك لو كان يقبل منا الفداء . والتضحية الكبرى فى سبيلك وددنا لو أننا نستطيع انقاذك . ولكنه قضاء الله المحتوم ، ولا مرد لقضاء الله .

« فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » فلا حول ولا قوة الا بالله ، واننا لقضاء الله لراضون .

لقد كنت يا بومدين مدعم وحدتنا فى كل الظروف ، لقد كنت يا بومدين قائــد نضالنا ، ونضالاتنا التى ارهبت الاعداء ، وسرت الاصدقاء .

لقد كنت الشعار الذى يلخص بأوضح العبارات ، تطلعنا العميق نحو المستقبل ، الذى أفنيت عمرك فى رسم صورته الزاهية . وها أنت تفارقنا على عجل يا بومدين ، ونحن ما زلنا فى أشد الحاجة اليك ، وشعبنا ما زال فى أشد الحاجة اليك ، الى روحك المتوثبة بعزم الشباب ، وحكمة المحنكين الى قلبك الكبير ، الى قلبك السموح ، الى رايك السديد ، الى بصرك المديد ، الى موقفك الرشيد .

ان هذه الجماهير التى أقبلت من كل حدب وصوب لتتحسر على فراقك ، وتحترق لوعة على ارتحالك ، وانما تبكى فيك اصرارك على المبادىء ، ووفاءك للمثــل التى سطرها شهداؤنا الابرار بدمائــهم الزكية وضحى فى سبيلها شعبنـا بالصفـوة من ابنائــه ، وتكبــر فيــك تفانيك الى آخـر رمق لبعـث دولة قويـــة لا تـزول بـزوال الرجال ، دولة تنتهج طريق الاشتراكية ، وتقوم على المؤسسات الشعبيـــة ، وان هــذه الجماهـير لتكبر فيك جهدك الدؤوب بالاعلاء من شأن الجزائر فى المحافل الدولية ، حتى أصبحت بلادنا كعبة الثوار ، وملجا الاحرار ، وقدوة فى المواقف المبدئية ، ونموذجا يحتذى فى حشد الامكانيات الذاتية لتحقيق التقدم والتنمية .

ان شعبا أنجبك يا بومدين لفخور بك ، وأنت بين ظهرانيه تسهر على الامانة ، وهو أيضا حافظ لذكراك ، ومواصل نهجك ، وأنت أيها القائد فى دار البقاء بعد ان نهضت مع رفاقك بالرسالة ، وما أثقل حملها . وقدت المسيرة اشواطا بعيدة ، وعبدت شطــرا كبيرا من الطريق ، وقلبك مفعم بالايمان بأصالة شعبك وتطلعه الى الانعتاق ، فكنــت وجيلك على موعد مع القدر ، فالتفت حولك سواعد الفلاحين ، وتكاثفت صفوف العمال والكادحين ، ورفع الشباب لواء الخدمة الوطنية ، وانتشرت فى ربوع الريف قرى الثــورة الزراعية ، وارتفعت فى سماء المدن منارات الصناعة ، ولاحت فى البلاد بوادر ثـــورة

ثقافية ، فلم يبق هناك مجال لضعاف النفوس من المترددين ، ولم تكـن هناك ثغـرة للمتربصين يا بومدين • لقد بقي في كل قلب منك ومضة ، لقد بقي منك في كل فكر عبرة ، لقد بقي منك في كل جزائري عظة ، سيرة تلهمنا مثل التضحية والثبات والتفاني في الواجب ونكران الذات والقوة في الحق ورباطة الجأش عند الاختبار والابتلاء ، وأمام المحنة والامتحان ، والحكمة عندما يحتار الآخرون ويتفرقون شيعا وأهواء •

فها هي جموع الشعب يا بومدين تمتزج في ملامحها الآلام ، وتريد أن تقول قولة الوفاء ، وترتفع أصواتها بالتكبير والدعاء ، جاءت لا لتوديعك • ولكن لتعاهدك يا بومدين على الفداء ، والاستمرار في النضال والبناء ، وحماية الثورة الاشتراكية ، ومكاسبها المادية والمعنوية . في هذا الموكب الرهيب رفاق لـك في السلاح ، واخـوة خضت معهم ميادين القتال والنضال ، حتى تطهرت أرضنا الغالية من الظلم والاستغلال ، وخفقت راية الحرية مخضبة بدماء الشهداء • انهم على العهد لباقون يا بومدين ، وعلى اختيارات الثورة ثابتون ، ولن يزيدهم هذا المصاب الجلل سوى الاصرار على تحقيق الاهداف المرسومة وحمايـة مكاسـب الثـورة •

أيها الراحل العظيم ، اذا كان شعبنا قد رزيء فيك بما لا يمكن ان يعبر عنه لسان ، فان الامة العربية لباكية ومتفجعة عليك ، وقد فقدت فيك ابنها البار ، وقائدا من قادتها المخلصين ، وصوتا مدويا في المحافل كلها بمبادئها الراسخة ، وكرامتها الشامخـة ، وحقوقها الثابتة ، انها لتبكيك بالانات والحسرات يا زعيم صمودها وتصديها • لقد كنت صدى الاوراس في حيفا والجليل ، وكنت غضبة جرجرة والونشريس في سيناء والجولان . وأمال المحيط والخليج في توثبه لليوم الاغر لدى أعتاب المسجد الاقصى وساحات ديـر ياسين ، ويبكيك الاحرار هنا في القارة السمراء ، وفي الصحراء الغربية ، وهناك في كل الارجاء حيث يكتب المناضلون بدمائهم الزكية صفحة أخرى من امجاد الدفاع عـن الكرامة والوقوف في وجه القهر والطغيان •

ان اصوات الباكين عليك يا ملاك المضطهدين لترتفع اليوم في أقصى المشـارق والمغارب ، ان ملايين المعذبين من بني الانسانية قد فقدت بفقدك المحامي الصلب عـن قضاياها ، والمناضل الشهم عن مطالبها • وان هموم بلادك ومقتضيات تشييدها لم تصرفك عن الكفاح المستميت من أجل اقامة العدالة في هذا العالم ، بين شماله الغني الغارق في الترف والغارق في التبذير ، وجنوبه الواقع بين مخالب الفاقة والمجاعة والحرمان ، لاجل

ذلك يا بومدين ، ولكل ما لك من مآثر خالدة ستبقى فى ضمائرنا حيا على الـــدوام وستسكن فيه ذكراك الطيبة الى الابد .

كيف تغيب عن الاذهان لحظة واحدة ، وكل ما فى البلاد ينطق باسمك يا بومدين ، كيف تغيب عن الاذهان لحظة واحدة وكل ما فى البلاد يرمز اليك ، كيف تغيب عن الاذهان لحظة واحدة وكل ما فى البلاد من اقصاها الى اقصاها ثمرة يانعة مما غرسته يداك .

أيها الراحل العزيز ، لا نريد اليوم ان نرثيك لان الرثاء للاموات ، وانت ما زلت بيننا وستبقى بذكراك وآثارك ومآثرك الى الابد على قيد الحياة ، و نت حى فى قلـــوب الجماهير ، أنت باق فى نفوس الملايين ، أنت خالد فى فصول تاريخنا المجيد ، واننا لنعاهدك عهد الرفاق الاوفياء ، ونعدك وعد الاخوة الاصفياء ، عهد الذين آلوا على البقاء بجانبك فى السراء والضراء .

اننا لنعاهدك على ,ننا سنظل على نهجك سائرين ، ولخطاك متبعين ، وعلى الامانـــة ساهرين . ويا أيتها الجماهير الباكية بدموع الرحمة والوفاء ، تعزى عن الفقيد الغالى والراحل العظيم الذى لبى نداء ربه ، تعزى بالصبر الجميل ، تعزى بالتمسك بالايمـــان الذى انقذك عند كل امتحان ، وخلدى ذكرى قائدك الفذ بالترحم على روحه الطاهـــرة ، والتضرع الى الله العلى القدير لتعظيم اجره ، واسكانه فسيح جنانه ، صحبة الاخيـــار الطاهرين ، جزاء ما قدمه للعروبة والاسلام من خدمات ، وما بذله من التضحيات فى ميادين الحرية أينما ذكر اسمها فى العالم كله ، وفى سبيل سعادة هذه الامة وكرامة هذا الوطن . ان أجمل ما نذكر به قائدنا الشهيد ، لهو مواصلة الطريق الذى سار فيه بنـــا اشواطا بعيدة ، والتمسك بالمبادىء التى كانت موضوع جهوده وسبب استشهاده ـ فوداعا يا هوارى بومدين ـ وداعا يا هوارى بومدين يا من كانت حياته الخاصة درسا فى الاخلاق الكريمة ، والعواطف النبيلة ، والسلوك القويم ، والاجتهاد الدائم ، والتواضع الجم .

وداعا يا من علمتنا كيف يموت الانسان العظيم فى صمت ووقار ، وكيف يحترق الى النهاية ليبدد الظلام ، وداعا أيها الانسان الذى سقط شهيد الواجب ومات من العياء والارهاق ، حين ضن على نفسه طوال ربع قرن من الزمان بلحظات يسيرة يفرغ فيها مـــن العياء ، ويستريح من العناء . فيا أيها الاخ الرئيس ، لقد اقتحمت بافعالك قلعة الخلـــود ودخلت المجد من بابه العريض ، نم الآن مستريحا فالجماهير بعدك مجندة والجماهير بعدك معبأة بقيادة حزب جبهة التحرير الوطنى لمواصلة الطريق . ويا أيها المجاهد الذى قضى

عمره فى النهوض بجلاء المهمات ، نم قرير العين ، فان مسيرة الثوار ستواصل وستواصل زحفها تحت راية جبهة التحرير الوطنى لتحقيـــق ما كنت تصبو اليه « ويا أيتها النفس المطمئنة أرجعى الى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » فالوداع أيها الرجل الذى كان من أولئك الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا .

الوداع ، الوداع أيها الاخ ، أيها الرفيق ، أيها الحبيب ، أيها الصديق ، ولا حـول ولا قوة الا بالله ، وانا لله وانا اليه لراجعون ، الوداع يا بومدين .

مساهمة ابن خلدون
فى تحليل علاقات المدينة والريف

د. جيلالى صارى
معهد الجغرافية
جامعة الجزائر



لا يستطيع أى باحث يشتغل بماضى المغرب العربى حديثا كان أم بعيدا أن يستغنى عن تحليل ابن خلدون الهام اذ أن هذا الكاتب قد تطرق الى المواضيع التى عولجت فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين. وهكذا كان من رواد علم جغرافية المدن بفضل تحليلاته القيمة للعوامل الجغرافية للمدن وكذا العوامل الاخرى الاساسية. كما أن صاحب المقدمة وكتاب العبر قد توصل أيضا الى تحديد أهم خصائص العلاقات الموجودة بين المدن والريف بالمغرب العربى ، خاصة التعريف الدقيق الى ظاهرتين بارزتين : وهما تجمع الاراضى لصالح أقليات لا تخدم الارض بصفة مباشرة ، وتحويل مكاسب الارياف الى المدن ، وهاتان الظاهرتان تصيبان الريف منذ قرون الى وقتنا هذا .

وهكذا تبرز لنا أهمية تحليل ابن خلدون التى يجب أن نعود اليها وأن نعمق دراستها بحذر ونقد وذلك أن بعض الجوانب منها قد جلبت أنظار بعض الكتاب لاغراض معينة

وهى تبرير الاحتلال وهيمنة الاستعمار عبر المغرب العربى ، وهذه الجوانب تتعلق بمفهوم تعميم الحياة البدوية فى المغرب العربى والعداوة الشاملة والمستمرة الموجودة بين سكان المدن وسكان الارياف ...

ونغتنم هذه الفرصة لمعالجة هذه المشاكل الخطيرة فى الوقت الذى تحاول فيه الجزائر أن تلتحق بالبلدان الصناعية وما يتضمنه هذا التحول الجذرى ، أى تغيير العلاقات التى حللها ابن خلدون .

وهكذا نتعرض الى المواضيع التالية :

- أهمية تحليل ابن خلدون .
- حدود تحليل ابن خلدون .

1 ـ اهمية تحليل ابن خلدون

انه لمن الصعب أن نتوسع الى مختلف جوانب هذا التحليل ولذا نكتفى فقط بالمحاور الثلاثة التالية أى النقط التى ظلت مهملة غالبا ولم تسترع أنظار الملاحظين ، مثل العوامل الاقليمية للاستطانة ، والتحضر وعلاقات المدن والريف بالمغرب العربى .

1) العوامل الاقليمية للاستطانة وتوزيع السكان

ان تاريخ البربر لا يحتوى على معلومات واسعة لتاريخ المغرب العربى فحسب كما أنه لا يقتصر على ذكر الحوادث وسرد الوقائع بل يحاول المؤرخ الكبير أن يربط الحوادث بالايطار الجغرافى وفى بعض الاحيان حتى على المستوى الاقليمى وان كانت الاشارات نادرة غالبا وهناك أمثلة كثيرة تبين ذلك مثل الحوادث والتواريخ المتعلقة ببعض القبائل كبنى فاتم ، وزواوة الذين يسكنون باقاليم بجاية وغيرهم لكن ابن خلدون يضيف الى حديثه معلومات ثمينة كما يوضحه المثال التالى المتعلق بالقبائل السابقة الذكر عندما يذكر « أن أراضيهم كثيرة الاشجار بحيث أنه يصعب على المسافر أن يمر بها » .

لمثل هذه الملاحظة أهمية عظمى وان كانت موجزة اذ أن الاشارة الى كثرة الاشجار فى هذه المنطقة المعينة وفى ذلك الزمن لا ترمز الى احترام التشجير فقط بل انها تدل

قبل كل شيء على ظاهرة وهي تخصيص السفوح والمنحدرات للاشجار المثمرة من أجل توفير الانتاج من جهة ، ووقاية التربة من جهة أخرى ٠

هذا ومن جهة أخرى استطاع الكاتب بفضل الوصف الدقيق أن يدرك البنيات الاجتماعية وذلك بابراز مميزات القبيلة كما يتجلى ذلك في عدة أمثلة وهكذا نتمكن شيئا فشيئا من ادراك خريطة الاستطانة وتوزيع السكان سواء في التل أم الصحراء بحيث أن هناك فرقا كبيرا بين معطيات ابن حوقل واليعقوبي من جهة ، وتحليل ابن خلدون من جهة أخرى ٠

ولهذه العبقرية مزايا اخرى جديرة بالذكر كاستعمال الاحصائيات مثلا خاصة فيما يتعلق ببعض الامور في ظروف معينة وفي أقاليم نائية الا انه في مثل هذه الظروف يجب أن نبقى متحفظين عندما نطالع ما جاء في ذكر عدد قرى وادي غير « وهي تبلغ حوالي 300 قرية وهي تتوزع على ضفتي الوادي » وكذلك الامر بعدد مدن اقليم الزيبان « حوالي المائة » ٠ ففي المثالين الغرض من الاحصائيات ومفهوم « القرية والمدينة » أهداف خاصة وهي الفات النظر الى ثروة تلك الاقاليم كما جاء في النص بصدد بسكرة « عاصمة الاقليم واحدى المدن الكبيرة بالمغرب العربي » ٠

وهكذا كثيرا ما يتجاوز المؤرخ الاحداث ليهتم بالمعاني البارزة مبينا علاقات الاحداث بالعوامل الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية ويتجلى ذلك كله خاصة في تحليله لنشأة المدن وتطورها أي التحضر ٠

2) التحـــضر

لتحليل ابن خلدون في هذا المجال أثر عميق يحتاج الى بحث موسع اذ أن مساهمته لا تقتصر على الوصف والتصنيف فقط بل قد اجتهد الكاتب في دراسة الموضوع بصفة منطقية وبالفعل فقد بين دور المحيط في التحضر وكذا دور المناخ وهكذا يتجلى لنا أن التحضر لا يتوقف على العوامل البشرية فحسب أي سلطة الامير ٠

هذا وقد اشتغل المؤرخ خاصة بالعوامل الجغرافية الاساسية فأكد على أهم العناصر في الوقت الذي لم تكن البيئة تتأثر بالتلوث ، كما انه التفت الى العوامل التي تلعب

دورا رئيسيا فى نشأة وتطوّر المدن كالموقع الجغرافى والموارد الطبيعية الحيوية كالماء والهواء،والطاقة،والاراضى الزراعية بالاخص فقد قال فانسون مونتاى : (1)

« لابد من تحصيل اشياء شتى لتنظيم الحياة الحضرية بطريقة مفيدة وأولها مشكلة المـــاء » .

وقد فسر تلك العوامل وتعمق فى مشاكل الهواء مستشهدا بمثال مدينة غابس بتونس . (2)

وما هذا التفكير الا تمهيد للابحاث الحديثة التى يعتمد عليها العلماء المعماريون كما أكد ذلك فانسون مونتاى (3) ، ومن أبرز أفكار ابن خلدون تحليله القيم للعلاقات الموجودة بين المدن والريف وكذا ظروف الاستطانة بالمدينة أى كل العوامل التى لها دور رئيسى فى التحضر ، وهكذا يتجلى لنا فى الاخير تفوق العوامل الديموغرافيـــة والاقتصادية والطبيعية على العوامل السياسية اذ أن المفكر يقول ان كثرة السكان تضاعف النشاط .

التحضر اذن نتيجة عوامل مختلفة وان كانت هناك رغبة سياسية وذلك أن التطور والنمو يتعلقان بالعوامل المذكورة سابقا فلكل مدينة علاقات وثيقة بالاراضى المحيطة بها غالبا وقد ألح على ذلك كثيرا صاحب المقدمة اذ أنه بين وحلل ذلك بدقة ولذا يعد من رواد المفكرين للقرن التاسع عشر .

تلك هى أهم النقط التى عالجها الكاتب سيما وأن تفكيره قد استمر فى زمن الانحطاط وانهيار التحضر بالمغرب العربى ، كما أن له الفضل أيضا فى تحليل جانب مهم وهو جانب العلاقات الموجودة بين المدن والريف .

3) العلاقات الموجودة بين المدن والريف

فى هذا المجال تبرز اهمية تحليل ابن خلدون خاصة وأن هذه الظواهر لازالت تلاحظ الى يومنا هذا فلقد انتبه المفكر الى تجمع الملكيات لصالح الاقليات ، وكذا

(1) V. Monteil : discours sur l'histoire universelle (al-Muqqadima), Beyrouth, Unesco, 1976 II, p. 720.

(2) خاصة وأن واحة هذه المدينة تأثرت بالتلوث بعد انشاء مركب كمياوى .

(3) "Il va jusqu'à annoncer nos enquêtes urbaines démographiques" - V. Monteil, op. cit., introduction, p. XXIX.

استغلال الدخل الزراعى خارج الارياف ، وبالتالى فى تدهور معيشة المزارعـــين اذ يقول الكاتب · (4)

« اعلم أن تأثر العقار والضياع الكثيرة لاهل الامصار والمدن لا يكون دفعة واحدة ولا فـىعصر واحد » ·

ثم يفسر ذلك مبينا بذلك عوامل تدهور معيشة المزارعين .

« وانما يكون ملكم وتأثلهم لها تدريجيا اما بالوراثة من آبائه وذوى رحمه حتى تتأدى أملاك الكثيرين منهم الى الواحد وأكثر لذلك أو أن يكون بحوالة الاسواق فان العقار فى آخر الدولة وأول الاخرى عند فناء الحامية وخرق السياج وتداعى المصير الى الخراب تقل الغبطة به لقلة المنفعة فيها بتلاشى الاحوال فترخص قيمها وتتملك بالاثمـــان اليسيرة » ·

وبعد تحليل هذا الشكل يتناول المؤرخ العبقرى جانبا آخر كان ولا يزال الظاهرة التى تتميز بها دائما أريافنا ألا وهى تحكم أصحاب ذوى الاموال فى الارياف وبالتالى سيطرة المدن على أراضى المزارعين فيعتمد المؤرخ على أمثلة بسيطة ولكنها محسوسة فيقول ان أصحاب الارياف لا يملكون الا الموارد التى تتمثل فى المنتوجات الزراعية كالحليب مثلا ولا يملكون النقود من الدنانير والدراهم فيتبادلون منتوجاتهم ولكنهم بقوا خاضعين الى أصحاب المدن وهكذا نلتمس الظاهرة الحديثة وهى تفوق وتغلب التجار على المنتجين وقد تعمق صاحب المقدمة فى هذه الافكار الحساسة وما هذا التعمق الا مرآة لاطلاع ابن خلدون على شؤون الارياف والمدن فى تلك القرون الغابرة فاستطاع بفضل احساسه ومشاعيره أن يلتمس حقيقة وقوانين الركود الاقتصادى والاجتماعى معا ، فضلت حياة المدن ونشاطها على صالح الارياف ولم تفتح المجال للتفتح الاقتصاى كما وقع ذلك فى الغرب المسيحى ، وقد أشار الى ذلك حديثا أحد المفكرين المطلع عـــلى الشؤون المغربية قائـــلا :

(4) ابن خلدون : المقدمة ، الطبعة الرابعة ـ بيروت ، بدون تاريخ ، ص 367 .

« فى المغرب العربى ان السيطرة على المبادلات والنقود وكذا الانتاج الثقافى والصناعى والاراضى ظلت خاضعة لنفس الاوساط وكانت الارباح التجارية تستثمر فى الاراضى فيتجنب صاحبها من ارتكاب الحرام المتمثل فى الربا ، الامر الذى لم يتعرض اليه بعد التجار الاوروبيين الذين سرعان ما توصلوا الى مرحلة الرأس المالية » (5) ٠

كل ذلك ينير لنا طريق التقهقر والانحطاط خاصة وان السلطة السياسية ظلت تعانى مشاكل وأزمات متسلسلة فلم يكن هناك بناء اقتصادى متواصل ومبنى على أسس متينة اذ أن السلطة ظلت منعزلة ٠٠٠

وهكذا تتجلى لنا عبر فحص هذه المحاور الثلاثة عبقرية صاحب المقدمة ورائد المفكرين للقرن التاسع عشر والقرن العشرين ، فتحليلاته القيمة لا زالت لها أصداء الى يومنا هذا ولكنه بالرغم من ذلك علينا أن نشير الى جوانب أخرى لا تخلو من غموض وتناقض ٠

2) حدود تحليل ابن خلدون

تقتضى الموضوعية والحقيقة التاريخية أن نشير الى بعض الهفوات وبعض التقاويم التى لا تتماشى وواقع المغرب العربى ، ألا وهى مشكلة البداوة فلنقتصر فى هذا الباب بالنقطتين التاليتين وهما : قلة وجود المدن بالمغرب العربى وتغلب البداوة ٠

1) « قلة » وجود المدن بالمغرب العربى

ذلك هو عنوان فقرة بكاملها يشرح فيها ابن خلدون فكرته الرئيسية بينما انه فى السابق قد أحسن تحليل التحضر واهم جوانبه ، فما هو السبب اذن ؟ فلقد جاء فى نصه ما يلى :

« كان عمران افريقية والمغرب كله أو أكثر بدويا أهل خيام وظواعن وقياطن وكنن فى الجبال » ٠ (5) اذن هناك تناقض واضح لكنه لا يكاد يثبته النص نفسه ٠

---

(5) وهو فى الفصل السابع : « فى أن المدن والامصار بافريقية والمغرب قليلة » المقدمة ص 357 .

(6) المقدمة ص 357 .

فى القرن الرابع عشر والخامس عشر التحضر ليس بقليل وان كان هناك انهيار محسوس بالنسبة للقرون السابقة وللتأكد من ذلك فما علينا الا أن نذكر بعض الاحصائيات ونقوم بشكل خاص بمقارنة مع الغرب.المسيحى فى العصر نفسه وهو الامر الذى لم يتوصل اليه بعد ابن خلدون نظرا لانعدام الاحصائيات وعدم تنقله باوروبا .

ففى المغرب العربى توجد شبكة من المدن قد ذكر ابن خلدون معظم أسمائها كما أنه يعرف حجمها المتوسط غالبا ، ولبعضها دور هام ، علاوة على مكانة العواصم.فاذا ما تركنا المثال الفريد من نوعه عبر كافة بلدان المغرب العربى ألا وهو مدينة فاس (6) ، فعلينا أن نتعرض ولو بايجاز الى عاصمة الزيانيين أى مدينة تلمسان .
وكذلك الى مواردها الزراعية فقد توسعت بسرعة المبانى واجتازت المساحة التى كانت تعرفها المدينة الحديثة فى أوائل القرن العشرين (7) بحيث أن بعض التقديرات تشير الى حوالى 100000 نسمة من السكان فى القرن الخامس عشر (8) ونفس المبلغ يلاحظ بمدينة قسنطينة ومثل هذا المستوى غير موجود فى ذلك الزمن بالغرب المسيحى اذ أن كبريات المدن فيه لا تزيد عن 50000 ن ولا توجد الا مدينة واحدة تبلغ 100000 ن وهى مدينة البندقية وحسب المؤرخين ان مدينة ذات 20000 ن كانت تعتبر عظيمة وفى أغلب الاحيان كان عدد السكان يتراوح بين خمسة وعشر الالف (9) .

وفى مثل هذه الظروف ليس لمزاعم ابن خلدون أى أساس من الصحة ، ان التحضر فى المغرب العربى وخاصة افريقية قد لفت أنظار الملاحظين دائما كما عبر عنه الكاتب بونصى مثلا (10) :

« ... فى قارة افريقية المعتنقة للاسلام قد نما اقتصاد جديد ، ومجتمع جديد حول

---

(6) Letourneau : Fès avant le protectorat, Casablanca, 1949.
(7) G. Marçais : Les Arabes en Berbérie du XI[e] au XIV[e] siècle, Paris et Constantine, 1913.
(8) Y. Lacoste, A. Nouschi et A. Prenant : l'Algérie, passé et présent, Paris 1960, p. 219
(9) H. Pirenne, G. Cohen et H. Focillon : la civilisation occidentale au Moyen-Age, du XI[e] au XV[e] siècle, Paris 1931.
(10) J. Poncet : Géographie historique, multig., Paris 1954, p. 22.

مدن كبيرة ونشيطة عززت العلاقات المتينة سواء بالارياف المجاورة لها أو ما نسميه الآن بباقي الاشعاع الوطني والدولي » ٠

ومن جهة أخرى يجب أن نلاحظ أيضا الميزة الدائمة لاغلب المواقع منذ اقدم العصور وذلك لسبب اجتماع عوامل طبيعية مساعدة وأما ما يخص الميزة السريعة الزوال ـ سبيا ـ لاغلب العواصم الدولية فيرجع ذلك الى أسباب سياسية محضة ٠

2) تغلب البداوة

ان هذه الظاهرة المنتشرة في المشرق الاسلامي كله نظرا الى ميزاته الطبيعية يجب علينا أن ندقق جدودها في بلاد المغرب العربي حسب المناطق المناخية الثلاثة أي التل والسهوب والصحراء ، فان كان ابن خلدون متاثرا جدا بالبداوة وذلك لاجل الامراء الذين احتك بهم وتعامل معهم طويلا ، فان ذلك ليس بغريب كما ان المؤرخ قد تاثر تاثرا قويا للمظاهر التي نتجت عن توغل قبائل الهلالية عبر الاقاليم وان كانت هذه المظاهر لا تخص الا افريقية ومناطق القطاع القسنطيني وحتى في هذه الحالة كان لانعكاس المزروعات لصالح تربية المواشي نتائج ايجابية على مستوى عوامل التربة والغطاء النباتي وبالتالي المحيط الطبيعي كله وخاصة ابطاءه مسيرة الانجراف على الاراضي الوعرة ٠

وأما في أماكن أخرى بقيت المناظر الزراعية كما كانت من قبل بحيث أن التل ظل يتميز بالمزروعات المكثفة كالاشجار الثمارية على السفوح والمزروعات المتنوعة تكثر بالقرب من المدن والجبال الاهلة بالسكان ، وأما السهول فتغلب فيها زراعة الحبوب وتربية المواشي ، تلك هي الخطوط العريضة لاهم أشكال الزراعة باراضي الشمال ٠

وأما ما يتعلق بكيفية استعمال السهول العليا فاننا نجهل ذلك تماما لانه لم تتوفر لدينا معلومات بهذا الصدد وقد تساءل عنها المؤرخ جورج مارسي ٠ ولكن تلك السهول التي لا فائدة فيها أثناء أشهر الصيف تمثل حيوية في باقي السنة ولذلك تلتجيء اليها معظم مواشي القبائل المجاورة بها كما بين ذلك المؤرخ السابق الذكر ٠ (11)

---

(11) G. Marçais : Les Arabes en Berbérie, op. cit.

وعلى كل للسهول العليا حيوية بالنسبة لاقتصاد المغرب العربى اذ أن مراعيها تلعب دورا هاما فى الاقتصاد الزراعى وبالتالى انها عنصر من عناصر الثروة كما ان منتوجاتها من غنم وصوف وجلد وغير ذلك تسوق فى المدن بالشمال ، وزيادة على ذلك فان السهول تمثل همزة وصل بين اقتصاد الشمال واقتصاد الجنوب وبالتالى فهى ممر لا مفر منه للتبادلات التجارية ولذلك نلاحظ أن معظم العواصم أنشئت بالقرب من السهول العليا كما تبينه مواقع القيروان ، وقلعة بنى حماد ، وتهارت وتلمسان ، فكل هذه العواصم تربط التل والسهول العليا ٠

وهكذا يتجلى لنا أن نظريته حول تعارض البداوة والحضارة فيها مبالغة شديدة وعلينا نتجاوزها خاصة وأننا ندرك فى المغرب العربى عدة مراحل بين البداوة والحضارة بل هناك علاقات كثيرة تربط الحضارتين ، كالعلاقات الاقتصادية والعلاقات الثقافية ٠ (12)

وكل هذه الامور تبين لنا وان افكار ابن خلدون تحتاج الى نقد وتحليل فان التحضر فى المغرب لا جدال فيه وهو يعتمد على أسس اقتصادية متينة، خاصة الزراعة وباستطاعتنا أن نركز على ذلك بواسطة نسبة سكان المدن وان كان التاريخ الديموغرافى يحتاج الى أبحاث (13) ، كانت نسبة سكان المدن بالمغرب الاوسط تقدر بحوالى 5 و 6٪فى بداية القرن التاسع عشر وهذا نتيجة الانخفاض المحسوس منذ القرون الوسطى ٠ وربما كانت ترتفع النسبة فى هذه القرون الى حوالى 10 الى 15٪، نظرا الى أهمية سكان مدينة تلمسان وكثافة المدن على وجه العموم . بينما أن فرنسا وقبيل الثورة الصناعية كانت النسبة تقدر بأقل من 15٪حسب بيار جورج ٠ (14)

---

(12) علينا أن نشير الى بعض العقود التى تنص على التعاون الاقتصادى بين مختلف القبائل مثلا .

(13) ان المؤرخين فى العهد الاستعمارى حاولوا أن يتجاهلوا الحقيقة الديموغرافية خاصة بالجزائر فآخر خلاصتهم أن سكان الجزائر كان يرتفع الى حوالى 3 ملايين من النسمة فقط عند الاحتلال بينما ببحثنا توصلنا أخيرا الى أقل مبلغ يقدر بخمسة ملايين من السكان، وهذا البحث يحمل عنوان Le désastre démographique de 1867-68. وهو تحت الطبع .

(14) P. Géogre : Populations et peuplement, Paris 1972.

وهكذا تدل كل هذه الاشارات على وجود اقتصاد متنوع يعتمد قبل كل شيء على انتاج زراعي هام ، **فلولا وجود نشاط زراعي ولولا تعزيز العلاقات التجارية عبر الاقاليم لماتعددت وازدهرت المدن** · ولذا علينا ألا نعمم الحياة البدوية على بلاد المغرب العربي بل ان مثل هذه النظرية قد كانت في صالح بعض الكتاب في القرن الماضي مثل : ابرنار الذي كتب حرفيا ما يلي : « ان السكان لا يحترمون الاشجار » (15) بينما أن الحقيقة التاريخية تبين عكس ذلك كما لاحظنا ذلك خلال هذا العرض وكما يشهد عن ذلك تعجب المسافرين الاوروبيين وخاصة ضباط جيش الاحتلال · (16)

الخلاصة

ان لتفكير ابن خلدون أهمية عظمى وذلك انه يتعلق قبل كل شيء بالانسان ومحيطه الطبيعي والاقتصادي والثقافي وحيث انه يكشف القناع عن تلك القرون المظلمة فانه يكتسي قيمة ثمينة خاصة لتكذيب كل الدعايات والمناورات التي سيطرت على تاريخ المغرب والقارة خلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين · وللمقدمة مكانة عليا ···

ولكن ككل ابداع بشري لتحليل ابن خلدون حدود ، وهذا التحليل لا يستطيع وحده أن يجيب عن كل تساؤلاتنا ، فهو كثيرا ما يساعدنا ولكنه يحثنا كذلك بمواصلة البحث والتفكير خاصة وأن سعينا في هذا المجال يصطدم بعقبات مختلفة تتمثل في ضياع تراثنا الثقافي نتيجة النهب الاستعماري ، ولذا لابد من بذل مجهودات جبارة للتغلب على هذه المشاكل ولادراك الحقيقة التاريخية ، وهكذا معركتنا اليوم انما هي معركة واحدة وشاملة من أجل التخلص من قيود الماضي وقيود الاستغلال الامبريالي ·

---

(15) A. Bernard : L'Afrique du Nord, in Géographie universelle, Paris 1937, T. XI, p. 65.

(16) J. Despois : Les cultures en terrasse en Afrique du Nord, Annales, 1956, pp. 42-50.
Dj. Sari : L'équilibre économique traditionnelle de l'Ouarsenis, Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée, Aix-En-Provence, 1971, n° 9, pp. 64-89.

الحاج أحمد بـاى وبايلك قسنطينـــة

1837 ـ 1830

د. عبد الجليل التميمى
أستاذ بكلية الاداب والعلوم
الانسانية ـ الجامعة التونسيـة



ان مؤرخى الفترة الاستعمارية قد اهتموا ، متعمدين، ببعض الشخصيات وببعض الاحداث وببعض الفترات التى تتفق مع أهوائهم ، وهذا ما ألحق بالتاريخ الغربى مضرة كبيرة .

وبالنسبـــة للتاريخ الجزائرى فان الامير عبد القادر والحاج أحمد باى يمثلان الشخصيتان الهامتان واللتان ظهرتا فى العقد الرابع من القرن التاسع عشر . غير أن شخصية الامير ، فى جميع كتابات الفترة الاستعمارية ، قد غطت باجحاف عن شخصيه الحاج أحمد باى ، ونتيجة لذلك لم يوجد بحث تناول بالدرس ولاية قسنطينة خلال حكم الحاج أحمد باى وحاول أن يدرس مميزات الاحـداث التى كان البايلك مسرحا لها .

ان اهتمامنا الاول فى هذا البحث كان السعى والبحث عن حقيقة حية وملموسة لهذه الفترة من تاريخ ولاية قسنطينة ، ومن خلال تحرياتنا لهذه الحقيقة ، سعينا الى احلال بعض الشخصيات مكانتهم التاريخية التى يستحقونها ·

ودراستنا تهدف قبل كل شيء الى تقصى واقع الانسان القسنطينى ومعطيات حياته السياسية وانجازاته واختياراته للدفاع عن وطنه ·

وعلى الرغم من الاعتماد الكبير على الوثائق ، فاننا لا ندعى أننا أحطنا بكل شيء لكل ما يتعلق ببايلك قسنطينة من 1830 الى 1837 ، وذلك ان بعض الاحداث قد أثيرت بايجاز ، وبعض الاحداث الاخرى الهامة قد عرجنا عليها · ومع ذلك فاننا لا ندعى أن الحقيقة التى سعينا الى ابرازها هو شيء نهائى لا يقبل المراجعة ·

ان ما تقدمه لنا الوثائق من معطيات جديدة هو شيء هام ، ومازلنا نؤمن ان كل مؤرخ مغربى وجب عليه ، فى الظروف الحالية ، أن يركز من الاستفادة من مختلف دور الوثائق ؛ كما اننا نرفض الآن أى عمل لا يستند الى الوثائق التاريخية الام والتى هى أساس تقدم البحث التاريخى اليوم ·

وبالاضافة الى هذا ، لا يكفى أن نستفيد فقط من الوثائق الجديدة ، تلك الوثائق التى أهملت سابقا ، ولتلعب اليوم دورها فى بلورة العطاء التاريخى ، ذلك أن اعادة كتابة التاريخ لا تتوقف فقط على الوثيقة الجديدة ، بل وجب أن يكون المؤرخ يتمتع برؤية وتحليل جديدين يختلفان عن الرؤية السائدة حتى اليوم ، والتى من المؤلم أن يبقى بعض المؤرخين المغاربة يتمسكون بها ، وهذا ما يفسر انحراف رؤيتهم واحكامهم عن الواقع التاريخى المغربى ·

وعلى هذا الاساس ، فان أشد ما نحتاجه هو اعادة تحليل وفهم حتى النصوص المعروفة ، ذلك أن المدرسة التاريخية الفرنسية كانت حريصة على عدم تشويه سمعة فرنسا وجيشها وبالتالى غفلت الحديث عن الاحكام المسبقة والظلم والضغوط وعدم الكفاءة التى كان يتحلى بها الحكام الفرنسيون بالجزائر والمستعمرون أو المستخربون كما يحلو للبعض وصفهم بذلك · كذلك كان المغلوب على أمره دوما مخطئا وأقواله

ومواقفه ملطخة بالكذب والخطا والمبالغة والتعصب ، ومع هذا اذا أخذنا بالاعتبار عناد المنتصرين واصرارهم على ضرب القيم العربية ـ الاسلامية وممارسة أساليب الاحتقار والتنقيص من شأنهم ، فانه يحق لنا أن نتساءل من منا المتعصب واقعا وحقيقة ؟

اننا مقتنعون تماما ان واجبنا يتركز اليوم على الاعتماد على كتابات مواطنينا كما ونرفض مبدأ وشكلا أن يكون تاريخنا يتقولب فقط على ضوء القيم الاوروبية ، بل وجب التركيز على الاستفادة من كل الآراء مهما كان مصدرها مع عدم التسامح ، بشكل واضح وقاطع ، الوصاية والتبعية والانغلاق ولو أدى ذلك الى صراخ واستنكار خصوم البحث العلمي النزيه ٠

ان الدراسة التى خصصناها للحاج أحمد باى قسنطينة تسمح بادراك أصالة التاريخ القسنطيني والذى طبع بطابع شخصية رئيسيه ، وأنه من المستحيل فهم أو شرح الحياة القسنطينية لهذه الفترة دون أن يركز على هذا الباى المسلم والوطنى الغيور ، فضلا عن انجازاته ٠ على أن المهم فى اعتقادنا هو التركيز على ما قام به هذا الباى لحماية البايلك المهدد . وتجاه هذه المجابهة ضد المحتل الاجنبى والمسيحى ، لم يعد هناك مكان المساومات والاستيلاء على السلطة ٠

فبعد احتلال الجزائر تمكن الحاج أحمد باى الذى جابه الجيش الفرنسى الغازى من تقدير وتفوقه العسكرى ، وقد فكر الباى يومئذ للعمل على استرجاع الجزائر التى احتلت من طرف قوة مسيحية ، غير أنه لم يكن قادرا على أخذ أى مبادرة هجومية ، اذ وضعه الادارى كان متأرجحا على الصعيد العسكرى والسياسى لتحقيق مثل هذه الخطة العسكرية ٠ غير أنه من جهة أخرى ، بعد أن تخلص من الانكشاريين ، أصحاب المشاغب والفتن ، ارتبط بعلاقات مصاهرة مع أقوى القبائل القسنطينية، واستطاع بذلك أن يعمل على اعادة تنظيم البايلك ، ذلك التنظيم المحكم والذى مكنه من أخذ مبادرات غير عادية أصيلة فى المغرب العربى ، وهذا على الرغم من بقائه وفيا للباب العالى ٠

ومن هذه المبادرات الرائدة انشاؤه الديوان الذى يشرف على تسيير شؤون البايلك ثم الاصطلاحات العسكرية والنقدية والادارية والغاء النظام الجبائى السابق ، وتعكس

هذه الاصطلاحات الاهتمامات الصعبة التى كانت تشغل الحاج أحمد باى وديوانه ؛ وقد وفق فى تحقيقها فى ظرف وجيز جدا . ثم ان الاجراءات التى تبناها كانت مفيدة لمصلحة البايلك والمواطنين والسلطان العثمانى الذى يعتبر خليفة المسلمين يومئذ . وقد أخذ الحاج أحمد باى على نفسه اعلام الباب العالى بكل مبادراته ونشاطاته ، الا أنه لم يطلب مطلقا ، الاذن أو رأى الباب العالى لكل ما يتعلق بتنظيم ادارته الداخلية . ذلك التنظيم الذى أثبت أن التجربة التى قام بها ، فيما بعد الشاب عبد القادر الجزائرى فى بايلك وهران ، لم تكن جديدة ولا هى فريدة ورائدة .

واذا كان الحاج أحمد باى قد بقي متعلقا بالباب العالى وهذا ما يفسره تربيتـه وعقيدته الدينية وأصله ، لابد والحالة هذه أن نعترف أن تصرفه كان وطنيا صرفا وسلوكه كـان جـزائريـا ، واذا أخـذنا بالاعتبـار سنـه ابان الاحتـلال الفـرنسى ، فان اعادة تنظيم البايلك كانت تجربة رائدة ومثالية ليعترف له بفضل انجازاته ونضع حدا لهذا التيار الذى تغافل عن الاعتراف به بحجة أنه بقى وفيا للسلطة العليا للاسلام .

واذا حاولنا أن نتلمس الوضع العام الجزائرى فى هذا الظرف وخصوصا لكل ما يتعلق بخصومات القبائل وتحالفها وسريان الاشاعات من كل جهة ، فان الشاب عبد القادر الذى ظهر على المسرح السياسى متأخرا عن الحاج احمد باى ، لا يمكنه أن يتناسى انجازات هذا الكرغلى . واذا أدركنا كره أهالى بايلك وهران لكل ما هو تركى أو كرغلى ، فاننا نرى أن الشاب عبد القادر الذى أحيط علما بمعطيات الوضع القسنطينى الجديدة ، لا يسعه الا تحقيق نفس التجربة الاستقلالية كما هو الشأن ببايلك قسنطينة ، بل وافضل . على أننا نلاحظ اذا كان النسج على منوال محمد على والى مصر قد نبه الى كثير من الحقائق ، فان انجازات الحاج أحمد باى قد بلورت لدى الامير تلك الفكرة خاصة وان الحاج أحمد يتحرك بالقرب منه على المسرح السياسى الجزائرى ، هذا فضلا عن عداوته له .

على أننا نؤكد اذا كانت التجربة السياسية أو العبدقادرية بانشاء دولة قد عرفت تطورا ملحوظا ، فان الحاج أحمد فى اطار ومعطيات اصلاحاته وحركته العسكرية يبقى شخصية مجددة خلاقة ، دافعت عن الجزائر فى نفس مرتبة الامير ان لم تكن أكثر وفاء واخلاصا واصرارا للدفاع عن الذاتية الجزائرية العربية الاسلامية ، رافضا طوال سبع

سنوات حتى الاعتراف بالسلطة الفرنسية على الجزائر . ماذا ستكون النتيجة لو تحالف الرجلان اللذان كان تأييد الجماهير لهما مطلقا ؟

لقد كان الحاج أحمد باى فى هذه الفترة الحرجة شديدا وقاسيا على أعدائه ، وعلى الرغم من الاطماع والطموحات السياسية والنزاعات القبلية التى كانت تهيج الاطراف كلها ، فان الحاج أحمد مع هذا بقى متمسكا بمضمون القصاص والعدل . ان الحاج أحمد الذى كان يتمتع بتأييد الجماهير القسنطينية له ، استطاع مواجهة مؤامرات الحكام الفرنسيين ويوسف وأعدائه التقليديين ، فلا المؤمرات ولا الاطماع قد أثرت تاثيرا عميقا على ارتباط القسنطينيين لزعيمهم . ألم يبق بن عيسى ومجموع الشعب وفيا له حتى بعد الاستيلاء على المدينة ؟ وكذلك عدد من المواطنين قد فضل الالتحاق به حتى بعد سقوط عاصمتهم .

وبالاضافة الى هذا ، هناك فئة من الجزائريين فى الخارج قد قامت بدور بطولى للدفاع عن البلاد وحمدان بن عثمان خوجة يعد المثال الرائد لذلك .

ومن المؤسف أن المدرسة التاريخية الفرنسية قد بثت حوله الشكوك وشوهته وعملت على التنقيص من قيمته ولم يعترف حتى اليوم لهذه الشخصية بما قامت به من دور للدفاع عن الجزائر ، وقد اكتفى بوصفه عميلا للعثمانيين ومؤاخذته أنه لم يجرؤ على استعمال السلاح . ومع هذا لابد أن نتصور ان سنه قد تجاوز الستين وانه كان شجاعا عندما انصرف فى باريس مع حسونة الدغيس وابراهيم بن مصطفى باشا وغيرهم الى المواجهة والكفاح على أرض العدو منددا بانتهاكات الفرنسيين ومطالبا بأملاكه التى افتكت غصبا بطريق الاستيلاء والمصادرة الغير القانونية .

ان فكرة المواطن « الوحشى » والبدوى والجاهل والسارق قد وجدت منطلقا لها ابتداء من هذه الفترة بحيث أصبح بعد قرن من الزمن ، من المستحيل تغيير تلك الصورة وحمدان خوجة ، هذه الشخصية المتميزة ، المثقفة والذكية وذو الاحساس الجمالى بالحياة ، هذا فضلا عن ذوق رفيع وتفتح واع على الغرب ، كانت شخصية تثير القلق والازعاج ، وهذا ما أدى ، متعمدين ، الى تشويه هذه الشخصية ، وقد اعتبروه تارة

عربيا وطورا كرغليا ثم جاسوسا للعثمانيين ، ولكنهم لم يعدوه البتة كأحد الوجوه اللامعة الوطنية والمدافعة عن بلاده بفكره وقلمه ٠

وعندما التجأ حمدان خوجة الى استانبول فى آخر سنة 1836 ، كان يتابع دوما أحداث الجزائر ، وقد أدرك بحدسه السياسى ان فرنسا عاجلا أو آجلا ستحقق أطماع توسعها فى البلاد المغربية شرقا وغربا، غير أن حمدان لم يدرك جيدا ضعف الامبراطورية العثمانية السياسى والعسكري الا مؤخرا ، وهذا ما جعله يلح بيأس على ارسال اعانات عسكرية فضلا عن التشجيع المعنوى للحاج أحمد باى ٠ والى من غير الامبراطوريـــة العثمانية يستطيع أن يلتجأ ويطلب النجدة ؟

أما الباب العالى ، فمنذ نهاية القرن السابع لم يعد يتحكم فى مصيره ، ولم يبق له الا عظمة انتصاراته الماضية ٠ ان الازمة الداخلية ثم الانهيار الاقتصادى الدورى ، كانا يتطلبان حركة نشيطة للنهوض بالدولة ، وهذا ما لم يقدر عليه المسؤولون العثمانيون يومئذ ، وكان الباب العالى يراقب انحلال امبراطوريته دون أن يقدر على وضع حـد لذلك ٠ على أن التسرب الاقتصادى ثم سياسة المسؤولين الغربيين الذين لم يغتفروا للعثمانيين استلائهم على القسطنطينية ، قد كان وراء هذه السياسة الناعمة والمسمومة والتى مارسها سفراء الدول الغربية والتى أدت مع طول الزمن الى انجاح محاولاتهـم الاخطبوطية لخنق مســاعى الباب العالى للعمــل عـلى المحافظة عـلى بــلاد الجـزائـر فى اطـار الدولـة العثمانيـة ، ومما لا شـــك فيه ان الاسطول العثمـــانى لا يمكن الفرنسية بباريس واستانبول ، لا يمكنها أن تؤدى الى نتائج ايجابية ٠

ان الحاج أحمد باى الذى حرم من كل المساعدات المادية والعسكرية اضطر الى تحصين البايلك لمواجهة التهديد الفرنسى وخاصة بعد عقد معاهدة تافنا ٠ وقد أصبح من المستحيل عليه ، على الرغم من البطولة الفريدة فى تاريخ البلاد العربية الحديث ، ثم الاصرار الذى أظهره فيما بعد ، أن يقف وحده أمام ضخامة الاستعدادات العسكرية التى أعدها الفرنسيون للقضاء عليه والاستيلاء على عاصمة البايلك ٠

ان نتائج الاستيلاء على قسنطينة كانت أكثر خطورة وثقلا من الاستيلاء على الجزائر العاصمة ، وأبعادها تتجاوز منطقة واطار بلاد الجزائر • واذا دققنا مليا فى المراسلات السياسية ، فاننا نلمس مدى ضراوة وعنف وخبث التملق الفرنسى الذى سعى الى تحقير وتشويه الامبراطورية العثمانية وعومل مسؤولوها على أنهم أغبياء •

اننا من خلال أبحاثنا فى هذا الكتاب الذى خصصناه عن بايلك قسنطينة والحاج أحمد باى 1830 ـ 1837 ، لم نسع مطلقا الى تبرير البعض واتهام الآخرين ، غير أننا هدفنا من كتابتنا لهذه الفترة الحاسمة جدا من تاريخ الجزائر أن تكون استفادتنا من الكتابات والاحكام التى بقيت لنا . موضوعية علمية •

هل نامل أن يكون كتابنا الذى ظهر هذه الايام ، يعكس الرؤية السليمة للكتابة التاريخية المغربية على المستوى المنهجى والاجتهاد التأملى لقضايانا التاريخية المعلقة ؟ سأكون أكثر امتنانا وارتياحا لو يعمل الجيل المغربى من المؤرخين الشباب ، الغير المعقد ، على مواصلة البحث والاخلاص له رغم كل المصاعب والعراقيل التى يواجهونها اليوم ، وما ذلك على عزيمتهم وايمانهم واخلاصهم وصبرهم بعزيز • *

د• عبد الجليل التميمى

(*) ظهر كتابنا : بمنشورات **المجلة التاريخية المغربية**، الجزء الاول، 304 ص 24 رسما . ونؤمل ظهور النسخة العربية فى جزئين قريبا .
Le Beylik de Constantine et Hadj Ahmed Bey (1830-1837).

عبد المؤمن بن على مؤسس دولة الموحدين

د٠ عبد الحميد حاجيات
معهد العلوم الاجتماعيـة
جامعة الجزائر



لقد اهتم الباحثون كثيرا ، فى السنوات الاخـيرة ، بتاريخ الدولة الموحدية ٠ ولا غرابة فى ذلك ، اذ ان هذه الدولة تعد بحق أعظم دولة عرفها المغرب الاسلامى فى العصر الوسيط ، للدور الهام الذى لعبته فى تاريخـه ، بتوحيد أقطارها تحت سلطة سياسية مغربية واحدة ، وبكفاحها البطولى ضد الغزاة الاجانب ٠

والغرض من حديثنا هذا ، هو اقتراح منهجية للبحث تهدف الى عرض موضوعى ونزيه لتاريخ هذه الـدولة ، ثم التعرض باختصار الى المرحلة الاولى منه ، وهى مرحلة تاسيس الدولة على يد عبد المؤمن بن على الكومى ٠

★ ★ ★

ملاحظات حول منهجية البحث فى تاريخ الموحدين

لقد حظيت دولة الموحدين بنصيب وافر من المصادر التاريخية ، ومن بينها كثير من المصادر المعاصرة ، التى يرجع تاريخ تاليفها الى عهد الموحدين ؛ وتعتبر هذه المصادر المادة الخام التى نقل عنها المؤرخون فيما بعد ·

وأقدم تاليف وصل الينا ، من بين هذه المصادر المعاصرة ، كتاب البيذق ، الذى يتحدث عن اخبار المهدى ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين · ومؤلفه ، أبو بكر بن على الصنهاجى ، المتوفى حوالى منتصف القرن السادس الهجرى ، كان أحد رفاق ابن تومرت أثناء عودته الى موطنه بعد رحلته الى المشرق ؛ وقد ضمن كتابه معلومات قيمة عن امامة ابن تومرت وخلافة عبد المؤمن ·

والجدير بالملاحظة أن هذا الكتاب ، مثل غيره من الكتب المعاصرة ، قد تعرض لتأثير البيئة الاجتماعية والسياسية ، مما جعله يشتمل على أخبار عديدة لا تمت بأية صلة الى الواقع التاريخى ، وانما هى مجرد خيالات وأوهام ، شاع ذكرها عند القصاص · ويتجلى هذا التأثير بصفة خاصة ، فيما ورد فى هذا الكتاب من حكايات وأساطير ، كما يتجلى أيضا فى اقتناع المؤلف بصحة دعوة ابن تومرت وسائر ما جاء به من معتقدات وتعاليم ، مثل ما يتعلق بالمهدوية والعصمة ، وكذلك فيما أورده من كرامات نسبها الى ابن تومرت، وتشهد بصحة دعوته ، وجلها من باب العلم بالغيب والتنبؤات ·

وليتضح لنا هذا الجانب الاسطورى من كتاب البيذق ، الذى أخذ عنه كثير من المؤرخين ، يكفينا أن نقرأ ما ورد فيه حول لقاء عبد المؤمن بابن تومرت ، مثلا ، وهو قوله :

« فبينما هو (ابن تومرت) ذات يوم قاعد ، اذ سمعناه يقول : « الحمد لله الذى أنجز وعده ونصر عبده وأنفذ أمره » ، وأقبل نحو المسجد وركع ركعتين ثم قال : « الحمد لله على كل حال ، قد بلغ وقت النصر ، وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم ، يصلكم غدا طالب ، طوبى لمن عرفه وويل لمن أنكره » · فلما سمع الناس : « غدا يصلكم طالب ، حاروا فى أمره ، وذلك أن الحق تبارك وتعالى قد أزعج أمير

المؤمنين الخليفة عبد المؤمن بن علي رضه من بلده نحو المشرق، فجد حتى وصل بجاية هو وعمه يعلو ··· ونزلا بها في مسجد الريحانة · فلما صليا الصبح سمعا الناس يقولون : سر بنا نحو الفقيه · فقال لهم الخليفة أمير المؤمنين رضه : ومن الفقيه ؟ قالوا له : السوسي، هو عالم المشرق والمغرب ، وما مثله انسان ، فقال لعمه : يا عم سر بنا نحوه ··· فقال له : سر اليه وأسرع لانا على سفر ·

اعلم يا أخي أنه لما جد السير نحو الامام اجتمع مع الطلبة في طريقه ، فاصطحب حتى بلغ باب المسجد ، فرفع المعصوم رضه رأسه ، فواقفه ، أمامه ، فقال له : ادخل يا شاب ، فدخل ، فأراد أن يقعد في جملة الناس ، فقال له الامام المعصوم رضه : ادن يا شاب · فلم يزل يدنو من الامام والمعصوم يقربه حتى دنا منه · فقال له المعصوم : ما اسمك يا فتى ؟ فقال عبد المؤمن · فقال له المعصوم : وأبوك علي ؟ فقال : نعم · فتعجب الناس من ذلك · فقال له : يا شاب من أين اقبالك ؟ قال له : من نظر تلمسان من ساحل كومية · فقال له المعصوم : من تاجرا أم لا ؟ فقال له : نعم · فزاد الناس تعجبا · فقال له المعصوم رضه : أين تريد يا فتى ؟ فقال : يا سيدي نحو المشرق ألتمس فيه العلم · فقال له المعصوم رضه : العلم الذي تريد اقتباسه بالمشرق قد وجدته بالمغرب ·

فلما انصرف الناس من القراءة أراد الخليفة أن ينصرف · فقال له المعصوم رضه : تبيت عندنا يا شاب ؟ فقال له نعم يافقيه · فبات عندنا · فلما جن الليل اخذ الامام المعصوم بيد الخليفة رضهما وسارا · فلما كان نصف الليل ناداني المعصوم : يا أبا بكر ادفع لي الكتاب الذي في الوعاء الأحمر · فدفعته له · وقال لي : أسرج لنا سراجا · فكان يقرأه على الخليفة من بعده ، وأنا يومئذ ماسك السراج أسمعه يقول : لا يقوم الامر الذي فيه حياة الدين الا بعبد المؤمن بن علي سراج الموحدين · فبكى الخليفة عند سماع هذا القول ، وقال : يا فقيه ، ما كنت في شيء من هذا ، انما أنا رجل أريد ما يطهرني من ذنوبي · فقال له المعصوم : انما تطهيرك من ذنوبك صلاح الدنيا على يديك · ثم دفع له الكتاب وقال : طوبى لاقوام كنت أنت مقدمهم ، وويل لقوم خالفوك أولهم وآخرهم ··· ثم قال لي المعصوم رضه : يا أبا بكر ، ناد الصبيان للورد يقومون يأخذون حزبهم · فلما أقبلوا ناداهم ، فقال لهم : انما الله اله واحد ، والرسول حق ،

والمهدى حق ، والخليفة حق . فاقرأوا حديث أبى داود تعرفوا الامر ، وعليكم بالسمع والطاعة لربكم والسلام » . (1)

هذا نموذج من التحيز الناتج عن المعاصرة ، وما يمليه ، فى كثير من الاحيان ، الحرص على اقناع القارىء بصحة الدعوة التى قامت عليها الدولة ، وشرعية الحكم الذى يمارسه الامام أو الخليفة . والغرض من ذلك ازالة أى شك أو تردد فى النفوس حول ذلـــك .

وتشكل المنامات أيضا عنصرا هاما لبلوغ هذا الغرض ، ووسيلة للاقناع بصحة الدعوة وشرعية الحكم ، فهى تحتل مكانة مرموقة فى عرض الاخبار ، ولا سيما فى كتاب البيذق ، حيث نجدها تشكل جل أخبار عبد المؤمن قبل لقائه بابن تومـرت . وها نحن نعود الى نص هذا الكتاب لنتبين جيدا أثر هذا العنصر فى توجيه العرض التاريـــخى .

يقـــول البيذق فى تاريخـــه : « وذلك أنه لما خرج الخليفـــة أمير المؤمنـــين مع عمه رضهما ، جدا حتى وصلا متيجة ... أقاما بها أياما حتى أن الله تعالى أرى منامة للخليفة رضه . وذلك أنه رأى صحفة من طعام على ركبتيه يأكل الناس منها كافة . فلما أصبح قال لعمه : يا عم رأيت كذا وكذا . فقال له عمه : اكتم هذه الرؤيا . وارتحلا حتى وصلا بنى زلدونى ، فرأى المنامة بعينها ، الا أن الصحفة على أرسه والناس أجمع يأكلون منها . فأعلم أيضا عمه بها ... ولما وصل الخليفة رضه بجاية وجن عليه الليل قرأ حزبه وصلى ورده فى تلك الليلة ، ثم نام فرأى الرؤيا بعينها الا أن الناس يبايعونه . فلما أفاق أعلم عمه بها .

فقال له : اكتم هذا الامر ، فانه رأت أمك وهى بك حامل كأن النار تخرج منهـا فتحرق المشرق والمغرب والقبلة والجوف ، فقال لها المعبر بتلمسان : لابد لهذه المرأة من مولود يكون أمره يأخذ لمشرق والمغرب والقبلة والجوف ، ولكن اكتم هذا الامر ولا تعرف به انسانا . وكذلك قال لى أبوك على ؛ ولقد رأيت فى أمرك موعظة : كنا نحصد الزرع وأمك بك حامل فجاءت للفدان واضطجعت نائمة فاقبل بندان من نحل فنزلا على

(1) أنظر : أخبار المهدى ابن تومرت للبيذق ، تحقيق عبد الحميد حاجيات، ص 37 ــ 42

أمك ، فلما خلقت أنت أتت أمك الفدان فلقطت السنبل وتركتك نائما ، فنزل أيضا عليك النحل أكثر مما كان نزل على أمك وأنت فى جوفها • ثم قام النحل عنك وافترق فرقتين ، واحدة للمشرق وأخرى للمغرب ، فقال على : الله أكبر ، هذا هو الذى قال الفقيه بتلمسان • فلما رجعنا من الفدان قال لامك : احفظيه فانه لابد له من الامر الذى ذكر الفقيه المفسر ، فكانوا ينتظرون منه ، حتى بلغ مبلغ الرجال ••• » • (2)

وقد ورد فى « وفيات الاعيان » ، لابن خلكان ، ذكر حكاية قد تكون صدى لما جاء فى كتاب البيذق ؛ يقول ابن خلكان :

« كان والد عبد المؤمن وسيطا فى قومه ، وكان صانعا فى عمل الطين ، يعمل منها الآنية فيبيعها ، وكان عاقلا من الرجال وقورا • ويحكى أن عبد المؤمن فى صباه كان نائما تجاه أبيه ، وأبوه مشتغل بعمله فى الطين ، فسمع أبوه دويا فى السماء ، فرفع رأسه ، فرأى سحابة سوداء من النحل قد هوت مطبقة على الدار ، فنزلت كلها مجتمعة على عبد المؤمن وهو نائم ، فغطته ولم يظهر من تحتها ولا استيقظ لها ، فرأته أمه على تلك الحال ، فصاحت خوفا على ولدها ، فأسكتها أبوه ، فقالت : أخاف عليه ، فقال : لا بأس عليه ، بل انى متعجب مما يدل عليه ذلك • ثم انه غسل يديه من الطين ولبس ثيابه ، ووقف ينتظر ما يكون من أمر النحل ، فطار عنه بأجمعه ، فاستيقظ الصبى وما به من ألم • فتفقدت أمه جسده ، فلم تر به أثرا ولا يشك ألما • وكان بالقرب منهم رجل معروف بالزجر ، فمضى أبوه اليه ، فأخبره بما رآه من النحل مع ولده ، فقال الزاجر : يوشك أن يكون له شأن يجتمع على طاعته أهل المغرب • فكان من أمره ما اشتهر » •

كما ورد فى كتاب « المعجب » لعبد الواحد المراكشى حكاية منامة ، لها شبه باحدى المنامات المذكورة فى كتاب البيذق • يقول المراكشى :

« وبهذه القرية (ملالة) له حكاية طريفة ، وذلك أنه رأى ، وهو بها فى المنام ،

(2) أنظر : أخبار المهدى ابن تومرت للبيذق ، ص 38 ــ 40 .

كأنه يأكل مع امير المسلمين علي بن يوسف في صحفة واحدة ٠ قال : ثم زاد أكلي على أكله، وأحسست من نفسي شرها الى الطعام ٠ ولم يزل ذلك بي الى أن اختطفت الصحفة من يديه وانفردت بها ٠ فلما انتبه قص الرؤيا على رجل كان يقرأ عليه اسمه عبد المنعم بن عشير ، يكنى أبا محمد ٠٠٠ فلما أتى على آخرها ، قال : يا بني ، يا عبد المؤمن ، هذه الرؤيا لا ينبغي أن تكون لك ، انما هي لرجل ثائر ، يثور على أمير المسلمين ، فيشاركه في بعض بلاده ، ثم يغلبه بعد ذلك عليها كلها وينفرد بمملكتها » ٠

وقد تحدث الدكتور عبد الله علي علام عن هذا الطابع الاسطوري بالنسبة للقاء الذي تم بين عبد المؤمن وبن تومرت ، فقال : « ويبالغ المؤرخون الاقدمون ، ولا سيما الموحدون منهم ، مبالغة شديدة ، في وصف لقاء المهدي ابن تومرت لتلميذه السعيد عبد المؤمن بن علي الكومي ، وفي تصوير ما ثبت لهذا الشاب من علامات وصفات ممتازة ، أخبر بها المهدي ابن تومرت قبل وقوعها ، وعرف بعبد المؤمن قبل أن يلتقي بـــه ، بعلامات كان قد عرفها بطريق التنجيم والجفور » ٠ (3)

ولا ينبغي أن يفهم من هذا أن كتب التاريخ المعاصرة للموحدين لا تحتوى الا على هذا النوع من الاساطير والمنامات وغير ذلك ٠ بل نجد فيها أيضا أخبارا تاريخية وحضارية هامة ، يمكن بفضلها تتبع التطور السياسي والحضاري ، والتعرف على أهم جوانبه ٠ ويتعين على الباحث عندئذ تصفية المادة التي يتمكن من جمعها من المصادر المعاصرة ، فيترك جانبا ما هو من قبيل الاسطورة ، ولا يقر الا ما يراه صحيحا أو محتمل الصحـــة ٠

وقد قام فعلا المؤرخون (أي الذين عاشوا بعد سقوط دولة الموحدين) بعملية التصفية هذه ، فاغفلوا كثيرا من الاخبار الاسطورية ٠ ولم ينفرد عبد الرحمن بن خلدون بهذه العملية ، التي عمت معظم المؤرخين المتاخرين ٠ الا أن هذه التصفية لم تكن شاملة، حيث ان كثيرا من هؤلاء أبقوا بعض العجائب في تآليفهم ٠ وعلى كل ، فهناك تفاوت بين المؤرخين في التصفية والتحري ٠

★ ★ ★

(3) أنظر : عبد الله علي علام ، الدعوة الموحدية في المغرب ، ص 89 .

وبعد ، فانطلاقا من هذه الاعتبارات حول منهجية البحث فى تاريخ الدولة الموحدية نستعرض باختصار أخبار عبد المومن بن على ودوره الهام فى تأسيس هذه الدولة •

أما عن حياة عبد المومن قبل لقائه بابن تومرت ، فلا نعرف الا القليل وقد قيل انه ولد بقرية تدعى تاجرا ، تقع قرب ساحل تلمسان ، فى آخر سنة 487 هـ ، فنشأ بها • ثم توجه الى تلمسان لطلب العلم ، فدرس فيها على ابن صاحب الصلاة وعبد السلام التونسى ، وغيرهما من العلماء والصلحاء •

ثم رحل نحو الشرق الى أن وصل بجاية ؛ فسمع طلبة العلم يتحدثون عن فقيه سوسى كان مقيما بقرية ملالة ، الواقعة على مسافة 7 كلم منها ، فسار اليها ولقيه والتحق برفاقه ، الذين كانوا يأخذون عنه العلم ويصحبونه فى تنقلاته ، ويشاركونه فى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر •

وقد سبق أن أشرنا الى الرواية الاسطورية التى حكاها البيذق عن لقاء ابن تومرت بعبد المومن • أما عبد الواحد المراكشى فانه اقتصر ، فى كتابه « المعجب » ، على ذكر ما يلى : « فاستدعى (ابن تومرت) عبد المؤمن وخلا به ، وسأله عن اسمه واسم أبيه ونسبه ، فتسمى له وانتسب ، وسأله عن مقصده ، فأخبره أنه راحل فى طلب العلم الى الشرق • فقال له ابن تومرت : أو خير من ذلك ؟ قال وما هو ؟ قال : شرف الدنيا والآخرة ، تصحبنى وتعيننى على ما أنا بصدده ، من اماتة المنكر واحياء العلم واخماد البدع • فأجابه عبد المؤمن الى ما أراده » • (4)

وهذا التصريح يبعثنا الى طرح السؤال التالى : هل اقتصر التحاق عبد المومن بابن تومرت على طلب العلم وتغيير المنكر ، أم هل كان يتضمن أيضا الاتفاق على القيام بدعوة سياسية ودينية تهدف الى القضاء على دولة المرابطين ؟

ليس فى المصادر التاريخية ما يساعدنا على الاجابة ، بصفة يقينية ، على هذا التساؤل • الا أن التصرفات التى قام بها ابن تومرت ورفاقه ، وخصوصا ميلهم الى

---

(4) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص 181 .

تغيير المنكر باليد ، أى بالقوة ، تدل على نزعة ثورية ، لا يستبعد أن تكون ناتجة عن رغبة فى قلب الاوضاع السياسية ، والقيام ضد الامراء المرابطين ٠

وقد وصف عبد الواحد المراكشى عبد المومن ، فقال : « وكان أبيض ذا جسم عمم تعلوه حمرة ، شديد سواد الشعر ، معتدل القامة ، وضىء الوجه ، جهورى الصوت ، فصيح الالفاظ ، جزل المنطق ، وكان محببا الى النفوس ، لا يراه أحد الا أحبه بديهة » ٠ (5)

ولعل ابن تومرت ، عندما طلب من عبد المومن أن يلتحق به ، راعى هذه الصفات الضرورية للمهمة الاصلاحية والسياسية التى كان يهم القيام بها ، عندما تكون الظروف مواتية ٠

دعوة ابن تومرت

أما دعوة ابن تومرت فقد نالت حظا وافرا من الدراسات ، من بينها كتاب « الدعوة الموحدية بالمغرب » لعبد الله على علام ، الذى شرح فيه طويلا أسسها الاجتماعية، المنحصرة فى مبدا الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأسسها الاعتقادية ، وخصوصا نظرية التوحيد ، التى أخذها ابن تومرت عن المعتزلة ، وأسسها السياسية ، التى تدور حول الامامة المهدوية والعصمة ٠

وكانت تنقلات ابن تومرت وعبد المومن ورفاقهما ، عبر مدن المغربين الاوسط والاقصى ، تتسم بطابع الاصلاح الاجتماعى والدينى ، الى أن بلغوا مراكش ، عاصمة المرابطين ، فلم يجدوا أذانا صاغية عند أميرها على بن يوسف بن تاشفين ، ومن كان يحيط به من أمراء وفقهاء ٠ وأخيرا غادروها وتوجهوا نحو جبال السوس الاقصى حيث كانت تقطن قبائل المصامدة ، قوم ابن تومرت ٠

وعندئذ بدأ ابن تومرت يبث دعوته بين رجال قبيلته وبعض القبائل المجاورة لها ٠ ومما لا شك فيه أنه كان يمتاز بفصاحة نادرة ، ومهارة فائقة فى اقناع مواطنيه ، ومقدرة عجيبة على ايجاد الوسائل الكفيلة بتحقيق أهدافه ، ولو تطلب بعضها ، أحيانا ، استعمال أساليب قاسية ٠

---

(5) عبدا الواحد المراكشى ، المعجب ، ص 197 .

وكان المصامدة ، مثل معظم سكان الجبال ، أهل بساطة وسذاجة ، وكان « من طباعهم خفة سفك الدماء » . (6) فعمد ابن تومرت الى عدة وسائل لتمكين دعوته فى نفوسهم ، وجعلهم آلة مسخرة لتنفيذ تعليماته ، والخضوع لطاعته ، والتفانى فى نصرته وحرب أعدائه .

وكان فى مرحلة أولى ، يحث الناس على الاقتناع بالمعتقدات الصحيحة ، والامتثال للاوامر التى دعا اليها الاسلام ، واجتناب نواهيه ؛ وتولى ، بمساعدة رفاقه المقربين ، تربية مواطنيه وتغيير المنكرات ، فألف لهم بلغتهم البربرية عقيدة فى التوحيد ، واهتم بتلقينهم أركان الاسلام ، واصلاح دينهم ، وتحسين أخلاقهم ، كما منعهم من سفك الدماء .

ثم ، عندما انتقل الى تينملل ، فرض على مواطنيه تأييد دعوته ، على أساس نصرة الاعتقاد الصحيح ، الذى هو التوحيد ، ومحاربة أعدائه ، الذين سماهم المجسمين ، وعلى أساس العمل لنيل سعادة الآخرة ، والنجاة من عذاب جهنم . ثم ادعى أنه المهدى المنتظر ، الذى ينشر العدل فى الارض بعد أن ملئت جورا ، وأنه من نسل على بن أبى طالب ، وان اسمه محمد بن عبد الله ، وادعى أيضا العصمة وهى من مقتضيات المهدوية .

ويبدو أن ابن تومرت كان يدرك جيدا أن ادعاءاته يصعب تصديقها فى ظروف عادية . فبدأ بارسال دعاة من أصحابه الى رؤساء القبائل ، قصد اقناعهم واستمالتهم الى جانبه . ثم عنى بجمع الاحاديث المروية فى شأن المهدى المنتظر ، ومنها ما ينص بظهوره فى المغرب ، واستدل بها على صحة زعمه ، مدعيا انه مؤيد من عند الله ، وأن الله سينصره على أعدائه .

وبعد أن تمت البيعة سنة 515 هـ ، بتينملل ، صرف ابن تومرت عنايته لتنظيم حركته سياسيا وعسكريا ، فرتب أتباعه حسب الدور الذى لعبوه فيها ، وحسب منزلتهم الاجتماعية ، وصنفهم الى طبقات مختلفة ، أعلاها أهل العشرة ، ويليهم أهل خمسين ، ثم أهل سبعين . وأسند الى كل من هذه الجماعات ما يناسبها من الاختصاصات، أشار اليها ابن القطان بقوله : « وكانوا (أى الموحدون) ، اذا قطعوا الامور العظام ،

(6) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص 191 ـ 192 .

يخلون بالعشرة . لا يحضر معهم غيرهم ؛ فاذا جاء أمر أهون ، أحضروا الخمسين ؛ فاذا جاء دون ذلك أحضروا السبعين رجلا ؛ وفيما دون ذلك لا يتأخر أحد ممن دخل فى أمره رضى الله تعالى عنه » • ثم يضيف ابن القطان الى هذه الطبقات الثلاث طبقات أخرى تليها ، وهى : الطلبة ، الحفاظ (وهم صغار الطلبة) ، أهل الدار ، قبيلة هرغة ، أهل تينملل (وهم أهل قبائل متعددة) ، قبيلة جدميوة ، قبيلة كنفيسة ، قبيلة هنتاتة ، أهل القبائل الموحدية المختلفة ، الجند ، الغزاة (وهم العبيد) • (7)

أما النشاط العسكرى ، فانه اتخذ اتجاهين رئيسيين :

ـ أولهما اخضاع قبائل السوس الاقصى والنواحى المجاورة ، التى لم تعلن بيعتها لابن تومرت •

ـ وثانيهما التصدى للقاء جيوش المرابطين ، وشن الغارات على الحصون التى كانت تستقر بها حامياتهم •

ويبدو أن ابن تومرت لم يكن واثقا بالكثير من أتباعه ، وأنه لم يقدم على عملياته العسكرية ضد المرابطين قبل أن يجرى تصفية واسعة النطاق فى صفوف قومه ، أطلق عليها اسم التمييز •

وقد ذكر ابن الاثير أن التمييز وقع سنة 519 هـ ، وأنه سمع من بعض المغاربة من يقول ، فى شأن التمييز « ان ابن تومرت ، لما رأى كثرة أهل الشر والفساد فى أهل الجبل ، أحضر شيوخ القبائل وقال لهم : انكم لا يصح لكم دين ولا يقوى الا بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، واخراج المفسد من بينكم ، فابحثوا عن كل من عندكم من أهل الشر والفساد ، فأنهوهم عن ذلك ، فان انتهوا والا فاكتبوا أسماءهم وارفعوها الى لانظر فى أمرهم ، ففعلوا ذلك ، وكتبوا له أسماءهم من كل قبيلة • ثم أمرهم بذلك مرة ثانية وثالثة ، ثم جمع المكتوبات ، فأخذ منها ما تكرر من الاسماء فأثبتها عنده ، ثم جمع الناس قاطبة ، ورفع الاسماء التى كتبها ، ودفعها الى الونشريسى المعروف بالبشير ، وأمره أن يعرض القبائل ، ويجعل أولئك المفسدين فى جهة الشمال، ومن عداهم فى جهة اليمين ، ففعل ذلك ، وأمر أن يكتف من على شمال الونشريسى فكتفوا ، وقال : ان هؤلاء أشقياء ، قد وجب قتلهم • وأمر كل قبيلة أن يقتلوا

(7) أنظر : ابن القطان . نظم الجمان . ورقة 23 .

أشقياءهم ، فقتلوا عن آخرهم ، فكان يوم التمييز » • ثم أضاف ابن الاثير أن عدد القتلى كان سبعين ألفا ، وقال : « فلما فرغ من ذلك أمن على نفسه وأصحابه واستقام أمره » • (8)

وعندئذ رأى ابن تومرت أن يجهز جيشا لمحاربة المرابطين فى ناحية أغمات ، ثم فى غيرها من النواحى المجاورة • وكان يعتمد بالدرجة الاولى على حماس جماعته وتفانيهم ، ولا يخشى من لقائهم عدوا أقوى بوفرة سلاحه وخيله ورجاله • لكن المعارك والمناوشات كانت كثيرا ما تنتهى بانهزام الموحدين ؛ فكان ابن تومرت يصبر أنصاره ويهدىء روعهم بالوعود ؛ وربما كان يلجأ ، أحيانا ، الى الحيلة ، كما ورد ذكره فى كتاب « روض القرطاس » •

يقول ابن أبى زرع الفاسى : « كانت بين الموحدين والمرابطين حرب ، فقتل مـــن الموحدين خلق كثير ، فعظم ذلك على عشائرهم • فاحتال المهدى بأن انتخب قوما من أتباعه ، ودفنهم أحياء بموضع المعركة ، وجعل لكل واحد منهم متنفسا فى قبره ، وقال لهم : اذا سئلتم عن حالكم فقولوا : قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، وأن ما دعا اليه الامام المهدى هو الحق ، فجدوا فى جهاد عدوكم ، وقال لهم : اذا فعلتم ذلـــك أخرجتكم ، وكانت لكم عندى المنزلة العالية • وقصد بذلك أن يثبتهم على التمسك بدعوته ، ويهون عليهم مما لاقوا من القتل والجراحات بسببه ، ثم جمع أصحابه عند السحر وقال لهم : أنتم ، يا معشر الموحدين ، حزب الله وأنصار دينه وأعوان الحق ، فجدوا في قتال عدوكم ، فانكم على بصيرة من أمركم ، وان كنتم ترتابون فيما أقوله لكم ، فأتوا موضع المعركة وسلوا من استشهد اليوم من اخوانكم يخبروكم بما لقوا من الثواب عند الله • ثم أتى بهم الى موضع المعركة ونادى : يا معشر الشهـــداء ، ماذا لقيتم من الله عز وجل ؟ فقالوا : قد أعطانا من الثواب ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر • فافتتن الناس ، وظنوا أن الموتى قد كلموهم ، وحكوا ذلك لبقية اخوانهم ، فازدادوا بصيرة فى أمره ، وثباتا على رأيه » • (9)

(8) ابن الاثير ، الكامل فى التاريخ ، ج 10 ، ص 575 ـ 576 .
(9) أورده الناصرى السلاوى فى كتاب الاستقصا ، ج 2 ، ص 96 ـ 97 .

ثم كانت معركة البحيرة الشهيرة ، سنة 524 هـ ، وفيها منى الموحدون بهزيمة كبرى ، قتل أثناءها قائدهم البشير الونشريسى وعدد كبير من الاتباع ، وجرح عبد المؤمن ، وعاد فل الموحدين الى جبلهم ·

وكان ابن تومرت قد أصيب بمرض حين سير الجيش فى اتجاه مراكش ، وعندما بلغه نبأ الهزيمة اشتد مرضه ، ومات بعد ذلك بقليل ·

خـــلافة عبد المـؤمن

وكانت وفاة ابن تومرت حادثا خطيرا بالنسبة للموحدين ، يخشى منه تصـــدع صرحهم ، وتفكك وحدتهـم ، واختلاف كلمتهم · وقد رأى رفاقه المقربون اخفاء موته على الاتباع ، وتدبير شؤون الدولة باسمه ، ريثما تسمح الظروف بايجاد حل لمشكل خلافتـــه ·

والظاهر أن هذه المرحلة الانتقالية دامت ثلاث سنوات ، تمكن أثناءها المقربون من رفاق ابن تومرت من مواصلة الجهود لبسط نفوذ الدولة الفتية بين القبائل المجاورة للسوس الاقصى ، ومن الاتفاق على تعيين خليفة للمهدى، هو عبد المؤمن بن على · وقد عزا كثير من المؤرخين هذا التعيين الى ما كان يظهره ابن تومرت نفسه من تقدير لعبـــد المؤمن ؛ ومنهم من ذكر أنه عينه خليفة له قبل وفاته · ويبدو أن الجماعة التى وافقت على تعيين عبد المؤمن راعت كونه غريبا عن المنطقة ، وأنه لم يكن يحظى بمساندة قبيلة ، قد تساعده على فرض سيطرته ، أو تنال أوفر قسط من الامتيازات ·

وكان على عبد المؤمن أن يواصل الحركة التى دعا اليها ابن تومرت · وقد أظهر كفاءة حربية نادرة مكنته من مقاومة جيوش المرابطين سنوات عديدة ، وابعاد خطرهم عـلى أتباعه بملازمة الجبال ، بينما كان المرابطون يفضلون اللقاء فى السهول ، ويلازمونها ·

وفى سنة 535 هـ ، بدأت حركة عبد المؤمن الكبرى عبر مناطق المغربين الاقصى والاوسط ، استولى خلالها الموحدون على نواحى تادلا وفازاز ، ثم بلاد الريف ، وكلها

مناطق جبلية • وكان تاشفين بن على ، بعد وفاة أبيه سنة 537 هـ ، يباشر بنفسه قيادة جيوش المرابطين •

ثم حل عبد المؤمن وأتباعه الى تاجرا ، مسقط رأسه • وقد ذكر ذلك البيذق فقال : « ثم رحلنا الى آغبالو متاع بنى يزناسن ، وهرب أهله ، وامتنعوا أن يوحدوا ، فرحلنا منها الى ندرومة ، بلاد كومية ، فوحدوا ، فرحلنا الى تاجرا ، فميزنا فيها » • (10)

وبعث عبد المؤمن العساكر من تاجرا لغزو وهران وتلمسان وغيرهما • ثم سار الى تلمسان ، وهناك وقع أول لقاء هام بين الموحدين وأعدائهم المرابطين وحلفائهم ، وانتهى بانتصار الموحدين • ففر تاشفين بن على الى وهران واعتصم بها ، وكان ينوى الجواز الى الاندلس ان غلب على أمره ، ولكنه لم يتمكن من تحقيق خطته هذه ، ومات ليلة 27 رمضان سنة 539 هـ ، عندما غادرالحصن الذى لجأ اليه متوجها الى شاطىء البحر ، وممتطيا فرسه ، فسقطت به من أعلى جرف •

وكان لوفاة تاشفين بن على أثر بالغ فى رفع معنويات الموحدين ، وانهيار دولـــة المرابطين • وسرعان ما استولى عبد المؤمن بن على على مدينة وهران ، ثم تلمسان ، ثم فاس ، فمكناسة ، وسلا ، وأخيرا مراكش ، التى فتحت فى شوال 541 هـ ، بعد حصار دام حوالى 11 شهرا • وبسقوط مراكش ، ومقتل اسحاق بن على بن يوسف ، آخر أمراء المرابطين ، انقرضت الدولة المرابطية ، وتم النصر للموحدين •

ثم كان لعبد المؤمن دور هام فى القضاء على ثورة ابن هود وحلفائه ، فى المغرب الاقصى ، وعلى ثورة قبائل عديدة ، مثل برغواطة ودكالة ، كما وجه عناية خاصة لبسط نفوذه على جزيرة الاندلس •

وفى سنة 544 هـ ، وقع حادث الاعتراف ، الذى تحدث عنه البيذق ، ولم يذكره غيره من المؤرخين ، وهو عبارة عن تصفية كبرى ، مثل التمييز فى عهد ابن تومرت ، تخلص بفضلها عبد المؤمن من كل من كان يظهر معارضته للدولة الموحدية ، أو لا يمتثل لتعاليمها • ومجموع قتلى الاعتراف ، حسبما ورد فى كتاب البيذق ، يبلغ 32·730 شخصـــا •

---

(10) البيذق ، أخبار المهدى ابن تومرت ، ص 99 ـــ 100 .

ولم تتوقف عمليات الموحدين التوسعية فى عهد عبد المؤمن عند هذا الحد ، بل نهض سنة 547 هـ ، فى اتجاه المغرب الاوسط وافريقية ، فقضى على دولة الحماديين ، واستولى على عاصمتها بجاية ، والمناطق التابعة لها ، وعلى قسنطينة وعنابة ٠

ثم نهض مرة ثانية الى افريقية ، وكان النصارى النورمان قد احتلوا المهدية ومدنا أخرى ، قادمين من صقلية ، فاستولى عبد المؤمن على تونس ، ثم حاصر المهدية ، وأرسل أثناء ذلك ، العساكر لاحتلال باقى مدن المنطقة ٠ وفى محرم 555 هـ ، استسلمت المهدية ، وغادرها الغزاة النورمان نهائيا ٠

وباستيلاء عبد المؤمن على سائر أراضى افريقية تم توحيد بلاد المغرب الاسلامى كلها ، وخضعوها ، لاول مرة فى التاريخ ، لسلطة مغربية موحدة ٠

ولاشك أن هذا الحادث يكتسى أهمية عظمى بالنسبة لتاريخ المغرب ، ولتاريخ العالم الاسلامى بصفة عامة ، اذ أن دولة الموحدين أصبحت تمثل أكبر قوة عسكرية وسياسية فى العالم الاسلامى ، الذى كان يعانى ، منذ أكثر من نصف قرن ، من خطر الحروب الصليبية ٠ وأصبحت آمال المسلمين تتوجه الى هذه الدولة الجديدة القوية ، وترجو منها أن تدافع عن حوزتهم ، وتساهم فى رد عدوان النصارى الصليبيين ٠

وقد ذكر عبد الواحد المراكشى أن عبد المؤمن مر ، أثناء عودته الى المغرب الاقصى ، بعد هذه الحركة الموفقة ، على القرية التى تسمى تاجرا ، لزيارة قبر أمه ، وصلة من هناك من ذوى رحمه : « فلما أطل عليها والجيوش قد انتشرت بين يديه ، وقد خفقت على رأسه أكثر من ثلاثمائة راية ما بين بنود وألوية ، وهزت أكثر من مائتى طبل ـ وطبولهم فى نهاية الكبر وغاية الفخامة ، يخيل لسامعها اذا ضربت ان الارض من تحته تهتز ويحس قلبه يكاد يتصدع من شدة دويها ـ فخرج أهل القرية للقائه والتسليم عليه بالخلافة ، فقالت امرأة عجوز من عجائز القرية ، ممن كانت تصحب أمه : هكذا يعود الغريب الى بلده ! تقول ذلك رافعة صوتها » ٠ (11)

وفى سنة 557 هـ بدأ عبد المؤمن يجهز الجيوش والاساطيل لغزو النصارى فى

(11) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص 232 .

الاندلس ، وغادر مراكش الى سلا حيث تجمعت القوات الموحدية منتظرة الجواز الى الاندلس . غير أن عبد المؤمن مرض أثناء ذلك مرضا خطيرا ، توفى من جرائه فى 27 جمادى الآخرة سنة 558 هـ ، بعد حكم دام 34 سنة ، قضى نصفها فى محاربة المرابطين ، والنصف الآخر فى قمع الثورات وبسط نفوذ الدولة ، وتنظيمها وتسيير شؤونها .

هذا ولم تتجل عبقرية عبد المؤمن فى المجال السياسى والعسكرى فحسب ، بل ظهرت أيضا فى المجال الحضارى والتنظيم الادارى والمالى وغير ذلك . ويؤثر لعبد المؤمن بناء المسجد الاعظم بتازا ، ومسجد تينملل ، وجامع الكتبية بمراكش . كما أمر بتحصين جبل الفتح بالاندلس (وهو جبل طارق) ، وبناء أسوار تازا وتينملل .

وعين على الولايات أبناءه ، وجعل بجانبهم أبناء أشياخ الموحدين ، مثلما كان يحتل بجانبه الشيخ أبو حفص عمر الهنتاتى المنزلة الثانية فى الدولة ... ثم عين عبد المؤمن أحد أبنائه وليا للعهد ، جاعلا بذلك لتعيين الامام نظاما لا يختلف عن بقية الدول الاسلامية ، هو النظام الوراثى .

ومن جهة أخرى ، فان عبد المؤمن ، عندما عاد من غزو افريقية سنة 555 هـ ، رأى ضرورة فرض ضرائب أخرى غير الضرائب الشرعية ، فأمر بتكسير بلاد المغرب بالفراسخ والاميال طولا وعرضا ، وأسقط من المساحة الثلث فى الجبال والانهار والطرق والصحارى ، وما بقى قسط عليه الخراج ، والزم كل قبيلة قسطها .

وقد أدى فرض هذه الضريبة الى توزيع عادل للجباية على مختلف القبائل (ما عدا المصامدة ، الذين أعفوا منها) ، والى حصول الدولة على أموال وافرة ، احتفظ بها الخلفاء الموحدون فى بيت المال لوقت الحاجة ، وصرفوها لما قاموا به من انجازات ضخمة . ولعل هذه الاجراءات قد أغضبت الرعايا ، الا أنها لم تحدث أية ثورة على الدولة .

★ ★ ★

الخاتمـــة

وختاما لهذا الحديث الموجز ، يجدر بنا أن نتساءل عن دور عبد المؤمن بن على فى تأسيس دولة الموحدين ·

يمكن القول بان تاسيس دولة الموحدين بدأ سنة 515 هـ ، وهو تاريخ بيعـة ابن تومرت بتيمنلل · وقد تمكن ابن تومرت من نشر دعوته بين المصامدة ، وبسط نفوذه فى منطقة السوس الاقصى · ثم قام بمحاولات عديدة لمناهضة جيوش المرابطين ، الا أنها لم تكلل بالنجاح المأمول منها · ولا جدال أن ابن تومرت هو صاحب الدعوة ، ومفكر الدولة الموحدية ، ومصلحها ، ومقنن نظمها ·

أما عبد المؤمن فقد كان له الدور الاكبر فى مواصلة دعوة ابن تومرت ، والسـير بالموحدين الى النصر ، فهو متمم الدعوة ومحقق الانتصار · وقد وجهها توجيها خاصا ، ربما كان لا يتفق تماما مع نظرية ابن تومرت ، اذ جعل نظام تعيين الخلفاء وراثيا ، وعين أحد أبنائه وليا للعهد ، وفرض الخراج على المسلمين ، ولم يتمسك باستشارة المجالس التى أسسها ابن تومرت ، كمجلس العشرة ، وأهل خمسين ، وغير ذلك ·

ولاشك أن تأسيس دولة الموحدين قد غير الاوضاع السياسية فى المغرب الاسلامى تغييرا جذريا ، حيث قضى على مختلف الدول القائمة به قبلها ، وعوضها بدولة تضم كل أرجائه تحت سلطة واحدة ، محققا بذلك توحيدا سياسيا تحت شعار توحيد عقائـــدى ·

وكان من نصيب الجزائر أن يتولى أحد أبنائها هذه الانجازات الجليلة ، وأن يحقق هذا الهدف العظيم ·

الحـــلاج والقرامطـــة

المرحوم د. محمود قاسم
عميد كلية العلوم(سابقا)جامعة القاهرة

يجب الاعتراف بأن كتابات لويس ماسينيون عن الحلاج تعد المرجع المعاصر الاول الذى يجب الرجوع اليه للكشف عن ملامح تلك الشخصية العجيبة التى كان لها أثرها الدينى فى تاريخ الاسلام ، كما كان لها آثارها العميقة فى التاريخ السياسى لهذه الامة ، منذ أواخر القرن الثالث الهجرى حتى يومنا هذا . كذلك ينبغى أن نشيد بالجهد العظيم الذى بذله ماسينيون فى جمع مادته وحشد النصوص والوقائع من التراث الفكرى فى الاسلام ، فانه جهد ينوء به المختصون ، ويكاد يدفعنا الى القول بأن نوعا من المودة بين ماسينيون وفكر الحلاج هو الذى ساعده على بذل هذا الجهد الخارق للعادة .

غير أن هناك ظاهرة أثارت اهتمامنا فيما كتبه « ماسينيون » ، وبخاصة فى كتابه الضخم عن الحلاج ، « شهيد الصوفية فى الاسلام » ، وهى أنه بدا شديد الحرص

على نفى الصلة بين الحلاج والقرامطة ، وقد ظل يؤكد لنا أن هذا المتصوف لم يكن داعية سياسيا ؛ بل انتهى به الحب الالهى الى التضحية بنفسه على مذبح هذا الحب · كذلك يؤكد لنا ، دون ملل ، أن الحلاج كان متصوفا سنيا أراد تعميق الروح الدينية فى بيئة جفت عاطفتها الروحية ، وتمسكت بقشور الدين دون لبه · وقد ظن « ماسينيون » وبعض تلاميذه أن الحلاج ، الذى قال بحلول الله فيه ، يعد جسرا بين المسيحيـــة والاسلام السنى · ومع ذلك ، فان هذا الحرص الشديد على نفى الصلة بين الحلاج والقرامطة قد يؤذن ، على عكس ذلك ، بوجود هذه الصلة بينه وبينهم ·

وتلك هى المسألة التى نريد ، نحن ، أن نتبين وجه الحق فيها ، وبخاصة لان « ماسينيون » يعترف فى موطن ما من كتابه عن الحلاج بأن موقف هذا المتصوف من فريضة الحج كان سببا فى ادانته ومصرعه ، وأنه جرد مكة من أفضليتها وقداستها ، مما شجع القرامطة على مهاجمتها والفتك بالحجاج وهدم الكعبة ونزع الحجر الاسود منها ، ثم ارساله الى هجر ، حيث بقى هناك نحوا من اثنين وعشرين سنة ، فلم يعد الى موضعه الا بعد أن استقرت الفاطمية ، وبعد أن ثبت الحكم الفارسى فى بغداد بدلا من الحكم العربى ·

ولكى نسير على نهج واضح ، ولكيلا نظل الطريق فى كثير من الشعاب التى يقفز اليها أحيانا تفكير « لويس ماسينيون » رأينا أن نبدأ بدراسة الافكار الموجهة عند القرامطة وما أدت اليه من أحداث ، على أن نقارن فيما بعد بين هذه الحركة وبين ما نجده فى كتاب « ماسينيون » من وقائع توشك أن تفصح عن صلة وثيقة بين الحـــلاج والقرامطة (1) · ونعتقد أن هذا المنهج يتسق مع طبيعة الفترة الزمنية التى عاش فيها الحلاج · فقد عاصر حركتين شعوبيتين هامتين هما ثورة الزنج وثورة القرامطة ، وربما تكشفت لنا خيوط تربط احدى هاتين الثورتين بالاخرى · وذلك أمر يتسق مع طبيعة الاحداث التاريخية والاجتماعية · وسوف نوجز فى عرض هذه الاحداث والايديولوجية المرتبطة بها بقدر ما نستطيع ، أى بالقدر الذى يسمح بوضوح الفكرة والمنهج فى آن واحـــد ·

(1) سنخصص مقالا آخر لمناقشة هذه الوقائع تفصيلا .

ويمكن القول بدءا بأن القرن الثالث الهجرى شهد عدة حركات سياسية ترمى الى تقويض الدولة العباسية والتمهيد لدولة علوية ، بعد أن فشلت جهود القرن الثانى فى نقل الخلافة من الامويين الى آل البيت • وكان من الطبيعى أن تصطبغ هذه الحركات بصبغة دينية جلبا للانصار من الحانقين على الدولة العباسية ، وربما كانت هناك دوافع اجتماعية وسياسية وعنصرية توجب الحنق على أصحاب هذه الدولة • لكن سارت الثورات السياسية جنبا الى جنب مع ظاهرة دينية ، اذ كان ادعاء النبوة أو الربوبية أمرا مألوفا فى تلك الحقبة الغامضة من تاريخ الدولة العباسية التى بدأت تتحلل ، لكى تمهد لظهور عصر الدويلات ، منذ أواخر القرن الثالث بصفة خاصة •

اذن لم يكن الحسين بن منصور الحلاج أول من ادعى الالوهية ولا آخرهم • فقد سبقه كثيرون ، كما تبعه آخرون فيما بعد ، وبعضهم كان من تلاميذه ، ونعنى به أبا عمرة الذى عاش فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى • وليس من هدفنا أن نعرض بالتفصيل لتاريخ **هؤلاء الذين ادعوا الربوبية، تغريرا بالسذج من العامة ومساندة لبعض** الحركات السياسية ، فذلك أمر يطول سرده ، ويخرجنا عما نحن بصدده من الكشف عن حقيقة الصلة بين الحلاج والقرامطة • لكن لنا أن نذكر على سبيل المثال أن رجلا يقال له محمود بن الفرج النيسابورى ظهر فى سامراء سنة 235 هجرية ، فزعم أنه نبى ، واخترع كتابا ادعى أنه قرآن أوحى به اليه ، كما سيفعل الحلاج فيما بعد ، عندما حاول معارضة القرآن بكتاب ادعى أنه وحى الهى • أما ذلك النبى النيسابورى فقد أحضر هو وأصحابه الى الخليفة المتوكل ، وضرب ضربا شديدا فاعترف بكذبه ، وأمر المتوكل أصحابه ، وكانوا سبعة وعشرين رجلا ، أن يصفعه كل واحد منهم عشر صفعات ، وذلك بعد أن « أخذوا له مصحفا فيه كلام قد دبجه » • (2)

وفى سنة 250 هجرية ظهر أحد العلويين بالكوفة وهو يحيى بن عمر ، ودعا الى الرضا من آل محمد أى البيت العلوى فاجتمع الناس اليه وتبعه بعض العامة من أهل بغداد « وبايعه جماعة من أهل الكوفة ممن لهم **تدبير وبصيرة** فى تشيعهم ، ودخل فيهم **أخلاط**

(2) الكامل لابن الاثير ج 7 ص 43 .

لا ديانة لهم » لكن فشلت تلك الثورة وحملت رأس صاحبها الى الخليفة المستعين • ثم ظهر في السنة نفسها علوى آخر فبايعه « الديلم » **وكثر جمعه وأتاه كل طالب نهب وفتنة** » ثم استولى على الري ، وولى عليها رجلا من شيعته (3) • وهكذا ساعد ضعف السلطة المركزية في بغداد على تتابع الفتن فيها وفي الموصل ، ثم على نجاح ثورة الزنج التي بدأت في سنة 255 هـ ، واستمرت نحوا من خمسة عشر عاما •

وقد بدأت هذه الحركة أيضا تحت لافتة دينية • اذ قام بها رجل تظاهر بالدعوة الى آل البيت ، وهو محمد بن محمد بن عبد الرحيم الذي ولد في الطالقان بخراسان ، وهي المنطقة التي كان يجوب فيها دعاة الاسماعيلية الفاطمية من أبناء ميمون القداح ، والتي جال فيها الحلاج أيضا ، والتي ثارت بعد مصرع هذا الاخير ـ تقول ان هذه الحركة بدأت بمجيء صاحب الزنج من خراسان • وقد ادعى هذا الرجل انه علي بن محمد بن أحمد ابن عيسى من أبنـــاء الحسين ونجح في كسب ثقة الزنج فاجتمعوا حوله • ثم اتجه الى البحرين التي ستكون من أهم المراكز القرمطية فيما بعد •فتبعه جماعة كبيرة من أهلها وغيرها • ثم ادعى **لنفسه النبوة** ، وزعم **أن الوحي ينزل** عليه • وقد نقل عنه أنه قال : « أوتيت ، تلك الايام ، بالبادية ، آيات من آيات امامتي ظاهرة للناس ، منها أنني لقنت سورا من القرآن ، فجرى بها لساني في ساعة ، وحفظتها في دفعة واحدة ، منها سبحان ، والكهف ، وصاد ، ومنها أني فكرت في الموضع الذي أقصده ، حيث بنت بي البلاد ، فأظلتني غمامة ، وخوطبت منها ، فقيل لي : اقصد البصرة » • وقد استطاع خديعة أهل البادية لفترة من الزمن ، لكنهم انفضوا عنه بعد هزيمة قتل فيها كثير من اخوانهـــم •

ثم انتقل الى البصرة ومنها الى بغداد « فزعم بها أنه ظهر له آيات عرف بها ما في ضمائر أصحابه ، وما يفعله كل واحد منهم » • وتلك هي الكرامة التي نسبها الحلاج الى نفسه أو نسبها اليه أصحابه فيما بعد ، فسمي حلاج الاسرار • ومهما يكن من أمر فقد استطاع صاحب الزنج استمالة جماعة من بغداد ثم انتقل هو وأتباعه الى البصرة في سنة 255 • ومن الطريف أن الحلاج سلك هذا المسلك فقد اقنع جماعة من الاهواز

(3) مروج الذهب ج 4 ص 146 .

بالانتقال معهُ الى بغداد فاستقروا بها ابتداء من سنة 292 هـ . أما صاحب الزنج فقد اختار البصرة مركزا له بعد أن عزل واليها ، فأظهر هو أنه وكيل لولد الواثق لبيع السلاح . ثم أخذ يستدرج العبيد ، وكون منهم جماعات نصب على كل جماعة منها رئيسا من بينهم . وكان يعدهم الجنة . فاجتمع لديه عدد كبيرمن غلمان أهل البصرة الذين أقبلوا عليه خلاصا من الرق والتعب . وأقسم لهم أنه لن يخونهم . ولما جاء أصحاب العبيد يطالبون بارقائهم « بطحهم وأمر عبيدهم بضربهم » لكنه كان يأخذ من كل عبد ينظم اليه خمسة دنانير ، وهو نفس الاسلوب الذى طبقه القرامطة مع أنصارهم فيما بعد . ولما قوى أمره سار الى القادسية ونهبها هو وأصحابه . ثم عاد بهم وهاجم البصرة ووضع فى أهلها السيف بعد أن هزم جيشها ، فقتل من أهل البصرة خلقا كثيرا . وربما بالغ المسعودى صاحب كتاب مروج الذهب فى تقدير عدد القتلى والغرقى من البصريين ؛ اذ يقول ان عدد هؤلاء كان 300,000 نفس . ثم يرسم لنا المسعودى صورا بشعة لكارثة البصرة فيقول : « واختفى كثير من الناس فى الدور والآبار ، فكانوا يظهرون بالليل ، فيأخذون الكلاب فيذبحونها ويأكلونها ، والفيران والسنانير فأفنوها ... فكانوا اذا مات منهم الواحد أكلوه » .

وهكذا لم تلبث حركة الزنج أن كشفت عن وجهها الحقيقى ، فبيعت النساء من نسل الحسن والحسين والعباس وغيرهم من الهاشميين والقرشيين فى أسواق الرقيق « تباع الجارية منهن بالدرهمين والثلاثة ، وينادى عليها بنسبها : هذه ابنة فلان الفلانى . لكل زنجى منهم العشرة والعشرون والثلاثون يطؤهن الزنج ، ويخدمن النســاء الزنجيـــات .

وكان من عادة صاحب الزنج أن يقتل الاسرى . فأثار الرعب فكانت بعض المدن تسلم حصونها دون قتال ، كما فعل أهل عبادان . وقد دخل الاهواز وخربها ثم أحرقها ، ولم يكن يحترم وعدا أو عهدا مع أعدائه . ذلك أنه لما دخل البصرة « أقام يقتل ويحرق يوم الجمعة وليلة السبت ويوم السبت . ولما طلب أهل البصرة الامان أمنهم . فلما تجمعوا فى دار حددت لهم غدر بهم وأمر أصحابه بقتلهم ... وأحرقت البصرة فى عدة مواضع ، واتسع الحريق . وقتلوا كل من رأوه بها . فمن كان من أهل اليسار

أخذوا ماله وقتلوه ، «ومن كان فقيرا قتلوه لوقته» وهذا هو ما فعلوه بمدينة واسط عندما دخلوا اليها فى سنة 264 هـ • ولم تتمكن جيوش الدولة العباسية من الصمود أمام طائفة الزنج وصاحبها الا ابتداء من سنة 267 هـ عندما هزمهم أبو العباس الموفق الهزيمة الاولى • فكان هذ هو أول الفتح (4) • ثم كتب الموفق الى صاحب الزنج كتابا يدعوه فيه الى التوبة مما اقترف من سفك الدماء وانتهاك المحارم واخراب البلاد وادعاء النبوة والرسالة • لكن الثائر لم يستجب ، فحاصر الموفق مدينته التى سماها «المختارة» وضيق عليه الحصار وأجاد التأثير النفسى فى أعوان صاحب الزنج فأخذ هؤلاء يتسللون من المدينة المحاصرة ومن بينهم بعض القواد • وكانوا يطلبون الامان من الموفق فأمنهم ، وظل يحاصر المدينة حتى اشتد الجوع بمن فيها • فكان الواحد منهم يأكل صاحبه اذا انفرد به •

وأخيرا اقتحم الموفق المدينة المحاصرة وأحرق قصورها وأنقـذالنساء والاطفال • واستطاع القضاء على ثورة الزنج فى سنة 270 هجرية » • (5)

لكن ما لبثت أن نشبت ثورة جديدة بعد وفاة الموفق فى سنة 278 ، ونعنى بها ثورة القرامطة التى امتدت قرنا من الزمان • وقد اتهم الحلاج بأنه من كبار دعاتها والمروجين لها تحت ستار من التصوف وادعاء الالوهية الى جانب المناداة بابطال فرائض الاسلام من صلاة وصيام وحج وزكاة ، وتوحيد أيضا • وسنرى كيف حاول « ماسينيون » جاهدا أن ينفى عنه التهمة السياسية ، وان أقر بأن الحلاج نادى باسقاط التكاليف وبأن الولى أعلى مرتبة من النبى ، وله أن ينسخ الشريعة وأن يقرر عبادات جديدة • وعلى الرغم من هذا الفاصل الزمنى بين نهاية ثورة الزنج وبداية ثورة القرامطة فانا نجد أنفسنا فى الواقع أمام ثورة متصلة أجيد تخطيطها والاعداد لها بصور متقاربة • وهذا أمر تشهد التجربة المعاصرة بصدقه • فلقد بدأت هذه الحركة عندما قدم رجل منهم من خوزستان فهبط الى سواد الكوفة ، وأظهر الزهد والتقشف ، وأعلم الناس أنه جاء

(4) الكامل لابن الاثير ج 7 ص 121 .
(5) نفس المصدر ج 7 ص 159 .

يدعو الى امام من آل بيت الرسول · ولما مرض هذا الداعى المتشيع حمله رجل من أهل القرية التى نزل بها ويسمى « قرمط » الى داره ، وعنى به حتى شفى « ودعا أهل تلك الناحية الى مذهبه ، وكان يأخذ من الرجل اذا أجابه دينارا وزعم أنه للامام » ، ثم جعل يرسم لجماعته صلوات خاصة ، كتلك التى رسمها الحلاج فيما بعد حتى يعفيهم من الصلاة باعتراف « ماسينيون » نفسه ، فاشتغل الناس به عن أعمالهم ، ولا سيما بعد أن أقنعهم، هو الآخر ، بأنه صاحب معجزات · أما تلك المعجزة التى نسبت اليه فترجع الى أن أحد الملاك وجد تقصيرا فى العمل ، فلما بحث عن سببه علم بأمر ذلك الرجل الذى يصرف القوم عن أعمالهم، فأخذه وحبسه فى بيته وأغاق باب البيت بمفتاح ، ووضع المفتاح تحت وسادته · غير أن احدى جواريه رق قلبها للرجل ، فأخذت المفتاح خلسة وأخرجت الرجل من سجنه ، ثم أعادت المفتاح الى مكانه · ولما أراد صاحب الدار الفتك بسجينه لم يجده «وشاع ذلك فى الناس · فافتتن به أهل تلك الناحية، وقالوا : رفع · ثم ظهر فى ناحية أخرى ،ولقى جماعة من أصحابه وغيرهم ، فسألوه عن قصته · فقال : لا يمكن أحدا أن ينالنى بسوء ، فعظم فى أعينهم » وتشبه هذه المعجزة التى افتتن بها بعض أهل ذلك العصر ما نسب الى الحلاج فيما بعد من أنه كان يخترق جدران سجنه ثم يعود اليه حسبما يريد · ثم ان هذا العلوى المزعوم خاف على نفسه ، فخرج الى الشام واتخذ لنفسه اسم الرجل الذى حمله الى داره عندما أصابه المرض ، فعرف فى موطنه الجديد باسم «قرمط» لكن هناك رواية أخرى تقول ان « قرمط » لقب لرجل كان بسواد الكوفة يحمل غلة الاقليم على ثيران له وكان اسمه حمدان ·

وأيا ما كان الامر فى نشأة هذه الطائفة فمن المؤكد أنه كانت للقرامطة «ايديولوجية» دينية لا تتسق مع ما يعرفه المسلمون عن دينهم ، سنية كانوا أم شيعة · فقد ادعى القرمطى الاول أنه داعية المسيح ، وأنه عيسى وهو الكلمة وهو المهدى وهو جبريل · وينم هذا الخلط العجيب عن الطابع التلفيقى للماسونية القرمطية والباطنية بصفة عامة · ثم ذكر أن المسيح تصور له فى جسم انسان ، وأخبره أنه هو الحجة ، وحدد له أمورا كثيرة منها أن الصلاة أربع ركعات : ركعتان قبل طلوع الشمس ، وركعتان بعد

غروبها (6) ، وأن الرسل أولو العزم هم آدم ونوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد . وهذا ما نجده عند الاسماعيلية التى لم تكن طائفة القرامطة الا فرعا منها عهد اليه بالاعداد للدولة الفاطمية فى المشرق، على نحو ما ستكشف الحوادث عنه فيما بعد عندما دب الخلاف بين الطائفتين فى عصر المعز لدين الله . ويخبرنا ابن الاثير ان « قرمطا » اتصل بصاحب ثورة الزنج قبل مقتله وأخبره ان معه مائة ألف ضارب بالسيف . لكن لم يتفق الرجلان لبعض الفروق المذهبية . وعلى الرغم من هذه الفروق المذهبية فقد اتفقت أساليب الطائفتين الى حد كبير من سبى النساء والجوارى وقتل الاسرى والسلب والنهب ، مما يشعر بوحدة الفكر في التخطيط .

وفى أول الامر ، ظهر نشاط حركة القرامطة بالبحرين سنة 281 هـ . فقد ادعى رسولهم الى هذه المنطقة ، وهو يحيى بن المهدى ، أنه رسول المهدى المنتظر ، وأنه جاء ليدعوهم الى مناصرته وأخبرهم انه سيظهر عما قريب « وكان فيمن أجابه أبو سعيد الجنابى ، وكان يبيع للناس الطعام ... ثم غاب عنهم يحيى بن المهدى مدة ، ثم رجع ومعه كتاب يزعم انه من المهدى الى شيعته » وفيه يطلب الى هؤلاء أن يدفع كل رجل منهم ستة دنانير وثلثين لرسوله ، فدفعوها اليه ، ثم رحل عنهم مرة ثانية ، ولما عاد طلب اليهم بكتاب آخر من المهدى أن يدفعوا اليه خمس أموالهم ففعلوا . ولابد من أن يكون الاغراء شديدا حتى يسارع هؤلاء بدفع ما يطلب اليهم عن طيب خاطر . وفيما بعد كان الحمقى فى احدى جزائر البصرة يشترون الذراع فى الجنة بمائة دينار ، كما يخبرنا الامام الغزالى . وفى أثناء ذلك كله توثقت صلة هذا الرسول بأبى سعيد الجنابى حتى قيل ، على حد ما يرويه لنا ابن الاثير ، ان أبا سعيد طلب الى زوجته أن تعنى عناية خاصة برسول المهدى لو أراد.

ثم انتقل يحيى بن المهدى يدعو بنى كلاب وعقيل وغيرهم « فاجتمعوا معه ومع أبى سعيد فعظم أمر أبى سعيد » . وفى سنة 286 حشد هذا الاخير جماعة من الاعراب والقرامطة بالبحرين وجعل يغير على ما حوله من القرى ، ثم سار الى القطيف ، وقتل من

(6) أنظر وصفا تفصيليا لفريضتى الصلاة والصوم عند القرامطة فى كتاب الكامل لابن الاثير ج 7 ص 16 ـ 161 .

بها ، وأظهر أنه يريد البصرة ، وطبيعى أننا لا نريد أن نغترف هنا من المراجع التاريخية تفاصيل ثورة القرامطة التى لم تكن ثورة اشتراكية كما خيل الى الاستاذ روجيه جارودى فى محاضرته بالقاهرة سنة 1969 (7) ، بل كانت حركة سياسية ترمى الى الاطاحة بالدولة العباسية ، لكى تجعل مكانها دولة الفاطميين ، وهم من الاسماعيلية . وكانت حروبها ، فى التحليل الاخير ، أشبه بأساليب السطو وقطع الطريق والتنكيل بالابرياء .

لكن ينبغى أن نشير بايجاز الى أن أسلوب القرامطة كان امتدادا لاسلوب صاحب الزنج ، فقد أغار أبو سعيد الجنابى على نواحى هجر ، واقترب هو وأعوانه من البصرة فهزموا قائد المعتضد فى سنة 287 هـ . وكان الجنابى يقتل الاسرى ويحرقهم . ولما بدأت جيوش العباسيين تنكل بالقرامطة فى سواد الكوفة ، ظهر أحد دعاتهم فى الشام فى سنة 289 ، وزعم انه محمد بن عبد الله بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق . وقد أطلق جماعة من أتباعه على أنفسهم اسم الفاطميين . وبدأ يهاجم العراق وأحرق مسجد الرصافة ، ثم انتشر القرامطة فى تلك السنة بسواد بغداد التى ستصبح بعد سنوات قليلة ، مسرحا لاسطورة الحلاج .

ومن الطريف أن نجد من بين القرامطة رجلا كان يمكن أن يكون هو أيضا موضوعا لاسطورة كالحلاج ، وهو ابن أبى الفوارس الذى ادعى ان روح الله وروح أنبيائه قد حلت فيه لتعصمه من الزلل ولتوفقه الى صالح العمل . فلما قبض عليه وأحضر بـــين يدى الخليفة المعتضد قال : « يا هذا ان حلت روح الله فينا فما يضرك ، وان حلت روح ابليس فما ينفعك ؟ فلا تسأل عما لا يعنيك ، وسل عما يخصك » ثم جعل يجبه الخليفة بأن العباسيين اغتصبوا الخلافة ، فأمر المعتضد بتعذيبه ، وقطع يديه ورجليه ، ثم قتل وصلب (8) . وكان لاهل بغداد فى قتل ابن أبى الفوارس أراجيف كثيرة ، فقد قيل انه قال لبعض من حضر مقتله من العوام ، وقد أوصاه بحفظ عمامته ، انه سيعود بعد أربعين يوما . « فكان يجتمع فى كل يوم خلائق من العوام تحت خشبته ، ويحصون الايام ، ويقتتلون ، ويتناظرون فى الطرق فى ذلك » ، ثم تمت الاربعون ليلة فكثر لغط

(7) أنظر ردنا على جارودى ـ الهلال عدد يناير 1971 بعنوان الاسلام والاشتراكية .
(8) الكامل لابن الاثير ج 7 ص 185 .

العامة » فكان بعضهم يقول : هذا جسده ويقول آخر قد مر ، وانما السلطان قد قتل رجلا آخر وصلبه موضعه لكيلا يفتتن الناس » وبعد عدة أعوام أعاد عوام بغداد هذا الخلاف فيما بينهم • بسبب مقتل الحلاج • فقد سمع أحدهم الحلاج ، وهو فى طريقه الى تنفيذ الحكم ، يقول لاتباعه لا تجزعوا • سأعود اليكم بعد ثلاثين يوما ، وقال ابن زنجى انه سمع انه قال بأنه سيعود بعد أربعين يوما (9) • ومهما يكن من أمر فقد ظل أبو الفوارس مصاوبا فترة طويلة من الزمن بعد ان طلى جسمه بالصبر وغيره من الاطلية القابضة والماسكة ، ثم ضاق به أهل بغداد فأنزله جماعة من العامة من خشبته ، وجعلوا يتراقصون بجثته ويغنون وينادونه باسم الاستاذ . ثم القوه فى النهر ، وألقى بعض العامة بأنفسهم وراءه فغرق منهم عدد كبير على نحو ما يروى لنا صاحب مروج الذهب •

ويبدو أن الحلاج الذى كان يجوب خراسان منذ سنة 285 هجرية لفترة امتدت نحوا من خمس سنوات ، كان شديد اللهفة على ظهور المهدى المنتظر فأخذ يقسم بسنة 290 هـ، وهى السنة التى كان يقسم بها بعض دعاة القرامطة فى خراسان أيضا على نحو ما سنفصل القول فيه بعض التفصيل فيما بعد • وأيا ما كان الامر فان تلك السنة هى التى بلغت فيها ثورة القرامطه اوجها من العنف • فقد حاصر القرامطة فيها دمشق وضيقوا على أهلها وأشرف كثير من أهل دمشق على الهلاك •

ولما قتل الحسين شيخ القرامطة فى الشام على باب دمشق اجتمع من بقى منهم على بيعة أخيه الحسن الذى سمى نفسه أحمد • ثم سار الى دمشق وصالح أهلها على خراج دفعوه اليه ، فانصرف عنهم ، واتجه الى حمص وقد لقب نفسه بالمهدى أمير المؤمنين «ولما أطاعه أهل حمص وفتحوا له بابها خوفا منه ، سار على حماة ومعرة النعمان وغيرهما، فقتل أهلها وقتل النساء والصبيان ، ثم سار الى بعلبك فقتل عامة أهلها ••• ثم سار الى سليمه فمنعه أهلها ثم صالحهم ، وأعطاهم الامان ، ففتحوا له بابها ، فبدأ بمن فيها من بنى هاشم وكان جماعة فقتلهم أجمعين . ثم قتل البهائم والصبيان » (على نحو ما يفعل اليهود فى حروبهم) ثم خرج منها وليس بها عين تطرف » وفى الجملة، سلك مسالك صاحب الزنج فجعل يخرب القرى ويسبى ويقتل ويحرق ، حتى جاءت جيوش الخليفة المكتفى وأنزلت بالقرامطة بعض الهزائم وأسرت زعيمهم الذى كان يلقب

(9) ماسينيون : كتاب الحلاج ج 1 ص 301.

بأبى شامة ، وحمل هذا القرمطى الى بغداد ومعه نفر من اصحابه فقطعت أيديهم وأرجلهم ثم ضربت أعناقهم ، ورفعت رأس أبى شامة على خشبة ونصبت على الجسر .

لكن سرعان ما تجمع القرامطة عندما جاءهم كتاب من أحد زعمائهم ، وهو زكرويه ابن مهرويه يخبرهم فيه انه **قد أوحى اليه** « أن صاحب الشامة وأخاه المعروف بالشيخ يقتلان ، وأن امامه الذى هو حى يظهر بعدهما ويظفر » وبدأت جيوش القرامطة تغير على دمشق من جديد ، وعلى طبرية . وقد فعلوا بهذه المدينة الاخيرة ما فعلوا بغيرها من قتل وسبى . ثم أعدوا عدتهم للاستيلاء على الكوفة واتجهوا اليها يحملون راياتهم البيضاء وهى تشبه رايات الاسماعيلية فى لونها . فلما عجزوا عن فتحها ساروا الى القادسية ، وقد ادعى زكرويه أنه من أولياء الله ، وكان أتباعه متى رأوه سجدوا له كما كان يفعل أتباع الحلاج . وقد استطاع زكرويه أن يهزم جيش الخليفة فى سنة 293 بعد أن نصب له كمينا وقتل منه عددا كبيرا . ثم جعل القرامطة يقطعون الطريق على الحجاج من أهل خراسان . وربما أمكن تفسير ذلك بأنهم كانوا حريصين على جعل خراسان منطقة مغلقة لدعاتهم هناك حتى يتم كسب الخراسانيين للدعوة الاسماعيلية « وكان نساء القرامطة يطفن بالماء بين القتلى يعرضن عليهم الماء . فمن كلمهن قتلنه » (10) ثم جهز المكتفى الجيوش وقتل من القرامطة خلقا كثيرا ، وأصيب زكرويه بضربة سيف فى رأسه مات بعدها بخمسة أيام فنقلت جثته مع أسرى القرامطة الى بغداد ، وحملت رأسه الى خراسان حتى لا ينقطع الحاج .

وفى أثناء الصراع بين القرامطة وخلفاء بغداد ظهر مدع آخر للربوبية فى سنة 289 ثم قبض على الحلاج فى 301 . ويقول ابن الاثير عنه انه كان « مشعبذا فى قول بعضهم وصاحب حقيقة فى قول بعضهم ، ومعه صاحب له ، فقيل انه يدعى الربوبية » (11) . وفيما بعد قال الامام الجوينى امام الحرمين ان الحلاج كان من دعاة القرامطة « وانه اتفق هو والجنابى وابن المقفع على افساد عقائد الناس ، وتفرقوا فى البلاد ، فكان الجنابى

---

(10) الكامل لابن الاثير ج 7 ص 195 ــ 196 .
ــ (10) نفس المصدر .
(11) البداية والنهاية ج 11 ص 143 ــ 144 . وماسينيون نفس المصدر ص 70 .

فى هجر والبحرين ، وابن المقفع ببلاد الترك ، ودخل الحلاج العراق » غير أن ابن خلكان الذى نقل كلام الجوينى يلاحظ أن ابن المقفع كان قبل الحلاج بزمن طويل ، أى فى أيام السفاح والمنصور • ولذا نجد ابن كثير صاحب البداية والنهاية يصحح كلام امام الحرمين فيقول ان الثلاثة الذين اجتمعوا فى عصر واحد على اضلال الناس وافساد عقائدهم هم الحلاج وابن السمعانى ، وهو أبو جعفر بن محمد بن على ، وأبو طاهر سليمان ابن أبى سعيد بن الحسين بن بهرام الجنابى القرمطى » (12) • ومهما يكن من شىء فقد ظهر أمر الحلاج وانتشر ذكره فى سنة 299 هـ •

غير أنه لم يكن لمقتل أبى سعيد الجنابى ولاربعة من أكابر رؤساء القرامطة على يد أحد خدمه من الصقالبة فى سنة 301 هـ تأثير كبير فى حركة القرامطة التى مدت سلطانها على هجر والاحساء والقطيف والطائف وسائر بلاد البحرين • وأخذ القرامطة يقطعون الطريق على الحجاج بعد خروجهم من مكة • وزادت حركة القرامطة عنفا عندما تزعمها أبو طاهر ابن أبى سعيد الجنابى وكان فى السابعة عشرة من عمره عندما فتك بالحجاج العراقيين فى سنة 313 • وعندئذ خرج نسوة العراق ممن قتل أزواجهن فى أثناء العودة من الحج ، وممن نكبهم ابن الفرات فى بغداد « وجعلن ينادين القرمطى أبو طاهر قتل المسلمين فى طريق مكة ، والقرمطى الكبير قد قتل المسلمين فى بغداد • وكانت صورة فظيعة شنيعة ، وكسر العامة منابر الجوامع وسودوا المحاريب » (13) وعجز الخليفة وأعوانه عن الوقوف فى وجه القرامطة ، فدخل القرمطى الصغير الى الكوفة وأرسل الى الخليفة يطلب منه البصرة والاهواز • فلما لم يلق جوابا نهب الكوفة ثم عاد الى هجر • وساءت أحوال الحكم فى بغداد • ثم سار أبو طاهر القرمطى الى الكوفة فى سنة 315 وهزم الجيوش التى حاولت الايقاع به وأعوانه •

وهناك ظواهر ذات دلالة خاصة تشير الى وجود صلة وثيقة بين القرامطة وبين الفاطميين فى تلك الفترة الغامضة من تاريخ الدولة العباسية وقت احتضارها • فمن ذلك ما نقله الينا ابن الاثير من أن انسانا جاء الى أحد وزراء بغداد وأخبره بأن « فى

(12) الفهرست لابن النديم ص 191 طبعة بيروت . ج فلوجل .
(13) الكامل لابن الاثير ج 7 ص 50 .

جيرانه رجلا من شيراز على مذهب القرامطة يكاتب أبا طاهر بالاخبار • فأحضره وسأله ، واعترف ، وقال ما صحبت أبا طاهر الا لما صح عندى أنه على الحق ، وأنت وصاحبك (أى الخليفة) كفار تأخذون ما ليس لكم • ولابد لله من حجة فى أرضه • وامامنا المهدى محمد بن فلان بن فلان بن اسماعيل بن جعفر الصادق المقيم ببلاد المغرب • ولسنــا **كالرافضة والاثنا عشرية** الذين يقولون ، بجهلهم . ان لهم اماما ينتظرونه ويكذب بعضهم بعضا ، فيقول قد رأيته وسمعته وهو يقرأ • ولا ينكرون ، بجهلهم وغباوتهم ، أنه لا يجوز أن يعطىمن العمر ما يظنونه • فقال له : قد خالطت عسكرنا وعرفتهم • فمن فيهم على مذهبك ؟ فقال : وأنت بهذا العقل تدبر الوزارة ؟ كيف تطمع منى أن أسلم قوما مؤمنين الى قوم كافرين يقتلونهم ؟ لا أفعل ذلك ! فأمر به فضرب ضربا شديدا ، ومنــع الطعام والشراب فمات بعد ثلاثة أيام » •

ومن ذلك أيضا ما روى من أن المهدى أرسل خطابا الى أبى طاهر القرمطى الصغير يلومه فيه ويعنفه • فان القرمطى هاجم مكة فى سنة 317 هـ فى يوم التروية فنهـب هو وأصحابه أموال الحجاج ، وقتلوهم حتى فى المسجد الحرام ، ثم خلع الحجر الاسود وأرسله الى هجر حيث ظل هناك أكثر من عشرين سنة • ثم قتل أمير مكة ومن معه من الاشراف ، وألقى بالقتلى فى بئر زمزم ، ودفن الآخرين فى المسجد الحرام بغير كفن ولا غسل ولا صلى على أحد منهم • ثم انتزع كسوة الكعبة وقسمها على أصحابه ونهب دور مكة • فلما « بلغ ذلك المهدى أبا محمد عبيد الله العاوى بافريقية ، كتب اليه ينكر عليه ذلك ويلومه ويلعنه ••• ويقول : قد حققت على شيعتنا ودعاة دولتنا الكفر والالحـاد بما فعلت • وان لم ترد على أهل مكة وعلى الحجاج وغيرهم ما أخذت منهم ، وترد الحجر الاسود الى مكة ، وترد كسوة الكعبة فأنا برىء منك فى الدنيا والآخرة ••• (14)

لكن يبدو أن هذا السخط الذى أظهره المهدى لم يكن الا ظاهريا فحسب ؛ بل ربما كان يخفى شيئا آخر اتفق عليه مع دعاة دولته ، ذلك أن الدولة لم تكن قد استقرت تماما للفاطميين فى المغرب • لقد تظاهر أبو طاهر أنه سيرد الحجر الاسود وأنه استرد

(14) نفس المصدر ج 8 ص 79 .

ما يمكنه من أموال مكة أما كسوة الكعبة وأموال الحجاج فقد اقتسمها الناس ولذا فلن يستطيع ردها · ومهما يكن من شيء فقد احتفظ أبو طاهر القرمطى بالحجر الاسود فى هجر ، ومات فى سنة 332 دون أن يرده · وظل الحجر الاسود فى حوزة القرامطة حتى سنة 338 · ولما أعادوه فى تلك السنة « قالوا : **أخذناه بأمر ، وأعدناه بأمر** » وقد ردوه دون عوض ، بعد أن رفضوا رده مقابل 50,000 دينار « فلما أرادوا رده حملوه الى الكوفة وعلقوه بجامعها حتى رآه الناس ، ثم حملوه الى مكة · وكان مكثه عندهم اثنتين وعشرين سنة » (15) غير أننا نلاحظ أنه لم يرد الا بعد القضاء على الدولة العباسية ، اذ لم يعد ثمة ما يوجب محاربة فريضة الحج بعد نجاح الدولة الاسماعيلية ·

واذا بقى بعد ذلك ريب فى أمر الصلة بين القرامطة والدولة الفاطمية الاسماعيلية فى المغرب فاننا أن نذكر حدثا تاريخيا له دلالته ، وهو أن المعز لدين الله كتب الى أحد رؤساء القرامطة فى سنة 363 هـ ، أى بعد الانشقاق بين القرامطة والفاطميين ، يذكره بتلك الصلة الوثيقة بين الطائفتين ، وذلك عندما سار القرامطة وعلى رأسهم الحسن ابن أحمد بن الاحساء على مصر لحصارها · « فلما سمع المعز لدين الله صاحب مصر أنه يريد قصد مصر كتب اليه كتابا يذكر فيه فضل نفسه وأهل بيته ، **وأن الدعوة واحدة** ، وأن القرامطة انما كانت دعوتهم اليه والى آبائه من قبله ، ووعظه وبالغ فى تهديده ، وسير الكتاب اليه · فكتب جوابه : « وصل كتابك الذى قل تحصيله ، وكثر تفصيله ، ونحن سائرون أليك على اثره والسلام » · (16)

وهكذا لم يدب الشقاق بين القرامطة والفاطميين الا بعد تحقيق الهدف المشترك وهو القضاء على دولة آل عباس · لكن الذى يعنينا هنا هو أن نفسر عنف القرامطة فى محاربة الحجاج والفتك بهم · وسنرى كيف أظهر « ماسينيون » ، رغم محاولاته العديدة انكار الصلة بين الحلاج والقرامطة ، أن يعترف بأن الحلاج كان يريد ابطال فريضة الحج · ويبدو أن محاولة تدنيس الكعبة كانت هدفا أساسيا من أهداف الدعوة الفاطمية ·

(15) نفس المصدر ج 8 ص 175 .
(16) نفس المصدر ج 8 ص 229 .

فقد تجددت هذه المحاولة حتى بعد انتهاء حركة القرامطة بزمن طويل • فقد روى لنا ابن الاثير فى أثناء كلامه عن حوادث سنة 414 هـ أن رجلا من مصر قام بعد صلاة الامام فى المسجد الحرام ، وباحدى يديه سيف مسلول وفى الاخرى دبوس « فقصد ذلك الرجل الحجر الاسود كأنه يستلمه ، فضرب الرجل الحجر ثلاث ضربات بالدبوس وقال : الى متى يعبد الحجر الاسود ومحمد وعلى ؟ فليمنعنى مانع من هذا ! فانى أريد هدم البيت • فخاف أكثر الحاضرين ، وتراجعوا عنه • وكاد يفلت • فثار به رجل فضربه بخنجر ، وقطعه الناس وأحرقوه • وقتل ممن اتهم بمصاحبته جماعة وأحرقوا • وثارت الفتنة ••• وألح الناس ، ذلك اليوم ، على المغاربة والمصريين بالنهب والسلب ••• فلما كان الغد ماج الناس واضطربوا ، وأخذوا أربعة من أصحاب ذلك الرجل • فقالوا نحن مائة • فضربت أعناق هؤلاء الاربعة » • (17)

كذلك لم تنقطع ظاهرة ادعاء الربوبية بعد مقتل الحلاج فقد ادعاها الشلمغانى لنفسه • ثم ادعاها أحد الحلاجية فى القرن الخامس الهجرى كما أشرنا الى ذلك من قبل ويمكن القول بأن هاتين الظاهرتين ، أعنى ظاهرة ابطال فريضة الحج وظاهرة ادعاء الالوهية هما الظاهرتان الغالبتان فى المجال الدينى طيلة القرنين الرابع والخامس الهجريين • وقد جمع الحلاج بين هذين الامرين ، ثم اختلف الناس فى تفسير مقتله ، أكان بسبب محاولته اسقاط فريضة الحج ، أم كان بسبب ادعائه الالوهية ؟ لكن يبدو أنه كان يريد الامرين معا ، فانه يصرح بأنه يدين بمذهب الحلول ، ويعترف بأنه يريد صرف الناس عن الحج أليس هو الذى يقول :

على دين الصليب يكون موتى ولا البطحا أريد ولا المدينة ؟

فهو ، عندما يجمع بين الامرين ، لا يفعل سوى أن يسير فى الاتجاه العام لكل من حركة القرامطة والدعوة الفاطمية ، وان استعان فى سيرته هذه بالسحر والتصوف فى الوقت نفسه ، على نحو ما يعترف له بذلك أنصاره وخصومه، وعلى نحو ما كشفنا عنه من جانبنا عن حقيقة صلته بالقرامطة من دراسة ماسينيون •

(17) نفس المصدر ج 9 ص 114 ـ 115 .

(18) أنظر الأصالة عدد 57 .

حسان بن النعمان
ودوره في نشر الاسلام بالمغرب

صالح بن قربة
معهد العلوم الاجتماعية
دائرة الدراسات التاريخية والآثار
جامعه الجزائر

مقدمة تاريخية :

لعل أول اتصال بين المغرب العربي ، والحياة العربية تم عن طريق الفتوح الاسلامية • هذه الفتوح التي كانت حركة عظيمة الأثر في تاريخ شمال افريقية ، وغرب افريقية والاندلس • وقد تدفق تيار هذا الفتح الى جنوب فرنسا ، وصقلية في فترة حكم الاغالبة ، بل وصل الى جنوب ايطاليا ، وانتشر النفوذ الاسلامي في الحوض الغربي للبحر الابيض المتوسط في مختلف الجزر المنتشرة فيه •

هذه الفتوح التي قد تخللتها معارك حربية في البر مثل (سبيطلة ، وتهودة في المغرب) ومعارك بحرية حاسمة مثل (قرطاجنة في تونس وقاعدتي طنجة وسبتة في المغرب الاقصى) • هذه المعارك المصيرية التي خرج منها المسلمون منتصرين •

وللوقوف على أسباب هذه الانتصارات ، لا بد من دراسة الاوضاع الحربية فى بلاد المغرب ساعة اصطدامها بالعرب الفاتحين ٠

ولا شك ان هذه الفتوح تلتها هجرات عربية ٠ وظاهرة الاختلاط بين شعوب من سلالات مختلفة ، سيترتب عنها فيما بعد ظهور الثقافة العربية ٠ ولمعرفة الظواهر التى صاحبت الفتوح الاسلامية فى البلاد ينبغى القاء نظرة سريعة على الأوضاع الحربية والدينية والثقافية حتى نقف على بعض الصعوبات التى واجهت المسلمين فى الفتح ٠

1 ـ النظام الحربى فى شمال افريقية :

من دراستنا للتاريخ البيزنطى فى افريقية اتضح لنا أن الدفاع عن المغرب ضد أى غزو خارجى كان يعتمد على القواعد البحرية وسلسلة من الحصون والقلاع التى تمتد على الساحل من اقليم برقة الى مدينة طنجة ٠ نستنتج من هذه الظاهرة ان معارك الفتح الاسلامى فى شمال افريقية ستكون بحرية تعتمد على الاسطول القوى أكثر منها معارك برية ، وعليه فان الفريق الأقوى اسطولا والأمنع حصونا ستكون له الغلبة ٠

ولهذا فان غزوات المسلمين البرية فى افريقية كانت مجرد غارات خاطفة وانتصارات سريعة ٠

لقد دخل المسلمون اقليم تونس متجنبين الحصون والقلاع الساحلية ، فأنشأوا مدينة القيروان بعيدا عن الشريط الساحلى ، واتخذوها حاضرة للمغرب الاسلامى فيما بعد ٠ ولعل سبب هزيمة عقبة بن نافع الفهرى ومن بعده زهير بن قيس البلوى ، يعود الى افتقارهما الى القوة البحرية ، فضلا عن مرارة الكفاح فى شمال افريقية (2) ٠
وقد أدرك المسلمون أهمية هذا العامل فى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان ٠

2 ـ الحالة الثقافية :

وهناك حقيقة أخرى جديرة بالدراسة وهى أن تأثير الثقافة الاغريقية اللاتينية قد بدأت تضعف الى حد بعيد ، بالرغم من جهود البيزنطيين فى احياء هذه الثقافة ٠

2 ـ ابراهيم طرخان : المسلمون فى أوروبا ، ص 59 ـ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج 4 ، ص 45 ٠

ونلاحظ بان ظاهرة الثقافة اللاتينية سادت وانتشرت فى المنطقة الساحلية فقط ولم تتوغل نحو الداخل والجنوب ، ولعل السبب فى ذلك ان البيزنطيين لم يعملوا على نشر الثقافة فى قلب البلاد •

وراحوا يقيمون سلسلة من القلاع خلف الشريط الساحلى لحمايتهم من هجمات البربـــر •

هذا بعكس الثقافة العربية التى تمكنت من المغرب كله ، وصبغت الفتوح الاسلامية الثقافة المغربية بالصبغة الاسلامية الخالصة •

3 ـ **الحـالة الدينية** :

من الحقائق التاريخية التى لا تقل أهمية عما اشرنا اليه سابقا ، ظاهرة تضاؤل شأن الكنيسة المسيحية فى بلاد المغرب ، هذه الكنيسة التى انجبت فى الماضى البعيد اعلاما أمثال القديس أغستين Augustine

ولعل من عوامل تضاؤل شأنها أنه لم ينتشر نفوذها الا فى المنطقة الساحلية فقط ، بالاضافة الى ما تعرضت له الكنيسة من الاضطهاد فى فترة حـكم الوندال الذين شردوا اساقفتها وحرموا على المسيحيين ممارسة ديانتهم والجهر بشعائر دينهم ، وعندما اسـتعاد البيزنطيون حكم المغرب عقدوا اجتماعا لم يحضره الا (217) اسقف بعد ان كان عـدد الاساقفة قبل سيطرة الوندال لا يقل عن (500) •

ولعل السير توماس خير من يفسر لنا هذه الظاهـــرة حيث يقول : « فمن اللازم أن نلتمس الأسباب التى مهدت السبيل الى تدهور المسيحية فى شمال افريقية فى شىء آخر أكثر مما نلتمسها فى تعصب الولاة المسلمين •

ولكـن قبل أن نحاول بسط هـــذه الاسباب علينـا أن نتبين كيـف أن عدد الاهالى المسيحيين فى نهاية القرن السابع الميلادى كان لا بد ان يكون قليلا جدا ـ وهذه حالة تجعل استمرار بقائهم فى ظل الحكم الاسلامى أقوى دلالة على انعدام وســـائل العنف والاكراه فى التحول الى الاسلام » (3) •

---

3 ـ ارنولد توماس : الدعوة الى الاسلام ، ص 144

وحدث قبل أن يتقدم المسلمون الظافرون من مصر لاخضاع الولاية المغربية بعام أي في سنة 646 م أن الكنيسة الافريقية التي ناضلت كثيرا في سبيل تطهير العقيدة المسيحية قد اثارها الى أبعد حـــد ما قام من صراع بين المذاهب ، ومن المؤكد أن النقص في عدد الاساقفة يدل على نقص كبير في عدد الاهالي المسيحيين ٠

ومن الاعتبارات التي ذكرناها من قبل يمكن ان نستنتج في شيء من التأكيد أن الاهالي المسيحيين في وقت الفتح الاسلامي لم يكن عددهم كبيرا بحال من الاحوال ٠

وقد ظل عدد الاهالي المسيحيين في خلال الخمسين عاما التي انقضت قبل ان يحـرز المسلمون انتصارهم ينقص شيئا فشيئا من جراء ما أصابهم من أعمال التخريب في هذا النزاع الطويل ٠

وكان من جراء ذلك ان المغاربة ، لم يناضلوا خلف كنيسة قديمة تتفاعل عقدتها في انفسهم ، ولعل ذلك يفسر السرعة المذهلة لانتشار الاسلام في البلاد ، فقد كان اقليــم المغرب من اسرع الاقاليم دخولا في الاسلام ٠

4 ـ **سكان المغرب** :

استكمالا للموضوع نضيف هنا ظاهرة انقسام سكان البلاد الى طائفتين ، لان هـذا الموضوع سيتيح لنا فهم كثير من ظروف هذا الشعب وسرعة اندماجهم في الحياة الجديدة ، ذلك أن أهل البلاد الاصليين كانوا فريقين يختلفان في كثير من مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية وغيرها ، فقد كان فريق منهم يقيم في المناطق السهلية التي تحف بالساحل ومن ثم احتكوا بالمدن وامتهنوا الزراعة والتجارة ٠

كانت ديانتهم المسيحية وثقافتهم الاغريقية اللاتينية ، كما كانوا الحلفاء الطبيعيين للبزنطيين ، وهم الذين قاوموا الفتوح الاسلامية ، دفاعا عن تراثهم الديني والحضاري ، ولم ينهزموا الا في معركة قرطاجنة ، ويطلق على هذا الفريق في المصادر التاريخية اسم « البرانس » ٠ (4)

---

4 ـ ارنولد توماس : الدعوة الى الاسلام ، ص 46 و 47

أما الفريق الثـانى الذى يطلـق عليه اسم « البتر » (5) ٠ كان يقيم فى المناطق الداخلية ، خلف خط القلاع البيزنطية ، وهم بدو يحيون حياة اقرب الى حياة البدو العرب فى شبه الجزيرة العربية ٠ وهؤلاء وثنيون والبعض منهم قد اعتنق اليهودية ٠ أى انهم كانوا اعداء طبيعيين للحكم البيزنطى ومؤيدين للفتح الاسلامى ٠

وقد تنبه المسلمون بعد انتصارهم على البيزنطيين فى معركة قرطاجنة الى محالفة هؤلاء البدو واشركوهم فى الحقوق والواجبات ، فقد كانت استجابة هؤلاء للدعوة الاسـلامية عاملا من عوامل انتصار المسلمين ٠

وبعد أن اتينا على ذكر هذه الصورة الموجزة للاوضاع الداخلية فى المغرب قبيل الفتوح الاسلامية ٠ يجدر بنا قبل التعرض لموضوع بحثنا « حسان بن النعمان ودوره فى نشر الاسلام بالمغرب » أن نعرض فى ايجاز للاوضاع الداخلية فى الدولة الاسلامية ، التى على ضوئها يمكن فهم طول مدة الفتح لبلاد المغرب ٠ هذه الفتوح التى تميزت بظاهرة المد والجـــزر ٠

لعل السبب فى ذلك يكمن فى الحالة الداخلية للدولة الاسلامية الناشئة ، فالملاحظ من خلال استعراض تفاصيل الغزوات البرية بين عامى (27 هـ ـ 82 هـ/643 ـ 690 م) ارتباطها بالاوضاع الداخلية للجماعة الاسلامية ٠

فالزحف الاسلامى نحو شمال افريقية كان يتوقف حينا ، ثم يستأنف ســـيره حينا آخر ٠ فكان الفتح يتوقف وقت فقدان الوحدة الاسلامية ، وانشـــغال الخلفاء بالاحداث والفتن الداخلية ، فكلما توفرت هذه الوحدة نجد الفتوح تتقدم فى ظلها ٠

لقد بدأت الموجة الاولى من حملات الفتح الاسلامى فى عهد الخلفاء الراشـــدين ، واستطاع المسلمون ان يستولوا على الشام والعراق ومصر فى ظل الوحدة الاسلامية والايمان الراسخ بالاسلام والجهاد فى سبيل الله ٠

---

5 ـ ابن خلدون : كتاب العبر ، ج 6 ، ص 261

ثم يتوقف تيار الفتح عام (35 هـ/655 م) على اثر مقتل الخليفة عثمان بن عفان وحدوث الفتنة الكبرى ، وعندما تمكن الخليفة معاوية بن ابى سفيان (41ـ60 هـ) من استعادة الوحدة ، تواصل الفتح من جديد ٠

ولهذا يعتبر العصر الاموى عصر الفتوح الحقيقية للمغرب ، فهذا معاوية بن أبى سفيان أول الخلفاء الامويين يعقد لمعاوية بن حديج ومن بعده عقبة بن نافع على ولاية افريقية (50 هـ/670 م) والتى توجتها انتصارات عقبة بتأسيس أول مدينة اسلامية فى افريقية وهى القيروان ٠

ثم توقف الفتح بحدوث الفتنة الثانية (عام الجماعة الثانى) فى الفترة الواقعة بين وفاة الخليفة بن معاوية وتولية الخليفة عبد الملك بن مروان (65 هـ ـ 86 هـ) ـ وكانت الحالة السياسية عندما جاء هذا الخليفة مضطربة وجد سيئة فلم يكن تابعا للدولة الاموية سوى (مصر والشام) اما فيما عدا ذلك فقد تقاسم الدولة ، الزبيريون فى الحجاز والعراق ، والخوارج فى منطقة الاهواز ، واستطاع عبد الملك ان يقضى على الفتن والثورات التى هددت الدولة بالزوال ، واصلح الاوضاع الاداريه والاقتصادية وصبغ الدولة بالصبغة العربية الخالصة ٠

الحالة السياسية فى افريقية قبل مجيئى حسان بن النعمان :

لقد خلفت حادثة مقتل عقبة بن نافع فى معركة تهودة آثارا سيئة فى نفوس المسلمين ، والتى ترتب عنها فقدان المسلمين لافريقية التى سبق لهم أن فتحوها ونشروا الاسلام بين ظهرانيها ، وبالرغم من المشاكل الداخلية التى واجهت الخلافة ، صمم عبد الملك بن مروان ارسال جيش اسلامى الى افريقية واسند قيادته الى زهير بن قيس البلوى (6) لاعادة بسط نفوذ الخلافة على هذه المنطقة التى أظلها الاسلام ٠ ارسل الخليفة عبد الملك الى اشراف العرب ليحشدوا له الناس من الشام ، وأوقف لذلك أموال مصر ، فسارع الناس

(6) ـ ابن خلدون : العبر ، ج 4 ، ص 399 ـ Diehl : L'Afrique Byzantine, pp. 578-580.

الى الجهاد فى سبيل الله ، وأمرهم أن يلحقوا بزهير فلما وصلوا اليه خرج بهم الى افريقية (7) ٠

وأما تاريخ هذه الحملة فيتفق معظم المؤرخين بخلاف ابن خلدون (8) فيجعلونها عام 69 هـ ٠

وكان عمل زهير عظيم الاهمية من الناحية السياسية ، لانه سار على خطة ثابتة واضحة ، قضى على مقاومة اهالى الشمال وهم أقوى عناصر المقاومة، الا أن زهير رغم هذا الانتصار الرائع قد أغفل شأن الروم وهم عنصر المقاومة الثانى ، فلم يعمل حسابا لذلك ، لان قوتهم قد اخمدت منذ زمن طويل ، ولم يكن يتوقع أن يستيقظ الروم مرة أخرى ويعودون الى استرداد البلاد من جديد ، ففاجأته هذه المفاجأة التى أودت بحياته فى برقة (9) ٠

ولهذا كانت ظاهرة استشهاد زهير بن قيس البلوى على يد الروم عبرة لخلفه للعمل على تجنب الاخطاء التى وقع فيها سابقوه ، واتخاذ الخطة التى ينبغى أن يسلكها فى فتح افريقية ٠

اذن لقد أدرك المسلمون فى حادث مقتل زهير بن قيس البلوى، أنه لا يتم فتح البلاد الا بالقضاء على مقاومة الروم وتخليص افريقية من كل آثارهم ٠

ومن الواضح أن حركة مقاومة البيزنطيين فى شمال افريقية كانت تتأرجح بين القوة والضعف ، نظرا لظروف البيزنطيين فى القسطنطينية وافريقية كذلك ٠

فمنذ معركة (سبيطلة) التى أحرز فيها المسلمون نصرا عظيما ، توقفت المقاومة البيزنطية وقتا طويلا ،

وذلك راجع لانشغال البيزنطيين بنزاعهم مع المسلمين فى المشرق ٠

---

7 ـ المالكى : رياض النفوس ، ص 9

8 ـ يحدد ابن خلدون سنة 67 ، كتاريخ لهذه الحملة : العبر ، ج 6 ، ص 217

9 ـ الدكتور حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ، ص 232 ٠

ولما خفت حدة صراع الروم فى المشرق ، نشطت مقاومتهم فى المغرب ، وهذا ما لوحظ فى حملة عقبة الثانية ، وأعقب ذلك محـــاولة الامبراطورية البيزنطيـة استعــادة افريقية (10) • ووصول الاسطول البحرى الذى صادف زهيرا فى برقة فقضى عليه •

ووصول الاسطول البحرى الذى صادف زهيرا فى برقة فقضى عليه •

ومعنى هذا انتصار الروم على المسلمين ومحاولة اعادة السيطرة على شمال افريقية •

على ضوء ما سبق يتضح لنا ان مهمة الفاتح الجديد لافريقية ستكون صعبة وان يبذل كل قواه لمواجهة خطر الروم ، والذى سيقرر مصير افريقية • ومن ثم يكون حدا فاصلا بين افريقية البيزنطية ، وبين افريقية الاسلامية •

حملة حسان بن النعمان على افريقية :

كان حادث استشهاد زهير بن قيس البلوى فى برقة على يد الروم البيزنطيين عظيم الاثر فى موقف الخلافة الاسلامية فى افريقية ، وستكون هى الباعث على اتمام فتحهـا والمحافظة على قوة الخلافة وهيبتها أمام الروم ، خاصة بعد أن هزمت جيوش المســلمين وقتل قوادهم على يدى الروم ، وهذا هو السبب الرئيسى الذى دفع بالخليفة عبد الملك ارسال الجيوش الى افريقية •

وبعد ان بينا الاوضاع السياســية فى افريقيــة ، ننتقل الآن الى الحديث عن حملة حسان بن النعمان الذى اسندت اليه مهمة اتمام الفتح فى هذه المنطقة النائية •

ونتساءل الآن متى كانت هذه الحملة ؟

لا يختلف المؤرخون العرب فى نسبة هذه الحملة الى حسان بقدر اختلافهم فى الزمن الذى تحـــركت فيــه •

ويمكن الوقوف على طبيعة هذا الاختلاف فى عبارة ابن عذارى التالية : « وغزوات حســان لم تنضـــبط بتأريخ محقق ، ولا فتحه لمدينــــة قرطاجنــــة وتونس ولا قتله للكاهنة » (11) •

10 ــ الدكتور حسين مؤنس : نفس المرجع السابق ، ص 232 •
11 ــ ابن عذارى : البيان المغرب ، ج 1 ، ص 39 •

وقد أورد كل من ابن عبد الحكم الذى ذكر أن الحملة قد سارت عام 73 هـ (12) وانتهت عام 76 أو 78 هـ · وابن الأثير حددها بعام 74 هـ (13) ·

كما تضاربت آراء المؤرخين الاوروبيين أيضا فى تحديد زمن قيام هذه الحملة ·

فلنبحث سبب الاختلاف ، ربما يرجع ذلك الى أن حسانا قام بحملتين اثنتين لا حملة واحدة ، فتح فى الاولى قرطاجنة ثم اتجه نحو الكاهنة فانهزم ، واتجه فى الثانية نحو الكاهنة ثم فتح قرطاجنة مرة أخرى ، فاختلط الامر على المؤرخين لتشابه أعمال الرجل فى كلتيهما (14) ·

فاختلفوا بين السنوات التى انقضت بين مسيره الاول وحملته الثانية ، ويبدو أن الخليفة عبد الملك بن مروان قد أعد حملة حسان بن النعمان ، ثم ابقاها فى مصر فترة من الزمن نظرا لما كان يحيط بدولته من اخطار ، ولما استقرت له الامور فى الدولة ، أمر حسانا بالمسير فسار ·

اعتقد المؤرخون ان حسان بن النعمان سار الى افريقية بمجرد ما أمره عبد الملك على الجيش · هذا ما ذهب اليه الدكتور حسين مؤنس حول ظاهرة الاختلاف هذه ·

والحقيقة ان الخليفة عبد الملك بن مروان لم يفكر فى الاهتمام بشؤون افريقية بجدية الا بعد أن قضى على ثورة ابن الزبير عام (73 هـ) ·

اذ ليس من المعقول ان يتخلى الخليفة عن هذا الجيش الكبير الذى بلغ تعداده اربعين ألفا ، هذا اذا اضفنا الى ذلك الاخطار التى كانت تحيط بالدولة من جهة الخوارج

12 ـ ابن عبد الحكم : فتوح افريقيا والاندلس ، ص 62

13 ـ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج 4 ، ص 31 ، أما ابن خلدون فيجعلها سنة 69 هـ ـ العبر ، ج 6 ، ص 212 ـ ابن عذارى 78 هـ ، البيان المغرب ج 1 ، ص 34 ـ المالكى عام 69 هـ (رياض النفوس ، ص 31) · وأما ابن ناجى والدباغ فيجعلونها سنة 69 هـ ـ واما ابن ابى دينار القيروانى فقد تردد بين سنوات (76 هـ ـ 77ـ79 هـ) المؤنس ، ص 33 ـ النويرى 74 هـ ـ البكرى عام 68 هـ ـ المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب .

14 ـ الدكتور حسين مؤنس : نفس المرجع السابق ، ص 235 ·

والشيعة ، لذلك نرجح ان الخليفة قد أعد هذه الحملة وأذن لها بالمسير الى افريقية فى حدود (76 هـ) بعد أن أخمد الفتن والثورات واعاد الوحدة السياسية للدولة ، يعنى ان تفكير الخليفة فى هذا الأمر لم يكن الا بعد عام (74 هـ) ·

ولعل المؤرخين البيزنطيين تيوفانيس ونقفور اللذين أورد المؤرخ ديل رأيهما يلقيان بعض الضوء على تحديد تأريخ هذه الحملة ، اذ يتفقان على أن حسان بن النعمان هاجم مدينة قرطاجنة للمرة الاولى سنة 695 التى توافق سنة 76 هـ · (15)

ويتفق رأى القيروانى مع رأيهما ، كما أن المؤرخ الفرنسى كودل قد وافق على ذلك التاريخ (16) ·

نستخلص من هذه الآراء ان الفترة الزمنية لحملة حسان تكون بين (76 هـ ـ 78 هـ) (17) ·

حسان بن النعمان الفاتح الحقيقى للمغرب :

يتصل نسب حسان بن النعمان بالغساسنة الذين استقروا بالشام قبل ظهور الاسلام (18) ·

فالمصادر التى أرخت للفتوح الاسلامية فى شمال افريقية لم تتحدث عنه قبل هذه الغزوة فالمالكى يقول وهو : « أول من دخلها من أهل الشام فى زمن بنى أمية » (19) ·

ويفهم من عبارة المالكى ان حسان بن النعمان كان من المقربين للبيت الأموى الذين يثق فيهم ، عرف بالشيخ الأمين كما ذكر بن ناجى والسلاوى ·

---

(15) Diehl : *L'Afrique Byzantine,* p. 584.

(16) Caudel : p. 150.

17 ـ ابن عذارى : حدد حملة حسان بعام 78 هـ (البيان المغرب ، ج 1 ، ص 34) ·

18 ـ هو حسان بن النعمان بن عدى بن بكر بن مغيث بن عمرو بن مريقيا بن عامر بن الأزد : جمهرة انساب العرب ، ص 321 ـ ابن عذارى (البيان ، ج 1 ، ص 34) ـ ابن خلكان (وفيات الاعيان ، ج 4 ، ص 439) ·

19 ـ رياض النفوس ، ج 1 ، ص 31 ·

واختيار حسان كقائد لغزو افريقية يدل على أنه كان قائدا محنكا سبق له ان خاض معارك بطولية طويلة ، لان الظروف السياسية والحربية فى غرب البحر الابيض المتوسط اثبتت فشل القادة المسلمين فى هذا الميدان قبله ، ويؤكد هذا الرأى الخليفة عبد الملك بن مروان عندما سئل فيمن يولى أمر افريقية قال : « ما أعلم أحدا أكفأ بأفريقية من حسان بن النعمان الغسانى » (20) ·

لهذا اختاره لاتمام فتح افريقية ، هذا الفتح الذى انقضت عليه حتى الآن خمسون سنة دون ان يحقق المسلمون أية نتيجة ·

وكان اهتمام الخليفة كبيرا بالجيش الذاهب الى شمال افريقية كما يتضح لنا ذلك من قول ابن الأثير الآتى : « فلما علم عبد الملك قتله (زهير) عظم عليه وعلى المسلمين وأهمه ذلك وشغله عن افريقية ما كان بينه وبين ابن الزبير ، فلما قتل ابن الزبير ، واجتمع المسلمون عليه جهز جيشا كبيرا واستعمل عليهم وعلى افريقية حسان بن النعمان الغسانى ، وسيرهم اليها فى هذه السنة (74 هـ) فلم يدخل افريقية قط (كذا) جيش مثله » (21) ·

لم يبالغ ابن الأثير فى وصف هذا الجيش الذى بلغ عدده أربعين ألفا (22) ·

ولا شك أن الخليفة عبد الملك قد أمر قائده حسان ان يتوقف فترة بمصر خوفا من قيام فتن أخرى · وحول هذه النقطة يقول ابن عذارى : « وفى سنة 78 هـ قدم حسان بن النعمان افريقية اختاره لها عبد الملك بن مروان وقدمه على عسكر فيه اربعون ألفا وأقامه أولا فى مصر بالعسكر ، عدة لما يحدث · ثم كتب اليه يأمره بالنهوض الى افريقية

---

20 ـ المالكى : المصدر السابق ، ص 31 ·
21 ـ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج 4 ، ص 31 ·
22 ـ يتفق كل من ابن عذارى والنويرى والقيروانى وابن ناجى والسلاوى على ان عدد الجند الذين قدموا الى افريقية مع حسان كان (40 الفا) · بخلاف المالكى الذى ذكر ان عدده ستة آلاف فارس فقط · وتقدير المالكى غير صحيح باتفاق المؤرخين ·
ـ انظر أيضا :
G. Marçais : *La Berbérie de l'Orient au Moyen-Age*, pp. 33 - 34.

ويقول له : انى اطلقت يدك فى أموال مصر فاعط من معك ومن ورد عليك ، واعط الناس ، واخرج الى بلاد افريقية ، على بركة الله وعونه » (23)

والسؤال الذى يتبادر الى الذهن الآن هو متى أمر الخليفة قائده حســـان بالبقاء فى مصر ، وفى أية فترة زمنية أذن له بالمسير الى افريقية ؟

الواقع ان حسانا لم يقض هذه الفترة فى مصر دون العمل على تجهيز جيشه وأخذ كل الاستعدادات لهذا الدور الهام الذى ينتظره ٠

يتجلى ذلك من عبارة ابن عذارى السابقة الذكر أن حســـانا كان يعمل جاهدا على جمع عدد اكبر من المصريين للانضمام الى هــذا الجيش الغازى « فاعط من معك ومن ورد عليك » مما يجعل هذه الحملة أكبر قوة تدخل افريقية منذ بداية الفتوح الاسلامية لها ، والتى ستقرر مصيرها السياسى والدينى ٠

ما يزال الغموض يكتنف تاريخ انطلاق الحملة من مصر الى افريقية ، لان غزوات حسان لم تنضبط بتاريخ محقق كما قال ابن عذارى ٠ وتستحق الدراسة والتحقيق ٠

الصراع بــين المسلمــين والبيزنطيــين :

بعد تحرك الحملة من مصر ، سلك حسان نفس الطـــريق التقليـــدى ، فاجتاز برقة وطرابلس دون مقاومة ، حتى وصل الى سهل تونس ، ويظهر ان هـــذا القائد قد رسم الخطة التى سيسلكها ، وهى الاتجـــاه نحو الشــــمال ، حيث قرطاجنـــة مركز نفوذ البيزنطيين ٠

ونذكر بان بعض البربر قد انضموا الى جيش حســـان بدليل قول ابن عبد الحكم : « فمضى فى جيش كبير حتى نزل طرابلس ، واجتمع اليه بها من كان خرج من افريقيــة وطرابلس فوجه على مقدمته محمد بن ابى بكير ، وهلال بن ثروان اللواتى » (24) ٠

وهلال هذا لا نجد له ذكرا فى المصادر الاسلامية ، بانفــراد ابن عبد الحكم ، كما ان حقيقة هذا اللواتى لم يبينها لنا هذا المؤرخ ٠

23 ــ ابن عذارى : نفس المصدر السابق ، ص 34 ٠
24 ــ ابن عبد الحكم : نفس المصدر السابق ، ص 62 ٠

ولكن ورود هذا الاســـم يلقى الضوء على بعض الحقائق التاريخيــة · منها ان هلالا اللواتى كان مسلما وانضم الى جانب المسلمين وناصرهم فاعطوه القيادة فى جيشـــهم ، ويدل هذا الاسم كذلك على أن معظم أنصار المسلمـين فى مســيرهم هذا كانوا من البربر البتـــر ·

واصل حسان مسيره حتى بلغ مدينة القيروان قاعدة الاســـلام · ودلت الاحـوال السياسية على عدم وجود أية مقاومة بربرية فى القيروان ، الامر الذى ساعد العرب على اتخاذ خطة حربية للقاء العــدو ·

وقد ذهب المؤرخ الفرنسى (ديل Diehl) بان البيزنطيين عندما استولوا على برقة استطاعوا ان يعيدوا الولاية الداخلية ، ولكن الظروف السياســـية تنفى ذلك ، اذا لو كانت الروم قد استولت على افريقية لوجد المسلمون مقاومة فى طريقهم الى القيروان ·

ولعل خطة حسان فى الحرب تتجلى فى رواية عبيد الله بن صالح حيث يقول : « ··· فسار حتى دخل القيروان ؛ فسأل عن أى ملك عظمت شوكته بالمغرب الاوسط فقيل له « ملك قرطاجنة » بين تونس وقرطاجنة أثنا عشر ميلا ، وبين تونس والقيروان مائة ميل ، فذهب حسان حتى دخلها بالسيف فجمع من حولها وخربوها » (25) ·

ويفهم من رواية عبيد الله بن صالح ان الزعامة ومركز القوة كانا فى الشمال حيث قرطاجنة التى استعادت قوتها ·

الواقع ان البيزنطيين لم يتوقعوا مفاجأة المسلمين لهم بهذه السرعة · ويبدو أن سير حسان الى قرطاجنة قد أرعب الروم وبعض البربر فأسرعوا نحـــوها ، وهذا المؤرخ ابن الأثير يصور لقاء المسلمين بالروم أصدق تصوير حيث يقول «فلما ورد القيروان تجهز منها وسار الى قرطاجنة ، وكان صاحبها اعظم ملوك افريقية ولم يكن المسلمون قط حاربوها ؛ فلما وصل اليها رأى بها من الروم والبربر ما لا يحصى كثرة فقاتلهم وحصرهم وقتل منهم كثيرا ، فلما رأوا ذلك اجتمع رأيهم على الهرب فركبو فى مراكبهم وســـار بعضهم الى

25 ـ عبيد الله بن صالح : (نص جديد عن فتح العرب للمغرب) مجلة معهد الدراســات الاسلامية بمدريد عام 1954 ، ص 221 ·

صقلية وبعضهم الى الاندلس ودخلها حسان بالسيف فسبى ونهب وقتلهم قتلا دريعا . وارسل الجيوش فيما حولها فاسرعوا اليه خوفا فأمرهم فهدموا من قرطاجنة ما قدروا عليه ثم بلغه ان الروم والبربر قد اجتمعوا فى صطفورة ، وبنزرت وهما مدينتان فسار اليهم وقاتلهم ولقى منهم شدة » (26) .

ونستنتج من كلام ابن الأثير ظهور عنصرين قويين فى هذه الحرب هما البربر والروم وتحالفهم على حرب المسلمين ، لذلك نرى حسانا يبذل كل مجهوده فى القضاء على هذا التحالف ، فانتصر العرب على البيزنطيين وسقطت قرطاجنة أقوى معقل بيزنطى فى شمال افريقيــة .

كما يفهم كذلك بأن المسلمين لم يسبق لهم أى اتصال بقرطاجنة منذ دخولهم الى شمال افريقية ، وان حسانا هو أول فاتح مسلم طرق أبواب قرطاجنة .

وبعــد أن قضى عــلى فلول الروم والبربــر ، غــادر الشمال عائــدا الى القيروان ، ولكن الروم عادوا الى قرطاجنــة للاعتصـــام بها ، ذلك ان البيزنطيين لم يهدفوا باخلاء قرطاجنة تركها الى الابد فى أيدى المسلمين ، وانما بيتوا فى انفسهم الهجوم عليها مره أخرى بعد خروج حسان منها (27) .

فحصنوا المدينة من جديد للاعتصام بها ، وعندما علم حسان اسرع بمن معه مرة أخرى الى قرطاجنة كما يتضح ذلك من نص ابن عذارى التالى : « فرحل اليها حســـان ونزل عليها فحاصرها حصارا شديدا حتى دخلها بالسيف فقتلهم قتلا ذريعا ، وسباهم ونهبهم، وارسل لمن حواليها ، فاجتمعوا اليه مسارعين ، خوفا من عظم سطوته ، وشدة بأســه ، فلما أتوه ولم يبق منــهم أحد امرهم بتخريب قرطاجنـــة وهدمها حتى صــارت كأمس الغــابر » (28) .

26 ـ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج 4 ، ص 31 Diehl op. cit. p. 583.
ـ هنرى ماسيه : الاسلام (مترجم) ، ص 70 .

— Georges Sotrogorsky : ***Histoire de l'Etat Byzantin,*** pp. 169 - 170.

— *Encyclopédie de l'Islam,* T. 3, p. 279.

27 ـ البكرى : (المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب) ، ص 37 .

28 ـ ابن عذارى : المصدر السابق نفس الصفحة .

ونلاحظ ان ابن عذارى يبالغ كثيرا فى وصف خراب قرطاجنة • ولكن الاحداث التى سيأتى ذكرها تدل على ان المسلمين لم يخربوا المدينة كلها • بل بقيت على درجة كبيرة من القوة والمنعة ، وان الروم سيتحصنون خلف اســوارها بعد ذلك فى فترة انشــغال المسلمين بحرب الكاهنة • بعد أن تمكن حسان من طرد البيزنطيين والبربر الذين التجأوا الى مدينتى (باجة وبونة) عاد الى القيروان ، ليستريح جنده من هذه الحرب الطويلة ، غـير مدرك أن الروم ما داموا يحتلــون بعض الحصــون عـلى الساحل يمكنهم الاتصال بالامبراطورية البيزنطية لطلب النجــدة ، معتقدا بان الناحية الشــمالية قد خلصت للمسلمين •

ومن القيروان سينطلق المسلمون نحو المنطقة الداخلية « جبل أوراس » •

موقف السكان من الفاتحين المسلمين الاوائل :

قبل التحدث عن تفاصيل الصراع بين المسلمين والسكان فى شرق الجزائر ، يجدر بنا أن نلقى نظرة سريعة على الحالة السياسية فى هذه المنطقة ، لنقف على عنف هذا الصراع الذى سيكون له أثار هامة على مصير هذه البلاد فيما بعد •

ولعل المؤرخ ابن خلدون خير من يصور لنا الحالة السياســية أصدق تصوير حيث يقول : « واضطربت افريقية نارا ، وافترق أمر البربر وتعدد سلطانهم فى رؤسائهم ، وكان من اعظمهم شــأنا يومئذ الكاهنة ذهيا بنت ماتية بن تيفان ملـكة جبل أوراس وقومها من جراوة ملوك البتر وزعمائهم » (29) •

اذن هذه صورة الاوضاع السياسية فى المغرب الاوسط ، فماذا عن الوضع السياسى فى القيروان ؟

لم يكن حسانا يعلم بأمر الكاهنة وقومها ، ويؤكد هذه الحقيقة المؤرخ ابن عذارى فى النص التالى : « لما دخل القيروان أراح بها أياما • ثم سأل أهلها عمن بقى من أعظم ملوك افريقية ، ليسير اليه فيبيده أو يســلم فدلوه على امرأة بجبل أوراس يقال لها الكاهنة

29 ـ ابن خلدون : العبر ، ج 6 ، ص 218 •

وجميع من بافريقية من الروم منها خائفون ، وجميع البربر لها مطيعون ، فان قتلتها دان لك المغرب كله ولم يبق لك مضاد ومعاند » (30) ٠

وقبل أن نمضى فى تحليل أســـباب هذا الصراع ، ينبغى لنا التعريف بهذه الملكة البربرية ٠

شـخصية الكاهنـــة :

ان هذه الشـــخصية التاريخية ما زال يحيطها الكثير من الغموض وتتضارب حولها الآراء ، وقد اختلفت وجهات نظر المؤرخين اختلافا بينا حولها ، فهناك من يميل الى انكارها أصلا معتمدا على ما يشــوب اخبارها من أساطـير ٠ ومن بين هؤلاء ليبو الذى ذهب الى أن الكاهنة ما هى الا البطريق يوحنا (31) ٠ هذا رأى غير صحيح ، ولا تؤيده المصـــادر الاسلامية التى اتفقت جميعها على وجود شخصية البطريق يوحنا الذى استولى على مدينة قرطاجنـــة من جهـة ، وأشارت فى وضــوح الى الدور الذى لعبتـــه الكاهنة فى مقاومة المسلمين الفاتحين من جهة أخرى ٠

ويؤكد وجود هذه الشخصية التاريخية ابن خلدون الذى يعتبر من اوثق المؤرخين فى تاريخ البربر حيث يقول : « وكانت زناتـة أعظم قبائل البـــربر وأكثرها جموعا وبطونا ، وكان موطن جراوة منهم بجبل أوراس ٠٠٠ وكانت رياستهم للكاهنة دهيا بنت ماتية ٠٠٠ وكان لها بنون ثلاثة ، ورثوا رياســة قومهم عن ســـلفهم وربوا فى حجرها فاستبدت عليهم وعلى قومها بهم ، وبما كان لها من الكهانة والمعرفة بغيب أحوالهم وعواقب أمورهم فانتهت اليها رياستهم » (32) ٠

30 ــ ابن عذارى : نفس المصدر السابق ، ص 37 ٠

31 ــ يقول ليبو : « أحاط العرب الذين يغرمون بغريب الحديث غراما شديدا ، قصة هذه الثورة بجور من الخيال فيذهبون كما تزعم روايتهـم الى انه كانت هناك ملكة للبربر تسمى الكاهنة تمكنت من هزيمة العرب أول الامر ، وهذه الكاهنة كما استبان لنا من أوثق العلماء ليست الا البطريق يوحنا نفسه ؛ أظهره المؤرخون فى شكل امرأة لأنه كان خصيا » ــ حسين مؤنس : (فتح العرب للمغرب) تعليق ، ص 242 ٠

32 ــ ابن خلدون : العبر ، ج 6 ، 17 و 18 ــ ويعرف ابن الأثير الكاهنة بقوله : « امـــرأة تملك البربر تعرف بالكاهنة ــ وكانت تخبرهم باشـــياء من الغيب ولهذا ســـميت الكاهنة » ــ الكامل ، ج 4 ، ص 32 ٠

اذن فلا شك ان الكاهنة حقيقة تاريخية ، كانت فى بداية أمرها بالاحداث السياسية زوجة أحد رؤساء قبيلة جراوة ، وبعد أن توفى زوجها هـذا خلف لها ولدين احدهما بربرى والآخر يونانى (33) أوصى لهما بالرياسة فى القبيلة ٠

وكانت مهابة الجانب ، فاستطاعت أن تتولى الوصاية على ابنيها ، ولم تستأثر بالسلطة من ولديها كما ذكر ابن خلدون ، لأن الأحداث التالية تؤكد عكس ذلك اذ كانت شديدة الحب لهما ٠

وقد ذهب بعض المؤرخين (34) الى وجود علاقة بين الكاهنة وكسيلة الاوربى وأن لها يدا فى مقتل عقبة بن نافع الفهرى ، واذا صح هذا الراى يكون احتكاكها بالمسلمين قد تم قبل هذه المقاومة ٠

ولكن الوقائع التاريخية لا تؤيد وجـود علاقة بينهما ، بدليل ان مقاومة كسـيلة للمسلمين كانت تمثل زعامة البربر البرانس الذين اعتنقوا النصرانية وتشربوا الثقافة اللاتينية ، كما ان حركة كسيلة كانت تتسم بروح الانتقام والثأر لما أصاب زعيم البرانس من المهانة والذل على يد عقبـة بن نافع ، فى حـين كان مضارب قبائـل البتر بزعامة الكاهنة بعيدة عن النفوذ البيزنطى ، واحتفظت باستقلالها فى الجبال والهضاب ، تعيش حياة فريدة خاصة بهم ، ويدين معظم افرادها بالديانة اليهودية (35) ٠

بعد أن أشرنا الى انعـدام العلاقة بـين حركة زعيم قبيلة أوربة البرنسية وبين حركة الكاهنة زعيمة قبيلة جراوة ، نبحث الان عن أسباب مقاومة زعيمة جبل الاوراس للمسلمين الفاتحين ٠

اذن فما هى بواعث حركتها وآثارها على الوضع السياسى فى افريقية ؟

33 ــ ابن عذارى : نفس المصدر السابق ، ص 27 ــ انظر ايضا :

— *Encyclopédie de l'Islam* ; Art. « Kahina », T. 3, pp. 67 - 68.

— Gautier E. F. : *Le Passé de l'Afrique du Nord,* pp. 258 - 262.

34 ــ ابن خلدون : كتاب العبر ، ج 6 ، ص 17 ــ 18 ٠

35 ــ ابن خلدون : نفس المصدر ، ج 6 ، 108 ٠

الكاهنة زعيمة منطقة أوراس :

من خلال الاحداث والوقائع التالية يتضح لنا أن مقاومة السكان بزعامة الكاهنة كانت ذات طابع محلى ، اذ لم تكن قبيلة جراوة تعرف أهداف المسلمين ورسالتهم فى شمال افريقية ، الامر الذى جعلها تتخوف من اقتراب المسلمين من موطن استقرارها بالاوراس، مما جعلهم يستعدون بكل قوتهم لمقاومة المسلمين دفاعا عن استقلالهم وحريتهم ٠

والظاهر أن الكاهنة لم ترفع راية العصيان الا عندما بلغتها أخبار قدوم المسلمين وزحفهم اليها ٠

هذه البطلة البربرية التى يسميها عبيد الله بن صالح بـ « ملكة المغرب » (36) التى تضاربت الآراء حول صحة ورفض قصتها والشك فى حقيقتها ، لكونها امرأة ، فهذه حجة واهية باطلة ، اذ التاريخ يحدثنا عن بطلات من النساء سجلن أروع الصفحات فى التاريخ البشرى (37) ٠

وقد بالغ كثير من المؤرخين فى وصف سلطان هذه البطلة « وجميع من بافريقية من الروم منها خائفون وجميع البربر لها مطيعون ٠٠٠ فان قتلتها دان لك المغرب لله » (38) ٠

ويفهم من رواية ابن عذارى ، أن الكاهنة كانت تفرض سلطانها على كل بلاد المغرب ، وكلام ابن خلدون فى هذا الشأن أوضح اذ يؤكد لنا معالم حدود هذه المملكة البربرية بقوله : « وكان من اعظمهم شأنا يومئذ الكاهنة ٠٠٠ ملكة جبل أوراس وقومها جراوة ملوك البتر وزعماؤهم » (39) ٠

وأخيرا يحلو لبعض المؤرخين الفرنسيين الذين يعتبرون حركة الكاهنة حركة محلية تمثل الجنس البربرى الذى أبى الخضوع لسلطان المسلمين ٠ ويذهب المؤرخ (كودل Caudel بان حركة الكاهنة هذه آثارت شعورا وطنيا ((40) ٠

---

36 ـ عبيد الله بن صالح : (نص جديد عن فتح العرب للمغرب) ، نشره ليفى بروفنسال فى مجلة المعهد المصرى بمدريد ، ص 228 ٠

37 ـ الدكتور حسين مؤنس : نفس المرجع ، ص 245

38 ـ ابن عذارى : نفس المصدر السابق ، ص 36 ـ الدباغ : معالم الايمان ، ج 1 ، ص 61

39 ـ العبر ، ج 6 ، ص 218 ٠

40 ـ حسين مؤنس : نفس المرجع ، ص 246

— Mercier, op. cit., pp. 214 - 215.

— Fournel, op. cit., pp. 217 - 219.

والآن بعد ان عرفنا طبيعة هذه المقاومة وسـماتها المحلية ، ننتقل الى الصراع بين الفاتحين المسلمين وسكان البلاد ·

معـركـة وادى نيـنى :

ولما بلغها نبأ زحف المسلمين اليها أخذت تستعد لمواجهة الزحف المذكور ·

ويذكر ابن عذارى بهذا الصدد « وبلغ الكاهنة خبره ، فرحلت من الجبل فى عدد لا يحصى ، ولا يبلغ بالاستقصاء وسبقته الى مدينة باغاية » (41) ·

لقد تعجلت الكاهنة السير بجيشها الى مدينة باغاية الحصينة (التى تقع على سفح الجبل والتحكم فى الدروب الموصلة اليه) ، لتكون على مقربة من قبيلتها جراوة فى الاوراس كى تستمد منها العون وكانت خطة حسـان هى المباغتـة فى الهجوم قبل أن يتم عـدوه استعداداته ، وقد أخذ بهذا الاسلوب فى حربه مع الكاهنة ·

ولم تطمئن الى موقفها هذا فعمدت الى هدم مدينة باغاية حتى لا يتحصن بها المسلمون ·

ويعتقد بعض المؤرخين ان الكاهنة كانت تعمل مع البيزنطيين على طرد المسـلمين من افريقية فى هذه الفترة ·

والحقيقة أن سياسة التخريب هذه التى عزمت الكاهنـة على تطبيقها تؤكد فى جلاء ووضوح أنها لم تكن على صلة بالروم البيزنطيين اطلاقا ، لان سياسة هدم الحصون والقلاع التى تحيط بمدينة باغاية ، لا تقرها السياسة البيزنطية التى كانت تشجع السكان أثناء تحالفهم السابق الاعتماد على الحصون والمدن المنيعة لصد الزحف الاسلامى (42) ·

وأما أسلوب الكاهنة فى مقاومة المسلمين ، فهو عدم الاعتماد على الحصون والمعاقل ، وانما تفضل اللقاء فى الارض الفضاء ومنازلة خصومها بنفس السلاح بالحراب والسيوف

---

41 ـ ابن عذارى : نفس المصدر ، ص 35 ـ 36 ـ ويذهب (Mercier) ان الكاهنة فى فترة انشغال حسان بحروبه على قرطاجنة ـ كانت تجمع القبائل وتثيرها لقتـال المسلمـين .

42 ـ ابراهيم العدوى : الأمويون والبيزنطيون ، ص 245 ·

وغيرهما، يعنى ذلك عنف المقاومة التى سيواجهها المسلمون الفاتحون، اذا أخذنا فى الاعتبار الظروف التى كانت تحيط بجند حسان بن النعمان على اثر عودتهم من حرب قرطاجنة ، فلم يفكر حسان فى الاحتماء بالقلاع ، بل زحف اليها فالتقوا على نهر البلاء (43) ٠

وعلى ضوء ما سبق يمكن تصور الطريق الذى سلكه حسان : خرج من القيروان وسار محاذيا « واد فكا » ، وسار حتى وصل تبسة على المجرى الاعلى لواد ملج ٠ ومن تبسة اتجه شمالا بشرق واد كثير النهيرات التى تصب فى « جرعة الطرف » وهناك عسكر وجعل ينتظر الكاهنة (44) ٠

وحتى ندرك عنف المقاومة وضراوة القتال بين الفريقين فى هذه المعركة ، نأتى على وصف ابن عذارى لها حيث يقول : « فرحلت الكاهنة حتى نزلت على الوادى المذكور فكان هو يشرب من أعلى الوادى وهى من أسفله ٠ فلما توافت الخيل ، دنا بعضهم من بعض ، فأبى حسان أن يقاتلها آخر النهار ، فبات الفريقان ليلتهم على سروجهم ، فلما أصبح الصباح ، التقى الجمعان فتقاتلوا قتالا لم يسمع بمثله ؛ وصبر الفريقان صبرا لم ينته أحد اليه ، الى أن هزم حسان بن النعمان ومن معه من المسلمين وقتلت الكاهنة العرب قتالا ذريعا ٠ واسرت ثمانين رجلا من اصحابه وسمى ذلك الوادى وادى العذارى واتبعته الكاهنة حتى خرج من كل قابس » (45) ٠

43 ـ ابن عبد الحكم : فتوح ، ص 62 ، وقد اختلف المؤرخون حول اسم المكان الذى جرت فيه احداث المعركة ، فابن الأثير يسميه نهر نينى (الكامل ج 4 ، ص 32) وابن خلدون يسميه مسكيانة (العبر ، ج 6 ، ص 28) ، ويروى عبيد الله بن صالح ، أن جيوش حسان والكاهنة « اجتمعوا الى وادى ترضى » ٠ انظر : نص جديد عن فتح العرب للمغرب نشر Lévi - Provençal ، فى صحيفة المعهد المصرى بمدريد عام 1954 ، ص 222 ٠ ويقول ياقوت فى معجم البلدان ، ج 5 ، ص 339 أن « نينى ... هو نهر مشهور بافريقية فى أقصاها » ٠ ويطلق السلاوى على هذا النهر اسم وادى ترضى (الاستقصا ، ج 1 ، ص 83) ويسميه ابن عذارى بوادى العذارى (البيان ، ج 1 ، 36) ٠ انظر كذلك عن هذا النهر : Ch. A. Julien
— *Histoire de l'Afrique du Nord*, p. 21.

44 ـ حسين مؤنس : نفس المرجع ، ص 247 ٠

45 ـ ابن عذارى : نفس المصدر السابق ، ص 36 ـ السلاوى : الاستقصاء ، ج 1 ، ص 83
— Becker ; in C.M.H., T. 2, p. 370.

اذن انهزم جيش المسلمين أمام الكاهنة فى هذه المعركة، وانتصر البربر على المسلمين؛ وكانت اثار هذه المعركة بالغة الاثر فى نفوس المسلمين كما يفهم من عبارة الدباغ حيث يقول : « وظن المسلمون انه الفناء وانهزم حسان بعد بلاء عظيم وقتل من العرب خلق كثير » (46) .

وترتب على ذلك خروج المسلمين من افريقية، وأسر ثمانين رجلا من جندهم، وغيابهم عنها طيلة خمس سنين .

وانتصار البربر على الفاتحين يفسر لنا انعدام الصلة بين حركة الكاهنة وكسيلة . اذ لو كان ذلك صحيحا لما ترددت ، فى احتلال قاعدة القيروان ، قلعة الاسلام ومركز تواجد المسلمين فى افريقية .

وهذا الموقف من الكاهنة يعطينا صورة واضحة بان حركتها كانت ذات طابع محلى . فاكتفت بطرد المسلمين وامنت حدود قبيلتها ، وعادت الى جبل أوراس . وهذه السياسة تناقض ما ذهب اليه (كودل Caudel) من ان الكاهنة كانت تريد اقامة امبراطورية (47) .

الوضع السياسى فى افريقية بعد خروج المسلمين منها :

لا شك ان خروج المسلمين من افريقية على اثر هزيمتهم على يد الكاهنة فى معركة وادى نينى سيترك البلاد تعيش حالة من الفوضى والاضطرابات السياسية ، خاصة على مصير المسلمين فى القيروان فى هذه الفترة الحاسمة .

ويفهم من رواية ابن عبد الحكم بان القيروان كانت بها قلة من ضعفاء المسلمين ، الذين تولى شؤونهم أبا صالح « واستخلف على افريقية أبا صالح » (48) .

وكان فى وسع الكاهنة ان تقضى عليهم ساعة تشاء ، « ثم رجعت الكاهنة الى مكانها من الجبل واطلقت اسرى المسلمين سوى خالد فانها اتخذت عنده عهدا بارضاعه مع ولديها

46 ـ الدباغ : معالم الايمان ، ج 1 ، ص 62 .
(47) Caudel ; op. cit., T. II, p. 160.
48 ـ ابن عبد الحكم : الفتوح ، ص 62 ـ 63 .

وصيرته أخا لهما واقامت فى سلطان افريقية والبربر خمس سنين بعد هزيمة حسان ، ونفت العرب من بلاد المغرب » (49) ·

وقد اعجبت الكاهنة بخالد بن يزيد ، وتبنته ليكون لها عينا على سياسة وخطط حسان فى الحرب ·

الا ان الكاهنة لم تطمئن الى بقاء المسلمين فى « برقة » فلجأت الى سياسة جديدة أدت الى القضاء عليها ، ويلخص ابن عذارى هذه السياسة بقوله : « وملكت الكاهنة المغرب كله بعد حسان خمس سنين ، فلما رأت ابطاء العرب عنها ، قالت للبربر : ان العرب انما يطلبون من افريقية المدائن والذهب والفضة ؛ ونحن انما نريد منها المزارع والمراعى ! فلا نرى لكم الا خراب بلاد افريقية كلها ، حتى ييأس منها العرب ؛ فلا يكون لهم رجوع اليها الى آخر الدهر » (50) ·

هكذا سادت الفوضى منطقة أوراس ، لان السكان أبوا الخضوع لسلطان الكاهنة ولم تستطع أن تكون منهم كتلة ترد هجوم المسلمين فيما بعد · وراحت تعامل السكان معاملة سيئة ، حتى عم السخط ربوع البلاد . فقد أصاب ابن الاثير وصف حالتها فى العبارة التالية : « وملكت افريقية كلها وأساءت السيرة فى أهلها وعسفتهم وظلمتهم » (51) ·

نستخلص من رواية ابن عذارى السابقة الذكر بأن حركة انتقاض الكاهنة على المسلمين كانت حركة محلية ، اذ يغلب على قومها الطابع البدوى ، الذين لا يقيمون للمدن وزنا ، ولذلك نفذوا لها ما طلبت منهم ·

ولكننا نجد قلة من طوائف البرانس الذين أخذوا باسباب الحضارة اللاتينية ، واستقروا على مشارف المدن ، هم الذين لفضوا سياستها التخريبية ، وطلبوا المساعدة والانضمام الى جيش حسان بن النعمان ·

---

49 ـ السلاوى : الاستقصاء ، ج 1 ، ص 83 ·
50 ـ ابن عذارى : البيان ج ، 1 ، ص 36 ·
51 ـ ابن الأثير : الكامل ، ج 4 ، ص 32 ·

وهذا يجعلنا نعتقد بأن الكاهنة كانت بعيدة عن أحداث الفتح الاسلامى وصراع المسلمين مع البيزنطيين ، كما لم تدرك هدف المسلمين فى شمال افريقية وهو نشر الاسلام والقضاء على نفوذ الروم فى تلك البلاد ·

ظل المسلمون فى طرابلس طوال هذه الفترة بانتظار وصول امدادات الخليفة اليهم ، يعملون على تنظيم أمورهم واستعدادهم للمرحلة القادمة ·

واقام حسان بعض المنشآت فى برقة كما يتضح ذلك من قول السلاوى « فأقام ببرقة وبنى قصوره المعروفة لهذا العهد بقصور حسان » (52) ·

ولم يكن حسان بن النعمان بعيدا عما يجرى من أحداث فى افريقيا بل كان حريصا على العودة اليها ، وقد عبر عن ذلك ابن عذارى حين قال : « فكتب الى امير المؤمنين عبد الملك يخبره بذلك ، وان أمم المغرب ليس لها غاية ولا يقف أحد منها على نهاية ، كلما بادت أمة خلفتها أمم · وهى من الحفل والكثرة كسائمة النعم ، فعاد له جواب أمير المؤمنين يأمره أن يقيم حيثما وافاه الجواب فورد عليه فى عمل برقة فأقام بها » (53) ·

أما الاحوال السياسية فى بلاد المشرق فلم تكن تسمح بارسال امدادات جديدة الى افريقية لمساعدة جيوش المسلمين ، كما ان الخليفة عبد الملك بن مروان رأى من الأفضل أن ينصرف للقضاء على ثورات الخوارج ، ثم يتفرغ لافريقية ·

أما فى افريقية ، فقد حدثت تطورات جديدة لصالح المسلمين ، منها اتصال خالد بن يزيد بحسان واطلاعه على ما كان يدور فى معسكر الكاهنة من الأحداث · كما يتضح ذلك من قول ابن عبد الحكم : « فبعث حسان الى خالد رجلا فاتاه ، فقال له ان حسان يقول : ما يمنعك من الكتابة الينا بخبر الكاهنة ، فكتب خالد بن يزيد الى حسان كتابا وجعله فى خبزة ملة ؛ ثم دفعها الى الرسول ليخفى منها الكتاب وليظن من رأى الخبزة انها زاد الرجل ، فخرجت الكاهنة وهى تقول : « يا بنى هلاككم فيما تأكله الناس ، فكررت ذلك حتى قدم حسان بالكتاب فيه علم بما يحتاج اليه » (54) ·

52 ـ السلاوى : الاستقصاء ، ج 1 ، ص 83 ·
53 ـ ابن عذارى : نفس المصدر السابق ، ص 36 ·
54 ـ ابن عبد الحكم : فتوح ، 62ـ63 ·

ولا شك ان مراسلات خالد الى حسان كانت من الاسباب التى ساعدته فى انتصاره الأخير على الكاهنة ·

عودة اهتمام الامبراطورية البيزنطية بافريقية :

ساعدت الاوضاع السياسية فى افريقية الدولة البيزنطية على اعادة نفوذها على منطقة الشمال الافريقى ، عندما انسحب منها المسلمون ·

فأعد الامبراطور ليونتيوس (55) جيشا كبيرا واسطولا قويا لاسترداد (قرطاجنة) وعهد بقيادة هذه الحملة الى واحد من أبرز قادة الامبراطورية ، وهو البطريق يوحنا (Patricus Jean)

فقد ظهر الاسطول البيزنطى فى البحر الابيض المتوسط من جديد (56) فى عام (697 ـ 78 هـ) ؛ حيث تمكن الاسطول من الاستيلاء على مدينة قرطاجنة ، دون مقاومة تذكر · فانسحب أبو صالح ومن معه من المسلمين من المدينة ، فدخلها البطريق يوحنا ، وقد اساء معاملة أهلها ومن وقع تحت يده من المسلمين ، حتى لم يستثن قتل (الكفار) بيده كما يصف ذلك تيوفانيس ونقفور (57) · قضى البطريق يوحنا شتاء عام 697 م دون أن يعمل حسابا لعودة المسلمين ·

وحول استيلاء البيزنطيين على قرطاجنة ، يذهب بعض المؤرخين الفرنسيين الى عدم اهتمام المؤرخين العرب بتدوين اخبار استيلاء الروم على قرطاجنة ، بسبب انشغال المسلمين بأخبار الكاهنة (58) ·

وقد فاتَ فورنل ما دونه البكرى عن هذه الحادثة بقوله : « واغارت الروم من البحر على من كان بقى من المسلمين بمدينة تونس (كذا) خرجت اليهم فى المراكب فقتلوا بها وسبوا وغنموا ولم يكن للمسلمين شيء يحصنهم من عدوهم ، انما كانوا معسكرين هناك

55 ـ ثار ليونتيوس على الامبراطور جستنيان الثانى ، فتمكن من عزله بعد ان حكم سنة وبضعة أشهر ، وأعلن نفسه امبراطورا ·

(56) Théophanes, op. cit., p. 566 — Diehl, op. cit., p. 583.
— Fournel, op. cit., p. 214.

(57) Théophanes : op. cit., p. 370.
— Néciphore : op. cit. p. 39.
— Diehl : op. cit., p. 583.

(58) Fournel : op. cit., p. 213.

وبلغ حسان ذلك فرحل الى تونس ، وارسل اربعين رجلا من اشراف العرب الى عبد الملك بن مروان وكتب اليه بما نال المسلمين من البلاء واقام هناك مرابطا ينتظر رأى عبد الملك » (59) .

هكذا صارت افريقية تتقاسم النفوذ فيها قوتان ، أهل البلاد فى الداخل ، والبيزنطيون فى الشمال .

عودة حسان بن النعمان الى افريقية :

لقد طالت مدة غياب المسلمين عن افريقية خمس سنين . ولعل ذلك يرجع الى ما استجد من أحداث فى شرق الدولة الاسلامية ، وحين فرغ المسلمون من حسم مشاكلهم الداخلية ، قرر عبد الملك بن مروان ارسال المدد الى حسان بن النعمان ببرقة ، وامره بالمسير الى افريقية فى حدود عام (81 هـ) .

وبذلك يذكر ابن عذارى هذه الامداد بقوله : « ثم ان حسان توافت عليه فرسان العرب ورجالها من قبل أمير المؤمنين عبد الملك . فدعا حسان عند ذلك برجل يثق به ، وبعثه الى خالد بن يزيد بكتاب فقرأه ، وكتب فى ظهره : ان البربر متفرقون لا نظام لهم ولا رأى عندهم ، فاطو المراحل وجد فى السير » (60) .

ومن خلال نص ابن عذارى يتجلى اتصال حسان بخالد بن يزيد ، حيث استفاد من الاوضاع السياسية السيئة فى معسكر الكاهنة ، ونظرا للفوضى التى عمت بلاد المغرب آنذاك . الأمر الذى حمل حسان على قتال الكاهنة .

---

59 ـ يذكر البكرى فى هذا النص تونس بدلا من قرطاجنة ، ذلك لان تونس لم تكن قد اتخذها المسلمون قاعدة لهم قبل ذلك . كما اخطأ البكرى أيضا عندما قال بان حسان دخل الى تونس ، فى هذه الفترة كان فى برقة ينتظر المدد من الخلافة .

60 ـ ابن عذارى : نفس المصدر ، ص 37 .

ولا يهمنا ما ذكره المؤرخون من تنبأ الكاهنة بقدوم المسلمين اليها ، وموتها على يد القائد حسان • فلجأت الى أخذ الآمان لابنها من حسان ، على أن تواصل هى ومن معها من السكان حرب المسلمين (61) •

ولقد اخطأت الكاهنة عندما عمدت الى سياسة تخريب المدن ، وقطع الاشجار ظنا منها ان المسلمين لا يريدون الا ذلك •

وكانت هذه السياسة التخريبية بالغة الاثر فى نفوس السكان ، ويتجلى ذلك بقول ابن خلدون : « وكانت من طرابلس الى طنجة ظلا واحدا وقرى متصلة ، وشـــق ذلك على البربر فاستأمنوا لحسان فأمنهم » (62) •

ونذكر بهذا الصدد تعليق أحد المؤرخين الاوروبيين على هذه الظاهرة بقوله : تنسب المراجع الى الكاهنة فى هذه المناسبة عملا كان موضع تعليق كثير ، وهو أنها قررت ان ترد بلادها الى ما هى مهيأة له بطبيعتها من الرعى ، وذلك بتخريب مراكز التمدن التى ترجع الى العصر الرومانى وقطع اشجار الزيتون ، مصدر ثروتها لكى يتسع الميدان للمراعى ومجالات الرحلة البدوية ، ومن الواضح أن نسبة هذا العمل الذى يخالف طباع البربر ، الى الكاهنة لا بد أن يكون محل شك • ولا ريب فى أن المسلمين المسؤولون الحقيقيون عما أصاب افريقية من خراب البلاد الاقتصادى الزراعى بعد ذلك بسنوات • هم الذين نسبوا الى بطلة الاوراس هذه الجريمة التى لا بد أن نضيفها الى حسابهم دون أدنى ظل من الشك أو التردد (63) •

---

61 ــ اشار ابن عذارى الى هذه الحادثة بقوله : « دخل حســـان اليها وبلغ الكاهنة خبره ، فرحلت من جبل اوراس فى خلق عظيم ، ورحل اليها حسان ، فلما كان الليل قالت لابنيها : انى مقتولة وأعلنتهم انها رأت رأسها مقطوعا موضوعا بين يدى ملك العرب الاعظم الذى بعث حسانا ، فقال لها خالد : ارحلى بنا وخلى له من البلاد ؛ فامتنعت ورأته عارا لقومها فقال لها خالد وأولادها : ما نحن صانعون بعدك فقالت : أما أنت يا خالد فتدرك ملكا عظيما عند الملك الاعظم ، واما أولادى فيدركون سلطانا مع هذا الرجل الذى يقتلنى ، ويعقدون للبربر عزا ، ثم قالت : اركبوا واستأمنوا اليه » ــ البيان ج 1 ، ص 38 •

62 ــ ابن خلدون : العبر ، ج 6 ، 218ــ912 •

63 ــ انظر رأى جاثيو فى مجلة الدراسات الاسلامية بمدريد عام 1954 ، ص 212 213 •

63 ــ ابن الأثير : الكامل ، ج 4 ، ص 32 •

ان ما ذكره هذا المؤرخ ، لا تؤكده الادلة والوقائع التاريخية ، كما انه لو كان صحيحا ما ذهب اليه (جاتـــو Gateau) ، لما أهملـــه المؤرخـون الذين تحدثوا عن الكاهنة ، واسناد مثـــل هذا العمل الى الفاتحـين المسلمين يتنافى وسياستهم التى أقرها الخلفاء الراشدون ، وأصبحت دستورا تطبق على كل البلدان المفتوحة ، وهى عدم الحاق الضرر بأهلـــها .

وبالعكس نجد أن المؤرخين العرب يسندون هذا العمل الى الكاهنة ، ويذكرون لجوء السكان الى المسلمين لتخليصهم منها .

والخلاصة التى نخرج بها من هذا كله هى ان أوضاع الكاهنـــة قد تدهورت ، فقد ضعفت معنوياتها فاختل التوازن فى نظام جيشها ، وتفرق السكان عنها .

وهذا الوضع يختلف تماما عما ألفه المسلمون ولمسوه عندها فى لقائهم الاول . حيث كانت تتمتع بقوة وكلمة مسموعة فى قومها ، وكان البربر يأتمرون بأمرها . فأصبحوا ينظرون الى المسلمين على أنهم منقذون لهم .

وهذا الموقف الجـديد سيكون عامـلا فعالا ، فيما بعد ، لطرد البيزنطيين نهائيا من شمال افريقية .

المعركة الفاصلة (بئـر الكاهنـة) :

يصف لنا ابن الاثير مسير حســـان بن النعمان الى افريقية : « فلما قرب حسان من البلاد لقيه جمع من أهلها من الروم يستغيثون من الكاهنة ويشكون اليه منها فسره ذلك وسار الى قابس فلقيه أهلها بالاموال والطاعة ـ وكانوا قبل ذلك يتحصنون من الامراء وجعل فيها عاملا ؛ وسار الى قفصة يستقرب الطريق فاطاعه من بها واستولى عليها وعلى قسطيلية ونفزاوة وبلغ الكاهنة قدومه » (64) .

هذه صوره صادقة عن الحالة النفســـية لاهل افريقية الذين ملوا الحرب وكرهوا سياســة الكاهنـة .

لقد بدأت أحداث المعركة فى جبل أوراس ، ولندرك ضراوة وعنف القتال بين الطرفين نورد وصف الدباغ الذى انفرد بالتفاصيل التى تتصــل بالصراع الاخير بين المسلمين

والكاهنة : « لقيته الكاهنة فى جيوش عظيمة ، فقاتلهم حسان وهزمهم الله ، وهربت الكاهنة منهزمة تريد قاعة بشر تتحصن بها ، فأصبحت القلعة لاصقة بالأرض ، فمضت تريد جبال أوراس ومعها صنم كبير من خشب تعبده ، فتبعها حسان حتى ادركها وانتصر عليها وقتلها عند بئر الكاهنة . فنزل حسان عند الموضع الذى قتلت فيه ويقال انها قتلت عند طبرقة » (64) ٠

ويعلل هنرى ماسييه انهزام الكاهنة الى استفادة الفاتحين من اختلاف خصومهم (65) ٠

وبهذه المعركة التى وقعت بين عامى (81 ـ 82 هـ) ، تم للمسلمين القضاء على المقاومة المحلية التى تزعمتها الكاهنة ، واستطاعوا ان يضيفوا الى الفتح الحربى الفتح الدينى (66) ٠

ولعل السبب فى طول وعنف المقاومة أن المسلمين واجهوا قبائل لا تقل عنهم بداوة وبأسا وتمتاز بلادها عن جزيرة العرب بجبالها الشامخة ومسالكها الوعرة مما يهيىء للمدافعين عنها فرصا كثيرة للايقاع بالغازى (67) ٠

نهاية النفوذ البيزنطى بشمال افريقية :

أما فيما يتعلق بسياسة المسلمين فى الشمال الافريقى ، واستئناف الحرب ضد البيزنطيين فى قرطاجنة ، فان المؤرخين المسلمين لا يعنون بتدوين أحداث هذه الحرب ، اللهم الا بعض الاشارات حول مسير حسان الى قرطاجنة ٠

---

64 ـ الدباغ : معالم الايمان ، ج 1 ، 60 61 ـ اتفق معظم المؤرخين على أن الكاهنة قتلت فى موضع يعرف باسم (بئر الكاهنة) بجبال أوراس ، ويستبعد ان تكون قد قتلت فى مدينة طبرقة الواقعة على البحر فى الشمال ٠
وهذه البئر لم تعرف باسم الكاهنة آنذاك ، ولكن المؤرخين العرب اطلقوا على هذه البئر التى قتلت بالقرب منها الكاهنة ، اسمها ، فصارت تعرف بذلك ٠

65 ـ الاسلام ترجمة : بهيج شعبان ، ص 71 ٠

66 ـ هنرى ماسييه : نفس المرجع السابق ، ص 71 ٠

67 ـ محمد أحمد حسونة : اثر العوامل الجغرافية فى الفتوح الاسلامية ، ص 55 ٠

لعل هذه الفجوة عند المؤرخين العرب فيما يخص النفوذ البيزنطي في شمال افريقية قد ملأها المؤرخـــان البيزنطيان تيوفانيس ونقفور ، اذ يذكران (68) ان الاســـطول البيزنطي قد هزم في معركة كبيرة سقطت على اثرها قرطاجنة في يد حسان فأدرك اليأس البطريق يوحنا ، فجمع جنده ورجع الى القسطنطينية ، ليعود منها بقوة أكبر ، ولكنه كان واهما لأن الأحوال لم تسمح له بعد ذلك بالعودة الى قرطاجنة ٠

ويحدد المؤرخان البيزنطيان هذا الحدث بعام (698 أى 79 هـ) ٠

والمعروف ان حسان بن النعمان لم يفرغ من أمر الكاهنة الا فى رمضان سنة (82 هـ أى عام 699) وهذا هو التاريخ الصحيح لهذا الحدث (69) ٠

قيام أول قاعدة بحـرية اسلامية فى المغرب :

من الاحداث السابقة أدرك المسلمون أهمية الاسطول البحرى خاصة بعد وفاة زهير بن قيس البلوى فى « برقــة » التى كانت لها أثار بعيدة المـــدى فى سياســـة الدولة الاسلامية ، التى رأت ان التغلب على البيزنطيين ، واقتلاع قواعدهم البحرية ، لا يتم الا عن طريق انشاء اسطول بحرى فى مياه البحر الابيض المتوسط ، تكون مهمته القضـاء على سيادة الروم البحرية فى غرب البحر الابيض المتوسط (70) ٠

وتولى تنفيذ هذه السياسة البحرية حســان بن النعـمان منذ دخل افريقية فى عام (76 هـ ـ 695 م) ٠

فكان أول ما قام به هو الاتجاه نحو الشمال والقضاء على قواعد الروم ، ففاجأ المدينة بقواته ، وانسحب الروم وفروا الى جزر صقلية والاندلس كما مر بنا ٠

لكن الروم انتهزوا فرصة غياب حسان فى حروبه ضد الكاهنة وعادوا مرة أخرى الى قرطاجنـــة ٠

---

(68) Théophanes : op. cit., p. 370.
— Niciphore : op. cit., p. 39.
— Diehl : op. cit., p. 584.
— Becker : in (C.M.H.) T. 2, p. 370
— Georges Ostragorsky : *Histoire de l'Etat Byzantine,* pp. 170 - 171.

69 ـ حسين مؤنس : المرجع السابق ، ص 260

70 ـ ابراهيم العدوى : الأساطيل العربية ، ص 65 ٠

نبهت هذه الاغارة انتباه حسان وأدرك ان الروم لهم معاقل على الساحل يتحصنون بها ، ويجعلون منها وسيلة لاستعادة قواعدهم البحرية الكبرى • لذلك سارع الى انشاء أول قاعدة بحرية فى افريقية ، تقوم مقام قاعدة الروم « قرطاجنة » • ومن ثم قطع أى قطع أى تفكير بيزنطى فى تعمير المدينة واستغلالها كميناء ضد المسلمين فى غرب البحر الابيض المتوسط ، وصارت قاعدة بحرية تحرس القيروان كما ذكر ذلك البكرى (71) •

وقد اختار حسان مكان قاعدته الى جنوب قرطاجنة ، بحيث يفصلها عن البحر برزخ صغير ، لان وقوعه على شاطىء السبخة يحبب المسلمين فى تعمير المدينة وسكانها ، لان المسلمين لم يطمئنوا بعد الى سكنى المدن الواقعة على الساحل • وموقعها هذا جعلها فى مأمن من غارات الروم المفاجئة ، اذ تكفى مراقبة مدخل السبخة كى يتنبه أهل المدينة الى الخطر قبل وقوعه •

وقد كان هذا ميناء يونانيا قديما ، اضمحل أمره ولم يبق منه الا دير يقيم فيه طائفة من الرهبان كما أكد ذلك ابن ابى دينار القيروانى (72) •

بدأ حسان بحفر البرزخ الذى يفصل البحيرة عن البحر ، وحفر فى ماء البحيرة الضحلة ، قناة عميقة تسير فيها السفن حتى تصل الى البلد ، وبذلك تتصل البحيرة بالبحر وتصبح تونس ميناء بحريا تحميها البحيرة من أمواج البحر ، ثم شرع فى بناء « دار الصناعة » للمدينة الجديدة ، حتى تستطيع السفن أن ترسو فيها وتقلع فى وقت واحد • هذا ما قصد اليه القيروانى بقوله : « ان حسان هو الذى خرق البحر الى تونس » • (73)

بعد هذه الاجراءات التى قام بها المسلمون ، ارسل حسان الى الخليفة عبد الملك يطلب منه ارسال أناس ممن لهم دراية وخبرة فى انشاء دور الصناعة وبناء السفن ، ويقول

71 ـ المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص 38 •
72 ـ المؤنس فى أخبار افريقية وتونس ، ص 8 •
73 ـ نفس المصدر السابق ، ص 33 •

البكرى فى هذا الشأن : « فكتب عبد الملك بن مروان الى أخيه عبد العزيز وهو والى مصر أن يوجه الى معسكر تونس ألف قبطى وأهله وولده وان يحملهم من مصر ويحسن عونهم حتى يصلوا الى ترشيش وهى تونس (74) • وكتب الى ابن النعمان يأمره ان يبنى لهم دار صناعة تكون قوة وعدة للمسلمين الى آخر الدهر وان يجعل على البربر جر الخشب لانشاء المراكب ليكون ذلك جاريا عليهم الى آخر الدهر • وان يصنع بها المراكب ويجاهد الروم من البر والبحر وان يغار منهم على ساحل الروم فيشتغلوا عن القيروان نظرا للمسلمين وتحصينا لشأنهم فوصل القبط الى حسان وهو يقيم بتونس فاجر البحر من مرسى رادس الى دار الصناعة وجر البربر الخشب وجعل فيها المراكب الكثيرة وأمر القبط بعمارتها » (75) •

وقد اثبتت الاحداث حسن اختيار حسان لقاعدة تونس ، اذ ضمن ابتعادها عن البحر فرصة تستطيع فيها الحاميات الاسلامية مقاومة الاساطيل البيزنطية قبل وصولها الميناء الجديد •

كما ان مياه البحيرة الهادئة هيأت للسفن الاسلامية الحماية من عواصف البحر وانوائه (76) •

هكذا اتسع نشاط القاعدة الجديدة منذ وقت مبكر ، وأصبحت مركزا هاما للاسطول الاسلامى فى الحوض الغربى للبحر الابيض المتوسط ، وقد شاركت هذه القاعدة بوحدات من أسطولها وبحارتها فى سائر نواحى البحر الأبيض المتوسط ، كما أمدت الاسطول الاسلامى اثناء حصاره لمدينة القسطنطينية • وساهمت فى طرد الاسطول الرومى من القواعد المجاورة لبلاد المغرب •

المقاومة المحلية فى جبل أوراس وازالة آخر معقل بيزنطى فى الشمال •

---

74 ــ اتفق معظم المؤرخين المسلمين على ان اسم « تونس » قبل أن يعمرها العرب كانت تعرف باسم ترشيش Tharsis التى ورد ذكرها فى التوارة • ولم يرد ذكرها عند المؤرخين اليونان اللاتينيين ، ويستبعد وجودها فى افريقية •

75 ــ المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص 37ــ38 •

76 ــ ابراهيم العدوى : الأساطيل العربية ، ص 141 •

نستطيع القول بأن الفتح الحربى لشمال افريقية قد تم على يدى حسان بن النعمان الذى يعتبر بحق الفاتح الحقيقى لشمال افريقية ، فقد اضاف الى جهود المسلمين فى هذه البلاد قاعدة جديدة على البحر ·

فأصبحت للمسلمين قاعدتان (القيروان فى الداخل ، وتونس فى الشـمال) · واذا كان دور قاعدة القيروان هو مركز انطلاق الجيوش الاسـلامية لفتح بقية انحاء المغرب ونشر الاسلام والثقافة العربية ، فان دور قاعدة تونس هو حراسة القيروان من أى خطر قد يجيء من البحر ، هذا الى جانب قيامها بأعمال البحر العسكرية والتجارية ، وسيكون لها دور بارز فى سياسة البحر الابيض المتوسط ·

لكن الأحوال السياسية عاجلت حسان بالعودة الى المشرق ، فلم يتمكن من استكمال تعمير المدينة ، بعد ما وضع نواة مسجدها وخطط دورها ، والذى سيتمم هذه الخطـوة الجبارة التى بدأها حسان الوالى عبيد الله بن الحبحاب ولكن بعد ثلاثين سنة كما يقـول ابن خلدون (77) ·

آثار قيام قاعدة تونس على الوضع السياسى فى المنطقة :

فبعد أن كانت هذه البلاد تعيش أوضاعا سياسـية قلقة بين ثلاثة عناصر مختلفة : (البيزنطيون فى الشمال ، والمسلمون فى القيروان ، والبـربر فى منطقة أوراس) ، صارت تابعة للخلافة الاسلامية بدمشق ·

وقيام هذه القاعدة يعنى قطع دابر الوجود البيزنطى من شـمال افريقية ، وكان على المسلمين بعد استقرارهم بها ، أن انصرفوا الى ناحية لا تقل أهمية عن الجهاد الحـربى ، وهى العنـاية بتنظيم البلاد وتهيئتها للدخول فى الاسـلام والأخذ باسـباب الحضارة الاسـلامية ·

وقد وفق حسان كل التوفيق فى هذه السياسـة التى اتبعها ، وذلك عنـدما اهتم بتعمير المدينة الجديدة بعنصر جديد من أقباط مصر الذين خبروا فنون الصناعة البحـرية

77 ـ العبر ج 4 ، ص 404 ·

وسيكون لهذا العنصر البشرى الجديد أثر كبير فى بعث حركة صناعة السفن ، حتى تصبح هذه القاعدة ميناء كبيرا ، وسيكون لها شــأن عظيم فى تاريخ حوض البحــر الابيض المتوسط ، فمنها خرجت الجيوش لفتح صقلية وسردانية ، وايطاليا ، وأصبحت النافذة التى أطل منها المغاربة على غربى هذا البحر (78) ٠

عـزل حسان بن النعمان عن افريقية :

وفيما يتعلق بنهاية أعمال حسان من افريقية ، وأسباب عزله وتجريده من الغنائم ، فيشير بعض المؤرخين الى العلاقة السيئة بينه وبين والى مصر عبد العزيز بن مروان « م عزله عبد العزيز بن مروان الوالى على مصر » ؛ وكان الوالى على مصر يولى على افريقيــة ؛ فعزل حسانا وأمره بالقدوم عليه ٠ فعلم حسان ما أراد عبد العزيز بن مروان ، اخو عبد الملك فعمد الى الجوهر والذهب والفضة ، فجعله فى قرب الماء وأظهر ما ســوى ذلك من الأمتعة ؛ وأنواع الدواب والرقيق ، وسائر أنواع الاموال ٠ فلما قدم على أمير مصر عبد العزيز بن مروان أهدى اليه مائتى جارية من بنات ملوك الروم والبربر ، فســلبه عبد العزيز جميع ما كان معه من الخيــل والاحمال والامتعة والوصائف والوصفان ، ورحل حسان بالاثقال التى بقيت له ، حتى قدم على الوليد ، فشكا له ما صنع عبد العزيز فغضب الوليد على عمه ٠ ثم قال حسان لمن معه : « ائتونى بقرب الماء » ففرغ منها الذهب والفضة والجوهر والياقوت ما استعظمه الوليد ، وعجب من أمر حسان ؛ فقال له الوليد : « جزاك الله خير (كذا) يا حسان ، فقال : « يا أمير المؤمنين ! انما خرجت مجاهدا فى ســبيل الله ، وليس مثلى يخون الله والخليفة » ، فقال له الوليد : « أنا أردك الى عملك وأحسن اليك ، وانوه بك » ، فحلف حسان : « لا أولى لبنى أمية أبدا » ٠ لقــد كان حسان يدرك موقف عبد العزيز ويخاف منه ، ويتجنب كل اتصال معه ما امكن ذلك ، وعنــدما احتاج الى جماعة من اقباط مصر سأل الخليفة بدمشق بدلا من والى مصر ٠

ظل عبد العزيز بن مروان يكيد لحسان ويختلق الاسباب لعزله عن ولاية افريقيــة ٠ فانتهز فرصة هزيمة حسان أمام الكاهنة وعودته من افريقية ليقلل من مقدرته الحربية ،

78 ــ حسين مؤنس : نفس المرجع السابق ، ص 263 ٠
79 ــ ابن عذارى : البيان ج 1 ، ص 38ــ39 ٠

فبعث الى طرابلس عاملا من مصر ليتولى أمورها ، وطلب حسان فى مسيره الثانى الى افريقية من والى مصر « اكتب الى عبدك بالاعراض عن انطابلس فقال له عبد العزيز ما كنت لافعل بعد اذ ضيعتها فاستولت عليها الروم · فقال حسان : اذا ارجع الى امير المؤمنين ، فقال عبد العزيز ارجع » · (80)

هذه أهم الاسباب التى أدت الى عزل حسان بن النعمان ·

ولا نعرف عن أخبار عودته الى المشرق الا الشيء القليل ، اذ تعتبر هذه الناحية مجهولة فى حياة هذا القائد ، ولا يشير المؤرخون الى هذه الحادثة أبدا ، اللهم الا ما جاء فى رواية ابن عبد الحكم العبارة التالية : « ثم لم يلبث حسان بن النعمان الا يسيرا حتى توفى » · (81)

وجاء فى دائرة المعارف الاسلامية أن عبد العزيز بن مروان عزل حسان بن النعمان وجرده من جميع أملاكه وتوفى عام (80 هـ ـ 699 ـ 700) · (82) وهذا التاريخ غير صحيح بدليل أن حسانا كان فى القيروان سنة (82 هـ) ، وكانت عودته من افريقية حوالى (85 هـ) ، بعد أن قام بأعمال جليلة بوأته أن يحتل مكانا ناصعا بين قادة الفتح الاسلامى فى المغرب ، ويسجل صفحات ذهبية فى تاريخ الاسلام · فقد جمع بين الخبرة العسكرية والقدرة على فهم ظروف البلاد ، فهو الفاتح الحقيقى لافريقية ، ومنظم شؤونها وجيشها ، وصاحب فكرة ادخال عنصر جديد فى الجيش الاسلامى الفاتح من أهل البلاد ·

وفيما يتعلق بوفاة حسان بالمشرق فنرجح نهاية سنة (85 هـ وبداية 86 هـ) لان ولاية موسى بن نصير على افريقية بدأت فى أواخر حكم الخليفة عبد الملك بن مروان أى فى نهاية (85 هـ) ·

نتائج حملة حسان وآثارها على افريقية :

مما لا شك فيه ان الدور الذى لعبه حسان بن النعمان ، فى تغيير الاوضاع السياسية والدينية والحضارية بولاية افريقية كان عظيم الاثر على مصيرها ، اذ ان الفتح النهائى

80 ـ ابن عبد الحكم : فتوح ، ص 68
81 ـ فتوح ، ص 68 ·
82 ـ المجلد السابع ، ص 378 ·

— F. Mapareja : *Islamologie*, p. 92.

للمغرب لم يتم الا بعد أن خضع سكان أوراس للسياسة الاسلامية ، واستقرار النفوذ الاسلامى على الساحل ، بفضل نمو البحرية الاسلامية (83) ·

وبعد القضاء على المقاومة الداخلية واستقرار الاوضاع الحربية للمسلمين ، بدأت مرحلة جديدة لا تقل عن الفتح الحربى · هى ظهور نواة النظام الادارى لهذه الولاية ، ونشر الاسلام والثقافة العربية بين أهل المغرب ·

هذه الخطوة التى بدأها عقبة بن نافع وأبو المهاجر دينار ، سيتمها حسان وتتضح آثارها على المنطقة كما سيأتى ذكره ·

تنظيم شؤون افريقية وأهم الاصلاحات التى تمت فى عهد حسان :

اهتم حسان خلال المدة التى أقامها فى القيروان بعد قضائه على مقاومة الكاهنة ، بتعمير المدينة وتجديد جامعها ، لا سيما بعد أن ازداد عدد المسلمين الوافدين من الضواحى ، وقد نص المالكى هذه الاصلاحات بقوله : « ثم قدم القيروان فأمر بتجديد بناء المسجد الجامع فبناه بناء حسنا ، وجدده فى شهر رمضان سنة 84 هـ » (84) ·

واهتمام حسان بالقيروان يعود الى أنها قاعدة الاسلام الاولى فى افريقية ·

وبالرغم من قلة اشارات المؤرخين الى طابع النظام الادارى الذى وضعه حسان ، يمكننا وضع صورة تقريبية لهذا النظام ، اعتمادا على ما جاء فى نص ابن عذارى التالى : « وانصرف حسان الى مدينة القيروان ، بعد ما حسن اسلام البربر وطاعتهم ، وذلك فى شهر رمضان سنة 82 · وفى هذه السنة استقامت بلاد افريقية لحسان بن النعمان ، فدون الدواوين ، وصالح على الخوارج ، وكتبه على عجم افريقية وعلى من قام معهم على دين النصرانية » (85) ·

---

83 _ هـ· سانت موس : ميلاد العصور الوسطى (مترجم) ، ص 254 ·

84 _ رياض النفوس : الجزء الأول ، ص 32_33 _ وانظر كذلك ما قاله البكرى عن أعمال حسان فى « المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب » ·

85 _ البيان المغرب ج 1 ، ص 38 _ ابن عبد الحكم (فتوح ، ص 64_65) _ المالكى (رياض النفوس ، ج 1 ، ص 32_33) _ عبيد الله بن صالح (نص جديد عن فتح العرب للمغرب) ، نشر وتحقيق : ليفى بروفنسال فى صحيفة المعهد المصرى بمدريد عام 1954 ، ص 223 ·

ونستخلص من هذا النص الحقائق الآتيـــة :

تدويـن الدواويـن :

شهدت الدولة الاسلامية فى هـــذه الفترة مرحلة حاسمة فى حيـــاتها • هى تعريب الدواوين والنقود فى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان ، الذى نجح فى استعادة الوحـدة السياسية للدولة •

– (ومن الواضح أن هذا التعريب قد شمل ولاية افريقية) ، حيث انشغل المسلمون بنواحى التنظيم التى احدثها حسان بن النعمان وترتب عنها ظهور وظائف ادارية تتولى مختلف الاختصاصات ، كالسجلات ، وتعيين الموظفين ، ونواب الاقاليم • وليست لدينا نصوص ثابتة تشير الى نوع اللغة المستعملة آنذاك ، وان كان هذا التنظيم الجديد لولاية افريقية قد واكب مرحلة تعريب الدولة الاسلامية كما مر بنا ، الا أننا نستبعد ان تكون انعكاساتها قد شملت افريقية فى هذا الوقت المبكر •

الخـــــراج :

امتد اهتمام حسان كذلك الى تنظيم الناحية المالية لاهل افريقية ، ففرض الجـزية ، ووضعها على الروم وقبائل البرانس ، كما فرض ضريبة الخراج على أراضى غير المسلمين ، وقسم افريقية الى خطط بين قبائل البربر ، وجعل أهل كل خطة يدفعون ضريبة العشر عليها اذا كانوا مسلمين •

ونص المالكى فى هذا الشأن أوضح حيث يقول : « اجتمع الروم والبربر على قتال حسان وقاتلوه فهزمهم الله تعالى ، فخافوه فاستأمنوا اليه فلم يقبل أمانهم حتى اعطوه من جميع قبائلهم اثنى عشر الف فارس تكون مع العرب مجاهدين فأجابوه وأســـلموا على يديه ، فعقد لولدى الكاهنة بعد اسلامهما عقدا لكل واحد منهما على ستة آلاف فارس من البربر وجعله واليا عليهم ، واخرجهم مع العرب يفتحون افريقية ويقتلون الروم ومن كفر من البربر ، فمن ذلك صارت الخطط للبربر بافريقيـة ، فكان يقســم الفيء والارض ، وحسنت طاعتهم فدانت له افريقية ، ودون الدواوين ثم قدم القيروان » (86) •

86 ـ رياض النفوس : الجزء الأول ، ص 32ـ33 •

وهذا يدل على أن حسان بن النعمان كان يريد ان ينتقل بالبربر خطوة فى طـــريق الاســــتقرار •

تنظيم الجيش الاســـلامى الفاتــح :

لا شك أن حسانا أول من أدخل عناصر جديدة فى الجيش الاسلامى الفاتح من أهل (المغـــرب) •

وهذه خطوة فريدة فى السياسة الاسلامية التى كانت حتى ذلك الحين تتجنب تجنيد اهالى البلدان المفتوحة ، على هذا النطاق الواسع

هذا الدم الجديد الذى أضاف قوة الى الجيش الاسلامى بافريقية ، سيكون له دور بارز فى استكمال عملية فتوح المغرب الأقصى والاندلس فيما بعد • وقد رتب للجند الاعطيات، وسوى بين المسلمين والسكان دون تمييز فى الفىء والارض ، أى أن حسانا لم ينظر الى البربر على أنهم محكومين والعرب حاكمين ، بل اسند قيادة البربر فى الجيش الفاتح الى ولدى الكاهنة ، زعيما قبائل البتر فى منطقة الاوراس •

وهذا التقسيم يتماشى وطبيعة هذا الشعب الذى يميل الى الاستقلال ، كما يدل على حسن سياسة حسان وفهمه لهذه الظاهرة الجديدة •

ولا بد أن حسان بن النعمان قد فكر فى ضرب عملة على الطراز اللاتينى البيزنطى ، ليدفع بها رواتب الجند ، وتكون وسيلة التعامل فى الاسواق والمبادلات اليومية •

ولا نعلم فيما اذا كان حسان قد عرب السكة فى افريقية وادخل بعض التغييرات على شكلها ونقوشها ، لأن هذه الفترة تعاصر فترة تعريب النقود فى الدولة الاسلامية ، وتكمن الصعوبة فى هذه النقطة أننا لم نعثر على عملة ترجع الى زمن حـــكم هذا الوالى ، كما أن المصادر التاريخية لم تشر الى هذه الناحية •

وتستحيل المقارنة بين النظام الادارى الذى وضعه المسلمون فى البلدان المفتوحـة بالمشرق ، والنظام الادارى فى المغرب ، وذلك راجع حسب اعتقادنا الى اختلاف ظروف هذا الاقليم عن بقية أقاليم الدولة الاسلامية الاخرى •

وبعد ان أتينا على ذكر معـــالم النظام الادارى الناشىء فى افريقية ، نتطرق الآن الى مسألة اسلام البربر على يدى هذا القائد ٠

اســلام سكان منطقــة الاوراس :

ولكى نفهم ظاهرة اقبال سكان الاوراس على االاسلام واندماجهم فى الحضارة الاسلامية، نلقى نظرة على ديانتهم قبل دخول الاسلام هذه البلاد ، وهذا السلاوى يلخص لنا ديانة البربر فيقول : « ان البعض من البربر قد دانوا بدين اليهودية وأخذوه من بنى اسرائيل عند استعمال ملكهم لعرب الشام ··· حتى محا ادريس الاكبر جميع ما كان فى نواحيه من بقايا الاديان والملل ٠ ولما أخذ الروم بدين النصرانية فى زمن قسطنطين الملك وكانت لهم اليد العالية على من جاورهم من الامم مثل الحبشة والقبط والفرنج والقوط وغيرهم حملوهم على الاخذ به فدانوا به معهم وتلقنوه منهم وبثوه فى بلادهم ورعاياهم ٠

وكان الفرنج مجاورين للبـــربر فى المغرب الادنى والقوط مجـاورين لهم فى المغرب الاقصى ليس بينهم الا خليج البحر فحملوا أهل السواحل منهم على الاخــذ بذلك الدين فدانوا به أيضا واستمر الحال على ذلك حتى جاء الله بالاسلام فدانت به البربر ، ولهــذا السبب كان كسيلة الاوربى ويليان الغمارى وغيرهما من كبار البربر النصارى » (87) ٠

نخرج من هذا النص بشيئين هما :

1 ـ انتشار اليهودية بين بربر شمال افريقية

2 ـ انتشار النصرانية بين بربر شمال افريقية الذين سكنوا الجهات المتاخمة للسواحل وتاثروا بالحضارة الرومانية والبيزنطية ، ويطلق على هؤلاء فى المصـــادر التاريخية اسم « البرانس » ٠

فى حين سكنت الطائفة الثانية من البـربر ، المناطق الداخلية كالجبال والهضـــاب وغيرها وكانت تعتنق الوثنية وشىء من اليهودية ، وتعرف هذه القبائل باسم « البتر » ٠

وقد اهتم بعض الاوربيين بدراسة ديانة البربر قبل دخول الاسلام هذه البلاد (88) ٠

87 ـ الاستقصاء ، ج 1 ، ص 59ـ60 ٠

(88) Alfred Bel : *La Religion Musulmane en Berbérie,* pp. 71 - 73.
ـ دائرة المعارف الاسلامية مادة « البربر » ، ص 514 ٠

وقبل ان نمضى فى الحديث عن اسلام البربر ، لا بد لنا من معرفة شىء عن طباع البربر وصفاتهم ، لعلنا نجد الاجابة على ذلك فى وصف موسى بن نصير للبربر عندما طلب منه الخليفة سليمان ابن عبد الملك ذلك : « هم يا أمير المؤمنين أشبه العجم بالعرب لقاء ، ونجدة وفروسية » (89) ٠

ونلاحظ مما سبق ان البربر أقرب الامم الى العرب فى الطباع وأسلوب الحياة ، ولذلك يرجع بعض الباحثين ظاهرة اسلام البربر الى التشابه الموجود بين الجنسين انفسهما كما يرجعون هذا التشابه أيضا الى الاتفاق فى البيئتين اللتين ينتمى اليها كل من العرب والبربر ، فطبيعة بلاد المغرب التى يغلب عليها الطابع الصحراوى أشبه بطبيعة بلاد العرب وهو الامر الذى ترتبت عليه نتائج ذات طبيعة متشابهة من حيث الاجتماع والعمران ٠٠٠ وانتج هذا التشابه فى العمران عادات وتقاليد مؤتلفة ، كما ساعد على خلق عبقرية متجانسة تربط بين أصحابها فى سرعة ويسر (90) ٠

ويحلو لبعض الباحثين تطبيق نظرية ابن خلدون فى تأثير الدين الكبير على العرب وتأثرهم به ـ كما طبق على البربر ايضا حيث يقول ابن خلدون فى هذا الموضوع : « والسبب فى ذلك انهم بخلق التوحش الذى فيهم اصعب الامم انقياد بعضهم لبعض للخلطة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة فى الرياسة ٠٠٠ فاذا كان الدين بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم من انفسهم وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم ، فسهل انقيادهم واجتماعهم ، وذلك بما يشملهم من الدين المذهب للغلظة والأنفة ٠٠٠ ويؤلف كلمتهم لاظهار الحق » (91) ٠

هذه النظرية تنطبق على البربر لوجود ظاهرتين فى العرب والبربر كذلك والتى يترتب عنهما التأثير العظيم للدين ، هاتان الظاهرتان هما :

1 ـ وجود الدعوة الدينية وتحقيق ذلك بمجىء الاسلام اليهم ٠

2 ـ وجود قوة كبيرة تبرز هذا الدين وتدافع عنه ٠

89 ـ ابن قتيبة : الامامة والسياسة ، ج 1 ، ص 101 ٠
90 ـ ابراهيم العدوى : موسى بن نصير مؤسس المغرب العربى ، ص 57 ٠
91 ـ العبر ، مج 1 ، ص 266 ٠

بعد هذه النظرة السريعة عن طبيعة المغاربة وأحوالهم الدينية واستعدادهم الطبيعى للدخول فى الاسلام ، نبحث الآن عن الدور التاريخى الهام الذى لعبه حسان بن النعمان فى اسلام البربر واندماجهم فى الحياة الاسلامية ٠

تحالف سكان منطقة أوراس مع المسلمين :

هناك جملة أسباب أخرى تفسر انتشار الاسلام فى المغرب ، وسرعة تقبل الناس له ، وهو أن بعض هؤلاء العرب اتخذوا سياسة كانت بعيدة الاثر فى انتشار الاسلام واقبال أهل المغرب عليه (92) ٠

ان بعض الظواهر فى علاقة المسلمين بالبربر على اثر مقتل زعيمة الاوراس فى عام (82 هـ) كانت تتخذ شكل الصلح أو الرهن (93) ٠

هذه الظاهرة تعتبر من أهم العوامل الفعالة التى مهدت الطريق الى الاسلام ، ويصف لنا ابن عذارى تفاصيل هذا الصلح بقوله : « وكان مع حسان جماعة من البربر استأمنوا اليه ٠ فلم يقبل آمانهم الا أن يعطوه من قبائلهم اثنى عشر يجاهدون مع العرب فأجابوه واسلموا على يديه ٠ فعقد لولدى الكاهنة لكل واحد منهما على ستة آلاف فارس ، يقاتلون الروم ومن كفر من البربر ٠ وانصرف حسان الى مدينة القيروان ، بعد ما حسن اسلام البربر وطاعتهم » (95ز) ٠ وتطبيقا لروح الاسلام فى المساواة ، عمد حسان الى اعطاء البربر الذين ايدوا الفتح الاسلامى كل المكاسب المادية والمعنوية التى يتمتع بها المسلمون ، كاشراك البربر فى الجيش الاسلامى الفاتح واخذهم نصيبهم من الاعطيات ، وتولية ابنى الكاهنة قيادة هذا الجيش فى منطقة اوراس ٠

---

92 ــ حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقية ، ج 1 ، ص 158 0

93 ــ شكرى فيصل : المجتمعات الاسلامية فى القرن الأول ، ص 164 ٠

95 ــ البيان المغرب ، ج 1 ، ص 38 ــ انظر كذلك عن هذه المعاهدة كل من :

— Fournel : op. cit., p. 224.

— Gautier : *Le Passé de l'Afrique du Nord,* pp. 262 - 263.

ولما اطمان حسان على اخلاص البربر لهذا الدين رجع الى القيروان بعد ان « ترك معهم ثلاثة عشر رجلا من علماء التابعين يعلمون لهم القرآن وشرائع دينهم ··· فعزموا على الاسلام بنية صحيحة فبنوا المساجد » (96) ·

ولا شك أن هذه السياسة الاسلامية التى طبقها حسان بن النعمان فى افريقية تخالف ما ألفه البربر عن الحكم الرومانى حيث كان أهل المغرب مهما بلغت ثقافتهم ومكانتهم من موالى الرومان لهم المرتبة الثانية فى المجتمع (97) ·

ومما سبق يتضح بطلان دعوى بعض المستشرقين الذين يزعمون بأن مجىء العرب لم يؤثر فى حالة البربر الا أثرا ضئيلا (98) وان « المصلحة تغلبت فى اسلامهم على الاقناع لأن قواد العرب عمدوا الى تجنيدهم فى جيوشهم فاسلموا طمعا فى الغنائم ··· ومع أنهم دخلوا فى الاسلام الا أنه لم يسبق بينهم وبين العرب » (99) · هؤلاء المستشرقون بالغوا كثيرا فى نفى اخلاص البربر للاسلام وجميعهم يكادون يجمعون على رأى واحد هو أن البربر لا يحفلون بالدين وأن اسلامهم كان شكليا ·

ولكن الواقع التاريخى المدعم بالنصوص الثابتة يخالف ما ذهبوا اليه هذه الحقيقة التاريخية تفرض نفسها واضحة على تاريخ المغرب (100) ، حيث أن البربر اسلموا عن رغبة واقتناع لوجود عوامل دفعتهم الى اعتناق الاسلام لأنه حقق لهم ما حرموا منه أيام الحكم البيزنطى (101) ·

والا كيف نفسر ظاهرة اشراك هؤلاء فى الفتوح الاسلامية (فتوح المغرب الاقصى والاندلس) ، واسناد هذه القيادة الى واحد من أبرز قادة البربر (طارق بن زياد فيما ·

96 ـ عبيد الله بن صالح (نص جديد عن فتح العرب للمغرب) فى مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، « نشر ليفى بروفنسال » ، عام 1954 ، ص 223 ·
97 ـ حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقية ، ج 1 ، ص 159 ·
98 ـ دائرة المعارف الاسلامية : مج 3 ، مادة « بربر » ، ص 504 ·
99 ـ دائرة المعارف الاسلامية : مج 3 ، مادة « بربر » كتبها (جـ· يفر) ، ص 514
100ـ رفعت فوزى عبد المطلب : الخلافة والخوارج فى المغرب العربى ، ص 34
101ـ ابراهيم العدوى · المسلمون والجرمان ، ص 59

واستكمالا لهذا الموضوع نورد هنا ما دار من نقاش بين الفقهاء والمؤرخين حول أرض المغرب ، هل فتحت عنوة أم صلحا · ان المشكلة التى ثارت فى سوار العراق ومصر ، وهل فتحت عنوة أم صلحا ، ثارت هنا من جديد أيضا ولكنها ثارت فى عصور متأخرة ، ولا شك فى ان الفترات الاولى من الفتح لم تكن فى حاجـــة الى أن تتعلق باذيال هــذه المشكلة ، فقد كان العرب قلة وكانت الارض واسعة ، وكانوا كذلك لا يكادون يستقرون حيث يستقرون حتى تخرجهم الحرب عن مستقرهم (102) ·

أما فى ولاية حسان بن النعمان التى امتازت بالعمل والتنظيم الادارى ، الذى يدل على الاستقرار فى هذه الولاية الجديدة ·

والملاحظ أن حل هذه المشكلة والفتيا فيها قد اتخذ شكلا جـديدا فى النقاش الذى ثار بين الفقهاء والمؤرخين ، فتحدث ابن عبد الحكم عن مصر فأورد الاقوال المتباينة وجعلها منقسمة بين الذين قالوا انها فتحت صلحا والذين قالوا انها فتحت عنوة ، نجد أن الفقهاء والمؤرخين فى المغرب يتلمسون تعبيرا جديدا فلا يتكلمون عن العنوة والصلح وانما يقولون ان « أرض المغرب اسلم عليها أهلها » (103) ·

و « يحكى ان أحد عمال المنصور بن أبى عامر صاحب الاندلس حين تغلب على أرض فاس قال لهم : اخبرونى عن أرضكم أصلح هى أم عنوة ؟ فقالوا له : لا جواب لنا حتى يأتى الفقيه ، يعنون أبا جيدة ، فجاء الشيخ المذكور فسأله العامل فقال : ليست بصلح ولا عنوة انما أسلم عليها أهلها ، فقال : خلصكم الرجل » (104) ·

وكذلك يقول ابو زكريا يحيى بن ابى بكر : « انه لا خلاف فى أن أهل المغرب اسلموا عليه فلم يعز الى عنوة ولا الى صلح » (105) ·

102ـ شكرى فيصل : المجتمعات الاسلامية فى القرن الأول ، ص 166
103ـ زهرة الآس فى بناء مدينة فاس (القريد بل ـ الجزائر عام 1923) ، 5ـ6
104ـ السلاوى : الاستقصاء ج 1 ، ص 41
105ـ يحيى بن خلدون : بغية الرواد ، ج 1 ، ص 72

نستخلص من هذه الرويات السابقة أن المغرب قد اصطبغ بالصبغة الاسلامية الخالصة كما تؤكد كذلك أن أهل المغرب قد اسلموا عن اقتناع ونية خالصة ورغبة صادقة ٠ الامر الذى جعلهم يقبلون على الاندماج فى الحياة الجديدة ٠

ولا شك فى أن عملية اسلام البربر كانت تتلوها مباشرة تعليم اللغـة ونشر الثقافة العربيـــة ٠

فان تكون اللغة العربية لغة الدين الاســـلامى فذلك يكســـبها عنصرا من القوة والقدسية ٠ ولم تستطع أن تقف اللغة اليونانية اللاتينية ، لغة الادارة والثقافة آنذاك أمام اللغة العربية ، ذلك ان اللغة اللاتينية لم تعش كثيرا على ألسنة الناس فقد هاجـر أصحابها الى اسبانيا وصقلية من الولايات البيزنطيـة فى شـــمال افريقية بعد انتصار المسلمين عليهم وصفى حسان بن النعمان الموقف الحربى ٠ ولقد أصاب أحـد المؤرخين الاوربيين عندما قال بان الحضارة البيزنطية قد اختفت من شمال افريقية على اثر خروج الاغريق واللاتين منها الى صقلية والاندلس ٠ (106) فهى لغة دخيلة على المجتمع الافريقى طارئة عليه ليست لها الجذور العميقة التى تمـــدها بالحيـــاة (107) ، لذلك سرعان ما استطاعت العربية ان تطاردها مع الذين خرجوا عن هذه الولاية ٠

لا سيما اذا أخذنا فى الاعتبار ان مرحلة الفتح الاسلامى ونشر الاســـلام والثقافة العربية بهذه البلاد ، قد واكبت مرحلة تعريب الدواوين وصـــبغ الدولة الاســـلامية بالصبغة العربية الخالصة ، ومن الواضح أن ذلك قد شمل كل البلدان المفتوحة ٠ بما فى ذلك شمال افريقية ، فقد وضع حسان نظاما اداريا وحياة حـــكومية منظمة ٠ ومن ثم كسبت اللغة العربية جولتها التمهيدية مع اللغة اللاتينية ٠

وأصبحت ولاية افريقية بعد رحيل حسان بن النعمان عنها أرضا اسلامية عربية حيث بدأ تعريبها منذ تأسيس القيروان (108) ٠

---

(106) Becker : in (C.M.H.), T. 2, p. 370.

107ـ شكرى فيصل : نفس المرجع السابق ، 183ـ184
ـ المصادر والمراجع :

(108) Pellegrin : *Histoire de la Tunisie,* p. 91.
— *Essai sur les Noms de Lieux d'Algérie et de Tunisie,* p. 145.

وعندما تولى موسى بن نصير شؤون هـذه الولاية وجـد أن الفتـح قد تم وانتشر الاسلام بها (109) .

ان الفتح الاسلامى لمنطقة شمال افريقية الذى تم على يد القائد حسان بن النعمان ، يعتبر خطوة هامة تركت آثارا عميقة فى حياة سكان هذه المنطقة فى جميع ضروب الحياة السياسية والدينية والاقتصادية والثقافية ، والتى ستتضح معالمها فى تاريخ المغرب الاسلامى فيما بعد .

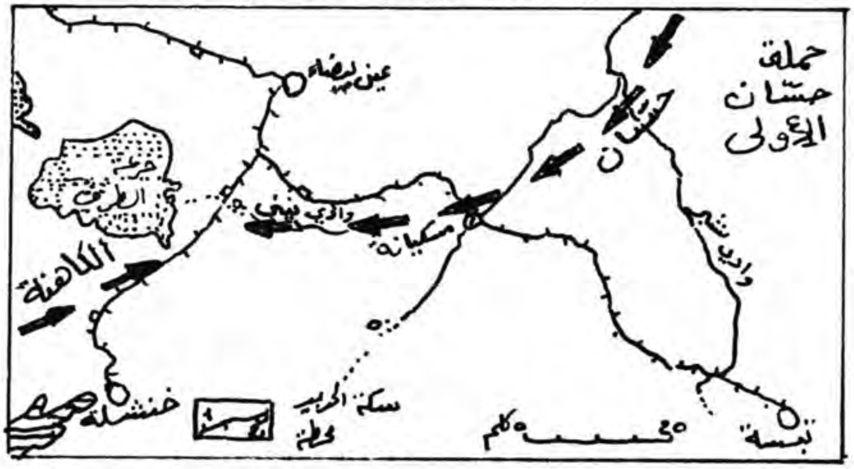
ان السياسة التى اتبعها حسـان بن النعمان كانت موفقة الى حد بعيد ، فقد ترتب عنها خروج هذه البلاد من نظام قديم لم تنعم فيه بوحدة سياسية أو استقرار ، الى نظام جديد أظلها بروح الاسلام ووفر لها كل مقومات الحياة ، واشركهم فى العمل ، ومنحهم القيادة ، وسوى بين البربر والعرب ، فبدأ الاستقرار والامتزاج بين الجنسين ، هذا الامتزاج سيتبلور عنه ظهور الحضارة المغربية الاسلامية فيما بعد .

(109) Ch. Diehl : *L'Afrique Byzantine*, p. 587.

خريطة رقم I «عن حسين مؤنس»

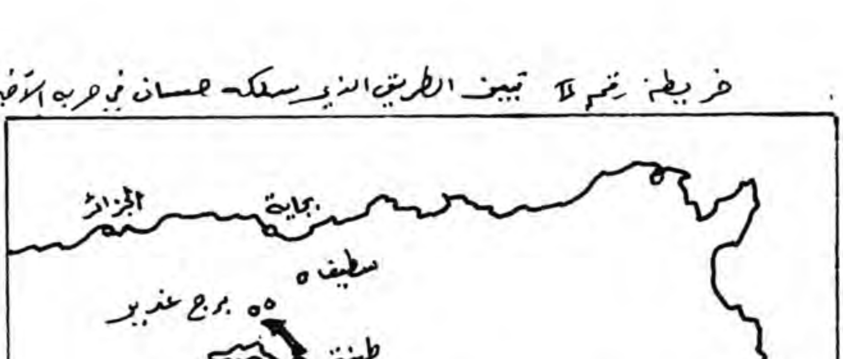


خريطة رقم I تبين موقع معركة وادي نيني بين حسان والكاهنة



نقلاً عن (احمد الطالبي)

خريطة رقم II تبين الطريق الذي سلكه حسان في حربه الأخيرة



مصادر ومراجع البحث

1 ـ **ابن أبي دينار** : المؤنس فى أخبـــار افريقية وتونس ـ المكتبة العتيقة ـ تونس ، 1967

2 ـ **ابن الأثـير** : الكامل فى التاريخ ـ بيروت ، 1967

3 ـ **البكري (أبو عبيد)** : المغرب فى ذكر بلاد افريقيـة والمغرب ، نشر دى سلان ـ مطبعة الولاية العامة ، الجزائر ، 1857 .

4 ـ **حسن أحمد محمود** : الاسلام والثقافة العربية فى افريقية ، ج 1 ، دار النهضـة العربية ـ القاهرة ، 1963

5 ـ **ابن خلدون عبد الرحمن** : العبر ، دار الكتاب اللبنانى ـ بيروت 1959

6 ـ **ابن خلدون يحيى** : بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد ـ نشر بن شنب ، 1903

7 ـ **الدبـاغ** : معالم الايمان فى معرفة أهل القيروان ، ج 1

8 ـ **رستم أسد** : الروم فى سياستهم وحضارتهم ، ج 1 ـ دار الكشـوف ـ بيروت ، 1955

9 ـ **السلاوى الناصرى** : الاستقصاء لاخبار دول المغرب الاقصى ، ج 1 ـ الدار البيضاء 1954

10 ـ **سانت موسى** : ميلاد العصور الوسطى (سلسـلة الالف كتاب) ، دار الكتب ـ القاهرة ، 1967

11 ـ **سير توماس أرنولد** : الدعوة الى الاسلا م، ترجمة : حسن ابراهيم حسن ـ مكتبة النهضة المصرية ، 1971

12 ـ **شكرى فيصل** : المجتمعات الاسلامية فى القرن الاول للهجرة ، دار العلم للملايين ـ

13 ـ **طرخان ابراهيم علي** : المسلمون فى أوربا فى العصور الوسطى (الالف كتاب) ، سجل العرب ، القاهرة ، 1966

15 ـ **عبيد الله بن صالح** : نص جديد عن فتح العرب للمغرب (نشر ليفى بروفنسال) فى صحيفة المعهد المصرى بمدريد ـ المجلد الثانى ، 1954

16 ـ **ابن عذارى** : البيان المغرب فى أخبـــار الاندلس والمغرب ، دار الثقافة ـ بيروت ، 1958

17 ـ **العدوى ابراهيم** : الامويون والبيزنطيون ـ الدار القومية ـ القاهـــرة 1963 ، الاساطيل العربية ، مكتبة نهضة مصر ـ القاهرة ، 1957

18 ـ **فوزى رفعت عبد المطلب** : الخلافة والخوارج فى المغرب العربى ـ القاهرة ، 1973

19 ـ **ابن قتيبة** : **الامامة** والسياسة ـ القاهرة ، 1904

20 ـ **المالكى** : رياض النفوس ، ج 1 ـ القاهرة ، 1951

21 ـ **مؤنس حسين** : فتح العرب للمغرب ـ لجنـة الجامعيين لنشر العلم ، مطبعة مصر ـ القاهرة ، 1957

22 ـ **النـــويرى** : نهاية الارب فى فنون الادب ، ج 22 ، دار الكتب العربية ـ القاهرة

— Becker : *Mahomet and Islam* ; Ch. XII in the Cambridge Medieval History V. 2. London 1967.

— Bel, Alfred : *La Religion Musulmane en Berbérie,* T. 1, Gauthner, Paris 1938.

— Caudel : * *L'Afrique du Nord, les Byzantins et les Berbères avant les invasions arabes* Paris, 1900.

* *Les Premières Invasions Arabes de l'Afrique du Nord.* Paris, 1900.

— Diehl, Charles : *L'Afrique Byzantine.* Paris, 1896.

— *Encyclopédie de l'Islam.* Art. « Kahina ». T. 4. (Paris, 1954).

— Fournel, H. : *Les Berbéries. Etude sur la Conquête de l'Afrique par les Arabes,* 1861.

— Gautier, E. F. : *Le Passé de l'Afrique du Nord.* (Siècles obscures). Paris, 1937.

— Julien, Ch. A. : *Histoire de l'Afrique du Nord (Tunisie - Algérie - Maroc), de la Conquête Arabe à* 1830. Payot. Paris, 1975.

— Mapareja, F. : *Islamologie,* Beyrouth, 1963.

— Marçais, G. : *La Berbérie Musulmane et l'Orient au Moyen-Age. Aubier. Paris,* 1946.

— Mercier, E. : *Histoire de l'Afrique Septentrionale depuis les temps les plus reculés jusqu'à*

— Mercier, E. : * *Histoire de l'Afrique Septentrionale depuis les temps les plus reculés jusqu'à la Conquête Française.* Constantine, 1888 - 91.

* *Histoire de l'Etablissement des Arabes dans l'Afrique Septentrionale,* Constantine, 1895.

— Ostrogorsky, G. : *Histoire de l'Etat Byzantin.* Payot. Paris, 1969.

— Pellegrin, Arthur : * *Histoire de Tunisie.* 3 ed. Tunis, 1944.

* *Essai sur les Noms de lieux d'Algérie et de Tunisie.*

المكانة التاريخية للشرق الجزائرى فى نهاية القرن 3 الهجرى

محمد الصالح مرمول
معهد العلوم الاجتماعية
جامعة قسنطينة

لقد طوى الشيعى مذهبه أول الامر ، وتظاهر بانه معلم قرآن ، وباشر تلك المهنة فعلا • ولما جاءوه ببعض المال امتنع من أخذه ، ثم اختلى بزعيم قبيلة بنى سكتان وأخبره قائلا : « لست بمعلم قرآن •• وانما نحن أنصار أهل البيت • وقد جاءت الرواية فيكم يا أهل كتامة بأنكم أنصارنا ، والمقيمون لدولتنا وان الله يظهر بكم دينه ، ويعز بكم أهل البيت ، وانه سيكون امام منهم أنتم أنصاره ، والباذلون مهجتهم دونه ، وان الله سيفتح بكم الدنيا كلها • ويكون لكم أجركم مضاعفا ، فيجتمع لكم خير الدنيا والآخرة » (33) • فأجاب الزعيم السكتانى دعوته ، ووعده ببذل ماله ونفسه ، هو ومن اتبعه فى سبيل الدعوة ، وبذلك صار يدعو أقاربه الى الدخول فى دعوة الشيعى ، فاخذت تنتشر بين مختلف نواحى بلاد كتامة ثم خارجها •

(*) نشر القسم الاول من هذه الدراسة بمجلة الاصالة ، عدد 55/54 •

لقد شرع الشيعى فى تكوين المجتمــع الذى سيجعلــه مركز انطلاق لنشر الدعوة على نطاق واسع ٠ ولما رآى احترام الناس واقبالهم على رجال الدين استغل هذه الناحية خاصة لانه رآها كفيلة بحشد الناس حوله ، فمكن لنفسه عن طريق الجلوس لتعلــيم أمور الدين للكبار ، والصغار ٠ وقد قضى ما يقرب من سبع سنوات فى بث العقيدة ، وتمكينها ، وغرسها ٠ واستقطب حوله زعماء بعض القبائل الكتامية ، خاصة التــى لها وزن مثل الحسن بن هارون الغشمى من غشمان تازروت ، وأبو يوسف ماقنون بن ضبارة الاجانى ، وابن أخيه تمام بن معارك ٠ وسلك سياسة التدرج فى غرس المذهب ، فحينما حل شهر رمضان دعا صاحبه الى ترك صلاة التراويح ، لانها من سنة عمــر ابن الخطاب (ض) : فأجابه الى ذلك ، ودعا أقاربه الى تركها أيضا ٠ وأخذ أمره يزداد وخطره يستفحل ٠ ولما بلغ خبره الى ابراهيم بن الاغلب (237 ـ 289 هـ/851 ـ 902 م) أرسل الى عامله على ميلة يستفسره عنه فقلل من شأنه ، وذكر له بأنه رجل متقشف زاهد ، يلبس الخشن من الثياب ويأمر بالخير والعبادة ، فسكت عنه ٠ وبسببه تفرقت كلمة كتامة ، وأراد بعضهم قتله فوقع خلاف بينهم ، وقاتل بعضهم البعض من أجله (34).

ومما لاشك فيه فان الكتاميين الذين احتضنوه كانوا يعرفون مسبقا أنهم سيواجهون صعوبات متنوعة بسبب ذلك ٠ اذ كان عليهم أن يواجهوا جيوش بنى الاغلب من جهــة وجيوش بعض القبائل الاخرى المناوئة لهم خارج بــلاد كتامة من جهـــة أخرى ٠ هذا بالاضافة الى وجود بعض خصوم الشيعى بين الكتاميين أنفسهم ، والذين لم يدخلوا فى مذهبه . فهذا الوضع فرض عليه أن يربى أتباعه تربية خاصة سياسيــا وعسكريا ، كى يتمكن من مواجهة خصومه بطريق الحــرب أو الجوسسة ، أو بواسطة تخذيل الصفـــوف وتشتيت الشمل ، وزرع الشقاق والفرقة بينهم ٠

لقد قسم أتباعه من كتامة الى سبعة أقسام ٠ وأسند مسؤولية كل قسم الى واحــد من ثقاته ٠ وسمى أولائك المسؤولين (المشائخ) ، وأبقى أعمال الناس وأموال الدعــوة بأيديهــم ، قصد تطييب خواطرهم وتأليف قلوبهم . فبقــوا على تلك الحــالة يتصرفون بأمره وينفذون تعليماته الى أن قدم عبيد الله المهدى ، فأقصاهم عن المسؤولية ، وانتزع الاموال من أيديهم فكان هذا أحد أسباب النقمة عليه ٠ كما انه فرض على جميع أتباعه المواظبة على أداء مختلف العبادات وعودهم على النظام ، والتحلى بمكارم الاخلاق ٠ ونمى فيهم روح التضحية وتظاهر للناس بأنــه يريد غـــرس مبادىء الدين الصحيحة فى النفوس وتعويدها على الاخلاق الفاضلة (35) ٠

ومن جهة أخرى فانه سن لاتباعه القواعد التى يسيرون عليها فى حياتهم العامة ، والخاصة من حيث تجنب المعاصى والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعلاقاتهم ببعضهم واشتد فى معاقبــة من يستحق العقاب وامتحن أتباعه بأقسى المحن كى يعودهم عــلى الصبر وتحمــل المشــاق ·

ان طبيعة الاوضاع التى كانت سائدة فى بلاد كتامة ابان القيام بالدعوة فيها حتمت عليه أن يكون من ذلــك المجتمع مجتمعا منفصــلا عمن حوله من المجتمعات الاخرى خارج قبيلة بني سكتان ، وبلاد كتامة بصفة عامة ، أو داخلهما · كما عمل على تغذية الفــرقة بين أتباعه ومعارضيه ، وبذلك غرس روح العداء بين أفراد العائلة الواحدة وبين الاقارب والاصهار ، وقد سار الخلفاء الفاطميون على هذه السياسة فيما بعد · كما سار عليها غيرهم (36) · كل ذلك كي يجعل من اتباعه كتلة متراصة قوية التماسك صحيحة البنيــة بحيث يصعب زرع الفرقة والشقاق بينهم · وقد نجح فى سياسته هذه نجاحا كبيرا حتى أنه كان اذا أراد ان يسلط العقاب على أحد أتباعه أو كل ذلك الى أقرب الناس اليـــه فقتل الاب ابنه والاخ أخاه وهو راض الامــر الذى جعــل الناس يبتعدون عن ارتكاب المخالفات اما رغبة أو رهبــة ·

ولكي يصبغ على دعوته الصبغة الدينية البحتة ، تظاهر بالنزاهة وصيانة النفس حتى يكون قدوة لاتباعه ويرغب الناس فى الاقبال على دعوته · كما تواضع مع اتباعه حيث كان يشاورهم فى مختلف الامور · ويقرب السّباقين منهم لاعتناق مذهبه والمتفانين فى سبيله · ولا ينفق من مال الدعوة الا عند الضرورة · واذا ما بعث أحدا لامــر من الامور لا يطلـــع عليه غيره من أهل ولا ولـــد الامر الذى جعل بعض الاتباع يقومون بتضحيات مثالية رجالا ونساء · من ذلك أن رجلا اسمه (كور بن قنبر) اللهيص انفــق ماله كله فى سبيل الدعوة ، وخرق ثياب زوجة ابنه كله ــ وهي عروس ــ ليعصب بتلــك الخرق جراح المعطوبى من الاتباع وعوضها عليه مالا · كما ان امرأة من أتباعه دميت يداها من كثرة طحن الحبوب للاتباع أيضا · كل هذا بفضل روح التضحية التى غرسها فى النفوس مما جعل أتباعه يثقون به الثقة المطلقة حتى أن بعضهم حينما ادركته الوفاة أوصاه على بنيه ، ومما يذكر انه كان يصف لهم ما تنكره العقول فيصدقونه . ولا شك أن هذا يدل على مدى ثقتهم به من جهة ومدى بساطة عقولهم من جهة أخرى (37) .

لقد نمى فى الكتاميين الروح العسكرّية ونظمها وقواها والزمهم ذلك ليجعل منهم المعــول الذى يهــدم به النظام السياسى القائم فى بلدهــم أولا وخارجه ثانيا . وذلك ان

لمجتمع الذى عمل على تكوينه يجعل سلطة جديدة فوق سلطة رؤساء القبائل وغيرهم وبذلك هدد سلطة بعض الرؤساء الذين لم يدخلوا فى دعوته · وحول مصالح القبائل التى آزرته الى مصالح عامة تعود فائدتها على المجتمع الذى عمل على تكوينه وفق المذهب الاسماعيلى تذوب فيه سلطة الفرد والقبيلة معا · ومن هنا حدث الصدام بين قبائل كتامة ذاتها الموالية له ، والمناوئة لدعوته من جهة ، وبين اتباعه ، وخصومه من القبائل الاخرى خارج كتامة من جهة أخرى هذا بالاضافة الى صدامه مع الاغالبة باعتباره متمردا عليهم ·

لقد مرت عليه فى أول مرحلة من دعوته بايكجان ظروف حرجة للغاية مملوءة بالمخاطر والمخاوف ، ولكنه استطاع مواجهتها بكل حزم وصبر ، واستغل كل ما أمكن للتغلب على مختلف المصاعب والاخطار ، حيث استفاد من استراتيجية الاماكن الطبيعية الحصينة التى وفرت له الحماية · كما استغل عنصر الجوسسة الى أبعد حد حيث انتشر جواسيسه داخل بلاد كتامة ، وخارجها لاستطلاع أخبار الاعداء بصورة مستمرة من أجل تدارك الخطر ، والاستعداد الملائم له · وفى المواجهات العسكرية استعمل طريقة حرب الكر والفر وعدم الالتحام مع العدو فى مواجهات كبيرة يفوقه فيها عددا وعدة (38) ·

وقد يلجأ الى استغلال عامل الزمن لصالحه كما فعل مع الجيش الاغلبي أيضا بقيادة الاحول حينما حاصره بتازروت ، كما يعمد أحيانا الى الحرب النفسية وزرع الحيرة والاضطراب بين صفوف الاعداء والمناورة لكسب المعركة حيث نراه يستعمل أسلحة متنوعة ضد خصومه · وكثيرا ما يستفيد من أحداث التاريخ الاسلامى ويقتدى بالرسول (ص) فى غزواته ويتمثل ذلك فى بث البلبلة بين القبائل المحاصرة له فى تازروت وهو يشبه موقف الرسول (ص) مع أهل الاحزاب الذين حاصروا المدينة المنورة (39) ، وهذا يدل على مدى مرونته وحنكته السياسية ، والعسكرية حيث استفاد من أحداث التاريخ الاسلامى لنشر دعوته · وقد استطاع ان يقر الامن والنظام فى المناطق التى سيطر عليها ، وضرب بكل قسوة على أيدى المفسدين فخافه الناس وهابوا جانبه ، حتى قيل ان الحيوانات تضل هائمة فلا يلتفت اليها أحد ، وان اللقيطة تسقط فتبقى فى مكانها ، لا يتجرأ أحد على أخذها .

2 ـ التوسع خارج بلاد كتامة واعلان الخلافة الفاطمية :

مر عمل الشيعى فى هذه المرحلة بخطوتين : تتمثل الاولى منهما فى التوسع خارج بلاد كتامة ، وتتمثل الثانية فى اقتحام رقادة عاصمة بنى الاغلب :

أ ـ التوسع خارج بلاد كتامة : كان عمل الشيعى منظما ومدروسا منذ أن دخل ايكجان مع حجاج كتامة بصفته معلم قرآن الى أن دخل رقادة قائدا لجيش عرمرم ، ظافرا منتصرا وقضى على بني الاغلب ، وأقام الخلافة الفاطمية بحيث نراه لا يقوم بأي عمل الا بعدما يخطط له مسبقا ، ويهيء له وسائل النجاح ويدرسه من مختلف الجوانب ، وذلك أنه سلك سياسة التدرج فى غرس المذهب ، وتمكينه ، ومر عمله من بدايته الى نهايته بمرحلتين : المرحلة النظرية التى اعتمد فيها على الدعاية · ثم المرحلة العملية التى استخدم فيها امكانياته العسكرية داخل بلاد كتامة وخارجها · كما استخدم وسائل متعددة فى مقاومة خصومه كيفما كان نوعهم (40) ·

ولما رأى بأن مرحلة التكوين الداخلى فى بلاد كتامة أتت ثمارها بفضل حملة التطهير الداخلية · وانه تغلب على خصومه المحيطين به فى ايكجان ، وأصبحت له قوة يمكن ان يعتمد عليها من ناحية العدد والعدة فى تحقيق انتصارات جديدة على نطاق أوسع تطلع الى فتح بعض المناطق الهامة ، والمدن الرئيسية التى كثيرا ما هددته فى دار هجرته وبذلك بدا مرحلة أخرى من كفاحه أهم وأوسع من السابق ، نظرا لما ترتب عليها من نتائج فى تقرير مصير الدعوة الاسماعيلية ببلاد كتامة خاصة وبالمغرب الاسلامى عامة وتعميق جذورها وتمكينها ·

والملاحظ أنه فضل أن يتجه فى فتوحاته الاولى شرقا نحو عاصمة بني الاغلب ، ولا شك أنه رأى بأن أكبر خطر يهدده فى المستقبل انما هو خطر بني الاغلب بالدرجة الاولى · ولذلك أراد أن يقضي على ولاة بلدانهم · ثم يمد يده الى عاصمتهم رقادة (41) ·

وقد أعتمد فى هذا على حماس اتباعه من الكتاميين الناقمين عليهم بسبب سوء تصرفاتهم · كما ان هدف الدعوة الاسماعيلية لم يكن ليقتصر على المغرب الاسلامى فقط ، وانما هذه مجرد مرحلة أولى نحو التوسع فى المشرق على حساب الخلافة العباسية · ولذا أراد أن يستولى على تونس ، وطرابلس ليصبح فى امكانه التطلع الى فتح مصر المكان الحيوي للعباسيين فى تلك الفترة · وبامكان الدعوة الاسماعيلية بعد ذلك أن تطمئن الى النتائج التى حصلت عليها فى المغرب ، اذا ما سيطرت على تونس وطرابلس أيضا · وذلك لوجود الصحراء الغربية بين مصر وليبيا · والتى تعتبر حاجزا طبيعيا له قيمته فى وجه قوات الخلافة العباسية اذا ما أرادت مهاجمة الاسماعيليين برا · وفعلا لما سيطروا على تونس تمكنوا بسهولة من بسط نفوذهم على طرابلس وبرقة ، وهاجموا بعد ذلك مصر منذ وقت مبكر حيث سهل عليهم الدفاع

عن مكتسباتهم فى المغرب ، كما سهل عليهم مهاجمة مصر نفسها فيما بعد والسيطرة عليهـا أخـــيرا ٠

وبالاضافة الى ما ذكرنا سابقا فان الشيعي لم يتجه بفتوحاته الاولى غربا لانـه خشى أن يقع بين فكي رحا : الاغالبة من الشرق ، والرستميون ، وبنو مدرار والادارسة من المغرب ، خاصة وان قبيلة زناتة من أخطر القبائل وأقواها ، ولاشك انه رأى بـأن الخطر الذى يأتيه من بنى الاغلب ، أكثر من أي خطر آخر اذ بامكانهم ان يتلقوا اعانات من الخلافة العباسية ، ومن ثم يهددون وجوده ٠ ولذا رأى بأن التغلب على خصومه فى المغرب سهل ميسور اذا ما قضى على بني الاغلب وهذا ما وقع فعلا ٠

لقد بدأ بفتح بعض المدن القريبة من مركز اقامته فى ايكجان فبدأ بفتح ميلة التى كثيرا ما هدده خطرها وكان عاملها من طرف بني الاغلب هو موسى بن عياش عـدوه اللدود ٠ واعتمد فى فتحها على الجوسسة بالدرجة الاولى حيث تواطأ معه جماعة من وجوهها فى أصلهم من عرب ربيعة ورئيسهم يقال لـــه حسن بـن أحمد فاطلعوه على عوراتها ومواطن الضعف فيها ٠ ففتحها وعين عليها أبا يوسف ماكنون بن ضبـارة الاجاني وعاد بجيشه الى دار هجرته ٠ وقد تم له ذلك فى عهد أبى العباس بن ابراهيم بن الاغلب أو فى عهد أبيه ، وبعد فتحها توجه الى سطيف فحاصرها مدة أربعين يوما حتى مات صاحبها على بن عسلوجة فى الحصار ٠ فانحل أمرها ودخلها وهدم سورها ثم عاد الى ايكجان ، ولكن الاغالبة وجهوا جيشا لقتاله بقيادة أبى عبد الله الاحول (42) الذى استعادها منه ٠ غير أن الشيعي فتحها مرة أخرى فى عهد أبى مضر زيادة الله ٠ وبعد سيطرته على سطيف توجه الى طبنة وذلك ان ابن الاغلب لما بلغـــه خبر سقوط سطيف فى يده بعث جيشا لقتاله بقيادة ابراهيم بن حبشى ، وهو أحد أقارب زيادة الله ابن ألاغلب ، وقد بلغ عدد هذا الجيش مائة ألف حينما وصل الى قسنطينة وبقـــي متمركـزا بها نحو ستة أشهـر ولم يلتحم به الشيعى حتى نفد صبره واستهلـــك معظـم ما معه من المؤن واضطر أخيرا الى مهاجمة أبى عبد الله الذى لاقاه بخيار جنـــوده فى مكان يسمى كبونة فدارت ألدائرة على جيش بني الاغلب رغم كثرة عدده ، وذلـك نظرا لقلة كفاءة قائـده الذى لم يخطط لهجومه ، ولم يختر المكان والزمان الملائمين . كما ان جيشه خاض المعركة على ظهور خيوله وبغاله وأن المنطقة وعرة بالاضافة الى عدم وجود معسكر له ليضمد فيه جراحات المعطوبين ٠٠٠ وولى منهزما وغنم الشيعي عتاده ومؤونته ولاحق فلولـه ٠

وبعد ذلك قصد طبنة ففتحها وقد حاول ذلك من قبل فلم يستطع • وكان عاملها من قبل بني الاغلب رجل اسمه حسن بن أحمد بن نافذ المعروف بأبي المقارع • وقد استعمل فى حصارها سلاح الذبابات (43) حتى طلب أهلها الامان فدخلها وولى عليها عاملا من قبله اسمه يحيى بن سلمان • وعاد الى ايكجان أيضا ومعه أبو المقارع • أمـا جيش الاغالبة فقد التحـق بالاربس •

وبعد فتح طبنة توجه الى بلزمة التى طرقها عدة مرات من قبل • ولم يتمكن منها ، رغم أنه استعمل من أجل ذلك سياسة الارض المحروقة حيث أخذ يتلف غلات أهلها كي يضعفهم اقتصاديا فيستسلموا • ودام على هذا المنوال ثلاث سنوات متتالية حتـى انقطع الطعام عنهم • وضيق عليهم الحصار بالدبابات ورمى المدينة بالنار ولم يصلهم الا بعد جهود مضنية وذلك بعدما نفذت مؤونتهم من زاد وسلاح من شدة الحصار (44) .

وبعدما فتح طبنة ، وبلزمة جاءه الجباة بأموال العشور ، فأمر برده على أصحابه لما تبين له أنهم أخذوه بطريق غير شرعى • بينما أخذ مالا جبي من أهل الذمة كجزية على طريقة عمر بن الخطاب استحسنه ، وقبله ، مع أنه دعا كتامة الى ترك صـلاة التراويـح فى رمضان لانها من سنـة عمر (ض) كما ذكرنا . وعلى هذا فللمرء أن يتساءل كيف أنكر على الناس الاقتداء بفعل عمر فى قيام رمضان ، ثم قبل مال الجزية الذى أخذ على طريقته ؟ ولا يمكن أن يفسر هذا الا على أساس أنه كان فى حاجة الـى المال لتدعيم الدعوة ، وجلب الانصـار ، بعدما تظاهر بالعدل من قبل • فموقفه هذا سياسي بالدرجة الاولى (45) •

لقد واصل فتح بقية المدن الاخرى باتجاه الشرق ملاحقا فلول جيش بنى الاغلب ، ففتح تيجس (46) بتواطؤ بعض أهلها . كما فتح باغاية بمساعـدة بعض أهلهـا أيضـا واضطر عاملها على الفرار الى الاربس ، ودخلها بالامان وولى عليها أبـا يوسف ماقنون بن ضبارة الاجانى الذى استعمله على ميلة من قبل ، وعاد الى ايكجان (47) •

وفى جولة أخرى فتـح تيفاش (48) ثـم تبسة التى تمكن من فتحها بعـدما عرف أوضاعها الداخلية بواسطة بعض الموالين له من أهلها . ومنها توجه الى بـلاد قسطيلية ففتح عدة مدن مثل قفصة ونفطة وغيرهما • ثم عاد الى ايكجان • وبعد أن أعد عدته ، وهيأ كل امكانياته استعد لاقتحام الاربس التى تعتبر الخط الدفاعى الاخير عن عاصمة بنى الاغلب فجمع لذلك جيشا قويا بلغ عدده مائتى ألف . كما جمـع ابن الاغلب من جهته جيوشا جرارة أيضا ، حيث بذل كل من الطرفين ما فى وسعه • واستعد للمعركة بما

عنده من الامكانيات · وحينما التحـــم الجيشان أبدى كل منهما بســـالة ، وشجاعة نادرين · ولكن خطط الشيعى العسكرية كانت أكثر تنظيما واحكاما حيث انتقى عشرة آلاف فارس من خيار الدعاة ووجوه القبائل وأهل النكاية وجعلهم فى مقدمة الجيش · كما أمر بعض الجنـــد أن يسلكوا مسيلة يفاجئـون منها أفراد جيش العدو كى تجمـح خيولهم · وبفضل خططه العسكرية المحكمة تمكن من النجاح ، ودخل الاربس عنـوة وحكم فى رقاب أهلها السيف · وذكر انه قتل من أهلها ومن بقي بها من الجنـد الذين التجأوا الى مسجدها ثلاثين ألفا فى أمسية واحدة من وقت صلاة العصر الى آخـــر الليل ، وذلك فى الرابع والعشرين من جمادى الاخيرة سنة 296 هـ/910 م · ولكن ذكر البعض الآخر أنه قتل بها ثلاثة آلاف فقط · ويبدو أن الرواية الاولى أصح لان ما ذكره القاضي النعمان فى هذا الصدد يؤكدها ، حيث ذكر بأنه قتل بها عددا لا يحصى (49) ·

وان دل هذا على شيء فانما يدل على مدى قساوة حروب الشيعي ، حيث لم يرع حتى حرمة المساجد ، ولم ينج من بطشه اللاجئون اليها · وقد أوقع هذه المذبحة بأهل الاربس بعدما فر ابراهيم بن الاغلب قائد جيش أبى مضر زيادة الله الثالث (290 ـ 296 هـ 903 ـ 910 م) · ولما علم هذا الاخير بهزيمة قوته فى الاربس اعد عدته ، وجمع ما قدر عليه من أمواله وجواريه وأفراد عائلته وفر الى المشرق تاركا ملكه لداعي الاسماعيلية الذى هدم عرشه وعرش غيره من أمراء المغرب الاسلامى الآخرين · وأقام على انقاض الجميع ملكا للفاطميين ، وقد أراد ابراهيم بن الاغلب قائد الجيش المنهزم بالاربس ان يقوم بالامر بعد فرار زيادة الله حيث توجه الى القيروان ونزل دار الامارة ودعا الناس الى طاعته ومقاومة الشيعي · ولكنهم ثاروا فى وجهه خوفا من الفتنة وقالوا لـــه : لا طاعة لك فى أعناقنا فلحق بزيادة الله (50) ، وبذلك انتهى عهـــد بني الاغلب الذى استمر من 184 هـ الى 296 هـ/800 ـ 910 م ·

وخلاصة القول فان انقراض دولة الاغالبة على يد الشيعي تعود الى أسباب عـدة تتمثـل أساسا فى احتمائـه بقبيلة كتامـة القوية والناقمة على بنى الاغلب ، وضعف هذه الامارة العام · وسوء سياسة المتأخرين من رجالها وتسلطهم على الرعية · وتهاونهم بأمر الشيعي فى البداية ، وانحطاط آخرهم وهو زيادة الله الثالث ، واسناده قيـــادة جيشه لاناس ليست لهم كفاءة القيادة وسداد الرأي · وبالاضافة الى كل ما تقدم قوة الدعاية النفسية التى قام بها الشيعي بين مختلف أوساط بني الاغلب ، وخاصة بـين الجيش · وكذلك وجود موظفين فى دولتهم يعتنقون المذهب الاسماعيلى ، ويتعاونون معه من الداخل ويدلونه على عورات ونقائص الاغالبة (51) ·

ان كل العوامل السالفة الذكر تفاعلت فيما بينها وأدت أخيرا الى انقراض دولتهم من الاساس وبذلك فسح المجال لقيام نظام اسماعيلى متطرف فى المغرب الاسلامى ٠

ب ـ دخول الشيعي رقادة واعلان الخلافة الفاطمية :

بعدما خرج الشيعي من مختلف المعارك العسكرية ظافرا منتصراً داخل بـــلاد كتامة وخارجها وقضى على آخرَ قلعة للاغالبة بالاربس توجه لاقتحام عاصمتهم رقادة ليقيم بها عرشا للفاطميين ٠ وقد توجـــه اليها فى جيوش عظيمة هال الناس مظهرها وادهشتهم كثرتها ٠ ولما قرب من القيروان توجه لملاقاته الاعيان من شيـــوخ وفقهاء وهناوه بالفتح ، وطلبوا منه الامان ، فأمنهم على أنفسهم وأموالهم ، وسكن من روعهم وطمأنهم بنشر العدل واقامة الحق ٠ وكان دخوله اليها يوم السبت غرة رجب سنـــة 296 هـ/٩٠٩ م (52) ، وذلك فى سبعة عساكر عدد من فيها على ما ذكر ثلاثمائة ألـــف بين فارس وراجل وقارئى يقرأ بين يديه (هو الذى اخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لاول الحشر) « سورة الحشر : 2 » ، وكذلك الآية (كم تركوا من جنـــات وعيون وزروع ومقام كريم) » سورة الدخان 26 » ٠ وقد استاء الكتاميون من اعطـــاء الامان لاهل القيروان ، لان الشيعي وعدهم من قبل بأن يطلق أيديهم فيها ٠ ومن هنـــا بدأت الشكوك تساورهم فى علاقاتهم مما يدل على أن كثيرا من جيشه انما سار معـــه طمعـــا فى السلب والنهب ٠

ولما دانت له البلاد وسيطر على الاوضاع فيها ، وجاءه أهلها طائعين قام ببعض التنظيمات الضرورية لاقرار الامن والنظام ٠ فأولى على القيروان حسنا بن أحمد بن أبى خنزير ٠ كما عين على القضاء بها محمد ابن عمر المروزى الذى كان على المذهب الاسماعيلى من قبل وأسند اليه تولية القضاة والحكام بمختلف المناطق الخاضعة له ٠ وعين العمال على مختلف البلدان ونادى بالامان وأمـــر الناس بالعودة الى ديارهم وممارسة أعمالهم ٠ وأمن بعض من بقي بالقيروان من بني الاغلب وقوادهم ٠ كمـــا أمر بقتل البعض من رجالهم ومواليهم ٠ ومنع شرب الخمر وقتل متعاطيه أو حامله ٠ كما أمر بقتل من خرج ليلا ، وجمع أموال زيادة الله وجواريه وسلاحه وأسند النظر فيها الى احد ثقاته يقال له أحمد بن فروخ الطبني الاحدب ، وعمل على صيانتها وحفظها حتى جاء عبيد الله المهدى فسلمها له وأرضى الكتاميين خاصة حيث أقطعهم الاقطاعات ومنحهم الهبات ٠ ولما جاء المهدى أعطاهم من جواري زيادة الله وأولاهم الولايات وأسبغ عليهم العطاء أيضا (53) ٠ ولما حضرت الجمعة أمر الخطباء الا يذكروا فيها اســـم

أحد لانه لم يعرف المهدى بعد ، وأمر بضرب السكة وولى عليها أبا بكـــر الفيلسوف المعروف بابن القمودى ، وسميت (السيدة) ولم يكتب عليها أيضا اسم أحد وكتب على احد وجهيها « بلغت حجة الله » وعلى الوجه الآخر « تفرق أعداء الله » ونقش عــلى السلاح « عدة فى سبيل الله » ووسم الخيل فى أفخاذها « الملك لله » ٠

كما نقش على خاتمه « فتوكل على الله انك على الحق المبين » (سورة النمل : 78) . وعــلى خاتم السجلات « وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا لا مــبدل لكلماته وهو السميع العليم : سورة الانعام 114 » كما كتب على بنوده « سيهزم الجميـــع ويولون الـدبر : سورة القمر : 44 » وأمر بالصلاة بعد النبي (ص) على علي وفاطمة وأبنائهما ، كما أمر بزيادة « حي على خير العمل » فى الاذان ، وترك « الصـلاة خير من النـوم » فى اذان الصبح ، وأظهر المذهب الاسماعيلى والعمل به وترك ما سواه (54) حيث كبت الحرية المذهبية منذ البداية ، ولكن سياسته هذه كونت رد فعل سيء وسميت بالدعوة الى التشريق لانها تهدف الى اتباع رجل مشرقى ، وهو أبو عبد الله الشيعي ٠ وقـد قتل وسجن بعض من لم يستجب اليها ٠

ويبدو لنا مما تقدم أنه اتخذ أول امره شعارات براقة كي يجلب الناس اليه حتى يتمكن نفوذه ٠ ولكنه سرعان ما ظهر على حقيقته وبادر بغــرس المذهب الاسماعيلى وفرضه ٠ فلما جـــاء شهر رمضان أمــر باسقاط صلاة التراويح فى مختلف المناطق الخاضعة له ، وانتقد المروزي قاضى القضاة ، الناس فى الاقتداء بفعل عمر بن الخطاب فى قيام رمضان ، وتركهم الاقتداء بفعل على بن أبى طالب فى زيادة « حي على خـير العمل » فكان لهذا رد فعل عنيف حيث وقف عليه يوما أحد عامة الناس بالمسجد وقال له ما معناه : لقد احتلت لنا فى ترك قيام رمضان فلو احتلت لنا أيضا فى ترك صيامه ، لكفيتنا عناءه ، كما كتب مكان جلوسه بالمسجد (ومن اظلم ممن منع مساجد الله ان يذكر فيها الله وسعى فى خرابها) « سورة البقرة 114 » فاضطر ان يجلس فى مكــان آخر (55) ٠ وان دل هذا على شيء فانما يدل على مــدى غضب الناس من السياسة المذهبية التى طبقها الاسماعيلية منذ بداية عهدهم ، والتى نتج عنها فيما بعد صراع مذهبى حاد ، ومقاومة عنيفة ٠ وخاصة من طرف المالكية ٠

ومهما يكن من أمر فان الشيعي استطاع أن يقضى على امارة بنى الاغلب ، ويعلن قيام الخلافة الفاطمية مكانها ، حيث رفع شعاراتها ، وطبق مذهبها ، ووضع الاسس الاولى لادراتها فى مختلف المجالات ، فسك العملـة ، ونظم القضـاء ، ودون الدواوين ،

وعين الولاة ، ورسم الخطوط العريضة لسياستها الداخلية فى مختلف المجالات ، من ادارية ، وسياسيـة ، وقضائية وغيرها . وعبيـد الله المهدى الخليفة الاول لا يزال بسجلماسة معتقلا . ولما أقر الامن والنظام ، ووطد أمور الخلافة توجه لاطلاق سراحه .

3) **التوجه الى سجلماسة لاطلاق سراح المهدى :** بعدما قـام الشيعي بالتنظيمات الضرورية الاولى فى رقادة ، ورسم الخطوط العريضة للسياسة العامة لرجاله كـي يسيروا عليها ، استخلف عنه أخاه أبا العباس المخطوم ، وأبا زاكي تمام بن معـارك الاجانى (56) ، ونهض الى سلجماسـة ـ عاصمة بنى مدرار ـ لاخراج عبيد الله المهدى المعتقل بها . ولاشك أنه اعتقد بأن كل ما قام به من مجهود فى سبيل المذهب الاسماعيلى وانشاء الخلافة الفاطمية لا قيمة له ما دام امام الدعوة ، وصاحبها الشرعى معتقـلا . ولذا عجل بالمسـير اليه ، حيث لم يبق برقادة الا شهرين ونصفا أعد خلالها عـدته وهيأ ما يلزم من مال وعتاد ورجال . وقد أخطر مختلف المناطق بذلك ، حيث كتب بشـأن خروجه كتابا ، وبعث بنسخ منه الى مختلف مناطق افريقية ليقرأ على منابرها .

كان انطلاقه من رقادة فى منتصف شهر رمضان ، سنة 296 هـ/910 م فى جيـوش كثيرة العدد ، والعدة (كالدبى المنتشر) ، وسبقته شهرته وخـافه خصومه ، وخـاصة قبيلة زناتة لانها قتلت رسله من قبـل الى عبيد اللـه المهدى . وقد أقام الرباطات فى لمختلف المناطق الخاضعة له . وسار البعض معه راجـلا احتسابا فى اعتقـاده لله تعـالى وذلك مثل الفقيه الحنفى أحمد بن محمد بن سيرين وغيره . ولذا عين فيما بعد عـلى قضاء مدينة برقة (57) . ولاشك أن هذا ان دل على شىء فانما يدل على مدى مهـارة أبى عبد الله الشيعي فى نشر الدعوة الاسماعيلية ، وتمكينها . كما يدل على مـدى القيمة التى أعطاها البعض لعبيد الله المهدى وهو بمعتقله فى سجلماسة .

لقد أنزلت قواته الجرارة الرعب والفـزع فى نفوس خصومه وفى نفوس بعض القبائل التى لا تزال متشككة فى قوته ، حيث اذعنت جميعا لسلطانه . ولما وصل الى تيهرت ـ عاصمة الرستميين ـ لم يلق بها مقاومة معتبرة لان دولتهم كانت فى حـالة ضعف لعدة أسباب فى مقدمتها انهماك المتأخرين من رجالها فى ملذاتهم ، والتنافس فيما بينهـم على السلطة فضعفت هيبتهم وكرهتهم العامة . ولـذا لم يستطيعوا مقاومة خطره الداهم ، فدخـل عاصمتهم بالامان ، وقتـل آخرهم يقظان بن أبـى اليقظان (294 ـ 296/907 هـ ـ 910 م)فى جماعة من أهل بيته وبعث برؤوسهم الى رقادة للتشهير بها فطوفت بالمدينة ثم نصبت على بابها ، وبذلك وضع حدا لنهاية هذه الدولة الاباضية

التى عمرت أكثر من مائة وثــلاثــين سنة ، وأولى على تيهرت دواسا بن صولات اللهيصى وابراهيم بن محمد اليماني المعروف بالهوارى · والملاحظ انه اناب عنه فى رقادة رجلين كما ذكرنا من قبل · وقد يكون المقصود من هذا هو جعل السلطة مشتركة بين الاثنين خوفا من استئثار احدهما بها ومحاولة الاستقلال بالنفوذ ·

وأمام خطره الداهم فر بعض الاباضية من تيهرت الى مراكز عدة فى الجنــــوب واتخذوها ملجأ لهم مثل ورقلة وصدراتة ، وغيرهما · ومما يذكر انه أتلف مــــا فى تيهرت من آثار الرستميين الحضارية ومنها « مكتبتها » التى كانت طعمة للنيران كمــا يذكر البعض وان الدخان بقي يتصاعد منها عدة أيام ، وان تسعة أعشار كتبها احرقت ، واحتفظ الشيعي بما رآه صالحا منها مثل كتب العلوم والفنون ، والطب · واما الكتب الاخرى التى تبرز شخصية الرستميين فى أجلى مظاهرها كالتاريخ والادب ، والفقــه فقد احرقت (58) ، ولاشك ان هذا لا يخلو من مبالغة لاننا لم نعثر فى المصادر التــــى رجعنا اليها مما يدل على ان الشيعي احرق مكتبة الاغالبة فى رقادة من قبل ، وهــم من أشد خصومه ، وان الاسماعيليين لحقهم اضطهاد كبير من طرف العباسيين أكثر من غيرهم · وعلى كل فليست لدينا الى حد الآن نصوص مقنعة تثبت صحة هذا الخبر ·

وبعدما سيطر على الاوضاع فى تيهرت ، وترك بها رجال ادارته ، وجيشه ، واصل زحفه على سجلماسة · ولما بلــــغ خبره الى أميرها اليسع بــن مدرار (270 ــ 296 هـ 883 ــ 910 م) ضيق الرقابة على عبيد الله وفرق بينه وبين ابنه أبى القاسم ، وسالــه عن علاقته بالشيعي فانكر مصرفته ، وحينما علم الشيعي بذلك بعث الى ابــن مدرار يطلب منه اطلاق سراح المهدى ويعده بالانصراف ، ويبين له بأنه لا يقصد حربه ، وانما يريد أمرا هاما عنده سيكشف له عن فحــواه حينما يصل . غــير أن ابن مدرار قتــــل رسل الشيعي وامتنع من اطلاق سراح المهدى ، ثم بعث اليه وفدا مرة ثانية فقتــــل أفراده أيضا وبذلك ازدادت مخاوف الشيعي على عبيد الله وابنه : كما ازداد حقــده على ابن مــدرار (60) ·

ولـــا وصل الى سجلماسة يـــوم السبت سادس ذي الحجة سنة 296 هـ 910 م ، حاصرها حصارا شديدا فقاومه صاحبها ، ولكنه لم يصمد فى وجه الجيش الغــازي الا يوما واحدا وذلك نظرا لتفوق خصمه عددا ، وعدة ولم يجد أمامه طريقا الى الخلاص الا الفرار مثل ما فر من قبل زيادة الله بن الاغلب ، وخرج من عاصمة ملكه ليـــــلا ودخلها الشيعي فى اليوم التالى ، واخرج المهدى وابنه من سجنهما · ولما رآه ترجــل

احتراما له ، وخضع بين يديه وبكي من كثرة سروره · وقال لمن معـه : (هذا مولاي ومولاكم قد انجز الله له وعده ، واعطاه حقه · واظهر أمره) وانتهب جيشه سجلماسة وذكر البعض انه أمر باحراقها كعادته ، وسلم الامر لعبيد الله المهدى · وبذلك قضى على دولة بني مدرار التى دامت نحو مائة وستين سنة · كما جرد نفسه من النفـوذ الذى كان يتمتع بـه من قبـل (61) ·

وبعد ما سيطر عـلى الوضع فى سلجماسة بعث فى طلب اليسع بن مدرار وتمكن من القاء القبض عليه وقتله مع جماعة من أهل بيته · وقد ذكر خبر فراره وقتله فى الرسالة التى بعث بها الى القيروان يبشر فيها بانتصاره بما نصه · (ثـم قفوت اثـــر الخائن بنفسي فى طلبه عشرة أيام حتى امكنني الله منه بلا عقد ولا عهد · فأتيت به فى وثائق الى ولى الله ليكون عضة لاهل الشقاق والنفاق) (62) .

لقد بقي عبيد الله المهدي بسجلماسة أربعين يوما حيث نظم أمورها الادارية وعين عليها واليا من قبله هو ابراهيم بن غالب المزاتى · وتـــرك معـه حامية من الجيش ، وغادرها الى رقادة ، ولكن أهل سجلماسة بادروا بالثورة على عامله وقتلوه مع عدد من جيشه وذلك بعد خروجه منها بأيام قلائـــل وولوا عليهم واسولا بن الامير مدرار المقتول · ولم يستعد المهدي نفوذه عليها الا فى سنة 307 هـ/921 م فى حملة مصالة بن حبـوس العسكرية ·

لقد واصل عبيد الله المهدي طريقه الى رقادة ، عاصمة ملكه الجديد ، ومر بايكجان دار هجرة الشيعي الاولى فأخذ ما بها من الاموال (وجعلها احمالا) ووصل فى نهاية شهر ربيع الآخر سنة 297 هـ/911 م فلاقاه أعيان القيروان وبايعوه البيعة العامة · وبذلك استلم زمام الامور فى رقادة (63) · وقد وجد دولته قائمة تامة الشروط · فأقر كثـيرا من أعمال أبى عبد الله الشيعي الادارية وأمر أن يدعى له بالخلافة على المنابر لمـــا حضرت صلاة الجمعة فى كل من رقادة ، والقيروان ، ومختلف الامصار · وبذلك تسلم مقاليد الخلافة الفاطمية بصورة رسمية ·

ولكن الخليفة الاول الفاطمى واجهته ظروف صعبة ، وثورات متعددة منذ وقـت مبكر فى مقدمتها المعارضة التى تزعمها أبو عبد الله الشيعي ، منشىء دولته ومحرره من قبضة بنى مدرار · ورغم ذلك فانه لم يرع حرمته وقتله فى منتصف شهر جمـــاد الثانى سنة 298 هـ (64) وقد أحدثت هذه المعارضة هـــزة عنيفة وأوشكت أن تحـدث انشطارا خطيرا فى صف الاسماعيلية بالمغرب الاسلامى : وذلك نظرا للسمعة التـى كان يتمتع بها زعيمهـا . غـير أن عبيد الله استطاع أن يقضى عليها فى المهـد ، وذلك بفضل ما أوتي من مكر ودهاء ·

الخلاصة : يمكن أن نستخلص من هذه الدراسة النتائج التالية :

1) ان مركز التكوين السياسى والعسكرى للدعوة الاسماعيلية هو ايكجان ، بفج الاخيار بالشرق الجزائرى وتمتاز هذه المنطقة بحصانتها الطبيعية فهي تتوسط قبيلة كتامة الكثيرة العدد والعدة · وقد كانت دار هجرة الشيعي ما يقرب من ستة عشر سنة وبذلك يمكن القول بأنها العاصمة الاولى لدعوة الاسماعيلية بالمرحلة المغربية قبل غيرها من العواصم الاخرى كالمهدية والمنصورية ·

2) ان نجاح الشيعى فى انشاء الخلافة الفاطمية بالمغرب الاسلامى يعود الى دهائه السياسى ، واخلاصه للمذهب الاسماعيلى · وذلك فى الوقت الذى كانت فيه دويلات المغرب فى حالة ضعف عام نتيجة عوامل متعددة فى مقدمتها سوء سيرة المتأخرين من رجالها ، وكره عامة الشعب لهم ، خاصة وأن الشيعي تظاهر بالعدل والنزاهة وصيانة النفس والغيوة على الدين ·

3) يعتبر الكتاميون بحق الجنود المخلصون فى سبيل الدعوة الاسماعيلية ، حيث كانوا الاداة الفعالة التى استخدمها الشيعي بكل حزم وحنكة · فبفضل سيوفهم وتضحياتهم نجحت هذه الدعوة التى لعبوا الدور الاساسى الاول فيها فى الميدان العسكرى بصفة خاصة ، ليس فى المغرب فقط بل وفى المشرق أيضا · فدور جعفر بن فلاح الكتامى فى قيادة الجيش الفاطمى لمقاومة القرامطة بالشام خير مثال على ذلك (65)

4) لقد سلك الشيعي سياسة «فرق تسد» حيث استعمل الكتاميين الذين أيدوه لضرب من عارضه منهم كما استعمل فيما بعد هذه السياسة لضرب المغاربة ببعضهم البعض من أجل الوصول الى أهدافه وسار على دربه فى هذا المجال الخلفاء الفاطميون خلال المرحلة المغربية · وبذلك كان المغاربة أكباش الفداء على مذبح الدعوة الاسماعيلية ومن أجل رفع رايتها ·

5) ان نجاح الشيعي فى اقامة الخلافة الفاطمية أدى الى تغيير الاوضاع السياسية السائدة بالمغرب الاسلامى وفصله نهائيا عن الخلافة العباسية · وبالتالي انتشر فيه المذهب الاسماعيلى المتطرف بصورة رسمية : وتحقق للاسماعيلية ما عجزت عن تحقيقه بالمشرق مكان الدعوة الاصلى وعمد رجالها الى فرض مذهبهم وسلطانهم بالقوة · ولكن هذه السياسة كان لها رد فعل عنيف من طرف السكان : ومن هنا كان عهدهم مليئا بالثورات والحروب فى مناطق متعددة ، وترتبت عليها نتائج سلبية فى مختلف المجالات من سياسية ، واقتصادية ، واجتماعية ، وغيرها ·

التعــــاليــق

33 ـ ابن عــذارى ، 1 : 127 ·

34 ـ القاضى النعمان ، ص 74 ، 78 ، 96 ، ابن عذارى ، 1 : 128 ·

35 ـ نفســـه ، ص 127 ·

36 ـ ابن الاثير : 6 : 133 : ابن عذارى ، 1 : 243 ، 244 · مقدمة ابن خلدون ، ص 276

37 ـ القاضى النعمان ، ص 124 ، 132 ، ابن عذارى ، 1 : 128 ·

38 ـ نفســـه ، ص 114 ، 158 ·

39 ـ نفســـه ، ص 137 ، 145 ، سيرة ابن هشام · 3 ، 229 ·

40 ـ نفســـه ، ص 101 ، 108 ، 126 ·

41 ـ Golvain : Le Maghreb Central à l'époque des Zérides, pp. 51-52.

42 ـ القاضى النعمان ، ص 135 ، 166 ، ابن الاثير ، 6 : 128 : 130 ·

43 ـ الدبابة الة حربية تصنع من جـــلد ، وخشب ، ويدخـــل فى وسطها المقاتلون ويتخذونها اداة للهجوم ، حيـــث تقيهم من ضربا تالعـدو . وسميـت دبابـــة لانها تدفع فتدب أنظر ابن منطور ولسان العرب ، 1 : 938 .

44 ـ القاضى النعمان ، ص 164 ، 165 ، ابن الاثير ، 6 : 130 ·

45 ـ ابن عــذارى ، 1 : 127 ، 141 ·

46 ـ تقع غرب الاربس ، وصفت بانها شامخة البنيان ، البكرى ، المغرب فى ذكـــر بلاد افريقية والمغرب ، ص 53 ·

47 ـ القاضى النعمان ، ص 169 ، البكرى ، ص 50 ·

48 ـ وصفت بانها مدينة أولية ، وتسمى أيضا تيفاش الظالمة ، وتقع بشرق صدراتة ، البكـــرى ، ص 83 ·

49 ـ افتتاح الدعوة ، ص 205 ، البكرى ، ص 46 ، ابن الاثير ، 6 : 132 . ابن عــذارى ، 1 : 147 ·

50 ـ القاضى النعمان ، ص 210 ، ابن عــذارى ، 1 : 148 ·

51 ـ نفسه ، ص 158 ، ابن الاثير ، 6 : 123 : ابن عذارى ، 1 : 135 ·

52 ـ نفسه ، ص 213 نفسه ، 6 : 132 ·

53 ـ نفسه ، ص 256 ، ابن عـذارى ، 1 : 150 .

54 ـ ابن الاثير ، 6 : 132 ، نفسه ـ 1 ، 151 .

55 ـ ابن عـذارى ، 1 : 152 .

56 ـ ورد ذكره (الاسجانى) فى سـيرة الحـاجب جعفر ولعل ذلـك تصحيـف اذبيـدو ان الاجانى أصح وذلك نسبة الى اجانة احدى مناطق بلاد كتامة ، أنظر مجلة كلية الآداب ، جامعة فؤاد الاول ، م 4 ، ج 2 : 123 .

57 ـ القاضى النعمان ، ص 232 ، ابن عذارى ، 1 : 152 ، 153 .

58 ـ ابن عذارى ، 1 : 153 ور الدين حاطوم وجماعة ، موجـز تاريخ الحضارة 1 : 524

59 ـ لقبال موسى ، الحسبة المذهبية فى بلاد المغرب العربى ، ص 69 ، دبوز ، تاريخ المغرب الكبير ، 3 : 618 .

60 ـ القاضى النعمان ، ص 237 ، ابن الاثير ، 6 : 133 ، الباجى المسعـودى ، الخلاصة النقية فى أمراء افريقية ، ص 37 ، مجـلة كلية الآداب جامـعة فؤاد الاول م 4 ، ج 2 : 124 .

61 ـ ابن حماد ، أخبار ملوك بنى عبيد ، ص 9 ، خطط المقريزى ، 1 : 350 .
Golvin, p. 52.

62 ـ القاضى النعمان ، ص 244 ، ابن عذارى ، 1 : 154 ، 257 .

63 ـ نفسه ، ص 254 ، ابن الاثير ، 6 : 133 ابن عذارى ، 1 : 153 .

64 ـ المقريزى ، اتعاظ الخفا ، 1 : 68 .

65 ـ نفســه ، 1 : 121 ، 122 .

مصـــادر ومـراجـع الدراســـة

1) **الاصطخرى** : أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسى المعروف بالكرخى (ت 346 هـ)
ـ المسالك والممالك ، تحقيق : محمد جابر عبد العال الحينى .

2) **الادريـــسى** : الشريف (ت 548 هـ) .
ـ وصف افريقيـا الشماليـــة والصحراوية ، تصحيـح : هنرى بـيريس ، الجزائر 1376 هـ/1956 م .

3) **ايفانــوف** (نــاشــر)
ـ سيرة الحاجب جعفر بن على ، مجلة كلية الآداب ، جامعة فؤاد الاول ، مجلد 4 ج 2 ، ديسمبر 1936 م .

4) **ابن الاثــير** : أبو الحسن على بن أبى الكرم (ت 630 هـ) .
ـ الكامل فى التاريخ جـ 6) ، نشر دار الكتاب العربى ، بيروت 1387 هـ/1967 م .

5) **البكــرى** : أبو عبيد الله بن عبد العزيز (ت 487 هـ) .
ـ المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، تحقيق دوسلان ، نشر مكتبة المثنى بغداد

6) **ابن خلدون** : أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت 808 هـ) .
ـ المقدمة والكتاب ، نشر دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، 1976 م .

7) **ابن عبد ربه** : أبو عمر أحمد (246 ـ 328 هـ) .
ـ العقد الفريد (ج 2) تحقيق أحمد أمين وآخرين ، مكتبة النهضة المصرية (ص 27) القـاهرة ، 1962 .

8) **ابن حوقل** : أبو القاسم النصيبى (ت 367 هـ) .
ـ صورة الارض ، مكتبة الحياة ، بيروت .

9) **ابن هشـــام** :
ـ السيرة النبوية (م 3) تحقيق مصطفى السقا وجماعة (ط 2) طبع مصطفى الباي الحـــلى ، القاهــرة .

10) **ابن منظـــور :**

ـ لســـان العـرب (م 1) .

11) **بروكلمـــان :** كارل

ـ تاريخ الشعوب الاسلامية ، تعريب نبيــه أمـــين فارس ومنير البعلبكى ، ط 5 بـــيروت 1968 .

12) **ابن عــذارى :** ابو عبد الله محمد المراكشى (ق 8 هـ) .

ـ البيان المغرب فى أخبار الاندلس والمغرب (ج 1) تحقيق ج. س كولان ، واليفى بروفنسال بـيروت .

13) **ابن حــزم :** ابو محمد علي بن أحمد (ت 456 هـ) .

ـ جمهرة انساب العـــرب ، تحقيق عبد الســلام محمد هارون ، دار المعارف ، القاهرة ، 1382 هـ/1962 م .

14) **أبو الفــداء** : عماد الدين اسماعيل (ت 732 هـ) .

ـ تقويم البلدان ، تصحيح رينود ديسلان ، باريس ، 1840 .

ـ المختصر فى أخبار البشر (ج 2) المطبعة الحسينية ، القاهرة .

15 ـ **البـاجــي :** محمد المسعودى ت 1253 هـ/1837 م .

ـ الخلاصة النقية فى أمراء افريقية ، تونس 1323 هـ .

16 ـ **ابن حمــاد :** أبو عبد الله محمد بن علي الصنهاجى (ت 548 هـ) .

ـ أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم ، طبع جول كوربونل ، الجزائر ، 1346 هـ .

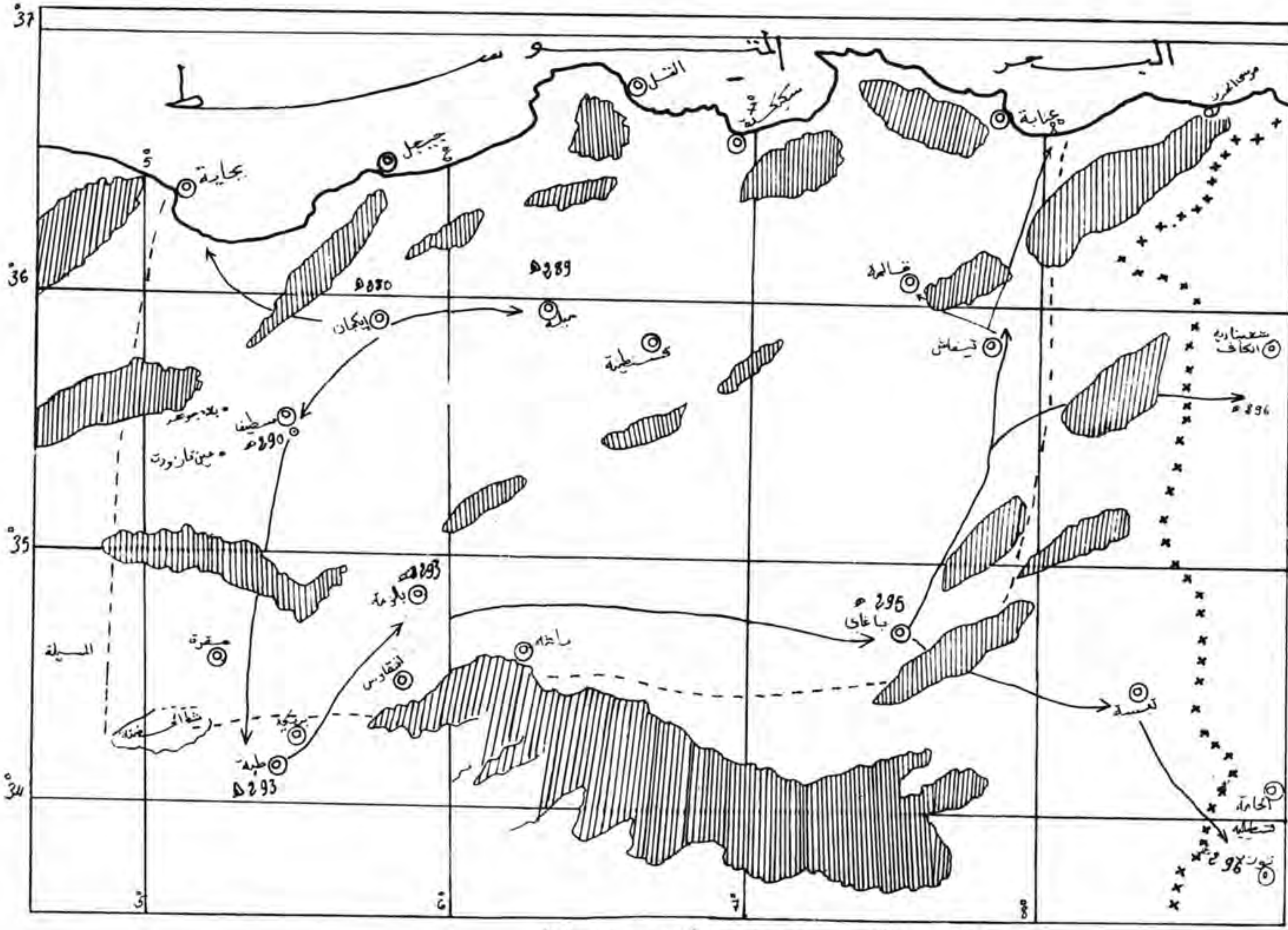
17 ـ **القاضى النعمان :** أبو حنيفة النعمان بن ابى عبد الله التميمى المغربى (ت 363 هـ)

ـ افتتاح الدعوة ، تحقيق وداد القاضى ، دار الثقافة ، بيروت ، 1970 .

18 ـ **لقبال موسى .**

ـ الحسبة المذهبية فى بلاد المغرب الاسلامى نشأتها ، وتطورها ، نشر الشركة الوطنية ، الجزائر .

19 ـ **الحمـوى** : شهاب الدين أبو عبد الاله (ت 626 هـ) ٠
ـ معجم البلدان (جـ) بيروت 1955 ٠
20 ـ **الجيـلالى** : عبد الرحمن ٠
ـ تاريخ الجزائر العام (ج 1) المطبعة العربية ، الجزائر ، 1955 م ـ
21 ـ **حسـن ابراهيم حسن** :
ـ تاريخ الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر ، وسوريا وبلاد العرب ، ط 2 مكتبـة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1962 ٠
22 ـ **جـرجرى زيدان** :
ـ تاريخ التمدن الاسلامى (ج 5) نشر مكتبة الحياة ، بيروت 1967 ٠
23 ـ **مـاجـد عبد المنعم** :
ـ ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر ، دار المعارف ، القاهرة ، 1968 ٠
24 ـ **الشهرستانى** : أبو الفتح عبد الكريم (ت 548 هـ) الملل والنحل ؟
25 ـ **النوبختى** : أبو محمد الحسين بن موسى (ت 310 هـ) ٠
ـ فرق الشيعة تصحيح زيزر ، مطبعة الدولة اصطمبول 1921 هـ ٠
26 ـ **فنسـك وجماعـة**
ـ دائرة المعارف الاسلامية ، تعريب محمد ثابت الفندي ، وجماعة ، 1933 ٠
27 ـ **اليعقوبى** ، احمد بن أبى يعقوب بن واضح (ت 684 هـ) ٠
ـ كتـاب البلـدان ٠
28 ـ **المقريزى** ، تقي الدين أبو العباس (ت 845 هـ) ٠
كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار مؤسسة الحلبى وشركائه القاهرة 1967
ـ اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفاء (ج 1) تحقيق جمال الدين الشيال دار التحرير ، القاهرة 1387 هـ/1967 م ٠
30 ـ **دبـوز محمد علي** :
تاريخ المغرب الكبير (ج 3) طبع عيسى الباي الحلبى ط 1 ، القاهرة 1384 هـ/1964 م



خريطة بلاد كتامة ◎ أهم المراكز الحضارية والإدارية

- - - - حدود بلاد كتامة

اتجاهات فتوحات الشيعي

حول انتقادات الشيخ حسن بغدادى

أحمد حمانى
رئيس المجلس الاسلامى الاعلى
ـ الجزائر ـ



اطلعنا على الانتقادات الموجهة من الشيخ مولاى حسن بغدادى الى الخطبة الجمعية التى كان موضوعها الكلام على بعض آيات (الفاتحة) ، وزعم أن بها أخطاء كثيرة عد منها 22 ، منها ما هو شنيع وخارج عن الصواب لغة وشرعا ، وضرب لها أمثلة أربعة فى أحدها زعم أننا تقولنا على رسو ل الله (ص) ـ عياذا بالله ـ وفى الآخر اننا استعملنا ما لا تعرفه العرب فى لغتها .

وانا لنستغفر الله ونتوب اليه ونتبرأ من ادعاء العصمة من الخطإ ، ومن دعوى الرسوخ فى علم الدين أو اللغة ، ونستلهمه الصواب ونستعيذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا .

ثم نعاتب هذا الاخ على تهجمه الشديد ، وبعد أن تأملنا فيما ضربه من أمثلة لما زعمه شنيعا وخارجا عن الصواب لغة وشرعا وجدناه أوهاما وادعاءات ناتجة عن قلة تبصر ،

وخبرة بالتفسير ، واطلاع على أقوال الائمة . وعن البضاعة المزجاة ـ كحالنا ـ فى الحديث ، وعن سوء تطبيق قواعد اللغة على النصوص ، وهاكم البيان ، وبالله التوفيق :

أولا : النص المنتقد فى تفسير (الرحمن الرحيم) هو ما جاء فى قول الشيخ : (... من تلك الاخطاء ما هو شنيع وخارج عن الصواب لغة وشرعا كوصف الله **بالرقيق حيث جاء فى الخطبة هكذا (ولكنه الرحمن الرحيم الرقيق الرفيق على من أحب أن** يرحمه والبعيد الشديد على من أحب أن يعنف عليه الخ . ومن المعلوم دينا أن الرقيق والبعيد صفتان محال أن يتصف بهما تعالى على أى وجه من الوجوه) ا هـ .

وما جاء فى الخطبة كتفسير لقوله تعالى (**الرحمن الرحيم**) من الفاتحة لم يكن من اجتهاد محرر الخطبة ، ولا فضل له فيه ، ولا وزر عليه يلزمه ان أخطأ ، وانما هو نقل أمين لتفسير حبر الامة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما رواه عنه بسنده المتصل شيخ المفسرين وامامهم أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فى تفسيره الشهير (جامع البيان) . ونقله عن ابن جرير الامام السلفى الكبير الحافظ بن كثير . وعلى تفسير هذين الامامين يقوم كل المفسرين السلفيين ومنهم أستاذنا الشيخ ابن باديس، وامام المصلحين الشيخ محمد رشيد رضا رحمهما الله .

قال الامام أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فى تفسيره لقوله تعالى فى البسملة (الرحمن الرحيم) فى الجزء الاول صفحة 44 ـ الطبعة الاولى ما نصه :

(وأما القول الآخر فى تأويله فهو ما حدثنا به أبو كريب قال حدثنا عثمان بن سعيد قال حدثنا بشر بن عمارة قال حدثنا أبو روق عن الضحاك عن عبد الله بن عباس قال : والرحمن الفعلان من الرحمة وهو من كلام العرب . قال الرحمن الرحيم الرقيق الرفيق بمن أحب أن يرحمه ، والبعيد الشديد على من أحب أن يعنف عليه وكذلك أسماؤه كلهـا .

وهذا التأويل من ابن عباس يدل على أن الذى به ربنا رحمن هو الذى به رحيم وان كان لقوله الرحمن ما ليس لقوله الرحيم لانه جعل الرحمن بمعنى الرقيق على من رق عليه ومعنى الرحيم بمعنى الرفيق بمن رفق به) ا هـ . بالحرف الواحد . فقد نص

ابن جرير على اثبات تفسير الرحمن بالرقيق لحبر الامة ابن عباس ، وتفسير الرحيم بالرفيق •

ونقل عنه هذا التفسير بن كثير من قوله حدثنا الى قوله وكذلك أسماؤه كلها • فابن عباس رضى الله عنهما فسر الرحمن الرحيم بالرقيق الرفيق بعد أن قال : الرحمن الفعلان من الرحمة وهو من كلام العرب) فهو تفسير لغوى لان الرحمة ـ لغة ـ رقة فى القلب وحنان تدفع الى الشفقة والعطف والاحسان ، ورحمة الله لخلقه تفسر بأثرها وهو الاحسان ، وكذلك البعد من الله والقرب لا يفسران بالبعد والقرب الزمانى أو المكانى ، فالله سبحانه لا يتصف بذلك ، وهو منزه عن الزمان والمكان ، وانما القرب وصول الاحسان والعناية الربانية والاستجابة (**واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداعى اذا دعانى**) •

والبعد الحرمان من ذلك والطرد من رحمة الله ، واللعين : الطريق المبعد من رحمة الله • فقول مولاى الحسن : ومن المعلوم أن الرقيق والبعيد محال أن يتصف بهما الله تعالى على وجه من الوجوه) جوابه أن ابن عباس وغيره ـ لم يجعلهما من أسماء الله الحسنى ـ حتى تأتى أنت وتجهله بأن لا يعرف معلوما لك من الدين ، وانما هو تفسير ـ تقتضيه اللغة فسر به أسماء من أسمائه مقيد بأنه سبحانه مخالف فى ذاته وصفاته وأسمائه لخلقه جميعا ، ليس كمثله شىء واذا لم تأخذ بتفسير ابن عباس لنص قرآنى ـ لغة وشرعا ـ فهل نثق بما تأتينا أنت به يا مولاى ؟

ثانيـــا : زعم أن فى الخطبة أحاديث نبوية تصرف فيها بالزيادة والنقصان مما يعد تقولا على الرسول المعصوم وذلك لا يجوز فى رواية الحديث مطلقا) •

هذا قول مرسل على عواهنه ، ليس له ميزان • ونحن نتحداه أن يذكر لنا حديثا واحدا فعل به ما ادعاه فضلا عن **أحاديث** وهو جمع كثرة ، بل هو من صيغ منتهى الجموع كما لا يخفى على حضرته وقد بلغ من معرفته باللغة ـ كما يأتى ـ ان ينكر استعمالا عربيا صحيحا ويجعله مما لا تعرفه العرب فى لغتها •

وأما المثال الذى ذكر من التصرف فى الحديث بالزيادة والنقصان وعده تقولا على

رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ والله وكيلنا ونعم الوكيل ـ فانه يدل على استهتار وقلة تثبت عجيبين ، ودعوى عريضة في علم الحديث ومعرفة متنه وصحيحه وسقيمه ٠

فهو يقول في مثاله الذى ساقه نقلا عن الخطبة :

(وفي حديث آخر أن رجلا دخل الجنة في كلب عطشان ٠٠٠ ولعل محرر الخطبة جعل هذا الحديث مقابل ما صح في الاثر المشهور (دخلت امرأة النار في هرة ٠٠٠) والفرق بينهما واضح فهذ اصحيح متنا واستنادا، وذلك لا يصح و لايجوز لما ذكرنا) اهـ ٠

أليس في هذا مجازفة كبرى ، ورجم بالغيب ، وظن سوء باخ ، وتأويل فاسد لنص واضح ، وأى صلة بين حديث المرأة صاحبة النار في الهرة ، وحديث الرجل صاحب الجنة في الكلب ؟ وأى غرور يبلغ الانسان أن يدعى أنه أصبح مطلعا على الحديث كله ، فيقول بداهة ودون بحث هذا (اثر) صحيح متنا واسنادا وهذا لا يصح ؟ ٠ ويعجبنى ما روى أن أحد أئمة الحديث ـ بحق ـ أنكر في مجلس على رجل حديثا رواه فقال الرجل : أكل حديث رسول الله (ص) عرفته ؟ قال لا قال الرجل فاجعل هذا مما لم تعرفه فافحمه ٠

ان الحديث الذى أنكر وجوده من أصح الاحاديث المروية اتفق عليه الشيخان البخارى ومسلم في صحيحيهما ، ورواه مالك في الموطا ، وأبو داود في سننه ، وابن ماجة في صحيحه ، وهذا نصه كما ورد في الموطا : في باب جامع ما جاء في الطعام والشراب :

وحدثنى عن مالك عن سمى مولى أبى بكر عن أبى صالح السمان عن أبى هريرة ، أن رسول الله صـــلى الله عليه وسلـم قال : « بينما رجل يمشى بطريق اذ اشتد عليه **العطش فوجد بئرا فنزل فيها فشرب وخرج فاذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال** الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى بلغ منى فنزل البئر فملأ خفة ثـم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له فقالوا : يا رسول الله وان لنا في البهائم لاجرا ؟ فقال « في كل ذات كبد رطبة أجر » ا هـ ٠

قال الحافظ المنذرى في كتابه (الترغيب والترهيب) بعد نقل الحديث (رواه البخارى ومسلم وأبو داود وابن حبان في صحيحه الا أنه قال : (فشكر الله له فأدخله الجنة) اهـ أنظره في كتاب الصدقات ٠

ومن هذا يتبين صحة نقلنا لمعنى الحديث وأن رجلا دخل الجنة فى كلب عطشان سقاه ، فقد جاء فى نص الحديث عند غير ابن ماجة ان الله شكر له فغفر له ، ومن شكر الله له وغفر دخل الجنة قطعا ، على أن هذا وارد فى رواية ابن ماجة والحمد لله .

واذا كان لا يصح عندكم حديث اتفق عليه ـ البخارى ومسلم ، ورواه مالك فى الموطا ـ وهو أمير المؤمنين فى الحديث ـ وأبوداود فى سننه ، وابن ماجة فى صحيحه فأى حديث يصح عندكم ؟ وبأى شيء تردون هذا الحديث أتحكمون بفساد متنه أو سنده أم هما معـــا ؟ !

أما حديث المرأة ـ وليس باثر فحسب كما زعمت ـ التى دخلت النار فى هرة فنصه كما جاء فى الجامع الصغير عن ابن هريرة وابن عمر (دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تاكل من خشاش الارض حتى ماتت) اهـ . رواه أحمد والبخارى، ومسلم وابن ماجه من حديث أبى هريرة ورواه البخارى عن أبى عمر ورواه عنه أيضا مسلم بلفظ عذبت امرأة فى هرة أوثقتها الخ (أنظر المناوى فى شرحه للجامع الصغير ج 3 ص 523) فهذان حديثان صحيحان ، مما اتفق عليه الشيخان كل منهما فى باب : رحم الرجل كلبا عطشان ، والكلب مظنة الاذى ـ فرحمه الله وغفر له وأدخله الجنة لانه سبحانه كتب عن نفسه الرحمة ، والراحمون يرحمهم الرحمن ومن رحم من فى الارض رحمه من فى السماء . وقست المرأة على الهرة ـ وهى صديقة الانسان وأليفته ـ وعذبتها بالجوع حتى ماتت هزالا فدل فعلها على انتفاء الرحمة من قلبها فاستحقت النار .

فكيف يسوغ لعاقل أن يضع حديثا من عنده معتمدا على مفهوم حديث فى نقيض موضوعه ويعلن انه حديث ؟ وكيف يبلغ بك سوء الظن بأخيك ـ وبعض الظن اثـم ـ أن تتهمه بقلة الدين وفساد الرأى ، والاستهتار بالاخلاق وسوء التصرف الى درجة وضع الحديث مع انه يعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ـ فى الحديث المتواتر الذى رواه نحو المائة من الصحابة وخرجه جميع أئمة الحديث وكتبه (من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار) .

ثـالثـــا : انتقد السيد بغدادى حتى عنوان الخطبة اذ قال :

« كان الخطأ حتى فى عنوان الموضوع : (الله الرحمن الرحيم) ·

وانى أسائله : أى خطا فى هذا العنوان ؟ ان الكلام على تفسير الفاتحة وقد قال تعالى : (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم) فالرحمن والرحيم ـ فى الآية ـ صفتان لاسم الجلالة ، أو نعتان باصطلاح النحا ة، وهما من أسماء الله الحسنى وصفاته العليا ، أما فى العنوان المنتقد فاسم الجلالة مبتدأ وهما خبران له ، خبر بعد خبر أو بتقدير مبتدأ للثانى عند من لا يقول بتعدد الخبر ، كما تقول الله الحى القيوم . وفى آية الحشر قال تعالى (**هو الرحمن الرحيم**) ومن المعلوم لاساطين العربية وصغار الطلبة ان الضمير هو ما كنى به عن الظاهر اختصار فلا فرق بين (الله الرحمن الرحيم) وبين (هو الرحمن الرحيم) فمن هذا الطراز عنوان الخطبة ، وقد جيء بالمسند ـ وهو هنا الخبر ـ معرفة للنكة البلاغية التى لا تخفى على (مولاى) خليفة عبد القاهر فالرحمن حقيقة انما هو الله ولا يجوز أن يسمى به أو يوصف غيره، كالخالق والرازق · ويمكو أن تاتى بالحصر ادعاء مثل قولك : زيد الشاعر ، ومولاى الخطيب الناقد الخ ، وقد أراد محرر الخطبة أن ينبه الائمة أن يركزوا فى دروسهم قبل الصلاة على وصف الرحمة والفضل والاحسان ·

رابعـــا : ثم عطف (مولاى) خطا آخر مزعوما على الخطا المدعى فى العنوان فقال : (وفى بداية الخطبة الاولى من قوله الحمد لله الذى أنزل كتابه الينا على رسوله الامين فعل أنزل ـ وهو فعل واحد متعديا بحرفى (الى) و (على) فى آن واحد مما لا تعرفه العرب فى لغتها) ا هـ ·

غفر الله لنا ولك يا (مولاى) كنت فى أول رسالتك الانتقادية اماما فى التفسير تخطىء ـ لغة وشرعا ـ حبر الامة ابن عباس ترجمان القرآن ، ومن اتبع سبيله ـ كابن جرير وابن كثير ـ باحسان ثم كنت اثر ذلك اماما فى الحديث تضعف ما اتفق على تصحيحه الشيخان البخارى ومسلم ، وأبو داود وابن ماجه ، وامامك مالك أمير المؤمنين فى الحديث كما قال عنه الشافعى، ثم كنت من بعد اماما فى البلاغة تجلس مكان عبد القاهر الجرجانى وتنافس (الخطيب) القزوينى ، وسعد الدين التفتازنى · وها أنت أخيرا تتطاول الى احتلال مقام أئمة العربية ، وتزعم أنك خبير بما استعملته العرب جميعه وعرفته ، وما لم تستعمله وأنكرته ، ليعرف الناس ـ السوقة والوزراء ـ أنك أهل لان تتربع على

كرسى الخليل بن أحمد وسبويه ، والجوهرى وابن دريد ، والمبرد و (الاخافيش) وثعلب ، وهو بك أنسب ـ أعنى ثعالة لا أعنى أبا العباس صاحب الفصيح ـ وربما لا يرضيك مقام الزمخشرى وابن هشام وابن منظور لتأخر زمانهم ·

لقد أصبحت بمكان من يقول ويحكم بأن هذا لا تعرفه العرب فى لغتها ! وأى تركيب أستحق منك هذا الحكم الصارم ؟ انه قول محرر الخطبة (الحمد لله الذى أنزل كتابه الينا على رسوله الامين) ·

والقرآن الكريم قد جاء فيه (أنزل الى) و (وأنزل على) قال تعالى يخاطب نبيـــه (**الـر كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور**) وقال (**وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم**) وقال يخاطب الناس (**يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا**) وقال (**ولقد أنزلنا اليكم آيات مبينات**) ، فهذا الكتاب المنزل الى محمد والينا نعمة من الله عليه وعلينا أنزله الله (على) مـحمد بمعنى أوحى به اليه ، ونزل به الروح الامين (على) قـــلبه كما قال تعالى (**وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم**) وقال (**طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى**) ·

فالمراد من استعمالنا الحرفين فى أول الخطبة حمد اللـهوشكره على هذه النعمة العظمى والمنة الكبرى بانزاله القرآن الينا نورا مبينا يهدينا به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم الى الصراط المستقيم صراط الله ، هذا القرآن اختار الله له أكرم عباده لتبليغه ، فأنزله عليه وأوحاه اليه لينذر به قومه ومن بلغ ، وفى ذكر انزال القرآن على محمد (ص) الشهادة مناله بالرسالة · فأى هذه المعانى تنكرها ؟

أما من ناحية العربية فلا ضرورة الى ما زعمته وسجنت فيه ذهنك ومعرفتك ، فالجار والمجرور الثانى يمكن أن يعمل فيه عامل محذوف وتقدير الكلام (الحمد لله الذى أنزل الينا كتابه ···) (أنزله) على رسوله · ويمكن تعلق الجار والمجرور الاول أو الثانى بمحذوف يعرب حالا ، وتقديره (حالة كون الكتاب المنزل على رسوله منزل الينا أو أنزل الينا ، أو حالة كون الكتاب المنزل الينا منزلا على رسوله أو أنزل على رسوله · وليس فى علماء العربية والنحو من ينكر هذا أو يمنع هذا التأويل · فكيف يصح منك

هذا الادعاء العريض وان العرب لا يعرفون هذا مما يتهيب النطق به كبار أئمة اللغة ؟ ٠

خامســا : مقتضى شدة حساسية مولانا وعظيم غيرته على العربية يوجب التزامه الاسلوب العربي الصحيح الفصيح وتنزهه عن أوهام (العوام) فضلا عن الخواص فى استعمال ألفاظ فى غير معناها ٠ ولو التزم هذا لما وقع فى خطا لا يقع فيه الائمة الاعلام أمثاله اذ قال فى ختام رسالة نقده النصوح ما يتأتى (٠٠٠ فلكم واسع النظر فى الغاء هذه الخطبة وابدالها باخرى) ، وهذا الكلام على ظاهره متناقض لانه ـ فى آن واحد يرغب فى التمسك بالخطبة المنتقدة من جهة ، وينصح بالغائها من جهة أخرى ، فمقتضى قوله (الغاء هذه الخطبة) تركها وطرحها واهمالها ، ومقتضى قوله (وابدالها بأخرى) ، يقتضى التمسك بها وترك (الإخرى) واهمالها ، لان المعروف عند أهل اللغة أن الباء فى الابدال والاستبدال تدخل على المتروك المرغوب عنه وغيره هو العوض المرغوب فيه كما فى قوله فى خطاب موسى لبنى اسرائيل (**أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير**) فقد أعطاهم الله المن والسلوى فبرموا بالطيبات منها وقالوا لرسولهم (**ادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الارض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها**) ، فرضوا بالبصل وسالوا أن يستبدلوه بالمن والسلوى ٠

وعند امضاء (مولاى) كتبه **هكذا** (بغدادى م٠ الحسن) فلم يسلم من مؤاخذة أهل اللغة والبلاغة والنحو ٠

أ ـ رمز بحرف م فأبهم على من لا يعرف هذا الاصطلاح الخاص ـ ولا يعرفه فى وطننا الا النادر وأبقى القارىء حائـرا بين الاعلام التى تبتدىء بحرف (م) وهى كثيرة جـدا مثل : منذر ، منير ـ محمد ـ محسن ـ مصطفى ـ مختار ـ محمود ـ مسعود ـ مدرك ـ منصور ـ مهنى ـ معاوية ـ منـــجى ـ مشعل ـ مذكـــور ـ منسى ـ مهلهـــل ـ مطيش ـ أى والله فانه مما يسمى به فى بعض الجهات ـ وبين الحقيقة وهى (مولاى) ومثل هذا الابهام يخرج الكلام عن الفصاحة ـ ولعله يشمل الامضاءات ـ كما حكموا على (مسرجا) من قوله (ومرسنا مسرجا) بالخروج عن البلاغة لتردده بين الاشتقاق من السراج المنير وبين السيف السريجى البراق ٠

ب ـ قدم لقبه (بغدادى) على اسمه الحسن ، فخالف قاعدة مشهورة معروفة لصغار طلاب العربية والنحو ، فابن هشام يقول فى القطر : (ويؤخر اللقب عن الاسم تابعا له

مطلقا أو مجرورا بالاضافة ان افردا كسعيد كرز) •

وابن مالك يقول فى العلم :

واسمـــا أتى وكنيـــة ولقبـــا   وأخـــرن ذا ان ســـواه صاحبـــا

والاشارة بذلك الى اللقب فانه يؤخر عن الاسم ان صحبه ، فقد أمر ابن مالك بتأخيره أمرا مؤكدا بنون التوكيد ، وحكم بالندور على ما خالف ذلك كما فى الاشمونى •

ورغم هذه الاوامر المؤكدةمن النحاة ، والتعاليم المشددة من الوزير فان مولانا جنح الى تقديم اللقب عن الاسم لانه الف المعتاد من عهد الاستعمار !

وقد يعتذر بأن هذا مستعمل فى الكلام الفصيح اذا اشتهر ، كما تقدم اللقب عن الاسم فى قوله تعالى (**انما المسيح عيسى بن مريم**) فكذلك قولنا (بغدادى مولاى الحسن) أو (مولاى الحسن بغدادى) أو (الحسن مولاى بغدادى) بواء •

فنقول : الاعتذار غير مقبول ، وقياس فاسد أن يقاس بغدادى بالمسيح أو على المسيح فبغدادى لم ولن يبلغ بصاحبه اشتهار عيسى بالمسيح عليه السلام ، فليس فى الارض ولا فى السماء غير مسيح واحد صحيح والباقى دجاجلة ، وكم فى الدنيا وفى الجزائر بل في العاصمة نفسها من (بغاديد) يضيع فى مجاهلها مولانا ويتيه ! وقد يقول مبررا :

اذا لم يبلغ اشتهار (بغدادى) بلقبه هذا اشتهار عيسى بلقب المسيح فقد استعملت العرب هذا كما يشهد لذلك قول الشاعر الفخور :

أنـا ابن مزيقـــيا عمرو وجـــدى
أبـــوه منـــذر مـــاء السمـــاء

وقول جنـوب فى أخيهـــا :

بأن ذا الكلـــب عمـرا خـيرهم حسبـا
ببطـن شريـــان يعـوى حولـه الذيب

فقدم الشاعر المفتخر اللقب ـ وهو مزيقيا ـ على الاسم ـ وهو عمرو ـ ، كما قدمت جنوب اللقب وهو (ذو الكلب) على الاسم وهو عمرو ، وكذلك أنا قلت بغـــدادى م• الحســـن •

ونقول : وهذا أيضا قول ضعيف واعتذار واهن ، أشد وهنا وضعفا من تضعيف مولانا لحديث الكلب العطشان مع رواية مالك له ، ورواية أربعة من أصحاب الصحاح فيهم الشيخان البخارى ومسلم • فعمرو مزيقيا ملك همام ، جد ملوك عظام ، ليس فى الدنيا غيره فاذا أطلق هذا اللقب انصرف اليه وحده ، وكذلك عمر ذو الكلب : كان فارس هذيل وبطلها المغوار ، وواحد قومه فاشتهر بلقبه هذا عند العرب حتى لا يزاحمه أحد فيه ، ثم خلدته أخته جنوب ، وقد ثكلته ــ بهذه القصيدة الرائعة وهذا البيت الابلق وأجبرت به كل امام عربية وكل طالب من طلابها صغيرا وكبيرا على حفظه وترديده ، فيذكر مأساتها فى أخيها ذى الكلب عمرو ، ثم يجول فكره فى مأساة حياة العرب فى الجاهلية كيف كان يسطو بعضهم ببعض ، ويغير أحدهم على أخيه بغيا وعدوانا يغتاله ويستبيح دمه وماله وعرضه ، وقد يجند له ويتركه صريعا فى الفلوات يعوى حوله الذيب ، حتى جاء الاسلام فحرم الاثم والعدوان وجعل النفس والمال والعرض حرام لتناوله باليد أو اللسان بل حتى بسوء الظن والخاطرة وقال الله فى القرآن **(يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم)** •

ورغم كل ما جاء بعد عمرو وبعد جنوب عن (ذوى الكلاب أو ذوات الكلب) ــ وهم وهن ألوف فى العد ــ فانه لم يغط أحدهم شهرة عمرو بلقبه واختصاصه به ولم ينزع منه هذا (الملك) لهذا اللقب ، فأين هذا من لقب (بغدادى) الذى يستحقه كل من ولد، أو سكن ، أو مر ببغداد ، يطلقه على نفسه ان شاء وله أو يورثه من جاء بعده من نسله ، وان فأت به الدار ، وطال الزمن كما هى الحال مع (مولانا) الحسن) !

ومع اشتهار هذين العمرين بلقبى (مزيقيا) و (وذى الكلب) فان هذا التقديم المستعمل فى البيتين محكوم عليه بالندرة كما قال الاشمونى ، ومن المعلوم أن النادر يحفظ ولا يقاس عليه ويهجر ولا يستعمله الاحرار ولو فرض عليهم من طرف الاستعمار •

ج ــ فى صدر رسالتكم تقولون مخاطبين المدير المساعد للتوجيه الدينى :

(وبعد فقد وجب انتباهكم بكل أدب واحترام) • ولا ندرى كيف يكون الانتباه وهو فعل ذاتي ــ أعنى فعلا بالمعنى اللغوى لا النحوى ــ بكل أدب واحترام ، وهو واقع

من غافل أو ساه أو نائم أم تريدون تنبيهكم وهو فعل متعد يمكن صحة هذا الاستعمال معه لان (الخادم) من واجبه أن يكون مؤدبا محترما فى معاملة أسياده وتنبيههم من النوم أو من الغفلة والسهو والا لناله الطرد والتوبيخ واللوم ٠

ثم أى احترام وأدب ناله هذا المدير منكم وأنتم تأمرونه بقولكم (انه من الواجب ابلاغكم هذا الى كل من يعنيه الامر) وفى هذا اشاعة للفاحشة فى الذين آمنوا بنسبتهم الى التقول على رسول لله دون أن يقع شىء مما زعمت منهم ، وأى فاحشة أشد من وضع الحديث ؟

سادسا : وبعد فاننى لأود صادقا أن يستمر مولانا على قراءة كل ما يصل اليه من كتاب أو خطاب أو مقال بامعان ، والا يحجم عن بيان ما فيه من خطا أو خلل أو زلل أو ضلال ، منتقدا انتقاد عالم خبير متثبتا فى نقده ، مترويا فى نظره عف القلم واللسان فى قوله وكتابته ملتزما ما قرره علماؤنا من آداب : منها ما أعلن عنه من قال :

(وأصلح الفساد بالتأمل) ٠

ومنها اجتناب تحريف القول الصحيح ، والتجريح ، والتماس العذر للاخ، واستعمال القول اللين حتى ينتفع بنقده وعلمه فقد أمر بلين القول لاطغى الناس وأشدهم عتوا وشرهم فى قوله تعالى لموسى وهرون عليهما السلام :

(أذهبا الى فرعون انه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) ٠

والله الهادى الى سوء السبيل

توضيـــح حـــول نشر محـاضرات الملتـــقى

ننشر هذه المحاضرات طبقا لمبدأ نشر كل محاضرات الملتقى الذى أعلنا عنه فى العدد الاول من « الاصالة » تعميما للفائــدة ، ولطلب الكثير ممن تصلهم المجلة ولا تصلهم كتب الملتقيات .

وقدقررنا أن ندرج فى كل عدد على الاقل مقالين .

ونرجو أن يكون السادة الاساتــذة الذين أرسلوا الينا بمقالات لم نصل بعد الى نشرها وعاتبونا على نشر القديم المتمثل فى هذه المحاضرات من ملتقيـــات سابقة،وترك الجديد من الانتاج ، قد فهموا الآن قصدنا مــن هــذا .

كما سندرج فى المستقبل فى كل عدد ، بانتظام ، نصا أو نصين من المحاضرات التى درجت الوزارة على تنظيمها خلال القطــر منذ سنوات باسم المركز الثقافى الاســـلامى .



القــرآن والشعــر
أو الاســلام والادب

د. عبد الرشيد مصطفاي
أستاذ بكلية الآداب
جامعة الجزائـر

للشعر على العرب سلطان عظيم فلا عجب أن تنزل فيه آيـات في القرآن الكريم وقد كان خصـوم النبي (ص) يبثـون دعايـاتهم الباطلة حوله ليصدوا الناس عنه ومن هذه الدعات التي يريدون بها تحقير النبي (ص) واستصغار شأنه جعلهم القرآ شعرا والنبي (ص) شاعرا فلا ينبغي أن يهتم به الناس أكثر من اهتمامهم باخوانه مـن الشعراء الذين خفت دويهم بعد موتهم ، وهذا ما حكاه الله تعالى في سورة الطور بقوله : « **ام يقولون شـاعر نتربص به ريب المنون** » ، أفترون ان القرآن يسكت عن افتراءاتهم ولا يرد مزاعمهم المغرضة ، كلا ، لقد ورد في سورة يس قوله تعالى : « **وما علمنـاه الشعر ومـا ينبغي له** » ، ثم ورد في سورة الشعـراء قوله تعالى : « **والشعـراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر انهم في كل واد يهيمـون ، وانهم يقـولون ما لا يفعلون ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحـات وذكروا الله كثيرا ، وانتصروا من بعد ما ظلموا** » . وهذه الآية الـكريمة تبين لنا بوضوح موقف القرآن من الشعر والشعراء وهذا الموقف عندنا حاسم فلـو يسر للمسلمين أن يقفوه لكان للشعر عندنا شأن آخر كما سنبينـه في هذه المحاضرة (المسامرة) .

اما ان يكون العرب يعرفون حق المعرفة ان القرآن ليس بشعر وان النبي ليس بشاعر فهذا امر يحتاج الى بيان ، انما هي الدعايات الكاذبة يستعملها الخصم المغرض عسى أن تروج عند بسطاء العقول من النـاس .

ولكن المهم في هذه الآية الكريمة أن نرى القرآن يجعل الشعراء كسائر الناس مسؤولين عما يقولونه ويفعلونه وان شعرهم كما قال

(*)محاضرة القاها في الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الاسلامي المنعقد بقسنطينة في 17/8 جمادى الثانية 1390 هـ ــ 19/10 اوت 1970 م .

النبى (ص) كلام « **فحسنه حسن ، وقبيحه قبيح**» فحسنه ما كان محافظا على مكارم الاخلاق داعيا اليها ساعيا فى غرسها فى نفوس البشر فيكون الشاعر قد قام بوظيفة فى المجتمع قياما يعود على البشرية بالخير العميم ٠

واما قبيحه فما كان هادما للفضائل داعيا للرذائل بتحسينها واستهواء الناس اليها حتى يعم الشر والفساد ٠

فنحن اذا أمام نظرية الفن للاخلاق لا الفن للفن ، والآية قد وصفت لنا أصحاب النظريتين بقوله : « **والشعراء يتبعهم الغاوون ، الم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وانهم يقولون ما لا يفعلون** » ، ان أكثر الداعين أن يكون الفن للفن يصدق عليهم وعلى اتباعهم وصف الغواية اذ فصلوا الفن عن الاخلاق ، فالشاعر أو الفنان لا يعنى الا بفنه ، فالاخلاق الفاضلة لا تهمه ولا يرى لها دخلا فى انتاجاته الفنية اذ ليس لنا فى نظره ان نهتم بسيرة الشاعر واخلاقه وانما اهتمامنا ينبغى أن يوجه الى شعره كأنه ليس مسؤولا عما يعمل ويقول ، انما هو مسؤول عن فنه هل أجاد فيه أو لا ، فكأنما أرباب الفن طبقة ممتازة فوق البشر لا تسأل عما يسأل عنه سائر الناس من الاعمال الصالحات ، وقد وجدوا عندنا مبررا لهم فى قوله تعالى : «**٠٠ وانهم يقولون ما لا يفعلون** » ، ومما يوضح لنا هذا ما حكى عن سليمان بن عبد الملك الخليفة الاموى لما سمع الفرزدق ينشد :

فبتن بجانبى مصرعات * وبت أفض أغلاق الختام

فقال له : قد وجب عليك الحد ـ لانه اعترف بمعصية وأقر بها ـ فقال يا أمير المؤمنين قد درأ الله تعالى عنى الحد بقوله سبحانه : « **وانهم يقولون ما لا يفعلون** » ٠

واما أصحاب نظرية الفن للاخلاق فنستجليهم من قوله تعالى : « **الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا** » هذه الجماعة بفضل ايمانها واعمالها الصالحات لا تعادى مكارم الاخلاق بل تسعى فى تدعيمها فى المجتمع ورعايتها بالذود عنها،فهم يعتقدون انهم مسؤولون عما يقولونه ويفعلونه وهذا ما نبه اليه الشعراء عمر بن عبد العزيز لما وقفوا ببابه فلا يأذن لاحدهم بالانشاد عنده حتى يقول له قل ولا تقل الا الحق،انك مسؤول عنه ٠

فالنبى (ص) والخلفاء الراشدون وكل أتقياء المسلمين كانوا يودون أن يوجه الشعر هذا التوجيه الجديد الذى يريده الله تعالى له ، وقد أسلفنا حكم النبى فى الشعر فى قوله (ص) «الشعر كلام حسنه حسن وقبيحه قبيح» ولزيادة الايضاح نقول ان النبى (ص) يشير الى قوة تأثير الشعر فى النفوس ولا سيما نفوس العرب ولذلك لما اشتد هجاء قريش له انتدب حسان بن ثابت للدفاع عنه وقال له **اهجمهم فوالله لشعرك اشد عليهم من وقع السهام فى غبش الظلام**. انظروا الى قوله أشد عليهم كيف يصور لنا تأثر العرب العظيم بالشعر حتى كان يرفع الخامل ويضع الرفيع .

فموثبات البسوس فى اثارة الحرب بين بكر وتغلب وقصه بنى انف الناقة مع الحطيئة وبنى النمير مع جرير لأدلة قاطعة على ما للشعر من تأثير شديد .

فلا عجب اذا ان يقف المسلمون بعد نزول تلك الآيات فى الشعر والشعراء موقفين فمنهم من اعتدل ومنهم المتورعون الذين شددوا النكير عليهم حتى صاروا يسالون العلماء كابن عباس وابن سيرين عن الغزل الرقيق ما حكم انشاده فى المسجد .

نعم ان فى موقفهم لغلوا بينا اذ النبى (ص) انشده فى المسجد كعب بن زهير قصيدته المشهورة التى افتتحها بالغزل والتى يقول فى مطلعها :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول
متيم اثرها لم يفد مكبول

فلم ينكر عليه (ص) بل أثابه بالقاء بردته عليه .

ولكن اعترى الشعر فى صدر الاسلام فتور وضعف بسبب اشتغال المسلمين بالفتوحات وكثرة ألتورع الذى يجعل الشعر أشبه شيء بلغو الحديث ، ولا ننس كذلك مقدار تأثر العرب بالقرآن وكيف بهرهم بفصاحته وبلاغته حتى استصغروا شأن الشعر ، كما وقع للبيد لما ساله عمر بن الخطاب ان يرسل اليه ما قاله فى الاسلام فأرسل اليه بالفاتحة وكتب له أن الله تعالى اغناه عن قول الشعر بمدارسة القرآن ، ثم كان القريض يتوجه هذه الوجهة الجديدة وجهة

الاخلاق وصيانتها فكف الشعراء عن ذكر الخمر والسباب والشتم وكان عمر بن الخطاب يعاقب على الهجو وقد سجن الحطيئة حتى تاب. ولكن لم تدم هذه الفتـرة الا قليـلا .

فلما كانت دولة الامويين عاد الشعر الى سيرته الاول التى عرفناها له فى الجاهلية مع تحفظ قليل ولا سيما ذكر الخمر ووصفها اذ لـم يشتهر ذكرها الا عند الاخطل الشاعر النصرانى الذى جرأته السياسة على هجو الانصار بايعاز من يزيـد بن معاوية فقال فيهم ذلك البيت المشهـــور :

ذهبت قريش بالمكارم كلها * واللؤم تحت عمائم الانصار

فجاء معاوية النعمان بن بشيـر الانصارى فقـال وحسر عن جبهته عمامته .. أترى لـؤما ، قال معاوية : لا بل خيـرا وكـرما ، قال : الاخطل يزعم ذلك ، قال : ان فعلها فلك لسانه ، فلما بلغ الخبـــر الاخطل التجأ الى يزيد وشفع له عند النعمان بن بشير واستوهبـه فوهبه له ، وهكذا أخذت السيـاسة تفعـل أفاعيلها فنـرى الاخطل لانتصابه مدافعا عن خلافة الامويين يجرأ على هجو الانصار وتعييـــر المسلمين بتمسكهم بقواعد دينهـم بقوله :

ولست بصـائم رمضـان طـوعا
ولست بـآكـل لحـم الاضـاحى
ولست بـزاجـر عنسـا بكـورا
الى بطحــاء مكـــة للنجـــاج
ولست منـــاديـا ابـــدا بليـل
كمثـل العـير حى عـل الفـلاح
ولكنى ســاشــربها شمـــولا
واسجـد قبـل منبلـج الصبـاح

وهكذا يتسع الخرق ويستفحل الشر فتنقسم الوحدة الاسلامية الى عدنانية وقحطانية بسبب السياسة وتنقسم العدنانية الى ربيعية ومضرية ثم المضرية الى قيسية وتميمية وتعصب بنو امية فى أول امرهم الى اليمانية لان القيسية كانت شيعة عبد الله بن الزبير ثـم تعصبوا لمضر بعد عصيـان أولاد المهلب لهم بخراسان لانهم هـم وانصارهم من اليمانية ولكل حزب من هذه الاحزاب شعراء معدودون

وكان بعض أمرائهم وولاتهم يغرى بعض الشعراء ببعض فيقع بينهم التهاجي والتناقض كالذي وقع بين جرير والفرزدق والاخطل حتى صار العرب فى الهجاء الى شر مما كانوا عليه فى الجاهلية حتى أحيوا تلك الحمية الجاهلية والتعصب القبلى ، وقد جاء الاسلام بمحوهما وجمع كلمة المسلمين ، ثم جاءت الدولة العباسية فزاد الخرق اتساعا والشر استفحالا لتاثرها بالمدينة الفارسية اذ كان تاسيس هذه الدولة على يد الفرس فكان لزاما ان يشاركوا العباسيين فى الحكم فكان منهم الوزراء كالبرامكة حتى أبعدهم الرشيد بقتلهم وذلك لاستبدادهم بالملك دون الخليفة ، فلا عجب اذا ان يتاثر بهم كل من يتقرب اليهم من الشعراء والكتاب بل تجاوز ذلك الى جل الحضريين فصارت الاطعمة والملابس والابنية وحتى الاحتفال بالاعياد صار كل ذلك فارسى الصبغة ونقلت الدولة كذلك النظام الكسروى فى تنسيق دواوين الدولة واساليب الحرب ، وانتشرت الآداب الفارسية فى الناس فاتجه الشعر وجهتين وجهة رسمية ووجهة غير رسمية فاما الوجهة الرسمية كانت تظهر فيها المحافظة على الاوضاع القديمة التى ورثها العرب من شعراء الجاهلية من استهلال بالوقوف بالاطلال فذكر الحبائب فوصف الناقة وذكر الصحراء وان لم يركب الشاعر ناقة ولا اخترق صحراء ، وكان الخلفاء جد حريصين على هذه المحافظة التى تربط حاضرهم بماضيهم ، واما اذا خلا الشاعر بنفسه نزع عن هذه الاوضاع واستهجنها واندفع فى تقليد الفرس فى آدابهم ويمثل لنا هاتين الوجهتين أبو نواس أحسن تمثيل فنراه اذا وقف أمام الخليفة أنشد شعرا لا يخالف فى اوضاعه ومتانته وجزالة لفظه شعر من تقدمه من شعراء بنى أمية وشعراء الجاهلية ولكن عند ما يحظى بمنادمة الاصحاب والخلان يعدل عن هذه الاوضاع ويستهجنها وينعى على من يحاكيها الوقوف بالاطلال ووصف الناقة ويحرض معاصريه أن يثوروا معه ضد هذه الرسوم ليعدلوا عنها الى وصف البساتين والقصور وذكر الخمر وركوب السفن ٠

وتعدت هذه الثورة على الاوضاع الشعرية القديمة الى الاخلاق والعقائد الاسلامية وقد كانت جماعات من الفرس الذين لم يسلموا الا رئاء الناس وهم باقون على عقائدهم الفارسية القديمة بفضل الحرية

التى شملتهم يجاهرون بالزندقة والالحاد والفجور ويرون من تمام اللذة أن يجهر المرء بعصيانه وفسوقه كما فعل أبو نواس فى قوله :

الا فاسقنى خمرا وقل لى هى الخمر

ولا تسقنى سرا اذا أمكن الجهر

وقد صدقت فيهم هذه الآية الكريمة : « **بل يريد الانسان ليفجر أمامه** » أجل وما هذه الدعوة الشنعاء الى التحرر من الواجبات الدينية والخلقية الا ليتسنى للانسان أن يفجر أمامه وان يأتى من المنكر ما يأتيه لا وازع يردعه ولا قانون يزجره فيندفع فى شهواته اندفاع البهائم وهذا ما جعل ابن عبد ربه يحكى فى العقد الفريد عن بعضهم وهو ينظر فيما ورد فى شعر عنترة من التماهي بمكارم الاخلاق كالذى جاء فى هذا البيت :

واغض طرفى ما بدت لى جارتى * حتى يوارى جارتى مأواها

وفيما ورد فى شعر أبى نواس من التحرر من كل واجب دينى أو خلقى كما فى قوله :

كان الشباب مطية الجهل * ومحسن الضحكات والهزل

قال عند ما نظر فى ذلك .. وددت لو ان مع أسلافنا كرم أخلاق آبائنا فى الجاهلية ، ألا ترى أن عنترة الفوارس جاهلى لا دين له والحسن بن هانىء اسلامى له دين فمنع عنترة كرمه ما لم يمنع الحسن بن هانىء دينه .

وهكذا كلما تقدمت الايام زاد الشعر عند فاسدى الاخلاق من الشعراء امعانا فى الشر والفساد حتى أداهم ذلك الى فساد الذوق وسماجته ، وفى كتاب اليتيمة للثعالبى نماذج تبين الى أى حد تسقط النفوس وتنفسد أذواقها عند ما تذوب الواجبات الدينية والخلقية .

يجدر بنا الآن بعد استعراضنا الوجيز لهذه الوجهة السيئة التى اتجهها الشعر العربى من جراء السياسة والمحاولة للتحرر من الدين والاخلاق أن نعرف موقف المسلمين من الشعر فلا نبعد من الحقيقة اذا قلنا انهم افترقوا فرقتين احداهما مؤلفة من أتقيائهم والوارعين منهم فما زالت منذ صدر الاسلام ولاتزال الى يومنا هذا تعد الشعر كلاما حسنه حسن وقبيحه قبيح كما أسلفنا ذلك فهى تشدد النكير على هذا الشعر السىء الفاسد الذوق المفسد للاخلاق ولكن يا للاسف لم تكن

هذه الجماعة أكثرية حتى نفرض نظريتها على الشعراء والكتاب ولم تكن كذلك فى غالب الاحيان من أرباب الفن فنظرها وان كان من حيث الاستقامة الخلقية ذا قيمة عظيمة لم يكن من حيث الشعر والفن شيئا مذكورا ..

واما الفرقة الثانية المؤلفة من أرباب اللغة والادب والشعراء والكتاب فقد وقفت موقفا يكاد يكون خاليا من التأثر بالآية التى وردت فى سورة الشعراء والتى تحدد لنا كما رأيناه موقف القرآن من الشعر والشعراء .

فاخذ الناس ينسجون على منوال الشعر الجاهلى ويحاكونه بما فيه من خير وشر وصار النقاد لا ينظرون اليه الا من الوجهة الفنية واللغوية والتاريخية كذكر وقائع العرب ، واما أخلاق الشاعر فلا تعنيهم وصاروا يفرضون محاكاة الشعر القديم على الشعراء حتى صار أحدهم اذا قال شعرا أو ألف كتابا نسبه الى شاعر أو كاتب قديم ليحظى باستحسان ، وقد يحكى عن الاصمعى فى هذا شىء طريف جاء عن اسحاق الموصلى انه أنشد الاصمعى هذين البيتين :

هل الى نظرة اليك سبيل * فيبل الصدى ويشفى الغليل
ان ما قل منك يكثر عندى * وكثيرا ممن تحب القليل

فقال الاصمعى هذا والله الديباج الخسراوانى ولمن تنشدنى ؟ فقال اسحاق الموصلى انهما لليلتهما فقال لا جرم ان اثر التكلف فيهما ظاهر ، فهذا الموقف من علماء اللغة ضيق المجال على الشعراء بفرض أوضاع الشعر الجاهلى عليهم فلم يتحرروا منها بعض التحرر الا فى القرن الرابع مع المتنبى (303 – 354) .

ثم تطور نقدهم على الفن جعلهم يلتمسون الاعذار للشعراء فيما يرد فى كلامهم من السخافات والحماقات وهذا ما جعل القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى فى كتاب الوساطة بين المتنبى وخصومه ينتصب مدافعا عن المتنبى لما نعى عليه خصومه سخافاته التى تنم عن فساد العقيدة الدينية والاستخفاف بها وهذا ما جعل فى عصرنا كذلك الشيخ محمد عبده فى شرحه لمقامات الهمذانى ينظر الى قصيدة لابى نواس وردت فى المقامة الابليسية نظرة فضيحة محضة على ما فى القصيدة من افساد الاخلاق .

فهذه الامثلة تدلنا دلالة واضحة قاطعة على أن أكثر الشعـــراء والادباء والنقاد وقفوا موقفا مناصرا لنظرية الفن للفن وصرحـــوا تصريحا لا يحتمل التأويل ان لا دخل للدين والاخلاق فى الشعـــر خاصة وفى الفن عامـة .

فنحن الآن واجدون أنفسنا أمام مشكلة عظيمة تجعلنا نتســاءل عما اذا كانت البشرية بعد هذه التجارب العديدة وهذه القرون الطوال التى مارست فيها الفن والادب لا تستطيع أن تنتج فنا أو أدبا الا اذا تحررت من الدين والاخلاق ، فنحكم كما حكم الاصمعى عند ما نظر فى شعر حسان بن ثابت فقال الشعر نكد يقوى فى الشر ويضعف فى الخير قوى فى شر الجاهلية وضعيف فى خير صدر الاسلام .

ولكن نقول انه من سوء حظ البشرية أن لا يكون لها فى سبيل الفن الا وجهة الفن للفن مع ما فيها من نبذ الدين والاخلاق اذ لا بد لها من الفن ولا بد لها من الدين والاخلاق لتتـم سعادتها .

فما العمل يا ترى ؟ ان الفصل فى هذه المسالة لعسير جدا ولكن ليس بالمستحيل فنحن نعتقد أن وجهة الفن الاخلاقى هى التى تكفل للبشر سعادتهم مع ارضاء رغبتهم فى الانتاج الفنى انتاجا ساميا .

ولكن للقائل أن يقول ما نصنع بالشعر الذى قيـل فى الغـزل العفيف والزهد والتصوف فهو لا محالة ينم عن اخلاق فاضلة .

أجل ، غير انه لم يرق فى جملته أربابه الى درجة الفحول على ما فى الزهديات من قصـور فى ارضاء كل رغبات الناس المختلفـة اذ توجههم الى الآخرة وتصرفهم عن الدنيا وما فيها من الطيبات الـــتى اخرجها الله لعباده وجعلها حلالا لهم وما فيها كذلك من المحاسن التى تبتهـج بها النفـوس .

واما الصوفيات فعيبها جاءها من قبل تمسك اصحابها بالاوضاع المعروفة فى الشعر العادى وتاويلها تاويـلا باطنيا يجعلها غـامضة لا تعنى الا طبقة خاصة من الناس فهى بعيدة عن متناول كل أحد .

ولكن هذا لا يمنعنا ان نقدر لهذا النـوع من الشعر قـدره فى محافظته على الدين والاخلاق ولا سيما الغـزل العفـيف والزهد بل يجعلنا نعتقد انه متى تظافر على الشاعر وسط مستقيم وتنشئـــة قويمة ومزاج سليم استطاع أن ياتينا بروائـع فنيـــة .

وهذا ما فطن له الشاعر الروسى الكبير نيكولا كوكول صاحب الارواح الميتة اذ نظر فى أدبه الرائع فوجد نفسه بارعا فى وصف النفوس الشريرة وتحليلها فحكم أن ذلك أتاه من قبل نفسه التى لم تهذب تهذيبا يوجهها الى الخير وتمكنها من وصف نفوس الابرار لتكون قدوة صالحة للناس فانبعثت فيه رغبة الى التقوى والاصلاح فتنسك وانعزل فى دير حتى مات ٠

وفى الختام نرى لو أن جمهرة الادباء تمسكوا فى أدبهم بروح الآية الواردة فى الشعراء وبروح القرآن عامة لخلفوا لنا تراثا نقيا ساميا انسانيا تنم منه الفضائل التى بدونها لا تستطيع البشرية أن تأخذ حظها من السعادة التى تنشدها فى هذه الدنيا ٠

واقـــع الجاليـــة العربية الاســـلاميـــة في أوروبـــا والاخطـــار التي تهـــدد شخصيتهـــا



الاستاذ عبد الكريم غريـــب
رئيس ودادية الجزائريين
في أوروبـــا

يجدر بنا قبل الدخول في صميم المشاكل التي تتعرض لهـــا الجالية العربية والاسلامية النازحة في أوروبا من مختلف أقطـــار العالم الاسلامي أن نتعرض الى حجمها وأنواعها ومراكز هجرتهـــا ومناطق استيطانها ونحاول تبيين الدوافع والأسباب التي حدت بها الى مغادرة أوطانها والقبول بالمغامرة الكبيرة التي تعرضها للتمـــزق وتهدد شخصيتها بالانحراف والانحلال ضمن المحيط الجديد المناهض الذي يستقبلها .

يعيش في مختلف أقطار أوروبا الغربية ماايناهز المليون وسبعمائة الف نسمة من العناصر العربية والاسلامية حسب التقديرات الشبه الرسمية لأن الاحصاءات الدقيقة في ميدان الهجرة لا تزال غير مضبوطة لأسباب عديدة منها : حركة هذه اهجرة وسرعة تنقلها من منطقة الى أخرى حسب متطلبات العمل الذي تقوم به والذي يفرض عليها عـــدم الاستقرار وحسب ظروف الانقسام العائلي الذي يحتم عليها أن تعود الى مواطنها لزيارة الأهل في فترات متقطعة ومنتظمة وحسب نوعيـــة السياسة المشجعة أو المعيقة التي تنتهجها الدول المستقلة والـــتي تأخذ بعين الاعتبار ظروفها الاقتصادية وحاجتها الى الايد العـــاملـــة أو انتشار البطالة في وسط سكانها كما تأخذ بعين الاعتبار طبيعـــة العلاقات السياسية مع الدولة التي تقدم منها هذه الجالية بالاضافة الى أسباب أخرى معقدة تتلقى في مجموعها لتجعل امكانية حصر عـــدد المهاجرين عملية غير دقيقة ومهما يكن فان مناطق الهجرة الاساسيـــة الى أوروبا يمكن حصرها في أربع حسب أهمية الاعداد البشريـــة الوافدة منها وهي على التوالي :

(*)محاضرة القاها في الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الاسلامي المنعقد بقسنطينة في 17/8 جمادى الثانية 1390 هـ ـ 10/19 اوت 1970 م.

1) ـ **منطقة المغرب العربي** باقسامها الثلاثة (المغرب والجزائر وتونس) والتي تمثل مركزا هاما من جراء الجالية الهامة التي تهاجر منها وتقيم خارج أراضيها وخصوصا الجزائر التي كانت طبيعة الأوضاع السياسية الاستعمارية عاملا أساسيا في تشجيع سكانها على الهجرة ويبلغ عدد هذه الجالية المغربية 880 ألف نسمة يعيش معظمها في فرنسا .

2) ـ **منطقة آسيا الجنوبية** هي المنطقة الثانية بالنسبة الى عدد مهاجريها ويبلغ عددهم 450 ألف نسمة يتوجهون بالدرجة الأولى الى بريطانيا ثم هولندا بالنسبة للاندونيسيين وأخيرا فرنسا وبلجيكا والمانيا وسويسرا .

3) ـ **افريقيا الوسطى والشرقية** وتمثل المنطقة الثالثة حيث تعيش جالية اسلامية هامة ويبلغ عدد المهاجرين منها حوالى 220 الف نسمة يستقرون في هجرتهم في بريطانيا ثم فرنسا واخيرا الدول الأخرى كالمانيا وبلجيكا والبرتغال وسويسرا .

4) ـ **الشرق الاسط** وتمثل جاليته في أوروبا أعدادا قليلة بالنسبة للمناطق السابقة ما عدا تركيا التي تضاعفت جاليتها منذ سنوات قليلة ترجع الى سنة 1963 وتتجه في أغلبها الى ألمانيا حيث يوجد حاليا ما يفوق 150 الف نسمة ، ثم فرنسا التي لا يتجاوز عدد الأتراك فيها ثمانية آلاف نسمة ، أما المناطق الأخرى كالبلاد العربية في المشرق فان الجالية المهاجرة منها بأعداد هامة تتوجه أكثر ما تتوجه الى أمريكا بقسميها الشمالي والجنوبي أما أوروبا فعددها لا يزيد في أحسن التقديرات 40 ألفا يفدون اليها من العراق ولبنان وسوريا وفلسطين ومصر ومناطق الخليج وسنرى أن طبيعة هذه الجالية مخالفة في أهدافها عن بقية الجاليات الأخرى الهامة فالقسم الأساسي منها طلبة يأتون للدراسة والقسم الثاني يأتون للعمل والتجارة والقليل جدا من يأتي بنية الاشتغال اليدوي كعمال .

ويمكن اعطاء الرقم التالي التقريبي لجالية هذه المنطقة الأخيرة فهي تقدر بحوالى 250 ألف نسمة بحيث نتوصل خلال تقديرات مجموعة الجاليات الاربعة السابقة الى حوالى 1،740،000 نسمة موزعة كما يلي بحسب مناطق هجرتها وحسب اهميتها العددية :

بلد الهجرة / المغرب العربي	منطقة آسيا الجنوبية			افريقيا السوداء	الشرق الاوسط	
الجزائر المغرب تونس عدد جاليتها	الهند	باكستان	المناطق الاخرى		تركيا	البلاد العربية
90000 120000 6/0000	200000	120000	100000	220 000	160000	40000

ونظرا لضخامة عدد الجالية المغربية فان المجموعة العربية تمثل وحدها المليون نسمة وتاتى بعدها المجموعة الاسلامية الاسيوية ثم المجموعة الافريقية .

أما الاقطار التى تستقر فيها فان القسم الكبير من هذه الجالية كما رأينا يتجه نحو فرنسا ثم بريطانيا ثم تاتى بعدها من حيث الاهمية المانيا وبلجيكا وهولندا وسويسرا .

فرنسا	933 000 نسمة
بريطانيا	535 000 » »
المانيا	180 000 » »

بلجيكا يقدر عدد الجالية العربية الاسلامية فيها بحوالى 50،000 ألف نسمة ، أما سويسرا وهولندا وبقية البلدان الاخرى فان أرقامها مجهولة لدينا ولكن التقديرات التى تعطي لابد أن تتجاوز فى عددها العشرين الف نسمة .

أسباب هذه الهجرة :

والملاحظة الاولية الهامة التى يمكن استخلاصها من الارقام السابقة واتجاه الهجرة بين مواطنها الاصلية ومراكز عملها هى كون هذه الجالية مرتبطة بالدول الاستعمارية التى خضعت اليها بلدان هذه الجاليات ونظرا لكون الدولتين الهامتين اللتين لعبتا دورا كبيرا فى السيطرة الاستعمارية هما بريطانيا وفرنسا ، لذلك نجدهما يحتلان مرتبة أساسية فى توفر جاليات ضخمة فوق أراضيهما وهذا ما يفسر لنا أحد الاسباب الجوهرية للهجرة القائمة بين العالم الثالث وأوروبا ، فالاستعمار لم يكتف باستغلال ثروات البلاد التى خضعت له ونهبها ولم يرض فقط باحتكار أسواقها لتصريف منتجاته

الصناعية وترويج ثقافته واستعباد سكان المستعمرات بل حاول كذلك أن يجعل من سكانها الذين نشر بين صفوفهم الفقر والبطالة وتركهم فى حالة جهالة كبيرة «مخازن لليد العاملة» حسب تعبيرات خبرائهم ، لاسترادها بأقل التكاليف للقيام بالاعمال الشاقة التى أخذ يستنكف من القيام بها سكانه كما كان يدفع بهم عند الحروب وظروف التمرد أو ضمن المستعمرات الى التجنيد ومواجهة الموت بدلا من مواطنيهم ·

وكلنا يعلم أن الدفعات الاولى التى خرجت من أوطانها من هذه الجالية سواء فى المغرب العربى أو فى آسيا أو فى افريقيا السوداء انما جاءت الى أوروبا خلال مرحلة الاعداد للحرب العالمية الاولى للعمل فى مصانع التسليح أو خلال انفجارها فأولى الهجرات الجزائرية الى فرنسا تمت أثناء 1911 ـ 1914 وقد تضاعف عدد هذه الجالية العربية الاسلامية أثناء الحرب العالمية الثانية حيث شارك فى هذه الحرب الجهنمية كل من المغاربة والعرب والهنود والافارقة وغيرهم من سكان المستعمرات وقد ذهب ضحيتها آلاف من هؤلاء المنكوبين وكلنا يعلم كيف كانت فرنسا وبريطانيا وغيرهما تحاولان اخماد الثورات الوطنية باعتماد جالية مجندة لأجبارها على محاربة اخوتها من المسلمين فقد جلبت الجزائريين واستخدمت هؤلاء فى حرب الهند الصينية الى غير ذلك ·

وبصفة عامة فقد كانت السلطات الاستعمارية مستهينة ، ولا تزال ، بمقومات الانسان العربى الاسلامى وكانت تستخدمه وتسخره فى جميع المجالات والاعمال الشاقة المؤلمة التى غالبا ما تودى بحياته سواء فى بلاده أو بلاد الهجرة التى تنقله اليها حسب احتياجاتها الاقتصادية والعسكرية ·

أما الملاحظة الثانية التى يجب الاهتمام بها والتى تعتبر فى حد ذاتها نتيجة للسابقة فهى ان الاغلبية الساحقة من هذه الجالية تنتمى الى جنس الذكر الفتى ، فحوالى 90٪ من هذه الهجرة من الرجال و6٪ فقط من الاطفال والعمر الاساسى الذى نجده يمثل العمر الوسطى بين عناصر هذه الجالية يتراوح بين 20 و 50 سنة وهى المرحلة الهامة التى يكون فيها الانسان قادرا على الانتاج نشيطا ، فالاستعمار بحكم

حاجته لهذه الايدى العاملة لتجنيدها فى شتى مجالات النشاط المرهق يختارها فتية مملوءة بالحيوية والنشاط فاذا تم له ما أراده أعادها لأوطانها محطمة أو جثثا هامدة وخصوصا وانه يدرك مدى تعلق هذه الجاليات بأوطانها ، وبالتالى فلن تكون عبئا عليه عند بلوغها سن الشيخوخة أو اصابتها بأمراض فتاكة ، فالمعروف ان الانسان العربى المسلم يفضل عند شعوره بدنو أجله ان ينتقل الى أرضه حتى يدفن فى تربة اسلامية ٠

ومن المفيد لتوضيح هذه الحقيقة السابقة ان نورد على سبيل المثال طبيعة تكوين الجالية الجزائرية لتوفر الارقام حولها حتى تؤكد ما سبقت الاشارة اليها ٠

فمن مجموع السكان الجزائريين البالغ عددهم 634،616 المعروفين بعد ان تم حصولهم على بطاقة الاقامة نجد فيهم 55،502 نساء و 199 الف أطفالا يقل عمرهم عن 16 سنة والباقى من الذكور ، ويلاحظ أن عدد الاشخاص الذين يتراوح عمرهم بين 20 و 35 سنة يبلغ أكثر من 55٪ فاذا أضيف الى هذه النسبة من تتراوح أعمارهم بين 35 و 60 سنة وهى التى يمكن اعتبارها سنة يصبح صاحبها غير قادر على الانتاج والذين تتراوح أعمارهم بين 20 و 25٪ فى المجموع يتبين لنا أن أكثر من 80٪ يمثلون الجالية القادرة على الانتاج أما المتجاوزون سن 65 سنة فعددهم الاجمالى لا يزيد حسب الاحصاء الاخير (أبريل 1970) عن 2،888 نسمة ٠

والشيء الذى يجدر الانتباه اليه هو ان الجالية الجزائرية قد تميزت عن غيرها بكثرة النساء والاطفال من جراء القرب الجغرافى ونتيجة لسياسة السلطات الاستعمارية الفرنسية التى كانت حريصة على ايجاد شبه استقرار فى اوساطهم طوال فترة القدرة الانتاجية ولذلك شجعت على جلب الاسرة كما ان الدراسات التى أجراها الخبراء النفسيون الاجتماعيون أظهرت عامل العزوبة والانفصال عن الاسرة كأحد الاسباب فى الاضطراب النفسى والميل الى عدم استقرار الايدى العاملة الجزائرية يضاف الى ذلك حرية التنقل السابقة وعدم خضوع هذه الجالية لوضع بطاقات الاقامة مما يجعل العامل قادرا على تجهيز أسرته دون التعرض لرقابة السلطة من حيث تأمين موارد العيش له ٠

ويتبين لنا من كل ما تقدم أن الاسباب الاساسية لانطلاق هذه الهجرة الى أوروبا كانت فى أصلها استعمارية واذا كانت دوافعها الحالية تختلف فى بعض أوجهها القانونية الا ان جذورها العميقة واحدة ، فمن أهم الاسباب الحالية للهجرة كثرة البطالة فى بلاد الهجرة ولكن سبب هذه البطالة ليس حديثا ، فالدول المستقلة وجدت أمامها ميراثا ضخما فى هذا المجال ويكفى الاشارة الى أن الجزائر عند الاستقلال كان لديها أكثر من 2 مليون عاطل عن العمل من جراء توقف الاقتصاد وعودة اللاجئين من تونس والمغرب وتحطيم جميع وسائل العمل فى الارياف ، والامر نفسه فى كل من تونس والمغرب مع اختلاف فى الدرجة لا فى النوع . وهناك سبب آخر مصدره أيضا البلاد الاوروبية المصنعة وهذا السبب هو الدعاية القوية التى تقوم بها وكالاتها فى بلدان العالم الثالث لاستراد الايدى العاملة اللازمة للنهوض باقتصادها ويكفى أن نشير الى أن المانيا الغربية قد استوردت أكثر من مليونى نسمة من خارج حدودها منذ سنة 1961 ويبلغ حاليا نسبة الاجانب بالنسبة للعاملين من سكانها 6٪ وهى تسعى حاليا جاهدة لاستيراد أكبر قسط ممكن منهم والامر نفسه بالنسبة لفرنسا اذ يوجد حاليا ما يناهز الثلاثة ملايين أجنبى تعمل فى اقتصادها والامر نفسه صحيح بالنسبة لبريطانيا حيث يعمل فى مصانعها وورشاتها ما يفوق الثلاثة ملايين أجنبى ، فاذا أخذنا الدول الصغيرة كسويسرا ولكسمبورغ نلاحظ أن عدد الاجانب أكثر مما يتصور ، فاذا كانت نسبة الاجانب فى فرنسا تقارب 6٪ فانها فى سويسرا تبلغ حاليا أكثر من 20٪ بعد ان كانت تمثل 18٪ فى سنة 1964 وفى سنة 1955 كانت 9٪ والنسبة المرتفعة جدا نجدها فى لكسمبورغ حيث تزيد عن 30٪ .

فاذا كانت هذه الجاليات الاجنبية فى عدد كبير منها أوروبية كالايطالية والاسبانية والبرتغالية فان الذى يهمنا فى هذا المجال أن وسائل الدعاية والاتفاقات بين الدول هى التى كانت عاملا كبيرا فى تشجيع الهجرة بالنسبة للبلاد العربية الاسلامية فبعد اتفاق سنة 1961 بين تركيا والمانيا أخذت هجرة الاتراك تتدفق على معامل الاخيرة حتى بلغت حاليا ما يقارب 200ألف نسمة والامر نفسه صحيح بالنسبة للاقطار الافريقية وغيرها وكل ذلك لان البلدان الاوروبية المصنعة

المندفعة الى ضمان ازدهارها وتقدمها فى حاجة ماسة الى أيد عاملة جاهزة تقوم بأعمال قاسية منحطة وقليلة الدخل مع كثرة الاخطار ، ويستنكف العامل الاوروبى قبول الاشتغال فيها ، أيد عاملة لا تكلفها تكوينا ولا تربية ولا ضمانات اجتماعية قبل بلوغها سن الانتاج كما هو الشان بالنسبة لأبنائها الامر الذى يمثل كسبا هاما «ان الالتجاء الى العمال المهاجرين البالغين يسمح بالتوفير الكامل لنفقات العمل والتربية والتكوين حتى عمر الانتاج» على حد قبول الدراسة التى قدمها نادى جان مولان ونشرت فى «الرجال والهجرة رقم 115» ٠

ولذلك نجد المخططين للاقتصاد الاوروبى ضمن البلد الواحد وعلى مستوى المجموعات كالسوق الاوروبية المشتركة يدخلون نسبة معينة من الجاليات الاجنبية المهاجرة فى حسبانهم كايد عاملة يجب العمل على ضمانها ، فقد قررت المانيا انه يلزمها لسنة 1970 مليون نسمة اضافيا وخمسمائة الف اضافية فى سنة 1975 اما فى سنة 1980 فيلزمها فى المجموع ما لا يقل عن مليونين وثلاثمائة الف ، أما فرنسا فقد قررت لنفس السنوات 900 ألف ثم 800 ألف ثم 2،500 ألف نسمة فهذه الارقام كافية وحدها للتدليل على وسائل الدعاية التى ستقوم بها هاتان الدولتان للحصول على هذه الاعداد البشرية الضخمة اللازمة لهما الامر الذى يؤكد رأينا فى كون أسباب الهجرة كثيرا ما تكون مدفوعة بالحاجة الى العمل ولكن هذه الحاجة يزيد فى انعاشها وتشجيعها وسائل الاعلام والاغراء المسلط على سكان المناطق المتخلفة فى العالم ٠

واذا كنا قد ركزنا على اليد العاملة وحاولنا تبيان الاسباب التى تقودها الى الهجرة تاركة أوطانها فلكونها تمثل المجموعة الضخمة من الجالية العربية الاسلامية التى تهمنا فى اوروبا ٠

هجرة الاطارات :

غير ان هناك مجموعة أقل من حيث العدد ولكن اهميتها بالغة بالنسبة لشعوبنا وهذه المجموعة هى الاطارات الجاهزة او التى هى فى دور الاعداد والتى تمثل ثروة هامة للبلدان العربية الاسلامية كالطلبة الذين يذهبون لأتمام دراساتهم العالية كثيرا ما يجدون الاغراءات الكبيرة التى تدفعهم الى البقاء والاغراءات عديدة كالاوضاع العادية

المرتفعة بالنسبة لما يتوقعون وجودهم فى بلدانهم وخصوصا ـ بالنسبة للعناصر التى يتوقع فيها النبوغ مما يضيع على بلدانهم المجهودات التى بذلت فى تربيتهم وتوصيلهم الى مستوى التعليم العالى ولا ينالون منهم سوى الجحود والتخلى عن المشاركة فى اعباء بناء[7] مجتمعاتهم وسنرى نوعية الاخطار التى تلحق بشبابنا من جراء الزواج بالاجنبيات سواء رجعوا او استقروا ، ويضاف الى هذه المجموعة أرباب المهن الحرة من أطباء ومحامين وصيادلة ومؤلفين ومنتجين وفنيين ومهندسين وخبراء والذين تعمل وسائل الدعاية الاوروبية على تهريبهم وهذا النوع هو الذى يمكن تسميته بهروب الاطارات أو سرقة العقول التى أصبحت فى العصر الحاضر أهم المشاريع التى تسعى اليها الدول الراقية لضمان تقدمها ، وكلنا يعلم أن العلماء الالمان كان تهريبهم الى أمريكا وروسيا العامل المباشر والاساسى فى تقدم الابحاث العلمية فى مختلف المجالات المعروفة حاليا من طائرات وصواريخ ومركبات فضائية وقنابل ذرية ٠

لقد أصبحت الدول أحرص ما تكون على الحصول على هؤلاء النبغاء الذين يأتونها جاهزين مقتدرين لذلك نجدها تقدم جميع التسهيلات والاغراءات لاستقطابهم وضمان بقائهم ، ان عدد هذا النوع من المهاجرين من العالم العربى الاسلامى قليل فى عدده بالنسبة للعمال لا يزيد عن ١٠٪ من مجموع هذه الجالية ولكن قيمته الفكرية ضخمة جدا ويمكن أن نلحق بهؤلاء بعض أصحاب رؤوس الاموال الذين يقدمون الى أوروبا للتجارة ويستثمرون أموالهم فى بلدان أوروبا بدلا من أوطانهم ليساعدوا على ازدهار بلدان مزدهرة وفقر بلدان فقيرة ٠

هذه صورة عامة طبيعية للهجرة العربية الاسلامية الموجودة حاليا فى أوروبا بأعدادها وأعمارها ، فما هو الواقع الذى تعيشه ؟ وما هى الظروف الاجتماعية والنفسية التى تحيط بها ؟ وما هى الاخطار التى تهددها ؟ هذا ما سنحاول التعرض له الآن لننتهى الى ما يجب أن نقوم به تجاهها وما عمل العالم العربى والاسلامى لانقاذ هذه الجالية المتشردة الضائعة من احتمالات الانحراف والانحلال وفقدان الكرامة٠

الاوضاع التى يعيشون وسطها :

لا يحتاج الامر أن نطيل فى تناول طبيعة الاعمال القاسية المخصصة للجاليات العربية الاسلامية اذ يكفى ايراد نوعية الاعمال التى يقومون بها والنسب التى تشتغل فيها هذه الجالية حتى نتبين خطورة الاوضاع التى يحيونها لتأمين عيشهم ونوعية المشاق التى يتحصلونها لضمان الخبز لأسرهم التى تركوها وراءهم ، ان نسبة 42٪ يعملون فى البناء والاشغال العامة كالطـرقات وحفر التـرع والجسور ومد الانابيـب والقنوات وتنظيف الشوارع والنفايات و 26٪ يشتغلون فى تحويل الحديد وصهره فى الافران مع كل ما يتطلبه هذا العمل من معـانـاة قاسية للحرارة الشديدة والغازات السامة ، وكثيرا ما يتعرضون عند خروجهم من العمل للاصابة بالامراض الصـدرية من جراء اختـلاف الطقس بين الحرارة الشديدة فى الافران والبرد الشديد خارجهـا لذلك نجد قسما كبيرا من العمال المهاجرين المرضى مصابين بالسل الذى يظل ينخر فى أجسادهم حتى نهاية حياتهم ، أما المناجم الفحمية والحديدية فنسبتهم فيها تقدر بـ 3٪ يضاف اليها الاعمال فى مصانع المحاليل الكيماوية الخانقة والاخرى التى تتطلب فى الغالب تحمـلا كبيرا وصبرا شديدا ولا بد لها من أجسام قوية حتى يستطيع العاملون فيها تلافى الوقوع فريسة الامراض المضنية الامر الذى لا يتوفر لدى عمالنا فقلة التغذية والجهد المضنى الذى يحتمه الاستمرار فى العمل لتأمين وسيلة العيش لهم ولابنائهم يقودهم بعد سنوات قليلـة الى الوقوع فى أخطـاره ٠

ان كل هذا معروف للجميع فى قليل أو كثير ولذلك فاننا لـن نقف عنده طويـلا كما قلنا سابقا وانما الذى يهمنـا من ورائـه هو الظروف الاجتماعية والثقافية والنفسية التى تتلـوه ٠

ان نظرة المجتمع الاوروبى الى سكان العالم الثالث بصفة عامـة والعالم العربى الاسلامى بصفة خاصة تقوم على الكراهية والاحتقـار والتعصب ولا نغالى اذا نحن أكدنا بأن المصدر الرئيسى لروح التعصب الاعمى انما انطلق من أوروبا وقد اتخذ أشكالا عديدة منذ أجيال قديمة الى الآن بدأت مع الغزوات الرومانية وانتقلت الى الحروب الصليبيـة لنجد تتويجها فى عهد الاستعمار الذى تدفقت فيه ملايين من الاوروبيين لتحتاج جميع القارات الاخرى وتعمل فيها تقتيلا ونهبا وتشويهـا

فتوصلت الى افناء مجموعات بشرية بأسرها كالهنود الحمر ولا نزال نشاهد اليوم جرائمها تجاه السكان السود فى أمريكا وجنوب افريقيا من جراء التمييز العنصرى المنطلق من روح الاستعلاء والاحتقار للاجناس الاخرى غير البيضاء. وقد توصل الامر بهذا التعصب ان انصب على أوروبا نفسها حيث اخذت أجناس منها كالالمان تدعى تزعمها وأهليتها لتسيير العالم واحتكارها للسلطة على جميع الاجناس الاخرى مما جعلها تعمد الى محاولة طرد غيرها من مستعمراتهم لاستخلافهم مما ترتب عنه اندلاع حربين عالميتين ذهب ضحيتهما ملايين من الابرياء فلا غرابة ان نجد اليوم وراء كل فتنة وكل حرب فى العالم عناصر ودول أوروبية تعمل على سحق السكان والتنكيل بهم لفرض وجهة نظرها عليهم كما هو واقع فى شبه جزيرة الهند الصينية والشرق الاوسط ٠

ان الرجل الاوروبى أصبح لا يقبل بثقافة غير ثقافته ولا بحضارة غير حضارته ولا بلغة غير لغته ولا بدين غير دينه ولا بنظام غير نظامه فاذا وجد جنسا بشريا يرى غير ما يراه تعرض له بالنقد والتجريح وظل يقاومه بجميع الوسائل حتى يتوصل الى تحريفه وتشويه حقيقة وجوده ٠

فلا غرابة أن تجد الجالية العربية الاسلامية مجتمعا مناهضا يرى فيها كائنات متخلفة لا تستحق سوى الاذلال وهذا ما يجعله يخصص لها أحط الاعمال وأقساها وهذا ما يجعله يوفر لها أسوء المعاملة وأوحشها ٠

ولا يراعى سوى مقدار ما توفره لهم من دخل وما تجنبه من نفقات غير مكترث بما يصيبها من أمراض بدنية ونفسية وما يحل بشخصيتها من انحراف وتمزق ٠

ولا نقول هذا كتحامل ورد فعل عاطفى تجاه وضعية المجتمع الاوروبى وانما انطلاقا من حقائق تاريخية معروفة للجميع ومن أحداث يومية شاهدناها بكل ما فيها من عنف ومرارة ٠ وليس غايتنا هنا أن نبحث فى اسبابها فهى عديدة منها ما يرجع الى عوامل تاريخية ومنها ما يرجع الى تقدم العالم الاوروبى ومنها ما يرجع الى تأخرنا

وتراخينا وتفرق شملنا وانما الذى يهمنا أن نلقى بعض الاضواء على الشروط الخانقة التى تعيش فيها جاليتنا

لقد راينا نوعية الاعمال التى تخصص لها مع هضم حقها فى الاجور وقلة العناية بمصيرها الصحى والنفسى وفوق هذا فان ظاهرة التعصب تدفع بالاوروبى الى رفض الايجار للعرب والمسلمين وكثيرا ما نجد الاعلانات فى الجزائر تنص على أن صاحب المسكن لا يؤجر الا الاوروبى أما الملون فهو مرفوض وهذا ما يجعل بعض المهاجرين يضطرون الى التحايل فيدعون جنسية غير جنسيتهم أو يرسلون صديقا اوروبيا يستاجر المحل لهم ، فاذا ذهب العربى أو المسلم الملون الى مطعم أو متجر أو مقهى أو فندق فانهم يعملون بجميع الوسائل لاستنارته حتى يدفعونه الى الهروب أما اذا وقعت مشاداة بين ملون واوروبى وخاصة اذا كان عربيا فان الجميع يناصر الاوروبى ويتالب على الغريب ، ويكفى أن نورد ان الاضطرابات التى وقعت فى فرنسا فى ماى 1968 أو التى قام بها الطلبة الفرنسيون كانت فرصة سانحة لطرد أكبر عدد من الجالية العربية الاسلامية لا لشىء سوى لوجودهم على الرصيف يتفرجون كغيرهم بدافع التطلع فتأتى الشرطة وتقودهم الى مقرها ليبقوا معتقلين حتى يتم اجلاؤهم وكل هذا دون مراعاة للقوانين الدولية التى تنص على عدم طرد الاجنبى ما لم تثبت ادانته ويتم له الدفاع عن نفسه ونفس الامر عند ما وقعت حوادث بالفيل بباريس بين العرب واليهود فى سنتى 69 ـ 1970 وكان سببها تبجح اليهود بانتصار اسرائيل على العرب فلما وقعت المشادات وتدخلت الشرطة نال العرب من المغاربة مظالم كبيرة حيث وضعوهم فى السجون بينما سمح لليهود المستفزين بالبقاء خارجها وهذه ليست سوى امثلة قليلة من الجو المتوتر الذى تعيش فيه الجالية العربية الاسلامية فى أوروبا ، ومما لا شك فيه أن الدعاية المغرضة المعادية التى تسلطها وسائل الاعلام الغربية والصهيونية ضد هذه الجالية قد لعبت دورا كبيرا فى تغذية هذه الكراهية للعناصر العربية الاسلامية ويرجع السبب الآخر الى وجود عناصر لم تقبل بخروج مستعمراتها من قبضتها فقسم كبير من الفرنسيين مثلا لا يغفرون للجزائريين ولا للعرب والمسلمين استقلال الجزائر لذلك يجدون تعويضا معنويا كبيرا فى هزيمة العرب على يد الاسرائيليين ويظهرون

مساندتهم للعصابة الصهيونية ظالمة او مظلومة اذا اضيف ذلك ان بقاء دولة اسرائيل سيجعلهم عند اللزوم يتخلصون من العناصر اليهودية التى خلقت لهم شعورا بالذنب تجاه المجازر التى اقترفوها فى حقها على يد النازية الالمانية والعناصر المتعصبة فى بقية مناطق أوروبا فمساندتهم لاسرائيل فيها تكفير عن الجرم وانتقام للشرف ضد العرب • ومع هذا فانه يجدر فى الصدد القول بأن اتساع نفوذ الحركة الصهيونية ورقة دعايتها يرجع الى تلاحم جاليتها وانتظامها وقوة نشاطها وتضامنها الفعال الامر الذى تفقده الجالية العربية •

وقد قادت هذه الدعاية المعادية للعرب الى نتائج خطيرة حتى انهم فى دعايتهم أصبحوا يلصقون التهمة بجاليتنا عند وقوع أى جرم فاذا وقعت سرقة فى فرنسا او اعتداء اخلاقى فان الصحف سرعان ما تندد بالمغاربة وتلصقها بهم وكثيرا ما ياتى التحقيق فيما بعد ليثبت براءتهم ولكن الرأى العام لا يتابع التحقيقات وانما يهتم بالتهم بحيث أصبح مهيأ نفسيا للعداء للعرب والمسلمين ، هذا هو الجو الاجتماعى والنفسى الذى تعيش فيه الجالية العربية وقد جاءت تحريات الرأى العام لتؤكد هذا فقد تبين منها ان موقف الفرنسى من العمال العرب يأتى فى آخر درجة بعد السود الافارقة وبعد البرتغاليين والاسبانيين والاطاليين •

ولكن الامور لا تقف عند جو التعصب المناهض الذى يدفع هذه الجالية العربية الى الانعزال والشعور بقساوة المحيط زيادة على غربتها من حيث اللغة والعادات والتقاليد والقيم التى تزيد فى استيحاشها وضياعها فهناك بالاضافة الى هذا عدة عوامل تهدد وجودها فشعورها بالانعزال يدفعها الى الانغماس فى الشرب وانعدام الجو العاطفى يقودها الى مخالطة سيئة مما يفقدها صحتها ومالها ويعرضها الى أمراض معدية ، ورغبتها الملحة فى ايجاد مأوى بعد العمل المضنى وللخروج من رتابة الحياة وسد عاطفتها هو الذى يجعلها تقدم على الزواج بالاوروبيات التى غالبا ما تكون من أوساط منحطة وعندما يصبح الفرد رب عائلة تنهال عليه المشاكل فالام تسمى الطفل باسم مسيحى وترغب فى تعميده فى الكنيسة وتلقنه لغة وتربية أوروبية بينما يريد والده الحفاظ عليه ضمن القيم الاسلامية والعربية فيخرج

الولد موزع النفس منقسما فى شخصيته منحرفا فى سلوكه يستحى أن يذكر أن والده عربى مسلم ولا يذكر بين أترابه الا انتماءه لامه فاذا قرر رب العائلة الرجوع الى وطنه فان المشاكل تزيد تعقدا وغالبا ما تنتهى بالطلاق وكل ذلك على حساب الولد الذى يجنى ثمار هذا الشذوذ الهجين ضعفا عقليا أو جنوحا يقوده الى مهاوى الحياة .

والادهى من كل هذا هو انعدام أى شكل من التنظيم تقريبا لحماية هذه الجالية والحفاظ على شخصيتها فكثيرا ما يبحثون عن الوسائل التى تساعدهم على التمسك بمقوماتهم الشخصية والقيام بواجباتهم الاخلاقية والدينية تجاه انفسهم وتجاه أسرهم وأولادهم فلا يجدون عونا أو مساعدة ، ويؤكد هذه الرغبة ما ورد فى التحقيق التلفزيونى الفرنسى حول الجالية العربية فى باريس تحت عنوان « باريس العربية » فبعد أن يلقى أضواء على نوعية الحياة المادية السيئة التى تحياها هذه الجالية من حيث السكن واللباس والعمل يتعرض الى وسائل التسلية مظهرا الاهتمام والاقبال الكبير عى الافلام العربية رغم قدمها وضعف مستواها ولقد سئل بعض المشاهدين هل يفهم لغة الافلام العربية ولماذا يختارها فكان الجواب المسيطر هو أنها تعيدنا الى جو الوطن وحتى اذا كنا لا نفهم لغتها فهى شىء نحسه ونعيشه .

وتجدر الملاحظة فى هذا الصدد أن أغلب المستوردين لهذه الافلام هم من اليهود الذين يتاجرون بعواطف هذه الجالية ويكسبون من ورائها مالا كبيرا .

ولكن الاغتراب الثقافى والعاطفى والاجتماعى تقف أخطارها عند حدود الافراد أنفسهم رغم ما فى ذلك من أضرار جسيمة والشىء الاهم من هذا هو تعرض هذه الجالية فى أغلبها من عمال وطلبة واطارات الى التأثيرات الفكرية المنتشرة فى اوروبا فالنقابات والاحزاب والاندية الفكرية المتضاربة تبذل جهدا واسعا وتستغل جميع نقاط الضعف فى الجالية لتنشر بينها أفكارا ومعتقدات قل ما تتماشى مع الاوضاع السياسية والفكرية فى أوطانها وبذلك تعدها لتصبح عامل اضطراب وشذوذ عند عودتها الى أوطانها وكلنا يعلم ان كثيرا من الافكار التى انتقلت الى مجتمعاتنا وكثيرا من العقائد التى تناهض قيمنا وتسعى

لتشويه شخصيتنا انما جاءتنا عن طريق طلبتنا وعمالنا والذين كانوا في الهجرة بالاضافة الى الانحرافات السلوكية المختلفة التي تقلد التيار الاوروبي الجديد ٠

ان اوضاع هذه الجالية تحتاج منا جميعا بذل جهود كبيرة للحفاظ على مقومات شخصيتها ، فماذا عمل المسؤولون دولا وهيئات ومنظمات لمساعدة هذه الجماعة المشردة التائهة ؟ وماذا يوجد في أوروبا من مشاريع ومؤسسات تقوم بخدمتها والدفاع عنها واستقبالها وتوجيهها ورد المظالم وتغيير الدعاية المغرضة ضدها ؟ ان هناك أكثر من خمسة وعشرين سفارة بين عربية واسلامية في كل بلد أوروبي بالاضافة الى القنصليات والبعثات فماذا عملت ؟ نستطيع أن نقول ــ دون مغالات ــ انها لم تستطع حتى أن تقاوم الدعاية الصهيونية الواسعة مما ألب الرأي العام الاوروبي ضدها بينما نجد سفارة اسرائيلية واحدة استطاعت أن تنظم اليهود في البلاد التي توجد بها فيتمكنوا من السيطرة على المراكز الحساسة في هذه الدول كالاعلام والاقتصاد وتمكنوا ان يقدموا معونة ضخمة لاسرائيل بالاموال والدعاية ٠ ان عدد المراكز الدينية والثقافية الاسرائيلية في أوروبا لا تحصر بينما لا نجد لدى الجالية الاسلامية والعربية سوى مسجد واحد في فرنسا ويسيره عملاء لا قيمة لهم ، ان اطفال هذه الجالية يفوقون 300 ألف فهل وجدت منشآت مدرسية لتعليمهم اللغة العربية والقيم الاخلاقية الدينية الاسلامية لا شيء من هذا ــ

ان اللغة العربية ومبادئ الدين الاسلامي التي تدرس في الجامعات الاوروبية يقوم بها أشخاص أوروبيون مستشرقون غالبا ما يحرفون الحقائق عن جهل أو عن قصد ، هذا في الوقت الذي نجد أوروبا تفتح في جميع الاقطار العربية والاسلامية مدارس ليس لجاليتها وحدها وانما لنشر لغتها وحضارتها بين أبنائنا زيادة على البعثات التبشيرية ، ان التبادل الثقافي يجب أن يحترم من الجانبين وعلى الدول العربية الاسلامية اذا كانت تحترم لغتها وتحافظ على مقومات شخصية جاليتها ، أن تطالب بتكوين مؤسسات مدرسية وثقافية لجاليتها أولا ولمن يهتم من الاوروبيين بحضارتنا ، فمن الغريب أنك تستطيع أن تسمع لغة جميع اقطار العالم ما عدا اللغة العربية ويمكنك أن تسمع اغاني وموسيقى مختلف الاجناس والاديان الا العربية فمن

النادر أن يقع المذيعون فى خطأ اذاعتها وكان سدا من العداء يحول دونها ، ان مصالح الدول الاوروبية فى أقطار هذا العالم الواسع الاطراف متنوعة وبامكان المسؤولين أن يجدوا وسائل الاقناع الضرورية للسماح للحضارة العربية الاسلامية بأن تجد طريقها الى نفوس جاليتها والى الرأى العام الاوروبى كما هو واقع مع شعوبنا ، واننى اغتنم هذه الفرصة الكريمة لاقدم لحضراتكم بعض المساعى التى قمنا بها وما حققته الودادية . ان ودادية الجزائريين فى أوروبا عاشت تجربة هامة فى المنطقة واستطاعت بحكم نشاطها المتواصل أن تتعرف على مشاكل هذه الجالية،ورغم محدودية امكانياتها وضخامة الجالية التى تعنى بها فقد استطاعت أن تقدم بعض الواجبات تجاه هذه الجالية ، فقد قامت فى نطاق الهجرة الجزائرية بعدة أعمال ومشاريع فبادرت وحدها الى تعليم العربية للناشئة الجزائرية ، واستطاعت أن تؤمن لما يقارب العشرة آلاف طفل ، كما قامت بمكافحة الامية فى اوساط الكبار بالعربية والفرنسية وحرصت على تنظيم مخيمات صيفية للاطفال فى كل سنة لتمكنهم من التعرف على وطنهم والحفاظ على الروابط التى تربطهم بمجتمعهم وقامت بتنظيم سهرات فنية شعبية بمشاركة فنانين جزائرين واقيمت فى كل مناسبة كالاعياد الوطنية والدينية فى مختلف المناطق التى تتجمع فيها جاليتنا زيادة على زيارة المرضى وتسليتهم ونقل رفاة المواطنين ، وكلكم يعلم مدى حساسية هذه العملية الاخيرة بالنسبة للمجموعات الاسلامية ، ولم تدخر جهدا فى تنظيم المنتديات والمحاضرات وحتى تضمن لطلابنا جوا مناسبا يضمن لهم تلقى المعلومات والاخبار عن بلادهم ويسمح لهم بالالتقاء والتلاحم فتحت لهم نوادى وآخرها ابن باديس فى مطلع سنة 1970 وأوجدت داخل تنظيمها هيئة للشباب تعنى بتوجيههم واخرى للمرأة لتعريفها بما يجب عمله فى هذا المحيط

الغريب وهى الوحيدة من دون جميع المنظمات التى قامت بانشاء جريدة الجزائرى فى أوروبا لاطلاع الجالية على ما يجرى فى وطنها والدفاع عن مصالحها وابلاغ صوتها الى السلطات الوطنية ، والاهم من هذا هو انها كانت المنظمة الوحيدة التى فكرت فى الدفاع عن الجالية العربية والسهر على مصالحها عند ما اوجدت المجلة الوحيدة

العربية فى أوروبا . وهى آفاق عربية وضعتها تحت تصرف العناصر المثقفة العربية لتكون الناطق الرسمى باسمها .

غير أن ضخامة المشاكل تتطلب من الجميع بذل مجهودات أكبر حتى نقف فى وجه الاخطار التى تهدد هذه الجالية العربية الاسلامية فى شخصيتها وحتى نجعل منها رسولا واعيا فعالا لنشر الحضارة العربية الاسلامية فى ربوع أوروبا ونعيد اليها مكانتها اللائقة بها ونبين الوجه الانسانى المشرق الذى تحمله بين طياتها .

IBN KHALDOUN ET L'ALGERIE (1)

par Mouloud Kassim NAIT-BELKACEM

Eminents professeurs,

Mesdames et Messieurs,

C'est pour moi un grand honneur de prononcer cette courte allocution pour clôturer les travaux de votre colloque.

Soyez remerciés pour avoir affronté les fatigues du voyage afin de répondre à l'invitation de l'Algérie, et aussi pour les efforts que vous avez déployés dans la préparation de cette rencontre, votre participation aux conférences et aux débats, voués au service de la science, et ce, à l'occasion de ce 6^{me} centenaire des « Prolégomènes » d'Aby Zayd Waliy-ed-Dine Abderrahman Ibn Khaldoun, l'un des génies du Maghrib, du monde musulman en général et de l'humanité dans son ensemble.

L'Algérie qui a accoutumé depuis le recouvrement de son indépendance et de sa souveraineté de fêter les hommes et leurs œuvres, aussi bien les nationaux et les musulmans en général que ceux appartenant aux divers continents, se devait d'accueillir ce colloque et de célébrer ce 6^{me} centenaire des « Prolégomènes » dont

(1) Allocution de clôture du Colloque International sur Ibn Khaldoun et le sixième centenaire de ses Prolégomènes organisé par le C.N.R.H. (Alger 26 juin 1978).

de nombreux éléments ont été rassemblés sur son sol et dont l'intégralité y fut rédigée par un auteur auquel l'unissaient, de surcroît, les liens les plus étroits et les plus intimes.

En vue de résumer, au seuil de la clôture de ce colloque, ce qui a sans doute été dit ici sur la relation étroite entre Ibn Khaldoun et l'Algérie, je citerai seulement le fait que l'auteur lui-même a souligné à maintes reprises, dans son auto-biographie, le mérite des maîtres algériens qu'il a rencontrés ou dont-il fut le disciple aussi bien à Tunis, Fès, Tlemcen ou Bidjaïa, tels les deux fils El-Imam, Abou Zayd Abderrahman et Ibn Moussa Aïssa, originaires de Barichk (1), près de Ténès ; Abou Abd Illah Mohammed Ibn Ibrahim El-Abili, « maître des sciences métaphysiques du Maghrib qui m'a d'ailleurs reconnu l'agrégation dans cette discipline » et qui est né et a vécu à Tlemcen ; Abou el-Abbas Ahmed Ibn Mohammed Ez-Zouaoui, de Bidjaïa, « imam des lecteurs (du Coran) de tout le Maghrib, qui m'a décerné le diplôme général » ; Abou el-Abbas Ibn Idriss, « le plus grand des savants de Bidjaïa » ; Abou Abd Illah el-Maqqari, grand-père d'El-Maqqari, l'auteur du « Nefh » ; Abou Ali Ibn Bâdis, le Constantinois, et d'autres encore.

De même qu'Ibn Khaldoun a étudié auprès de maîtres algériens, il a enseigné à son tour dans la Casbah de Bidjaïa et à l'Ecole d'El-Eubbâd de Tlemcen.

Sur le plan de l'expérimentation pratique en Algérie, notre génial penseur a participé à bon nombre d'événements et de bouleversements politiques. Il fut, entre autres, ministre des Finances à Bidjaïa dont il fit la connaissance des vallées et des montagnes, lors de ses pérégrinations pour le « recouvrement des impôts et des dîmes ». Il y fut également Grand Chambellan, autrement dit Premier Ministre, « doté d'un pouvoir absolu et omnipotent ».

Lorsque lassé enfin des allégeances, des complots et des terreurs, c'est en Algérie qu'il trouva un hâvre de paix et de tranquillité. Il se maria avec une Constantinoise qui fut son unique épouse jusqu'à sa mort et la mère de ses enfants. Après une période de méditation à Biskra, il se consacra à l'étude et aux travaux de plume dans la Kalaâ des Béni-Salâma, près de Tihert (Tiaret), entouré des siens, libéré des soucis quotidiens, « adonné entièrement à l'enseignement d'une science, à la lecture d'un livre, ou bien à l'exercice de la plume dans une compilation ou une création » durant quatre ans. Il commença dès lors sa carrière d'auteurs pour nous

(1) Barichk, petite ville fondée par des Andalous près de Ténès. Elle fut détruite en 1608 par le corsaire flamand Simon Danser, alias Mourad Raïs, après s'être converti à l'Islam et s'être mis au service de l'Algérie. Il quitta l'Algérie, emportant « deux magnifiques canons en bronze » qu'il remit au Duc de Guise, sous Louis XIII, ce qui provoqua une guerre entre l'Algérie sous Hossein Pacha et la France sous Louis XIII. L'épisode fut clos par le Traité de Tours signé par Louis XIII et Sinan Agha en 1618, mais les deux canons ne furent restitués à l'Algérie qu'en 1628. (Voir Henri Garrot : Histoire Générale de l'Algérie, et Innya wa Açala, de l'auteur de ces lignes).
Sur l'emplacement de la ville il fut construit, pendant l'ère coloniale française, un nouveau village appelé Francis Garnier, s'appelant aujourd'hui : Bani Hawwa, près de Ténès. Quant à Simon Danser, alias Mourad Raïs, il nous laissa son nom, déformé, à Alger au quartier s'appelant aujourd'hui : Bir Mandreis.

donner ces Prolégomènes « d'une facture originale qui me réussit dans cette retraite ».

Ce sont là certaines parmi les relations qu'a nouées avec l'Algérie Ibn Khaldoun, ce savant génial dont vous avez tenu à célébrer le 6ème centenaire de ses « Prolégomènes », en échangeant vos points de vue à son sujet avant d'en tirer les conclusions.

Si vous avez été unanimes à mettre en relief son génie créateur, l'originalité de ses travaux, le sérieux de ses recherches, son rôle de précurseur dans la création d'une science importante, vous n'avez pas manqué d'être en désaccord, comme l'ont été d'autres chercheurs parmi ceux qui sont absents de ces assises, sur la nature de cette science qu'il a inventée et définie, et cela en vertu de vos différentes spécialisations et préoccupations.

Nous avons appris et entendu jusqu'à ce jour que « la discipline créée par Ibn Khaldoun est la sociologie, et cela avant Auguste Comte, l'école de Durkheim et ceux qui les ont précédés, en ont été les contemporains ou les successeurs. Qu'Ibn Khaldoun les a tous surpassés dans cette discipline et a été — bien plus et à juste titre — le premier inventeur de la sociologie. Que la sociologie n'a pas ajouté autre chose à ce que Ibn Khaldoun a codifié », ainsi qu'il apparaît à notre maître le docteur Ali Abdel Wahad Wafi.

Nous avons entendu ou lu d'autres chercheurs pour qui la science créée par Ibn Khaldoun n'est pas la sociologie, mais l'éthnologie ou l'anthropologie, comme le soutient notre ami le docteur Abdelaziz Lahbabi, si je m'en souviens bien (1).
Voilà que nous entendons ou lisons aujourd'hui qu'Ibn Khaldoun a préparé en réalité l'avènement de la « science des idéologies » ou de la « politologie », comme le conçoit le professeur Georges Labica, d'après les comptes-rendus publiés dans la presse, ou bien qu'il est le créateur de la géographie des cités et des campagnes, selon l'opinion du docteur Djilali Sari.

D'aucuns pourraient dire — et cela a peut-être été dit auparavant — qu'Ibn Khaldoun a créé la science des civilisations et de la longévité des Etats, devançant en cela de plusieurs siècles des savants tels que Toynbee et d'autres. Nous pouvons de même avancer qu'il a été le premier inventeur de méthodes pédagogiques en ce qui concerne l'enseignement de nombreuses disciplines, sur la base des conclusions auxquelles il était parvenu après l'examen exhaustif des voies utilisées de son temps et dont il avait eu connaissance dans les pays qu'il avait visités ou dans lesquels il avait vécu.

(1) Voir Actes intégraux du VIe Séminaire sur la Pensée Islamique (Alger 1972).

Etant donné, par ailleurs, la période assez longue — près d'un quart de siècle — durant laquelle Ibn Khaldoun a exercé les fonctions de magistrat et de législateur en Egypte et l'expérience acquise pour ainsi dire sur le terrain en prononçant sentences et jugements, ne serait-il pas possible demain à un chercheur de dire qu'il fut tout aussi bien un philosophe du droit en matière de législation et de codification des lois, de par la pratique qu'il avait acquise dans l'un et l'autre domaines, sa connaissance de leurs auteurs, auxquels il a tracé la voie grâce à ce qu'il a explicité, précisé ou critiqué ?

Certains ont prétendu qu'il était un novateur en matière économique (3), préparant la voie à des théories et à des systèmes qui, pour être encore débattus, n'en sont pas moins appliqués dans des grands, moyens ou petits Etats. D'autres enfin soutiennent qu'Ibn Khaldoun est, en plus de tout cela, le premier auteur de la théorie de Darwin... et de la légende de l'homme descendant du singe, et c'est l'opinion émise par notre maître le docteur Wafi dans ses travaux sur les Prolégomènes.

Il me semble que nous sommes ici d'accord sur un fait, à savoir qu'Ibn Khaldoun n'a pas été uniquement celui-ci ou celui-là, mais tout cela réuni et plus encore.

L'un des résultats de vos recherches et des recherches de ceux qui vous ont devancés autorise, je crois, à approuver ceux d'entre vous qui ont appelé à une relecture d'Ibn Khaldoun à partir d'une nouvelle optique, et avec un esprit et une méthodologie renouvelés, mais tout en restant le plus proche de son époque et en prenant en considération les contextes propres à sa vie scientifique et pratique.

Alors peut-être nous trouverons-nous en présence d'un génie aux multiples facettes, d'un créateur de nombreuses disciplines et non d'une seule et constaterons-nous qu'il fut en fait le dernier de cette lignée de savants aux aspects divers tels Aristote, Al-Farabi, Ibn Sina, Ibn Rochd et d'autres noms de la Renaissance européenne.

Eminents Professeurs,

En vous renouvelant la gratitude de l'Algérie pour les efforts que vous y avez accomplis au service de la science et des savants, permettez-moi de vous féliciter pour vos fructueux travaux et de formuler le souhait de vous retrouver dans d'autres rencontres.

Que le Salut soit sur vous.

(3) Yves Lacoste, au colloque.

العدد 65 - 66

فهـــرس العـــــدد

حـزب جبهـــة التحريـــر الـــوطنى
الحارس الامـين للاستمرارية الثورية (*)



أيها الاخوة ، أيتـها الاخوات ،

وفاء للعهد الذى قطعنـاه لشهدائنا الابـرار ، ومواصلة لمسيرة ثورتنا الزاحـفة ، وتتويجا لبناء صرح هذا الوطن المجيد ، ها نحن اليوم مجتمعون فى المؤتمر الرابـع لجبهـة التحرير الـوطنى ٠

وبهذه المناسبة التاريخية ذات الدلالة العميقة بالنسبـة لمستقبل بلادنا والتى تكتسى أهمية بالغة من حيث القرارات المصيرية التى ستنبثق عن مؤتمرنا هذا يطيب لى أن أرحب بجميع الاخوة المناضلين والاخوات المناضلات ، الذين جاؤوا للمشاركة فى هذا التجمع النضالى العظيم ٠

ان مؤتمرنا هذا ، ينعقد بعد ان ودع الشعب الجزائرى منذ شهر ، قائده ورائد ثورته الرئيس الراحل هوارى بومدين ، فى أروع صورة من صور الاكرام والاجلال ، واحسن ما نخلد به ذكرى ابن الجزائر البار ، اخينا هوارى بومدين رحمه الله ، هو وضع اللبنة الاخيرة فى صرح مؤسسات دولتنا الفتية الا وهو انعقاد هذا المؤتمر ٠

(*)كلمة الاخ رابح بيطاط رئيس الدولة فى افتتاح المؤتمر الرابع لحزب جبهـة التحرير الوطنى ٠

وما التلاحم الشديد الذى شهدناه بين الشعب وقائده الراحل الا ضمانا لاستمرارية المسيرة الثورية ٠

ان الارث الوحيد والتركة الحقيقية التى يمكن ان نتركها لابنائنا ، هو ان نبث فيهم روح العمل من اجل بناء بلد جدى ومحترم يقوم على أسس متينة لا تتصـــدع بزوال الرجال ولا تتأثر بالأحداث٠

ذلكم هو الاتجاه الذى سعت فيه السلطة الثورية خلال السنوات الاخيرة من تاريخ ثورتنا المظفرة ، وذلكمن اجل اقامة دعائم متينة لتنمية بلادنا اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا ، من اجل ارساء قواعد راسخة لتنظيمها السياسى ٠

وان بناء مجتمع اشتراكى لا يمكن ان يتحقق الا بتنظيم سلطة ثورية تنصهـر فى الثورة وتتعهد بالدفاع عنها بكل عزم فعلى هذه السلطة قبل كل شيء ان تكون الضامن الامين لاستمرارية الثورة ، هذه الاستمرارية التى ينبغى أن تتواصل بعد زوال الرجال ، هذه الاستمرارية التى يجب أن تتجاوز أصعب الظروف واقساها ٠

ـ اخوانى ، اخواتى :

لقد كان حزب جبهة التحرير الوطنى بالامس ، الضامن القوى لثورتنا المسلحة التى ستحتفل عن قريب بذكراها الخامسة والعشرين ، وسيظل اليوم وغدا والى الابد ، الحارس الامين والوحيد للاستمرارية الثورية ٠

وستبقى ثورتنا المجيدة حية قوية على مر الزمن ، رغم الصعاب التى لا مناص منها فى طريق مسيرتنا نحو بناء المجتمع الاشتراكى ٠

ان حزب جبهة التحرير الوطنى الذى استطاع ، فى أحلك الظروف التى مرت بها ثورتنا ، ان يتجاوز الصعوبات الظرفية العابره ، ليفتح من خلال الحوار البناء سبيل الوحدة والعمل ، هو وحده الكفيل فى نظرى بأن يضمن بقاء السلطة بين أيدى رجال مخلصين من أشد المناضلين صرامة فى أداء الواجب واقواهم حرصا على الوفاء بالالتـــزام ٠

وبما ان الصراحة والوضوح الصفتان اللتان يتميز بهما كل حوار بين مناضلى هذا الحزب العتيد ، فانه يجدر بنا ، فى هذه المناسبة التاريخية ، ان نتعرض لذلكم السؤال الذى طالما تردد على ألسنة المناضلين ، الا وهو ··· لماذا هذا الفاصل الزمنى الطويل الذى دام خمسة عشرة سنة بين المؤتمر الثالث الذى انعقد فى سنة 1964 ومؤتمرنا هذا الذى نعقده اليوم ؟

وللرد على هذا السؤال ينبغى قبل كل شىء ، التذكير ببعض الحقائق وبعض الظروف التى مرت بها ثورتنا ·

فمؤتمر سنة 1964 ، كان ينطوى على بذور كل المشاكل التى شهدتها بلادنا بعده ، وبوادر مختلف اشكال المعارضة التى ظهرت ضمن قيادتها طوال تلك الفترة المؤسفـــة ·

فعلا ، لقد تمكن انذاك رجل واحد من الانحراف بمجرى الثورة باللجوء الى المناورات الديماغوجية وبث البلبلة بين جهاز الدولة وهياكل الحزب والسعى من أجل استعمال الجماهير الشعبية لتدعيم حكمه الفردى ·

ذلك هو الدرس القاسى الذى يمكن استخلاصه من تلك المرحلة الحرجة التى مرت بها ثورتنا ·

اذ ان عواقب تلك السياسة المبنية على المغامرة الفردية ، قد أصابت حزب جبهة التحرير الوطنى فى صميم قواته الحية وقدراته التنظيمية ·

واذا كان من المنطقى أن نتولى قبل كل شىء مهام بناء مؤسسات راسخة للبلاد وخلق هياكل عصرية لدولتنا الفتية ، الامر الذى تطلب طوال سنوات عديدة تعبئة كل طاقاتنا ، حيث تمكنا خلال هذه الفترة من تأسيس المجالس الشعبية على مختلــف المستويات ، من المستوى المحلى الى المستوى الوطنى ، واستطعنا أن نعقد مؤتمرات كل المنظمات الجماهيرية ، لنصل فى نهاية المطاف لارساء قواعد سليمة ومتينة يرتكز عليها مؤتمرنا هذا الذى نعقده اليوم ·

كما ان انعقاد المؤتمر الرابع لحزبنا لم يكن ممكنا الا بعد تحديد اسس عقائدية واضحة المعالم . وهو ما تم بالفعل منذ أن صادق الشعب على الميثاق الوطنى الذى أصبح الخط الفاصل بين من يقف بجانب الثورة ومن يعاديها .

ان الحديث قد يطول حول الاسباب التى حالت دون عقد المؤتمر قبل هذا اليوم وحول دور الحزب فى التوجيه الايديولوجى لثورتنا . لكن المهـــم والذى لا يستطيع أى أحد ان ينكره ، هو ان الطريق الذى اتبعناه قد ادى بنا فعلا الى استكمال بناء المؤسسات الاساسية للدولة وتتويجها بعقد هذا المؤتمر العظيم .

وهكذا يتحقق الوعد الاساسى الذى قطعه بيان 19 جوان 1965 ، رغـــم كل الصعوبات الناجمة عن بناء دولة قوية واقامة اقتصاد عصرى غايته تلبية حاجات الجماهير الشعبية ، ورغم كل العوائق التى ظهرت تم التغلب عليها بفضل وعى شعبنا وتبصره .

أيها الاخوة المناضلون :

ان القيادة الثورية التى تولت زمام الحكم فى البلاد برئاسة قائدها الراحل هوارى بومدين ، قد انهت اليوم هذه المهمة الخطيرة التى ادتها بكل كرامة وامانة ويحصل لها الشرف أن يتقدم اعضاؤها فى هذه اللحظة التاريخية ، أمام المؤتمر كمناضلين من مناضلى جبهة التحرير الوطنى ، وسيشهد التاريخ على ان امتنا المجيدة قد استطاعت ان تواجه أصعب الظروف التى مر بها تطورها السياسى بخضوعها فى كنف الانضباط والوحدة لتلك القواعد المقدسة التى سنتها لنفسها .

وتلكم هى اهم عبرة يمكن ان نستخلصها بخصوص سلوك شعبنا وتصرف قادته خلال الاشهر الاخيرة حيث تكاتف الجميع من اجل الحفاظ على استمرارية ثورتنـــا الخالـــدة .

ـ أيها الاخوة ، أيتها الاخوات :

انه ليس في نيتي ان اقيم الانجازات الضخمة ، أو استعرض الشوط الكبير الذى قطعناه على طريق تنمية البلاد منذ انعقاد المؤتمر الاخير . لان ذلك يبدو جليا لو تفحصنا ميثاق الجزائر وقارنا بين اهتمامات المؤتمرين انذاك وبين ما تم انجازه الى حين صدور الميثاق الوطنى الذى ارتقى بطموحات شعبنا الى اعلى المستويات ·

ولم يتسن هذا التقدم الكبير الا بفضل تعبئة شعب بأكمله ، وبفضل التلاحم القوى بين قادة البلاد ومواطنيها على كل المستويات ·

واذا يحق لنا ان نعتز بالمرحلة التى بلغناها ، فينبغى أن نتفادى التركيز على الجوانب الايجابية دون ان نتوقف عند اخطائنا لنستخلص منها الدروس المفيدة ، حيث ان التقييم الصحيح لما تحقق من تقدم ، والالمام الدقيق بالنقائص وبجوانب الضعف صفتان حميدتان يجب ان يتحلى بهما كل مناضل واع ·

ان هذه المنجزات لهى احسن رد على اولئك الذين كانوا داخل البلاد وخارجها يتكهنون بحصول فوضى سياسية وتغيرات ايديولوجية اثر وفاة رئيسنا الراحل ·
لقد رد الشعب بكل حزم واعتزاز على هؤلاء المغرضين بأنه لن يكون فى الجزائر اختيار آخر سوى الاختيار الاشتراكى وكما استطعنا ان نخيب آمال هؤلاء الشانئين الحاسدين بأن تمكنا من استخلاف القيادة السياسية للبلاد حسب الطرق التى املاها علينا الدستور ، فانى متأكد من ان المؤتمر سيعرف كذلك كيف يرد على هؤلاء بقراراته الحاسمة ·

كما اننى متيقن من ان مؤتمرنا هذا سيؤكد من جديد تمسكه المطلق بالميثاق الوطنى ، الذى صادق عليه الشعب بالاجماع ، وعزمه على تعميق المبادىء والتوجيهات التى جاء بها ·

فلا بد ان نثق بأن الميثاق الوطنى غنى بما احتواه من وعود صادقة ، وغنى بما سطره لابنائنا من طموحات كبيرة ، ولذا لا يمكننا أبدا ان نتخلى عما يأمرنا به ، دون أن ننكث العهود التى قطعناها على أنفسنا .

ان المهام الجديدة للحزب التى ستنبثق عن هذا المؤتمر ، ستحتم بدون شك على جميع المسؤولين ان يقدروا اهمية حزب جبهة التحرير الوطنى حق قدرها ، فحزب جبهة التحرير الوطنى يعد بحق الدعامة الاساسية لمؤسساتنا الوطنية .

اما تمكين الحزب من القيام بمهامه ووضعه فى المكانة التى خصصها له الميثاق الوطنى والدستور فذلكم اول واجب على كل واحد منا ان يقوم به ، حيث ان الوظيفة السياسية للحزب ، المتمثلة فى التوجيه والمراقبة يجب ان تمارس بصورة فعلية وجدية حتى يكون هذا الحزب الطلائعى فى مستوى المسؤولية الملقاة على عاتقه .

وعليه فانه يقع على عاتق جميع مناضلى هذا الحزب أن يجعلوا منه حزبا قويا ، يرتبط مستقبله ارتباطا وثيقا بمستقبل الثورة الاشتراكية ، ويكون فى مستوى الامال التى نعلقها عليه .

ايها المؤتمرون الافاضل :

لا يسعنى فى ختام كلمتى هذه ، الا ان ابارك مؤتمركم الذى يعقد عليه شعبنا كل آماله ، فليكن فى مستوى الثقة التى وضعها فيه الشعب العظيم ، وانى بالنظر الى الدور التاريخى الذى سيلعبه مؤتمرنا هذا اهيب بكم ان يضل الوفاء لرئيسنا الراحل رائدكم ، والتفانى فى بغية الخير والحق مرشدكم ، والتجاوب والانسجام شعاركم ، لان من ورائكم شعب متلهف لسماع قراراتكم التى ستحدد مصيره وترفع كابوس الانتظار والقلـــق .

وهناك فى الجانب الآخر ، اخوة لكم فى الصحراء الغربية وبجبهة الصمود مشدودة قلوبهم اليكم ، مرهفة اذانهم للاستماع منكم ، وهناك أشقاء واصدقاء يهمهم ان تصلوا

الى ما أنتم عاقدون العزم للوصول اليه ، وكذلك كل الشعوب المحبة للسلام والعدل في العالم تعلق أمانيها وتطلعاتها فوق ربوع بلادنا ٠

اننا ايها المناضلون والمناضلات ، هذه الايام نمثل محط انظار العالم ومجال تكهناته وافتراضاته ، لذلك علينا ان نكون مثلما كنا وسنكون ابدا ، رواد سلام وانصار حق ومحبي خير ، ولكننا ايضا حرب على التخلف ، حرب على الاستعمار وكل أشكال الاستغلال والعبودية وحرب على التمييز العنصري والظلم ٠

يحيي حزب جبهة التحرير الوطني ،
تحيي الثورة الاشتراكية ،
تحيي الجزائر ،
المجد والخلود لشهدائنا الابرار
والله ولي التوفيق ،
والسلام عليكم ٠

أعز ما يفخر به الجزائري :
دينه ولغته (*)



الاخ رئيس المؤتمر ،
الاخ رئيس الدولة ،
ايها الاخوة المناضلون ، أيتها الاخوات المناضلات ،

ها هي ثورتنا المظفرة تنجز وعدها وتستكمل لبناتها التي شرعت في ترسيخ دعائمها بخطوات ثابتة تحت لواء حزب جبهة التحرير الوطني وبقيادة بطلنا الراحل هواري بومدين ، قائد مسيرتنا وملهم طلائعنا النضالية ، فهو الذي سخر كل طاقاته لبناء المؤسسات الشعبية واجهزتها القيادية برؤية سياسية واضحة وبصيرة نافذة تستمد قوتها من روح الشعب وتعبر عن آماله وتطلعاته .

انه لوعد قطعه المناضل العظيم على نفسه في بيان 19 جوان 1965 بأن نعمل جميعا بتفان وبروح من المسؤولية على بناء الحزب والدولة بعيدا عن الديماغوجية والشعارات الخلابة ولم يكد يمضي عقد من السنين حتى ارتفع البنيان متينا عاليا تحميه ارادة الشعب التي جسدها بكل وضوح الميثاق الوطني والدستور .

(*) كلمة الاخ محمد الصالح يحياوي ، عضو مجلس الثورة والمسؤول التنفيذي المكلف بجهاز الحزب ، في المؤتمر الرابع لحزب جبهة التحرير الوطني.

لقد آلت القيادة السياسية للبلاد على نفسها أن تفى بالعهد مهما كانت الظروف لتبرهن لمن خامره الشك او تسرب الى نفسه الضعف والوهن ان الثورة بقيادة حزبها العتيد جبهة التحرير الوطنى ـ كانت وما تزال ـ شديدة الاصرار على المضى قدما على طريق تطبيق الميثاق الوطنى والدستور وشديدة التمسك باختيارات ومكاسب لا محيد عنها مهما كانت مصاعب الطريق ...

أيها الاخوة المناضلون ،

لقد شاء القدر ان ينعقد المؤتمر الرابع لحزب جبهة التحرير الوطنى بعد ان ودعنا قائدنا المناضل الذى كان يتطلع مع كل المناضلين المخلصين والشرفاء الى هذا اليوم العظيم الذى تستكمل فيه قمة الهرم السياسى للثورة ... فلم يدخر فقيدنا جهدا فى تعبئة الطاقات وتذليل كل العقبات وتوفير جميع الظروف والامكانيات لكى يلتقى هذا الجمع العظيم ويحقق مؤتمرنا هذا اهدافه المنشودة ، وانى لالمح روحه الطاهرة ترفرف حولنا الآن تبارك مسعانا وتحثنا على الالتزام بمبادىء الثورة واختياراتها الاشتراكية وتدعو المناضلين فى كل المواقع الى اليقظة والتعبئة وتلاحم الصفوف لحماية مكاسب الثورة ومواصلة المسيرة بعزيمة اقوى وايمان اعمق حتى تبقى الثورة من الشعب والى الشعب .

لقد أدرك قائدنا هوارى بومدين بأن ما عرفته البلاد من فوضى فى مختلف المجالات تميزت بها السنوات الاولى من الاستقلال نتيجة الصراعات الجانبية والمناورات المختلفة لا يمكن الخروج منها الا بتأسيس الهياكل واقامة دعائم دولة قوية تحكمها قوانين الثورة وتخضع لارادتها فى جميع المجالات وفاء للخط الذى سطرته قوافل الشهداء واستجابة لمطامح الجماهير .

وهكذا كانت حركة 19 جوان 1965 انتفاضة تاريخية اعادت الثورة الى طريقها الصحيح ورسمت معالم البناء الاشتراكى بكل وضوح .

وقد كانت القضية الهامة والعاجلة هي خلق الظروف السياسية وتوفير الشروط الضرورية والامكانيات اللازمة لانطلاق نهضة شاملة وحقيقية فى اطار دولة شعبيـــة وديمقراطية عصريـة تستهدف تحقيق تقدم سريع يستفيد من ثماره كل أفراد الشعب والاكثر حرمانا منهم بوجه خاص لان التنمية السريعة والحازمة التى خاضتها بلادنا لم تكن ـ كما برهنت على ذلك انجازاتها الكثيرة ـ مجرد تشييد مادى للهياكل والمؤسسات بل كانت فوق ذلك استجابة لتطلعات الملايين من الفقراء والكادحين الذين التفوا حول ثورة فاتح نوفمبر الخالدة وقدموا لها أعز ما يملكون فى انتظار ان ينجلى ليل الاستعمار والاستغلال وتشرق شمس العدالة الاجتماعية على الجزائر الحرة ·

ان هذه المهام ذات الاولوية العاجلة التى تدخل فى اطار منظور شامل لم تنس القيادة السياسية ان دعم بنياتنا وحماية مكاسبنا الثورية وتعزيز سلطة الشعب تحتم استكمال حلقات البناء السياسى لحزب جبهة التحرير الوطنى على أسس واضحة وقوية بعيدة عن المزايدات الجوفاء والارتجال والصراعات الهامشية ، ولترسيخ تلك الاسس وضمان انطلاقة جديدة سليمة كان من اللازم أن يبتدىء هذا البناء من القاعدة الجماهيرية العريضة المتمثلة فى العمال والفلاحين والشبيبة والجنود ، هذه القوى التى هى منبع الثورة الاشتراكية وحصنها المنيع وان يتواصل العمل على هذا المنهج وفق مراحل متلاحقة حتى يبلغ البنيان تمامه ، فبهذه الطريقة تضمن الثورة وجود رجال يعبرون باخلاص عن آمال الشعب ومطامحه وتكون هيئات حزب جبهة التحرير الوطنى الضمير الحى الذى يستوعب الاختيارات الكبرى لثورتنا الاشتراكية ويعبر عنها بصدق وامانة فى ميدان التطبيق وبذلك فقط نلتزم بتوجيهات قائـــد الثورة الهوارى بومدين التى أكدها فى عدد من المواقف وفى كثير من المناسبات وخاصة فى قسنطينة وتيزى وزو وتلمسان ، ان تلك التوجيهات كلها تحث على ان يضـــم الحزب بين صفوفه وفى مختلف درجات المسؤولية أشد الناس اخلاصا لمبادىء الثورة ووعيا لتاريخها المجيد وأكثرهم تجردا من الاغراض والاهواء وأقدرهم على المسؤولية

وأسبقهم الى التضحية ونكران الذات وهى صفات لا تعرف الا من خلال الممارسة النضالية وسط الجماهير والسلوك اليومى للذين ينهضون بالمسؤولية · فلا يمكن لاى شخص مهما كانت أهمية الموقع الذى يحتله أن يتجاهل حكم جماهير الشعب أو يقلل من قدرتها على التمييز بين المناضل المخلص والكفء عن غيره ·

ان حدس الشعب لم يخطىء اطلاقا كما انه ان امهل فانه لن يهمل وتاريخ ثورتنا ملىء بالشواهد والعبر على مدى قدرة حزب جبهة التحرير على فرز الخبيث من الطيب والحكم على الرجال من خلال ما قدموه من أعمال وقد أوضح بطلنا الراحل هذا المنهج عندما قال : « بأن الثورة فى حاجة الى حزب تضم صفوفه خيرة المناضلين الاشتراكيين ··· واذا كان هناك من يتعالى على الحزب فسيأتى يوم يطرق فيه أمثال هؤلاء باب الحزب ولا يفتح لهم بالسهولة التى يتوقعونها ··· وسيكون الحزب طريقا نحو المسؤوليات القيادية التى لن يشغلها غير المناضلين · اننا لا نفرض على أحد الانخراط فى صفوف الحزب ولكن المناصب القيادية تحتاج الى الاحتكاك بالجماهير الشعبية ومناضل الحزب أقرب الجميع الى القيام بهذا الدور » ·

هذه هى توجيهات رئيسنا الراحل التى تجد فى لقائنا هذا كل ابعادها ومغزاها وخاصة بعد ان تعاهد الشعب قاطبة وهو يودع القائد الى مثواه الاخير على مواصلة المسيرة بكل حزم واصرار ·

فبقدر ما عبرت جموع الشعب عن حزنها العميق أكدت وما زالت تؤكد تمسكها بكل ما ناضل من أجله الرئيس الراحل من تعلق بالثورة واختياراتها الاشتراكية واستمراريتها بقيادة حزب جبهة التحرير ·

أيها الاخـوة المناضلون ،

أيها الاخوات المناضلات :

اننا نستحضر فى هذه اللحظات التاريخية ونحن نضع اللبنة الاخيرة فى صرح مؤسساتنا الثورية تراثنا النضالى العريق · المتواصل عبر التاريخ ·

ان شعبنا المكافح وقف فى صمود وثبات أمام كل موجات الغزو التى عرفتها المنطقة وقاوم باستمرار وبحد السلاح كل الطغاة فلم تستطع جيوش الرومان والوندال والبيزنطيين اخضاعه وتذويبه فى امبراطوريات أقيمت على التعسف والاستعباد بل قاوم الاحتلال ولم يتخل أبدا عن تطلعه الوطنى الى التحرر والانعتاق وقد كان الاسلام أبلغ تعبير عن المثل التى آمن بها شعبنا وأصدق تجسيد لطامحه المتمثلة فى الحرية والعدالة والمساواة فانضوى تحت لوائه واعتنق مبادئه التى تحث على العدل والمساواة وتدعو الى الثورة على الاستغلال والتسلط ·

وهكذا استند هذا التراث النضالى الضخم الى قيم وتقاليد أصيلة تمثلت على مر الاجيال فى الاقدام على التضحية والثبات فى المعارك وطول النفس فى المقاومة والثورة على كل أشكال السيطرة والاستغلال ·

ولقد تجسدت هذه الخصال النضالية الرائدة على الاخص عندما اصطدم شعبنا بأشرس قوة استعمارية استيطانية وهى فى عنفوان طغيانها ·

واذا كان عدم التكافؤ فى العدد والعدة قد مكن قوات الغزو من كسب جولة فى سيدى فرج فان ذلك الانتصار لم ينل من ارادة الشعب الجزائرى فى مواصلة المقاومة ورفض الهزيمة والاستسلام والدفاع عن كيانه وسيادته التى كانت تجسدها دولة قائمة البنيان تتمتع بهيبة وسيادة تجاوزت فى علاقاتها حوض البحر المتوسط الى شمال أوروبا وغرب المحيط الاطلسى والقارة الامريكية دولة مزدهرة اقتصاديا وثقافيا ظلت البعثات الدبلوماسية تتوافد عليها للحصول على القروض والمعونة أو لطلب الصلح والحماية تلك هى الجزائر التى التفت حول الامير عبد القادر ورفعت لواء المقاومة المسلحة طيلة سبعة عشر عاما لم يستطع خلالها الاستعمار الفرنسى على الرغم من سياسة الابادة والبطش والحقد العنصرى ان يخمدها ·

ولقد بقيت راية المقاومة الشعبية مرفوعة طوال قرن من الاحتلال الاستبدادى دفع خلاله الشعب الجزائرى أكثر من ثلثى سكانه واجه ابشع اساليب التجهيل والتفقير

والمسخ وظلت تلك الراية تنتقل من قائد الى آخر ومن جيل الى جيل فلا يكاد الكفاح يتوقف فى منطقة ركز فيها الاستعمار كل قواه حتى يندلع على أشده فى منطقة أخرى فمن الامير عبد القادر مؤسس المقاومة الشعبية فى تاريخنا الحديث الى المقرانى الى أولاد سيدى الشيخ الى لالا فاطمة وما تخلل ذلك من انتفاضات أخرى . جسدت ارادة الشعب فى مقاومة الاحتلال ورفض الاستسلام ، ويتبين للملاحظ الفاحص ان هذه المقاومة الشعبية فى تاريخنا الحديث الى المقرانى ، الى أولاد سيدى الشيخ ، طاقاتها الحية من الريف وسكانه المحرومين والمضطهدين الذين لا يترددون فى تلبية نداء الجهاد من أجل الكرامة الوطنية ومقدسات البلاد ، كما تميزت المقاومة أيضا بقيادتها الشعبية التى كانت تتصدر الصفوف الامامية للمواجهة بفضل التجاوب الجماهيرى ولم يحدث هذا التجاوب الجماهيرى ولم يحدث هذا التجاوب لغرض آخر غير اعلان الجهاد وتنظيم المقاومة بل حتى العناصر التى ظن الاستعمار انه جندها نهائيا للسير فى ركابه عادت الى أصولها الجماهيرية فى اللحظات الحاسمة واندمجت فى الانتفاضات الشعبية .

وقد بقيت هذه الصفة الجماهيرية ملازمة للمقاومة الجزائرية وتبلورت كذلك فى الحركة الوطنية التى ظهرت فى الفترة ما بين الحرب العالمية الاولى والثانية حيث توهم الاستعمار الفرنسى انه من الممكن ان يصل الى مخططاته الاجرامية بواسطة القهر والتجهيل والتفقير فى مرحلة أولى ثم الاحتواء والغاء الوجود الوطنى نهائيا فى مرحلة أخيرة وذلك عن طريق تطبيق مخططاته التى أتخذت محورين أساسيين : أولهما تجريد الفلاحين الجزائريين من أراضيهم وتمليكها للدخلاء من المستوطنين الاوروبيين .
وثانيهما العمل باصرار على تحطيم البنية الاجتماعية للشعب وتقويض مقوماته الحضارية .

واذا كان النيل من المقومات الحضارية قد اصطدم بمقاومة عنيفة لم تنقطع أبدا فان انتزاع الاراضى من أصحابها قد أدى الى اقتلاع جماهير الريف من منبتها الاصلى

وافقارها وجعلها تحت رحمة الملاكين الجدد من الدخلاء . وقد أدى كل ذلك الى اغتراب الشعب داخل وطنه وتفاقم البطالة واضطهاد **أعز ما يفخر به الجزائرى هو دينه ولغته** فاضطر عدد كبير من الريفيين الى البحث عما يسد الرمق بواسطة العمل فى مزارع الاوروبيين متجرعين مرارة الاستغلال والاستعباد ، كما فرض على عدد آخر من ابناء الشعب أن يغتربوا بحثا عن الرزق متحملين فى مصانع الرأسمالية أبشع أنواع الاستنزاف والاضطهاد .

وقد تفاعلت كل تلك العوامل وساعدت على تبلور الحركة الوطنية فى تنظيمات استطاعت ان تعبر عن السخط الشعبى العارم ضد جراءات التجنيد الاجبارى وسياسة التجهيل والتفقير المنظم والاضطهاد وتغذية المنازعات القبلية تطبيقا لسياسة ..../فرق تسد/وقد تجاوبت تلك الحركة الوطنية بعمق مع الاتجاهات الاشتراكية وبوادر حركة التحرر العالمية كما تجاوبت الانتفاضات التى عرفتها منطقتنا مثل انتفاضة عبد لكريم الخطابى وعمر المختار وغيرهما ومع تيارات النهضة التى مثلها جمال الدين الافغانى ومحمد عبده وغيرهم .

وهذا ما يفسر أن الحركة الوطنية لم تكن فى مجموعها تناضل من أجل تحرير الجزائر من نير الاستعمار فحسب بل كانت تستهدف على المدى البعيد تحقيق نهضة اجتماعية وثقافية شاملة تحرر الانسان من أغلال التخلف . ويتضح ذلك من خلال سلسلة المؤسسات التعليمية والاجتماعية الشعبية التى نشأت تحت سمع وبصر الاستعمار لانقاذ الهوية الوطنية وتحدى حالة الاختناق المدبر .

وقد بلغت الهجمة الاستعمارية أقسى درجات الوحشية خلال أحداث ماى 1945 عندما تكالبت أجهزة القمع بعد ان ركعت أمام القوات الالمانية/على الجماهير الشعبية التى خرجت تهلل للحرية وتطالب بحقها فى تقرير المصير والاستقلال فكان جزاؤها أن صب الجيش المهزوم نيران حقده على الصدور العارية ودمر بطائراته ودباباته المدن والقرى فى استعراض للقوة لم تشهد له هذه المنطقة نظيرا .

ولم يكن بد من ان يستخلص الشعب وطلائعه الواعية الثورية مـــن أحـــداث ماى 1945 وما سبقها النتائج الحتمية ... فالعمل السياسى وحده سواء أكان داخل ما يسمى بالشرعية أم خارجها قد وصل الى طريق مسدود ولذلك كان من الضرورى العودة من جديد الى صيغة نضالية عميقة الجذور فى تراثنا الا وهى المقاومة المسلحة التى تنطلق من قواعد شعبية تتسم بالبساطة والفعالية الثورية ، فكان ميلاد جبهة التحرير الوطنى هو المنطلق لتعبئة الجماهير وتنظيمها وتوعيتها وقيادتها فى معركـة المصير الفاصلة . وكان جيش التحرير الوطنى الذى تكون أساسا من أكثر فئات الشعب حرمانا وأشدها التصاقا بهذه الارض هو غضبة الشعب العاصفة على الطغيان والاستغلال ، ان انبثاق جيش التحرير من جماهير الشعب الكادحة فى الارياف والمدن جعله جيشا تعجز أمامه قوات الاستعمار الفرنسى المدعومة بالحلف الاطلسى .

فالانتصار التاريخى الذى حققه الشعب الجزائرى لانتزاع حريته من اعتى قوة استعمارية . كان بفضل التضحيات الضخمة والهائلة التى قدمها الشعب فى أعظم ملحمة عرفها التاريخ المعاصر من أجل استقلاله الا وهى مليون ونصف مليون مـــن الشهـــداء

وفى هذه اللحظة التاريخية نقف بكل اجلال وخشوع أمام أرواح شهدائنا الابرار ونحيى تضحيات المجاهدين من رفاق السلاح الذين قدموا أعز ما عندهم فداء لتحرير الوطن . ولما برهنوا عليه من ايمان لم يخامره ضعف وارادة لم يراودها تردد فى مواصلة معركة الشرف حتى التحقيق الكامل لاهداف الثورة .

أيها الاخـوة المناضلون ...

ان موقعنا كمناضلين فى أى مستوى كان لا يعفينا من النقد الذاتى وتقييـــم حصيلتنا النضالية التى تمتد الآن على أكثر من ربع قرن فليس من المفيد فى شىء أن نتغنى بالايجابيات ونغض الطرف عن السلبيات لاننا بهذه الطريقة قد نخفى على

أجيالنا الصاعدة ما يمكن أن يكون فيه عبرة ولا ننقل اليهم بصدق ما عرفته بلادنا من تجارب ان مثل هذا النقد والتقييم سيرفع بدون شك درجة الوعي والنضج السياسيين اذا اتصف بالنزاهة والموضوعية والتجرد النضالى ... فلا يربط بين الاشخاص والافعال ولا يصدر عن حسابات وأهواء شخصية ان أكبر خطر يهدد الحزب الثورى هو تكرار الاخطاء أو الاصرار عليها والتغنى بالايجابيات والاحتفاء بها ... واذا كانت ثورتنا التحريرية فى مسيرتها المظفرة قد تعرضت لازمات كثيرة فلانها تجربة انسانية لا تخلو من المحاولة والخطأ . وفى تقديرنا أن تلك الازمات تعود الى العوامل التالية :

1 ـ ان جبهة التحرير الوطنى انطلقت فى عملها الثورى بدون اطار ايديولوجى متكامل يتضمن حلولا مسبقة للمشكلات الراهنة وتصورات نظرية واضحة للمستقبل فقد كانت الممارسة العملية هى التى تفرض حلولا معينة للمصاعب المطروحة ولكن تلك الحلول كثيرا ما تقتصر على معالجة مؤقتة لوضعية يمكن أن تتجدد بشكل آخر وفى ظروف أخرى مشابهة أو مغايرة .

2 ـ أن هياكل جبهة التحرير الوطنى لم تتطور دائما فى تنظيماتها ومحتواها بالقدر الذى تعاظمت به الثورة واتسعت ميادينها وكبرت واجباتها مما جعل التناقضات تتراكم فى مستوى القمة التى جمعت عددا من الاتجاهات المتعايشة الى حد ما والمتفقة على قضية التحرير الوطنى فقط مع اختلافها فى المحتوى الايديولوجى الذى ينبغى أن يتخذه هذا التحرير فيما بعد .

3 ـ ان جبهة التحرير الوطنى باعتبارها التنظيم السياسى الذى قاد ثورة التحرير كانت تجمع بين صفوفها القيادية كل المؤمنين بالكفاح المسلح ولم يكن لهذا التنظيم قواعد انضباطية مفصلة تشمل القمة والقاعدة على حد سواء فقد كان المرجع الاول هو البيانات العامة التى لا تتضمن فى الغالب تفاصيل دقيقة تمنع التأويل والجدل حول الاساليب والاهداف . وقد أدى هذا النقص الى غموض مفهوم السلطة وعدم فهم حدود المسؤولية .

4 ـ لم يكن من السهل ممارسة المركزية الديمقراطية فى حزب خرج من حرب ضروس فقد فيها خيرة مناضليه وأقبل على مرحلة البناء وهـو ما يـزال فى دور التأسيس ولذلك لم تكن المراقبة والمحاسبة والمناقشة الديمقراطية البناءة تتم بطريقة عادية داخل تنظيمات جبهة التحرير الوطنى ومستويات المسؤولية من القاعدة الى القمة وضمن تقاليد مسطرة فقد كانت القرارات بتأثير أسلوب وظروف السرية التى اقتضتها مواجهة العدو والاستعمار تتخذ فى أعلى المستويات أثناء حرب التحرير ولا تشارك فيها القاعدة الواسعة لجبهة التحرير الوطنى بالقدر الكافى بل قد تقتصر مشاركتها على مجرد الاعلام وهذا ما جعل الازمات تستفحل فى قمة الهرم وتبقى فى الغالب محصورة فيه ولا تؤثر على القاعدة لانها لا تعرف من تلك الازمات سـوى أصداء غامضة وقد ازدادت هذه النقائص حدة فى السنوات الاولى للاستقلال نتيجة التسرع والارتجال والاهتمام بالمشاكل الثانوية .

ان هذه الملاحظات العامة لا تستهدف نقد أشخاص أو تمجيد آخرين وانما هى محاولة مخلصة لتحليل أوضاعنا من خلال تجربة آن الاوان لتقييمها ودعم ايجابياتها وتفادى ما اعتراها من غبار وهى تشق طريقها طيلة سنوات حـرب التحرير ومـا أعقبها ... ونقول محاولة مخلصة لاننا جميعا كمناضلين سيأتى يوم يقيم فيه غيرنا ما نقوم به من عمل ويحكم التاريخ فيه لنا أو علينا وعندئذ ستجد الاجيال القادمة فى خلاصة تجربتنا النضالية تلك الروح الجريئة التى فجرت ثورة التحرير الكبرى وتلك المعانى السامية والافكار الرائدة التى استمرت منذ ذلك الحين تقود الثـورة وتحميها من الانكسار والتقهقر . وتمدها بعناصر القوة والاستمرار والتجديد .

أيها الاخـوة المناضلون :

لقد ادركت القيادة السياسية للبلاد ان تشييد حزب جبهة التحرير الوطـنى مرهون بشرطين أساسيين يتمثل أولهما فى القيام بفرز تلقائى يبـرز النخبـة الطلائعية للمناضلين الاكثر التزاما بالثورة الاشتراكية والاقوى ايمانا بالجماهـير

والاشد ارتباطا بواقعها وتجاوبا مع مطامحها لان النضال من أجل تعميق مكاسب الثورة واثرائها لا يمكن أن يكون الا عن اقتناع وطواعية ومن خلال الاطار النظامي وبروح الالتزام بقضايا الجماهير ·

وأما الشرط الثانى فهو الانطلاق فى بناء حزب جبهة التحرير الوطنى ابتداء من القاعدة التى تمثل أساس كل بناء سليم وخلق تيار من التفاعل بين القمة والقاعدة وهذا بدل حصر السلطة فى القمة وعزل القاعدة وقد وجد هذا المفهوم الثورى تطبيقه الواسع فلم تمض سنوات قليلة حتى تعبأت كل قوات الشعب الحية فى المنظمات الجماهيرية التى جمعت بين صفوفها العمال والفلاحين والمجاهدين والشباب والنساء ومختلف القطاعات المهنية وقد عرفت هذه العملية جدلية منقطعة النظـــير تجاوزت الحوار التقليدى بين مستويات المسؤولية ودرجات السلطة فقد كان كل مؤتمر مـــن مؤتمرات المنظمات الجماهيرية منطلقا جديدا يجدد نفس الثورة ويحكم خطواتها كما تؤكد ذلك اللوائح والتوصيات التى صدرت عنها وعبرت عن اجماع المشاركـــين فيها ··· ان هذه الذخيرة العظيمة ستكون من بين المكاسب التى يحرص مؤتمرنا على التمسك بها وتمهيد الطريق لوضعها موضع التنفيذ فهى جزء لا ينفصل عن نضـــال حزب جبهة التحرير الوطنى كما عبرت قواعده الجماهيرية وهو أيضا ترجمة أمينة لمشاكلها ومطامحها ·

أيها الاخـــوة المناضلون ···

لم تكد تستلم القيادة السياسية زمام الحكم حتى اتجهت بكل قواها وحشدت كل امكانيات البلاد لوضع أسس الدولة العصرية ومؤسساتها القاعدية وانجاز التعهدات التى تضمنها بيان 19 جوان 1965 باقامة دولة اشتراكية ذات هيبة وسيادة لا تزول بزوال الرجال وتعمل على تحقيق الرفاهية لكل ابناء الشعب ··· وبناء على ذلك تم ترتيب الاولويات ووضع فى مقدمتها تشييد دولة حديثة تضمن مكاسب الثـــورة وتحمى استقلالنا الوطنى وتكون فى نفس الوقت الاداة الفعالة للتنمية الشاملـــة ·

وهكذا عملت القيادة السياسية باشراف المناضل الفقيد وتحت قيادته على استعادة السيطرة على ثرواتنا الوطنية فبادرت بتأميم المناجم والبنوك وشركات التأمين واعادة التأمين والوحدات الصناعية وقطاع المحروقات وخاضت فى ذلك معارك قاسية خرجت منها منتصرة بالرغم من كل الضغوط والتحديات ومحاولة الحصار والتشكيك فى قدرة الجزائر على الاضطلاع بمسؤوليات هذه القطاعات الحيوية وقد سجل التاريخ بكل فخر واعتزاز صمود عمالنا واطاراتنا فى تلك المعركة الحاسمة ووعيهم بمسؤولياتهم الوطنية ودفعهم التحدى بالتحدى ·

ولقد أعطت هذه العملية الثورية الجريئة استقلالنا السياسى محتواه الحقيقى كما اكد ذلك الرئيس الراحل على اعتبار ان الاستقلال السياسى بدون التحكم فى ثرواتنا الوطنية والتخلص من التبعية يظل مجرد استقلال شكلى ·

فكما كان للثورة الجزائرية بعدها العالمى الملهم نضال الشعوب كان لهذه العملية صداها الواسع وأثرها الفعال على مستوى كفاح العالم الثالث فى القضاء على احتكارات الكارتيل العالمى واعادة تقييم المواد الاولية وتحقيق أقصى الاستفادة منها والمطالبة بنظام اقتصادى دولى جديد يقوم على تبادل المنافع وتوازن المصالح ·

وهكذا فان الجزائر التى خرجت من الحرب مثخنة بالجراح قد وفرت الشروط الموضوعية وهيأت الارضية الصلبة لخوض معركة التنمية الشاملة ، فى اطار الاختيار الاشتراكى · ولم تكد تمضى بضع سنوات حتى أرست بلادنا قواعد الصناعة وارتفعت المداخن تبشر بفجر الثورة الصناعية وتحولت جميع مناطق البلاد الى ورشة عمل كبرى بفضل سياسة التصنيع الجهوى واعادة توزيع الدخل · فمن ارزيو وسكيكدة الى الحجار ورويبة الى الونزة ترتفع منارات الصناعة وتستثمر موادنا الاولية بفضل السواعد الجزائرية ولمصلحة الجماهير الشعبية ·

ان حشد كل الامكانيات وتسخيرها للخروج نهائيا من مرحلة التخلف كان يستلزم حتما أن يحظى الريف باهتمام الثورة فهو الذى تحمل اقصى أعبائها وكان

مهدها الحقيقى الاول · وفضلا عن ذلك فان الاهتمام بالريف يندرج ضمن رؤيـــة شاملة ومتكاملة لعملية التنمية · باعتبار ان الثورة الزراعية خلافا لبرامج الاصلاح الزراعى التى عرفتها بعض البلدان النامية تستهدف تغيير ذهنية الانسان ومحيطه فى آن واحد فمبدأ الارض لمن يخدمها والقضاء على رواسب الاقطاع واقتلاع جذور النزعات البرجوازية والطفيلية وخلق علاقات جديدة اقتضت تصفية (الحماسة) من ريفنا الى الابد فى ميدان الزراعة والرعى فلا يمكن فى مجتمع اشتراكى وفى الريف الجزائرى بالذات أن تعيش فئة قليلة من الناس فى بحبوحة من العيش فى المدن وتمتص عرق المزارعين والرعاة الكادحين لان الثورة فى هذه الحالة تكون قد تنكرت لنفسها وحادت عن سبيلها ··· ان الثورة الزراعية لم تكن مجرد اعادة توزيع الارض والغاء الحماسة ···

لقد كان ذلك مجرد بداية لتكوين الانسان الجزائرى الجديد الذى يتمتع بحقه المشروع فى حياة كريمة وفاء لعهد الثورة وارواح الشهداء وهكذا انطلق مشروع الالف قرية التى يربط عددا كبيرا منها اليوم حزام الرخاء فى الريف الجزائرى فالقرى الفلاحية التى تنتشر اليوم فى ربوع ريفنا انما هى المعالم الكبرى لجزائـــر الثورة الاشتراكية التى لم تلتجىء حتى فى أحلك الظروف واقساها الى اختيـــار الحلـــول السهلة ·

أيها الاخوة المناضلون :

ان تشييد هياكل الدولة وتنظيمها على أسس عصرية لا يحقق نتائجه المرجوة الا اذا استكمل ببناء الانسان الذى هو هدف كل تقدم وتنمية ولذلك سخرت الثـــورة كل امكانياتها لتطبيق ديمقراطية التعليم وتكوين جيل مؤمن بالثورة ومتشبع بأنبل ما فى تراثه من قيم ايجابية وازداد الاقبال على الثقافة والعلم حتى أصبحت الحاجة الى الكتاب لا تقل عن الحاجة الى الخبز وما انتشار المدارس فى أقاصى الريف وعـــلى

سفوح الجبال وفى كل شارع من شوارع مدننا وقرانا وتشييد الجامعات والمعاهد لتخريج اطارات فى أحدث التخصصات العلمية والتقنية الا دليل على ما حققته الجزائر فى هذا الميدان فى سنوات قليلة غير ان هذا الانتشار الكمى للتعليم ينبغى أن يدعم أكثر فأكثر بتحسين الكيف وربط التكوين بالتنمية واحتياجات البلاد • ولن يكون ذلك بالامر الصعب لانه اذا كانت بعض مؤسساتنا الاقتصادية لم تصل فى بداية الامر الى طاقتها القصوى ، فانها فى طريقها الآن الى الرفع من كفايتها الانتاجية ، كما اننا لا نشك فى أن مؤسساتنا التعليمية تستطيع بفضل الحزم والعزيمة الصادقة ، ان ترفع مردودها ، وتحقق التوازن المطلوب بين الكم والكيف ، وتواصل العمل على ترقية لغتنا الوطنية ودعمها فى كل مجالات الحياة ، بدون ان ينسينا ذلك ما يحدث فى عالمنا المعاصر من تقدم ينبغى علينا ان نلاحقه وان نصل الى تحقيقه بأنفسنا فى أقرب الاجال •

ان ما اشرنا اليه من اعمال عظيمة ، ليس سوى امثلة من الانجازات الضخمة التى حققتها بلادنا فى سنوات قليلة رغم المصاعب والتحديات التى واجهتها •

ايها الاخوة المناضلون ،

ان المبادىء والمنطلقات التى تضمنها الميثاق وصادق عليها الشعب بالاجماع قد حددت بطريقة صريحة آفاق المستقبل وقطعت الطريق نهائيا على كل المتشككين والمتربصين بمكاسب ثورتنا الاشتراكية ••• من الطب المجانى الى التسيير الاشتراكى للمؤسسات الى التطوع والخدمة الوطنية والثورة الزراعية • فقد وصلت ثورتنا كما قال المناضل الراحل نقطة اللارجوع وبلغت أشدها وتسلحت بمؤسسات ومواثيق ساهم الشعب مباشرة فى وضعها واثرائها وهو أيضا قادر على حمايتها والدفاع عنها فى كل الظروف بواسطة مؤسساته الشعبية •

ولقد جاءت هذه المؤسسات تكملة للعمل الواسع الذى قامت به القيادة السياسية في مجال ارساء اسس المجتمع الاشتراكى واستكمال شروط بنائه اذ لا يكفى وضع

تلك الركائز المادية دون ان تتوفر لها وسائل حمايتها والاطر النظامية التى تستوعب جوانب هذه العملية الثورية الكبرى وتحافظ على ديناميكيتها فى خطها السليم . فكانت البداية بانشاء المجالس البلدية شروعا عمليا لتجسيد سلطة القواعد الشعبية باشتراكها فى مسؤوليات التخطيط والتسيير والتنفيذ وحين تواصلت هذه الخطوات بانشاء مجالس الولايات ومجالس العمال فى الوحدات الانتاجية الزراعية والصناعية والمجلس الوطنى فانما كان ذلك تحقيقا لمبدأ ممارسة الشعب للمسؤولية بواسطة ممثليه على مختلف المستويات وهكذا فان الثورة جعلت من القوة العاملة فى المدن والارياف المصدر الذى يصنع القرار الاقتصادى والسياسى من خلال تلك المجالس ويربط الجماهير الكادحة مصلحة ومصيرا بمكاسبها وانجازاتها ذلك ان شكل المؤسسات الاشتراكية ومجالس العمال الذى اختارته الثورة كأسلوب فى تنظيم الحياة الاقتصادية والاجتماعية والذى حول من كانوا يعرضون قوة عملهم فى أسواق الاستغلال الى منتجين ومسيرين ان هذا الاسلوب قادر على أن يضمن لنفسه الاستمرارية والتجدد .

ونقول انه قادر على ذلك وعلى حماية نفسه بنفسه على الرغم من النقائص التى ظهرت فى ميدان تطبيق النصوص حيث فسح المجال لاجتهادات حاولت عن قصد احيانا وعن غير قصد أحيانا اخرى النيل من هذا المكسب العظيم .

ولابد فى هذا المقام من الاعتراف بأن حزب جبهة التحرير الوطنى هو الآخر قد تسبب فى توفير الجو الملائم لظهور تلك النقائص وذلك بتقديمه مرشحين لا تتوفر فيهم كل الشروط والمقاييس المطلوبة وسرعان ما يفتر حماسهم أمام الضغوط وبريق الاغراءات . غير ان كل النقائص التى عرفناها فى هذه التجربة من خلال الممارسة مهما كانت ومهما كان مصدرها لا ينبغى أن تأخذ فى الاذهان ابعادا وتفسيرات مميزة بل ينبغى وضعها فى اطار اثراء التجربة نفسها واعتبارها نتيجة طبيعية لتجربة فتية .

ولقد برهن التصويت على الدستور والانتخابات الرئاسية على مدى تعلق الشعب بثورته ومؤسساته الشعبية ومدى نضجه السياسى ووعيه بابعاد المعركة التى تخوضها الجزائر ضد التخلف والاستغلال ·

أيها الاخوة المناضلون :

ان المعركة المتعددة الجبهات والمليئة بالتحديات لم تمنع الجزائر من القيام بدورها الرائد فى الكفاح ضد الامبريالية والرجعية والاستعمار بكل صوره واشكاله فقد عملت بلادنا فى كل موقع ودوى صوتها على كل منبر تدافع عن المضطهدين وتشد ازر المكافحين ولا تخاف فى الحق لومة لائم فلم تتردد الجزائر فى فتح صدرها للمناضلين من أجـــل القضايا الانسانية العادلة واعتبرت ان من واجبها كثورة اشتراكية ان تكون قبلـــة لكل حركات التحرير فى الوطن العربي وافريقيا وآسيا وامريكا اللاتينية وحتى أوروبا ·

وكما لم تخف بلادنا يوما من الايام ما قدمته وتقدمه من عون مادى ومعنوى لهذه الحركات التحررية ، فانها تؤمن بأن هذه المساهمة لا تعنى تصدير الثورة أو التدخل فى شؤون الغير أو المن على أى كان · لانها تعتقد ان قضايا التحرر واحدة اينما كانت على وجه الارض ، وان حق تقرير المصير مبدأ انسانى أقرته المنظمات الدولية ونصت عليه المواثيق الامية والجهوية ، ومن هذه المنطلقات وتلك المبادىء ساندت بلادنا شعب الصحراء الغربية فى كفاحه العادل ضد النزعة الاستعمارية التوسعية وتبنت قضية شعب فلسطين الذى يكافح فى صمود ضد الاستعمار الصهيونى الاستيطانى ، كما رفضت سياسة الاستسلام والخنوع التى تدفع الامة العربية ثمنها من أجل كرامتهـــا وحقها المشروع فى استعادة كل الاراضى العربية المغتصبة ، وهى لم تأل جهدا فى التنديد بالانظمة العنصرية الدموية التى تمارسها الاقليات البيضاء على شعوب ناميبيا وزيمبابوى وجنوب افريقيا تلك الاقليات المتواطئة مع الامبريالية العالمية لاستعباد الشعوب باسم التفوق العرقى ·

ان مساندة هذه الحركات والتعاطف معها لا يرتكز على حسابات تكتيكية مؤقتة ولا يستند الى مواقف عاطفية عابرة بل هو مستمد من صميم تراثنا النضالى العريق وقيم شعبنا وتجاربه فى الكفاح ·

فهذه المواقف الثورية والتحريرية تشكل منظورا يتجاوز الحدود والمصالح الخاصة ليتناول القضايا الانسانية المشتركة ، فلم تكن معركة تأميم المحروقات وكسر شوكة الاحتكارات العالمية والصمود بقوة أمام كارتيل الشركات المتعددة الجنسيات الا حلقة من حلقات النضال الاصيل والمنسجم مع منطلقاتنا السياسية فى الداخل · لقد تصدت الجزائر بقوة ورفعت صوتها المدوى ضد جشع العالم المصنع الذى ينقل المواد الاولية من البلدان النامية بأبخس الاثمان ليعيدها اليها مصنعة فيشتريها باضعاف تكلفتها الحقيقية ·

ان هذه المعركة التى خاضتها الجزائر تنبع من ايمانها القوى بعدم الانحياز الى المعسكرات وبضرورة اقامة جسر من الحوار والتفاهم بين الشمال والجنوب ودعم التعاون بين الشعوب حتى يسود السلام والامن وتستطيع الدول بغض النظر عن حجمها ، أن تحافظ على استقلالها وسيادتها الوطنية لان عدم الانحياز لا يعنى البقاء فى موقف المتفرج بل العمل فى اطار السيادة الوطنية على اقامة تعاون دولى خال من كل الاحكام المسبقة والنوايا السيئة وفى هذا النطاق ما فتئت الجزائر تعمل بجد على بناء مغرب الشعوب ولم تتخل ابدا عن انتمائها والتزاماتها تجاه الاشقاء فى الوطن العربى فقد كانت فى مقدمة من لبوا النداء وستبقى وفية لهذه الالتزامات فى جبهة الصمود والتصدى غير معترفة بسياسة الانهزام والاستسلام كما ستبقى بلادنا منتمية الى القارة السمراء ومتضامنة مع شعوبها المناضلة لان هذه المواقف والانتماءات تطابق تجربتها الثورية وتعبر عن اختياراتها الشعبية ومسطرة فى ميثاقها الوطنى ·

أيها الاخـوة المناضلون ،

لقد أتجهت العناية منذ سنوات الى بناء دولة عصرية قوية تتمتع بالاستقـــرار الداخلي وتحظى بالاحترام على الصعيد الدولي وتعبأت كل القوى لتمهيد الطريق لكى يخرج مجتمعنا من وضعية التخلف الموروث ولذلك تركز الاهتمام على وضع دعائم الثورة الصناعية وتنظيم اجهزة الدولة والنهوض بالريف فى جميع الميادين والشروع فى السيطرة على التكنولوجيا وبناء المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية والثقافيـــة وتزويدها بالامكانيات الضرورية للعمل. الا ان هذه الهياكل والمؤسسات لا يمكن ان تعطى مردودها وتظهر فعاليتها ودورها الايجابى فى التنمية الا اذا وضعت فى اطار منظور سياسى متكامل وسارت وفق الاختيارات والمبادىء التى تتبناها البلاد ٠

أما وقد أستوفت الدولة أهم مؤسساتها القاعدية السياسية منها والاقتصادية والثقافية والاجتماعية فانه بات من الطبيعى أن تتجه الجهود المكثفة كلها نحو الحزب بغية تنظيمه واقامة هياكله انطلاقا من متطلعات المرحلة الحالية واستعدادا لمؤتمـــر حزب جبهة التحرير الوطنى الذى يمثل قمة البناء السياسى والايديولوجى والحلقة الرئيسية فى سلسلة المؤسسات القيادية ٠

وقد جاء تنظيم الحزب واعادة هيكلته انطلاقة جديدة هامة فى مسيرته اذ أنـه ساعد على دعم العمل الحزبى واعطائه مفهومه الايديولوجى والتنظيمى المتكامل ذلك أنه لم يكن ممكنا بأى حال من الاحوال تصور انفصال هذا العمل عن الواقع السياسى والثقافى والاقتصادى والاجتماعى الذى تعيشه البلاد والذى ينبغى أن يكون انعكاسا لارادة الحزب باعتباره مصدر النشاط الايديولوجى الخلاق وباعتباره دليل الثـــورة وأداتها فى مجالات القيادة والتخطيط والتنشيط ٠

ومن هنا فان الامر لم يكن يعنى اعادة تنظيم الحزب وهيكلته كهدف فى حد ذاته بل يعنى اعطاء الهيكلة والتنظيمات الجديدة الفعالية والحيوية اللازمة لكى تثبـــت

وجودها فى مواقع وساحات العمل الثورى من أجل متابعة وتوجيه مهام البناء الاشتراكى وفق الاهداف التاريخية الثلاثة لثورتنا كما حددها الميثاق الوطنى وهى دعم الاستقلال الوطنى واقامة مجتمع متحرر من استغلال الانسان للانسان وترقية الفرد وتوفير أسباب تفتح شخصيته وأزدهارها ·

واذا كانت هذه الاهداف تجسد استراتيجية العمل السياسى فى المرحلة المستقبلية وعلى المدى البعيد ، فان المرحلة التى انطلقت فيها عمليات تنظيم الحزب والتى أولاها الرئيس المناضل هوارى بومدين عناية بالغة ، هذه المرحلة تعد على الرغم من قصرها مرحلة حاسمة فى حياة حزب جبهة التحرير الوطنى ، اذ تطلبت تجنيد كل الطاقات والكفاءات فى هيئات الحزب القاعدية والقيادية وفى المنظمات الجماهيرية من أجل مزيد من التعبئة والتوعية فى صفوف المناضلين ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى كان لابد ان نستعد لمؤتمرنا هذا بمراجعة هياكل وتنظيمات الحزب على المستويات المركزية والمحلية واقامة بنياته على كل الاصعدة ضمن منظور استراتيجى شامل يتيح تجديد الاعتبار للوظائف الحزبية واسترجاع الثقة الكاملة فى قدرة جبهة التحرير الوطنى على قيادة الثورة اليوم بنفس القدرة التى قادت بها فى الماضى معركة التحرير ، وبما أن البنيات كيفما كانت صلاحياتها للمهام المنوطة بها وكيفما كان تكيفها مع طبيعة العمل المطلوب منها ، انما تستمد قيمتها الكبرى أولا وقبل كل شىء من نوعية العناصر التى تمارس فيها الجهد النضالى ·

وهكذا تمكننا فى هذه الفترة القصيرة من جعل الحزب ساحة لقاء لكل الطاقات الحية فى البلاد ومركزا يستقطب الكفاءات ويصهرها فى اطار نضالى قوى ومتكامل يمكنها من استيعاب القاعدة النظرية التى تنطلق منها نظرتنا للمجتمع الاشتراكى وتمنحها وحدة التصور ·

وانطلاقا من هذه الاعتبارات كلها تم الشروع فى تنظيم الهياكل الحزبية ضمن منظور شامل لطبيعة المرحلة التى يواجهها العمل السياسى وقد جرى التفكير على

هذا الصعيد بحيث تكون البنيات فى مستوى المسؤوليات الجديدة متجاوبة مـــع ما يتطلبه العمل الحزبى من ديناميكية فعالة بعيدا عن أساليب التنظيم العقيمة الـتى تؤدى حتما اما الى الهامشية والعزلة أو الى الازدواجية وتداخل الاختصاصات الامر الذى يقضى على الجهود المبذولة ويحول دون تحقيق الاهداف المنتظرة ٠

واعتبارا لهذا التحليل ، فقد انشئت اللجان المركزية للحزب لتغطية مجمـــوع النشاطات الوطنية ، وشكلت من متفرغين للعمل فى الحزب ومن عناصر غير متفرغة ممن يتولون مناصب المسؤولية فى أجهزة الدولة ، وقطاعات الانتاج أو يمارسون مهمات فى المؤسسات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية تدخل فى اطار صلاحيات اللجـان المركزيـة

ولقد تعاونت عناصر الفئتين باخلاص على تحقيق استفادة قصوى من هذه الصيغة الجديدة للعمل وكان من ثمـــار ذلك الجـهد المتكامل تلك الدراسات التى أعـــدت وقدمت الى اللجنة الوطنية التى كلفت بالاعداد لهذا المؤتمر وهى دراسات شملت قطاعات الاعلام والثقافة والتكوين والشؤون الاقتصاديـــة والاجتماعية والقضايـا التنظيمية والعلاقات الدولية ٠٠٠

أيها الاخوة المناضلون :

ان الاهمية الاستراتيجية لبناء حزب قوى يعكس فى محتواه الاجتماعى تقـــدم الثورة وينشر فكرها الى جميع القطاعات ويكون متواجدا فى جميع المجالات جعلتنا نحرص منذ التكليف بهذه المهمة وطبقا لتوجيهات المناضل الكبير هوارى بومدين على أن نجعل من هذه الحركة الطلائعية العتيدة اطارا للقاء جميع الطاقات المناضلـــة والارادات المخلصة الملتزمة بالميثاق فى وحدته وشموله ، ومن هنا كانت الصيـــغ التنظيمية التى أوجدناها على المستوى المركزى وفى القاعدة ، وهى صيغ مكنت من استيعاب جميع الطاقات الملتزمة والقادرة على المساهمة والاستفادة من امكانياتهـا فى تعزيز دور جبهة التحرير واداء المهام التى حددها الميثاق الوطنى ٠

ان توسيع القاعدة التنظيمية للحزب وانفتاحه على أوسع الطاقات النضالية وخاصة فى مؤسسات وأجهزة الدولة لا يعنى تغليب الكم على المقاييس الاساسية وانما هو استجابة لضرورة ايصال توجيه الثورة الى مختلف مواقع الفكر والانتاج والتسيير وتحقيق وحدة الفكر والعمل لان بقاء الاطارات المسيرة ـ فى تصورنا ـ خارج الهياكل النظامية للحزب ، خطر على الثورة وعلى الاطارات نفسها ، فوجود الاطارات داخل الهياكل النظامية هو الذى يمكن من تفادى خطر الانحراف والانفصال عن فكر الثورة وسياستها ويتيح لهذه الاطارات بحكم موقعها المجال الطبيعى للابداع والتفاعل بين الفكر والممارسة والمساهمة الفعالة فى اثراء تجربة الثورة ٠

لان الاطار كما يؤكد الميثاق الوطنى « اما أن يشكل عائقا للجهود المبذولة فى سبيل التنمية واما ان يكون العكس من ذلك قوة دفع للثورة وعلى ضوء تصرفاتهم وسلوكهم تحكم الجماهير على مدى سلامة الحركة الثورية معنويا وسياسيا » ٠

فالاشتراكية لا يحققها الا وجود اشتراكيين فى مواقع المسؤولية ، هنا أوجه تحية تقدير لكل الاطارات التى عملت بجهد مخلص ، وبصمت ، ومن خلال مواقع المسؤولية والعمل ، على انتصار الثورة فى معركة البناء الاشتراكى ، وكسب التحدى الكبير فى مواجهة التخلف ودعم سياسة الاعتماد على النفس والاستقلال الاقتصادى ، وهكذا وكما انتصرت الثورة فى المعركة التحريرية بفضل عبقرية وتضحية أبنائها ، انتصرت فى معركة البناء الاشتراكى أيضا بفضل العزيمة والارادة المخلصة لابنائها المناضلين وغيرتهم الوطنية على مكانة وسمعة الجزائر ٠

وقد تواصلت الجهود خلال الفترة التمهيدية لمؤتمرنا هذا من أجل وضع تصور واضح للعمل ، وفق طبيعة المرحلة الجديدة ، بما يضمن اعطاء الدور الطبيعى والطليعى للحزب فى قيادة مسيرة الثورة ، والتحكم فى حركتها طبقا لما حدده الميثاق الوطنى من أهداف ، ويمكن من دفع أجهزة الثورة الاخرى فى عمل منسق متجانس يقضى على الميوعة والتواكل واللامبالاة وترامى المسؤوليات ويزيل التصور الخاطىء لدى البعض

لمهمة هيئات الحزب وعمل الاجهزة الادارية ، يثرى مفهوم اللامركزية واشراك القاعدة فى المسؤولية ، وحل المشاكل المحلية وتلبية احتياجات الجماهير وتكون فى النهاية موصلا جيدا بين القاعدة والاجهزة المركزية للحزب .

ومن هنا اخترنا الصيغة التنظيمية الجديدة المتمثلة فى اقامة مجالس على مستوى المحافظات ، وتشكيل لجان حزبية على مستوى القاعدة ، تكون امتدادا للاجهزة المركزية التى حرصنا كل الحرص على أن تكون ساحة لقاء ووعاء لاستقطاب جميع القدرات النضالية المؤهلة لاثراء ودعم مهام الحزب فى التوجيه والتكوين والرقابة والتنشيط واتخاذ التدابير اللازمة لحل مجموع المشاكل المطروحة على مستوى الولاية سـواء كانت ذات طابع سياسى أو اقتصادى أو اجتماعى أو ثقافى ، كل ذلك تم استجابة للمرحلة المتقدمة التى بلغتها الثورة وعظمت أفاقها المتعددة والواسعة بحيث لا تكون هناك قطيعة بين المهمة السياسية والادارية والمهمة التسييرية .

وهكذا اتاحت هذه الصيغة التنظيمية للاطارات الوطنية سواء كانت فى الحزب أو فى الدولة أن تمارس معا جهد التفكير والتخطيط والتصور فى اطار حيوى فعـال ، ومكنت من مد الجسور المتينة بين هياكل الحزب وهياكل الدولة .

وقد عملت هذه اللجان على المستوى المركزى كل منها فى اطار اختصاصها عـلى دراسة التدابير الهامة ذات الصبغة الوطنية التى تتخذها مختلف قطاعات النشاط الوطنى وابداء الرأى فيها قبل دخولها حيز لتطبيق .

أيها الاخـوة المناضلون :

لقد كانت المصادقة الشعبية على الميثاق الوطنى ايذانا ببدء مرحلة جديدة فى مسيرة الثورة وتعميق محتواها الديمقراطى من خلال تنشيط مؤسساتها وهيئاتهـا وتعبئة وتأطير طاقات الثورة وقواها الحية باعتبار ان هذه القوى هى وسيلة وغاية الثـــورة .

وبدون شك فان هذه التعبئة لا يحققها الا حزب طليعى قادر على استيعاب كل القوى المستعدة للنضال والملتزمة بالميثاق الوطنى ومبادىء جبهة التحرير الوطنى ·

ومن هنا كان عقد مؤتمر الحزب هدفا بالغ الاهمية لما يعنيه من تتويج صرح بنائها السياسى واعتبارا لهذه الاهمية الاستراتيجية التى يكتسبها بناء حزب يكون القوة القائدة والموجهة لحركة الثورة كان علينا أن ننطلق انطلاقة سليمة ببناء الاساس فجاءت مؤتمرات المنظمات الجماهيرية التى تعد روافد تكمل وتدعم العمل الحزبى وتوسيع قاعدته النضالية لتشمل كل القوات الاساسية للثورة ، ولقد حرصنا كل الحرص فى اطار استعدادنا لهذا الموعد التاريخى العظيم على أن تجرى أشغال تلك المؤتمرات فى جو من الديمقراطية الحقة والتمثيل الواسع للقاعدة كما حرصنا على جعل هذه المؤتمرات لقاءا ملائما للحوار البناء والنقد الذاتى النزيه بغية الكشف عن كل الجوانب السلبية والايجابية والتعرف على طموحات وتطلعات الجماهير الشعبية وترجمتها من خلال التوصيات والقرارات ، الى برامج عمل واضحة الاهداف ولم يكن من الممكن تحقيق ما توصلنا اليه من خلال هذه العملية التجديدية التى أعطت دما ودفعا جديدا لديناميكية الثورة لو لم يتم التمسك بأسلوب الديمقراطية والانفتاح على القاعدة والاصغاء اليها وتأكيد الثقة فى نضجها ومسؤوليتها ، وقد أسندت مهمة السهر على تنفيذ التوصيات الى قيادات انبثقت عن هذه المؤتمرات وتعكس الاهتمامات الحقيقية وتكون فى مستوى مقتضيات البناء الوطنى ·

وقد أردنا بعقد تلك المؤتمرات جعل المنظمات الجماهيرية لا مجرد واجهات تعيش على هامش القضايا الوطنية الكبرى بل تنشط كل فى ميدانها لتعبئة أوسع فئات الشعب والعمل باستمرار على رفع مستوى الوعى السياسى والثقافى لمناضلينا وترسيخ مفاهيم الثورة لديهم ، وجعلهم معبئين باستمرار من أجل انجاز مهام البناء الاشتراكى ، وكانت النتائج الايجابية المحققة فى مستوى ما كنا نطمح اليه ·

وبخصوص تجديد الهياكل القاعدية للحزب التى شملتــها عمليات الفــرز والانخراط وانتخابات مجالس ومكاتب الخلايا والقسمات ، فقد تجنبنا الاعتماد على المفاهيم البالية التى تجعل النضال فى الحزب أو النهوض بالمسؤوليات فيه عمليـــة انسانية أو مهمة شرفية ، بل التزمنا بتطبيق الميثاق الوطنى نصا وروحا الذى أكد على أن عضوية الحزب لا يستطيع الحصول عليها الا أولئك الذين يكافحون باصرار من أجل انتصار الاختيار الاشتراكي ، ومقتنعون بمبادىء حزب جبهة التحرير الوطنى، ويلتزمون بتطبيقها وينذرون انفسهم من أجل تحقيق مثلها العليا ٠

وقد أمكن بفضل تلك العمليات تنقية القاعدة النضالية من كل العناصر ذات الماضى المشبوه التى تمكنت بطريقة أو بأخرى من التسرب الى صفوف الحزب ، كما أمكن فى نفس الوقت فسح المجال أمام كل من تتوفر فيه مقاييس النزاهة والكفاءة والالتزام لتحمل المسؤوليات النضالية فى الهياكل القاعدية ٠

وهكذا فان الجهود التى بذلت فى اعادة تنظيم الحزب وبناء هياكله قد مكنت من ارساء أسس متينة لحزب طلائعى يستمد قوته من قوة تنظيمية وانضباط مناضليه وتحليهم باخلاقيات الثورة واستقطابه كل الكفاءات المخلصة الملتزمة لقضايا الجماهير٠

أيها الاخوة المناضلون :

اذا كانت هذه لمحة سريعة عن الحصيلة العظيمة لما انجزته الثورة وقيادتها وفى فترة قصيرة لابد أن تستحضرها الذاكرة ونحن فى هذه الوقفة التاريخية حتى يدرك الجميع أن الثورة كما قال المناضل هوارى بومدين « قد كبرت وامتدت الى جميــع المجالات » ، وان التفاتة فاحصة للماضى لتبعث العزة فى النفوس وتعزز الايمـــان والثقة بالمستقبل المزدهر لخير هذه الثورة ٠

ولكن كل ذلك أيها الاخوة لا ينبغى أن ينسينا ـ ونحن بصدد دعم قوة الدفع الرئيسية للثورة الا وهى حزب جبهة التحرير الوطنى ومؤتمره الذى ستنبثق عنه

القيادة السياسية العليا للبلاد – ان الاعتزاز والثقة لا تعنى الاخلاد للراحة والاستهانة بالمشاكل الطبيعية الناجمة عن سرعة التنمية ، وتعدد جبهاتها ، والاكتفاء بالتغنى بما تم انجازه لاننا فى هذه الحالة قد نقع صرعى الغرور والتوانى ، ويفلت من أيدينا زمام المبادرة فى وقت نحن فى أشد الحاجة الى تكثيف الجهد ومسابقة الزمن ٠

وفى هذا السياق تبدو لنا آفاق المستقبل جلية واضحة في محاورها الكبرى ومهامها الاساسية فقد رسم الميثاق الوطنى الاهداف وحدد الوسائل وجعل من الاشتراكية اختيارا لا رجعة فيه فى اطار من الوحدة الوطنية الصلبة والاستمرارية الثورية والديمقراطية المركزية ، واننا لواثقون بأن شعبنا الذى برهن دائما على نضجه السياسى وعبقريته الخلاقة سيكون أكثر تمسكا بتلك الوثيقة الايديولوجية التى ارتضاها ووضع فيها خلاصة تجاربه ، وانبل ما فى تاريخه النضالى من قيم وحدد فيها آماله ، ان هذا الشعب قد كذب بالتفاته حول حزب جبهة التحرير الوطنى كل التنبؤات الحاقدة على ثورتنا وحملات التشويه والتشكيك التى تروجها الرجعية وعملاؤها حول جزائر الغد بتضخيم النقائص التى لا يخلو منها أى عمل ثورى طموح خاصة اذا كان بهذا الحجم الذى حققته الثورة الجزائرية ٠

ان جزائر الغد لن تكون الا متدادا أفضل لجزائر اليوم وانطلاقا أسرع فى تحقيق الانجازات واستكمال الاهداف التى وضعت الجزائر أسسها وسارت فيها أشواطا بعيدة ٠

ففى المستوى السياسى تشير الدلائل الى أن تجديد هياكل حزب جبهة التحرير الوطني وتوسيع قاعدته النضالية وانتخاب قياداته من القاعدة الجماهيرية المناضلة وتاطير كل قوى الثورة ٠ سيكون دفعا ثوريا قويا لتحقيق الاختيارات الايديولوجية الكبري المحددة فى الميثاق الوطنى وتهيئة كل الظروف الموضوعية ليكون حزب جبهة التحرير الوطنى دليل الثورة والقوة المسيرة للمجتمع والكفيلة بنقل الثورة من المحتوى الديمقراطى الشعبى الى المحتوى الاشتراكى الكامل ولهذا فان حزب

جبهة التحرير الوطنى ينبغى أن يضم فى صفوفه أكثر المناضلين كفاءة ووعيا والتزاما بقضايا الجماهير ، ذلك أن قضية الكم والكيف تطرح اليوم بطريقة صارمة لا مجال فيها للخطأ ، وسوء التقدير ، فبقدر ما يجمع الحزب بين صفوفه من كفاءات ملتزمة ومدركة لابعاد المعركة التى تخوضها الجزائر ضد التخلف والامبريالية بقدر ما تحسم المشاكل وتبتكر الحلول ، وتظهر آثار العمل الجاد وتعطى مردودها المطلوب ·

وفى مستوى مهام البناء الاقتصادى يجب أن يكون هدفنا الاول هو التحكم فى استراتيجية التنمية الشاملة فى جوانبها المادية والاجتماعية والثقافية واطلاق العنان لمواهب الخلق والابتكار والابداع والتجديد وتحقيق توازن كامل بين كل القطاعات واعادة ترتيب الاولويات فى اطار المخطط القادم ، اننا نعتقد جازمين بأن التنمية الاقتصادية ليست مجرد عملية تقنية تلخصها الارقام والاحصاءات فحسب بل هى أيضا فى نظرنا معركة اجتماعية وسياسية وثقافية لا تعطى ثمرتها الكاملة الا اذا ارتكزت على الجماهير المؤطرة باعتبارها الوسيلة والغاية ولانها صاحبة المصلحة الاولى فى التنمية ·

وفى هذا النطاق يجب أن يتواصل العمل حسب توجيهات الميثاق الوطنى لتاكيد استقلالنا الاقتصادى والاعتماد اساسا على امكانياتنا الذاتية واحكام السيطرة على ثرواتنا الوطنية وكل موارد الطاقة وتنمية الصناعات الثقيلة والخفيفة والاستفادة الى أقصى حد ممكن من احدث ما توصلت اليه الانسانية فىميادين العلوم والتكنولوجيا المعاصرة مع الأهتمام أكثر بتكييفها مع واقعنا الوطنى واحتياجاتنا الاساسية حتى تحتل بلادنا مكانها اللائق فى التنافس القائم اليوم فى مجال الاكتشاف والاختراع وتطويع التقنيات وتشكيل المحيط ·

وينبغى أن يندمج التصنيع والتحديث التكنولوجى فى قطاع آخر لا يقل عنه أهمية الا وهو تعزيز مكاسب الريف الجزائرى وتوسيع منجزات الثورة الزراعية بواسطة مقاومة زحف الصحراء واحياء الاراضى واستغلالها والاستفادة القصوى من الثروة المائية

واستخدام التقنيات الحديثة فى العمل الفلاحى كلما تطلب الامر ذلك والوصول بهياكل التوزيع والتسويق والتخزين الى درجة من التنظيم والاتقان تمنع الازمات المفتعلة وتحقق لنا الاستقلال الغذائى الذى تتخذ منه بعض الدول والهيئات ورقة ضغط وأداة تهديد .

ان القرية الفلاحية وما يدور فيها من نشاط اقتصادى واجتماعى وثقافى سوف لن تكون فى المستقبل مجرد محطة بين مدينتين بل مركز اشعاع ونهضة حقيقية يصنعها الانسان الجزائرى وتحمل ملامح شخصيته وتعكس مدى قدرته على التغيير والتعمير .

وفى مستوى الاجتماعى الثقافى ، يتعين على الثورة ان تواصل جهودها لرفع مستوى الحياة للفرد والجماعة والعناية الكاملة بالاسرة الجزائرية وحمايتها ماديا ومعنويا اذ لابد من اعطاء اهتمام خاص للجانب التربوى وبناء الاسرة الجزائرية فى اطار يصون قيمنا الاسلامية النبيلة وتقاليدنا الوطنية الاصيلة وينسجم مع المثل الاشتراكية ويتيح ازدهار شخصيه الفرد والمجتمع بدون جمود وبدون انحلال وتفسخ .

وبدون شك فان حجر الزاوية فى بناء الاسرة والخلية الاساسية للمجتمع هى المرأة التى بدون ترقيتها وترسيخ رصيدها ومكانتها فى الثورة يظل جهدنا التربوى ناقصا ومبتورا .

وهنا لابد من العمل وبدون انقطاع لاستئصال المفاهيم المختلفة تجاه المرأة والتى تؤدى أحيانا الى تعطيل طاقاتها وشل مساهمتها المطلوبة فى الحياة السياسية للبلاد وفى المهام التى تعود اليها بالدرجة الاولى ، كما يجب مكافحة مظاهر السلوك والتصرفات الانحلالية المتناقضة مع القيم الاشتراكية وشن حرب ضد جميع مظاهر الانحراف والتشرد لان الامر يتعلق فى النهاية بتحقيق انسجام وتكامل حقيقيين بين بناء الاساس المادى للمجتمع الاشتراكى وبين بناء انسان هذا المجتمع .

هذا وستاخذ مشكلات السكن والصحة والنقل طريقها الى الحل بمضاعفة الجهود المبذولة حاليا استجابة لما حدده الميثاق الوطنى من مهام عاجلة وينسحب هذا المجهود

المكثف أيضا على ميدان الثقافة والتعليم ويتجلى ذلك فى ضرورة توفير كل الشروط اللازمة لتعزيز الثورة الثقافية وتشجيع الابداع الوطنى فى الفنون والآداب وابراز أفضل ما فى تراثنا العربى الاسلامى من قيم ومآثر ٠

ان ترقية الثقافة وتحسين أدواتها المقروءة والمسموعة والمرئية وجعلها فى متناول الجماهير الكادحة يعتبر فى نظرنا استثمارا ستكون له نتائجه الايجابية على كـــل الفئات الاجتماعية ولا ريب ان هذه العملية تسير فى خط مواز لما تبذله الجزائر من جهود لتعميم التعليم ومحو الامية نهائيا بوسائل ينبغى ان تكون أكثر ثورية واعمق تأثيرا وأوسع شمولا ، فهيمقراطية التعليم ورفع مستواه الكيفى واعطاء أهميــة خاصة للتربية والتعليم المستمر والتكوين التقنى فى كل الاختصاصات التى تحتاجها البلاد ستكون شغلنا الشاغل اذ من خلال نصوص الميثاق وتوجيهات القائد الراحل هوارى بومدين سيعمل حزب جبهة التحرير الوطنى على وضع استراتيجية تربوية دقيقة ومفصلة تشمل كل مراحل التعليم وتثرى مضمونه وتجعله يتركز أكثر حول انشغالاتنا الكبرى ويعكس واقعنا ويعطى للثقافة الوطنية ابعادها الحقيقية باعتبارها أداة لاستعادة الهوية الوطنية وطريقا للاخذ والعطاء مع الحضارة الانسانية ٠

ان الطابع الاستيطانى للغزو الفرنسى كلف الشعب الجزائرى تضحيات لا تحصى، فقد تعرض المواطنون لموجات متلاحقة من اغتصاب الاراضى ، واجلاء أهلها عنها الى المناطق القاحلة ليعيشوا نهبا للفقر والحرمان وفى ظل هذه الظروف القاسية اضطر العديد من الجزائريين للسفر الى ما وراء البحر طلبا للرزق ، ولكن سياط الاستعمار والتفرقة العنصرية ظل يطاردهم فى ديار المهجر حيث واجهوا ابشع أنواع الاستغلال والاستعباد ، وبالرغم من تلك الظروف القاسية التى كانوا يعيشون فيها ظلــوا مرتبطين ارتباطا وثيقا بوطنهم ومدركين بان محنتهم هى جزء من المحنة الكبرى التى يعانى منها الشعب بأكمله ٠

ومن أجل ذلك كان عمالنا فى المهجر فى طليعة الذين لبوا نداء جبهة التحرير الوطنى للكفاح من أجل الاستقلال واستعادة السيادة الوطنية ·

ولقد ظل مشكل الهجرة منذ التاسع عشر جوان 1965 من الاهتمامات الاساسية للقيادة الثورية حيث تواصل العمل على المستوى الوطنى من أجل توفير الشروط الموضوعية لعودتهم الى أرض الوطن وادماجهم فى حركة التنمية الاشتراكية الـتى تشكل الحل الجذرى لمشكلات التخلف والتركة الاستعمارية الثقيلة ·

وفى هذا الصدد ينبغى مضاعفة الجهد لتوفير الامن لهذا القطاع الهام من شعبنا وحماية شخصيته الوطنية من اخطار المسخ والذوبان وهذا بطبيعة الحال يتطلـب الاسراع بتوفير وسائل وشروط العودة الكاملة ·

اننا ونحن نتحدث عن الانجازات العظيمة والافاق الواسعة لثورتنا ، نسجل بكل فخر واعتزاز الدور الطلائعى الهام الذى قام به الجيش الوطنى الشعبى ـ سليل جيش التحرير الوطنى ـ فى معركة البناء الاشتراكى وترسيخ هياكل الدولة الجزائرية
فلقد ظل هذا الجيش الذى يجسد بحق استمرارية ثورة نوفمبر وعبقرية شعبنا وفيا لاصوله الاجتماعية ولمهمته التاريخية فلم يكن جيش ثكنات ورتب وألقاب بل كان عليه أن يبقى فى طليعة المعركة لبناء الوطن ودعم وحماية الاستقلال ، انـه جيش انبثق من الشعب وسيظل فى خدمة الشعب ولا يمكن ان يكون جيش الثكنات أو يبقى على هامش المجتمع ·

واننى لفى غنى عن سرد المهام التى قام بها الجيش الوطنى الشعبى لان اسمـه أصبح مقترنا بجميع معارك البناء التى خاضتها البلاد والمتمثلة فى ثوراتنا الثـلاث الزراعية ـ والصناعية ـ والثقافية ·

وفوق هذا كله أصبح الجيش الوطنى الشعبى مدرسة لتكوين الاجيال الصاعدة وتأطيرها وتربيتها وتغذيتها بايديولوجية الثورة وهذا من خلال الخدمة الوطنية التى تستوعب جميع ابناء الشعب ·

ان ثقل واعباء مهام البناء الوطنى والدفاع عن الوطن والثورة ، لم تجعله يتخلى عن واجباته القومية ، وهكذا شارك جيشكم المغوار فى المعركة ضد الصهيونية ، فكان له شهداؤه الذين جسدوا بالتضحية وبالدم وحدة المصير المشترك ، كما أكد وحدة المعركة فى سبيل الحرية من خلال تقديم الدعم لحركات التحرير المكافحة ضــــد الاستعمار والعنصرية والغزو فى القارة الافريقية وحتى يعزز دور الجيش الوطنى الشعبى كدرع للثورة الاشتراكية فانه يتحتم مواصلة الجهد الكبير لتقوية قدرات الجيش الوطنى الشعبى وتكييفها مع التكنولوجيا الحديثة ، وامتلاك كامل القدرة على استخدامها ، وان ترقية القوى الاجتماعية للثورة وتوسيع قاعدة التعليم لابنــــاء الفلاحين والعمال سيمكن من المحافظة على المنابع الاجتماعية لهـذا الجيش ويمـــده بخامات هامـة .

أيها الاخـوة المناضلون :

لقد حرصنا بتوجيهات من الرئيس الراحل هوارى بومدين طوال الفترة القصيرة الماضية على وضع القواعد الاساسية لحزب جبهة التحرير الوطنى وعملنا على توفير الشروط الموضوعية لانطلاق حوار ديمقراطى بين المناضلين فى كل المستويات وتهيئة كل الاسباب الكفيلة بتوسيع القاعدة الحزبية وتقويتها ، فاذا كنا قد ادينا الامانة كمناضلين على احسن وجه فان ذلك هو الغاية المثلى التى سعينا اليها ورجونا بلوغها ولقد ظلت الارادة الصادقة هى رائدنا فى العمل وظل تحقيق تطلعات الجماهير الشعبية الى حياة أفضل هو المشعل الذى ينير طريق نضالنا .

وها نحن بعد مسيرة من النضال الشاق تحمل فيه جيل نوفمبر مسؤوليات ثورة البناء والتشييد وتحدياتها الضخمة قد وصلنا الى هذه اللحظة التاريخية لحظـــة انعقاد المؤتمر الرابع لجبهة التحرير الوطنى ومعنا خلاصة الجهد الذى بذلناه خلال هذه السنوات الطويلة المليئة بالعمل من أجل تحقيق أهداف الثورة والتى تميزت

بالجهود المتواصلة لتجديد هياكل الحزب ومنظماته الجماهيرية قصد توفير شروط نجاح هـذا المؤتمـر .

أيها الاخـوة المناضلون :

لقد توجت المسيرة بانعقاد هذا المؤتمر الرابع لحزب جبهة التحرير الوطنى الذى يعتبر ـ بحق ـ بداية مرحلة جديدة فى حياة الثورة وباعتبار مؤتمرنا هذا هو صاحب السيادة والسلطة المطلقة فى تقرير مصير البلاد والثورة فان انعقاده اليوم ينهى مهام مجلس الثورة كقيادة سياسية تحملت اعباء البناء الوطنى فى ظروف شاقـة وصعبة منذ 19 جوان 1965 رغم المصاعب ورغم التركة الاستعمارية الثقيلة استطاعت ان تواجه مع كل المناضلين المخلصين وبحزم التحديات العديدة فى الداخل والخارج، وان تحقق مع كل المخلصين انجازات حضارية ضخمة ان لم تبلغ بعد كل طموحات الثورة فانها ارست صرح دولة اشتراكية ديمقراطية قوية بمؤسساتها متحررة من سيطرة الاحتكارات ونفوذ الامبريالية ، دولة مهابة ومسموعة الكلمة .

ويحضرنى فى هذه اللحظات الخالدة ونحن نتأمل مكاسب وانجازات 19 جوان العظيم رفاق لنا مناضلون أوفياء سقطوا شهداء الواجب الذى أدوه بكـل أمانـة واخلاص وتفان ولم يكتب لهم ان يعيشوا معنا هذا الحدث العظيم .

وهكذا بعد ان انتهت مهمة القيادة السياسية فاننى أعلن من هذا المنبر عـن انتهاء مهام رؤساء اللجان المركزية للحزب واعضائها وكل المعينين فى المهام السياسية بالجهاز المركزى للحزب وسيبقى الآن على الهيئات التى ستنبثق عن مؤتمركم الموقر اختيار الرجال الذين يتحملون مسؤولية قيادة البلاد فى المرحلة القادمة والانتقال بالثورة من ارساء بنياتها القاعدية الى تحقيق الاهداف المرسومة فى الميثاق الوطنى عبر آفاقه القريبة والبعيدة .

وفى هذه اللحظات التى تنطلق فيها أشغال المؤتمر الرابع لحزب جبهة التحرير الوطنى لا يسعنا الا ان نقف اجلالا وخشوعا لروح فقيدنا المناضل هوارى بومدين

الذى كانت أعز امانيه ان يحضر هذا الحدث الوطنى العظيم ليقدم عصارة جهـــده وخلاصة تجربته النضالية من أجل تدعيم مكاسب الثورة ، غير انه وان كان غائبا عنا ستبقى ذكراه تحثنا جميعا على التحلى باخلاق الثورة والتمسك بمبادئها والحرص على استمراريتها ·

واذ اتوجه بالشكر لكل الذين ساعدونى على أداء مهمتى كمسؤول تنفيذى لجهاز الحزب وسخروا كل ما فى وسعهم من جهد ووقت ، فانى انوه أيضا بقيادات المنظمات الجماهيرية التى وجدت لديها كل العون والتفهم للتغلب على كل الصعاب التى واجهتنا ونحن نعيد بناء هذه المنظمات ·

وأخيرا أحيى بكل حرارة هذا المؤتمر التاريخى وأتمنى مخلصا ان تكلل أعماله بالنجاح وتنبثق عنه قيادات تكون فى مستوى مهام هذه المرحلة الحاسمة لتواصل السير بخطى ثابتة وايمان راسخ لاستكمال أهداف الثورة وتطبيق الميثاق الوطنى ·

عاش حزب جبهة التحرير الوطنى ،

عاشت الثـــورة الاشتراكيـة ،

المجـد والخلـود لشهدائـنا ·

احترام الشرعية الدستورية
وتطبيق الميثاق الوطني



ألقى المناضل الشاذلي بن جديد، اثر انتخابه من قبل المؤتمر الرابع لجبهة التحرير الوطني أمينا عاما لحزب جبهة التحرير الوطني والمرشح لرئاسة الجمهورية ، كلمة شكر فيها المؤتمرين على الثقة التي وضعوها فيه ، واعرب عن تقديره للمسؤولية التي أسندت اليه ، وقال :

سأعمل على مواصلة السير في الطريق الذي رسمه الرئيس الراحل هواري بومدين ، من أجل تعميق الاختيار الاشتراكي الذي لا رجعة فيه ، والحفاظ على استقلالنا الوطني بمفهومه الواسع .

وأعرب الامين العام للحزب ، عن عزمه على تدعيم حزب جبهة التحرير الوطني ، والعمل على تطبيق الميثاق الوطني نصا وروحا .

وقال : ان اختيارنا الاشتراكي لحكيم وسليم ، والدليل على ذلك اليقظة والوعي بالمسؤولية التي تحلى بها شعبنا خلال الظروف الاليمة التي مر بها .

وقد برهنت مؤسساتنا الوطنية على أنها تقوم على قواعد متينة وصحيحة .

واختتم الاخ الشاذلي بن جديد كلمته مؤكدا عزمه على احترام الشرعية الدستورية وتطبيق الميثاق الوطني الذي يعد الوثيقة الاساسية لايديولوجية حزب جبهة التحرير الوطني ، ودعا المناضلين في كافة المستويات الى مساعدته في أداء مهمته .

عروبـــــة واســـــلام



اختتم الدكتور بوعلام بن حمودة رئيس المؤتمر ، وعضو المكتب السياسى ، ووزير الاشغال العمومية ، اشغال المؤتمر الرابع لجبهة التحرير الوطنى بالكلمة التاليـة :

ها نحن قد وصلنا الى نهاية اشغالنا بعد خمسة ايام من المداولات وبعد ان استنفدنا جدول اعمال المؤتمر الرابع لحزب جبهة التحرير الوطنى ٠

فماذا أزيد على خطاب رئيس الدولة والمسؤول التنفيذى لجهاز الحزب والمقررين الـ 41 والمتدخلين فى المناقشة العامة وعددهم 65 ٠

فاذا أردتم أن أضيف شيئا أقول : كلهم طالبوا بتطبيق الميثـــاق الوطـــنى والدستور ، وكلهم أعلنوا الوفاء للخطة التى رسمها المرحوم الرئيس هوارى بومدين٠

فيا بومدين ، كملنا المسيرة وبلغنا الهدف الذى كنت تسعى اليه وما زالت ترن فى آذاننا الكلمات التى كنت تقولها لنا فى مقابلات :«أريد أن أعطى الجزائر مؤسسات لا تزول بزوال الرجال ٠٠٠ » ٠

المكاسب الثورية لن يستطيع أحد أن يرجع عنها » ·

« أمنيتى أن يتوصل المؤتمر الى انتخاب قيادة سياسية قوية منسجمة ترفع مشعل الثورة الاشتراكية لتسلمه تدريجيا من جيل الى جيل » ·

ذلك ما كان يكرره الرئيس الراحل ·

ومن العدل والانصاف ان ننوه بكل ما قام به رئيس الدولة السيد رابح بيطاط ، والمسؤول التنفيذى لجهاز الحزب ، السيد محمد الصالح يحياوى ، ومجلس الثورة وجهاز الحزب واللجنة الوطنية لتحضير المؤتمر من أجل عقد هذا المؤتمر ·

ومن العدل والانصاف أن ننوه و نعترف بالجميل لرئيس الدولة والمسؤول التنفيذى لجهاز الحزب وأعضاء مجلس الثورة والوزراء والاطارات الذين عملوا جنبا لجنب ومنذ 19 جوان 1965 مع المرحوم هوارى بومدين ، لكسب المعارك الهامة لصالح الجزائر ولصالح الطبقات الكادحة ·

والمؤتمر نجح أيضا بفضلكم أنتم أيها المؤتمرون والروح الديمقراطية التى سادت والجدية والموضوعية التى وسمت التقارير والتدخلات والمشاركة الفعلية فى نشاط اللجان إذ ساهم فيها 3000 مؤتمر تقريبا ·

وقد عشنا لحظات مؤثرة حينما استمعنا الى النشيد الوطنى والى نشيد « من جبالنا » هذين النشيدين اللذين ذكرانا بالرفاق الذين كانوا معنا والكثير منهم الآن تحت الثرى ·

وفرحنا بالمؤتمرين وهم يتسابقون الى تسجيل أسمائهم للمساهمة فى اللجان أو النقاش ، كما تأثرنا بصراحتهم تأثرا عميقا ·

باسمكم جميعا أشكر جزيل الشكر كل الذين عملوا ليل نهار لضمان أمننا وأكلنا ونقلنا وكتابة وتوزيع الوثائق ونشر الاخبار ·

بفضل هذا المؤتمر أصبح لدى حزب جبهة التحرير الوطنى قانون أساسى منسجم مع الميثاق الوطنى ، قانون أساسى يحدد طبيعة الحزب وأهدافه ويخضع سيره للمركزية

الديمقراطية والجماعية ، التى تقتضى الجماعية فى المداولة والاغلبية فى القرار والوحدة فى التنفيذ ، قانون أساسى يصف تنظيم الحزب فى مستوى الحى ومكان العمل ، فى مستوى البلدية والولاية، وعلى المستوى الوطنى وقد بين القانون الاساسى اختصاصات كل هئة ، وأشار ان أن النشاط السياسى فى الجيش الوطنى الشعبى له نظـــام خاص والى أن المنظمات الجماهيرية امتداد للحزب ومنبع تجنيد مناضليه ٠

ان مؤتمركم انتخب لجنة مركزية ستكون هى الهيئة العليا للحزب ما بين مؤتمرين وها هى اللجنة المركزية عادت اليكم بالامين العام الذى انتخبته وهو المجاهد المناضل السيد الشاذلى بن جديد ٠

كما صادق المؤتمر على عدد من القرارات السياسية والاقتصادية والاجتماعيـــة والتربوية والاعلامية والثقافية والتنظيمية كلها منبثقة من الميثاق الوطنى ، ومن بين القرارات التنظيمية ألح المؤتمر على ضرورة اتمام عملية انتخاب هيئات الحزب على أساس الاحكام الجديدة فى القانون الاساسى وذلك قبل تاريخ 19 جوان 1980 ٠

فهنيئا للمؤتمر الرابع لحزب جبهة التحرير الوطنى الذى دعم استمرارية الثورة الاشتراكية وكان وفيا لشعاره « تطبيق الميثاق الوطنى والوفاء للخطة التى رسمها المغفور له الرئيس هوارى بومدين » ٠

باسمكم جميعا نقدم للامين العام ولاعضاء المكتب السياسى واللجنة المركزيـــة تهانينا الخالصة بمناسبة انتخابهم ونتمنى لهم مزيدا من الانتصارات فى مسيرة الثورة الاشتراكيـــة ٠

واذا راعوا فى تنظيم الحزب والدولة مقاييس الالتزام والكفاءة والنزاهة فلا ريب أنهم ناجحون ٠

وفى النهاية أرجوكم أن ترددوا معى معالم ثورتنا :

- عروبة واســـلام ،
- الميثاق الوطنى والدستور ،
- ثـــورة اشتراكيـة ،

- من الشعب وللشعب ،
- ثورة زراعية ،
- ثورة صناعية ،
- ثورة ثقافية ،
- توازن جهوي ،
- طب مجاني ،
- خدمة وطنية ،
- تطوع لخدمة الثورة ،
- مجالس شعبية ،
- مجالس عمالية ،
- جبهة التحرير حزبنا الوحيد ،
- الجيش الوطني الشعبي درعه العتيد ،
- المنظمات الجماهيرية سنده الشديد ،
- الجزائر مكة حركات التحرير ،
- الجزائر تناهض الامبريالية والصهيونية والعنصرية والرجعية والاستعمار ، والاستعمار الجديد والاستغلال .

أرى أمامي لافتة تذكر كلمة للرئيس بومدين منحه الله رحمته الواسعة فرددوها معي :

« لقد كنا ومازلنا وسنبقى مناضلين ، في جبهة التحرير الوطني واليوم أكثر من أي وقت مضى » .

- **رحم الله الشهداء الابرار ،**
- **رحم الله الرئيس هواري بومدين ،**
- **يحيى حزب جبهة التحرير الوطني ،**
- **والله أكبر .**

تأكيـــد أصالتنـــا وانتمائـــنا العـــربى الاســـلامى

قبيل الانتخـابات الرئاسيـة ، وبالضبط يوم الثلاثاء 6 فيفرى 1979 ، أدلى الاخ الشاذلى بن جديد ، الامين العام لحزب جبهة التحرير الوطنى والمرشح لرئاسة الجمهورية، بحديث الى وكالة الانباء الجزائرية ، ننشر فيما يلى نصه الكامل :

س : عاش شعبنا فى الشهور الاخيرة فترة عصيبة ، ما هى العبر التى نستخرجها من هذه الفترة الصعبة ؟

ج : كانت حقيقة فترة صعبة ، ولكنها اكدت بان الشعب الجزائرى يتمتع بالنضـج السياسى العميق الذى مكنه من تجاوز المحنة ، فاعطى بذلك برهانا جديدا على وعيـه وأصالته ، ودليلا ساطعا على فهمه العميق لمعنى الوفاء للمبادىء وللشهداء ، وكان موقفه هذا صفعة جديدة للذين استهانوا بالشعب الجزائرى ولم يقدروه حق قدره .

ومن جهة أخرى فان كل مؤسسات الدولة قامت بدورها كاملا ، فى اطار الشرعية ، وكان هذا دليلا جديدا على ان الجزائر ، منذ التصحيح الثورى بقيادة الرئيس بومدين رحمه الله ، قد نجحت فى بناء دولة حقيقية ، تتوفر على المؤسسات والهياكل الاساسية التى تضمن الاستمرارية ، رغم الاحداث وزوال الرجال ، وهذا مكسب كبير من مكاسب الثورة : اجتاز بنجاح ، المرحلة الصعبة التى مرت بها البلاد .

ورغم الحملات المسمومة والدعايات المغرضة فقد أثبتت القيادة السياسية بأنها كانت في مستوى المسؤولية التاريخية • وهكذا ، ورغم صعوبة المهمة ، أمكن الوفاء بالعهد ، وعقد المؤتمر الرابع لحزب جبهة التحرير الذى كان بحق ، مؤتمر الاستمرارية الثورية ، والوحدة الوطنية ، وكان جديرا بالشعار الذى رفعه وهو : « تطبيق الميثاق الوطنى والوفاء للرئيس بومدين » • ولقد قامت القوى الاساسية للثورة بدورها كاملا، وكان هذا دليلا على ان هذه القوى الاساسية من عمال وفلاحين ومجاهدين وجنود ونساء وشبيبة هذه القوى أصبحت فعلا الضمانة الرئيسية لاستمرارية الثورة ولحماية مكاسبها •

س : نحب أن نقف قليلا عند تعبير استمرارية الثورة • ما هو مفهومكم له ؟

ج : لقد وضعت الثورة ايديولوجيتها من واقع مسيرتها الطويلة المظفرة ، وكان الميثاق الوطنى هو ثمرة المسيرة التى حققت الاستقلال ، ثم واصلت الجهاد الاكبر بعد انتهاء الجهاد الاصغر •

وكلنا يذكر المناقشات التى دارت حول الميثاق الوطنى ، الذى صادق عليه الشعب الجزائرى فى 1976 ، ومن هنا ، فان استمرارية الثورة تعنى بكل بساطة ، تطبيق الميثاق الوطنى نصا وروحا ، والخطوة الأولى فى اختيار الرجال الذين يتمتعون بالمقاييس التى نص عليها الميثاق الوطنى ، لان الاشتراكية لا يمكن أن يطبقها الا الاشتراكيون الاكفاء الملتزمون النزهاء •

استمرارية الثورة ، معناها ان نستكمل عملية التحويل الجذرى للارياف فى اطار الثورة الزراعية ، معناها ان تستكمل الثورة الصناعية بكل أبعادها لربح معركة الانتاج والانتاجية ، على أساس ان العمل حق وشرف وواجب ، معناها أن تتحقق الثورة الثقافية بمفهومها الشامل ، لنتمكن من بناء المجتمع الجديد ، مجتمع الرفاهية والعدالة والمساواة ، وتكافؤ الفرص بالنسبة لجميع العاملين ، ووضع الرجل المناسب فى المكان المناسب •

معناها ان نضمن البيت للمواطن ، والمدرسة للطفل ، تسليم المشعل الى الجيل

الصاعد الذى تشبع بروح نوفمبر ، وبهذا نكون أوفياء لشهداء نوفمبر ·

استمرارية الثورة معناها ممارسة النقد الذاتى الذى يمكننا من تصحيح أى خطأ ، وتلافى أى انحراف، واتخاذ الاجراءات اللازمة لكى لا يذهب النقد البناء صيحة فى واد ·

استمرارية الثورة معناها ، ان نؤكد اصالتنا وانتماءنا العربى الاسلامى ، وتفتحنا على العالم من حولنا · معناها أيضا الا ننسى التزامنا مع القضايا العادلة ، وان نؤكد تعلقنا بعدم الانحياز ، كاختيار رئيسى من اختياراتنا الثورية · وبجملة واحدة ان نحقق الوفـــاء للعهـــد بتطبيق الميثاق الوطنى وهذا هو الخط الذى رسمـــه الرئيس بومدين ، وهذا هو الخط الذى سنسير عليه ، طبقا لارادة شعبنا ·

س : استعملتم فى كلمتكم القصيرة أمام المؤتمر تعبير الاستقلال بمعناه الواسع ، ماذا تقصدون ؟

ج : الاستقلال ليس مجرد علم يرفع ، أو نشيد وطنى يعزف ، ولكنه مفهوم عميق يشمل مختلف مجالات الحياة · ولا معنى للاستقلال بدون استقلال اقتصادى ، ولا ضمان للاستقلال الاقتصادى بدون استقلال مالى ·

ومن أهم ضمانات الاستقلال المالى ، ان يكون انتاجنا أكثر من استهلاكنا ، لان الاقتصاد ليس مجرد ادوات تقنية يستعملها الاختصاصيون بل هو حقيقة يوميـــة يعيشها كل مواطن ، ولابد من المحافظة على خيرات البلاد وتنميتها لتتمتع بها الجماهير الكادحة وليجد المواطن فى أسواق بلاده كل احتياجاته الاساسية·

الاستقلال بمعناه الواسع يتنافى مع أى نوع من أنواع التبعية سياسية كانت أم اقتصادية أم فكرية ·

الاستقلال بمفهومه الواسع معناه أن نتعامل مع الجميع واضعين نصب أعيننا مصلحة الشعب الجزائرى أولا وقبل كل شىء ، لا نخضع لاى ضغط ، ولا نستجيب لايـة مساومات حول المبادىء التى نؤمن بها ·

كل شىء قابل للنقاش ، الا المبادىء ، ونحن من أجل التعاون مع كل من يرغب فى التعاون معنا على أساس الاحترام المتبادل وضمان المصالح المشتركة ·

س : هل من كلمة للشعب الجزائرى ؟

ج : أعتقد ان الشعب الجزائرى يعرف واجبه جيدا ، واذا كان لابد من كلمة ، فهى كلمة تحية لهذا الشعب ، الذى أعطى العالم كله صورة رائعة للوعى ، والوفاء ، وروح المسؤولية ، واعطى للذين حاولوا التشفى فيه درسا لن ينسوه ٠

واننى اعتز بالثقة التى منحتنى اياها القوى الحية للامة من عمال وفلاحين وجنود ومثقفين ثوريـين ٠٠٠

والمهمة صعبة وشاقة ولكننى أعتمد على الله ، وعلى ثقة شعبنا ومساعدة الجميع لكى يكون شعار الوفاء للشهداء وتطبيق الميثاق حقيقة واقعة ، ولكى نبنى معا جزائر المستقبل كما نريد لها ان تكون ٠ ولكى نتكلم قليلا ونعمل كثيرا ٠

الرئيس الشاذلى بن جـديد يؤدى اليمين الدستورية (*)



« وفاء للتضحيات الكبرى ولأرواح شهداء ثورتنا المقدسة ، اقسم بالله العلي العظيم ، أن أحترم الدين الاسلامي وأمجده ، وأن أحترم الميثاق الوطني والدستور ، وكل قوانين الجمهورية وأحميها ، وأن أحترم الاختيار الاشتراكي الذي لا رجعة فيه ، وأن أحافظ على سلامة التراب الوطني ووحدة الشعب والأمة ، وأن أحمي الحقوق والحريات الاساسية للشعب وأعمل بدون هوادة على تطوره وسعادته ، وأن أسعى بكل قواى من أجل تحقيق المثل العليا للعدالة والحرية والسلم في العالم » .

(*) الاخ الشاذلى بن جديد ، رئيس الجمهورية ، والامين العام لحزب جبهة التحرير الوطنى يؤدى اليمين الدستورية بعـد انتخـابه

منشـــورات
وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينيـة

صـدر كتــاب



(بالفرنسيــة) في 3 أجـزاء

كل من الغــرب والشــرق (الأوروبى) متخلفـــان (1)

رأي آية الله الخمينى فى دور الدين فى الدولة

ترجمة وتعليق :
مولود قاسم نايـت بلقاسم



لقد سبق لآيــة اللــه الخميني ان عبر عــن تصوره للمجتمع الاسلامي بطريقة أوضح مما فعل فى التصريحات الصادرة عنه فى الاشهر الاخيرة والغالب عليها طابــع الحذر الدبلوماسي،وذلك فى محاضراته التي كان يلقيها اثناء منفاه العراقي فى رحاب كلية الشريعة فى جامعة النجف الاشرف فى الستينات والتي جمعت باذن منــه وصدرت فى بيروت بالعربية كتابا تحت عنوان : « الدولة الاسلامية » ، وهنا ننشر مقتطفات منه :

● **عــن السيطرة الاجنبية يقول :**

« ان الاستعمار يريد منا أن نقتصر فى عملنا على الصــلاة حتى لا ندخل مــعه فى صــراع سيــاسي » .

1) عن المجلة الاسبوعية الالمانية الغربية « المرآة » (دير شبيغل) فى عددها الصادر فى 22 يناير 1979 ، ونحن اذ ننشر هذا المقال نأسف أن نترجمه عن ترجمة المانية لاصل عربي،هو كتاب الامام الخميني ،،، غير الموجود فى مكتباتنا ،،، العامرة !

« ان الاستعمار يريد ، ويقول لنا ذلك بكل صراحة : « صل ، أيها المسلم ، ما شئت ، إننا لا نريد منك الا نفطك ، أما ما تقنت به من صلاة فى مسجدك فلا يهمنا فى شيء ، ولا نعارض فيه اطلاقا ، اذ كل ما يهمنا هي ثرواتك المعدنية وأسواقك لمنتوجاتنا واستثماراتنا » ٠



● وعن الدور السياسي للاسلام يقول :

« ان الغزاة الاوروبيين فرضوا علينا قبول قوانين جديدة ، لان الاسلام ، حسب رأيهم ، غير قادر على تنظيم الحياة اليومية ، وعاجز عن تنظيم المجتمع ، وقاصر عن اقامة حكومة ، من أى نوع كانت ٠ فالاسلام ، فى نظرهم ، لا يعنى الا بحيض المرأة ، أو بسلوك الرجل مع زوجته فى مخدعهما ٠ وباختصار: يرون ان الاسلام غير قادر على تنظيم المجتمع » ٠

وفيما يخص التقدم يقول :

« عندما تحقق دولة صناعية انجازا جديدا فى الميدان العلمي أو التقني يحس الكثير منا بعجزهم ويرون أن قصورنا ذلك آت من ديننا ، وبالتالي ان ليس لنا من

مخرج من ذلك الوضع الا الغاء الاسلام وشريعته ، لنلحق بركب الامم المتقدمة ، وعندما نزلت بعض الدول فوق القمر ، تأكد أولئك الضعاف المترددون منا ان ديننا هو الذي منعنا من الوصول الى القمر !

« اني أود أن أقول لاولئك الناس ما يأتي : ليست قوانين الغرب ولا الشرق (الاوروبي) هي التي مكنت أصحابها من الوصول الى القمر ، لانه من المعلوم أنها قوانين متعارضة ومتناقضة من كتلة الى أخرى » ٠

« وفيما يخصني ، فاقول ان لهؤلاء وأولئك جميعا ان ينزلوا على سطح الزهرة أيضا ، ان شاؤوا ، ومع ذلك سيبقون جميعا،أي مواطنو الغرب والشرق (الاوروبي)، متخلفين ، لانهم غير قادرين على ان يحققوا فى مجتمعاتهم الفضائل الاخلاقية ٠ ان التقدم المادي الذي حققته تلك الشعوب كان على حساب التقدم الروحي ، انهم لا يزالون عاجزين عن حل مشاكلهم الاجتماعية ، لان حل هذه المشاكل والقضاء على بؤس الانسان متوقفان على تلك الفضائل الاخلاقية التي تفقدها مجتمعاتهم » ٠

● **وعن الدولة الاسلامية يقول :**

« ان الدولة الاسلامية تمتاز على النظم الدولية الاخرى بكون كل من الدول الملكية والجمهورية تتلقى دساتيرها اما من الملوك أو من المجالس النيابية ، بينما الدولة الاسلامية تلقت سلطتها التشريعية من الله سبحانه وتعالى ٠ ان الدولة فى الاسلام معناها : تحقيق الشريعة التي أوحى بها الله الى الرسول ، والخضوع لها » ٠

« واذا كان الرسول قد توفى ، وهو الذي كان على رأس الدولة الاسلامية ، فمن الذي خلفه ؟ انهم الفقهاء ! انهم الائمة ورثة الانبياء ! » ٠

● **وعن دور رئيس الدولة يقول :**

« شرطان أساسيان قبل كل شيء ينبغي ان يتوفرا فى رئيس الدولة :

1) ان يكون عارفا بالشريعة الاسلامية ،

2) ان يكون قادرا على ضمان العدل ، لان هذين الشرطين هما عمودا الامامة ، وسلطة الفقهاء فوق سلطة الملوك ، والفقيه يفقد طهارته الدينية بمجرد تواطئه مع السلطان أو اتباعه » ٠

وعن تبرير علو سلطة الفقهاء كقضاة على رئيس الدولة يقول :

« ان الاسلام يحـــرم أن يكون السلطان ظالما . ومن هنا فمن واجبات الفقهاء ان يكشفوا مثل أولئك الحكام ، ويطردوهم من عروشهم ، ويشحذوا وعي الجماهير حتى لا تهضم حقوقها ، واذا كنتم اليوم عاجزين عن الاطاحة بمثل تلك الدول ، فيجب عليكم على الاقل الا تسكتوا ، ولا أن تغضوا النظر عنها . بل قاوموا،وكافحوا مثـــل ذلك السلطـــان » .

(انتهت المقتطفات التى أوردتها المجلة الالمانية المذكورة) .

واننا لنظن ان القارىء يحس معنا ، بقراءتها وباستحضار جهاد قائلها ، وهـــو آية الله روح اللـــه الخمينى ، انه ممن يؤمنون حقا بما يقولون ، وانه ليس ممن يقولون ما لا يفعلون ، وانه يستحق فعلا صفته تلك ، الامام ، التي ورثها عن الامام عـــلي ، كرم الله وجهه ، أو سيد علي ، كما كنا نسمع ونقول ، عندما كنا أطفالا ، حول الكانون (الموقد) ، فى ليالي الشتاء القارسة ،،، ونحن نستمع بتلهف الى القصص التي كانت ترويها لنـــا جداتنا !

واني لاظن ان الامام الاكبر ـ وهو الوحيد الآن فى العالم الاسلامي الذي يستحق هذه الصفة ! ـ آية الله روح الله الخميني قد أزاح جلباب المذلة ، والهوان ، والمسكنة عن جميع الائمة فى العالم الاسلامي ، على مختلف المستويات !

وكم نأمل ان يمتد هذا القبس الالهـــي ، الرباني ، الانساني الـــى جميع الائمة فى جميع انحاء العالم الاسلامي الواسع ، ليهزوا هذا المليار من البشر النائمين ، ذوي الامكانات القصوى اليوم ... ولكن ذوى المنزلة الدنيا فى العالم !

واننا لنكاد نحلم ، ونحن نستمع الى أخبار ايـــران !

وبخصوص استحقاق تسمية الامام ، لاي امام ، عن جدارة ، واحتمال وجود هذه النوعية ، فكم يحلو لنا ان نتمثل هنا ونختم بكلمة سبـــق لنا ان قلناها بهذا الشأن ، كمثل أعلى نرنو اليه ، ونود لو تحقق فى كل احد منا ، اذ كل مسؤول امام ، أي راع ، مسؤول عن رعيته ، عـــلى مختلف المستويات ، وهو الذى يتقـــدم الصفوف ، ويمثل القدوة ، ويـــؤم النـــاس !

ففي لحظة غضب ، وتأثر ، وحزن ، وأكاد أقول : يـأس ـ استغفر اللـــه ! ، لانه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون ! ـ قلنا منذ سنتين فى اجتماع للائمة بوهران (2)، مما قلنا ، ما يلي :

« ،،، ينبغي اذن أن تدركوا عمق هذه المسؤولية ، تدركوا مدى أهمية الواجـب الملقى عليكم ، وان لا تبقوا هكذا سلبيين ، مرتخين ، مفكـكي الاجـــزاء ، منحــلي الاوصال · ان تلك النسوة اللائي يسمين « الاخوات » لدى النصارى ، « السورات » ، يركبن على الدراجة ، ويقفزن ، ويطرن ، وانتم نائمون ؟ وانتم قاعدون ؟ ولا تطردون حتى الذباب عن أعينكم ؟ تسيرون هكذا مهلهلين ، مخلخلين ، مزعزعين ، مهزورين ؟ لا ! بل ينبغي ان تقفزوا قليــلا ، ينبغي ان تطيروا ، أن تتحركوا ، ان تستيقظوا ! ان مجنونا يطير فى السماء أفضل من النائم المرتخي ! اني أفضل ان أرى كلا منكم بثيابه فى الهواء على ان أراه **مرتخي الاوصال ، مفكك الاجزاء،لا يطـرد الذباب عن عينيه ،** فى المسجد أو غير المسجد ! ينبغي ان تنتعشوا قليلا ! ان تكونوا طبق ذلك المثـل الذي قاله عمر بن الخطاب رضي اللـــه عنه لاحد الشباب ، كما روته عائشة ، عندما التقى بأحد الشبان ، قال له عمر بن الخطاب ، وما أدراك من هو عمر بن الخطاب ؟ عندما مر به فى احد شوارع المدينة ، والشاب مرتخ، الاوصال ، مفكك الاجزاء ، مثل الكثير منكم ، فضربه بعصاه على أم رأسه ، بدرته المشهورة ، وقال له : « ما لك مرتخ هكذا ، مالك تتماوت فى مشيتك ! فقد أمتم علينا ديننا أماتكم الله ! » ، وأعطاه بالعصا على أم رأسه.

« **هذا ما ينبغي ان نستعمله معكم ، مـــا دمتـم هكذا أمواتا ، مفككي الاجزاء ، مرتخي الاوصـــال ، محلولين . مهلهلين ، مخلخلين · ينبغي ان تحيوا قليـــلا ، وان تضربوا المثل ، أن تعطوا القدوة ، أن تكونوا فى حزم الامام علي ! خذوا الصفات التي تتمشى ، التي توافق ، التي تأتي من هذا الامام ! خذوا من الاسم مسماه عنه ، بـل مسمياته العديدة ! خذوا تلك الصفات ، صفة الامام الحـــازم ، الجــازم ، القــافز ، النشيط ، الحي ، الذي يحي الاخرين ، الذي يحرك ، الذي يهز ، الذي ينغـــز ، الذي ينعش ، وعند الضرورة ، الذي يصدم الغير ليثير فيهم الرعب حتى يبعث فيهم الحياة !**

2) فى ليلة المولد النبوى الشريف سنة 1397 هـ (1 مارس 1977 م) ، نشرت فى عدد 46 ـ 47 من الاصالة بتاريخ جمادى الثانية ـ رجب 1397 هـ (يونيو ـ يوليو 1977 م) ·

« هذا ما نطلبه منكم ، هكذا ينبغي ان تكونوا ، جسما حيا فى الامة ، ولهذا قلنا لكم : كونوا الرعاة الوعاة ، لا الغافلين ، النائمين ، الراقدين،مع الزردة ، والوعدة ، والقعدة ، والرقدة ! (3) تحركوا قليلا ، كونوا الرعاة الوعاة ، والدعاة السعاة ! » .

فاذا كان هذا الكلام الحاد صحيحا بعض الشيء بالنسبة لكثير من أئمتنا هؤلاء فى الجزائر ، لا بالنسبة لجميعهم ، وهم الذين لم يتلقوا تكوينا جامعيا فى كليات الشريعة أو أصول الدين ، مثل غيرهم من البلدان الاسلامية، والذين أدوا رغم هذا بالنسبة لاغلبهم دورا ايجابيا لا ينكر، فانه ينسحب أكثر وينطبق أكبر على تلك العمائم الغمائم، في هذه الامة الغمة (4)، من «شيوخ الاسلام» و «مفاتيه» في عصور الجمود، والخمود، والهمود، وخاصة « علماء » اليوم الذين يطوفون حول القصور الاميرية ، أو الملكيــة ، أو الامبراطورية ، أو الجمهورية،كالببغاوات ، أو « العلماء الدواجن » كما سماهم الاستاذ عبد المجيد مزيان ، فيما سمعت ، همهــم اصدار الفتاوي الادارية ، وتحــرير البرقيات المنمقة ، تأييدا لخطى وبوادر ، مهما كانت للامة خدعا غوادر ، ولولا طابعها المأساوي لكانت أشبــه بالنوادر !

ومن هنا فاننا مهما مجدنا هذا الامام الخميني ، وسابقيه أمثال الامام الكاشاني ، فلن نفيهم حقهم . فالخميني خاصة قد رد الاعتبار لعلماء الاسلام ، وشيوخه ، ومفاتيه ، ورد الاعتبار لرجال الدين عموما ، ورد الاعتبار للاسلام فى نظر الشعوب الاسلامية وغير الاسلامية ، بل والعالم بأسره !

وسوف يسجل له التاريخ هذه المأثرة ، وسيخلد له هذه المفخرة . فلقـــد رد للقيم قيمتها ! وأعاد الحق الى نصابه ، والحياة الى مجاريها الطبيعية ! انه القبس الحــي للامام علي ، كرم الله وجهه ! فليحي الخميني ، ولتكثر أمثاله فى ديار الاسلام !

نعم ، انهم حقا لآيات الله فى أرضه ، أمثال آية الله الشيرازي الذي،قاوم الانجليز مدة طويلة ، وآية اللــه الكاشاني ، الذي كان عضد الدكتور مصدق فى الخمسينات ، وآية اللــه الخميني بالامس واليوم ، وهو ابن شهيد وأبو شهيد ، وآية الله التلغاني ،

---

3) والهردة ، كما كان يقول امام آخر ، وهو عبد الحميد ابن باديس ، رحمه الله ، فى مقال له فى الشهاب تحت عنوان : « أزردة أم هردة ؟ » !

(4) كما كان يقول المرحوم الشيخ البشير الابراهيمى ، فيما سمعت .

وآية الله الازرشهرى ، الذى استشهد ، وهو يقلى فى الزيت مثل السمك ! وآية اللـه المنتظرى ، وآية اللـــه شريعة مدرى ، وآية اللـــه الروحانى ، وغيرهم من آيات الله العديدة أعضاد آية الله روح الله الخميني ، الذي أطاح بأكبر طغيان فى الشـــرق الاسلامي ، « وجعل فرائص الغرب ترتعد » ، كما كتبت ذلك الصحافة الغربية أخـيرا ، وخاصة منها مجلة الاكسبريس الفرنسية فى عددها الصادر بتاريخ 27 يناير 1979 .

وان ربك القادر على كل شيء،والذي يرزق الانسان من حيث لا يحتسب ، لقادر علي ان ينعم على الاسلام اليوم بجعل آياته هذه تتجلى وتتعدد ، وعهود الاسلام الزاهرة تتجدد ، وحضارته تحيا وتتمدد ، والحواجز والعوائق أمامه تزول وتتبدد ، وجميـع القوى فى الارض اليه تتحبب وتتودد ، وقبل التعرض له بأي شيء ألف مرة تتخـوف وتتردد ، ورجالات الاسلام بدءا بنفسها ثم مع الغير فى الحق تتصلب وتتشدد ، قبل أن تنصح غيرها وتتهدد !

انه لواضح ان الامام الخمينى لديـه كـل فضائـل الامام الاول ، صاحب السيـف والقلم ، علي كرم الله وجهه ، ولديه الى ذلك التدبر والتدبير المحكمان ، وتلك الحيطة الشديدة ، والتقدير الصحيح للامور ، وذلك الاحتراز الحاد ، والتحليل الدقيق لموقف الخصم ، ومقابلة سوء الظن بمثله ، وتلك هي الامامة والسياسة !

فهو الامام علي ومعاوية فى واحد ، وهو الاشعري وابن العاص متكاملين ! انهـا لحقيقة ثابتة ان الذين نسميهم الشيعة والمعتزلة والزيدية والخوارج ، أجنح الى قـــول الحق ولو كانت تهددهم السيوف والطائرات والبوارج ، فهم دائما أحيـاء ، وحسهم السياسي مرهف ، وتعلقهم بالعدل والكرامة شديد ، ثم هم بعد ذلك وقبله الى الثـورة دومـا ميـالون !

أما نحن وأنتم يا من نسميهم أهل السنة والجماعة ، المعروف عن أكثرهم بالقراءة والمشاهدة والسماعة (4)،أنهم العلماء الاجلاء الميامين ، المشهورون أخيرا برفع الاكف وقولة آمين ، وتأكيدهم دوما لذوى الساعة عميق الولاء ، مهما كانوا عـــلى شعوبهـم هم عين البلاء ، فليلتكم زاهية هنيئة سعيدة ، واحلام لذيذة عن آمال الامة بعيدة ، طاب نومكم ، ولو تعذب قومكم ، الذي ضرب فيه الانحلال أطنابه ، وغرس فيه الاستدمار (5) أذنابه ، ويحرق الاستغلال الفاحش أجنابه .

وكما يقول أبو زيد ، حسبما رواه ابن منظور فى لسان العرب :

دعـــوت اللــه حــتى خفـــت أن لا   يكـــون اللـــه يسمـــــع ما أقول !

4) السماعة على وزن الجماعة:السماع !
5) كالاستعمار ، وزنا ومعنى ، ومن حيث المعنى أصدق .

الاسلام فينا عريق ، ونحن فيه عريقون ،
فهل نستورد حتى الأئـمة !

احمد حمانى
رئيس المجلس الاسلامى الاعلى



سيدى الرئيس ، أيها الاخوة المناضلون ،
السلام عليكم ورحمة الله ،

فى هذا اليوم التاريخى من ايام شعبنا ، وفى هذا المؤتمر العام الذى يعقده حزبنا ، حزب جبهة التحرير الوطنى الذى قاد امتنا سياسيا ، كما قادها جيش التحرير الوطنى عسكريا ، نحو الانتصار النهائى وطرد الغاصبين من البلاد ، ومحو آثار المستعمرين واستغلالهم للوطن ، وامام الاحياء من هؤلاء القادة والجنود من السياسيين والعسكريين الامجاد ـ فى هذا اليوم يسر المجلس الاسلامى الاعلى أن يتقدم بهذه الكلمة المتواضعة ابلاغا لرأيه ومشاركة فى انجاح هذا المؤتمر . ذلك ان الاسلام لم يكن ـ فى أى يوم من الايام ـ غائبا عن مثل هذا الميدان ، بل ان الاسلام كان بروحه واشعاعه ونوره وبأخلاقه ومثله ـ حاضرا فى ميادين الكفاح ، كامنا فى النفوس ، له السلطة القوية عليها . وكان الحافز لها والوازع الى اعظم

نص الكلمة التى ألقاها الشيخ أحمد حمانى ، رئيس المجلس الاسلامى الاعلى أمام المؤتمر الرابع لحزب جبهة التحرير الوطنى .

التضحيات والدافع المتين الى احدى الحسنيين : اما النصر فى الجهاد واما المـــوت والاستشهـــــاد ·

وكانت كلمة (الله أكبر) ينادى بها فى المعركة تفعل فعل السحر فى النفوس وتدفع بها الى استعذاب الموت والاستبسال · وانكم لتعلمون هذا وتشهدون بـــه · فليس اعتباطا أن تكون المادة الثانية من دستورنا تقول : (الاسلام دين الدولة) ، فان هذه الدولة الجزائرية دولة امة مسلمة ، قد اختارت لها الاسلام دينا ، وكانت فى السابقين الاولين اليه من بين الامم ، وذلك منذ ما يزيد على ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن ، يوم جاء به الاصحاب والتابعون ، وطردوا من بلادنا الروم المستعمرين ، وعرضوا الدين على أجدادنا هنا ، فأقبلوا عليه مسلمين ، وكون الاســـلام مـــن العنصرين أمة جديدة قوية متينة ، متآلفـــة متحدة العقيـدة والاخلاق والمبـــادىء والعادات واللغة ـ لغة القرآن ـ والوطن للاحرار جميعا ، يتولى فيهم القيادة الكفؤ منهم ، يشهد لذلك ويبرهن عليهم القائد الفاتح طارق بن زياد الذى اجتاز البحر بجنده الاسلامى الى أوروبا ، وكان اول من غرس فيها معالم الحضارة والعلم والثقافة ورفع فيها مشعل النور ، وكانت أوروبا غارقة فى ظلام دامس ·

وهكذا كانت أمتنا وحدها ـ بين الامم التى اعتنقت الاسلام من غـــير العـرب ـ هى التى أمدت الاسلام ـ منذ القرن الاول للهجرة ـ وهو خير القرون ـ بأحـــد الفاتحين الاولين ·

فالاسلام فينا عريق ، ونحن فى الاسلام عريقون : نحن فيه من أقوى شعوبه وأممه ايمـــانا ووفاء واخلاصا واستمساكا وكفاحا وجهادا · وكلما حاولت قـــوة معادية أن تغزونا ماديا وروحيا لتصرفنا عن وجهتنا، أو تذهب بريحنا باءت بالفشل وحاقت بها الهزيمة ، واسألوا التاريخ عن الروم ثم النورمان ، وعن الفرنسيـــين بعد الاسبان ، ينبئكم أن غزواتهم انتهت بالهزيمة والخسران ، سواء أقادها أبطال حرب فى الميدان ، أم قادها قسس يحملون الصلبان ·

ليس الاسلام مجرد طقوس كهنوتية ، ولا مظاهر زائفة ولا (دروشة) وتخريفا ، وجذبا وعتها • ولكنه دين الله القويم شرعه للحياة الدنيا وللاخرى وقال فيه : (**ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا**) • انه دين الروح كما هو دين المادة ، ودين العلم والحياة ، دين الحرية الكاملة فلا خضوع الا لله وحده • دين الديمقراطية فلا حكم الا بالشورى ، قال تعالى في المؤمنين : (**وأمرهم شورى بينهم**) وقال للمعصوم عن الخطأ : (**وشاورهم في الامر**) • انه دين العدل المطلق قال : (**ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى**) انه دين التكافل والاحسان (**ان الله يامر بالعدل والاحسان**) •

ان الاسلام حرر العقول من التقليد والجمود ، وقبح فعل قوم دعوا الى الحق وترك الجمود والى التفكير فيما يقدمون على فعله ويدعون اليه فقالوا : (**انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون**) قال تعالى : (**قل أو لو جئتكم باهدى مما وجدتم عليه آباءكم**) وقال : (**أولو كان اباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون**) ؟ •
ان الاسلام أول دين سماوى ـ وقبل كل قانون وضعى ـ حرر المرأة من الاضطهاد والظلم واعتبرها انسانا كاملا وقال فيها : (**ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف**) ••• وقال : (**للرجال نصيب مما اكتسبو وللنساء نصيب مما اكتسبن**) ••• وقال فيهن رسول**الله(ص)**:(النساء شقائق الرجال) • ان الاسلام أول قانون حمى الضعفاء من الاقوياء ، والفقراء من الاغنياء،وقرر المساواة في الحقوق والواجبات • الاسلام هو الذى قرر ـ قبل الثورة الفرنسية ، وقبل الامم المتحدة ـ أن الانسان حر في عقيدته لا يكره على تغيير دينه اذ قال الله في قرآنه : (**لا اكراه في الدين**) وقال يأمر نبيه أن يقول للكافرين : (**لكم دينكم ولي دين**) واذا امر الاسلام بقتل المرتد فلانه خائن مارق ، والخائن يقتل في كل ملة وكل امة •

ان الاسلام هو الذى أنكر أن يضطهد الانسان للونه أو جنسه أو طبقته وقرر أن الناس متساوون في الانسانية لا فضل لاحد على الآخر باللون أو بالجنس وانما التفاضل بصالح الاعمال قال تعالى : (**يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى**

وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم) وقال نبيه عليه الصلاة والسلام : (لا فضل لعربى على عجمى ولا لابيض على أسود الا بالتقوى) ·
وقد نفذ بالفعل هذه المساواة ـ والغوا كل تفرقة عنصرية ـ نبيه وخلفاؤه من بعده · ألم يقتص عمر بن الخطاب للغلام القبطى النصرانى من ابن حاكم مصر والفاتح العظيم عمرو بن العاص ، فمكنه من ضربه بحضور أبيه ـ وهو احد الصحابة الكبار ـ ثم قال له يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟

خبرونى : أين يوجد مثل هذا العدل والنظام اليوم ؟ أفى الشرق أم فى الغرب ؟ ان الاسلام قد حل كل مشاكل الحياة ووضع حدا لكل انحطاط ، وقمع كل فساد مادى او خلقى أو روحى · شهد بذلك كبار الكتاب والمفكرين من المشارقة والغربيين ، القدماء والمعاصرين · وقد ترك فينا رسوله عندما مات ما ان اتبعته البشرية فلن تضل أبدا : كتاب الله وسنته ·

هذا هو الاسلام الذى عاشته أمتنا طيلة الاربعة عشر قرنا الماضية فحماها من الذوبان وصانها · ومنحها المناعة والحياة ، والحصانة ضد الآفات ، ودفعها الى جهاد فعال ضد كل عوامل الفناء ·

بالاسلام نحن ـ فى الجزائر ـ أمة واحدة ، وشعب متماسك ، وجسد منيع ضد كل التيارات الغربية الفتاكة التى تهب علينا من أعدائنا فى الداخل والخارج · انه ترياق ضد كل النزعات الجاهلية والجهوية والعنصرية · الاسلام يوحدنا ويقتل فينا نزغات الشيطان · بغير الاسلام سنكون طوائف متشاكسة · فالاسلام فى الجزائر ضرورة قومية ، وصفة ـ فى الجزائرى ـ ذاتية ، ومصلحة وطنية عليا ·

واللغة العربية لساننا القومى ، ولغة دولتنا الرسمية ، ومقوم ذاتى من مقومات شخصيتنا · فهى ـ فضلا عن كونها لغة الدين ـ لغة المعرفة والعلم والحضارة والرقى والثقافة والآداب الرفيعة · هى على كل حال لغتنا ·

يستحيل ان نحقق استقلالنا الكامل ـ ونحن نتهاون بلغتنا ، ونشغلها بضرة

تغتصب حقوقها . وان بقيت السيادة للغة الاجنبية فسنجد ابناءنا ومثلهم العليا ـ في الصحافة وفي الكتاب ، وفي الافلام والاداب ، وفي الفن والاذاعة والتلفزة ـ هي ما يرد من وراء البحار . لا يمكن أن يضعوا الانتاج الاهلي ـ بالفرنسية ـ مكان الانتاج الاجنبي المتفوق.فالواجب ان تكون لغتنا القومية هي لغة الثقافة والادب والعلم والفـن ، كما يجب ان تكون لغة التقنية والتيكنولوجيا والعمل والخبز ، والحديث العادي . وانها للغة سامية راقية لا يتهمها بالعجز والقصور الاعدواوجاهل اومتجاهل غرور . وانها امام مشاكل التقنية والتيكنولوجيا العصرية مثل غيرها من اللغات التي لم يرق اهلهابعدالى مكانة أمم التيكنولوجية . بل انها افضل وضعية منهن لانها لغة مرنة غنية في باب الاشتقاق . ومن البديهي أنه لا يمكن نقل شعب كامل الى لغة علم ولكن الممكن العملي هو نقل علوم الامم ـ من كل لغة وكل امة ـ الى الشعب ، وهذا ما تفعله الامم المستقلة الموفقة .

اننا لم نجعل الاسلام في الميثاق الوطني ، وفي دستورنا (دين الدولة) الرسمي لمجرد التحلية أو التزيين ، أو (بركة) وتميمة فقط . انما معنى ذلك أن يكون الاسلام متغلغلا في نفوسنا ، وفي أسرتنا ومجتمعنا ، كما كان منذ حين وفي كل حين .

علينا أن نحافظ على القرآن الكريم غضا طريا فينا ، وأن نعطي للعلوم والتربية الاسلامية الاهمية اللائقة بهما في مدارسنا ، وفي كل مراحل التعليم لابنائنا ، من مرحلة رياض الاطفال والابتدائي حتى مراحل الجامعات النهائية.ويجب ان تعطى للتعليم الديني الحصص الكافية ، وان تكون كل حصة منها أساسية لها اثر في التفـــوق والنجاح في الامتحان أو الانحطاط والرسوب . ويجب ان تسند الدراسة الى معلمين واساتذة أكفاء ملتزمين ، امناء متدينين، مستقيمين في سلوكهم ، بهذا وحده يكون أبناؤنا عارفين بالاسلام لا يخدعهم من يتحدث عنه بسوء من أعدائه أو من الجاهلـين الاغبياء أمثال أولئك الذين يزعمون لهم ان الاسلام دين التخلف ، وان المتمسكين به

من الرجعيين ، بل هم عنوان الرجعية ! واعجبا ! كيف يتهم بالرجعية دين سفه رأى الذين اذا قيل لهم (**اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا**) أو قالوا : (**حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا**) فقال لهم (**أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ـ ولا يهتدون**) ؟ وقـال (**قل أو لو جئتكم بأهـدى مما وجدتم عليه آباءكـم**) ؟

ان حصة واحدة أو حصتين فى الاسبوع أو فى الشهر لا تكفى للتعريف بالاسلام لابنائنا • وخصوصا اذا كان لا اثر للمواد الدينية فى النجاح والرسوب.ان ابناءنا ينتهون من المرحلة الابتدائية وهم لا يحفظون الا قليلا من السور القصيرة •

ان التعليم الدينى كان موجودا فى الجزائر منذ القرن الاول للهجرة ، منذ ان بعث عمـر ابن عبد العزيز (99 ـ 101 هـ) الفقهاء العشرة لتعليم اجدادنا • ومن هذه المعاهد الدينية فى تلمسان وبجاية ما كان يأتيها الطلبة من أوروبا • ومنها دخلت العلوم والحضارة اليها فى عصر النهضة • وقد بقيت هذه المعاهد تؤدى وظيفتها العلمية حتى فى أحلك الظروف سوادا ، وأشدها بؤسا • وحتى أثناء الثورة كانت تقوم بواجبها، يحميها جيش التحرير ، وتؤازرها بالعون والتأييد جبهة التحرير الوطنى •

ثم جاء الميثاق الوطنى فوحد التعليم ، وما كان يجول بخاطر أحد ـ اثناء مناقشة الميثاق ـ أن نتيجة التوحيد هى اختفاء التعليم الاسلامى بكل سرعة • وانما كانت ارادة الجماهير ان يعمم برنامج التعليم الاصلى فى التعليـم الدينى بجميع مـدارس التعليم العـام •

ان تصرفا غير حكيم فى كيفية تطبيق توحيد التعليم والقضاء على معاهد التعليم الاصلى بسرعة قد هدد القرآن بالاختفاء ، وأصاب طائفة من أبنائنا بظلم فادح •

لقد كان الصغار من حفاظ القرآن الكريم يجدون أمامهم معاهد التعليم الاصـلى تحتضنهم ليواصلوا سيرهم عاديا فى كل مراحل التعليم حتى يصلوا الى الباكلوريا ويلجوا الجامعات •

أما اليوم فانهم اذا انتهى الواحد منهم من حفظ القرآن ـ وعمره عشر سنوات أو بضع عشرة سنة ـ وجد جميع مراحل التعليم ومدارسه موصدة أمامه ، ولا ذنب لهم الا انهم نذروا أنفسهم للقرآن ، فالى أين يذهبون ؟ وما الذى جنوه حتى توصد أمامهم معاهد التعليم ؟ وأين هى ديمقراطية التعليم ؟

ان طريقة حفظ القرآن وحده ثم الاقبال على تعلم قواعد العلوم وتحصيل المعارف من بعد هى احدى طرق التعليم قديما ، وهى طريقة اجدادنا المغاربة فى التعليم ـ كما ذكره ابن خلدون فى مقدمته • وبهذه الطريقة تعلم جميع علمائنا منذ القديم ، حتى عهد ابن باديس ورفاقه ، وبها تعلمنا جميعا • واذا كانت مدارسنا العامة لا تستطيع تطبيقها اليوم ، ويتعذر عليها تحفيظ القرآن للملايين فلا يجوز بحال أن تغلق أبوابها فى وجوه من نذروا أنفسهم لحفظ القرآن • ولقد كان الرئيس الراحل رحمه الله يكرمهم ، ويحضر ليلة السابع والعشرين من رمضان حفل توزيع الجوائز عليهم • وأشهد انني عرضت عليه مشكلتهم ليلة 27 من رمضان 1398 هـ فتعجب من حرمانهم من مواصلة التعلم ، وقال بالحرف (سنحل مشكلتهم) ولكنه لم ينشب ان سقط صريع المرض ثم لبى نداء ربه ـ رحمه الله ـ وتركهم امانة فى أعناقكم •

وانها لمشكلة رهيبة تهدد هذه الطائفة من أبنائنا ، وتهدد القرآن ـ بالاعراض عنه ـ وتهدد الدين : ذلك لانه لا يكفى أن تفتتح أقسام فى التكميليات والثانويات والجامعات للتعليم الدينى ، اذ لابد لعالم الدين من حفظ القرآن ، فهذه الاقسام الدينية اما ستبقى شاغرة لا يؤمها أحد لزهده فى دراسة مادة لم يعد لها مادتها الاساسية ـ وهى حفظ القرآن • واما سيؤمها طلبة اختصاص وهم لا يحفظون شيئا من القرآن ، أو يحفظون قدرا لا يكفى للعالم المختص • ولا شك ان فى ذلك خطرا شديدا على الدين •

ان رئيس الدولة يقسم ـ كما فى المادة 110 من الدستور ـ بالله العظيم أن يحترم الاسلام ويمجده ، كما يحترم الميثاق الوطنى والدستور • وهو بهذا القسم ملزم

بحماية الميثاق والدستور من كل عدوان ، فمن البديهى ان يكون ملزما بحمايـــة الاسلام وصيانته من كل عدوان · ولهذا يجب ان يختفى من مجتمعنا كل ما يوهـن الاسلام واخلاقه فينا ، وكل ما يتعارض مع قواعده واحكامه · وكل اطارات الدولـة وموظفيها السامين ملزمون بما التزم به رئيس الدولة ·

أنتم ـ يا أبناء جبهة التحرير ومناضليها ، ويا قيادة الجيش وجنوده ـ الذين وضعتم الميثاق والدستور ، والزمتم رئيس الدولة بالقسم على حفظ ما جاء فيهما فالتزموا ذلك واحترموا الاسلام ومجدوه وكونوا حماته ·

ان المجلس الاسلامى الاعلى يرى من القيام بواجبه ، والوفاء لمهمته أن يتقدم اليكم بالمقترحات الآتية :

أولا : ادخال التعليم الاسلامى بعقائده وعباداته ومعاملاته وسلوكه ومبادئـــه السامية فى جميع مراحل التعليم من رياض الاطفـــال والابتـدئى حتى النهائى فى الجامعات والمعاهد والكليات · بهذا وحده يكون أبناؤنا على معرفة كافية بدينهـــم ويقتنعون انه دين العلم والسمو والرقى والحياة ·

ثانيـــا : تعيين أقسام تخصيص فى الثانويات وشعب فى الجامعات للتعليـــم الاسلامى اسوة بأقسام التخصيص الاخرى ، واعطاؤها كل المزايا التى تعطى لاقسام التخصـــص ·

ثالثـــا : المبادرة بفتح الجامعة الاسلامية أو الكلية الاسلامية وتعيين أساتـذة أكفاء مختصين وفتح فروع لذلك فى جميع الجامعات وقبول الطلبة الاجانب فيها من ابناء الاقليات الاسلامية فى افريقيا وآسيا وغيرهما ·

رابعـــا : العناية بحفاظ القرآن الصغار وحل مشكلتهم بما يسمح لهم بمتابعة دروسهـــم ·

خامســـا : العناية بتحفيظ القرآن والاذن لجمعيات شعبية (جمعيات المحافظة على القرآن) بمباشرة نشاطها ومعاونتها فى أداء مهمتها ·

سادســا : اعطاء الحرية التامة للجمعيات الدينيـــة ـ تحـت اشراف وزارة الشؤون الدينية ومراقبتها ـ فى انشاء المساجد وجمع التبرعات لها والغاء القوانين والقرارات التى تمنعها من اتمام مهمتها،ومنها ذلك الذى يمنعها من جمع التبرعات الا برخصة خاصة تعطى مرة واحدة وليوم واحد فى السنة ٠

سابعــا : تكوين الائمة والعلماء تكوينا علميا كافيا بقدر يفى بحاجة الامـــة ويعصمها من النقص وفساد التوجيه وحتى لا نصل الى درجة استيراد الائمـــة ، أو دفن أمواتنا بدون صلاة ٠

ثامنــا : زيادة الحصص المسموح بها فى التلفزة والاذاعة وكل وسائل الاعلام الخاصة بالتوعية والارشاد والتوجيه الدينى الصحيح يتولاها اكفاء من علماء الدين والتربية وجعل حصة التلفزة الاسلامية حصة يومية ، فان المتدينين لهم حق يومى واضح فى التلفزة كما لغيرهم ٠

تاسعــا : تحريم رواج أو عرض كل ما يهاجم الاسلام وتعظيم شعائر الله وحمايتها فى كل انحاء الوطن من المسؤولين فى الدولة ومعاقبة من يستهين بها من الناس ، فان المسؤولين هم نواب رئيس الدولة الذى أقسم على احترام الاســـلام وتمجيـــده ٠

عــاشرا : احترام قواعد الاســـلام ، وتعظيم شعائر الله وحمايتها فى كل أنحاء الوطن من المسؤولين فى الدولة ، ومعاقبة من يستهين بها من الناس ، فان المسؤولين هم نواب رئيس الدولة الذى أقسم على احترام الاسلام وتمجيده ٠

العلم القسنطينى أثناء حكم الحاج أحمد باى . آخر بايات قسنطينة

د· عبد الجليل التميمي
أستاذ بكلية الآداب والعلوم
الانسانية ، الجامعة التونسية

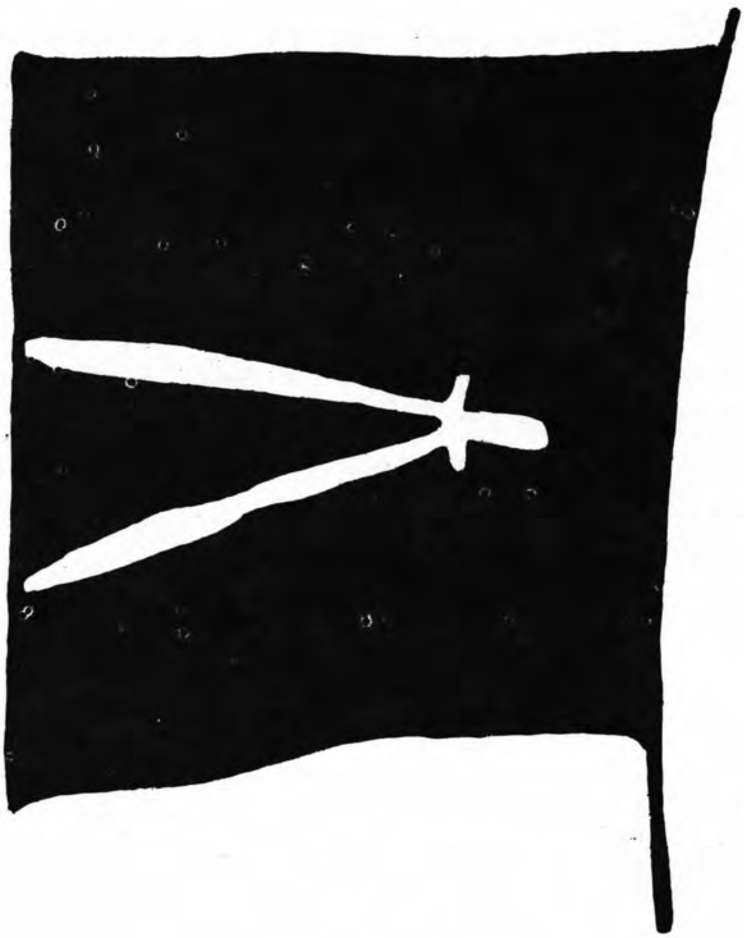


اثر سقوط (*) مدينة قسنطينة فى أكتوبر 1837 ، احتل الجيش الفرنسى الغازب القصبة وأهم مراكز المدينة وعمد النقيب الاول دوكس (Doxe) من جوقة الشرف الاجنبي (1) لازاحة العلم القسنطينى ذي اللون الاحمر يتخلله سيف « ذو الفقار » ليعوضه بالعلم الفرنسى ذى الثلاثة ألوان (2) ·

(*) نشرت هذه الدراسة فى **المجلة التاريخية المغربية** ، عدد 2 ، تونس ، 1974 ·
ونظرا لنشر الدكتور عبد الجليل التميمي مؤخرا كتابه باللغة الفرنسية عن : **بايلك قسنطينة والحاج احمد باي 1830 ـ 1837** ، وادخاله عناصر جديدة على هذه الدراسة ، فاننا ننشر النص العربى الكامل لها فى **الأصالة** · **الكاتب·**

1) DURIEUX, J. Drapeaux conquis en Algérie de 1830 à 1847, p. 98 in, Mémoires sur l'histoire de l'Algérie au XIX siècle, Paris, 1931.

2) ESQUER, G. Iconographie historique de l'Algérie depuis de XVI siècle jusqu'à 1870, t. 3. fig. 501.
لا نملك عمليا اية دراسة حول الرموز والاختام بالجزائر ، ما عدا نشر عدد من أختام دايات الجزائر ، بدون تعليق من سنة 1515 الى 1745 من طرف :
DELPHIN, G. Histoire des Pashas d'Alger de 1515 à 1745, in, Journal Asiatique, Janvier- mars 15 p., Paris, 1925.
أنظر **رسم العلم** المصاحب لهذه الدراسة ·



العــلم القسنطيني

ESQUER, G. Iconographie historique de l'Algérie depuis le XVI siècle jusqu'à 1870, t. II, planche CCXVII, Paris, 1929.

ما هو المعنى الحقيقى البعيد لرمز هذا العلم القسنطيني ؟ لشرح هاته المسالة وجب تحديد بعض النقاط حول ظهور سيف « ذو الفقار » واستعمال اللون الاحمر عند المسلمين الاول ثم بعد ذلك فى الامبراطوية العثمانية وخاصة فى بلدان المغرب العربي ٠

يذكر الهلال الصابي (3) ان أشهر سيوف الرسول محمد التسعة هو السيف الذى تحصل عليه الخليفة الرابع علي ، وسمي سيف « ذو الفقار » وهي التسمية الشرفية التى عرف بها (4) ٠

لماذا كان سيف الخليفة على ذا حدين (5) ؟

تذهب بعض الروايات الى أن هذا السيف تقلده الخليفة الرابع كعلامة اكرام وتقدير للمعارك الحربية التى خاضها تحت لواء الاسلام ، وأنه عندما استل السيف من غمده ، شق طرفه الى قسمين (6) ٠ وتذهب رواية أخرى ان علي رضي الله عنه ، تمكن من اخراج السيف من غمده بفضل دعاء خاص ، وقيل أيضا ان هذا السيف كان ذا حد واحد عندما غرسه اعداؤه فى الغمد ، غير ان عليا قسم طرفه الى حدين عندما استله منه (7) ٠ وقد أصبح سيف « ذو الفقار » معظما فى الاسلام ورمزا عاليا للحرب والجهاد (8) ٠

---

(3) هلال الصابى الذي اسلم ، كان احد كبار الكتاب العرب فى القرن الثاني ، راجع سامى ، شمس الدين ، قاموس الاعلام ، ج 6 ، ص : 4743 ، استانبول ، 1893 ٠

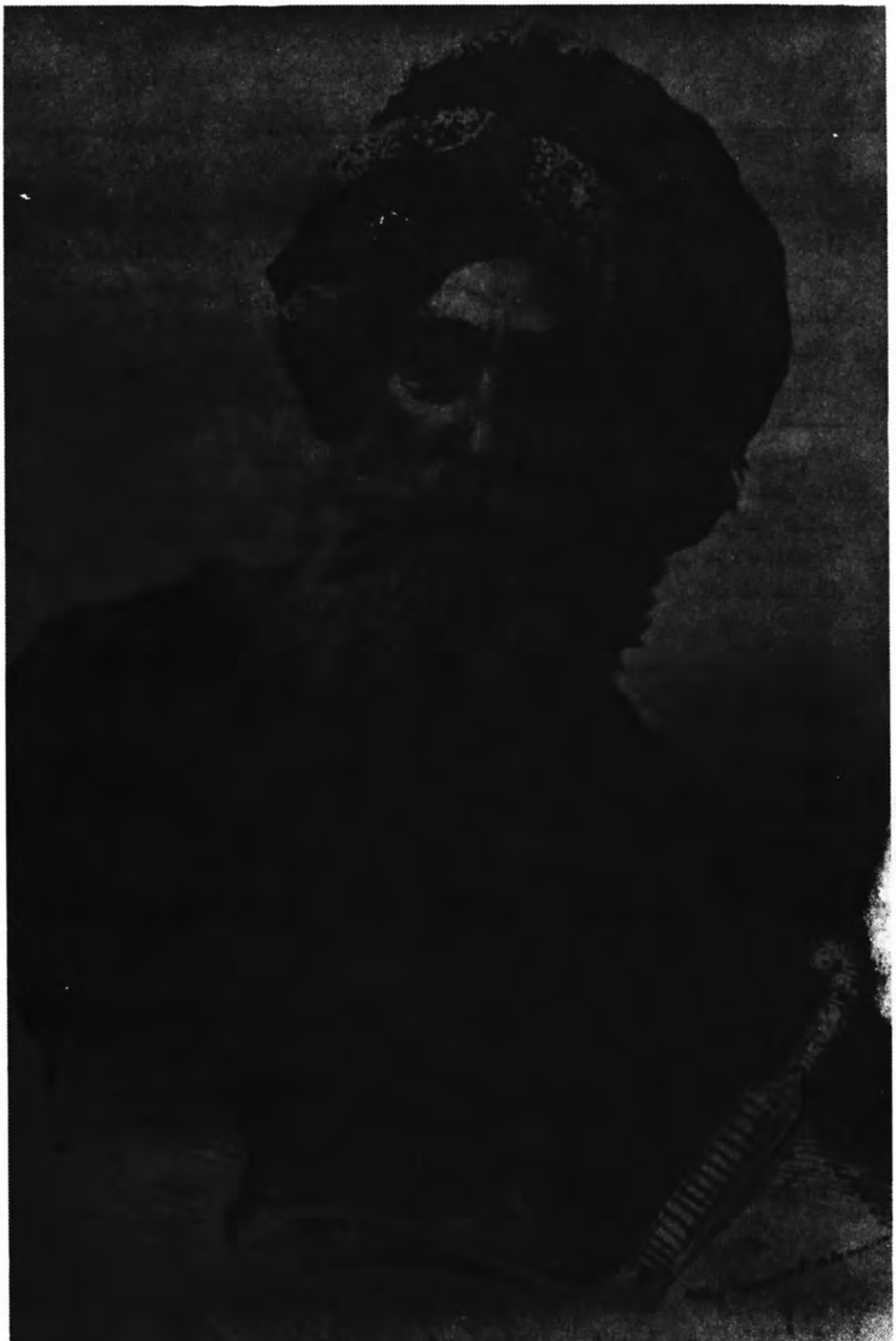
4) HUGON Henri les emblèmes des Beys de Tunis, étude sur les signes de l'autonomie Husseinite, p. 62, Paris, 1913.

5) JAMMES René, couleurs, symboles et drapeaux du monde arabe p. 32, étude dactylographiée en 1955. in, Archives Nationales d'Outre-Mer à Aix-en-Provence, 8×244.

6) HUGON, op. cit., p. 62. قدم هذا الشرح المرحوم حسن حسنى عبد الوهاب ٠

(7) المصدر نفسه ، ص 63 ٠

(8) المصدر السابق ، ما زال سيف على حتى يومنا هذا مقدسا لدى الشيعة فى الكوفة وكربلاء فى العراق وايران ، حيث نلاحظ سيف « ذو الفقار » مع كل رسم للخليفة علي ، ويذكر هوقون ، ان نعت « ضربة سيف سيدنا علي » التى أطلق على شق عمودى لصخرة بحمام الانف بتونس ، تبين بوضوح أن أسطورة فضائل سيف « ذو الفقار » ما زالت منذ زمن بعيد ، حية وعالقة بالاذهان فى ولاية تونس ٠



HADJ HAMED,

[illegible] Bey de Constantine.

اختار الخليفة عمر والعثمانيون اللـــون الاحمر • وكانت اعلام الصبائحيين فى الامبراطورية العثمانية منذ القرن السادس عشر حمراء (9) • اما السلطان سليم الاول فقد استعمل الاعلام ذات اللون الاحمر والابيض عندما فتح مصر سنة 1517 (10) •

وفى القرن السادس عشر ، احتد الصراع بين الامبراطورتين العثمانية والاسبانية وتعددت الحملات البحرية على دول المغرب فى البحر الابيض المتوسط واكتست بطابع ديني ، وقد نشط خير الدين بربروس فى انقاذ مسلمي الاندلس والدفاع عن الساحـل المغربي ، ولاكساء هذه الحروب بطابع الجهاد الدينى والدفاع عن المسلمين ضــد « المشركين » تبنى علما اخضر يتخلله سيف « ذو الفقار » (11) • وكذلك درغوث باشا الذى دافع عن جزيرة جربة ضد الاسطول الاسباني سنة 1560 ، استعمل علما أخضر (12)

أما فى معركة سلنكمان (Slankomen) على ضفتى الدانوب سنة 1691 والتى تقـابل فيها حلف أود سبورغ (d'Andobourg) ضد العثمانيين ، خسـر هؤلاء المعـركة وانسحبوا من الميدان ، وقد استولى الجيش المنتصر على علم تركي يتخلله هـلال ومنجل والحقيقة هو سيف « ذو الفقار » (13) •

اما السلطان سليم الثالث (1789 ــ 1807) ، فقد ارسل ، عندما استرجع مصر من الفرنسيين ، علما أحمر يتخلله سيف « ذو الفقار » وأمر برفعه على قلعـة الاسكندرية (14) ، مبرزا بهذا الاختيار معنى الدفاع عن المسلمين ضد « المشركين » •

وفى الساحات العسكرية العثمانية ، نلاحظ ان كل فيلق له عـلم ، نصفه أحمر والنصف الآخر أصفر يتخللهما سيف ذو الفقار (15) • وبذلك نرى كيف ان العثمانيين

---

9) KOPROLU, Fuad, Bayrak, in, Islam Ansiklopedisi.
(الاعلام) المنشورة فى دائرة المعارف الاسلامية (باللغة التركية) ج 2 ، ص 417 ، استانبول ، 1942 •

(10) المصدر نفسه ، قارن أيضا :
ETTINGHAUSEN, Hilal, in, Encyclopédie de l'Islam, nouvelle édition, t. 3, p. 396.
يذكر ان علم سليم الثالث هو عبارة عن منجل ذى اطراف متباعدة ، وتوجد بعض الكتابات القرآنية

(11) كوبرولو ، فؤاد ، نفس المصدر ، ص 417 ، ج 2 • راجع رسم هذا العلم بمجلة Turk Kulturu ص 118 ، عدد 117 ، جويلية/تموز ، 1972 ، انقرة ، 1972 •

12) Eltore Rossi, Storia di Tripoli Tripolitania dalla conquista arabe al 1911, p. 150, Roma 1968.

31) ETTINGHAUSEN, op. cit., p. 396.

(14) كوبرولو ، فؤاد ، نفس المصدر ، ج 2 ، ص 417 •

51) N. Weisseman, les Janissaires, p. 48, Paris, 1964.

والبحارة المغاربة قد عمموا استعمال العلم الاحمر الذى يتخلله سيف «ذو الفقار» فى سواحل البحر الابيض المتوسط لافريقيا · وفى القرن الثامن عشر ، كان علم الجزائر سيف « ذو الفقار » (16) ·
احمر يتخلله مقص ابيض مفتوح أو علم أحمر يتخلله رأس جمجمة أو ذراع عار يحمل

أما فى تونس ، فهي الاخرى قد تبنت العلم الاحمر وسيف « ذو الفقار » ، وقد رفع هذا العلم على بواخر الباي محمود الحربية (1814 ـ 1824) (17) · وعندما احتلت قلعة الامبراطور بالجزائر يوم 4 جويلية 1830 ، انزل النقيب قوفروا (Geoffroy) العلم الاحمر الذي يرفرف على القلعة (18) · أما ابراهيم باي ، احد بايات قسنطينة ، فقد رفع علما أحمر ذا نصف هلال على قلعة عنابة يوم دخل قصبتها سرا واستولى عليها يوم 26 سبتمبر 1826 (19) · وشيخ الحنانشة كان يتمتع هو الآخر بامتياز رفع الاعلام والموسيقيين لخدمته (20) ·

أما المشير أحمد باشا ، باي تونس (1837 ـ 1855) المعاصر للحاج أحمد باي قسنطينة ، والذى كان يجرى وراء كل ما يكسبه العظمة والهيبة ، فقد قرر ان يضع العائلة الحسينية تحت الشعارات الاسلامية عندما اتخذ للولاية علما أحمر يتخلله سيف « ذو الفقار » رافعا اياه على المحمدية وأهم البنايات الحكومية (21) ·

ان بايلك قسنطينة الذى كان جزءا تابعا للحفصيين ، لم يفتأ خاضعا للتاثيرات الثقافية الواردة عليه من ولاية تونس ، فزيارات القسنطينيين الى مدينة تونس كانت اكثر ترددا منها على مدينة الجزائر ، ثم استمرار القسنطينيين على التعلم بجامع الزيتونة وكذلك الحج الى بيت الله ، كان يتم عادة عن طريق تونس ، وأخيرا العلاقات

---

(16) كوبرولو ، فؤاد ، نفس المصدر ، ج 2 ، ص 417 ·

71) HUGON, op. cit., p. 63. قارن أيضا ، كوبرولو ، فؤاد ، نفس المصدر ، ص : 418 ـ 419 ويذكر انه فى أواخر عهد الانكشاريين فى مركز الامبراطورية العثمانية كان هؤلاء يستعملون الاعلام الحمراء والبيضاء والملونة يتخللها سيف ذى الفقار (كذا)

81) DURIEUX, op. cit., p. 92.

(19) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية بباريس ، المراسلات السياسية ، تونس ملف رقم 1 ، رسالة دى ليسبس DE Lesseps قنصل فرنسا بتونس ، الى وزير خارجية فرنسا بتاريخ 14 أكتوبر 1831 ·

(20) أرشيف الحربية الفرنسية بفنسان (Vincennes) H 228 تقرير عن ولاية قسنطينة ·

21) HUGON, op. cit., p. 64.

التجارية (22) التى عرفت نشاطا ملحوظا بعد احتلال الجزائر وعنابة ، كل هذه العوامل ساعدت علي خلق اتصالات مفيدة مع التونسيين وجعلت القسنطينيين يعملون دومـا على معرفة وتتبع الجديد فى تونس ٠

ومن جهة أخرى ، كانت المدارس تقوم بدور حساس لهذا الاشعاع الثقافى والذى لم ينازع شهرته احد وحيث ان سمعة علماء وأساتذة قسنطينة كانت تجلب عددا كبيرا من الشباب الجاد (23) ٠ ان هذه النخبة القسنطينية التى كسبت ثقافة اسلامية عميقة ، ارتبطت وتعلقت بمبادىء الاسلام والسنة وعملت مع الحاج أحمد باي ، آخـر بايات قسنطينة على العمل بكل أوامر الاسلام ومحاربة « اعداء الدين » الذين احتلوا مدينة الجزائر وعنابة وعددا آخـر من مدن الساحل الجزائرية ٠ يكتب الحـاج أحمد الى كاهية الكاف ، بعد احتلال قسنطينة : « نحن اسلام ومتكئين عليه وأنا واقف فى باب الجهـاد » ٠

وعلى هذا الاساس اختار الحاج أحمد باي بالتعاون مع المجموعة القسنطينية علما أحمر يتخلله سيف « ذو الفقار » ، وان الحاج أحمد قد طلب الى احد التجار اليهود أن يطرز لهُ علما بترنس (25) ، وهو العلم الذى يؤكد كلوزال (Clauzel) القائد الفرنسى الذي قدم مهاجما على قسنطينة ، أنه رأى علما أحمرا (كذا) مرفرفا على القصبة (26) ٠

وقد استعمل جيش الحاج أحمد باي الاعلام ورايات الحـرب مصحوبة بجـوقة

22) Tableau de la situation des établissements français dans l'Algérie en 1840, p. 364, Paris 1841.

يذكر ان قسنطينة كانت تستورد عن طـريق تونس من الشرق البضائع التالية : الاقمشة الثمينة من استنابول والزرابى من آسيا الوسطى والحرير من سوريا والقهوة مـن مصـر ٠

23) NOUSCHI, André, Constantine à la veille de la conquête française, p. 385, in, Les_cahiers de Tunisie, N° 11, 1955.

(24) أرشيف الدولة التونسية ، ملف رقم 384 ، صندوق 223 ، وثيقة رقم 23 ، وهي عبارة عن رسالة موجهة الى صالح بن محمد ، بدون تاريخ ٠

(25) أرشيف الحربية الفرنسية رقم H 226 تقرير محرر من طرف روسو بتاريخ 29 ـ 7 ـ 1836 ، ص 14 ٠

26) G. ESQUER, correspondance de M. Clauzel, t. 2, p. 296.

رسالة من كلوزال الى وزير الحربية الفرنسى بتاريخ 2 ـ 12 ـ 1836 ٠

الموسيقى (27) . وقبيل الحملة الفرنسية الثانية على قسنطينة ، كان الحاج أحمد باي يعلن يوميا انه وجب الدفاع عن المدينة ، وان الفرنسيين اذا نجحوا فى احتلالها ، فان الاهالى سوف يحرمون من بايهم وعلمهم (28) .

وفى القصر الذى بناه الحاج أحمد (29) كانت رسوم الاعلام التى تزين المبانى مبثوثة على القلاع وذات أحجام كبيرة جدا (30) .

لم يكن اختيار الحاج أحمد والمجموعة القسنطينية لعلمهم محض صدفة ، اذ هو يعكس الرغبة الروحية والدينية لعدد من القادة المسلمين الورعين والعاملين بمبادىء الاسلام لادارة شؤون شعوبهم . غير انه لا يغيب عنا أيضا ان شرح بعض الاتجاهات الدينية فى الاعلام كسيف « ذو الفقار » مثلا ، يمثل بالنسبة لعموم الشعب ، الصدق والمثل العليا والطريق السوى الذى يجب سلوكه .

ان الحاج أحمد خلال حكمه فى بايلك قسنطينة من 1826 الى 1837 ، قد حارب التوسع الفرنسى فى ولاية الجزائر ورفض رفضا قطعيا التفاهم أو التراضى مع الفرنسيين ، وفى نفس الوقت اتبع تعاليم الدين الاسلامى بحذافيرها . وقد اعتبر الحاج أحمد نفسه والمجموعة الاسلامية القسنطينية فى حالة جهاد « ضد الفرنسيين » وعليه اختاروا علما أحمر يتخلله سيف « ذو الفقار » .

ان العلم القسنطيني الذي يتخلله سيف « ذو الفقار » يرمز اذن الى معنى الجهاد ضد « الكفار » والى الايمان العميق بالدين الاسلامي وبمبادئه ويذكر بالانتصارات الحربية للخليفة على وللمسلمين ضد « أعداء الدين » .

ان وضع الباي الحاج أحمد السياسى وردود فعل المجموعة القسنطينية بعد احتلال الجزائر وقرار الحكومة الفرنسية باحتلال كل الولاية يؤيد بكل وضوح سبب هذا الاختيار الديني بادىء الامر ثم السياسى بعد ذلك لعلم بايلك قسنطينة أثناء حكم الحاج أحمد باشا باي .

---

27) M. Bonnafont, Douze ans en Algérie, p. 241.

28) G. Yver, correspondance du G. Damrémont, p. 431.

رسالة من المدنى الى الجنرال راباتال (Rapatel) بتاريخ 20 – 3 – 1837 .

29) Feraud, « Monographie du Palais de Constantine », in, Recueil des notices et mémoires de la société archéologique de Constantine, 1867, pp. 1 - 96.

(30) المصدر نفسه .

مــواقف العائــلات الارستوقراطيــة من محمد المقراني وثــورتــه

وأحــداث أخرى من خــلال الوثائــق عن ثــورة 1871

د. يحــيى بوعزيز
معهد العلوم الاجتماعيــة
دائرة التاريخ
جامعة وهــران



عندما تفاقمت مشاكل المقراني ، وتدهورت أوضاعه السياسية والادارية ، وبدأ يفكــر فى الثورة المسلحة ، عمل على تقوية صفه ، بتمتين علاقاته مع رؤساء العائلات الكبيرة فى عدة جهات من البلاد من مليانة غربيا الــى الحدود التونسية شرقا ، وشرع فى ذلك منذ أواخر عام 1870 ، وتحمس أكثر بعد صدور نداء كريميو للجزائريين فى جانفي 1871 .

ففى شهر اكتوبر عام 1870 مر بمدينة سور الغزلان عائدا من الجزائر العاصمة ، فاستضافه الآغا يحيى بن فرحات لمدة ثلاثة أيام ، اتصل خلالها بعدد كبير من الشخصيات الهامة وشرح لهم الوضع العام بالجزائر العاصمة وحكى لهم عن تهجمات الصحافة والاوروبيين ضد الجزائريين ، وحاول أن يتعرف على ميولهم فى نفس الوقت ، فتحمس

لافكاره محمد بن شناف وأخوه سليمان ، وتردد الآغا يحيى وتحذر (1) .

وفور عودته الى مجانة أخذ يوسع اتصالاته ، وأرسل عددا من المبعوثين الى جهات كثيرة من ولايتي الجزائر وقسنطينة (2) . وقد ادعى بوسنر بأن المقراني اقترح على رؤساء العائلات الذين وجه اليهم مبعوثين ، أن يتحدوا معه لتأسيس جبهة قوية لمقاومة النظام المدني ، وحماية سلطاتهم وامتيازاتهم ، فاستجاب له البعض ، وتحفظ البعض ، بينما أبلغ آخرون الامر الى السلطات الفرنسية (3) . وروى ميرسيي بأن المقراني وجه ابن عمه السعيد بن بوداود قائد الحضنة ، مع الشيخ جنان بن دري ، الى بوسعادة لتشبيط الناس ومنعهم من التجند فى صفوف القوات الفرنسية التى كانت تجهز للحرب بأوروبا ، ونجحا فى مسعاهما (4) ، وتذهب بعض الروايات الى أن المقراني كان يتوفر على حوالى تسعمائة مخبر من بني عباس ، يقطنون بالمدن الساحلية ، ويزودونه بانتظام بالاخبار والمعلومات الكافية عن الاوضاع (5) .

وهو ما أكده فلاح من بنى عباس لأحد المخبرين الفرنسيين بعد الثورة حيث ذكر الباشاغا كانت تترجم له بانتظام البرقيات التى ترد عليه من فرنسا والجزائر حول أحداث الحرب ، وكان يقرؤها هو على الناس ويشرحها لهم ، ونقل عنه بأنه قال لهم فى احدى المرات « ان كل البسكرية والبرانية بالجزائر العاصمة لا ينتظرون الا يوم العيد (6) للقيام بنزع سلاح اليهود ، وأن أصدقائى المخلصين لى هم الذين أكدوا لى ذلك ، واتفقوا معي على ضرورة القيام بالثورة ومنهم آغا مليانة سليمان بن صيام الذي قال لي : كن رجلا وسيطر على المنطقة الشرقية من البلاد ، فى حين أسيطر أنا على المنطقة الغربية الى تلمسان . وكذلك أولاد أوقاسى ، وأولاد زعموم ، وأولاد محيى الدين ، وباشاغا تيطري ، وكبار الغرازلة ، الذين كاتبتهم جميعا ، وأجابوني بالموافقة على رأيى » (7) o

---

1) Le Colonel N. ROBIN : L'Iinsurrection de la grande Kabylie en 1876 (Paris 1901) pp. 85 - 87.

2) LOUIS RINN : Histoire de l'insurrection de 1871 en Algérie (Alger - 1891) pp. 79 - 86.

3) POSENER : Adolphe Cremieux : grand citoyen français, grand défenseur au judaisme. Essai biographie (Paris - 1939) pp. 21 - 22.

4) ERNEST MERCIER : Le Bachaga Mokrani et les causes de l'instrrection de 1871 (Paris 1900) pp. 18 - 19.

5) V° Histoire de l'insurrection. Revue africaine (1871) pp. 29 - 83 et 374.

6) لعله يشير الى عيد الاضحى لعام 1287 (1871) الذى أشيع فيه بأن الجزائريين سيهجمون فيه على مدينة برج بوعريريج ، وكذلك العاصمة ، مما دفع سلطات سطيف الى تكليف الضابط دو شيرون بحفظ الامن فى البرج والاستعداد للطوارىء .

7) RINN : deux documents indigenes sur l'insurrection de 1871. Revus africaine (Alger 1891) pp. 28 - 36.

وقد احتفظ المقراني لنفسه بالدعـــوة للحرب فى غرب عمالة قسنطينة وكلف أخاه بومزراق فى منطقة ونوغة وسور الغزلان ، وصهره وابن عمـــه السعيد بن بوداود فى منطقة الحضنة وبوسعادة وأولاد نايل الجلفة جنوب شرق سور الغزلان · وكانت لعائلته صلات قوية بسكان التيطري وسور الغزلان ، وونوغة ، والشرفة ، وأولاد سيدي ابراهيم · وهي كلها مناطق اغلبها كانت تابعة لمنطقة عمله أو مجاورة لها ، وله فيها أنصار وأتباع كثـــيرون (8) ·

وعندما استقر المقراني فى جبل مريسان شمال مجانة بعد فشله فى السيطرة على مدينة البرج ، شرع فى مكاتبة هذه الشخصيات من أجل استمالتها واقناعها بالثورة وحمل السلاح مثله · ومن ضمن هؤلاء : شيخ بوجليل البشير بن كابه (9) · وقد أورد رين ترجمة رسالتين له وجههما فى اليوم الموالى لاعلانه للثورة ، الى كل من باشاغا تيطري بن يحيى بن عيسى ، وقائد قواد أولاد مختار الشراقة ببوغار ، والمدية ، على ابن عبد الرحمن ، أحاطهما علما بأنه فتح أبواب الجهاد فى سبيل الله ، وطلب منهما الا يضيعا هذه الفرصة ، بعد أن تحسر على ضياع حياته وحياتهم هباء فى السابق · كمـــا أورد رين رسالتين للسعيد بن بوداود قـــائد الحضنة وجههما باسم الباشاغا ، احداهما الى على بن عبد الرحمن قائد أولاد مختار ، والثانية الى باشاغا الجلفة وأولاد نايل بلقاسم بللحرش ، وأخبرهما بثورة المقراني وحصاره لمدينة البرج ، وثورة الناس فى كل الجهات من قسنطينة الى سور الغزلان وبوسعادة (10) ·

ورغم اننا لم نعثر فى الاشيفات ، على كل رسائل المقراني الا أنه يمكن القول أن ثورته كان لها صدى وتأثير فى المنطقة الشرقية جنوب مدينة قسنطينة ، وهو ما أشار اليه هو قبل مقتله بأيـــام قليلة فى رسالته الى محمد بن منصور قـــائد أولاد بليـــل فى البويرة ، بعد الصدام الذي حصل حول تلك المدينة ، حيث قال : « وكيف يا عجب من سطيف الى بجاية والساحل جميعا ، ومن باتنة الى عندكم » جميعا حملوا الســـلاح وبقيتم أنتم مرادنا منكم تكونوا فى عون المسلمين » (11) ·

وقد ادعى رين بأن السلطات الفرنسية عثرت على رسالة للمقراني بمجانة موجهة للكبلوتي ، ولكنه شك فى صحتها لانها غير موقعة · وغير مختومة بطـــابع الباشاغا

---

8) ROBIN : pp. 102 - 106.
9) A. M. G. carton : H. 375.
10) RINN : Histoire pp. 190 - 192.
11) A. M. G. carton H. 191 dossier n° 11 lettres arabes.

الذي يعتد بنفسه ولا يتنازل لمراسلة شخص هو «قاطع طريق» حسب رأيي رين طبعا (12) .

غير أننا عثرنا في أرشيف تونس على رسالة للمسمي أحمد بن حميدة بمنطقة الحدود وجهها الى الوزير التونسي خير الدين ذكر فيها : « أن الكبلوتي لا زال يكاتب في أهل الغرب على أنهم يعملون معه فيما يفعل من الفساد » ، وأنه : « قد قيل انه كاتبه بن آغا وبن حداد بعمالة الاجانب وجرت بينهم المكاتب في ذلك ولعله يتم لهم ما ذكر» (13) .

وعثرنا في أرشيف قسنطينة على رسالتين لمحمود باش تارزي قائد أولاد سلطان ، وجههما للكابيتان لويس رين ، أخبره في الاولى بوصول أخبار ثورة المقراني الى المنطقة عن طريق المسافرين من سطيف وغيرها . وأخبره في الثانية بأن سكان عرش أولاد سلطان ثاروا « وعزموا على فعل الفساد ليحملوا العرش كله على النفاق » بزعامة رجلين من أولاد رحاب هما : سليمان بن علي بن عيسى ، وسحنون بن الغضبان بعد أن وصلتهم أخبار ثورة المقراني والحداد ، وتواطأ معهم كبار الناس ، وعقدوا اجتماعا في مكان يدعى : « عين البطمة » في جبال أولاد رحاب وأولاد سلطان ، وكانوا « حوالى مائتين من الرجال » (14) .

ولم يكتف المقراني بمراسلة رؤساء العائلات الجزائرية فقط ، بل انه كاتب صديقه ومقرضه القديم : مسرين ، وشكاله من الضابط بونفالي الذي يضايقه ويؤلب عليه الصفوف ، ويثير ضده أبناء عمومته من أولاد عبد السلام حتى « لم يبق أمامه سوى الثورة ، وأكد له بانه سيضع أنف بونفالي في الرغام ، وأنه : « سيموت حارا ولن يموت باردا » (15) .

---

12) RINN : Histoire pp. 186 - 190.

13) أ. ج. ت. صندوق 212 ملف 240 وثيقة رقم 28 بتاريخ 14 جمادى الاولى 1288 (أوت 1871) . وقد عبر عن الجزائر بعمالة الاجانب ، واكتفى بذكر بن آغه كلقب للمقراني ، وبن حداد كلقب للشيخ الحداد . راجع نص هذه الرسالة في مقالنا بعنوان : مواقف الرسميين التونسيين من ثورة الصبايحية والكبلوتي في منطقة الحدود الشرقية عام 1871 ، الاصالة عدد 61/60 . (الجزائر ـ أوت ـ سبتمبر 1978) ص 157 ـ 202 .

14) أ. و. ق. ملف سماع الشهود (عام 1871) . رسالة رقم 4 بتاريخ 2 أبريل 1871 ردا على رسالة 27 مارس . ورسالة رقم 7 بتاريخ 18 أبريل 1871 . وعن هذا الموضوع انظر دراستنا بعنوان : دور الاخوان الرحمانيين في ثورة 1871 بمنطقة باتنة ، وأثر المقراني والحداد فيها ، مجلة الثقافة ، عدد 38 (الجزائر ـ أبريل ـ ماي 1977) . ص 11 ـ 27 .

15) RINN : Histoire pp. 163 - 165.

وقد أورد الآغا بوزيد فى رسالته الى حاكم دائرة سور الغزلان ، كيف كان المقراني وأخوه بومرزاق يحاولان استمالة الناس الى الثورة بواسطة الرسائل والمبعوثين فى كل الجهات بالونوغة ، والشرفة ، وواد البرد ، وبني يعلى ، والقصر ، وبني مدور ، ومشدالة ، وتيطري ، وسور الغزلان ، وغيرها (16) ·

بهذا الاسلوب حاول المقراني أن يدعم جبهته ولكن بدون طائل لان معظم الذين اتصل بهم وراسلهم رفضوا الاستجابة له · فأولاد بن قانة بالصحراء الشرقية أعلنوا معارضتهم له ولثورته فى رسالة وجهوها الى روستان بقسنطينة يوم 18 مارس وأكدوا فيها استعدادهم لمحاربة المقراني الذي وصفوه « بالمجنون » (17) ·

وفعل مثلهم محمد بن هني بن بوضياف قائد صحاري بسكرة فى رسالته الى روستان كذلك يوم 21 مارس (18) ، وسلم باشاغا تيطري رسالة المقراني الى الحاكم الاعلى الفرنسى فى المنطقة ، وقاد علي بن عبد الرحمن حامل الرسالة الى رئيس المكتب العربي هناك ·

وحتى وجهاء قسنطينة الذين نعتوا أنفسهم « بالحضريين » وجهوا أيضا ، حسب المصادر الفرنسية ، رسالة تأييد الى نائب الاميرال الكونت دوقيدون يوم 29 أبريل استنكروا فيها أعمال المقراني واخوان الحداد الرحمانيين الذين نعتوهم «بالبدويين» المحبين للتخريب وسفك الدماء ، والمعاديين للخير والفلاح ، وطالبوا بانزال العقوبات القاسية ضدهم (19) ·

---

16) A. M. G. carton H. 375. تاريخ الرسالة 10 محرم 1288 (1 أبريل 1871) ·

17) جريدة المبشر ، عدد 745 (6 أبريل 1871) ·

18) نفس المصدر ، عدد 746 بتاريخ 21 ابريل 1871 ·

19) لم نعثر على هذه الرسالة ، ولكن رين أورد ترجمة لها فى تاريخه (ص 214 ـ 215) · وكان من بين الموقعين عليها : أعضاء المجلس البلدي الثلاثة لمدينة قسنطينة وهم : علاوة بن الساسي ، وحموده بن الشيخ ، ومحمد بن باديس ، وقاض المدينة محمد ابن عزوز ، وقاض الضاحية المكي بن باديس ، والمفتى الحنفى سليمان بن ساردو ، والمفتى المالكي الطيب وادفال ، والنائب الثانى فى المحكمة الابتدائية الاولى الحاج الصغير بن كوجيك ·

على أن المقراني ، وان فشل فى استمالة رؤساء العائلات الاوروستقراطية اليه ، فانه نجح فى استمالة الشيخ الحداد اليه باتباعه ، وهو مكسب هائل عوضه كل ما فقده فى الآخرين من تاييد نظرا للنفوذ الواسع الذي كان له على سكان جبال : جرجرة والبابور ، والبيبان ، وحوض وادي الصومام ، ووادي الساحل .

المدخل الى الوثائق :

وثائقنا فى هذه الدراسة ثلاثة عشر رسالة ، الثلاثة الاولى نشرت فى جريدة المبشر خلال القرن الماضي ، والعشرة الاخيرة لم تنشر أصلا . وأحداث هذه الرسائل متنوعة ، ولكنها تتصل كلها بمشاكل ثورة 1871 .

الاولى : نداء أدولف كريميو اليهودي ، وزير العدل ، والمكلف بشؤون الجزائر فى حكومة الدفاع الوطني الفرنسية بتور فى بوردو ، الى سكان الجزائر حاول فيه أن يبرر لهم الاسباب التى دفعت حكومة الجمهورية الفرنسية الى احداث تغيير فى النظام المطبق فى الجزائر ، ويقصد بذلك قرارات 24 أكتوبر 1870 التى نصت على الغاء النظام العسكري ، والمكاتب العربية ، واقامة نظام مدني ، وتجنيس يهود الجزائر بصورة جماعية ، وحتى يقنعهم بآرائه أكد لهم : « أن مقصود الدولة الجمهورية ومرغوبها هو ايصال النفع لعموم الناس وجلب الراحة والهناء مع استقامة احوالهم فلذلك عزمت على تبديل القواعد الماضية والسياسية الجارية بما هو احسن منها فى انتظام احوال العامة » واعترف لهم بأن « هذه الدولة الجمهورية لا تنسى على مر الزمن خصال المسلمين الحميدة ومفاخرهم العديدة بسبب انتظامهم فى سلك عساكرنا وبذل نفوسهم فى نصرة جنسنا ، وقتال عدونا » ووعدهم بأن تملك لهم الدولة الاراضى التى يعملون بها بصورة مطلقة على عكس حكومة الامبراطور التى وعدت بذلك ولم تنجز » (20) .

الثانية : رسالة أولاد بن قانة الى روستان بقسنطينة أكدوا له فيها بانهم كانوا أول من خدم الدولة الفرنسية منذ عام 1838 ، وسيبقون كذلك ، وأبلغوه بانهم سمعوا بأن : « محمد بن أحمد المقراني نافق » ضد الدولة ، « فما هو الا مجنون لا عقل له فها نحن بارئون (كذا) منه ونقاتله كما تقاتله الفرانصوية » وطلبوا فى الاخير نجدة من العساكر حتي يضمنوا أمن بسكرة (21) .

---

20) صدر النداء بتاريخ 14 جانفى 1871 ونشرته المبشر فى عدد 735 بتاريخ 21 جانفى 1871 .

21) المبشر ، عدد 745 بتاريخ 6 أبريل 1871 .

الثـالثة : رسالة محمد بن هني بن بوضياف قـائد صحاري بسكرة الى روستان بقسنطينة ذكر له فيها : « اننا سمعنا بباش اغا مجانة محمد بن أحمد خاب ظنه وخسر عمله مـع الدولة الافرنصوية وعاقب خيرها معه بشره اياها » ، وأكد له بأنه هو واخوانه يضعون أنفسهم تحت تصرفه « لخدمة الدولة الحميدة » و « لقتال من حاربها » ، وانه خدم فرنسا باخلاص منذ ثلاثين عاما دون تبـــديل أو تغيير ، وساسة فرنسا يعرفون ذلـــك (22) .

الرابعة : رسالة محمد البشير قائد أهل العشر الى حاكم سور الغزلان الفرنسي أخبره فيها عن سرقة فرس لاحد الضباط الفرنسيين ، فى نفس الليلة التى اجتمع فيها عدد من القواد الذين حضروا من عمالة الجزائر ، لـــدى القائد عيسى بن العربي . وذكره بأن الاخير قبض على عدد من الناس يتجرون فى البارود ثم أطلق سراحهم (23) .

الخامسة : رسالة السعيد بن علي أوعيسى الى الجنرال لالمـان ، حـول الاسرى الاوروبيين الذي أسروا فى أحداث قرية بني هيني التى سماها الفرنسيون باليسترو ، وتسمى الآن بقرية الاخضرية . وقد اخبره فيها بأنه اتصل برسالته التى طلب منه فيها أن يحضر الاسرى اليـــه واعتــذر له بقولـــه : « وفى هـــذه الساعـــة لا نطيـــق نأتيك بهم نخاف عليهم واغتنم الفرصة فطلب منه الامان لنفسه ولقائد حرشاوة احمد ابن عيسى وأوضح له بان : « عدد الفرانسويين الذين عندى احدى وأربعون نفســـا خمسة عشر رجلا فيهم قبطان الجيني (24) مسيو أجى واثنى عشر صبيا وأربعة عشر نساء فيهن واحدة توفيت » (25) .

السادسة : منشور الجنرال لالمان الى سكـــان دائرة دلـــلس يدعوهم فيها الى الاستسلام ، وقد أوضح لهم قائلا : « قد غلطوكم بعض من الناس الذين آمنتم فيهم من غير حق » وقالوا لكم بانه يمكن ان تسيطروا على المدن التى يقطن بها الاوروبيون . واكد لهم بأن عكـس ذلك هو الصحيح لان فرنسا تملـك الاسلحة والعساكر بكثـرة ، ودعاهم أن يتبصروا ، وأن يبقوا أصدقاء للامة الفرنسية (26) .

السابعـــة : رسالة القائد الهادى الى حاكم المكتب العربى بدللس أخبره بأنه اتصل بخبر من المدعو (الطاهر أوجيوة) يفيد ان الثوار سيقومون بهجوم واسع صباح غـــد

22) نفس المصدر ، عدد 746 بتاريخ 13 أبريل 1871 .

23) A. M. G. carton H. 375 documents provenant du colonel Robin.

24) أي ضابط الهندسة العسكرية .

25) A. M. G. carton H. 375.

26) A. M. G. carton H. 375.



الشكل رقم 1.ـ رسالة القائد الهادى الى الاقبطان ابيرحول ثورة أهل يسر

A O M Carton I 86

السبت على قرية يسر ، وأنهم كلهم الآن مجتمعين فى تامزيغت فى انتظار الغد • وأخبره كذلك بأنهم تركوا الحراسة على الفرنسيين المحاصرين دون أن يذكر أين (27) •

الثامنة : رسالة اسعيد أو بن أبى القاسم الى الجنرال سيريز طلب منـه فيها أن يقرأ الرسالة المرفوقة بهذه الرسالة والتى كتبها له بالفرنسية رئيس الكتيبة التى كانت مرابطة بواد أخريص • والتى مفادها انـه شارك فى مقاومة بومزراق ورجاله عندما حاول أن يهاجم برج هذا الوادى • وتمادى بعد ذلك فى خدمـة السلطات الفرنسية ، واشترك فى معركة (السروج) فى نفس المنطقة ضد بومزراق ورجاله ، وبعد عـودته وجد منزله ومنزل أخيه أبى زيد الحاج عيسى عدل واد أخريص قد هاجمهما الثـوار ، وأخذوا أثاثهما بحضور الضابط الفرنسى الذى كان يعمل معه ، وبشهادته • ومن أجل هذا طلب منه أن يمنحـه وظيفة أو نيشانا « لان كثـيرا من الناس الذين خدموا الدولة الفرنصاوية كمثلي سمعت انـك انعمت عليهم بنواشين (كذا) أو بواضايف (كذا) » ، وبرر لة ذلك بان عرشه يكرهه ولا يقبله بسبب خدماته للفرنسيين (28) •

التاسعة : شهادة استسلام بشروط لاولاد علي بن داود كتبها قائد فرقة الحضنـة بمعسكر المسلية على لسانهم ، حررت هذه الشهادة يوم 9 أكتوبر 1871 ، ونصت عـلى أن أولاد داود طلبوا الدخول تحت الطاعة ، وهم ينتمون الى منطقة سور الغـزلان • وقبل قائد الفرقة العسكرية طلبهم بعد أن دفعوا له ، كعربون ، الف فرنك نقود ، وخمس بندقيات ، وأربعة رجال كرهائن ، واذن لهم بالعودة الى وطنهم ، على أن يبت فى الامر بصفة نهائية الحاكم العام (29) •

العاشرة : رسالة سكان عرش صنهاجة الى الحاكم العام يطلبون منه التخفيف من ضرائب الحـرب • وقد ذكروا له فيها بأن الضرائب التى فرضت عليهم تسببت فى بيعهم لكل ما يملكون زيادة عن حرق ديارهم ، واتلاف زروعهم مـن طرف القوات الفرنسية وأعوانها ، فتعرضوا للمجاعة والبؤس ، وطلبوا منه أن يعفيهم مما بقي عليهم مـن ضرائب الحرب ومبلغه « اثنى عشر الف دورو افرانصية سكة الدولة قد عسرنا فيها ولم نجدوا (كذا) ما نبيـع فى خلاصها » • وحتى يستعطفوه أكثر قالوا له : « نخبرك ان الناس ابتدأوا بالموت من الجوع وان أردت سيدنا تبعث من تأمنه من قبلك يتضـح

27) A. O. M. carton I. 86.
28) A. M. G. carton H. 375.
29) A. M. G. carton H. 375.

حال الجميع » ، وطلبوا منه فى الاخير أن ياذن لهم بالخروج للاعراش العامرة ليبحثوا على مصدر للعيش (30) ·

الحادية عشرة : رسالة رئيس المكتب العربي الى سكان عرش بني عباس طلب منهم فيها أن يشرعوا فى حرث أراضيهم ، وأن يجتهدوا فى دفع ضرائب الحرب المفروضة عليهم ومبلغها : « مائتين وثمانية وخمسين الفا واربعمائة وعشرة الكل فرنكية وثلاثة آلاف بنـدقية » (31) ·

الثانية عشرة : رسالة رئيس المكتب العربي الى سكان عرش بني مليكش طلـب منهم ان يشرعوا فى حرث أراضيهم ويجتهدوا فى دفع ضريبة الحرب ومبلغها : « اربعة وتسعين واثنا عشر الف فرنكية وخمسمائة من النعن (؟) وثمانمائة بندقية » (32) ·

الثالثة عشرة : رسالة طلبة زاوية السيد عبد الرحمن اليلولى الى حاكم دائـرة اربعاء نايت ايراثن « فورناسيونال سابقا » ، حول مصادرة أرض للزاوية · وقد ذكروا له فيها بان للزاوية أرضا قرب واد بني عباس بجوار قرية أقبو بعقود صحيحة مـن زمن طويل ، يستغلونها فى الحرث والرعى · غير أن حاكم المكتب العربي بتيزي بعث اليهم صبايحيا منعهم من حرثها فاتجهوا اليه واشتكوا له فاعطى لهم ورقة ليحرثـوا أرضهم وقدموها الى حاكم المكتب فلم يقبل منهم ذلك ، ومنعهم مرة أخرى من حـرث الارض · ولذلك اتجهوا اليه مرة أخرى بقولهم : « أن تجعل لنا تاويلا عن بلدنا ونحرثها كما كنا فارطا وتسعى فى نيل مقصدنا قبل أن يفوت ابان الحرث » وحتى يزيلوا عنـه الشكوك فى موقفهم من ثورة 1871 قالوا له : « وأما النفاق ليس مدخل لنا فيه وقـد بقينا فى طاعتكم كما كنا فى السابق ، وليس عندنا من اشتغل فى وقت النفاق بشىء الا بالعلم والتعلم ولكن فان حصل لكم شك وريبة فيما قلناه لكم اسأل كافة الناس» (33) .

---

30) A. O. M. carton 2 H 75. بتاريخ 10 اكتوبر 1871

31) A. O. M. carton 2 H 75. بتاريخ 11 نوفمبر 1871

32) A. O. M. carton 2 H 75. بتاريخ 11 نوفمبر 1871

33) A. O. M. carton 2 H 81.

نصـــوص الـوثـائـق

الاولى : نـداء كريميو الى سكان الجزائر ٠

الحمد للـــه وحـده (33) ،

اعلام من الحكومة القائمة بالدفاع لكافة سكان الاقاليم الجزائرية ٠ لا يخفى على من له عقل سليم ورأي مستقيم أن مقصود الدولة الجمهورية ومرغوبها هو ايصـال النفع لعموم الناس وجلب الراحة والهناء مع استقامة أحوالهم ٠ فلذلك عزمت عـلى تبديل بعض القواعد الماضية والسياسة الجارية بما هو أحسن منها فى انتظام أحـوال العـامة فليس الحامل لهذه الدولـة على التبديل المذكور الا لقصد تقليل المفاسد أو ازالتها ٠ وقد تقرر لدى الدولة وعلم أن أصل كل خير مبني على احترام الناس والمحافظة عليهم فى جميع أمورهم الدينية والدنيوية ٠ وربما يحصل الغلط لمن لا يفهم القوانين الجديدة ويظنها غير مفيدة ٠ فان العاقل لو تأمل حـ ق التأمل فيما بينها وبين القوانين السابقة يظهر له الفرق الواضح بينهما ٠ فان الدولة الجمهورية الفرنسوية لا تـزال جادة فى حسن سيرتها ومعاملتها مع المسلمين بأكثر مما صدر من الاحسان من الدول السابقة ، وهذه الدولة لا تنسى على مـر الزمن خصال المسلمين الحميدة ومفاخرهم العديدة بسبب انتظامهم فى سلك عساكرنا ، وبذل نفوسهم فى نصرة جنسنا وقتـال عدونا ٠ وقد كان السلطان نابوليون وعد المسلمين فيما مضى بتمليك الاراضى التـى يستغلونها بالحراثة وغيرها ولم يحصل منه تنجيز ٠ فهذه الدولة ستهبها لهم هبـة منجزة وتملكها لهـم تمليكا مطلقا بحيث يتصرفون فيهـا بأنواع التصرفات من غـير معارض لهم ويتوارثونها توارث الاملاك والاموال ٠

كتب بمدينة بوردو بتاريخ 14 جانفي 1871 ٠ وبأمر سعادة السيد كريميو وزيـر الشريعة ورئيس الجماعة المنتخبين للنظـر فى شؤون الدولـة الجمهورية ٠ ومختـوم سعادة السيد شارل دوبوزي والى الجزائر وأقاليمها ٠

الثانية : رسالة أولاد بن قانة ضد الباشاغا المقراني ٠

سعادة المعظم الارفع (34) الهمام الانفع السيد الجنرال روستان الحاكم الكبـير

---

33) المبشر ، عدد 735 بتاريخ 21 جانفي 1871 ٠

34) المبشر عدد 745 بتاريخ 6 أبريل 1871 ٠

بقسنطينة وسائر عمالاتها (35) اكرمه الله ورعاه آمين · هذا أيه السيد وانا نحن أول من خدم الدول الفرنسوية منذ سنة 1837 الى الآن ولم نزل على العهد الى وقتنا هذا ونلازمه بالنصح الخالص والنية الكاملة ما دامت الدولة الفرانصوية ببر الجزائر ولو بقي من الفرنصوية (كذا) الا واحد بيننا ·

وقد سمعنا بمحمد بن أحمد المقراني نافق عنها فان فعل ذلك فما هو الا مجنون لا عقل له فها نحن بارئون منه من يومئذ ونقاتله كما تقاتله الفرانصوية فاذا ثبت نفاق هذا المفسد فالمراد منك ومن كريم فضلك أن ترسل لنا نحن الثلاثمائة من العسكر لتكون مع ما فى بسكرة من العسكر كي تكف ألسنة الناس عن القول (كذا) والقال · وتكون ضامنين فى بسكرة بحيث أن لا يمسك من جانبها تشويش · واعمل علينا كما تعمل على اخوانك الفرانصوية ·

والسلام ممن كتب باذنهم السيد محمد الصغير بن قانة ، والسيد أبو الاخراص ابن قانة ، وسى الحاج بن قانة ، وكافة أولاد بن قانة · بتاريخ 18 مارس 1871 ·

الثالثة : رسالة محمد بن هني بن بوضياف قائد صحاري بسكرة ضد الباشاغا المقراني

الحمد لله وحده (36) ،

الاجل الاقبل الزاكى الاشمل سعادة السيد الجنرال روستان الحاكم الكبير بقسنطينة وسائر عمالاتها السلام عليك مع دوام الرحمة والبركة · حالتي السكون والحركة والسؤال الكثير منا عنك وعن كلية أحوالك فاذا كنت بخير فالحمد لله وبعد نعم السيد اننا سمعنا بباش آغا مجانة (37) محمد بن أحمد خاب ظنه وخسر عمله مع الدولة الافرنصوية وعاقب خيرها معه بشره اياها · اعلم سيدنا ان أنت استحقيتنا (كذا) فهاني واجد (كذا) مهيىء واخواني وأولادي لخدمة الدولة الحميدة وندور تحت لوائها

---

35) روستان كان فى هذه الفترة يحمل لقب الكابيتان ، وليس الجنرال · وعين حارسا اداريا لعمالة قسنطينة يوم 2 جانفى 1871 تطبيقا لقرارات 24 اكتربو 1870 التى تقضى بالغاء النظام العسكري ، وتعويضه بنظام مدني جديد ·

36) المبشر ، عدد 746 بتاريخ 13 ابريل 1871 ·

37) ذكر لويس رين بأن محمد بن هني بن بوضياف ، وأخاه الصخرى بن بوضياف من أولاد ماضى وأولاد بوراس كانا عدوين تقليديين لعائلة المقراني بمجانة ، ولم يذكر السبب ، أنظر : Rinn : Histoire p. 185

حيثما توجه لقتال من حاربها واني ابنكم وخديمكم وخدمت الدولة الافرنصوية بالنية وصفاء المودة منذ ثلاثين سنة دون تبديل ولا تغيير وكل ساداتها أرباب الدولة الذين جالوا فى وطن الجزائر يعرفني ويعرف خدمتي ·

والسلام من ابنك وخديمك محمد بن هني قائد الصحاري وفقه الله ·

حرر بتاريخ 21 مـارس 1871 ·

الرابعة : رسالة محمد البشير قائد أهل العشر الى حاكم سور الغزلان الفرنسي حـول سرقة فرس واجتماع عدد من القواد ·

الحمد لله وحده (38) وصلى الله على سيدنا محمد ·

الى المحترم الفاضل المعظم السيد الكولونيل حـاكم عمالة صور الغزلان (39) ، السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد نخبرك عن جـواد القبطان اللى (كذا) قاطن فى بوسكن سرق ليلة الثلاثاء هذه ليلة 13 من فيفري · ليكن نخبرك عن الاثنين الماضية حيث كنت أنا ثم ، وأتيت الى السوق حتى عاد نصف النهار وسمعت بالقايد عيسى بن العربي اقبض رجال من عرش الربعية خيان (كذا) وجدهم يشتروا فى البارود وحين مْسكهم طلقهم (كذا) · وأيضا فى هذه الاثنين الاخرى تسوقوا (كذا) جميع القياد (كذا) كنحو القايد النايلي ، والحاج أبو عيشه ، والحاج ابراهيم ، والقايد سى أخميس من عمالة الجزائر ، وعيسى بن العربى ، واتجمعوا عند عيسى بن العربي حتى الـى الليل المذكور سرق الجواد وهانى أرسلت الى كل موضع وعن كل طريق ·

عن اذن السيد محمد البشير قايد أهل العشر ، فى 13 فيفرى 1871 ·

الخامسة : رسالـة السعيد بن علي أعيسى الى الجنرال لالمـان حول الأسـرى الاوروبيين الذين غادروا قرية بن هيني (باليسترو سابقا)

الحمد للـه وحده وبـه استعين (40)

الى طرف سعادة المعظم الارفع المدير الانفع سيادة الجنرال لالمان سلام الله عليك ورحمته وبركاته وتحياته ورضوانه وبعد بلغني كتابك الرفيع متضمن فيه بعض الناس

38) A. M. G. carton H 375 document provenant du colonel Robin.

39) قرية سور الغزلان لم تكن عمالة وانما كانت مركز دائرة · ولكن صاحب الرسالة لم يكن يفرق بين الامرين على ما يظهر أو أنه أخطأ ·

40) A. M. G. carton H 375.

الفرانصويين سكان بن هينى (41) نبعثهم لك الى المحلة أو نات بهم • نعم سيدنا هاهم محفوظين عندنا على قدر مجهودنا والخير الذي فعلناه معهم نريد ان نتموه (كذا) قدر ما نطيق عليه • وفى هذه الساعة لا نطيق ناتيك بهم نخاف عليهم وعلى نفسى من القتل وكذلك على مالي يفسدوني الاعراش ويوم يتمكن لى بعثهم أو ناتى انا بهم بنفسى فلا نفرط ولكن نطلب منك الامان لنفسى ولفرنسا وكذلك قائد حرشاوه أحمد بن عيسى لانه رجل عاقل لم يصدر منه تشطين (كذا) الا فوق مجهوده من بعض الناس • وأما عـدد الفرانسويين الذين عندى احدى واربعون نفسا خمسة عشر رجلا فيهم قبطان الجيني (42) مسيو أجى واثنى عشر صبيا واربعة عشر نساء فيهن واحدة توفيت والسلام من عبـد ربه سعيد بن محمد بن علي اعيسى وفقه الله آمين فى 20 صفر 1288 (43) •

السادسة : منشور الجنرال لالمان الى سكان دائرة دللس يطلب منهم الاستسلام •

من طرف سعادة المعظم الارفع سيادة الجنرال لالمان (44) حـاكم جميع الجيوش بمملكة الجزائر الى كافة القبائل من دائرة الدلس أرشدكم الله وبعد اعلموا قد غلطوكم بعض من الناس الذين آمنتم فيهم من غير حق وقد ذكروا لكم بأن الامـة الفرنصاوية اتعرض لها جميع العساكر وعن هذا تكون لكم قدرة على أخذ مدونهم (كاذ) وبلا مشقة تطردوا الباقى منهم ولا يخفاكم بـأن البرود (كذا) قد تكلـم فى بعض الاماكن وشهدتهم خلاف ما ذكروا لكم وكما تحقق لكم بأن الاحق عندكم لكن لكـم نفقتكم على الامـة الفرنصوية التى عملت فيكم الخير • وثانيا ان آلة الحرب التى هي عندكم لـم تبلغكم للقوة التى تدفع آلتنا الحربية والآن فابصروا وتأملوا لان المحاربة التى تريدونها يكون لكم منها مضرة فضيحة وأما العافية فينتج منها المنفعة الكثيرة لكافة أحوالكم ••• انكم لستم بأعمى لا تبصرون بأن الامة الفرنصاوية تطيق أن تحضر فى مدة قليلـة عدة من عساكر التى تكفى لنصرتها عليكم وأن السلاح الذين فى يدها يصير سلاحكم بـلا منفعة وبسبب ما ذكر ارجعوا أصدقاء الامة الفرنصاوية يكون لكم الخير والهنى (كذا) انتشار لكم بهذا كان عليكم حاكما فى السابق وكان يتكلم معكم ولا يخفى عليكم معرفته وحبيبـ الكثير منكم الذى الآن فى بلادكم وبيده البارود الذى يحصلها والعافية الذي

---

41) قرية بن هينى تقع بين ثنية بنى عيشة والبويرة • وسماها الفرنسيون باليسطرو وبعد الاستقلال أصبحت تسمى الاخضرية •

42) ضابط الهندسة العسكرية •

43) الموافق حوالى 11 ماي 1871 •

44) A. M. G. carton H'375.

ينفع والسلام بأمر سيادة الجنرال المذكور أعلاه الواضع طابعه الرفيع دام عزه وعلاه ·
فى 30 مـــاي 1871 ·

السابعة : رسالة القائد الهادي الى القبطان ابير حول ثورة أهالي يسر .

الحمد للـــه وحـــده (45) ،

الى سعادة السيد القبطان ابير حاكم بيروا وعرب الدلس (46) السلام عليك ورحمة الله وبعد اعلامك بما أخبرنا به الطاهر أوجيوه العبيدى وأنه الدعى (كذا) لنا وأن غده (كذا) ان شاء الله صباح السبت يطيحوا (كذا) القبائل على يسر وانهم كـــل القبيلة مجتمعين فى تامزيعت ويرجون فى وعد غـــد ان شاء اللـــه وقد تركوا العسة على الفرنصاويين الذين محروسين (47) وبهذا هانى (كذا) اخبرتك بما طرق على سمعنا من الطاهر أوجيوه فى يومنا هذا وهذا ما منا اليك والسلام ·

من كاتبه عن اذن خديمك القايد الهادي بولاية أولاد سمير امنه اللـــه ءامين فى 20 جـــوان (1871) (48) ·

الثامنة : رسالة اسعيد أو بن أبى القاسم الى الجنرال سيريز يطلب وظيفة مقابل خدماته ضد بومزراق وثوار 1871 ·

الحمد للـــه وحـــده (49) ،

الى سعادة الاوطان المعوم الارفع السيد الجنرال سريز حاكم الجيوش دام عـــزك وعلاك والسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد ان كنت بخير من اللـــه وعافية فالحمد لله وفق مرادك وبعد أيه الاسعد المرجو مـــن سيادتك العالية المعظمة المحترمة بالله تعالى أن تنظر هذه الورقة المرقومة بالفرانصوية بخط شيف (رئيس) الشرذمتن ازواو العائنة فى برج واد أخريص يوم قدوم المنافقين المتريس عليهم أحمد أبى مزراق المقراني على البرج المذكور · وبذلت جهدى فى تلك اليوم مع الشرذمة المذكورة وتماديت

45) A. O. M. carton I. 86.

46) أي رئيس المكتب العربي من العبارة الفرنسية : ⟵ Chef de bureau arabe

47) أي المحاصرين ولم يذكر أين ·

48) عبر عن أولاد سمير بالولاية ، وهي عبارة عن عرش فقط ·

49) A. M. G. carton H. 375.

عن تلك الخدمة مع حكام بلادنا الى الآن المطلوب من سعادتك العالية أن لا تنسانى من ذهنك لان كثيرا من الناس الذين خدموا الدولة الفرانصوية كمثلى سمعت أنــك انعمت عليهم بنواشين (كذا) الحرمة أو بواضايف (كذا) لان عرشى لم يقبلونى ويكرهوني من جانب خدمتى مع الدولـــة لانى فى يوم قدوم السيد الكولونيل حاكم الصور الى برج واد أخريص وفى الاغد (كذا) قدمت مع السيد الكولونيل الى الفتنة الواقعة بيننا وبين أحمد ابى مزراق المقراني فى الموضع المسمى الشروج (السروج) ورجعنا الى الصور هجموا على بيتى وبيت ابن اخى ابى زيد بن الحاج عيسى عــدل واد اخريص ومسكوا أثاثنا بشهادة السيد الكولونيل وهو ينظر لذلك وهذا الامر واقع ، وعليك الف سلام كتــب بامر خديمك اسعيد او بن ابى القاسم قائد أولاد سالم دائرة الصور . فى 27 جوليت سنــة 1871 .

التاسعة : شهادة استسلام بشروط لاولاد على بن داود .

فرقة الحضنة ـ معسكر المسيلة (50) ،

فى 9 اكتوبر سنة 1871 احدى وسبعين ومائتين (كذا) والف ان أولاد على بن داود من حكم الصور قدموا وطلبوا الدخول تحت الطاعة وقبلنا منهم ما طلبوا من غـــير شروط o وأناس الفرقة المذكورة دفعوا عربون الخدمة :

1000 فــرنك دراهــم .

5 وخمسة مكــاحل .

4 وأربعة رجال مراهن وهم : يحيى بن لحول ، الحناشى بن قويدر ، محمد بن بتقا ، مسعود بن أحمد .

وبادائهم مـــا ذكر من العربون ظهـــر منهم الدخول تحت الطاعة وبهذا السبب سرحناهم وأمرناهم بالرجوع لوطنهم وأعطيناهم الامان لكن من غير تعيين الشروط بل هي باقية على نظر سعادة السيد القوفيرنور جنرال الحاكم بالمحلة صانه الله بعونه آمين.

50) A. M. G. carton H. 375.

العاشرة : رسالة سكان عرش صنهاجة الى الحاكم العام يطلبون التخفيف من ضرائب الحرب ·

الحمد للـه وحـده (51) ،

حضرة المعظم الارفع الهمام الانفع مولانا السيد المريشال حاكم المحروصة عمالة الجزائر بعد السلام عليك مع دوام الرحمة والبركة فى كل سكون وحركة يليه نعم سيدنا نريد من سعادتك ومن سعادة الدولة الفرنصاوية المنصورة ان خدامك عرش صنهاجة بعمالة صور الغزلان من حين جعلت عليهم الجزية كما هي الجارية على جميع العمالات تراهم سيدنا باقين منكسين القلوب ومحيرين من كل حرقت ديارهم وابتاعت اموالهم باقين بالجوع من كون الزرع الاخضر أكلته المحال (52) وما بقي على مذكر أباعوه (كذا) فى الخطية والآن سيدنا ترانا دفعنا ما تبعنا به جملة وبقيت لنا عن جميع الخطية (53) اثنى عشر الف دور أفرانصية سكة الدولة قد عسرنا (54) فيها ولم نجدوا (كذا) ما نبيع فى خلاصها · والآن سيدنا نطلب من سعادتك تنعم علينا بتركها لانك ذوجود وفضل ورحمة ومودة ونحن خدامك وعار السيد على سيده ونخبرك أن الناس ابتداوا بالموت من الجوع وان أردت سيدنا تبعث من تامنه من قبلك يتضح حال الجميع كما نخبرك به يظهر لك حال خدامك ونريد منك سيدنا التسريح خروجنا للاعراش العامرين لمن أراد ذلك لعيشه يصرح (يسرح) ويخمس (يعمل بالخماسة) من كون بلادنا انقطع عيشها ولك الاجر من الله الخالق الرازق وعليك الف فى الف سلام من كافة خدامك وتراب أقدامك كافة عرش صنهاجة مشايخ وفلاحين وذلك بتاريخ 10 أكتوبر سنة 1871 ·

الحادية عشرة : رسالة حول ضرائب الحرب على عرش بنى عباس ·

الحمد للـه تعالى (55) عرش بنى عباس ،

---

51) A. O. M. carton 2 H 75.

52) المراد بالمحال : العساكر والجيوش الفرنسية ·

53) يعنون بالخطية ، والجزية غرامات الحرب التى فرضت عليهم فى ثورة 1871 ·

54) أي عسر عليهم اتمام دفعها ·

55) A. O. M. carton 2 H 75.

كافة شيوخ عرش بنى عباس السلام عليكم وبعد فالذى يكون فى علمكم وأنكم تخبروا ناس فرقكم بأن يشرعوا فى الحرث كالاعوام الماضية كل واحد يحرث ترابه • وأيضا لابد منكم أن تعزموا بدفع الخطية والسلاح المضروبين على كافة عرشكم فالواجب عليكم يعنى على جملة العرش مائتين وثمانية وخمسين ألفا وأربعمائة وعشرة الكل فرنكية وثلاثة آلاف بندقية فاحرصوا بالسلاك والدفع وعليه يكون العمل والسلام عن اذن الارفع السيد القبطان شاف بيرو عرب (56) • فى 11 نوفمبر 1871 •

الثانية عشرة : رسالة حول ضرائب الحرب على عرش بنى مليكش :

الحمد لله وحده تعالى (57) عرش بنى مليكش ،

كافة شيوخ عرش بنى مليكش السلام عليكم وبعد فالذى يكون فى علمكم أكنم تخبروا جميع ناس فرقكم بأن يشرعوا فى الحرث كالاعوام الماضية كل واحد يحرث ترابه وايضا لابد منكم أن تعزموا بدفع الخطية والسلاح المضروبين على جملة عرشكم ، فالواجب على جملة العرش أربعة وتسعين واثنا عشر الف فرنكية وخمسمائة من النعن (2) وثمانمائة بندقية فاحرصوا بالسلاك والدفع وعلى هذا يكون العمل والسلام عن اذن الارفع السيد الكمانده الحاكم الكبير بعمالة بوعريريج ونيابة السيد القبطان شاف بيرو عرب (58) بتاريخ يوم 11 نوفمبر 1871 •

الثالثة عشرة : رسالة طلبة زاوية السيد عبد الرحمن اليلولى حول مصادرة أرض للزاوية •

الحمد لله وحده (59) ،

حضرة الارفع سعادة السيد الكمانده حاكم دائر برج فرنسينال السلام اعليكم كثير السلام التام والشامل العام يعمكم ويعم جميع من احتواه مجلسكم الرفيع وبعد يا سيدي اننا عندنا بلد قرب واد بنى عباس فى الموضع المسمى أقبو فى حكم تزى ولنا

---

56) يعني رئيس المكتب العربي : Chef de bureau arabe

57) A. O. M. carton 2 H 75.

58) يعني رئيس المكتب العربي : Chef de bureau arabe • وقد عبر عن مدينة برج بوعريريج بالعمالة ، وهي عبارة عن بلدية آنذاك فقط •

59) A. O. M. carton 2 H 81.

عليه عقود الابتياع الصحيح وكان فى حوزنا واستغلالنا من الزمن الاول ونتصرف فيه التصرف التام مع أنواع التصروفات (كذا) نحو الحرث ورعى الكلاء من غير منـازع ينازعنا فيــه ولا معارض وفى هذه السنة قد قدمنا بأثوارنا (كذا) للموضوع المذكـور اعلاه لنحرثوه كما كانت العادة فاذا بسيد الكمانده حاكم بير عـرب تزى بعث الينـا اصبايحى وتعرض لنا عن الحرث فحينئذ جئنا اليكم واشتكينا لديكم بقضيتنا المرقومة وكتبت لنا كتابة اليه ليتركنا نحرث بلدنا المملوكة لنا بالشراء كما ذكرنا ونمكنا كتابكم بيده ولم يقبل ما فيه واجابنا بقوله ايانا فلا تحرثون بلدكم أبداً والآن يا سيدي فالمطلوب منكم بعد المسامحة أن تجعل لنا تأويلا عن بلدنا ونحرثها كما كنا فارطا وتسعى فى نيل مقصدنا قبلأن يفوت ابان الحرث وأما النفاق ليس مدخل لنا فيه وقد بقينا فى طاعتكم كما كنا فى السابق وليس عندنا من اشتغل فى وقت النفاق بشىء الا بالعلم والتعـلم ولاكن فان حصل لكم شك وريبة فيما قلناه لكم اسال كافة الناس وهذا ما به الاعـلام وعليكم ألف سلام ٠ كتب عن اذن كافة طلبة السيد عبد الرحمن اليلولى نفعنا اللــه ببركاته ءامين وعرفه له فى 9 نفمبر سنة 1872 ٠



2 H 81 رطون

Traduction

Après les salutations

Tous les Tolba de la zaouïa de Si Abdrohman Elialouli informent le Commandant du cercle de [illegible] que malgré la recommandation [illegible] leur avait donnée, Mr le [illegible] du bureau arabe de Tizi [illegible] de labourer leur terre qu'ils [illegible] suivant des actes judiciaires en [illegible] située près de Oued Beni [illegible] dit Akbou.

En conséquence ils prient [illegible] Commandant de vouloir bien [illegible] les démarches nécessaires pour [illegible] propriété qu'ils en jouissent [illegible] temps, avant que le mauvais [illegible]

Ils ajoutent que Mr [illegible] prendre des informations sur [illegible] pendant l'insurrection à la[illegible] n'ont pris aucune part.

le 9 Novembre [illegible]

Pour traduction conforme

E. M. Chiha[illegible]

Interprète mili[illegible]

الشكل رقم 2 ـ رسالة طلبة زاوية عبد الرحمن اليلولي الى حاكم دائرة فورنا سيوفال حول أرض للزاوية .

A. O. M. Carton 2 H 81

الثقافة العربيـــة المعاصرة
ومصير الوطن العربى

د. الحبيب الجنحاني
أستاذ بكلية الآداب ـ تونس



ان العلاقة بين شتى مظاهر الواقع العربي اليــوم ، ومصير الوطن العربي متينة ، جدلية ، فهي تعكس الوضع السياسي والاقتصادي والثقافي (1) ، ولكننا نريد التركيز هنا على قضية معينة تتمثل فى مدى تاثير الثقافة العربية المعاصرة فى صقل معالم مستقبل الوطن العربي ، وهو جانب خطير ـ فى نظرنا ـ لما يتميز به التاثير الفكـري من استمرارية ، وقدرة على تجاوز المعطيات الظرفية ، فقد عرف المظهر السياسي فى الواقع العربي المعـاصر ازمات حـادة جعلت روح التشاؤم تسيطـر على ذوي النظـرة القصيرة ، المحدودة ، فيصابون بالتقوقـــع ، واللامبالاة ، ولكن الرؤية الفكرية المستقبلة قد صمدت وواصلت أداء رسالتهـا فى ظروف معقدة وصعبة .

ليس هدفنا الرجوع الى الماضي البعيد للتعرف الى سمات الثقافة العربية المعاصرة بل سنقتصر على مرحلة ما بعــد هزيمــة حزيران 1967 ، وهى مرحلة دقيقة ، ومليئـــة

بالاحداث ، والمفاجآت فى الواقع العربي بالرغم من قصرها ، فقد مر خلالها الفكـر العربي بتجربة خصبة ، وقاسية كانت محكا لمدى قدرته على تجاوز المراحل الظرفية ، وتركيز أسس النظرة الشمولية المستقبلية ٠

فقد تأثر الفكر العربي بهـذه الاحداث تأثرا عميقـا ، وانعكست عليه ظلال مأساوية الواقع العربي ، وقد أصبح هذا الواقع اثر هزيمة حزيران يشكو أزمة ضياع خانقـة ، وأضحى الوعي العربي متمزقا ، ومهزوزا ، فلا غرو ــ اذن ــ أن يلمس المتتبع لحركة الثقافة العربية المعاصرة فى مختلف الاقطار العربية خلال هذه المرحلة مظاهر التشرذم الفكري لدى بعض الفئات من المثقفين العرب ، وصمتا عميقا لدى فئة أخرى ، ومراجعة نقدية جذرية لدى فئـة ثالثة (2) ٠

ثم جاءت حرب أكتوبر ، وما حققته من انتصار نسبي فظن الكثير أن الفكر العربي سيتخلص مما أصيب به من تمزق ، وانقسام ، وقد كان الظن مخطئا ، ولم تنجح بعض الاقلام التى حاولت استغلال صمت الفكر العربي فى وقفته النقدية العميقة من اثبـات أن حرب أكتوبر كان لها تاثير ايجابي وعميق فى حياة الفكر العربي أيضا ، ولا يرجع ذلك ــ فى نظرنا ــ الى ما أثير من جدل حول نسبية الانتصار ، أو الى الاحداث السريعة المؤلمة التى عرفها الواقع السياسي العربي ، والتى عصفت بنتائج حرب أكتوبر عصفا شديدا ، ونعني هنا الحرب الاهلية بلبنان ، ونتائجها الخطيرة ، بل يعود أساسا الـى شعور عدد كبير من المثقفين العرب بضرورة مراجعة نقدية جذرية ، واعادة النظر فى كثير من المفاهيم والقيم التى طفحت على سطح الفكر العربي المعاصر ، فقد وعي الكثير أن معركة المستقبل العربي ليست معركة سياسية واقتصادية واجتماعية تحتاج الـــى مرحلة معينة ، بل هي معركة حضارية تتطلب مراحل عديدة ، تتمثل نقطة انطلاقها فى تركيز رؤية شمولية معينة لمستقبـل الوطن العربى (3) ٠ انه لا يمكن أن نتحدث عن موقف واحد للنخبة المثقفة العربية تجاه هذه القضايا ، أو حتى عن موقف متشابه ، فقد ابرزت مرحلة ما بعد هزيمة حزيران الفروق العميقة بين التيارات المختصة فى الثقافة العربيـة المعاصرة ؛ فلم يشعر كثـير من المثقفين العرب بحتمية تلك المراجعة الجذرية المشار اليها ، فانتهـز البعض الفرصة لملء الفراغ الذى تركه ممثـلو الفكر الواعى الهادف ، واصبحوا يبادرون للقيام بعملية تبريرية فى الميدان الثقافى خدمة لابطال الواقع السياسي العـربي المهزوم ، المأزوم ، وسيطر القلق والتمزق على فئات أخرى وقعت فى خطأ كبير ، حيث خلطت بين سلبيات الاحداث السياسية ، وما تحدثه من هزات ظرفية وبين رسالة الفكر العربي الجديد ، وهي رسالة ثقافية حضارية طويلة المـدى ٠ ونقف فى تتبعنا لمواقف تيارات الفكر العربي المعاصر فى أحداث المرحلة الاخيرة على الظاهرة التالية المتمثلة

فى أن التيارات التى لم تمسها أزمة التمزق والتشرذم الفكري ، ووقفت مـن الاحداث موقفا نقديا ، ايجابيا هي التيارات المتبنية لرؤية جدلية ، شمولية لآفاق المستقبل العربي والتى تعتمد المنطـق السببي والجدلية التاريخية فى تحليـل حاضر المجتمع العربي ، وبالرغم من هذه الجدلية التى توحد بينها فى استعمال أساليب البحث والتحليل ، فهي متباينة عقائديا ، وتتجاذبها تيارات سياسية مختلفة .

وبرز ضمن هذه التيارات التى يجمع بينها قاسم مشترك ـ بالرغم من اختلافها تجاه كثير من القضايا العربية ـ يتمثل في الوعي العميق بضرورة دعم الاتجاهات الرامية الى عقلنة المجتمع العربي ، والى غربلة السلبيات ، والمعوقات التى قادت الى تعـاقب الهزائم تيار يحاول أن يجد المعادلة الصعبة بين مفارقات ، وتناقضات الواقع العـربي السياسي ، والاقتصادي ، والثقافي وبين وضع أسس جديدة لعملية حضارية طـويلة المدى ، وتهدف الى بنـــاء الوحدة العربية بناء سليما ومتينـــا ، انطلاقا من الهياكل التحتية ، والتحول الحضاري الجذري البطيء الذي يحتاج الى عدة مراحل تاريخية موضوعية ،وسيكون لهذا التيار شأن خطير فى المرحلة القادمة . يقف أنصار هذا التيار اليوم مناهضين للنظرة الميكانيكية فى التفسير ، وضد سرد الاحداث فى شتى ميادين المعرفة بطريقة استاتيكية جامدة ، ويناهضون العشوائية فى السياسة ، والاقتصاد ، والتربية ، والثقافة ، ويندون بالواقعية الفوتوغرافية ، أو التسطيح الواقعي الآلي فى الحياة الثقافية العـربية الراهنة ، وبظاهرة تسييس الانتاج الثقافى الذي يوقعـه فى الآنية ، والمباشرة السطحية ، ولكنهم يفضحون فى نفس الوقت التشرذم الاديولوجى ، والمعتقدية (الدوغمائية) التى اساءت الى الفكر العربي الجديد ، واستغلتها بعض النظم العربية عن وعي لتحريف رسالة هذا الفكر الذي ينطلق من معطيات واقـــع المجتمع العربي وقيمه ، رابطا ذلك بالقيم الثابتة فى تراث الحضارة العربية الاسلامية ، ولا سيما بالجوانب المشرقة فى هذا التراث (4) .

ان انصار هذا التيار الفكري الجديد بين تيارات الثقافة العربية المعاصرة يسعـون جاهـدين :

ـ الى عقلنة شتى مظاهر الحياة فى المجتمع العربي ، ويعلقون فى هذا الميـدان بالذات آمالا واسعة على السياسة التربوية ، والعمل الثقافى فى الاقطار العربية

ـ والى بلورة آفاق التحول والحداثة ،

ومغامرات قد تهدد تحررها الوطني ، وتقدمها الاجتماعى والحضاري ٠

ونود فى هذا السياق طرح القضايا التـالية :

1 ـ ان العلاقـة بـين التخلف الفكرى والتخلف الاقتصادى والاجتماعى عميقـة ، فانه لا يمكن فصل الثقافة العربية المعاصرة عن البنيات الاقتصادية والاجتماعية فى الوطـن العـربي ٠

يقول الكاتب المغربي محمد زفزاف : « أنا لا أستطيع أن أفكر تفكيرا ايجابيا اذا لم أجد خبزا آكله ، سوف أفكر فى معدتي أولا » (5) ٠

2 ـ انه لا يمكن ـ فى نظرنا ـ فصل الثقافة العربية المعاصرة عن تراث الحضارة العربية الاسلامية ، وليس هنالك تناقض بين ما يسعى اليه الفكر العربي الجديد مـن عقلنة المجتمع العربي ، وترسيخ أسس المعاصرة وبين احيـاء الجوانب المضيئة فى تـراثنـا ٠

انه حل سهل ان نلقى تبعة الهزيمة على تراثنـا ، وحضارتنا ، متهمين اياها بأنها « حضارة لفظية » ، ومتهمين انفسنا باننا شعب يتكلم اكثر مما يفعل دون أن نبحـث الاسباب الحقيقية التى تحول بينه وبين الفعل الخلاق (6) ٠

ولكن يجب أن نفصل بين التراث والرجعية الفكرية ، فهناك تيار رجعي محـافظ يعيش فى الماضى ، ويقدس التراث العربي الاسلامي ، ويجمد عنده فيسقط فى عدمية وجودية كاملة فكرا وسلوكا ، ولا يحاول التفتح على الثقافات العالمية ، مجمدا التاريخ مصنما السلف ، فهـم وحدهم على صواب مطلق ٠ وهـو تيار يؤكد شكلية التـراث ، ويضفى عليه مسحة القداسة ، فهو يضر بالتراث ، ويحجره ، وينفر الناس منه ٠

وينبغى ان نعترف بأن لهذا التيـار تاثيرا كبيرا فى صفوف الجماهير العـربية ، فالرجعية تظهر فى صورة الحاميـة للتراث وحـدها فى المجتمع العربى الاسلامى ٠

وهنالك تيار آخر ليس له شان يذكر فى صفوف الجماهير العربية هو تيار فئـة الرافضين للتراث باسم المعاصرة فهم يرون صورة الحاضر فى المستقبل ، وفى المستقبل فقط ، فقد ارتموا فى احضان الآخرين ، واغتربوا ، وفرضوا على أنفسهم عـزلة فى الواقع العربي ، وهي فئة قليلة تشكو ضروبا من المركبات ، فمنطق نظرتها الاندحارية الى التراث منطق نظري هروبي ٠

اما الموقف الثالث من التراث فيمثله اولئك الذين يحاولون خلق المعادلة الصعبة فى الحياة الثقافية العربية المعاصرة ، فهو تيار تقدمي مجدد يختلف فى رؤيته التاريخية كل الاختلاف عن التيارين السابقين ، فهو يسعى جاهدا لتحرير التاريخ والتراث ، وغربلته من مظاهر الخرافة والتزييف ، وتخليصه من نظرة التوثين والقداسة ، واخضاعه لمقاييس المنهجية العلمية ، فهو يقاوم النظرة الطوباوية للتراث التى تستقطب الجوانب المظلمة البلهاء دون انفلات ، ويندد بهذا الموقف الذى يريد ان يحول التراث الى تراث شكلي خال من محتواه الانساني ٠

ان المثقف العربي الواعي ، الحامل لرسالة التجديد يتطلع الى التراث العربي الاسلامي فكرا وحضارة من زاوية شمولية متحدة ذات أبعاد تقدمية تسقط من مضامينها كل مظاهر الاندحار ، والانغلاق ، والسوداوية ، وتؤكد على ما فى تراثنا من شك ورفض ، وتمرد عميق ، وفكر عملاق ثوري ، وبذلك يصبح تراثنا وثيقة انسانية رائعة تلتقى مع أهداف العمل الثقافى المشار اليه وطنيا ، قوميا ، وانسانيا (7) ٠

3 ـ ان الحديث عن الثقافة العربية المعاصرة يجر حتما الى الحديث عن النخبة المثقفة فى الاقطار العربية ، فقد لمحنا الى تياراتها المتباينة ، والى بعض مظاهر التأزم فى صفوفها ٠

ونود هنا أن نلاحظ أمرين بارزين :

أ ـ ان بعض الفئات داخل هذه النخبة تشكو تخلفا مهولا بالرغم من الدور الطلائعى المناط بها ، فهي مطالبة بالمساهمة الفعالة فى معركة الخروج من التخلف فى نفس الوقت الذي تعاني فيه من مظاهر تخلف رهيب !!

ب ـ ان التخلف الذي تشكو منه الاقطار العربية يقتضي منطقيا أن يكون للنخبة المثقفة دور واضح فعال فى تسيير شؤونها ، والمشاركة فى تحديد مصيرها ، ولكننا نجدها فى الواقع تعيش هامشيا فى مجتمعاتها ، بل قل محاصرة تكاد تختنق فى أغلب الاقطار العربية ، فتضطر الى الهجرة الخارجية والداخلية معا ، ونعني بالخصوص المجموعة الفعالة ذات النظرة العميقة المحللة لقضايا بلدانها ، والتى بلغت درجة النضج الفكري ، فاصبحت لها رؤية شمولية كونية ٠

اننا نقرأ احيانا ، أو نسمع نقدا لاذعا موجها الى رجال النخبة المثقفة لما يبدو من تباين فى وجهات نظرهم ، واختلافاتهم العقائدية ٠

اننا نؤمن ان هذا الصراع الايديولوجى المعروف اليوم فى صفوف النخبة المثقفة العربية أمر طبيعي ، فهو مرتبط بنظرة افرادها المستقبلية ، وبتحديد رسالتهم فى تغيير أوضاع مجتمعاتهم ، فقضية المصير العربي ما تـــزال مطروحة : أي سبيل ينبغى أن تسلك ؟ ولا ننسى أن المثقفين العرب هم أبناء بيئاتهم بتناقضاتها ، ومظاهر تخلفها ٠

ان المؤلم فى هذا الصراع الداخلي ليس الاختلاف فى الرؤية ، بل انعدامها لــدى عدد كبير من افراد النخبة المثقفة العربية (8) ٠

ومن المشاكل العويصة التى تواجه المثقفين العرب يوميا :

ـ مشكلة الحرية بمختلف مظاهرها ٠

ـ وقضية علاقتهم بالسلطة ، فقد روي أن احدهم قال لمعاوية :

« اذا ارضينا الله اغضبناكم ، وان ارضيناكم اغضبنا الله » ، وهي جملة تصور اليوم علاقة النخبة المثقفة بالسلطة ، فاذا حاول المثقفون الواعون اداء رسالتهم الثقافية وطنيا وقوميا ، وهي تهدف أولا وبالذات الى نشر الوعي العميق ، ونقد مظاهر التخلف السياسي ، والاقتصادي ، والاجتماعى اصطدموا بالسلطة ، وان حاولوا الركض وراء ركبها ، والدوران فى فلكهـا سقطوا ، وفقدوا دورهم الطلائعى الصعب فى بيئاتهم ٠

ولعل صعوبــة هذه العلاقة ، وما يحف بها من ملابســات وأخطار جعل بعض المثقفين يقيمون جدارا برلينيا بين الثقافة والسياسة ، وهو اتجاه مخطىء فى رأينا ، فلا يمكن الفصل بـيـن الثقافة والسياسة ٠

المرحلة الوطنية وآفــاق الوحدة العربية :

انه مــن المعروف ان مفهوم الامة الاسلامية الذي يعد سمـــة أساسية فى التفكير الاصلاحي خلال القرن التاسع عشر قد تقلص ظلــه فى مطلــع القرن العشرين نتيجة ظروف موضوعية معروفة ليفســح المجال لمفهــوم الوطنية فى مرحلــة تاريخية جديدة دخلتها أكثر الاقطار العربية ، وهو مفهوم متأثــر ـ دون ريـــب ـ بالمفهوم الاوروبى للوطنية ، ولكنه ارتبط بالاسلام ، وبمفهوم الجهاد فى سبيل الذود عن مميزات الشخصية العــربية الاســلامية (9) ٠

وقــد كان لهذا المفهوم دور ايجابي فى مرحلة التحرير الوطني من جهة ، وتــأثير واضح فيما نلمسه اليوم من مميزات الذاتية الوطنية فى مختلف الاقطار العربية ٠

ومن المعروف أن ما يسمى بطبقة البورجوازية الوطنية بفئاتها الوسطى والصغيرة هي التى قـادت مرحلة التحرير الوطني فى البلدان العـربية ، وهي مرحلة عـرفت بمميزاتها وتناقضاتها . يتحدث الاستاذ فائق محمد عن هذه التناقضات قائلا :

« 1 ـ كان المخاض الاول لحركة الثورة مخاضا بورجوازيا ، عاجزا عن ادراك ، أو تبنيّ حتمية الصراع الجدلي بمختلف مدلولاته الطبيعية ، والاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، وبالتالي كانت عملية المخاض تتصف بالعمومية ، وباثارة الحوافز القومية وبتزكية المبادرات الفردية فحسب .

2 ـ كـان التركيب الاول لحـركة الثورة العربية تركيبا فوقيـا ، قاعدته الطبقات الوسطى ، والبورجوازية الصغيرة بجميع تداخلاتها ومشاكلاتها ...

3 ـ جـاءت اسهامات البروليتاريا العربية متأخرة فى هذه الحـركة ونعنـي بالبروليتاريا العمال والفلاحين » (10) .

وان هذه التناقضات جاءت نتيجة طبيعية للاوضاع المعقدة والمتناقضة التى عرفتها مرحلة التحرر الوطني ، ووجدت نفسها الفئات القيادية للمرحلة فى مفترق الطرق غداة الحصول على الاستقلال السياسي ، فقد احتـدت التناقضات الداخليـة ، واستمرت التناقضات مع البلد المستعمر بالامس القريب ، فقد اتضح ان الاستقلال الحقيقى لا يتم الا بالاستقلال الاقتصادى والثقافى ، وقـد كان لاستمرار التبعية فى هذين الميدانين أثر سلبي ليس وطنيا فحسب ، بل قوميا أيضا .

وكما فشلت القيادات الوطنية فى كثير من البلدان العربية فى حل مشاكل مرحلة ما بعد الاستقـلال السياسى ، والقيام بعملية تحول جذرى فى الهياكل الاقتصاديـة ، والاجتماعية والثقافية ، والتخلص نهائيا من الهياكل البالية المتحجرة التى تحول دون تحديث جذرية فقد فشلت الثورة العربية أيضا فى تحقيق ما طرحته فى اذهـان الجماهير العربية من مفاهيم وشعارات جديدة مثل حرب التحرير الشعبية ، الحـرية والعدالة الاجتماعية ، تسريع عملية التحويل الاشتراكي ، الارض لمن يفلحها ، القضاء على الفروق الاجتماعية ، تحرير الارض السليبة ، وغيرها من الشعارات . اننا لا ننكر الخطوات الايجابية التى انجزت هنا وهناك ، ولكن المهـم أن تقف الثقـافة العـربية المعاصرة موقف نقد جذري تجاه تلك المفاهيم والقيم .

وينبغى أن يرى الفكر العربي الجديد فى الوطنية مرحلة تاريخية ضرورية لا تتناقض أبدا مع المصير الوحدوي للوطن العربي بشرط الا تستغل من قوى داخلية وخارجية لتعميق هوة الاختلاف ·

اننا لا نذيع سرا حين نقول هنا : ان كثيرا من القوى المعادية للامة العربية فى الداخل والخارج قد استغلت فى الاعوام الاخيرة فشل العمل الوحدوي العربي لاسباب ظرفية موضوعية لتقوية الشعور الوطني ، وابراز المفهوم الاقليمي الضيق ·

فلابد ـ اذن ـ من التفرقة بين التنوع الثقافى أي السمات المميزة لثقافة وطنية ما وبين مفهوم التعددية الحضارية ، أو الحضارية المتوسطية ، أو النزعة الاقليمية الشوفينية الضيقة لان وراء هذه المفاهيم تكمن فى حقيقة الامر أهداف تجزيئية تحاول أن تؤجل اكثر ما يمكن بداية مرحلة الانتقال من حالة التجزئة الى الحالة الوحدوية · ان للفكر العربي المعاصر شانا خطيرا فى هذا الميدان ، فلابد أن يعي معطيات المرحلة ، ويحدد المفاهيم تحديدا دقيقا ، ويشعر بخطر تيارات العزلة والتقوقع ·

سئل أخيرا الكاتب المصري الشهير نجيب محفوظ : « الى أي مدى تؤيد الدعوة التى تنادي بضرورة انعزال مصر عن الوطن العربي ، ومشاكل الامة العربية لتهتم بمشاكلها الخاصة ؟ » ·

فأجاب :

« طبعا ، انا لا اريد هذه الدعوة على الاطلاق ، فحاضر مصر ومستقبلها مرتبط ارتباطا ارتباطا عضويا بالمجموعة العربية سواء من الناحية السياسية او الاقتصادية او الثقافية » (II) ·

قد يتساءل المرء فى النهاية عن دور الثقافة العربية المعاصرة فى مصير وحدة الوطن العربي ؟

انه دور أساسي ومستقبلي ، فاذا أصيبت الاوضاع السياسية ، أو الاقتصادية بالتعثر ، والتأزم ، فان رسالة العمل الثقافى الوحدوي يجب أن تستمر ، وان تتغلب على العراقيل الظرفية ، وينبغى على ممثلي تيار الفكر العربي الجديد فى محاولتهم ايجاد المعادلة الصعبة التوفيق بين التغيير الداخلي ذي الطابع الوطني والعمل الوحدوي العربي الذي سيستفيد من كل تحول جذري يحدث فى أي قطر من الاقطار العربية ·

يقول محمد زفزاف :

« نحن نشعر انّنا مدعوون الى التغيير فى نطاق التشبث بماضينا وحاضرنا العربيين ، اذ لا يمكن ان يتم هناك تغيير بعيدا عن الرقعة العربية ، فبقدر ما نطمح لتغيير أوضاعنا الداخلية ، نزداد تشبثا بروحنا الوحدوية العربية » (12) ·

1) أنظر : فى هذا الصدد ازمة التطور الحضاري فى الوطن العربي الكويت 1975 ·

2) أنظر مثلا : ملف عبد الناصر بين اليسار المصري وتوفيق الحكيم ، القاهرة 1975

3) راجع دراستنا عن « اختلاف الاتجاهات الادبية وآفاق المستقبل العربي » ضمن كتابنا « من قضايا الفكر » ، تونس ، 1975 ، ص 91 وما بعدها ·

4) أنظر دراستنا « احياء تراث الفكر العربي دعامة أساسية لبناء مجتمع عربي حديث » ، ن· م· ، ص 111 وما بعدها ·

5) مجلة «المعرفة» ، كانون الاول ، 1977 ، ص 135 ·

6) راجع دراسة أدونيس : « خواطر حول بعض مظاهر التخلف الفكري فى المجتمع العربي » ضمن كتاب « ازمة التطور الحضاري ·· » سبق ذكره ، ولا سيما خلاصة الدراسة ص 192 · وقد عرف بموقفه من التراث فى كتابه « الثابت والمتحول » ، أنظر نقد الاستاذ يوسف اليوسف « هل الامة العربية معادية للابداع ؟ » الموقف الادبي ، كانون الثاني ، 1978 ، ص 107 وما بعدها ·

7) راجع دراستنا « احياء تراث الفكر العربى ··· » سبق ذكره ، ص 121 وما يليها ·

8) أنظر بحثنا : « من قضايا النخبة المثقفة فى الاقطار العربية » ، مجلة « آفاق عربية » ، حزيران 1977 ، ص 100 وما يليها ·

9) راجع دراستنا : « التيارات الاصلاحية ومفهوم الامة والوطن » ، أبحاث الندوة الاسلامية الرابعة عن « العالم الأسلامي المعاصر : أوضاعه ومشاكله » ، القيروان ، فيفري 1978 ، تحت الطبع ، أنظر أيضا تحقيقنا لوثيقة حول عدم مشاركة ممثلين عن اليهود فى المؤسسات الدستورية للدولة التونسية قبيل الحماية ، المجلة التاريخية المغربية ، جانفي ، 1978 ، ص 117 وما بعدها ·

10) الموقف الادبي ، تموز ، 1975 ، ص 96 وما يليها ·

11) الموقف الادبى ، آب ، 1977 ، ص 119 ·

12) مجلة « المعرفة » ، كانون الاول ، 1977 ، ص 134 ·

الــدين و اللغـــة و التــربيـــة
عنـد فيختـه (*)

ترجمة وتعليق من مولود قاسم نايت بلقاسم



يقول الفيلســوف الالمانى الكبير يوهــان غوتليب فيختــه ، فى كتابه الكبير : « نداء الى الامة الالمانية »، فيما يقول، عن العنــاصر المكونة للامــة ، ما يــاتى:(1) « ان وجود أمــة من الامم بوجود إنيتها " Ichheit " ، التى هى شخصيتها ، وان هذه الشخصية تتكون من عناصر ثلاثة : الدين ، واللغة ، وحب الوطن •

« ان تربية الشعب على التمسك بالدين والاخلاق هى اساس كل حكومة ، وعلى الحكومة ان تؤسس معهدا دائما لهذه التربية الدينية ، وهذا المعهد جزء لا يتجزأ من مؤسسات كل دولة حكيمة طيلة دوامها » •

(*) هذه الفقرات المقتبسة سبق أن نشرناها فيما مضى • ولكننا نعيدها هنا نظرا لما أثير حول موضوع اللغة فى السنوات الاخيرة من نقاش فى ألمانيا مثلا ، حيث كتبت الجريدة الالمانية الشهيرة « فرانكفورتر الغماينى تزأيتونغ « Frankfurter Allgemeine Zeitung » بتاريخ 12 أغسطس 1978 افتتاحية تحت عنوان « اللغة الالمانية هى المادة الرئيسيـــة « Superfach » أن اللغة الالمانية ينبغى أن تعود هى « مادة المواد » « Fach der Faecher » وكتبت لوموند الفرنسية بتاريخ 15 يوليو 1978 مقالا هاما فى الصفحة الاولى تحـت عنوان « اللغة هى الجنسية » « La langue, c'est la nationalité » ودار ما دار من أخذ ورد عندنا منذ أقل من عامين عن اللغة هل هى « شكل أم جوهر ؟ » •

نعيد اذن نشر هذه الفقرات من الفيلسوف الالمانى متمثلين بقول أبى الطيب :

وليـس يصـــح فى الاذهـــان شىء اذا احتـــاج النهـــار الى دليـــل !

(1) J. G. Fichte « Reden an die deutsche Nation »

« وان ظن الدولة (أى الالمانية) بأنها فى استطاعتها تسيير الشعب بدون هـذه التربية الدينية والاخلاقية ، وتهاونها فى هذه المسألة ، هما اللذان أديا بها الى الحالة التى تتخبط فيها اليوم ! » · (1)

« على ان هذه التربية الدينية والاخلاقية لا ينبغى أن يكون هدفها العالم السماوى غير الحسى فحسب ، اذ ان الحياة ارضية وسماوية ، والذى لا يؤمن بالحياة الارضيـة مصيره الى الزوال السريع » ·

« ان الفهم الحقيقى للاشياء هو ان الحياة الارضية حياة حقيقية جميلة ، علينا أن نحياها ونتمتع بها بحق شاكرين ، فى ظل احترام الدين والاخلاق ، وفى انتظار الحياة السماوية التى هى أعلى منها » ·

« على انه اذا كانت فى الدين تعزية للعبيد المضطهدين عن عبوديتهم ، فان الروح الدينية فى الواقع هى التى ينبغى أن تحث هؤلاء العبيد على رفض عبوديتهم تلك ، وعلى تحرير انفسهم · ويجب علينا ان نعمل كل ما نستطيع ضد استغلال الدين وامتهانه الى دركة (أى عكس درجة) جعله تعزية وسلوى للعبيد ! » ·

« ان الطغاة يميلون طبعا الى امتهان الدين واستعماله كمخدر لحرمان ضحاياهم من الحياة الارضية ، بدعوى ان حياة سماوية تنتظرهم · ولكن علينا ألا نقبل من الطغاة هذا الامتهان للدين ، كما ان علينا أن نمنعهم من تحويل الارض الى جهنم ، ليشوقونا أكثر الى الحياة السماوية » ·

2) ـ « ان اللغة هى رمز وجود الامة ، وبقدر أصالة اللغة والمحافظة على اللغة الاصلية (2) أو فقدانها تكون المجموعة البشرية أمة وشعبا أصيلا أو مجرد أشتات فحسب » ·

« واللغة أو المحافظة على الاصل تؤثر على التراب ، أى الوطن الجديد ، فالالمان الذين هاجروا الى امريكا وكونوا هناك جاليات ومدنا كاملة يتكلمون بلغتهم ، ويحيون حياتهم ، ويحافظون على تقاليدهم ، وبقوا ألمانا رغم تبدل التراب ، أى رغم حياتهم فى

(1) 1804-1814.

(2) Ursprache.

بلاد غير بلادهم الاصلية . أما الالمان الذين لو تغلب عليهم المحتل الاجنبى وانساهم لغتهم فهم لن يعودوا المانا رغم انهم بقوا فى ألمانيا » .

« ان اللغة هى التى تكون الانسان ، وليس العكس ، وهى التى تؤثر فيه ، وليس العكس . فهى صدى روح الامة ، وتؤثر فى التصورات ، وتصبغ عليها معانى والوانا، وتعكس عليها اشعة أو ظلالا خاصة بها هى التى تجعل الانسان من هو ، وليست مجرد أداة يعبر بها الانسان عن نفسه . بل هى ، اى اللغة ، الطبيعة الانسانية التى تبرز منه فى شكل أصوات خاصة معينة لا يمكن ان تكون غيرها ، اذ بهذه الاصوات الخاصة التى هى صدى الروح ، بما تحمله من شحنات عاطفية ، وتصورات ، ومفاهيم ، وذكريات مشتركة ، يتفاهم الانسان مع من يشاركونه نفس التصورات ، ونفس المفاهيم، والطبائع ، والتقاليد ، والعادات ، والذكريات ، أى مواطنيه ، ولو كانوا ولدوا فى قارات أخرى غير قارته ! » .

« فهى تلك الطبيعة الانسانية ، أى الطبيعة الوطنية المشتركة ، التى تبرز فى شكل اصوات ، هى الالفاظ ، هى اللغة . انها التى تكون الخلية ، وتطبع الانسان بطابعها ، وتشكله بشكلها ، وتؤثر فيه التأثير العميق الذى يجعل منه انسانا آخر ، بمميزاته الخاصة به ! » .

« انها تلك القوة الطبيعية العارمة Naturkraft التى تتدفق تلقائيا ، وتؤثر فى الانسان والحياة تأثيرا مباشرا فعالا ، بما تشحنه من طاقة كامنة ، وقوة ديناميكيـــة فياضة تدفع الى الامام ! » .

« انها ذلك السيل المتواصل stetiger Fluss ، لا بمعنى السيلان الدائم الديمقريطى (1)، أى التغير ، بل بمعنى الدوام ، والاستمرار ، والتواصل ! » .

« ان الذى يفقد لغته يمزق الخيط الذى يصله بالاجداد ، ويفقد معها حلقات ماضيه ، ويشعر بفجوة عميقة حقيقية فى تطوره ، ينقطع عن أصله ، كجلمود صخر انفصل عن

(1) ديمقريطى ، من ديمقريطوس ، الفيلسوف اليونانى الشهير صاحب نظريـــة السيلان الدائم ، أى التغير ، ونظرية الذرة .

الصخرة الأم ، وحطه السيل من عل ، فجرفه وقذف به بعيدا الى اعماق الذوبان ، والامحاء ، واللاوجود . لان اللغة الاصلية هى الحياة ، والتى تمد بالحياة ، ولان الامم المغلوبة التى تفقد لغتها تندمج وتذوب فى جنس اللغة الغالبة ! » .

« ان اللغة تؤثر فى الشعب المتكلم بها تأثيرا لا حد له ، يمتد الى تفكيره ، وارادته ، وعواطفه ، وتصوراته ، والى أعماق اعماقه ، وان جميع تصرفاته تصبح مشروطة بهذا التأثير، ومكتفية به » .

« بل وابعد من هذا : ان الشعب المتأثر بلغة أجنبية يبتلع بدون شعور حتى الشتائم الموجهة اليه ، ويتبناها ، ويوجهها الى نفسه ، رغم انها ضده ، وعندما يفيق من ذلك فكل ما يبقى له هو محاولة التجرد من نفسه ، وتقمص شخصية الامة الغالبة ماديا ، أو روحيا ، أو كليهما معا ، حتى يتم اندماجه فيها كلية ولا تنطبق عليه كلمات التحقير المخصصة لبنى قومه » .

« ولأن اليونان غرسوا فى الرومان مركب النقص وسموهم المتوحشين Barbaren ، حاول الرومان طاقة جهدهم تقليد اليونان فى كل شىء ، ليتخلصوا من جلبابهم ، ويصبحوا يونانا ، ولا تنطبق عليهم صفة المتوحشين » .

«وكذلك لان الرومان وصفوا الالمان بهذا النعت بذل هؤلاء الاخيرون كل ما استطاعوا من جهد لتقليد الرومان والاندماج فيهم ، وذهب بهم مركب النقص،والتأثر بالرومان ، والتعلق بهم ، والحرص على التشبه بهم ، الى حد الغاء جميع الكلمات التى يبدو عليها طابع الاصالة الجرمانية ، ليحلوا محلها كلمات لاتينية ، لان هذه الاخيرة فى نظرهم مثال النبل ، والاناقة ، ورمز الثقافة الرفيعة ! وحتى عندما بقيت هناك كلمات ألمانية بجانب كلمات لاتينية بنفس المعنى كان أجدادنا الجرمان اولئك يستعملون الكلمات اللاتينية طبعا ، ويفضلونها على الالمانية التى كانت فى نظرهم بحكم اندماجهم ومركب النقص لديهم رمز التأخر ، والبدائية ، والهمجية ! »

« مساكين أولئك المندمجون الهاربون من اصلهم ، اللاجئون الى اعدائهم ! وهذا مرض عميق فى نفوسنا ، نحن الالمان ، حتى جاء مارتين لوتر فأحيا الالمانية من جديد ، وبعث فيها النشاط والقوة ، وأرجع لها مكانتها وأصالتها ! » .

« ان لغة أمة من الامم هي قوتها الطبيعية ، كما ذكرنا ، وعليها ان تستنفد كل ما في هذه اللغة من امكانيات ، وملكات ، وقوة طبيعية للتعبير عن نفسها ، مع تنسيق الالفاظ ، واختيار المعاني ، بحيث تصبح كلا متناسقا ، منسجما انسجاما منطقيا ، ودالا دلالة واضحة تامة » .

« اما تلك الطبقة التي تتساهل في لغتها ، او تريد تبسيطها ، وتتوخى السهولة ، وتتحاشى الالفاظ الصعبة النطق ، فهي لا حق لها اطلاقا في المشاركة معنا في هذا الموضوع ، اذ ان هذه الطبقة نفسها هي التي تتباهى بكل ما هو أجنبي عنا من لغة ، وعادات ، ولباس ، وترى فيه النبل كل النبل ! » .

« وان هذا المرض ، مرض التهافت على كل ما هو من الخارج لدى طائفة من مواطنينا ، هو أصل جميع مصائبنا ، وسبب الهوة التي تزداد اتساعا بين هذه الطبقة المترطنة بلغة الاجانب ، والمتباهية بزيهم في الملبس ، والمقلدة لهم في الاخلاق ، وعامة الشعب المتمسك بأخلاق البلاد ، والمحافظ على لغته التي هي قوته الطبيعية ، والضامنة لأصالة شخصيته ، واستمرار وجوده ! » .

« والدولة التي تفرض على الشعب التجنيد الاجباري لرد الغزو المادي ، مع احترام حقوق الفرد وحريته في الظروف العادية ، لا يحق لها فقط ، بل يجب عليها ، ان تفرض عليه أيضا التربية الصحيحة لتحصينه من الغزو الروحي ، وتضمن له الاستمرار والخلود ، **وكل تربية صحيحة سليمة لا يمكن ان تقوم الا على أساس اللغة القومية الاصيلة التي هي القوة الطبيعية الاولى للامة ! »** .

« **ولان ضمان استمرار الامة متوقف كل التوقف على هذه التربية ، نرى ان حل مشكلة التربية شرط أساسي لحل جميع المشاكل الاخرى ، وان الامة التي تحقق التربية المثلى هي الوحيدة التي تستطيع أن تحقق الدولة المثلى ! »** .

« **وفي هذا السياق تتحتم علينا كتابة تاريخ أمتنا** ، تاريخ يلهب ويحمس ، ويدفع بنا الى الامام ، تاريخ يكون لدينا مثل الانجيل ، ويقرأ بنفس الحب ، والتقديس ، والاجلال ، تمجيدا للاجداد ، وحثا لأنفسنا على اقتفاء أثرهم ، لنكون جديرين بالانتساب اليهم ، ولنترك شيئا للاجيال المقبلة ، لاستمرار شخصيتنا ! » .

« ان هذا الفسخ والمسخ لروحنا ، وان هذا المحو لشخصيتنا وإنيتنا " Ichheit " **وان هذه التبعية العقلية والعاطفية للاجنبى ، وهذا الانسلاخ عن الشعب،كل هذا يؤدى الى حب التقليد للاجانب** ، وترك الشعب بعيدا ، **بل يؤدى حتى الى خيانته وغدره، وصراخ فى وجهه اذا ما نادى للرجوع الى اصله واحترام أصالته ! »** .

« **وهذه التبعية نجدها احيانا تختفى ، وتتستر ، وترتدى اردية مختلفة تتقنع بها . ولكنها تنكشف فى النهاية ، مهما كان مخبؤها عميقا ! »** .

3) وعن العنصر الثالث للشخصية وحياة الامة ، وهو حب الوطن ، يقول فيخته :

« فكما ان الدين هو العنصر الدائم لحياتنا الروحية العليا ، كحياة روحية بمعنى الكلمة ، فان حب الوطن هو العنصر الدائم والاساسى لحياتنا المدنية كمواطنين » .

« ان الوطنى هو الذى يعمل على تحقيق هدف الانسانية قبل **كل شيء فى امته التى هو عضو منها** . ان الوطن خالد ، هذا الوطن الارضى الحسى الذى نحن فيه ، وان الذى لا يحب وطنه ليس له وطن ، وانى لأرثى كل الرثاء لمن لا وطن له ! » .

« ان الذى يريد الخلود لنفسه لابد أن يريده لوطنه ، وان الوطن لخالد ، والحب لا يتعلق الا بالخالدات ، والذى يريد الخلود لوطنه ارادة حقة يدركه **لا محالة !** » .

« انظر فقط الى مثل الرومان وتمجيدهم لروما ، لانهم كانوا يرون فيها الخلود ، لها ، ولانفسهم من خلالها ، ولكل ما تمثل من قيم فى نظرهم ! وقد تحقق لهم ذلك ! فكل ما فى روما حقيقة خالد ، لانها ارادة شعب كامل اراد لها ذلك الخلود ! » .

« ونحن الالمان ، كيف كنا سنصبح تحت حكم الرومان الذين كانوا يزحفون لاحتلال أرضنا ، ومحو لغتنا ، والقضاء على ثقافتنا ، لولا حب الوطن هذا ، ولولا رغبة الخلود لدى اسلافنا ، ولولا كفاحهم الطويل المرير ؟ » .

« لقد حاول الرومان أن يغدقوا علينا نعمهم كلها ، التى كانت تتمثل فى الالقاب ، وفى ثقافتهم ، ولغتهم ، وعاداتهم،مع العبودية ، لتعويضنا بذلك كله عن حريتنا ، وثقافتنا ، ولغتنا ، وعاداتنا » .

« ولكن اسلافنا اعتبروا جميع تلك النعم نقما ، وقاوموا،وتشبثوا بلغتهم ، وثقافتهم ، وعاداتهم ، وحريتهم . وبفضل كفاحهم ورغبتهم فى الخلود بقينا من نحن ، أى الالمان الى الابد . ولاسلافنا أولئك تدين أيضا حتى تلك القبائل والشعوب الجرمانية الاخرى التى لم يمحها الرومان من الوجود ! » .

« وعلينا يقع اليوم عبء ومسؤولية العمل على ازالة شبح العبودية الجديدة فى شكل الرومان الجدد ، الذين يريدون أن يمحوا كياننا ! » . (1)

« علينا ان ندافع عن ثقافتنا ، وأصالتنا ، ولغتنا ، حتى نبقى دائما المانا ، ونضمن الخلود لانفسنا وابنائنا ، وأحفاد أحفادنا الى أبد الآبدين ، ولنبقى من نحن ، بجميع مقوماتنا وعناصر كياننا ، أى ان نبقى ألمانا ! » .

« وانا سنتغلب فى النهاية ، لان النصر ليس للقوة المادية ، ولا لكثرة الاسلحة وتنوعها ، بل للقوة الروحية ، للعزم وارادة الخلود ! » .

« **أرجو ــ وربما أخطأت فى هذا الرجاء، ولكن بما انى لا اريد ان ابقى حيا بعد اليوم الا من أجل هذا الرجاء ، لا اريد الا ان اتمسك به ، وهو ان اقنع بعض الالمان بان التربية وحدها هى التى ستخرجنا من هذا المازق ، وتنقذنا من جميع هذه المصائب التى بلينا بها** ، وليضحك كل من تساوره نفسه بالضحك من هذا الامل ، وليسخر بى من شاء » .

« ان الاشياء بأسبابها . ونحن نعرف الاسباب التى أدت بنا الى ما نحن عليه الآن ، وهو الاهمال والتهاون . ولكن هذا الاهمال كان فى الماضى ، ولنترك الماضى ماضيا لانه خارج طاقتنا » .

« ولئن كان الحاضر أيضا ليس فى وسعنا لانه نتيجة لذلك الماضى ، فان المستقبل بأيدينا ، وعلينا ابتداء من اليوم ان نعد أنفسنا لمستقبل جدير بنا وبأمتنا . **وكل من تتجاوز اهتماماته البحث عن الخبز فقط مطالب بان يساهم فى هذا التجنيد لاعداد المستقبل** . وليكن المسؤولون الاولون فى الدولة ، ومساعدوهم ، ومستشاروهم ، على

(1) حملة نابليون على المانيا والنمسا .

راس العاملين لهذا المستقبل ، حتى نرى فى حياتنا ذلك اليوم الذى يمحى فيه العار الذى ألحق بالاسم الالمانى وبالمانيا محوا نهائيا والى الابد ! » .

« **ان التربية فقط هى التى تستطيع أن تنقذنا من هذه الهمجية الانحلالية الزاحفة علينا** ، ولذا يتحتم على جميع الالمان **الذين يتمتعون بمعرفة الالمانية ، وليس فقط بالجنسية الالمانية** ، ان يعملوا من أجل هذا الهدف الوطنى المشترك بين جميع الدول والدويلات الالمانية اللغة ! » .

« **ان هذه التربية ينبغى طبعا أن تكون باللغة الالمانية ، والمعلمون ينبغى أن يعلموا بالالمانية ، والكتب الدراسية تكون بالالمانية ، وذلك انى لا أتصور كيف يكون الامر غير ذلك ! انى لا أتصور أن تكون هذه التربية بلغة أخرى غير الالمانية ، انى لا أتصور أن يعلم المعلمون وتؤلف الكتب الدراسية بلغة أخرى غير اللغة الالمانية ، أية كانت هذه اللغة !** » .

« **ان هذه التربية يجب أن تكون وطنية** بمعنى الكلمة ، **لا مواد أجنبية مترجمة** ، بل باللغة الالمانية ، تتدفق من ينابيعها ، وتستمد قوتها من حياة هذه اللغة ، **التى سميناها القوة الطبيعية للامة !** » .

« انى ادعو الدول الالمانية الى التسابق فى هذا المجال ، وان الفضل سيكون للتى ستأخذ المبادرة ، وستتلوها جميع الدويلات الالمانية الاخرى معترفة لها بالجميل ، والاحترام للجذع المشترك ، وشاكرة لها قصب السبق كاكبر محسن الى **الامة كلها !** » .

« ان الموقف خطير ، وانى لا أمزح ، ولست هنا لأحكى لكم آخر نكتة ، هذه العادة السيئة التى بدأت تتفشى لدينا ! وذلك ان الامة الالمانية أمة مهددة فى كيانها وانيتها المميزة لها عن الغير ! » .

« ان اللغة تسير جنبا الى جنب مع الاستقلال ، فالشعب الذى يفقد الاستقلال ، يفقد

لغته بصورة آلية • وحتى اذا لم يفقدها ، فلا يمكن ان يكون لها ادب ، وذلك انه اى أدب يمكن أن يكون لشعب فقد استقلاله السياسى ؟ » •

« كما ان الذى يفقد لغته ينتهى به الامر الى الذوبان ، كما ذكرناه آنفا ، وذلك ان اللغة هى القوة الطبيعية الاولى لأمة ما ، فهى صدى روحها وأصالتها ، (1) وهى لسان شخصيتها والحافظة لتراثها ، والضامنة لاستمرارها الروحى ، والرابطة بين أجيالها الى آخر الايام ! » •

« **ان العبد ياخذ لغة سيده** ، الا نرى الآن أدباء لنا وقد بدأوا يتسابقون الى الكتابة بلغة المحتل ، للمدح،والتملق ، والتقرب ؟ ماذا سيكون المصير بعد جيل ، أو جيلين ، أو ثلاثة ؟ » •

« ان التاريخ يعلمنا انه كلما وجدت أمة من الامم الا وكانت لها لغتها الخاصة ، وان فقدانها لهذه اللغة يؤدى بها لا محالة الى فقدان وعيها ، وانيتها ، وذاتيتها ، لان المحتل يحرص دائما على فصل ضحاياه عن ماضيهم بقطع وسيلة الاتصال التى هى صدى اسلافهم ، والقوة الطبيعية الحية لامتهم ، اذ ان اللغة المكتوبة هى الاسمنت الذى يضمن تماسك الوحدة الوطنية ، وهى العروة الوثقى التى تربط بين الاحياء ، وتصل بالاموات، ويكتب بها سجل الامم ! » •

« ان شخصية امة من الامم ليست شيئا اصطناعيا ثانويا ، بل هى شجرة تضرب بجذورها فى اعماق تلك الامة • وان عظمة أمة من الامم ليست فى المظاهر العابرة ، وعبقرية الرجال لا تقاس بالتماثيل التى تقام لهم ، ولا بالتصفيق والهتاف اللذين يقابلون بهما ، ولا هى فى الالقاب التى يسبغونها على أنفسهم ، وانما تقاس بالاعمال التى يقومون بها ، وتتمثل فى راحة ضميرهم ، وحكم الاجيال ، وسجل التاريخ ! » •

« ولذا لا أفهم هؤلاء الذين يتملقون هذا العبقرى العظيم (1) الذى يريدون أن

---

(1) يقصد نابليون الذى احتل المانيا ورحب به غوته Goethe مهللا ، وهمبولدت (Humboldt)، ومولّلر Mueller ، وهيغل Hegel ،وغيرهم ، بينما كان هو ، فيخته ، وبيتهوفن، وصديقهما الشاعر الثورى شيللر Schiller يرفضون كل اتصال به ويقاومونه ، كل فى ميدانه ، وينادون الشعب الالمانى الى المقاومة • وعندما كتبت زوجة فيخته الى زوجها تخبره باستقبال نابليون لهمبولدت أجابها فيخته ، وهو بعيد عن برلين ، « انى لن يحصل لى مثل هذا الشرف المخزى ! » «diese schmachvolle Ehre !» S. Rosenkranz : « Hegels Leben »

يسندوا اليه مهمة توجيه العالم وتسيير الشؤون الدولية ! » .

« **ان هؤلاء المساكين لا يعرفون معنى العظمة والعبقرية !** » .

ويمضى فيخته فيقول لهؤلاء المتملقين ـ كما يسميهم ـ : « لا ، أيها الالمان ، أيها المواطنون ، لا نسمح لكم بهذا الهراء ، **ولا نتركم تدنسون لغتنا الى هذا الحد بتملقكم هذا ، وهى التى خلقت للتعبير عن الحقيقة !** » .

« أيتها الامة ، أيها الالمان ، استمروا فى نومكم وتهاونكم ، حتى تفقدوا جنسيتكم ولغتكم . وان أبناءكم هم الذين سيدفعون ثمن تهاونكم هذا ! **افقدوا أعز ما يملكه الانسان ، الخلق ، وذوبوا فى غيركم !** » .

« لا أيها المواطنون ، بل قوموا ودافعوا عن بلادكم ، وشخصيتكم ، ولغتكم ، وثقوا أن اصوات الاجداد الذين طردوا الرومان من هذه الربوع ، وحرروا هذه الجبال ، والسهول ، والانهار ، تمتزج الآن ، فى هذه اللحظة ، بندائى هذا اليكم ، لتحثكم على انقاذ أصالتكم ولغتكم ، واسترجاع حريتكم ، ولا تلحقـوا بهم العار والشنـــار ! » .

« قوموا ، ان مصير الانسانية كلها مرتبط بكم ، ومتوقف على مصيركم ، واذا غرقتم فستغرقون الانسانية كلها ! » .

« هل تعرفون شيئا أدهى من الموت ؟ ان الموت ينتظرنا على كل حال ، قمنا أم لم نقم . وقد ضحت شعوب بحياتها لمسائل أقل أهمية بكثير من قضيتنا . وهل هناك قضية أهم من هذه ؟ » .

« هذا ما أردت أن قوله لكم ، وأؤكده ، وكان واجبا على أن أقوله وأؤكده ! » . (1)

يوهان غوتليب فيخته

---

(1) وبهذا ختم نداءه الى امته وذهب ليتطوع فى الجيش، وتبعه أغلب تلامذته من جامعة برلين ، كما تبعته زوجته ، ولكنه لم يقبل فى الجيش ، ورجع الى الجامعة يحاضر ، ويوجه نداءاته ، وينتقل من جامعة الى أخرى . ثم اعاد الكرة ورفض من جديد ، ولكن زوجته قبلت كممرضة فى احد مراكز الجرحى ومرضى الاعصاب من الجيش فى برلين . فأصيبت بعدوى ومرضت ، وعوض العناية بها ظل فيخته يحاضر ويوجه نداءاته فى جامعة برلين ،

« ليغطى بصوته طبول نابليون ومزاميره وهى تضج حول الجامعة » (2) · وفى احدى المرات قفل الى البيت مهرولا فوجد زوجته فى حالة سيئة وقد تفاقم مرضها ، فأخذته الشفقة عليها واقترب منها كثيرا يسألها عن حالها . فأصابته العدوى ومرض بدوره !

وعندما قدم له ابنه دواء قال لـه فيخته رافضا : « دع ، كفى ، (3) انى انتهيت ! » · ومات فى سبيل مبادئه ووطنه بعد أن تحررت بلاده بأيام قليلة ، وذلك فى 27 من يناير 1814 ، مرتاح الضمير ، هادئى البال ، راضيا عن نفسه ، ولا يزال يعتبر حتى اليـــوم كاكبر (4) أنصار الحرية من بين الفلاسفة الالمان ، الى جانب استاذه كنط ، وصديقه شيللر، وصديق الجميع : الموسيقى الثائر الخالد : لودفيغ فان بيتهوفن ، الذى ظل يزمجر بأقواله ، ويرعد بألحانه (5) ، ويحرك العزائم والهمم ، انتصارا لبلاده ، ولقضية الحرية ككل !

(1) Fichte : « Reden an die deutsche Nation ».
(2) Th. Vogt : « Fichtes Biographie ».
(3) W. O. Doering : «Fichte ».
(4) Th. Vogt : « Fichtes Biographie ».
(5) Pahlen : « Musikgeschichte der Welt ».

ملف عن الملتقى الثـــانى
لـلامام المـازرى

الحرية والحتمية فى الفلسفة الاسلاميـة

نظمت وزارة الشؤون الثقافية التونسية بمدينة المنستير أيام 20 ـ 21 ـ 22 أكتوبر 1978 الملتقى الثـانى للامام المازرى وخصص هذه المرة لمعالجة موضوع من أهم المواضيع الفلسفية لا فى تاريخ التفكير الفلسفى الاسلامى فحسب ، وانما فى تاريخ التفكير الفلسفى عموما • وهو موضوع : « الحرية والحتمية فى الفلسفة الاسلامية » •

وشاركت فى هذا الملتقى نخبة من رجال الفكر والثقافة فى تونس ، من الجامعة ، ومن قطاعات ثقافيـة أخرى ، بالاضافة الى اطارات ولاية المنستير ، وطلبة الثانويات بالجهة •

وبالنسبة للخارج ، فقد دعيت الجزائر ، ومثلها كاتب هذه الكلمات ، بالتعقيب والمناقشة • ومن المغرب الاستاذ الدكتور محمد عزيز الحبابى •

واشرف على جلسة الافتتاح الاستاذ محمد اليعلاوى ، وزير الشؤون الثقافية ، والعميد السابق لكليـة الآداب بالجامعة التونسية ، الذى ألقى كلمة رحب فيها بالوفد الجزائرى والمغربى • وعبر عن أمله فى استمرار هذا التعاون الثقافى على المستوى المغاربى (كما يحلو لصديقنا الحبابى أن يقول) ، خاصة ، وتنميته عـلى الدوام • ودعا الى تركيز الموضوعات مستقبلا ، على الاهتمامات المشتركـة للبلدان المغربيـة لوحدة تراثنـا الثقــافى •

ثم قدم توجيهات ، وملاحظات حول أسلم السبل لنشر الثقافة فى مختلف المناطـق التونسيـة ، وضرورة الانطلاق من مبدا العدالة فى توزيع النشاطات ، أو ما يسمى باللامركزية الثقافية والخ ، بصفة خاصة عـلى ضرورة مشاركة اطارات الجهة التى تعقد فيها هذه الملتقيات لان هذه فرصة لابراز المواهب ، والكفاءات المتوفرة خارج العاصمــة •

والملاحظ أن هذه الملتقيات تعقد دائما تحت شعار شخصية من الشخصيات الثقافية التونسية ، ويكـون موضوع الملتقى مستمدا من الاتجاه الثقافى الغالب على هذه الشخصية •

والملاحظ ان التجربة التونسية فى هذا الميدان تقوم على أساس تكوين لجان ثقافية فى كل ولاية ، تتوفر على تجهيزات مادية من شانها أن تلبى حاجيات السكان فى الاستمتاع بالثقافة بمختلف فنونها • وتتولى تنسيق نشاطات هذه اللجان ، لجنة تسمى « اللجنة الثقافية القومية » ، مركزها بالعاصمــة •

وكل المحاضرات التى تلقى تطبع فى كتب تعميما للفائدة ، العاجلة والآجلة •

ان هذه التجربة التى تتبعها تونس تستحق كل التنويه ، ونتمنى لها التطور المستمر ، والفعالية المتزايدة لما فيه خير الثقافة ، وخير المواطنين التونسيين •

ونامل ان تتضافر الجهود ، وتتكامل ، بين المسؤولين عن الثقافة فى البلدان المغربية خاصة ، لاشاعــة الثقافة على أوسع نطاق ممكن ، ومجاوزة حالة التخلف التى عرقلت ، وتعرقل ، كل طموحنا الى الحياة الانسانية الراقيــة •

وفى اطار المساهمة فى خلق هذا المناخ ••• مناخ التفاعل والتكامل تنشر الأصالـة فى هـذا العـدد بعض محاضرات هذا الملتقى الهام ، الملتقى الثانى للامام المازرى •

عثمـان شيـوب

حــول مشكلــة القضــاء والقدر
فى الفكــــر الاســـــلامى

د. الحبيب الفقي
أستاذ الفلسفة بالجامعة
التــونسية



ابعــاد المشكلة :

لقد أحس المفكرون المسلمــون بوضعية الانســـان الغامضة والمقلقة ، وبالظروف التى يعيش فيها وعلاقاته بنواميس الطبيعة وبالاله · وقد فهموا ان كـل دقيقـة تمر من عمر الانسان الا وتحمل فى طياتها سرا من أسرار القدر المجهـول · نعـم ان وضعية هذا الكائن وتصرفاته وعلاقاته بالآخرين وما تعرض له من أحداث لتبعث على القلق والحيرة وبالتالى على التامل والنظر · فمنــذ القرن الرابــع الهجرى وصف اخوان الصفــاء ملحمة البؤس والشقاء التى يتقلب فيها الانسان فقالوا : « ··· تعيش النفس محبوسة فى عالم الغربة وموضع المحنة والبلوى غريقة فى بحر الهيولى ، مبتلاة فى اسر الطبيعــة مشتعلة فيها نيران الهاويــة الموقــدة · المطلعة على الافئدة من حريق الشهوات ، فاصبح الناس فى الدنيا مغذبين فى صورة المنعمين ، مجبورين فى صــــورة المختارين ، مغرورين فى صورة المغبوطين ، أحــــرارا

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

ويطيعه ، ويتصرف بين يديه ويتمثل امره ونهيه ، ويضع ويبعد من خالفه ، ويعذب ويقتل من خانه أو غشه • فاذا خرجنا من مملكته ، وفررنا من سلطانه فلا عيش لنا فى الوجود فى هـذه الدنيا ، الا عيشا نكدا ، لاننا قد نحتاج فى لذة العيش وصلاح المعاش الى الجم الغفير من المتعاونين فى المدن والقرى ، فى اصلاح أمر المعاش ، ولابد لهم من سلطان يملكهم ويراسهم ويحكم بينهم فيما يختلفون فيه ويتنازعون ، ويمنع الظالم القوي من التعدى على الضعيف المظلوم ، ويامن لخوفه السبل ، وياخذ الناس بلزوم سنة الناموس ، وتادية موجبات فرائضه التى فى اقامتها وحفظها صلاح الجميع •

فلهذه العلة وبهذا السبب لا يمكننا الخروج من المملكة ، ولا الفرار من سلطانه،فان خدمناه وقمنا بواجب طاعته ، فما نقاسى من الجهد والبلوى أكثر من أن يحصى من تعب الابدان ، وهموم النفوس ، وعناء الارواح وتلف الاجساد ، واحتمال الذل وشماتة الحساد ، ومداراة الاخوان ، وعداوة الاقران ومشقة الاسفار ، ومخاوف الحروب ، وما يتكلف من التعب والعناء فى جمع الآلات والاثاث من السلاح والدواب وحوائجها ومرافقها مما لا يحصى عدها كثرة ، وليس لنا منها راحة الى الممات •

واما الخامس فهو شدة الحاجة الى المواد التى لا قوام لهذا الهيكل الا بها من المأكولات والمشروبات واللباس والمسكن والمركب والاثاث ، وما لا بد منه فى قوام الحياة الدنيا ، وما نقاسي من الجهد والبلوى فى طلبها ، ليلنا ونهارنا ، فى تعلم الصنائع والتجارات المتعبة ، والمكاسب المكدة من الحرث والزرع ، والبيع والشراء ، والمناقشة فى الحساب ، والحرص والشره ، وجمع الاموال وحفظها من حيل اللصوص ومكابرة القطاع ، وأخذ السلطان لها بالجور والظلم ، وحراستها من الآفات العارضة التى لا يحصى عددها • كل ذلك بالكد والعناء والهموم والغموم ، وتعب الابدان وعناء الارواح وشقاء النفوس التى لا راحة لنا منها الى الممات • فهذه حالنا يا أخي وحال أكثر أبناء جنسنا فى هذه الحياة الدنيا (1) •

ان هذا النص الذى يحدد ابعاد المشكلة ليصف الحيرة والقلق الناجمين لا عن قسر الطبيعة وحدها بل وعن الظروف السياسية والاجتماعية وعن ضعف الكائن البشري • وهذا ينطبق تماما مع ما جاء فى القرآن : « لقد خلقنا الانسان فى كبد » (90 : 4) •

---

1) رسائل اخوان الصفاء ج 3 ص 306 ـ 309 •

وفى هذا المعنى يقول ألفريد نورث وايتهد بعد عشرة قرون : « فان عادات الطبيعة المادية-عموما وقوانينها الصارمة هي التى تعد المشهد الصارخ لعذاب البشر ، ونجد ان المولد والموت والحر والبرد والجوع والفراق والمرض والطابع اللاعلمى العام الذى يطبع كل اهدافنا · هذه العوامل كلها هي التى تقيد النساء والرجال ، ولا تستطيع تجربتنا ان تلحق بآمالنا » (2) ·

الحرية والوضع الاسلامي :

لقد ظهرت مشكلة الحرية فى المجتمع الاسلامى فى ظروف الصراع المذهبى حين اتسعت الرقعة الاسلامية ، ودخل الى الاسلام شعوب متباينة لغة وحضارة ، ورامت ان تفهم الاسلام فاختلفت فى فهمها له ، وتحزب كل فريق الى آرائه ومبادئه ، ولعب رجال السياسية دورهم حسب ما تقتضيه مصالحهم · وادى الاحتكاك بين العناصر المختلفة فى الثقافة الى تلاشى مفهوم الحرية فى جو من الجدال لم تجن منه الاجيال غير الحلول المبهمة · · ومن الخطل أن ننظر الى هذه المسألة نظرة جدال ونزاع فكرى فحسب فقد لعبت دورا حاسما فى الميدان العلمى · وبنيت عليها مسائل كان لها أكبر المساس بالحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية،لكن هذه المسائل وما دار حولها من نقاش والف فيها من كتب كانت قد اهملت الانسان بما له من قدرات وطاقات خلاقة ، وسلبت منه الاطمئنان وارغمته على قبول ما تشيعه من آراء فى سبيل الحماس الديني الذى كانت بواعثه عداوة الفرق لبعضها ·

واستمرت هذه الآراء التى ظهرت فى القرون الاولى للاسلام والتى تمثل الاتجاهات الكلامية المختلفة ، خلال قرون عديدة ، بل الى اليوم ، وانطلقت اقلام كثير من المدافعين عنها على انها صرح حضارة الفكر الاسلامي ، بينما بقي الفرد المسلم فى حيرة ولم تسعفه تعدد التفسيرات الكلامية الغامضة ، كذلك ظهر فريق من المسلمين يرى فى النظام الجديد الذى فرضه الاسلام فى المجتمع الجديد تحديدا لحرية الفرد وكبتا لمشاعره وطفق يمزق الحواجز التى عندها تقف الحرية الانسانية ، وينادى بالفوضى متسترا بمبدا القدرة الالهية المطلقة (3) ·

---

2) مغامرات الافكار ، ص 106 ·

3) يروي انه اتي بسارق الى عمر ، فقال له الخليفة : لم سرقت ؟ فقال : قضى الله علي بذلك ، فامر به عمر فقطعت يده ، وضربه اسواطا ·

اثـر الالوهية والنبوة فى المفكرين واصحاب المذاهب :

غير ان هناك عاملين لعبا دورا حاسما فى معالجة المسائل الاسلامية وفى تحديد وجهة التفكير الاسلامي وهما الالوهية والنبوة ٠

ان مسالة الاله كان لها بعيد الاثر فى تحديد نشاط الانسان وبواعث اعماله ، وقد اهتم علمـــاء الاسلام بموضوع الاله وبالشريعة أكثر من اهتمامهم بالفرد الذى لاجلـه نزلت الشريعة ، فاضفوا على الاله صفة الكمال المطلق ، وكل صفة دلـت على معنى الاطلاق وحدوه بها ، وبالتالى اصبحت نظرتهم الى الانسان فاترة ، فحكموا عليه لا من حيث هو الفرد الحائز على التقويم والتكريم بل من حيث هو العبد المقهور المتلقي من الله أوامره والمنفذ لاحكامه دون ارادة منه ، فقضوا عليه بالتبعية ، وسلبوه كل استقلال لذاتيته واضحى دور الفرد مبهما ٠

ولاشك ان هذا الاتجاه ونقيضه قد ساهما فى وضـع مجموعة من الاحاديث التى اذا فحصناها فى ضوء الحقائق الدينية بدت متناقضة ، فكانت سببا فى خلق مشاكل عجزت عن حلها اسلم العقول فى الاسلام ٠ ولا ريب ان ما نقرأه من مقالات للطوائف المختلفة ليعرض النص القرآنى للمسخ ولسوء النية فى النبى المخبر ٠ فبينما يقول الله انه أوحى « قرآنا عربيا غير ذي عوج » ، نرى الفرق تبحث عن الاعوجاج فى القرآن فى كـــل صوره مستترة وراء متطلبـــات لغوية وعقائدية وعقلية ، فجوزت القول بوجود تناقض فى القرآن ورأت انها مطالبة بتسوية هذا الخلاف ٠

كـل هذا الاختلاف فى وجهات النظر يرجع مـــن بعض الجوانب الى ان الحركات الفكرية لم تستطع ان تهضم ما ابتلعته من المؤثرات الاجنبية ، فظهرت فى بعض الاحيان فى أشكال غـير متناسقـة ولا متناغمة فيما بينها ، وان كانت دوافعها موجودة ، فمن بـين الحركات ما كان يمثل الفكر الاســلامى ويتماشى مع الاصول العامة للعقيدة ، ومنها حركات متطرفة اتهمت بالزندقة ، بيد ان المعايير التى استخدمت لاخراج بعض الطوائف من الدائـــرة الاسلامية والحكم عليها بالالحاد والكفر لا تعكس فى حد ذاتها الا مواقف جد مشبوهة ٠ فالرمي بالكفر والالحاد والزندقة كان طوال قرون عديدة العملة النافقة للتخلص من الخصوم (4) ٠

---

4) انظر مواقف اصحاب كتب الفـــرق مثل البغدادي فى الفـــرق بين الفـــرق والاسفراييني فى التبصير فى الدين ، والغزالي فى فضائح الباطنية ، ازاء فرق الشيعة.

واما النبوة فقد كان لشخصية النبي الاثر العميق فى توجيه الفكر الاسلامي ، ولا غرو فهو النبي الموحى اليه ، والمعلم المعصوم ، وصاحب الشريعة التى نزلت لتنظيم حياة الانسان ، وهو العقل المسير للشؤون الدينية والدنيوية ، وهو الموجه لاعمال الفرد مهما كان نوعها ، لذلك كله عز على بعض الفرق الاسلامية أن يتوفى الرسول ولا وكيل على المؤمنين ، منه تصدر السياسة العامة واليه يرجمون فى أمورهم الشخصية · فقالوا بالامام ، وقمصوه شخصية الرسول ، واضفوا اليه كل الصفات التى كان يتحلى بها صاحب الوحي ، وبذلك قبلوا فكرة استمرار هذا العقل المسير فى شخص الامام ·

ولا غرو من ان نجد هذه الفكرة التى تبدو باهتة على المستوى الدينى قوية وذات اشراق مباشر على الفرد وسلوكه · فعند الصوفية يرمز الى هذا العقل بالشيخ الذى يطلع على أحوال جماعته العائلية منها والمادية · وعند اخوان الصفاء ومذاهب الشيعة عامة يحتل الداعي الذى هو صورة الامام اكبر مكانة عند أفراد دائرته ، وفى الفلسفة نجد الفارابي يتحدث عن المثال الرائع الذى يراس المدينة ، وعند ابن باجة يهتم المتوحد بازالة الشيلم ، ويبسط سياسة انسانية مثالية ، وهدف كل هذه الطوائف التعليمية هو فى تحديد السلوك وبيان حقول العمل لكل الافراد ·

لكن الرسول فى القرآن ليس أكثر من مبلغ عن ربه رسالته ، وقد جرده الدين الاسلامي من كل صفة تخرجه عن دائرة الانسان ، بل ان الله من أجل اثبات هذه الصفة عمد الى اظهار بعض الافعال التى صدرت منه ، فهو يلومه عليها ليحدد معالم شخصيته وليبين انها الرسم الحقيقى للانسان · غير ان أغلب المسلمين لم يتقبلوا الافعال التى تستحق التقويم والتى صدرت عن الرسول ، وجعلوها من بين الطرق التربوية التى اختارها الله لتعليم البشر خشية أن تذهب بمبدا العصمة ، مع ان هذه الافعال التى صدرت عنه لا تمس عصمته ، لان العصمة من شأنها ان تحفظ علاقة الرسول بربه ، فلا يزيد شيئا ولا ينقص اذا ما بلغ عن ربه ، ولا يرتاب فى شيء وصل اليه من العالم العلوى · أما علاقته بأفراد المجتمع فلا تخرج عن دائرة الانسان وملابساته ، فقد يخطىء وقد يصيب غير انه ربي على ان يعامل أفراد المجتمع بنفس السلوك الذى يعامل به ربه · لكن فريقا من الناس هالهم ان يتحملوا مسؤولية كان الرسول قد تحملها عنهم ، اذ كان يرشدهم الى العمل الصالح ويستغفر الله لهم عند المعصية · فكان من بعض الطوائف كما ذكرنا سابقا ان ناصر مبدا الامامة بل ان البعض الآخر بالغ فى ذلك الى درجة ان

أصبح هذا الامام الذى هو صورة الرسول أعلى رتبة منه (5) ، وهذه صورة تعبر عن أهم مسالة خاض فيها مفكرو الاسلام وهي القضاء والقدر ، اذ ان هؤلاء نظروا الى أنفسهم نظرة كلها عبودية وتبعية سخيفة ، وتبرأوا من عقولها المميزة لافعالهم ، لذلك احتاجوا الى من ينظم أعمالهم ، ويرفع عنهم المسؤولية بالاستغفار ، فاذا كانت هذه عقيدة هؤلاء فى الامـــام ، فـلا غرابة ان تكون مسألة الامامة قد لعبت دورا أساسيا ودينيا من أخطر الادوار · وفى هذا القول لاحد الخوارج : « وقد قلدوا أهل بيت من العرب دينهم ، وزعموا ان موالاتهم لهم تغنيهم عن الاعمال الصالحة وتنجيهم من عقاب الاعمال السيئة » (6) ما يكفى لبيان مدى تحمل الامام مسؤولية شيعته.ومهما احتوى هذا النص من اسراف فى المبالغـــة فانه قد يقرر عقيدة من يرمون الانسان بالعجز التام وتلاشيه أمام مسؤولياته عند فقدان الامام ·

الحـرية ومشكلة القضـاء والقـدر :

وإذا تتبعنا كتب التاريخ والسير ، فاننا نجد ان مسالة القضاء والقدر قد طرحت على عهـــد الرسول ، ودار حولها نقاش دل على اهتمام المسلمين بها ، ولكن لم يمـــر دون ان يغضب الرسول · وقد أشار القرآن كذلك الى اثارة هذه المشكلة « سيقول الذين اشركوا لو شاء الله ما اشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء ، كذلك كذب الذين مـــن قبلهم حتى ذاقوا باسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، ان تتبعون الا الظـــن وان انتم الا تخرصون » (6 ـ الانعام ، 148) وورد فى حديث ان القدر خيره وشره من المسائل التى لا يكمل الايمان الا به · وكان الصحابة الذين عاشوا تجربة دينية الـــى جانب الرسول على وعي تام بهذه المسالة ، ولـــم يشك واحد منهـــم فى كونه المصدر الحقيقي لما يقدمه من أعمال ، فكان عمر لا يرحم الذين يتسترون وراء القدر من أجـــل افعالهم الشريرة · فقد أتى بسارق فساله الخليفة عمر : لم سرقت ؟ فقال : قضى الله علي بذلك ، فأمر به فقطعت يده وضربه اسواطا ، فقيل له فى ذلك فقال : القطع للسرقة والجلد لما كذب على الله ـ تعالى..

---

5) أنظر فى الولاية عند الشيعة الغالية وبعض الصوفية ، الصلة بـــين التصوف والتشيع لكامل مصطفى الشيبى القاهرة 1969 ·

6) جولد زيهر ، العقيدة والشريعة فى الاسلام ص 203 ·

ولعلي محادثات طويلة مع القدريين وردود على دعواهم نجد ذلك مبثوثا فى كتاب نهج البلاغة • ومن بين هذه المحادثات ما كان من السؤال الذى وجهه شيخ الى علي فى خصوص مسير علي واصحابه الى الشام لمحاربة معاوية : أكان ذلك بقضاء الله وقدره ؟ فقال علي : والذى فلق الحب وبرا النسمة ما وطئنا موطئا ولا هبطنا واديا الا بقضاء الله وقدره – فقال الشيخ – وكان من شيعته – : فعند الله أحتسب عنائ ما أرى لى من أجر شيئا – فقال الامام : أيها الشيخ ، لقد عظم الله أجركم فى مسيركم وانتم سائرون ، وفى منصرفكم وانتم منصرفون ، ولم تكونوا فى شيء من حالكم مكرهين ولا مضطرين – فقال الشيخ : كيف والقضاء والقدر ساقنا – فقال الامام : ويحك لعلك ظننت قضاء لازما وقدرا حتما ، لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب والوعد الوعيد والامر والنهى ، ولم تأت لائمة من الله لمذنب ولا محمدة لمحسن ، ولم يكن المحسن أولى بالمدح من المسيء ولا المسيء أولى بالذم من المحسن ، تلك مقالة عبدة الاوثان وجنود الشيطان وشهود الزور أهل العمى عن الصواب ، وهم قدرية هذه الامة ومجوسها ، ان الله أمر تخييرا ونهى تحذيرا وكلف تيسيرا ولم يعص مغلوبا ولم يطع كارها ولم يرسل الرسل الى خلقه عبثا ••• (7) واجاب على الشيخ عن سؤاله : ما القضاء والقدر ، فقال : هو الامر من الله والحكم ، وتلا قوله – تعالى – : « **وقضى ربك أن لا تعبدوا الا اياه** » • فاذا اسقطنا علاقة النص بالظروف السياسية نستطيع أن نقول بانه يؤكد وعي الصحابة لمشاكل الانسان •

لكن الغموض الذى عم هذه وغيرها من المسائل جعل تفكير الناس ينقصه الوضوح والدقة بشكل واضح ، فنشات خلال القرون الاربعة الاولى فئات واتجاهات كبيرة فى الحياة الدينية ويمكن لنا ان نرى دوافع الخلاف الاولى تتسع حتى تصبح محاولات فكرية ولكن بعضها يطمح لايجاد تفسير عقلي للفوضى وهذا ما نراه عند الجبرية الذين مروا بظروف سياسية غامضة وربما كانوا من مساعدي خلفاء بني أمية على التمسك بالحكم بدعوى انهم خلفاء الله ولا يصدرون أحكامهم الا بقضائه وقدره • واستطاع الامويون استغلال هذا الراي ليثبتوا أمرهم ويلجموا السنة المعارضين.وليس اصدق فى التعبير عن أهداف هذه الحركة من قول قدري : « ان الملوك يسفكون دماء المسلمين وياخذون الاموال ويفعلون ويقولون : انما تجرى أعمالنا على قدر الله (8) وهذا عبد

---

7) عن محمد أبو زهرة : الامام الصادق ، ص 141 – 142 وانظر عيون المناظرات للسكوني تحقيق سعد الغراب ، الجامعة التونسية 1975 ، ص 177 •

8) جولد زيهر ، العقيدة ص 98 •

الملك بن مروان ، الخليفة الداهية ، احضر الى قصره احد نظرائه وخصومه فذبحه باستحسان صاحب مشورته وأمر برمي رأسه الى جمهور المخلصين له الذين كانوا ينتظرون امام القصر عودته كما أمر باعلامهم ان أمير المؤمنين قد قتل صاحبكم بما كان من القضاء السابق والامر النافذ (9) ·

تستر هذا الفريق وراء فكرة القدر مستندا فى ذلك الى الآيات القرآنية التى ظاهرها يصرّح بالجبر وهو من وراء ذلك يعلن الثورة ضد القوانين الاخلاقية · بل ان التمسك بالقدر يعتبر بحق تحديا لكل النواميس مهما كان مصدرها ، لان الاعمال لابد ان تصدر دون سابق علم الانسان بها · وهنا نسجل المفارقة التالية · ففى الوقت الذى يفيد القدر معنى الجبر والتقييد ، يفيد أيضا معنى الحرية المطلقة التى تعادل الفوضى ، اذ ان الانسان المجبر لا يختلف عن المجنون الذى لا يقيد عمله شىء ، فهو كالريشة فى مهب الريح تتجه بطريقة فوضوية حيثما يسوقها الريح · لكن هذا الموقف يختلف نوعا ما عنَ موقف الخوارج الذين عبروا عن رأيهم بقولهم : لا حكم الا لله ، ظاهرة هذه القولة الشهيرة التى وجهت الى علي وهو يخطب من على المنبر ، تحطيم اية سيادة انسان على انسان آخر ، وبالتالى سيادة الرئيس على المرءوسين ، فهذا الشعار وان دل على الفوضوية فانه يجب ان نوجهه وجهة سياسية واجتماعية لا وجهة عقائدية لان التاريخ سجلها من أجل ظروف سياسية واضحة ·

فهذه الحركة وإن كانت بدائية فوضوية الا انها حفزت الهمم ودفعت عقول المسلمين الى النضج والحركة ، وفعلا لعبت الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية دورا فى ايجاد حركة مقابلة للحركة الجبرية ، ولعل شعور هذه الفرقة بالواقع السياسي والاجتماعى قد ساهم فى بحث مثل هذه القضايا وان كانت النظرات الكلامية والفلسفية فى ذلك العصر باستثناء مسألة الامامة لم تكن علي وجه العموم ذات صلة مباشرة بالمشاكل السياسية والاجتماعية المعقدة ، فرأت هذه الفرقة انه من الواجب رعاية الافكار وعزلها عما قد يركبها وتعميمها تعميما واسعا وتنسيقها مع الاساس الدينى ، فدعت الى اقناع العامة من الناس بالاستناد الى ما هو محل ثقة الجميع واليه يتحاكمون وهو القرآن · اعتمد هذا المذهب الجديد الذى عرف باسم المعتزلة مبدا وجود قوة عاقلة فى الانسان ، بها وحدها يقرر افعاله ويتمها · ولقد نجح هذا المذهب فى التعبير عن

---

9) المصدر السابق ·

القوى الواعية فى الانسان ولاحظت ان الانسان يمثل الطرف المقابل لله فى القرآن ، وقد خصه الله بالخطاب وحمله امانته • ومذهب كهذا من شانه ان يحدث ثورة داخل المحيط الاسلامي ، وان تفهم هذه الثورة فى بداية الامر وعند المحافظين على انها تحد للقوانين الالهية وترك الاخذ بالنصـــوص الدينية ، ولا حاجة لنا الى ذكر المبادىء التى تحدد معالم هذا المذهب ، ويكفى ان نشير الى انه كان يرمي الى نشوء أسلوب جديد فى المعتقد الاسلامي ، ووضع قواعد تحضى بثقة العقل لها القدرة على توفير حياة دينية قوية ، وهو فى ذلك يسعى كما ذكرنا الى تقرير وتأكيد ان الدين نظام خص به الانسان • لذلك علينا ان نراجع مبادىء العقيدة فى ضوء مقاييس العقل ، ونزن به ما اشتبه من القضايا • وأهم هذه المبادىء هي فكرة الاله التى هي فى صراع دائـم مع الانسان • فنصوص الوحي وكذلك أحكام العقل تقرر ان موقف الانسان من الاله لا يختلف عـــن موقف الاله من الانســـان ، كل ملتزم نحو الآخر بقوانين عليه أن يرعاها • أحس هؤلاء العقليون ان فكرة الالوهية غير واضحة فى عقول المسلمين ، فنشأ عنها لبس واظـلام وتشويه لفكرة التوحيد ، ورأوا تنقية هذه الفكرة مما علقها من أوهام ، كذلك يجب ان نبعد عنه كل التصورات التى تنافي الاعتقاد بعد له ، ولهذه الفكرة نتائج تتعلق بالانسان اذ مفهوم الانسان لا يتحدد الا من خلال الصورة التى تعكسها فكرة الله • وهم فى ذلك يعبرون عن ايمان أكثر جدية وعن حرية لا تقف دونها النصوص التى لم يكن لها معنى عند جميع الفئات الا عن طريق التاويل • ففكرة الله كما وردت فى القرآن لا يمكن ان تقوم الا على أساس مبدأ حرية الانسان وتحمله لمسؤولياته ، لذلك رفضوا كل التهافت الذي احدثه القائلون بمبدا الجبر ، وأوضحوا ان العدالة الالهية تقتضي فرض حـرية كاملة حتى يكون للثواب والعقاب وجه مقبول ، وقد أوجب اللهُ على نفسه ان من عمل صالحا فلنفسه ومن اساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد ، لكن هذا الالتزام لا يعـني بحال تقلص النفوذ الالهي ، وان نقصا قد طرأ على استقلاله فى ذاته وافعاله •

بيد ان هذا الرأي ـ الذى استطاع ان يداعب عقول ثلة من المفكرين ، فاعتبر شيئا طريفا فى المنهـــج والبحث ـ لم يكن له وقع حسن عند المحافظين أو أصحاب الحديث ، أو بالاحرى لم يتقبـــل هؤلاء هذه الفلسفة الجـديدة التى تعطى السيادة والقول الفصل للعقل فظهرت طائفة تميل الى التحديد من سلطان العقل وتنادى بالمحافظة على جوهر الاسلام فى صيغته التقليدية مع شيء من التوفيق بين مذاهب مختلفة • هذه الطائفـة يتزعمها أبو الحسن الإشعـــرى الذى كان قبل ارتداده عن المذهـــب العقلى من أكبـــر

مناصريه · كل ما جاء عنه فى خصوص فعل العبد لم يجد قبولا الا عند عامة الناس ومن اشكلت عليهم نصوص الوحي ، فارتاحوا لحله المبهم لانه رفع سيادة النص على العقل · وانكر ان يكون فى الكون قوانين تحمله على الحركة والفعالية وقرر ان الله هو الفاعل ولا فاعل سواه ، وحتى يفر من فوضوية الجبرية جاء بفكرة مبهمة عبر عنها بالكسب الذى به يثاب الانسان او يعاقب · ورغم ان آيات عديدة تذكر صراحة كلمة الكسب الا ان الاشعري جرده من كل فعالية حقيقية وعبر عن ارادة وقدرة انسانيتين جد محدودتين تشملهما قدرة الله وارادته ويبقى مفهوم الكسب عند التحقيق لا يختلف عن مفهوم الجبر ·

ولعل ابن رشد الفيلسوف الذى يؤمن بانسانية الدين قد أحس بالمغالطات فى التعبير على الحقيقة الدينية فشوهتها ، اهتم فيلسوف قرطبة بنقد المفاهيم الكلامية لاخطر مشكلة فى تاريخ العقيدة الاسلامية · فابان عوار تفكير أصحاب الكلام فى الاستفادة من النصوص الدينية دون تفكير وتدبر وروية فوقع كل فريق ممن ذكرنا فى مزالق لم يهتد الى الخروج منها ، فلا احد أصحاب الحقيقة : لا الجبرية التى تجعل الانسان مجرد آلة بيد الصانع فجردته من أعظم صفة الابداع الالهي وهو العقل ولا المعتزلة التى تطرفت فى استعمال العقل فجعلت كل فعل صادرا عن الانسان بدافع من ذاته دون مراعاة للعوامل الخارجية التى تشارك فى تحقيق الفعل · فابن رشد لم يعب على المعتزلة الا تطرفهم فى استعماله لانه يرى ان الافعال التى يريد العقل تحقيقها معرضة فى نفس الوقت لقسر الطبيعة التى يرى فيها مطلق قضاء الله وقدره · فلا تكفى ارادة العقل حتى يتم المراد ولابد من موافقة الاسباب الخارجية ، وهذا يؤدي بنا حتما الى مسالة السببيّة التى كانت موضع نقاش طويل ، وهي أيضا من المواضيع التى يصطدم فيها العقل بالدين عند الحرفيين · فالمعتزلة لا ينكرون مسالة السببية ولكنهم لم يعالجوا مسألة الحرية الانسانية على ضوئها · والسببية فى مفهومها العام تعنى مجموع القوانين التى أودعها الله فى الكون · وهذه الاسباب ـ كما ذكرنا ـ قد تساعدنا على اتمام أعمالنا وقد تقف دون ذلك ، بل تجبرنا فى بعض الاحيان على أفعال معينة نعجز عن القيام باضدادها وهي تلك الافعال الاضطرارية مثل السعال والتثاؤب والهرب أمام الخطر الخ · والافعال الاختيارية التى يتردد المرء فيها بين شيئين تتوقف كذلك على الاسباب الخارجية · واذا اخترنا فعلا محددا كانت حريتنا كاملة · وعلى هذا فهناك أساس معقول ومنطقى للتكليف والعقاب أو الثواب · وهكذا ينتهى ابن رشد الى ان

الجبر لا يمكن ان يكون محضا ، وان الاختيار لا يمكن ان يكون مطلقا ، بل الحق فى التوسط بين هذين الرايين ، فافعال الناس ليست اختيارية تماما ولا اضطرارية تماما ، وانما تتوقف على عاملين : ارادة حرة ترتبط فى الوقت نفسه باسباب خارجية تجـري دائما على نمط واحد (10) ·

وننتقل الآن الى ذكر موقف بعض الحركات الفكرية التى اتهمت بالزندقة والالحاد والتى سجلت فى نفس الوقت أروع صفحات فى تاريخ الفكر الانساني ، فكانت هـذه حـركة اخوان الصفاء ·

ذكرنا فى بداية هذا البحث نصا من رسائلهم يعبر عن حيرة الكائن البشري والواقع المرَ الذي فرض عليه ان يتجرعه ، وعن مجموعة الظروف التى احدقت به من كـل جانب فتـلاشى فيها ، ومهما كان هذا النص صادقا فى التعبير عن قيمة الفرد فى القرن الرابع ، فاخوان الصفاء لا يقفون هذا الموقف السلبي ، ويرون ان الانسان لا يمكن له ان يضع حدا لهذا القهر ويعطي لذاته استقلالها الا اذا حدد علاقاته من كل الظواهر التى شعر أمامهـا بالعجز ، لذلك لم يرضوا أن يكون الانسان عبدا لقوى تسيطر عليه ، فقالوا بحرية الانسان ، وحملوه مسؤولية أعماله ، وما نسبة الاعمال التى تجرى فى هـذا العالم الى الله الا كنسبة افعال الملوك التى تتم على أيدي عمالهم ورجال الصنائع وفى هذا يقولون : « واعلم ان هذه الصنائـع والافعال التى تجرى على أيدى عباده ، اذا نسبت الى الباري ، فان نسبتها على مثل نسبة أفعال الملوك ، اذا قيل : بني فلان الملك مدينة كذا ، وحفر نهر كذا ، وعمر بلد كذا كما يقال بنى الاسكندر الرومى سد يا جوج وما جوج وبني سليمان بن داود ، عليه السلم مسجد ايليا وبنى ابراهيم الخليل ، عليه السلام ، البيت الحرام ، وبنى المنصور مدينة السلام ، اذ كان ذلك بامرهم وارادتهم ومشيئتهم ، لا انهم تاولوا الافعال بانفسهم أو باشروا الاعمال باجسامهم ، وكذلك حكـم اضافة أعمال ملائكـة الله وانبيائـه وعباده ، طبيعية كانت أو اختيارية ، فنسبها اللـه ــ تعالى ــ لنبيه ، عليه السلام ، وما رميت اذ رميت ولكن اللـه رمى » (8 ، الانفال ، 17) وقوله : « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم » (8 ، الانفال ، 17) وقوله ــ تعالى ــ : « افرايتم ما تمنون أنتم تخلقونـه أم نحن الخالقـون ؟ » (56 ، الواقعة 58) وما شاكل هـذه الاضافات من الافعال والاعمال والصنائع والتاليف والتركيب والجمع والتفريق والكون

---

(10) ابن رشد ، مناهج الادلة ، ص 119 ·

والفساد والنشوء والبلاء ، اذا نسب الى الله ـ تعالى ـ فعلى هذا السبيل تكون تلك النسبة ، لان الله ـ تعالى ـ خلق الفاعلين والصنائع والعمال ، وافعال البشر كانت ، أو الجن والشياطين والملائكة ، أو الطبيعة فحكمها كلها بالاضافة الى الله حكم واحد ، لانهم جميعا عبيده وجنوده وخدمه خلقهم ورباهم وانشاهم وقواهم وعلمهم وهداهم وأمرهم ونهاهم ... » (11) ·

ويعرف الاخوان هذه المسالة من خلال الازمة الروحية التى تعكسها الفلسفة اليونانية وغيرها من التيارات الفكرية فيقولون : فان قال قائل من الاطباء والطبيعيين ان هذه كلها أفعال الطبيعة فليعلم ان القدماء قد قالت : ان الطبيعة فعل النفس ، وان قال قائل من الشرعيين ان هذه كلها للخالق البارىء يفعل ما يشاء ويصور كما يريد ، فليعلم أيضا ان النفس من فعل البارىء ـ تعالى ـ لا يباشر الافعال بذاته ، بل يصدر منه على سبيل الامر (12) فاعمال الانسان من خير وشر ترجع الى جزئيه النير والمظلم، النفس واخلاط الجسد ، فهو بمجموعهما يتحمل نتائج أعماله ، وبحسب ذلك يكون جزاؤه ، « وان ليس للانسان الا ما سعى وان سعيه سوف يرى » (53 ، النجم ، 40) وكما جاء عن صاحب الرسالة : « انما هي أعمالكم ترد اليكم » (13) ·

راي المحدثين فى علاقة الانسان بالاله والمجتمع وموقفهم من نصوص القرآن :

وفى القرنين التاسع عشر والعشرين ، ظهرت فى العالم الاسلامي عقلية جديدة ساعد على ظهورها جملة عوامل داخلية وخارجية ، فمن جهة توجهت هذه العقلية الى اعادة النظر فى القيم الاسلامية ، دعت الى ذلك الاوضاع المتردية فى النظم الاجتماعية والمفاهيم الخاطئة للمعتقدات الاسلامية ، ومن جهة أخرى تكون نوع من الشعور المعاكس جراء هجمات اعداء الاسلام ·

فمن بين مفكري هذا العصر نذكر محمد عبده الذى لاحظ ان الاسلام المعمول به انما هو مقام على التقليد الاعمى وانه يحرم اعتباره مادة خالصة للاسلام · كذلك ذم القيام الآلى بالواجبات الدينية · والاسلام ينبع من العقل ويقع كله تحت الادراك ، وهو فى ثورته هذه لم يتقبل ان ينفذ كلام الجهال الى قلوب الجماهير · فالانسان عنده

11) رسائل ج 2 ص 128 ، 153 ·
12) رسائل ج 2 ص 394 ·
13) أنظر رسائل ج 1 ص 259 ، ج 2 ص 130 ـ 131 ·

لم يخلق ليكون مقودا باللجام ، بل كان مطبوعا على انصياعه للعلم والمعرفة ، والاسلام ينهانا عن التسك بما جـــاء به آباؤنا ويعلمنا التفكير والاعتماد على أنفسنا بعـــد الاستفادة من سير الماضي والاتعاظ بالاحداث التي طوتها اسداف التاريخ ٠ وهـــو أيضا يطلق العقل من سلاسل قيوده ويحرره من المحاكاة العمياء التي كبتت نشـاطه وحدت من حيويتـــه ، ثم يقيمه حكما يقضي بالقسطاس المستقيم ٠٠٠ فليس له أن يقف خاضعا الا أمام الله وحده والا أمام أصول الدين التي نزل بها القرآن ٠٠٠ أما فيما عدا ذلك من حدود وقيود فما من حاجز يحول دون نشاطه ، وما من قوة تمنعه مـــن التامل فيما يعيش في ظله (14) ٠

عالج محمد عبده وغيره من المصلحين مسالة الحرية الانسانية ضمن المسائـل العامة التي اثيرت لبعث اليقظة الاسلامية ، وكما قلت سابقا ان موقف المصلح المصري اتجه الى ايضاح المعطيات الازلية ودفع الشبهات عنها ٠ ولقد شعر ان العقلية الجديدة اصبحت ترفض بالفعل كل مخلفات الماضي ، ولا تقبـــل القوانين الازلية في صورها التقليدية . لذلك مالت هذه العقلية الى الفكرة التي تحمل ضمير الانسان نفســـه مسؤولية اعماله بعد ان اصطبغ تفكير العامة مدة قرون بالقدرية الماخوذة من الجبر ، وكانت سببا في ايجاد مناخ ملائم لانتصار الفكرة التي تنفي الارادة الحرة ، وبحسبها ردت الفضائل والرذائل وكل نوع من الافعال الى ارادة الله وحدها بعد ان اسقطت ارادة الانسان من الحساب ٠ لذلك يقر محمد عبده في رسالة التوحيد ان الانسان يـــدرك اعماله الاختيارية ويزن نتائجها بعقله ويقدرها بارادته ثم يصدرها بقدرة ما فيه ويعد انكار شيء من ذلك مساويا لانكار وجوده في مجافاته لبداهة العقل (15) ٠

في القرآن آيات تتضمن المسؤولية ومن ثم الحرية اللازمة ، وكل فرد له من القدرة ما يجعله حرا في ان يطيع الله أو يعصيه ، وفي كل ظرف من ظروف حياته فرصة له لكـي يبدي ما لـــه من أهلية أو عدمها ٠ ومهما ارتبط الانسان بالقوانين الالهية أو القوانين الدنيوية ، فهو حر حين يعمل بها أو يخرج عليها ، وهو في كلتا الحالتين اذا خرق القانون تعرض لقضاء السلطة الاخلاقية وعقابها ٠

لكن رأي هذا الشيخ الذي عرضناه وان كان يعبر عـن عامل التغيير في المجتمع الاسلامي الا انه في عرضه هذه المسالة من خلال القرآن لا يزيد على ان يذكرنا بمنهج

14) أنظر جيب ، الاتجاهات الحديثة في الاسلام ص 71 ٠
15) محمد عبده ، رسالة التوحيد ص 69 ٠

القدماء ولا يقدم حلا للمعضلة التى كانت من أهم أسباب اختلاف الامة الاسلامية وهو ما عبر عنه بالتناقض فى عرض القرآن لهذه المسألة ·

وقد حاول بعض الباحثين المحدثين النظر الى القرآن على انه وحدة متكاملة كالمحاولة التى ذكرها هارولد سمت فى مسالة الحرية الانسانية ازاء القانون الالهي أو القضاء والقدر · فهذا الكاتب يرى ان فى القرآن آيات صريحة تؤيد مبدأ الجبر وأخرى تؤيد مبدأ الحرية · فحتى يستقيم الجمع بينهما لابد من الملاحظة التالية وهي انه حيث ما يكون الاهتمام موجها الى الله فان سلطانه المطلق الكامل يكون موضع تأكيد · وفى هذا السياق تعتبر أعمال البشر ، خيرها وشرها على السواء مسببة عن الارادة الالهية مباشرة ، اذ انه لا يحدث شيء ما لم يرده الله أو ياذن به ، وان مشيئة اللـه الازلية الابدية لتنفذ حتى فى مسائل الاعتقاد وعدمه ، فيهدى قوم الى الايمان ويوجه آخرون الى الضلال ··· هذا حين يكون الاهتمام موجها الى الله ، فاما حين يحول الاهتمام الى الانسان فان التأكيد ينصب على ان الانسان قد وهب له اللـه الحرية والمسؤولية الاخلاقية فكل انسان ذات اخلاقية حرة ، وهو مسؤول أمام الله عن أفكاره وأحكامه وأعماله · وهذا الذى يجعله فردا ذا مشابه من الله الذى هو الموجود الاسمى والله يرشد الانسان عن طريق الوحي الى مبادىء اخلاقية عامة منبعثة عن ارادتـه الابدية المقدسة · الا ان فى الانسان قوة كامنة ، اذ أن فى استطاعته ان يتقبل هـدى اللـه أو يتحمل عنـه (16) ·

اما محاولات اقبال التى ضمنها كتابه « تجديد التفكير الديني فى الاسلام » (17) فهي وان قدمت فى أسلوب فلسفي رائع الا انه سرعان ما نشعر عند قراءتنا لبحثـه باننا نغادر عالم اللاهوت الى عالم الفكر حيث نقف على مزيج من أفكار ترجع الى اشهر فلاسفة عصره تطغى عند التحليل على نصوص الوحي · يثبت اقبال خصوصية الذات الفردية وسلطتها ويقـرر ان القرآن يـؤكد للنفس الانسانية باسلوبه البسيط حـريتها وخلودها المفعم بالقوة ، ويقول اقبال : لي فى نظري رأي معين محدد فى مصير الانسان بوصفه وحدة مـن وحدات الوجود وهذا الـرأي فى شخصية الانسان وفرديته رأي

16) الثقافة الاسلايمة والحياة المعاصرة ص 60 ·

17) محمد اقبال : تجديد التفكير الدينى فى الاسلام ترجمـة عباس محمود ط 2 القاهـرة 1968 ·

يستحيل معه ان تزر وازرة وزر أخرى · بل يقتضي ان كل أمر بما كسب رهين (18) أي ان كل كائن انساني يستقل بمسؤوليته الاخلاقية ويرى اقبال ان علماء المسلمين وغيرهم وقعوا فى اخطاء جسيمة من جراء عدم فهمهم لمعنـــى التقدير الذى ورد فى القرآن فى قوله تعالى : « انا كل شيء خلقناه بقدر » (54 ـ القصر ـ 49) فتقدير شيء اذن ليس قضاء غاشما يؤثر فى الاشياء من خارج ، ولكنه القوة الكامنة التى تحقـق وجود الشيء وممكناته التى تقبل التحقق ، والتى تكمن فى اعماق طبيعته ، وتحقـق وجودها فى الخارج بالتتالى دون اى احساس باكراه من وسيط خارجى ، والآيـــة 49 من السورة 54 تفيد ان كل مخلوق قد وهب امكانية محددة هو حر فى تحقيقها أو عـدم تحقيقها · ويرى اقبال فى قـدرة الانسان على الخلق دليـــلا على حريته اذ يقول : « والواقع ان كل نشاط خالق هو نشاط حر · فالخلق يضـــاد التكرار الذى هـو مـن خصائص الفعـــل الآلى » (19) · وهكذا ـ كما يقول سمث ـ يرفض اقبـــال كل الصور المتطرفة من فكرة القضـــاء الازلى سواء انتسبت الى تقدير الله أم الى الضرورة الآلية ·

كل هذه المحاولات لا ترمي الى التبرير كما يرى بعض الباحثين المغرضين ولكـن الهدف منها هو ايجاد قراءة تتفق والمبادىء العقلية الانسانية من جهة ومفهوم التقديس والتعالي لنص الوحي من جهة أخرى · لذلك لن تقف هذه التفسيرات ما دام الفكـــر البشري فى تطور مستمر لاعتقادنا ان ما أتت بـــه الرسل يساعد على وزن المفـاهيم العقلية ولا يمكن الا ان يكون مسايرا لحركة التطور التى هي سنة الطبيعة ·

اننـــا نعتقد ، رغـم وجاهة التفسيرات التى ذكرناها فى مسالة الحـرية ومشكلة القضاء والقدر ، ان الباب ما زال مفتوحا لاستنتاجات أخرى · فالقرآن مادة الهيـة غزيرة بالمعاني وهو كما قال الامام علي بن أبي طالب : « ظاهره انيق وباطنه عميق » · ومن ذلك اننا لاحظنا من خلال قراءتنا للقرآن ان الاهتمام كله متجه الى الانسان وحده ولكن فى مستويين اثنين : فهناك عالم الانسان وفيـــه يتجلى الله بمظهر الانسان ويتصـور بصورته ، فهـــو الله الادمى الذى بارتياده ثوب الآدمية فى أجلى صورها ينغمس فى الشعور الباطني للانسان المثالي وترتسم فيه صورته ويكون بمثـابة المراقب للسلوك والمساعد على تحمل المسؤوليات ·

18) تجـديد ، ص 109 ·

19) انظر تجديد ص 61 ·

أكد القرآن حضور الاله فى العالم المادي : « ولله المشرق والمغرب فاينما تولوا فثم وجه الله » (2 ـ البقرة ـ 116) ، « الم تر ان الله يعلم ما فى السموات وما فى الارض ما يكون من نجـــوى ثلاثة الا هو رابعهم ولا خمسة الا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر الا هو معهم أين ما كانوا » (58 ـ المجادلة ـ 7) ٠ وقولـــه مخاطبا موسى وهارون : « قال لا تخافا انني معكما اسمع وأرى » (20 ـ طه ـ 46) ٠ وهذا الحضور فى ضمن الاجتماع البشري يمثل نقطة اللقاء بين الصورة المظهرية للاله وبين الانسان الذى هو خليفة الله فى الارض ، هذا الخليفة يحمل سمات الذات الخالقة ، وهو مع ذلك يحاول أن يكون على أكمل صـــورة تشبهه ، وهذه النظرة التنازلية التى تجعل من الله فى صورة آدمية والتى نجد صداها فى هذا الحـــديث : « خلق الله آدم على صورته) ترمى الى ربطه بالقوانين العامة التى تنظم الكون ٠ ولا عجب ان نرى عند بعض التيارات الفكرية صورة الاله ممثلة فى الشيخ أو الحكيم أو الامـــام (20) الذى ينظـم أعمـال جماعته فيجازى محسنهم ويردع مسيئهم والله كذلك بالنسبة لمخلوقاته الذين احسن خلقهـم وسواهم واقدرهم على الخير والشر ٠ فهو الحكيم الذى لا يكلف نفســا الا وسعها ليجزى كل نفس ما كسبت،وهو القائل : « وما تنفقوا من خـــير يـوف اليكـم وانتم لا تظلمون » (2 ـ البقرة ـ 272) « ثـم توفي كـل نفس مـا كسبت وهــم لا يظلمون » (2 ـ البقرة ـ 281)، «ذلك بما قدمت أيديكم وان الله ليس بظلام للعبيد» (3 ـ آل عمران ـ 181).وفى القرآن حوالي 44 آية تحمل الفرد مسؤولية اعماله ٠ وفيها يخاطب اللـــه اناسا قد امتثلوا لسياسته ، لذلك فهو يراقب اعمالهم ولا يظلم منهم أحدا ٠ وما دام الانسان حريصا على احترام ما حدد له الشرع ، فهو داخل فى جملة قول الله : « ولقد كرمنا بني آدم » (17 ـ الاسراء ـ 70)،وفعلا لم تكون غاية الله من هذا الانسان الا ان يحيا وســط مجموعة من الافراد فيقوم بحقهم ويعاملهم معاملته لنفسه ٠ ويمكن ان نلخص هذه الغاية فى العبارات التالية لاندرية كرسون : « كـف عـن ارضاء جميع نزعاتك وعن الخضوع لها خضوعا فوضويا ، احمل نفسك على ان تحدد بعض رغباتك وان تتخـــلى عن بعضها من أجل مصلحة الآخرين ، ضح بشيء من مطامحك ، ومـــن هواياتك من أجل اشباهـــك أو من أجل بعضهم ، كف نفسك ، هذب نفسك ، لانه بدون حد

---

20) انظر كيف يولد الامام ويتصور بالصورة الربانية عنـد الشيعة والاسماعيلية وغيرهما من المذاهب وكذلك مقام الشيخ فى الطرق الصوفية ، وأنظر كذلك ما توجيه الآية : « وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم ، فلما توفيتنى كنـت أنت الرقيب عليهـم » (5 ـ المائدة ـ 120) ٠

أدنى من الاحترام والتعاون بين الافراد سواء أكان عن طواعية أم عن خوف السلطان لا يمكن لجماعة أن تتابع حياتها » (21) . فاذا التزم الفرد بهذه المبادىء كان الله معه أين ما كان وتجلى باطنيا عليه فى ضميره الاخلاقى ، وهو التواب ذو الرحمة ، ذو الفضل العظيم ، خير الناصرين وخير الرازقين ، غافر الذنب وقابل التوب ، وهو القريب يجيب دعوة الداعي اذا دعاه ، وهو الصورة المظهرية للخير .

فهذا الحضور لا يمكن ان يفهم على انه ربط علاقة بذات فردية محدودة ، بل يتعداها الى ربط هذه الذات بهيكل المجموع ولان الدين وهو مجموعة القوانين الاسلامية ليس وقفا على الشعائر والطقوس ، ان جميع مظاهر الحياة الجماعية خاضعة لاحكامه وانه ليهدف الى ربط كل عمل من أعمال الفرد بواجباته الدينية.والدين يهدف الى ربط الناحية الفردية بالناحية الجماعية لانه لا يصبح قوة رهيبة فى تكييف المجتمع الا عندما تندمج ناحيته الشخصية بناحيته الاجتماعية اندماجا خالصا .

أما الذين أرادوا ان يدفعوا بالدين وبالمسائل الدينية خارج الحقل الذى يعمل فيه المجتمع فهم الذين يرون صرف كل القوى فى الفعاليات المعقدة للعصر الصناعى . وهذا الموقف يذكرنا بما جاء فى مقال بادو (22) من موقف المهندس الامريكي الذى يعمل فى مدرسة هندسة النفط بالجزيرة العربية ازاء خروج الطلبة وقت الدروس لاداء الصلاة حيث قال للملك : « ينبغي يا صاحب الجلالة أن تقرروا نهائيا ما تريدون من هؤلاء الناشئين هل تريدونهم أن يتعلموا كيف يديرون آلات النفط أو كيف يؤدون الصلاة فى اوقاتها . فهم لا يستطيعون ان يقوموا بالامرين معا فى وقت واحد » . ويذكر صاحب المقال حادثة أخرى جرت هذه المرة فى مصر سنة 1939 عندما هب بعض كبار المسؤولين يناقشون جملة من المقترحات الاجتماعية فسأل احد الحاضرين عن ما يكون موقف الاسلام والمسلمين من امثال هذه المقترحات ، فكان الجواب : « اذا لم يكن بامكاننا ان نحقق هذه الاصلاحات بمساعدة الاسلام فسوف نحققها دون مساعدته » . وغير ذلك من الاحداث مما يدل على ان هؤلاء يرون أن الدين لا ينطوي الا على أهداف وغايات مبهمة غامضة . من أجل ذلك نادى بعض من يسمون بالتقدميين بفصل الدين عن الدولة او الفصل بين القانون والدين (23) أى بين عقائد الدين ومقرراته وبين مبادىء القانون

21) اندريه كرسون ، المشكلة الاخلاقية ص 27 ــ 28 .
22) دراسات اسلامية بحوث ودراسات لكبار المستشرقين بيروت 1960 ، ص 256 .
23) أندريه كرسون ، المشكلة الاخلاقية ص 99 .

وقواعده • ولاشك ان هذه النظرات مبنية على ان الدين مسألة روحية لا غاية منه الا ربط علاقة بين الله والناس فالاسلام على خلاف ذلك هو دين وهو فى الوقت نفسه دولة وهو قوة اجتماعية وسياسية ، لان الوحي الذى يقرر وحدانية الله ورسالة الرسول يعين أيضا الاهداف الاجتماعية والسياسية للمجتمع الاسلامي ، ولا خير فى دين لا يشمل مجال تطبيقه كل أنواع الفعاليات الاجتماعية ، لان النشاط الديني لا يتمثل فى تحديد الاطار الذى تفعل فيه القوة الالهية بقدر ما يرمي الى تحقيق اسمى مبادىء الانسانية وايجاد نظام اجتماعى أكثر اتفاقا مع المبادىء الاسلامية •

كل ما حواه القرآن يخدم الفرد والجماعة ، وحتى تلك الطقوس الدينية التى يرى البعض فيها انها مجرد أعمال تعبدية ، ليس لها معنى أكثر من ذلك ، ولا نجد لها انعكاسا على سلوك الانسان فى المجتمع هي أيضا فى أساسها قوانين اجتماعية كالصلاة التى معناها الحساب والمحاسبة وحفظ مصالح أفراد المجتمع • ونستطيع أن نقول بأن الصلاة كانت أساسا لايجاد أول رابطة ربطت بين أفراد المجتمع الالهي ، وكذلك نقول فى بقية المفروضات الدينية ان لها معنى اجتماعيا ينظم سلوك الفرد ، وليس فيها من معاني التعبد غير المستوى الرفيع للانسانية التى تحاذى فى كمالها عالم الالوهية • فالعلاقة بين الانسان وبين الله فى قيمة الانسانية الكاملة التى لا تختلف فى مظهرها عن الالوهية المتجلية لعالم الانسان ، وحديث عيسى « اذا حملت قربانك الى الهيكل ثم تذكرت ان فى نفس أخيك منك شيئا فاترك قربانك أمام الهيكل وعد لتصلح ما بينك وبين أخيك أولا ، وبعد ذلك عد الى الهيكل وقدم القربان (24) ليقرر ان العلاقة الالهية لا تبتدىء الا عند صفاء العلاقة الانسانية وبلوغها مرحلة يتخلى الفرد فيها عن كل ما يخلده الى الارض ، وكلما اقترب الانسان من الله اقترب الله منه وهو التجلى الباطني الذى يشير اليه الحديث : « اذا تقرب العبد الى الله شبرا تقرب اليه ذراعا ، وكلما ازداد هذا التقرب تصبح عملية التجلي أقرب الى الكمال حتى تصل فى النهاية الى أن يكون الله سمعه وبصره ولسانه ورجله (25) •

أما المظهر الثاني للالوهية تجاه الانسان فهو فى حالة انخارم أسس المجتمع حين يبرز الانسان فرديته وانيته ، عند ذلك يتخلى الله عنه ويتركه وشأنه ، ويتبرأ منه ،

24) أندريه كرسون ، المشكلة الاخلاقية ص 99 •

25) حيدر آملى ، جامع الاسرار ، تحقيق هنرى كربين وعثمان يحيى ، طهران 1969 ، ص 675 •

وهنا يظهر الله له ولامثاله بمظهر القوة والشدة : « اين ما تكونوا يات بكم الله جميعا ، ان الله على كل شيء قدير » (2 ـ البقرة ـ 148) « قل هو القادر على ان يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحـــت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم باس بعض » (6 ـ الانعام ـ 65) « ان يشـأ يذهبكم ويأت بخلــق جديد ومــا ذلك على الله بعزيز » (35 ـ فاطر ـ 16) « ان **بطش ربك لشديد** » (35 ـ البروج ـ 12) ·

ولا ريب ان خروج الفرد عن الجماعة بانتهاك حرمة أفرادها ليجعل الله يظهـر اليه بمظهر البعد والجفاء ، كذلك كانت حال الامم التى جارت : « الا ان عادا كفـروا ربهم الا بعدا لعاد قوم هود » (11 ـ هود ـ 60) « الا ان ثمودا كفروا ربهم ، الا بعدا لثمود » (11 ـ هود ـ 63) « وجعلناهم أحاديث فبعدا لقوم لا يؤمنون » (23 ـ المؤمنون 44) · وهنا تتعارض الانية والغيرة الالهية بانية وغيرة هذا الانسان المتمرد · فتعالى الله عليه وافقده كل اثر وجرده مما يعد أساسا لاكتمال ذاته ، واصبحت أعماله غـير مراعى فيها القوانين · فكل فعل يفعله فهو مقدور الى اللـه ، ولا يستطيع النجاة الا بالرجوع اليه وطلب الهداية والرشد ، لان الله فى هذه الحالة هو القاهر فوق عبـاده لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، « وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة » (28 ـ القصص ـ 68) « قل من ذا الذى يعصمكم من الله ان أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة » (33ـ الاحزاب ـ 17) · وهذا النوع من السياسة الالهية خاص بالدين فضلوا العمى على الهدى علوا واستكبارا ، فمحق الله كل اثر لهؤلاء وعبر عن ذلك بقـوله : « ساصرف عن آياتي الذين يتكبرون فى الارض بغير الحق ، وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيـلا ، وان يروا سبيل الغيّ يتخذوه سبيلا » (7 ـ الاعراف ـ 146) وليعلم هؤلاء ان « ما أصاب من مصيبة الا باذن الله ومن يـؤمن بالله يهد قلبه » (64 ـ التغابن ـ 11) وما نسبة الخير والشر الا فى الهداية والاضلال : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقـا حرجا كأنما يصعد فى السماء » (6 ـ الانعام ـ 125) ·

فأى تغيير فى الطبيعـة الانسانية وأى شعور بالاستقلال والاستغناء عن القـــوة الالهية ولو كانت فى مستوى الظن يجر حتما الى اطفاء الذات ومحو كل اثر لقـدرة الانسان · وهذا الجانب من الشعور الباطني تؤكده الآية : « وذا النون اذ ذهب مغاضبا

فظن ان لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات ان لا اله الا انت سبحانك إني كنت من الظالمين» (الانبياء ، 87) ٠

فليس اذن من باب التناقض ما نجــــده من اختلاف فى السياسة الالهية ٠ وما علينا الا ان نتدبر النصوص الدينية « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كبيرا » (النساء ، 32) ٠ والقرآن لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فيكون معنى اختــــلاف السياسة الالهية ان الموقف الالهى متصل اتصالا مباشرا بموقــف الانســــان ٠

الجبر والاختيار فى التفكير
الاسلامى الحديث

محيى الدين عزوز
متفقد أول للفلسفة ـ تونس



1) موقف المسلم المعاصر من الجبر والاختيار :

يتحدد موقف الانسان من القضايا الدينية والفلسفية تبعا لمدى فهمه لها ولما واكبها من ظروف تاريخية مستجدة مضافة الى ما خلفه فيها الماضى من قدرة على التطور والتفاعل ويتحدد هذا الموقف أيضا تبعا للظروف النفسية والاجتماعية التى تحيط بالانسان ولما تحصل عليه من مستوى ثقافى الى غير ذلك من العوامل الاخرى.

والانسان المسلم فى العصر الحديث لم يجد نفسه ازاء قضاياه الدينية ملزما باتباع موقف واحد ولا حتى باتباع أحد موقفين يسهل عليه الاختيار بينهما ؛ فهو على النقيض من ذلك يشعر بالتردد ويحس بالحيرة اذا ما رام أن يبت فى الامر لتعدد الوجهات فالناس حوله يتجاذ بهم توالي المواقف المتباينة والآراء المتعارضة ولا يكاد ينحاز الى شق حتى يستهويه الشق الآخر ويشعر بأن الثالث له من الحجج المعقوله ما يجعله جديرا بالاتباع وأن الرابع هو أيضا من المتانة بمكان ...

فاذا ما اخذنا مثلا موضوع الجبر والاختيار فاننا نجد له من الجوانب ما يجعل حصره عسيرا لكثرة ما قيل فيه فقد نشأ فى أحضان مناقشة الجدود لمسألة القضاء والقدر والتشبع بالمعانى التى ولدها أنصار الحرية وخصومهم القائلين بالحتمية فادى طول البحث فى هذه المعانى الى ربطها بقضايا أخرى لها من أواصر الشبه ومن أسباب الاختلاف ما يجعل اثارتها عملا ضروريا حتى وان كان الموضوع الاصلي نفسه مثقلا بالمعاني التى اكتسبها عبر تاريخه الطويل ٠

فقد وصلت للمسلم المعاصر اصداء بحث هذا الموضوع من طرف قدماء المصريين والهنود واليونانيين ومن طرف أصحاب الديانات السابقة كاليهود والمسيحيين ووجد فى القرآن آيات كثيرة ورد فيها بألفاظ مكررة أو مختلفة ذات معان متقاربة أو متباعدة ذكر قضاء الله وقدره وحرية الانسان واضطراره وجبره واختياره ٠

وأدرك المسلم المعاصر ان السنة عززت ما ورد فى كتاب الله وأعطت لهذا الموضوع أبعادا جديدة كان من نتيجتها أن كيف المسلم فى عهد الصحابة وما تلاه من عصور موقفه بما يتناسب واستعداده للعمل الحر أو جنوحه الى تكبيل نفسه العراقيل وتهيأ لذلك للتفاعل مع بيئته ومع محيطه ٠

ففى عصور الفتح جرد كبار العاملين موضوع الجبر والاختيار من كل أهمية فهو « كلام » ولفظ يلفظ لا أثر له يذكر فى القوة الجارفة لتيار الحياة العملية التى استقطبت وحدها عنايتهم ٠ ولاحظ المسلم المعاصر أيضا أن الفتنة الكبرى التى مزقت وحدة الامة وما عقبها من تطورات اجتماعية وسياسية كانت بمثابة البؤرة التى أحاطت بهذا الموضوع ٠

فان تقلب الاحوال وتعدد القيادات السياسية وما نجم عن ذلك من مآسى ومحن اضعف فى الحياة تدفقها السليم مما سمح للجانب الكلامي لهذا الموضوع بأن يتغلب على الجوهر العملي فتعددت المفاهيم وتشابكت المعاني وبلغ توسعها حدا صار فيه من الممكن لكل شخص ان يكون لنفسه رأيا خاصا يتماشى مع درجة اعتقاده أو تمذهبه الفلسفي أو مستواه الثقافى والاجتماعى ٠

وبالاضافة الى هذا الرصيد الذى تغلغل فى أعماق لا شعوره وجد المسلم المعاصر حوله خضما من الاراء جادت بها قريحة مفكرى الغرب حول الحرية والحتمية والقضاء والقدر والجبر والاختيار فكان لها انعكاسات سلبية وايجابية فى نفوس المسلمين زادت المسألة تعقيدا ٠

فتولد من كل ذلك بناء فلسفي متواصل الشموخ يتغذى باستمرار من الاحـداث اليومية المشابهة لهذه الحالة التي سمعنا بها جميعا وهي :

قبل بضعة أسابيع توفى البابا بول السادس « فاختـير خلفه » يوحنا بولس الاول وعلل بعضهم سرعة اختيار الكرادلة له بانه يمثل فى أعينهم « مرشح الله » فالعناية الالهية هي التى اختارته لهذا المنصب ·

وبعد شهر من الزمن مات البابا الجديد قبل أن يشرع فى القيام بأي عمـل يذكر وطرح الناس هذا السؤال على الرهبان : ان كان الله هـو الذى رشحه فلماذا أماته بعد شهر فقط ؟ فكانت مناسبة لانتصاب الحـوار بين الكاتوليك حول قضاء الله وقدره أو حول علمـه وارادتـه ·

وتلقفت المجلات والصحف اليومية أصداء الحوار لتنشره فى أوساط أخرى غـير مسيحيـة (1) ·

فى هذه الحـادثة دلالة على أن موضوع القضاء والقدر وما تفرع عنـه مـن قول بالجبر والاختيار لا يزال يحتل مكانته من اهتمامات الناس وتختلف هذه المكـانة باختلاف درجة تدين صاحبها ·

أولا : موقف المتدين المعـاصر :

ان الاطار الديني هو المجال الاول الذى أثير فيه هذا الموضوع لذا سنبحث الجبـر والاختيار من هذه الزاوية قبل أن نستعرضه من جوانبه الفلسفية والسياسية · فالمؤمن يصدق بانه مخلوق ويسلم بأن خلقه ليس ضربا من العبث أو المحال ويطمئن الى خالقه الذى هو رب السموات والارض ·

قال تعالى : « أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون » (2) فقد خلقه الله لغاية وهي المعلن عنها فى هذه الآية : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدوني ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمونى ، ان الله هـو الرزاق ذو القوة المتين » (3) ·

خلق الانسان ليعبد ربه وللعبادة معان كثيرة لغوية واصطلاحية الا اننى أفضـل المعنى الذى يتماشى مع التفكير الفلسفى رغم قدمه وهو الذى اختاره الكندى فى شرحه لمعنى آية : « والنجم والشجر يسجدان » فقال بأن ذلك هو تحقيق ارادة البارىء والانتهاء الى أمره وتأديـة الوظيفة المعينة للمخلوق فى نظام العالم (4) فالعبادة الحقـة هى التى تجعل صاحبها يتفاعل مع نظامه الكوني وتحدد له اتجاهه السليم فى الحياة · فهـي حقيقة يعيشها صاحبها وليست مجرد ادعاء أو مظهر سطحي تبعثره الالفاظ ويتلاشى امـام المطامع ·

وعندما يقر المتدين بانه حادث وأنه أحدث لغاية وسبب هي العبادة فهو يتعرف فى نفس الوقت بأن ليست له حرية مطلقة وبأن نشأته خارجة عن ارادته ولا يستطيع الافلات من الزمن الذى ظهر فيه مهما اتجهت مشاعره الى الماضى والحاضر والمستقبل ·

وبعد ما يولد لا يمكنه الاستغناء لمدة قد تطول أو تقصر عمن يوفر له الغذاء والملبس والمسكن ويدفع عنه الخطر ويلقنه اللغة ويدربه على السلوك لضعفه البدني والفكري · فشعـــوره بالتبعية للظروف البدنية والنفسيـــة والاخلاقية والاقتصادية والثقافية يحتم عليه القول بالجبرية وفى نفس الوقت يرى نفسه حرا لان كل هذه الظروف مما سخره الله له (5) · فبالايمان والعمل الصالـــح يتحرر من سلطان الحوادث ويسمو عند ربه درجات قال تعالى : « أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون » (6) وقـــال أيضا : « أم نجعل الذين آمنـــوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الارض أم نجعـــل المتقين كالفجار » (7) ·

فباختياره للاسلام والعمل الصالح تحرر الانسان من الخوف من الله · وقد أعطى الله بوصفه السلطان الاوحد عند المـؤمن الحرية للانسان فى اختيار طريقه وعملــه وذلك عندما قال : « من عمـــل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ، ومـــا ربـــك بظـــلام للعبيد » (8) وقوله : « ذلك بما قدمت أيديكم وان الله ليس بظلام للعبيد » (9) · ويطول بنا المقـــام لو أردنا سرد كل الآيات الدالـــة على حريـــة الانسان وعلى عدم ارتباطه الا بـــاللــــه وحـــده ·

وكذلك الشأن بالنسبة للاحاديث التى نذكر منها ما يلي : « عن عبد الله ابن عباس قال : كنت خلف النبيء (ص) يوما فقال لي : يا غلام اني أعلمك كلمات : احفظ اللـــه يحفظك · احفظ الله تجده تجاهك · اذا سألت فسل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله . واعلم ان الامة لو اجتمعـــت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك الا بشيء قد كتبه (لك) وان اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك الا بشيء قد كتبه الله عليك · رفعت الاقلام وجف الصحف (10) ·

والحرية المتاحـــة للانســـان فى هـــذا الاطار هى أكبـــر مما تتحملـــه قوته البدنية والعقلية لانها لا تقف عند حد ولو كان ما وراء العرش (II) والآفاق التى فتحها العلم للمعاصرين تدل على أن حريتهم تتجاوز تصوراتهم وخيالاتهم · فلم يحرم اللـــه شيئا الا اذا تأكدت مضرته للفرد أو للجماعة ·

ثانيـــا : موقف المتفلســـف :

شاهد المسلم المعاصر تطعيم ثقافته بتيار قوي من الفلسفة الغربية وبما أحياه من فلسفته الخاصة فتفلسف بدوره على قدر تأثر تفكيره بتلك النظريات مما أدى الى تباين فى المواقـــف التى كانت اما مجارية لما هو قائم بالغرب واما مناهضة له وكان ذلك قبل أن يستقيم تفكيره الخاص · وما دام الامر كذلك فلا مفــر من استعراض بعض الآراء الفلسفية خاصة تلك التى كان لها اكبر حظ من النجاح فى بيئتنا كالعقلانية وكالوجودية وفى هـــذا الصدد يقول انقلز « كان هيقل أول من تمثل بوضوح علاقة الحرية بالضرورة فالحرية عنده هي ادراك الضرورة · وليست الضرورة عمياء الا بالمقدار الذى لا تكون فيه مفهومة · والحرية هي الاخرى ليست استقلالا موهوما عن قوانين الطبيعة بل هي معرفة لهذه القوانين ولامكانية الاستفادة منها بصورة منظمة ، فى غايات معينة · وهذا حق بالنسبة للقوانـــين الخارجية بقدر ما هو حق بالنسبة للتى تنظم الحياة الطبيعيـــة والنفسية للانسان نفسه : وهما صنفان من القوانين قد يمكن الفصل بينهما فى عالم التصورات لا فى عالم الواقع ·

فحرية الارادة لا تدل على شيء آخر أكثر من القدرة على اتخاذ القرارات عـــن بينة (12) · وتحت دوافع سياسية واقتصادية اتجه الفلاسفة المعاصرون الى بحـث العلاقة بين الضرورة والحرية وبين الحرية والارادة ولا يهمنا من كثرة ما قالوه فى هذا المضمـــار سوى ما له صلة وثيقة بالجبر والاختيار وتأثيره الواضـــح فى العالم الاســلامي ·

ويمكن تصنيف هؤلاء الباحثين الى قسمين أنصار المعقول وأنصار اللا معقول :

أ ـ الفـلاسفة العقلانيـين :

وقد عرض لنا الاستـــاذ يوسف كرم وجهة نظر العقلانيين فقـــال : « الحرية كفاية للعمل باستقلال عن كل ضرورة تكون علة تامة له · أو هي اختيار الكائن العاقل فعله بنفسه دونما اكراه خارجي أو ضرورة داخلية ··· تأتي من جانب فاعل يجبر بالقوة على اتيان الفعل أو على تركه (13) ·

يرى هؤلاء المفكرون أن الانسان مخير الا أن حرية أختياره وقدرته على ذلك محددة بشروط تأتي من الموضوع نفسه أو تأتي مما فى الانسان من قصور وشعور بالاضطرار

وموقفهم هذا يقربهم كثيرا من الآراء التى يعتمدها المتدينون مع اختلاف فى المقـاصد والنظرة الى الاشياء وحتى فى الاساليب ٠

ب ـ فلسفـة اللا معقـول :

لعبت الفلسفة اللا معقولة (I4) دورها فى حياة بعض الشبان المسلمين الذين درسوا بالغرب أو احتكوا بأوروبا عن طريق السياحة أو الاقبال على كتبها أو بواسطة وسائل الاعلام السمعية والبصرية ٠

فكانت لثقافة هؤلاء الناس آثارها فى تحديد موقفهم من الجبر والاختيار ٠ وتأتي الوجودية فى طليعة هذه الفلسفات اللا معقولة (I5) ولها فرعان متدين والحادى رغم انتمائهما الى أصل واحد ٠

فيعتبر المفكـــر الدانماركى « صورين كيركيقورد » الاب الروحى للوجوديـــة ٠ وقد انتقد بشدة نظريات هيقل وكل الفلسفة العقلية بصفة عامة ٠ وتطورت الوجودية كثيرا وكانت لها مدارس واتباع فى عدة اقطار من العالم الا اننى سوف لا أستعرض منها الا ما له صلة بالجبر والاختيار تاركا جانبا كل ما عدا ذلك من آرائها ونظرياتها ٠

وفى هذا الشأن يكاد يتفق الوجوديون على مقولة أساسية عندهم وهي أن الوجود حدث يدعو كل من تأمل فيه الى الاستغراب والدهشة المشوبة بالقلق ويترك فى نفس صاحبه شعورا بالاشمئزاز والرعب والغثيان والرهبة والقلق ٠

وذلك لان فكرة الوجود تحتاج الى تحديد وامعان نظر ٠ ومن حق المرء ان يتساءل لماذا وجد وتساؤله هذا يقلقه ٠ وفى وجود الانسان تحد للحرية وانكار لها ٠ فهو لم يختر ساعـــة مجيئه الى هذا العالم ولا مسقط رأسه ٠ وبعد ميلاده تفرض عليه لغة من يحيطون به وسلوكهم وطعامهم ولباسهم ٠ وهو مضطر الى قبول سياسة دولته ونظامها الاقتصادى وثقافة مجتمعه الى غير ذلك من الفروض الاجتماعية ٠

واذا ما نظر هذا الانسان الى محيطه الطبيعى فان شعوره بالضعف يزداد حـدة واستفحالا اذ لا دخـــل له يذكر فى التأثير على ظواهـــر الكون المهددة لمصيره كالزلازل والفياضانات والجفـاف ٠

ورغم صورتها القاتمة فان هذه الاراء استهوت بعض الشبان المثقفين من مسلمي العصر الحديث فقد وجدوا فيها تعبيرا عما كانوا يشعرون به من حقارة الانسان فى

بيئتهم ومن عجزهم عن التفسير المنطقي لعالمهم ٠ فلا شيء عندهم يبرر الحياة فيه ولا شيء في الحياة نفسها له مغزى ٠ واذا تجردت الحياة من كل معنى فلماذا يعني الحي نفسه باختيار أمر ما وتفضيله عن غيره ٠ ففي مثل هذه الحياة لا قيمة للاختيار ٠

ان تطبيق مثل هذه النظريات يؤدى الى القضاء على الفوارق بين الانماط المختلفة للسلوك : فيصبح الشرير في نفس المرتبة والخير ٠ ولا مجال يذكر للحرية لان القوى اللامعقولة وغطرسة الطبيعة قضت على ارادة الانسان ٠ فهل خلق الانسان نفسه حتى يدعى حريتـــه ؟

وللظروف السياسية والعسكريـــة دورها الكبير في نشر مثل هذه الآراء لان الانسان في مثل تلك الظروف يفقد القدرة على التصرف الحر ويفرض عليه ان ينفذ بكل دقـــة ما تأمره به السلط العسكرية ٠ لذا نجد الوجودية لا تقوى وتزدهر الا اذا كانت هناك حـــروب :

فقد ترعرعت وجودية هيدقر أثناء وبعد الحـــرب العالمية الاولى وترعرعت آراء سارتر بعد الحرب العالمية الثانية وخلالها ٠

ومن المعروف تاريخيا أن جبرية جهم بن صفوان نبغت أيام الفتن المتلاحقة التى هزت اركان الدولة الاموية فى أخريات سنواتها ٠

وهذا ما يجعل بين الجبرية والوجودية ملامح تشابه وأوجه تقارب ٠

ثالثـا : الجانب السياسى فى قضية الجبر والاختيـــار :

لم يكن الجانب المذهبي ، سواء اكان دينيـــا أم فلسفيا ، هو وحده القاعدة التى انطلقت منها مباحث الجبر والاختيار فى العصر الحديث ٠ فقد كان للجانب السياسي ايضا اثـره فى بلورة الموضوع وفى تطويره ٠

وذلك أنه فى القرن الماضى تعرف العالم الاسلامى عن مدى البعد الذى يفصله عن قوة الغـــرب وعن تقدمه الحضارى وأحس بأن تلك القوة باتت تهدده بالاستعمار وربما بالفنـــاء ٠

وفى مثل هذه الظروف تحتم على المسلم اعادة النظر فى فهمه لقيمه الروحية التى منها موقفه من موضوع الجبر والاختيار مثلما يسعى الى تحوير مؤسساته السياسة والاجتماعية وتجديده لثقافته ٠

وبوصفه رائد الحركة الاصلاحية ومحركها الاصلي اهتم جمال الدين الافغـاني بهذه المسألة وتبعه فى عمله هذا محمد عبده وتلاميذه وعنايتهم هذه ناشئة عن يقينهم بأن هذه المسألة وان بدت دينيـــة الا انه لا يمكن فصلها عن ملابساتها السياسيـــة٠

والاجتماعية والاقتصادية · فقد وجدوا أن بعض أدعيــاء الصلاح استغلوا موضوع الجبر ليخدروا ارادة الجماهير ويبتزوا أموال الناس وحتى ممتلكاتهم ونصبوا أنفسهم وسطاء بين الله وعباده وأقاموا لذلك الغرض زوايا وطرق وتكاثر عدد الزوايا والطرق الصوفية واشتد التنافس بينها على اقتسام الجماهير الاسلامية ·

والاحظ هنا أنني افرق بين سيرة مؤسسى هذه الطرق الذين اتصف أكثرهم بالتقى والصلاح وبين ورثتهم الذين كانوا فى أغلبهم من أعوان الاستعمار والمستبدين ونشروا بين الناس التواكل والاستسلام · طالب المصلحون معاصريهم بنبذ التواكل والاخــذ بمبدأ الاختيار وبذلك حرضوهم على التفكير الطليق وعلى العمل دون حرج من أجـل ازالة الاستعمار والقضاء على ركائزه وعــدم الاعتماد فى ذلك الا على اللـــه وحده فالنبىء (ص) وهو رسول الله لا يملـــك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا يملك لاحد شفاعة الا أن يــأذن اللـــه لــه (16) ·

والناحية المذهبية من مسألة الوساطة بين الله والعبد مشهورة بفضل ما كتبه عنها ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب وأنصارهما وخصومهما ، الا أن الجانب السيـــاسى لهذه القضية فى العصر الحديث لا زال فى حاجة الى مزيد من البحث ·

وأثناء عرض وجهات النظر المتعارضة أثيرت مسألة المسؤولية والدوافع الاخرى التى حدت بالمصلحين الى الاهتمام بهذا الموضوع وهى ادراكهم للترابط الذى أوجده الاسلام بين الناحيتين العقائدية والسياسية مما يجعل مطالبتهم بالاخذ بجانب الحرية فى مسألة دينية سيؤدى حتما الى تعميمها على ميادين السياسة وغيرها وأيضا لان السلطة فى ذلك العصر كانت بأيدي المستعمرين أو الحكام المستبدين الذين لا يسمحون بالحديث عــن التحرر والحرية · وكانت الحركة فى أولها أضعف من مواجهة أعدائها فى موضوع يمكن لها أن تثيره بشكل آخر مع علمهم بأن المتزمتين من خصومهم ربما كانوا عليهم أشد مــن الاستعمار ·

وسواء أثـــير موضوع الجبر والاختيار من جانبه السياسى أو مـــن جانبه المذهبى فنتيجته واحدة وهي التى تتمثل فى تحريض المسلم على ابراز قيمته كشخص موجود يتمسك بحريته ويتحمل مسؤوليته التى هي شرط لازم لذاتيته ·

وتزداد هذه الفكرة وضوحا عندما نستعرض فى شيء من التفصيل بعض الآراء التى صدرت عن أهم من ساهم فى اثارة موضوع الجبر والاختيار فى العصر الحديث ·

رأي جمــال الدين الافغــاني :

طرق جمال الدين الافغاني موضوع الجبر والاختيار لعدة غايات تبرز منها اثنتان : الاولى تبرئة الاسلام مما اتهمه به المغرضون من أعدائه وضعفاء العقول من ابنــائه الذين خلطوا بين الاعتقاد بمذهب الجبرية والاعتناء بالقضاء والقدر فظنوا أن الــدين المحمدي بعقيدته في القدر يجمد نشاط أتباعه ويخضعهم لارادة عليا تسلبهم خصائصهم النفسية وتقضي على امكانياتهم المادية وبالتالي تطمس وجودهم ·

أما الغاية الثانية فهي تذكير المسلمين بالمفهوم الصحيح للقضاء والقدر وهو المفهوم الذى يتماشى مع ما تحلى به دينهم من رونق وبهاء ·

وخصص لهذا الموضوع رسالة تحمل عنوان « رسالة فى القضاء والقدر » أقتطف لكم منها هذه الفقرة « هكذا ظنت طائفة من الافرنج وذهب مذهبها كثيرون من ضعفاء العقول فى الشرق · ولست أخشى أن أقول : كذب الظان وأخطاء الواهم وأبطل الزاعم وافتروا على الله والمسلمــين كذبا لا يوجد مسلم فى هذا الوقت من سنى وشيعى وزيدى واسماعيلي ووهابي وخارجى يرى مذهب الجبر المحض ويعتقد سلب الاختيار عن نفسه بالمرة ، بل كل من هذه الطوائف المسلمة يعتقدون بأن لهم جزءا اختياريا فى أعمالهم ويسمى بالكسب وهو مناط الثواب والعقاب عند جميعهم وأنهم محاسبون بما وهبهــم الله من هذا الجزء الاختيــاري ومطالبون بامتثال جميع الاوامر الالهية والنواهى الربانية الداعية الى كل خير ، الهادية الى كل فلاح وأن هذا النوع من الاختيار هو مورد التكليف الشرعى وبه تتم الحكمة والعــدل » (17) ·

رأي محمد عبــده ورشيد رضــا :

لم يخصص محمد عبده لموضوع الجبر والاختيار رسالة بعينها كما فعل أستاذه جمال الدين الافغاني وانما تعرض لبحثه فى عدة أبواب من كتابه القــيم : « رسالة التوحيد » وفى تفسير المنار ، وكذلك الشأن بالنسبة لرشيد رضا ·

والمسلم المعاصر مدفوعا دفعا للبحث عن الحــرية التى اغتصبها منه المستعمرون الذين جعلوا لتصرفاته حدودا معينة حرمه منها الظالمون من حكامه الذين تعاونوا مع المغتصب كي يضيقوا عليه أنفاسه · ولم يصل المسلم الى هذه الحالة دفعة واحدة بغتة بل تدريجيــا نتيجة تفكير ضاقت آفاقه تحت ضربات الاحداث المؤلمة التى تلقاها الناس طيلة قرون الاضطرابات والحروب والفتن · وخرج المسلمون من تلك الاحداث منهوكى

القوى عاجزين عن اعطاء الحياة المعنى الذى يريدونه لها وقصرت هممهم عن كتابة التاريخ كما يشاؤون ·

ومما يحسن التأكيد عليه أنه حتى فى مثل هذه الظروف الحالكة لم يشعر المسلمون فى معظمهم بأنهم سلبوا تماما من كل اختيار بل كان لهم ولو على المستوى النظرى احساس بأنهم ليسوا ريشة فى مهب الريح ·

وحتى ان وجد من قال بهذا الرأى فقد فعل ذلك عن « اختيار لمذهب فلسفى أو كلامي معين » ·

فبين محمد عبده أن الاختيار ملازم للانسان عندما كتب : « يشهد سليم العقل والحواس من نفسه أنه موجود ولا يحتاج فى ذلك الى دليل يهديه ولا معلم يرشده · كذلك يشهد انه مدرك لاعماله الاختيارية ، يزن نتائجها بعقله ويقدرها بارادته ثم يصدرها بقدرة ما فيه ·

ويعد انكار شيء من ذلك مساويا لانكار وجوده فى مجافاته لبداهة العقل كما يشهد بذلك فى نفسه يشهده أيضا فى بني نوعه كافة متى كانوا مثله فى سلامة العقل والحواس ·

ومع ذلك فقد يريد ارضاء خليل فيغضبه ، وقد يطلب كسب رزق فيفوته · وربما سعى الى منجاة فسقط فى مهلكة ، فيعود باللائمة على نفسه ان كان لم يحكم النظر فى تقديم فعله ويتخذ من خيبته أول مرة مرشدا له فى الاخرى (18) ·

ويستخلص محمد عبده من ذلك النتيجة المنطقية التى لابد أن يصل اليها كل متدين وكل ذى فكر سليم فيقول : « يتجه من ذلك الا أن فى الكون قوة أسمى من أن تحيط بها قدرته وان وراء تدبيره سلطانا لا تصل اليه سلطته » (19) ·

وبالتدرج ينتقل محمد عبده من الناحية المذهبية الى مستلزماتها السياسية والاجتماعية فيلخص كلامه الذى يطول ترديده فى هذه العبارات القصيرة : « تقرير أمرين عظيمين هما ركنا السعادة وقوام الاعمال البشرية : 1) ان العبد يكسب بارادته وقدرته ما هو وسيلة لسعادته · 2) أن قدرة الله هي مرجع لجميع الكائنات وان من آثارها ما يحول بين العبد وبين انفاذ ما يريده ، وان لا شيء سوى الله يمكن له أن يمد العبد بالمعونة فيما لم يبلغه كسبه » (20) ·

أما رشيد رضا فانه يتفق مع أستاذه فيما قاله في شأن الجبر والاختيار واعتبر الجبر فسادا للعقيدة وهو من قبيل الخرافات وعلق على كلام محمد عبده الوارد في هذه الجملة : « وكثر ما ضل قوم وأضلوا ، وكان لمقالاتهم أسوء الاثر فيما عليه حال الامة اليوم » · فكتب رشيد رضا : « هم جهلة أدعياء الولاية بالتصوف التقليدى الذين أفسدوا عقائد العامة بالجبر والخرافات » ·

فالانسان حر بأنه غير محتاج لغيره من البشر وهذا هو المعنى الذى عبر عنه رشيد رضا عند تفسيره لهذه الآية « قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين » (21) ·

فقال : « ان صلاتي وجميع عباداتي وحياتى وشؤونها ومماتي وما بعده كل ذلك لله وحده أتوجه فيه الى مرضاة غيره ولا أستعين أحدا على شيء منه استعانة معنوية بل اياه أستعين مهتديا بما شرعه من الدين » (22) ·

وهو فى موقفه هذا يسير على منهج أستاذه محمد عبده الذي كتب « ··· تجلت بذلك للانسان نفسه حرة كريمة وأطلقت ارادته من القيود التى كانت تعقدها بارادة غيره ، سواء أكانت ارادة بشرية ظن انها شعبة من الارادة الالهية وأنها هي كارادة الرؤساء والمسيطرين ، أو ارادة موهومة اخترعها الخيال كما يظن فى القبور واحجار والاشجار والكواكب ونحوها » (23) ·

يبرز الهدف السياسى واضحا جليا فى هذه الفقرة : « ··· بهذا وما سبقه تم للانسان بمقتضى دينه أمران عظيمان طالما حرم منهما انسانيته واستعد لان يبلغ من السعادة ما يهيأه الله بحكم الفطرة التى فطر عليها ·

وقد قال بعض الحكماء الغربيين من متأخريهم ان نشأة المدنية فى أوروبا انما قامت على هذين الاصلين · فلم تنهض النفوس للعمل ولم تتحرك العقول للبحث والنظر الا بعد أن عرف العدد الكثير أنفسهم وان لهم حقا فى تصريف اختيارهم وفى طلب الحقائق بعقولهم » (24) · فكانت دعوته الى التمسك بمبدأ الاختيار تشمل الجوانب الدينية والاجتماعية والسياسية وتهدف أيضا الى اشعار المسلم بأن فى أصول عقيدته ما يغنيه عن البحث فى كتب الغربيين · ورغم سمو هذه المقاصد فلقد وجدت آراؤه من يعارضها ويقاومها بشدة سواء أكان ذلك بين من عاصره أو بين من تأخر عنه قليلا مثل مصطفى صبري الذي كان يشغل منصب شيخ اسلام بالخلافة العثمانية قبل أن يزيلها مصطفى كمال ·

رأي مصطفى صبـري :

يمثل مصطفى صبري طائفة الذين استمروا فى العصر الحديث يدافعون عن نوع من الجبرية ظنها قريبة الصلة بالكسب • وألف للدفاع عن نفسه كتابا كبير الحجـــم أسماه « موقف البشر تحت سلطان القدر » •

ففسر القدر بأنه : « عدم التصديق بأن الله تعالى خالق لافعال العباد من خير وشر » وذكر عدة أحاديث واردة فى ذم القدر هذا أحدها : « قال (ص) : أخاف على أمتي من بعدي ثلاثا : حيف الايمة وايمانا بالنجوم وتكذيبا بالقدر » (25) •

والدافع له على الخوض فى هذا الموضوع هو مقاومة النزعة التى جعلت جانبا من معاصريه يجارون الاوروبيـــين في قولهم بحرية الانسان • فمجاراة الغرب تـــؤدى الى ظهور نزعات معادية للاسلام كالكمالية مثلا •

وهو يرى أن الاوروبيين اتخذوا من موضوع القدر ذريعة لمهاجمة الاسلام حتى ان بعضهم ألف كتابا في ثلاثة أجزاء سماه « علم القضاء والقدر أو سر تأخر المسلمين » •

ان مهاجمة الغربيين للاســـلام الداعي للايمان بالقدر كان الدافع الاول لمصطفى صبرى على تاليف كتابه المشار اليه فهو يقول : « ••• وصفوة الكلام ان القدر الوارد فى الاحاديث بشأن القدر غير متوجه الى مذهب الاشاعرة الكاملي الايمان بالقدر ، بل موجه الى مذهب المعتزلة وأحفادهم المقتفين بآثار الغربيين فان تكلمت أنا فى القدر فلم يكن ذلك مني لانكاره بل لاثباته وتحديد الايمان به • وما كنت بحاجة الى التكلم فيــه لو لم يتكلم غيري ضـــده •

وقد كان لا ينظر الى مذهب المعتزلة فى مسألة أفعال العباد بنظر الاعجا بفلماذا عد ذلك بعد تفرنجه حسنا مرغوبا فيه حتى عند علمائنا ؟ (26)

ووضح رأيه فى القضاء والقدر فى هذه الفقرة : « فمذهبي الذى أريد اثباته فى هذا الكتاب أن العباد يفعلون بارادتهم واختيارهم ما يريد الله أن يفعلوه ولا يحيدون عنه

فبالنظر الى أنهم لا يختارون الا ما أراد اللــه أن يختاروه ولا يحيدون عنه فهـــم مجبرون أو كأنهم مجبرون •

واني لا أقول كما قال بعض ائمة الدين واختاره المحققون : لا جبر وتفويض ولكن أمر بين أمرين ، بل أقول جبر وتفويض معا ••• فالانسان يفعل ما يشاء ولا يشاء الا ما شاء اللــه أن يشاءه (27) •

ويشتد بمصطفى صبري التصرف الى حد الخروج عـــن موقف الاشاعرة الذين نعتهم بكاملي الايمان والقدر للارتماء فى أحضان الجهمية · وذلك عندما يقول : « ان جميع افعال العبــاد التى تدخــل فى استطاعتهم وتحصل بواسطة ارادتهم ، كبيــرها وصغـــيرها ، مما تراهم يقومون به كل يوم من الاعمال المعتادة لهم هى واقعة تحت حكم الله وارادته · وأن ما يقع فى الكون من الخير والشر الذي يكون مصدره الانسان منهما كله من عند اللـــه » (28) ·

والعجيب فى الامر أن منطلق مصطفى صبري فى بحثه للقضاء والقدر كان هــو بعينه الذى اعتمد عليه جمال الدين الافغاني من قبل وهو تبرئة الاسلام مما حــاول أن يلصقه به المغرضون فى الغرب والبعض من الشرقيين الا أن مسار كلا الباحثين كــان مخالفا تماما للآخر · فجمال الدين الافغاني دعا الى التحرر ونادى مصطفى صبــري بالجبــرية ·

جبـــر أم اختيـــار :

أدى هذا التناقض العميق بين الآراء وهذا الاطلاع الواسع على مختلف جــوانب الموضوع الى التعرف على الموقف السليم الذي قادتنا أليه مختلف التطورات ·

ويتمثل هذا الموقف فى أن الانسان بما وهبه الله من امكانيات عقلية وجسمية ، وبما أنعم عليه به من المؤهلات يستطيع بارادته الخاصة أن يختار طريقة العيش التى تناسبه ، وأن يقبل على العمل الذى يرتضيه والذى نجح فى تهيئة ما يلزمه من متطلبات وهو الذى يحدد بمفرده المدى الذى تقف عنده منفعته أو مضرته ولا يراعي فى ذلــك الاحترام مصلحة غيره الذى قبل عن طواعية معاشرته ·

وهو وحده المستفيد الاول من عمله عند الصلاح والمتحمل الاصلي لمغبة سعيه عند الفساد · فالله حباه بهـــذه الحرية · والآيات صريحة فى ذلك قال تعالى : « من عمـــل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد » (29) وقال أيضا : « فمــن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمـــل مثقال ذرة شرا يره » (30) · وقال : « من يعمل سوءا يُجْزَ بـــه ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا » (31) ·

وأما الآيات المعارضة لهذه فهي خاصة ببعض الظروف العابرة والتى لابد للانسان أن يجتازها فى بعض الاوقات · وهذا ما يجعل الجبرية ، وان استهوت بعض الفلاسفة

والمتكلمين ، لا تستساغ الا فى بعض الاحكام العرفية التى وضعها الانسان بنفسه لمواجهة بعض الطوارىء ·

وفى ما عدى ذلك فانها لم تعد تجد ، بين المعاصرين ، من يدافع عنها بحماس حتى فى الميدان الطبيعى · وذلك لان التقدم العلمي أطلع الناس على كيفية تغيير العناصر وتكييف المبادىء بما فى ذلك الحتميـة نفسها التى دخل عليها الاحتمال فأصبحت تخضع لمعطيات النظرية النسبية ·

ولا يفهم من هذا الكلام أن الانسان أصبحت له الحرية المطلقة فى جميع تصرفاته لان الحرية المطلقة كما عبر عن ذلك الفيلسوف الفرنسى « سآرتر » هي التى تبلغ حدا تنكر فيه حتى وجودها · فلابد اذا أن تكون لها بعض الحدود التى منها ضرورة وجود المقيـم ·

فالانسان وان كان هو المصدر الاول لعمله فلابد له من مقيم لعمله ذاك وهو الحـق الذي يرجع الى اللـه ·

ومن العبث أن يحاول الانسان أن يكون فى نفس الوقت القائم بالعمل والمقيم له ·

لذا أسندت الشرائع تلك المهمة الى الله الذى وضع لنا سلما فى ذلك يعد الرضا به أمرا لازما للعمل وان لم يكن من طبيعته · والتسليم بوجود المقيم هو شرط أساسي لكل حياة حـرة · وبسر الدين علي الناس هذا التسليم عندما طلـب منهم الاقتداء بالرسل (ص) أولئك الذين كانت لهم حرية تغيير تفكير وحياة اكثرية أبنـاء الانسانية وجعلوا من اقتدى بهم ينتمي الى خير امة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر .

التعاليـــــق

1) انظر جريدة La Presse بتاريخ : 8 أكتوبر 1978 : Vatican : A la recherche d'un bon pasteur italien

2) المؤمنـــون : 115

3) الذاريـــات : 56 ·

4) قال الكندى : « نظرا لانه لا يمكن أن يقع من النجم والشجر سجود حقيقى بحسب الاصطلاح الشرعى فمعناه هو انها بجريانها على مجاريها والتزامها حركاتها الثابتة التى تنشأ عنها الظواهر الجوية والحوادث الارضية من كون وفساد وتغير تحقق ارادة بارئها وتنتهى الى أمره ، وتؤدى وظيفتها المعينة لها فى نظام العالم » · (رسائل الكندى الفلسفية ص 54) ·

5) قال تعالى : «وسخر لكم ما فى السموات وما فى الارض جميعا منه» (الجاثية : 45) ·

6) القلـــم : 35 ـ 36 ·

7) ص 28 ·

8) فصلت : 46 ·

9) الانفـــال : 51 ·

10) رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح ·

11) يقول النبى (ص) : « لو تعلقت همة المرء بما وراء العرش لناله » ·

12 Engels : Anti-Duhring

13) يوسف كرم : كتاب الطبيعة وما بعد الطبيعة ·

14) اللامعقول أى الذى يتجاوز الحدود المشهورة للعقل ·

15) الوجودية نزعة فلسفية تسعى الى معرفة الانسان المفرد المتشخص الممثل ، فى نظرها ، وحده الكائن الحق والموجود الحق وترفض للوصول الى تلك المعرفة الانطلاق من الانسان كجنس لان الانسان الفرد قادر على استخلاص أخلاقه واتجاهاته من مجرد معرفته لنفسه · وهو ما يصاغ فلسفيا فى هذه الكلمة « الوجود سابق للماهية » ·

وتعطى الوجودية أهمية كبرى للوجدان وللمشاعر بوصفها تساعد العقل على حل المشاكل الحياتية • وذهب البعض الآخر من الوجوديين الى حد انكار قدرة العقل على حل تلك المشاكل •

16) قال تعالى : من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه (البقرة) •

17) رسالة فى القضاء والقدر ص 67 •

18) رسالة التوحيد ص 59 •

19) « « ص 60 •

20) « « ص 62 •

21) الانعام : 162 •

22) على هامش رسالة التوحيد : ص 155 •

23) رسالة التوحيد ص 156 •

24) « « ص 160 •

25) أخرجه ابن عساكر عن أبى محجن •

26) مصطفى صبرى : موقف البشر تحت سلطان القدر ص 27 •

27) « « « « « ص 47 •

28) يتعارض هذا الكلام مع صريح الآية : « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك » (النساء) •

29) فصلت •

30) الزلزلة

31) النساء •

الصوفية والعقيـدة الجبرية

توفيق بن عامر
أستاذ بدار المعلمين العليا
– تونس –



تـوطئـة :

تعتبر مسألة الجبر والاختيار من المسائل الهامة التى شغلت حلقات الجدل وعلم الكلام فى تاريخ الاسـلام ، وتبوات مكانة مرموقة بين مشاغل الفرق وارباب الملل والنحل ، وقد اسفر تدارسها عن وجهات نظر مختلفة اذ ذهبت فرقة الى نفي الاختيار واثبات الجبر فسميت بالجبرية فى حين ذهبت أخرى الى الايمان بقدرة الانسان على خلق أفعاله فعرفت باسم القدرية وفضلت مـذاهب أخرى حلولا وسطى بين هذين النقيضين كالحل الذى ارتأته الاشعرية فى اقرارها بمبدا الكسب • ولا حرج فى ان نقول انه ما من فرقة فى تاريخ الاسلام الا وكان لها مـوقف من هذه القضية ورأي تنفرد به عن غيرها أو تشترك معها فيه فلابد اذن ان نحاول التعرف على موقف المتصوفـة من مشكلة الجبر وهى احد وجهى هذه القضية التى تقوم عليها مسؤولية الانسان وينبنى عليها مصـيره وعلاقته بخالقه • وقد يكون مـن الطرافة بمكان

كبير ان نبحث عن صدى العقيدة الجبرية فى مذهب لا يعد عادة من المذاهب الكلامية لانه لم يؤسس على الحجاج المنطقى والاستدلال النظري وانما عماده الذوق والتجربة الروحية

عـلاقة التصوف بمبـدأ الجبـر :

لم يكن للتصوف الاسلامي فى عهوده الاولى علاقة بمبدأ الجبر والاستسلام بل كان على العكس مـن ذلك مذهبا اخلاقيا ينبني على تهـذيب الـروح وتصفيتها من الصفات المذمومة بشتى الرياضات والمجاهـدات ويتطلب من السالك لطريقه ارادة قوية تمكنه من السيطرة على غرائزه ونزوات نفسه ، وقد نجح الصوفية فى قمع شهواتهم وضربوا على هذا النجـاح أروع الامثلة وادلها على قوة العزيمة وثبات التصميم وابعدها عـن الميوعة والضعف والانحلال وحسبنا شاهدا على موقفهم هذا قول أبى يزيد البسطلمي : (كنت اثني عشر سنة حداد نفسي وخمس سنين مرآة قلبي وسنة أنظر فيما بينهما فاذا فى وسطى زنار ظاهر فعملت فى قطعه اثنى عشر سنة ، نظرت فاذا فى باطنى زنار فعملت فى قطعه خمس سنين أنظر كيف أقطع فكشف لي ذلك فنظرت الى الخلق فرأيتهم موتـى فكبرت عليهم أربع تكبيرات) (1) .

وكان أوائل الزهاد والمتصوفة يشاركون الناس حياتهم ويقومون بدور فعـال فى توجيه المجتمع واصلاحه ويحثون على الجد والعمل ، ومن اليسير علينا ان نجـد فى مواعظ الحسن البصري محاولة جدية لمقاومة الادواء الاجتماعية والسياسية والعقائدية فى عصره وسعيا لتغيير الاوضاع وتحسينها مما لا يدع مجالا للريب فى إن هذا العـلم الذى ينتسب اليه الصوفية غالبا قد كان يؤمن بقدرة الانسان على تقرير مصيره وبـأنه مخير ومكلف وليس مجبرا ومسيرا ، ولم يكن الا وزاعي وسفيان الثورى فى مواجهـة الخليفة المنصور (2) وصالح بن عبد الجليـل فى صراحته مع المهدى (3) وابن السماك فى وعظه للرشيد (4) اقل ايمانا بمسؤولية الانسان وواجبه فى هذه الحياة .

وقد بات من الثابت ان اسم المتصوفة قد اطلق لاول مرة بمصر على جماعات كانت تامر بالمعروف وتنهي عن المنكر وتتدخل فى شؤون الحكم متصدية لجور الحكام وعسفهم ومما اثر عنها فى هذا المجال انها تسببت فى خلع بعض الولاة (5) وقد اقتفى كبـار

1) الرسالة القشيرية ـ ص 48 ـ مصر 1330 هـ .
2) العقـد الفريد ـ ج 3 ص 65 .
3) نفس المصدر ـ ج 3 ص 158 .
4) نفس المصدر ـ ج 3 ص 164 .
5) هـو أبو اسحاق المعتصم احد ولاة مصر فى عهـد المامون ـ أنظر ـ الـولاة للكنـدي ـ ص 445 .

الصوفية اثر سلفهم فى هذه النـزعة العملية وفى الايمان بجدوى العمل ولـم يمنعهم تصوفهم من المشاركة الفعلية فى أمور الدنيا واعتبروا التصوف عقيدة وجهادا ٠ ويكفينا دليلا على نظرتهم هذه قول جـلال الدين الرومي : (ان اللـه وهـب الانسان الاعضاء والجوارح ومواهب وطاقات فدل ذلك على انه يريد منه السعي والجهد كما اذا منـح سيد عبده فاسا أو معولا فالظاهر انه يريد منه ان يحفر الارض أو يشق صخرة نطـق بذلك أم لم ينطق ولما أعطانا الله هذه الايدى العاملة والسواعد القوية والاقدام السائرة والطاقات الغنية فانه يريد منا بداهة ان نشتغل ونستخدم قوانا ونكدح فى الحياة ونجاهد فيها ونكسب رزقنا بقوة اليمين وعرق الجبين ٠٠٠ فالسعي شكر لنعمة القدرة والجبـر كفران لهذه النعمة والله يقول : «ولَئِنْ شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابى لشديد» (6) فاكسب وصب عرق الجبين ثم توكل على الرازق ذي القوة المتين (7) ٠ فقد آمن جـلال الدين الرومى بعقيدة الاختيار ايمانا جعله يسلـم بها عند الانسان والحيوان ويعتبرها فطرة فطر الله عليها خلقه يقول متحدثا عن الانسان (لو كان الجبر لما توجه الامـر والنهي الى الانسان وما كلف الانسان بالشرائع والاحكام فهل سمع انسان يأمر حجـرا وينهاه ؟) (8) ثم يردف متحدثا عن الحيوان : (اذا ضربت كلبا بحجر هجم عليك وأراد أن يعضك ولم يقبل على الحجر وينتقم منه كذلك اذا ضرب السائق بعيرا وهاج البعـير لم يثـر على الهراوة التى ضرب بها ، انما يثور على الجمال المسرف فى ضربه ، فعـار عليك أيها الانسان العاقل ان تنسب الجبر الى الانسان ويفوقك الحيوان غير العاقل فى فهم هذه الحقيقة وادراكها) (9) ٠

ويمكن القول فى ايجاز بان كبار الصوفية الذين لم يخرجوا عن سبيل السلف ولـم يخضعوا لتاثير المعتقدات الاجنبية عن الاسلام قد اعتبروا الانسان مكلفا اي مامـورا ومنهيا لانه قادر على الاختيار بين الخير والشر ولولا ذلك لما كان للامر والنهي الوارد فى القرآن معنى فى رأيهـم ولسنا نريد سرد العديد من الامثلة على هذا الفريق مـن الصوفية وانما نبغى الاجتزاء بقـول الغـزالى مفندا لعقيدة التوكل كما فهمها الجبرية ومبينا لاعمال المتوكلين يقول : (وقد ظن الظانون ان المتوكل ينبغى ان يكون كلحم على

---

6) القرآن ـ السورة ابراهيم الآية 7 ٠
7) مثنوى ـ ص 27 ٠
8) المصدر نفسه ـ ص 461 ـ 462
9) المصدر نفسه ـ ص 463 ٠

وضم وهذا غلط ونحن نبين ذلك فنقول : تلك الاعمال تنقسم الى جلب النافع وحفظه ودفع الضار وقطعه ...) (١٥) .

نشأة الجبر الصوفى :

الا ان التصوف الاسلامي لم يلبث ان تردى فى هوة الانفصال عن معترك الحياة والاستسلام للاقدار حتي امسى اسم التصوف مرادفا للتواكل والحتمية والسلبية وادى الامر الى نشأة عقيدة جبرية اعتنقها اعلام صوفيون تأثروا بنظريات أجنبية والى ظهور فرق جعلت من الضعف والعجز مبدأ أساسيا وعلمت الانسان الخضوع والخنوع والتغاضى عن المسؤولية بدعوى تفويض الامور الى الخالق فحاد الصوفية بذلك عن طريقهم الاول وصاروا يعرفون التصوف بأنه (الصبر تحت الامر والنهى) بعد أن كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .

لكن الاسباب التى حدت بالصوفية الى توخى هذا الاتجاه تبدو معقدة وجديرة بالملاحظة والدرس ولعل بعضها يرجع الى طبيعة التصوف نفسه وما يقوم عليه من سلوك زهدي أساسه نبذ الحياة واعتبارها عرضا زائلا والتعويل على حياة أخرى هي اخلد وابقى وليس من باب الصدفة ان نجد عند أصحاب الطريق نظريات فى الفقر والغنى وتفسيرا اصطلاحيا جديدا لهذين المفهومين وتفضيلا للفقر على الغنى حتى امسى الفقير فى نظرهم هو الغني والغني هو الفقير وحتى اطلق الصوفية على انفسهم لقب الفقراء .

يقول أبو طلب المكى فى مدح الفقر وتفضيله عن الغنى : (ان الفقير الزاهد يدخل الجنة قبل الغني المصلح بخمسمائة عام هؤلاء خصوص الفقراء وان الفقير غير الزاهد يدخل الجنة قبل الاغنياء باربعين خريفا لاجل فقره فقط فصار الاغنياء مفضولين فى الحالين معا ... وقد روينا عن النبىء صلى الله عليه وسلم : (تحية المؤمن فى الدنيا الفقر) ، فجعل الفقر تحية له من ذي التحيات المباركات ، مع الخبر المشهور : (الفقر على المؤمن ازين من العذار على خد الفرس الجواد ، والفقر اختيار رسول الله صلى الله عليه وسلم وشعار الانبياء وطريقة علية الصحابة الاصفياء وروينا فى الخبر (آخر الانبياء دخولا الجنة سليمان بن داود لمكان ملكه وآخر اصحابي دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لاجل غناه فى الدنيا) وفى الخبر الآخر (رأيته يدخل الجنة زحفا) ولا تعلم فى الامة أفضل من طائفتين المهاجرون وأهل الصفة وجميعا مدح الله تعالى بالفقر فقال للفقراء المهاجرين (**الذين أحصروا فى سبيل الله**) فقدم وصفهم بالفقر على أعمالهم الهجرة

والحصر والله تعالى لا يمدح من يحب الا بما يحب ولا يصفه حتى يحبه (11) ·

وليست هذه الآراء هي وحدها التى بعثت الروح الجبرية فى الكيان الصوفي بل ان من أسباب رسوخ مبدا الجبر فى العقيدة الصوفية هو التأثر بفلسفات دخيلة يؤمن أصحابها بضرورة القضاء على الارادة الانسانية وصهرها فى المشيئة الالهية وبافناء الذات البشرية أو « الانا » فى الذات الالهية أو المطلق على حد قولهم فنجم عن ذلك اتجاه صوفي جديد وظهر متصوفة آمنوا بالحلول ووحدة الوجود وأسقطوا عن العباد كل مؤونة حتى مؤونة التكليف بالواجبات الشرعية ·

ولم يكن التصوف علاوة على ذلك بمعزل من المذاهب الكلامية فقد تأثر اربابه بما كان يخوض المتكلمون فيه من مسائل عقائدية كبحثهم فى الذات والصفات والقدر وسائر القضايا الكلامية ولعل ما نقرؤه اليوم فى مؤلفات الصوفية يشهد بأنهم لم يكتفوا بهذا التاثر وتجاوزه الى وضع نظريات خاصة بهم فى هذا الموضوع ردوا بها على أصحاب الآراء المخالفة لهم · فكان تأثرهم بالمعتزلة مثلا واضح المعالم فتكلموا مثلهم فى مشكلة التنزيه وقال أحدهم وهو أبو علي بن الكاتب الصوفى (12) ان المعتزلة نزهوا الله من حيث العقل فأخطأوا والصوفية نزهوه من حيث العلم فأصابوا (13) كما تكلموا فى موضوع الجبر والاختيار وقدرة الانسان على خلق افعاله وهو من المواضيع الجوهرية التى خاض فيها أهل العدل والتوحيد لكنهم اذا ما أخذوا عن المعتزلة طريقة الاستدلال والاحتجاج فانهم قد خالفوهم فى الاعتقاد وان كان هذا الخلاف لا ينفى ذلك التاثر المشار اليه · ومما يؤكد هذه العلاقة بين التصوف والفرق الكلامية اعتناق كثير من المتكلمين مذهب التصوف ويمكننا ان نجد مثالا على ذلك فى اعتزال أبى حيان التوحيدي وتصوفه (14) وكذلك أبى القاسم الزوزنى الشاعر المعتزلي (15) ·

الا أن الصوفية لم يكونوا علماء كلام بالمعنى الاصطلاحى للعبارة وذلك لانهم لم يخوضوا فى التفاصيل والجزئيات الجافة التى تورط فيها أرباب الملل والنحل ولم يقتصروا على المسائل النظرية المجردة في عقيدتهم بل فضلوا أن يكتفوا من ذلك بما

---

11) قوت القلوب : ج 1 ص 242 ـ 243 ·
12) توفى سنة 340 هـ ·
13) الرسالة القشيرية ص 27 ـ ط مصر سنة 1346 هـ الحضارة الاسلامية ج 2 ص 42
14) الارشاد لياقوت ج 5 ·
15) يتيمة الدهر ص 324 ·

يوضح موقفهم من جل المسائل التى كانت المذاهب الاخرى تعالجها واختاروا ان يعملوا بعقيدتهم ويعيشوها اكثر مما يتكلمون فيها وهو ما سنلاحظه عندما نتعرض لرأيهم فى قضية الجبـر والاختيار ٠

الجبـر الصـوفي أو التـوكل :

لقد تظافرت كل هذه العوامل اذن على السير بالصوفية فى طريق الاعتقاد الجبـري واذا ما رمنا البحث عن أول من خط للصوفية نهج الرضى بمشيئة القضاء والتجرد من كل بادرة شخصية وعلمهم الاعتقاد بأن اعتبار المجهود البشري يعد مشاركة لله فى قدرته فاننا نجـد فى أقوال شقيق البلخى (16) ما يدل على انه مؤسس هذه المبادىء ومرسخها حتى تسنى لها الانتشار بعد ذلك ٠ ولعـل كلا من البلخى والمحاسبى (17) قد عمل على نشر مذهب الاستسلام وان كان المحاسبي مع قوله بالتوكل يعتبر السعي وراء الـرزق واجبا ينال الانسان عليه الثواب وينتقد فى كتاب المكاسب موقف البلخى الذى يـرى التـوكل من غير عمـل ٠

وتتمثل العقيدة الجبرية عند الصوفية فى أن الله خالق لافعال البشر كلها خـيرها وشرها وان الانسان مسير فى تصرفاته وأعماله بقضاء الله وقدره فلا يتنفس نفسها ولا يطرف طرفة ولا يتحرك حركة الا بارادته ومشيئته واحتجوا لذلك بأن الله لو كان خـالقا للاعيان دون الافعال لما صح قوله : « خالق كل شيء » (18) وقوله : « والله خلقكم وما تعملون » (19) ولكان الانسان أكثر قدرة على الخلق لان الافعال فى الوجود أكثر مـن الاعيان وبرهنوا على خلق الله لفعل الشر بأنه لو كان خالقا للخير دون الشر لكان لـه فى خلقه شركاء ولما كان لقولـه (**من شر ما خلق**) (20) معنى كما نظروا فى القضية من طرفها الثانى أى المخلوق فتناولوها هذه المرة من الجانب النفسـانى والجسمانى بعد أن تناولوها من الجانب العقائدي الماورائى فتعرضوا لاحساس الانسان بالقدرة على الفعل وباستطاعته التحكم فى أعضائه التى بها يفعل فاذا هم لا يعترفون له حتى بهذه الاستطاعة ويرونها غير بشرية ولا علاقة لها بسلامة الاعضاء اذ كـم من صاحب أعضاء سليمة لا يقوم بفعل ولا فرق عندهم بين حركة العضو السليم وحركة المرتعش لان كلا منهما من

16) توفي سنة 194 هـ انظر الحضارة الاسلامية : هامش ص 46 ، ج 2 ٠
17) توفي سنة 243 هـ ٠
18) سورة غافر آية 62 سورة الزمراية 62 ـ سورة الانعام آية 102 سورة الرعداية 16
19) سورة الصافات آية 96 ٠
20) سورة الفلق آية 2 ٠

خلق الله وبأمر منه • وتاويل ذلك فى رأيهم ان الله يكسب العضو قوة عند الفعل تـزول بزواله وهي قوة لا وجود لها قبله ولا استمرار لها بعده اذ هي عرض لا يقوم بنفسه ولا بقاء لـهوبذلك يبقى الانسان دائما مفتقرا الى اللـه وهذا معنى قوله تعـالى (ايـاك نستعـين) (21) •

لكن العقيدة الجبرية عند الصوفية قد تبلورت خاصة فى مظهر دينـي عملـي وفى ضرب من السلوك يسمونه التوكل ويعتبرونه أحد مقاماتهم التى يمرون بها فى معراجهم الصوفى • ولعلنا لا نعدو الصواب اذا قلنا ان عقيدتهم الجبرية لا تقوم على الاستدلال المنطقى بقدر ما تقوم على هذا النوع من التجربة الروحية التى يعيشها المريد ويؤمن بها عميق الايمان • واذا ما طالعنا بعض التعريفات والحدود التى وضعها المتصوفة للتوكل كقول سري السقطي (22) (التوكل الانخلاع من الحول والقوة) (23) وكقول ابن مسروق (24) التوكـل الاستسـلام لجريـان القضـاء فى الاحكـام (25) • وكقـول التسترى (26) التوكـل الاسترسال بين يـدى الله (27) فهمنا مـدى ما وصـل اليه هؤلاء من الثقة بالله والاستسلام لقدره • وقد حاول الصوفية أن يطبقوا فى حياتهم هذه المبادىء والآراء فوصلوا من ذلك الى محو كل ارادة شخصية واستقبحوا الاعتماد على النفس واعتبروه تقصيرا فى جنب الله وجعلوا (أول مقام التوكل أن يكون العبد بـين يدى الله عز وجل كالميت بـين يدى الغاسل يقلبه كيف شاء لا يكون له حركة ولا تدبير) (28) وأحسن دليل على هذه العقيدة وما تجسدت فيـه مـن تصرف مـا وراه الهجويري من أن درويشا وقع فى دجلة فرآه رجل وأدرك أنه لا يعرف السباحة فقال له

---

21) سورة الفاتحة آية 5 ، راجع كتاب التعرف ، الباب 13 و 14 الصفحات 50 ، 61 ، 62 ، 63 •

22) هو أبو الحسن سوى بن المغلس المسقطى أستاذ البغداديين وامامهـم فى وقته تـوفي سنة 251 هـ •

23) التعرف ـ ص 120 •

24) توفى سنة 299 هـ وصحبالسرى والمحاسبى وغـيرهما وكان من كبـار مشائخ القـوم وعلمائهـم •

25) التعـرف ص 120 •

26) هو أبو حجر سهل بن عبد الله التستري توفي سنة 283 هـ •

27) التعـرف ـ ص 120 •

28) أنظر باب التوكل من الرسالة القشيرية •

(أتريد أن أرسل اليك من ينقذك ؟ فقال : لا · فقال له الرجل : أفتريد أن تغرق ؟ فقال : لا · فقال له فأي شيء تريد ؟ فقال : أي شيء أريد ؟ أريد ما يريد الله لي) (29) وطبيعى أن يؤدي هذا الضرب من التفكير والسلوك الى عزوف عن السعي والداب وراء الرزق واذا كان بعضهم يرى كالقشيري (ان التوكل محله القلب وانه لا ينافى السعي والحركة لان ما تعسر من الكسب فبتقدير من الله وما اتفق فبتيسير منه)(30) واذا ما كان هؤلاء يتمثلون قول الرسول (اعقلها وتوكل) فان غيرهم يعتبر الكد عديم الجدوى ما دامت الارزاق قد قدرت وقسمت فراحوا يعظون مريديهم ويقنعونهم (بأن لكل عبد رزقا هو آتيه لا محالة ولو هرب العبد من رزقه كما لو هرب من الموت لا دركه) (31) (وان من اهتم برزق غد وعنده اليوم قوت فهي خطيئة تكتب عليه) (32) وذهب بعضهمّ الى أن الارزاق قد كتبت فى اللوح المحفوظ وخلقت قبل خلق الاجسام بالفى عام (33) وهكذا اسلموا انفسهم لعناية الله واعتقدوا أن العلي القدير كفيل بأن يكفيهم حاجتهم فلم يمارسوا تجارة ولا تعاطوا دواء فى مرضهم وأيقنوا أن حظهم الذي كتب لهم سيصيبهم حتما كما يصيب الطير ، وقد خاطب شقيق البلخى أحد مريديه قائلا (ليس لك بد من أن تجعل عملك كله لله لا لغيره وأنت لا تجعل عملك لغيره الا طمعا فيه أو حياء أو خوفا منه فاذا خفت أو طمعت فى غيره وهو مالك الاشياء ورازقها فقد اتخذت الها غيره) (34) وسال المنصتين لوعظه مرة (أرأيتم ان اماتكم الله اليوم يطالبكم بصلاة غد ؟ قالوا : لا · يوم لا نعيش فيه كيف يطالبنا بصلاته فقال : فكما لا يطالبكم بصلاة غد فانتم لا تطلبوا منه رزق غد عسى الا تصيروا الى غد) (35) وليس غريبا أن يقول بعضهم فى شرحه لغاية التوكل (من أراد أن يقوم بحق التوكل فليحفر لنفسه قبرا ويدفنها فيه وينسى الدنيا وأهلها لان حقيقة التوكل لا يقوم له أحد من الخلق على كماله)(36) وكأن ابا سعيد الخراز قد شاء تحقيق هذا الكمال فيما رواه عن نفسه قائلا : (دخلت البادية مرة بغير زاد فاصابتني فاقة فرايت المرحلة من بعيد فسررت باني وصلت ثم فكرت فى

29) كشف المحجوب من ص 180 و 379 ــ الصوفية فى الاسلام ص 45 ·
30) انظر باب التوكل من الرسالة القشيرية ·
31) قوة القلوب ج 2 ص 7 ·
32) المصدر نفسه ص 7 ·
33) المصدر نفسه ص 7 ·
34) حلية الاولياء ج 8 ص 64 ·
35) المصدر نفسه ج 3 ص 69 ·
36) اللمع ص 53 ·

نفسى انى سكنت واتكلت على غيرى فأليت الا ادخل المرحلة الا ان أحمل اليها فحفرت لنفسى فى الرمل حفرة وواريت جسدي فيها الى صدري فسمعوا صوتا فى نصف الليل عاليا : يا أهل المرحلة ان الله تعالى وليا حبس نفسه فى هذا الرمل فالحقوه ، فجاءنى جماعة فأخرجونى وحملونى للقرية (37) ·

هذه بعض الامثلة من سلوك القوم وتفكيرهم وهى لا تؤدى فى كل الحالات الا الى خلق صنفين من البشر صنف يعيش كلا على غيره وصنف مسالم لا يبالي بالاذى والعذاب ويعتبرها أحداثا جارية فى مأساة الحظ الابدية (38) ولا يسع الدارس الا أن يستنتج أن الصوفى قد صار درويشا هائما على وجهه فى البلاد بدون زاد حتى لا يفسد التزود اتكاله على الله فكان يحج الى مكة ماشيا على القدمين فارغ الجراب لا يبالي بأن يهلك تعبا وجوعا ومن المرجح على حد قول نيكلسون (أن يكون بعض هؤلاء المتوكيلين قد قضى نحبه على هذا النحو (39) وهو ما دعا سفيان الثوري الى القول بأن (من رفض السؤل فمات جوعا ألقى الله به فى النار) (40) الا أن الصوفية أنفسهم قد عدلوا بمرور الزمن من معنى التوكل نظرا لظروف حياتهم القاسية ولما يمكن أن ينجر عنه من آفات فصاروا يرون أنه لا يتنافى مع الكسب وأمسى بعضهم يرى ضرورة التداوي من الامراض بعد أن كانوا يرفضون التطبب ·

الجبر والتدهور الصوفى :

لكن مذهب التوكل قد أدى فى عصور الانحطاط وعند انتشار الفرق الصوفية الى استفحال ظاهرة الحتمية والاستسلام ومما أعان على انتشار هذه الافة اكرام جمهور العامة لاهل الطرق واسعافهم لهم بالولائم فى كل مناسبة فكانوا بذلك يكفونهم مؤونه التسول والكدية وقد وصف لنا المقدسي ولع الناس باستضافتهم (41) كما وصف لنا غيره من المتأخرين تهالكهم على الطعام حتى أمسوا مشهورين بالنهم فى الاكل بعد أن

---

37) الرسالة القشيرية ص 104 ·
38) الصوفية فى الاسلام ص 50 ·
39) فى التصوف الاسلامي ص 55 ·
40) المرجع نفسه (فى التصوف الاسلامي ص 55) ·
41) أحسن التقاسيم ص 417 ·

كانوا معروفين بالتقلل منه (42) وكانوا وما زالوا يسمـــون بعض أنواع الغذاء المجانى فتوحا لانها باب من أبواب الرزق التى فتحها الله لهم لقاء اعتكافهم وتحنثهم · ومما يذكر عنهم فى باب النهم ما يروي من أن أبا علي الروذباري (43) (اتخذ مرة أحمالا من السكر الابيض ودعا بجماعـة من الحلوانيـين حتى عملوا من السكر جدارا عليـه شرافات ومحاريب على أعمدة ونقشوهـا كلهـا من سكر ثـم دعا الصوفية حتى هدموها وكسروها وانتهبوها) (44) ولسنا هنا بصدد تعداد الانحرافات التى آل اليها التصوف الاسلامي وانما هدفنا التأكيد على أن هذه العقيدة الجبرية قد تسببت فى تدهور التصوف وفى توجيهه وجهة لم يكن ينحو نحوها فى عهوده الاولى ويبدو أن تأثير هذه العقيدة قد تجاوز الميدان الصوفى ليشمل فى وقت ما حياة المسلمين الدينية بصورة عامة ونحن لا نشك فى أن المجادلات الكلامية فى قضية الجبر والاختيار لم تؤثر فى الاسلام بقدر ما أثرت فيه عقيدة التوكل الصوفى وذلك لان المتصوفة قـــد جعلوا من هذه العقيدة طريقة فى العيش اتبعهم فيها غيرهم وأصبغوا عليها لونا دينيا واعتبروها من طقوس العبادة حتى ظن العوام أنها من صميم الديانة وهكذا انعكس هذا الاعتقاد حتى فى لغة الخطاب وما زلنا الى اليوم نحتفظ فى كلامنا بعبارات هي من وحي الجبر الصوفى الدال على الرضى بمجاري القضاء واعتبار الرزق هبة نازلة من السماء ·

---

42) الحضارة الاسلامية ج 2 ص 33 — 34 ·

43) أحد الصوفية البغداديين توفى سنة 322 أو سنة 323 هـ ·

44) الحضارة الاسلامية ج 2 ص 34 ·

المصـــادر والمراجـــع

1 ـ المصـــار العامـــة :

ـ القـــرآن
ـ العق دالفريد لابن عبد ربه ـ القاهرة 1956/1375 ـ 8 اجزاء ٠
ـ ارشاد الاريب الى معرفة الاديب لياقوت الحموى ـ مصر 1923 ـ 7 أجزاء ٠
ـ يتيمة الدهر للثعالبى ـ القاهرة ـ 1947/1366 ـ 4 أجزاء ٠
ـ أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم للقدسى ـ ط 2 ـ ليدن ـ 1906 ٠

2 ـ المصادر الخاصـــة :

الرسالة القشيرية فى علم التصرف لابى القاسم عبد الكريم بن هوان القشيرى ط ٠ مصر ـ 1330 هـ و ط ٠ مصر ـ 1346 ٠
ـ المرشد الامين الى موعظة المؤمنين من احياء علوم الدين لابى حامد الغزالى ط 2 صطفى بابى الحلبى بمصر 1956 ٠
ـ مثوى لجلال الدين الرومى ـ ط 2 لندن 1898 ترجمة هوينفيلد Whinfield
ـ قوت القلوب فى معاملة المحبوب ـ ط القاهرة 1310 هـ (جزان) ٠
ـ التعرف لمذهب أهل التصوف لابى بكر محمد الكلابادى ط 1 ـ مصر بدون تاريـــخ ٠
ـ اللمع لابى نصر السراج الطوسى ـ مصر 1380 هـ ـ 1960 م ٠
ـ حلية الاولياء وطبقات الاصفياء لابى نعيم الاصفهانى ط 1 مصر 1357 هـ 1938 م

3 ـ المراجـــع العامـــة :

ـ الحضارات الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى لآدم متز ـ ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة ط 4 بيروت 1387 هـ ـ 1967 م ج 2 ٠
ـ المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم محمد فؤاد عبد الباقى ـ كتاب الشعب مطابع الشعب 1278 هـ ٠

4 ـ المراجـــع الخاصـــة :

ـ الصوفية فى الاسلام : ر ـ أ ـ نيكلسون ترجمة نور الدين شريبة ـ مصر 1951
ـ فى التصوف الاسلامى وتاريخه : ر ـ أ ـ نيكلسون ـ ترجمة أبو العلاء عفيفى القاهرة 1956 ٠



اتصـــاف أهــل الفســاد بالنفـــاق والعنـــاد

سليمـــان المـــدنى
عضو هيئة التوجيه الدينى
بوزارة الشؤون الدينية ـ الجزائــر

بدانا فى عدد 40/39 من الاصالة بتاريخ ذى القعدة ذي الحجة 1396 هـ نوفمبر ـ ديسمبر 1976 م بتفسير القرآن فى خطب الجمعة تفسيرا مبسطا نستقيه من آخر ما وصلت اليه التفاسير ، وما صار اليه البحث العلمى ـ بقدر الامكان ـ ! ، وذلك تعميما للفائدة كما يقال ، وكلمة التعميم هنا فى الصميم يطابق فيها الحال المقال ، حيث ان الخطبة نفسها تذاع على امواج الاثير من الجامع مباشرة ، فيستفيد منها لا جمهور المصلين فحسب ، بل جميع من يستمع الى المذياع داخل البلاد وخارجها ، من استاذ جامعى يساعد زوجته فى المطبخ وقعد عن صلاة الجمعة ، الى الفلاح ، والراعى ، فى حقل هذا وغابة ذاك ، بفضل هذه الآلة العجيبة التى تسمى الترانزيستور • «الأصــالة»

الحمد لله الذى وجهنا الى الخير والاسعاد ، وحذر وانذر مروجى الفتنة بين العباد ، وأشهد أن لا اله الا الله الذى نهى عن الكذب والفساد ، وعن الغش والمراوغة والمكر والعناد ، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذى جاء لتصحيح الاعتقاد ، ونبذ النفاق والتذبذب والالحاد ، صلى الله عليه وعلى آله وصحابته الذين رفعوا منار الاسلام ، وطبقوا الاحكام ، رضى الله عنهم أجمعين •

أما بعد أيها المسلمون ، فيقول الله تعالى فى كتابه الكريم من سورة البقرة موضحا صفة المنافقين الذين اتصفوا بالفساد ، والعناد والالحاد : « **واذا قيــل لهم لا تفسدوا فى الارض ، قالوا انما نحن مصلحون** » ، هؤلاء هم المنافقون المكابرون ، اذا نهوا عن الفساد فى الارض لم ينتهوا ، واذا حذروا أو نبئوا ، تمادوا وموهوا ، وعاثوا وشوهوا ، وقالوا مكابرة ومغالطة : « **انما نحن مصلحون** » يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، ويتظاهرون بالاصلاح والرغبة فيه ، اخفاء لخبثهم وتلونهم حينما يتقابلون مع المؤمنين ، فتلمس فيهم حلاوة اللسان ، ومظاهر الايمان ، حرصا منهم على اخفاء سمة العصيان ،

(*) خطبة الجمعة ليوم 03 رجب 1398 هـ (09 يونيو 1978 م) •

ومهما بالغوا فان قلوبهم منطوية على الخديعة والعداوة والعدوان ، وقد رد الله عليهم وفضحهم بقوله : « **ألا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون** » انهم قد جمعوا الى صفة الكفر ، رذائل الخبث والمكر ، وتلك هي صفة أهل النفاق الذين يضمرون للمؤمنين الحقد والحسد ، وقد وصفهم القرآن بأوضح بيان فقال : « **قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر** » ، وقال : « **ها أنتم هؤلاء تحبونهم ولا يحبونكم ، وتؤمنون بالكتاب كله ، واذا لقوكم قالوا آمنا واذا خلوا عضوا عليكم الانامل من الغيظ ، قل موتوا بغيظكم ان الله عليم بذات الصدور** » واذا عوتبوا عادوا الى اظهار الاسلام والندم، وحلفوا بالله عليه كما أخبر الله عنهم بقوله : « **يحلفون بالله ما قالوا ، ولقد قالوا كلمة الكفر** » وقوله : « **يحلفون لكم لترضوا عنهم** » . واذا كان (الفساد) خروجا عن الطاعة، وعن العقيدة الاسلامية ، واثارة الفتن والانحياز الى الجهة المعادية ، فكيف يقولون : « **انما نحن مصلحون** » واننا بعيدون عن شوائب الفساد،وانما نريد الاصلاح والتوفيق، ففضحهم القرآن في كل ميدان ، لانهم جاؤوا بتحايل الشيطان ، اذ قالوا : « **ان أردنا الا احسانا وتوفيقا** » انهم يؤمنون : « **وجه النهار ويكفرون آخره** » ، اتخذوا لانفسهم وجهين : يقابلون هؤلاء بوجه ، وهؤلاء بوجه ، « **مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء** » ، « **وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وان يروا سبيل الغيى يتخذوه سبيلا ، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين** » « **واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس ، قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون** » .

فالآية الاولى نهت عن الفساد في الارض ، والكفر فساد وعناد ، وعصيان والحاد ، وجاءت الآية الثانية داعية للايمان كافة العباد ، « **واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس** » ايمانا خالصا كايمان من أنعم الله عليهم ورضى عنهم ، كما آمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه وهم معروفون لديكم ومعهودون عندكم ، وقد هاجروا اليكم وهم بين أظهركم ، أو كايمان عبد الله بن سلام واشياعه وهم من أبناء جنسكم،ومواطنون مثلكم، وهذه الدعوة موجهة اليكم : « **آمنوا كما آمن الناس** » ايمان المخلصين الذين دخلوا في السلم كافة ، وأسلموا وجوههم لله ، وفتحوا صدورهم لرسول الله ، صلى

الله عليه وسلم ، يوجههم فيستجيبون مخلصين ، فلماذا لم تكونوا مثلهم مؤمنين صادقين، ملتفين حول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالوا مكابرة واستهزاء : « **أنؤمن كما آمن السفهاء** » ، قالوها منكرين متطاولين متعالين ، كيف يسوى بيننا وبين فقراء المدينة، نحن أهل الرياسة والصدارة ، وهم من السوقة وأوساط العامة !؟ فكان الرد عليهم من الله جل جلاله حازما وصارما : « **ألا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون** » وذلك لفساد طبعهم ، وقلة انتباههم ، وخفة عقولهم ، وطيشهم وعدم ايمانهم ، وقد باعوا آخرتهم بدنياهم ، وذلك هو الخسران المبين، وكانت منزلتهم عند الله أسوأ دار ، فقال تعالى : « **ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار** » ، وذلك لتذبذبهم وعدم ثباتهم، وممالأتهم للكفار والمشركين ، ولليهود الحانقين ، فاكتسبوا من الكفار عنادا وتصلبا ، ومن اليهود خبثا ومراوغة وكذبا ، وبهؤلاء وأولنك كان ارتباطهم ، والتردد عليهم، والرجوع اليهم للاخذ منهم، والاسرار اليهم بما جد عند المسلمين . « **واذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا ، واذا خلوا الى شياطينهم قالوا : انا معكم ، انما نحن مستهزءون** » انها صفة من أضله الله ، فأتبع هواه ، وكان أمره قد بلغ منتهاه ، فى الخسة وفساد الطوية ، والتلون بكل صفة ، وعلى أية حالة ، من المقت والدناءة ، والذل والمهانة ، والمكر والمخادعة .

نجانا الله واياكم من مكر الماكرين ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

الخطبة الثانية

الحمد لله الذى أحيى قلوب المتقين بالعبادة ، وأمات قلوب الكافرين بالمعصية ، وارتكاب الفاحشة ، واشهد ان لا اله الا الله الذى جعل الايمان طريقا الى السعادة ، والعصيان طريقا محفوفا بأنواع الشقاوة ، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله

الذى كانت رسالته رحمة للعالمين، صلى الله عليه وعلى آله، ورضى الله عن التابعين وتابعيهم باحسان الى يوم الدين .

أما بعد أيها المسلمون : فان المنافقين وهم الذين فسد باطنهم كالكافرين ، ولكنهم قد ظهروا بين المسلمين كالمسلمين ، قالوا كلمة التوحيد كما يقولون ، وصلوا كما يصلون ، وظنوا انهم يخادعون الله ورسوله والمؤمنين ، ظهرت هذه الطائفة بالمدينة ، بعد أن أصبح الاسلام فى عزة ، والدعوة سائرة بقوة ، وقوافل الايمان تسير بسرعة ، وأفواج القبائل تدخل فى الاسلام بكثرة .

وهنا قد أحس المنافقون بالخطر ، وتوقعوا من المسلمين الضرر ، فلم يستطيعوا المجابهة والجهر ، ومن عادة الجبناء ان يلجأوا الى الكتمان والتستر ، فهم يسايرون المسلمين فى المظهر ، ويخالفونهم اذا انفردوا وزال الخطر ، واذا لقي هؤلاء المنافقون المؤمنين المخلصين قالوا : آ منا بما آمنتم به فنحن مؤمنون نصدق الرسول ودعوته ، ونحن معكم فى الاعتقاد ، وطاعة رب العباد ، واذا انصرفوا عنهم واجتمعوا بأصحابهم الذين يشبهون الشياطين فى الفتنة ، والفساد والمخادعة ، قالوا لهم : انا معكم على طريقتكم وعملكم ، وانما كان قولنا للمؤمنين ما قلناه لهم استخفافا بهم ، واستهزاء بحالهم، وسخرية منهم ، وقد لعبنا لعبة الخبث معهم ، اذا واجهناهم نبتسم لهم ، واذا انصرفوا عنا وانفردنا سخطنا عليهم ، فكنا غمازين لمازين ، ننهش الاعراض ، نهش الحانق المغتاظ . وقد رد الله عليهم وأوعدهم بأشد العقاب ، وسوء العذاب ، فقال : « **الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون** » فيدعهم الله يتخبطون على غير هدى، تتعذب ضمائرهم ويكتب عليهم الشقاء والهوان ، ويمهلهم فى تيه الضلال عميا لا يجنون الا غيا ، جزاء حماقتهم التى كانت تدبر المكايد ، وتروج الاكاذيب ، وتزعزع المؤمنين ، وتفسد روابط المحبين ، فهؤلاء هم أرذل المنافقين الذين نزلت فيهم سورة كاملة وسميت باسمهم، وقد اهتم القرآن بالحديث عنهم ، والتحذير منهم ، ولفت الانظار اليهم ، لمعرفة أوصافهم، قال تعالى : « **ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم**

فى لحن القول ، هذه أفعالهم فى الدنيا،أما جزاؤهم فى الآخرة قال ابن عباس رضى الله عنهما : (اذا دخل المؤمنون الجنة ، والكافرون النار ، فتح الله من الجنة بابا عـــلى الجحيم فى الموضع الذى هو مسكن المنافقين ، فاذا رأى المنافقون الباب مفتوحا أخذوا يخرجون من الجحيم ويتوجهون الى الجنة ، وأهل الجنة ينظرون اليهم ، فاذا وصلوا الى باب الجنة فهناك يغلق دونهم الباب،فذلك قوله تعالى : « **ان الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ، واذا مروا بهم يتغامزون** » الآية ٠

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب ، وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين ٠

أهـــل الضـــلالة
عمي عـــن الهدايـــة

سليمـــان المـــدنى
عضو هيئة التوجيه الدينى
بوزارة الشؤون الدينية ـ الجزائـر

الحمد لله الذى أمرنا باتباع السنة والكتاب ، فقال : « **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** » وأشهد أن لا اله الا الله الذى توعد أهل الضلالة بالعقاب ، وكل من حاد عن الصواب ، واشهد ان سيدنا محمدا عبده ورسوله الذى جاءنا بالشريعة المطهرة ، للقضاء على الضلالة ، وما يفضى الى الكفر والجهالة .

أما بعد أيها المسلمون، فيقول الله تعالى فى كتابه الكريم : « **أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين** » هؤلاء هم المنافقون المشار اليهم ، وقد تأصل النفاق فيهم ، فلا يطلق الا عليهم ، ولا ينصرف الا اليهم ، فاختص هذا الاسم بهم ، واستقر فيهم ، فتوارثوه أبا عن جد ، فأصبح الاحفاد ، نسخة من الاجداد ، وعرفوا جميعا بالمكر والفساد ، وبالخبث والالحاد ، وبنشر الفتن لتمزيـق الروابط بين العباد ، وقد أعماهم التعصب والطغيان ، وأمد الله فى ضلالهم فكانوا أتباعا للشيطان ، وتحجرت قلوبهم فليس فيها شىء من لرحمة أو الايمان ، ومن كانوا كذلك فهم عرضة للافلاس والخسران : « **ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم** » ،

(*) خطبة الجمعة ليوم : 10 رجب 1398 هـ (16 يونيو 1978 م) .

وها هم استحبوا الضلالة على الهدى لانهم عمي البصيرة ، فاسدو العقيدة ، مرضى العقول بالتشكك والوسوسة ، وقد شبه الله حال تلك الجماعة ، بمن أفلس فى التجارة، حيث عدلوا عن الايمان الى الضلالة ، فصدق فيهم قول الله : « **أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى** » أى الكفر بالايمان ، اذ أخذوا الضلالة وتركوا الهدى ، فهم بذلك قد تشبهوا بأهل ثمود ، فى الكفر والجحود « **واما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى** » هكذا كان اختيار المنافقين الضلالة على الايمان ، وان تباعد بين هؤلاء واولئك من فواصل الزمان ، فقد تشابه الفريقان ، فى الكذب والبهتان ، وفى التعصب وعدم الايمان ، فلا علاج فيمن فسد طبعهم ، وأعمى الله بصائرهم ، وظنوا لجهلهم ، انهم يخادعون الله ورسوله والمؤمنين ٠ فاتخذوا من الايمان المزور رداء ، ومن البشاشة المصطنعة ذكاء ، ومن عنوان الاصلاح مداهنة ودهاء ، ومن مظاهر روح الاستقامة رياء ، ومن المجاملة اطراء وطلاء، واذا خلوا الى شياطينهم قدموا لهم ولاء ، وتعهدا صادقا ووفاء ، قائلين لهم فاطمئنوا ، ان ما جاء وفق حال المسلمين كان سخرية واستهزاء ، جعلوا النفاق وسيلة لتحقيق الاطماع ، فتكيفوا حسبما تمليه الاوضاع ، ويعود عليهم بالانتفاع ، وآثروا الصمت على الكلام ، ليتمكنوا من الانتقام ، وآثروا السعى فى الظلام ، وهكذا فضل المنافقون الاختفاء على الظهور ، والظلام على النور ، للمزيد فى الكيد والحسد والشرور ، « **فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين** » فباءت تجارتهم بالخسران ، وما انتفعوا بما انزل الله على نبيه من آى القرآن ، فكانت خسارتهم من ناحيتين : ناحية خيبة الآمال ، فى تحقيق الارباح وزيادة الاموال ، وناحية الفشل وضياع رأس المال ، وما أسوأ ذلك المآل ، الذى يفقد الانسان فيه رشده ويشقى بالضلال ، ونقل ابن جرير هذه الاستفادة ، التى رواها ابن ابى حاتم عن قتادة ، فى قوله تعالى : « **فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين** » (قد والله رأيتموهم خرجوا من الهدى الى الضلالة ، ومن الجماعة الى الفرقة ، ومن الامن الى الخوف ، ومن السنة الى البدعة) « **فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين** » ٠

ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ٠

الخطبـــة الثانيـــة

الحمد لله الذى هدانا الى اليقين،وأكرمنا بالاسلام الذى هو أفضل دين،وأشهد أن لا اله الا هو الحى القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم • واشهد ان سيدنا محمدا عبده ورسوله الصادق الامين،صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن والاه •

أما بعد أيها المسلمون،فقد سبق لنا فى الآية السابقة ما عرفناه عن حالة المنافقين ، الذين اتخذوا من الاسلام شعارا ، ووقاية لهم وستارا ، وطفقوا يعملون سرا أو جهارا ، فهؤلاء قد وصفهم القرآن بالتذبذب والخذلان ، وضرب مثلا شبيها بحالهم فقال تعالى : (**مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون صم بكم عمى فهم لا يرجعون**) شبه الله حال تلك الجماعة المنافقة السابحة فى ضلالها ، الفالسة فى ايمانها ، المتلاعبة بدينها ، المحتارة فى اختيار طريقها، العاجزة فى تحديد اتجاهها،فحال هؤلاء فى نفاقهم كحال من أوقد نارا لينتفع بها مع قومه ، فلما أنارت ما حوله من الاشياء ذهب الله بنورهم،وترك الذين أوقدوها قصد الانتفاع بها فى ظلمات كثيفة لا يبصرون شيئا مما حولهم من الكائنات ، لأن الله قدم اليهم أسباب الهداية فلم يتمسكوا بها ، فصارت بصائرهم مطموسة ، فاستحقوا أن يبقوا فى الحيرة والضلال جزاء نفاقهم وكيدهم للمسلمين • ويكفيهم عقابا انهم أصبحوا كالصم ، لانهم قد فقدوا منفعة السمع ، اذ لا يسمعون الحق سماع قبول واستجابة ، وهم كالبكم الخرس ، لانهم لا ينطقون بالهدى أو الحق ، وهم كالذين فقدوا ابصارهم لانهم لا ينتفعون بها فى اعتبار و انزجار ، فهم لا يرجعون الى الحق ، ولا يؤوبون الى الرشد ، ولا يهتدون الى النور ، لانهم اختاروا الضلالة على الهدى ، والنفاق والبهتان،على ما جاء به الرسول من سنة وقرآن ، فكان اختيارهم هذا شؤما عليهم ، ومثارا لاتعابهم ، وقد نبه الله رسوله والمؤمنين الى ان يحترسوا من هذه الفئة الضالة ، وان لا يغتروا بها أو بمظهرها وان لا ينخدعوا بأكاذيبها وتمويهها •

وفى هذا المثل العضة البالغة والاعتبار ، لمن تذكر واعتبر من أولى الابصار ، كما أرشد الله سبحانه وتعالى الى ذلك فقال : (**ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون**) وقال:(**هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر أولوا الالباب**) وقال:(**فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين**) ٠

اللهم أعنا على معرفة طريقك المستقيم، واهدنا الى سواء السبيل، واعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك يا أرحم الراحمين يا رب العالمين، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ٠

توضيح حول نشر محاضرات الملتقى

ننشر هذه المحاضرات طبقا لمبدأ نشر كل محاضرات الملتقى الذى أعلنا عنه فى العدد الاول من « الاصالة » تعميما للفائدة ، ولطلب الكثير ممن تصلهم المجلة ولا تصلهم كتب الملتقيات .

وقدقررنا أن ندرج فى كل عدد على الاقل مقالين .

ونرجو أن يكون السادة الاساتذة الذين أرسلوا الينا بمقالات لم نصل بعد الى نشرها وعاتبونا على نشر القديم المتمثل فى هذه المحاضرات من ملتقيات سابقة،وترك الجديد من الانتاج ، قد فهموا الآن قصدنا من هذا .

كما سندرج فى المستقبل فى كل عدد ، بانتظام ، نصا أو نصين من المحاضرات التى درجت الوزارة على تنظيمها خلال القطر منذ سنوات باسم المركز الثقافى الاسلامى .

موقف الاسلام من العقـــل

الاستاذ كمال التارزى
مدير الشعائر الدينية والتعليم الدينى
لدى رئاسة الحكومة ــ تونس

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا محمـد اشرف المرسلين

حضرات الفضلاء العلماء ،

سيدى وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية ،

سيداتى سادتى ٠ ٠ أبنائى بناتى :

انى لاشعر بشرف كبير عندما دعيت من طرف حكومة شقيقـة اكبرنا جهادها وبطولة شعبها واستماتة أبنائها للتخلص من الاستعمار واكبرنا حماسها وجهدها فى تشيد نهضتها ، وتركيز دعائم سيادتها وبناء مجدها ، وان تنظيم مثل هذا النوع من الملتقيات من طرف رجال عرفناهم جنودا فى الثغور يستميتون للدفاع عن الجزائر العربيـــة المسلمة ، وأبت همتهم الكبرى الا أن يستمروا للدفاع عن الجزائـــر العربية المسلمة ، وأبت همتهم الكبرى الا أن يستمروا فى نوع جديد من الجهاد ، حتى يركزوا دعائم هذا الاستقلال على أسس ثابتة (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) أمثال صديقنا الاخ مولود قاسم وزيـــر التعليم الاصلى والشؤون الدينية، والاخ أحمد طالب الابراهيمى وزير الثقافة والاعلام ٠ قلت ان تنظيم هذا النوع من الملتقيات ليبعث فى نفوسنا الامل لان ينتهى هذا اللقاء بنتائج ايجابية تتقوى بها الثقافة الاسلامية فى هذه الديار ، وتتعزز بها صفوف الحركات الاسلامية الاخرى ، وان ما سمعناه من السيدين الوزيرين من توجيهات مركزة حول مسائل جوهرية من التفكير الاسلامى ، هى من مشاكل الساعة والتى لا تهم الشعب الجزائرى فحسب ، بل تشغل بال جميع المفكرين فى كافة أنحاء العالم الاسلامى ، لمما يبعث على التفاؤل بمستقبـــل

(*)محاضرة القاها فى الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الاسلامى المنعقد بقسنطينة فى 17/8 جمادى الثانية 1390 هـ ــ 19/10 اوت 1970 م٠

الثقافة الاسلامية فى البلاد العربية والاسلامية . وان ما شاهدناه فى هذا الملتقى فى أوساط الطلبة من جدية فى تتبع المحاضرات ومناقشة المشاكل التى يعيشونها ، واهتماما بالمواضع التى أختيرت لحل هذه المشاكل القريبة أو البعيدة ليبعث فى نفوسنا الامل على اننا أصبحنا بهذا الاتجاه نسير شيئا فشيئا نحو الطريق المستقيم يستجيب لرغبات الامة الاسلامية فى حفظ دينها وتراثها وأمجادها ، ويحقق الاطمئنان فى نفوس الشباب والاجيال الصاعدة .

وسوف تكون هذه الكلمة المتواضعة التى اخترتها بعدما اطلعت هنا فى الجزائر على عناوين محاضرات هذا اللقاء حول واحدة من مجموع تلك المشاكل التى يجب أن تحظى بعناية المسؤولين والمربين فى ميادين الثقافة الاسلامية والفكر الاسلامى ، وموضوع هذه الكلمة هو «موقف الاسلام من العقل ، وأثر ذلك فى التطور والتجديد» وسوف لا تكون هذه الكلمة دراسة شاملة لجميع جوانب هذا الموضوع الطويل الذى كتبت فيه الكتب ، وألقيت فيه المحاضرات ، وعقدت حوله الملتقيات ، بل مجرد أفكار ساحاول أن أركز فيها اهتمامى حول بعض المسائل أشعر بخطورتها فى هذا الموضوع .

أيها السادة :

ان الدين يدعوا فى نصوص كثيرة من القرآن والسنة العقل الانسانى الى التفتح والنمو والتحرك حتى يبتعد عن الخرافات والاباطيل ، ويتمكن من النظر فى هذا الكون وما حوله فيدرك الحق ، ويتمتع بنور الله وهدايته ، وتتكشف له أسرار الحياة والازول ، ذلك انالانسان بفطرته السليمة محمول علىاتخاذ عقائد لدينه يطمئن اليها ويهتدى بنورها،ولكن كثيرا من المتدينين انحرفوا عنالفطرة السليمة واتبعوا أهواءهم،ومالوا مع شهواتهم وقلدوا آباءهم،وقادة أديانهمبدون نقد ولا تمحيص فضلوا وأضلوا حتى جاء الاسلام فاراد أن يرجع الفطرة الى اهلها فحرم على أهله هذا الضرب من العقائد الزائغة وشرط أن يكون أساسها العقل وسندها الدليل وحكم العقل فى مظهر من مظاهر السلوك الانسانى ، ولاجل أن يرفع طريق العقل الخالص على ما يعترضه من العوائد الوهمية أنحى بالائمة على مبدأ التقليد فنقضه وعلى أصل تقديس القديم فهدمه ، ونص على الواقفين مع هتين العقبتين فقال : « **واذا قيل لهم تعالوا الى ما انزل الله والى الرسول**

قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون » ، وهذا الاتجاه فى الاعتماد على العقل لا عهد للانسانية به الا فى العلوم الكونية ، فليس على المسلم بموجب الاصل الاسلامى ان يتناول عقيدة بدون أن يحكم عقله فيها ويدلل عليها حتى ساغ لاصحاب الاصول من المسلمين أن يفرضوا أن ايمان المقلد لا يقبل منه ، لان العقل من صفاته التمييز لان صفات التمييز بين الحق والباطل ، والحسن والقبيح ، والخير والشر كما أناطوا التكليف فى جميع الفروع الشرعية بالعقل فاذا تعطل فلا تكليف ، ولهذا وصف الاسلام بأنه دين الفطرة اذ هو يتماشى مع النظام الذى أوجده الله فى كل مخلوق كامل فهو يساير مقومات الانسان الجسمية والعقلية فى آن واحد ، بل يعمل على تقويتها وبروزها حتى تقوم بواجبها الفطرى فلا يعطل غريزة ولا يقف سدا أمام الطاقات الفطرية بل يقوى فيها نوازع الخير ، ويكشف عما فى الحياة من نفع وضر وبذلك امتاز الاسلام على غيره من الاديان ، لانه دين العدل بين مطالب الروح ومطالب الجسد ، فهو لا يأمر الآخذ به أن يحرم نفسه من متعة مادية ولا ملذة جسدية ما دام يتناولها عن طريقها المشروع وبحدها المعتدل حتى أن أكثر الآيات القرآنية التى تحض على نيل منزلة روحية ، تحض فى آن واحد على نيل مكانة مادية ، الله سبحانه وتعالى يقول : « **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا واحسن كما احسن الله اليك** » فان انحرفت النفوس عن الفطرة عمل هذا الدين بتشريعاته الجالية على وفق ما يدركه العقل ويشهد به ليرجع تلك النفوس الضالة الى حضيرة الفطرة السليمة ويهدى الى اتباع الطريق المستقيم ، قال تعالى : « **فاقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون** » ، والفطرة المرادة فى قوله تعالى : « **فطرة الله التى فطر الناس عليها** » هى كما عرفها شيخنا العلامة الطاهر بن عاشور هى الحالة التى خلق الله عليها عقل النوع الانسانى سالما من الاختلاط بالعادات الفاسدة ، والاوهام والاباطيل ، صالحا لصدور الفضائل عنه كما شهد به قوله تعالى : « **لقد خلقنا الانسان فى احسن تقويم ثم رددناه اسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات** » فالتقويم المراد فى الآية انما هو تقويم العقل الذى هو مصدر العقائد الحقة والاعمال

الصالحة وأن المراد برده : (أسفل سافلين) انقال الناس الى اكتساب الرذائل بالعقائد الباطلة والاعمال الذميمة ، واذا كان العقل السليم هو طريق الاهتداء الى العقائد الحقة والمنهج الصحيح بادراك معنى الخير والشر والحق ، والباطل ، والحسن ، والقبيح ، فان دور الدين فى تقرير هذه المعانى هو المحافظة على الفطرة السليمة ، وابراز المعانى المثالية وتحقيق الحياة الفاضلة واحاطتها بالثواب والعقاب لان العقل وان كان من صفاته التمييز بين الحق والباطل ، والحسن والسيىء ، لكنه فى حاجة الى نور خارجى يهتدى به وتظهر له الامور على ماهى عليه فى الواقع ، وتقيه شر الانحراف وتبعده عما ركن اليه من الاهواء والشهوات والاباطيل ، وللعقل والفكر منزلة سامية فى القرآن ، الله كرم ابن آدم بما أعطاه من عقل وحمله الامانة التى أبت السماوات والارض حملها ، واختاره للخلافة فى الارض لما له من قوة التمييز والادراك والحكم ، أما عدم التدبير فهو جمود وانغلاق ، والله تعالى يقول : « **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها** » ، ولذلك جاءت الدعوة الاسلامية تحمل حملة واحدة على ما كان عليه الناس من عقائد ومقاييس للخير والشر حتى يتأملوا وينظروا هل فيما اعتبروه عقيدة يصح أن يكون عقيدة حقة أم فيما أعتبروه تقليدا ماهو جدير بأن يؤخذ به ويحافظ عليه ، وهل فيما اعتبروه شر هو شر فى نظر الحق ، وكانت هذه الدعوة التى نادى بها الاسلام دعوة واقعية أساسها المعرفة ، تلك المعرفة التى تعتمد على العقل ، ولا تنعزل عن الواقع الحسى ، لان جميع المدركات العقلية عنده تستند الى المداركات الحسية ، اذ علم الانسان ليس مصدره العقل فقط ، بل العقل المعتمد على المشاهدة الصحيحة والاختبار ، لان العقل لا يستطيع أن يقوم بوظيفته من التفرقة بين الامور الفاضلة وغير الفاضلة والشؤون النافعة والضارة الا اذا ارتكز على أمرين أساسيين هما :

أولا : المعارف بجميع فروعها ،

ثانيا : التجارب على اختلاف أنواعها ،

لان العقل الخالى من العلم والمجرد من التجارب يتعقل الاشياء تعقلا ساذجا ، ولا يميز بين الحسن والقبح الا تمييزا سطحيا ولذلك تباين الناس فى عقائدهم وشرائعهم ومبادئهم على النحو الذى هم عليه اليوم .

ومن أجل هذا حث الاسلام على وجوب طلب العلم ، قال تعالى : « **هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون** » ، وصرح بأن بين المؤمن الجاهل والمؤمن العالم درجات فقال تعالى : **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات** » ، قال البيضاوى : يرفع الله الذين آمنوا منكم بالنصر وحسن الذكر فى الدنيا وايوائهم فى غرف الجنان فى الآخرة ، وقال فى قوله تعالى : « **والذين اوتوا العلم درجات** » ويرفع العلماء منهم خاصة درجات بما جمعوا من العلم والعمل فان العلم مع علو درجاته يقتضى العمل المقرون به مزيد الرفعة ، ولذلك يقتدى بالعالم فى أفعاله ولا يقتدى بغيره ، وفى الحديث الشريف قال (ص) «**فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب**» ، وكلما انحرف الناس عن الفطرة السليمة وحادوا عن الجادة وانطمست فيهم البصيرة بعث الله رسلا من حين الى حين ليرجعوهم الى الجادة وعبادة الله ، قال تعالى : **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط** » ، وتتابعت الرسالات وسايرت التطور البشرى فكان الرسول يبعث الى قومه يختصهم بدعوته ويرشدهم بهديه ، قال تعالى : « **لقد أرسلنا نوحا الى قومه ، والى عاد أخاهم هودا ، والى ثمود أخاهم صالحا ، والى مدين أخاهم شعيبا ، وابراهيم اذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ، ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا الى فرعون وملائه ، واذ قال عيسى بن مريم يا بنى اسرائيل انى رسول الله اليكم** » ولما تطورت البشرية فى بوتقة العقل والآداب بعث الله محمدا (ص) بدين الاسلام الى الناس كافة يهدى للتى هى أقوم فى جميع مسالك الحياة وينظم حياة الانسان فى مختلف أجورها وعامة نواحيها ، قال تعالى : « **قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا** » ، ولهذا يعتبر الامام الغزالى الانبياء أطباء العقول وله فهم خاص لكلمة الميزان الواردة فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : « **الله الذى انزل الكتاب بالحق والميزان** » ، فهو يفهم انها ميزان الآراء ويرى أن الوحى لا بد أن يشتمل على ميزان يميز بين الحق والباطل ، وقد خص الغزالى كتابه «القسطاس المستقيم» لبيان ان القرآن قد تضمن أشكال القياس المعروفة ، وكان من الطبيعى ألا يحكم هذا الدين الخالد الا الى العقل والمنطق والعلم ، اذ هو آيات

بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ، واذا نظرنا الى مصدرى التشريع الاسلامى وهما الكتاب والسنة نلاحظ مدى اهتمام هذين المصدرين بالعقل والفكر ، أما القرآن فمن سماته انه لفت أنظار الباحثين من المسلمين وغيرهم الى شدة العناية بالعقل ، فقد دعا القرآن الكريم بطريق مباشر وغير مباشر الى تعظيم العقل والرجوع اليه ، كما تناول مسائل العقيدة او التكاليف او التشريعات او المواعظ ، بينما تشير كتب الاديان الكبرى الى العقل بكامل التحفظ ، فالقرآن لا يذكر العقل الا فى مقام التعظيم والتنبيه الى وجوب العمل به والرجوع اليه ويشير القرآن الى العقل بمعانيه المختلفة مستخدما فى ذلك الالفاظ التى تدل عليه أو تشير اليه من قريب أو بعيد عن : التفكر ، والفقه، والذكر ، والرأى ، والتدبير ، والقلب ، وأولى الالباب ، الى غير ذلك من الالفاظ التى تدور حول الوظائف العقلية على اختلاف معانيها وخصائصها ، وأرى من المناسب أن نلقى نظرة احصائية على عدد الكلمات الموحية أو الدالة على العقل فى القرآن حتى تعطينا صورة واضحة عن هذا الموضوع لاعتقادى ان عمليات الاحصاء أصبحت فى هذا العصر من الدعائم التى يرتكز عليها الحكم على الاشياء فى البحث العلمى ، وأهم هذه الكلمات هى العقل : وردت هذه المادة بصيغة المضارع فى خمسين (50) آية من القرآن • التفكر : وردت مادة التفكر فى سبعة عشر آية من القرآن•التدبر : وردت بصيغة المضارع فى أربع آيات • أولى الالباب : وردت كلمة أولى الالباب فى ستة عشر آية بصيغ مختلفة كقوله تعالى : « **وهيء لنا من أمرنا رشدا** » الحكمة : وردت كلمة الحكمة فى ستة عشر آية • الفقه : وردت كلمة الفقه فى عشرين آية • مذكر : وردت كلمة مذكر وهى من صيغ الذكر أو التذكر ست مراتٌ فى القرآن • الرأى : بمعنى التفكر ويزيد عدد الآيات التى وردت بهذا المعنى عن الثمانين • العلم : وردت كلمة العلم فى القرآن فى أكثر من خمسمائة آية ، وليس المفهوم بها علم خاص وانما قصدت بها كل علم نافع يفتح آفاق العقل ويمكن الانسان من ادراك الحق •

هذه بعض الالفاظ التى وردت فى القرآن الكريم لها صلة وثيقة بالعقل والتفكير ، وهى فى مجموعها تقيم الدليل بطريقة محسوسة لا شك فيها ولا غبار عليها ، ان الشريعة الاسلامية استطاعت أن

تؤاخى بين الدين والعقل وان تجعل من هذه الفطرة فطرة مستقيمة سليمـــة .

أما موقف السنة من العقل فقد وردت فيه أحاديث كثيرة عــن الرسول (ص) جمعها الامام الغزالى فى كتابه «احياء علوم الدين» فى باب شرح العقل ، ولا نتكلم فى أسانيد هذه الاحاديث فان ما ذكرنا من الآيات القرآنية يساعد المعنى الذى اتجهت اليه صحت هـــذه الاحاديث أم لم تصح ، فمن هذه الاحاديث ما رواه أبو أمامة وأبو معين عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله (ص) : **أول ما خلق الله العقل ، فقال له أقبل فاقبل ؛ ثم قال له أدبر فادبر ، ثم قال الله عز وجل وجلالى ما خلقت خلقا أكرم على منك ، بك آخذ وبك أعطى وبك أثيب وبك أعاقب**» ، وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله (ص) : «**لكل شيء دعـامة ودعامة المـؤمن عقلـــه ، فبقدر عقله تكون عبادته ، أما سمعتم قول الفجار فى النار : «لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير** » ، بتلك الآيات القرآنية وما جرى مجراها من الاحاديث النبوية الشريفة والهدى المحمـدى تمكن الاسلام من أن يوجه العقل الى التفكير والى التأمل والتـــدبر حتى تزول الحجب الكثيفة التى تحول بينه وبين الرؤية الصحيحة فى الاشياء ، وأمكنه كذلك أن يبعث أمة جديدة تعتمد العقل والتفكير والبحث وتستخدمها فى مختلف شؤونها الحياتية ، فتفتحت بذلـك أمامها آفاق غير محدودة فى هذا العالم الكبير، وكيف يتعارض الاسلام مع العقل وهو يشتمل فى جملته على ثلاث شعب رئيسية :

أولها : العقـــائد :

ثانيها : محاسن الآداب والاخلاق ،

ثالثها : الاعمال المتعلقة بافعال المكلفين .

أما العقائد وقد أسسها الاسلام على أوطد الدعائم وأعلى المثـل فى التوحيد الخالص ، والالوهية الحقة مثبتا بذلك وحدة الالوهيـة ومبطلا التعدد ، قال تعالى : ((فاعلـم أنه لا الـه الا هـو)) ، وقال : « **واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا** » ، وهكذا اهتم القـرآن بأمـــر العقيدة فوصف الله تعالى بكل كمال ونزهه عن كل نقص ، كما اهتم بما وراء هذه الحياة من حياة أخرى وما فيها من ثواب وعقاب ، قال

تعالى : « **يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم ، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره** » .

أما محاسن الآداب ومكارم الاخلاق فقد عنى بها الاسلام عناية شديدة وطلب الى المسلمين أن يتخلقوا بأخلاقها ويخالطوا النـــاس بأحسنها وأجملها وان يكونوا جميعا أمثلة حية وصورا ناطقـــة بالعدل والاحسان والوفاء بالعهد والصبر فى الشدائد والعفو عنـد المغفرة ، وما الى ذلك من الخصال الجليلة ، وهذا النمط العـالى من التهذيب الكامل والادب السامى لا يمكن أن يتناقض بحال مع العقـل لانه هو عين الفطرة السليمـــة .

واما ثالث الشعب : وهى الاعمال المتعلقة بأفعال المكلفين فقد شرع الاسلام منها ما كان خير مظهر من مظاهـر الانقيـاد لله تعالى وأكفل وسيلة لمساعدة الفقراء والمعوزين والترفيه عنهم،والمساهمة فى مصالح المسلمين العامة ، والقيام بأعباء ما تتطلبه حالة الجماعة ، فلا غرو ان الاسلام فى كل ناحية من هذه النواحى الاساسية الثـلاث قد أتى بأرقى النظم ورسم أعلى المثل ووضع خير الاسس موافقـــة لطبيعة العمران وروح الاجتماع وهذا أيضا لا يمكن أن يتناقض بحال مع العقل لانه يتماشى مع الفطرة السليمة ، والله سبحانه وتعـالى يقول : « **فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى** » ، وقد أحيطت كـــل المعاملات فى الاسلام برباط أخلاقى من العدل والتيسير والرحمـة ودفع أسباب التشاحن والبغض وربط أفراد المجتمع برباط المحبة والتعاون على البر والتقوى ، لا على الاثم والعدوان .

ولجميع هذه الاعتبارات المتعددة اعتبر العقل من المصـــالح الضرورية فى الاسلام تلك المصالح التى لا يستقيم عمران الكـون وازدهاره ورقيه الا بها ، فكان حفظ العقل ثالث المقاصد الضرورية التى عناها الشارع بعد حفظ الدين والنفس ، ولذلك أوجب علينـا تنميته بالتمرين والتفكير الصحيح وصقله بالتوجيه السليم حتى تتكون له قوة التمييز بين الحق والباطل ، وقوة التفريق بين الحسن والقبيح، كما أوجب علينا من ناحية أخرى حمايته من كل ما يدخل عليه خلـلا فى سيره أو اضطرابا فى عمله ، لذلك حرمت الشريعة شرب الخمر وتعاطى المخدرات وبيعها وترويجها لان الخمر مذهب للعقل ، محطم لآلـة التمييز عند الانســان .

واذا اقتنعنا ان الدين يعتمد على العقل الصحيح فى جميع أحكامه وتوجيهاته ، بل هو يفتح أمام العقل آفاقا بعيدة للتطلع والاستطلاع ، ويكشف له جوانب الحياة للبحث والدرس ، ويدفعه دفعا الى التجديد والابتكار ، فهل يسوغ لنا بعد ذلك ان نعتبر أن الاسلام دين جامد كبقية الاديان ؟ وهل يصح بعد ذلك أن نشك فى كونه يستطيع أن يساير التطور البشرى وانه يساير كل ما يحقق سعادة الانسان وكرامته، وانه لا يعرقل سير تقدمه،لان من خصائص هذا الدين الدعوة الى كل ما يحقق سعادة الانسان وكرامته ليتبوأ مركز خلافة الله فى الارض ، ومع الاسف الشديد فان كثيرا من شبابنا من طلاب الجامعات او من غيرهم الذين أغشتهم حضارة الغرب وتقدمه الصناعى والمادى وفكروا فى التخلص من رواسب الماضى أصبحوا يتساءلون : هل ان الشريعة الاسلامية تستطيع أن تواجه تيار التقدم المادى فى عصرنا الحاضر ؟ هل انها شريعة الحياة تستطيع أن تحقق للانسان سعادته فى الدنيا كما وعدته بسعادة الآخرة ؟ أو بالاحرى هل الاسلام قابل للتطور والتجديد ؟ ما دمنا نرى ان الحياة قد تطورت فى جميع مظاهرها وان رواسب العهد الماضى قد أخذت تتقلص شيئا فشيئا ، وهنا يجب على كل رجال الفكر الاسلامى ألا يبقوا متفرجين ، فعليهم أن يعالجوا المشكل من أساسه، ويواجهوا هذا الخطر بما يستحقه من عناية وحكمة ، لأن التطور سنة من سنن الله تعالى ، وهو قانون من قوانين الحياة التى لا مفر منها والتى تجرى علينا وان لم نرد ، فالخير ان نريد هذا ونعمل له جادين ، وان نوضح ضوابط التطور فى الاسلام وأماكن التجديد منه حتى نمنع عبث العابثين ونقطع دابر المفسدين ، فالتطور فى التشريع هو حركة الانسان المستنير القادر على ابتكار أحكام لحوادث جديدة ملائمة والظروف التى تمر بتطور الزمان مستندا الى كتاب الله وسنة رسوله ومبادىء الاسلام العامة ، وهو ما سماه الفقهاء من قبل: «الاجتهاد» وهو الموضوع الذى حلله بعض المحاضرين من قبلى ، فليس التطور اذن هو تغيير الدين ، أو التحول عن مبادئه وأهدافه القارة ، أو التبعية لجميع التيارات الفكرية أو المادية ، أو الذهاب مع الاهواء والشهوات ، لان هذا لا يسمى تطورا أو تجديدا بل يسمى هدما وتحللا وتفككا وذوبانا ، وموتا والحادا ، واذا كانت الاحزاب

السياسية والمذاهب الاجتماعية الكبرى الموجودة فى العصر الحاضر لا تقبل التحول عن الاهداف والمبادىء التى رسمتها لنفسها ، ولا تبيح لأى شخص من أتباعها الانفلات عما يسمونه دستور الحزب ، ويعدون كل من تحدثه نفسه بمخالفة بعض فصوله أو مبادئه منحرفا أو منهدما أو مهدما ، وتعقد له المجالس التأديبية مع العلم أن كل ما فى هذه الدساتير موضوع من طرف عقول خاصة متأثرة بالزمان والمكان والظروف والتيارات ، وكيف يسوغ لنا أن نبيح لمن لم يدرس الاسلام أن يتطاول علينا ؟ ولمن لا يشم له رائحة أن ينتقده أو ينتصب له خصما أو معارضا تحت ستار حرية الفكر ودعوة التطور والتجديد ومحاكمة العقل ، فيجب أن نتفق أولا لا فى هذا المستوى فحسب ، بل حتى فى المستوى الادارى والحكومى ، على أن احترام الدين أمر واجب لانه عقيدتنا وشريعتنا فلا يجوز فيه الا من كان عارفا به ، عالما بأحكامه ومبادئه ، مدركا لأحكامه الصريحة الواضحة التى دلت عليها نصوص القرآن والسنة ، والاحكام الاجتهادية المبنية على علة متبدلة أو عرف متغير أو تحقيق مصلحة او دفع مفسد ٠

فميدان التطور والتجديد لا يمكن أن يتناول كل ما جاءت به الشريعة الاسلامية من مبادىء وأحكام ، لان العقيدة مثلا وهى قائمة على العقل لا مجال للتطور فيها اذ هى مؤسسة على مبادىء ثابتة ، وحقائق لا تقبل التغيير والتبديل بحال ٠ الايمان بوحدانية الله مثلا مبدأ أصيل وحقيقة يقينية لا مجال لتغييرها ، والعبادات كذلك كلها قربات لله تعالى ، وقد حدد الله بواسطة الوحى وعمل النبى (ص) الطرق التى يرتضيها من المسلمين فى تقربهم اليه ، فتغييرها يعتبر خروجا عما رسمه سبحانه من الطرق الخاصة التى ارتضاها لعباده ، أما أحكام المعاملات والاحكام الدستورية فان مجال الاجتهاد فيها مفتوح فيما لا نص فيه لان الوقائع والحوادث لا تنحصر ، والادلة التى وردت فى الكتاب والسنة أو نص عليها العلماء منحصرة ، وأما تقرير حكم الله فيما سيحدث من المسائل لا يمكن أن يبت فيه الا اولوا العلم من المسلمين ، المخلصون فى دينهم ، الذين يعملون على أن تكون شريعة الله حاكمة لا محكومة ، وموجهة لا موجهة ، وهادية لا مهدية ، والله تعالى يقول : « **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى انفسهم حرجا مما قضيت**

ويسلموا تسليما » ، ومجال هذا العمل الفسيح الذى بقى أمـــامنـا يحتاج بدون شك الى استخدام قوة العقل التى وهبها الله لنا فنكون بالاعتماد عليها ناظرين كما أمرنا الشارع باحثين فى الاحكام ومناطها ونصوص ومجالات تطبيقها ، والمستحدثات وما يليق بنا فى دستور الشريعة الاسلامية من وجهات النظر التى تحقـق مصلحـة الامـة الاسلامية وتدرأ المفاسد عنها ، وليطمئن شبابنا فاننا لسنا ممـن يقول بغلق باب الاجتهاد ما دمنا قد قررنا أن الاسلام يدعو الى العقل واعمال الفكر فان باب الاجتهاد مفتوح على مصراعيه ، وشريعـــة الاسلام متطورة ، والذى أعتقده ان الاجتهاد اليوم أيسر منـه فـــى العصور السابقة اذ ضبطت قواعد العربية ودونت الاحاديث وفسـر القرآن الكريم ، ونشرت الكتب بين الناس ، وأصبحت فى متنـاول كل باحث ، ولو قارنا حالتنا اليوم بما كان يتكلفه العلماء من رحلـة وقطع مسافات لجمع الحديث وروايته أو الرجوع الى القبائل العربية لفهم لفظة أو تصحيح اعراب بما نملكه من امكانيات ثقافة اليوم لقلنا من غير شك ان الفقيه اليوم أقدر على الاجتهاد مما مـضى .

والواقع أيها الشباب أن باب الاجتهاد لم ينغلق ولكن الهمـة العلمية فقدت وزهد الناس فى التبحر فى هذه العلوم ، وفقد العالم القادر على غوص غمار التشريع الاسلامى ، وهذا هو الذى دفـع ابن قيم الجوزية والمراغى الى القول بأن الاجتهاد يتجزأ وهو الذى دعـا اليه علامتنا الشيخ الطاهر بن عاشور فى كتابه «المقاصد الشرعية» منذ ما يزيد عن أربعين سنة وسماه «الاجتهاد الجماعى» لان ما اتسم به هذا العصر من الاختصاص يدفعنا على أن ينكب جماعة من العلماء الثقاة يكمل اختصاص كل واحد منهم اختصـاص الآخـرين وينكبوا على المسائل المستحدثة دراسة وتتبعا واستنباطا ، وهذا يستجيب فى نظرى لمطالب الحياة والتطور السريع الذى يجرى فيه العـالم الاسلامى اليوم ، وهذا تقريبا هو ما يقوم به مجمع البحوث الاسلامية بالازهر الشريف منذ ست سنوات تقريبا فقد أفتى هذا المجمـع فى عدة مسائل كالتامين ورؤية الهلال وتوحيد الشهور ، وهو نفس المبدأ الذى حاولته دولة ماليزيا فى مؤتمرها الاسلامى الدولى الذى انعقـد فى السنة الماضية فى مدينة كوالا لمبـور . .

وبهذا نعلم ـ أيها الاخوان ـ ان الذى ينقصنا هو المجامع العلمية

التى ستخرج هذا النوع من العلماء ، وينقصنا اخبار النخبة على هـذا النوع من التعليم ، وتحمس الحكومات الاسلامية للعمل بالتشريـــع الاسلامى حتى يكـون دين الـدولة فى الحيـاة وفى الخـارج ، وفى اعتقادى ان هذا اللقاء وأمثاله من اللقاءات فى البلدان الاسلاميـــة الاخرى سيعمـــل من غير شك على ازالة الشبهات أمام الشبـــاب ، وسيدفعهم حتما الى مراجعة موقفهم من التفكير الاسلامى ، ومستقبل الحضارة الاسلامية ، فعلى الحكومات الاسلامية أن تراجع اختياراتها فى الثقافة والتعليم حول البرامج الدينية من المدرسة الابتدائية الى الجامعة ، وحول المربى والواعظ وامام الجمعة والاذاعة ، والتلفزة ، والمسرح ، والسينما ، والنوادى ، والملتقيات وكل وسائل الاعلام لان كل هذه الاشياء مجتمعة تكون المجتمع الاســلامى فى نظرى وان كل انحلال او انحراف فى أى عنصر من هذه العناصر يكون له أثــره من قريب أو بعيد فى مستقبل تفكيرنا ، فاذا استطاعت أى حكومة اسلامية أن تتحكم فى اختياراتها حسب مبادىء الاسلام الصحيـــح نكون قد حققنا بهذا اللقاء خطوة ايجابية موفقة فى تصحيح التفـكير الاسلامى وتركيز الثقافة الاســلامية ٠

والســلام عليكم ورحمــة اللــه ٠

وايمانا بان من الواجب الاوكد أن يبقى بلدنا العزيز هذا الغالى المحبوب دائما وأبدا الى أن يرث الله الارض ومن عليها مترشحا بنور العربية والاســـلام ٠

وبعد هذا أحاول على حد تعبير اخوانى المشارقة ، (أحاول على الماشى) يعنى من دون أن يستعد الانسان او يتهيء أو أن يقوم بعملية تجميع لعناصر الموضوع ، ولكن لا أعتقد بأن مؤتمرا مثل هذا يعنى بالتعريف بالفكر الاسلامى لا يخوض ولو بطريقة مختصرة فى وضع الوجه الثانى من هذه العملة الذهبية ، الوجه الثانى للفكر الاسلامى والاسلام ، أعنى به اللغة العربية ، وانا اذ أحاول أن أبذل جهـــدا متواضعا لاحدثكم اليوم بعض الشيء عن مكانة لغة الضاد فى جنــوب شرقى آسيا اذ أحاول أن أعمل هذا ، فبغيتى أن يدرك اخواننا العرب فى المشرق وفى المغرب مدى ما قام به وما بذل فى سبيله اخــوان لنا فى العقيدة اخوان لنا فى الايمان عبر القرون وعبر الاجيال فــى الحفاظ على لغة القرآن وأنا طبعا فى حديثى عن جنوب شرقى آسيا وانتم تعلمون أن جنوب شرقى آسيا هو اصطلاح غربى أطلــق على البلدان التى تمتد من باكستان غربا الى زلندا الجديدة شرقا ويشمل باكستان الغربية ، والهند ، وباكستان الشرقية ، وبورمة وسيلان وتايـلانـد وماليـزية والهنـد واندونيسيا والفليبـــين واستــراليا ونيوزيلانده ، وهناك مثل الامريكان من يضيفوا اليها حتى اليابان ٠

ففى هذه الرقعة الممتدة على آلاف من الاميال توجد هناك أمكنة تعيش فيها اللغة العربية ولها مكانتها ولها قدسيتها ، وذلك لانهــا لغة الاسلام٠اللغة العربية هى كما تعلمون ، والاسلام فى ظنى أمران جميلان حسب المشاهدة والاختبــار ، ظل كل منهما عبر القــرون والاجيال يناغم الآخر ويستصحبه بل يستلزمه ولا غرابة فى ذلــك ، لو لم يكن هناك قرآن ولم يكن مثلما قال فضيلة الشيخ أمس بالليل مستشهدا بان الله سبحانه وتعالى تكفل بأن يحفظ الى يوم الــدين ما نزله على رسوله الامين اذ يقول : « **انا نحن نزلنا الذكـر وانا لــه لحافظـــون** »

اذن فبالرغم من الكوارث ومن المهالك التى حلت بالمسلمـين من أواخر القرن الخامس عشر الى أن أهل فجر الاستقلال بعد الحرب العالمية الثانية بالرغم من كل هذا فالعربية والاسلام بقيا على قيــد

الحياة وتراهما اليوم يتمتعان بمنزلة مرموقة ذلك بان الحكـومـات والدول والاسر حسب نظرية ابن خلدون والكندى وغيره من علمـاء الاجتماع أو المؤرخين تزول الا أن كلمة الله (القرآن) باق حى لايموت.

ولا يخالنى أغلو فى حديثى هذا ، وقد أجد سندا مـؤيدا لمـا اقوله الآن وأجمع حوله بحضور عالمين فاضلين من علماء الشـــام أتيح لهما زيارة أندونيسيا ، وجنوب شرقى آسيا ومنها فضيلـــة مفتى الديار الشامية الذى منح وكان شرفا له ولنا ولجميع المسلمين دكتوراه فخرية فى حفل بهيج فى جامعة اسلامية من ضواحى جاكارتا، لقد شاهد فضيلته مثلما شاهدت أنا أن دين الاسلام هناك قـوى ، وان العربية قد يستلذ الانسان ويستمتع بسماعها فى كل مكان من جنوب شرقى آسيا لاسيما فى ماليزية وفى اندونيسيا ، ومكانة اللغة العربية بما أنها لغة القرآن مكانة يشار اليها بالبنان بالـرغم من أن هذه البلاد ذات ثقافة عريقة وذات حضارة مؤثلـة وذات لغة قـائمة بذاتها لغة انتصرت بعد ان انتصرت البلاد على المستعمر الدخيـل وأصبحت لغة المدرسة ولغة الجيش ولغة الحكومة ولغة الادارة ولغة الجامعات الى غير ذلك ، هى اللغة الملاوية التى بحكم اعتناق الملويين والاندنسيين وكلهم من أصل ملوى بحكم اعتناقهم للاسلام فلغتهـم تحوى العديد من الالفاظ العربية من الولاية ودائرة الى استراحة الى منفعة الى كرسى الى مائدة الى غير ذلك بصرف النظر عن المفـردات والالفاظ الدينية وغير ذلك ، وقد يتساءل سائل عند ما نشاهد مدى حماس اخواننا سواء كانوا من جنوب الفيلبين فى جزيرة (مندونـاو) التى يسكنها ما يناهز الاربعة ملايين من المسلمين أو من ماليزيا أو من أندونيسيا أو من باكستان أو غير ذلك عند ما يرى حماسهـــم واندفاعهم للدفاع عن اللغة العربية ، ومحاولة جعلها لغة عالمية ولغة دولية ، قد يتساءل المرء أو يتساءل العربى لماذا هذا الحماس وهذا الاندفاع لجعل اللغة العربية لغة رسمية فى هيئة الامم المتحـدة أو فى هيئة البريد العالمى ، فى منظمة الصحة العالمية،أو فى اليونيسكو خاصة ، ولعلكم تتذكرون بانه بناء على مبادرة جزائرية ، مبادرة قام بها وزير تربيتنا السابق ، الدكتور أحمد طالب اذ تقدم باقتـراح ، بمجرد انضمام الجزائر الى هيئة اليونيسكو بجعل اللغة العربية لغة رسمية فصودق على هذا الاقتراح ـ وأكثر الذين تولوا الدفاع عنـه

باستماتة وصدق واخلاص ليسوا هم العرب اذا ما رجعتم الى الكلمات التى قيلت فى تلك المناسبة ، بل هم الفرس ، هم ممثلوا الباكستان هم بالخصوص ممثلوا اندونيسيا وماليزيا ؛

فهؤلاء الناس مؤمنون ايمانا لا يرقى اليه الشك بحكم اسلامهم وما داموا مسلمين فهم لا يتصورون الوجود الا مبنيا على مفاهيم الاسلام ولا يمكن بأى وجه من الوجوه مهما كانت حضارتهم السالفة وكنوز تراثهم وغير ذلك ، لا يمكن أن يستمروا أو يصبروا أن يروا الاسلام وتعاليم الاسلام تتوطد وتترسخ وتينع من دون أن يكون هناك لسان عربى مبين ، وهم اذ يفعلون هذا لا يفعلونه بصورة ذاتية ، بل يقومون به عن وعى وبصيرة وارادة اعتقادا منهم أن الحضارة العربية الاسلامية التى ينتمون اليها ، والتى هم من حملتها اذا ما أرادوها أن تنتصر وتحتل مكانتها فى العالم من جديد بعد ان حاول المستعمرون وحاولت السيطرة الغربية فى شتى صورها وأشكالها أن تجتثها من الاصول ، هم يعتقدون اعتقادا جازما بأن دفاعهم عن اللغة العربية وأعمالهم المخلصة فى سبيل احيائها هو عمل شريف بغية احياء الحضارة والثقافة العربية الاسلامية .

قد يظن ظان بمراجعته للتاريخ أن العرب لاسيما الحضارمة الذين نشروا الاسلام هناك والعربية ، يظن ظان بانهم عند ما حلت بهم الكارثة وغزاهم البرتغاليون والاسبان ، وغزو البرتغال والاسبان كما تعلمون ما هى الا عملية صليبية جديدة ، كانت ترمى الى القيام بحركة التفاف استراتيجية حول الجناح الاسيوى من الدولة الاسلامية وانكم تذكرون جيدا وهذا لم يكتبه عرب ولا مسلمون بل كتبه من لا يكن كثيرا من العطف على الاسلام ، مثل الهندوس وغير ذلك ، تذكرون بأن أول ما احتل البرتغاليون شبه جزيرة (ملقة) أول عمل أقدموا عليه هو جمع كل من هناك له نسب بالعرب وأجهزوا عليهم الى آخرهم ، وبعثوا برؤوسهم الى أمبراطور البرتغال فى ذلك الوقت، ولكن قتلوا الاجسام وأفنوا الرجال ولكن الغرسة المباركة التى غرسها هؤلاء ومنهم من أجدادنا من سافر بالرغم من المخاطر من المغرب ومن الاندلس ومن شمال افريقيا ، ومنهم من يسمى الشيخ عبد العزيز المغربى الذى نزل فى سنة 1272 ٠٠ على الشط الغربى من جزيرة (ملقة) وهو أول من نشر الاسلام ، والآن فماذا تراه والبذور التى

زرعها لازالت الى يومنا هذا تأتى أكلها ، وما الروح الاسلامية والعقيدة الاسلامية بالرغم مما أصابها وبالرغم مما ذاقت وبالرغم من كل ما شوه بعض جوانبها لازالت هناك حية ولازالت هناك تعمل وهذا ما يفسر لنا حب هؤلاء المسلمين من غير العرب للغة العربية لانها لغة الاسلام ولانها لغة القرآن ٠

فاللغة كما تعلمون ان لم تكن لغة حضارة ولغة ثقافة ولغة فلسفة فاقت الفلسفة التى كانت متطورة جدا قبل الاسلام مثل الفلسفة الهندية والبوذية وغير ذلك ، ولكن صفاء التعاليم الاسلامية ونقاءها ووقعها فى النفوس فى أول الاستماع اليها جعلت كل الفلسفات أو تلك المذاهب تنزوى وتعتزل لانها لا تقوى على مواجهة الاسلام وتعاليم الاسلام وروح الاسلام وزكاء الاسلام وصفاء الاسلام وعطاء الاسلام لان الاسلام والمسلم المتشبع بروح الاسلام علة وجوده العطاء،فهذا كله يفسر لنا لماذا المالزيين ولماذا الاندونيسيين وغيرهم ولماذا حتى أهل الفيلبين فى الجنوب بالرغم من أنهم ولربما هم أبعد الناس شيئا ما عن التعاليم الاسلامية السليمة بالرغم من الكوارث ومن الاستعمار الاسبانى وتذكرون ان الفلبين كانت كلها مسلمة وان حل بها الاسبان ، واما كل الجزر بما فى ذلك جزيرة (لوزن) وهى أعلى وفى المنتهى الشمالى وكانت بوصول الاسبان سنة 1572 م كلها مسلمة بفضل ما يسمى بالاخوة السبعة ، وهم ليسوا بأخوة من صلب واحد أو من أم واحدة ، أو من أب واحد ، وانما كانوا اخوة فى الدين وفى العقيدة الاسلامية ٠٠٠ الى ان وصلوا الى تلك الشطوط وراحوا بسيرتهم وبتعبدهم وبمحاولتهم ، فهم الناس وبتقواهم وبجهودهم فراحوا يعملون على نشر الاسلام ، وهم نشروا الاسلام فى أواخر القرن الرابع عشر على ما أذكر ان لم تخنى ذاكرتى ، فهم يحبون ويجلون العربية ويدافعون عنها ، ويطالبون حكومتهم بأن يكون لهم شيخ من الشيوخ يعنى «سيناتور» فى حكومة مانيلا من الجنوب من مندوناو ، ويطالبون دائما حكوماتهم بأن تؤيد القضايا العربية ، ولا أكشف لكم سرا أو أطلعكم على شىء جديد اذا ما قلت لكم ، فبعد الهزيمة التى حلت بنا فى حزيران 1967 م هناك آلاف من المتطوعين سجلوا انفسهم وأرادوا أن يسافروا للقتال ، لا دفاعا عن عرق أو غيره ولكن دفاعا عن الاسلام وعن عالميته ، فكل هؤلاء الناس مجندون

للدفاع عن الوطن ولكن يعتقدون بأن مصالحهم ومصيرهم مرتبط ارتباطا عضويا بالاسلام والمسلمين ، لا كأفراد مثلما قال لى أحد الاسيويين المسلمين المتضلعين فى اللغة العربية ، لا تظننا أيها السفير بأننا نحب اللغة العربية لانها لغة أبى جهل ولكن نحب العربية ونقدسها ونموت دونها لانها لغة محمد ولغة سلمان الفارسى ولغة بلال.

وهنا عالمية الاسلام L'UNIVERSALISME هذا هو السر حسبما شاهدت وحسبما خبرت وربما يوجد من الافاضل ومن العلماء من أعرف وأدرى منى بالاسلام وانتشاره وغير ذلك ، أعرف وأدرى بكثير ، وربما كذلك قد توصلوا الى نفس النتيجة التى توصلت اليها أنا بجهد متواضع ، فأقول كل هذا لا لألقى عليكم درسا حاشا ماعدا الله،فأنا أعرفكم فأنا أولى بأن أتلقى عليكم كثيرا من الدروس ويعلمنى كثيرا من الاشياء أجهلها جهلا تاما ، وقد تعلمت زيادة على الشىء الضئيل الذى تعلمته من الفقه المالكى أن اخواننا هناك على مذهب محمد بن ادريس الشافعى الذى قال رضى الله عنه كلما تعلمت ازددت علما بجهلى ، فاخوانى ، أقول لهذا ولربما لحاجة فى نفس يعقوب ، أقوله لاننى جزائرى فنحن عرب وعند ما نقول عرب عندنا فهو مسلم بالضرورة ، وعامتنا الى أمد قريب جدا لا تفرق بين العربى والمسلم عند ما يأتى أى أحد بعمل لا يليق يقول «هم ليسوا عرب أم كيف ؟ » يعنى «أليسوا مسلمين ؟» فحبهم هذا للعربية لانهم يؤمنون ومتمكنون منها كل التمكن ويبذلون جهودا جبارة لتعلمها الى جانب لغتهم ، لانها لغة الحضارة ، ولغة التقنية ، ولغة الفلسفة وغير ذلك ، وكثير منهم تعلم عند ما يتحدث وينتقل من لغته الى اللغة العربية ، هم مثل من قال فى حقهم الجاحظ عند ما تصدى للحديث عن أحد الائمة والعلماء فى فارس فى وقت من الاوقات وكان يلقى دروسه بالعربية وبالفارسية ، وينتقل من هذه الى تلك ، ومن تلك الى هذه حتى كان لا يدرى بأى لسان هو أبين ، فحقيقة نجد هناك من اخواننا غير العرب ومن الاسيويين بصرف النظر عن من هم مولدون ومن أصل عربى من فى قدرته وفى امكانه أن يعلمنا لغتنا ، ولا يشك فى صلاحيتها اطلاقا أن تكون لغة العلم ، ولغة الحضارة ، ولغة الثقافة والتكنولوجية ، أو لغة الفلسفة والعلوم والتشريع وغير ذلك ، لا يخامره شك مثلما يخامر ــ والعياذ بالله ــ كثيرا من اخواننا وهم ينتسبون الى العربية،

وأنا أقول مثلما قال أحد المصلحين أعتقد أنه الامـام محمد عبـده رضى الله عنه قال : أرزء ما يُبلى به الاسلام هم المنتسبون اليه ، وأزء ما يصيب العربية فى كثير من الاحيان هو بسبب المنتسبين اليها ٠

فاللغة العربية بحكم الاسلام كما قلت لكم أيها السادة والسيدات أيها الاحباء لها مكانتها ولها مركزها ، وقد يجد الانسان فى أصغـر قرية من قرى أندونيسيا وماليزيا من يجيد قراءة القرآن أو شىء من الفقه ، بل كذلك من يجيد اللغة العربية ويتكلمها وكثير منهم من يكتب بها نثرا وشعرا ، ويتلهفون الى ما يصدر من العالم العربى ، وأنـا أذكر جيدا بأننى أوزع فى نطاق المطبوعات التى تصلنى من بلـدى كالمجاهد الثقافى ومجلة القبس كعدد محدود وكلما وصلت الى احد عرفها الى الآخرين ، وتهاطلت على سفارتنا عشرات الرسائل تطلـب أن نزودهم بهذه المجلات ، وبهذه المطبوعات العربية حتى نكون على صلة ، ونكون على بينة من التطور العلمى والعقل وغير ذلك ، وهـذا دليل على مدى اهتمامهم باللغة العربية ، وانكم مثلما شاهدتم بافضيلة مفتى الديار الشامية انه بالرغم من وجود اختلافات سياسية فالشىء الدائم السرمدى الذى لا يمكن لأى أحد أن يفرط فيه هو صلة الاسلام والعربية ، وان كثيرا من الاسر والعائلات يتجشمون صعابا ومتاعب كثيرة ليعلموا أبناءهم العربية وليرسلوهم سواء الى القـاهرة أو الى المدينة المنورة ، او الى بغداد ، وأعتقد أن دور ومسؤوليات الحكومات المدينة المنورة ، أو الى بغداد ، وأعتقد ان دور ومسؤوليـات الحكومات عن تطوير وعن تدعيم هذه العلاقات لانها هى الدائمة ، أما الحكومـات أما الاتجاهات فهى تزول أو تتحور أو تتغير،ومن مصلحتنا نحن العرب وانتصار العربية والاسلام فى تلك الربوع على أيدى عشرات ومئـات الملايين هو بلا شك انتصار نبع من معنى ، وبالنسبة لاخـوانـنـا الجزائريين أريد أن أروى لكم رواية لانكم أنتم مثل الذين يقولون فى الشرق أو غير ذلك «اذا اردت أن تتعلم الفرنسية روح الى الجزائر» نعم نحن نعرف الفرنسية بحكم ظروف كثيرة ، نعرف الفرنسيـة تخاصمنا بها وجادلنا بها ودافعنا بها عن انفسنا ، ومن عرف لغة قوم أمن شرهم ، وأنا كذلك طبعا من انصار اللغة العربية ومن المنتصرين اليها بدون تحفظ ، هذا الحديث معروف جدا ، وكالاخ الوزير طبعا والحمد لله ان الرئيس الذى أعطى للغة العربية ووفى لها حقها ولانها

مطلب شعبي ومن أعز أماني أمتنا وشعبنا ، فبالرغم من هذا كما قلت لكم بانني أنتصر اليها فأنا كذلك من دعاة معرفة اللغات الاخـــرى لا الفرنسية وحدها بل الانجليزية وغير ذلك ، وتعلمون أن الفرنسى مثل الجزائرى الذى لا يعرف سوى الفرنسية ، أو التونسى أو المغربى المتوسط وجاء الى لبنان ومر على سوريا ووصل الى العراق ، فبحكـــم معرفته للفرنسية وحدها يصير أميا اوتوماتيكيا أميا بأتم معنى الكلمة فالفرنسيون أنفسهم مضطرون الى أن يتعلموا اللغة الانجليـــزية أو لغات أهل تلك البلاد حتى يتمكنوا من التفاهم أو من الدفاع عــــن مصالحهم ، أو من بث دعاياتهم وغير ذلك ، وليس أدل على هذا قبل سنتين كان (طبعا فرنسا بالنسبة لنا دولة أوروبية ولها من الامكانيات مالم يتسن لأى بلد عربى آخر) فالى جانب سفارتها هنا كانت عندها مركز ثقافى فرنسى ، كان عندها مركز ثقافى ، فهم يدعون النـــاس ويعطون المنح ويعرضون أفلاما ومغريات كثيرة ،ولكن ليس هنـــاك الا بضعة سيدات متحذلقات من الطبقة الراقية تريد أن تتفاصح بشىء من اللغة الفرنسية لانها سمعت أشياء كثيرة عنها ما عدا هذا لا تسمع للغة الفرنسية ولمن يتحدث لك بها لا تسمع لها ذكرا على الاطلاق ، أما العربية فانك تستطيع أن تجد مترجما اذا أردت أن تعمل اعلانا فيترجم لك من العربية الى الاندونيسية أو الهلندية أو الالمانيـــة أو اليابانية ، أما الفرنسية يجب أن تبحث عليه بالمجهر حتى يأتيـــك وتحصل عليه وفى بعض الاحيان يتساءلون : الجزائر دولة عربيـــة تنتمى الى الامة العربية ولغتها الرسمية الوطنية اللغة العربية فلماذا يبحثون عمن ينقل لهم من الاندونيسية والانجليزية أو الفرنسية وغير ذلك ولكن هذه الدهشة تزول عند ما نشرح ونفسر لانهم ليسوا على اطلاع بما أصابنا فى مدة من الظلام والتسلط الاجنبى طولها كمـــا تعلمون مائة واثنان وثلاثون عامـــا .

قلت لكم بانه على الرغم من ان العلاقات طيبة فى العهد القـــديم وفى العهد الجديد ، فاللغة الفرنسية مـا كان لها وزن ولا قيمـــة ولا يحتاجها الناس ، واذن يستغربون كيف يضيع الناس أوقـــاتهـــم فى تعلم اللغة الفرنسية ، فمنذ سنة تقريبا عينوا مستشرقا هــــو معروف ، والحمد لله ، فالمستشرق هذا من المستشرقين الفرنسيين ومن الاساتذة الذين لهم دراية غير قليلة باللغة العربية ، بل كــــان

استاذا للغة العربية،وهو من تلاميذ «ماسينيون» وكان هنا فى الجزائر ومن المنتصرين للقضايا العربية واثبتت أفعاله ومواقفه انه يكن مودة للغة العربية ، وعلى ذكر يكنون المودة للعربية ، يخطر الى ذهنى بيت من الشعر :

ولا يقتل اللـه من دامت مودتـه
والله يقتـل أهل الغـدر أحيـانا

بالفعل من الامكان استعمال اللغة العربية لغة عمل مثلما تستعمل الفرنسية والانجليزية وغير ذلك ، فأنا لا أعرف شخصيا أعضاء هذه اللجنة التى كلفت وأنيط بها العمل للنظر فى هذه الامور ، ولكن يخيل الى بعد نشر تقريرها بأنها فعلا أراد تأن تلقى باللغة العربية مـن النافذة بعد أن دخلت من الباب الواسع الى اليونيسكو ، والعربيـة وأبناء اللغة العربية عليهم أن يدافعوا وان يخوضوا معارك للدفاع عنها ولحمل الغير على احترامها ، اننا لا نريد من الغير أن يحبنا لان الحياة الدولية والعلاقات بين الدول وبين البشر ليست مسألة غرام أو خصام نحن لا نريد من أحد أن يحبنا ، بل نريد الاحترام كما نحترم الغيـر فجاءت اللجنة وأصدرت تقريرا بأن العربية تشغل عندما نترجم مثلا . . . واستشهدوا على صحة أقوالهم المزعومة بأن سجل الميزانية للعام الماضى لليونيسكو المكتوب بالفرنسية والانجليزية نقلوه الى العربية وقالوا انظروا الى ما هو موجود فى ثلاثمائة صفحة بالفرنسية أو فى مائة وخمسة وسبعين أو ثمانين بالانجليزية لابد من ثمانمائة صفحة بالعربية ـ لا اله الا الله ـ سبحان الذى يقدر أن يجعل الحبة قبة فى لمح البصر ، وهؤلاء طبعا مثل ماليزيا مثل أندنيسيا لهـا ممثلين فى اليونيسكو وغير ذلك ، فالحمد لله أن العرب ما سكتوا عن هذه الدسيسة على هذا الغدر باللغة العربية ، وأعتقـد أنـه قـامت مشاورات وأعمال بين المجمع العلمى بدمشق والمجمع العلمى فى القاهرة وفى بغداد والادارة الثقافية للغة العربية ، ووضعوا تقريرا هادئا لا دعاية ولا تهريج ولا تسويف ، وهذا من علامات الخير بالنسبة للتفكير العربى ، وأثبتوا فعلا بالدليل القاطع الدليل العلمى والدليل العملى بأن ما قيل فى تقرير الخبراء هو افتيات على اللغة العربية وانه اذا سلمنا بأن استعمال اللغة الانجليزية أكثر ايجازا واختصارا مـن الفرنسية ، فاللغة العربية لا من حيث الايجاز ولا من حيث التركيب

ولا من حيث البنية ولا من حيث شغل المساحة لجملة معينة مقابل الفرنسية وبخير مساحتها دائما أضيق وأقل ، فكلماتها وألفاظها مثل الجواهر لا تنتشر يكفيها أن تحتل حيزا ومنه تظهر وتبرز ، ولا يمكن الا أن تراها كل عين ، فوضعوا تقريرا يأخذون فيه وينحون عن اللغة العربية على ما أعتقد وقالوا ثلاث قضايا : قضية طبيعة اللغة العربية وقضية الطباعة باللغة العربية ، وقضية الترجمة والمترجمين ، طبعا يقال أن قيمة الشرائع بقيمة القائمين عليها ، وقيمة الترجمة هى مرهونة بقيمة المترجمين ، فأى واحد قادر أن يترجم وأن ينقل ، وكل واحد قادر على أن يستوعب معانيها ويصبها ويصوغها الصياغة اللائقة وأكبر دليل على هذا ما قاله الاستاذ مالك بن نبى يعرف هذا من المستشرق الانجليزى «جيب» من كتابه «الاتجاهات الحديثة فى الاسلام» فالانسان يحار فى التركيب العربى واللغة القرآنية ، وأعتقد أنه لو جاء شكسبير وغير ذلك على أن ينقل اللغة العربية لا سيما لغة القرآن الى اللغة الانجليزية لعجز كل العجز واستشهد بالآية الكريمة « **انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون** » فقال هذا التكرار « **انا نحن نزلنا** » بهذا التكرار ، ولم يقل نحن نزلنا الذكر فقط ، فقال بأن هذا التكرار وهذه الاعادة ، من أوجه الاعجاز فى القرآن الكريم « **انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون** » وهذا التكرار له من الرنة وله من المعانى وتنبجس منه أفكار وينبجس منه شيء فريد من الخصوبة للخيال ما يعجز الانسان بالفعل وينحنى اعجابا ان لم يكن ايمانا عاما .

لا أعتقد أن من يجيد لغة القرآن ويعرفها وهو متمكن منها يعجز عن ترجمة سجل ميزانية اليونيسكو فى صفحات أقل من الصفحات التى نشر فيها باللغات الاخرى ففندوها ودحضوها بطريقة علمية مركزة واستشهدوا بأشياء كثيرة كالطباعة مثلا وأوردوا كلمات باللغة الفرنسية وما يقابلها من الكلمات العربية ليتبين بأن الكلمات الفرنسية أطول والمساحة التى تشغلها أضيق من الفرنسية ، ونكتفى بهذا ومن ناحية الطباعة وغير ذلك ، وقالوا فى ختامها ، وهذا الختام هو التقرير الذى تبناه الاندنيسيون ، وراحوا يتداورون فيما بينهم من اندونيسيين وغير ذلك يدافعون عن اللغة العربية ويريدون رفع عقيرتهم ضد من يريد أن ينزل بها الاذى والضرر ويغمط حقها ويستمر فى أجحافها وفى ...نها، وأنا ما سمعت عن هذا التقرير ولاسمعت عنه

الا عن طريق اخواننا الاندونيسيين الذين لغتهم الملوية وأصلهـا سنسكريتي وغير ذلك ، وراحوا يدافعون ويستشهدون بفقرات مما جاء فى هذا التقرير حتى تعود اليونيسكو عن غيها وتفسح المكان للغة العربية مكانها التى تستحقه عن جدارة ٠لا يمكن أن يجادل فيه أحد ومن جملة ما نشروه وما علقوه عليه ، وما كان حـديث النـاس فى بيوتهم وفى المساجد وغير ذلك هى تلك الفقرة التى تقول : «ومـن هذا كله نخرج بنتيجة واضحة هى أن اللغة العربية تنحو الى الاختصار فى بناء كلماتها والايجاز فى بناء جملها» وأيا كان الامـر فان هـذه الجملة المركزة التى اكتسبتها اللغة العربية بكلماتها وجملها حتى أصبحت جزءا من طبيعتها تؤدى بالضرورة الى اختصار الزمن الذى يستغرق الاستعمال الشفهى لها حديثا أو خطابة أو ترجمة مثلما تؤدى الى اختصار الحيز الذى يستغرق الاستعمال الكتابى لها باليد أو بالآلة الكاتبة أو المطبعة وغير ذلك وهلم جرا ٠

وكذلك ركزوا وأنا سمعت بأنهم أثاروا هذه القضية مع لجنتهم الوطنية فى اليونيسكوا حتى يبعثوا بتعليمات لمن يمثل أندونيسيا فى اليونيسكو ويدافع عن اللغة العربية وعن هذا التقرير وحتى يكفـوا عن الغمز واللمز ، وافتعال الاسباب لابعاد اللغة العربية ع نمكانها واستشهدوا بالخصوص بهذه الفقرة الاخيرة من ذلك التقرير ٠

وأخيرا ولعل تلك الدراسة التى جمعت بين البحث الاكاديمى والدراسة المقارنة والتطبيق العلمى تقدم الدليل الموضوعى على أن اللغة العربية ذات كلمة موجزة البنية وجملة مختصرة التركيب ، وكتابة قصيرة الحروف وعلى أن لها من الخصائص والصيغ الاشتقاقية وفى استخدام الضمائر وفى استعمال أساليب التعبير ما يفسح المجال للاختصار على نحو قد لا يتسنى لغيرها من اللغات ، ولعلها ان لم تكن لغة اختزال حقيقى فهى على الاقل لغة ايجاز فعلى وعلى أنها ان لم تفق غيرها من اللغات فى الوفاء بالتعبير الموجز السريع فلا أقل من ان تسامتها وتقف معها على قدم المساواة وعلى أنها نتيجة لذلك كلـه أصلح ما تكون لغة الترجمة بوجه عام والترجمة الفورية بوجه خاص على المستوى الدولى والعالمى ، يشهد بذلك ويدل عليه خبـرة المؤتمرات الكثيرة التى عقدت فى أفريقيا وآسيا واستخدمت فيها اللغة العربية لغة عمل فكانت لا تستغرق وقتا أطول من الوقت الذى

تستغرقه الترجمة الى اللغة الانجليزية أو اللغة الفرنسية ، فهذا كله طبيعى جدا بالنسبة الى لغة لا تزال الحياة تتناولها منذ مـآت السنين بالاستعمال للتعبير عن مطالبها العادية اليومية حديثا وحوارا وخطابا وعن أغراضها العلمية زراعة وتجارة وصناعة وسياسة، وحكما ، وحربا وسلاما ٠ وعن حاجاتها العلمية بحثا وعلما ونفلسفا وعن أنشطتها الوجدانيـة دينا وتصوفا ، وهكذا ركزوا على هذه الكلمة التـى لفتت الانظار فعلا وكانت دليلا على حبهم وعلى تشبثهم وتمسكهم بلغة القرآن وباحياء سلطانها فى العالم ، وهكذا نستطيع أن نرفع الصوت ونطالب عن ثقة واطمئنان عن ضرورة استعمال اللغة العربية لغة عمل لا فى منظمة اليونيسكو وحدها بل فى سائر المنظمات الدولية مؤكدين عن يقين وبرهان أنها من أصلح ان لم تكن أصلح اللغات لاداء هذه المهمة ، هذا ما ركز عليه والحمد لله ولحسن الحظ ان كانت هذه الوريقة معى استصحبتها لانه من الصعب على لان ذاكرتى بـدأت تخوننى كثيرا ، لان آؤكد على مدى حب اللغة العربية والدفاع عنها واقول كيف هؤلاء الناس، لان لغتهم وهى لغة الجامعة ، ولغة الادارة ولغة العلم ، ولغة الجيش وغير ذلك فهى لغة أجنبية أو لغة دين عندما يريد الانسان أن يتعبد أو يعتقد بأن دعاءه يصل بطريقـة أسلـم أو أسرع الى الله سبحانه وتعالى ، عليه أن يدعو ويتكلم باللغة العربيـة لكن ايمانا منهم بأن أكثر من هذا فهى لغة حضارة ولغة ثقافة ، ولغة وجودها وظهورها ، واحتلالها المكان اللائق بها هو افصاح وتعبير عن مفهوم للوجود وعن مفهوم للحياة والعلاقات البشرية والاجتماعية فقد أطلت عليكم كثيرا فى الحديث وطبعا هذا الفضل فى نشر اللغة العربية ، وفى جعلها محبوبة عند شعوب تربطنا واياها وشائج العقيدة والثقافة والحضارة والتاريخ ، فهذه الامور كلها طبعا وهذه الاشياء التى نرى ثمارها وقد زرعها المصلحون من أجدادنا ومن سلفنا ، فبدأنا نحصد نحن ، وفى اعتقادى أن علينا وعلى قادتنا المصلحيـن وعلمائنا العاملين الذين سيكون لهم اليد الطولى ولا شك فى القيـام بهذا العمل الشريف أن يزرعوا لمن يأتى بعدهم جزءا وفاقا ٠

وختاما أقول بايجاز أن شعورى والحالة هذه أن أعرب عن رجائى ولا شك رجاء الجميع والجزائريين ألا يكون اهتمامنا بالتعريف بالفكر الاسلامى فى هذا الظرف الحرج من تاريخ أمتنا أقل من اهتمامنـا

بالنظر الجدى فى الوجه الآخر من هذه الحضارة والثقافة وهى اللغة العربية وما يكون نظرا.حائرا فى متاهات المنـاظـرات بل يكـــون استفسارا تتبعه عزيمة تنبجس عنها أعمال من شأنها استكمال انبعاث المجتمع الاسلامى الذى لا ينشده الشعب الجزائرى وحده بل تنشده جميع المجتمعات الاسلامية التى يقدر أهلها بما لا يقل عن 600 مليون نسمة فى العالم اقتناعا من هذه المجتمعات ، اقتناعا لا يرقى اليه الشك بأن قيام هذا المجتمع ولو على المدى البعيد ضرورة انسانية وحتمية تاريخية وخصوصا تلبية لنداء السواد الاعظم من البشرية فى ساعة العسرة هذه وشكرا ، .

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركـــاتـــه .

قصة

الكنز ، الكنز

محمد نسيب
نائب مدير
المركز الثقافى بالجزائر



كان علال رجلا ثريا يحب المال حبا شديدا .

لقد طغى عليه هذا الحب وهيمن على قلبه وسيطر على حياته واستولى على تفكيره وشعوره وأحاسيسه وامتزج بدمائه ، حتى صار المال هدفه وأمله المنشود فى هذا الوجود ، لا يفكر الا فى تكوين الثروة وتكديس الاوراق النقدية عن طريق الربا والحرام ، ويستغل عرق العمال الكادحين ويشيد بنيانه على ضحايا البؤس والحرمان .

لقد كان علال مضرب الامثال فى البخل والتقتير ، ويشار اليه بالبنان وهو لا يسمع الا لرنين الدينار ، ولا ينقاد الا للطمع شره لا يعرف القناعة وله مقهى يشرف عليه هو نفسه فاذا دخلته لاحظت نسيج العنكبون فى كل زواياه والكراسى مرقعة بالمسامير و مربوطة بالخيوط والاسلاك وهو قابع خلف الدرج يحسب ويعد في أصابعه يثور من حين لآخر ، وينفعل لاتفه الاسباب ، وتسمع صياحه من الشارع ، تارة مع عماله وتارة مع الزبائن .

انه خشن الطبع غليظ الجسم قاسى القلب شرس الاخلاق موسوس القلب كثير الشكوك والظنون يشك فى زوجته وفى أولاده لا يثق بأى انسان مهما كان صدقه واخلاصه ويعد فى نظر علال لصا خائنا ·

ليس له صديـــق ولا قريب ·

ان زميله وقريبه ورفيقه يجتمعون كلهم فى شخص واحد فى نظر علال هو المال ، تراه طول النهار قابعا حول درج الدراهم لا يكاد يفارقه كأنه مغروس على الكرسى أو مشدود الى ذلك الدرج الذى كان يلتهمه بنظراته الجائعة ·

أما عمال المقهى فلا يدفع لهم أجرهم الا بعد الالحاح والمعارك أحيانا . فالدارهم اذا دخلت خزانته فلا تعود ترى النور ولا تخرج للحياة مرة أخرى فيحكم عليها بالسجن طول العمر ، اذا سألته عن حالته أجابك حالا فى حزن وانكسار :

أنا أشقى الناس فوق الارض وافقر العباد فى هذا الوجود ، وهو يشكو دائما من الفقر والعوز حتى لا يطمع فيه أحد ·

غلبه الجشع واستبد به الطمع فلا يعرف الشبع ولا القناعة لا يملأ جوفه الا التراب والحجـــــارة ·

وكانت عصابة النشالين تترصد علال وتنصب له الكمائن فى كل مرة ·

وكان رئيس هذه العصابة من أمهر النشالين فى العاصمة وأخطرهم يحتال كـــل الحيل للاستيلاء على ثروة علال ولكن علال ينفلت من قبضة النشالين فى كل مرة وينجو من خطرهم ويخرج من الورطة ظافرا منتصرا وتفشل العصابة وتخيب آمالها ·

وتعجب النشالون من أمر هذا الرجل ، وعندما يئسوا من الوصول الى ثروة علال قال رئيس العصابة لرفقائه :

مستحيل أن نصل الى أهدافنا ونحصل على أدنى شىء من مال علال بهذه الطريقة العقيمـــة ·

لقد فشلت جميع الحيل والمحاولات ، فلم يبق لنا سوى تجربة واحدة وصاح رفقاؤه جميعـــا :

ما هى التجربـــة ؟

وقال لهم : ثقوا اننا لا نحصل على ثروة علال الا عن طريق السحر والشعوذة ·

قالوا : كيف ذلك ؟

قال لهم : يجب علينا أن نتدرب أسابيع على التكلم باللهجة المغربية واستعمال بعض الرموز السحرية ونعرف أسماء العقاقير والبخور ونرسل اللحية ونرتدى القشاشيب ونتزى بزى المغاربة ونتظاهر بأننا جئنا من فاس أو مراكش ، ثم نذهب الى علال ·

واتفق النشالون على هذه الخطة وتدربوا على تنفيذها ·

وها هم النشالون فى مقهى علال وهم فى زى المغاربة يتحدثون باللهجة المغربية ، وهم يسألون عن علال ثم تقدموا اليه وهو قابع خلف الدرج كعادته وسأله رئيس العصابة وقال له :

أنت هو علال صاحـــب الكنز يا مولاى ؟

وثار علال فى وجهه وقال لـــه :

اخـــرج من هنـــا ·

وأجابه النشال : بهدوء وبرودة يلتمس منه العذر ·

عفوا يا مولاى لا تغضب ولا تقلق أهدأ نفسك ولا ترهق أعصابك نحن مبعوثون اليك من مدينة فاس ·

كم تحملنا من أتعاب ومشاق من أجلك يا مولاى لنستخرج لك الكنز ونغنيك اذا أغناك الله يا مولاى وتصبح فى أقرب وقت من الاثرياء الكبار فوق هذه الارض بعد ما كنت من أفقر الناس لن تعود بعد ذلك علال صاحب المقهى بل تصبح علال صاحب الكنـز صاحب الذهب الوهاج والجواهر الثمينة ·

واندهش علال من هذا الخبر العجيب وقال له :

اقترب مني واخفض صوتك حتى لا يسمك أحد ·

وتقدم اليه النشال وقال له :

اذن أنت علال ؟ وقال له :

نعـــم ·

تسكن فى حى الابيار ·

نعـــم ·

شارع الفـــلان ·

نعـــم ·

رقـم كـــذا ···

نعـــم ·

فيلا كـــذا ···

نعـــم ·

فيها حديقة و ···

نعـــم ·

فيها فوارة وبقربها كرمة كبيرة لها جذع غليظ ·!!

وقال عـــلال :

من أخبرك بهذا يا سيدى ، وابتسم النشال ابتسامة النصر والفرح وأخرج الكتاب من المحفظة وقال له :

هذا يا مولاى الذى أخبرنى عنك ودلنى على الكنز ·

ثم خرج اليهم علال وصافحهم ورحب بهم ، فقادهم الى احدى زوايا المقهى وتداوروا هناك على المنضدة ليواصلوا حديثهم فى سر وكتمان حتى لا يسمع لهم أحد واحضر لهم ابريقا من الشاى ، واستأنفوا الحديث وكلما أفرغوا الكؤوس ملأها من جديد ،

وعلال يتابع حديث النشالين المشوق بعناية واهتمام وكلما سمع كلمة الكنز سال اللعاب من فمه حتى صار عجينة مرنة فى أيديهم يصنعون بها ما يشاؤون ·

ثم فتح رئيس العصابة كتابا وقال لعلال :

لقد وجدنا اسمك فى التاريخ مقرونا بهذا الكنز العظيم المملوء بالذهب الوهاج والجواهر الثمينة لو علمت يا مولاى ما لقيناه من أجلك من تعب وعناء وما أنفقناه من مال وما ضحيناه من وقت وما قطعناه من مسافات وما سهرنا من ليال وما لقيناه من شدائد وأهوال بحثا عنك فى كل مكان ·

وقلب علال تكاد نبضاته تسمع من بعيد من شدة الفرح ، وتفتحت فى قلبه شهية المال ·

لم يعد يتحكم فى نفسه وصار كل شيء فيه يرقص ويتحرك لان الفرحة هزته هزا ، حتى كاد كأس الشاى يسقط من يده ، وقال له رئيس العصابة :

والآن يا مولاى يجب أن نبدأ العمل ·

وقال له علال هيا بنا الى المنزل ، وامتطوا سيارة الاجرة ولاول مرة يركب علال سيارة الاجرة ويدفع ثمن الركوب ، وعندما وصلوا الى المنزل تناولوا الغداء ثم استراحوا حتى جاء الليل وخرجوا الى الحديقة يبخرون ويحرقون العقاقير ، وهم يتخاطبون بلغة غريبة ليست عربية ، ولا عبرية ولا صينية بل ليست لغة البشر ، واستمرت العملية حتى الصباح · ونفدت لهم العقاقير وقالوا لعلال :

ان القضية صعبة تتطلب العقاقير كثيرة لان الكنز استولى عليه رئيس العفاريت لا نزحزحه ولا نبعده عن الكنز الا بكثرة البخور واحراق العقاقير وهذا يتطلب مالا كثيرا ·

وقال لهم علال : فالمال لا يمنعكم عن مواصلة العمل خذوا ما تشاؤون ··· المهم أن نحصل على الكنز مهما كانت التكاليف ·

وقالوا له نعم يا مولاى ان الكنز كنزك ونحن فى خدمتك لا نغادر هذا المكان الا اذا استخرجناه لك ·

ثم قدم لهم مبلغا كبيرا من المال لشراء العقاقير ونزلوا الى المدينة ، وفى المساء عادوا الى دار علال ليواصلوا عمليتهم كالعادة •

وهكذا استغرقوا أسبوعا كاملا فى التعازيم والبخور وحرق العقاقير وعلال فى كل يوم يدفع لهم مبلغا ضخما من المال لشراء العقاقير ، وقد نسى تجارته وأهمل مقهاه ولا يفكر الا في الكنز •

أما النشالون فعندما حصلوا على جزء كبير من ثروة علال ، قالوا له :

الآن كدنا أن نصل الى الكنز ولكن تنقصنا يا مولاى بعض العقاقير ، اذا حصلنا عليها انتهى المشكل ووصلنا الى الكنز وطردنا العفريت عنه طردا نهائيا •

وقال لهم علال ماذا يمنعكم من الحصول على العقاقير :

فقالوا له : تتطلب مالا كثيرا يقدر بالملايين لان هذه العقاقيرغير موجودة فى الجزائر بل نحضرها من المغرب بعضها من مدينة فاس وأخرى من مدينة مكناس •

وصـــاح عـــلال :

المال موجود المهم أن تجدوا العقاقير وتحضروها حالا اذا كان الكنز ذهبا وجواهـر لا حاجة لى بهذه الاوراق •

وصاح النشالون جميعا : أفى ذلك شك يا مولاى ؟

وفتح علال خزانته وأعطى لهم ما طلبوه ثم زودهم بزاد وودعهم على أمل اللقاء القريب •

وغادر النشالون دار علال بعد انتهاء المهمة وحصلوا على ثروته التى قضى أيـــام شبابه فى جمعها وبقى علال ينتظر عودتهم فى شوق وقلق ، وهو يعد الساعـــــات والايـــام •

مضى أسبوع على سفر المغازبة فلم يعودوا ولم يأت نبأهم واخذ القلق يساور علال ولكنه لم ييأس وانسلخت الاسابيع يتلو بعضها بعضا وعلال لا يزداد الا قلقا وحيرة واضطـــرابـا •••

وطال الانتظـــار •

وخرج الى المدينة وراح يجول فى شوارعها ويدور فى أحيائها يفحص الوجوه فحصا • ويسأل عن المغربة ، وكلما لمح رجلا لبس القشابة أو مسترسل اللحية هرع اليه يسأله •

أنت (مروكى ؟)

من أين قدمـــت ؟

من فاس ؟ من مكناس ؟

وهكذا حتى يئس من العثور عليهم ، وعاد الى منزله بعد أن فقد ثروته وراح يحفر الارض باحثا عن الكنز المدفون فى الحديقة وكلما اصتدم الفأس بالحجارة اتقدت النار ، وطارت الشرارات وقلب علال يخفق طمعا وفرحا ورمى الفأس على الارض وأسرع يبحث التراب بكلتا يديه ظنا ا نهوصل الى الكنز وعثر على الجواهر •

وقضى أياما وأسابيع وهو يحفر ويبحث وكلما سألته زوجته •

ما تصنع يا علال ؟ أجابها :

الكنـــــز •

الكنز ، ولكن زوجته لم تفهم منه شيئا سوى انه يخرب الحديقة •

فعلا لقد خربها وصارت كلها خنادق كأنها جبهة المعركة وليست حديقة المنـــزل عمل مستمر لا يثنيه الحر ولا يقفه الظلام يعمل والعرق يتصبب من جبينه لا يشتكى جوعا ولا عطشا ولا عياء ، ولا تسمع من علال الا كلمة (الكنز) (الكنز) •

وهكذا حتى فقد عقله وذهب وعيه ثم خرج الى الشارع يجرى خلف السراب ويطارد الاشباح وهو يصيح :

(الكنـز الكنز) •